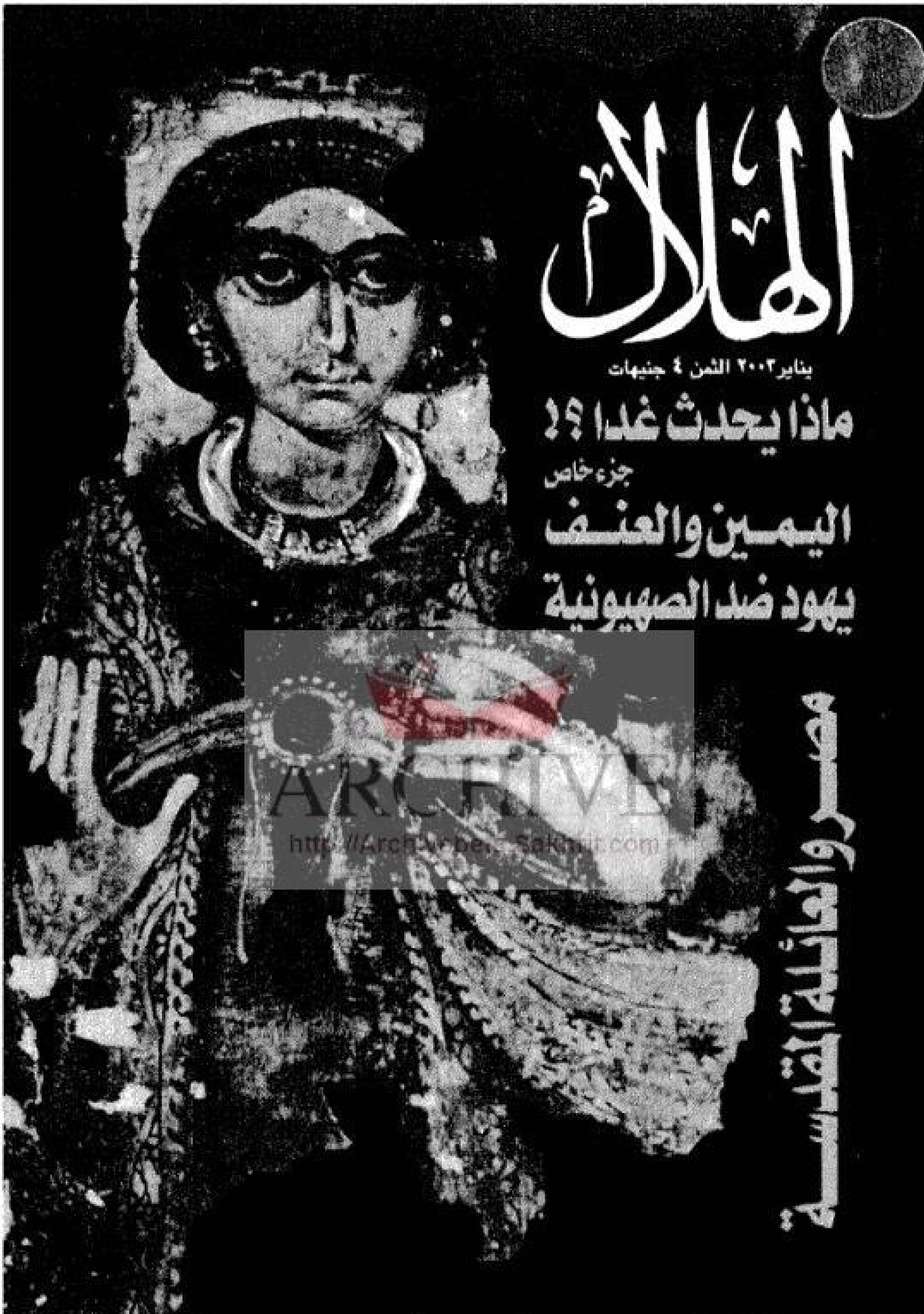

الهلال
يناير ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
ماذا يحدث غدا؟!
جزء خاص
اليمين والعنف
يهود ضد الصهيونية
مصر والعائلة المقدسة



لوحة: همسات

للفنان: يوسف كامل



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع - مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٤٠٠ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

٨ - اليمين والعنف ....
د. مصطفى سويف

١٨ - يهودى ضد الصهيونية (أوراق الرفيق مرسى)
د. رءوف عباس

٢٦ - القراءون والعودة إلى صهيون ....
د. عبدالوهاب المسيري

٣٦ - من الذي أحرق القاهرة؟ ....
د. عاصم الدسوقي

٤٤ - آخر صفحة للجواري في مصر ....
د. محمد رجب البيومي

٥٤ - أحمد فؤاد نجم شاهد على العصر ....
د. أحمد أبو زيد

٦٢ - فارس بلا رسالة ....
د. أحمد يوسف أحمد

٦٨ - التراث القبطي: مصر والعائلة المقدسة ...
د. ماهر شفيق فريد

دائرة حوار

٨٢ - الوجود المسيحي بالشرق الأدنى والأراضي المقدسة .... د. رشدي سعيد

٨٦ - خرافة التقدم والتأخر ....
د. جلال أمين

ماذا يحدث غدا؟ «جزء خاص»

٩٢ - الدراسات المستقبلية في خطر..........
د. إبراهيم العيسوي



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٢٥ دولارا. باقي دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادي عشر بعد المائة
ذو القعدة ١٤٢٢ هـ - يناير ٢٠٠٢م

١٠٢ - العـراق ومسـتقـبل الشرق الأوسط...
.... مصطفى نبيل
١١٠ - أخطار التقدم التكنولوجي ....
.... حسين أحمد أمين
١١٦ - مستقبل الانترنت ....
.... د. أحمد محمد صالح
١٣٦ - السينما المصرية رؤية مستقبلية......
.... مصطفى درويش
١٤٢ - خواطر مخضرم عن الصحافة والأدب ...
.... وديع فلسطين
١٤٩ - جارتي «قصيدة» ... محيي الدين عطية
١٥٠ - أدباء من أفغانستان ... محمود قاسم
١٥٤ - المتفرجة «الشاطر حسن» ....
.... مرفت رجب
١٦١ - شجرة الكافور «قصة» ... هدي العقبي
١٦٤ - قصاقيص .... محيي الدين اللباد
١٨٠ - من أعلام الفن المعاصر ....
.... د. صبري منصور
١٨٩ - جولة المعارض .... عز الدين نجيب
١٩٨ - غجر يحلمون بأرض بلا حدود........
.... مهدي الحسيني

الأبواب الثابتة

- عزيزي القارئ ٦
- أقوال معاصرة . ١١٥
- شخصية العدد : فاروق جويدة. د. أحمد السيد عوضين ١٣٢
- من ذخائر الكتب العربية : «الروضة المأنوسة» د. نبيل حنفي محمود ... ١٧٢
- التكوين د. أحمد عثمان ٢٠٨
- أنت والهلال عاطف مصطفى...... ٢١٨
الكلمة الأخيرة ..... صافي ناز كاظم . ٢٢٦

مفاجأة سارة مع بداية عام جديد

عزيزى القارئ

كل سنة وأنت طيب فى مناسبة بدء عام جديد يملؤنا التفاؤل والرغبة الحقيقية فى مواصلة الجد والاجتهاد فى ظل الطموحات التى نتمناها لوطننا الغالى .

وأحد هذه النجاحات التى نبدأ بها عامنا الجديد الاتفاق المهم الذى وقع فى دار الهلال يوم ١٧ ديسمبر الماضى بين الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة والأستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير وبين الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الاسكندرية. والذى قدمت فيه دار الهلال نسخة ميكروفيلم كاملة من مجلة الهلال منذ صدورها عام ١٨٩٢ وحتى الآن، ولكى تقوم المكتبة بدورها بعمل نسخة رقمية مصنفة ومبوبة على أسطوانة مدمجة C.D . وينص الاتفاق على أن تحصل دار الهلال على نسخة أصلية، كما تحتفظ مكتبة الاسكندرية بنسخة للباحثين المترددين على المكتبة للرجوع إلى مافيها من ذخائر الثقافة والأدب العربى الرفيع .

كانت مكتبة الاسكندرية قد تسلمت نسخة الميكروفيلم الخاصة بالهلال منذ منتصف نوفمبر ٢٠٠٢م وتسلمها الدكتور يوسف زيدان والذى أشار إلى أن المكتبة قد تعاقدت بالفعل على معدات حديثة يصل ثمنها إلى مئتى ألف جنيه ويتم وصولها سريعا وتم تدريب عدد من العاملين لأداء هذه المهمة، وبالفعل أشار الدكتور إسماعيل سراج الدين أثناء التوقيع إلى أن العمل بدأ بحماس شديد على أمل أن تكون الاسطوانات التى تضم أعداد الهلال فى أيدى الباحثين والدارسين خلال عام على أكثر تقدير. وقد بدأنا فى دار الهلال نتلقى طلبات كثيرة من الجامعات المصرية والعربية ومراكز البحوث لما للهلال من أهمية على مدى ١١٠ سنوات، حيث ساهم بالكتابة فيها عدد كبير من الأدباء والمفكرين المصريين والعرب ومن أبرزهم طه حسين الذى نشر بها «الأيام» على حلقات كما نشرت أول طبعة ظهرت من «عصفور من الشرق» عام ١٩٢٦ ، بالإضافة إلى مذكرات أحمد عرابى كما كتب فيها كبار الكتاب ومن بينهم عباس العقاد، أحمد أمين، أمين الخولى، محمد حسين هيكل، زكى مبارك، محمد فريد أبو حديد، خليل مطران، أحمد شوقى، حافظ إبراهيم، سلامة موسى، وصولا إلى زكى نجيب محمود ومحمود شاكر، وعبدالحميد يونس وسهير القلماوى ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وشكرى عياد وغيرهم من ألمع كتاب العرب ومفكريهم.



د. اسماعيل سراج الدين ومكرم محمد أحمد و مصطفى نبيل أثناء توقيع العقد

وكانت الأعداد الخاصة هي أكثر ما يميز الهلال، ومن بينها أعداد عن: طه حسين، أحمد شوقي، العقاد، نجيب محفوظ، كما نشرت الهلال مابين عامي ١٩٦٥ و١٩٧٠ موسوعتي «الهلال الاشتراكية - والأدب الشعبي» وكلها تفيد الباحث والدارس.

عزيزى القارئ

إن هذا العام الجديد، هو بداية سارة بحق لمجلة الهلال التي قدمت الفكر العربي ألوانا من الثقافات لم تتوافر لمجلة أخرى بفضل جهود رؤساء تحريرها بدءا من جرجي زيدان مؤسسها ومرورا بإميل وشكري زيدان والدكتور أحمد زكي وعلى أمين وكامل زهيري ورجاء النقاش وعلى الراعي وصالح جودت وحسين مؤنس وكمال النجمي، ثم رئيس تحريرها الحالي.

ويتيح المشروع الجديد لكل القراء الاستفادة من هذه المجلة العريقة التي ظلت منذ بداية صدورها في حالة تجديد مستمر في كل مجالات الثقافة وفنونها، ومضت طوال مسيرتها حاملة مشعل العدل والحرية، تتواصل مع الأجيال التي حرصت على قراءتها والاستفادة من نبع فياض لايتوقف من الثقافة والمعرفة.

ومسيرة الهلال تشهد بأنها كانت أول من اهتم بالحديث عن التكنولوجيا في مجالات السينما والتليفزيون وحتى الصعود إلى القمر.. كما نحرص حاليا على الاهتمام بكل جديد في عالم الكمبيوتر والانترنت والفضائيات، ونتفاعل ونتحاور مع الثقافات والأفكار الجديدة.

ودورنا الحقيقي لايتوقف عند تقديم كل جديد يهم القارئ، بل الحرص المستمر على مواصلة الجهد لكي تبقى الكلمة المقروءة هي المتعة الحقيقية لكل مهتم بالثقافة والعلوم المتطورة، كما حرصنا على تطوير مجلة الهلال، وبدأت منذ يناير ٢٠٠٢ م في ثوبها الجديد مستفيدة من فن الإخراج الصحفي الراقي، وما وصلت إليه أحدث علوم التكنولوجيا في فن الطباعة والكمبيوتر.

وكل عام وأنت بخير عزيزى القارئ. ■

المحرر

أوائل التسعينيات

اليــمين و العنــف



بقلم
د. مصطفى سويف

على امتداد النصف الأول من تسعينيات القرن الماضى غلبت على العالم سمة التشدد اليمينى؛ وقد واجهت هذه الحقيقة باعتبارها مشكلة يصعب على تفسيرها؛ هل جاء هذا التيار كرد فعل للسقوط السوفييتى وما يمكن أن يكون قد أثاره من انتعاش لآمال المحافظين فى العالم أجمع؟ أم أنه ينطوى على ما هو أكثر من ذلك؟ فقد بدت كثير من قوى اليمين متعجلة فى الوصول كل بعالمه إلى الصيغة التى يريد إقرارها. أم أنه لا هذا ولا ذاك، ولكنه تسارع طبيعى للأحداث يكتسب مزيدا من الزخم مع مرور الأعوام؟

على أية حال هذه هى الصورة الدينامية للعالم كما عاينته فى تلك الفترة.

المشهد الدولى

انتظمت أحداث العالم الكبرى فى تلك الفترة حول أربعة أبعاد رئيسية: أحدها خاص بتأكيد أفول النجم السوفييتى ، وآخر خاص بعمليات تشكل جديد للعالم ، وثالث يضم مظاهر التعجيل بفرض الهيمنة الأمريكية على بعض مضامين هذا التشكل، ورابع ينطق باعتماد العنف سبيلا إلى التغيير حيثما كان المطلب هو التغيير.

أفول النجم السوفييتى

فى أغسطس سنة ٩١ كانت مسيرة الحرب ضد العراق لاتزال تشغل الأذهان، وكانت الولايات المتحدة لا تكف عن إغراء حلفائها بتسديد ضربة جديدة إليه بحجة أنه لم يتخل بعد عن أسلحة الدمار الشامل، وكانت فى الوقت نفسه تلوح للعالم العربى بتقديم حل للقضية الفلسطينية لإغرائه بالانضمام إليها فى الجولة الجديدة. وإذا بالأنباء تأتى فجاءة بوقوع انقلاب ضد جورباتشوف فى الاتحاد السوفييتى: فقد قبض عليه جماعة من العسكريين وعينوا لإدارة شئون البلاد لجنة من بينهم. وسرعان ما أعلنت واشنطن ولندن وباريس صدمتهم إزاء هذه الأنباء. وأعلن يلتسين (وكان لايزال فى المراحل المبكرة من تقديم نفسه للغرب على أنه رجل الساعة) أنه يقف ضد هذا الانقلاب، وحاول فى هذا السبيل أن يستميل عددا من أعضاء مجلس الدوما للوقوف إلى جانبه، ودعا أفراد الشعب فى موسكو إلى الدفاع عن برلمانهم ضد الدبابات السوفييتية التى بدأت تتحرك لضربه. وتجمعت بالفعل أعداد كبيرة من المواطنين قدروا بخمسين ألفا، وصنعوا من أجسادهم حائطا بشريا لحماية البرلمان. واقتربت منهم الدبابات ، ولكن الجنود ترددوا وأحجموا عن الضرب، وكانت هذه هى اللحظات التى حسمت الأمر، وسرعان ما أعلن عن فشل الانقلاب، وبعد ٢٤ ساعة أفرج عن جورباتشوف، وقبض على قادة الانقلاب، واستقبل جورباتشوف فى البرلمان حيث ألقى خطابا ، ولكن كان واضحا للجميع أن يلتسين أفلح فى سرقة الكاميرا. وتتاعت بعد ذلك أحداث بالغة الدلالة، إذ سرعان ما استقال جورباتشوف من منصبه كأمين عام للحزب الشيوعى، وأصدر عدة قرارات بوقف نشاط الحزب، وحل جميع تنظيماته.. واحتشدت حشود كبيرة فى موسكو تحتفل بهزيمة الرجال الذين قادوا الانقلاب.. ووقف على رأس هذه الحشود بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يبارك

أوائل التسعينيات

الحشود، ويجرى طقوس التكفير والحرمان لمن ثاروا على جورباتشوف!! ثم مالبث الاتحاد السوفييتى أن بدأ يتفكك. وفى أواخر أغسطس ٩١ كانت كل من إذربيجان وأوكرانيا، ومولدافيا، وروسيا الاتحادية قد أعلنت الاستقلال. وفى آخر ديسمبر من العام نفسه استقال جورباتشوف من منصبه كرئيس للاتحاد السوفييتى، وأعلن تسليم السلطة إلى بوريس يلتسين رئيس روسيا، كما أعلن تسليمه شفرة القوة النووية السوفييتية. وأعلنت روسيا أنها تسلمت مقعد الاتحاد السوفييتى فى هيئة الأمم المتحدة، وأنزل العلم السوفييتى من فوق الكرملين، ورفع بدلا منه علم روسيا القيصرية، وأسدل الستار على أنقاض ما كان يسمى الاتحاد السوفييتى.

ملامح مبكرة لعالم جديد

فوق هذه الخلفية، خلفية احتضار الاتحاد السوفييتى، وزوال عالم الثنائية القطبية، بدأت تلوح فى الأفق ملامح جديدة للنظام العالمى. وبغض النظر عن الديناميات الخاصة التى دفعت كل ملمح إلى الظهور، فقد تسارع بزوغ هذه القسمات فى فترة زمنية محدودة لترسم معا صورة أولية لعالم على قدر ملحوظ من الجدة، ففى يونية سنة ٩١ أعلنت كوبا أنها باقتصادها إلى تبنى نظام اقتصاد السوق. وفى نوفمبر ٩٣ أذاع راديو لندن أنه تم التوقيع فى جنوب أفريقيا على دستور جديد ينتهى بمقتضاه عهد التفرقة العنصرية ضد السود. وفى مايو ٩٤ جرت أول انتخابات فى تاريخ البلاد على أساس غير عنصرى، وفاز فيها حزب المؤتمر الأفريقى بزعامة نلسون مانديلا. كذلك حدث فى ديسمبر ٩٣ أن أعلن فى لندن عن تحقيق اتفاق بين الحكومة البريطانية والثوار فى أيرلنده على إيجاد حل سياسى للمشكلة الأيرلندية. وأعلن أيضا عن التوصل إلى اتفاق مبادىء بين حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، كما أعلن فى الجزائر أن الحكومة بدأت الدخول فى مفاوضات مع جبهة الإنقاذ الإسلامية. وفى مايو ٩٥ وقعت حكومة أنجولا مع ثوار حركة يونيتا اتفاقا بوقف إطلاق النار بعد حرب أهلية استمرت لما يقرب من ثلاثين عاما. هكذا بدت صورة العالم فى جانب منها ساعية نحو السلام وحقن الدماء.

لكن هذا الجانب ظل جزءا من كل، وبقى فى الصورة جانب آخر لم تنقطع

فيه الصراعات الدموية بأشكال ودرجات بالغة القبح؛ حدث ذلك في البوسنة، وفي أفغانستان، وفي جنوب السودان، وفي اليمن؛ في البوسنة جاءت الأنباء في فبراير ٩٣ بأن الصراع بين البوسنيين المسلمين وجنود الصرب بلغ ذروة لم نسمع بها من قبل، فقد نظمت حملة اغتصاب جماعي للنساء البوسنيات، وأذاعت إحدى اللجان الدولية المدافعة عن حقوق الإنسان أنها تقدر عدد النساء اللاتي أغتصبن في تلك الحملة بستين ألف امرأة. وفي أفغانستان ظلت الحرب مشتعلة بين المجاهدين بعضهم بعضا طمعا في الحكم باسم انتماءاتهم القبلية / العرقية. وفي جنوب السودان اشتد سعير الحرب بين الشمال والجنوب، وكذلك في اليمن. وفي الجزائر استمر مسلسل العنف الذي لم يهدأ حتى الآن بين الحكومة والجماعات الإسلامية.

على هذا النحو كانت الأمور تجرى في العالم بطوله وعرضه، على خلفية تلاشي الثنائية القطبية في العالم، مناطق تخرج من أتون الصراع الساخن في العالم، ومناطق تزداد وطأة التناحر الساخن فيها. وحالات تشف عن تدخلات أجنبية سافرة، وحالات وقع التدخل فيها لكن ظل مستترا أو شديد التمويه، وحالات ثالثة غلب فيها نضج القيادات المحلية (كما في جنوب أفريقيا). وأخيرا وليس أخرا أعلنت فرنسا في يونية ٩٥ أنها تعد لإجراء سلسلة تجارب نووية في جنوب المحيط الهادى بهدف زيادة فاعليتها النووية.

أمركة العالم

وعلى الخلفية العالمية نفسها كانت فئة أخرى من الملامح تشق طريقها إلى الظهور، وكان ما يميز هذه الفئة أنها حملت على وجهها البصمة الأمريكية بالحفر البارز، وقد رصدت عن تيار الأمركة هذا أمورا كثيرة، منها المحاولات الدائبة لإقرار شكل من أشكال تقسيم العراق. وخاصة اعتبار جزء من شمال العراق شبه محمية، تقوم على مراقبة الأوضاع فيها قوات من الأمم المتحدة بدعوى حماية الأكراد من بطش الحكومة العراقية، فإذا لزم الأمر دعيت قوات التحالف (بقيادة أمريكية طبعا) للتدخل العسكري. يضاف إلى ذلك المعارضة الأمريكية الشديدة ضد أي محاولة لرفع العقوبات الاقتصادية عن العراق. وجاءت الأخبار (في أغسطس ٩١) بأن اتفاقية عقدت بين الولايات المتحدة

أوائل التسعينيات

الأمـــريكيـــة والكويت تقـــيم الأولى بمقتضاها قاعدة عسكرية على أرض الثانية، وفي الوقت نفسه دعت حكومة الكويت دول الخليج أن تحـذو حـذوها فـتـعـقـد اتفاقا مماثلا مع الولايات المتحدة ! وبعد شهرين وجهت الولايات المتحدة الدعوة إلى من يعنيهم الأمر لحـضـو مـؤتمر لإحـلال السـلام في الشرق الأوسط، وصيغت الدعوة بنغمة آمرة ناهية، فقد تحدد لقبولها مهلة لا تتعدى السـاعة السـادسـة من مـساء الثالث والعشرين من أكتوبر ٩١، وأي تأخـيـر يعـتـبـر تنازلا عن الحق في المشـاركة!! وبعد سنة واحدة من هذا التـاريخ ظهـر ملمح آخـر من مـلامح الأمركة التي تفرض على العالم، فقد هبطت على شاطىء الصومال طلائع قوات أمريكية (٢٨ ألف جندي) بدعوى تأمين وصول المساعدات الإنسانية إلى ضـحـايا الحـرب الأهليـة في البـلاد، وقـالت الأمم المتـحـدة إنهـا وراء هذا المشروع ومن ثم فإنها توجه الدعوة إلى جميع الأعضاء في المنظمة الدولية إلى المشاركة بقوات في هـذا المشروع إذا شـاءت، ولكن الولايات المتـحـدة أعلنت أنها لابد وأن تتولى القيادة في هذه الحال. وفي أكتوبر ٩٤ تفـجـرت الأنباء بوقوع خلافات حادة في مجلس الأمن بين الولايات المتحدة من ناحية وفرنسا وروسيا والصين من ناحية أخرى، فـقـد رأت هذه الدول الثلاث أن تدعـو إلى تخـفـيف القـيـود على النفط العـراقي، ورفـضت الولايات المتـحـدة ذلك، بل وأضـافت إلى الرفض أنهـا تنظر في أمر فرض حظر على الأسلحة الثقيلة في جنوب العراق، وقبل إن هذا الإجراء مطلوب لحماية الشيـعـة في الجنوب. هكذا كان تيار فرض الإرادة الأمريكية صريحا وقويا، وكان متعدد الجـبـهـات. ويلاحظ أنه كان منصبا بالدرجـة الأولى على منطقـة الشـرق الأوسط من العـــراق شـمــــالا إلى الصـومـــال جنوبا، مـرورا بالكويت وفلسطين!

وكان هناك تسلسل آخر للأحداث شبيه بالتيار السابق لكنه كان أقل منه إفصاحا عن صفة الأمركة التي ظلت مع ذلك موجودة فيه بالمواربة ولا يمكن إنكارها، وكان من مفردات هذا التيار بدء التـحـرك العـقـابي (بمشـاركـة إنجليزية وفرنسية وقيادة أمريكية) ضد ليبيا جزاء لها على اتهام بتفجير طائرة «بان آم» فـوق قـرية لوكـيـربي في اسكتلنده. وقد قرر مجلس الأمن في هذا الشأن (سنة ٩٢) فـرض عقوبات

اقتصادية على ليبيا لإرغامها على تسليم الأشخاص الليبيين المشتبه في تورطهم في هذا الحادث. وكان من وقائع هذا التيار أيضا أن قبل الفلسطينيون والإسرائيليون (تحت ضغط أمريكي) التوقيع في سبتمبر ٩٣ على وثيقة مؤقتة تعلن الاعتراف المتبادل بين السلطة ودولة إسرائيل. وفي مايو ٩٤ تم التوقيع النهائي (إكمالا للوثيقة السابقة) على ما عرف باسم اتفاق غزة / أريحا. يضاف إلى هذا التيار أيضا ما تكشفت عنه الأحداث على امتداد سنة ٩٤ من أصابع أمريكية وراء الأحداث في الجزائر.

هكذا توالت الأحداث العالمية كما قرأتها في النصف الأول من التسعينيات، أحداث تنبيء بأفول النجم السوفييتي، وأخرى تشي ببزوغ الملامح المبكرة لعالم جديد يختلف عن عالم الثنائية القطبية ، وفئة ثالثة من الأحداث تسفر عن محاولات جاهدة لأمركة ما يمكن أمركته من العالم الجديد (وخاصة منطقة الشرق الأوسط)، وكثير من هذه الأحداث تعتمد العنف سبيلا أساسيا للصياغات التي تستهدفها.

مصر في خضم الأحداث

في هذا الخضم كانت الأحداث تتوالى في مصر كاشفة عن تنامي تيار التشدد اليميني، وكان هذا التشدد يتذرع بذريعة التدين بصورة مباشرة أحيانا.

وغير مباشرة أحيانا أخرى، وكان يعلن عن نفسه بأحداث بالغة العنف (المادي أو المعنوي) أحيانا كثيرة. وقرأت في هذه الصورة ملامح تناغم ملحوظ مع قسمات الصورة العالمية كما رصدتها، وكنت أتساءل في سريرتي عن حقيقة هذا التناغم: هل يأتي نتيجة تخطيط مسبق بين رؤوس وأصابع فعلية؟ أم يتخلق مستقلا ولكنه على كل حال ناتج عن إدراك المستجدات العالمية نفسها التي يدركها اليمين العالمي ويستجيب لها بما يناسبه؟ أم أنه ينطوي على العاملين معا، هذا الإدراك وذاك التخطيط كلاهما يعزز الآخر، أم أنه لا هذا ولا ذاك والمسألة كلها مسألة مصادفة تاريخية؟

تجليات التشدد

كانت السنوات الثلاث ٩٢، ٩٣، ٩٤ أسوأ سنوات التشدد في مصر في الفترة التي نحن بصددها؛ في سنة ٩٢ قتل الأستاذ الدكتور فرج فوده أستاذ الاقتصاد الزراعي بكلية الزراعة بجامعة عين شمس، ، وجاء في التحقيقات القضائية ان اغتياله تم على أيدي شابين من جماعة الجهاد.

أوائل التسعينات

وازدادت المواجهات المسلحة فى الصعيد بين الجماعات الدينية والشرطة (روز اليوسف فى يولية ٩٢). وفى سنة ٩٣ انفجرت عبوة ناسفة فى ميدان الخازندارة فى شبرا، وأسفر الانفجار عن مقتل سبعة أشخاص من المواطنين الأبرياء. وبعد أسبوعين عثر على حقيبة بمواد متفجرة فى أحد الشوارع فى حى المنيل (وأبطل مفعولها). وبعد أقل من شهرين فى خلال العام نفسه وقعت محاولة لاغتيال اللواء حسن الألفى وزير الداخلية فى ذلك الوقت وكان ذلك فى وضح النهار فى شارع الشيخ ريحان أمام الجامعة الأمريكية، ونجا اللواء الألفى وقتل عدد من المواطنين الأبرياء. وبعد ثلاثة أشهر فى العام ذاته قتل فى مدينة قنا ضابط شرطة وسائق سيارته وجندى مرور وسيدة كانت تعبر الطريق. ثم بعد يومين اثنين وقعت محاولة لاغتيال الدكتور عاطف صدقى رئيس مجلس الوزراء، ونجا الرجل ولكن قتلت طفلة وجرح عدة أشخاص تصادف مرورهم فى موقع الحادث. ثم فى يناير ٩٤ وقع اشتباك مسلح بين أفراد من الجماعات المتشددة ورجال الشرطة فى قرية بالقرب من المعصرة فى ضواحى القاهرة. ثم فى يولية ٩٤ قتل ضابط شرطة برتبة رائد فى مدينة أسيوط. وفى منتصف اكتوبر ٩٤ حاول شاب من المتشددين قتل الكاتب الكبير نجيب محفوظ بأن طعنه بسكين (قرن الغزال) فى الجانب الأيمن من رقبته. وقال أحد كبار الجراحين الذين أشرفوا على علاج الأستاذ محفوظ إن الطعنة التى أصابته لا يتقنها إلا محترف. وبعد أقل من ساعة من وقوع الحادث كانت وكالات الانباء قد اذاعت النبأ فى جميع انحاء العالم على أساس أن مصر تغتال النابهين من أبنائها. وفى يونية ٩٥ وقعت محاولة اغتيال الرئيس محمد حسنى مبارك. ومع أن المحاولة وقعت على الأرض الأثيوبية بينما كان الرئيس فى طريقه إلى مؤتمر يعقد فى اثيوبيا، فقد رأيت ان اذكر ذلك فى هذا الموضع من المقال لأن المحاولة تصنف داخل الانتماء الأيديولوجى نفسه الذى أملى تجليات التشدد السابق ذكرها، ولأنها على كل حال أريد بها رأس الدولة المصرية.

والى جانب هذه الأحداث الدموية كانت تقع أحداث أخرى تعتبر من بين إفصاحات التشدد باسم الدين، ولكنها لم تكن تحمل الطابع الدموى؛ ففى ٢٧

ديسمبر سنة ٩١ نشرت جريدة الأهرام أن محكمة أمن الدولة أصدرت حكما بالسجن لمدة ثماني سنوات على الكاتب الأستاذ علاء حامد لنشره كتابا بعنوان «مسافة فى عقل رجل» اعتبرته المحكمة متضمنا آراء «تسيء إلى الأنبياء والرسل». وفى ٣ فبراير ٩٤ أذاع راديو لندن أن الجماعة الإسلامية فى مصر وزعت (بالفاكس) على عدد من وكالات الأنباء الأجنبية فى القاهرة صيغة إنذار موجه منها الى الأجانب المقيمين فى مصر بضرورة المغادرة فى أقرب وقت ممكن لأنها على وشك القيام بعمليات بالغة العنف. وبين هذين التاريخين أخذت تتوالى وقائع قضية الأستاذ الدكتور نصر حامد أبو زيد الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة، وقد اتهمته اللجنة العلمية الدائمة التى كانت تنظر اذ ذاك فى أمر ترقيته الى درجة الأستاذية بأن بعض مؤلفاته احتوت على آراء تتعارض مع مقتضيات الدين. ودار جدال حول هذا الموضوع على صفحة الحوار القومى بجريدة الأهرام بلغ ذروته فى شهر يولية سنة ٩٣ . وشاب طرح القضية أمور بالغة السوء داخل الجامعة وخارجها انتهت برفض ترقية الدكتور أبو زيد. ثم اذا بأحد المواطنين يتقدم برفع دعوى قضائية باسم (الحسبة) للتفرقة بين الرجل وزوجه لأنه يعتبره مرتدا عن الإسلام. وانتهى الأمر بأن غادر الرجل مصر لينفى نفسه فى بلد أوربى. واجتمعت فى بؤرة واحدة فى ذهنى قضايا ابو زيد وعلاء حامد ونجيب محفوظ وفرج فوده، وانبعثت فى البؤرة نفسها ذكريات دراسية قديمة، عن محاكم التفتيش فى أوربا فى العصور الوسطى، وقد حكمت على جيوردانو برونو الفيلسوف الإيطالى بأن يموت حرقا جزاء له على ما اعتبره الآباء الدومينيكان كفرا بالعقيدة. وقد أحرق الرجل فعلا سنة ١٦٠٠. ونحن ماذا فعلنا بمفكرينا وكتابنا بعد أربعة قرون؟! يبدو أن آخر شيء سوف يتعلمه الإنسان هو التسامح. ومن يدرى؟!.

مستوى الأداء

الحياة الاجتماعية أرحب وأغنى كثيرا من أن تستوعبها أمور السياسة وتدبير شئون الحكم، ومع ذلك فالاهتمام الأكبر لدى الساسة أو المواطنين الذين أوتوا قدرا من الانشغال بالأمور العامة ينصرف الى التفكير والجدال والفعل حول أمور السياسة اكثر مما يتجه الى العناية بمطالب الارتقاء بالحياة الاجتماعية الرحبة. ولعل أوضح دليل على ذلك أن

أوائل التسعينيات

أحزابنا ،كانت ومازالت، أحزابا بلا برامج (بغض النظر عن كلمات غير مقنعة تقال هنا وهناك). وكأن الوصول الى الحكم سوف يتبعه مباشرة صلاح الأداء في جميع مجالات حياتنا الاجتماعية، هكذا دون تخطيط ولا تدبير. وأنا شخصيا لم استطع طوال معايشتي لأحداث الوطن أن أغمض العين أو أسد الأذن عن كل ما أرى وأسمع مما يشهد بالكثير من القصور والقليل من الصلاح . والى القارئ بعض ما تشهد به العين والأذن. في مايو ٩١ شب حريق في احدى العمارات السكنية في حي المعادي راح ضحيته عدد من السكان. وجاء في وقائع هذا الحادث ما يأتي : تتكون العمارة من ١٤ طابقا، أربعة منها فقط رخص ببنائها، والعشرة الباقية أقيمت على غفلة من القانون، وكان أداء رجال المطافيء سيئا لدرجة استفزت المواطنين التجمهرين للاعتداء عليهم، وصرح أحد كبار المسئولين بأن القاهرة كلها ليس فيها سوى سلم واحد يمكن ان يصل برجال المطافيء الى ارتفاع عشرين طابقا، وثلاثة سلالم تصل بهم الى الطابق الخامس عشر (الأهرام في ١١ مايو) ! هكذا!

وفي يونيه ٩١ نشرت جريدة الاهرام ان النيابة قدمت الى محكمة أمن الدولة العليا التحقيقات الخاصة بما سمي كشوف البركة، وقد وردت بها اسماء ثلاثة عشر شخصا من كبار المسئولين وأقربائهم. وفي مايو ٩٣ توفي أحد أقربائي الأعزاء، وكانت وفاته في واحدة من أكبر مستشفياتنا الاستثمارية في القاهرة بعد أسبوعين قضاهما في المستشفى، وأشهد أن الأداء الطبي والإداري الذي لقيته الأسرة حول مريضها كان شديد السوء بدرجة تدين القائمين عليه مهنيا وأخلاقيا. وفي يونية ٩٥ وقع حادث غش جماعي في مدرسة إعدادية بمركز قنا اعتدى فيه جمع من أهالي التلاميذ على المراقبين في اللجنة، وانتهى الأمر بأن اصدر وزير التربية والتعليم في هذا الشأن قرارا بإلغاء الامتحان (الأهرام في ٧ يونية) . هذه وأمثالها أحداث بالغة السوء في معناها ومبناها، سواء بالنسبة لأجهزة الدولة، أو للكثيرين من رجال الدولة، أو للقطاع الخاص، أو لعينات من الأسر المصرية القائمة على تنشئة الصغار. ومع ذلك فالوقائع التي ذكرتها ليست سوى عينة شديدة المحدودية إذا قورنت بحجم جمهور الوقائع المماثلة في دلالتها، ولكنها عينة صادقة التمثيل لهذا الجمهور، واضحة المعنى في أن الواقع يمضي بمصر ومن على أرض

مصر فى طريق مضاد لما تقضى به إدارة الرقى بالمجتمع . ولا يعنى ذلك أننى لم اشهد قط شيئا ينطوى على حسن الأداء، ولكن يعنى أن الحجم النسبى لهذا الشىء الحسن يجعله يبدو وكأنه الكم المهمل فى معادلة حياتنا الاجتماعية اليومية.

عالم الذات داخل عالم الموضوع

كانت أحوال مصر من حولى لا تسر عدوا ولا حبيبا، ومع ذلك لا أستطيع أن أقول إنها كانت حالكة الظلمة، والأقرب الى الحقيقة ان أقر بأن أجواءها كانت رمادية، بلون هواء القاهرة فى ظل السحابة السوداء. وكان العالم من حولنا تسوده قتامة تنذر بالمزيد .

وفى داخل هذا الإطار كانت الذات كعادتها مصرّة على أن تلتمس الطريق الفارق بين الخيط الابيض والخيوط السوداء المتعددة، وأن تلتزم بهذا الطريق ما أمكن. فى هذه الفترة تقدمت بإنجازاتى شوطا لا بأس به، وازداد وعيى بحضور العلاقات الإنسانية السارة. فى هذه الفترة ازداد انتظامى فى الكتابة (شبه الشهرية) لمجلة الهلال الغراء، وأسهم فى انتظامى أننى بدأت اعتبر هذه الكتابة واجبا اجتماعيا ممتعا . وانتهيت كذلك من كتابة «استراتيجية قومية متكاملة لمكافحة المخدرات وعلاج التعاطى والادمان فى مصر»، وتم هذا بفضل التعاون الوثيق مع لجنة من كبار أساتذة التخصصات المعنية فى مصر كالطب النفسى، وعلم الأدوية، والعلوم الشرطية والقانونية.. الخ . وفى الفترة نفسها نشرت مع فريق آخر من الباحثين الممتازين علما وخلقا ثلاثة مجلدات عن دراسات ميدانية حول تعاطى المخدرات بين الشباب فى واقعنا المصرى، وتم ذلك تحت الرعاية المادية والأدبية للمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية. وفى يولية ٩٤ صدر كتابى الموسوم «نحن والمستقبل» واستقر فى وجدانى بعد ذلك كله أن استمتاعى بالجانب الانسانى من علاقاتى مع تلامذتى الذين ألقاهم فى البحث، ومرضاى الذين ألقاهم فى العيادة، إنما يأتى تتويجا لنوع الحياة التى ارتضيتها، وهو يعطينى فوق المتعة قسطا لا بأس به من المناعة ضد مسببات المشقة فى عالمنا، ومرسبات الاكتئاب فى حياتنا الاجتماعية، التى مازلت أرجو لها أن تنفذ من الباب الضيق إلى عالم الجودة فى العمل، والسماحة فى التعايش، والجدية فى القصد، والصلابة فى الإرادة. ■





هنري كورييل



رفعت السعيد



محمد سيد أحمد

أوراق الرفيق مرسى

والحركة الشيوعية المصرية

بقلم
د. رءوف عباس

منذ نشرت دراستنا عن «الحركة العمالية في مصر» عام ١٩٦٧، واهتمامنا منصرف إلى محاولة الوقوف على المصادر الأساسية للحركة العمالية في بعديها النضالي والسياسي، واستطعنا أن نجمع بعض الأوراق الهامة المتصلة بتاريخ الحركة حتى نستعين بها في إعداد دراسة شاملة لتاريخ الحركة على ضوء ماتكشف من أوراق، وما توفر من شهادات بفضل الجهود التي يبذلها مركز البحوث العربية فيما ينشره من شهادات الكوادر العمالية واليسارية.

ولكن عندما وقعت فى أيدينا أوراق هنرى كورييل الذى لعب دوراً بارزاً فى الحركة الشيوعية المصرية منذ بداية الأربعينات حتى بادرنا بنشرها، وقدمنا لها بدراسة منذ نحو خمسة عشر عاماً، أثارت وقتها اهتمام «الهلال» فكتب محمد سيد أحمد وسعد زهران مقالين مهمين حول تجربتهما الذاتية عن دور الأجانب فى الحركة الشيوعية المصرية ، كما كتب طارق البشرى مقالا حول دور اليهود فى الحركة وما تحيط به من شبهات، وجاء ذلك كله تعقيباً وتعليقا على ماذهبنا إليه فى الدراسة التى قدمنا بها الأوراق من أن الحفاظ على إسرائيل كان يحتل بؤرة اهتمام هنرى كورييل الذى كانت له مواقف محددة تشى بهذا الاتجاه.

سر كورييل

ولما كانت الكتابة عن هنرى كورييل تثير حساسية فصيل معين من اليسار المصرى لأسباب سياسية محضة لاتستطيع أن تتسامح مع حقائق التاريخ ووضوح الدليل، فقد هاجمنى بعض رموز هذا الفصيل على صفحات «الأهالى» بعبارات تتفق مع حجم الحساسية التى خلفها وصفى للاتجاهات الصهيونية عند هنرى كورييل ، وحاولت أن أتابع الحوار مع هؤلاء فأغلقوا الباب، واتسع صدر «الهلال» فنشرت مقالا لى رداً على يوسف حزان الذى مول وأصدر طبعة مصرية من كتاب جيل پيرو عن هنرى كورييل الذى نشر بعنوان «رجل من نسيج فريد» وأضاف إليه ملحقا تضمن رسالة موجهة لى زعم أنه أرسلها لى ولم أرد عليها، دافع فيها عن موقف كورييل من الصهيونية وإسرائيل ، وقد قمت بتفنيد مزاعمه فى الرد الذى نشرته «الهلال».

***

لهذه المقدمة الطويلة نسبياً علاقة بموضوع هذا المقال ، وهو أوراق مارسيل شيريزى التى نشر محمد يوسف الجندى معظمها فى كتاب صدر حديثاً عن دار العالم الثالث بعنوان «أوراق مناضل إيطالى فى مصر».

وكان مارسيل شيريزى يعرف فى مصر باسم مارسيل إسرائيل ، ويعرف فى الحركة الشيوعية بالاسم الحركى «الرفيق مرسى» . وقد التقيت به لأول ولآخر مرة عام ١٩٨٤ فى مكتب راوية عبدالعظيم (دار سينا للنشر) بعد نشر كتاب «أوراق هنرى كورييل والحركة الشيوعية المصرية» بشهور قلائل. فقد جاء مارسيل إلى مصر، واتصل بالدار التى صدر عنها الكتاب وطلب مقابلتى، وعندما نقلت إلى الصديقة راوية عبدالعظيم هذه الرغبة، رحبت باللقاء

الذى كان مقرراً له ساعة واحدة، فامتد إلى سبع ساعات ، فاض فيها مارسيل بطوفان من الذكريات، بدأها بإبداء تأييده لما ذهبت إليه من اتجاهات صهيونية عند كورييل . ودلل على ذلك بقوله إن كورييل هو الذى كان وراء حل «الرابطة الإسرائيلية المناهضة للصهيونية» التى أسسها مارسيل وصاغ بيانها الذى طبع ووزعت منه ٦٠ ألف نسخة (على حد قوله).

وعلى مر الساعات السبع قدم مارسيل إجابات مستفيضة حول تساؤلات طرحتها عليه، وللأسف لم يكن معى جهاز تسجيل يحفظ هذا الحديث ، وانما اكتفيت بتدوين بعض الملاحظات ، وانتهى اللقاء على وعد من مارسيل بإرسال ما لديه من أوراق إلى حتى أستعين بها فى إعداد دراسة لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية . ولم يكن الوعد مشمولاً بتحديد زمن معين، بل شاء «الرفيق مرسى» أن يترك الموعد مفتوحاً حتى يتيسر له إعداد الأوراق .

وشغلتنى دوامة الحياة بالعديد من الأمور العلمية والثقافية الأخرى ، ونحيت جانباً ماجمعت من أوراق عن الحركة الشيوعية المصرية مما تيسر العثور عليه فى مصر ، ومما أمكن الاطلاع عليه بالأرشيفات البريطانية والأمريكية، حتى كان مارس عام ٢٠٠٠ عندما وجدت على مكتبى بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ظرفا كبيراً أرسله مارسيل مع شخص ما، ومعه رسالة قصيرة جاء فيها :

«بعد مرور سنين من تاريخ طلبك، أرسل إليك - نظراً لشهرتك كمؤرخ موضوعى وكمساهمة تاريخية - بعض السندات والمكتويات المتعلقة بكفاحى ضد الاستعمار والرجعية والصهيونية منذ سنة ١٩٣٥ إلى اليوم . ولسوء الحظ جزء كبير من مكتوياتى ينام - إذا كان لايزال حيا - فى أرشيف المحافظة ، ولا سيما كورس لتدريس الماركسية مكون من حوالى ٣٠٠ صفحة ، وهو الدور الأساسى الذى قمت به أثناء حياتى المصرية - سلام وتحية ، مارسيل شيريزى».

وتضمن الظروف الكبير الذى اشتمل على أوراق مارسيل شيريزى أو مارسيل إسرائيل (الرفيق مرسى) أوراقا سبق أن أرسل أصولها إلى د.رفعت السعيد هى : شهادة قدم فيها ملخصاً لدوره فى الحركة الشيوعية المصرية ، ورسالة مطولة تضمنت تصويباً لبعض ماذكره رفعت السعيد فى كتابه عن «الصحافة اليسارية فى مصر» ثم مذكرة مطولة لتصويب بعض ما جاء بكتاب «المنظمات اليسارية فى مصر ١٩٤٠ - ١٩٥٠». وكذلك رسالة مطولة أرسلها إلى چيل

بيرو مؤلف كتاب «رجل من نسيج خاص» عن سيرة هنرى كورييل حرص مارسيل أن يرسل لى نصا عربيا لها بخط يده صحح فيها بعض ماقدمه بيرو من أفكار عن كورييل وقال رأيه فيه بصراحة، وحمله مسئولية ماتعرضت له الحركة الشيوعية من نكبات.

كذلك تضمنت الأوراق تقريراً كتبه مارسيل لرفعت السعيد عن حقيقة الانقسامات والتكتلات داخل «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) وهو تقرير - فى رأيى - بالغ الأهمية .

وتضمنت الأوراق أيضاً مقالين بالإيطالية أحدهما بإحدى دوائر المعارف عن مارسيل ونضاله في مصر وإيطاليا والآخر عن موقفه من العدوان الثلاثي على مصر ومساندته للموقف المصرى، ونص فرنسى يتضمن بيانات اللجنة المصرية للسلام عام ١٩٣٨، وبعض المقالات التى أرسلها للنشر فى مجلة «اليسار» ومجلة «أدب ونقد» بما في ذلك حوار أجراه أحمد إسماعيل معه على صفحات المجلة الأخيرة .

ورغم أن الكثير من هذه الأوراق أرسل - أصلا - إلى رفعت السعيد إلا أن المعلومات الواردة به بالغة الأهمية ، ومجمل الأوراق يرسم صورة شبه كاملة لدور «الرفيق مرسى» ، ويلقى أضواء على العمل السياسي الماركسى فى الأربعينات . ولكنها ليست مذكرات، ولا تمثل كياناً واحداً، وبها تكرار للمعلومات هنا وهناك، لذلك فضلت الاحتفاظ بها لاستخدامها عند كتابتى لدراسة عن تاريخ الحركة .

أوراق الرفيق مرسى

ولكنى فوجئت الشهر الماضى بالكتاب الذى نشره محمد يوسف الجندى بدار العالم الثالث بعنوان «مارسيل شيريزى، أوراق مناضل إيطالى فى مصر» الذى سبقت الإشارة إليه، وبمراجعة الأوراق المنشورة على مابين يدى من أوراق أرسلها إلى مارسيل تبين لى أنه قد روعيت الدقة والأمانة فى نشر الأوراق، ولكن استبعد منها رد مارسيل على چيل بيرو المتعلق بهنرى كورييل ، وتقرير يقع فى سبع صفحات عن الانقسامات والتكتلات فى حدتو وعلى من تقع مسئوليتها ، كان قد أرسله إلى رفعت السعيد والتقرير الخاص باللجنة المصرية للسلام (عام ١٩٣٨) وكان نشر ترجمته أمراً بالغ الأهمية ، كذلك تضمنت المجموعة التى بين يدى صور خطابات شخصية مرسلة من العديد من الكوادر المصرية إلى مارسيل.

وقد حرص ناشر الكتاب أن يضمنه نص أعمال ورشة العمل التى عقدت فى مارس ١٩٩٩ بدعوة من لجنة توثيق

الحركة الشيوعية بمركز البحوث العربية والأفريقية بالقاهرة، وهي الجلسة التي تراجع فيها مارسيل شيريزي عما جاء بشهادته السابقة أمام اللجنة ذاتها والتي نشرت في كتاب شهادات الأجانب في الحركة الشيوعية المصرية ، والتي قال فيها إن هنري كورييل كان نصف صهيوني، وهو تقييم يتسق، تماما مع ماسمعته منه بمكتب راوية عبد العظيم عام ١٩٨٤، ولكن الرجل تعرض لضغوط من رفاقه ورفاق كورييل القدامي فكان تراجعه عن تلك المقولة الذي حرص على أن يترك لي صورة منه بالأوراق التي أرسلها لي، وقراءة ماكتبه الرجل بخط يده توحي بأن هذا التراجع فيه قدر كبير من المجاملة للرفاق ، هذا إذا أمعنا النظر في الصياغة وعلامات التعجب التي حرص على أن يضعها في موضع له دلالته.

***

ومهما كان الأمر، فقد طالعتنا الصحف في الأسبوع الأول من نوفمبر (٢٠٠٢) بنبأ وفاة مارسيل شيريزي، قبل أن يتم عامه التسعين بشهور قليلة، ولم يعد أمامنا سوى ماتركه من أوراق، شاء أن يحملني أمانتها، رغم أنها - كما اتضح من نشر الكتاب - بين يدي «الرفاق» القدامى وبعض تلاميذهم، وكأن «الرفيق مرسي» شعر بالحاجة إلى طرف محايد، لايتعامل مع أوراق الرجل من منطلقات سياسية، وانما ضالته الحقيقة، والحقيقة وحدها، مهما بلغت درجة نسبيتها.

سر الرفيق مرسي

ومارسيل إيطالي الأصل، كان جده حاخاما لليهود القرائين بمصر، في عهد محمد سعيد باشا، ومثل طائفته في مجلس شورى النواب الذي أسسه الخديو إسماعيل عام ١٨٦٦، ولكن والده لم يسر على خطى الجد، ففضل الانخراط في مجال الأعمال، مالكا لأرض ورثها عن الجد في ميت غمر ، ومالكاً أيضاً لمحلج للقطن. ولأمر ما فقد الأب ثروته، وأصبح فرازاً للقطن بأحد المحالج. كان الأب متمصراً، يتحدث العربية ، ويصادق بعض أعيان المصريين مثل يوسف الجندي الذي لعب دوراً بارزاً في ثورة ١٩١٩ بزفتى، وكانت الأم يهودية - أيضاً - من أصول إيرانية ، متمصرة، تتحدث العربية .

من هذا الوسط جاء مارسيل، الذي ولد بحي الظاهر (١٩١٣) بالقاهرة، وتعلم بمدرسة الفرير، ثم حصل من الليسيه الفرنسية على دبلوم في التجارة ، وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية، ولكنه لم يكمل دراسته فيها، فقد تأثر بالماركسية واعتبر أن «السعي للحصول على شهادة عالية من جامعة استعمارية انحراف بورجوازي» وبدأ عمله

السياسي في حركة السلام ، وكانت اللجنة المصرية للحركة تكاد تكون أجنبية خالصة ، ومنشوراتها تطبع بالفرنسية ، فطالب مارسيل بتمصير اللجنة وجعل مطبوعاتها عربية اللغة طالما كانت تعبر عن مصر، فأدى ذلك إلى إبعاده من اللجنة (١٩٣٧/١٩٣٨).

ولم يكن هذا هو الإقصاء الأخير من تنظيم يسارى بسبب التمسك بالتمصير ، فقد كانت مسألة ترك قيادة الحركة الشيوعية في مصر للكوادر المصرية ، موضع خلاف شديد بينه وبين هنرى كورييل ، وهو منظم شيوعى ، إيطالى الأصل أيضاً، ظل متمسكا بقيادة الحركة حتى بعد خروجه من مصر. فقد رأى مارسيل إسرائيل، - الذى اتخذ لنفسه اسماً حركياً هو «الرفيق مرسى» - أن إصرار هنرى كورييل على قيادة «الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، والاحتفاظ بموقعه عندما اتحدت منظمته مع بعض المنظمات الأخرى ، يضر بالحركة ، ويظهرها بأنها عمل أجنبى محض ، غريب على الحركة السياسية فى مصر، بل رأى مارسيل بقاء الأجانب فى القيادة يخدم السياسة البريطانية فى مصر، وينعكس سلبياً على الحركة الوطنية المصرية.

وإذا كان مارسيل (أو الرفيق مرسى) قد تعرف على الماركسية من خلال قراءاته بالمدرسة، وتأثرا باثنين من المدرسين الفرنسيين بالليسيه كانا ماركسيين، فإن انخراطه العملى فى هذا التوجه جاء من خلال معايشته للواقع المصرى، ومتابعته لأحوال العمال البائسة فى محالج القطن، وخاصة عمالة الأطفال، وما يتعرضون له من معاملة لا إنسانية إضافة إلى الإصابة بالسل دون أن تكون هناك مظلة قانونية تحميهم، كذلك جعلته الوظائف التى تقلب فيها - وكلها وظائف إدارية بسيطة - على صلة بالعمال المصريين ، وعلى معرفة بواقعهم التعس ، ومن بين أولئك العمال اختار «الرفيق مرسي» من لقنهم الماركسية ، ومن اشترك معهم فى تأسيس منظمة شيوعية سرية حملت اسم «تحرير الشعب» عام ١٩٤٠.

وعندما عمل «مرسى» على مساعدة زملائه المصريين لإقامة منظمة شيوعية مصرية ، كان ينفذ بذلك نصيحة تلقاها من قادة الحزب الشيوعى اللبنانى - الذى كان أول حزب خارج مصر يتصل به، أما الحزب الثانى فكان الحزب الشيوعى الفلسطينى وقد تلقى مارسيل نصيحة بأن يبذل جهده لتكوين تنظيم شيوعى مصرى من الحزبين الشيوعيين اللبنانى والفلسطينى ، وكان قادتهما - فى أواخر الثلاثينات - من العرب.

وبالإضافة إلى العمال الذين جمعهم

حوله فى حلقة لدراسة الماركسية ، التقط - أيضاً - بعض الشبان المصريين المتعلمين من «جماعة الفن والحرية» التى أسسها چورچ حنين وضمت بعض المصريين ذوى الثقافة الغربية ، وكذلك من «جمعية الشبان المسيحيين من بين المثقفين حول سلامة موسى ، وتتضمن صور الخطابات التى تضمها أوراق مارسيل شيريزى خطابات من بعض المثقفين المصريين الماركسيين يصف بعضهم فيها مارسيل بأنه كان أستاذه فى الماركسية ويشيد البعض الآخر بما تعلمه على يديه من دروس فى الماركسية، وهى خطابات تلقاها مارسيل من مصر على مدى نصف القرن بعد ترحيله من البلاد إلى إيطاليا عام ١٩٥٣.

ولعب مارسيل نفس الدور عندما أبعد عن مصر (١٩٤٢ - ١٩٤٣) وطرد إلى فلسطين ، حيث أقام بمعسكر للاجئين المعادين للفاشية أقيم فى بيت لحم ، وكلفه الحزب الشيوعى الفلسطينى بتدريس الماركسية للعمال العرب ، وأكسبته تلك التجربة صلات وثيقة قامت بينه وبين الشيوعيين الفلسطينيين والأردنيين.

وفى منظمة «تحرير الشعب» التى كونها بمعاونة رفاقه المصريين تولى القيادة ثلاثة من المصريين ، واقتصر دور «الرفيق مرسى» على التثقيف وأسست هذه المنظمة «جمعية الخبز والحرية» للنشاط العلنى وسط العمال والمثقفين ، و«جمعية الثقافة والفراغ» للنشاط العلنى وسط الأجانب والطلاب المصريين . وقد توقف نشاط «تحرير الشعب» بعد الضربة التى وجهها إليها البوليس (فى أكتوبر ١٩٤١) وسجن عشرة من قادتها المصريين ، وأعيد تكوينها عام ١٩٤٤ بعد خروج الكوادر المصرية من السجن وعودة مارسيل من فلسطين ، وظلت قيادة التنظيم مصرية، واقتصر دور «الرفيق مرسى» على التثقيف وإعداد الكوادر حتى عام ١٩٤٧، عندما تم تكوين «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو).

وقد لعب مارسيل دوراً هاماً فى الجهود التى بذلت لتوحيد المنظمات الشيوعية المصرية فى اطار تنظيمى واحد ، وكان من رأيه أن الظروف الموضوعية فى مصر منذ بداية الحرب العالمية الثانية كانت أكثر نضجاً لإقامة «الحزب الشيوعى المصرى» منها عام ١٩٢٢ عندما قام أول حزب شيوعى علنى فى تاريخ مصر. ولذلك ظلت فكرة تفادي التكتل والتشرذم ، وتوحيد العمل الماركسى فى تنظيم واحد شغله الشاغل، فقام بدور مهم بمعاونة من بعض «الرفاق» البنانيين والفلسطينيين فى الجهود التى بذلت عام ١٩٤٥ -

١٩٤٦ لتوحيد الحركة، وهي الجهود التي أدت إلى الوحدة بين «تحرير الشعب» و«اسكرا» أولاً ليكونا «الطليعة المتحدة» ثم الوحدة مع «الحركة المصرية للتحرر الوطني» وتكوين اتحاد «الحركة الوطنية للتحرر الوطني (حدتو).

كما لعب مارسيل دورا هاما في تنظيم مؤتمر ١٩٤٨ السري الذي كان يعد لمؤتمر تأسيس الحزب المزمع عقده عام ١٩٤٩ وقدم لذلك المؤتمر (الذي عرف بمؤتمر الثلاثة والثلاثين) ورقة عن واقع الحركة الشيوعية المصرية والسبيل لتوحيد فصائلها واتخذ المؤتمر من تلك الورقة أساساً للتقرير الذي قام بإعداده ليطرح على المؤتمر التأسيسي للحزب والذي أخذ باقتراح مارسيل تكوين لجنة تحضيرية من كافة المنظمات تمهد للمؤتمر التأسيسي للحزب وتتولى مناقشة البرامج واللوائح والخط السياسي.

وكان مارسيل على رأس مؤسسي «الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية» في يونيو ١٩٤٧، التي كان هنري كورييل وراء حلها . وكان منطلق الرابطة الشعور بخطر الصهيونية على حل القضية اليهودية ، وذهبت إلى أن الصهيونية «ليست إلا أداة بين أيدي القوى الاستعمارية العالمية التي تريد استخدام اليهود لتأكيد سيطرتها على الشرق الأوسط» وأعلنت أنها تتهم «الإرهاب اليهودي في فلسطين بأنه حركة فاشية موجهة أساساً ضد الجماهير اليهودية ولاتخدم في الواقع سوى المستعمرين».

وظل موقف مارسيل من الصهيونية ثابتاً ، ففي حديث أجرته معه مجلة «أسرتي» الكويتية عام ١٩٨٩ ، قال : «دولة إسرائيل لم تحل ولن تحل المشكلة اليهودية .. إسرائيل لعبت دوراً في تشويه الوعي اليهودي ... فأنا أقول إن الصهيونية أكبر كارثة في تاريخ يهود العالم».

وبعد ما أبعد عن مصر عام ١٩٥٣، وانضم للحزب الشيوعي الإيطالي لعب دوراً بارزاً في إدانة العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦)، وظل يمد يد العون لكل من يلجأ اليه من «الرفاق» المصريين ، حتى من ينتمون إلى أجيال رأت النور بعد رحيله من مصر.

ولا شك أن حرص مارسيل شيريزي على أن تجمع أوراقه وتنشر ، ولجوءه إلى أصدقائه، وإلى شخصي بحكم اهتمامي بتاريخ الحركة الشيوعية المصرية ، دليل على اعتزازه بالمكون المصري في تاريخه النضالي وثقافته السياسية ، وعلى حرصه أن تبدو صورته سوية غير مشوهة في ذلك التاريخ الذي يحتاج إلى التسجيل. ■

القراءون

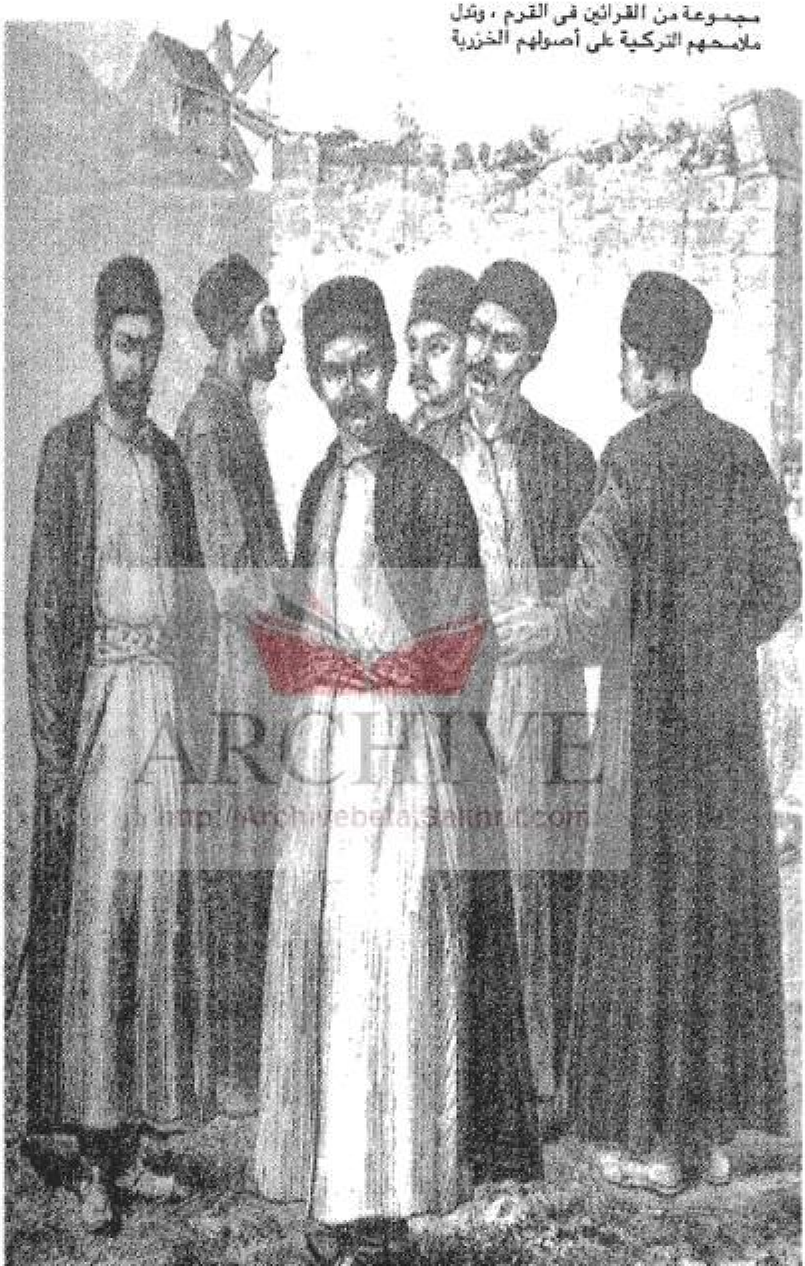
والعودة إلى صهيون

بقلم
د. عبد الوهاب المسيرى

سيطر على الفكر السياسى العربى تفكير اختزالى بفضل الطريق القصير السهل للمعرفة بدلاً من محاولة الوصول إلى خريطة معرفية مركبة تعطينا صورة للواقع بكل نتوئه وتعرجاته. والتفكير الاختزالى يعطينا صورة سطحية ملساء يمكن استيعابها فى دقائق وتطبيقها فى ثوانٍ فعلى سبيل المثال يذهب التفكير الاختزالى إلى أن كل اليهود سواء، وأن اليهود صهاينة وكل الصهاينة يهود وأن الإسرائيليين والصهاينة واليهود كلهم يهود والسلام. مثل هذه الرواية تحجب عنا جوانب كثيرة من الواقع، فلا يمكن أن نميز بين العدو والصديق وبين المتهم بقضايا وغير المكترث بها.

خذ على سبيل المثال، التصور الاختزالى أن اليهود سواء، أى دارس لخريطة أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم سيكتشف عدم تجانسهم واختلافهم، ولذلك أسقطت من مصطلحي كلمة «يهود» فهى تعنى «اليهود على وجه العموم» و«اليهود بشكل مطلق» و«اليهود ككتلة بشرية واحدة متماسكة»، وبدلاً من ذلك أستخدم مصطلح «الجماعات اليهودية» فهذا المصطلح يؤكد عدم التجانس، كما يبين أن كل جماعة تستمد خطابها

مجموعة من القرائين فى القرم ، وتدل
ملامحهم التركية على أصولهم الخزرية



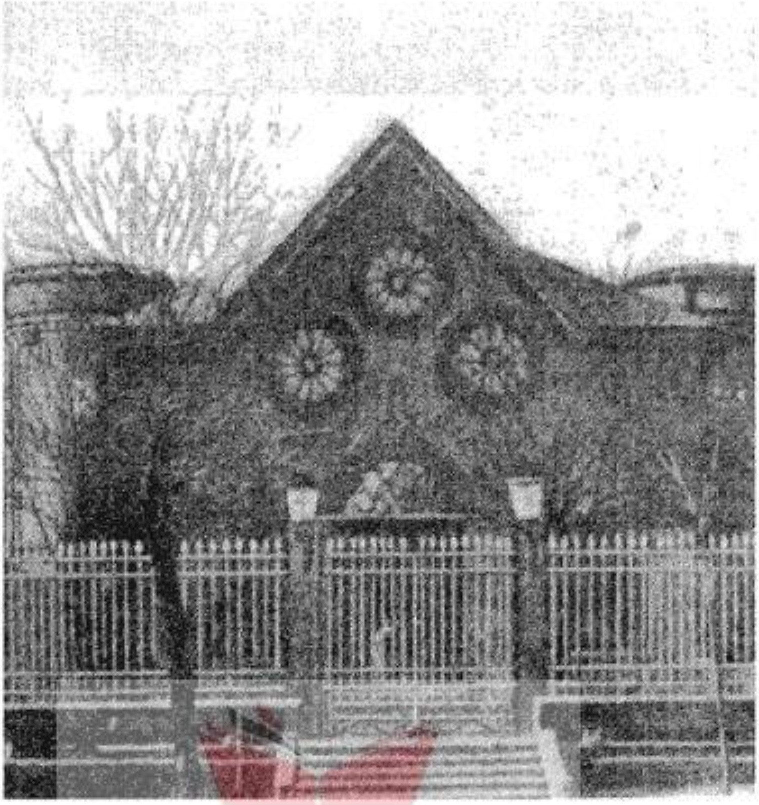
الحضاري من المجتمع الذي تعيش فيه. كما سنكتشف أن «ليس كل الصهاينة يهود»، فالمفكران الإنجليزيان إيرل أو شافتسبري وسير لورانس أوليفانت اللذان بلورا الفكر الصهيوني لم يكونا يهوديين، وبلفور وجورج بوش ليسا يهوديين! كما سنكتشف أن «ليس كل اليهود صهاينة»، وأن بعضهم يعلن ولاءه لها جهراً ويتملص منها سراً، والبعض الآخر غير مكترث بها، والبعض الثالث يرفضها ويحارب ضدها. وقد أهديت أحد كتبي التي صدرت باللغة الإنجليزية The Land of Promise إلى صديقي الحاخام الأرثوذكسي يوسف بيخر، وهو يهودي من جماعة ناطوري كارتا (نواطير المدينة) رافض للصهيونية، ثابت على رفضه وصموده، أكثر من كثير من العرب!

فرق غير صهيونية

بل سنكتشف أنه يوجد داخل اليهودية ذاتها فرقا غير صهيونية بطبيعة تكوينها الديني، ومع هذا نظرنا لأعضاء هذه الفرق على أنهم يهود «والسلام» وطردناهم من بلادنا ليجدوا أنفسهم في إسرائيل أو في الولايات المتحدة. ومن هؤلاء أعضاء المذهب القُرّائي. ولكي نفهم هذا المذهب لابد أن نشير إلى خطأ شائع هو أننا حينما نتحدث عن اليهودية فإننا في معظم الأحيان نتحدث عن اليهودية الحاخامية التي تسمى أيضاً «اليهودية الأرثوذكسية» لأنها أعرق أنواع اليهودية، وهي اليهودية التي آمن بها معظم أعضاء الجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم حتى أواخر القرن التاسع عشر. وهي تسمى أيضاً «اليهودية التلمودية»، لأنها تنطلق من التلمود، وهو إطارها المرجعي بعد الشريعة الشفوية، وتذهب اليهودية الحاخامية إلى أنه عندما ذهب موسى التوراتي إلى جبل سيناء لتلقي الوحي لم يعطه الإله توراة أو شريعة واحدة وإنما توراتين أو شريعتين: إحداهما مكتوبة وهي التوراة والأخرى شفوية. وقد تلقى موسى هذه الشريعة الشفوية وورثها عنه الأنبياء ثم الحاخامات وتم جمعها في التلمود. فتعاليم هذه الشريعة ملزمة لليهود باعتبار أنها الكلمات الأزلية للإله. وتدريجياً أصبحت الشريعة الشفوية، أي التوراة أكثر أهمية من الشريعة المكتوبة.

اليهودية القرائية

واليهودية القَرائية هي من أهم الثورات اليهودية الحاخامية. وقد تأثر القراءون بعلم الكلام عند المسلمين، وبالعقلانية الإسلامية بشكل عام. وتأثر مؤسس الفرقة، عنان بن داود (القرن الثامن الميلادي)، بأصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وبفكر المعتزلة. وحجر الزاوية في فكر عنان بن داود هو العودة إلى



أحد معابد أتباع المذهب القرائي في روسيا - نهاية القرن التاسع عشر

النص المقدَّس المكتوب نفسه، أي العهد القديم، مستخدماً طريقة القياس التي استقاها من الفقه الإسلامي، كما أنه رفض الشريعة الشفوية التي تعبر عن الحلولية اليهودية. وقد بذل ابن داود جهداً كبيراً في تفسير التناقضات الموجودة في العهد القديم. وكان يفضل التشدُّد في كثير من الأمور، مثل الزواج وشعائر السبت. ومع هذا ، يظل المفتاح الأساسي لفهم فكره الديني هو عبارته: «فلتبحث بعناية فائقة في النص، ولا تعتمد على رأيي».

ويتضح تأثير الإسلام ككل في واقع أن القرائين قد جعلوا النص المقدس المكتوب، أي العهد القديم، المرجع الأول والأخير في الأمور الدينية كافة، والمنبع لكل عقيدة أو قانون. وقد هاجم القراءون التلمود، وهدموه، وفندوا تراثه الحاخامي باعتباره تفسيراً من وضع البشر (أي أنهم وضعوا التوراة التي يُقال لها «المقرا» [ومن هنا تسميتهم «القراءون»] مقابل المشناه بمعنى «التكرار الشفوي»). والواقع أن رفض الشريعة

الشفوية أو السماعية هو فى جوهره رفض النزعة الحلولية التى ترى أن الإله يحل بشكل دائم فى الحاخامات، ومن ثم يتساوى الاجتهاد الإنسانى والوحى الإلهى، والتمسك بالنص الإلهى المكتوب.

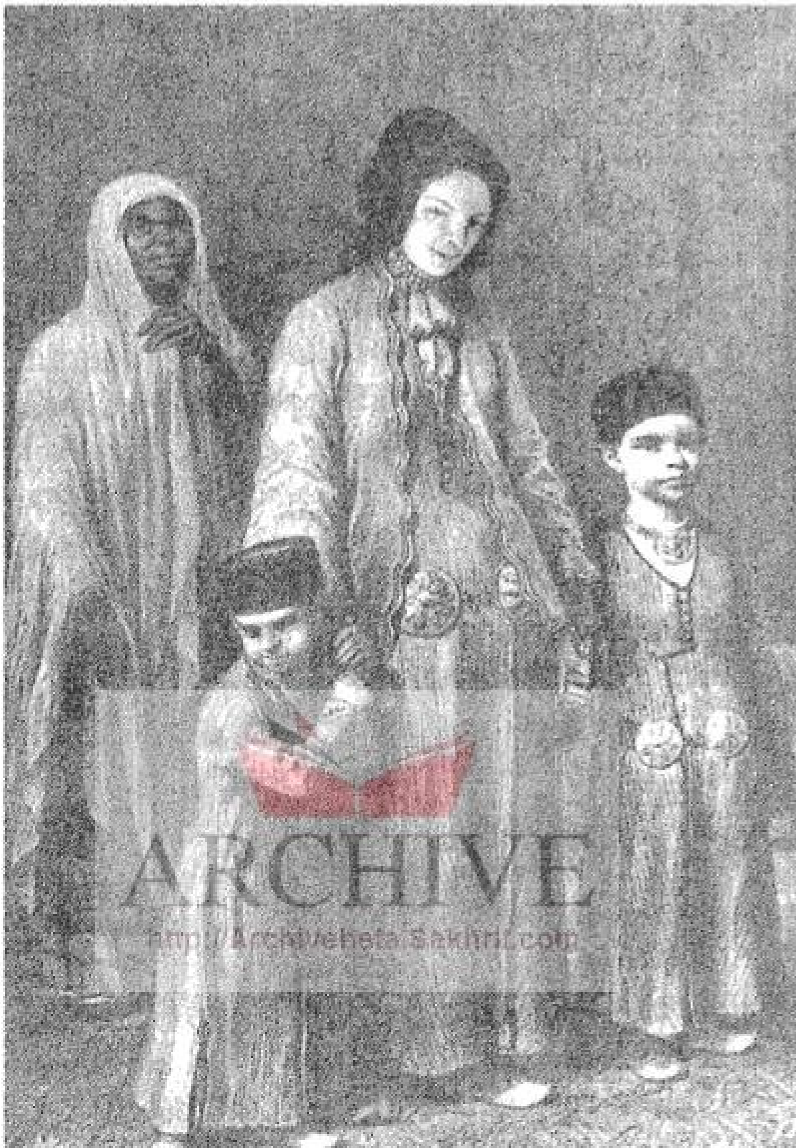
ومع هذا، كان للقرائين تراثهم التفسيرى الذى يقابل التلمود، ولكنه ظل مجرد اجتهادات خاضعة للنقاش لا تصطبغ بصبغة نهائية أو مقدسة . بل إن بعض القرائين كانوا يستعينون باجتهادات الشريعة الشفوية، ولكنهم كانوا ينظرون إليها باعتبارها اجتهادات دينية ليست لها قداسة، وبالتالى غير ملزمة دينياً. كما أنهم يرون أنه لا اجتهاد مع النص، بمعنى أنه إذا كان النص واضحاً، فينبغى عدم فرض أية تفسيرات عليه أو استعارة تفسيرات الآخرين، على عكس تفسيرات التراث الحاخامى التى كانت تتعامل مع النص بشكل متعسف لفرض المعنى المطلوب.

تأثير الفكر الاسلامي

وقد وضع القراءون أصولاً للتفسير يظهر فيها تأثير الفكر الإسلامى، فكان التفسير يستند إلى العناصر التالية بالترتيب:

١ - المعنى الحرفى.
٢ - الإجماع.
٣ - القياس.
٤ - العقل .

أما تصورهم للإله، فقد تم تطهيره تماماً من أية بقايا وثنية أو طبائع بشرية، فالإله هو خالق السماوات والأرض من العدم، وهو الخالق الذى لم يخلقه أحد، ولا شكل له ولا مثيل له، إله واحد أرسل نبيه موسى وأوحى إليه التوراة التى تنقل الحق الكامل الذى لا يمكن تغييره أو تعديله، خصوصاً من خلال العقيدة الشفوية. وعلى المؤمن أن يعرف المعنى الحق للتوراة. وقد أرسل الإله الوحى إلى أنبياء آخرين، ولكن درجة النبوة لديهم أقل منها عند موسى، وسيبعث الإله الموتى، ويحاسبهم يوم القيامة، ويعاقب المذنب ويكافىء المثيب. وكل هذا يعنى أن الإله عادل وسيحاسب كل فرد على أفعاله، وأن الإنسان خير، وأن الروح لا تفنى، ويؤمن القراءون بأن الإله لا يحتقر هؤلاء الذين يعيشون فى المنفى، بل هو على العكس يود أن يطهرهم من خلال عذابهم، بمعنى أن القرائين يقبلون وجود اليهود فى أنحاء العالم كحالة نهائية ولكن عليهم انتظار الماشيح (المسيح اليهودى المنتظر) لكن عقيدة الماشيح قد اختفت فى بعض صيغ الفكر القرائى الأولى. وغنى عن القول أن معظم العقائد السابقة تبين أثر الفكر الإسلامى التوحيدى وأن هذه العقائد تبتعد بهم تماماً عن اليهودية الحاخامية وعن الصهيونية، فمن يقبل



عائلة قرائية من القرم ، ويلاحظ ارتداء الزي العثماني

حالة «المنفى» كحالة نهائية، لا يطلب العودة.

ولا يوجد فى الفكر القرائى هذا العدد الضخم من الأوامر والنواهى التى حددها الفكر الحاخامى. وتختلف صلاة القرائين عن صلاة الحاخاميين فى عدة

أوجه. كما أن شكل الصلاة عند القرائين استقر وأخذ شكلاً نهائياً، على عكس الصلاة عند الحاخاميين، ويرتدي القراءون شال الصلاة (طاليت) أثناء أدائها، ولكنهم لا يرتدون تمائم الصلاة (تفيلين)، ولا يضعون تمائم الباب (مزوزوت) على منازلهم لأن الإشارات الواردة بشأن هذه التمائم ذات معنى مجازي على عكس ما يتصور الحاخاميون الذين فسروا الإشارات تفسيراً حرفياً . ولا يحتفل القراءون بعيد التدشين لأنه ظهر بعد تدوين التوراة، ولهم تقويم خاص بهم. كما أن قوانين الطعام عند القرائين تختلف عنها لدى الحاخاميين، خصوصاً في القواعد الخاصة باللحم واللبن. وتتسم قواعد الزواج عند القرائين بالتزمت إذ زادوا عدد المحارم زيادة غير عادية. كما أن القرائين يصومون سبعين يوماً (من ١٢ نيسان إلى ٢٣ سيفان) على طريقة المسلمين، بل ويُحرم بعضهم استخدام الأدوية حيث لا شافي إلا الإله.

بين القرائين والحاخاميين

وقد اشتد الصراع بين القرائين والحاخاميين إلى حد أن كل طائفة قامت بتكفير الأخرى وإعلان نجاستها وحرمانها من رحمة الإله. وقد اعتبر الحاخاميون طائفة القرائين من الأغيار في شئون الطعام والشراب والزواج.

ويبدو أن ظهور هذه الفرقة يعود إلى عدة أسباب وعوامل داخل التشكيل الديني اليهودي وخارجه، من أهمها انتشار الإسلام في الشرق الأدنى وطرحه مفاهيم دينية وأطراً فكرية جديدة كانت تشكل تحدياً حقيقياً للفكر الديني اليهودي وبخاصة بعد أن غلبت عليه النزعة الحلولية الموجودة داخله. ويبدو أيضاً أنه كانت هناك، منذ هدم الهيكل عام ٧٠م، عناصر دينية رافضة لليهودية الحاخامية. وهناك نظرية تذهب إلى أن يهود الجزيرة العربية الذين وطنوا في عهد عمر في البصرة وغيرها من بقاع العالم الإسلامي، ولم يكونوا يعرفون التلمود، كانوا أهم العناصر التي ساعدت على انتشار المذهب القرائي.

وبعد انشقاقهم عن اليهودية الحاخامية، ظل القراءون (حتى بداية القرن العاشر) في حالة جمود يختلفون فيما بينهم وينقسمون. ويُقال إن يهود الخزر اعتنقوا يهودية قرائية، وأنهم انتشروا في شرق أوروبا بعد سقوط مملكة الخزر، ولذا نجد أن كثيراً من القرائين في روسيا وبولندا يذكرون أن لغتهم هي التركية. ومع هذا ، دافع القرقساني (أحد مفكريهم) عن هذا الانقسام بقوله: إن القرائين يصلون إلى آرائهم الدينية عن طريق العقل، ولذا فإن الاختلاف بينهم أمر طبيعي. أما

الحاخاميون، فإنهم يدعون أن آراءهم، أي الشريعة الشفوية، مصدرها الوحي الإلهي. فإن كان هذا هو الأمر حقاً، فلا مجال للاختلاف في الرأي بينهم. ومن ثم، فإن وجود مثل هذه الاختلافات يدحض ادعاءاتهم التي تنسب الشريعة الشفوية لأصل إلهي.

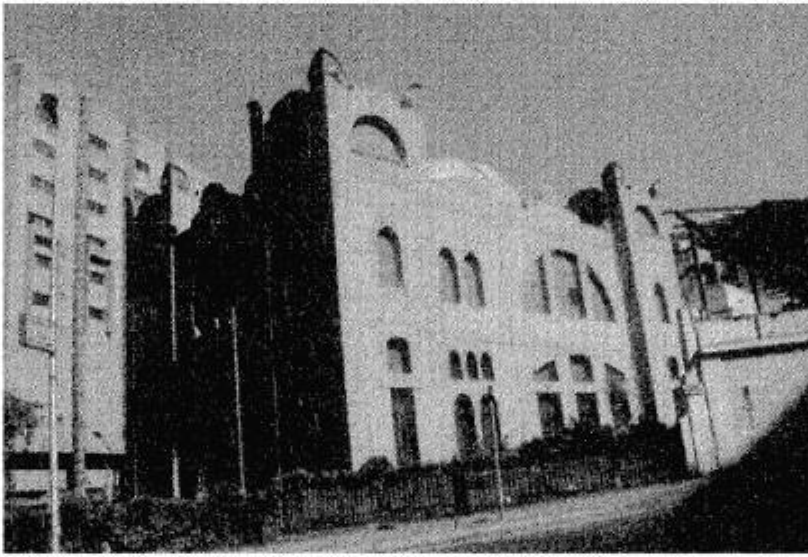
وفي الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر، انتشر المذهب القرائي بين مختلف أعضاء الجماعات اليهودية، خصوصاً في مصر وفلسطين وإسبانيا الإسلامية حيث عمل اليهود الحاخاميون على طردهم منها، وفي الإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح العثماني. ومع حلول القرن السابع عشر، انتقل مركز النشاط



غلاف لأحد التعليقات القرائية على التوراة

القرائي إلى ليتوانيا وشبه جزيرة القرم التي يعود استيطان القرائين إياها إلى القرن الثاني عشر.

وابتداء من القرن التاسع عشر، يبدأ



معبد بن عزرا اليهودي بالعباسية – (من الملاحظات الجديرة بالتسجيل أن معظم اليهود القرائين الذين غادروا مصر بعد الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ لم يذهبوا إلى إسرائيل، ويعيش عدد كبير منهم في الولايات المتحدة الأمريكية وتحديدا في سان فرانسيسكو)

فصل جديد في تاريخ القرائين بعد ضم كل من ليتوانيا (عام ١٧٩٣) وشبه جزيرة القرم (عام ١٧٨٣) إلى روسيا فحتى ذلك الوقت كانت المجتمعات التقليدية التي وجد فيها اليهود تصنف كلا من اليهود الحاخاميين واليهود القرائين باعتبارهم يهوداً وحسب دون تمييز أو تفرقة، ولكن الدولة الروسية اتبعت سياسة مختلفة إذ بدأت تعامل القرائين كفرقة تختلف تماماً عن الحاخاميين، فأعفت أعضاء الجماعة القرائية من كثير من القوانين التي تطبق على اليهود، مثل: تحديد الأماكن التي يمكنهم السكنى فيها (منطقة الاستيطان) وتحديد عدد المسموح لهم بالزواج والخدمة العسكرية الإجبارية، وعدم امتلاك الأراضي الزراعية في مناطق معينة وقد حاول القراءون قدر استطاعتهم أن يقيموا حاجزاً بينهم وبين الحاخاميين، فقدموا مذكرات للحكومة القيصرية يبينون فيها أنهم ليسوا كسالى أو طفيليين مثل اليهود الحاخاميين، وهي اتهامات كانت شائعة ضد اليهود في ذلك الوقت. كما أن القرائين كانوا يؤكدون أنهم لا يؤمنون بالتلمود الذي كانت الحكومة الروسية ترى أنه العقبة الكأداء في سبيل تحديث يهود روسيا وقد قام المؤرخ والعالم

القرائي ابراهام فيركوفيش بإعداد مذكرة موثقة للحكومة القيصرية تبرهن على أن اليهود هاجروا من فلسطين قبل التهجير البابلي، وبالتالي فإن تطورهم الديني والتاريخي مختلف تماما عن اليهود الحاخاميين وقد أعيد تصنيف اليهود القرائين بحيث اعتبروا قرائين روسيين من أتباع عقيدة العهد القديم وقد اثر هذا في الهيكل الوظيفي للقرائين فبينما كان معظم اليهود الحاخاميين (في القرم) من الباعة الجائلين والحرفيين وأعضاء في جماعات وظيفية وسيطة، كان القراءون يحصلون على امتيازات استغلال مناجم الفحم، وكانوا من كبار الملاك الزراعيين الذين تخصصوا في زراعة التبغ (وقد احتكروا تجارته في أوديسا)، كما كانت تربطهم علاقة جيدة مع السلطات القيصرية .

وبلغ عدد اليهود القرائين في القرم حين ضمها الروس نحو ٢٤٠٠، ووصل العدد إلى ١٢,٩٠٧ عام ١٩١٠، وإلى عشرة آلاف عام ١٩٣٢ ويصل عددهم الآن حوالي ٤٥٧١، وحينما ضمت القوات الألمانية القرم وأجزاء أخرى من أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية، قرر النازيون أن القرائين يتمتعون بسيكولوجية عرقية غير يهودية، ولذا لم تطبق عليهم القوانين التي طبقت على الحاخاميين . وقد جاء في بعض المصادر أن موقف القرائين من أحداث الحرب العالمية الثانية كان يتراوح بين عدم الاكتراث والتعاون مع النازيين ويوجد تجمع قرائي آخر في ولاية كاليفورنيا يضم حوالي ١٢٠٠ يهودي معظمهم من أصل مصري .

القراءون و الصهيونية

وعند إنشاء الدولة الصهيونية، كان القراءون معادين لها بطبيعة الحال، ولكن الدعاية السياسية التي انتهجتها بعض الحكومات العربية والمبنية على عدم إدراك الاختلافات بين الحاخاميين والقرائين جعلت معظمهم يهاجر من البلاد العربية إلى إسرائيل وغيرها من الدول ويبلغ عدد القرائين في إسرائيل نحو عشرين ألفاً، توجد أعداد كبيرة منهم في الرملة، وزعيمهم وحاخامهم الأكبر هو حاييم هاليفي، ويعيش بعضهم في أشدود، وهناك إثنا عشر معبداً قرائياً ومحكمة شرعية . ويمكن القول أن معظم القرائين في إسرائيل من أصل مصري (حيث هاجروا إليها عام ١٩٥٠). والواقع أن انتماءهم الديني القرائي لا يزال قوياً، ولذا فإن ثمة خلافات دائمة بينهم وبين اليهود الحاخاميين، الأمر الذي ينعكس على العلاقات فيما بينهم داخل المستوطنات المشتركة .

والله أعلم.


سؤال تاريخي يبحث عن إجابة
من الذي حرق
القاهرة
بقلم
د. عاصم الدسوقي

في منتصف نهار السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢ المعروف بيوم السبت الأسود في تاريخ مصر اشتعلت الحرائق في وسط القاهرة المعروف شعبيا بوسط البلد حيث المحال التجارية الفخمة والبنوك والفنادق والمقاهي العامة والمسارح ودور السينما والأندية الخاصة وأماكن السهر واللهو للشرائح العليا من الطبقة الوسطى، آنذاك. وفي اليوم التالي أقيلت حكومة حزب الوفد بعد عامين من قيامها بالحكم (منذ يناير ١٩٥٠) وبدأت النيابة العامة في إجراء التحقيقات للبحث عن الجاني، وازداد الموقف السياسي اضطرابا شديدا، وتعاقبت الحكومات بشكل سريع جعل المراقبين يعتقدون أن البلاد تسير إلى هاوية.

ولقد قيدت النيابة العامة الجريمة ضد مجهول، ومايزال الجاني الحقيقي طليقا حتى الآن وربما إلى الأبد رغم قاعدة أنه «لا توجد جريمة كاملة»، وهي قاعدة قانونية إجرائية يعمل بها رجال الشرطة والمحققون والقضاة في تحديد الجناة، وهذا يعني حتمية العثور على الجاني من خلال مسح مكان الجريمة والتقاط الأشياء الصغيرة المبعثرة هنا وهناك التي قد تدل على المستفيد الأساسي من الحادث. والحال كذلك فقد انفتح الباب واسعا للاجتهاد بحثا عن الحقيقة، واشترك في دائرة البحث كل المهتمين ابتداء من صفوة المثقفين والباحثين وانتهاء بعامة الناس وجهلاء القوم، وكل مجتهد يشير بإصبع الاتهام إلى طرف بعينه من عناصر القوى السياسية والشعبية القائمة آنذاك فاتسعت شبكة المتهمين في قفص الاتهام لتضم الإنجليز والملك والحزب الاشتراكي (أحمد حسين) والإخوان المسلمين والشيوعيين، وبعد قيام الضباط الأحرار بالثورة في يوليو ١٩٥٢ أضاف أحلاس المقاهي (أي الذين يلزمونها دوما) تنظيم الضباط إلى قائمة المتهمين بدعوى أن إيجاد الفوضى يساعد على الاستيلاء على الحكم. وهكذا عندما تغيب الوثائق يفقد الباحث بوصلة التوجه الصحيح وتضيع الحقيقة في النهاية.

من هو الجاني؟

على أن انتهاء تحقيقات النيابة العامة على ذلك النحو رغم كثرة الذين تم اعتقالهم وتنوع وظائفهم ومواقفهم-يؤكد عندي أن الجاني شخصية كبيرة المقام والشأن والنفوذ والسلطة بحيث استحال على النائب العام توجيه الاتهام إليه. وفي تاريخ مصر

القريب من يناير هذا ما يؤكد هذا الظن : فحادثة مقتل أمين عثمان وزير مالية الوفد في يناير ١٩٤٦ انتهت إلى عدم تحديد الجاني الحقيقي رغم أن الروايات التاريخية تؤكد أن الجاني هو الملك فاروق الرئيس الأعلى لمجموعة «الحرس الحديدي» التي شكلها للانتقام من خصومه الإنجليز ومن اعتقد أنهم أنصار الإنجليز وعلى رأسهم رجال حزب الوفد، ومن المعروف أن القصر الملكي هو الذي تولى الدفاع عن رجاله في هذه القضية ودفع أتعاب المحامين. وكذلك الحال في قضية محاولة اغتيال مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد في ديسمبر ١٩٤٥ وفي أبريل ونوفمبر ١٩٤٨ حيث انتهت التحقيقات إلى لا شيء وذلك لعدم استطاعة النيابة العامة توجيه الاتهام إلى الجاني الحقيقي. وأيضا عندما فتح باب التحقيق في قضية الأسلحة الفاسدة بحرب فلسطين (مايو ١٩٤٨) واقترب النائب العام محمد محمود عزمي بك من رجال القصر الملكي تم عزل الرجل من منصبه في مايو ١٩٥١. وعلى هذا فليس ببعيد أن تقييد جريمة حرق القاهرة ضد مجهول جاء للسبب نفسه الذي جعل جرائم سابقة من نفس الدرجة تقيد ضد مجهول. أما لو كان الجاني شخصا عاديا وغير ذي شأن ولا حول له من سلطة ولا من قوة لأسرعت النيابة بتوجيه الاتهام إليه. وتم إغلاق الملف. ولعل الأعمال الدرامية التي تعرضها شاشة السينما أو التليفزيون عما يحدث في المجتمع من جرائم تؤكد للمشاهد هذا الظن حين يتم التستر على الفاعل الحقيقي وإخفائه إذا كان هو الأقوى نفوذا والأكبر مقاما وتقديم الأضعف لينفذ العقوبة بدلا منه.. وهكذا الحال.. قوم إذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد!!

وإذا كان القضاء الجنائي انتهى إلى حفظ جريمة إحراق القاهرة وتقييدها ضد مجهول فإن محكمة التاريخ لا يمكن أن تفعل ما فعله ذلك القضاء لأنها لا تخضع لتهديد ذوي النفوذ وأصحاب الجاه والسلطان إلا إذا كان «المؤرخ» يعمل بالسياسة وفي هذه الحالة يخرج من زمرة الباحثين العلميين ليوضع في صفوف السياسة التي تؤدي بأصحابها إلى تخريب التاريخ والتجني على أشخاصه.

المستفيد الحقيقي

وإذا أخذنا بقاعدة البحث عن المستفيد من إحراق القاهرة للعثور على الجاني الحقيقي فينبغي علينا أن نتابع الحوادث التي سبقت الحريق نحو مائة يوم منذ قيام مصطفى النحاس رئيس الحكومة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ في بيانه

أمام البرلمان يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ إذ تتابعت الحوادث وتشابكت خيوطها انطلاقا من ذلك اليوم حتى انتهت بالحريق.

والحاصل أن الحكومة المصرية كانت قد عقدت معاهدة مع إنجلترا في أغسطس ١٩٣٦ بعد ستة أشهر من التفاوض لتنظيم وجود الإنجليز في مصر وليس لجلائهم عن البلاد، ونصت في المادة ١٦ على أنه بعد انقضاء عشر سنوات يمكن إعادة النظر بين الطرفين في نصوصها، أي في عام ١٩٤٦، أو بعد عشرين عاما، أي في عام ١٩٥٦ وبناء على هذا طلبت حكومة النقراشي في ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ الدخول في مفاوضات، ورد الإنجليز في ٢٦ يناير ١٩٤٦ بعدم الحاجة للدخول في مفاوضات «لأن مبادىء المعاهدة سليمة والتعاون وثيق بين البلدين بروح الصراحة والود...» ثم دخلت حكومة إسماعيل صدقي في المفاوضات وفشلت ومن بعده طلب النقراشي عرض الأمر على مجلس الأمن (أغسطس - سبتمبر ١٩٤٧) لكن دون جدوى. ثم تأتي حكومة النحاس في يناير ١٩٥٠ وتدخل في دورة مفاوضات طويلة لأكثر من عام ونصف (من مارس ١٩٥٠ إلى سبتمبر ١٩٥١) ولكن دون جدوى أيضا لأن إنجلترا لا تريد أن تترك مصر رغم أن النحاس وافق في التفاوض على التحالف العسكري معها وعلى مبدأ عودة القوات البريطانية إلى قناة السويس وقت الحرب. وعندما أخفقت المفاوضات في تحقيق الجلاء أو في الحصول على شروط أفضل من الشروط التي قدمت قبلا في التفاوض مع حكومة صدقي أقدم النحاس على إلغاء المعاهدة في ٨ أكتوبر ١٩٥١.

وهنا بدأت أزمة حقيقية بين مصر وإنجلترا تداعت وقائعها يوما بعد يوم حتى يوم الحريق. فقد غضب الإنجليز غضبا شديدا لقيام النحاس بإلغاء المعاهدة، وما أصابهم بالجنون أن الإلغاء تضمن إلغاء الامتيازات التي كانت عساكرهم في مصر تتمتع بها. وإنهاء العمل باتفاقية الحكم الثنائي البريطاني - المصري للسودان عام ١٨٩٩ وإعلان فاروق ملكا لمصر والسودان بتعديل المادتين ١٥٩ - ١٦٠ من الدستور. وأكثر من هذا أن النحاس رفض بشدة وبإصرار الانضمام إلى مشروع الدفاع الرباعي عن الشرق الأوسط بين كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وتركيا بديلا لإلغاء المعاهدة لتصبح مصر جزءا من التحالفات الغربية في مواجهة المعسكر السوفييتي زمن الحرب الباردة. وتحسبا لرد الفعل من جانب الإنجليز قررت وزارة النحاس

(٢١ أكتوبر ١٩٥١) محاصرة القوات البريطانية فى منطقة القنال وذلك بتشجيع العمال المصريين على الانسحاب من العمل فى معسكرات الإنجليز، وعدم توريد أية مواد تموينية للمعسكرات عن طريق المقاولين، بل ومقاومة هذه القوات إذا ما اجتازت خط القنال. وكان هذا وراء تشكيل كتائب التحرير الفدائية التى شاركت فيها قوى سياسية وشعبية لمواجهة الإنجليز.

ولم يجد الإنجليز آنذاك إلا أن يصفوا إلغاء المعاهدة بالتصرف اللاأخلاقى لأنه تم من طرف واحد خلافا لما تقضى به النصوص. وأمام تحرج موقفهم فكروا فى التخلص من حكومة الوفد لإعادة الأمور لما كانت عليه. غير أن الإنجليز الذين كانوا قد فرضوا النحاس على الملك فاروق فى ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهير لم يكن ممكنا من باب الحياء على الأقل أن يطلبوا هم أنفسهم من الملك إقالته، لكن الممكن أن يضطروه للاستقالة أو أن يدفعوا الملك نحو إقالته. وهنا يأتى دور المخابرات البريطانية لوضع العقبات فى طريق حكومة النحاس وخلق المشكلات أمامها حتى يظهر فشلها أمام الشعب وأمام الملك وكأنهم يصنعون القرار الذى على الملك اتخاذه. ومن هنا بدأت سلسلة أعمال استفزازية مقصودة كان أولها تدمير كفر أحمد عبده فى السويس (ديسمبر ١٩٥١) وتشريد أهله ليكونوا عبئا على الحكومة، ثم تلاه إشعال النار فى كنيسة السويس (٤ يناير ١٩٥٢) تحت ستار غارة بريطانية تبحث عن الفدائيين حتى تقع الفتنة بين المواطنين مثلما تفعل إسرائيل الآن فى الأرض الفلسطينية، ثم قتل راهبة أمريكية (١٩ يناير) لإثارة العالم المسيحى الغربى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لكى تتحالف مع بريطانيا ضد مصر خاصة وأن الحكومة الأمريكية كانت قد عرضت على النحاس تأييده فى إلغاء المعاهدة مقابل الانضمام لمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية. وهذا أسلوب ليس بغريب على بريطانيا إذا صدقنا الروايات الخاصة بأن بريطانيا - وكان موقفها حرجا أمام ألمانيا فى بداية الحرب العالمية الثانية - هى التى ضربت الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور لكى ترغم أمريكا لدخول الحرب معها ضد الفاشية، ولبست اليابان التهمة.

مجزرة الإسماعيلية

وكانت ذروة تلك الحوادث المتعاقبة محاصرة مبنى محافظة الإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ بعد عدة مصادمات مع بلوكات النظام من البوليس المصرى المحدودة السلاح والفدائيين فى بورسعيد والإسماعيلية والسويس ابتداء من ١٧ نوفمبر ١٩٥١ وكانت بريطانيا

قد دفعت بثلاث ناقلات جنود لبورسعيد قبل ذلك بأكثر من شهر فى ١٣ أكتوبر ١٩٥١. ومن المعروف أن البوليس المصرى رفض الخروج من مبنى المحافظة استسلاما لأوامر الإنجليز بتشجيع من فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك الذى أدرك نبرة الحماس فى صوت اليوزباشى مصطفى رفعت الذى اتصل به حوالى الساعة الثالثة صباحا فقال له: «اسمع يا ابنى.. لو أمرتكم تقاوموا.. هاتنفذوا هذا الأمر رغم عدم تكافؤ الفرص بينكم وبينهم..» فقال اليوزباشى: يا فندم أؤمر وسننفذ لآخر رجل.. فقال سراج الدين «توكلوا على الله والله معكم» (راجع خطبة فؤاد سراج الدين فى ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ بشأن إعلان حزب الوفد الجديد ص ٦٥ – ٦٦، دار الشروق، سبتمبر ١٩٧٧) فكانت مجزرة الإسماعيلية التى أصبحت عيدا للشرطة سنويا.

وفى اليوم التالى لمجزرة الإسماعيلية أى يوم السبت ٢٦ يناير خرجت مظاهرات حاشدة للاحتجاج عمت شوارع وسط البلد وفى مظاهرات مدبرة فيما يبدو لاستغلالها فى إشعال الحرائق حتى يبدو الأمر وكأنه من فعل المتظاهرين. وهذه المظاهرات تحتاج إلى وقفة تأمل طويلة لمعرفة مدبريها إذ يترتب على معرفتهم كشف صاحب المصلحة. فإذا كانت المظاهرات احتجاجا على مجزرة الإسماعيلية فيبدو من غير المعقول ظاهريا أن يقوم الإنجليز بتدبيرها.. وفى هذه الحالة تكون القوى الوطنية وراءها استمرارا لمقاومة الإنجليز بعد إلغاء المعاهدة؟! لكن تراث الحركة الاستعمارية بالنسبة لمصر على الأقل يؤكد لنا أن الإنجليز يمكن أن يدبروا مثل هذا الأمر لتوفير ظروف إقالة حكومة النحاس التى خذلتهم بإلغاء المعاهدة.. وفى هذا الخصوص ينبغى أن نتذكر أن حادثة مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ أحد هذه الحوادث المدبرة لخلق ظروف ضرب المدينة، إذ لا يعقل أن يستأجر أحد المالطيين من رعايا إنجلترا فى الإسكندرية حوذيا مصريا ويلف به شوارع المدينة فى مقابل مليما إلا إذا كان هذا الراكب المالطى يريد خلق مشاحنة بينه وبين المصرى يتجمهر الناس على أثرها وينقسمون بين أهالى وأجانب فتحدث المذبحة التى استغلتها بريطانيا.. وينبغى أن نتذكر أيضا أن إسرائيل كثيرا ما تقوم بتدبير حوادث من هذا النوع حين تحرق عناصر من جهاز مخابراتها أتوبيسا يقل إسرائيليين فتنصرف الأذهان بطبيعة الحال للمقاومة الفلسطينية فيتم توجيه الضربة المناسبة وهكذا.

غداء عابدين أثناء الحريق

وهنا يدخل شخص آخر إلى خشبة المسرح ألا وهو الملك فاروق إذ يدعو ضباط الجيش وشرطة العاصمة من رتبة «صاغ» فما فوقها للغداء بقصر عابدين على أن يحضروا قبل الساعة الثانية

عشرة ظهرا والحريق اشتعل بعد ذلك بنصف ساعة.. ترى متى وجهت الدعوة؟ هل قبل ذلك بيوم أو بيومين.. أم أنها تمت صباح اليوم نفسه؟؟.. وهل بمقتضى بطاقة أم كانت شفاهة؟. لا أحد يعرف يقينا . وسؤال آخر.. لماذا تقام دعوة من هذا النوع ظهرا وليس مساء كما هو متعارف عليه؟.. وعلى هذا فإن ظاهر الأمر يقول إن الملك فاروق وراء المظاهرات التي أوجدت الفوضى ومن ثم الحرائق، وأنه حرص على أن يكون ضباط الجيش والبوليس الذين بيدهم التصرف في مثل هذه الحالات بعيدين عن الساحة حتى يتحقق الغرض. ومما يخدم هذا الاتهام أن التعليمات تصدر إلى اللواء إبراهيم إمام رئيس البوليس السياسي بعدم تفريق المظاهرات.. فلما يطلب وزير الداخلية (فؤاد سراج الدين) من الفريق حيدر باشا وزير الحربية تحريك الجيش لتفريق المتظاهرين ويعرض حيدر الأمر على الملك وهم مشغولون بحفل الغداء لا تصدر الأوامر بإنزال الجيش إلا في الساعة الثالثة بعد الظهر بعد أن أتى الحريق على الأخضر واليابس.. ومن ناحية أخرى كانت حكومة الوفد قد جاءت إلى الحكم في يناير ١٩٥٠ رغم أنف الملك وبمقتضى انتخابات عامة كان الملك قد توقف عن إجرائها منذ أقال حكومة النحاس في أكتوبر ١٩٤٤ واتجه إلى تكليف رؤساء أحزاب الأقلية السياسية الموالين له والمعادين للوفد ابتداء من أحمد ماهر ثم النقراشي ثم إسماعيل صدقي وإبراهيم عبدالهادي وحسين سري الذي يمت إلى البيت المالك بصلة النسب. فهل دبر الملك الحريق ليتخلص من حكومة النحاس التي طال بقاؤها دون أن تقدم على عمل يبرر إقالتها، إذ تذكر الروايات الخاصة أن زينب الوكيل حرم النحاس نصحته بعد العودة للحكم في يناير ١٩٥٠ بعدم إغضاب الملك حتى لا يقيله.

المدبر والمحرض

أما ما يؤكد أن الإنجليز وراء تدبير المظاهرات والحرائق أنه في أثناء هتاف المتظاهرين بالجلاء انطلق مخربون ذوو ملامح غير مصرية بشهادة الشهود يلقون بمواد ملتهبة على المباني ومسحوق أبيض سريع الاشتعال وهي مادة لا توجد إلا في معسكرات الجيش الإنجليزي في الهايكستب على طريق الإسماعيلية على حد رواية كمال الدين رفعت في مذكراته (بعنوان معركة التحرير أعدها مصطفى طيبة). وسبق ذلك قيام السفارة البريطانية بإصدار تعليمات لموظفي المؤسسات البريطانية وأصحاب الشركات بمغادرة مكاتبهم وغلق محلاتهم في الساعة العاشرة صباحا. ومن المعروف أن المحلات وسط البلد آنذاك كانت تعمل يوم السبت

نصف يوم فقط حتى الساعة الواحدة أو الثانية بعد الظهر ويوم الأحد إجازة. فما معنى هذه التعليمات إلا إذا كان هناك علم مسبق بما سوف يحدث إنقاذا للأرواح...

وهكذا تنعقد الأدلة الظاهرية على أن الملك أو الإنجليز منفردين أو كلاهما معا أحرقا القاهرة إذ اتفقت مصالحهما على التخلص من حكومة الوفد حتى ولو بدون ترتيب مسبق بينهما : الإنجليز بسبب إلغاء معاهدة ١٩٣٦، والملك للثأر القديم بينه وبين مصطفى النحاس منذ ٤ فبراير ١٩٤٢. والتقرير الذى أعدته لجنة تقصى الحقائق بالسفارة البريطانية فى الموضوع يشير بأصبع الاتهام إلى دور بريطانيا فى الحريق. أما حسن يوسف باشا رئيس الديوان الملكى عندما سئل فيما بعد وبزمن طويل عما إذا كان الملك هو الفاعل لإقالة الحكومة نفى ذلك قائلا إن هذا لم يكن يكلفه سوى إصدار أمر الإقالة من سطرين دون حاجة لمثل هذا العمل سواء تنفيذا لرغبته أم تنفيذا لرغبة الإنجليز.. فلما سئل عن الفاعل الحقيقى فى رأيه أجاب بأنه «الجو العام»!!.. ومن الغريب أن نجد من يصدق هذا التحليل «الملكى» للأمور..

ورغم أن الشبهات تحوم حول الإنجليز والملك أحدهما أو كلاهما فى جريمة حرق القاهرة لأن كليهما صاحب مصلحة ومستفيد، إلا أن الأدلة السببية القائمة على المقاربة بين الجزئيات لا تكفى فى نظر القضاة لتوجيه الاتهام ولا يرضون بديلا عن الأدلة المادية أو الاعتراف الذى هو سيد الأدلة. ولكن الباحثين فى التاريخ تكفيهم الأدلة السببية لأنهم تعلموا أن التاريخ دراسة سببية أى عقلية تقوم على الربط بين الجزئيات الشاردة هنا وهناك. فإذا لم يكن الدليل السببى العقلى كافيا فإن محكمة التاريخ تظل منعقدة حتى لا تقيد الجريمة تاريخيا ضد مجهول مثلما أنها مازالت منعقدة لمعرفة قاتل جون كيندى فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ وتنعقد للبحث عمن اقتحم برجى نيويورك الشهيرين فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما قد يستجد من حوادث كبيرة تقلب مسيرة التاريخ رأسا على عقب. ■

اقــوال

الحرية هي استقلال الإنسان عن أي شيء ، فيما عدا القانون الخلقي وحده

الجاحظ

إن الحكيم وحده هو الحر ، والشرير وحده هو العبد

فيلون - الفيلسوف السكندري

آخر صفحة للجواري في مصر

بقلم

د. محمد رجب البيومي

تقرأ عن الجوارى فى كتب الأدب والمسامرات . فتجد لهنّ من الحظوة والدلال والسيطرة على القلوب ما يرتفع بهن فوق الحرائر ، حتى نسب لبعض الخلفاء شعر ضارع يتزلف إلى مودتهن ، كما نسب لهن من التأثير البعيد فى مواقف الرؤساء ماجعلهن صاحبات الشورى! وقد يكون بعض ذلك صحيحا ، فللجمال سطوته القاهرة ، فإذا أضيف إليه النبوغ فى الشعر ، والقدرة على المطارحة الأدبية فى نوادى السمر ، فقد حق لهن التيه والاستعلاء وهذا فى كتب الأدب كما ذكرت ، أما كتب التاريخ ، فالصورة فى مجموعها غيرها فى كتب الأدب ، فهؤلاء الضحايا يخطفن خطفا من أقاصى البلاد ، فتمتلىء بهن السفن ليبعن فى الأسواق ، خاضعات لتعاليم صارمة فى المأكل والملبس والإقامة ، وقد يمتهن فى مشاق كادحة تأباها كرامة الإنسان ، فإذا جاء وقت الشراء كانت المسكينة كالحيوان تفحص فى كل موضع ، ويضرب على صدرها وجسدها بما يأباه الخلق النبيل ليعرف مكان الحظوة والصحة والمرض من جسمها! ثم تقاد إلى حيث لا تعلم .



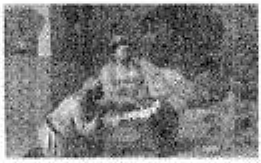
الجوارى الحبشيات كن يقمن بخدمة ربات الخدور من الحرائر

وبادئ ذى بدء أعلن أن الإسلام برئ كل البراءة من إباحة الخطف، والاستيلاء بالقهر على الإنسان وعده أسيرا ، لأن الرق لا يجوز فى الإسلام إلا فى الحرب وحدها ، مع استحسان المن أو الفداء، فكل عبد أو جارية جاءا من غير طريق الحرب المشروعة ، فهو حر فى رأى الإسلام، وقد اغتصبت حريته اغتصابا من قراصنة البغى ، وغصبه حرام ، وبيعه حرام ، وإذ ذاك فالجوارى فى أكثر أحوالهن حرائر لا يعترف الإسلام برقهن ، وكل سوق الرقيق يأتيها هؤلاء عن غير طريق الأسر فى سوق آثمة مجرمة ، وقد قلت ذات مرة إن أكثر سلاطين المماليك فى العهد الماضى لم يكونوا فى شرع الله أرقاء ، فقطز وبيبرس وطومنباى وقلاوون والغورى جلبوا من بلاد الجركس على أيدى النخاسين ، ولم يؤسروا فى حرب ، فكيف يكونون أرقاء وإن وصفوا وسموا بالمماليك! قلت ذلك من قبل ، وخالفنى من خالف مستندا إلى العز بن عبدالسلام ولكن أين الدليل من كتاب الله؟

فى عصر محمد على

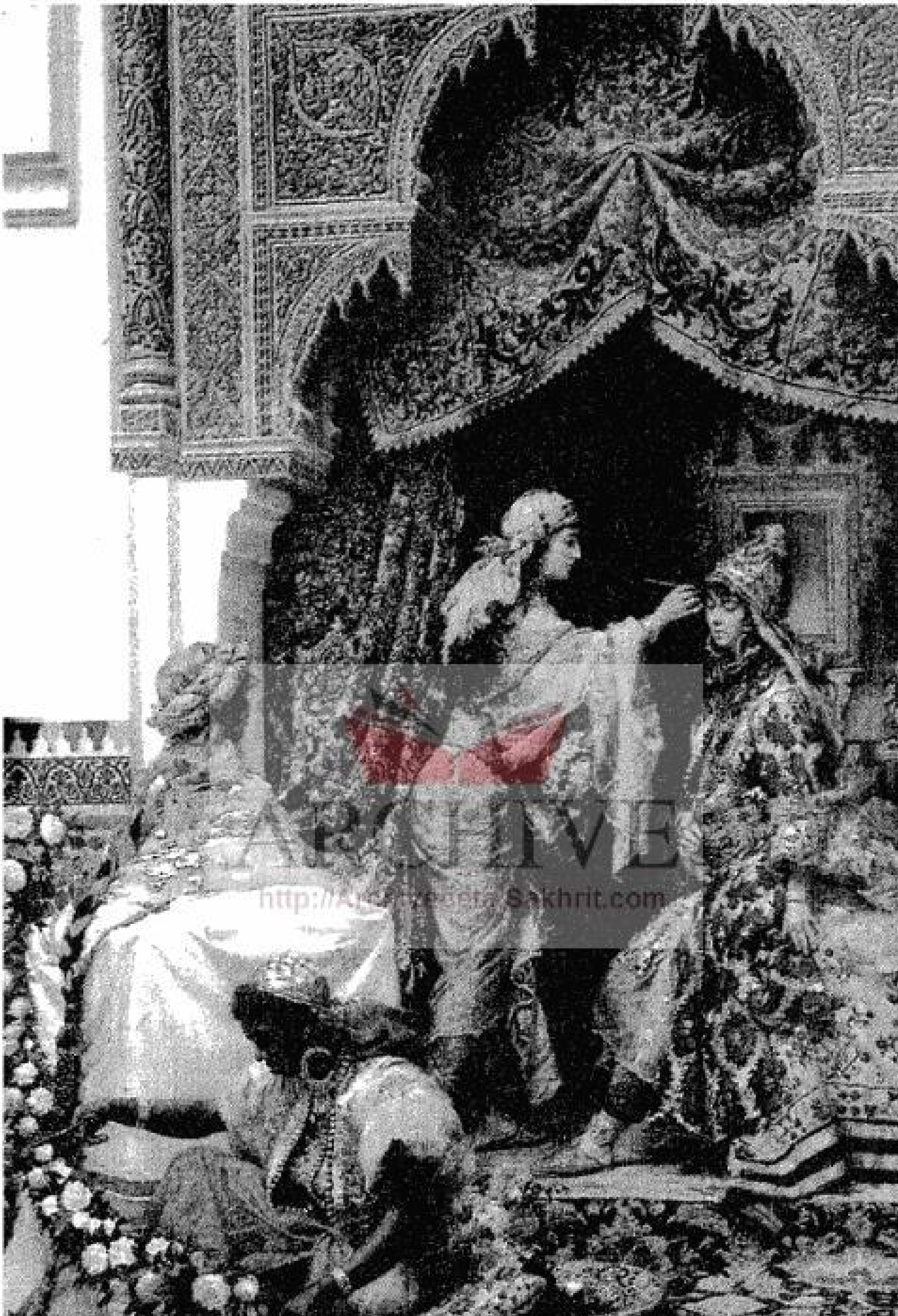
لم تشهد المنازل المصرية ازدهارا واسعا فى اتخاذ الجوارى كما شهدته فى عهد محمد على ، نعم كان هذا النظام معروفا ومقررا فى مختلف العصور السابقة ، ولكن ظروفا خاصة امتدت به حتى كاد يشمل بيوت الطبقة الوسطى والطبقة العالية جميعها فى

عهد محمد علي ، والسبب المباشر لهذا الازدهار المفاجئ، هو حروب الوالي الكبير في المورة والسودان إذ أن طوائف الأسرى من الجانبين ، أخذت تنهال على مصر ، وكتب التاريخ تذكر أن اسماعيل باشا نجل محمد على قد طلب من ملك شندى ألفا من الرقيق فاستجاب ، كما ذكر الاستاذ عبدالرحمن الرافعي، أن محمد بك الدفتردار صهر محمد علي وقائد الجيش بعد مصرع اسماعيل بالسودان سبى من النساء والصبيان آلافا وأرسلهم إلى القاهرة ، أما المستشرق الانجليزي أدور وليم لين فقد ذكر في كتاب (المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم) عن حرب المورة باليونان أن الجيوش المصرية والتركية تحت قيادة ابراهيم باشا قد أسرت الكثير من الجواري البيض ، وأرسلن إلى مصر . وقد شغلت الجواري البيض مكانة أعلى من مكانة الحرائر ، عند الرأي العام في مصر ، فكثيرات منهن كن رفيقات لعظماء الأتراك أو زوجاتهم وكان الأتراك يفضلونهن على الأخريات ، وتلبس أولئك الجواري أفخر الملابس ، ويتقلدن الحلى النفيسة وينعمن تقريبا بكل ما يستطاع فإذا قلنا إن حروب السودان واليونان جلبت جيشا حافلا من هؤلاء إلى مصر فذلك ما تحدث عنه التاريخ ، هذا إلى وجود ما يسمى (بالجلاب) وهو تاجر الرقيق «النخاس» الذي يجد بضاعته في بلاد النوبة من



الجواري الحبشيات، فيجمعهن في السفن ليبعن في القاهرة ، ومنهن من تأبى هذا النهب الشنيع من قوم لا يراعون حقوق الانسانية ، فترمى بنفسها في النيل !! ومن أغرب آثار هذه النكسة الخلقية ما ذكره الاستاذ محمد شفيق غربال من أن ظاهرة تلبس الجن بالانسان لم تعرف بمصر من قبل إطلاقا ، بل عرفت من الرقيق القادم من السودان ، فأدى ذلك إلى وجود الزار لأول مرة في مصر ، وهو كلام له دليله ، لأن الذين كتبوا عن مصر لم يتحدثوا عن الزار في العصور السابقة ، وكل حديثهم مقصور على رؤية الجن واستماع حديثه أما تلبس الجن بالإنس وإقامة حفلات الزار فهذا ما أشاعته الجواري المستوردات في مصر ، ووجد رواجا حافلا بين الجمهور للآن ، إذ لاتزال بعض الأحياء الشعبية ترى فيه علاجا للأمراض النفسية المستعصية، وأكبر مأساة أن يقول الدجالون من أدعياء الطب النفسي إن انعاش المريض والمريضة بحركات الزار ، يخفف من شجونهما المكظومة فيعودان إلى الصواب ، ثم يجدون من يصدق ، وإذن فقد عرفنا كيف استفحل أمر الزار في هذا الزمن ، ومن أين أتى؟ وكيف عمرت به مئات المنازل في المدن والريف ، وكيف ترك من العواقب مالاتزال نجد بلاءه للآن .

نسيت أن أقول إن من أسيرات



حـرب المورة (تمراز) جـدة أمير الشعراء أحمد شوقى فقد أسرها القائد ابراهيم باشا ، وضن بها اسماعيل ولده على غـيـره ، فكانت إحـدى جـوارى القـصـر ، زمنا ثم أعتقها وهى التى قامت بتربية الشاعر الكبير فى طفولته وقد قال فى رثائها هذه الأبيات :

تبناك الملوك وكنت منهم
بمنزلة البنين أو البنات
وما ملكوك فى سوق ولكن
لدى ظل القنا والمرهفات
عنت لهم بمورة بنت عشر
وسيف الموت فى هام الكماة
فكنت لهم وللرحمن صيدا
لدى ظل القنا والمرهفات

أما والدة عبدالله فكرى باشا زعيم الكتابة الأدبية فى عصره فهى أيضا من بنات «المورة» فكأن القدر شاء أن يكون زعيما الشعر والنثر فى عصرهما من أصول ترجع إلى اليونان !

إلغاء الرق

آذنت مـأسـاة الرق بالغروب ، فـقـد ألغى فى كل بلاد العالم بموجب اتفاقية برلين سنة ١٨٥٥م، وحين تولى إسماعيل باشا خـديوية مـصـر ، رأى أن يكسب تقدير الرأى العام الأوربى ، فأعلن إلغاء الرق فى مصر والسودان ، وكان إلغـاء الرق فى مصر صوريا حينئذ، إذ لم يتم أى تغيير فى وضع الجوارى والعبيد بالقـصـور ، فـالجوارى أكثـرهن يقـمن بالخدمة للسيدات ، وعليهن تقع أعباء



المنزل جميعها ، والزوجة فى منازل العليـة مكسـال نؤوم الضـحـى ، لا تفكر فى غير زينتها ، ومكايدة ضرتها إن ابتليت بزوجة ثانية ، أمـا فى السـودان فقد أصدر اسماعيل أمره إلى موسى باشا حمدى حكمدار السودان بتعقب تجار الرقيق وحربهم ، فضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين مدينتى كاكا وفاشودة، وسبعون سفينة تحمل هؤلاء التعساء تدلنا على ضخامة هذه التجارة الرائجة ، وقوة أصحابها الذين يستسهلون المال الوافر عن طريقها، وكل مـا يصنعونه أن يدهموا القرى الآمنة بالأسلحة النارية ليجـمـعـوا الشـواب والشبان ويسوقونهم إلى السفن ، وكان هذا العمل يبدو طبيعيا لمن ألفوه وشبوا ينظرون إليه دون اعتراض ، ووالى حكام مصر تنفيذ الإلغاء بهمة صارمة ، وقد قال الأستاذ عبدالرحمن الرافعى فى الجزء الأول من كتاب عصر أسماعيل ، إن اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الإنسانية خدمة جليلة بمنع هذه التجارة المقوتة ص ١٣٢ .

ولكن الذى حيرنى أنه قال عقب ذلك ما ملخصه : «إن الأمر كان فى حاجة إلى الحكمة والتروى ،لأن تجارة الرقيق كان يقوم بها أناس أقوياء لهم أنصار وأعوان ، وأنها كانت مصدر ثروتهم ، فضلا عن أن الأيدى العاملة فى الزراعة ورعى الماشية كان معظمها من الرقيق ، وقد استخدمهم الأعيان باعتبارهم

خداما وأتباعا ، ونظموا حياتهم على هذا الأساس ، فمفاجأة السودان بإلغاء الرق دفعة واحدة كانت مجازفة لا تحمد عقباها ، وكان على اسماعيل أن يأخذ مشروعه بالهوادة، فضاق السودانيون أصحاب النفوذ بما صنع، واستهدف لعداء طبقة كبيرة منهم ، مما ظهر أثره فى نجاح ثورة المهدى» .

وهذا الكلام له وجه كبير من الحقيقة ، بدليل أن غوردون حين عين حاكما على السودان فيما بعد سنة ١٨٨٤هـ، كان أول منشور أذاعه يعلن أنه جاء ليخلص السودان من ظلم المصريين ، وأنه يعيد تجارة الرق من جديد، فيالله! انجلترا التى تدعى أنها أنقذت العالم من الرق هى التى أمرت غوردون بإعادة الرق!! وقد جاء فى منشور غوردون قوله:

«بما أن تجارة الرقيق ضرورية ، وقد ساءكم إلغاؤها ، فقد رأيت التماسا لراحتكم أن أبطل إلغاء هذه التجارة ولن يعترض عليكم أحد فى مزاولتها » .

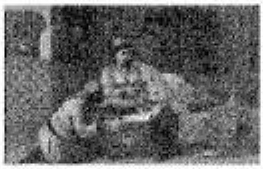
وما كاد الأمر يذيع حتى انبعثت السفن بحركة جنونية إلى حمل الحشود التى اختطفت بالحديد والنار لتبيع (حيواناتها الآدمية) فيما جاور السودان من بلاد ، ومن أولها مصر .

نعم من أولها مصر التى قلنا عنها إنها لم تقم بالإلغاء على وجه يوحى بالأهمية ، فالتركيات واليونانيات وبنات الأروام يملأن منازل السادة من الأمراء والوزراء دون تثريب ! وإسماعيل نفسه – ومن بعده توفيق – لم يشأ أن يبدأ بتحرير القصر الخديوى إذ كانت علاقاته بأكثر جواريه علاقة مودة وهوى قبل أن تكون علاقة إنسانية وثيقة ، فرأى أن يتغاضى عن تنفيذ ما قرر وأعلن، ولكن خطا خطوة تالية ، إذ جعل يرشح لأبناء الأعيان وموظفى الدولة من تليق بالزواج متحررة معتوقة ، وبذلك تخلص من الكثيرات ، وأذكر أن الاستاذ مصطفى نبيل كتب تلخيصا جيدا لمذكرات قلينى فهمى باشا بعدد يناير سنة ١٩٩١ من مجلة الهلال قال فيه :

« وكان من حظ الذين يتزوجون الجوارى البيض ، الإنعام السامى عليهم بالعطايا والهدايا ، وكان المقرر أن كل جارية تتزوج تتكفل السراى بجهازها وملابسها وحليها، وينعم عليها (بأبعادية) خمسمائة فدان تعيش من ريعها ، علاوة على مسكن فخم ، وعربة يجرها جوادان من الجياد الصافنات ، ويفضل زوجها على من سواه فى وظائف الحكومة ، فأدى ذلك الحال إلى إقبال القوم على الزواج منهن ، وكان الأزواج يعدون محاسيب السراى المقربين » .

وبعد أن جاء الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢، وأصبح كثير من الأعيان والباشوات لا يستطيعون الزلفى إليه ، كان من شواغل نظارة الداخلية أن تحارب تجارة الحشيش، وتجارة الرقيق ، وإذا كان الاحتلال مذموما فى كل وجوهه، فإن هذا العمل الجاد يحسب له ، فقد تعقب المجرمين من أشقياء هذين الوباءين تعقبا جادا ، وقام رجال خفر السواحل بأدق مهمة فى ترصد الجناة ، وقد دوت فى هذه الأونة قضية عالية

الرنين ، لأن المتهمين فيها من كبار رجال الدولة ومنهم رئيس المجلس التشريعي في البلاد . وقد اشتروا ستا من الجاريات السودانيات على رغم تحريم هذا الشراء قانونيا وعلمت بالأمر مصلحة الرقيق فلم تتوان عن القبض على هؤلاء! وكان في صرامتها الباغتة ما أفزع الذين ظنوا إلغاء الرق مسألة صورية ؟ وكيف ورئيس المجلس التشريعي يحاكم !



خلاصة القضية

منذ أباح غوردون تجارة الرقيق، وعيون التجارة تتجه إلى مصر، لأنهم يعرفون من وجهائها من يروقهم شراء الحسناوات من هؤلاء، يعرفون الأسماء والمنازل والشوارع. وقد حذروا رجال الأمن فهم لا يأتون إلا في الظلام ويرسلون من يضرب المواعيد للشراء بعد الفحص والمعاينة ، وقد شاء الحظ العاثر بالنسبة إليهم أن يقف البوليس على صفقة من حسناوات الجواري يبلغ عددهن ستا ، وأن يعلم أسماء التجار وأماكنهم التي استأجروها ، وأسماء كبار الأعيان الذين اشتروا هؤلاء ! فقامت قوة برياسة وكيل مصلحة الرقيق ، وداهمت التجار على حين غفلة ، فسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم سيسامون سوء العذاب إذا أنكروا ، فاعترفوا بما كان ، وأرشدوا على المساوم الذي عقد الصفقة ثم قام بتوزيع جواريهما على ثلاثة من الباشوات الكبار هم علي باشا شريف رئيس المجلس التشريعي ، وقد اشترى منهن ثلاثا !! وعنده في القصر أكثر من ثلاث ! على حين يزحف إلى الثمانين من عمره المديد ، والباقون هم الشواربي باشا ، وحسين واصف باشا ، وعبدالحميد الشافعي بك وقد اشترى كل منهم جارية ! وكان المنتظر لشريف باشا أن يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فهو رئيس المجلس التشريعي، ولكن رئيس مصلحة الرقيق وهو الانجليزي شيفر بك ، أمر باستدعائه الفوري ، وكان يظن أنه حين يكشف عن منصبه سيرجع موفور الكرامة ، ولكن الرئيس الجهم قابله بانقباض وتركه أمام الباب مدى طويلا ، دون أن يسمح له بالدخول أو الذهاب ، ثم طلب شريف باشا السماح له بالاتصال بالخديو أو الإبراق له، فرفض الطلب في غلظة! وتذكر الشيخ البائس أنه قدم طلبا من قبل للقنصلية الايطالية فحمل جنسيتها، وهذا يمتعه بالامتيازات الأجنبية. فاتصل شيفر بك بالقنصلية ، فجاء الرد بأنه قد قدم الطلب ، ولم يدفع الاشتراك فلم يتجنس ولذلك لن يحضر القنصل الايطالي استجوابه! ثم انعقدت محكمة عسكرية لمحاكمة تجار الرقيق الأربعة والباشوات الثلاثة وعبد الحميد الشافعي بك، وبعد أسبوع متصل الجلسات ، استطاع أحد المحامين أن يجد مخرجا قانونيا ، حين ذكر أن قانون إلغاء الرق يقصر العقاب على الاتجار دون الشراء ، وجاء الحكم بإدانة



تجار الرقيق الأربعة فسيقوا إلى الحبس مع الشغل ، وببراءة الباشوات الثلاثة . إذ اشتروا ولم يتاجروا ، أما الدكتور عبدالحميد فقد باع لهم فكان جزاؤه الحبس مع الشغل !

هذه قضية شغلت الرأى العام . ولكنها فى الوقت نفسه أنذرت كل من يجرؤ على شراء الرقيق بالعقاب الصارم ، كما اضطرت أصحاب الرقيق الذين يضمون فى منازلهم العبيد ، أن يعلنوا أنهم حرروهم من الرق ، وأنهم الآن يسكنون معهم باختيارهم ، باعتبارهم خدما لا عبيدا ، ولهم أن يذهبوا إلى أى مكان إذا أرادوا أن يبرحوا المنزل دون اعتراض ! والحق أن هؤلاء قد اضطروا إلى البقاء ، فأين يذهبون ؟ وهم لا يعرفون غير سادتهم ، ولا يطمئنون إلى مستقبل يعود عليهم بما يسد حاجاتهم الضرورية ! على أن الرائع فى المحاكمة أن الجوارى الست ، قد أصبحن طليقات ، وقد كن على جانب رائع من الجمال فوجدن من رحبوا بهن كزوجات! وعقدوا عليهن فى الحال .

أديب من العبيد

وممن ولدوا فى ربقة الرق ، والد الشاعر البائس محمد إمام العبد ، وقد تركه حرا ، بعد أن تحرر العبيد فتحرر معهم ، ولكن سواده الحالك ، ولقبه الأسود كانا يذكران الناس بأبيه ، وهو يشعر بذلك جيدا ، وقد رثى الإمام العظيم محمد عبده فقال فيما قال



(لبست عليك الحزن من قبل مولدى) يشير إلى سواده المشئوم وله هذا البيت الحزين :

أنا ليل وكل حسناء شمس
فاجتماعى بها من المستحيل

وحين مات رثاه الأستاذ أنطون الجميل فى مجلة الزهور ، فقال عنه «كان إمام بعيد الشهرة فى سوريا وأمريكا ، وكان يراسل عدة جرائد ، وقد أحرز عدة جوائز مالية فى مسابقات هناك ، وسيكون لنعيه أسف بالغ ، ولكن ذلك لا يجديه نفعا بعد مماته ، كما أن شهرته لم تدفع عنه بؤسه فى حياته وهكذا يعيش الأديب فى الشرق ويموت كحصاة تلقى فى الماء الراكد بعض تموجات ثم تضمحل» ، أما نوادره مع حافظ إبراهيم فتحتاج إلى مقال ، ومثل إمام الشاعر الشعبى خليل نظير ، وله ترجمة فى كتاب (أدب الشعب) وولده هو البطل على خليل نظير الذى حكم عليه بالإعدام ظلما فى مبدأ ثورة سنة ١٩١٩ وتلقى الحكم هاتفا بحياة مصر وسعد !

بنت الجارية

وأما قصة بنت الجارية فهى حادثة حقيقية ، لم يكن للخيال أن يبدعها على نحو ما جاءت به الأيام مهما تفنن صاحب الإبداع ، وقد جرت واقعتها فى إحدى عواصم الصعيد ، فما حديثها ؟

حين ألغى الرق ، بقى عبد وامرأته فى منزل السيد ، ولم يتخليا عما كانا يقومان به من الخدمة ، ثم ماتا وتركا

ابنة صغيرة عرفت في المنزل ببنت الجارية . وسميت (زيتونة) .

ولكل أجل كتاب ، فقد رحل صاحب المنزل وزوجه ، ولم يتركا غير ولد واحد ، شب مدللا ، ثم صحب قرناء السوء فأهلك جسمه بالشراب والعبث ، وماله بالميسر والقمار ، وتزوج فتاة ساعدته على التبذير ، وكان ضعيف الرأى فى أمر نفسه ، فتحكمت فيه تحكما عاتيا، بحيث صارت كلمتها لا ترد ، ثم رأت (بنت الجارية) فتاة سمراء ذات رونق جاذب ، فضاقت بها ، وصممت على طردها ! وهي لا تعرف في الدنيا الواسعة أحدا تأوى إليه ، لقد خرجت من المنزل حائرة كقطة جائعة ، ليس في يدها غير خرقة تحمل ثوبا خلقا ، واتجهت إلى باب المسجد دون تفكير !

وكان قارئ الكهف يتردد على منزل السيد ، وقد عرفها من قبل ، وهو شاب ذو نخوة ، فسألها عن بكائها ، ووقف على حقيقة مأساتها ، فصحبها إلى أمه وأبيه ، وأصر على أن يتزوجها في الحال ، ودعى المأذون وصارت الطريدة الباكية آمنة مطمئنة بعد ساعات! وقد رحب سيدها بما آلت إليه ، وكأنه تخلص من عبء إرضاء لزوجته المتغطرسة!

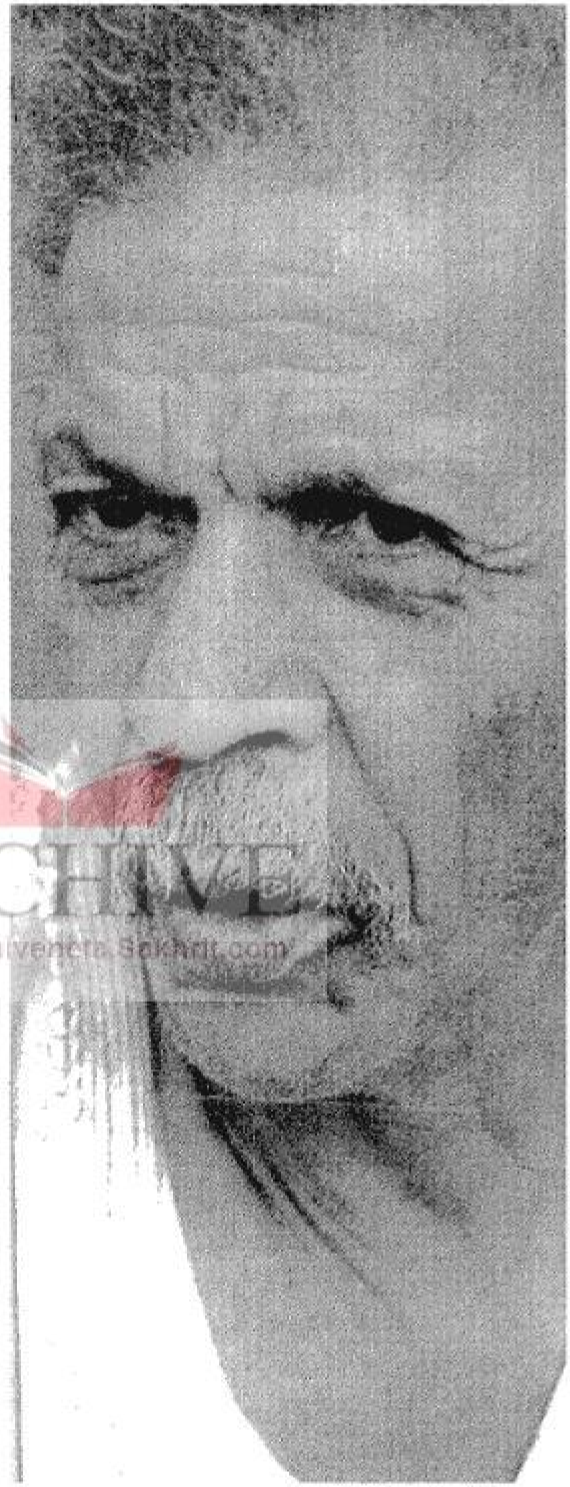
وقد شاء الله أن يسعد الزوج ، فاشتهر في بيئته بجلاوة الصوت في قراءة القرآن ، وأخذ يدعى في المناسبات المتوالية في القرى المجاورة ليحيي الليلات بالتلاوة ، فجرى الخير في يده ، وأنجب ثلاثة أولاد . بعث بهم إلى المدارس ، واجتهدوا حتى أصبح منهم الطبيب والمدرس والمحامي ، واستقل كل ولد بمنزل خاص! فيالله ، فتاة طريدة كانت لا تعرف في البلدة مكانا واحدا تأوى إليه ، ثم تصبح بعد حين سيدة ذات أولاد وأحفاد ، تزورهم عاطفة حانية ، إذ صارت أصلا أصيلا لهم ، وذات جذر ثابت في أعماق الأرض ! تباركت يارب !

ونعود إلى الزوجة المتغطرسة ، فقد فقدت زوجها في مرض مفاجئ، وأقبل الدائنون من رفاق الميسر والقمار فحجزوا على المنزل ، والعقار وخرجت المسكينة إلى العراء كما خرجت الجارية من قبل لا تجد غير حجرة ضيقة في منزل أخيها الفقير ، وكانت معاملة زوج الأخ لها مما لا يحتمل ، فأخذت تبكى ، ولكى يتم القدر مسرحيته جعل منزل الأخ مجاورا لمنزل المقرئ فوقعت بنت الجارية الكريمة على مأساة سيدتها اللئيمة ، فأخذت تزورها وتمدها بالعون المتواصل ، ورأى الناس عجبا أى عجب! شاهدوا سيدة الأمس تسعى صاغرة إلى بنت الجارية ، فتقف على الباب ، وتتناول بين الحين والحين منها ما يعين على اطراد الحياة! تتناول ممن ذاقت الحنظل المرير على يدها ، وكان الظن بها أن تجوع وأن تتشرد حين قذفتها إلى العراء !

﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .■

أحمد فؤاد نجم

شاهد على عصره وعلى نفسه



بقلم
د. أحمد ابوزيد

كلفنى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى عام ١٩٨٩ بالإشراف على بحث عن (رؤى العالم فى مصر) أى نظرة الإنسان المصرى إلى ذاته وإلى الآخرين وإلى الكون الذى يحيط به والذى يؤلف هو نفسه أحد عناصره ، وقد اشترك فى إجراء البحوث الميدانية المتعلقة بالموضوع عدد من شباب الباحثين فى المركز نفسه وفى بعض الجامعات ممن لهم خبرة كافية بالبحوث الانثربولوجية التى تتطلب الإقامة فى المجتمعات المختارة لإجراء البحث فيها فترات طويلة من الزمن قد تصل إلى سنة كاملة أو أكثر حتى يمكن جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من أشخاص معنيين بالذات يتم اختيارهم حسب معايير معينة وبحيث يمثلون فى الوقت ذاته شرائح وقطاعات المجتمع المختلفة وقد استعان الباحثون الميدانيون بدليل للعمل الميدانى قمت أنا نفسى بتصميمه بحيث يشتمل على أهم التساؤلات (وليس الاسئلة المحددة) التى تدور حول النقاط والموضوعات الأساسية التى تكفل الحصول على صورة متكاملة بقدر الإمكان عن رؤى الأشخاص التى يتم إجراء المقابلات المكثفة والمطولة معهم ، مع مراعاة عدم التقيد فى تحديد تلك التساؤلات بذكر التفاصيل الدقيقة التى قد تضع قيودا على حرية الباحث والشخص المبحوث على السواء وإنما تترك للطرفين حرية الحوار والتحاور وارتياد أية مناطق من الفكر والحياة بما فى ذلك الحياة الشخصية والخاصة بل والشديدة الخصوصية إن اقتضى الأمر ذلك .

وتدور معظم بحوث رؤى العالم حول محورين أساسيين هما : أولا إدراك الذات لذاتها بكل مقوماتها الغير حقيقية والترهلية والعاطفية والانفعالية وعلاقتها بالذوات الأخرى وتحديد أوجه الشبه أو الاختلاف بينهما ، ثانيا : نظرة الذات



أو الشخص المبحوث إلى الكون الذى يحيط به بكل مقوماته ومكوناته وتفسيره لما يحدث فى ذلك الكون من أحداث وظواهر قد يكون لها تأمين مباشر أو غير مباشر على حياته وحياة المجتمع الذى يعيش فيه ، ويدخل فى ذلك الأحداث والتغيرات الطبيعية والسياسية والاقتصادية التى تحدث فى العالم ، بل وأيضا التصورات الخاصة عن العوالم الخفية مثل عالم الجن وعالم الأرواح بل والعالم الآخر . وفى هذا كله يظهر الشخص المبحوث كما لو كان هو مركز الكون الذى تدور حوله كل هذه الأحداث والتى يصدر عنها حكمه وتقويمه لها وتفسيره لما يحدث حوله من وجهة نظره الذاتية الخاصة دون أن يتدخل الباحث فى ذلك التفسير كما يحدث فى البحوث الإنثربولوجية والإجتماعية الأخرى .

طفولة نجم

فى مقابلة مطولة مع أحمد فؤاد نجم بتاريخ ١٩٩١/٤/٢٩ تمت فى مسكنه القديم فى حوش قدم وذلك قبل أن ينتقل إلى مسكنه الحالى فى منطقة المقطم ، ذكر أنه كان يعيش فى إحدى فترات طفولته فى حى محرم بك بالأسكندرية وإن كان له عم طبيب مشهور فى المدينة اسمه الدكتور عطية نجم (وقد فرح فرحا شديدا حين أخبرته أننى عرفته شخصيا) وأن عمه كان يحبه حبا شديدا نظرا لما كان يبديه من شقاوة وكان يستثير مداعباته ومشاغبته ويقدم له بعض النقود نظير ذلك ، وأنه (أى أحمد فؤاد نجم) كان يعرف رغم طفولته كيف يستغل ذلك الحب وتلك المشاغبات للحصول على أكبر قدر من النقود من ذلك العم ، ثم يقول :

«كنا ساكنين فى محرم بك .. ما أعرفش فين بالضبط ولكن فى شارع كان كل بيوته لها بلكونات خشب كانوا يسمونها تراسينة ، وظهرت بعد ذلك أغنية فى الاسكندرية كانت تقول : يا تخينة يا تخينة .. وقعت بيكى التراسينة .. وكانت لنا جارة اسمها فردوس وكانت جميلة جدا وكانت تحبنى وتخطفنى من أمى إلى شقتها وتقدم لى الطعام وخصوصا السمان .. أنا نسيت دلوقت طعم السمان .. ويبدو أنها كانت تحب أبويا أيضا .. ما أعرفش إيه سبب تعلقها بى وهل كانت بتحبنى بصحيح والا بالتبعية لأننى كنت مجرد (كويرى) خصوصا وإن شكلى (وحش) .. فأنا (أوحش) أخواتى .. وإخواتى كلهم كانوا أجمل منى .. الوجه أحمر والشعر أصفر ، كذلك كانت أمى تحبنى أكثر من إخواتى رغم أننى كنت أعاكسها بل

وأشتمها أحيانا وأكلمها بقلة أدب وأذكر أننى دخلت مرة عليها البيت فى هدوء وكنا نعيش حين ذلك فى القرية وكان عمرى حوالى اتناشر سنة فقالت أمى : كفى الله الشر .. إنت عيان ؟.

وسبب وجودنا فى القرية هو أن أبويا كان معاون للبوليس فى شبرا البلد .. وكان عيد كبير وكان فى القسم يوم العيد .. ودخل عليه عسكرى ساحب راجل يحمل على كتفه خروف مدبوح خارج السلخانة وضبطه مفتش الصحة .. وقال الرجل لأبويا .. ده عيد وأنا راجل فقير ودبحت الخروف بره السلخانة علشان أبيعه لجيرانى وأطلع بقرشين . فصرفه أبويا .. وجاء مفتش الصحة وسأل أبويا عما فعله بالرجل، فقال له أبويا الحكاية وأنه تركه لحال سبيله .. وتقول أمى إن مفتش الصحة لم يكن يحس بالعيد فقال لأبويا أنت لازم أخذت رشوة من الراجل.. ودى عبارة كانت تكفى من معرفتى لأبويا إنه يقتل ، ولذلك قبض على مفتش الصحة وجعله يكنس تحت الخيل ويتولى إطعامه وبات ليلتها فى الحبس .. واشتكى مفتش الصحة وعملوا لأبويا مجلس عسكرى ، وكان رئيس المجلس العسكرى ضابط كان أبويا كتب كتابه على ابنته من قبل ثم طلقها قبل أن يدخل بها لسوء سلوكها ، وكان أبويا والضابط الكبير يعملان معا فى ذلك الحين فى مركز أبو الغيط .. الضابط مأمور المركز وأبويا معاون بوليس .. وحكم المجلس بتنزيل رتبة أبويا وخلع نجمة من على كتفه واستقال أبويا ورجع إلى القرية اشتغل فلاح فى أرض كان يملكها ثم عمل بعد ذلك فى وزارة المالية مندوبا لها فى عدد من المصالح فى كثير من الجهات بما فيها جمرك الاسكندرية .. وما أعرفش تفاصيل كثيرة عن ذلك ودى مسألة تعمل لى شيء من اللبس فى معرفتى» .

تعريفه للجمال

* لقد قلت أكثر من مرة إنك (أوحش) إخواتك . فما هى معايير الجمال عندك أنت ؟ أى رأيك أنت بالذات فى الجمال ومعاييره ومواصفاته ؟

– «فى مسألة الجمال أنا لا أنظر إلى السطح فقط .. الجمال يتصل باللى جوّه الإنسان لأن إللى بره ده مجرد غلاف بس وممكن الغلاف يكون جميل أو وحش بعكس إللى جوه ، وأنا شخصيا لا أهتم كثيرا بالجمال الخارجى وتكفينى نظرة واحدة وأبحث عن الداخل .. أنا يجذبنى البنى آدم اللى يدهشنى .. اللى يقول حاجة ، تثير دهشتى وتجذب انتباهى .. ده هو الجمال .. شوف مثلا الفتاة التى تجلس أمامك (وقد أصبحت زوجته) جواها جمال وجرأة ولكنها جرأة غير جارحة وغير مقتحمة .. المرأة اللى عندها



جرأة ظريفة تشد انتباهك ، ثم أن عندها بديهة حاضرة وحضور البديهية هو حضور الإنسان وهو مهم في الجمال .. شوف في المسرح مثلا إللي هوه أبو الفنون .. بعض الممثلين لهم حضور أكثر من الآخرين بصرف النظر عن الجمال الجسدي الخارجي ، هناك مثلا (فلانة وفلانة وفلانة) دول ممثلات جميلات ولكن لو قارناهم بسناء جميل نجد لها حضور شديد يضفي عليها نوع من الجمال تفتقر إليه الأخريات .. وهذا الحضور هو الذى يثيرني وهذه الاثارة هي الجمال بالنسبة لي .. وده طبعا لا يمنعني من تقدير الجمال الظاهرى ولكننى لا أهتم له كثيرا بعد ذلك وخصوصا إن معظم الجمال الخارجي الآن في المرأة جمال مجلوب بأدوات التجميل ، وصناعة التجميل صناعة مهولة في العالم وكلها في خدمة المرأة .. أنا طبعا يعجبنى الجمال الخارجي للمرأة في هذه الحدود .. وأولاد البلد يقولوا الحب يتحب لأجل النبى – وإيش دخل النبى في الموضوع ؟ أو يقولوا عن المرأة الجميلة يا أرض احفظى ما عليكي ، أو ربنا يحفظ المال لصحابه – يعني الجمال مال كما لو كانت المرأة جاموسة مثلا .. أنا لا أهتم إذا كانت المرأة جميلة من الخارج وفيلسوفة ولكنها ثقيلة بعكس الحال بالنسبة للمرأة الأقل جمالا وتكون جاهلة ولكنها تشد انتباهي .

معايير المرأة الجميلة

* استاذ أحمد ، كل هذا رائع ولكنك حتى الآن لم تحدد معايير الجمال بوضوح ومن وجهة نظرك الخاصة ؟

– «أولا» : خفة الدم والذكاء ودى أمور من الداخل .. أنا لا تعجبنى المرأة المعقدة اللى دايما خايفة من المجتمع وعندها غم داخلى بينما تعجبنى المرأة الجريئة التي لا تكاد توجد في مجتمعاتنا النايمة .. أنا طلعت بره ولفيت وشفت العالم ولكن الإنسان الأوربى أو حتى العربى تزغزغه الصبح يضحك العصر بعكس الإنسان المصرى اللى يفهم النكتة ويضحك لها بتلقائية .. الإنسان المصرى غريب في المسألة دى ولا يوجد له مثيل ، فهو يضحك قبل أن تتم النكتة ، ويبدو أن الجغرافيا لها دخل في ذلك وأن جواه حاجة فريدة لأن له أيضا دخل في ذلك ، والنيل ده حدوتة كبيرة قوى .. يبدو أن هذا النيل الجميل (الملوث) عمل حاجة في المصريين .. أنا فاكر يا دكتور إن كان فيه مذيعة تليفزيونية مشهورة جدا اسمها ليلى رستم .. كان لها مرة برنامج ولقاء مع بعض المفكرين المشهورين حول موضوع (الكوميديا في

مصر) وهو غير برنامجها المشهور عن نجمك المفضل . وحضر اللقاء بعض أساطين المهتمين بالموضوع مثل ديريني خشبة وعلى الراعى وصافيناز كاظم وجابت وسط هؤلاء فؤاد المهندس ، ودارت المناقشات العميقة الجادة بين هؤلاء المفكرين وكنت مستنى أشوف فؤاد المهندس ها يقول إيه وسطهم ولكنه ظل ساكت طول الوقت وفجأة سألته المذيعة (بنت الحرام) .. يا استاذ فؤاد عايزين نسمع رأيك فقال لها .. شوفي يا ست ليلى ، أنا رأيي إن الكوميديان في مصر غلبان .. فقالت له : يعنى إيه .. قال لها : يعنى غلبان .. فقالت : طيب ليه : قال لها : لأنه بيبيع الميه في حارة السقايين وكان هذا (الأفيه) أروع وأقوى شيء قيل في هذه الندوة .. شيء جميل نابع من خفة الدم والبديهة .. ده هو الجمال عندى .

خفة الدم المصرية

خفة الدم دى خاصية في مصر ورأيي إن ربنا اختص المصريين بها دون كل شعوب العالم .. أنا رحت باريس وبروكسل وأثينا وقبرص وغيرها من المدن الكبيرة .. الصبح يا دكتور نجد أن قطارات المترو تسير بين كل قطار والتانى نص دقيقة حتى لا يفوت العمال الوصول للعمل في الوقت المحدد وهنا تلاقى الناس تجرى في انفاق المترو زى الخيل اللى بتظهر في أفلام الكاوبوى .. زى الفيران المذعورة بدون إنسانية .. ويركبوا العربيات ما حدش يكلم حد ، والعاقل منهم يقرأ في كتاب فيركز وشه فيه بدون حركة ولا يكاد يرفعه ليرى ما حوله .. وكنت أتعمد أعمل بعض الأشياء المستفزة علشان أشوف رد الفعل ولكن مفيش .. عندنا هنا الشارع فيه قانونه الخاص .. لو حد مثلا ركب عربية فاخرة جدا وسار بها في شارع ضيق زى ده وبسرعة فائقة فلابد أن تتوقع بعد ثانية واحدة طوبة تخبط زجاج العربية ودى أضعف الإيمان .. فيه قانون في الشارع والناس تراعيه وتعبر عنه بسلوكه وهذا مالا يحدث في الخارج حتى ولو عقل الإنسان أشياء مستفزة .. يمكن ده يكون سلوك متعالى منهم إزاء ما كنت أفعله ولكنه سلوك غبى .

* ألا يمكن يا أستاذ أحمد أن يكون ذلك السلوك ناجما عن احترام الحرية الفردية ؟

– الحرية الفردية على عيني وراسي ولكن في حدود .. أول مرة ركبت فيها المترو في باريس شاهدت اثنين يمارسون الجنس في العربة ولا يثير ذلك اعتراض الآخرين فتساءلت هل هذه هى الحرية الفردية .. إن كانت هذه هى الحرية فملعون أبوها .. الحرية الفردية لابد أن يكون عليها قيود أولا من



الداخل .. داخل الفرد نفسه ثم من الخارج .. قانون الشارع اللي باقول لك عليه .. أنا أؤمن بالحرية وأعتبر نفسي الإنسان الحر رقم واحد في العالم العربي .. وأنا شديد الاعتزاز بحريتي ولكنني أراعي مشاعر الآخرين .

حدود الحرية الفردية

* ولكنك قلت إن الشارع له قانونه فإلى أي حد يتفق هذا القانون أو يتعارض مع الحرية الفردية ؟ وأين حدود الحرية الفردية في رأيك أنت ؟

– رأيي هو أن من الضروري احترام إنسانية الإنسان والاحترام ده هو اللي يحدد حدود الحرية .. الإنسان كإنسان موجود في الشارع المصري وهذا الوجود يضع الحدود على السلوك الجنسي مثلا فلا يمكن أن يفعل الإنسان المصري في الشارع ما يفعله الفرنسي في باريس مثلا باسم الحرية الفردية .. ربما كان للدين دخل في ذلك أيضا .. ورأيي أن المصريين هم أشد الناس احتراما للدين ويتحركون في حدود .. ليس صدفة إن أكبر رجال الدين الإسلامي وأكبر قراء القرآن خرجوا من مصر .. وليس صدفة أن المسيحيين المصريين هم الذين اخترعوا الرهبنة .. أنا فاكر إن كان عندى في عيد الأضحى أحد كبار الموسيقيين اليونانيين وسمع تراتيل بتاعة الصبح فقال لي دي سيمفونية متكاملة وما حدش يقدر يعمل كده غير المصريين .. ما حدش يا دكتور ينقش كحك العيد زي المصريين ، وما حدش يعرف حنة الطرافة اللي كانوا بيحنوا بيها أصابع العروس زمان غير المصريين ودى كانت نقوش جميلة وظريفة بالحنة .. الإنسان المصري (سخن) .. دافيء .. ممكن تلاقي واحد ماشي في الشارع على الرصيف وقال نكتة أو (أوفيه) فيضحك لها واحد ما يعرفوش وماشي على الرصيف الآخر ويرد عليه بنكتة أخرى .. هنا فيه مودة بين الناس .. أنا أحبيت باريس جدا ليس فقط لأنها باريس الجميلة ولكن لأن فيها (ريحة) من القاهرة .. القاهرة لا يمكن لأي إنسان أن يصنع مدينة أخرى مثلها ، وباريس فيها ريحة من هذه القاهرة العظيمة إللي الإنسان يلقى فيها كل شيء في أي وقت .. فكر مثلا إنك عاوز تاكل فجأة فتجد طلبك في أي شارع وبأرخص الأسعار .. والمحلات وعربيات الأكل تتفنن في شد الانتباه .. فيه راجل مثلا في ميدان الجيزة واقف بعربية يبيع كبده وكاتب على العربية (طاوعني يا عبده) . مين هوه عبده ده .. لابد للإنسان أن يضحك وأن يذهب للعربية ويشتري ساندوتش كبده .. هي دي الروح المصرية .. والكتابة على ظهر العربيات واللوريات

تعبر عن هذه الروح ومش ممكن تلاقى زيها فى غير مصر .. شوف مثلا سيارتين زى بعض يطلعوا في يوم واحد من المصنع وواحدة تروح أوروبا والثانية تيجى القاهرة .. اللى راحت أوروبا تفضل زى ما هى بل إن السواق نفسه يصبح جزءا منها أى يصبح آلة .. أما اللى جات إلى مصر فالسواق يحولها إلى كائن آخر فيضع فيها جزمة ابنه مثلا أو يكتب عليها عبارات غريبة تثير الضحك زى (اللى ماشى ورايا حمار) فتسرع السيارات لكي تتجاوزها وصاحبها يضحك منهم .. هذه كلها عمليات لا تخرج إلا من مصر ومن الإنسان المصرى ، وأنا أحب المصريين بشكل غريب وكنت دائماً أحبهم لأنهم أبناء وطنى ، ولكن حين خرجت إلى الخارج أحببتهم أكثر .

سمات الشخصية المصرية

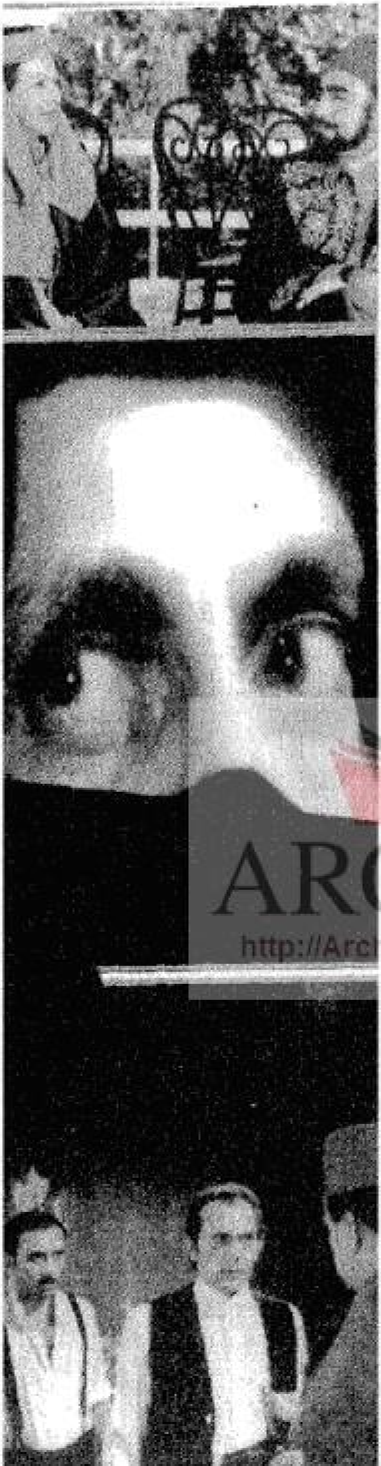
* ولكن ما الذى يتفرد به المصريون عن غيرهم من الشعوب بما فى ذلك الشعوب العربية غير خفة الدم ؟

- الإنسانية والصبر إلى جانب ما قلته عن خفة الدم .. فيه شعب يقدر يعيش فى الظروف القاسية اللى يعيش فيها المصريين ويحتفظ بالنكتة . فيه إيه فى حياتنا تضحك ؟ ده هو الصبر (الغويط) .. الصبر على المكروه .. وهناك مواويل كثيرة عن الصبر ودى هى قمة الإنسانية .. صبر المصريين دمه خفيف وأى حاجة بتتعمل بالمصرى يكون دمها خفيف .. أنا فاكر إنى لما اتصلت بالشيوعيين فى أواخر الستينات سألتهم : قولوا لى إيه هى الشيوعية ؟ فقالوا لى كلام جميل قوى عن الكفاية وأن الإنسان يجب أن يجد كل ما يحتاج إليه .. طعام لأولاده وكرسى فى المدرسة وسرير فى المستشفى وكسوة وسكن والثقافة خدمة عامة وكلها بلاش .. وقلت لهم : برضه دمها ثقيل ، لأنها طلعت من روسيا .. تعرفوا لو الشيوعية كانت طلعت من مصر كانت تنفع لأن دمها كان يبقى خفيف وتبقى مقبولة ، أما من روسيا فإنها لن تنفع ولن تعيش .. صحيح أن الروس فلاحين زينا لكن دمهم تقيل وأغبياء لأنهم مش من مصر .

* * *

وبعد فهذه صفحات قليلة من حصيلة لقاء واحد مع الشاعر الإنسان الفنان أحمد فؤاد نجم ، رأيت أن أنقلها للقارىء للتعرف على بعض جوانب شخصيته وفكره كإنسان مصرى خفيف الدم ذكى وصابر وهى أهم الصفات التى يرى أنها أهم مقومات الإنسان المصرى خلال تاريخه الطويل المليء بالمتاعب والمكاره والانجازات . ■


فارس بلا رسالة
تأملات فى ثقافة التحرر الوطنى
بقلم
د. احمد يوسف احمد



لا اعـتـقـد أن عـمـلا دراميـا تليـفـزيونيـا قـد حظى فى الآونة الأخيرة بلهفة على رؤيته كتلك التى حظى بها مسلسل «فارس بلا جواد» قبل بدء بثـه على شاشات عديدة من محطات التليـفـزيون العربيـة، الرسـمـيـة منهـا والخـاصـة كـان المسلسل قبل عـرضـه قـد أصبح موضوعا لمعركة ذات دلالة حول الرغـبـة الأمـريكيـة- الصـهـيونيـة المتصاعدة في الهيمنة على المنطقة بما فى ذلك الهـيـمنة على عـقلهـا ووجـدانهـا، وهى رغـبـة تجلت في عديد من المؤشرات فى عقود زمنية سابقة لكنها اشتدت على نحو لافت ومقلق فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر الشهيرة فى هذا السـيـاق اتهـمت دوائر أمـريكيـة وصهيونية المسلسل بالعداء للسامية والحث على منع عـرضـه، وكـان صمود القرار المصرى فى مواجهة الضغوط الأمريكية والصهيونية لمنع عـــرض المسلسل أو على الأقل تهذيبه مدعاة للاعجاب، والاعتزاز وعلى الرغم مما قيل عن تنازلات قدمت فى هذا الخـصـوص فـإن مـا بقى فى المسلسل بخصوص المسألة الصـهـيـونيـة يشـيـر إلى أن هذه التـنـازلات لم تكن جـوهـرية إن وجدت خـاصـة بالنظر الى المشـهـد الخـتـامي للمـسـلسل الذى وصـف الصهيونية بأنها مرض خبيث».

تفسر هذه المعركة التى سبقت عرض المسلسل إذن اللهفة التى غلبت على قطاع عريض من المشاهدين العرب عامة والمصريين لمتابعته، خاصة وقد جاءت مقدمة أولى حلقاته قوية بالصوت المؤثر للفنان القدير محمد صبحى مصحوبا بمشاهد تمثيلية عن النزوح الهائل للفلسطينيين خارج أرضهم فى أعقاب نكبة ١٩٤٨ توقع الجميع عملا متميزا وغير مألوف يصب فى مجرى «ثقافة التحرر الوطنى» لكن تتابع حلقاته أصاب الغالبية على الأقل بخيبة أمل تدافعت معها الأقلام الى نقد قاس للمسلسل، سواء الأخطاء الفادحة فى المعالجة التاريخية أو لتجسيده سيرة شخص حقيقى عاش فى النطاق الزمنى لأحداث المسلسل بالاسم نفسه الذى ظهر به فى حلقاته دون أن يكون تناول المسلسل لهذه السيرة صادقا أو دقيقا . وغير ذلك من الانتقادات .

غير أننى أود أن أتناول الموضوع بمقاربة مختلفة تنطلق من مفهوم «ثقافة التحرر الوطنى» وتنقد المعالجة التى تضمنها المسلسل لقضية الكفاح من أجل الاستقلال، وتربط بين هذه المعالجة وبين السياق الزمنى الراهن . وأحسب أن هذه المقاربة مهمة لأننا نجتاز الآن مرحلة تحديات هائلة لا يمكننا مواجهتها بنهج سليم مالم نتسلح بثقافة تحرر وطنى متماسكة وصلبة واذا كنت قد تناولت قبلا مفهوم «ثقافة الخنوع» التى تحاول تطويع الارادة العربية لواقع التبعية محذرا من مراميه وتداعياته (الهلال، مارس ٢٠٠١ ص ٩ ، ١٥)فإن نشر مفهوم مشوه عن ثقافة التحرر الوطنى لا يقل خطورة ولا شك أن الفنان القدير الملتزم محمد صبحى يستحق منا مصارحة قد تسهم فى دعم الدور الجاد الذى قام به ومازال فى اتجاه بلورة ثقافة وطنية وقومية مستقلة .

عن السياق الزمنى :

لا نستطيع أن نفصل مسلسل «فارس بلا جواد» عن السياق الزمنى الذى عرض فيه : فهو سياق يشى على نحو صارخ بتحديات هائلة تواجهها الأمة العربية من جراء الرغبة الأمريكية – الصهيونية فى الهيمنة المباشرة على مقدراتها باستخدام أدوات تعود بنا الى عصر الاستعمار التقليدى، وأن ما يجرى فى فلسطين منذ أكثر من سنتين والاستفزازات المتصاعدة للعراق والتهديدات العلنية أو المبطنة لدول مثل سوريا ولبنان والسودان واليمن ومصر والسعودية ليست سوى شواهد على تلك الرغبة، وسوف يكون الموت أو حتى السكوت رعبا فى مواجهة هذه التحديات هو – دون شك – أسوأ المناهج التى يمكن اتباعها فى هذا الخصوص، إذ أننا نحتاج على العكس الى حفز كل ما لدينا من امكانات المقاومة، ولن يكون ذلك ممكننا دون ثقافة صحيحة للتحرر تكون بمثابة الاساس الذى تبنى عليه هذه المقاومة .

ومما يزيد فى أهمية ما سبق – أى

حفز إمكانات المقاومة - أن ثمة غيابا لدور فاعل للجماهير العربية فى مواجهة التحديات السابقة لا يوجد تفسير قاطع له حتى الآن، فضلا عن وجود محاولات متكررة لنشر أفكار مغلوطة تتصل بثقافة الخنوع ولا تنبع من «ثقافة التحرر» وتروج للاستسلام بدلا من أن تدعو للتصدى، وفى ظل هذه الافكار يصبح الانحناء حتى تمر العاصفة هو النهج الوحيد المطروح دونما أدنى إدراك لمخاطر اقتلاع العاصفة القادمة كل ما فى طريقها بما يجعل من نهج «الانحناء» مساويا لفعل الانتحار .

في إطار هذا السياق تناول مسلسل «فارس بلا جواد» كفاح الشعب المصرى للتحرر من الاحتلال البريطانى (ومقاومته المظاهر المبكرة للخطر الصهيونى !) استنادا إلى أسس من شأنها أن تشيد بناء مشوها لثقافة التحرر الوطنى، ويمكن أن نتبين ضمن هذه الأسس أعمدة ثلاثة عن الفردية والطابع الظاهر وصورة الخصم .

الطابع الفردي للمقاومة:

تناول المسلسل كفاح الشعب المصرى ضد الاحتلال البريطانى فى مرحلة زمنية معينة استنادا الى قدرات فردية فذة لرجل شاعت عنه تسمية الشعلب، وقد وصلت المبالغة فى هذه القدرات الى درجة أفضت إلى نوع من الانفصام بين المشاهد العاقل وبين ما يراه بحيث أصبح مقتنعا بأن المشاهد التى تتتابع أمامه ليست حقيقية .

لا ننكر أن للفرد دوره الاساسى فى قيادة الجماهير بصفة عامة ناهيك عن أن يكون ذلك فى عمل بالغ الصعوبة كمقاومة العدو. كان ثمة فارقا كبيرا بين دور الفرد فى قيادة الجماهير وبين اكتفائها بدور المتفرج على ما يفعله البطل والهتاف باسمه فى بلاهة بعد كل عمل خارق يقوم به ولا أدرى لماذا قفزت إلى ذهنى، على الرغم منى وأنا أتابع كمدا تلك المشاهد صورة المناضل الفلسطيني مروان البرغوثى الذى كنا نجده دائما بين الجماهير يعيش معها أجواء الخطر ولا ينفرد بمواجهة المخاطر وحده. يقودها ولا يناضل بالنيابة عنها ويوظف فى هذا كله قدرات فردية متميزة لكنها ليست خارقة انسانيا، وأطرا مؤسسية لا يمكن لنضال الفرد والقائد أن يستغني عنها والا أصبحت ثمار نضاله عرضة دائما للتصفية والزوال.

عن المقاومة الفكاهية

اتسمت الأعمال الفنية التي تناولت نضال الشعوب من أجل الحرية بجدية فائقة دائما وصلت احيانا إلى حد المبالغة، وكانت هذه الجدية تعكس مكانة القضية التي تناولتها تلك الاعمال فى سلم الأولويات الوطنية والقومية صحيح أنها لم تكن تخلو من مشاهد مرحة أو ضاحكة فى بعض الأحيان لكن الجدية ظلت دائما هى السمة السائدة، وصحيح أيضا أن قلة قليلة من تلك الأعمال اتسمت بطابع فكاهى لكن الملاحظ أن هذه الفئة انتجت عادة بعد مرور وقت

طويل نسبيا على الانتصار فى معارك التحرر ولم تكن بؤرتها هى قضية النضال التحررى فى حد ذاته. ولنتأمل على سبيل المثال الطريقة التى تتناول بها الأفلام السينمائية التى تنتصر لوجهة نظر اليهود مرحلة الاضطهاد النازى لهم، وكذلك تناول الأفلام الغربية بصفة عامة الاحتلال النازى لعدد من البلدان الأوربية .

بل لنتأمل الأسلوب الذى عالجت به السينما المصرية ذاتها القضايا الوطنية والقومية والذى كان إلى التصوف أقرب، فليس مع الجد هزل. حدث هذا فى عمل بروعة فيلم جميلة بوحريد تلك المناضلة الجزائرية التى نذرت نفسها لمقاومة استعمار ليس أكثر منه شراسة الا شارون وعصبته، فلا هذا أثر فى مستوى التفاعل الجماهيرى معه ولا عابه الجد الذى ميزه والذى يفترض أن تؤخذ به قضايا الأمة والوطن . وتكرر الأمر نفسه فى نماذج عديدة بتنويعات مختلفة تداخلت فيها ومعها قصص إنسانية بالغة الرهافة والحساسية، لكنها لم تشوش على الخط الرئيسى للعمل ولا شوهت قيمة الرسالة التى يحملها، فكان أن أصبح فيلم فى بيتنا رجل هو نموذج لكل بيوتنا وكل أسرنا التى يحل بها مناضل وهى البعيدة عن هموم السياسة ومناورات السياسيين فينقلب حالها، لكن شعورا بالرضا يتملكها لانها آوت بطلا وحفظت له سره وهيأت له سبل التنكر والتحايل، لكن على غير شاكلة فارس بلا جواد .

فى هذا السياق نستطيع أن نفهم لماذا جاء تناول مسلسل «فارس بلا جواد» كفاح الشعب المصرى ضد الاحتلال البريطانى معيبا من هذا المنظور، ولاشك أن هذا العيب يرتبط بنيويا بالسبب السابق عليه وهو «الفردية». فلما كان النضال قائما بصفة اساسية على فرد، ولما كان هذا الفرد يجيد التنكر على نحو لافت فان حجر الزاوية فى النضال تمثل فى القدرات التنكرية لبطلنا وليس واضحا لماذا كان التنكر دائما فى صورة شخصيات ذات ملامح «كاريكاتورية» فكاهية جعلت طابع التهريج هو السائد بصفة عامة عند ظهور هذه الشخصيات، خاصة مع بعض الحركات والمبالغات ذات الطابع المسرحى، الأمر الذى صرف المشاهد بصفة عامة عن القضية الاصلية، وجعل الجو العام للمسلسل بعيدا من الناحية الموضوعية عن الهدف منه. ولست أدرى للمرة الثانية لماذا قفز إلى ذهنى فى هذا السياق التناقض بين صورة الاستشهاديين الذين يسجلون رسائل مصورة قبل استشهادهم يظهرون فيها بملامحهم الحقيقية ويشرحون فيها دوافعهم، وبين الصورة التنكرية الفكاهية للثعلب التى تشيع جوا من التهريج فى مواقف لا تحتمل الهزل .

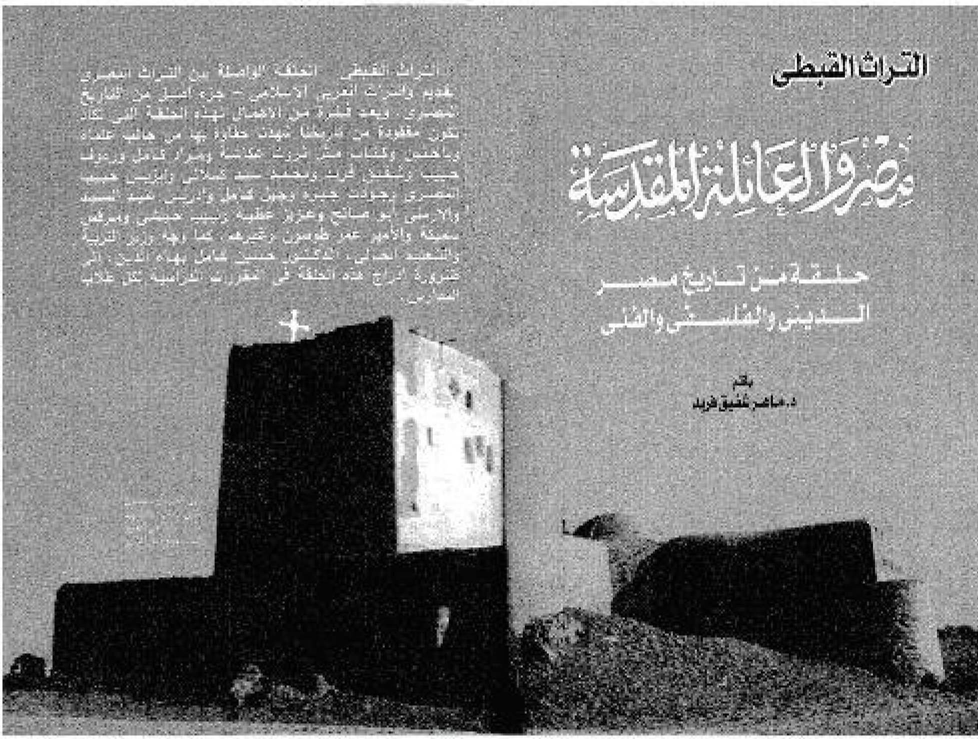
صورة هزلية للعدو :

اذا كان من أخطر الاشياء فى النضال التحررى أن تتملك المناضلين مشاعر الاعجاب بقدرات العدو والانبهار بها فانه لا يقل خطورة عن ذلك ان تشيع لديهم صورة هزلية عن العدو، وذلك أن النتيجة واحدة فى الحالتين وهى الهزيمة أما بسبب اليأس المتولد عن الانبهار بقدرة العدو وأما بسبب الاعتقاد غير

الصحيح ببلاهته . فى مسلسل «فارس بلا جواد» قدم رجال الاحتلال البريطانى الذين يفترض انهم يمثلون نخبة حاكمة فى امبراطورية كانت تسود العالم فى حينه فى صورة مجموعة من البلهاء الذين يتسلل اليهم ثعلبنا المناضل متنكرا أينما وجدوا ويستدرج كبارهم، مستخدما شابين يرتديان ثيابا نسائية، ويتحاور معهم فى أدق خصائص عملهم، ويعاملهم على نحو لا يخلو من تهريج ذى طابع مسرحى، ويقدم لهم اقتراحات ساذجة للخروج من المآزق التى يتعرضون لها . ويتقمص شخصياتهم فى بعض الاحيان للقيام بعمليات خارقة، ويدفع واحدا من أخطرهم إلى أن يردد فى بلاهة بعض العبارات الهزلية التى تساق عادة فى مجال استحضار الارواح والعفاريت. ولم يكن رجال الاستعمار البريطانى فى مصر بالتأكيد بلهاء، ناهيك عن أن يكونوا على هذه الدرجة من البلاهة، فهم أصحاب امبراطورية أزدهرت فى القرن السابق على أحداث المسلسل واستمرت بعده لحوالى نصف قرن آخر.

امتد ذلك التصور ايضا وإن بشكل مختلف إلى الشخصيات اليهودية فى المسلسل، فقد تمكن صاحبنا دائما من خداعها والايقاع بها مع أن نتيجة مخططاتها معروفة لنا جميعا نعيش تداعياتها المأساوية منذ أكثر من نصف قرن وحتى هذه اللحظة تحديدا . لا يتكلم شارون وأمثاله من القيادات الراهنة للحركة الصهيونية اللكنة التى كان يتكلم بها زعماء اليهود فى المسلسل ولا يلبسون الاردية ذاتها التى كانوا يلبسونها لكنهم - أى شارون وأمثاله - يخططون بعقل بارد لادامة سيطرتهم على فلسطين وهيمنتهم على الأمة العربية ويعملون بدأب على التقوية الدائمة لجيش «دفاعهم» وعلى التعزيز المستمر لعلاقتهم بمراكز القوة العالمية. صحيح أن مشروعهم ينطوى على مفارقة تاريخية تسد سبل المستقبل أمامه، لكن تصويرهم على النحو الذى تضمنه المسلسل من شأنه أن يزيد وعينا بحقيقة الخطر الصهيونى الذى وصل إلى حد القتل الوحشى بدماء باردة للاطفال والنساء والشيوخ والتدمير العشوائى بدماء باردة أيضا لكل مظاهر العمران الفلسطينى .

لسنا بحاجة بكل تأكيد إلى الاعتقاد ببلاهة العدو وانما تمس حاجتنا إلى أن ندرك مدى قوته وأبعاد هذه القوة وطبيعة الخطر الذى يمثله وتداعيات هذا الخطر، وأثر هذا كله على حاضرنا ومستقبلنا لعلنا نهتدى إلى رؤية سليمة للمواجهة . لقد كانت نوايا فارسنا طيبة دون شك لكن المنظور الذى اختار أن يعالج به واحدة من أخطر قضايا الحاضر والمستقبل : النضال من أجل الحرية لم يكن موفقا بكل تأكيد . وما أحوجنا إلى القدرات التمثيلية الفائقة لبطل المسلسل كى توظف فى معالجة صحيحة لقضية الكفاح من أجل الاستقلال سعيا إلى بناء ثقافة متماسكة لتحرر وطنى فى هذه المرحلة العصيبة من مراحل تاريخنا ■


التراث القبطي
مصر والعائلة المقدسة
حلقة من تاريخ مصر
الديني والفلسفي والفني
بقلم
د. ماهر شفيق فريد

وأحدث مظهر من مظاهر الاهتمام بهذا التراث - من جوانبه التاريخية والعقيدية والفنية - سفر جليل باللغة الإنجليزية ، فاخر الطباعة، محلى بالصور الملونة والخرائط ، من ٢٧٢ صفحة صدر عن مطبعة الجامعة الأمريكية فى القاهرة (٢٠٠٢) تحت عنوان : «مصر فى الحقبة المسيحية : الفن والآثار القبطية عبر ألفيتين»، شارك فى تأليفه ماسيمو كاپوانى وأوتومينا ردوس ومارى - هيلين راتشو سكايا وجودت جبره . وما يلى إنما هو عرض لبعض ما جاء فى هذا السفر مع إضافات قليلة من جانبى، على سبيل التوضيح، فى هذا الموضع أو ذاك.

لمحة تاريخية

كلمة «قبط» مشتقة من الكلمة اليونانية Aigyptios ومعناها : مصرى، فالأقباط هم المصريون مسلمين ومسيحيين. والكنيسة القبطية هى الكنيسة المصرية التى ترجع أصولها إلى عهد حواريى السيد المسيح. فعلى أثر هروب العائلة المقدسة من بيت لحم إلى مصر كان عدد المصريين - فيما يقول القديس لوقا - حاضرين أول يوم من أيام عيد العنصرة الذى تنزل فيه الروح القدس على المؤمنين فى أورشليم. ويدين أوائل من اعتنقوا المسيحية من المصريين بالكثير للفيلسوف اليهودى فيلو الذى كان معاصرا للمسيح وحوارييه وكان أثره فى الفكر السكندرى عميقا. وقد هيأ للجالية المسيحية فى مصر سبل التوفيق بين عقيدتها المسيحية وخلفيتها الثقافية المصرية.

وقد زار القديس مرقص مدينة الاسكندرية حيث كرز بالإنجيل، ونصب أنانيا - وكان حذاء - أسقفا للمدينة فى مكانه . وقد ضايق ذلك الوثنيين فتربصوا لمرقص وشدوا حبلا حول عنقه وجروه فى شوارع الاسكندرية. وفى اليوم التالى استأنفوا جره إلى أن لفظ أنفاسه. وهكذا اعتبره المصريون قديس الاسكندرية وراعيها على نحو ما يعد أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية القديس بطرس قديس روما وراعيها.

كانت السنوات الأول من حياة الكنيسة القبطية سنوات مجد وفاجعة معاً: مجد لأنها أنجبت لاهوتيين ورجال دين عظماء مثل أثناسيوس وكيرلس وآباء الصحراء مثل القديس أنطونيوس والقديس باخوم. وهى فاجعة لما تعرض له الدين الوليد من اضطهادات على أيدى الأباطرة الوثنيين مثل دقلديانوس.

ويسخر المؤرخ البريطانى إدوارد جبون - صاحب «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها»، وكان عقلانيا على طريقة ڤولتير ورافضا للإيمان الدينى- من عمق الروح الدينية المصرية وعكوفها على العبادة والنسك والزهادة فيقول: «قدمت لنا مصر - وهى مصدر خصب للخرافات - أول مثال على حياة الأديرة»» . ولكن الواقع أن نظام الرهبنة من أكبر إضافات المسيحية المصرية إلى التراث العقيدى العالمى؛ فقد نشأ فى صحراء مصر ، وانتشر منها إلى سائر الأقطار. وفى البدء فر أوائل النساك إلى الصحراء من اضطهاد الامبراطور دقلديانوس فى منتصف القرن الثالث، وكانوا أحيانا يلوذون بالمقابر المهجورة ويتخذون منها صوامع للخلوة والعبادة، وأبرز هؤلاء النساك هو القديس أنطونيوس الذى جمع حوله طائفة من الرهبان ومهد بذلك لحياة الرهبنة الجماعية (لفلوبير رواية باكرة عنه عنوانها «تجربة (غواية) القديس أنطونيوس») . وبدأت الأديرة تقوم على حافة الأراضى المزروعة قرب القرى والبلدات، وفى البهنسا وحدها كان ثمة عشرة آلاف راهب واثنتا عشرة ألف راهبة. وامتدت الأديرة على كلا جانبى

النيل من الفيوم إلى المنيا إلى الأشمونين.

وفى منتصف القرن الخامس لعبت الكنيسة المصرية دورا كبيرا فى المجادلات اللاهوتية بين القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزيت) والقائلين بأن لاهوته قد انفصل - ولو مؤقتا - عن ناسوته. وقف بطاركة الاسكندرية ولاهوتيوها - وعلى رأسهم القديس كيرلس والقديس ديسقوروس - فى مواجهة القديس ليو، بابا روما، ومن تابعوه من رجال الدين فى القسطنطينية.

وقد كان الفتح العربى لمصر على يدىّ عمرو بن العاص، فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، عام ٦٣٩ م **موضع ترحيب من الأقباط، إذ وجدوا فيه خلاصا من** نير البيزنطيين واستغلالهم للبلاد، ولما أتاحه لهم العرب الفاتحون من حرية العبادة وما أبدوه من تسامح واحترام لدين المسيح. وسرعان ما دخل الآلاف من المصريين فى الإسلام وغدت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى مصر على حين اقتصر تعلم اللغة القبطية على أقلية من رجال العلم وسدنة الدين ورجال الكنيسة.

وخلال حكم ابن طولون وخلفائه (٨٦٨ - ٩٠٥) والإخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٠) والفاطميين (٩٦٩ - ١١٧١) استمر موروث التسامح الإسلامى مع عقائد المسيحيين وممارستهم لشعائر دينهم، وإن تخللته فترات من الاضطهاد على يدى الحاكم بأمر الله، لكن الطابع العام لحكم الفاطميين هو المشاركة فى الأعياد القبطية، واستخدام الأقباط فى وظائف الحكومة والدواوين، وإدماجهم فى بنية المجتمع الكبير.

وقد شهد القرنان الثالث عشر والرابع عشر صحوة - وإن كانت قصيرة الأمد - للفكر المسيحى فى ميادين اللاهوت والدفاع عن الدين وتاريخ الكنيسة وقوانينها، وكان من أكبر ممثلى هذه



الساحة الرئيسية لكنيسة القديس شنوت فى الدير الأبيض (دير الأنبا شنودة) بأخميم - منتصف القرن الخامس الميلادى

الصحوة رشيد أبو الخير ابن الطيب، القس الطبيب الذى استخدمه الوزير صلاح الدين (١١٩٣ - ١١٩٨). وحمل ثلاثة إخوة من آل العسال مشعل اللاهوت المسيحى.

وإذا كان محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨) هو مؤسس مصر الحديثة فقد كان البطريرك كيرلس الرابع (١٨٥٤ - ١٨٦١) هو مؤسس الكنيسة القبطية الحديثة، لقد عنى بالتعليم وأنشأ عددا من المدارس - فى حارة السقايين وغيرها - كما عنى بتعليم الفتيات واشترى مطبعة من النمسا قطعت الطريق فى موكب حافل من محطة السكة الحديدية بالقاهرة إلى مقر البطريركية. واهتم كيرلس الرابع أيضا بإعداد دارسى اللاهوت وفرض على رجال الدين نظاما دقيقا وأعاد تنظيم أملاك الكنيسة وإمساك حساباتها.

وقد اتسم الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، وكذلك الجزء الأول من القرن العشرين، باحتدام الصراع بين البطاركة من ناحية والمجلس الملى من ناحية أخرى خاصة فيما يتعلق بمسألة إدارة الأوقاف الكنسية، وكثيرا ما كانت الحكومة تضطر إلى التدخل لتسوية هذه الخلافات الداخلية عن طريق حلول وسط.

ويشغل منصب البطريرك حاليا قداسة الأنبا شنودة الثالث، واسمه عند الميلاد نظير جيد روفائيل، وهو من مواليد أسيوط فى ٣ أغسطس ١٩٢٣. وقد تلقى دراسته فى المدرسة القبطية بدمنهور، والمدرسة الأمريكية فى بنها، ومدرسة الإيمان القبطية الثانوية فى شبرا. وفى ١٩٤٧ حصل على الليسانس من كلية الآداب بجامعة القاهرة بعد أن تخصص فى دراسة اللغة الإنجليزية والتاريخ. وأدى الخدمة العسكرية ضابطا احتياطيا حيث اشترك فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وأعقب ذلك تخرجه فى كلية اللاهوت وتعيينه محاضرا فى مدرسة اللاهوت للرهبان بحلوان. وفى ١٨ يونيه ١٩٥٤ انخرط فى سلك الرهبنة بوادى النطرون وغدا مشرفا على المكتبة. وتحت اسم أبونا أنطونيوس السريانى – اسمه الدينى – نبغ روحيا وعلميا. وفى ١٩٥٩ عينه البابا كيرلس السادس سكرتيرا شخصيا له، ولكنه آثر – بعد فترة – العودة إلى حياة الرهبنة والتوحد، واختار العيش فى كهف على مبعدة عشرة كيلومترات من أحد الأديرة. وفى سبتمبر ١٩٦٢ دعاه البابا إلى مقر البطريركية فى القاهرة حيث اختاره أسقفا لكلية الدراسات اللاهوتية ومدارس الأحد.

وفى عهد أسقفيته زاد عدد الطلاب دارسى اللاهوت، وسمح للفتيات لأول مرة بالالتحاق بالكلية حيث غدا عدد منهن – فيما بعد – مدرسات بها. وفى ١٩٦٩ انتخب رئيسا لرابطة كلية اللاهوت فى الشرق الأوسط، وبوصفه أسقفا للتعليم شرع فى عقد لقاءاته الأسبوعية مع الشعب المسيحى فكانت تجتذب الآلاف من مختلف الفئات والأعمار، وكان من عادته أن يخصص القسم الأول من كل لقاء للرد على استفسارات الحاضرين فى قضايا اللاهوت والمجتمع. ولكنه ظل مشدودا إلى حياة الرهبنة فكان يقضى نصف الأسبوع فى القاهرة، يحاضر ويعظ، والنصف الآخر فى ديره يصلى ويتأمل، وقد مثل الكنيسة القبطية فى عدة مؤتمرات عالمية، وفى أكتوبر ١٩٧١ انتخب بابا كنيسة الاسكندرية والكرازة المرقصية، وبذلك غدا البابا السابع عشر بعد المائة خلفا للقديس مرقص.

وفى ظل الأنبا شنودة ازدهرت مدارس الأحد، واكتسبت حياة الرهبنة رهبانا وراهبات جددا كثيرين، وحرص على تجنب كل ما من شأنه إثارة المشاعر الطائفية مؤكدا الوحدة الوطنية التى تربط بين المسلمين والمسيحيين، وأيد كفاح الأشقاء الفلسطينيين مؤكدا أن المسيحيين المصريين لن يدخلوا القدس إلا وأيديهم فى أيدى إخوانهم المسلمين.

يتمثل الفن القبطى فى رسوم على الجدران، وتصاوير ملونة على الخشب، وأيقونات، ورقش المخطوطات، والمنسوجات، كما يتمثل فى فن العمارة وبناء الكنائس وتصميم الأديرة والديكور الداخلى للبيت المسيحى.

ونبدأ بالكنائس فنجد أن مصر قد شهدت منذ القرن الرابع الميلادى – بعد أن استتب الانتصار للمسيحية على الوثنية – نشاطا معماريا واسع النطاق غدت الكنيسة معه محور الحياة الدينية، وتراجعت سائر مبانى العصر الهلنستى – الرومانى كالقصور والحمامات والملاعب



لوحة جدارية تمثل «البشارة» في كنيسة السيدة العذراء بدير السوريان - ١٢٢٥



قاعدة عامود من بقايا إحدى المدن في مصر القبطية

والجمنازيوم إلى مكانة ثانوية .

وتنقسم كنائس مصر القبطية إلى كنائس حضرية وأخرى ديرية ، كما تختلف كنائس ساحل البحر المتوسط والدلتا عن كنائس وادي النيل . ففي وادي النيل يتبع معمار الكنائس موروثا ثقافيا وفنيا ومحليا ، أما كنائس الساحل الشمالي والدلتا - وهي أقرب إلى العالم البيزنطي وثقافته - فتشبه من بعض الوجوه كنائس القسطنطينية .

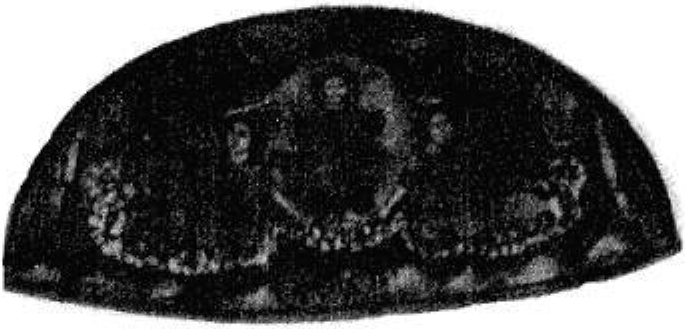
ويغلب على كنائس الأديرة طابع البساطة ، والبعد عن الفخامة الصرحية ، لأن حياة الرهبنة - تعريفا - نقيض الثراء والبهرج ، ولا يجب أن يتشتت انتباه الرهبان عن العبادة بفخامة المعمار ، وإنما يجب - على العكس - أن يكون هذا الأخير رمزا للعالم الروحي ومعوانا على التأمل والزهد .

منطقة الدلتا

اصطلحت أسباب تاريخية واقتصادية متنوعة على اختفاء كثير من الآثار القبطية من منطقة الدلتا اختفاء تدريجيا . وقد أدى استبحار العمران وحياة الحضر إلى هدم عدة مبان دينية ومدنية فخمة لا نكاد نجد لها أثرا إلا في كتابات المؤرخين والأدباء .

وأهم كنائس الاسكندرية هي : بازيليكا الهوارية (ماريا) ، وكنائس أبو صير ، وبازيليكا ماريتا العلمين، وكنيسة تل الفرما ، ودير أبو مينا . وتقع بقايا هذا الدير على بعد حوالى سبعين كيلو مترا جنوب غربى الاسكندرية فى إقليم مريوط . أما الدير فأنشأه فى ١٩٥٩ البطريرك كيرلس السادس وهو يحفظ بعض بقايا القديس الذى سمى الدير باسمه .

كان القديس مينا ينتمى إلى أسرة نبيلة المحتد . وقد ولد حوالى عام ٢٧٥ والأغلب أن يكون مولده في ليبيا . نشأه أبواه تنشئة مسيحية وعند وفاتهما - حين كان في سن المراهقة - ورث عنهما ثروة كبيرة وضياعا ولكنه كان مهتما - فى المحل الأول - بالصلاة وقراءة الكتاب



تفصيلة من لوحة جدارية فى كنيسة مارجرجس - مصر القديمة

المقدس . وحين أصدر الإمبراطور دقلديانوس والامبراطور ماكسيميانوس مرسوما يفرض على أهل مصر عبادة الآلهة الوثنية تبرع مينا بما يملك للفقراء ولاذ بالصحراء . وبعد بضع سنوات من العزلة سمع صوتا سماويا يتنبأ له بإكليل الشهادة فقرر أن يمثل أمام الحاكم الرومانى ويجهر أمامه بإيمانه المسيحى . وقد فعل ذلك أمام جمهور كبير فأوقع به الحاكم عذابات بدنية أليمة للرجوع عما قاله وتقديم القرابين لآلهة روما ولكنه أبى أن يتراجع إلى أن احتز رأسه وألقى به فى محرقة لحرق جثث الموتى .

كان ذلك فى عام ٢٩٦ . وما لبث رجل تقى يدعى أثناسيوس أن نقل رفات الشهيد ودفنها بالصحراء حيث أصبح الهيكل الصغير الذى بناه له مزارا للحجاج يقصده كل مريض أو معذب التماسا للشفاء أو للعزاء.

وادى النطرون

يقع وادى النطرون فى منتصف الطريق بين القاهرة والاسكندرية، غربى الطريق الصحراوى، وقد ازدهرت فيه حياة الرهبنة. وأبرز معالمه: دير أبو مقار. والقديس الذى يحمل الدير اسمه ولد حوالى عام ٣٠٠ فى احدى قرى الدلتا، حيث كان أبوه كاهنا، أما الابن فاشتغل فى شبابه جمّالاً كثيرا ما أوغل فى الصحراء ببعيره. وحين بلغ الثلاثين قر قراره على اعتزال الحياة الدنيوية، وما لبث أن رسم قساً بعدها بعشر سنوات. وفي البداية أقام فى كهف داخل صخور الصحراء كان يتوافد عليه من سمعوا بقداسته وتقواه، ولكنه عاود عام ٣٦٠ تقريبا العيش فى عزلة بعيدا عن الناس، واضطر - بعد أن شرع الإمبراطور فالنس، وكان من أتباع أريوس صاحب البدعة فى الدين، فى اضطهاد أصحاب العقيدة الأرثوذكسية - إلى أن يغادر قلايته، ثم كتب له أن يعود إليها مرة أخرى. وبها توفى عام ٣٩٠.

كما يضم وادى النطرون دير الأنبا بيشوى (معنى «بيشوى»: العالى) وهو من مواليد الدلتا، تذهب المأثورات إلى أن ملاكا ظهر له، وحثه على أن يذهب إلى الصحراء ويتفرغ للعبادة، وقد كان. ومن مبانى الدير - إلى جانب الجدران والبرج والمطعم - كنيسة القديس بيشوى، وكنيسة أبو اسخيرون، وكنيسة العذراء، وكنيسة مار جرجس، وبئر تدعى بئر القديسين يقال إن البربر غسلوا فيها سيوفهم الملوثة بالدماء بعد أن ذبحوا التسعة والأربعين



قاعة كنيسة القديسة بربارا في حصن بابليون - مصر القديمة

راهبا الذين كانوا يعيشون في الدير. ويبلغ عمق البئر اثني عشر متراً، وماؤها صاف شفاف تنسب إليه القدرة على اجتراح المعجزات.

وهناك دير السريان الذي أنشأه في القرن السادس الرهبان الأرثوذوكس المنتمون إلى دير الأنبا بيشوي وضم عددا من الرهبان السوريين. وتميز بمكتبته العامرة بالنصوص السورية وبكنوزه الفنية. وفي عهد البطريرك غبريال السابع (١٥٢٦ - ١٥٦٩) علت مكانة الدير. ويقول الرحالة الأوربيون - فرنسيون وألمان وإنجليز - الذين زاروه في القرن السابع عشر إنه كان يضم كنيستين إحداهما سورية والأخرى قبطية. على أن الحضور السوري أخذ يتراجع تدريجيا إلى أن غدا الدير مصريا خالصا.

ودير البراموس - الذي ربما كان أول دير يبنى في وادي النطرون - قد وصفه المقريزي في النصف الأول من القرن الخامس عشر، كما زاره القنصل الفرنسي كوبان عام ١٦٣٨ وخلف لنا وصفا له. ويعيش فيه اليوم حوالي خمسين راهبا. ومن مبانيه: كنيسة العذراء، ومكان المعمودية (الجرن)، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان.

القاهرة وضواحيها

يقع حي مصر القديمة جنوبي العاصمة على الضفة اليمنى للنيل، في مواجهة جزيرة الروضة. وقد كانت هذه المنطقة مأهولة بالسكان في زمن الفراعنة تدعى «حزي أهاء» (مكان المعركة) إذ تذهب الأساطير إلى أنها شهدت الصراع بين الرب حورس والرب ست. وفي الحقبة الإغريقية عرف المكان باسم بابليون وظل محتفظا بهذا الاسم خلال احتلال الرومان لمصر، ولكنه - الاسم - أخذ يختفي تدريجيا بعد الفتح العربي. وثمة كنائس عديدة في مصر القديمة، داخل حصن بابليون وفي المناطق المحيطة به على السواء.

وحصن بابليون القديم بناه الرومان وزودوه بأبراج للمراقبة، كما كانت تتقاطع بداخله شوارع ضيقة. ويذكر المؤرخ ديودور الصقلي أن تاريخه يرجع إلى القرن التاسع عشر ق.م. عندما هزم الفرعون سيزوستريس - من الأسرة الثانية عشرة - البابليين وحملهم إلى

مصر أسرى ليغدوا أرقاء ولكنهم ثاروا عليه وبنوا لأنفسهم حصونا يدافعون بها عن المنطقة التي أقاموا فيها، ومن ثم حملت اسم بابليون. ويذهب مؤرخ قبطي - هو يوحنا من القرن السابع - إلى أن نبوخذ نصر ملك بابل هو الذى بنى الحصن عندما استولى على مصر فى النصف الثانى من القرن السادس ق.م. أما المؤرخون المحدثون فمتفقون على أن اسم بابليون مشتق من كلمة مصرية قديمة هى Pr- Hapi-n-lwnw (بيت النيل فى هليوبوليس) وكانت الكلمة تنطق على نحوٍ قريب جدا من نطق كلمة بابليون. ويحتمل أن يكون مقياس النيل قد أقيم فى هذه البقعة.

وفى منطقة حصن بابليون نجد دير البنات، وكنيسة مارجرجس، وكنيسة أبوسرجة، وكنيسة الست باربارا، ومعبد بن عزرا اليهودى، والكنيسة المعلقة.

وعلى مبعدة كيلو متر تقريبا جنوبى حصن بابليون ثمة حى من أفقر أحياء القاهرة يضم كنيسة السيدة العذراء، ودير تادرس، أما شمالى الحصن فيوجد دير أبى سيفين، قرب جامع عمرو.

ومن كنائس القاهرة الأخرى: كنيسة مارمينا فى فم الخليج، وكنائس حارة زويلة فى حى الخرنفش بالجزء الفاطمى من القاهرة، وكنائس حارة الروم قرب الغورية، وكاتدرائية القديس مرقص بالعباسية، مقر البابا ومثوى رفات القديس.

ويحسب ما تذكر المأثورات كانت رحلة العائلة المقدسة إلى مصر قد ألمَّت بمسطرد والمطرية. وهناك كنيسة للسيدة العذراء فى المعادى، على ضفاف النيل على بعد حوالى عشرة كيلو مترات جنوبى القاهرة، يقال إن العائلة المقدسة لبثت فى مكانها ثم استقلت قاربا إلى الصعيد مبحرة مع النهر. ويضم الركن الجنوبي الغربى من الكنيسة بئرا مقدسة يقال إن ماءها روى عطش العائلة المقدسة وتنسب إليه القدرة على القيام بمعجزات.

تضم سقارة - على بعد حوالى خمسة عشر كيلو مترا جنوبى أهرامات الجيزة، وحوالى ثلاثين كيلو مترا من القاهرة - أكبر جبانة للموتى فى مصر ابتداء بالأسرة الأولى (٣٠٠٠ ق.م.) إلى الحقبة القبطية. كما تضم بقايا دير أبا جرميا الذى بنى فى القرن السادس ثم هجر ربما فى منتصف القرن التاسع.

الفيوم منخفض طبيعى كبير فى صحراء مصر الغربية، يمتاز بخصب أرضه، ويقع تحت سطح البحر، ويضم جزؤه الشمالى بحيرة قارون التى يبلغ أقصى عمق لمياهها ثمانية أمتار.

وتضم المنطقة دير الملاك غبريال، ودير مارجرجس، وآثار أهناسيا المدينة، وكنائس أم البريجات، وكنائس مدينة ماضى، ودير الميمون، ودير الأنبا صمويل.

يقع دير الأنبا انطونيوس ودير الأنبا بولا فى الصحراء الشرقية وهى الشريط الكبير الذى يفصل النيل عن البحر الأحمر، قرب جبل الجلالة القبلية وبجوار خليج السويس.

أما دير الأنبا انطونيوس فيحمل اسم القديس أنطونيوس أبى الرهبنة المصرية الذى كتب سيرته أثناسيوس بطريرك الاسكندرية.

ولد انطونيوس حوالى عام ٢٥٠ فى مصر الوسطى لأسرة ريفية على شىء من اليسار. وقبل أن يبلغ العشرين كان قد قر عزمه على أن يهجر الحياة المريحة التى



منظر عـــام لأسوار حصن بابليـــون وكنيســة السيدة العذراء (الكنيســة المعلقــة) - مصر القديمة

تنتظره ويتخلى عن أملاكه. وفى البداية لاذ بحافة بلدته، ثم بجبانة مهجورة للموتى حيث أخضع جسده لنظام حديدى صارم وكل أنواع الحرمان. وفى سن الخامسة والثلاثين - إذ رغب فى أن ينسحب إلى مكان أكثر عزلة - استقر فى حصن مهجور بالصحراء يُعرف اليوم باسم دير الميمون، غير بعيد عن الضفة الشرقية للنيل، حيث قضى عشرين عاما من النسك مع بعض حوارييه. ولكن توافد الزوار عليه جعله ينشد مزيدا من العزلة فانضم إلى إحدى قوافل البدو وأوغل فى أعماق الصحراء الشرقية إلى أن ألهمه الله النزول ببقعة منها مكث بها خمسين عاما حتى وفاته فى عام ٣٥٦ عن ١٠٥ أعوام. ولكنه لم يقطع صلته بحوارييه الذين كانوا يزورونه أحيانا أو يزورهم، كما لم يقطع صلته برجال كنيسة الاسكندرية، وأيدّهم بعلمه وتقواه فى حربهم ضد أتباع آريوس، مما زاد مكانته تمكنا فى قلوب المؤمنين.

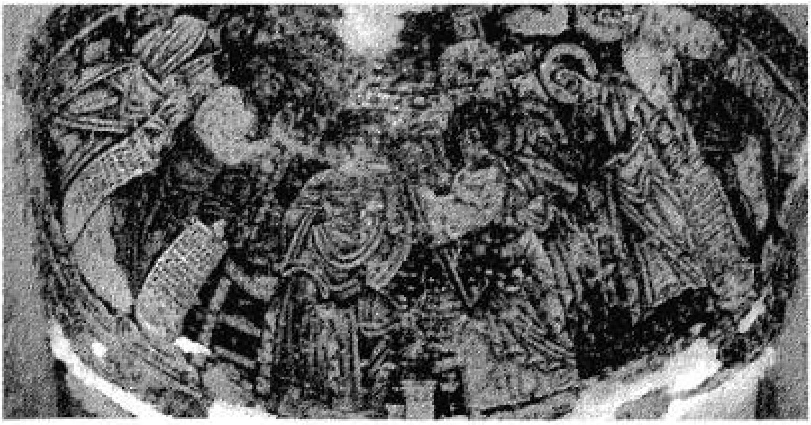
وترجع إقامة دير الأنبا انطونيوس إلى السنوات التى أعقبت وفاته. وقد وضع حجر الأساس له فى عهد الامبراطور يوليانوس المرتدّ (٣٦١ - ٣٦٢)، بناه حواريوه عند سفح الجبل الذى قضى فيه آخر سنوات عمره.

أما دير الأنبا بولا فيرجع تاريخه - فيما يحتمل - إلي القرن الخامس ويحمل اسم القديس بولا الطيبى (نسبة إلي طيبة = الأقصر) الذى عاش هناك فى كهف لمدة ثمانين عاما تقريبا. وقد كتب سيرته القديس جيروم فى الفترة ما بين ٣٧٥ - ٣٨٠.

ولد بولا عام ٢٢٨ لأسرة غنية. وفقد أبويه فى سن السادسة عشرة، وقرر - عند ذلك - أن يتخلى عن ميراثه منهما ويكرس نفسه للعبادة. ولكن الاضطهادات المروعة التى أنزلها فالريان وغيره من الأباطرة الرومان بمسيحيى مصر اضطرته إلى الفرار إلى برية الصحراء الشرقية حيث عاش إلى سن المائة والثلاثين. وكان طعامه يقتصر على نصف رغيف يحمله إليه غراب فى كل يوم.

المنيا

تزخر منطقة المنيا - التى قام أثريون انجليز وإيطاليون بالتنقيب عن آثارها فى الفترة ما بين ١٨٩٦ - ١٩٠٧ - بآثار عديدة من مختلف فترات التاريخ المصرى. ومن الآثار القبطية التى تضمها: دير



لوحة جدارية تمثل بشارة الملاك جبريل للسيدة العذراء بميلاد السيد المسيح ، يحيطهما أنبياء البشارة : موسى ، أشعياء ، حزقيل و دانيال - كنيسة السيدة العذراء بدير السوريان - القرنين العاشر والحادى عشر

الجرنوس، وكوم نمرود، وكنيسة مارمينا، ودير أبوفانا الواقع فى الصحراء الشرقية، على حافة سهل خصب وقد كان أبوفانا ابنا لأسرة موسرة فى ممفيس ، اختار حياة الزهد وقضى ثمانية عشر عاما فى قلاية مظلمة، ممتنعا عن تناول أى طعام صنعته أيد بشرية. وقد وهبه الله القدرة على التنبؤ بالمستقبل، وتنبأ بوفاة الامبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩٥.

وعلى الضفة الشرقية للنيل توجد أيضا كنيسة دير العذراء، ودير أباهور، ومقابر بنى حسن فى مواجهة أبو قرقاص، وهى أهم جبانة وصلتنا من عصر المملكة الوسطى، فى المنطقة ما بين ممفيس وأسيوط. وتضم تسعا وثلاثين مقبرة دفن فيها النبلاء من عصر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٣٠ - ١٧٨٥ق. م.)

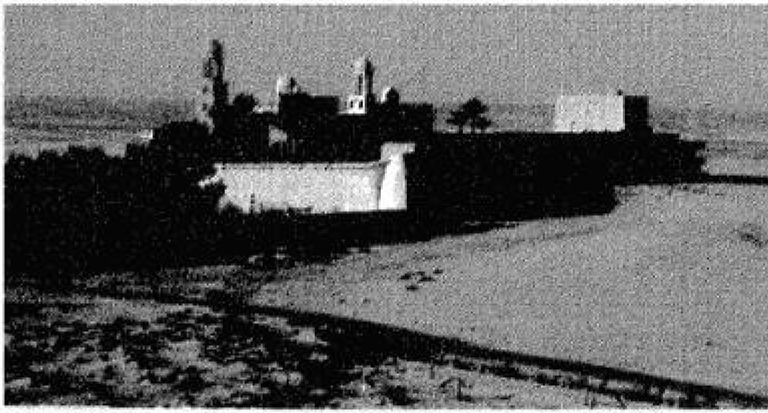
وهناك دير أبوفام وجبانة تل العمارنة التى جعل منها إخناتون (أمينوفيس الرابع) عاصمة لمصر ومقرا لعبادة أتون. وقد هجرت عقب وفاته، وعودة الآلهة القديمة إلى مكان الصدارة ، ولم يبق منها الآن سوى أطلال دارسة.

أسيوط

تضم محافظة أسيوط دير أبو أبولو فى باويط، على الضفة الغربية للنيل، على بعد حوالى خمسة عشر كيلو مترا من ديروط. ويستمد الدير اسمه من الراهب أبولو الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع ، ربما فى الفترة ما بين ٣٨٥ - ٣٩٠.

وعند بداية القرن العشرين قام علماء آثار فرنسيون بأعمال تنقيب فى أطلال الدير فاكتشفوا كنيستين وبعض مجموعات من المبانى وجزءا من الحيطان. وقد نُقلت زخارف الدير المعمارية والمصورة إلى المتحف القبطى بالقاهرة ومتحف اللوفر بباريس. وفى ١٩٧٦ اكتشف عدد من تصاوير الجدران فى موقع الدير ونُقلت إلى المتحف القبطى.

وهناك دير المحرق، المخصص للسيدة العذراء، ويعتبر أهم أديرة مصر الوسطى والعليا ، ويقوم فى المكان الذى تقول المأثورات إن العائلة المقدسة لبثت به ثلاث سنوات وستة أشهر وعشرة أيام إلى أن



دير السوريان بوادى النطرون

ظهر ملاك الرب ليوسف النجار في حلم وقال له : «قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض اسرائيل» (إنجيل متى ٢ : ٢٠).

وتختلف الآراء فى سبب تسميته بدير المحرق، وربما كان ذلك راجعا إلى جدب المنطقة المحيطة به أو إلى عادة السكان حرق الحقول للتخلص من الأعشاب الضارة.

ومن الكنائس والأديرة الأخرى فى محافظة أسيوط: كنيسة العذراء، وكنيسة الملاك ميخائيل، ودير الأمير تادرس، وكنائس منقباد، ودير العذراء، وكنيسة القديس أثناسيوس فى دير الزاوية.

سوهاج وأخميم

من أبرز الآثار القبطية هنا الدير الأبيض والدير الأحمر على بعد كيلو مترات قليلة من سوهاج، على حافة الصحراء. وللدير الأبيض اسم آخر هو دير الأنبا شنودة، كما أن الدير الأحمر يحمل اسم الأنبا بيشوى. ومدينة اخميم، على الضفة الشرقية للنيل، غنية ببقايا العصر القبطى من كنائس وأديرة محصنة مثل دير الأنبا باخوم ودير الأنبا توما ودير الأنبا شنودة الشرقى ودير الملاك ميخائيل ودير الشهداء ودير العذراء. أما جنوبى اخميم فيوجد دير مارجرجس ودير الأنبا بسادة.

طيبة

تضم طيبة (الأقصر) أديرة القديس باخوم المولود لأبوين وثنيين فى الصعيد حوالى ٢٩٢ - ٢٩٤ . وقد انخرط فى سلك جيش الامبراطور ولكن ما رآه من أخلاق المسيحيين العالية حببه فى ديانتهم فعمد واتجه إلى حياة النسك مقتديا بمرشده الأب بالاموى. وتقول المرويات إنه سمع صوتا يهتف به : «باخوم: ناضل وامكث فى هذا المكان وابن ديرا، لأن كثيرين سيأتون إليك ليغدوا رهبانا وفى ذلك نفع أرواحهم». وقد استجاب باخوم لهذا النداء، ووضع أسس الدير الحالى.

ومن أهم وثائق العصر القبطى التى انحدرت إلينا مخطوطات نجع حمادى التى عثر عليها أحد الفلاحين - ويدعى محمد على السمان - فى ديسمبر ١٩٤٥ عندما اتجه مع إخوته إلى منحدرات الجبل لجمع الروث الذى يستخدم سمادا. ووقع

أحد هذه المخطوطات مصادفة بين يدى مدرس للتاريخ يدعى راغب اندراوس فحمله إلى القاهرة فى أكتوبر ١٩٤٦ وسلمه لتوجو مينا مدير المتحف القبطى. وفى العام التالى اطلع على المخطوط عالم الآثار الفرنسى الكبير جان دورس فأدرك على الفور ما له من قيمة علمية . وسرعان ما تسنى الحصول على الاثنى عشر مخطوطا الأخرى، وكان واحد منها قد آل إلى تاجر للآثار بالقاهرة. والمخطوطات الكاملة محفوظة اليوم فى المتحف القبطى، لا ينقصها سوى صفحات قليلة استخدمتها والدة محمد على السمان، للأسف، فى إيقاد النيران.

ومخطوطات نجع حمادى أكمل صورة لدينا لعقيدة الغنوصيين (نحلة العارفين كما يسميها العقاد) وهى حركة ثقافية انتشرت فى الفترة ما بين القرن الأول والقرن الرابع للميلاد وتعبر عن انقشاع أوهام أصحابها ممن يرون أن الألم والمعاناة والمرض والموت - إلى جانب انتصار الشر فى كثير من الحالات - تؤكد الطابع السلبى لهذا العالم الذى نعيش فيه، ومن ثم عدم اتسام صانعه بالكمال. وهذا الصانع - عندهم - كائن شرير. على أن ثمة ربا كاملا رحيما أرسل من لدنه إلى البشر مخلصا يكشف لهم عن وجوده فى علاه. والمعرفة عند الغنوصيين شرط للخلاص، ولكنها ليست متاحة لكل إنسان، فأغلب البشر أبدان بلا أرواح ، مقدر لها أن تموت دون أن تترك وراءها أثرا. وقل من الناس الروحانيون الذين يملكون داخل أنفسهم شرارة إلهية تتيح لهم الخلاص.

وتقع مخطوطات نجع حمادى فى ١٢٤٠ صفحة وتتسم مادتها بالتجانس والتكامل مما يثبت أنها بنية واحدة متصلة من الفكر الدينى والفلسفى.

وهناك معبد الإلهة هاتور - ربة السماء والحب، وزوجة الإله الصقر حورس - فى دندرة. وبالقرب منه بقايا كنيسة قبطية كبيرة من منتصف القرن السادس، بنيت بالحجر الرملى الملون على شكل مستطيل طوله ستة وثلاثون مترا، وعرضه ثمانية عشرمترا.

وفى منطقة الأقصر نجد دير نقادة ودير الأنبا بقطر ودير الأنبا باخوم. كما توجد فى معابد الأقصر والكرنك بعض أطلال مبان قبطية.

أما جبانة طيبة - فى مواجهة مدينة الأقصر - فتشهد بأن جماعات من الرهبان سكنوها، إذ توجد مثلا فى بعض مقابر وادى الملوك (مقابر رمسيس الثالث، ورمسيس الرابع، ورمسيس السادس) رسوم ونقوش قبطية. ويحمل معبد رمسيس الرابع صورا للقديس انطونيوس والقديس أمونيوس أسقف إسنا. ومعبد حتشبسوت الشهير (من الأسرة الثامنة عشرة) يحمل فى اللغة العربية اسم «الدير البحرى» مما يوحى بأن المعبد كانت تستخدمه طائفة من الرهبان الأقباط، وهو ما تؤكده الاكتشافات فى منطقة الشرفة (التراس) العليا من المعبد. وتوجد جنوبى المعبد آثار لأديرة أخرى هى دير المدينة ودير القديس أبيفانيوس ودير القديس قرياقص.

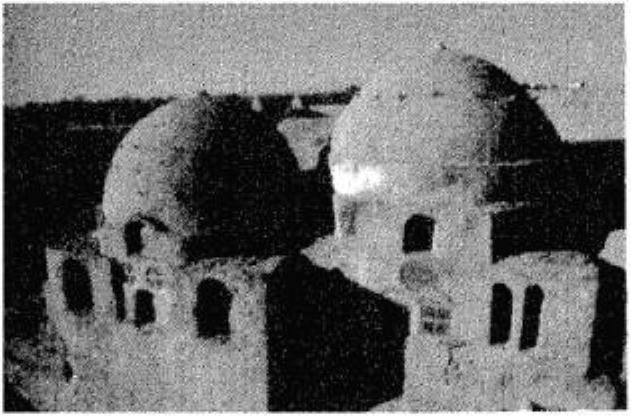
الصعيد

تضم منطقة إسنا أطلال كنيسة معبد إسنا. وفى شمال غربى إسنا يوجد دير الفاخورى . وهناك - بالإضافة إلى ذلك - دير الشهداء.

أما منطقة إدفو فتضم دير الأنبا باخوم، وتضم منطقة أسوان دير مارجرجس ودير الأنبا سمعان وكنائس جزيرة فيلة.

الواحات

ثمة آثار قبطية فى الواحات البحرية (أى الشمالية) على بعد ثلاثمائة كيلو متر



كنيسة القديس بشوى بوادى النطرون

جنوب غربى القاهرة، وفى الداخلة التى تقع على نفس خط عرض مدينة الأقصر، وفى الخارجة على بعد حوالى مائتى كيلو متر من مدينة الأقصر (تضم هذه الأخيرة جبانة البجاوات، وقصر عين مصطفى كاشف، وكنيسة عين شمس الدين).

خاتمة

تقلبت بالتراث القبطى المخطوط، ما بين ازدهار وانكسار، فى مختلف عصور التاريخ المصرى: عصر البطالمة (٣٢٣ - ٣٠ ق.م) والرومان (٣٠ ق.م - ٣٣٠م) والبيزنطيين (٣٣٠ - ٦١٩) والغزو الفارسى القصير (٦١٩ - ٦٢٩) والفتح العربى (٦٣٩ - ٦٦١) والأمويين (٦٦١ - ٧٥٠) والعباسيين والطولونيين (٧٥٠ - ٩٦٩) والفاطميين (٩٦٩ - ١١٧٣) والأيوبيين (١١٧٣ - ١٢٥٠) والمماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) والعثمانيين (١٥١٧ - ١٧٩٨) والحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) وفترة الكفاح الوطنى ضد الغزو الأوربى (١٨٠٢ - ١٨٨١) ومصر تحت الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ - ١٩٥٢) وقيام الجمهورية منذ عام ١٩٥٣ حتى يومنا هذا. ولكن مصر القبطية (التى اعتنق غالبية أهلها فيما بعد الإسلام دينا واتخذوا العربية لغة) ظلت محافظة على طابعها القومى وسماتها الخاصة المنحدرة إليها من قدماء المصريين، فالاستمرار - بلا انقطاع - هو أبرز ما يميز الشخصية المصرية عبر القرون.

والتراث القبطى - عقيدة وفلسفة وفنا - جزء أصيل من هذه الشخصية، عاش قرابة الألفى سنة ومازال حيا فى بعض أعرافنا الاجتماعية وكلمات لغتنا العربية وتقاليد أهالينا فى أعماق الصعيد وفى أجزاء من الدلتا، مما يجعل العكوف على دراسته وإبراز قيمه الفكرية والإبداعية واجبا من ألزم الواجبات وفرض كفاية على كل من تهيأت له سبل البحث فيه من معرفة باللغة القبطية والتاريخ المصرى وعلم الآثار ومباحث الدين المقارن وتاريخ الأفكار، وصناعات النجارة والحدادة والسباكة والطباعة والنسيج، وفنون التصوير والنحت والرقش والترقين والمعمار والموسيقى والأدب. ■

دائرة حوار

الوجود المسيحى بالشرق الأدنى والاراضى المقدسة

بقلم
د. رشدى سعيد

تزايد مشاكل الأقليات المسيحية بعد ظهور دولة اسرائيل والتى ناصبتها العداء السافر منذ نشأتها، وقد خططت لإبعادها عن المنطقة بأسرها. فمن جهة كان بينها وبين هذه الأقليات نزاع تاريخى ذى جذور عميقة، ومن جهة أخرى فقد كان مجرد وجودها مانعا من تصوير حربها للاستيلاء على كامل أرض فلسطين على أنها حرب ضد معاقل الارهاب الذى يقوم به المتطرفون ضدها، وعلى أنها تمثل القلعة الأمامية لحماية الحضارة الغربية من جحافل الارهابيين.

هذا مقال أضمنه بعض تأملاتى عن قضية مسيحيى العالم العربى الذى أزعج تراجع أعدادهم وعلى الأخص بالأراضى المقدسة الكثير من المهتمين بشئون هذا العالم ورخائه ومستقبله، وتتعلق هذه القضية فى الأساس بمنطقة الشام الكبرى التى تعتبر ومصر المنطقتين الوحيدتين فى هذا العالم الواسع الذى يوجد بها وجود مسيحى ظاهر له جذوره الممتدة فى التاريخ التى أتاحت له البقاء والنماء لكى يشكل جزءا مهما من المنظر العام لهذا العالم وأن يكون

له أثر كبير في حياته الروحية والسياسية والثقافية.

أسباب التراجع

ويتعرض هذا الوجود ومنذ أن أدخل الى المنطقتين نظام الدولة الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى مصاعب أدت الى تراجع كبير لهذا الوجود والى تناقص اعداده بمعدلات زادت سرعتها في الفترة الأخيرة زيادة كبيرة . فحتى تاريخ ادخال هذه الأنظمة في الحكم لمنطقة الشام الكبرى كان أكثر من نصف سكان لبنان كما كان ثلث سكان سوريا من المسيحيين كما كانت هناك مدن بكاملها كبيت لحم والناصرة والقدس وغيرها ذات أغلبية مسيحية ظاهرة ـ أما اليوم وبعد أكثر من خمسين سنة من دخول أنظمة الحكم الحديثة بمنطقة الشام فقد تناقص هذا الوجود تناقصا ظاهرا حتى درجة الاختفاء الكامل في بعض هذه المدن.

وكانت منطقة الشرق الأوسط وعلى طول التاريخ واحدة من المناطق التي ظلت وحتى قيام نظام الدولة الحديثة تعج بالسكان من جميع الأجناس والأعراق والديانات فقد كانت بها بالإضافة الى المسحيين على اختلاف مللهم العديد من الأقليات العرقية والدينية التي استطاعت أن تقيم فيما بينها نظاما للإدارة والحكم يسمح لها بالعيش المستقر والآمن فيه قبول للآخر وقدر كبير من التسامح والاحترام المتبادل ـ وكان هذا النظام مبنيا في أساسه على نظام الكيانات شبه المستقلة لكل من هذه المجموعات والتي تشابهت ولقدر كبير مع نظام الكانتونات الذي عرفته أوروبا في العصر الوسيط والتي كان فيها لكل أقلية دينية أو عرقية مكانها الخاص لا تخرج منه الا حسب قواعد تنظم تبادل المصالح وتحكم علاقات حسن الجوار، وقد ظل هذا النظام سائدا لفترة طويلة من التاريخ وقادرا على العيش تحت الظروف القاسية التي تعرضت لها المنطقة نتيجة الغزو الخارجي او المظالم الصارخة التي شهدتها عبر هذا التاريخ.

في بلاد الشام الكبرى

وحتى ظهور الدولة الحديثة في بلاد الشام الكبرى مع مطلع القرن العشرين كانت المنطقة بمثابة موزاييك يعج بمختلف الاقليات العرقية التي يعود تاريخها إلى آلاف السنين كالأرامبيين والكلدان والاشوريين والأكراد والتركمان والأرمن والقبائل العربية التي كان من بينها من كان لا يزال يدين بالمسيحية وكذلك بمختلف الأقليات الدينية كاليهود على اختلاف مللهم والدروز والشيعة والاثنى عشرية وعبدة النار وغيرهم كثير.

ولم تكن منطقة الشام الكبرى في الحقيقة فريدة في هذا المجال فقد كان شأنها في هذا التباين العرقي والديني

دائرة

شأن الكثير من البلاد الأخرى فى أوروبا والولايات المتحدة والتى استطاعت ان تخرج من عالم هذه الكيانات الصغيرة الى عالم الدولة الحديثة والجامعة دون أن تخسر تعدديتها وذلك ببناء دولة أسستها لتتسع لجميع هذه الكيانات الصغيرة التى انضمت إليها دون غبن او سيادة كيان على آخر .

الدولة الحديثة والجامعة

ولعل أحسن مثال لمثل هذه الدولة الحديثة والجامعة هو مثال الولايات المتحدة الأمريكية التى استطاع آباء الاستقلال ان يبنوها ليتجمع تحت لوائها جميع الكيانات التى كانت قد استقرت بالقارة الجديدة على أساس دستور يعتبر بحق أحد أهم الوثائق فى هذا المضمار. وشارك فى كتابة هذا الدستور خمسة وخمسون رجلا مثلوا مختلف هذه الكيانات وجاءوا بغرض بناء دولة مركزية لتضمها والتى كان لكل منها مصالحها الخاصة . ولذا فقد حرصوا على أن يأخذ الدستور الجديد فى الإعتبار هذه المصالح وألا يسود كيان فوق آخر وأن يكون الحكم متداولا وغير متوارث وأن يكون التشريع عن طريق ممثليهم وأن تكون هناك سلطة قضائية قوية ومستقلة تكون حكما بين مختلف السلطات .

وعلى الرغم من أنه يصعب وصف واضعي الدستور الامريكي على أنهم كانوا يمثلون أغلبية السكان الا انهم كانوا نخبة منتقاة من أصحاب المصالح الخاصة من تجار الشمال وأصحاب الاقطاعيات الزراعية المستخدمة للعبيد فى الجنوب والذين كانوا على درجة كبيرة من المعرفة بالتاريخ ودروسه وبتطور المجتمعات والفكر السياسى ونظم الحكم عبر التاريخ فقد قرأوا عن نماذج الحكم التى حلم بها فلاسفة الأغريق وبتجارب الحكم أيام الرومان وبالتطورات التى أدخلتها بريطانيا على نظم حكمها منذ الماجنا كارتا وحتى وثيقة الحقوق الاساسية فى سنة ١٦٨٩ كما كانوا على معرفة تامة وتاثر كبير بفكر فلاسفة التنوير فى أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر من امثال هيوم ولوك ورسو، وفولتير، وكانت، وهو الفكر الذى كان له اكبر الأثر فى إعمال العقل وفى الخلاص من حكومات الاستبداد . ولعل من اهم النصوص التى جاءت فى الدستور الامريكى ووثيقة الحقوق المكملة والتى ساهمت فى بناء الدولة المركزية الحديثة والمتماسكة هو النص على فصل الدين عن الدولة وعلى تأكيد حرية العبادة وحرية الكلام والتعبير والتجمع ومن طلب تغيير

القوانين - وقد كان لهذا النص بالذات أكبر الأثر في دخول مختلف الكيانات ذات العقائد الدينية المختلفة في المجتمع الكبير والجديد دون خوف من الاضطهاد او الادماج القسرى فى الكيان الأقوى .

بين الشرق والغرب

وقد نقلت اوروبا عن الولايات المتحدة مبدئي الديمقراطية فى الحكم وفصل الدين عن الدولة عندما بدأت فى انشاء دولها الحديثة والجامعة ونجحت فى بناء هذه الدول عندما طبقتها وفشلت عندما اوقفت تطبيقها .

أما فى عالم الشرق الأدنى فقد نشأت دوله الحديثة عن طريق دمج الكيانات العرقية والدينية القائمة داخل دول رسمت حدودها وفرض عليها حكامها بواسطة قوى أجنبية وبدون أى اعتبار للأسس التى يمكن ان تصون لهذه الكيانات هويتها . ولم يحدث اى تغيير للأفضل بعد أن استقلت هذه البلاد بل وعلى العكس من ذلك فقد راح منها القليل من مقومات الدولة القومية الجامعة لمختلف الأعراق والديانات مما كانت قد ادخلته القوى الأجنبية المسيطرة عندما رسمت حدود هذه الدول - فبعد وقت قليل من حصولها على الاستقلال فإنها لم تأخذ طريق الديمقراطية أو بفكرة فصل الدين عن الدولة على الرغم من كثرة ما قيل عن محاسنها الا ان التطبيق الفعلى كان مناقضا للشعارات التى رفعت بشأنهما .

ولابد من التنويه هنا بأن فشل الدولة الحديثة فى الشرق الأدنى فى تطبيق الديمقراطية او فى الفصل بين الدين والدولة كان وبالا على الجميع وخسارة على المجتمع كله فقد تأخرت هذه الدول فى سلم التقدم الاقتصادى والاجتماعى وفى الاستفادة من طاقات أبنائها أو امكاناتها وتأثرت بالتالى حياة جميع ابنائها يتساوى فى ذلك من انتمى معهم الى الأكثرية الغالبة أو إلى الأقليات على اختلافها. ■

كلمات عاشت

ليس في حياة الأفراد ، ولا في حياة الشعوب خطأ لا يمكن إصلاحه ، فالرجوع الي الصواب يمحوا جميع الأخطاء
غاندي

يا جاهل العلم تعلم العلم ، فإن قلباً ليس فيه شوق للعلم ، كالبيت الخراب الذي لا عامر له
أبوذر الغفاري

خرافة التقدم والتأخر

بقلم
د. جلال أمين

لكل عصر خرافاته وأساطيره ومن خرافات العصر الحديث فكرة التقدم (Progress) أي الاعتقاد بأن التاريخ الإنسانى تاريخ تقدم متصل من الأسوأ إلى الأفضل وكأننا نرتقى درجات سلم، كل درجة أعلى وأفضل مما قبلها إذا كان الأمر كذلك فالحاضر لابد أن يكون أفضل من الماضى والمستقبل أفضل منهما جميعا.

إنى لا أقصد باعتناق فكرة التقدم مجرد الاعتقاد بأن الإنسان يحقق تقدما فى أشياء معينة بل الاعتقاد بأنه يحقق تقدما بوجه عام وفى حياته كلها مأخوذة ككل والتفضيل العام للحاضر على الماضى وللمستقبل على الحاضر ليس فى هذا الشئ بعينه أو ذاك بل بصفة عامة أى الاعتقاد أن الإنسان لا يطرأ عليه فقط مع مرور الوقت التغير المستمر (والتغير قد يشمل التحسن فى أشياء والتدهور فى أشياء أخرى) بل أنه يتحسن باستمرار.

إني أزعم أن هذا الاعتقاد في فكرة التقدم هو اعتقاد شائع يكاد أن يكون في الهواء الذي نتنفسه يتسرب إلينا دون أن نشعر مع المقررات المدرسية ونحن صغار ونتجرعه من الكتب ووسائل الإعلام ومن الخطب السياسية عن خطط المستقبل ومعدلات التنمية والاستثمار.. إلخ

التاريخ نقسمه إلي قديم ووسيط وحديث والحديث هو بالطبع (هذا هو المفهوم دائما) أفضلها جميعا والنظم السياسية نقسمها إلي تقليدي Tradi-tional أي قديم وعصري)modern(أو حديث والانتقال من هذا إلي ذاك هو انتقال محمود بالطبع، ومطلوب أن لم يكن حدث بعد والتطور الاقتصادي يقسم إلي مراحل منها أيضا مرحلة الاقتصاد «التقليدي» ثم يعقبها التمهيد للانطلاق ثم الانطلاق وبعد هذا يحدث «النضوج» الذي لا يكتمل إلا بالوصول إلي نمط الحياة

الأمريكية الحالي، الذي هو أفضل مراحل التطور الاقتصادي طرا. صحيح أن هناك من قال مؤخرا وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية، «بنهاية التاريخ» وكأن الإنسان لن يكون له مستقبل ولكن الاسم الذي أعطي لهذا الكتاب لا يفصح بالضبط عن قصد المؤلف (فوكوياما) فهو لا يقصد بالمرة دحض فكرة التقدم بل العكس بالضبط يقصد أن الإنسان قد وصل أخيرا إلي الحكمة المتمثلة في إدراك أن النظام الاقتصادي والسياسي الأمثل هو نظام الحرية الاقتصادية والليبرالية السياسية المطبق حاليا في الولايات المتحدة ولايزال المستقبل يعد بمزيد من التحسن ولكن ليس في مجال الأيديولوجيات واختيار النظام الاقتصادي أو السياسي فقد وصلنا بالفعل إلي الكمال في هذا الصدد ولكن في أشياء أخري.

هل هناك وصف يمكن أن تصف به شخصا أو شيئا أفضل من وصفه بأنه عصري أو مودرن modern؟ وهل هناك وصف يمكن أن تطلقه أسوأ من وصف «رجعي» أو لايجاري العصر أو «متخلف عنه» أو «معاد لتيار التاريخ» أو أنه من «مخلفات الماضي»؟

صخب استقبال القرن الجديد

ثم ما هذا الاحتفاء البالغ بدخولنا قرنا جديدا وكل هذا الصخب الذي نستقبل به هذا القرن الحادي والعشرين؟ إن السياسيين لا يجدون شيئا يثيرون به الحماسة للعمل والاصلاح أفضل من قولهم بضرورة تأهيل أنفسنا لاستقبال القرن الجديد وأننا إن لم نفعل هذا أو ذاك فسنعود أدراجنا إلي القرن التاسع عشر أو حتي إلي العصور الوسطي بينما يدخل غيرنا القرن الحادي والعشرين بجدارة واستحقاق!

لا شك أن للإيمان بفكرة التقدم علاقة وثيقة أيضا بموقفنا من الأطفال حيث نكاد نظن أنهم لابد أن يصبحوا أفضل منا، وننظر إليهم باعجاب عندما نراهم يتعاملون مع أجهزة الكمبيوتر بمهارة تفوق مهارتنا ويتقنون استخدام أجهزة الموسيقي الحديثة أو يميزون بين الأنواع المختلفة من السيارات ويعرفون علي الفور فيم يختلف أحدث طراز عن سابقه، بينما نظهر نحن جهلا فاضحا بهذا كله والأطفال يعاملون كبار السن كما يعامل الجميع الماضي وبينما كان كبار السن يحظون في عصور سابقة بكل أنواع الاحترام والتبجيل ويتوقعون من الأطفال وصغار السن أن يلتزموا غاية الأدب في معاملتهم انعكس الأمر الآن وأصبح الأدب واللطف كله شيئا مطلوبا ومحمودا في معاملة الأطفال ولا يهم كثيرا في معاملة الكبار.

بل حتي في تقييم الفنون والآداب وهي التي يفترض أنها لا تخضع لما يخضع له العلم من تقييم موضوعي والمقارنة بين المتخلف والمتقدم نجد أن من أقوي عبارات الثناء التي يمكن أن تقال في وصف لوحة رسم قديمة أو إناء من الفخار صنع منذ قرون سحيقة أو قصيدة شعر قالها شاعر قديم، أن نقول إن هذا أو ذاك يبدو عصريا بدرجة مدهشة! أي أنه يقترب من نمط رسومنا وفنوننا الحالية بدرجة تدعو إلي الاعجاب حقا!، أو أن يقال في مدح هذا العمل الفني أو ذاك بأنه كان «يمهد بدرجة مدهشة لما حدث بعد ذلك من تطور» أو أنه

كان «سابقا لعصره»!.

لا شك في أن مثل هذا التقديس للمستقبل والتسليم الأعمي بفكرة التقدم لا نجدهما بنفس الدرجة بل وقد لا نجده علي الاطلاق لدي الكثيرين من البسطاء بسطاء التعليم وبسطاء الدخل وهي ظاهرة لا تدل بالمرة علي أن هؤلاء هم بالضرورة: بسطاء أيضا في الحكمة أو أنهم أقل إدراكا لحقيقة الأشياء. كل ما هناك هو أن هؤلاء لم يتعرضوا كما تعرض غيرهم لهذه الجرعات القوية من عقيدة التقدم وتقديس المستقبل واحتقار كل ما هو قديم، بسبب قلة حظهم من التعليم وضعف قدرتهم علي متابعة وسائل الاعلام والثقافة الحديثة إني لا أدافع بالطبع عن الأمية أو عن انخفاض مستوي التعليم ولكن أريد فقط أن ألفت النظر إلي ما ينطوي عليه التعليم الحديث من بعض الأفكار المسبقة ومن المسلمات والعقائد التي تغرس في أذهان التلاميذ وكأنها حقائق دون أن تكون بالضرورة كذلك ومن بين هذه الأفكار المسبقة ومما يؤخذ كمسلمات وهي مشكوك في صحتها هذا الاعتقاد بفكرة التقدم.

الإيمان بالتقدم ظاهرة حديثة

هذه الفكرة، فكرة التقدم، الراسخة الآن في أعماقنا قد يدهشنا أن يلفت أحد نظرنا إلي أنها ليست من الأفكار الموغلة في القدم ولا هي بالفكرة البديهية التي يدركها الإنسان بالفطرة أو بالقليل من التأمل أو باتباع قواعد المنطق السليم.

أما أنها فكرة حديثة نسبيا فيتضح من أننا لا نكاد نعثر لها علي أثر قبل خمسة قرون فقط أي قبل ما يسمي بعصر النهضة الأوروبي (بل إن اطلاق هذا الوصف غير المحايد أي «عصر النهضة» علي ذلك العصر دون غيره قد يرجع إلي حد كبير إلي اعتناق هذه الفكرة نفسها: فكرة التقدم) ولكن وصف ذلك العصر بأنه كان عصر نهضة هو علي أي حال وصف أحدث كثيرا من ذلك العصر نفسه من الاستثناءات القليلة التي تنطوي علي الاعتقاد بفكرة التقدم قبل قدوم عصر النهضة الأوروبي قصة حي بن يقظان لابن طفيل، التي كتبت في القرن الثاني عشر الميلادي ولكن حتي قصة حي بن يقظان قد تفهم علي أنها تتضمن القول بالتقدم في أشياء دون أخري ولا يقصد بها القول بالتقدم الإنساني بصفة عامة.

لم تكن فكرة التقدم من الأفكار المسلم بها عند اليونانيين القدماء الذين كانوا أكثر ميلا إلي النظر إلي التاريخ كدورات من الصعود والهبوط وليس كخط صاعد وإنما إلي أعلي أو كسلم كل درجة منه أعلي وأرقي من سابقتها.

والفكر المسيحي الذي ساد في أوروبا في العصور الوسطي كان أقرب إلي النظر إلي التاريخ الإنساني علي أنه مسيرة انحطاط مستمر منه إلي اعتباره مسيرة تقدم مطرد. وابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي كان أقرب إلي موقف مفكري اليونان من حيث النظر إلي التاريخ كتطور دائري، نقطة النهاية فيه هي نفس نقطة البداية، منه إلي فكرة الصعود المستمر إلي أعلي، فكان هو

والفلاسفة اليونانيون أكثر ميلا إلي تشبيه التاريخ الإنساني بتاريخ الشخص الواحد إذ يولد وينمو وينضج ثم يضعف وينوي مقتربا من الموت، ثم يولد غيره وينمو وينضج ولكنه ليس بالضرورة أفضل من سابقه ومصيره هو بدوره الموت.

فكرة التقدم ليست بديهية

وأما أن فكرة التقدم المستمر ليست بالبديهية التي يؤدي إليها أي تأمل بسيط أو الادراك الفطري فيؤيده إن هذا التأمل البسيط والملاحظة المحايدة لما يجري أمام أعيننا من تطورات يقدمان حججا لصالح عكس هذه الفكرة بالضبط. ففضلا عما ذكرته حالا عن تاريخ الإنسان الواحد من الميلاد حتي الموت حيث يعقب النمو والنضوج تراجع وذبول وهو ما قد يعتبر مؤشرا لما يحدث لتطور الإنسان ككل هناك أيضا ما نلاحظه من أمثلة عديدة علي أن تقدم الإنسان، سواء في ذلك الشخص الواحد أو الإنسانية ككل في شئ بعينه كثيرا ما يصحبه تدهور في شئ أو أشياء أخري. إن الطفل قد يكون أقوي في مخيلته أو في قدرته علي تصور ما لا يمكن أن يحدث في الواقع من الرجل أو المرأة الأكبر سنا، ونمو قدرته العقلية ومعلوماته قد يكون علي حساب قدرته علي التخيل.

ومن المعترف به أن قدرة الإنسان علي حل المشكلات الرياضية المعقدة تبلغ أقصاها في سن مبكرة نسبيا قد لا تتجاوز سن العشرين ولكن قدراته العقلية الأخري قد تستمر في النمو بعد ذلك مع ميل هذه القدرة بالذات علي حل المشكلات الرياضية إلي التضاؤل وهناك من الدلائل أيضا ما يشير إلي أن مرور الطفل بسنوات من التعليم المدرسي قد يقوي بعض ملكاته علي حساب ملكات أخري وكل هذه الأمثلة تبدو معقولة تماما ومنطقية فالإنسان علي أي حال كائن ذو قدرات محدودة ومن ثم يصعب أن نتصور أن إحرازه لتقدم في جانب معين لا يكون علي حساب جوانب أخري فإذا كان هذا هو ما نلاحظه ويجب أن نتوقعه في الشخص الواحد فلماذا لا يصح فيما يتعلق بتطور الإنسانية ككل؟

رحلة عبر الزمن

سوف أستأذن القارئ الآن في أن يصحبني في رحلة قصيرة نحاول فيها أن نتخيل ما يمكن أن يدور بذهن رجل عربي كان يعيش في مدينة بغداد في القرن التاسع أو العاشر الميلادي حينما كانت هذه المدينة مزدهرة ماديا وثقافيا إذا قدر له أن يولد من جديد في عصرنا الحالي، وراح يطوف بشوارع مدينة أوروبية أو أمريكية حديثة ويلاحظ نمط الحياة فيها ويقارنه بنمط الحياة الذي كان سائدا في بغداد منذ نحو عشرة قرون إن من المشكوك فيه جدا أن مثل هذا الرجل سوف يحكم علي كل شئ يراه في المدينة الحديثة حكما إيجابيا بالمقارنة بما عهده في مدينته العربية القديمة.

إنه علي الأرجح سوف يحكم حكما إيجابيا علي حالة الشوارع والطرق، من حيث استوائها وسهولة السير فيها ولكنه لن يكون من السهل عليه أن يفهم ولا حتي أن يقبل إذا فهم ذلك الشئ المصنوع من كتلة معدنية ويسير علي أربع عجلات مطاطية والمسمى بالسيارة إذ يجلس في هذه السيارة الفارهة في كثير من الأحيان شخص واحد وراء عجلة القيادة بينما

دائرة حوار

تتسع لأربعة أو خمسة ولا تكاد تتقدم من فرط ازدحام الشارع الضيق بعشرات السيارات في وقت واحد وقد يدهشه أيضا أن يري صاحب السيارة وهو يمسح بيده علي سيارته برقة بالغة وحنان شديد يفوقان ما يبديه من رقة وحنان لزوجته وأطفاله قد يعجب هذا الشخص القادم من القرن التاسع أو العاشر بنظافة ودقة صناعة البيوت المصفوفة في الشارع الأوروبي أو الأمريكي لكنه قد يدهش لتماثلها الشديد الباعث علي الملل أو قد يدهشه ألا يري أطفالا تلعب في الحديقة الجميلة المحيطة بكل بيت بل وقد تمر به أيام وأسابيع دون أن يري شخصا واحدا يجلس في هذه الحديقة الجميلة وقد يتعجب أشد العجب عندما يقال له أن السبب في هذا الانخفاض في الكثافة السكانية أن الناس هنا يفضلون حيازة سلع أكثر علي أن يكون لهم عدد أكبر من الأطفال قد يدهش هذا الرجل أيضا منظر شخص يجري في الشوارع بخطوات سريعة منتظمة، وقد وضع علي أذنيه سماعتين يسمع من خلالها الموسيقي المسجلة أو نشرات الأخبار، حرصا علي عدم ضياع الوقت وهو حرص قد يمنع من الوقوف لتحية جاره إذا رآه أثناء جرية علي هذا النحو.

دهشة العصرية

كما قد يدهش الرجل العربي القادم من ذلك العصر السحيق أن يلاحظ الطريقة الحديثة في كتابة الخطابات حيث يذهب من يريد كتابة خطاب إلي محل متخصص في هذه الأمور فيجد بطاقات من الورق المقوي مقسمة إلي أنواع كثيرة علي حسب ما إذا كان المطلوب خطاب تهنئة توجه إلي زوج أو زوجة ابن أو بنت، جد أو جدة فلكل من هؤلاء بطاقة تناسبه ولكل سن أيضا ما يلائمها وكل ما علي مرسل الخطاب أن يفعله هو أن يختار البطاقة الملائمة فيجد الكلام جاهزا ومطبوعا عليها لا يحتاج إلا إلي طابع بريد لإرساله.

قد يدهش هذا الرجل أيضا أن يري الناس في أيام الأحد وهم يحملون شيئا يسمي الصحيفة الأسبوعية ويكاد البعض أن ينوء بحملها من فرط ضخامتها ويقال له أنها تحمل للناس أخبار العالم في الأسبوع السابق فإذا بأغلب صفحاتها يخصص لاعلانات عن سلع تستخدم في ترويجها صور النساء الحسان ولابد أنه سيدهش أكثر إذا عرف أن كل عدد من هذه الأعداد الأسبوعية قد ضحي من أجله بكمية ضخمة من أشجار الغابات تشغل عدة أفدنة قطعت وحولت إلي ورق لإصدار هذه الجريدة.

فإذا دعي هذا الزائر الآتي من عصر سحيق لمشاهدة مباراة رياضية في التنس مثلا، قد تدهشه تلك العادة الغريبة التي يرتدي لها الناس زيا معينا ويعطي الفائز فيها جائزة قد تتجاوز المليون جنيه أو دولار، وقد وصلت قيمة هذه الجائزة إلي هذا المبلغ المدهش ليس بسبب كفاءة أو مهارة منقطعة النظير، بل لمجرد كثرة عدد مشاهدي المباراة علي شاشة التليفزيون ذلك أن المطلوب من المتبارين لا يزيد علي ضرب كرة صغيرة لنقلها من مربع رسم علي الأرض إلي مربع مجاور فإذا قيل له من باب الشرح والتوضيح أن هذا النشاط العضلي ضروري للمحافظة علي الصحة

بعد ساعات طويلة كل يوم لا يقوم فيها معظم الناس بأي نشاط جسماني (كأن يقضوها مثلا جالسين في سياراتهم) تساءل هذا الزائر في داخل نفسه لماذا إذن كانت كل هذه الأموال التي تنفق لتجنب الناس أي تعب جسماني كالاستعاضة مثلا عن المشي بالسيارة أو عن المكنسة اليدوية بالمكنسة الكهربائية أو عن الغسيل باليد بالغسالة الأتوماتيكية.. إلخ؟

فإذا دعي الرجل إلي وليمة ورأى الملعقة والشوكة والسكين التي يعتبر استخدامه سمة من سمات التحضر والتقدم فقد يتساءل عن ضرورتها فإذا قيل له إنها تمنع من اتساخ اليد إذا استخدمت اليد المجردة في تناول الطعام قال: ولكن الملعقة والشوكة والسكين هي نفسها سوف تتسخ؟ فإذا قيل له إن من الممكن غسل هذه الأشياء بعد تناول الطعام قال: إن اليد أيضا يمكن غسلها بعد تناول الطعام وقبله؟

لابد أن هذا الزائر الغريب سوف يشاهد أشياء كثيرة مثيرة للاعجاب والتقدير. سوف يسره مثلا كثرة عدد قارئي الكتب والمجلات في وسائل المواصلات العامة مما يستكشف منه انتشار معرفة القراءة والكتابة والحساب وإن كان اكتشافه لموضوعات الكتب والمقالات التي يقرأها معظمهم قد لا يسره بالضرورة وسوف يسره أن يسمع عن التقدم الذي أحرزه هذا المجتمع الحديث في الكشف عن أسباب عدد كبير من الأمراض ومن ثم نجاحه في إطالة عمر الإنسان وإن كان لن يسره أن يعرف حجم الانفاق السنوي علي الأدوية غير الضرورية وعدد الأدوية التي تكتشف في كل عام خطورتها ومن ثم يحظر تداولها وأن يسمع عن زيادة سيطرة دافع الربح علي سلوك عدد من الأطباء يزيد كل عام عما كان في العام السابق وربما أثارت إعجابه القدرة التكنولوجية والعلمية التي تكمن وراء اختراع جهاز التليفزيون، وإن كان من الممكن أن يتساءل عما جعل انتشار استخدام هذا الجهاز بهذه الدرجة ضروريا إلي هذا الحد.

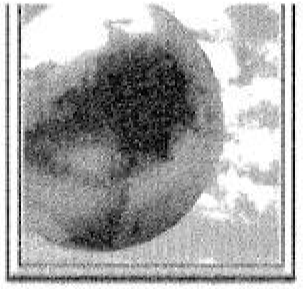
فكرة التقدم والتأخر

سيعود الرجل من رحلته وفي ذهنه أفكار كثيرة عن التقدم والتأخر فقد رأى أمثلة كثيرة لهذا وذاك ولا أظن أن من الممكن أن يخطر بباله قط، كما نظن الآن أن من المسلم به ومما لا يمكن أن يتطرق إليه الشك أن هذه الدولة التي قام بزيارتها لتوه أكثر تقدما بصفة عامة من تلك التي كان يعيش فيها منذ ألف سنة أو أكثر.

إذا كان الأمر كذلك، فمن أين تسربت إلينا إذن هذه الفكرة: فكرة التقدم والتأخر، فتشربت بها عقولنا إلي هذه الدرجة ولم يعد يخامرنا أدني شك في أنهم متقدمون ونحن متأخرون ليس في هذا الشئ أو في ذلك الميدان بعينه ولكن بصفة عامة حتي بدأنا نتساءل خفية أو صراحة عما إذا كان فينا عيب متأصل أو نقائص تمنعنا أصلا من التقدم مثلهم عيوب أو نقائص تعود إما إلي لون البشرة أو نوع الجينات أو طبيعة اللغة أو العقيدة الدينية أو المناخ وحتميات الجغرافيا، أو أشياء سخيفة حدثت في التاريخ نتيجة لتفاعل كل هذه العوامل مجتمعة؟

كيف تسربت إلي عقولنا هذه الخرافة خرافة التقدم والتأخر؟

الإجابة علي هذا السؤال قد تحتاج إلي مقال آخر. ■



ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

الدراسات المستقبلية في خطر!

بقلم
د. ابراهيم العيسوى

إن الغاية النهائية من دراسة المستقبل هى التأثير فى صناعته، حتى يأتى موافقا لمصالحنا، مواتيا لما نريده لنا وللأجيال القادمة، ولو بقدر. فلاشك فى أن حرية البشر فى صناعة مستقبلهم ليست مطلقة، حيث تتداخل محددات تاريخية وموضوعية، داخلية وخارجية، متعددة فى تشكيل صورة المستقبل. ومع ذلك، فخير لنا أن نبادر بالمشاركة فى صنع مستقبلنا، بدلا من أن نتركه للمصادفات أو لأطماع الآخرين. فعندما لا تبادر أمة ما إلى صنع مستقبلها، ينشأ فراغ. ومن طبيعة الأشياء أن يسارع الآخرون إلى ملء هذا الفراغ. ومن ثم فإنهم سيصنعون لتلك الأمة مستقبلها، ولكن على هواهم - لا على هوى أهلها، وحسب ما تقضى به مصالحهم - لا وفق مصالح شعبها.

أستاذ الاقتصاد بمعهد التخطيط القومى والباحث الرئيسى لمشروع «مصر ٢٠٢٠» بمنتدى العالم الثالث - مكتب الشرق الأوسط بالقاهرة

والخطوة الأولى نحو المشاركة الإيجابية فى صناعة المستقبل هى الانغماس فى دراسة مستقبلية جادة. فمثل هذه الدراسة هى البوصلة التى نهتدى بها فى التعرف على الطريق إلى المستقبل الذى نريده. ذلك أن الدراسة المستقبلية توفر لنا إطارا زمنيا طويل المدى لما قد نتخذه اليوم من قرارات، بحيث تأتى هذه القرارات، وما سيتبعها من تداعيات عبر الزمن، منسجمة مع صورة المستقبل المرغوب فيه من جانبنا.

أضف إلى ذلك أن للدراسات المستقبلية فوائد أخرى مهمة. منها أنها تساعدنا على اكتشاف المشكلات قبل وقوعها. ومن ثم التهيؤ لمواجهتها، أو حتى قطع الطريق عليها والحيلولة دون وقوعها. ومن ثم فالدراسات المستقبلية يمكن أن تؤدى وظيفة الانذار المبكر، ومن ثم الاستعداد المبكر للمستقبل، والتأهل للتحكم فيه بدرجة أو بأخرى. ومنها أن الدراسات المستقبلية تعيننا على إعادة اكتشاف أنفسنا ومواردنا وطاقاتنا، وبخاصة ما هو كامن منها، والذى يمكن أن يتحول بفضل العلم إلى موارد وطاقات فعلية. وهذا بدوره يساعدنا فى التعرف على مسارات جديدة لتحقيق ما نبتغيه من تنمية شاملة سريعة ومطردة. ومن خلال إعادة اكتشاف الذات يسترد القوم ثقتهم بأنفسهم ويستجمعون قواهم لمواجهة ما يطرحه المستقبل من تحديات.

ومن الفوائد العظيمة للدراسات المستقبلية - وهو ما يركز عليه مشروع مصر ٢٠٢٠ - أنها تمثل أداة مهمة لبلورة الاختيارات الممكنة والمتاحة للمجتمع، ولترشيد عملية المفاضلة بينها، وذلك بإخضاع كل اختيار منها للدرس والفحص، واستطلاع ما يمكن أن يؤدى إليه من تداعيات، وما يسفر عنه من نتائج، وما ينطوى عليه من تكاليف أو تضحيات. ومؤدى ذلك أن تتوافر قاعدة معرفية رصينة حول البدائل المستقبلية، يمكن للناس أن يستعينوا بها فى تحديد اختياراتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولاشك فى أن هذا أفضل مما يحصل عادة، حيث تتحدد هذه الخيارات من خلال مجادلات أيديولوجية ومنازعات سياسية يختلط فيها الذاتى بالموضوعى، ولا يسهل التمييز فيها بين الأسباب والنتائج.

الوضع الراهن

وواقع الحال فى مصر والدول

العربية الأخرى، أن النهوض بواجبات البحث فى المستقبل لم يزل من قبيل الفريضة الغائبة. ولم تزل الدراسات المستقبلية كاليتيم على مائدة البحث العلمى عندنا، حظها قليل من التفكير وحظها أقل من التمويل. ولذا تندر البحوث المستقبلية عندنا ندرة شديدة، ويفصل بين الواحد منها والآخر سنوات طوال تكون قد استجدت خلالها أحداث جسام. بل وكثيرا ما يتعذر إتمام البحوث المستقبلية الكبيرة عندنا على النحو الذى يجرى التخطيط له عند البدء فيها، وذلك بفعل صعوبات إدارية ومالية تعكس ضمن ما تعكس الوضع المتدنى للبحوث المستقبلية على سلم أولوياتنا.

ولا يهون من ذلك وجود عدد من المراكز فى الجامعات، وكذا المراكز الخاصة، التى تحمل لافتات مستقبلية. فالكثير منها معطل لا نشاط له. والقليل الذى ينشط منها يزاول أنشطة قد لا تمت للمستقبل بصلة، وذلك جلبا للموارد وتأمينا لاستمرارية هذه المراكز. والأقل منها وهو الذى يسعى مخلصا للحفاظ على نسبه للمستقبليات لم يزل يحوم حول مجال البحث المستقبلى دون أن يقتحمه ويتعمق فى مناهجه ويمارس أساليبه، ودون أن ينتج بحوثا مستقبلية بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة. ومما يزيد الأمر صعوبة، أن هذه المراكز لا اتصال بينها، ولا تتحاور حول المستقبل وهمومه.

مصر ٢٠٢٠

وقد كان الإحساس بمدى تخلفنا فى مجال البحوث المستقبلية، فضلا عن مضى فترة تناهز عشرين عاما على آخر دراسة مستقبلية أجريت فى مصر، هو ما دعا مجموعة صغيرة من الباحثين المصريين للالتفاف حول المبادرة الجسورة التى قدمها أستاذنا الجليل وعالمنا الكبير د. إسماعيل صبرى عبدالله فى خريف ١٩٩٥، والتحمس لتحويل رغبته فى دراسة مستقبل مصر إلى مشروع بحثى كبير، وهو مشروع مصر ٢٠٢٠. وقد قضت هذه المجموعة الصغيرة نحو عامين فى التحضير لهذا المشروع، وإعداد خطته وبرامج عمله، بما فى ذلك التحاور مع نخبة من المفكرين والعلماء حول توجهات المشروع ومحاوره والقضايا التى سيتناولها البحث فيه، والسيناريوهات التى يرى فيها خيارات رئيسية أمام مصر فى المستقبل. ثم بدأ العمل فى المشروع بشكل ودى اعتبارا من خريف ١٩٩٧،

وبشكل رسمي في أول يناير ١٩٩٨. ولم يزل العمل مستمرا في استكمال عدد من الدراسات القطاعية ونشرها، وذلك برغم نضوب الموارد المالية للمشروع منذ مارس ٢٠٠٠ ولم يزل أمر إصدار تقرير عام عن «مستقبل مصر حتى عام ٢٠٢٠» وعقد مؤتمر عام حوله معلقا على توافر الموارد المالية.

الأهداف

ليس من أهداف مشروع مصر ٢٠٢٠ رسم مستقبل بذاته، ولا وضع استراتيجية أو خطة بعينها للمجتمع المصرى. وإنما يهدف المشروع إلى إضفاء طابع مستقبلى على تفكيرنا، وتوفير أفق زمنى طويل لما قد يتخذ اليوم من قرارات، بحيث تخرج هذه القرارات مستهدية بما تحمله آفاق المستقبل من فرص وتحديات، ولا تظهر كانفعالات وقتية بهذا الحدث الآنى أو ذاك. الهدف بعبارة أخرى، هو أن يقدم مشروع مصر ٢٠٢٠ إلى الناس بعامة، ومتخذى القرارات بخاصة، قاعدة معلومات تساعدهم على اختيار المستقبل الأفضل لمصر. وتتكون هذه القاعدة المعلوماتية من شقين:

الشق الأول: تصورات بديلة لحركة المجتمع المصرى فى مختلف المجالات، وهو ما يطلق عليه سيناريوهات.

والشق الثانى: تقدير لمنافع وتكاليف كل سيناريو، وتصور لحالة الإنسان والمجتمع المصرى التى يتمخض عنها كل سيناريو فى عام ٢٠٢٠، مقارنة بالوضع المناظر فى مجتمعات أخرى ذات أهمية من المنظور المصرى.

وفى ضوء هذه المعلومات يمكن للناس أن يحبذوا مسارا أو آخر من المسارات البديلة لمستقبل مصر، ويلتفوا حوله، أو يرشحوا بديلا آخر فى ضوء دراستهم لسيناريوهات المشروع، يكون جديرا بالبحث فى دراسات مستقبلية قادمة. ومن خلال التفاعل مع هذه المعلومات يتحقق أمران على قدر عظيم من الأهمية. أولهما: تنمية رأى عام مهتم بالمستقبل، ورفع مستوى الوعى العام بالقضايا والتحديات التى يحملها المستقبل فى طياته، والنهوض بالحوار الوطنى حولها. وثانيهما: بلورة منهج جديد فى إدارة شئون المجتمع والدولة، تتأسس فيه عملية اتخاذ القرارات على ركائز متينة من المعرفة الشاملة والمركبة بالواقع والنظرة

متعددة ومتفاعلة التخصصات إلى المستقبل.

مجالات البحث

وتوخيا للشمول والتركيبية، فقد تعددت مجالات البحث فى المشروع حتى بلغت اثنى عشر مجالا، شملت البيئة والسكان، والغذاء والزراعة، والتصنيع والمصنوعات، والإسكان والمستوطنات البشرية، والنقل والاتصالات والمعلوماتية، والتعليم والبحث العلمى والتطوير التكنولوجي، والقطاع المالى وتمويل التنمية، والمعاملات الاقتصادية الخارجية، والحكم أو إدارة شئون المجتمع، والثقافة والإعلام، والبنية الاجتماعية وقوى التغيير الاجتماعى، والتكامل الإقليمى والأوضاع العالمية.

وقد تفرع عن هذه المجالات البحثية ٣٨ دراسة فى موضوعات أكثر تخصصا. وتحقيقا لمفهوم العمل الجماعي، كان ينهض بكل دراسة من هذه الدراسات فريق عمل يضم فى المتوسط نحو سبعة من كبار الباحثين فى الموضوع، يعاونهم عدد من شباب الباحثين. وبذلك اقترب عدد الباحثين فى المشروع من ٢٠٠ باحث فى شتى مجالات البحث العلمى. كما اشترك فى ورش العمل والندوات التى عقدت حول منتجات هذه الفرق البحثية ما يربو على ٤٠٠ من الباحثين والممارسين وأهل الرأى ورجال الإعلام. وبذلك حقق المشروع انفتاحا كبيرا على الجماعة العلمية المصرية، وأسفر عن تعبئة جيدة لجهودها، كما تواصل مع قطاع غير صغير من قادة الفكر والرأى فى المجتمع.

المنهجية

وقد اعتمد المشروع منهجية للبحث فى التطورات الماضية واستشراف المستقبل تقوم على عدة أسس ومبادىء مهمة، وهى: الشمول والنظرة الكلية والتركيبية للأمور التى تنطلق من تعددية التخصصات وتفاعليتها، وإعادة قراءة الماضى من منظور مستقبلى، والمقارنة بخبرات الآخرين والتعلم منها، وتجاوز محدودية النظريات وقصورها عن الإحاطة بالواقع وتفصيلاته المعقدة بالاتجاه إلى محاكاة الواقع ذاته، والمزج بين الأساليب الكمية والأساليب الكيفية، والانفتاح على المدارس الفكرية المختلفة والتفاعل معها، وإتاحة الفرصة للقوى الاجتماعية والسياسية المختلفة للتعبير عن اختياراتها كما تراها هى بنفسها كلما كان ذلك

ممكنا، ونشدان الإبداع لاسيما من خلال العمل الجماعي، والتعلم الذاتي والتصحيح المتابع للتحليلات والنتائج من خلال الحوار وتلقي التعليقات والاقتراحات من خلال ورشات العمل والندوات واللقاءات المباشرة، ووسائل الاتصال الأخرى، شاملة البريد الإلكتروني، و«الدردشة»، من خلال موقع المشروع على الإنترنت (WWW. egypt 2020. org). ومن أسف أن المصاعب الفنية والمالية التي واجهت المشروع قد حالت دون التطبيق الكامل لهذه المنهجية.

ويبحث المشروع في خمسة خيارات مستقبلية لمصر حتى عام ٢٠٢٠ ، أي خمسة سيناريوهات بديلة، حيث يعبر كل سيناريو منها عن الرؤية المستقبلية التي تطرحها مجموعة معينة من القوى الاجتماعية والسياسية الفاعلة في ساحة العمل الوطني في مصر، ويعكس خياراتها في معالجة أهم المشكلات والتحديات التي تواجه مصر في مطلع القرن الواحد والعشرين.

ويطلق على السيناريو الأول السيناريو المرجعي، وهو يعبر عما قد تؤول إليه الأوضاع على امتداد العشرين عاما القادمة إذا ما استمر المنهج السائد حاليا في التعامل مع مشكلات مصر. ويطلق على السيناريو الثاني سيناريو الرأسمالية الجديدة، وهو يعبر عن رؤية القوى الليبرالية التي ترى أن أفضل مستقبل لمصر هو ذلك الذي يقوم على تطبيق نظام رأسمالي أكثر رشدا وعقلانية، وأكثر انتفاعا بالعلم ومنجزات التكنولوجيا، وأكثر تطبيقا للديمقراطية من النظام الحالي الذي يعتبرونه رأسمالية مشوهة أو متخلفة.

أما السيناريو الثالث فهو يطرح رؤية القوى الاجتماعية والسياسية التي ترى أن خلاص مصر إنما يكمن في الأخذ بنظام حكم إسلامي، يترجم أحكام الكتاب والسنة إلى سياسات للتنمية وبرامج للتعامل مع القوى الأجنبية تحفظ لمصر هويتها الإسلامية المتميزة. وقد أطلقنا عليه سيناريو الدولة الإسلامية. ثم تأتي بعد ذلك إلى السيناريو الرابع الذي يعبر عن رؤية متطورة للقوى الاجتماعية والسياسية ذات التوجه الاشتراكي، تركز على ضرورة الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية وترفض المقايضة بين الحقوق الاجتماعية والحريات السياسية، وهذا ما أطلقنا

عليه سيناريو الاشتراكية الجديدة.

وأخيرا، هناك سيناريو خامس يطلق عليه سيناريو التآزر الاجتماعي أو السيناريو الشعبي. وهو يعبر عن وجهة نظر قوى متعددة في المجتمع ترى أن السبيل الأفضل لتقدم مصر هو الوفاق الوطني والتراضي علي حل وسط يوفق بين رغبات الأطراف المختلفة للعمل الوطني.

وبالطبع فإن اختيار مشروع مصر ٢٠٢٠ لهذه السيناريوهات لا يغلق باب الاجتهاد أمام تجربة سيناريوهات أخرى قد يرى بعض الباحثين أنها أولى بالبحث والتحليل. فاختيارنا للسيناريوهات لم يكن إلا واحدا من ضمن اختيارات كثيرة ممكنة، ولم تكن سوى مجرد خطوة على طريق طويل. ومن المفيد أن تتلوها خطوات أخرى، أي دراسات أخرى تتنوع فيها معايير اختيار السيناريوهات، وتتباين معها صور المستقبلات الممكنة. فلا ريب أن ذلك يتيح إثراء أكبر لمعرفتنا بالمستقبل، ويطرح أمام المجتمع خيارات متنوعة، ويترك أمامه فرصا أوسع للاختيار والمفاضلة فيما بينها على أساس حساب الأرباح والخسائر المجتمعية لكل منها.

المنتجات

لقد مضى ما يربو على ثلاث سنوات منذ بدء العمل في الدراسة المستقبلية «مصر ٢٠٢٠» . وقد بذلت خلال تلك الفترة جهود بحثية مضنية من جانب القيادة المركزية للمشروع ومن جانب الفرق البحثية التي تعاونت معها. وأنتج المشروع عددا من الدراسات النظرية والجزئية أو القطاعية يزيد على الثلاثين، نشر بعضها في صور أوراق وكراسات، ونشر بعضها الخير في صورة كتب صدرت عن أربع دور نشر مصرية (دار الشروق - المكتبة الأكاديمية - مكتبة الأنجلو المصرية - دار ميريت). كما نشرت طائفة من الأوراق الفنية المتعلقة بالمنهجة على موقع المشروع على الإنترنت. وسوف يزداد رصيد المشروع من المنتجات المنشورة بظهور الدراسات التي لم يزل العمل جاريا في استكمالها، وكذلك بظهور التقرير العام عن المشروع إذا ما توافرت للموارد اللازمة لإعداده.

ولاشك في أن المشروع قد أتاح لعدد كبير من الباحثين الانفتاح على مجال الدراسات المستقبلية، والتدريب على أعمالها وأساليبها ، واكتساب خبرات قيمة في ممارسة البحث

المستقبلي، وذلك من خلال ما نظمه من ندوات استهلالية، وورشات عمل أثناء تنفيذ البحوث، وندوات ما بعد إتمام البحوث، ومن خلال اللقاءات بين الفريق المركزي للمشروع والفرق البحثية، وذلك فضلا عن المران من خلال العمل البحثي الموكول إلى كل فرقة بحثية.

ومن النتائج الإيجابية لمشروع مصر ٢٠٢٠ صار مثلا وقدوة في المحيط العربي، وأن الخبرات المكتسبة فيه صارت تقدم إلى دول عربية أخرى أدركت ضرورة الدخول في دراسة المستقبلات، وعلى رأسها الأردن التي قطعت شوطا طويلا في تنفيذ مشروعها: «الأردن ٢٠٢٠»، وسوريا التي شرعت أخيرا في بلورة مشروعها : «سوريا ٢٠٢٠».

الدروس والعبر

غير أن هذه الإنجازات - على أهميتها - ينبغي ألا تجعلنا نصرف النظر عن عدد من الصعوبات والعراقيل التي أظهر لنا مشروع مصر ٢٠٢٠ أنها تقف في طريق الدراسات المستقبلية في مصر، وتعوق تقدمها. فإدراك هذه الصعوبات والتعرف على هذه العراقيل أمر ضروري للتصدي لها، ولوضع أساس مكين للنهوض بالدراسات المستقبلية المصرية. ويمكن تقسيم هذه الصعوبات والعراقيل إلى أربعة أنواع، وذلك بحسب أسبابها ومصادرها.

يتمثل النوع الأول من الصعوبات في أن مجال البحث المستقبلي في مصر، وإن لم يكن حديث النشأة تماما، إلا أن ما أنجز فيه من بحوث كان قليل العدد وجرى في فترات متباعدة، بل وكثيرا ما كان يتوقف قبل أن يكتمل نموه وفق ما أعد له من خطط. ولذلك لم يتراكم للبحوث المستقبلية تراث كبير يمكن لمن يتصدى لها الرجوع إليها والاغتراف منه. ولا عجب، والحال كذلك أن تندر الكتابات المتوافرة في المكتبات المصرية من المستقبليات ندرة شديدة، وأن يظل عدد الباحثين المصريين ذوي الدراية والخبرة بالدراسات المستقبلية - ولا أقول المحترفين - محصورا في خانة الآحاد، وغير قادر على تجاوزها حتى إلى خانة العشرات، ولذا فإن ثمة حاجة ملحة لتنمية القدرات البشرية والمعرفية اللازمة لإنتاج دراسات مستقبلية جديرة حقا بهذا الاسم. وليس من سبيل سوى الممارسة والمزيد من الممارسة، وليس هناك من

سبيل أمام انتظام الممارسة في هذا المجال واستمراريتها سوى توافر أطر مؤسسية فعالة ترعى البحوث المستقبلية، تخطيطا وتنفيذا وتمويلا وترويجا.

ويرتبط النوع الثاني من العراقيل بعدد من السمات السلبية التي أصبحت مميزة لبيئة البحث العلمي في مصر. ومن أبرز هذه السمات: عدم تفرغ معظم الباحثين للبحث العلمي الجاد وتشتت جهودهم في أمور ذات مردود علمي ضعيف، وشيوع ظاهرة عدم الالتزام بالتعاقدات البحثية سواء من حيث المضمون العلمي أم من حيث مواعيد التنفيذ، وغياب تقاليد العمل العلمي الجماعي، وندرة الحوار البناء والتفاعل الصحي بين الباحثين، وذلك بالرغم من الإفراط في عقد الندوات والمؤتمرات. وهذه العوامل تؤدي مجتمعة إلى تواضع مستويات الأداء وندرة حالات الابتكار والإبداع في البحوث بعامة، وفي بحوث المستقبليات بخاصة، كما أنها حالت دون إنجاز الدراسات المخططة لمشروع مصر ٢٠٢٠ في بعض المجالات، لاسيما في مجال التطورات في المحيط العالمي والمحيط الاقليمي وفي مجال إدارة شئون المجتمع والدولة.

ويتصل النوع الثالث من الصعوبات التي تواجه البحوث المستقبلية بالطبيعة الخاصة لهذه البحوث ذاتها. فهي بحوث شاقة ذات متطلبات غير يسيرة فيما يتعلق بالمنهجية، وكذلك فيما يتعلق بقواعد المعلومات اللازمة لها. ومعنى ذلك أنها تتطلب أيضا باحثين ذوي تأهيل علمي متميز وذوي قدرات عالية على تحمل الأعباء البحثية الثقيلة للدراسات المستقبلية. كما أن هذه الدراسات لا تؤدي على خير وجه إلا من خلال العمل الجماعي التفاعلي. وفضلا عن صعوبة هذه المتطلبات، فإن تدبيرها يستلزم توافر موارد مالية عالية الاستهلاك ليس فقط للمال، بل وللوقت أيضا. ومن أسف، فإن عقبة المال قد حالت دون تنفيذ مشروع مصر ٢٠٢٠ وفق الخطط العلمية الطموح التي وضعت له في البداية.

أما النوع الرابع من العراقيل التي تعترض البحث المستقبلي فهو يتصل بالمناخ العام السائد في بلادنا، والذي يفرز الكثير من الأفكار الخاطئة التي تنعكس بالسلب على ترتيب الدراسات المستقبلية على سلم

أولويات البحث العلمي. إذ يشيع وهم أن السوق قادر على تحقيق التنمية فقط لو ابتعدت الدولة عن التدخل فى مجرياته. كما يروج فكر معاد للتخطيط، ولدور البشر فى صناعة المستقبل (طالما أن السوق سيتكفل بهذه المهمة)كما تشيع أوهام حول العولمة تضع الدول النامية في موضع العاجز الذى تتحكم فى مستقبله قوى خارجية لا قبل له بالتأثير فيها، والتى لا يملك غير الاستسلام لها. وفى مثل هذا المناخ تشيع افكار انهزامية، وتضعف الثقة بالقدرات الذاتية، بما فيها القدرات الذاتية على صنع مستقبلنا، أو على الأقل التأثير فى صناعته. وبالطبع ليس فى هذا المناخ ما يشجع على القيام بالدراسات المستقبلية التى تستهدف مشاركة الناس فى صنع مستقبلهم، وليس فيه ما يحرص على تخصيص موارد كبيرة لمثل هذه الدراسات. وليت الذين يروجون لهذه الأوهام يدركون أن الدراسات المستقبلية قد ازدهرت فى دول اقتصاد السوق أيما ازدهار، وان للشركات الرأسمالية الكبرى دورا ضخما في نمو هذه الدراسات وتطورها.

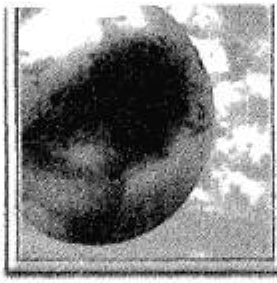
وبديهى ان النهوض بالدراسات المستقبلية فى مصر وتحولها إلى نشاط منتظم ترعاه وتمارسه هيئات علمية دائمة مرهون بمواجهة الصعوبات والعراقيل التى أشرنا إليها. والتى كان لمشروع مصر ٢٠٢٠ نصيب وفير منها. ■

قالوا

من كان لا يبصر غير محاسنه ومساويء الغير فالضرير خير منه
ميخائيل نعيمة

لو لم يكن صواب ، لم يكن خطأ، ولو لم يكن برهان ، لم يكن شغب مخالف للبرهان
إبن حزم

إن موضوع الأدب هو الحياة ، التي إذا وقفنا علي شيء من أسرارها ، تفتحت لنا أبواب المعاني ، وانقادت لنا اللغة في التعبير عنها
سلامة موسي



ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

العراق

ومستقبل الشرق الأوسط

بقلم
مصطفى نبيل

بدأت آلة الحرب الجهنمية فى الدوران ، وتحركت حاملات الطائرات والأساطيل ، وحشدت القوات الأمريكية حول العراق ، وانطلقت آلة الحرب ، وأخذت أكثر درجات اندفاعها ، فمن الذى يستطيع أن يوقفها ؟!

تراجع الرئيس الأمريكى بوش سيكلفه ثمنا باهظا ، واندفاعه إلى الحرب سيجعله يدفع ثمنا غالياً ، ويصيب النظام الدولى فى مقتل .

وتقضى الخطة الأمريكية على استخدام المفتشين ، مثل الزناد وعلامة البدء بانطلاق تلك القوات .

وبالتوازى مع آلة الحرب ، تتحرك آلة الدبلوماسية وآلة الإعلام تمهيداً للحرب .

هذا ما أكده كتاب جديد بعنوان «بوش ضد العراق .. لماذا ؟!» ، والذى ترجمته دار سطور ، واسمه الأجنبى «كشف المستور» ، تأليف عدد من الكتاب الأمريكيين ، وما أكثر الكتب التى صدرت تتناول الأزمة العراقية ، وهذا الكتاب موقفه واضح ضد هذه الحرب ، ومن موقع الحرص على المصالح الأمريكية ، وأحدهم سكوت ريتر ، أحد المفتشين السابقين فى العراق ، ووليم ريفز بيت وإدوارد سعيد الأمريكى الجنسية والفلسطينى الأصل ، وليفن أناتول ، ومايكل بايرز ، ونقلته إلى العربية د. فاطمة نصر .

ويقدم هذا الكتاب شهادة صادقة ، لا تحمل شبهة التحامل أو مناهضة أمريكا ، وفى نفس الوقت يرد ما جاء فى الكتاب على كل الادعاءات التى تزعم أن هذه الحرب جزء من المعركة ضد الإرهاب ، وأن مايجرى مخالفة صريحة للقانون الدولى ، وأن فى عزمها على إشعال الحرب تحدى معظم دول العالم ، الذى بدا واضحا فى قيام المظاهرات فى معظم عواصم العالم وحتى داخل الولايات الأمريكية ذاتها .

ورغم كل ذلك تمضى الاستعدادات على قدم وساق .

ولم يكن هذا الكتاب هو الصوت الوحيد ضد إشعال الحروب ، بل أدان عدد كبير من المفكرين الأمريكيين هذه الحرب ، ووصفوها بأنها عدوانية تقوم بدافع المباهاة بالذات ، فلا شرعية لحروب تنشب فى مواجهة أخطار صغيرة ، وغير محققة ، وعندما تشن حرب غير واضحة النتائج ، وليست مضمونة العواقب .

وأصدر مائة وأربعون مفكراً عالميا وثيقة موقعة ، يستنكرون خلالها الحرب ضد العراق ، ويندون بفكرة الحرب «الاستباقية» أو الوقائية ، وأدان البيان استعراض القوة الأمريكية ، وظاهرة الاستعلاء والاحتفاء بالنفس كأحد الملامح المرذولة فى الحضارة الأمريكية

واستنكر المثقفون - أيضا - أن تخطط الولايات المتحدة علانية لحرب شاملة ، ولا تستثنى خلال هذه الحرب الأسلحة النووية ضد العراق ، ذلك البلد الذى تلقى عليه القنابل - وتشن عليه الغارات منذ عقد من الزمان ، ويؤكدون أن حروب الرئيس الأمريكى بوش تهدف إلى الدفاع عن قوة الولايات المتحدة فى العالم ، والعمل على زيادة هذه القوة ، ودفاعاً عن الهيمنة العالمية ، وليست دفاعاً عن القيم والحريات وطريقة الحياة الأمريكية !

وتأخذ الفجوة فى الاتساع بين القوة المادية والحكم الإنسانية .

وفى بداية الكتاب تقرأ كلمه كارل كراوس :

«يكذب الدبلوماسيون على الصحفيين، ويصدق الدبلوماسيون أكاذيبهم لدى رؤيتهم لها مطبوعة» !

ويتحدث المؤلف عمّا أطلق عليه

«عقدة العراق» وهى العقدة التى تشكلت مع الزمن وأصابت الأمريكيين ، وساهم فى ذلك كل من الحرب الباردة والنفط والدماء المراقة والقوة الغاشمة ، ويبدو أن هذه العقد سوف تقود إدارة بوش نحو فوضى عارمة !

وتقوم حجة إشعال هذه الحرب على تبريرات واهية ، وذريعة غير مقبولة فبعد سبع سنوات من عمل مفتشى الأمم المتحدة الذين يعملون دون أى حد زمنى ، وبلا أى ضوابط ، بزعم أن العراق سيعطى أسلحة دمار شامل إلى تنظيم «القاعدة» ! وهى الأسلحة التى لايوجد أى دليل على وجودها .

وتجاهلت الولايات المتحدة أن العراق كان أداتها للقضاء على قوة أصولية وهى الثورة الإسلامية فى إيران ، كما تجاهلت هذه المزاعم أن القاعدة تستهدف النظام البعثى فى العراق .. وتتجاهل أيضا أنه بحربها ضد العراق تحقق أحد أهداف تنظيم «القاعدة» والذى يسعى إلى صراع بين الحضارات ، وهو التنظيم «الشبح» الذى تعلق عليه السياسية الأمريكية كل أعمالها .

وينقل الكتاب آراء دبليو سكوت ريتر .. والذى يصفه الكتاب ، أنه أحد رجلين لايطيقهم بوش ، ولايريد أن يعرفهما أحد، أو يسمع كلامهما أحد ، وهو مفتش سابق فى العراق ، كان ضمن قوات المارينز وضابط مخابرات سابق ، وينتمى إلى الحزب الجمهورى ، ويعارض شن الحرب ضد العراق ، وفى أغسطس ١٩٩٠ تولى قيادة فرقة من المارينز ، وترك المارينز فى يونيو ١٩٩١ وانضم إلى التفتيش واستقال منه عام ١٩٩٨ .

وعندما أخذ يدعو لضرورة وقف الحرب ضد العراق ، اتهم فى ولائه وحققت معه المباحث الفيدرالية F.B.I، وأخذت عليه زواجه من روسية ، وهو مايكشف الجو الخانق الذى يخيم على الحياة فى الولايات المتحدة .

ومع بداية الحوار مع سكوت يستشهد بأحد أقوال هيمنجواى : «الدواء الناجع للبلد سيئة الإدارة هو التضخم يصيب عملتها ، ثم الحرب ، ويأتى الاثنان بازدهار وقتى يعقبهما الانهيار ، وهما ملاذ السياسيين الانتهازيين» .

ويؤكد سكوت : «إن قدراً كبيراً من الشواهد يوضح أن العراق لا يملك المواد الضرورية ولا الإمكانية لإنتاج أسلحة الدمار الشامل» ويقول : « حينما غادرت العراق عام ١٩٩٨ عند انتهاء برنامج الأمم المتحدة للتفتيش ، كان قد تم القضاء على البنية التحتية والإمكانات التى تسهل إنتاج تلك الأسلحة بنسبة ١٠٠٪ .

فقد دمرت كل الآلات والإمكانيات المحتملة التى يمكن أن تسهل إنتاج تلك الأسلحة ، وتم تتبع التجهيزات ورصدها ، ثم تدميرها ، ويمكن القول باقتناع كامل إن البنية التحتية التى يحتاج لها العراق لإنتاج أسلحة نووية قد تم القضاء عليها .

وفشل العراق في الحصول على شهادة تؤكد خلوه من أسلحة الدمار الشامل ، وفى ذات الوقت انتهك دعاة الحرب مع العراق ، قرارات مجلس الأمن عندما استخدموا مقدرتهم فى القيام بعمليات تناقض قرارات مجلس الأمن بالتجسس والسماح بجمع معلومات مخابراتية لا تتعلق بالتفويض الممنوح للمفتشين ، مما يدين نظام التفتيش بأكمله.

أما بالنسبة للأسلحة الكيميائية - مازالت الشهادة لسكوت - فلم يعد فى العراق عامل كيميائي واحد يمكن أن يؤدى إلى القلق ، كما أن العراق لا تملك قدرة تعدد مراحل الصواريخ ، فهى تحتاج إلى اختبارات وتجارب لابد وأن تجرى فى الخلاء ، ولايمكن تحاشى رصدها والكشف عنها » .

وفى هذا الحوار يضع سكوت يده على نقاط بالغة الأهمية ، ويصل إلى أنه فى حالة مقاومة العراق وانفجار الشرق الأوسط ، ستكون هذه الحرب أعنف ما شهده العالم ونقلته الصحافة .

أمريكا والعراق

يستعرض فصل تاريخ الصراع ، بعض جوانب تاريخ العلاقات الأمريكية ، ويظهر هذا التاريخ مدى تقلب السياسة الأمريكية ، وقدرتها الفائقة ودأبها على تحويل أدواتها إلى أعداء .

فالبداية من أجل فهم السياسة الأمريكية وحل ألغازها ، التى كثيراً ماتبدو متضاربة ، ويحيطها الغموض ، ولا يجمعها رابط، وتفسير ذلك تقدمه كلمات «جورج كينان» مهندس الاستراتيجية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، ورسم خطوط الحرب الباردة .

يقول راسماً هدف السياسة الأمريكية سنة ١٩٤٨ : «تملك الولايات المتحدة ٥٠٪ من ثروات العالم ، وعدد سكانها لايتجاوز ٦,٣٪ من سكان العالم ، وسياستنا هى كيفية الحفاظ على هذا الوضع ..» .

هذا التصريح أذيع عام ١٩٤٨ ، أما اليوم فهل زادت نسبة ما تملكه الولايات المتحدة من ثروات العالم ؟! وبالتالى ظهرت سياستها الهجومية أكثر وضوحاً .. وفى هذا السياق يمكن فهم تأييد أمريكا لإسرائيل ؟!

ويذكر الكتاب أن المخابرات المركزية الأمريكية ساهمت فى انقلاب عام ١٩٦٨ الذى أطاح بعبدالكريم قاسم ، والذى تولى بعده حزب البعث مقاليد الأمور ، ولا يفصل الكتاب ذلك ، ولكن ما ذكره سبق وصرح به على صالح السعدى الذى كان نائبا لرئيس الوزراء العراقى فى حوار مع مجلة الطليعة . ويعترف أيضا أنه عقب تأميم البترول العراقى ، استعان الرئيس نيكسون بشاه إيران من أجل تسليح الأكراد وحثهم على التمرد على بغداد .

وعندما قامت الثورة الإسلامية فى إيران ، وضع بريجنسكى مستشار الأمن القومى أيامها خطة لمهاجمة

العراق لإيران من أجل استردادها شط العرب ، وبدأت حرب مدمرة بين البلدين الجارين بتحريض وتأييد أمريكي ، واستمرت مدة ثمان سنوات ، وبحلول عام ١٩٨٢ استبعد العراق من قائمة الدول المؤيدة للإرهاب ، وأعادت أمريكا العلاقات الدبلوماسية مع العراق عام ١٩٨٤ ، وعندما حذرت أمريكا العراق في عام ١٩٩٠ بعدم القيام بأعمال استفزازية ضد الجيران ، كانت تقصد احتمال هجوم العراق على إسرائيل .

خطة الهجوم

ويورد الكتاب مخططات الحرب ضد العراق ، فيذكر أن تركيا تسمح باستخدام قواعدها العسكرية ، بعد تعهد أمريكي بعدم قيام دولة كردية في شمال العراق ، ويكشف أن هناك بالفعل قوات أمريكية في مطارات وقواعد إمداد عسكرية في كردستان .

أما الهجوم الأمريكي الرئيسي ، فسيأتي من الجنوب ، وتحديداً من الكويت ودول الخليج الأخرى ، من القواعد الجوية الأمريكية التي طورت في كل من قطر والامارات والبحرين ، أما عدد القوات الأمريكية فيذكر أنها تصل إلى ١٥٠ ألف جندي ، ويلاحظ هنا ، أنه سبق وحشدت أمريكا خلال عاصفة الصحراء حوالي نصف مليون جندي أمريكي ، في ظل تحالف دولي واسع ، أما هذه المرة فيقل رقم القوات الأمريكية إلى حوالي الربع ، ألا يعني ذلك أنها ستعتمد على قوات أخرى ، مثل قوات التحالف في أفغانستان . فهل ستعتمد على «البشمرجه» أي القوات الكردية في الشمال ، خاصة وأن قوات المعارضة العراقية لاتشكل تهديداً عسكرياً . والأرجح عندي أنها ستستخدم قوات إسرائيلية بملابس أمريكية .

ويهدف الهجوم القادم من الجنوب إلى التقدم نحو بغداد ، التي يقطنها خمسة ملايين نسمة أي ربع سكان العراق ، وتسعى إلى حصار بغداد وعدم اقتحامها تجنبا لقتال المدن التي تزيد من خسائر القوات المهاجمة .

وخلال مراحل الهجوم ، تأمل القوات المهاجمة سقوط صدام ، وأظن أن مايجري في فلسطين هو تجربة أو (بروفة) لما يمكن أن يقع في بغداد ، ومن ناحية أخرى تتحرك قوات عمليات خاصة من الأردن إلى غرب العراق تحسبا لاحتمال إطلاق صواريخ على إسرائيل !

وهناك وثائق ودراسات تقدم إلى أطراف المعارضة العراقية ، وتتناول طرق سد الولايات المتحدة للفراغ الذي سينتج من سقوط النظام العراقي ، وتتراوح بين إدارة عسكرية أمريكية ، وبين إدارة دولية مؤقتة ، وهذه مجرد وصفات جاهزة ، تقفز على الواقع ، وليست أكثر من محاولات تجريبية ، لايعنيها رأي الشعب العراقي !

الاحتلال والديمقراطية !

ويا أيتها الديمقراطية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ، وتردد مراكز

الأبحاث الأمريكية والبريطانية ، والندوات والمؤتمرات ، أن أحد أغراض الغزو الأمريكي إقامة الديمقراطية ، ولا يتساءل أحد ، هل يمكن أن تفرض الديمقراطية من الخارج ، وبقوات احتلال أجنبية ؟!

ويزعمون أن العراق ستصبح نموذجاً يحتذى للديمقراطية ، تشع على كل ما حولها ، باعتبارها الأقدر على القيام بهذا الدور ، فهى بلد غنى بين المياه والنفط أى الزراعة والصناعة ، وسيصبح بعد إعادة تعميره ركيزة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، ويقوم هذا المشروع الأمريكى على أهمية موقع العراق ، الذى يحيط به كل من سوريا وتركيا وإيران والذى يطل على دول الخليج .

فهل ستغلب المواطنة كل ماعداها فى الوقت الذى يعمل فيه الأمريكيون على تكريس الانقسام العرقى والطائفى والعشائرى ، ويذكر أحد مؤلفى الكتاب ، «أن الديمقراطية فى الواقع تتناقض بوضوح مع المصالح الأمريكية ، فغالبية سكان العراق من الشيعة ، الذين يرتبطون بإيران (هكذا) ، مما يخلق رباطاً أصوليا بين جنوب العراق وإيران ويسيطر على حقول النفط الضرورية لأمريكا ، كما لايمكننا السماح للأكراد الذين يشكلون نسبة ٢٣٪ من السكان بحكم العراق ، أما نسبة الـ ١٧٪ من السنة فهى التى تضم الرئيس العراقى » .

ويضيف .. «نحن فى الحقيقة لا نريد ديمقراطية فى العراق ، لأننا لا نريد صعود الشيعة إلى السلطة ، ولا نريد استقلال الأكراد مثلما لايريد ذلك الأتراك» .

ويضيف سكوت فى حواره : «يبلغ تعداد عشيرة الرئيس العراقى ، وهى عشيرة أبو ناصر ٢٠ ألف فرد ، وتحكم بلداً يبلغ تعداد سكانه حوالى ٢٠ مليون نسمة » ، ويرى أن الطريق الصحيح هو السماح للعراق بإعادة بناء نفسه ، ورفع وإلغاء العقوبات الاقتصادية ، ونمو طبقة وسطى تتخطى الحواجز الدينية والإثنية والعشائرية ، وذلك وحده الذى يمكن أن يأتى بالديمقراطية .

الدم والنفط

ويفوت الكثيرين أن العراق ليست طالبان ..

يقول إدوارد سعيد : «فى حملة الدعاية الراهنة التى تدعو إلى إسقاط النظام العراقى ، غاب عن الأنظار الشعب العراقى ، الذى يعانى من الفقر وسوء التغذية ، وعشر سنوات قاسية من العقوبات . وكل ذلك من أجل أمن إسرائيل والحصول على نفط رخيص » .

واختفت صورة العراق الذى يملك أكبر عدد من القراء فى البلدان العربية ، والذى لديه طبقة وسطى عريقة ومثقفة ذات كفاءة مهنية عالية ، والتى تشكل أحد مراكز العالم العربى الثقافية .

ويتساءل : كيف للأمريكيين أن يعيدوا بناء أمة ذات ثقافة عريقة وتاريخ مجيد مثل العراق !

وتتجاهل العديد من الكتابات

الخطورة على الاقتصاد في مصر ، منها أن مصر تحصل على نفط من العراق بما قيمته ٢ مليار جنيه ، وتدفع مقابله ٥٠٠ مليون جنيه ، والباقي سلع مصرية ، فالعراق أحد البلاد التي تستوعب الصادرات المصرية المتعددة ، فما هي آثار حرب العراق على الاقتصاد المصرى؟!

ومما يجدر ذكره أنه لايتحقق الحد الأدنى من التضامن مع الشعب العراقى ، مع غياب التضامن بين البلدان العربية ولو فى حده الأدنى .

فلماذا - مثلا - لا تعلن الدول المجاورة أن العراق لايمثل تهديداً عليها ؟! .. ولماذا أيضا لاتعقد اجتماعات ومؤتمرات عربية مختلفة فى بغداد ، وخاصة الاتحادات والنقابات والجمعيات الأهلية ؟! تعبيراً عن المساندة والتضامن مع الشعب العراقى ..

هذا .. بعد أن نجحت إسرائيل فى توظيف المنازعات العربية لصالحها . ألم يحن الوقت بعد لإدراك ذلك ، وحل المنازعات التى تستفيد منها القوى الدولية؟!

وإذا التقت كل من القاهرة ودمشق وبغداد ، لتغير الكثير فى عالمنا العربى .

مستقبل التنظيم الدولى !

ستكون تلك الحرب فى الكلمة الأخيرة فى حياة الأمم المتحدة كمحافظة للسلام ، ويصبح مصيرها مثل عصبة الأمم ، هذا مايؤكده كتاب «بوش ضد العراق» فيطالب ميثاق الأمم المتحدة كل دول العالم، بـ «الامتناع عن التهديد بالقوة أو استعمالها» ، واليوم تستخدم الولايات المتحدة الأمم المتحدة كأداة للحرب ، والتهديد باستعمال القوة .

فالفجوة تتسع بين القوى المادية الساعية إلى التدمير وبين الحكمة الإنسانية، بعد أن راود الكثيرون فى أنحاء العالم الأمل فى أن يبدأ عهد جديد من العلاقات الدولية يسودها الحكمة والتفاهم والحوار بين الثقافات ، ويظهر عصر جديد يتحرر فيه ملايين البشر من الفقر والذل والجوع ، وأن يضع الغرب كل إمكانياته من أجل القضاء على الفقر، والوقوف ضد تدمير البيئة .

ولكن سرعان ما ظهر أن ذلك مجرد سراب وأضغاث أحلام !.

وأخيراً .. تحية واجبه لـ «سطور» المجلة ودار النشر ، التى لم تترك مؤلفاً مهماً إلا وسارعت إلى نقله إلى اللغة العربية ، من كتاب «صدام الحضارات» لهنتنجتون إلى كتاب «عصر الچينات» و«القدس» و«خدعة التكنولوجيا» وغيرها من الكتب المهمة . ■

الخطورة على الاقتصاد فى مصر ، منها أن مصر تحصل على نفط من العراق بما قيمته ٢ مليار جنيه ، وتدفع مقابله ٥٠٠ مليون جنيه ، والباقى سلع مصرية ، فالعراق أحد البلاد التى تستوعب الصادرات المصرية المتعددة ، فما هى آثار حرب العراق على الاقتصاد المصرى؟!

ومما يجدر ذكره أنه لايتحقق الحد الأدنى من التضامن مع الشعب العراقى ، مع غياب التضامن بين البلدان العربية ولو فى حده الأدنى .

فلماذا - مثلا - لا تعلن الدول المجاورة أن العراق لايمثل تهديداً عليها ؟! .. ولماذا أيضا لاتعقد اجتماعات ومؤتمرات عربية مختلفة فى بغداد ، وخاصة الاتحادات والنقابات والجمعيات الأهلية ؟! تعبيراً عن المساندة والتضامن مع الشعب العراقى ..

هذا .. بعد أن نجحت إسرائيل فى توظيف المنازعات العربية لصالحها . ألم يحن الوقت بعد لإدراك ذلك ، وحل المنازعات التى تستفيد منها القوى الدولية؟!

وإذا التقت كل من القاهرة ودمشق وبغداد ، لتغير الكثير فى عالمنا العربى .

مستقبل التنظيم الدولى !

ستكون تلك الحرب فى الكلمة الأخيرة فى حياة الأمم المتحدة كمحافظة للسلام ، ويصبح مصيرها مثل عصبة الأمم ، هذا مايؤكده كتاب «بوش ضد العراق» فيطالب ميثاق الأمم المتحدة كل دول العالم، بـ «الامتناع عن التهديد بالقوة أو استعمالها» . واليوم تستخدم الولايات المتحدة الأمم المتحدة كأداة للحرب ، والتهديد باستعمال القوة .

فالفجوة تتسع بين القوى المادية الساعية إلى التدمير وبين الحكمة الإنسانية، بعد أن راود الكثيرون فى أنحاء العالم الأمل فى أن يبدأ عهد جديد من العلاقات الدولية يسودها الحكمة والتفاهم والحوار بين الثقافات ، ويظهر عصر جديد يتحرر فيه ملايين البشر من الفقر والذل والجوع ، وأن يضع الغرب كل إمكانياته من أجل القضاء على الفقر، والوقوف ضد تدمير البيئة .

ولكن سرعان ما ظهر أن ذلك مجرد سراب وأضغاث أحلام !

وأخيراً .. تحية واجبه لـ «سطور» المجلة ودار النشر ، التى لم تترك مؤلفاً مهماً إلا وسارعت إلى نقله إلى اللغة العربية ، من كتاب «صدام الحضارات» لهنتنجتون إلى كتاب «عصر الجينات» و«القدس» و«خدعة التكنولوجيا» وغيرها من الكتب المهمة . ■



ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

أخطار التقدم التكنولوجي في القرن الحادي والعشرين

بقلم
حسين أحمد أمين

ذهب دارون - كما ذهب غيره من قبله - إلى أن كافة أشكال الحياة تطورت عبر سلسلة طويلة من الصور المتعاقبة . ويعني هذا أن تطور الحياة مستمر وسيستمر، وأن ما نحسبه ثباتا في صورة أي كائن حي ما هو إلا وهم ناجم عن اختلاف في المقاييس الزمنية . فإن كان الإنسان قد تطور من نوع من الكائنات سابق عليه، فلنا أن نتوقع تطوره هو نفسه إلى نوع لاحق له.

وها هم علماء البيولوجيا يذهبون اليوم إلى أن بعض التغيرات سيطرأ على الطبيعة البشرية في زمن ليس بالبعيد . ذلك أن توصل الإنسان إلى تحقيق انشطار الذرة قد يؤثر في جيناته عن غير قصد منه . غير أن مثل هذا التأثير قد يقدم الإنسان عليه عامدا متعمدا فيحدث بذلك نقلة ضخمة في عملية التطور ، وتكون هذه هي المرة الأولى التي يتمكن فيها كائن حي من تطوير نوع جديد من الكائنات الحية عن قصد ، وعن تخطيط واع .

مثل هذه القدرة على توجيه تطورنا والتحكم فيه سيكون له من الآثار على

مستقبل البشرية ما يفوق آثار أي من قدراتنا الراهنة .

وقد علمنا التاريخ أن كافة القدرات المكتسبة لابد من أن يستخدمها الإنسان عاجلا أو آجلا . وهو ما ينطبق أيضا على هذه القدرة البيولوجية الجديدة . ذلك أننا قد ندرك في زمن لاحق - إن لم نكن قد أدركنا بالفعل . أنه مع امتلاك الأسلحة النووية والكيماوية ، وتصاعد أعمال العنف واتساع نطاق المجازر البشرية المروعة ، قد يكون السبيل الأوحد إلى تجنب تصفية الجنس البشري لنفسه هو تكييف الطبيعة البشرية بحيث تغدو عاجزة عن اللجوء إلى العنف وأعمال الشر . وفي هذه الحالة نكون قد جردنا الانسان من جانب كبير من حرية الإرادة إذ نحوله إلى كائن أشبه بالملائكة أو بالنمل أو النحل وأغلب الظن أن العلم الحديث سيلجأ خلال القرن الحادي والعشرين إلى مثل هذا التطوير لطبائع البشر بدعوى الحق في اختيار أهون الشرين . غير أنه من المحتمل أيضا أن يستخدم علماء بعض الدول القوية هذه القدرة البيولوجية - شأن سائر القدرات - في تحقيق مآرب شريرة تجاه أعدائها ، وهو ما يجعل الأمر في هذه الحالة محفوفا بالأخطار .

لقد استغرق تطور الثدييات من الأشكال البدائية للحياة قرابة ألفي مليون سنة ، في حين استغرق تطور الإنسان من الأشكال الأولى للثدييات نحو مائة وخمسين مليون سنة فحسب. وها هو الآن وقد مر على ظهوره ما يقرب من مليون سنة ، وهو زمن قصير إن قورن بالرقمين السابقين .. وقد كان بوسعنا أن نستنتج من هذا أن زمنا يقل بكثير عن مائة ، وخمسين مليون سنة كاف لتطوير سلالة جديدة هي أرقى في سلم الكائنات من الإنسان .. غير أن أهم ما يميز الإنسان هو الوعي، بنفسه وبالكون حوله ، وهو ما حقق له الهيمنة ، والتفوق على سائر الكائنات الحية ، بل وسلحه بالقدرة على أن يتحكم - بمحض إرادته - في مسيرة ونوعية تطوره هو ذاته ، دون انتظار للتغيير الحتمي الذي تأتي الطبيعة به . ويعني كل هذا أن مستقبل التطور البيولوجي سيتوقف من الآن فصاعدا على مستقبل نمو التكنولوجيا الذي بدأ بدخول «الإنسان الصانع» مسرح الحياة .

ومع ذلك ، فإنه مع ما شهده القرن العشرون من ازدهار هائل في المجال التكنولوجي ، ومع ما تتوقعه الكافة من ازدهار أعظم خلال القرن الحادي والعشرين ، فقد واجه هذا التقدم الإنسان بتحد جديد ربما كان أكبر ما واجهه من تحديات في تاريخه كله . فرغم أن التكنولوجيا من انجاز الإنسان ، فإنها اليوم تتحدى قدرته على الاستمرار في التخطيط والتوجيه والتحكم في مستقبله هو ذاته ، وتهدد استمرار استخدامه لحريته في الاختيار



.. باتت تلك الأداة المخلوقة ، أو هذه الآلة غير الحية التي ابتدعها لخدمة مقاصده ، على وشك أن تعلن استقلالها عن مخترعها وأن تجرفه إلى حيث لا يريد أن يذهب ، شأن ذلك الكائن البشع الذى صنعه العالم فرانكنشتاين فى معمله .

هل يفقد الانسان سلطانه ؟

فكيف بزغ إذن ذلك الاحتمال أن يفقد الانسان سلطانه في مجال من مجالات نشاطه حقق فيه أعجب الانجازات ؟ قد تكون الإجابة سهلة على هذا السؤال : وهى أن السرعة الضخمة المخيفة التي يتحقق بها التقدم التكنولوجي في زماننا هذا خلقت هوة سحيقة بين القشرة الواعية فى الروح البشرية وبين ما تحتها من طبقة سميكة عميقة من اللاشعور ..

لقد كانت هناك دائما هوة بين الشعور واللاشعور منذ تكون لدى الإنسان وعيه بذاته وبالكون حوله . وكانت هذه الهوة هي الثمن الواجب دفعه حتى يصبح إنسانا . غير أنها الآن باتت من الضخامة بسبب تسارع وتعاظم انجازاته التكنولوجية بحيث أضحى من المحتمل أن يؤدى الأمر إلى كارثة ... كان على الإنسان فيما مضى أن يكيف نفسه حتى يعيش في عالمين مختلفين في آن واحد : عالمي الشعور واللاشعور ، وكان بمقدوره إلى حد ما أن يجمع بين الحصانين ليجرا العربة التي تحمل الروح البشرية . وقد كان هذان الحصانان (ولنسمهما العقل والقلب) يسببان دائما المتاعب والقلق لقائد العربة من جراء عدوهما فى اتجاهين مختلفين ، وركضهما بسرعتين متفاوتتين . فقد كانت سرعة العقل دائما أكبر من سرعة القلب . غير أن الإنسان ظل مع ذلك . وطوال الشطر الأعظم من ماضيه ، قادرا إلى حد ما على التحكم فى قيادة العربة ، وعلى التعايش مع تفاوت سرعة الحصانين .. لكن الحال وصل اليوم ، مع التزايد الهائل فى سرعة أحدهما – وهو العقل – والثبات النسبي في سرعة الآخر – وهو القلب – حدا يهدد بإفلات الزمام من يد الإنسان ، وانقلاب العربة به .

تمزق الروح البشرية

ظل اللاشعور فى الإنسان (أى تلك الطبقة العاطفية غير العقلانية من الروح البشرية) قادرا حتى عهد قريب، وإلى درجة ما ، على هضم واستيعاب البدع التكنولوجية التى فرضها العقل الواعي عليه فرضا ، وظل بالإمكان – بالرغم من مشقة الأمر – إجراء التغييرات والتعديلات المطلوبة فى تقاليد المجتمعات وقيمها وثقافاتها وأخلاقياتها وأديانها حتى تتفق مع هذه البدع .. غير أن هذه القدرة لها حدودها التى تبدو وكأنما رسمتها الطبيعة سلفا وأصرت على

إبقائها على ما هى عليه . فى حين تبدو سرعة العقل وقدراته وكأنها لا تعرف حدودا . وكانت النتيجة كما بدأنا نخبرها اليوم، وكما سنراها فى القرن الحادى والعشرين واضحة جلية . هى تمزق الروح البشرية ، وإصابة شخصية الإنسان بالفصام .

ولا شك فى أن التمزق يكون أكثر وضوحا حين تفرض حضارة متنامية قوية إرادتها ومفاهيمها وقيمها على مجتمعات غريبة عنها هى أقل ديناميكية وأضعف شأنا - ففى المجتمع الأضعف نجد الجهد المطلوب من أجل التكيف وفق مقتضيات الحضارة المعتدية الأقوى (أو وفق مقتضيات العولمة) هو من القسوة بحيث يتطلب ثمنا نفسيا وروحيا فادحا .. غير أن ما حدث للمصريين فى ظل حكم الإغريق ، وليهود فلسطين فى ظل حكم الرومان (بسبب فرض مفاهيم الحضارة الهيلينية نفسها على هذين الشعبين) ، وما حدث للآسيويين والأفارقة والشعوب الإسلامية فى ظل حكم الأوروبيين ، هو بالضبط ما يحدث للجنس البشرى كله اليوم فى ظل الشكل الحديث للحضارة الغربية فالبشرية بأسرها تترنح ، لا الغالبية من الشعوب غير الغربية وحدها .. ذلك أن نوعية التغير الحضارى التى يتطلبها التقدم السريع فى التكنولوجيا اليوم ، هى من الغرابة بحيث بتنا نرى مبتدعى هذه الثورة التكنولوجية أنفسهم من الغربيين وقد إختل توازنهم إزاء هذا المد الجارف الذى كانوا هم السبب فيه .

إن أى تغيير جوهرى يطرأ على جانب من جوانب الحياة يقتضى تغييرا مناسبا فى الجوانب الأخرى حتى تظل الحياة البشرية متناسقة متوازنة . فاختراع البندقية والمدفع مثلا لا يغنى صاحبهما عن استخدام القوس والسهم والرمح والسيف فحسب، وإنما ينسخ أيضا تقاليد وعادات ومناهج فكر ، وتتولد عنه قيم وأساليب حياة تختلف عن تلك المعروفة وقت استخدام القوس والسهم ، ومع التوسع فى إقامة المصانع فى بداية الثورة الصناعية ، تغير نمط الحياة العائلية فى بحر سنوات قلائل تغيرا يناسب انتشار التصنيع ، وكذا تغير وضع المرأة تغيرا مهما مع تعليب المأكولات المحفوظة واختراع الأفران والغسالات والثلاجات الكهربائية ثم اختراع وسائل منع الحمل .

هذه الحقيقة يدركها العقل جيدا . ويدرك أنه مع كل ثورة يحققها فى مجال التكنولوجيا لابد من إجراء التعديلات الموائمة فى الميادين الاجتماعية والسياسية والحضارية والثقافية من أجل ضمان جدوى التغير التكنولوجى ونفعه ، أو على الأقل ، لتجنب ضرره ودرء شره . غير أن العقل فى تلك الميادين - عكسه فى المجال التكنولوجى - يعجز عن تحويل المعرفة إلى عمل ما لم تقنع القلب بالتعاون معه ويوسع القلب أحيانا أن يتجاوب ، (وإلا لما ظلت البشرية قائمة



حتى الآن) . غير أنه مهما كانت قدرته على التجاوب ، فإن هذا التجاوب يأتي دائما متأخرا . وفي هذا التأخير يكمن الخطر ، خاصة في ظل التزايد الرهيب الراهن في سرعة التقدم التكنولوجي .

علاقة الانسان بنفسه وبغيره

هذا عن الخطر .. أما عن الخطأ فيكمن في ظني في فشل البشرية فشلا ذريعا في ميدان ذي أهمية قصوى ، ألا وهو علاقة الانسان بنفسه وبغيره من البشر . وهو فشل يتناقض تناقضا فاضحا ومحزنا مع نجاحه الباهر في علاقته بالطبيعة الصماء حوله . ففي فترات التغير الاجتماعي الضخم الناجم عن الانجازات العلمية والتكنولوجية ينحسر سلطان الدين والتقاليد والقوانين الأخلاقية لتحل محله مشاعر الفردية والأنانية والتناحر وتكالب الأفراد على طلب المنفعة المادية، دون أن تتوفر لدى القائمين على الثورة التكنولوجية أية عناية ذات شأن بسبل التربية والتثقيف الكفيلة باتقاء هذه الشرور . ومن هنا جاءت حدة التصارع بين القلب والعقل ، بين الشعور واللاشعور المكونين للروح البشرية ، في حين كان من الواجب أن يعملا في تآلف واتحاد متى أراد الإنسان التحكم في المواقف التي تواجهه ، والمعضلات التي يقحم نفسه فيها .. ويزيد من ضرورة هذا التآلف أن لدى كل من العنصرين القدرة على إفشال مسعى الآخر ، وأن يصيب الروح البشرية بالشلل ، متى حاول التصرف بمنأى عن الآخر ، ومستقلا عنه ، ودون أن يوليه أي اعتبار .

إن قدرة الله إنما تتجلى في إسدال الحجاب ، بينما تتجلى قدرة الإنسان في كشف النقاب .. فكأنما تتمثل العملية إذن في إخفاء يعقبه استجلاء ، وما من تكريم من الخالق للمخلوق أعظم من إشراكه في هذه العملية معه .. غير أن الانسان تمادى في سعيه إلى كشف النقاب عن أسرار الكون من حوله تماديا اتسم بقدر هائل من الشطط ، ومن العماية والافتقار إلى الحكمة وإلى التأني الواجب ، ومن الزهو بنفسه والمبالغة في تقويم قدراته ، تماديا أفقده الحق في الاشتراك في اللعبة ، خاصة إذ بات العقل يلعب لحسابه وعلى مسئوليته ، ويتحمل وحده ما قد يسفر عنه خطل الرأي من عواقب . وربما كان هذا هو بعض ما تعنيه الآية القرآنية الكريمة :

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) . ■

أقوال معاصرة

● «كل جديد يهاجم الجيل الراسخ».

الأديب نجيب محفوظ

● « لا غرب بلا شرق يؤسس الحضارة الإنسانية ولا شرق بلا غرب يواصل البناء على الأسس الأولى»

عبدالعزيز المقالح

رئيس مركز الدراسات والبحوث اليمني

● «من حقنا أن نريد برنامج عمل إسلامي ينطق لعصرنا وحاجاتنا.. من دون إرهاب طالبان، ودون تهديد الأمريكان».

المفكر البحريني محمد جابر الأنصاري

● «العداء لأمريكا لا يحول دون الالتقاء على تحقيق مصالح مشتركة».

محسن ميردا مادي

رئيس لجنة الشئون الخارجية في البرلمان الإيراني

● «أراني ميالا إلى بيان اللغة، وليس إلى بديعها وزخرفها، وإلى شفافيتها وسهلها الممتنع، وليس إلى وعرها وغريبها».

الأديب المغربي بنسالم عميشن

الفائز بجائزة نجيب محفوظ لهذا العام عن روايته «العلامة»

● «إن الحرب قد تكون شرا لابد منه، ولكنها دائما شر، ولم تكن خيرا أبداً».

الرئيس الأمريكي جيمي كارتر

● «الكاتب الحقيقي لا يكتب من أجل مجد وشهرة، وإنما لأنه لا يستطيع ألا يكتب».

الأديب ربيع جابر

● «ما يجرى على الأرض العربية باسم العرب، مادة أساسية من مواد التحولات الكبرى في القرن الحادي والعشرين، ان لم أقل المادة الأولى».

الشاعر السوري أدونيس

● «لو كانت نوبل أيام الفراعنة لحصلوا على ٩٠٪ من جوائزها».

الدكتور أحمد زويل

العالم المصري الفائز بنوبل

● «عندما تتصاعد أصوات رافضة من مرقدي الأخير، فخمنوا انه أنا ما أزال».

جونتر جراس

الأديب الألماني الفائز بنوبل



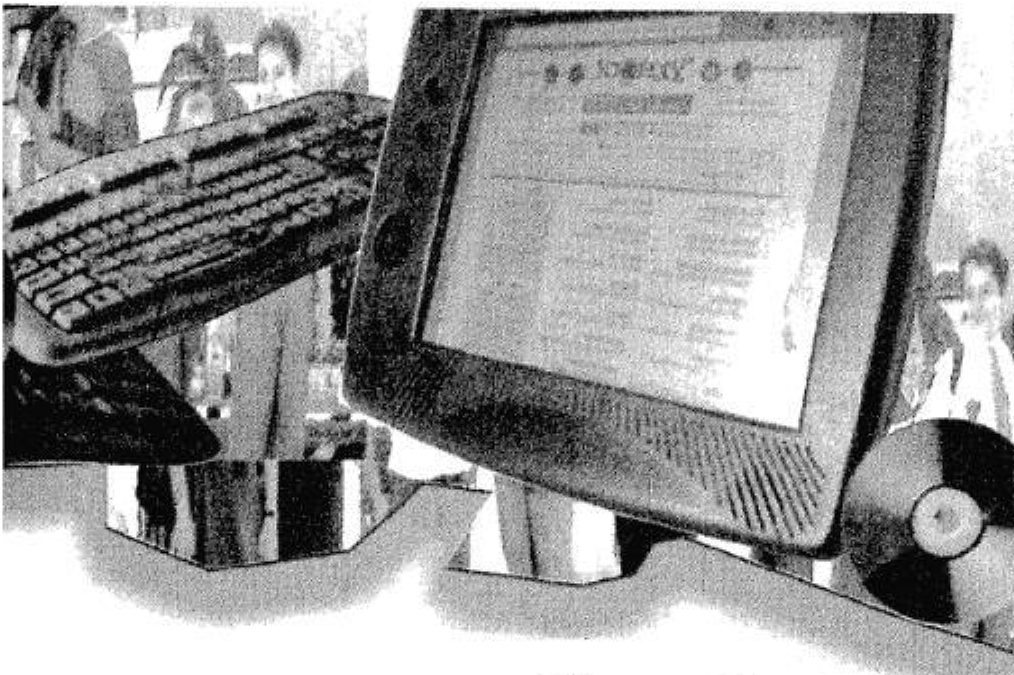
نجيب محفوظ



جيمي كارتر



أحمد زويل



ماذا يحدث غداً ؟!

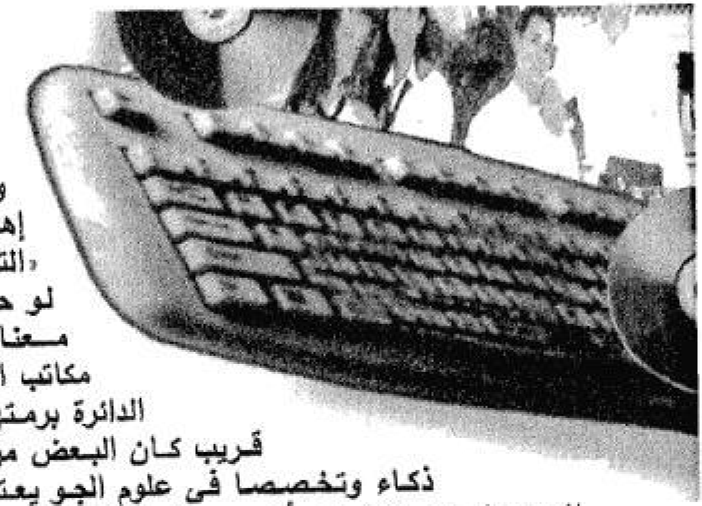
جزء خاص

مستقبل الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

يذكر فى عام ١٩٢٠ فى الولايات المتحدة، كانت هناك مقترحات جدية لإقفال باب الاختراع وعدم براءات اختراع جديدة! لأن كل مايمكن اختراعه قد تم اختراعه، كما برر مسئول مكتب براءات الاختراع آنذاك تشارلز نيول.

وفى عام ١٩٠٩ استهزأ موظفو الجمارك البريطانيون بمقولة «احتمال تنقل المسافرين والبضائع عبر الجو»



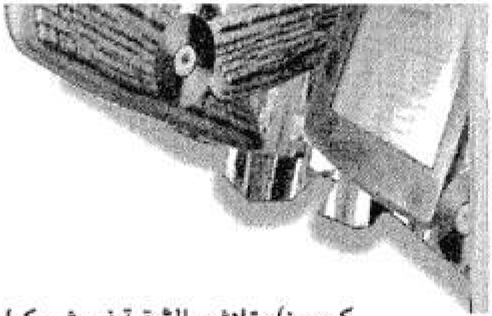
وقالوا يجب إهمال هذه «التخرصات» لأنها لو حدثت فإن معناها هو إغلاق مكاتب الجمارك وإقفال الدائرة برمتها! وحتى أمد قريب كان البعض من أكثر الناس ذكاء وتخصصا فى علوم الجو يعتقدون أنه من المستحيل على الإنسان أن يسبر غور الفضاء، ومن هؤلاء عالم الجو البريطانى السير هارولد سبنسر الذى دحض «الأوهام» التى تحوم حول فكرة سفن الفضاء، وذلك فى عام ١٩٥٧. ومن سوء حظه أن السوفييت أطلقوا أول سفينة فضائية فى التاريخ، سبوتنيك/١ بعد أسبوعين فقط من تصريحه الشهير وقتها!

وعندما فكرت شركة أى. بى. أم الأمريكية الشهيرة المتخصصة فى صناعة الكمبيوتر بإنتاج كمبيوترات، وبيعها فى الأسواق، أواخر الأربعينات من القرن الماضى، صرح مديرها آنذاك توماس واتسون، أنه لايعتقد أن السوق يمكن أن يستوعب أكثر من خمسة أجهزة كمبيوتر على الأكثر. والآن كلنا نعلم أن بعض البيوت فيها هذا العدد من أجهزة الكمبيوتر.

ومنذ عشر سنوات تقريباً، كان لايمكن أن نتخيل الإنترنت عام ٢٠٠٣، والتى أصبحت اليوم طوفان من المعلومات بلا حدود تتقاسمها مع أى شخص، يستطيع الوصول إلى هناك، من خلال وسيط فريد فى نوعه، ومع ذلك هناك من يقول: أن زمن الإنترنت انتهى!

فمنذ التسعينات بدأت الإنترنت بخمسة أجهزة كمبيوتر متشابكة، حتى يوليه ٢٠٠٢ وصل عدد الكمبيوترات الرئيسية المزودة والمكونة الشبكة (host computer) ١٦٢١٢٨٤٩٢ جهازا. ووصل إجمالى رسائل البريد الإلكترونى التى ترسل يومياً حول العالم ٦٠ مليون رسالة، وهناك ٢٧٥ مليون شخص على الإنترنت يستخدمون آلات البحث عن المعلومات يومياً، وتعداد مجتمع الإنترنت فى العالم كله حوالى ٨٠٠ مليون مستخدم الآن، وكان حوالى ٣٩١ مليوناً حتى ٣١ مارس عام ٢٠٠١، ويتوقع أن يبلغوا أكثر من ٩٤٠ مليون مستخدم عام ٢٠٠٤.

لم ينته زمن الإنترنت، ولم يأفل نجمه بعد، رغم الكساد والخسائر التى لحقت بالعديد من شركات الإنترنت المسماة (دوت



كـومـز) وتلاشي الثـقـة في شـركـات تكنولوجيا شبكة المعلومات الدولية . هذا مـاقـاله عـدد ممن تحدثوا أثناء مؤتمر كبير عقد في لندن أخيراً حول موضوع تأثيرات الإنترنت على المجتمع، وأفضل السبل لجعل هذا الأداة الجبارة تساهم في التـغـيـيـر وقـد نظمت هذا المؤتمر جمعيات بحوث ودراسات بريطانية حاولت فتح النقاش من جديد، حول مدى تأثير الإنترنت على المجتمع وكيف يمكن التحكم فيه، لجعله في خدمة البشرية.

الخطوة القادمة

ورغم أن حمى الإنترنت كانت قد اعترت في البداية رجال الأعمال وأسواق المال، فإن عدداً من المحاورين أثناء المؤتمر أعربوا عن اقتناعهم بأن التأثير الأكبر سيكون على حياة الأشخاص، والمجتمع ، وليس الأعمال والشركات . فهذه التقنية الرائعة المتمردة اندفعت في ثنى عضلاتها ، واستعراض قوتها! وأصبح السؤال الكبير الواضح في هذه الألفية الجديدة: ماهو مستقبل الإنترنت، وما هي خطوتها القادمة؟ وللإجابة على هذا السؤال، أنفقت المجلة الأمريكية العلمية المشهورة باسم Discover ، منذ عدة شهور مضت مع معهد ديزني العلمي Disney Institute في الولايات المتحدة الأمريكية، على تشكيل لجنة من المبدعين التقنيين والتي اثبتت التجربة بأنهم جيدون جداً في توقع المستقبل، للإجابة على هذا السؤال ! ونوقشت في تلك اللجنة ، نقاط متعددة حول الخطوة القادمة للإنترنت. وكان السؤال الرئيسي في تلك الحوارات حول نوع العالم الجديد الذي ستخلقه الإنترنت؟ وهل ستقودنا الإنترنت فعلاً إلى عالم مترابط ومتشابك، وهل سوف تنهار الحدود القومية بين دول العالم؟ وهل هناك أشكال جديدة من الحدود سوف تظهر بين الكيانات والتجمعات الافتراضية ، التي يندمج تحتها الناس من خلال تجاربهم وتفاعلهم على الشبكة؟

وناقش هؤلاء المبدعون أيضاً دراسة تأثيرات التقنية على المجتمع، وبالأخص على الثقافة . ونزعم هنا أن دراسة تأثير الإنترنت على الثقافة في منتهى الصعوبة، لأن «الثقافة» مفهوم معقد للغاية، وأيضاً لأن التغييرات الثقافية بطيئة عادة ، لكن هناك العديد من مؤسسات المجتمع ، والتي تعتبر جزءاً من التراث الثقافي - مثل أشكال السلطة ، والمعايير المختلفة للفن المبدع ، يفضل دراستها بشكل منفصل، بسبب تغييرات التقنية العميقة والسريعة على تلك المؤسسات. على أية حال، عدد كبير من المؤشرات الثقافية الأخرى التي تتطور ببطء أكثر مثل معتقداتنا، ولغاتنا وعاداتنا، يصعب جداً ملاحظة تغييرات التقنية عليها! وبصفة عامة يصعب قياس الاختراق المحتمل الأعمق للملكية في حياتنا الاجتماعية.

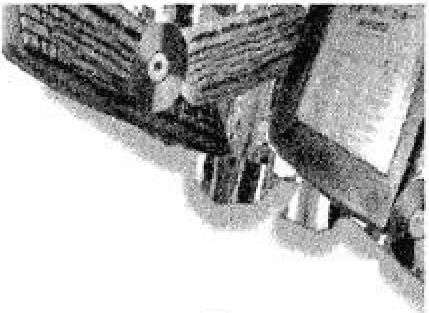
والجهد المبذول لدراسة تأثير التقنية على الثقافة يطرح في الحقيقة المزيد من الأسئلة! أكثر من كونه يقدم إجابات شافية. لكن الأسئلة تنير لنا الفهم بطريقة ما، لأن كل وقفة سؤال يقدم لنا سلسلة من الاحتمالات المثيرة، ويعرضنا لطرق جديدة للتفكير، وفهم التغييرات التي تحدث حولنا، ونبدأ بطرح بعض الأسئلة ، التي نزعم أنها تقدم لنا مزيداً من الأسئلة لفهم تأثيرات تقنيات المعلومات، خاصة الإنترنت وموجاتها القادمة على الثقافة:

١ - هل سوف نتكلم كلنا في العالم لغة واحدة يوماً، أو عدة لغات؟ ان تقنيات الاتصالات والنقل - بالإضافة إلى الهجرة والغزو، بالطبع - ذهبت بعيداً لتقليل العزلة الجغرافية التي انتجت بغزارة اللغات الإنسانية المختلفة، فهل ستختفي تلك اللغات المختلفة يوماً ما؟ وهل سيتعلم تلاميذ المدارس حول العالم الإنجليزية أو لغة التعارف القادمة!؟ هل ستنجح تكنولوجيات المعلومات في تسهيل عبء الترجمة، وتقلل الاختلافات بين العالم؟ هل سيتكرر السيناريو التوراتي لبابل - بتبعثر القبائل في الكلام بألسنة غير مفهومة، أم ان مهارتنا العالية في التقنية تشجعنا للارتفاع إلى مستويات جديدة؟

٢ - تصبح الأديان على حد سواء ويزداد التسامح بين أصحابها ، وتتقارب أكثر؟ هل سوف يتفق أصحابها أو سيتباعدون؟ كان هناك دفع عظيم في السنوات الأخيرة لإثارة التشابهات بين الأديان المختلفة، بدلاً من اختلافاتها. هل تنجح تقنية المعلومات في تقديم الأديان المختلفة إلى العديد من الناس؟ وهل الناس سيكونون أحرارا لاختيار دينهم من بين الخيارات المطروحة؟ إذا كان الأمر كذلك، ما معنى الجوهر العميق للمعتقد الديني إذا تحولت الأديان للاختيارات مجردة؟ هل تجعل تقنية المعلومات الأمر أكثر سهولة على الأديان لجذب وتجنيد الأعضاء الجدد، أو تصعب الموقف، بسبب عدد الخيارات المتوافرة؟ هل يمكن أن تتماثل وتندمج الأديان؟

٣ - هل ستقلل الإنترنت الاختلافات بين الثقافات، أو ستصبح تلك الاختلافات أكثر تعقيداً؟ وإذا كانت الثقافات تملك أنماطا وممارسات متميزة، وأن تلك الفروق والتمايزات مهمة للإنسانية، فهل ستتوافر فرص متساوية توفر للناس إمكانية الوصول السهل والرخيص إلى ثقافات أخرى على الإنترنت؟ هل سيتعلم الناس أن يتحملوا ثقافات أخرى، ويتسامحون معها على حساب ثقافتهم ؟ هل يصبح كوكبنا متجانساً أو أكثر تنوعاً ثقافياً؟

٤ - هل يتباطأ التطور الثقافي أو يسرع؟ فالثقافات تتغير ببطء، ويعتقد بعض الناس أن تقنية المعلومات ستساعد جيداً على إبقاء وصيانة وإبلاغ العناصر الرئيسية للثقافة! وانها يمكن أن توقف التغيرات في العديد من المعتقدات والممارسات التي يمكن أن تأتي من الآخر! لكن ألا يحتمل أن التعرض المستمر إلى المعتقدات والممارسات البديلة



، يسرع فعلاً من سرعة التغيير الثقافى؟

٥ - هل سوف يزيد تفاعلنا مع بعضنا البعض، أم يقل ذلك التفاعل؟ تتضارب نتائج الدراسات التى نشرت حول الكيفية التى تجعل تقنية معلومات تميل إلى عزل الناس أو تنجح فى تجمعهم سوياً. وتحت هذه الادعاءات السهلة، هناك أسئلة مهمة حول تأثيرات التكنولوجيا على كمية الوقت الذى نقضيه مع الناس الآخرين؟ وماذا نعنى «بقضاء الوقت مع الآخرين».

ولأن الثقافة تميل إلى التطوير والنمو ببطء فمحاولة الإجابة على هذه الأسئلة ستأخذ دائماً تقريباً شكل الاستنتاجات الضخمة التى نتوصل إليها من الأدلة الصغيرة جداً. وهذا يزيد تقريباً شكل الاستنتاجات الضخمة التى نتوصل إليها من الأدلة الصغيرة جداً . وهذا يزيد التناقضات حول الثقافة، وحقيقتها، فالثقافة هى المجال الوحيد الذى نمارس فيه فى نفس الوقت أقل وأكثر تحكم وسيطرة على التكنولوجى! فبينما نحن نمارس إجراءات نهائية للسيطرة على الاعتقادات واللغات والعادات ، التى نمارسها، نجد أن الثقافة يشترك فيها ويؤثر عليها الاختيارات المستقلة للملايين الآخرين.

فى عالم ماقبل الإنترنت ، كنا جميعاً عندما نهاتف أحداً بالتليفون، لابد أن نكون على معرفة به، ونبحث عن رقمه للاتصال به! المدهش الآن أن الصداقات والاتصالات والروابط والكيانات الاجتماعية ، تتشكل بطريقة آنية وعفوية على الإنترنت، قد تكون من خلال المشاركة فى هواية، أو اهتمامات مهنية ، أو معتقدات دينية! فهى جاهزة التكوين فى أى وقت، فهناك آلاف من الكيانات الاجتماعية فى فضاء الإنترنت! والذى يبهرنى شخصياً الكيفية التى دمرت بها الإنترنت الجغرافيا! فعندما كنت طفلاً، ما حتى تخيلت الكلام مع الناس فى البلاد الأخرى، الآن ابنى يلعب لعبة تفاعلية على الإنترنت، مع خصوم فى فرنسا واليابان! والناس الآن يتواصلون عبر الإنترنت، رغم اختلاف لغاتهم من خلال آليات الترجمة الإلكترونية الفورية! ومع ذلك نحن بالكاد بدأنا الآن مع هذه الإنترنت، وهى تسرع ، ونحن نلهث وراءها ، فالموجة التكنولوجية القادمة من الإنترنت، تسمح للناس بالتواصل بدون خسارة وفقدان التفاصيل الدقيقة فى الاتصال ، سواء كان ذلك فى تعبيرات الوجه مثل الحاجب المرفوع علامة على التعجب ، أو الوفاء بتفاصيل المسرحية الكوميدية التى تشاهدها!

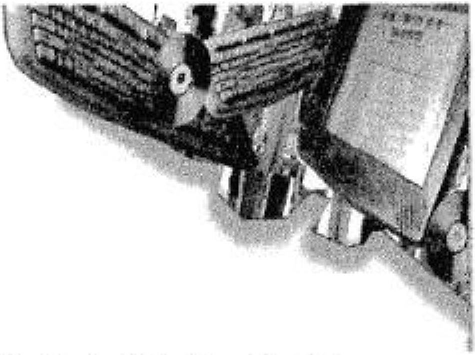
فهناك أكثر من موجة قادمة فى تكنولوجيات الإنترنت! على سبيل المثال يعكف العلماء الآن على أن تكون التكنولوجيا الرئيسية فى الإنترنت هى الصوت والفيديو ، بدلا من النص المتكلم

المنتشر الآن! فالفيديو هو المستقبل الحتمي للإنترنت، لكن يجب أن تبذل الجهود في أن يكون استخدام الفيديو في الإنترنت في سهولة استعمالات معالجات الكلمات المنتشرة الآن! فعلماء الفلك عندما يطالبون علماء تقنيات الإنترنت، أن يوفروا لهم إمكانية الدخول على التلسكوب الإلكتروني الموجود على قمة جبل موناكي Mauna Kea في هاواي ، بدون أن يضطروا إلى صعود ١٤٠٠٠ قدم، يكون الحل ، أن نوفر الفيديو عند اطراف أصابع الناس من خلال الانترنت، فيمكن لعلماء الفلك، وهم في معاملهم أن يدخلوا على صور وبيانات التلسكوب التي يرصدها وهو موضوع على قمة الجبل! ويتشاركون بالصوت والصورة مع الفلكيين الآخرين، ويناقشون دراساتهم ، وأيضاً في إمكانهم أن يدخلوا على المراصد الفلكية المنتشرة في العالم، وهم جالسون في قاعات الدرس مع طلابهم! لكن المشكلة في كيفية وصول موجة إنترنت الجديدة إلى المستعمل النهائي، ونذكر أن أحلام البشرية تتحقق عادة في وقتها المناسب. والشيء السحري في الإنترنت الآن،أن في إمكان شخص ما في أي بلد أن ينشر برنامجه المجاني على الإنترنت ذات مساء، وفي الصباح وبسبب ذلك البرنامج تتغير انماط عمل وتجارة الكثير من الأفراد حول العالم! فتصميم الإنترنت وفر عفوية رائعة أدت إلى الكثير من المرونة ، بحيث يمكن أن يصمم فيها أي شيء! وهنا معجزة وعبقرية الشبكة، ولكن فيها خطر عظيم! وظهر الكثير من السياسيين الذين يطالبون بعدم تمكين دخول الأطفال على الإنترنت للتزود بالمعرفة ، في الوقت الذي يمكن فيه أن يتعرضوا لصور للبرنوجراف والأدب المكشوف!

التحدي في عصر الإنترنت

وهذه قضية جوهرية، فهذه التقنية ستصبح أكثر انتشاراً في حياتنا، وستظهر تداعياتها على الأشياء التي نلبسها ، والتي نراها، وفي سياراتنا! وفي كافة مجالات حياتنا اليومية، وستجلب معها تلك التقنية الصالح والطالح! فهي تحمل كلاهما! فلا يمضي أسبوع بدون أن تقرأ الآن أن هناك فيروس دمر البيانات الموجودة على اقراص أجهزة الكمبيوتر في مؤسسة ما، ويكلفنا ملايين الدولارات! وهناك إرهابيو الإنترنت، الذين يمكنهم شل وتعطيل قوة مسلحة متقدمة ، وهم على بعد في أجزاء من الألف من الثانية! وهكذا تمكنت تنظيمات اجتماعية في الظهور في فضاء الإنترنت! فالمشكلة أن تقنيات الإنترنت تركض أسرع من أعرافنا، وعاداتنا الاجتماعية، وتقاليدنا ومعاييرنا الأخلاقية! التي نلهث وراءها ولا نستطيع اللحاق بها! فالإنترنت توفر لنا فرصة السرية، وتجهيل وإخفاء الهوية التي تشجع على السلوكيات السيئة! ونحن في حاجة إلى قوانين جديدة تناسب متغيرات فضاء الإنترنت.

وأهتم العلم بدراسات التفاعل بين تكنولوجيات المعلوماتية والإنسان، والتي تستهدف جعل تلك التكنولوجيات أكثر



فائدة وأكثر صلاحية للاستعمال، وتزود المستخدمين بالتجارب التى تلائم خلفيتهم المعرفية وأهدافهم . والتحدى الآن فى عصر المعلومات، ليس فقط جعل المعلومات متوفرة ومتاحة للناس فى أى وقت، وفى أى مكان، وفى أى شكل لكن بشكل محدد، التحدى هو قول الحق فى الوقت الصحيح وبالشكل الملائم، ومصممو أنظمة الكمبيوتر فى تفاعلها مع الإنسان يواجهون مهمة هائلة، ومرعبة فى كتابة برامج الكمبيوتر، فأثناء التصميم مطالبين بكتابة برامج تناسب الملايين من المستعملين بخصائصهم المختلفة ، وفى وقت استعمال تلك البرامج يجب أن تبدو وكأنها صممت خصيصاً لكل مستعمل لوحده ويحوث نموذجة المستعمل User modeling تحاول عنونة تلك القضايا، وهى أحد مجالات البحث التى يشكل فيها أساس المقترحات والاستثمارات الدافعة، ومستندة على حاجات المستعملين الواضحة وأرباحاهم المحتملة.

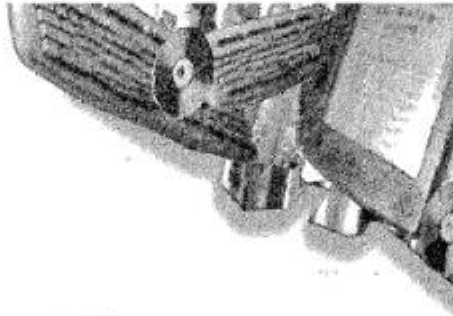
الموجة القادمة للإنترنت

عندما بدأت شبكة الويب العالمية فى ١٩٩٠، كان مشكوكاً فى نجاحها ومستقبلها . الآن هناك ملايين مواقع الويب، وبلايين صفحات الويب. لكن العديد من الناس يدركون جيداً، أن الويب بطيء بشكل مؤلم لأن أكثر الناس مازالوا يوصلون إلى الإنترنت من خلال استعمال المودمات وخطوط الهواتف. والمعروف أن قدرة خطوط الهواتف، (مدى التردد bandwidth) على حمل البيانات الإلكترونية، منخفضة، ونحتاج وقتاً طويلاً فى استلامها. لذلك وعدت التقنيات الجديدة الموجة القادمة للإنترنت بمعالجة هذه المشكلة . فمن خلال استعمال خطوط الألياف الضوئية، واستخدام تقنية كابل التليفزيون للاتصال بالإنترنت، تزداد سرعة الوصول بشكل مثير، وتجعل الويب أكثر فائدة، ويتوقع رؤية انفجار فى التجارة الإلكترونية، والمشروعات التعاونية، ومؤتمرات الفيديو، والبيانات التخيلية . والكثير من تلك التطبيقات تحت التطوير النهائى، وبعضها جاهز فعلا وقيد الاستعمال الآن فى بعض الأشكال، مثل «إنترنت٢» هو مشروع أمريكى بدأ من خلال اتحاد أكثر من ١٢٠ جامعة أمريكية مع الحكومة وشركات تقنية المعلومات لتطوير تقنيات إنترنت متقدمة، وتطبيقات عالية المستوى لايمكن أن تعمل على شبكة الإنترنت المستخدمة حالياً مثل تقنية «Iearning» (وهوبرنامج سيتم استخدامه فى الفصول الدراسية والتعليم عن بعد)، وكذلك المكاتب الإلكترونية، وعقد الاجتماعات عن بعد بكفاءة أعلى مما سيؤدى إلى اختفاء الحد الفاصل بين الإنترنت كتقنية والتليفزيون. ولتحقيق ذلك يعتمد إنترنت٢ على استخدام بروتوكول إنترنت (الإصدار ٦) بدلاً من (الإصدار

٤) المستخدم حالياً. ومشروع شبكة إنترنت ٢، حالياً، غير مفتوح للعامة، لكنه ليس شبكة منفصلة، فهو يعتمد على بروتوكول IP، وتشترك به حالياً ١١٧ جامعة أمريكية، بالإضافة إلى الإدارات الحكومية، وحوالى ٢٥ مؤسسة. ويوفر المشروع سرعة نقل عالية جداً، يبلغ معدلها ٦٢٢ ميجابت في الثانية، فترسل نسخة من كتاب بحجم ٣٠٠ صفحة فى ٧ ثوان فقط. وتكمن إحدى فوائد شبكة إنترنت٢، في تخفيف حمل حركة مرور البيانات الحكومية، والبيانات الخاصة بالأبحاث الأكاديمية، عن شبكة إنترنت العامة، مما يسرع استخدام الشبكة لجميع المستخدمين ، بما فيهم مستخدمي شبكة إنترنت٢، وعندما يكتمل الائتلاف بين مئات الشبكات السريعة، التى ترتبط بكوابل الألياف الضوئية، سوف ترسل البيانات فى سرعة بحدود ٢.٤ gigabits فى الثانية، يعنى أكبر ٤٥ ألف مرة، من سرعة المودم المعتاد والمستعمل الآن، حيث تقدر سرعته بـ ٥٦ كيلو بت بالثانية ، وتسمح للعلماء لاختبار اكتشافات مختبرهم الافتراضي، وكأنهم في العالم الحقيقي.

وهذا الجيل الجديد من الإنترنت بدأ يصبح على الخط فى فبراير ١٩٩٩، وارتبطت به عدد من الجامعات حول العالم. وسيتوفر للاستعمال التجارى فى بضع سنوات. ثم يستعد لخدمات القرن الحادي والعشرين مثل التليفزيون التفاعلي، ومؤتمرات الفيديو التخيلية ثلاثية الأبعاد، والأفلام عند الطلب، وأكثر بكثير. وتلك الشبكات السريعة ستوفر الفرصة للمهنيين المحترفين العمل بطرق كانت مستحيلة من قبل، وكما أوضحنا فى البداية مثال علماء الفلك، فإن علماء العالم فى إمكانهم أن يشتركوا فى الأجهزة المتخصصة مثل المجاهر الإلكترونية ، وقد طورت وكالة ناسا الأمريكية عيادة تعاونية تخيلية، توصل من خلالها كافة التسهيلات الطبية حول الولايات المتحدة بالكامل! وتسمح للأطباء من على بعد بالتعامل ومعالجة الاختبارات الطبية مثل صور أشعة بالرنين المغناطيسى ثلاثية الأبعاد وذات درجة وضوح عالية جداً. والأطباء يستطيعون أيضاً غير الاستشارة والتشخيص القيام بالجراحة من على بعد باستعمال Cyberscalpel «سيبير سكاليبل»، بمعنى المحاكاة للعملية الجراحية، حيث تعطى الجراحة التخيلية الجراحين الفرصة للمزاولة قبل البدء الفعلى بدخول غرفة العمليات الحقيقية ، فتوفر الوقت المطلوب لإجراء العملية.

وإذا كان الكمبيوتر الشخصى اليوم هو الوسيلة الأساسية لدخول الإنترنت، فنحن نرى الآن بشائر وجود أجهزة أخرى للدخول عن طريقها للإنترنت مثل أجهزة البيجر والهواتف المحمولة، التي ترسل وتستلم البريد الإلكتروني ويدخلان الويب. وقريباً، كل شيء من سيارتك إلى ثلاجتك سيكون مرتبط إلى الشبكة العالمية، وتتصل مع بعضها البعض لاسلكيا! فالمكنسة الكهربائية في منزلك ستبين لك على شاشتها جدول العمل الذى



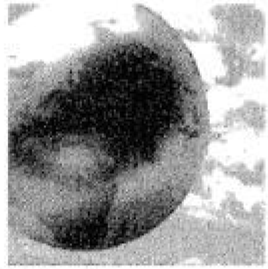
ستقوم به بالدقيقة والثانية، حتى تترك لها المنزل لتعمل براحتها، وثلاجتك ستدير مخزونك من الأطعمة، وترسل قائمة التسوق بالبريد الإلكتروني إلى سوقك المركزي المحلي، وتحدد وقت تسليم المشتروات، بحيث لاتعطل عمل المكنسة وتنسق معها! إن إنترنت ٢ ليست منفصلة عن الإنترنت، ولن تكون بديلاً عنها، فهي في تواز معها. وبخلاف ماعليه الحال في مشروع إنترنت ٢ الذي تقوده الجامعات، فإن الحكومة الأمريكية هي التي تقود وتمول مشروع إنترنت الجيل المقبل (NGI) إنترنت الجيل المقبل (the Next Generation Internet-NGI) التي انطلقت في الأول من أكتوبر ١٩٩٧ – هي مبادرة تشترك فيها عدة هيئات ومؤسسات، سعياً لمضاعفة السرعة الحالية للإنترنت ١٠٠–١٠٠٠ مرة، ولإيجاد تقنيات تشبيك أقوى كثيرا من تلك الموجودة حالياً على الإنترنت. وعلى كل حال فإن المشروعين يتقدمان بشكل متواز ويكمل كل منهما الآخر. ويهدف مشروع إنترنت الجيل المقبل (NGI) إلى تطوير تقنيات تشبيك شاملة (end-to-end) متقدمة تحفز على تطوير تطبيقات ثورية ستستخدم في الشركات والأعمال، والجامعات، والمدارس، كما سيستخدمها أيضاً عموم الناس. ومن هذه التطبيقات – على سبيل المثال لا الحصر – المكتبات الرقمية وتطبيقات متقدمة للتعليم، والعناية الصحية، والخصوصية والأمن إضافة إلى تطبيقات صناعية وبيئية .

إسرائيل والعرب

كشفت مجلة «إنترنت شوبر» في عددها الصادر في مايو عام ٢٠٠٠ عن أن إسرائيل انضمت للمشروع الأمريكي «إنترنت٢» وانتهت من إعداد إجراءات الاتصال بهذه الشبكة الجديدة بعد أن وقعت في وقت سابق – في أوائل عام ١٩٩٩ – على اتفاقية لتوصيلها بشبكة «إنترنت٢» الأوروبية، وهي شبكة مثيلة للشبكة الأمريكية. ويسمى المشروع الأوروبي «الإنترنت٢» باسم كوانتم، ويسمح بتبادل المعلومات بين الدول الأوروبية بسرعة تصل إلى ١٥٥ ميجابايت في الثانية، معتمد في ذلك على تقنية جديدة مشابهة للإصدار ٦ الأمريكي أما المشروع الأمريكي فأكثر تطوراً. وهناك من يقول إن إسرائيل ستعد أول دولة في العالم بعد أمريكا تستخدم «إنترنت٢»، وأن الحكومة الإسرائيلية ستقوم بدعم المشروع الأمريكي والمشروع الأوروبي لمدة ٤ سنوات من أجل الاستفادة منه في تطبيقات خاصة بالأبحاث المتعددة على الهواء مثل عقد الاجتماعات المرئية والبث المباشر عبر الإنترنت والطب الهاتفي أو أي تطبيقات تحتاج إلى سرعات هائلة. وفي تعليق لرئيس تحرير المجلة على تأثير انضمام

إســرائيل «لإنتــرنت ٢» الأمــريكي والأوروبي قال : «إنترنت ٢ ستجعل من شبكة الإنترنت الحالية التي يستخدمها العرب والعالم شبكة عقيمة مثلها مثل الطائرات الشراعية القديمة، مقارنة بالطائرات النفاثة العملاقة المستخدمة حالياً. ولما كانت الاستفادة من شبكة إنترنت ٢ مقتصرة فقط على أمريكا وكذا الشبكة المثيلة الأوروبية مقتصرة على عدة بلاد أوروبية - فإن انضمام إسرائيل للشبكة الأمريكية ومثيلتها الأوروبية لايعني سوى مزيد من انعزال العرب وتخلفهم وراء أسوار الشبكة القديمة ، في حين ستتميز إسرائيل بكونها الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط التي ستستفيد من التقنيات الجديدة وما سيتبعها من تطبيقات لن يتمكن العرب من استخدامها أو الاستفادة منها». ومن ناحية أخرى يلاحظ أن النظرة في الشرق الأوسط نحو الإنترنت مختلفة من بلد لآخر، فهناك تخلف واضح؛ فسبعة بالألف فقط من المنطقة الـ ٢٨٠ مليون عربي يستخدمون الإنترنت. بينما في إسرائيل تعد التكنولوجيا العسكرية واحدة من أهم مجالات التطور التكنولوجي ودوافعه، حيث تتفوق إسرائيل على أوروبا وتقف بين أول خمسة مراكز عالمية في إنتاج برمجيات تكنولوجيا المعلومات. واستثمارات أمريكا في التكنولوجيا في إسرائيل تفوق مافي بريطانيا أو آسيا مجتمعة وشرق أوروبا.

بالعكس من إسرائيل هناك تردد عال في الدول العربية لتبني تكنولوجيا المعلومات ، وخاصة الإنترنت. ويقفون موقفاً سلبياً منها متخوفين كالعادة من المحرمات الثلاثة: السياسة والدين والجنس، لكن التخوف الأكبر بين الحكام العرب من الأثر السياسي للإنترنت! وإذا كانت هناك محاولات مشكورة تبذل في مصر، لتوفير أجهزة كمبيوتر في كل أسرة بأقساط معقولة، وتوفير إمكانية الوصول إلى الإنترنت بتكلفة متوازنة، فإن الحواسيب وحدها ليست كافية الانضمام إلى الاقتصاد الإلكتروني، فمحو الأمية الرقمية عنصر أساسي أيضاً . لقد أصبح واضحاً خلال السنتين الماضيتين أن توفير خط هاتف وجهاز حاسوب لكل سكان مصر لن يكون بحد ذاته قادراً على تجسير الفجوة الرقمية التي باتت تتسع بين مصر والعالم المتقدم فالموضوع يحتاج أولاً عقلية جديدة تكسر منظومة التخلف السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لأن التكنولوجيا الرقمية تكون عديمة القيمة عملياً إذا وجدت في مجتمع يسيطر عليه منظومة التخلف، وبين ناس غير مؤهلين بالمعرفة الكافية للعمل عليها وكذلك الرغبة لاستخدامها . وهؤلاء الذين لايستطيعون استخدامها بثقة سواء كانوا دولا كاملة أو مجموعات أو أشخاصاً سيصبحون تدريجياً مهمشين في القرن الجديد ■



ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

السينما المصرية

رؤيـــة مستقبلية

بقلم

مصطفى درويـــش

نتساءل فى هذه الأيام العصيبة من عمر لسينما المصرية، ما مصيرها، وماذا ينبغى أن تكون، فيما لو كتب لها أن تواصل فى مستقبل الأيام مسيرتها، التى بدأت قبل أكثر من خمسة وسبعين عاما، من عمر الزمان.

فمعروف أن ماجرى عرضه من انتاجها فى أثناء العام الذى ودعناه قبل ساعات، قد انحدر إلى سبعة وعشرين فيلما، يدخل فى عدادها خمسة أفلام. جرى عرضها على عجل، بمناسبة عيد الفطر المبارك، ومن بينها فيلمان اتخذا هذين الاسمين خللى الدماغ صاحى وكذلك فى الزمالك وأغلب الظن أنه لن يبقى منها على شاشة ذاكرتنا سوى فيلم أو فيلمين، أحدهما اللمبى، لا لسبب سوى أنه فيلم فاصل وفاضح فى آن معا .

استديو جلال !



فاصل بين سينما لاتقول شيئا، وأخرى تواجه مشكلات الحياة كما نواجهها، وتصورها في أفلامها تصويرا دقيقا، خصبا، مجديا. وفاضحا لسينمائيين ونقاد منفصلين عن حياة معاصريهم، أو اعتزلوهم ليعيشوا في أبراج عاجية، حيث ينتجون أفلاما لاتتصل بآلام الناس وآمالهم، ومايعرض لهم من بؤس ونعيم، ويكتبون مشيدين بهذا النوع من الأفلام.

انعدام البشائر

أما عن انتاجها على مدار العام الجديد، فالراجح أنه، ومع التفاؤل الشديد، سيجنح نحو الانحدار إلى النصف، وربما أقل، في ظل المشاكل التي تقيم صانعي الأفلام وتقعدهم، منذ حين، ودون سعي منهم إلى إيجاد حلول جذرية لها في المستقبل القريب.

هذا، وليس ثمة في الأفق مايبشر بأنها مقبلة، ورغم الكم الضئيل، على إنتاج أفلام، في أثناء العام الحالي، تصور حياتنا الواقعة على نحو يؤهلها للبقاء على شاشة ذاكرتنا.

ولقد تصادف، وأنا حائر اتساءل مع المتسائلين عن مآل السينما عندنا، وماذا تدخر لها الأيام، أن وقع بصري.. وأنا أقلب صفحات العدد الأخير من مجلة ستديو الفرنسية (عدد ديسمبر ٢٠٠٢) وعلى بضع صور مأخوذة من معرض في باريس، التقطتها لورى فاسكونتي لاستديوهات عتيقة في برلين وروما والقاهرة ولوس أنجلس، حيث لاتزال تصنع الأحلام، أو كانت تصنع في سالف الزمان.

وتحت كل صورة لاستديو في واحدة من تلك المدن، وجميعها عدا لوس أنجلس عواصم لبلادها المانيا وإيطاليا ومصر، كتبت صاحبة المعرض تعليقا من بضعة أسطر، كاشفة فيه ما آل إليه حال الاستديو، تحت تأثير عاديات الزمان.

وكان استديو «شيني شيتا» (وتعني بالإيطالية مدينة السينما) في روما واستديو جلال في القاهرة، كان كلاهما أكثر استديوهات المدن الأربع تأثرا.

الغزو الكبير

فوفقا لتعليق فاسكونتي على صورته في مدينة السينما الايطالية أثناء عام ٢٠٠٠ غزا التليفزيون الإيطالي المدينة بجميع استديوهاتها، عدا استديو رقم خمسة، حيث كان يصور فيلليني روائعه

أما لماذا حدث هذا الاستثناء فذلك لأن اتساع استديو فيلليني فاق بكثير طاقة التليفزيون على الإرسال.

وعلى كل، فلم يبق من عصر السينما الايطالية الذهبي سوى نفر من الفنيين المسنين، أرباب المعاشات، ونفر آخر من قدامى الممثلين المؤدين لأدوار هزلية، والعاطلين عن العمل.

ويكاد لايمر يوم دون أن يتوجه كلاهما إلى الكافيتيريا، حيث يبدو تجمعهما العفوي، وكأنه اجتماع لقدماء المحاربين.

وفي طرقات المدينة – يتعثر المرء في



بينوكيو ونهضة السينما الإيطالية

بقايا ديكورات متروكة وشأنها منذ سنوات.

ولعل خير مثل على ذلك رأس ضخمة ومتوجة استعملها فيلليني في فيلمه كازانوفا.

وهنا لا أحد يقدم أية خدمة لأي من كان، ولاشيء مسلطة عليه الأضواء.

فمدينة السينما غارقة ليلا في بحر من الظلام، وكان على حتى أتمكن من القيام بعملي الاستفادة في بعض الأحيان من أنوار كشافات السيارات.

بأس ورثاء

فإذا ما انتقلنا إلى صورة استديو جلال التي جرى التقاطها في فبراير لعام ٢٠٠٢، فسنجد أنفسنا إزاء تعليق لفاسكونتي يقطر يأسا من مستقبل السينما في أرض الفراعين.

ففيه ترثي حال الاستديو قائلة: إنه لم يبق منه شيء، أي أثر.

كل ما هناك حظيرتان ضخمتان بأرضية جرداء، وأسلاك كهربائية عالقة بالأسقف، وكأنها ديدان.

السينما في مصر ماتت، ولم يعد في الإمكان العثور على معمل لتحميض الأفلام.

إنه الخراب، الإهمال والتبذير بغير حساب ويحاول نفر من الشباب مدفوعا بالحماس، العمل من أجل إعادة بناء استديوهات مصر، وهي فعلا تقع على عتبة الأهرامات، وكانت تعتبر أكبر استديوهات سنوات الثلاثينات.

غير أن رسوخ الأخلاقيات المتشددة

والرقابة والضرائب رسوخ الجبال جعل تنفيذ هذه المهمة أمرا من الصعوبة بمكان.

ولأن صناعة السينما عالمها مليء بالمفاجآت، فقد حدثت فيما بين تصوير فاسكونتي لاستديوهات مدينة السينما في روما، قبل عامين، وصدور العدد الأخير من مجلة استديو، أمور لم تكن في الحسبان.

عودة الروح

فبسحر ساحر عادت الروح إلى استديوهات مدينة السينما في روما، تلك الاستديوهات الضخمة التي بناها بنيتو موسوليني، ديكتاتور إيطاليا، قبل خمسة وستين عاما، لتكون بوق دعاية لنظامه الفاشي البغيض والحق، أن الروح لم تعد إلى تلك الاستديوهات إلا بفضل خصخصتها، وتزويدها بأحدث التقنيات الرقمية، وتبني الدولة لسياسة ضرائبية أكثر جنوحا لحماية صناعة السينما، هذا إلى تحرير جميع وسائل التعبير، ووسائط الإعلام الجماهيرية من رق الخضوع لاستبداد الرقابة سواء كانت رسمية أو أهلية، متمثلة في فضوليين من عامة الناس، اعتادوا الاستمتاع باستعداء القضاء ضد فن السينما، وذلك عن إيمان ساذج بأنهم على علم ومعرفة بمسائل الأخلاق، ومن ثم بما يضر وينفع الناس من الأفلام.

وما أن استردت السينما الإيطالية عافيتها، بفضل عودة الروح إلى استديوهات مدينة السينما، حتى بدأ تصوير بينوكيو أغلى فيلم في تاريخ السينما الإيطالية، إذ بلغت تكلفته حوالي أربعين مليونا من عزيز الدولارات.

وبينوكيو مأخوذ عن قصة بنفس الاسم، تدور أحداثها حول صبي كلما نطق لسانه بكذبة، طال أنفه.

والقصة من تأليف الأديب الايطالي كارلو كوللودي ويرجع نشرها إلى عام١٨٨١.

ومنذ هذا التاريخ أتيح لها من النجاح والانتشار مالم يتح لقصة إيطالية في العصر الحديث.

وثمة إجماع من النقاد في مشارق الأرض ومغاربها على الإعجاب بها.

وهذا الانتشار والإعجاب دفع السينمائيين إلى ترجمتها للغة السينما أكثر من مرة، كانت أولاها في فيلم رسوم متحركة طويل، من إنتاج استديوهات والت ديزني، قبل اثنين وستين عاما.

أما بينوكيو الايطالي، فقد اخرجه روبرتو بينيني صاحب الحياة الجميلة، ذلك الفيلم الفائز بثلاث جوائز أوسكار، من بينها أوسكار أفضل فيلم أجنبي.

هوليوود وروما

وأعود إلى التصوير في استديوهات مدينة السينما، بعد عودة الروح إليها، لأقول : إنه لم يقتصر على أفلام السينما الايطالية، بل تجاوزها ممتدا إلى أفلام السينما الأمريكية.

فقبل بضعة أشهر صور فيها مارتن سكورسيزي المخرج الأمريكي الذائع

الصيت فيلمه «عصابات نيويورك» بطولة ليوناردو دى كابريو، دانى داى لويس، وكاميرون دياز.

وخلال الأشهر الأولى من العام الجديد يزمع النجم ميل جيبسون صاحب قلب شجاع تصوير فيلمه عن الاثنتى عشرة ساعة الأخيرة من حياة السيد المسيح.

وكما استردت السينما الايطالية عافيتها يرجى للسينما المصرية أن تسترد هى الأخرى عافيتها فى مستقبل قريب.

مرض وشفاء

فهى لم يجنها الموت بعد، كما غالت فاسكونتى في تصورها لحالها، من واقع اكتفائها حسب البادى من تعقيبها، بما رأته عيناها فى استوديو جلال فهذا الاستديو توقف فيه التصوير منذ زمن بعيد ورغم ذلك، استمر عطاء السينما المصرية من الأفلام الروائية والتسجيلية دون انقطاع.

وهى إذا كانت عليلة، فعلتها ليست من النوع الخبيث، المميت.

ولعلى لست بعيدا عن الصواب إذا ما جنحت الى القول بأنه لاخوف على صناعة السينما فى مصر، فيما لو تحقق لها ما تحقق لصناعة السينما فى ايطاليا، بفضل عودة الروح إلى استديوهات مدينة السينما.

وفيما لو اتيح للسينمائيين المصريين أن ينزلوا بأفلامهم متحررة



مدينة السينما فى روما

من الرقابة، إلى الحياة الواقعة، وأن يشاركوا الناس فى الامهم وآمالهم .

انتصار الشباب

وفيما لو فتحت الأبواب أمام جيل من المواهب الشابة، أثبت من ناحية قدرات تقنية متميزة، ومن ناحية أخرى ولعا بالابتكار.

جيل سينمائى جديد، لاينقصه سوى أن تتاح له فرص الاقتحام.

والحق أنه ليس فى وسع أية قوة أن تقاومه، فهو جيل المستقبل.

وهذا المستقبل سيكون قريبا فيما لو أسرع أولو الأمر فى مجال الثقافة، بفتح الأبواب، وبعيدا فيما لو أبطأوا.

ولكنه سيكون على كل حال. ■

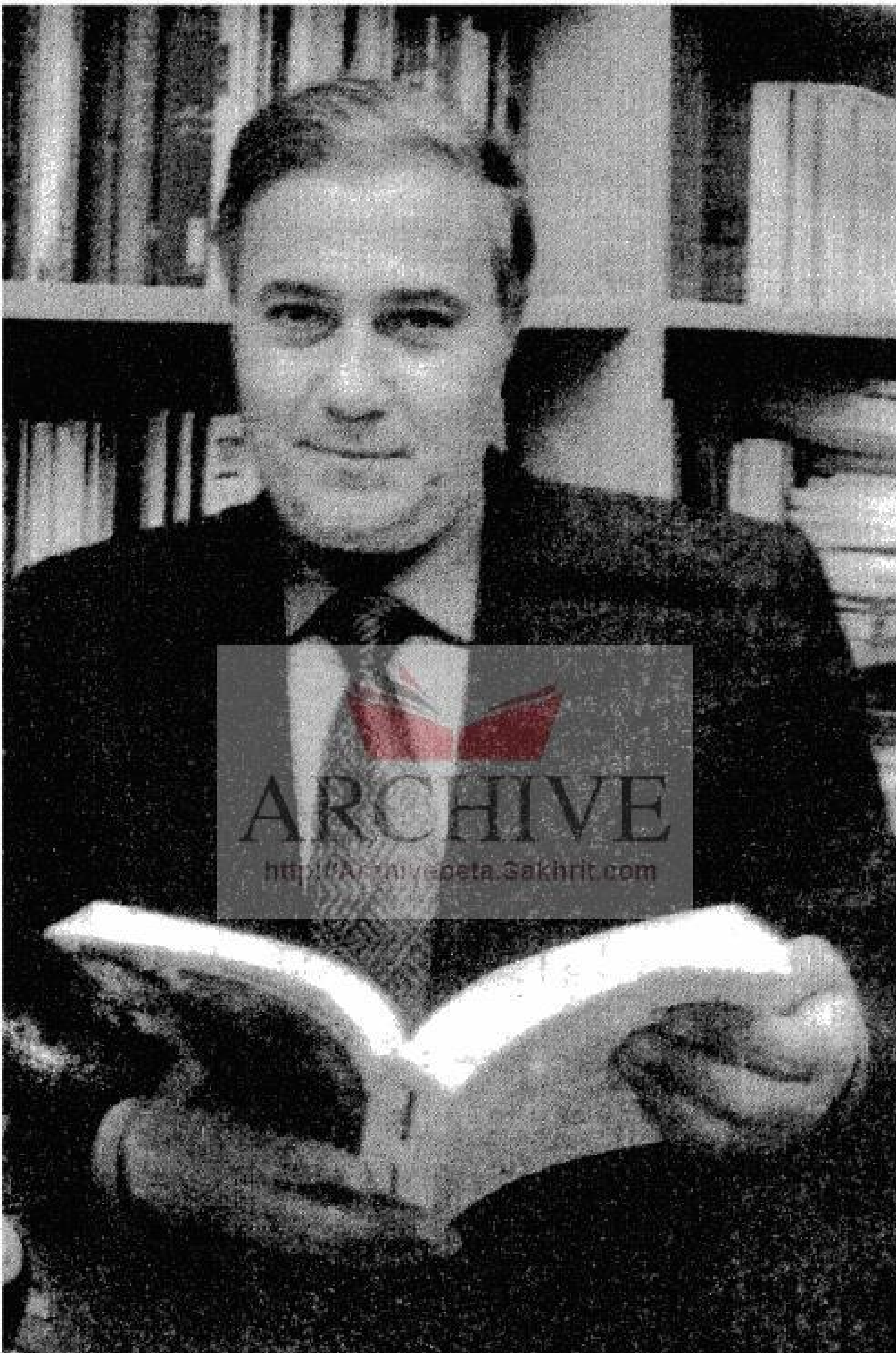
فاروق جويدة



شاعر الحب والحياة

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

هذا القلم لم يخط سوى الشعر، حتى ليخيل إلىّ أنه لو طلب إليه أن يستوفى البيانات اللازمة لاستخراج «بطاقة تموين» لصاغ تلك البيانات فى عبارات هى إلى الشعر أقرب منها إلى النثر، وإن جاءت فى صياغة نثرية، فلن تفارقها روح الشعر، فهو شاعر بالسليقة، حتى فى أحاديثه العادية.. ولا يتمثل الشعر عنده فى اختيار ألفاظ معينة لا يعدوها. فكل الألفاظ عنده تصلح أدوات لأشعاره، وليست الأوزان والقوافى هى من لوازمه الدائمة، فكثيراً ما يتحرر من القوافى، وفى بعض الأحيان لا يلتزم حتى بالأوزان، فضلاً عما يعمد إليه فى جانب كبير من إبداعاته إلى أسلوب النثر، وهو يتناول القضايا الحياتية، والمشاكل اليومية.. ومع ذلك كله فأنت لا ترى فيه إلا شاعراً، فروح الشعر قد تملكته فى كل إبداعاته.. تلك الروح التى لا تظهر فى الألفاظ والعبارات والتركيبات بقدر ما تظهر فى المعنى الكامل الذى يعبر عنه، فى الغاية السامية التى يهدف إلى تحقيقها، فى الصورة الكاملة التى يود أن يرسمها، فى النغمة الرقيقة التى يحب دائما أن يعزفها، فى اللحن الشجى الذى لا يفتأ يردده، فى الآفاق العلوية التى يود أن يسمو إليها، فى معاني الصفاء والنقاء والطهر والشفافية التى يتمنى أن ينشرها ، فتسود وتصبح هى ديدننا فى الحياة، تقود خطانا، وتنير أمامنا الطريق، وتفتح لنا الآفاق.





يتخذ مسرح فاروق جويدة الشعرى من أحداث الماضى مدخلا ينفذ منه إلى الحاضر بكل عثراته ومشاكله ومآسيه

إنه الشاعر: فاروق جويدة.. لا نصفه بأنه الشاعر الكبير، أو المبدع، أو بغير ذلك من الأوصاف، فيكفى أن نذكر اسمه ليتمثل أمام عشاقه ومحبيه: بوجهه الباسم، البشوش، بنظرته الرقيقة ، بكلماته الحلوة المؤثرة .. وما تلبث أغانيه وقصائده وأشعاره أن تتردد فى السمع ألحانا عذبة، ونغمات آسرة، فإذا بك فى عالمه الجميل، تردد معه أجمل المعانى، وتعيش معه الحب الصادق، والسماحة الصافية، فى صحبة كل ما هو جميل.

حب الحقيقة

والحقيقة أن شاعرنا قد اجتاز بأشعاره كل العوالم التى اجتازها من قبله الشعراء، ولكنه تفوق على من قبله بإخلاصه الصادق لكل ما يعبر عنه، وبتجرده الكامل لحب الحقيقة فى كل ما تغنى به.. وليست الحقائق كلها عنده وردية، فنظرته للأمور هى دائماً نظرة متعمقة تنفذ إلى الجوهر، ولا تقف عند الظاهر، بل ولا يمكن أن تخدع عن الحقائق أيا ما كانت المغريات.. ومع ذلك فأنت تحس به دائماً يخاطب قلبك، وينفذ إلى سريرتك .

فهو - كما ذكر - لا يجلس فى برج عاجى ويكتب .. بل هو كما تحدث عن نفسه قائلاً : «أنا لا أرسم رسماً هندسياً لعمارة .. أنا إنسان يتفاعل مع مجتمعه وظروفه وتكوينه ومتغيراته وأنمى نفسى فكرياً وثقافياً وأحاول استيعاب تجربة عصرى وجيلى ومن خلال كل هذا يأتى الإبداع.. أنا لا أجلس فى برج عاجى وأكتب.. أنا أدعى أننى مهموم حتى النخاع بقضايا وطنى وأمتى.. وقد يكون هذا منحنى مشاركة الناس سواء فى مسرحياتى أو شعرى أو مقالاتى...».

والشاعر فاروق جويدة مسرحيات ثلاث مطبوعة ومنشورة بل وجرى تمثيلها على مسارح الدولة، وشاهدها الآلاف من المشاهدين وصفقوا لها رضا وإعجاباً وانبهاراً، وقد أذيعت اثنتان منها فى التليفزيون أكثر من مرة فاتسع بذلك نطاق المشاهدين.. أما الثالثة، فلم يؤذن لها بأن تتخطى عتبات المسرح إلى الشاشة الصغيرة حتى الآن ، وقد تساءل الشاعر أكثر من مرة عن السر فى حجبها عن الجمهور العريض، وما أحسبه جاداً فى تساؤله، فهو يعرف قبل غيره - بل وأكثر من غيره - حقيقة ذلك السر الذى لا يفتأ يتساءل عنه!

وثمة مسرحية رابعة فى الطريق، وهى - على ما يبدو قد اكتملت ملامحها ، وربما تمت فصولها واستوت خلقاً سوياً، ولكنها لا تزال أسيرة صاحبها لم يأذن بعد بأن يرفع عنها الستار.. وأحسب أنه قد حان أوان ظهورها..!

والجامع بين المسرحيات الأربع أنها جمعت بين ماض وبين وحاضر، فهى وإن كانت ترجع بأحداثها إلى ماض بعيد - أو قريب - إلا أنك ما إن تدخل إلى عالمها، وتعيش مع أبطالها حتى ترى نفسك وكأنك فى مجتمعك المعاصر، تعيش أحداثه، وتواجه مشاكله، تفرح بأفراحه، وتتعذب بعذاباته.. وكأن كل ما هنالك من فروق لا يعدو اختلاف الأزياء، وما يطلق على أولئك الأبطال من أسماء معروفة تاريخياً.

وذلك هو ما أشار إليه الشاعر نفسه - بصراحة ووضوح - فى حديث عقب فوزه بجائزة الدولة التقديرية.. ففى حديثه عن «المسرح الشعرى» الذى كان من أرق من ارتادوه، وأبدعوا فى مجاله.. كان مما ذكره: عشت فى مسرحية (الوزير العاشق) ضياع الأندلس وضياع القدس.. سميت التاريخ وخلعت عليه الواقع، واستشرفت من خلاله المستقبل وحذرت.. و(الوزير العاشق) كانت نبوءة لما يحدث فى الوطن العربى الآن برغم أنها نبوءة سيئة تحققت ولم أكن أتمناها..! وفى مسرحية (دماء على ستار الكعبة) أخرجت الطغاة العرب - وما أكثرهم فى التاريخ الحديث - وأخرجت الحجاج من قبره، ونصبت له محاكمة، وحاكمت كل الطغاة..!! وفى مسرحية (الخديو) أنصفت الأسرة العلوية ضمن السياق الموجود، وقلت إذا كانت هذه الأسرة لها أخطاء، فلها أيضاً مكاسب، وأن الأشياء القليلة الباقية الآن فى حياتنا كانت من صنع الخديو إسماعيل ومن صنع محمد على، وأنصفت الخديو إسماعيل برغم أننى مختلف معه كثيراً، وناقشت قضية الديون وناقشت قضية الدين والسياسة، والمدى الذى يجب أن تتوقف عنده الشعوب من حيث التبعة، ومسرحيتى الرابعة الجديدة أناقش فيها مسألة دخول (هولاكو) بغداد وما يحدث فى الوطن العربى الآن، واخترت (هولاكو) كنموذج للقوة الجبارة المتغطرسة الغاشمة الجاهلة، ويمكن أن تكون قوة جاهلة وهى تحمل كل أساليب التكنولوجيا، وناقشت جزءاً من التاريخ المعاصر فى شارون وبوش، وأدنت الحكام العرب، والجبروت باسم القوة لحظة تاريخية مخيفة.. اجتياح بغداد والخيانات التى حدثت وسقوط العرب، للأسف لم يحكم العرب باسم الإسلام أبداً بعد دخول هولاكو بغداد، كانت آخر علاقة للعرب بالدولة الإسلامية هى سقوط بغداد، وأدنت العرب، أنهم للأسف الشديد كانوا عبئاً على الإسلام».

وهكذا نرى أنه فى مسرحه الشعرى يتخذ من أحداث الماضى مجرد مدخل ينفذ منه إلى الحاضر بكل عذاباته ومشاكله ومآسيه بكل صراعاته وخلافاته ومظالمه وبكل ما نعانيه..!

وصوت الشاعر العاطفى لم يخفت أبداً، فالمجموعة الكاملة لأعمال فاروق جويدة - فى طبعتها السادسة - تضم اثنتى عشرة مجموعة شعرية - إضافة إلى مسرحياته الثلاث - وقد أصدر ذلك أكثر من مجموعة شعرية كانت الأخيرة منها هى «قصائدى فى رحاب القدس» وهى تضم عشرين قصيدة جاءت جميعها من وحى القدس، فالشاعر لم تستهوه ولم تستثره عواطفه الذاتية وعوالمه الشخصية وحدها، بل شغلته، وأهمته، وعذبته - كذلك وفى الوقت نفسه - هموم الوطن، وآلام العرب، وعاش ينزف معهم دماً حاراً، فالجرح أصبح غائراً، بل لقد أصبح جروحاً عديدة تنزف فى كل مكان من الوطن العربى، ومن أسف أننا لا نملك حيالها غير الصراخ..

والبكاء.. على أمل أن يشرق صبح قريب تنقشع فيه الظلمة، وينمحى الظلم، وترتفع راية العدل والحرية.

فزمانك حقاً يا ولدى..
زمن الإيمان .. الإيمان..
واجعل من حجرك مئذنة..
ودعاء مسبح ..
أو رهبان ..
واجعل من حجرك مقصلة..
واخرس تعويذة كل جبان..
فالزمن القادم..
يا ولدى،
زمن الإنسان..
زمن الإنسان

- ولتوجه خطابك مع شاعرنا - إلى شارون - وهويقول له بعد أن فضح مساوئه:

أنا من طين هذى الأرض..
أعرفها وتعرفنى..
وأسكنها وتسكننى..
ويجرى حبها المجنون نهراً فى حنايانا.
أنا العمر الذى ولى..
أنا الفجر الذى هل..
ليحيى كل ما كانا..

والشاعر فى دواوينه العاطفية تلمس فى قصائده سمات ما تلبث أن تتكشف لك منذ أشعاره الأولى.. وإذا كان حرصه شديداً على سلامة اللغة ، وحسن انتقاء مفرداتها - فأنت لا تجد فى كل أشعاره لفظاً نابياً أو جملة مستهجنة - فقد حرص وبنفس الدقة على رقة أسلوبه ، وبساطة لغته، حتى ليستوى فى قراءته القارىء المبتدىء مع العالم المتخصص ، فلا يجد أولهما صعوبة فى فهم مراده أو الوصول إلى مقاصده ، كما لا يصادف ثانيهما ما قد يدعوه إلى الانصراف عن هذه الأشعار لأى سبب مما قد يدعو إلى ذلك .. بل هو مفتون بها، مقبل عليها فى حب وانبهار.

ولعله مما كان له أثر فى ذلك - تلك السمة التى تميزت بها لغة فاروق، وهى النزعة الشاعرية التى تحكمه وتتحكم فيها. وتسيطر عليها سواء فى اختيار المفردات أو فى رسم الصور، أو فيما يلهم من تشبيهات وصور بلاغية، أو فيما يطرق من موضوعات فهو فى ذلك كله الشاعر الرقيق، صاحب الكلمة



○ لا يرسم جديد درسا عن سبيل المعرفة.. بل هو إنسان يتفاعل مع مجتمعه وظروفه وتكوينه ومتغيراته

الموحية، والنبضة الشاعرة، والصورة الناطقة، بل والمتحركة..

التجديد مع الأصالة

وشاعرنا - وإن تحرر من قواعد العروض في بعض القصائد، إلا أنه لم يهملها أبداً فقد حرص على أوزانه الشعرية، وعلى موسيقاه الداخلية، وعلى تناغم الألفاظ مع المعاني، مع الأوزان.. حتى لتجد عنده اللحن الراقص كما تجد اللحن الضاحك بل وقد تجد اللحن المتقافز الذى يصور لك حالات النشوة والسرور غير انه فى المواضع الأخرى التى يكشف فيها عن أحزانه ، وآلامه، نجده لا يغالى، ولا يندفع ، بل يحرص على هدوء النبرة وكأنه يريد أن يقول : الحزن لن يدوم .. وغداً سوف يشرق الأمل العريض..

جاء الرحيل حبيبتي جاء الرحيل..
فغدا سيضحك ضوؤها بين النخيل.
ولتذكريني كل يوم عندما ..
يشتاق قلبك للأصيل..
وستشرق الأزهار رغم دموعها ..
وتعود ترقص مثلما كانت على الغصن الجميل..
إن ضاق العمر بأحزاني..
أو تاه الدمع بأجفاني..
أو صرت وحيداً فى نفسى..
وغدوت بقايا إنسان..
سأعود أداعب أيكتنا..
وأعانق درباً يعرفنى..
وعليه ستهدأ أحزانى..

- وهو لا ينسى مصر أبداً.. لا ينساها في كل أشعاره .. فتراه يهتف في ديوانه «للأشواق عودة» :

مصر الحبيبة يا رفاقى كعبة..
لا تتركوها مرتع الأوثان..
فالعمر ليس بضاعة مسلوبة..
والعمر ليس بدرهم وغوانى.
الله يشهد أننا رغم الأسى..
لم ننس يوماً قبلة الرحمن..
يا من سكرتم من رحيق دمائها..
وغزوتم الدنيا بزيف لسان..
عندى لكم رغم الجراح نصيحة..
لا خير فى مال بلا إنسان..

والحب عند شاعرنا هو دائماً معنى ربما يكون مجرداً .. يدور حول صراع العواطف، تصوير الأشواق، عذابات النفس، مشاعر القلوب . هو أقرب إلى حديث

النفس منه إلى الحديث إلى الحبيبة .. فنادراً ما نرى وصفاً يجسد تلك الحبيبة أو يصف محاسنها ومفاتنها .. فهى مقبلة أو معرضة، واصلة أو هاجرة، وفيّة أو خائنة .. هى فى جميع هذه الأحوال معنىً هائماً، أو طيرا مغردا أو ربما كانت طيراً مهاجراً..

ولكنها في جميع أحوالها هي الشوق والحنين، وهي الوهم ، وهي العذاب:

دعينى أقاوم شوقى إليك..
وأهرب منك ولو فى الخيال..
لأنى أحبك وهماً طويلاً..
وحلماً بعينى بعيد المنال..
دعينى أراك هداية عمرى..
وإن كنت فى العمر بعض الضلال..
دعينى أقاوم شوقى إليك ..
فإنى كرهت قصور الرمال..
نحب كثيراً ونبنى قصوراً..
وتغدو مع البعد بعض الظلال..
دعينى أراك كما شئت يوماً..
وإن كنت طيفاً سريع الزوال ..
فما زلت كالحلم يبدو قريباً..
وتطويه منا دروب المحال..

وأشعاره بعد ذلك متنوعة الأغراض، تتناول الكثير من أحوال الوطن – ومن مآسيه – وتخاطب الطغاة، وفى الوقت نفسه تناجى الضعفاء، فكما تتحدث عن «لصوص العصر» فإنها تخاطب «سيد بوش العظيم»

وتصرخ في وجهه:

كل العصافير الجريحة فى بلادى ..
تلعن الزمن القبيح..
ماتت علي الأغصان..
كم كانت تغنى كل صبح هل ترى..
يبكيك عصفور جريح..
ودمى يسيل على ثيابى هل ترى..
يبكيك إنسان ذبيح..
انت وحدك ما بكيت..

ولفاروق جويدة كتابات نثرية عديدة، بل إن عمله الأساسى هو الصحافة، ولقد تدرج فى أعمالها، حتى أصبح مديراً لتحرير



لم يهمل جويدة الوقفة العروضية فقد حرص على أوزانه الشعرية، وعلى الموسيقى الداخلية، وتناغم الألفاظ مع المعانى، مع الأوزان

الأهرام ومشرفاً على الأقسام الثقافية والأدبية بها، وله أسلوب سهل، وكتاباته النثرية بقدر ما هى متدفقة، فهى متنوعة ، وهو يتناول فى بعضها مواضيع تتصل بمشاكلنا المعاصرة - ومن أمثلة ذلك: أموال مصر كيف ضاعت ؟ - شباب الزمن الخطأ ، آثار مصر كيف هانت..! من يكتب تاريخ ثورة يوليو؟ وهو فى تناوله لتلك المواضيع - ولغيرها مما لم تضمه كتب بعد - يتميز بالجرأة والصراحة والموضوعية - غير أنه دائماً منحاز إلى الوطن تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً.. وكأنى به لا يخط حرفاً ، إلا والوطن أمامه فهو قبلته ومرتجاه ، وخيره هو أمله ومبتغاه، وهمومه هى ما يثقل كاهله ويشقيه .. وأنت لا تجد فى سطر مما كتبه مجاملة أو مخالفة لوجه الحق، أو عدولاً ولو يسيراً عن الحقيقة، فكتاباته تتميز جميعها بالعمق - والإخلاص والصدق.. والعجيب أنه فى كل ما كتب ويكتب حتى فى هذه المواضيع ذات الطابع الواقعى، والتى تتصل بالحياة اليومية اتصالاً مباشرا لا يتخلى أبداً عن الأسلوب الشعرى، الذى لا يتمثل فقط فى العبارة الجميلة، بل إنه ليحرص على أن يكون له جرسه الموسيقى على السمع ونبضه الفياض بالإحساس فيمس القلب والشعور .. استمع إليه وهو يتحدث عن استيرادنا - فى البناء - لنماذج من الغرب - فيقول :

«وجاءت المرحلة الثانية من تدمير ثروة مصر المعمارية مع السبعينيات حيث بدأ استيراد النموذج الأمريكى فى العمارة. وهنا شهدت العواصم الكبرى فى محافظات مصر إنشاء عدد كبير من ناطحات السحاب، وقد جاء ذلك على حساب ما بقى من القصور والفيلات حيث تم هدمها وتحويلها إلى عمارات قبيحة، وأمام الجشع المادى الرهيب والرغبة فى الكسب السريع توارت على شواطئ النيل عشرات القصور والفيلات لكى نشهد هذه المظاهرة الفجة من المبانى القبيحة.. واستمر مسلسل القبح يطارد كل ما هو جميل - ولم يقتصر الأمر على المبانى ولكنه اتجه إلى العقول حيث كانت الهجمة الشرسة على ذاكرة الأمة والتى شوهت رموزنا التاريخية من البشر، وألقت بهم جميعاً إلى الهاوية.. ولا شك فى أن المعركة كانت لصالح مروجى القبح. فقد حققوا انتصارات كثيرة .. كسبوا الأموال، وغيروا أذواق الناس. وشوهوا الشوارع، واستباحوا حرمة التاريخ..»

***

وهكذا تراه فى هذه الفقرة حريصاً على التعمق والشمول فى نظرته، بقدر حرصه على الجمال فى تعبيراته وعباراته، وكأنى به لايكتفى بأن تكون عبارته واضحة ومعبرة عن رأيه، بل ومطروحة فى ثوب قشيب يجعلها معبرة بألفاظها ، وموحية بجمالها ، ومؤثرة بعمقها وتعبيراتها.

وإلى جانب هذه الكتابات المباشرة - فلفاروق جويدة عدد من المؤلفات الأخرى التى لا يمكن اعتبارها كتابات نثرية .. هو يسميها «خواطر نثرية» - ويحق لنا أن نضيف إلى هذا الوصف أنها لوحات أو صور نثرية ..منها كتبه الرقيقة الأنيقة: قالت . عمر من ورق ، عبد الوهاب وأوراقه الخاصة. ليس للحب أوان. حبيبتى ولكن .. وهى فى رقتها وعذوبتها وسلاسة عباراتها لا تختلف كثيراً عن دواوينه الشعرية..

ولنقرأ له هذه السطور:

جلست احتفل بعيد ميلادى ..

نامت كل الأشياء حولى..

كان الليل صامتاً .. والجدران تنظر إلى ملامح وجهى .. وأثاث الغرفة يتثاءب فى كسل غريب.

كانت حولى آلاف الكتب.. كل كتاب أخذ شيئاً من عمرى .. وكان معى آلاف الأصدقاء .. كل واحد منهم قدم لى شيئاً.. فأنا مدين لهم جميعاً ، ولكنه الدين الذى لا أستطيع أن أرده لهم يوماً، لقد أعطونى عصارة فكرهم، ورحيق عمرهم، وضوء عيونهم ، وتجارب أيامهم..».

فهل بعد فى هذه السطور عن عالمه الشعرى كثيراً؟

ألم نقل فى مطلع حديثنا أنه لا يعرف سوى الشعر أسلوب حياة ، ومنهاج فكر وأداة تعبير - حتى لو كان مكلفاً بملء بيانات «بطاقة التموين»..؟



كتاباته النثرية متدفقة، متنوعة، يتناول فيها مواضيع تتصل بمشاكلنا المعاصرة بجرأة وصراحة وموضوعية

سيرة وثقافة

بقى أن نذكر أنه من أبناء شمال الدلتا - ولد فى قرية «أفلاطون» بمحافظة كفر الشيخ فى عام ١٩٤٥. ولكنه قضى طفولته وصباه فى محافظة كفرالشيخ .. إلى أن انتقل إلى القاهرة للدراسة فى كلية الآداب - قسم الصحافة - الذى تخرج منه عام ١٩٦٨ وكان الأول على دفعته.. ومنذ بداية حياته العملية وهو يعمل فى جريدة الأهرام، مارس العمل فى معظم أقسامها بدءاً من القسم الاقتصادى، ثم سكرتيراً للتحرير، ثم مشرفاً على الصفحة الثقافية إلى أن أصبح يحتل مكانته الدقيقة الحالية مشرفاً على الأقسام الثقافية والأدبية بالأهرام، فأنت تلمس إبداعاته ليس فقط يؤلف ويكتب بل فيما يقدمه الأهرام من صفحات يشرف عليها فاروق جويدة، ففيها روحه الشاعرة، وإعلاؤه لكل ما هو جميل وصادق وجميل.. ومازال يثير العديد من المعارك الثقافية والفكرية دفاعاً عن الحرية والتاريخ والآثار وتراث مصر المعمارى.. وليس لمنصف أن ينكر أو ينسى ما كان للمعارك التى أثارها فاروق جويدة من صدى فى انقاذ مجموعة من المواقع التاريخية: كان منها : قصر محمد على بالمنيل، ومشروع باب العزب فى قلعة صلاح الدين، وكوبرى أبو العلا، ومجموعة كبيرة من القصور والفيلات التاريخية.

وسوف نذكر له طويلاً ما خاض من معارك حول قضايا التطرف الفكرى التى ضمن كتاباته حولها فى كتاب بعنوان :« شباب فى الزمن الخطأ» حاول فيه أن يقترب من قضية التطرف الفكرى من حيث الأسباب والدوافع والظواهر والحلول.. ونذكر له سلسلة المقالات التى نشرها حول تاريخ ثورة يوليو والتى أثارت جدلاً كبيراً بين رجال الفكر والسياسة.

كذلك نذكر له تناوله لقضايا الإعلام والتعليم وأساتذة

الجامعات والتنوير والاحتفال بذكرى غزو نابليون لمصر والتطبيع مع إسرائيل والفن الهابط ومسئولية الإعلام في ظل العولمة، وقضايا الهوية والغزو الثقافي، ودور المثقفين في كل هذه القضايا، والواقع الذي تنطق به كل كتاباته يؤكد أنه إنما كان يدافع عن جذور مصر الثقافية ودورها العربي والإسلامي والإنساني كمركز ثقافي وحضارة له خصوصيته وتميزه الفريد.

ترجمة شعره

ومما نذكره كذلك أنه قد ترجمت بعض دواوين فاروق جويدة - وبعض قصائد أخرى - إلى اللغة الإنجليزية واللغة الأسبانية، كما ترجمت مسرحيتاه «الوزير العاشق» و«دماء على ستار الكعبة» إلى اللغة الإنجليزية كذلك.. وكان شعر فاروق جويدة - وبخاصة شعره المسرحي - موضوعاً للعديد من الرسائل والدراسات الجامعية.. وموضوعاً لدراسات الكثيرين من كبار النقاد حيث حفلت مؤلفاتهم النقدية بفصول عديدة عن فاروق جويدة: شاعراً ومسرحياً وكاتباً . وكان من أرق تلك الكتابات ما كتبه الناقد الكبير رجاء النقاش في دراسة عنوانها : «فاروق جويدة وعودة إلى الصفاء والبساطة» ولن نقف طويلاً عند تقييم الناقد الكبير لأشعار فاروق جويدة، فمكانة فاروق بين شعراء عصره لم تعد موضوعاً لجدل أو نقاش، فهو واحد ممن يمثلون القمة.. ومن هنا يحق لنا أن ننقل عن الناقد الكبير قوله : «سرعان ما تبينت أن فاروق جويدة ليس بحاجة مني ولا من غيري إلى المجاملة، فهو واحد من أنجح شعراء الجيل الجديد في مصر والوطن العربي كله، وهو يتمتع بشعبية واسعة بين آلاف القراء الذين يتخاطفون شعره، ويقبلون عليه بحب وحماس.. وسر نجاح فاروق جويدة يتلخص في كلمتين هما : «الصفاء والبساطة» ففي عالمه الفني لا يشعر الإنسان بأي تعقيد ولايحس بأنه مدفوع إلى دهاليز مظلمة غامضة .. ولا يصطدم الإنسان في قراءته للشاعر بألفاظ خشنة .. وهو شاعر مهتم إلى أبعد حد بأن يملأ عالمه الفني بالموسيقى العذبة الجميلة البعيدة كل البعد عن الصخب والضجيج..».

●●●

وفي موضع آخر يقول الناقد الكبير عن فاروق جويدة: «أنه النغمة الحنون في عصر القسوة ، والعاطفة البسيطة في عصر التعقيد والعنف، والموسيقى الهادفة المنسابة في عصر الصخب، وصوت الناي بين أصوات الطبول العالية، وهذا هو الذي يميز شعر فاروق جويدة هو سر آخر من أسرار التجاوب بينه وبين جماهير الشعر..».

ولعل هذا هو خير ما نختم به الحديث عن فاروق جويدة، وإن كان لنا أن نضيف كلمة فهي قولنا .. أننا مازلنا ننتظر من فاروق جويدة الكثير .. وكما قدم لنا ديوانه الذي ضمنه كتاباته عن القدس، فإننا في شوق إلي ديوانه الذي يتغنى فيه بيوم النصر الكبير.. وإنه لآت عما قريب، فبهذا يبشرنا فاروق كما يبشرنا به كل المخلصين . ■



خواطر مخضرم

عن الصحافة والأدب

بقلم
وديع فلسطين

المتأمل لحياتنا الأدبية المعاصرة يلاحظ أن هناك حشدا ضخما من المجلات الأدبية التي تصدر في أنحاء العالم العربي حتي استحال علي الراصدين أن يتابعوا كل ماتنشره من مقالات وبحوث وأقاصيص وشعر، بل استحال عليهم أن يتذكروا حتي أسماء المشرفين عليها، ولأن عددا غير قليل من هذه المجلات يصدر عن جهات داعمة لها، فلابد إذن من أن يكون المسئولون عنها منتمين إلي أركان هذه الجهات بصفاتهم الوظيفية أو الاجتماعية، ولعل هذا يفسر سبب التغيير المفاجيء الذي يطرأ علي محرري هذه المجلات، وكأنهم بيادق علي رقعة الشطرنج، مع ما يترتب علي هذا التغيير من تقريب أو تنحية لكتاب اقترن نشاطهم بالعهد الذي انقضي بانقضاء المحرر المسئول والإتيان بمحرر جديد.

كان صديقنا الأديب المهجري الراحل «نظير زيتون» مولعا بالتجديد في اللغة إلى جانب قدرته الفذة على كتابة صفحات وصفحات من العبارات المسجوعة بحكم ما تحصل لديه من ذخيرة لغوية واسعة، ومن الألفاظ التي ابتدعها لفظة «المهابيط» على وزن المهابيل؛ للدلالة على الذين يهبطون من مظلات الباراشوت على المواقع التي تحدد لهم.

ووصف «المهابيط» ينطبق على أدباء جيء بهم من حيث لانعلم، وهبطوا من عل على مواقع الرياسات الأدبية، وتصدرت أسماؤهم «ترويسات» المجلات الأدبية «من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر؛ حتى إذا ما فقدوا مسوغات تعيينهم كمهابيط، عادوا إلى المجهول الذي جاءوا منه، ولم نعد نقرأ لهم أدبا منشورا أو نقع على آثار لهم تدل على ما أسبغ عليهم من عبقريات، إذ أن الأدب قد اعتبر وظيفة لها في سلك البيروقراط «كادر»، يرقى إليها كل من جاء عليه الدور في الترقية إلى درجة أعلى، أو كل من تمتع بثقة رفعته درجات فوق أهل الخبرة والدراية، دون أن يتوافر لهم الحد الأدنى المفترض في الأديب، وهو أن يكون ذا موهبة واستعداد، وأن تسبق ذلك مطالعات واسعة وممارسات فعلية جادة، حتى ولو تجاوزنا عن الشهادة الجامعية باعتبارها أساسا راسخا للتكوين الأدبي، ومتى غامت الرؤية، وانقلبت الموازين، اعتبر الأدب فرعا من فروع السلم الوظيفي، يضطلع برسالته أي كان مادام موصول الأسباب بالجهة التي اختارته.

ولدي مجموعة كبيرة من المجلات الأدبية الصادرة في العالم العربي، أرجع إليها في الحين بعد الحين بحثا عن ضالة، وأتوقف عند «ترويساتها» التي تزدان بأسماء السادة النجب من محرريها، ثم أسأل: أين ذهبوا؟ وكيف توقفوا عن الكتابة بمجرد أن زالت عنهم الوظيفة؟ فإن كانوا ذوي موهبة واستعداد، فلم وأدوا هذه الموهبة وذلك الاستعداد؟ ولم أصبح عمرهم الأدبي معادلا لعمرهم الوظيفي لايزيد عليه يوما أو بعض يوم؟ وكيف تاهوا عن المجتمعات الأدبية، فلم يعد أحد يعرفهم أو يشير إلى ماضيهم؟ ولقد جاءوا أصلا هابطين من المجهول، فلم عادوا إليه بعد ما نالوا قدرا من الشهرة والنفوذ الأدبي؟ وهل كانت المقالات الممهورة بإمضاءاتهم هي من وحي قريحتهم أو أن هناك أشباحا من الكُتاب دبجوا لهم هذه المقالات مداراة لعجزهم؟.

بعض تجاربي مع الصحافة الأدبية

كنت في فترة الإزاحة من عملي في الصحافة المصرية أمثل مجلة تصدرها إحدى المؤسسات في بلد عربي، وكنت بهذه الصفة موكلا في استكتاب أدباء

مصر والعالم العربى فى المجلة، فاختار لهم الموضوعات المناسبة وأتوافق معهم على النأى عن المحظورات المقررة فى هذا البلد، واستطعت بذلك أن أستكتب العقاد والزيات وعزيز أباظة ومنصور فهمي ومندور ومحمد عبدالله عنان والدكتور صبرى السوربونى والأمير مصطفى الشهابى وفؤاد صروف ومحمد عبدالغنى حسن وعشرات غيرهم من كبار الكُتاب، وكانت المجلة تلح عليّ فى أن أوافيها بمقالاتى فتلقى منها كل ترحيب، ودارت الأيام، وأخليت مكانى فى المجلة، وجاء «طاقم» جديد من الذين حل عليهم الدور فى الترقية ولعلهم كانوا يعملون أصلا فى مخازن المؤسسة أو فى إدارات حساباتها أو فى أقسام كمبيوترها ـ وصار هذا الجيل الجديد يعيد إليّ مقالاتى بدعوى أنها «غير مناسبة»! لقد كنت فى الماضى اختار بنفسى المقالات المناسبة للعقاد والزيات وغيرهما، ولابد طبعا بعد ٦٠ سنة من العمل فى الصحافة والأدب أن تكون معاييرى تغيرت ولم أعد أعرف ماهو المناسب وغير المناسب!.

وهناك مجلة شهرية أخرى تصدر فى بلد عربى آخر، هاتفنى سكرتير تحريرها على غير معرفة سابقة قائلا أنه يعتب عليّ لأننى لا أكتب فى هذه المجلة الشهرية أربع مقالات فى السنة على الأقل، فرويت له أن مجلته أجرت معى حوارا مازال «مركونا» عندها منذ ثلاث سنوات، فقال إنه عند وعده فى الاحتفاء بكل ما أكتب، واستجبت لدعوته، ووافيت المجلة بمقال أدبى لأننى لا أكتب فى السياسة، وتزامن وصول مقالى مع نقل سكرتير التحرير إلى عمل آخر، وكانت النتيجة أن مقالى الأدبى الذى أرسل من شهر نوفمبر ٢٠٠١ مازال «مركونا»، ولعله أهمل بسبب هذا التغيير فى الرياسات وبالتالى فى معرفة أقدار الكاتبين من جانب المهابيط الجدد!.

الحوارات الصحفية

وكنا فى العهد الذى باتوا يسمونه بالعهد البائد البغيض نجرى أحاديث مع أعلام عصرنا، ونبادر بنشرها فى الصحف مراعين الأمانة المطلقة فى تسجيل أقوالهم، على الرغم من أننا كنا نعتمد على الذاكرة ولم تكن أجهزة التسجيل قد عرفت بعد، وكنا نحرص بعد النشر على موافاة أصحاب الأحاديث بنسخة من الجريدة، سواء أكانوا فى مصر أم كانوا زوارا غادروها إلى بلادهم، أما اليوم، فقد صار عدد من الصحفيين الشبان يطرقون بابى راغبين فى إجراء حوار معى، ولأننى بوصفى مدرسا سابقا لعلوم الصحافة كنت أحتفى بالناشئة وأشجعهم ولا أوصد بابى أمامهم، فقد رحبت باستقبال عدد من طالبى الحوارات الذين أصبحوا بعد ذلك «فص ملح وذاب» بالتعبير العامى، فلا رأيت الحوار منشورا، ولاتكرموا هم بموافاتى بنسخة

منه، إن كان قد نشر حتى ضقت بزياراتهم، وبت أرفض التعامل مع من كنت أحب أن أشجعهم وأمسك بيمينهم إلى أن تستقيم أدواتهم.

ماذا بقي من العقاد؟

وفي أحد هذه الحوارات سألني السائل: هل بقي شيء مازال مجهولا عن العقاد بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على وفاته؟ فقلت للسائل:

كثيرون تناولوا العقاد بعد وفاته ممن كانوا على اتصال وثيق به، فظهرت كتب للدكتور شوقي ضيف والدكتورة نعمات أحمد فؤاد ولمحمد خليفة التونسي ولطاهر الجبلاوي وللعوضي الوكيل ولعامر العقاد وعبدالحي دياب وغيرهم، عدا المسلسل التليفزيوني الذي أساء إلى العقاد أعظم إساءة وكأنما كان هناك سباق بين حواريي العقاد على ظهور كل منهم بمظهر الأقرب للعقاد من سواه، والأكثر وقوفا على أسرار حياته الشخصية من جميع الذين عرفوه.

والعقاد، الذي يوصف بالكاتب الجبار والعملاق، هو من قبل ومن بعد إنسان يسري عليه ما يسري على أي إنسان آخر من حب وبغض وفرح وحزن ونجاح وفشل وشك وإيمان وصحة ومرض وهلم جرا، وليس من الصواب أن يركز كاتب على ناحية من نواحي العقاد ليرسم له صورة هي بالتأكيد صورة شائهة في أذهان القراء، فالتركيز مثلا على «غراميات العقاد» فيه ظلم شديد لهذا الكاتب العبقري الذي أخرج نفائس الكتب بأكثر من سني عمره، فلسنا ننكر أن في حياة العقاد «غراميات»، ولعل عددا من الذين كتبوا عن غرامياته كانت لهم بدورهم غراميات، ولكن الإلحاح في هذا الجانب والتوسع في إيراد أسماء النساء اللائي عرفهن في حياة العقاد وهو في اعتقادي ابتذال لا يصح، حتى ولو صدر عن ابن أخيه عامر العقاد، مهما قيل من أن الحياة الشخصية للأدباء هي حياة عامة مباحة أسرارها للكافة.

فإن كان هناك شيء مازال خافيا من حياة العقاد ولايعرفه الناس، فإنني أؤثر أن يبقى هذا الشيء مطويا حتى لا يساء إلى هذا العملاق بأكثر مما أسيء إليه في حياته، فلنقل لعارفي الأسرار الحقيقيين أو المزيفين - إن وجدوا - اتقوا الله في الحديث عن أعلامنا، واتركوا الناس يستشفون صورهم من كتاباتهم وآثارهم المنشورة، أو فلنقل لهم: من كان بيته من زجاج فلا يرمي الناس بالحجارة.

وعندما توفي العقاد قررت أسرته نقل جثمانه بسكة الحديد إلى مسقط رأسه في أسوان ليدفن هناك، وكان المسئولون عن الثقافة والإعلام قد أعلنوا أنهم سيقيمون له ضريحا يليق بمقامه، فدفن العقاد هناك دفنا مؤقتا في أرض بلقع ريثما يشيد له الضريح الموعود ولكن محافظ أسوان في ذلك الوقت،

وكان قادما لتوه من النكتة رفض تكريم العقاد قائلا إنه لاينفق أموال المحافظة على الموتى، لأن الأحياء بها أحق، فأهمل قبر العقاد، واستحال إلى مباءة فى عهد هذا المحافظ الغيور على أموال المحافظة، فلما همّت أسرة العقاد بالقيام بهذه المهمة على نفقتها الخاصة، وكان محافظ جديد هو الدكتور عزت سلامة ـ وزير التعليم العالى الأسبق ـ قد عين محافظا للإقليم، فأقام للعقاد ضريحا لائقا مع تمثال يتراءى فيه شموخ هذا الأديب الكبير، وبات ضريح العقاد معلما من أبرز معالم أسوان.

وإلى هذا اليوم، مازال بيت العقاد فى مصر الجديدة يتعرض لمخاطر الهدم، والقضايا متداولة فى المحاكم لإخلاء البيت من ساكنيه (بعد وفاة عامر العقاد وزوجته) وإقامة ناطحة سحاب فى مكانه، أما مشروعات تحويل البيت إلى متحف للعقاد يضاهى متحف رامتان لطه حسين، فهى مشروعات يسمع عنها ولايرى منها شىء عملى.

وإن الباقين على قيد الحياة من أصدقاء العقاد، وهم قلة، ليأسون لأن هذا الرجل العظيم لايكاد يكون مذكورا فى حياتنا العامة، باستثناء ذلك الشارع (البوليفار) العريض الذى أطلق عليه اسم العقاد فى مدينة نصر، عوضا عن إطلاقه على شارع سليم الأول الذى كان يقيم فى رقم ١٣ منه، وقد انتشرت المتاجر الضخام فى بوليفار، العقاد فطغت شهرتها على شهرة العقاد، ولو سئل اليوم الناس عما يعرفونه عن العقاد لقالوا إنه الشارع الذى يقع فيه متجر كذا أو مطعم كذا أو سينما كذا أو محل أحذية كذا!، وهكذا اختصرت حياة العقاد إلى شارع يموج بالحركة والنشاط ليلا ونهارا.

الحركة الفكرية المعاصرة

وسألنى سائل آخر عن رأيى فى الحركة المعاصرة فقلت:

لابد ابتداء من الإقرار بأن متابعة الحركة الأدبية والفكرية المعاصرة على الصعيد العربى الواسع تكاد تكون متعذرة أو مستحيلة لأن البيروقراطيات المتعبقرة الضيقة تتحكم فى أسباب التقارب من الأدباء والمشتغلين بالفكر، وحسب المرء أن يشير إلى القيود المفروضة على تداول الكتب بين البلدان العربية ليدرك علة القطيعة الفكرية من أبناء الأقطار العربية، ابحث فى القاهرة مثلا عن الكتب الصادرة فى المغرب العربى، فلن تجد شيئا منها بين يديك، وقل نفس الشىء عن الكتب الصادرة فى السعودية وسوريا ولبنان والأردن والكويت واليمن وموريتانيا وسائر البلدان من أعضاء جامعة الدول العربية الموقرة، فإن طلبت الكتب الصادرة فى المهاجر الأمريكية أو فى سواها أعياك الجهد، وعدت لابخفين اثنين لحنين بل بأخفاف كثيرة تنوء بحملها بغال الأرض!!.

من فترة قريبة زارنى طالب يعد

أطروحة ماجستير عن الشاعر حسن كامل الصيرفى الذى كان حتى عام ١٩٨٤ يعيش بيننا ويغنى الضاد بشعره وكتبه فى تحقيق التراث، ولكن الطالب قال إنه لم يجد شيئا من آثار هذا الشاعر فى مكتبات الجامعات وفى دار الكتب الوطنية، فقلت له: إذا كانت كتب هذا الشاعر المعاصر، وكلها مطبوعة فى مصر، عسيرة المنال، فماذا نقول عن دواوين لشعراء رحلوا من سنوات سحيقة وطبعوا آثارهم خارج مصر؟ إن هذا الوضع الأدبى هو والمأساة سواء، إذ كيف تستقيم دراسة جامعية أو أدبية مراجعها غير متوافرة بين أيدى الباحثين، ولهذا أعذر الناشرين اللبنانيين «الشطار» الذين يقومون باستحياء الكتب النافدة بإعادة طباعتها بالتصوير دون استئذان أحد، وبهذا يوفرونها للباحثين الذين لاتهمهم أن تكون الطبعة أصلية أو مزورة، وكل ما يعنيهم أن يكون الكتاب المطلوب بين أيديهم.

والغريب أن جميع المحاولات التى بذلت لإنهاء القطيعة الأدبية والفكرية بين البلدان العربية باءت بخيبة مريرة ومادام البيروقراطيون يعاملون الكتاب بوصفه «بضاعة»، شأنها شأن البصل والثوم والفسيخ، فقل السلام على الألفة الفكرية المنشودة فى دنيا الضاد، على أن هناك ظواهر فى دنيانا الأدبية فرضت نفسها على المتابعين، واخترقت الحواجز والتخوم المنتصبة كأعلى السدود بين أقطار العالم العربى، ومن هذه الظواهر التفتيش فى ضمائر الأدباء وملاحقتهم واستعداء السلطات عليهم، مع أن الأسلوب الطبيعى والحضارى للتصدى لأى رأى هو تفنيده فى كتب منشورة ومقارعة الحجة بالحجة ولست أبرىء الكتاب والمفكرين من الإنزلاق إلى الشطط أحيانا، ولكن ردعهم يتأتى بالرد عليهم فى كتب منشورة وليس بمذكرات المحامين وأوراق المحضرين وبإحراج القضاة للبت فى قضايا أدبية ليست من اختصاصهم الأصيل.

ومن تلك الظواهر المحاولات المبذولة لإحياء ما يسمى بالأدب الشعبى المتمثل فى اللهجة العامية المحلية التى تتبهم إلا على أصحابها، ولنا أن نتصور حال الثقافة فى وطننا العربى إذا كان كل قطر فيه يتحدث بلهجة لاتفهمها سائر الأقطار، عوضا عن أن يتحدث باللغة العربية الفصحى ولو فى مستواها السهل الذى يطلق عليه «لغة الصحافة»، ولو كتب الشاعر أحمد شوقى مسرحياته الشعرية وقصائده باللهجة العامية المصرية أو التركية التى كان يجيدها، فهل كان يحظى بالمنزلة الرفيعة التى احتلها فى عالمنا العربى فى عصره وإلى هذا اليوم؟، والخطر الأكبر هو دخول هذه اللهجات العامية المحلية إلى الحرم الجامعى على ألسنة الأساتذة، بما فيهم أساتذة الأدب العربى، فعندئذ تنهار كثير من القيم الأكاديمية التى

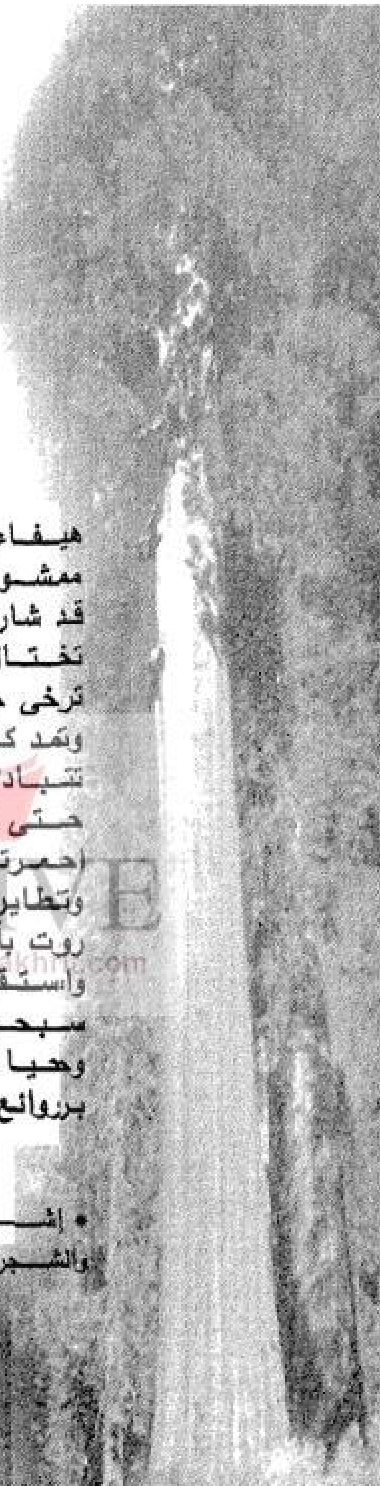
لايصح التفريط فيها تحت أى مقولة، وحسبنا ما نعانيه من نشوء هذه اللهجات العامية فى الإذاعات والتليفزيونات العربية بل فى المجلات المحسوبة على الأدب، وهو وباء ينبغى التصدى له.

ومن الظواهر التى رأيناها فى عالمنا الثقافى محاولة إخضاع القيم العربية للأيديولوجيات الغربية عن تقاليدنا، فقد مر علينا عهد كنا نتعسف فيه فى رد كل قيمة أدبية إلى مذهب أيديولوجى، فوضعت مؤلفات عن «الاشتراكية» فى شعر شوقى، و«المعجم المفهرس لألفاظ الميثاق» و«المعجم المفهرس لألفاظ الكتاب الأخضر» إلى آخر هذه الاتجاهات الذميمة التى كان ينبغى أن يتعفف عنها المفكرون وأهل الثقافة فى الوطن العربى.

وإذا كنت قد ألمحت إلى بعض الظواهر السلبية - وهى غالبة - فى الحركة الفكرية الحديثة، فهناك ظواهر أخرى ايجابية ينبغى الترحيب بها، وإن تكن فى معظمها اجتهادات فردية ليس لها ما يوازيها من جهود المؤسسات، ومن ذلك ما يقوم به بعض الأريحيين لتكريم رواد الفكر فى حياتهم، سواء بمنحهم الجوائز السخية، أو بإصدار كتب تذكارية عنهم، أو بإخراج أعمالهم فى طبعات جديدة أو بالتعريف بهم على النطاق العالمى بترجمة آثارهم إلى اللغات الأجنبية، ولكن هذا التكريم لا يصل إلا إلى قلة قليلة من الأفراد، ويتخطى بالتالى كثيرين ممن انحسرت عنهم الأضواء برغم كفاءتهم وعطائهم المبذول سنوات طوال، وفى وسعى أن أحصى عشرين اسما على الأقل ممن يستحقون التكريم قبل أن تغيب عنا وجوههم، ولكن الموضوعية تملى علىّ أن أعفى القارىء من تحيزاتى الخاصة، فأمتنع عن إيراد هذه الأسماء فى هذه المقام.

من الظواهر الإيجابية أن معارض الكتب باتت تنتقل من بلد عربى إلى بلد عربى، وأن المؤتمرات الثقافية باتت تتسع لممثلين من بلدان عربية مختلفة، وأن المجامع اللغوية العربية تضم أعضاء عاملين ومراسلين من البلدان الشقيقة، وأن الأنشطة التى يقام فى إطار إعلان عاصمة عربية عاصمة للثقافة تتسع لدعوة ممثلين من البلدان العربية الأخرى، وكنا فى وقت مضى نعرف مؤتمرا سنويا للأدباء العرب ومؤتمرا للشعراء العرب، ولكن الاعتبارات السياسية انعكست على هذا النشاط فأوقفته، وكل محاولة للتقريب بين أدباء العالم العربى ومفكريه، أيا كان الشكل الذى تتخذه، هى محاولة تستحق التأييد والمؤازرة لاعتقادى بأن الفكر والثقافة والأدب هى الجامعة الكبرى التى تؤلف بين أعضاء الأمة العربية، فى حين أن السياسة هى أكبر عوامل التفريق والمباعدة بين أقطار العرب.

هذه خواطر نقلتها من الحوارات الموءودة والتى لم تر النور لاعتبارات أجهلها ويُسأل عنها الأدباء المهابيط المشار إليهم!. ■



جــــارتى

شعـــر

محيى الدين عطية

هيفاء يمنحها الندى فى كل فجر قبلتين
ممشوقة تعلو بقامتها البناء بطابقين
قد شاركت نجم السماء سجوده ، متلازمين *
تختال نشوى بالنسيم يهزها من جانبين
ترخى جدائلها على الشرفات خضر الخصلتين
وتمد كفا للنوافذ حاملا عصفورتين
تتبادلان الشدو والتسبيح ملء الخافقين
حتى إذا حل الخريف ومس منها الوجنتين
احمرتا خفرا وقد سقط الخمار عن الغصين
وتطايرت أوراقها ، فبكت بماء المقلتين
روت بأدمعها بساطا من نسيج الراحتين
واستقبلت برد الشتاء كمارد صفر اليدين
سبحان ربى ، قد وهبت لنا الهداية مرتين
وحيا تنزل معجزا ، والكون يبهر كل عين
بروائع الآيات فى الآفاق ملء الناظرين

* إشارة إلى الآية الكريمة ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ (الرحمن ٦) .



فاريبا هشترودي



رضا براهني

أدباء من أفغانستان

المنفى والوطن

بقلم
محمود قاسم

هل تشارك الانظمة الديكتاتورية فى صناعة الآداب العظيمة داخل الأقبية والأبواب الخلفية ؟!

الاجابة معروفة سلفا ، فمثلما ساهمت الحريات والديمقراطيات فى خلق إبداعات إنسانية بالغة الأهمية ، خاصة فى أوروبا ، فإن سيادة الديكتاتوريات فى فترة بعينها فى دول أمريكا اللاتينية ساعدت فى ظهور هذا الابداع الشديد التميز الذى كتبه الادباء فى القارة اللاتينية .

والغريب أن هذه الجذوة المتقدة من الابداع الراقى قد بردت بشكل واضح فى السنوات الأخيرة، بعد أن عرفت أوطان جديدة فى هذه البلاد دروب الديمقراطية ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما حدث فى «بيرو» نفسها، حين راح الكاتب ماريوفارجاس يوسا يراهن على معترك السياسة، فرشح نفسه رئيسا للجمهورية، فلما عزف الشعب الذى كتب من أجله عن اختياره، قرر ان يغير جنسيته، وهاجر إلى اسبانيا واقام بها .

وكانت هذه ظاهرة جديدة، وغريبة .

فالكاتب الذى نادى دوماً بالديمقراطية، لم يحتمل أن تهب رياحها على وطنه ولا عليه، وهجر الوطن وغضب عليه، وتوقف عن الكتابة .

وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فتحت دور النشر الأوروبية أبوابها لمبدعين كانوا دوما فى دائرة الظل، عانوا من قسوة الديكتاتورية، او ما شابه، وذلك بعد أن خفت حدة الآداب المضادة فى بقاع عديدة من العالم .

هذه المرة، تم إلقاء الضوء على أبناء من أفغانستان، ويبدو هذا غريبا فالمرء يمكن أن يتساءل : ترى هل هناك أدب فى أفغانستان، وماهى ملامح هذا الأدب ؟

الاجابة تجئ فى المقام الأول اننا لم نسمع عن أدب افغانى، لا داخل الحدود ولا خارجه، بالطبع هناك كُتاب، وابداع، فى عصور مختلفة، لكنه لم يصلنا بأى حال، لكن الناشرين فى فرنسا استطاعوا الحصول على نصوص أفغانية، لكتاب هربوا من المعارك والحرائق، والقوانين المتعسفة، خاصة فى زمن طالبان، وبدا هذا الادب، فى المنفى ذا طعم مختلف تماما عن الأدب المكتوب فى الوطن، ببساطة، لأنه ليس هناك أدباً منشور فى داخل الحدود الافغانية.

قبل أحداث سبتمبر، بأسابيع قليلة، اصدرت دور النشر الفرنسية مجموعة من الكتب لكاتبين من أفغانستان، يكتبان باللغة الفارسية، وهما كاتبان معاصران من جيل الشباب، اختارا الإقامة فى باريس بعيدا عن الدموية المتناثرة فى أنحاء البلاد. الكاتبان هما عتيق رحيمى صاحب روايات «أرض ورماد» و هذه الجدران تسمعنا» . ثم سبو جاى زرايب

تقول مجلة الاكسبريس وهى تقدم هذين الكاتبين أنه ليس مطلوبا من المبدع ان يحمل السلاح، لكن لأن القلم سلاحه فإنه يستخدمه، من أجل أن يعبر عن الاحتقان النفسى الداخلى لشعب بأكمله أصابته المحنة، فهو يروى شعبه بالكلمة تلو الأخرى، وذلك فى مواجهة الهمجية، ومن أجل أفضل استخدام للفعل .

الادباء الذين هاجروا لم يكتبوا منشورات دعائية ضد طالبان، لكنهم اختاروا الكتابة عن مرارة المنفى، وهم ليسوا حاملى رايات النضال، بقدر ما هم يعبرون عن محنة الانسان غير القادر

فى التعبير عن مشاعره إلى ابناء وطنه بشكل مباشر، فاختار أن يكتب لهم من خارج الحدود .

وتقول المجلة لقارئها إنك لو لم تقرأ كتابا واحدا قادما من الشرق هذا العام فيكفى ان تقرأ رواية «أرض ورماد» لعتيق رحيمي، وتثنى المجلة على الكاتب، وعلى عطائه، فهو مبدع موهوب، وجد نفسه إلى جوار نهر أجدبت مياهه .

من هو بطل الرواية ؟؟

وبطل هذه الرواية، رجل عجوز تلفحه الرياح، والغبار، عند مفترق طريق صحراوى، ينتظر أن تمر به سيارة من أجل أن تصحبه الى الجانب الآخر من الوادى، إلى حيث يوجد المنجم الذى يعمل به ابنه، وتمر الساعات ببطء شديد ولا تأتى السيارات ويقف إلى جوار العجوز حفيده الصغير الأبكم، وفى أعماق هذا الصغير تكمن مأساة الحرب الأفغانية، فقد أصيب بالصمم والبكم عقب قيام القوات السوفيتية بقذف قريته بالمدافع الثقيلة (مثلما يحدث فى الأرض الفلسطينية المحتلة). والطفل الذى لا يعرف سوى اللعب لم يفهم قط السبب الذى من أجله فقد الآخرون أصواتهم، فهو لم يعد يسمعهم .

هذا الطفل هو مأساة بالنسبة لجده، إنه شديد البراءة، ويحترق قلب الجد حين يسأله الصغير: جدى . هل الروس سلبوا أصوات كل الناس؟ ترى ماذا سيفعلون بكل هذه الأصوات ؟

ويفكر العجوز، ويستعيد رؤية القنابل المتساقطة فوق القرية، وصراخات ذويه عندما التهمت النيران أسرته، فماتت الزوجة، واشتعلت النيران فى أجساد الجيران وأعلن الخوف عن نفسه، وبدا ماثلا فى ابنه الذى ذهب إلى الجانب الأخر من الوادى للعمل فى المنجم .

وهذا الابن نموذج للانسان الافغانى، فهو ملئ بالكبرياء، والاعتزاز بالذات وهو صاحب رؤية محددة لحياته، رغم انه لم يتلق اى قدر من التعلم فى المدارس، لكنه يفكر بشكل موضوعى فى جدوى الحرب، وهو يرى أن الدماء تجلب العنف، وعندما يفكر فى الانتقام فإنه يضع حياته أمام عينيه، فهذه الحياة لا تأتى سوى مرة واحدة. ورغم هذا فإن الدماء تتسرب إليه كى تصبح اللغة الوحيدة للانتقام ويقرر أن الموت هو السبيل الوحيد لمجابهة العار الذى لحق بالوطن .

ثلاثة أجيال

ويتناول الكاتب ثلاثة أجيال، مثلما فعل غسان كنفانى فى روايته «رجال تحت الشمس»: العجوز يرمز للماضى مع مفهومه للشرف، ويقينه، أما الابن فهو صاحب مبادئ لديه دائما الرغبة فى الانتقام من جميع الخونة، ابتداء بالمولوات، وانتهاء بالشيوعيين والحلفاء الغربيين، حيث أن كلاً منهم جرى وراء مصالحه الشخصية التى تمثلها هذه الحرب، أما الحفيد فإنه يمثل الجيل الثالث، وهو غارق فى الصمم، كما أنه يرمز إلى المستقبل الابكم، الأصم .

يقول الكاتب أن أفغان المستقبل أصابهم الصمم بالفعل، بعد أن قبلوا الامر الواقع، وحين لم يقاطعوا الصور القديمة، فامتلاء الحاضر بالمساجين والأسرى من المعارضين، بل والقتلى. كما أن الكاتب يطلب من مواطنيه التخلص من أهازيجه، وأن يعقد صداقة حقيقية مع الواقع، إنه من أجل اكتشاف الواقع، يحب ان يبدأ في مخاطبة الموتى في مقابرهم .

والحقيقة تتمثل في قيام العجوز بابلاغ ابنه وقائع ما حدث، وأن زوجته، وأمه واخاه قد ماتوا في المذبحة، وانه من الأفضل الهروب، ويرى الناقد الفرنسي فرانسوا بوسفل أننا أمام رواية رائعة، تسعى للتخلص من الملحمية التي تعتبر من أهم سمات الأدب المكتوب بالفارسية سواء في ايران أو أفغانستان

وحسب النقاد، فإن هذه الكتابات تبدو جافة المفردات، رغم بساطتها وبدائيتها، حتى وان كان المؤلف امرأة من طراز سبوحجاي زرايب، المولودة في كابول عام ١٩٤٩ والتي سافرت إلى فرنسا في أواخر الثمانينات ودرست اللغة الفرنسية، وفي مجموعتها القصصية «سهل قابيل» تنشر ثلاث عشر قصة قصيرة سبق ان قامت بتأليفها حين كانت تعيش في كابول،

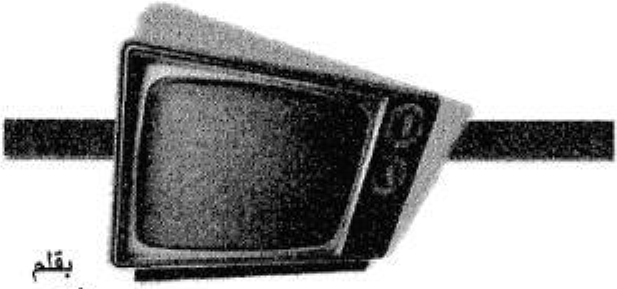
موقف الكاتبة

وفي ابداع الكاتبة هناك حس نضالي أشد وأعمق مما رأينا عند رحيمي، فقد قامت زرايب بتأليفها إبان قمة الصراع الأفغاني ضد الاحتلال السوفييتي، في تلك الآونة شاركت المرأة الافغانية بمناهضة العدو الشيوعي، وأبطال هذه القصص من النساء اللاتي فررن دفع العار عن البلاد، مما يعكس موقف المرأة الافغانية إبان هذه الحقبة .

والكاتبة التي تعيش في مدينة مونبلييه كانت ضد السوفييت، وطالبان معا، الروس الغزاة وطالبان هم من الديكتاتوريين الذين ألغوا جميع سبل مشاركة المرأة في بناء المجتمع. لكن المجموعتين القصصتين اللتين نشرتهما الكاتبة، وترجمتا إلى اللغة الفرنسية، ليس فيهما ما فعله طالبان في البلاد، لأن الفترة قصيرة نسبيا، ولأن الكاتبة كانت قد تركت بلادها قبل استيلاء هؤلاء العسكر على مقدرات السلطة في البلاد

●●●

نحن أمام كاتبين اختارا المنفى، نفس المكان، واختارا الابداع ايضا بديلاً عن المنفى. لكن لكل منهما اسلوبه الخاص في التعبير عن هذا المنفى، ومن الواضح انه بعد احداث سبتمبر، فإنه قد تم اكتشاف المزيد من الادباء، لكن لاشك ان الصورة ستكون متغيرة تماما . ■



المتفرجة

بقلم

مرفت رجب

الشاطر حسن

حين لمحت الآلة الموسيقية ملقاة على الرصيف ، ظننت أن صاحبها المكور على نفسه ملاصقا لسور المعبر يلتقط شيئا ربما قد سقط منه على الحافة . ولما طال تكوره على نفسه ، استحثني ذلك لأسرع الخطى نحوه أكثر . وما إن طرأ السؤال على ذهني «ترى، هل هو؟!» ، «معقول ؟!» ، حتى قطعت المسافة التي كانت تفصلني عنه في سرعة خطو مذهلة .

وقفت أمامه منتظرة أن يرفع رأسه لأتأكد! هل هو حقا من ظننت؟، ولما تبين لي من انعدام تحركه وانتظام تنفسه أنه نائم، قربت وجهي منه لأتأكد ، واللحظات تزدحم بالأسئلة تتعاقب على ذهني تكاد توجعه، ما الذي أتى به إلى جنيف، ولماذا ترك أمستردام ، هل جاء هاربا ، أم مطرودا . أم مجرد الضجر حمله إلى هذا المكان ؟ لكن، كيف حصل على الإذن بدخول البلد والإقامة؟!! صدمني النظر إلى كفيه إذ وجدتهما خاليتين من آثار الحروق، ومع ذلك ، ملت أكثر لأتأكد تماما من النظر إلى وجهه ، إنه ليس من ظننت ..

تابعت السير ، ساخرة من سذاجة تفكيري، لكنني قلت ، على كل حال ، هذا الآخر عربي ، وهو على الأرجح في ورطة مماثلة لورطة من جاء ببالي ، وكاد بحلول مأساته على رأسي أن يصرفه عن حمد الله الذي لبى دعائي ، وأرسل أشعة الشمس تنير نهار جنيف ، بعد أيام متتالية من الظلمة والمطر المستمر .. يا سبحان الله ، ها هي البجعات البيضاء الرشيقة تتألق ناعمة بدفء مياه بحيرة «ليمان» ، تشد البصر إليها متألقة ، منها السابحات في كسل ، ومنها المتدافعات تتقافز صوب فتات من الخبز يقذف به بعض من يمر ، وأخر في حركة طيران يتباين ارتفاعه عن سطح المياه ، ولا يظهر فيه اتفاق في توجيه الحركة إلى يمين أو شمال ، وإن بدا إجماع على عدم تجاوز حد لا نراه .. ملأني السرور ، وبعد برهة استدرت ، أعطي ظهري للبحيرة ، متوجهة إلى حي جنيف العتيق ، مثبتة في الذاكرة صور البجع الذي أغبط خلاصه من همّ البشر . وما إن وصلت إلى محطة الترام في شارع «الرون» اللازم عبوره للوصول للحي العتيق حتى تسمرت عيناي على شاب يبدو من ملامحه هو الآخر أنه عربي . وما سمرني في المكان سوى أن وقوفه في الركن على بعد خطوات من المحطة يعزف نايه ، يضمه بلا عناء إلى الآخر الذي تركته مقعيا على المعبر يغط في سباته العميق .. لم أتوقف ، وإنما اتجهت يسارا بعد عبور الشارع ، لأسير بمحاذاة نوافذ المحلات التجارية ، غير ملتفتة إلى ما تعرض، فأنا أعرف وجهتي..

ياسلام .. في نفس البقعة من الرصيف الواسع وجدت ضالتي ، وبلعت ريقي ، فقد أكد المشهد ما أؤكده دوما من أن هذه الصيغة من بيع الموهبة أو «التسول » – أو كيفما تصدق الصفة في هذا الاتجاه ، بما يوحي بحفظ الكرامة أو إهدارها – ليست مقصورة على أبناء العروبة .. فالشابان اللذان استوقفاني بعزفهما المشترك على آلة الكمان يقفان في نفس البقعة التي طالما شغلها رسام، اعتدت رؤيته ، يفترش الأرض ، يرسم عليها لوحته التي قد تتجاوز مساحتها أربعة أمتار مربعة ، مستخدما في إبداع تشكيلاته كل ما يخطر لك على البال من متجانس الألوان ، وعلى بعد خطوة أو خطوتين من الرسم ، تجده واضعا طبقا أو علبة فيها بعض القطع المعدنية من الفرنكات السويسرية ، في دعوة صريحة لك أن تضيف للمبلغ إن شئت . لكن رؤيتي لذلك الرسام لا تتاح إلا في أيام

الصيف، إن كانت خالية من تساقط الأمطار، ولا أعرف، ولا يهمنى أصلا أن أعرف إن كان تبادل الفنانين على الموقع يتم باتفاق بينهم، أم أنه نتيجة تلقائية لتغير الفصول . لكن المهم تأكدى من أنهم فى هذه الناحية من المدينة ، ليسوا من أبناء العرب..

مشهد الغروب

مضيت فى طريقى ، وقد عدلت المسار ، لأحكم استخدام الوقت المتبقى لى فى المدينة قبل أن يحل الظلام ، ويفلت منى مشهد الغروب.. والحمد لله أن قد نجحت ، وعلى الأريكة الخشبية التى تتوسط المعبر جلست ، معطية ظهرى لنهر الرون ، ووجهى للبحيرة الواسعة . وما إن رفعت النظر إلى جبال الألب المطلة على البحيرة ، حتى وجدت القمم متفاوتة الارتفاع وقد انتثر عليها الجليد يعلن إحكام قبضة الشتاء على أجواء أوربا . ورغم أن لسعة البرد التى استشعرتها تحثنى على مغادرة المكان ، إلا أننى بقيت أمعن النظر إلى تلك السحابة البيضاء ، تزاحم أخوات لها رماديات يسيطرن على سماء البحيرة..

أما تلك البيضاء ، فقد واصلت تهاديها ، مقتربة من قمة الجبل فى حنو ، تتدرج على بياضها ظلال حمرة الشمس الغاربة .

ياسبحان الله ، لك يارب فى خلقك شئون وشئون ، ما أجمل هذا النور ، يخترق الظلمة ، يقاومها ، مؤكدا أن فى الكفاح الأمل .

التسول وقبح الواقع!

يا سبحان الله ، لم يارب حكمت على هذا الرجل بالهوان ؟! أم أنه يارب حكمه على نفسه ، هروبا من الكفاح أو عن كسل ، من منا ، مهما أوتى من حكمة أو علم فلاسفة أو علماء نفس ، من منا يستطيع أن يقطع برأى ف اصل لا يرد فى شأن كل ممن سد بقت الإشارة إليهم ، لماذا تأخذ حياتهم ذلك المسار ؟!! وإن كنا جميعا لا نستطيع ، فلماذا استطاع مخرج الفيلم التسجيلى الذى اختار أن يكون العربى المتسول فى شوارع أمستردام موضوعه !!! ولماذا اختار المخرج الفلسطينى أن يغفل كل المتسولين من جميع أجناس البشر ينتشرون فى عواصم الأرض شرقا وغربا ، لماذا يختار المخرج أن يكون المتسول فى شوارع أمستردام - موضوع فيلمه التسجيلى - عربيا آتيا

من المغرب ، بعد ارتباطه بالهولندية التى أقنعته أن الزواج منها ، والهجرة إلى بلادها كفيلان بفتح كل الأبواب ، وما إن نفذ لها المراد ، حتى اطلع على قبح الواقع الذى لم يتح له سوى أدنى الأشغال وبأحط الأجور وإذ أحكمت الكآبة خيوطها ، لم تترك له من المنافذ إلا العزف على ناى خشبى ، يطلعنا الفيلم على مشاهد تثبت موهبة العازف التى تتخطى إصدار حلو النغمات ، إلى إتقان صنع الناى بيديه ، والارتزاق من جود مستحسنى النغمات من المارة إن أمكن .. ولماذا اختار المخرج من مفردات حياة بطله ما يجعل المشاهد يراه صاحب القرار فى كل ما ألم به، بدءا من قراره ترك بلاده بصحبة الزوجة الهولندية التى لم يشأ المخرج أن نراها ، إلى قرار اختيار التسول بالعزف فى الشوارع ، إلى قرار تعاطى المخدرات .. إلى قرار ترك مكانه إلى آخر .. ولماذا لا يعطينا المخرج ما يبرر حروقا أصابت كفى الرجل من إحراق متعمد حدث له بليل ، لماذا لم يقدم لنا المخرج إجابة السؤال ، من الذى تعمد إحراق كفى بطله؟ ولماذا أحرقهما ؟ ولماذا مع ذلك يصر على افتعال مشاهد توحى بأن الناس فى المكان ، تفتقد العازف البائس حين يختفى ؟!! ولماذا يطلعنا المخرج على حنو موجع على طفل يلعب فى فناء مدرسة ، بينما يحجم عن تقديم ما يعيننا على الفهم ، لماذا يسعى الرجل لرؤية الطفل ، ومتابعته على البعد ، وهل هو ابنه ، وهل تلك الذراع الضخمة التى تنتهى بيد تشد الطفل بعيدا هى لزوجة الرجل، أم لمن ؟.. لماذا اختار المخرج أن يجمع من وقائع حياة الرجل ما يستبعد أى شبهة إدانة للطرف الآخر ، الزوجة مثلا ، ألهذه الدرجة يخشى المخرج عليها من أى تفسير سلبى قد يطرأ على ذهن المشاهد؟ .. هل لمثل هذا المسلك فى الإخراج صلة بالجهة الهولندية المشاركة فى إنتاج الفيلم ، وما علاقة كل ذلك ببداية الفيلم بمشهد درامى يصور أما تحكى لطفلها عن بطولات الشاطر حسن ، وبأن يقرر المخرج أن يختم الفيلم بصوت يتحسر على بطولات الشاطر حسن التى انتهت فى فيلمه إلى السراب الذى تاه فيه العربى المتسول فى شوارع أمستردام يعزف نايه مهزوما مطحونا بفعل الواقع المخلوط بالمخدرات .. وكأن المخرج لم يكتف بما استباح لنفسه من أدوات الفيلم التسجيلى ، يختار منها ما يشاء ، ويستبعد من القواعد على هواه ، المهم أن يحدث الأثر

المتفرجة

الشعورى الذى قرر أن يفرضه علينا ، بل يذهب إلى ما هو أبعد ويقرر استباحة رمز حميم فى ثقافتنا العربية «الشاطر حسن» ، فبدلا من أن يتركه لنا ليبقى اسما على مسمى ، قرر المخرج أن يمسخه إذ يربطه ببطله الذى أظهره الفيلم خاليا من أى من سمات بطولة أو شطارة .

ومع ذلك فاز الفيلم بواحدة من أبرز جوائز المهرجان الدولى للأفلام التسجيلية بالإسماعيلية (٢٠٠٢) ، لكن تلك الجائزة ليست بالتحديد موضوعنا وليست وحدها ما ظل يلح على تفكيرى ، وما جعلنى فى سذاجة أتوقع أن يكون المكور على نفسه على معبرا فى جنيف هو عازف الناى التعيس فى الفيلم التسجيلى الذى يشغلنى من وقت مشاهدته فى الاسماعيلية (٢٠٠٢) وما كان الظن إلا لرغبتى القوية فى إيجاد إجابات عن الأسئلة السابق طرحها.

ولكن هل نتعجب أن يفوز مثل ذلك الفيلم بجائزة؟ وقد يفترض البعض أن يكون أفضل أو من أفضل ما تضمنته المسابقة من أفلام، والإجابة عندى بالنفى ، وما لتفسير ذلك شرعت فى كتابة هذا المقال .. وإنما الأمر عندى أنه لا عجب ، فقد اعتدنا على تجنب تطبيق المواصفات والمعايير المهنية ، والنتيجة أن يفوز مثل ذلك الفيلم أو غيره فى المسابقات اعتمادا على عامل واحد أو عاملين رأت فيهما لجنة التحكيم الكفاية ، لحسن استخدام الاضاءة - مثلا - أو براعة التصرف فى أنواع اللقطات أو لغير ذلك من اعتبارات أخرى قد نستطيع أن نتكهن بها ... ومرة أخرى ليس هذا مربط الفرس وإنما مربطه هو شيوع عدم مطابقة المواصفات المهنية والنتيجة لا تقتصر على نتائج المسابقات ، وإنما النتيجة هى ما تمتلئ به شاشاتنا وأثيرنا من أخطاء فنية فادحة تشمل استخدام اللغة والموسيقى واللقطات والإضاءة وحركة الكاميرا ، تلك التى كان ارتعاشها فى أيدى مصورى معظم الحلقات المذاعة خلال شهر رمضان المعظم أمرا يصيبنا بالدوخة ونعجب، هل هم حقا مصورون محترفون ؟ وإن كانوا كذلك فكيف يخفقون فى حساب سرعة انتقال الكاميرا تستعرض المشهد من أقصى يمين إلى أقصى يسار ، ثم ما هى الضرورة الفنية التى تجبر المخرج على مواصلة استخدام هذا الأسلوب المعذب للمشاهد ، الفاضح للضعف المهنى ،

ولماذا يعجز عن استخدام أجهزة المونتاج الالكترونى باهظة الثمن وهى بين يديه جاهزة ومعها كبار المهندسين الذين تظهر أسماؤهم فى بداية ونهاية كل حلقة والعمل كله ينفى مبرر وجودهم أصلا .. إننى اكتفى بهذه الإشارة إلى عيب ربما لم ينج منه فى العدد الكبير الذى تابعته من الحلقات سوى فارس بلا جواد للفنان الواعى برسالة الفن محمد صبحى فى مصر ومسلسل المتنبى من إخراج فيصل الزغبى .. فى أبو ظبى .. فكما نجد عند محمد صبحى فريقا فنيا رفيع المستوى فى التمثيل والتصوير والموسيقى والإضاءة واختيار الملابس وتحريك المناظر وسلاسة تتابع اللقطات وضبط إيقاع الصورة نجد نفس الشئ عند فيصل الزغبى فى مسلسل المتنبى الذى حشدت له شركة الإنتاج السورية فريقا فنيا على أعلى مستوى جاء أفراده من سوريا ولبنان والأردن والسعودية والعراق وإيران فى نموذج رائع على إمكان نجاح الإنتاج العربى المشترك وإن كنت أؤجل التفصيل فى عوامل القوة والجمال والبراعة فى مطابقة المواصفات الفنية إلى مقال آخر أما الآن فهو أوان طرح السؤال ، كيف ندرك أبعاد عصر الفضائيات ؟.. هل مازلنا نركن إلى فكرة أن المصرى لا يستطيع الاستغناء عن أثيره المسموع والمرئى ، حيث يرى نفسه وناسه ومشاكله ؟

اقتصادنا الوطنى والجات

أخشى أن يكون الواقع قد بدل الساكنين فى خانات السذاجة . وحتى على افتراض أن ذلك لم يحدث بعد بالقدر الذى يلغى مبرر وجود الكثيرين ، كيف يرى طارحو الإنتاج المعيب أنفسهم فى مثل هذا اليوم من العام القادم إن شاء الله، حين يأتينا عام ٢٠٠٤ ومعه الرفع الملزم للحواجز الجمركية طبقا لقواعد منظمة التجارة العالمية المطبقة لاتفاقيات (الجات) ، وإلى أى حد يحتمل اقتصادنا وكرامتنا الوطنية كل ما هو متوقع من توابع بالقطع منطقية إن - لا قدر الله - تواصلت الغفلة عن أهمية الالتزام بالمواصفات وصولا للجودة التى هى الضمان الوحيد لإقبال المصرى على المنتج الوطنى ، سواء كان برنامجا فى الإذاعة المسموعة أو المرئية أو حذاء أو قميصا معروضا للبيع فى الأسواق . صحيح أن لا شأن للجمارك بالمنتج المذاع ، لكن ما يصدق عليه يصدق على المنتج المباع فى السوق إن كان للأمر صلة باختيار الجيد والانصراف عن الردئ . وهل من المنطقى أن نطالب المصريين بشراء المنتج الوطنى لمجرد أنه

المتفرجة

مصرى ويصرف النظر عن جودته ؟.. وهل من العقل أن نصدق أن الدافع الوطني يكفي لحدوث ذلك مهما شرحنا وأكدنا العلاقة بين شراء المنتج الوطنى وسلامة الاقتصاد ، وتشغيل الناس والحد من البطالة وشيوع الجريمة والانحراف ..؟!!

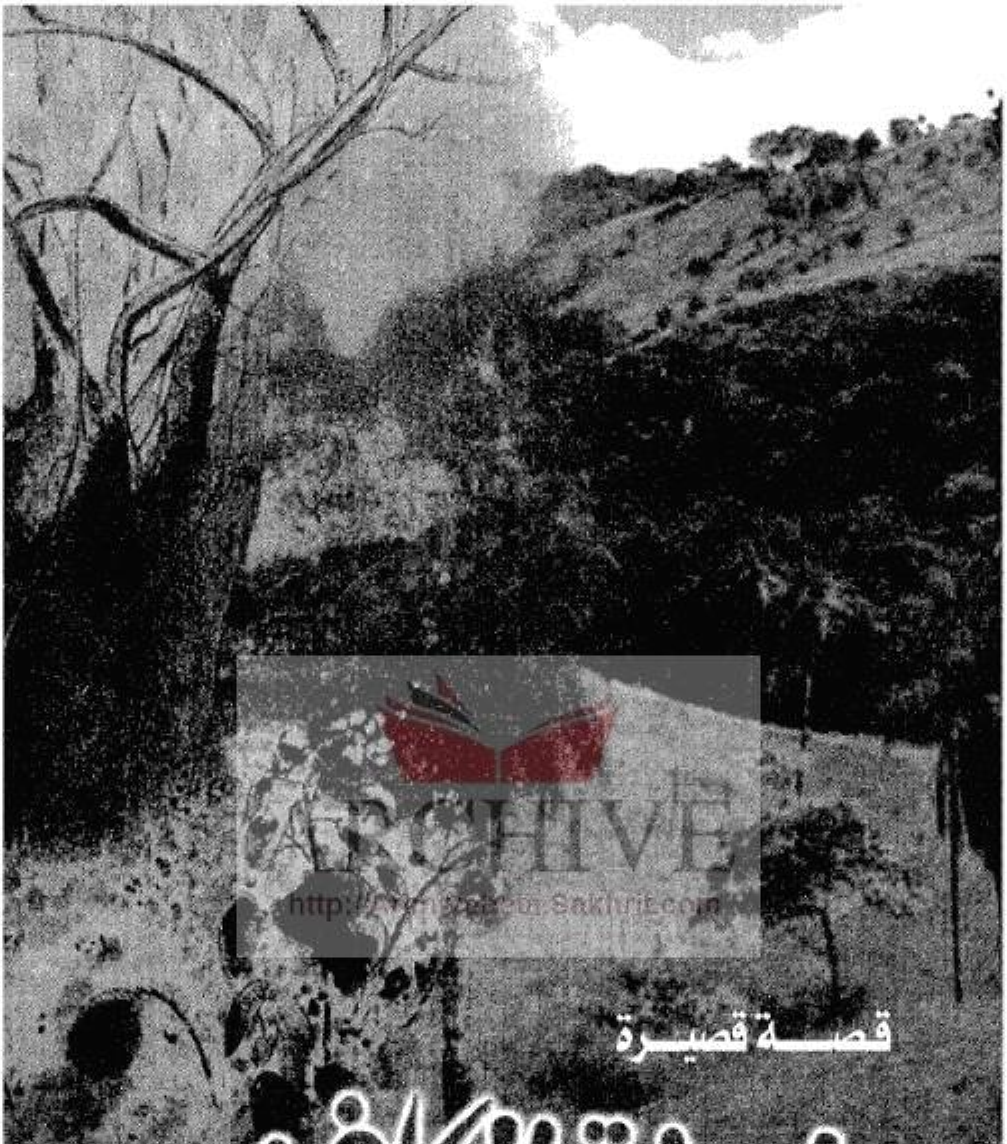
وهل يصدق الناس من تشى كلماته وأفعاله بالكذب ؟!

هل ينفع أن نترك الساقط فى نكبة الأخطاء اللغوية – نحوا وصرفا – ونسند إليه الدعوة للحفاظ على سلامة اللغة العربية ، من يصدقه؟ لن يكون رد الفعل سوى السخرية والتندر بحال المتكلم وموضوع الكلام. نفس الشئ يصدق على البرامج والتمثيليات والأغاني وكل أنواع المنتجات التى يحملها الأثير إلى مستمع ومشاهد هو في بلادنا صاحب ذوق رفيع ، وحس يفهم في السياسة والفن بالفطرة ويفعل تراكم الخبرة الإنسانية وصقلها عبر آلاف السنين .

وبعد ، فالأمر لا يقف عند تزييف الواقع ، ولكنه يتجاوزه إلى الغفلة عن المسئولية الأصيلة لكل من يرتضى لنفسه مهمة لها بالإعلام المعاصر صلة .. إذ يفرض الواجب أن نفهم مسئوليتنا فى إعداد الناس لما هو آت . وإذ نتذكر بما حكاه المستشار الألمانى الأسبق (كول) عن أمه التى نصحته إن جلس للأكل أن يركز البصر على ما فى طبقه ، وألا ينظر إلى مافي أطباق الآخرين ..

فدعوتنا لتذكر هذا المثال إنما هى للاقتناع والقناعة بأن ما عندنا فيض من نعم المولى عز وجل ، وبأننا إن لم نحسن التأمل والتقدير لما بين أيدينا من نعم فسيكون العقاب مهولا .. وليس أمامنا إلى النجاة من سبيل سوى عن طريق التطبيق الكامل المحكم للمواصفات وصولا للجودة المحققة لرواج المنتج، أى منتج .

ولأننى لا أريد لنفسى أو لأى من أبناء وطنى ، أن نكون فى حال البجع المتقافز لالتقاط فتات يتعطف به من يمر ، ولا فى حال البجع المتحرك فى كسل يمد منقاره إلى سمك صغير قريب من سطح الماء ، وإنما يجدر بنا دوما أن نشحذ كل قوة فينا أو مهارة أو إبداع ، لنكون، على العمر ، فى حال البجع المرتفع عن سطح الماء ، محلقا إلى أبعد مدى يستطيع الوصول إليه ، ليكون جديرا بنوع الأكل على هواه . ■



قصة قصيرة

شجرة الكافور

بقلم
هدى العقبى

شجرة الكافور

أمى لها قلب جميل وحنون، أحن من كل القلوب، لها قلب ضارب الى أعماق الأرض يتخلل جذورها، لها ملايين الأبناء. إنها شجرة الكافور الجميل. قد تندهشون ما الذى يجعلنى متأكد من ذلك.. ولكنى أحد أبنائها، من أنا؟ أنا عصفور أخضر صغير أعيش فى أحضان أمى شجرة الكافور. أقصد أمى الحاضنة. أعيش أنا وأبى وأمى وأخوتى الصغار، كم أحب الحدائق والبساتين. يا الله، ما كل هذا الجمال؟ تلك الشجرة العتيقة أحبها أكثر من أى شىء آخر. لقد أبدع الله سبحانه فى صنعها . تقف متحدية الزمان والمكان . انها تزداد جمالا كلما تقدم بها الزمن، خاصة فى لحظات الفجر حيث



تتساقط على أوراقها حبات الندى اللؤلؤية المضيئة التى سرعان ما تتحول الى اللون الفضى.

هل هى وحيدة ؟ . لا ليست وحيده فهى الملجأ لنا نحن معشر الطيور، لا تبخل علينا بشئ، يمكن لأى عصفور أيا كان لونه أو شكله أن يسكن فيها. فليختار أى فرع أو غصن من الشجرة يبنى له منزلاً فيه . أو كما تقولون أنتم معشر البشر «عش» سؤال يشغلنى «من قام بزراعتها ؟ أقصد شجرة الكافور إنها تبلغ من العمر مائة وخمسين عاما هكذا حدثنى أمى اين هو الآن أرغب فى شكره لأنه أهدى العالم هذه الشجرة الطيبة البشوش

إنها جميلة فى كل فصول السنة، حتى فى فصل الخريف ... فى هذا الفصل لا تسقط جميع أوراقها مثل باقى الأشجار والشجيرات الأخرى ... بل لها خاصية جميلة تميزها عن باقى الأشجار ... أوراقها تسقط من كل فرع أو غصن على حده على مدار السنة . شجرة الكافور كل يوم ترتدى فستاناً جديداً أخضر اللون له كرانيش خضراء جميلة، كل ورقة تستبدل تزيد الورقة جمالاً. أوراق طويلة مسحوبة للأمام ... بها عرف صغيرة كأنها ممالك تختفى وراء زجاج أخضر غامق .. أمى العزيزة شجرة الكافور ذات رائحة جميلة تعطر الجر طوال فصول السنة الأربعة حتى فى فصل الخريف فيه تقوم بتوديع آخر أوراق

قديمة لديها ورقة تلو الأخرى وتصبح مستعدة لفرصتها الثانية أو الثالثة

أو المائة والخمسين فى انتظار الحياة إن شبابها متجدد يا عظمة الخالق الجميل، إن الله جميل يحب الجمال ... حقا إن الله جميل خالق الجمال يقول البعض إن شجرة الكافور بدون ثمار ، إنه أحد أسرارها وسر تألقها وتميزها .. هى أم رحيم بارة بجميع أولادها من الطيور .

ومع ذلك فى بعض الأحيان تكون وحيدة فى يوم من أيام الخريف هاجر جميع أولادها بحثاً عن الرزق، ما عدا عصفور أخضر اللون صغير عصفور رقيق القلب رأسه وجسمه فى لون الأوراق الخضراء أما ذيله ففى لون الثلج، هل عرفت من يكون هذا الصغير؟ أنه أنا ... كل يوم أخرج بحثاً عن الرزق وأعود لأطمئن على أمى شجرة الكافور .

فى أحد الأيام عدت وأحسست بأنينها ، بدموعها التى تسيل عصارة على فروعها قلبى الرقيق رفرف داخل صدرى الصغير طرت بعيداً وأنا أنادى وأزقزق على أخوتى عصافير الجنة وعلى عصافير الكناريا وعلى العصافير الرمادية... إن أمنا شجرة الكافور حزينة . جاءت كل العصافير الحمراء والخضراء وعصافير الكناريا وحتى العصفور الأزرق جاء من آخر الكون أخذ كل عصفور ريشة من ريشه ووضعها فى منقاره ليقدمها هدية لأمنا طار كل منا ليواسى أمنا الحنون ويعرفها إننا مازلنا أبناءها استقر كل عصفور على فرع من الفروع أصبحت الشجرة كرنفال ألوان ...وتساقط الريش بألوانه المختلفة فى منظر بالغ الروعة إذا نظرت لشجرة الكافور فى ذلك اليوم لرأيت قوس قزح متمثل فى شجرة ... ولعرفت معنى الوفاء والإخلاص . ■



قصاقيص

بقلم
محيي الدين اللباد

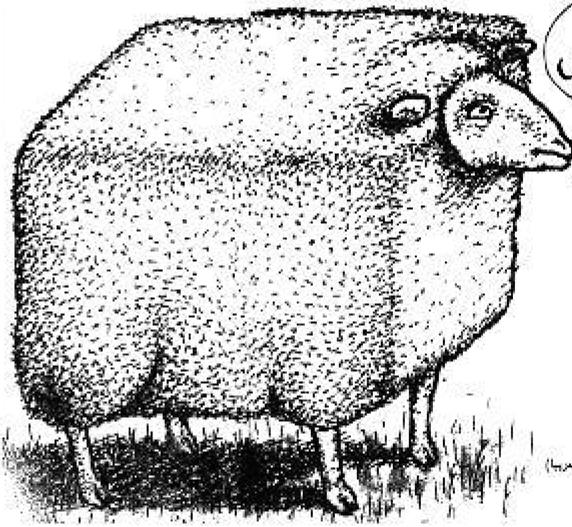
هل هناك عالم جديد؟

نظمت مجلة «كورييه أنترناسيونال» الفرنسية، بالاشتراك مع متحف التاريخ المعاصر بباريس، معرضًا بعنوان «عالم جديد»، ضم المعرض ٢٢٠ رسمًا كاريكاتوريًا سبق نشرها خلال السنوات الثلاث الأخيرة (١٩٩٩ - منتصف ٢٠٠٢) في صحف بمختلف بلاد العالم.

اختارت المجلة رسومًا رأت أنها تتناول التحولات التي جرت في عالمنا متزامنة مع دخول القرن الجديد والألفية الجديدة: ١١ سبتمبر - الحرب في أفغانستان - الحملة ضد «الإرهاب» - الصراع العربي الإسرائيلي الذي لا يبدو في الأفق حل له (حسب تعبير المجلة) - كوسوفو - الاقتصاد الإلكتروني - الوحدة الأوروبية - تقنيات البيولوجيا - الظلم والعدل في عالمنا.

الموضوع طريف، لكن الرسوم المختارة للمعرض لم تستطع التعبير عن الجنون الكبير الذي صاحب إطلالة القرن ودوران عجلة الألفية، وما «الألفية» - وكلها رسوم رأيناها منذ ٢٠ عامًا مضى. أو كأن أزمة ضرب الفكر قد نزعت الأشياء. هل السبب هو أن الصدمات التي أصابت الرؤوس وما في داخلها كانت شديدة الوقع على العقل، ولذا ضعفت استجابته لأحداث الواقع؟ أم أن المسائل باتت، وجداول الضرب تضخمت، والرؤية ثابتة، والحيرة شاملة؟

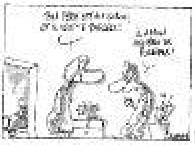
هل هي المجلة التي لم تحسن الاختيار، أم أن الـ... بـ...؟



الرسام: يوريث (سلوفاكيا)



الرسام: يوريث (إيطاليا)



- أمولك من الصامدين وجدير بتحكم معه، قرب ما هو مقام ثورة الزوايا
الرسام: باريج (سويسرا)

الكاريكاتور الصحفي مهدد بالانقراض؟

نشرت مجلة «أميركان جورناليزم ريفيو American Journalism Review» مقالا بنفس العنوان الذى اتخذته هذه الفقرة عنوانًا لها، ذكر كاتبه أن الصحف الأمريكية لم تعد تهتم بتشغيل رسامى الكاريكاتور لأسباب أغلبها اقتصادى، ولاحظ الكاتب أن الصحيفة التى يموت رسامها الكاريكاتورى لا توظف رسامًا بدلاً عنه، وتترك مكانه فى الصحيفة شاغرًا.

منذ عامين، توفى «جيف ماكنيللى» رسام الافتتاحية الكاريكاتورية لصحيفة «شيكاغو تريبيون» (حصل على جائزة «بوليتزر» للكاريكاتور ٢ مرات). ونعت الصحيفة رسامها بحزن عميق، وجاء فى نعيها: «كم سنفتقدك يا ماكنيللى، وكم سيفتقد القراء رسمك!». ومرّ عامان، ولم تهتم الصحيفة بأن يشغل مساحة الكاريكاتور السياسى فيها رسام آخر!

ولم يكن هذا حال «شيكاغو تريبيون» وحدها، بل يعدد المقال خمسة صحف أخرى على نفس الحال، ويذكر أن صحيفة سادسة هى «ديلي نيوز» النيويوركية أعلنت إلغاء مساحة الكاريكاتور السياسى فيها ضمن خطتها لخفض المصروفات.

ويدافع رئيس «رابطة رسامى الكاريكاتور الأمريكان» الرسام «بروس بلانت» عن المهنة، نافيًا صحة «إعلان وفاة الكاريكاتور». ويزعم الرسام النقابى أنه «لا يوجد على الأرض فن له شعبية الكاريكاتور»، وأن «على الرسامين أن يواصلوا الدقّ على أدمغة رؤساء التحرير بأن فنهم لا يزال حيًا يرزق!».

وعلى الرصيف الآخر، يبدى رسامون آخرون خوفهم من حالة «التنميط» التى يغرق فيها الكاريكاتور السياسى الأمريكى حاليا، ومن الخفة المتزايدة فى تناوله للموضوعات. ويرى هؤلاء أن الأجيال الجديدة من الرسامين تخضع لضغوط



عينة من اختيارات «نيوزويك» من الكاريكاتور الأمريكى

رؤساء التحرير المطالبة -دائمًا- بكاريكاتور أشبه ببرامج التسلية التليفزيونية، ويرون أن هؤلاء الرسامين الجدد يستسلمون لطلب رؤساهم المتكرر بأن تكون رسومهم مثل تلك الرسوم الساقعة التى تختارها مجلة «نيوزويك» من الصحافة الأمريكية وتنشرها، أو تلك التى تظهر على صفحات جريدة «يو - إس - توداي».

ويتحدث الرسام «سكوت ساتانتيس» (الرئيس السابق للرابطة) مؤكداً تزايد ظاهرة «تنميط» الكاريكاتور وانتشار محاكاة رسوم مجلة «النيوزويك»، ويقول: [إن ظاهرة «نَزْوَكَة» المهنة (نسبة إلى «نيوزويك») تهدد بموت الكاريكاتور السياسي]!

قد تكون تلك أخباراً جديدة وكلامًا جديداً على بعض القراء، ولكن حال الكاريكاتور الأمريكي كان واضحًا منذ زمن طويل. ولكن اللافت للنظر -هذه الأيام- أن هذا الحال أصبح متكرراً فى بلاد كثيرة غير أمريكا (هل تدخل بلادنا الآن ضمن تلك البلاد؟)، فالأمر يبدو كما لو كان «شوطة» شاطت فى العالم.

تقويم ماركة، دولة!

تعدّ بولندا واحدة من أهم دول العالم فى ميدان التصميم الجرافيكى. ومؤخراً، أعلن فوز وكالة إعلان بولندية فى مسابقة مغلقة نظمتها وزارة الخارجية البولندية لتصميم شعار بصرى لدولة بولندا «بناء على معايير حددتها الوزارة بدقة»، كما صرح المتحدث باسمها.

سيكون التصميم شعاراً غير رسمى لبولندا، يظهر على مطبوعات وزارة الخارجية، وفى موقعها على الإنترنت، وعلى لوحات عملاقة عند الحدود البرية، وعلى شاشات التليفزيون، وشاشات التليفون المحمول، وغير ذلك. أما الشعار الرسمى الحالى (نسر متجهم شرس يخرج لسانه من منقاره المفتوح، وينشر مخالبه وجناحيه)، فسيكتفى بظهوره فى الحالات الفائقة الرسمية والمتجهمة مثله.

كان على الشعار الجديد أن يجمع بين إظهار بولندا كبلد عريق، وتقديمها -فى الوقت ذاته- كدولة حديثة وشابة غير محافظة. اختار المصممون أن يكتب اسم «بولندا» كما تكتبه اللغة البولندية: POLSKA (وليس Poland أو Pologne كما يكتبها الإنجليز والفرنسيس)، بينما اختاروا -بتعمد- أسلوبًا جرافيكيا لكتابة اسم الدولة يذكرنا بالشعار البصرى لمنظمة «تضامن solidarinoc» العمالية البولندية المعارضة التى ذاعت شهرتها فى العالم، وقت أن كانت تناهض الحكم الشيوعى قبل سقوطه عام ١٩٩٠..

كان شعار



«تضامن» هو مجرد اسمها مكتوباً بطريقة يدوية حرة، وهى الطريقة ذاتها التى حاولوا أن يكتبوا بها الشعار الجديد تيمناً وتمحكاً فى «تضامن». ويبدو أنهم يتوقعون تأثيراً طيباً عند الأوروبيين لهذه الإشارة الخفية إلى منظمة «تضامن» ورئيسها «ليخ فاونسا».

وتمادى المصممون، وجعلوا من حرف «K» فى اسم بولندا شخصاً يرقص، ثم تبجبحوا ووضعوا فى يده طيارة ورقية تلعب فى الهواء. وجعلوا الشعار الجديد بلونى العلم البولندى : الأحمر والأبيض.

وفى مقابلة أجرتها صحيفة «الفاينانشيال تايمز» البريطانية مع الفريق الذى صمم الشعار، ذكر هؤلاء أن وكالتهم قامت بإجراء استطلاع للرأى فى الدول الأوروبية، خارج بولندا، سألتهم فيه عما يتداعى إلى أذهانهم عند سماعهم لاسم «بولندا»، ووضعت نتائج هذا الاستفتاء تحت تصرف فريق التصميم قبل شروعهم فى العمل.

وقال أحد المصممين: «إن تبديل [ماركة] أمة هو عملية ليست بالهينة. فالمطلوب ليس مجرد [ماركة] جديدة بهدف تنشيط مبيعات سلعة ما، إنما المطلوب [ماركة] تسرع بإلحاق بولندا بالاتحاد الأوروبى، والإقرار بأوروبيتها مثل باقى الدول أعضاء الاتحاد!».

«تان-تان» ومكاسبه !

باعت مجلدات المغامرات المرسومة للشخصية الكارتونية الشهيرة «تان-تان» الصحفى الفتى وكلبه «ميلو» عشرات الملايين من النسخ فى طبعاتها بمختلف لغات العالم (من بينها العربية). وفى السويد -وحدها- حققت مبيعات الطبعة السويدية من مجلدات «تان-تان» الثلاثة والعشرين أرباحاً تفوق العشرين مليونا من الجنيهات المصرية، دخلت جيوب ناشرها فى الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٦.



أما المترجم الذى قام بترجمة تلك المجلدات إلى اللغة السويدية، فكان قد تقاضى أجراً مقطوعاً عن ترجمته بلغ ما يعادل ٨ جنيهات مصرية عن الصفحة الواحدة، أى حوالى ١١٠٠٠ ألف جنيه مصرى لا غير عن الثلاثة والعشرين مجلداً (بمعدل ٦٠ صفحة فى المجلد الواحد). وعندما بلغت المترجم أرقام المبيعات المذكورة، قام برفع قضية أمام المحاكم السويدية يطالب فيها الناشر بتعويض يليق بجهده الذى كان أحد أسباب تحقيق كل هذه الأرباح. رفضت المحكمة الدعوى، وحكمت بأن يتحمل المترجم مصروفات قضيته.

مضمومة رأسية أم مبسوطة أفقية؟

يجري العمل بهمة لإقامة تمثال صرحي لنيلسون مانديلا في مسقط رأسه ميناء «بورت إليزابيث» بجنوب أفريقيا. التمثال المزمع إقامته سيصب من معادن مستخرجة من مناجم البلاد، وبارتفاع ٦٥ متراً (بزيادة ١٩ متراً عن تمثال الحرية القائم في نيويورك).

ترعى مشروع التمثال جماعة من رجال الأعمال الأفارقة، فكروا أن ينصب التمثال عند مدخل الميناء ليستقبل السفن القادمة، مثلما يفعل نظيره النيويوركي. وقد شجعت الحكومة الإقليمية الفكرة، وقدمت لها التسهيلات اللازمة.



التصميم الأول للتمثال صور الزعيم المناضل ضد التمييز العنصري رافعاً ذراعه وقبضته المضمومة إلى أعلى رمزاً للمقاومة والتحدي (حسب العادات السياسية المعروفة في الغرب). إلا أن صحيفة «الديلي تلغراف» اللندنية تخبرنا أن أصحاب المشروع عدلوا من التصميم «قليلاً» فجعلوا تمثال مانديلا يمد ذراعه أفقياً، باسطاً كفه، في لفتة تبدو «أكثر مسالمة»، وذلك حتى لا يتعارض التمثال مع الهدف المقام من أجله، وهو: تنشيط السياحة!

علم جديد؟

علم الاتحاد الأوروبي الحالي (أرضية زرقاء عليها ١٢ نجمة ذهبية) أصبح يمثل مشكلة ومأزقاً للاتحاد. فقد كانت فكرته الأولى أن يحمل نجوماً بعدد الدول الأعضاء في الاتحاد. وكانت تضاف إلى نجومه نجمة كلما انضمت دولة جديدة إلى الاتحاد، حتى وصل عدد النجوم ١٢ نجماً. وهنا قرر الاتحاد عدم إضافة نجوم جديدة، وتجميد عدد النجوم عند الرقم ١٢، رغم توالي انضمام دول جديدة إلى الاتحاد.

وقد كشف «رومانو برودي»، رئيس الاتحاد الحالي أكثر من مرة عن حيرته، إذ أنه لا يعلم كيف سيواجه -خلال العام الحالي والعام القادم- مأزق انضمام عدد كبير من الدول الاشتراكية (سابقاً) إلى



الاتحاد، حيث ستكون الإثنا عشر نجمة -عندئذ- غير معبرة (ولو رمزياً) عن عدد الدول الأعضاء، والبديل الوحيد هو ازدحام مساحة العلم بنجوم أكثر مما تطيق.

ومؤخراً، تقدم الرسام البرتغالي الشاب «تون أنتونيو جاي أتا» بمشروع تصميم من ●●●

٦ شرائط أفقية من الألوان الزاهية المبهجة. ولقى التصميم ترحيباً مبدئياً من ممثلى الدول الأعضاء، إلى أن اكتشف بعضهم أن هناك تشابهاً، يكاد يكون تطابقاً، بين العلم المقترح وبين «راية قوس قزح» المتعددة الألوان التى يعرفها الكثيرون فى مختلف أنحاء العالم كراية يرفعها الشواذ جنسياً فى اجتماعاتهم ومظاهراتهم لعلم جديد للاتحاد الأوروبى، مكون

فن «الشوبنج»!

انتقل المعرض الكبير المعنون «شوبنج» من فرانكفورت، إلى لندن وأعيد افتتاحه فى ٢٠ ديسمبر الماضى بقاعة «التيت جاليرى» الشهيرة بلندن. يعرض المعرض ٢٠٠ عمل لسبعين فناناً تدور موضوعاتهم حول التسوق والسلع والاستهلاك: صور فوتوغرافية لفتارين محلات من مطلع القرن الماضى، وأعمال «أندى ڤارهول» الصادمة التى رسم فيها علبة شوربة الطماطم ماركة «كامبل» وزجاجات الكوكاكولا وعلب صابون «بريللو»، ولوحة سندوتش الهوت دوج الشهير الذى رسمه «ليشتنشتاين»، والعمل المعروف للأمريكية «بربارا كروجر» الذى يمثل كفاً تحمل لافتة: «أنا أشترى، إذن أنا موجود» (!)، وغيرها من الأعمال التى تندرج تحت شتى أشكال التعبير البصرى.

انفجرت موجة فن «البوب» Pop Art فى منتصف الخمسينيات وبداية ستينيات القرن العشرين، واستعار الفن الجديد أساليب تصميم السلع ورسوم لوحات الدعاية على الطرق، والإعلانات الصحفية، وملصقات الترويج، والرسوم الصحفية التجارية. وشمل الانفجار -غير الفنون التشكيلية- فنون الموسيقى، والغناء والسينما، والتصميم المعمارى، وشقيقه الصناعى، والعمارة الداخلية. وانتشر الفن الجديد على جانبى المحيط الأطلنطى: أمريكا وأوروبا.

اعتبر فن «البوب» امتداداً لفن «الدادا»، إذ كان كلاهما يعمل على صدم ذوق الطبقة البورجوازية «الماسخ»، وهزّ قيمها الجمالية. وكان كل فن منهما يعتبر نفسه معارضاً، و-بالتحديد- اعتبر «البوب» نفسه فناً جاء ليجهز على الفن التجريدى وزميله التعبيرى، باعتبارهما فنين بورجوازيين. وقال منظرو «البوب» أن فنانيه يعملون على إنزال الفن التشكيلى من سماواته العُلى إلى أسفلت الشوارع وبلاط السوبر ماركت. وزادوا على ذلك بأن فن «البوب» يحمل سمة هامة هى «محو وجود الفنان وذاتيته المدَّعاة»!

وفتح فن «البوب» -بخطابه المباشر الصريح- الطريق أمام فن المعارضة السياسية والاحتجاج، فى بداية ستينيات القرن العشرين، ذلك الفن الذى بلغ ذروته عام ١٩٦٨، سنة «ثورة» شباب الشمال الثرى، التى نادت بحياة جديدة، وقيم جديدة، وثقافة جديدة.

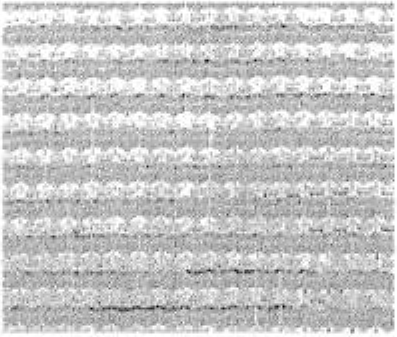
أما اليوم، بعد جنون الاستهلاك المفرط الذى يسود عالم الشمال، أصبحت أعمال فن «البوب» المستمدة من رموز الاستهلاك لا تعنى للشباب، الذين لم يعاصروا أوج ظهور فن «البوب»، سوى إشادة بمجتمع الاستهلاك الذى يعيشون الآن أوج قوته.

لقد أصبح التسوق، فى المجتمعات الغربية المرفهة، ضرباً من ضروب الترويح واللهو، بل أصبح النشاط الرئيسى فى تلك المجتمعات، وأصبح مجال اللقاء والاتصال بين الناس وميداناً لحياتهم المشتركة. أصبح التسوق محور وجودنا المدنى، ونجح فى أن يعبر حدود الخلافات السياسية والعقائدية والعرقية، وأصبح مقياساً لطبيعية الحياة اليومية وسلامتها.

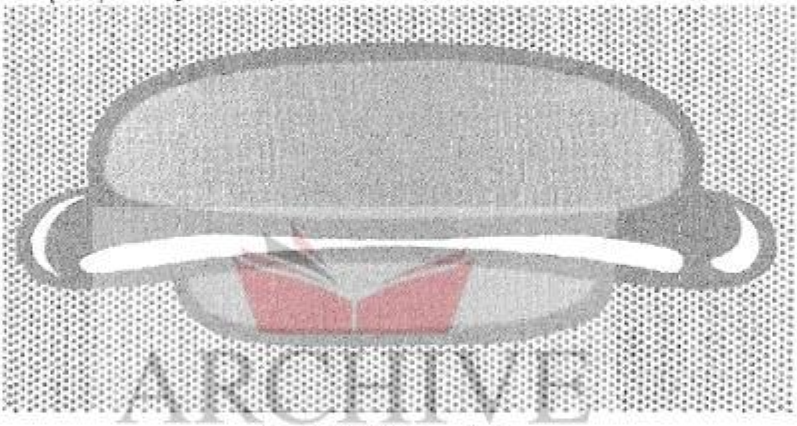
وعندما تمر الأمم -الآن- بضائقة أو أزمة، لا يدعو أحد إلى الاقتصاد فى الإنفاق أو إلى الحد من الاستهلاك بل تكون الدعوة عكس ذلك. ولعل منا من يذكر طلب عمدة نيويورك السابق «رودلف



«أنا أشتري، إذن أنا موجود»، باربارا كروجر (أمريكا)



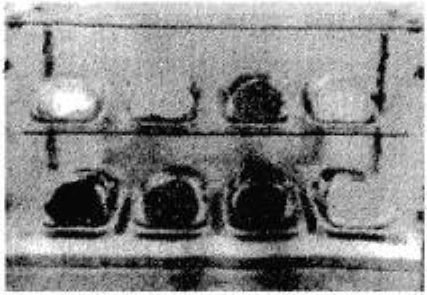
شوربة طماطم كامبل، أندي وارهول (أمريكا)



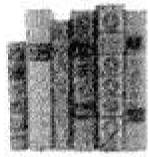
سندوتش، روي ليشتنشتاين (أمريكا)

جولياني، من مواطني مدينته -بعد نكبة ١١ سبتمبر- بأن يصعدوا من تسوقهم بهدف إنعاش اقتصاد المدينة.

المعرض حافل بمظاهر الاستهلاك المفرط، والدعايات العملاقة للسلع، وتفاصيل المحلات الكبرى، ووتصميمات المراكز التجارية، التي بهرت فناني منتصف القرن العشرين فنقلوها إلى سطوح لوحاتهم، وجعلوا منها أساطير حديثة رسخت في الثقافة الشعبية المعاصرة .



توست بالزبدة، كلايس أولدنبرج (أمريكا)



من ذخائر الكتب العربية

الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة

الأدب المصرى فى العصر العثمانى

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

اشتبكت فى نقاش - قبل سنوات - مع زميل من أساتذة الجامعة ، بدأ النقاش عندما راعه وصفى لفترة الحكم العثمانى من تاريخ مصر بأنها «فترة الاحتلال العثمانى لمصر»، وجاء نعتى هذا لسنوات الحكم العثمانى لمصر نتاجا لما قرأت عنها من تاريخ ابن إياس المعروف : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، بينما كان ارتياع الزميل لما أطلقت من نعت على الحكم العثمانى لمصر وليد اعتناقه لفكر جماعات الإسلام السياسى عن الخلافة، وبالرغم من أننى حملت الجزء الخامس من كتاب ابن إياس - والذى جاء فيه وصف سقوط مصر أمام العثمانيين - إلى الزميل ليقرأ أسبابى فيما نعت به حقبة الحكم العثمانى لمصر، إلا أن الزميل أبى أن يصدق رواية ابن إياس عن هذه الحقبة ، ولم يزدنى إباء الزميل إلا إيماناً بما وصفت به تلك الحقبة.

يسجل ابن إياس فى تاريخه ماكان من أمر العثمانيين فى مصر بعد أن دانت لهم مقاليدها فى مستهل سنة ٩٢٣هـ ، فيقول فى أحداث شهر ربيع الآخر من سنة ٩٢٣هـ مايلى : «وفى يوم الجمعة سابع عشرة رسم الدفتردار بإخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين إلى السفر لاسطنبول، فخرجوا فى ذلك اليوم جملة واحدة فنزلوا من المراكب وتوجهوا إلى ثغر الاسكندرية إلى أن يمضوا إلى اسطنبول، فأخذوا نساهم وأولادهم ومضوا ، وفى عقيب ذلك خرجت طائفة من البنائين والمهندسين والنجارين والحجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين، ومنهم من مسلمين ونصارى، حتى



طائفة من الفعلة» (١) ، هكذا بدأ العثمانيون من نقل فئات المهنيين المصريين بعد أيام من سقوط مصر أمام جحافلهم إلى اسطنبول عاصمة ملكهم، ولم يقف الأمر عند حد تهجير تلك الأعداد من أهل الحرف ، ولكنه امتد ليشمل كل المهرة من أبناء مصر .. بل إنه بلغ حد تهجير القضاة .

إن ما ارتكبه العثمانيون بعد دخولهم مصر لم يقف عند حد تفريغها من الأكفاء من أبنائها ، وإنما سبق ذلك ولحقه فك البنية الأساسية لبعض الصروح المصرية وإرسالها إلى اسطنبول، ومن ذلك ماذكره ابن إياس - أيضاً - في أخبار شهر ربيع الأول من سنة ٩٢٣ هـ حيث يقول : «وفي هذا الشهر وقع أن ابن عثمان (أي سليم الأول) شرع في فك الرخام الذي بالقلعة ، في قاعة البيسرية والدهيشة وقاعة البحرة والقصر الكبير وغير ذلك من أماكن بالقلعة، وفك العواميد السماقي التي كانت في الايوان الكبير، وقيل إنه قصد أن ينشيء له مدرسة في اسطنبول مثل مدرسة السلطان الغوري، فلا تقبل الله منه ذلك»(٢)، فلكل ماسبق .. فإن ابن إياس يصف سنة ٩٢٣هـ التي شهدت استيلاء العثمانيين على مصر بقوله : «وكانت سنة صعبة شديدة على الناس، كثيرة الحوادث والفتن، جرى فيها أمور شنيعة لم تجر في سالف الأزمان»(٤)، لقد لعب ماتخذه سليم الأول من إجراءات - إضافة إلى ماعانته مصر على يد قانصوه الغوري قبل الاحتلال العثماني - الدور الحاسم في دخول مصر إلى فترة ظلام حضاري ، فتراجعت بمصر ولسنوات طوال كل مظاهر التميز التي وسمت مظاهر الحضارة بها، إن ذلك يتجلى في أوضح صورة فيما أصاب الحركة الأدبية المصرية على يد الغزاة من بني عثمان، فبعد أن فرغت مصر من صناعها وعلمائها وقضاتها والوجهاء من رجالها، فإن الناتج الوحيد لذلك تمثل في انهيار مراكز التعليم بمصر ، وهو ماانسحب بشكل مباشر فيما بعد على الإنتاج الأدبي ... فأصابه بالرتابة وأورثه الضعف والهزال ، فبعد أن شهد تاريخ الأدب العربي العديد من الموسوعات الأدبية

والتاريخية فى دولة المماليك.

المؤلف والكتاب

مؤلف كتابنا هذا هو محمد بن زين العابدين بن محمد بن أبي الحسن بن محمد بن أبي السرور البكرى الصديقى، ولد بالقاهرة في عام ٩٩٨ هـ (١٥٨٩م) على أرجح الأقوال.. وتوفى بها فى ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٠٨٧هـ -(١٦٧٦م) (٥، ٦)، وهو حفيد أبو المكارم شمس الدين محمد بن محمد ابن أبى الحسن بن محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م - ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م)، وقد قال من ترجموا لجد المؤلف إنه هو المنعوت فى كتب التاريخ أو الطبقات باسم القطب البكرى أو سيدى محمد البكرى وقد عد من علماء المتصوفين(٦) . نشأ المؤلف الذى عرف بمحمد بن أبي السرور البكري في بيت السادة البكرية المطل على بركة الرطلي، وهو بيت عز وثراء ... عرف أهله بالنفوذ المادى والدينى لدى العامة والحكام، اشتغل المؤلف بالتدريس لعلوم الحديث والتفسير والتصوف والتاريخ فى الجامع الأزهر، ويستطيع القارىء لما خلفه محمد بن أبى السرور البكرى أن يلمس أنه ربما عمل لفترة في بلاط الحكم العثمانى بالقاهرة، ولكن المؤكد أنه اعتزل التدريس بالأزهر فى أواخر سنوات عمره، وإن ظل يفتى الناس في منزله ويتولى عمادة السادة البكرية حتى وافته المنية(٧).

لم يكن كتابنا الحالى هو المؤلف الوحيد لمحمد بن أبي السرور البكرى، ولكن هناك العديد من الكتب التى خلفها نذكر منها : «عيون الأخبار ونزهة الأبصار» - «النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية» - «المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية» - «كشف الكربة فى رفع الطلبة» - «قطف الأزهار» و«درر المعالي الجلية فى التصوف» (٨، ٩)، ومما يؤسف له أن جل هذه الكتب مازال مخطوطاً لم ير نور النشر بعد لاهم كتابنا هذا وكتاب «كشف الكربة فى رفع الطلبة» الذى قام الدكتور/ عبد الرحيم عبد الرحمن على تحقيقه ونشره في المجلد رقم ٢٣ لسنة ١٩٧٦م من «المجلة التاريخية».

يعد إبن أبي السرور البكرى مؤرخاً تقليديا مثل المسعودى ومن سار على نهجه في كتابة التاريخ، ويتصف أسلوبه فى الكتابة بنفس الخصائص التى ميزت الكثرة الغالبة من كتابات الحقبة الأخيرة من العصر المملوكي، تلك الخصائص التى يمكن إجمالها فى تدنى الصنعة اللغوية مع شيوع الألفاظ العامية والمصطلحات التركية في ثنايا تلك الأساليب، وفيما يختص بشيوع المصطلحات التركية - التى تشى بتغلغل الاحتلال في دقائق حياة الشعب - فى أسلوب المؤلف ، فإنه يمكن القول بأن تلك المصطلحات قد طفحت في بعض المواضع من الكتاب بصورة يعجز عن فهمها القارىء المعاصر ، من ذلك ماذكره ابن أبي السرور فى ترجمته للوزير أحمد باشا الذى كان دفتردار بمصر، وقد دامت ولاية هذا الوزير فى الفترة مابين ٦ ربيع الثانى ١٠٢٤هـ و١٢ صفر ١٠٢٧هـ ، يقول ابن أبي السرور في وصف خروج تجريدة من العسكر إلى بلاد العجم فى ولاية هذا الوزير : «ثم أنه أخرجهم من مصر على أسلوب ما وقع ترتيبه لأحد من الوزراء، أنه جعل فى مقدم العسكر أمير التوسخانة وأمامه لوندا السويس

والريساه، ثم من بعدهم جبجي باشا وأمامه جميع الجبجية، ثم من بعدهم أغاة العزب وأمامه جميع العزب، ثم من بعدهم أغاة النيكرجية وأمامه جميع النيكرجية ثم من بعدهم أغاة الجراكسة وأمامه جميع الجراكسة، ثم من بعدهم أغاة التفكجية وأمامه جميع التفكجية....»(١٠).

يقسم ابن أبي السرور كتابه الحالي إلى ثلاثة أبواب، يتحدث في الباب الأول عن «ذكر فضائل مصر من الكتاب الكريم ومن سنة النبي العظيم (صلى الله عليه وسلم) - «ذكر (دعا) الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمصر وأهلها» - «ذكر وصف العلماء لمصر ودعاهم لها واختيارها للصحابة والملوك بعدهم وإلى وقتنا هذا» و«ذكر فتوح مصر المحروسة». ينهج ابن أبي السرور في كتابة الباب الأول نهج قدامى المؤرخين، ويذكر في كثير من المواضع بهذا الباب أسماء من استعان برواياتهم وكتبهم من رواة ومؤرخين، فمن الرواة والمؤرخين .. يجد القارئ أسماء مثل : سعيد بن أبي هلال - أبو رهم السماعي - الخطيب البغدادي - القضاعي وابن زولاق، ومن الكتب .. يذكر ابن أبي السرور كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي وكتاب «الخبر عن البشر» للمقريزي، أما الباب الثاني فقد جعله ابن أبي السرور «فيمن تولى مصر المحمية من الوزراء البكلربكية»، ويختتم ابن أبي السرور كتابه بالباب الثالث الذي كان «في ذكرى من وليها (أي مصر) من قضاة العساكر أهل المقام الباهر»، ويعد كل من البابين الثاني والثالث من الكتاب أهم ماجاء به ابن أبي السرور في تاريخه هذا، إذ يؤرخ في الباب الثاني لمن تولى حكم مصر من وزراء بني عثمان في الفترة الزمنية الممتدة بين عامي ٩٢٣هـ/١٥١٧م و١٠٥٣هـ/١٦٤٣م وهم الذين ينعتهم بالبكلربكية، والبكلربك لقب تركي يسبغ على الأمراء وقادة الجيوش وكبار رجال الإدارة(١١)، ويعد الباب الثالث من كتاب ابن أبي السرور البكري هذا أهم ماتضمنته روايته لتاريخ تلك الفترة، وذلك لأنه يعد من الروايات النادرة التي وصلت إلى عصرنا الحالي عن النظام القضائي لمصر في ظل الحكم العثماني ، وفيه يسجل المؤلف أسماء القضاة العثمانيين الذين تولوا قضاء مصر منذ سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م وحتى سنة ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م، إن المطالع لهذين البابين - الثاني والثالث - من الكتاب يستطيع أن يلمس مدى اعتماد ابن أبي السرور على مشاهداته ومصادره الخاصة في صياغتهما، وهو ماجعل من هذين البابين سبب أهمية الكتاب ومصدر نفاسته بين ماوصل إلينا من كتب عن هذه الحقبة من تاريخ مصر.

الوزراء البكلربكية

واحد وخمسون هو عدد من ترجم لهم ابن أبي السرور البكري من وزراء مصر البكلربكية في الباب الثاني، أولهم خاير بك الذي لقب بملك الأمراء في عهد السلطان الغوري .. وأطلق عليه سليم الأول لقب (خاين بك) لأنه كان سبب انكسار الجيش المصري أمام العثمانيين بمرج دابق عندما انخزل وولي بميسرة الجيش ، دامت ولاية خاير بك على مصر أكثر من خمس سنوات ، وامتدت تلك الولاية منذ أن قرره السلطان العثماني سليم الأول نائباً للسلطنة العثمانية بمصر في شهر شعبان من سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وحتى وفاته في الرابع عشر من ذي القعدة سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، وكان آخر من ترجم له ابن أبي السرور من وزراء هو مقصود

باشا الذى تولى حكم مصر فى صبيحة يوم السبت ثامن شعبان سنة ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م، وقد بلغت مدة بقائه فى الحكم سنة واحدة وستة أشهر وستة أيام كما ذكر ابن أبى السرور، يقدم ابن أبى السرور وصفاً عجيباً لمقصود باشا هذا فى أول ترجمته يقول فيه : «وكان قدومه إلى بكلربكية (أى إمارة) مصر من بكلربكية ديار بكر، وقدم إلى مصر براً، وحين قدم إلى مصر لم يلبس فى موكبه كلبس غيره من البكلربكية، بل كان لابسا الجوزة الصغيرة من غير ريشتين بخلاف غيره من الوزراء ، وعليه جوخة دم الغزال عليها فروة سمور جعلت لنصف ظهره، وتحتها قفطان قطنى هندى تبنى من غير سروال ولا تركاش بل بالسيف مقلد به، فتعجبت الناس به (من) ذلك، وحصل لهم غاية الرعب»(١٢).

يمكن لقارئ كتاب ابن أبى السرور أن يستنبط ماأستنه المؤلف من منهج التزمه فى تراجمه لوزراء مصر، يبدأ ابن أبى السرور ترجمته بذكر تاريخ استيلاء (هكذا ينعت المؤلف ولاية الوزير) مولانا (كذا) الوزير! على حكم مصر وتاريخ عزله، ولعل أكثر مايبعث على الأسى فى نفس القارئ أن ينعت المؤلف وغيره من الكتاب والى الغازى بلقب (مولانا) ، ثم يتبع المؤلف ذلك بتحديد مدة بقاء الوزير فى الحكم بالسنة والشهر واليوم، بعد ذلك يعرض ابن أبى السرور لأهم ما وقع من أحداث فى ولاية الوزير، فإن لم تكن هناك أحداث هامة قد نمت إلى علم ابن أبى السرور من ولاية هذا الوزير، فان ختام الترجمة غالباً مايكون بذكر محاسن الوزير، ومن ذلك ماجاء فى ترجمة الوزير سنان باشا فى ولايته الثانية (بين أول صفر ٩٧٩هـ/١٥٧١م وآخر ذى الحجة ٩٨١هـ/١٥٧٤م)، يقول ابن أبى السرور واصفا محاسن سنان باشا مايلى : «ومن محاسنه الثابتة تعمير الخليج ، فعاد على أحسن مايكون، وعمر بثغر بولاق مسجداً عظيماً وقيسارية وبالثغر السكندرى مسجداً وسوقاً وحمام»(١٣)، ان اختلاف منهج المؤلف فى الترجمة للولاة العثمانيين يمكن أن يعزى إلى حجم المعلومات المتاحة لديه، وهو مايبدو واضحاً فى تراجمه للثلاثين الأول من وزراء مصر فى العهد العثمانى، فقد جاءت تلك التراجم مختصرة لاعتماد ابن أبى السرور على ماحفظته عنهم كتابات معاصريهم، وهى كتابات يبدو من ارتكان ابن أبى السرور إليها أنها كانت فقيرة ومعبرة عن عصر اضمحلال ثقافى ، أما ماتبقى من تراجم لواحد وعشرين وزيراً .. أولهم محمد باشا الكرجى الخادم الذى تولى حكم مصر فيما بين رجب ١٠١٣هـ/١٦٠٤م وصفر ١٠١٤هـ/١٦٠٥م وآخرهم مقصود باشا الذى كانت ولايته من ٨ شعبان ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م وحتى ١٤ صفر ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م، فقد تميزت تلك التراجم بوفرة المادة التاريخية التى عرضت بها، وهو مايمكن أن يعزى - كما سبق القول - إلى معاصرة المؤلف لأحداث ولايات أولئك الوزراء.

إن أول مايجذب انتباه القارئ للباب الثانى هو قصر فترة ولايات الكثرة الغالبة ممن تولى حكم مصر من ولاة بنى عثمان ، حتى أن أى سلطان عثمانى كان يقوم بتولية وعزل العديد من الولاة على مصر خلال مدة سلطنته، وهو ماتؤكده الاحصائية التالية لأعداد الولاة ممن تولوا

حكم مصر باسم السلطان العثماني خلال فترات زمنية محددة ، فقد كان عدد الوزراء الذين حكموا مصر لفترات أقل من عام واحد هو ثلاثة عشر وزيراً، أما الوزراء الذين دامت ولاياتهم فيما بين سنة إلى سنتين لقد بلغ عددهم واحدا وعشرين وزيراً، وذلك في مقابل عشرة وزراء دامت ولاياتهم مابين أكثر من سنتين وإلى أربع سنوات، بالإضافة أيضاً إلى سبعة وزراء استمرت فترات حكمهم لمصر أكثر من أربع سنوات، إن تلك الاحصائية توضح أن أربعة وثلاثين من وزراء أو ولاة العثمانيين على مصر قد دامت فترة استيلاء كل منهم - بنص تعبير المؤلف - على حكم مصر مابين أقل من سنة واحدة وحتى سنتين، وهو مايخلص منه القارئ للكتاب إلى أن تلك السمة كانت من سياسات الحكم العثماني، وذلك كي لايتاح لمن يجلس على كرسي الحكم بمصر زمن كاف لتوسيع علاقاته بأهل البلاد وتوطيدها ، ومن ثم لقطع الطريق على من تسول له نفسه من أولئك الولاة في الاستقلال بحكم مصر.

تتراوح الأحداث التي يضمنها ابن أبي السرور بعض تراجمه لوزراء مصر بين الفتن والغلاء والأوبئة والرخاء، ومن ذلك فتنة الجنود الذين تمردوا في طنطا وتعاهدوا على عدم دفع الطلبة (وهي ضريبة فرضتها طائفة السباهية على الفلاحين)، وهي الفتنة التي دارت أحداثها في ولاية الوزير محمد باشا الملقب «معمر مصر ومبطل الطلبة»، وكانت ولاية محمد باشا وهو الثالث والثلاثين من وزراء مصر فيما بين ١٨ صفر ١٠١٦هـ/١٦٠٧م و١٨ جمادي الآخرة ١٠٢٠هـ/١٦١١م، أما حكايات الغلاء في كتاب ابن أبي السرور فما أكثرها ، فمثلا .. يصف ابن أبي السرور ولاية الوزير محمد باشا الشهير بدقادن زادة (من أول صفر ٩٦١هـ/١٥٥٤م إلى ١٠ ربيع الآخر ٩٦٣هـ/١٥٥٦م) فيقول : «ومن الحوادث في زمنه الغلاء الأعظم حتى أن الناس أكلوا بذر الكتان»(١٤)، تترى في أخبار الباب الثاني من الكتاب أنباء الأوبئة التي فتكت بأهل مصر خلال الفترة التي أرخ لها المؤلف، ولعل الوباء الذي عصف بالمصريين في ولاية الوزير مقصود باشا - وهو آخر من ترجم لهم المؤلف من وزراء - هو الأفدح فيما أرخ له المؤلف من أوبئة، لذلك اهتم ابن أبي السرور بإحصاء عدد الجنازات التي كانت تخرج في كل يوم من أيام الوباء من مساجد القاهرة المختلفة، في محاولة منه للتعبير عن عدد ماأحدثه الوباء من وفيات ، على أن أعجب ماذكره ابن أبي السرور من أخبار تمثل في خبر الرخاء الذي عم مصر في عهد الوزير خليل باشا البستانجي (من ٤ ربيع الأول ١٠٤١هـ/١٦٣١م إلى ١٢ رمضان ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م)، يقول المؤلف: «ومن محاسن أيامه (أي الوزير خليل باشا البستانجي) حصول الرخا بعد الغلو الزايد بحيث إن الأردب القمح كان وصل إلى ثمانية قروش فما خرج من مصر (أي الوزير) إلا وهو بقرشين الأردب»!(١٥)، فهل سمع كائن من كان بمثل هذه الأعجوبة في تاريخ مصر القديم أو الحديث؟، حاكم يصل إلى سدة الحكم وثمن القمح قد بلغ المنتهى، فلا يترك الحاكم منصبه إلا وثمن القمح قد انخفض إلى الربع!.

قضاة العساكر

اهتم العثمانيون بتنظيم القضاء المصري بعد قليل من استيلائهم على الحكم، ولما كان النظام القضائي بمصر

فى دولة المماليك يقوم على أربعة قضاة ... واحد لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، وكان إنجاز أعمال كل قاض يتم من خلال مجموعة من النواب تقف عند بابه، فإن القرار العثمانى الأول لتنظيم القضاء المصرى – من وجهة نظر الممثل – كان هو الحد من عدد النواب لكل قاض من القضاة الأربعة ، حدث ذلك فى ولاية خاير بك وعلى وجه التحديد فى شهر ذى الحجة من سنة ٩٢٧هـ/١٥٢٠م، ثم أتبع العثمانيون ذلك بإدخال نظام قاضى العسكر إلى القضاء المصرى فى عهد السلطان سليمان ابن السلطان سليم الأول (٩٢٦هـ/١٥٢٠م: ٩٧٥هـ/ ١٥٦٦م) وكان أول من تولى منصب قاضى العسكر هو مصطفى أفندى الرومى الذى وصل الديار المصرية فى المحرم من سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م كما ذكر ابن أبى السرور، وان كانت رواية المؤلف عن أول من تولى منصب قاضى العسكر بمصر تختلف عن رواية ابن إياس حول نفس الموضوع، فقد ذكر ابن إياس فى أحداث شهر رجب من سنة ٩٢٨هـ/١٥٢١م نبأ وصول سيدى جلبى إلى القاهرة كأول قاضى عسكر بمصر، بلغت عدة من أحصاهم ابن أبى السرور وترجم لهم من قضاة العسكر تسعة وسبعين قاضياً ، وكان آخر من ترجم له المؤلف من قضاة العسكر هو المولى أسعد أفندى الذى تولى القضاء فى ٢٥رجب ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م وعزل منه فى ٢٠ رجب ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م، إن هذا العدد من القضاة الذين أسند إليهم أمر القضاء المصرى فى الفترة التى أرخ لها ابن أبى السرور يكشف أن سياسة العثمانيين فى تعيين القضاة كانت هى نفس السياسة المتبعة فى تعيين الولاة أو الوزراء ، وهى السياسة التى تبلورت فى مبدأ واحد يقول بألا يطول بقاء الوزير أو القاضى فى منصبه.

لم تزد مادة التراجم التى قدمها ابن أبى السرور فى الباب الثالث من كتابه عن التعريف بالقاضى واثبات تاريخ بدء القاضى فى عمله وتاريخ عزله عنه، لذلك اتسمت تلك التراجم بالابتسار والاقتصار على حساب فترة عمل صاحب الترجمة بالقضاء، وبالرغم من ذلك .. فإن هذا الباب يكتسب أهمية كبرى لكونه أول سجل دقيق لتطور نظام القضاء المصرى فى عهد الاحتلال العثمانى لمصر، إن نظرة سريعة إلى قائمة التسعة والسبعين قاضياً التى حفظها كتاب إبن أبى السرور سوف تكشف للقارىء أن قضاة العسكر قد جاءوا جميعاً – عدا قاض واحد فقط – من عاصمة الدولة العثمانية، فلم يكن فى تلك القائمة سوى مصرى واحد هو قاضى العسكر الخامس والسبعين – منذ بدء العمل بهذا النظام – المولى شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجى، وقد تولى شهاب الدين الخفاجى – وهو ابن لواحد من كبار علماء الأزهر – القضاء فى ٢٢ صفر ١٠٥١هـ/١٦٤١م وعزل منه فى التاسع من ذى الحجة ١٠٥١هـ/ ١٦٤٢م، والقارىء للباب الثالث من الكتاب لايحتاج إلى جهد كبير حتى يتبين الأصل التركى لمن ترجم لهم ابن أبى السرور من قضاة العسكر، فإن أسماء مثل: السيد محمد أفندى مغلول زادة وعبد الغنى بن مير شاه وحسين أفندى بن قراجلبى وعثمان أفندى تقادن زاده وغير ذلك كثير ... لابد وأن تشى بأصل حاملها التركى، ونظرا

لصغر المادة التى حوتها تراجم قضاة العسكر فإن السمة التى ميزت الباب الثالث من الكتاب كانت خلوه من الأحداث والأخبار إلا فيما ندر، ولكن تبقى هنا حكاية جديرة بأن تحكى وهى عن القاضى الخامس عشر فى تلك القائمة التى قدمها ابن أبى السرور وهو المولى عرب زاده الغريق، فقد تولى هذا القاضى قضاء مصر بأمر سلطانى صدر فى ربيع الأول من سنة ٩٦٩هـ/ يناير ١٥٦١م، ولكنه غرق وهو فى طريقه لمصر فى ٢١ مارس من نفس السنة ، ولم يتول القضاء بمصر ولو ليوم واحد.

كلمة حق

تبقى هنا كلمة حق يجب أن تقال ، وهى أن هذا الكتاب لم يكن ليصل إلى يد القارىء الآن لولا مابذله محققه الاستاذ/عبد الرازق عبد الرازق عيسى من جهد لاينتقص منه بعض هنات قد تكون أخطاء طباعية، لقد بذل الأستاذ المحقق جهداً مضنياً فى قراءة مخطوطة الكتاب الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٢٩٥ تاريخ، وفى تحقيق ماتضمنته مادة الكتاب من أسماء ووقائع، ولعل أكثر مايلفت نظر القارىء هو مقابلة المحقق لتاريخ تولية الكثير من الوزراء والقضاة على ماجاء عنه فى كتب البعض من المؤرخين مثل الاسحاقى والملوانى والغزى، ونظراً لكثرة ما ورد بالكتاب من مصطلحات وتعبيرات تركية .. فقد اهتم المحقق بتعريبها وشرحها لإتمام جهده ولتيسير كل ماجاء بالكتاب من معلومات أمام القارىء المعاصر.

المصادر :

١ – محمد بن أحمد بن إياس : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» – الجزء (٥) – ص ١٨٢.



٢ – محمد بن أحمد بن إياس : المصدر السابق – ص ١٧٩.

٣ – محمد بن أحمد بن إياس : المصدر السابق – ص ٢٢٨.

٤ – عبدالرازق عبدالرازق عيسى : مقدمة كتاب «الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة – ص ٢٨ .

٥ – د. فاطمة محجوب . الموسوعة الذهبية للعلوم الاسلامية – الجزء (٧) – ص ٢٧٨.

٦ – عبدالرازق عبدالرازق عيسى: المصدر السابق – ص ٣٠.

٧ – عبدالرازق عبدالرازق عيسى: المصدر السابق – ص ٣١ : ٣٢.

٨ – محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى – ص ١٦٩ : ١٧٦.

٩ – محمد بن أبى السرور البكرى : الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة – ص ١١٩.

١٠ – عبدالرازق عبدالرازق عيسى: هامش الصفحة ٦٥ من كتاب «الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة» .

١١ – محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق – ص ١٥٥.

١٢ – محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق – ص ٩٦.

١٣ – محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق – ص٨٨.

١٤ – محمد ابن أحمد بن إياس : المصدر السابق – ص ٤٥٨. ■

من أعلام الفن المصرى المعاصر



جمال السجينى



صلاح عبد الكريم

جمال السجينى وصلاح عبد الكريم

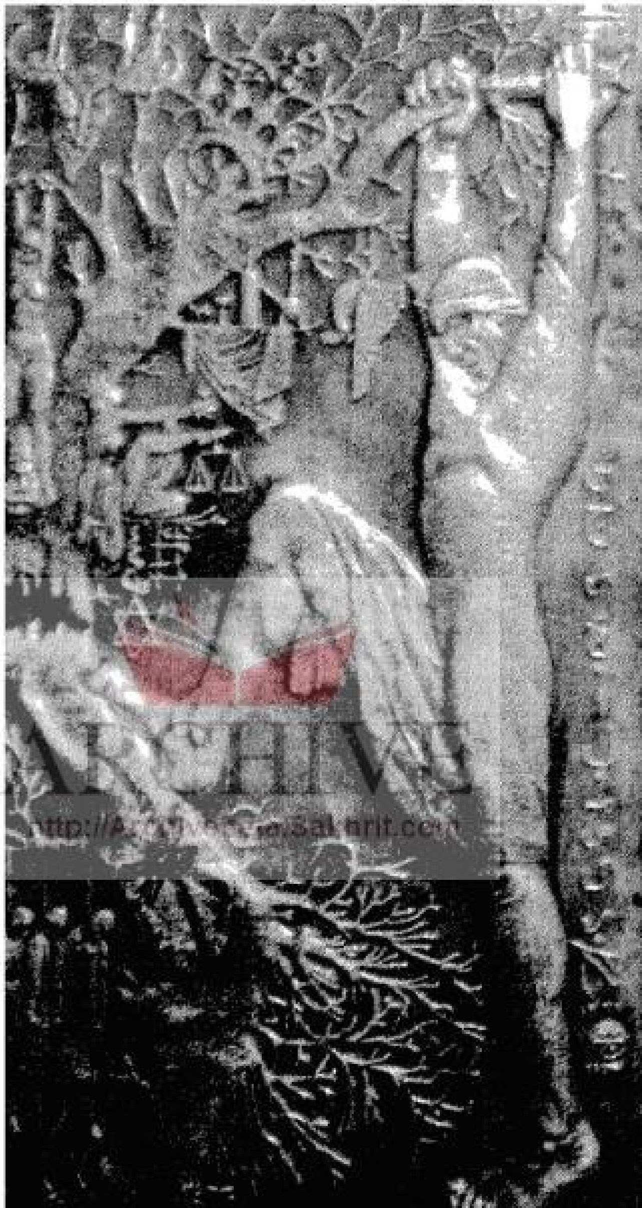
عبقرية التشكيل بالنحاس والحديد

بقلم
د. صبرى منصور

استأنف فن النحت المصرى مسيرته الإبداعية فى بدايات القرن العشرين على يد مثال مصر محمود مختار (١٨٩١ - ١٩٣٢)، وذلك بعد مرور قرون طويلة من الصمت والاحتجاب بسبب عوامل عديدة، ولقد كانت إنجازات مختار - رغم عمره القصير - ذات مستوى فنى رفيع، كما مثلت صحوة حقيقية لفن قدمت فيه مصر القديمة أعظم الآثار العالمية وأكثرها قيمة . وتلك القيمة العالية حافظ عليها مختار وأكدها فى أعماله وجعل منها المستوى الذى يجب بلوغه لمن يستكمل من بعده الطريق .

ولم تمض عدة سنوات حتى يظهر فى أفق النحت المصري مثالان من جيل واحد قدّر لهما أن يقدما أعمالا نحتية على درجة عالية من التميز فى الشخصية والتفوق فى الأداء، وهما جمال السجينى (١٩١٧ - ١٩٧٧) وصلاح عبدالكريم (١٩٢٥ - ١٩٨٨) .

السجينى وفن الطرق على النحاس



لوحة «شجرة المصير» من النحاس المطروق للفنان جمال السجيني- ١٩٦٢

١٨١

الهلال

شوال ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

السجينى وفن الطرق على النحاس

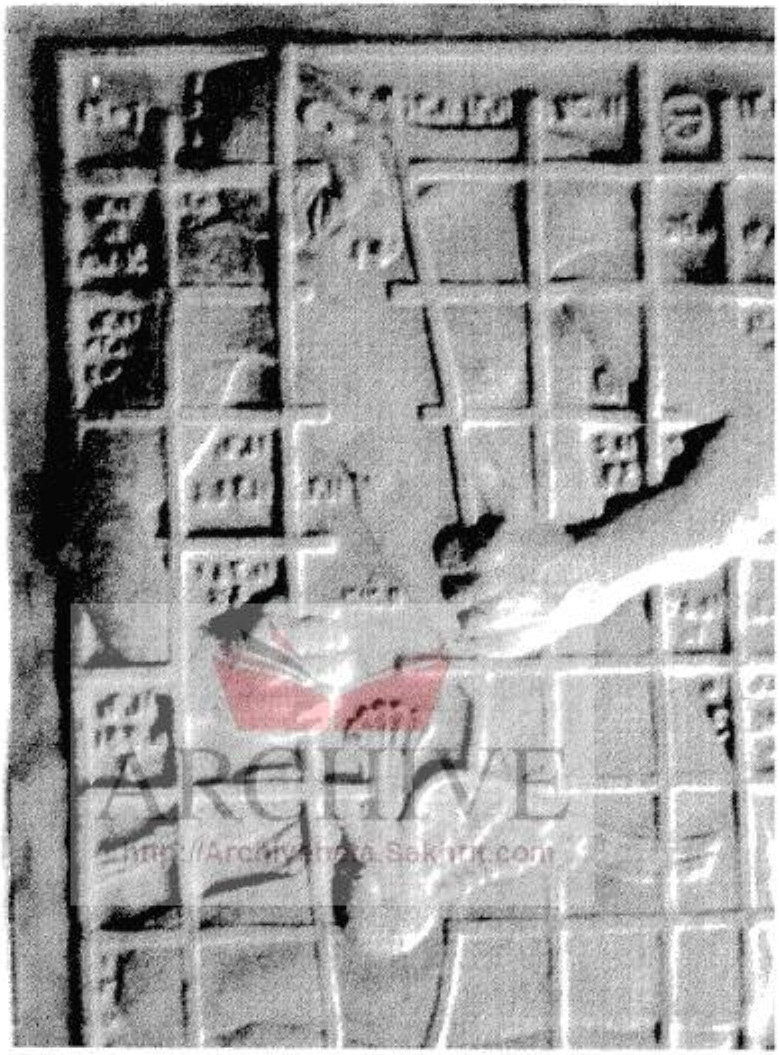
ولقد ارتبط اسم السجينى - الذى درس فن النحت بالفنون الجميلة ثم أكمل دراساته فى فرنسا ثم إيطاليا - بذلك الأسلوب الواقعى بتصرف وعمل بعض المبالغات التشكيلية التى تكسب العمل قوة فى بنائه وعمقا فى تعبيره ، كما تميز أسلوبه بتحليل الشكل إلى مسطحات تتسم بجرأة التلخيص وجرأة الأداء . وعايش السجينى فترة من أخصب فترات الثقافة المصرية المعاصرة حين امتلأت الساحة بمناقشات جادة حول الشخصية المصرية والفن القومى وقضايا التحديث فى الفن ، وتعددت الفرق والجماعات الفنية التى كان لكل منها منهجا مختلفا فى الفن والثقافة ، وكان هو نفسه عضوا فى إحدى هذه الجماعات (جماعة صوت الفنان) .

ولقد انعكس صدى هذا المناخ الثقافى النشط على التوجه الفنى للسجينى وساهم فى بلورة أسلوبه الذاتى المتفرد الذى كان أكثر اقترابا وتفهما لتلك الاتجاهات التى تنزع نحو الاتصال بالتراث الفنى المصرى كما تميل إلى تناول الموضوعات حميمة الصلة بالبيئة الشعبية ومفرداتها ففى أعمال السجينى - الذى ولد بحى باب الشعرية - تلتقى بمظاهر متنوعة وعناصر عديدة من الحياة الشعبية المصرية، والتى ظلت لازمه أشكالها طوال تجربته الفنية ، ومن أهمها عروسة المولد بالإضافة إلى الوحدات والزخارف التى توشى المبانى الدينية والشعبية .

ولقد ظلَّ معظم انتاج السجينى منحصرا فى نطاق الأعمال صغيرة الحجم ، والوجوه الشخصية ، ولم تتح له - رغم إمكانياته الفنية الهائلة - فرصة القيام بتنفيذ التماثيل الميدانية الضخمة التى تكشف عن قدراته ، وذلك فيما عدا تمثال «أحمد شوقى» الذى أنجزه للأكاديمية المصرية بروما ، وتمثال آخر يمثل « العبور » أنجزه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ولعل إمكانيات السجينى المكبوتة قد وجدت طريقها للانطلاق من خلال خامة النحاس بأسلوب الطرق ، وهو أسلوب لم يكن يتخطي حرفية الأداء التقليدية المتوارثة التى يقوم بها الحرفيون فى المناطق السياحية .

وقد بلور السجينى أسلوبا فنيا متميزا فى التعامل مع خامة النحاس . واستطاع أن يستنطق تلك الخامة



لوحة «الحرية» من النحاس الأحمر المطروق

الصعبة شتى المعانى والأفكار ، واتسمت أعماله بالرقة والقوة فى آن واحد ، وجمع فيها عناصر الفنون المصرية التراثية ، ومزج بين الكتابة والتشكيل فى تكوينات فنية شديدة التفرد ، ومن بين تلك الأعمال لوحة « الرجل والثعبان » عام ١٩٥٢ التى ترمز للصراع بين الإنسان وقوى الشر ، ويلاحظ استعارة الفنان للمعالجة المصرية القديمة لشكل الثعبان والتفافاته المتكررة ، ولوحة «شجرة المصير » ١٩٦٢ والتى يتضح فيها أسلوب السجينى الذى يميل نحو الرمزية ، كما تكشف عن قدراته الفنية المتمثلة فى المعالجات القوية للجسم الإنسانى ، والمبالغة فى النسب لتكثيف الإحساس بالقوة والفخامة ، وفى لوحة «النيل» ١٩٦٣ تذكرة بلوحات النحت البارز الفرعونية ، وقد مثل النيل فى هيئة رجل امتد جسده ليحتضن تنوع الثقافات فى البلاد التى يمر بها ويمنحها الحياة ، وذلك فى صياغة نحتية تتسم بقوة التحليل وبلاغة الخطوط .

وتلك السمات تتضح أيضا فى لوحته «الإسكندرية» ١٩٦٣ التى جسدها فى هيئة عروس البحر محتضنة عبقرى الاسكندرية سيد درويش ، وتحيط بها عناصر تتميز بها الاسكندرية كمدينة بحرية ذات تاريخ حافل .

إن الأسلوب الذى يتصف بالصبر ودقة التنفيذ يؤكد أن السجينى قد وجد فى خامة النحاس مادته المفضلة للإبداع والتعبير الفنى ، فكانت سبيله إلى خلق نوع فنى جديد يضاف إلى رصيد الفن المصرى المعاصر .

صلاح عبد الكريم .. وتطويع الحديد

تعددت الجوانب الفنية فى شخصية صلاح عبدالكريم، فعلى الرغم من اختياره فن الديكور مجالا لدراسته فى الفنون الجميلة الذى كان تفوقه فيه مدعاة لتعيينه معيدا بها ، إلا أنه مارس إلى جانب ذلك العديد من الأنواع الفنية الأخرى ومن بينها التصوير والخزف والنحت، وبين كل هذه الممارسات تبرز أعمال صلاح عبدالكريم النحتية المنفذة من خامة الحديد وبقاياه وتتضح بتمكن الأداء وقوة التعبير وتفرد الأسلوب، وهى تمثل الإضافة الحقيقية للفنان لرصيد



١٨٥

الهلال

ذو القعدة ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

«المسيح» تمثال من الحديد للفنان صلاح عبد الكريم - ١٩٦٢

الفن المصرى المعاصر ، ويبدو أنه كان المجال الأقرب إلى نفسه وروحه ، مارسه بقدر كبير من الحب انعكس على الأعمال ذاتها .

وبعد عودته من دراسته بالخارج فى كل من باريس التى درس فيها الديكور المسرحى وروما التى درس فيها ديكور السينما ، بدأ يمارس حياة فنية نشطة فى مجالات فنية متعددة تراوحت - كما ذكرنا - ما بين تصميم العمارة الداخلية الذى أثبت من خلاله تفوق المصريين وقدرتهم على الإبداع فيه ، وديكور المسرح والباليه ولوحات التصوير والرسوم الصحفية ، وقد نال عن بعض هذه الأنشطة المتنوعة العديد من الجوائز فى مصر والخارج .

ولكن يظل انتاج صلاح عبدالكريم فى مجال النحت ظاهرة فريدة فى حياتنا التشكيلية ، والإنجاز الذى قام به فى هذا المجال هو انجاز عظيم القيمة رفيع المستوى .

فمن فضلات الحديد - أو ما يطلق عليه (الخردة) صاغ الفنان أعمالا نحتية تنطق بالمعانى وتوحى بالدلالات وتشى بالرموز . ومن أهم تلك الأعمال تماثيل «الوحش » ١٩٦٢ و«صلب المسيح» ١٩٦٣ «البومه» ١٩٦٢ و«الحصان» ١٩٧٠، وقد شكلها من عدد لا يحصى من المواسير والصواميل والمفكات والمسامير والسلاسل والتروس ، واضعا كل جزئية فى مكانها السليم بذكاء مصحوب بحس فنى راق ، محافظا على الأشكال التقليدية ، مع إدخال بعض التحويرات التى تؤكد المعنى وتشير للمضمون . مستغلا الفراغات الناتجة عن لحام أجزاء العمل لتجرى حوارا بصريا بين الشكل والفراغ بما يثرى العمل ويمنحه قيمة تشكيلية مميزة . ولقد تجنب الفنان إشكاليات الهوية والاتصال بالتراث الفنى ، كما ابتعد عن تناول موضوعات حميمة الصلة بالواقع المصرى ، ولم تكن له مشاركة فى ساحة الفكر التشكيلى وما يطرحه من قضايا فنية ، فهو لم يكن مؤمنا - كما صرح بذلك - بخلق فن قومى ، ولهذا لم ينتم إلى جماعة فنية أو ينطو تحت لواء اتجاه بعينه ، بل ظل محلقا وحده فى عالم الفن ، منفذا أفكاره الخاصة بأسلوبه الخاص ، حتى ليبدو هاويا لا تربطه صلة بفنه غير المتعة الشخصية التى يجنيها من إبداعه .

لقد كان صلاح عبدالكريم يرى أننا نعيش عصر المعادن لذلك يجب أن تحدث تغييرات جذرية فى فن النحت ،



«الحصان» تمثال من الحديد - ١٩٧٠

وهى رؤية حاول أن يحققها، وتوجه جديد أراد أن يواجه به الاتجاه التقليدى ، وقد وظف فى سبيل ذلك خبراته وكل ما يملك من مقدرة فنية مصحوبة بحب وتفان تنطق به بقايا الحديد الذى شكل منه تماثيله ، وتؤكد فى نفس الوقت قدرة فنان مصرى معاصر على الإضافة والابتكار فى مجال لم يستأنف المصريون نشاطهم فيه إلا منذ عقود قليلة ■

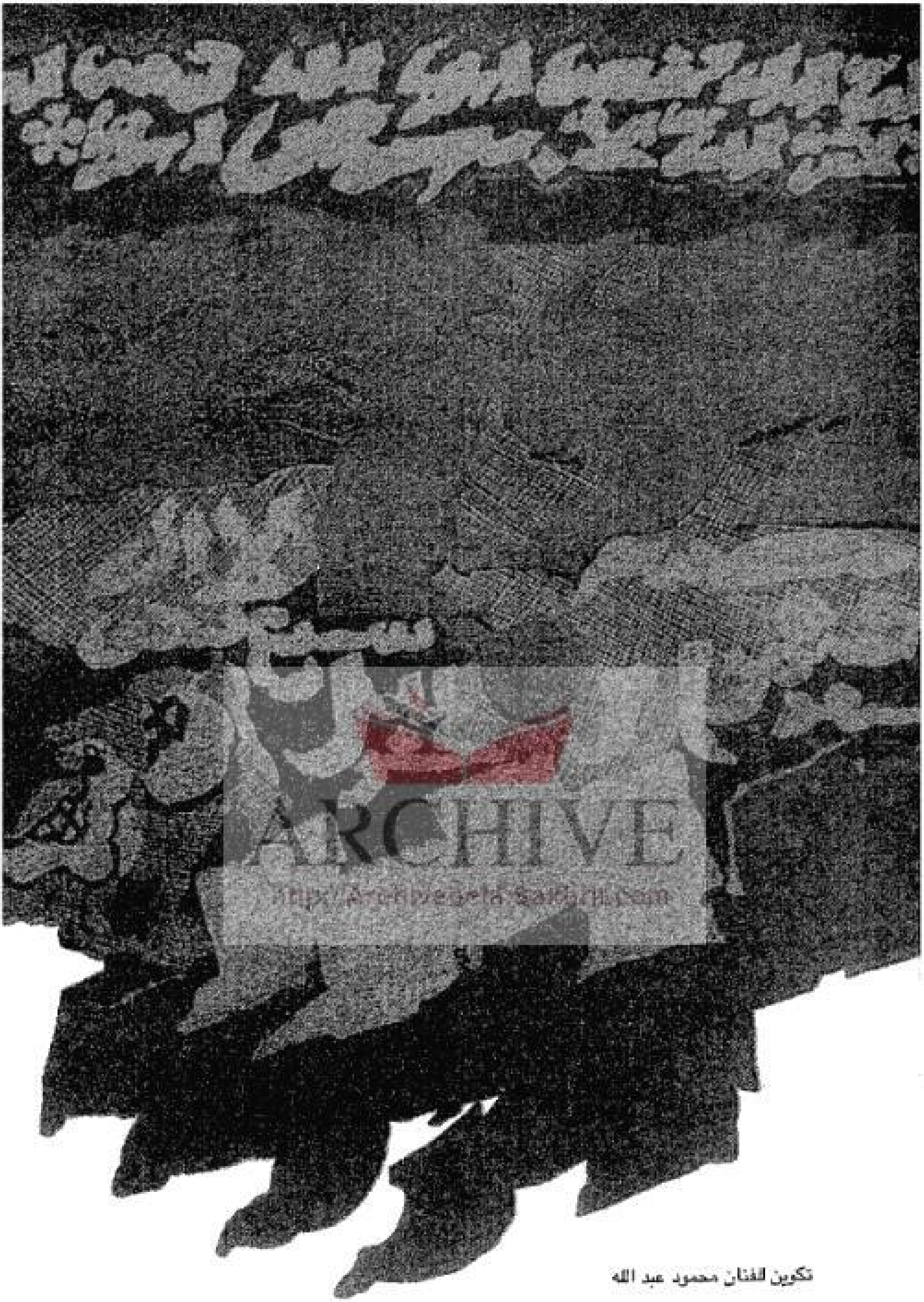
مدرسة أوربينو

الأصالة

مقابل العولمة

بقلم
عز الدين نجيب

المدن كالنساء ، لكل منهن جمال خاص وفتنة غامضة، لكن أكثرهن جمالا وفتنة: تلك التي يتجدد جمالها كلما تقدم بها العمر، فيصبح لها سحر الزمن وغموض الأسرار.. ومدينة أوربينو الإيطالية من هذا النوع، بتاريخها الذي يعود إلى القرن الخامس عشر، وموقعها كلؤلؤة معلقة فوق قمة الجبل.. وقصر الدوقية يتألق في صدر ميدانها الفسيح، وكنوزها من الفن والفنانين - التي تستمد وهجها من فنون عصر النهضة وتعكسه علي العصور التالية - تزيدها ثراء، فأصبحت قبلة الفنانين من إيطاليا ودول العالم، يعيشون فيها ويتأملون بهاء طبيعتها وتجليات عمارتها وأطياف حسانها، وينصتون إلي همس الصمت بين جبالها ووديانها، ويمارسون إبداعهم الفني في هدأة النساك، والمتصوفة..



تكوين للفنان محمود عبد الله

والفنانين المصريين شأن قديم مع هذه المدينة، حتى احتلت فى قلوبهم منزلة فريدة على مدى نصف القرن الأخير من القرن الماضى، وكونت ركنا أساسيا من ذكريات شبابهم الغض ومنابع خبرتهم الأولى بأوروبا، دون أن يشعروا بالصدمة الحضارية التى تصيب عادة أبناء الشرق عند احتكاكهم بثقافة الغرب، فكانت تحتويهم فى حضنها كما احتضنت كل الغرباء من شتى دول العالم، بطيبة أهلها وبساطتهم الفطرية وطبيعتهم الحضارية منذ القدم، وتأسرهم ببيوتها المتعانقة فى تلاصق حميم مكونة حوارى ضيقة وساحات للتلاقى والسمر والحب، فى مقابل قصر الدوقية الشامخ، فوق أنها بيت الخبرة الأول فى العالم لفنون الحفر أو الطبعة الفنية اليدوية، حيث تلقوا أسرار هذا الفن من منابعه الأولى التى أسست أزهى عصوره عبر التاريخ.

وفى الشهر الماضى جاءت أوربينو بنفسها إلى مصر، حاملة معها كبار فنانيها ومعلميها بالمعهد العتيد لفن الكتاب والطبعة الفنية، وفى جعبتهم كنوزهم الفنية من أعمال الحفر بتقنياته الطباعية المختلفة، وفى هذه المرة كانت تستضيفهم مكتبة الاسكندرية وتنسق معرضا لأعمالهم، يحيط بهم تلاميذهم وزملاؤهم من الفنانين المصريين الذين درسوا بهذا المعهد منذ الأربعينيات حتى السبعينيات، وكان مهندس الدعوة والمعرض أحد تلاميذ أوربينو المخلصين وهو الفنان السكندرى صبرى حجازى أستاذ التصميم والطبعة الفنية بكلية فنون الاسكندرية .. وقد شارك الفنانون المصريون فى الحفاوة بزملائهم الايطاليين مرتين: الأولى بعرض نماذج من لوحاتهم مع اللوحات الايطالية فى نفس المعرض مندمجة بغير فاصل، والثانية بالمشاركة فى ندوة استمرت ثلاثة أيام حول هذه المدرسة الفنية المهمة وأثرها فى الماضى والحاضر، ودورها فى الحفاظ على الصيغة الذهبية الفريدة للعلاقة بين التراث والحداثة، وهذا نجاح جديد يحسب لمكتبة الاسكندرية ، فهى تعمل على تحقيق أحد أهدافها التى كانت من أجلها وهو مد جسور الحوار بين الثقافات والحضارات وتوثيق الروابط الإنسانية بين الشعوب عبر المعرفة وتعميق القيم والتاريخ المشترك، وبقدر نبل هذا الهدف وحسن النوايا لتحقيقه، فإن التطبيق على أرض الواقع لايزال بعيدا عن مستواه، ولنا عودة إلى هذه النقطة.

كان المعرض - الذى افتتح يوم ١٠ ديسمبر - تعبيرا صادقا عن مدرسة أوربينو بمنهجها التعليمى الرصين وتوجهاتها الفنية المتجانسة ورؤى فنانيها المتفردة، على خلفية بانورامية ثلاثية الأبعاد: تراث عصر النهضة الايطالية ومعالم الطبيعة الخلابة بين القمم والوديان والجبال والأنهار

قطع بارز لينو للفنان صبري حجازي



١٩١

الهلال

ذو القعدة ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

والصخور والحقول، وأخيرا حس الوجود الإنسانى الذى يعمر هذا الكون الفسيح ويضفي عليه مضمونه ومعناه، سواء ظهر الإنسان بجسمه في الأعمال الفنية أو لم يظهر، بل حتى ولو كان العمل تجريديا محضا، وكما يقول جوليانو سانيتى - ممثل مؤسسة «ديدا لو آرت» الراعية للمعرض - فإن المدرسة تواجه تحدى التقدم التكنولوجي المتلاحق الذى يسعى إلى تمييع التميز والخصوصية الثقافية للشباب سواد في الغرب أو في الشرق، ما يستدعي بالضرورة إعادة اكتشاف القيمة والروح فى الأداء اليدوى للعمل الفنى، حتى يكون هناك توازن صحيح بين الاكتشاف والتجديد وبين التراث سواء فى المحتوى التعبيرى أو المحتوى الأدائى .

المسألة إذن ليست مجرد اكتساب مهارات وتقنيات عالية فى الممارسة الفنية كما قد يتصور البعض، خاصة بعد مشاهدة هذا المستوى التفوق فى أساليب الطباعة الغائرة والبارزة، وليست مجرد أسرار وحيل تقنية يحتفظ بها أصحابها أو يتناقلونها عبر الأجيال كأسرار كهنة المعبد ، ذلك أن جميع الأسرار والخبرات متاحة ومشاع لمن يريد فى هذا المعهد، بل إنه يوفر المحترفين المهرة الذين تقتصر مهمتهم على تنفيذ كل ما يريده الفنان من خلال قوالب الزنك أو الخشب أو الجلد أو غيرها فيما لو اكتفى الفنان بوضع التصميم الأصلى، ويصبح من حقه التوقيع بعد ذلك على النتائج المنفذة بعد ترقيم نسخها ، إنما المسألة هى: ماذا وراء هذه المهارات من فكر، ومن شحنة تعبيرية ونبض انسانى وتواصل مع التراث والجذور؟

إن هذه المدرسة التى عرفت معنى العالمية فى الفن من قديم الزمان، تبدو اليوم اقرب إلى الخصوصية أو الأصالة الثقافية المقاومة لزحف العولمة، وربما يتم ذلك بشكل بسيط وتقليدى ، لكنه أقوى تأثيرا وأنضج خطابا ممن يتعصبون ضد الحداثة بمفهومها الغربى وينادون بأن يظل الشرق شرقا والغرب غربا، فها هما الشرق والغرب يجتمعان من خلال عشرات البعثات الفنية من مختلف القارات إلى قلب الحداثة الأوروبية دون أن يفقد أى فنان يتمسك بها هويته، كل ما هنالك أنه يعرف كيف يجد المدخل الصحيح إلى هويته فى إطار عصر جديد ورؤى جديدة ، وكيف يجعل من هويته الوطنية وعاء كبيرا يحتوى الإنسانية جمعاء، وكيف يشكل من الطبيعة والإنسان وملمس الأشياء الأصلية لغة قابلة للتواصل الحميم بين البشر فى كل مكان ، بقدر ما يتواصل بها هذا الفنان مع أبناء وطنه.. وذلك هو المعنى العميق للعالمية.

إن الفنان عبدالله جوهر - أحد رواد فن الحفر للطبعة الفنية فى مصر، وأحد المشاركين فى المعرض - استطاع أن

يوظف خبراته التقنية العالية فى التعبير عن قضايا الإنسان المصرى والفلسطينى وعن دراما القهر والتشريد والسوق للحرية، فأصبحت لوحاته فصولا فى ملحمة إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان.

والفنان حسين الجبالى - أستاذ الحفر بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة - جعل من تقنياته المتميزة فى الحفر على قوالب الخشب أداة لخلق منظومة جمالية بحروف الخط العربى، فبدت كايقاعات نغمية متشابكة فى لحن أرابسكى صداح لكنه قادر على امتاع الآذان فى كل مكان.



احد أعمال الفنان فريد فاضل

تجليات بغير حصر

والفنان سعيد حداية - أستاذ الحفر بكلية فنون الاسكندرية - استثمر مهاراته الطباعية المرهفة التى تعلمها فى أوربينو لصنع عالم من الطفولة البريئة والحكايات الشعبية والرموز الفلكورية، لتلاقى بخصوصيته مع عالم الطفولة والأسطورة لدى كل الشعوب.

والفنان مجدى قناوى - ابن الاسكندرية والاستاذ بها وخريج أوربينو أيضا - ترجم مشاعره التأملية المطلقة إلى نسيج تجريدى متذبذب بأصداء كالموسيقى الشرقية أو المخطوطات القديمة أو العلامات الشفرية التى تتردد فى ترتيل لا نهائى.

وتتوالى الأسماء والتجليات والرؤى بغير حصر، ممن شارك أصحابها فى معرض أوربينو بالاسكندرية: صبرى حجازى، محمود عبدالله، عطية حسين، حازم فتح الله، عادل المصرى، عبدالسلام عيد.. تقابلهم أسماء أقرانهم الايطاليين، منهم الأساتذة التاريخيون مثل: كارنيفالى، كاستيلانى، فرانشى، بيانشيرى، زانكينى، باتيستونى، ريتشى، بروسكاليا، بوداس.. ومن المعاصرين: كالافالى، بارتلوميولى، روسانو جويرا.. إلخ، وبقدر ما تنوعت وتعددت أساليبهم جميعا واتخذ كل منهم سماته المتفردة؛ فإن رباطا قويا يجمع بينهم من عشق الطبيعة ونبض الإنسان وملامح التراث وطزاجة اللمسة الفنية.

ولا ننسى أن مدرسة أوربينو تلبى

فى الأساس مطلب تخريج صناع الكتاب بواسطة الطبعة الفنية اليدوية، قبل أن يكون هدفها خلق الفنان ، لأن الفنان لا تصنعه مدرسة، بينما تحتاج «الطبعة الفنية» الى ذلك، ولم يشعر الفنان الإيطالى بتلك المدرسة قط بأى مركب نقص إزاء اعتباره تلميذا فى مدرسة حرفية مهمتها تخريج «أسطوات» مهرة يقومون بتنفيذ رسوم الكتب أو بتعليم أجيال جديدة من الدارسين كمهمة تربوية تعمل على النهوض بالإنسان والأوطان، لهذا يواصل كبار الفنانين دورهم كمدرسين للأجيال المتلاحقة فى مدرسة أوربينو. بكل تواضع، ويعملون كمدرسين فى دورات تدريبية وورش عمل منتظمة لشباب يأتون إلى أوربينو من شتى أنحاء العالم ويعملون معهم يدا بيد.

ولا ننسى كذلك أن «الطبعة الفنية» أداة من أدوات كسر احتكار الأغنياء للفن الأصلى وتحقيق ديمقراطية الاقتناء ، بما تتيحه من مستنسخات أصلية عديدة للعمل الفنى الواحد، تجعل من الممكن اقتناؤه بسعر يسير، على عكس أعمال التصوير ذات الأسعار الباهظة، غير أن الفنانين المصريين لا يعترفون بذلك، بل حولوا سعر نسخة الطبعة الفنية إلى أرقام مذهلة، وحددوا عدد النسخ المطبوعة على أصابع اليد الواحدة كى يصلوا إلى هذا الهدف.

وقد أقيمت على هامش المعرض ندوة مصرية إيطالية مشتركة بمكتبة الاسكندرية تحدث فيها من الجانب الإيطالى أستاذة تاريخ الفن سيلفيا كوميتر، وأستاذ «الطبعة الفنية» جوليانو سانتينى كما ينبغى أن يتحدث الأساتذة عما يؤمنون به، لكن المؤسف أن أغلب المصريين المدعوين للحديث فيها من الأساتذة والمسئولين لم يحضروا (بمن فيهم منظم الندوة) إما لسفرهم خارج البلاد أو بلا أسباب معروفة ، واتسمت أغلب أحاديث المتحدثين بالعمومية الفضفاضة بعيدا عن صلب الموضوع.

أما الظاهرة الأكثر مدعاة للأسف فهى ارتباك التنظيم وعدم الاستقرار على مكان تقام به الندوة حتى آخر لحظة ، وتحويلها من مكان إلى آخر يوما بعد يوم، وأخيرا فقد كانت المنصة تتوجه بخطابها إلى مقاعد شبه خالية، لا أدرى هل لعدم الإعلان بدرجة كافية عن هذا الحدث الثقافى الهام، أم لانصراف الجمهور عن التردد على أنشطة مكتبة الاسكندرية رغم كل ما يحيط بها من هالة إعلامية واهتمام رسمى كبير، وما تضمه المدينة من كليات للفنون ونقابة للتشكيليين وحركة فنية وثقافية عريضة، ويبدو الأمر وكأن هناك تناسبا عكسيا بين تضاعف الاهتمام بالفنون والثقافة فى الثغر وبين تزايد الانكماش فى عدد المقبلين على أنشطتها.

إنه جرس إنذار من مصير فاجع



١٩٥

الهلال

يهدد أكبر المشروعات والصروح الثقافية في مصر.. هذه رسالة إلى من يهمه الأمر!!

دراسات ورسوم

بالرغم مما يبدو في الظاهر أنه معرض يحاكي معرض «مختلفون ومتحدون» بمجمع الفنون بالزمالك الذي عرضنا له هنا في مقالنا بالعدد الماضي، من حيث احتوائه على أعمال ثلاثة فنانين يشكل الاختلاف بينهم مساحة تعادل الاتحاد، فإن الحقيقة غير ذلك، لأن المعرض الأخير بقاعة بيكاسو للفنانين «فريد فاضل» و«سيد سعد الدين» و«رضا عبدالسلام» لا يقدم منظوراً بانوراميا لرحلة كل منهم وعلاقاته المتغيرة بأساليب الفن، مثلما كان المعرض الأول، بل يقدمون أعمالا طازجة أنتجت في العام الأخير كدراسات ورسوم تبدو وكأنها قطفت لتوها من بستان الواقع وإن احتفظ كل منهم بأسلوبه ومذاقه الخاص وبعالمه الذي عرف به.

غير أن مفاجأة المعرض الحقيقية هي أعمال فريد فاضل، طبيب العيون وعازف البيانو المتمكن، فقد خرج على ما تعودناه منه في معارضه السابقة من محاكاة فوتوغرافية وأناقة مثالية في نقل صورة الواقع ملامسا تخوم «السوبر رياليزم»، ليقدم لنا هذه المرة رؤى محفوفة بالشاعرية والدهشة وعدم الاكتمال لصورة الواقع الخارجي الذي نعرفه، لقد اعتبرها مجرد رسوم ودراسات، أو بكلمة أخرى «عجالات خطية» من الطبيعة، لكنها تحتوي قدرا كبيرا من الفطرة والفطنة معا: الفطرة في التعبير التلقائي الحر والهادئ، عما يصوره من حياة النهر والصيادين ما بين الحركة والسكون، مفسحا كل مسام نسيج اللوحات للهواء الطلق لتتنفس من خلالها المرئيات بغير «حسوكة» الصنعة والمحسنات البديعية للوقار الكلاسيكي، أما الفطنة فتكمن في استخدام أقلام التحبير الدقيقة إلى جانب ألوان الباستل والصبغات والجواش في نفس العمل أحيانا، وذلك بإيقاعات مرهفة ومتصاعدة كالعزف الموسيقي من السوبرانو إلى البريتون أو العكس، وأخيرا تكمن في الاقتصاد الذكي في وضع التفاصيل الواقعية، وفي القدرة على التوقف عند حد معين، حتى ولو بدا الشكل غير مكتمل، فهذا في حد ذاته سر جماله.

وبالنسبة لأعمال الفنان الراسخ سيد سعد الدين فهي عزف على لحن قديم، ليس فقط في الموضوع الريفي خاصة الحصاد والعلاقة بين الإنسان والحيوان بل كذلك في أسلوب البناء الرياضي الصارم الذي يخضع كل العناصر لهندسة التوليف والتصفيف والتقابل بين حركة الخطوط المستقيمة والقوسية، وهو أحد الأبناء المخلصين لمدرسة الفنان الكبير الراحل حسين بيكار، بشاعريته

ذو القعدة ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

الغنائيـة وترديده الزخـرفي وإحكامـه الهندسي وتأثره بالمثالية الفرعونية . وكم امتعنا في معارضه السابقة بقوة معماره مع شحنة التعبير النابضة، لكنه في هذا المعـرض يركـز على الجـانب البنائي المهندس بقسوة قد لا يحتملها الواقع، بالرغم مما حـاوله من إضـفـاء لمسـة العفوية على خطوطه وحركاته القوسية وحجومه الطائرة والراقصة، لكنها جاءت متماثلة في سيمترية مبالغ فيها .



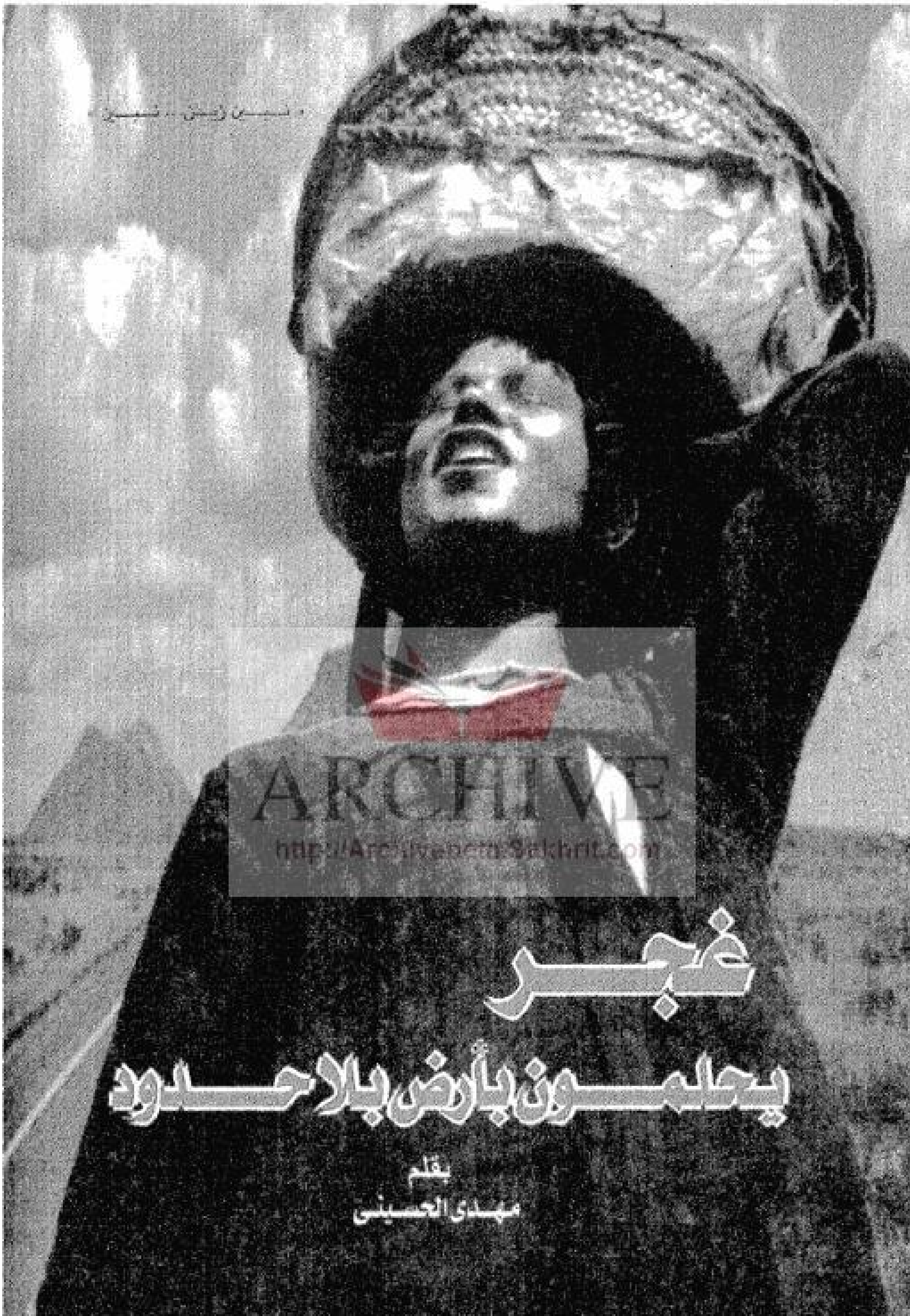
من أعمال الفنان رضا عبد السلام

إن أكبر خطر على عمل الفنان هو سيطرة القالب الذهني، وهنا نجد القالب لدى سيد سعد الدين مهيمنا على فطرية الحياة.

فهل يخفف من هيمنته ؟..

أما الفنان رضـا عـبدالسلام فـإنه يعود بنا إلى جرأته المعهودة في الرسم المباشر من الواقع بالفلوماستر الأسود السميك، خاصة للحركات العفوية للجسم البشري، وتحتل المرأة مكانا رئيسيا بين نماذجه المرسومة.. إنه يعالجها بعيدا عن دوافع الأنوثة والجـمـال المثـالي، بل كتضاريس من الشكل الحر المتماوج بين الحـركـة والسكون ، يتـراقص الخط الخارجي على تخومها في رشاقة حينا وفي تهور نزق حينا آخر، مفصحا عن درجة عالية من التمكن في اقتناص سر اللحظة الفارقة للحركة الدالة، لكن هذه الثقة قد تقوده إلى التعجل اللامبالي حتى عدم التفرقة بين التدريبات الخاصة داخل مرسم الفنان وبين العمل المكتمل للعرض على الجمهور حتى ولو كان اسكتشا. لكن ما أنقذ الكثير من لوحات المعرض هو أن الفنان رسمهـا فـوق سطح مكون من قصاصات الصحف المتلاصقة والمغلفة بطبقة من اللون الأبيض الشفاف، مما ترك تأثيرات متداخلة من الصور الفوتوغرافية والكتابات الطباعية، فخلق بذلك جوا من الغموض والذبذبة البصرية خلف خطوط الرسم السوداء.

لكن على الرغم مما يجـمـع بين الفنانين الثلاثة من طزاجة التجربة لكل منهم ، ومن عفوية التعامل مع الواقع، يظل لكل منهم استـقـلاله الكامل عن زميليه، ربما إلى حد عدم التجانس معهما، خاصة في أعمال الفنان رضا عبدالسلام. ■


غجر
يحلمون بأرض بلا حدود
بقلم
مهدى الحسينى

يعتبر أ. د. نبيل صبحى حنا رائد الدراسات الغجرية الأكاديمية في مصر ، وقد أصدر كتابين مهمين فى هذا الموضوع المثير الأول سنة ١٩٨٠ بعنوان «جماعات الغجر مع إشارة لغجر مصر والبلاد العربية» ، والثانى سنة ١٩٨٣ بعنوان «البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر» والكتابان متشابهان متفاوتان مختلفان ولكنهما متكاملان فى حدود موضوعهما العام ؛ يعرض فيهما النظريات السائدة عن أصول الغجر وعن ارتحالهم الدائم عبر العالم ومعايشتهم لكافة الشعوب والأجناس والعقائد والأديان ، كما يعرض لأساليب حياتهم ولغتهم وثقافاتهم وفنونهم ، كل ذلك عبر منهج النقد والتحليل العلمى محاولا فرز الصائب من الخاطئ من الغائم أو غير الدقيق ، بعد قراءات متوسعة حول الموضوع لما كتبه المؤرخون والرحالة والانثربولوچيون والفولكلوريون والاجتماعيون من الأجانب والعرب قدامى ومحدثين .. فضلا عن ممارسته المباشرة لبحوث ميدانية مضنية فى مناطق وجودهم فى وادى النيل والدلتا .

وللأسف رحل الباحث الكبير عن دنيانا قبل أن يصدر كتابه الثالث في ذات الموضوع ، وكانه نذر جهده وعمره من أجل إزالة الغموض عن هذه الجماعة ، وتصحيح اللبس ، ووضعها تحت مجهر البحث العلمي النظرى والميدانى معا ، بدلا من الضبابية أو التخمين ، وبديلا عن الأفكار الموروثة على علاتها أو التعجل والانطباعات العاطفية ، ولعل مجتمع النشر العلمي يعثر مخطوط كتابه الأخير ليضعه بين أيدى خاصة الباحثين والمهتمين وعامة القراء، خاصة وأن الباحث فى محاولته الإلمام بجماعات الغجر المصرية تزداد أهميتها حيث قام بها فى وقت زاد فيه اضطراب - بل فوضى - الحراك الاجتماعى ، فى مصر وفى المناطق المحيطة بها من البلاد العربية والافريقية .

ولعل هذا العالم الباحث الدوب ، كان موفقا حين أدرك النقص فى هذا المجال ، وكانت كل الابحاث التى سبقته ولحقته أيضا - من رسائل جامعية وأبحاث نظمها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية وأهمها دراسة أ. د. أحمد المجدوب عن غجر طهواج بالدقهلية - تتفق مع ما ذهب إليه د.

نبيل صبحى حنا من أنها جماعات شعبية هامشية لابد من الاهتمام بها من كافة النواحى الخدمية والإنسانية كحقوق طبيعية لها مثلها مثل أى جماعة شعبية وطنية ، قد يكون هناك فروق بين بحث وآخر ، أو بين رسالة جامعية وأخرى ، أو ثمة إضافات معلوماتية جديدة هنا أو هناك ، أو أن تركيزا زائدا وقع على زاوية خاصة اهتم بها هذا الباحث أو ذاك الأمر الذى يتطلب جمع هذه الأبحاث معا وتصنيفها ، والتقديم لها بدراسة علمية وافية ، ثم النظر إليها ككل موحد ومن منظور شامل وممتد ، هذا كى تفيد منها الدولة - لا الحكومة فقط - فى ترتيب أوراقها الاجتماعية والسكانية بما يخدم التنمية والسلام الاجتماعى ووحدة النسيج الوطنى متعدد الألوان .

ولكنها .. لا تكفى ..

على الرغم من أن كل هذه الدراسات الاجتماعية والعرقية للغجر ذات أهمية كبرى فى فهم هذه الجماعات ، إلا أنها - فى حد ذاتها - لا تكفى لـ «فهم» هؤلاء القوم ، خاصة إذا كنت ممن واتتهم ظروف معاشرتهم أو الجيرة الودودة الطيبة أو العمل المشترك فإنك ستجد فيهم أناسا يطيب لك الاتصال بهم والتعرف على حياتهم .. بل وقد تعنى بمعاونتهم إذا كانت لديك إمكانيات أو صفات تؤهلك لذلك .. ومن جانبهم لن يستقبلوك كرجل من رجال الإدارة أو كأخصائى اجتماعى غريب عنهم أو كمستغل أو متعهد أو تاجر أو كشخص عابر أو كزبون أو كضحية .. أو مجرد باحث يتعامل معهم كـ «عينات» أو كميدان للبحث العلمى أو الفولكلورى ، بعد أن يتيقنوا من أنهم موضع ثقتك واحترامك ، وأنك لا «تتعالى» عليهم ، هنا سوف يستقبلونك كصديق أو «ميشتو» بلغة الغجر .

حرية الصقور ومراوغة الحرباء

على الباحث فى الغجر أو الراغب فى التعامل معهم ، أن يضع فى اعتباره ما يلى :

١ - أن وطنهم الأول هو ثقافتهم الغجرية ، وثقافتهم هى وطنهم الأول ، أى ثقافتهم المتوازنة المدمجة مع ثقافتهم المستعارة المنتقاة من كل وطن جغرافى وبشرى عاشوا فى كنفه ، وهى - فى اللغة - تعنى «السيم» أو «الرُوم» Rom؛ وفى التاريخ لا تعنى سوى الملاحم والسير والحكايات ، وفى الحكمة دليل العمل والحياة .. فإنها تعنى الأمثلة الشعبية الأثيرة النافعة لهم ، وفى الحرفة كما فى الفن فينظمها الإيقاع السمعى والبصرى والحركى ، أما فى الخبرة الإنسانية والتكوين النفسى فتقوم على الحذر والتطير



جماعة من الغجر اتهموا فى جريمة سرقة بالتخدير فى بلدة مليج

والاستعداد لمواجهة كل مستجد .. بل أقسى المتغيرات بمرونة فائقة يظللها شئ من عدم الوثوق وظلال من الحزن الدفين القديم .

٢ - الوطن بمعناه الجغرافى يعنى بالنسبة لهم المكان الذى يقيمون فيه ويتعايشون مع سكانه ويتبادلون معهم بضائعهم ومهاراتهم وثقافتهم وفنونهم وحرفهم . ولقد تأكد هذا البعد الجغرافى السكانى مع ازدياد حدود الدول قوة وصدودا ومنعة .

٣ - أن التاريخ - بمعناه المعروف - لا يعنى شيئا بالنسبة لهم ، فقط تبقى فى ذاكرتهم بعض الوقائع الكبيرة والصغيرة الخاصة بهم فقط ، لأشياء سيئة أو طيبة ، وفقط تبقى الأساطير والملاحم والسير والحكايات هى التاريخ الحقيقى عندهم .

٤ - متأقلمون على نحو شديد السرعة والمهارة مع كل ظرف أو واقع جديد أو متغير يعرضون له ، سواء من ناحية العقيدة أو أساليب العيش ، فهم وسط السنة سنيون ، وعند الشيعة هم شيعة ، وفى اليونان أرثوذكس ، وفى ايطاليا كاثوليك ، وفى أمريكا بروتستانت .. وهكذا ، على أن أصولهم البعيدة تمتد إلى فئة من المنبوذين بوسط وشمال غرب الهند.

وجدير بالذكر أن الدولة القومية الحديثة ، بنظمها الأمنية والاقتصادية التى تتميز بسيطرة للفئة الغالبة - عرقية أو



غجريتان مصريتان تقرآن الطالع لأحد القرويين

دينية أو طبقية أو سياسية – ومن ثم تأمينها الصارم لحدودها ، قد وضعت لحرية الغجر قيودا لا يستريحون إليها ، كقوم جبلوا على السفر والترحال ، فهم – فى حقيقة الأمر – لا يرغبون فى تسجيل مواليدهم مدنيا ، ولا يميلون إلى استخراج بطاقات الهوية والسجل المدني ، ولا جوازات السفر .. ولكن للضرورة أحكام .

ولا يعدم الأمر من كثير أو قليل من الاضطهاد ، الذى عانوه عبر التاريخ منذ أن تركوا بلادهم ، وتذكر المراجع شيئا عن المذابح والمطاردات التى عانوها فى إيران والعراق وأوروبا فى العصر الوسيط ، أما فى العصر الحديث فحدث ولا حرج عن روسيا الستالينية وألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية .. وأخيرا من أفغانستان الطالبانية وكوسوفو الألبانية ، ولا تزال أفضل المجتمعات «المتسامحة» تنظر إليهم باحتقار بالغ كأدنى فئة اجتماعية !!

وقد لا يدرك كثيرون ممن يستخدمون لفظة «يا غجر» كسبة أو شتيمة ، أنهم يأتون بعمل عنصرى ، بل هم لم يقابلوا غجريا واحدا فى حياتهم ، وإذا ما صادفوه فإنهم لن يتعرفوا عليه ، ولا يدركون أنه يعيش بين ظهرانينا أشخاص



... وللأطفال طالع أيضا !

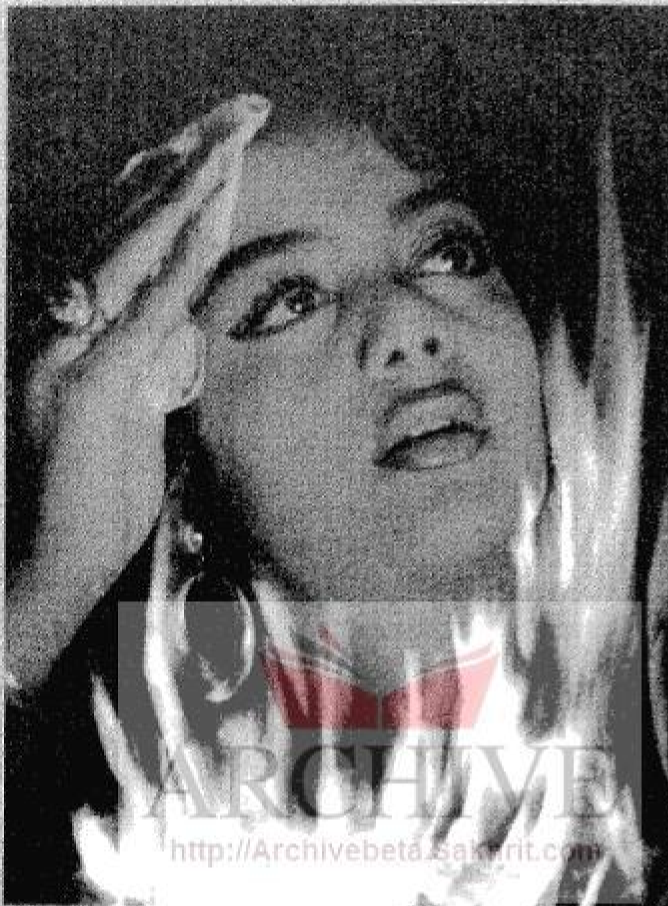
مرموقون من أصول غجرية منهم من اشتهر كفنان وأثرى ، أو من رجال الأعمال المرموقين أو في كبرى الوظائف الإدارية الحكومية ، ومولا - من جانبهم - غالبا ما ينكرون مضطرين هويتهم الغجرية تفاديا لاستعلاء المجتمع عليهم وسخريته منهم ، بل وأحيانا يزيدون فيشاركون هذا المجتمع مواقفه الخطئة تلك ، وإذا كان ثمة سبب موضوعي تاريخي لهذه المواقف ، فهو قوة الدولة المركزية المصرية منذ فجر التاريخ وخضوعها للأيديولوجية التي يعتنقها الحاكم ، والتي تتغير بتغير القوى الحاكمة ، ولكن في جميع الحالات كان الغجر - كأقلية وافدة غير مستقرة - جماعة مهمشة .

وكان المجتمع الزراعي المستقر وجد فيهم مساعدا ماهرا ، كما وجد فيهم مجتمع السادة وسيلة وحيلة ، فمهنة الحدادة هي مهنتهم الرئيسية التي تجمع بين القوة والمهارة ومعايشة الخطر والإيقاع بأنواعه ، ثم رعاية الماشية وتأهيلها للعمل والبيطرة ، وإعداد أواني الطهو وتبييضها ، وشحذ الأسلحة والسكاكين والمقصات إن لم يكن صناعتها ، وأعمال الجزارة والسلخ ودباغة الجلود ،



فنانون من غجر جنوب إيطاليا

وصناعة السلال ، وأعمال البناء ، وتجارة الفحم، وصناعة النوارج والمحاريث والسواقي الخشبية والعربات الكارو ، وأعمال الدهان والزخرفة والنقاشة ، وصناعة أدوات اللعب التي تستخدم في الموالد مثل المراجيح وعربة التنشين وعربة العفاريت ، وصياغة الحلي الشعبي من الشفتشي والفضة والذهب ، وتجارة التجزئة الجائلة في الريف والأحياء الشعبية بالمدينة ، وتجارة الكتاكيت وشتلات الأشجار ، أما في مجال خدمة النساء فهم يبيعون للنساء أنواع الكحل واللبان والعطور والبخور والخيوط والأقمشة وأدوات الزينة والحلي ، وأما النساء فيقمن بمساعدة العرائس في الاستعداد للزواج من حيث اعداد الملابس والمفروشات ومنهن الماشطة والبلانة والداية والمساعدة في شئون إعداد البيت الجديد ، وكذا ترتيب الطقوس السرية والسحرية للنساء مثل قراءة الطالع والتلقيح بالنقل إذا كان الزوج عاقرا «خدعة الصوفة» .. وأيضا أعمال الزار ، والاستعداد لاستقبال الوليد الجديد وإقامة سبوعه وإرضاعه إذا لزم الأمر ، وأما بالنسبة للغجر كفنانين ، فإن الأمر يلزم له مقال خاص به تستطيع التعرض فيه لهذا الموضوع الممتع عن سعة وتفصيل ، وأما عن اتهامهم بأعمالهم مشينة أو خارجة عن القانون أو العرف ، فهذه أعمال قد تشاركهم فيها باقي فئات المجتمع - حتى أرقاها - ولكنها - في العرف الاجتماعي السائد والمحافظ - تشهر عن الغجر أو تلصق بهم وحدهم ،



النورية تراقص النار

وتخفى بالنسبة للآخرين أو تخفف ، كنوع من أنواع التطهر الزائف والاستعلاء بلا منطق أو مبرر معقول .

متى دخلوا مصر ؟

ليس ثمة تاريخ قاطع يحدد موعد دخول الغجر إلى مصر ، فمازالت هذه المسألة بحاجة لمزيد من البحث والتوثيق ، فمن قائل أنهم دلفوا إليها مع جيوش الاسكندر حيث عملوا كحدادين وصناع سيوف وآلات قتال ورعاة ومربين للخيول والماشية ، وهناك من قال إنهم كاسيويين قدموا فى خدمة الجيوش والهجرات

العربية التى وفدت إلينا قبل الفتح العربى لمصر وأثنائه وبعده ، وذلك عن طريق سيناء والبحر الأحمر وباب المندب والقرن الافريقى ، وقيل إنهم لجأوا إليها هربا من انقلاب هارون الرشيد عليهم بعد نكبة البرامكة ، وقد كانوا من موالى جعفر البرمكى وهناك من يقول إنهم وجدوا فى قيام الدولة الفاطمية فى مصر فرصتهم للحياة المترفة الملينة بالمتع وهم أهل ترف وحرف وفن ، وذكر انهم جاءوا مع وفود الجماعات المملوكية الأولى فى أواخر عهد الأيوبيين فوجدوا سماحة وترحيبا فى عصر الظاهر بيبرس المؤسس الفعلى لدولة المماليك فكانوا رواة سيرته الشعبية الشهيرة .. وقد يكونوا منشئيها ومبدعيها

ولما كان المؤرخون والبحاثة يختلفون فيما بينهم هذا الاختلاف البين حول توقيت هجرتهم إلى مصر ، فالأرجح - فى ظنى - أنهم وفدوا إلينا موجات إثر موجات ، لذا اختلفت الأسماء التى أطلقت عليهم نظرا لتعدد جماعاتهم ، وتناثر مواطن إقامتهم ، وتعدد حرفهم .. ومنها : هنجرانية - مسلاف - مساليب - برمكية - سيجونا - تتر - غز - حُمُر-حلب - نور - غجر ..... وغير ذلك .. ويرى د. نبيل صبحى أن التسميات الثلاثة الأخيرة هى التسميات الأساسية وأن لفظة



راقصة غجرية من الدانوب

«الغجر» تطلق على جماعة بعينها كما تطلق عليهم جميعا بكل تسمياتهم وأصنافهم .

والغجر .. والعالم اليوم .. ومع التحولات العالمية الطاحنة لكل ماهو خاص أو قليل أو ضئيل أو مميز أو مستقل : ما هو موضع الغجر المصريين من هذه التحولات الاجتماعية والطبقية المحلية فى ضوء عالمنا الجديد الذى يتجه إلى محو اللغات القومية واللهجات المحلية، بل إلى محو الاقليات والقوميات والشعوب .. بل والحدود الدولية أيضا . هل يبقون غجرا ؟ أم سيرغمون على التخلى عن هذه الهوية العرقية /



مازال بعض الغجر يحتفظون بأصولهم الهندية القديمة

الثقافية المميزة ؟ وإذا كان اندماجهم فى نسيج البنية الاجتماعية مطلبا قوميا ؟ كيف ؟ هل يعنى ذلك تخليهم - وتخلينا أيضا - عن خصوصيتهم وتميزهم ؟ هل هذا الاندماج يعنى الذوبان التام والمحو النهائى ؟ أم يعنى التعدد والتحاور فى إطار الوحدة ؟ أو بمعنى آخر .... هل نساعد الثقافة الغجرية على البقاء والنمو والازدهار - كأحد مصادر الثقافة المصرية وملامحها الحية - خاصة وأنها ثقافة تتميز بتعدد المصادر والألوان ؟ أم نهملها حتى تتآكل وتفنى ؟ هل نتبع منهجا ديمقراطيا عميقا وإنسانيا فى التعامل مع كافة القوى العديدة التى تشكل معا ملامحنا كمصريين ؟ أم نقهر كل هذه القوى لحساب مركزية حاكمة ؟ (القاهرة - الطبقة الجديدة - البيروقراطية - الهيمنة الإعلامية الموحَّدة الموحِّدة - الخطة الثقافية القائلة بأن مصر قطعة من أوروبا - النخبة الثقافية للقطبية الجديدة - الفولكلور مجرد مصنف سياحى - الثقافتان العربية والافريقية ثقافتان متخلفتان - الثقافة التاريخية للقومية المصرية نوع من النوستالجيا .... إلخ)

وفى الإطار السابق يتم النظر إلى الثقافة الغجرية والبدوية والنوبية والسيوية الأمازيغية والجنوبية كخزعبلات لا قيمة لها ، ومن هنا تصبح لفظة «يا غجر» شتيمة تستوجب الغضب. ■

حكمة أمي وتضحية أبي هما سر نجاحي في الحياة

أحمد عتمان

ولد أحمد محمد عتمان فى قرية بنى عتمان - مركز ببا - محافظة بنى سويف . ذهب للمدرسة - مع أخوته الأكبر - قبل السن القانونى للتعليم بعامين ، حيث تلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة بنى أحمد المجاورة . كان يعرف القراءة والكتابة وجدول الضرب قبل الذهاب إلى المدرسة . وعندما تسلم الكتاب المدرسى الأول فى حياته لم ينم قبل إتمام قراءته ، وعندما أخبر المدرس فى اليوم التالى بذلك قال له :

- تقرأ كتاب السنة كلها فى يوم واحد .. وماذا ستفعل بقية السنة ؟

أنهى التعليم الاعدادى والثانوى فى مدينة بنى سويف وأنهى الثانوية العامة فى سن السادسة عشر وكان من أوائل الجمهورية على القسم الأدبى وصافح جمال عبدالناصر فى يوم ٢١ ديسمبر ١٩٦١ . أنهى التعليم الجامعى وعين معيدا بكلية الآداب - جامعة القاهرة فى سن العشرين وكان أصغر معيد بالجامعة حيث قام بالتدريس لطلبة يكبرونه سنا . تخصص فى الدراسات اليونانية واللاتينية وتتلمذ على د. محمد صقر خفاجة ود. عبداللطيف أحمد على وأستاذهما د. إبراهيم نصحى ، سافر فى بعثة لليونان وحصل على الدكتوراه من جامعة أثينا فى يونيو ١٩٧٤ بتقدير ممتاز ، وطبعت الرسالة باليونانية ونفدت .



وعندما شرع صاحبنا يتحدث عن مكوناته الثقافية أدرك أن الموضوع يحتاج إلى مجال أرحب . ولما كان بالفعل يعد سيرة حياته للنشر فقد رأى أن يسلط الضوء على أسرته القروية والبيئة الأولى التى شكلت وجدانه ، ووجهته إلى التمسك بقيم أخلاقية ودينية ، هى التى دفعته للاخلاص في عمله الجامعي والأدبى والثقافى . فأمه التى كانت أمية هى التى لايزال حتى يومنا هذا يستلهم حكمتها وعقلانيتها وتمسكها بالحق والعدل والصبر على الشدائد والتواضع . أما الوالد فقد كان مثال التضحية والفداء ، باع كل ممتلكاته من الأرض فى سبيل تعليم كل أولاده .

بيت العز

لا أحد فى قرية بنى عثمان يشك فى أن بيت الشيخ محمد عثمان هو بيت العز بحق . فهو من العائلة الحاكمة والأغنى فى القرية ، وهو شيخ بلد ويقوم بأعمال العمدة بين الحين والحين . ولقد شهد هذا البيت ما يدل على العز والسيادة ، فكم من مرة استدعى الشيخ محمد عثمان هؤلاء القرويين الذين اختصموا وحقق فى الأمر وانهال ضربا على المخطىء بعصى خيزران لم تكن تفارق يمينه .

وكم من مرة استقبل الشيخ محمد عثمان أكابر القوم فى منزله ، سواء من أعيان القرى المجاورة ، أو من الحكام مثل مأمور المركز ووكيل النيابة ومأمور الضرائب والصراف ، وما إلى ذلك . وعندئذ تقام الولائم الفاخرة فيذبح الخروف أو الديك الرومي أو عدد من الفراخ وما شابه . وتقدم الوليمة على صينية نحاسية دائرية وكبيرة جدا ، يرفعها أربعة رجال على الأقل . وفى مثل هذه الولائم يقدم صنفان أو ثلاثة من الخضار مثل البامية والملوخية والمسقعة . أما الأرز فيقدم مسلوقا ومحمرا ، وهو فى كلا الحالتين غارق فى السمن . ويقدم الحلو مثل المهلبية والمشمشية بالإضافة إلى فاكهة الموسم .

وهذه الولائم تسعد أطفال العائلة مثل الضيوف تماما ، كما أن خيراتها تعم كل القرويين والقرويات ممن يعملون فى منزل الشيخ محمد عثمان ، علاوة على بعض الفقراء المعوزين فى القرية ، الذين يرسل لهم نصيبهم من الوليمة دائما . ولا تتساهم أبدا أم عثمان ربة البيت ، كما أن الشيخ محمد عثمان دائما يسألها بعد كل وليمة عن هؤلاء المحتاجين ، فإذا نست أحدهم تعرضت للوم .

تعاون بعض القرويات أم عثمان فى عملها اليومي بالبيت . وهن يتعاملن معها بكل احترام وتقدير ، ولكنهن صديقات أكثر من كونهن خادمات . وهن يؤدين الأعمال غير المتصلة مباشرة

بالطعام والشراب ، فهذا من شأن أم عتمان . فهى التى تذهب بنفسها كل صباح وكل مساء لتحلب البقرة أو الجاموسة فى الزريبة . وتعود بالقدر المملوء لبنا على رأسها أو فى حضنها . وقد تقدم للأسرة منه طعاما شهيا متمثلا فى لبن ساخن عليه سكر أو عسل النحل مع بعض العيش البلدى الجاف (البتاو) . وقد تصنع لهم عصيدة وهى مكونة من قطع من عجين القمح فى اللبن الساخن المحلى بالعسل والمزود بالزبد .

★★★

وبعد الإفطار وخروج الشيخ محمد عتمان لشئونه خارج المنزل تضع أم عتمان اللبن فى القربة ، والتى لها فتحتان وتعلق بالحبال فى قائم له ثلاثة أرجل . وبعد أن تضع أم عتمان اللبن فى القربة المربوطة من إحدى الفتحتين تنفخ فى الفتحة الثانية حتى تنتفخ القربة تماما فتربطها ، وتصير هكذا معلقة فى القائم . تجلس أم عتمان أمامها وتمد رجليها وتمسك بالقربة بيمناها وتحركها إلى اليمين وإلى الخلف فى حركة بطيئة منظمة ، وتظل هكذا وهى جالسة تحت أشعة الشمس الشتوية أو فى ظل أحد جدران البيت إذا كان الوقت صيفا . وتظل تحرك القربة هكذا حوالى ساعة ، وهى تحدث أولادها وتحكى لهم الحواديت وعندما تحس أن المهمة انتهت تفتح القربة فتحة صغيرة وتصفى اللبن فى وعاء معد لذلك ، وهذا اللبن يسمى شرش ، أما ما يبقى فى القربة فهو الزبد ، فتضعه أم عتمان فى قدر فاخر مصقول بنى اللون مخصص لذلك .

وبعد ذلك تفرغ الشرش ، بعد إضافة بعض الملح ، فى قطعة مستطيلة من شىء يشبه الحصير ويقال له «السدة» ، وهو فى الغالب مصنوع من نبات البردى . وبعد تفريغ الشرش فى السدة تلم طرفيها وتعلقهما فى حبل الغسيل ، فيصفى الشرش هكذا ، إذ ينسال السائل على الأرض نقطة نقطة . وبعد حوالى نصف ساعة تفتح أم عتمان السدة فتجد قالبا طويلا من الجبن الأبيض الطازج . فتقطعه قطعا متساوية بالسكين ، وتحفظه فى قدر خاص أعد لذلك ، أما إذا أريد تخزين هذا الجبن لصنع ما نسميه «الجبنة القديمة» فيتم زيادة الملح والفلفل وقشر البرتقال والليمون وغير ذلك ، وعندئذ يوضع فى «بلاص» ويغلق غلقا جيدا .

نشأ صاحبنا الصبى على هذا الطعام الطازج الذى تصنعه الأم بيديها وبكل الحب . حتى إن صاحبنا لم يعد يحب الجبن والزبد إلا الذى يأتى من يدى أمه . وظل هكذا ولم يتغير إلا بعد السفر إلى القاهرة ثم إلى الخارج ، واضطر لأكل

أشياء أخرى لم يكن يقبل مجرد رائحتها من قبل . ولا يزال صاحبنا إلى يومنا هذا ميالا للطزاجة في كل شيء .

وكان الشيخ محمد عتمان يساعد زوجته أم عتمان في أعمال المنزل ، إذا رأى لذلك ضرورة كأن يكون في عجلة من أمره لسبب أو لآخر . عندئذ يأمر كل أولاده بالجلوس والعمل على مساعدة الأم . ولاسيما إنجاز أعمال تأخذ وقتا طويلا مثل تنقية الأرز أو القمح من الشوائب أو قرطفة الملوخية وما شابه ذلك من أعمال ثانوية ولكنها ضرورية لاعداد الطعام . وإذا أصدر الأب أمرا بإنجاز هذا العمل أو ذاك فلا مجال لأحد من الأبناء أن يتكاسل أو يتملص وإلا فالعقوبة صارمة وفورية .

بل هناك عمل منزلي ارتبط بالوالد ارتباطا تلازميا . فطالما أنه غير مرتبط بأحد الضيوف أو أي شأن آخر فهو الذي يصنع الشاي بنفسه لجميع أفراد الأسرة دون استثناء . وفي العادة يشربون الشاي ثلاث مرات عقب الوجبات الثلاث التي تجمع كل أفراد الأسرة .

★★★

وجرت العادة أن توضع الطبلية الكبيرة على البساط أو الحصيرة ويلتف كل أفراد الأسرة حولها . ويوضع الطعام فيبدأ الجميع معا وينتهون منه معا .

ومجلس الأب على الطبلية يقع قرب حافة الحصيرة وحيث توضع عدة الشاي . فما أن ينتهي الطعام حتى يستدير هو دورة كاملة فتكون عدة الشاي أمامه جاهزة . فعلى يمينه يوجد وابور الجاز من نوع بريموس . والذي يمكن أن يحل محله في ليالي الشتاء منقد (مدفأة) من النحاس تشعل فيه قوالح الذرة التي تحل محل الفحم في المدن .

وأمامه مباشرة ما يسمونه كرسي الشاي وعليه توضع غلاية الشاي والبراد والأكواب البللورية الصغيرة . وعلى اليسار الإبريق نحاسي مملوء بالماء . وأمام كرسي الشاي يوضع طست صغير مغطى بغطاء كالمصفاة . وفي جزء علوي من الغطاء توضع قطعة من الصابون . يستخدم هذا الطست لغسل الأيادي قبل الطعام وبعده ولكنه بعد ذلك يوضع في خدمة عملية صنع الشاي وغسل الأكواب بعد استعمالها . توضع غلاية الشاي على النار ويصب منها في البراد ذي البزبوز حيث يصب منه في الأكواب لكل أفراد الأسرة . ويحدث ذلك مرتين على التوالي ، ففي المرة الأولى يكون الشاي «ثقيلا» ومرا، أما في المرة الثانية فيكون أكثر حلاوة ويضاف إليه النعناع . وهكذا تأخذ عملية صنع الشاي وتوزيعه وشربه في المرتين وقتا طويلا مما يتيح للوالد الشيخ

محمد عثمان أن يحكى الحكايات أو يلقى الفكاهات ، أو يتداول الرأى فى مختلف الأمور مع زوجه وأولاده ، فهى أحاديث عذبة فى معظم الحالات . وإذا لم تكن هناك موضوعات للتداول يرفع الشيخ محمد عثمان صوته وهو يتلو القرآن ومن السور التى ارتبطت فى ذهن الصبى بهذه الجلسة سورة الواقعة والقارعة والزلزلة وقوله سبحانه وتعالى «إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها» ولم يعرف معانى هذه السور بدقة إلا بعد عدة سنوات .

صناعة النعناع

ويعمل الوالد للشاى ألف حساب ويوفر له كل الامكانات ، ولاسيما الشاى والسكر والنعناع أو روح النعناع ، إذ كان رجلا معمماً يضع على عينيه عدسات طبية يزور البيت مرة كل صيف ويقضى يوما كاملا يحضر فيه روح النعناع . حيث كانوا يحضرون له كميات ضخمة جدا من نبات النعناع . وبعد تنظيفها يغلونها فى أوعية ضخمة جدا ، وكانوا فى العادة يبعدون الأطفال الصغار عن هذه العملية الخطرة التى يسمونها «التقطير» وكانت خلاصة النعناع تعبأ فى زجاجات يستخدمها الشيخ محمد عثمان طوال العام ، إما فى صنع الشاى ، أو تستخدمها ربة البيت فى صنع الحلويات المختلفة .

ومن باب التغيير كان الشيخ محمد عثمان أحيانا يستعيض عن روح النعناع بشىء آخر . إذ كان يحتفظ فى جيبه دائما بعلبة بلاستيك صغيرة جدا كعقلة الاصبع مملوءة بالعنبر يفتحها ويغمس فيها عودا من الكبريت يضعه بعد ذلك فى براد الشاى . فيفوح الشاى برائحة العنبر ، ويقبل الجميع على رشف هذا الشاى المعطر بالعنبر .

ومن الزيارات الموسمية المحببة لدى الصغار والكبار زيارة «الدلال» أو «الدلالة» أى الشخص الذى يأتى ومعه كمية ضخمة من الأقمشة بمختلف الأصناف والألوان . يجلس فى فناء المنزل أو فى الشكمة ، ويفرد كل الأقمشة الرجالى والحريمى من القطن والصوف والحرير . يختار كل فرد ما يشاء واللون الذى يروق له ، فتقص له القطعة التى تتناسب مع مقاساته . أما إذا كانت هناك طلبات خاصة ، فإن الدلال أو الدلالة يعد باحضارها فى المرة القادمة . وبعد انتهاء الشراء يرتب الدلال أو الدلالة بضاعته المتبقية بثنى الأثواب على قطعة من الورق المقوى ، ثم رصها الواحدة فوق الأخرى ، ثم لفها جميعا بقماش وربطها بالحبل ويرفعها ليحملها على كتفه بالنسبة للدلال ، وعلى رأسها بالنسبة للدلالة . ولم يبق إلا المتر الخشبى الذى يقيس به ، فهو



د. أحمد عتمان مع رئيس جامعة أثينا – سبتمبر ٢٠٠١

يظل فى اليد دائما .

★★★

ومن الزيارات المحببة للجميع أيضا تلك التى يقوم بها الجزمجى ، إذ يأتى وعلى ظهره جوال (زكيبة) يخرج منها لكل فرد من أفراد العائلة زوجا من الأحذية أو الصنادل أو الشباشب . فبعضها كان مطلوبا ، ومن ثم فمتفق عليه ومعروف من هو صاحبه ولكن الزكيبة مليئة ببضاعة أخرى يعرضها الرجل ، فإذا راق لأحد شىء منها أخذها على الفور وكان الشيخ محمد عتمان ينصح أولاده دائما ، ولاسيما الصغار بتوخى الحذر والتأكد من أن الأحذية مريحة ، لا هى ضيقة ولا هى واسعة لأنها فى الحالتين تسبب آلاما مبرحة . لكن بعض الأطفال الصغار لايسمعون الكلام ، ويفرحون بما هو جديد، وبعد يوم واحد من لبس الحذاء الضيق يعانون الأمرين ، وربما لا تحل هذه المشكلة العويصة إلا بإعطاء هذا الحذاء للأخ الأصغر .

المدائح النبوية

وهناك زيارات خاطفة ، ولكنها مؤثرة وباقية فى الذاكرة مثل زيارة بعض الأفراد ووقوفهم عند البوابة دون الدخول . وأكثرهم رسوخا فى الذاكرة ذلك الشخص الذى يرتدى ملابس غير معتادة ، ويمسك مزمارا وقد يصاحبه ضارب على الدف أو

الصنج وما أن يصل إلى البوابة ويكون أهل البيت فى الشكمة أو فى هذه الغرفة أو تلك حتى يبدأ فى الغناء . إذ يغنى بعض الكلمات وينفخ بعدها فى المزمار بمصاحبة الدف أو الصنج ، وهكذا ويكون غناؤه خليطا من الفولكلور والمدائح النبوية والمديح لافراد البيت الذى يقف أمامه ، إذ يذكرهم بالاسم ويخلع عليهم بعض الصفات ، ويحتفى بأسماء الأطفال بصفة خاصة . ويظل هكذا يغنى ويعزف الموسيقى حتى يخرج إليه أحد من أهل البيت ومعه بعض ما تيسر من المال أو الغلال وما شابه ، وفى كثير من الحالات يتباطأ أهل البيت فى الخروج إلى المغنى طمعا فى المزيد من الغناء . أما إذا نسى اسم أحد الأطفال فيذكرونه به وفى غالب الأحوال يلتف الأطفال حوله ويصاحبونه فى جولته .

يعرف هذا الزائر باسم «الأدباتى» ، ولقد انشغل صاحبنا الصبى ولاسيما بعد تقدم السن فى أصل هذه التسمية ، ووجد أن الأمر محير فى مسألة أصل هذه التسمية فهل هى من «المتأدب» والتطفل عليها» ، وهو تراث معروف لدى جميع الشعوب ولاسيما الشعب العربى أم هى على علاقة بكلمة الأدب ؟ ولعلها ترتبط بالمعنيين معا .

ولا ينسى أحد من أفراد الأسرة حلقات الذكر حيث فى بعض المناسبات يحتشد أهل القرية فى البيت مساء ، حيث تبسط الحصر فى الساحة ويضاء المكان اضاءة قوية باستخدام عدد هائل من الفوانيس والكلوبات . فى البداية يجلس الناس على الحصر ، أما أهل البيت فهم يحتشدون فى الشكمة . ثم ينتظم شكل الجالسين على الحصر على هيئة دائرة واسعة وفى مركزها يتربع شيخ ، هو فى الغالب الأكبر سنا والأكثر علما بشئون الدين .

وتبدأ حلقة الذكر بالقرآن الكريم سواء ألقاه هذا الشيخ أو شخص آخر أكثر تجويدا وترنيما . وبعد ذلك يقود الشيخ حلقة الذكر فهو يبدأ بتراتيل دينية وابتهالات ودعوات لأهل البيت وأهل القرية والمسلمين كافة .. ثم ينهض ويبدأ فى تنغيم ما يقوله على إيقاع ما ، سواء بالتصفيق بشكل منظم ، أو بالدق بآلة معدنية صغيرة (كالمفتاح) على عصاه وهو يتمايل يمينا ويسارا . وأحيانا يقفز إلى أعلى قفزة قصيرة . والمتحلقون حوله يفعلون وراءه ما يفعل ويرددون ما يقول بنفس الطريقة وبنفس النغم ، ويظل الأمر كذلك حتى يغير الشيخ الكلام والطريقة والنغم والحركة فينسجون على منواله . والكلمات التى يقولها الشيخ تتمحور حول «الله أكبر ، الله حى ، مدد ..... ! الخ ولكن الطريقة التى

يخرجون بها هذه الكلمات من حناجرهم تعطى لهذه الكلمات معنى طقوسيا خاصا ، ثم يدخل حاملو البخور فى مباخر نحاسية فاخرة ، فيعطى دخان البخور والمسك لحلقة الذكر نفاذ الطقس الدينى وهيمنة الخشوع على كل النفوس .

حالة التجلى !

وفى إحدى المرات خرج أحد المتحلقين فى حلقة الذكر عن طوره ، بل خرج عن المجموعة وأخذ يقوم ببعض الحركات غير العادية ، بل نطق بألفاظ غير مفهومة ، ولا يعرف أحد من أية لغة هى . وأشار الشيخ للجميع بعدم التعرض له وتركه يفعل ما يشاء فهو الآن «فى حالة تجلى ، ولا يملك ارادته وربنا يسهل له !» .

وفيما بعد شرح أحد الضالعين فى تلك المسائل من أهل القرية أن حالة التجلى هذه تصيب من «يركبهم» الجان . المهم عندما يبلغ الذكر قمة الجزل يبدأ الشيخ فى تغيير النغمة وتهدئة الايقاع ثم يجلس ويجلس بعده الجميع ويشرع فى قراءة القرآن وإسداء الدعوات لأهل البيت. وينتهى الذكر بقراءة الفاتحة . ثم يقدم الطعام والشاى للجميع .

ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون من أهل القرية أن هذا البيت الذى ذاق الحلو ذاق

د. أحمد عتمان
• رئيس قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٨٩-٢٠٠٠)
• رئيس الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ورئيس الجمعية المصرية للأدب المقارن
• عضو اللجنة الاستشارية باليونسكو الخاصة بالتعددية اللغوية فى مشروع السلام اللغوى

• من أهم مؤلفاته فى الدراسات الأدبية :
- الموسوعة الكلاسيكية.
- الأدب الأغريقى تراثا إنسانيا وعالميا.
- الأدب اللاتينى ودوره الحضارى.
- كليوباترا وأنطونيوس : (دراسة فى فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقى).
- المصادر الكلاسيكية لمسرح الحكيم ومن أهم مؤلفاته الإبداعية :
- كليوباترا تعشق السلام.
- الحكيم لا يمشى فى الزفة
- معيز الهنسا
- زفاف عروس الكتبات.

المر أيضا . فمن كثرة الأولاد وكثرة مصاريفهم فى المدارس حلت الضائقة المالية بالبيت وأهله . ومع أن صاحبنا الصبى سمع أمه غير مرة تعاتب أباه على الاسراف ، إلا أنه بشهادة الجميع ليس مسرفا . إنه إذا أتاه الرزق يريد أن يوسع على أبنائه وأهله فلا يبخل عليهم بشىء قط . وهو يعطى الأولوية لأولاده ومطالبهم على احتياجاته هو الخاصة .

لقد بدأ الرجل سنة بعد أخرى يبيع من أطيانه لينفق على أولاده الذين يذهبون جميعا إلى المدارس ولم يستثن منهم أحدا. ويتناقص الملكية يتناقص الدخل السنوى مع زيادة فى المصروفات . ووجد الرجل نفسه فى بعض الأحيان فى ضائقة مالية قاسية تصل إلى حد احتياج لقمة العيش .

وصاحبنا لا ينسى قط عندما كان فى التعليم الاعدادى وفى اجازة الصيف وكان الجميع موجودين بالمنزل . ولا يوجد بالمنزل العيش البلدى (البتاو) الذى يخبزونه ويرصونه فى «عواميد» أى أعمدة عالية يأكلون منها حتى تنفد ثم يعيدون الكرة . هذا فى الأيام العادية أما حيث أن الشيخ محمد عتمان يعانى من ضيق ذات اليد فإنه لم يتوافر عمود العيش هذا ، وبالتالى أصبحوا فيما يشبه الافلاس يأكلون يوما بيوم من الأرغفة التى يشترونها . وذات يوم لم توجد حتى النقود التى يشترون بها الأرغفة ، فأخذ كل ولد من الأولاد ركنا من أركان البيت الشكمة أو الصالة أو الغرفة الغربية أو الشرقية . وكلهم صامتون فى انتظار حل ما لهذه الأزمة . وخرج الشيخ محمد عتمان سعيا وراء حل هذه الأزمة ، وهو حل طبعا يقوم على بيع أرض أو بيع شىء ما من المنزل أو الاقتراض . ولكنه لم يعد حتى قرب آذان العصر وبدأ الجوع يقرص أمعاء الأبناء ولاسيما الصغار . وفجأة جاء أحد القرويين يجرى ومعه عشرة أرغفة سلمها لأم عتمان وقال :

- الشيخ أبو عتمان أرسل هذا الخبز وسيعود هو بعد قليل .

ووزعت الأم الأرغفة على أبنائها ليسدوا رمقهم ، وبحثت عن صاحبنا الصبى فوجدته فى ركن من الغرفة الشرقية يبكى ، فأعطته نصيبه من الخبز وضمته إلى صدرها وقالت له :

- لماذا البكاء ؟ الصبر طيب يا حبيبى.

- أنا لا أبكى من شدة الجوع .. ولكن لماذا نجوع ؟ ■

كتاب الهلال

كرومر فى مصر

تقديم
محمد حسنين هيكل

تاليف
محمد عودة

يصدر ٥ يناير
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال

٢١٧

الهلال

ذو القعدة ١٤٢٢هـ يناير ٢٠٠٢م

ريحانة

تأليف
ميسون صقر

تصدر ١٥ يناير
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

مذهب ذى النون المصرى فى الولاية

أعجبت بالمقال الذى نشر فى عدد نوفمبر ٢٠٠٢ للعالم الجليل الدكتور أحمد الطيب مفتى الديار المصرية حول أحد كتب ابن عربى عن ذى النون المصرى .. لكننى وجدت بعض الهنات فى المقال ، لو خلت منه لكان أكثر جمالاً ومن بينها :

أولا : عند حديث الدكتور عن العلاقة بين ذى النون المصري وكل من الغزالى وابن عربى مؤلف الكتاب ، يكتفى بأن ينقل ما أورده ابن عربى من أن ذا النون يعرف حقيقة التوكل بأنها «علم العبد بأن الله يعلم ويرى ماهو فيه» ويشير إلى أن ذا النون لايقصد من العلم «المعرفة» بل العمل ، وهو بذلك يخالف كثيرين من المتصوفة فى تعريف التوكل ، ويتابعه معه العلماء أبوحامد الغزالى وابن عربى نفسه.

وسيكون المقال أوفى لو كان الكاتب قد أشار إلى مذهب ذى النون فى الولاية عن طريق الاصطفاء ، وهو المذهب الذى سار عليه أبوحامد الغزالى وابن عربى ، وهذا الاتجاه هو الأثر البارز الذى أضافته المدرسة المصرية للتصوف الإسلامى .

ثانيا : فى ص ٦٧ يقول الدكتور الطيب : «ولم يكن حال ذى النون بعد أن انتقل إلى القاهرة بأسعد حظا .

ويقول فى ص٦٩ .. وإذا كان ذو النون قد نسى آلامه ومتاعبه ومأساته بين القاهرة وبغداد

ولم يكن فى ذلك الوقت شىء اسمه القاهرة ، فلم تنشأ هذه المدينة إلا بعد موت ذى النون بمائة وخمس عشرة سنة .

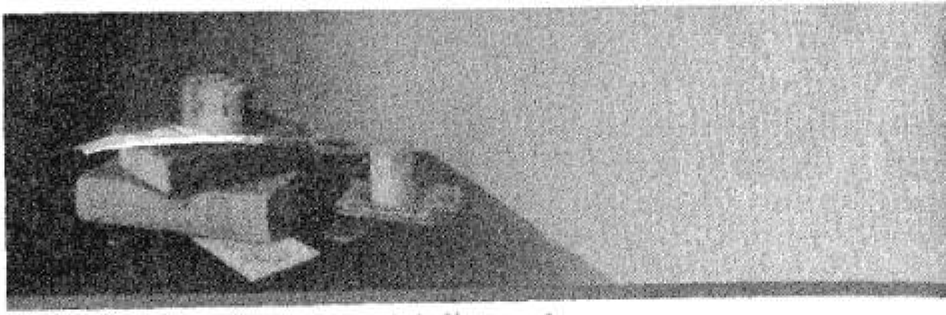
أ.د عبدالرحيم الكردى
عميد كلية التربية - بورسعيد

العصافير .. تعشق أوكارها

قفت على الباب يوماً
أعاقر حظى
وكنت كما تعلمون أبيا يرد العطايا
ويزداد حاجبكم فى ازدرائى
وأجتر شعرى
وشعرى تنام على ساعديه رؤايا
فكل الصباحات حطت عليه
دموعاً ،
وزهراً يغطى دماء خطايا

أقيموا على الشعر حدا
فليست تخاف لحونى المنايا
فهل تستقيل العصافير من حلمها ذات يوم؟!
وكيف تموت من العشق يوماً
قلوب الصبايا ؟!

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية



نحن والهلال

هذه القصيدة جاءت من الكاتب عبدالرحمن شاكر تحية للهلال بمناسبة مرور ١١٠ سنوات على صدوره .

شعر : عبدالرحمن شاكر

ذا الهلال لنا ، قد صار موئلنا ... في ظلمة الدهر ، أفكارا وتبيانا
قد كان رمزا لعثمان ودولته ... وصار نبراس ما قد فات عثمانا
تربعت أبرع الأبحاث ساحته ... كذاك هيأ للأشعار ديوانا
أما الفنون فقد أهدى روائعها ... بالقول والرسم والأوراق أفنانا
تكاد تلمس أزهارا منورة ... فيها وتنشق عطر الزهر ألوانا
أما الحوادث فالمقصود عبرتها ... تبقى إذا ما طواها الدهر نسيانا
لاشيء يعدل عند العرب حكمته ... خلا القداسة إنجيلا وقرآنا
ثقافة العرب صار عنده نسبا ... موحدا البلاد العرب أوطانا
يحس من صافحت عيناه صفحته ... كم صار أكثر من ذي قبل إنسانا
«شوقي» دعا لاكتمال كان بالغه ... ألا يعانى طوال الدهر نقصانا
واليوم عشر مضت ، من قبلها مائة ... من السنين ، فما أقوى ولاهانا
ولم تنل منه ، أو من عز موقعه ... وقائع زلزلت من قبل أركانا
ألف وثلث من الأعداء أترعبنا ... دفق الهلال ، ولكن ظل ظمآنا
يطالب الناس أن يأتوا لشرعته ... كي يستزيدوا من العلم الذى كانا
أو ما يكون ، فنحن اليوم في زمن ... الساعة الآن تسوى فيه أزمانا
تهانئي «مصطفى» والصحب : من سهروا ... بهمة بهرت أحلام «زيدانا» !

الاحتفال بثورة يوليو

كعهدها كانت الهلال سباقة بالاحتفال بالذكرى الخمسين لثورة يوليو ١٩٥٢ . ورأينا عدد يوليو . الذي يعد بحق وثيقة للاحتفاء بهذه المناسبة الغالية على كل مصري وعربي .. لكنني أتساءل لم هذا التناقض في تناول الثورة ومكانتها في تاريخ مصر المعاصر .

وهذا يدفعني إلى القول بأن في ذلك تشكيك لأجيال المستقبل . فبعض الأقلام تتعامل مع الثورة باعتبارها كل الخير . والبعض الآخر يرى عكس ذلك تماما . ونفس الشيء يحدث مع نصر أكتوبر العظيم هذا التناقض يجعلني أتساءل .. كيف نثق إذن في روايات المؤرخين لأحداث العصور القديمة ؟

أحمد السيد حامد السرى - دمياط - عزبة البرج

الهلال : لقد حرصنا على أن تكون هناك كل الآراء . وثورة يوليو لها مكانتها في التاريخ ، كما أن نصر أكتوبر بحق هو عودة الكرامة ورد اعتبار للمقاتل المصري.

ولابد من خروج الوثائق الخاصة بثورة يوليو وأن يلتزم المؤرخون بالحيدة وهم يكتبون تاريخ بلادهم .

مفتاح الحياة

رف القدماء حقيقة الخلود .

عند الحضارة المصرية القديمة أقدم الحضارات التى تركت أثرا لنا وجد مفتاح الحياة فى نقوشهم على الأحجار وفى البرديات وكان رمزا لخلود الأحياء فى حياة أخرى تالية للحياة الدنيا المؤقتة .

الوجود هو مفهوم الحياة الدنيا . ولولا هذا الوجود ما كان هناك خلود .. فالدنيا هى البداية وهى المعبر ، بل هى الحضانة التى تتربى فيها النفس البشرية كى تثرى الشخصية الإنسانية بما يؤهلها للحياة الأخرى الخالدة .

الكون ابتكار وصنعة الخالق العظيم .

الكون كروى ونتاج الانفجار الكبير .

هو مادة وحركة . المادة هى المكان والحركة هى الزمان .

هو شئ موجود يحاط باللاشئ واللاوجود

هذا الكون عامر بخلق الله وقد توجه بخلق الإنسان .

التطوير هو نظامه وهو القانون الذى يحكمه ويحكم مايجرى فيه إلى هدف يرمى إليه الخالق .

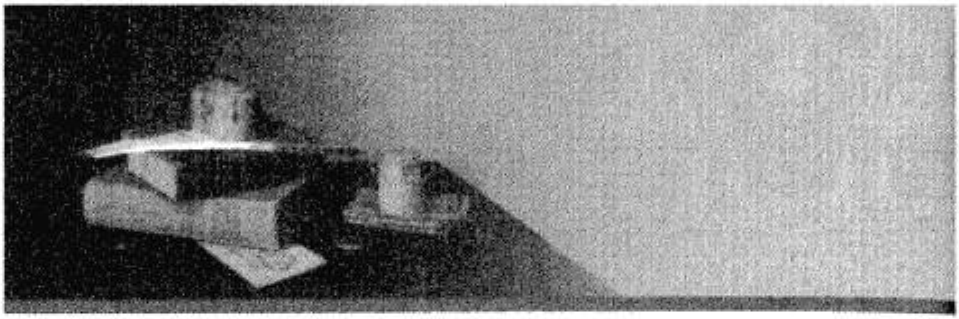
ولأن الإنسان خليفة الله فى الأرض ، ولأنه خلق لحمل الرسالة كانت إرادة الله أن يتخذ منه وسيلته لتحقيق مايرمى إليه من هدف رائع جميل للوصول إلى قمة الابتكار والجمال والروعة ورغم صغر حجم الفرد الإنسانى نسبة للكون . وقصر مدة وجوده فى الحياة الدنيا المحدودة نسبيا ، إلا أنه فى الواقع أكبر من حجمه وأكبر من قدراته التى نراها محدودة بكثير .

وأن ما يؤمل منه أعظم من الخيال المتصور . وأن الله قد أعده لمهام أعظم فى لحياة الآخره لتحقيق مالا عين رأت . ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

مهندس رستم غالب
صديق الهلال

ماهذا الإهمال فى مدارسنا وجامعاتنا ؟!

لايمل الناس من الحديث حول تدهور العملية التعليمية فى مصر ، سواء فى المدارس أو الجامعات .. وعلى الرغم من دق نواقيس الخطر ، فإن الجميع أصبح لايسمع ولا يعى كل مايكتب وما يقال .. فالإهمال أصبح هو السمة الأساسية فى مدارسنا الحكومية وحتى العدد الأكبر من المدارس الخاصة ، فناء المدرسة لم يعد هو (الملعب) الذى يخرج لنا الأبطال الرياضيين ، سادته الفوضى وامتلأ بالأعداد الغفيرة من التلاميذ ، خاصة غير الملتزمين .. ألفاظ خارجه واكتساب عادات غريبة من بينها التدخين



وإدارات المدارس في واد والتلاميذ يمرحون ويفعلون مايريدون دون رقابة ، وضاعت هيبة زمان، ولم نعد تذكر هذا البيت الشهير

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

ونسينا تلك النصائح التي كانت تكتب علي كراسات المدارس الحكومية في تعلم النظافة والالتزام بالآداب العامة وطاعة الكبار .

كما لم تعد هناك تلك الاهتمامات المطلوبة بتعلم الخط العربي ، وتنمية هواية الرسم والتصوير ، والاشتراك في فرق الكشافة و«القسم المخصوص» والذهاب إلى حصة «الفلاحة» والعناية بالبساتين والزهور .

وهذا الإهمال استشرى بدوره في الجامعات ، ويعيش الطلاب والطالبات داخل جدران الجامعات بلا حساب ، ولا رقابة ..

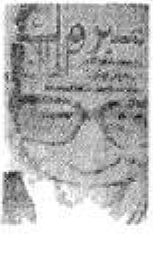
والكل هنا وهناك من مسئولين وإداريين وعلي أعلى المستويات يعيش حالة من اللامبالاة .. لماذا ؟

د. جمال العطار

الأسكندرية - كامب شيزار

عيد ميلاد نجيب محفوظ





لاحظنا أن الهلال في عدده الماضي لم يشر إلى وصول أديبنا العالمي الكبير نجيب محفوظ عامه الثاني والتسعين ، وما يعنيني هنا أن مجلة الهلال هي مجلة العرب الثقافية والرائدة ، فكيف تمر هذه المناسبة دون تقديم التحية لمحفوظ .

ابراهيم مجاهد

الزيتون - القاهرة

الهلال: في مسيرة الهلال منذ بدايات نجيب محفوظ ونحن نحتفي بكل ما يكتبه سواء ما ينشر منه أو من خلال الدراسات التي يكتبها كبار الكتاب أو الاستشهادات بأدد هذا القاص العالمي .

ولقد أصدرنا عدداً خاص عن نجيب محفوظ حيث تناوله كتاب كبار ومبدعون مصريون وعرب، فضلاً عن أجزاء خاصة نشرت في اعداد متفرقة بالهلال ومن بينها جزء خاص عنه بعد حصولة علي جائزة نوبل عام ١٩٨٨ .

تحية للكاتب الكبير في عيد ميلاده ونتمني أن يمتعه الله بالصحة ويمد في عمره.

تباً للحساسية

لحساس ضعيف جداً ونيه زفير الجلاس
تؤذيه وساوس ليس لها معنى في أعماق الراس
يتأود في الليل، يعانى أرقاً أعيا كل نطاسي (١)
كلمات الناس سيوف في قلب الإنسان الحساس
ما أقسى كلمات طارت من ثغر حبيب متناسي
نسى الأشواق وألقاها في رمس بين الأرماس (٢)
ألقى مكتوياً، كآبته بحر .. بحر من إحساس
السعد بعيد جداً عن عصبي في دنيا الناس
يتهاوى في الخمر ليسلو حباً سحرى الأنفاس
يكتب شعراً يحرق شمساً ويعانق قيثار الياس
لكن اللحن يذكره بالفقر، جيوم الإفلاس
يكره كل الناس ويحيا بين الوحدة والوسواس
الطب يقول بأن به مرضاً نفسياً في الناس
لن يشفى حتى يتعاطى أدوية أقسى من ماس
ويزور طبيباً نفسياً فيراه خبيثاً كسياسي
ويقول: طبيبى مختل مجنون يشكو من كاسي
مثلى يحتاج نطاسياً ليحلله .. أين الأسى؟ (٣)

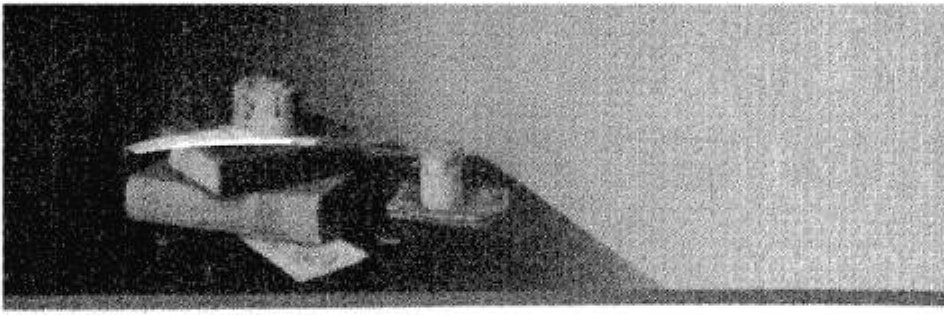
١) النطاسي: الطبيب العبقرى (٢) الأرماس: القبور
(٣) الأسى الطبيب

د/ هيثم الحويج العمر - دمشق

«شكشكة» شعرية

جلة شعرية غير دورية بالفصحي والعامية يصدرها الشاعر سمير عبدالباقى، سعر النسخة «ربع جنيه ومضاعفاته» وتضم فى عددها الثامن مجموعة من قصائد الشاعر، من بينها هذه القصيدة التى نجتزئ بعض أبياتها:

الشعرا فى مذهبى أشجار بعدد الشجر
فيهم الكبير والصغير المستحيل لأنحاء
واللى حداه كبرياء فيهم



وصاحب داء
والفارغ طويل الساق
جنب القصير الحشيشه
ومهدل الغصن فيهم والعديم لأوراق
حيث الكثيف الورق والدايم الخضرة
فيهم عديم الخشب يزحف على طينه
ومن ينام باللمس
ومن يخاف الشمس
ومن يدور فى فلكها بحكم تكوينه
وفيهم النادر اللى بلا مواعيد غصون طارحه
ناعم .. تطبطب عليه يعطيك على استحياء
بلسم يداوى برقته لسته الجارحة

عـــــود إليك ومن لى ســـــواكــــــا
أعــــود يبلل عـــمــــرى نداكـــــا
أعـــــود إليك أجب من دعــــاكـــــا
وهبنى شـــهــــــادة نصـــــر هناكـــــا
###
أعـــــــود وكم تـهت فــــــوق الدروب
أجـــــرجــــر ذنبى وكلى عـيــــون
فــــــأنت الأمـــــــان لكل القلوب
وأنت السلام يزيل الكروب أعود لتغفر كل الذنوب !!
أعود ..
لتغفر .. كل الذنوب

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية

أنت والهلال

اشتراك الهلال

أرغب في الاشتراك الشهري بمجلة الهلال ، تلك المجلة العريقة التي يعتز بها كل قارىء في الوطن العربي ، وقد حرصت منذ عام ١٩٧٦ باقتناء كل أعدادها .. وحرصا مني على وصولها بانتظام فقد قررت الاشتراك ابتداء من عدد يناير ٢٠٠٣ ولمدة عام كامل ، فما هي الوسيلة لضمان وصول الاشتراك وأيضا حصولي على المجلة .

عبدالكريم حسن الحليلي
السعودية - المنطقة الشرقية

الهلال : نعتز بهذه الثقة الغالية ، ويمكن ارسال حوالة بالاشتراك السنوى إلى قسم الاشتراكات بدار الهلال وبالتالى تصلكم الأعداد تباعا .

إذا أردت إهداء الهلال إلى صديق أو أضفته إلى مكتبتك فإنه يمكنك الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك فى مجلة الهلال؛ بإرسال هذا **الكوبون مرفقا به حواله بريديه غير حكوميه داخل (ج.م.ع.) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك** لأمر مؤسسة دار الهلال **ويرسل بخطاب مسجل لإدارة الاشتراكات .**

الاسـم : ....
العنـوان : ....
مدة الاشتراك : .... التليفون ....

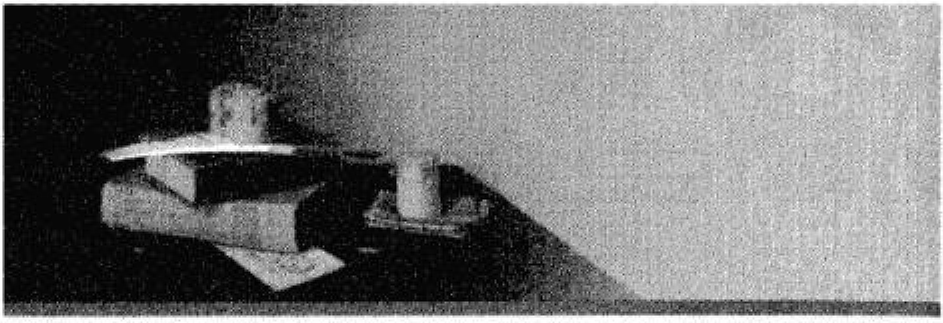
قيمة الاشتراك بعد خصم ١٠ ٪	داخل ج.م.ع جنيه	البلاد العربية دولار	أسيا- أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند - كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٤٣	٢٢	٣١	٣١	٤٠
اشتراك ٦ شهور	٢٢	١١	١٦	١٦	٢٠

بريد القراء

●● مروان محمود - منيا القمح - شرقية : لماذا توقف نشر مذكرات سعد زغلول ، وكم من الوقت يستغرق نشرها .

الهلال : لابد أن يستمر هذا المشروع، فزعيم مثل سعد كان له دور مهم في تاريخ الحركة السياسية المصرية .

●● أحمد داود علي - بنها : أتوقف طويلا أمام مقالات الدكتور محمد رجب البيومي ، خاصة مقاله الأخير عن الطفل الضائع ، وهذه المشكلة الخطيرة .. وهل يعرف القراء أنه يوجد ٢ مليون طفل



يعيشون في القاهرة بلا مأوى ؟!

●● إبراهيم العبابده : رفح - قرأت مقالا فى عدد ديسمبر بعنوان «الدين والسياسة فى الولايات المتحدة» للدكتورة منار الشوربجى وتعجبت أنها تعتبر أن دور الولايات المتحدة الأمريكية هو رسالة دينية وأخلاقية .. واسأل الكاتبة وما رأيها فى التأييد المطلق لإسرائيل ، ومايحدث منها تجاه المعتقلين من الفلسطينيين فى سجونها بلا محاكمة وفى مقدمتهم مصطفى البرغوثى ، فضلا عن سياسات القتل وهدم البيوت والمساجد والكنائس .

وما رأى أمريكا فى معتقل جوانتانامو الذى يعيش فيه المتهمون ، أو المعتقلون بلا محاكمة حتى الآن

● طارق حسنى على - مصر الجديدة - نرحب بالأبواب الجديدة التى أضيفت فى الأعداد الأخيرة خاصة الباب الجديد الذى يتناول برامج التليفزيون والفضائيات ، كما نرحب بالكاتبة مرفت رجب ذات الخبرة الطويلة فى التليفزيون .

● إبراهيم المراكبى - المنصورة : أعجبتنى بشدة غلاف العدد الماضى وانبهرت جدا وأنا أرى منيرة المهدية بهذا الإخراج الجميل . فمزيدا من التفوق والتقدم للهلال .

● عاصم البرقوقى - الأسكندرية وصديق الهلال الدائم : لماذا لاتجد الهلال عند الباعة فى الأسكندرية ، فلقد ذهبت للبحث عن الهلال الحبيب فى بداية نوفمبر ولم أجده ، أرجو أن تزاد الكمية المعروضة للبيع حتى تتمكن من الحصول على الأعداد .

● الهلال : طلبنا من إدارة التوزيع مراعاة هذا الطلب العزيز ونتمنى أن تكون المجلة بين أيدى قرائها بشكل دائم .

● على سليم - بورسعيد : وصلت رسالتك «هل أخطف العنوان - إسمها وطنية .. وأقول لك يا أخى لماذا هذا التشاؤم ، مطلوب من كل مصرى أن يبدأ بنفسه .. يعمل ويجد ويكافح ويعطى لوطنه لكن لو أصبحنا نعيش بهذا المفهوم الذى تقصده «فعلى الدنيا السلام !

عيد ميلاد نجيب

ولا حظنا أن الهلال في عدده الماضي لم يشر إلي وصول أديبنا العالمى الكبير نجيب محفوظ عامة الثانى والتسعين، وما يعنينى هنا أن مجلة الهلال هى مجلة العرب الثقافة والرائدة فكيف تم هذه المناسبة المهمة دون تقديم التحية المحفوظ

ابراهيم مجاهد

الزيتون - القاهرة

الهلال . فى مسيرة الهلال منذ بداياتة نجيب ما ينشر منه أو من خلال الدراسات سواء يكتبها كبار الكتاب، أو الاستشهادات بأدب هذا القاضي العالمى

ولقد أصدرنا عددا خاصا عن نجيب محفوظ حيث عن أجزاء خاصة نشرت في اعداد متفرقة بالهلال ومن بينها جزء خاص عنه بعد حصوله على نوبل ١٩٨٨

تحية للكاتب الكبير في عيد ميلاده ونتمنى أن يمتعه الله بالصحة ويمد فى عمره .

الكلمة الأخيرة



فارس بلا جواد

بقلم: صافي ناز كاظم

مزاح الجدية وجدية المزاح. قلت هذه الجملة بعد انتهائى من مشاهدة مسلسل «فارس بلا جواد» ، الذى قدمه الفنان محمد صبحى كتابة وتمثيلا، مع المخرج أحمد بدر الدين وكتيبة هائلة من أفذاذ الفنانين على رأسهم جميل راتب وسيمون وأيمن عزب، إن هذا العمل الفنى الذى استغرق إعداده العملى عامين ، ظل هاجسا يلاحق محمد صبحى طويلا، منذ قدم عرضه المسرحى البديع «ماما أمريكا» منذ سنوات. إن «فن المزاح» هو ذلك الفن الذى يشق طريقه فى كتلة الهموم ليتمكن من حملها وتقديمها من غير وطأة الآلام الخانقة. ولقد استطاع محمد صبحى فى مسلسله أن يجسد مدلولات «مقاومة الاحتلال» بزمن هو كل «الأزمنة» و«وحشية محتل لص» هو كل «القوى» الباغية ماضيا وحاضرا ومستقبلا. فشخصية «حافظ نجيب» فى هذا المسلسل لم تكن أكثر من إطار تم اقتباسه من شخص حقيقى كان يجيد التخفى والمراوغة ، ليعنى أن تلجأ «مقاومة الباطل» إلى الكياسة والفطنة والتخفى والراوغة، حين تكون أسلحة العدو الماكر الشرير هى: الخداع والكذب والتستر وراء نبل الشعارات للوصول إلى الهيمنة المغتصبة للأوطان والحقوق والحريات، والاختباء وراء لافتات «محاربة الإرهاب» لممارسة أبشع أشكال الإرهاب الذى يسعى لقمع الكرامة الإنسانية بالإذلال وإشاعة اليأس والتخاذل، وتغيير المسميات ليصبح كل اسم نقيض دلالته الحقيقية، فيصير المجاهد إرهابيا، ويصبح الإرهابى رجل سلام. لم يكن من الممكن تقديم كل هذه المعانى فى مسلسل «فارس بلا جواد» إلا عبر ما يبدو مزاحا وفكاهة ولعبا وطرافة. لم يكن المسلسل مجرد نقل لصفحات من «تاريخ» عهد الاحتلال الإنجليزى لمصر، ولم يكن فى أى لحظة رصدا وتصويرا لشخصية ذاع صيتها فى مطلع القرن العشرين لمغامر اسمه «حافظ نجيب»، لكنه بكل إيحاءاته كان عينا على ما يجرى حولنا وأمامنا ونتابعه يوميا ولحظيا فى نشرات الأخبار المفجعة. ■


أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة
رفاعة الطهطاوي
سيكولوجية الإرادة
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢


الهلال
الصحراء.. موطن الأساطير
عائلات قدمت أبناءها للفكر والثقافة
الأمريكيون يكرهون السياسة
هل دالت دولة الكتاب ؟

لوحة فنان



لوحـــة: لاعبة القيشارة - للفنان: سانتير - مقتنيات متحف الجزيرة

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ - ٣٦٢٥٤٨٦ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥. دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

٨ – هل دالت دولة الكتاب ؟..... **مصطفى نبيل**

١٦ – مستقبل الكتب في القرن الجديد .... **د. أحمد محمد صالح**

٢٦ – الثقافة فى سباق العولمة .... **د. حامد عمار**

٣٤ – الكتابة جنون.. القراءة إدمان .... **محمود قاسم**

٤٦ – مضحكات ومبكيات .... **د. محمد رجب البيومي**

٥٤ – العقلانية وتشويه الرموز الوطنية ... «دائرة حوار» .... **د. عوض الغباري**

٦٤ – كولوجورف واحد من أعظم خمسة علماء .... **د. عبدالعظيم أنيس**

٦٨ – جوبيا وحقوق الإنسان .... **د. محمد المهدي**

٨٢ – الهلال يوليو ١٩٤٠ قراءة فى عدد الحرب .. .. **صافي ناز كاظم**

٩٠ – الأمريكيون يكرهون السياسة .... **محمود أحمد**

١٠٠ – رسالة أمريكا (العرب واليهود فى أمريكا) .... **صلاح المراكبى**

١٠٥ – العولمة في رواية « الفنطاس » .... **د. مصطفى عبد الغني**



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 [illegible] ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@yahoo.com
العام الحادي عشر بعد المائة
ذو الحجة ١٤٢٢ هـ - فبراير ٢٠٠٢م

١١٠ - الصحراء الشرقية موطن الأساطير والجمال .... أماني عبدالحميد
١٢٢ - سيرة ذاتية تروي مأساة العراق .... د. نيفين مسعد
١٣٠ - العمارة في الرواية المصرية .... إبراهيم فتحي
١٣٧ - قهوة في شارع ماركس «قصة قصيرة» .... أحمد الخميسي
١٤١ - زفاف يوناني .... مصطفى درويش
١٤٦ - المتفرجة (الشمس) .... مرفت رجب
١٥٤ - جولة المعارض .... عزالدين نجيب
١٦٢ - قصة مجلة الكاتب كاملة ...... أحمد عباس صالح
١٧٠ - شخصيات لا تنسى ...... وديع فلسطين
١٧٦ - ذكريات شاهد عيان .... حسن سليمان
١٨٢ - أشهر المعارك الفنية بين زكريا أحمد وسيد درويش .... د. نبيل حنفي محمود
١٩٢ - رقصة النار «قصيدة» ... د. عبداللطيف عبدالحليم

عاشلات ثقافية

١٩٣ - اعترافات آخر العنقود .... د. جلال أمين
٢٠٠ - أثر رفاعة الطهطاوي في أسرته .... محمد رفاعة الطهطاوي
٢٠٦ - لم يتحقق هدفي في اليونسكو.. ورب خسارة نافعة .... د. اسماعيل سراج الدين

الأبواب الثابتة

- عزيزي القارئ ..٦
- شخصية العدد: د. شوقي ضيف: د. محمود علي مكي ٣٨
- أقوال معاصرة ٦٣
- من ذخائر الكتب العربية (كتاب الأم) د. محمد بلتاجي ٧٦
- أنت والهلال ... عاطف مصطفى ٢١٨
- الكلمة الأخيرة د. الطاهر أحمد مكي ٢٢٦



عزيزى القارئ

عالم الحرية يتهاوى

تهاوى حق الإنسان فى أن لا يقتحم أحد خصوصيته، وضاعت خصوصية الإنسان فى عالم مراقب، يحسب على المرء سكناته وحركاته، وأصبحت حياة المواطن الأمريكى اليوم كتابا مفتوحا يطل عليه من يشاء ويكشف تفاصيله من يريد.

وتحولت ظاهرة كشف الخصوصية، التى كانت فى الماضى مشكلة تقتصر على بعض المهووسين والمرضى التى تشغلهم خصوصية غيرهم، إلى ظاهرة باتت تهدد المجتمعات الحرة والليبرالية، رغم أن احترام الخصوصيةحق إنسانى عام، يرتبط بحياة المواطن العادى اليومية.

واحترام خصوصية المرء أصل الحقوق المدنية، وهى أحد المكونات التى لا تنفصل عن الحرية الشخصية، وجزء من حق الإنسان أن يعيش، كما أن الخصوصية قرينة حرية التعبير، فهما حقان متساويان ومتوافقان، وهى من أهم الركائز الأساسية للمجتمع الحر.

فأفقر إنسان يستطيع داخل كوخه المتهاوى الذى يدخله المطر والرياح، أن يفعل داخل كوخه ما يشاء، وأن يتحدى السلطة كما يريد. ولا يستطيع رجال السلطة أن يتخطوا عتبة كوخه المتهالك.

وعاد من جديد التوازن بين استقلال الفرد وسلطة الدولة لكي يختل.

● وسقطت ادعاءات فاكوياما اليابانى الأصل والأمريكى الجنسية الذى يعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية، عندما ألف كتابه «نهاية التاريخ» والذى قرر بغرور وغطرسة بالغة، انتصار الحرية والديمقراطية وهى نهاية حلقات الصراع فى التاريخ.

ولكن سرعان ما تبين غياب الحرية فى إحدى قلاع الحرية، وتناسى أجهزة الدولة القمعية التى تعمل فى الظلام، والتى تحصى على كل فرد همساته وتحركاته. مستخدمة التقدم العلمى المذهل، وخاصة التقدم الالكترونى والرقمى، فى فرض السيطرة الكاملة على المواطنين وعدم الاكتراث بخصوصيتهم بحجة مقاومة الإرهاب.

ووصلت الحرية إلى ذروة مأزقها فى الولايات المتحدة، وأخذ المعلقون فى الصحف الأمريكية يتساءلون، لقد فقدنا الشعور بالأمن، مرة بسبب الإرهاب ومرة بسبب مقاومة الإرهاب!

وتحقق ما سبق وحذر منه الكاتب البريطانى هكسلى. بقوله : فى ظل التقدم العلمى المذهل، لن تستطيع قوة شعبية أن تقاوم أو تختلف مع السلطة التى تملك أدوات العلم الحديث.

وطاشت تنبؤات جورج أورويلز فى روايته ١٩٨٤، أن النظم الشمولية هى وحدها التى ستختفى فيها الحرية ، وتنتهك فيها الخصوصية، وانتهكت الخصوصية الفردية فى قلعة الليبرالية وما تمثله من خرق لحقوق الإنسان وحقوق الدول والجماعات.

● وأصبحت حياة الأفراد فى أمريكا ليس لها حصانه وأخذوا يقتحمون البيوت وغرف النوم، وأماكن خلع الملابس ولا يشعر بهم احد عن طريق الدوائر التليفزيونية المغلقة وعن طريق بطاقة الائتمان يظهر ما الذى اشتريته ومتى. وعن طريق الكاميرات يمكن التعرف على أرقام لوحات السيارات، ووضعت الشرطة الأمريكية نظاما للتنصت على الهواتف، وعلى الانترنت والفاكس ويحدد الهاتف المحمول مكان صاحبه، ويتضمن هذا النظام - كما تنشر الصحف الأمريكية - ليس فقط الأسماء والعناوين وأرقام تليفونات الاشخاص المتابعين، ومن يتعاملون معهم، بل وعناوين البريد الالكترونى ، وأرقام البطاقات الائتمانية وكلمات المرور فى الانترنت.

ويتبع نظام التعرف على المتابعين الكترونيا من خلال بصمة الإصبع أو العين، ومسح الكف الكترونيا دون ان يدرى المتابع وأصبح التليفون المحمول جهاز تتبع جغرافيا .

ويقول دافيد يورك تحت عنوان التليفزيون الجاسوس انه يمكن عمل ملف «حالة نفسية» لكل مشاهد من خلال شركات آى . تى فى. فسيقوم التليفزيون الرقمى بمراقبة رد فعل المشاهد لما يقدمه من مواد وبرامج.

ومن ناحية اخرى يسمح لصاحب العمل بوضع العاملين تحت الرقابة الدائمة خلال عيون الكترونية لا ترى. بل ويحصلون على عينات بول منهم، للتأكد من عدم تعاطيهم المخدرات!

وتفاقمت الظاهرة بعد ١١ سبتمبر رغم ان المواطنين فى الولايات المتحدة، من أكثر شعوب العالم حرصا عى الخصوصية، فمثلا فى بعض الولايات مثل نيفادا نجد نصف اصحاب التليفونات لا يسجلون ارقامهم فى الدليل، وعادة لا تجد رقم الهاتف على البطاقة الشخصية.

وها هى تنتهك الخصوصية بالكامل فى أمريكا ويعود الصراع بين المنادين بالحرية وخصومها.

● وتتنصت وكالة الأمن القومى الأمريكى على الاتصالات الحديثة فى العالم كله، والتى تجتاز الحدود السياسية ، وتصل الى التنصت على اى مواطن فى أى مكان، وتعتمد على أجهزة المخابرات الأخرى، وتقوم بالتنصت على الشخصيات الأمريكية نيابة عن وكالة الأمن القومى لتتخلص من أية مساءلة داخل الولايات المتحدة.

وتعتمد هذه الوكالة على التكنولوجيا رفيعة المستوى فى تحليل البيانات ومراقبة وسائل الاتصال، كما انها تقوم بتحليل البيانات ومراقبة وسائل الاتصال، كما تقوم بتحليل اللغات والبحوث الانثروبولوجية وتقوم بحل اى شفرة مهما تعقدت.

ويبدأ احد معالم الحرية يتهاوى : ركيزة وراء أخرى، اختراق الخصوصية من اجل «النظام والقانون»، والاعتقال دون محاكم، واشاعة مناخ العنصرية . والتعالى على الشعوب الأخرى.

ويستمر الصراع بين الواقع والأفكار ، بين الطبائع والشرائع.■

المحـــــرر

أمة فى خطر

هل دالت دولة الكتاب؟!

بقلم
مصطفى نبيل

حان الوقت لتناول قضية الكتاب، القضية التى ترتبط إرتباطا وثيقا بالحاضر والمستقبل، والمحور الرئيسى فى الدورة الخامسة والثلاثين لمعرض القاهرة الدولى للكتاب؛ سواء تأليفا أو قراءة أو ترجمة أو تسويقا.

هذا بعد أن أخذت مكانته تتراجع، وانزوى فى مكان قصى، وقلت قراءته وتوزيعه.. فهل قضى على عالم الكتب بالزوال؟!

إن الفارق الأهم بين الدول المتقدمة وتلك المتخلفة، هو الكتابة والقراءة.

ففى مصر يكاد يكون من النادر رؤية راكب يقرأ كتابا فى مترو الأنفاق أو خلال الانتظار فى عيادة طبيب أو فى مصلحة [illegible].

ويكاد يكون من النادر أيضا وجود من يمتلك مكتبة فى بيته، مع أن المعرفة قوة، يمتلكها المرء إذا عرف ذاته، ويزداد قوة إن أدرك ما يواجهه من تحديات وعبر الطريق من أجل الدفاع الحقيقى عن الثقافة التى تكون بالتفاعل والنقد، وبالتخلص من الانغلاق والعزلة..

وفى الوقت الذى يظهر فيه التحدى السافر للكتاب الورقى ويتدفق سيل المعلومات من خلال الكمبيوتر والانترنت، يتناقص القراء فى البلاد العربية ويزيدون فى الدول الغربية.

وفى الوقت الذى يزيد فيه عدد السكان ويزيد فيه [illegible] فى المدارس والجامعات، يتناقص توزيع الكتب.

وحتى الأدوات التى استحدثت مؤخرا كالكمبيوتر والانترنت والكتاب الالكترونى هى فى الواقع أدوات مساعدة للقراءة وتقوم عليها..

وللقراءة أعداء يحاربونها بكل بأس شديد، يسعون الى الاكتفاء بالمعلومة بدلا من الفكرة، يتسامحون مع المعلومات ويرون فى الأفكار أخطارا محدقة، ويطلبون أن تحل المعلومات محل الأفكار، ويرى البعض كما صرح يوما [illegible]، أن حكم شعب جاهل أيسر من حكم شعب متعلم، [illegible] أحد المسافرين فى إحدى محافظات الصعيد.

لمازالت القراءة عملية مركبة يتفاعل فيها الاستعداد مع الفكر، لذا ليس غريبا أن تتوالى اللقطات، ويطلبها [illegible]





للملخصات، حتى يستطيع القارىء أن يقرأ فى خمسين سطرا على الكمبيوتر، ما كان يقرؤه فى ثلاثمائة صفحة من صفحات الكتاب.

وساهم صخب المدن الحديثة.. وأبعدت، النوادى الرياضية والاجتماعية القراء عن الكتاب، كما استغرقهم التليفزيون، ولم يعد هناك وقت للتأمل، ولا أن يقود الفضول للقراءة إلى عوالم ساحرة ومن المؤكد أن أحد أبعاد أزمة نقص القراءة فى أحد جوانبها غياب الكتاب الجيد، فمعظم الكتب التى تصدر هذه الأيام، أما اجترار لكلام سابق، أو عبارة عن تجميع مقالات متفرقة، أو محاضرات سبق إلقاؤها، والقليل النادر هو الذى عكف عليه صاحبه بجمع مادته، ولديه رسالة يسعى إلى تقديمها للقارىء، ومن ظواهر الخواء الثقافى أن البعض يكتبون المقالات فى الصحف، ثم يصدرونها فى كتب، ولا يقرأ لهم أحد، ولا يوجد نقد يلاحقهم، ولا معايير تردعهم، ويستمرون فى تسويد الصفحات إما استغلالا لنفوذهم أو فلوسهم!

لذا لا تعجب كثيرا عندما ترى القارىء يحجم عن قراءة بعض الكتب أو المجلات المتخصصة، لأنه فقد الثقة بعد سيل الكتب التى لانفع من ورائها مثل الوجبات السريعة وبعد امتلاء الساحة بالصخب والاصوات العالية!

غياب الكتب

والمؤسف حقا أنه حتى إذا أحسن إنتاج الكتب، وتخلينا عن عشوائية النشر، فلا نحسن فن تسويق الكتاب، وغياب مؤسسات قادرة على توزيع الكتب على أسس علمية، وبمبادرات وأساليب مبتكرة، مما أدى إلى اختفاء الكتاب المصرى من معظم الأسواق العربية، اما بسبب القيود التى تفرضها الحكومات على تنقل الكتاب، وأما بسبب إرتفاع أسعار نقله، وغياب الخيال الذى يبحث عنه كل من يتحدث اللغة العربية، وأن يصله الكتاب فى أقصى الأرض بسهولة ويسر.

وغنى عن القول .. أن الكتاب هو أساس الثقافة، وهو المحرك للارتقاء على المستوى الشخصى، والمستوى العام، ويزيد معرفة القارىء بالعصر الذى يعيش فيه، وهو خزانة الذاكرة الوفية، والحافظ للهوية.. وقدرة المواطن على القراءة والكتابة هى ضمان تحقيق النهضة كما أن القراءة هى الأداة من أجل التعليم الذاتى.

ويلاحظ أنه مازالت كل من العراق والسودان والمغرب من أكثر البلدان العربية قراءة للكتب مقارنة بعدد السكان فى كل منها. وبالتالى فإن ظاهرة نقص القراءة تدعو إلى العمل الجاد لمعالجتها، فهى التى ستحرم كل من يتابع أو يسعى إلى تطور عمله من هذه الإمكانية. فالمرء الذى يعيش على فنه أو مهنته يحتاج دائما إلى تجديد معارفه. ويستفيد من التغيرات التى وقعت فى مهنته كما أن غياب القراءة معناه الحرمان من التعرف على العصر الذى نعيش فيه.

إذن.. فأزمة القراءة، وقلة توزيع الكتب لها أسباب عديدة، ويبقى أن هناك كتبا تصدر وتلقى رواجا كبيرا، وهى مثل الدواء يبحث عنها القارئ الذى يطلبها حتى يعثر عليها و.. «تسمع من كان به صمم» وهناك كتب تطبع اكثر من طبعة، وكتب تنفد بعد وقت قليل من طرحها فى السوق، وعلى سبيل المثال كتاب «شخصية مصر» للدكتور جمال حمدان، وكتاب «النيل» للدكتور رشدى سعيد، وكتاب «فى الطريق إلى ثقافتنا» للأستاذ محمود شاكر، وكتاب «ماذا حدث للمصريين» للدكتور جلال امين، وكتاب «التاريخ الذى احمله على ظهرى» للاستاذ سيد عويس، و«حواراتى مع السادات» للاستاذ احمد بهاء الدين و« فاروق: بداية ونهاية» للاستاذ محمد عودة و«هجرة اليهود السوفييت» للدكتور عبدالوهاب المسيرى وغيرها من الكتب التى تمكنت من تخطى كل عقبات التوزيع ونقص الاعلان.

كما تروج الكتب التى تلقى الضوء على حدث معاصر، وعقب هزيمة ١٩٦٧ راجت كتب التاريخ الحديث وكتب تعالج الشخصية المصريةهذا غير الروايات التى تنفد ساعة صدورها.

تقول الأرقام

لا نجد ما هو أكثر دلالة من الأرقام، فهى كاشفة وتفصح عن الكثير من ابعاد أزمة الكتاب.

والمدعاة للتساؤل، أن معرض الكتاب لم يعلن يوما أية أرقام حول توزيع الكتب ، ولا حتى خلال انعقاده، ولا اى فرع من فروع المعرفة أكثر توزيعا، رغم أن ذلك معمول به فى كل معارض الكتب.

وضرورة ذلك لمعرفة أسباب غياب القارئ، وأسباب قلة القراءة وطرق علاجها.

أما الأرقام التى أعلنتها دار الكتب فتقول إن المطبوع من الكتب يتناقص، فلم يصدر أكثر من اثنى عشر الفا ومائة وستة وتسعين كتابا خلال عام ٢٠٠٢، وهذا الرقم لسكان يبلغ تعدادهم ٦٨ مليون نسمة فتكون النسبةبمعدل وكتاب واحد لكل الف مواطن، وهى نسبة جد ضئيلة، وهذه الأرقام تمثل ٣٧٪ من إنتاج الكتب فى البلدان العربية.

ويقل هذا الرقم عن العام السابق بمقدار الفين وثلاثمائة وتسعة وسبعون كتابا.

ولا تظهر هذه الأرقام نوعيات الكتب، وما يصدر لأول مرة، وما يعاد طبعه، كما لا تكشف عن عدد الكتب المدرسية او الجامعية!!

وأرقام ما يصدر من كتب كانت تعلنها اليونسكو او مكتبة الكونجرس، وتوقفت اليونسكو عن اعلان ارقام الكتب بعد أن أكدت ندرة الكتب العلمية، وزيادة كتب الانسانيات اى الموضوعات الاجتماعية والأدب.

واستمرت ظاهرة تراجع عدد الكتب رغم تزايد السكان، وزيادة الكتب التى تتناول الماضى عن الكتب التى تتناول الحاضر والمستقبل، وابرزت احصائية دار الكتب الاخيرة والمستمدة من ارقام



الابداع، جانبا من أزمة النشر وأزمة القراءة، فهي ترصد انخفاض نشر الكتب العلمية وزيادة الكتب التراثية، وجاءت نسبة العلوم الاجتماعية في صدارة القائمة، وبلغ عددها ٢٧٢٠ كتابا اي ٢٠٪ من مجموع ما نشر، وهو يقل عن العام السابق بمقدار ١٥١١ كتابا، وجاءت الكتب الدينية في المرتبة الثانية وصدر منها ٢٢٢٥ كتابا وهي تمثل ٢٦٪ من اجمالي الكتب وتزيد عن العام السابق بمقدار ٢٤٥ كتابا، ومن هذه الكتب ٢٥٦٧ كتابا في العلوم الإسلامية و ٦٦٦ كتابا في العلوم المسيحية.

وفي مجال الأدب والنقد بلغ عدد ما صدر من الاعمال الأدبية، شعر ورواية ومسرح ودراسات لغوية وأدبية ٢٥٥٧ كتابا تمثل ٢١٪ من مجموع الكتب الصادرة عام ٢٠٠٢، بنقص ٤٧١ كتابا عن العام السابق، وصدر من كتب الشعر ٥٧١ ديوانا ودراسة، بينما لا تتجاوز القصص والروايات ٢٩٧ كتابا، و ٤٩ مسرحية فقط.

أما الكتب العصرية او العلمية فقد صدر منها ١٦٦٥ كتابا بنسبة ١٤٪ من مجموع الكتب وتقل ٥٨١ كتابا عن العام السابق، ومعظم هذه الكتب كتب دراسية.

وصدر من كتب المعارف العامة ٥٨١كتابا بنسبة ٥٪ وبنقص ٨٣ كتابا عن العام السابق وأخطر ما في هذه الإحصائية هو زيادة السكان وتناقص القراءة.

ورغم أن هذه الأرقام لا تفصح عن أرقام المطبوع ولا عن أرقام التوزيع، ولا تظهر أكثر الموضوعات رواجا لدى القراء.

ويصل البعض في التعبير عن أزمة الكتاب الى القول أن مجموع ما تم ترجمته في اللغات الاجنبية الى اللغة العربية من أيام المأمون في العصر العباسي وحتى اليوم، لا يعادل ما تترجمه دولة أوربية مثل اسبانيا خلال عام واحد، وهو قول مردود. فمن يملك ارقام الكتب التي ترجمت منذ عصر المأمون حتى اليوم ، الا انه في الوقت الذي تترجم فيه الكتب العلمية في كل عواصم العالم فور صدورها تتعدد عندنا المؤسسات التي تتولى الترجمة ويغيب التنسيق بين هذه المؤسسات وتتسم بقدر كبير من العشوائية ويتكرر ترجمة الكتاب في اكثر من مؤسسة ولأكثر من مترجم وتسقط كتب هامة كثيرة ولا يتم ترجمتها وتعتمد كل مؤسسة على الأخرى ولا يفوتني ان انوه بالمشروع القومي للترجمة في المجلس الأعلى للثقافة والذي يشرف عليه د. جابر عصفور والكتب المهمة التي اصدرها حتى اليوم، وهي تسد نقصا فادحا، ولكن عليها ان تقوم بدور المنسق بين دور النشر التي تصدر الكتب المترجمة.

وقد ظهرت عقبة جديدة، وتتمثل في حقوق الملكية الفكرية، ونتصور دور

النشر الكبرى، ان دور النشر العربية توزع بالملايين فتبالغ فى مطالبها وتسقط الدور الثقافى لدور النشر العربية.

الأمية !

ولا يجوز فصل أزمة الكتاب عن مجمل الحالة الثقافية.

فثلث العرب لا يفكون الخط، ولا يعرفون القراءة والكتابة رغم اننا نعيش فى ظل ثورة المعلومات. وهى ظاهرة تنتقص بالضرورة من إنسانية الانسان.

يقول رئيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المنجي ابو سنينه.

فى الوطن العربى ما بين ٦٠ الى ٧٠ مليون امى لا يعرفون القراءة والكتابة. وثلثاهما من النساء».

فلا يمكن ونحن نتناول أزمة الكتاب ونقص القراء أن نتجاهل ما تواجهه البلاد العربية من تحدى الامية. وقد صمدت الأمية بعناد امام محاولات القضاء عليها. وكان القضاء على الأمية هو الهدف المعلن خلال نصف القرن الاخير . وكلما اقتربنا من تحقيق هذا الهدف يعود ويبتعد من جديد.. وأثبتت البرامج الحكومية فشلها الكامل ولم نتصور ان هذه «العاهة» ستصحبنا الى القرن الحادى والعشرين.

فمازال معدل الإلمام بالقراءة والكتابة فى مصر عام ١٩٩٨ لا يزيد عن ٥٧.٧ فى المائة وتزداد فى الريف وبين النساء، وبرزت تساؤلات حقيقيةحول فاعلية البرامج الخاصة بمحو الأمية.

فمعدلات الأمية اعلى كثيرا مما هى عليه فى بلدان افقر كثيرا من البلدان العربية. ولا تزال الأمية فى العالم العربى أعلى من المتوسط الدولى حتى فى البلدان النامية.

ورغم حاجتنا الملحة لمحو الأمية لكى يتواصل الأهالى مع العصر والعالم، فنحن فى حاجة اليها حتى نقضى على تلك الفجوةالقائمة بين المثقف والجماهير.

وحان الوقت لقيام حركة اجتماعية اهلية نشيطة تشارك فيما يجرى من حولنا، ويحول دون ذلك استمرار ارتفاع نسبة الأمية ولا نتجاهل ان الثروة الحقيقية لاية أمة هم ناسها، وتحرير المواطنين من الحرمان، ولايوجد حرمان اكثر من الحرمان من القراءة والكتابة وزيادة قدرتهم على الاختيار هى الخطوة الأولى فى هذا الطريق.

ويسبق الحديث عن الكمبيوتر والانترنت والكتاب الالكترونى ضرورة قيام بنية أساسية ثقافية على القراءة فهناك نوعان من المعرفة، احدهما عن طريق الانترنت والاخرى عن طريق الكتاب.

وثبت بالتجربة، ان لا أحد يقرأ على الكمبيوتر أية اعمال ابداعية من شعر ورواية أو حتى الفلسفة ، كما تأكد أيضا أنه مع انتشار الوسائط الحديثة ازداد توزيع الكتب فى الدول المتقدمة. تصل بنا هذه العوامل الى تلمس ابعاد ازمة



الكتاب، والتعرف على اسباب غياب القارئ».

المربع الذهبي

ولم يبق سوى ذكر بعض الملاحظات على أمل تأملها لارتباطها بظاهرة نقص القراءة.

يرتكز «المربع الذهبى» على أربعة أركان: التعليم. وهو الركن الأول الذى يلتحق به الطفل صغيرا، ويتخرج منه شابا يافعا، والذى يشكل خلال فترة تعليمه وجدانه وقيمه وعاداته . ويأتى بعده الركن الثانى وهو الإعلام وأجهزة الإتصال من تليفزيون واذاعةوصحف. والتى تمثل اتصال المتلقى بما يجرى فى بلده و فى العالم من حوله، ثم تأتى الثقافة التى تغذى معارفه وذوقه.. أما الركن الرابع الذى لا يمكن تجاهله، فهو ما يتلقاه المسلم فى الجامع، وما يتلقاه المسيحى فى الكنيسة.

ويمد الكتاب الاركان الأربعة بالمعرفة ، كما تستمد ظاهرة القراءة حيويتها من هذا المربع الذهبى.

ونقطة البداية هى إعادة النظر فى مضمون ما يقدمه التعليم والإعلام، فنظام التعليم الحالى يؤدى إلى كراهية الكتاب، وما أسرع ما يتخلص منه التلميذ بعد نهاية السنة الدراسية، فلا يقرأ الطالب فى مدارسنا سوى صفحات قليلة، من كتاب المطالعة فى حين يقرأ زميله فى العالم المتقدم عشرات الكتب، فكيف يتذوق الصغار حلاوة المطالعة، وهو لم يتعود سوى على قراءة الكتاب الذى سيمتحن فيه. وهو كتاب اذا قورن بزميله فى المدارس الأوربية وجدته خاليا من الذوق وبعيدا عن فن الاخراج وكل ما يجذب القارئ، من عناصر جمالية.

وعلينا بعد ذلك الا نعجب عندما نرى القارئ يحجم عن قراءةالكتب العلمية او المجلات المتخصصة فمعلوماتهم التى تلقوها فى التعليم لا تمكنهم من ذلك، وليس غريبا ان تروج بعد ذلك كتب الخرافة والجنس بدلا من الكتب النافعة.

وبداية التغيير من التعليم الأساسى على ان يكون شاملا وعالى الجودة وحتى تختفى اسباب التسرب الذى يدل على عجز نظام التعليم على ان يكون مقنعا وهناك الكثير الذى يمكن عمله لاصلاح التعليم، وعودة الدور القديم لمكتبة المدرسة.

وإذا تناولنا الإعلام الذى اصبح التليفزيون اهم ادواته، واصبح له السبق على سواه من أدوات الاتصال، وتراجعت فى المنافسة امامه كل من الصحافة والإذاعة والكتب والمجلات المصورة، وأصبح شريكا لكل من البيت والمدرسةفى غرس القيم وتحديد انماط السلوك للاجيال الصاعدة.

وغدا هذا الجهاز السحرى يمسك بين يديه بعقول الناس وقلوبهم، ويفكر المشاهد وعواطفه. ولم يعد امام المتلقى سوى الاستسلام «فالعين ترى والاذن تسمع» ولا توجد اى فرصة للمراجعة، او المناقشة..

ويكفى ان تسمع ما يدور على ألسنة الناس وترى أزياءهم . فتلمس تأثير برامج

ومسلسلات بعينها على سلوكهم ونمط حياتهم.

والمثير للاستغراب لماذا لا يوظف التليفزيون ذلك التأثير لصالح الارتقاء بمعارف وسلوك وذوق المشاهدين؟ ولماذا لا يساهم فى بناء نظام للقيم عن طريق تقديم نماذج مشرفة؟ وبدلا من أن يشجع التليفزيون القراءه، يعلى من فن التسلية واضاعة الوقت، وحتى الاعلان عن الكتاب مرة واحدة لبضع دقائق فى التليفزيون يعادل بيع ثلاثة آلاف نسخة من كتاب متوسط الحجم.

ويختلف تأثير التليفزيون من مجتمع إلى آخر، تزداد وظيفته وأهميته فى مجتمع تنتشر فيه الأمية، اما فى البلاد المتقدمة فيحكم المشاهدون التليفزيون ولا يحكمهم، فلكل عمله وهوايته يحدد ساعات جلوسه امام الشاشة الصغيرة، لذا بقيت عادة القراءة لديهم مزدهرة، ويتعايش القديم مع الجديد وتحتفى برامج التليفزيون بالكتب والكتاب، وتفرد مكانا بارزا فى برامجها. وهى برامج ليست متجهمة ولكنها شيقة ومفيدة.

فلنعيد النظر فيما يقدمه التعليم والثقافة والاعلام. ولنتغلب على الامية حتى نتواصل مع العصر، ويعود للكتاب دولته وللكلمة قدسيتها، ويرجع للقراءة سلطانها وقوتها الكامنة. ■



مستقبل الكتب في القرن الجديد

مكائن الكتب الرقمية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إن الكلمة قوة، يدركها الطغاة أكثر من المستضعفين، ويدركون أيضا أن الشعب الأمي يكون سهل الانقياد، فكانت عمليات حرق الكتب، وحظرها والرقابة عليها، وكانت الرقابة علي الكتب ومازالت تابعة للحكم . وفى القرن الخامس قبل الميلاد، أحرقت كتب بروتاغودراس فى أثينا، وفى القرن الثالث قبل الميلاد، أمر الإمبراطور الصينى شيهوانغ تي بإحراق جميع الكتب فى البلاد، وكان يشرف على عمليات الإعدام هذه، ويتابعها بنفسه، وفى منتصف القرن التاسع عشر، أسس كومستوك جمعية لملاحقة الكتب وناشريها التى تشجع على الرذيلة بمقياسه ومفهومه، وقد نجح فى دفع الحكومة إلى اعتقال العشرات من المؤلفين والمثقفين ، وقد انتحر ١٥ منهم على الأقل فى السجون ، وأتلفت مئات الأطنان من الكتب، وكان من أقوال كومستوك أن العالم سيكون أفضل لو لم تكن ثمة كتب وقراءة .

ونذكر قتل الحلاج وحرق كتبه ، ومؤلفات ابن رشد التى أحرقت، وإحراق أبى حيان التوحيدى لكتبه . هذا غير مئات الآلاف من الكتب التى أحرقها المغول . أو ألقوها فى نهر دجلة عندما احتلوا بغداد، ومئات الآلاف من الكتب والقطع الأثرية التى سرقها الصليبيون ثم الأوروبيون المستعمرون من الدول العربية والإسلامية . وتنوعت أساليب التخلص من كتب التراث العربى فمنها : الحرق، الدفن، الغسل بالماء والإغراق، التقطيع والتخريق ! لكن السؤال ماذا عن الكتب الرقمية؟ هل يستطيع الطغاة الآن أن يحرقوا الكتب الرقمية على الإنترنت؟! هل يستطيعوا فرض الرقابة عليها، وحظر نشرها!؟ أزعم أن الإجابة بالنفى! لكن ما هو الكتاب الرقمى؟

ماهية الكتاب الرقمى

مع الثورة المعلوماتية، وحوسبة المعرفة، ظهرت أشكال جديدة من الكتب مختلفة عن الشكل التقليدى المعروف ، الورقى المطبوع، وأطلق على هذا النوع الجديد تسمية الكتب الإلكترونية Elec-tronic Books أو E-Books أو الكتاب الرقمى Digital Book، والكتاب المحوسب Computerized Book وغيرها ، وأصبحت الكتب بشكلها الجديد الإلكترونى المحوسب، خصوصا، مع ظهور تقنية الوسائط، قادرة على استيعاب جميع أنواع المعرفة. والكتاب الرقمى يملك بعض السمات العامة التى يتميز بها، فهو كتاب غير ورقى Paper-less Book ، لا يكتب، ولا يطبع، ولا يقرأ بالوسائل والطرق التقليدية، وإنما بوسائل خاصة تعتمد على تكنولوجيات للكمبيوتر، وقد يكون له أصل ورقى (أغلب الكتب الالكترونية حاليا)، أو لا يكون، مثل موسوعة انكارتا، وغيرها من المؤلفات الرقمية المنتشرة الآن على الإنترنت. وهو قابل للنشر، والنقل والتحميل Downloading عبر الشبكات .

أنواع الكتب الرقمية

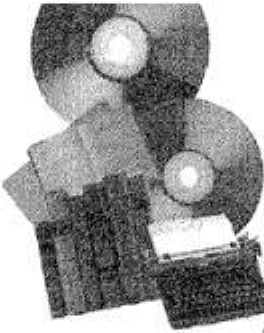
وتتوفر الكتب الرقمية الإلكترونية المتاحة حاليا فى أشكال متعددة، تبعا لنوع، أو طبيعة المنصة Platform التى تحملها. فهناك كتب رقمية الكترونية على أقراص ليزر مدمجة CD ROM وهى الأكثر انتشارا، وتداولا، ويحتاج هذا النوع من الكتب «لقراءتها» بالطبع، إلى جهاز حاسوب شخصى أو ما يعادله. وهى تتمتع بسعة تخزين كبيرة ، وبالتالى الإمكانية الواسعة، فى استيعاب تقنية الوسائط المتعددة ضمن مواد الكتاب الذى تحمله . لذلك لاقت استخداما واسعا فى المصاحف، والموسوعات الالكترونية، والمعاجم، والمجلدات، وغيرها من الكتب التى تتطلب سعات تخزين كبيرة ، وتعتمد على تقنية الوسائط السمعية البصرية ، على وجه الخصوص. النوع الثانى كتب رقمية إلكترونية مخزنة على شرائح رقمية على شكل ذاكرة قراءة فقط ROM، و«تقرأ» بواسطة أجهزة كمبيوتر خاصة، وتطلق على هذا النوع من الكتب تسمية «الكتب الإلكترونية المكرسة Dedicated E-Books مثل القواميس الناطقة والمترجمة، منها، على سبيل المثال، قاموس فرانكلين الناطق إنكليزى - عربى، القادر على تحميل

وعرض شرائح ذاكرة رقمية لكتب أخرى مثل الموسوعة البريطانية وغيرها . تعتبر مثل هذه المنصات مع شرائحها مناسبة ككتب جيب إلكترونية ، -Pocket E Books، وخاصة للأعمال الأدبية، إلا أنها تبقى محدودة بما ينتج من شرائح تصنع وفق معايير معينة، قد لا تصلح للاستخدام على منصات من إنتاج شركات أخرى (أجهزة قراءة أخرى Reading Devices)، وتعتبر من حيث الكلفة مرتفعة نظرا لمحدودية تطبيقاتها ، الشكل الثالث، الكتب الالكترونية المخزنة على شبكة الانترنت والقابلة للتحميل مجانا، أو مدفوعة الثمن للمشتركين فقط، وهنك العديد من المواقع التى تعرض آلاف الكتب ، الأدبية على وجه الخصوص ، دون مقابل سوى تحقيق هدف تأدية رسالة اجتماعية أو أدبية إضافة إلى ذلك، هناك العديد من المواقع التى تعرض كتبا علمية متخصصة ، وخاصة ، تلك المسماة كتب تعليمية ، أيضا دون مقابل ، ويمكن تحميلها إلى الكمبيوتر الشخصي عن طريق شبكة الانترنت ، التى تشكل موردا هائلا ، ومتجددا باستمرار لمختلف أنواع المعارف والعلوم . فاستخدام شبكة الانترنت لتخزين ونشر وتحميل الكتب قد جعل المعرفة فى متناول الجميع ، كل حسب اهتمامه ، واختصاصه ، وقد أحدثت الانترنت ثورة فى مجال تبادل المعارف والعلوم ، وأدت إلى تسهيل ممارسة أشكال جديدة من التعلم ، مثل التعليم عن بعد وغيرها، ويجب أن نذكر بعض سلبيات تحميل الكتب عبر شبكة الانترنت ، مثل سرعة النقل المنخفضة مما يجعلها غير ملائمة ، لتحميل الكتب ذات السعات الكبيرة ، وخاصة المزودة بتقنية الوسائط المتعددة ، إضافة إلى احتمال التلوث ، والإصابة بالفيروسات المعلوماتية، أما فيما يخص الناشرين والمؤلفين فإنه لا تتوفر بعد ، وبشكل كامل ضمانة حماية الملكية الفكرية،من حيث التشريعات ، أو نشاط القرصنة المعلوماتية .

مميزات الكتب الرقمية

والكتب الإلكترونية بالمقارنة مع الكتب الورقية ، تتمتع بمجموعة من الميزات منها القدرة الهائلة على تخزين كميات كبيرة من الصفحات ، والمعلومات ، صغيرة الحجم ، والوزن ، لذلك فهى سهلة الحمل ، والنقل، ولا تحتاج المكتبات الإلكترونية إلى منشآت واسعة ومكلفة ، رخيصة الثمن نسبيا ، وخاصة ، تلك المحمولة على أقراص ليزر مدمجة ، وتملك قابلية وسهولة الإضافة ، والتعديل ، والنسخ، والاقتباس، مما يختصر ، وبشكل كبير، الفاصل الزمنى بين إصدار وآخر أحدث ، مع المرونة العالية ، والقابلية للتكيف، والتفاعلية وفق متطلبات القارئ، وإمكانية تنفيذ الإجراءات والارتباطات التشعبية -Hyp er Links الداخلية (ضمن حدود الكتاب نفسه)، أو الخارجية (مع كتب أخرى مرفقة، أو مع مصادر المعلومات ، وقواعد البيانات على الشبكة المحلية، أو الانترنت ذات الصلة بالمواضيع المدروسة. مما يتيح التجول والإبحار بسهولة وسرعة بين هذه الموارد، مع قابلية وسهولة الترجمة إلى لغات أخرى (الجزء من الكتاب ، أو كله)، فى حال

توفر برامج الترجمة المناسبة. وإمكانية إضافة ميزة البحث ، التى تتيح إيجاد المعلومات المطلوبة بسرعة وسهولة ، وقابلية الحماية بالتشفير، بحيث لا يتاح الاطلاع على محتويات الكتاب إلا للمخولين بذلك. علاوة على إمكانية النشر ، والعرض، والتحميل عبر الشبكات الحاسوبية ، وخاصة الانترنت ، مما يتيح نقلها ووصولها إلى القارئ بسرعة . وبالتالى متابعة مستجدات العلم والمعرفة فى مجال الزمن الحقيقى تقريبا ، وإمكانية الجمع بين النص ، والصوت والصورة، والحركة وعروض الفيديو ضمن الكتاب الواحد . وتعددية الوظائف والمهام ، أو تعددية الأدوار التى يمكن أن تقوم بها فى النظام التعليمى، فهى مصدر معرفة ، ووسيلة اختيار مؤتمنة، أداة محاكاة.. الخ، ويمكن تحويلها ، عند الحاجة ، بسهولة وسرعة إلى الشكل التقليدى (الورقى) .. وهذه الميزات مجتمعة لا تتوفر فى جميع الكتب الالكترنية مطلقا ، حيث يتعلق ذلك بوظيفة الكتاب ، ونوعية القراء (المستخدمين) ومتطلباتهم ، وعدم الحاجة دوما لمثل هذه الميزات معا بالمقابل هناك بعض المصاعب التى تعيق ، أو تؤخر انتشار الكتب الرقمية الالكترونية ، أهمها مواصفات ومعايير غير متوافقة مع بعضها ، خصوصا فى تلك الكتب التى تقرأ بواسطة أجهزة قراءة خاصة . ليس هناك عدد كاف من عناوين الكتب الالكترونية المتوفرة لتلبية جميع اهتمامات ، واختصاصات ، «وأذواق» جموع القراء ، عدم ملاءمة تقنيات عرض الكتب الالكترونية ،



وخاصة عند قراءة المواد النصية (النصوص) الكبيرة، مما يؤدى إلى صعوبة قراءتها وتصفحها ، والإبحار فى محتوياتها ، وبالتالى ، الشعور بعدم الراحة والتعب . عدم إمكانية قراءة الكتب الالكترونية فى مختلف الأماكن ، والوضعيات (فى السرير، أو على الشاطئ..الخ) باعتبارها تحتاج إلى أجهزة قراءة خاصة لها متطلباتها ، صعوبة حماية الملكية الفكرية ، سهولة نسخ الكتب الالكترونية ، وتداولها تفرض متطلبات صارمة على نظام أمن المعلومات بالنسبة للكتب ذات الاستخدام المحدود للمخولين فقط، عدم تقبل ، أو ممانعة القراء للكتب الالكترونية ، بحكم العادة ، أو بسبب عدم امتلاك ناصية التعامل مع التقنيات الحاسوبية ، وعدم مراعاة الخصائص النفسية والفيزيولوجية للمتلقى (القارئ) ، كاستخدام واجهات غير مريحة، أو المبالغة فى استخدام تقنيات الوسائط المتعددة مما يشتت انتباه المتلقي، أو يؤدى إلى نفور القارئ وابتعاده عنها ، الإفراط فى استخدام الإرتباطات التشعبية مما يدخل القارئ أحيانا فى متاهة يصعب الخروج منها ، عدم بناء هيكلية الكتاب وارتباطاته بشكل مناسب مما يعيق استيعاب مواد الكتاب بشكل منظومى .

مستقبل الكتب الرقمية

ولو عاش بيننا اليوم ساحر يحب الأدب ! سوف يفتح فمه متعجبا مندهشا

من قراء اليوم الذين تفوقوا على سحره! فالقراء اليوم في استطاعتهم توظيف تكنولوجيات الكمبيوتر والانترنت للوصول وتنزيل وقراءة النصوص التي تعجبهم إينما كانت ! ويقرأونها أما على الشاشة ، أو في كتاب ذو غلاف ورقي ، والباحثون اليوم ممكن أن يجدوا مصادرهم ومراجعهم فورا ضمن مكتبة تخيلية واسعة متعددة اللغات ! بينما بعض طلبة الكليات الآن يختارون أن يقرأوا الكتب الدراسية على الخط ، بالتحسينات السمعية البصرية ، وبشكل تفاعلي مع أساتذتهم ! واليوم بشكل واسع نجد الكتب الرقمية ، والنصوص الرقمية الأخرى تقرأ بشكل رئيسي على شاشات الحاسوب ، أو على أدوات القراءة الرقمية يدويا مثل أجهزة Palm Pilots و Gemstar readers. لكن حتى الآن لم تظهر سوقا هامة للكتب الرقمية التي تقرأ على الشاشات ! ومن المحتمل ألا يصبح ذلك النمط الرئيسي لتوزيع الكتب على الخط! بل من المرجح والمتوقع أن النصوص الرقمية ستطبع وتجلد في صورتها الورقية ، عند نقط الطلب والبيع بالمكائن! والآن هناك في الدول الصناعية المتقدمة ، نماذج آلية تطبع النسخة الواحدة خلال دقائق ، ورخيصة التكلفة وفي شكل كتب ورقية يصعب تميزها عن الكتب التي أخرجتها المطابع المعتادة !

وهذه المكائن المتلاصقة لجعل الكتب الإليكترونية ، كتبا ذات غلاف ورقي يمكن أن تكون مثل مكائن سحب النقود ، أو مكائن تقديم المشروبات الساخنة والباردة المنتشرة في الشوارع وتكون موجودة في أي مكان بشرط توفر الكهرباء ، ومخزون لتجهيزات الورق ، حيث يمكن وضع مثل تلك المكائن في المدارس والجامعات وقاعات سكن الطلاب والمكتبات الجامعية والمكتبات العامة ، وهناك الكثير من المواقع المحتملة ، فالقراء المحتملين موجودين في كل مكان ، يستطيعون فيه الوصول إلى شاشة حاسوب ، ويبحثون بلا حدود في قواعد البيانات والملفات الرقمية مخزونة ، ويسترجعون ويتصفحون العناوين التي تثير إهتماماتهم ، ويرسلون الملفات التي يختارونها إلى أقرب ماكينة طباعة لهم! والتي ستشعرهم أن كتبهم جاهزة لكي يلتقطوها أو يستلموها وهم في طريقهم ! ومع الوقت ، يمكن للقارئ اختيار كامل المعاملات المطلوبة خلال دقائق ، ويختار نوعية ورق الطباعة ، والغلاف وشكل التجليد ومواصفاته ! خاصة الكتب المقدسة عند معظم الثقافات، فالقراء قد يفضلون لها شكل دائم وثابت – خصوصا الكتب ذات القيمة الدائمة – فيرغبون في حجم معين ، وطباعة مميزة ، وتجليد متين ، وربطها على هذه المكائن مع الصور العابرة على شاشة الكترونية، الاستثناء سيكون في القواميس ، والأطالس ، والموسوعات ، والأدلة ، الخ، التي يجب أن تتجدد بشكل مستمر . وبياناتها الحالية ، من المحتمل ستقرأ على الشاشات حسب الحاجة .

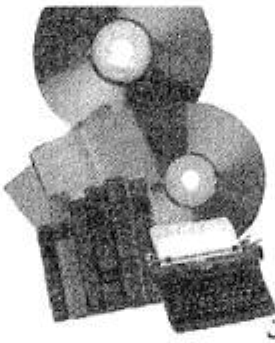
التحول التاريخي

إن التقارب الذي أحدثته الإنترنت بين الإرسال الآني ، واسترجاع النص الرقمي يعتبر تحولا تاريخيا ، مقارنة

بتأثير قابلية الحضارة الأوربية للتحرك والانتشار، على مستوى العالم في منتصف القرن العشرين . في المستقبل سوف نجد مجموعات الكتاب، والمحررين، والمروجين والناشرين، ومدراء مواقع الويب في أي مكان في العالم سيندمجون لتشكيل شركات خاصة للنشر على الانترنت، ويبيعون كتبهم مباشرة إلى القراء، والبعض قد يتعاقد مع الشركات المتخصصة لصناعة وتوزيع الكتب الطبيعية إلى الباعة التقليديين، وسوف تتعايش الكتب الرقمية، مع الكتب الورقية المعتادة، مثلما تتعايش اليوم المكتبات الطبيعية في منافسة مع المكتبات المدرجة على الخط في الانترنت.

ولو أن مطابع الكتب الطبيعية ذات الأغلفة الورقية الصنع باعت بالتجزئة في المكتبات وقتها، فستقع في ضرر تنافسي، بالمقارنة مع الكتب ذات الأغلفة الورقية التي تطبع عند الطلب في المكائن ومن الصعب التنبؤ بثمن وقيمة الأسهم في تجارة المكتبات في المستقبل الرقمي القادم!!

لكن من المحتمل أن تعرض محلات الكتب معروضاتها بعناية دقيقة، فتختار قوائم من عناوين الكتب الجديدة والمستعملة، خاصة الكتب ذات الأغلفة الصلبة، وكتب الفنون، والعديد من أنواع كتب الأطفال، التي لا يمكن أن تكون اقتصادية عند طلب طبعها على المكائن! وستصبح أماكن تجمع أبناء الحي الواحد، هي أنسب أماكن لمخارج الكتب ومكانتها واعلاناتها والعديد من القراء، الذين لا يمكنهم الوصول إلى



مكتبات مجهزة بشكل جيد، سيعتمدون على الأدلة الرقمية ومكائن الكتب في الاحياء، ولا يبقى أمامهم غير الاتجاه إلى موقع أمازون للكتب وباعة بالتجزئة على الانترنت ونقط مكائن بيع الكتب ستكون مفيدة، خصوصا في الدول النامية لندرة المكتبات، وارتفاع تكاليف النسخة الواحدة عالية، وحتى اليوم هناك نواة لسوق رقمي مترابط نسبيا، فبعض المؤلفين يربطون مواقعهم على الويب، مع مواقع لها نفس الاهتمام، وهم يأملون خلق مجتمعات موسعة خاصة للقراء الموالين بكل كتاب جديد يكتبونه والتعديلات التقنية البسيطة ستمكن الكتاب قريبا من بيع كتبهم الى القراء مباشرة في كافة انحاء العالم من شبكة الويب، لكن هناك خوفا دائما من الناشرين والكتاب المتشككين لفكرة بيع الكتب على الخط، تحسبا لإهدار حقوق الملكية الفكرية، وضمان الأمان على مواقعهم في الشبكة، واليوم أصبح نشر المقالات والمخطوطات منظما بأحكام، من قبل الناشرين والوكلاء، وذلك قبل أن يتخذ القراء القرار النهائي!

والمستقبل الرقمي للكتب، قد يبدو تهديدا للقراء المتعودين على سوق أدبي منظم، وقد يبدو ذلك تهديدا للثقافة عامة مثل كهنة القرن الخامس عشر! لكن القدرة الانسانية للتمييز بين الكتب المقروءة، وغير المقروءة، ستكون أهم عامل محدد في المستقبل الرقمي للكتب، وبمرور الوقت سوف يستطيع القراء التمييز

بسهولة بين الكتب الثمينة حقا، من تلك المقروءة، فقط ، وعلى الأرجح وقتها، ولن يستطيع أحد المغامرة ويدعى أنه كاتب! ويغمر السوق الرقمى بأفكاره الرخيصة، والكتب الرقمية لن تحتل أى فضاء لرفوف الكتب، او تشغل مساحة، بل هى دائما جاهزة للطبع فى أى وقت، طالما هى فى مخازنها الرقمية، التى يمكن أن تبقى فيها لمدد طويلة، ولأن النصوص الرقمية يمكن أن ترسل مباشرة إلى المستهلكين فى أى وقت ، فهى يمكن أن تباع بكميات أقل من الكتب الطبيعية، التى تشحن فيزيقيا من المطابع فى الهند أو الصين إلى مخازن الناشرين فى ماريلاند أو أوهايو، ومن هناك إلى المستودعات أو مخازن تجار المتجر المتعدد الفروع الإقليميين، وأخيرا إلى آلاف مكتبات البيع بالتجزئة، وبعد بضعة شهور، ترجع النسخ غير المباعة إلى ناشريها وتدمر! ولأن الكتب التى نشرت إلكترونيا لن تتطلب أى نوع من عمليات الجرد المكلفة، ولا تكلف الناشرين عمليا شيئا فى الإنتاج والتسليم، وقتها تصبح مساهمة المؤلفين فى المنتج النهائى ذات قيمة أكبر نسبيا من الناشرين، ويمكن أن تعود عليهم بأرباح أكثر من إيرادات بيع الكتب بصورتها الطبيعية!

إلى حد أن التوزيع الأصغر من المتوسط من الكتب الرقمية التى تطبع عند الطلب من مكائن البيع، يكون أعظم كفاءة وأقل كلفة بالمقارنة بالنظام القديم، واليوم ناشرو الكتب سيتحولون مع مرور الوقت ليكونوا من الكتاب، والمحررين ، والمروجين (وكلاء الدعاية)، ومدراء مواقع الويب! وهكذا قد ترجع عملية نشر الكتب لتصبح صناعة منزلية! قائمة على البيع بالتجزئة، معتمدة على تجهيز ثابت من العناوين الترويجية.

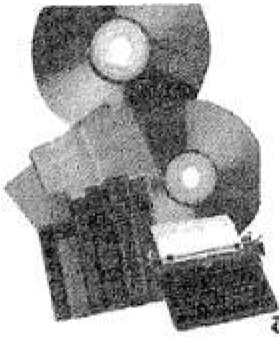
لكن ليس هناك ساحر يمكن بإشارة من يده، أن يخلق تلك الموجة الجديدة من المستقبل الرقمى للكتب، هناك البشر هم الوحيدون الذين يجدون طريقهم، بالوسائل المجهولة وغير المباشرة والبطيئة، والتى يوظفون فيها النماذج السابقة التى أنجزت ، ولتوقع خطة لتجارة عملية النشر الإلكترونية ، يجب عدم تجاهل المساعى والمحاولات الإنسانية السابقة، وتعقيدات المستقبل الرقمى الصاعد، والقدرة على فهمه وإدراكه ، مع الاصرار والإبداع الذى استطاع البشر اختراع عالمهم حتى الآن، وهذا لا يعنى أن كل تقنية جديدة وقوية تصبح من الضرورة عملا ناجحا، وقد لا تتغلب أى تقنية متقدمة على المنافسة من الاختيارات السهلة والأرخص، فالسكك الحديدية فائقة السرعة فى الولايات المتحدة الامريكية لم تتغلب على منافستها الأرخص، وكذلك الغذاء المعدل وراثيا، يتجنبه الكثير من المستهلكين! وهذه العقبات لن تواجه عملية إرسال الملفات الرقمية لمكائن الكتب، فتكلفة الوحدة فى تلك العملية أقل بالمقارنة مع تكلفة التوزيع الطبيعى للكتب، مادام هناك سهولة فى عملية إرسال الكلمات اليكترونيا، إلى أى واحد يمكنه إنزال ملحقات البريد الالكترونى ، أو تسلم الفاكسات أو شراء كتاب رقمى. والمستهلك الذى ملك تجربة شراء كتاب رقمى، واختار عنوانه من كتالوج على

الشاشة، وطبعه في أقرب ماكينة كتب، سوف تختلف وجهة نظره، عن وجهة نظر الذى يشترى نسخة طبيعية من نفس الكتاب، من بائع تجزئة على الأنترنت، ويأتى الاختلاف فى الفورية أو الأنية التى يحصل بها المشترى على الكتاب، والنتيجة المحتملة محبطة للكتاب الطبيعى، خاصة إذا كانت النسخ المتوفرة نفدت، وفى السعر الذى يذهب منه جزء بسيط للبائع للتجزئة.

والعقبات التى تواجه المستقبل، ليست تكنولوجية ، بل هى مؤسساتية وعاطفية، والتحول الحتمى سيكون مثيرا للجدل، كأشكال جديدة من الانتاج تتحدى فرضيات وممارسات قديمة.

وقد لاحظ وكلاء الأدباء قيمة النصوص الرقمية، عندما توقعوا مكاسب مادية مستقبلية للمؤلف من الطبعات الرقمية، لكن لزيادة نصيب المؤلف من العائد، يجب المحافظة على الحد الادنى من تكلفة الانتاج والتوزيع الرقمى، وعند التحول من عملية النشر التقليدى إلى النشر الرقمى، ليس من الضرورى انخفاض تكلفة النشر، ان تقلل من أرباحهم الصافية.

ولتدعيم الارباح، يجب على الناشرين على أية حال أن يخفضوا أو يصفوا ويتخلصوا من الوسائل والتسهيلات العاطلة ، المرتبطة بتقنيات سابقة خصوصا فى مجالات التسويق والبيع والتخزين والانتاج، وناشروا الكتب خاصة المسيطرون على البيع والتسويق، سيحاولون الدفاع عن مكانتهم ومكاسبهم، عادة فى عملية انتاج الكتب الطبيعية، حقوق المؤلفين



التقليدية تمثل بين ١٠٪ - ١٥٪ من أسعار البيع بالتجزئة ، أو تمثل ٢٠٪ - ٣٠٪ من صافى عائد الناشر، وحوالى ٤٠٪ فى تكاليف إدارية تنفيذية وفى تكاليف الطباعة والبيع والتوزيع، وهى كلها تكاليف غير ذات علاقة بعملية النشر الرقمى، لذلك يطالب وكلاء المؤلفون بـ ٧٠٪ وأكثر من عائد النشر الرقمى للمؤلفين، وهذا سوف يفتح الفرصة لظهور عناوين جديدة، وشركات جديدة، لا يتطلب ذلك بنية تحتية قوية للبقاء، وتحت ضغط هذه المنافسة القوية، الناشرون التقليديون سوف يقللون الوظائف العاطلة لديهم، لكى تسوى وتتلائم مع عوائد المؤلف المرتفعة، والا سوف يفقدون مؤلفيهم ، الذين يعيشون فى سوق ثقافى عدوانى وشرس، وضعف ولاء المؤلفين الناشرين، والعكس صحيح، مثل هذه التحولات المثالية تمثل فترة انتقال بين نموذج اقتصادى مغادر، ووريثه النموذج الجديد القادم، وقد يساعد ذلك فى فهم الاقتراب الحذر لمؤسسات النشر الكبيرة فى العالم اليوم من المستقبل الرقمى.

السوق الجديد:

إن الوظيفة الثورية للإنترنت كوسيط تجارى، هى الترويج بالوسائل الالكترونية بدلا من المواجهة المباشرة، كما كانت قبل اليوم، فألغيت السمسرة، وتطور السوق من التجارة البدائية القائمة على المبادلات إلى الانتاج والتوزيع المركزى، وكان الناشرون قد استغلوا الانترنت منذ العقد الماضى،

وقاموا بتشكيل ائتلاف واتحاد، يضم كل الناشرين بشروط متساوية لخلق دليل عالمي، ومخزن مشترك، ومنه تباع الكتب مباشرة إلى القراء، الذين بادروا لشراء الكتب من خلال الانترنت! وكانت بداية تبشر بسوق إليكترونية رقمية. لكن مع الرؤية غير السليمة لصحافة البيزنس لهذا السوق، والتقيد بسلاسل الكتب، وربما أيضا بإعتناء باعة بالماضي المجيد، ضيعوا هذه الفرصة لإقامة بداية لسوق رقمية للكتب .

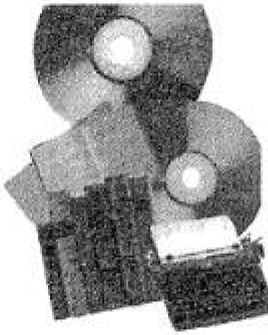
وتتطلب سوق الكتب الرقمية التي تطبع عند الطلب، الآلاف من مكائن الكتب تكون مبقية في المواقع البعيدة . وهذا لن يحدث بالشكل المطلوب، حتى يتم تجاوز المرحلة الحرجة لترويج المحتوى الرقمي الذي جمع منذ منتصف التسعينات.فكل الكتب التي نشرت، في غالبية البلدان تقريبا، جمعت وصفت من ملفات رقمية، التي يمكن بالتعديلات التقنية البسيطة أن ترسل حول العالم، وتنزل في الشكل المقروء على الشاشات، أو يمكن طبعها عند الطلب علاوة على ذلك، العديد من عناوين الكتب القديمة، والتي نفذت طباعة بعضها من مدة طويلة وانتهت حقوق نشرها، بالإضافة إلي النشرات العلمية والمجلات البحثية ، وأوراق وابحاث المؤتمرات، والتقارير الإقتصادية العالمية، حولت الأن إلى ملفات رقمية!وإذا حول ناشرى القصص الخيالية والواقعية الآن ما يمتلكونه من عناوين ومطبوعات إلى صورة رقمية، ويعرضونها سوية مع عناوينهم الرقمية الحالية، مباشرة إلى المستهلكين على الخط، مع وضع دليل رقمي متعدد اللغات، سيكون أمرا كافيا وكبيرا كبناء تحتي لسوق رقمية للكتب التي تطبع عند الطلب وذلك البناء التحتي يتضمن قواعد بيانات. الناشرين، ورغبات العديد من القراء، وأماكن نقطة البيع أو مكائن. الناشرين، كانوا بطيئون في تحويل مطبوعاتهم إلى الصورة الرقمية . ومن ناحية أخرى، مع بدايات تحويل الكتب في الشكل الرقمي، طالب الناشرون، ومنحهم المؤلفون حق النشر للطبعات الرقمية ، تحت عقود وقعت منذ منتصف التسعينات وبذلك يعترف الناشرون ضمنيا بالحق في نشر الطبعة الرقمية، مثل الحق في نشر طبعة سمعية أو أجنبية أو ذات غلاف ورقي، ويشكل ذلك ما يسمى بالحق التابع لشروط الملكية، ولم يحاول الناشرون إكتساب الحقوق الرقمية كحقوق منفصلة ومستقلة لقوائم مطبوعاتهم حتى منتصف التسعينيات، وهو سبب أخر لتأخير وجود سوقا اليكترونيا للكتب الرقمية ! من المفضل على الكتاب والقراء، أن يتذرعوا بالصبر، بينما ينتظرون كفاح ولادة سوق اليكترونية الكتب الرقمية، التي تعد تعبيرا مثاليا وتاريخيا، لن يمحو الماضي، لكن سيستغل بعض إمكانياته غير المدركة ويجب على المكتبات العامة والمستودعات الأخرى للكتب، ألا يفكروا بالتخزين الرقمي، مثل ما فكروا بالميكرو فيلم كحل لشكلة فضاء الرفوف، لكن كملحق إلى نشاطاتهم التقليدية والانتقال إلي الكتب الرقمية سيقلق بما فيه الكفاية لكن لا يجب أن يكون ذريعة لتقليم تراث عصر جوتينبرج .

الوضع العربى

تفيد إحصاءات ٢٠٠٢ للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الكسو»

بأن عدد الأميين في الوطن العربي يصل إلى ٦٨ مليونا، وهو ما يؤكده تقرير التنمية الإنسانية للدول العربية عام ٢٠٠٢ من ارتفاع منسوب تفشي الأمية فيها عن نظيرتها في البلدان الصاعدة في شرق آسيا وأمريكا اللاتينية، وانخفاض معدلات الالتحاق بالتعليم خاصة العالي عن متوسط البلدان النامية، وبلغ معدل الأمية في منتصف التسعينات حوالي ٤٣٪ وهو أعلى من المتوسط الدولي، هذا عن الأمية الهجائية فما بالك عن الأمية الثقافية ! وأمية التعامل مع الكمبيوتر والإنترنت ! فهل يحق لنا أن نتساءل عن مستقبل الكتب الرقمية في العالم العربي ؟! وإذا عرفنا أن المعلومات تنساب بكل أصنافها عبر وسائل الاتصال الحديثة في هذا الفضاء السبريني، بينما يواصل الرقيب العربي إمساكه القلم الأحمر ليضيف ويحذف من قائمة الممنوعات كتابا هنا ومطبوعة هناك فهل يحق لنا أن نتساءل عن مستقبل الكتب الرقمية في العالم العربي ؟! وعلى افتراض أن الإنترنت أذنت بسقوط كثير من الأسوار والحواجز فإنه لايبدو من الواضح إمكانية تحقق ذلك على الصعيد العربي فهناك رغبة عربية جادة تنمو بالتوازي لفرض رقابة على منتوج الشبكة العنكبوتية لتطويق حدود امتدادها وتأثيراتها ! فهل يحق لنا أن نتساءل عن مستقبل الكتب الرقمية في العالم العربي؟!

وإذا عرفنا أن الوجود العربي متواضع جدا على الإنترنت، وهناك شواهد عديدة كما جاء في تقرير التنمية الإنسانية للدول العربية ٢٠٠٢ تؤكد النقص الشديد في تأليف الكتب باستثناء الكتب الدينية والمدرسية، مع محدوديتها فيما يخص المحتوى الإبداعي الجديد، أما الكتب المترجمة فأرقامها مزيلة للغاية فالعالم العربي يترجم سنويا ما يقرب من ٣٣٠ كتابا وهو خمس ما تترجمة اليونان، والأجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن يبلغ مائة ألف كتاب ! وهو ما يوازي تقريبا ما تترجمه اسبانيا في عام واحد! وقرأت في الأخبار الأدبية منذ عدة شهور، أن ما يستهلكه العالم العربي من ورق طباعة الكتب، أيا كان نوع الكتب يكاد يساوي ذات الكمية التي تستهلكها دار نشر أوربية كبرى، وأن بلجيكا البلد الأوربي الذي لا يتجاوز عدد سكانه العشرة ملايين نسمة، أي أقل من عدد سكان عواصم عربية مثل القاهرة، هذا الشعب الصغير يستهلك من ورق القراءة والمتابعة الصحفية أكثر من جميع سكان العرب الـ ٢٩٠ مليون نسمة، أي الفارق ليس ضعفا إنما ثلاثون ضعفا بين الأوربي والعربي في أداء هذه الممارسة الحضارية، علاوة على أن الفكر في عالمنا العربي يزداد تهميشا، وتهميش أصحابه فماذا يعني أن نكتب وننشر ونتجادل والشعوب العربية تدير ظهرها لكل الاصدارات الفكرية والأدبية ! فهل يعنينا بعد ذلك مستقبل الكتب الرقمية في الوطن العربي ! ■





الثقافة
فى سياق التنمية والعولمة

بقلم
د. حامد عمار

اختـرت مفهـوم الثقافـة محـوراً للتنميـة باعتبـاره العمود الفقرى الذى تدور حوله أنشطة التنميـة كمـا يدور هو معها فى علاقات جدلية متطورة عبر الزمن. وتتفـاعل ديناميـات كل منهمـا فى داخل نطاقـه ومع نطاق الآخـر وتأثيـراً وتأثراً، مـدأ وجـزراً، ازدهاراً وانكسـاراً، تمدداً وانكمـاشـاً. ومع ذلك فلم يلتـفـت المخططون للتنميـة والممارسون لتنفيذ برامجهـا إلى الأهميـة البـالغـة للوعى بهذا المحور الذى يتـخلل - بوعى أو بغير وعى - مـخـتلف الأنشطة الإنمائيـة، وتتأثر به عوائد التنمية وثمراتها، إيجاباً وسلباً.

ومحور الثقافة كمفهوم له مساحات متنوعة وعشرات من التعريفات والدلالات. ومن ثم كان من الضرورى الاهتمام بهذا المفهوم وما يتضمنه من المكونات والقيم الثقافية وأخذها بعين الاعتبار المستحق فى حسابات عوامل التنمية ومدى انجازاتها أو عوائقها ومن بين تلك التعريفات، ما يلى:

المفهوم الانثروبولوجي الاجتماعي

ومن معانى الثقافة فى العلم الاجتماعى، وبخاصة كما صاغته الانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology أنها تتمثل فى تلك الأنماط المختلفة من التفكير والقيم والسلوك والمعاملات والأنماط التنظيمية التى اصطلحت عليها جماعة فى مسيرة حياتها. وهى رصيد تتناقله الأجيال

المتعاقبة عن طريق التواصل الاجتماعي مما يتعلمه الخلف عن السلف، من خلال الاتصال اللغوي شفاهة وكتابة ورموزاً. ويندرج في مضمونها طريقة الحصول على قوته وأدواته المادية والتكنولوجية المستخدمة، وما يتوافر ويشيع من أسلوب تعامل الفرد مع أبناء جماعته ومع الجماعات الأخرى. أضف إلى ذلك أنواع القيم والاتجاهات المادية والاجتماعية والمعنوية التي يحرص على التمسك بها ورعايتها، أو على نبذها ومقاومتها، وتلك التي تضع حدوداً وضوابط للفكر والسلوك والتعامل. ومن ثم يطلق على الثقافة أحياناً ما يعرف باسم (الوراثة الاجتماعية) تمييزاً لها عن الوراثة البيولوجية، أو كما يطلق عليها أحياناً (ضابط إشارات المرور الثقافية).

وفي جميع الدلالات لمفهوم الثقافة يلتقي مفهومها كأسلوب حياة وفق ما يصيغه الإنسان في تعامله مع الطبيعة، يكيفها ويتكيف معها، حسب أهدافه وتصوراته، فهي حصيلة للنشاط البشري في نهاية التحليل. وهي كذلك تميز جماعة عن جماعة، ومن ثم تجيء نسبية الرصيد الثقافي وخصوصياته. كما يتسم الرصيد الثقافي بعنصرين هامين أحدهما: ظاهري في السلوك والأفكار والعادات والممارسات، والمعبر عنها في أحكام القيم مما يدخل في نطاق المباح والممنوع، أو الحلال والحرام. وثانيهما ضمني كامن في بطانة السلوك والأفكار والطقوس والرموز، ويمكن التعرف عليه بالتأمل والاستدلال من الوقائع الظاهرة وديناميتها.

البنى الثقافية وتنوعاتها:

والثقافة كذلك ذات بنية من شرائح اجتماعية أو طبقية، ومن تنظيمات اجتماعية تحدد علاقاتها ومدى تواصلها مع بعضها في مختلف أنواع النشاط الإنساني، ومن بينها النظم الثقافية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية. وهي متراكمة عبر التاريخ ومتواترة في الزمان والمكان، كما أنها تتسم بالتغير نحو أنماط جديدة تصبح شائعة بعد ذلك. وإذا كانت فيما سبق محاولة لوصف الثقافة من وجهة نظر الأنثروبولوجية فسوف نجد أن هذا المفهوم قد تداخل في كثير من العلوم كالتاريخ وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلوم الطبيعية والبيولوجية والتربوية فضلاً عن الآداب والفنون.

ويصف المؤرخون مثلاً ثقافة عصر معين بما هو شائع ومتكرر ومطرد في فترة زمانية معينة فيما يعرف بالزمان الثقافي، وترتبط الثقافة بمسميات حضارات معينة كالثقافة الفرعونية أو البابلية أو الإسلامية أو العربية. وتستعمل في التمايز الجغرافي فيما

يتواتر ويشيع من مصطلحات الفكر والاتجاهات فى مساحة جغرافية معينة، كأن يقال الثقافة الريفية أو الحضرية أو البدوية، أو فى التمايز الاجتماعى للتعبير عن الثقافة الطبقية لمختلف الشرائح الاجتماعية، أو كثقافة الأغنياء، والفقراء، باعتبارها ثقافات نوعية داخل الإطار الثقافى العام.

ولدى علماء الآثار يجرى التركيز على ثقافة ما خلفه السلف من الآثار ومعداتها وأدواتها المعيشية وطقوسها المتمثلة فى معابدها وتماثيلها ونقوشها Artifacts. وكذلك يرى هربرت ريد Herbert Read مؤرخ تاريخ الفنون حين يشير إلى مفهوم ثقافة القوارير والأوعية Culture of pots and pans كدلالات على ثقافة قوم من الأقوام. وهناك مسميات الثقافة الغربية، والثقافة الشرقية، أو الشرق أوسطية، إلى غير ذلك من التقسيمات الكلية للحضارية.

ويأتي بعد ذلك أعم المستويات تجريداً فى مصطلح الثقافة الإنسانية فى الفكر الفلسفى بأنماط حياتها وقيمها العليا، وما تشترك فيه مختلف الشعوب والأجناس بحكم كونها إنسانية تتمايز عن بقية الكائنات الحية وذلك فى جوهرها وتواصلها اللغوى، أو فى تجاربها وخبراتها المتماثلة فى جذورها، ومرتكزاتها الروحية والإنسانية. ومن منظور الاقتصاد السياسى هناك ثقافة الرأسمالية وثقافة الاشتراكية وثقافة الليبرالية، وثقافة الطريق الثالث.

ومع المدرسة التحليلية لعلم النفس تبرز الثقافة فى ميكانزمات التكيف النفسى التى تفرضها معطيات الثقافة وما يرتبط بذلك من إعلاء وتسام أو كبت وإزاحة للغرائز. وفي علوم التربية يظهر دور الثقافة في عمليات التعليم والتعلم وتشكيل شخصية الفرد. والنظرة البيولوجية تعنى بأساليب إشباع حاجات الفرد البيولوجية ومقومات بقائه وتفاعله مع العلم الطبيعى. ويرى المشتغلون بالعلم عامة أن وظيفة الثقافة هى محاولات لتحويل فوضى التنوع فى الظواهر الطبيعية والتنوع فى سجل الحياة الاجتماعية إلى كون ثقافى Cos-mos of Culture، باتساقه وتشخيص مقوماته وعلاقاته. ومن ثم يمكن القول بأن ثمة ثقافة علمية وثقافة أدبية، قد تلتقيان وتتكاملان أو قد تتباينان وتختلفان. ومن التقسيمات القائمة أيضاً ما هو شائع من ثقافة عامة شاملة (Common) وثقافة شعبية (Popu-lar) ومعظمها شفاهي، وثقافة رفيعة (High) مما يجرى فى عالم الفنون والآداب ومنتجاته المبدعة. ويدخل فى هذا التقسيم عنصر أحكام القيم فى

نوعية هذه الثقافة، ووصف الإنسان بالمثقف حيث يشارك فى مجالات الاشتغال بالثقافة الرفيعة ومستويات إنتاجه فيها.

مفاهيم المدرسة الإنسانية:

ونختم هذه التعريفات ومناظيرها المختلفة بتعريف ممن ينتمون إلى التقاليد الإنسانية Humanists، ومنهم الفرنسى أندرى مالرو Andre Malrau حين يركز على جانب المعانى والقيم، وبأنه يمكن تلخيص الثقافة فى كونها «تجسيداً لمنظومة من القيم»، ويشاركه فى ذلك أورتيجا Jose Ortega Y Gasset الإسبانى حين يشير إلى أن الثقافة «منظومة من الاتجاهات والقيم التى لها معنى، وتتسم بالاتساق والكفاءة ورصيد من الحلول. لقد وجدت ولاتزال توجد ثقافات عديدة»، ومع هؤلاء يأتى البريطانى ت.س. اليوت T.S.Eliot ليؤكد بأن الثقافة «هى كل ما يجعل للحياة معنى». والقيم والتقاليد والمعتقدات الثقافية قابلة وخاضعة للتغير، وليس كل الموروثات صحيحا بإطلاقه، مما يتطلب فرز مكوناته وتبين مرتكزاته الأيديولوجية - كما يقال - وبخاصة مضمون المعانى والرموز المرتبطة بمصادر القوة والسلطة. وأهمية هذا النقد والفرز تكمن فى أنه حين يتمكن الناس من كشف جذور تلك التقاليد الثقافية وتداعياتها السلطوية، وتشخيص أساليب التواصل المشوه فيها، تبدأ عملية تحررها من محددات وقيود الافتراضات القديمة، والتوجه إلى آفاق جديدة من المعانى والقيم الثقافية، مغايرة قليلاً أو كثيراً عن رصيد موروثات الحاضر.

وفى البحث عن مشروع متطور وجديد للمحور الثقافى وفى الأنشطة المجتمعية التنموية يتبلور موقع فى مكوناته يعرف بالثقافة الرفيعة، تتسم بقدرات النقد والتجديد والإنشاء والإبداع، بمختلف وسائل التعبير والفعل. ويتجلى ذلك فى المعانى والتوجهات الجديدة فى مجالات إنتاج الآداب والفنون والعلوم وإعادة قراءة الموروثات، وفى تطوير اللغة ذاتها، وفى التربية والتعليم، ووسائل الاتصال الإلكترونية، والإعلام، والمكتبات، وفى مكونات والخصوصيات الثقافية العربية، والأمن الثقافى وحقوق الإنسان وحرياته، إلى جانب الصناعات الثقافية من صناعة الكتب، ومختلف وسائل النشر، والتشريع الثقافى.

ويقال كذلك إن محور الثقافة هو طريقة الحياة التى يتم الاصطلاح على تجسيد معتقداتها وقيمها ومعانيها فى الممارسات الحالية (بالفعل)، فإنها تمثل فى الوقت ذاته مشروعاً مستقبلياً (بالقوة) لممارسة الحياة، حين تشبع ثقافة النقد للحاضر، تطلعاً لقيم ومعان

جديدة، وإجابات مغايرة للسيرورة الراهنة. وحينئذ يتم فرز مكونات المحور الثقافي وعلاقاته مع المنظومات المجتمعية الأخرى، وما يترتب على ذلك من نقد لرتكزات المحور ودلالاته. ويحدث هذا التوجه من خلال ما تتمخض عنه مراجعة دروس الممارسة وتقويم نتائجها المعاشة استشرافاً لرؤية جديدة ومعانى متطورة متجددة.

ويجرى التطوير أو التغيير فى المنظومة القيمية للمحور الثقافى حين يحتد التناقض والتفاوت فى دلالات تلك القيم بين الشرائح الاجتماعية، أو المصالح الفئوية، أو مصادر القوة، أو بين السلطة والمجتمع، أو بين المتغيرات الداخلية والمتغيرات الخارجية، ومن ثم فإن العمود الفقرى الثقافى ليس (معطى) ثابتاً فى علاقاته مع أنشطة التنمية، لكنه يتحرك معها كما تتحرك معه. وبهذا يتميز المحور الثقافى بالحركة الدينامية فى السياقات المجتمعية والتاريخية.

التنوع الإنسانى الخلاق:

وفى صدد تلك العلاقة بين الثقافة والتنمية والعولمة نسترجع ما ورد فى كتاب (التنوع الإنسانى المبدع) وهو تقرير اللجنة العالمية المعنية بالثقافة والتنمية، وهو المعروف بتقرير خافيير بيريز دى كويلار والذى صدر عن منظمة اليونسكو فى منتصف التسعينيات.

ويطرح هذا التقرير فى بدايته مختلف التعريفات لكل من التنمية والثقافة، فالتنمية المستدامة جوهرها التنمية البشرية «وهو الغاية القصوى للتنمية، كما أنه من أهم الوسائل المؤدية إليها».

بيد أن التغير فى مفاهيم التنمية وديناميتها وتحدياتها الكوكبية، أدى إلى أن يطرح السؤال ضمن مجموعة الأسئلة التى تواجه البشرية فى اليوم والغد، وهو ما ورد فى فاتحة ذلك التقرير (هل الثقافة مظهر للتنمية أو وسيلة لها أم هل الثقافة غاية وهدف للتنمية التى تفهم على أنها ازدهار للوجود البشرى) والإجابة فى ضوء ما سبق أنها غاية وهى وسيلة، بيد أن منظور الغاية والهدف هو الذى يركز عليه هذا التقرير باعتبار الثقافة غاية عليا، وليست مجرد وسيلة تراتبية من وسائل التنمية حين يقتصر الحديث على الأنشطة الثقافية ضمن مشروعات التنمية، فهى التى تعطى بقيمها وتوجهاتها معنى لوجودنا فى مختلف جهودنا الإنمائية. فالثقافة على حد تعبير التقرير هى التى «توضح كيف ينتمى الناس إلى الطبيعة، وإلى الأرض وإلى الكون والتواصل بينهما». وكل نشاط إنسانى تحدده فى نهاية المطاف عوامل ثقافية لذلك «لايجوز أن تفسر الثقافة بكيفية تقتصر بها على دور أداة «تعزز» غاية أخرى أى اقتصارها على ما عرف بالأنشطة الثقافية، كما لا

يجوز تعريفها بحيث تستبعد إمكانات نموها وتطورها، ولا يجـوز إعطاؤها معنى يدل على الصيانة المفرطة كالتأكيد فى تعبير الحفاظ على الثقافة وصيانتها. والثقافة بخلاف البنية الطبيعية.. هى ينبوع تقدمنا وإبداعنا وعلينا أن نمنحها دوراً بناءً إنشائياً وخلاقاً» ومن ثم تصبح التنمية فى هذا التصور معززة لقيم الحرية والمساواة، وحقوق المشاركة وواجباتها، ودعم مقومات العيش المشترك، وانعدام التفاوت بين الذكور والإناث، وغيرها من إشكاليات القيم الثقافية الهامة.

ويواصل التقرير تأكيده على أن الثقافة غاية وليست مجرد خادمة لغايات أخرى، بل إنها هى «الأساس الاجتماعى للغايات نفسها: التنمية والاقتصاد جزء من ثقافة الشعب فالاقتصاد جزء من ثقافة الناس، وليس إنتاج السلع والخدمات إلا بقيمتها فيما تسهم به من تمتع الأفراد بالحرية التى تمكنهم من اختيار أسلوب العيش الذى يرتضونه» والواقع أن التنمية دون اعتبار للقيم الثقافية تصبح تنمية بلا روح .

ولاشك فى أن الغايات والمعانى أساس فى فاعلية كل جهد فى الحياة الإنسانية، حيث إن الإنسان يريد أن يكون لما ينتجه ويستهلكه ويفعله ويعايشه دلالة وهدفاً. وهو ذلك يتميز عن سائر الكائنات الحية التى تعتمد على غرائزها الفطرية غير المكتسبة.

وهذا الهدف متضمن فيما يستخدم من مصطلحات تبدو محايدة مثل ثقافة التكنولوجيا، وثقافة الإدارة، أو واضحة فى مصطلحات مثل الثقافة الرأسمالية ثقافة الطريق الثالث، ثقافة السوق، والثقافة العالمية. وربط الثقافة بتلك الأنشطة إنما يعنى التساؤل عن القيم والمعانى والتوجهات الدافعة إلى اختبار الاقتصاد أو التكنولوجيا أو الإدارة بصورها المعينة. والقيم الثقافية تكمن وراء هذه التساؤلات مثل لماذا، وكيف، ولصلحة من، وما التأثير المجتمعى.. إلخ.

وفى مجال عمليات التنمية وإجراءاتها وسياساتها ينبغى اعتبار الثقافة محوراً رئيسياً فى أهدافها وغاياتها بصفة عامة قبل أن تكون وسيلة. وفى تلك العمليات التنموية تتدخل القيم الثقافية فى : (١) صناعة القرار واتخاذه (لماذا)؟ (٢) وفى وسائل تنفيذ قرارات التنمية وسياساتها ومشروعاتها (كيف)؟ (٣) ومتابعة وتقييم الأداء (أى المعايير؟) (٤) وأخيراً توزيع عوائد التنمية ومغانمها وتضحياتها ومغارمها (أى أسس العدالة والإنصاف؟).

ثقافة العولمة والتنمية:

ومع ما سبق من مفاهيم ودلالات فى محور الثقافة مما يقتضى أن يؤخذ بعين الاعتبار فى عمليات التنمية ومعايير

أولوياتها وتقييم عوائدها، تطلبت المعالجة استكمال سياقات محور الثقافة في إطار ظاهرة العولمة وأبعادها المختلفة، ودون الدخول في هذه الظاهرة المركبة من أبعاد وقضايا، نود أن نشير إلى أن جوهر العولمة يكمن في تبني سياسات الاقتصاد الحر والسوق الطليقة، غير أن ما يترتب على مجمل حصادها، حتى في بعض آثارها العلمية والتكنولوجية، كان سلبياً على أوضاع الدول النامية. لقد أفرزت أزمات متعددة في سياق التنمية والمال والاستثمار، كما حدث في دول جنوب شرقي آسيا وفي البرازيل. أضف إلى ذلك ما نجم عنها من اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ومظاهر الاستبعاد الاجتماعي، واستمرار تدهور الظروف البيئية، وازدياد الفقر المادي والمعنوي لدى شرائح كثيرة من السكان، وصاحبها كذلك ما عرف باسم الاقتصاد الإجرامي في غسيل الأموال والفساد الأخلاقي والجشع المادي. وأحاط بذلك كله محاولة تشكيل الثقافات المتعددة وخصائصها المائزة إلى ثقافة موحدة monoculture، أي نحو ثقافة الاستهلاك والقيمة المادية للحياة، مما أدى إلى تفريغ العالم من المعنى، على تعبير روجيه جارودي، وحتى أصبحت الحياة ذاتها سلعة في كثير من مظاهرها.

وقد بلغ التعقيد والغموض في ثقافة العولمة مستويات لم تعدْ كثير من مصادر المعرفة العلمية كالاقتصاد والاجتماع قادرة على فهم مجرياتها، كما لو كانت نوعاً من «ألعاب القمار في كازينو العولمة» أو نوعاً من الأصولية العقائدية العالمية في السوق وتجلياته، لا تقل خطراً عن غيرها من الأصوليات المغلقة القاطعة في قواعدها وممارساتها. وكان من نتاج ذلك ظهور التفكك في النسيج الثقافي، وشيوع البطالة، وبروز مظاهر العنف، وسلوك الاغتراب لدى الأفراد في توزع انتماءاتهم بين الثقافات التقليدية والثقافة الموحدة، بل وإلى التنكر أحياناً لقيمهم الثقافية الوطنية.

ولاشك أن تأثير الفضاء المفتوح لكل الرسائل التليفزيونية عبر الأقمار الاصطناعية، وما تبثه من برامج معلوماتية وترويحية، وما تقدمه من نماذج وصور ذات صبغة سياسية، قد أدى عن طريق تشربها واستدخالها في الوعي واللاوعي إلى تكوين قيم مضطربة، وخطاب سياسي متحيز، وتوجهات تهدد مقومات المواطنة، وتشوه في الحق والواجب، والنافع والفاسد. وقد كانت رسائل المعلوماتية بكل مصادرها وأنواعها وسائط لمعارك ثقافية، وهي معارك بين الوطنية والقومية من ناحية، وبين عالم بلا هوية من ناحية أخرى، على حد عنوان كتاب د. حسين كامل بهاء الدين (الوطنية في عالم بلا هوية).

وفى مواجهة ثقافة العولمة وطغيانها بدأت تظهر توجهات لتغيير «قواعد اللعب» التى تفرضها الدول الثمانية أو ما عرف باسم (إجماع واشنطن) Washington Consensus، انطلاقاً من الوعى بأن ظاهرة العولمة قد أصبحت حقيقة موضوعية، وأن كثيراً من جوانبها قد تمت هندسته بتصميم من القوى العالمية المهيمنة، وأنه يمكن إعادة صياغتها لتعديل سياسات السوق التى يفرضها أصحاب تلك الهيمنة وسدنتها من المنظمات الدولية. ومن أجل ضمان تنمية مستدامة، بل من أجل الحفاظ على الحياة الإنسانية على سطح هذا الكوكب، تجىء مقاومة المجتمع المدنى على المستوى العالمى لمخاطر تلك العولمة. ولعل أبرز مظاهر تلك المقاومة ما عرف باسم «رابطة سياتل» التى بدأت بذلك الاحتجاج الصاخب فى مدينة سياتل نوفمبر ١٩٩٩، وتعددت مظاهراتها حيثما اجتمع أقطاب الرأسمالية المتوحشة فى دافوس وروما وجنيف وديربان. وتمخضت تلك الحركة عن تكوين (فريق عمل البدائل) -Alterna tives Task Force بقيادة (المنتدى العالمى حول الكوكبية «العولمة») -Inter national Forum on Globaliza-tion (IFG).

وأسندت إلى ذلك الفريق مهمة طرح توصيات واقتراحات لصياغة بدائل لمجريات العولمة الحالية. وقد تألف هذا الفريق من ممثلى جماعات وهيئات المجتمع المدنى السياسية والمدنية والعلمية والبيئية فى الولايات المتحدة وكندا وتايلاند وماليزيا والفلبين والهند. وقد استمر عملها لمدة عامين أعدت خلالهما مسودة تقرير (بدائل للعولمة الاقتصادية) وهو التقرير الذى عرض فى اجتماع بورتو اليجرو فى البرازيل عام ٢٠٠٠، والذى تم خلاله ما يشبه المحاكمة للدول الثمانى فيما يتعلق بديونها واحتكاراتها. ومن المنتظر أن يصدر التقرير النهائى للجنة البدائل خلال هذا العام. ويتضمن تقريرها ما يواجه مخاطر الليبرالية الجديدة فى (إجماع واشنطن)، ويتلخص مضمونه فى التحول والنقلة من حكومات تخدم المؤسسات المتعدية الجنسية إلى حكومات تخدم شعوبها، والسعى إلى وضع قواعد ومؤسسات جديدة تحقق احترام التنوع الثقافى وخصوصياته.

أما بعد:

يبقى بعد هذا الإطار العام لمحور الثقافة فى سياقات التنمية والعولمة، الحديث عن دور الثقافة والتعليم وعن الأزمة الثقافية العربية ومسئوليات المثقفين فى تلك السياقات. ونأمل فى متابعة تلك القضايا بمشيئة الله. ■



عالم باتريك بيسون

الكتـــابة جنون..

القـــراءة إدمـــان..



باتريك بيسون

بقلم

محمود قاسم

للأسف فإن أحداً لم ينتبه إلى المقال الذي كتبه باتريك بيسون.. إنه المقال الأهم الذي كتب، حسب رأيَ، حول ما أصاب الثقافة من فيروس في بداية القرن الحادي والعشرين..

باتريك بيسون، في كلمات مختصرة، وقبل أن نتعرف عليه، هو واحد من أبرز الأدباء الفرنسيين في الثلاثين عاما الماضية، رغم أنه مولود عام ١٩٥٦ وهو روائي، وكاتب مقال، ومتحدث تليفزيوني، وله نشاط ثقافي واجتماعي متسع منذ بدايته كروائي عام ١٩٧٤، وهو حاصل على العديد من الجوائز الأدبية المهمة.

المقال منشور في مجلة لويوان «١٥ نوفمبر الماضي» تحت عنوان «ضد القراءة»، حيث قال في بداية الكتابة: إن القراءة صارت صرعة في فرنسا، وأن هذه الصرعة صارت جنونا، بل هي حالة مجنونة من الإدمان، وربما أكثر، فهي أشد أنواع الإدمان تمسكا بالإنسان.

نعم، هذا هو ما قاله بيسون عن «القراءة» فإدمان القراءة متمسك بالبشر بقوة لأن مدمني المخدرات يمكنهم التخلي عنها بالعلاج الطبي، ومدمنو الكحول، أو السجائر يمكنهم الاقلاع عما أصابهم، لكن إلا إدمان القراءة، رغم ما به من إيجابيات.

القراءة هي الخطيئة الأكثر جسامة الآن في الغرب، ومع ذلك فهي العادة المتأصلة التي لا ينتج عنها أي مضاعفات، بل لعل لها فوائد عديدة: في سن الحادية عشرة، فتحت كتابا، وأنا أدرك أن ما أفعله أمر سئ. ومع هذا استمررت في القراءة، وقد حاولت مراراً

أن اتوقف عن القـراءة واسـتطعت أن أمسك نفسي عنها أسبوعاً، وأحيانا عشرة أيام، لكنني ما كنت ألبث أن أعود إليـها، ضـعيـفا، لم يتمكن أحد من مساعدتي أو إنقاذي، وتركني زملائي في حالي. وقد استطعت التوقف عن الشرب والتدخين، كما أنني لم أتعاط المخدرات، لكنني لم اسـتطع التـخلص من سطوة القراءة، لم يكن أمامي سوى أن أمتثل، والتـهمت القراءة حياتي مثلما تلتهم حياتك إذا لم نجد سبيلا التوقف عن فعلها.».

وقـد حكى بيـسـون عن ولديه الصغيرين، بأن الأكبر يقرأ في كتاب واحد هو «سيد الخاتم» منذ عام ١٩٩٩، ومن البادي إنه لن ينتهي منه قبل أن يتزوج، ولعله سيموت عجوزاً دون أن يستكمل قراءته، أما الإبن الأصغر، فهو لا يطيق أن يسـمع عن شئ اسـمـه «كتاب».

قارئة .. باردة جداً

كـتـابة بالغـة المرارة عن أحـوال القـراءة، ومـصـيـرها الآن في أوروبا، وبيسون لم يكن يمزح فيما يكتب، كما أنه لم يكن يبـالغ، سـواء عن الإدمان المستشرى فى كيانه تجاه القراءة، أو عن حـال ولديه اللذين لايطيقـان ما يمكن تسميته بـاستيعاب الحضارة والتقدم». وقد جاء حديث الكاتب عما يمكن تسميته بالكتاب الورقي، وهو الذى لايزال فى قمة ازدهاره، رغم جميع الآليات الإليكترونية، الصـورة والكلمـة، التى تناقش بقـوة أشكال القراءة المألوفة.

نسـوق هذه الكلمـات التى كـتبـها بيسون، والتي تطابقت مع مـا كـتـبناه مراراً أن القراءة غريزة حضارية، وأنها إدمان أوروبى، باعتباره ميراثا ينتقل بين الأجيال، علما بأن الهلال قد نشرت مقالا عن بيسون في يناير ١٩٨٦، وهو واحد من كثيرين لم يسمع عنهم القارئ العربي، ولم تقم مؤسسة واحدة بترجمته، رغم مبيعات رواياته المتعددة وحصوله على العديد من الجوائز، وتجاوزته جوائز أخرى مهمة كان يستحقها عن جدارة.

حـالة باتريك بيـسـون هذه ليـست غريبة، وهناك عشرات الحالات المماثلة، ولعل أقربها إلي الجمـهور الفرنسي هو بطلة الفيلم الشـهيـر «القارئة»، فبطلة الفـيلم المأخـوذ عن رواية للكاتب ريموت جـات - هذه المرأة مـصـابة بإدمـان القراءة، إنها تعيش وحدها، لكنها ليست وحيدة تماما فأصدقاؤها الحقيقيون متجددون، إنهم موجودون فى الروايات التى تقرأها، وهي لا تكف عن القراءة منذ الصباح، وحتى تنام.

والقـراءة بالنسـبة لهذه المرأة هي «فعل مع الآخر، وتواصل، وهي لا تتلذذ مع الواقع قدر شعورها بالتلذذ مع من تعرفهم على صفحات الروايات، وعندما تتعرف على رجل، ويحاول ملامستها، فإنها لا تستطيع التواصل معه، وهناك مشهد بالغ الأهمية، فالفتاة متمددة فوق الأرض، وقد ارتدت سترة بيجامة، وفى حالة استغراق حقيقي فى صفحات كتاب، تقلب هذه الصفحات بتمعن، بينما الرجل يقوم بتقبيل أطرافها السفلية، ويحاول «تسخين» جسدها، لكن هذا أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لامرأة راحت مخيلتها مع ما جاء في الرواية..

ترى هل هي امرأة باردة، أم عديمة التـواصل؟ أم أنهـا ترى الحـقيـقـة فى التخيل، بينما الواقع غير ملموس بالنسبة لها ؟ إنه الإدمان المجنون الذى أصـاب بيسون، الذى قال فى مقاله إنه حاول التغلب على حالته، وبدأ يكتفي بقراءة كتاب واحد كل أسبوع، أى أكثر من

خمسين كتابا سنوياً لكنه اكتشف أن ما يحتاجه من الكتب، أكثر مما راح يفعل، فعاد مرة أخرى، إذن فالقراءة هنا ليست حالة إدمان خطير، بقدر ما هى «حاجة» إنسانية، أو هى غريزة يجب اشباعها من وقت لآخر.. هذه الغريزة تتهيج، وتحتاج إلى الاشباع، كلما مر المرء من أمام واجهات المكتبات، وتابع الإصدارات الجديدة.

احصاءات.. ملفقة

السؤال الذى لم يطرحه الكاتب، ولم يشر إليه، هو نوع الكتب التي يقرؤها. فباعتباره روائيا، فلا شك. فى أنه «يقرأ» الإبداع فى المقام الأول، لكن بالرجوع إلى هذه الروايات، والكتابات النقدية، فإن بيسون لديه خزانة معرفية ضخمة، تبدو زاخرة حين نقرأ رواياته الأخيرة، من طراز أه برلين و«تمثال القائد عام ١٩٨٨. والكسولة ١٩٩٠، وجوليوس واسحاق ١٩٩٢، والمرأة الثرية «١٩٩٣، وال بابان» ١٩٩٥ ثم علم القبلة١٩٩٧، «والجنس الضعيف ثم» أشقاء العزلة ١٩٩٨

رواية جوليوس واسحاق مأخوذة عن أحداث واقعية، تحتاج إلى من يكتبها أن يكون ملما بالحياة الاجتماعية والسياسية فى بولندا والأعراق التى عاشت فى أوروبا، وهاجرت إلى الولايات المتحدة، إنها رواية مزدحمة بالاشخاص، والسنوات، والمشاعر المتضاربة بين صديقين ربطتهما الشمولية فى الولايات المتحدة، واختلفا فقط فى التفسيرات. فصارا لدودين، رغم أن أحدهما قد تزوج من الأخرى..

كما أن بيسون حين أشار الى ولديه، لم يذكر البديل الذى يمارسه كل منهما، ولم يتحدث أن الكومبيوتر، أو أى وسائل اليكترونية أخرى كانت هى البديل الذى اختاره كل منهما، ولم يتحدث عن هواية بديلة، ومن الواضح أن بيسون لم ينظر قط إلى أن هذه الوسائل تشكل إدمانا، متناسيا أن الإدمان العصرى الذي أصاب ابناء هذا الجيل الجديد هو «الكومبيوتر».

كما لم يذكر بيسون أيضاً أن المدمنين بالقراءة يعانون منها، ويريدون التخلص منها، وأنهم فى حاجة إلى مصحات من نوع خاص، أو إلى مضاد القراءة، فهو يستعذب ما وصل إليه ويفخر بما يفعله، مغلفاً زهوه بعبارات

بطلة فيلم «القارئة»، مصابة بإدمان القراءة، أصدقاؤها الحقيقيون موجودون فى الروايات التى تقرأها





تعكس المعاناة..

يمكن الوقوف عند ما كتبه بيسون بمناسبة ما نشر في أوائل الشهر الماضي، يناير، حول الكتب الأكثر انقرائية في مصر، وأن كتب العلوم الاجتماعية تجيء، في المقدمة، تليها الكتب الدينية، ثم الكتب الأدبية، وأن القراءة بشكل عام، انحسرت بشكل ملحوظ، خاصة بالنسبة للقراءة في عام ٢٠٠٢، عن سابقتها بنسبة ١٥٪.

لم يشر التقرير الخاص بأحوال القراءة في مصر، عن آلية القراءة، فهل هذه النتائج صحيحة علمياً وكيف أمكن قياس معدل القراءة، هل حدث ذلك فيما يخص بيع الكتب، فبلا شك أن هناك مسافة واسعة بين شراء كتاب، ثم اقتنائه، أو قراءته، ولا شك أيضاً أن الكثير من الذين يمكن أن يجرى عليهم الاستقصاء، يلجأون إلى التباهي، والكذب على النفس وهم يجيبون على الاستمارات.

الكتب الاجتماعية .. أولا ؟!!

على كل فما نشر في هذا التقرير، حول حالة القراءة، وليس الإدمان، لا يمكن أن يعتد به بالمرة، فالغريب أن العلوم الاجتماعية ترتفع مكانتها في مصاف القراءة، لكن ما المقصود هنا بالعلوم الاجتماعية، هل يدخل فيها الكتب الدراسية التي تفرض على القراء، فهي بالطبع الأكثر مبيعاً، بل إنها تنفد فور طباعتها خلال أيام من صدورها كما أن مكتبة الأسرة اهتمت بهذا النوع من الكتب أكثر من غيرها.

ونحن نسوق هذا الأمر، بمناسبة معرض الكتاب الخامس والثلاثين، فرغم كل هذه السنوات فإنه لم تصدر إحصائية واحدة عن الكتب المباعة، ثم عن المقروء بالفعل من هذه الكتب. وكل ما نلاحظه و ما تنشره الصحف من أرقام قد تكون غير صادقة، عن عدد الرواد في بعض الأيام، وهناك فارق واضح بين ارتياد المعرض، وشراء الكتب، وأيضاً بين حضور الأنشطة المختلفة، وقراءة الكتب، ولننظر مثلا إلى رواد ندوات كاتب وكتاب، ولا نعرف لماذا لم تقم جهة مسئولة واحدة برصد هذه الحالات بجدية، وعمق

شيء آخر، نريد أن نسوقه في نهاية المقال، فلا شك في أن «حالة» الاعتراف التي أصابت بيسون، تشكل ظاهرة خاصة ببلاد تزدهر فيها صناعة النشر بقوة، وبالتالي فإن اقتناء الكتب أمر هامشي قياسا إلى قراءتها، ويمكن للمرء أن يلاحظ ذلك من خلال ما تعرضه أسواق الكتب القديمة في المدن الأوروبية، حيث تبدو أوراقها المستخدمة، وكأن من كان يملكها أولا أو ثانيا، قد قرأها بالفعل.

هذه الحالة التي أصابت بيسون لم نسمع قط أنها أصابت كاتباً عربياً، فالكثيرون يعتبرون القراءة «أمراً» عاديا لكنها ليست إدمانا.. ولم تعرف الصحافة العربية قارئا مدمناً كتب عن القراءة، بنفس التعبيرات التي تحدث عنها بيسون. ■

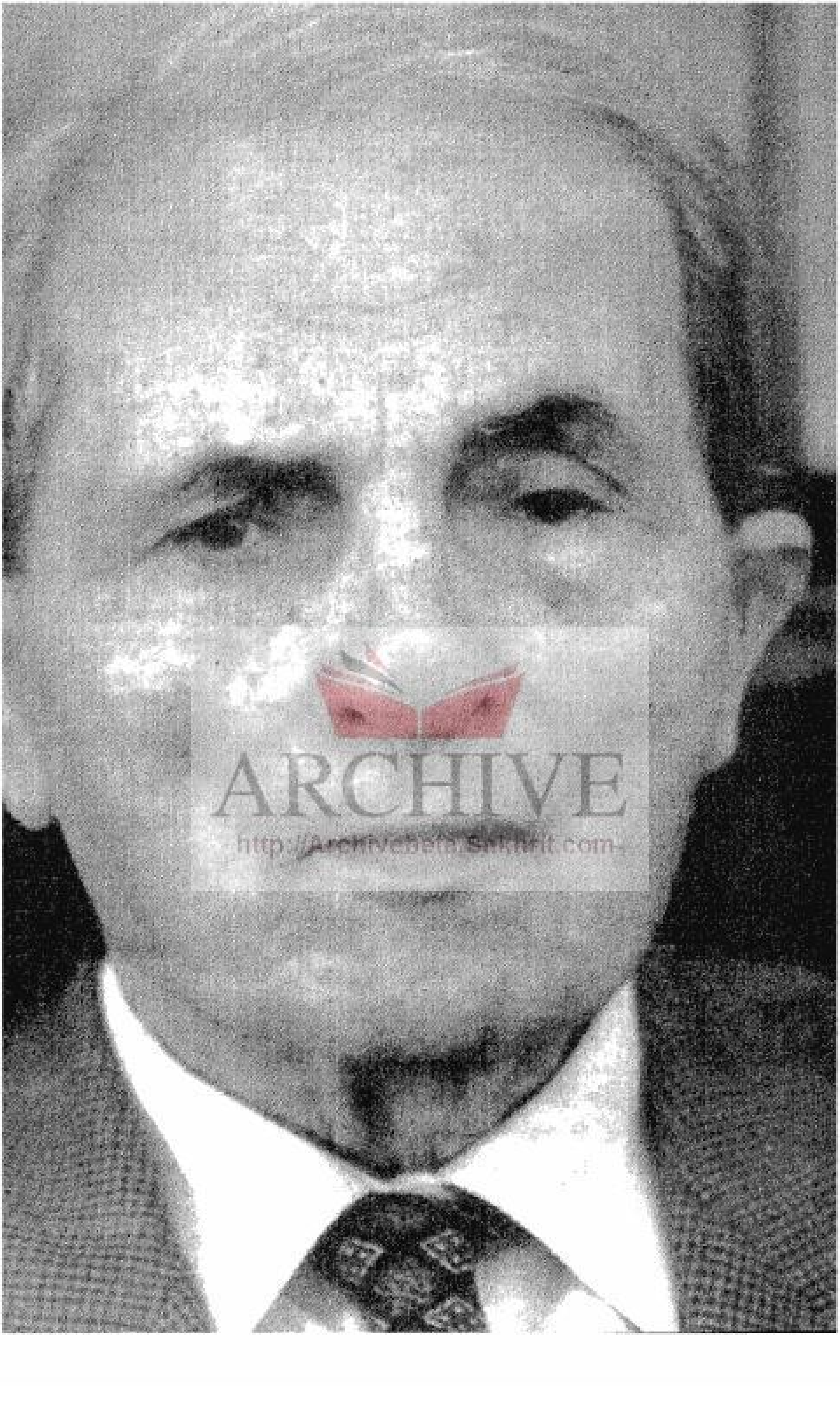
شوقي ضيف ومعجزات القرآن



بقلم
د. محمود على مكى



أستاذنا الجليل الدكتور شوقي ضيف - مد الله فى عمره - يمثل فى وسطنا العربى الثقافى والأكاديمى ظاهرة فريدة تستوقف النظر وتستثير العجب والإعجاب. فهو قد جاوز من عمره الذى بارك الله له فيه سنيه التسعين، ومع ذلك فإن عطاءه لم يتوقف منذ أن نذر نفسه لخدمة العلم على مدى السنوات الستين الماضية، وكأن التقدم فى السن لم يزده إلا شباباً وحيوية وقدرة فائقة على العمل، وكأن مرور الزمن يجرى فى عروق قلمه كل يوم دماءً فتية جديدة. لقد عرفناه أستاذاً فى الجامعة، يحاضر فى كل فروع العربية على تنوعها واختلافها، من أدب ونقد وبلاغة ونحو وعلوم إسلامية، وكأنه إذا تناول كلاً من هذه الفروع لم يتخصص إلا فيه، وعلى يده تخرجت أجيال متعاقبة من تلاميذه يعدون بالمئات من سائر أنحاء الوطن العربى وغير العربى، وظل حتى سنوات قليلة مضت يباشر التدريس فى الجامعة تطوعاً واختياراً. ورأيناه منذ انتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية يواصل عمله فى إدارة هذه المؤسسة وإثرائها ببحوثه فى نشاط لا يعرف الكلل، وعرفناه مؤلفاً يجمع إنتاجه بين الغزارة والتميز، ويكفى أن نشير إلى المجلدات العشرة التى أرخ فيها للأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى عصرنا الحاضر، إلى غير ذلك من كتبه.





وهو في كل ذلك ملتزم بما أخذه الله على العلماء من ميثاق بأن ينشروا العلم وألا يكتموه.

آخر ما أصدره من مؤلفات، كتاب «معجزات القرآن» الذى نشرته دار المعارف في أكثر من مائتين وخمسين صفحة. وعناية شوقي ضيف بالتأليف في ميدان الإسلاميات ليست أمراً جديداً، وإنما هو اهتمام يرجع إلى سنوات طويلة مضت، منذ أن كان يدرس في الجامعة تفسير القرآن ومذاهب المسلمين فيه في الخمسينيات من القرن الماضي، فقد بدأ بكتاب في تفسير سورة الرحمن وعدد من السور القصار، ثم أتبع ذلك بتفسيره «الوجيز» للقرآن كله في أكثر من ألف صفحة. وقد كان عمله في خدمة كتاب الله نابعاً من تدين عميق وفكر مستنير، إذ إنه مؤمن بأن الجمع بين هذين الجانبين هو الذى يكفل تقدم المجتمع الإسلامي المعاصر.

● يرفض شوقي ضيف تكلف أصحاب اتجاه تفسير الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

ولم تقف إسلاميات شوقي ضيف عند جهده في التفسير، فقد عني أيضاً بتحقيق اثنين من أجل كتب التراث الإسلامي، هما «السبعة» لابن مجاهد في القراءات القرآنية، و«الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبدالبر النمري الأندلسي، وهو في سيرة الرسول «صلى الله عليه وسلم»، ثم أتبع ذلك بأربعة كتب تعد معالم مشرقة في مسيرة شوقي ضيف العلمية، أولها «عالمية الإسلام» في بيان تعاليم الإسلام بصفته رسالة موجهة للناس كافة، تكفل لهم السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وثانيها «الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة»، وفيه يشرح الأسس العقيدية الاجتماعية والأخلاقية للإسلام في صورة واضحة دقيقة لما يقوم عليه التقدم الحضاري من فضائل وقيم في المفهوم الإسلامي، مستخلصاً ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. والكتاب الثالث «محمد خاتم المرسلين»، وفيه يقدم رؤية جديدة لسيرة الرسول «عليه الصلاة والسلام»، وهو حافل بنظرات لم يسبق إليها في تفسير العديد من مواقف الرسول وملامح شخصيته نبياً وقائداً وإنساناً. والكتاب الرابع في دراسة ظاهرة «القسم في القرآن»: أدواته ووظيفته وقيمته البيانية والجمالية.

★ ★ ★

ونعود إلى الكتاب الخامس، آخر ما صدر من هذه السلسلة الإسلامية، وفيه يتناول معجزات القرآن. وقد وزعه على سبعة فصول يتراوح كل فصل منها ما بين ثلاثين وأربعين صفحة. ونود أن ننبه هنا إلى الميزان الدقيق الذى يتحكم شوقي ضيف من خلاله في أحجام فصول كتبه وعدد صفحاتها، ثم في

تسلسل سياقات المباحث في الكتاب بصورة منطقية، بحيث يفضي كل مبحث إلى ما يليه، حتى كأنك تنظر منه إلى نهر يجرى في يسر وسلاسة من منبعه إلى مصبه، وأخيراً فيما آخذ به نفسه من الإيجاز وتركيز الأفطار ووضوح التعبير عنها حتى لا يسعك أن تحذف منه أو تضيف إليه. وهذه فضيلة كبرى ندعو من يدرسون نتاج شوقي ضيف الفكرى إلى تأملها واستخلاص العبرة منها، فهي من قبيل السهل الممتنع الذي يعد نموذجاً جديراً بأن يحتذى فيما يمكن أن نسميه «حسن التأليف».

والفصل الأول يتناول معجزات كبار الرسل السابقين على الرسالة المحمدية، وهم: نوح ومعجزته في الفلك الذي نجى به المؤمنين من قومه من الطوفان، ثم إبراهيم والنار التي قذف به فيها كفار قومه، فأحالها الله برداً وسلاماً، وموسى وعصاه التي استحالت ثعباناً يلقف ما ألقاه سحرة فرعون من حبال وعصى تحولت بدورها إلى أفاعٍ وحيات، وأخيراً عيسى وكلامه في المهد ثم إبراؤه الأكمه والأبرص وإحياؤه الموتى. وحرص المؤلف في الحديث عن هذه الخوارق على بيان الملاءمة بين هذه المعجزات والجو الذي كان يسود مجتمعات هؤلاء الرسل، وما كان يأخذ بألبابها من ظواهر تعد من العجائب، مثل السحر في مصر الفرعونية على زمن موسى، ومن تقدم الطب في عهد عيسى. كما حرص على التنويه بتفاصيل في ذكر هذه المعجزات كانت مما أضافه القرآن الكريم ولم ترد في الكتب السماوية السابقة في نصوصها التي وصلت إلينا.

معجزة الإسلام

وينتقل المؤلف في الفصل الثاني إلى معجزة محمد «صلى الله عليه وسلم»، وهي تختلف عن معجزات الرسل السابقين، فهي ليست خوارق للطبيعة مما قد يبهر الأنظار ثم يزول أثرها بعد ذلك. معجزة محمد كانت تتسق مع رسالة الإسلام التي تكمل الرسالات السابقة، وتهدف إلى إصلاح سلوك الفرد وتبشر بسعادة الجماعات الإنسانية في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم إنها تلائم ما بلغته الأمة العربية والأمم المجاورة من رقى عقلي، ولهذا كانت معجزة الإسلام هي القرآن، وإعجازه كان معنوياً يدعو الإنسان إلى إعمال ما وهبه الله إياه من منّة، وهو العقل المتدبر الذي بوسعه أن يصل إلى التوحيد الخالص والإيمان القادر على تحرير الإنسان من عبودية التقليد وأغلال الخرافة.

ويمضي الفصل الثالث في بيان جانب من جوانب المعجزة القرآنية، متمثل في تحديه للعرب بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن، فيتناول ما نادى به بعض علماء السلف من القول بـ «الصرفة»، ومنهم النظام والأشعرى وابن حزم. والمقصود بهذه المقولة أن العرب كانوا قادرين - من الناحية النظرية - على الإتيان بما يقارب القرآن في بلاغته لولا أن الله تعالى سلبهم هذه القدرة و«صرفهم» عنها، وهي مقولة ينكرها شوقي ضيف ويفند ما احتج به أصحابها، ثم يذكر وجهاً ثانياً من الإعجاز، وهو الإنباء بالغيب. ويضرب على ذلك أمثلة منها تنبؤ القرآن بانتصار المسلمين على

(١) يمكن أن نضيف إلى هذه التنبؤات إخبار القرآن بمصير أبي لهب في نار جنهم، ونحن نعرف أن عدداً من ألدّ أعداء الرسول انتهى بهم الأمر إلى اعتناق الإسلام، بل وحسن إسلامهم، مثل أبي سفيان بن عبدالحارث بن عبدالمطلب، ووحشي قاتل حمزة عم الرسول، وعكرمة بن أبي جهل، ولم ترد في القرآن إدانة لهم كما جاء بشأن أبي لهب، وكأن القرآن تنبأ ضمناً بحسن مصيرهم.

قريش في غزوة بدر قبل وقوعها بثماني سنوات، ومنها إخباره بانتصار الروم على الفرس «في بضع سنين»، وكان الفرس في وقت نزول آيات تلك النبوءة قد أوقعوا بالروم هزائم فادحة. ومنها أيضاً البشارة بفتح مكة قبل تحققه بسنتين (١).

والمعجزة القرآنية التي يتحدث عنها الكتاب في الفصل الرابع هي ما أضافه كتاب الله في قصص الرسول السابقين لمحمد «صلى الله عليه وسلم» مما لم يرد في التوراة كما وصلت إلينا في صورتها المحرفة. وفي هذه الإضافات أبلغ رد على ما أثاره بعض الطاعنين في الإسلام قديماً وتابعهم عدد من المستشرقين المحدثين في ادعاءات حول ما زعموه من أن الرسول «عليه صوات الله» نقل عن أحبار اليهود وغيرهم ما جاء في القصص القرآني. والقرآن يدحض هذه المزاعم في العديد من الآيات منها قوله تعالى: «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» (سورة الفرقان/ ٤-٥)، بل إننا نجد سير أنبياء بني إسرائيل المتقدمين كما صورها القرآن أطهر وأنظف بكثير مما ورد في كتاب العهد القديم التي لا تليق بصلحاء الرجال فضلاً عن الأنبياء المرسلين. وقد تتبع شوقي ضيف ما أضافه القرآن في قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام.



● لم تقف إسلاميات شوقي ضيف عند جهده في التفسير، فقد عني أيضاً بتحقيق كتب التراث الإسلامي

قضية الإعجاز العلمي

ويعالج بعد ذلك قضية من أخطر ما يدور حوله الجدل بين العلماء قديماً وحديثاً، وهي قضية «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم». وذلك أن بعض علماء السلف رأوا أن القرآن يتضمن كل صنوف العلوم الدينية وغير الدينية، وذلك من منطلق قوله تعالى «مافرطنا في الكتاب من شيء» (سورة الأنعام /٣٨)، فأقبلوا يتأولون آياته ويستخرجون منها معارف طبيعية وطبية ورياضية وفلكية، وتابع بعض العلماء المحدثين والمعاصرين هذا الاتجاه، حتى نسبوا إلى القرآن إشارات لما وصل إليه العلم الحديث من مكتشفات معاصرة. وقد بدأ هذا الاتجاه لدى الإمام الغزالي خصوصاً في كتابه «جواهر القرآن»، وتابعه على ذلك تلميذه الأندلسي أبو بكر ابن العربي (توفي سنة ٥٤٣) والقاضي عياض المغربي (توفي ٥٤٤)، ثم توسع في ذلك الإمام فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦) الذي تحول كتابه «مفاتيح الغيب» إلى موسوعة علمية، إذ تتبع الإشارات الكونية في القرآن، فاتخذ منها منطلقاً لما يشبه أن يكون كتاباً كاملاً في الفلك بحسب ما انتهت إليه المعارف الفلكية في أيامه، وكان يرى في اجتهاداته

تلك ما يقوى الإيمان ويثبته. ومضى فى هذا الاتجاه أيضا المفسر الأندلسى محمد بن أبى الفضل المرسى (توفى ٦٥٥) الذى قال إن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين، وإنه احتوى من علوم الأوائل «على الطب والجدل والهيئة - أى الفلك - والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة» كما أضاف إليها أصول صنائع وآلات لم يذكرها أحد غيره.

وأما المفسرون المحدثون فنجد فى طليعتهم الشيخ طنطاوى جوهرى (توفى ١٩٤٠م)، وتفسيره الذى ألفه فى خمسة وعشرين جزءاً يحمل عنوان «جواهر القرآن»، فى إشارة واضحة إلى اتجاهه الذى يماثل اتجاه الفخر الرازى فى الإلحاح على ما سماه «بدائع العلم» مستعيناً بالنظريات الحديثة فى الطبيعة والرياضيات وعلوم الحيوان والنبات والفلك والطب والتشريح والسحر والتنويم المغناطيسى.

وشوقى ضيف لا يتردد فى إنكار هذا الاتجاه، وبيان مدى تكلف أصحابه فى تأويل الآيات القرآنية. فهو يقول : «وفى الحق أن تفسير الفخر الرازى القديم وتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى الحديث يقنعاننا بأن التفسير العلمى للقرآن.. يخرجنا من دائرة القرآن إلى مباحث لا تفيدنا شيئاً فى فهم القرآن وغايته الإلهية الكبرى من هداية البشرية»، كما أنه «لا يستطيع أن يضيف لنا شيئاً فى معرفة أصل الكون وأصل الحياة».

ويعرض شوقى ضيف بعد ذلك للعلماء الذين اعترضوا على هذا الاتجاه «العلمى» فى التفسير، ومنهم الإمام الأندلسى إبراهيم بن موسى الشاطبى (توفى ٧٩٠) الذى وصف أصحاب ذلك الاتجاه فى كتابه «الموافقات» بأنهم «تجاوزوا الحد فى الدعوى على القرآن، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين». وهو يوافق الشاطبى على رأيه، فيقول إن الخطر فى ربط القرآن بالنظريات والمكتشفات العلمية يخرجه عن هدفه وتوجيهه الأساسى، لاسيما وأن حقائق العلوم قد تتغير من عصر إلى عصر. صحيح أن من الممكن توجيه بعض آيات القرآن مع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق الكون، غير أنه لا ينبغى التطرف فى هذا التوجيه، «وأولى من ذلك أن يوجه الإعجاز العلمى للقرآن توجيهاً آخر أكثر قبولاً، وهو نقله الأمة العربية من أمة بدوية إلى أمة ذات علم عظيم».

فالذى لاشك فيه هو أن القرآن فى دعوته المتكررة إلى إعمال العقل وتأمل آيات الله تعالى وحكمته فى خلق الكون واستكشاف مجاهله بعيداً عن الاعتداد بخوارق الطبيعة التى قامت عليها معجزات الرسل السابقين - هو أعظم ما قدمه الإسلام للبشرية، وهو الذى هيأ للمجتمع الإسلامى أن يكون له مكان الريادة فى تقدم العلوم بمختلف فروعها، حتى أسلمها إلى النهضة العلمية الحديثة والمعاصرة . (١).

ومن الواضح أن رأى شوقى ضيف فى هذه القضية قد لا يعجب الكثيرين من مسلمى اليوم الذين يفتتنون باجتهادات بعض العلماء المعاصرين ممن يتأولون إشارات القرآن فى الآيات الكونية، ويتلمسون موافقتها للمكتشفات الحديثة، وهى اجتهادات تشكر لهم بغير شك، غير أن كتاب الله ليس فى حاجة لإثبات حكمته إلى آراء علماء قد يصيبون وقد يخطئون.



ويستكمل حديثه عن هذا المفهوم لما سماه «معجزة القرآن الحضارية»، وهي أسمى وأوسع بكثير مما ذكرناه حول الإعجاز العلمي. فالإسلام تحول بالعرب من قبائل بدوية إلى مجتمع حضاري يقوم على إصلاح حياة الإنسان متدرجاً من الفرد إلى الأسرة إلى الأمة. ورسالته ليست موجهة إلى العرب، وإنما إلى المجتمع الإنساني بأسره. فالقرآن يحدد بدقة حقوق الفرد وواجباته في مجتمع يدين بالمساواة التامة بين أفراده على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، بل ويتسع أيضاً لمن يخالفونه في الملة، فيعتبرهم أهل ذمة، وهو مجتمع يقوم على الشورى والتكافل الاجتماعي المستمد من تشريع الزكاة، ويدين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبإقامة العدل، ويأخذ بحرية العقيدة إذ يقوم على مبدأ واضح صريح : «لا إكراه في الدين»، وهو في ذلك يختلف عن المجتمعات السابقة التي أدت فيها الاختلافات الدينية والمذهبية إلى ألوان رهيبة من الاضطهاد وسفك الدماء، وهو يدعو إلى مكارم الأخلاق من وفاء بالعقود وأمانة وصدق وإخلاص نصيحة وحلم وعمل صالح. ولا يفوت شوقي ضيف أن يكرر في هذا الفصل ما سبق أن أشار إليه في الفصل السابق من عقلانية يسندها مبدأ الاجتهاد في الفقه في أحكام الدين والدنيا.

● المعجزة القرآنية كانت أبلغ رد على بعض الطاعنين في الإسلام

* * *

ونأتي إلى الفصل الأخير، وهو حول معجزة القرآن البلاغية. وقد استأثر موضوع الإعجاز البلاغي للقرآن بعناية علماء المسلمين قديماً وحديثاً حتى إن المؤلفات فيه تستعصي على الحصر، على أن شوقي ضيف - في توخيه الإيجاز - يكتفي بعرض أبرز ما كتب فيه. وهو يبدأ بعرض رأي الجاحظ (توفي ٢٥٥)، وهو أن إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه، أي حسن صياغاته وتراكيبه، ثم ينوه بآراء القاضي المعتزلي عبدالجبار بن أحمد (توفي ٤١٥) الذي ذهب في كتابه «المغني» إلى مفهوم مختلف للإعجاز القرآني معتمد على معيار «الفصاحة» التي يتفاضل بها الكلام، والفصاحة عنده لاتظهر في أفراد الكلام، وإنما في الكلام كله بالضم على طريقة مخصوصة، وبكيفية إعراب كل كلمة وحركاتها وموقعها. وعلى أساس رؤية عبدالجبار أقام عبدالقاهر الجرجاني (توفي ٤٧١) نظريته المشهورة في «دلائل الإعجاز»، إذ رأى أن السر في إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه الذي توخى فيه معاني النحو. وقد كان شوقي ضيف أول من نبه إلى ما يدين به عبدالقاهر للقاضي عبدالجبار، وتلقف كثير من الباحثين التالين منه هذه الفكرة بغير أن يشيروا إلى سبقه إليها.

(وهو سلوك يعد من آفات حياتنا العلمية المعاصرة).

وعلى كل حال فإنه يظل لعبدالقاهر الفضل فى تفصيل تلك النظرية التى أصبحت أساساً لنضج علوم البلاغة العربية من معانٍ وبيان وبديع، إذ استمد من آرائه كل من أتى بعده. ولهذا فقد أفاض شوقى ضيف فى شرح آرائه التى استكملها عبدالقاهر فى كتابه الآخر «أسرار البلاغة».

ويختم المؤلف هذا الفصل بعرض ما كتبه حول الإعجاز القرآنى مصطفى صادق الرافعى (توفى ١٩٣٨م)، وهو أوفى الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع. وفيه يستعرض آراء من تناوله من علماء السلف، ويثنّى على ذلك برؤيته الخاصة التى تقترب فى جملتها من رؤية عبدالقاهر الجرجانى فى تحليله لألفاظ القرآن بدءاً من أصوات الحروف إلى المفردات إلى الجملة ثم الجمل، والنظر فى روابط الألفاظ والمعانى، وطريقة النسق، ووجوه الحذف، والإيجاز والتكرار، والوصل والفصل، حتى لا يمكن أن تجد فى النص القرآنى كلمة يمكن أن تبدل بغيرها.

إننا حينما نتأمل هذه الصفحات الأخيرة التى أشاد فيها أستاذنا بجهد الرافعى رحمه الله لايسعنا إلا التنويه بفضيلة أخرى له. فشوقى ضيف على الرغم من نقده المتزن الهادىء لبعض التفاصيل فى كتاب الرافعى فإنه عرف كيف ينصف ذلك العالم المظلوم الذى أخملت ذكره خصومته لبعض أعلام الوسط الأدبى فى أيامه مثل طه حسين والعقاد.

* * *

وأمر آخر جدير بالثناء، هو إخراج الكتاب فى الصورة الأنيقة التى أصدرته بها دار المعارف، وإن كانت قد وقعت فيه بعض الأخطاء المطبعية القليلة التى ننبه إليها حتى تتدارك فى الطبعات التالية.

- ومنها أخطاء فى بعض التواريخ :
- ص ٥ ، ص ١٦٥ : وفاة الشاطبى سنة ٩٧٠، والصواب ٧٩٠
- ص ٧١ : وفاة ابن حزم الظاهرى سنة ٢٥٦، والصواب ٤٥٦
- ص ٨٦ «ليعلما أهل المدينة القرآن ويفقهانهم فى الدين» : الصواب «يفقهاهم».
- ص ١١٦: «أنه - أى إسماعيل - رزق اثنا عشر ولداً» . الصواب «اثنى عشر».
- ص ١٢٦: «فقال لهما: ادعوانه لنقدم له طعاماً» . الصواب «ادعواه».
- ص ١٣١: «وانفرج - البحر الأحمر - لهم - لبنى إسرائيل - عن طريق عبره من الشاطىء الشرقى فى مصر إلى الشاطىء الغربى من سيناء». الصواب «... من الشاطىء الغربى .. إلى الشاطىء الشرقى».

* * *

ونحن نهنىء أستاذنا الدكتور شوقى ضيف على هذا الكتاب الجليل، وندعو الله أن يجزل عليه ثوابه، ويكتبه فى ميزان حسناته، إنه سميع مجيب الدعاء. ■

(١) ينوه شوقى ضيف هنا - فى حرصه على نسبة كل رأى إلى صاحب الفضل فيه - بدراسة لواحد من نجباء تلاميذه، وهو الدكتور حسين نصار الذى ناقش أيضاً تلك القضية فى كتابه «الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم» (ص ١٥٢ - ١٥٣) . ورأيه فى هذا الكتاب يتفق مع رأى شوقى ضيف .

من غرائب المجتمع

مضحكات ومبكيات

بقلم
د. محمد رجب البيومي

وهل تكون المآتم الحزينة مسرحا للمضحكات؟ تلك مفارقة مذهلة حقا اذا كانت كذلك، ولعلها بعض ما عناه ابو الطيب حين قال:

وكم ذا بمصر من المضحكات
ولكنه ضحك كالبكا!

لقد كتبت عدة مقالات حول ما يبدو في المآتم المصرية من المضحكات، وآخرها ما نشرته في صحيفة «صوت الأزهر» تحت عنوان (إعلانات التعازي) وكنت أظن أني أفرغت كل مافي نفسي فما بي من حاجة الى إعادة القول. ولكن حادثا طريفا حتم علىّ أن أعود الى الموضوع من جديد، فقد رأيت ألا أحرم القارئ من طرافته النادرة، وللقارئ حق لا يغيب.

كان أحد المديرين العاملين في وزارة كبيرة، ينتظر رحيل والده المريض عن قريب، وحين جاء النعي، وتأكد الخبر استدعى سكرتير مكتبه، وأمره أن يتصل بكل مدرسة تتبع إدارته، ويطلب منها أن تكتب نعيا يحمل التعزية الصادقة لحضرته وعدد أسماء المدارس طالبا أن يكون النشر بالأهرام، وأن يتتابع في عمود واحد ليقع موقعه من التقدير. ولكن السكرتير فوجئ بمن يدعوه الى القرية لارتحال والده المفاجئ، فشغل من الهم بالأمر وتوجه ليتلقى العزاء في أبيه حين يقف مع أقربائه في صف التشييع، وسافر الذي ترقبنا ظهور التعازي الصادقة فلم ير شيئا، وضاعف من لوعته أن حديثه قرين أحد زوجته، وهو مأمور بأحد المراكز قد قام بالترضية الواجبة، وظهر العمود البالغ في الأهرام يحمل التعازي لسيادته لتتضاعف الآلام تضاعفا لا مزيد عليه ولم يحق البقاء حتى تنقضي الأيام الثلاثة، وحين حضر الى مكتبه سأل عن السكرتير فعلم أنه في القرية نظرا لوفاة أبيه! وكان في ذلك ما يشفع له لدى من يقدر مشاعر المرؤوسين، ولكن المدير اشتعل غيظا وأصدر أمره بنقله الى مكان آخر في غير مقر الإدارة بعد أن كان صاحب الحظوة الفائقة والتقدير المعجب.

إن الاهتمام الكبير بهذه المسألة الصغيرة من كبار القادة في الإدارات المختلفة، يذكرنا بحقيقة البدء في أن الارتقاء الى المناصب القيادية منذ قامت الثورة وكذلك التعيين في كثير من الوظائف لا يخضع الى الكفاءة الذاتية، بل الى «تقارير» داخلية، فكم من كفاءات أهدرت في الترقية وفي التعيين، وتقدم مكانها من لا يبلغ دونها في الدراية والإخلاص، لأن تقريرا مغرضا كان قد نال من المرشح المسكين بأنه رجعي أو إخواني أو شيوعي، فالي كل مسؤول [illegible]، وصحف وكل تقدم علمي



وهكذا، أخذت القيادات تمتلئ بالإمعات ممن لا يشتهرون بنباهة أو كفاءة، فاذا رأينا ظواهر التفاهة والوصولية تنتشر في كل مجال، فقد عرفنا علة العلل، وهي سوء الاختيار .

لماذا الإسراف ؟

وقبل أن اذكر طرفا من التبذير المسرف في نفقات المأتم، أخالف بعض من يتحدثون عن هذا الموضوع من مدرسي علم الاجتماع حين يرجعون به الى شعائر إسلامية تجيز ذلك في وهمهم وهذا هو الخطأ بعينه لأن رحلة الميت الى قبره في الشريعة الإسلامية لا توجب غير الغسل والكفن على الميت، ثم التشييع الى حفرة يوضع عليها ما يشير الى أنها قبر، وهذا كل ماجاء في كتب الفقه، وفي بلاد أخرى غير مصر يقتصر على هذه الأربعة! دون أن تقام السرادقات، أو يدعى المقرئون، إنما انحدرت هذه التقاليد من العصر الفرعوني. حين كانت الحياة الأولى في عرف المصريين مقدمة للحياة الثانية بعد الموت. وهي الجديرة بالاهتمام، لذلك أعدت الأهرامات لتكون مقبرة. والمصاطب لتكون مقبرة والتوابيت لتكون مأوى للموميات! والتحنيط ليحمي الجسم من الفناء! وأدوات الطعام والشراب، وحاجات الملبس والنوم تدخر في المقبرة الفسيحة لتجد الروح ما تطلب من الغذاء والشراب والكساء! وقد لاحظ المستشرق الانجليزي السير ادوارد وليم لين في كتابه «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم» ، أن ما شهده من تقاليد الجنائز وتشييع الموتى في عصر محمد علي تشابه في أكثره مع ما روى عن المصريين القدماء ! فتلطيخ وجوه النسوة بالطين، والصراخ والندب واللطم، والابتعاد عن الغسل بالماء وعن التنظيف إظهارا للحزن.. كل ذلك مأخوذ، وممتد من العصر الفرعوني، إذن فالمسألة ذات تاريخ بعيد ولا تمت للإسلام بشيء!

ونترك تقاليد ما قبل القرن العشرين الى القرن العشرين نفسه، لنشير الى مقارنة بين ماحدث في أوائله وبين ما انتهت اليه تقاليد المأتم في أواخره، وقد كتب الأستاذ القانوني الكبير أحمد فتحي زغلول باشا فصلا اجتماعيا شافيا يصور هذه المزعجات كما رآها في مفتتح هذا القرن، فعرفنا منه مالا نزال نرى بعضه الآن، وما حجبه الزمن بتقلبه السريع في مناحي الاجتماع، وإن كان الإسراف المبذر أمرا مشتركا بين العهدين، لأنه مظهر الأبهة الكاذبة. وأول ما سطره الكاتب الكبير هو مالاحظه عن العامة حين يزورون المريض في أيامه الأخيرة، إذ يوالون البكاء فيزعجونه

ويزيدونه مرضا على مرض! اذ ربما أمل الشفاء فأيأسوه! كما لاحظ أن القوم لا يدفنون الميت اذا كان من ذوى الثراء الا بعد ثلاثة أيام. حيث يقومون بنشر النبأ فى القرى المختلفة. ليحضر من المشيعين من يملئون السرادق الحافل، والطريق المنتهى الى القبر. وهذه العادة قد بطلت تماما، لأن انتشار الصحف صباحية ومسائية . جعل الإعلان يمتد الى أقصى الجهات فى مالايزيد عن يوم ! كما أن إقامة المأتم ثلاثة أيام تجمع عشرات الغرباء من الوافدين فيهيأ لهم الطعام والشراب والمثوى على مستوى يشرف عائلة الفقيد، هذه الإقامة بتكاليفها الباهظة ترهق وتزعج . وتلجئ الى الاستدانة فى كثير من الأحوال، فلا يكاد ينقضى المأتم، حتى يفاجأ أهل الميت بمصيبة ثانية هى مصيبة الدين الثقيل، وكيف يؤدى؟ وقد تباع الأرض فى سداده، فلا يكون للأيتام ما يكفيهم ضرورة الحياة!

ظاهرة الندابات

أما طوائف الندابات والمأجورات ممن يلطمن الخدود، ويشققن الجيوب ، وينادين بالصراخ المفجع، فأظن ذلك قد اختصر اختصارا بحيث لا تلحق بما سجله الكاتب في هوله المفجع، وهذا مما نحمده دون شك، ولكن اختفاء بعض هذه المظاهر، قد أعقب ظهور منكرات أخرى، أشد منها خطرا، لأنها مصدر اسراف بغيض يأكل اليابس والأخضر، كما أن خطرها قد انتقل من أقارب الميت الى غير الأقارب ممن يلزمهم نشر المواساة فى الصحف على نحو ما نشير اليه ببعض التفصيل، بموت الميت فيكون أول ما يفكر فيه ذووه بعد تهيئة القبر طبعا هو الإعلان فى الصحيفة اليومية، وكان الإعلان سهل التأليف والأجر معا قبل أن نعيش عصر الانفتاح، وقبل أن تتدفق الأموال فى أيدى من كانوا مستورين من قبل، ثم أرادوا أن يظهروا ما غرقوا فيه من نعيم مفاجئ؛ فكان إعلان الوفاة أحد مظاهر هذا الثراء، فهم لا يقنعون بسطور متواضعة كبقية السطور التى تمتلئ بها الجريدة، ولكن لابد من حيز كبير، ومن اطار ضخم يملأ نصف الصفحة وأحيانا يشغل فراغها جميعه، وتتصدره صورة الفقيد أو الفقيدة، مكبرة مضخمة، وقد تكون الفقيدة عالية السن، وقد شوه الكبر وجهها مما يدعو الى حجب رؤيته عن الانظار. ولكن القوم يأبون إلا أن يطالعوا القراء بما ينفرهم، وكأنهم يستفزون مشاعرهم بما يفعلون، وتأتي السطور المتعاقبة مطبوعة بحروف كبيرة كي تشمل الفراغ الذى لابد أن



يتسع ليبهر الأنظار، وكان العقلاء في الزمن الماضي يكتفون بذكر الأصول والفروع. اقتصادا وتواضعا، فأصبح المتباهون اليوم يذكرون الأصهار والأعمام والأخوال، وكأنهم يسجلون مفاخر أبطال سقطوا شهداء في حومة الدفاع، ثم يحوط الإطار الفخم عدة أطر صغيرة يركب بعضها بعضا، قدمها المواسون ردا على جميل سبق به أهل الميت، أو زلفى لبعض من وردت اسماؤهم في النعي، وكم تقلب كفا على كف حين ترى صفحة الأهرام ذات الأعمدة الثمانية قد شغلت فضاءها بالراحلة العزيزة وحدها، بما لم يهيأ لمثل ماري كوري وغيرها من الفضليات! وفي النعي يحدد مكان العزاء في موضع جهير، كي يتزاحم عليه المعزون، واذا كان هذا الموضع المختار مما يضيق بعدد الراحلين والراحلات، فلا بأس أن يرجأ الموعد يوما أو يومين استكمالا للصورة الرائعة التي يجب أن يشهدها الناس، فان حان الموعد أخذ المهتمون بالمظهر التافه يرصدون من جاءوا من الكبار رصدا دقيقا ليكون لهم مجال فسيح في الشكر التالي بمناسبة الأربعين! وقد يذكر في الشكر من لم يقم بالتعزية من الكبار اعتمادا على أنه لا يكذب أحدا يشكره! فأي مهزلة هذه؟!!

هذا ما يتعلق بالأسرة في هذا المجال، والمسألة لا تقف عندها، وما كان لها أن تقف في زمن التزلف والمحاباة، فقد وردت بالنعي أسماء شهيرة لبعض المرموقين من الرؤساء. وقد تكون قرابتهم قاصية، ولكنها حشرت حشرا، فلابد إذن من مشاطرة أصحاب هذه الأسماء في تعزيات خاصة ترسل الى الجريدة، تعبيرا عن المشاركة الوجدانية في هذا الخطب الجليل، لقد ذكر اسم الوزير أو المحافظ أو المدير العام أو وكيل الوزارة، وإذن فمن واجب كل ادارة تتبع هؤلاء الكبار أن تنهض بواجب المروءة تخفيفا لهول المصاب وبرح الفجيعة المشتعلة في قلب الرئيس الحبيب! ولن تكون التعزية في سطر أو اثنين أو ثلاثة بل لابد أن تكون في اطار بارز، وبحروف لافتة للنظر، هكذا يريد من دعا .. للنشر العاجل، وكل ذلك يتطلب أجرا باهظا، فمن أين يجيء؟ أيدفع من قام بالدعوة للمواساة؟ انه اذكى من أن يتورط في مليم واحد، ولكن الأمر سيظل مكتوما. حتى يجيء أول الشهر، فيفاجأ كل موظف في مدرسة أو مستشفى أو مصنع باقتطاع عشرة جنيهات من مرتبه الذي لا يكفيه عشرة أيام من أيام الشهر! فإذا سأل عن ذلك .. قيل انه اشترك في مواساة السيد

الوزير أو السيد المحافظ. أو السيد الوكيل أو السـيـد المدير العـام ، وهـو لا يعـرف شخصه، ولا يذكر أنه قابله مرة واحدة . فيعض على شفته، ولا يجد من يلتجئ اليه شاكيا، وقد يصرخ لجاره قائلا: انه اشترى الحذاء لابنه بالتقسيط. وأن ما حذف من مرتبه كان له موضعه المقرر من النفقات. فيجد الجار يشاركه بلواه، ويلعن أرباب النفاق من الوصوليين.

أذكر أنى كتبت معنى هذا الكلام فى جـريدة صـوت الأزهـر فى المقـال الذى أشرت اليه من قبل . فجاءنى من لا أعرفه من قبل وشد على يدى قائلا فى ألم : لقد خـصـمـوا منى فى شهر واحد مبلغـا للتعزية ومبلغـا لتهنئة محـافظ جدد له، ومبلغـا لشـراء هدية لمدير عـام رقى إلى درجة الوكيل! فليست التعزيات وحدها هى التى تروع! بل التهنئات!

نوادر العزاء

ومن النوادر أن يكتفى كاتب إعلان الوفاة ببعض الأسماء اقتصادا للنفقات، فلا يروق هذا من يتصلون بالميت من أبناء الأعمام والأخوال، ويأتون لائمين فى شبه غـضب مـتـوتر، فـاذا اعـتـذر الكاتب بالنسيـان، جـابهوه بأنه ترك الكثيـرين، والنسيان يعذر فى واحد، وهنا يضطر الى كتابة ملحق اضـافى تحت عنوان (سـقط سـهـوا) فـيـذكـر كل من تناسـاه عـامدا، والقـارئ الذى يطالع العنوان «سـقط سهوا» يعرف أن السهو غير وارد، وأن معركة كلامية اقتضت النشر السريع . فيعجب لعقول بلغت مبلغ الرجولة ثم هى لا تزال فكريا فى دور المراهقة! على أن النشر التالى لا يشفى الجراح، اذ وقر لدى هؤلاء التـالين، أنهم فى الدرجـة الثانية، كما صرح أحدهم بذلك، أفلو كان لدينا تربية اجتماعية سديدة أكنا نشغل خواطرنا بهذه التوافه التى تتكرر دائما دون احتشام!

ومن الطرائف . إن عــدت هذه طرائف، أن قريبا للمتوفى يحمل درجة (عميد) اذا ترقى اليها منذ أيام دون أن يعلم كاتب النعى خبر ترقيته، فذكر اسمه مقرونا بدرجة العقيد، فجاء صاحبنا ثائرا مهتاجا صاخبا، يقول : مـاذا يظن الناس عنى، وأقـاربى لا يعرفون من أنا؟ وثار اللجاج حتى لفت الأنظار فقام قروى ساذج يقول للعميد فى تبرم، افرض يا أخى أن اسمك لم يذكر . فهل ستقوم القيامة ، فضحك الناس فى مأتم العزاء!

وقد يقام للميت سرادقان، فى القرية وفى القاهرة، وطبيـعى أن يكتفى أهل القـرية بالسـرادق المنصـوب فى الليلة الأولى، تاركين لأهل القاهرة أن يقوموا



بالعزاء في جامع عمر مكرم أو سواه، ولكن أقارب الميت الأدنين يصرون على أن يذهب كل من ينتمي الى الأسرة الى القاهرة ليقف في صف العزاء في الليلة التالية ، ليملئوا الفراغ الذي يجب أن يكتظ حتى يزدحم، ولا تسل عن الموظف المسكين حين يستجيب مكرها فيتكبد نفقات الذهاب والإياب. ثم المبيت ببعض الفنادق اذ لا يسع المنزل القاهري هؤلاء الوافدين، ويصبح الصباح فيجر قدمه جرا الى قريته، وذلك كله ليقف في الطابور فيسلم على من لا يعرف. ويظل منتصبا كالشادوف!

وهل ننسى المقرىء الكبير. إن أهل الريف يرون من باب الوجاهة أن يكون قارئ الليلة من شيوخ الصف الأول ممن يقرءون القرآن في الإذاعة، ثم يعلنون ذلك في القرى المجاورة فتتدافع الجموع حتى تغص بهم الحواري والزقاق، والقارئ يعرف مكانته لدى هؤلاء، فيطلب من الأجر مايعتبر تعجيزا للكثيرين ، ولكنهم وراء الشغف بالمظهر الخادع يستجيبون ، ويدفعون الألفين والثلاثة في الليلة الواحدة! وهو لا يكاد يصدق! ومما علمته عن أحد هؤلاء الكبار أنه حضر قبل الغروب فقرأ (ربعا) واحداً ثم استراح إلى بعد صلاة العشاء وقد تزاحمت الحشود لسماعه فقرأ ربعا آخر . ثم اتجه للرحيل اذا أثبت وجوده الشخصي، وهذا ما يكفي في رأيه، ولكن أصحاب السرادق ثاروا عليه، وصمموا على أن يقرأ حتى ينتهي الحفل فقد أخذ ثلاثة آلاف من الجنيهات! وأصر الشيخ على الامتناع، ولكن شابا هدده بأنه سيحرق العربة (المرسيدس) التي جاء بها، لأنه لم يؤد واجبه، ورأى القارئ المرتبك أن الأمر جد، وماهو بالهزل، وقد تحرق العربة دون أن يعرف الفاعل. فيرجع على قدميه، ويفقد أضعاف ما أخذ. فاستكان، ورجع ليرتل، ولكن الاحترام مفقود! والشماتة واضحة!

ذكرى الأربعين

نسيت أن أتحدث عن يوم الأربعين، وعن إعلان الشكر الجامع في الصحف، اذا أن ذلك مما يكمل مظاهر الاحتفاء بالفقيد! وكلنا نعلم أن الفقيد قد ذهب الى ربه يتقدمه عمله، ولا يهمه أن يشكر الكبار أو الصغار، بل ذلك ما يهم الأسرة التي استجابت الى تقليد راسخ، ومن حقه أن يزول!

لقد فكر الأستاذ الجليل حسنين محمد مخلوف رحمه الله، حين كان مفتيا للديار المصرية في الحد من مظاهر التبذير والبذخ في مناسبات المآتم، فكتب مقالا بالأهرام يوضح ما سنه الشرع في هذا المجال داعيا إلى الاكتفاء به، ثم امتحن بفقد ولده وكان من رجال القانون النابهين فكتب في نعيه سطرا واحدا بالأهرام يقول فيه «احتسب حسنين مخلوف ولده فلان .

ولا مرد لقضاء الله. والعزاء بالمسجد، وتوافد الناس لتعزيته بالمسجد. فألقى محاضرة يدعو فيها الى نبذ مظاهر الترف عند الرحيل، وقال لقد ضربت المثل وكنا نأمل أن يكون لما قام به الرجل الكبير قولا وفعلا أثر قوى فى كبح جماح المسرفين، ولكن الطباع الراسخة لا تنتقل فى يوم واحد.

ومما نقرؤه بين الحين والحين حديث عن وصية الراحل بالاكتفاء بتشييع جنازته دون سرادق، ودون إعلان صحفي، وهذا ما يحدث فعلا، ولكن ليس من الضرورى أن يكون التزام السلوك الحميد وقفا على الوصية وحدها ، بل تجب الدعوة المخلصة المتكررة. حتى تصبح عادة متبعة! واعتقد أنها ستجد القبول اذا قام بالتنفيذ ذوو الشخصيات البارزة فى المجتمع، ومن لؤم بعض الناس أن يتساءلوا : هل أوصى الميت حقا بالاكتفاء بتشييع الجنازة دون سرادق؟ وهو تساؤل يفقد معناه، لأن من حق كل إنسان أن يسير فيما يعتقد صوابه، وقد رأى من أعلن الوصية أنه لم يضر بأحد، بل رسم نهجا يجب أن يتبع، فكيف نظن به الظنون!

كنت أسمع من بعض الأصدقاء أنه لايقرأ من الجرائد غير صفحة الوفيات، ويعلل ذلك بأنه هى الصفحة الصادقة التى لا تحمل أخبارا كاذبة، وقد جاءنى عشية فقال لى : إن الكذب تطرق الى هذه الصفحة أيضا ! فقلت وكيف؟ قال : لقد ازدحمت بالتعازى الكاذبة، لأن أرباب الأهواء قد جعلوا من الموت ذريعة للملق الرخيص، فلم تنج الصفحة من النفاق وصارت كغيرها سواء بسواء! قلت وأعجب شيء أن تكون التعازى للأحياء وحدهم، فقد يموت قريب من الدرجة الثالثة لبعض الوزراء والمحافظين، فتنهال التعازى مواسية داعية، ثم يخرج الوزير أو المحافظ من منصبه، ويأتى يومه الموعود بعد حين، فلا يسارع أحد بنعيه، ولولا أن الأسرة قامت بمنعاه لما سمع به أحد!! فأين الذين واسوه من قبل فى قريب بعيد يمت اليه بأوهن الأسباب! أليس فى ذلك عبرة لأولى الأبصار

لم آت بجديد قطعا فى كل ما ذكرت ، فالقراء يعرفون جيدا أنى لم أبالغ فى شيء، ولكنى رأيت أن أنفس عن صدرى بعض ما يتقد به من جذوات، اذ أجد شيئا من الراحة حين أطالع أصدقائى بما أكن، زاعما أنى أديت فرضا يجب أن أتخفف من وخزه الأليم.

كما قد حملت العبء ثم طرحته ..

وقد كان صخرا فوق صدرك جاثيا! ■



دائرة حوار

العقلانية

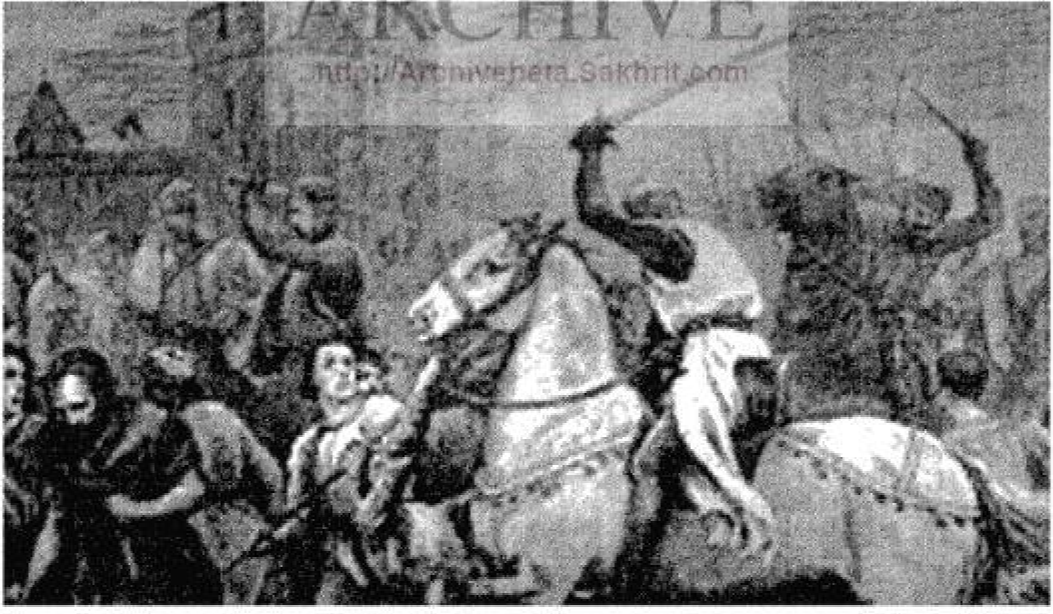
وتشوية الرموز الوطنية

بقلم
د. عوض الغباري *

محمود العالم: يخلط بين عبد الناصر الشخص والأسطورة!

مصطفى كامل: تابع للخديو عباس حلمي وخادماً للسلطان!

صلاح الدين الأيوبي: صنعنا منه بطلاً رغم قضائه علي الدولة الفاطمية!






مصطفى كامل


قاسم أمين


محمود أمين العالم

طالعت فى مجلة الهلال - عدد نوفمبر ٢٠٠٢ فى باب شخصية العدد مقالاً للدكتور صلاح قنصوه بعنوان : «محمود أمين العالم وتصعيد الواقع إلى مثال يحتفى فيه د. قنصوه بأستاذه العالم، وقد اندهشت لما جاء فيه من إسراف فى التأويل شوه تاريخ رموزنا الوطنية فى صدام لافت مع حقائق العلم والتاريخ والواقعية العلمية التى شاء د. قنصوه أن يفلسفها فجرد الشخصيات التاريخية البارزة مصرية وعربية قديمة ومعاصرة، من مضمونها سيرة شخصية أو رمزا جماهيريا.

* استاذ الادب بكلية الآداب -جامعة القاهرة

دائرة حوار

فى هذا المقال أكد د. قنصوه أن الأستاذ محمود أمين العالم اليسارى الملتزم بالنظرة الماركسية قد انحاز إلى مصالح الجماهير ومطالب الشعوب بانحيازه الصارم إلى جمال عبد الناصر خلافا للنظرة الماركسية التى لا تولى الفرد البطل تلك الأهمية الخارقة فى حركة التاريخ حيث يرى أن هناك اختلافا بين السيرة الحقيقية للشخصيات التاريخية وبين السيرة الخارقة التى تصنعها الشعوب التى تحول هذه الشخصيات إلى رمز يشكل آمالها وتطلعاتها، ويغدو هذا الرمز مستقلا عن الوقائع الحقيقية للسيرة الشخصية للأبطال التاريخيين مما يوجب الفصل بين السيرة الشخصية (الحقيقية) لهم وبين صنع الجماهير لرموزهم وصياغة هذه الرموز صياغة مثالية خيالية

ويرى د. قنصوه أن الأستاذ محمود أمين العالم قد استلهم روح الشعب فى انحيازه لهذا الكائن الرمزى الأسطورى لعبد الناصر حتى كاد يسقط الكائن الآخر التاريخى الشخصى من حسابه وتأملاته على حد تعبيره . وعد د. قنصوه هذا الموقف (للعالم) من عبد الناصر إيمانا وثقة ولعله حسن نية منه، إذ اعتقد بتجرده وإخلاصه، أن عبد الناصر محقق لنفس الأهداف السياسية التى شاركه فيها .

مصطفى كامل

ولبيان زيف ما بين الصورة الحقيقية والصورة المثالية الرمزية للبطل الجماهيرى، ولتأكيد أهمية الفصل بين السيرة الشخصية والرمز ضرب د. قنصوة مثلا بمصطفى كامل الذى جعل المصريون منه رمزا على المستوى السياسى بينما كان حسبما يرى د. قنصوه تابعا للخديو عباس حلمى، وخادما للسلطان العثمانى الذى أنعم عليه بالباشوية، إضافة إلى ما ذكره د. قنصوه من حملة مصطفى كامل المغرضة على الثورة العرابية ، واحتقاره للمصريين ضد زواج على يوسف من كريمة السادات لأن على يوسف من عامة المصريين الذين لايملكون شرفا أو حسبا يؤهلهم لهذا النسب الرفيع وقد ذكر د. قنصوه، أيضا أن سعد زغلول - وقد عاصر مصطفى كامل - كان يصفه بأنه «نصاب» وأن قاسم أمين كان متفقا مع سعد زغلول فى ذلك، غير أن قاسم أمين غيَّر رأيه هذا بعد وفاة مصطفى كامل لما رأى من أثر وفاته فى المصريين فذهب إلى أنه «موجد الحركة الوطنية فى مصر» فصدم سعد زغلول بهذا الموقف الجديد، خاصة أن مصطفى كامل كان قد ناصب قاسم أمين العداء فى حياته، وشن عليه حملة غير نزيهة فى جريدته اللواء

قاسم أمين

والذى حدث، فى تأويل د. قنصوه أن قاسم أمين قد رأى أن اهتمام المصريين بوفاة مصطفى كامل كان دليلاً على انتباه عام، وحياة جديدة للناس، وهذه قيمة تستحق الإعجاب وقد رأى د. قنصوه أن الذى حدث هو أن قاسم أمين قد أسقط السيرة الشخصية لمصطفى كامل ووقف عند الرمز الباقى الذى صنعه الشعب المصرى له. وإذا كان د. قنصوه بهذا التأويل قد أسقط مصطفى كامل سيرة شخصية ورمزاً شعبياً سواء، بسواء فإنه قد اكتفى بالإشارة إلى أن (العالم) قد فعل ذلك مع عبد الناصر (يعنى أسقط السيرة الشخصية له وأبقى الرمز)، ولكن د. قنصوه يؤكد أن الرمز الخاص بعبد الناصر لا يعنى أكذوبة ملفقة فيخالف بذلك تأويله نفسه الذى رأى من خلاله التناقض بين الواقع والمثال فى شخصية مصطفى كامل بينما لم يره فى شخصية عبد الناصر مع أن كلتا الشخصيتين يسرى عليهما نفس الموقف حسب منهج د. قنصوه ولعله بهذا التناقض يجامل أستاذه العالم الذى انحاز إلى عبد الناصر فلم يطبق عليه الحكم الذى طبقه على مصطفى كامل فى مخالفة لمنهجه الذى إرتآه من ضرورة الفصل بين السيرة الحقيقية والرمز الجماهيرى وبين الحقيقة والخيال، وانحياز الشعب إلى الخيال دون الحقيقة، وقد فسر د. قنصوه مواقف (العالم) من مثل موقفه هذا من عبد الناصر بأنها دليل على أن (العالم) ذو نزعة مثالية فلسفية تتسلل إلى ماديته أو واقعيته عبر نواياه النبيلة فلا يقف من العقلانية موقفاً نقديا بل يصعدها من مستواها أو دلالتها الإجرائية إلى مستوى المثل الأعلى فى تصعيد للواقعى إلى المثالى.

صلاح الدين الأيوبى

ونحن وإن كنا لا نقف من رموزنا التاريخية موقف التقديس الذى ينزهها عن الوقوع فى الأخطاء الشخصية والسياسية فإننا لا ندرى ما هى الوثائق التاريخية التى اعتمد عليها د. قنصوه فى رسم هذه الصورة الشائهة للزعيم مصطفى كامل؟ ويسرى هذا أيضا على موقف د. قنصوه من بطولة صلاح الدين الأيوبى حسب منهجه الذى إرتآه فى هذا المقال، وذهب فيه إلى أن الجماهير تقوم بتصعيد الزعماء المحبوبين لهم من المستوى الواقعى إلى المستوى المثالى الذى يزيف الحقائق زاعماً أننا صنعنا من صلاح الدين الأيوبى بطلاً على المستوى السياسى بينما هو، فى نظره الشخص الذى كتم آخر أنفاس الدولة العربية بقضائه على الخلافة العربية الفاطمية، وإلحاقه مصر بالدويلة التركمانية التى كان يعمل لحسابها فى الشام والجزيرة تحت إمارة نور الدين

بن زنكي وبهذا التأويل يبدو صلاح الدين في نظر د. قنصوه كأنه عميل أجنبي يعمل ضد الخلافة العربية، بل يرجع إليه الفضل، في رأى د. قنصوه في تمهيد السبيل لحكم المماليك في مصر حتى تسلم التركمان الجدد من العثمانيين مقاليد الحكم ولم يكتف د. قنصوه بذلك بل جعله مسئولاً عن استسلام الجماهير لرقاد طويل تخللته الكوابيس، ورغم كل ذلك صنع الشعب من صلاح الدين ناصراً للعروبة وبطلاً لها تترقب وصوله لتحرير الوطن العربي على حد تعبيره

وهنا تزداد الدهشة لأن د. قنصوه بذلك يصادم حقائق التاريخ، ويؤّل قيام الدول وسقوطها تأويلا لا يتفق مع منطق التاريخ وفلسفته فضلا عن اصطدامه بحقائق العلم التي ساقتها الشواهد التاريخية (الحقيقية)، إذ كيف يصبح صلاح الدين - وحده - مهما ألهم الشعب العربي من خيال - مسئولا عن بلاء العروبة من نهاية العصر الفاطمي إلى نهاية العصر العثماني وما صحبه وتلاه من تخلف وجمود في مصر؟ وماذا كانت حطين في هذا السياق العدمي ؟

إننا لا نستطيع الوصول إلى هذا الحكم الظالم لشخصية صلاح الدين الأيوبي تاريخيا، ومرجعنا في ذلك المؤرخون القدماء من الثقات مثل ابن واصل في كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب وأبي شامة في كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) النورية والأيوبية وابن شداد في كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» المعروف بسيرة صلاح الدين، وهي ليست سيرة فولكلورية، بل هي تأريخ لسيرة حياة صلاح الدين الأيوبي من شاهد عيان ثقة وقد اعتمد المؤرخ المعاصر جمال الدين سرور على هذه المصادر، وعلى المقريزي في «الخطط» وعلى غيره فذكر في كتابه (الدولة الفاطمية في مصر) أن مصر في مستهل العصر الفاطمي كانت تحتل مكاناً مرموقاً بين الدول المعاصرة لها، وكانت تنعم بالرخاء والاستقرار غير أن الأحداث التي طرأت على هذه البلاد أضعفت من شأنها، فقد اضمحل سلطان الخلافة الفاطمية، وأخذ نفوذ الوزراء في الازدياد، وأصبح في أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم، بل انصرف بعضهم عن الاحتفاظ بمظاهر المذهب الفاطمي، كما تنافس كبار رجال الحكومة الفاطمية على منصب الوزارة، واستعان بعض الطامعين في هذا المنصب بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى السيطرة على مصر، الأمر الذي مهد السبيل لزوال الخلافة الفاطمية هذا هو ما يتسق مع منطق التاريخ، ومنطق زوال دولة قيام دولة كما هي نظرية ابن خلدون

مؤسس علم التاريخ فى «مقدمته»لقد استعان الحكام الفاطميون المتنافسون على السلطة فى مصر فى أواخر دولتهم بالصليبيين مثل شاور - الوالى الفاطمى على الصعيد - الذى دعا جيوشهم إلى الحرب معه ضد منافسه ضرغام - أحد قواد الجيش الفاطمى - مما أدى إلى طمع الفرنجة الصليبيين فى مصر، واطلاعهم على ما وصلت إليه حالة هذه البلاد من الضعف والاضطراب، فتعددت غزواتهم، وأذلوا الحكام الفاطميين الذين استعانوا بهم، واضطروهم لدفع الأموال الطائلة لعقدالصلح معهم بعد أن شددوا الحصار على القاهرة، وهددوا بالاستيلاء على مصر .

وقد قام نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى- وقد استنجد بهم هؤلاء الحكام الفاطميون بعد أن أدركوا - أخيرا - خطورة الصليبيين على دولتهم فى مصر - بدور تاريخى مهم فى إبعاد الصليبيين عن مصر بعد حملات عديدة، وقد رحب المصريون بهم، ولخص الكامل بن شاور هذا الموقف التاريخى لنهاية الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية فى مصر وقد عزم شاور على الغدر بأسد الدين شيركوه الذى أنقذه، ولكنه خاف منه، ورأى أن يقتله بعد أن تصور نتيجة هذا الخوف أن شيركوه سيقتل الحكام الفاطميين جميعاً، فقال له ابنه الكامل : «لئن نقتل ونحن مسلمين والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج». وهكذا انتهت الدولة الفاطمية لضعف الخليفة الفاطمى، والعجز السياسى للخلافة الفاطمية، واستبداد آخر وزرائها بالسلطة، واستعانته بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه فمن هو العميل هنا أهو الذى استعان بالصليبيين ودعاهم إلى احتلال مصر، أم هو الذى حررها منهم ؟ وهل كان صلاح الدين - فى السياق التاريخى الذى عرضناه - هو الذى كتم آخر أنفاس الدولة العربية الفاطمية ؟ أم أن تداعيات التاريخ كما عبر عنها الكامل بن شاور أبلغ تعبير هى التى جعلت حكم الأيوبيين المسلمين لمصر أفضل من احتلال الصليبيين الأجانب لهم؟.

أما فيما يتعلق بما ذكره د. قنصوه من تمهيد صلاح الدين الأيوبى السبيل لحكم المماليك لمصر الذى أسلم بدوره إلى الحكم العثمانى البغيض وما تلاه من خمول وتخلف فى الحياة المصرية فإن ذلك الحكم يجافى حقائق التاريخ ، فتاريخ الأيوبيين والمماليك فى رأى د. قاسم عبده قاسم فى كتابه «فى تاريخ الأيوبيين والمماليك» يشكل وحدة تاريخية واحدة، وقد كان سقوطهما ، وفق مسبباته ووقائعه التاريخية المختلفة، تجسيدا لنهاية دور المنطقة العربية فى الحضارة الإسلامية فقد كانت الدولة

الأيوبية تجسيداً للاستجابة السياسية العسكرية التى فرضتها الحروب الأوروبية الصليبية طوال القرن الثانى عشر الميلادى فهذه الدولة لم تظهر فجأة من غياهب المجهول، كما يقول د. قاسم وإنما حلت محل الدولة الزنكية التى قامت بالدور التمهيدى الرائع فى التصدى للخطر الصليبى، وقام صلاح الدين فيها بإكمال هذا الدور فى توحيد العالم العربى فى مواجهة شاملة ضد الصليبيين حتى حرر بيت المقدس فى فلسطين من أيديهم فى موقعة حطين ثم دار التاريخ دورته فخسر خلفاء صلاح الدين دولتهم لصالح مماليكهم الذين استحقوا مكانتهم فى التاريخ حين جعلوا مشروعهم الأساسى الدفاع عن المسلمين ضد العدوان الصليبى المستمر، والعدوان المغولى الطارئ وقد اكتسبت دولة سلاطين المماليك مع دولة سلاطين الأيوبيين شرعيتهما من تحمل مسئولية الدفاع عن الأرض والمقدسات فى المنطقة العربية وبنهاية دولة سلاطين المماليك التى سقطت فى أيدى العثمانيين انتقل محور الفعل ومركز الدفع فى الحضارة الإسلامية من المنطقة العربية إلى الدولة العثمانية بجناحيها الآسيوى والأوروبى، وتحولت المنطقة العربية إلى منطقة تابعة بعد أن كانت مركز الحضارة العربية الإسلامية .

هذا هو تفسير التاريخ بمنطقه العلمى الذى قدمه د. قاسم استنادا إلى الوثائق التاريخية الأصيلة، ومن سياقه يتضح الدور الفاعل للمنطقة العربية بحضارتها الإسلامية حتى نهاية دولة المماليك التى انحسر الدور العربى بعد سقوطها فى براثن العثمانيين فأين دور صلاح الدين هنا فى استسلام الجماهير لرقاد طويل كما عبرعنه د. قنصوه ؟

أين العقلانية؟

وأين هى العقلانية التى قدمها د. قنصوه ببراعة علمية فلسفية رائعة فى هذا المقال ثم جافاها عند التطبيق على بطولة صلاح الدين ؟ إن المنطق العلمى والعقلانية والموضوعية المنهجية التى يمكن أن تتسق مع فكر د. قنصوه والتى خالفها فى هذا الحكم الجائر على صلاح الدين للأسف، تقضى بتجلى الدور التاريخى المهم الذى قامت به هاتان الدولتان (الأيوبية والمملوكية) فى الدفاع عن المقدسات العربية ضد أطماع الاحتلال الصليبى، كما تقضى بأن العروبة فقدت مكانتها فى تاريخ الحضارة بعد سقوطهما وحلول العثمانيين فمثلما ظهرت الدولة الأيوبية من طيات الصراع ضد الصليبيين فإن سقوطها جاء نتيجة لإخفاق الأيوبيين الأواخر فى توحيد الجهود ضد الصليبيين، كما رأى د. قاسم فبرزت قوة بديلة أثبتت أنها أكثر قدرة على

القيام بالدور التاريخي الذي كان مبررا لقيام دولة الأيوبيين من قبل .

لقد انصب الحكم الجائر للدكتور قنصوه على شخصية صلاح الدين من الناحية السياسية، ولم يتناول جانب السيرة الشخصية، ربما لأنه لم يجد خلافا حول عظمة سيرته كما أثبتها التاريخ، وهنا لا نجد وفق مقاله تصعيدا لشخصية صلاح الدين من المستوى الواقعي إلى المستوى المثالي لأن صورة صلاح الدين الرمز مبنية على سيرته الشخصية العظيمة التي لا خلاف عليها شرقا وغربا، ومن الأعداء قبل الأصدقاء.

أما الناحية السياسية التي انتقدها د. قنصوه في شخصية صلاح الدين فقد أشاد بها الباحثون الغربيون ممثلة في براعة إدارته لشئون الحرب والسياسة، وقد رأى ديفيد جاكسون مثلا أن صلاح الدين قد فعل ما استطاع به خلق الشروط التي أمكن في ظلها إحراز النصر وقد أورد د. قاسم رأيه هذا ورأي آخرين من الباحثين الغربيين في كتابه المشار إليه مؤكدا صحة هذه الآراء التي أبرزت الدور السياسي المهم لصلاح الدين، كما أكدتها المصادر العربية التاريخية الأصيلة وقد أورد د. قاسم أيضا رأي رنسيمان الذي قال : إن التاريخ لم يشهد حاكما في مثل قوة صلاح الدين على مدى القرنين السابقين له . ويقرر التاريخ كما رصده د. قاسم أن النتائج المباشرة لمعركة حطين كانت بمثابة كارثة كاملة على الصليبيين إذ لم تكن حطين مجرد هزيمة عسكرية للصليبيين مكنت المسلمين من تدمير أكبر جيش أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي على أرض فلسطين، «لكنها - فوق ذلك - كانت تتويجا لتوحيد الجهود السياسية والعسكرية في المنطقة العربية في سبيل هزيمة الصليبيين وقد كان الجهاد لاسترداد القدس هو مفتاح شخصية صلاح الدين كما قررت كتب التاريخ عربية وأجنبية وكانت الظروف التاريخية تتطلب وجود قائد كصلاح الدين ليحقق النصر في حطين بعد أن بات القضاء على الخطر الصليبي، واستعادة الأماكن المقدسة وتحرير الأرض العربية مطلبا شعبيا .

وهنا - وبهذا التفسير الذي تحكمه الآليات التاريخية - كان طبيعيا كما يقول د. قاسم أن يرتفع صلاح الدين الأيوبي من مجرد ضابط في جيش أسد الدين شيركوه إلى بطل يملأ القلب والعقل، وهنا في رأينا لا يكون هذا الانفصام الذي أقامه د. قنصوه بين المستوى الواقعي للبطل وبين الرمز الجماهيري له. لقد وهب صلاح الدين نفسه للجهاد وتحرير بيت المقدس واسترداد الكرامة العربية وقد احترم العلماء والأدباء ووضعهم في قمة إدارة الدولة وقال لجنوده «لاتظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل، وكان القاضي الفاضل وزيره،

دائرة حوار

وفي هذا إشارة إلى تقديره للعلماء والأدباء. ولم يكن المماليك - مع مفاسدهم في مصر - شرا مطلقا، فقد كان عصر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك عصرا فاصلا ابتلي بمحنة الصليبيين والمغول، ولولا بطولة بيبرس ودحره للمغول تحت إمرة السلطان قطز في «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ بعد سنتين فقط من اجتياحهم لعاصمة الخلافة بغداد سنة ٦٥٦هـ لضاعت معالم الحضارة العربية الإسلامية فلئن كان المماليك شرا على مصر فإن دحرهم للتتار على يد الظاهر بيبرس كان نقطة تحول حاسمة في التاريخ العربي الإسلامي وفي تاريخ مصر من ثم. إذ صارت مصر عاصمة العالم العربي الإسلامي، ومركز العلم والحضارة ، يقصدها علماء المسلمين من كل مكان وكان دور المماليك ممثلا في دور سلطان من أعظم سلاطينهم في الدولة المملوكية الأولى وهو الظاهر بيبرس، ودحره للتتار مماثلاً في أهميته وفي حسمه التاريخي لدور البطل صلاح الدين الأيوبي في دحره للصليبيين في حطين سنة ٥٨٣ هـ وقد كانت بطولة الظاهر بيبرس رمزاً للكفاح ضد أعداء العروبة والإسلام مما خلد اسمه في التاريخ وجعله ممثلاً للقوة الكبرى في العالم الإسلامي وقد جاءت سيرته في الأدب الشعبي لتصور ذلك في الصورة التي أحبها الشعب العربي فجعلت منه البطل المخلص ، وهي الحقائق التي انتهى اليها المؤرخ المعاصر سعيد عاشور في كتابه «الظاهر بيبرس» وأكدتها على مستوى السيرة الشعبية دراسة رائد الأدب الشعبي في مصر عبد الحميد يونس في كتابه الظاهر بيبرس في القصص الشعبي» في غير انفصال حاد بين السيرة الشخصية والرمز من خلال سلطان وصفه المقريزي بأنه كان من خير ملوك الإسلام.

لقد ظن د. قنصوه أن الأستاذ محمود أمين العالم المحتفى به في هذا المقال قد تعتريه الدهشة عندما يتصفحه. فأرجو ألا يندهش د. قنصوه إذا وجدنا نندهش نحن كذلك مما جاء في مقاله وقد اعترف في مقدمته بأحد أمراض مهنة اشتغاله بالفلسفة وهو الإسراع إلى التجريد واللهفة على التعميم واحتمال الانزلاق في الإسراف في التأويل. وهو وإن تواضع بهذا الاعتراف تواضع العلماء فإننا نحسب أنه قد حقق جانباً كبيراً منه في تعميمه الحكم على رموزنا الوطنية وإسرافه في تأويل ما يشوهها. تلك الرموز الوطنية التي دأبت الهلال الغراء على إبراز جوانبها المشرقة في جميع الميادين . ■

أقوال معاصرة

● «الأدب ليس وسيلة للتسلية وإنما أداة للدفاع عن القضايا الكبرى».

الأديب الفرنسي جان ماري ليكليزيو

● «نؤيد علمانية متصالحة مع الأديان، ونحن مسلمون ملتزمون طورنا أفكارنا».

عبدالله جول
رئيس وزراء تركيا


عبد الله جول

● «مكبل، غير منظور، كتوم، ومعرض للوقوع في ممارسات جنسية مهينة»

عن تقرير الكنيسة الكاثوليكية في شأن النتائج النفسية لحياة العزوبة الرهبانية

● «إفراغ الإنسان المواطن من جوهره الإنساني، الحرية، إنما هو إفراغ الوطن ذاته من الإنسان»

الشاعر السوري ادونيس


صوفي مارسو

● «الانجليزية هي لغة المستقبل، على الأقل في عالم السينما»

النجمة الفرنسية صوفي مارسو
وبطلة قلب شجاع

● «أمريكا تريد لمصر أن تظل بين بين، لا هي مرتاحة ولا هي منهارة»

الأديب المصري مجيد طوبيا

● «لا يوجد مبدع حقيقي يضع الجوائز نصب عينيه»

الأديب المصري إبراهيم أصلان


إبراهيم أصلان

● «أنا لست إلا أفلامي»

المخرج الايطالي فرانشسكو روزي
بمناسبة بلوغه الثمانين

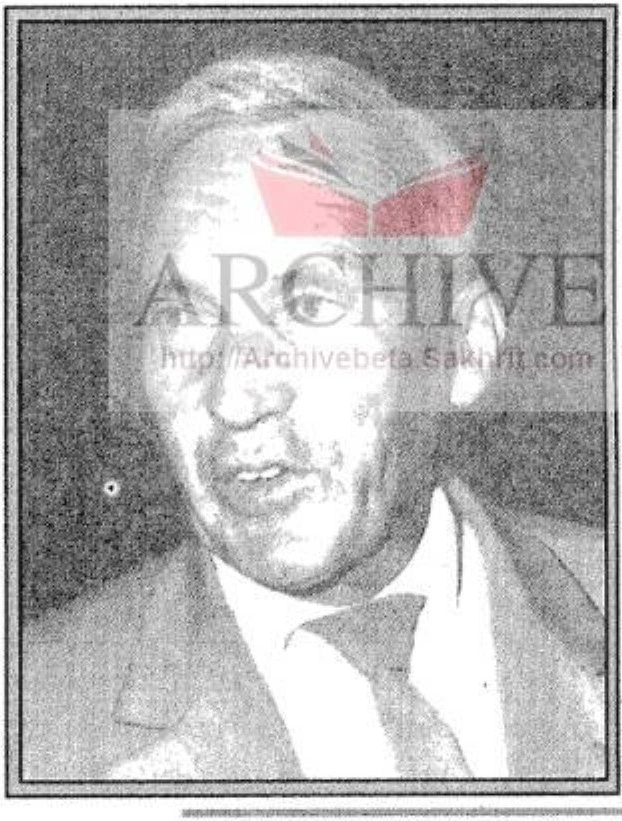
● «العلم بدون حكمة، مثل عضلات بدون مخ، يحط من شأن الإنسان»

الدكتور محمد النشائي
العالم المصري في الرياضيات
وعلم الفوضى المحددة

أندريه كولموجورف

(١٩٠٣-١٩٨٧)
واحد من أعظم خمسة علماء

بقلم
د. عبد العظيم أنيس



أندريه
كولموجورف

انتهت فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٨٧ حياة واحد من أعظم علماء الرياضيات فى تاريخ البشرية ، وهو العالم السوفييتى أندريه كولموجورف ، كتب تلميذه أرنولد عنه فى رثائه إنه واحد من أعظم خمسة هم : نيوتن الانجليزى وجاوس الالمانى وأويلر السويسرى وبوانكريه الفرنسى ، ثم كولموجورف ، وهؤلاء الخمسة هم ممثلو خمسة أجيال تفصلنا عن بداية العلم ، ولا يتميز كل واحد من هؤلاء بغزارة إنتاجه العلمى فحسب ، وإنما بتنوعه أيضا ، فكل واحد من هؤلاء قدم إنتاجا عميقا فى فروع الرياضة البحتة وفى فروع الرياضة التطبيقية كذلك .

وعلى وجه التحديد برزت مساهمات كولموجورف أولا في وضع قواعد علم الاحتمال الحديث فى أوائل الثلاثينيات ، وكانت مساهماته فى هذا المجال هى استجابة لدعوة الرياضى الألمانى دافيد هلبرت فى مؤتمر الرياضيين فى باريس عام ١٩٠٠ الذى طرح ثلاثة وعشرين مشكلة رياضية دعا الرياضيين فى العالم إلى التركيز على حلها خلال القرن العشرين .

والمسألة رقم ٦ التى طرحها هلبرت وأجاب عنها كولموجورف هى : كيف بناء علم فيزياء حديث يقوم على مصادرات معينة بسيطة وخصوصا علم الاحتمال والميكانيكا . وقد أقام كولموجورف علم الاحتمال الحديث على مجموعة من المصادرات البسيطة مستعينا بنظرية المجموعات ونظرية القياس . ثم قدم مساهمات رئيسية فى نظرية العمليات العشوائية وفى سلاسل ماركوف وحركة براون ... وكل هذا يمثل أسس نظرية الاحتمال الحديثة .

إن القراء المهتمين بقضايا العلوم ربما يتذكرون كتاب جليك Glaik عن نظرية «الفوضى» : صناعة علم جديد ، وهو العلم الذى تأسس على أفكار التشابه الذاتى والقايسة ، وفى هذا الكتاب يقول جليك : «إن تفتح فى الغرب قد ووجه بدرجة كبيرة من الدهشة فى الاتحاد السوفييتى لأن الكثير من هذا العلم «الجديد» معروف منذ زمن طويل فى موسكو . وجليك يفسر هذا الوضع بضعف الاتصال بين موسكو والغرب وبمشكلة التباين اللغوى والقيود التى فرضتها الحرب الباردة على النشر العلمى .

نظرية الفوضى فى الغرب

وهذا صحيح جزئيا ، ولكن ما هو



صحيح أيضا هو أن الذين اكتشفوا نظرية الفوضى فى الغرب حديثا هم مجموعة غير متجانسة من علماء البيولوجيا والارصاد الجوية والفيزياء العملية ، وهؤلاء جميعا ليس لهم معرفة بالأسس الرياضية للنظرية التى كانت متاحة منذ زمن بعيد على يد أمثال كولوجورف فى موسكو .

وينبغى القول أنه رغم تخلف البناء السفلى فى الاتحاد السوفيتى مقارنة بالغرب (انظر مثلا استمرار الاساليب البدائية فى النقل مثلا) إلا إنه كان فى عهد الدولة الاشتراكية تنظيم صارم للبحث العلمى وإنشاء مدارس علمية ، مما أدى إلى تقدم عظيم فى البحث العلمى النظرى والتطبيقى ، الأمر الذى مكن الاتحاد السوفيتى من اللحاق بالغرب فى بناء الأسلحة الذرية وفى تطوير أسلحة صاروخية تفوق الصواريخ الامريكية إلى حد كبير .

كتب العالم الأمريكى سمايل Smile المسئول الأول عن تطوير علم التربولوجيا فى الولايات المتحدة يقول بعد زيارته للاتحاد السوفييتى عام ١٩٦١ .

«بعدكييف ذهبت إلى موسكو حيث عرفنى أنوسوف بأرنولد وفوفيكوف وسيفا وينبغى أن أقول إننى تأثرت جدا من لقاء مجموعة من أربعة من الرياضيين الشبان النوابغ وفى السنوات التالية صرحت مراراً بأنه لا يوجد فى الغرب شىء مثل هذا » .

إن الدور الذى لعبته مدرسة كولوجورف فى البحث العلمى فى جامعة موسكو وفى مراكز البحوث الأخرى كان محل تقدير واحترام المسئولين السياسيين هناك إلى درجة لم تكن معروفة فى عهد الارهاب الستالينى .

ومن القصص التى تروى فى هذا المجال قصة المعسكرات التى كان يقيمها تلاميذ كولوجرف فى القوقاز للترويح عن النفس . وفى أحد هذه التجمعات تحدث بعض تلاميذه ومنهم جندنكه Gnede-kaعن الاوضاع السيئة فى البلاد . وعند العودة قام واحد من المشاركين فى هذه المعسكرات بإبلاغ هيئة المباحث الفيدرالية K.G.B فألقى القبض على جندنكه - وهو أحد مساعدى كولوجورف - وبقى فى السجن ستة أشهر . وقد حاول المحققون الإيحاء له بأن يقول إن كولوجورف هو الذى حرضه . لكنه رفض ذلك وأفرج عنه بعد ستة أشهر بل أعيد إلى وظيفته فى الجامعة أيضا . وبالطبع كان غريبا أن يحدث هذا فى العهد الستالينى ، لولا المكانة التى كان يحظى بها كولوجرف .

***

والقصة الثانية التى تشير إلى هذا الوضع أيضا هى قصة الشجار الذى وقع بين كولجورف وعالم سوفيتى آخر هو لوزين Luyin فى اجتماع أكاديمية العلوم السوفيتية . وفى هذا

الاجتماع أثير موضوع ترشيح العالم الرياضى الكبير والصديق الحميم لكولوجورف لعضوية الاكاديمية . لكن لوزين عارض ترشيح الكسندر ف بعد أن كان قد وافق على ذلك قبل الاجتماع . وفقد كولجورف أعصابه وصفع لوزين على وجهه .

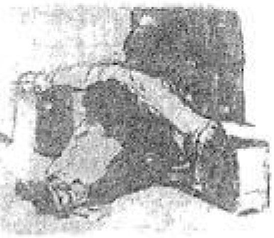
وقال فافلوف رئيس الأكاديمية لقد فعلت أيها الرجل العجوز شيئاً لم يحدث فى الاكاديمية منذ مائة وخمسين عاما » .

وبعد ذلك بأيام حكى رئيس الأكاديمية هذه الواقعة لستالين فلم يزد على أن قال «مثل هذه الأشياء تحدث حتى معنا » . وانتهى الموضوع بعد أن اعتذر كولجورف لزميله فى إبريل سنة ١٩٨٦ وبمناسبة عيد ميلاده الثالث والثمانين اجتمعت مجموعة من تلاميذه في منزله الريفى الذى اشتراه هو والكسندرف ، وقدموا شهادات رائعة عن عملهم معه . لكن كولجورف كان مريضا فى ذلك اليوم وعاجزا عن الكلام . لكنه فى اليوم التالى أملى الكلمة التالية .

«كانت هناك كلمات عن شبابى المتصل في البحث ، وإننى شاكر لهذا التقدير ولكن يحسن أن أقدم حدودا لمثل هذا الكلام . فالشيخوخة هى ظاهرة موضوعية لا مهرب منها . فكيف يمكن أن تتحقق شيخوخة سعيدة ؟ من الممكن للعجوز أن ينظر إلى هذه الفترة كمرحلة سعيدة وإن شابها الشعور الحزين بأنه قد لا يستطيع عمل هذا أو ذاك » . ■



جويا



جاليير في أغلال

جويا
وحقوق الإنسان

بقلم
د. محمد مهدى

أصيب بالصمم فاستيقظ وعيه على مأساة القهر والحرب، والفقر

جويا: «أرى الطبيعة كتلا متآلفة حرة، أو كتلا قاتمة مقيدة»

ينتهى الفيلم الألمانى (الطريق الشاق إلى المعرفة» بإعلان مفتش محكمة التفتيش .. «إننى أسجل اسم (جويا) في سجل النسيان الأبدى، إننى ألعنه، وسوف يمحى اسمه إلى الأبد»

لانعرف اسم هذا المفتش، ولكننا نردد اسم (جويا) دوما، ونذكر الآن أنه عام ١٧٩٩، أى منذ أكثر من مائتى عام، كانت له مجموعة رسوم رائعة يذكرها التاريخ باسم حقوق الإنسان.

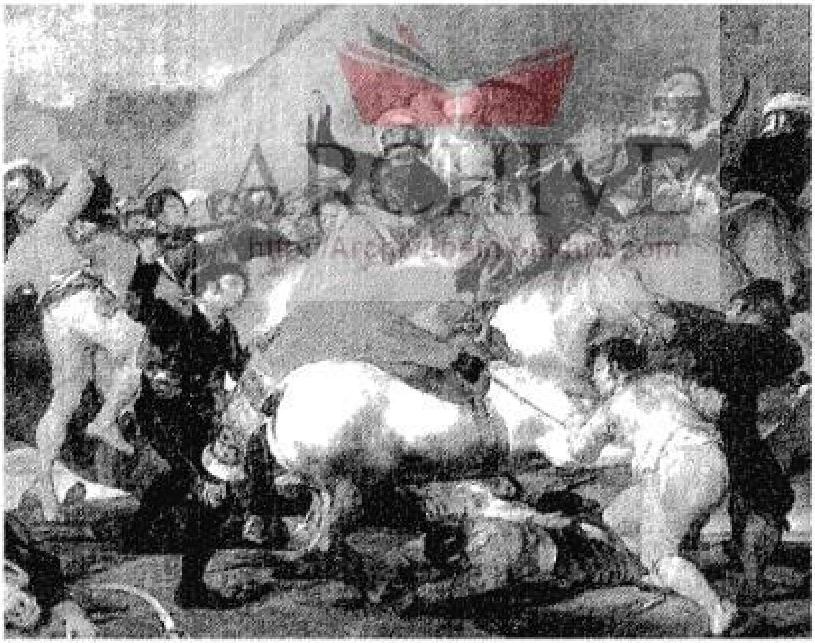
سجل فيها إدانة لعذاب الإنسان وتعذيبه فى سجون الاضطهاد والظلم، كما سجل إدانة صريحة للحرب، وما تمارسه من تقطيع وتمزيق بليد



في متحف (البرادو) بمدريد هناك قاعة كبيرة خصصت لأعمال (جويا)، تأمل فيها لوحته (الإله سارتون يفترس ابنه) رسمها عام ١٨٢٣ أي قبل وفاته بخمس سنوات وفي البرادو أيضا لوحته المشهورة (المايا) العارية، تجاورها (المايا) بملابسها، رسمهما عام ١٨٠٠، فماذا كان يشغل فرانشيسكو جويا؟

يمثل (جويا) في حياته، كما يمثل في انتاجه عدة موجات عاتية، اعتملت في خضم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بقايا الكلاسيكية الجديدة في معاصره (دافيد) .. فنان نابليون الخاص، ومطلع الرومانسية في مقدمات (جيته) الروائي و(بتهوفن) الموسيقي، و(ديلاكروا) الفنان الثائر، بل لقد احتوت أعماله إرهاصات تأثيرية، ومقدمات الجنوح السريالي، انطبق عليه القول الوجودي «إنني أهوى الموجة العاتية التي تقذف بي إلى أعماق الهاوية، فإنها تقذف بي أيضا إلى ماوراء النجوم».

مايعنينا هنا وثيقته التشكيلية النادرة حول حقوق الإنسان، نقدمها



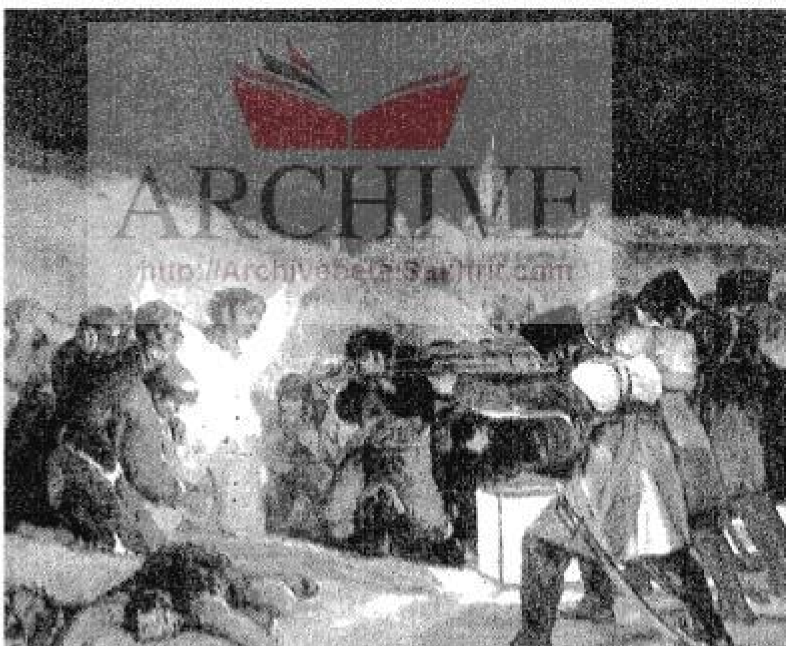
الثانيمن مايو ١٨٠٨

على محاور ثلاثة في الفترة الواعية من حياة (جويا).

أولا : القهر وثيقة الكبريشوس:

ولد (جويا) عام ١٧٤٦ ظهرت مواهبه الفنية مبكره، وبدأت طموحاته ساخنة انتقل إلى (سارجوسا) عاصمة مقاطعته ليدرس، ومنها سافر سيرا على الأقدام إلى مدريد بدأت مرحلة التمرد فقرر الرحيل إلى إيطاليا، عاش حياة ماجنة لاهية، يرتاد الكنائس يعاشر جموع الغجر، يدرس الفن في أكاديمية (بارما) في روما.

عاد إلى مدريد، وهناك تعرف على فنان البلاط الملكي (فرانشيسكو بايو) وتزوج اخته جوزينا، حاز شهرة واسعة في رسوم البورتريه، وشخصيات البلاط .. وحياة الترف واللهو، وانجز عدة لوحات تدور في فلك هذا العالم، اقترب من الملك شارل الثالث في سن الأربعين، صار عضوا في أكاديمية الفنون، ثم مديرا لها، في هذه الفترة تعرف على دوقة (ألبا) صاحبة لوحتي (المايا)، وتعرض لمرض أقعده لفترة،



الثالث من مايو ١٨٠٨

وخرج منه وهو شبه أصم، وكانت مرحلة فارقة.

في عام ١٧٩٩ تداخلت مرحلة اللهو بمرحلة الجد، انتج مجموعة اعماله الحفرية (الجرافيك) المعروفة باسم Los, caprichos.

ورغم أن معنى هذه الكلمة هو نزوات أو أهواء، إلا أنها في المعنى الذي قصده (جويا) كانت تعني نزوات التمرد على المحيط الإرهابي الخانق، فأقطاب الكنيسة يفرضون سلطانهم، ولا يسمحون بالخروج على مايقررونه من المسموح أو الممنوع، والسلطة الملكية توافق فالمصلحة مشتركة .. سند ديني شرعي للملك، مقابل سند سياسي مالي للكنيسة.

ويقول (كلود روى) عن هذه الرسوم الحفرية «إن الذي أدركه الاسبان عام ١٧٩٩ بكل وضوح هو أن مجموعة جرافيك (جويا) المعروفة باسم كبريشوس، هي وثيقة اجتماعية، لا رؤية ميتافيزيقية. ففي هذه الرسوم والتي تبلغ ٨٢ رسما كما في قصة رحلات (جلفر) للكاتب الإنجليزي (سويفت)، وكما في قصة (كانديد) للكاتب الفرنسي (فولتير)، لايعالج (جويا) قضية تتصل بالإنسان الخالد، وانما قضايا الانسان الحي، والمجتمع المعاش، قضايا العرش، والكنيسة وقضايا الظلم، والكذب، واحتقار الكائن البشري، وبؤس المنكوبين، هنا نجد كما في (سويفت) أو (فولتير) حدا بين الهجاء الفج، والهجاء الهادف».

ويتفق ميل (جويا) للأبيض والأسود، وما يمثلان من صراع بين الخير والشر، أو تداخلا بين الوضوح والغموض، أو تمازجا بين القطع والوصل، يتفق مع جحيمه الدنيوى الجديد الذي كشف عنه. شخوصه التي يضعها في الظل عبارة عن رجال من لحم ودم، يدخل جحيم السجن، سجون موبوءة بالجرذان، يتجول بين النزلاء، ارواحهم تسبق اجسامهم الى الجنون، والعفن، والعذاب والضياع، القيم الروحية تردت إلى هوة سحيقة، يصور (جاليليو) معذبا فقد عارض محاكم التفتيش بقوله إن الأرض كروية، وهذا (زاباتا) من بلده الوليد (فلادوليد) يلفقون له تهمة الردة بسبب ابحاثه العلمية، وهذه البريئة مقيدة منذ سنوات، وهذا البائس لايقوى على حمل أغلاله، نماذج عديدة تذكرنا بأدران زماننا، اضفنا إليها براءات العلم الحديث، بما يفوق تصور الأديب (أورويل) في روايته (١٩٨٤)، فمصحات التأهيل التى انتهت بـ (ونستون) بطل الرواية هاتفا للأخ الأكبر.

هذه المصحات باتت تقدم خدماتها بالمجان، ويتم توصيلها للمنازل بلا مقابل.

ثانيا : كوارث الحرب

وكما تذكرنا رواية (١٩٨٤) بالقهر كما صور (جويا)، تذكرنا رواية (أورويل) الثانية (مزرعة الحيوانات) بابتلاع الثورة لأولادها، وتحول بعضهم إلى دكتاتورية جديدة، لقد تحول نابليون ابن الثورة الفرنسية إلى امبراطور مستبد، بل نراه يغزو جيرانه. وفى ٢ مايو ١٨٠٨ يثور أهل مدريد على جنود نابليون. خلد (جويا) ذكرى الأيام الأولى من ثورة الاسبان فى لوحتين الأولى بعنوان (الثانى من مايو ١٨٠٨)، وتمثل فرقة نابليون المعروفة باسم المماليك تقاتل الثوار فى شراسة، والثانية بعنوان (الثالث من مايو.. إعدام المدافعين عن مدريد).

تستوقف النقد التشكيلى، وتستهويه دلالة البطل المتصدر وسط اللوحة، بمد ذراعيه، فى تشنج وغضب صيحته تطلق قذائف أشد هولا من رصاص البنادق المصوبة إلى صدره، ويجرى التساؤل هل هى دلالة استشهاد مسيحى جديد؟

استمرت أهوال الحرب فرسم (جويا) مجموعة حفرية (جرافيك) بعنوان (ويلات الحرب) ثم مجموعة (فظائع الحرب) .. جثث متراكمة ،، بعضها هامد، فى غياهب العدو، وبعضها يتلوى من شدة الألم، ملامح الشراسة تتداخل مع خطوط القسوة، يد المقاتل تتشنج برغبة الحياة، ورغبة القتل فى آن واحد.

ثالثا : الفقر وجدران سان أنطونيو

يستكمل (جويا) إدانة الحرب، والقهر بتصوير قبة وجدران كنيسة (سان انطونيو دى فلوريدا) الجصية، لايصور الأجواء المسيحية المعتادة .. لا المسيح، ولا العذراء، ولا الملائكة الحلقة، يصور معجزة من معجزات القديس انطونيو، ولكن بطريقته، ومن خياله الخاص.

لقد أخرج ميتا من سباته لنراه فى الجدران يخرج فى سمت وسط العيون المتسائلة .. الميت الذى أعادت إليه المعجزة الحياة. لم يبعث ليحكى عن أجواء القبر، والعالم الآخر، لقد بعث ليبرىء ابيه من تهمة ظالمة، ونرى فى الرسم القاتل الحقيقى وقد هالته المعجزة، يفر هاربا تطارده عيون الدهشة، وعيون العرفان لإنصاف المظلوم. جدارية (سان انطونيو) تزدحم بالوجوه الفقيرة المطحونة من ابناء مدريد .. فتيات بملابس زاهية شعبية تجاور اجساد كالحة.. ملامح

ساذجة .. ضياع وذهول .. مشردين أوغاد .. عالم من قاع المدينة معجون بالفضائل والرذائل.

على أن الملمح المهم فى هذه الرسوم الجدارية هو الألوان، ألوان صامتة، صارمة تتفق مع ابخرة الفقر، ودلالات القهر، ألوان بنية داكنة تغلف الجو العام، ولون اصفر ذابل يغيم على مناظر الريف، ورقعه سريعة الزوال من اللون القرمزى اللامع، وخطوط لونية تمزج الأزرق بالأخضر.. وفى الأفق يتداع اللون الأرجوانى الصامت الفج. تتشبع العين بحوار حزين بين الأسود والأبيض.

أعمال (جويا) فى هذه المرحلة دار فيها جدل كثيف، وعنيف بين درامية السواد، ودرامية البياض، بياض هو أصل الحرية، يتطفل عليه السواد من طبائع الاستبداد، يتحاشى الفنان الخطوط الواضحة فى تشكيل الهيكل العام للوحة، وكان (جويا) يشكو من التقليدية التى تسعى لرسم الخطوط لا الكتل كان يقول «اين يجد الانسان الخطوط فى الطبيعة؟، إننى لا أرى فى الطبيعة سوى الكتل متألقة حرة، أو كتل قائمة مقيدة، مساحات مسطحة تتقدم للأمام، أو تتأخر إلى الوراء، أن عينى لاترى خطوطا أبدا، ولذلك يجب ألا ترى فرشتى مالا أراه. لايوجد فى الطبيعة سوى ضوء الشمس والظل».. ويقول أيضا أعطنى قلما فحميا أضع لك لوحة».

ويقدر ماشكلت هذه الرؤية الجامعة بين مأساة الإنسان المضطهد فى زمانه، وبين تجاذب عالم الضوء ، وعالم الظلام مجموعة رسوم الـ (كبريشوس) عام ١٧٩٩، بقدر ما شكلت جداريات وسقف كنيسة سان انطونيو، وفى ذلك يقول كلود روى «إن مايصوره منقاش (جويا) وحامضه فى هذه المستطيلات النحاسية هو صراع بين العقل وأحلامه، بين الحياة والموت، بين تخبط الظلام، وعقلانية الضوء، بين الليل والنهار».

توفى (جويا) عام ١٨٢٨، عام وفاة (بتهوفن) رفيق الرومانسية وفقدان السمع. دفن (جويا) فى مدينة (بوردو) الفرنسية بعد أن هاجر إليها طوعا نفورا من الاضطهاد الأسبانى، وبعد أن تخلصت فرنسا من دكتاتورية نابليون، وكان طبيعيا أن تنقل جثته بعد ذلك بسنوات قليلة إلى كنيسة (سان انطونيو) لتسكن روحه بين من أحب وصور، من أجلهم هجر النعيم وكابد، ولهم قدم وثيقته التشكيليه النادرة حول حقوق الإنسان. ■



الماجا بملابسها ١٨٠٠



قضت حياتها في السجن



من ضحايا محاكم التفتيش

كتاب الأم للإمام الشافعى

بقلم
د. محمد بلتاجى

من هو الإمام الشافعى ؟

هو محمد بن إدريس بن العباس ، القرشى المطلبى الذى يلتقى نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جدهما (عبد مناف) . ولد بغزة فى فلسطين سنة ١٥٠ هـ وتوفي بمصر سنة ٢٠٤ هـ .

وقد حفظ القرآن الكريم مبكرا (ويروى أنه حفظه وهو ابن سبع سنين) وليس هذا بأمر مستبعد على ملكات الشافعى المتميزة التى سنعرض لها - كما يروى أنه حفظ كتاب (الموطأ) لشيخه الإمام مالك بن أنس والشافعى (١) ابن عشر (وذلك لا يستبعد أيضا بالنسبه للشافعى عظيم المواهب ، وفى مقدمتها الذاكرة الفوتوغرافية فى الحفظ من أول مرة ، كما روى عن الشافعى) (٢) . كذلك فقد حفظ بعد ذلك أشعار هذيل ، وهى من دواوين العرب التى قال فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «حافظوا على ديوان شعركم فى الجاهلية ؛ فإن فيه تفسير كتابكم (القرآن) » (٣) .

قام الشافعي بالرحلة العلمية المعهودة عند العلماء في (فترة التكوين والتلقي) حيث قدم مكة فتلقى الفقه على مسلم بن خالد الزنجي مفتيها (المتوفى سنة ١٨٠هـ) وسفيان ابن عيينة الهلالي (المتوفى سنة ١٩٨ هـ) وغيرهما . ثم رحل إلى المدينة فلزم إمامها مالك بن أنس ، وقرأ عليه الموطأ ، وتلقى أيضا في المدينة عن علمائها الآخرين الذين عاصروا مالكا - ولم يكونوا في مثل علمه - ولقد عبر الشافعي عن أسفه الشديد لأنه لم يلق محمد بن عبدالرحمن بن أبي ذئب المخزومي فقيه المدينة (المتوفى سنة ١٥٩ هـ) .

ثم خرج الشافعي إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبها وجمعها ، كذلك كان يتردد على بوادي العرب ليتلقى الشعر أيضا ويزداد علما باللسان العربي. وتلقى في اليمن أيضا عن مطرف بن مازن الصنعاني (المتوفى سنة ١٩١ هـ) وعمرو بن أبي سلمة (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) وهو صاحب إمام أهل الشام الأوزاعي (المتوفى سنة ١٤٨ هـ) وناقل علمه .

وكان للشافعي في مطلع حياته اهتمام بعلم النجوم (٤)، فطلب العلم فيها وبلغ فيه شأنا ، لكنه دفن كتب النجوم بعد ذلك..

وكان له أيضا علم بالطب ، وكان يعتبره ثلث العلم ويقول عن المسلمين : «إنهم ضيعوا ثلث العلم (٥) ووكلوه إلى



اليهود والنصارى» .

ثم قدم الشافعي إلى بغداد سنة ١٨٤ هـ - بعد وفاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة بسنتين - فلقي محمد بن الحسن (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) ولازمه ، وأخذ عنه فقه مدرسة أبي حنيفة ، وروى عن أبي يوسف بطريقه ، كذلك أخذ في العراق عن وكيع بن الجراح الكوفي (المتوفى سنة ١٩٠ هـ) وحماد بن أسامة الكوفي (المتوفى سنة ٢١٠ هـ) وعبدالوهاب ابن عبدالمجيد البصري (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) وغادر بغداد بعد ذلك إلى مكة ، ثم قدم العراق مرة ثانية سنة ١٩٥ هـ وأقام بها سنتين وأنشأ بها مذهبه العراقي ، واشتهر أمره بها حيث أعاد تصنيف كتابه (الحجة) ، ثم خرج إلى مكة مرة أخرى حيث قدم إلى العراق مرة ثالثة سنة ١٩٨هـ وأقام بها أشهرا إلى أن خرج إلى مصر وأعاد التفكير في فقهه العراقي وأنشأ بمصر مذهبه الجديد حيث مات بها بعد ذلك في سنة ٢٠٤ هـ .

معلم في التشريع الإسلامي

.. وهكذا تلقى الشافعي فقه الأمصار الإسلامية كلها : مكة ، والمدينة ، واليمن ، والعراق ، ومصر «فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث ، فتصرف في ذلك حتى أصل الأصول ، وقعد القواعد ، وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره وعلا ذكره وارتفع قدره .. حتى صار منه ما صار (٦)» .

ويعتبر الشافعي بحق معلما بارزا من

معالم تاريخ التشريع الإسلامي ؛ حيث يؤرخ به بدء حصر تدوين الأصول والقواعد فيه ؛ ذلك أن الشافعي هو أول من وضع (أصول التشريع الإسلامي) في صورة قواعد مقررة مدونة ، مصرحا به في وضوح وجلاء وتفصيل ؛ أعني في صورة (علم منهجي) . وكان عمل الشافعي هذا نتيجة ملاحظة دقيقة لما كان يراعيه الفقهاء من اعتبارات .. وإن لم يدونوها - في اجتهادهم واستنباطهم للأحكام الشرعية «فهو لم يبتدع منهاج الاستنباط الذي اهتدى إليه ، ولكن اسبقيته في أنه جمع بين هذه الأجزاء ، ومثله في ذلك مثل أرسطو في تدوينه لمنطق المشائين ، فما كان ابتداعه لأصل المنهاج ، بل كان ابتداعه في ضبط المنهاج (٧) .

وقد أشار أستاذنا الدكتور علي سامي النشار رحمه الله إلى أنه وجدت قبل أرسطو معارف منطقية ، كالاستقراء السقراطي أو القسمة الأفلاطونية كان لها أثر بالغ في تكوين (الأورجانون) ، كما وجدت قبل الشافعي معارف أصولية أثرت في تكوين منهجه في (الرسالة) ، لكن ذلك لا ينقص من فضل أرسطو والشافعي ، ولا ينفي نسبة وضع المنهج إلى كل منهما (٨) .

.. وبعد ، فذلك هو الشافعي .. الفقيه العظيم ومنشىء علم (أصول الفقه الإسلامي) ، ثالث أئمة أهل السنة الأربعة زمنا ، وتلميذ مالك (الإمام الثاني زمنا) ، وتلميذ محمد بن الحسن الشيباني (تلميذ أبي حنيفة الإمام الأول زمنا) ، كما كان الشافعي أستاذا لأحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١ هـ) الإمام الرابع زمنا .. فهي حلقة من العلم المتصل .

كتاب (الأم)

هو الكتاب الجامع لفقه الشافعي ، وقد ألفه بمصر في السنوات الأخيرة من حياته ، وهو يختلف بعض الاختلاف عما كان الشافعي قد كتبه في العراق من قبل، تطبيقا لأثر اختلاف الظروف باختلاف الزمان والمكان والأحداث ، وأثر هذا في نظرة الفقيه ووجهة استنباطه للحكم الشرعي وتنزيله النصوص عليها . وفي هذا السياق يطلق على قول الشافعي وهو بالعراق (القديم) وقوله المختلف وهو في مصر (الجديد) .

وقد روى الأم عن الشافعي تلميذه الربيع بن سليمان المرادي (المتوفى ٢٧٠ هـ) «والأخبار متضافرة ، والأسانيد متصلة مثبتة أن الشافعي رضي الله عنه كان يدون كتبه ، وأنه دون كتبا بالعراق ، ودون مثلها بمصر ، وكان يكتب ثم يقرىء ما كتب تلاميذه ، ثم ينسخونه ، وأحيانا كان يملي ، وأن الربيع بن سليمان هو الذي روى كتب الشافعي التي انتهى إليها ، ودون آخر آرائه فيها ، وأن العلماء كانوا يشدون الرحال إليه لنقل كتب الشافعي» (٩) .

وقد طبع كتاب الأم طبعة قديمة غير محققة (وبهامشه مختصر إسماعيل بن يحيى المزني الشافعي المذهب المتوفى سنة ٢٦٤ هـ) . وجاءت هذه الطبعة في سبعة أجزاء على النحو التالي :

الجزء الأول (ويقع في ٢٦٤ صفحة) وجاء فيه : كتب الطهارة ، والصلاة .

والجزء الثانى (ويقع فى ٢٤٠ صفحة) وتضمن : كتب الزكاة ، والصيام ، والحج، والصيد والذبائح ، والنذر .

والجزء الثالث (ويقع فى ٣٠٢ صفحة) وتضمن : كتب البيوع ، وإحياء الموات ، والأحباس (الأوقاف) ، والهبة ، واللقطة واللقيط .

والجزء الرابع (ويقع فى ٢١٢ صفحة) وفيه كتب : الفرائض ، والوصايا والجزية، وقتال البغاة والمرتدين والسبق والنضال وقتال المشركين ، وسير الواقدى ..

والجزء الخامس (ويقع فى ٢٩٦ صفحة) وفيه كتب : النكاح ، والصداق ، والشغار ، والنفقات ، والطلاق والفرقة ، واللعان .

والجزء السادس (ويقع فى ٢٨٦ صفحة) وتضمن كتب : جراح العمد ، والحدود ، والأقضية .

« كما تضمن هامش هذا الجزء كتاب (مسند الإمام الشافعى) الذى استخرجه بعض الفقهاء من (الأم) باستخلاص الأحاديث التى استدل بها الشافعى ، وذكروها بأسانيدها » (١٠)

والجزء السابع (ويقع فى ٤٢٢ صفحة) وفيه بقية كتاب الأقضية ، وما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبى ليلى وهو مروى عن أبى يوسف ، وهو كتاب اختلاف العراقيين ، وكذلك كتاب اختلاف على وعبدالله بن مسعود رضى الله عنهما ، واختلاف مالك والشافعى ، وكتاب العتق ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب صفة نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب إبطال الاستحسان ، وكتاب الرد على محمد بن الحسن فى باب الديات ، وكتاب سير الأوزاعى ، وكتاب القرعة .

(كذلك طبع فى هامش هذا الجزء كتاب (اختلاف الحديث) للإمام الشافعى)..

وجميع صفحات كتاب الأم فى هذه الطبعة غير المحققة يزيد على ألفى صفحة (٢٠٣٢) تتضمن فى مجموعها ثروة فقهية وحديثية هائلة ، كما تتضمن صورا متعددة من الخلاف الفقهى بين أكابر فقهاء القرن الثانى (وهو قرن ازدهار الاستنباط الفقهى) حيث أتيح للشافعى - كما سبق - أن يتلقى علم كافة الفقهاء أصحاب المناهج المتميزة فى القرن الثانى (١١) ، وأن يحفظ كثيرا من هذا الفقه ويضمنه كتابه (الأم) بعد ذلك مثل : اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى ، واختلاف الشافعى مع مالك ، وسير الواقدى، وسير الأوزاعى .. الخ ، كذلك نقل الشافعى الخلاف الفقهى فى القرن الأول الهجرى بين الصحابة الفقهاء حين ذكر طرفا من اختلاف على وابن مسعود وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم .

والشافعى فى هذا كله ليس مجرد ناقل أو مؤرخ أمين ، إنما هو الفقيه صاحب المنهج المتميز والنظرة المستقلة إلى وجهات النظر الفقهية المختلفة بين أكابر الفقهاء من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وقد كان الشافعى يوقر هؤلاء جميعا ، بيد أن هذا التوقير لم يكن ليمنعه من المفاضلة والترجيح والموازنة الدقيقة ، ومن هنا لم يتردد مثلا فى أن يقول : عن فقيه مصر الليث بن سعد (المتوفى ١٧٥ هـ) : «الليث أفقه من مالك » (١٢) وذلك مع جلالة قدر مالك عنده .

وهكذا فعل الشافعى مع فقه أبى حنيفة الذى نقل إليه عن طريق تلمذته على

محمد بن الحسن الشيباني مدون هذا الفقه (١٣) .

فالشافعي على وجه العموم يظهر فى ثنايا صفحات كتابه (الأم) فقيها ذا منهج مستقل في النظر والاستدلال والموازنة والترجيح ، تلقى مختلف مناهج سابقيه ، لكنه استقل بعد ذلك بنظرته المتفردة .

محدث فقيه

كذلك يظهر الشافعى فى ثنايا (الأم) - إلى جانب منهجه الفقهى المتميز - محدثا عليما بالسنة ومداخلها ودقائقها . ويبدو هذا أوضح ما يكون في مسنده المطبوع على هامش الجزء السادس من الأم ، فالشافعي فيه مثل شيخه الكبير مالك في (الموطأ) محدث فقيه عالي الكعب في العلمين اللذين لاغنى لأحدهما عن الآخر ؛ لأن كثيرا من أحكام الفقه مبنية على العلم بالحديث رواية ودراية ، وقد كان كل من الإمامين مالك والشافعي في مرتبة عالية من العلم بسنة النبي صلى الله عليه وسلم مما أتاح للشافعي (وليس هو ممن يهرف بالقول أو يقفو فيه ما ليس له به علم) أن يوازن بين شيخين جليلين فى اتباع السنة هما : مالك والليث ، فيقول : « الليث ابن سعد أتبع للأثر من مالك بن أنس» وكما يقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق بحق «وإنما وقعت المفاضلة بين الليث بن سعد ومالك بن أنس دون غيره من فقهاء العصر لأن الليث بن سعد معدود من أصحاب الحديث دون أصحاب الرأى ، ومالك بن أنس يعتبر زعيم أهل الحديث » (١٤) .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد ظهرت بالعراق فى القرن الثاني ثلاث فئات تنتسب إلى الإسلام ويجمعها إنكار حجية سنة النبى صلى الله عليه وسلم .. أما الطائفة الأولى فقد انكرت حجية السنة كلها بإطلاق ، وأنكرت الطائفة الثانية حجية ما زاد على القرآن منها ، وأنكرت الطائفة الثالثة حجية أخبار الآحاد (أو أخبار الخاصة كما يسميها الشافعى) .

وقد تصدى الشافعي فى كتابه (جماع العلم) (١٥) للرد على الطوائف الثلاث ، ومناظرتهم ، وإبطال ما تمسكوا به من وجهات عقلية لاتصمد أمام النظر الصحيح ... حتى بين لهم الشافعى بكل طريق أنهم إنما يستمسكون بأباطيل وأضاليل تخالف النص والعقل ، وقد قضى الشافعي على أحدوثتهم ، ورجع كثير منهم إلى الإيمان بالسنة مصدرا يتلو النص القرآني ويشاركه الحجية والإلزام للمسلمين . ولقد استحق الشافعى بهذا أن يكون (ناصر السنة) و (ناصر الحديث) .

وبعد فلقد كان الشافعى إماما فى اللغة ، أديبا شاعرا ، إلى جانب إمامته فى الحديث والفقه ، وريادته لأصول الفقه.. وكان يتميز بمجموعة الصفات العقلية التى تميز بها كل رائد علم نشأ العلم المنهجي على يديه فى صورة قواعد منضبطة ضابطة لجزئياته ، بعد أن كان شذرات متفرقة تطبق دون منهج ضابط متحد الأركان .

وهكذا كان كتابه (الأم) صورة من هذه المواهب المتعددة ، رحم الله الشافعى، ونفع بكتابه العظيم .

(١) توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس ، لابن حجر ، الطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠١ هـ (ص ٥٠) .

(٢) وقد رأيت صورة معاصرة من هذه الذاكرة فى شيخنا محمد أبى زهرة رحمه الله .

(٣) الموافقات للشاطبى ٢١/١ طبع تونس ١٣٠٢ هـ .

(٤) علم الفلك .

(٥) ويقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق : « وكان التنجيم يعتبر فرعا من فروع العلوم الرياضية ، وكان الطب فرعا من العلم الطبيعى والعلم الرياضى والعلم الطبيعى قسمان من أقسام الفلسفة التى كان مسلمو العراق يتنسمون ريحها » الإمام الشافعى ص ٥١ .

(٦) راجع : الانتقاء لابن عبدالبر ص ٦٧ ، ٦٩ ، ١٠١ وتوالى التأسيس ص ٥٠ - ٦٦ .

(٧) محاضرات فى أصول الفقه الجعفرى لأستاذنا الشيخ محمد أبى زهرة رحمه الله ص ٦ .

(٨) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ٦٨ - ٦٩ دار المعارف ١٩٦٥ .

(٩) الشافعى لأبى زهرة ص ١٦٤ .

(١٠) راجع مثلا : تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٩٦/٣ ومراجعه .

(١١) انظر دراستنا الموسعة (فى مجلدين) : مناهج التشريع الإسلامى فى القرن الثانى الهجرى .

(١٢) شذرات الذهب لابن العماد الدمشقى ٢٨٥/١ والرحمة الغيثية لابن حجر ص ٦ - ٩ .

وراجع كتاب : اختلاف مالك والشافعى (الأم) ١٧٧/٧ وما بعدها .

(١٣) راجع مثلا كتاب (إبطال الاستحسان) فى (الأم) ٢٦٧/٧ وما بعدها.

(١٤) الإمام الشافعى ص ٨٣ ، وانظر منهج مالك فى دراستنا (مناهج التشريع فى القرن الثانى الهجرى ، ففيها وجهة نظر أخرى .

(١٥) وهو أحد الكتب المتضمنة فى (الأم) ٢٥٠/٧- ٢٦٧ كما سبق ، ولقد حققه الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله فى طبعة مستقلة ، مطبعة المعارف ١٩٤٠ ولاغنى عن كتاب الشافعى لمن يتصدى للرد على منكرى حجية السنة كلما أطلت الفتنة برأسها فى العالم الإسلامى !

■

قراءة فى عدد

الحرب

هلال يوليو ١٩٤٠

بقلم
صافى ناز كاظم


الهلال
الجزء التاسع ـ السنة ٤٨
عنوان المكاتبات :
AL HILAL — Cairo, Egypt

التاريخ يعيد نفسه إلى درجة الملل. لا أحد يتعظ. لا أحد يتعلم. لا أحد يستفيد. تعاقبت الحروب على بنى البشر، ونالوا من ويلاتها الكثير، لكنهم ما أن ينهضوا من حضيض كارثة حتى يبدأوا فى التخطيط لكارثة أسوأ، رغم معازف الحكماء والعقلاء الذين لم يتوقفوا عن ترديد ما خلاصته: «الحرب وبال للمنتصر وللمنهزم علي حد سواء»، وما صاح به الكورس اليوناني منذ ٢٦ قرنا: «ياويلتي ما أفدح انتصاري»!

في ظل التوتر والعصبية والتربص الذي تشيعه تهديدات وتحرشات أمريكا لضرب العراق، توطئة لضربات أخرى متوقعة لتغيير خارطة الشرق الأوسط، والوطن العربي، والأمة الإسلامية، وفقا لأهوائها الشريرة وشعاراتها السوقية الرخيصة تمهيداً لتأكيد هيمنتها الإمبراطورية على الكرة الأرضية والتحكم في مقدرات سكانها، استغرقت في قراءة عدد من أعداد الهلال صدر منذ أكثر من ٦٢ سنة، وجدته في مكتبتي من ميراث مكتبة أبي بتاريخ أول يوليو ١٩٤٠. الواضح أنه كان عددا خاصا عن الحرب بمناسبة انضمام إيطاليا موسوليني إلى جانب ألمانيا هتلر، الذي أشعل الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ واستطاع أن يبقر بطن أوروبا ويتوغل في أحشائها بدعوى إفساح المجال الحيوي للشعب الألماني للقضاء على الوضع الجغرافي «المطوق» لألمانيا . وفي خلال فترة وجيزة التهم هتلر النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والدانيمرك والنرويج وبلجيكا وهولندا وفرنسا حتى تهددت إنجلترا، التي كانت في ذلك الوقت الإمبراطورية العظمى المحتلة لبلاد عديدة لا تغرب عنها الشمس.

وكان هذا التطور قد دفع إنجلترا إلى اختيار ونستون تشرشل رئيساً للوزراء في مايو ١٩٤٠ ليقود جبهة الحلفاء ضد ما تم تسميته دول المحور بقيادة ألمانيا


هتلر


تشرشل

هتلر، وكان تشرشل قد وقف يقول في مجلس العموم البريطاني: «... فإني لست أذكر يوما من أيام الحرب الماضية كنا فيه أدنى إلى الخطر وأقرب إلى الزوال مما نحن اليوم».

★★★

كانت إنجلترا في ذلك الوقت تحتل بلادنا «مصر» ويقيم بالقاهرة مندوب احتلالها الرسمي «المعتمد البريطاني»، يدير بلادنا «مصر» علانية وفي الخفاء ويؤكد بوضوح لكل الأطراف أنه الحاكم الفعلي بها. ورغم أن الشعور الوطني العام في ذلك التاريخ - ١٩٤٠ - كان قد بلغ ذراه في كراهية هذا المحتل الغاصب المذل لكرامتنا، ويرى أننا لا ناقة لنا ولا جمل في صراع هذه الحرب بين معسكرين مجرمين يتنازعان الأسلاب والسرقات، وقد ترسخ في أعماق أهل مصر، عبر السنوات المهينة المريرة، معرفة الكذبات المفضوحة للافتات «الحرية» و«الديمقراطية» و«الحضارة» التي كانت أجهزة الدعاية البريطانية تصرخ بها، مع حلفائها

وأذنابها، مؤكدة أنها تدخل الحرب لتحمي «الإنسانية» من بطش النازية ووحشية الفاشستية، إلا أن الأمر لم يخل من أصوات عربية ومصرية وقفت تساند «الإمبراطورية البريطانية»، ونشرت «الهلال» في عددها هذا الذي أتكلم عنه الخاص عن الحرب - (١٩٤٠/٧/١) - صوتا من تلك الأصوات النشاز - التي لا يخلو منها زمن من الأزمان - بقلم «الأستاذ سامي الجريديني»، استغرق ٥ صفحات تحت عنوان : «سجل الأيام» يقول في بعض أسطره المدهشة: «... هذا الملك الشاسع الذي بناه البريطانيون وأحكموا بناءه فرفعوه مكانا عليا قائم على ركن من الأخلاق عظيم وعلى قوة بحرية لم تحن ركبتها لبعل.... فأبناء الإمبراطورية البريطانية ... الموزعون في الأرض حلفاء وأصدقاء وشركاء منفعة الذين يرون في بقاء الإمبراطورية البريطانية بقاء لكل ما تواضع الناس على تسميته حرية.. كلهم هيوا وسيهبون لرد كيد من أراد باستقلال الناس شرا يبغي استعباد من ولدتهم أمهاتهم أحراراً... إن كان الجرمانيون يعدون بالملايين ينصرهم الإيطاليون فأبناء إنجلترا وأمريكا أكثر عددا وأعز نفرا...» (؟!).

* * *

انتخبت «الهلال» مجموعة من أصحاب الأقلام، نجوم عصرهم، وحددت لهم الكتابة في موضوع «الحرب»، وبدأت الصفحات بـ «منظر رائع لإحدى طائرات سلاح الطيران المصري وهي محلقة فوق ميناء الإسكندرية في جولة استكشافية عقب اشتداد الحالة الدولية ودخول إيطاليا الحرب»، والصورة منشورة «بإذن من معالي وزير الدفاع المصري». وجاء المقال الأول بقلم «الأستاذ عباس محمود العقاد» عن «الحرب الحديثة وما تلقيه على الشرق العربي من دروس»، لكن مقال الأستاذ العقاد، رغم صدارته، كان أقل كثيرا في الأهمية والاتقان والحلاوة من مقالات : «التطورات الاجتماعية المنتظرة بعد الحرب الحاضرة، بقلم الدكتور أمير بقطر ، رئيس قسم التربية بالجامعة الأمريكية»، و«الجغرافيا توجه السياسة، بقلم الدكتور محمد عوض محمد، وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول»، و«كيف نتقي أهوال الحرب، بقلم الأستاذ الشيخ عبدالعزيز البشري»، و«الحياة الفكرية والحرب، بقلم الدكتور زكي مبارك»، و«هتلر ونابليون وجامعة المطامع بينهما، بقلم الأستاذ محمد عبدالله عنان»، و«التطبيق العملي لمشروع السلام الدائم، بقلم الأستاذ نقولا الحداد»، و«خطورة حشد الذهب في الولايات المتحدة الأمريكية، بقلم الأستاذ فؤاد محمد شبل».

* * *

في مقاله، الذي وصفته «الهلال» حقا بـ «النفيس»، لم يظهر الدكتور أمير

بقطر انحيازه لأى كتلة أو معسكر، بل إنه بدا فى مقاله مزدريا لكل مظاهر الحماس المواكب لملعب الحرب ومقولات الزعماء فى عصره وما قبل عصره. إنه يكتب بسمت العلماء الهادىء وإن لم يخف شبح ابتسامة تهكم تعتريه بعد كل جملة طنانة يوردها مقتبسة من غيلان الحرب على كل جانب. يقول فى مطلع مقاله : «الحوادث التاريخية الجسام والتطورات الاجتماعية، كالمواد الكيميائية، تتفاعل بعضها مع بعض. فالحروب والثورات تليها عادة تطورات اجتماعية خطيرة، كما أن هذه التطورات تعقبها الحروب والثورات، وهكذا دواليك تأخذ بعضها بتلابيب البعض. فالحروب الصليبية ، والثورة الصناعية، والنهضة العلمية، والثورة الفرنسية، وحروب نابليون، والحرب العالمية الكبرى، كلها تمخضت عن تغييرات فاصلة حاسمة، فى السياسة والعلم ونظام الحكم والأخلاق والآداب العامة والحياة اليومية، كما أن هذه التغييرات الفاصلة الحاسمة التى تناولت جميع مرافق الحياة، كانت شديدة الوقع فى الأمم والأفراد، فسرعان ما تمخضت عن ثورات وحروب ... ».

ثم بعد أن يتساءل: «... إزاء ما بدا فى الحرب الحاضرة من العجائب، ما عسى أن نتوقعه من التغييرات الاجتماعية الخطيرة التى تطرأ على الأمم والأفراد؟»، يقسم إجاباته إلى: «أولاً: من ناحية الحرب والسلام والخلق الأممي»، ويورد من أقوال اللورد كتشنر فى الحرب العالمية الأولى قوله: «الاعتدال فى الحرب غباوة، فإذا ما خضنا غمارها وجب أن نوطد العزيمة على ربحها بأى ثمن كان، فلا الحقوق الشخصية، ولا شرف الفروسية، ولا وخز الضمير، يلزم أن يكون حائلا بيننا وبين النصر» - (؟!) - ويبين أن الناس فى مرحلة السلام تنسى الصيحات الخشنة «وكذلك تلك العاطفة الحيوانية الوحشية التى لايزال الإنسان يكنها نحو أخيه الإنسان رغم العلم والنور والمدنية... يقولون إن الكذب مباح فى ثلاثة : الحرب والصيد والانتخابات، بيد أن بعض الشعوب قد غالت أخيرا فى احترام القانون الدولى ومراعاة الآداب الاجتماعية، فكادت تروح ضحية غيرها من الشعوب التى لا ترعى للصدق حرمة، ولا للأمانة ذمة، والتى جاهرت فى مناسبات شتى أن الآداب الاجتماعية لا يمكن تطبيقها على الشئون الخارجية...».

وحين يعود ليتساءل: «فهل تسفر الحرب الحاضرة عن تطور فى الخلق الدولى، والعلائق الأممية...؟» يجيب: «... أعتقد أن العالم كله سيجعل البنادق والقنابل عمدته، والسيف أصدق أنباء من الكتب، شعاره .... يستمسك بقول نطق به سليمان الحكيم من نحو ثلاثة

آلاف سنة مضت وهو، فخر الشباب قوته، ويبعد كثيرا أن يأخذ كلام المسيح بحرفه، من ضربك على خدك الأيمن .....». وفي «ثانيا: من ناحية النظام الديمقراطي» يرى : «.... هذه الأداة الديمقراطية، لابد أن تتمشى والعصر الحاضر، فيتناولها الكثير من الصقل والتعديل، سرعة وتنظيما، وتحديداً جديداً لمعنى الحرية، وستسفر الحرب الحاضرة عما أقول.» ! وفي «ثالثا: من الناحية الاقتصادية» يقول، ما صدقته سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو في معمعتها شاهد : «أما أن البؤس، والفقر المدقع، والقحط، والشقاء، وضيق العيش، وغيرها من الويلات ستضرب أطنابها في بلدان العالم... فأمر لا شك في وقوعه أسوة بما يحدث إثر سائر الحروب. إلا أن عوامل البؤس في هذه المرة ستظل ناشبة أظفارها عشرات عديدة من السنين، وستقبض الحكومة بيد من حديد على موارد الثروة وتثقل كواهل ذويها بالضرائب الفادحة، وتتغلغل في الحياة العامة..... وبتعبير أوضح ستضطر الحكومات ، حتى أشدها ديمقراطية، بالأخذ بشيء من المبادئ المشتركة بين الفاشية والنازية والشيوعية المعروفة اليوم.....» ثم ينتقل إلى «رابعا: من الناحية الخلقية» الذي يختم به توقعاته قائلا: «دل تاريخ الحروب على أنه سرعان ما تضع الحرب أوزارها حتى تكسح بلدانها موجة طاغية من الإنحلال الأدبي والتفكك الخلقي، خصوصا في أعز ما يتمسك به الناس عادة من العناصر، وأشد ما يحرصون عليه من مبادىء. وكلما اشتدت أهوال الحروب، وامتد أجلها، واتسع نطاقها، اشتد انهيار المبادىء، واتسع انحلال الآداب الخلقية. وليس هذا بغريب من الناحية العلمية، إذ أن الطبائع الإنسانية الأصيلة الوحشية، التي صقلتها المدنية بعض الصقل، وهذبتها التربية بعض التهذيب، تأخذ في الظهور في أبشع صورها، وأخشن ملامسها، كلما طغت الأزمات طمأنينة الإنسان في الصميم، وهددت كيانه. وهذه الحرب لابد أن يختل في ختامها ميزان العالم من الرجال والعتاد، فتصبح الملايين من النساء بغير رجال، ويصبح الملايين من الأطفال بغير آباء، وتباع الكرامة وعزة النفس بأبخس الأثمان، وينسى الأفراد ذلك الإرث الصالح، والتراث الغالي من المبادىء الخلقية التي جاءت إلينا أبا عن جد، فحرصنا عليها طويلا، وامتشق الكثيرون منا الحسام ذودا عن حياضها.... ستظل هذه الفوضى أعواما لا يعلم إلا علام الغيوب عددها، وتظل العناصر الاجتماعية تتفاعل كمواد الكيمياء حتى يصفو المزيج، ويتزن السائل وتعود المياه إلى مجاريها إلى حين ....

.... ومن

العبث أن نتوقع الاستقرار طويلا.... »

★★★

يستهل الدكتور محمد عوض محمد مقاله بما يمكن أن نستهل به مقالاتنا اليوم، ولو بتغيير طفيف، فمدخله مباشر إلى الحسم: «لا نريد أن نسرف في القول، بأن نزعم أن الجغرافيا هي الموجه الوحيد للسياسة اليوم، فنحن في زمن يتسلط فيه أفراد قلائل على مصير شعوب عظيمة، فيعملون على توجيهها بما توحي به أوهامهم أو آراؤهم أو شهواتهم، التي لا تستند إلى عقل حصيف، أو رأي سديد، أو فهم صحيح للأحوال والعوامل الجغرافية ، وبرغم هذا فإننا كثيرا ما نسمع من أفواه المستبدين ما يشير إلى أن سياستهم تمليها الظروف الجغرافية القاهرة . والحقيقة أن تلك السياسة تكون مما أملاه فهمهم الخاص للظروف الجغرافية، لكي يظهروا للعالم أن رغباتهم وشهواتهم ترتكز إلى أسس طبيعية، لا مفر منها.....».

★★★

وينشغل الشيخ عبدالعزيز البشري بكيف تدرأ مصر عن نفسها آثار الحرب وتدفع المغير عن أرضها ». وبأسلوبه الأدبي التأملي يقلب بين يديه كل الاحتمالات ويكتشف أن الاتقاء بالوسائل المادية لا يدفع «كفة الشر الراجحة» فيلتفت إلى الوسائل المعنوية: «هذه القوة المعنوية التي كثيراً ما تقهر القوى المادية وتظفر بها، وتفسد عليها حسابها، وتغلق دون الفوز أبوابها ، هي



د. أمير بقطر



عبد العزيز البشري

الصبر والاحتمال. فبالصبر يقهر الجيش من هم أكثر منه ، وأجزل عددا، وأوفى مددا ، وقديما قيل: الشجاعة صبر ساعة...» وهو يتوقع أن يصاب أهل مصر بالغارات: «... نحن نتوقع غارات تعترينا من جو السماء، وقد تلحق بنا من الأذى قليلا أو كثيراً.

ومن ظنّ ممن يلاقي الحرو
ب بألا يصاب فقد ظن عجزا

ولنقدر ، لا أذن الله، أن يأخذنا الهلع والفزع، فماذا يكون الحال؟ لعمري، ليس شرا على نفسه وشرا على غيره من الهلوع الذي ضل رشده، وفقد صوابه .... الهلع والذعر، هما من أفتك الآلات في يد العدو، بل لعلهما أفتك من كل ما تطوله يده من عدة وسلاح. ولا غرو على إذا دعوتهما من الآن بالطابور السادس. فعلينا أن ندرع بالصبر والاحتمال. ولا ندع للجزع إلى أنفسنا السبيل. وأن نستبقي الرشد، مهما يجشمنا من جهد. فهذه هي وسيلة النجاة، والتخفيف من ويلات هذه الحياة. أسأل الله تعالى أن

يثبت قلوبنا، ويشد متوننا، ويكشف عنا هذا البلاء، ويهون علينا مواقع الأرزاء، إنه سميع قريب مجيب الدعاء».

★★★

يختم الدكتور زكى مبارك مقاله الرشيق الأنيق سريع الإيقاع بجملة دعاء، تقترب من ابتهال الشيخ عبدالعزيز البشرى، حين يقول: «والله وحده هو المستعان على مكاره هذا الزمان». ذلك بعد أن ينوه: «أما بعد فهذا مقال اقترحه الهلال وذلك الاقتراح يشهد بأن الفكر قد يتأثر بالحرب، والهلال نفسه أصدر أعداداً خاصة بالحرب، لأن محرريه لا يملكون السكوت عما يشهدون من قلقلات التاريخ... أذكّر القراء بالصوت المشهور:

عشنا وشفنا سنين
ومين عاش ياعيني(يشوف العجب

فهو صوت خلقته إحدى الحروب، فما هى تلك الحرب؟ ومن هو صاحب ذلك الصوت؟ الدنيا هى الدنيا والناس هم الناس، وصدق بديع الزمان حين قال:

رأيت الناس خداعا
إلى جانب خداع
يعيشون مع الذئب
ويبكون مع الراعى

★★★

ويلخص الأستاذ محمد عبد الله عنان الحكمة النهائية فى السطر الأخير من مقاله: «ونحن نعرف من سير التاريخ ماذا كان مصير الفتوحات الناهبة المخربة، فهى دائما تحمل عناصر انهيارها». ويحلم الأستاذ نقولا الحداد بالسلام فى خضم الحرب وذلك بتكوين ما أسماه «حكومة الحكومات العليا» التى تخلف «جمعية الأمم» فى ذلك الوقت، «لأن فشل هذه الجمعية كان مبيتا لها فى نفس نظامها الذى لم تضمن فيه العدالة ولا سلم من التحيز ولا تُدورك فيه استبداد الدول القوية» - (بالذمة ألا ينطبق هذا بالنص على «الأمم المتحدة» التى تقف خائبة عاجزة أمام استبداد الولايات المتحدة الأمريكية الآن؟).

وينبه الأستاذ فؤاد محمد شبل، فى دراسته المستفيضة إلى أهمية الذهب فى النشاط الاقتصادى، إلى خطورة حشد الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية فيقول: «كانت الحرب الأوربية والمخاوف التى سبقت نشوبها أهم عامل أثر تأثيرا جديا وعمل على تجميع الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية. فقد دفعت هذه المخاوف الأفراد والهيئات والحكومات فى أوربا إلى نقل أموالهم إلى البنوك الأمريكية خشية من أن بقاءها حيث كانت يعرضها للضياع والمصادرة، كما عمدت الحكومات الأوربية إلى تحويل أموال طائلة لتتدارك بها احتياجاتها المستقبلية، وقد ترتب على ذلك زيادة ما فى حوزة البنوك من الذهب

خلال عام ١٩٢٩ بما يزيد على ثلاثة مليارات دولار، ونشأت هذه الزيادة بعد قيام الحرب الحالية بصفة خاصة، وقد لا نكون مغالين إذا قدرنا ما في حوزة أمريكا الآن - (سنة ١٩٤٠) - بثلاثة أرباع الذهب العالمي - وهي نسبة مخيفة حقا. وليس هذا القدر من الذهب نتيجة لحركة الذعر السائدة في أوربا فحسب، بل ناجم أيضا عن تسديد أثمان بضائع اشترتها أوربا من أمريكا تطبيقا لمبدأ Cash and Carry الذي يعمل به الأمريكيون اليوم، فهم يرفضون فتح اعتمادات لأوربا ويصرون على تقاضي أثمان ما تشتريه دولها نقدا مع توليها هي مهمة النقل. وعلى ذلك كلما اشتدت حاجة الدول المتحاربة وغيرها إلى السلع والخدمات الأمريكية زاد تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة. هذا فضلا عن بقاء الميزان التجاري في صالح أمريكا باستمرار . وهنا يحق لنا التساؤل عن مصير هذا القدر العظيم من الذهب المتجمع في هذه البلاد وعن مستقبل المعدن النفيس كمعيار للقيمة. لا ريب أن العالم سيجابه بعد الحرب هذه المشكلة بقوة وعنف ....».

★★★

ولا تتوقف «الهلال» في صفحات أخرى عن متابعة موضوع «الحرب» فتقول في باب «العلم والعالم»: «الأرقام التي لا تكذب ولا تخدع لا تقدم لنا مبررا ماديا لهذه الحرب المروعة التي تأخذ الإنسانية أخذ المردة الجبابرة.. يريد الساسة أن يبرروا المجزرتين الرهيبتين اللتين قامتا في سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣٩ .... ولكن كلام الساسة يسوق دائما من الأكاذيب أكثر مما يورد من الحقائق. أما الذين يعتمدون على الوقائع والأرقام فيقولون إن نفقات الحرب الكبرى الأولى قد بلغت ٤٠٠ بليون من الدولارات - دع ثلاثين مليون نسمة من زهرة الشباب وصفوة الرجال قتلوا في معاركها ....

....

فالأرقام تثبت أن ما يخسرونه في ساحات القتال من المال أعظم وأكبر بكثير مما تأتي به الحرب من أملاك وغنائم!».

★★★

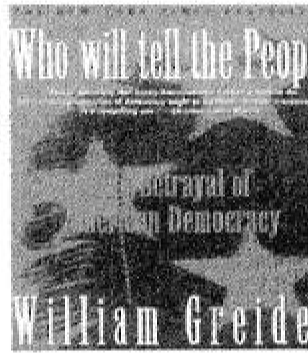
ويعلن باب الكتب الجديدة عن صدور كتاب «مثار في الميزان» بقلم عباس محمود العقاد، وعن «حمار الحكيم» للأستاذ توفيق الحكيم، وعن كتاب غريب عنوانه «قاموس الصحافة العربية المصرية» للأساتذة موسى بريل و د. نويشتاط و ف. شوسر، طبع بمطبعة لجنة الجامعة العبرية للنشر بالقدس!

★★★

ولا ينسى محرر الهلال أن يرفه عن قرائه بمقال طريف بقلم الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير، يتحدث عن تحضير الأرواح وعنوانه: «روح ماجن يملى مقالا ... وروح جاد يحققه ويصححه»!

★★★

وما أشبه الليلة بالبارحة! ■



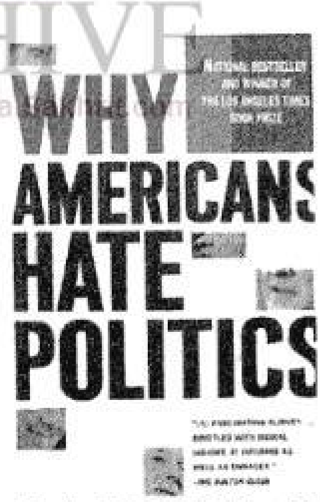
الأمريكيون يكرهون السياسة

والعالم يدفع الثمن!!

بقلم
محمود أحمد

طوال الأشهر والأسابيع الماضية ، والتى عبرت بنا من العام السابق إلى العام الجديد ، ظلت شعوب (وحكومات) المنطقة المعروفة باسم «الشرق الأوسط» تتابع بمزيج من الحيرة وعدم التصديق ، تصاعد الحملة الشعواء التى تشنها الإدارة الأمريكية استعدادا لضرب العراق .

لم يصدق أحد ، بالطبع ، الدعاوى التى استندت إليها الادارة الأمريكية لتبرير هذا الفصل من حملتها على الإرهاب . ولم يتمكن العمل الدبلوماسى والإعلامى الأمريكى المكثف من بناء قناعة بأن العراق يمتلك من أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يهدد به .. ليس جيرانه فقط ، وإنما الأمن القومى الأمريكي نفسه، هكذا دفعة واحدة!



وبينما كانت هذه الأسابيع والأشهر تمضي ثقيلة، ظلت الإدارة الأمريكية، من جانبها، تتجاهل عدم الاقتناع الواضح لدي الشعوب والحكومات داخل المنطقة وخارجها.. بل إنها أبدت عدم اكتراث مذهل بكل التحذيرات والدعوات التي وجهت إليها في محاولة للتنبيه إلي الكوارث التي يمكن أن تنجم عن ضربتها القادمة.. سواء ما أطلقه الزعماء والسياسيون أو ما جاء من جانب رجال الدين بمن فيهم البابا يوحنا بولس في رسالته بمناسبة عيد الميلاد

وفى مواجهة الموقف الذى استمر يزداد سخونة، خرجت مظاهرات هنا وهناك - معظمها فى أوروبا - تحتج على هذا التوجه الذى يمضى بعناد نحو الحرب. ولكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح أمام تصميم الإدارة الأمريكية وأخذت تترسخ القناعة بأن «الحرب ضد الإرهاب» و«العمل على» إزالة الخطر العراقى «ماهى» إلا ذرائع تحاول الولايات المتحدة أن تتستر وراءها وهى تعمل لتنفيذ خطط الهيمنة على العالم التى رسم خطوطها خبراء الاستراتيجية الأمريكية.. حتى قبل أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١.



محمد حقى



جورج بوش

وتدريجيا، أخذت هذه الصورة تزداد وضوحاً حتى أصبح يدركها رجل الشارع العادى، مهما تواضع وعيه السياسى، فى «المنطقة» وخارجها. ولكن سؤالا ظل معلقا بلا جواب، طوال الوقت، حول موقف الشارع الأمريكى نفسه، ومدى إدراكه لهذه الصورة، وبالتالى مدى إمكانية تأثيره على قرارات «الإدارة»، خاصة وأن الأخبار الواردة من الولايات المتحدة أكدت أن المدن الأمريكية شهدت هى أيضا مظاهرات وتجمعات سياسية تعلن رفضها للحرب والدعاوى التى تستند إليها.

كان هذا التساؤل واحدا من الاسئلة العديدة التى طرحت أثناء لقاء تم مع زميل وصديق قديم مقيم فى الولايات المتحدة منذ أكثر من ربع قرن، وتصادف أن مر بالقاهرة مؤخرا وهو محمد حقى الصحفى المخضرم والرئيس الأسبق لهيئة الاستعلامات.. والذى ينتمى سياسيا إلى

والعالم يدفع الثمن!!

الحزب الجمهوري..
حـزب الرئيس جـورج
بوش وإدارته. وأكد محمد حقى
أن المظاهرات لفتت الأنظار بالفعل،
خاصة وأنها كانت شاملة بحيث لم
تستثن منها مدينة أمريكية صغيرة كانت
أو كـبـيـرة. ولكن هذه المظاهرات
والاحتجاجات السياسية التي رافقتها ما
لبثت أن أخذت تخبو حدتها، خاصة مع
اقتراب موسم العطلات (أعياد الميلاد
ورأس السنة). وعلى أي حـال، فـإنه لم
يبد أن أحدا قد أهتم بهذه الاحتجاجات
- على مسـتوى الإدارة - أو توقع أن
يكون لها تأثير ذو بال على السياسات
والقرارات الخاصة بالعراق. وكان تفسير
زميلنا محمد حقى هو أن «أزمة العراق»
لم تصل إلى الحد الذي يهدد الأسرة
الأمريكية.. على نحو ما جرى في تجربة
الحرب في فيتنام مثلا عندما كانت
نعوش الجنود القتلى تصل إلى أنحاء
الولايات المتحدة فتسبب هزات كان لابد
وأن تؤثر في القيادة وقراراتها.

وبالطبع، فإننا إذا أضفنا إلى ذلك
ما هو معروف عن تأثير الحملة الإعلامية
الكاسحة التي استعانت بها الإدارة
الأمريكية لصياغة وعي الرأي العام،
لأدركنا أيضا سببا آخر من أسباب عدم
اكـتـراث الرئيس بوش وإدارته
بالاحتجاجات الداخلية لرجل الشارع
الأمريكي المعروف عنه أصلا أنه لا يعبأ
كثيرا بالشئون السياسية، ولايشغل نفسه
بها، خاصة إذا كانت تتعلق بالشئون
الدولية ولم تكن ذات تأثير مباشر على
حياته ومصالحه.. وفي أزمة العراق
تحديدا، ولأنها صورت لرجل الشارع
الأمريكي على أنها تأتي في إطار محاربة
«الإرهاب» الذي هاجمه في عقر داره في
١١ سبتمبر ٢٠٠١، لم يكن متصورا أن
يتحول الفرد الأمريكي فجأة فيغير من
طباتعه واهتماماته، وأن يبدأ بفحص
أحوال السياسة والتدقيق فيها بحثا عما
هو حق .. وما هو عدل!

على أن هذه الأزمة التي وضعت
العالم العربي والإسلامي خصوصا في
مواجهة واحدة من أشد الإدارات
الأمريكية تطرفا، ربما تكون فرصة
للتمعن في هذا الموقف التقليدي الذي
يتخذه الأمريكي العادي من الشئون
السياسية عامة.. ومن السياسة الخارجية
على وجه الخصوص! كما أنه قد
يضاعف من الحاجة إلى تفحص هذا
العزوف من جانب الأمريكيين عموما عن
الاهتمام بالشئون السياسية - والشئون
الدولية على وجه أخص - ما رافق حملة
الإدارة الأمريكية من جهود مبالغ فيها
لتلقين شعوب الشرق الأوسط دروسا في

الديمقراطية التى تخلفت فيها ، فبينما نجد أن كتابا أمريكيين مرموقين يوجهون انتقادات صريحة لما آلت إليه الديمقراطية الأمريكية ذاتها ، تعمد الإدارة الأمريكية ممثلة بوزير خارجيتها «كولن باول» إلى إطلاق مبادرتها التى تهدف إلى نشر الديمقراطية فى ربوع المنطقة . فقد اكتشف أركان الإدارة - وفى مقدمتهم باول نفسه و«جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية» و«ريتشارد هاس» مدير التخطيط السياسى بوزارة الخارجية - أن الحاجة قد أصبحت ملحة لسد «الفجوة الديمقراطية » بين العالم العربى وبقية العالم .. على حد ما جاء فى افتتاحية صحيفة Democracy Gap «الواشنطن بوست» (فى ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٢) !!


جورج تينيت

الانغماس فى «السياسة» وميلهم الواضح لإدارة ظهورهم للعمل السياسى . وقد لفت الكتاب الأنظار فى حينه ، حتى أنه صنف كواحد من أكثر الكتب مبيعا وانتشارا Bestseller ، ولا يزال يعد أحد أهم المراجع فى هذا الموضوع

واختار المؤلف لكتابه عنوانا مباشرا وصريح الدلالة هو : «لماذا يكره الأمريكيون السياسة Why Americans Hate Politics » .

* * *

فى أعقاب الضربة الأولى التى قادت الولايات المتحدة تحالفا دوليا لتوجيهها إلى العراق ، فى مطلع التسعينيات ، لم تكن الظروف ولا مناخ العلاقات الدولية مماثلة لما هى عليه الآن . ومع ذلك ، فقد كانت الأوضاع السائدة كافية لكى تحفز كاتبا صحفيا أمريكيا اسمه إى . جى ديون E . J. Dionne, Jr إلى تأليف كتاب يرصد ظاهرة عزوف الأمريكيين عن

أورد «ديون» فى صدر كتابه عبارة - حتى قبل فهرس المحتويات - من رسالة للرئيس التشيكى والأديب «فاسلاف هافل» كان قد وجهها إلى الكونجرس الأمريكى . والعبارة ذات مغزى لا يخفى على أحد ، فقد خاطب «هافل» أعضاء الكونجرس قائلا «إنه طالما أن الشعوب ستظل كما عرفناها دائما ، فإن الديمقراطية - بمعناها

والعالم يدفع الثمن !!

الكامل – ستبقى مجرد فكرة مثالية . وسوف يقترب منها البعض ، بدرجة أو بأخرى ، ويمارسها البعض بصورة أفضل أو أسوأ ، ولكن إحرازها بالكامل سيبقى دائما بعيد المنال . ومن هذا المنطلق ، فإنكم أنتم أيضا لا تفعلون أكثر من مجرد الاقتراب من الديمقراطية»

سنتجاوز ملاحظة «هافل» ومغزاها ، لننتقل إلى مضمون كتاب «ديون» الذى حاول أن يلقى الضوء على أسباب عزوف الأمريكيين عن السياسة وإدارتهم ظهورهم لها .

فى البداية ، يلاحظ الكاتب الأمريكى أنه فى مطلع التسعينيات ، وعندما كانت «الديمقراطية قد أخذت تتفتح من جديد فى بلدان شرق أوروبا (بعد انهيار الاتحاد السوفييتى والمعسكر الشرقى) ، كان العكس يحدث فى الولايات المتحدة حيث بد أن الديمقراطية تخبو تدريجيا ويعتريها ما يشبه الصدأ . وهو يقول إن الأمر كان قد بدا قبل ذلك بثلاثة عقود ، عندما أخذت ثقة الأمريكيين بمؤسساتهم الديمقراطية تتناقص وتتآكل تدريجيا وبدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم إزاء قدرتهم على تحسين الأوضاع العالمية من خلال العمل السياسى .

وقد كان من المؤسف أن يحدث ذلك للأمريكيين وهم الذين ظلوا – على مدى قرنين كاملين منذ أواخر القرن الثامن عشر – يتباهون بـ «النموذج الأمريكى» الذى يمكن للفرد من خلاله أن يمارس «مواطنيته» ويحقق ذاته ويحرز المكاسب أيضا عن طريق العمل العام . وبدلا من أن يقوى هذا النموذج ويزداد زخما ، إذا بنا نرى الأمريكيين فى نهايات القرن العشرين وقد اعتراهم الملل من العمل السياسى وأخذ يدب فيهم التفكك بعد الجماعية والاحتشاد .

ويمضى «ديون» شارحا : بالنسبة للكثيرين منا ، أخذت السياسة تتحول إلى شيء مجرد ، أو إلى نوع من الألعاب الرياضية التى يكتفى المرء فيها بالمشاهدة دون المشاركة . وحتى الحملات الانتخابية التى اعتاد الأمريكيون الانغماس فيها بحماس ، بدأت هى أيضا – وبصورة متزايدة – تصبح أقل إثارة بالنسبة إليهم ، وعلى نحو لم يسبق له مثيل فى الحياة الأمريكية .. خاصة بعد ما بدا واضحا من خضوعها وتأثرها بالإعلانات التليفزيونية وعمليات استطلاع الرأى . وهكذا يجد الأمريكيون أنفسهم الآن يعاملون لا كأفراد لهم كياناتهم وكناخبين

عليهم المشاركة فى تقرير مصير بلادهم ، وإنما «مجموعات من البشر» تساق معا - حتى وإن تم ذلك أحيانا بالاسترضاء والملاطفة - من أجل تحقيق نتائج معدة سلفا بصورة محكمة .

والمفارقة ، كما يلاحظ الكاتب أيضا ، أنه فى الوقت الذى لا تزال الديمقراطية فيه تمثل شعارا يعتنقه الأمريكيون ويوصون به غيرهم فى أنحاء العالم شرقا وغربا ، فإن ما يبذل داخل الولايات المتحدة نفسها لتأكيد وتوطيد قيم المشاركة فى الحكم قد بدأ يتضاءل بشكل واضح . والنتيجة ، أن شكوك الأمريكيين تتزايد باستمرار فى أن العملية الانتخابية توفر لهم الوسيلة حقا للمشاركة فى إدارة حكوماتهم المحلية ، وكان من الطبيعى أن نصف الناخبين الأمريكيين على الأقل فقد الاهتمام بالتوجه إلى صناديق الاقتراع بأصواتهم عندما يحين موعد الانتخابات .

ويسجل «ديون» ، فى هذا السياق ، أن ابتعاد الأمريكيين عن المشاركة فى العمل العام قد أدى ، تدريجيا ، إلى أنهم أخذو يفقدون «الحس المجتمعى Sene of community » فضلا عن افتقادهم الهدف المشترك . وهو يقول إنه قد نجمت عن ذلك ثغرات أو فجوات اجتماعية ، لعل أخطرها يتمثل فى أن الانقسام بين البيض والسود قد ازداد اتساعا إلى درجة أن أدوات التعبير المباشر كاللغة والموسيقى التى يسمعها المرء فى داخل المدن قد غدت مختلفة عنها فى الضواحى أو المناطق النائية .

وهنا ، نجد أن المؤلف الأمريكى ينتهى إلى نتيجة هامة للغاية ، هى أن ابتعاد الأمريكيين أو عزوفهم عن الإنخراط فى الحياة العامة قد أدى إلى نوع من «الفراغ السياسى political void» الذى أخذت تملؤه ، وبصورة متزايدة ، السياسات الهجومية والقضايا غير المهمة وغير الحقيقية بالنسبة لجموع الأمريكيين .

فهل يمكن لنا ، إذن ، أن ندرج القضايا العالمية الخطيرة الراهنة ، وفى مقدمتها - بالنسبة للشعوب فى المنطقة العربية والشرق الأوسط - الحملة على العراق بصفة خاصة وسياسات الهيمنة الأمريكية بصفة عامة ، بين هذه القضايا «غير المهمة» بالنسبة لرجل الشارع الأمريكى ؟

إن «ديون» ينتقل من هذه النقطة ليقرر أن الأمريكيين لم يعودوا متأكدين حتى من مغزى إنتصارهم فى الحرب الباردة . ذلك أن انتهاء هذه الحرب قد

والعالم يدفع الثمن!!

جلب معه قدرا محسوسا من «القلق» إزاء ما سيؤدى إليه ذلك من إضمحلال الدور العالمي للولايات المتحدة ، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار تناقص القوة الاقتصادية العالمية الأمريكية لصالح اليابان وأوروبا . كما أن القضايا الكبرى التي سيطرت على التفكير الأمريكي وتوجهاته على مدى عقود متعاقبة ، قد أضحت بغير معنى ولا علاقة لها بالعالم الذي تواجهه الولايات المتحدة الآن . بل إن «التحالف الدولي» الذي أقامه الرئيس الأسبق «جورج بوش» - الآن - ضد العراق ، في مطلع التسعينيات ، لم يكن ليخطر على بال أحد لا في الولايات المتحدة ولا خارجها قبل إقامته بوقت قصير . وهذا فضلا عن أنه من المسلم به أن الأسلحة التي استخدمتها الولايات المتحدة ضد العراق في تلك الحرب كانت قد أنتجت أصلا «لكي تؤدى دورا في صراع آخر ، وفي مكان آخر ، وضد عدو مختلف» .

ويلاحظ «ديون» ، في هذا السياق ، أن المنطق الذي اعتمدته الولايات المتحدة لمواجهة العراق في ذات الوقت كانت قد تمت صياغته خلال سنوات الصراع في فيتنام» كما لو كان استخدام القوات الأمريكية يعني دائما الشيء نفسه في كل مكان في العالم وضد أي عدو أيا كان» .. على حد تعبيره .

أما بيت الداء هنا ، فيكمن في جوهر الحياة السياسية الأمريكية ومشكلاتها المعقدة والمتشابكة والتي يتابعها المؤلف على مدى فصول الكتاب مؤكدا أنها ترجع كلها إلى فشل الأيديولوجيات التي تحكم السياسة الأمريكية .. سواء في ذلك الأيديولوجيات الليبرالية التي يعتمدها الحزب الديمقراطي ، أم تلك التي يتبعها الجمهوريون المحافظون .

★★★

«إنها دعوة للشعب الأمريكي لكي يبادر فيستعيد مقاليد الحكم التي ضاعت من يديه».

بهذه العبارة، علق «هودنج كارتر»، المتحدث باسم البيت الأبيض أيام إدارة الرئيس الأسبق «جيمي كارتر» على كتاب صدر بعد نحو عامين من صدور كتاب «ديون» وأحدث بدوره ضجة حملته هو أيضا إلى قائمة أوسع الكتب انتشاراً وكان الكتاب يحمل هو «من الذي سيصارح الشعب Who will Tell the People»، كما أن مؤلفه «وليام جريدر William Greider» اختار له عنوانا فرعيا آخر، ربما كان أكثر

صراحة ووضوحا هو «خيانة الديمقراطية الأمريكية
The Betrayal Democracy of Americam».

ونحن نقرأ كتاب «جريدر» هذه الأيام، لابد أن يلح علينا سؤال حول «ماهية» الديمقراطية الأمريكية (في صورتها الحالية) التي تريد إدارة الرئيس جورج دبليو بوش الإنعام بها - ولو بالقوة - على العالم أجمع.. وبلدان الشرق الأوسط العربية بصورة خاصة. فالمؤلف الأمريكي يقول لنا، منذ السطور الأولى لكتابه أن الديمقراطية الأمريكية تعاني حالة من «التآكل» لم تعد سرا لأن مظاهرها أصبحت موجودة يلمسها أي أمريكي ويراها حوله في كل مكان. وقد نجم عن ذلك ظهور أعراض إحباط تتراكم بلا توقف في جسم النظام السياسي، بينما أصيب المواطنون الأمريكيون بحالة من انهيار المعنويات بسبب شعورهم بأنه لا يوجد في الأفق ما يبشر بعلاج ناجع لهذه الحالة!

وفي كلمات أكثر تحديدا، يقول «جريدر» إن ما خلق هذه الحالة هو أن الأمريكيين اكتشفوا منذ أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات، أن كل ما تعلموه - ومازالوا يؤمنون به - عن «الحكم الذاتي» وقيم المجتمع المدني.. أو ما يعرفونه في مجموعه بالديمقراطية، لم يعد مطابقا لواقع الحال الذي يعيشونه اليوم. وباختصار، أصبح هناك «انفصام» بين ما يؤمن به رجل الشارع الأمريكي العادي وبين حقائق الحياة القائمة التي تفرض نفسها عليه. وفي مواجهة ذلك، يوجد تردد من جانب الأمريكيين في التصدي لهذه الحالة.. وهو تردد يقول مؤلف الكتاب أن سببه يعود إلى أن الحقائق القائمة في الواقع السياسي الأمريكي اليوم أصبحت أشد إيلاما من القدرة على مواجهتها Too painful to face - على حد تعبيره حرفيا.

ويؤكد «جريدر» أن وراء الواجهة الكاذبة لإجراء الانتخابات في مواعيدها، والإيهام بمشاركة الشعب في حكم نفسه وما إلى ذلك، حقيقة لا يمكن التهرب من مواجهتها وهي أن الديمقراطية الأمريكية قد تم إفراغها من محتواها. وهو يقول صراحة إن تلك هي «الرسالة» التي أراد أن يبلغها للجميع من خلال هذا الكتاب - الصدمة!.. لأنه من المؤكد أن الواجهة الرسمية للعملية الديمقراطية تخفي وراءها ما يمكن وصفه بأنه «انهيار

منظم» لقواعد وقيم المجتمع المدنى التى يطلق عليـهـا الأمـريكيـون، فى مجموعها، كلمة «الديمقراطية».

أما كيف حدث ذلك للديمقـراطيـة الأمريكية العتيدة.. فإن «جريدر» يلخصه فى أنه كان عبارة عن تعرض نظام تمثيل الجماهير لعمليات تشويه أدت به فى النهاية إلى الابتعاد عن الغرض الأصلى الذى أنشىء من أجله. وهو فى هذا يوجه اللوم إلى جـمـيـع الأطراف: الأحـزاب السياسية، ووسائل الإعلام (الميديا)، والنظم التى تسمح بتدخل «وسطاء» فى العمليات الانتخابية.. وقد دمغ «جريدر» هذه الأطراف جميعها بأنها لم تعد جديرة بالثقة أو الاعتماد عليها. كما أنه لم يتـردد فى القـول أن الديمقـراطيـة الحقيقية فى أمريكا قد أفسحت مكانها لمظاهر زائفة أصبح المجتمع السياسى يعـتنقـهـا بديلا من المبادىء القـديمة المعروفة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن عيبا أساسيا قد طرأ على العملية الديمقراطية فى الولايات المتحدة وهو يتلخص فى أن الديمقراطية أصبحت تمارس من خلال «سياسات الحكم» وليس بالاستناد إلى السلطة التى تأتى نتيجة للنجاح فى الانتخابات. هذا إلى جانب أن الممارسة الديمقـراطيـة تعرضت لعمليـة طويلة ومعقدة أدت إلى أن المواطن الأمريكى فقد القدرة على أن يخاطب مباشرة هؤلاء الذين رفعهم إلى سدة الحكم واختارهم لتمثيله فيه.

●●●

أهمية هذه الكتابات وغيرها، وهى كثيرة، تأتى من أنها تلقى الضوء على حقائق الحياة السياسية الأمريكية كما يراها الأمريكيون أنفسهم - وهى حقائق قد يكون جوهرها خافيا على الناس خارج الولايات المتحدة.

فإذا كان الأمريكيون اليوم قد أصبحوا يتعاملون مع الشئون السياسية كمـا يتـعـاملون مع بعض الألعاب الرياضية، يشاهدونها ولا يشاركون فيها كما يقول إى. جى. ديون. وإذا كانت الديمقراطية الأمريكية - بكل ما لها من بريق - قد تحولت فى الممارسة العملية إلى واجهات زائفة كما يستنتج وليام جريدر.. فإنه يجدر بالعالم أن ينتبه إلى هذه «الآليات» التى تحمل إليه فى النهاية «إدارة» يكون لديها من الإمكانيات والقوة ما يتيح لها التحكم فى مصائر البلاد والعباد!

ولن نذهب بعيدا: فالناس فى كافة أنحاء المعمورة مازالوا يذكرون فصول تلك المهزلة المؤلمة التى جرت فى ولاية

«فلوريدا» في ختام سباق انتخابات الرئاسة في نوفمبر عام ٢٠٠٢، حيث أصبح اختيار رئيس الولايات المتحدة الأمريكية معلقا على حكم محكمة كان عليها أن تفصل فى صحة فرز عدة مئات من الأصوات. وعندما انتهت فصول المهزلة - أو المأساة - جاءت «العملية الديمقراطية الأمريكية» إلى سدة الحكم في الولايات المتحدة بإدارة احتشد وراءها تيار يميني من أشد ما عرفت أمريكا تعصبا وتطرفا. وقد جاءت هذه الإدارة إلى الحكم وهي تحمل «أجندتها» التى أمضى غلاة المحافظين في الحزب الجمهوري سنوات عديدة يعملون على إنجازها في مراكز البحث وأروقة ودهاليز السياسة التي يسيطرون عليها داخل «الكونجرس» وخارجه. فلما وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، انفتح الباب واسعا وأصبح الطريق ممهدا أمام هؤلاء لتنفيذ أكثر أفكارهم تطرفا وأبعدها طموحا. وهكذا وجد العالم إدارة الرئيس جورج دبليو بوش تعلن «الحملة على الإرهاب» لتعمل تحت مظلتها على تنفيذ خطط أقل ما توصف به أنها تتلاعب بمصائر البلاد والشعوب على نحو لم يخطر على بال بشر وظل الرئيس الأمريكي، حتى نهاية عام ٢٠٠٢ والأيام الأولى من العام الجديد مصمما على نحو غريب ولا معقول على المضي فيما أسماه الكاتب البريطاني «باتريك سيل» الانطلاق بخطى عمياء فى الاتجاه الخاطئ! (الحياة اللندنية - ٢/١/٢٠٠٣).

ولأن الشعب الأمريكي عازف عن المشاركة السياسية، خاصة في الشئون الخارجية التى اختصرها الإعلام المكثف مؤخرا فى «الحرب على الإرهاب»، فإن أحدا لا يتوقع أن تبالى إدارة الرئيس بوش بأى احتجاج يأتيها من الداخل أو أن تقلق مع معارضة حقيقية يمكن أن تعرقل خططها، ولهذا تمضى القوة الأمريكية تعمل، بلا ضابط، بدءا من اكتساح أفغانستان وحتى الإعداد لضرب العراق.. ومرورا بالتدخل فى فنزويلا والإعداد لفصل جنوب السودان وبسط الحماية على إسرائيل (باعتبارها شريكا في «الحرب على الارهاب»). ووصولا إلى إعداد الخطط لتلقين شعوب الشرق الأوسط كيفية ممارسة الديمقراطية وتغيير برامج التعليم وطرق التفكير والعادات والتقاليد لشعوب بأكملها.

هكذا، يبتعد الأمريكيون عن ممارسة أي تأثير حقيقي على حكومتهم، ويبقى على العالم أن يدفع الثمن باهظا! ■



العرب واليهود فى أمريكا

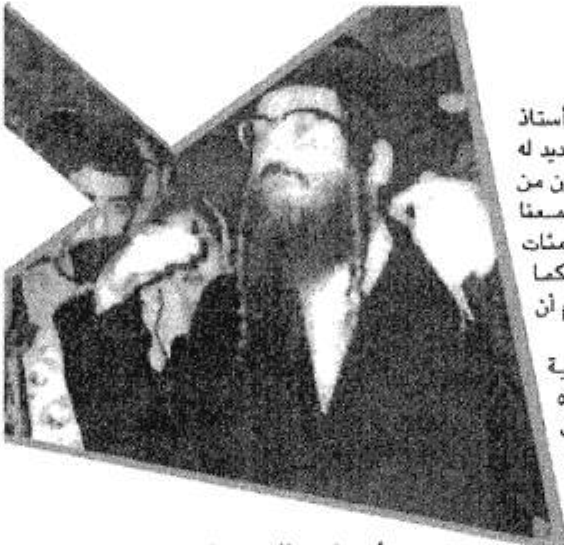
●● تاريخ هجراتهم.. وفاعليتهم.. وارتباطهم بقضايا بلادهم

●● يهود ضد إسرائيل يطالبون بإزالتها تماما من الوجود

لا توجد إحصاءات فى الولايات المتحدة عن العرب أو اليهود أو المسلمين أو حتى المسيحيين بعددهم أو مذاهبهم .. ذلك أن القانون الأمريكى يمنع تعريف المواطنين بأديانهم ومعتقداتهم ، كما يمنع أن تنص أية طلبات أو استمارات سواء للبيع أو العمل أو للمشاركة فى أى نشاط على الدين أو الجنس أو اللون ..

رسالة أمريكا

بقلم : صلاح المراكبى



يقول ريتشارد كيرتس وهو أستاذ لعلم الاجتماع في كتاب جديد له بعنوان «من نحن؟»، نحن أمـــة تتكون من مـــئــات الأجناس، والمفروض أن تجـمـعنا مفاهيم ورؤى ومصالح واحدة.. لكن مئات الأجناس لاتزال تحمل آلام شعوبها كما أن شعوبهم تنظر اليهم وتتوقع منهم أن يدافعوا عن قضاياهم ..

عدد الأمريكيين من أصول عربية يصل إلي ٣ ملايين ، وعدد اليهود ٥ ملايين ، أما عدد المسلمين من مختلف الأجناس فهم ٦ ملايين نسمة .. هذه الاحصاءات هي التي يقف عليها الجميع ، تقريبا .

هجرات عربية قديمة

يظن كـثـيـرون أن العرب لم يهاجروا إلي أمريكا إلا في الثمانين عاما الأخيرة .. لكن تقارير تاريخية تشير إلى أنهم كانوا مع الحملات الاسبانية في القرن الخامس عشر!. وفي نهاية القرن السابع عشر ناقش مجلس مدينة كارولينا الوضع القانوني لعرب من المغرب يقيمون في الولاية ، وقرر أن يعاملوا مثل معاملة البيض، ويقال أنهم امتداد وتكاثر للذين جاءوا مع الحملات الأسبانية .. وفي المعرض المئوى بفلادلفيا عام ١٨٧٠ كان يشارك به تجار عرب، وكذلك في المعرض الكولومبي بشيكاغو عام ١٨٩٣ .. وأول صحيفة عربية في أمريكا بدأت الظهور في عام ١٨٩٢ وفي عام ١٨٩٥ كانت للعرب المسيحيين ٣ كنائس في نيويورك وزاد عددهم بشكل ملحوظ في العشرين سنة التالية.. وأول مسجد أقيم في أمريكا كان ديترويت بولاية ميتشجان عام ١٩٢٢ .

كانت أكبر الهجرات من العالم إلى الولايات المتحدة بين عامي ١٨٨٠، ١٩٢٤ ووصل عددها إلى ٢٠ مليون نسمة كان أكثرهم من شرق وجنوب أوروبا لكن الأقل فيهم كان من العرب ، من سوريا الكبرى التي كانت تضم لبنان ، وسوريا ، والأردن ، وفلسطين .. وتقول صحيفة عربية هنا في ديترويت أن ٩٥ من العرب الذين هم من الأقارب والأصدقاء، وصلوا في يوم واحد على باخرة واحدة عام ١٩٢٠ ..

قليلون جدا جاءوا من مصر أو اليمن أو العراق أو المغرب في تلك الفترة .. ويمكن القول أنه في عام ١٩٢٤ كان يعيش هنا حوالي ٢٠٠ ألف عربي يسكنون في نيويورك وبوسطن وديترويت وشيكاغو وكليفلاند.. وهناك مهاجرون عرب ذهبوا إلى كل الولايات وخاصة في المدن والقرى الصغيرة ، وكان هؤلاء يعملون كباعة متجولين .. يبيعون بضائع منزلية – من الباب إلى الباب – وفي مناطق ليس بها محلات .. لكن هؤلاء التجار المتجولين وكلهم من سوريا الكبرى ، فقدوا أعمالهم التي كانت تعتمد على تسويق منتجات عربية كانوا يستوردونها إلى جانب منتجات محلية أمريكية ، عند إنشاء نظام إرسال البضائع بالبريد في سنة ١٩٣٠ مثل محلات سيرز التي بدأت هذا النظام ..

وعادت الهجرة بعد هدوء طويل وبقوة منذ عام ١٩٦٥ حيث بدأ العرب يتدفقون بالآلاف ، وكانوا مختلفين ، فبعضهم جاءوا بعائلاتهم للاستقرار، وبعضهم جاءوا يبحثون عن فرصة عمل مع قرار بأمل العودة ، بعضهم تجمعوا في مدن وأحياء معينة ، وبعضهم يذهب إلى أي مكان ، بينما يحاول القدامى الذين كانوا يعملون في





تجارة «القطاعي الاستمرار في أعمالهم بتقديم تسهيلات أكبر .. وانخراط أكثرهم في العمل بائعين في المحلات . وفي مصانع الأقمشة التي فضلت عمل النساء ..

● السوريون واللبنانيون كانوا هم الأكثر عددا بشكل عام في بدايات الهجرة وحتى بعد منتصف القرن الماضي .. كان ما بين ٨٠٪ ، ٩٠٪ منهم مسيحيون والباقون مسلمون .. أغلبهم كانوا من جبل لبنان وكانوا بغير عائلاتهم . أجرت الصحف العربية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي ، لقاءات مع أعداد منهم ، قالوا: إنهم جاءوا سعيا إلى حياة أفضل وأكثرهم يعملون في تجارة «القطاعي» سواء بالتجول أم بالاستقرار في أماكن عامة في الشوارع أم افتتحوا محلات صغيرة « التجول بالبيع كان أنجح مع النساء فقد كان يرحب بهم في طرق أبواب البيوت .. المسلمون والدروز منهم لم يحضروا معهم عائلاتهم .. أكبر الهجرات بين عامي ١٩٦٥، ١٩٩٢ وعددهم ١٤٣٠١٠ نسمة .

● الفلسطينيون كانوا العدد التالي للسوريين أغلبهم مسيحيون . يعملون في التجارة الصغيرة أيضا، وكانوا يستوردون أكثر بضائعهم من بلادهم ، بينما كان السوريون واللبنانيون يركزون على استيراد الحرير والتيل والأحزمة.. وعلى الرغم من أن أكثر أعداد الهجرة الفلسطينية كانت إلى أمريكا .. إلا أن أعدادا أخرى هاجرت إلى معظم دول العالم ..

● المصريون هم الجالية الثالثة عددا ، أكثرهم جاء إلى أمريكا ما بين عامي ١٩٦٥، ١٩٩٢ وذلك من خلال برنامج محدد للهجرة، ولذلك كان الاحصاء دقيقا لأعدادهم التي بلغت ٨٠٨٨٤ في تلك الفترة . العدد الأكبر كان عام ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٠ وظل يتراوح بين ٣ آلاف و٣٢٠٠ كل سنة حتى ١٩٩١

أغلب المهاجرين المصريين متعلمون : أطباء ، محامون ، علماء ، أساتذة جامعات .. أكثرهم مسلمون لكن نحو ثلثهم مسيحيين منهم بروتستانت .. في عام ١٩٩٢ قفز العدد كثيرا وكان أكثر المهاجرين في ذلك العام ، من الذين كانوا يعملون بالخليج وغادروه..

● العراقيون هم العدد الرابع ويضمون عربا، وكلدانيين وآشوريين، وكان العرب منهم هم الأقل .. أكبر الهجرات المحصاة بين عامي ١٩٦٥، ١٩٩٢ وعددهم ٥٢٩١٣ والمسلمون كانوا أكثر تعليما .. الكلدانيون سكنوا ديترويت والآشوريون شيكاغو .

من الواضح أن أكبر الهجرات إلى الولايات المتحدة - ومن الواضح أنها كانت مبرمجة ، بين عامي ١٩٦٥، ١٩٩٢ والإحصاء العام يقول: إن عدد العرب في تلك الفترة كان ٤٠٠ ألف مهاجر أكثرهم من ٦ دول عربية ، والجميع بالترتيب من لبنان ، وفلسطين ، ومصر ، والعراق، وسوريا ، واليمن ، والمغرب، وليبيا ، والبحرين ، وعمان، والسودان ، والسعودية ، وتونس والجزائر .

٥ ملايين .. لكنهم يملكون الكثير!

يذكر مؤرخو الهجرات إلى أمريكا أن بين حملات كريستوفر كولومبس الأولى كان هناك أعداد من اليهود ، ويزيدون القول بأن جزءا من التمويل لهذه الرحلات كان يهوديا ، لكن الثابت أن أول المهاجرين إلى الولايات المتحدة جاءوا من البرازيل، حيث كان يحكمها الهولنديون الذين كانوا أهل البلاد فبدءوا يضعفون ويغادرون ، بعض الهولنديين ومعهم أعداد من اليهود اتجهوا من البرازيل إلى نيويورك، حيث كان يحكمها بيتر ستايفسنت وهو هولندي ، الذي رحب بأبناء بلده الهولنديين لكنه تعسف في تعامله مع اليهود وقاوم وجودهم .. لكنهم كما يقول مؤرخوهم : (أثبتوا أنهم قادرون ومعتادون على التعامل مع أي وسط يعاديهم)! فبينما منعهم الحاكم الهولندي من العمل بالتجارة

وافتتاح محلات للبيع بالتجزئة ، والاستيراد من أوروبا ، وتجارة الملابس والمنسوجات .. بدءوا يعملون في تجارة الملابس المستعملة ، يشترونها ويبيعونها ، وكانت هذه أول مرة في التاريخ لهذه التجارة ، وبدءوا التجارة في المخلفات ، وجمعها من «الزبالة» والأنقاض .. وجلود الأرانب وفرو الحيوانات .. وهدأ الحاكم في التعامل معهم فاستعان بهم في إنشاء ميناء تجاري كبير في نيويورك !

وقامت ثورة التحرير في الولايات المتحدة ، فوصمهم ولاؤهم للحاكم الهولندي بمعاونة المستعمرين ففروا إلى فيلادلفيا ، لكنهم مع التحرير عادوا إلى نيويورك يعاونون السكان بحماس في تعمير المدينة .. وبذلوا في سبيل ذلك جهدا كبيرا ، وأصبحت نيويورك فردوس اليهود وملاذهم ، وبدأوا نشاطهم في الاستيراد والتصدير والتجارة والتمويل والاقراض والصناعة والفنون والاعلام ، وأعلنوا بكل حماس أن أمريكا هي أرض الميعاد وأن نيويورك هي القدس الجديدة .

عندما أصبح جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة كان عدد اليهود في أمريكا أربعة آلاف نسمة، ومن يومها بدأ العدد يتزايد بشكل لا مثيل له ، حتى أصبح عددهم بعد ذلك بخمسين سنة يصل إلى ثلاثة ملايين و٣٠٠ ألف .. وبدأوا يسيطرون على كل الأعمال والنشاطات ، بحيث لم يكن ولا يزال يستحيل أن تجد نشاطا لا يمتلك أو يتفوق فيه اليهود : الدعاية والاعلان ، المسرح ، الانتاج السينمائي ، صناعة السكر ، الدخان ، ٥٠٪ من صناعة تعليب اللحوم ، ٦٠٪ من صناعة الأحذية ، انتاج الموسيقى والتوزيع ، المجوهرات ، القمح ، القطن ، الزيت ، الكتب ، الصحافة ، الخمور ، البنوك

ويمتد نجاح اليهود في الولايات المتحدة ليخرج من اطاره المحلي إلى الاطار العالمي .. فشركاتهم وأعمالهم هنا ترتبط بشركات وأعمال يهود في كل أنحاء العالم ..

● وإذا كانت مواقف العرب الأمريكيين تفسدها وتفرقها انتماءاتهم القطرية وطبيعة خبراتهم وأعمالهم المكتبية التي لاتملك وسائل التعاون والتجمع اللهم الا مع إخوانهم المسلمين في المساجد والندوات ، فإن طبيعة حياة اليهود سواء عندما كانوا يعيشون في البلاد التي هاجروا منها أو هنا في الولايات المتحدة ، وهي طبيعة تميل إلى التقوقع والالتصاق ببعضهم البعض ، إضافة إلى خبراتهم الكبيرة في الأعمال الاستثمارية والصناعية زادت وجودهم قوة وتماسكا ، إلا أنهم من الناحية الدينية ينقسمون إلى محافظين ، وإصلاحيين ، وداعين إلى التمسك بأصول التوراة والتلمود .. والأخيرون يرفضون وجود دولة إسرائيل ، ويميلون إلى التعاون مع المسلمين والعرب في كثير من اللقاءات والندوات .

حراس المدينة .. يهود ضد إسرائيل !؟

اسمهم بالعبرية نيتوري كارتا وهي كلمة أرامية قديمة تعني (حراس المدينة) ويعتبرهم اليهود جزءا من المحافظين أو المتشددين، لكنهم يختلفون عن هؤلاء بأنهم لا يعترفون بإسرائيل، ولا بمواقفها وأعمالها ضد الفلسطينيين والعرب .. بل إنهم يختلفون مع الصهاينة في أن الفكرة التي قامت عليها دولة إسرائيل بتجميع اليهود في أرض ودولة ، هي فكرة مخالفة للتوراة والتلمود .

فالرب عاقب اليهود بارسالهم إلى الشتات والتفرق في الأرض .. هذه إرادته ويجب استمرارها عبادة وتوبة .. نقبلها ونرضاها ولا نخالفها .. والذين يخالفونها ليسوا فقط يخالفون دعوة الرب إلى حب جميع الخلق والتعاون معهم .. ولكنهم أساسا ملحدون).

يقول حراس المدينة أو النيتوري كارتا كما يسمون أنفسهم : اليهودية هي عقيدتنا وهي تبدأ بمعجزات أخرجتنا من مصر ،

حيث أوحى الله توراته لأمتنا . التوراة تحتوى على أوامر عقيدتنا ووصايا الرب وقصص أوائل اليهود واللقاء المرتقب مع الله (هم يكتبون كلمة الله بدون الحرف الأوسط من الكلمة حتى إذا أهملت الأوراق التى يذكر فيها الله أو تمزقت لا يكونون قد تعرضوا لغضب الرب فى إهانة اسمه) .

يقولون : تعهد اليهود طوال تاريخهم فى القرون الماضية بطاعة الرب حتى عندما أمرهم بالخروج والتفرق والشتات ، توبة وطاعة مما ارتكبوا من معاصٍ وذنوب.. الآن ومع الحسرة والأسف قام عدد من اليهود بعصيان الرب ، والخروج عن نصوص التوراة ، وبذلك يكونون قد زيفوا الدين .. إنه من الواجب العودة إلى التوراة ، والالتزام بنصوصها ، حتى يدرك العالم حقائق الدين اليهودى ، بشكله وحقائقه المشرقة الصافية من خلال سلوكنا .. نيتورى كارتا تقوم على مستوى العالم بتوضيح هذه الحقيقة .. من خلال ولائها الوحيد للرب ووحيه .. وتبعا لذلك فإننا نواجه ونعارض ونقاوم فكرة الصهيونية ، والتى ترفض الانصياع للدين .. الذى أراد لنا التفرق والحياة مع كل الأمم فى رضا وسلام .. نحن نؤمن بذلك .. ونؤمن أنه عندما يريد لنا الرب انتهاء الشتات .. ففى هذا الوقت سوف يريد الرب للبشرية جمعاء أن تتوحد فى صلاة عامة أخوية له .. وكما أننا نرفض قيام دولة اسرائيل ، فإننا نرفض المعاملة الوحشية ضد كل البشر .

إن «نيتورى كارتا» تنادى بالتوفيق والاصلاح بين الناس .. هذا هو واجبنا ومتطلباتنا فى علاقتنا نحو العالم الإسلامى والعربى ، حيث دمرت اسرائيل منذ ٥٥ سنة هذه العلاقات ولاتزال تدمرها .

إنه علينا وعلى كل الحاخامات ، وعلى كل الشعب اليهودى أن يعودوا إلى التوراة ، ويقرأوها ويتعمقوها ويرددوا كلماتها ويظلوا عليها قائمين فهى وحى الرب إلينا وهى ديننا وهى علاقتنا الوحيدة للسلوك والعمل والتعامل وكل نشاطات الحياة .. اندمجوا مع التوراة واجعلوها أيامكم ولياليكم حتى يراها الناس فيكم ويرونكم منها ..

* * *

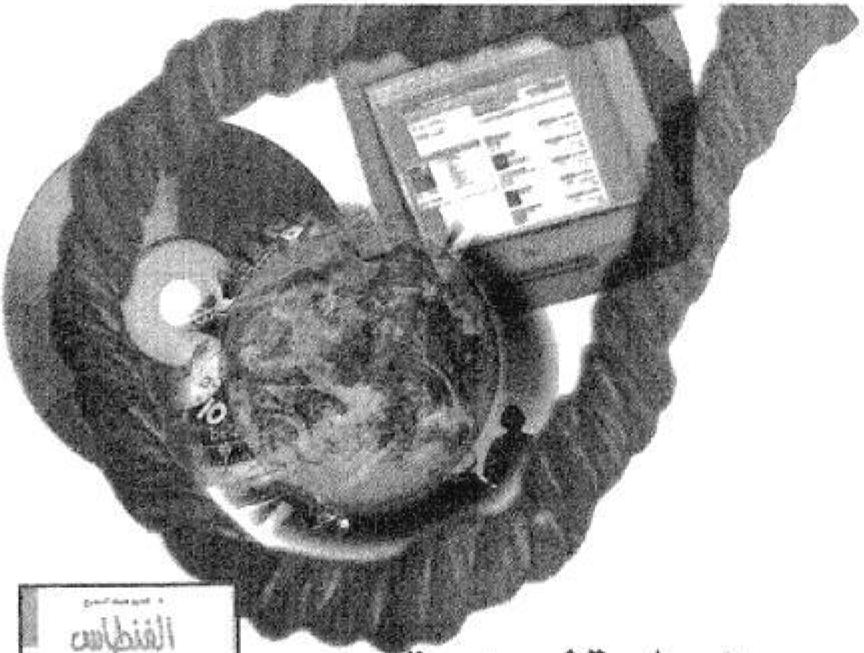
وفى محاضرة ألقاها الحاخام ديفيد ويس أمام المركز الاسلامى فى واشنطن فى ١٤ يناير ٢٠٠١ عنوانها : «الفرق بين اليهودية والصهيونية» قال الحاخام داود :

باسم الله أستعين حتى تكون كلماتى مباركة ، وتدخل إلى قلوبكم لتؤكد الحق والسلام . أنا سعيد بهذا التجمع .. إنه خلال مئات السنين كانت الأرض المقدسة مجالا للنزاع والعنف . لكنها الآن فى أسوأ الأحوال .. آلاف القتلى من الرجال والنساء والأطفال .. إنهم يذبحون خلال الأشهر الماضية . ولا تبدو هناك نهاية قريبة لهذه المذابح .. أكثر المشاكل تتركز حول القدس والتى وصفها الكتاب المقدس بأنها أرض السلام .. كل المحاولات لوقف العنف قد فشلت منذ أيام الأتراك والعثمانيين والبريطانيين .. إننا نرى حتى نتفهم هذه المشكلة ونرى ما هو حلها ، أنه لا شئ نستعين به كيهود سوى التوراة .. نحن لا نفعل شيئا سوى أن نقرأها ونعمل بها .. إن أى محاولة من اليهود للهروب من الشتات ، هو خروج عن طاعة الرب وهى محاولة تسخر من الدين وتضحك على نصوصه .. وهى محاولة تصطدم بالدموية والمعاناة ..

لقد اصطدمت حركتنا وتنامت بشكل محدد مع قيام ما يسمى بدولة اسرائيل .. ومنذ ذلك الوقت أصبح اليهود هم نحن ، أما الآخرون فصهاينة وليسوا يهودا ..

وإجابة عن السؤال : حول أى شئ يستمر الصراع وتتفاقم المشكلة فى الأرض المقدسة؟! وما الذى ينهى هذه المشكلة ويحقق السلام فى المنطقة ؟!

أقول أنه لا سلام إلا أن ينهى الصهاينة تلك الدولة ويتركوا الأرض للفلسطينيين .. لأنه مع استمرارهم لن يكون سلام .. فالرب قال فى التوراة إن عصيانه يجعل الدماء تسيل والعنف يستمر .. واستمرار المشكلة لا يحلها إلا إنهاؤها حتى يعود الحق الشرعى للفلسطينيين ■



العولمة فى رواية الغطاس



بقلم
د. مصطفى عبد الغنى

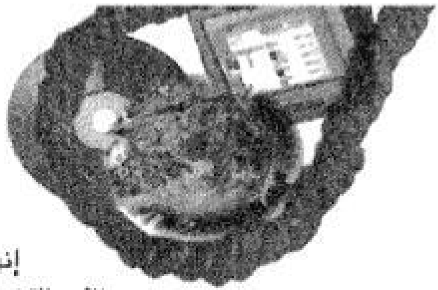
هاهو آخر نص روائى صدر فى نهاية عام ٢٠٠٢

ولا يمكن أن تقرأ هذا النص دون أن تبحث عن تجليات العولمة فى نص ساخر مثل هذا النص الذى بين أيدينا.

أو دون أن تصل بك الحيرة إلى أقصاها حين تسأل بشكل مباشر:

- ولكن ما هى العلاقة بين التراث والحديث؟ بين القديم والجديد؟

ورغم أن السؤال فى ظاهره غريب أو كالغريب والتردد بين الثنائيات يصل بنا إلى حالة من الغيم والحيرة.. فإن العودة إلى واقعنا يظل ضرورة للوصول إلى الإجابة يتحول الغيم إلى مطر ولا نلبث أن نصل - عبر التمثيل السردى - إلى إجابة، إنه نوع من الأسئلة الذى يحمل - لفرط طغيان الواقع ومرارته - إجابته..



إنها الإجابة البدهية رغم تعدد الشخصيات وتبدد السرد بشكل فنى.

تظل الإجابة بدهية أو كالبدهية..

إنها شفيقة - الخصوصية الثقافية - التى تهدد الآن بالقضاء عليها تماما - كما كان مصير شفيقة فى التراث الشعبى.

وهى العولمة - الهيمنة الغربية - التى تهدد الآن بالقضاء على التراث والخصوصية لشعوبنا، هل وصلنا إلى الإجابة؟

مازال الغموض والحيرة يحيطان بنا.

والسؤال والجواب يدفع بنا إلى اللبس أكثر من الوضوح.

قصة حياة أمه

النص الذى بين أيدينا هو (الفنطاس - قصة حياة أمه) أراد صاحبه بعد عدة روايات ساخرة (ونحن نعلم أن عمرو عبدالسميع كاتب ساخر من الطراز الأول).. أن يلمس (وان يكن بقسوة) هذا الواقع الذى يهدد الأمة كلها فى الفترة الأخيرة.

إنها قصة سمير متولى الذى ينتمى إلى الأم شفيقة بنت عويس أبو نادى وعزبة الصفيح من الجنوب، وسرعان ما نلاحظ - عبر السرد - هذه العلاقة الرمزية بين شفيقة فى التراث الشعبى وشفيقة فى المضارع الشعبى.

إن سمير ينتمى لأم لم تستطع الصمود طويلا أمام قسوة الحياة فوقعت صريعة لها، وسمير لم يستطع تقبل هذا السقوط فجاء إلى القاهرة ليمضى فى نفس الطريق!! إنه التحول الذى يبدو غير مبرر لكن أدبيات علم النفس الحديث تبرره.

إنه يتحول بسرعة عبر عدة لوحات (ماما/ اولجا/ نهال/ لولا).. يتحول من عزبة الصفيح وبنى مزار فى الجنوب إلى علب الليل والضاهر أحد أحياء القاهرة الراقية حتى الستينات منتهيا بالقاهرة حيث يؤسس مركزا وطنيا للدراسات متعاونا مع إحدى المنظمات الأمريكية التى تعمل كواجهة للمخابرات المركزية الأمريكية فى بلدان الشرق الأوسط ويجد المناخ متاحا منذ السبعينات حيث تتعدد التغييرات كصعود وسقوط شركات توظيف الأموال، ثم إنه يجد مناخا ملائما أكثر ليغلو فى لعب هذا الدور خاصة عبر المشهد الاجتماعى الجديد فى مصر: طبقة التوكيلات والتعليمات التى تأتى من وراء البحار.. طبقة التطلع إلى الحكم أو السيطرة عليه إلى غير ذلك من تجليات ربع القرن الأخير من القرن العشرين حتى الآن.

ويظل سمير لاعبا ماهرا إنه كما نقرأ: «يضع يده فى يد الخارج بكل آفاق ذلك الارتباط الذى كان النظام فى تلك الأيام يثمنه جيدا ويراه دليلا على تمتع المرء بخصال ومواهب تمكنه من أن يصبح دوليا، فضلا عن كون ذلك الارتباط من جانب



د. عمرو عبد السميع

آخر يسند صاحبه فى مواجهة السلطة المحلية ويسبغ عليه نعمة حماية الخارج ومساندته، وهو ليس أى خارج وإنما هو المخابرات الأمريكية ذاتها، الأمر الذى سيمكن سمير من أن يكبر جيدا ويستقوى جدا، على القمامات البشرية المصرية، المعتزة إلى حد الجنون - بعفافها وطهارتها وتساميها و..».

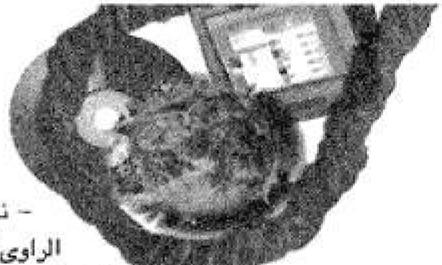
ثم إنه لا يتردد فى القيام بعدد من الاستطلاعات فى مصر حول قضايا مهمة تذكرنا بما يريده باول هذه الأيام بالقرار الذى صدر أخيرا باسمه، فهو يسعى لإجراء مثل هذه الاستطلاعات عن الديموقراطية والتغييرات فى الخريطة الاجتماعية وطبيعة إفراز النخبة فى مصر وما إلى ذلك من هذه التكليفات أو على حد قول الراوى هذه المروحة من التكليفات فى بروتوكول التعاون بين المركز الوطنى للدراسات وإحدى المنظمات الأمريكية البحثية التى تعمل كواجهة للمخابرات المركزية الأمريكية فى بلدان الشرق الأوسط، وتركز على جمع المعلومات عبر استطلاعات الرأى فيما يجرى تصنيفها وتحليلها فى المركز الأم بفرجينيا».

وتمتد صور المتغيرات، وتمتد معها صور التعاون مع الغرب بشكل عنيف ويتباين الصور مع بقاء الهدف الذى يسعى للنيل من الأم، أمه. إلى آخر ما ينقله الراوى - الوسيط السردى - إلى النص.

إن الأمر ينتهى به ليقوم - هكذا وبوضوح - بدور أكثر فاعلية فى (ماراثون) النهب اليومى لمصر حتى ينتهى به الأمر إلى وراء البحار ليلعب دوره بشكل أكثر انتهازية وخسة. والراوى لا يريد أن يتركنا هنا مع القصة (الحكى بشكل كلاسى) فإنه يمضى بالأحداث بضمير المتكلم غير أن أكثر ما نلاحظه هنا أن هذا الراوى يقف فى الدائرة المقابلة، إنه النقيض لهذا النموذج الذى شاع حتى أصبحت عندنا جمعيات وتنظيمات أهلية وصلت إلى أكثر من ثلاثين ألف جمعية وتنظيم سجل فى وزارة الشئون الاجتماعية.

(تذكرت زمن سناء المصرى وكتابها تمويل وتطبيع، وحزنها اللا نهائى حين التقيت بها بعد الكتابة عنه ونشره بالأهرام، وحزنها الذى استمر فترة طويلة بعده حتى اختارت الرحيل بإرادتها..)

غير أننا لا نستطيع أن نغادر النص - الطريق - دون أن نلاحظ ضمير الراوى ودلالته.. إنه الضمير الذى يسعى لتعريفنا بنفسه منذ أول النص ولا يلبث أن يظل حاضرا غائبا طيلة النص، غير أن غيابه أو حضوره يسعى إلى تأكيد هذه الصورة وتثبيت ملامحها وتأكيد دورها الغادر الذليل.



حكاية سمير متولي

إننا حين ندخل إلى الحكاية – فى النص – نجدنا أمام هذا الوسيط السردى الذى يمثله الراوى نفسه فرغم أنه موجود بضمير المتكلم فإنه لا يلبث أن يختفى من آن لآخر لنجد أنفسنا أمام الأحداث بما تجسده من معنى دال على تطور الواقع وتغيره.

إننا نلتقى بالراوى منذ أول النص، ومع توالى الأحداث يختفى، حيث أنه يظل الغائب الحاضر دائما فى تنشيط وعى المتلقى فى استقبال (الخطاب) الروائى، إنه يتخذ رمزا دالا ولكنه تال لحركة السرد فيظل المعنى العام هو البطل الرئيسى للنص وليس الضمير المتكلم قط.

إننا أمام حكاية تبدو غير تقليدية قط – رغم أن رموزها تتوزع بين أسماء مغروسة فى الذاكرة الوطنية – شفيقة ومتولى و... الجرجاوية – فالتحليل السردى داخل النص ليس محايدا تماما إنه يدفع – بشكل متوار – التخيل السردى الدال والتمثيل السردى الفنى دون أن يحتل فى الأمامية مركزا كبيرا .

إن الراوى يستخدم أدوات فنية كثيرة إنه يستخدم الكثير من الدفقة الشعورية لضمير المتكلم ثم إنه يتلمس الزمن ويجسده حتى يتراوح أمامنا الفعل داخل الزمن وخارجه ولكنه لا يخرج عن الاطار الواقعى بأية حال ثم إنه يوظف التراث الشعبى توظيفا دالا وأكثر عمقا.

كما أن السخرية التى تظهر منذ الغلاف الأول للنص (من الأدب الساخر) لا نخطئها طيلة السرد التمثيلى.

كذلك فإن الرمز الذى يرسم (الواقعية السحرية) أكثر من المجاز أو المعنى المتوارى يبدو أكثر واقعية..

إننا أمام حكاية (الفنطاس) – لاحظ الرمز خاصة – ذلك الذى يتشكل بناؤه العام من الحركة الدائبة بين السرد المباشر والايهام الفنى.

وإن كان علينا أن نتمهل عند الرمز أكثر من غيره – للتراث الشعبى والزمن والضمير وما إلى ذلك – مما يؤكد دور الراوى وقدرته على إعادة انتاج الحدث عبر النسيج التمثيلى (= الواقعى).

وعلى هذا النحو فإن السرد التقليدى للرواية (عند نجيب محفوظ) لا نجده هنا، وإنما يستفيد الكاتب من التقنيات الحديثة التى تلقى بالضوء على حركة انتاج السرد، صحيح أن السرد لا يخلو من ثنائية (الراوى/ السردى) غير أن التخيل السردى يتغلب فيبدو (الخطاب) الروائى أكثر وضوحا.

تتوارى السيرة الذاتية إلى السيرة القومية. لم تعد القضية أن ضمير الراوى

يتحدث عما حدث له وإنما يحكي - عبر تعدد التقنيات - عما يحدث للأمة كلها وليس لفرد بذاته.

إنها الومضات الفنية التى تختفى وراءها نرجسية الروائى لتحدد لنا المناخ العام الذى يظل طيلة النص يراكم الغيم ليأتى فى نهاية النص هذا المطر الذى لا يغيض معه كل الماء بقدر ما يفيض معه المضمون المخيف لهذا العالم الذى نحيا فيه اليوم.

إنها العلاقة الملتبسة التي تخرج بنا من دلالة فعل الأم شفيقة/ الماضي التى تشير على غياب الوعى إلى دلالة مأساة الواقع/ المضارع الذى يدل على حضور العولمة وآليات هيمنتها اليوم. وهو ما يعود بنا إلى الرمز ثانية.

الملهاة الهزلية

إنه الرمز المفتوح على نهايات لا نهائية. وربما كان أكثر ما يلفت النظر فى هذا النص - عبر تقنيات كثيرة - لعبة استخدام الرمز، إن العنوان الثانى للنص هو (قصة حياة أمة) ولا نحتار كثيرا أمام الكلمة الأخيرة فهى تأتى مرة أمه (ضمة على الألف) وتأتى مرة مع مراجعة النص أمه (ضمه على الميم) ولعل هذه المزاوجة المقصودة لدى الروائى أكثر ما يتلاشي عنده السرد التقليدى فتمنحنا المعنيين (أم سمير متولي وأمته) ويبقى المعنى الدال أكثر كثافة من التعبير المباشر. فالتوظيف هنا يعمق أكثر دلالة النص، ويعدد أكثر المضامين التى ترفد فى نهاية الأمر (الخطاب) العام للنص الروائى.

إنه الخطاب الذى يدفعنا دفعا الآن إلى نوع من الملهاة أو الملهاة الهزلية Slap-stick comedy وهو مصطلح مسرحي يغلب عليه حركات بهلوانية تثير الضحك أكثر مما تثير اليقظة، ويسلمنا إلى نوع آخر من الملهاة المفجعة Tragi-comedy التى قد تنتهى بنا إلى مصير شفيقة فى التراث الشعبي الواقعى إذا لم نتنبه إليه.

إن شفيقة الآن لا تملك الخطأ أو حرية الامتناع عنه بقدر ما يدفع بها إلى الخطيئة أمام هذا العم، العم سام، الذى مازال يقوم على صدر العالم ويرفض أن يبارح مكانه إلا بعد أن يصبح هذا العالم ملك بنانه.

تنتهى رواية (الفنطاس) ولا تنتهى.

إن هذا الرجل/ الرمز أصبح بيننا وعلينا وليس بيننا ومعنا إنه أصبح هو (الآخر) الداخلى الذى لا نعرفه جيدا فى حين نعرف (الآخر) البعيد ونتعامل معه.

***

وبعد .. إنها رواية الانذارات العنيفة، والدلالات الجارحة فى وجه هذا العالم الذى لا يحترم فيه غير من يحافظ على أمه وأمته.

إنها رواية شفيقة والعولمة. وهى رواية نعيش فيها جميعا، مازلنا. فمازالت شفيقة مقهورة ولازال سمير طليقا، ولازال العم سام حرا فى أن يفعل ما يشاء. ■

الصحراء الشرقية

موطن الأساطير والجمال

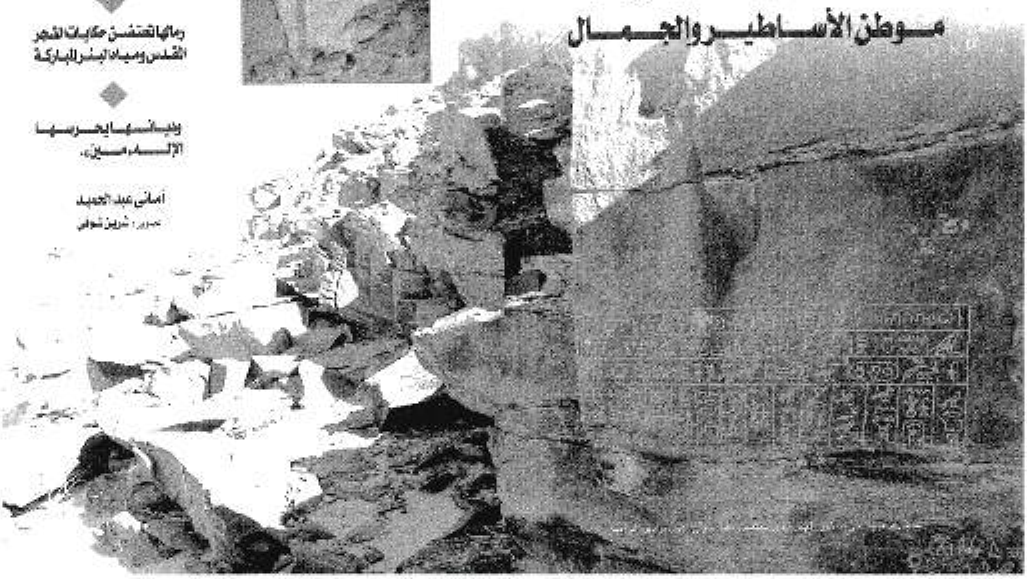


جبالها تحوي رسوما بدائية ونقوشا فرعونية

رمالها تحتضن حكايات الشجر المقدس ومياه البئر المباركة

وديانها يحرسها "الإله مين"

أماني عبد الحميد
تصوير: شرين شوقي



الشجرة .. العنصر الأخضر الذى يمثل رمز الحياة ونضارتها، و حاملة الخير على فروعها

لم تكن زيارتى للصحراء الشرقية مجرد رحلة سفارى تصبو إليها الروح للهرب خارج جدران المدن . إنما جاءت للبحث عن كنوزها المنسية والتعرف على تاريخها القديم . ولكن بعد قيامنا بالرحلة داخل دروب وجبال الصحراء استحوذت علينا بجمالها الأخاذ حتى ظل صوت رياحها يلازم آذاننا حتى بعد الرحيل عنها.

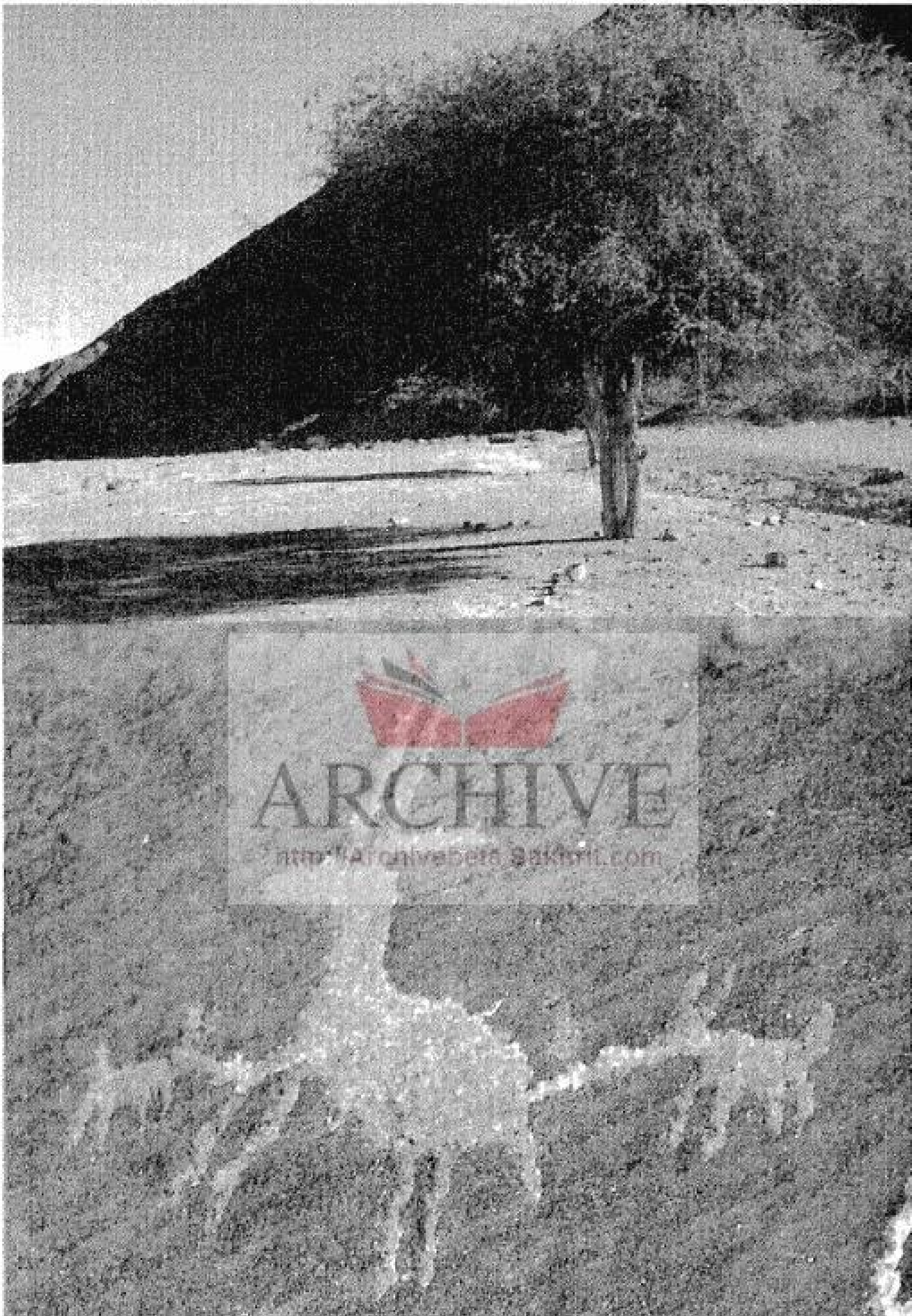
ويكفى أن نعلم أنها من أثرى الأماكن فى مصر فهى موطن الذهب والأساطير والقبائل العربية القديمة لكنها للأسف لم تنل القدر الذى تستحقه من الرعاية .. ووقفت فى مهب الريح تتعرض لعمليات سرقة لتاريخ الانسان المصرى القديم منذ فجر العصور الحجرية.

لذا جاءت رحلتنا لإنقاذ مايمكن انقاذه مما تبقى من كنوزها الثرية عن طريق رصد وتصوير بعضها قبل أن تنال منها رياح النسيان والاهمال والطمع.

كل شىء لدى وصولنا اكتسى بثوب جديد وعاش لحظة ميلاده على أيدينا . رحلة جديدة .. مطار جديد .. مدينة جديدة .. وصلنا مطار «مرسى علم» الساعة العاشرة مساء بعد رحلة طيران استمرت لمدة ساعتين تقريباً . رافقنى زميلى المصور شيرين شوقى والدكتور حسن بخيت الجيولوجى فى هيئة المساحة الجيولوجية . كنا صحبة تآلفنا سريعاً استعداداً لما هو قادم. كانت رحلتنا هى أول رحلة طيران تصل إلى تلك المدينة النائية التى تبعد عن القاهرة مايقرب الألف كيلو متر . وعلى متن الطائرة كنا حوالى ثلاثين راكباً . استقبلنا عدد من الشخصيات تبدو على ملابسهم وابتساماتهم صفة الرسمية . إنهم من أصحاب النفوذ داخل المدينة المطلة على البحر الأحمر. نخرج سريعاً من ذلك الحفل ذى النفوذ الطابع الهادىء كطابع المكان . لتستقبلنا الصحراء بصمتها المعهود إلا من صوت رياحها المتراقصة بين هنا وهناك.

خارج مطار «مرسى علم» الدولى الجديد استقبلنا عم عبد اللطيف رفيقنا الرابع والسائق العارف بكل الدروب الصحراوية. ملامحه تحمل ملامح الجبال التى عاش داخلها وبين وديانها. هو أحد أبناء قبيلة العبابدة . التى تضخمت مع الزمان وهجر بعض أهلها الصحراء وفضلوا العيش داخل المجتمعات المدنية الملاصقة لها. سكن مدينة «ادفوا» تزوج منها كغيره من أبناء القبيلة . لكن ظل حب الصحراء لايفارقه . فعمل بهيئة المساحة الجيولوجية ليكون دائماً قريباً من محبوبته. حتى أنه يروى لنا أنه لاينام بعمق إلا إذا حفر وسط رمالها «سرير اللحد» وهو عبارة عن حفرة بحجم جسم الانسان ينام فيها عادة» البدو الرحل داخل الصحراء . فيقول «حباب الرمل تدفىء جسدى وتحمينى

«غزلان الجرنوك» نقوش يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل الأسرات



من شر العقارب والطريشة».

أخذنا عم عبد اللطيف بسيارة مجهزة تستطيع السير وسط الرمال والطرق الوعرة (المدقات). وكان ذلك أول لقاء لنا بالصحراء وأبنائها.

بدأت الرحله إلى الصحراء بعد حوار دار بيني وبين أحد الأصدقاء جاء يقترح القيام برحلة سفارى داخل قلب الصحراء الشرقية . الأمر الذى أثار فضولي. فسألته وما الهدف من وراء الرحلة، فكلمة الصحراء عندما نذكرها يتبادر إلى الأذهان شكل الصحارى وكثبانها الرملية المنسابة داخل أعماقها. لكن الأمر يختلف كثيراً عندما نتحدث عن الصحراء الشرقية نظراً لطبيعتها الجبلية ولوعورة وديانها. فجاء الرد مفزعاً . هى مكان يحتوى على كنوز أثرية لا حصر لها . وهى مكان مفتوح ومتاح أمام الجميع. يدخلها هواة الترحال وقد يرافقهم هواة جمع الآثار . وهنا توقف الحوار أمام استفسار ملح . ماذا تقصد بجمع الآثار؟ فأوضح أن الجبال هناك تمتلئ بالآثار وصخورها تزينها رسوم بدائية ونقوش هيروغليفية بدءاً من العصر الحجرى مرورا بعصر ماقبل الأسرات وحتى نهاية التاريخ المصرى القديم . وبالطبع لا يوجد حراسة أمنية ولا أثرية للمكان . فهى منطقة شاسعة تتداخل فيها الطرق الوعرة وسط الوديان الضيقة بين الجبال. انتهى الكلام ولم ينته تأثيره . بعدها بدأت رحلة البحث عن حقيقة أقواله لذا كان لابد من القيام برحلة إلى الصحراء الشرقية لزيارتها والتجول وسط جبالها والوقوف عند مناجمها وقلاعها ولقاء أهلها ومشاهدة رسوماتها ونقوشها القديمة ورصد حركة الحياة هناك .

والسؤال الذى ظل يتردد طوال الطريق إلى المدينة. من يريد سرقة هذا الجمال الساكن والاحتفاظ به لنفسه فقط وحرماننا من الاستمتاع به؟ ولدى وصولنا استراحة «اللومبارجو» استراحة الملك فاروق التى تتبع هيئة المساحة الچيولوچية وتقف عند مشارف مدينة «مرسى علم» تبدى لنا جزءا من جمال الصحراء . فالجبل يحتضن عدة أكواخ خشبية متراصة تعلو سطح البحر. مبنية على تلة صغيرة . وأمامها شاطىء البحر وعنده مرسى لليخوت تنتظر محبى الغطس والراغبين فى الصيد

عشنا ليلتها أجواء احتفالية لم تكن فى حسباننا وانتهى يوم الوصول بسعادة تخللتها تلك الحفاوة القدرية . ورقد كل منا إلى مهجعه وكله أمل فى الغد ورحلة الصحراء وما يمكن أن نقابله هناك.

فى أعماق الصحراء

مرسى علم مدينة صغيرة لاتملك من مقومات المدنية سوى شارعين رئيسيين وبعض الطرق الفرعية الصغيرة . أهلها اهتموا كثيراً بفتح محال البقالة والحلاقة. فنجد الشارعين قد ازدحما بهذين النوعين من النشاط التجارى . علاوة على المقاهى العديدة التى تربط بينهما . نهم بالرحيل مع طلوع الشمس . نأخذ طريقنا باتجاه الصحراء طريقاً متعرجاً بين سفوح الجبال يبدو كأنه غريب وتائه مثلنا يبحث عن هدف يستقر إليه. نسير وسط الوديان الواصلة مابين



مدينتى «مرسى علم» و«إدفو» على يميننا يرقد جبل «العتود» على يسارنا يحدنا جبل «أبو دياب» .. تلاحقنا بألوانها الداكنة والتى تتفاوت مابين السواد الشديد والأشد سواداً ..

لم نبتعد كثيراً عن المدينة .. توقفنا لنشاهد عن قرب رسوم الانسان المصرى القديم المحفورة على أحجار الجرانيت الضخمة . رسوم مختلفة لحيوانات مثل الفيل، النعام، غزلان الجرنوك، الجمال، وبعض أنواع الطيور والأبقار والماعز بجوارها نقوش لمراكب بدائية تشبه إلى حد كبير المراكب الفرعونية .. وقد ذكرها الدكتور رشدى سعيد فى كتابه «نهر النيل» والدكتور على السكرى فى دراسة له حول «مصر ماقبل التاريخ» مؤكدين أن منطقة الصحراء الشرقية كانت منطقة زراعية تنتشر بها حشائش السفانا، وكانت تمتلىء بالمياه والآبار، ولم تكن صحراوية كما هى الآن . بل كانت مأهولة بالتجمعات البشرية لذا كان سكانها ينقشون على سفوح الجبال رسوما تعبر عن حياة الرعى والصيد . وتؤرخ لأنواع الحيوانات التى عاشت فى مصر القديمة خلال عصرما قبل الأسرات ، ويوضح الدكتور «سعيد» أن تلك الحيوانات عاشت خلال العصور المطيرة لكن هلك بعضها خلال فترات الجفاف التى كانت تتخلل الفترة المطيرة. ومع نهايتها هلكت جميع حيوانات السفانا مع قرب نهاية الأسرة الخامسة الفرعونية . وقد كانت كتابات الأثرى «وينكر» الذى زار المكان خلال بين العامين ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ميلادية قد أكدت أهمية تلك الرسومات البدائية لأنها تؤرخ

نقوش بدائية تؤرخ لحياة الإنسان الأول الذى عاش حياته بين جبال الصحراء الشرقية يرعى غنمه

لحياة الانسان الأول الذى عاش حياته بين جبال الصحراء الشرقية يرعى غنمه ، ومن أجمل الرسوم التى شاهدناها منظر لراع يرتدى جلد الحيوان ويمسك بعكازه يسوق أغنامه .

كثير من الرسوم يبدو أنها غير كاملة لا نعلم إذا كان نقصانها بسبب عوامل التعرية حين مضى عليها آلاف السنين أم بسبب بعض المتطفلين الذين قدموا لأغراضهم الخاصة . ويذكر لنا الدكتور محمد أبو بكر الهوارى المدير العام بهيئة المساحة الچيولوچية أن كثيراً من السرقات تتم على يد القادمين برحلات السفارى،.فهم على علم بقيمة الآثار والنقوش هناك ، قرأوا عنها ويعلمون مواقعها داخل الصحراء. علاوة على أنها أماكن بلا سور ومفتوحة أمام من يرغب فى زيارتها،. ويذكر لنا عن زيارته لأحد المواقع حيث عايش عن قرب تلك السرقات . فيقول «عند زيارتنا لأحد مواقع التعدين القديمة كنا نحصد فى البداية حوالى ٣٠٠ أو ٤٠٠ شاكوش حجر كان يستخدم فى حفر المناجم خلال العصور الحجرية والدولة الفرعونية القديمة . وفى الزيارة التى تليها نجد أن عدد الشواكيش قد اختفت منها أعداد كبيرة يفوق الخمسين شاكوشا . كما هو الحال فى وادى الفواخير ووادى البرامية».

وقد شاهدنا عند سفح الجبل آلافا من الأوانى الحجرية والطواحين والرحى القديمة منحوتة من الصخور الرسوبية متراصة داخل أطلال قرية يطلقون عليها اسم «روض البرام» وهى مقر عمال ومهندسى التعدين خلال عصر الدولة الرومانية . لذا سمى المكان كله باسم «البرامية» نظرا لكثرة عددها على جانبى الوادى . وهى أيضا متاحة لكل من يرغب فى اقتنائها بلا حسيب ولا رقيب . وقد عرض علينا أحدهم اقتناء بعض منها لكننا رفضنا هذا العرض السخى .

وبالنظر للمكان نجد أنه تاريخ لا يتكرر فى أى مكان آخر . فالجو الجاف وحياة الصحراء حافظا على تاريخ تلك المنطقة القديمة كما هى . فالأمطار والرطوبة تدمر مناطق أثرية بأكملها . فنرى ذلك من مناطق آثار الدلتا المهددة بالتدمير الكامل خلال الخمسة وعشرين سنة المقبلة نظرا للأجواء الرطبة المحيطة بها . كما أن آثار الصحارى مناطق معزولة لا يحيط بها أناس بسطاء لا يهتمون بها وبقيمتها التاريخية فيهملونها أو يدمرونها دون دراسة أو فهم منهم . لذا فإن كل من يأتى إلى الصحراء فهو على علم ودراية كاملين بقيمة الصخور ونقوشها التى يجمعها .

وعلى بعد حوالى ٢٠ كيلو مترا فى الجهة المقابلة من وادى البرامية . قمنا بزيارة معبد سيتى الأول أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة . المحفور داخل الجبل وبجواره عدد من النقوش القديمة بعضها بدائى يصور حيوانات كالماعز الجبلى والغزلان والثيران . وبعضها رسوم باللغة الهيروغليفية متناثرة على أسطح الصخور المحيطة بالمعبد بشكل غير منتظم دون أن يكون هناك رابط بينهم . وإن كان أهم ماشهدناه على أعمدة المعبد نقوش محفورة بأسماء كل من قام بزيارته .

وشاهدنا على امتداد الطريق بقايا





أبراج مراقبة وحصون وقلاع عسكرية ترجع إلى العصر الروماني، نظرا لأهمية الوديان من الناحية الأمنية والعسكرية . كما انتشرت النقوش والرسوم المسجلة على الصخور بالقرب من جميع المناجم القديمة لتؤرخ للبعثات المكلفة بأعمال التعدين والتحجير منذ عصر الأسرة الخامسة وحتى نهاية عصر الأسرة الثلاثين .

البئر المقدسة والموت المجهول

على طريق الأسفلت قد يقابلك بعض البدو الرُحّل الذين خرجوا بحثاً عن مرعى جديد لأغنامهم ويصادف أن يكون المرعى قريبا من طريقك، فيبادلونك التحية الدافئة.. فترى في عيونهم التى تترصدك فطرتهم التى تقوم على البساطة في المعيشة والزهد في الحياة. فأجل أمانيهم هي المياه. لذا نراهم يقيمون بجوار آبار المياه أو في بطون الوديان. ويقدسون البئر. يتباركون بها، حتى أن العريس قبل زفافه فإن عليه الذهاب إلى «البئر» كما يطلقون عليها، لينال بعضاً من بركتها، وتحرسه الملائكة التى تحرس البئر، بل إن أهل الصحراء يتجمعون حوله ليرووا الحكايات والأخبار. فهو مكان مجلسهم وتسامرهم وعن الأهل والأصدقاء يتحدثون. عن الفرح وعن الإنجاب وطرق الترحال حتى عن الموت. هذا ما يحكيه لنا بعض أبنائها الذين قابلناهم في طريقنا.

وبين الحين والحين يبرز فجأة على طرف جبل أو عند انحدار تل، عصى أو غصن جاف ترفرف في أعلاه قطعة صغيرة من القماش الأبيض.. إنها علامة الموت في الصحراء. الموت دائما مجهول فوق أرض غريبة. عندما يرحل أحدهم إلى الصحراء يأخذ كفنه معه. وعند الموت يوارونه التراب ومن حوله تتراص الأحجار المجلوبة من الجبل.. وهو نموذج للقبر الصحراوي . يمر عليه الغريب ولا يملك سوى قراءة الفاتحة على روح الميت المجهول. فلا أحد يعيش ويرحل داخلها فلا يملك سوى الانصياع للقدر المحتوم.

ويتجلى الاحترام أمام الشجرة ذلك العنصر الأخضر الذي يمثل رمز الحياة ونضارتها. فكما يقدسون الماء والبئر يقدسون شجرتهم حاملة الخير على فروعها.

فعلى الطريق نشاهد كثيراً من الأشجار وقد حملت غصونها قصاصات من القماش وبعض الملابس البالية. فهم يعتقدون أن الشجر يحافظ على ذكراهم بعد رحيلهم، فيعلقون عليهم ملابسهم القديمة لتحميهم من الشرور. كما تحرص النساء على دفن المشيمة والخلاص بعد الولادة تحتها اعتقاداً بأنه يعطى المولود عمراً مديداً كعمرها.

وعند أحد السفوح حيث نبتت بعض النباتات الخضراء شاهدناها تسير الهوينى تجمع النباتات والأغصان اليابسة، تتلفح بثوب من الخضار وبطرفة تخبىء جزءا من وجهها وتمسكه بأسنانها ومن خلفها يسير ابنها وأغنامها في طاعة عمياء يتوقفون لدى توقفها، ويسيرون مع سيرها. حاولت التقرب منها فرفضت، لكنها وافقت بعدما شاهدت «عبد اللطيف». جاء سؤالها لماذا تأخذون معكم ابننا ابن العبابدة؟ ولماذا تجمعون «الداموس» الصخر بلغة أهل الصحراء؟ والقلق يبدو عليها طمأنتها بأننا لن نأخذه إنما هو

يرافقنا فقط وأننا سنعيد «الداموس» إلى أماكنها بعد تصويرها، بعدها بدأت تحكي لنا عن حياتها البسيطة، فزوجها رحل إلى إدفو بحثا عن الرزق. وهي ترعى أسرتها المكونة من الأبناء والأغنام داخل الصحراء، ترحل بحثاً عن المرعى الجديد والماء. وإن كان أكثر ما يفزعها هو «السيل» الذي يجرف كل شيء أمامه. لذا كانت بفطرتها تختار مقر نوم الأسرة بعيداً عن مخرات السيول. وفي ختام لقائنا أهديناها علبتي تونة وكبريت . فبدت عليها علامات السعادة وكأنها عثرت على كنز الكنوز لكنها عادت وطالبت بترك الداموس وابن العبايدة في حالهما والرحيل إلى بلادنا في مصر. وتركتنا لتعلق ثوبها القديم على الشجرة استعداداً للرحيل مرة أخرى.

يحكي لنا عم «فراج» عن أحد أبناء قبيلة العبايدة عن قبيلته بفخر واعتزاز فهي قبيلة نزح أهلها من شبه الجزيرة العربية ينتسبون إلى عبدالله بن الزبير. ولا تهم دائما بكون لشيخ قبيلتهم. واليوم شيخهم هو الشاذلي توفيق الذي يقيم في مدينة «القصير» يلبس أهل العبايدة العمامة البيضاء الملفوفة فوق الرأس. وكلما نزلنا جنوباً ازداد حجم لفائفها نظرا لازدياد الحرارة وأشعة الشمس. يعرفون بحدة البصر والقدرة على تحمل الجوع والعطش لفترات طويلة. وعند الرحيل يحمل كل منهم في جرابه حفنة دقيق، وهذا هو طعامه في الصحراء. عندما يقرصه الجوع يخلط الدقيق بالماء ويسويه بدفنه في الرمل الساخن ليخرج بعد ذلك عيش «الجابوري»، وهو نوع من العيش لا يقدر على أكله سوى أهل العبايدة. لأنه يسبب عسر هضم شديدا.

يشارك العبايدة في الصحراء قبيلتي البشارية والرشايدة البشارية لا يتحدثون العربية إنما اللغة البجاوية ويسكنون مدن «برنيس» و«حلايب» و«شلاتين»، بعضهم يتزوج من العبايدة فيسكنون قنا وأسوان. يمتازون بشعورهم الطويلة فلا يلبسون العمامة. أما قبيلة الرشايدة فيتحدثون اللغة العربية يسكنون «شلاتين» لكنهم يرحلون باتجاه المطر. يمتازون بالبشرة البيضاء وزيهم المختلف، فيلبسون الجلباب الأزرق لون السماء ولا يتصلون بالعبايدة ولا البشارية.

أسطورة الصحراء

داخل الصحراء برمالها الصامتة. يتولد الإنسان الحر وعندها تتولد الحكايات، وهي حكايات تصل إلى حدود الأساطير، تتناقلها الألسن حول البئر المقدس تحكي عن أناس كانوا هنا ورحلوا، وأناس أصبحوا هنا بعدما قدموا، لكنهم الراحلون والقادمون - لا يملكون سوى مواجهة أسطورة واحدة بشجاعة لا مثيل لها، أسطورة ثعبان الطريشة، فهي عن حق أسطورة أساطير الصحراء. كل من قابلناه يحكي لنا عنها وعن مدى قوتها الخارقة برغم صغر حجمها.. يحكون لنا عن رجل من العبايدة قطع ساقه بنفسه وكواها بالنار بعدما لدغته الطريشة، يقولون أن سمها لا مصل واق منه.. يقتل في الحال. العلاج الوحيد هو بتر العضو المصاب قبل أن يصل السم إلى باقي الأعضاء . علاقتهم بها تملؤها الرهبة إلى حد التقديس، ويعتقدون أن قتلها وطحن جسدها وإعطاء رمادها للطفل الرضيع مع لبن أمه يمنحه بعضا من المناعة. لا

يحميه بشكل كامل لكن يقلل من خطورة سمها إذا لدغته. والعجيب أننا عندما نسألهم إذا كان أحدهم قد شاهدها يوما. فيذكرون أنهم شاهدوها لكنها لم تؤذهم. وأنهم يسمعون حفيفها ليلاً فقط فهي ثعبان أعمى يتأذى من ضوء النهار، ويرون آثارها على الرمال. حيث لها أثرمميز يختلف عن أثر أي ثعبان آخر. فهي لاتزحف كغيرها إنما تقذف جسدها في الهواء عندما تنتقل من مكان لمكان، وبرغم ذلك ظلت الطريشة هي أسطورة الصحراء بلا منازع.

غادرنا وادى أم الفواخير باتجاه وادى الحمامات أشهر الأماكن التى تحوى النقوش الفرعونية من مختلف العصور كان في الماضى يستخدم كمحجر لصخور «الجراى واكى» التى اقتطع منها الفراعنه الأحجار التى تحتوى منها أجمل تماثيلهم. فوق الكتل الصخرية شاهدنا مئات من النصوص الهيروغليفية لحيوانات مثل الثيران والبقر والوعول بالاضافة إلى رسوم لقوارب صيد ومن الملاحظ أن تلك الرسوم تضم أشكالاً متعددة من المراكب المختلفة والتى تعود إلى عصور متعددة ويؤكد لنا الاستاذ محمد عبد الفتاح مدير آثار وجه قبلى أن تلك النقوش والرسوم تضم بقايا ثلاث خراطيش ملكية تعود إلى عصر أخناتون كذلك تحوى نقشاً لثعبانين من الكوبرا على رأسهما قرص الشمس وقرنا حتحور وأمامهما مائدة قرابين ونقش آخر لعدد من الجمال والذى يعود للعصر الإسلامى ومقصورة صغيرة منحوتة وفى جانب منها نقش للإله «مين» حامى الطرق والقوافل الصحراوية، وفى الوادى قابلنا الغفير «محمد» المكلف من قبل المجلس الأعلى للآثار لحماية المكان سألناه ما حدود المكان الذى يحرسه أوضح أنها تمتد إلى حوالى ٢٠ كيلو متر على طريق القصير - قنا والغريب أن المنطقة التى تضم أهم النقوش والرسومات التى شاهدناها. ورغم أهميتها إلا أن الحارس البسيط والمكلف بالحفاظ على سلامتها لا يملك أية وسيله تأمينيه للقيام بواجبه على أكمل وجه وهو الأمر الذى يفتح الباب على مصراعيه أمام هواة جمع الآثار وأمام المتلصصين !! علماً بأن مشهد الحارس البسيط مشهد يتكرر عند كل واد وكل موقع يضم أثرا أو نقشا أو رسما شاهدناه طوال رحلتنا داخل بعض وديان الصحراء الشرقية والسؤال الذى بات يتردد لماذا كل هذا الاهمال والنسيان لمنطقة عاش داخلها أجدادنا ومارسوا فيها مظهرا من مظاهر حضارتهم ألا وهى البحث والتنقيب والتعدين لكنوزها الخفية داخل جبالها ؟

ولماذا حتى الآن لم تتحول تلك الوديان التى تحوى الرسوم والنقوش إلى محميات أثرية ويقوم على حمايتها والحفاظ عليها أفراد متخصصون وعلى دراية بتاريخها يستقبلون الزائرين لإرشادهم وكبح جماح بعض هواة جمع الآثار؟ ولماذا حتى اليوم .لانجد تنظيما ورصدا دقيقا لرحلات السفارى التى تزور الصحراء، حتى لاندع مجالاً للشك تجاه أفرادها وأغراضهم الحقيقية من وراء رحلاتهم ؟ ■

نقوش فرعونية على صخور الجرانيت بوادى الحمامات





سيرة ذاتية تروى مأساة العراق بين مدينتين إحداهما للموتى والثانية للأحياء

بقلم

د. نيفين مسعد ★

لم تسدل «حياة شرارة» خمارا عليها، ولا تكيفت مع مأساة العراق، بل تساندت مع ابنتيها، وقررن الانتحار بعد أن غاب الأمل، وتركن وراءهن مدينة الموتى، وقررن الرحيل، وانقذ الحظ الابنة زينب لتروى ما يعانيه شعب العراق

«إذا الأيام أغسقت». ليس أبلغ من هذا العنوان فى دلالتـه على معاناة أسرة عراقية شاءت لها أقدارها أن تعيش فى الزمن الصعب. فلقد اختارت مؤلفة الرواية حياة شرارة لفظ «الغسق» للتعبير عن شدة الظلمة وحلكتها ولكن أيضا للتعبير عن مدى إطباقها وانتشارها، وكأن الرسالة المباشرة التى يحملها عنوان روايتها هى أن اليأس قد بلغ مداه. هل يجب أن نندهش بعد ذلك عندما نعلم أن حياة قررت فى يوم من أيام شهر أغسطس الملتهبة وفى ذروة تملك شعور اليأس منها، أن تضع حدا لحياتها مع ابنتيها مها وزينب لتنتهى معاناتها الفردية كإنسان أما معاناة الوطن فلا؟... لنبدأ الرحلة من أولها ،

★ أستاذ العلوم السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

هذه الرحلة التى تختلط فيها سيرة حياة شرارة بتطور التاريخ السياسى للعراق .

سنوات النشأة والتكوين

ولدت حياة في عام ١٩٢٥ لأب عراقى وأم لبنانيـة ، فكانت ثالثة بناتهما بعد كل من مـريم وبلقـيس . ولأن شيـئـا من أثر الجـاهليـة الأولى مـازال يخـالط أفكارنا ويتخللها ، وصفت المولودة الجديدة لأسرة شرارة بأنها «ثالثة الأثافى» . ولم يستطع الأبوان الطيبان أن يتخلصا من «التسمية الشائنة التى لصقت بهما: «أبو البنات وأم البنات» إلا عندما رزقا بمولود ذكر، وإن حارا هل يسميانه «عدنان» أم يسميانه «قحطان»، واستقرا آخر المطاف على أن يخلعا على قرة أعينهما اسم أبى الأنبياء: إبراهيم .

لكن على أى حال فإن شعور حياة بأنها جـاءت فى التوقيت الخطأ ظل يلازمها بل يطاردها ويشبعها بحزن دفين . زاد حزن حياة وأساها أن مكان الميلاد كـان فى النجف الأشـرف، أحـد المزارات الأقدس لطائفة الشيـعـة ، والمدينة التى تصفها بلقيس فى تقديمها لرواية شقيقتها بأنها مدينتان: مدينة الموتى التى تؤمها الجنائز من كل حدب وصوب طلبا لنهاية وادعة فى الثرى الطاهر . ومدينة الأحياء التى يتحلق طلاب العلم حول رجاله فى





حياة شرارة

مساجدها المنتشرة بين ربوعها . وعندما انتقلت حياة مع أسرتها لتستقر فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ومستقرها على عهد أبى جعفر المنصور ، كتب عليها أن تفارق كل من أحبت واحدا واحدا ، ليزيد بريق الأسى فى عينيها الواسعتين وتنكفئ على داخلها أكثر فأكثر .

تأثرت حياة لفراق شقيقتيها بعد أن باعدت بينها وبينهما السبل ، فاستقرت مريم فى بريطانيا ولحقت بها بلقيس ، وعجزت عن أن تتواصل معهما بعدما صار الاتصال الهاتفى بين داخل العراق وخارجه شبه مستحيل . كما عجزت بالأحرى عن أن تسافر إليهما بعدما شمل الحصار الطيران المدنى حتى كان على المسافر إلى عمان أن يصل إلى بغيته بعد خمس عشرة ساعة كاملة أو يزيد . وإلى تلك الصعوبة ، تضيف حياة صعوبة أخرى: صدور قرار يحرم النساء دون سن الخامسة والأربعين من السفر بدون محرم . كان للقرار مبرره

من وجهة نظر السلطة، والمبرر هو مواجهة ظاهرة متاجرة الفتيات العراقيات بأجسادهن خارج الوطن بعدما أعياهن تدبير قوتهن اليومي بفعل الحصار . أما من وجهة نظر حياة فأى شئ لم يكن يبرر هذا القرار ، لأنه يعني ببساطة أن تسافر هى وتبقى مها وزينب ، وكان هذا بعينه مالا يطاق .

وتأثرت حياة لموت زوجها محمد ذلك الطبيب العراقى الذى هرب من ملاحقة النظام الملكى فى بغداد إلى القاهرة ، وهناك التقته حياة فى واحدة من محطات حياتها عندما ذهبت لتدرس اللغة الانجليزية فى كلية الآداب جامعة القاهرة، وتزوجا بعد أكثر من ثلاثة عشر عاما على أول لقاء بينهما . لكن محمد الذى لم ينج من حملة الاعتقالات التى اجتاحت العراق بعد عودته هو إلى بغداد وعودة حزب البعث إلى السلطة ، رجع من معتقله شخصا آخر غير الذى عرفته حياة. فلا كف الحزب عن ملاحقته لضمه إلى كوادره، ولا كان هو بمستطيع أن ينسى أيام الهوان فى المعتقل .. ناهيك عن التفكير فى عضوية الحزب. وبين قوتى الجذب والمقاومة سقط الرجل فى شتاء عام ١٩٨٢ مصابا بجلطة فى الدماغ توفى على أثرها .

أما أكثر ما أثر فى حياة ، فكان هو رحيل والدها فى عام ١٩٧٩. لقد كان محمد شرارة بالنسبة لحياة هو المعلم والشاعر والمناضل الذى تشبعت منه بأكثر مما تشبع أى من أولاده الثلاثة الآخرين ، بمن فى ذلك إبراهيم ابنه الوحيد . بل من المفارقة أن الدور السياسى لابراهيم كما تعرضه بلقيس فى مقدمة الرواية كان هو دائما دور البديل ، فلم يقبض عليه إلا كرهينة أو على أساس البدل ، فأخذ تارة بدلا من الأب وأخذ تارة أخرى بدلا من الأب وحياة، أما هو إبراهيم فلم يطلب أبدا لذاته . هل يعني ذلك أى شئ ؟

فتحت حياة عينيها فى بيت أسرتها على أب يشتغل بالتعليم ، وليس أكثر من أب مرب يحسن تنشئة أولاده. منه عشقت اللغة العربية الفصحى التى كان يخاطبهم بها فى غير افتعال . وفى صالونه الأدبى رأت شعراء وأدباء فى قامة بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وحسين مروة وبلند الحيدرى ، فانزوت فى أحد أركانه تتابع سجالاتهم حول تجديد الشعر العربى وتحريره من القوافى ورسخ فى أعماقها بعض ما تابعت . ومن صلابته تعلمت ألا تلين لها

قناة ، فلقد أخذ والدها بين من أخذوا في عام ١٩٤٩ وهو العام التالي على ضياع فلسطين وعلى الاضطرابات التي اجتاحت العراق وتسببت في إلغاء معاهدة بورتسموث بعدما وقعها رئيس الوزراء صالح جبر . وعلى الرغم من أن كل جريرة والدها أنه كان يعبر بقلمه عن بعض مـــــايردده المتظاهرون في مظاهراتهم، إلا أنه اعتقل مع نفر كبير من مفكري العراق ، وفقد وظيفته ، وأغلق صالونه الأدبي ، ليعود السيناريو نفسه ويتكرر في مناسبة أخرى في عام ١٩٥٢ مع ما عرف «بانتفاضة تشرين» احتجاجا على معاهدة عام ١٩٣٠. وكم كان داعيا للسخرية أن تداهم الشرطة منزل آل شرارة في عام ١٩٥٣ لتقبض على الأب فتكتشف أنه قابع في سجونها!!. وفي عام ١٩٦٠ أعيد اعتقال محمد للمرة الثالثة وذلك في ذروة الصراع بين عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف، ومن ورائهما تيارات وقوى مختلفة الاتجاهات والأوزان ، حتى إذا ما أطلق سراحه لاحقا ترك العراق وراءه فلم يعد إليه إلا بعد أن هدأت نفسه فقضى سنواته الثلاث الأخيرة في بيت صغرى بناته . شيء من هذا التصميم ورثته حياة وتسرب إلى جيناتها ، وهذا ينقلنا إلى ملمح آخر من ملامح شخصيتها .

الوجه الآخر لحياة

لم تكن حياة هي فقط الإنسان المسكون بالأسى المائل إلى الانطواء والعزلة، لكنها في الوقت نفسه كانت هي الشخصية المحاربة التي جندها الحزب الشيوعي العراقي وهي لم تبلغ بعد السابعة عشرة من عمرها وأوفدها لحضور مؤتمر السلام الذي عقده في براغ عام ١٩٥٢. وكان إيمانها بالحزب الشيوعي بالذات مبعثه كراهتها للظلم الاجتماعي الذي أصاب أباها كما أصاب رفاقه. ولذلك فإنها عندما تبرمت من سياسات الشيوعيين في العراق، لم تدر ظهرها للفكر الشيوعي ولا هي قطعت مع رواده . بل كانت المفارقة أنه في اللحظة التي بلغ فيها تبرمها من تلك السياسات مداه ، لم تجد إلا الاتحاد السوفييتي لتسافر إليه في عام ١٩٦١ وتحصل منه على أطروحتها للدكتوراه التي حملت عنوان «تولستوي فنانا». ما أكثر المرات التي غادرت فيها حياة العراق وعادت إليه . تركته وعمرها لم يتجاوز العامين إلى لبنان وبقيت في

رعاية جدتها لأمها بعدما حالت إصابتها بالتيفوئيد دون أن تلحق بأسرتها المسافرة . وتركته إلى براغ ودمشق والقاهرة وموسكو ، وفي كل مرة عادت .

جزء من هذا الارتباط بالوطن تعزوه شقيقتها بلقيس في المقدمة إلى تكوين المواطن العراقي الذي «لا يحب الهجرة ، ويفضل الإقامة في بلده مهما قست الظروف عليه » . لكن جزءا آخر منه يتصل بالطبيعة الخاصة لشخصية حياة كمحاربة وكامتداد طبيعي لشخصية الأب . فقط عندما أحكم الحصار خناقه على البشر ، واشتد سواد الأيام ، وجدت حياة قواها تخور وعزمها يضعف ، ففكرت فيما لا يمكن التفكير فيه ، فكرت في أن تهاجر ، فلما رفض طلبها انتحرت بعد أقل من عام ، وتحديدا في أول أغسطس ١٩٩٧ .

عندما تفسق الأيام

تنقل بلقيس عن رسائل حياة لها في الغربة بعض ما فعل الحصار بأهلهما في العراق . فتروى على لسانها كيف شحت المواد الغذائية الضرورية وأبسط أنواع الأدوية من أسواق العاصمة بغداد. تقول حياة « المشكلة هذه السنة (١٩٩٤) صعوبة الحصول على الخضرة بكل أنواعها لقلة وجودها في السوق ... أغبش للحصول على المواد ، ومع ذلك لم نشم رائحة الطماطم (البندورة) منذ شهر تقريبا» . وتقتبس بلقيس من كتاب حياة عن «المتنبي بين البطولة والاغتراب» قولها «أصبح الجوع ماردا قهارا ، وحول البلاد إلى مسرح رعب وفزع يفغر فاه ويكشر عن أنيابه ويعتصر بين فكيه أرواح الناس » .

لكن أنكى من تفشي الجوع وشح الغذاء ، كان تلوثه بآثار اليورانيوم غير المخصب الذي استعملته الصواريخ الأمريكية في حرب الخليج الثانية . تقول حياة «إضافة إلى أنواع الحساسية المزعجة التي بدأت تظهر عندنا مع تغير الفصول، وذلك بسبب تلوث الجو على ما يظهر، فقد أخذت شجيرات الورد (الجوري) تصفر أوراقها وتحترق في الصيف وكذلك بعض الأشجار . ويبدو أن الجو أخذ يؤثر على المزروعات أيضا ، فلأول مرة كانت الباقلاء الخضراء يظل قسم منها متخشبا لا يستوى مهما غلى » .

أما أكثر ما آلم حياة وعذبها فكان انعكاس هذا الخراب المادي ، على أرواح الناس ونفوسهم ، حتى ما عاد عرف يردعهم ولا قيم تحميهم . ولأنها كانت أستاذة بجامعة بغداد تدرس

الأدب الذى عشقته قبل أن تمتهن تدريسه ، فإنها تحكى فى روايتها «إذا الأيام أغسقت» بعض مظاهر الخراب النفسى الذى أصاب مجتمع الجامعة ، وذلك من خلال سجالات أعضاء هيئة التدريس فيما بينهم ومع رئيس القسم وعميد الكلية (الآداب) ، ولأن أدب حياة هو أقرب ما يكون إلى البوح بخوالجها ، فلقد تقمصت فى روايتها شخصية الدكتور نعمان فكان هى أو كانت بعضا منه ، كما سبق لخالد أن نطق باسمها فى قصتها القصيرة التى جاءت تحمل عنوان «وميض برق بعيد» .

فى «إذا الأيام أغسقت» تربط حياة بين تردى المستوى المادى للأستاذ الجامعى العراقى وانحرافه الأخلاقى الذى ألجأه إليه خوفه من فقدان العمل ، ومع أنه يمكن الاحتجاج بأن الفساد لا يلزمه فقر بالضرورة، إلا أن الفقر لا شك ييسر له الأسباب . وتابع معى بعض مظاهر هذا الفقر فى حياة الدكتور منير زميل نعمان فى القسم وشريكه فى غرفته ، هذا الذى باع قاموسه الخاص «المورد» حتى يشترى بثمنه شايا وأرزا ودهنا ويسد بعض ديونه الصغيرة ، وينضم بذلك إلى طابور المثقفين الذين اضطروا لبيع مكتباتهم بأسعار بخس وكأنها بضاعة كاسدة يتفضل عليهم بشرائها أولئك الذين يأخذونها منهم بالجملة أو المفرد لقاء نقود زهيدة ». ولاحظ قيامه هو نفسه أى الدكتور منير بشراء بنطلون جينز لابنه من سوق الملابس المستعملة وإن طمأن نفسه بأنه «معطوب قليلا» فى بقعة غير مرئية فى الأعلى بين الفخذين ». هل كان يستطيع ألا يفعل وقد ضاقت ذات اليد وما عادت الهبة الحكومية الشهرية لأمثاله تشترى أكثر من كيلو جرام من الحمص، ناهيك عن مهانة الانتظار فى طابور له أول لكن ليس له آخر! . تأمل معى حال دكتور أكرم الزميل الآخر لنعمان الذى اتخذ فى لحظة تهور قرارا بالتقاعد ، فعانى الأمرين ما بين عمله كسائق تاكسى على سيارته الخاصة ، ومشاركة أخيه فى مخزن لبيع الحبوب . وانظر كم كان يغشاه الخجل بل يقتله كلما مر عليه طالب سابق وسأله أن يزن له كيلو جراما من السكر مخاطبا إياه بلقب «دكتور» . ترحم معى على الأستاذ عبدالرازق الذى رفض أن يرقى من لا يستحق فسربت أسئلة امتحاناته فى نهاية العام عمدا ، ودام التحقيق معه سنة كاملة حتى أصابته نوبة قلبية وهو قاعد فى غرفته ، فنقل إلى المستشفى

ولم يبارحه حيا . انظر تلك النماذج ولاحظها وتأملها، لتتبين معي طريق دكتور نعمان وسط هذه الظلمة الحالكة .

لم يرد نعمان أن يكرر مأساة زميله أكرم ، ولا شاء بالطبع لنفسه نهاية كنهاية الأستاذ عبدالرازق، لذلك فما أكثر ما ردد بينه وبين نفسه عبارة دستوفسكى «اخضع أيها الانسان الفخور» .

وقارئة تملكني الفضول لأقف على جوانب الانفصال والاتصال بين شخصيتي حياة ونعمان ، فحياة كما ترسم صورتها مقدمة بلقيس لا تقبل الخضوع ولا تعرف الحلول الوسط . أما نعمان فإنه خضع في حياته مرتين . خضع مرة لإرادة عميد الكلية عندما دعاه إلى تغيير نتيجة امتحان أحد أبناء كبار المسئولين ليتحول بها من راسب إلى ناجح . في البدء قاوم نعمان واستنكر وثار، إلا أنه امتثل في النهاية لرغبة العميد، وحاول أن يسيغ عبارته «كلنا لدينا ضمائر ولست أنت وحدك»، وقوله «الدرجات ليست ذهبا تعطيه بالمثاقيل، ويمكنك التصرف فيها إذا أردت» . وتصرف نعمان ، تصرف حتى لا يوصف في التقرير السنوى عن أدائه بأنه «غير متعاون» ولهذا الوصف مدلوله ونتائجه، فأعطى طالبا لا يستحق إلا صفرا .. ثلاثين درجة كاملة . وهكذا زال حبل العميد الغليظ الملتف على عنقه ونال رضاه . لكن الحبل التف حول ضميره وأشقاه.

وخضع نعمان مرة أخرى عندما دفع إليه زميله وجدى بمقال للدكتور صبحى رئيس القسم لتقويمه ، وكان يعلم علم اليقين أن مقالات صبحي في العموم لاتصلح للنشر «لضعف قدرته على التفكير العلمي وترتيب أفكاره بشكل منطقي متسلسل» . لكنه كان يعلم في الوقت نفسه من هو هذا الصبحي إن تحداه . إنه هتلر كما وصفه أحد الزملاء ، وكما يحب هو أن يوصف بلا خجل لأن «هتلر بنى الأمة الألمانية وعرف كيف يسوسها ، ولكن الحظ عاكسه» . ولأنه كان يعلم ما يعلم ، كان عليه أن يدون في استمارة التقويم أن مقال صبحي «أصيل» ففعل مسرعا . كذلك ملأ كل البيانات المسجلة في الاستمارة بما يتماشى مع استنتاج الأصالة ، وحصل صاحب المقال على مبلغ من المال يصرف لمن على شاكلته من «الأصلاء» ليسيروا به حياتهم اليومية المتعثرة .

قسوة ما بعدها قسوة أن يغير المعلم

ضميره ، أن يضطر إلى ذلك اضطرارا . فالمعلم والقاضي اثنان لا يستقيم ميزان العدل إن اختل دورهما . على هذا نشأنا وتربينا ، « فكيف انهارت قيمة العلم ولم يعد سوى حاجة معنوية؟» يتساءل دكتور بدري ويضيف «كيف انخفض مستوى معيشتنا إلى هذا الحد وكأنما ألقى بنا من قمة الجبل إلى أسفله؟... ترى كم ليلة وليلة يمكن أن يستمر الحصار؟». هرب الدكتور بدرى من تساؤلاته في الدين ، وانتقل كما فعل كثيرون مثله من مربع اليسار إلى مربع اليمين (الديني) ، وأكسبه تحوله هذا ربما قدرة أكبر على مقاومة الفساد بعد أن تلبسه الإحساس بأنه يؤدي دورا رساليا . أما دكتور نعمان فلم يكن عنده هذا الخيار واردا ، ربما لأن قناعاته اليسارية كانت أرسخ ، وربما لاعتقاده أن التنازل عن قسوته قد يكون أهون الشرين في انتظار يوم يتحسن فيه الحال . لكن باليقين فإن ما لم يعلمه نعمان وأمثاله أن الأوضاع لم تتغير بل هي لن تتغير إلى المدى الذي تطاوله أبصارهم وبصائرهم ، إلا إن كان التغيير المرتقب في اتجاه الأسوأ . أو لعل الأرجح أن نعمان علم بهذه الحقيقة وحاول أن يتكيف معها ، وخضع في محاولته لشئ من اللامعقول الذي بات ملازما لهذا الزمن الصعب ، فاستسلم لأوامر النظام بالحفاظ وطاقم التدريس بالكامل على رشاقتهم ، وخضع وإياهم لاختبارات دورية بهذا الخصوص ، وتألم مثلهم على سلبه الحرية الوحيدة التي بات يملكها ... هل بات أحد يملك في بغداد فعلا الحق في الامتلاء ؟

أما حياة كاتبة الرواية ، فلا هي أسدلت خمارا عليها ، ولا هي تكيفت مع واقعها ، لكنها أضمرت في نفسها شيئا آخر تماما . تساندت حياة مع ابنتيها «ميا» الباحثة عن وظيفة بلا جدوى و«زينب» المشغولة بلملمة تركة جدها الثقافية، واستجمعت ثلاثتهن شجاعتهن وقد غاب عن أفقهن كل بصيص أمل ، وتركن خلفهن مدينة غير التي عرفن وأحببن تفوح منها رائحة المجاري وجثث الموتى، وانتحين ركنا قصيا في انتظار أن يتسرب الغاز إلى صدورهن ويميت مراكز الإحساس في الأدمغة الثلاثة، فقضت حياة وقضت ميا . أما زينب فقدر لها أن تعيش لتكون شاهدة على أيام أشد حلكة من كل حلكة تنتظر وطنها .. وطننا العراق. ■

العمارة
فى الرواية المصرية

بقلم
إبراهيم فتحى

ليس موضوعنا المعمار الروائى بل كيف تناولت الرواية المصرية المكان المعمارى بصلابته البادية ومرونته الداخلية، وفى بعض الأحيان رأى كتاب كبار أن المهندس المعمارى يضع حجرا فوق حجر أو طوبة فوق طوبة ليبنى كائنات جامدة تظل فى وضع ثابت، لذلك تكون الرواية التى تصف هذه الكائنات أو تشبهها بعيدة عن الحيوية والحركية (يحيى حقى فى مقالته الاستاتيكية والديناميكية عند نجيب محفوظ) . ويرى مفكرون آخرون رأيا معاكسا يبدو أقدر على تناول العمارة فى الأدب وتناول العمارة باعتبارها فنا، فالمكان المعمارى (الأبنية والبيوت والقصور والقلاع والمعابد) لايقف عند التصور الهندسى المجرد بل يمتد ليكون مشهدا محسوسا لتجاربنا الانسانية ولدائرة فاعلياتنا وعلاقاتنا بالبيئة. أى أن العمارة فن تشكيلى يبدع بالإضافة إلى نفعه العملى عالما تصوريا متخيلا أو شكلا وظيفيا حافلا بالانفعال عن المأوى والأمان والحماية القداسة، بالإضافة إلى احتواء الحياة فى المكان المتغاير وامتلاك ذلك المكان .

وهذا الفن التشكيلي يخلق مجالا ثقافيا بالمعنى الواسع للثقافة باعتبارها طريقة حياة ومنظومة عقائد وقيم. فكل من المسكن القروى أو البيت فى حى شعبى أو الشقة فى عمارة أو العمارة نفسها أو الوكالة أو المدرسة أو المستشفى كما يرد فى الروايات يمتلك مضمونا حسيا وانفعاليا فكريا واجتماعيا خاصا به فى تقابل مع برج سكنى إدارى أو قلعة أو مقام ولى وفي السرد الروائي كما فى الفن التشكيلى تفصح الأبنية المعمارية عن مجال ثقافى اجتماعى هو صورة رمزية لمكان متخيل وإن تكن تعالج إبداعيا مكانا فعليا.

وتؤكد سوزان لانجر (الشعور والشكل) أن البناء المعمارى لايتصف بالاستاتيكية بل يخلق صورة ثقافة ما مادية وروحية، صورة بيئة انسانية حاضرة ملموسة تعبر عن النماذج الوظيفية الإيقاعية المميزة للثقافات والأوضاع الانسانية.

الجبل

ولنبدأ برواية الجبل لفتحى غانم (فبراير ١٩٥٩)، إن حكومة ماقبل يوليه ١٩٥٢ تشيد قرية نموذجية فى أقصى الصعيد فى أماكن السياحة يرفض الأهالى الانتقال إليها، وتبنى المدينة وفقا لمخيلة معمارية تقلد أوروبا تقليدا فرديا، فسقوف حجرات البيوت على شكل قباب والحدائق العقيمة الزخرفية داخل أسوار عالية وهناك ساحة عمومية وسط المبانى فيها الجامع والمدرسة ودوار العمدة. الجامع روعى فيه أن تنسجم مساقط الضوء داخله مع خطوط البناء وحركات المصلين كأنهم سيرقصون بالبه على مسرح حديث الإضاءة، ويجب أن ترسم الفلاحة الحافية السائرة بجوار جدار الجامع المرتدية ملس الفلاحات الأسود صورة جميلة منسجمة من ألوان الجدار فعليها أن ترتدى فستانا برتقاليا من وجهة نظر المهندس المعمارى، أما دار العمودية الفخمة فلا علاقة لها بوظيفة العمدة فى قرية : حجرة مكتب وحمام أفرنجي ملحق به، وحجرات نوم للضيوف، والمدرسة مثل المدارس الإنجليزية الراقية تحوى فى مكان بارز منها كنيسة تثير الرهبة وتكون رمزا لتلاميذ مسلمين!! كما أن عمارة البيوت لاعلاقة لها بالمناخ المصرى، فالجدران سميكة تحفظ الحرارة داخل البيت (كأنها مصممة لمناخ بارد فتجعل الصيف الطويل فى مصر جحيما)، وتحفظ الرطوبة الخانقة فى الصيف. وهناك قبة فى السقف تعكس أشعة الشمس وتجعل من المستحيل تكديس الأحطاب والوقود عليها، وستبدو القباب قبابا لأضرحة فى أعين الفلاحين، وتجعل البيوت قبورا.

وبدلا من بيوت مرتبطة بتحضير السماد للحقل فى حظائر الماشية، هناك «جاراج» كبير للمواشى والدواب يجمع فيه الأهالى حيواناتهم ليلا خارج الدور دون اعتبار لأن الجاموسة أو البقرة فى الدار تتطلب عناية النساء بعلفها وحلبها، وليست القرية الجديدة مكانا للعمل والرزق بل هى كائن طفيلى .. ومن ناحية أخرى هناك تصور معمارى عكسى «لتطوير» أبنية القرية، يعبر عن رومانسية الخواجات

الذين أنهكتهم عمارة المدينة ويحلمون بالعودة إلى الطبيعة، وهذا التصور يريد أن يجعل بيوت القرية جزءا من طبيعة الأرض والصحراء وكهوف الجبال التى تحف بالحقول، وهذا القصور الآخر فى الرواية يريد استبقاء البدائية والتخلف وسعادة الحيوانات المزعومة لتكون منظرا يسر السائحين الناظرين.

وننتقل إلى معمار أبنية القرية والمدن المحلية الفعلية قبل ١٩٥٢ فى رواية عبدالحكيم قاسم «قدر الغرف المقبضة» (١٩٨٣).

إن دور القرية التى قضى فيها الراوى طفولته، تشبه السجن الخانق وراء الباب المغلق دائما، مقيدا الأم والأخوات، والدور متراصة تشكل معا سجنا واحدا وجدرانها المتزاحمة تفرض على الناس جمودا ولامبالاة وتعفنا ويرى البطل من القطار مبانى قرى ومدن مصر جميعا تقريبا سجنا ممتدا كبيرا ويبدو العمار كتلا سوداء معتمة، وبيوتا متلاحقة تساندة متواكبة قميئة شائهة وفى المدينة الإقليمية أيضا حيث يدرس الراوى نلمح غرفا فى زنازين، غرف الطلبة الكئيبة فى حارات لاتدخلها الشمس، الغرف التى بلا نوافد، ومعمار المدرسة يجسد وضع الناس وطرائق حياتهم، فردهاتها أمام الفصول طويلة بلا نهاية ولا زخارف .. وفناؤها شاسع قحل تطل عليه جدران المدرسة العالية الجرباء، أما حجرات المدرسين فهى ضيقة معتمة يتم الوصول إليها باجتياز سرداب مظلم (د.حسين حمودة - الرواية والمدينة)، لقد كان الأمر دائما كذلك. وفى رواية سقوط النوار لمحمود ابراهيم طه (٢٠٠١) ذكريات طفولة تدور أثناء نفس الزمن فى قرية قديمة، دور الدرب متماثلة يكاد المار أن يلمس الأسطح بذراعه لو مدها، وهى عتيقة واطئة أبوابها كابية تنزل لها بدرجتين أو ثلاث، وباب دار الراوى يفضى لدهليز طويل يتجه نحو إحدى الدرجات، وفى نهاية الدهليز البحرى قبل مطلع السلم موضع الزير ليتلقى الهواء البارد.

وباب المندرة المطلة على الشارع بشباك بحرى ذى ضلفتين علويتين تفتحان للداخل فيرى الراوى قبة ولى، أما الضلفتان السفليتان فمغلقتان بشكل دائم لارتفاع الشارع وهبوط الدار حتى أصبح بإمكان الجالس فى المندرة أن يرى قدمى السائر فى الشارع، وبالمندرة ثلاث مصاطب للضيوف وبالحائط كوتان لمصباحى بترول نمرة ٥. وبالسقف عروق من خشب قديم وألواح حائلة اللون، فليس المعمار هنا معمار سجن، البيت مفتوح على الجيران مطل على مقامات الأولياء، وهناك دهليز ثان به سلم طينى تحته بيت راحة ضيق معتم، وكانون للطبخ وقاعة خبيز تعرشها جذوع أشجار قديمة وبوص صبغه الهباب، وتجسد هذه العمارة الهشة الفقيرة

عبد الحكيم قاسم



طريقة حياة، فالفرن الذى يطعم الطلوق تنام عليه الأم والأخوات، وعلى السطح صوامع لتخزين الذرة تقف على حافة الدار بكروشها المنتفخة كخفر نظاميين وبنيات للحمام وأقفاص وعشش للطيور، الدار هنا مأوى جمعى ووحدة إنتاج وعلاقة بالآخرين وبرب السماء وأوليائه.

الطوق والأسورة

ويصور يحيى الطاهر عبدالله فى «الطوق والأسورة» (١٩٧٥) معمار المعبد الفرعونى وعلاقته بأرباب السماء فى المخيلة القروية الاسلامية رغم السرد الوصفى المحايد، لقد تهدم المعبد القديم المشيد من الحجر الكبير وسقط بعض جوانب السور بفعل الزمن، إلا أن بوابات المعبد السبع باقيات ومن فوق كل بوابة تطل شمس ذات جناحين يحيط بها ثعبانان حارسان، وتدفع الزوجة العاقر إلى داخل بهو الأعمدة، إلى غرفة إله النسل الضيقة، وهو إله مكشوف العورة بقربه مسلة لم تكتمل (هل كل ذلك رموز فرويدية؟)، وأمام بوابة المعبد القديم تساق العاقر تتقل عينيها بين تماثيل الكباش التى قال لها الشيخ أنها كانت بشرا غضب الله عليهم لوثنيتهم فتحولوا إلى أحجار، وستدخل على الرجل (فى معمار الدهليز) الذى كان يتفاخر برجولته فحوله الله إلى حجر أسود بارد وجعله مكشوف العورة إلى أبد الأبدين (وكان النحت جزءا لايتجزأ من العمارة القديمة).

بين القصرين

وماذا عن بيت السيد أحمد عبدالجواد فى بين «القصرين» من ثلاثية نجيب محفوظ فى بداية القرن العشرين؟

إنه بيت تاجر ميسور الحال فى القاهرة القديمة، واسع كبير بفنائه المترب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف، وفى الطابق الأسفل حجرة الفرن وحجرة الخزين، وتختلف حجرة الفرن عن حجرة فرن قرية سقوط النوار فهى تحتضن ثراء العيش، وتضم فرنا وكانونا يحتل الركن المقابل، فهذه الحجرة وبها عين الفرن المقوسة يلوح فى أعماقها وهج النار لجذوة السرور المشتعلة فى نفوس السكان، فتلك العين هى التى تنتج ألوان الطعام الشهية، وبالدور الأعلى حجرة الطعام وحجرة نوم الوالدين وحجرة الجلوس وحجرات نوم للأولاد ففى تلك الدار تخصص فى العمارة أتاحه الثراء، وهناك المشربية التى تحجب النساء وتتيح لهن من ثقوبها التطلع إلى الشارع وينتمى السطح إلى تزييف المدينة الشعبية، فقد بنيت فيه أكواخ خشبية للدجاج وأركان لأقفاص الحمام وأعد فيه بستان محروس من أصص جميلة زكية.

وتعكس عمارة البيت نمط حياة انتقالى بين التقليدية وبدايات النهضة، بين الألفة العائلية الجمعية وبزوغ الفردية. فالمعمار - حيث الطوابق تعكس أوضاع العلاقة المتناقضة بين الرجال والنساء (عزلتهم وفضولهم ومشاركتهن)، والسطح الذى تبنيه وتتعهده المرأة ليصبح رغما عنها ساحة لغزل الرجال مع بنات الجيران (فهمى ومريم) أو للاعتداء على الخادمات (ياسين ونور) - هو إطار للسلوك الانسانى، بكل تغايراته فى الزمان، ينغرس فى لحم هذا السلوك وحركته.

هليوبوليس

وفي نفس العشرينيات من القرن العشرين تصور رواية هليوبوليس لمي التلمساني (٢٠٠٠) انتقالا معمارياً آخر مختلفا، بين الطرز المختلفة، فالبارون امبان ينفق أرباحه من شركة الترام في بناء قصر له على الطراز الهندي، يشبه من الخارج معبدا من معابد ماتورا ببرجه الشاهق المخروطي وتماثيله على هيئة الفيلة ومن الداخل كان كل شيء ينتمي إلى ذوق البورجوازية البلجيكية التي ينتمي إليها البارون، وفي الفترة نفسها أنشئت قصور الأرستقراطية التركية غير بعيد من قصر البارون (الأمير حسين والأمير إبراهيم والسلطانة وتوبار باشا)، وجميعها يعتمد على التصميم الأوروبي مع قشرة شرقية، وفي الوقت نفسه اجتذبت شركة مصر الجديدة الأهالي للبناء في «الواحة» وبالمثل لم يكن المعمار عربيا في شيء، كان خليطا من الطراز الأوروبي في التصميم والزخرفة الإسلامية في الواجهات الخارجية. وتشبه هذه البيوت بيوت القرية النموذجية المهجورة في رواية الجبل، الغرف حارة في الصيف ورطبة في الشتاء الطراز الهجين الذي لا يأبه بالتوائم مع الطقس في مصر.

ذات

ويتناول صنع الله إبراهيم في رواية ذات (١٩٨٣) الحي الذي اقترن باسم البارون إمبان، وتغير شوارعه وعماراته وشققها.. فشوارع الخمسينيات وبداية الستينيات التي شقت لتؤوي أبناء القطاع العام في عمارات متشابهة تصف الرواية ماحدث لها من عمليات هدم وبناء .

إن عمارة العرسان وأمثالها من عمارات موظفي الحكومة في أطراف مصر الجديدة، تزحزحت إلى المركز في السبعينيات، وصحب ذلك ضيق العمارات بسكانها وبنوافذها وشرفاتها ومداخلها لقد تحطم زجاج مناورها ونشعت جدرانها وأغبرت واجهاتها وتكدست مخلفات الأعوام في أركان شرفاتها، أما قصور العروبة وفيلات الأربعينيات وعماراتها الراسخة فقد تحول بعضها بعد تقفيلة بالألوميتال والفيمية إلى مكاتب بيزنيس. وما يحدث في زمن الانفتاح من تغييرات في طرائق الحياة ينعكس على معمار الشقق داخل العمارات، وكأن الطبقة الوسطى تلقت توجيها من التليفزيون الرسمي في صورة ربة بيت تنهال بالمطرقة على جدران مطبخها وما أن تنتهي حتى تتألق الجدران بالسيراميك المستورد، وتعم حركة «سرمكة» للقادرين «وقشقشة» (طلاء بالقيشاني) للأقل قدرة وهناك حركة هدم للفيلات والعمارات العتيقة المتينة وبناء لعمارات زجاجية الواجهات تتهدم من تلقاء نفسها.

أنتم يامن هناك

وليس الأمر مقصورا على مصر


نجيب محفوظ


فتحي غانم

الجديدة فى تتبع تأثر المعمار بانهيار طرائق حياة وقيم وظهور طرائق حياة لا تتعاطف معها الروايات ففى رواية ضياء الشرقاوى «أنتم يامن هناك» (١٩٨٧) تصوير لعمارة بلا وجه فى مدينة بلا اسم وكأنها تجسد ماحدث للهوية وللجماعية والتواصل والتضامن من اضمحلال فى المدينة، وهذه العمارة ذات الطوابق والشقق الكثيرة التى تضم شخصيات من جنسيات متعددة أو وافدة من الريف إلى المدينة تظل دون ملامح محددة فهى حزمة من أرقام وبابها يعزلها عن العالم الخارجى وعالم العمارة تنهشه تراتبات طبقية ضخمة وفواصل بين الغرف وبين السطح وسكانها من جهة والشقق وسكانها من جهة أخرى، وتشبه العمارة الشخصية الانسانية المغتربة المتشظية المختنقة فى عزلتها التى تنتجها العلاقات الاجتماعية والسياسية فى تلك الفترة من وجهة نظر الكاتب.

ومن الناحية نفسها يواصل ضياء الشرقاوى فى رواية أخرى «مأساة العصر الجميل (مجموعة بيت فى الريح ١٩٧٨) تيمة المسكن السجن عند عبدالحكيم قاسم بعد أن نقد المسكن ألفة البيت العائلى والتواصل الانسان، نحن إزاء شقة هى زنزانة معتمة رطبة معزولة تماما وحولها وفوقها أبواب كثيرة مغلقة، إنها تشبه فى معمارها ديكورا بين ديكورات مسرحية لعبة النهاية لصاموئيل بيكيت، مساحة شديدة الضيق عارية وتبدو أركانها صناديق قمامة تعيش داخلها الشخصيات مشلولة الحركة دون تواصل.

ويرثى جمال الغيطانى فى رواية «رسائل البصائر فى المصائر» (١٩٨٩) ما أصاب مبانى القاهرة القديمة فى السبعينيات من تدهور انسانى مع هجمة الانفتاح، دعك من احتراق مبنى الأوبرا، والقصور التى أصبحت إدارات حكومية مشوهة وركز على غزوة المال الجشع للمبانى الجميلة ذات الطابع الإنسانى الحميم الرائع لتحل محلها مبان صماء معدنية زجاجية (عمارة الحداثة اللاشخصية).

وما كان عاما فى الروايات السابقة نجده مكثفا عيانيا فى رواية يوسف القعيد «بلد المحبوب» (١٩٩٢) فهو يربط تدهور العمارة تدهورا فاجعا بالأعمال السياسية والاقتصادية الكدرة فكأن شيطانا يمسخ كل شىء، ويربط السرد تفاصيل التغيرات المعمارية والعواطف والأذواق.

(ويعرض د.حسين حمودة فى كتابه «الرواية والمدينة» نماذج دالة لمجمل التغيرات فى كتابات الستينيات من نواح أوسع كثيرا من العمارة وإن تضمنتها).

ولا يرجع محمد إبراهيم طه فى «سقوط النوار» قسوة معمار المبانى إلى انفتاح السبعينيات بل يتعقبها إلى تاريخ طويل من البطش بالفقراء، فهو يحكى عن مستشفى المرداش الضخم الجهم بطوابقه الستة، وعن زائره الذى ينتابه انقباض وهم بدءا من البوابة الكبيرة السوداء التى تقف حائلا أمام الريفيين نسوة ورجالا وأطفالا ومرضى ليظلوا خارج السور حتى موعد الزيارة، ويختلط المعمار بحركة الحياة والناس اختلاطا

تعيسا سلالم وطرقات ومداخل، قاعات ومكاتب طلبة وأطباء وممرضات، مرضى يتكئون على أصحاء وآخرون ممددون على ترولبات، ضمادات ومصاعد، تومرجيات يمسحن الأرضيات والحوائط الكالحة، في مداخل الطرقات عمال يسدون منافذ الأقسام حتى جانب الزيارة، ويتوه الريفيون فرادى وجماعات في الطرقات بحثا عن الأقسام والعنابر في المتاهة الواسعة من التفرعات الكثيرة، فمعمار المستشفى المجاني كان لاعقلانيا مختلطا لايستهدف راحة المرضى الفقراء وزائريهم وحصولهم على أنواع العلاج الضرورية بل تكديسهم وتقديم العلاج شكليا.

عمارة يعقوبيان

ومن ناحية أخرى تختلف «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسواني (٢٠٠٢) عن عمارة ضياء الشرقاوي في «أنتم يامن هناك» فهي مفتوحة على شارع سليمان التجاري وحركته النابضة كما أن طرازها أوروبي يناسب طرق حياة الأجانب والنخبة من المصريين المتجهين إلى تقليد الأوروبيين، وسيظل طرازها كما هو ولن يتغير مع تغير مجتمع العمارة بعد حركة ١٩٥٢ وتقلباتها وانعطافاتها إلا معمار السطح. لقد كان ملحقا بخدمات الشقق ثم أصبحت حجراته تؤجر ويتم تطويع المكان لإقامة السكان وكذلك لوجود مشاغل للتفصيل وكان أبناء وبنات الفقراء على السطح يتطلعون إلى الصعود الطبقي ومغادرة السطح، ويصلح طراز العمارة لاحتواء طرائق الحياة المتغيرة فهو طراز مرن يتفق مع انتقالات المجتمع القديم إلى مجتمع عصري.

علاء الأسواني



خيري شلبي



وكالة عطية

ويعي خيري شلبي على نحو شديد العمق في كل كتاباته وثوق الصلة بين المكان والنسيج الإنساني وهو خير من يعبر عن تطابق معمار «وكالة عطية» ومجتمعه (١٩٩٢).

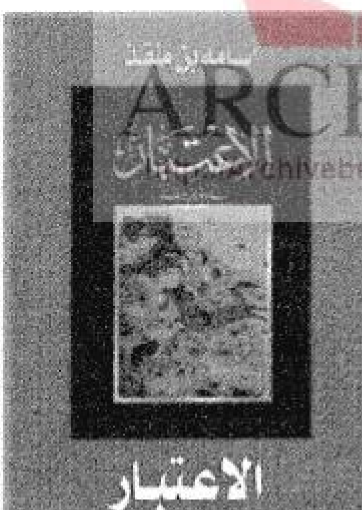
الوكالة تحفة هندسية معمارية اضمحلت إلى خرابة كعزيز قوم ذل، تؤوي الخارجين على القانون والشواذ والمطاردين، والوكالة تجسد قبضة سلطة متحكمة - استمرت من العصر العثماني إلى الاحتلال البريطاني إلى حركة يوليه تسيطر على جماعات متباينة تريد الحرية والتحقق والانطلاق فتصبح خارجة على القانون، إن الوكالة ومجتمعها كما يقول خيري شلبي ببراعة هما بكيات ومقرنصات وبلوكات وشرائح وحليات معمارية ومكونات سكانها النفسية والمعرفية تشبه سراديب الوكالة .. فالوكالة تعكس بمعمارها التشكيل الاجتماعي خارجها (فصول - العدد ٦٠). ■

الهلال
ذو الحجة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م

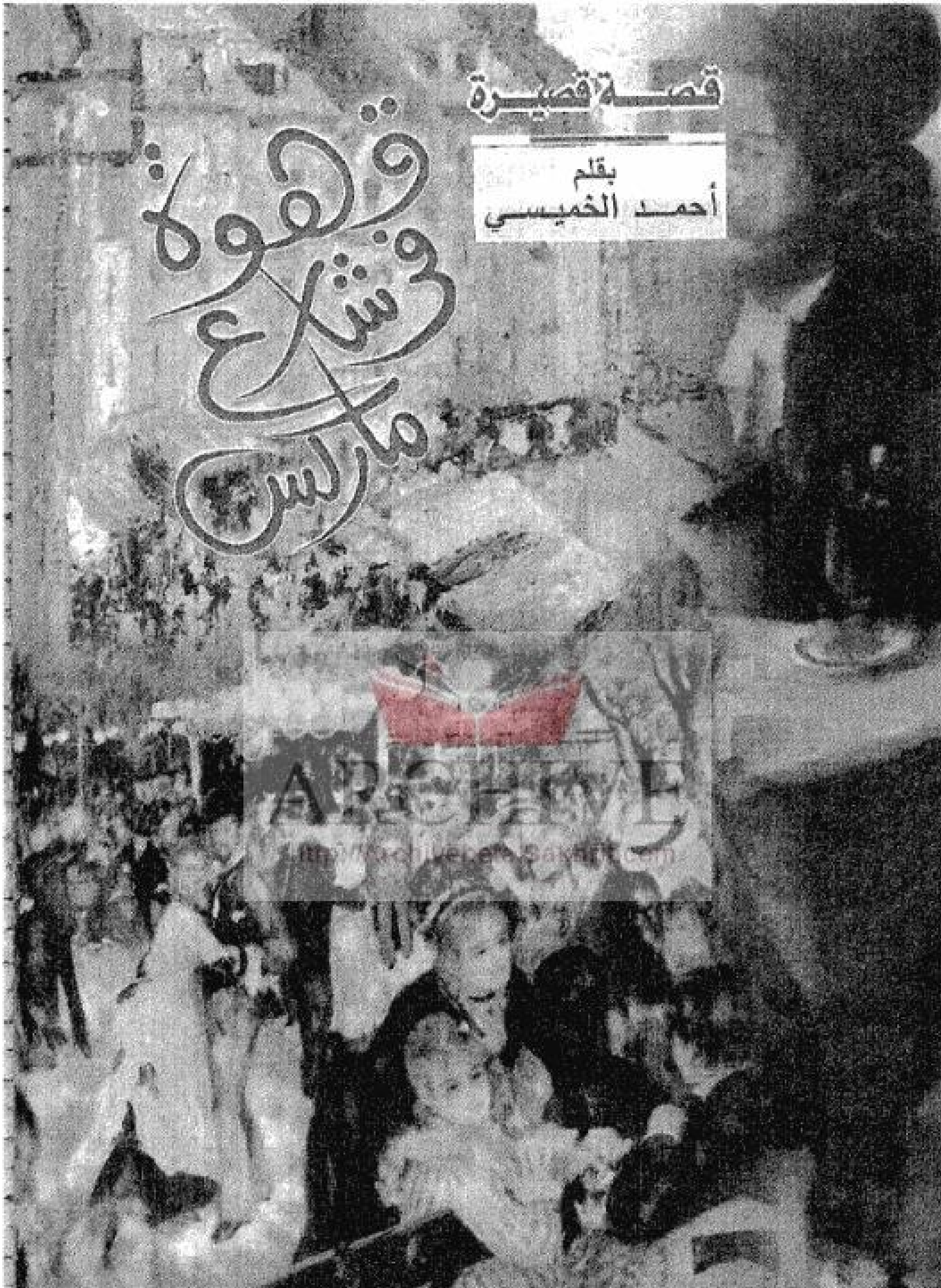

د. رشدي سعيد
الحقيقة والوهم في الواقع المصري
د. رشدي سعيد
الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى


د. زكى مبارك
د. زكي مبارك
ليلى المريضة فى العراق
ليلى المريضة فى العراق


د. رمسيس عوض
محاكم التفتيش


أسامة بن منقذ
الاعتبار
الاعتبار

دار الهلال


قصة قصيرة
بقلم
أحمد الخميسي

ثبتنا أقدامنا على السلم الكهربائى بمحطة المترو وهو يهبط بنا من سطح موسكو الى جوف المحطة التى بدت من أعلى كقفص حديدى ضخم تجمعت بداخله القطارات. تقدمتنى فى وقفتها على السلم والتصق ظهرها بصدرى. انزلقت يداى من فوق كتفيها ورقدتا محقودتين على صدرها ونحن نهبط على مهل.

التفت أصوات الأقدام الراكضة الى القطارات وصرير العجلات الحديدية ودقات كعوب الأحذية النسائية وأنصاف الكلمات فى سحابة تعلو ببطء فوق رءوس النازلين الى النفق. من على الجدار المقوس عن يمينى أطل «جوركى» من صورة زيتية ضخمة بيسمته والنظرة المريرة القديمة.

كنا فى طريقنا من محطة «جوركى» الى محطة «شارع ماركس» لتوديع صديق مسافر يسكن قرب مخرج المترو.

توقف بصرى على وجه نحيل لشاب يقبل صديقته وسط جموع النازلين على السلم الكهربائى. بالتدريج بأن لنا حراس المترو تحت وهم فى زيهم الأسود الخاص. شعرت بصدرها يتنهد ويرتفع بيدى المتقاطعتين فوقه كصليب. المصادفة وحدها جعلتنا نلتقى، رغم أنها كانت تحيا وتعمل فى مدينة أخرى. كانت تنتهز أيام الإجازات لتسافر الىّ ونتقابل.

أحسست خلف رأسى بأنفاس رجل بدين يتنفس بصعوبة. ملت برأسى أتأمل صفحة وجهها المعذب. هل حل عليها التعب بعد أن تقطعت المحبة سنة بعد سنة الى خطابات ومكالمات؟ لم تبدو باهتة؟ هل أرهقها ضغط الوجوه التى تتبدل بمختلف التعبيرات؟

غاص بنا السلم الكهربائى الى الدرك الأخير حيث يجلس كل حارس فى كابينة خاصة. قطعنا عدة خطوات بين الأكتاف والأيادى وأبدان المهرولين فى كل اتجاه الى أن وصلنا الى رصيف القطار اللازم، فتوقفنا. رفعت نحوى وجهها بعينين دافئتين وقلق وقالت:

– أحس بنفسى متعبة.. لا أدرى لماذا.

ثبت بصرى على ملامحها الشاحبة الرقيقة وقفز لرأسى خاطر أنها قد تتخذ قرارها الآن بقطع كل مابيننا. ضممتها الىّ، فلما أراحت رأسها على كتفى شعرت بأننا كتلة واحدة حارة انعدم من حولها النفق السقف المرتفع واللغط.

اطلت القاطرة من جوف الظلمة كوحش يساق بالسياط. وانفتحت أبواب العربات وانطلق الخارجون يتقاطعون بسرعة فى كل الاتجاهات. وعندما لفظت القطارات ما بها دخلنا ولمحنا مكانين شاغرين فاندفعنا اليهما وقعدنا. أخذت عربة المترو التى ازدحمت من جديد تتحرك وتعوى كوحش بين جانبى النفق المظلم. مرقت الجدران المعتمة بسرعة من وراء زجاج النوافذ. وكان الفتى النحيل الوجه قد جلس قريباً ساهما ورأس صديقته على كتفه.

مقابلنا قعدت امرأة أرسلت نظرتها في فراغ، وبجوارها طفلة تخطف العين. بدا من الخاتمين الذهبيين أن الفتى وصديقته مقترنان. طبعت قبلة خفيفة على شعر صديقتي المرسل على كتفيها وطوقت خصرها. فتأملتني لحظة مبتسمة بوهن وصفاء.

توقف القطار. محطة «مايكوفسكي». تدافع الخارجون. لاح بينهم الشاب النحيل الوجه وزوجته ملتصقين كموجة في بحر. وتدفقت لباطن العربة جموع أخرى. اتجه رجل قمحي اللون على أعتاب الخمسين الى المقعد بجوار الطفلة ثم أخرج صحيفة مطوية من جيب البالطو وأخذ يتصفحها. دخلت عربة المترو النفق المظلم ثانية. صديقتي مستغرقة في دنيا أخرى. هل هو نفس السؤال؟. كيف تحل هذه العقدة؟ قلب مقسم على مكانين. سنة وأكثر وخيط مشدود من أعصابنا وشبابنا يتوتر حتى يكاد ينقطع. والعمل؟



تحاول الطفلة الصغيرة بكل الطرق جذب انتباه أمها اليها لتتكلم معها. تأسر حركات البنت الرجل القمحي اللون. يتفتح في بسمة، وبكلمات هامسة في أذنها يسرق اهتمامها كله، فتعتدل ناحيته مسرورة. على مسافة ترنح رجل من الواقفين يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة. تعلقت يده بالعامود الحديدي، بينما مدت ذراعها تسنده امرأة روسية قصيرة صابرة. زعق فيها زعقة هائلة وراح يتحرش بالركاب مفتشا عن عدو له في نظراتهم. تطلع اليه البعض بدهشة وهدوء. أحسست بكفيها تحطان على يدي. التفت اليها. حدقت في بعينين مغرورقتين بسحابة دامعة. شعور ثقيل يواتينا بأن النهاية تحوم بجناحيها فتظلم الدنيا تحتهما. أردت أن أشغلها عما بخاطرها فهمست لها :

- ألا تتمنين بنتا جميلة كهذه؟

قالت :

- نعم .

واستجمعت أنفاسها لتضيف بما تيسر من مداعبة :

- أمها أيضا حلوة؟

ابتسمت لها في صمت . أي صراع يعتمل في روحها؟ وأية آمال؟. يلح عليها مشروع الإقامة في موسكو.. لكن ما الذي يخفيه الزمن لنا؟

توقفت العربة. محطة «ساحة الثورة». غادرت المرأة القصيرة الصابرة وهي تسند الرجل الثمل. راح يتلفت من على الرصيف متطوحا يتفحص وجوه الركاب من خلال نوافذ العربة. كان مايزال يبحث عن عدو لا يعرفه .

واصلت العربة اندفاعها. المحطة القادمة «شارع ماركس» . وقع بصري على شاب يشبه صديقي بأنفه الحاد وجبينه العريض. الرجل قمحي اللون يضع حقيبته

الجلدية على ركبتيه ويفتحها. يخرج منها أقلاما ومجلات يناولها للطفلة لتتفرج. الطفلة تجذب المجلات بقوة وتضحك مشيرة بإصبعيها الى صورة ملونة. رمقت أمها الرجل باستغراب خفيف ثم انطفأ التعبير فى وجهها وعادت ذاهلة ترسل نظرتها الى فراغ أمامها .

سنهبط المحطة القادمة، ونتجه الى منزل صديقى لتوديعه قبل سفره الى الوطن .

كل وداع ينطوى على مرارة. قال لى ذات يوم : «الموت فى جحيم مصر أبقى من حياة فى جنة أوروبا» . لم حاجاته وقرر الرجوع . شعرت صديقتى أنى مستغرق فى شىء، رفعت رقبتها متطلعة الى وجهى. لم أعد أدرى بم سينتهى كل ذلك . هل تسافرين معى؟ أظل هنا؟ أم ننسى كل مابيننا؟

امرأة واقفة بكيس ثقيل من بطاطس وخبز فى يدها قالت ضاحكة للرجل القمحى:

— حلوة بنتك هذه .



تأملت الرجل والطفلة معا. ورأيت – كأنما فجأة - أنهما يبدوان كأب وابنته حقا . نقلت بصرى الى الأم وشاهدتها بعين أخرى: راكبة عابرة جلست مصادفة بالقرب منهما .

توقفت عربة المترو . محطة «كارل ماركس» . خرجنا فى موجة المتزاحمين وبدانا متشابكتين. التفتت الىّ وقالت بصوت مضطرب:

— سأبقى فى موسكو وأبحث عن عمل هنا .

كان بصوتها رنة ضياع تفتش عن عزيمة. ضممتها الى صدرى ضمة خفيفة لكى لا ترى نظرتى. إلام ينتهى كل ذلك؟

صعد بنا السلم الكهربائى الى أعلى فى بطء. شيعتنا نظرات الحراس بثقالة من صوف الزى الأسود .

خرجنا من الجو الدفئ داخل محطة المترو الى برد الشارع. مرق المارة مسرعين فى مختلف الاتجاهات بمعاطف سميكة متشابهة. قرصتنا الريح الباردة تهب من فوق ثلوج وراء سور أشجار بعيدة . لاح كشك قريب فى هالة ضوء ضعيف. أمامه تناثرت على الرصيف عدة مناضد . جلس البعض اليها يحتسى المشروبات .

جمعت صديقتى أطراف معطفها على صدرها. تطلعنا معا الى الكشك . واتفقنا بنظرة على أن نحتسى فنجانى قهوة ساخنة قبل أن نصعد الى صديقى.

أسرعنا الخطو الى هناك، والأشجار العالية عن يميننا تلقى بظلالها المتعاقبة على الرصيف. فى ضوء أعمدة النور لمعت ندف الثلج البيضاء المتساقطة كشرارات متلاحقة فوق الاسفلت المبلول، وانطفأت. ■

زفاف يونانى

مولد سينما جديدة

بقلم
مصطفى درويش

كل ما هو متصل بالسينما على أرض مصر، أمره يدخل فى باب العجب العجاب.

فلم تنقض سوى بضعة أيام على وداع عيد الفطر، حتى أخذت الأفلام المصرية المعروضة فى دور السينما، بمناسبة العيد تختفى شيئا فشيئا، بحيث لم يبق منها، والعام الماضى على وشك الرحيل، سوى قلب جرىء ومعالى الوزير.

ومع ذلك الاختفاء، وتحت تهديد أعياد ومناسبات أخرى قد تنتهى بدور السينما، أما خالية من الجمهور، وأما محتكرة عروضها، بحكم القانون، بما تيسر انتاجه من أفلام مصرية.



لم يكن أمام أصحاب حق توزيع الأفلام الأجنبية، وجلها، إن لم تكن كلها من إنتاج هوليوود، من سبيل سوى الإسراع بعرض ما عندهم من بضاعة، معظمها لا ينفع الناس، في جو مشحون بالتنافس المحموم، ضحاياه، أولا وأخيرا، نحن المتفرجين اللاهثين من دار سينما إلى دار أخرى، من أجل اللحاق بفيلم، قد لا يستمر عرضه سوى بضعة أيام.

عشوائية العروض

ومن بين هذه الأفلام الكثيرة التي جرى أطلاقها على دور السينما بعشوائية، منقطعة النظير، أذكر على سبيل التمثيل «الموت يوم آخر»، بطولة جيمس بوند و«التنين الأحمر»، بطولة السفاح آكل لحوم البشر «لكتر هانيبال»، ثم «حفل زفاف يوناني كبير» الفيلم المطن فوزه بجائزة اختيار الجمهور في الحفل الذي يقام سنويا بضاحية باسادينا بولاية كاليفورنيا.

وعندي أنه لو وضع في كفة الميزان الفيلم الأخير، وفي كفته الأخرى فيلما بوند وهانيبال، لرجحت كفته، لاريب، وذلك رغم أن عشرات الملايين من عزيز الدولارات لم تبذر على إنتاجه مثلما بذرت على إنتاج «بوند» و«هانيبال».

ورغم أن أحدا من نجوم هوليوود لم يسند إليه أي دور فيه، ولو صغير.

ورغم أن مبدعه «جويل زفيك» مخرج تليفزيوني، لم يسبق له إخراج أي فيلم لحساب مصنع الأحلام في هوليوود، ذات الجلال ومن عجب أنه حقق ايرادات في الولايات المتحدة وكندا فاقت المائتي مليون دولار، بكثير.

وبفضل هذا الرقم الفلكي، محسوبا إلى ما أنفق على إنتاجه، وهو مبلغ زهيد،



حفل زفاف يوناني كبير ..

بمعايير هوليوود، يكون حفل زفاف يوناني كبير، أعلى بكثير من النسبة التي حققها أي فيلم أمريكي آخر، على مدار العام الماضي، بما في ذلك أفلام الإنتاج الضخم، مثل «الرجل العنكبوت»، «هاري بوتر وحجرة الأسرار» و«لورد الخواتم» «البرجان».

سر النجاح

ومن الأكيد، أن نجاحه إنما يرجع إلى عدة عوامل، من بينها ولاشك، صدق أخاذ، وبساطة في التناول، غير معهودة في معظم الأفلام.

إنه، والحق يقال، درة سينمائية فريدة، في غابة من أفلام مكررة، شديدة الافتعال والإملال.

ولعل خير مثال على ذلك، بوند و«هانيبال».

والأمر المحزن في شأن هذه الدرة، أن عرضها في القاهرة مر مرور الكرام.

والآن إلى الفيلمين الناجحين عندنا «بوند» و«هانيبال» رغم أنهما في الولايات المتحدة وكندا لم يحققا ايرادات مثل تلك التي حققها الفيلم الدرة «حفل زفاف».

وبداية، فبوند غني عن التعريف، فليس كمثله قصة نجاح متصلة، نعرف لها أولا، وربما لن نعرف لها آخر.

سمعت باسمه، قبل نصف قرن من عمر الزمان، وحينذاك حسبته اسما عابرا، سرعان ما يطويه النسيان، شأنه في ذلك شأن اسماء كثيرة أبتدعها مصنع الأحلام، أو بعض أدباء العالم الجديد، أذكر من بينها على سبيل المثال «طرزان» الذى كان بمغامراته فى مجاهل أفريقيا السمراء، حديث الناس إلى أن اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية، فشغلتهم عنه بأحداثها الجسام.

خيبة أمل

غير أن الأيام مرت أعواما بعد أعوام، وإذا «بجيمس بوند» الذى أختاره الأديب، ورجل المخابرات البريطانية «إيان فلمنج» اسما لبطل رواياته يخيب ظنى، وذلك لان مغامراته فى مشارق الارض ومغاربها، بوصفه العميل رقم «أو .. أو سفن» قد جرى ترجمتها إلى لغة السينما فى عشرين فيلما.

كما أن انتاجها ظل متواصلا، على امتداد أربعين عاما، بدءا من «الدكتور نو» (١٩٦٢)، وحتى «الموت يوم آخر» فيلم بوند الأخير (٢٠٠٢).

والحق، أنه بهذا العدد من الأفلام، يكون جيمس بوند قد ضرب رقما قياسيا فى طول العمر السينمائى، فاق بكثير عمر شخصية اسطورية مثل المتشرد الخالد، تلك الشخصية التى تقمصها شارلى شابلن» أيام أن كانت السينما عاجزة عن الكلام، فاسر بها قلوب الملايين والغريب فى أمر «بوند» أن يطول عمره على هذا النحو، رغم أنه منذ البداية، لم يكن خافيا على أحد أن



مشاهد من التنين الأحمر



انطوني هوبكنز في التنين الأحمر

عمالته موظفة في خدمة امبراطورية غربت شمسها بلا رجعة منذ العدوان الثلاثي (١٩٥٦)، وباتت بقاياها شظايا، تدور في فلك امبراطورية فتية وليس في الأفق ما يشير إلى أنها هي الأخرى على وشك الرحيل.

محور الشر

وأن أفلامه ذات طابع سياسي مباشر، اتخذ منه العالم المسمى بالعالم الحر، تحت زعامة العم سام، أداة دعاية موجهة ضد الاتحاد السوفييتي، أو امبراطورية الشر، حسب الوصف له في بيان للرئيس الأمريكي الأسبق «رونالد ريجان».

والأكثر غرابة تحقيق أفلامه ايرادات مذهلة ارتفعت إلى آلاف الملايين من الدولارات، وذلك رغم أنها كانت ممنوعة من العرض العام في بلاد سكانها يشكلون أكثر من ثلث سكان العالم.

ورغم أنها، في حقيقة الأمر، لا تعدو أن تكون فيلما واحدا، وإن تغير العنوان.

والسؤال المطروح، في ضوء ما تقدم، هو كيف كتب «لبوند» الاستمرار محققا هذه الايرادات، بدءا من ستينات القرن العشرين، وحتى يومنا هذا، إذا كانت أفلامه مكررة، لا تقول شيئا، أو بمعنى أصح، تقول لغوا، قوامه مغامرات صبيانية، ودعايات فجة موجهة ضد امبراطورية زالت من الوجود، قبل عشرة أعوام أو يزيد، والآن ضد إحدى دول محور الشر «كوريا الشمالية» كما يبين من سباق «الموت يوم آخر» حيث ينحصر الأشرار في الكوريين الشماليين، والأخيار في رجال المخابرات البريطانية والأمريكية «بوند وجينكس»، ويؤدي دورهما النجمان «بيرس بروسنان» وهال بيرس «الفائزة بأوكسار أفضل ممثلة رئيسية قبل عام» ونفس السؤال، لا مندوحة من طرحه بالنسبة للسفاح «هانيبال» فهذا السفاح المتعطش لأكل لحوم البشر، لم يتردد اسمه الا بعد

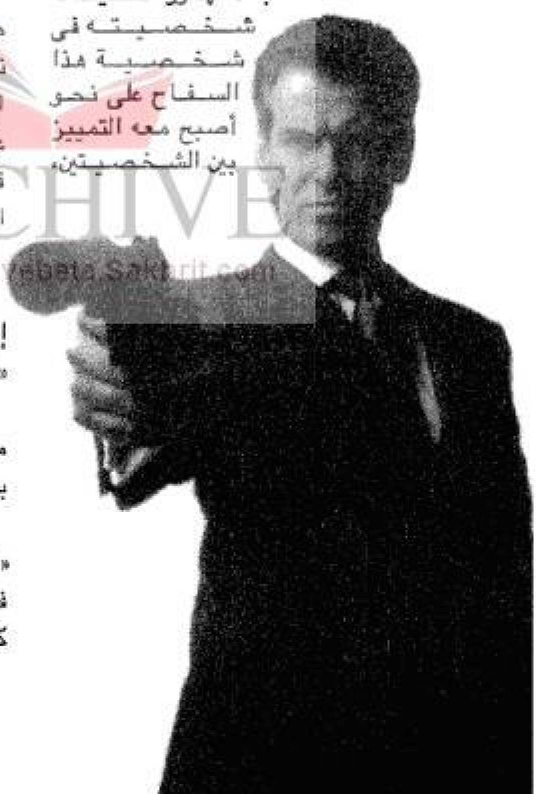
عرض فيلم «صائد الرجال» (١٩٨٦) المأخوذ عن قصة «التنين الأحمر» للأديب الأمريكي «توماس هاريس».

ودارت أعوام، كاد اسمه يختفي مع دوراتها، لولا فيلم تقمص فيه «انطوني هوبكنز» شخصية «هانيبال»، هذا الفيلم هو «صمت الحملان»، الفائز بخمس جوائز أوسكار، أفضل فيلم وإخراج «جوناثان وبيم» وتمثيل «هوبكنز وجودي فوستر».

غرام وهيام

وهكذا، اكتسب «هوبكنز» بفضل تقمصه شخصية هانيبال الاجرامية، قدرا كبيرا من التقدير، المصحوب بالإعجاب، مما حدا بملكة بريطانيا إلى منحه لقب سير.

وعلاوة على ذلك، إندمجت في مخيلة جمهور السينما شخصيته في شخصية هذا السفاح على نحو أصبح معه التمييز بين الشخصيتين، من الصعوبة بمكان.



ولأمر ما، لعلة منافسته شريحة من الرأى العام عادت بضراوة صمت الحملان، أعلن هوبكنز على الملأ أنه تاب وأناب، ولن يعود أبدا إلى تقمص شخصية هانيبال فيما هو آت من أفلام.

إلا أنه بعد عشرة أعوام، عاد فتقمصها في فيلم بنفس اسم السفاح، أى «هانيبال» (٢٠٠١).

ولم يمر سوى عام على انتاج الفيلم الأخير، إلا وكان أمام الكاميرا متقمصا شخصية السفاح مرة ثالثة فى «التنين الأحمر» المأخوذ عن نفس القصة التى سبق ترجمتها إلى لغة السينما، قبل ستة عشر عاما، تحت اسم آخر.

ومما يثير الدهشة فى شأنه، أن منتجيه «دينو ومارتادى لاورنتيس» هما نفس منتجي الفيلم القديم «صياد الرجال»، وقيامهما بانتاج فيلم مأخوذ عن نفس الرواية، مرتين، وفي مدة زمنية قصيرة، أمر غير مسبوق فى تاريخ السينما.

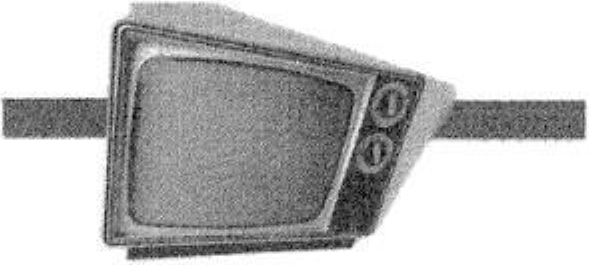
استغلال الرعب

ولا تفسير لهذا الخروج عن المألوف إلا بأنه محاولة منهما لاستغلال شعبية «هوبكنز» فى دورهانيبال.

وأرجح الظن أنها شعبية لن تطول مثل شعبية «بوند» فى عالم الأطياف، بحيث تبلغ أربعين عاما.

فغربال الزمان لن يتيح لسفاح مثل «هانيبال» عمرا طويلا، وآية ذلك إنحدار فيلمه الأخير أمام «حفل زفاف يونانى كبير» فى مضمار الإيرادات!! ■

المتفرجة



بقلم
مرفت رجب

الشمس

تظهر علينا الشمس بنورها الوضّاح .. وعلى الجانبين تتهادى فروع الشجر بفعل النسمات، والطريق فى الوسط تشقه شابتان يافعتان، فى غير التفات، لا إلى الهواء الخفيف يداعب الملبس وغطاء الرأس، ولا إلى ثقل ما تحمل كل منهما على رأسها .. وقبل أن تركن إلى سكينة وأمل بفعل سحر المشهد، نجده ينقلنا إلى مكتبة الأستاذ الدكتور عبدالفتاح القصاص، يقف فى جمع من زملاء أو تلاميذ له يعرفهم بمحتويات مكتبته التى أهداها لجامعة القاهرة، بكل ما تحتويه من نفائس الكتب فى علوم البيئة وتشريعاتها الدولية وفروعها البحثية.

تقطع المشهد جملة واحدة على التليفون، بين الوزير والدكتور القصاص الذى يدعو له بطول العمر ومع بداية حديث د. القصاص عن مولده فى برج البرلس سنة ١٩٢١ تنقل لنا الصورة أحوال الصيادين وصانعى مراكب الصيد فى قرية برج البرلس، فالقصاص يحكى لنا أن أباه كان واحدا من هؤلاء الذين تخصصوا فى صناعة قوارب الصيد، الصغيرة أو الكبيرة، أو تلك التى تفوقها بتطور صناعتها على أيدى المعاصرين المهرة، يصدرونها إلى

ذو الحجة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م

ليبيا ودول الخليج العربي، بعد أن صاروا يصممونها معتمدين على إمكانات التكنولوجيا الحديثة، وليس رسماً باليد على عظام الخشب كما كان يفعل أبو القصاص ومعاصروه.

والشمس ساطعة

وقبل أن تنقلنا مشاهد الفيلم إلى ما عدا ذلك من ملامح ماطرأ على قرية برج البرلس وأهلها من تغيير، نكون قد تعرفنا على أطراف أخرى فاعلة، تتبادل التأثير على أطراف الحدث الرئيسيين، فمع الحضور المستمر للشمس وحركة الهواء في كل اللقطات الخارجية للفيلم، نجد في كل المشاهد الراصدة لأحوال الناس في القرية، حضوراً فاعلا للإذاعة المسموعة والمرئية، وهو حضور مادي، بظهور أجهزة الراديو في أماكن البيع والشراء وعلى قوارب الصيد، والتليفزيون القابع في المقهي يكاد يخلو من الرواد لولا ذلك الذي تسمر أمامه، ولك أن تفسر حاله بالذهول أو التأمل المحتشد لما يصله عبر الشاشة وهو الحضور المعنوي وثيق الصلة بما يجرى لبحيرة البرلس، ومن ترتبط أسباب حياتهم بحياتها، ذلك أن الأثير يحمل التعليق على المشاهد ينقلها الفيلم رأسا من جوهانسبرج، وقمة الأرض فيها تعاني من ضعف تمثيل النساء اللائي قل عددهن في معظم الوفود خاصة العربية والمشهد ينتقل بنا إلى نساء البرلس الكادحات الجميلات، والمعلقة تشرح لنا السبب الاجتماعي الاقتصادي لعزوف النساء عن قمة الأرض، لافتقاد الفهم الواضح لصلة ما يحدث بحياتهن اليومية، ولأن قرارات الأمم المتحدة لا تعني لهن شيئا في غياب الفهم لآليات التنفيذ، إن وجدت والشمس ساطعة.. تضيء وجوه الجميلات المكافحات من بنات البرلس، وترفع الغشاوة عن عيون من لا يرون الصلات العضوية بين ما يحدث في البرلس ، وما يحدث على المستويين الإقليمي والدولي.

ويحكي لنا «القصاص» حكاية رياسته للاتحاد الدولي لصون الطبيعة والموارد الطبيعية Iucn وكيف يعتز ابن البرلس بكونه الأول من أبناء العالم الثالث الذي شغل هذا المركز الرفيع - منتخبا - ولفترتين متتاليتين.

أما وقد أحكم صاحب الفيلم حولنا القيد، فهو عازم على إتمام فعل الأسر، وقد ملك كل الأدوات، مهيمنا على إيقاع اللقطات وتسلسلها، مبقيا على الشمس ساطعة في صحن السماء، أو منعكسة على أشرعة المراكب ، وإن لموها إلى السواري، فصفحة مياه البحيرة مرآة.....

ويتطور دور المنقول عبر الأثير - والصورة ينقلها الفيلم من جوهانسبرج - والكلام عن اتفاق حول مصادر الطاقة المتجددة عجز فيه المجتمعون بجوهانسبرج في قمة الأرض عن تحديد موعد مباشر أو نسب محددة لاستخدامها، والتعليق الوارد يحسبه على الاتحاد الأوربي، ويؤكد اعتبار

الاتفاق انتصارا لموقف أمريكا والأوبك، ويتعجب المعلق من حال العرب الذين ساندوا هذا الموقف الأمريكي مع أنه يتعارض مع مصالحهم «لو كان العرب يخططون على المدى البعيد، لأدركوا أن الطاقة الشمسية مستوطنة إلى حد كبير جدا في العالم العربي».

طيور البرلس

والشمس كما كانت من أول لقطة في الفيلم.. وعبر كل المشاهد الخارجية.. حاضرة، ومعها الحقائق تتكشف بتصاعد الصراع بين الأطراف الفاعلة، صاحبة المصالح المتعارضة، يرصد الفيلم تفاتها، وتداعياته على حياة أهالي قرية برج البرلس بل وأهل مصر أجمعين ، في لحظة تاريخية فارقة، هي لحظة انعقاد قمة الأرض «البيئة والتنمية المستدامة، جوهانسبرج ٢٠٠٢» ويذكرنا العالم «القصاص» بالاتفاقية الدولية الخاصة بحماية الأراضي الرطبة والمعروفة باسم اتفاقية «رامسار»، تلك التي تلزم الدول الموقعة عليها، ومنها مصر، باعتبار مناطقها الرطبة، ومنها برج البرلس، مناطق محمية، بكل ما فيها من مصادر طبيعية، وتنوع حيوي. ولأن منطقة البرلس في مصر تجتذب مئات الألوف من الطيور، تهاجر إليها من صقيع شمال أوروبا، لاجئة لدفء مياهها تلقي إليه ببيضها، وبعضها يواصل الطيران عابرا إلى السودان وما عداها من دول القلب الإفريقي، ولأن هذه الطيور تعتبر من المكونات الحميمة في التراث الإنساني، فحمايتها - على هذا النحو - لازمة.

هذا ما نطق به الدكتور القصاص على مشاهد رائعة التصوير لأنواع من الطيور موضوع الكلام، وفي هذا، كما في ما عداه على مدى الدقائق الخمس والخمسين التي يستغرقها الفيلم، يصلك إدراك مباشر في استقامة أشعة الشمس والسماء صافية، وهو إدراك في قوة ووضوح وقدرة كشف الشمس لأي ظلمة أو التباس، يفهمنا - بين أمور أخرى - أن الرابطة والمصلحة عضوية بيننا وبين أهل أوربا حتى أقصى الشمال، وكأن الفيلم يرصد رحلة الطيور المهاجرة يدعونا أن نتأمل أحكام الخالق في خلقه ، لعلنا مع التسبيح بالحمد نهتدي.

والروابط العضوية والمصالح بيننا وبين الأوربيين ليست في أحوال صحة الأحياء وسلامة وجودهم ، كما في مثال الطيور المهاجرة وحسب، ولكنها كذلك تتضح مع اقتراب الأخطار، والفيلم ينبهنا إلى تماثل وترابط عضوي آخر، فالفيضانات وارتباكات المناخ التي تعصف بأوربا هي جزء من تغييرات مناخية أشمل، تتكل بفعلها شواطيء المتوسط، وهو في منطقة البرلس لا يهدد دلتا نهر النيل وحدها ، ولكنه يهدد أمن مصر على كل المحاور، والخسائر في أوربا، لها ما يقابلها في مصر، بينما الأثير ينقل بالصورة من جوهانسبرج نص وعود باول التي «لم ترض المدافعين عن البيئة، فيما تمثل الولايات المتحدة العدو الأول لهم» وبالمثل ينقل الأثير الاتهامات الموجهة للولايات المتحدة الأمريكية بالكذب والنفاق حين تدعي

المتفرجة

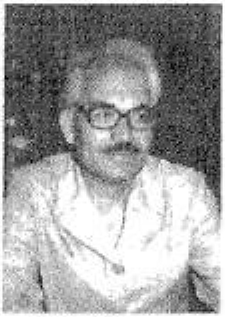
تحمل المسئولية تجاه التغيير المناخي بينما لا تفعل شيئا سوى تخريب بروتوكولات كيوتو.. والكذب والنفاق على المستوى الدولي له ما يعادله أذى وجرماً على المستوى المحلي.. فلقد صارت بحيرة البرلس مصرفا للأراضي التي استصلحت جنوبها على مدى العقدين الماضيين، ولم تسلم من آثار الصرف الصحي فيها، فانسد بوغازها، وإذا أضفنا إلى ذلك آثار عمليات ضبط النيل منذ بناء القناطر الخيرية (١٨١٠)، إلى بناء السد العالي متمثلة فى تضاؤل ما كان يحمله النيل من طمي مع الفيضان، يبنى به الدلتا ويغذى الشطآن بالغرين اللازم لحضانة سمك السردين، فها هى الصورة فى الفيلم تنطق بتبدل أحوال مياه البحيرة وما فيها من سمك ويفهمنا «القصاص» العلامة أن اختفاء السردين وأنواع الجمبرى وغيره من أنواع السمك التى كانت تميز البحيرة، إنما هو نتيجة طبيعية لما سبق شرحه من ممارسات سلبية حرمت البحيرة من تدفق مياه البحر إليها، فعزّ نوال خيراته إلا على أصحاب المراكب الكبيرة القادرة على الصيد فى مواضع فى البحر أبعد بكثير من الشواطىء القريبة من البحيرة التى اعتاد صيادو البرلس ارتيادها، وإذ يصل بنا الفيلم إلى هذه النقطة من تصعيد الدراما، تنقلنا الصورة إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى يلقى فى وجهنا بقنبلته الكاشفة «باعتبارى رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، ومسئولا عن حماية رفاهية وخير المواطنين والقوى العاملة، فإننى لن ألزم دولتى باتفاقية دولية ستؤدى بالملايين من المواطنين إلى البطالة».

وهكذا، وبكل الحذق وإحكام السيطرة على كل أدواته الفنية.. نجد الفيلم يثبت لنا من كلام بوش، كيف أن هذا المنطق الأنانى المتجبر، هو الحاكم المتحكم فى كل ما يحدث فى عالمنا، وعلى كل المستويات، وينطبق الأمر على البرلس، حيث الحيتان الجبارة من كبار الملاك، يسيطرون على الحيازات الكبيرة من البحيرة وتطلق لهم الحرية على مساحات المياه كما على مساحات البوص الحاوى لكل أنواع الحشرات بينما تحكم القبضة على فقراء الصيادين، ينزل بهم العقاب على أصغر مخالفة، مع كونهم فى كل الأحوال مضطرون، على حد شهادة «حمدين صباحى» نائب البرلس فى مجلس الشعب، وفى ظل منطق الهيمنة يشهدنا الفيلم عجز قمة جوهانسبرج عن حل مشكلة حرمان فقراء العالم من الخدمات الصحية والمياه النظيفة، ومعها يشهدنا على حرمان أهالى البرلس من وصول المياه بانتظام، كما يشهدنا على بؤس أحوال الأطفال ومنهم صبيان وبنات يشغلهم خبير الزواحف فى جمع السحالى - نيابة عنه - مقابل عشرة قروش لكل سحلية ، والدلالات فى الموضوع غير خافية.

وتظل الشمس ساطعة ، يأخذك

الفيلم بنورها الكاشف لتلم كل خيوط الحقيقة يغزلها شفيع شلبي بكل حنكة وقد محص ودقق قبل أن يضم كل سداة إلى لحمتها ليخرج نسيجه مضاهيا متانة الكتان، وتكاد نعومته تنافس حرير إخميم ، وهو على طول الخط يدهشنا، ولا عجب، إنه نفس شفيع شلبي الذى أدهش مشاهدي التليفزيون حين بدأ قراءة الأخبار في عام ١٩٧١، وعيناه تخاطبان عيون المشاهدين وكأنه يرتجل، وهو نفس شفيع شلبي صاحب العديد من البرامج التسجيلية غير المسبوقة ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الشارع المصرى، وسينما في علب، وهو الحائز على جائزة أحسن مخرج من المهرجان القومي الرابع عشر للأفلام التسجيلية والقصيرة (١٩٩٠) عن فيلم «تحولات سيوة» ، وهو صاحب قرار العمل مستقلا من خلال مركزه العربي للإنتاج الوثائقي فأنتج - بمشاركة اللجنة الدولية للصليب الأحمر - «يا سلام ع المية» ولبرنامج الأمم المتحدة للسكان أخرج أربعة أفلام تسجيلية أخرى.

ويواصل شفيع شلبي إدهاشنا فنتحير. صحيح أنه أسمى فيلمه «البرلس فى قمة الأرض»، وصحيح أنه ثبت المكان وحدده بالبرلس، كما ثبت الزمان فى وقت انعقاد قمة جوهانسبرج ٢٠٠٢، وصحيح أنه رصد أفعال ومواقف وآراء كل الأطراف ذات الصلة، وصحيح أنه ترصد للبث المسموع والمرئى مكثفا وعينا بلاعبى الأدوار على مسرح الواقع ولم يفلت منه عنصر فاعل



د. محمد عبد الفتاح القصاص

أو رأى معلق، يستوى فى ذلك، الفرنسى إريك لورو، الذى يعرض لنا الفيلم شرحه لإحكام الهيمنة ونص عباراته فى ذلك «لن يهدأ الوضع فى الشرق الأوسط إلا بعد إزاحة نظامين، فإذا أزاحوا العراق، فالخطوة التى يعدونها بعد ذلك هى إزاحة النظام الإيرانى، والهيمنة بذلك تكون كاملة.. الحرب قائمة.. عاجلا كان ذلك أو آجلا...» كما يستوى فيه موقف قبائل الزولو التى نادت فى قمة الأرض باستخدام الطاقة النظيفة والعودة إلى أساليب حياة الأجداد لإنقاذ البيئة من تداعيات التلوث، ولم يكتف الزولو بالكلام وإنما حشدوا - خارج قاعات المؤتمر - حشودا من الراقصين والراقصات فى تأكيد باهر لقيمة الثقافات الأصيلة، يواصلون الرقص والشمس ساطعة ، ينبهنا نورها ومع ذلك نتحير، فهل نسق لنا شفيع شلبى هذه المعزوفة الفيلم لتلم بواقع البرلس وبطل أبطالها «القصاص» العارف بكل مفردات الواقع البيئية والدولية، صاحب الرؤية وعنده مفاتيح الحلول يعرضها فى

أسى، يشرح الواقع المؤلم وينبه لخطر القادم مع فتح الطريق الدولى السريع الموصل من رفح إلى السلوم إلى جبل طارق – مروراً بقرية برج البرلس، لينحبس منا النفس هلعا من الخطر القادم «والقصاص» لا يفقد قدرته على الاحتفاظ بالأمل وإحداث التوازن ولذلك يطفر الدمع من العين حين ينطق الرجل فى آخر الفيلم بالعبارة «إنك أنت.. كان ممكن طبعا الدول توظف وتستفيد من بروز أبنائها.. يعنى .. لكن ده مش بيحصل».

وإذ ينتهى الفيلم يرن فى الذهن السؤال مرة أخرى «أكان الفيلم عن البرلس وبطل أبطالها «القصاص».. أم أن البرلس والقصاص فى الفيلم للإلمام بأبعاد الهيمنة ؟!

وتلك الشمس الحاضرة دوما تضىء كل اللقطات الخارجية، أهى جزء من الوعى بالتشكيل الجمالى للصورة أم أنها حاضرة للتذكير دوما بما نملك من مصادر الطاقة المتجددة وفيها مجمل الحلول؟، أم أن الإشارة إلى القدرة على كشف الظلمة وبيان الحقيقة هى سر حضورها الباهر فى الفيلم؟! ولقد نجح شفيع شلبى فى أن يقدم لنا الفيلم الشمس، ولك يارب فى خلقك شئون وشئون .. يرزق من يشاء بغير حساب» ومن فيض رزقك أن تنعم على عبدك باستقامة الفكر والنفس، تدفع به، إلى كل صعب يستسهله، ويندفع رافعا لواء الحقيقة مهما كانت الأهوال.

بين الشمس والأسرار

ولا أملك هنا إلا المقارنة بإبداع آخر هو كتاب «الأسرار» للبطل الأمريكى دانييل إيلزبرج Daniel Ellsberg الذى يطوف أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام عارضا كتابه Secrets الذى يكشف فيه الأسرار المحيطة بكفاحه لإظهار الحقيقة وكشف أكاذيب الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين حول سير المعارك فى حرب فيتنام قبل ثلاثين سنة.. يلقى صاحب «الأسرار» محاضراته فى كل الولايات المتحدة الأمريكية ويجتمع إلى رأيه مؤيدون من مختلف المشارب والمستويات، ومنهم السيناتور جون كيرى John Kerry المرشح الديمقراطى فى الانتخابات الأمريكية القادمة ، الذى يرى أن شجاعة دانييل إيلزبرج أنقذت حياة كثير من الأمريكيين». فلقد كان دانييل إيلزبرج صاحب الدور الفاصل فى قيادة ثورة الأمريكيين على حرب فيتنام. يحكى صاحب «الأسرار» فى كتابه كيف أنه فى ١٩٧١ قام بمخاطرة انتحارية كادت تكلفه حياته، ذلك حين قام بتسريب وثائق للبنتاجون تقع فى سبعمائة صفحة، وحين عجز عن اقناع الدبلوماسيين بنشر الوثائق لتنبيه الأمة الأمريكية إلى أن رؤساءهم المتعاقبين لا يقولون الحقيقة عما يدور فى معارك فيتنام، وأن كذب القيادات الأمريكية أودى بحياة مليون فيتنامى ومعهم خمسة وخمسون ألف مقاتل أمريكى، لم

يتراجع، بل دفع بالوثائق إلى صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية يفضح كتاب «الأسرار» مؤامرات نيكسون للقضاء على دانييل إيلزبرج وكيف طلب رئيس الولايات المتحدة من وزير خارجيته كيسنجر أن يترك الصحافة تحاكمه معلنا ضرورة تدمير الرجل، وكيف تصاعدت المؤامرات لتصل إلى شراء ذمة القاضي بوعده برياسة الشرطة الفيدرالية FBI ، وفي المحكمة يواجه إيلزبرج باثنتي عشرة جريمة يصل مجمل الأحكام فيها إلى السجن لمائة وخمس عشرة سنة، لكن «من يتق الله يجعل له مخرجا». فبرغم ألوان العذاب التي ذاقها إيلزبرج ومنها هجوم البلطجية عليه وضربه حتى كسر عظام ساقه، ورغم قيام لصي واترجيت الشهيرين «جوردون ليدي Gordon Liddy» وهوارد هنت Howard Hunt» بسرقة الأوراق الخاصة من مكتب المحلل النفسي لدانييل إيلزبرج، بتصريح مباشر من القيادة الأمريكية، إذ كانت بغية «نيكسون» أن يجد في الأوراق ما يفضح إيلزبرج فتسقط عنه المصداقية فلا يجد مخرجا سوى الانتحار.. وحين تقرأ ذلك في كتاب الأسرار لا تملك إلا تذكر قوله تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا» فقد انكشف أمر الوعد الرشوة للقاضي الذي يضطر للتنحى عن المحاكمة، ليطلق سراح إيلزبرج وقد أصبحت المستندات البنتاجونية التي قام بتسريبها هي أقوى المعاول المنهية لحرب فيتنام ومعها استقالة نيكسون ، ونزوله المهين من على مقعد رياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

أما اندفاع إيلزبرج المحموم هذه الأيام لترويج كتابه «الأسرار» فلأنه يعتقد أن التاريخ أعاد نفسه، وأن الأمريكيين يجب أن يعرفوا حقيقة دوافع قيادتهم لضرب العراق، فهي كما يؤكد من أجل «البترول والبترول ثم البترول» وليس من أجل الديمقراطية المزعومة.. ويرى إيلزبرج أن الإقدام على المخاطرة مطلوب لإنقاذ العالم، وهو يستحث العارفين بحقائق الأمور أن يكشفوا كذب قياداتهم وهو القائل «لا أستطيع أن أتصور إنساناً، كائنا من كان، يستطيع التزام الصمت عما يعرف أنه خطأ». ويلاحظ إيلزبرج أن الأخبار المتسربة عن أسرار الاستعدادات لضرب العراق ذات مغزى مهم، ألا وهو أن المقاتلين الأمريكيين غير راغبين في الحرب ولذلك فهم أنفسهم الذين يقومون بتسريب الأخبار ، كما يؤكد دانييل إيلزبرج (في أمر ضرب العراق) وكلامه منشور في صحيفة الجارديان ويكلي عدد ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٢ - ما نصه «إنني أعتقد أن رامسفيلد وشيني وفولفوتيز يستخدمون جنودنا كطعم».

فاللهم يا أرحم الراحمين ، وأنت الخالق من عبادك من يحملون شموسهم ، يسلطونها على كل زيف تفضحه ، اللهم أشدد أزرهم فلا يسرى لقلوبهم خوف أو جزع ، اللهم انصرهم. وأسبغ عليهم في الاستبسال في الحق المخرج. ■

جـــولــة



قراءة التاريخ - الفنان حسين يوسف

بقلم
عزالدين نجيب

الأسابيع المفصلية بين عامى ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣ كانت فترة متوهجة بأضواء المعارض التشكيلية بالقاهرة والاسكندرية، بين معارض جماعية أو فردية أو استعادية لمسيرة فنانين راسخى الأقدام أو معارض حداثية لفنانين شباب يبحثون عن مكان تحت الشمس، أو معارض تقدم اكتشافات لتراث فنانين راحلين مجهولين.. ولعلها فترة توهج معتادة وسط الحياة التشكيلية فى مثل هذا الوقت من كل عام



لعبة الأطواق – عبد الفتاح البدري



الذاكرة الآثمة – ضياء العزاوي

كأنها موسم الإخصاب الذي يتم خلاله التزاحم والتلاقح الإبداعي بين شتي الأجيال والاتجاهات الفنية ... لكن المحزن هو أن الموسم ينتهي عادة بأجنة ميتة أو عليلة، ليس فقط لضعف في جينات الإبداع الوراثية من جيل إلي جيل، بل أساسا لجفاف البيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة وعدم صلاحيتها كحضانة صحية تنمو فيها الأجنة وتتفاعل مع تيار الحياة، محدثة حركة جدلية تتخلق من خلالها التيارات الفنية والنقدية !

هكذا تمر هذه المعارض بحياتنا مر الكرام، ونادرا ما تثير حولها جدلا أو تشكل تراكما يؤدى إلى متغيرات كيفية، بل هى أقرب إلى التجاور الفسيفسائى لقطع صغيرة ملونة بشتى الألوان، لاتصل إلى تأليف هارمونى أو درامى للوحة متكاملة، حتى لوحظيت كل قطعة على حدة بتميز أو فرادة .

● رسالة بغداد للقاهرة

غير أن ثمة لوحة فسيفسائية مختلفة أتت إلى القاهرة أواخر ديسمبر الماضى من العراق الشقيق، تتمثل فى معرض لعشرة من فنانيه البارزين، أقيم بقصر الفنون بالأوبرا، كرسالة حضارية من شعب تحت الحصار والتهديد المستمر بالإبادة على مدى اثنى عشر عاما متصلة، تؤكد أنه مازال قويا صامدا مبدعا لقيم الجمال والسلام، ومواصلا لدوره التاريخى الريادى فى بناء الحضارة وإضاءة الإنسانية وهكذا نراهم – فى النهاية – فوق الحصار !

فى هذه اللوحة ذات الألوان والاتجاهات الفنية المتنوعة، لانسمع صوتا للحرب أو صيحة للنزال والتحدى

للهمجية الإمبريالية، أو نهنهة للنحيب، أو استدرارا للمساعدة، كما قد يتوقع البعض، بل نستشف انعكاسا دراميا مكتوما ومغلفا بحس درامي أو شعرى هامس وشامخ بالكبرياء فهنا جدار مخضب بنشع الدم وآثار القصف لكنه موشّى بكتابات الأطفال المعبرة عن الاصرار .. كل ذلك بأسلوب تعبيرى مجرد (مثل شاكر حسن) ، وهنا بناء حجرى شاهق يحاصر أنفاس الانسان لكنه يتطاول حتى يشق الجدار، ويتحقق ذلك بأسلوب ملحمي سريالى (مثل سعدى الكعبى)، وهنا أرض مشققة كأثر بركان أو زلزال لكنها تتماسك وتتلاحم من جديد، رغم أننا لانرى إلاّ أشكالا تجريدية (مثل على الجابرى)، وتلك أصابع بشرية تنبثق مشرعة من تحت الأنقاض فى أسلوب تكعيبى، إيماء للمقاومة لا للتسليم (مثل ضياء العزاوى)، وذلك صرح هندسى تتوالى فيه العلامات التجريدية والرمزية موحية بمعنى الاستشهاد (مثل رافع الناصرى)، وهناك فتيات كاعبات يحلقن فوق مبان اسطورية ذات قباب كحلم بغدادى بالحب والخصوبة (مثل لوحات نورى الراوى)، تلك تصميمات مجردة تعكس توتر حركة التنفس المرتعشة فى الصدور (مثل علي طالب)، أو تعكس انطلاق الشهب والأطياف القزحية فى الفضاء (مثل سالم الدباغ)، وذاك تمزق الحلم الفلسطيني بين أطراف متنازعة تحت سماء مظلمة تخترقها خيوط مجهولة وأرض دموية يدور فوقها الصراع (مثل علاء بشير) .

لقد ابتعدت اللوحة العراقية المعاصرة عن لغة الخطاب المباشر، مضحية بالتأثير الآنى الذى تحدثه الشعارات والتوظيف الرسمي للفن فى خدمة القضايا، وذلك لصالح التأصيل الأعمق والتأثير الأبعد مدى للقيمة الرمزية بعد صهرها فى قالب جمالى يتوافق مع لغة الفن فى العصر الحديث . فتصبح اللوحة بذلك أقدر على التواصل الإنسانى فى أى مكان من العالم، مؤكدة مشروعية هذا الابداع وأصحابه فى البقاء والانتصار، وإن كان الأمر محفوفا بخطر اقتصار التواصل المحلّى مع هذا الإبداع على النخبة المثقفة تشكيليا والقادرة على استيعاب الأساليب الفنية النائية عن المباشرة والمحاكاة والزينة، فى ظل ظروف العزلة والقطيعة بين شعوبنا العربية وتيارات الفن الحديث..

● اكتشاف كنزين :

حدثان فنيان مهمان انطلقا بالقاهرة خلال يناير الماضى، كانا بمثابة شق فى جدار الصمت والاهمال الذى حاصر إبداع فنانين غابا عن عالمنا منذ سنوات بعيدة، حتى بدا المعرضان اللذان أقيما لأعمالها مثل اكتشاف لكنزين !

● الأول للفنانة زهرة أفلاطون (بضم الزين)، وهى الأخت الصغرى للفنانة الكبيرة الراحلة إنجى أفلاطون، وقد لقيت زهرة مصرعها فى حادث بطريق القاهرة الاسكندرية عام ١٩٧٨ مع



ابنتها وزوجها وهي في الثانية والأربعين من عمرها، بعد أن أقامت معرضا واحدا للوحاتها بالاسكندرية عام ١٩٧١ ، وكانت قد تتلمذت بمرسم الفنانين الكبيرين أدهم وسيف وانلي ، وجاء معرضها الذى نظمته قاعة سفرخان بالزمالك مفاجأة مدهشة ، بما يحمله من مسحة شاعرية ونورانية مضيئة ، ومن تمكن تقني ومقدرة على إعادة صياغة الطبيعة والواقع بحس ذاتي لا يحاكيهما وإن بقى حضورهما الظاهرى.

ثمة نزعة إنسانية عميقة في لوحاتها ، تتجلى فى حدبها على الفئات الهامشية المتواضعة فى المجتمع : خادمة.. فتاة نوبية.. كمسارى أو ساعي.. موظف صغير ويتضح تعاطفها معهم خاصة من خلال وجوههم المغلقة بمسحة عميقة من المشاعر : بين الشموخ والانكسار بين العذوبة والحزن، بين الأنوثة والاستكانة لكنها فى مجملها تضفى على الجورقة وعذوبة أنثوية .

وتتميز زهرة بخطوطها الموجزة ولمساتها الجريئة وألوانها الصريحة من خلال مساحات واسعة تشع بوهج الضوء الذى ينبع من ذات الفنانة، أو من ذات الشخصية التي تصورها، أو من داخل التكوين الفنى للوحة. إن الأبيض لديها ليس فراغا خاليا من الحياة والعمق وليس نقيضا مضادا للون الأسود، أو خلفية لإبراز الخطوط والألوان الأخرى، بل هو لون عميق غنى بطبقات من الدرجات الشفافة والهامشة، من الوردية والفيروزية والبنفسجية والسماوية، إنه فضاء منسوج بألوان الحلم والحنان والحنين، يحتوى الأشخاص والكائنات بنورانية آسرة، ويضفى على مشاهد الطبيعة ذلك النبض المرتعش في غموض، وكأنك تراها من خلف ستارة من الدنتلا .

● أما المعرض الثانى فكان للفنان الراحل حسين محمد يوسف (١٩١٠-١٩٧٥) بقاعة إبداع بالمهندسين، وقد دأبت هذه القاعة على تقديم قراءات جديدة لبعض الرواد فى الحركة الفنية عبر أعمالهم المنسية أو المجهولة .. وهنا قدمت فنانا ذا أستاذية لافتة جرفه النسيان تماما، ومن الغريب أنه - هو نفسه - ساهم فى ذلك بتوقفه العمدى عن ممارسة الفن بقرار لا رجعة فيه وهو فى أوج عطائه فى سن السابعة والعشرين، بعد عشر سنوات من الإبداع، لأسباب لاتزال غامضة (وإن كان كتالوج المعرض يفسر ذلك بتفرغه للتدريس بكلية الفنون التطبيقية والعمل السياسى) وهو تبرير غير مقنع !.

أعمال حسين يوسف تنتمى إلى الكلاسيكية العائدة، تمتزج فى لوحاته أساليب رواد عصر النهضة الإيطالية وأساليب الفنانين الفرنسيين دافيد وآنجر وأساليب المستشرقين الأوروبيين فى مصر والشرق إنه يملك درجة عالية من التمكن الحرفى فى تصوير الوجوه والنسب والأجواء الطبيعية المحيطة برصانة لا تجارى نسبة لأقرانه من



الفنان
سى رفقى

المصريين الدارسين بإيطاليا، حيث سافر إلى روما عام ١٩٢٨ في بعثة دراسية لفن التصوير بعد حصوله على دبلوم مدرسة الفنون والزخارف بمصر، وأتم دراسته بإيطاليا عام ٣٢ بمعرض أقامه لأعماله بمدينة روما أشاد به النقاد في الصحافة الايطالية، وعقب عودته إلى مصر أرسل في بعثة أخرى إلى لندن بكلية الفنون الملكية، وبقي يدرس فيها حتى عام ١٩٣٥ وعاد إلى مصر بعد أن أقام معرضه الثاني بالنادي المصري بلندن، وفي القاهرة أقام معرضه الثالث والأخير بنادي الفنون والصنايع، وبعده أعلن توقفه الدراماتيكي عن ممارسة الفن!

وبالرغم من غلبة الطابع الأوروبي على لوحاته الزيتية والخطية- موضوعا ومعالجة إلا أن الإضاءة فيها ذات حس شرقي أخاذ، إذ تبدو وكأنها إضاءة (مفلترة) أو كأنها قبس داخلي يشع على وجوه فيكسبها نوعا من القداسة والغموض، كما تبدو لمساته الحية المتدفقة باللون سكونية تكويناته وتخلع عنها عباءة الجمود الكلاسيكي.

وسواء اتفقنا أو اختلفنا مع أسلوبه أو حول ملاءمته لهذا العصر، فإن أعماله صارت جزءا من ذاكرة حركتنا الفنية وإضافة إليها، بما يجعلها جديرة بأن توضع في مصاف أعمال الرواد تحت دائرة الضوء.

● البدري .. ومتتاليته الشعبية

مثلما يتغنى الشاعر الشعبي بالسير والمواويل ويشارك الشعب احتفاله بالحياة فإن الفنان عبد الفتاح البدري - ابن أسوان الذي درس الفن بالقاهرة وعاش متنقلا بينها وبين مسقط رأسه - جعل رسالته التشكيلية هي التغني بحياة الفلاحين البسطاء في أفراحهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكأنما ينسج لنا بالفرشاة والألوان موالا صامتا، لكنه صاخب بالحياة.

وفي معرضه الجديد بقاعة أرابيسك بشارع قصر النيل طوال يناير الماضي، قدم مجموعة متنوعة من رحلته الفنية الخصبة، يمثل النيل عنصر الاستمرار فيها، بما يمتد على شاطئيه من بيوت، اتخذت سماتها من معابد مصر القديمة وعمارة النوبة المتوارثة، وكذلك من العمارة الاسلامية تتناثر فتحات أبوابها ونوافذها كالعيون الساهرة، وتتوزع الخطوط والألوان فوق جدرانها في إيقاع رشيق، كأنما تكتسي ثيابا مزركشة، وتتهادى القوارب راقصة في انتظار ركابها، أو حاملة العابرين إلى الشاطئ الآخر، أو الصيادين الساعين إلى رزقهم

في كل لوحاته احتفال بالحياة، مثل ألعاب الأطفال البريئة وهم يصنعون بأجسامهم قطاراً أو دائرة، أو وهم يسابقون الريح بأطواقهم، كما تمتلئ لوحاته بمشاهد أفراح الزفاف وجلسات السمر في الساحات وأمام المنازل وحول العازفين الشعبيين.

لكن أكثر ما يستهويه هو رقصات

التـحطيب، التى تجـمـع بين القـوة والرشاقة، بينما تتحلق الجموع حول الفارسين المتبارزين وهما يتقاطعان ويتوازيان ويتباعدان ويتقاربان، وتتطاير فى الهواء ملابسهما الفضفاضة موحية بحركة عنيفة أو راقصة، لكنها فى كل الحالات تتسم بالرشاقة والخفة .

وللفنان اهتمام خاص بعنصرى الضوء والظل، ليس بمفهوم التجسيم الاسطوانى للأشكال، بل بتأكيد الظلال المنعكسة عن الأجسام على الأرض أمامها أو خلفها والناتجة عن مصدر ضوئى قوى، فتشكل ثنائية العنصر وظله والحوارية البصرية بينهما، إلا أن تأثيرها يتعدى المعنى الواقعى المباشر للضوء، إلى المعنى الرمزى لطاقة النور، إذ تتفتح فى الصدور أملا وإشراقا، وتعكس درجات عليا من الحس الروحانى الشفيف .

بندنات مى

● ميلاد فنانة جديدة موهوبة حدث ثقافى مهم ، يتبارى النقاد وأجهزة الاعلام فى تسليط الضوء عليه وتتبع أعماله بل والمراهنة على مستقبله .. وهذا فى البلاد المتقدمة وليس فى مصر على أية حال !.. وفى قاعة خان المغربى أقيم مع أول أيام العام الجديد معرض للفنانة الشابة مى رفقى (من مواليد القاهرة ١٩٧٦ وخريجة كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ١٩٩٨) يجعلنا نقف أمامه بانتباه وترقب لما تفيض به موهبتها اللافتة، التى استطاعت أن توظفها بخبرة تقنية لتحقيق حالة خاصة أشبه بدندنات العود، ما يحيلك إلى جو المخطوطات العربية والفارسية بمنمناتها الدقيقة وزخارفها المعقدة، لكنك تكتشف بعد قليل أن ذلك ليس إلا خدعة بصرية، فهى فى الحقيقة تشكل بناء جماليا معاصرا، بكل علاقاته البصرية المجردة وانتقالاته الايقاعية المتجاوزة لصورة الواقع وصورة التراث معا، محافظة - فى الوقت ذاته - على تلك النكهة الشرقية والتطريب الخطى واللونى المتوازن والمتكرر، بتلك الهندسية العقلانية فى اللعب بالخطوط والمنمنمات الزخرفية والشرائط اللونية المتجاورة أو المتقابلة .

إنها تضع لوحتها داخل القالب التقليدى الساكن استنادا إلى الجمالية العربية ثم تتمرد عليها فى ذات الوقت، وتصور مشخصاتها الحية بأسلوب واقعى مجسم ثم تحيط بجو من التجريدات الزخرفية المسطحة والمتعارضة مع منهج «التصوير» .. هذه المفارقات تبدو للعين العابرة تنافرا، لكنها فى الحقيقة سر جاذبية أعمال مى رفقى وجرأتها ، كما تفتح أمامها طريق التواصل السلس أمام ذائقة الجمهور بمختلف مستوياته وليس للمثقفين وحدهم، بشرط أن تعى الفارق الدقيق بين فن العامة والفن الرفيع، وتحذر من التقولب فى قالب نمطى قد يستحسنه الجمهور، الأمر الذى يحتم عليها مداومة البحث والتجريب، والاسترشاد بتجارب عديدة سابقة - عربية ودولية - حاولت الجمع بين هذه المتناقضات . ■

قصة مجلة

الكاتب

كاملة

صدرت «الكاتب» فى حقبة واكبت أفكار عبد الناصر عن الاشتراكية والديمقراطية والوحدة العربية

بقلم
أحمد عباس صالح

كانت مبادئ ثورة ٢٣ يوليو الستة عامة وبدون تفاصيل ومن الصعب اعتبارها برنامجا سياسيا ولعله لهذا السبب انفتح الطريق أمام نمو وتركيب برنامج سياسى يتوالد من خلال الممارسة اليومية وتفاعلاتها مع المجتمع ومع القوى الخارجية. وراوحت اتجاهات الثورة ما بين اليمين المحافظ واليسار بدرجاته المختلفة. والتأثيرات التى أدت إلى تغيير الاتجاهات تنتمى إلى عدة مصادر منها الصراع بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى تبلور بصفة خاصة بين عبدالحكيم عامر وبين جمال عبدالناصر والذى بلغ الذروة عندما تقدم عبدالحكيم عامر باستقالة مسببة واعتصم فى بيته ومعه قواد الجيش مما دفع عبدالناصر إلى الذهاب اليهم والاتفاق على مصالحة توسعت فيها اختصاصات المشير عامر بالنسبة للجيش. وفى هذا الصراع تحجج المشير بمطالب ديمقراطية ومن الوجهة النظرية كان على حق إذ تطورت الأمور منذ بدء الثورة فى سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٢ حيث توسعت سلطات جمال عبدالناصر بشكل متواصل على حساب زملائه الآخرين وفى السنة الأخيرة قرر المشير عامر تقديم استقالته لعدة أسباب من بينها الافتقار إلى الديمقراطية.

وربما كان ضعف صلة عبدالناصر بالجيش وقواده بسبب محاولة المشير عامر السيطرة المطلقة عليه هو المسئول عن التفات عبدالناصر إلى الشعب وكسب ثقته وبالتالي الاعتماد على تأييده عند حدوث أى اشتباك بسبب النزاع على السلطة. وقبل صدور قرارات التأميم الاشتراكية كنت أعرف - لصدفة ما - أن الجيش ينوى الانقلاب على عبدالناصر لصالح هيمنة عبدالحكيم عامر أو على الأقل كانت الأحاديث تجرى بين أنصار المشير حول وجوب اتخاذ خطوة عملية ضد انفراد عبدالناصر بالسلطة.

ومنذ سنة ١٩٦٠ والتوتر كان سائدا بين الطرفين وكانت الديمقراطية هى حجة المشير وأنصاره وعندما بلغ الصدام ذروته باستقالة المشير أعلن جمال عبدالناصر القرارات الاشتراكية فسيطر تماما على عواطف الشعب وعلى الأجنحة التقدمية بين المثقفين، وكانت أحلام الاشتراكية تدور فى أذهان الشعب المصرى منذ أيام الحكم الملكى وكانت من قبيل الأمنيات، ولذلك عندما أعلن عبدالناصر قراراته الاشتراكية سحب البساط من تحت أقدام جميع معارضيه أو منافسيه وأحس الناس أنهم مقبلون على عصر جديد توزع فيه الثروة توزيعا عادلا وبالفعل حسمت هذه القرارات النزاع بين المشير وبين عبدالناصر فضلا عن معارضات الآخرين من بين أعضاء مجلس الثورة وصار فى استطاعته أن يصفى أى قوة معارضة وهو الأمر الذى ظل معه حتى تمرد المشير الأخير بعد هزائم حرب سنة ١٩٦٧ والذى انتهى بانتحاره.

هناك مصادر أخرى مؤثرة فى تكوين البرنامج السياسى لجمال عبدالناصر والذى راح يتكون بواسطة أفعال وقرارات لعل من أهمها تحالفه الوثيق مع الاتحاد السوفيتى بعد سحب الولايات المتحدة لقرار تمويل مشروع السد العالى. وفى بدايات سنة ١٩٦٤ أفرج جمال عبدالناصر عن اليساريين المعتقلين وفكر فى إنشاء التنظيم الطليعى الذى اعتبره مدرسة الكادر داخل الاتحاد الاشتراكى واعتمد عليه إلى حد ما فى شغل بعض المراكز الحساسة.

الهجوم على التجربة الناصرية

على أن عبدالناصر كان منذ سنواته الأولى يتمتع بحس برجماتى ولم تكن الايديولوجية تستهويه وكان مطلعا على كتابات كارل بوبر ولعل أهم ما أثر فيه هو نفور بوبر من الايديولوجية وصياغته المقنعة لنظرية التجربة والخطأ التى راحت تظهر كثيرا فى خطابات جمال عبدالناصر وربما كان هذا هو السر وراء رفض عبدالناصر للاستسلام الحرفى للنظرية الماركسية التى كانت سائدة وسط المثقفين المصريين وهكذا نشأت اشتراكيات متعددة وانفتح المجال للتيارات المختلفة أن تجتهد فى صياغة نوع ما من الفكر الايديولوجى المنسوب إلى الاشتراكية على أنه من الناحية الأخرى بدأت الخلافات الفكرية على مستوى العالم العربى كله وبدأ الهجوم على

التجربة الناصرية من نقطتها الضعيفة وهي الديمقراطية وشحذت الأجهزة الأمريكية قواها فأنشأت مجموعة من المجلات تحارب هذه الأفكار كان منها مجلة حوار في العالم العربي فضلا عن دور نشر خاصة مثل مشروع فرانكلين وبالفعل أصبحت القاهرة ساحة للجدل الايديولوجي الذي تشترك فيها الدولتان العظميان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وكنت ومجموعة من الكتاب المصريين مثل محمد عودة وأحمد بهاء الدين ومحمد أنيس وكامل زهيري ويوسف ادريس وشكري عياد وغيرهم نشعر بأن تحديث المجتمع المصري وتطويره ينبغي ألا يتقيد حرفيا بأي ايديولوجية وكان في الماركسية الكثير مما يثير القلق مثل ديكتاتورية البروليتاريا وحزبها الواحد والحتميات الجازمة المختلفة بما فيها قوانين التطور الاجتماعي وكان أغلب أعضاء هذه المجموعة من الكتاب مؤمنا أيضا بالوحدة العربية باعتبارها الجامعة التي تربط أبناء العالم العربي والتي يصعب عمل أي تنمية اجتماعية دون توحيد هذه القوى فضلا عن المواجهة مع المشروع الصهيوني الذي تحقق في شكل قيام الدولة الاسرائيلية.

وبالفعل بدا أن سنة ١٩٦٢ بداية لعهد جديد ولأسباب كثيرة أصبحنا نرى أن الحكم العسكري بقيادة جمال عبدالناصر يتمتع بمرونة واسعة وقابلية للتطور وأنه يتوجه شيئا فشيئا إلى المفاهيم والأفعال الاشتراكية، وسواء كان هذا استجابة لرغبات الاصلاح الكامنة في عقل قيادة الثورة أو كان أحد أساليب الصراع ضد المنافسين أو لاستجلاب التحالفات السياسية على المستوى الدولي أو لهذه الأسباب جميعا فإن النتيجة هي تحولات أساسية لصلحة الشعب وقطاعاته الضعيفة بصفة خاصة.

مشروع إصدار مجلة الكاتب

في هذه الفترة كنت أعمل في جريدة الجمهورية وفوجئت بتعيين كمال الدين الحناوي رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة دار التحرير التي تصدر عنها جريدة الجمهورية وكنت أعرف الحناوي حتى قبيل الثورة وكان من الضباط الأحرار ويحسب على اليسار المصري وكان شاعرا ومترجما تشارك مع ثروت عكاشة في الكثير من الأنشطة الثقافية قبل الثورة وعندما جلسنا نناقش الأوضاع في مؤسسة التحرير صارحني بالمشاكل التي ورثها عن سابقيه مثل ضعف توزيع بعض منشورات الدار بما فيها جريدة الجمهورية ذاتها وكان قد قرر إغلاق مجلة الكاتب التي كانت قد صدرت منذ سنتين أو ثلاث وأشرف على تحريرها لويس عوض ومحمد مندور اللذان كانا من كتاب جريدة الجمهورية، لكنها بدأت تتدهور بعد انتقال لويس عوض إلى جريدة الأهرام ووفاة محمد مندور بعد ذلك وخرجنا من هذا الاجتماع بخطة كاملة لإصلاح الأوضاع في منشورات الدار وإضافة مشروعات جديدة وأذكر أنني سألت الحناوي



جمال عبد الناصر



محمد حسنين هيكل

الذى كـان يتـمـتع بحس فكاهى رائع: هل أنت باق فى منصبك الفترة المعقولة لانجاز هذه التعديلات؟ فقال ضاحكا: أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا. وبالفعل بدأنا نعد الدراسات للمشروعات المختلفة إذ كان تنفيذ أى خطة يحتاج إلى موافقة الرئيس جمال عبدالناصر نفسه وأذكر أننى كتبت مشروع إصدار الكاتب واشتركت فى كتابة مشروع جريدة الجمهورية مع كامل زهيرى وكتب محمد عودة تقرير مشروع إصدار مجلة أسبوعية كما اشترك نعمان عاشور مع محى الدين اللباد الفنان التشكيلى فى كتابة تقرير إنشاء مجلة للأطفال بعنوان كروان وكذلك فعل الكاتب عبدالعزيز فهمى فى كتابة خطة إصدار سلاسل الكتب التى ستصدر عن الدار بعد قليل جاءتنا الموافقة على إصدار الكاتب فى صورتها الجديدة وكذلك بالنسبة لمجلة كروان ولم تأت الموافقة بعد على مشروع تجديد جريدة الجمهورية ومشروع المجلة الأسبوعية وكنا قد بذلنا جهدا كبيرا أنا وكامل زهيرى فى خطة تجديد جريدة الجمهورية ولعلنا تطوعنا فى إعطاء تصور عما يجب أن تكون عليه الصحف القومية تفاديا للتكرار وسعيا إلى تميز كل صحيفة عن الأخرى وكان لدينا اقتراحات عديدة بالنسبة لبناء أقسام جديدة مثل مركز للدراسات وللعلاقات الثقافية بين جريدة الجمهورية وكتاب من مختلف أرجاء العالم يمثلون الفكر الاشتراكى بدرجاته المختلفة وكانت الاشتراكية لدينا تتسع لكل درجاتها وبعيدة تماما عن الاختناق العقائدى الذى كان يحصر الاشتراكية فى اتجاه واحد أو اعتقاد واحد وحين طال انتظارنا سألت الحناوى أن يحصل على إجابة من الرئيس جمال عبدالناصر وجاءنا ذات يوم ضاحكا وقال أن الرئيس قال له أنه أعطى التقرير لمحمد حسنين هيكل الذى كان قد تسلم رئاسة التحرير فى جريدة الأهرام وأن الرئيس قال هذا القول ضاحكا.

وعقب الحناوى قائلا: وكان رسول الله يمزح ولا يقول إلا جادا. وهو قول شائع فى أدبيات الحديث النبوى.

صدر العدد الأول من مجلة الكاتب بصورتها الجديدة فى يناير سنة ١٩٦٤ وحققت نجاحا مثيرا إذ تم توزيع كل المطبوع منها تقريبا مما دفعنا بعد ذلك إلى زيادة النسخ المطبوعة على أنه لم يمض إلا قليل من الوقت حتى عين كمال الحناوى وزير دولة وعضوا متفرغا فى مجلس الرئاسة المشترك مع العراق، وكان من ذيول

الخلاف بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر أن خصصت الجمهورية ودار التحرير بشكل عام للمشير عامر الذى عين شخصا من اتباعه سرعان ما فصل أكثر من ثلاثين كاتبا من كتاب الجمهورية وأغلبهم من الأسماء اللامعة على أن هذا الشخص لم يستطع أن ينتزع مجلة الكاتب من المجموعة التى تصدرها إذ أمكن إخراج المجلة من دار التحرير دون أن تنتسب لأى مؤسسة صحفية أو ثقافية ودون أى تمويل مما جعلنا نعتمد على التمويل الذاتى من الاعلانات بصفة خاصة ولم يكن الأمر سهلا على الرغم من أن كمال الدين رفعت وهو سياسى ومثقف من الضباط الأحرار وأحد المسئولين الكبار كان ضمن أعضاء مجلس التحرير منذ إصدارها وكان مثل سائر الأعضاء يحسب على اليسار المصرى الذى كان له بعد وجدوى، على أن كلا من المرتبطين بالمجلة استخدم علاقاته الشخصية فى تحصيل عقود اعلانات كافية لإصدار المجلة وأذكر أننا ظللنا نصدرها لمدة ثلاثة عشر شهرا دون أى مكافآت للتحرير وعندما عرضت علينا وزارة الثقافة أن ننضم إليها رحبنا بسبب الانهاك الاقتصادى الذى عانينا منه. فحتى توزيع الحصص الاعلانية على الصحف كان يمضى وفق نظام مركزى معين ولولا الصلات الخاصة التى كانت تربطنا ببعض رؤساء مجالس إدارة الشركات العامة لعجزنا بشكل كامل عن تمويل مجرد إصدار المجلة.

تحديث مصر

وعندما اتذكر هذه الفترة المشحونة بالعديد من الاحتمالات أعجب للحماسة الشديدة التى كانت مسيطرة علينا لإصدار المجلة والواقع أن المجتمع المصرى لم يكن مستقرا على رأى. نعم كانت هناك خطوط عامة لمشروع قومى ترتكز فكرته على التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتحديث مصر بشكل عام إلى جانب فكرة الوحدة العربية وإقامة دولة الوحدة الكبرى وكانت قابلية النظام للتجاوب مع الأفكار أو المؤثرات الاجتماعية المختلفة حافزا للكثير من القوى الاجتماعية أن تجاهد من أجل توصيل فكرها للقيادة المتنفذة وللشعب بطبيعة الحال ومنذ وقت مبكر أدركت هذه القيادة أن منابر الرأى والميديا بشكل عام ينبغى أن تحتوى على كل الأفكار ومع أنه كان من الممكن تمييز جريدة أو مجلة عن أخرى من حيث الاتجاه أو التصنيف السياسى إلا أنها جميعا كانت تحتوى على غالبية الاتجاهات الموجودة فى المجتمع ربما كان هذا هو السبب وراء إصرار التيارات الفكرية المختلفة على الوجود والصراع مع التيارات الأخرى المتعارضة معها بما فى ذلك كل أشكال الصراع التى تستهدف أبعاد المختلفين ولعل النظام اكتشف أن تعدد الآراء ووجودها فى المجال الاعلامى هو تعويض عن عدم وجود الأحزاب ولعل هذا كان وراء التعددية التى اشتمل عليها الاتحاد الاشتراكى مثل الفلاحين والعمال والمثقفين والرأسمالية الوطنية وكان كل من هذه التيارات يجاهد فى

أن يؤثر برأيه على السلطة القيادية التي كانت تملك تمويل الأفكار والمقترحات إلى واقع فعلي وفي هذه الفترة كان اليسار يعتقد مثلا أن السلطة أقرب إلى محاباة اليمين بينما كان اليمين يعتقد أن مصر تحولت إلى دولة شيوعية وكان المثقفون المصريون على أية حال يعتقدون أنهم يخوضون معارك مقدسة من أجل تصويب الاتجاه فى السلطة التنفيذية فى مصر، سواء جاء ذلك من اليمين أو من الوسط أو من اليسار ولم يكن هذا الأسلوب الانتقائى يرضى التيارات المختلفة على أنه لم يغلق الباب أمام احتمالات الأخذ برأى هذا الاتجاه أو ذاك.



د. شكرى عياد

وكان من عادة جمال عبدالناصر منذ الأيام الأولى للثورة أن يكلف من يعتقد أنه متخصص فى موضوعه بصياغة لمشروع كان يفكر فيه، وقد فعل ذلك مثلا فى مشروع قانون الاصلاح الزراعى الأول، إذ طلب من المناضل الوفدى ابراهيم طلعت أن يكتب هذا المشروع (حسب ما ذكر ابراهيم طلعت فى المذكرات التى نشرتها له دار الهلال) وينطبق هذا على الكثير من المواثيق التى صدرت بعد ذلك وفى هذه الفترة كان يفكر فى إنشاء معهد للدراسات الاشتراكية يتبع الاتحاد الاشتراكى وكالعادة فكر فى تكليف أكثر من مجموعة من المثقفين المحيطين به بوضع برنامج الدراسة لهذا المعهد وكنت ومحمد أنيس مع كمال رفعت من بين من كلفوا بوضع هذا البرنامج وبالفعل وضعنا برنامجا يتمشى مع أفكارنا الأقرب إلى الاشتراكية الديمقراطية مع التنظير الذى اتبعناه فى الكاتب خاصا بفكرة الوحدة العربية التى لم تؤسس على الفكر القومى التقليدى الذى يهدف إلى توسيع رقعة الدولة أمام النشاط الرأسمالى وكنا نظن أننا أقرب إلى فكر جمال عبدالناصر على أن المشروع الذى اجازه عبدالناصر كان من وضع مجموعة أخرى كان من بينها ابراهيم سعد الدين استاذ الاقتصاد والذى كان ماركسيا بشكل كامل وبالتالى جاء برنامجه غير مختلف عن أى برنامج يوضع لكوادر حزب ماركسى وبالفعل عين سعدالدين عميدا لهذا المعهد الذى ضم العددين من الأساتذة بمختلف تخصصاتهم ومنهم كتاب الكاتب أيضا على أن الغريب أن قبول الطلبة لم يكن خالصا للجنة القبول بالمعهد بل كثيرا ما كان يفرض الطالب على المعهد وكنت فى أحيان كثيرة تجد بعض الطلبة وقد جاءوا إلى المعهد خصيصا ليحاجوا الأساتذة أكثر من قدومهم لتلقى دراسات فى المبادئ الاشتراكية وهى ظاهرة كانت بارزة فى كل شئ فعندما أممت الشركات وضع على

رأسها رجال لا يؤمنون بالاقتصاد الموجه وبالتالي يرفضون النظام الاشتراكي في مجمله وهكذا نشأ في صفوف اليسار شعار لا اشتراكية بغير الاشتراكيين ولست أدري تفسير ذلك إلى هذه اللحظة، وكان هذا هو السبب في المشاكل التي عانيناها إذ كان المسئولون الاداريون عن المجلة من موظفي وزارة الثقافة مثلا معادين لها ومعادين للفكر الاشتراكي نفسه، وكان علينا أن نتخطى العقبات الكثيرة التي توضع أمامنا وعندما يكون الوزير قريبا إلى اليسار تأتي المقاومة من الموظفين الكبار وقد حدث بالفعل أنه أثناء تولي ثروت عكاشة لوزارة الثقافة أن جاءه من أحد مسئولي الوزارة الكبار تقرير يفيد بأن الكاتب لاتكاد توزع شيئا واقترح على الوزير أن يغلقها وعندما استدعاني ليخبرني بذلك ذهلت لهذه الجرأة من موظف مسئول يكذب على الوزير وعلى الحقيقة فأسرعت للحصول على كشوف التوزيع من المؤسسة الحكومية التي كانت تقوم بالتوزيع في هذا الوقت وكان ثروت عكاشة قد ذكر لي اسم هذا الشخص وكان أحد المثقفين اليمنيين المتعصبين ولعله كان يعتقد أن الكذب شئ مقبول عندما يتعلق الأمر بمكافحة الشر الذي تجلبه الاشتراكية على المجتمع على أنه كان بين صفوف اليسار نفسه صراعات مختلفة وكان من الطبيعي أن تعتبر الكاتب منحرفة عن الاشتراكية الماركسية الارثوذكسية وربما كان الأمر أعمق من ذلك إذ أنه في ظل الديكتاتورية الفردية تنعقد مراكز قوى متعددة حول الرئيس الشخصية الكاريزماتية التي تتبلور حولها السلطة وكل منها يحاول إبعاد الأخر عن الجذر الأساسي حتى تكون له الغلبة أو الأسبقية وهذا ما عنيناه أيضا إذ كان كمال الدين رفعت ليس عضوا في مجلس التحرير فقط بل مركز قوة أيضا وكان يتوزع نشاطه ما بين لجنة الدعوة والفكر في الاتحاد الاشتراكي وبين مسئوليته الوزارية ووضعه القيادي في التنظيم الطليعي وكان له في المقابل خصوم أو منافسون في مراكز قوى أخرى وفي هذا الوقت بدأ الأهرام بقيادة محمد حسنين هيكل في إنشاء مجلة للفكر الاشتراكي الماركسي، ولا أظن أن الأمر كان يتعلق بالإيمان بفكر هذا التيار أو ذاك بل بتقوية هذا المركز وتوسيع مجالاته وهكذا نشأت فكرة إصدار مجلة الطليعة برئاسة لطفي الخولي الذي كان له وضعه البارز في التنظيمات الماركسية وكان في نفس الوقت محررا في جريدة الأهرام.

اعجاب عبدالناصر بالكاتب

وهنا بدأت أشعر بمشاكل داخل الكاتب من بين بعض المشاركين في التحرير وانتهى الأمر إلى شبه انقسام داخل المجلة، وكان قد أعلن عن تاريخ صدور الطليعة ولكن بعد قليل أجل هذا التاريخ شهرا آخر، وأصبحت آلاحظ أن هناك علاقة بين



كمال الدين رفعت

الانقسامات التي راحت تحدث في المجلة وبين صدور المجلة الجديدة وكان من عيوب التربية الماركسية في مصر طابعها السري وبالتالي ما يمكن أن تنطوي عليه السرية من شرعية التآمر وهكذا كان الأمر بالنسبة لتنظيم الضباط الأحرار وكان مقبولا أخلاقيا - لهذا السبب - التآمر ضد الخصوم وبالفعل بدا أن الانقسام وصل إلى كمال رفعت نفسه وهكذا وجدت نفسي مضطرا لغلق المجلة على أن هذا اقتضى أن أؤجل هذا الغلق شهرا آخر حتى أنشر جميع الاعلانات التي تعاقدت عليها المجلة مع الشركة التجارية للأخشاب التي كان يرأس مجلس إدارتها صديق لي وكان قد دفع قيمة العقود كلها وعندما أصدرت العدد الأخير تنفست الصعداء فها هو ذا اثقل عبء تحملته طوال هذه السنوات يرفع عن كاهلي، ولعلي تساءلت مع نفسي علاما كل هذه المشقة وهذه العداوات والخصومات والتي أثرت بطبيعة الحال على صحتي العامة.

وعندما ظهر العدد الأخير في السوق وجدتني طريح الفراش من الانهاك أو من نزلة برد أو منهما معا وكنت مسترخيا في بيتي هذه الليلة عندما تلقيت مكالمة تليفونية من كمال الحناوي الذي أخبرني بأنه يحادثني من مكتب كمال رفعت الجالس إلى جواره وأنهما يريداني أن أحضر فورا لأمر هام ولم ينفع اعتذاري بالمرض فذهبت إلى مبنى الاتحاد الاشتراكي الذي كان قريبا من بيتي وهناك عرفت قصة غاية في الغرابة إذ كانت اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي منعقدة برئاسة جمال عبدالناصر وكان الحناوي ورفعت عضوين فيها كما كان محمد حسنين هيكل أيضا عضوا فيها وكان العدد الأول من مجلة الطليعة قد صدر ورأت سكرتارية اللجنة أن تضع أمام الأعضاء عدد الطليعة الجديد وعدد الكاتب الأخير أيضا وامتدت يدا عبدالناصر وأمسكت بكل عدد وراح يقلبه ثم قال موجها الحديث إلى الجميع: الكاتب ما هي شرحة أهه، وبهذا أبدى ارتياحه واعجابه بالمجلة واعتبر هذا نطقا ساميا وعندما فاتحه بعد ذلك كمال رفعت بأنها كانت على وشك الاغلاق حثه على استمرار صدورها وأضاف: لكن لا تطلب مني تمويلا.

وكان استدعائي ليطلبوا مني الاستمرار في الصدور وهنا طالبت بتغييرات كثيرة وافقوني عليها على الفور، وهكذا عادت الكاتب لتصدر من جديد. ■

وللحديث بقية



عبد الله بلخير — د. عمر فروخ — سلمى الكزبري — ليلى رستم

شخصيات لا تنسى

بقلم
وديع فلسطين

أكرمني ربي فعرفت على مدى واحد وستين عاما من العمل بالصحافة والأدب أعلاماً من رجال السياسة والأدب ومن الشعراء في ربوع عالمنا العربي وفي المهاجر السحيقة، ولكن كثيرين منهم باتوا منسيين إلا من الذين عاصروهم وتابعوا أنشطتهم. وإذا كان مسلسل قاسم أمين قد بعث إلى الحياة أفذاذاً استضاءت بهم الحياة المصرية في أوائل القرن الماضي، فإن هناك كثيرين من الأعلام في الدنيا العربية الواسعة الذين صاروا نسياً منسياً، فلا يذكرون في أي مقام ولا تعرف الناشئة شيئاً عنهم، وما زلت أسخر من ذلك «المستشار الثقافي» الذي أجرت معه مذيعة تليفزيون حواراً فسألته عن رأيه في الأديب علي أدهم، وبعد تلعثم قال السيد المستشار: لعلك تقصدين الفنان عادل أدهم؟ فقالت المذيعة: بل أقصد الأديب علي أدهم، وهنا قال السيد المستشار الثقافي: لعله من الأدباء الناشئين الذين لم أقرأ لهم شيئاً!

عبد الله بلخير

سبقت هذه المقدمة وأنا أبحث في الصحف المصرية عن إشارة ولو عارضة إلى وفاة الشاعر الأديب السعودي الكبير عبد الله بلخير ، فأعياني البحث .. ولا عجب ، لأن الناس حظوظ حتى في الموت ، فمنهم من تفرد له صفحات وصفحات ، ومنهم من يعدم حتى سطرين في صفحة المناعي ، فلأحمل عن هذه الصحف عبء التعريف بهذا الرجل الذي توفي في الثامن من ديسمبر الماضي عن ٨٨ عاماً في مستشفى بالعاصمة اللبنانية حيث دفن بناء على وصيته .

ولد عبد الله بلخير في عام ١٩١٤ في حضرموت ونزح مع أبيه إلى السعودية حيث التحق بمدارس الفلاح - وهي أول مدارس نظامية تنشأ في المملكة على أيدي الشيخ عبدالله علي زينل . وكان عبد الله ينظم الشعر حتى وهو في المرحلة الابتدائية ، مما أدهش الملك عبد العزيز آل سعود فقربه منه ، ولما أكمل دراسته أوفده إلى بيروت لمتابعة الدراسة الجامعية في جامعة بيروت الامريكية. وعند عودته عمل في ديوان الملك عبد العزيز سكرتيراً ومترجماً ، وبهذه الصفة قام بالترجمة بين الملك عبد العزيز ورئيس الوزراء البريطاني ونستن تشرشل . ثم التحق بديوان ولي العهد الأمير سعود فكان سكرتيره ومترجمه ، وقام بالترجمة بينه وبين الرئيس الأمريكي جون كندي ، واختاره الملك سعود بعد ما خلف أبيه أول وزير للإعلام في المملكة ، فقام بتنظيم الوزارة وتنسيق أجهزتها بين عامي ١٩٦١ ، ١٩٦٣ ، واختار بلخير بعد ذلك أن يتقاعد لكي يتفرغ لسياحات عريضة في جميع أنحاء العالم ، حملته إلى القطب الشمالي وإلى أمريكا الجنوبية وإلى أدغال إفريقيا وإلى الشرق الأقصى . كما تفرغ لمآربه الأدبية ولموهبته الشعرية فأصدر هو والشيخ محمد سعيد عبد المقصود خوجة كتاب «وحي الصحراء» وهو أول دراسة لشعراء المملكة وأدبائها سبقت الكتاب الذي أصدره الشيخ محمد سرور الصبان وكتاب عبد الله بن إدريس. وفي سن مبكرة ألف عبدالله بلخير النشيد الوطني السعودي وهو :

شبه الجزيرة موطني وبلادي
من حضرموت إلى حمى بغداد
أشدو بذكراها وألقف اسمها
في كل جمع حافل أو نادي
فيها خلقت ، وفي سبيل حياتها
سعيي وفي اسعادها اسعادي
كل له في من أحب صبابة
وصبابتي في أمتي وبلادي

وله نشيد آخر يقول فيه :

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان

وعندما ساءت العلاقات بين مصر

والسعودية ، نظم قصيدة جاء فيها :

لو مشت مصر نحو مكة شبراً
لمشت مكة إلى مصر ميلاً

وفي عام ١٩٩٨ أصدرت مؤسسة الإثنينية في جدة التي يرعاها الشيخ عبد المقصود خوجة كتابا في أكثر من ٧٠٠ صفحة بعنوان «عبدالله بلخير يتذكر» ضم حواراً أعده معه خالد محمد باطرفي مع دراسة نقدية بقلم محمود ردادي وفيه سجل بلخير ذكرياته السياسية والأدبية التي ترجع إلى بدايات تاريخ المملكة لأنه عمل مع أول ملكين لها وهما عبد العزيز وسعود، وفي هذه الذكريات أحاديث عن شخصيات سياسية تعامل معها بلخير مثل تشرشل وكندي والمرشال مونتجمري والامبراطور هيلا سلاسي والمستشرقة فرايا ستارك والحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس الأكبر والملك غازي العراقي وطلعت حرب والزعيم اليمني أحمد نعمان ، ومن الشخصيات التي التقى بها طنطاوي جوهري والدكتور محمد حسين هيكل باشا ومحمد الغنيمي التفتازاني والأمير شكيب ارسلان والمجاهد الفلسطيني محمد على الطاهر المكنى بأبي الحسن والصحفي اللبناني كامل مروة والشاعر السوري عمر أبو ريشة والأخطل الصغير بشارة الخوري والشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي المكنى بأبي سلمى وغيرهم . فقد كان دأب عبد الله بلخير أن يتواصل مع أعلام الفكر في عصره وأن يسعى إليهم في عقر الدار .

وكنت بدوري - على ضآلة شأني في الأربعينات - ممن قصدهم عبد الله بلخير حيث زارني في مكتبي في جريدة «المقطم» دون معرفة سابقة قاصداً التعرف بصحفي سخر قلمه للدفاع عن قضايا الأمة العربية التي كانت تعاني وقتها من صنوف الحكم الأجنبي بأسمائه ومسمياته المختلفة .

ومن طريف ما رواه عبد الله بلخير أنه رافق الملك سعود في زيارته الرسمية لواشنطن وكان الملك يحتضن طفلاً له مصاباً بشلل الأطفال حتى في مواكبه الرسمية وفي مقابلاته مع الرئيس كندي على أمل أن يعالجه في أمريكا . والتف الصحفيون حول عبدالله بلخير يسألونه عن اسم والدة الطفل ، وببديهته الحاضرة أجابهم قائلاً إن اسمها «أم طلال» - وهو اسم الطفل - وهكذا تخلص من هذا المأزق وتوهم الصحفيون الأمريكيون أنهم ظفروا بسبق صحفي !

وعندما كان بلخير وزيراً للإعلام ، زار مصر زيارة رسمية ورغب في مفاجأة صديقه ومواطنه الحضرمي الأديب على أحمد باكثير بزيارة في بيته في حي منيل الروضة . فتوجه بموكبه الرسمي إلى العمارة التي كان باكثير يقيم في طابق من طوابقها العليا ، ولأن

العمارة كانت تفتقر إلى مصعد ، وخشى بلخير أن يصعد الدرج ثم يكتشف أن باكثير ليس فى البيت ، فقد أوفد جندياً من طاقم حراسته للتأكد من أن باكثير قابع فى البيت ، وعندما دق الجندى الباب وسأل عما إذا كان باكثير موجوداً ، فزع باكثير ، وتوهم أن الجندى هو طليعة كتيبة جاءت لاعتقاله والزج به فى السجون ، فبادر بإخطار زوجته ، وأخذ يعد حقيبة ملابسه التى سيحملها معه إلى المعتقل ، وإذ كان فى هذه الحال من الرعب ، دق باب البيت ، ولما فتحه وجد صديقه عبد الله بلخير يرتمى عليه ويأخذه بالأحضان !

واتفق عندما تقاعد بلخير من عمله الوزارى أن كنت فى الظهران فسعى إلى لقائى وقضينا نحو ثلاث ساعات فى أحاديث مشتهاة ، وقد أخبرنى أنه فكر فى إصدار جريدة يومية ، وسافر فعلاً إلى الخارج ، وتعاقد على شراء المطابع التى شحنت فعلا إلى ميناء الدمام ، ولكنه زهد فجأة فى هذا المشروع ، وترك الآلات فى صناديقها لتصدأ فى الميناء !

ومن فترة غير بعيدة تلقيت بطاقة من ماربيا بإسبانيا تحمل توقيعات ثلاثة من الأصدقاء يمثلون معاً جامعة عربية شعبية هم الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبرى أطال الله بقاءها ، والمجاهد الفلسطينى أكرم زعيتر ، والأديب السعودى عبد الله بلخير ، فقد التقى ثلاثتهم فى هذه المدينة الساحلية الجميلة حيث تذكروا صديقهم المصرى فوجهوا إليه هذه البطاقة التى اعتبرها لفتة كريمة تومىء إلى الوحدة العربية الفكرية بين أصدقاء من سورية وفلسطين والسعودية ومصر .

ولعبد الله بلخير ديوان كبير غير منشور ، وعسى أن يعمل أنجاله يعرب وبلقيس وعمر وقحطان ومحمد سبا على نشره وفاء لهذه الشخصية الفذة . وأخبرنى الأديب السعودى سعد بن عايض العتيبى أن باحثة سعودية اسمها هدى عبد الرحمن الدريس نالت درجة الماجستير عن رسالة عنوانها «عبد الله عمر بلخير : حياته وشعره» ولكنها لم تنشر بعد .

وعندما زرت جدة فى شهر ابريل الماضى رجوت أن أجتمع بصديقين عتيقين هما عبد الله بلخير وسميه عبد الله عبد الجبار ، أطال الله عمره ، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق مع الأسف .

***

الدكتور عمر فروخ

تذكرت وأنا أراجع مجموعات مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات المعركة الطريفة التى تورط فيها ثلاثة من الأدباء مع العقاد ، وهم محمد عبد الغنى حسن والدكتور عمر فروخ وعبدالله المشنوق صاحب جريدة «بيروت المساء» والذى أصبح بعد ذلك وزيراً فى

لبنان ، وقد رد عليهم العقاد رداً ساخراً ، فقال عن الدكتور فروخ «تستطيع أن تقدم أو تؤخر من اسمه ما تشاء» وقال عن المشنوق أن العقاد لا يرد على المشنوقين !

وكنت التقيت بالدكتور فروخ فى المرة الأخيرة التى زار فيها مصر للمشاركة فى المؤتمر السنوى لمجمع القاهرة ، وكان قد انتخب عضواً فيه مزاملاً العقاد . وقلت للدكتور فروخ : هل تسمح لى بأن أوجه إليك سؤالا محرجاً ؟ فقال : هات ما عندك . فقلت له : هل تذكر حكايتك القديمة مع العقاد ؟ فقال : وكيف أنساها . ثم سألته : وكيف أصبحت علاقتك مع العقاد بعد ما جمعت بينكما زمالة المجمع ؟ فقال : من أصفى العلاقات : فالعقاد يجاملنى ويرحب بى ولا يحمل لى أى ضغينه بسبب المعركة القديمة .

وبعد انتهاء مؤتمر المجمع عاد الدكتور فروخ إلى بيروت وكانت الحرب الأهلية مازالت مشتعلة الأداء ، ولكن كانت هناك فجيعة فى انتظاره ، حيث كان نجله مازن المتخصص فى الفيزياء النووية يسير فى أحد شوارع بيروت ، فانطلقت شظية من قنبلة سقطت بجواره وأصابته فى رأسه فقضت عليه فى التو واللحظة . ولم يملك الأب المرزأ إلا أن يرثى ابنه بأبيات باكية جاء فيها

يا ولدى ، يا ولدى
يا قطعة من كبدى
يا فرحة الدنيا التى
لألاؤها لم يخمد
يا طلعة طافت على
عوالم من عسجد
يالمحة قد بقيت
من أمل مبدد
قد كنت أرجو مسعدا
أوى إليه فى غدى
لكننى ، يا أسفى
كفنت أمسى بيدى
فضاع ما أملته
من ملجأ أو سند

وقد حدثت هذه الفاجعة فى أول يناير ١٩٨٧ وقبل أن ينصرم العام لقى عمر فروخ وجه ربه فى ٨ نوفمبر ١٩٨٧ عن ٨٣ عاماً بعدما حطمه الحزن على ابنه المرجو الفد .

والدكتور فروخ عشرات من المؤلفات من أهمها سلسلة «معالم الأدب العربى الحديث» وسلسلة «تاريخ الأدب العربى منذ الجاهلية إلى الفتح العثمانى» . وله فى السيرة الذاتية كتاب «غبار السنين» وكتاب «خمسة وستون عاماً فى الصحافة» .

***

ليلى رستم

أحاول فى هذه الكليمات أن أمحو شيئاً من الأثر السيىء الذى تركته فى نفس ليلى رستم عبارة طائشة وردت فى

هلال الشهر الماضى عنها على لسان أحمد فؤاد نجم .

عرفت ليلى رستم طالبة نابهة عندما كنت أدرس علوم الصحافة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة . وكانت متمكنة تمكناً تاماً من ثلاث لغات هى العربية والإنجليزية والفرنسية . وكانت بشخصيتها المحبوبة وبمشاركتها فى الأنشطة الرياضية والفنية فى الجامعة طالبة لامعة حتى اختيرت الفتاة الجامعية المثالية . وعند تخرجها سافرت إلى الولايات المتحدة حيث ظفرت بدرجة الماجستير بتفوق . وعند عودتها كان التليفزيون المصرى فى بداية حياته ، فالتحقت به مذيعة وبرزت هى وزميلتها سلوى حجازى فى البرامج الناجحة التى كانتا تقدمانها . ولئن نسيت جميع برامجها ، فليس من اليسير نسيان برنامجها الذى صورته فى بيت الدكتور طه حسين مع جمع من الأدباء الشبان . وأدارت فيه الحوار ببراعة فائقة شهد بها طه حسين نفسه . ولست أغالى إذا قلت إن ليلى رستم هى التى أرست مع زميلتها سلوى حجازى التقاليد الكريمة للعمل التليفزيونى الناجح ، وكانتا رائدتين فى ميدان جديد كل الجدة .

وعندما اضطرتها ظروفها العائلية للسفر إلى لبنان ، التحقت هناك بالتليفزيون اللبنانى وكانت تجرى مقابلات مع شخصيات سياسية وأدبية حتى اكتسح برنامجها كل البرامج الأخرى بلهجتها المصرية التى لم تتخل عنها . ولكن حدث فى مقابلة مع كريمة رئيس وزراء لبنانى سابق أن صدرت عن هذه السيدة عبارة مست المجلس التشريعى اللبنانى ، فاتخذت هذه الواقعة ذريعة لمنع ليلى رستم من مواصلة الظهور فى التليفزيون اللبنانى . ومن ثم استقلت بأمورها ، وصارت تسجل برامج ثقافية مع كبار الأدباء لحسابها الخاص وتروجها فى التليفزيونات العربية .

وعند عودتها من بيروت اختارتها جريدة النيويورك هرالد تريبيون الأمريكية العالمية ممثلة لها فى مصر اعترافاً بكفاءتها وحسن أدائها ، وهو عمل مازالت تؤديه بما يشرف بلادها .

فهذه الشخصية المرموقة ما كان ينبغى الإساءة إليها فى حديث أيا كان صاحبه ، ولا سيما لأنها لا تذكر شيئاً عن الواقعة التى وردت فى هذا الحديث والندوة التليفزيونية المزعومة التى قيل إنها أدارتها بحضور الممثل فؤاد المهندس وآخرين . فالواقعة مختلقة تماماً وهو ما أكدته لى ليلى رستم .

هذه كلمة أردت بها دفع بعض الأذى الذى لحق بهذه السيدة الجليلة بسبب عبارة غير مسئولة وردت على لسان زيد من الناس . ■

ذكريات
شاهد
عيان

سؤال مازال يبحث عن إجابة:

من أحرق القاهرة

وذكريات عن قاهرة الخمسينيات

بقلم
حسن سليمان



سينما مصر في شارع رمسيس أثناء حريق القاهرة

يظل سؤال «من أحرق القاهرة؟» قائما..!
رغم مرور أكثر من نصف قرن مازالت هناك أسئلة حائرة تبحث عن إجابة حول هذا الحدث الكبير فى حياة مصر حين إحترقت القاهرة في يناير ١٩٥٢، ومن يومها تضاربت الاستنتاجات حول من له مصلحة في حرق القاهرة وأهدافه الخفية من وراء ذلك.

وإذا كان هذا السؤال مازال معلقا حتى اليوم فهذه رواية شاهد عيان، رأى بعينيه وقائع الحريق، وتجول فى شوارع وسط القاهرة، ورأى هذه الأحداث وقام بتسجيلها يومئذ حتى لاتزول مع مر الأيام.

ربما لا يعرف الجيل الجديد كيف كانت معالم القاهرة فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين.

قد لا يعرف أحد من الجيل الجديد شيئاً عن محل أحذية «بول فافر» الذى تقع مكان الآن محلات الشوربجى على ما أظن ولأن هذا المحل يعلق على واجهته حذاء ضخما،، وتقوم ابنة صاحب المحل اليهودية الجميلة بعمل الديكورات والرسوم لواجهات المحلات، وقد ارتبطت معها بصداقة حميمة. حيث كنا نلتقى سويا عند الفنان «جارو ملبرت» لنتلقى على يديه فنون الرسم وكنت متعوداً على الالتقاء بها عند المحل عند الغروب وتعودت أن أحمل إليها فى يدى زهرة الزنبا «تبريز» وهى نفس الزهرة التى صورها الفنانون القدامى فى يد القديس «توما» ولذلك كان والدها يصيح عندما يلمحنى قادما من بعيد: لقد وصل القديس توما!

وكنا نقضى سويا أمسيات ثقافية وفنية فى إحدى المراكز الثقافية

الأوربية التى كانت تعج بها القاهرة فى تلك الحقبة.

وعن طريقها تعرفت على خالها الدكتور دولشن طبيب الأسنان الخاص للأسرة المالكة، وقد شجعنى وأنا مازالت فى بداية طريقى الفنى واشترى منى عدة لوحات، وأتذكر الحوارات الفنية والفكرية التى كانت تدور بيننا رغم حداثة سنى.

يوم الحريق!

وأذكر يوم حريق القاهرة، أننى كنت أسير فى منطقة «وسط البلد»، قابلت دولشن وهو بصحبة شخص يدعى «عبدالباسط بك» كان يعمل موظف بوزارة الداخلية كمسئول عن قسم اعطاء الجنسية المصرية للمتمصرين بعد عمل التحريات اللازمة عنهم، فى تلك اليوم المشهود شاهدت المحلات وهى تتحطم والحرائق وهى تشتعل، فأغلقت كل المحلات إلا ممر «الأمريكين» المطل على شارع سليمان باشا، ففية يقع المدخل الرئيسى للعمارة.

علمت فى هذا اليوم وأنا جالس فى مقهى «الأمريكين» أن رئيس القسم المخصوص بوزارة الداخلية «بمثابة جهاز المخابرات الآن» قد قام بجمع المقاعد من «كازينو بديعة مصابنى» ووضعها فى منتصف الميدان بجانب تمثال إبراهيم باشا وقال آمراً: أحرقوا هذه المقاعد، وكانت هذه الواقعة غالباً هى الشرارة الأولى فى ذلك الحريق النابض ولم تمض ساعة واحدة على ما سمعته حتى رأيت «أحمد حسين» زعيم حزب مصر الفتاة بطربوشه المعهود فى عربة مكشوفة يمضى عبر شارع سليمان باشا وهو يصيح: «أحرق.. أحرق.. أحرق».

وبينما كنت أتطلع إلى عشرات من زجاجات الخمور ومحتويات البقالة وهى تلقى فى الشارع رأيت جارى بالعباسية «من عائلة العشماوى» يتحدث عن مادة سريعة الاشتعال وصلت إليه لاشعال الحرائق!

وحينما سألته عن هذه المادة أجاب بأنه تخلص من كل العبوات وسلمها لأحد الأشخاص من جماعة الأخوان المسلمين، ورأيت علامات الاضطراب تكتنفه وسرعان ما انصرف مسرعا فى الشوارع



الأخرى وبعد سنوات عديدة نشر هذا الشخص مذكراته بمجلة «روزاليوسف» ورفض الافصاح عن اسم الشخص الذى أعطى له هذه المادة السريعة الاشتعال!

كانت القاهرة فى ذلك اليوم فى حالة فوضى شديدة.. بينما لاحظت وأنا فى جلستى بالأمريكين «دولشن» وهو يتحدث مع عبدالباسط بك لمحاولة الحصول على الجنسية المصرية ورأيتهما وهما يغادران المكان سويا وسط طريق ملئ بالزجاجات والبضائع التى نهبت من المحلات وألقيت على قارعة الطريق، وبعد حوالى ساعتين عاد دولشن وأخبرنى أن كل شئ بالنسبة لإجراءات الحصول على الجنسية قد تم بسهولة، وتساءلت بينى وبين نفسى باستغراب ما سر إصراره على الحصول على الجنسية المصرية وهو من عائلة ثرية قد هاجر معظمها إلي أمريكا؟

سرنا أنا ودولشن سويا وأخذ يتحدث عن الأوضاع السياسية فى مصر فقال إن الإنجليز سيضطرون لتسليم منطقة الشرق الأوسط إلى أمريكا، بسبب حاجتها للنفط، وستسعى أمريكا حينئذ إلى رعاية وحماية كبار الرأسماليين ورجال المال لحماية مصالحها فقط، لأنها تهدف للسيطرة على المنطقة خاصة مصر لمالها من قوة بشرية واقتصادية.

ثم أضاف دولشن: صحيح أننى يهودى لكننى ضد قيام دولة صهيونية لتكون رأس حربة فى المنطقة ولذلك ستدخل المنطقة فى دوامة من العنف وعدم الاستقرار، ولكن أمريكا ستظل تمول دولة إسرائيل وسط الملايين فى المنطقة العربية بحيث تصبح قوة إسرائيل تعادل إن لم تتفوق على الدول العربية مجتمعة!

وهناك نقطة أخرى فمصر تملك قوة ثقافية مؤثرة سيحاولون محاربتها بكل السبل. شعرت بالضيق والألم لتلك النظرة التشاؤمية

وتحليله الموضوعى لمسار الأحداث ويبدو أن الرجل لاحظ استغرابى ودهشتى من حديثه الصريح فقال:

- لا تعجب، فقد ولدت هنا وتعلمت بالخارج لكننى عدت لمصر ثانية، فهى وطنى الوحيد.. فيها دفن جدى، وعشت ذكرياتى بها، ولن يكون لى قبر إلا بها!!

وقد أدركت أن تحليل دولشن موضوعى رغم قسوته، واقترب تحليله من كاتب فرنسى اسمه «كارتييه» كنا أنا وأحمد بهاء الدين، ومحمد عودة، وكامل زهيرى ننتظر تحليلاته بفارغ الصبر فى مجلة «بارى ماتش» الفرنسية، فقد تنبأ بكل ما قاله دولشن لى!

الدكاترة زكى مبارك!

ومن بين ذكرياتى القاهرية أننى كنت أتردد على بار صغير جداً فى



د. زكى مبارك

ميدان التوفيقية يملكه رجل روسى يفتح لنا منذ الصباح ليقدم فطورا فقط، ثم بعد ساعات قليلة يقدم المشروبات الروحية!

وكان الدكتور زكى مبارك يتردد على هذا البار، ونتحلق حوله أنا ود.يحيى عبدالله رئيس قسم الأدب القديم بجامعة فؤاد الأول القاهرة الآن ود.فاروق فريد أستاذ الكلاسيكيات الذى أصبح فيما بعد أستاذا بجامعة أثينا.

وكنا نسعد بأحاديث د.زكى مبارك وأسماره التى لا تنتهى، ويسعد عندما نناديه باسم «الدكاترة زكى مبارك» باعتباره حصل على ثلاث شهادات للدكتوراة! ويمضى ليحدثنا عن غرامياته ونوادره مع طه حسين والعقاد وغيرهما من أقطاب الأدب والفكر فى القاهرة وبغداد وكيف أن العقاد يحصل على ورق من

السفارة الإنجليزية ليطبع مؤلفاته، وكذلك طه حسين من السفارة الفرنسية وكان يوجد في مواجهة هذا البار بار آخر اسمه «سيسل» كنت أتردد عليه أيضاً حيث يجتمع فيه عدد من أقطاب حزب السعديين ومنهم عبدالمجيد باشا بدر، وعبدالمجيد عبدالحق، ومحمد بك عبدالسلام، وعلي أيوب، وتوفيق بك عمر.

وسألتهم عما يدعيه د.زكي مبارك فأكدوا صلة العقاد بالسفارة الإنجليزية وصلة د.طه حسين بالسفارة الفرنسية كنا نحترم زكي مبارك لاعتزازه بكرامته ورفضه لاستلام أي مبالغ من أية جهة رغم ثقافته الفرنسية ومكانته الأدبية الشامخة، وقد أكد لي السعديون نزاهة زكي مبارك واعتصامه بكرامته ورفضه أخذ نقود من السعديين أو غيرهم من الأحزاب.

وذات ليلة أثناء خروجنا من بار التوفيقية سقط زكي مبارك وهو يصعد السلم أرضا، وتفجر الدم من رأسه، فارتبكنا وأصابنا الذعر، وأخيراً أوقفنا عربة حنطور وحملناه نحن الثلاثة وأجلسناه على المقعد، وقمت بشد ربطة العنق من رقبته إلى أسفل حتى أوصلناه إلى بيته بمصر الجديدة وتركناه، عند إسرته.

ثم فوجئنا في اليوم التالي بنبأ موته وذلك يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢ رحمه الله ■

كلمات عاشت

● آلة العيش صحة وشباب ، فإذا وليا عن المرء ولى .

المتنبي

● إنما النفس كالزجاجة والعلم سراج وكلمة الله زيتفإذا أشرقت فإنك حي وإذا أظلمت فإنك ميت

ابن سينا

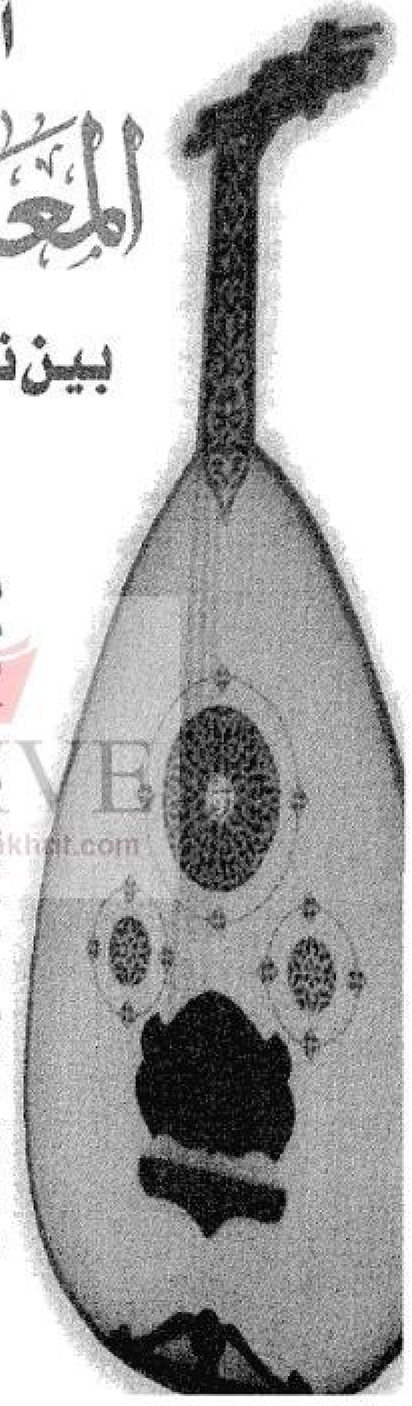
● ما أزهر كثيرا من الناس في الخير .. عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير .

علي بن أبي طالب

● من أحب المال تعب بجمعه ، ومن أحبه المال تعب بتبديده .

أمير الشعراء أحمد شوقي

أشهر المعارك الفنية بين نجوم الغناء



بقلم
د. نبيل حنفى محمود

حفظ التاريخ لنا أحداث العديد من المعارك التى نشبت فى الوسط الفنى بمصر خلال سنوات القرن العشرين المنصرم ، تلك المعارك التى دارت وقائعها - الكلامية غالبا - بين نجوم الفن عبر وسائل الإعلام المتاحة ، فاجتذبت إليها البعض من أعلام الكتاب وأهل الفن .. إضافة إلى نخبة من القراء ، لتصبح حديث المجتمع مع تتابع حلقاتها وتصاعد حدة أحداثها ، لم تكن تلك المعارك وقفاً على الوسط الفنى ، ولكن التاريخ يسجل لنا كثيرا منها شهدته أوساط الصحافة والسياسة وحتى تجمعات المهنيين ، ولعل ما غشى مسيرة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى عالم الإبداع والأدب من معارك يعد مصداقاً لذلك ، إن نشاطاً فكرياً ينضوى خلاله صنوف من البشر لابد وأن يشهد فى عديد من منعطفاته التاريخية مثيلاً لهذه المعارك .

تنشب تلك المعارك غالبا من جراء اختلاف مناهج الفكر أو حول بعض المكاسب والأهداف ، فمثلا ... يستطيع المدقق أن يلاحظ نشوب أغلب هذه المعارك الفنية بسبب التسابق على مكان الصدارة أو لأجل إزاحة من يراه البعض حجر عثرة في طريق طموحاتهم ، وأيا ما كانت الأسباب ... فإن اسلوب تلك المعارك كان واحداً ،


أم كلثوم

المعركة الأولى :
حول قميص سيد درويش

بدأ زكريا أحمد (١٨٩٦ – ١٩٦١م) رحلته مع الغناء بالعمل كقارئ للقرآن الكريم في منازل الأعيان والمآتم قرابة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) ، ولكنه تلقى دروسه الأولى فى فنون الغناء والتلحين والإنشاد على يد مجموعة من الشيوخ مثل : درويش الحريرى وعلى محمود وإسماعيل سكر ، كانت مصر تضطرم آنذاك بمخاض قادم تتجلى علاماته فى فورة من النشاط تلبست كل مظاهر الحياة في مصر : سياسية واقتصادية واجتماعية وفنية ، فقد استمد هذا النشاط قوته من الروح الوطنية التى بثها الزعيم مصطفى كامل فى طول البلاد وعرضها عند مستهل القرن العشرين ، ففى مجال الفن .. انتشرت بمصر المسارح والفرق الفنية التى ملأت ليالى القاهرة والإسكندرية والعديد من مدن الأقاليم الكبرى مثل بورسعيد والمنصورة وطنطا بفيض من النشاط الفنى الذى شمل التمثيل والغناء والرقص ، فينطلق الفتى زكريا أحمد ليعب من هذا الفيض الزاخر من الفنون التى قدمتها مواهب حقيقية مثل الشيخ سلامة حجازى الذى كان يعمل فى الجوق العربى على مسرح التياترو المصرى ، إضافة إلى بعض نجوم الصف الثانى فى صالات الغناء والرقص مثل السيد قشطة وأحمد الفار وكامل المصرى وسيدة الكمسارية وأختها أسماء والحاجة السويسية ونزهة واللاوندية وغيرهم (صبرى أبوالمجد : زكريا أحمد – ص ٨٨:٨٩) .


زكريا أحمد

لقاء الكبار

اتجه زكريا أحمد إلى التلحين بدءا من عام ١٩١٦م ، عندما أتاح له أستاذه الثانى الشيخ على محمود الفرصة لوضع بعض الألحان الدينية التى ترنم بها الشيخ على فساهمت فى تعريف الناس بالملحن الجديد وكانت الخطوة الأولى فى طريقه للشهرة ، ثم خطا زكريا خطوة أخرى فى مجال التلحين عندما قام فى نفس العام – ١٩١٦م – بتلحين رواية «فقراء نيويورك» التى بدأت بها عروضها فرقة مسرحية كونتها مجموعة من طلبة المدارس من هواة التمثيل ضمت حسين رياض وحسن فايق وحسن لاشين (صبرى أبوالمجد : زكريا أحمد – ص ١٦٨) ، ولكن عام ١٩١٦م ترك فى حياة زكريا أحمد أثرا لايمحى


سيد درويش

، إذ شهد يوم ٣ يناير من ذلك العام لقاء زكريا أحمد بسيد درويش (١٨٩٢ - ١٩٢٣م) في أحد المقاهي البلدية بحي كوم الدكة بالإسكندرية ، حدث ذلك عندما سافر زكريا أحمد إلى الإسكندرية ليستمع إلى الموسيقار الذي طبقت شهرته ربوع مصر ، فوجده زكريا يغني لمجموعة من المستمعين تتلهى بلعب النرد والورق لحنا بسيطا نظم كلماته الشاعر الغنائي الشيخ يونس القاضي ويقول مطلعه :

وأنا مالى هيه اللي قالتلي

روح اسكر وتعالى ع البهلى

ثم يقفل زكريا أحمد عائدا إلى القاهرة في صباح اليوم التالي مصطحبا معه سيد درويش ، وليبدأ سيد درويش صعوده لقمة المجد الفني من القاهرة ... بينما كان زكريا أحمد يتحسس أماكن خطواته الأولى في عالم التلحين والغناء (صبرى أبوالمجد : زكريا أحمد - ص ١٩٣ : ٢٠٥) .

استمرت صداقة زكريا أحمد وسيد درويش طوال ماتبقى لسيد درويش من عمر وحتى وفاته في ١٥ سبتمبر من عام ١٩٢٣م ، نيف وسبع من السنوات هو عمر تلك الصداقة بين الموسيقارين الكبيرين ، شهدت تلك الفترة القصيرة من عمر الزمن معظم إبداعات سيد درويش العبقرية ، وخلالها أيضا كان صديقه زكريا أحمد يبدأ أولى مراحل رحلته مع الفن ، كانت طقطوقة «أرخى الستارة اللي في ريحنا» التي نظمها الشاعر الغنائي المعروف - آنذاك - الشيخ يونس القاضي وتغنت بها أصوات منيرة المهدية وعبداللطيف البنا من أوائل الألحان التي ذاعت وجاءت لزكريا أحمد بالشهرة في شكل لعنات تصبها عليه الصحف لابتذال كلماتها ، قفزت هذه الطقطوقة وكثير غيرها، تغنت بها أصوات أخرى مثل صالح عبدالحي ونعيمة المصرية وزكي مراد ونرجس شوقي وحامد مرسي وعديلة المنصورية ورتيبة أحمد وغيرهم، باسم زكريا أحمد إلى صدارة الصف الأول من ملحني هذه الفترة ، لقد اكتسب زكريا أحمد من صداقته مع سيد درويش «القدرة على المساجلة بألحان عميقة التأثير وعلى صياغة الألحان من مختلف مقامات الموسيقى العربية وبكل ألوان الغناء» (كمال النجمي : الغناء المصري ... مطربون ومستمعون - ص ١٩٤) ، لذلك لم تكن تلك الطقاطيق هي كل إنتاج زكريا خلال هذه الفترة ، وإنما تنوع هذا الإنتاج ليشمل أيضا الأغنيات الوطنية وألحان الروايات المسرحية ، فمن الأغنيات الوطنية التي قدمها زكريا أحمد إبان ثورة الشعب الكبرى في عام ١٩١٩ يقول صبرى أبوالمجد في كتابه الموثق عن حياة زكريا أحمد وأعماله : «ولحن زكريا أحمد في هذه الفترة ألحانا سرت في الشعب مسرى النار في الهشيم ، ومنها ما قد غناه عبداللطيف البنا (قال ياسعد من غيرك زعيم) و(يامصر دى أيام أنسك) و(لمصر فيك ياسعد) ، ومنها ماقد غناه زكي مراد كنشيد (مصر أولادها رجال) و(نار الوطنية في القلب) ، وكان لزكريا أحمد نشيد اسمه (نشيد سعد زغلول) ، كان يلقي في بداية العمل بمسرح الماجستيك ، حيث كان الجمهور والمنشدون والمطربون يرددونه جميعا وهم وقوف» !

شرارة البداية

بدأ زكريا أحمد يقطف ثمار كدحه وجني موهبته ، وهو ما تمثل في إقبال أهل الغناء وأصحاب الفرق المسرحية وشركات الاسطوانات على ألحانه ،




محمد القصبجي

هاجم محمد البحر الشيخ زكريا فى عدد مجلة المسرح فى ١٩-٧-١٩٢٦.

لم تكن شرارة بداية المعركة وقفا على «المسرح» فقط ... ولكنها انتقلت لتتخذ لها منطلقاً آخر ، إذ صدر العدد رقم (٣٨) من مجلة «روزاليوسف» - التى كانت تحبو فى عامها الأول - صباح الأربعاء ١٩٢٦/٧/٢١ يحمل فى صفحته الرابعة عشرة نفس الرسالة أو الكلمة المنشورة قبل يومين بالعدد رقم (٣٣) من مجلة «المسرح» ، فقد أرسل محمد البحر إلى «روزاليوسف» بنسخة أخرى من رسالته المنشورة فى «المسرح» . كانت الرسالة هى نفس الرسالة المنشورة فى «المسرح» ، وإن اختلف العنوان فقط الذى أصبح فى «روزاليوسف» «سرقة فى أمان» بدلاً من سرقة فى «المسرح»، سارع زكريا أحمد بالرد على ماقذفه به محمد البحر من اتهامات على صفحات «المسرح» و«روزاليوسف» ، نشرت «المسرح» رد زكريا أحمد فى العدد التالى وهو العدد رقم (٣٤) والذى صدر فى ٢٦ يوليو ١٩٢٦م ، جاء رد زكريا فى باب «على الهامش» الذى شغل الصفحة السابعة من العدد


محمد عبد الوهاب

توزيع الأدوار

جاءت الطلقة الثانية فى المعركة لتكشف شخصية قائدها والمخطط لها ، وكانت فى شكل رسالة بعث بها الشيخ يونس القاضى إلى مجلة «المسرح» ، ومحمد يونس القاضى المعروف بالشيخ يونس القاضى (١٨٨٨ - ١٩٦٩م) هو شاعر غنائى معروف كتب العديد من الأغنيات التى لحنها كامل الخلعى وزكريا أحمد ومحمد القصبجى ومحمد عبدالوهاب وآخرين ، وتغنت بهذه الأغنيات أصوات كثيرة مثل أم كلثوم ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وعبداللطيف البنا وآخرين (محمد قابيل : موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين - ص ٢١٥ : ٢١٦) ، وجه الشيخ يونس القاضى فى رسالته التى جاءت بعنوان «ليهدأ زكريا» ونشرت بالصفحة التاسعة من العدد رقم (٣٥) من مجلة «المسرح» والصادر فى ١٩٢٦/٨/٢٣م العديد من المطاعن إلى شخص زكريا أحمد وفنه ، ويتحدى يونس القاضى - فى ختام رسالته - زكريا أحمد بقوله : «أما طلب الشيخ زكريا أحمد نشر النوتة ، فهذا يحتاج إلى سؤال الملحن اللاحق هذه الأسئلة والإجابة عليها، وأنا أتبرع بحفر الكليشيهات الخاصة بالنوتة على حسابى . واليك الأسئلة : على يد من تعلمت الموسيقى ؟ ، هل تعرف النوتة الموسيقية ؟ ، هل يصدق الشيخ درويش الحريرى إذا قال إنك (بتهبش) كالغريق ؟ ، والشيخ على محمود إذا قال انك فاضى ؟ ، هل لم تتفق مع أحد أصدقائك على أنك تأخذ الحركات التى أهملت وتذيعها لتحييها من جديد ؟ ، حسبك اليوم هذه الأسئلة ، ومتى أجبت عليها رجوت البحر أن يعتبرك موسيقياً وينشر النوتة» .

حمل العدد رقم (٣٥) من مجلة «المسرح» فى ثنايا صفحته التاسعة رسالة أخرى من محمد البحر صاحب الشرارة الأولى والمصلحة الظاهرة فى هذه المعركة، كانت

رسالة محمد البحر تحمل عنواناً نصه «مش بس ده ؟» ، استهل البحر رسالته بقوله «كنت مع (روزاليوسف) وقرائها على ميعاد بأن أنشر لهم في عددها القادم النوتة التي طلب إلى نشرها حضرة الأستاذ زكريا أحمد ، فأجبته إلى طلبه فضلا عن كوني وفرت عليه وعلى القراء نشر نوتته التي وعد بنشرها عقب نشري مباشرة ، إن ما ألمح إليه محمد البحر في أول رسالته هذه عن نشر النوتة الموسيقية للحن سيد درويش «شوف بختك» في نصف صفحة من «روزاليوسف» وإلى جوارها في النصف الآخر من الصفحة النوتة الموسيقية للحن زكريا أحمد «أدي وقت البرنيطة» ، كان كافيا لحل القضية حلا نهائيا لايقبل الأستئناف أو النقض ، لأنه إما أن تثبت المقارنة تطابق اللحنين ... فينتهي زكريا ولا تقوم له بعدها قائمة، وإما أن تنتهي المقارنة إلى عدم تطابق اللحنين ... فتكون القضية حديث إفك أريد به النيل من موسيقار صاعد تتفتح أمامه المسالك إلى المجد .

قدم العدد رقم (٣٦) من مجلة «المسرح» والذي صدر في صباح الاثنين ١٩٢٦/٨/٣٠م الدليل على أن المعركة التي تجرى وقائعها ضد زكريا أحمد على صفحات المجلة قد تم التخطيط لها وتوزيع أدوار المشاركين فيها بشكل مسبق .

بينما نجحت محاولات معسكر الشيخ يونس القاضي في ضم مهاجمين جدد وفتح جبهات هجوم جديدة ضد زكريا أحمد في صحيفة «كوكب الشرق» وبعض الصحف الأخرى ، فإن تلك المحاولات لقيت فشلاً ذريعاً عند أعتاب بعض المنابر الصحفية الأخرى التي لم ير أصحابها أو محرروها مثل رأى المعسكر المهاجم ، ومن هذه المنابر - إضافة إلى مجلة «روزاليوسف» السابق الإشارة إلى موقفها - مجلة «ألف صنف» التي أصدرها الأديب المعروف بديع خيري في وقت معاصر لصدور «المسرح» (شهر نوفمبر من عام ١٩٢٥م) وترأس هيئة تحريرها محمود طاهر العربي . فقد وقفت «ألف صنف» في بداية المعركة موقف المحايد ، ولكن عندما أرسل محمد محمود دوارة رسالة أخرى - غير رسالته المنشورة بالعدد (٣٦) من «المسرح» - إلى «ألف صنف» يكرر فيها اتهاماته لزكريا أحمد بالسطو على تراث سيد درويش ، ويحذو في ذلك حذو محمد البحر الذي أرسل برسالته الأولى إلى المسرح» وبنسخة منها إلى «روزاليوسف» ، فإن هيئة تحرير «ألف صنف» رفضت نشرها وتحدثت عن ذلك تحت عنوان «الفن يهان : حول (أدي وقت البرنيطة)» بالصفحات التاسعة والعاشرة من العدد رقم (٣٥) الصادر في ١٩٢٦/٧/٢٠م ، قالت «ألف صنف» في معرض تبريرها لعدم نشر رسالة محمد دوارة : «وقد كان الواجب الصحفي يحتم علينا نشرها بحذافيرها ، لولا أن حضرة مرسلها يقول في آخرها (واليوم نكتفي بهذا القدر على أن نعود أو لا نعود) ، وقد أدهشنا جداً أنه يتهم رجلا معروفا كالشيخ زكريا أحمد بسرقة ألحان غيره ، ثم يسبق بالوعد بأنه قد لايعود إلى البحث في هذا الموضوع كأنه من الهنات الهينات، على أننا مازلنا نحتفظ لحضرته بحق نشر كلمته كلها في هذا الموضوع متى وعد بأنه مستعد لمولاة الجدل والمناقشة بشأنها وإحضار كلام ونوتة القطعة المفروض سرقتها ، حتى يقتنع هو أو يلزم الشيخ زكريا أحمد الحجة بأنه سرق هذا اللحن ، وأما أن يصفعه بهذه التهمة ثم يتولى هاربا من الميدان .. فهذا ظلم وافتراء وليس من العدل أن نعينه عليه» .

كتيبة المدافعين

لم يقف زكريا أحمد موقف المتفرج مما يراد به وهدفت إليه تلك المعركة ، فقد





منيرة المهدية

بادر -كما سبقت الإشارة إليه - بالرد على شرارة المعركة الأولى وهى رسالة محمد البحر التى نشرت بالعدد رقم (٣٣) من مجلة «المسرح» وبالعدد رقم (٣٨) من مجلة «روزاليوسف» ، كذلك فإن زكريا لم يكن وحيدا فى تلك المعركة ... فقد دافع عنه لفيف من أهل الغناء والأقلام الصحافية والجمهور ، نذكر من أهل الغناء الشيخ حامد مرسى مطرب فرقة الماجستيك - إبان المعركة - والذى حاول إثناء محمد البحر من خلال لقائه الشخصى به عن المضى قدما فى هذه المعركة .

كان رد يونس القاضي على ما نقل عن حامد مرسي وليس ماكتبه حامد أو سجل عليه ... بمثابة إرهاب لمن تسول له نفسه الانحياز إلى جانب زكريا أحمد أو الدفاع عنه ، ولعل الهدف من ذلك - كما لايخفى على فطنة القارئ - هو تجريد زكريا أحمد من أنصاره كي يقف وحيدا ليسهل الإجهاز عليه تماما وإقصاؤه من الحياة العامة ومن ميدان عمله ... الغناء والتلحين .



فتحية أحمد

جاء هجوم يونس القاضى على الفنان حامد مرسى فى رسالته المنشورة بالعدد رقم (٣٨) من مجلة «المسرح» مصاحبا للحلقة الثانية من سلسلة من المقالات نشرتها «المسرح» ليونس القاضى تحت عنوان واحد : «الشيخ - زكريا - أفندى». ظهرت المقالة الأولى من هذه السلسلة فى عدد «المسرح» رقم (٣٧) والصادر فى ١٩٢٦/٩/٦م ، واستمرت فى الظهور بانتظام فى كل أعداد المجلة التى صدرت طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر من نفس العام . وقد استعرض يونس القاضى فى مقالاته كل فنون الهجاء ، واستخدم - رحمه الله وغفر له - كل مافى وسعه من وسائل، وذلك من أجل هدف واحد ... هو هدم زكريا أحمد فنانا وإنسانا ، وليطلع قارئ اليوم على عينة مما رمى يونس القاضى به زكريا أحمد من إتهامات وما أراد أن يلصق به من صفات ، فالشيخ - زكريا - أفندى كما يلقبه الشيخ يونس : «ضبط متلبسا بجريمة السرقة الفنية» - وهو «مات موتاً أدبيا» وفنيا - وهو لايترك شرب الخمر ولا يصوم ولا يصلى - وهو يأكل حقوق الناس - وهو «لايحفظ القرآن ولاينفع أكثر من تشريفاتى للزوار فى بيت الزبون» - وهو ... وهو ... إلى آخر ما جادت به قريحة الشيخ يونس .

لم تكن مقالات يونس القاضى التى ظهرت فى مجلة «المسرح» طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٢٦م هى مصدر الهجوم الوحيد على زكريا أحمد خلال ذروة المعركة ، وإنما صاحبتها مقالات أخرى مهاجمة لزكريا أرسل بها بعض القراء أو الكتاب الذين لايعلم إلا الله هل كانت الأسماء التى جاءت قرينة مقالاتهم حقيقية أم أنها من ابتداع يونس القاضى وعبدالمجيد حلمى ، فمن ذلك المقال الذى قدمته «المسرح» بتوقيع (ع. عامر) فى الصفحة الخامسة عشرة من عددها رقم (٣٩) الصادر فى ١٩٢٦/٩/٢٠م ، فكان مما قاله كاتب المقال : «وفى الواقع لست أدرى متى ولا كيف صار الشيخ زكريا ملحناً وموسيقاراً ، فلقد عهدناه فى الماضى القريب لايعرف غير القصة النبوية الشريفة

وقراءة البردة والذكر الحكيم» ، ثم يكتب جورج طنوس تحت عنوان «صور» في الصفحة السابعة بالعدد رقم (٤٢) من «المسرح» الصادر في ١٩٢٦/١٠/١١م مهاجماً السرقات الفنية ، وفي نهاية مقاله يلعن جورج طنوس من يسرق لحناً من ألحان سيد درويش ويصفه بأنه كنابش القبور وسارق الأكفان ! ، ويتوالى صدور هذه السلسلة من مقالات الهجوم في مجلة «المسرح» ... بات القراء ينتظرون كلمة الختام في مشوار فني لملحن لاحت بداياته مبشرة وواعدة ، ولكن الرياح أتت بما لم تشته نفس يونس القاضي .

جاءت نهاية هذه المعركة التي شغلت الرأي العام بمصر قرابة سبعة أشهر على يد أحد هواة الموسيقي وهو السيد / محمد فاضل شاهين ، أرسل محمد فاضل برسالة حوت ملاحظاته حول هذه المعركة إلى مجلة «ألف صنف» ، وقد قامت المجلة بنشر رسالة القارىء - الذي عرف نفسه علي أنه (ملازم ثان بالجيش المصري) ويقيم بالعباسية بمصر - في الصفحة الخامسة عشرة بعددها رقم (٤٤) الصادر في يوم الثلاثاء ١٩٢٦/٩/٢١م ، انقسمت الرسالة التي جاءت بعنوان «حول الشيخ زكريا» إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، في القسم الأول من الرسالة أبدى محمد فاضل بعض الملاحظات الممة على المعركة الدائرة بين مجموعة يونس القاضي وأنصار زكريا أحمد عبر صفحات «المسرح» و«ألف صنف» ، فمن ذلك قوله : «فما كان من المسرح إلا أنه (زودها) وبانت فيه الحكاية وظهرت ظهور الشمس بأنهم يريدون مهاجمة الشيخ زكريا وتشويه سمعته (لاسمح الله) ، وخصوصا ماكتبه الأديب الشيخ يونس القاضي عن الشيخ زكريا بالتتابع فكله ينافي بعضه ، لأنه قال عن الشيخ سيد درويش أنه وجد صوت الشيخ زكريا غير حسن ولا يليق وجوده في جوقة الملحنين في تلحين رواية (شهرزاد) ، ولم يتمكن الشيخ زكريا أن يحفظ (شطره) من لحن من الشيخ سيد (في أربع ساعات) ، وفي مقال آخر يكتب أنه سارق من الشيخ سيد في أربع ساعات ، وفي مقال آخر يكتب أنه سارق من الشيخ سيد ، ومن البديهي أن كل سارق يقظ أو نبيه جداً أو شاطر على الأقل ، فهذا ينافي ما قاله الشيخ يونس في أن الشيخ زكريا غبي لدرجة عدم حفظه شطرة من لحن في أربع ساعات ، وأخيرا قرأت في المرسح (هكذا) الأخير (في كلام للشيخ يونس) يقول أن الشيخ زكريا سارق لحن (مصطفاكي) وعمله لحن (تركي أفندم) وموجود أسطواناته في محل كالدرون ، فذهبت إلى محل كالدرون من باب العلم واشتريت أسطوانة الشيخ زكريا أحمد (تركي أفندم) وقارنت بين الأثنين فلم أجد غير الافتراء من الأديب الشيخ يونس» ، ولكي يوثق محمد فاضل ما أبداه من ملاحظات ويدعمها أمام مجموعة الشيخ يونس والقراء ، فإنه عرف نفسه وطرح سابق خبراته أمام القراء ، فقال في القسم الثاني من رسالته : «وبما أني من غواة الفن وأعزف على العود جيدا ، وكنت من تلاميذ المرحوم محمود أفندي الجمركشي وتعلمت أيضا على المرحوم (السيد أفندي الصغير) وكان زميلي في التلمذة في ذلك العهد (الدكتور زكي عبدالمجيد) فطبعاً على شيء من الفن ، والشيخ يونس وأنصاره لم يكونوا على شيء من فن الموسيقى مطلقاً» ، هكذا وضع القارىء الحصيف الأمور في نصابها وأقام ميزان العدل في ساحة هذه المعركة ، لذلك من الطبيعي أن يجلو هذا القارىء الخبير الحقيقة في قضية السرقة المزعومة ، فيقول في القسم الثالث والأخير من رسالته : «فأقرر انتصاراً للحقيقة بأن مايقوله (أي يونس القاضي)



على الأستاذ الشيخ زكريا أحمد من حيث سرقة الألحان فهو باطل ويشتم منه رائحة العداوة للأستاذ الشيخ زكريا أحمد ، وأقول للأديب الشيخ يونس من باب الاقتراح أنه يتعلم الموسيقى (أولا) ثم يكتب عن الموسيقيين (ثانيا) ، لأنه غلط غلطة فنية مدهشة حين مقارنته للقطعتين (مصطفاكي) و(تركي أفندم) ، والغلطة هي أن لحن (مصطفاكي) نغمة نهاوند ولحن (تركي أفندم) نغمته حجازكاركورد ، والفرق بين الاثنين مثل الفرق بين الليل والنهار» ، أي أن ما أثاره يونس القاضي وشغل به الناس لأكثر من نصف عام ... كان عاريا من الصحة ولم يكن دفاعا عن تراث سيد درويش كما أوهم القراء وإنما كان لأسباب أخرى غير معلنة .

سرقات زكريا أحمد !

هكذا قيض لهذه المعركة أن تصل إلى نهايتها المحتومة على يد أحد هواة الموسيقى ، وإزاء قوة ماساقه محمد فاضل شافين من رأى وتحليل ، كتب محمد عبدالمجيد حلمي تحت عنوان «حول سرقات زكريا ... أقفلوا الباب» في الصفحة الثالثة عشرة بالعدد رقم (٤٢) من مجلة «المسرح» الصادر في ١٩٢٦/١٠/١١م ملخصاً المعركة وما وصلت إليه ، ثم يختتم عبدالمجيد حلمي مقالة بقوله : «أما أنا فقد فكرت في قفل باب المناقشة وإراحة أنفسنا وإراحة الناس من هذه المجادلات التي لاتثمر ولا تكون لها نتيجة» ، ثم يقدم عبدالمجيد حلمي في نفس العدد من «المسرح» نقداً لرواية «أبوزعيزع» التي تقدمها - آنذاك - فرقة علي الكسار على مسرح الماجستيك وكانت ألحانها لزكريا أحمد ، بدا عبدالمجيد حلمي مترفقا في نقده لألحان زكريا أحمد في تلك الرواية ... يشيد ببعضها ويهاجم البعض الآخر ، ولقد سبق لعبدالمجيد حلمي أن أشار إلى قفل باب النقاش حول قضية سرقات زكريا أحمد المزعومة من ألحان سيد درويش وذلك في عدد سابق من «المسرح» ، وهو ماتصدى له محمد البحر في مقال له نشر بمناسبة ذكرى سيد درويش في الصفحة العشرين بالعدد رقم (٤٠) من «المسرح» والصادر في ١٩٢٦/٩/٢٧ قال محمد البحر في معرض احتجاجه على إشارة صاحب «المسرح» نحو غلق باب النقاش حول تلك القضية مايلي : «عليك ياسيدي أحتج وبلسان الكثيرين أصرح لك بأنك لا تملك حق قفل باب المناقشة فيما يدور حول الشيخ زكريا أحمد وسرقاته العديدة ، وأصرح لك أيضا أنك لاتملك أمر هذه المجلة ولا تملك نفسك ، فأنت و(المسرح) ملك للشعب الشريف الذي أتشرف بأن أكون أحد أفراده» ! ، وليلاحظ القارئ مدى قوة خطاب محمد البحر و نصاعة بيانه ، وهو ما يجعل المرء يشك في أن من تولي كتابة رسائل محمد البحر إلي «المسرح» كان كاتبا محترفاً وليس صبياً في الخامسة عشرة من عمره.

جاءت طلقة النهاية من معسكر المهاجمين لزكريا أحمد من الأنواع المحرمة من القذائف ، تمثلت تلك الطلقة في مقال نشرته «المسرح» بالصفحة التاسعة من عددها رقم (٤٥) والذي صدر في صباح الاثنين ١٩٢٦/١١/١م ، صدر المقال بعنوان عجيب نصه الآتي : «الملحن والمغنية .. مذابح الغرام - زكريا - رتيبة أحمد» ، زودت المجلة مقالها المشين بصورتين ... إحداهما لزكريا أحمد يقف إلي جانب المطربة رتيبة أحمد أو يجلس بجوارها ... والأخرى لرتيبة أحمد تجلس فوق كرسي وتبدو وكأنها تفكر بينما تظهر صورة زكريا أحمد أعلى رأسها وكأنها معلقة على الجدار أو تحوم حولها ، إن نظرة سريعة إلى الصورتين تكشف أن الأولي أخذت في مناسبة عمل أو لقاء عادي ... بينما تبدو سذاجة الاختلاق والتركيب واضحة للعيان في الثانية ، كان الهدف من موضوع

كهذا – لم يتضمن أى معلومات عن العلاقة المزعومة التى ألمح إليها العنوان – نقل المعركة إلى منزل زكريا أحمد وب أهل بيته ، ولكن السيدة هانم زوجة زكريا كانت من الفطنة والأصالة بقدر لم تبتلع معه طعم «المسرح»، ولتثبت الأيام بعد ذلك زيف هذه الفرية كما أثبت صبرى أبوالمجد فى الصفحات (١٤٠ : ١٤٢) من كتابه «زكريا أحمد» .

ما وراء المعركة

لم تشر أى من المقالات العديدة التى شارك بها البعض من الكتاب أو القراء فى هذه المعركة إلى الأسباب الحقيقية لها ، وقد انتقلت عدوى غموض أسبابها إلى كل ماكتب عنها بعد انتهائها ، وهو ما يلمسه القارىء عند مطالعته – مثلا – لحديث الصحافى والكاتب الراحل صبرى أبوالمجد عنها فى الفصل التاسع من كتابه «زكريا أحمد» ، فقد اكتفى صبرى أبوالمجد بعرض وقائع هذه المعركة فى ذلك الفصل الذى جاء تحت عنوان «بين سيد درويش وزكريا أحمد» ، ودون أن يشير إلى أسبابها أو أن يحاول استجلاء ما وراء أحداثها ، وكان هذا بالضبط ماصنعه الباحث اللبنانى فكتور سحاب عندما لخص وقائع هذه المعركة فى فصل «زكريا أحمد» من كتابه «السبعة الكبار فى الموسيقى العربية المعاصرة» ، وهو نفس مافعله أيضا الناقد الراحل كمال النجمى عندما ألمح إلى هذه المعركة فى فقرة صغيرة من مقالة «زكريا بعد الذكرى» التى ضمنها مواد كتابه «الغناء المصرى ... مطربون ومستمعون» ، فهل كانت تلك المعركة بلا أسباب لكونها شجاراً مما يقع بين العامة فى الأسواق ؟، أم أنها كانت معركة فكرية لها أسبابها المنطقية وإن تكن خفية ؟ .

إن إعمال الفكر فيما شهدته تلك المعركة الصحفية من أحداث ... إذا ما دعمته بعض المعلومات عن أشخاص المشاركين الأساسيين فيها ، سوف يصل بالمرء إلى قناعة أن أسباب هذه المعركة تكمن فى سببين لا ثالث لهما ، وأول هذه الأسباب يمكن أن يعزى إلى حدوث بعض الضغائن الشخصية بين زكريا أحمد ويونس القاضى خلال مسيرتيهما فى عالم الفن ، فمن الثابت والمعروف أن الصلة بين زكريا ويونس بدأت منذ كان زكريا فى التاسعة من عمره ، وهو ماصرح به يونس القاضى فى الحلقة الأولى من سلسلة مقالاته عن زكريا أحمد والتى نشرت بمجلة «المسرح» – كما سبق الإشارة إليها – تحت عنوان «الشيخ – زكريا – أفندى» ، يقول يونس القاضى فى بداية هذه الصلة فى الصفحة السادسة والعشرين من العدد رقم (٣٧) من مجلة «المسرح» الصادر فى ١٩٢٦/٩/٦م ما نصه : «أول مرة وقع نظرى فيها على زكريا كنت طالبا بالأزهر وكان هو طفلاً فى التاسعة من عمره (أى حوالى عام ١٩٠٥م) يلبس جلبابا من الغزل المحلاوى المتين وطاقية شبيكة وفى أذنيه قرط» ! ، وعندما بدأ نجم زكريا أحمد يلمع فى عالم الغناء ... كانت كلمات يونس القاضى التى نظمت فى شكل أدوار وطقاطيق تغنت بها أشهر الأصوات الغنائية مثل منيرة المهدية وعبداللطيف البنا هى الأجنحة التى حلقت باسم زكريا عاليا ، ولكن زكريا أقلع عن الاستعانة بأزجال يونس القاضى بدءا من عام ١٩٢٤م – وعندما بدأ فى تلحين الروايات المسرحية – ليتعاون مع مجموعة من الشعراء والزجالين نذكر منهم بديع خيرى ويحيى محمد وحسن صبحى ، إن تحول زكريا عن الاستعانة بأغنيات يونس القاضى فى هذه الفترة ... يعد سبباً كافياً لإشعال صدر يونس القاضى بنيران الغيرة والضيق ، وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار ماحققة زكريا أحمد خلال تلك الفترة من نجاحات جعلته





محمد البحر

المرشح الوحيد لاحتلال مكان الشيخ سيد درويش فى عالم الغناء والتلحين ، وهو مايعد سببا معقولا لدى يونس القاضى لشن مثل هذه المعركة تعبيرا عن غيرة مهنية وتحاسد بين الأقران ، وأما ثانى أسباب هذه المعركة ... فإنه يرتبط بالشيخ يونس القاضى فى المقام الأول ، إذ أثر عن يونس القاضى إتقانه الهجاء وشن الهجمات الصحفية ، وهاهو الصحافى والكاتب عبدالنور خليل يصف يونس القاضى فى كتابه «المعممون فى ساحة الطرب والغناء» فيقول : «بل إنه (أى يونس القاضى) أصبح حديث الأوساط الثقافية والفنية وهو ينشر بابا أطلق عليه محكمة الأدب والفن ... راح يتصيد فيه الأخطاء النحوية لكبار الكتاب ومشاهير الفنانين ويحاكمهم عليها ... وكان من بين من حاكمهم محمد سليمان عناره وكيل المحكمة الشرعية حينئذ وطه حسين ولطفى السيد» (ص١٩٨) ، ولتعدد مواهب يونس القاضى وكثرة صلاته بالفنانين والأدباء ، فإن وزارة الداخلية فى حكومة أحمد زيور باشا - والتى كان يتولى زيور باشا مناصب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والخارجية فيها - قامت بتعيين يونس القاضى فى عام ١٩٢٦م بمنصب «الرقيب على الفنون» كما ذكر عبدالنور خليل فى الصفحة رقم (٢٢٠) من كتابه المشار إليه سابقا ، أو فى وظيفة «مدير المطبوعات» كما أوردها الفنان والكاتب محمد قابيل فى كتابه « موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين » (ص ٣١٦) ، ولما كان زكريا أحمد قد لحن فى أعقاب ثورة ١٩١٩م العديد من الأغنيات التى تضمنتها الروايات المسرحية ، وهى أغنيات قدمت تصويرا دقيقا للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر ، وقد سخر العديد من هذه الأغنيات باستخدام التورية والإسقاط من ملك مصر الذى لقب فى رواية «دولة الحظ - ١٩٢٤م» بجلالة الأمير باباظ الأول ، فإن معركة كالتى شنها يونس القاضى على زكريا أحمد يمكن أن تفسر على أنها شنت لتأديب أكبر الملحنين بمصر على ماتضمنته ألحانه من إسقاطات سياسية ، أو للتغطية على مصادرة البعض من أغنياته مثل أغنية «إرخى الستارة» ومنع إذاعتها أو تداولها ، تلك المصادرة التى قام بها يونس القاضى والتى تتواءم تماما مع سياسة حكومة زيور باشا التى حكمت مصر لسنة وبضعة أشهر ... قامت خلالها بتعطيل الدستور حتى أقالها الملك فؤاد الأول فى ١٩٢٦/٦/٧م.



صالح عبد الحى

وأيا ما كانت الأسباب وراء تلك المعركة التى استهدفت النيل من زكريا أحمد ، فإنه بحلول شهر نوفمبر من عام ١٩٢٦م ... أغلقت صفحات الصحف والمجلات التى خصصت لأحداث هذه المعركة : هجوما ودفاعا ، ولتكر الأيام وتتوالى الشهور وتتعاقب السنوات ، فإذا بأحداث هذه المعركة وقد غيبها النسيان وطوتها أوراق الصحف والمجلات القديمة ، ولكن الأمر المؤكد بشأنها ... أن زكريا أحمد قد خرج منها باقوى مما كان عند بدئها ، وأن ما أثارته من زوابع حول موهبة زكريا أحمد لم تنل منها كما خطط لذلك المخططون لهذه المعركة ، وليمضى زكريا أحمد فى مسيرته الفنية التى عرفناها والتى وضعته عند منتهاها فى طليعة ثوار الموسيقى العربية فى القرن العشرين. ■

رقصة النار

شعر
عبد اللطيف عبد الحليم

تألقى ، وابتهجى ، واشتعلى فى وهجى
وصافحينى فى الصباح، فى المساء ادلجى
ورنمى من نغمى المحبوس ، لا تخرجى
ورفرفى أجنحة، شهية التموج
فتلتقى أجنحتى، بروضها المبتهج
وتحتسى من شرفات الضوء، غير مرتج
وتعتلى صهوة ريح، فى فضاء مسرج
تجذب سمع النجم، ترتعى الشعاع، تلتجى
تنشب فى العروق، تحيى غافيات المهج
تشب جذوتى إليك، يتنزى وهجى

* * *

تألقى كالنغم المشبوب فى الأفق الدجى
وهدهدى الطفل الذى تاق لظل الهودج
دعيه لغزل الدجى، بشعرك المموج
ينادم الخمرة من زهر الشفاه الأرج
يطير كالفراش فى شوق السنا المنبلج
ينتهب الرى، يغالى فى ارتشاف الهوج
يقتحم الشطآن، لايثنى بسد مرتج
أنت عذابات الرياح فى اللظى المؤجج
أنت نهول النخل، أصداء الهوى المختلج
أنت عزيف الموج فى عمق الأسى المعتلج
ورقصة النار، تحن فى خيالات الشجى
تنشب فى العظام، فى ليل شقى السرج
تأججى - بلا ونى - يانارها، تأججى
وروضى منى جماحا، لائذا بالحرج
وسامرى منى رياحا فى ظلام مدلج
وزلزلى توقرى، ولا تبالى عوسجى
توقدى فى أضلعى، وفى الدما توشجى
تأرجى فرحة ورد، لا أسى بنفسج
واشتعلى ياجذوة فى النفس، لا تثلجى
وامتزجى، إن خلود الروح أن تمتزجى
وشعشعى كأسك باللحن، رخيم الهزج
شقيقة الموج، سفينى غارق فى اللجج
فيا سماء أقلعى، وياغيوم انفرجى

١٩٢
الهلال
ذو الحجة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م

اعترافات آخر العنقود

بقلم
د. جلال أمين

ليس لدى شك فى أن هناك علاقة وثيقة بين كون أبى «الأستاذ أحمد أمين» كاتبا معروفا، وبين إصرارى أنا على أن أصبح بدورى كاتبا معروفا ولكن هذه العلاقة بين الأمرين ليست على الإطلاق ما قد يتصوره القارىء، أى صورة أديب ومثقف كبير يجلس كل يوم مع أولاده ليعطيهم دروسا فى الثقافة والأدب، أو يضع لهم خطة لتثقيف أنفسهم ، أو يطالبهم بأن يقرأوا هذا الكتاب أو ذاك . فالحقيقة كانت غير هذا تماما .

إن أبى نادرا ما كان يسألنا عما نقرأ أو نكتب ، بل ولا أظن أنه كان من بين آماله أن يكون أحدنا كاتبا أو أديبا مثله . كان كل ما يتمناه لنا أن يمتهن كل من أولاده الذكور مهنة تضمن له حياة ميسورة أيا كانت هذه المهنة «ولكن بافتراض أنها مهنة شريفة بالطبع» وأن تتزوج كل من بنتيه زواجا مستقرا ، وسعيدا إذا أمكن. وفى حالتى أنا، كنت أعرف جيدا أنه كان يتمنى أن أكون طبيبا عسى أن يكون لى بعض الفائدة عندما تتقدم به وبأمى السن وتتدهور صحتهما، فخيبت أمله تماما فى هذا الصدد، واخترت أن أكون كاتبا ومدرسا فى الجامعة بدلا من ذلك .

وإنما تأتى العلاقة الوثيقة بين اشتغالى بالكتابة «إلى جانب التدريس بالجامعة»، وبين كون أبى كاتبا، من تضافر عاملين ، يتعلق أحدهما بمركز أبى فى المجتمع والثانى بمركزى أنا فى العائلة .

أما عن أبى ، فقد كان من الواضح

لكل أفراد الأسرة ، وابتداء من سن مبكرة للغاية ، ما كان يتمتع به أبى من مكانة مرموقة في المجتمع ، وأن هذه المكانة لا تعود لشيء إلا الكتابة والتأليف. نعم ، لم تكن لأبى شهرة تضاهي شهرة طه حسين مثلا أو العقاد أو توفيق الحكيم، ولكنها في نظرنا نحن الصبية الصغار، كانت تضاهي شهرة هؤلاء وتزيد عنها، كنا نرى له مقالا بعد آخر في مجلة بعد أخرى ، ونرى صورته إلى جانب المقال، ونسمع صوته وهو يلقى حديثا في الإذاعة ، ونسمع جرس التليفون يرن فإذا بالمتكلم هذا الكاتب الكبير أو ذاك ، وفي الأعياد نرى ساعي البريد يحمل له عددا كبيرا من بطاقات المعايدة، كثير منها لأسماء معروفة ومشهورة، وكل هذا أتى من الكتابة والتأليف، فما أعظمها من مهنة، وما أجدرها بالاقتداء!

لابد أن كان لهذا صلة وثيقة بتصميمي على أن أكون كاتبا. ولكن كان هناك عامل آخر لا يقل قوة ويتعلق لابمركز ابى بل بمركزى أنا. كنت أنا أصغر أولاد أحمد أمين ، سبقني إلى الوجود خمسة أولاد وبنتان ، وقد كان من المفروض ، باعتبارى «آخر العنقود» ، أن أحظى بمعاملة متميزة عن المعاملة التى يلقاها بقية أولاد وبنات العائلة ، ولكني لا أذكر أني حظيت من أبى أو من أمي بأى معاملة متميزة على الإطلاق . نعم، كانت أمي في بعض اللحظات النادرة، من صفاء البال، تشير الىّ بهذا الوصف «آخر العنقود»، ولكن هذا كان هو أقصى ما حصلت عليه من حسن المعاملة.

مشاغل أبى

كان أبي مشغولا على الدوام بأمور أكثر أهمية من المشاعر العارضة لهذا الابن أو ذاك - طالما أن الامر لم يصل إلى حد الأزمة النفسية أو المرض ، وكانت أمي مشغولة بتجنب غضب أبي، وبالطبيخ والغسيل لثمانية من الاطفال. بل زاد الطين بلة، أنها عندما قدمت أنا الى الوجود كانت قد أصابها الاعياء التام من الاطفال السبعة الذين أتوا قبلى، بالاضافة الى اثنين آخرين ماتا قبل أن يتما سنة واحدة من العمر .

صحيح إنها بذلت جهدا كبيرا ومشكورا لكى تجعل قدومى إلى الوجود ممكنا أصلا (فقد كان ابى مصمما على الاكتفاء بسبعة فخدعته حتى أصبحوا ثمانية) ولكنها بعد أن جئت الى الوجود بالفعل لم تبذل أى جهد للتخفيف من شعورى بالضآلة وسط هذا الجيش المخيف من الاولاد والبنات الكبار والصغار ، وبأنى أقلهم جميعا شأنا، ولا شك أن أبى قد ترك أمي، ما دامت هي التى أصرت على إتاحة الفرصة لى

للقدوم إلى هذه الدنيا، لتتصرف في الأمر كيفما تشاء.

كان لابد لي أن أبحث عن منفذ للتنفس خارج البيت ، وقد وجدته بالفعل واستخدمته أقصى استخدام ممكن. فإذا فقدت أي أمل في لفت انظار العائلة إلي ، لم يكن أمامي غير الأقران والمدرسين في مدرسة بعد أخرى.

بدأ نشاطي في هذا الأمر منذ البداية، أي منذ روضة الأطفال ، فأتذكر جيدا كيف أني وأنا في التاسعة أو العاشرة من العمر، عندما التحقت بالمدرسة النموذجية الابتدائية بحدائق القبة (المسماة الآن بالنقراشي) التقيت في أول أيام الدراسة بزميل قديم من زملائي بروضة الأطفال .

«هو نبيل العربي الذي صار فيما بعد دبلوماسيا مرموقا» . وكان قد مر على آخر لقائي به نحو ثلاث سنوات، نظر إلي وجهي مليا ونظرت إلى وجهه نحاول أن نتذكر بالضبط أين كان لقاؤنا السابق، وكان على رأسي طربوش أحمر وعلى رأسه طربوش مثله، مما جعل التذكر اكثر صعوبة. فإذا به يسألني بعد لحظة تأمل: «مش انت اللي كنت بتعمل حرب جلال في الروضة؟» قلت :«نعم». وكان معنى هذا أنى كنت أشن الحروب في روضة الأطفال وأنظمها واختلق للحرب أسبابا، فأقسم الأولاد إلى جيشين، أحدهما يحمل اسمي ويواجه كل جيش الآخر وقد أمسك كل منا بطرف مريلة الطفل الذي يجري أمامه.

لا أذكر عن هذه الحرب أكثر من هذا ، ولكن في هذا الكفاية، فالجيش كان اسمه جيش جلال ولم يكن اسمه جيش نبيل العربي، أو أي اسم آخر.

***

ربما كان تكوين الجيوش وشن الحروب عملا مناسبا لطفل في روضة الأطفال ولكنه لم يكن ملائما تماما لصبي في المدرسة الابتدائية .

على أي حال فسرعان ما اكتشفت في نفسي القدرة على الظهور ولفت الأنظار إلى بطريقة أخري، وهي أن أصبح الأول في الترتيب بين كل تلاميذ الفصل في كل امتحان نؤديه . وكان هذا هو بالفعل ما حدث في كل امتحان دخلته حتى سنوات الجامعة . ربما حدث مرة أو مرتين أن كان ترتيبي الثاني ، ولكن من المؤكد أن هذا لم يتكرر كثيرا ، حتى أصبح حصولي على المركز الأول في الامتحان هو ما يتوقعه الجميع مني في البيت والمدرسة على السواء . الغريب فعلا في الأمر ليس هو احتفاظي بهذا المركز طوال هذه السنوات ، بين تلاميذ ليس لدى أي منهم نفس الرغبة وبهذه القوة، في التميز عن الآخرين ، وإنما الغريب والمدهش حقا هو تلك الأهمية

التى كنت أعلقها على هذا التميز . لم يكن حصولي في الامتحان على المركز الثاني بدلا من الأول ، مجرد حادث مؤسف او محزن ، يتطلب بذل المزيد من الجهد في الامتحان التالي، بل كان في نظرى مأساة ومصيبة لاتعادلها أى مصيبة أخرى. لم يكن الاحتمالان المطروحان هما إما الحصول على المركز الأول أو على مركز أقل منه، بل كانا هما إما أن أكون الأول أو ألا أكون شيئا على الإطلاق . والمسألة بلا شك مرضية (بفتح الميم) وتحتاج الى بعض التأمل ، فهى تنطوى على اعتبار الاعتراف بأنى الأول على الجميع شرطا للاعتراف بوجودى أصلا، والأمر هنا شبيه جدا بشعور الرجل الذى يحب امرأة حبا جما ثم تأتى إليه هذه المرأة لتقول له انها تحترمه وتقدره ولكنها تحب رجلا غيره افما جدوي الاحترام والتقدير في هذه الحالة ؟

إن المطلوب هو الحب ولا شيء غيره، وفي الحب ليس هناك مركز أول ومركز ثان ، بل مركز واحد فقط .

عندما اكتشف هذه الخصلة في لأول مرة انزعجت انزعاجا شديدا وقلقت قلقا بالغا، ولكن هذا الانزعاج والقلق زالا بعد بضع سنوات عندما أدركت ان هذا العيب لابد أن يكون شائعا بأكثر مما كنت أظن ، وهو عيب لا يخلو من منافع لنفسى ولغيرى. فالاستماته للحصول على المركز الأول في كل امتحان ليس شيئا سيئا من كافة النواحي، ومن المؤكد ان كثيرين ممن حققوا أي نوع من التفوق فى حياتهم كانوا مدفوعين بشعور من هذا النوع، سواء كانوا من السياسيين أو العسكريين أو ممثلين أوكتابا .. الخ، مع اختلاف في الدرجة بالطبع وفى الموهبة ألا يعشق الممثل البارز تصفيق الناس عشقا، ويفعل المستحيل لاستدراره منهم ؟ أليس هذا هو أيضا حال الخطيب المفوه والمدرس الناجح وقائد الثورة السياسية .. الخ ؟

ليس لدى إذن الآن ما أقلق بسببه في هذا الصدد .. إن الشخص الوحيد الذى دفع ثمنا غاليا لهذه الرغبة العارمة فى التفوق هو أنا فلا أظن أنى أحدثت بسببها أذى كبيرا لغيرى من الناس دون أن يستحقوه ، أو على الأقل لا أظن أن الصفة العكسية، اى الرضا بأن أكون من اقل الناس شأنا، كان من الممكن أن تحدث ضررا أقل بالآخرين بل أظن أن هذه الرغبة العارمة فى التفوق قد جلبت بعض النفع لبعض الناس كما لو كان أحد قد استمع إلى محاضرة جيدة ألقيتها أو قرأ كتابا أو مقالا لى فأعجب به .

★★★

اقترنت هذه الرغبة العارمة فى

التفوق ، الناتجة فيما أظن عن ضآلة قيمتى فى هذه الأسرة الكبيرة، بالرغبة فى الاقتداء بأبى وتحقيق ما حققه من نجاح عن طريق الكتابة، فاندفعت احاول أن أتميز فى الكتابة أيضا. ولابد أن ساعدنى على ذلك استعداد طبيعى للتعامل مع الكلمات وبعض القدرة على تمييز الأسلوب الجميل عن القبيح .

هذا الاستعداد اتضح مبكرا لمدرسى اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية فكانوا يعطوننى دائما درجة عالية على ما أكتبه من موضوعات الإنشاء أو التعبير ، كما كانت تسمى فى تلك الأيام ، وكثيرا ما كان المدرس يكتب إلى جانب الدرجة العالية بعض عبارات الثناء، وكان هذا يسرنى سرورا عظيما إذ لم أدرك وقتها أن كثيرا من عبارات الثناء . هذه كان المقصود بها أبى فى المقام الأول فقد كان كثيرون من مدرسى اللغة العربية حريصين على أن يحصلوا على رضاه، وأن يعرفوه بأنفسهم عسى أن يستطيعوا فى يوم من الأيام تحقيق بعض النفع من وراء ذلك .

بل إن هذه المحاولة للتفوق عن طريق الكتابة بدأت معى منذ سنوات روضة الأطفال (وكانت تبدأ حينئذ فى سن الخامسة) إذ من بين أولى ذكرياتى عزمى على كتابة قصة لكى أعرضها على مدرسة رقيقة فى روضة الأطفال كان اسمها ، «أبلة فاطمة»، وأنى كتبت هذه القصة بالفعل وذهبت فى اليوم التالى متلهفا اشد التلهف على إعطائها لها ومعرفة رأيها فيها، ولكنها لخيبة أملى الشديدة لم تحضر إلى المدرسة فى ذلك اليوم . بل ولم تظهر فى المدرسة بعد ذلك قط وبالتالى لم تقرأ قصتى ولا قرأها غيرها .

بعد هذا بسنتين أو ثلاث ، وكنت فى الثامنة أو التاسعة من عمرى اشتركت مع أخوى حسين وأحمد فى كتابة مجلد يتكون من عشر صفحات ، ويحتوى على ثلاث قصص قصيرة. كانت قصتى التى تقع فى نحو ثلاث صفحات تحمل هذا العنوان التراجيدى «دنيا» وكانت مأساوية بالفعل ، إذ كان موضوعها حلما زعمت أنى حلمته ، وتعرضت فيه لأحداث مأساوية متتالية ، منها تعرضى التعذيب البدنى القاسى من مختلف الأنواع على يد سيدة غليظة القلب بشعة المنظر ، دون أن يتبين فى الحلم أى سبب واضح لهذا التعذيب وتنتهى القصة بأن اسأل عن اسم هذه السيدة فاكتشف ان اسمها «دنيا» فأقول فى نفسى «نعم ، كم أنت قاسية يا دنيا » وبهذه الجملة تنتهى القصة، واستيقظ من نومى واكتشف أن كل هذا لم يكن أكثر من حلم. للقارىء أن يتصور الحالة النفسية التى يمكن أن تدفع طفلا فى

الثامنة أو التاسعة من عمره إلى كتابة قصة كهذه وان يصف «الدنيا» على هذا النحو . التفسير الوحيد الذي يمكن أن يخطر لي هو مركزى المتدنى فى سلم العائلة، مع تعرضى المستمر للإيذاء من جانب أخوى اللذين يكبرانى مباشرة ، حسين وأحمد، اذ كانا يحاولان تحسين مركزهما المتدنى هو الآخر ، بظلم من هو أصغر وأضعف منهما .

كانت القصة الوحيدة من بين القصص الثلاث التى تتمتع بأى قيمة أدبية على الإطلاق هى قصة اخى حسين . كانت تحمل عنوان «كهولة مرحة» ، وكانت على عكس قصتى خفيفة الظل مشوقة ، بل ولا تخلو من مغزى مازالت لدى حتى الان نسخة من هذا المجلد وهو مطبوع طباعة أنيقة فى مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر التى اسسها أبى ومجموعة من أصدقائه فى سنة ١٩١٤ وظل رئيسا لها حتى نهاية حياته . كما أنه كان «مجلدا» بمعنى الكلمة، اى كان له غلاف احمر اكثر سمكا من بقية صفحات الكتاب ، كتبت عليه اسماء القصص والمؤلفين وتحت اسمى كتبت عبارة تلميذ بالسنة الثانية أو الثالثة فى المدرسة الابتدائية. كنا نعتبر موافقة أبى على طباعة مثل هذه القصص بمطبعته امرا طبيعيا ولا ينطوى على أى تسامح او كرم من جانبه ، بل كنا نعتبره واجبا عليه. ولكن العكس بالطبع هو الحقيقة ، فقد كان من أسهل الأمور عليه أن ينهرنا ويأمرنا بالكف عن هذا الكلام الفارغ ولكنه لم يفعل .

وافق أبى أيضا بعد هذا بسنة أو سنتين ، عندما كنت فى نحو العاشرة من عمرى ، على أن تطبع فى مطابع اللجنة مجلة أسستها أنا وعدد من أصدقائى تحمل اسم «عصفور النيل»، صدرت منها ثلاثة أو اربعة اعداد ثم احتجبت عن الصدور عندما حققت الغرض الاساسى من إصدارها وهو أن نرى أسماءنا مطبوعة وموصوفة بألقاب مثل رئيس التحرير او حتى رئيس مجلس الادارة ، وهو منصب لم يكن من الممكن أن يحتله شخص غيرى ، ليس فقط لأن المجلة تطبع فى مطابع ابى ولكن لأنى أنا الذى كنت اكتب معظم مقالات المجلة .

الأغرب من هذا أن ابى، عندما بلغت أنا وأخى حسين سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة ، كان يسمح لنا بنشر بعض ما نكتبه فى مجلة الثقافة ، تلك المجلة الرفيعة التي كان يرأس تحريرها طوال عمرها، والتى لعبت دورا مهما فى الحياة الثقافية فى مصر فى الثلاثينات والاربعينات ولكن ما كنت أكتبه فى ذلك الوقت، عدا هذه المقالات التى نشرت فى مجلة الثقافة ، ومما لا يتصور نشره فى أى مجلة او كتاب ، كان أكثر بكثير .

كنت حتى دخولي الجامعة دائم التأليف للكتب، المخطوطة بخط اليد، لم تكن كتبا ضخمة بل إن بعضها لم يكن يزيد حجمه على عشرين صفحة يتكون معظمها من صفحة الغلاف، وصفحة الإهداء، ثم صفحة المحتويات والمقدمة، يليها خمس أو عشر صفحات قبل أن تأتي الخاتمة. كان المهم هو بالطبع مراعاة القواعد الصارمة التي تراعى في معظم الكتب:

فلا بد للكتاب من إهداء وصفحة المحتويات، وقد تأتي تحت عنوان الكتاب عبارة بليغة لكاتب مشهور، بل وربما ذكرت على صفحة الغلاف أن هذا هو الجزء الأول أو الثاني من عدة أجزاء سوف تصدر تباعا. وقد يتضمن الكتاب قصصا وأشعارا ومجموعة من الأقوال المأثورة وبعض الخواطر الفلسفية، وقد يضم موضوعا للإنشاء كتبته لأحد المدرسين وعبر عن إعجابه به. كان من بين هذه المحاولات الطموح في التأليف تأليف كتاب فلسفي اخترت له اسما ذا مغزى وهو «الحقيقة السعيدة»، أعبر فيه عن رأيي بأن اكتشاف المرء للحقيقة لا يتعارض بالضرورة مع شعوره بالسعادة، إذ لا جدوى من إحداهما بدون الأخرى وهي منحى للتفكير لابأس به من صبي في الثانية عشرة من عمره

كما أذكر أني بعد هذا بسنتين «أو ثلاث قرأت الترجمة العربية لكتاب «آلام فيرتر» لجوته (ترجمة الأستاذ الزيات) فتأثرت به تأثرا شديدا جعلني أقرر أن أكتب قصة مماثلة أصب فيها ما كنت أشعر به من حب لابنة الجيران، فصعدت إلى سطح المنزل، وجلست في الشمس ومعي الورق والقلم وشرعت أكتب كتابا بأكمله دون أن يكون لدي أدنى فكرة عن موضوع القصة أو كيف تبدأ وكيف يمكن أن تنتهي. ومن ثم لم أكتب إلا سطرين ثم نسيت المشروع بأكمله.

كان من المحتم أيضا أن أجرب الشعر كما جربه غيري، قبل أن أكتشف مثلما اكتشف كثيرون غيري انعدام الموهبة تماماً في هذا المجال. وأظن أني كنت في نحو السابعة من عمري عندما بدأت أكتب قصيدة أعبر فيها عن فرحي بعودة أمي من سفرها إلى قريتها بالمنوفية فقلت في البيت الأول:

أمي العزيزة قد أتت *** أمي العزيزة قد أتت

ثم توقف الإلهام عند هذا الحد. وعندما ذكرت لأبي ما حدث تصادف أن كان خالي البال فقرر تشجيعي بأن يؤلف بيتين إضافيين على أمل أن أضيف إليهما فيما بعد، فقال:

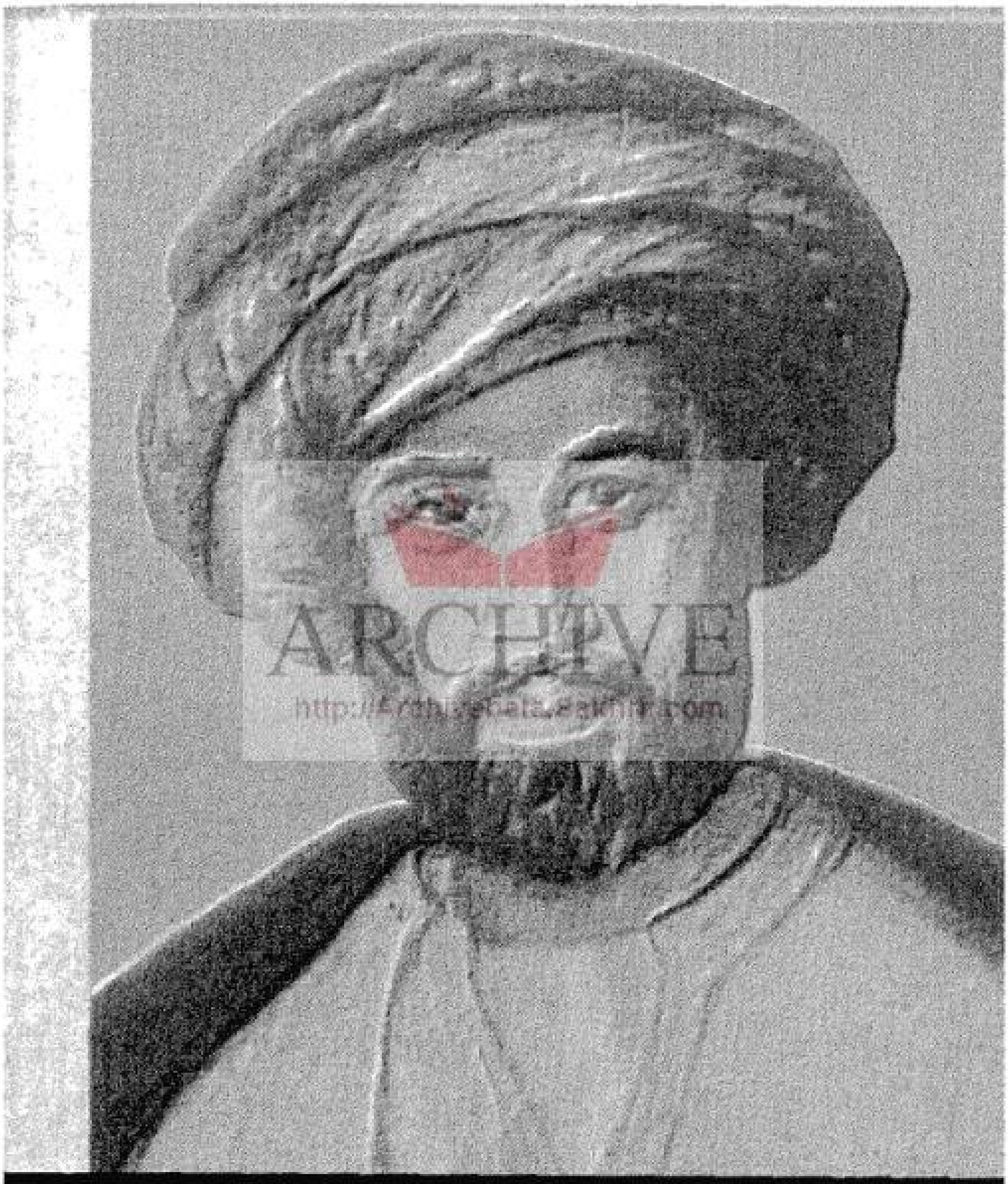
هيا بنا إليها *** نلقى السلام عليها

نقول يا أم أهلا *** ومرحبا وسهلا

ولكن هذه المساعدة السخية من جانبه لم تثمر أي شيء جديد من جانبي ■

عائلات ثقافية

أثر فلمة رافع



الطهطاوى فى أسرته

بقلم
محمد رفاعة الطهطاوى

عندما توفى على باشا فهمى رفاعة، الإبن الأصغر لرفاعة الطهطاوى سنة ١٩٠٣ رثاه أمير الشعراء أحمد شوقى بك بقصيدة مطلعها:

أبكى رفاعة أبكى العلم والأدبا
أبكى المروءة والفضل الذى احتجبا

إلى أن يقول:

يابن من أحيت مصر معارفه
أبوك كان لأبناء البلاد أبا

ويهمنى بصفة خاصة أن أشير إلى هذا البيت الأخير، لأن شوقى جعل من رفاعة أبا للمصريين وأبوته مناطها العلم.

وبعد ما يقرب من قرن من الزمان كتب الأستاذ بهاء طاهر كتابا عنوانه «أبناء رفاعة: الثقافة والحرية» وبيت شوقى وعنوان بهاء طاهر يوجزان بجلاء معنى أساسياً، هو أن أبناء رفاعة حقا هم أولئك الذين يتصلون به بصلة الفكر العلم وليس من يمتون إليه بصلة النسب والدم، وأن تراثه ليس مالاً ولا عقاراً.. وإنما علمٌ يُنتفع به، وفكر أصيل حر يسعى إلى إقامة نهضة وإلى إحياء أمة، إن فكر رفاعة فكر نهضوى لا يرى الثقافة ترفاً، وإنما يراها وسيلة لازمة لبناء نهضة حقيقية جوهرها العلم والثقافة والدين، ومظهرها التقدم المادى الذى يحققه تضافر القوى الاجتماعية فى مناخ من العدل والحرية.

ومما سبق فإن محاولة تقصى أثر رفاعة فى أسرته إنما تعنى فى الحقيقة

محاولة تقصى أثره فى نهضة وطنه وأمته.. فأمته هى أسرته، ولقد لمست بنفسي أن هناك أناساً لا يمتون لرفاعة بنسب.. ومع ذلك فهو أقرب إليهم وأحب لديهم من بعض من اتصل به بنسب.

ومع هذا وبحكم كونى أرشد الذكور الأحياء ممن يحملون اسم رفاعة فإننى أستطيع أن أقرر أن رفاعة له فى أسرته الصغيرة وفيمن يحيطون بها أثر فريد، فإنك تشعر به حياً ماثلاً بين كل جيل من أبنائه وأحفاده، وتراه شخصية محورية فى حياتهم، وتراهم وهم يتحدثون عنه يتحدثون عن شخص تمتلىء قلوبهم بحبه كما تمتلىء عقولهم بتقديره والاعتزاز به، كما يستشعرون على مر الزمان مسئولية خاصة عن الحفاظ على آثاره وتراثه، ولقد لمست هذا، أوضح ما لمست لدى والدى المغفور له السيد فتحى رفاعة، فقد كان يشعر أن مهمته الأولى فى حياته هى الحفاظ على تراث جده، والعمل على إحياء فكره ونشره.

وإذا تساءلنا عن لماذا ترك رفاعة هذا الأثر العميق فى أسرته، فلعلى أجيب بأن السبب الأول فى تقديرى هو أن رفاعة فى سلوكه كان مثالاً لرفاعة فى فكره، فهو رجل يفعل ما يقول ويقول ما يفعل.. ويلمس أبناء أسرته ذلك فى حياتهم معه كل يوم، فهم يرونه قدوة صادقة، ولا يجدون لديه ذلك التناقض بين العام والخاص الذى ميز حياة كثير من المشاهير، وسأحاول فيما يلى أن أضرب بعض الأمثلة على التوافق بين أفكار رفاعة وبين تصرفه فى حياته الخاصة.

رفاعة والمرأة..

يرى رفاعة أن احترام المرأة مقياس لدرجة تحضُر الأمم، فيقول «كلما كثر احترام النساء عند قوم.. كثر أدبهم وظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغى لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة..» وهو يرى المرأة أكثر صبراً على الفضائل من الرجل فيقول «إن درجة الفضيلة فى النساء كالعفة والعصمة، أشد منها فى الرجال، بحيث يبلغن فى درجة الحياة أوج الكمال، فإن المرأة العفيفة الكريمة تتحمل أثقال الحركات النفسانية عند الاحتياج إليها.. مما يعجز صناديد الرجال عليه».

ورفاعة يؤمن بأن المحبة الصادقة بين الزوجين هى المحبة القائمة على الشمائل المعنوية الباقية.. وليس على الجمال الظاهرى الزائل، وأن أساس العلاقة هو الاحترام فيقول: «وكما أن الرجل الكامل يرى زوجته بعين الإجلال والاحترام، كذلك الزوجة الكاملة المتحببة إلى زوجها لا ترى فى الدنيا رجلاً يساوى زوجها.. وربما أحبته حبين: حباً لذاته وحباً لحقوق الزوجية، فهذه هى المحبة الراشدة... فمن ذلك يعلم أن الواسطة الوحيدة فى استدامة الود بين

الزوجين ولو فقدت المحاسن الظاهرية، هى وجود الاحترام والإجلال بين النساء والرجال».

هذه العبارات تكشف بعض أفكار رفاعة تجاه المرأة، تعالوا بنا إلى حياته الخاصة لنرى كيف عامل زوجته وكيف كان سلوكه مصداقاً لفكره.

إن رفاعة رجل صادق فى مشاعره وثابت فى محبته، فهو رغم غيبته فى فرنسا لخمس سنوات تعرض فيها لتجربة حضارية هائلة فإنه بقى على خطبته لابنة خاله الفتاة الصعيدية التى لم تر ما رآه من أسباب الحضارة وفنونها، وهو بعد هذا يعطى زوجته عهداً شهيراً بألا يتزوج عليها وألا يتسرى بجارية.. وهو أمرٌ مستغرب نادر فى ذلك العصر، وقد ظل رفاعة على عهده لامرأة واحدة، لم يتغير ولم يتبدل.

وكان يعتبر امرأته شريكة له يثق فى رأيها ويعتمد عليها، فقد كانت زوجته طيلة غيبته فى السودان تضطلع بعبء تدبير شئون الأسرة وتصريف أحوالها، بل إنها وقد كانت مدبرة مقتصدة قامت بشراء عقارات عديدة أثناء غيابه، وكانت تذهب متخفية لمعاينة تلك العقارات قبل شرائها، ومن بين العقارات التى قامت بشرائها وظلت فى حوزة الأسرة إلى زمن قريب.. القلب التجارى القديم لمدينة طهطا والمسمى بالقيسارية أو الجوفار.

وقد سري احترام المرأة فى الأجيال المتعاقبة من آل رفاعة، وقد شاء الله أن تكون معظم ذرية رفاعة من السيدات وقد حظين دائماً بالتقدير، وكانت لهن شخصية معتبرة مستقلة وحقوق مصونة، ولقى عدد منهن تعليماً وثقافة بقدر ما سمحت به أوضاع العصر، ومن اللطائف التى تُذكر أن السيدة نفيسة حفيدة رفاعة الطهطاوى وكريمة على باشا رفاعة كانت تحضر فى بداية صباها مجالس أبيها وكانت مجالس علم وأدب. كانت تحضر هذه المجالس متخفية فى زى شاب مرتدية الطربوش. وكان أبوها يدعوها محمود أفندى، وقد داعبها والدها بأبيات من الشعر الظريف يقول فيها..

يا وردة بين الأزاهر ناضرة
اياك إن أباك صاحب شوكة
فيراك من بين الأزاهر ناضرة

ومعاملة رفاعة لأبنائه مثال آخر، فنراه يرق لهم رقة هائلة، وسفره وهو فى السودان يكشف عما يعانيه من بُعده عن أولاده، ولكنه مع ذلك يربيهم تربية تجمع بين العاطفة الأبوية وبين الحرص على أن يكون الأبناء أصحاب شخصية مستقلة، فنرى رفاعة يعامل أبناءه باحترام حقيقى، لا يتساهل معهم فى حق، ولا تدفعه عاطفته إلى إعطائهم ما ليس لهم بحق.

والقصة التى يرويها الرحالة الأمريكى بايررد تايلور الذى التقى برفاعة فى السودان وحمل منه رسالة لتسليمها إلى أسرته بطهطا، توضح شيئاً من أسلوب

رفاعة فى تنشئة أولاده، فقد استقبل ابن رفاعة الرحالة الأمريكي وكان له من العمر نحو أحد عشر عاماً، ونترك الرجل ليصف جزءاً من هذا اللقاء حيث يقول.. «حياني في وقار وجلال كما لو كان رجلاً له سمتٌ وأبهة... ثم دفعت بالكتاب إليه فوضعه على قلبه ثم قبله وفض غلافه، وأسر الصبى بكلمات إلى معلمه وبدأ على وجهيهما الاغتباط، وجىء بشراب لا شيء فيه سوى عصير الليمون وماء الورد وسألني الصبى أن أشرفه بالبقاء لديه سائر اليوم، ولولا أنني كنت أرى وجهه وهو يحادثني لظننت أنني أحادث رجلاً، فقد كان هذا الصغير من الجلال وقوة الأسر كعظماء الرجال وكان الناس حولنا وكأنهم معتادون مشاهدة هذا النضوج السابق لأوانه، وكنت مضطراً إلى أن اتخذ حياله من الاحتشام والكلفة.. كما لو كان هو حاكم المدينة...».

ومثال آخر نجده فى معاملة رفاعة لابنه الأكبر بدوى فتحى رفاعة، حيث لم ييئس منه اجتهادا فى عمله الحكومي، فرأى أن ينهي خدمته الحكومية وأن يفوضه فى إدارة شئونه الخاصة فى خطاب لا يزال أصله محفوظاً لدى الأسرة، ونص هذا الخطاب جدير بالدراسة والتأمل للكشف عن أسلوب رفاعة في معاملة أبنائه .

«حضرة نجلنا العزيز بدوى بك فتحى».

لقد استصوبنا تفويض إدارة المنزل بطهطا إلى حضرتكم وجميع ما تجروه أنتم مفوضون فيه من تصدقات وإنعامات وتحسينات منزلية ومباشرة العمل والأشغال، ومعلومية الدخل والخرج والوارد والمنصرف. وعبدالله أغا تابعنا، إنما عليه إجراء أوامركم وتنفيذها ومساعدتكم على حفظ الأشياء وتنجيز الأشغال، فأنتم مثلنا سواء بسواء في الأوامر والنواهي، ونؤمل أن الأشياء المترتبة بالمنزل بمعرفتنا تكون كما هي، وإذا زدتم عليها أشياء فباستحسان حضرتكم ويلزم المحافظة على كتابنا هذا».. وهو إذا كان يثق فى أولاده ويطلق يدهم في ماله فإنه لا يحابيهم ويشدد عليهم إذا كان الأمر متعلقاً بمال الدولة.. فعندما طلب منه ابنه الأصغر وكان موظفاً مرؤسا له زيادة في الراتب، كتب إليه رسالة يرفض فيها طلبه لأن الأوضاع العامة لا تسمح بالزيادة، وأن مجرد الإبقاء عليه في وظيفته يساوى الزيادة .

ولقد ورث أبناء رفاعة وأحفاده عنه أسلوبه في التربية، وعندما استرجع أسلوب أبى رحمه الله فى معاملتي.. فكأنني أراه يكرر أسلوب رفاعة فى معاملة أبنائه.

وكما قلت سابقاً فإن أبناء رفاعة وأحفاده يستشعرون مسئولية خاصة فى الحفاظ على تراثه، فقد خلفه ابنه الأصغر على باشا رفاعة فى رئاسة تحرير مجلة روضة المدارس، وعمل على

إكمال ومراجعة وطبع آخر أعماله وهو كتاب نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، وقد حافظ على مكتبة والده وخصص لها مكاناً خاصاً في منزل رفاعة بمنطقة مهمشة بجوار محطة السكك الحديدية (محطة مصر)، ومن الطرائف التي تروى أن عبدالله النديم في سنوات اختفائه من مطاردة الإنجليز بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطاني.. كان كثيراً ما يختبىء في مكتبة رفاعة، فيتخفى عن العيان ويقضي وقته في المطالعة.

مكتبة رفاعة

وقد ظلت مكتبة رفاعة وهي أعظم مكتبات مصر في حوزة الأسرة إلى أن أهداها حفيده محمد بك بدوي رفاعة إلى الدولة سنة ١٩٣٢، وهي الآن تقع في جزء من مبنى مجلس مدينة سوهاج، وتضم مجموعة نادرة من المخطوطات تبلغ نحو ١٠٦٠ مخطوطاً نادراً، بالإضافة إلى نحو خمسة عشر ألف كتاب مطبوع، وهذه المكتبة الآن في حوزة محافظة سوهاج، ورغم الجهود الجادة التي بذلها السيد محافظ سوهاج والمسئولون في المحافظة.. فإن المكتبة في حاجة ماسة إلى مشروع علمي للحفاظ على المخطوطات وإتاحتها للباحثين ، ولربما كانت نواة لمشروع ثقافي كبير، يكون بمثابة منارة للعلم والثقافة في صعيد مصر.

ولقد كانت أفكار رفاعة الاجتماعية أفكاراً متقدمة، بل يرى البعض أنها كانت أفكاراً اشتراكية، ويستندون في هذا إلى أن رفاعة في تحليله للعملية الاقتصادية ولعناصر الإنتاج اعتبر أن العمل هو العنصر الأساسي من عناصر الإنتاج وليس الأرض أو رأس المال.. وهو في حياته الخاصة يعمل إلى حد كبير بمقتضى فكره، فكان يشارك الفلاحين في زراعة أرضه بأفضل الشروط وأيسرها، أو بإيجار يقل كثيراً عن المستويات السائدة وظل هذا تقليداً معمولاً به من بعده.

وعندما أوقف بعض أرضه على ذريته .. قال: إنه يوقف هذه الأرض عليهم «لا ليدفع عنهم فقرا.. ولا ليضمن لهم غنى.. ولكن صدقة جارية....» وكان شرط الواقف المساواة بين كل طبقة من أولاده، بحيث يعاد تقسيم الثروة بالمساواة بين أفراد كل جيل، وجعل في وقفه جزءاً لعتقائه الذين كان يعاملهم معاملة الأهل، ويحرص على تعليمهم حتى أن بعضهم أصبح من مشاهير أدباء مصر، وتولى أحدهم منصب وكيل وزارة المعارف.

ومما يروى عن رفاعة الطهطاوي أنه كان لا ينام الليل إلا قليلا، وكان يشغل معظم ليله بالقراءة والتأليف، وكانت له عادات ظريفة، إذ جعل في حديقة منزله بمهمشة أكشاكا متناثرة، وجعل بكل كشك مصباحا وأوراقا وأقلاما وحبرا، فينتقل بين هذا الأكشاك ليروح عن نفسه، وليجدد طاقته على القراءة وعلى الكتابة والتأليف، ولقد ورث عنه معظم أبنائه إلى يومنا هذا عادة السهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكنهم وللأسف لم يرثوا قدرته على إحياء الليل بالإنتاج العلمي وبالتأليف. ■

التكوين

لم يتحقق هدفي في اليونسكو ورب ضارة نافعة

د. إسماعيل سراج الدين

يظل الإنسان يتعلم فى هذه الحياة، تدفعه الرغبة فى تحقيق طموحات كثيرة، لا توقفه العقبات، بل تزيده إصرارا على النجاح لخدمة البشرية.

دائما كان المناخ الثقافى الذى عشت فيه، وحرية الرأى هما الدافع القوى لمواصلة الطريق الصعب على مدى ثلاثين عاما.. ولكن ما أحمد الله عليه أن تكون خاتمة مشوار حياتى فى حضن الوطن لكى أعطيه كل خبراتى فى الحياة .





ليلي ابراهيم .. أمي التي كان لها أثر كبير في تكويني الثقافي ومعارفي المختلفة



جدي علي باشا إبراهيم .. توفي وأنا صغير، لكني عرفت عنه الكثير من أمي وأخوالي

كنت محظوظا طوال حياتي، فقد تربيت في بيت يملؤه الحب والحنان ويركز بشكل أساسي على التعليم والثقافة منذ الصغر .بدأت حياتي المدرسية وعمري لا يتجاوز السنوات الأربع، وقتها سألت أمي الدكتور طه حسين قائلة: ابني إسماعيل عمره أربع سنوات وأود أن ألحقه بالمدرسة.. فماذا أفعل؟

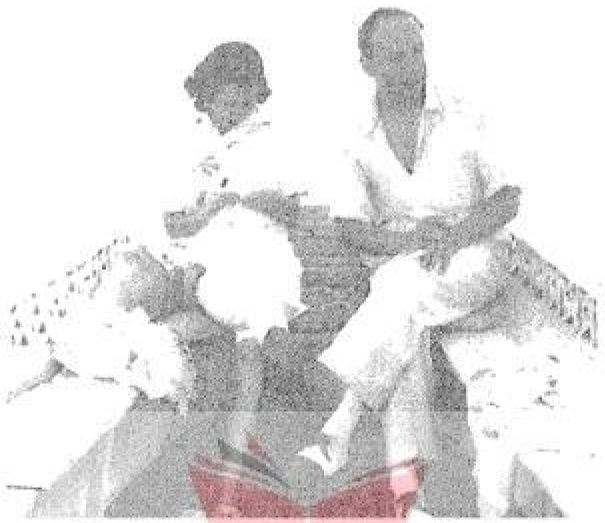
على الفور قال لها : دعيه يلتحق بالمدرسة وهو في هذه السن الصغيرة، وإذا تأخر في الدراسة لأي سبب من الأسباب، فلن يحدث شئ.

وفعلا التحقت بالمدرسة، وشاءت الظروف أن أسبق بسنة أخرى بعد ذلك. وبالتالي أنهيت دراستي وعمري أصغر من أقراني بثلاث سنوات!

في البداية التحقت بمدرسة الأورمان الابتدائية، ثم بمدرسة الناصرية في حي معروف، وتحولت هذه المدرسة إلى مدرسة إعدادية ثم التحقت بمدرسة الأورمان الثانوية بالدقي، وبعد الانتهاء من المرحلة الثانوية التحقت بكلية الهندسة جامعة القاهرة.

وعلى عكس ما كان يحدث في الأوساط العليا في ذلك الوقت بتعليم أبنائهم في مدارس للغات، أصر والدي على أن يكون تعليمي كله في المدارس

التكوين



ابى وأمى كان يحرصان على تنميتي ثقافيا خلال رحلاتي المستمرة فى المتاحف والمكتبات العامة

الحكومية، حتى أختلط بجميع قطاعات الطلاب فى هذه المدارس.. وذلك كان مثار سعادة خلال مشوار حياتي الدراسية، على أننى كنت أهتم بدراسة اللغات الأجنبية فى منزلى.

دور هام لأمي

أمي هى ليلى إبنة علي باشا إبراهيم، كانت لها اهتمامات ثقافية كبيرة جدا بالفن والتاريخ الإسلامي والآثار فيما بعد، وكان بيتنا يضم إلى جانب الكتب الثقافية التحف الإسلامية النادرة، وكانت لقاءاتنا على طعام الغداء فى كل يوم، أقرب ما تكون إلى (سيمنار) نتحدث فيه فى شتى الموضوعات المهمة ومن بينها على سبيل المثال سماع الآراء حول كتاب هام، أو قضية ثقافية أو علمية تشغل المجتمع... ولهذا فقد كنت فى بداية تكوينى منفتحا على ثقافات كثيرة جدا، ويعود الفضل فى ذلك كله إلى أمي التى آثرت أن تشجعنى، فأنشأت لى معملا كيميائيا صغيرا فوق سطح منزلنا، لكى أقوم بعمل بعض التجارب العلمية، حيث إن اهتمامها وحبها للعلوم، جعلها تحببنى فى هذا النوع من المعارف والثقافات المختلفة.

أحببت الشعر

كنت محظوظا جدا مع أساتذتى ومدرسىّ فى المدارس التى التحقت بها وكان من بينهم صفوة ممتازة، خاصة فى



صورة تجمع بين د. على باشا ابراهيم وكريمته

مدرسة الأورمان الثانوية وأذكر منهم أستاذ اللغة الانجليزية واسمه جرجس، وكان يقوم بعمل أنشطة مسرحية ومناظرات ثقافية بين الطلاب، كما أن أساتذة العلوم جعلونى أحب مادتى الرياضيات والعلوم. كما أحببت فى المرحلة الثانوية أيضا الشعر والأدب العربى، وكان يتم اختيار مواد الكتب المدرسية فى ذلك الوقت بعناية شديدة وأذكر من هذه الكتب – على سبيل المثال – كتاب فصول مختارة من كتب التاريخ وكان من بين مؤلفى هذا الكتاب د. طه حسين وعلى الجارم. فضلا عن أننى كنت فى هذه الفترة أحب جدا مؤلفات د. طه حسين والعقاد، ومازالت لدى حتى الآن مجموعات هذين الكاتبين الكبيرين.

وعلى الرغم من اتجاهى للجانب العلمى فقد كنت من محبى الأدب والشعر وكان هذا جزءا من اهتماماتى الكبيرة، وتكوينى ما بين المحبة الفنية والعلمية، كل جزء تدخل فيه اهتمامات أسرتى خاصة وأن والدى كان مهندسا معماريا.

فأمى كان لها تأثير كبير على وعلى إخوتى، وكانت تصر على أن نذهب أسبوعيا فى رحلات إلى المتاحف وزيارة الآثار فغرست فينا حب الثقافة بشكل عميق جدا.

أما والدى فقد كان يمارس نشاطات مهنية متنوعة بالإضافة إلى حرصه على ممارسة الرياضة، وكان يحرص على أن

أذهب معه إلى المشروعات التى كان يقوم بتنفيذها كمقاول وكخبير، وهذا كله كان ينمي في شخصيتي البعد الثقافي والبعد التاريخي.

أما جدى على باشا إبراهيم فقد توفي وأنا صغير جدا، لكنني عرفت عنه الكثير من أمي وأخوالي.

في الجامعة

حينما التحقت بالجامعة كان أساتذتي يهتمون بشكل جيد بتربية الأجيال من طلاب الجامعة، وهذا يدعوني إلى التأثر الشديد حينما أرى أن دور الجامعة الآن أصبح مقصورا على حصول الطلاب على الشهادة الدراسية فقط..

فعندما التحقت بكلية الهندسة عام ١٩٥٩، كانت الحوارات التي تتم بيني وبين أساتذتي حول ما أقوم بقراءته، فقد كنت أناقشهم فيما أقرأ، وكانت الجلسات تطول في مناقشة قضايا فكرية عامة كان شعورا بالتربية الكاملة، التربية الروحية، والتربية المنهجية ليس في داخل المقرر، ولكن في كل مجالات العلوم والحياة.

وأعتبر أجمل سنوات عمرى تلك التى قضيتها طالبا في كلية الهندسة وكانت نهايتها سعيدة بحصولي علي البكالوريوس بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى والمركز الأول وحصولي أيضا على الجائزة في عيد العلم.

لقاء مع وزير التعليم

بعد التخرج مباشرة حدث تحول كبير في حياتي، فقد شاءت الظروف أن تتزوج شقيقتاى وتتركان المنزل، بل وتتركان القاهرة، فأختى «منى» ذهبت لدراسة الدكتوراه في أمريكا، وأختي «هدى» تزوجت الأستاذ سامي طوقان وهو فلسطيني، وعاشا في بيروت، وكان أبي قد توفي في حادث سيارة، وجاءت لي منحة من جامعة هارفارد بولاية بوسطن في أمريكا.

وفي هذه الأثناء كان كل خريج يأتيه أمر تكليف ولابد أن يلتزم به، ولا فكاك منه أبدا.

ذهبت لمقابلة وزير التعليم العالي وكان وقتها الدكتور عبدالعزيز السيد، وقلت له بعد أن سمح لي بمقابلته: لو أذنت لي بالسفر والحصول على هذه المنحة، فإنني سوف أكسب كما سأسافر على حساب هذه الجامعة، بينما لو انتظرت لحصولي على المنحة من الدولة، فسوف أتأخر لمدة عامين، وسوف أكلف الدولة حوالي ٣٠ ألف دولار من العملة الصعبة في ذلك الوقت.

ورجوته بالموافقة حتى أوفر ذلك على الدولة، وأحصل في نفس الوقت على ميزة هي توفير عامين من الزمن.

فنظر إلي الوزير قائلا: هذا كلام مقنع جدا.. وأنا من الممكن أن أرفع عنك أمر التكليف، لكن لابد أن تستقيل من الجامعة فقلت له : يمكنني فعلا الاستقالة!

قال: أتوافق بهذه السرعة..؟

قلت : حينما أحصل علي الدكتوراه من جامعة هارفارد وأحب الالتحاق بوظيفة في الجامعة يمكنني ذلك!

عاد الوزير يسألني قائلا: وما الذي يضمن لي أن تعود لمصر مرة ثانية؟ جاء ردى سريعا هذه المرة: افرض أن الدولة

قامت بتقديم هذه المنحة وصرفت على طوال المدة المقررة، فمن الذى يضمن لكم أن أعود مرة ثانية ؟

لاشىء يضمن سوى اهتمامى ومحبتي للوطن، وهو الذى سوف يدفعنى للعودة إلى بلدى.

وعلى الفور وافق وزير التعليم العالى على رفع أمر التكليف، وبدأت فى إجراءات استخراج تأشيرة الخروج من مصر للسفر، ووقتها كان والدى قد توفى وتفضل السيد زكريا محيي الدين نائب رئيس الجمهورية يومئذ بتسهيل هذه المهمة.

رحلتي إلى أمريكا

سافرت إلى أمريكا وأنا لا أملك سوى ٤٥ دولارا فقط وهو المبلغ المسموح بالخروج به من مصر.. وكانت أختى وزوجها يدرسان هناك فاستضافاني لعدة أشهر وكنت أنام على «كنبة» صغيرة فى «طرقة» شقتهم الصغيرة، حتى أتمكن من تثبيت قدمى فى جامعة هارفارد، ثم أحصل على عمل متمم لمنحتى مع هذه الجامعة، وحدث ذلك فى يناير عام ١٩٦٥ وكان أول التيرم ينتهى فى يونيه من هذا العام، وحققت النجاح، وتم تجديد المنحة، ووجدت عملا فى فصل الصيف فى عدد من الميادين البحثية المختلفة.

وقد كنت فى هذه الفترة مهتما بالعلم والثقافة ، وحدثت لي تجربة فريدة من نوعها، حيث اتجهت من العمارة إلى التخطيط، وجامعة هارفارد فى ذلك الوقت تعد من أعظم جامعات العالم ورأيت من حولى كل العلماء الحاصلين على جائزة نوبل وهم يقومون بالتدريس للطلاب وإعطاء المحاضرات، وكان بإمكانى مقابلة أى من هؤلاء العلماء فى أى وقت من الأوقات والتحدث معه، وأتوقف هنا عند نقطة مهمة خاصة بحصول الطالب على التعليم.. فقد كان المطلوب منى لكى أحصل على الماجستير دراسة ست عشرة مادة، لكننى تخرجت بعد دراسة سبع وعشرين مادة، بمعنى أننى ذاكرت إحدى عشرة مادة إضافية حبا فى العلم فضلا عن الاستفادة الكاملة من هؤلاء العلماء الموجودين من حولى، حيث كنت أنهل من فيض علمهم وثقافاتهم المتنوعة، وأحضر كل المحاضرات المهمة التى يدرسون فيها.

ولم يتوقف دورى عند الدراسة فقط للحصول على المؤهل العلمى، لكننى كنت أؤدى دورا سياسيا مهما. ففى منتصف العقد الثانى من الستينيات كانت «ثورة الطلاب» قد بدأت فى العالم، فى الوقت الذى قامت فيه حرب فيتنام وحرب ١٩٦٧ بين مصر وسوريا وإسرائيل، بالإضافة إلى قضايا التحرر الإفريقى.

.. فى هذه الفترة تعرفت على العديد من الأصدقاء، وكان من بينهم الدكتور أسامة الباز، حيث عملنا معا فى النشاط الطلابى وكانت منظمة الطلاب العرب فى ذلك الوقت منظمة فريدة من نوعها، حيث يلتقى فيها الناصريون والبعثيون والشيوعيون والقوميون العرب والإخوان المسلمون، على ساحة المساواة، فقد كانت الأنظمة العربية فى ذلك الوقت لا تسمح بوجود من يخالف النظام، وكانت الحوارات تتم فى نطاق معارك انتخابية،

وهى تجربة مثيرة بحق.. بالإضافة إلى أننى كنت أقوم بنشاطات سياسية على مستوى طلاب جامعة هارفارد، وكانت لى اهتمامات كثيرة جدا بإفريقيا كرئيس لمنظمة الطلاب الأفارقة، بالإضافة إلى العمل المهنى الذى كنت أعيش منه.

العمل فى البنك الدولى

فى أثناء فترة الدراسة والتى كانت ثرية جدا فى حياتى، تزوجت من ابنة المرحوم الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس مجمع اللغة العربية السابق وكنت قد تعرفت عليها فى جامعة القاهرة، واعتبرت الدكتور إبراهيم أبا لى بعد وفاة والدى، وتعلمت منه الكثير كما تعرفت على العديد من الشخصيات وأنا فى أمريكا، فى مقدمتهم الدكتور أحمد كمال أبو المجد مستشارنا الثقافى فى أمريكا فى تلك الفترة والدكتور مصطفى طلبة والدكتور أحمد القشيرى.

واخترت موضوع رسالتى للدكتوراه بعنوان «دور التعليم فى التنمية» حيث انتقلت من العمارة إلى تخطيط المدن، إلى التخطيط الإقليمى، ثم إلى التنمية ومنها إلى التركيز على التعليم.

فى هذه الأثناء سألنى أحد الأساتذة الذين أحبهم واسمه ادوارد ميسون، ماذا سوف تعمل الآن ؟

قلت له: إننى أنوى قبيل عودتى إلى مصر، الحصول على خبرة دولية وبالتالى فإننى أود أن أذهب إلى اليونسكو للحصول على هذه الخبرة.

فقال لى : عليك بالذهاب إلى البنك الدولى.

قلت له: لقد تركت الهندسة، فما جدوى ذهابى إلى هذا البنك، خاصة وأننى مثل كل المصريين كان لدى تحفظ على البنك الدولى منذ امتناعه عن تمويل مشروع السد العالى وما استتبع ذلك من تداعيات مؤلمة!.

قال ادوارد ميسون: إن البنك الدولى يهتم بالتعليم أكثر من اليونسكو ومن منظمة العمل الدولية.

وفعلا قدمت أوراقى إلى البنك الدولى، وقبلت فى برنامج خاص تقدم إليه حوالى خمسة آلاف، قبل منهم عشرين فقط، وكنت ضمن المختارين فى هذا البرنامج، ودخلت فى قطاع التعليم فى البنك الدولى، وكان الحوار فى تلك الأثناء ساخنا جدا وسيئا للغاية، وقررت ألا أظل فى هذا المكان أكثر من عامين، ثم أغادر إلى مصر.

كان الحوار حول: هل مسئولية البنك أن يهتم بتوزيع الدخل، وقضية الفقر، أم أن مسئولية البنك فقط أن ينمى دخل الدول ولا يهمه كيف يتم توزيع الدخل؟

وبالنسبة لى فإن قضية التنمية لا تتم بهذا الشكل، فالبنك الدولى بالنسبة للتعليم، لا يمول إلا التعليم العالى والتعليم المهنى، ولا يهتم بقضية تعليم المرأة أو قضية تعليم الفقراء ومحو الأمية.

ولم تتوقف جهودى، فكنت أحرص على كتابة رأيى للبنك فى كل هذه القضايا وبإصرار شديد وتأكيد على أهميتها وحيويتها.

... وفى سنة ١٩٧٣ حينما كان روبرت مكنمارا رئيسا للبنك الدولى أصدر إعلانا

ماما وهو فى نيروبى قال فيه: من الآن فصاعدا، فإن قضية الفقر هي القضية الأساسية، وأن المطلوب من البنك هو الاهتمام بنسبة ٤٠٪ وهي المستويات الدنيا.. وسعدت جدا بهذا الإعلان، وأنه قد تحقق شيء مما ناديت به، وأصبحت فيما بعد صديقا لمكنمارا وذكرته بما فعله حينما كان رئيسا للبنك وكنت مازلت أعمل فى أولى درجات السلم الوظيفي فى البنك الدولى.

بعد إعلان مكنمارا اجتمع بحوالى مائة شاب من مختلف دول العالم وقال إننى أود تغيير هذه المنظمة، وأود الاعتماد عليكم لكى تساندونى فى هذا التغيير ولكى نبدأ فى الاهتمام بالفقراء.

وبدلا من أن أترك البنك الدولى، قررت البقاء لمدة عامين ثم رقيت رئيسا لأحد الأقسام، وواصلت العمل بعد ذلك إلى أن وصلت المدة التى قضيتها فى البنك الدولى إلى ٢٨ عاما.

علاقة وطيدة

والبنك الدولى فى رأيى يعد أهم مؤسسة فى الأمم المتحدة من حيث قدراتها المهنية، حيث يضم الكثير من التخصصات ومن بينها التعليم والزراعة والصحة والإسكان والطرق والكهرباء، بالإضافة إلى الاقتصاد، وأتاح ذلك ممارسة نشاطات كثيرة فى مشروعات متنوعة.

وحرصت خلال الفترة التى عملتها فى البنك الدولى على استمرار علاقتى بشكل مكثف مع الدول العربية، فكنت مسئولا عن التعاون الفنى مع الدول البترولية فى



د. إبراهيم بيومى مدكور .. اعتبرته بمثابة والدى، وتعلمت منه الكثير

السبعينيات، وكنت مسئولا أيضا عن بحث المشكلات العمرانية فى مناطق من أوروبا والشرق الأوسط والبحر المتوسط وشمال إفريقيا وذلك فى أوائل الثمانينيات، بالإضافة إلى الاهتمام بالقضايا الإفريقية.

وكانت لى إلى جانب ذلك اهتمامات أخرى من بينها تعليم البنات ومحو الأمية والبيئة ومفاهيم التنمية، ومع مرور الأيام دخلت كل هذه المفردات فى سياق اهتمامات البنك الدولى وكان لى اسهامات فيها، وتدرجت فى الوظائف إلى أن وصلت إلى منصب نائب رئيس البنك الدولى.

حرب المياه

وفى سنة ١٩٩٢ طلب منى رئيس

التكوين

البنك الدولى الاهتمام بأنشطة البنك، وعملت بالفعل فى تأسيس مفهوم جديد فى البنك الدولى والتنمية المستدامة، وأنجزت بعض ما طلب منى، كما تم إنشاء عدد من بنوك الفقراء.

وكان أبرز ما قمنا به فى هذه الفترة قضايا الاهتمام بالمياه، وكان شرفا أن شارك مع عدد من العلماء من بينهم الصديق العزيز الدكتور محمود أبوزيد وزير الرى الحالى.

وفى أغسطس ١٩٩٥ أطلقت عبارة صنعت دويا كبيرا فى المحافل الدولية وهى «أنه إذا كانت حروب القرن العشرين قد دارت حول البترول، فإن حروب القرن الحادى والعشرين سوف تكون حول المياه».

ثم أسست الشراكة الدولية للمياه، وكنت رئيسها، ومع الدكتور محمود أبوزيد أسسنا المجلس الدولى للمياه وكان هو رئيسه، وكنت رئيس اللجنة العالمية للمياه والتى قامت بعمل أولى ندواتها عام ٢٠٠٠م وحضرها حوالى ستة آلاف باحث وعالم، وكان أبرز ما تناولته هذه الندوة أهمية المياه فى التنمية.

كما شاركت فى عمليات دعم فكرة بنوك الفقراء من خلال ندوة أقيمت فى عام ١٩٩٦، كما كنت رئيسا للجنة البحث الزراعى العالمى لمدة سبع سنوات، فضلا عن إسهاماتى العلمية فى مجالات عديدة.

ترشيحى رئيسا لليونسكو

وفى رحلتى ومع بداية تكوينى أشرت إلى حبى للثقافة، وتنوع الثقافة ويبدو هذا واضحا خلال رحلة الثمانية والعشرين عاما التى قضيتها فى العمل فى البنك الدولى .. وبذلك شاءت الظروف وعلى الرغم من أن اسمى كان متداولا فى الأوساط العالمية، فلم أكن معروفا فى مصر، إلى أن جاء ترشيحى لتولى منظمة اليونسكو.

وقد تأثرت جدا بمدى التفاف الرأى العام والشعب المصرى بشكل خاص ومؤازرته لى فى هذا الترشيح.

وكثير من المصريين ذكروا لى بأنهم اندهشوا جدا لهذا العدد الكبير من الشخصيات العالمية الذين التفوا حولى يؤازرون ترشيحى وكان لذلك أثره الطيب فى نفسى، على الرغم من أن الدول لها حسابات سياسية أخرى مما أدى إلى نجاح المرشح اليابانى وهذه التجربة الفريدة لايمكن أن أدعها تمر دون التوقف عند محطات مهمة فيها من بينها على سبيل المثال، مؤازرة ٣٢٥ شخصا بارزا ومهما من ٦٣ دولة، فهم ٤٨ من الحاصلين على جائزة نوبل، قاموا بتوقيع وثيقة يساندون من خلالها ترشيحى لمنظمة اليونسكو ومن بينهم إثنان من الحاصلين على جائزة نوبل، أرسلا لى خطابات خاصة تؤيد ترشيحى والوقوف إلى جوارى ودعمى لتحقيق الهدف المنشود، ولذا حين طلب منى التنازل عن ترشيحى رفضت لأن هؤلاء الذين وقفوا بجانبى حملونى آمالا وطموحات لهذه المنظمة، وبالتالى كان ولابد من مواصلة ترشيحى حتى النهاية على الرغم من أنه استنزف الكثير من مدخراتى، وكل إجازاتى التى لم أحصل عليها طوال عملى فى البنك الدولى،



السيدة سوزان مبارك و د. اسماعيل يتسلمان مجموعة من الأقلام التذكارية من السيد فيدبركو فارول من جمعيات اصدقاء مكتبة الأسكندرية بايطاليا بالاشتراك مع منظمة اليونسكو

استنفدتها خلال حملة الانتخابات لليونسكو.

كما أسلفت التف حولى كثيرون من العلماء والمثقفين من العالم كله ولقد كان تصورى مختلفا عن تصور الحسابات السياسية التى تحدث فى أغلب الأمم، فإذا لم يكن للمثقفين رأى فى اختيار رئيس منظمة الثقافة العالمية، فمتى ستكون لهم كلمة أو رأى يتخذونه؟

ولقد تأثرت بشكل كبير من هذا الموقف الرائع لكثير من مثقفى العالم ومن بينهم عدد كبير من الحاصلين على نوبل.

فبعد أن رشح جارف إيفانز وزير خارجية استراليا الأسبق نفسه فى انتخابات اليونسكو، كان رابع اسم من الذين وقعوا على وثيقة ترشيحى وهو استرالى حائز على جائزة نوبل أرسل لى خطابا يقول فيه: «عزيزى إسماعيل.. كما تعلم فإننى كنت أساندك فى هذه الانتخابات، وكما ترى فإن وزير خارجيتنا قد رشح نفسه، ولذلك فقد رأيت بأن أكتب لك هذه الرسالة مؤكدا على أن دعمى لك مستمر .. وهذه الفقرة من الممكن أن تستخدمها فى دعايتك الانتخابية ضد هذا الوزير!، لأن موقفى وموقف زملائى من الحاصلين على جائزة نوبل ومن المثقفين فى العالم أجمع أن قضية الاختيار يجب أن تكون على أساس الكفاءة، وليست على أساس «الباسبور» أى البلد الذى ينتمى إليه هذا المرشح أو ذاك، ونحن نساندك ونقف معك ليس لأنك مصرى أو عربى، ولكن لأننا نعرف توجهاتك وإمكانياتك الثقافية والعلمية فى جميع الميادين، وما

يمكن أن تضيفه لهذه المنظمة».

وقد تأثرت جدا بهذه المشاعر النبيلة من مثقفي العالم، والعديد منهم مازال يتعامل معي بنفس هذه المشاعر، بل ويدعمون كل الجهود لإعلاء شأن مكتبة الاسكندرية .

لكنني لابد وأن أشير وبعد أن انتهت قصة الانتخابات هذه إلى أن العلاقة بيني وبين الدكتور الشاعر غازي القصيبي تتسم بالمودة والصداقة، ولقد كان تعليقي على كتابه «دروس الفشل» بأن قلت له : أنا لا أختلف مع التحليل الذي تناولته في الكتاب، ولكنني أختلف في المنهج، والمنهج يكون أساسا على اختيار الكفاءة، وكل الذين وقفوا دعما لي في هذه الانتخابات ، كان من منطلق الكفاءة، وليس على أساس أن المرشح من دولة ما. أو تسانده مجموعة معينة.

وكان من واجبي أيضا أن ألتقي برئيس منظمة اليونسكو بعد انتهاء الانتخابات ونجاحه، وقلت له: مهما حدث في هذه الانتخابات فهي صفحة قد طويت ولقد كان من أهم أسباب ترشيحي وحملتي الانتخابية، هو إيماني الشديد برسالة اليونسكو، وأن نجاح منظمة اليونسكو مرهون بنجاحك في إدارتها، وأن فشلك سوف يكون فشلا لليونسكو وعدم قدرتها على أداء الدور المطلوب منها، وتأكد تماما أن أية برامج تفيد هذه المنظمة العتيدة فيمكنك أن تعتمد على مساندتي لك لتحقيقها.

العودة إلى الوطن

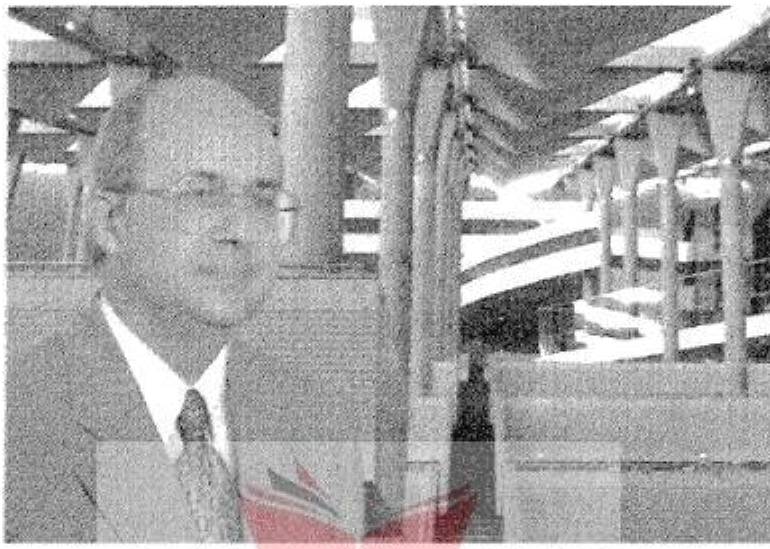
كانت طموحاتي من أجل دعم منظمة اليونسكو، ودعما للمبدأ الذي عشت أعمل من أجله، وهو المصلحة العليا، ولذلك ففي اعتقادي أن دوري عالميا مازالت بصمته موجودة حتى الآن .

وكما يقولون: رب ضارة نافعة.

فبلدي ومكتبة الاسكندرية هذا المشروع الثقافي الكبير كان لايمكن أبدا أن أرفضه، حتى لو انتخبت رئيسا لمنظمة اليونسكو، وطلب مني أن أتولى مشروعا ثقافيا هو مكتبة الاسكندرية، فإنني كنت وعلى الفور سوف ألبي نداء وطني وبلدي قبل أي شيء آخر.

وأقول كلمة حق أن السيدة سوزان مبارك لها رؤية ثاقبة لهذا المشروع وهي تستحق الثناء والتقدير للدعم المستمر والمتابعة الدائمة ورؤيتها الواضحة ومساندتها الكاملة لهذا المشروع، وهذا الصرح الحضاري الكبير، ولإعادة دور مكتبة الاسكندرية كمنارة للثقافة والحضارة في مصر .

وأستطيع القول بأن مشوار حياتي قد انتهى به المطاف إلى مكتبة الإسكندرية، وهي بلاشك مسئولية ضخمة جدا، لأن مكتبة الاسكندرية القديمة هي أعظم تجربة فكرية حدثت في تاريخ الإنسانية، ونحن اليوم من حيث المضمون الثقافي نعيد إقامة المكتبة الجديدة لتصبح صرحا ثقافيا مشرفا لأي مثقف ولأي عالم، كما أنني كمصري أشعر بالفخر خاصة في ظل الظروف الحالكة التي تعيشها منطقتنا العربية الآن في ظل الحرب والكراهية والقتل والتشريد أن تقدم مصر إلى الإنسانية مكتبة الاسكندرية الجديدة، رمزا



« مكتبة الإسكندرية » أهم عندي من كل شئ .. حتى رئاسة اليونسكو

للتسامح والعقلانية والحوار والمعرفة، والعلم وذلك كله له مدلول ثقافي وحضاري كبير جدا ، وأكثر ما أسعدني هو التفاف الشعب المصري بكل طوائفه حول هذا المشروع الحضاري الكبير.

إن مكتبة الاسكندرية ينبغي أن تكون هي رأس الحربة لدخول مصر والثقافتين المصرية والعربية إلى القرن الحادي والعشرين تكنولوجيا وعلميا، خاصة وأن ثقافتنا سوف تعرض في عالم رقمي، وفي صورة رقمية وبالتالي لابد أن نطوع التقنيات الجديدة مثل الإنترنت والمفاهيم المعرفية الحديثة، بحيث يوجد الإبداع المصري والإبداع العربي في هذا العالم الجديد.

وباعتبار هذه المكتبة نافذة العالم على مصر ونافذة مصر على العلم، فسوف تكون هي الجسر الطبيعي لهذا ، وسوف تكون ملتقى الحوار بين الشرق والغرب .

***

ويبدو أن تكويني الثقافي .. ومشوار حياتي ربما كان استعدادا للقيام بهذا الدور في مكتبة الاسكندرية .. فخبرتي الدولية وتعدد المجالات المختلفة التي عملت فيها سواء في الإدارة الدولية والتمويل والمشروعات الثقافية والاهتمام باللغات المختلفة وعلاقاتي بكبار مثقفي العالم لاشك سوف تفيد كثيرا في الرسالة الثقافية التي سوف تقوم بها مكتبة الإسكندرية . ■

أنت والهلال

○ عاطف مصطفى

تهنئة بطبع الهلال على أقراص ممغنطة

أهنئكم بالمشروع الثقافى الكبير الذى شرعتم فى إنجازه بنسخ المجموعة الكاملة من مجلة (الهلال)، منذ العدد الأول الصادر فى عام ١٨٩٢م، على أقراص مدمجة (C.D) ، بالتعاون مع مكتبة الإسكندرية، وقد قرأت فى العدد الأخير من (المصور) أن دار الكتب بصدد إصدار فهارس مجلة (الهلال) فى خمسة مجلدات.

وكنت قد اقتنيت الجزءين من الفهارس اللذين أعدهما الهلال وانتهيا عام ١٩٣٦، وهذا عمل بالغ الأهمية، وإنجاز ثقافى توثيقى يستحق كل التقدير.

وأود أن أشير إلى أنكم كنتم قد أصدرتم بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لمجلة الهلال فى عام ١٩٩٢، مجلدين عن أشهر مائة كتاب صدرت خلال القرن، ولم يستوف المجلدان الكتب المائة كاملة، وأرى أنه من المناسب أن تستكملوا هذا المشروع الثقافى المهم، بإصدار المجلد الثالث فى موعد قريب، وأدعوكم إلى التفكير فى هذا الأمر لأهميته.

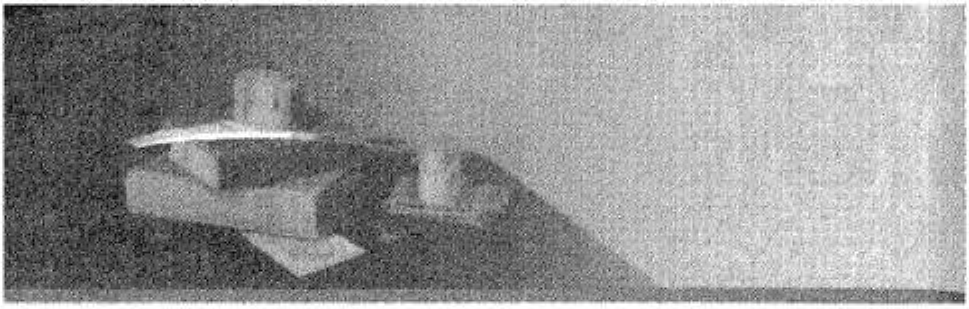
متمنيا لكم كامل التوفيق وإطراد النجاح

عبدالله الإدريسى
مسئول الإعلام بالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - الرباط - المغرب.

زحف الجليد



زحف الجليد
على قلوب العاشقين
على أسرة السكارى النائمين
على حبات العرق فى الهجير
على زروع الفلاحين
زحف الجليد على الممرات
والحارات ..
على أرصفة الشوارع والسيارات





على بحيرة السد والرمال الصفراء
زحف الجليد على الخليج
وخط الاستواء
على بيت جدرانه تفيض بالحنين
على قلوب الأمهات العاشقات
لنبضات الجنين
على أغطية المهد .. وحقيبة الكتب
فى كتف البنات والبنين
زحف الجليد على شمس أشرقت
فوق مآذن الأقصى فى فلسطين.

صباح عمر

فارس بلا جواد

كلام كثير قيل حول مسلسل «فارس بلا جواد» .. وحمدت الله أن جاءت الأديبة الناقدة صافى ناز كاظم «بالكلمة الأخيرة» فى هلال يناير الماضى فى نقد هذا المسلسل محققة مفهوم الفنان محمد صبحى من وراء عمله فى الرؤية التليفزيونية، مما كاد يغيب عن كثيرين ممن هاجموه بلا رحمة!

إن جملتها فى بداية نقدها «مزاح الجدية وجدية المزاح» والتى فيها روح أسلوب عميد الأدب العربى، هذه الجملة بالرأى الأصوب لما هدف إليه هذا المسلسل.

وإن الناقدة صافى ناز كاظم وضعت الأمور فى نصابها حين قالت «لم يكن المسلسل مجرد نقل لصفحات من «تاريخ» عهد الاحتلال الإنجليزى، لكنه بكل إيحاءاته كان عينا على مايجرى حولنا ونتابعه يوميا فى نشرات الأخبار.

تحية للهلال لجدية ماتقدمه من خلال كتابها ذوى الآراء السديدة محققين مقولة د.شكرى عياد من أن «الناقد هو الفنان القارئ والقارئ الفنان».

د.سامي نصير
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

زيارة سعد زغلول للصعيد

فخرى عبدالنور كان من أبرز المؤيدين والمناصرين لحزب الوفد، وهو مولود بمدينة جرجا فى ١٥ يونيو ١٨٨١م، وقد دعا سعد زغلول ومصطفى النحاس لزيارة الصعيد، وعلى الرغم من المشكلات التى حدثت وهو يعد لهذه الرحلة التى زار فيها زعيم الوفد محافظات أسيوط وجرجا وقنا وأسوان، فقد بذل «عبدالنور» جهدا كبيرا لكى تتم هذه الرحلة بشكل طيب، وفعلا نزل سعد باشا ضيفاً على فخرى عبدالنور وخطب فى الأهالى وكان الاستقبال حماسيا من كل القرى المحيطة بجرجا.

واستمرت الرحلة ثلاثة أسابيع هز فيها سعد زغلول مشاعر المصريين وهو يحثهم على حب الوطن وضرورة الاستقلال.

وعلى الرغم من محاولات وزارة الداخلية فى منع الأهالى من استقبال زعيم الأمة، فقد كانت المشاعر الوطنية من قبل صغار ضباط البوليس والجيش فياضة فقد أحسنوا معاملة الأهالى الذين كانوا يستقبلون زعيم مصر.

وأهم مايلفت النظر فى دعوة فخرى عبدالنور أن القبطى والمسلم فى ذلك الوقت كانا يحرصان على الوحدة الوطنية وحب مصر.

محمد طلعت أبوزيد
مصر الجديدة

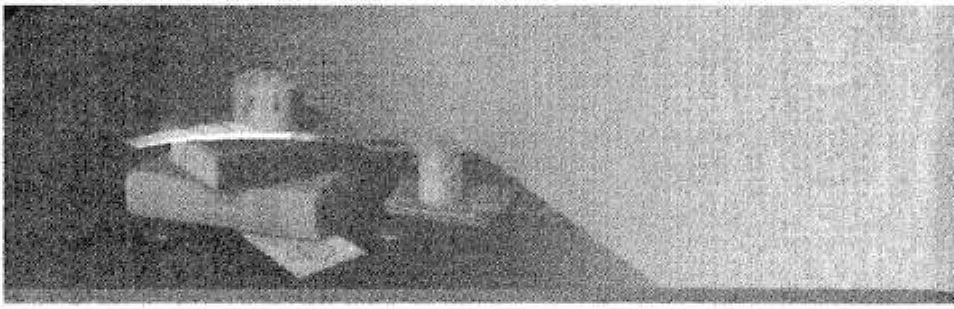
تحية لوديع فلسطين

وديع فلسطين .. هذا الكاتب الجميل الذي يمتعنا بمقالاته الشيقة فى الهلال .. أشكره لاستجابته لرجائى عبر طلبى بأن يكتب عن الثائر الدكتور زكى مبارك وذلك فى عدد يونيه ٢٠٠٢.

وانتهز هذه الفرصة لكى أطلب من الكاتب الكبير أن يواصل كتاباته عن كبار الكتاب والمؤرخين ومن بينهم العقاد وأحمد حسن الزيات ومحمود شاكر ومحمد مندور وأنور المعداوى وغيرهم، فكتابته تتميز بالدقة والأمانة.

شىء آخر أشير إليه وهو وصول الهلال بصعوبة إلى ليبيا على الرغم من قربها إلى مصر.

صالح عمار النائلى
طرابلس - ليبيا



- أصدر كتاب الهلال، كتاب زكى مبارك ذكريات باريس.
كما أعادت دار الهلال نشر كتاب زكى مبارك «ليلى المريضة فى العراق» تضامنا مع الشعب العراقى.

عار أن نستكين

جلجلي : الله أكـبـــر يامـيـــاه الرافــدين
وارفـــضى يا أرض بغداد تعـــدى الغـــاصـبين
واجـــعلى نخلك يابصــــرة درعـا مـــتين
لاتزعــزعــه صــــواريخ الأعـــادي القـــادمـين
يمكر الأعداء، ياربى بنا فاكفنا هم أنت خير الماكرين
مـالنا إلاك يرجى نصره فـانصر المظلوم وافن الظالمين

***

نحن صرنا فى زمـان بائس ليس فيه سعة للبائسين
يابنى قومى افيقوا أدركوا لن يسود الكون قوم خاملون
ماهم الأعداء، باتوا حولنا كل حين ولهم فينا كمين
ومن العار بأن نبقى على حالنا. فى الذل دوما غارقين
مخلب الغازين في أجسادنا هل تركناها سدى للغازين؟
ويحنا إن لم نحصن أرضنا من سموم الغرب متنا أجمعين

درهم جبارى
سان فرانسيسكو - أمريكا

كتابان يستحقان إعادة الطبع

فى عدد هلال ديسمبر ٢٠٠٢ عرض الدكتور أحمد زكريا الشلق فى باب «من ذخائر الكتب العربية» كتاب تقويم النيل لأمين باشا سامى، عرضا نقديا شائقا، ومبيناً أهمية الكتاب فى تاريخنا الحديث، وهو بلاشك جهد مشكور لمؤرخنا الكبير ولمجلة الهلال التى حرصت من خلال هذا الباب على التعريف بأمهات الكتب العربية قديمها وحديثها.

وهناك كتاب مهم هو «تاريخ الحياة النيابية» من عهد ساكن الجنان محمد على باشا لمؤلفه محمد خليل صبحى رئيس قلم مكتب مجلس النواب وقد أخرجه مؤلفه بصور الأشخاص، والأعلام الذين أسهموا فى حياتنا النيابية والدستورية، وأيضا بالصور الزنكوغرافية للوثائق والقوانين والضابط للهيئات النيابية المتعاقبة فى أصولها، أو منقولة عن جريدة «الوقائع المصرية».

ومن خلال الهلال أرجو أن تقوم الهيئة المصرية العامة للكتاب بإدراج كتابى «تقويم النيل» و«تاريخ الحياة النيابية» ضمن خطتها بإعادة نشرهما فى إطار مشروع مكتبة الأسرة، لكى يكونا بين أيدى محبى تاريخ مصر، والدارسين والباحثين.

عمرو عبدالمنعم حمودة

● **الهلال :**

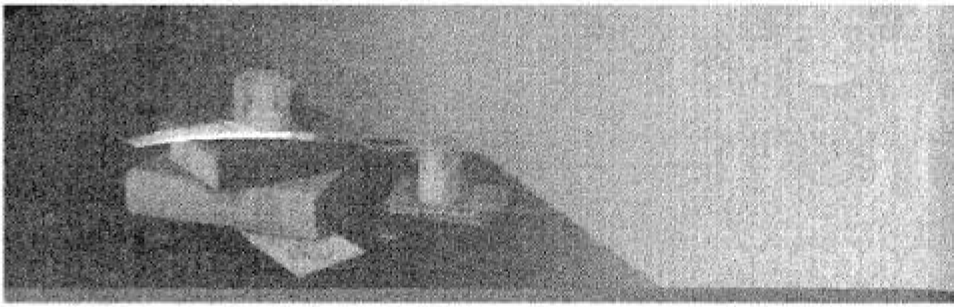
بدأت دار الكتب نشر كتاب «تقويم النيل» لأمين باشا سامى ونرجو أن يلبى الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب هذا المطلب.

العلم العزيز!

من المؤلم جداً أن نتوقف أمام حصاد عام ٢٠٠٢، حيث نشهد هذا الانتشار الواسع للجيش الأمريكى سواء على سطح المعمورة من خلال رجاله وجنوده، أو أسطوله وهو «يسبح فى البحار والمحيطات وخصوصا فى مياه الخليج بحجة محاربة الإرهاب!

أيضا ما نشهده الآن من أخبار تزف إلينا فى كل يوم وفرق التفتيش فى العراق تبحث داخل مصانع الحليب عن أسلحة الدمار الشامل، كما شهدت أرض فلسطين تلك الأرض المقدسة، بلد المسيح كيف مر يوم ميلاد المسيح والناس يعيشون تحت حصار احتلال بغيض .. كما شهد عام ٢٠٠٢ مدى السيطرة الحقيقية للولايات المتحدة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن، لدرجة أننا نقول الآن : الأمم المتحدة الأمريكية، فى وقت يقف فيه العالم كله مكتوف الأيدى أمام الهيمنة الأمريكية!

د.جمال علي العطار
الاسكندرية - كامب شيزار



ظبية وفن الغناء

عرف الغناء العربى فى مكة والمدينة بعد الإسلام على أيدى عدد من النوابغ فى هذا الفن ومنهم ابن مسجح والغريض وتتلمذ على أيديهما «معبد» الذي ذاع صيته في الجزيرة العربية والشام وقيل إن النساء كن مفتونات بجمال غنائه وحسن طلعته أما هو فلم تفتنه وتأخذ بقلبه إلا جارية حسناء عذبة الصوت تدعى «ظبية» عهد بها سيدها إلى «معبد» ليعلمها فن العزف والغناء فأحبها من أول نظرة فقال لها :

– أيا ظبية فتنتني وكأنني غلام غر بهره الجمال وعصف به.

– ياسيدى أتقبل أن تعلمنى فنك المتقن.

– هذا لك يا أميرة الحسن وسيدة الجمال أعلمك أصول الغناء وآخذ عليك عهدا ألا تلقنيها لأحد بل اجعليها سرا بيننا.

– إن سرك سيطوى فى الجوارح وأطوى عليها جفون القلب والله وحده يعلم مكنون الجوارح.

– إذن فغن وقولي بعدى :

تولع بالعشق حتى عشق
فلما استقل به لم يطق
رأه لجة ظنها موجة
فلما تمكن منها غرق

وتكررت حلقات الدرس وصار العشق سلطانا على قلب معبد وظبية التي برعت في العزف والغناء فذاع صيتها مما جعل صاحبها يطمع فيها فباعها لأحد الأثرياء ورحل بها إلى البصرة وبها أحبها الناس وفرحوا بها لكن قلبها لم يتحول يوما عن «معبد» بل ظل مقيما به وكلما غنت تذكرته وهي تقول :

قالوا جننت بمن تهوى
قلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه
وعنا يصدع المجنون فى الحين

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

أنت والهلال

مصر المحروسة

مصر مبروكة ومحظوظة من قديم الزمان، فيها وخلالها ومنها نشأت وانقسمت الرسالات السماوية الثلاث نشأ فيها موسى عليه السلام، وزارها ومر بأرضها عيسى عليه السلام وانتسب إليها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وسيدنا موسى ولد وتربى فيها وعايشها، وعيسى لجأ إليها واحتمى من الرومان، ومحمد جدته مصرية وكانت زوجة لإبراهيم عليه السلام جده الأكبر، كما تزوج من بناتها وأوصى بمصر ودعى لها بالخير والبركة.

باركها الله فأنشأ بها أقدم الحضارات وادخرها لخير البشرية والغريب القادم إليها يشعر فيها أنه قريب، وإذا غادرها رغب في العودة إليها مرة ومرات.

لهذا حفظها الله من قديم الزمان، وادخرها إلى يوم البعث الموعود، رمزا للسلام.

مهندس رستم غالب

يافؤادى

تمهل فـــؤادى فـمــهــلا ومــهـــلا
تــهلت المعـــاصـى وداومت نـهـــلا
وأحــيــيـتنى ثم أنجـبت جـهـــلا
وضللتنى حين أصـبـحت كـهـــلا
تمهل فــؤادى فـمـهـلا ومـهـــلا
وقل يافـــؤادى لمن جـــاد: أهلا!!

محمود المصلى

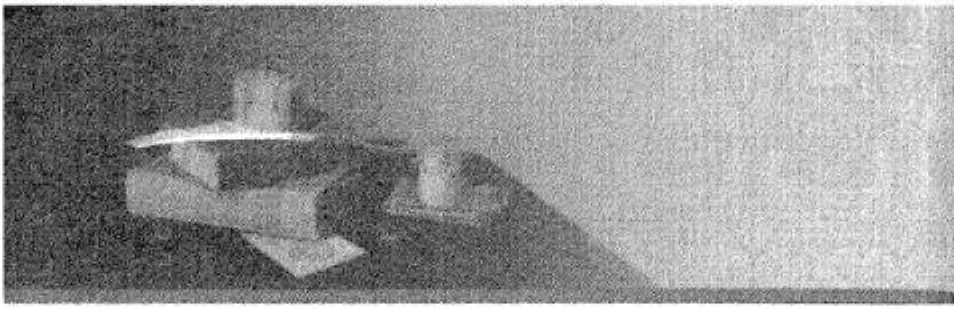
- شربين - دقهلية

تحديث مصر

قرأت كلمات الدكتور رشدى سعيد فى مقاله «نحو آفاق جديدة» والمنشور فى هلال ديسمبر ٢٠٠٠ والتى يقول فيها : هذه وعشرات الأسئلة الأخرى تحتاج إلى أن يدور حولها نقاش فى إطار ميثاق للعمل الوطنى يحدد المبادىء الأساسية لضوابط العمل الوطنى، حتى يجىء متمشيا مع بناء دولة ديمقراطية مدنية تأخذ بالطرق الحديثة فى الإدارة والتنظيم.

وهذا يدفعنى للقول بأن تحديث مصر يحتاج إلى جهد العلماء والمخلصين فالأحلام وحدها لاتكفى، بل إن التخطيط السليم، والعمل الدوب وتنظيم النسل وتطوير التعليم، والإخلاص فى العمل .. كل ذلك سوف يكون وسيلتنا الحقيقية للنهوض بمصر.

حسين منتصر - فارسكور - دمياط



قسوة الليل

قد أقبل الليل بالأشجان يغشانا
والعقل يسبح في الأفكار حيرانا
والقلب في لظى الأشواق ثائرة
تعصى الكرى وتذيق الوجد نيرانا
فلا أرى عبرات العين تبرئني
ولا أرى لطريق الصبر عنوانا
ثارت هموم الدجى بالنفس تجزعها
فالهم يطغى على الأحلام ظمآنا
إلى هوانا ويسقى القلب حيرته
كي يحتويه ويرعى فيه أشجانا
ما عاد ليل الصفا بالحب يبهجنا
ويلتقى في حمى الأسحار ألحانا
فالشعر أبكى فؤاد الحب أحزنه
ألقى الرثاء فذاق القلب أحزانا
تبكى على (عُمر) فالعدل منحسر
والظلم منتصر، فلما بات نشوانا
يلهو بأرض الهوى، والنار رايته!!
عم البقاع ويسقى الأهل طغيانا!!!
فالظلم يسعى وصوت الخوف يطربه!!
يذيق من ذا اللظى برا وشطآنا
كم تشتكى ربوات الطهر ضارعة
عسى الإله يعيد الفرح ريانا
أحلام أطفالنا باتت مروعة
فالموت يمضى لها جورا وبهتانا

زكريا عبدالمحسن على
أسيوط - الفتح - جزيرة الواسطى



الطريق إلى الجنة..

بقلم: د. الطاهر أحمد مكي

شغل الإنسان منذ أن وعى بما وراء الموت، وحاولت الأديان سماوية وأرضية أن تقدم له جوابا: بعد الموت بعث وحياة أخرى، وإثابة على الأعمال الصالحات، جنة عرضها السماوات والأرض، وعذاب صارم، نار حامية على الذنوب والخطايا والمعاصي.

ولكن.. ما هو العمل الصالح الذي يحملك إلى الفردوس، وما الخطايا التي تقودك إلى جهنم وبئس المصير؟. هنا تختلف الرؤية، وليس ثمة ميزان واحد لا يختلف عليه أحد، ولا صلة لذلك بما هو متعارف عليه، أو يبشر به الدعاة ورجال الدين في كل الملل والنحل والأديان.

لقد جاءت حكايات الأدب الشعبي في كل اللغات تهدم هذه القواعد والنظريات، أقدمها ما كان في الأدب القبطي، وأشهرها منه حكاية قرأتها في كتاب «حياة الآباء Vitae Patyum» تقول: إن الكاهن أنطونيو اتخذ من صومعته مكانا لا يبرحه، يصوم نهاره، ويقوم ليله، ويحرم نفسه من كل طيبات الدنيا، أملا في رحمة الله، وطمعا في جنته، وذات مساء سمع هاتفا يناديه: أنطونيو، لا يداخلك العجب والغرور فأنت مع كل ما تفعل لم تحقق من الطيبات الصالحات ما حققه دباغ يعيش في الإسكندرية.

اضطرب الكاهن العجوز أمام هذه الرؤيا، وعندما أشرق الفجر حمل عصاه وتوجه إلى الإسكندرية، وفيها راح يسأل عن الدباغ حتى اهتدى إليه، وزاره في بيته المتواضع بناء وأثاثا.

أخذ صاحب البيت وتجهد.. حين رأى ناسكا دينا وقورا يزوره في داره، ويحاوره في ود واحترام وتقدير.

من أجلك تركت صومعتي، وجئت لأراك، وأعرف من أمرك ما أجهل، وقد سألت الناس جميعاً عنك فلم يذكروك بأي خير، ورموك بكل القبائح والشرور، وأنك ترتكب كل المعاصي.

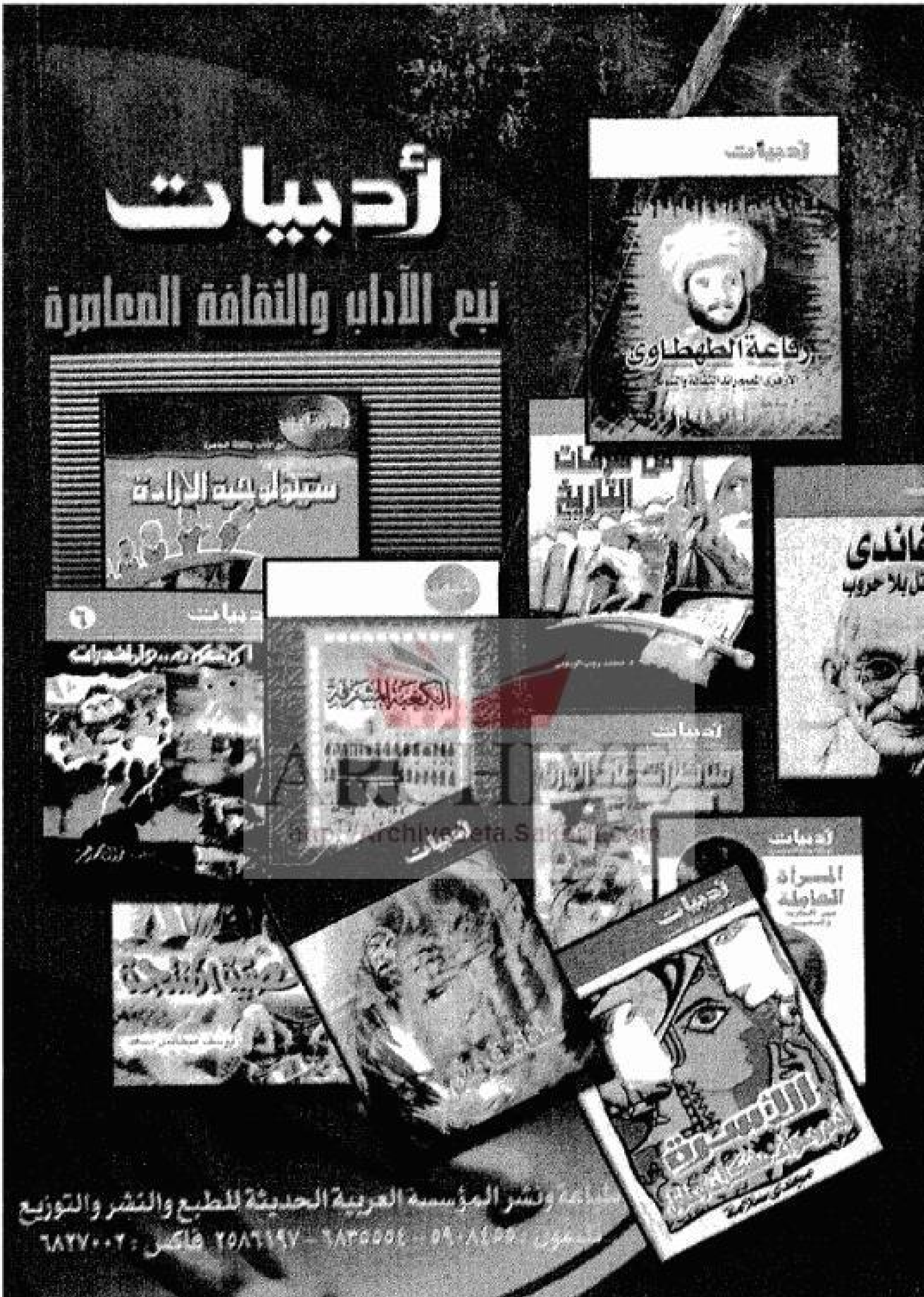
رد الدباغ: معهم كل الحق يا أبي، أنا لا أذكر أني عملت في حياتي كلها عملا صالحاً، وعندما تشرق الشمس فوق المدينة الكبيرة كل يوم، أعتقد أن كل سكانها، الكبار والصغار، سوف يدخلون الجنة لصلاحهم، إلاّ أنا، فطريقي إلى جهنم مباشرة بعد الموت! وعندما أوى إلى فراشي أحاسب نفسي، التي تمتلئ حزنا وغما وإحباطا، والشيء الوحيد الذي يخفف من كربي أنني أبذل كل جهدي وطاقتي كي أبلغ بحرفتي حدا من الإتقان لا مزيد عليه.

قال الكاهن: يابني، إنك بدقتك في عملك، وإتقانك حرفتك، ربحت مملكة الله!.

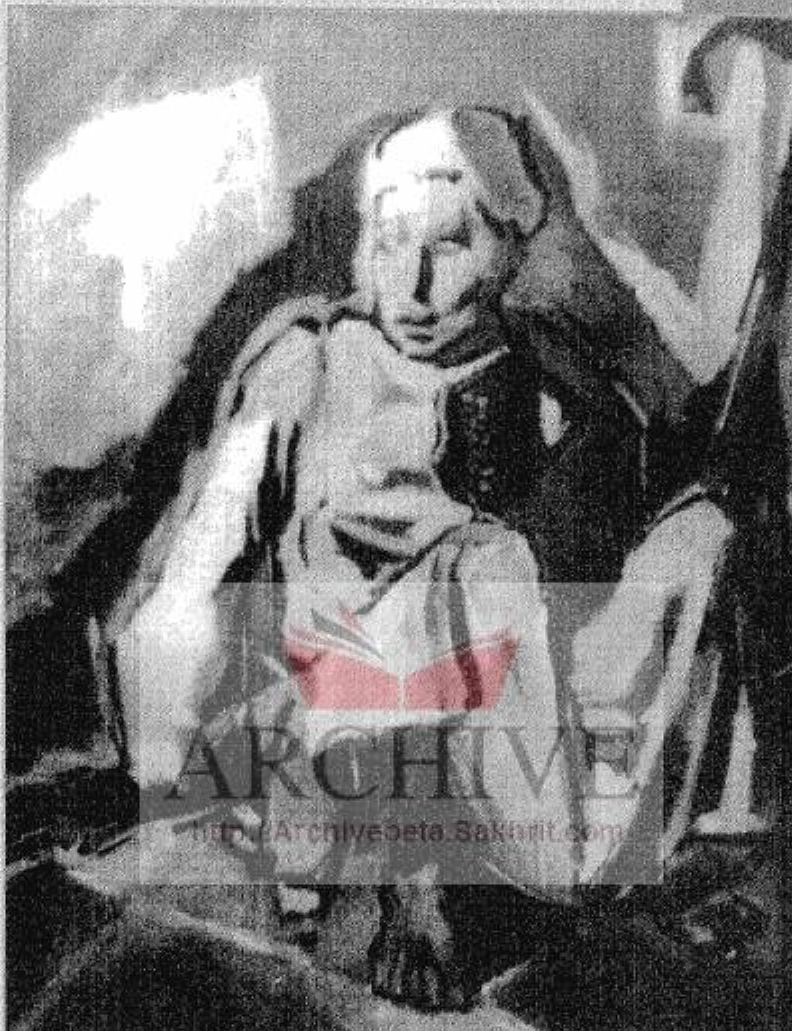
أما أنا فأسرفت في العبادة، وضيعت أيامي في العزلة، ولم أبلغ من رضا الرب ما بلغت أنت، هنيئا لك.. الجنة في انتظارك!.

الحرص على دقة العمل ذاتيا عبادة كانت وراء نهضة مصر في أيامها الخوالي، وهنت مع الزمن عندنا، وذكرها وتمسك بها غيرنا فكان انهيارنا، وكان تقدمهم. ■


وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية
مصر للطيران
EGYPTAIR
الصين
خط جديد ... ورحلات جديدة
مع مصر للطيران
أعتباراً من ٢٨ يناير
القاهرة / بكين / القاهرة
الثلاثاء و الجمعة
بأحدث طرازات الطائرات
www.egyptair.com.eg


أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة
أدبيات
رفاعة الطهطاوى
سيكولوجية الإرادة
غاندى
أدبيات
أدبيات
المرأة العاملة
أدبيات
المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع


الهلال
مارس ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
من أب مصرى
إلى الرئيس الأمريكى
الأديان على الإنترنت
الذهب
فى بورصة الأحداث





لوحة وفنان

لوحة: رجل جالس

الفنان: حامد عبد الله

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت ٢٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط)، المكاتبات ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال ت ٢٦٢٥٤٨٩ - فاكس: ٢٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

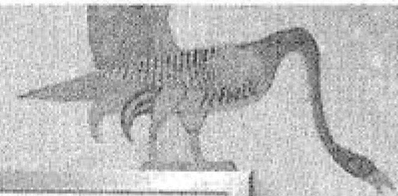
محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



٨ - رسالة من أب مصرى إلى الرئيس ترومان
.... **عبد الرحمن الشرقاوي**
١٢ - أمريكا فوق الجميع........
.... **د. مصطفى سويف**
٢٠ - التنكيل بالشرعية الدولية........
.... **د. أحمد يوسف**
٢٤ - نهاية الزمن : عقدة الخوف والأمل فى العقل الأمريكى .... **محمد يوسف عدس**
٤٠ - من أحكام المحاكم : المرأة والقضاء........
.... **طارق البشري**
٤٨ - كيف نشأت عقدة الخواجة ؟........
.... **د. جلال أمين**
٥٤ - بين الشعر والسياسة: مأساة توفيق نسيم ومروءة علي محمود طه .... **د. محمد رجب البيومي**
٦٢ - الجيش المصرى وضع اسرائيل على حافة الهاوية (كتاب جديد)........ **د. عاصم الدسوقي**
٧٢ - الأديان على الانترنت........
.... **د. أحمد محمد صالح**
٨٢ - بين الدين والعلم (دائرة حوار)
.... **د. التهامي محمد الوكيلى**
٨٨ - الاستنساخ : مايمكن أن يصل إليه العلم سيتحقق .... **د. رجاء منصور**
٩٦ - حكاية أحد الطيور المهاجرة
.... **مصطفى نبيل**

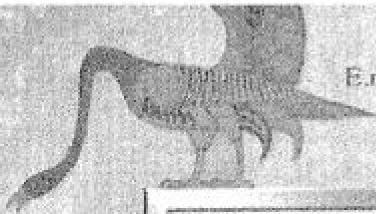


تصميم الغلاف للفنان محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٢٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية البلاد العربية ٢٠ دولاراً. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٠ دولاراً. باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت د/13079 ٢٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد



E.mial : hilal_mag@yahoo.com

العام الحادي عشر بعد المائة

محرم ١٤٢٤ هـ - مارس ٢٠٠٣م

١١٤ - الصحراء الشرقية .... جبالها وحواشيها ذهب
.... **أماني عبدالحميد**

١٢٦ - الفنان محمد على يزركش نفسه تلقائيا
.... **صافي ناز كاظم**

١٢٢ - جولة المعارض : نبض الحياة فى عروق الحركة الفنية .... **عز الدين نجيب**

١٤٠ - أحمد مرسي شاعر تشكيلي... **إدوار الخراط**

١٤٦ - ذيل السمكة ومعالى الوزير............
.... **مصطفي درويش**

١٥٢ - ميرامار : البنسيون والرواية............
.... **شوقي بدر يوسف**

١٦٠ - المخطوطة البغدادية « قصة قصيرة »............
.... **جبار ياسين**

١٦٦ - إبراهيم أصلان يوسس لقصة حالة
.... **عذاب الركابي**

١٦٩ - نجم وحيد في الأفق............
.... **حسني سيد لبيب**

١٧٦ - أنباء العالم فى مصر من الحفاوة إلى التجاهل.
.... **محمود قاسم**

١٨١ - قصة مجلة الكاتب (٢)............
.... **أحمد عباس صالح**

١٨٨ - آفاق جديدة تشهدها دار الكتب

١٩٤ - المتفرجة : منابع النور .... **مرفت رجب**

٢٠٠ - ذكريات تستعيدها الأسماء.... **وديع فلسطين**

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارىء ... ٦

- شخصية العدد محمد عودة : بقلم حسين عبد الرازق. ٢٤

- أقوال معاصرة .. ٦١

من ذخائر الكتب العربية (الأشباه والنظائر) بقلم د. عبد العزيز الدسوقي..... ١٠٨

- لغويات (د. الطاهر أحمد مكى) ١٩٣

- الكتب (د. خليفة محمد التليسى) ٢٠٨.

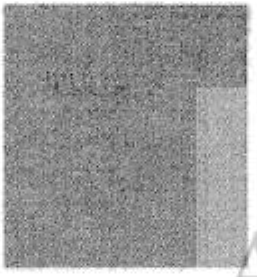
- أنت والهلال (عاطف مصطفى) ٢١٨

- الكلمة الأخيرة د. محمود على مكى ٢٢٦



سجل الهلال

بين يدى القراء



إن التنسيق الذى يحدث بين المؤسسات الثقافية يرتقى بالعمل الثقافى، وينتج لهم المزيد من الإطلاع على الموضوعات الهامة فى مجالات الثقافة والإبداع والاقتصاد وفى العلوم وغيرها فمنذ ثلاثة أشهر تم عقد اتفاق مع مكتبة الاسكندرية على طبع الهلال منذ صدوره فى عام ١٨٩٢ وحتى الآن على أقراص مدمجة C.D والمشروع يسير سيرا حسنا، حيث بدأ فريق مدرب العمل على إنجاز هذا الموضوع الثقافى المهم، وبعد وصول الأجهزة المتقدمة والتى يصل ثمنها إلى ستمائة ألف جنيه، ومن المتوقع أن نتسلم باكورة هذا العمل خلال نهاية العام، ولتساعد الباحثين، وتكون خير هاد لهم فى مشوارهم الفكرى.

وفى النصف الأول من فبراير الماضى سلم الدكتور صلاح فضل رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية مجلة الهلال «كشاف الهلال» والذى أنجزته دار الكتب فى وقت قياسى بفضل مجموعة من العلماء والباحثين يتقدمهم فى الإعداد رضا صبحى الوزيرى، وبإشراف الدكتور محمد جلال غندور وعايدة حنفى ذكر الله.

وهذا الكشاف يضم فهارس تفصيلية لأعداد مجلة الهلال منذ سنة ١٩٣٦ وحتى سنة ١٩٥٢ فى مجلدين وصل أعداد صفحاتهما ١١٥٤ صفحة من القطع الكبير، وقد وضع خطة العمل فى المجلدين لجنة تضم ثمانية من كبار علماء البيلوجرافيا فى مصر ونفذ هذا المشروع الثقافى المتميز ٣٥ باحثا من العاملين بمركز البيلوجرافيا فى دار الكتب.

كانت دار الهلال قد أصدرت «كشاف الهلال» الأول والذى يبدأ من سبتمبر سنة ١٨٩٢ وحتى يوليو ١٩١٤ بإشراف الدكتور أحمد حسين الصاوى.

كانت زاخرة بعدد من الكتاب من بينهم طلعت حرب وقاسم أمين وفتحي زغلول ومصطفى صادق الرافعي، بالاضافة إلى تزويد القارئ بكل أخبار العلم ومنجزاته من شتى أنحاء العالم، فضلا عما نشر عن صورة المجتمع المصرى فى تلك الحقبة والتى برزت ملامحها من خلال ما نشر عن استخدام الكهرباء وتسيير الترام فى شوارع القاهرة، وما نشر عن الاقتصاد المصرى ومحصول القطن، وما عبرت عنه أقلام الكتاب من مختلف الاتجاهات الفكرية، حول موضوعات بالغة الأهمية مثل التعليم وتحرير المرأة، وإنشاء الجامعة، والثقافة العربية والغربية، فضلا عن اهتمام «الهلال» بالأدب العربى بشكل خاص، حيث حفلت صفحاتها بمختلف البحوث والمقالات التى تناولت عدة قضايا أدبية واحتفت بقصائد كبار الشعراء المعاصرين، فنشرتها مع دراسات نقدية لها.

وجاء الجزء الثانى من «كشاف الهلال» متضمنا الفترة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٣٦ وهو من إعداد وتحقيق د. أحمد حسين الصاوي، وقد صدر بعد عشر سنوات من ظهور الجزء الأول وهذه المرحلة لها أهميتها في تاريخ مصر المعاصر، فهى تضم سنوات الحرب العالمية الأولى، ثم حقبة النهضة الوطنية التى جسدها الفنان التشكيلى محمود مختار بتمثاله الرائع «نهضة مصر» وقد بدأت هذه الحقبة بثورة ١٩١٩، وشملت مختلف النواحى من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وفنية، وكانت مرحلة خصبة لها انجازاتها المتعددة فى شتى جوانب الحياة المصرية.

وكانت صفحات «الهلال» مرآة صادقة لكل ما تموج به الحياة الفكرية من اتجاهات وآراء، ومنبرا عاليا يعبر من خلاله أصحاب الأقلام عن معالم تلك الانطلاقة المصرية الفذة فى مختلف المجالات، ومعرضا فسيحا لنتاج الكتاب والمبدعين الذين ازدهرت بهم الحياة الأدبية والثقافية.

كانت «الهلال» سجلا أمينا لعالم ذلك التطور الكبير بكل دلالاته ومؤشراته، وبالإضافة إلى مشاهير الكتاب المصريين فى ذلك الوقت فقد اجتذب الهلال عددا من الكتاب العرب فى مقدمتهم «جميل صدقي الزهاوي شاعر العراق المجيد ورشيد سليم الخورى (الشاعر القروى) وخليل مطران (شاعر القطرين) ومى زيادة.

وهذه الجهود التي يتم بذلها وخاصة إتمام فهرسة المجلة حتى عام ٢٠٠٢ والتى من المتوقع أن تصدر فى خمسة مجلدات يتم الانتهاء منها هذا العام تؤكد على دور مجلة الهلال فى الحياة الثقافية العربية، وتفيد الباحث الذى يهتم بفنون المعرفة الإنسانية من خلال عمالقة الكتاب والشعراء والأدباء.

وقد جاء الاتفاق بين دار الهلال ودار الكتب بأن تتولى دار الهلال توزيع مجلدات الفهارس، كما سيتم خلال هذا الشهر إقامة حفل استقبال بهذه المناسبة الثقافية الكبرى، يدعى إليه عدد من المثقفين والباحثين المصريين والعرب، وتقام ندوة فكرية على هامش هذا الاحتفال ولتتألق الهلال في مجال الثقافة العربية، خاصة بعد التطوير الذى بدأناه فى عام ٢٠٠١ ونواصل بذل كل الجهود من أجل القارئ العزيز ولتظل دائما الهلال المجلة العربية الأولى فى مصر والعالم العربى. ■

المحـــــرر

رسالة من أب مصرى

إلى الرئيس الأمريكى ترومان

شعر

عبد الرحمن الشرقاوى

هذه القصيدة كتبها الشاعر الكبير عبدالرحمن الشرقاوى منذ نصف قرن وقد وجهها إلى الرئيس الأمريكى.. ننشر مقتطفات منها تعبر عن الهيمنة الأمريكية وما يحدث الآن من حشود عسكرية أمريكية وبريطانية لضرب العراق وتهديد أمن المنطقة العربية.

سألتك - لاضاحكا هازلا - فقد جمد الضحك فوق الشفاه
وما أنا بالسائل المستخف
وأنى لأوجس إن لم أخف
وأنت بيمناك سر الحياة
ألا تملك الذرة المفنية!
ولكن أنا
أنا وابنتى
وفتاتى التى أجن بشوقى إليها هنا
- أى زوجتى -
وهذا الصديق، وذاك الرفيق، وكل الرفاق بناة الغد
أنملك نحن سوى التضحية؟
ألا ننحنى لك يا سيدى
وأنت إله الزمان الجديد



وكالله أنت إله وحد؟!
معاذك!! بل أنت فوق الشبيه، وليس كمثلك شيء يكون
وفي الأشهر القلة الماضيات أبدت الذى لم يبد في سنين!

★★★

على أنني قد أطلت الحديث ، ولم تدر يا سيدى من أنا
ولكن أنا .. أنا من أنا ..!؟
.. ولدت لعشرين عام مضت على مطلع القرن ياسيدي
وقد فرغ العالم المستجير من الحرب.. ثم مضى آمنا:
يوزع أسواقه الباقيات
ويهزأ بالموت والتضحيات.
وبالذكريات.
وقامت شعوب تهز الظلام بمشرق أحلامها الهائلة
وتعلى على خربات الفساد بناء مدينتنا الفاضلة
فلما بدأت أعي ما يقال رأيتهم يملأون الطريق
تهز الفؤوس ركود الحقول وتغلي بما تحتويه العروق
وكانوا يقولون : «يحيا الوطن».
حفاة يهزون ريح الحياة ويستدفعون شراع الزمن
وساءلت أمي عما هناك «وماذا دهى القرية الساكنة»
فقالت : بني هم الإنجليز يثيرون أيامنا الآمنة
وقد أخذوا كل غلاتنا .. وقد نضب الماء في الساقية
ولم يبق شيء على حاله سوى حسرة مرة باقية؟

★★★

.. ولما كبرت لبست الحذاء وليت وجهي إلى القاهرة
فأبصرت من تحت ثقل السلاح وجوههم الجهمة الجائرة
وكنت أراهم وهم يركلون فتى في طريقهم..أو فتاة
وقد ينزعون حجاب امرأة
فتصرخ «ويلي من الانجليز».
وقد يعبثون بشيخ عجوز
فيملأني الرعب مما أراه - ويرهق سمعي - ما لم أره.

★★★

ويأتي الخريف بأشباحه وتمشي التعاسات فوق الحقول
فأمضي لأطلب علم الكتاب وعلم الكتاب لدينا هزيل
وندرس «جغرافيا» ذات عام، ونعرف كل مناخ الدول

وألمح في «أطلسي» دولة ومن فوقها حمرة تشتعل
فإن كنت يا سيدي قد أطلت، وقد سقت هذا الحديث الحزين فإني حزين
حزين شقي لبعد ابنتي.
حزين أخاف عليها المصير وأنت أب تعرف الوالدين
ولست أريد لها أن تموت.. فرفقا وأنت تخط المصير
أترمي حماماتنا بالنسور؟!
معاذ الأبوة يا سيدي.. فأنت أب : وكلانا حنون
ألست تصون حياة ابنتك.
فهل تصنع الموت للأخريات
وإني لأدعوك باسم الأبوة؟؟ باسم الحياة.. باسم الصغار.
لتعقد حلفا يصون السلام ويرعى المودات بين الكبار
فأنت أب قد صنعت الحياة ولن تصنع الموت بعد الحياة
لماذا إذن يا إلهي الرحيم يذيعون حولك هذا الجنون؟!
ولكن لمن كل هذا العديد؟
وتلك الحشود؟
ولكن لمن كل هذا الهزيم؟
لمن هذه النافثات السموم؟
لمن هذه الناشرات الجحيم؟
لمن تسرق اليوم أقواتنا لتصنع ماشئت من فاتكات؟
لمن تحشر اليوم في السابحات، وفي القانصات ، وفي الطائرات
وفي الناشطات.
لمن هذه الذاريات الحطام؟.. لمن؟.. ولمن هذه النازعات؟؟؟!!
لمن كل هذا؟! لغزو السماء؟.. لتصنع معجزة؟!؟
بل لنا
لتحطيمنا
لتجويعنا
لتخريبنا
لتقوى سلاسل أصفادنا
ليرتفع السور من سجننا
لنشر السواد، على أرضنا
لتمزيق أجساد أطفالنا
لتمزيق أجساد أطفالنا!!؟؟
ولكن.. كفى ! لن تنال ابنتي
وأقسم أن لن تنال ابنتي!



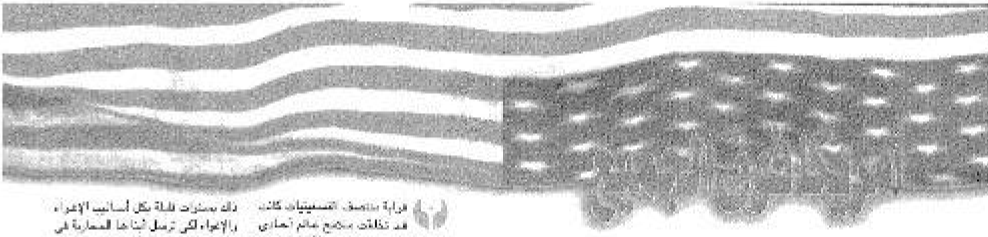
أتطفىء نظرتها الباسمة
أتقطع أطرافها الناعمة؟
أتجرى دماء ابنتي في غد كنافورة ثرة تنسكب
أتنثر أشلاءها اليانعات على حيث تضحك بين اللعب؟!
أتمزج لحم ابنتي بالتراب!!
كفى أيهذا الإله الذى يلطخ بالوحل طهر السحاب!!
أتنهش هذا الكيان النضر!
كفى أيها الهمجى الرهيب!! كفى أيهذا الإله القذر!
إله يبول على التضحيات ويبصق فوق قبور البشر
يضمخ لحيته بالدماء وترقصه أنة المحتضر
ويسخر من ذكريات النضال ويهزأ بالأمل المزدهر
كفى أيها الهمجى الرهيب..!
وبالفحة من بقايا ذنوب
ويا خفقة من هوى الغروب
فليست دماء ابنتى كالنبيذ.. وليس نبيذا دماء الشعوب

***

ستحيا ابنتي في ظلال السلام.. وتنعم باللعب الزاهرة
تمارس كل حقوق الحياة حقوق طفولتها الزاهرة
ستحيا انطلاقاتها كلها وأحلامها الحلوة الشاعرة
وأقسم أن لن تصير ابنتي غدا طفلة لشهيد قضى
أتسمعنى أيها الهمجى!! ستحيا ابنتى فى ظلالى أنا
كأسعد ما نتعاطى الحياة
أتسمعنى أيهذا الإله
ستحيا ابنتى فى ظلال السلام
وتصبح أنت مع التابعين هواجس من ذكريات الظلام
فإن تملكوا الذرة المفنية
فإنا لنمتلك التضحية
ونمتلك الذرة البانية
ونملك طاقاتنا كلها ونملك أيامنا الباقية
وتاريخ أجيالنا الآتية (١)

هوامش

(١) نشرت في كتاب مستقل سنة ١٩٥٣ بالقاهرة، ثم بيروت تحت عنوان خطاب مفتوح من أب مصري الي الرئيس ترومان.. وقد كتبت في باريس سنة ١٩٥١



بقلم
د. مصطفى سويف

في أواخر التسعينيات، عندما كانت شمس القرن العشرين تؤذن بالمغيب، كانت أصعدة الحياة العامة جميعا ملأى بالفواجع. ومع ذلك كانت تتخللها هنا وهناك بضعة شقوق ضيقة تتفذ منها ومضات لآمال تتعلق بالمستقبل. ولكن كيف؟ وبأي ثمن؟

على الصعيد العالمي كانت فاتحة النصف الثاني من التسعينيات تموج بمظاهر السخط على الهيمنة الأمريكية المتصاعدة، وجاءت الخاتمة بمزيد من التصعيد في دلائل الهيمنة والسخط معا. وعلى الصعيد الإقليمي كان الاستهلال بوصول الليكود إلى رئاسة الحكومة الإسرائيلية، وجاء الختام باندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية. وعلى المستوى المحلي كانت البداية مكتئبة، وذلك بتأييد حكم قضائي بتكفير أحد رموز البحث العلمي في الجامعة جزاء له على اجتهاده، ومن ثم فقد استحق التفرقة بينه وبين زوجه! ثم توالت الأحداث وأنباؤها تنذر بمزيد من التفاقم في مشكلات لدينا تمس مبدأ الحياة نفسه، وفي مقدمتها العنف السياسي وتلوث البيئة.

قراءة منتصف التسعينيات كانت قد تخلقت ملامح عالم أحادي القطب تحكمه مسحة من الأمركة آخذة في التنامي وكانت هذه المسحة أزياء فجاجة في نظر من كان يرصد الأحداث من مرصد يقع في الشرق الأوسط العربي. فالولايات المتحدة تقود حملة تدعو إلى تقسيم العراق وتقود حملة أخرى ضد أي محاولة لرفع العقوبات الاقتصادية عنه، وتقيم قاعدة عسكرية في الكويت، وتكون دعوة إلى عقد مؤتمر النظر في المشكلة الفلسطينية لصياغة الحل الذي ترضى عنه هي، وترسل حملة عسكرية إلى الصومال بدعوى تأمين وصول مساعدات إنسانية إلى ضحايا الحرب الأهلية، وتقود أمريكا ضد ليبيا لمعاقبتها على تفجير طائرة أمريكية فوق لوكربي، وتنصب نفسها شاهدة وضامنة على اتفاق غزة/أريحا بين إسرائيل والفلسطينيين. وكانت الدلالة الإجمالية لهذا الطوفان من الوقائع المتلاحقة التي تحمل خاتم مصنع في أمريكا، أن مقدرات المنطقة تسحب من أيدي أبنائها بصيغة الأمر والنهي. ولكي تفهم هذه الدلالة بجلالها من مستوياتها متعددة لابد من التنبه إلى أن هذه الوقائع جاءت على خلفية أن المنطقة كلها كانت تقع قبل ذلك بسنوات قليلة تحت أساليب الإغراء والإغواء لكي ترسل أبناءها للمحاربة في صفوف المجاهدين الأفغان ضد الجيوش السوفيتية، وكانت المنطقة تقبل الإغراء والإغواء نصا وروحا، وهو ما كان يعني أن حكام هذه المنطقة رفقاء مصيرين من القادة وأن السياسيين لديها كانوا يعتبرون أنفسهم حلفاء للولايات المتحدة في وقوفها ضد العدو السوفيتي وكان الكثيرون من ساسة المنطقة كانوا يعتمدون على علاقة التحالف هذه عمياء الولاءات الشخصية أكثر من مقتضيات المصالح المتبادلة. ويبدو أنهم كانوا يصدقون أنفسهم فيما يذهبون إليه وكانوا يريدون ضحيتهم أن تصدق هذا الوهم، وهو أمر يخضع للتحليل الأنثروبولوجي أكثر مما يستقيم ومفاهيم السياسة الدولية المعاصرة.

ردود الأفعال الغاضبة

والمحصلة لهذا كله أن هذه الأحداث كانت لها آثار شديدة السلبية على شعوب المنطقة، وكان القدر الأكبر من هذه الآثار اتخذ في التبلور في شكل غضب متزايد على السياسة الأمريكية تجاه المنطقة، وقد كون هذا الغضب في نهاية المطاف تربة صالحة لاستنبات كثير من الأعمال العدوانية العنيفة على

المصالح والرموز الأمريكية الواقعة في متناول الغاضبين، وساعد على ذلك أن الكثيرين من أبناء المنطقة كانوا قد تلقوا تدريبا عالي الكفاءة على طرق العدوان المسلح في الساحة الأفغانية. وهكذا وقع انفجار كبير في المملكة العربية السعودية في نوفمبر ٩٥ بالقرب من قاعدة عسكرية أمريكية لا تبعد كثيرا عن الرياض، وتلاه انفجار ثان في المملكة كذلك في يونيه ٩٦ بالقرب من قاعدة أخرى في ضواحي الظهران، وفي هذا الانفجار الأخير لقي ١٩ جنديا أمريكيا مصرعهم ثم وقع انفجاران ثالث ورابع في السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتانزانيا في أغسطس ٩٨، وأسفر هذان الانفجاران عن سقوط ما يقرب من ٢٣٠ قتيلا و٤٥٠٠ جريح. وردا على الانفجارين الأول والثاني في السعودية أعلنت الولايات المتحدة أنها ستشدد إجراءاتها الأمنية حول قواعدها ومعسكراتها. أما بالنسبة للتفجيرين الثالث والرابع فقد شنت الطائرات الأمريكية بعد أسبوعين غارتين إحداهما على مدينة الخرطوم والثانية على مدينة أفغانية تقع على الحدود مع باكستان وأعلنت الخارجية الأمريكية أن الغارتين وقعتا انتقاما ممن أسهموا في تفجير سفارتيها في نيروبي ودار السلام! وهكذا دخلت المواجهة بين مشاعر الغضب (الشعبي) في المنطقة والردود الأمريكية (الحكومية) باسم العقاب أو الانتقام طريقا دائريا متصاعدا لا تلوح له نهاية في المستقبل المنظور. وفي هذا الإطار ورغم كل النذر المشئومة التي كان يحملها في طياته استمرت الولايات المتحدة تصعد حملة دعائية ضد العراق تمهيدا لحملة عسكرية جديدة (غير مكتفية بالغارات الجوية اليومية التي ظلت تشنها عليه منذ حرب ٩١) وأخذت تحرض الدول العربية والأوروبية التي تحالفت معها من قبل (بدعوى تحرير الكويت) لكي تنضم إليها في هذه الحملة الجديدة التي أسمتها «ثعلب الصحراء» بتبرير أن العراق مازال يحتفظ بأسلحة دمار شامل وقد عادت نتيجة هذه الحملة بمزيد من السخط (الشعبي) في المنطقة على أمريكا. وشعر عدد من الحكام العرب الأذكياء أن الولايات المتحدة تدفعهم بهذا التحريض الجديد إلى مالا تحمد عقباه فيما يخص علاقاتهم مع محكوميهم. وحتى الحكام الأوروبيون تراجع عدد منهم عن الاستجابة الايجابية لهذه الدعوة الجديدة.

«ثعلب الصحراء» تجاوزت الحدود

ومع ذلك فقد فاجأت الولايات المتحدة (ومعها بريطانيا) العالم بشن هجوم جوي شامل على العراق مفتتحة بذلك الحملة الموعودة، وذلك في منتصف ليل ١٧ ديسمبر ٩٨. ويبدو أنها كانت تأمل في أن تجر وراءها عددا من الدول الأوروبية والعربية لمساندتها على أساس قبول الأمر الواقع، وكانت تأمل كذلك في أن تبقى الشعوب في هذه المعادلة كما مهملا، ولكن كانت النتيجة أن زاد الغضب في المنطقة على مستوى الشعوب والحكام، فقامت مظاهرة كبيرة ضد الهجوم في نابلس ومظاهرة أخرى في القاهرة، واندلعت مظاهرات في دمشق حيث هاجم المتظاهرون السفارة

الأمريكية وحطموا نوافذها وأنزلوا العلم الأمريكي وأشعلوا فيه النيران وكذلك اندلعت المظاهرات في الرباط، بل وفي لندن. وامتد الغضب والحرج إلى الحكام، فأصدرت الحكومات المصرية والسورية والإماراتية والأردنية والسلطة الفلسطينية بيانات تعلن رفضها هذا الهجوم، وحتى بعض الدول الأجنبية لم تستطع أن تقبله أو تبرره فأصدرت الصين وروسيا بيانين شديدى اللهجة ترفضانه، كما طلبتا عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن للنظر في تداعيات الموقف، وأعلنت الحكومة الروسية أنها قررت ألا توقع على معاهدة ستارت، الخاصة بتدمير الأسلحة النووية، وأبلغ وزير الخارجية الروسى نظيره البريطاني بأن هذا الذى يحدث في العراق يمكن أن يدمر نظام العلاقات الدولية كلية.

وإذا بحملة «ثعلب الصحراء» تنتهى بأسرع مما توقع الجميع ففي ٢٠ ديسمبر ٩٨ صدر قرار الحكومة الأمريكية (والانجليزية) بوقف الهجوم الشامل على العراق. وقالت الحكومة الأمريكية في تبرير ذلك إن الحملة حققت أغراضها! وكان هذا تراجعا مخزيا، وكان في الوقت نفسه برهانا تاريخيا على أنه حتى الولايات المتحدة ليست بمنجاة من التراجع. وبدأت الصين وروسيا تحركا في مجلس الأمن نحو المطالبة برفع العقوبات الاقتصادية عن العراق، وردت الولايات المتحدة بالتهديد باستخدام حق النقض. وتوقفت الأمور عند هذا الحد. وقرأت هذا التداعي للأحداث على أن الإدارة الأمريكية أدركت في لحظة ما أن سياسة حافة الهاوية كانت على وشك أن تتجاوز الحدود المعقولة نتيجة لعبث بعض المغامرين الذين لا يحسنون قراءة ديناميات الحركة الدولية.

ثم عودة إلى الاستفزاز

تراجعت الحكومة الأمريكية عن التمادى في حملة «ثعلب الصحراء» لكنها لم تتراجع عن سياسة الاستفزاز، فبعد يومين من توقف الحملة قام وزير الدفاع الأمريكي بزيارة للحكومة الكويتية بدعوى الشكر لأنها عاونته في هذه المعركة ولولا هذا التعاون لما نجحت أمريكا في مهمتها. وأعلن إضافة إلى ذلك أن بلاده سوف تظل على استعداد لضرب العراق مرة أخرى، وأنه لذلك قرر أن يترك ٢٠ ألف جندى أمريكي للبقاء في المنطقة بصفة دائمة. وفي أوائل يناير ٩٩ قال قائد حملة «ثعلب الصحراء» ردا على سؤال وجه إليه بشأن التكلفة المالية للحملة إنه لا يعرف ولا يهتم بأن يعرف الإجابة عن هذا السؤال لأن أصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة يسددون الفاتورة بكل تعاون! وبعد أسبوعين أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أنها اعتمدت حوالى ٩٠ مليون دولار لتمويل المعارضة العراقية. ثم بعد أقل من شهرين جاء في تصريح لوزير خارجية قطر أن الولايات المتحدة تبني في بلاده أكبر مخزن للسلاح الأمريكي خارج الولايات المتحدة. وعندما سئل هل ستوجد فيه أسلحة دمار شامل؟ قال إن قطر ليست لديها الإمكانيات التكنولوجية لتستطيع الإجابة عن هذا السؤال!!

هكذا كان الاستفزاز يجرى بكفاءة عالية بالتحركات والتصريحات

وتصريحات الأصدقاء. وكلها عناصر محسوبة فى نهاية الأمر فى الاتجاه إلى تدمير معنويات الشعوب العربية، بمعنى كسر إرادتها أن تستقل بقرارها وسحق حقها فى أن تحلم بالسيطرة على مقدراتها.

الدور الإسرائيلي

أصبح توزيع الأدوار بين الإدارتين الأمريكية والإسرائيلية حقيقة من حقائق السياسة الدولية فى عالمنا المعاصر، على أن يفهم هذا التوزيع فى ضوء حقيقة تاريخية أساسية هى أن نشوء الدولة العبرية ودلالتها فى الإطار الدولى المعاصر يوضحان معا أنها نقطة التقاء بين الطموحات الصهيونية والتوجهات الأمبريالية عامة والأمريكية بوجه خاص، فى هذا السياق أرى الدولة العبرية، ويعالج عقلى ما يصدر عنها (كدولة) من أفعال وردود أفعال.

هكذا أدركت وفهمت وصول نيتانياهو (ومن ورائه الليكود) إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية فى يونيه ٩٦، وما أعقب ذلك من تعثر المفاوضات بين اسرائيل والسلطة الفلسطينية واستشفقت ما وراء ذلك كله من تناغم لافت للنظر مع مجريات السياسة الأمريكية، فقد كانت الانتخابات الرئاسية فى الولايات المتحدة على الأبواب حينئذ وتخلل الاستعداد لهذه الانتخابات تعبيرات متعددة تعبر عن انتعاش لآمال الحزب الجمهورى (وهو المعادل الأمريكى لليكود) فى الوصول إلى الحكم. وفى هذا الصدد أرجو (إنصافا لمنطق التفكير العلمى) أن يلاحظ القارئ أننى أكتفى هنا برصد وجود التناغم، ولكنى لا أقدم تفسيرا له، لأن التحرك نحو التفسير تعترضه صعوبات متعددة، ولذلك أكتفى بالرصد، وأزيد عليه أن هذا التناغم يوظف عادة توظيفا شديد المهارة لصالح الطرفين.

وفى أواخر مايو ٢٠٠٠ انسحب الجيش الاسرائيلى من جنوب لبنان تحت جنح الظلام، وكان انسحابه مفاجئا ومخزيا معا. ترتبت عليه نتيجتان جديرتان بالتسجيل: الأولى ارتفاع أسهم حزب الله اللبنانى (الذى كان يقود المقاومة المسلحة ضد الجيش الإسرائيلى)، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أعلن ناطق باسم الفصيل من الجيش اللبنانى (بقيادة أنطوان لحد) الذى كان عميلا للاحتلال الإسرائيلى خيبة أمله فى الإسرائيليين لأنهم على حد تعبيره لم يعنوا باتخاذ التدابير اللازمة لحماية عملائهم من غضب الشعب اللبنانى!! (ولعل هذا أن يكون عبرة لمن يريد أن يعتبر). ومع بداية أكتوبر ٢٠٠٠ اندلعت أحداث الانتفاضة الثانية للشعب الفلسطينى. وجرت محاولات بتنسيق إسرائيلى/ أمريكى لإجهاضها، لكن هذه المحاولات أخفقت، وعبرت الانتفاضة الحدود إلى القرن الجديد.

هكذا جاءت خاتمة الأحداث السياسية العالمية والإقليمية فى نهاية القرن العشرين، وأنا أعنى هنا جملة الأحداث التى توقفت عندها، وحاولت من خلالها أن أحدد هوية القرن وما تحمل هذه الهوية فى صدرها من توجهات للمستقبل المنظور.

أحداث مصر وأجواؤها

لم تكن أحداث العام ١٩٩٦ فى داخل مصر أبهج منها فى الخارج، ففى صيف هذا العام اشتد الجدال بشأن قانون الصحافة رقم ٩٣ لسنة ١٩٩٥

بين نقابة الصحفيين والحكومة، رأت النقابة أنه جاء أقسى من قانون المطبوعات الذى كان معمولا به منذ سنة ١٩٣٦، ومن ثم طالبت بإلغائه. وفى مواجهة ذلك أصرت الحكومة على التمسك به. ووصلت المجابهة بين الطرفين إلى حد أن مجلس النقابة أعلن استقالة جماعية احتجاجا على القانون، وبعد أقل من شهرين من هذه الأحداث صدر قرار نيابة النقض (فى حضور عدد من مندوبى الصحف ووكالات الأنباء الأجنبية ومنظمات حقوق الإنسان) بتأييد حكم محكمة الاستئناف فى قضية الأستاذ الدكتور نصر أبو زيد أستاذ اللغة العربية وآدابها فى جامعة القاهرة باعتباره مرتدا عن الإسلام. وأكدت جريدة الأهرام أن لجنة من علماء الأزهر أوصت بمصادرة كتب الدكتور أبو زيد «ومنع تداولها بين طلاب الجامعة لخطورة الأفكار التى يروج لها فى كتاباته» (٦ أغسطس ١٩٩٦).

وفى منتصف سبتمبر ٩٧ هوجم أوتوبيس سياحى فى وضح النهار على مقربة من دار الآثار المصرية فى ميدان التحرير، وكان بالأتوبيس عشرة أشخاص (السائق وتسعة من السياح الألمانيين) فقتلوا جميعا، ثم أشعل المهاجمون النار فى الأتوبيس. وتبين فى التحقيقات بعد ذلك أن الجانى الرئيسى هو فى الوقت نفسه نزيل فى إحدى مصحاتنا العقلية، وأنه كان يخرج من المصحة ويعود إليها وقتما يشاء، كجزء من مناخ التسيب المقرون بالفساد. وعلى أثر ذلك تفجرت قضية تقديم رشوة مالية إلى أحد كبار الأطباء فى وزارة الصحة، وقيلت أقوال كثيرة. واستدعت سيرة هذه الرشوة فى ذاكرتى سيرتين اتهم فى كل منهما شخص من قيادات الصف الثانى فى الدولة، وصدرت أحكام قضائية بالإدانة فى كل منهم. وأثار هذا التجميع لسير الفساد على هذا المستوى سؤالا فى ذهنى حول ما يمكن أن يكون هناك من دلالة اجتماعية لفساد هؤلاء الرجال المحسوبين على قيادات الصف الثانى؟ أم أن هذه مجرد مصادفة كما يحب البعض أن يتصورها (أسوة بتصور البعض لسلسل سقوط العمارات السكنية، ومسلسل تبوير الأراضى الزراعية، ومسلسل اغتصاب أراضى الدولة.. إلخ)؟ وفى نوفمبر ٩٧ وقع هجوم إرهابى فى مدينة الأقصر، استخدم المهاجمون فيه الرشاشات واستهدفوا مجموعة من السياح الأجانب أثناء وجودهم قرب معبد الدير البحرى (حتشبسوت)، ووقع ذلك فى وضح النهار أيضا، فقتلوا ٥٧ سائحا بينهم يابانيون وإنجليز وسويسريون وألمان. كما قتل ستة من المصريين كان بعضهم من الحراس. وقالت مرشدة سياحية مصرية أصيبت برصاصة فى جسمها لكنها نجت من الموت إن الإرهابى الذى وقف يطلق الرصاص عليها هى والسياح كان فى الوقت نفسه يصوب بعض طلقاته إلى النقوش الأثرية القائمة على جدران المعبد. واجتمعت هذه الملحوظة فى ذهنى (فيما بعد) مع الأخبار التى جاءت بإصرار جماعة طالبان على تدمير

تماثيل بوذا الأثرية فى أفغانستان، وتساءلت: كيف أفهم هذا التلاقى؟ أهى وحدة المعنى؟ وإلى أى مدى أذهب فى تفسير وحدة المعنى هذه؟. وفى مساء يوم الحادث أقيل وزير الداخلية، وقال السيد رئيس الجمهورية ما معناه إن ما كان يؤكده له كبار رجال الوزير من وجود خطط تأمينية عالية الكفاءة كان «تهريجا» (وهو شئ بين الكذب والعبث غير المسئول)، وبعد ستة أيام من وقوع حادث الأقصر أذاع راديو لندن تلخيصا لمقال نشر فى جريدة الأوبزرفر اللندنية جاء فيه أن التخطيط لهذا الهجوم تم فى لندن، وجمعت له التبرعات من الجالية الإسلامية هناك، وبلغ مجموع التبرعات مليونين ونصف المليون جنيها استرلينيا.. وقد كان حادث الأقصر من أحداث العنف القليلة التى توسمت فيها كثيرا من معانى التهديد الحقيقى لحاضر مصر ومستقبلها.

ومع ذلك فالأحداث السيئة كما تتوالى عندنا يصدق عليها قول القائل كلما داويت جرحا سال جرح، وأنا أقف هنا أمام إحصائية عن حوادث الطرق لدينا أوردتها جريدة الأهرام فى ٦ مارس ٩٩ جاء فيها أن عدد حوادث الطرق فى مصر فى عام ٩٨ بلغ ٢٣ ألف حادث، أسفرت عن سقوط ٥ آلاف قتيل، و٢٢ ألف مصاب، وتلف ١٩ ألف سيارة... ورأيت فى هذه الإحصائية مشهدا مؤسفا من مشاهد الإهدار التى تقع من حولنا فى أمور المال والسلامة وحياة البشر... وبعد مشكلة المرور أعود فأقف أمام مشكلة أخرى هى مشكلة التلوث فى مدينة القاهرة (بغض النظر عن باقى مدن الجمهورية)، فقد جاء فى إذاعة لندن صباح يوم ٢٣ أبريل ٢٠٠٠ أن تقريرا صادرا عن السفارة الأمريكية فى القاهرة يقول إنه تبين من قياسات أجريت ميدانيا أن مقدار التلوث بالرصاص فى هواء بعض الأحياء يزيد ٣٠٠ (ثلاثمائة) مرة عن المعدلات المقبولة عالميا! وفى ظل هذا كله طلعت علينا الأهرام فى ملحقها الأدبى صباح يوم ١٨ أغسطس ٢٠٠٠ بأنباء ندوة علمية يتعجب فيها عدد من علمائنا من الاهتمام الذى يبديه فريق من رجال الحكومة بإنشاء مدينة علمية! بدلا من الاهتمام الجاد بكيفية تنشئة البشر الذين سيشتغلون بإبداع علم حقيقى من النوع الذى يبقى فى الأرض فعلا بعد أن يذهب الزبد جفاء!

العالم، ومصر، وبينهما الأنا

بين مظاهر اللامبالاة المتفاقمة التى يبديها العالم نحو مشاعر الفرد وأحلامه وتجليات التبلد التى تغلب على رسائل المجتمع نحو معظم ما هو شخصى وثمين فى تقديرنا، قضيت فترة السنوات الخمس الأخيرة من القرن أجتهد فى إنجاز ما لابد من إنجازه وكان هذا هو سبيلى إلى مقاومة آثار التبلد واللامبالاة. ولكن اجتهادات الإنجاز كانت تجرى فى مستوى من النفس، بينما يشغلنى فى مستوى آخر جهد استخلاص الدلالات التى توحى بها نقاط التماس بين الذات من ناحية والمجتمع

والعالم من ناحية أخرى. وأعترف بأن شدة الرنين الانفعالى المنبعث عن إدراك هذه الدلالات كانت تعوقنى أحيانا عن مواصلة جهود الإنجاز لكنها لم تستطع أن تعطلنى تماما. وظللت على كل حال دائم التنبه لرصد الدلالات ورنينها وأبعاد كل منها.

وقد توقفت بصورة خاصة عند نقطتين للتماس بين الذات والعالم. كانت إحداهما حزينة، وحملت الثانية قدرا لا بأس به من البهجة، وقعت الأولى فى سبتمبر ٩٧ عندما بلغنى نبأ وفاة هانز أيزنك أستاذ علم النفس فى جامعة لندن الذى تحقق على يديه ميلادى فى التخصص. وجاءت الثانية فى يناير ٩٩، حينما طلبت إلى دورية «علم النفس فى العالم» التى تصدر فى الولايات المتحدة أن تجرى معى حوارا حول سيرتى العلمية، وتم إجراء الحوار فعلا ونشر على صفحاتها. وكانت النقطتان تشفان معا عن أن اللقاء الخالص لوجه الحق يمكن أن يتم عبر الحدود والسدود السياسية/ الحضارية.. بصعوبة؟ نعم، ولكنه يتم. ثم توقفت مرة ثانية عند نقطتين من نقاط التماس بين الذات ومصر التى أعيش فى رحابها، كانت إحداهما مبهجة، عندما دعيت إلى قبول العضوية فى المجالس القومية المتخصصة وذلك فى مايو ٩٥، وكانت الثانية مكتئبة عندما قررت الانسحاب من أحد ميادين العمل العام فى نوفمبر ٩٦ لكى أنأى بنفسى عما اعتبرته خطوة أولى نحو نموذج من نماذج الفساد العام، وأدركت فى هذا السياق كيف يكون تواطؤ الكبار على الباطل، وكيف يجرى توزيع الأدوار والمغانم (الموعودة) بينهم بمهارة يحسدون عليها. وقد أضفت الموقف برمته إلى رصيد خبراتى تختمر فتلهمنى الحكمة (وذلك بعد أن عجز جهدى المحدود عن أن يزهق الباطل)، وكنت أردد فى سريرتى قولا يلح على من حين لآخر، ويل لمصر من بعض أبنائها، وأدعو للبررة من الأبناء بالمزيد من هدى البصيرة، وشحذ الهمة، وتعميق الإيمان بالحق.

***

وعلى هذا النحو أسدل الستار على السنوات الخمس الأخيرة من القرن العشرين كما عايشته، وكانت سنوات تنوء بما تحمل من أحداث جسام على جميع الأصعدة، العالمى والإقليمى والمحلى، بين سخط متنام على الهيمنة الأمريكية، ومقاومة مأساوية لشرور الاحتلال الإسرائيلى، وتشبث برفض كل ما يهدد حياة الفرد والجماعة. وكانت تتخلل توالى الأحداث الفاجعة، سواء هنا أو فى الإقليم أو فى العالم على اتساعه شقوق ضيقة تنفذ منها بالكاد ومضات الأمل فى مستقبل أفضل، حتى فى أحلك اللحظات. وكان واضحا لكل ذى بصيرة أن تكلفة الأمل كبيرة. وكان واضحا أيضا أن أعدادا متزايدة ترتضى هذه التكلفة. ولم لا؟ مادامت أشواك الشر تمتد مستهدفة حق الجميع فى الحياة الكريمة. ■

التنكيل بالشرعية الدولية

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

أحسب أن الكثيرين باتوا يكرهون متابعة الأحداث العالمية عبر وسائل الإعلام المختلفة من هول ما صارت تدل عليه من تنكيل بما اصطلح على تسميته بالشرعية الدولية، لم يعد الأمر بالتأكيد مجرد تجاهل لهذه الشرعية أو خروج عليها وإنما هو تنكيل حقيقى بها بل إمعان فى التنكيل.

قد يحسن بداية أن نتوقف قليلا عند المصطلح، فهو أصلا مصطلح ملتبس وغامض، ويحسب البعض عادة أنه يعكس معايير العدل والانصاف غير أن ذلك ليس صحيحا بالضرورة، اذ يفرق أصحاب القانون والسياسة فى هذا الصدد بين مصطلحين : الشرعية القانونية والشرعية السياسية، وأحيانا يفضل البعض التعبير عن هذين المصطلحين بمفهومي المشروعية والشرعية علي التوالي، حيث تكون المشروعية تعبيرا عن المطابقة للقانون بينما تكون الشرعية متضمنة لمعنى القبول والرضا، هكذا تكون الثورات أو حروب التحرر الوطنى غير مشروعة بمعنى مخالفتها للقوانين السائدة ولكنها شرعية لأنها تحظى بالقبول الطوعى من الشعوب ذات الصلة، وتتسم نظم استبدادية بالمشروعية لأنها تستند الى أوضاع قانونية قائمة بينما هى بالتأكيد غير شرعية لأنها منبوذة من شعوبها. على هذا النحو يقف مفهوم الشرعية الدولية حائرا بين المعنيين، فنحن عندما نستخدمه نشير على سبيل المثال الى قرارات صادرة عن مجلس الأمن بحكم السلطات المخولة له بموجب ميثاق الأمم المتحدة، فهي اذن قرارات مشروعة او تحظى بالشرعية القانونية ، بينما هى بالتأكيد فى بعض الأحيان – وإن لم يكن فى كثير منها – غير شرعية لأنها لا تحظى بقبول المجتمع الدولى لكل، ولنقارن على سبيل المثال بين قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالصراع العربى –

الاسرائيلي والتي تعامل اسرائيل بتدليل بالغ، وبين مثيلاتها الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تعبر عن الجماعة الدولية ككل وتكون قراراتها عادة قريبة الى حد بعيد من معايير العدل والإنصاف، وهي من ثم تحظى بالمشروعية والشرعية معا، أو بعبارة أخرى تجمع بين الشرعيتين القانونية والسياسية، أخلص الى أن «الشرعية الدولية» التي ينكل بها الآن على نحو ما سنري ليست بالضرورة تعبيرا عن قيم الحق والعدل كما هو في القرار رقم ١٤٤١ الصادر عن مجلس الأمن بخصوص ما يسمى بنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية، وعلى الرغم من هذا فإنه لا يسلم من التنكيل به. ماذا يبقى اذن من المنظومة الدولية؟

نظرة عامة الى تطور الشرعية الدولية

قد أتي على البشرية حين من الدهر لم تكن تعرف ما يسمي بالشرعية أصلا، كانت الشرعية للقوة وحدها اذا جاز التعبير، وهكذا كانت الحرب على سبيل المثال مشروعة، والاستعمار رسالة، وحتى الأديان السماوية التي تضمنت قيما رفيعة للتعامل الانساني بما في ذلك التعامل في مجال العلاقات الدولية اساء اتباعها استغلالها في غير موضع، فاستخدم الصليب لتبرير واحدة من اعتى الحملات الاستعمارية الأوربية على المشرق العربي في العصور الوسطى، واتخذت الحركة الصهيونية من الديانة اليهودية ذريعة لمشروع استعماري استيطاني عنصري قل ان تجد له مثيلا في عدوانيته، واقتتل المسلمون فيما بينهم في أحيان كثيرة اشد مما قاتلوا أعداءهم .

ومع بزوغ فجر التنظيم الدولي الحديث في اعقاب الحرب العالمية الأولى متمثلا في عصبة الأمم بدا أن ثمة أملا في تبلور شرعية دولية قريبة من معاني العدل والانصاف على ضوء ما بشر به الرئيس الأمريكي ويلسون في ذلك الوقت من مبادئ جديدة كان على رأسها حق الشعوب في تقرير مصيرها، غير أنه سرعان ما اتضح أن عصبة الأمم - خاصة وقد غابت الولايات المتحدة الأمريكية عن عضويتها - قد اعطت شرعية مزيفة للهيمنة الأوربية الاستعمارية على عديد من أجزاء الوطن العربي الذي كان أبناؤه يحلمون بالاستقلال في أعقاب تفكك الدولة العثمانية.

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية وبزوغ توازنات دولية جديدة على ضوء تآكل القوى الاستعمارية بالأوربية التقليدية لحساب الدور الأمريكي القيادي في الشئون الاستعمارية، وبروز قوة المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفييتي وصعود نجم حركات التحرر الوطني بدا أن عهدا جديدا للشرعية الدولية يوشك أن يرى النور كان ميثاق الأمم المتحدة بما تضمنه من غايات ومبادئ سلمية خير مؤشر عليه .

غير أن الأمل في هذا العهد الجديد

بدأ يتبخر تدريجيا تحت وطأة اكثر من عامل . كان أول هذه العوامل منبثقا من بنية الأم المتحدة ذاتها والتى حصرت سلطة اصدار القرار الدولى الملزم فى خمس من الدول الاعضاء فى الأمم المتحدة هم الأعضاء الدائمون فى مجلس الأمن، أو بالأحرى فى أى منهم، اذ تستطيع أية دولة من هذه الدول الخمس أن تحبط باستخدام حق النقض صدور اى قرار من المجلس مهما كان عادلا ، ومن ناحية ثانية شل الصراع بين المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى بزعامة كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى قدرة المجلس على اصدار قرارات اصلا فى عديد من الازمات الدولية المهمة، او اختزال هذه القدرة فى اصدار قرارات باهتة عاجزة بعيدة عن العدل كالقرار ٢٤٢ الذى صدر فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ليعالج قضايا الصراع العربى - الاسرائيلى بطريقة «الغموض البناء» كما قيل ، بل ان توازنات القوى داخل المجلس أدت ثالثا الى العجز حتى عن تنفيذ هذه القرارات الهزيلة.. هكذا كانت المحصلة : شرعية مجروحة وأليات غائبة لتنفيذ ما تقضى به هذه الشرعية على تواضعه.

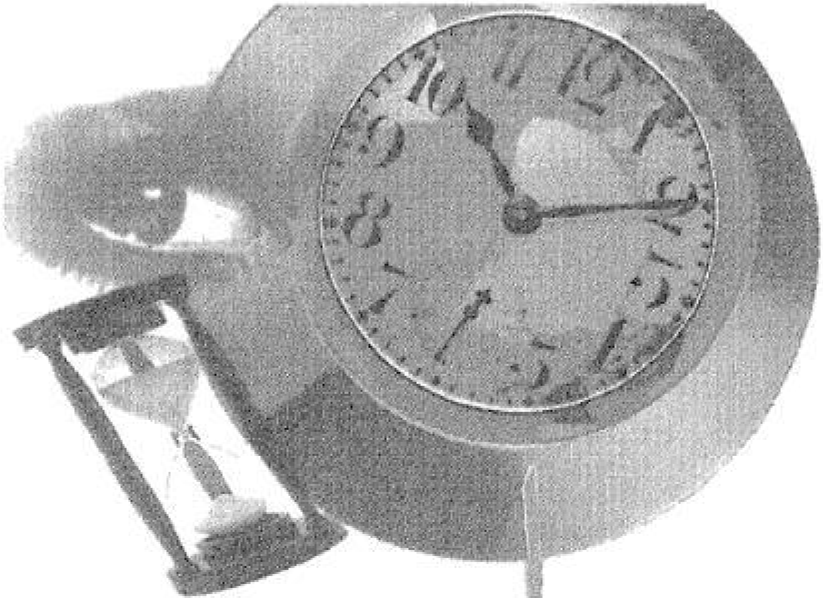
مرحلة التنكيل

مع بدء التحول فى سياسات الاتحاد السوفييتى بصعود ميخائيل جورباتشوف الى سدة الحكم فيه فى ١٩٨٥ بدأ عهد جديد فى النظام العالمى تميز أولا بوفاق حقيقى بين العملاقين وصولا الى تفكك الاتحاد السوفييتى ذاته فى ديسمبر ١٩٩١ ، ومع هذا العهد الجديد اصبح مجلس الأمن مرتهنا بالكامل لصالح الارادة الامريكية، اى انها اصبحت هى وحدها صانعة ما يسمى بالشرعية الدولية، وربما زادتها احداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ شراسة وعدوانية عندما خرجت الادارة الامريكية الحالية من ركام مركز التجارة العالمى بمدينة نيويورك تهدد الجميع وتتوعدهم. فى هذا الاطار تحديدا لم يعد الأمر متعلقا بشرعية دولية مجروحة يتم تجاهلها او الخروج عليها وانما بدأت عملية تنكيل فوضوية بها. فالادارة الامريكية لا تكتفى بما تستصدره من قرارات وفق ارادتها من مجلس الأمن فتعطى لنفسها حق تفسير هذه القرارات وتنشىء بالاتفاق مع بريطانيا دون سند ما مناطق للحظر الجوى على الحكومة العراقية، وتتدخل فى اعمال لجان التفتيش على أسلحة العراق وتضغط على اعضائها وتوظف بعضهم عيونا لها على تفاصيل التفاصيل فى الجسد العراقى، وترتب مسرحية هزلية مع رئيس اللجنة فى ١٩٩٨ كى يدعى بعدم تعاون العراق معه ويسحب مفتشيه بما يبرر ضربة امريكية «غير شرعية» للعراق، ولاتنسى بالمقابل ان تتجاهل كل افعال الاجرام فى السلوك الاسرائيلى تجاه ارض فلسطين وشعبها، وان تغفر لاسرائيل تحديها للقرارات الهزيلة التى تسمح الادارة الأمريكية

بمرورها من المجلس كالقرار القاضى بتشكيل لجنة لتقصى الحقائق فى جنين وتطالب العراق بالانصياع للشرعية الدولية كما يجسدها القرار ٦٨٧ الصادر عن مجلس الأمن فى ١٩٩١ بخصوص نزع أسلحته، وعندما يقبل الاتفاق مع الأمم المتحدة على عودة المفتشين ويتوصل له فى اكتوبر الماضى تخرج بمطالبة جديدة مؤداها ضرورة صدور قرار جديد ينظم عملية نزع أسلحة «الدمار الشامل» العراقية، وتنجح فى تمرير القرار ١٤٤١ وفق ارادتها باستثناء التعديل الذى تمكنت فرنسا من ادخاله، والذى ينص على عدم اللجوء الى الحرب تلقائيا قبل الرجوع الى مجلس الأمن للاحتكام اليه فى أية انتهاكات منسوبة للعراق للقرار ١٤٤١، وتؤكد بما لا يدع مجالا لأى شك أنها ماضية لا محالة فى طريق نزع أسلحة الدمار الشامل «العراقية» بالقوة والاطاحة بنظامه حتى ولو اضطرت الى العمل المنفرد اى دون غطاء من الشرعية الدولية المعيبة التى أوجدتها ، أغرب من ذلك محاولة التمويه التى تمارسها الحكومتان الأمريكية والبريطانية وتلبسان بها الباطل لبوس الحق بادعائهما ان امهال العراق مهلة تلو الأخرى هو الذي يخرق الشرعية الدولية ويعصف بهيبة الأمم المتحدة فى خلط غريب للأوراق عبر كولن باول وزير الخارجية الأمريكى عن هذا المعنى فى جلسة استماع مجلس الأمن لتقريي ثنائى بليكس - البرادعى عندما قال ان القرار ١٤٤١ تحدث عن نزع أسلحة العراق وليس عن عمليات التفتيش، وكأن التفتيش منبت الصلة عن محاولة تجريد العراق من أسلحته أو كأنه يدور فى فراغ وليس آلية من آليات اعمال الارادة الدولية فى هذا الخصوص .

نحو شرعية دولية عادلة

تمعن الادارة الامريكية الراهنة فيما يسمى بالشرعية الدولية قتلا وتنكيلا على الرغم من أنها هى صانعتها او على الأقل صاحبة اليد الطولى فى ذلك، ولو حدث انها اصرت على تنفيذ نواياها المبيتة ضد العراق والوطن العربى وقامت بعدوان شامل على العراق وتغيير لنظامه فانها سوف توجه بذلك ضربة قاصمة جديدة «للشرعية الدولية» وقد تكون ازالة اثار هذه الضربة عملا مستحيلا . ويبقى الامل فى مواجهة التحدى الذى يفرضه تنكيل الولايات المتحدة بالشرعية الدولية متمثلا فى أمرين : نمو اقطاب عالمية جديدة وهو ما قد نكون قد شهدنا بداياته فى الآونة الأخيرة متمثلة فى الموقفين الفرنسى والألمانى بصفة خاصة، وتعاظم حركة الشارع العالمى كطابع لقرارات الحكام بعيدا عن المصالح الضيقة لهذه الدولة او تلك. على أن هذا كله لن يحمينا من تغول الآخرين على حقوقنا اذا بقينا مقتنعين بأن افضل الادوار هو دور التابعين. ■



نهاية الزمن

عقيدة الخوف والأمل فى العقل الأمريكى

بقلم
محمد يوسف عدس

«الألفية السعيدة» في نهاية الزمن من أكثر الأفكار المسيحية تعقيدا وأعمقها أثرا فى تاريخ الحضارة الغربية، فقد ظلت على امتداد الفى سنة مرجعا يستشهد به المتنبئون الألفيون فى تدعيم تأويلاتهم المختلفة لرؤيا القديس يوحنا (يوحنا اللاهوتى) أو «سفر النبوءات» كما يسميها البعض، وعلى الأخص ما يتعلق بعودة المسيح الثانية إلى الأرض وإقامة مملكته حيث يسود العدل والسلام.

يقول «داميان تومسون» صاحب كتاب «نهاية الزمن»: يخطىء من يظن أن أفكار العصور الوسطى قد اندثرت إلى الأبد خصوصا بعد سيادة التقدم العلمي والتكنولوجي وسيطرة العقلانية.. فلا تزال المعتقدات النبوئية تلعب دورا هاما في المجتمع الغربي، ولا يزال الهيام بها عميق الأغوار إلى الحد الذي يستعصى على السيطرة . وفى هذا الإطار يؤيد ماذهب إليه «نورمان كوهن» فى كتابه الذى يتتبع فيه العقيدة الألفية عبر التاريخ The Pursuit of the Millenium – أن النازية والماركسية رغم أنهما أيديولوجيتان علمانيتان إلا أن لهما جذورا دينية نبوئية، وهكذا ربط بين هذه العقيدة وبين أكثر الصراعات دموية وتدميرا فى القرن العشرين.

سفر النبوءات هو آخر ما جاء بالعهد الجديد ولكنه ينفرد بجاذبية خاصة، فقد كان دائما بمثابة طوق النجاة عندما تحل الكوارث . وآية ذلك فى القرن الثانى للميلاد عندما حاصرت الإمبراطورية الرومانية رعاياها المسيحيين وأنزلت بهم أقسى أنواع الاضطهاد والعذاب كان هذا السفر هو ملهم الوحيد فى الخلاص.

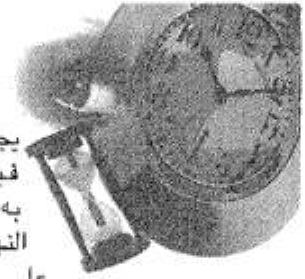
ومن ناحية أخرى أدت تأويلات المتنبئين لهذا السفر إلى اضطرابات كبرى وثورات زلزلت المجتمعات الغربية، حتى أن السلطات الإمبراطورية فى بيزنطة اضطرت لحذفه من الكتاب المقدس لعدة قرون. وفى أوروبا الغربية أدرك مارتن لوثر خطورة وجود سفر النبوءات وتمنى لو استطاع إخفاءه أو حذفه فقد كان واعيا بدوره فى تمزيق نسيج الحياة فى بوهيميا فى بداية القرن الخامس عشر، وكان يخشى أن تتكرر نفس المأساة فى فترات الانهيار السياسى ، ولم يكن عليه أن ينتظر طويلا فقد حدث ما كان يخشاه عندما تفجرت ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥م.

عقيدة الألفية

لعل أبرز سيناريو فى رؤيا يوحنا كما يصفها المتأولون النبوئيون ذلك المشهد الذى يتجلى فيه المسيح فى السماء ممتطيا صهوة جواده حاملا سيفه وقد انساب من عينيه سيال من نار ملتهبة، وعليه عباءة بيضاء مغموسة بالدم. فى هذا المشهد من الغضب العاصف تظهر خلف المسيح صفوف مهيبة من القديسين فى أثواب بيض.. بسيوفهم المشرعة يلتحمون مع جيش الشيطان عدو المسيح، فيتساقط جنوده تحت أقدام القديسين.. ثم يؤتى بالشيطان اللعين فيلقى به فى حفرة أو بحيرة من النار والكبريت ليبقى هناك ألف عام.

فإذا تطهرت الأرض من الشر والأشرار تهبط القدس الجديدة من السماء.. أحجارها من البلور المضىء.. كأنها عروس تزف إلى عريسها .. من هذه المملكة الإلهية يحكم المسيح العالم ألف عام من السلام والعدل . تلك هى الألفية السعيدة التى يتشوق إليها الملايين من البروتستانت ويستعجلون قدومها.

ليست عقيدة الألفية السعيدة بالبساطة التى أشرت إليها آنفا، فرؤيا يوحنا مكتوبة بلغة الأحلام والرؤى حافلة بالرموز والغموض لذلك فهى قابلة لشتى التأويلات، وكلما أوغلت فى قراءتها تشعر بأنك تدخل فى عالم غريب مخيف



يجلله الضباب فلا شيء فيه واضح يمكن التنبؤ به سوى أن النصر النهائي سيكون للخير على الشر ولكن بعد معركة كبرى مدمرة.

وقد توالى ظهور آلاف الكتب منذ القرن الثاني للميلاد حتى الوقت الراهن لاتصف فقط الأوضاع الجارية التى تمثل تحقيق النبوءات الدينية لكن استخدمت النبوءات أيضا للكشف عن طبيعة وترتيب وأزمنة الأحداث المؤدية إلى نهاية الزمن وبداية الألفية السعيدة .

وقد زاد الفكرة تعقيدا أن هذه الأحداث لابد لها أن تتوافق مع عبارات وردت فى «رؤيا دانيال» بالعهد القديم ومع رؤى إنجيلية أخرى بالعهد الجديد خصوصا ما قاله القديس بولس عن نهاية الزمن، هذه النهاية التى تواكبها كارثة كونية تدمر كل شيء ولكن ينجو منها المسيحيون الأتقياء برفعهم إلى السماء، فيما عرف بمصطلح الجذب السماوى Rapture.

الاضطراب الأول

شاعت فى أوربا قرب نهاية الألفية الأولى لميلاد المسيح نبوءة عودة المسيح الثانية فهرع الناس لاستقباله فى أفواج كثيفة ، قاصدين بيت المقدس تاركين وراءهم الأهل والأصدقاء.. وقد عرف هذا النزوح الكبير للحجاج فى تاريخ أوروبا بجيش الخراب، ذلك لأن الناس تحت تأثير فكرة نهاية الزمن فقدوا الاهتمام ببناء منازلهم أو إصلاحها بل أهملوها حتى تحولت إلى خرائب وأنقاض، أما الذين لم يخرجوا إلى الحج فقد خرجوا بنسائهم وأبنائهم فى الطرقات ينشدون الأناشيد الدينية ويتطلعون إلى السماء بعيون الخوف والرجاء ، متوقعين فى أى لحظة أن يهبط عليهم ابن الإله فى بهائه ومجده السماوى.

وفى يوم ٢١ ديسمبر سنة ٩٩٩م خرج النبلاء والفلاحون جميعا يتحلقون حول الصلبان المنصوبة فى العراء ، وتحت تأثير الرهبة من لقاء المسيح قام الأغنياء بتوزيع ثرواتهم من الذهب والمجوهرات على الفقراء حتى يراهم المسيح وهم يقومون بأعمال خيرية ، وتنازل أصحاب الديون عن مديونياتهم المتعسرين ، وأفرج عن المساجين بينما انتحر كثير من الناس الذين لم يستطيعوا تحمل هول الموقف ورهبته .

المسلمون هدف قديم

وفى سنة ١١٨٠م ظهر فى أوروبا نص نبوئى ضد المسلمين عرف باسم رسالة «توليدو» ، استخدم المتنبىء فيه حساب المنجمين الذى كان شائعا فى ذلك الزمن. مؤلف النص غير معروف على وجه التحديد ولكن يرجع نسبته إلى منجم يسمى «كورامفيز» يقول فيه: «سوف تجتمع الكواكب العليا والسفلى فى برج الميزان خلال سبتمبر ١١٨٧م.. وسيترتب على ذلك هبوب عاصفة فى المناطق الشرقية فيسود الهواء ويفسد بروائح نتنة وسامة.. ويرتفع البكاء والعويل إلى عنان السماء، ثم تأتى رياح عاتية تحمل الرمال والغبار من وجه الأرض فتدفن المدن خصوصا فى المناطق الصحراوية وتصاب بالدمار مدن مكة وبغداد والبصرة ثم تختفى إلى الأبد...! أما فى الغرب فيكثر الهرج والمرج والعصيان المسلح بين الناس.. ويأتى من بينهم رجل يجمع حوله جيوشا كثيرة ثم يقاتل على طول السواحل البحرية.. وتكثر فى هذه الحرب المذابح وتتدفق الدماء كأمواج المحيط».

وتمضي النبوءة لتصور لنا تغيير الممالك والحدود، ويظهر نجم الفرنجة عاليا «بينما يحل الدمار بالأمم المسلمة، وتظهر العناية الإلهية في أوروبا ويرتفع قانون المسيح، وتطول حياة البشر الذين يولدون بعد ذلك».

عندما وصلت نبوءة توليدو إلى إنجلترا عام ١١٨٦ أمر كبير الأساقفة في كانتربري بالصيام ثلاثة أيام.. ولكن مر الوقت المحدد دون أن يحدث شيء.. ورغم ذلك ظلت هذه النبوءة تتردد في أوروبا لعدة قرون تالية مع تغييرات طفيفة في مواعيد نهاية الزمن، وبقي الموضوع الجوهري للنبوءة مستمراً.

ظهرت في أوروبا تحولات كبرى نتيجة لنمو الشعور القومي والتقدم العلمي وسيادة العقلانية.. وأصبح فهم الناس للتطور التاريخي أعمق.. كما أصبح في الإمكان استشراف التطورات المستقبلية على أسس علمية، وبدا أن التفكير الديني قد تخلى عن مكانه في المجتمع للأيديولوجيات العلمانية المادية، وغلب الاعتقاد بأن هذا المناخ من شأنه أن يساعد في القضاء على نبوءات العصور الوسطى الدينية قضاء لا رجعة فيه.. ولكن هذا الاعتقاد لم يتحقق أبدا ويصف هذه الحقيقة المؤرخ «روبرت ليرنر» فيقول: «إن عزل أي نص نبوئي ينتمي إلى العصور الوسطى أشبه ما يكون بمحاولة اقتلاع نبات عنيد من حديقة منزلك، تظن أنك قد قضيت عليه نهائيا ولكن سرعان ما تكتشف أنه قد تشعب بجذوره في الأرض وتعمق فيها راسخاً أكثر مما كان».

الولع الأمريكي بالنبوءات

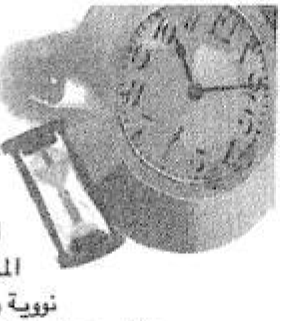
هذا الولع العجيب بالنبوءات الدينية انتقل إلى أكثر بلاد الدنيا تفاؤلا وأكثرها إيمانا بالعقيدة الألفية في العصر الحديث ألا وهي الولايات المتحدة الأمريكية. انتقل مع أتباع «أوليفر كرومويل» الذين عرفوا في التاريخ باسم المتطهرين «بيوريتانز».. هربوا من إنجلترا نجاة بأنفسهم من الاضطهاد الديني حيث استقروا في الأرض الجديدة التي وصفوها بأرض الميعاد.

حدثت الصحوة الدينية الكبرى الثانية في أول شهر من شهور عام ١٨٠١م (بداية القرن التاسع عشر) حيث اجتمع ٢٥ ألف شخص في مخيم «كين ريدج» Cane Ridge بولاية كنتكي يمارسون أشكالا غريبة من الشعائر الدينية، ثم تنتابهم نوبة من الضحك والصراخ عندما تحل بأجسامهم روح القدس بحسب زعمهم وإيمانهم فتهوى على الأرض.

وفي هذا يقول بعض شهود العيان: كان الصالحون والآثمون من كل صنف يصرخون صرخة مدوية ثم يسقطون على الأرض كقطع من الخشب وتبدو على وجوههم علامات الموت.

الصحوة الدينية المعاصرة

بدأت الصحوة الدينية الكبرى الثالثة سنة ١٩٩٣م، فقد كان عقد التسعينات يمثل نهاية قرن ونهاية الألفية الثانية وأصبحت نهاية الزمن الإنجيلية - حسب تفسيرات المتنبئين البروتستانت - قاب قوسين أو أدني. وكالصحوة السابقة صاحبتها أحداث صاخبة: جماهير حاشدة من «المسيحيين العائدين» تهبط عليهم الروح القدس فيضحكون ويبكون بطريقة هستيرية ويتحولون إلى كائنات أو شخصيات مختلفة، فتتغير أصواتهم وتنطلق ألسنتهم بلغات غريبة لم يتعلموها ولم يألفوها من قبل.. وقد



عـــرفت هـذه الظاهرة بـ«بركة تورنتو».

عندما انهار الاتحاد السـوفـيـيـتي تراجـعت المخاوف التي تتعلق بحرب نووية ولكن ظهرت مـخـاوف لا تقل عن ذلك خطرا ورهبـة.. مـخـاوف من مـخـاطر ثقب الأوزون والتلوث البـيـئي والاحتباس الحراري.

ولكن من بين كل هذه المخـاطر تبـرز حادثتان تاريخيتان كان لهما أثر ساحق على مـلايين الأمـريكيين من البروتستانت الأصوليين، فقد أطلقت هاتان الحادثتان في العـقـول والمشاعر براكين من الخيال الجامح: تتمثل الحادثة الأولى في تفـجير أمريكا لقنبلتين نوويتين على هيروشيما ونجازاكي في نهاية الحرب العالمية الثانية، هذا التفجير في حد ذاته وضع اللحم على عظم النبـوات الدينية المتعلقة بنهاية الزمن: «نار تسقط من السماء فتدمر كل شيء في طريقـهـا» وإذن فـالنصـوص النبوئية يمكن أن تتحقق على الأرض.

أما الحادثة الثانية فتتمثل في إقامة دولة إسـرائيل سنة ١٩٤٨م.. فقد أكدت الإيمان بأن الساعـة الإلهيـة التي توقفت لمدة ألفي عـام قـد بدأت تدق من جـديد، ومنذ تلك اللحظة بدأ البـروتسـتـانت الأصوليون زحـفهم التدريجي من هامش المجتمع إلى صميم التيار العام الثقافي والسياسي، وهو زحف يستمد طاقته الدافعة وحوافزه من إحياء عقيدة «نهاية الزمن».

بركة تورنتو

ظاهرة مثيرة تستحق وقفة قصيرة للتأمل والفهم لأنها تمثل تطورا هاما في العقيدة والممارسات الدينية للبروتستانت وعلامة على انطلاقة أو صحوة دينية جديدة. تستند هذه الظاهرة على فكرة أن الروح القدس التي كانت مقصورة على المسيح أصبح من الممكن أن تتنزل على آلاف المسيحيين المخلصين الأتقياء الذين يطلق عليهم وصف المسيحيين العائدين أو "Botn Again Christians" ، تتجلى هذه الظاهرة في الانهمار المفاجيء للروح القدس على المصلين فيسقطون على الأرض وهم يقهقهون لا يملكون السيطرة عليها وتصدر عنهم أصوات غريبة وصفها بعضهم بأنها أصوات نخير ونهيق كتلك الأصوات التي تصدر عادة من حيوانات المزرعة.

سميت هذه الظاهرة «بركة تورنتو» لأنها بدأت في كنيسة قرب مطار تورنتو بكندا تابعة لمؤسسة تسمى «فينيارد» لها نشاط تبشيري عالمي كانت تعلم الناس أن نهاية القرن العشرين سوف تشهد تجليات قوية للروح القدس أكثر من أي وقت مضى، وابتداء من يناير ١٩٩٤م كانت كنيسة تورنتو والكنائس الأخرى التابعة لمؤسسة فينيارد تعقد سلسلة من الصلوات الخلوية لآلاف المصلين وفي كل ليلة كان القسس بعد انتهاء مراسم الصلاة يجدون أمامهم حقولا من الأجسام المنبطحة على الأرض ترقد في سبات عميق وتبدو على وجوه أصحابها علامات السعادة والرضا.

انتشرت أخبار هذه الظاهرة انتشار النار في الهشيم، وأخذ القسس البروتستانت يتقاطرون من أنحاء العالم ليشهدوا تجليات بركة تورنتو ولينقلوا هذه التجربة الروحية إلى رعايا كنائسهم.

اهتمت الصحافة البريطانية اهتماما ملحوظا بهذه الظاهرة وكتب عنها صحفيون كثيرون منهم «أندرو براون» من صحيفة الإندبندنت.. كتب في ٢١ يونية ١٩٩٤ عن مشاهداته وانطباعاته عندما زار الكنيسة قال:

«عندما هبطت الروح القدس في كنيسة «سان بول» سمت أربعة أصوات لاصطدامات ثقيلة على الأرض حيث سقط أربعة من المصلين.. ثم تلا ذلك نقر سريع كما تفعل الأرانب بأرجلها عندما ترسل إشارات تحذير لمجتمع الأرانب من خطر داهم.. ثم بدأ الناس يهتزون وينتفضون انتفاضات لا إرادية ويدقون بأقدامهم على الأرض.. رأيت امرأة تتواثب في حركة منتظمة تشبه ذبذبات الآلة الكهربائية التي يستخدمها العمال في حفر الطرقات.. وظلت المرأة تتواثب على هذا الحال لمدة عشرين دقيقة.. وفي مكان ما بالقاعة الفسيحة كان يصدر لهاث وخفق هائلان يشبهان تلك الأصوات التي تصاحب الحركات الجنسية.. وتأتي من مواقع متفرقة قهقهات خليعة تتفجر معها أحشاء الضاحكين، يقول أندرو براون معلقا: لم تكن هذه أصوات أشخاص بالغين إنما هي أشبه ما يكون بقهقهة أطفال سعداء عندما يدغدغ أجسامهم أشخاص آخرون.. ومع ذلك فقد كانت هذه الأصوات تصدر من سيدات محترمات لا تقل أعمارهن عن الثلاثين سنة.

تساءلت صحيفة «الديلي ميل»: ما هذا الذي يحدث باسم الرب؟، فجاءت لها إجابات متباينة:

قال رجال الكنيسة البروتستانتية «إنها رياح صحوة دينية هبت على الناس بعد زمن طويل من الركود والتدهور في بلاد الغرب.. إنها تشبه تلك الصحوة الموصوفة في الأناجيل والتي ستسبق عودة المسيح الثانية»، وقال علمانيون مثل «دوروثي راو»: «إن أعراض بركة تورنتو ليست أكثر من تدفق هرمون الأدرينالين في الجسم البشري وسط مناخ من العدوى الجماعية».

أما داميان تومسون صاحب كتاب «نهاية الزمن» فيرى أننا أمام ظاهرة هي أكبر وأسرع انتشارا للمسيحية في التاريخ.. ويؤكد أن نمو البروتستانتية حديثا أعظم من نمو أي دين آخر بما في ذلك الإسلام نفسه.. هو يعترف بأنه لا توجد إحصاءات دقيقة يمكن الاعتماد على صحتها مائة بالمائة، كما أن الأمر يزيد صعوبة وتعقيدا بسبب أن هذه الظاهرة ذات أطياف وأطراف كثيرة وتحمل أسماء كنائس وجماعات دينية يصعب حصرها مثل: المسيحيون العائدون، الأصوليون الجدد، الكاريزماتيون، الإنجيليون البروتستانت، والبنتكوست وكل اسم من هؤلاء له معنى متميز، ولكنها فئات متداخلة لدرجة مربكة.

ولكن استطاع تومسون أن يرصد بعض الحقائق المتميزة نوجزها فيما يلي:

■ كان عدد أتباع الكنيسة الكاريزماتية (البروتستانتية) سنة ١٩٨١ تسعين مليونا أصبح عددهم سنة ١٩٩٦ أربعمائة مليون.

■ انتشار مثير للبروتستانتية في مناطق كثيرة بالعالم الثالث، شملت أمريكا اللاتينية التي كانت حكرا



مقصورا على الكاثوليكية، الآن وصلت نسبة البروتستانتية في بعض البلاد إلى ٤٠٪ من السكان.

■ من أبرز ملامح هذه الموجة المتنامية أن أصبح الإنجيل محور حياة الناس يحملونه في نسخ صغيرة الحجم مغلقة «بسوستة» ليتسنى لهم قراءته في أي مكان يذهبون إليه.

■ جميع هؤلاء الناس يؤمنون بعقيدة نهاية الزمن، وأن احتمال عودة المسيح إلى الأرض يمكن أن يكون خلال فترة حياتهم.

■ بدأت موجة جديدة من المتنبئين خلال ثمانينات القرن العشرين، نشرت نبوءاتهم في كتب ومجلات وبثت خلال محطات الإذاعة والتلفاز، من أشهر هؤلاء إدجار «هويسنانت»، لم يكن من رجال الدين وإنما مهندس سابق في قاعدة ناسا الفضائية، كما أنه لم يكن الوحيد الذي حدد عودة المسيح بسنة ١٩٨٨م وإنما تابعه في ذلك نفر غير قليل من المتنبئين، خصوصا بعد أن نشر «هال ليندسي» كتابه الشهير سنة ١٩٧٣ بعنوان :

"Late Great Planet Earth"

الذي كان على رأس قائمة أكثر الكتب مبيعاً، أكد لينسي في هذا الكتاب أن بيننا وبين دراما نهاية الزمن وعودة المسيح المجيدة جيل واحد.

رحلة إلى إسرائيل

من خصوصيات المشهد الأمريكي - ربما - امتزاج الدين «بالبزنيس»، ومن ثم لا نعجب أن يأتي أحد كبار المتنبئين الأمريكيين هو «تشارلز تيلر» لينظم رحلة إلى إسرائيل بحيث تتزامن مع تاريخ العودة الثانية للمسيح بلغت تكلفتها ١٨٥٠ دولارا، شاملة لرحلة العودة إذا دعت الضرورة!، وقد ورد في إعلاناته عن الرحلة ما يلي: «سوف تنزل بفندق إنتركونتننتال على جبل الزيتون حيث يمكنك الإطلال على منظر بديع للبوابة الشرقية ولجبل المعبد «يقصد بيت المقدس»... فإذا كانت هذه هي سنة عودة المسيح كما نتوقع فسوف تتمكن من الصعود إلى الأمجاد السماوية على بعد أقدام من موقع صعود المسيح».

اهتم محلل نفسي أمريكي هو «تشارلز ستروزيير» بدراسة استغرقت منه خمسة أعوام أجرى فيها لقاءات مع أتباع الكنائس البروتستانتية حاول فيها أن يحدد المعتقدات المشتركة بينهم، ونستطيع أن نستنتج من هذه الدراسة أن الصورة قد لا تكون في بعض جوانبها مكتملة الوضوح ولكن يمكن القول إن المعتقدات البروتستانتية النبوئية متجذرة تجذرا قويا في الخبرة الشخصية لكل فرد وأنها تتشكل بالآمال والطموحات الشخصية بقدر ما تتشكل بالعقيدة الألفية.

البعثة العظمى

من المعتقدات المشتركة الراسخة عند جميع أفراد العينة التي درسها «ستروزيير» أن هيمنة المسيحية على العالم واجبة ومؤكدة قبل نهاية الزمن مستندين في هذا إلى عبارة وردت في إنجيل القديس متى (فصل ٢٤ فقرة ١٤) ، وقد وجد أن هذه الفقرة تتردد دائما على ألسنة البروتستانت، وهي تنطوي على فكرة أن انتشار المسيحية وسيادتها يساعد في تقريب نهاية الزمن وبالتالي عودة المسيح، وليس هناك ما يخشاه المبشرون المخلصون من الكوارث

التى ستعم الكون قبل نهاية الزمن لأن الجذب السماوى لهم سوف يجنبهم هذه الكوارث، وهذا فى حد ذاته أعظم حافز لهم على الاستماتة فى نشر المسيحية فى كل أركان الدنيا وهى مهمة ذات قداسة خاصة لذلك يسمونها «البعثة العظمى».

تنصير المسلمين

لقد تسلحت الموجة الثالثة للأصوليين لحرب روحية شديدة الوطأة، وهم يرفعون شعارا واضحا ومحددا تمام التحديد: «كنيسة لكل شعب وإنجيل لكل فرد».

وهم عندما يقولون إنجيل لكل فرد فإنهم يعنون على وجه التحديد زرع حركات تبشيرية فى قلب المناطق المستعصية التى يطلقون عليها مصطلح (نافذة ١٠/٤٠). وليس فى هذا لغز أو شبه لغز وإنما هو مستطيل يرسمونه على الكرة الأرضية يقع بين خطى عرض ١٠ و٤٠ شمال خط الاستواء يمتد من غرب أفريقيا حتى الشرق الأقصى ويضم كل بلاد المسلمين.

إنهم يرون أن تنصير المسلمين ضرورى لتحقيق وعد الرب ذلك لأنه «إذا انتشرت كلمة الرب فى أنحاء العالم فإن نهاية الزمن تكون قد أزفت»، ولكن المقاومة العنيدة للمسلمين من شأنها أن تؤجل تحقيق النبوءة الألفية، ولذلك اعتبروا هذه المقاومة سببا من أسباب الكراهية العمياء للإسلام والمسلمين وللنبى محمد (صلى الله عليه وسلم).

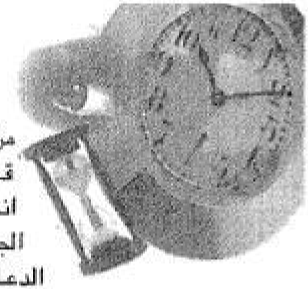
فى حمى التبشير البروتستانتى ظهرت أشكال جديدة من الكنائس تنحو فى نشاطها إلى الكتمان والسرية، مثل ذلك كنيسة البابتست بسنغافورة ، فهى تنظم أتباعها فى خلايا تشبه المجموعات العسكرية، مبثوثة فى كل عمارة سكنية بالجمهورية، فى هذا النمط من التنظيم تنمو خلايا المؤمنين ثم تنقسم كما تنقسم الأميبا.. وهى فى نموها وانقسامها وانتشارها تحقق أهدافها المرسومة فى مواعيد وجداول زمنية صُممت بإحكام شديد.

ويتوقع الباحثون الإنجيليون أن الصين وهى من المناطق المستعصية سوف تشهد انفجارا مسيحيا عما قريب، وقد قدّر عدد المتحولين إلى البروتستانتية حتى الآن بعشرين مليون صينى.

هذه الأنباء الباهرة لدخول الناس فى البروتستانتية أفواجا تمثل دم الحياة الذى يتدفق فى عروق المسيحيين فى الولايات المتحدة وفى أوروبا وتثير فى النفوس شعورا بالفخر والاعتزاز.. وتحاول الكنائس بكل الوسائل تأجيج الحماس الدينى فى نفوس أتباعها، وحجتها فى ذلك أنه إذا كانت المسيحية قد استطاعت أن تنتصر كل هذه الانتصارات على الشيطان فى العالم الخارجى فما الذى يمنعها أن تحقق النصر عليه فى عقر دارها؟.

عبادة الشيطان

إحدى الوسائل التى تستخدمها الكنائس البروتستانتية لإعادة المسيحيين إلى حظيرة الدين نشر شائعات عن ظهور عبادة الشيطان فى المجتمع الأمريكى وهى وسيلة قديمة طالما استخدمتها الكنيسة فى الماضى كلما شعرت بانصراف الناس عنها.. وفى إطار هذه الشائعات تنطلق قصص مروّعة عن سيدات حوامل تنتزع الأجنة



من أحشائهن لتقديمها قرابين للشيطان، ومع انتشار الهلع بين الجماهير ترتفع صيحات الدعاة بضرورة شن حرب على الشياطين والأشرار، ويتآزر مع هذا ظهور موجة من أفلام هوليود تدور حول القوى الشيطانية وفنون السحر الأسود، ثم يأتي في هذا السياق (بتنسيق عجيب) مؤلفات أدبية مثل رواية "This Present Darkness" لمؤلفها «فرانك بيرتي».. بيع منها مليون نسخة في أول إصدار لها ثم توالت طبعات الرواية بعد ذلك تباعاً.. وتكتمل الدائرة الإعلامية بمؤلف موسيقي هو «جرام كيندريك» الذي وضع مجموعة من الألحان الدينية الجماعية لإنشادها في المسيرات الحاشدة.

ولكن لا تكتفي الكنائس بالوسائل الروحية والإعلامية بل تتصدى لمعالجة المشكلات التي يعاني منها المجتمع الأمريكي، وفي هذا المجال أنشأت الكنائس برامج لإعادة تأهيل العاطلين عن العمل تفوقت على برامج الحكومة والمؤسسات المدنية الأخرى، فقد استطاع ٤٠٪ من المتدربين في برامج الكنائس الحصول على وظائف جيدة بينما لم تزد نسبة الناجحين في البرامج الأخرى على ٢٨٪ . فماذا تعني هذه الحقيقة؟:

إنها دليل قوي على أن الطاقات الجديدة لجنود المسيح لا تنفق كل وقتها في التأمل وحسابات «نهاية الزمن»، وإنما تخطط بمقدرة وتنجح في تحقيق إنجازات ملموسة على الأرض.

مسيرات المسيح

حمى النشاط البروتستانتيّ أصبحت ظاهرة شائعة ومألوفة في المجتمع الأمريكي، تبثها في كل لحظة من الليل والنهار ١٤٠٠ محطة تليفزيون وإذاعة يعمل بها ثمانون ألف قسيس، يعتقد بعضهم أنه يملك قدرة خارقة على شفاء الأمراض المستعصية من خلال تجليات الروح القدس.

ويعبر الأصوليون الجدد عن تعطشهم للإثارة عندما يتجمعون في مسيرات حاشدة يُطلق عليها اسم «مسيرات المسيح» وهي عادة تضم مئات الألوف من البشر.. تنطلق فيها الطاقات الجمعية الكامنة وتتولد في الجماهير رعشة في القلوب تسري بينهم كتيار كهربائي فيهدرون بوعد قاطع «أن يعودوا إلى التقاليد المسيحية النبيلة.. والنقاء الجنسي.. وبناء حياة زوجية قوية وأسر سعيدة». يطلق على هذه الفئة اسم «المحافظون على الوعد». إنهم يتبعون أسلوبا متميزا في تغيير المجتمع وإعادته إلى حظيرة الإيمان، وهو أسلوب مختلف عن أسلوب «الكاريزماتيين» أصحاب «بركة تورنتو».. ولكن مع هذا الاختلاف يتجه الجميع إلى أهداف مشتركة على رأسها بعث المسيحية وسيادتها على العالم.

خلاصة

أولاً - اليهود عقيدة نبوئية تتعلق بنهاية الزمن يتحقق بها للشعب المختار وعد إلهي بعالم أبدي سعيد، ليس في فردوس سماوي وإنما في إمبراطورية

أرضية عاصمتها القدس، شرطها الأساسى أن يتمكن الشعب المختار من إبادة أعدائه وتجريدهم من أرضهم وكل ما يملكون، وهذا ما يقوم به الإسرائيليون الآن ضد الفلسطينيين فى حرب إبادة متواصلة.

ثانيا - بينما يتفق اليهود والمسيحيون النبوئيون على ظهور مخلّص فى نهاية الزمن، إلا أن الذى ينتظره اليهود هو «مشياح» أو مسيح من بينهم وليس المسيح الذى ينتظره المسيحيون البروتستانت، كذلك يؤمن اليهود بأن السيادة على العالم ستنعقد لهم فى نهاية الزمن من دون جميع البشر، فى حين يؤمن البروتستانت بأن المسيح العائد سيقوم بتنصير اليهود ومن يرفض منهم سيتم تدميره، ومعنى هذا أنه لن يكون هناك يهود فى نهاية الزمن، ولكن اليهود لا يجادلون فى هذه القضية، إذ يكفيهم الآن أن أقوى دولة على هذا الكوكب تؤيدهم وتمكن لهم وتمدهم بكل ما يلزمهم لتحقيق المشروع الصهيونى فى فلسطين وما حولها، وعندما تحل نهاية الزمن يكون لهم شأن آخر !.

ثالثاً - سطوة المعتقدات النبوئية الألفية على الفكر البروتستانتى الأصولى ونفاذها إلى التيار السياسى العام هى حالة أمريكية متفردة بين سائر المجتمعات المسيحية الأخرى فى العالم. لذلك ليس مستغربا أن تسود مفردات هذه العقيدة على الخطاب السياسى للإدارة الأمريكية الحالية لأن المسيطرين عليها من المنتمين إلى هذه العقيدة . فمنها صيغت عبارات : مثلث الشر، وإمبراطورية الشر والشيطان ، وغير ذلك من عبارات. والحقيقة أن التوجه السياسى الأمريكى العنيف ونزعته الإمبريالية الطاغية لا تقف وراءه فقط مصالح وأطماع اقتصادية وبترولية ورغبة فى النهب والسيطرة، وإنما تمتزج فيه أيضا مخاوف وآمال ضاربة بجذورها فى أعماق العقيدة النبوئية والألفية السعيدة التى تسبقها أهوال وكوارث كونية (قبل ألفية) أى قبل نهاية الزمن وعودة المسيح إلى الأرض.

رابعاً - القوة الأسطورية لما يسمى باللوبى الصهيونى لا تُعزى فقط إلى قدراته الذاتية الخاصة ونشاطه المحموم الذى يتغلغل فى كل مجال، وإنما تستند إلى قوى هائلة فى المجتمع الأمريكى البروتستانتى، هى أكثر تعصبا وأشد حماسا للمشروع الصهيونى فى فلسطين، وعندما يزايد «نتانياهو» على رئيسه شارون برفضه فكرة إقامة دولة فلسطينية بجوار إسرائيل، فإنه لا يقصد بذلك مناورة سياسية محلية فحسب، وإنما يخاطب فى الوقت نفسه هذه القوى التى تتمتع بنفوذ كاسح فى الحزب الجمهورى الحاكم وفى الكونجرس وفى الإعلام وفى كل مؤسسات المجتمع الأمريكى . أظن أننا بهذا الفهم نقترب كثيراً من نظرية الدكتور عبدالوهاب المسيرى الذى يعتبر إسرائيل دولة وظيفية وأداة لتحقيق السيطرة الأمريكية على العالم. ■



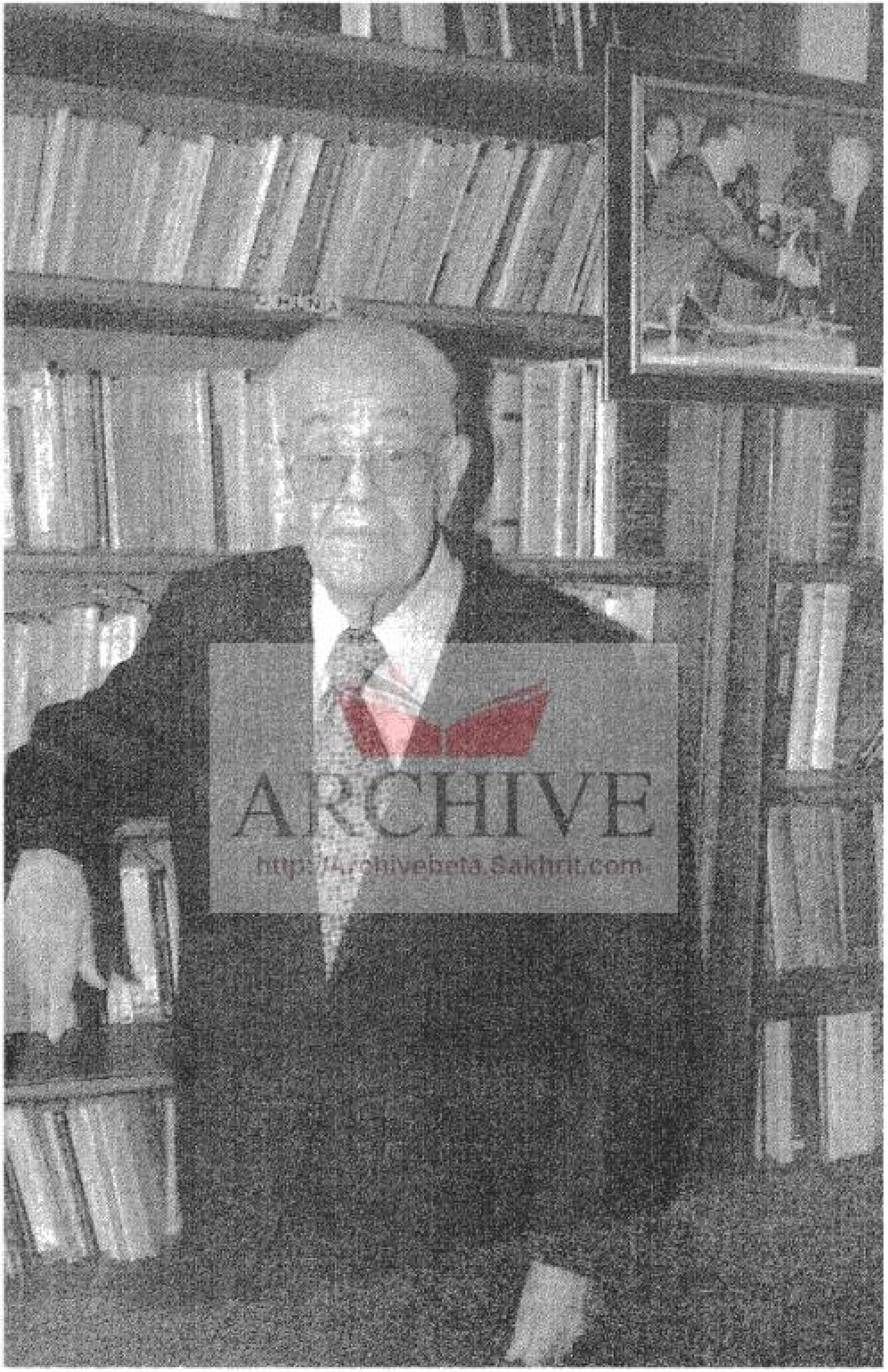
محمد عودة

من "الصين الشعبية" إلى "كرومر فى مصر"

بقلم
حسين عبد الرازق

عندما قرأت كتاب «محمد عودة» الجديد «كرومر فى مصر» ، وجدتنى دون قصد منى أعود بالذاكرة إلى أول كتاب قرأته له وهو كتاب «الصين الشعبية» فى خمسينات القرن الماضى، فهذا الكتاب هو الذى عرفنى بمحمد عودة ودفعنى إلى حبه واحترامه قبل أن نلتقى.

التقيت به أول مرة مباشرة وكنت طالبا فى السنة النهائية بقسم العلوم السياسية بكلية التجارة جامعة القاهرة. وخلال الدراسة أعددت ورقة بحثية فى الكلية حول «سياسة الحياد الإيجابى» وفكرت فى نشرها فى صحيفة الشعب، أقرب الصحف إلى فى هذه الفترة ، وكان يرأس تحريرها أحمد بهاء الدين ويكتب فيها محمد عودة. وظللت حائرا لمن أرسل هذه الورقة، وأخيرا حسمت هذا التردد فأرسلتها لمحمد عودة.. وتشاء الظروف بعد ذلك أن أبدأ عملى الصحفى فى أخبار اليوم فى مارس ١٩٦١ مع أحمد بهاء الدين وأن يكون محمد عودة هو الذى صحبنى إلى أخبار اليوم وقدمنى إليه.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



محمد عودة من أشجع الكتاب السياسيين في مصر، يتجاوز معظم كتاباته الخطوط الحمراء

بعد أيام قليلة من إرسالى ورقة سياسة «الحياد الايجابى» إلى عودة فوجئت به يتصل بى تليفونيا ويدعونى للقاء فى صحيفة الشعب صباح يوم الجمعة . ذهبت إلى هناك فى الموعد المحدد تماما. وجدته فى مكتب الزميلة زينب صادق مديرة مكتب الأستاذ بهاء وكان يتحدث فى التليفون. فانتظرت حتى ينتهى من مكالمته الطويلة، وعودة كما عرفت بعد ذلك يتبادل الأحاديث الطويلة المتعة فى التليفون مع أصدقائه وصديقاته. صحبنى عودة إلى مكتب أحمد بهاء الدين – ولم يكن موجودا به – وعبر لى عن سعادته بما كتبت وبشرنى بمستقبل مشرق ينتظرنى فى الصحافة. منذ هذا اللقاء لم تنقطع صداقتنا، ولم أتوقف عن كونى تلميذا مخلصا لأستاذى محمد عودة. بعد إغلاق صحيفة الشعب انتقل عودة للعمل بصحيفة الجمهورية ورشحنى لصلاح سالم رئيس مجلس إدارة دار التحرير للعمل فى الجمهورية . وسافر عودة للهند فى مهمة صحفية طالت لعدة أشهر بعد أن فصله المرحوم صلاح سالم بعد سفره بفترة صغيرة لخلاف على البعد بينهما. وظللت أترقب عودته . وما أن علمت أنه يلتقى بأصدقائه وتلاميذه كل صباح فى شرفة فندق سميراميس القديم، حتى سارعت إليه ، وكنت أجلس معه كل يوم تقريبا ، وكثيرا ما كنت أذهب إليه فى منزله فى المساء حيث كان يتجمع كثير من أصدقائه وصديقاته لنقضى ساعات فى حديث حول الأوضاع السياسية والسينما والمسرح والأدب والكتب الجديدة . وكان فارس هذه السهرات التى لا تعوض هو محمد عودة ، لالكونه صاحب المنزل ولكن لأن حديثه كان يجمع بين العمق وصفاء الرؤية وقصص التاريخ وكثير من الضحكات و«القفشات».

تبني الناشئين

وبعد أشهر قليلة يترك محمد عودة صحيفة الجمهورية التى أعاده صلاح سالم إليها وينتقل للعمل فى الأخبار فى ظل قيادة كمال الدين رفعت الذى كان يسعى لتحويل صحف أخبار اليوم

إلى صحف اشتراكية. ولأول مرة أعمل تحت رئاسته في الأخبار اليومية ومعي الصديقان «محمد العزب موسى» رحمه الله و«أحمد عبدالغني». ولأكتشف في «عودة» واحدة من أهم وأجمل صفاته .. سعادته باكتشاف أي شاب جديد وحماسه بغير حدود له (أولها) والدعم الهائل الذي يقدمه له.. ومعاملته كند له وهو مازال بعد في أول الطريق.. وخلال عملي الطويل في الصحافة «٤٢ عاما» لم أصادف هذا النوع من البشر الذي يتبنى الناشئين ويصادقهم ويدفعهم إلى التقدم.

وهناك عشرات من المواقف التي تحسب له معي ومع عشرات غيري من الشباب الذين قدمهم للصحافة المصرية .أذكر أنه أعطاني الجزء الأول من كتاب «الحرب الباردة وأصولها ١٩١٧ - ١٩٦٠ » للكاتب الامريكي (د. إف فليمنج والذي يتناول في ٥٤٠ صفحة باللغة الانجليزية الفترة من ١٩١٧ وحتى ١٩٤٥ ووعدني بمجرد الانتهاء من قراءته أن يهديه لي ومعه جزؤه الثاني، والذي يتناول الفترة من ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٠ ويقع في ٥٣٥ صفحة. وكان ثمن الجزء الواحد يتجاوز مرتبي في شهر. ومازلت أحتفظ بهذا الكتاب الهام حتى اليوم.

الكاتب الشجاع

ورغم أن عودة كان يتصور أنه حريص على تجنبه المشاكل ، ويوهم نفسه ويوهم أصدقاءه انه «يمشي جنب الحيط» ويحرص على عدم تجاوز الخطوط الحمراء، إلا أنه في الواقع العملي كان من أشجع من رأيت من الكتاب السياسيين في مصر ، وكثير من كتاباته تجاوزت الخطوط الحمراء في جميع العهود، فهو كاتب مشاغب وقلمه يعكس عقلا ناقدا لا يحبه أصحاب السلطة . وأتذكر أنه كتب في الستينات مقالا حول الأوضاع الاقتصادية في مصر ، فأبلغه رئيس التحرير أن الرئيس جمال عبدالناصر يقول إن الأرقام التي اعتمد عليها غير صحيحة وأن الأرقام الصحيحة عند فلان من المسئولين وسيزود عودة بها. فما كان من محمد عودة إلا أن رد بمقال حكى فيه حادثة وقعت في بريطانيا ملخصها أن رئيس وزراء المملكة المتحدة طلب من المسئولين أرقاما معينة يحتاجها في إحدى القضايا ، فرد عليه المسئول .. قل لي ماذا تريد أن تثبت لأعطيك الأرقام المناسبة. وبعد هزيمة ١٩٦٧ كانت مقالاته في الجمهورية في نقد الأوضاع باللغة القوة

ونافذة. وقيل وقتها إن مقالا له نشر في عدد الخميس (الاسبوعى) ومقالا آخر لسعيد خيال كان وراء فرض الرقابة على الصحف فى ذلك الحين.



أغلب كتاباته مستمدة من التاريخ فهو عاشق للتاريخ وهو عاشق أيضا للترحال

البعد عن المناصب

وربما لأن عودة رغم انتمائه بكل قوة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ودفاعه المجيد عنها بنقد أخطائها فى ظل الرئيس جمال عبدالناصر، لم يكن ملتزما إلا بما يؤمن به ، ولم يحسب أبدا على شخص أو جماعة، ولم يتقرب لأى حاكم أو مسئول، وبالتالى لم يتول أى منصب فى الصحافة القومية رغم تألقه ولمعانه . وكان يستحق هذه المناصب قبل كثيرين احتلوا مواقع القيادة دون أى إيمان بالثورة أو بالشعب . كنا نحن تلاميذه وأصدقاءه نشعر بالغيظ ولا نفهم كيف لا يتولى المسئولية فى صحيفة مصرية فى عهد الثورة، بينما عودة لا تشغله هذه القضية . فكل ما يهمه ان يكتب وان يصل برأيه وموقفه الى الناس الذين كان انتماؤه الحقيقى لهم وحدهم. ولم يقف الامر عند مجرد تجاهله فى المناصب الصحفية ، وإنما امتد إلى الاعتقال فى بداية الثورة (معتقل روض الفرج وسجن أسيوط) والفصل من العمل فى ظل الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، والاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ (سجن أبوزعبل وملحق مزرعة طرة) فى عهد أنور السادات.

وعندما رحل عبدالناصر وبدأت الحملة الظالمة ضده «وضد الثورة» من بعض الذين لمعوا فى عصره واستفادوا من الثورة . كان عودة أصلب المدافعين عنها بإخلاص حقيقى، بدءا من كتابه «الوعى المفقود» وعشرات المقالات والدراسات ، وحتى اليوم . كان فى الواقع يدافع عن تاريخ مصر، وهو العاشق لمصر وتاريخها وزعمائها ونضال مثقفيها وفلاحيها وعمالها وناسها العاديين. لم يتوقف أمام أخطاء الثورة وخطاياها وعثراتها، ولكنه دافع عن جوهر الثورة المعادى للاستعمار والمنحاز للناس البسطاء والفقراء ، والتى اعتمدت على الطبقة الوسطى التى كان يراها عودة قائدة الثورة المصرية فى كل حلقاتها . وكان كالعادة

دفاعا حارا متحازا حتى النخاع.

الأديب والفنان

وعودة صاحب أسلوب وشخصية في الكتابة يصعب تكرارها . لا تستطيع إن بدأت فى قراءة مقال أو كتاب له ان تتوقف قبل أن تصل إلى النهاية ، ليس فقط لأهمية الموضوع، ولكن لأن عودة يكتب بكل ذرة فى كيانه، فيدفع القارىء لأن يعيش القضية بكل جوارحه. وأسلوب عودة يختلف عن اساليب الكتابة السياسية المعتادة ، فجملته رغم بساطتها أقرب إلى كونها عبارات أدبية نابضة بالحياة، ومقالاته فيها قدر كبير من العاطفة رغم كثرة الحقائق والمعلومات والاستشهادات وأذكر اننى تناولت أحد الكتب من مكتبة عودة وكان كتابا أو ديوانا للشاعر احمدعبدالمعطى حجازى.. وقرأت الإهداء المكتوب عليه. وقد اكون نسيت الآن نص عبارات الإهداء، ولكن معناها الذى مازلت أذكره.. عودة أديب وفنان ضل طريقه للسياسة.

وعودة رغم أنه يكتب غالبا فى الحاضر ، فهو عاشق للتاريخ يستمد أغلب كتاباته من التاريخ ، سواء فى مصر أو الهند.. أو الصين.. وهو عاشق أيضا للترحال ، زار كثيرا من بلاد العالم واحتك بشعوبها وقرأ تاريخها وفهم أسراره والتهام الكتب داء لا يستطيع عودة أن يبرأ منه، حتى لو تعبت عيناه واعتلت صحته . ويندر أن تجد محمد عودة لا يحمل كتابا جديدا يلتهم سطوره أينما كان.. فى المنزل أو فى سيارة أو فى مقهى ريش أو فى أى مكان.

وكتابه الأخير رغم انه يدور على فترة وجود كرومر فى مصر وصراعه مع الحركة الوطنية ومشكلة الديون التي تسلمت مصر منها أقل من نصف المبالغ المستحقة وأن الباقى تبدد بين الوسطاء والسماسرة والمرابين، والنضال المصرى من أجل الديمقراطية والدستور وفى مواجهة هيمنة الامبراطورية البرلمانية.. إلا أن قراءة هذا الكتاب بعين مدققة لابد أن تقدم لنا دروسا لا تقدر بثمن لكيفية التعامل مع الحاضر، رغم اختلاف الوقائع والاسماء . وهذه هى عبقرية الكتابة فى التاريخ ونقله من الماضى إلى الحاضر. ■

من أحكام المحاكم

المرأة والقضاء

بقلم
طارق البشرى

كان أول ما أثير موضوع اشتغال المرأة بالقضاء - فى ظنى - فى يوليه سنة ١٩٤٩، عندما قدمت الآنسة عائشة راتب المتخرجة فى كلية الحقوق فى السنة ذاتها طلبا للالتحاق بالعمل فى مجلس الدولة، مستجيبة فى ذلك مع زملاء لها فى التخرج إلى ما أعلنه المجلس لشغل وظائف «مساعدى مندوبين حرف «ب» من خريجى الحقوق الحاصلين على درجة ممتاز أو درجة جيد جدا.

وأثار الطلب جدلا فى داخل المجلس وفى خارجه وتكلمت عنه الصحافة وصار من شواغل الرأى العام، يدلى فيه ذوو الرأى بآرائهم وكانت الطالبة من الحاصلين على درجة جيد جدا وترتيبها الثامن فى درجة الناجحين، وكان المجلس يراعى ترتيب درجات طالبى التعيين به عند اختياره لهم، ولا يستبعد فى العادة من يؤهله ترتيبه للتعيين لأسباب تتعلق بأوضاع اجتماعية ولا يستبعد عادة إلا لظروف تتعلق بعدم القدرة الصحية مثلا أو ما يشبه ذلك، وكان فى هذه السنة يطلب عددا يبلغ أحد عشر وظيفة مما يندرج فيه ترتيب الطالبة، فلم يكن ثمة سبب قط يحول بينها وبين التعيين إلا أن يكون الجنس هو السبب.


د. عائشة راتب


سيزا نبراوى


عبد الرزاق السنهورى

تداول القائمون على التعيين فى شأن هذا الطلب، واستدعاها وكيل المجلس وذكر لها أن ليس ثمة مانع قانونى يحول دون تعيينها، ولكن من الوجهة « الواقعية فهذا شئ » جديد على المجلس وقابلها د. عبدالرازق السنهورى رئيس المجلس وفهمت من حديثه أنه يوافق ولكن الأمر ليس سهلا ، ثم طلبها الوكيل بعد ذلك وأعلمها أن وزير العدل تردد ولم يشأ أن يتحمل المسئولية وحده فعرض الأمر على رئيس الوزراء فطلب التريث فى التعيين لأنه يتنافى مع السياسة العامة للدولة وعرض الوكيل على الطالبة أن تعين فى وظيفة أخرى بالشهر العقارى مثلا أو المحاكم الحسبية أو وزارة الشئون الاجتماعية فرفضت.

وصدر قرار التعيين غير مشتمل عليها فأقامت دعواها أمام مجلس الدولة ذاته تطلب إلغاء قرار تخطيها فى التعيين مع استحقاقها له بحكم ترتيب درجات تخرجها.

(٢)

نظرت الدعوى أمام وكيل مجلس الدولة المستشار السيد على السيد وفى المحكمة أربعة مستشارين آخرين عرفناهم بعد ذلك من أحسن شيوخ المجلس ومؤسسيه فى علمهم وإحاطتهم.

وكان السيد على السيد قاضيا وعالما جليلا وكان هو الرجل الثانى بعد السنهورى وتولى رئاسة المجلس بعده لست سنوات ، وكانت أحكامه آية فى الأحكام والدقة والاتساق المنهجى وفصاحة التعبير الفقهى اللغوى، وكانت لديه القدرة على الصياغة المحكمة لقواعد فقهية منهجية على طريقة الفقهاء المشرعين القدامى وهى قواعد ترد فى عبارات يجرى بعد ذلك استخدامها على الأقلام.

حكى لى الأستاذ مصطفى مرعى فى أواخر السبعينات، وكان رحمه الله من قبل من نجوم المحاماة والقانون فى مصر

سياسيا مستقلا قبل ثورة ٢٣ يوليه، حكى لى عن المقارنة بين السنهورى والسيد على، وعن ذلك الوقت المبكر من تاريخ مجلس الدولة، وقبل قيام ثورة ٢٣ يوليه عندما كان المجلس قد صار بأحكامه من ضمانات حقوق الأفراد ومن حصون الحرية قال فى معرض المقارنة لقد « كان السنهورى أفقه والسيد على أقضى» وإذا كانت أحكام مجلس الدولة منذ ١٩٥٥ فى عهد رئاسة السيد على السيد قد فقدت الكثير من صفاتها السابقة ومالت إلى دعم السلطة المركزية على حساب ما كانت قررته من قبل فسيبقى للمستشار السيد على السيد رحمه الله هذه القدرات الفنية التى أغنت فقه الأحكام وصاغت عقولا ودربت ملكات قانونية. ولا يدرك أهمية ذلك إلا المتخصصون من أصحاب المهنة.

ويذكر أنه هو من حرر الحكم الشهير الذى صدر فى ١٠ فبراير ١٩٤٨ والذى قرر لأول مرة فى تاريخ القضاء المصرى حق القضاء فى مراقبة دستورية القوانين وكان وقتها عضوا فى الدائرة التى يرأسها المستشار د. محمد كامل مرسى أول رئيس لمجلس الدولة.

(٣)

[illegible]

هذه القاعدة فيكون القرار مخالفا للقانون بمخالفته ما التزمت به إدارة مجلس الدولة من قواعد. كما أن مبدأ المساواة هو مبدأ نص عليه الدستور بالمعنى الذى أجمع عليه رجال الفقه، وهو يوجب المساواة بين كل من تساوت مراكزهم القانونية بصرف النظر عن الأصل أو اللغة أو الدين أو الجنس أو اللون وبصرف النظر عن أى اعتبار آخر.

وذكرت أنه لا يقال بأن اشتغال المرأة فى الوظائف الحكومية غير ملائم على اطلاقه، لأن هذا القول مردود بأن المرأة تشتغل فعلا فى جهات حكومية متعددة مثل وزارة الشئون الاجتماعية ووزارة المعارف العمومية ووزارة الصحة، وحتى فى وزارة العدل اشتغلت المرأة فى الشهر العقارى وفى المحاكم الحسبية أما بالنسبة لاشتغال المرأة بالقضاء، فإن مجلس الدولة فيه محاكم وقضاء وفيه مناصب للاستشارة أى للافتاء والقسم الاستشارى منه قسم مهم والآراء التى تبدى فيه هى آراء وليست أحكاماً.

تدخلت فى الدعوى السيدة سيزا نبراوى بوصفها رئيسة للاتحاد النسائى، والاتحاد جمعية قامت للدفاع عن حقوق المرأة الاجتماعية والسياسية [illegible]

أمـــريكا وروســـيــا وفـــرنســا والدول الاسكندنافية وقدم بحثا عن مركز المرأة فى الشريعة الاسلامية وتسوية الشريعة بين الرجل والمرأة فى التكاليف وفى الحقوق حتى فى الحقوق السياسية ثم عرض للمرأة والقضاء بحسبان أن الشريعة الاسلامية ليس فيها ما يحول دون تقلد المرأة منصب القضاء وأن المذهب الحنفى الذى تقوم عليه الفتيا فى مصر يجيز توليها القضاء.

أما الدفاع عن الحكومة فقد أيد استبعاد الطالبة من التعيين باعتبار أن مجلس الدولة وإن كان يراعى فى تعيينات المرشحين ترتيبهم فى درجات النجاح فى الحصول على إجازة الحقوق فإن ثمة قاعدة أخرى مقررة هو عدم تعيين المرأة فى القضاء، وهذه القاعدة لا تتنافى مع الدستور لأن الدستور (دستور ١٩٢٣ الذى كان ساريا وقتها) فى المادة الثالثة منه نص على المساواة بين المصريين فى الحقوق والواجبات وقرر أنه لا تمييز فى ذلك بسبب يرجع إلى الأصل أو إلى اللغة أو إلى الدين، ومن ثم يجوز التمييز فيما عدا هذه الأمور فيجوز التمييز بسبب الجنس مثلا وذكرت أن الشريعة الاسلامية لا تسوى بين الذكر والانثى وأن ثمة بيانا صدر من جبهة الأزهر يؤيد هذا النظر.

(٤)

أما بالنسبة لما انتهت إليه المحكمة فقد أصدرت حكمها فى ٢٠ فبراير ١٩٥٢ رفضت به الدعوى وأيدت بذلك قرار استبعاد المرأة من التعيين فى مجلس الدولة ، ولكن ما يسترعى النظر أن المحكمة لم تتعرض إلى أى من الحجج الفكرية التى أثارها أى من أطراف الدعوى، لا من ناحية حقوق المساواة التى نصت عليها القوانين والدستور أو تستخلص منها ولا من ناحية الشريعة الإسلامية، إنما بنت حكمها على أن من حق الجهة الادارية أن تراعى ظروف إصدار ما تصدره من قرارات وأن تراعى الملائم المناسب فى تقديرها لهذه الظروف وهى فى ذلك تعمل اختيارها للأفضل والأنسب والذى فيه تسيير العمل، وهى فى ذلك تراعى ظروف البيئة وأوضاع العرف والتقاليد دون أن يكون فى ذلك حط من قيمة المرأة ولا نيل من كرامتها ولا غض من مستواها الأدبى أو الثقافى ولا غمط لنبوغها وتفوقها ولا إجحاف بها وذكرت أن درجة النجاح والترتيب فيه ليس وحده هو ما عليه المعول فى التعيين إنما ثمة نواح أخرى كالحالة الصحية والحالة الاجتماعية وظروف البيئة والعرف والتقاليد وشتى المناسبات الأخرى.

ويمكن أن نلحظ فى أسلوب كتابة هذا الحكم أنه تجنب الاستطراد وتجنب الاسهاب وعزف عن إبداء الآراء الذاتية وهذا بالضبط هو الأصوب فى طريقة كتابة الأحكام، ذلك أن القاضى فى حكمه كالطبيب الجراح فى غرفة الجراحة عليه أن يعمل المشرط فى أقل حيز ممكن، وأن يصل إلى غايته التى ارتأ الصواب فيها بأقصر طريق ممكن ، والوظيفة الموكلة إليه

هى إيصال الحق لصاحبه وأن يذكر ما بنى عليه قراره بغير اسهاب ولا استطراد وبغير إبداء الآراء الشخصية وبغير استعراض للمعارف والمعلومات وبغير خطابه ولا اثارة بطبيعة الحال، ومن هنا يرد معنى كلمة مصطفى مرعى التى أشرت إليها من قبل «فلان أقضى» أى يعرف كيف يوازن بين الخصوم ويحايد فى النظر وكيف يسلك إلى قراره وكيف يكتب حكمه، بحيث أن ذكاءه لايرد فيما كتب فقط ولكنه يرد أيضا فيما لم يكتب وفيما لا يستدرج إلى الحديث فيه مما لا يلزم، ونحن نعرف بالمعايشة أن رجال هذه المحكمة ورئيسها كان فى مكنتهم العلمية والمعرفية أن يكتبوا العشرات من الصفحات والعشرات فى المبادئ الدستورية وفى حقوق الانسان وفى الشريعة الاسلامية وفقهها ومذاهب رجالها، ولكنهم لم يستدرجوا ولا أغراهم الموقف بأن ينسوا فى نظرهم هذا الأمر أنهم قضاة فقط.

ويمكن أن نلحظ أيضا أن الطالبة الأستاذة عائشة راتب لم يغرها حماسها لحقها وحماسها لدعواها ولا أغراها حماس الشباب لأن تنسى أو تتجاهل ما تراه ضوابط النظر القانونى الموضوعى فهى فى شرحها دعواها تقر أن هناك سلطة تقديرية لجهات الادارة فى تعيين المرشحين وتقر أن هناك نوعا من الملاءمات والتقديرات الواقعية المقبولة والتى تجمل الاشتغال فى بعض الأعمال مقصورا على جنس من البشر دون الجنس الآخر، مثل أعمال التمريض المقصورة على النساء وأعمال الآلة الكاتبة التى ثبت أن المرأة فيها أسرع وأدق. وهذا مما استخلصت منه المحكمة سندا تؤيد به سلطة التقدير الواجب توفيرها لصاحب القرار فيما يرتأيه من اعتبارات، وهذا النظر الموضوعى الذى نلحظه فى دفاع الطالبة عن حقها هو ما هيأ لها من بعد أن تتبوأ مكانها العلمى اللائق بين فقهاء القانون الدولى العام فى الجامعة وبين ممارسيه فى السلك السياسى وأن يعترف لها بأستاذيتها وطوال حياتها النافعة وأن يتخرج على يديها أجيال ممن يشغلون مناصب القضاء الكبرى اليوم.

كما يمكن لنا أن نلحظ أيضا أن قانون مجلس الدولة هو قانون وضعى ونظم التعيينات فيه وفى الحكومة وفى القضاء بعامة نظم وضعية وكان وقتها فى الأربعينات - الاستناد إلى أحكام مجلس الدولة الفرنسى وسوابق الفقه الفرنسى كثيرة. كما أن دستور ١٩٢٣ الذى كان ساريا وقتها، وإن كان ينص على أن دين الدولة هو الاسلام مثلما ينص دستورنا الحالى الصادر فى ١٩٧١ فإن هذا الدستور السابق لم يكن يتضمن نصا يماثل نص الدستور الحالى عن أن مبادئ الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ومع ذلك فإن الشريعة الاسلامية ومبادئها ألقت بظلها على قاعة المحكمة متقاضين وقضاة، فكان قسم من الحجج

القانونية التي تبادلها أطراف القضية يتعلق بموقف الشريعة الاسلامية من تولى المرأة القضاء، وقدم الاتحاد النسائي بحثا كاملا عن موضوع المرأة في الشريعة الاسلامية وأقوال مذاهب المسلمين في هذا الأمر وموقف المذهب الحنفي في شأنه.

(٥)

وقد عرضت دعوى مماثلة بعد ذلك على مجلس الدولة أيضا، وكانت لإحدى خريجات كلية الحقوق طلبت في ابريل ١٩٥٠ تعيينها محامية في إدارة قضايا الحكومة فرفض طلبها وأحيل إلى المحكمة الحسبية (محكمة الأحوال الشخصية) لتعيينها بها، أقامت الطالبة دعواها ونظرتها المحكمة برئاسة الدكتور عبدالرزاق السنهوري وأصدرت المحكمة حكمها في ٢٢ ديسمبر ١٩٥٢ برفض الطلب، وذلك رغم أن الوظيفة هنا لم تكن من وظائف القضاء إنما كانت من وظائف المحاماة ، والمحاماة في العلاقة القانونية ليست من جنس ولاية القضاء. مع ذلك رفضت المحكمة تعيين الطالبة في وظيفة تعتبر من وظائف المحاماة واتبعت في حكمها ذات الأسباب وذات المنهج الذي قرره الحكم السابق في دعوى الأستاذة عائشة راتب وانتهت كسابقتها إلى ما انتهت إليه من الرفض.

ذكر الحكم أن المبادئ الدستورية، العليا تقضي بالمساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات وأن مقتضى ذلك أنه لا يجوز حرمان المرأة على وجه مطلق من تولي الوظائف والأعمال وإلا كان في ذلك اخلال بهذا المبدأ الجوهري من المبادئ العليا الدستورية ثم ذكر أن للهيئة التي تعين الموظف سلطة التقدير فيما إذا كانت المرأة بالنسبة إلى منصب معين أو إلى وظيفة بالذات قد انتهت بها مدارج التطور إلى حد الصلاحية فإذا انتهت إلى أن المرأة بلغت هذا الشوط كان عليها أن تفتح لها الباب الذي فتحته للرجل وأشار إلى ما ظهرت فيه صلاحية المرأة من أعمال وإلى ما رؤى أنها الأصلح له من الرجل بغير أن يحسب ذلك على أنه إخلال لصالحها بمبدأ المساواة بين الجنسين.

ثم ذكر أن للادارة أيضا أن تقدر في غير تعسف ما إذا كان الوقت لم يحن بسبب بعض الاعتبارات الاجتماعية لأن تتولى بعض المناصب. وأنها في تقديرها هذا تستهدي بظروف البيئة وما تفرضه التقاليد من أوضاع وحدود، وهي لا يجوز أن تنتهي إلى عدم صلاحية المرأة مطلقا وفي كل زمان لتولي مناصب معينة، وأشار إلى أن بالنسبة للشريعة الإسلامية فإن من نصوص الفقه الاسلامي مالا يمنع من تقليد المرأة المسلمة مناصب القضاء متى كانت صالحة لذلك ، وقد جاء في البدائع للكاساني (جزء ٧ ص٣) تعداد لشرائط الصلاحية في متقلد القضاء ولم يرد منها شرط يقضي بأن يكون القاضي رجلا بل ورد العكس من ذلك إذ يقول صاحب البدائع وأما الذكورة فليست من شروط

التقليد فى الجملة لأن المرأة من أهل الشهادات فى الجملة.

ويمكن أن نلاحظ أن هذا الحكم الأخير اتبع ذات المنطق والنهج الذى قرره الحكم الأول رغم أن الحالة التى كانت معروضة عليه لا تتعلق بوظيفة قضائية إنما يتعلق بعمل من أعمال المحاماة فى الدولة والمحكمة، تعرف طبعا الفارق بين الوظيفتين من حيث نوع الولاية التى يملكها كل منهما فكان هذا الاتباع منها له دلالة مهمة جدا وهو أن اقرار المحكمة بعدم اشتغال المرأة فى أى من العملين ليس مبناه أن الوظيفة المطلوبة كانت وظيفة قضائية، وأن ليست الطبيعة القضائية للعمل هى السبب فى عدم اشتغال المرأة، إنما السبب هو ما رأت الجهة صاحبة الوظيفة أن الأوضاع الاجتماعية والتقاليد والأعراف لا تجعل المرأة صالحة فى بيئة معينة لتولى الأمر، وأن تقدير ظروف البيئة وأوضاع المجتمع وضغوط التقاليد والأعراف هو أمر تملكه الجهة صاحبة الوظيفة متى كان تقديرها فى غير تعسف.

(٦)

وأن الحكمان حرصا على أن يجعلا هذا الأمر بعيدا عن المنع القاطع وعن الايجاب الجازم وحرراه من هذا الاستقطاب سواء بالنسبة لأحكام القانون الوضعى ومبادئه أو بالنسبة لمبادئ الشريعة الاسلامية، وربط الحكمان الأمر كله بعامل لا ينبغى تغافله وهو مدى تقبل البيئة الاجتماعية وأعراف الناس لوضع معين فى زمان معين وفى مكان معين وكلا الحكمين وضع المسألة فى موضع القبول النسبى أو الرفض النسبى وأوجب أن يراعى فى هذا الأمر ظروف البيئة وأوضاع المجتمع ومدى تقبل الناس فى زمانهم ومكانهم وفى إطار العادات السائدة بينهم.

والحكمان لم يقع أى منهما فى مجال المجافاة بين مبادئ القانون الوضعى وبين مبادئ الشريعة الاسلامية إنما نظرا للأمر فى ضوئهما معا متى كان ذلك ممكنا فمثلا بالنسبة للدستور فإن دستور ١٩٢٣ كان ينص فى المادة ٣ منه على «المصريون لدى القانون سواء وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة». ثم ذكرت لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين وإليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة.

والنص بذلك لم يكن يحظر التمييز بين المصريين بسبب الجنس وقصر منع التمييز على الاختلاف فى الأصل من أجل نفى التميز الأسرى والاختلاف بسبب اللغة مراعاة لأهل النوبة والاختلاف بسبب الدين مراعاة لغير المسلمين من المصريين ومن هنا نفهم وجه اجتهاد المحكمة عندما أشارت إلى دستور ١٩٢٣ ولكن إلى المبادئ الدستورية العليا وهى مبادئ فقهية وفكرية تعلو على الدستور ذاته والواجب أن يفسر الدستور فى ضوئها.

ثم عـرجت المحكمـة إلى الشـريعـة الاسلامية وعرضت لها باجتهاد أيضا يتعلق بتثبتها الرأى الفقهى الذى قال به الحنفية والذى يجيز تولى المرأة القضاء وإلى ما ذكره الكاسانى من جواز توليها القضاء فى الجملة أى جواز ذلك بشكل عام أما فى التفاصيل فالأمر فى شأن كل خصوصية يتصل بملائمتها ومناسبتها فالمحكمة جمعت بين المرجعتين حيث أمكن الجمع بينهما وأعملت الاجتهاد فى مجاليهما واجتهاد سائغ فى النطاق وبالكيفية التى أجرتها المحكمة ووقفت حيث أمكن التوفيق وبغير أن يتجافى ذلك مع أصول التفسير سواء التفسير للقانون الوضعى أو التفسير فى الفقه الاسلامى وبهذا أجازت التعيين فى الجملة ومن حيث المبدأ.

ثم هى فى النهاية، نظرت إلى ظروف الواقع وشددت فى تبين هذه الظروف وعبرت عن ذلك بوجوب مراعاة البيئة، التقاليد، الاعتبارات الاجتماعية، أوضاع العرف ثم ما يتعلق بمدارج التطور للمرأة فكان النظر للأمر فى إطار الملاءمة بمعيار اجتماعى وتاريخى وهذه أمور تعبر عن الموقف المسئول لذى قرار يحمل تبعة قراره ويعرضه على أوضاع مجتمعه ويختار لا بمعيار الحقوق المطلقة ولكن بمعيار الأنفع والأرشد، مع احتمال التنوع والتغير فى المستقبل.

ولم نجد أحدا فى هذا المجال طالب بتعيين المرأة فى القضاء ليتجمل فى أعين الغربيين مثلا، ولا أحدا أثار الموضوع ليثير معركة ثقافية أو سياسية ضد المرجعية الشرعية، ولا أحدا صور الأمر على أنه نصر حضارى أو هزيمة حضارية ولا أحدا نظر إليه على أنه أمر ذو أولوية مطلقة على ما يثور فى المجتمع من مشاكل وصعاب ولا أحد أراد به التفريق وأن نتشاغل بهذا الأمر ونغفل عن الأهم من مشاكلنا.

وحتى من طالب بالحق لم ينس أن ثمة ما يميز جنسا على جنس فى نوع أعمال وحتى من رفض الاستجابة لم ينس أن ذلك لا يفيد غمطا لنبوغ ولا إجحافا بتفوق ولا غضا من مستوى ولا حطا من قيمة ولا نيلا من كرامة.

أفلا نتعلم من هذا الدرس سعة أفق وصبرا وتقديرا للواقع الاجتماعى بغير تعال عنه ولا انكار له ومراجعة للآراء بغير اتهام بالرجعية ولا بالمروق ومع تقدير أن لدينا من المشاكل والصعاب والتحديات ما يفوق هذا الأمر أهمية وهو أولى أن نجتمع عليه وأنه حتى بالنسبة لمشاكل القضاء فلن يكون اشتغال المرأة فى القضاء هو ما يحل المشاكل القضائية وأنه حتى بالنسبة لمشاكل المرأة فلن يكون اشتغالها بالقضاء هو ما يحل مشاكلها.

والأمر كله يدور لا فى مجال الموانع والواجبات ولكنه يدور فى مجال الملائم والمناسب وهو فى أهميته يرد مسبوقا بغيره فى الأهمية وليس سابقا. ■

كيف نشأت عقدة

الخواجة؟

بقلم
د. جلال أمين

إذا كان من الخطأ ترتيب الأمم بعضها فوق بعض، واعتبار بعضها متقدما «بصفة عامة»، وفى كل شىء، وبعضها «متخلفا»، بهذا المعنى، وإذا كان الصحيح هو أن كل أمة لديها ماتتيه به على غيرها، وأن أى عصر، إذا كان أفضل فى أشياء بعينها من العصور السابقة عليه، فلابد أن يكون أسوأ منها فى أشياء أخرى.. إذا كان كل هذا صحيحا (وأعتقد أنه صحيح) فمن أين يأتى هذا الشعور القوى جدا لدى أمة من الأمم بأنها أقل «رقيا» من غيرها؟ ومن أين يأتى هذا الشعور بالنقص، ليس فى صفة بعينها أو مجال معين بل الشعور بالنقص «بصفة عامة»، وهو مايشار إليه أحيانا بالشعور بـ «الدونية»، وأحيانا «بعقدة الخواجة»؟، أى أن الخواجة لمجرد كونه خواجة، أفضل منى أنا المصرى أو العربى أو المسلم، لمجرد كونى مصريا أو عربيا أو مسلما؟.

من أول مايتبادر إلى الذهن كإجابة محتملة على هذا السؤال ملاحظة ابن خلدون الشهيرة، والتى لاشك أيضا فى صحتها، أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب، فالانتصار والغلبة فى أى ميدان من الميادين شىء مرغوب فيه دائما، والصفة المرغوب فيها تضفى على صاحبها جاذبية قد تخفى عن العين ماقد يتسم به من عيوب، فالقوى والغالب بقوة السلاح ليس

بالضرورة أفضل الناس خلقا، أو أخفهم دما، أو أجملهم منظرا، ولكن شدة الجاذبية التى يتمتع بها بسبب قوته وغلبته قد تخدع البصر فيظن الناظر إليه أنه ليس فقط أقوى الناس، بل أيضا أفضلهم وأجملهم وأخفهم ظلا.

وأظن أن هذا الاعتبار وحده ينطوى على تفسير مقنع للغاية لعقدة الخواجة، خاصة إذا اقترنت الغلبة والانتصار بالإلحاح المستمر بمختلف وسائل الدعاية التى يملكها المنتصر، على أنه يملك، إلى جانب القوة، سائر الفضائل الأخرى، فإذا لم ينخدع الناس لأول وهلة بأنه الأقوى هو أيضا الأفضل، قد ينخدعون مع مرور الوقت وإلحاح أبواق الدعاية وادعائها المستمر بأن هذه هى الحقيقة، دون أن تكون بالضرورة كذلك.

إذا كان محض القوة والغلبة سببا كافيا لتكوين عقدة الخواجة، فما بالك إذا اقترنت القوة بمزايا أخرى مرغوب فيها بدورها، كالرخاء المادى والكفاءة؟.

الرخاء والكفاءة

فلنأخذ الرخاء المادى أولا، إن نفس التقدم التكنولوجى الذى مكن الأوربى ثم الأمريكى من التفوق العسكرى والغلبة على الافريقى والآسيوى مكنهما من تحقيق الرخاء الاقتصادى، والرخاء ينطوى على كثير من الأشياء المرغوب فيها: الغذاء الكافى، والملبس النظيف، والمسكن الواسع، والراحة، ووقت الفراغ الطويل، أو على الأقل القدرة على إطالة وقت الفراغ، فإذا اجتمع كل هذا مع القوة العسكرية والقدرة على إملاء الإرادة على الآخرين، فما أسهل أن ينخدع المرء بالظن أن كل هذا لابد أن يعنى بالضرورة تقدما فى كل شىء آخر.

فما بالك إذا أضيف إلى كل هذا، التفوق فى الكفاءة، فالتقدم التكنولوجى يسمح بإتمام أعمال كثيرة فى وقت أقصر مما كان ممكنا من قبل، وبإنتاج مختلف السلع والخدمات بنفقة أقل، والفراغ الذى يتيحه التقدم التكنولوجى يسمح بمزيد من التقدم العلمى، أى مزيد من فهم القوانين التى تحكم الظواهر الطبيعية، وبمزيد من الاتقان فى الانتاج الفنى والأدبى والفلسفى، وكل هذا يعنى ارتفاعا فى الكفاءة.

فما أسهل أن ينخدع المرء بالظن بأن هذا الارتفاع فى الكفاءة فى الانتاج المادى والعلمى والأدبى والفنى والفلسفى لابد أن يعنى أيضا تقدما فى التنظيم الاجتماعى، وأنه لابد أن يعنى أيضا حرية أكبر، وارتفاعا فى مستوى الرفاهية الإنسانية بوجه عام وليس فقط فى مستوى الرفاهية المادية.

هكذا يشيع ويستقر فى النفوس ويدخل من مسام الجلد هذا الاعتقاد بأن التقدم فى مضمار القوة والرخاء المادى والكفاءة لابد أن يعنى أيضا تقدما فى سائر جوانب الحياة: العلاقات الاجتماعية، والتنظيم السياسي، والمستوى الأخلاقى والجمالي، والرفاهية الانسانية بكل عناصرها، مادية كانت أم غير مادية. فإذا كان الشخص الذى يحوز القوة والرخاء المادى والكفاءة «خواجة»، أصبنا جميعا بعقدة الخواجة، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

المثقفون وعقدة الخواجة

هل ترى من ذلك لماذا كان المثقفون والمتعلمون بوجه عام أكثر تعرضا للإصابة بعقدة الخواجة من غيرهم؟، فعلى الرغم من أن الأمة بأسرها تشارك فى دفع تكاليف الاستعمار وسيطرة الأجنبى على مواردها، فإن المتعلمين فى أى أمة هم الذين يتعرضون تعرضا مباشرا للتعامل مع الأجنبى، يتلقون منه الأوامر، وينفذون طلباته، ويقومون بدور الوسيط بينه وبين الأقل شأنا من بنى قومهم، ويخالطونه ويسامرونه فى أوقات فراغه فى النوادى والحفلات، وهم، من خلال هذا التعامل المباشر مع الأجنبى يتعرضون أكثر من غيرهم لسطوته وجبروته، ويعرفون أكثر من غيرهم مدى رخائه وحجم ثروته، بينما لايعرف بسطاء الأمة وفقراؤها مدى هذه السطوة وهذا الرخاء إلا بالسماع وعن طريق غير مباشر.

والمتعلمون يعاينون بأنفسهم ماحققه الأجنبى من تقدم فى العلم والتكنولوجيا والكفاءة، من خلال الاختلاط المباشر به، ومن خلال المدارس والجامعات التى تعلموا فيها، بل وربما من خلال مارأوه بأعينهم عندما تتاح لهم فرصة السفر إلى بلاد الأجنبى للدراسة أو العمل أو النزهة، بينما لايسمع بقية أهل البلد عن هذا العلم وهذه التكنولوجيا وتلك الكفاءة إلا من خلال قصص تروى وسرعان ماتنسى.

ولكن الأمر لايقتصر بأى حال على الفرجة والمعاينة، بل يمتد إلى ماهو أهم وأخطر فهناك أيضا «المكافأة» فالمتعلمون من أهل البلد التى يحتلها الأجنبى ليسوا فقط هم الذين يتلقون أوامر الأجنبى لتوصيلها إلى من هم دونهم شأنا، بل هم أيضا دون غيرهم الذين يتلقون جوائزه ومكافآته، إذ لضمان استمرار ولائهم لابد أن يمكنهم الأجنبى من بعض مايتمتع به من وسائل الراحة والنعيم، فيتاح لهؤلاء المتعلمين أن يعرفوا بالضبط ما الذى يمكن أن يجلبه التقدم التكنولوجي من حياة رغدة وأن

يتعرفوا على أشكال وألوان من السلع لاتخطر ببال بقية أفراد الأمة ولاحتى فى خيالهم، ويسمح لهم بمخالطة نساء جميلات، رقيقات زادهن الرخاء جمالا، والنعيم رقة، كيف لاتضعف إذن إرادة متعلمى الأمة ومثقفيها أمام كل هذه السطوة من ناحية وكل هذه المكافأة من ناحية أخرى؟.. الإرادة تضعف والأخلاق تلين، والتمسك بالتقاليد يغض البصر عنه شيئا فشيئا، ويسمح المتعلم أو المثقف لنفسه شيئا فشيئا بأن يتجاوز عما لم يكن من قبل يتجاوز عنه، فيفعل مثلما يفعل الأجنبي، ويقلده ما استطاع طلبا لرضاه، بل ويبدى استعدادا للضحك والسخرية من عادات قومه إذا ضحك وسخر الأجنبى منها.

كيف تضيع أشياء ثمينة؟

فى غمار هذه العملية البائسة من التحول النفسى تضيع أشياء ثمينة جدا ليس من الواضح أن ثمة علاقة بينها وبين القوة العسكرية أو بالرخاء أو بالتقدم العلمى أو التكنولوجى.

إذ أين العلاقة بين كون أمتك أقوى من أمتي عسكريا، أو أكثر رخاء أو أكثر تقدما فى العلم والتكنولوجيا، وبين ما إذا كان دينك أقرب إلى الحقيقة من ديني؟ لغتك أرقى أم لغتي؟، أدبك فى عصر ازدهاره أجمل أو أقل جمالا من أدبى فى عصر ازدهاره؟ موسيقاك أقدر على تحريك المشاعر أم موسيقاى؟ شعبك أخف دما أم أثقل ظلا من شعبي؟ أسرع بديهة أو أكثر فصاحة؟ معاملتك للمرأة أكثر إنسانية أم معاملتي لها؟ حبك للأطفال أقوى أم أضعف من حبى لهم؟ ما العلاقة بين القوة العسكرية أو الرخاء المادي أو التقدم العلمى أو التكنولوجى بما إذا كنت أسرع إلى الصفح مني؟ أكثر أم أقل استعدادا للعفو عند المقدرة؟ أو أقدر أم أقل قدرة على ضبط النفس عند الغضب؟.

نعم، هناك علاقة، ولكنها أكثر تعقدا وأقل بساطة بكثير مما نظن. فالرخاء المادى قد يسمح لك بأن تكون أقل تطرفا وتشنجا فى موقفك من الدين، بل وربما أيضا أكثر تسامحا مع أصحاب الديانات الأخرى، ولكن هذا الرخاء المادى ليس إلا عاملا واحدا من العوامل المحددة لدرجة التطرف والتشنج والتسامح، وقد يكون الأهم من مستوى الرخاء المادى فى تحديد هذه الأمور عوامل أخرى مثل مدى تطلعك إلى درجة أعلى من هذا الرخاء، فإذا اقترنت زيادة درجة الرخاء مثلا بشيوع قيم المجتمع الاستهلاكى الأكثر نهما، والأشد تنافسا، والأقل رضا بما حققه المرء بالفعل من هذا الرخاء، فقد تكون

النتيجة تشنجا أكبر وتطرفا أشد وتسامحا أقل.

نعم، إن ارتفاع مستوى الرخاء يسمح بإطالة وقت الفراغ مما يسمح بتوخى درجة أعلى من الاتقان فى إنتاج الأعمال الأدبية والفنية، ولكن هذا بدوره ليس ضروريا فالرخاء يجعل إطالة وقت الفراغ أمرا ممكنا ولكنه لايجعلها حتمية، بل ها نحن نرى البلاد الأكثر رخاء يميل الناس فيها إلى تفضيل المزيد من السلع على المزيد من الفراغ، وإذا بنا كثيرا ما نرى الناس فى البلاد الأشد فقرا يتمتعون بوقت فراغ أطول، ثم ألا يتوقف نوع الأعمال الأدبية والفنية على عوامل أخرى أهم بكثير من حجم الفراغ ودرجة الرخاء؟ وهل المهم هو حجم الفراغ ودرجة الرخاء المتاحان للصفوة أم للمجتمع ككل؟ إذ فلننظر مثلا ماذا حدث للأدب الروسى فيما بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، على الرغم من ارتفاع مستوى الرفاهية للمجتمع ككل، أو فلننظر إلى تأثير انتشار قيم المجتمع الاستهلاكى فى المجتمعات الغربية وارتفاع مستوى الرفاهية المادية على مستوى الآداب والفنون، هل يمكن الجزم بما إذا كان مستوى الآداب والفنون قد ارتفع أم انخفض مع عموم الرخاء وارتفاع مستوى الرفاهية المادية؟ لايمكن بالطبع الجزم، ومن الممكن لكثيرين أن يزعموا أن مستوى الأعمال الأدبية والفنية قد انخفض كنتيجة مباشرة لارتفاع مستوى الاستهلاك المادى وانتشاره بين الجماهير الغفيرة، بعد أن كان مقصورا على دائرة محدودة من القراء أو متذوقى الأعمال الفنية، وأن ما كسبناه على مستوى الكم قد خسرناه على مستوى الكيف، وأن الأعمال الأدبية والفنية الرديئة، كالعملة الرديئة، لها قدرة على طرد الأعمال الجيدة.

وهل نحن أقدر على القطع والجزم فيما يتعلق بأثر التقدم العلمى والتكنولوجى على سائر جوانب الحياة؟ كأثره على نوع الانتاج الأدبى والفنى، وأثره على اللغة ومستوى الفصاحة، وأثره على درجة الحرية والديمقراطية المتاحة للناس، وأثره على احتمالات الحرب والسلام، وأثره على العلاقات الاجتماعية وعلى الأخلاق وعلى العقيدة الدينية وعلى القدرة على الاتصال المباشر بالطبيعة.. إلخ.

لقد ساد الاعتقاد فترة طويلة من الزمن، ومازالت لهذا الاعتقاد آثار باقية حتى الآن، بأن الارتفاع بمستوى التعليم وانتشاره بين الطبقات لابد أن ينتج عنه فى النهاية ارتفاع فى مستوى الأخلاق،

هكذا ظن مفكرو حركة التنوير فى القرن الثامن عشر، وهكذا زعم المفكرون الاشتراكيون فى القرنين التاليين، فإذا بنا جميعا نفاجأ بأن التطور الخلقى له قانون خاص ضعيف الصلة بتطور العلم وانتشار التعليم.

أما أثر التقدم التكنولوجى على كل هذا فحدث عنه ولا حرج، إذ من الذى يستطيع الجزم بما إذا كانت آثار السيارة أو التليفزيون أو السينما أو التليفون المحمول أو الصحافة الحديثة أو البريد الإلكترونى... إلخ، على العلاقات الاجتماعية وعلاقة الرجل بالمرأة وعلى الأسرة وعلى الأعمال الفنية والأدبية... إلخ آثارا مرغوبا أو غير مرغوب فيها؟.

***

العلاقة إذن بين درجة القوة أو الغلبة، أو بين الرخاء المادى أو التقدم العلمى أو التكنولوجى، وبين التقدم أو التأخر فى سائر جوانب الحياة، علاقة هى أبعد ماتكون عن الوضوح والحسم. ولكن ما أسهل أن يقع الإنسان فى الفخ، وما أكثر طرق الخداع التى تستدرجك إلى توهم وجود علاقة أكيدة بين شيئين العلاقة بينهما جد واهية. والأمر هنا لايختلف كثيرا عن طرق الخداع فى البيع والشراء، حيث يستدرجك البائع إلى شراء سلعة تافهة ليست لديك أو فى حاجة إليها، بمجرد وضعها فى صندوق جميل يستهويك لونه ومنظره، أو بأن يجعل بائعة مشرقة الوجه جميلة الملامح هي التى تقدم إليك السلعة. فإذا بك تربط ربطا لاعقلانيا بين جمال وجه البائعة، وبين السلعة المباعة، أو بين لون الصندوق الجميل وبين قيمة السلعة الموضوعة فيه. ■

كلمات عاشت

● إن صباح الحياة يشبه الفجر، تسوده الطهارة والنقاوة والتخيلات الجذابة.

شاتوبريان

● ترك الفرصة غفلة

عمر بن الخطاب

● من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما

محمد عبده

● العزيز النفس هو الذى لا يذل للفاقة

أفلاطون

بين الشعر والسياسة

مأساة توفيق نسيم ومروءة على محمود طه

بقلم

د. محمد رجب البيومى

تكون فى مجلس حاشد، فيدور الحديث عن قضية تشغل الأذهان، فتلمس اجماعا على رأى واحد، اذ يدلى كل متحدث بما يشبع القضية تحليلا وتعليلا، حتى لتظن أن الأمر قد اتضح وراء هذا الاجماع الناهض بالدليل، القائم بالحجة، ولكنك تفاجأ بمن يبدى مخالفة صريحة لما أطبق عليه المجتمعون، وتستمع اليه فاذا وجهة نظر أخرى لها دليلها، منطقيا أو خطابيا، فتعرف أن لو يشاء الله لجعل الناس أمة واحدة، وقد يكون الطرافة كل الطرافة حين يكون المعارض شاعرا، له مع براهينه الدافعة، خياله الملهم، وتصويره الكاشف، فلو فاتك حينئذ الاقتناع بمنطقه الجدلى، فإن إيحاءه الشعرى، وتصويره العاطفى يتيحان لك أن تعاود ما قال مقدرا له وجهة نظره، وان لم تكن فى موقع القبول لديك، لأنه نفحك بالجديد الطريف.



على محمود طه



توفيق نسيم

استشهد مبدئيا بشاعر أمين صادق النية، قوي الإيمان هو الأستاذ الكبير أحمد محرم، حين هتف برأيه في مأساة السلطان عبدالحميد، بعد سقوطه علي أيدي الثائرين، فقد طفحت الجرائد والأندية في كل مكان بذكر مثالبه، وتعداد مساوئه، وأعلنت الهتافات الحادة تأييدا لمناوئيه، وكأنهم أنقذوا العالم الاسلامي من شر خطير، حتي أن شوقي رحمه الله لم يستطع أن يجابه التيار الكاسح مع تقديره للسطان عبدالحميد ، وما سبق أن ساق فى مدائحه من القصائد الطوال، فكان قصاري جهده أن يقول ..

نستغفر المولي له .. والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه اولى بباك او عزيز
ونصونه ونجله من الشماتة والنكير!

أما أحمد محرم فقد جلجل جلجلة مرنة . حين واجه المبتهجين الناعقين بأخطاء السلطان، فقال في حماسة دافقة

كأن الألى زانوا المنابر باسمه أحلوا بدين الله ما لا يناسبه
ألم يك ظل الله بالأمس بيننا نلوذ به ، والخطب ضنك مذاهبه
انطريه قهارا ، ونؤذيه مرهقا كفى الليث شرا أن تفل مخالبه
أكل مآتيه ذنوب ؟ أكله عيوب . الا من منصف اذ يحاسبه
ألا راحم هل من شفيع أماكفى ؟ أكل بنى الدنيا عدو يغاضبه
اكل ذوى التيجان بالعدل قائم اما فيهو مالا تعد مثالبه
اليس الألى غشوه أجدر بالأذى وأولى الورى بالشر من هو جالبه
هم اكتنفوه بالدسائس وافتروا من القول ما يعمى عن الرشد كاذبه

والقصيدة تشارف الأربعين بيتا . ولكنها ذات نفس حار ملتهب، ونبض ساخن مستعر ويضيق المقام هنا عن سردها جميعها ، وهي في الجزء الأول من ديوانه، وكأن أحمد محرم رحمه الله كان يقرأ الغيب ، حين عرف أن المسألة ليست مسألة دستور يحرص الثائرون على التزامه، فقد خالفوا كل دستور ، واضطهدوا بلاد العرب بما لا مزيد عليه ، ثم جروا البلاد الى الحرب العالمية الأولى فتمت الكارثة وتحطمت تركيا !

حكاية نسيم

أقول ، لقد مهدت بذكر محرم رحمه الله لأنتقل إلى حديث مأساة محمد توفيق نسيم باشا ، وقد رأس الوزارة المصرية ثلاث مرات ، كما كان رئيسا للديوان الملكي ورئيساً لمجلس الشيوخ ، وهي عليا المناصب السياسية في الدولة ، حيث يكون صاحبها في أرفع منزلة رسمية بين الناس ، ولكن ظروفه الخاصة ، وتكوينه النفسي قد قعدا به عن أن يكون محبوبا لدى الشعب المصري ، فوالده محمد نسيم باشا كان من كبار رجال القصر الخديوي ، وهو لا يرى الولاء لغير شخصية الحاكم وجده ، فشب ابنه مقتفيا منهجه ، مع أنه تخرج في مدرسة الحقوق التي تدرس القانون الدستوري فيما تدرس من القوانين ، وكان من زملائه في المدرسة من بلغوا مرتبة الوزارة فأدوا واجبهم الوطني دون انتماء لحاكم يرى مصلحته الشخصية فوق مصلحة الأمة لقد تولى الوزارة ثلاث مرات ، فكان في المرة الأولى خلفا ليوسف وهبه باشا الذي استقال مكرها لقيام المظاهرات ضد اتجاهه ، وقد قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعي عن وزارة نسيم هذه : وأنها من الوزارات التي اصطنعتها السراي ، وقامت على أساس الاستخفاف بالحركة الوطنية ، ومناهضتها ، فلا غرو أن قوبلت بالسخط العام ، لذلك وقع اعتداء على نسيم بإلقاء قنبلة على سيارته ، حطمت السيارة ، وأصيب السائق بجرح بليغ ، وكان للانفجار دوى مسموع في شتى نواحي القاهرة ، وقد تألم فؤاد لهذا الاعتداء ، حتى أنه لم يكتف بإرسال كبير أمنائه لتهنئة نسيم بالنجاة ، بل زاره شخصياً تقديراً لخضوعه له وامتثال كل ما يأمر !

أما الوزارة الثانية فقد جاءت بعد وزارة عبد الخالق ثروت ، وقد قال الرافعي عنها : إنها جاءت مكافأة لنسيم على الدسائس التي حاكها لإسقاط ثروت ، وهي وزارة لم تكن تعطف على الدستور ولا تبتغي أن يرى في وضح النهار ، وانتهزت السياسة البريطانية هذه الفرصة لتطلب حذف نصوص السودان من الدستور حين رأت من تلكؤ الوزارة بأمر القصر ما شجعها على ذلك . وقد أجابها نسيم إلى ما تطلب . فكان انقلابا على حساب الأمة وحقوق

البلاد ، وكرر الرافعي قوله : إن نسيم أختير للرياسة مكافأة له على الدسائس التي حاكها لإسقاط ثروت المتمسك بالدستور وقد ألف وزارته بدون برامج ، ورجعت بالبلاد للوراء ، وأنك لتجد في جواب نسيم الخاص بقبول تأليف الوزارة ، هذا الأسلوب الخالي من البرامج ، المجرد من المعاني السامية ، فهو لا يعتبر ولاية الوزارة إلا منحة من ولي الأمر ، ونعمة تقرن بالعبودية ، لمن وجه هذه النعمة للعبد الخاضع ، وأكبر ما وقعت فيه وزارة نسيم من المثالية ، هو تسليمها المطلق بالمطالب البريطانية ، وأهمها حذف لقب ملك مصر والسودان ، وجعله ملك مصر فقط ! وهذا ما حتم سقوطها السريع.

أما الوزارة الثالثة ، فكانت بعد إصرار الشعب على إعادة دستور ١٩٢٣ ، وإبطال الدستور الذى وضعه اسماعيل صدقي منتقصاً حقوق الأمة . وجاء نسيم ليعلن أنه سيضع للبلاد نظاماً دستورياً ! ولكن لم يشر إلى إعادة دستور سنة ١٩٢٣ ، وهو ما فطن له الأستاذ عباس محمود العقاد حين قال في مقال نارى هاجم فيه سياسة توفيق نسيم .

«ولي نسيم الحكم ، وهو لا يقصد إلى إعادة دستور سنة ١٩٢٣ بالذات ، إذ أكتفى الأمر الملكي الذى استصدره في ٣٠ نوفمبر ١٩٣٤ بأن يشير إلى أن البلاد سيوضع لها نظام دستورى ، ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الأمر الملكى الصادر له ، أبلغه المندوب السامى أن الحكومة البريطانية ترى أن البلاد قد تستفيد من تأجيل هذه المسألة ، وأن مصلحة البلاد تقتضى أن يكون شكل الدستور الجديد موضع درس معهم يتناول جميع وجوه المسألة» .

هذه الانحناءات المتوالية لمطالب القصر الدكتاتورى تارة ، والحكم البريطاني تارة أخرى جعلت صورة نسيم غير مقبولة لدى الرأى العام ، وقد شاء أن يستريح من العمل السياسي ، حين داهمه المرض ، فذهب إلى أوربا للاستشفاء ! ثم عاد .

لماذا حاربوا زواجه ؟

لقد كان الرجل العجوز في خريف حياته ، وحيداً دون مؤنس ، لم يتزوج فلم يلد ، وفاجأه المرض فريداً على مقعده الحاد ذى الآلام المتواصلة ، وهنا سنحت له فتاة أوربية جميلة شابة متمدنة ، هي الآنسة (هوبنر) قامت مقام الممرضة الحانية ! فماذا ينتظر المرء إزاء ذلك من شيخ لا ولد له ولا زوج ولا صديق ، لأن رفقاء الوصولية من محترفي السياسة قد انفضوا عنه حين غابت شمسه السياسية ، ليس من المستغرب أن يميل إلى الآنسة الحانية ، ويعلن خطوبتها وذلك أمر مشروع لا يعارض كتابا ، ولا يخالف سنة ، ولكن عواصف

الانتقام من مخالفي تاريخه السياسي قد هبت تثير الزعازع القاضعة . وتتهكم بالشيخ المريض ، وكأنه فسق عن أمر ربه ، وقل ما شئت في الصحف الفكاهية التي رسمت الكاركاتير في وضع مزر سيء ، فالمريض مرتم على الأرض ، والأنسة من فوقه تدوسه بالحذاء ، وهو يبتسم في استخذاء ، وهناك صحيفة صورت (زينون) صورة عاشق كليو باتره العجوز الشائخ في صورة توفيق نسيم ، وأتبعت ذلك بأبيات شوقي الشهيرة في المسرحية الذائعة .

أفق زينون واصح من الغواني ... أبعد الشيب تخدعك النساء
كمحموم يبوح وليس يدرى ... تكشف عن سرائره الغطاء
وما الحتمى الشيوخ إذا أحبوا؟ ... وليس وراء غيرتهم بلاء
ألهى قد فضحت وضل شيبى ... وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

وقد تناولت الأقلام الساخرة مأساة المريض العجوز ، وكأنها قضية الموسم، ولم يحتمل الرجل الموقف فأرضى الأنسة بذخيرة من المال تكافىء تمريضها ، وتعوضها عن فسخ الخطبة ورحل إلى أوربا هارباً من هواء سام فتك بأنفاسه إلا قليلاً ، وجاءه القدر المحتوم هناك .

موقف على محمود طه

وكان الظن بأصحاب الأقلام الساخرة أن ينتهوا عن السخرية بالفقيد الراحل ، ولكن تاريخه الماضي لم يمح من صدورهم ضغائن الأمس ، وهنا انفرد الشاعر الوجداني الرقيق على محمود طه حين رثى الفقيد رثاء حارا مصوراً عواطفه الشاجية في أيامه الأخيرة قبل أن ينطفىء السراج ، وتقدم إلى جريدة الأهرام بقصيدة باكية فقالت الجريدة في تقديمها للقراء «نظم الشاعر هذه القصيدة عقب وفاة المغفور له محمد توفيق نسيم باشا ، وكان في نيته أن يطويها عن النشر لما تضمنته من الالتفاتات الخاصة بحياة الفقيد الكريم ، ولكن بعض أصدقائه أشار عليه أن ينشرها للذكرى والتاريخ» أجل كان صوت على طه غريباً في الجو العام ، ولكنه غلب الأصوات جميعها ، فقد بدأ الشاعر مرتين متحدثا عمن أثاروا حوله الضجيج ، وبلغ حد الروعة حين صور مأساته العاطفية تصويراً مراً يقع من النفس المحايدة أقسى مواقع الألم والابتئاس ، ومن لا يعطف حنانا على هذا الشيخ الذى أطل على الشتاء ، وقلبه متوقد كالجمرة ، وقد طوى حياته الجديدة ، كدوحة عارية وحيدة في القفر لم تنزل بساحتها الأطباء ، ولم تبن بها عشا للفرح والغناء ، حتى إذا داهمها الخريف الموحش مرت به حمامة غريبة ، صادقة اللحن فاسمعته لغة الهوى ! وما كان له غير أن يخفق قلبه بصبابة هذه القمرية البيضاء فكان ذلك توهج القبس الأخير ، وارتعاش الروح المضطرية أمام لألاء الحسن !

وللقارىء أن يصغي إلى بعض ما قال الشاعر الرقيق :

شيخ أطل على الشتاء وقلبه ... متوقد كالجمرة الحمراء
مر الرفاق به فشيع ركبهم ... وأقام فردا في المكان النائي
وطوى الحياة كدوحة شرقية ... أمست غريبة تربة وسماء
لم تنزل الأطيار فيء غصونها ... من وشي تلك الحلة الخضراء
عبرت بها صداحة في سجعها ... لغة الهوى ورطانة الغرباء
وارحمتا للنسر يخفق قلبه ... بصبابة للقمرية البيضاء
في لمعة القبس الأخير وقد خبا ... نجم المساء ورعشة الأضواء
وتوثب الروح الحبيس وقد شدا ... ثملا بسحر الليلة القمراء
وجناية الحسن الغرير إذا رمى ... فشريق دمع أو غريق دماء

لقد رنت هذه القصيدة رنينا مشجيا ، تسمع القراء خلاف ما عهدوه من اللغو الكاذب بشأن هذا الهوى غير المنتظر ، وكأني باللائمين وقد رجعوا إلى أنفسهم يتساءلون ، ماذا جنى الرجل من الآثام حين أحب فتاة حنت عليه ، ورفهت على نفسه في أقسى غمرات المرض ؟ لقد شاء القدر أن تكون هذه الفتاة أجنبية ، وماذا في ذلك وقد تزوج عشرات الأثرياء العابثين من عشرات الأجنبيات فما لامهم لائم ، ولو قد مرت على الرجل فتاة مصرية في مثل حنان الآنسة «مويثر» لكان الموقف هو الموقف ، ولعرض عليها الخطبة في حركة ضارع ، أنا لا أشك لحظة في أن القصيدة بتصويرها الحي ، وإيحائها الكاشف قد حولت عواطف كثير من اللائمين ، ورجعت بهم إلى التأمل الحيادي من جديد .

ولم يفت على محمود طه أن يرد على المهاجمين في أمرين تعلقوا بهما وجعلوهما موضع الزراية والتأنيب ، فكان محاميا قديراً يعصف بالحجة التي تبدو للعين رائحة ، يعصف بما يقلقها كل مقلق ، إن لم ينزع أصولها الراسخة في الأعماق ، أما الأمر الأول الذى تعلق به الناقمون ، فهو المال الذى سترثه هذه الزوجة الغربية ، والبلاد أحق بمال أثريائها الذين جمعوه من خيرها ! وقد تساءل [illegible] عن الأموال الكثيرة الفاضحة التي ينفقها الأثرياء كل عام في أوربا في [illegible] اللهو لم لم يرتفع صوت واحد بالتنوير بها ، حتى كانت خطبة [illegible] الاستمساك [illegible]

[illegible]

[illegible]

حب بلوت به العـــذاب ومثله ... مقه السياسة وهي شر بلاء

نسيم والانجليز

أما الأمر الثاني فهو ما رددوه من موالاة توفيق نسيم للإنجليز ، وهو مطعن يصعب تبريره إذا استمعنا إلى صوت الوطن الجريح ، ولكن الشاعر لجأ إلى الأسلوب الخطابي الذى يبهر السمع بدءا ثم ينجاب بريقه عند التأمل ، فقال فيما يشبه الاعتذار عن الجناية المحققة ، إننا عقدنا معاهدة الصداقة مع الانجليز ، وأنهم أصبحوا حلفاءنا ، مصالح من يصالح القوم ، وتغصب على من يغصبون ، ذكر ذلك فى قوله :

قـــالوا أحب الإنجـــــليـــز وزادهم
ود الحــــمـــيم ، ومـــوثق القـــرباء
ها قـــد أتى اليــــوم الذى صـــاروا به
أو فى الدعـــاة . وأكـــرم الحلفـــاء
بتنا نغـــاضـــب من يغـــاضـــبـــهم ولا
نأبى رعـــــايتـــهم على الضـــراء
رأى أخــــذت به وليس بعـــــائب
ذمم الرجـــــال مـــآخـــذ الآراء
لكن ســـكت فـقـيـــل إنك عــاجــز
عـــن رد عـــــادية ودفـع بلاء !

وهذا مالا أوافق عليه الشاعر فما كان الانجليز فى يوم ما أوفى الدعاة وأكرم الحلفاء ، ونحن لا نغاضب من غاضبهم الانجليز إلا مضطرين ، وذلك ما تحاشاه الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغى حين أعلن أنهم يخوضون حرباً لاناقة لنا فيها ولا جمل ؟ وكان على الشاعر أن يلتمس وجها آخر للاعتذار ، وقد لا يجده .

على أن أحسن ما توحى به القصيدة أنها تعبر عن حقيقة إنسانية لابد من الاعتراف بها ، مهما خفيت ، فقد يتجاهل الانسان صبوته حينا من الدهر ، حتى يظن أنه نجا من تأثير العاطفة الوجدانية إلى الأبد ، ولكن هذه العاطفة الحبيسة تعيش فى أنحاء النفس هادئة وادعة حتى يتاح لها ما يجعلها فى لحظات تنقلب من الهدوء إلى الضجيج فتصطفق فجأة وراء الجدران القائمة من قبل ، فتنهار قواعدها ، ويندفع التيار كما يندفع سيل العرم ، فيضطر الكهل العجوز إلى الخضوع الضعيف والاستجابة القاهرة مهما حاول الاصطبار ، وهو غير ملوم ، فقد خرج الأمر عن مقدرته ، وصار فوق طاقته ، وليس عليه غير الإذعان ، وقديما قال القائل :

لقد كان فى الهجران ما يزغ الهوى ... ولكن شديد فى الطباع انتقالها!

أقوال معاصرة

● نقد الذات هو السلاح الامضى للحيلولة دون هدم الذات» .

كلوفيس مقصود

سفير الجامعة العربية لدى الامم المتحدة

● «إننا على المستوى الفكرى والثقافى لم ننجح الا فى تحقيق مزيد من العرى الفاضح للفكر الانسانى» .

آمال موسى

كاتبة وشاعرة تونسية

● العدو الأكبر للعرب والخليج، هو الاستكانة والسلبية والانتظار».

السياسى القطرى حمد عبدالعزيز الكوارى

● «ألمانيا مشكلة ، فرنسا مشكلة ، انهما تمثلان اوروبا الهرمة»».

وزير دفاع الولايات المتحدة دونالد رامسفيلد



دونالد رامسفيلد

● الامريكيون من كوكب المريخ والاوربيون من كوكب الزهرة»

المؤرخ روبرت كاجان

صاحب كتاب «النعيم والسلطة»

● «اى شىء تعتقده، افعله، اهتدى باحلامك»

رائدة الفضاء كالبانا شاولا

● حضارتنا التكنولوجية المشدودة الى الأسرع والاكثر، والى ريادة التطور الى عالم مجهول، محكومة بمنهج فى الجنون يأخذ شكل صيغة صفقة مع الشيطان»



فرانسيس فوكو ياما

المؤرخ الامريكى فرانسيس فوكو ياما

وصاحب كتاب نهاية التاريخ

● «اليوم الذى سأتقد فيه اهتمامى بالأزياء وبأناقتى هو اليوم الذى ستكون فيه قدمى داخل المقبرة»

الأديبة والصحفية الفرنسية فرانسواز جيرو

وأول وزيرة لوزارة شئون المرأة



غادة السمان

● مأساة الأدباء ليست حقا فى فراق شبابهم، بل فى عجز بعضهم عن ذلك!!»

الاديبة غادة السمان

● الإدعاء بأن الإسلام مسئول عن الإرهابيين هو بنفس خطأ الجزم بأن المسيحية أفرزت النازيين .

برنارد لويس

الأستاذ المتقاعد لدراسات الشرق الأدنى

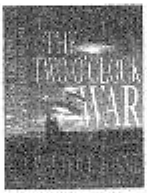
بجامعة برنستون فى الولايات المتحدة

قراءة فى كتاب والتربوين : حرب الساعة الثانية

الجيش المصرى وضع اسرائيل على حافة الهاوية

بقلم
د. عاصم الدسوقى

سوف تظل حرب أكتوبر شأن الحوادث الكبرى فى التاريخ مثار جدل عسكرى وسياسى لفترة طويلة قادمة قد تستغرق أجيالا طالما لا يتخلص الذين ينظرون إليها سلفا من كل انحيازهم السياسى والقومى والديني. فرغم كثرة الكتابات التى صدرت حتى الآن بأقلام سياسيين وعسكريين سابقين وأيضا صحافيين ومراسلين عسكريين، تظل الحاجة قائمة لمزيد من الكتابات التى تكشف أكثر حقيقة ما دار، ليس فى ميدان القتال لأن معاركه شاهدة، وإنما ما دار فى كواليس السياسة حيث عملت القوتان الأعظم (حسب وصف محمد حسنين هيكل لكل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية) على السيطرة على الموقف كله، وتحريك شخوصه هنا وهناك للانفراد بالهيمنة فى [illegible] الحرب الباردة أنذاك.



وهذا الكتاب الذى صدر فى سبتمبر العام الماضى فى نيويورك (فى ٣٢٤ صفحة) يكشف كثيرا من الأوراق السياسية التى صاغتها أجواء الحرب الباردة فى الكواليس بفضل وضحية دول العالم الثالث التى أخفقت فى تقوية تيار الحياد الإيجابى وعدم الانحياز، ولم يكن أساسها من سبيل إلا الانحياز لإحدى القوتين بعد أن أصبح الحياد السويسرى غير مقبول.

أما صاحب الكتاب والتر بوين Boyne فهو كولونيل سابق بسلاح الطيران الأمريكى وعمل مديرا للمتحف القومى لشئون الفضاء (١٩٨٣ – ١٩٨٦) وله مؤلفات خاصة بشئون الحرب منها: أسلحة حرب الخليج، وصور من تاريخ الطيران.

ويبدو من استعراضه للأمور أنه موضوعى فى تناولها، لدرجة يشيد بالعسكرية المصرية فى العبور التى جعلت دولة إسرائيل على حافة الهاوية، ويعرض لأخطاء الطرفين سياسيا وعسكريا بل ولأخطاء القوى الكبرى فى التعامل. لكن نظرة على الغلاف الذى يحمل صورة علم إسرائيل يرفعه جنديان إسرائيليان أعلى ربوة تؤكد لنا أنه لا يعترف بانتصار العرب فى أكتوبر.

ونظرة أخرى على العنوان الفرعى للكتاب «الطيران الأمريكى الذى



أنقذ إسرائيل» يؤكد أمريكيته ليقول من خلاله إنه لولا أمريكا لتغير الموقف لصالح العرب. وبينما يمتدح أسلوب السادات في السرية والتمويه والمناورة، يقلل من شأن خطته في الحرب التي استهدفت مجرد عبور القناة وانتظار القطبين الدوليين التدخل لتسوية الموقف، وغير ذلك من مقابلات بين المديح وبين التجريح المستتر.

ويصرف النظر عن التراوح بين الشيء ونقيضه، والتردد بين الموضوعية والانحياز مما يلازم الكتابة غير العلمية، ويبقى جانب المعلومات التي أوردها المؤلف وهي موثقة في أغلبها وبعضها أورده هيكل في كتابه «أكتوبر ١٩٧٣ السلاح والسياسة»، وبعضها أورده الفريق عبد المنعم واصل في مذكراته، مع اختلاف شديد في التحليل. وفي كل الأحوال ينبغي أن يعرف القارىء العربي وجهات نظر مغايرة، ومعلومات أخرى حتى لا يظل أسير المفاهيم المطلقة.

.. بحلول عام ١٩٧٣ كان القادة الإسرائيليون على يقين من أن مصر لا يمكن أن تقوم بحرب إلا إذا كانت على يقين من قدرتها على تحطيم الطيران الإسرائيلي، وهو أمر بدا لهم غير ممكن إن لم يكن مستحيلا ولسنوات طويلة برغم المساعدات السوفيتية، وأن سوريا هي الأخرى لا يمكن أن تتحرك دون مصر.

المناورة

ومن ناحية أخرى عمد السادات إلى إيهام إسرائيل بأنه لن يحارب، واتبع في ذلك قدرا كبيرا من التمويه، ومن ذلك إعلان الصحف عن قيام مئات من ضباط الجيش بأداء فريضة الحج، وتنظيم مباريات كرة قدم بين العساكر المصرية والسورية على مرمى بصر إسرائيل، وسباحة الجنود في مياه القنال وصيد السمك، فضلا عن تعمده تسريب معلومات للمخابرات الإسرائيلية بشأن عدم استعداد القوات المصرية للحرب، مما جعل إسرائيل تطمئن على كفاءة جهاز الموساد. ولهذا فإن إسرائيل اعتبرت قيام مصر بنشر قواتها بطول قناة السويس من قبيل «المناورة» ، بل ورفض قادتها تصديق أحد صغار الضباط (بنيامين سيمان توف) الذي كتب تقريرا يقول أن ما تقوم به مصر ينبيء عن الاستعداد للحرب وليس العكس. وهكذا كما يقول المؤلف «لعب السادات بقيادات إسرائيل وبمخابراتها

كما يلعب على الكمان، إذ أسمعهم ما كانوا يحبون سماعه» (ص ١٨ -١٩).

وبالإضافة إلى التمويه على إسرائيل نجح السادات فى إحاطة ساعة الصفر بسرية تامة لم يعرف بها إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وكان قد اختلف مع سوريا حول ساعة الهجوم إذ كانت سوريا تريده صباحا حيث تكون الشمس فى عين الإسرائيليين ومصر تريده بعد الظهر للسبب نفسه، كما لم يخبر حليفته سوريا بحقيقة خططه حتى اندلعت الحرب، وكان من «الشطارة» Clever بحيث التصق بهنرى كيسنجر حيث عرف أن الرئيس نيكسون يستمع إليه جيدا (ماسك ودانه) (ص ٢٠).

ولكن.. وبرغم كل هذه السرية والكتمان عرفت المخابرات الإسرائيلية بيوم الحرب دون الساعة المحددة. ففى الساعة الرابعة فجر يوم السادس من أكتوبر تلقى رئيس الموساد الجنرال زئيرا من أحد عملائه ما يفيد أن مصر وسوريا ستشنان حربا بعد ظهر اليوم. وعلى الفور تم ابلاغ جولدا مائير (رئيس الحكومة) التى دعت إلى اجتماع فى الساعة السابعة صباحا حضره وزير الدفاع (موشيه دايان)، ورئيس الأركان



(اليعازر)، ونائبها ييجل آللون، ويسرائيل جاليلى أحد أركان المطبخ السياسى.

واختلف المجتمعون حول استدعاء الاحتياطي وتوجيه ضربة وقائية، إلا أن جولدا التى كانت «تفضل السياسة» اتصلت بالسفير الأمريكي فى تل أبيب (كينيث كيتنج) وأخبرته بأن إسرائيل لن تقوم بضربة أولية لكنها رجته أن تقوم الحكومة الأمريكية بإخبار كل من مصر وسوريا والاتحاد السوفييتى بأن إسرائيل على علم بنياتهم اعتقادا منها أن معرفة هؤلاء بانكشاف السر قد يجعلهم يتراجعون عما قرروه (ص ٢٧ - ٢٨). وهكذا عرفت الولايات المتحدة بخبر الحرب قبل وقوعها بنحو ست ساعات.

ساعة الصفر

أما الاتحاد السوفييتى فقد عرف بالنبأ فى الساعة الواحدة إلا ثلث بتوقيت مصر، أى قبل ساعة الصفر بحوالي ساعة وعن طريق سفيره فى

واشنطون (أناتولى دوبرنين) الذى كان كيسنجر قد أبلغه. وقد دهش المسئولون السوفييت كما سبق أن دهشوا عندما قام سفيريهما بالقاهرة (فينوجرادوف) وفي دمشق (موخيتدنوف) بإخبارهم بأن الحرب على وشك الوقوع. وعلى الفور جرت الاتصالات بين القطبين الدوليين على أساس أن يقوما بجمع المعلومات والعمل على أن تكون الحرب محلية مع سرعة استعادة حالة السلم.

وكانت هذه الاتصالات أحد مظاهر الحرب الباردة إذ استخدم كل من القطبين نفس الآليات من أجل استمرار السيطرة والتى تتمثل فى العمل السياسى، والقروض المالية والمنح، والامدادات الغذائية والعسكرية. وهنا يحرص المؤلف على أن يؤكد أن تسليح أمريكا لإسرائيل كان مقابل تسليح السوفييت لمصر وسوريا والعراق الذى من شأنه أن يوازن التفوق الجوى الإسرائيلى (ص ١٧).

المهم.. فى الموعد المحدد عبرت القوات المصرية قناة السويس وحطمت [illegible] على [illegible]

بالهجوم. ولم يصدق الإسرائيليون ما كانوا يسمعونه فى الإذاعات الأجنبية، وكانوا ينتظرون أن يسمعوا أنباء قيام قواتهم الجوية بتحطيم المصريين إلى أن أعلن الجنرال أهارون ياريف فى يوم الأثنين (٨ أكتوبر) «أنها حرب وليست نزهة». واعتبر هذا اليوم يوما أسود فى تاريخ إسرائيل. وكان الهجوم المضاد الذى شنته إسرائيل على الجبهة المصرية فى ذلك اليوم قد فشل فشلا ذريعا ولم تعد هناك دبابة إسرائيلية واحدة بطول الجبهة حتى لقد وصف دايان ما حدث بأنه التدمير الثالث للهيكل وهى نبوءة تعنى تدمير إسرائيل (تم الأول على يد البابليين فى عام ٥٨٦ ق.م، والثانى على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية)، على أن ما أزعج دايان على وجه الخصوص الاستنزاف المستمر للدبابات والطائرات والجنود والطيارين دون تعويض. وبناء على هذا الموقف السيء انتهى دايان إلى أنه لا بديل عن استخدام السلاح النووى، وكانت إسرائيل قد أعدت حتى ذلك الوقت ثلاثة عشر قنبلة ذرية كل منها فى حجم قنبلة هيروشيما (ص [illegible]

[illegible]

٦٦
الهلال

من صباح اليوم التالى (٩ أكتوبر) عرض دايان على جولدا مائير استقالته. فلما رفضتها طلب التصريح باستخدام السلاح النووى، لكنها رأت أن الإعلان بوضوح عن نية إسرائيل فى استخدام هذا السلاح قد «يهمز» حكومة واشنطون للقيام بمد إسرائيل بالعتاد اللازم، وأن تسريب هذا الخبر للسوفييت قد يردع مصر وسوريا عن التوغل العسكرى أكثر، بل لقد ارتاح دايان لفكرة جولدا بأنها ستذهب لواشنطون لمقابلة نيكسون مباشرة دون حضور كيسنجر وتطلب منه أن «تعلن أمريكا للعالم أنها ستساند إسرائيل». وقد اعتبر دايان هذا الرأى نقطة الضوء الوحيدة فى يوم حالك السواد (ص ٦١ - ٦٢).

الخط الساخن

وبينما كانت القوات المتحاربة (العربية والإسرائيلية) تتصارع كعقربين فى زجاجة أحكمت سدادتها على حد قول المؤلف اشتغل الخط الساخن بين واشنطون وموسكو حيث انتهى الرئيسان إلى العمل على التقليل من خطر الحرب حتى لا تتأثر سياسة التهدئة بينهما. واقترح نيكسون انسحابا



فوريا للقوات العربية إلى خطوط ما قبل الحرب. على حين كان برجينيف يفضل أن تتخلى إسرائيل عن كل الأراضى التى احتلتها (ص ٦٧).

فى تلك الأثناء، علم كيسنجر من حافظ إسماعيل مستشار السادات للأمن القومى الذى كان على صلة به منذ ١٩٧١ أن السادات ينوى فقط عبور القناة والاكتفاء باستعادة قطاع محدود من الأرض شرق القناة، وهى معلومة لم تكن تعرفها سوريا. وقد جعلته هذه المعلومة يعيد ترتيب أوراقه الدبلوماسية بما يخدم مصالح بلاده (ص ٦٦). كما علم أن السوفييت يشجعون الأردن والجزائر على الدخول فى الحرب ضد إسرائيل مقابل مساعدات. وعلم أيضا أن جولدا مائير سوف تأتى لواشنطون لعرض فكرة استخدام السلاح النووى ما لم تقدم أمريكا كل المساعدة والدعم. كل هذا جعل كيسنجر يقتنع بعدم الموافقة على وقف إطلاق النار ما لم تكن

إسرائيل فى الموقف الأقوى. وعلى هذا وفى الاجتماع الذى عقده نيكسون فى مكتبه (الساعة الخامسة إلا ربعا مساء يوم ٩ أكتوبر بتوقيت واشنطون وهو الاجتماع الثانى بشأن الحرب) بحضور كيسنجر ونائبه للأمن القومى برنت سكوكروفت، والجنرال الكسندر هيج رئيس الأركان الجديد، ورونالد زيجلر رئيس المكتب الصحفى للبيت الأبيض. وفى الاجتماع أعلن نيكسون أنه لا ينبغى أن تخسر إسرائيل الحرب، وأنه سيوفر لها كل ما تحتاجه من أسلحة وعتاد وقطع غيار على أن تقوم بعملية النقل طائرات العال الإسرائيلية (ص ٧٨ – ٧٩). وكانت هذه الوسيلة مثار خلاف شديد بين رجال الرئيس (كيسنجر من ناحية وشليزنجر وزير الدفاع من ناحية أخرى) مما تسبب فى تأخير وصول الدعم الأمريكى لإسرائيل فى الوقت الذى أخذ الدعم السوفييتى يصل إلى سوريا ومصر عبر عواصم حلف وارسو وخاصة بودابست وبلجراد ومن القوقاز وأوكرانيا (ص ٨٦).

فى ١٤ أكتوبر وصلت طلائع الامدادات الأمريكية إلى إسرائيل وكانت الحكومة الأمريكية قد وجدت صعوبات بالغة فى هذه المهمة ذلك أن كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا رفضت السماح للطيران الأمريكى بالتحليق فى أجوائها أو الهبوط فوق أراضيها لأنها – كما يؤكد المؤلف – كانت تخشى انقطاع النفط العربى عنها. ثم يقول إنه لولا البرتغال التى قبلت أن تستخدم أمريكا جزر الأزور قواعد لطيرانها لخسرت إسرائيل الحرب بكل تأكيد ذلك أن البرتغال لم تكن تخشى انقطاع النفط الذى كانت أنجولا مستعمرتها فى إفريقيا تستطيع أن تمدها باحتياجاتها منه. ويعرب المؤلف عن أسفه وحزنه لموقف الدول الأوربية قائلا «إن الحرب كشفت الوجه الحقيقى لهذه الدول الذين أداروا ظهورهم لإسرائيل ولأمريكا (ص ١٥ – ٨٢).

وقد بادر كيسنجر بإبلاغ «مراسله السرى» فى القاهرة حافظ إسماعيل بأن الإمداد الأمريكى لإسرائيل مجرد رد على الدعم السوفييتى لمصر وسوريا، وأكد له أن أمريكا مستعدة لإيقاف دعمها لإسرائيل فور وقف إطلاق النار، وأنها على استعداد للمساعدة فى تحقيق سلام فى الشرق الأوسط يكون مقبولا

لدى مصر.. وقد وافقه حافظ إسماعيل.

ثم حدثت الثغرة عندما نجح الكولونيل دانى مات فى الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة عند منتصف ليل ١٦ أكتوبر فى عبور القناة إلى الضفة الغربية على رأس ستمائة عسكرى دون أن يدرى المصريون، وبعد عبوره بسبع ساعات لحقت به أول ثلاثين دبابة إسرائيلية. لكن قتال المصريين وجها لوجه بضراوة وخشونة حال دون إمداد دانى بقوات إضافية أخرى، وهنا هدد السادات فى مجلس الشعب بإطلاق صواريخ سكود على مدن إسرائيل، وقال إن أى وقف لإطلاق النار لابد وأن يرتبط بانسحاب إسرائيلى كامل إلى خطوط ٤ يونية ١٩٦٧. وردت جولدا مائير قائلة «إن كلام السادات غير مقبول لأنه يتجاهل عبور قوات إسرائيل إلى غرب القناة».

كانت الثغرة طوق النجاة لإسرائيل إذ أشعرتها بتحسن موقفها عن ذى قبل، ومن ثم بدأ التفكير فى كيفية استثمارها فى تحقيق نصر حاسم ونهائى على مصر خاصة وقد أصبحت الفرصة مهيأة بعد أن تحطمت منصات الصواريخ المصرية فى الضفة الغربية للقناة، ونصبت إسرائيل مدافعها هناك



ليصبح بالإمكان قصف الجيش الثالث المتمركز بالضفة الشرقية.

واتجهت قوات أخرى جنوبا إلى الأدبية على خليج السويس لتحاصر الجيش الثالث (ص ١٧٩ ، ٢٣٢). وأمام هذا التحول فى سير الحرب اقترح الفريق سعد الشاذلى انسحاب جماعى للقوات المصرية من الضفة الشرقية إلى الغربية لدك القوات الإسرائيلية فى الدفرسوار لكن دون جدوى. ويعلق المؤلف على هذا الموقف قائلا: إنه من حسن حظ إسرائيل أن الشاذلى لم يكن على وفاق مع السادات الذى كان يرفض اقتراحاته (ص ١٨٠) . وأكثر من هذا أن نيكسون فى يوم ١٩ أكتوبر طلب من الكونجرس اعتماد ٢,٢ بليون دولار مساعدة لإسرائيل بالإضافة إلى ٨٢٥ مليون دولارا سبق إرسالها.

وهنا لنا أن نتساءل.. ما الذى شجع الحكومة الأمريكية على الاستخفاف بالعرب والوقوف بكل عزم وقوة إلى جانب إسرائيل فى حرب حققت فيها

مصر وسوريا مفاجأة أذهلت العالم؟..

هناك عدة ظنون غير التحليل التقليدى عن العلاقة الاستراتيجية بين إسرائيل وأمريكا يمكن التقاطها عبر صفحات الكتاب.. ومن ذلك إدراك الولايات المتحدة عدم رغبة الاتحاد السوفيتي في التورط في حرب تؤثر على سياسة التهدئة التي كان يتمسك بها واكتفى باقتراح انسحاب إسرائيل إلى خطوط ٤ يونية ١٩٦٧، فضلا عن أن اكتشاف السوفييت في وقت متأخر نسبيا وجود اتصال سرى بين مصر وأمريكا منذ ١٩٧١ من خلال حافظ إسماعيل رغم قطع العلاقات الدبلوماسية بينهما منذ حرب يونية ١٩٦٧، أغضبهم واتهموا السادات بالتعامل المزدوج فتركوا الأمر لأمريكا.

وكان لسماح المغرب والجزائر وليبيا بتحليق الطيران الأمريكى فى أجوائها أو بمحاذاة أجوائها فى الطريق لإسرائيل من جزر الأزور البرتغالية دون اعتراض أو احتجاج مثلما فعلت دول أوربا الغربية كما سبقت الإشارة حتى مصر التى هى فى حالة حرب مع إسرائيل لم تفعل شيئا رغم أنها تملك صواريخ أرض - جو قوية.. جعل كيسنجر يدرك حقيقة الموقف العربى (ص ١٢٨).

ومن ناحية أخرى أن كيسنجر استغرب أن السادات لم يحاول حشد العالم العربى ضد الولايات المتحدة فى حرب دينية مقدسة تتفق مع خطابه السياسى بعد توليته الحكم، وشعار دولة العلم والإيمان الذى رفعه فى مواجهة الشيوعيين والناصريين، ورئاسته للمؤتمر الإسلامى من قبل، بل على العكس أرسل رسالة سرية له من خلال حافظ إسماعيل يستهجن فيها الدعم الأمريكى لإسرائيل «في لهجة حانية»، ثم دعاه لزيارة القاهرة للتوصل إلى ربط تسوية سياسية للحرب بتسوية عسكرية مما شجع كيسنجر على فرض شروطه.. فبعد أن خاطب «الأنا» عند السادات بامتداح العسكرية المصرية قال له «إنه بعد نهضة القوات الإسرائيلية من جديد (يشير إلى الثغرة) فإن الوقت لم يعد يسمح بمطالبة إسرائيل بالانسحاب إلى حدودها قبل حرب يونية ١٩٦٧، واشترط لزيارته القاهرة التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار» (ص ١٦٥).

ثم سمع كيسنجر من حافظ إسماعيل ما شجعه أكثر إذ قال حافظ

«نحن المصريون عرب ولا تنس ذلك أبدا. لكننا لسنا مثل أولئك العرب الآخرين» (ص ١٦٦)، كما سمع ومعه نيكسون من إسماعيل فهمي يوم ١٩ أكتوبر «إن السادات ليس متحمسا فقط لتحسين العلاقات مع أمريكا بل مع إسرائيل أيضا.. وأن السادات لا يربط تحسين العلاقات مع إسرائيل بحل المشكلة الفلسطينية، وكانت هذه أول مرة تسمع فيها الإدارة الأمريكية مثل هذا الكلام (ص ٢٦٩).

وعندما وصل كيسنجر إلى القاهرة والتقى بالسادات في يوم ٧ نوفمبر بعد زيارة خاطفة لكل من المغرب وتونس وضع أمام السادات ست نقاط لبدء التسوية لم يعترض السادات على أحدها ومنها قيام إسرائيل بمراجعة المواد غير العسكرية التي ترسل للجيش الثالث حتى تطمئن على أنها لا تحمل سلاحا على حين أن إسرائيل وافقت على هذه النقاط في يوم ١١ نوفمبر بعد جدل طويل وتعنت (ص ٢٧٠). وكانت جولدا مائير في زيارتها لواشنطون (٣١ أكتوبر) قد طلبت عدم إرسال أية امدادات للجيش الثالث، كما رفضت أية اقتراحات بانسحاب إسرائيل إلى خطوط وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر لأنها كانت قد تجاوزتها في جنح الليل.



وفي لهجة ساخرة يقول المؤلف أن السادات هو الرجل الوحيد الذي حقق أهدافه من الحرب ولو أن التكاليف كانت كبيرة ومخاطرها أكبر لأنه سعى من البداية إلى حرب محدودة تمكنه من عبور القناة والاحتفاظ بقطاع محدود من الأرض ثم يدعو القوتين الأعظم بعد ذلك لإرغام إسرائيل على الدخول في مفاوضات. وفي هذا نقل المؤلف عن جولدا مائير قولها: إن السادات بطل بالفعل «لأنه جرؤ على أن يبدأ الحرب بوسائل محدودة وأهداف محدودة، وإن كان قد نجح في إحباط المخابرات الإسرائيلية طويلا (ص ٢٧٣).

لكن السادات من وجهة نظر أمريكا كما يذهب المؤلف «.. الرجل الذي أخرج مصر من فلك السوفييت ووضعها تحت جناح أمريكا» (ص ٢٧٤). ■

الأديان
على الإنترنت!

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إن المعلومات قبل عصر المعلومات، كانت متاحة فقط بين المهنيين والمحترفين أو المتخصصين، وكانت شبه مغلقة عليهم، وتحديدا كانت المعلومات تصل لطبقات اجتماعية معينة ولروابط المهنيين وأعضاء بعض المنظمات، بهذا المعنى، فإن الحدود الجغرافية والاجتماعية للمعلومات تحطمت بشكل كبير! فالمعلومات قبل عصر المعلومات كانت محصورة فقط في عضوية محدودة لبعض المجموعات المغلقة، الآن الموقف اختلف حيث زادت فرص الحصول على المعلومات بوسائل مختلفة بين الغرباء عن تلك المجموعات المغلقة، وهذا الإتجاه مرئى فى الحقول الأكاديمية، والصحافة، وأنشطة المشروعات، وحتى الأسرار الدينية والوطنية اصبحت متاحة للجميع، وعالم الإنترنت الجديد، سيعجل هذا الاتجاه، وتقتضى تلك التغييرات إعادة النظر فى مفاهيم الجماعات والمؤسسات والتنظيمات، حيث ستجبر الجماعات والتنظيمات الدينية والعقائدية على التكيف مع تلك التغييرات.



ولوحظ أيضا تغيرات في محتويات المعلومات والاتصالات، فمع تطور الوسائل الجديدة لتبادل المعلومات، وتأسيس الشبكات التي تختلف عن الشبكات الاجتماعية التقليدية، تميل طبيعة المعلومات المتبادلة لان تكون أكثر تنوعا، وهي حبلى بإمكانيات وطاقات التغيير، لدرجة إمكانية تغير ترتيب الناس وتصنيفاتهم فيما يتعلق بمعارفهم ، على سبيل المثال، من المحتمل رؤية اعداد متزايدة من الناس، يمتلكون معرفة اختصاصية متقدمة أكثر من الخبراء المحترفين في الحقل نفسه .

وفيما يتعلق بالدين، أصبح ممكناً لهؤلاء الذين لم يتدربوا ولم يؤهلوا كمحترفين في الشئون الدينية أن يمتلكوا بسهولة معرفة دينية وفيرة أكثر من الكهنة والرهبان، أو القساوسة، والشيوخ والوعاظ، والحاخمات! ويمكن ان نسمي هذه الظاهرة مؤقتا بـ (التخصصات الثقافية المتغيرة) ، بمعنى أنه أصبح من السهولة تغيير التخصص والاهتمامات بين المفكرين والمثقفين والأكاديميين .

وكاتب المقال يزعم انه واحد من الذين مرورا بهذا التحول التخصصي في عصر المعلومات! فرغم ان تخصصه واهتمامه الأكاديمي في اجتماعيات التنمية الريفية، وبالأخص في التغيير المعلوماتي والمعرفي للريفيين، الا انه حدث تحول في الاهتمامات، أثناء الدراسة والتدريس والبحث في مجال تأثيرات التكنولوجيا على النسق الاجتماعي الريفي بداية من المحراث البلدي حتى الإنترنت.

واصبح مهتما أكثر بالتأثيرات السياسية والاجتماعية لثورة المعلومات، وخاصة بالفرع العلمي الجديد الذي بدأ ينمو، وموضوعه الأساسي التغير الاجتماعي الناشيء نتيجة تطبيقات وممارسات تكنولوجيات المعلومات والاتصال Social Informatics (Si) ، وهذا الاتجاه في التحول التخصصي للمثقفين والمفكرين سيزيد في المستقبل!.

ولمناقشة تأثير تكنولوجيات المعلومات على الأديان والعقائد في العالم، كان لابد من تقديم صورة إحصائية وجغرافية عامة للأديان والعقائد حول العالم في عصر المعلومات، واعتمدنا في ذلك على التسهيلات التي قدمتها تكنولوجيا المعلومات نفسها، وفي إطار التحول التخصصي الذي تكلمنا عنه، نجد مجموعة من المثقفين والمفكرين أنشأوا على الإنترنت قاعدة بيانات ضخمة حول الأديان والعقائد في العالم، وخصصوا لها موقعا فريدا في الإنترنت يسمى موقع التابعين Adherents.Com، وازعم انه موقع رئيسي على الإنترنت لكافة المعلومات عن أديان وعقائد البشر، وهو قاعدة بيانات إحصائية وجغرافية، اقام هذا الموقع بريستون هنتر وهو حاصل على درجة البكالوريوس في علم الأحياء البيولوجي ، مع تخصص فرعي في علم اللسانيات أو اللغة، ويكمل الآن درجة البكالوريوس في علم الكمبيوتر! ويعمل مبرمج كمبيوتر في تكساس ، ويستلزم عمله إنشاء برامج لقواعد بيانات ابحاث الطب الأحيائي والوراثي، واشترك قبل ذلك في تطوير بعض برامج قواعد البيانات مع شركة مايكروسوفت، وأرجو من القاريء أن يتأمل معي الخلفية المعرفية في نوعية تعليم هذا الباحث، الذي يقول عن موقعه الثمين، انه

مشروع مستقل تماما عن أى انتماء أو تدعيم لهيئة دينية أو سياسية أو تجارية، أو حتى أكاديمية . ولكنه اعتمد على جهود ومساهمات فردية من باحثين أكاديميين ، واساتذة جامعات في الاجتماع والتاريخ، والأديان المقارنة، وممثلون للأديان والعقائد المختلفة المنتشرة في العالم والكل ساهم وأعطى من مساحة خبرته.

عقائد البشر

وموقع الأتباع هو قاعدة بيانات لمجموعة متنامية من الإحصائيات عن الأديان والعقائد حول العالم، جمع فيها أكثر من ٤٢ ألف إحصائية موثقة ومؤيدة باستشهادات جغرافية ومراجع منشورة، وصحف ودوريات أكاديمية، ومواقع ويب، لما يزيد علي اربعة آلاف ومائتي ديانة وعقيدة ما بين كنائس، وطوائف وملل وفرق وشيع ومجالس وهيئات دينية، ومذاهب، وعشائر، وثقافات وجماعات وحركات دينية .. الخ.. مع الحرص على تحديث تلك الإحصائيات بصورة دورية. وهذا الموقع يخدم أساسا الباحثين عن اسئلة مثل: كم عدد المسلمين أو اليهود في منطقة ما مثلا؟! أو ما هي الديانات الرئيسية في نيجيريا؟ أو ما هى نسبة اتباع البوذية في العالم، وخدمات قاعدة البيانات موجهة إلى الطلبة، والباحثين والصحفيين والمفكرين أو أى شخص أخر يريد معلومات إحصائية عن حجم وانتشار دين أو عقيدة معينة، أو يأخذ فكرة عامة عن تركيبة ديانات دولة او اقليم او قارة معينة، ويقدم الموقع الاجابة موثقة بإحصائيات رسمية حكومية، ونتائج مسوح علمية، وتقارير المؤسسات والهيئات الدينية المختلفة، بالإضافة إلى استشهادات ثانوية من علوم مختلفة، وجاء هذا الموقع في الترتيب، الثاني على مستوى الإنترنت، كأكثر المواقع الدينية زيارة من قبل مستعملى الانترنت في العالم.

لكن السؤال لماذا قاعدة بيانات إحصائية وجغرافية عن الأديان والعقائد حول العالم؟ لأن الاهتمام بالأديان المقارنة خاصة من منظور سيسولوجي، يشغل دائما اهتمام الناس، وتحديدا المثقفين والمفكرين في فترة من اعمارهم ، وان لم يكن يشغلهم طوال الوقت، فتحاول قاعدة البيانات أن تقدم صورة كاملة المعالم الإحصائية المتماسكة عن أديان وعقائد العالم، ولوحظ من جميع المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها قاعدة البيانات ان الديانات والعقائد الرئيسية في العالم هي عشر كيانات: المسيحية، الإسلام، الهندوسية، البوذية، السيخية، اليهودية، عبادة القوى الطبيعية، الكونفوشيوسية، الطاوية، اليانية، والزرادشتية والغريب ان عدد التابعين لبعض هذه الديانات العالمية اصغر بكثير من بعض الكنائس الفردية او بعض طوائف المسلمين الصغيرة ! كما سيتضح في بقية المقال، وان كان عدد التابعين لكل ديانة ليس هو الفيصل في الحكم عليها. ولا نستطيع ذلك لأننا هنا نتكلم عن الدين كظاهرة اجتماعية، وليس عن الدين نفسه! وتؤكد قاعدة البيانات حرصها على مراعاة الأسس العلمية من موضوعية وحياد.. وتلفت الانتباه بأن الاستشهادات والاقتباسات، والإشارات المتوفرة والمتاحة، والتى اعتمدت عليها القاعدة من المصادر والمراجع المختلفة، كانت بغرض محدد هو تبيان اعداد التابعين لكل عقيدة، ومجالس اجتماعاتهم وبلادهم وليس بأى غرض آخر للتأويل والتفسير، ومن يريد ان يعرف طبيعة كل عقيدة، ويمارس التأويل والتفسير والمقارنة، لن تستطيع هذه القاعدة ان تساعده، وعليه الاستعانة بمواقع وروابط تلك العقائد على الإنترنت، أو من مراجع وكتب كل عقيدة، وتؤكد قاعدة البيانات انها لم تقصد ابدا

ان تكون مصدرا للمعلومات حول طبيعة وخصائص كل عقيدة، بل هي مصدر فقط لأعداد التابعين ومجالسهم وهيئاتهم ومؤسساتهم، وطوائفهم وبلادهم، وتعترف ان تعدد المصادر التى تعتمد عليها قد يعطى معلومات مختلفة أو حتى متناقضة، فهدف تلك القاعدة ليس فرض أى تفسير أو تأويل ، بل فلترة تلك المعلومات المتوفرة وتصفيتها اعتمادا على استشهادات تخدم الاهداف المعلنة لقاعدة البيانات، فوضعت الاف الاحصائيات التى زودت بها القاعدة جنبا إلى جنب، حتى يصل الباحثون الى نتائجهم، مع حرصهم فى توثيق نتائجهم بكافة الاشارات إلى مصادرها الأصلية، ومراجعها.

واحصائيات قاعدة البيانات هذه ليست كلها متشابهة في الدقة! فمثلا عندما نقول ان ٥٠٪ من سكان بلد أوربي كاثوليك، قد يعنى شيئا مختلف تماما عن القول ان ٥٠٪ من سكان بلد افريقى مسلمون، فهذه الاحصائيات الموثقة رسميا، معروضة بشكل مبسط من اجل سهولة القراءة، ولا يعنى ايضا الدلالة على ان البيانات جمعت من مصادر مختلفة، وان الاستشهادات أو الاقتباسات متشابهة الدقة.. وحرصت قاعدة البيانات على تدعيم الاحصائيات بكل المواد المساعدة لتجعلها واضحة، سواء كانت من الدراسات المسحية، أو التعداد السكاني، والتقارير الرسمية للتنظيمات المختلفة، أو أى مصادر اخرى، لأن معرفة مصادر الاحصاءات ، علاوة على انه يعطى معرفة إضافية خاصة للمجموعات الدينية والاقليمية والثقافية، فهو ضرورة للفهم المناسب للمضامين الاجتماعية لتلك البيانات، ورغم القائمة الطويلة للأديان والعقائد المرصودة فى القاعدة ، إلا انها لم تتضمن كل العقائد والكنائس والفلسفات والحركات الدينية الصغيرة الحجم، حيث صعوبة الحصول على بيانات عنها، ومن ناحية أخرى فهى تعتبر كيانات دينية غير منظمة، وإذا كان بعض علماء الاجتماع يعرفون الدين بأنه نظام او نسق عقائدى يتشارك فيه مجموعة من الأفراد، فإن قاعدة البيانات تمتلك آلاف التصنيفات الواسعة مثل الديانات، والفرق، والملل، والشيع، والكنائس.. الخ.. وتؤكد قاعدة البيانات بأنها لا تمتلك سياسة سرية، وتجمع معلومات عن مستخدمى تلك القاعدة، بأن تترك على اجهزتهم بعض الملفات التى تستطيع منها معرفة بيانات مستخدمى القاعدة، أو ما إلى ذلك، ولا تقبل إعلانات ودعاية، ولا تبيع المعلومات! وكل المداخلات والمناظرات التى وصلت الموقع، عوملت وعولجت بسرية تامة، والرسائل الاليكترونية التى تصل الموقع لا تستخدم أو توظف لأى غرض مهما كان الأمر، بدون إذن أصحابها.

فيض من الدراسات الإسلامية

والقاعدة مربوطة بمئات مواقع الإنترنت الخاصة بكل دين وعقيدة، علاوة على ارتباط القاعدة بالمكتبات العامة، ومواقع الويب التى ترعاها افرع ومذاهب وشيع الديانات والعقائد سواء كانت مسيحية، إسلامية ، بوذية، يهودية، الخ.. ومرتبطة ايضا باقسام الاجتماع، والتاريخ، واللاهوت، والإسلام فى جامعات عديدة فى العالم الغربى .. والعديد من المعاهد اللاهوتية، ولوحظ أنها غير مرتبطة بأى مواقع لجامعات أو معاهد أو مؤسسات أكاديمية إسلامية فى المنطقة العربية والإسلامية الكلاسيكية! ونذكر القارئ إن الإنترنت تكثر فيها المواقع الجادة عن الإسلام، التى يغلب عليها الصفة الأكاديمية، وهى تصدر عن جامعات مثل اكسفورد، وبيركلى، وكورنيل وغيرها من الجامعات العالمية، وتتكلم لغات العالم المختلفة أغلبها الانجليزية، وهى غنية جدا بالكتب والدراسات الإسلامية، وفيض ضخم

من المعلومات الأكاديمية عن الإسلام، فهل يعرف دارسونا في الإسلاميات تلك المواقع فهي تحت أيديهم، هل يملكون المهارات التكنولوجية واللغوية في الدخول إلى تلك المواقع ونقد وتفنيد تلك الدراسات؟! مثل موقع جامعة كورنيل، وتحت عنوان الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية يوصلك إلى روابط اتصالية لمعظم المواقع الإسلامية في العالم ، ومنه مثلاً موقع الدراسات الدولية بجامعة كاليفورنيا بيركلي، تجد فيه سيولاً من عناوين الكتب والمراجع، بعضها محتاج إذن دخول، والآخر متاح لكل واحد، وفيها تقرأ أسماء كثيرة لمؤلفين ومفكرين في الإسلاميات لم نسمع عنهم شيئاً في المنطقة العربية.

مصادر قاعدة البيانات

وكانت ٦٥٪ من الاستشهادات التي اعتمدت عليها القاعدة من الكتب، وتحديدا من الكتب الخاصة بكل ديانة، والأطالس، والموسوعات، والكتب الرسمية التي تحتوي على سجلات التعداد السكاني، وكتب التاريخ، والمراجع الجغرافية، والدراسات الأنثروبولوجية العلمية، والمجلات الدورية، من الجرائد والمجلات والصحف الأكاديمية، ومواقع الإنترنت التي احتوت على الإحصاءات، والرسائل والمناظرات بين العقائد المختلفة، والمنشورة في الإنترنت والكتب والمجلات وغيرها من المطبوعات.

وإذا سئلت قاعدة البيانات، كم عدد الأديان والعقائد في العالم؟ تظهر الإجابة المباشرة والسريعة تقول: طبقا للموسوعة المسيحية العالمية باريت طبعة ٢٠٠١، يوجد في العالم (١٠٠٠٠) عشرة آلاف دين متميز، منها ١٥٠ ديانة فقط عدد المؤمنين بها مليون فرد فأكثر، أما بقية الأديان فعدد تابعيها أقل من المليون! وتوجد ضمن المسيحية كديانة واحدة (٣٣٨٣٠) طائفة مختلفة، وهي تتضمن أكبر الطوائف مثل الكاثوليكية إلى أصغر الطوائف مثل Shakers! وأغلب هذه الديانات انحصرت في إقليم جغرافي معين، وفي مجموعة عرقية محددة! وبدراسة صفحات الويب على الإنترنت يمكن تمييز ٢٢ ديانة عالمية فقط، لأنها تتضمن الديانات التي لها وجود وحضور وأغلبية في الدولة الواحدة.

أما الإجابة المفصلة، فهي تنوه في البداية أن إجابة سؤال مثل كم عدد الأديان والعقائد في العالم؟ تعتمد على طريقة حسابنا للديانات! فالناس دائما تعني أشياء ومعاني مختلفة لما تقصده بمصطلح الدين! فهل تعني الملل والشيع والطوائف الفردية والمجالس أو المذاهب الدينية. أو الناس تقصد الأديان الواسعة الانتشار الكبيرة من حيث حجم التابعين مثل البوذية كدين أول والهندوسية دين ثان، أو الأديان السماوية مثل المسيحية والإسلام واليهودية، ويفيد هنا الوثائق الخاصة بكل جماعة عقائدية، فهي التي تصنف الدين والطائفة والفرع تصنيفاً تقنياً! لكن الناس لا يستخدمون دائما مصطلح الدين بحس تصنيفي. وهناك أيضا تعريفات غير محدودة لكلمة دين religion ، فهل في حساب وإحصاء الأديان، نحسب فقط المجموعات التي تدعي وتطالب إنها أديان؟ أو تضيف لها الجماعات التي صنفها وميزها علماء دينيين كأديان؟ وهل تتضمن كل الجماعات التي صنفها علماء الاجتماع كأديان، أو أديان مزيفة وهمية؟ مثل جماعات حقوق الحيوان، وجماعات النجوم، والشيوعية، والإنسانية.. الخ، وهناك جماعات عقائدية يصر قادتها على انها فلسفة حياة أو حركة، هذا كله غير مفيد للمسح الاحصائي وهو هدف القاعدة التي رصدت وحصرت وحسبت ٤٢٠٠ ديانة وعقيدة، ما بين كنائس ، وطوائف ، وملل، وفرق، وشيع ، ومجالس وهيئات دينية، ومذاهب ، وعشائر، وثقافات، وحركات دينية،

ونحل وفلسفات.... الخ. واتبعت قاعدة البيانات عدة طرق رئيسية في جمع أعداد التابعين لكل عقيدة، منها تقارير التنظيمات الدينية، وسجلات الإحصاء السكانية. وعندما قورنت إحصائيات المصادر المختلفة، والإحصائيات القادمة من الجماعات العقائدية نفسها، تظهر مفارقات، ترجع أن كل ديانة سواء كانت ديانة تقليدية أو أحزاب ومذاهب دينية، لها مستويات في تصنيف المؤمنين بها والتابعين لها، فلا يوجد تعريف واحد متفق عليه لمن هو المؤمن أو التابع لديانة وعقيدة معينة، والإحصائيات لا تجعل الأمر واضحا دائما، ويجب أن نكون حذرين عند عمل مقارنات.

وأخذت القاعدة بالتعريف الواسع، وهو ما يدعيه الشخص انه مؤمن به، وهو نفس تعريف الأمم المتحدة للتابع أو نصير عقيدة معينة adherent ، ولا ننكر أن هناك عوامل أخرى مهمة مثل مدى المواظبة على الطقوس والشعائر والممارسات والاجتماعات الدينية، والعضوية في المؤسسات الدينية، ولكنها عوامل تهم علماء الاجتماع والقيادات الدينية لقياس مدى التدين، ولا تستعمل أكاديميا لتعريف عضوية شخص في دين معين. وقد استعمل التقرير الذاتي كتعريف للتابع في الموسوعات الدينية العالمية، والمسوح والاحصائيات الرسمية، فالتقرير الذاتي بالتابعية لدين معين، هي الطريقة التي استعملت في كل استطلاعات الرأي الوطنية والعالمية، وفي العديد من المجموعات الدينية. ويوجد تناقض بين الأرقام المخبر عنها وأرقام التعريف الذاتية، وهناك الكثير من المفارقات الاحصائية في حساب عدد التابعين لكل ديانة، وتحسبا لكل ذلك اعتمدت القاعدة في الحساب على كل الطرق مجتمعة في تعريف التابع (المنتمين بالعضوية لمؤسسات دينية، التعريف الذاتي بالهوية الدينية، العضوية والانتماء لمجتمع معين، المشاركة في الأنشطة الدينية الخ).



الإيمان بالله

ويتضح من إحصائيات قاعدة البيانات عن الأديان، أن حوالى ٨٢ - ٩٠٪ من سكان العالم يؤمنون بوجود الله. وفي استطلاعات لمؤسسات قياس الرأي العام الموثوق فيها مثل جالوب، وهاريس، ومراكز اخرى، قاموا بمسح من ١١٢ ألف أمريكي، تبين أن حوالى ٩٢ - ٩٧٪ يؤمنون بالله.

في الموسوعة البريطانية، وبقية المراجع التي اعتمدت عليها القاعدة تبين من التحليل الداخلي لاحصائياتها في مجال الانتساب الديني، انه يمكن القول أن حوالى ١٦٪ فقط من سكان العالم يصنفوا في فئات الملحدين، بلا ديانة. ولوحظ أن الناس الذين اقروا انهم بلا ديانة، مختلفين عن الملحدين الذين لا يؤمنون بالله، فالذين بلا ديانة يؤمنون بالله، ولا يعتبرون أنفسهم منتمين لدين معين، بشكل فلسفي أو ثقافي، وعندهم شكل شخصي من الروحانية، أو يعتبرون الانتساب لدين معين غير ضروري، وهناك تقديرات مختلفة عالمية تقول ما بين ٨٥٪-٩٥٪ من الناس في العالم يؤمنون بالله، أو بقوة عليا تسير الكون! وقاعدة البيانات وهي تركز أوليا على بيانات الانتساب الديني والعشائري، رصدت أن الاعتقاد في الله أو قوة أعلى، ليس بالضرورة، يقابله انتساب لمجموعة دينية معينة! وتظهر المسوح ان اقل الأماكن إيمانا بوجود الله أو قوة عليا هي أوروبا بالاختيار! والدول الشيوعية السابقة بالقوة! وظهر أن كوبا وفيتنام، كلاهما يملك درجة أكبر من التدين والتمسك بالروحانيات والاعتقاد في وجود الله، بالمقارنة بالدول المحيطة، حتى وهي مازالت تحت السيطرة

الشيوعية! حتى في الصين، المسيحيون هناك رغم انهم أقلية من المحتمل أقل من ٤٪ من السكان، لكنهم الأكثر إيمانا فى العالم! وهناك مقاطعات كاملة فى شرق البلاد الصينية مسلمة بالكامل! والمسوح فى الولايات المتّحدة تظهر بثبات إن حوالى ٩٢٪ إلى ٩٥٪ من السكان يظهرون اعتقادا فى الله، ويوجد فى العالم أكثر من ١ بليون مسلم، واكثر من ٢ بليون مسيحى، وكلهم مؤمنون بالله، وأكثر من ٧٥٠ مليون هندوسى، و٢٠ مليون من السيخ، و١٥ مليون يهودى، كلهم يؤمنون بوجود الله، أو قوة عليا!

الدين الأسرع انتشارا في العالم

والناس يسألون فى أغلب الأحوال ما هو الدين الأسرع انتشارا فى العالم؟ وهو سؤال يتكرر طرحه، وتساءل الناس عن معدلات نمو الأديان! وقد يبدو غريبا وشاذا أن قاعدة بيانات بهذا الحجم والشمول، والتى جمعت عشرات الآلاف من الاحصائيات عن أديان وعقائد العالم، لا تخزن معلومات حول معدلات نمو الأديان! ولكن التفسير، أن تلك القاعدة اعتمدت فى عرض نتائجها على الإحصائيات المتماسكة الموثوق فيها، وعرضت معدلات النمو فى النصوص المرافقة لتلك الاحصائيات، وهى الهدف الرئيسى للقاعدة، بدون تقرير أى تأويلات وتفسيرات بالدين الأسرع انتشارا والاكبر حجما! وبالاضافة لاختلاف مصادر البيانات، وبالتالى اختلاف شروط وأطر جمع البيانات فى كل مصدر، واختلاف المعايير فى كل دين عند حساب اعداد تابعيه، علاوة على اختلاف المضامين الاجتماعية للعضوية والانتساب الدينى فى المناطق والثقافات المختلفة، كل ذلك يصعب الإجابة على سؤال ما هو الدين الأسرع انتشارا فى العالم؟! وأيضا يصعب الجزم بالدين الذى ينتسب إليه أكبر عدد من التابعين! لكن عندما نناقش معدلات الأديان، هنا يدخل فى الاعتبار الكثير من المتغيرات ذات العلاقة! لأن مقارنة معدلات نمو الأديان من مصادر بيانات مختلفة تصبح بلا معنى، فالقول إن هذا الدين معدل نموه ١٥٪، وذلك الدين معدل نموه ٢٠ ٪ . مقارنة فى حقيقتها لاتحمل أى معنى مطلقا، مالم نعرف البارمترات والثوابت التى حسبت عليها كل نسبة، فيجب معرفة: ماهى المنطقة الجغرافية، هل العالم كله؟ أم دولة، مدينة، إقليم، منطقة، تجمع...الخ، ما هى السنوات التى استعملت كمؤشرات نهائية لحساب معدل النمو والمقارنة، فمعدل النمو ممكن حسابه من التغيير فى عدد السكان فى سنتين مختلفتين، أو معدل تراكمى من التغييرات التى حدثت على مدى سنوات . ويجب وصف أى نوع من النمو . هل معدل نمو أعلى نتيجة زيادة المواليد فى ديانة معينة مثلا؟ أو زيادة فى مؤشرات التدين؟ وهل زيادة عدد معين من التابعين فى ديانة صغيرة الحجم ستعطى معدل نمو أكبر بالمقارنة بديانة كبيرة الحجم ؟ هل نحسب النمو فى كل طائفة داخل الدين الواحد؟ هل نقارن معدلات نمو انتزعت من دراسات مختلفة؟ هل نقارن أديانا كبيرة جدا مثل المسيحية والإسلام . الذى يشكل ما بين ثلث أو سدس سكان العالم . بالأديان الصغيرة جدا . مثل اليانية، زرادشتية أو وثنية جديدة، الذى يمتلك فقط بضعة ملايين أو مئات آلاف من الأتباع . مثل هذه المقارنة قد تقود إلى معدل نمو سريع لديانة مثل لويكانس، ونمو درجته صفر كنسبة مئوية المسيحية! لكن الرقمين المجردين لا يحملان معلومات ذات مغزى دقيق! صعوبات كبيرة فى حساب مقارنات ومعدلات نمو وانتشار الأديان، لأن كل طرف يتصور انه يمتلك الحقيقة المطلقة، ويتصور أن الله خصه

وحـده بالدين الحق ، ويجب أن يكون الدين الاسـرع انتشـارا ونموا فى العالم! وكل مـا يمكن إقراره أن هناك مجموعة من الأديان والعـقـائد أسـرع انتشـارا ، وتزايدا على مستوى العالم، مثل الإسلام، وبعض طوائف المسيحية، ونشطاء حقوق حيوان ، المذهب البهاني، الهندوسية، أنصار البيئة، يهود هاسيديك لوبافيتتشير Lubavitcher Hasidic، سوكا غاكي ، الويكا Wicca، بوذية زين Zen Buddhism .

ترتيب الأديان وفقا لعدد التابعين

نعلم أن المليـون يعنى ألف ألف ، أمـا البليـون يعنى مليـون مليـون (10^{12}) فى النظام الإنجليـزى وبعض دول أوروبا مـثل ألمانيـا، أو ألف مليـون ، أو مليـار كـمـا فى فرنسا والولايات المتحدة 10^{9} . ونؤكد ثانيا أن المليـار هو البليـون أى ألف مليـون فى فـرنسـا ، وفى الولايات المتـحـدة. وقـاعـدة البـيـانات هنا تسـتـخـدم مـصطلح البليون بالمعنى الفرنسي والامريكي، يعنى المليار ، أى ألف مليون .

فى آخر تعديل، فى ٦ سبتمبر عام ٢٠٠٢، أى منذ عدة شهور ، حددت قاعدة البـيـانات Adherents.com ، الأديان والعقائد الرئيسية فى العالم تبنتها تلك التى لا يقل عـدد المؤمنين بهـا عن ١٥٠ ألفـا ، وتكون ديانة مستقلة، ووفقا لهذاالتعريف ظهرت ٢٢ ديانة رئيسية، تم ترتيبها وفقا لعدد التابعين لها كالتالى على الترتيب: فى المرتبة الأولى جاءت المسيحية (٢ بليون تابع) ، ثم الإسـلام (١.٣ بليـون) ، وفى الترتيب الثالث ظهرت الهندوسيـة (٩٠٠ مليون) وهى ديانة يعتنقها أهل الهند، وقد تشكلت عبر مـسـيرة طويلة من القـرن الخـامس عشـر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر، وفى المرتبة الرابعة ظهرت مجموعة تتضمن فئات العلمانية وبلا ديانة ولا يدرون والملـحـدين (ecular/Nonreligious/ Atheist / Agnostic وهـم (٨٥٠ مليـونا)، ثم البـوذية (٣٦٠ مليـونا)، وهى ديانة ظهرت فى الهند بعد الديانة البرهمية فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وفى المرتبة السادسة جاء الدين التقليدى الصينى (٢٢٥ مليونا)، مثل الكونفوشيوسية وغيرها، ثم مجموعة أديان محلية بدائية (١٥٠ مليونا) فى المرتبة السابعة، وفى الترتيب الثامن كانت الأديان التقليدية الأفريقية ودياسبوريك Diasporic (٩٥ مليونا)، وظهرت ديانة السيخية فى الترتيب التاسع، حيث بلغ عدد تابيعها (٢٣ مليونا) وهى مجموعة دينية من الهنود ، الذين ظهـروا فى نهـاية القـرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى داعين إلى دين جديد فيه شئ من الديانتين الإسلامية والهندوسية تحت شعار (لا هندوس ولا مـسلمين)، وفى التـرتيب العـاشـر كـانت ديانة جـوتش Juche (١٩ مليون تابع)، وهى العقيدة المصدقة الوحيدة من حكومة كوريا الشمـالية، وتعتمد على اللغـة الكورية، وبعض الكتـاب يصنفـون الجوتش كشكل كورى شمالى من الشيوعية الماركسية. أما الترتيب الحادى عشر احتلته الأرواحية Spiritism (١٤ مليونا)، وتدعى استحضار أرواح الموتى بأساليب علمية ظهـرت فى بداية هذه القـرن فى أمريكا. واحتلت اليهودية (١٤ مليونا) الترتيب الثانى عشـر، وفى الترتيب الثـالث عشر ظهرت البهائية، التى بلغ عدد تابعيها (٦ ملايين)، ٩٨٪ منهم اتبـاع بابى والمذهب البـهـائى، ويعـودان إلى نفس الكنيـسـة أو الطائفـة بمقرها فى حيفا، وجاءت البانية Jainism (٤ مـلايين) فى المرتبـة الرابعـة عـشـرة، وأحيانا تنطق الجانييه وهى ديانة منشقة من الهندوسية، هذا الدين تقريبا ينحصر كليا فى الهند، وفى التـرتيب الخـامس عـشـر ظهـرت ديانة الشنتو Shinto (٤ مـلايين)

وهى ديانة أهلية فى اليابان، فحوالى ٧٥ إلى ٩٠٪ من السكان فى اليابان يؤمنون بها، والمرتبة السادسة عشرة احتلتها ديانة كاو دى Cao Dai (٣ ملايين) وهى حركة فيتنامية، ثم جاءت ديانة تينريكيو Ten-rikyo (٢,٤ مليون) فى الترتيب السابع عشر، وهى أكثر المجالس الدينية النشيطة فى اليابان المعاصرة. وله أنصار فى جميع أنحاء العالم خارج اليابان ، مثل الولايات المتحدة (خصوصا هاواى). كوريا الجنوبية ، البرازيل، وتايوان ، وفى الترتيب الثامن عشر ظهرت الوثنية الجديدة Neo-Paganism (مليون تابع فقط) ، وهى مصطلح عام للعديد من الأديان المتباينة التى تؤمن بالسحر والأساطير، وفى الترتيب التاسع عشر كانت فئة الموحدين وخلاصيين (طائفة مسيحية) Unitarian - Uni-versalism (٨٠٠ ألف)، وجاءت ديانة راستافاريانيسم Rastafarianism (٧٠٠ ألف) فى المرتبة العشرين، وهى طائفة دينية فى جاميكا وبعض الدول الأفريقية، وفى الترتيب الحادى والعشرين جاءت العلموية Scientology (٦٠٠ ألف) وهى كنيسة مسيحية منتشرة فى ١٢٩ بلدا، وأخيرا فى الترتيب الثانى والعشرين كانت الزرادشتية Zoroastrianism (١٥٠ ألفا) ، وهو الدين الذى كان منتشرا فى إيران (الفرس) قبل الإسلام، ومازال موجودا فى بعض المناطق القليلة جدا والمعزولة هناك وانتقل مع المهاجرين إلى الهند .

والقائمة السابقة تمثل ديانة ٩٨٪ من سكان العالم ، ولا تمثل شاملة لكل أديان العالم ، ولكنها تعرض الأديان والعقائد «الرئيسية» فقط! وهى مشتقة من بيانات الإحصائيات ، بالتشاور مع أساتذة الجامعات فى الأديان المقارنة ، والباحثين الأكاديميين ، وعلماء الأديان المختلفة .

أديان وعقائد لا تذكر

وتوجد مجموعة من الأديان لم تضمها هذه القائمة لسبب أو أكثر، فهى ليست ديانة مستقلة ولكنها فرع من ديانة أوسع، أو تفتقر إلى التابعين خارج الوطن الأم . وعددهم صغير جدا أصغر من الزرادشتية، وهذه الأديان مثل : الماندينس Man-deans ، وجماعة بى إل كيودان PL Kyodan ، وديانة تشعوندوجيو Ch'ondogyo، وهناك أيضا ديانة ونبولجيو Wonbulgyo ، وجماعة فودون Vodoun ، ودين العصر الجديد New Age، ومنظمة سيتشو لا إى Seicho-No-Ie وحركة فالون دافا/ فالون كونج Falum Dafa/Falun Gong ، وهناك ديانة التاويسم Taoism ، وهناك أيضا الكونفوشيوسية Confucianism وهى الدين التقليدى الصينى، وجماعة روما Roma، وأخيرا هناك جماعة حقوق الحيوان Animal Rights.

أكبر الفروع الدينية فى العالم

وتضم قاعدة البيانات تفاصيل كثيرة عن أفرع وطوائف وفروع ومذاهب داخل كل ديانة وعقيدة، لا يتسع هذا المقال التمهيدى لها، لكن يهمنا منها أن نتعرف على أكبر الفروع عددا فى كل ديانة، وهى ٤٢ فرعا مرتبة على مستوى العالم وفقا لعدد التابعين، ولظروف مساحة المقال نستعرض أكبر عشر فروع دينية فى العالم فى ترتيب تنازلى وفقا لآخر تعديل إحصائى لقاعدة البيانات فى سبتمبر عام ٢٠٠٢. حيث بلغ عدد اتباع الكاثوليكية (المسيحية) ١,٠٣٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع، ثم أتباع المذهب السنى فى الإسلام (٩٤٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم اتباع قاعدة الفيشنافيتيس وهى



فرع من الهندوسية (٥٨٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم أتباع المذهب الأرثوذكسي/ مسيحي شرقي المسيحية (٢٤٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) ، وفي المرتبة الخامسة كان اتباع عقيدة الشيفيتيس في الهندوسية (٢٢٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم البروتستانتي المحافظ في المسيحية (٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) ، وفي الترتيب السابع جاء أتباع الماهيانا في البوذية (١٨٥,٠٠٠,٠٠٠) ثم البروتستانتي التحرري في المسيحية (١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) ، وفي الترتيب التاسع كان أتباع مذهب ثرافادا في البوذية (١٢٤,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم في الترتيب العاشر جاء اتباع الشيعة في الإسلام (١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) .

ومن الحقائق المثيرة حول الأديان والعقائد الأكبر في العالم يتضح أن المسلمين السنة والمسيحيين الكاثوليك يمثلان ٣٣٪ من سكان العالم (سكان العالم تجاوزا ٦,٥ بليون نسمة)، وأن حوالي ٤٧,٤٪ من سكان العالم يعتبرون من التابعين لمذاهب دينية وعقائدية لا يقل عدد تابعيها عن مليون تابع (أكثر من ١٢٠ مذهبا)، ويعني هذا أن النصف الآخر من سكان العالم تقريبا تابعين لمذاهب دينية صغيرة الحجم نسبيا ، وأن ٨,٥٪ من سكان العالم ينتمون لمذاهب دينية يتراوح عدد تابعيها بين المليون وأقل من خمسين مليون !

الأديان السائدة في دول العالم

في معظم دول العالم ينتشر بين سكانها دين واحد ، وفي أكثر بلدان العالم ، أغلبية سكانها (أكثر من ٥٠٪) عادة يتبعون نفس الدين . وفي معظم الأمم التي يشكل فيها المسيحيون الأغلبية ، نجد أغلبية السكان أتباعا لمذهب ديني واحد (مثل الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في اليونان ، الكنيسة الكاثوليكية في بولندا ، أوالكنيسة اللوثرية الإنجيلية في النرويج) ، وفي أغلب دول العالم الدين السائد فيها واحد من أكبر ديانتين في العالم المسيحية والإسلام ، وعدد الدول المسيحية أكبر ، فالإسلام منتشر في العالم كله ، لكنه يمثل ديانة أغلبية سكان ٤٥ دولة ، مع ملاحظة أن أغلبية السكان المسلمين الشيعة ، موجودين في إيران ، أذربيجان ، البحرين ، عمان والعراق ، والمسيحية بطوائفها وفروعها منتشرة في العالم كله ، لكنها تمثل ديانة أغلبية سكان ١٢٠ دولة في العالم ، والهندوسية تنتشر بين أغلبية سكان ٣ دول ، والبوذية تمثل غلبية سكان ١٠ دول ، والسيخية لا تكون الأغلبية من سكان أي أمم ، رغم أن عدد تابعيها حوالي ٢٣ مليونا ، يعني أكبر من اليهودية (حوالي ١٤ مليونا) ، ولكنها تمثل أغلبية سكان اقليم هندي واحد هو البنجاب، واليهود يمثلون أغلبية سكان دولة واحدة فقط هي إسرائيل (٨٣٪)! وعدد كبير من سكان اسرائيل يعتبرون من فئة بلا ديانة وملحدين ، واليهود المتدينون يمثلون أقلية في إسرائيل ، المثير للانتباه ، أن عدد اليهود الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية أكبر من عدد اليهود الذين يعيشون في اسرائيل ، ونسبة اليهود المتدينين هناك أكبر من مثيلتها في اسرائيل!

وقاعدة بيانات أديان وعقائد العالم Ad-herents.com فيها آلاف التفاصيل الإحصائية والجغرافية الدقيقة عن كل ديانة وعقيدة، لا يتسع هذا المقال ، لبعض ملامحها، لكننا اكتفينا بعجالة مختصرة وسريعة وعامة عن أديان وعقائد العالم في القرن الحادي والعشرين، وكانت مقدمة تمهيدية ، لابد منها لمناقشة مدى تأثير تكنولوجيات المعلومات ، وتحديدا الإنترنت على العقائد ، والتي سنتناولها في المقال المقبل . ■

بين العلم والدين

بقلم
د. التهامى محمد الوكيلى •

الدين وسيلة النجاة، والعلم وسيلة الدين
والتفكر وسيلة العلم، والبحث وسيلة التفكر

إن العلم من حيث كونه وسيلة الدين إلى إحقاق مطلب العبادة التى من أجلها خلق الحق عز وجل الثقلين «الجن والإنس»، هو العلم الذى يتصف بالوحدة والوحدانية شأنه فى ذلك شأن الدين والديان جلت قدرته وجل علمه، فالعلم إذن علم واحد جامع مانع، ويختص به كتاب الله العزيز الذى لم يفرط الله فيه من شئ مصداقا لقوله سبحانه وتعالى (.. ما فرطنا فى الكتاب من شئ ...).

وبالتالى فإن تعدد فروع العلم وشعبه ليس سوى عمل من فعل الإنسان الذى اختار منهاج التقسيم بهدف التخصص، ساعيا من وراء ذلك إلى التخفيف من وزن الحمولة المعرفية المراد صبها فى وعاء عقله. وقد أدى هذا التقسيم وذاك التخصص بالإنسان إلى فقدان النظرة الشاملة والمتكاملة إلى الأشياء والظواهر والمخلوقات، فصار كل عالم يرى جزءا من الحقيقة فيصعب عليه إصدار حكمه عليها من جانب واحد أو من جوانب دون أخرى. وهكذا فإن تعدد فروع العلم وتنوعها لايمسان بتاتا بوحدته وتناغمه وتكامله. وإن الإنسان فى سعيه المتعدد والمختلف باتجاه دروب العلم والمعرفة إنما يبحث بالتجربة وبالسبر والتمحيص وبالمقارنة والمقاربة عن نهايات الفروع، وكلما وجد إحداها أو بعضها ازداد اقتناعا بانتمائها على تعددها واختلافها إلى نفس اللحمة

• عضو رابطة علماء المغرب

العلمية الأصلية .

وإن منهاج التخصص الإنساني هذا هو الذي جعل تحقيق مطلب العلم الحق يحتاج إلى الجمع والتأليف بين جيش غير يسير من العلماء للنظر في الظاهرة الواحدة بقصد فهمها وتفسيرها وإدراك القانون المحكم لوجودها ولحركتها وسكونها، بينما كان هذا الأمر في الماضي في يد باحث واحد يجمع بين عدة شعب علمية في آن واحد، وهذا ما يجعل العالم الملم بعدة فروع من العلم أقرب إلى فهم تكوينه وتكوين ما حوله .

وحتى نفصل بين هذا العلم العزيز وأنماط أخرى يطلق الإنسان عليها اسم العلم بينما هي ليست كذلك، سوف نتطرق فيما يلي إلى نوعين من العلم متمايزين ومتباينين تمام التباين .

إن «العلم الحق» ونسميه هنا «علم العلم»، عندما يتأكد وجوده بدليل المعرفة بوجود ما يثبته، فإنه يخبر عن سر الحياة وسر الموت، ويفك رموز ومشكلات الحياة وشفراتها ببيان حقيقة الأشياء وليس واقع الأشياء فحسب، ذلك أن الحقيقة لا تغيير فيها . وما دام الإنسان يغير آراءه ونظرياته وكذلك القوانين التي يجعلها لنفسه بناء على الواقع، فإن ذلك دليل على عدم توفره على العلم، الذي لا ينطوي ولا ينحني أمام أي تعقيد أو إعجاز كما تفعل النظريات والفرضيات المبنية على ما يستنتج بالملاحظة والتجريب فحسب

ولو بحثنا فيما يدل على هذا العلم الشريف «علم العلم» في آيات القرآن الكريم، أي في تعاليم «الدين» الذي هو الأعرف بوسائله الأنجح، فإننا سنجد في كتاب الله أربعة أوصاف دالة على هذا العلم يمكن ذكرها فيما يلي :-

١ . يقول الحق جل جلاله (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .. الآية)

٢ . ويقول سبحانه وتعالى : (... كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم، الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ...).

٣ . ويقول جل وعلا : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم

٤ - ويقول وهو أصدق القائلين : (إنما يخشى الله من عباده العلماء). .

لقد أتينا بهذا الاستدلال من هذه الآيات الكريمة الأربع كسند لما نود اقتراحه لتحديد مفهوم العلم الحق، الذي سميناه «علم العلم» برغم كثرة الآيات الواصفة للعلم ووفرتها، ذلك أننا أحببنا أن نقف على حقيقة هذا العلم من خلال أربعة وجوه مقصودة :

الوجه الأول : يقضي بأن يكون العلم شاملا للأسماء كلها حتى تكون علما حقا . ذلك أن هذا الشرط هو الذي جعل توفره الملائكة يسجدون لآدم عن رضى واقتناع لما لهذا العلم من جلال ومن إحاطة والأسماء كلها لا يمكن أن تعني بحكم لفظ الكلية إلا جميع المخلوقات بأسمائها أي بالمعارف المتعلقة بها، ما ظهر منها وما بطن .

ومن ثم، فإن إدراك بعض الوجود، أو الجزء الأعظم منه دون باقي الأجزاء، يشكل علما ناقصا، ذلك أن عدم العلم بالروابط القائمة بين البعض الكبير المعلوم والبعض اليسير المجهول يعتبر جهلا بالوجود في كليته وشموليته التي تحصيها «الأسماء كلها» وتدل عليها .

نخلص من هذا إلى أن الوجود مترابط بين جميع مكوناته بما يدل على احتكامه إلى قانون واحد يدل هو الآخر على صانع واحد . ومن ثم فإن العلم بهذا الأمر، ظاهره وباطنه، لابد أن يكون علما واحدا موحدا في أساسه .

الوجه الثاني: إن العلم هو من عند الله سبحانه وتعالى يتنزل من لدنه عز وجل على أنبيائه ورسله فيعلمون ذلك للناس ويعلمونهم ما لم يكونوا يعلمون . والمراد هنا بالتنزيل هو فواتح العلوم والمعارف ومفاتيحها، ذلك أن النبوات والرسالات ما كان لها أن تخوض في تفاصيل العلم وإنما ترك ذلك للإنسان كي يكد في طلبه ولأن الحق عز وجل لا يحيط عباده بشيء من علمه إلا بما شاء فإنه يبين حدود ما يمكن العلم به من خلال ما يرسله إلى الناس عن طريق الأنبياء والرسل من مفاتيح علمية تهدي إلى تصيب معين من العلم في كل حقبة ، فلا يستطيع الإنسان أن يتجاوز ذلك إلا إذا شاء الله سبحانه له أن يفعل .

هذا الوجه الثاني من العلم الحق إذن، هو كونه منزلا من عند الله العليم الخبير .

الوجه الثالث : إن العلم ينبغي أن يؤدي إلى التوحيد، أي إلى الاعتقاد الراسخ بأن الله سبحانه (لا إله إلا هو قائما بالقسط) أي الواحد الأحد العادل . ومعنى هذا أن كل علم لا يوصل إلى هذه القناعة بالدليل والبرهان فإنه ليس بعلم البتة، مهما تلبس بلباس العلم، ومهما حققه الإنسان على ضوئه من تقدم دنيوي زائل كالسراب .

وإن الذنب هنا ليس ذنب المعرفة، وإنما هو ذنب الإنسان الذي ينحو بعلمه صوب المنحى المعاكس لما جاء به العلم الحق .

والوجه الرابع : يقتضي أن يكون العلم أداة ووسيلة لمعرفة الخالق سبحانه وتعالى معرفة وافية تدرك بها حقيقة عظمته وقوته وجبروته ويتحقق بها مقام «الخشية» الذي وصف الله عز وجل به العلماء .

علم واحد جامع

يفهم من هذه الرباعية أن العلم لا يعد علما حقا إلا إذا شمل الشعب العلمية كلها (الأسماء كلها) ومن ثم فهو علم واحد جامع ومتكامل، ولا يمكن لهذا العلم أن يأتي إلا من عندالله عز وجل ولذلك كلف سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بتبليغ مفاتيحه إلى الناس في مختلف العصور على مراحل، وينبغي أن يؤدي هذا العلم إلى الاعتقاد بوحدانية الحق عز وجل وبعدله المطلق (لا إله إلا هو قائما بالقسط) وأخيرا، أن تنتج عنه الخشية من بأس الله وغضبه ومن موجبات البعد عنه، سبحانه

وإن علما هذا شأنه الجليل، وتلك أبعاده الشاسعة غير المتناهية لا يعقل ولا يجوز أن يكون جزءا، فحسب ، من

الفلسفة . ومن ثم فإن القول : إن الفلسفة أم العلوم قول باطل، ذلك أن الفلسفة ما هي إلا أفعال وحركات العقل الإنساني وتأملاته ونتاج من نتائج محاولاته طرق أبواب المطلق إذ الفلسفة محاولة لإدراك الكل بالجزء، والمطلق بالنسبي وذلك محال، بينما العلم الحق الذي تطرقنا إلى أوجهه الرئيسية هو من عند العليم الخبير، فشتان بين ما هو من عند الله العزيز العليم وبين ما هو من نتاج الفكر الإنساني القاصر .

وإن كل علم لا يسير في ذلك السياق الرحب يجوز أن نعتبره إبنا للفلسفة وبالتالي، أن ننظر إليه نظرتنا إلى وسائل العيش الدنيوي وأدواته المتغيرة والمتبدلة وغير الثابتة لأنه مهما حقق للإنسان من التطور المادي ومن التطاول والإثخان في الأرض فإنه لا يسعه أن يجلب له الطمأنينة والاستقرار والسعادة الأخروية .

بهذا الفصل بين «علم العلم» كعلم ينفع في الدارين معا، وعلم لا ينفع إلا في الحياة الدنيا، ولذلك نسميه علم الجهل يمكننا أن ندرك كيف يشكل الأول ويجسد وسيلة الدين الأنجع والأشمل للوصول إلى الحقيقة، فكيف إذن يكون «التفكر» وسيلة العلم إلى الفوز بهذا المقام الرفيع العالي داخل النسق الديني ؟

التفكير والتدبر

يقول الحق جل وعلا :(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض .. الآية) ويدل قوله هذا على أن خلق السماوات والأرض مهما احتاج التعرف على مكوناته الأخذ بسبيل العلم والبحث فإن الأمر لا ينبغي أن يخلو من تفكر وتدبر يهدفان إلى استخلاص العبرة من نتائج البحث العلمي .، وهذا بالذات، يدخل ضمن فعل القراءة، الذي ورد في أول كلمة نزلت عن طريق الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (اقرأ) ويخطئ من يعتقد أن القراءة هنا لها نفس المعنى المتداول، والذي يفيد التلاوة سرا أو جهرا، ذلك أن معناها في بداية الوحي إنما يدل على مطالعة كل ما هو موجود مطالعة المتفكر المتأمل المستقرئ والمستنبط للقوانين والأحكام، المستنتج للدروس والعبر، لأن هذه القراءة، بالتحديد، هي التي من شأنها أن تجعل العقل ينفتح على ما وراء الموجودات (المقروءات) من كوامن تدل على عظمة الخالق وعلمه وقدرته وإرادته وعلو جده وطوله المطلق وهكذا، يكون العلم دائما وأبدا، مهما اختزنه من المعلومات والمعطيات، في حاجة إلى سبر الأغوار واستخراج المعادن النفيسة الموجودة خلف التجربة الميدانية والمخبرية، ورب عالم وقف على أسرار المادة وعلى مكونات العناصر وعلائقها ببعضها والعلاقات القائمة بينها وبين باقي العناصر والأشياء فلم ينفعه كل ذلك لأنه لم يجعله يفطن إلى روح العلم وجوهره الخفي الذي يصرخ بكل الأشكال الممكنة وفي كل وقت وحين بلسان حال يقول (كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)ويقول (الله لا إله إلا هو الحي القيوم..).. ويقول غير ذلك مما يؤكد قول

الحق عز وجل الذى لا يحتاج إلى التأكيد : (كل يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) .

إن التفكر إذن والمبنى على الجهد العلمي وعلى رصد الظواهر وإخضاع الأشياء والأفعال للتجربة من أجل استخلاص الدرس الكامن والعبرة الخفية، هو وسيلة العلم الحق، الحقيقية، لإصابة الأهداف المرسومة والمستهدفة بعملية التعلم ولو قال قائل إن وسيلة العلم هي البحث والتجربة والنتائج المخبرية لقلنا له: فما نفع ذلك إذا لم يضعها العقل موضع تأمل وتدبر ليستشف خباياها وأسرارها الكامنة ؟.

غير أن التفكر وحده لا ينفع للوصول إلى نهاية سعيدة للتجربة العلمية الهادفة إلى تكريس الحقيقة الدينية، ذلك أنه بدوره في حاجة إلى أداة موضوعية تعمل في اتجاه تطويع الفكر وصقله، وأيضا باتجاه تحديد المجالات التى ينبغي أن يتم فيها إعمال العقل وتفعيل النظريات العلمية العالقة به، وتلك الأداة ليست إلا البحث والتقصي العلميين .

إننا هنا أمام مبنى واضح المعالم والطوابق ففى أعلاه وقمته القصوى تكمن النجاة وفى طابق رابع تحت القمة مباشرة يوجد الدين، الطريق الوحيد الموصل إلى النجاة، وتحت هذا يوجد طابق ثالث يحفل بالمعلومات والمعطيات هو عين العلم كأساس للمعرفة وتحت هذا الأخير يوجد طابق ثان مشحون بقوى عقلية مركزه تتأمل وتتفكر في الخبايا والأسرار الكامنة خلف المعلومات والمعطيات المشكلة للنظرية العلمية، وقد اتصل على أرض الواقع تحته مباشرة بطابق أول حافل بالتجارب والبحوث والفحوص التى تشكل روافد لعملية التفكير والتدبر، وتحت كل هذه التركيبة الهرمية يوجد الإنسان، فى الطابق الأرضى، ملتصقا بالأرض متطلعا إلى أعلى وطامحا إلى الانعتاق من أرضيته ودونيته التى تجسدها دنياه .

الحياة الدنيا في الأسفل، والنجاة والخلاص فى الأعلى ، وبين المنزلتين يوجد العلم مسلحاً بالتجربة والبحث العلميين وبإعمال العقل المتفكر والمتدبر والمتذكر ، ويوجد الدين مهيمنا هيمنة كلية وشاملة على البناء كله باعتباره سيد وسائل الخلاص بلا جدال .

وإن هذا التصور ليجعلنا بدوره ننظر إلى الدين نظرة متجددة وقائمة على الحقائق التالية:

إن الدين ليس رديف العلم، ولا يشكل مع العلم وجهين لعملة واحدة، وإنما الدين مهيمن على العلم جاعل منه وسيلته الدنيوية إلى السعادة الأخروية .

إن القول بالدين العلماني، أو بعلمنة الدين، قول باطل ولا أساس له إلا فى الإلحاد، مهما زين ذلك القول للناس بشتى أسباب الزينة اللفظية والجمال البلاغى والأساليب المنطقية والكلامية المتاحة ، لأن ذلك يبقى مغلوطا عن آخره ولو جاز للدين أن يلبس لباس العلم للبس حلة العلم المطلق، أى العلم الإلهى البحت، وهذا أمر بعيد عن مجال إدراكنا الواعي .

ومن ثم فإن الذى ينبغي القول به هو أسلمة العلم أى إعادته إلى أساسه الأول والطبيعى كوسيلة للدين، أى إخضاعه لأحكام الدين فيصير بذلك، وكما كان

عند نزوله من عند العليم الخبير صافيا طاهرا، مرآة وجودية موضوعية تنعكس عليها الحقائق الدينية فيتم بذلك تنزيلها على أرض الواقع .

الكرامات العلمية

إن كل علم لا يندرج ضمن هذا السياق الديني لا يعتبر علما البتة، مهما جاز أن يحققه في عالم الحياة الدنيا، الذي ما هو إلا عالم سرابي زائل لا محالة، من التطور التكنولوجي ومن «الكرامات العلمية الخارقة للعادة» ذلك لأنه لعدم التزامه بتحقيق الطمأنينة الروحية ولعجزه عن تحقيق السعادة الدنيوية، على تواضعها، فإنه لا يؤدي إلا إلى الهلاك في الدارين معا، والعبرة بما ستنتهي إليه الحضارة المادية الوجودية الراهنة .

إن هذا الدين، كوسيلة للنجاة، وذاك العلم، كوسيلة لتكريس الحقيقة الدينية، أي لمطلب العبادة في شموليته وكونيته وفي تنزهه عن حدود الزمان والمكان، ينبغي أن يخيما بهذا المفهوم على المناهج العلمية والتعليمية في المجتمع المسلم قبل غيره من المجتمعات، وفي المجتمع العربي قبل المجتمع المسلم، ذلك لأن العرب أصحاب رسالة، ولأن عبء نشر الدعوة ملقى بلا غرو على كواهلهم، يدل على ذلك بما لا يدع مجالا للشك نزول القرآن مجسدا لتمام النعمة وكمال الدين باللغة العربية، وفي قلب شبه جزيرة العرب، وعلى يد نبي عربي هو سيد بني آدم بلا جدال . وإن الاضطلاع بمسئولية نشر الدعوة في عالم كعالمنا، وعصر كهذا الذي يسوده نمط فكري يجعل العلم هدفا وليس وسيلة وصمام أمان فحسب، يقتضي إبراز الجانب العلمي البحت في الدين، أي في النص القرآني، والذي من شأنه إذا أحسن العرب والمسلمون توظيفه أن يخرص المتشدقون باسم «العلم» و«العلم الحق» منهم براء.

وإنه ليس في وسعنا أن نفعل ذلك، إذا لم نجعل كتاب الله أساس نشاطنا وبحثنا العلميين، وإذا لم نعده إلى مكانته الأولى التي تركه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم أجمعين ، والتي تختلف كل الاختلاف عما فعلناه به اليوم من تجميد وتحنيط، ومن إقصار على شئون العبادات ونزر يسير من المعاملات، مبعدين إياه عن أيدي طلاب الشعب العلمية والعلمية التجريبية والبحتة، ومقصرين تدارسه على طلبة الفلسفة والآداب وعلى الشعراء والبلاغيين والنحاة من الذين ليس بوسعهم أن ينظروا إلى كتاب الله من جانبه العلمي التجريبي البحت، فخرجنا بذلك أفواجا من الطلبة نصفهم يحمل كتاب الله ولا يملك الدفاع عنه بوسيلة العلم الحديث، ونصفهم الآخر ممسك بأسباب هذا العلم الحديث دون معرفة ولو نسبية كافية بما جاء به كتاب الله من العلم الحق ! وفي هذا بالذات يكمن السر فيما عاد إليه أمر العرب والمسلمين من الضعف والتهالك والتآكل برغم كثرة عددهم، وقوة عدتهم، واتساع ثرائهم وبرغم التشريف والتكليف اللذين خصهم الله عز وجل بهما دون الناس كافة، المتمثلين في نشر دعوة الإسلام في تمامه وكماله . ■

الجنوبية مثل كوستاريكا وبيرو واكوادور إلى اصدار قوانين لمنع الاستنساخ ربما لتخوفها من احتمال لجوء كثير من علماء الولايات المتحدة الأمريكية إلى انشاء معامل الاستنساخ فى هذه البلاد. أما باقى البلاد مثل استراليا فليس هناك قانون يمنع الاستنساخ لكن هناك فقط تعليمات تنهى المعامل من الاستنساخ بغرض التكاثر وتسمح لهم بالدراسات على الخلايا الجذعية. وهذا هو الحال فى معظم البلاد الأخرى حيث لا يوجد قانون فى هذا المجال لكن يوجد تعليمات وأخلاقيات المهنة.

كلمة أخيرة

إذا جاز لنا أن نعتبر القرن الذى مضى هو عصر العلوم الفيزيائية وما نتج عنها من اكتشافات مذهلة مثل الكهرباء والقوة النووية، فإن هذا العصر سوف يشهد له بأنه عصر العلوم الحيوية (molecular biology). إن التعاون والاندماج الذى حدث بين علم الجينات وعلم الأجنة قد تخطى الحواجز والحدود. ويجب ألا ننزعج من هذا وعلينا أن نتذكر أنه على مدى التاريخ الانسانى فإن معظم الاكتشافات العلمية قد قوبلت بالشك والخوف أولاً ثم ما لبث أن تقبلها الناس وأدركوا مدى أهميتها عندما لمسوا التطبيقات العلمية لها والفوائد التى عادت على البشرية. إن أبحاث نقل النواة والاستنساخ سوف تعود على البشرية بفوائد عظيمة ما كان لها أن تحدث قبل ذلك. إن علاج الأمراض عن طريق نقل خلايا سليمة إلى العضو المصاب (مع ضمان عدم لفظها بالجهاز المناعى) سوف يتحقق عن طريق نقل النواة لانتاج الخلايا الجذعية ثم تحويل هذه الخلايا إلى خلايا متخصصة مثل خلايا القلب أو الكبد أو البنكرياس أو الخلايا العصبية.

وفى مجال انتاج الأدوية مثل الأنسولين الانسانى واللبن المثيل للبن الأم والأجسام المضادة للأمراض التى تصيب الإنسان يمكن أن يتم هذا بالهندسة الوراثية للحيوانات. ولزيادة عدد هذا النوع النادر من الحيوانات (المهندس وراثياً) تجرى لها عمليات استنساخ. وكذلك فإن استنساخ الأنواع النادرة من الحيوانات المهددة بالانقراض قد ينقذها من الفناء.

وفى مجال النباتات أيضاً يستخدم فعلاً الاستنساخ لانتاج الأنواع النادرة من النباتات مثل الأوركيد والنباتات الأخرى المهندسة وراثياً. وقد أصبح فى العالم الآن مراكز بحثية كبيرة تسمى شركات التكنولوجيا الحيوية أو «biotechnology companies».

وقد أعلن العالم «ايان ويلموت» «Ian Wilmut» الذى نجح فى استنساخ النعجة دوللى أنه سوف يبدأ فى العمل وأخذ ترخيص يسمح له بالقيام بالاستنساخ العلاجى فى الإنسان.

إن السنوات القادمة سوف تشهد مزيداً من الأبحاث العلمية والاكتشافات فى مجال نقل النواة والاستنساخ ويجب ألا ننسى المقولة التى يرددها العلماء.

«فى مجال العلم مايمكن أن يتم عمله سوف يتحقق»

(In science what can done will be done)

وكذلك يجب أن نتذكر تعليمات الحكيم المصرى القديم بتاح حوتب (الأسرة السادسة ٢٣٠٠ - ٢١٠٠ قبل الميلاد) الذي قال : «لا حدود يجب أن توضع على الفن (العلم)، كما أنه ليس هناك فنان أو عالم قد وصل إلى درجة الاتقان الكامل». ■



السوق — القاهرة — التصنيع فى مصر

حكاية أحد الطيور المهاجرة

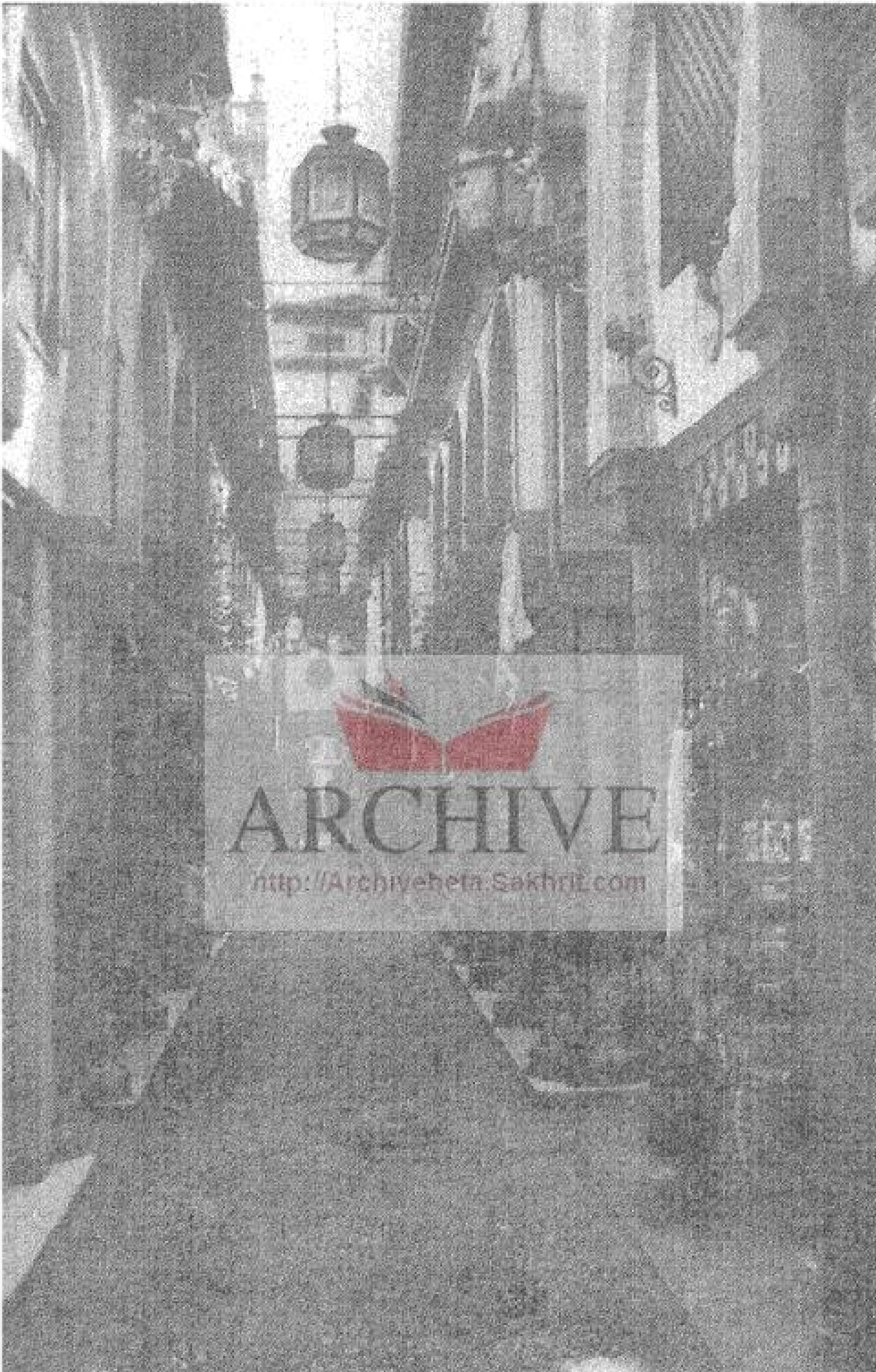
ذكريات وثلاثة كتب عن مصر

بقلم
مصطفى نبيل

الدكتور محمد شرابى، فنان كبير، ومعمارى قدير، له حكاية تستحق أن تروى..

إنه أحد أصحاب الوجوه السمراء، التى غادرت القاهرة إلى برلين، لأنه لم يحصل على مجموع يؤهله لدخول كلية الهندسة بالقاهرة، فأصبح أستاذا مرموقا فى جامعة «دارمشتات» فى ألمانيا، وحقق فيها مكانة كبيرة ونجاحا علميا وماديا ملموساً، وحصد الجوائز كأحد المعماريين المعروفين ..

القيصرية



أقام الكثير من الصروح المعمارية، وحصل من مصر على الجائزة الأولى في مشروع بناء دار جديدة للأوبرا، والذي لم ينفذ بعدما استبدل به المشروع الياباني!.

له العديد من المؤلفات المهمة التي تدور حول مصر والشرق، وهي «القاهرة» و«البازار» و«الصناعة والتصنيع في مصر»، وهذا المقال دعوة إلى د. جابر عصفور صاحب المشروع القومي للترجمة لنقل الكتب الثلاثة إلى اللغة العربية، بدلا من استمرار السطو عليها في العديد من الأعمال التي ظهرت مؤخرا.

ولم يحصل على دكتوراه واحدة، بل أضاف إليها دكتوراه في الفلسفة، وهو ما يؤكد عدم كفاءة نظام الالتحاق بالجامعة، الذي مازلنا نتمسك به، وكأنه أحد الثوابت التي لا فكاك منها.

كان محمد صديقا عزيزا، وزميلا منذ أيام الصبا، وهذه بعض لمحات من ذكرياتنا معا. زاملته في المدرسة السعيدية وطوال المرحلة الثانوية، وعشنا أجمل مراحل العمر وأكثرها براءة، كان يفصل بيني وبينه كوبري عباس، فكان يسكن في الروضة، أصل إليه سيرا على الأقدام، نقضي معظم أوقات الفراغ معا.

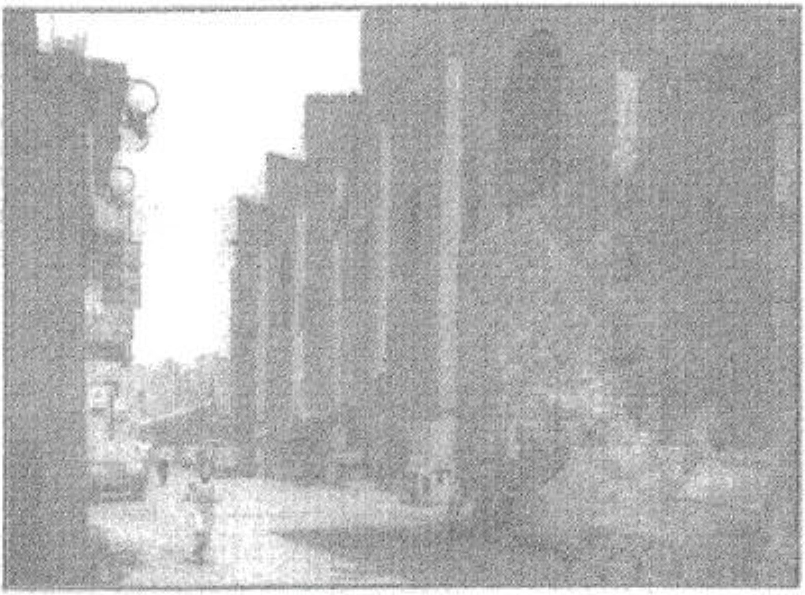
تربطه بأبيه علاقة حميمة، والذي كان يعمل في صناعة البناء، ومازلت أذكر أنه كلما عاد الى البيت ووجد أصحاب محمد معه، يصر على أن نبقى لتناول الطعام، وكان الأب يأمل أن يدخل ابنه كلية الهندسة. وكان الإبن يتمنى أن يعمل الى جوار أبيه، ولم يحصل عام ١٩٥٧ على المجموع الذي يؤهله للالتحاق بكلية الهندسة، واتخذ قرارا بالدراسة في ألمانيا، وقبل بالفعل في إحدى كليات الهندسة في برلين. وسافر إلى هناك لكي يواجه مجتمعا آخر، يحقق فيه النجاح ويحصل على بكالوريوس الهندسة بامتياز، ثم على الدكتوراه في العمارة وأخرى في الفلسفة، ويعين أستاذا في جامعة «دارمشتات».

ولم تنقطع الاتصالات بيننا، ولم يتوقف الحوار.

ذكريات الصبا

وقبل رحيله ، خضنا معا تجارب ومحاولات اكتشاف العالم والحياة من حولنا، وكان المناخ العام يساعد على ذلك، فمن حضور المحاضرات إلى المعارض والندوات، ومازلت أذكر قصر هدى شعراوي القريب من سينما قصر النيل والذي كان مثالا للنظام والجمال، وكأنه محراب يأتي إليه الشباب يستمعون إلى الموسيقى في جو ساحر ويشاهدون لوحات كبار الفنانين، ومن المؤسف أنه تم هدم هذا القصر، والذي تحول إلى موقف للسيارات، ولم يفتنا في هذه الفترة حضور حفلات الأوبرا التي كانت تقدم تذاكر مخفضة لا يتجاوز ثمنها عشرة قروش للطلبة صباح كل يوم جمعة.

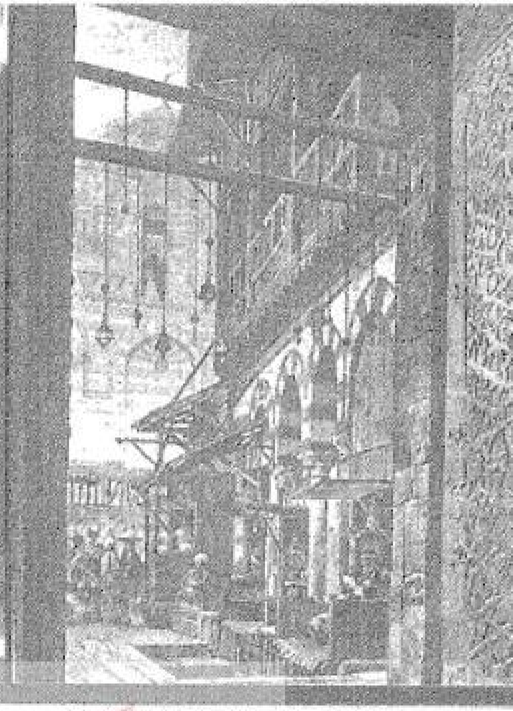
وأصدرنا معا صحيفة حائط كان يقوم محمد بتصميمها وكتابة عناوينها. واستمعنا معا لمحاضرات كل من أحمد



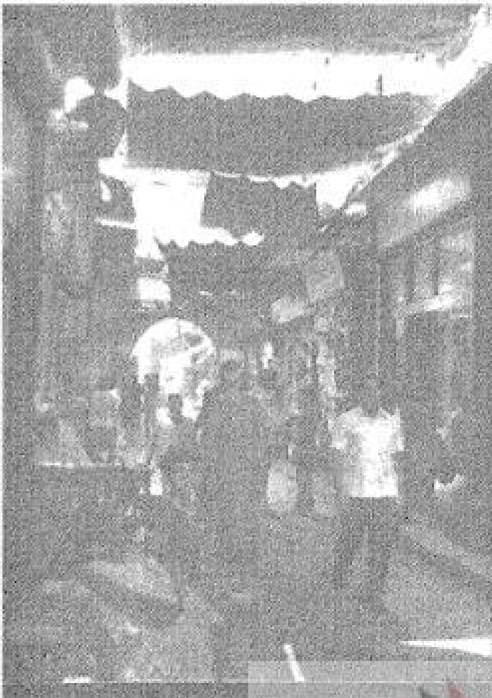
مصنع لاحتياجات القاطرات والسكك الحديدية في السبتية



بوابة سراية السنانية



دكاكين عند الواجهة الشمالية لمدرسة السلطان قلاوون بالقاهرة



خان الخليلي

حسين وسيد قطب. كما اشتركنا في نادي رياضي لبناء الأجسام في شارع عماد الدين اسمه «كارللي».

وكانت المدرسة السعيدية مليئة بالحيوية. ففي الرياضة كان فريق المدرسة يحصل على بطولة المدارس الثانوية، ويكفي أن تعرف - عزيزي القارئ- أن فريق المدرسة كان يضم كلا من صالح وطارق سليم، ولم تكن الفرق الرياضية وحدها، بل في كل النشاطات الأخرى.

وكانت المدرسة تقيم ندوات في موضوعات مختلفة، ومازلت أذكر ندوة موضوعها «الزواج وحقوق المرأة»، وانتهت بهتافات الطلبة وهم يطالبون بتسهيل الزواج، وندوة أخرى موضوعها «العمامة أم الطربوش» وبعدها بقليل خلعنا كليهما، ومازلنا نبحث عن غطاء مناسب للرأس.

وتعجبت كلما تذكرت ما كنا نعمله، فمثلا، كنا نقرر الامتناع عن الكلام لمدة أسبوع، في صورة اختبار لقدراتنا وتحديا للذات، وفي مرة أخرى قررنا أن نعتزل الجميع ونعيش في عزلة لمدة أسبوع، على أمل أن نقضي على حاجتنا الملحة إلى الصحبة.

كما كنا نقوم بجولات في قرى الجيزة من حولنا ولا نكتفي بما نراه في العاصمة.

حقا كنا جيلا تفجرت لديه الآمال، وذاق حلاوة الانتصار ومرارة الهزائم!



قبة السوق في العطارين



شارع الموسكي

وعشنا حياة سياسية زاخرة بالحيوية والنشاط، فقد قامت ثورة يوليو عندما كنا في السنة الثالثة الثانوية، وقبلها وحتى سنة ١٩٥٤، كانت الأحزاب السياسية تمارس نشاطها واجتماعاتها داخل جدران المدرسة.

وشهدت المدرسة السعيدية الشرارة الأولى في أحداث جسام، فقد قامت فيها أول مظاهرة تطالب بإلغاء معاهدة ١٩٣٦، وقد كنت شاهدا على هذه المظاهرة، وقد قادها ونظمها الحزب الاشتراكي، ومازلت أذكر الخطاب الحماسي الذي ألقاه الصحفي الراحل إبراهيم يونس وهو يرتدي الطربوش ويمسك في يده المسبحة، وتوجهت هذه المظاهرة إلى حرم الجامعة فأشعلتها، وقامت بعدها المظاهرات في كل مكان تطالب بإلغاء المعاهدة، حتى أعلن رئيس الوزراء في هذا الوقت مصطفى النحاس إلغاءها .

وأخذت الأحداث تتوالى، وأقيمت معسكرات الفدائيين في الجامعة بقيادة طالب الحقوق حسن دوح، وبتأييد من مدير الجامعة د. مورو الجراح المعروف، والتحقت مع محمد شرابي بهذا المعسكر رغم صغر عمرنا. ورأيت في هذا المعسكر ياسر عرفات لأول مرة، كأحد الذين يقومون بالتدريب على «التكتيك العنيف» والذي كان يملأ المعسكر بحيويته وحماسه .

وعقب نهاية الدورة، طلب حسن دوح قائد المعسكر أن نشترك فى تدريب كتيبة باسم المدرسة السعيدية بدلا من السفر إلى القناة. وبالفعل أقيم معسكر للتدريب فى استاد المدرسة السعيدية، واشتعلت حرب الفدائيين ضد القاعدة البريطانية، وكان أخطر جولاتها معركة «التل الكبير» وانتهى معسكر السعيدية قبل استكمال التدريب عند حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . ثم قامت الثورة، وانتهت مرحلة وبدأت مرحلة جديدة.

الصدمة الحضارية!

ومن برلين توالت رسائل محمد شرابى إليّ تعبر عن الحنين وتروى رؤيته للعالم الجديد الذى وجد نفسه فيه، يشكو الاغتراب الذى كان حافزا على تأكيد الهوية، وكسر الحواجز وبعد المكان والتواصل مع ما ينتمى إلى بلاده.. وفى إحدى رسائله يقول «أخذت من على البعد أبحث عن أصلى وبيتى وتراثى، وأتفكر حى الروضة الذى عشت فيه طفولتى وصباى. فيمدنى بطاقة محركة لإثبات قيمة الحضارة الشرقية التى أنتمى إليها..» والمشكلة التى استحوذت على اهتمامه هى الالتقاء بين الحضارات لصعوبة التوفيق بين النهضة من ناحية والحفاظ على تقاليد الأمة وثقافتها من ناحية أخرى.

وحكاية محمد ورسائله تعبر بوضوح عن مجمل التجارب والمشاعر التى عاشها ، فعندما بدأت رحلته اتسم موقفه مما يدور حوله بالنفور، فأكثر مالفت انتباهه العلاقة بين الرجل والمرأة، وأصيب بصدمة عندما دُعى إلى أحد الاحتفالات التنكرية. وأذهله ما رآه فلا يظهر من الرجال والنساء إلا ما ينبغى ستره وسترما يجب ظهوره.

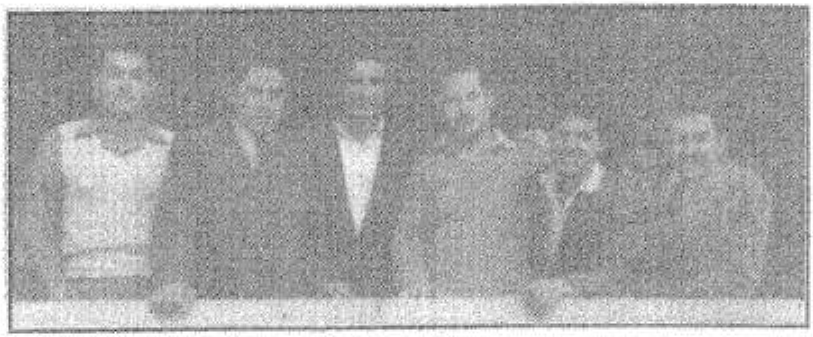
كما يروى فى إحدى رسائله أنه تبين عدم إمكانية الدخول فى المجتمع الألمانى إلا لمن يعرف الرقص، فذهب إلى مدرسة لتعلم الرقص، وصعب عليه هز وتحريك وسطه، فانصرف عن المدرسة، ولكن سرعان ما استسلم وتعلم الرقص

وبالتدريج تحولت رسائله من النفور إلى الإعجاب، ومن الاغتراب إلى الألفة، وأخذ يبدى إعجابه بعلو قيمة الإنسان وقيمة الوقت. ومدى حب وتقديس العمل، والحرص على كفاءة الأداء، ومواجهة المصاعب بإرادة حديدية وعقل بارد، ورأى على عكس مايقع فى بلادنا، الكثير من العمل والقليل من الكلام، والكل يعمل فى مجاله بروح الفريق، والإيمان العميق بحرية الفكر حتى وإن اتسمت بالشطط أحيانا، والإيمان بضرورة إعمال حكم القانون، وحتى اذا لم يرضيك.

القبح والجمال

وفى أول مرة يعود فيها إلى القاهرة، اتصلت به متلهفا على لقائه، فأمهلنى حتى يعرف مواعيده وارتباطاته وأدركت أن هذا تأثير المجتمع القادم منه . ولكن لم يغب بلده عن عقله ووجدانه لحظة واحدة .

لذا كانت محاوراته خصبة، نقل إلىّ الكثير من تجاربه ومعاناته، وكثيرا ما كنت أصحبه فى جولاته فى القاهرة وخارجها، فهو متشوق لرؤية الجديد، يبدأ جولاته فى القاهرة من الصباح



مع حسن دوح قائد معسكر الفدائيين ١٩٥١

الباكر، ولا تنتهي إلا عندما يأتي المساء . وله عين فاحصة مدققة ومدربة، يلتقط عناصر الجمال، سواء كانت شرفة في منزل ، أو مدخل مبنى جميل، ويصيبه الحزن من القبح وغياب الحدائق والمتنزهات .

روى لي الكثير عن أفكاره أثناء إعداد كتابه عن «القاهرة» وطلب مني أن أرسل إليه بعض المراجع المهمة، مثل «الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك» والأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي وكتاب عبدالرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ومؤلفات عبدالرحمن الرافعي التاريخية، والتي أخذت أرسلها تباعا، وصحبته خلال جولاته في شوارع القاهرة وأسواقها. وشغله البحث عن ظاهرة التفاعل بين الشرق والغرب وجودا وعدما، وأخذ يرسم ويسجل بالكلمة والصورة كل ملاحظاته، ورصد ما شهدته القاهرة من تغييرات .

وألف كتابه ٤١١ صفحة مزينة بالصور والرسوم الهندسية حتى يكون صيحة احتجاج من أجل إنقاذ القاهرة والحفاظ على شخصيتها المميزة، ويذكر في كتابه.. أن عدد سكان القاهرة منذ أن غادرها حوالي مليونين من البشر، ثم أصبحت في نهاية الثمانينات - تاريخ إعداد الكتاب - ما يقرب من عشرين مليون نسمة ، يعيشون في أحياء مكتظة وعشوائية، ووصل الازدحام إلى حد أن سكن البعض المقابر!، وأخذت تظهر غمامة تحجب القاهرة التاريخية خلف عمارات أسمنتية، كما سبق أن اختفت تباعا العمارة الفرعونية ثم الإغريقية ثم الإسلامية.

ويؤكد في سفره الضخم. أنه حان الوقت للتفكير في قاهرة جديدة، قاهرة القرن الحادي والعشرين. على أن يكون ذلك بأسلوب جديد، وتصور خلاق، فتحتاج القاهرة رؤية جديدة، ومرافق جديدة، وما تحتاجه ليس بالقطع التقليد الأعمى لطرق تخطيط المدن الأوروبية أو الأمريكية. فقد كانت القاهرة حتى عام ١٨٧٠ مدينة واضحة الهوية، ذات طراز مميز، ثم نشأت أحياء على الطراز

الأوروبي في القرن التاسع عشر، واضطربت الأحوال عند منتصف القرن العشرين، واختلط القديم والجديد، وتدهورت المدينة القديمة، وتغيرت المدينة الأوروبية ، وتغيرت معالم عمارتها، فانقرضت القديمة أو كادت، وتشوهت المباني الحديثة، ووقع هذا كله بعد الاستقلال، وراءه التدهور الذي لحق بالقاهرة، وأكمل الازدحام الارتباك ونشر الفوضى في كل مكان.

ورصد الكتاب مراحل ثلاثا مرت بها القاهرة، الأولى، قبل الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢، والمرحلة الثانية، من عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٥٢ والمرحلة الثالثة، ما بعد عام ١٩٥٢ .

وبدلا من أن ينجز المصريون بعد الاستقلال مسألة تأكيد الهوية، زاد التأرجح بين الشرق والغرب، وظهرت أحياء لا هي الشرقية القديمة، ولا هي الأوروبية الحديثة، فهي خليط بينهما، أخذت عيوب كل منهما، ولا يمكن تعريفها أو تحديد هويتها أو معالمها .

شارع محمد علي

إذا كان نابليون قد وضع بذرة التغيير، بعدما غير النظام الإداري الذي كان يلعب فيه الشيوخ الدور الرئيسي، كما اختصر نابليون الحارات من أربعمائة حارة إلى ثمانية أقسام في نظام إداري جديد، ولذلك أطلق على قسم البوليس «الثمن» وانتقل شيخ الحارة من مساعدة الأهالي إلى مراقبتهم .

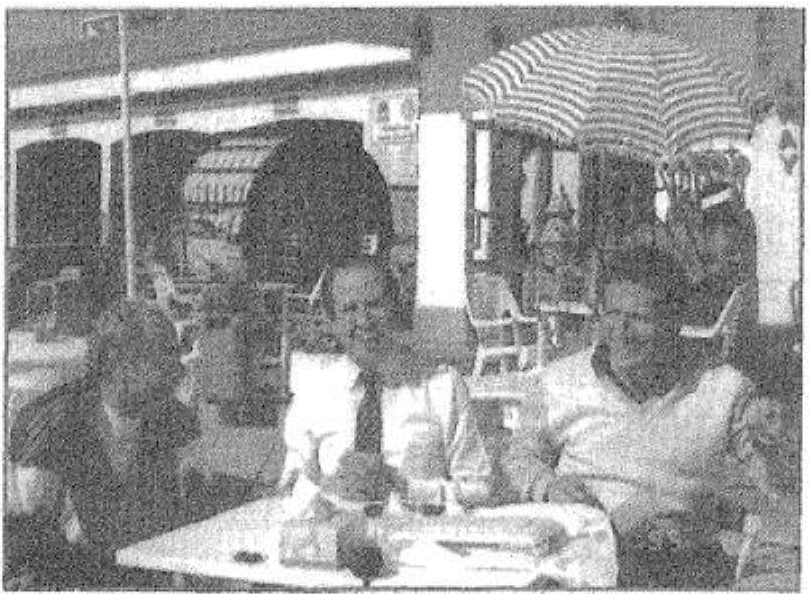
فقد قام محمد علي طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بالأخذ بالمنهج الغربي، واشترك في تجربته عدد من الأوروبيين، وأوفد البعثات إلى أوروبا في كل من فرنسا وايطاليا وانجلترا، ونظم الجيش وأقام المدارس على النموذج الأوروبي .

وسار محمد علي على خطى نابليون في شق طريق عرضي على النمط الأوروبي يبلغ طوله حوالي كيلو مترين - شارع محمد علي - يصل بين القلعة مقر الحكم وحي الأزبكية. حي الاستقراطية الجديدة، وقامت بذلك بؤرة عمرانية جديدة إلى جانب القاهرة القديمة.

وحدثت الطفرة الكبرى في عصر إسماعيل، الذي تعلم في كلية «سانت كير» في باريس، وقرر بناء قاهرة جديدة، تصبح «باريس الشرق» فقدم الأراضي مجانا لمن يريد البناء عليها في المدينة الحديثة.

وظل الحي الذي أطلق عليه «الإسماعيلية» قائما، بعد عزل إسماعيل وقدر عدد الأوروبيين والأجانب بعد الاحتلال الانجليزي بحوالي ثلاثين ألف نسمة، وفضل هؤلاء السكن في المدينة الحديثة، وصمم الحي الجديد مهندسون فرنسيون وايطاليون وبريطانيون، وأصبحت عمارتها تضارع عمارات فرنسا وايطاليا، وقام المؤلف بتسجيل كل هذه المباني، سواء بالكاميرا أو بالرسوم الهندسية .

وعند إقامتها لم يسكنها سوى عدد قليل من المصريين، وبعد فترة غير قصيرة تخلى أغنياء وأعيان القاهرة، عن



محمد شرابى، سلمان أبو ستة و مصطفى نبيل .. لقاء زملاء المدرسة بعد نصف قرن

أحيائهم القديمة، حتى يستمتعوا بمستحدثات العصر، بعد استحالة أن تستوعب أزقتهم القديمة السيارات والمياه والكهرباء والصرف الصحى. أى لم تجذبهم القاهرة الحديثة ولكن طردتهم القاهرة العتيقة بنقص خدماتها..

رجل الأعمال

ولم يكتف محمد شرابى بتحقيق مكانة علمية، بل أراد أن يسهم بخبرته فى البناء والعمران، فساهم مكتبه فى تخطيط وتصميم مدينة «جبيل» فى شمال السعودية، وأعاد تخطيط وإنشاء سوق مكة القديم، وغيرها من المشروعات، وشارك أحد أبناء عبدالرحمن عزام فى مكتب هندسى فى جنيف.

ولكنه ترك العمل وتفرغ للعمل الأكاديمى، فما جمعه من مال يكفيه حتى نهاية العمر، ويحقق له كل ما يرغب فيه، فاشترى أحد القصور الأثرية فى غابات سويسرا وعلى أحد بحيراتها، وقال: «لقد نفرت من عالم الأعمال الذى يتصارع فيه المتعاملون، ويغيب فيه الحس الإنسانى، لذا اشتقت من جديد إلى العمل والحياة الأكاديمية، بعدما أثبت وحدة الحياة الأكاديمية والحياة العملية، وعدت لأحقق ذاتى، وأقدم شيئا لبلادى ..

ووضع كتابا جديدا عن الأسواق الشرقية «البازار» باعتبارها قلب المدينة فى الشرق، وعالج وحدة الأسواق من فاس على المحيط الى البازار فى إيران،

وإلى السوق فى تركيا ومصر وطشقند وتلك الممتدة من المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى، وتناول الوظيفة وارتباطها بالشكل، سواء «الحميدية» فى دمشق، أو «خان الخليلى» فى القاهرة، أو «الوكيل» فى شيراز أو «شارشى» فى أدرنة.

ولفت انتباهه الوحدة مع التنوع، وقدرة هذه الأسواق على الاستمرار، فتساندها رؤية حضارية ونظام اجتماعى واحد، باعتبار أن السوق مركز التنظيم الاقتصادى والاجتماعى .

والشكل عنده لايخاصم الوظيفة، ويجمع السوق الثقافة والتجارة فى تناغم واضح، ويلاحظ أن معظم الأسواق، تعمل إما بين بوابتين من بوابات المدينة القديمة، أو تعمل بين إحدى البوابات وبين المسجد الجامع، أو بين مسجدين رئيسيين، أو بين المسجد الجامع وقلعة المدينة وحصنها. ويؤكد أنه لا يمكن معرفة المدينة الشرقية بعيدا عن السوق، ويقدم نظرة على كل من مفردات السوق الخان والوكالة وغيرهما ويتتبع ذلك في المدن الإسلامية المختلفة.

ويضم الكتاب غير ذلك من تفاصيل دقيقة عن هذه الأسواق .

خبير فى اليونسكو

كما عمل محمد شرابى خبيرا للآثار فى منظمة اليونسكو، واشترك فى مشروع اليونسكو لإنقاذ مدينة فاس المغربية، واشترك فى ترميم أحد المبانى الأثرية المهمة فى لبنان، وأحزنه تدهور وإهمال الآثار المصرية.

وعندما التقى بمدير الآثار المصرية الأسبق د. محمد حسن بكر أبدى استعداده للعمل متطوعا فى ترميم الآثار ووضع خبرته للقيام بأى عمل. وذكر له أن اكبر المخاطر التى تهدد الآثار فى مصر هو ارتفاع منسوب المياه الجوفية، وتشبع المبانى الأثرية بالرطوبة . وأكد ان الإيطاليين قد توصلوا إلى جهاز قادر على تخليص الجدران من الرطوبة، مستخدما نظرية «الضغط الإسموزى»، وأن هذا الجهاز يزيد الأمل فى انقاذ ما تبقى من الآثار المصرية.

ولم يطلبه أحد، ولم يستعن به أحد!

وفى حوارنا المستمر، أبدى رفضه لهذا الفصل التعسفى بين الكليات العلمية والكليات النظرية، وأدهشه غياب دراسة الفلسفة من كل كليات الجامعة سواء الهندسة او الطب .

كما كان ينادى بضرورة ربط مؤسسات التعليم بحاجة المجتمع، وخاصة تلك الكليات ذات الطابع التطبيقى والعملى. والتى يطلق عليها فى الغرب «بوليتكنيك» ، وهو عكس مؤسسات التثقيف والتنوير، التى لا يجوز أن يقيد الالتحاق بها بأى قيود .

وكان يرفض الأخذ بفكرة التوسع فى نقل التكنولوجيا التى لاتحتاج سوى لعمالة قليلة، وينادى بإقامة الصناعات التى تحتاج إلى عمالة كبيرة ، مما يكسبنا ميزة نسبية فى رخص الأيدى العاملة، ويسهم فى حل مشكلة البطالة.

ويقدم خلاصة تجربته قائلا .. «اذا كان على المجتمع حماية أفراده من



محمد شرابي ومصطفى نبيل في رأس البر - ١٩٥٨

الغزو، وواجب الدولة حمايته من الفوضى واختلال الأمن والنظام، ضمن واجبها حمايته قبل ذلك وبعده من الجهل، فالجهل هو أداة الغزو الأجنبي، وهو الذي يؤدي الى اختلال الأمن والنظام».

وآخر الكتب التي أصدرها ، كتاب «الصناعة والتصنيع في مصر» ويتناول الكتاب نشأة التصنيع في مصر والشرق، وكيفية الانتقال من مرحلة الحرف إلى التصنيع، ودور الدول الأوروبية في ذلك ، وأخذ ينقب ويبحث عن الصناعات القديمة، في حي بولاق والسبتية والاسكندرية، حتى يتابع تطور التصنيع في مصر. وسجل الكثير من المصانع، واهتم اهتماما خاصا بعمارتها وشخصيتها المميزة. وصحبه إلى القاهرة فريق عمل من مصورين ورسامين، لتسجيل مابقي من هذه المصانع، وتابع المصانع منذ عصر محمد علي وحتى منتصف القرن العشرين.

وكانت هذه هي كلمته الأخيرة ..

فبينما كان يعيش في هدوء ، ويستغرقه عمله الاكاديمي، ويعمل وسط طلبته في جامعة دارمشتات، وأخذت أسرته الصغيرة، زوجته الألمانية ريجينا وولداه فريد وكريم تستمتع بوجوده معها وقتا أطول ، فاجأته في يوم عاصف أزمة قلبية من إرهاق العمل، ووسط الحيرة بين الشرق والغرب، بين القديم والجديد، سافر على أثرها إلى أحد المستشفيات الشهيرة في سويسرا بعمليات جراحة القلب المفتوح، باعتبارها من أفضل المستشفيات في العالم.

ويبدو أن الأوكسجين لم يصل الى الدماغ بالقدر الكافي خلال إجراء العملية، فأصيب بما يشبه فقدان الذاكرة عقب العملية، ونسى ما يعرفه من اللغة الألمانية وأخذ يتحدث إلى من حوله باللغة العربية.

وكل ما نقدر عليه .. أن نتضرع لله العزيز القدير، أن يسترد ذاكرته، وأن تعود إليه عافيته، حتى يكمل أبحاثه ودراساته .. ■

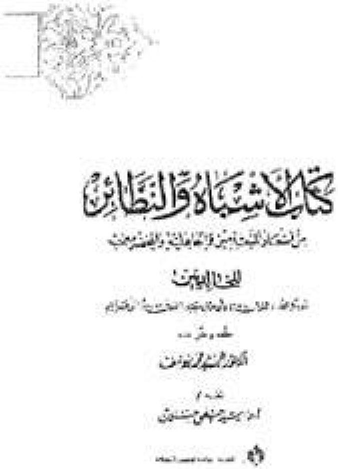
كتاب الأشباه والنظائر للخالديَّيْن

بقلم
د. عبد العزيز الدسوقى

من أهم كتب المختارات الشعرية، ألفه «الخالديّان»: أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، وهما شقيقان من الموصل من قرية من قراه. وهما كما يعرفهما الثعالبى «كان يجمعهما من أخوة الأدب، مثل ما ينظمهما من أخوة النسب». قصدا بغداد فى بداية حياتهما فى طلب العلم، وأخذا عن «ابن دريد» و«جحظة» و«الصولى» و«ابن الخياط النحوى» ثم راحا - بعد ذلك - يتصلان بكبراء الدولة والوزراء. ثم انضما إلى حاشية «سيف الدولة» الذى ملك «حلب» سنة ٣٢٣هـ. وأصبحا من خواص ندمائه وفى مقدمة شعرائه، واتصلا بالوزير المهلبى، وقويت صلتهما وتأكدت حينما تولي الصابي «ديوان الرسائل» وكان من المعجبين بهما ومن ثم ناصرهما عند الوزير المهلبى ضد «السرى الرفاء».

وهما من علماء القرن الرابع الهجري خاضا المعارك واشتبكا مع الأدباء والشعراء، ولم يمنعهما ذلك عن التأليف وابداع الشعر. ومن مؤلفاتهما:

- كتاب أخبار أبى تمام ومحاسن شعره..
- وكتاب الديارات.
- وحماسة شعر المحدثين.
- وكتب التحف والهدايا.



- وكتاب أخبار الموصل.
- واختيار شعر ابن المعتز، والتنبيه على معايبه. وغيرها من الكتب. مثل «الأشباه والنظائر» الذى نتناوله فى هذه السطور. وهما شاعران مجيدان ولهما ديوان شعر مهم.

ومن هنا كانت مختاراتهما من شعر القدماء والمحدثين على قدر كبير من الجودة وكتاب «الأشباه والنظائر» صدر في طبعة جديدة، هذا العام فى سلسلة «الذخائر» التى تنشرها الهيئة العامة لقصور الثقافة. وقد حققه وعلق عليه الاستاذ الدكتور «محمد يوسف» وكتب له مقدمة علمية مستفيضة عرف فيها بالخالديين، وبالكتاب. وكتب الدكتور سيد حنفى مقدمة جديدة. أما الاستاذ الدكتور عبدالحكيم راضى - وهو المشرف على سلسلة الذخائر ورئيس تحريرها - فقد كتب في بداية الكتاب تعريفا وافيا لطبيعة المختارات الشعرية وأنواعها وحدد قيمة هذه المختارات للخالديين فى سياق مختارات الشعر المتنوعة. ثم يبدأ المؤلفان بعد ذلك في تقديم الكتاب وبيان منهجيهما فى تأليفه، يقولان «ونحن نضمن رسالتنا هذه مختار ما وقع إلينا من أشعار الجاهلية ومن تبعهم من المخضرمين ونجتنب أشعار المشاهير لكثرتها فى أيدى الناس. فلا نذكر منها إلا الشئ اليسير، ولا نخليها من غرر ما ورد للمحدثين، ونذكر أشياء من النظائر إذا وردت، والاجازات إذا عنت. ونتكلم على المعانى المخترعة والمتبعة، ولا نجمع نظائر البيت فى مكان واحد، ولا المعنى المسروق فى موضع، بل نجعل ذلك فى موضع ذكره».

ثم يقولان «وإن كنا نعلم - أدام الله عزك وتأييدك- أنك أعلم منا بما نحمله إليك ونعرضه عليك، ومن أين لنا قرائح تنتج ما لا تزال تريناه وتسألنا عنه من دقيق المعانى وطرائف السرقات، وقد تأتى لك - أيدك الله - فى بيتى أبى تمام والبحترى على غموض المعنى وبعده فى النوعين، من دقة النظر، ولطيف الفكر ما لا يتوهم أنه يطرد لسواك ولا يعن لغيرك، وهو أنك - قلت لنا من أين أخذ البحترى قوله:

ركبنا القنا من بعدما حمل القنا في عسكر متحامل فى عسكر

فلم يكن عندنا شئ غير الاستحسان والتقريظ فعرفتنا - أيدك الله - أنه مأخوذ من بيت ابن تمام».

رعته الفيافي بعدما كان حقبة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

ولا نعرف في النظر أدق من هذا، ولا ألطف».

ولا ندرى لمن يتوجهان بالخطاب؟ قد يكون «سيف الدولة» وقد يكون «المهلبى» إلا أنهما على أية حال بدأ ينسجان على هذا المنوال.

يأتيان بشعر لشاعر ويبحثان عن أشعار مثلها سبقتها ويقرران أنها الأصل.

ودراسة السرقات معروفة، ولكن الخالديين بما لهما من قدرة على الحفظ وموهبة في التحليل والتعليل يأتيان - دائما - بجديد يلذ العقل ويثير الغبطة والمتاع.

ذكر أن المهلهل بن ربيعة قال في معنى يطال الأقارب :

بكره قلوبنا يا آل بكر ... نفاديكم بمرهفة النصال
لها لون من الهامات جون ... وإن كانت تفادى بالصقال
ونبكى حين نذكركم عليكم ... ونقتلكم كأنا لا نبالى

أبيات المهلهل هى الأصل فى هذا المعنى، ومثله قول الحصين بن الحمام المرى:

نفلق هام من رجال أعزة علينا ... وهم كانوا أعق وأظلما

وأخذه بعضهم فقال:

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فإذا رميت أصابنى سهمى
فلأن عفوت لأعفون جللا ... ولئن قتلت لأوهنن عظمى

وأخذه مالك بن مطفوق السعدى فقال:

قتلنا بنى الأعمام يوم أوراه ... وعز علينا أن يكون كذلكا
هم أحرجونا يوم ذاك وجردوا ... علينا سيوفا لم يكن بوانكا

***

وعلى هذا النحو يمضى الخالدان فى هذا الكتاب، يذكرون أبياتا، ويوازنون بينها وبين أبيات أخرى أخذها أصحابها من الشعراء السابقين. وهذا مبحث من مباحث السرقات الشعرية معروف ومسبوق، ولكن الخالديين، أكثرا من هذه الأشعار على امتداد كتاب الهوامل والشوامل المكون من جزءين صفحاتهما ٦٨٥ صفحة.. توالت في الجزء الأول موضوعات كثيرة اختار لها «الخالديان» أشعاراً ونظائر هذه الأشعار.. من هذه الموضوعات.

الحذق فى الشعر، معنى وصف الرجل والمرأة بالضعف والسلم. معنى سرعة تحدر الدموع.. معنى مشى المرأة. معنى الاستغناء بالسلاح عن الحصون.. معنى حديث النساء، معنى فضل الشيب على الشبان فى الحرب. معنى اقتحام الحرب والعفة عند المغنم أيضاً.. معنى وصف الثغورمعنى وصف المنهزمين. معنى التزوج فى غير الأقارب. فى صفة السيف. فى صفة الرمح. معنى وصف السيد بالطول وغيرها وغيرها من الموضوعات التى تناولها «الجزء الأول» أما الجزء الثانى فقد تناول موضوعات أكثر

منها: معنى حياة العشيرة. ونهضة المتقدمين ومعنى حمل النفس على المكروه. والسيادة بالحجى لا بالمال. ذكر الحبيب في الصلاة. في صفة الفرس، في صفة الخباء. اختصار الحديث خشية الرقباء. مذمة النساء. العفة عند المغنم. وغيرها وغيرها وغيرها من مئات الموضوعات التي تناولها الشعراء واختارها الخالديان في هذا الكتاب، الذي أصبح موسوعة للشعر العربي في عصوره المختلفة.

ولكن لابد أن نقرر أن الكتاب كان انعكاساً للنزاع بين التعصب للقديم، والتحمس للمحدث. ودراسة «السرقات الشعرية» وهذه كانت ملمحاً من أهم ملامح النقد الأدبي، وبابا من أهم أبواب العلم بالشعر والأدب: وكتاب «الأشباه والنظائر» يتعلق بهذا الموضوع بالذات، وإبراز فضل السبق إلى المعاني الشعرية للمتقدمين والمخضرمين، والموازنة بينهم وبين المحدثين، وذلك عن طريق التتبع وإيراد الأشباه والنظائر.

ولاشك أن الكتاب أفاد من المعارف العامة التي كانت سائدة في أيامها وإن لم يذكرا إلا البديع لابن المعتز والحاتمي وابن قتيبة، ومع ذلك فقد اعترفا في آخر الكتاب بقولهما «وجميع ما أثبتناه فاختيار من أشعارهم المجهولة والمشهورة، ومالنا إلا الجمع والتأليف، ولعل غيرنا ممن يقرأ هذا الكتاب يرذل شيئاً مما اخترناه، ويهجن شيئا نقلناه. وهذا غير مزر بنا ولا ناقص لنا، لأن لكل إنسان اختيارا...»

على أية حال لابد أن نقرر أن الكتاب قدم لنا «أشعاراً كثيرة» كانت مجهولة. ونقب عن شعراء، ينشر شعرهم لأول مرة في كتاب، وقدم شيئاً هاماً من خلال وضع النصوص الأصلية ونظائرها من النصوص التي تلتها، يكاد يمثل منهجا في نقد الشعر لم يلتفت إليه أحد من النقاد القدامى ورواة الأخبار والشعر.

ولا ندري لماذا أغفل «الخالديان» أبا الطيب المتنبي فلم يذكراه بالمرة ولم يوردا شيئاً من شعره، وعلى الرغم من أنهما عرفا «المتنبي» عن قرب وتناقشا معه أيام صلته «بسيف الدولة» ويقول الدكتور «محمد يوسف» محقق الكتاب في مقدمته «أفلا يجدر بنا - إذا - أن نتساءل: هل يمكن لأحد أن يعمد إلى الموازنة بين المتقدمين والمحدثين فيسقط المتنبي من اعتباره، ويذكر الصنوبري والنوبختي مثلا. إنما يغلب على الظن أن إهمال المتنبي أمر متعمد، ولعل السبب في ذلك واضح، أي ما هو معروف من كراهية الوزير المهلبي له. لقد كان الوزير المهلبي جاوز حد التعصب على المتنبي في النقد العلمي، حتى إنه كان يعاديه عداء شخصيا».

★★★

بعد كل هذا أقع في حيرة هل اكتفي بالتعريف بالكتاب على هذا النحو دون أن أذكر نماذج مما فيه من أشعار؟ وهو في الأصل كتاب «مختارات من الأشعار».

ولكن لا بأس من أن نذكر بعض هذه الأبيات وما لها من أشباه ونظائر، وأن نذكر بعض الحكايات التي رواها الخالديان .

قال القفال العلابي:

لقد ولدت عوف الطعان ومالكا وعمرو العلى والحارث المتنجبا
رجال بأيديها دماء ونائل يكاد على الأعداء أن يتحلبا

ومن هذا أخذ البحتري قوله:

وصاعقة في كفه ينكفي بها على أرؤس الأبطال خمس سحائب
يكاد الندى منها يفيض على العدى مع السيف في ثنى قناة وقواضب

والبحتري وإن كان أخذ المعني وأتى به في بيتين فقد جود وأحسن ولحميد بيت قد أكثر الشعراء في القديم والمحدث في معناه فما فيهم أحد أتى به إلا دون حميد، وهو قوله:

أرى بصرى قد خانني بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

هذا بيت قد جمع من صحة المعني جودة اللفظ، وحسن التقسيم، وملاحة الكلام. وإن كان أخذه ممن قبله فقد زاد عليه. لأن النمر بن تولب أول من أتى بهذا المعنى في قوله.

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحني فإذا السلامة داءُ

وهذا البيت وإن كان الأول فبيت حميد أحسن كلاما وأجود وصفا.

وقد جود أبو العتاهية هذا المعنى في قوله.

نهوى من الدنيا زيادتها وزيادة الدنيا هي النقص

وقال بشار:

دعتني حين شبت إلى المعاصي محاسن زائر كالريم غض
كأن كلامه يوم التقينا رمى ضد في طولى وعرضى

ومن أجود ما قيل في هذا الحديث - قديما وحديثا - قول ابن الرومي

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملك وإن هي أوجزت ود المحدث أنها لم توجز
شرك القلوب ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

قال الحصين بن الحمام المري:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
وأطرق أطراق الشجاع ولو يرى مساغا لنابيه الشجاع لصمما
لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما

قوله «تأخرت استبقى البين» مثل قوله الخنساء:

نهين النفوس وهون النفو س يوم الكريهة أبقى لها

ومثله أيضاً.

ولا ينجى من الغمرات إلا براكاء القتال أو الفرار

وقال ضرار بن عمرو الأسدي :

وكنا إذا نحن التقينا على النوى وأبرزها نحوى حجاب يصونها
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وأوساطها حتى تميل فنونها

هذا يشبه قول الطرماح

مازلت افترص الحديث لهن من حق وباطل
وأحثهن عن الأيامن وعن الشمائل
إن اختصارك للحديث إذا خشيت من المحاول

وإليه نظر البحترى بقوله:

وزائر زار من أعقته يميل وزنا بأنسه ذعره
كأنه جاء منجزاً عدة وبت في الراقبين انتظره
كأنما الكاشحون قد علموا مكانه أو أتاهم خبره

أبيات البحترى هذه أجود ما قيل فى هذا المعنى، ظرف كلام واستغراق تشبيه

***

وفى (الأشباه والنظائر) حكايات كثيرة، وطرائف مثيرة نقلها «الخالديان» من كتب التراث فى الأدب والتاريخ. ومن أهم هذه القصص، قصة مالك بن نويره الذى قتله «خالد بن الوليد» وتزوج امرأته، ويقال إن خالدا قتل مالك ومن معه من المسلمين، ليتزوج امرأته. وكانت أجمل نساء العرب، وذلك قال مالك وهو يقاد إلى القتل- لامرأته: أنت والله قتلتنى بهذا الجمال، وكان مالك من فرسان العرب وفتيانهم، وقد رثاه أخوه «متمم» بقصائد كثيرة نقلها «الخالديان» فى الجزء الثانى من الكتاب.

وفى الأشباه والنظائر موازنات أدبية ونظرات نقدية تضارع أهم نظرات النقد الأدبي التي كانت شائعة حينذاك.

ولا يسعنى فى ختام هذه الحلقة إلا أن أنقل تعريف المشرف على سلسلة الذخائر ورئيس تحريرها العالم الشاعر الأديب عبدالحكيم راضى بهذا الكتاب يقول «من المؤكد أننا فى هذا الكتاب أمام ناقدين من نوع نادر. فقد جمعا بين قول الشعر وروايته والعلم به، ثم ممارسة نقده. بل ممارسة المستوى الأصعب من النقد، وهو النقد التطبيقى الذي يكشف عن قدرة الناقد واكتمال أدواته.. إن قارئ هذا الكتاب يجد نفسه محفوفاً بحديقة بديعة وافرة الثمار والأزهار.. يسعدنا أن ننقل إليك هذه الحديقة عبر هذه الحلقة من سلسلة الذخائر». ■



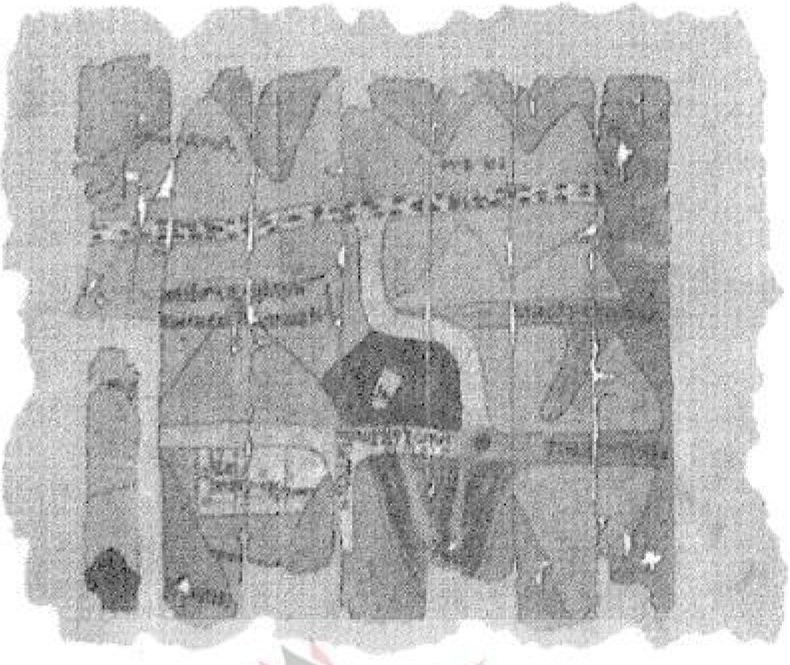
كان الهدف من رحلتنا للصحراء الشرقية هو التعرف على تاريخها القديم وما تحويه من رسوم بدائية ونقوش فرعونية وآثار تحكي تاريخ من عاش داخلها، وفي العدد الماضي نشرت «الهلال» تحقيقا مصورا عن الحياة داخل الصحراء وما تخفيه جبالها ووديانها من حياة بشر وأحلام ومخاوف، وها نحن اليوم نستكمل الحوار مع الصحراء الشرقية، نستكشف مجاهلها التي تخفيها وراء تلك التلال والربوات والجبال. وكلما اقتربنا منها ازداد إعجابنا بها أكثر فاكثر.. فتلك المنطقة المجهولة كانت ولاتزال موطن المعادن والأحجار الكريمة والزبرجد والقصدير والنحاس. وحوت جبالها المقالع والمحاجر للصخور والجرانيت، وكانت معبر الطرق التجارية شرقا وغربا.. وظلت تحتفظ بمكانتها كموطن للذهب المصرى منذ أقدم العصور متباهية بكنوزها ومعطاءة لا تبخل على من يأتيها راغبا في الثراء..

كثيرون طرقوا أبوابها وسبروا أغوارها بحثا عن الذهب بداية من الفرعون القديم مروراً بمحمد علي باشا مؤسس الدولة الحديثة وحتى القرن الماضي حيث شهد محاولات عدد من المستثمرين الأجانب والمصريين أمثال الكونت جون دى لافيزون وأحمد فؤاد الرملي وغيرهما ممن أوصلوا انتاج الذهب المصرى إلى ٥٢٠ كيلو جراما خلال عام ١٩٥٧.

الذهب في عهد الفراعنة

أثناء زيارتنا للصحراء الشرقية توقفنا عند بعض مناجم الذهب القديمة والتى لها تاريخ طويل مع تعدين واستخراج الذهب على مر العصور، مثل مناجم البرامية والسكرى وأم الفواخير والسد. كما شاهدنا عددا من أطلال القرى التى كانت تضم بيوت عمال المناجم بالقرب منها.

واكتشفنا خلال رحلتنا أن مصر لاتزال موطنا لخام الذهب لكن ضعف الإمكانيات والاحتياج الى تكنولوجيا متقدمة باهظة التكاليف يعوق محاولات الاستثمار في مجال استخراج وتعدين الذهب فى مصر .. وبرغم أن مصر وصحراءها الشرقية قد شهدا نشوء الفكر الجيولوجى والعلمى المتطور.. فكانت مناجم أبوالمروات والسكرى والبرامية خير دليل على توصل المصرى القديم إلى موقع الذهب واستخراجه ومع تطور الفكر العلمي، نجد أن المناجم ازداد عددها خلال عهد الفراعنة القدماء ومع قيام الدولة الحديثة، ومن بعدها جاء العصر البطلمى ليتبع ما توصلوا إليه دون أية



«بردية تورين» أقدم خريطة توضح موقعاً لأحد مناجم الذهب

اضافة منهم، ومن بعدهم جاءت الدولة الرومانية التي يغلب عليها الطابع العسكرى القائم على الغزو، لذا حرصت على إقامة أبراج أو تبات بها مرايا فوق قمم جبال الصحراء الشرقية لتقوم بحراسة مناجمها ولتنقل أية رسائل مهمة من البحر الأحمر إلى النيل. كما نشط الاستكشاف التعدينى خلال عهد محمد على طوال ٤٠ عاماً هى فترة حكمه فعرفت مناجم عطاالله والفواخير وأم قـــرابة وأم الروس والدرهيب..

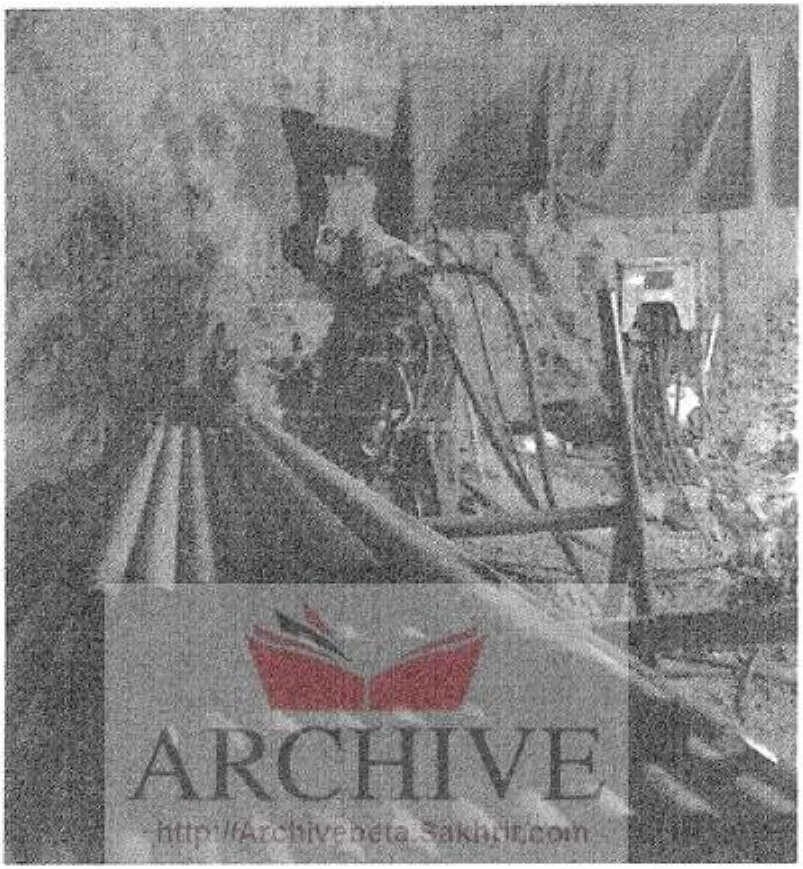
وتأسست هيئة المساحة الجيولوجية عام ١٨٩٦ ومصلحة المناجم والمحاجر المصرية عام ١٩٠٥ لتقوم بمتابعة النشاط التعدينى وذلك بعد أن ظهرت فى جميع أنحاء العالم، الدراسات العلمية التى تلقى الضوء على مناجم الذهب القديمة فى مصر وإمكانية إعادة تشغيلها مرة أخرى.

رحلة البحث عن المرو

وادى البرامية يبعد عن مدينة مرسى علم حوالى ١٢٠ كيلو متراً

ويعتبر من أغنى بقاع مصر، فالبرامية اسم الجبل والوادى والمنجم فى آن واحد ويضم منجماً قديما لايزال يحوى كنوزا ذهبية تنتظر من يستخرجها ، وقد أعيد استغلاله فى عام ١٩٠٧، وكان يدار وقتها بالآلات البخارية ، ويحوى جيبا غنيا بالذهب الخام حتى أن الشركة التى كانت تستغله قدرته فى عام ١٩١٣ بحوالى الألف أوقيه من الذهب والتى يمكن فصلها ببساطة باليد المجردة، وهو الأمر المشجع والمربح.. ومن أهم ما يميز وادى البرامية أنه يحكى تاريخ التعدين فى مصر والعالم أجمع خاصة تعدين الذهب، بدءاً من رحلة التقاطه كحبات ذهب متناثرة على أسطح الصخور وحتى رحلة البحث عنه داخل عروق المرو «الكوارتز» الحجر الحامل لخام الذهب.

وهذا ما لفت نظر الإنسان الأول، الضوء اللامع بين حبات الرمال. ولكن مع ظهور الدولة القديمة بدأت عمليات تعدين الذهب تأخذ شكلها البسيط.. ويذكر لنا الدكتور محمد أبوبكر الهوارى المدير العام بهيئة المساحة الجيولوجية أن طرق البحث تطورت فلم تكن فتحة المنجم يتعدى عمقها من خمسة إلى عشرة أمتار ازدادت مع الوقت لتصل إلى ٥٠ أو ٦٠ مترا عمق.. خاصة خلال فترة الدولة الحديثة ، كما شهدت الأدوات المستخدمة فى استخراج الذهب تطوراً أيضا .. على سبيل المثال الشواكيش الحجرية التى تستخدم فى كسر الأحجار أصبح شكلها أكثر انسيابية يسهل الإمساك بها كذلك والطواحين التى تستخدم فى طحن فتات الأحجار الحاملة للذهب فكان المصرى القديم يستخدم الأدوات الحجرية كوسيلة للحفر أو الخوابير الخشبية المبللة بالماء وحشرها فى شقوق الحجر ثم تركها لتتمدد داخله لتفلقه وذلك لحفر أنفاق الدخول إلى المنجم، ويذكر أجاثاركيدس أقدم من كتب عن مناجم الذهب فى عام ١١٣ قبل الميلاد .. يقوم الحفارون بشق أنفاق متشعبه كجذور الأشجار يقطعون العروق البيضاء - المرو - ثم يفتتونها يطحنونها بالطواحين الحجرية الدائرة وتوضع على موائد ذات انحدار يصب فوقها الماء.. يخلط العجين فى بوتقة لعدة أجزاء من الرصاص والملح والفضة والشعير ثم توضع على النار مع خمسة أيام متصلة، بعدها يبرد الخليط فتظهر كتلة الذهب المنصهر.. وهذا ما رأيناه عند منجم الذهب بوادى البرامية ، بل شاهدنا عند سفح الجبل آلافا من الأوانى الحجرية والطواحين والرحى القديمة منحوتة من الصخور الرسوبية متراصة داخل أطلال قرية يطلقون عليها اسم «روض البرام» وهى مقر



الأدوات المستخدمة فى حفر المناجم

عمال ومهندسى التعدين.. ولذا سمى المكان كله باسمها «البرامية» وتضم الصحراء عددا من المواقع القديمة التى تضم بيوت العمال البعيدة عن طرق المواصلات مثال ذلك منطقة «دارة» غرب رأس غالب..

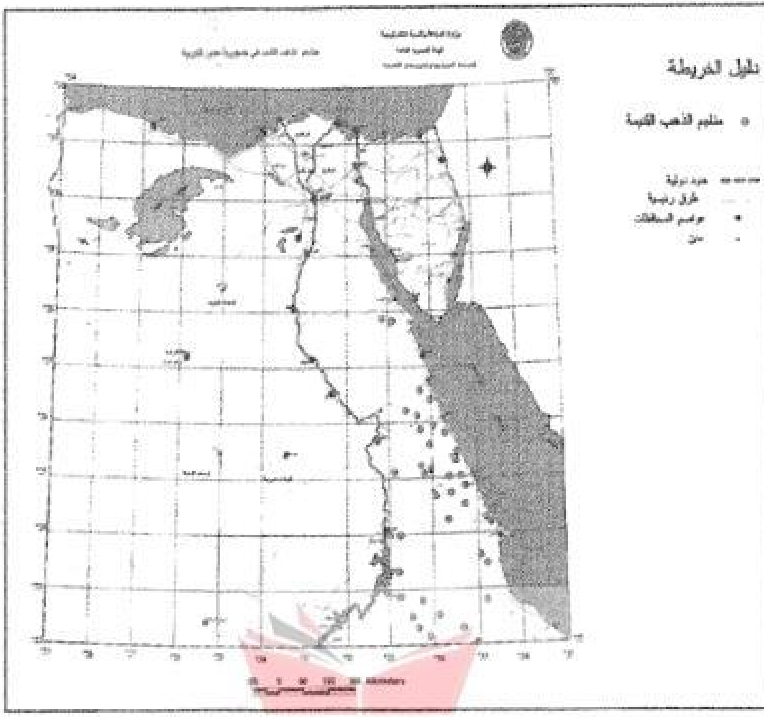
حواشي من الذهب

تركنا وادى البرامية حتى نتمكن من زيارة جبل السكرى انحرفنا عن الطريق الرئيسى باتجاه الصحراء إلى ما يزيد على ٤٠ كيلو مترا حتى بدأ سفح الجبل يتجلى أمامنا وسط سلسلة الجبال المتعاقبة .. تذكرت وصف الدكتور جمال حمدان بأن صحارينا «خرقة بالية حواشيها من الذهب»



الذهب حلية المرأة على مر الزمان

فتحت تلك القمة الشامخة - قمة جبل السكرى يكمن كنز أهم وأقدم مناجم الذهب فى مصر. أعيد استغلاله مرات عديدة، منذ عهد الفراعنة وحتى وقت الاحتلال الانجليزى ففى أوائل الثلاثينات من القرن الماضى، اعاد أحمد فؤاد الدرمللى تشغيل منجم السكرى خلال أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ ، ولكن فى عام ١٩٣٣ قررت الحكومة المصرية الاحتفاظ به ومواصلة عملية الانتاج، فجهزت معدات المنجم وآلات الطحن والاستخلاص وتحول منجم السكرى إلى المنجم الحكومى والذى يغذيه بخامات المناجم الأخرى مثل أم الروس وأم عود والكردمان .. وانتقل موقع استخلاص الذهب إلى «مرسى علم» لتتحول المدينة من بعدها إلى قاعدة للخدمات وللبعثات الجيولوجية



خريطة توضح مواقع مناجم الذهب القديمة فى مصر

والاستكشافية الحكومية.. واستمر انتاج المناجم الحكومية حتى بعد عام ١٩٥٢ .

وعند أقدام الجبل تناثرت رمال بيضاء.. وعند سؤالنا لأحد المشرفين على العمل فى المنجم .. أكد أن تلك الرمال البيضاء تحمل بين حباتها ذهبا تقترب قيمته من ١١ مليون جنيه.. وبرغم حلول الظلام استطعنا زيارة منجم السكرى الذى تقوم باستثماره إحدى الشركات الأجنبية .. العمل مستمر طوال اليوم لا يتوقف، العينات التى يتم استخراجها من باطن الجبل تبشر بانتاج ضخم من الذهب.. يذكر لنا المهندس محمد فرغلى المسئول عن الموقع أن الدراسات الجيوستيتستك قدرت حجم الذهب المستخرج خلال المرحلة الأولى بحوالى ٢٠ ألف أوقية فى السنة، لكن بعد إجراء البحوث الميدانية وجدنا أن النسبة ارتفعت إلى حوالي ٨٠ ألف أوقية فى السنة ، كل

ذلك كمرحلة أولى فقط. مما شكل عائقا أمام مواصلة العمل - فكلما تعمقنا نجد أن انتاج السكرى يكون أكثر بكثير مما توقعناه.

لذا يعتبر جبل السكرى أغنى موقع للذهب داخل منطقة الصحراء الشرقية.. وكان الانتاج المصرى من الذهب قد وصل فى عام ١٩٥٧ إلى حوالى ٥٢٠ كيلو جراما فى السنة .. طبقا لإحصائيات هيئة المساحة الجيولوجية، وفى أعقاب صدور قرارات التأميم، وهجرت شركات التعدين الأجنبية التى كانت منتشرة فى الصحراء ونظراً لعدم وجود البديل المصرى تناقص الانتاج إلى حوالى ٥٧ كيلو جراما فى عام ١٩٥٨ ثم توقف تماما حتى يومنا هذا، أى أن مناجم مصر لاتزال تحوى كميات ذهب محفوظة تنتظر من يستخرجها.

فرص استثمار الذهب

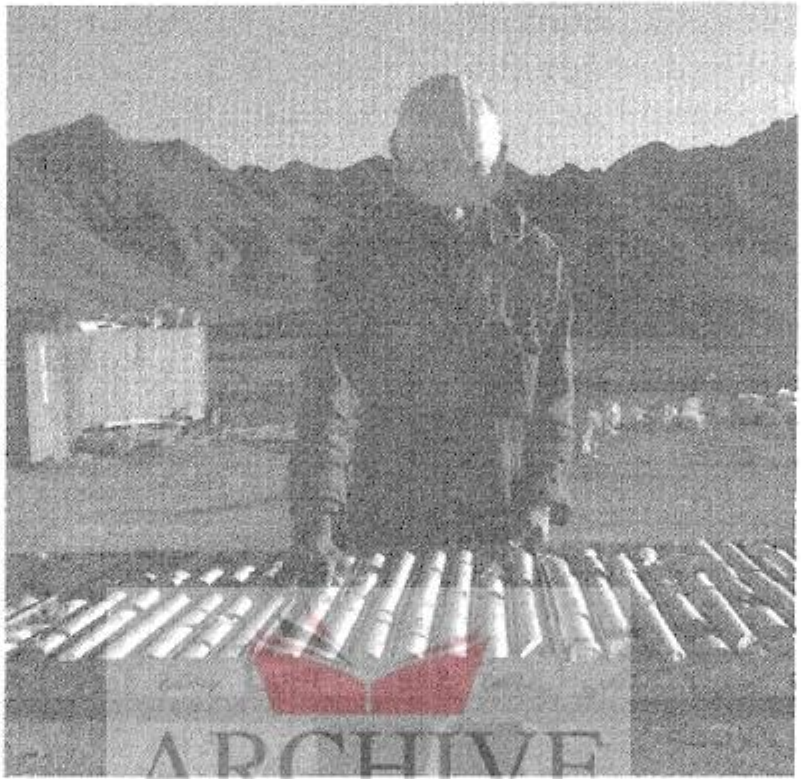
وكانت هيئة المساحة الجيولوجية قد عقدت اتفاقا مع جامعة «ميونخ» على مدى خمس سنوات حتى عام ١٩٨٩ بهدف دراسة واستكشاف جميع مناطق الذهب فى مصر.. تمهيدا لطرح جميع المواقع التى تم اكتشاف الذهب بها للاستثمار أهم ما خلصت إليه الدراسات كما يذكر لنا د. «الهوارى» أنها أكدت حقيقة امتلاك مصر حوالى ١٢٠ منجم ذهب قديم يمكن استغلالها مرة أخرى

ويبرر بأن .. ضعف إمكانيات وقلة التكنولوجيا المتوافرة للمصرى القديم لم تمكنه سوى من استغلال الذهب الموجود على السطح فقط.. نظراً لصعوبة الدخول نحو أعماق كبيرة.. مما يبشر بكميات ذهب مخزونة بالداخل..

ومن ضمن الدراسات التى قام بها الجانبان دراسة الخصائص.

الجيولوجية والطبيعية والكيميائية والطيفية للصحارى وللصخور. ويوضح لنا الدكتور «الهوارى» «أن تلك الدراسات تكمن أهميتها فى التعرف على الخصائص المميزة للصخور الحاملة للذهب وبالتالى امكانية مقارنة صخور الأراضى المصرية كلها باستخدام الأقمار الصناعية والتوصل إلى مواقع الصخور الحاملة للذهب، وبالتالى إمكانية اكتشاف مناطق جديدة تحوى الذهب» وأكدت الدراسات أن مناطق البرامية والسكرى وأبو المروات وحمامة هى أكثر الأماكن تركيزاً للذهب.

ويقوم نظام الاستثمار على منح المستثمر حق امتياز لاستغلال أحد المناجم فيقوم بالبحث عن الخام أو المعدن ويتحمل خلالها جميع التكاليف. وبعد اكتشاف الذهب تتكون شراكة



عينات من الصخور الحاملة للذهب

مناصفة بين الهيئة والمستثمر طبقا لدرجة نقاء الخام داخل المنجم لقربه من مناطق العمران أو وجوده في مناطق نائية. على أن يسترد المستثمر تكاليف البحث خلال السنوات الثلاث الأولى في الانتاج.

أول خريطة للذهب

من أوائل من اهتم بإعادة اكتشاف مواطن الذهب بالصحراء الشرقية خلال العصر الحديث كان محمد علي باشا. أرسل عام ١٨١٩ العالم الأثري فورني ومعه العالمان «بوركهارت» و«روبل» خاصة بعد تأثره بأعمال الحملة الفرنسية على مصر. فأرسل مبعوثه لمعرفة موارد الصحراء المصرية لتغذية نهضته الصناعية التي كان يحلم بإقامتها في مصر. كما استعان بعلماء من مختلف الجنسيات. مثل «كايو» أول

من وضع خريطة جيولوجية لجنوب الصحراء الشرقية عام ١٨٢٢. و«روسيجر» أول من رسم خريطة جيولوجية لمصر كلها.

وإن كان أقدم الخرائط لمواقع الذهب ترجع إلى عصر رمسيس الرابع (١١٥١ - ١١٤٥ق.م) حيث عثر عليها «دورفيتي» أشهر الباحثين عن الآثار داخل مقبرة لعائلة «اميناخت بالأقصر. وهي عبارة عن لفائف بردي عليها رسم لخريطة توضح موقعاً لأحد مناجم الذهب وبعض المعالم الصحراوية وست طرق تحوطها الجبال وموقع لبيوت العمال ومعبد وبئر منقوش عليها إسم الملك «سيتي الأول» أطلقوا على البردية اسم تورين نظراً لتهريبها إلى متحف تورين بإيطاليا. وهي دليل على اهتمام المصريين القدماء بإقامة مكتبات للوثائق تكون ذات صلة بالمعالم الصحراوية وأنشطة التعدين في مصر القديمة. تصاعد الاهتمام باكتشاف مواطن الذهب مع تزايد اكتشافات آثار قدماء المصريين في أنحاء وادي النيل. وإن كان اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون وتابوته الذي وصل وزنه إلى ١٣٣ كيلو جرام من الذهب الخالص. مما صعد رغبات الثراء والبحث عن ذهب الفراعنة. ويكفينا ما كتبه ملك الميتان (جنوب بلاد ما بين النهرين) إلى صهر أمنحتب الثالث أحد ملوك الدولة الحديثة يرجو إرسال مزيد في الذهب المصري له فيقول له «أخي. أرجو أن تهديني ذهباً كثيراً لا يحصى... أليس الذهب في بلد آخر كتراب الأرض». بل إن المصريين القدماء اتخذوا من الذهب وحدة نقدية «الشعت» وزنها حوالي ٧.٥ جرام لتسهيل جبي ضرائب الدولة والتبادل التجاري. كل ذلك دفع الكثيرين إلى الحصول على تراخيص بحث وطلب عقود استغلال الذهب. مثل المهندس نوكس براون أول من قام بدراسة الجدوى الفنية والاقتصادية للقيام باستغلال مناطق الذهب أعقبه الثلاثي الفورد وفرانك وجونسون خلال عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠. كما قام ليويلين بدراسات نشرت نتائجها التعدينية عام ١٩٠٣.

مدينة الذهب

اتخذنا طريقنا نحو وادي أم الفواخير.. يقع في منتصف الطريق ما بين مدينة القصير - قفط بالقرب من وادي الحمامات. اشتهرت المنطقة باسم مدينة الذهب. نظرا لكثرة مناجم الذهب بها وعلى مر التاريخ كانت تحوي تجمعات سكنية. عبارة عن منازل بسيطة ومشيدة من كسرات الجرانيت المتبقية في المحاجر القديمة

مخصصة لسكنى العمال الذين يخدمون في المناجم القديمة. توقفنا عند منجم الذهب القديم وعند سفحه أقام الاحتلال الانجليزى مصنعاً ضخماً لاستخراج الذهب من المنجم وتعدينه. وداخل المبنى والمنجم شاهدنا ماكينات المصنع التى لاتزال تحمل اسم بريطانيا العظمى، زرنا استراحة الكونت الانجليزى جون دى لافيزون، الذى كان يدير العمل في المصنع، ولاتزال كنيسته الصغيرة تتصدر باب الدخول، وللأسف علا الصدأ جميع ماكينات المصنع بعد توقف العمل داخله منذ عام ١٩٦٨.

ويحكى لنا الدكتور محمد سميح عافية الجيولوجي بهيئة المساحة الجيولوجية في كتابه عن تاريخ التعدين في مصر. أن الكونت جون دى لافيزون اهتم بالاستفادة من نفايات التشغيل المتبقية في العصر الفرعوني القديم والموجودة بالقرب من منجم الفواخير، وقام ببناء أحواض كبيرة أسمنتية لنقع تلك النفايات في محلول «السيانيد» لاستخلاص الذهب منها مما حقق له أرباحا طائلة. وفي عام ١٩٤٣ نقل العمل إلى داخل المنجم وأقام بجواره طاحونة صغيرة. وفي عام ١٩٤٧ أقام آلات ومعدات طحن للخام وإذابته وتجميعه وتنقيته وصبه، وصل إنتاج مصنعه خلال العام الواحد من ٧ - ١٢ ألف طن من الذهب الخام المستخرج من منجم أم الفواخير.

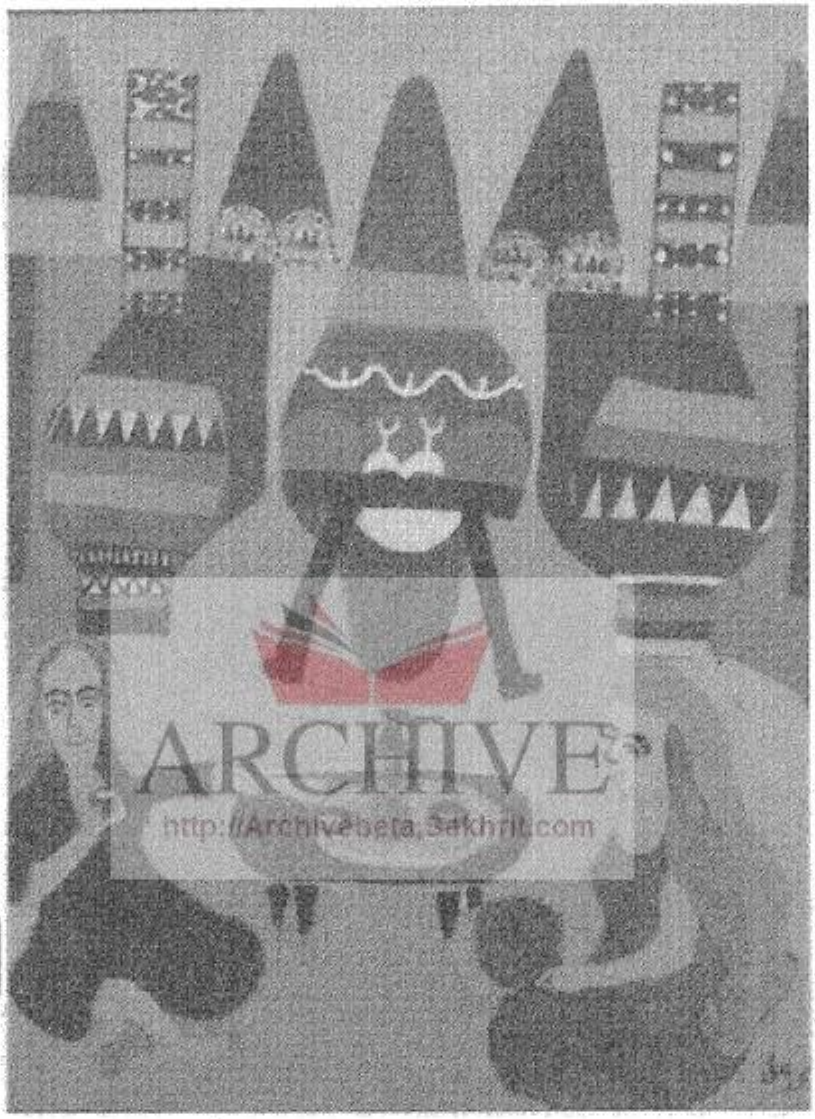
وخلال فترة الخمسينات من القرن الماضى شهدت الصحراء الشرقية ثلاثة من صغار المشتغلين في مجال استخراج الذهب وتعدينه هم عبد الملك بك حمزة/ لبيب نسيم/بنايوتى سرباكيس. وعاماً بعد عام بدأ الإنتاج المصرى توقف تماما وبرغم محاولات الاستثمار الموجودة حاليا حيث تقوم ثلاث شركات أجنبية (بريطانية ، أمريكية ، أسترالية) في مناطق أبو المروات وحمامة وحميش والسكرى إلا أن الصحراء الشرقية حتى الآن لم تشهد استخراج جرام ذهب واحد من جبالها ومناجمها. فكأن الشركات الموجودة تقوم بأعمال الاستكشاف والبحث دون اتخاذ الخطوات اللازمة القيام باستخراج وتعدين الذهب. لذا فإن صحراءنا لاتزال تنتظر استثماراً حقيقيا لمناجم الذهب الذى فاق عددها المئة منجم واستغلالها حتى تستعيد مصر مكانتها كمصدرلخام الذهب. الأمر الذى سيعود علينا جميعا بالفائدة !! ■



الفنان محمد على
يزركش نفسه تلقائيا

صافى ناز كاظم

لم ألتق به منذ مدة طويلة. يهاتفني من حين لآخر لمعايدة وسلام. ترك لى رسالة يشكو من معد لبرنامج تليفزيونى أخذ منه أشرطة مسجلة لتراث الشيخ إمام على سبيل الإعارة ولم يردها. ضحكت من صوته الهادئ الذى لا يتناسب مع صياغته للشكوى. قلت له: «يا محمد ستظل هكذا مسروقا دائماً ولا تتعلم؟». بلا اهتمام قال: «ح أعمل إيه». جاء يزورنى لأرى صور لوحاته، آخر إنتاجه في فنه الرسم التلقائى صعد معه البواب متوجسا حتى باب شقتى، وما أن سمع ترحيبى: «أهلاااان يا محمد» حتى اختفى توجس البواب وتضاربت على وجهه، وهو ينصرف، تعبيرات الدهشة مع التعجب مع العجز الكامل عن تفسير حالة «محمد على»



قلل وقباب وعرائس فى تكوينات زخرفية متداخلة فى مسامرات الحى الشعبى

كان الفنان «محمد على» قد بدا بملابسه وهيئته مزركشا زركشة تلقائية خليقة بأن يظنه من يجهله مجنونا أو مجذوبا فى أفضل الظنون. يرتكز على عصاه، مع البنطلون والسترة الجينز الفضفاضة ولونهما الأزرق الكالح، بدت تحت السترة أطراف متعددة الألوان، بين البمبى والبنفسجي والأخضر، لملابس كدسها فوقه لتقيه برد يوم السبت ٢٤ طوبة الموافق أول فبراير ٢٠٠٣، ووضع على رأسه طاقية مغربية جوخ حمراء طربوشية فاقعة الاحمرار تاركا شعره الأبيض من تحتها مسترسلاً طويلا، وعلى كتفه تعلقت حقيبة كبيرة سوداء بالغة الأناقة، تلك التى أخرج لى منها صور لوحاته التى مازالت تدور حول جلسته مع الشيخ إمام والشاعر نجم، وأهل حارته، وحجر رصف الطريق، وزخارف الشبابيك والقباب والمآذن والألوان الزاعقة الصاخبة يكسرها ثم يحقلها اللون الأزرق.

قلت: «قهوة يا محمد؟»

قال: «طيب».

قلت: «أو تفضل الشاي؟»

قال: «طيب».

قلت: «القهوة تركى أم نسكافيه»؟

قال: أى حاجة

قلت: باللبن؟

قال: «أى حاجة»

قلت: «ما رأيك أحضر غداء؟»

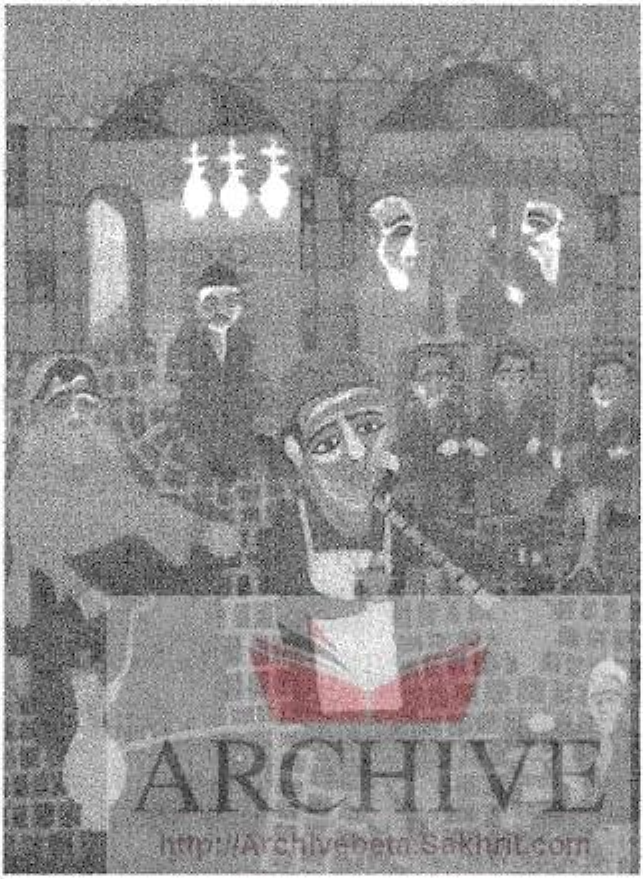
قال: «ولا حاجة»

كل إجاباته تأتى بهدوء وبلا اهتمام فالأمور عنده متساوية وضعت أمامه كوب القهوة باللبن والسكر الزائد حسب تقديرى لما يمكن أن تكون رغبته، مدركة أنه من الصعب تحديد رغبة من لم تعد لديه رغبة فى شئ.

* * *

محمد على مولود فى مايو ١٩٣٠. يسكن حالياً فى درب المقشات عند جامع الصالح طلائع عند باب زويلة بعد أن تهدم منزله العريق فى حارة «حوش قدم» المتفرعة من شارع «حوش قدم» المتفرع من شارع «الغورية». ولد وعاش وتغيرت به الأحوال وتبدلت معه الحرف، لكنه فى كل هذا لم يخرج عن عالم «الغورية». كان صائغاً حتى تعرف على الشيخ إمام عيسى، رحمه الله، ثم أصبح واحدا من ثلاثى فرقه «الكيان الفنى إمام - نجم». لم يتعلم القراءة أو الكتابة إلا رسم توقيع اسمه «محمد على». كان يمثل «بطانة» الشيخ إمام يأخذ بيده فى المشاوير، ويرتب له احتياجاته ويرعاه ويستضيف الجميع فى بيته، المكون من غرفة معيشة وغرفة نوم صغيرة جداً، ويحفظ ألحانه ويردد وراءه المقاطع المطلوب ترديدها مع الكورس. كان الشيخ إمام يشهد له بأذن موسيقية دقيقة تجيد «النشان» على «المقام» الموسيقى. يتحدث الشيخ إمام، يتكلم الشاعر أحمد فؤاد نجم ويصول ويجول مع الضيوف والمستمعين، ويظل «محمد على» صامتا معظم الوقت إلا فى

المقتضب مثل «تشرب شاي» و«اتفضل» وتبقى لديه وسط الضجيج ابتسامة لا تفارق عينيه كأنه على وشك الانفجار بضحكة ساخرة. حين التقيت به أول مرة عام ١٩٧٢، فى إطار «إمام - نجم»، كان فى الثانية والأربعين ووصفته بقولى «طفل» و«عجوز» مثل «الغورية» التى أنجبته ونشأته



ايحاءات المقهى عند الفنان التلقائى

وعلمته وألهمته: مثلها «عجوز طفل» و«طفل عجوز». حين عرف الغناء والموسيقى عرف معهما الألوان والفرشاة فأصبح الرسم قراءته وكتابته وحديث صمته الطويل الدائم. لا يعرف الحماس إلا عندما يؤكد أنه حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قبل توبته عن المعاصى التى تمنى أن تغسلها عنه فريضة الحج التى أداها منذ أربع سنوات، والتزامه بالصلاة فى مواقيتها فى جامع الصالح طلائع جار بيته الآن.

صنفه النقاد تحت لافتة «الفنان التلقائى»، ولكنى اخترت له «فنان النبض الشعبى» لأنه نهل من النبع الأصلى مباشرة بلا واسطة، فهو فى موقع ومن موقع التماس البكر مع رؤية الشعبيين

ونبضهم، وهذا هو الإنجاز الباهر الذى حققه «محمد على» فى تعبيره الفنى بلا جهد أو اصطناع لأنه كان «تماسا» حميما مع تكوينات نفسه وعينه وذاته. لوحاته الكثيرة كلها رجال ونساء وأطفال تعكس التعب والمشقة والقهر والصبر ولا عجب، فهى وجوه سواد الشعب المصرى المتعب العامل دأبا فى احتمال ونكتة تحت طحن الرحى. مع التعب والشقاء المنعكسين بالحاح فى لوحاته، لا تجد اليأس أبداً، فالطفل والعجوز داخله يدركان بالبراءة والخبرة أن «دوام الحال من المحال» و«إن مع العسر يسرا»، لذلك تجد الفنان «محمد على» وقد أغرق لوحاته بالألوان الجياشة المرحة التى تحمل فى مرحها - «مثل ألوان ثيابه» - الفرح والشجن متلازمين.

* * *

سألته وهو يرشف قهوته: «ما أخبار الفنان محمود اللبان؟» قال: «مااات». قلت: «وما أخبار بيت الشيخ إمام؟» قال: «مش عارف» قلت: «أخته لاتزال تسكن فيه؟» قال: «مااااات». قلت: «أنا زرت حوش قدم وشفت أنقاض بيتكم القديم وقابلت صاحب القهوة جاركم حسن بطنجها ..قال: «مااااات».

كل مرة يخبرنى فيها بموت أحد ترتسم على وجهه ابتسامة متسعة «تتزأطط» فيها نظرة عينيه كأنه يعلن عن نيل المتوفى لجائزة «اكسب المليون» و«عقبال أملتك»!

ما كل هذه البشاشة مع سيرة الموت يا محمد؟

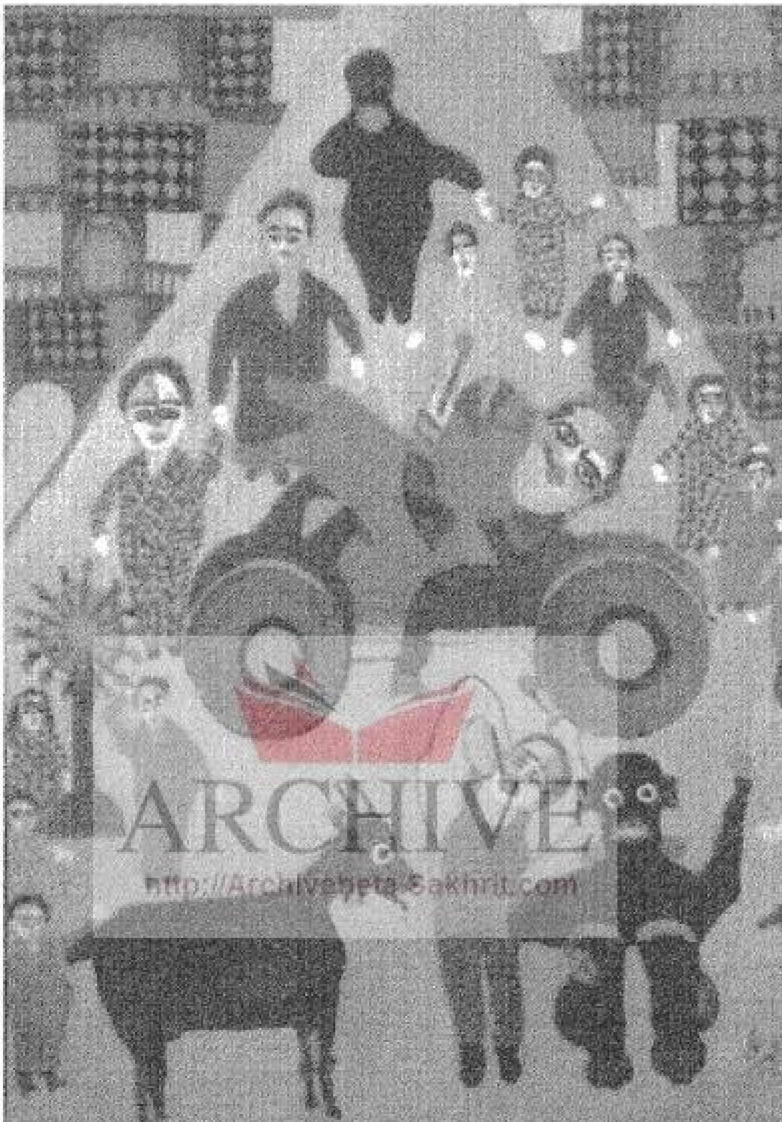
سعل ضاحكا، أو ضحك سعالاً وهو ينظر فى اغتباط أمامه إلى الأفق وراء زجاج النافذة. ثم استطرد: «محمود اللبان مات صباح حصوله على قرار منحة التفرغ». بعد قوله هذا ظل يهز رأسه بما يمكن أن يكون تعجبا من المفارقة أو أسفا لتأخر صدور القرار حتى مات محمود اللبان. ثم أردف بابتسامة واسعة:

«أنا مخدتش منحة تفرغ». قلت: «هل قدمت ؟».

كرر: «مخدتش تفرغ». لماذا تبدو السعادة كلها على وجهك يا محمد كلما ذكرت خبرا مؤسفا؟ هل أنت مسرور لأن توقعاتك كلها جاءت فى محلها؟

بادرته: «هل استطعت أن تبيع فى معرضك الأخير؟».

قال برضا: «مابعتش حاجة.. أصل كل اللوحات كانت كبيرة... متر وعشرين فى تمانين.. سناء البيسى أخذت واحدة لمجلتها وأعطتنى تمنها، ونوّار أخد تلات لوحات بس ماصرفتش... بنوع المقتنيات قالوا السنة الجاية الصرف..» بعد قوله هذا انتابته حالة ولم أستطع أن أعرف هل كانت قهقهة عالية أم نوبة سعال حادة لرجل يخطو نحو الثالثة والسبعين!



قطرية التعبير والتكوين في تصوير السيرك

نبض الحياة

في عروق الحركة الفنية

بقلم
عز الدين نجيب

تواصل الحركة الفنية في مصر نبضها عبر مستويات إبداعية متتابعة من الشهيق والزفير، وهى تتنوع بين الخبرات التجريبية المستعادة من مسيرة الرحلة الممتدة للفنان متضمنة تجارب الشكل المتلاقحة مع النماذج التراثية والغربية معا، مثلما نرى فى المعرض البانورامى لرحلة الدكتور صالح رضا، وبين خبرة الاستبطان الشعرى السريالى المكثف، مثلما نرى فى أعمال الفنان المغترب أحمد مرسى، وبين حالة التكثيف الرومانسى المستلهم من تراث العمارة الإسلامية والشرقية مثلما نجد فى أعمال الفنانة وسام فهمى، وبين فن الموقف السياسى الذى يقارب الشهادة المعبرة عن ضمير الفنان فى مواجهة الهيمنة الغاشمة للقوة العظمى التى تهدد العالم بالخراب والفوضى، مثلما نجد فى معرض الفنان عبدالرحيم شاهين .. إلى أن نصل إلى تجربة العزف بضوء الشمس فى إيقاعية صداحة ودافئة عبر مفردات الحياة اليومية من خلال معرض الفنان علي عزام. وتلك شهادات على اتساع مساحة الخصوبة والتدفق الابداعى فى عروق الحركة الفنية المصرية، تحمل إرهاصا بالخروج من خندق العزلة والرتابة الذى تقوقعت فيه طويلا.

١٣٣

الهلال

محرم ١٤٢٤هـ - مارس ٢٠٠٢م



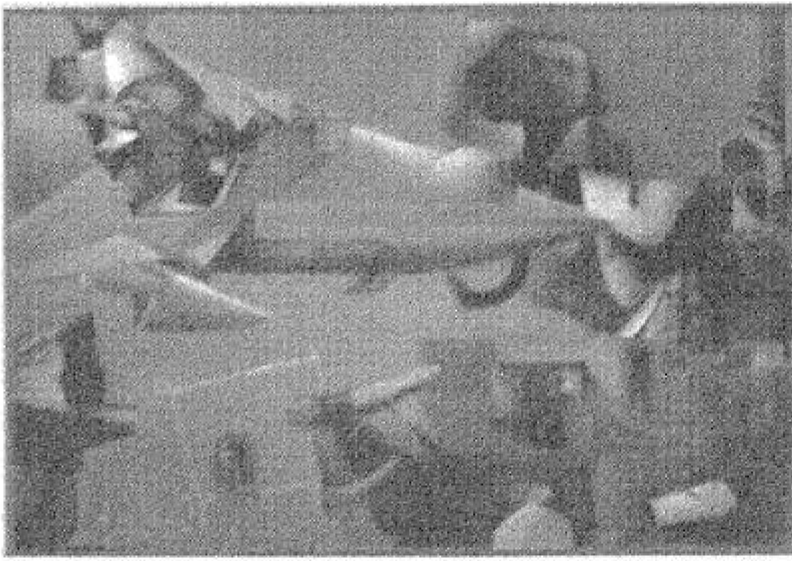
بورتريه إنسان ومدينة - وسام فهمى

صالح رضا
بين الأصالة والحداثة

لاتكاد الأجيال الجديدة تعرف من إبداعات الفنان صالح رضا إلا مرحلته التجريدية فى النحت، التى تمتد منذ أواخر الستينيات، وهى مرحلة يغلب عليها مايمكن أن نسميه : تفجير الطاقة فى الفضاء ويتم ذلك من خلال منظومة جمالية معاكسة لقوانين النحت الكلاسيكى، المرتكزة على قاعدة الرسوخ والتوازن للكتلة الهرمية أو العمودية، فيما نجد منظومته الجمالية تلاحق منجزات الحداثة الصناعية والتكنولوجية فى الغرب المعاصر، بعد أن يقلب موازين الكتلة بجعلها ترتكز على محور دقيق، ثم يتضاعف حجمها كلما ارتفع التمثال فى الفضاء بمتوالية هندسية، وهى منظومة تعكس حالة من التشكل البصرى للأجسام بديناميكية النمو الذاتى وفق ذبذبات تنبع من قوة الدفع الكامنة فيها، ولا علاقة لها بالواقع الخارجى، لكنها لاتجد مكنونها من المعنى الدلالى الذى يقبل الاتفاق عليه، إلا بمفهوم النظريات الهندسية عن تنامى الطاقة بقوة الحركة الميكانيكية مع سرعة الانطلاق، ويتشابه الفنان فى ذلك مع كثير من فنانى الحداثة فى الغرب، حتى تبدو أعماله أحيانا وكأنها اعادة انتاج لأساليب غربية بحتة تفتقد الروح المصرية.. وقد أثارت هذه المعرفة بإنجاز صالح رضا لدى الأجيال الجديدة من الفنانين والمتذوقين حالة من الالتباس والتناقض بين ما يرونه من اغتراب ابداعه وبين ما يتابعونه من آرائه حول فكرة الشخصية المصرية فى الفن.

لذلك جاء المعرض البانورامى الشامل لرحلة ابداع صالح رضا على امتداد نصف قرن، والذى أقيم أولا بالإسكندرية ثم انتقل إلى القاهرة بقصر الفنون في الشهر الماضي، ليحاول ازالة هذا التناقض. فقد تعرفنا على بداياته الأولى التى أفصحت عن انشغاله العميق بالواقع الاجتماعى والسياسى من ناحية وبالتراث المصرى من ناحية أخرى. ويتجلى ذلك بشكل خاص فى مرحلة الخمسينيات. مصاحبا لحالة المد الثورى الاجتماعى لفترة النظام الناصرى ، لاسيما من خلال لوحاته الزيتية المعبرة عن واقع الطبقات المسحوقة والكادحة صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة، بنزعة تعبيرية ومأساوية خطابية ينبع أسلوبها من عباءات الجماعات الثورية فى الأربعينيات مثل الفن والحرية (ويمثلها الفنانون رمسيس يونان وفؤاد كامل والتلمسانى» والفن الحديث (أمثال عويس ودواد عزيز ويوسف سيده وسعد الخادم) . كما يستمد طابعها المستلهم من التراث من عباءة جماعة الفن المعاصر (على ايدى الجزار وحامد ندا وغيرهما) .. وكذلك استمده من رؤى فنانين آخرين أمثال السجينى وعبدالرسول .. وتم هذا التأثر بشقيه فى خضم موجة جديدة صاعدة من الفنانين الشباب من ابناء جيله امثال عمر النجدى واحمد عبدالوهاب وكمال خليفة .. وتتجلى محاولاته الأولى من خلال وسائط مختلفة كالنحت والتصوير والحفر والخزف والكولاج .

لكن المتأمل تجربته الممتدة التى يضمها المعرض يلاحظ أن تلك المرحلة



محاولة أخرى للقتل - د. عبد الرحيم شاهين

بشقيها الدراماتيكي والفلكلوري - تتسم بالطابع الاستعاري من مختلف المنابع المشار اليها اكثر مما تتسم بالابتكار المتفرد، سواء في مجال الأعمال التعبيرية السياسية بلهجة خطابية زاعقة، أو في مجال الاستلهام من عناصر التراث، بل تبدو معالجاته لعناصر الفلكلور (خاصة عروسة المولد والعمارة الفطرية) في أوضاع جامدة، وكأنها تأبيد للسكون أو تمائم او طواطم مقولبة أقرب الى الرموز القبائلية، على عكس ما استقر عليه منهجه التشكيلي والتعبيري بعد اكتمال نضجه الفني.

فيما نلاحظ ان الهاجس التجريبي والتجريدي هو الاكثر عمقا واصالة على مدار رحلته الممتدة، حيث لا يعنيه فيها الجمال الوصفي والتمثيل لعناصر الطبيعة، ولا تعنيه فيها الرسالة الفكرية او السياسية المتجهة من صلب العمل الفني الى وعي المتلقي، بقدر ما يعنيني فيها تفجير الشكل البنائي والطاقة الكامنة فيه من منظور ذهني مجرد، وصولا الى الحرية المطلقة. وبقدر ما يعنيه تحقيق البنية الشكلية البصرية المتفاعلة في المكان (وان بدت خارج الزمان) سعيا الى اعلان حالة صدامية مع الذوق التقليدي، والى خلق منظومة جمالية تقتفي أثر - وقد تحاور بندية أحيانا - منجزات الفن الحديث في الغرب، بدءا من ابداعات هنري وبيكاسو وارميتاج، حتى تجارب ما بعد الحداثة..

ويبقى الاصيل والثوري عند صالح رضا هو حالة التمرد الدائمة، التي تتمثل في ولعه بالتجريب بالخامات المختلفة حتى الاستعراض المبهر بالتقنية، كما تتمثل في انتقالاته الفجائية

من وسيط الى آخر، برؤى حداثية مثيرة للجدل .

بورتريه مدينة

هذا هو عنوان المعرض الذى اقامته الفنانة وسام فهمى الشهر الماضى بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى بالقاهرة، متضمنا مجموعة اشبه بالمنمنمات الفارسية او الهندية المتماوجة بالقصور والقلاع والقباب والأقواس والجوامع والمآذن والبوابات والنوافذ والمدرجات والحدائق، وكأنها صفحات من كتاب الف ليلة وليلة، شغلتها يد الفنانة برقة بالغة كما لو كانت منسوجة بإبر الكروشيه وليس بفرشاة وألوان زيتية او أكريليك.

غير أن طموح وسام عبر العديد من معارضها السابقة وحتى الآن، يتجاوز هذا المعنى الأدبى، ويتطلع الى خلق نسيج تجريدى عبر شرائح لونية تتجاور وتتقاطع وتتعامد افقيا ورأسيا الى مالانهاية ، وربما تقودها السليقة الى احالة الجمادات فى الطبيعة الى كائنات حية متفاعلة كأعضاء الجسد لا تخلو من تكورات انثوية او ايماءات ذكورية.. موحية بتفجر الحياة والخصوبة.. وقد تقبل - على النقيض من ذلك - التأويل نحو ايحاءات روحانية تتردد فيها اصداء الذكر واصوات الأذان، لكنها فى جميع الأحوال اقرب الى معزوفات شرقية عذبة، صداحة بنعومة الوتريات حينا، وبرنين النحاسيات حينا آخر، وبدوى الطبول حينا ثالثا .

غير أن وسام لم تكتف بعرض تلك اللوحات عن مدينتها الخيالية، بل أضافت اليها مجموعة من الوجوه الواقعية لنسوة ورجال تعايشت معهم عبر سنين العمر، ينتمى اغلبهم الى اصول شعبية ونوبية، وقد لفحت الشمس وجوههم فأحالتها الى لون برونزى متوهج، وعكست ملامح النسوة خاصة ذلك الحس الاستوائى البدائى الذى يذكرنا بنساء جوجان فى جزر تاهيتى، وقد أحاطتهن - كما أحاطهم جوجان - برموز من السحر وعناصر من الاثاث والمفروشات ومن الألوان البنية والطينية والزرقاء ، ما اضفى عليهن الروح المصرية الصميمة. وبرغم قدم الزمن على هذه المجموعة من الوجوه، وبرغم أسلوبها الواقعى المباشر، فان المرء لا يستطيع مقاومة سحرها وجاذبيتها، ربما فاقت فى ذلك لوحات مدينتها السحرية.. لماذا؟.. هل يكمن السبب فى الفرق بين الخيال الرومانسى المحلق وبين دفء الصدق على ارض الواقع؟.. أم أنه يكمن فى درجة التفرد فى كل بورتريه عن الآخر، فيما يصعب التمييز بين لوحات المدينة التى تتشابه كوجوه الصينيين.؟..

لكن تلك مسألة نسبية على أية حال، لأنها تتعلق بالذوق.. الذى يختلف من مستقبل الى آخر .

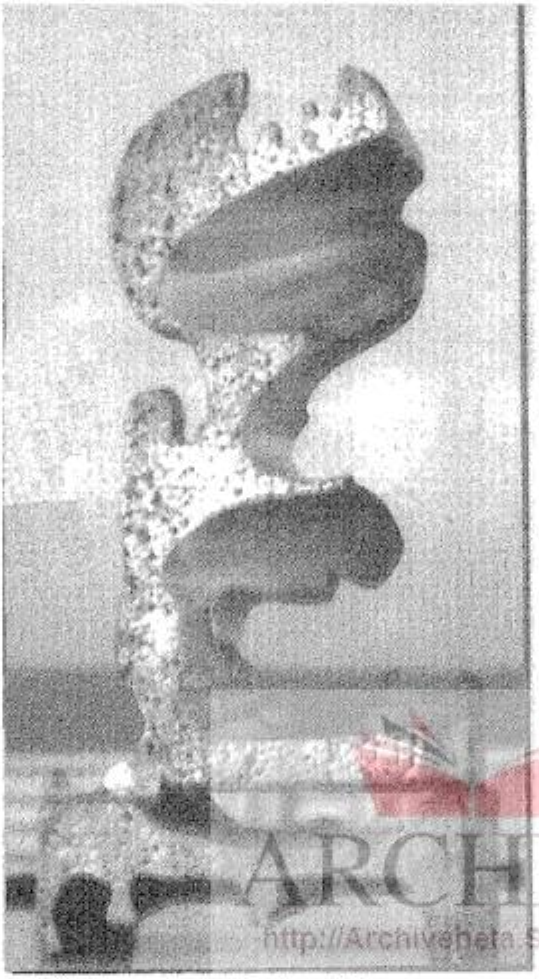
الفن موقف .. ولكن ..

تتميز الاتجاهات السريالية والميتافيزيقية فى الفن بدرجة مكثفة من الغموض وتعدد التأويلات ومداخل الرؤية لأعمالها، لكونها تنبع من حس جوانى

مركب فى أعماق الفنان، أو من حس تأملى للوجود والكون، يتجاوز الحدود المعرفية المتعارف عليها بين البشر، ويصبح الحدس والشفافية الخاصة لدى المتلقى هما مدخله الاساسى للتواصل مع هذه الأعمال، ومن ثم تختلف مستويات التلقى لها . ويعد ذلك عامل ثراء لمثل هذه الأعمال بقدر التأويلات المختلفة بل والمتناقضة أحيانا تبعا لمنظور كل مشاهد .

كان ذلك هو ما يميز أعمال الفنان عبدالرحيم شاهين فى معرضيه السابقين فى العامين الماضيين، حيث طرح من خلالهما هموما وجودية للانسان فى عالم كابوس خانق يعكس معانى وارهاصات متعددة، بأداء فنى يتخذ سمة الكلاسيكية التى تتلاعب بالضوء وهو ينبجس من كتل الظلام، لكن بغير التزام بقيم الثبات والتوازن والمثالية فى تصوير الانسان وتمركزه كمحور للوحة.

لكنه فى معرضه الأخير بأتيليه القاهرة الشهر الماضى يسعى الى تأسيس مساحة أكبر من الاتفاق بينه وبين الجمهور حول قاعدة فكرية محددة، تعكس ما آلت اليه شئون الحياة فى هذه اللحظة التاريخية الفارقة، الممزقة بالعنف والعدوان، والمهددة بالحرب والدمار لشعوبنا العربية بل وللعالم اجمع، على يد القوة العظمى الوحيدة المهيمنة بقانون الغاب وقد باتت تتسيد العالم بجنون لا راد له، وتدفع به دفعا نحو هوة الدمار والفوضى، انه - اذن -



عروس النيل -صالح رضا

يحاول أن يتخطى الهم الجمالى التجريبى، والتأمل الوجودى الميتافيزيقى الذى يعبر عن الإنسان كقيمة شمولية مجردة فى أى زمان وأى مكان، إلى نوع من الخطاب السياسى المباشر، فى محاولة لاتخاذ موقف إيجابى ضد هذا الوضع التاريخى المهين للبشرية محددا فى مكان بعينه وزمان بعينه، وهذا أمر مشروع ومستحب يؤكد مصداقية الدور

الطليعي للفنان بوقوفه ضد القهر والهمجية، وسعيه إلى تعبئة الشعور الجمعي إلى جانب قوى المقاومة للعدوان، وتاريخ الفن العالمي مليء بالشواهد المضيئة لأعمال الفنانين التي باتت رموزا حية للنضال الإنساني وللدفاع عن قيم الحضارة والحرية.

وفي هذا المعرض تتعدد رؤى التعبير عن ظواهر القهر والعدوان والخنق والاغتصاب والصلب والتمزيق، وهي وإن لم تتخذ سمات واضحة تدل على أشكال ووسائل معينة لهذه الظواهر الإرهابية، فإنها لم تخل من إشارات غامضة تومىء إلى القوة المدججة بالعتاد الحربي والحصار العسكري، ومع ذلك فقد عمل الفنان على تغليف كل ذلك بهالات من الظلام تخفي أكثر مما تفصح، بل يصل في بعض لوحاته الزيتية إلى مشارف التجريد، وفي بعضها الآخر يستخرج من الذاكرة الجمعية عددا من الرموز الدلالية كالحيوانات والحشرات والأسماك والوجوه المذهولة أو الملوعة بالرعب، أو يستحضر نماذج من النسوة الحوامل المهددات بالإجهاض، أو المساقات إلى مصير التهتك والسقوط.

إنه معرض يشبه الشهادة على العصر، يدلي بها ضمير فنان معذب بمصير مظلم للبشرية، غير أنها شهادة ملتبسة بنزعة التجريب التقني الذي أفقد المعرض وحدته الأسلوبية، فتعددت الأساليب وتفاوتت فيما بينها المستويات والنبرات بين الخطابية والغموض، الذي تتوه من خلاله الرؤية ويحول دون وصول الرسالة المنشودة.. وتلك إشكالية كثيرا ما يقع فيها الفنان حين يكون الموقف الذي يتخذه بشأن قضية ما: قرارا مسبقا قبل أن تنضج التجربة وتصل إلى الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون لجمل لوحات المعرض، وليس ذلك من قبيل الترف الجمالي في غير زمانه، وموضعه كما قد يتصور البعض، بل هو في الحقيقة جوهر الإبداع الفني الذي تؤكده مسيرة الأعمال العظيمة على مر التاريخ.

معزوفات الضوء

بزغ إبداع الفنان على عزام في العامين الأخيرين بقوة لافتة، بعد أن غاب عن الساحة الفنية سنوات طويلة خلال عمله خارج البلاد، ويبدو أنها كانت فترة كمون واختزان لخبرات تقنية نضجت على مهل، حتى جاء معرضه الأخير .. بمجمع الفنون الشهر الماضي إضافة ساطعة إلى رصيده الفني تنقله من مستوى الهواية إلى مستوى الاحتراف والتميز.

إن عزام ابن مخلص لتراث الواقعية المصرية، التي تتخذ من الطبيعة والإنسان ومفردات الحياة اليومية في محيطها البيئي والأنثروبولوجي مصدرها المباشر، بدءا من تجارب جيل الرواد الأوائل في مطلع القرن الماضي حتى تجربة الفنان حسن سليمان التي تركت بصمات واضحة على خبرة على عزام.

ويقوم الضوء في لوحاته الزيتية بدور البطولة، وهو ضوء شمس يبلغ درجة الوهج ويوحي بطبيعة مصر التي تختزل



الحصاد - على عزام

فيها الألوان إلى أقل حد، مؤكدا تباينا شديد القوة بين الضوء والظل، ما يصنع حوارية ثنائية الأطراف صاخبة الإيقاع مدوية الصدى، لا مجال فيها للذبذبات النغمية والهمهمات اللونية الزائدة عن الحاجة ، حتى تصل إلى مستوى البلاغة للكتلة النحتية، لكن كلا من مساحات الضوء ومساحات الظل تكتنز طبقات كامنة من الدرجات البينية التى تعكس ألوان الأرض والطمى والنيل والنخيل والمحاصيل المشعة كالذهب والقلوع الفضية على سطح الماء والخيول الجامحة فى اندفاع السباق.

هكذا تتماهى قيم الشكل والمضمون فى نسيج عضوى لا ينفصم، وتتوحد الطاقة التعبيرية والحركة التشريحية للإنسان والحيوان، والوسائل المستخدمة فى حياة الناس كالمراكب وعربات الباعة الجائلين وأزياء الفلاحين والنسوة فى الأحياء الشعبية ومشاهد العمل فى الحصاد والانتظار على الشاطىء، محققه إيقاعا بصريا سريعا ومتدفقا، وإن غلبت عليه فى كثير من الأحيان طبيعة اللقطة الفوتوغرافية الموقوتة فى موقف خاطف يجتزأ من السياق الكلى للحياة ، ما يقلل من شمولية التعبير عن طبيعة الجمال الفنى التى تختلف عن طبيعة الجمال الواقعى بما يحمله من تسجيل مباشر لما تراه العين.

لكن المعرض لم يخل من أعمال تجاوزت هذه النظرة الجزئية التسجيلية، خاصة لوحات الخيول المندفعة والحصاد والانتظار فى الشرفة، وهو ما يبشر بانطلاق الفنان نحو آفاق تعبيرية وبناء جمالى مركب. ■



أحمد مرسي

بقلم
ادوار الخراط

منذ بداياته المبكرة فى مطالع الخمسينيات كانت حدود فن أحمد مرسى، فى نهاية التحليل، هى اللون، والمساحة: الحدود المثلى للفنان الذى أداته الفرشاة واللوحة، مهما قيل عن «الرمزية» عنده. أنه لاينفى عن فنه «الشاعرية ولكنه ينفى عنه، بقدر مايسعه، صيغ الفنون الأخرى. فلن تجد عنده التجسيم الذى هو من خصائص النحت، ولن تجد التصورات العقلية، ولا قضايا الأدب والخطابة، كما عساك تجدها فى «صور» كثيرة، ولن تجد تلك العناية السكينة بالنقل الخارجى الدقيق للأشكال والحجوم، ولن تجد الانصياع الخانع لقواعد «المنظور». وانما هو، كما قلت، لون ومساحة، أصفى عناصر التصوير.

ذلك يفسر لنا مافي أغلب أعماله من إهمال للإيحاء بالعمق المكاني، عن طريق الحيل التشكيلية المألوفة من تكبير وتصغير، أو تظليل وتنوير وتركيز مثلا، أنه يومىء إلي عمق مكاني، مجرد ايماء فقط ولكنه مع ذلك يوحي بعمق للرؤية، الفنان هنا يسبر غوراً في «الصورة» الداخلية لا في المشهد «الخارجي» ومن ثم فإن أبعاد صوره هي ، حرفياً، أبعاد الصورة: طول وعرض.

عند أحمد مرسي ملامح أو خصائص ثابتة مستمرة من ناحية، وتطور، سواء في الرؤية الفنية نفسها أو التكنيك، من ناحية أخرى. فمن الملامح الثابتة، منذ البداية، أنه لم يهتم أبداً بالقواعد الأكاديمية في الفن، لم يعن بتقليد الطبيعة أو أن يعطينا «مايشبه الطبيعة»، وبالتالي كان منذ البداية يهمل قواعد المنظور مثلا، ولا يلجأ إلى خدع الإنارة، واعطاء العمق الثالث، والتجسيم، والظلال. أنه يحدد مساحات عمله بمساحات الصورة باستمرار: الطول والعرض، فقط في داخل هذه المساحة، وبالاعتماد على اللون ، والتكوين فقط يعطينا مايريد أن «يقول». إذن فهو يومىء إلى العمق الثالث بمجرد توزيع اللون، ومساحاته، والتجاويات أو المقابلات بين الألوان، ومن تركيبات التكوين نفسه.

من الخصائص أو الملامح الثابتة



رصانة الألوان وتعبيريتها، وصياغة الملامح الانسانية في أحد أعمال أحمد مرسي

أيضاً استخدام رموز أدبية أو شاعرية، والعمل على ادماج هذه الرموز باللغة التشكيلية البحتة التي هي بالتحديد الألوان والمساحات والتكوين والايقاع.. إلى آخره.

الألوان المعبرة

الشاعرية الرقيقة الساذجة أعني في التلوين أو في اللون المصفى اختفت نهائياً، نجد الآن كثافة في التلوين، مازال هناك البحث عن الألوان الخاصة الأصيلة المعبرة عن رؤيا خاصة أصيلة، لكن فيها «هارمونية» الآن جديدة متعددة الأصوات بدلاً من الميلودي الغنائي الأحادي القديم

- يعني فيها تراكب، عجينتها أثقل، فيها خصوبة، وفيها طبقات عديدة مختلفة كل طبقة أو جزء من طبقة ينعكس على الطبقة التي تحته، ويعطيه - ويكتسب منه - تاثراً أو «معنى» أعمق . نلاحظ نفس التطور في التصميم ، أو تكوين اللوحة : كان في الأول فيه بساطة - أحياناً بساطة مسرفة في التصميم : دوائر أو أقواس، أو مثلثات متجاوبة تجاوباً واضحاً جداً وقريباً جداً . والآن أصبح التصميم أشد تعقيداً، بل هو أحياناً معقد أكثر مما ينبغي فيما أتصور (إن صح أن هناك في الفن ماينبغي ومالا ينبغي).

الميزة التي يتميز بها عمله، أساساً، هي مشكلة البحث عن الألوان الأصيلة، التي يسهم فيها مساهمة خاصة منه، أعني ابتداع ألوان، أو الوصول إلى ألوان معبرة عنه، تلتصق به هو، التصاقا حميماً، وتعطي رؤياه الخاصة. وهنا، أساساً، أعتقد أن هناك تطوراً ملموساً يسير جنب إلى جنبا مع تطور في التكوين أو في تصميم اللوحة.

من الممكن أن القيم التشكيلية تؤدي بالفنان إلى التجريد . ولكن أحمد مرسي لايصل إلى التجريد أبداً، بالرغم من أنه يقترب منه اقتراباً كبيراً وإذن فهو يريد أن ينقل الينا، عبر القيم التشكيلية، «بالمعنى» الذي يريد أن ينقله، اندماجاً تاماً، عضوياً، وفي نطاق الحدود التشكيلية، معنى توفيقه أو عدم توفيقه يتأتى بالضبط من مدى نجاحه في إدماج القيم التشكيلي على اعتبار أن الإيحاء الأدبي هو مجرد واحد من عناصر العمل التشكلي: يستخدمه الفنان كما يستخدم أي عنصر آخر.

عناصر تجريدية

لاشك أن أحمد مرسي قد تمثل السيريالية، وجنح إلى التعبيرية، ونزع إلى عناصر تجريدية، هذا كله صحيح، وفي فنه مايومىء إلى استيعابه للفن القبطي وخاصة في لوحات الفيوم، وإلى معرفته بفن شاجال، وبراك، وروه، وموديلياني، وصراعه معهم وخروجه من مجالدتهم إلى صياغات هي له وحده ، لكن ذلك كله يدخل في تكوين كل فنان، كما تدخل «تاشيرات» الحياة.

سوف أخلص إلى بعض القيم التشكيلية في مجمل عمل هذا الفنان وخاصة في لوحاته الأخيرة.

فمن حيث التكوين : تتسم تكوينات أحمد مرسي بالسعة والانفساح العريض وبقسمة صرحية أو معمارية واضحة - في الفترة الأخيرة على الأخص ، وإن كانت تلك القسمة كامنة بالقوة في أعماله الأولى - مهما كان من مساحة هذه الأعمال.

ومازالت الوحدات البنائية في عمله - على اتساعها - هي :

أولاً : وأساساً الدائرة بأشكالها ودرجات اكتمالها أو نقصانها، وظهورها أو تخفيها ، واستوائها أو انبعاجها، والدائرة مع ذلك عنده دائماً توحي بقدر

من النعومة والانسياب، وتوحي، من ثم، بقدر من التصالح مع العالم، والتوافق معه، بدرجات مختلفة، والاتساق في داخل قانونه الأساسي، قانون الدوران والصيرورة المستمرة.

المثلث وتنويعاته هو الوحدة التالية في الأهمية ، سواء كان مبتوراً أو صحيحاً، سواء كان متطاولاً مسحوباً أو مضغوطاً مسطحاً، سواء كان جليا.

أما من حيث التلوين فإن الخصيصة الأولى في أعمال هذا الفنان هي قتامة أو دكنة الألوان، من ناحية، وقيمة الصدمة فيها، من ناحية أخرى.

فهذه ألوان الحلم الليلي العميق، أو ألوان الكابوس المطهرة المصفاة ، أو ألوان هواجس النفس الخفية: الأزرق بكل تدرجاته، والرمادي، والأسود، أما الصدمة فتأتي إذ تجد الأحمر القاني، مثلاً، في قلب الأخضر الخام، على خلفية من البنفسجي القاتم أو ذلك الضرب من الأزرق الداكن أو العتمة المزرقة الكامدة ، وهكذا.

إن زرقات ورماديات هذا الفنان جديرة وحدها بدراسة تفصيلية، فهي في تراوحاتها وتبايناتها وتآلف نغمياتها تدعوك للتأمل الطويل، وكأنما هي أصداء مفصحة وشجية عن أنواع من الشجن متآخية أو متنافرة، تنبثق في قلبها بهجات غير متوقعة.

والتدرج اللوني ، أو «الموسيقى - التشكيلي»، من الأزرق إلى الرمادي



الحلم الليلي العميق بين الزرقة والرمادية

القاتم أو الداكن أصبح الآن من الملامح الثابتة - المتغيرة باستمرار - في عمل هذا الفنان.

انظر مثلاً ورديات - أو حمرات - اللحم الانثوي وما يجري مجراه من علامات الأنوثة في العالم - السمكة على سبيل المثال - وقارن ذلك بدكنات أو قتامات أو غبرات أجسام الذكورة - رجالاً أو جيادا.

وعلى طول هذه السلالم اللونية بمختلف تنغيماتها لن تجد «حلاوة» أو عذوبة سكرية ما، فلن تجد ، بالتالي، تهافتا انفعاليا قط.

مفردات اللغة التشكيلية

وفيما يتعلق بالعلامات أو الشفرات التشكيلية الأثيرة عند هذا الفنان، أو إذا شئت، لك أن تسميها مفردات لغته التشكيلية، فسوف أشير بسرعة أولاً إلى وجوه شخوصه، اذ هي أقرب إلى الأقنعة المبتورة الفاغرة عيونها مع ذلك عن حياة عميقة تفيض مأساوية على نحو ما، وهي على الأغلب مثلثة حتى لتكاد تكون نمطية في هندسيتها، ولكنها عارمة الحيوية في داخل هذه القالبية، اذ تثقبها تلك العيون الشاسعة الفسيحة.

لاشك أن لوجود الحصان معنى رمزياً واكاد أقول معنى ميتافيزيقيا، يتأتى عن هذه القيم التشكيلية: الجسامة والرسوخ ورصانة الألوان وتعبيريتها، وصياغة الملامح الانسانية وما وراء الانسانية معا.

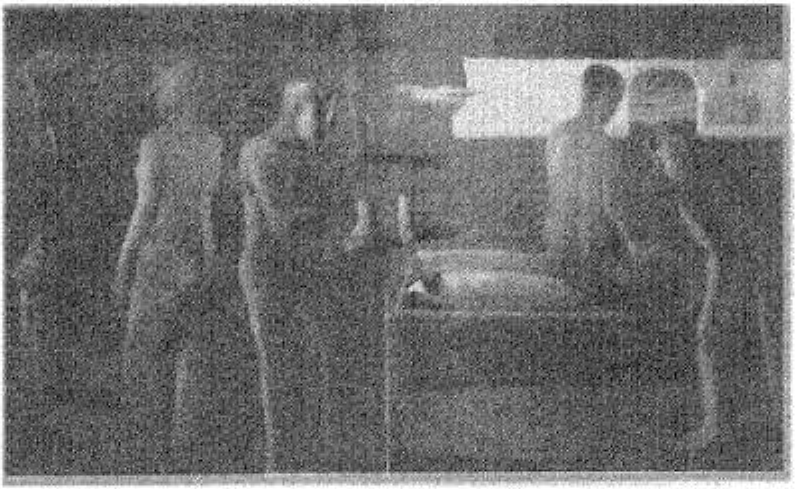
والصقر الفخور - هل هو حورس العريق؟ - يمت بصلة وثيقة إلى هذا التصور وذلك التصوير، بل هو يأتى أحياناً كأنه كيان شامل يظلل الكون ويهيمن عليه، كأنه رخ الهى، ويأتى فى معظم الأحيان إما على شكل وحدة مثلثة، مركبة المثلثات، أو فى تكوين أفقى مسيطر.

يقوم البحر السياجى العريض الداكن الزرقة، عادة، بدور أساسى فى تكوين اللوحة، بأفقيته الفسيحة المترامية، تقسم اللوحة أحياناً وتلائم بين مقوماتها أحياناً أخرى، تقطعها قطعاً أو تدور فى داخل بنيتها بدائرية ناقصة ومتعرجة أحياناً أخرى، ان حرية هذا الفنان فى تكوين لوحاته «الجدارية» تقترن فيها البساطة والتركيب.

يعدل الفنان إذن من أفقية البحر بأن يجعله دائريا أو مثلثا هو خليج أو بوغاز مرة، وبأن يجعل العلاقة بينه وبين الوحدات الأخرى علاقة حرية وتنوع، فالشخوص أو الحيوانات أو الطيور أو الاسماك كلها ترتبط بالبحر بعلاقات تشكيلية متنوعة، فلا حرج عند الفنان من أن تسير القامات البشرية أو تطير على مياه البحر وأن تخوض القامات الحيوانية فى غمراته، بل قد يكون ذلك ضرورة فنية، كأن البحر عنصر جوهرى من عناصر الوجود بالنسبة للوحة وبالنسبة للرؤية الشاملة من وراء اللوحة.

قامات صرحية

فى معرضه الأخير يتفجر ابداع أحمد مرسى فى لوحات جدارية شاهقة قد تبلغ ارتفاعاتها فى بعض الأحيان نحو ثلاثة أمتار وعرضها نحو أربعة أمتار، وقد تزيد عن ذلك فى أحيان أخرى، وهى تذكرنى أحيانا بسيمفونيات سيبليوس العاصفة المحتشدة، ترتفع فيها قامات صرحية قد أخذت مداها حتى النهاية - ليس ثم من نهاية - فى أوضاع نحتية ساكنة وليست إستاتيكية اذ تدور بينها بعضها بعضا، وبينها وبيننا حوارات لعلها تقع فى مستويات السر.



إحدى جداريات أحمد مرسي ترتفع فيها قامات صرحية ذكورية وأنثوية

هذه القامات، ذكورية وأنثوية على السواء عارية وطهرانية في الوقت نفسه سامقة المقابيس، تطفو أو ترسو في نوع من السكينة الصافية، متناقضة، وكونترابنطية مع خلفيات مدومة قد تكون سماء رمادية ملبدة بالسحاب المتلاطم، أو قد تكون أمواجا ضاربة إلى زرقة خضراء مرتطمة خلف جداراً أشهب، وقد تكون خلفية مضطرمة بلهب مكتوم الاحتدام، محمر وبرتقالي وغائم، وتدخل في هذا الحوار متعدد الألوان متعدد النغمات كائنات أحمد مرسي الأثيرة رأس الحصان المائل بحيوانية عالية الحضور أو ذلك الصقر حوريس الإلهي المعاصر الهائل الحجم،أو رأس تطاول السماء شموخا أو هرم كأنه شراع مركب خرافية الحجم، أو على العكس شراع مركب هرمي يتحدى لجج الغمر، أو أخيرا السمكة - الحوت ذات العين النجلاء الضخمة المستديرة التي لا تغمض أبداً.

في هذه اللوحات الضخمة اتساق في التكوين يؤكد ضخامتها ويلغيها في الوقت نفسه، لأنه محكوم ومسيطر عليه، فليست الضخامة هنا مما يفلت من انضباط العمل، ومن ثم فإنها مع وجودها تكاد تنسى، ولا يعود هناك عند المتلقي حس بالتشتت، مع أن شساعة اللوحة واتساع عالمها، وانفساح أفقها، وهي من المقومات الرئيسية في العمل،يمكن أن تشتت وعي المتلقي، لكن العكس تماما هو ما يحدث، أي أن ذلك كله يفضي إلى نوع من التركيز والتقطير، بل التكثيف . ■

عمرو واكد .. كشاف نور



ديل السمكة ومعالى الوزير

بقلم
مصطفى درويش



أحمد زكى .. معالى الوزير

هذان فيلمان للثنائى السينمائى وحيد حامد وسمير سيف ويرجع تعاون هذا الثنائى إلى عشرين سنة مضت عندما كتب «وحيد» قصة وسيناريو فيلم «غريب فى بيتى» ، وقام «سيف» بترجمة كتابات «وحيد» إلى لغة السينما.

و«ديل السمكة» وان جاء عرضه فى دور السينما لاحقا لعرض معالى الوزير، بفارق زمنى يعد بالأيام ، إلا ان انتاجه سابق عليه بحوالى ثلاثة أعوام

ورغم هذه المدة الفارقة بين الفيلمين، وهى طويلة بكل المعايير، فكلاهما بطله مسكون بالكوابيس.

فالأول، ذيل السمكة، يبدأ، ومع ظهور العناوين ، فبطله «أحمد» يعدو لاهثا.

ولا يتوقف عن العدو الا مع اختفاء العناوين، عندئذ نراه فى السرير، وقد هب من النوم مرعوبا، يتصبب عرقا .

البداية كابوس

وهكذا تكتشف أن عدوه لم يكن الا كابوسا.

وان يبدأ الفيلم بكابوس امر نادر الحدوث فى عالم الأطياف .

وفيما لو اسعفتنى الذاكرة، فالفيلم الذى بدأ على هذا النحو، أى ببطلة يعانى من كابوس، كان ثمانيه ونصف رائعة المخرج الإيطالى «فيديريكو فيللينى».

فمع اللقطات الأولى يظهر البطل «جيدو»، ويؤدى دوره «مارشيللو ماستروياني» داخل سيارة محبوسا، وسط حشد من السيارات ، يحاول الخروج دون جدوى.

وانطلاقا من هذا الكابوس اخذت احداث فيلم «فيللينى» تتسلسل تباعا.. متراوحة بين وقائع من الحاضر .. واخرى من الماضي، تتخللها أضغاث احلام.

وفيما عدا الكابوس المشترك فى فاتحتى الفيلمين، فليس ثمة اوجه شبه أخرى.

«فثمانية ونصف» يعرض لمعاناة مخرج سينمائى ، أثناء ازمة عجز عن الإبداع.

فى حين ان «ديل السمكة» لا يعرض لمعاناة بطله «أحمد»، وهو كشاف نور، إلا فى أقل القليل، وإنما يعرض لشرائح من الناس فى مدينة بديعة، تزداد ترهلا على مر الأيام.

فهو إذا كان يشترك مع «ديل السمكة» فى تعرض بطله لمحنة الكوابيس، إلا إنه ، فيما عدا ذلك يختلف تماما فبداية، بطله وزير، فى حين ان بطل الفيلم الآخر كشاف نور، وطبعا لا تستوى معاناة الأخير والوزير.

كما ان كشاف النور لم يتعرض طوال الفيلم ، إلا لكابوس الفاتحة.

سر المعاناة

أما معالى الوزير ، فقد استغرقت

الكوابيس حياته الفيلمية ، بحيث بدت وكأنها كابوس متصل، وما عداه استثناء .

وان تطول الكوابيس حياة بطلى فيلمي وحيد وسيف، ويزداد امرها تفاقما على هذا النحو ، خلال المدة الفارقة بين الفيلمين، وهي مدة لا تزيد عن ثلاثة أعوام، ليس بالأمر الغريب، في زمن كزماننا ، حيث كل شيء يصد الإنسان عن العمل، ويرده عن الأمل، ويدفعه إلى نشاط عقلي عقيم.

ومهما يكن من أمر السبب في تزايد الكوابيس وتكاثرها فدور أحمد صاحب الكابوس اليتيم ، قد لعبه بجدارة، ممثل شاب لم يكن له ، قبل «ديل السمكة» رصيد من أفلام روائية طويلة، سوى فيلم واحد، لم يحقق أى نجاح، واختفى من العروض السينمائية، ومن سوق الفيديو، دون ان يترك أثراً.

هذا الفيلم الشبح هو «جنة الشياطين»، وممثله شاب اسمه «عمرو واكد».

ضياع وتعويض

ورغم نجاح ديل السمكة في مهرجان الاسكندرية السينمائى ، حيث حصد العديد من جوائزه وحيث فاز «واكد» بجائزة أفضل ممثل إلا ان نجاح الفيلم وفوزه، كلاهما لم يغنه شيئا .

أولا لسوء سمعة جوائز هذا المهرجان.

ثانيا: لبقاء الفيلم حبيس الظلام، لا تتاح له فرصة الخروج إلى النور، بأى عرض عام، زهاء ثلاثة أعوام.

وهكذا ضاعت عبثا سنوات عزيزة من عمر فنان واعد..

إلا انه عوضها أو كاد بدور قصير في فيلم «أصحاب والا بيزنس» حيث تقمص شخصية شاب فلسطيني أثر افتداء وطنه بتفجير نفسه في نفر من جنود الاحتلال.

فبفضل حسن تقمصه لتلك الشخصية ، خطف الأضواء من بطل الفيلم «مصطفى قمر»، ونال من استحسان النقاد الشيء الكثير .

الحواري الزائفة

و«ديل السمكة» يبدأ به، بعد العناوين بكابوسها، بداية تقليدية لا تبشر بأى خير، في حارة ، ارجح الظن انهامصطنعة في مدينة الإعلام.

وتبدو المفارقة واضحة فاضحة، في غير حاجة لبيان ، عندما تنتقل الكاميرا مع أحمد (واكد) أثناء ادائه لمهام وظيفته، إلى أحياء القاهرة بحواريها وبشوارعها وبيوتها الحقيقية، كما هى في الحياة، فينكشف أمر الاصطناع.

وكعهدنا بالأفلام التى تبدأ فى الحوارى البطل هيمان ببنت الجيران (حنان ترك)، والبنت حبوبة، تشع جمالاً ودلالا.

وبطبيعة الحال هناك عزول، عبارة عن شاب شرير (سرى النجار).

غير ان ثمة شيئا انفردت به بنت حارة «ديل السمكة» دون سائر بنات الحوارى، وما أكثرها بدءاً من حارة العزيمة، وحتى يومنا هذا .

هى أخر صيحة فى المودة، وبين كل البنات الوحيدة غير المحجبة وأغرب العجب ، انها تعمل ليلا فى فندق خمس نجوم وأين؟

فى نادى قمار، لا يؤمه سوى اثرياء

العرب .

وباستثناء هذا المسخ، فلا شيء آخر جديد في «ديل السمكة» سوى ان بطله أحمد فضلا عن انه كشاف نور، فهو شاعر .

ومن هنا اهداء الفيلم الى روح «صلاح جاهين».

وأحمد ، بحكم طبيعة مهنته، اتيح له الالتقاء بنماذج مختلفة من الناس.

المدينة اليدينة

كما اتيح لنا، من خلال تجواله بين بيوت المناطق العشوائية وشقق الناس اللي فوق، ان نلقي نظرة على غرائب وعجائب في قاهرتنا، لا ترد على بال، مثل مشهد صاحبة محل المخلل، حيث يسقط أحمد، أثناء محاولته قراءة عداد النور في أحد البراميل.

ومشهد الشقة الفاخرة، حيث يقيم ثري شاذ (رءوف مصطفى) يحاول جاهداً أغراء أحمد بما لذ وطاب من طعام ويحبوب منشطة لعليا الفياجرا.

ولا يعيب هذا المشهد سوى الإطالة، وتوظيف موسيقى باليه بحيرة البجع، وقطعة من احدى سيمفونيات تشايكوفسكي كخلفية للاشتهاء والاغراء.

وكأن الذي اختار موسيقى البالية والسيمفونية ، أراد بذلك ان يقول ان سماع الموسيقى الكلاسيكية عنوان على جنوح متذوقيها إلى ألوان من السلوك غير المألوف.

كوكبة رائعة

ولا يفوتني، قبل ان انتقل بالحديث إلى معالي الوزير وكوابيسه، ان اشيد بأداء كل من عبدالرحمن أبوزهرة وسري النجار الأول لدور صاحب مكتب في الحارة، وشاهد على زمن وغد والثاني لدور فتى الحارة الشرير.

كما لا يفوتني ان اقف قليلا عند كل من محسنة توفيق وسوسن بدر وعمرو واكد.

لاقول ان محسنة جسدت بأدائها الرائع لدور الأم القعيدة الوحيدة، ورغم كثرة الأولاد الناجحين ، جسدت محسنة الأمهات، وهن في نهاية العمر، بلا جليس ولا ونيس.

وان سوسن بدر بأدائها لدور مطربة درجة ثانية، تحيط رأسها بباروكة شقراء وهي تغني في ملهى ليلي أمام جمهور من السكارى، برزت لنا ممثلة عظيمة، في وسعها أداء أي دور تشاء.

وان «واكد» لو استمر في الاعتماد لا على الكلام ، بل على ملامح الوجه، وقدرة جسمه غير المؤهل على التعبير، لو استمر على هذا النهج، لساهم في انشاء مدرسة جديدة، ومعاصرة للتمثيل، ولارتفع إلى مصاف النجوم بخطى سريعة، قد تعوضه بعض ما فاته.

معالي الوزير

والآن إلى معالي الوزير وكوابيسة الآخذة بخناق آخر فيلم للثنائي وحيد وسيف.

معالي الوزير كما رسم شخصيته السيناريو استاذ جامعي طموح.

تبدأ به الاحداث مع نفر من الزملاء وزوجاتهم ، وهم يسخرون، بعد تناول طعام العشاء، من وزارة يجرى تشكيلها

أحد أقطاب النظام (عمر الحريري).

وفي مشهد آخر يأمر القطب المكلف بتشكيل الوزارة الجديدة، احد مرؤوسيه بالاتصال هاتفيا بشخص اسمه «رأفت رستم» لا بلاغه بترشيحه لشغل احد المناصب في الوزارة الجاري تشكيلها، وبضرورة مجيئه على وجه السرعة، لحلف اليمين.

وزير بالصدفة

وهنا، يدق جرس الهاتف في منزل الاستاذ الجامعي الطموح (احمد زكي)، حيث يزف إليه، وهو لايزال مع ضيوفه، خبر اختياره لشغل منصب وزير.

ولم تمر سوى دقائق على ابلاغه بالخبر السار، إلا وكان في حضرة القطب الكبير، الذي فوجيء بانه غير الشخص الذي وقع عليه الاختيار، والخطأ سببه تطابق الاسماء.

ولضيق الوقت، جرى اسناد المنصب إليه مؤقتا.

وهكذا، بالصدفة، وجد رأفت رستم نفسه وزيراً.

وتمر الأيام، أعواما بعد أعوام، يحدث أثناءها اكثر من تغيير وزاري، وأكثر من تغيير لرئيس الوزراء، ومع ذلك يبقى «رستم» وزيرا بمنأى عن التغيير.

أما لماذا بقي وزيرا صامدا، صاعدا نجمة على الدوام، فذلك سؤال أجاب عليه السيناريو، بتحويل معظم الأحداث إلى أحلام، أو بمعنى أصح كوابيس.

القاعدة والاستثناء

فباستثناء البداية التي انتهت برستم وزيراً بالصدفة، والنهاية التي جعلت منه قاتلا: ومع ذلك بريئا من دماء القتيل، مدير مكتبه وامين سره وتابعه الذليل «عطية عصفور» (هشام عبدالحميد).

وباستثناء بضع لقطات فيما بين البداية والنهاية، عرض السيناريو في بعضها لمشاكل الحياة اليومية لمعالي الوزير، مع زوجته (لبلبة) وأولاده الذين يمقتونه مقتاً شديدا.

وفي بعضها الآخر لحوارات جرت في أماكن مختلفة بينه وبين مدير مكتبه ومستودع اسراره «عصفور».

وباستثناء مشهد يتيم للنجمة «يسرا» لا تظهر فيه سوى بضع دقائق، خلالها تلتقي صدفة بمعالي الوزير في احد المطاعم، حيث يكشف الحوار القصير الذي جرى بينهما عن انها كانت زوجته الأولى.. وألقي القبض عليها نتيجة بلاغ منه إلى المباحث وشى فيه بها بمقولة انها تمارس نشاطا معاديا للنظام.

وفيما عدا هذه الاستثناءات اختزل السيناريو احداث الفيلم إلى خمسة كوابيس، تؤرق منام معالي الوزير.

الصمت المميت

ومن بين كوابيس معاليه، أكتفي بالحديث عن كابوس فقدانه القدرة على النطق، لا لشيء سوى انه اكثر كوابيسه قربا من الواقع، بحكم ان وقائعه انطلقت بها الشائعات قبل بضعة اعوام، شماتة وتندرا باحد الوزراء.

ففي مشهد هذا الكابوس، فتح معالي الوزير فمه، ليجيب على سؤال موجه إليه من احدى المذيعات.

فإذا بلسانه عاجز عن الكلام..

وما ان عاد إلى منزله حتى انقض

عليه أفراد اسرته، محاولين اعـادة النطق إليـه، بكل الوسـائل الممكنة ، الى حـد الضـغط على عنقـه، حـتى كادوا يزهقون روحه.

أما لماذا لجأوا إلى هذا القدر من العنف معه، فذلك لأن انحـباس صـوته، يعنى فيما لو استمر ضياع ثروة طائلة تقدر بمائة وخمسين مليون دولار، جرى جمعها بالحرام.

وحماية لها، عمل على ايداعها فى أحد مصارف سويسرا، حيث يتوفر الأمن والأمان.



سوسن بدر مطربة درجة ثانية

وليس فى وسع احد سواه ان يصرفها الا بذكر الرقم السرى للحساب.

وزير أم بهلوان

والاكتـفاء بكابوس انحباس صـوت مـعالى الوزير موضوعا للحديث، إنما يرجع إلى ان الكوابيس الاخرى مفتعله اشد افتعال.

ولعل خـيـر مـثـال على ذلك الكابوس الذى أظهـره سـاحـرا فى ملهى ليلى، تساعده امرأتان، زوجته وابنته.

وفى نمرة الختام، نراهما بدلا من ان تفتحا الصندوق الفارغ الذى اغمدتا فى فتحاته سيفيهما، بعد ان دلف إليه الساحر ليخرج منه سليما، كالمعتاد.

بدلا من ذلك، تقومـان بتـغـيـير تلك النهاية التقليدية للنمرة، فتعمـلان فيه سيفيهما ضربا وقتلا ، حتى تنسلخ رأسه عن رقـبتـه وتطـير فى الهـواء امـام المتفرجين.

فكابوس كهذا، قد يتصور مجيئه الى فنان أو عـامل فى سـيـرك لا إلى وزير.

والحق ان مـا يؤخـذ على كـوابيس معالى الوزير، هو مجىء معظمها مشوبا بعيب رسم شخصيته، بما فى ذلك حالته النفسية، على نحو مماثل لرسم شخصية الناس العاديين.

فهذا الخلط الذى لا يقيم وزنا للبناء النفسى الخاص بالحكام، كان لابد وان يضعف من مصداقية معالى الوزير.

ويتحول به فى نهاية المطاف إلى فيلم غير مقنع، للمتفرج مهما كان ساذجا. ■

ميرامار...

البنسيون والرواية

بقلم
شوقى بدر يوسف

الأسكندرية أخيراً .
الأسكندرية قطر الندى
نفثة السحابة البيضاء،
مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب
الذكريات المبللة بالشهد والدموع
عامر وجدى فى «ميرامار»

عندما أقامت مكتبة الأسكندرية احتفالية الريشة والقلم وفاء لقمم الأدب الفن «نجيب محفوظ وصلاح طاهر» فى مستهل شهر أكتوبر ٢٠٠١ ، حضر هذه الاحتفالية عدد كبير من نقاد وأدباء العالم العربى للمشاركة فى فاعلياتها الأدبية والفنية وفاء منهم لهذين العلمين الكبيرين اللذين أثريا الحياة الأدبية والفنية باعمالهما الخالدة حيث أقامت المكتبة هذه الاحتفالية الرائدة فى مستهل الإعلان عن بدء انشطتها الثقافية والأدبية فى أول الألفية الثالثة من التقويم الميلادى بعد الافتتاح التجريبى للمكتبة والذى تم فى ابريل من العام نفسه



نجيب محفوظ : في الإسكندرية كانت بداية «ميرامار»

وكان من بين من حضروا هذا التجمع الكبير الادباء وفنانو العالم العربي ، الناقدة اللبنانية الدكتورة يمنى العيد والكاتب محمد دكروب رئيس تحرير مجلة «الطريق» البيروتية ومعرفتى بالدكتورة يمنى العيد جاءت من خلال كتاباتها النقدية المتميزة التي ظهرت في العديد من الدوريات وأيضا من كتبها النقدية التي كثيرا ما كنت ارجع إليها للاسترشاد بها ، كما كانت معرفتي بالأستاذ محمد دكروب من خلال متابعتي الدائمة لمجلة الطريق البيروتية الذي يرأس تحريرها

وقد طلبت مني الدكتورة يمنى العيد والأستاذ محمد دكروب زيارة بعض معالم الإسكندرية ومواقعها الأثرية المهمة للتعرف عليها عن قرب، ومشاهدة أهم ملامح تميزها فقمنا بزيارة بعض الأماكن السياحية والشعبية المعروفة بها المدينة، مثل قلعة قايتباي والسوق الشعبي الشهير بالمنشية والمعروف ب «زنقة الستات» ومنطقة كوم الدكة مسقط رأس فنان الشعب سيد درويش كما قمنا أيضا بزيارة بعض الأماكن التى ارتبطت بابداعات بعض كبار مبدعينا وكان أهمها البناية التى كان موجودا فيها بنسيون «ميرامار» الذى استوحى منه الكاتب الكبير نجيب محفوظ روايته الشهيرة التى تحمل الاسم نفسه وكلمة «ميرامار» هى كلمة من أصل لاتينى ولكنها حاضرة اليوم فى اللغة الأسبانية وتتركب الكلمة من الفعل ميرا ويعنى يشاهد باعجاب ومن الاسم مار ويعنى البحر، ومعنى الكلمة ايضا ينسحب على بعض المفردات مثل المسكن والفندق



شادية مع يوسف شعبان فى « ميرامار »

الجميل ، وأيضا المكان الجميل القائم على الشاطىء والتجارة والسياحة والحياة السهلة وبنسيون ميرامار يحتل الطابق الثانى من البناية التى تقع فى مكان قريب يتوسط المنطقة بين محطة الرمل والسلسلة وهو يواجه شاطئ البحر مباشرة ويطل على كورنيش الأسكندرية، وقد وصفه عامر وجدى «أحد شخصيات الرواية باعتباره أول صوت يتحدث فى الرواية ضمن الأصوات الأربعة التى تحكى الرواية بقوله» العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم، يستقر فى ذاكرتك فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شئ فى لا مبالاة فلا يعرفك كلحت الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة وأطلت بجماع بنيانها على اللسان المغروس فى البحر الأبيض، يجلل جنباته النخيل واشجار اللبخ ثم يمتد حتى طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق الصيد والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتى النخيلة المقوسة ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية، وقد وقفت الدكتور يمنى العيد والأستاذ محمد دكروب طويلا أمام هذه البناية الضخمة المبنية على الطراز الإنجليزى والمعروف بفسيفسائه الحمراء التى تمثل طرز المبانى الأنجليزية الكلاسكية وكانت تأملاتهما لهذا المكان وانبهارهما بموقعه المتميز وتداعى خواطر الدكتوره يمنى بين ما تراه وبين ما سبق لها أن عبرت عنه فى كتاباتها النقدية عن نجيب محفوظ واعماله الروائية قد أثار شهيتى لناقشتهما عن الرواية باحداثها وشخوصها وكل ما يحيط بها من ظروف أدبية ومكانية وفكرية ، خاصة وأنى اعرف أن الدكتورة يمني العيد سبق لها وان قامت بدراسة الرواية في كتابين من كتبها النقدية صدرا فى بيروت . الدراسة الأولى كانت بعنوان تعدد المواقع في ميرامار ونشرت فى كتاب الراوى الموقع والشكل الصادر عن مؤسسة الأبحاث العربية والدراسة الثانية كانت بعنوان «لعبة البدائل» ونشرت فى كتاب «فى الرواية العربية بين الخصوصية وتميز الخطاب» الصادر عن دار الآداب البيروتية ولعل التأمل الذى مارسته د. يمنى العيد وهى تقف أمام هذه البناية الضخمة التى شهدت الأيام الغابرة التى عاشها بنسيون «ميرامار» في هذه المنطقة قد أعاد إلى خواطرها في الوقت نفسه ما سبق أن تناولته في كتبها النقدية عن شخصيات الرواية زهرة ، عامر وجدى ، سرحان البحيرى، طلبه مرزوق، حسنى علام، باهى منصور، مدام مريانه صاحبة البنسيون حين قالت:«سته أشخاص فى

الرواية يمثلون مجتمع البنسيون العائلى، ينتمون إلى جيلين، إلى زمنين سياسيين زمن الملكية وفيه الوفد وسعد زغلول وزمن الثورة الناصرية، ومع الشخصيات الست تبدو الفتاة زهرة واسطة العقد، صبية صغيرة زهرة، هربت من القرية متمردة على جور جدها وشقاء حياتها وجاءت المدينة راغبة فى الحب والتعلم والنظافة والأم» فقصدت البنسيون الذى كان يقصده والدها ليبيع لصاحبته ما يبيعه فلاح من جبن وبيض ودجاج لكن هى جاءت لتعمل ولم يكن أمامها سوى أن تكون خادمة . خادمة للجميع وقد صرح نجيب محفوظ عن ظروف كتابته لهذه الرواية بقوله رواية ميرامار «كانت بدايتها فى الأسكندرية فى أثناء زيارتى لبعض الأصدقاء، وقد أعجبت بشخصية خادمة كانت تعمل لديهم وهى التى ظهرت فى الرواية باسم زهرة وبعد ذلك بعشر سنوات تبلورت لدى فكرة الرواية فجلست وكتبتها

وتبدو «ميرامار» كما قدمها نجيب محفوظ وكأنها تشكيل مكانى بما يضمه من شخصيات تمثل المجتمع المصرى بفئاته المتعددة فى فترة محددة من تاريخه السياسى والاجتماعى المعروف بصراعاته الطبقية وتناحره النفعى ، ومشاعره ومواجهاته التى تعبر عن موقف كل فئة تجاه الأخرى ، لهذا قدم المؤلف بناء روائيا له تصميم خاص يعتمد على طرح أربع وجهات نظر متباينة تمثل أهم أربع فئات من تكوينات المجتمع المصرى، وكاشفا من خلالها عن موقف كل فئة من هذه الفئات تجاه نفسها وتجاه الوطن، لهذا يمكننا أن نطلق على رواية «ميرامار» على أنها بمثابة رواية صوتية تستهدف تعرية المجتمع المصرى وإدانة مظاهر الفساد المستشرية فى جسده بكل صوره وهى تعكس وجها خاصا من وجوه الحياة، وجها مختارا بعناية وقد صقل هذا الاختيار وتكثف من خلال الصراع الدائر فى جسد المجتمع وأصبح غنيا بالمعانى الإيجابية التى تساعد على بلورة نفسها وتأويل ما وراء السطور وإيضاحه تماما، إننا لا نواجه فى «ميرامار» قطاعا مستويا من الحياة العادية التى يمكن أن نجدها فى روايات أخرى لنجيب محفوظ مثل الثلاثية وغيرها من الروايات إنما نواجه قطاعا أفقيا تحكمه الأصوات التى تعبر عن وجهة نظرها الخاصة أولا ، ثم تنسحب بعد ذلك إلى العموميات ، لذا نجد أن الإيقاع الروائى فى هذه الرواية يتسم بمعدل السرعة الذى يتماشى مع معدل سرعة وإيقاعات الحياة فيها، وهو أمر ينسحب أيضا على الحياة داخل البنسيون، فالجميع فى لهاث دائم نحو تحقيق تطلعاتهم النفعية وغير النفعية ونجد

أيضا إن كل شئ فى «ميرامار» يلهث ويستوعب فى فترة «وجيزة» ما يمكن أن يستوعب فى عمل واقعى، فى حياة بأكملها يدل على ذلك أن السكينة الظاهرة عند «عامر وجدى»، أو «ماريانا» أو «طلبة مرزوق» إنها تعكس فى الواقع سفرا داخليا حافلا بالحركة وسريعا ومضنيا يذكيه وقود الذكريات الذى لا ينفك يقتلع الحاضر حركته بين وقت وآخر، كما يقويه أيضا اختيار الكاتب للبنسيون كمكان مناسب تجتمع فيه طبقات المجتمع لتعبر عن الحيرة التى يعيشها الجميع، والأحداث فى «ميرامار» مروية من وجهة نظر أربع شخصيات من مجموع شخصياتها وكل شخصية تروى نفس الأحداث بضمير المتكلم، وعلى النحو الذى تراها عليه، ولا تختلف هذه الأحداث من شخصية إلى أخرى إلا بمقدار ما يتاح لهذه الشخصية أو تلك من مجال رؤية غير متاح للشخصيات الأخرى، وإلا بمقدار اختلاف المشاعر الخاصة أو الفهم الخاص الذى تضفيه كل شخصية بالضرورة على مجرى الأحداث.

والمكان فى رواية «ميرامار» وهو البنسيون من الداخل يذخر بالحركة المستمدة من الذكريات عند بعض الشخصيات وبالواقع الملموس عند البعض الآخر، لذا نجد أن عامر وجدى يعود إلى «بنسيون ميرامار» الذى عادت الحركة تنتعش فيه والزمن يتكرر، تقتل الثورة الأولى (ثورة ١٩١٩) زوج مريانا الأول، وتجردها الثورة الثانية (ثورة ١٩٥٢) من مالها وأهلها ومع ذلك فهى تتمسك بالحياة بشدة من خلال هذ العالم المتبقى لها وهو عالم البنسيون، والبنسيون عادة يمتلئ بالنزلاء يخلو ثم يمتلئ «كان بنسيون السادة»، ينعمون فيه بالراحة والرفاهية والهدوء، يتاجرون ويربحون يأتون من الخارج ليلتقوا على شاطئ المتوسط فى الأسكندرية فى «ميرامار» عند مريانا وتحت تمثال العذراء وها هو المسكن الجميل يستقبل اليوم وبعد خلائه ممثلى الثورة المصرية ومعهم من يمثل العهد السابق، جاء الجميع إليه ليس فى غياب الرفاهية ولكن طلبا للراحة والهدوء وبحثا عن سبل الحصول على المال يلتقون أيضا وعلى خلاف انتماءاتهم الاجتماعية والسياسية والفكرية على شاطئ المتوسط، فى «ميرامار» عند مريانا..

لا شك فى أن نجيب محفوظ باختياره لبنسيون ميرامار المواجه للبحر مباشرة مكانا لروايته التى تمثل بالنسبة له نموذجا جديدا من الفن الروائى، كذلك هى تعبير عن رحلة إلى المجتمع الجديد بأكمله، بمختلف نماذجه القديمة الباقية والانتقالية والجديدة ولعل هذا

يفسر لنا استعانته بتنوع الشخصيات والمواقف التى أحيانا تكون ذاخرة بالصراعات الغاضبة، ولعل تأثير المكان أيضا على مواقف الرواية قد صوره الكاتب على انه نابع من تأثير المكان ومناخ الأسكندرية، والبحر الذى يقع البنسيون فى مواجهته مباشرة، وهو ما جاء على لسان منصور باهى حول الأسكندرية وبحرها، يعجبنى جو الأسكندرية ، لا فى صفائه واشعاعاته الذهبية الدافئة ولكن فى غضباته الموسمية، عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم ويكتسى لون الصباح المشرق بدكنة المغيب ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب ، ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كنحنحة الخطيب عند ذاك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل .. وتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون .. ويدوى عزيفها فى الآفاق ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق .. ويجعجع الرعد حاملا نشوات فائرة من عالم مجهول وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب (ص ١٨٢)

لقد عبر منصور باهى بهذه العبارة التى جاءت على لسانه بنفس الجو الموجود داخل البنسيون والذى يكون أحداث الرواية على لسان أبطالها تماما ، إنه جو يشبه إلى حد كبير جو البحر حين يكشر عن أنيابه وتتلاطم أمواجه ويعلو الزبد، وتتصارع فيه الأنواء، وتسرى الأحداث الرئيسية فى نسيج الرواية من شخصية إلى أخرى بتوهج خاص، مما يمنح الشكل الفنى للنص وحدة عضوية قل أن توجد فى الروايات التى تتبع نفس التكنيك الهندسى الدقيق حيث تبدو «زهرة» وهى الشخصية التى اختارها الكاتب لتمثل بؤرة الحدث كنقطة مركزية فى الرواية فهى فى حركة التكرار التى يمارسها الرواة، الشبان الثلاثة. الثلاثة يحبون «زهرة» لكن لا للزواج منها ، زهرة نقطة فى دائرة وفضاء الدائرة تنسجه مجموعة من العلاقات التى تنهض بين هذه الصبية من جهة ونزلاء البنسيون من جهة أخرى، بمن فيهم مريانا صاحبة البنسيون، وطلبة مرزوق بهوية انتمائه إلى نظام العهد القديم، وعامر وجدى نفسه تكشف مجموعة العلاقات هذه عن هوية ما يربط كلا من الشخصيات ب «زهرة» وعن علاقة زهرة بهذه الشخصيات وموقفها منها داخل المكان الواحد نفسه «البنسيون» وتبدو زهرة رمزا لشعب مصر فى زمن الثورة رمزا لبدايات التحول والنمو ، وللتطلع نحو الأفضل، إنها الرغبة لبناء زمنها القادم فى إطار المدينة وما تعنيه من شروط عيش ومستوى حياة لكن زهرة تبدو فى مجموعة العلاقات هذه ضحية للجميع ، مأساتها تنهض على حد علاقتها بشكل خاص ب سرحان

البحيرى فهو كما نقرأ فى الرواية على لسان منصور باهى «التفسير المادى للثورة» (ص١٠٧) زهرة ضحية للجميع ما عدا «عامر وجدى ، لأن المجتمع يستغل زهرة أو يفيد منها دون أن يفيدها والاحساس بنهاية المجتمع الذى تمثل فى بنسيون ميرامار لا يعنى نهاية الحياة ، فالحياة قادرة على التجدد ومقاومة التحلل والتعفن والاندثار ولكن كمية الصراعات التى جسدها نجيب محفوظ فى هذا النص جعلت الشخصيات تتخيل وكأن الحياة على وشك التوقف، لذلك كان وجود «زهرة» فى البنسيون بمثابة النغمة المناقضة لكل النغمات الأخرى الموجودة فى حيز البنسيون وما حوله والتى تمثلت فى سلبية عامر وجدى واندثاره .. وشماتة طلبه مرزوق واجتراره لأمجاد الماضى ونقمة حسنى علام ومحاولته التمشى مع الأوضاع الجديدة دون جدوى وانتهازية سرحان البحرى ونرجسيته إلى حد الاستهانة بكل الأخلاقيات وتعلق مدام مريانا بتلابيب أمجاد الماضى أيام الأنجليز والاحتلال والملكية وتطلعات محمود أبو العباس الطبقية ونجاحه فى شراء مطعم بنايوتى وإيمانه بان المرأة مخلوق ناقص كل هذه النغمات المناقضة لوجود «زهرة» اندثرت أو كادت بنهاية الراوية لأنها كانت تحمل فى داخلها الكثير من عوامل الانهيار والتحلل ، أما زهرة فهى الشخصية الوحيدة التى تعرف طريقها دون تردد أو حيرة، واستطاعت أن تقاوم هجمات ومحاولات كل من طلبة مرزوق وحسنى علام ومحمود أبو العباس ، حتى عندما مال قلبها الى سرحان البحيرى لم تسلم قيادها إليه عندما اكتشف أن كل ما يريده منها هو اللذة الوقتية والمتعة الحسية، رغم أن «مدام مريانا الأجنبية» كانت تزين لها الاستسلام لنزوات سكان البنسيون حتى ينعموا باقامتهم ويزداد دخلها فى الوقت نفسه ، ولا شك فى أن تجربة الحياة فى البنسيون لم تضع هباء بالنسبة لزهرة فقد استفادت الكثير من الخبرة وسعة الأفق وبعد النظر ونضوج التفكير بحيث حصلت على أسلحة جديدة تواجه بها المستقبل وتضاف إلى أسلحتها القديمة المتمثلة فى الذكاء الفطرى والإرادة القوية والثقة فى النفس واحترام الذات والتمسك باهداب العلم والمعرفة ، لذلك يضع «عامر وجدى» اللمسة النهائية من الرواية ، ها هى زهرة كما رأيتها أو ل مرة لولا مسحة من الحزن أنضجتها الأيام الأخيرة أكثر مما انضجتها أعوام العمر السابقة جميعا ، تناولت الفنجال من يدها وأنا أدارى انقباضى بابتسامة، ولعل المنهج الرمزى الذى اتبعه نجيب محفوظ فى «ميرامار» يمتاز بالخصوصية الدرامية بمعنى أن الرمز لا يفرض على

الشخصية أو الموقف بقدر ما يساهم فى بلورتها وتجسيدها ، فالقارئ يدرك تماما أن «زهرة» ترمز إلى مصر رغم أن الكاتب لم يذكر هذا صراحة أو تلميحا ولكن منهجية الرمز من خلال الصراعات والمواقف الدرامية تؤكد لنا هذه الدلالة إذ أن زهرة كانت السبب الكامن وراء هذه الصراعات أو كما يقول عامر وجدى كان الجميع يميلون إليها فيما اعتقد ، كل علي طريقته (ص ٦٥) وفى الحوار التالى بينهما وبين شقيقتها وزوجها عندما حضرا إلى البنسيون فى محاولة لارجاعها للقرية مرة أخرى دليل على الرمز المتجسد فى شخصية زهرة

كان الرجل يقول :

- حسن أن تذهبى إلى المدام ولكن عار أن تهربى

وقالت أختها :

- فضحتنا يا زهرة فى الزيادية كلها

فقالت زهرة بغضب وحدة

- انا حرة ولا شان لأحد بى

- لو كان جدك يستطيع السفر

- لا أحد لى بعد أبى .

- يا للعيب هل كفر لأنه أراد أن يزوجك من رجل مستور ؟

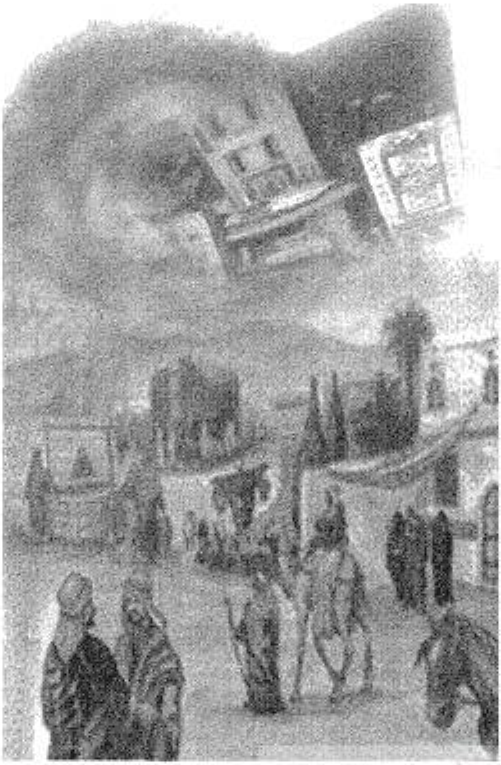
- اراد أن يبيعنى

- الله يسامحك قومى معنا

- لن ارجع ولو رجع الأموات ص (٦٨)

فى مثل هذا الحوار تبدو شخصية مصر القوية وارادتها الحديدية التى رفضت الرجوع إلى مجتمع القرية العفن وهى الارادة الحديدية التى كانت الشرارة التى اندلعت منها كل الصراعات حتى نهاية الرواية فمثلا نجد منصور باهى يقول : إن الأحداث التى تقع فى البنسيون تكفى قارة باكملها. وحدث قلبى بان زهرة محورها كالعادة . (ص ١٨٢)

لعل هذه الإطلالة الخاصة برواية ميرامار والتى فجرها الموقف الذى وقفته الدكتورة يمنى العيد والأستاذ محمد دكروب وأنا أمام المكان والبناية التى كان موجودا فيها بنسيون ميرامار كان هو الذى أعاد إلى الأذهان شخصيات الرواية والبحر والبنسيون وهذا العالم الزاخر من الصراعات والمواقف الباحثة عن القيم الحية فى حياتنا الاجتماعية وفى تقديرى أن شخصية زهرة وهى نموذج فريد فى أدب نجيب محفوظ بل إنها أول فلاحة تتحرك فى رواياته تبحث عن الاستقرار والأمان على كثرة النماذج النسائية فى أدبه إنما كانت تمثل الرمز الحى لنفس المكان المستوحاة منه الرواية وهو الأسكندرية . ■



قصة قصيرة

المخطوطة البغدادية

قصة
جبار ياسين

إلى سجلات المخطوطة «المروج السماوية» – التي يعتقد البعض أن مخطوطته تلفت في ركام المخطوطات الراقدة بين عناية في مكتبة المتحف العراقي في بغداد – يحدثنا أبو الحسن الرقة وادي بحكاية نادرة. وأبو الحسن، كما أخبرنا موسوعة آمالي بغداد هو عالم عاش في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وألف في مدينة دار السلام، كما كانت تسمى، الكثير من الكتب في علوم الفلك والملاحة والتقنيات وأسرار العالم الناطق، حتى أنه، كما يخبرنا ابن النديم صاحب موسوعة ... أورد كتابا الخ ... الرازق واستصلاحاته، ذلك قبل أن يهرب إلى البصرة بعد أن اتهمه قاضي بغداد بالزندقة. في هذه المدينة تحول التآلف في أسوار الصوفية وأعلامها. ويقول الصابر أنه انصرف إلى هذا الصراط بعد لقائه بشيخ من المتصوفة اسمه أبو جعفر الأرزي قدم من كابل في السنة ٢٨٨ من

الهجرة. لكننا لا نتوفر اليوم على كتب له غير مروجه السماوية المخطوط، فمجمل كتبه قد ضاعت يوم غزت العساكر المغولية مدينة الزوراء، فأعملت في المكتبات حرقا أو اغراقا في دجلة الذي صار لون مياهه بلون الحبر كما تذكر كتب الاخباريين.

في مخطوطته يخبرنا العالم البغدادى بما يلي: «في مساء يوم قائظ صادف اليوم الأول من شهر رمضان كنت متجها إلى المسجد لأؤدي فريضة المغرب، حينما اعترضني دلال بيده مجلد متوسلا بي أن آخذه بثلاثة دراهم ليشترى بها فطور ذلك المساء رددته بتبرم، فقد كنت على عجالة من أمري، لكنه ذكرني بأننا في أول الشهر الكريم أعطيته ثلاثة دراهم وتصدقت عليه بدرهمين أفتتح بها الشهر المبارك،



كانت هي كل ما في جيب جبتي ذلك المساء».

يضيف في المخطوطة المكتوبة بخط يده كما هو مشار أسفل الصفحة بعبارة «خطها الحقير إلى ربه أبوالحسن البغدادى»: «أديت الفريضة وعدت إلى داري، وكان الرجل قد غادر المكان. فطرت بعد أن نويت بمرق حلو من فواكهة مجففة من طائفة الشمش والعنجاص المخلوط باللوز والعسل وليمون البصرة القوى النكهة مع شيء من الرز وقرص من خبز تنور البيت الذى خبزته زوجتي الشابة، التي كانت قبل زواجي منها جارية من رومية. بعد الفطور انصرفت إلى فسقية الدار لأنعش نفسي بسماع رقرقة سقوط الماء في حوض النافورة. تذكرت المجلد الذى اشتريته في طريقي إلى المسجد فبحثت عنه ساعة قبل أن أجده تحت عمامتي. فتحته بعد أن استلقيت على أريكتي. قلبت صفحاته فوجدت فيها تسع وعشرون حكاية، خطت عناوينها بحذاقة خطاط يعرف أنواع الخطوط التي صنفها الوزير بن مقلة شيخ الخطاطين ببغداد. بحثت عن اسم المؤلف أو الناسخ في آخر الكتاب فلم أجده، غير أني وجدت تاريخا مكتوبا بأرقام بيزنطية يشير إلى السنة ١٠٠٢ حسب تقويم رومية. خمنت أن كاتبه نصراني أو لعله من فئة المترجمين الذين يسافرون إلى رومية بحثا عن كتب أرسطو وأفلاطون التي شاعت تراجمها في بغداد هذه الأيام. ألقيت نظرة فاحصة على الحكايات

فوجدت أن أسلوبها يختلف عما ألفنا نحن العرب في تسطيره ونسجه، فلا أشعار للأقدمين يحتذى بها ولا بسملة أو آيات من الذكر الحكيم تفتتح الكتاب ولا تصنيفات وتبويب حسب الموضوع والمناسبة، بل مجرد حكايات، عابرة، يحكيها المرء عن نفسه، مثل حكايات المجانين في بغداد الذين صنف لهم التوحيدي رحمه الله كتابا. حينذاك فهمت أن كاتبها رومي أو ممن لرومية وأساليب أهلها في الخيال أثر في أسلوبه. عزمت على إخفاء المجلد عن زوجتي كي لا أثير حنينها لمسقط رأسها البعيدة عنه. قلت لنفسي الحمد لله الذي وفر لي فرصة شراء هذه المخطوطة كي أتصدق بدرهمين لمحتاج في أول هذا الشهر الكريم وأغسل بعضا من ذنوبي. حيث أني دفعت ثلاثة دراهم لهذه البضاعة فلم أجد شرا في قراءة ما ورد فيها، فمعرفة أحوال المجانين وتقلبات نفوسهم وأهوائهم، هي معرفة وكل معرفة بركة.

عكفت على قراءة الحكاية الأولى التي تتحدث عن طفل أصابته الحمى وأخذت بتلابيبه حتى حارت أمه في أمره. حالما أنجزتها كانت الحمى قد سرت في جسدي كالنار في الهشيم حتى أني، لضعفي وبلبلة لساني، لم أتمكن من مناداة زوجتي لتجلب لي دثارا أو شيئا من اليانسون المغلي بالماء. انطرحت على الوسائد وما لبث النعاس والحمى أن غلباني فنمت.

حلمت ليلتها أنني كنت الطفل ذاك الذي قرأت هذيانه وأهوال الحمى عليه.



رأيت ما رأى من أفراس حديدية تعوم في النهر وجذوع أشجار كسلاحف عملاقة تطفو في أنهار سريعة الجريان. خضت في مياه مستنقعات آسنة تعج بالتماسيح والطير العجيب. فزعت كما فزع حين وجدت نفسي أطير وقد نبت في جانبي جناحين وصرت مثل طائر الرخ. تألمت كما تألم وانطرحت في المكان الذي كان منطرحا فيه تحت سوباط من جذوع الأشجار. أمه كانت أمي وخالته خالتي وأخاه أخي وصورته صورتي.

في الفجر استيقظت للصلاة وكان الحلم في رأسي، غير أن الحمى ولت، وشعرت بأني في أحسن حال كما لو أني قضيت ليلي عند جرف دجلة.

في الليلة التالية لم أقاوم رغبتي في قراءة الحكاية الثانية. بعد

الفطور، صليت العشاء في باحة المنزل فقد هبت عجاجة منعتني من الذهاب إلى المسجد. بعد الصلاة خفتت الريح وانقشع الغبار وازدانت السماء بنجومها، فانطرحت على أريكتي وفتحت المجلد حيث توقفت بالأمس، وجدت الطفل وسط عيد عجيب وفي مدينة غريبة وفد إليها البشر زرافات كي يبتهجوا بألعاب كأنها سحر أهل الهند. كانت أمه معه تقوده من تكية إلى أخرى فيها أجناس من بشر بسحنات سود وصفر وحمر لهم عصائب مثل عصائب صغار الحي. المدينة منورة بمصابيح شدت إلى أغصان الشجر وفي وسطها نصب القوم وليمة تجمع حولها الحواة وصانعي الأصنام والصور وباعة الحلوى والخبز المشوي على أسياخ حمراء، حالما انتهيت منها غلبني النعاس، كما غلب الطفل في الحكاية، ومضيت إلى طبقات الحلم أعيش في عالم مسحور فيه العجائب التي لا يعقلها عاقل. وقع لي كل ما وقع للطفل حتى استيقظت مفزوعا من هذا الجيثوم. لكن جسمي كان في أحسن حال على رغم ما قطعت من مسافات وما سمعت من أصوات .

هكذا كل مساء كنت أقضي ليلي في روح أخرى وفي جسد آخر وفي مكان آخر، يعلم الله كم كانت غربتي فيه، رغم أنه محض مكان حلم. كل ليلة بعد الفطور كنت أغرق في المجلد ثم أسافر بعدها في نومي، إلى حيث يعلم الله من أمكنة لم يرها غيري من



البشر. دام الأمر مادام وأنا أقرأ حكاية كل ليلة حتى ظهر هلال العيد في الليلة التاسعة والعشرين ، فاستبشرت كما استبشر الناس وأطمأنت نفسي؛ كنت قد أنجزت قراءة التسع وعشرين حكاية في تسع وعشرين ليلة من ليالي الشهر المبارك.

في صباح العيد اغتسلت وتعمرت بالبياض وتعطرت بالمسك ومضيت قبل الظهر إلى المسجد لأؤدي فريضة صلاة العيد. أخذت المجلد معي بعد أن قررت بيعه بنفس الثمن الذي اشتريته به وقد عرفت الآن سره. لم يكن صعبا على ذلك في هذا اليوم، الأول من أيام العيد، الذي ازدحم فيه سوق الوراقين ببغداد بجامعي المجلدات والدواوين ونفائس الكتب. ما أن خرجت من المسجد حتى وجدت شابا يقف في ذات المكان الذي رأيت فيه الدلال قبل تسع وعشرين



يوما. تلقف المجلد مني. دسه تحت أبطه بعد أن ناولني ثلاثة دراهم كأنه أعدها لذلك منذ زمن طويل، ومضى بعيدا. دون أن يلتفت.

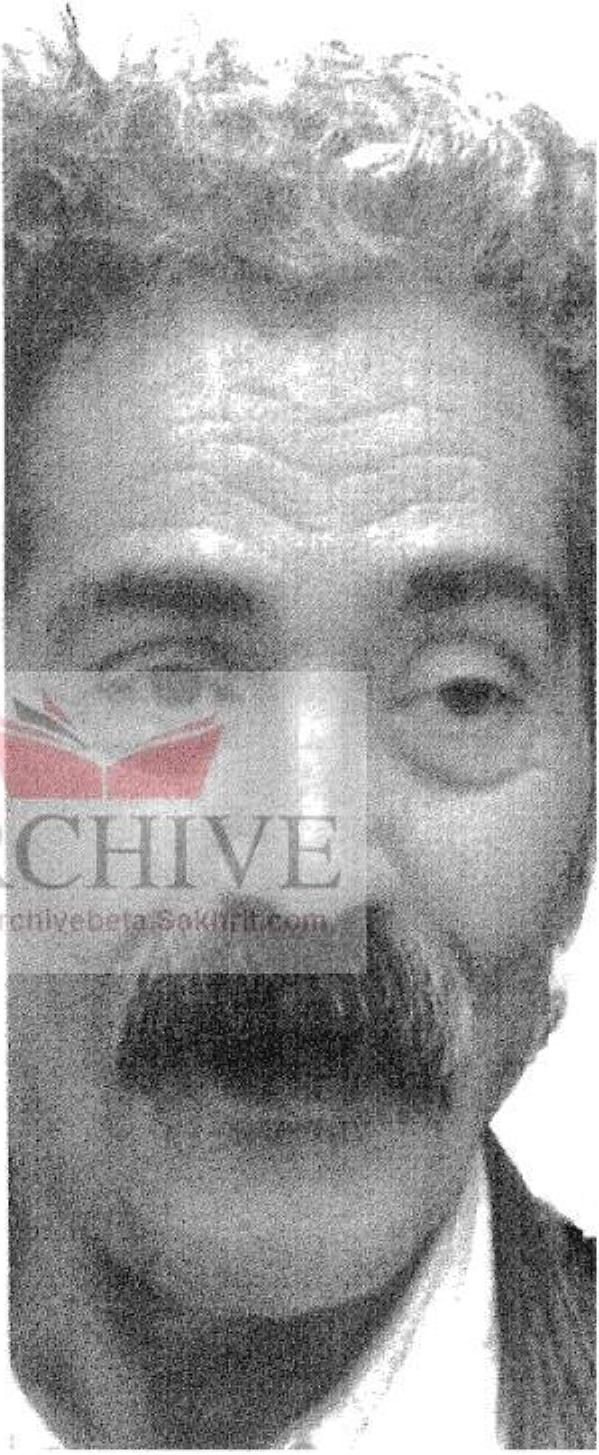
مازلت إلى اليوم أذكر سحنته. كان على عتبة الثلاثين من عمره وقد شذب لحيته، التي لم يخالطها بياض، على طريقة أهل فارس. كان فارع الطول لكن في مشيته شيء من أنوثة. حين عدت إلى الدار أول الظهيرة، كان الصبيان يلعبون في الجادة لعبة الجمدان. وزعت عليهم بعضا من الحلوى المطعمة بالفستق التي تبضعتها لزوجتي. حين دخلت الدار وجدتها منحنية على صينية من النحاس تلمعها برماد التنور البارد. حالما أبصرتني تركت الصينية في مكانها ونهضت مقبلة نحوي وهي تنفض الرماد عن يديها. قبلتني، ليس على عادتها وقدمت لي ضفيرة من الفل اشترتها في غيابي. حين سألتها عن سر هذه القبلة والهدية وكأنها وقعت في عشقي من جديد، قالت إن ذلك من تقاليد أهل رومية حين يصادف ذكرى ميلاد الرجل. تذكرت الحكاية السابعة في المجلد وزهرة الفل التي كان يشمها الطفل كل صباح، عرفت أن حياة الطفل في المجلد هي بعضا من حياتي التي أعيش فصولها متأخرا.. ابتسمت وحدي فقد كنت قد بلغت ذاك اليوم التسع وعشرون عاما من عمري، وهو عدد القصص التي قرأتها في أيام شهر رمضان الذي صادف ذلك العام تسع وعشرون ليلة قمرية. ■

* أسر لنا البعض ممن انكبوا على دراسة المخطوطات وتحقيقها أن نسخة من المخطوطة محفوظة بعناية في مكتبة جامعة ليدن في هولندا. ولا ندري كيف وصلت هذه النسخة حتى رفوف هذه المكتبة العتيدة!.

إبراهيم أصلان

يؤسس لقصة حالمة

بقلم
عذاب الركابى



إبراهيم أصلان .. فى قصصه القصيرة فنان يشكل ، بل يرسم بحب ، ومهارة ، وشاعرية ، وتقنية عالية ، وكأنه يؤلف صورا وأنغاما بواسطة الكلمات - حسب تعبير ميثال بوتور .. وهو يريد لقصصه القصيرة أن تكون لوحات تشكيلية ، ترتدى عمق ودفء وشفافية اللوحة والقصيدة معا ..!!

إبراهيم أصلان .. ببساطة شديدة يؤسس لقصة حالمة من مميزاتها امتاع القارىء ، والارتقاء به ، والتحليق فى عوالم جديدة ، وهادئة ، لاتمطر إلا نيازك من الكلمات الحميمة ، وصورا ، وأنغاما ، وبنفسجا ..!!

في قصة (ولد وبنت) وهي القصة الأولى في مجموعته القصصية : «يوسف والرداء» بساطة ، وشفافية يثبتان قدرة القاص ، وحنكته في ترويض حروفه لتتسع لهمومه المتشابكة والكثيرة .. فهذه اللغة الجميلة المتقنة .. والشاعرية الرقيقة قد جسدت حالة العشق هذه التي اتسمت بالبساطة أيضا .. والخفة والنقاء :

« ماما قالت لي : إنهم سيتركون لنا الشقة إذا وافق أبي على زواجنا ، إيجارها رخيص جدا ، إنها تحبك الآن ، وعندما أخبرتها إنك لم تعد تدخن لأني طلبت منك ذلك ، أحبتك أكثر ..» .

هذه البساطة المحببة ، والحروف الآسرة التي ينسج بها قصصه تضئ الحدث بتلقائية جميلة ، وأسلوب قصصي دافئ ، حميمي ، وجذاب يرغمك على الاستمرار في القراءة والمتابعة ، والتأمل ، والمضي مع المزيد من الجمل القصصية المشغولة بحنكة ، والهادفة ، ذات التأثير .. والظلال .. والشاعرية .. والعمق ..!!

في قصة « الضوء في الخارج » يتمكن القاص من سحر القارئ وجذبه بخيط من الخيال الرقيق ، ومن خلال جمله القصصية البارعة ، والمتناسقة ، يضعه في زورق ملون وسط أمواج طويلة من التفكير .. والتأمل .. والتمتع بحرية :

« كنت أشعر بالاطمئنان وأنا جالس بجوارها في الظلام . لقد مضى وقت طويل قبل أن أجد الرغبة في ترتيب شئ ما » . ص١٩

وفي قصة «بندول من نحاس » ما يقوم به القاص هو انفعال لحظة ذكي ، تظهره حركة شغب ضرورية .. فالكلمات البسيطة الدافئة يلونها القلق ، لترسم خارطة من المشاعر الجياشة بين بطلي القصة ، وتصبح الأحاسيس الصادقة هي وسيلة التفاهم .. واللغة الأنقى والأقدس ، وترى القاص إبراهيم أصلان ، وبمهارة يبني جسرا هادئا من هذه الأحاسيس النبيلة ليكون جادا .. مقنعا .. ومثيرا :

« احتضنها بذراعه الوحيدة وقبلها وقبلته ، وابتسما كثيرا جدا وهما واقفان بين الجدران العارية ، تحت الساعة الخشبية ذات البندول النحاسي الثابت . ومشط لها شعرها بأصابعه الطويلة النحيلة ، وتحسس ظهرها لفترة من الوقت، وعندما أوصلها إلى الباب كانت ذراعه مازالت على كتفها ..» . ص٢٨

في قصة «رياح الشمال» يحرص القاص إبراهيم أصلان على إرساء دعائم نص قصصي مغاير ، فموضوعاته لا تأتي متكلفة ، ولا تخرج من حالتها الشفافة ، فهو لا يعيش مع أبطاله روحيا وشعريا فحسب إنما يضفي نوعا متفردا ، ومتميزا من الحب ، والاهتمام ، والدفء ، والحميمية عليهم ، فتراهم

يحبّون على سجيتهم ، ويتحدثون ويغضبون كذلك .. ، وأحيانا يبكون دون أن يتنازلوا عن حالة العشق الجارحة التي يعيشونها :

« وأمنيتي هي أن أسمع صوتك الحبيب الذي يشبه حفيف ريح الشمال .. إن الحب سيعيد الشباب إلى أطرافي ، اعطني يدك التي تمسك بروحك .. وسوف احتضنها وأعيش بها .. ناديني باسمي ، وإلى الأبد .. لن يصدر نداؤك أبدا دون إجابة عنه» .ص٣٤

في قصة «يوسف والرداء» يغرق القاص في واقع شائك مرير .. لا يريد أن ينفصل عنه ، بل يذوب فيه ، في لحظة حلم لا يؤدي إلاّ إلى يقظة سارة مبهجة .. وغامضة أحيانا :

« في الشمس ، التقيت به ، كان يحمل حقيبة جلدية خفيفة ، وحزاما من الجلد الأسود المجدول قال :

– سوف أريك شيئا ...!!

وقفنا أمام النافذة الكبيرة ، واقتربنا من القضبان السوداء كان يجلس وحيدا في ركن القاعة الحجرية العارية ..» . ص٤٨

في قصة «القيام» شئ من المغامرة ، أداة القاص لغة موسقة واثقة، فالكلمات لا تفلت من بين أصابعه مجانا .. وهي ليست مبعثرة مهدورة ، بل تشكل كونا قصصيا ساحرا ، جذابا ، وموحيا . فهذا التداعي الجميل من نسيج القصة ، وليس طارئا عليها ، وقد أراد به القاص عنصر تشويق .. وجذب .. وإغراء للقارئ :

« ورحت أشرب الشاي ، وأنظر عبر المدخل الزجاجي الكبير إلى الرجال والنساء الذين يمضون في الضوء الغارب ، لفترة قصيرة ، ثم يختفون » . ص٥٩

شاعرية عالية

في قصص «إبراهيم أصلان» شاعرية عالية ، تجعلك تتعامل مع أحداث القصة بحذر ، وخشوع ، وشفافية .. وهذا يتطلب منك قلبا موجعا ، وذاكرة صافية . فتصير الكلمات ملكك ، من نسيج ذاكرتك أيضا ، وفيها من حرارة ودم أصابعك شيئا ، وأنت الغائب – الحاضر عبر جملة قصصية مشغولة بتأن ، وصبر ، ومهارة... تغير فيك الكثير ، وتفتح شهيتك إلى الإصغاء ، والتأمل في كل حرف فسفوري ساخن دحرجته أصابع القاص أمامك ، شغبا وحبا ، وهذا إن دل على شئ إنما يدل على التقنية القصصية التي تميز بها القاص إبراهيم أصلان ، فحولته من شاهد وراو إلى بطل مغامر من أبطال قصصه .. وربما هو الانفعال الذكي والمنظم لديه ، وهو يرصد حركة البطل ، أو وهو يخترق عليه زمنه الصعب ...!! ■

نجم وحيد في الأفق

بقلم
حسني سيد لبيب

نلتقي بطل الرواية أو الشخصية المحورية التي تعمد الكاتب إغفال اسمه، من باب التجهيل أو بيان تفاهة الدنيا التي نحياها إذا ما قورنت بعالم آخر مجهول للإنسان.. عالم ينسى فيه المرء ما عاشه في دنياه.. ينسى المكان، أو انه يضيع.. ينسى الأحداث المهمة والتافهة على حد سواء.. ينسى الأهل والصحاب، أو أنهم يغيبون من ذاكرته.. وفى القرآن الكريم، يحذرنا الله - عز وجل - من غواية الشيطان، ودعانا إلى عبادته سبحانه وتعالى.. الجنة ثواب لمن دخل فى طاعة الله والنار لمن عصاه.. يحاسب الإنسان فى آخرته على ما اقترفه فى دنياه.. إلا أنه يقف حائرا امام لغز الموت، الحقيقة المجهولة المؤكدة.. وقد نسج دانتى الليجيرى (الكوميديا الإلهية) وأعطى تصورا للحساب الذى سيواجه به الإنسان بعد الممات.. ومن قبله كتب أبو العلاء المعرى (رسالة الغفران).. وهناك (المدينة الفاضلة) و(اليوتوبيا) و(جمهورية) أفلاطون .. فى محاولة لتصور عالم مثالى غير عالمنا الذى نحياه.!

الذى لاحظته على محمد جبريل فى روايته القصيرة «نجم وحيد فى الأفق» أنه أورد نصوصا قرآنية، ودمجها فى النسيج الروائى، منها : «..ألزمناه طائره في عنقه...» وتلقى هذه الآيات الضوء على اتجاه الكاتب الى تبيان ما بعد حياتنا الدنيا.. النزعة الإيمانية تستحوذ على صاحبنا بطل الرواية، ولنسمه «صاحبنا» حتى لا يكون هناك خلط بينه وبين شخصيات أخرى سماها الكاتب وعرفها.. لجأ إلى الصلاة للخروج من الحالة المرضية التى يعانيها، ولا يجدى معها علاج ، فالمرض نفسى وليس عضويا.. مثل هذه الحالة تجدى معها الصلاة والتقرب إلى الله.. لكنه فيما يبدو قلق ومتعب، مما اضطره الى اللجوء الى الشيخ نجاتى.. وكما يتوقع المرء قبل موته نجد صاحبنا قد تصاعد فى داخله احساس بأن حدثا قاسيا على وشك أن يحدث.. لم يتخيل صورته، ولا حدود قسماته.. وتردد على المقامات والأضرحة ، وشارك فى حلقات الذكر والموالد، لعله ينسى غربته.. وه استوحش من الناس، وانقطع الى الله يصوم النهار، ويقوم الليل» .. اقتصرت حياته على البيت والجامع، ويبدو أن صاحبنا انعزالى بطبعه، مما أدى به الى الإحساس بالغربة، والتفكير فى الحياة الأخرى. وما حكاية نجمه الوحيد الذى يزامله من الميلاد حتى الممات إلا سجلا خاصا بالإنسان، يفتح عند الميلاد ويطوى بعد الممات! مشهد الجنازة المتكرر من يوم لآخر يكثف حدة الإحساس بفاجعة الموت، أو عبثية الحياة الدنيا. وثمة ايماءة أخرى بإحساس صاحبنا بأنه يساق الى قدره المحتوم، عندما نوى القيام بالرحلة إلى الجزيرة التى شهدت مولده، واستعان بخبرة الكابتن وحنكته فى ركوب البحر. لكنه اخفى عن الكابتن الباعث الحقيقى للرحلة.. خشية ان يرفض الفكرة، لما عرف عن الكابتن حبه للحياة. وفى هذا إشارة غير مباشرة بإحساسه بدنو الأجل.. بعد آخر مهم فى حياته هو أن مرضه ليس له دواء عند الأطباء ، الذين بذلوا بدورهم كل ما فى وسعهم، ولم يبق الا رحمة الله وهى حالة نعرفها فى واقعنا بأن الشخص يشرف على الموت.. كما أن رحلته التى ينتويها لم يخبر اهله بها، وهى تلبية لنداء سماوى.. وما يُنمى إحساسه بدنو الأجل ما اشترطه عليه الشيخ نجاتى بأن يقوم بالرحلة بمفرده: «لا أحد يذهب مع آخرين.. كل واحد يذهب بمفرده»..

دلالات مهمة

للعنوان «نجم وحيد فى الأفق» دلالة مهمة، إذ تتأسس عليه البناء الفنى للرواية. تدور الرواية حول صاحبنا الذى

مرض ولم ينفع معه طب الحكماء، فلجأ إلى المقامات والأولياء والعبادة.. كما لجأ الى الشيخ نجاتي الذى نصحه بأن يبحث عن نجمه، فلكل انسان - كما قيل له - نجم خاص به يظهر عند ولادته ويختفي عند وفاته.

تقدم الرواية فنا متميزا ، إذ تدور احداثها حول اعتلال الروح والسعى الدءوب للخروج من شرنقة الحياة الرتيبة المملة. صاحبنا نموذج إنسانى عادى نشـأ ودرس وتزوج وانجب، ولم يبن الكاتب أشياء حادة او فواجع حدثت له. حياة عادية ولعل الداء يكمن في هذه الحياة الخالية من الصراع، حين يمتد العمر بالإنسان ، تغيب الدهشة ويكون أميل إلى الصمت، ويرجع ذلك الى لحظات الاكتشاف التى ذوت.. والبطل هنا يتأمل تلاحق الامواج، وما تبوح به من اسرار . عانى حالة من الضيق والملل واللامبالاة والتصدى تردد على المستشفى والاطباء ومعامل التحاليل والاشعات.. ليس ثمة مرض عضوى يشكو منه! تردد على عيادات الطب النفسى ولا فائدة.. اخيرا لجأ الى الشيخ نجاتي الذى فطن الى اعتلال روحه، وان لم يكاشفه، لكنه رسم له سبيل الخروج من الأزمة . فقد شعر صاحبنا بثقل اعضائه وضيق روحه. قل نومه.. «ظل ذهنه في تشوشه وروحه قلقة والطمأنينة غائبة عن قلبه» .. مثل هذه الحالة لا تجدى معها الصلاة؟ (..ألا بذكر الله تطمئن القلوب). انتابه احساس بان حدثا غير عادى على وشك الحدوث .. تردد على المقامات والأضرحة ، وشارك في حلقات الذكر والموالد يلازمه احساس بالغربة لا يدرى منشأه لا مفر من اللجوء إلى الشيخ نجاتي الذى قال له: «اذا عرف المرء نجمه، ووصل اليه حيث يكون.. اتصل ماضى حياته بما هو قائم، بملامح الآتي» .. وافهمه انه عندما يموت الإنسان يذوى نجمه حالا ويافل، نصحه برؤية نجمه الآن،. قال له: «لن يغادر النجم مكانه حتى يأتى موعد الرحيل» .. عليه التجرد من كل ما هو دنيوى حتى يبدأ رحلة التعرف الى النجم.. كما يتذكر مقولته: «ربما يتجسد النجم في هيئة سمكة او طائر» ويرى ان الطائر الذى يشاهده في الجزيرة قد يكون هو نجمه الذى يبحث عنه.. فالانسان «..ألزمناه طائره في عنقه...».. يسأل نفسه ان كان المعنى هو ذلك الطائر النجم الذى يرافقه منذ الميلاد الى الممات! والمعنى الذى رسخ في ذهن صاحبنا غير المعنى المقصود في الآية القرآنية التى اجتزئ منها هذا الجزء قال الله تعالى : «وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم

القيامة كتابا يلقاه منشورا».. والمعنى كما ورد في احد كتب التفاسير الطائر عند العرب الحظ، ويقال له البخت، واصله انهم كانوا يتطيرون بمرور الطير، ويزعمون انهم يعرفون الخير والشر منها. فبيّن الله تعالى في هذه الآية ان حظ الانسان معه بصلاح قلبه وفعله او فسادهما ولا علم للطير بذلك».

يتذكر ما كان يقوله له ابوه من انه ابن بحر.. ولدته امه في (بلانس) حرصت على شم هواء البحر في شهرها الأخير، وفاجأتها الولادة قبل وصولها الى الشاطئ، بالقرب من جزيرة خارج البوغاز.. يستعيد لقاءه بامه قبيل بدء الرحلة، وجزعها عليه، حين سألها : «اين ولدت» اجابت «ولدت في جزيرة بعد الانفوشي».. وقالت «كان البحر حصيرة .. تنزهت مع أبيك في الجزيرة ثم فاجأني الم الولادة .. لعل الكاتب يضع يده على مفاتيح الرحلة وبواعثها، هل نستطيع الجزم بأن الحنين الى مكان الميلاد دفعه الى القيام بالرحلة؟ هل نستطيع الجزم -- ايضا - بأن إبداعات جبريل عن الحي السكندري «بحري» تأخذ المفهوم نفسه، بأن الدافع لهذه الكتابات هو الحنين الجارف الى مسقط رأسه؟ لكل منا حنين وشوق مستبد إلى مكان الميلاد، والعودة الى الجذور، او البحث عنها. فالوطن او مسقط الرأس ،عنصر اساسى في بلورة شخصية الإنسان.

أخال صاحبنا بتأثير الشيخ نجاتي عليه، اصبح يحمل مصباح ديوجين للبحث عن الحقيقة! أو أنه تتحدد علاقته بالنجم من حيث ولد يوم ولادته.. «هو قادم من نجمه ، ولابد ان يذهب إليه» .. وقد يكون الفضول هو الدافع القوى للبحث عن نجمه ورؤيته.

رحلة النهاية

الرحلة غامضة . شقها المادى الملموس ينحصر في الوصول إلى المكان الذى شهد ولادته.. والتطلع إلى نجمه.. يقوم بالرحلة بمفرده، في إشارة واضحة لدنو الاجل.. هى اذن رحلة النهاية .. والطائر الوحيد او النجم الوحيد هو النفس في طموحها الدنيوى وفى صعودها إلى بارئها، وان كانت الفكرة مشبعة بجو اسطورى، والمعنى الذى قد يستغلق على البعض بأن المكان الذى شهد البداية، هو المكان الذى يشهد النهاية.. هو معنى مجازى.. لأن النفس لا تدرى على أى أرض ستلاقى ربها، يتدبر الكاتب قدره الله - عز وجل - على أن يعيد الخلق كما بدأه أول مرة والآيات القرآنية في هذا عديدة.. والنجم أو الطائر أو الروح ما هى إلا مرادفات

للدلالة على أن الإنسان جسد وروح. الكاتب لا يطرح فكرة جاهزة لكنه يطرح تساؤلات تثرى خيال القارئ وتدفعه إلى التفكير قد لا يجد طائره الذى يبحث عنه وفى رحلة مثيرة محفوفة بالمخاطر تطلع إلى نجمه وخمن أى نجم يكون.. غالب الأمواج العاتية وهو وحيد داخل القارب الصغير. أحس بأن القارب تحول إلى قبر وأنه وحيد لا بشر ولا طير ولا صوت تساءل: أين ذهب الطائر الذى كان يحلق وحيدا فى الأفق؟ هل مات؟ وهل كان هو نجمه؟ وهل أومأ موته - إن حدث - بالسر والإشارة والمعنى؟. اختفى الطائر قبل أن يعرف منه السر وإن لم يفسر لنا الكاتب أى سر هذا الذى يبحث عنه صاحبه هل هو سر الحياة أم سر الموت؟ يلتقى الشيخ نجاتى الذى سأل عما إذا كان التقى نجمه.. فتوضح له أنه فى لحظة رؤيته له كان يودعه وكان قد رافقه منذ ولادته وأن النجم لا يبعد عن ذاته وأن رحلته بدأت مع شروق شمسه وانتهت مع غروبها ولكل امرئ شمسه الخاصة.

الرواية من حيث كونها وسيلة من وسائل المعرفة مليئة أو هى مكتظة بمعلومات عن البحر والصيادين والأسماك والنوات... إلخ تكاد تطغى على مشكلة صاحبنا وما يهدف إليه من القيام برحلته وهذا اللون من الكتابة الروائية أغرم به جبريل وقطع فيه أشواطا بعيدة يذكرنا بألبير كامى وكونديرا وغيرهما من أعمدة الرواية الحديثة وجبريل برز فى العديد من رواياته وخاصة (رباعية بحرى)، كما برز فى العديد من قصصه القصيرة مثل قصة (سندس) و(الخسوف) و(القرصان) و(موت قارع الأجراس) وغيرها.

البحر واللغز

الغريب فى هذه الرواية وما سبقها من روايات عن حى (بحرى) أنها تؤكد قاعدة أن كل ما لا يعرفه المرء يتوق إليه فما سمعنا عن محمد جبريل أنه مارس الصيد أو أمسك بمجداف أو سعى إلى صيد سمكة واحدة بسنارة أو شبكة وفى أحاديثى المتبادلة معه لا يذكر شيئا من هذا.. لعله فى الجانب الإبداعى يتحول إلى عوالم غير مألوفة له أو إلى الضد هادفا إلى إظهار غرامه بالبحر وتوقه إلى عالمه الموار.. نعم هو يعرف المكان - حى (بحرى) - معرفة جيدة.. لكن البحر هو اللغز الذى يقف أمامه مبهورا مندهشا فكانت هذه الكتابات وكان هذا الغوص فى تفاصيل حياة الصيادين وعالم البحار الملئ بالكنوز والأسرار يتعرض لذكر (سيم) الصيادين

والبحـــارة، وتواريخ النوات . وأنواع الأسماك . يقول على لسان صاحبنا: «أنا سكندرى وإن كنت لم أنزل البحر» . كـأنه - دون أن يقـصـد - يحـدثنا عن نفسه! وصاحبنا سعى إلى ممارسة الصيد وركوب البحر واكتسب مهارة من الكابتن الذى أسهب فى سرد التعليمات والنصائح وأعطاه خبرته.

ثم ينقلنا الكاتب إلى جو أسطورى إلى عالم غير عالمنا ولعب الخيال لعبته فى رسم هذا العـالم، كـأنه الجنة.. مما أشعرنا بأن صاحبنا قد عبر البرزخ وانتقل إلى حياة أخرى نسى فيها أهله وأصحابه فأشعة الشمس تحولت إلى قبس أضاء الموجودات وتداخل الضياء فى الضياء النور فى كل اتجاه ساطعا قويا كما لم ير من قبل.. لا نهاية لآفاقه.. لا سماء ولا أرض ولا شفاف «طالعة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»٢٠. ويصف النور بأنه، «مسكون بقداسة نورانية علوية لم يسبق له رؤيته» ٢١. كأن المرض قد ذهب ذوت الآلام فى جسده وتلاشت وصفا الذهن» ٢٢.

وتعد رواية (نجم وحيد فى الأفق) امتدادا لإبداعات الكاتب عن الاسكندرية وحى (بحرى) على وجه الخصـوص سبقها روايات: (قاضى البهار ينزل البحر) عام ١٩٨٩ و(الصهبة) عام ١٩٩٠ و(النظر إلى أسفل) عام ١٩٩٢ و(الشاطئ الآخر) عام ١٩٩٦ (ورباعية بحـرى) عـامى ٩٧ و١٩٩٨ و(الميناء الشرقيـة) و(مد الموج) عام ٢٠٠٠.. بالإضافة إلى كتابين آخرين فى السيرة الذاتية: (حكايات عن جزيرة فاروس) عام ١٩٩٨ و(الحياة ثانية) عام ١٩٩٩ وإن كانت (مد الموج) تنتمى إلى السيرة الذاتية أيضا.

وقد حققت رواية (نجم وحيد فى الأفق) التدوير إذ نجد صفحاتها الأولى امتدادا لصفحاتها الأخيرة إلا أنه فى بداية الرواية أحس بحنين إلى حى(بحرى) وناسه، وأحس بملل ورتابة، رغم أن المرض الذى يشكو منه قد زالت أعراضه وآلامه وصور صاحبنا - فى نهاية الرواية - يحيا فى مكان أشبه بالجنة، دون حساب أو تطهير لنفسه مما شابها فى الحياة الدنيا كأنما الكاتب أشفق على صاحبه بعدما واجه أهوالا وصعابا كفيلة بأن تشفع له، وقد غامت من ذاكرته وقائع حياته فى (بحرى) وارتباطه بالأهل والصحاب والرواية - رغم كل شئ - محاولة جادة للخروج من شرنقة الماديات والتطلع إلى عالم شفيف الرؤى، طاهر الأيادى! ■

كتاب الهلال



دفتر أحوال الاقتصاد المصرى

بقلم
د. محمود عبد الفضيل

يصدر ٥ مارس
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٧٥

الهلال

محرم ١٤٢٤هـ - مارس ٢٠٠٣م

كائنات محتملة

بقلم
محمد عز الدين التازى

تصدر ١٥ مارس
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

من الجفاوة إلى التجاهل

بقلم
محمود قاسم

جاء عشرة أدباء ، يكتبون باللغة الفرنسية ، الى مصر فى بداية الشهر الماضى ، بهدف إلقاء بعض من إبداعهم على جمهور القراء وانتقلوا فى احتفالية ملحوظة بين أكثر من قاعة فى القاهرة والأسكندرية .

أغلب هؤلاء الادباء مقروءون فى بلادهم ، ومعروفون للقراء المهتمين بالثقافة المكتوبة باللغة الفرنسية ، وحاصلون على جوائز أدبية مهمة عديدة ، وموجودون فى الساحة منذ سنوات طويلة ، وأكثرهم تجاوز سن الشباب منذ فترة .

نشاط ثقافي مكثف تم في إطار معرض الكتاب بما يعني أن علي المهتمين بالثقافة، خاصة الادباء، ان يجدوا فيما حدث فرصة للتعارف على أقرانهم من أدباء جاءوا من أنحاء متفرقة من العالم لكن شتان بين المأمول والواقع..

فما حدث يعكس أحوال الثقافة الأجنبية في مصر، خاصة في السنوات الأخيرة



عندما قام برناردشو بزيارة مصر في أوائل الثلاثينات ، ظلت زيارته تلقي صداها لسنوات طويلة ، وعندما جاء كل من اندريه جيد وجان كوكتو في نهاية الاربعينات الي القاهرة أحاط بهما المثقفون والادباء طوال زيارة كل منهما ، وفي الستينيات كانت زيارة ايفتشنكو ، ثم جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار بمثابة أحداث تدخل التاريخ وقامت مجلة «الهلال» بعمل ملفات واعداد خاصة عن كل منهم .

وفي نهاية السبعينيات جاء جونتر جراس بصحبة فيلم « الطبلة الصفيح » والتقي بالمهتمين بالادب الالماني الحديث وفي بداية الثمانينات جاء أرثر ميلر ضمن وفد أدبي ضم أدباء يهود أو ، متعاطفين مع إسرائيل منهم ايلي فيسل (نوبل ١٩٨٦ فرع السلام) ، ووليام ستايرون صاحب رواية اختيار صوفي ولم ينتبه أحد الي خطورة هذه الزيارة التي تمت لمباركة معاهدة السلام .. باختصار الآن بعض المثقفين يعرفون ميلر ككاتب مسرحي أو ربما كزوج سابق للراحلة مارلين مونرو ، لكن الآن فإن فيسل ، وستايرون لهما أهمية أكثر من ميلر.

وفي عام ١٩٨٦ قام ويليام جولدنج (نوبل ١٩٨٣) بزيارة الريف المصري ، ولم يقابله أحد الا صديق مصري ، والف جولدنج كتابا عن مصر ، لم يقرأه أحد منا بالمرة .

هل قرأت الادب المصرى ؟

وفي منتصف التسعينيات ، جاءت نادين جورديمر (نوبل ١٩٩٣) لحضور مؤتمر القمة الافريقي، وفي ندوة عقدت لها بهيئة الكتاب انكشف كبار المثقفين في مصر وهم يطرحون عليها أسئلة لا تقل سذاجة عما يطرحه صحفيون مبتدئون من طراز : هل قرأت الادب المصري ؟ ما انطباعك حول أول زيارة تقومين بها إلي بلادنا ؟

ورغم أن اعمال جورديمر كانت منشورة باللغة العربية ، علي الاقل روايتها المهمة « ابنة برجر »، فإن أحدا في القاعة المزدحمة لم يسألها سؤالا واحداً عن إبداعها..

وفي السنوات الاخيرة زار مصر كتاب مشهورون في بلادهم ، منهم الامريكي ريتشارد فورد، الذي أصر علي عدم استخدام سيارة ، والتجول في الشوارع للاحتكاك مباشرة بالناس، ومنهم التركية كينزة مراد. ومنذ شهرين تقريبا جاءنا لوكيلزيو اهم ادباء فرنسا الذين علي قيد الحياة ،



والآن ها هم أدباء بارزون من سويسرا : جان لوك بنزليو، ومن الكونجو هنري لوبيز ، ومن كندا : روجيه بلاي ، وبرونورو ، ومن فرنسا : أني سومون ، وغيرهم ، وحسب البرنامج المسمي «قراءات متقاطعة» كان علي جمال الغيطاني ، وأحمد عبد المعطي حجازي وأدورد الخراط أن ينضموا الي هذه القراءات لكن «حجازي» شارك وحده في إحدي جلسات القراءةروجان نويل بلان وماري فرانس بيزران وقرأ الغيطاني اقصوصته«الترام» في جلسة أخرى

قبل الحديث عن أهمية هذا اللقاء ، فإننا يجب التعرف علي القاعات التي ذهب هؤلاء الادباء لالقاء قرائتهم فيها في القاعة الرئيسية بالمركز الثقافي الفرنسي جلس في المقاعد الخلفية طلاب وطالبات بعض اقسام اللغة الفرنسية بكليات متعددة بناء علي تعليمات من اساتذتهم بينما امتلأت المقاعد الاولي بأطقم بعض محطات التليفزيون ووالإذاعة لعمل لقاءات مع الضيوف عقب انتهاء القراءات . وفي الندوة التي عقدت في قاعة بالمجلس الاعلي للثقافة كان الحضور تقريبا صفراً .. وفي الندوة الثالثة التي قرأفيها كل من أني سومون وجمال الغيطاني قصصهما قد خلت القاعة تماماً من الرواد ، الا بعض الموظفين.. .

لو كان المثقفون المصريون الذين غابوا تماما عن هذا الملتقي ، قد سمعوا الي الكلمات الحادة والمليئة بالرؤى والموضوعية تحت عنوان «لماذا أكتب؟» التي ألقاها لوبيز لقام الكثيرون منهم بتغيير مسيرته ولتغيرت أشياء كثيرة مهمة في حياتنا الثقافية ، ولكن الرجل المتحمس القي كلمته لترتد اليه ولزملائه الذين جلسوا معه علي المنصة من أجل التعرف علي أهمية هذا اللقاء ، من المهم تقديم هؤلاء الادباء ، وعلى رأسهم هنري لوبيز، البالغ من العمر ٦٥ عاما.. فهو من مواليد ليو بولد فيل بالكونجو عام ١٩٣٧ . وقد تولى العديد من المناصب الوزارية في بلاده، بالاضافة إلى منصب رئيس الوزراء ، وذلك بين عامى ١٩٦٩ و١٩٨١ ، ثم تولى منصب المدير العام لمنظمة اليونسكو بالنيابة فى الثمانينات، معروف بنشاطه السياسي ، والأدبى ، حصل على جائزة الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٣ ، وهو الآن سفير للكونجو فى فرنسا .

من رواياته «الرومانسية الجديدة» ١٩٦٠ «تحت التام تام» ١٩٧٧ ، «الضاحك الباكى» ١٩٨٢ و«الباحث عن قارات افريقيا » ١٩٩٠ و«على الضفة الاخرى» ١٩٩٢ و«ملف مرتب» ٢٠٠٢ .

امرأة مولعة بالمرسم

كل هذه الخبرات الثقافية والحياتية، والسياسية ، انعكست فى القراءة المتقاطعة التى قدمها لوبيز، سواء فى اختيار النصوص القصيرة، أو الاستفادة من الوقت ، أو فى بلاغته اللغوية ، وقدرته فى التعبير عما يريد توصيله إلى القارئ».

كان لوبيز قد تحدث عن أندريه فى روايته «الباحث عن قارات افريقيا» وهو رجل زنجى أخضر العينين، يقول انه اثناء طفولته أمتلات افريقيا بالضحكات


روجيه بلاى


أحمد عبد المعطى حجازى


إدوار الخراط

والروائح النفاذة ، وهذا الافريقي يجد نفسه في رحلة بحث عن ابيه في العديد من القارات المسماة افريقيا

أما روجيه بلاى ١٩٣٧ ، فهو حالة خاصة من الابداع، جمع بين التأليف الروائي ، والتمثيل والاخراج في السينما والمسرح ، انتقل للعمل في العديد من البلاد، فقد سافر إلى الجابون وعمل مديراً لفرقة مسرحية، كما عمل ممثلا في أفلام سينمائية وتليفزيونية بكندا.. كتب للاذاعة والمسرح ، والغريب أنه اتجه مؤخرا فقط لتأليف الرواية ، حيث نشر عام ٢٠٠٠ روايته الأولى «طيران الكوندور» ، ثم جاءت روايته الثانية... إختارت ان تموت» عام ٢٠٠٢ التي تدور أحداثها في أندونسيا، وهي رواية تدور أحداثها في المقابر ، وتتعامل مع الموت على أنه كائن حي.

أما الكاتب السويسري جان لوك بنزوليو، فهو حاصل على أكثر من جائزة أدبية ، منها جائزة مدسيس عام ١٩٨٠ عن روايته «بورتريه لغرفة» هو من مواليد مونتي عام ١٩٤١ ، ابوه طبيب نفسي، وامه ايطالية الاصل. درس الحقوق والعلوم السياسية بجامعة لوزان، وقد اختار الكاتب ان يعيش في باريس باعتبارها بؤرة للنشر. اصدر روايته الاولى عام ١٩٧٢ باسم «واحد أخر مات»، ثم «العلبة السوداء» ١٩٧٤، و«ذهب بيتو إلى الحرب» ١٩٧٦ و«الكاتب الشبح» ١٩٧٨ ، و«رسم مع مسدس» ١٩٩٢ و«نيران البحيرة» ١٩٩٨ و«الهرم الدائري» ٢٠٠١.

تدور روايته «بورتريه لغرفة» حول رجل يحاول اخفاء رسوماته تحت ستار واحد من الجليد الداكن . ولكن من العبث ان يفعل المرء ذلك. يتعرف على امرأة ترسله إلى مكان بعيد بهدف التفرغ للرسم يحس ان روحه في هذا المكان قد خبت ، وانه يعيش في منفى، ولذا لايرسم خطا واحدا.

أما روايته «لوحات لامرأة سابقة» عام ١٩٨٩ ، فالكاتب فيها يسير على خطى الرواية التجريبية، حول ولع امرأة بالفن التشكيلي ، والموت داخل النفس، والبحث عن منفى ملائم من خلال



هنري لوبيز



برونو روى



جان لوك بيتوزيجليو

عاشقين افترقا بلا عودة

اللبن سائل أبيض

لم تكن للمرأة مكانة كبيرة وسط هذا العـدد من الأدباء الذين يكتـبـون بالفـرنسـيـة ، وفى اطار القـراءات المتقاطعة للقصة القصيرة، مثلت آنى سومون المولودة عام ١٩٤٠ ، عالمها السوداوى المليء بالأحزان وهى تقرأ بعضا من ابداعها القصصى وسومون حازت على جائزة جونكور فى القصة القصيرة عام ١٩٨١ عن مجموعتها «أحيانا فى الاحتفالات» وهى جائزة لاتمنح الا نادراً وليس لها صدى اعلامى قياسا إلى جائزة جونكور فى الرواية .. ورغم ذلك فان سومون نشرت العديد من المجموعات القصصية منها «الارض لنا ١٩٨٧» ولست شاحنة «١٩٨٩» ، وشيء ما فى الحيـاة ١٩٩١ و«اللبن سائل ابيض» ١٩٩٥.

ابطال سومون تائهون فى الحب ، تحطمهم اقدارهم ، ولهم طفولة معذبة ، كما ان لهم مفرداتهم اللغوية الشعبية، الخاصة بهم ، ورغم الآلام التى يعيشها الناس فى هذه القصص ، فإنهم يحبون الحياة بدليل تعلقهم بها.

بدا الشعر ، فى هذه الامسيات ، تائها، غير مطلوب ، خال من الصدى ، سواء ذلك الذى القاه الكندى برونو روى ، أو أحمد عبد المعطى حجازى، لذا جاءت قراءات حجازى فى غير مكانها، وعكس القاؤه أحوال الشعر المعاصر، فبالاضافة إلى لجوئه للتأثير على الجمهور بتنغيم الحروف والكلمات حين القى قصيدة له باللغة العربية، فانه افتقد إلى الحيوية والرصانة وهو يقرأ على الناس ترجمة نفس القصيدة إلى اللغة الفرنسية ، وكأنه بذلك يؤكد ، بما لارجعة فيه، ان الشعر قد مات.. بلاعودة...

السؤال الآن .. من هو الشخص الذى اختار الساعة العاشرة والنصف صباح الرابع من فبراير الماضى لإلقاء ندوة «الكتابة بالفرانكفونية» .. وسط هذا الخضم من الاحداث الثقافية ، ولماذا لم يتم ذلك داخل ارض المعرض نفسه؟... سؤال ..... ■

قصة مجلة

الكاتب «٢»

صعوبة الاختيار

بقلم
أحمد عباس صالح

مضت اثنتا عشرة سنة على قيام الثورة في يوليو سنة ١٩٥٢ وصدور العدد الأول من مجلة الكاتب سنة ١٩٦٤. وخلال هذه السنوات جرت تحولات عديدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في مصر. كان القانون الثالث للاصلاح الزراعي قد صدر وكان التعليم بكل مراحله اصبح مجانيا حتى الجامعة وكانت حكومة الوفد وبمبادرة من طه حسين قد جعلت التعليم مجانيا حتى الثانوية. وكانت القرارات الاشتراكية بتأميم الشركات قد استقرت بحيث أصبح الاقتصاد تحت اشراف الدولة. وكان الإعلام كله تحت هيمنة الدولة وكذلك أمكن استيعاب كل القوى العاملة في المشاريع الجديدة المختلفة بحيث لم تعد هناك بطالة، ولم يتعثر من مشروعات الثورة إلا الخدمة الطبية التي يجرى البحث فيها عن طريقه لتشمل كل المواطنين.

في هذه الفترة كانت خصومات السلطة الجديدة مع اليسار المصرى بدرجاته المختلفة قد انتهت تقريبا وافرج عن جميع المعتقلين واسندت إلى بعض قيادات الحركات اليسارية وظائف هامة. وكانت فكرة الحزب الواحد مقبولة الى حد ما خاصة بعد تخصيص نصف مقاعد البرلمان للعمال والفلاحين. وصدرت تنظيرات متعددة لتبرير هيمنة الدولة على الاقتصاد والنظام السياسى. وبالنسبة للجدل حول طبيعة قرارات التأميم واتهامها خلسة بأنها نوع من رأسمالية الدولة صار اصباغ الطابع الاشتراكى الديمقراطى عليها بأن العبرة من أى قرار اقتصادى هو بالكشف عن الطبقة المستفيدة من القرار فإذا كان المستفيدون هم الطبقة العاملة والفلاحين، أى الأغلبية العظمى من فئات الشعب، يصبح القرار ديمقراطيا وتنتفى صفة رأسمالية الدولة، وكذلك الأمر بالنسبة للحرية السياسية بما تقتضيه من حق الانتخاب والترشيح، إذ صارت الديمقراطية الاقتصادية أساسا للديمقراطية السياسية وبدون تحرير القوى الشعبية من الاسترقاق لرأس المال تنعدم الديمقراطية السياسية أصلا. وهكذا صار هناك نوع من القبول بالتحولات فى صفوف الغالبية العظمى من الشعب.

وعلى الرغم من أن تركيز السلطة في القيادة السياسية وصل الى أقصى تطرفه إلا أن الاصلاحات الاجتماعية كانت كفيلة بقبول تصرفات هذه القيادة وأوشك مفهوم النظام الابوى أن يكون حقيقة مقبولة. وفي هذا الوقت كان النظام الشمولي فى الدول الاشتراكية وخلفياته الفكرية يقدم تبريرا آخر لقبول تركيز السلطة. ومن بين القضايا التي كانت مثارة فى المجتمع المصرى حتى قبل قيام الثورة قضية التغيير الذى كانت الكثير من القوي الاجتماعية فى مصر ترى ضرورته، هل يتم التغيير بواسطة الديمقراطية عن طريق التطور التدريجي أم عن طريق الثورة. وكانت التجارب المصرية السابقة تؤيد التغيير بالثورة، وربما كانت هذه الخلفيات أيضا عاملا مساعدا آخر للسلطات الواسعة التى اعطيت للقيادة السياسية دون أن تواجه بمعارضة قوية.

ابتكار فكر جديد

في هذا المناخ السياسي والاجتماعي وضعت الكاتب برنامجها الذى تركز فى عدة نقاط بلورتها مقدمة العدد الأول الذى صدر فى الأول من يناير سنة ١٩٦٤. فقد اختارت أولا أن تكون مجلة ثقافية بما تشتمل عليه كلمة ثقافة من اتساع. فهى ليست مجلة للتعامل مع الاقتصاد أو الفكر السياسى أو الاجتماعي أو الأدبي بل تشمل كل ذلك جميعا، وكان هناك ادراك لدى جميع المؤسسين لأهمية الأدب والفن. ولم تكن مصادفة أن الاعداد الأولى اشتملت على محاولات لابتكار فكر جديد فى كل هذه المجالات فمحمد عودة مثلا بدأ سلسلة مقالات بعنوان «حول البحث عن نظرية» وبالتالى صار لدى كتاب المجلة احساس بأنهم مطالبون باكتشاف فكر سياسى اصيل، وبالفعل صار استعراض شامل للنظريات المطروحة واهتم كامل زهيرى بتأصيل فكر الاشتراكية الديمقراطية وراح يتابع أفكار أهم مفكرى هذه الاشتراكية مثل هارولد لاسكي ومؤسسى جماعة الفبيان وغيرهم، فضلا عن الكتابات حول النظرية الماركسية بدرجاتها المختلفة. كان الأحساس بحاجة المجتمع المصرى الى خلق ثقافة اصيلة فى كل المجالات هو الذى يقود

كتابها. وكان من الضرورى أن تستعرض المجلة الأفكار الحديثة المتداولة فى المجال الثقافى على مستوى العالم، لم يقتصر هذا الاستعراض على الفكر السياسى النظرى بل شمل كل شيء بما فى ذلك الفلسفة وكان على المجلة أن تعرض على قرائها المذاهب الفلسفية الحديثة تشرحها وتناقشها وقام بالجهد الأكبر فى هذا المجال فؤاد كامل الذى كان دارسا للفلسفة ذا قدرة خاصة على متابعة الجدل المحتدم فى العالم وبالنسبة للأدب كان «يوسف أدريس» يبحث عن شكل جديد فى المسرح بصفة خاصة يستمد عناصره من التراث الشعبى فراح يكتب مجموعة من المقالات بعنوان «نحو مسرح مصري» وكذلك بالنسبة لزكى نجيب محمود الذى راح يعالج موضوع الشعر الحديث.

كان لدى المجلة بشكل عام احساس بأنها عملية بحث فى كل المطروح من ثقافات بما فى ذلك أو فى مقدمة ذلك التراث الثقافى المصرى والعربى وفى مقدمة العدد الأول ورد هذا النص: «بصراحة ننوى أن نتكلم، أن نضع كل النقاط على كل الحروف، أن نشق بين التيارات الكثيرة التى تندفع نحو وطننا العربى من كل الجهات مجرى جديدا، نحاول أن يكون نقيا وخالصا لوجه الحقيقة.

لن نخفى، ولن ندعى أننا كنا على صواب دائما، ولكننا سنحاول الا نخدع انفسنا قبل أن نخدع غيرنا».

والواقع أنه حتى أول يناير سنة ١٩٦٤ كانت هناك تيارات فكرية ذات ثبات نسبى مثل التيار الدينى السياسى الذى يمتد من أزمة انتهاء الدولة العثمانية والفراغ الذى نشأ عن ذلك وبحث مسلمى الشرق الأوسط أو قل العرب بشكل اساسى عن جامعة اخرى تربط شعوبهم أو عن التمسك بالرابطة الإسلامية التى تنصل منها الثوار الاتراك وتركوا العالم الإسلامى بدون أى مظلة، ومن هذه الأزمة انبثق تيار الأخوان المسلمين الذى كان هدفه الاساسى اعادة الخلافة وقيام الدولة الدينية. وكان لهذا التيار وجود قوى داخل مجموعة الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة، على أنه فى المقابل كان هناك التيار التحديثى وهو ذو طابع ليبرالى توزع على الأحزاب السياسية طوال الفترة الملكية وكان له مفكروه وادباؤه وفنانوه الأقوياء، وكانت عناصره موزعة على كل مجالات الابداع والحياة الاجتماعية بشكل عام، ولكن بالنسبة للأجيال الجديدة التى ينتمى إليها كتاب الكاتب فى هذا الوقت كانت قضية العدل الاجتماعى غائبة أو لم تؤخذ بالجدية المناسبة، وكانت الصراعات السياسية بالغة الحدة بين الأحزاب الليبرالية والقصر الملكى الذى كان يسعى بكل جهده الى فرض هيمنة كاملة عن طريق شق هذه الأحزاب واستمالة بعضها الى سياسته، وكانت بالتالى تؤثر فى تكويناتها وتؤرجحها بين المحافظة وأحيانا الجمود وبين التطور ومزيد من التحديث، وكذلك سلطة الاحتلال التى كانت تتلاعب بالاتجاهات المختلفة لتثبيت وجودها ورعاية مصالحها. كل هذا ادى إلى انقسامات كثيرة سواء على مستوى الفكر الدينى السياسى أو على المستوى الليبرالى. وكانت الوطنية المصرية فكرة اساسية طالما دفعت بالسياسة المصرية الى الاستقلال والرغبة فى الانسلاخ عن الحكم العثمانى وازدادت قوتها بعد الاحتلال البريطانى ونجحت بالفعل فى تغذية الثورة الوطنية واثراء الحس الوطنى بين طوائف المصريين.

ومن هذا التيار انبثقت التيارات اليسارية منذ العشرينات وكانت البروليتاريا الأجنبية من العمال اليونانيين والأرمن والايطاليين إلى جانب المصريين بالطبع بدأت التعرف على الأفكار الاشتراكية خاصة بعد الثورة البلشفية في روسيا. أما المثقفون من أبناء الطبقة الوسطى المصرية فكانوا أميل الى الاشتراكية الديمقراطية حيث اصدروا العديد من الكتب المترجمة وغير المترجمة، بينما تكاتف آخرون من أجل الاشتراكية «العلمية» أو الماركسية بمفهومها اللينيني.

الشك في الديمقراطية

على أن مصر الملكية والمحتلة كانت في حالة رعب مرضي من الأفكار الاشتراكية وقد سلطت اجهزتها الأمنية ضد منظماتها بشكل مبالغ فيه وأودعت الكثير من شباب هذه المنظمات السجون، والغريب أنه كان لدى سلطة القصر احساس بأن النظام الملكى مهدد بالزوال وأن زواله سوف يكون على أيدى هذه القوي الجديدة، ولذلك حاربت هذه التيارات بقسوة شديدة وكانت حذرة جدا ومتنبهة الى أقصى درجة لما يدور في المراكز الثقافية سواء في الجامعات أو في الصحافة أو منابر الأدب والفن. على أن ثورة الضباط الأحرار عندما قامت كانت تحمل معها بذور كل هذه التيارات، وكان الأعضاء الاساسيون أو قل المؤسسون ينتمون الى التيارين الراديكاليين من بينها: الأخوان المسلمين والاشتراكيين، وكلاهما لم يلتفت بشكل تفصيلي أو قل بشكل جدى إلى الديمقراطية أو كان لكل منهما منظور ديمقراطي خاص مختلف عن المفهوم السائد في الديمقراطيات الغربية. وبصرف النظر عن الحديث عن اتجاهات ديمقراطية بين بعض قيادات الثورة والتى كثيرا ما تظهر الآن في هذه الوثيقة أو تلك من الوثائق، فان فكرة الثورة نفسها كانت تنطوى على الشك في الديمقراطية ذاتها كأداة صالحة للتغيير. وسرعان ما جرى نقاش نظرى حول الأشكال «الديمقراطية المناسبة».

فى وسط هذه الفسيفساء الايديولوجية ظهرت الكاتب وفى اعتقاد مؤسسيها أنه يجب الخروج منها الى فكر واضح متماسك وعلمي موضوعي. وكان من منجزات الحركة الثقافية المصرية - على أية حال - منذ رفاعة الطهطاوى حتى طه حسين وسلامة موسى ظهور حالة من الثقة الثقافية بالنفس، والجرأة على مناقشة كل المطروح من ابداعات الفكر العالمى وبصفة خاصة في الاستشراق الذى صار محل شك ثم جرى عليه الفحص والنقد والتصحيح، منذ الشيخ الأكبر مصطفى عبدالرازق وطه حسين وتلاميذهما.

حضارة عريقة

والواقع أن العالم العربى لم ينس ابدا أنه منشىء الحضارة الإسلامية الكبرى التى سبقت الحضارة الغربية الحديثة مباشرة وأنهم حتى اللحظة الأخيرة - الى سقوط الدولة العثمانية - كانوا يشكلون مركزاً أساسيا لحضارة عريقة مازال تأثيرها قائما. وكان من الطبيعي أن تثور الشكوك فى صحة المفاهيم الثقافية التي يتلقونها من العالم الغربى الذى كان قد صار العدو الرئيسي الذى يواجهونه منذ سقوط الدولة الاندلسية في نهاية القرن الخامس عشر حتى السقوط الأخير للدولة العثمانية فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين. ولم يكن صدفة أن بدأت دراسات تاريخية موسوعية للمرحلة الفرعونية

أنظر موسوعة سليم حسن، ثم موسوعة التاريخ الأندلسي لمحمد عبدالله عنان، ثم دراسات أحمد أمين وطه حسين والعبادي وهيكل والعقاد وغيرهم بالنسبة للتاريخ الإسلامي بشكل عام.

والآن يبدو أن كل هذا الانجاز كان في الخلفية الفكرية لمؤسسي مجلة الكاتب ففي مقال مقدمة العدد الأول من المجلة جاء هذا النص في سطورها الأولى: «كنا الى زمن غير بعيد قد أعدنا البحث في التراث العربي، وقمنا بحركة احياء على ايدي الاساتذة الطليعيين الكبار امثال طه حسين والعقاد وأحمد أمين وغيرهم من الكتاب، الا أن هذه الحركة كانت تنظيما للتراث على منهج علمي حديث، ولكنها لم تكن حركة للتقويم والتصحيح. وهو الأمر الذي يطالب به المناخ الفكري الآن، لا لمجرد الرغبة في تصحيح الأوضاع أو اعادة النظر بل لضرورة تاريخية حتى نقضي على الفصام الثقافي في ثقافتنا الحديثة والتراث. فبدون اكتشاف عناصر الاستمرار بيننا وبين تراثنا، سنظل غرقي تلك الأزمة الروحية، أزمة عدم الانتماء الى كيان ثقافي ليس غريبا عن بيئتنا، أو ليس أجنبيا عنها».

نقد لكل شيء

وربما يمكن القول أن الفكرة الأساسية التي كانت وراء اصدار الكاتب هي القيام بعملية نقد وتمحيص لكل شيء، الى غربلة كل ما لدينا من انجاز ثقافي سواء في الفكر الغربي منذ عصر النهضة الى اليوم وكذلك، وربما في الدرجة الأولى بالنسبة للتراث، وبالفعل سوف نرى أن الكاتب لم تكف عن اعادة النظر في التراث ونقده، ولاشك أن كتابة كتاب «اليمين واليسار في الإسلام» كانت وليدة هذا الحافز وكذلك الدراسات الأخرى التي قام بها كتاب آخرون مثل حسن حنفي وطارق البشري وعبدالجليل حسن وغيرهم. وكذلك الأمر بالنسبة لنقد المذاهب والأفكار الغربية المعاصرة لقد اهتممنا بنقد التجربة السوفيتية لا من باب المراجعة أو العداء بل بروح النقد والتمحيص التي كانت هي الرسالة الحقيقية للمجلة، ولهذا كان اهتمامنا بأشكال النقد المختلفة وعرضها ومناقشتها ونقدها، وكنا على أي حال نبحث عن نظرية عربية خالصة على حد تعبير محمد عودة في دراسته «حول البحث عن نظرية» وهكذا وضع التراث والفكر الغربي المعاصر تحت مجهر البحث بعيدا عن روح الدوجما العقائدية التي ربما كان لها وجود قوي في المجتمع المصري والعربي بشكل عام.

والواقع أن العالم كله كان في حالة مخاض فكري فمنذ الستينات كانت تحولات عديدة تحدث في العالم بدءا من ثورة الجنس في أوائل الستينات الى ظهور فكرة الديمقراطيات الشعبية وهي تعديل على الرؤية الماركسية اللينينية بما يتناسب مع أوضاع أوربا الشرقية ثم إلى الشيوعية الأوربية التي راحت تتبلور في شكل نقدي في الأحزاب الشيوعية في الدول الأوربية المتقدمة الى ثورة الطلبة في نهاية الستينات وخلفياتها الثقافية الناقدة في الواقع للمفاهيم الماركسية التقليدية. كانت حركة النقد هي طابع العصر وأن كان كل منظومة ثقافية لها دوافعها الخاصة الى جانب الدافع العام والمشترك الذي يشغل سكان المدن الرئيسية على ظهر هذا الكوكب.

وحين أنظر الآن الى مجموعة الكاتب ارى أن الغالبية العظمى منهم كانوا يصنفون في اليسار وكانوا يستفيدون من أدوات البحث التي انتجتها الدراسات الماركسية بما في ذلك التقسيمات الطبقية التي صنفتها الاشتراكية وأشكال الصراع الطبقي وما يسمى بالقوانين الاجتماعية. ولكنهم لم يكونوا دجماتيين أى حرفيين ونصيين، وكانت لديهم متابعات للدراسات النقدية في صفوف اليسار سواء داخل الاتحاد السوفييتي نفسه والمعسكر اليسارى بشكل عام أم في العالم الغربي. وكان أغلبهم مطلعا على الكتابات النقدية التي صدرت من مفكرى الاشتراكية الديمقراطية أو من نقاد الماركسية الأقوياء مثل كارل بوبر أو من الفلاسفة الوجوديين والباحثين المجددين من أمثال التوسير الفرنسي. وربما بهذا المعنى الواسع لليسار كانت الكاتب اقدر على جذب الكثيرين من المثقفين وخاصة من الشباب. ومنذ العدد الأول فتحت الكاتب صفحاتها للكتاب الشيوعيين الذين خرجوا من المعتقلات حديثا وكانوا في الواقع ذوى طبيعية نقدية ولهم تأملاتهم الخاصة في الكثير من القضايا النظرية، وبعد قليل من الوقت استقرت الأوضاع في المجلة على مجموعة متناسقة. وأتذكر الآن بشيء من الدهشة أن سكرتارية التحرير انحصرت في ثلاثة أشخاص ظلوا ملازمين المجلة حتى أكتوبر سنة ١٩٧٤ حيث قدموا جميعا استقالاتهم، وهم عبدالجليل حسن وهو دارس للفلسفة شده الفكر الديني فترة من فترات حياته ثم شده البحث الى ملامسة رؤية جديدة للتراث ثم جلال السيد وهو دارس للتاريخ وكان تلميذا وفيا لمحمد أنيس الذى كان أكثر اعضاء مجلس التحرير اندماجا في العمل واهتماما بالمجلة، وكان لجلال السيد دقة وصبر الباحث الدوب الذي يعتصر موضوع بحثه حتى آخر قطرة فيه. وكانت اهتماماته ثقافية بحثية أكثر منها سياسية ولكنه فيما أعلم لا يحسب على الشيوعيين التقليديين وإن كانت خلفياته يسارية أما أدوات بحثه فكانت أوسع من أدوات الباحث الماركسي التقليدي، وكان الثالث هو نبيل زكي وهو دارس للفلسفة وذو اهتمامات سياسية وله خط ماركسي واضح وكان قد امضى في المعتقل خمس سنوات بسبب انتماءاته الماركسية، ولكنه كان جريئا في التفكير وارتياد طرق جديدة ومتابعة عمليات التجديد الفكرية في الثقافة الاشتراكية وكان من اسبق الناس الى الاهتمام بالصين وكوبا وأمريكا اللاتينية بشكل عام. كان هذا الثالوث هو النواة الصلبة الاساسية للمجلة وكانت تركيباتهم الثقافية متعددة ويكمل بعضها البعض. والحق أن هذا كان هو طابع المجلة بشكل عام. فأنت تجد كتابها يختلفون في المنابع التي وردوا منها لكنهم يلتقون في الولع بالتجديد والنقد والبحث عن شيء جديد. وكذلك كان الأمر بالنسبة لمجلس التحرير الذي استقر لفترة طويلة حتي القرار الجماعي بالاستقالة في أكتوبر سنة ١٩٧٤ والذى كان يتكون من كمال رفعت وعبدالعزيز الاهواني وعبدالكريم أحمد ومحمد أنيس ومصطفى سويف.

هذا الطابع النقدي والميل الى التجديد كان مسئولا عن الحرية في التفكير وعدم التمسك بمرجعية مسبقة وكانت له انعكاسات على كل المواضيع فلقد رأت المجلة أن عليها أن تقتصر في نشر القصص والشعر والمسرحيات على الشبان في مصر والعالم

العربي وعلى المجددين في العالم الغربي وكان أول نشر لجمال الغيطاني ومحمد البساطي وجميل عطية ويوسف القعيد وبهاء طاهر وغيرهم في مجلة الكاتب وكان يختار القصص ويعلق عليها يوسف أدريس ثم لطيفة الزيات وفاطمة موسى. وكذلك الأمر في الشعر وأذكر أن الشاعر العراقي عبدالوهاب البياتي والذي كان مقيما في مصر قد صار لفترة ما مسئولا عن الشعر في المجلة وقد استدعاني عبدالقادر حاتم الذي كان مسئولا ايضا عن وزارة الثقافة في هذا الوقت والتي تصدر عنها مجلة الكاتب وقال لي أن الرئيس العراقي عبدالسلام عارف اشتكي من قصائد البياتي التي كانت تغمز في النظام وأن الحكومة العراقية بسبب صداقتها مع مصر لم تصادر اعداد المجلة واكتفت بنزع الصفحات التي تحتوي على القصيدة وطلب أن نتوقف عن نشر شعر البياتي ولكنني اعتذرت وأوضحت أن مثل هذا الاجراء يتناقض مع رسالة المجلة ولعلى دافعت عن الشعر والحرية التي ينبغي أن تتوفر للشاعر. وبالفعل ظللنا ننشر للبياتي الى مدى طويل.

والغريب اننا لم ننشر على مدى السنوات الاحدى عشر التي ظلت المجلة تصدر خلالها الا الشعر الحديث فيما عدا بعض القصائد للشاعر كامل الشناوي والتي كانت في الواقع تنتمي الى مدرسة أبولو وكان لم يزل فيها طابع التجديد.

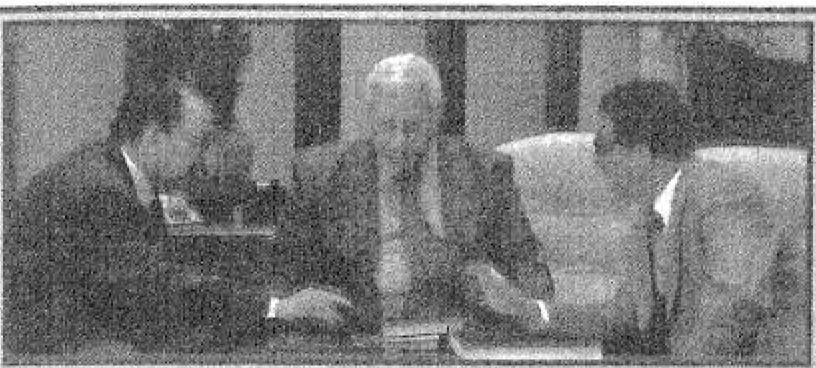
وفي الكاتب تم اكتشاف الشاعر اليوناني السكندري كفافيس والذى كان مجهولا تماما الى أن تم الالتفات اليه في الخمسينات والستينات من القرن العشرين بعد أن اكتشفه الكتاب الانجليز الذين عاشوا في الإسكندرية مثل ج. م. فوستر ولورانس داريل وعرفوه شخصيا وذاع صيته كأعظم شاعر يوناني في فترة مابين الحربين، وقد استقطبت الكاتب نعيم عطية المصرى من أم يونانية والذى كان مستشارا في مجلس الدولة وكان اهتمامه بالأدب اليوناني الحديث جعله يتعرف على الشعراء اليونانيين العظام المحدثين وعلى رأسهم كفافيس الذى قدم ترجمات رائعة لشعره وكان لها صدى قوي في شعر الشعراء العرب الجدد.

وفي الفنون التشكيلية كان في الكاتب مجموعة من كبار الفنانين ونقاد الفن أيضا، عمل في الكاتب منذ صدور عددها الأول حسن فؤاد وصلاح كامل ومحمد محبوب ثم حسن سليمان وسعد عبدالوهاب ورمسيس يونان، ورغم ضعف الامكانيات الطباعية إلا أن الفنون التشكيلية كان لها وجود بارز وخاصة أعمال حسن سليمان وسعد عبدالوهاب.

عندما اتأمل مجلدات الكاتب اليوم محاولا تجميع خيوط مشروعها الثقافي أجد أنه يعني الحداثة بمعناها الواسع، فهو مشروع عقلاني متحرر من أي مرجعيات سابقة وقائم علي النقد واعادة البحث ومراجعة كل المسلمات السابقة واعادة فحصها والسعي الملح نحو زمن جديد من حرية التفكير والاكتشاف والرغبة الجامحة في الأمساك بالحقيقة الملتبسة في الكثير من مجالات الحياة القائمة.

لكن كيف قابل المجتمع المصري هذا المشروع؟

هـذا هو موضوع الحديث القادم. ■

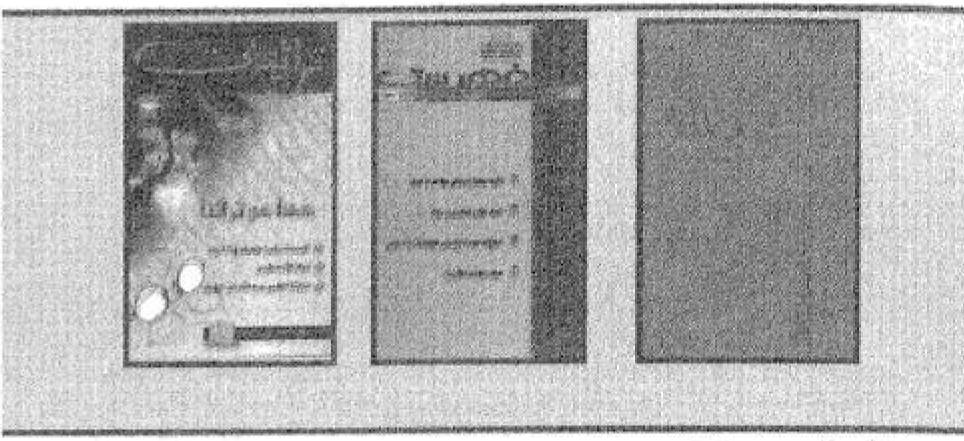


مكرم محمد أحمد ومصطفى نبيل ود. صلاح فضل وحديث حول كشاف الهلال

آفاق جديدة تشهدها دار الكتب

- **التعاون بين الهلال ودار الكتب إنجاز كبير للباحثين**
- **كشاف للباحثين على أقراص الكترونية للحصول بسهولة على تراث الهلال**

لاشك أن دار الكتب والوثائق القومية تشهد فى الآونة الأخيرة **طفرة يتوقف عندها كل منصف ومحب للثقافة ، خصوصا بعد أن استقلت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وبدأت تؤدى دوراً متميزاً فى مجالات عديدة نحسب أنها ستحقق المطلوب منها لكل الباحثين، وتسترد مكانتها العريقة التى كان يشهد بها كل المثقفين العرب.**



وفى هذا الصدد يشير الدكتور صلاح فضل رئيس مجلس إدارتها إلى أن ما يحدث في دار الكتب من نشاط ملحوظ، هو استمرار للجهود التى كانت مبذولة من قبل على طريق التواصل الخلاق، فليس بوسع أحد أن يلغى ما بدأه الآخرون.

ويضيف: وأعتقد أن مؤسسة في عراقة دار الكتب والوثائق القومية لابد أن تكون قد صنعت عبر هذه الأعوام الطويلة تقاليدها، والمطلوب منا أن نعمق ونؤصل هذه التقاليد، ثم أن ننتهى بها إلى ثمارها الطيبة.

ومن التقاليد الجميلة التى وجدتها فى دار الكتب، اللجان العلمية المتخصصة التى تضم خيرة العلماء والمثقفين فى مصر، برعاية الجوانب المتصلة برسالة دار الكتب والوثائق القومية.. وأخص بالذكر منها أربع لجان:

● لجنة تحقيق التراث: وهى أقدم لجان دار الكتب وأهمها ، لأنها هى التى ترعى عمليات تحقيق المخطوطات ونشرها، وهى التى راعت إصدار موسوعات التراث العربى فى دار الكتب منذ ما يربو على قرن من الزمان. وكانت هذه اللجنة بصدد إعداد مشروع لمجلة دورية، تتناول قضايا التراث لنشر أخباره، وتحقيق شذرات منه وعمل نوع من التواصل مع المؤسسات والهيئات المعنية بالتراث العربى فى الوطن العربى وخارجه وأتيح لى أن أشهد مولد العدد الأول من المجلة، وأن نطلق عليها اسم «تراثيات» وأظن أنها تقع فى صلب رسالة الدار ويرأس هذه اللجنة الدكتور حسين نصار.

● وهناك لجنة أخرى اسمها لجنة تاريخ مصر المعاصر، ويرأسها الدكتور يونان لبيب رزق، وتعنى بجمع الوثائق والمواد المتصلة بتاريخ مصر المعاصر وأتيح لى أيضا أن أشهد ولادة العدد الأول منها، وأيضا العدد الثانى من مجلة «مصر المعاصرة».

● أما اللجنة الثالثة والتى لا يمكن أن تقوم الا فى دار الكتب ، فهى لجنة الدراسات الببلوجرافية لأن دار الكتب هى المرصد الثقافى لحركة الكتب فى مصر والوطن العربى.. والعمل الببلوجرافى الذى تقوم به على قدر كبير من الأهمية.

ويكفى أن أشير فى هذا الصدد إلى عدة أعمال أدتها هذه اللجنة، وهى على قدر كبير من الخطورة، آخرها .. «كشاف الهلال» الذى أصدرنا مجلدين منه، وسبقه كشاف مجلة «الرسالة» الذى صدر فى ستة مجلدات..

وهذا العام أيضا نشرنا سبعة كتب للمجموعة الببلوجرافية الكاملة ، بكل ما ترجم من اللغات الحية: الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها إلى اللغة العربية عبر القرنين التاسع عشر والعشرين، في مائتي عام.

وهذا مشروع بالنسبة للباحثين والدارسين على قدر كبير من الأهمية.

وتواصل لجنة الببلوجرافيا جهودها لرصد حركة النشر، وإعداد الببلوجرافيات المتخصصة ، سواء من الظواهر الكبرى، مثل الترجمة، أو المجلات الكبرى، مثل الهلال والرسالة وغيرهما، أو الشخصيات الكبرى ، مثل تلك الببلوجرافيا التي نعدها عن نجيب محفوظ، وغير ذلك من الشخصيات المؤثرة في حياتنا الأدبية والثقافية.

وهذه اللجنة أصدرت أيضا باكورة مجلاتها وأطلقنا عليها اسم «الفهرست» تيمنا بكتاب ابن النديم الشهير «الفهرست» الذي يعتبر: أول تراث جامع في التراث العربي لدراسات الببلوجرافيا والإعلام والتواريخ، وما يتصل بها ، وهي بصدد إعداد مجموعات متخصصة من الببلوجرافيات الضرورية للباحثين والدارسين.

ويواصل د. صلاح فضل قوله: وأنا أظن أن هذه اللجنة لا يمكن أن تمارس عملها إلا في دار الكتب ، لأن المادة التي تنظمها وتعمل عليها، تتميز بها دار الكتب دون غيرها من المؤسسات.

وبهذا تكتمل لنا منظومة من المجلات المتخصصة هي: مجلة مصر المعاصرة، ومجلة التراثيات ومجلة الفهرست.. أما المجلة الرابعة والتي نضع اللمسات الأخيرة لعددها الأول، والذي أرجو أن يصدر قريبا فقد أطلقنا عليها اسم «الرزنامة» وتصدرها لجنة الوثائق، وهي لجنة مكونة من كبار العلماء ويرأسها د. رءوف عباس

ولدينا إلى جانب ذلك لجنتان علميتان أخريان.. احداهما لجنة دار الكتب ، وهي تقوم بإعداد مجلة من نوع خاص ، لأنها ألكترونية ، توضع على الانترنت وتقدم صورة لأنشطة دار الكتب المختلفة وقواعد المعلومات بها، تتواصل بها مع نظيراتها من دور الكتب والوثائق في الوطن العربي والعالم، وتقدم الاقتراحات لتطوير الأداء، والعمل وزيادة حجم الاتصال، وعقد المواثيق الجديدة مع هذه المؤسسات.

● أما اللجنة السادسة فهي لجنة الترميم ويضطلع بها عدد من العلماء المتخصصين في ترميم الورقيات والجلديات، وغير ذلك من المقتنيات الثمينة التي تقتنيها دار الكتب والوثائق القومية.

وتحتاج جهداً مضاعفا ومستمرا ودوريا للحفاظ على سلامتها، وتهيئة الظروف العلمية والبيئية المناسبة لصلاحيتها للتداول، دون أن يمسها ذلك بضرر وإخضاع ما يحتاج الترميم منها إلى ترميم، فيما نطلق عليه معامل الترميم المتخصصة... ولدينا معملان إحداهما يعمل منذ عدة سنوات وهو مركز ترميم الكتب، والأخر ننشئه بمعونة من صندوق التنمية العربية، وهو الخاص بالوثائق.. وعمل هذه اللجنة فني علمي بالدرجة الأولى.

عمليات الإنتاج المعرفي

.. وبذلك فإن هيكلة العمل في دار الكتب لا تقف عند حدود قاعات الإطلاع.. ولا تصوير المصادر والمراجع، ولا مخازن المخطوطات وما تملكه من ميكرو فيلمات لها، ولا تيسير الاطلاع على ذلك للباحثين والقراء من مصريين وعرب وأجانب، وإنما تتجاوز ذلك إلى ما يمكن أن أطلق عليه الإسهام النشط الفعال في عمليات الإنتاج المعرفي

والثقافي المعززة لدور الدار ذاتها:

هذا بالإضافة إلى المطبعة الصغيرة والمتواضعة التي نملكها، والتي آلت إلى الدار بعد اقتسام التركة مع الهيئة العامة للكتاب منذ ثماني سنوات والتي تجتهد الآن في مشروع طموح لتطويرها ومضاعفة كفاءتها، وإن كنا قد استطعنا أن نرتفع بعدد انتاجها من الكتب، من ثلاثة عشر كتابا جملة ما طبعته من مراجع كبيرة عام ٢٠٠١ إلى ٨٣ كتابا. هي جملة ما طبعناه عام ٢٠٠٢ بنفس الطاقة البشرية والآلات، لكن مع مضاعفة ساعات العمل ليل نهار، واختيار الكتب الضرورية لاعادة طبعها.

وقد انتهينا بالفعل من طبع الجزء الثاني من «تقويم النيل» ومن الجزء الثاني من «تراث طه حسين» وهو المجلد الخاص بالنقد الأدبي والإسلاميات وانتهينا من طبع عدد من الكتب الثمينة، أعددنا فيها طباعة جملة من الدواوين التي نفدت من الشعر القديم.

ونحن الآن بصدد إعادة طباعة «ألف ليلة وليلة» وبصدد مشروع آخر هو اعادة طباعة «الرسالة» في أربعين مجلدا، لأنها دامت عشرين عاما، وكانت تصدر اسبوعية، وبهذا يتضمن المجلد الواحد خمسا وعشرين عددا من أعداد الرسالة.

وتحقيق هذا المشروع سوف يسد فراغا في المكتبة العربية «لدى القراء في مصر لأن الطبعة التي تمت لمجلة الرسالة، وقامت بها مؤسسة سعاد الصباح، كانت باهظة الثمن، لم يستطع القراء المصريون الإفادة بها، ودار الكتب هي الأولى بأن ترعى تراث التنوير والفكر المحدث الذي قدمته مجلة الرسالة، لسان حال جيل طه حسين وأحمد حسن الزيات

الهلال.. وتبني الفكر المستنير

● نود أن نتوقف عند التعاون بين مؤسسة دار الهلال ودار الكتب في طباعة كشاف الهلال ابتداء من عام ١٩٣٦ وحتى عام ٢٠٠٢، وما سوف يتيحه من فائدة للباحثين والدارسين.

- يقول د. «صلاح فضل»: أود الاشارة إلى أن أهمية مجلة الهلال تكمن في أمرين:

الأول: أنها حافظت على مستواها الرفيع في الفكر المستنير والمنطق العلمي والروح القومي، والثقافة الرفيعة، عبر ما يزيد على قرن من الزمان، وهذا يندر حدوثه في أي ثقافة أو لغة، لأنه غالبا ما يلاحظ تفاوت شديد في المستوى في فترات محدودة.

لكن مجلة «الهلال» استطاعت بفضل استراتيجيتها وصواب توجهها أن تحافظ على مستواها، وأن تظل نموذجا تتولد منه نماذج أخرى تتفاوت في قيمتها، وتظل «الهلال» شامخة، لا يهبط مستواها في أي فترة ولا نستطيع أن ننسى أن مجلة الهلال، كانت هي النموذج الذي تأسست على نمطه مجلات عربية أخرى مثل «العربي» وغيرها.

وأنها مازالت تمثل المدرسة الأولى والمستمرة في الصحافة العربية كاملة في المشرق والمغرب، وبالتالي فإن الاهتمام بمواد مجلة الهلال واصدارها في كشاف، لابد أن يستكمل، وهذا ما نفعله الآن من سنوات الخمسينيات حتى اليوم، وقد تمكنا فعلا أن نوفر المادة بأكملها وسندفعها تباعا للطباعة في مجلدين، حتى تكتمل كشافات الهلال، وتصبح أداة فعالة للباحثين في تاريخ الفكر والسياسة والثقافة والاقتصاد والمعرفة العربية.

وسوف تقرن هذه الكشافات بأقراص مدمجة، مجهزة بحثيا لكي يستطيع الباحث الذى تعود على استخدام هذه الوسائط التكنولوجية.. الجديدة أن يدخل بأى مفتاح بالاسم مثلا لكي يعرف مقالات طه حسين أو مقالات جرجى زيدان، أو مقالات أحمد زكي بالأسماء.. أو يدخل بالموضوعات..

وإذا أراد تصوير بعض الصفحات التى يحتاج إليها فيمكنه ذلك.

وإذا أراد أن يقرأ على مهل من المجلدات المطبوعة فيمكنه ذلك.

لأننا فى يقينى، لابد أن نشجع ما أطلق عليه النشر المزدوج الورقى والالكترونى.. وبخاصة فى تلك الفترة التى نجد فيها أجيالاً لا تستطيع أن تستغنى عن شم عبير الورق وعطره وأن تمسك بكتلته، فالكتاب له متعة وأنت تمسكه لأنه جسد المعرفة ، وفى نفس الوقت لا تستطيع أن نغض الطرف عن هذا التيار الشبابى الجديد الذى ولجنة بعض الشيوخ، والذى يؤدى إلى استخدام التقنيات الأسرع فى البحث ، والأسهل فى العثور على المعلومات ، وهى التقنيات الرقمية فى الأقراص المدمجة والسديهيات.

وإذن يصبح المجلد بشكله الكتابى الورقى جنبا إلى جنب مع شكله الالكترونى المعلوماتى.

وهناك سؤال يطرح نفسه.. كيف يستفيد الباحث من كشاف الهلال؟

وبطبيعة الحال مثل كل مطبوعات دار الكتب وغيرها ، لابد أن يكون هذا الكشاف موجودا فى قاعاتنا تحت يدى الباحثين.. لكن لأننا نطبعه ونسوقه ونعول كثيرا على التعاون الجميل من مؤسسة دار الهلال فى عمليات التسويق هذه، فسيصبح فى متناول كل الباحثين، الذين يريدون اقتناءه، وبسعر ميسر جدا، وبالتالى نتيح الفرصة لهؤلاء الباحثين بطرائق مختلفة للإفادة منه.

ونحن الآن نستعد لطبع المجلدين التاليين ، وفى عدة شهور، يكون المشروع قد اكتمل ، لأن الجانب العلمى فيه قد تم، وهو إعداد الببلوجرافيات ذاتها، ويبقى التوضيب والطباعة، وهذه تستغرق بعض الوقت .

ويؤكد د. صلاح فضل أن دار الهلال فى موقفها الحيوى النشط فى هذه الفترة، تشبه كثيرا دار الكتب، فهما مؤسستان يبدوان للوهلة الأولى أنهما عجوزان.. لكن العراقة لها قيمتها وأهميتها إذا اتسقت بالحيوية والنضج، وأفادت من تاريخها بالتواصل المبدع مع المؤسسات الأخرى، ولمتابعة التطور الفكرى والفنى والأيديولوجى، وتهيئة السبل أمام القراء والمتلقين للإفادة منه، وهذا ما تجتهد دار الكتب أيضا فى صناعته.

وإذا كانت دار الهلال تعقد هذه الاتفاقيات النشطة مع مكتبة الاسكندرية من ناحية ، ومع دار الكتب والوثائق القومية من ناحية أخرى، فإنها بذلك تخطو خطوات فعاله، وأتوقع أن تتبعها بخطوات أخرى، بأن توضع مجلات وكتب وروايات دار الهلال على مواقع نشطة فى الانترنت وعلى تقنية المعلومات لكى نتيح للاطلاع عليها لا للمقيمين فى الوطن العربى فحسب، وإنما للمغتربين أيضا .

وهنا أدعو دار الهلال إلى أن تأخذ بنظام التوزيع الالكترونى الذى تأخذ به المجلات العالمية الكبرى، حتى يمكن أن نمد شبكة توزيعنا إلى الكرة الأرضية بأكملها . ■

عاطف مصطفى

لغويات

بقلم
د.الطاهر مكي

كان الخليفة الواثق مثقفا واسع الإطلاع، تفتنه الموسيقا، ويطربه الغناء، ويحب حوار العلماء، حول قضايا الأدب والنقد واللغة.

في جلسة سمر غنته جارية:

أظلوم إن مصابكم رجلا
أهدى السلام تحية ظلم

فقال لها : قولي رجل فقالت : لا أقول إلا كما علمت فقال الخليفة للفتح بن خاقان، كيف هو يافتح؟. فرد : هو بالرفع خبر إن كما قال أمير المؤمنين .

قالت الجارية : أخذت هذا الشعر من أعلم الناس بالعربية، شيخ نحاة البصرة، أبي عثمان بكر المازني، وكان يعرب لي شعر غنائي .

واختلف الحاضرون في إعراب «رجل»، منهم من نصبه اسم إن، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على رأيها، لأن شيخها المازني لقنها إياه بالنصب .

فأمر الخليفة باشخاصه إليه، فلما مثل بين يديه قال له : ممن الرجل؟ فرد : من بني مازن قال : من أي المازنين؟ أمازن تميم، أم مازن قيس، أم مازن ربيعة؟ فرد من مازن ربيعة، فكلمه بلهجة قومه، وكانت ربيعة تقلب الميم باء، والباء ميما إذا كانت في أول الأسماء، وسأله باسمك؟ (بدل ما اسمك) ؟. فكره أن يجيبه على لغة قومه لئلا يواجهه بالمكر، فقال بكر يا أمير المؤمنين، ففطن الواثق لما قصده، وأعجب به، وسأله ما تقول في قول الشاعر :

أظلوم إن مصابكم رجلا
أهدى السلام تحية ظلم

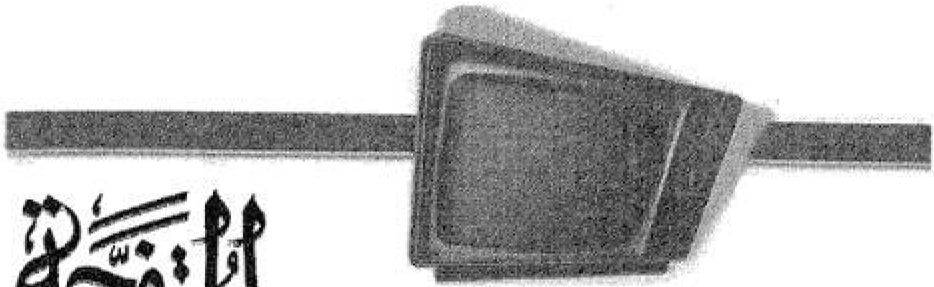
أترفع رجلا أم تنصبه؟ فرد الوجه النصب يا أمير المؤمنين .

– ولم ذاك؟

أجاب المازني : إن مصابكم مصدر ميمي بمعنى إصابتكم، فعارضه ابراهيم اليزيدي بشدة، فقال المازني هو بمنزلة قولك: إن ضربك زيدا ظلم، فرجلا مفعول مصابكم ، والدليل عليه أن الكلام معلق لم يكمل الى أن تقول : ظلم فيتم المعنى .

فالهمزة حرف نداء، وظلوم اسم أم عمران المذكورة في أول القصيدة منادى ومصابكم مصدر ميمي، عملت عمل الفعل، والتقدير : «إن اصابتكم رجلا ، وأهدى السلام جملة فعلية في محل نصب صفة «لرجلا» وتحية مفعول مطلق لكلمة السلام جاءت على معناها، وظلم خبر إن .

أعجب الواثق بالمازني، وكافأه على علمه بالفي دينار ذهبا . ■



المتفرجة

بقلم : مرفت رجب

منابع النور

لم تكن سوى لحظة رفعت فيها عينى عن سطور الكتاب أتأمل دقة العبارة، وإذ بمصادر الإدراك فى وعيى تحتشد، لعلها تلم بكنه ذلك الوجود المهيب.. ياسبحان الله العظيم.. أبهذه الضخامة يمكن أن يكون تمساح، يتمدد منه الكيان يكاد يسد أفق النظر، والفكان منفتحان وقد انشدت العضلات فيهما تنذران بانفتاق، تتتابع حلقات الشد تنقل التوتر من الفكين المتأهبين للإطباق على الفريسة، إلى كافة حنايا الجسد المهول حتى آخر نقطة فى الذيل..

ياأرحم الراحمين، ألطف بخلقك يا الله.. يتحرك الجسد الآخر الفريسة فى ارتعاش خفيف يحبس النفس. ورغم رهبة الترقب، يجرؤ العقل على طرح السؤال: هل سيفلت ؟!! نعم، نعم، إنه يتحرك .. وكأنما بحلاوة الروح يشد قواه هو الآخر يتحرك ، ويزيد إيقاع الحركة، يقوى، يتسارع .. فينفلت، ومع ارتخاء توتر عضلات فكى التمساح سرى الهدوء إلى نفسى وابتسمت .

لفتتني زحام الأصوات المرحة ولما استدرت وجدت واحدا من كبار مراكب الرحلات القصيرة، يتهادى على صفحة نيل القاهرة يحمل العشرات من أبنائها وقد انطلقوا في رابع أيام عيد الأضحى محتفين بأول ظهور للشمس، بعد أيام طويلة أطبقت فيها عليهم سحب أمشير الداكنة ينذر تكاثفها بهبات ريح مترية أو بعض من مطر..

وها هي ذي شمس الأصيل التي غنت لها أم كلثوم ، تتربع في صحن السماء، وإذ تتهادى الرياح الخفيفة تلملم ما تبقى من تكومات السحابة ناصعة البياض، ينفرط كيان التمساح المهول فتنبعث البهجة تشملني، وأتأمل .. ما أجمل صنع الله.. لو لم تتقدم تلك النسمات الرقيقة، لبدت لي كتلة السحاب في شكلها «التمساح» جاثمة.. ولربما أدركت التشكيل الساكن على أنه إحكام لهيمنة التمساح على الفريسة .. لكن الله سلمٌ .. وإذ تشدني أصوات المرح من عديد من المراكب التي بدت وكأنها تتزاحم على صفحة مياه النيل .. تمرق بينها القوارب وقد انتشرت أشرعتها البيضاء، أواصل التسبيح والدعاء لهؤلاء الذين يملأون المكان بهجة وكأنهم يتحدون بها تمساح العصر الوحشي الذي يحاول أن يطبق على البشر أجمعين بنذر حرب غبية تكاد تطيح بكل ما أنجز البشر من شعر وموسيقى أو فلسفة وعلم ، جاءت على مر العصور شاهدا على كفاح البشرية المستمر في مواجهة كل أنواع التماسيح ، تشكلها عبر العصور نوازع الطمع والتكالب وحب السيطرة ، وتتفاوت على الأيام قدرة البشر على استبصار منابع النور في أنفسهم وفي أوطانهم ليرشد جهادهم فيصبحوا بالفوز غانمين ..

مطلق صفارة الإنذار

داعبت النسمات صفحات الكتاب الذي صرفتني عنه لحظة تأمل نبعت أصلا من صفحاته .. فالأبطال الثلاثة المسئولون عن وجود هذا الكتاب ، هم من القابضين على منابع النور في وجدانهم .

أما الأول فهو «مورد خاي فعنونو»، المواطن الاسرائيلي الذي قرر أن يكون مطلق صفارة الإنذار ، ويتحدث لصحيفة الساندي تايمز البريطانية ، عن المفاعل السري للأسلحة النووية بصحراء النقب في اسرائيل حيث كان يعمل ، كان دافع «فعنونو» الوحيد هو أن يخبر شعبه كيف أن طغمة صغيرة من السياسيين والجنرالات قد أنفقوا سرا مبالغ هائلة من المال العام . تزعم اسرائيل أنها دولة ديمقراطية إلا أنها فيما يتعلق الأمر بمسائل الأمن تميل لأن تكون دولة ديكتاتورية ولم يكن «فعنونو» ينتظر أي مقابل لعمله . فلم يكن من «طلاب الثروة أو على ما يبدو من طلاب الشهرة»، وقد ورد في الكتاب على لسانه «ماذا لو أعطيتك الصور وجميع المعلومات دون أن تنشروا اسمي . سوف أكتفي بالاختفاء إذ لست مهتما بكسب أي مال من هذا الأمر . كل ما أريده هو أن تعلم الدنيا عن وجود ديمونة» ويعقب المؤلف «كان فعنونو رجلا ذا ضمير وصاحب قضية»

المفاعل السري بالنقب

وأما الثاني فهو الصحفي « بيتر هونام» مؤلف كتاب «امرأة الموساد» يروي فيه الأحداث المخيفة التي وقعت في شهر سبتمبر من عام ١٩٨٦ حين قرر «موردخاي فعنونو» أن يصبح مطلق

صفارة الانذار . فحينئذ، تم تعقبه بواسطة فريق استهداف من الموساد . «في إحدى الدقائق كان يخطو خارج إحدى الطائرات من روما وهو يترقب مبتهجا قضاء عطلة قصيرة مع امرأة أمريكية شابة شقراء ، كان قد التقى بها في لندن . وفي الدقيقة التالية تلقى ضربة أوقعته على الأرض وكبلت يداه وتم حقنه بمخدر قوي. عندها أصيب برضوض وكدمات فشعر بحالة من الذهول غاب على أثرها عن الوعي . وفي تلك اللحظة انتهت حياته كإنسان حر ، ودون أن يدري هل هو موشك على القتل ، تم تهريبه إلى اسرائيل - حيث هو اليوم - يقضي مدة حكم تصل إلى ثماني عشرة سنة ، في أشد الظروف قسوة ويمضي بيترهونام مؤلف الكتاب فيتساءل : «ماذا تراه قد فعل حتى يستحق مثل هذه المعاملة؟! هل قام بتدبير مؤامرة لاغتيال الرئيس ، أم باع أسرار الدولة لدولة معادية . لقد كانت ما تسمى بجريمة موردخاي فعنونو ، هي التحدث إلى الساندي تايمز ، وعلى الأخص إلى أنا ، عن المفاعل السري للأسلحة النووية بصحراء النقب الإسرائيلية حيث كان يعمل ». وتستحث منابع النور همة الصحفي بيترهونام فيعرض دفاعه عن فعنونو، فيقول في تقديمه لكتابه « امرأة الموساد» ، «يرى معظم العقلاء أنه قام بعمل شجاع غير أناني . كذلك فإن عملية اختطافه ، وقبل محاكمته ، على أراضي دولة متحضرة أوروبية ، من جانب عملاء قوة صديقة ، لواحدة من فضائح الجاسوسية الكبرى في فترة ما بعد الحرب . ومما يدعو للأسف ، أن ايطاليا وبريطانيا وحليفة إسرائيل، أي الولايات المتحدة ، ليست مستعدة لإثارة هذا الأمر . ذلك أن هذه الدول لديها أسباب وجيهة تجعلها تلتزم الصمت ، إذ إنه حسبما يبين هذا الكتاب ، هناك بلاد كثيرة ساعدت إسرائيل على حشد ترسانة نووية متقدمة ضخمة ، فبينما يتم قصف الدول التي تجرب هذا التكتيك مثل العراق ، إلى درجة الإنهاك التام، تتلقى إسرائيل مساعدة مالية ضخمة، وكذلك قدرا من الحماية والتدليل ... كانت جميع الحسابات السابقة توحي بأن إسرائيل لا تمتلك سوى حفنة من القنابل الذرية . فإذا بفعنونو يبين أنه قد تم إنتاج ما بين مائة ومائتي جهاز أو وسيلة خطرة، وأن إسرائيل بعد أن أنتجت القنابل ، انتقلت إلى تصنيع رؤوس حربية نووية حرارية . وتزهو هذه المجمعات النووية بإنتاج القنابل النيوترونية التي تتسبب في خسائر أقل نتيجة لانفجارها ، غير أنها تقضي على كل كائن عضوي حي ، وكذلك القنابل الهيدروجينية التي تفني المدن... واليوم وفي نهاية عام ١٩٩٩ ، مازال مفاعل ديمونة يعمل ، ويمكن للمرء أن يقدر ما في ترسانة إسرائيل بما يزيد على أربعمائة قنبلة ... إن قصة فعنونو التي تفجرت في السنداي تايمز اللندنية في الخامس من أكتوبر من عام ١٩٨٦ ، أخبرت العالم دون تجمل في استخدام الألفاظ، أن إسرائيل كاذبة في هذه القضية الحيوية. وحين تنكر اسرائيل أنها سادس أكبر قوة نووية في

العالم، أو حتى أنها لا تمتلك مجرد قنبلة ذرية بدائية واحدة، فهي بذلك تتحدى القوى الغربية بسخرية كي تصدر عنها استجابة . ولقد أمكنها أن تتوقع بوضوح الاستجابة المحتملة ... لذا فإن هذا الكتاب هو محاولة لعرض الأحداث التي وقعت ، وفضح أفعال المسئولين عن سقوط موردخاي فعنونو المأساوي، بسبب محاولته إلقاء الضوء على دور الحكومات التي ساندت عملا من الأعمال المنافية للشرعية والإنسانية ، بل وغضت النظر عنه ، رغم ما يصيب به النفس من غثيان ، أو تلك الدول التي ساعدت إسرائيل على تطوير القنبلة . كذلك يكشف هذا الكتاب عن جوانب خفية من قصة فعنونو إذ كيف تم على وجه الدقة انتشاله من إيطاليا وإعادته إلى اسرائيل . وأمل أن يشعل هذا الكتاب شرارة تؤدي إلى محاولة جديدة من أجل فتح ملف قضية فعنونو ... إني أعتبر موردخاي فعنونو صديقا واجه التعذيب الناتج عن فترة العزلة الطويلة وسوء المعاملة ، دون إظهار أي تبرم أو ألم ، بل بشجاعة مدهشة. لقد عانى فعنونو بما فيه الكفاية فإذا تأثر القراء بهذه القصة ، فني أمل أنهم لن يظلوا صامتين ، وإنما سوف يحتجون على هذا الظلم».

تحدي كل تهديد محتمل

وهكذا يحاول بيترهونام أن يحرك منابع النور في وجدان كل قارئ لكتابه ، لعلها تستنهضهم لانتشال «فعنونو» من قبضة ظالميه. وهكذا نجد أن كتاب بيتر هونام «امرأة الموساد » يكشف لنا عن قوى الدفع التي تولدها منابع النور ، فهي التي جعلته لا يكتفي في كتابه بكشف ما كشف من أسرار بطولة وسقوط فعنونو المأساوي ، وإنما نجده في سبيل ذلك يطلعنا - دون قصد - على بطولته هو في تحدي كل تهديد محتمل ، أو خطر جاثم ويكفي في هذا الصدد أن نقرأ «لم يكن فعنونو هو الوحيد الذي يعد دوره محوريا في هذه القضية . ذلك أن العميلة السرية الشقراء التي عرفها باسم سيندي، لعبت دورا حساسا في الحد من الضرر الذي كان يمكن أن يتسبب فيه ما أفشاه من أسرار . إذ كانت تعمل لصالح الموساد... وكالة المخابرات الاسرائيلية التي أوقعت في إحدى المرات بالمجرم النازي أدولف ايخمان، والتي اغتالت بطريقة منهجية الفلسطينيين ... وقتلت مخترع المدفع الفائق الكندي جيرالد بول . لو أن فعنونو ظل مطلق السراح كي يدلي بشهادته أمام الكونجرس في الولايات المتحدة، لكانت الآثار السياسية والدبلوماسية المترتبة على هذه الشهادة آثارا هائلة. لذا كانت مهمة الموساد هي إيقافه ، كما كانت مهمة سيندي هي أن تستغل ما كان يشعر به من وحدة ، وأن تغريه حتى تشتت اهتمامه بهدفه، مستعملة أقدم الحيل - إغراء الجنس».

ورغم تأكد بيتر هونام، على هذا النحو ، من أن أجهزة التخابر تستهدف كل من يعرف الحقيقة ويهدد بكشفها ، نجده لا يتوانى في نضاله .. «لم تتمكن سوى من تحقيق نجاح جزئي كما يصف هذا الكتاب بالتفصيل . إذ إن الساندي تايمز استمرت في نشر الأسرار التي كشف عنها مورد ، برغم ما بذلته سيندي هي والفريق المساند لها من جهود . وفي نهاية الأمر فشلت ببساطة

فى أن تتوارى بعد أن أكملت مهمتها ، وأن تجعل شخصيتها لغزا للأبد . » لقد استغرق الأمر منى شهورا من الجهد المضنى ، غير أنى فى النهاية اكتشفت حقيقتها ، وتعقبتها فى اسرائيل ، وحين رأيت رد فعلها المرتعد ، كان ذلك نوعا من التعويض، عندما ظهرت أمامها دون سابق إنذار أمام عتبة باب مسكنها فى نتانيا كى أخبرها بأن اسمها على وشك أن يذكر، وبذلك أصبحت عديمة الجدوى ، من حيث القيام بأى دور فى المستقبل كعميلة تحت ستار أو غطاء . أما عن كونها أمريكية ، فهذا أمر أكثر أهمية مما يعترف به البعض ففعنونو يشك فى أنها كانت تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية ، وكان لدى الولايات المتحدة حقا الكثير مما تحتاج إلى إخفائه ، كما يتضح فى الفصول اللاحقة ، فالنفاق الذى تبديه بشأن امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية ، نفاق خارق للعادة . إذ إن الولايات المتحدة ظلت لوقت طويل تظهر علامات عدم الموافقة ، غير أنها ساعدت اسرائيل بالفعل على استكمال ديمونة ، وكشف هذا الأمر لابد له أن يتسبب فى قدر من حساب النفس»..

ولربما يكون ما سبق هو التقديم المنطقى للطرف الرئيسى فى ثلاثية القابضين على منابع النور فى قلوبهم، ذلك هو الاستاذ ابراهيم محمد ابراهيم مترجم كتاب بيترهونام «امرأة الموساد» ولعلكم بقراءة الاستشهادات التى أوردتها من الكتاب تكونون قد تذوقتم براعة المترجم فى نقل الكتاب من اللغة الانجليزية ، إلى لغة عربية سليمة سلسة، ترفع عن المكتوب أيا مما قد يصادفنا من منغصات قراءة الأعمال المترجمة ، وبإحكام السيطرة على اللغتين ، المنقول منها ، والمنقول إليها ، من حق الاستاذ إبراهيم محمد إبراهيم أن يفاخر بضم هذا الكتاب الشيق ، إلى قائمة الكتب التى أضافها المكتبة العربية بكل اقتدار .. فقد قرأنا من ترجمة الاستاذ ابراهيم محمد ابراهيم كتاب الصرخة الصامتة لمؤلفه اليابانى كينزابورو أوى Kenzaburo Oe الحاصل على جائزة نوبل ١٩٩٤، إذ قام بترجمته عن النص الانجليزى لدار الهلال ١٩٩٥ ثم قرأنا له ترجمته لدار الشروق ١٩٩٩ لكتاب «الجمعيات السرية لنورمان ماكينزى Norman Mackenzi ثم قرأنا ترجمته لكتاب «حين تبكى الأفيال» الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠ .

وبعد ذلك قرأنا ترجمته لكتاب مايكل وينتر Micheal Winter «المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى للهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢ ثم لدار الشروق ترجم كتاب ناعوم شومسكى Naom Chomsky ١١ /٢٠٠٢/٩ وها نحن نقرأ ترجمته لكتاب بيترهونام Peter Hounam «امرأة الموساد» ولانجد وجها للعجب من أسرار إبداع الاستاذ ابراهيم محمد ابراهيم فى ترجماته ، ذلك أنه بعد أن حصل على الثانوية العامة من المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين (طه حسين) فى عام ١٩٦٥ نجده يلتحق بمدرسة الألسن

العليا ليتخرج من قسم اللغة الانجليزية فيها (كلية الألسن ١٩٦٩)، ولطموحه آنذاك لاستكمال دراساته العليا التي لم تكن بعد قد أدخلت إلى كلية الألسن، نجده يلتحق بكلية الآداب جامعة عين شمس، ليتخرج من قسم اللغة الانجليزية فيها حاصلا على الليسانس ١٩٧٢، وأثناء ذلك يكتشف فتح الباب للقيد في الدراسات العليا بكلية الألسن، ويحصل على شهادة إتمام الدراسات التمهيدية للماجستير ١٩٧٢ .. وإذ تحول فكا التمساح بين ابراهيم محمد ابراهيم وبين إتمامه للدراسات العليا التي كان يبتغيها ليصبح أستاذا في الجامعة نجده لا يستسلم لقبضة الفكين على مصيره، وإنما يواصل الكفاح متلمسا منابع النور في وجدانه، وبعد أن يتنقل بين أعمال أمانة المكتبة في دار الكتب وتدريس اللغة الانجليزية لطلبة المعهد العالي للباليه، والعمل مع المؤسسة الدولية Oxfam، إذ به يحط الرحال على أعتاب مملكة الترجمة مثبتا جدارة بمرتبة الأستاذ التي اليها طمح..

وإذ تسعد المكتبة العربية بإضافات الأستاذ ابراهيم محمد ابراهيم لا أظننا نفوت فرصة تأمل اختياراته، وتوقيتاتها، أما وقد سردت قبلا القائمة، فلعلني هنا أكتفي بالإشارة إلى الكتاب قبل الأخير، وهو كتاب أهم المفكرين الأمريكيين المعاصرين الأستاذ نعوم شومسكي الذي تعرفت بشكل شخصي على هدوء ونفاذ منطقه من خلال حوار أجريته معه للبرنامج الذي كنت أقدمه للقناة الثانية باللغة الانجليزية Kalei-doscope ذلك حين زار شومسكي مصر أواسط التسعينات من القرن الماضي..!! المهم أن العلامة شومسكي لم يكن ليفوت أحداث التاسع من سبتمبر ٢٠٠١ دون أن يضع فيها كتابا، وإذ بمترجمنا ينجز ترجمته فور صدور الكتاب وهو ما كان يمكن أن يكون موضوعا لدوائر الحوار على الأثير المسموع والمرئي لو أن أحدا قد انتبه..

وإن لم يكن ذلك كذلك، فها أنا ذا أدعو الجميع للالتفات إلى ترجمته لكتاب «امرأة الموساد» فهو نص شهي، يغري بالقراءة من النص على أثير الإذاعة المسموعة، كما يغري كتاب الدراما للشاشة المرئية لعلهم من ناحيته، يريحوننا من أنواع الأعمال المدبلجة التي تظهر فيها عبارات «أرجو أن تكوني أكيدة .. فهكذا جاءت الوصية» بدلا من أرجو أن تكون متأكدة أو مطمئنة !!!.

ومن ناحية أخرى فهي للاستفادة من نص ثري بكل عناصر التشويق البوليسية والإنسانية والدراما السياسية، وإذاعة مثل هذه النصوص تهدينا إلى منابع النور في أنفسنا وفي الآخرين، وتعيننا جميعا على أن نضم الصفوف مع كل القابضين على منابع النور في وجدان البشر، ومنهم علماء وفنانون وأدباء وموسيقيون وأفراد من عموم الشعب الأمريكي، يخرجون بمئات الألوف في الشوارع يتظاهرون، لتصلنا أصداء أصواتهم تقوى قلوبنا القابضة على منابع النور فيها لعلنا، بعون الله، أن نوجد لأنفسنا من فكي التمساح الانفلات. ■



قاسم الخطاط



حسن كامل الصيرفي

ذكريات تستعيدها الأسماء

بقلم
وديع فلسطين

فى زحام الحياة الخانق وضجيجها الزاعق وهديرها الصاخب تتوه أسماء كأن لأصحابها كيان ووجود لا سبيل إلى نسيانها ، وإذا كانت الأجيال الطالعة تجهل أخبار بعض الذين أسدوا إلى الجماعة خدمات جلى فى ميادين الفكر والثقافة ، فإن الذاكرة - مهما خانتهما وسائلها - ترى من الواجب عليها أن تستعيد ذكرى هؤلاء الراحلين وأن تصور بعض ما استأثر باهتمامهم فعبروا عنه شعراً ونثراً يكاد أكثره يضيع . وصاحب هذا القلم المتواضع قد نذر البقية الباقية من عمره لمحاولة إنصاف الذين ظلمتهم حظوظهم فى دنيا الفكر والثقافة فيمن عرفهم فى رحلة الحياة ، أما الذين لم يعرفهم فأمرهم موكل بمؤرخى الأدب ومحترفيه .


أم كلثوم


أحمد شوقي


إبراهيم طوقان

قاسم الخطاط

كـان الأديب العـراقي قـاسم الخطاط يحرر عموداً يومياً في جريدة عربيـة تصـدر في لندن بعنوان «شمعة» فلما وافته المنية في تونس في ١٧ يناير الماضي ظهر العمود وقد كتبت عبـارة «انطفـأت» تحت عنوانه الأثيـر «شمعة» .

وقاسم الخطاط تعرفه مجتمعات الأدب في مصـر منذ ما نزح إليها من العراق في عام ١٩٥٣ لاستكمال دراسته القانونية في معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية . وعين وقتها ملحقاً بجامعة الدول العربية وتقلد فيـهـا وظائف شـتى سـواء في قسم الصحافة أو في مركز البحوث إلى أن تولى رياسة معهد المخطوطات العربية عام ١٩٧٦ بدرجة مستشار . وعندما انتقلت الجـامـعة العربية إلى تونس ، انتقل معها واستقر هناك إلى آخر العمر وقد هيأت له إقامته الطويلة في القاهرة على مدى عشرين عاماً أن يوطد علاقاته مع كـثـيرين من رجال الفكر والأدب ، وكان مكتبه وبيته ملتقى لأبناء أمة العرب كلما هبطوا القاهرة . ومما يذكر لقاسم الخطاط ويشـــاد أنه في أثناء تدهور العـلاقـات بين مصـر والعراق ، كـان بشخصيته المشبعة بحب العروبة ، وبثقافته التي تتسامى فوق الصغائر السياسية ، يعد السفير الدائم للعراق في مـصـر ، لا بتكليف رسـمي ، بل بأريحية من نفس ترى مستقبل العرب في تآلفهم لا في تنافرهم .

وقد عـرفت الخطاط عن قـرب طوال هذه السنوات ، وحـرصت عندمـا زرت تونس من نحـو عـشـرة أعـوام على الاتصال به وزيارته في بيته ، وكـان قد تزوج سيدة فاضلة من القيروان - هي السيدة هدى الخطاط - بعد وفاة زوجته

الأولى .

ولئن استغرقت الأعمال الإدارية في الجامعة العربية قاسم الخطاط ، فلم يصرفه ذلك عن العناية بالتأليف فأصدر مع زميليه مصطفى عبد اللطيف السحرى (١٩٠٢ - ١٩٨٣) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى أطال الله بقاءه كتاباً عن «معروف الرصافى شاعر العرب الكبير : حياته وشعره» كما أصدر رواية «الملكة الكادحة» وشفعها بعد ذلك برواية «البقعة الخضراء» .

وقبل مجيء الخطاط إلى القاهرة - وهو من مواليد بغداد عام ١٩٢٣ - تعرض للسجن وهى ضريبة يؤديها كل حر لأنه تعاطف مع ثورة رشيد عالى الكيلانى فى عام ١٩٤١ . وعمل بعد خروجه من السجن فى وزارة الأوقاف وديوان مجلس النواب ومديرية التقاعد ، وأصدر فى عام ١٩٤٥ مجلة «إخوان الصفاء» وحرر فى عدد من الصحف العراقية . وبفضل دراسته القانونية اختارته الدولة لتمثيلها أمام المحاكم العراقية وتقديم الاستشارات القانونية .

وعندما أسندت إليه إدارة معهد المخطوطات فى الجامعة العربية - وهو أصلا غير متخصص فى هذا الميدان - كان ساعده الأول والأكبر محمد رشاد عبد المطلب (١٩١٧ - ١٩٧٥) الخبير المتعمق فى المخطوطات وفى يناير ١٩٧٥ تلقى قاسم الخطاط من بغداد نبأ وفاة أبيه . فأقام سرادقاً لتقبل العزاء فى جامع عمر مكرم وافتقدنا بين المعزين رشاد عبد المطلب وتوهمنا أن جفوة حدثت بين مدير المخطوطات ووكيلها ، ولكننا عرفنا فى اليوم التالى أنه بينما كان عبد المطلب يرتدى ثيابه للتوجه إلى سرادق العزاء سقط ميتاً ولم يكن عمره يزيد على ٥٨ عاماً .

وكانت الجامعة العربية قد قررت افتتاح مكتب إعلامى لها فى أديس أبابا ، واختارت قاسم الخطاط لرياسته ، فأقامت رابطة الأدب الحديث فى القاهرة حفلاً لتوديعه ، وسافر إلى هناك . ولكننا فوجئنا بعد أيام بعودته إلى القاهرة لأن حكومة إثيوبيا رفضت افتتاح هذا المكتب

وقد خلف قاسم الخطاط مشروعات لم يتسن لها النشر ، منها رواية «امبراطورية الزنزانة رقم ١٢» وقصة فى رسائل عنوانها «لبلابتى العزيزة» ومجموعة من الأقاصيص وجمهرة كبيرة من المقالات التى كان ينشرها فى بغداد بعنوان «همسة» ثم بات ينشرها فى لندن بعنوان «شمعة» .

ولئن تولت شئون المخطوطات أجيال جديدة ربما جهلت قاسم الخطاط ، فإن تاريخ معهد المخطوطات يسجل له ما أحرزه من فتوحات فى أثناء اضطلاعه

بإدارته .

الشاعر حسن كامل الصيرفي

كنت أسير من أيام في ميدان التحرير ، وكانت تتقدمني فتاة ترتدي ثوباً يتراقص يمنة ويسرة . ومع أنني لست من خبراء «الموضة» فقد نسبت هذا الثوب إلى «موضة الكلوش» التي كانت معروفة في زمن مضى ، وقد أطلق وقتها على هذه الأثواب الراقصة لفظة «كلوش» الفرنسية التي تعني الناقوس ، مع أن التسمية الأدق هي «البندول» الذي لا يكف عن التأرجح جيئة وذهاباً .

ذكرتني هذه الواقعة بقصيدة جميلة لصديقي الشاعر حسن كامل الصيرفي نظمها على لسان لابسة لثوب من هذا الطراز ، وقد أسمعني إياها في حينها ومازلت أذكر منها قوله :

أشير إليك بطرف ردائي
تعال ورائي ، تعال ورائي
هنالك عند الحديقة نقضي
سويعات أنس بأجمل روض
حديقة «مورو» إليها سأمضي
فهيا اتبعني لتقطف مني
أزاهير حسني وطلع روائي
أشير إليك بطرف ردائي
تعال ورائي ، تعال ورائي

أما حديقة «مورو» فهي حديقة الأندلس المعروفة .

وللشاعر قصيدة طريفة أخرى في لاعبة الورق (الكوتشينة) أهداها «إلى التي كان سحر عينيها يلهو بي وهي تلهو بلعب الورق» جاء فيها قوله :

توليني الحظ مرة ، واغلبيني ألف مرة
سحر عينيك هو الغالب ، لا غالب غيره
وابتسام ساحر كالنور لا يبرح ثغره
كلما استوحيت نظره ، كانت النظرة (بصره)
فامنحيني اليوم حظا ، واستردي الحظ (بكره)

وقد اخترت أبياتاً من هذه القصيدة الطويلة مراعاة للحيز المتاح .

والصيرفي ولد في دمياط في ٦ سبتمبر ١٩٠٨ وتعلم في المدارس الثانوية ، واستكمل دراسته بالمراسلة وعمل موظفاً في وزارة الزراعة ، ثم انتقل إلى مجلس الأمة (مجلس الشعب حاليا) مديراً لإدارة الصحافة وظل يشغل هذا المنصب إلى التقاعد في عام ١٩٦٨ ، وإن كان انتدب في خلال ذلك سكرتيراً لتحرير مجلة «المجلة» عند إنشائها على يدي الدكتور محمد عوض محمد (١٨٩٥ - ١٩٧٢) وسكرتيراً لمجلة «الكتاب العربي» .

والصيرفي من شعراء جماعة أبولو المؤسسين لها وقد اختاره مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً مراسلاً فيه .

اشتهر الصيرفي بكونه شاعراً حيث

صدر ديوانه الأول «الألحان الضائعة» فى عـام ١٩٣٤ وله ديوان سـابق عليـه عنوانه «قطرات الندى» لم ينشـر حـتى الآن . ثم أصدر ديوان «الشروق» وأتبعه بثلاثة دواوين فى مجلد واحـد بعنوان «صدى ونور ودموع» وأعد للنشر عشرة دواوين صـغـيـرة نسـبـيـاً لكل ديوان موضوع يستقل به كديوان لشهر زاد وآخر للمراثي وثالث للغزل وهلم جرا ، وحار فى أمر نشرها إلى أن اتصلت به السيدة جيهان السادات عندما كانت تعد رسالة الماجستير عن الشاعر الإنجليزى شلى وأثره فى جماعة أبولو، فأعرب لها الصيرفى عما يلقاه من صـعـوبة فى نشر هذه الدواوين العشرة . فما كان منهـا إلا أن اتصلت هاتفـيـاً بأنيس منصور فى دار المعارف ، وأشارت عليه بنشرها ، وعلى الفور دب النشاط فى الدار ، وأنجزت فعلاً طبع ستة دواوين هى «عودة الوحى» - وقد أهداه الشاعر إلى السـيـدة «التى تفضلت فـمنحت دواوين شـعرى نسمة أمل فى أن ترى النور ، أقـدم نفـحـة وفـاء تصـدر عن صــادق الشـعــور» . وديوان «النبع» و«نوافذ الضياء» و«شهر زاد» و«صلواتى أنا» و«زاد المسـافر» . ولكن لما تراخى نفـوذ السـيـدة الأولى ، وخـرج أنيس منصور من درار المعارف ، توقف نشر الدواوين الأربعة الباقية ، ولعلها - بعد وفاة الصـيرفى فى ١٩ مـايو ١٩٨٤ - مـازالت «مركـونة» فى إحدى الزوايا ، ربما إلى آخر الدهر !

غـيـر أن تحـولا كـبـيـراً طرأ على اهتمامات الصيرفى الأدبية ، ولعل ذلك كـان اسـتطراداً للمـقـالات الأدبيـة والدراسات النقدية التي كان ينشرها فى مـجـلات «أبولو» و«المقـتطف» و«المجلة» وغـيـرها ، فنشـر دراسـة عن «حـافظ وشوقى» ثم اتجه بجمع قواه إلى تحقيق كتب التراث ، فـحـقق «طوق الحمامة» لابن حـزم الأندلسى و«طيف الخـيـال» للشـريف المرتضى و«لطائف المعـارف» للثعالبى ، ثم تصدى لديوان البحترى فنشـره فى طبعه ضـخـمـة فى خمسة أجزاء مثقلة بالهوامش والتعليقات ، وهو عمل جاد مجهد ، ومع ذلك انبرى له محقق زميل هو عـبـدالسـلام هارون (١٩٠٩ - ١٩٨٨) مـتناولاً إياه بالنقـد والتعليقات فى كتاب مستقل أصدره بعد ذلك .

ولم يكد الصيرفى يفرغ من تحقيق ديوان البحترى ، حتى عكف على إصدار ثلاثة دواوين ضخام لثلاثة من الشعراء الذين لم يلتفت إليهم المحـقـقـون ، وهم «عمرو بن قميئة» و«المتلمس الضبعى» و«المثقب العبدى». وقد أثار صدور هذه

الدواوين بديلاً عن الأعداد الدورية لمجلة معهد المخطوطات العربية انتقادات وجهت إلى مدير المعهد قاسم الخطاط على زعم أنه بهذا التصرف قد ألغى المجلة وحولها إلى كتب . ولكن الخطاط رد على منتقديه قائلاً إن لنشر التراث أولوية على المقالات المعقودة على كتب التراث والتى تنشرها المجلة عادة ، وإن هذا العمل الباذخ الذى قام به الصيرفى هو كسب كبير المجلة ولقرائها المتخصصين .

عرفت الصيرفى لأول مرة فى ندوة «المقتطف» إذ كان حريصاً على الانتظام فى حضورها . كان على شيء من القصر مع اعتدال فى القوام . وكان جميل الصورة ، وإذا مشى جر ساقيه جراربما لعلة قديمة فى ساقيه . وكان خفيض الصوت إلا أن عابثته فكاهة لم يستطع كتمانها ، وعندئذ يعلو صوته مجلجلا فى القاعة . وكان رجلا ودوداً ، يفتح صدره للناس ويستقبلهم بحفاوة ولا سيما عندما عمل سكرتيراً لتحرير مجلات وزارة الثقافة .

وعندما ظهر ديوان الشاعر ابراهيم ناجى عن وزارة الثقافة بتحقيق محمد ناجى ، شقيق الشاعر وكان ضريراً ، وصالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٦) ، وأحمد رامى (١٨٩٢ - ١٩٨١) وأحمد عبد المقصود هيكل أطال الله بقاءه ، تبينت أن الديوان المنشور أغفل كثيراً من شعر ناجى ، فكتبت سلسلة من المقالات فى مجلة «الأديب» اللبنانية بعنوان «شعر ناجى المضيع» رصدت فيها طائفة من القصائد التى سقطت من هذا الديوان فكان الصيرفى يتتبع هذه الفصول ويحصر عدد الأبيات التى اهتديت إليها ويسجل ذلك فى مقاله الشهرى بمجلة «المجلة» مع تصويب أى أخطاء مطبعية وقعت فى هذه الأبيات أثناء الطبع .

وعندما أصدر الشاعر نزار قبانى (١٩٢٣ - ١٩٩٨) ديوانه «طفولة نهد» فى القاهرة أهدانى نسخة منه وتلقيت بعد ذلك من الصيرفى ديوانه «الشروق» ، فعقدت على الديوانين مقالا تناولت فى قسمه الأول ديوان نزار وفى قسمه الثانى ديوان الصيرفى ونشرته فى إحدى المجلات ولعلها «منبر الشرق» لصاحبها على الغاياتى (١٨٨٥ - ١٩٥٦) . وعند صدور المقال ، عاتبنى الصيرفى عتاباً شديداً لأننى قدمت ديوان الشاعر الناشيء نزار على ديوانه وهو الذى له أسبقية مقررة فى ميدان الشعر . فقلت له إننى راعيت تواريخ وصول الديوانين إلى ، فقد تلقيت ديوان نزار قبل ديوانه . فسخر من دفاعى الهزيل ، وإن كان تسامح معى لأن رأيى فى شعره كان طيباً .

تزوج الصيرفى من السيدة نعمت حسيب شقيقة السيدة زينب حسيب التى كانت الحب الأول للشاعر أحمد زكى أبى شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) والتى أفرد لها ديوانا كاملاً يحمل اسمها . ولكن الصيرفى لم ينجب وعندما توفيت شقيقته بعدما وضعت طفلها ، تولت زوجة الصيرفى رعاية هذا الطفل (يحيى قدرى) إلى أن أصبح اليوم محامياً مرموقاً

أم كلثوم والشاعر أبو الوفا

مرت يوم ٣ فبراير ذكرى وفاة المطربة أم كلثوم التى خلدها كثير من الشعراء فى شعرهم . أما الشاعر محمود أبو الوفا (١٩٠١ - ١٩٧٩) فقد تناولها فى إحدى قصائده التى نظمها بعد احتراق القاهرة فى عام ١٩٥٢ وسخر فيها من الأوضاع الاجتماعية التى جعلت فقراء مصر ينتقمون من أغنيائها بإحراق العاصمة وفيها يقول :

تسمعون الآن شكوى الفقراء
دائما يشكون ظلم الأغنياء
ما الذى تشكونه ، يا جحداء ؟
عندنا الراديو وسهرات المساء
وليالى أم كلثوم الوضاء
ليلة واحدة فيها الغناء
عن غذاء وكساد ودواء
بل عن السودان أيضا والجلاء
قل لهم : استشعروا بعض الحياء!
من يقول اليوم إن الأغنياء
ليس فيهم رحمة بالفقراء ؟
وهمو - لو لم يكونوا رحماء
بكمو ، يا هؤلاء الضعفاء
لاقتنوا الأرض جميعا والسماء
فإذا أنتم عبيد أو إماء
عندهم ، لا تستحقون البقاء
فاحمدوه ، واشكروا للأوصياء
أنهم «حلوا» لكم هذا الهواء!

ترى هل يصدق هذا الوصف على ما يكابده الناس فى أوضاعنا الحالية ؟

الشاعران شوقى وإبراهيم طوقان

لم يزاول الشاعر أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) التدريس فى حياته ، وإن كنا عرفنا عددا من الشعراء فى مصر عملوا بالتدريس ثم تركوه إلى أعمال أخرى مثل محمود غنيم (١٩٠٢ - ١٩٧٢) ومحمد عبدالغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) وسيد قطب (وقد كان شاعرا) (١٩٠٦ - ١٩٦٦) والعوضى الوكيل (١٩١٥ - ١٩٨٣) وعامر محمد بحيرى (١٩١٢ - ١٩٨٨) وغيرهم . فقد كانت وظيفة المعلم تستحق التبجيل والاختراع قبل أن تتفاقم آثار مدرسة المشاغبين» وتنعكس على العملية التربوية الحالية.

ولأن شوقيا كان يرى فى التدريس

مهنة سامية فقد وصف المعلم بقوله :

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا

ولئن كنا في يومنا الحاضر نفتقد هذا التبجيل للمعلمين ولا نراهم رسلا للثقافة أو الاخلاق ، فإن الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١) الذى اشتغل بالتدريس وعانى من متاعبه ، عارض أمير الشعراء فى ما ذهب إليه بقوله:

«شوقى» يقول وما درى بمصيبتى
«قم للمعلم وفه التبجيلا»
أقعد ، فديتك ، هل يكون مبجلا
من كان للنشء الصغار خليلا ؟
ويكاد يفلقنى الأمير بقوله
«كاد المعلم أن يكون رسولا»
لو جرب التعليم شوقى ساعة
لقضى الحياة شقاوة وخمولا

والذى بيده فى النار ليس كالذى بيده فى الماء .. كما يقولون .

الأدب العربى فى استراليا

أدت الأوضاع غير المستقرة فى عالمنا العربى إلى نزوح كثيرين من الشباب إلى أنحاء العالم المختلفة ينشدون هناك العيش الآمن والحرية المكفولة ، والكرامة المصونة ، والمستقبل العريض و«وكل مكان ينبت العز موطن» كما قال الشاعر ولكن إذا كانت مآرب الحياة تفرض على كثيرين من النازحين البحث عن عمل مهنى يتفق مع تخصص كل منهم ، فالمهندس يتفرغ للمهندسة ، والطبيب للطب ، والصيدلى للصيدلة ، والتاجر للمتاجرة ، فإن البعض إختار لنفسه ميداناً يحفر فيه الصخر هو ميدان الأدب العربى فى مجتمع تهيمن عليه لغات أجنبية تكاد تنسى المرء لسانه العربى .

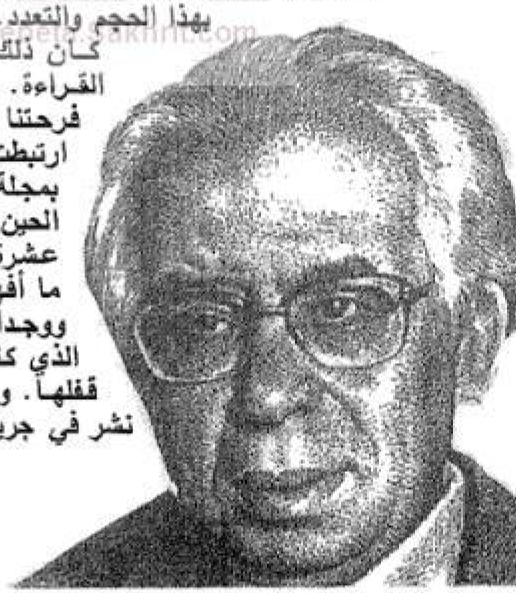
وقد أدهشنى أن أتلقى من الأديبة السورية منى الدروبى بعض أعداد فاخرة من مجلة تصدر فى أستراليا فى طبعتين عربية وإنجليزية عنوانها «كلمات» يحررها رغيد النحاس ويستعين بهيئة استشارية من أدباء سوريا ولبنان ومصر وأمريكا ودول الخليج وجزر المحيط الهادى . وهى مجلة مطبوعة طباعة أنيقة فى قطع الكتب المتوسطة الحجم ، وتتناول موضوعات أدبية وثقافية وعلمية ، عدا قصائد الشعراء . وقد صادفت بين كتاب المجلة والمسئولين عنها أسماء أعرفها منها عيسى فتوح ويوسف عبدالأحد ومنى الدروبى ونهاد شبوع ونويل عبد الأحد إلى جانب أسماء أخرى تكتشف من متابعة آثارها . فهل ينتقل إشعاع الأدب المهجرى إلى استراليا بعدما كاد يخبو فى العالم الجديد بأمريكتيه الشمالية والجنوبية والوسطى أيضاً ؟ ■

كيف جاءت مصر إليّ ولم أرحل إليها..

خليفة محمد التليسي

بعد دخول جيوش الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية وانفتاح الحدود الشرقية الليبية تدفق سيل كبير من الصحف المصرية بمختلف أنواعها وتعدد اتجاهاتها وكان منها الصحافة اليومية كالأهرام، والصحافة الأسبوعية كالمصور والاثنين، والصحافة الأسبوعية أو نصف شهرية مثل مجلة الرسالة والثقافة، أو الشهرية مثل الهلال، أو الفصلية مثل الكاتب المصرى. وكان هذا شيئا رائعا ومذهلا أن تتوفر بهذا الحجم والتعدد.

كان ذلك مفاجأة سارة لنا نحن عشاق القراءة. وربما كانت فرحتنا بها أكبر من فرحتنا بانفراج أزمات الحرب الخانقة. وقد ارتبطت ارتباطا أسبوعيا أو شبه أسبوعي بمجلة الرسالة وأخذت أتابعها منذ ذلك الحين أي منذ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري حتي توقفها أفهم منها ما أفهم وأقرأ منها ما هو قريب إلي عقلي ووجداني . ومازلت أذكر المقال المحزن الذي كتبه الزيات في رثائها والإعلان عن قفلها. وقد نشر في العدد الأخير منها. كما نشر في جريدة الأهرام اليومية.



وفيه ينسب تعطيلها إلى الضرائب وتوقف الاشتراكات الرسمية أما الأعداد التي صدرت منها أيام طفولتي الباكرة، فقد تكفلت بها بعض المجاميع الموجودة فى مكتبة الأوقاف. وفى الرسالة التقيت لأول مرة بكتابها البارزين آنذاك مثل أحمد حسن الزيات ومصطفى صادق الرافعى وعلى طنطاوى وسيد قطب ومحمد عبدالله عنان وكذلك طه حسين وأحمد أمين اللذين كانت لهما مشاركة أولى فيها ثم تحولا إلى إصدارات أخرى خاصة بهما مثل الثقافة التى أضعف صدورها من قوة الرسالة ولم ينشىء قوة تنافسها، أى أن مجلة الثقافة كانت ضعيفة إذا قورنت بالرسالة فى المراحل الأولى من صدورها. ولم أذكر الأستاذ العقاد ضمن الأوائل من كتابها . فالمعروف أنه لم ينتم إلى الرسالة انتماء تاما إلا بعد وفاة خصمه الأدبى اللدود مصطفى صادق الرافعى وقد أوضح ذلك أحمد حسن الزيات فى رثائه لمصطفى صادق الرافعى.

نيتشه والشعر

وكان أهم ما التقيت به فى هذه الأعداد الأولى التى فاتتنى بحكم السن عملين استأثرا بلُبي، أولهما «هكذا تكلم زرادشت» الذى كان ينشر مفرقاً بترجمة المترجم العظيم فليكس فارس. ثم ديوان (جيتنجالى) الذى نال به طاغور جائزة نوبل للآداب، من ترجمة الأستاذ محمود حبيب وكان ذلك أول لقاء لى بهذين العملاقين، نيتشه، وطاغور فى هذين العملين الشعريين الرائعين وأقول الشعريين، وأنا عالم بالاعتراض الذى قد يقوم فى ذهن القارىء حين يتساءل عن صلة نيتشه بالشعر، وهو فيلسوف معروف بمبادئه الفلسفية ومواقفه من فلسفة القوة



ودعوته إلى السوبر مان.

فأقول إن صفة الشاعر الفيلسوف أو الفيلسوف الشاعر لم تتحقق لأحد من فلاسفة العصور الحديثة كما تحققت فى شخصية نيتشه، ويعد أفلاطون الذى كان شاعرا فى تصوره لجمهوريته التى نفى منها الشعراء، لم تعرف الفلسفة إنسانا جمع بين الملكتين ملكة الفلسفة وملكة الشعر كما تحقق ذلك لنيتشه. ولذا كان لكتابه هذا من التأثير العميق فى الشعر العالمى - بما فى ذلك الشعر العربى الحديث ما لم يكن لأى كتاب فلسفي. فيندر أن تقرأ لشاعر مشهور مذكور لا تجده قد تأثر بهذا الكتاب الرائع. بما فى ذلك الأدب العربي. وأثر نيتشه فى جبران أثر متفق عليه من جميع الباحثين والدارسين، وكذلك فى الشابى عن طريق جبران وظاهر فى قصيدة إرادة الحياة. أما فى الآداب العالمية فيحضرنى أثره فى الشاعر الإيطالى دانتزيو، ثم أثره فى الشاعر الكريتى اليونانى المعروف كزانتزاكيس صاحب «زوربا»، ولو ذهبت أحصى أثره فيمن قرأت لهم أو قرأت عنهم، لانتهيت

إلى كتاب .

دور مهم لمجلة الرسالة

ومن الشعراء العرب المحدثين صلاح عبدالصبور الذى تحدث عنه فى كتابه (حياتى فى الشعر). وتواصلت متابعتى للرسالة بعد ذلك. ولكن من الواضح أن خطها الذى بلغ قمته فى السنوات الأولى أخذ يميل إلى النزول، فضعفت قوتها بظهور القوى الأدبية الجديدة فى مصر والوطن العربى التى احتاجت إلى وسائل أخرى للتعبير عن إبداعها واتجاهاتها الفكرية الجديدة، وكان واضحا أن دور مجلة الرسالة، قد انتهى ، أو أوشك على الانتهاء. وأن الساحة ستمتلىء فيما بعد بمجلات بديلة فى بيروت، وفى الأديب ثم الآداب ثم المجلات التى صدرت بعد عن وزارة الثقافة. أى أن القارىء العربى وجد تعويضا يستوعب المراحل التالية التى لم تكن الرسالة قادرة على استيعابها.

وللرسالة فضل كبير فى تكوينى الأدبى، كما كان فضلها كبيراً على كل من صاحبها منذ بداياتها، وقلما ظفرت مجلة عربية قبل الرسالة وبعدها، بذلك الانتشار الذى ظفرت به. وكانت تصل بانتظام إلى كل العواصم العربية والإسلامية وكانت تباع فى ليبيا أثناء العهد الإيطالى. وقد تتبعت آثار اجتماع القوم حولها وتعصبهم لكتابها. فقد كان فى ليبيا. كما كان فى تونس. كما كان فى المغرب. والسودان تعصب لهذا الكاتب أو ذاك. فيهم المتعصبون للرافعى والمتعصبون للعقاد وطه حسين. على أن التقييم العام للمجلة بنظرتنا الموضوعية المحايدة يقرر أن مجلة الرسالة قد أسهمت بلا شك إسهاما كبيرا فى ترسيخ المفهوم القومى العربى الإسلامى فى مصر. فى وقت لم يكن هناك أصوات فى مثل جهارة صوتها وعلوه. وكانت فعلا مؤسسة ثقافية ضخمة يديرها فرد بإمكانياته المادية المحدودة وقدراته الفنية ، وقد تجمعت فيها أقوى أقلام الأدب، كما فتحت الباب للكتاب والشعراء العرب، كانت بذلك مدرسة لأدباء العرب من مختلف الأقطار العربية. وظلت مخلصة لهذا الاتجاه حتى نهاية عمرها. عُرفت بالإبداع العربى شعراً ونثراً. وكان النشر فيها «إجازة» أدبية كبرى يحصل عليها المبدع والباحث. وقد رأيناهم يباهون ويفاخرون ويرددون أنهم كانوا من كتاب الرسالة أو شعرائها . مثل الشيخ على الطنطاوى الذى لا يفتأ يذكرنا فى أحاديثه الرمضانية بانتمائه إلى أسرة الرسالة. وقد عدت إلى المجموعة الكاملة لها التى صدرت فى السنوات الماضية بعناية الدكتورة سعاد الصباح. وعنيت عناية خاصة بتتبع أثر الرسالة فى الحركة الشعرية الحديثة، فانتهيت إلى حكم قد يفاجىء الكثيرين، وهو أن أثر الرسالة فى الحركة الشعرية، بمعناها التقليدى أو الحديث، كان محدودا جدا على عكس ما يتصور البعض، فلم يعرف شاعر يمكن أنّ يقال أنه نشأ فى ظلها سوى «محمود حسن إسماعيل» أما الأسماء الأخرى التى نشرت لها لم تكن أسماء ذات شأن كبير فى حركة الشعر وهى تكون شبه أسرة احتكرت وتسلّطت على أنهار الشعر بها. وليس فيهم شاعر مذكور اليوم بشاعرية ضخمة ولا يحتج بما

نشرته أعوامها الأولى الأخيرة من قصائد لإيليا أبو ماضي أو الشابي فهي منشورة من قبل في مجلات أو دواوين، أرادت بها الرسالة إرضاء طموحات القارىء ، حتى على محمود طه. وهو من أصدقاء الزيات أهداه أحد دواوينه ورثاه الزيات رثاء حارا . وكان من بداياته «المنصورة» لم يكن من الشعراء الذين أنجبتهم الرسالة .

إنما أثر الرسالة الكبير الذي ينبغي أن يتسلط عليه الاهتمام، هو دورها المهم والعظيم في تطور المقالة الأدبية، بجميع أشكالها وضروبها. فقد كتب فيها الرافعي مقالاته الرائعة التي جمعت فيما بعد في كتابه الخالد «وحي القلم» وهو خير إبداعه عندي، وعند الجميع، كما نشر فيها طه حسين فصولاً من كتابه الرائع أيضا «على هامش السيرة»، ونشر بها أحمد أمين جملة من المقالات جمعها فيما بعد في مجموعة مقالاته التي بلغت عشرة أجزاء «فيض الخاطر» وعندي أن أحمد أمين من أهم كتاب المقالة، على عكس ما يعتقد الكثير بأن الرجل لم تكن له صلة بالأدب، وأنه باحث دارس لا غير، ففي «فيض الخاطر» من المقالات الجميلة ما ينافس كتاب المقالة المشهورين بها . وفيها نشر إبراهيم المازني العظيم كثيراً من مقالاته التي تقوم على الصورة الذاتية ولا أعرف أديبا عربيا بلغ براعته أو مستواه في توظيف حياته الخاصة مادة لأدبه يعشقها القارىء ولا يسأم منها بل ويحبه من أجلها . كما هو عند هذا الأديب الذي لم يظفر حتى اليوم بجمع أعماله الكاملة. وفيها عرفنا على الطنطاي بمقالاته الخطابية الثارية وسيد قطب بمقالاته النقدية الممتازة التي جمعها في كتابه المهم «كتب وشخصيات» وكذلك بحماسه لأدب العقاد، ودخوله في معارك من أجله كمعركته مع الدكتور مندور حول «الشعر المهموس». وتعقبه في مقالات رائعة «المرأة في شعر العقاد» لقد خسر فيه الأدب ناقدا كبيراً، وكان أستاذاً كبيراً لكثير من النقاد الذين جاءوا بعده ومنهم أنور المعداوي ورجاء النقاش. وكان أول من بشر بميلاد عبقرية نجيب محفوظ الروائية ولكن نجيب محفوظ صوره صورة غير كريمة في كتابه «المرايا» وقد ذكرت الهلال أن المقصود بهذه الصورة سيد قطب. وعرفنا فيها الكاتب العربي الرائع المحبوب بظرفه ومشاغباته ودعاواه الدكتور زكي مبارك فقد خص الرسالة بكثير من الكتابات الرائعة «كليلى المريضة في العراق» و«جناية أحمد أمين على الأدب العربي» و«الحديث ذو شجون» وأشد ما شدني إليه صحة تذوقه للنص الشعري العربي القديم وتحمسه له ولكل ما هو عربي. إن زكي مبارك ظاهرة فريدة في بابها في ذلك الوقت، في مصر والوطن العربي.

أدباء كثيرون تأثروا بالرسالة

ولا أظن أن أحدا من كتاب الرسالة كان له من الأتباع والتلاميذ في الوطن العربي مثل زكي مبارك. وعرفنا فيها العلامة الأستاذ شاكر الذي يسلكه البعض ضمن مدرسة الرافعي ولهذا الرجل ولع بالشعر العربي القديم وله منهج في دراسته فريد يسميه «الفن الصعب». ومن الذي عرفناهم عن طريق الرسالة دريني خشبة فيما كان يقدم من فصول رائعة عن

الأساطير اليونانية. وأعتقد أن أساطيره هذه قد أثرت في الشعر العربي الحديث، ونجد أثرها المباشر عند «علي محمود طه» في ولعه بذكر الرموز اليونانية. ويمكن التماس خط تأثيرها حتى في شعراء جاءوا بعد ذلك، حين جمعت هذه الأساطير في كتابين. وهذا الرجل كريم معطاء قدم للمكتبة العربية كثيرا من الدراسات والترجمات عن المسرح تكون مكتبة غنية سخية. وعرفنا فيها العريان في مقالاته الرائعة سيرة حياة الرافعي التي صدرت فيما بعد في كتاب وكان هو أخلص تلاميذه ومريديه. وله مشاركات إبداعية في القصة والرواية معروفة .

أما المراحل الأخيرة. وربما كانت تمثل محاولة من الزيات، لإنقاذها وربطها بالإنتاج الجديد، فقد تميزت ببروز شخصية الناقد اللامع أنور المعداوي الذي لفت انتباه شباب العرب المبدعين، بقوة أسلوبه واعتداده بشخصيته، وأهم من ذلك مثل المحاولة الأولى للانفتاح على الإبداع العربي التي نراها تتأكد وتتوسع وترسخ لدى ناقد شاب يحبه ويتتلمذ عليه، هو رجاء النقاش. وفيها ينشر مقالاته الجميلة عن «الأداء النفسي» وفصول كتابه عن الشاعر علي محمود طه الذي نشرت أول مرة بالعراق وفي هذا دلالة على الحظوة التي كانت للشاعر والناقد في العراق والكتاب المذكور دراسة جميلة الأسلوب تفيض بالحب والحماس لهذا الشاعر الكبير، ولكنها لا تبلغ شيئا مما بلغته دراسة نازك الملائكة عنه، في كتابها الذي صدرت طبعته الأولى من المعهد العالي للدراسات العربية في طبعة سيئة، ثم أعادت دار العلم للملايين طبعه بعنوان «الصومعة الحمراء» ولعله أجمل دراسة كتبت عن شاعر حديث.

كان المعداوي صاحب أسلوب جذاب يشدك إليه، شديد الاعتداد بنفسه يتحدث عن طه حسين وتوفيق الحكيم والمازني حديث الند للند كأنه «أكل عيش الزرع معهم» كما يقول المثل، أي كأنه كان زميلا لهم في الزرع فيستحق الجلوس إليهم على قدم المساواة لأكل عيش الحصاد. كما كان يشرف من علٍ في حديثه عن بعض المبدعين الجدد. ولم يكن وراء هذا الأسلوب علم بالنقد كما لم يكن وراءه علم واسع بالتراث وهذا ما جعل صوته يخفت حين طغت على الساحة النقدية اتجاهات الواقعية الاشتراكية بكفاءاتها النقدية العالية.

وكان الزيات يتبع بروتوكولا خاصا في التقديم والتأخير حسب مراتب الأدباء لديه. ومن الطرائف التي كنا نلاحظها الدرجات التي يتبعها في صفات الأدباء فيغدق أوصاف الأستاذية على كبارهم كما يسخو بأوصاف يبدو أنه ساير فيها أصحابها، مثل وصفه للزهاوي في جميع ما نشر له من قصائد «بالشاعر الفيلسوف» وقبوله من عبدالرحمن شكري وصف نفسه في مقالاته ذات الاسم المستعار «أحد أساطين الأدب» أو محاولته اليائسة لإنصاف أحمد الزين بوصفه «الشاعر الراوية» أما «الأديب» فصفة يخلعها الزيات على الذين ينشرون لديه للمرة الأولى أو الثانية حتى إذا استوثق منهم، وتيقن من قدراتهم، تحول

بهم إلى مرتبة الأستاذية وكان الزيات مجاملا أحيانا فى بعض ما ينشر. فبعض القصائد التى كان ينشرها للزهاوى تحت صفة الشاعر الفيلسوف لو قدمت اليوم إلى رئيس تحرير مجلة أدبية لرفض نشرها. ولذا ينبغى التنبيه إلى الفرق بين الظروف القديمة والظروف الحالية. وقد كان القوم يتبادلون المجاملات ويغدقون على بعضهم من الألقاب ما يذكر بأوصاف عصور الانحطاط ربما كان ذلك تعويضا عن الوجاهة السياسية المفقودة. وفى مصر بالذات ولع بالألقاب شهد ازدهاره فى عهد الملكية فى ألقاب صاحب المقام الرفيع وصاحب العزة وصاحب المعالى وصاحبة العصمة وكلها تعويض عن السطحية والخواء والتفاهة والسخافة ولم يكن لأصحابها فى كثير من الأحوال شىء من هذا الذى تخلقه الألقاب ولكنها لعبة الملوك بعقول التافهين. وقد فرح الزيات بلقب البكوية. كما فرح طه حسين بلقب البكوية، ثم الباشوية. وظل عباس محمود العقاد شامخا لا تلحقه الألقاب سوى تلك التى يبثها فى النفوس اسمه العظيم الموحى فى حد ذاته بالرهبوت والجبروت العلمى الأدبى «عباس محمود العقاد» هذا لا يمنع من القول بأنه ما كان ليرفضها لو جاءته وكان من الذين سجل عليهم مدح الملك فاروق ودخول الانتخابات فى دائرة صنعت له وليس من أبنائها. ولكنه كان مرض العصر كله فى جميع الأحوال، ولو عشنا عصرهم لكان إيقاعنا على إيقاع ذلك الزمان كما يقول البستى. أما المجلة الثانية التى ارتبطت بها ارتباطا شهريا منذ دخولها إلى البلاد فهى مجلة الهلال، ولم أتعقب أعدادها السابقة على ذلك التاريخ كما فعلت مع الرسالة.

●●●

وفى يقينى أن أعظم اسهامات هذه المجلة هو دورها فى تطور المقالة بجميع أشكالها الفنية والأدبية والتاريخية والاجتماعية والعلمية والوجدانية الذاتية ولا أعتقد أن هناك مجلة أدبية فى مصر أو الوطن العربى كان لها الدور الذى كان للهلال فى تطور المقالة. وما تزال حتى اليوم تسهم ربما وحدها فى تطور هذه المقالة بجميع أنواعها. وهذا جانب جدير فعلا وحده بالدراسة. وحين تلقيت الدعوة لحضور مئوية الهلال كان فى عزمى الحديث عن هذا الجانب بالذات. وقد تعذر علىّ الحضور فتعطل الإسهام بهذا العنوان الذى مازال قائما ينتظر من يعكف عليه من طلاب الدراسات العليا وفى رأيى أنه سيأتى من هذه الرحلة بغنائم كثيرة . ولقد تعاقب على الهلال خلال هذه الفترة عدد من رؤساء التحرير أذكر منهم الدكتور أحمد زكى، وأحمد بهاء الدين، وكامل زهيرى، ورجاء النقاش، وصالح جودت، والدكتور حسين مؤنس، حتى رست أخيرا عند مصطفى نبيل. وقد تأثرت الهلال بشخصيات رؤساء التحرير وغلب عليها ما غلب عليهم من صفات واهتمامات قطفت عليها موسوعة المبادئ والمفاهيم الاشتراكية أيام كامل زهيرى وانفتحت على الساحة الأدبية العربية أيام رجاء النقاش وهبطت هبوطا ذريعا أيام صالح جودت ولا أدرى إذا كان ذلك بسببه أم بسبب الظروف. وأدركتها الأكاديمية الجامعية أيام حسين مؤنس وغلبت عليها «المصرية» أيام مصطفى نبيل ولكنها ليست المصرية الإقليمية بقدر ما هى

التكوين

المصرية الراحلة نحو اكتشاف الذات التى طمستها العهود السابقة. ومازالت تسهم فى تقديم المقالة الجيدة.

لقد نشرت الهلال فى مختلف عهودها شعرا. ونشرت لبعض المشاهير من الأحياء وأذكر أنى قرأت بها بعض قصائد الشابى التى أعادت نشرها مثل «صلوات فى هيكل الحب» و«أغانى الرعاة». وربما كانت لها مساهمة فى التعريف بالشعر المهجرى فيما فاتنى من أعداد عند مراحلها الأولى. ولكنى أشعر أن الهلال لم تكن تعنى عناية كبرى بالشعر ولا تهتم به وأن ذوقها الشعرى وخاصة فى سنواتها الأخيرة كان هابطا إلى أدنى مستوى تدل عليه ما نشرته من قصائد سواء كانت حديثة أو تقليدية عمودية وهى فى هذا الباب لا تتورع عن نشر أى نظم كان ينبغى أن تترفع عن نشره مجلة فى مستوى تاريخية «الهلال» ويبدو أن المسئولين عن القسم الأدبى فيها لا يعرفون من مصطلحات الشعر إلا مصطلحه القديم «هو الكلام الموزون المقفى» فليتها راجعت نفسها فى هذا الباب مراجعة دقيقة وأنا أعتقد أن الهلال لن تخسر شيئا بإسقاط هذا الشعر، ولو بخلو بعض الأعداد خلوا تاما من المادة الشعرية. وقد صاحبت طوال هذه المسيرة الدكتور طه حسين فيما كان ينشر من مقالات جمعها فيما بعد فى كتابه «مرآة الضمير الحديث» وكذلك ما كان ينشره أحمد أمين من رسائل إلى ولده وعن (حياته) وقد جمعها فى كتابين وتابعت ما نشره العقاد عن سيرته التى جمعها فى كتابيه «أنا» و«حياة القلم» وتابعت كمال النجمى فيما كان ينشر من مقالات عن الفن وهو كاتب مقالة فى هذا المجال من طراز نادر، وما كان ينشره الناقد محمد شكرى عياد فى الأعوام الأخيرة من مقالات نقدية ممتازة وكذلك عبدالرحمن صدقى في فصول من سيرته الذاتية . وأنا أعتمد فى سردى هذا على الذاكرة فى أكثر الأسماء التى عرفناها عن طريق الهلال.

وبقاء الهلال هذه المدة الطويلة التى تجاوزت المائة عام يدل على أنها مثلت حاجة قائمة فى جميع العهود فهى الآن أعرق المجلات الشهرية العربية وأطولها عمرا. ولم يقتصر تأثيرها على ما نشرت من أعمال فكرية أنها تاريخ لتطور حركة الفكر والحياة فى مصر، أولا ثم فى الوطن العربى إلى حد ما. إنها جامعة كبرى ظلت مفتوحة لأعلام الأدب وعشاقه ما يزيد على مائة عام. كما كانت مدرسة لما صدر من مجلات متشابهة مثل «مجلة العربى» التى مثلت فى الواقع امتدادا أو شكلا آخر من مجلة الهلال وليس من الصدف أن يكون أول رئيس تحرير لها هو أحمد زكى وخليفته أحمد بهاء الدين وهما من رؤساء تحرير الهلال.

الهلال وأعلام الكتاب

وتظل مجلة الهلال مجلة «مغلقة» خاصة بالكتاب المصريين ولا تكاد تعثر فيها على كاتب عربى إلا صدفة أو حين يكتب عن شىء يهم مصر والمصريين بخلاف بداياتها الأولى فقد كانت متفتحة على مساهمات أعلام العرب وهذا يعود إلى سياسة مؤسسها العلامة جورجى زيدان اللبنانى الأصل. وفى هذا الجانب تتفوق عليها

ربيبتها مجلة «العربى» بساحتها المفتوحة لكل العرب.

ونذكر للهلال فيما نذكر من مآثر وأفضال إصدارها لأعداد تكريمية مرجعية عن طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ. وهى أعداد مرجعية بحق اقتصرت فيها على أعلام المصريين، وقد يكون الأمر هنا طبيعيا غير مستنكر عليها أن تعنى بأعلام المصريين، فهى بالأصل مجلة مصرية تخاطب القارىء المصرى. وهناك عيب مصرى فى كتابها ومؤسساتها هو عدم الشعور بأبعادهم العربية، ومدى التأثير الواسع لهم فى القارىء العربى فهم يكتبون ويغلب عليهم الشعور بمخاطبة القارىء المصرى فقط بل جاءت فترة كان يشعر المرء أن لا مكان لغير القارىء المصرى فى أذهانهم. وقد قلت وأقول إن مصر فى حاجة إلى احتضان العقول والمواهب العربية والإلقاء بها من جديد إلى الوطن العربى كما كانت فى مطلع نهضتها. فصناع النهضة الحديثة فى مصر كانوا من السوريين واللبنانيين. لقد حكمت مصر فى مطلع القرن بنوعين من الأجانب، الأجانب العرب، والأجانب الأوروبيون «الخواجات». ولكن الوجود العربى كان من وجوده خير كثير جعل من مصر رائدة النهضة العربية الحديثة. ولعلها فى حاجة إلى أن تلعب من جديد هذا الدور ولكن بقيادات من داخلها.

●●●

وكان إلى جانب الرسالة مجلة الرواية تعنى بالقصة المؤلفة والمترجمة عن لغات وإن غلبت عليها القصص المترجمة، وقد نشر بها الزيات نفسه بعض ترجماته لكتاب فرنسيين، جمعها فيما بعد فى كتاب «فى الأدب الفرنسى» ولم أحصل منها إلا على أعداد متفرقة، لفت نظرى منها «اعترافات فتى العصر» لموسيه ترجمة المترجم العظيم فليكس فارس. وقد نشرها فيما بعد فى كتاب بهذا العنوان. وذكر فى مستهل فصولها المنشورة أنه ترجمها بناء على اقتراح الأستاذ حسن الزيات ولم يطل عمر الرواية إذا توقفت عن الصدور.

وقد نسب الزيات تعطيل الرسالة إلى توقف الاشتراكات التى كانت تتلقاها من وزارة المعارف وإلى ما يشبه ذلك من الأسباب والواقع أن دور الرسالة بالتحولات الجديدة الطارئة على المجتمع المصرى والعربى قد انتهى. وقد كنا نحن قراءها الأوفياء لها نشعر بسريان الشيخوخة فى أوصالها وخذلان القوى لها وأنها لم تعد تلك الرسالة التى كانت والتى نعرف يؤكد هذا الدور المنتهى عودتها الفاشلة بعد التوقف.. فليتها لم تعد حتى تبقى لها أسطورتها الخالدة!!

وقد أنشأ يوسف السباعى مجلة الرسالة الجديدة سدا للفراغ الحاصل بتوقف رسالة الزيات فلم يكن لها ما كان للرسالة من شأن. على أن صدور مجلات أخرى أدبية فى الوطن العربى شخصيا مثل «الأديب» و«الآداب» ورسمية مثل المجلات التى كانت تصدر عن وزارات الثقافة العربية قد سد الفراغ الحاصل عن تعطل الرسالة والثقافة، بل يمكن القول بأن بعض هذه المجلات قد تجاوزت الرسالة مثل مجلة «الآداب» البيروتية لصاحبها الدكتور سهيل إدريس وهى ماتزال منارة عالية للآداب والثقافة العربية

وعاشت عمرا أطول من الرسالة وقامت بمجهود لم تقم به المنظمات العربية المدعومة بملايين الدولارات. ولا تعجبني نغمة التحسر على الرسالة والقول بأن أمر المجلات الأدبية قد انهار بعدها. فهذا الأمر مردود بما نشرته هذه المجلات من إبداع. وفي مصر نفسها نشرت مجلات تجاوزت الرسالة منها مجلة «المجلة» ومجلة «الكاتب» ومجلة «الفصول» فضلا عن المجلات المتخصصة بالقصة والشعر والمسرح والنقد والفكر المعاصر.

ولم يكن أثر هذه المجلات فينا كأثر المجلات التي التقينا بها في مرحلة التكوين لقد التقينا بكتابها لقاء الصحبة والصداقة والزمالة والاهتمام المشترك والاختصاص ولم نلتق بهم لقاء الأساتذة والمعلمين وهذا فرق ما بين الحالين وبين الجيلين.

مجلة أبوللو

ومن المجلات القديمة التي التقيت بها في أعداد متفرقة في مكتبة الأوقاف مجلة «أبوللو» لصاحبها الشاعر أحمد زكي أبوشادي وفيها التقيت ولأول مرة بشعر أبي القاسم الشابي واكتشفت على الفور وأنا فتى في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أنه أقوى صوت شعري بين مجموعة الشعراء الذين نشرت لهم المجلة وفيهم أعلام كبار. ومايزال رأيي حتى هذه اللحظة على حاله وأدعو القارئ إلى أن يختبر بنفسه صحة هذا القول.

عانقت الرسالة منذ أعدادها الأولى شعر الشاعر المهجري الكبير إيليا أبوماضي ونشرت له عدة قصائد استهلتها بقصيدته الذائعة الصيت «كن جميلا تر الوجود جميلا». ودأبت على اتحاف قرائها من حين إلى آخر ببعض روائع هذا الشاعر العظيم حتى سنواتها الأخيرة، ولعل احتفاء أنور المعداوي بقصيدة «وطن النجوم» التي طبق عليها نظريته في الأداء النفسي يدخل في سياق احتفاء الرسالة بهذا الشاعر التأملي، ومن آخر ما نشرت له قصيدته التأملية «الحكاية الأزلية».

ولسنا ندري ما إذا كان الشاعر نفسه هو الذي يبعث إليها بشعره أم أنها كانت تنقل هذا الشعر عن الصحافة الأدبية المهجرية، في محاولة منها للتنبيه إلى التجديد في الشعر المهجري الذي نهض به إيليا أبو ماضي بعبء كبير وقدم بشعره التأملي تعويضا عن مئات الأعوام، خبت فيه النزعة التأملية في الشعر العربي الذي لم يعرف بعد المعري شاعرا في حجم ووزن الشاعر العظيم إيليا أبوماضي. وهو شاعر لم ينل حظه من الدراسة الجادة لهذا الجانب خاصة وهو الجانب الذي عثر فيه على نفسه بعد رحلة شعرية شاقة تعبر عنها قصائد المرحلة الأولى من حياته، والتي كان يحتذي فيها طريق الشعراء الإحيائيين، وقد عاش بمصر أثناء بروز شوقي وحافظ ومطران في الساحة الشعرية. وموقف الرسالة من شعر إيليا أبوماضي يختلف عن موقف الدكتور طه حسين منه في كتابه «حديث الأربعاء» حيث تناوله في مقال من مقالاته تناولا قاسيا لا يخلو من غيرة يجدها في نفسه نحو هذا الشعر المهجري. ولكن مصر أدركت فيما بعد أهمية هذا الشعر، فتناوله نقادها

بالدراسة والنقد ويبرز في هذا المجال موقف الدكتور مندور في دراساته عن الشعر المهموس، وتبنيه لمحاضرات جورج صيدح في معهد الدراسات العربية العالي وقيام محمد عبدالغني بنشر مختارات من الأدب المهجري ونشر دراسة عيسى الناعوري المهمة في دار المعارف إلى غير ذلك من الدراسات الجامعية التي توالت بعد ذلك . بما أنصف هذا الأدب وأبرز دوره في حركة التجديد في الشعر العربي الحديث. ومايزال الشعر المهجري يمثل أثمن ما قدم الإبداع الشعري في القرن العشرين ولا يدانيه في قيمة هذا العطاء وتأثيره اللاحق إلا الشعر العذري الذي جادت به العبقرية الشعرية العربية في العهود الإسلامية الأولى. ويظل إيليا أبوماضي أكبر شاعر أنجبه المهجر.

وقد خصت الرسالة بهذه العناية شعر أبي ماضي. ولا نراها تنشر لغيره من شعراء المهجر. وكان ذلك عندي ينطوي على تحريض لشعرائها بأن يسلكوا هذا السبيل إذا أرادوا أن يكون لهم شأن يذكر في الحركة الشعرية الحديثة. وربما كانت لصلته التاريخية بمصر أثر في ذلك، إذ عاش الشاعر في مصر في الفترات الأولى من حياته ، وفي مرحلة حاسمة من تاريخها الوطني وتأثر بأعلام الشعر فيها وسار على طريقتهم، فيما نظم من شعر مرتبط بالأحداث السياسية آنذاك.

وكان من الممكن أن يكون كبعض شعراء تلك الفترة بمن فيهم الكبار شوقي وحافظ بأن يكون مسجل حوادث سياسية وناظما للشعر الصحفي هذا الذي يتابع الأحداث بالنظم بدل أن يتابعها نثرا وقد ظل إيليا أبوماضي على هذا الخط في أعماله الشعرية حتى إذا هاجر إلى أمريكا اكتشف نفسه، ووجدها بصفة خاصة في ديوانيه الخمائل والجداول ومن أراد نموذجا للشاعر الذي يقدم صورة للتلمذة على المدرسة الحديثة ثم ينفصل عنها بتجديده الخاص ونموذجه الخاص وشخصيته المتفردة كما يتجاوز الأعلام الذين تأثر بهم في مطلع حياته فإن إيليا أبو ماضي يقدم النموذج الحي على ذلك حتى ليبدو أنه لم يكن له صلة بماضيه.

رحلة طويلة شاقة في عالم الشعر قطعها إيليا أبو ماضي لكي يصل إلى نفسه وإلى الشعر الذي هو شعر. وإذا تأملت الركام من القصائد الأولى التي نظمها في مصر وتأثر فيها بأعلام الشعر في تلك المرحلة أدركت أي شاعر كان سيضيع علينا لو ظل يسير على ذلك الطريق. ولكن من حسن الحظ أن ذلك الطريق كان طريق النشأة ومحاولة العثور على النفس. وحين عثر إيليا أبوماضي على نفسه تحقق فيه التعويض عن قرون طويلة من غيبة أو ضعف الشعر التأملي الفلسفي. فبعد المعري لم يأت أحد لسد الفراغ سوى الشاعر إيليا أبوماضي فهو تعويض عن قرون طويلة غاب فيها الشعر التأملي عن الساحة غيابا يوشك أن يكون تاما. وفي الشعر الحديث أعني الشعر الذي بدأت به النهضة انفرد إيليا أبوماضي بهذا اللون الذي لم يشاركه فيه أحد لا في المدرسة المهجرية ولا في جماعة الديوان ولا في جماعة أبوللو وهذا ديوانه يشهد على صحة ما أقول. إنه الشاعر الأكبر الذي فتح للشعر الحديث باب التأمل في الذات وفي الكون. ■

عاطف مصطفى

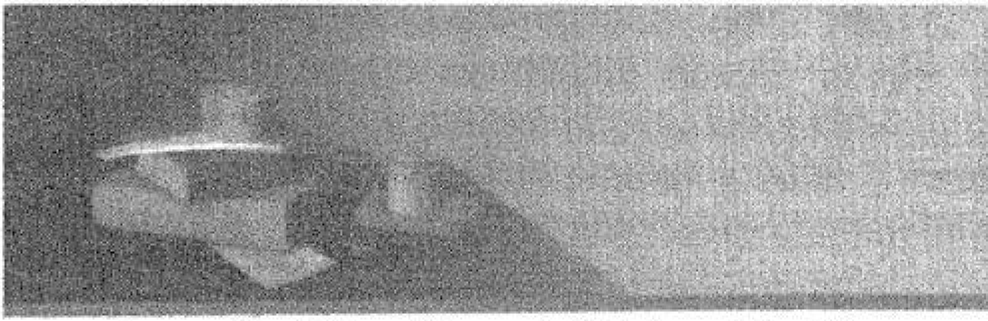
العودة إلى رواد التنوير

دق الاستاذ مصطفى نبيل أجراس الخطر، فى مقاله « أمة فى خطر: هل دالت دولة الكتاب» فى هلال فبراير سنة ٢٠٠٣، متناولا فيه قضية القراءة وأزمتها، وأزمة الكتاب العربى تأليفاونشرا وتوزيعا ، وعطفا على ما كتبه الاستاذ فان قضية القراءة وأزمة الكتاب هى بالدرجة الأولى نتاج لحالة عامة تسود حياتنا الثقافية والفكرية من السأم والملل والضياع والاغتراب وفقدان التوازن والخواء العقلى والنفسى والروحى ، والأزمة هى أزمة تنشئة اجتماعية على التعامل مع الكتاب والقراءة فيه ، قراءة واعية مستنيرة، تبنى العقل، وتهذب الروح ، شبابنا لا يقرأ.. وإذا قرأ فانه يقرأ قراءات سطحية تهدم ولا تبنى فى الثلاثنيات والأربعينيات من القرن الماضى كانت كتب المطالعة والقراءة المقررة فى مدارسنا الثانوية تحتوى على موضوعات من التراث العربى ، وانجازات التكنولوجيا ، وروائع الثقافة من كل حدب وصوب واسألوا الاستاذ الكبير الدكتور محمد رجب البيومى الذى كتب عن المنتخب من أدب العرب والمفصل فى تاريخ الأدب العربى فى اعداد «الهلال» . كتب القراءة فى المرحلة الاعدادية والثانوية بمدارسنا ضعفت وضمرت ، ولم تعد تضم من ابداعات طه حسين أو العقاد أو غيرهم من رواد عصر التنوير سوى النذر اليسير ، نريد لكتب القراءة فى مدارسنا أن تضم ابداعات هؤلاء الى جانب مختارات لعبد الرحمن الرافعى، وسلامة موسى، وجمال حمدان ، وغيرهم كثيرون .. ولماذا لا تخصص وزارة التربية والتعليم كتبا قائمة بذاتها توزع على طلاب المدارس الإعدادية والثانوية ، ولماذا لاتشترك مكتبات المدارس فى «الهلال» كما كانت مدارسنا فى الثلاثينيات والأربعينيات تشترك فى « الثقافة» و«الرسالة»؟ ولماذا لا تعقد فى مدارسنا الثانوية الندوات الثقافية التى تنمى فى شبابنا أدب الحوار وأدب المناظرة؟

عمرو عبدالمنعم حموده - برما - مركز طنطا

تحية إلى الهلال

«لولا الهلال لهاجنى استعبار» ... لقلت إن قريضنا أصفار
الشعر مثل الزيزفون على الربا ... بمجلة قراؤها الأنهار
«زيدان» أسسها وأقسم أنها ... شمس العروبة، أنها الأوتار
حييت ياشمسا ستسكب دفنها ... مليون عام.. هكذا الإصرار
لولا « الهلال » لمات شعر رائع ... نشرته فوق المقلتين بحار
كم أهملته جرائد أدبية ... تهوى الأحاجى قالها ثرثار
هل صاغ «بودلير» و«رامبو» شعرنا ... أم أننا العقيان والإعصار



بيداؤنا مثل السماء إذا انتشت … بين الرمال كواكب ومدار
والشعر في دمنا وفي دم خيلنا … في الليل تغسل وجهه الأمطار
للعرب فن الشعر كان ولم يزل … للآخرين مصانع ونجار
ماهذه الألغاز تضحك يعربا؟ … لا البحر يفهمها ولا البحار
وكأن «فيثاغورس» يكتبها، بها … جبر وهندسة، بها أسرار
هذا الفرزدق غاضب في قبره … وأبو العلاء، وأحمد ونزار
والنيل يلطم خده وفراتنا … لو تعلمون نحيبه أشعار
عن ابن برد فتشت أنهارنا … عن بحترى في يديه شرار
لم تستسغ شعرا بلا معنى بلا … روح أتى من عالم ينهار
أبحرت ياسفن الحداثة صوب من … وأدوا السنى.. ما هكذا الإبحار
الغرب مات فكيف نعزف لحننا … في ظل قبر .. كيف يا أطيار؟
إن القريض بأرضنا مستورد … دمع العيون حجارة وغبار

د . هيثم الحويج العمر
دمشق

(١) شاعران فرنسيان
(٢) الذهب الخالص

ملاحظات حول الموسوعة الميسرة

لاحظنا في موضوع الكاتب وديع فلسطين في ديسمبر ٢٠٠٢ أن الموسوعة العربية الميسرة لم تكن ضمن الموسوعات التي أشار إليها . رغم أنها الموسوعة الوحيدة في المكتبة العربية والتي احتوت على معلومات عالمية في ستين في المائة من موادها مترجمة من موسوعة كولومبيا الأمريكية ، وكانت مؤسسة فرنكلين للنشر قد أصدرتها في الستينيات باشراف الأساتذة الدكاترة ابراهيم بيومي مدكور وسهير القلماوي وزكي نجيب محمود وأرى في اغفال اسمها فرصة قد لا تتكرر لتصويب خطأ في الترجمة للاعب المصري حسين حجازي المولود في ١٨٨٩ .

وهو لم يلعب أثناء دراسته في كمبردج مع منتخب انجلترا في مباراتها مع اسبانيا المباراة الأولى بينهما جرت في عام ١٩٢٩، وكان قد عاد إلى مصر واعتزل الكرة بعد دورتي ١٩٢٠، ١٩٢٤ الأولمبيتين، فلم يكن بين لاعبي منتخب مصر في أولمبياد ١٩٢٨ .

أحمد عزيز
عمان الأردن

• الهلال : اتصلنا بالكاتب الكبير وديع فلسطين ، والذي قال إن كلامي كان منصبا

على موسوعات الاعلام ، ولذلك لم أتوسع فى ذكر الموسوعات العامة ، ومنها الموسوعة العربية الميسرة وقال إن الموسوعة العربية الميسرة كانت تحت اشراف الدكتور محمد شفيق غربال ، وكان رئيس تحريرها اسماعيل مظهر ، ثم تولى رئاستها من بعده الدكتور عبدالرحمن زكي، وقد شاركت فى هذه الموسوعة حيث قمت بعمل البنود المتعلقة بالصحافة والصحفيين العرب .

المجد مجد من اهتدى

جهز سلاحك واليدا ... لترد أسلحة العدا
وكن عال «راسخ» ... كن فى الحياة على المدى
متيقظا قم لا تنم ... قاوم قيامات الردى
متجردا قم مثلما ... قام الردى وتجردا
هذا دفاعك انه ... حق يدين من اعتدى
مورد فعل قبله ... سيدان فيه من ابتدا

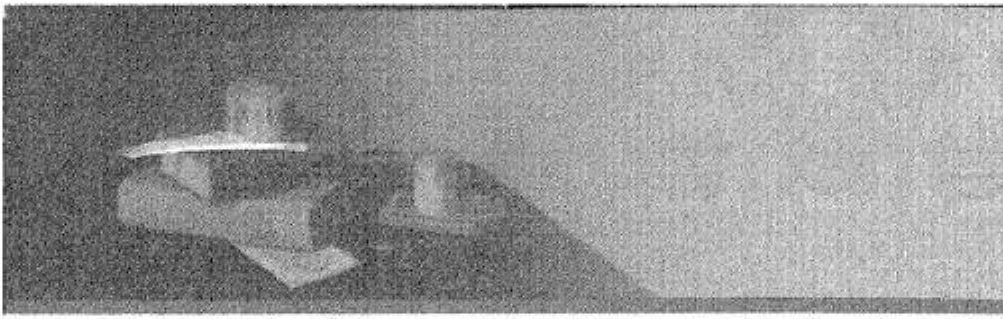
★★★

جهز سلاحك مسرعا ... ليل الأعادى قد بدا
وأعد نفسك طائعا ... لله وارض «محمدا»
لابد ينصرك الذى ... نصر الكثير وأسعدا
كم قرب المولى هنا ... ولكم كذلك أبعدا
يكفيك أنك عابد ... لله جئت لتعبدا
يكفيك أنك واحد ... لله عشت موحدا

★★★

من خير ناس كنت فى ... هذى الدنا متولدا
يابعض أمتك التى ... هى خير من عرف الهدى
جهز وجاهد واستلم ... علم الهدى طول المدى
ما بال من ضلت بهم ... دنياهمو طالوا يدا؟!
المجد مجدك ما لهم ... لا يعرفون الأمجدا؟!
المجد مجد من اهتدى ... لا من يريدون الردى

حسن أبو الغيط
المصيلحة - منوفية



الدكتور زكي مبارك

فى عدد الهلال الماضى قال الفنان حسن سليمان ، إن زكى مبارك رفض أن يأخذ نقودا من السعديين أو غيرهم من الأحزاب، وأقول : إن زكى مبارك قد ذكر هذا المعنى أكثر من مرة على صفحات جريدة البلاغ ، وبتاريخ ٣٠ يوليو عام ١٩٥٠ قال : ألف صدقى باشا حزب الشعب، وأنشأ له جريدة الشعب، وكان الاستاذ صادق عنبر صديقا عزيزا ، فاقترح أن أحرر فى جريدة الشعب فعندها أموال .. فقلت: التحول من مبدأ إلى مبدأ غاية فى الصعوبة، وأنا أحرر فى جريدة البلاغ بمبادئ الحزب الوطنى، مع أنها جريدة الوفد المصرى .

فشكرا جزيلا للفنان حسن سليمان .

ولكننى أحب أن أذكر سبب وفاة زكى مبارك ، لأن السبب ذكر أكثر من مرة ، ولكن بطريقة تبعد عما حدث ..

والسبب هو عربة حنطور كما أشار حسن سليمان ، ولكن هى التى اصطدمت بزكى مبارك وهو بصحبة أصدقائه فى طريقه إلى «المترو» ، فسقط على الأرض وحملوه فى تاكسى إلى بيتنا فى مصر الجديدة، وكنت يومها فى «التوجيهية» أى الثانوية العامة ، ودق جرس الباب ففتحت ووجدتهم يسندون أبى وكان من بينهم صديقه حسين كامل الذى أخبرنا بأن عربة الحنطور صدمته ، وأدخله أخوتى إلى الفراش ، وكان يتأوه وهو فى شبه غيبوبة ، فنقلناه إلى مستشفى الدمرداش ، وأجريت له عملية جراحية وبعد نجاحها بساعات توفى ، وهذا مثبت فى محضر قسم الشرطة بمصر الجديدة بتاريخ ١٩٥٢/١/٢٣ .

كريمة زكى مبارك

ذكريات

أسائل عنها ضياء النهار ... واسأل عنها بريق القمر
واسأل حتى نجوم السماء ... ويسأل قلبى هدوء السحر
واسأل عنها صبايا صغار ... واسأل عنها فروع الشجر
واسأل حتى الليالى الطوال ... ويذكر قلبى سقوط المطر
ويذكر قلبى ظلال النخيل ... وهذا الحديث وتلك الصور
إلام تعيشين منى بعيدا ... وتوهمى قلبك بأنى الخطر
إلام تعيشين فى واحتى ... ولكن بعيدا كبعد القمر
ولست بميت كى لا أكون ... لحبك ذليلا عظيم الفكر
ولكن أعيش بدنيا العذاب ... وتلك الآلام وذاك الخطر

أحمد نادى بهلول ديروط - أسيوط

كراهية تحت الجلد

عنوان الكتاب الجديد للكاتب صلاح الدين حافظ ويتناول فيه طبيعة العلاقات المركبة بين العرب والولايات المتحدة الأمريكية، ويبحث فى الأسباب التاريخية والسياسية التى أججت موجات الكراهية بين الطرفين .

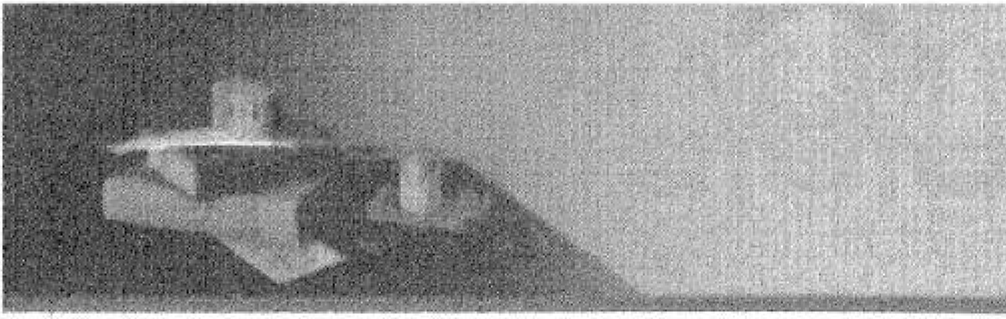
وفى تقديمه للكتاب يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل انه كتاب جاد لكاتب جاد، فعلى امتداد فصوله وتوالي صفحاته تظهر أبرز صفات الصديق والزميل صلاح الدين حافظ كاتبا جادا بكل خصائص الكاتب الجاد وأهمها التوازن . وكذلك يظهر جهده غير الهين فى تحقيق هذه الخصائص، وهو يصحب قارئه إلى رحلة كشف للأفق الأمريكي القريب والبعيد بتضاريسه الصعبة، ومذاهبه التى تتصارع ظواهره ، وتتدافع إليه الفصول الأربعة فى دقيقة أو أقل..

المؤلف يطرح فى كتابه الذى يضم ثمانية فصول، والذى صدر عن دارالشروق رؤى وتحليلات عديدة عن مستقبل العلاقات العربية الأمريكية، وكيفية اصلاحها، بدلا من تركها فى قبضة القوة الصهيونية والصقور المتشددين الأمريكيين .

المدى لا يساوم؟!

وكل العطور ..
الطيور ..
المشاعر ..
وكل الأماني .. الغمام
وكل التفاصيل .. كل النجوم
وكل الحكايا
وكل الفصول ..
تسافر دوما ..
تحط لديك
فترسم عمرا
ونهرا
وشمسا
مدى لا يساوم
وطفلا يقاوم
قصيدا ..

وفيه تقول السواسن لا
لصوت المدافع.. صوت القنابل
.. لا
لكل اليهود الأسافل .. لا
لقتل الأيائل.. لا
ولا لاغتيال السواحل .. لا
لكل شيوخ القبائل .. لا
لكل البلاد التى عذبتنا
وتقضى بموت البلابل .. لا
وتقضى بحرق السنابل .. لا
فهل يا ترى ..
نعيد انتصارات كل الأوائل؟!
وهل ياترى ..
نعيد لقدسى الطهارة
نشن الحروب وراء الحروب



ونحمل بين اليدين الحجارة !!
وهل ياترى ..
نعيد تواريخ بابل ؟!
ويروى صحارى فؤادى ..
مطر
فيورق كل الشجر
وهل يا ترى ..
يعود إلينا ..
« صلاح »
« على »
ويأتى «عمر !!!!»

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية

د. يوسف عز الدين موهبة نادرة

ولد د. يوسف عز الدين عيسى فى ١٤ يولية ١٩١٤ بقرية العصلوجى بالشرقية وتعلم مبادئ القراءة وحفظ بعض آيات القرآن الكريم بكتاب القرية ثم أكمل تعليمه الابتدائى والثانوى بالزقازيق، وانتقل للقاهرة حيث التحق بكلية العلوم نظرا لاعجابه الشديد بالعالم المصرى د. على مصطفى مشرفة ونال البكالوريوس مع مرتبة الشرف عام ١٩٣٨ ونال الماجستير ثم حصل على الدكتوراه من لندن ١٩٥٢ فى علم الحشرات.

بدأت علاقته بالأدب فى سن مبكرة من خلال مكتبة والده ومكتبة البلدية فى الزقازيق وكتب الشعر وهو فى العاشرة كما كتب القصص والمقالات الأدبية فى مجلة الكلية وهو طالب.

قدم للاذاعة مسلسلا للأطفال بعنوان (بنوره الأميرة المسحورة) تناول فيه المعلومات العلمية فى صورة قصصية مبسطة للأطفال، كما كتب عددا كبيرا من الأعمال الدرامية عن حياة مشاهير العلماء مثل« مدام كورى» «داروين» «نيوتن» وقدمت له الاذاعة على مدى عامين برنامجا يوميا بعنوان «العلم والحياة» قدم فيه الحقائق العلمية بصورة مبسطة ويعد أحد أعلام الدراما الإذاعية، حيث كتب ما يقرب من أربعمائة عمل درامى ما بين قصة قصيرة ورواية وسهرة.

ورغم حبه للشعر إلا أنه لم يصدر له ديوان شعرى، وقد أثرت الدراما الإذاعية على كتبه فلم ينشر سوى ١٢ كتابا، وكان ينوى فى السنوات الأخيرة من حياته أن

يجمع قصصه ورواياته التى نشرها فى الصحف والتى تزيد على مائتى قصة فى ستة عشر مجلدا إلا أن القدر لم يمهله لتحقيق هذا الحلم حيث توفى فى ١٨ سبتمبر ١٩٩٩، ولتفقد مصر واحدا من أبرز كتاب القصة والدراما الإذاعية .

بهاء الدين قشطى
الاسكندرية

مع القراء

دروع بشرية فى بغداد

بعدما ذهب الأجانب إلى بغداد لكي يصنعوا من أجسامهم دروعا بشرية في مواجهة العدوان الأمريكى المرتقب ، وبعدما فعلوا نفس الشيء حينما حوصر ياسر عرفات في مقره فى رام الله فى العام الماضى .. ألا نسمع عن اتحاداتنا العربية ، مثل اتحاد المحامين العرب ، واتحاد الصحفيين العرب وغيرهما بقيامهم برحلات إلى العراق لكى يفعلوا نفس الشيء؟

محسن علام طنطا

متى تحل مشكلات التوزيع فى الخارج

تعليقا على الحوار الذى تم حول القومية للتوزيع ودورها بالنسبة لتوزيع الصحف والمجلات وغير ذلك .. فقد كان مجلس إدارتها يتكون من أعضاء كل عضو عن مؤسسة صحفية ، ثم حل مجلس الإدارة ، ولم تعد هناك علاقة مباشرة بين مؤسسات النشر وبين هذه الشركة

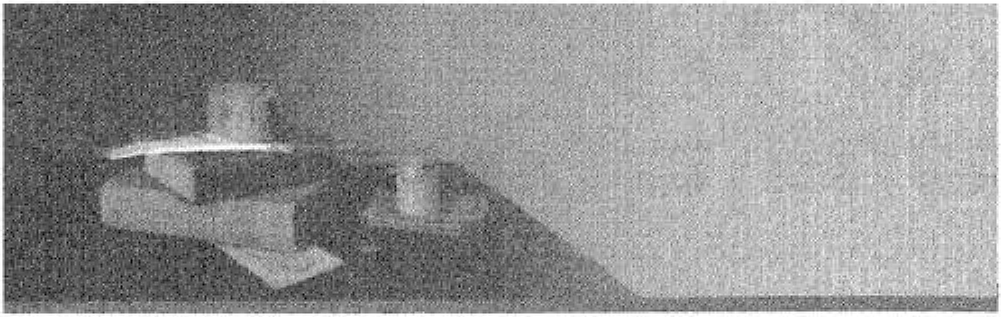
ترى كيف يكون الاهتمام بالتوزيع وعدالته ، وكيف تحل المشكلات التى تنشأ بين هذه الشركة ودور النشر .

ابراهيم أحمد القاهرة

الهلال : نتمنى أن نسمع ردا من المسئولين عن الشركة القومية للتوزيع .

مساهمات الأدباء العرب

ألاحظ أن الهلال فى الآونة الأخيرة لم تعد تنشر مقالات أو بحوث لكتاب عرب ،



كما كنا نشاهد ذلك فى الماضى ؟

مصطفى أمين المنصورة

الهلال : ننشر ما يصلنا من إنتاج شعرى وغيره من المقالات وفى هذا العدد على سبيل المثال ننشر التكوين للأديب محمد خليفة التليسى من ليبيا، ودراسة عن الأديب القاص ابراهيم أصلان للكاتب العراقى عذاب الركابى ، وأيضا قصة بعنوان المخطوطة البغدادية للقاص العراقى أيضا جبار ياسين ، كما ننشر شعر السورى هيثم الحويج .

التطوير مستمر

من ضفاف الخليج أبعث أليكم بأرق تحية، معبراً عن شكرى وبشكل خاص وعن جميع القراء على التطوير المستمر فى مجلة الهلال لقد كانت ومازالت مؤسسة دار الهلال هى المعبرة عن نبض الأمة العربية خلال المائة سنة الماضية ، ولذا أرجو أن يتم التطوير أيضا فى كتاب وروايات الهلال .

أدعو الله أن يحفظكم ويحفظ مصر العرب .

على بن متروك السادة

جيهات - السعودية

الهلال : شكرا على رسالتك أيها الصديق ، وقد بدأنا بالفعل فى هذا التطوير ، وبدأنا بأغلفة الكتاب والرواية ويقوم كبار الرسامين برسمها .

مبكيات الأفراح !

أود إبداء إعجابى الشديد بكل ما يكتب الكاتب القدير الدكتور محمد رجب البيومى ، فقد قرأت مقاله فى العدد الماضى من الهلال «مضحكات ومبكيات» خمس مرات .

أستحلفه بالله أن يكتب لقراء الهلال مقالا عن «مبكيات الأفراح» كما تناول مضحكات المآتم ، لأن الحال من بعضه تماماً .

عباس يس النجار

الزقازيق

الكلمة الأخيرة



العالم في مواجهة العدوان

بقلم: د. محمود علي مكي

هذه المظاهرات التي انطلقت في شوارع نيويورك ولندن رافعة شعار السلام ومنددة بالحرب التي يدق طبولها صقور السياسة .. أليست ظاهرة تدل على أن قسماً كبيراً من الرأى العالمي يقف معنا في مواجهة العدوان؟ وعلى أن من بين من نتصور أنهم في معسكر الأعداء أصدقاء كثيرين لايترددون في مناصرتنا حتى في مواجهة حكوماتهم؟ إن واجبنا هو أن نستثمر هذه الصداقات بقدر مانستطيع.

من أمثلة هؤلاء الأصدقاء رجل لاينتمي إلى عالم السياسة، وإنما هو موسيقي كرمته إسبانيا هذا العام فمنحته جائزة «أمير أستورياس للسلام» مناصفة بينه وبين الكاتب الفلسطيني المعروف إدوارد سعيد .. هذا الرجل هو دانييل بارنبويم DANIEL BARINBOEM عازف البيانو وقائد الأوركسترا بشيكاغو ثم أوركسترا الأوبرا الحكومية في برلين. وهو يهودي ولد في الأرجنتين سنة ١٩٤٢ وظهرت عبقريته المبكرة حينما قدم حفلته الموسيقية الأولى وهو في السابعة من عمره في بوينوس أيرس، ثم انتقل مع أسرته إلى إسرائيل، وواصل دراسته حتى أصبح اليوم في طليعة العازفين الموسيقيين على مستوى العالم.

غير أن بارنبويم له أيضاً آراؤه في السياسة، ينادي بها في إيمان وشجاعة، وقد أودعها كتابه الأخير «حياتي في الموسيقى» (بالألمانية، وقد ترجم إلى الإسبانية) . وفيها لايكف عن إدانة سياسة بلاده، حتى إن الحكومة الإسرائيلية عدته «معادياً للسامية» ومنعته من ممارسة عمله في إسرائيل، فتحداها وأقام حفلات للفلسطينيين في رام الله، مثيراً بذلك غضب صقور السياسة الإسرائيلية . وهو يعيش اليوم في برلين . ويذكر أنه أنشأ منذ أربع سنوات «ورشة عمل موسيقية» سماها «الديوان» بالتعاون مع إدوارد سعيد ، وهي تضم تلاميذه من عرب ويهود وألمان، ومنهم كون فرقة تحيي حفلاتها في عواصم العالم. ألا يستحق هذ الرجل الشجاع منا لفتة تقدير وتكريم؟ ■


كوالالمبور ((ماليزيا))
رحلات مباشرة جديدة ..
مع مصر للطيران
القاهرة / كوالالمبور / القاهرة
حالـــيا
بالتعاون مع الخطوط الماليزية
وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

الهلال

- الفرنجة يقصفون بلد صلاح الدين
- طلقات الرصاص وخيوط العنكبوت
- غياب المرأة عن مجمع اللغة العربية.. لماذا؟

أبريل ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

فلسطين وغزو العراق





لـوحـة وفـنـان

فتاة شقراء
سوان كوب فيليب - زيت على خشب
من مقتنيات متحف الجزيرة

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات: ص ب: ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج م ع - مجلة الهلال
[illegible] - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

٨ - فلسطين والغزو العراقي
د. أحمد يوسف أحمد

١٨ - الفرنجة يتصفون بلد صلاح الدين الأيوبي.
د. قاسم عبده قاسم

٢٦ - الشباب و الكوكايين
د. مصطفى سويف

٣٢ - الجريمة منذ قرن من الزمان
د. محمد رجب البيومي

٤٢ - العمال المصريون بناة الامبراطورية
سلمان أبو سنة

[illegible] - قدام البحر «قصيدة» عماد غزالى

[illegible] - الشيحان الشقيقان
السفير ممدوح عبد الرازق

٦٠ - عقلية الخواجة عند المصريين د. جلال أمين

٦٤ - ... عن مجمع اللغة العربية
وديع فلسطين

٧٢ - تأثير عصر المعلومات
د. أحمد محمد صالح

٨٢ - نسيج الملابس الواقية من الطلقات من خيوط العنكبوت
د. نبيل حنفي محمود

٨٨ - واحة سيوة .. بين العزلة والاتصال
مصطفى نبيل

١٠٢ - يا دجلة الخير «قصيدة» للشاعر العراقي الراحل : محمد مهدي الجواهري

١٠٤ - أحمد طه ونصف قرن من النضال
د. رءوف عباس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات [illegible] الاشتراك السنوى (١٢ عدد) [illegible] داخل جمهورية مصر العربية [illegible] بحوالة بريدية غير حكومية [illegible] البلاد العربية ٦٥ دولار أمريكا وأوربا وأفريقيا ٧٥ دولارا باقى دول العالم ٩٥ دولارا.
● ترسل الاشتراكات بالكويت / عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم [illegible] - الصفاة - الكويت ت 13079 [illegible]
لقيمتها شيك مقبولا نقدا بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



E.mial : bilal_mag@yahoo.com

العام الحادي عشر بعد المائة
محرم ١٤٢٤هـ - أبريل ٢٠٠٣م

١١٠ - قـراءة مـعـاصـرة فى رحلة ابن بطوطة
.... صلاح عبداللطيف
١٢٠ - ماذا نقصد بالنقد الثقافى ؟
.... د. صلاح قنصوه
١٢٦ - مايقوله نجيب محفوظ عن المثقفين
.... د. فهمي عبدالسلام
١٣٤ - د. محمد شرابى : أيام معه وذكريات عنه
.... يوسف الشريف
١٤٠ - الفن والفنانون الغجر فى مصر
.... مهدى الحسينى
١٥٨ - قصة مجلة الكاتب (٣)
.... أحمد عباس صالح
١٦٤ - الفنانة مي رفقي وتحديات الجيل الجديد
.... د. صبري منصور
١٧٢ - نجاة الصغيرة : صوتها قريب للاعتزال
.... صافي ناز كاظم
١٧٤ - أم كلثوم صوت مصر فى القرن العشرين
.... محمد سعيد
١٨٢ - السينما وأوسكار .. إلى أين ؟
.... مصطفى درويش
١٨٦ - المتفرجة (فى العشق والخصام)
.... مرفت رجب
١٩٢ - الموصل .. وحكاية المسجد النورى
.... سهيلة الحسيني
٢٠٠ - إيقاعات .. «قصة قصيرة» ... محمد جبريل

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ...٦
- أقوال معاصرة .. ١٧
- لغويات (د. الطاهر أحمد مكى) ٢٨
- شخصية العدد: (كامل زهيرى) بقلم علاء الديب ٩٨
- من ذخائر الكتب العربية (منهل الطائف للإمام السيوطي) بقلم د. عوض الغباري ١٥٠
- التكوين (سناء البيسى) ٢٠٨
- أنت والهلال (عاطف مصطفى) ٢١٨
- الكلمة الأخيرة (محمد عودة) ... ٢٢٦



عزيزى القارئ

الحرب

ومسئولية المثقف العربى

حرب العراق تحمل بالنسبة لنا أكثر من معنى خطير، ولعل أهم ما تحمله يرتبط بمستقبل النظامين العالمى والعربى، والأمر الذى لاشك فيه أن شن الولايات المتحدة الأمريكية لحربها على العراق على هذا النحو الغاشم يتضمن تقويضا حقيقيا لمنظمة الأمم المتحدة إذ تجىء دون سند من أى قرار لأى من أجهزة هذه المنظمة، الأمر الذى سيعنى أن كسب الأمريكيين لهذه الحرب - لا قدر الله - سوف يسمح إما بتكرار هذه السابقة الخطيرة، أو بتحول الأمم المتحدة إلى أداة لتنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية، وذلك بالإضافة إلى أن هذا الكسب سوف يعنى تعزيز الهيمنة الأمريكية الأحادية على النظام العالمى ولو إلى حين، وهى نتائج يمكن تفاديها، لو استطاع الشعب العراقى أن يصمد فى وجه العدوان الأمريكى وقواته الغازية لمدة معقولة، ومن ثم يرفع تكلفة الحرب من وجهة النظر الأمريكية، إلى الحد الذى قد يساعد الجبهة المعادية لهذه الحرب على العمل على إيقافها.

لن يعود العالم بعد العدوان الأمريكى على العراق كما كان قبل الغزو..

تهاوت المنظمة الدولية، وسقط القانون والشرعية الدولية، واختل التوازن القائم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وسادت شريعة الغاب، وأعطت أمريكا نفسها الحق فى تشكيل العالم على هواها وتبعا لمصالحها، فهى أقوى دول العالم، وغابت قوة القانون وساد قانون القوة.

فلم تعد القوة العظمى تفرق بين الأصدقاء والأعداء، ولا تقيم أى اعتبار للحلفاء، وغدت قوة دولية باطشة يحكمها غرور القوة، وهى بهذا تشبه فى التاريخ إعصار المغول أو هجمة الفايكنج، إلا أنها مدججة بالقنابل الذكية وأسلحة الدمار الشامل وأحدث ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة.

وانقسم الغرب انقساما لم يحدث من قبل، ووقفت كل من فرنسا وألمانيا وبلچيكا ضد الحرب، تدافع عن العدل وحقوق الإنسان، وتقف ضد هيمنة قوة دولية وحيدة على العالم.

وشهدت معظم مدن العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، مظاهرات تعلن رفض الحرب وتطالب بحل المشاكل بالطرق السلمية، وأدان بابا روما هذه الحرب البعيدة عن روح المسيحية الحقه.

وأظهرت أمريكا وجوهاً متعددة، فادعت أن هدف الحرب، نزع أسلحة الدمار الشامل، وعندما اقتربت الساعة، تبين أن هدفها القضاء على النظام العراقي، وإعادة صياغة نظام جديد على أسس ديمقراطية.

ولأول مرة نسمع عن نشر قيم الحرية والديمقراطية بالقوة المسلحة، وهى التى تقوم على الإدارة الحرة، وليس للحرية أية علاقة بما يجرى. إنما هى إدعاءات وأقنعة مزيفة لاتقنع أحداً..

وتقدر التكلفة المباشرة لهذه الحرب بما يزيد عن مائتى مليار دولار، فماذا لو أنفق هذا المبلغ الضخم فى مكافحة الفقر فى العالم، أو فى نشر التعليم؛ أو من أجل سد الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة؟ لتغير العالم وأصبح أكثر أمناً.

إن مهمة كل أنصار السلام فى العالم، العمل على وقف هذه الحرب غير العادلة بأسرع وقت ممكن، حفاظا على أرواح الشعب العراقى العربى، فهذا العدوان على الشعب العراقى، يحمل فى طياته تهديدا للشعب العربى كله!

أما على صعيد النظام العربى، فإن الكسب السريع للولايات المتحدة لهذه الحرب، سوف يعنى إطلاق يدها إلى حين فى عملية إعادة تشكيل النظام العربى، وفق مصالحها، الأمر الذى سيصب بطبيعة الحال لصالح إسرائيل، ويؤدى إلى مصاعب هائلة تعترض الجامعة العربية، كتعبير عن هذا النظام، بالإضافة إلى عدم الاستقرار المتزايد الذى ستشهده المنطقة نتيجة مضى الولايات المتحدة الأمريكية قدما فى تنفيذ مخططها.

فهل من موقف عربى قوى وفاعل وقادر، يستطيع أن يلعب دورا فى دعم الجبهة المعادية للحرب، وهى الشعب العراقى الذى يقف وحده - وهو يضرب ليل نهار بكل أنواع القنابل والصواريخ، وأسلحة الدمار الشامل التى أوهموا العالم بأنهم يبحثون عنها، وهى فى أيديهم تقتل الشعب العربى المسلم فى العراق - وبما يفتح الباب للأمل فى وقف تلك الحرب، بما يسمح لنا بالتفكير فى حماية البقية الباقية من أمننا القومى العربى، والوقوف صفا واحدا وراء هذه الغاية.

لقد انتفضت بعض شعوبنا العربية فى مظاهرات ، ليست هى التى تضمد جراح شعب عربى ضرب بأعتى أنواع القنابل فى معركة غير متكافئة على الإطلاق، بدعاوى غريبة بدأنا نسمع عنها فى بدايات القرن الحادى والعشرين، ربما من منطلق صياغة جديدة لهذه المنطقة المنكوبة والمغلوبة على أمرها، والتى ينبغى عليها ان تستجيب لرغبات السيد الجديد و«القطب الواحد»!

ولاشك أن المثقف العربى يتحمل مسئولية خاصة وتاريخية فى هذه الظروف المصيرية، لا ينبغى ان نشهد فيها اى تخاذل أو تهرب من المسئولية.

لكن الأمر الذى سيستعصى على الفهم، هو ان يتخاذل المثقفون العرب أمام هذه المسئولية التاريخية! ■

المحـــــرر

مستقبل فلسطين والمسألة العراقية

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

ها نحن نرى بأعيننا ذلك النضال البطولى الذى يخوضه شعب فلسطين من أجل استعادة حقوقه الوطنية المشروعة من براثن حركة استعمارية عنصرية بغيضة وقد تراجع إلى الخلف فى قائمة الاهتمامات السياسية والإعلامية بفعل الاندفاعة الأمريكية العدوانية الشرسة تجاه العراق. فهل يكون هذا تطورا مؤقتا سرعان ما ينتهى بانتهاء الصراع الراهن حول العراق؟ أم يكون خطوة تتلوها خطوات باتجاه تهميش المسألة الفلسطينية ومن ثم التمهيد لتصفيتها على نحو نهائى؟



أهالي كربلاء يهللون لسقوط طائرة الأباتشي الأمريكية التي أسقطها مزارع ببندقيته العتيقة

لا تبدو الإجابة على أسئلة كهذه سهلة بطبيعة الحال، ليس فقط لأنها ذات طابع مستقبلي تصعب عادة الحسابات بشأنه خاصة عندما يرتبط بظواهر سياسية شديدة التعقيد كالصراع العربي - الإسرائيلي ولكن لأن مستقبل فلسطين لا يتوقف بداهة على تطور «المسألة العراقية» وحدها، وإنما أيضا - وربما أساسا - على مجموعة بالغة التشابك من العوامل المرتبطة بطرفي الصراع المباشرين والبيئة الإقليمية المحيطة بهما والسياق العالمي الذي يدور فيه الصراع بينهما، وتتضمن هذه الصفحات محاولة للاجتهاد في العثور على مفاتيح أساسية تفيد في التفكير بشأن مستقبل فلسطين..

ميزان القوى الفلسطيني - الإسرائيلي من التحليل النظري إلى الخبرة الواقعية

يتصايح المطالبون بالاستسلام لإسرائيل - وإن غلفوا مطلبهم بغطاء من ادعاء العقلانية - بأن ميزان القوى الفلسطيني والإسرائيلي مختل إلى الحد الذي لا يمكننا من مجرد التفكير في النضال، وليس بعيدا عن ذاكرتنا ذلك اليوم الكئيب الذي طالبنا فيه مسئول عربي بارز بالتوسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية كي تجد لنا حلا لا نملك

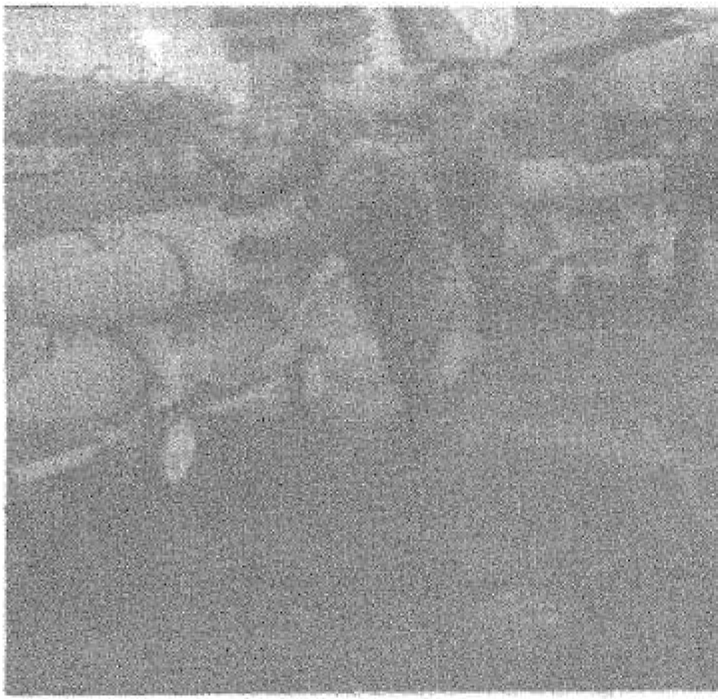
مقومات التوصل إليه بانفسنا.

لا ينكر سوى مكابر بطبيعة الحال أن ميزان القوى الفلسطيني – الإسرائيلي بمعايير الحسابات المادية بالغ الاختلال لصالح المستعمر الصهيوني إلى الحد الذي قد يجعل من استخدام مصطلح «ميزان القوى» بحد ذاته منطويا على قدر من المفارقة للواقع. غير أنه من الحقيقي من ناحية أخرى أن الكيان الصهيوني يعاني من نقاط ضعف يمكن استغلالها لو كانت هناك استراتيجية عربية أو حتى فلسطينية سليمة للمواجهة، وعلى سبيل المثال فإن فكرة الدولة اليهودية بحد ذاتها قد أفضت إلى مجتمع غريب قد يصعب استمرار تماسكه في ظروف عادية، والاقتصاد الإسرائيلي يعاني من مشكلات بنيوية لم يكن ممكنا مواجهتها حتى الآن دون دعم خارجي مؤثر سواء من الحلفاء أو من يهود العالم الذين فضلوا البقاء خارج إسرائيل.

لكن الأهم من ذلك كله أن كافة حركات التحرر الوطني المعاصرة – ومنها حركة التحرر الفلسطيني – قد بدأت نضالها ضد المستعمر في ظل ميزان القوى بالغ الاختلال، غير انها دائما طورت من قدراتها وأبدعت من الأساليب ما أمكنها أن تواجه هذا الخلل بنجاح متزايد سواء اعتمدت على الوسائل السلمية إلى حد المثالية كما في حركة التحرر الهندي بزعامة المهاتما غاندي أو ذروة الكفاح المسلح كما في الحالة الفيتنامية، دفعت تلك الحركات عادة ثمنا باهظا على الصعيدين الإنساني والمادي لكنها نجحت بالمقابل في توليد آلية لتآكل القوة الاستعمارية أخذت تعمل بفاعلية متزايدة باتجاه رفع تكلفة العملية الاستعمارية حتى وصلت إلى النقطة التي أصبحت فيها تكلفتها أكبر من عائدها، وهنا أعيدت الحسابات واضطر صانعو القرار في المركز الاستعماري إلى التسليم باستقلال المستعمرات.

العمق الاستراتيجي البشري

لا ننكر بطبيعة الحال أن الحالة الفلسطينية أكثر تعقيدا بكثير من غيرها من خبرات التحرر الوطني المعاصرة، فهي الحالة الوحيدة التي نجح فيها الاستعمار الاستيطاني في أن تكون له الاغلبية العددية في الأراضي المستعمرة، غير أن هذا مردود عليه بأكثر من حجة، منها مثلا أن حركة التحرر الفلسطيني ما عادت بدورها تصر على تحرير كامل التراب الفلسطيني «باستثناءات معروفة»، وأن العمق الاستراتيجي البشري لها المتمثل في ملايين اللاجئين الذين



أحدث الصواريخ و القنابل الامريكية لضرب الشعب العراقي !

يحيطون بوطنهم الأصلي من مخيماتهم فى الأردن ولبنان وسـوريا ناهيك عن عشرات الملايين من العرب يمكن أن يدخل فى حسابات الصراع، وأن حركة المقاومة الفلسطينية المنظمة قد ظهرت مبكرة عن غيرها من حركات التحرر العربية الأخرى على سبيل المثال «بعد أقل من عشرين سنة من احتلال فلسطين فى مقابل ما يزيد على القرن فى الحالتين الجزائرية واليمنية»، وأنها مازالت صامدة بل متصاعدة على الرغم من ظروفها الذاتية وسياقها الإقليمى والعالمى غير المواتيين لها بالمرة على نحو ما سيجىء بيئة إقليمية مواتية وحد أدنى من الدعم:

عندما نصل إلى تحليل البيئة الإقليمـيـة للصراع الفلسطينى - الإسرائيلى نجد أن ملامح الصورة سوف تختلف إلى حد بعيد. تتكون هذه البيئة من النظام العربى وبعض القوى المحيطة به وأهمها إيران وتركيا. وعلى الصعيد العربى تعتبر فلسطين أصلا قضية العرب الأولى، حاربوا من أجلها فى عام ١٩٤٨ وإن فشلوا. وشارك العرب فى صفوف النضال الفلسطينى منذ بدايته وإن بوتائر مختلفة. كما أعطى الشارع العربى دعمه الفائق غير مرة للنضال الفلسطينى كان أخرها الأسابيع والشهور الأولى التى تلت

انتفاضة الأقصى. ونشأ الكيان الفلسطيني - منظمة التحرير وجيشها، برعاية عربية رسمية، وقدمت دول عربية بعينها دعما عسكريا واقتصاديا للمقاومة الفلسطينية في أوقات متفاوتة، وأجمعت الدول العربية على الموقف نفسه في الدفاع عن قضية فلسطين في المحافل الدولية دائما على الرغم مما كان يشجر بينها من خلافات في أحيان عديدة.

اختلاف الدعم للقضية الفلسطينية

غير أن النظام العربي شهد أيضا من التطورات ما جعل دعمه للقضية الفلسطينية يصل الى حده الأدنى أو يكاد، فقد اختلفت الوحدات المكونة لهذا النظام على الطريقة المثلى لحل الصراع أو تسويته، كما في حالات ضم الملك عبدالله للضفة الغربية عام ١٩٥٠ مكونا بذلك المملكة الاردنية الهاشمية، ومناداة الرئيس بورقيبة بتسوية سلمية في ذروة المد القومي في منتصف ستينات القرن العشرين، والتسوية المصرية - الإسرائيلية في السنوات التي اعقبت حرب اكتوبر ١٩٧٣، وقد أدت هذه الاختلافات دون شك إلى إضعاف قدرة النظام العربي على تقديم الدعم الكافي للنضال الفلسطيني.

من ناحية أخرى لاشك أن الهزيمة العسكرية الثقيلة التي لقيتها مصر وسوريا والأردن في مواجهتها للعدوان الإسرائيلي في ١٩٦٧ قد احدثت تراجعا في الاستراتيجية العربية تجاه الصراع لغير صالح القضية الفلسطينية، ففي أعقاب تلك الهزيمة ظهر هدف «إزالة آثار العدوان» ليحل واقعيا محل «تحرير فلسطين» أو على الأقل «استعادة حقوق شعبها»، ولما كان ذلك الهدف - أي إزالة آثار العدوان - بحد ذاته عسير المنال - بدليل أن تحقيقه لم يكتمل حتى الآن - لم يعد مهما ما اذا كانت طبيعته تكتيكية أم استراتيجية، فآثاره في الحالتين وخيمة على القضية الفلسطينية.

هكذا وصلنا في هذه المرحلة إلى الحد الأدنى من تأييد النظام العربي للقضية الفلسطينية بثلاث علاقات دبلوماسية عربية كاملة مع إسرائيل وأربع علاقات واقعية على الأقل، وتبن لموقف عام مؤيد لحقوق الشعب الفلسطيني وإن تباينت سبل تنفيذه إلى الحد الذي يفرغ هذا الموقف من محتواه في كثير من الأحيان، ودعم اقتصادي لا يرقى بحال إلى مستوى التحدي الراهن في الأراضي الفلسطينية، وفتور غير مفهومة أسبابه في همة الشارع العربي الذي يفترض ان يكون مشتعلا بالغضب لما يجري من قبل إسرائيل في الأراضي



أعاد الكيان الاستعمارى الصهيونى بمسلكه العدوانى غرس قيم الصراع فى كل شاب او طفل فلسطينى

الفلسطينية.

غياب التنسيق العربى

وعلى صعيد القوى المحيطة بالنظام العربى مثل سقوط نظام الشاه فى إيران فى ١٩٧٩ نقلة نوعية لصالح النضال الفلسطيني، وقدم الدعم الإيرانى لحزب الله فى لبنان نموذجا لفعالية دور إقليمي غير عربي، ومع ذلك فإن ثمة قيودا حالية ومستقبلية على الموقف الإيرانى منها مثلا غياب التنسيق العربى - الإيرانى فى هذا الصدد، وهو أمر بديهى إذا كان التنسيق العربى - العربى غائبا أصلا، والتطورات السلبية المحتملة فى الموقف الإيرانى الراهن على ضوء ملامح «براجماتية» تظهر على سطح السياسة الإيرانية من آن لآخر.

وأخيرا فإن تركيا صارت تمثل عبئا استراتيجيا على العرب بعد تطور علاقاتها مع إسرائيل - خاصة على الصعيد العسكرى - فى السنوات الأخيرة وإن بقى الموقف السياسى التركى من القضية الفلسطينية مشابها

لمواقف الدول العربية المعتدلة. كما أن التطورات السياسية الداخلية فى تركيا تفتح الباب للأمل فى بدء صفحة جديدة فى العلاقات العربية - التركية شريطة أن يملك الطرف العربى - أو بالأحرى الأطراف العربية - رؤية استراتيجية سليمة لعلاقات مع تركيا، ويحسن إحصاء الأوراق المتاحة له لوضع هذه الرؤية موضع التطبيق، ويجيد استخدامها.

نظام عالمى جائر واستراتيجية إسرائيلية سليمة

تميز السياق العالمى للقضية الفلسطينية منذ البداية بجور واضح على الحقوق الفلسطينية لاشك أن مرده تلك العلاقة العضوية بين إسرائيل والقوى الاستعمارية الكبرى المهيمنة على النظام من جانب، والإدراك الاستراتيجى السليم من قبل الحركة الصهيونية للأهمية الفائقة للدعم الدولى ومن ثم الحرص على إدامته وتعزيزه دوما من جانب آخر.

هكذا حصلت الحركة الصهيونية من القوى المهيمنة فى النظام العالمى على وعد بلفور فى ١٩١٧ وتمكنت من استغلال الانتداب البريطانى على فلسطين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى للتمكين من تدفق الهجرة اليهودية إلى أرضها وبناء التكوينات الجنينية للدولة العبرية، وانتزعت من الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم فى ١٩٤٧ الذى أعطاها شرعية الوجود وإن على جزء من فلسطين وليس عليها كلها، وهو القرار الوحيد من نوعه حتى الآن فى تلك المنظمة الدولية، ونجحت فى اكتساب عضوية الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٩ على الرغم من أزمة العضوية التى كانت على أشدها فى ذلك الوقت بسبب تطورات الحرب الباردة، وربطت نفسها تماما بالعجلة الأمريكية بعد أن ثبت وثوبها إلى مقعد قيادة المعسكر الرأسمالى الغربى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولم تعط لنفسها أبدا برفاهية التهجم على الاتحاد السوفييتى حتى فى ذروة تأييده للعرب، ومدت خطوط التعاون مع قوى دولية بازغة ينتظر لها أن تتبوأ مكان الصدارة فى النظام العالمى ولو بعد حين كالصين واليابان وروسيا والهند، وهذا فى الوقت الذى تكتفى فيه معظم النظم العربية باسترضاء الولايات المتحدة الأمريكية، وتعجز غالبيتها عن بلورة علاقات متوازنة مع مختلف القوى الدولية. وفى الآونة الأخيرة وتحديدا فى عهد الرئيس الأمريكى الحالى وفى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حدثت

طفرة نوعية فى التأييد الأمريكى لإسرائيل تجلت فى خطاب الرئيس الأمريكى فى يونيو الماضى والذى أعاد فيه تكييف الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي باعتباره صراعا ضد الإرهاب، والإرهاب هنا هو المقاومة الفلسطينية، وقيادة هذا الإرهاب، وهي هنا ياسر عرفات. من هنا ينبغي ان يبدأ الحل بالقضاء على الإرهابيين وقيادتهم ، وهو طعم ابتعله الجانب الفلسطيني الرسمي للأسف لتتقلص القضية الفلسطينية ، أو حتى قضية الإصلاح الفلسطيني في استحداث منصب رئيس وزراء لفلسطين والجدل حول اختصاصاته.

موقع المسألة العراقية من مستقبل فلسطين

فى عقد السبعينات من القرن الماضى وفى أعقاب طفرة أسعار النفط واستخدامه كسلاح من قبل العرب فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ظهر تيار فى الفكر الاستراتيجى الغربى ذهب إلى أن بؤرة الصراع فى الشرق الأوسط سوف تنتقل من فلسطين إلى الخليج. فى حينه رفضت دوائر عربية عديدة فكرية وسياسية هذا الطرح مؤكدة على أن القضية الفلسطينية ستبقى هى البؤرة الأساسية للصراع فى المنطقة. كانت هذه الدوائر تنظر للمسألة نظرة أيديولوجية غير أن التطورات الواقعية أتت على نحو معاكس. صحيح أن القضية الفلسطينية بقيت مهمة لكن حربين رئيسيتين وقعتا فى المنطقة بعد ذلك، إحداهما نشبت بين القوتين الإقليميتين الكبريين فى الخليج، وطال أمدها عن الحرب العالمية الثانية، وهى الحرب العراقية - الإيرانية ، والثانية ترتبت على الغزو العراقى للكويت، واتسمت بالمشاركة الدولية المباشرة فيها. وفى الحالتين تأثرت القضية الفلسطينية سلبا كما ظهر على سبيل المثال فى قمة عمان ١٩٨٧ التى احتلت فيها هذه القضية موقعا متدنيا بسبب التطورات المقلقة من المنظور العربى فى الحرب العراقية - الإيرانية بالإضافة إلى أن تلك التطورات ذاتها كانت وراء القبول العربى غير المباشر بنهج التسوية المصرية - الإسرائيلية . وكما ظهر أيضا فى تأثير حرب الخليج الثانية على انتفاضة أواخر ثمانينات القرن العشرين.

أما وقد وقعت الحرب . كما كان معظم المحللين يتنبأون بأن ثمة تأثيرات حتمية لما جرى ويجرى على مستقبل فلسطين. من ذلك أن القضية الفلسطينية قد تراجعت بالفعل فى قائمة

الاهتمامات السياسية والإعلامية عربيا ودوليا منذ تبلورت النوايا العدوانية الأمريكية ضد العراق، ولعل في هذا بعض من أسباب الحماسة الإسرائيلية الظاهرة للعدوان الأمريكي على العراق، ومنها أيضا أن البعد المتيقن من نتائج العدوان على العراق والمتمثل في تدمير واسع للقدرات العراقية سوف يمثل خصما من امكانيات القوة العربية المستقبلية ومن ثم زيادة نسبية في القوة الإسرائيلية ، ولعل في هذا سببا إضافيا لتلك الحماسة الإسرائيلية.

غير أن التأثير الحقيقي للمسألة العراقية على مستقبل فلسطين لن يتضح الا بعد ان ينتهي العدوان في الأجل القصير بطبيعة الحال، فإن انتهى لا قدر الله بهزيمة عراقية سريعة فسوف يمثل هذا عبئا مضافا على النضال الفلسطيني على الأقل بقدر ما سيؤدي الى مزيد من الوهن في النظام العربي ومن الانكسار في الروح المعنوية العربية عامة والفلسطينية خاصة - أما اذا صمد العراق بحيث تتعثر خطى العدوان الأمريكي فيه وترتفع تكلفته البشرية والمادية بما قد يؤدي إلى ضغوط تفضي إلى توقفه دون أن يحقق أهدافه أو كامل هذه الأهداف فإن الأثر الايجابي على النظام العربي وعلى حركة التحرر الفلسطيني سوف يكون عظيماً .

ومع ذلك ففي الأجلين المتوسط والطويل لن يصح إلا الصحيح إذ لا يجب أن ننسى أن هذه الحركة الصهيونية الاستعمارية العنصرية بكل مصادر قوتها التي سبقت الإشارة إليها قد اخفقت في أن تحقق لنفسها وجودا مستقرا على كامل أرض فلسطين حتى الآن، وأن الهزائم والنكسات قد افضت دائما الى مزيد من صلابة المقاومة الفلسطينية، كما حدث في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، وفي تفجر الانتفاضة الفلسطينية كرد فعل على التجاهل العربي لقضية فلسطين. وان الكيان الاستعماري الاستيطاني الصهيوني قد ارتكب مؤخرا واحدا من اكبر اخطائه الاستراتيجية بالطريقة التي تعامل بها مع نضال الشعب الفلسطيني . فقد أعاد بمسلكه هذا غرس قيم الصراع في كل شاب أو طفل فلسطيني بل في أجيال جديدة من شباب العرب وأطفالهم.. وسوف يدفع هذا الكيان ثمن هذا الخطأ فادحا. عندما يشاهد غير مصدق لو بعد حين رايات النضال ترتفع في كل مكان من أرض فلسطين ان لم يكن في الأرض العربية برمتها إيذانا بقرب لحظة النصر في معركة طال أمدها وأن لها ان تنتهي بالحق والعدل. ■

أقوال معاصرة

● «أن نخدم الدين أحسن خدمة هو أن نقول أن الدين والحريات متلازمان» .

الرئيس الايراني محمد خاتمي

● «المعركة الدائرة الآن في ايران، من بين اهدافها انقاذ عقيدة، تحاول اطراف متعددة، منذ قرون متتالية أن تجعل منها مناهضة للحرية والارادة الإنسانية» .

الكاتب والصحفى التونسى صلاح الدين الجورشى

● « لا أعتقد انه امر بناء أن تكبر لتجد لديك المليارات ولا اعتقد ان فكرة اقتطاعي جزءا كبيرا من ثروتي وتوريثه لأولادى ستكون ذات نفع للمجتمع، أو لهم» .

بيل جيتس رئيس مؤسسة ميكروسوفت للبرمجيات

● «االتنوير معناه أن تؤمن أن حريتك تبدأ من حرية الآخر »

الدكتور جابر منصور

● « ليس هناك «أنا» بمعزل عن الآخر » .

الدكتور فؤاد زكريا

● «نحن الآن أمام مأزق تاريخى للشعوب العربية لديها حيوية، ولكن لا توجد مرجعية تستند اليها ، هذه هى المفارقة التى تكاد تصبح شبه مأساة» .

الدكتور كلوفيس مقصود

● « من بين احتمالات المستقبل القائمة أن تتحول امريكا فتصبح جمهورية موز كبرى، يتحكم جيشها فى حياة الامريكيين »

الاديب الامريكى نورمان ميلر

● « أختطت بوس عواطف ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من أجل تحقيق أهدافة » .

سوزان ساراندون
النجمة الأمريكية الفائزة
باوسكار أفضل ممثلة رئيسية



محمد خاتمي



د. فؤاد زكريا



نورمان ميلر

الفرنجة يقصفون بلد صلاح الدين

صلاح الدين الأيوبي

هل صنع عصره، أم صنعه عصره؟!

بقلم
د. قاسم عبده قاسم

يبحث عرب هذا الزمان عن منقذ أو مخلص يخرجهم من ضباب هذه الأيام الرمادية لزمن ردئ خلقناه بالسلبية والسكون والسكوت على ما اقترفه حكام يلتمون بأفكارهم إلى زمن آخر ولى وراح: فقد خدعوا أنفسهم بسراب سلام لا يجئ وسلموا مقدرات أمتهم إلى عدو لا يرحم انطلاقا من منطق سقيم مخادع قال إن حرب أكتوبر هي آخر الحروب (فهل كانت حقا؟) وتأسيسا على موقف قاصر يرى التسرع في سفه ثروات البترول الطارئة أفضل ألف مرة من «تعب القلب» ووجع الدفاع الذي يسببه التمسك بالأسس الثابتة للأمن القومي العربي.



إن من يعرف قليلا من حقائق التاريخ وتوجهات الجغرافيا فى المنطقة العربية يدرك بسهولة أن إقامة المشروع الصهيونى الإمبريالى برعاية غربية متواصلة فى منطقة المفصل بين مشرق العالم العربى ومغربه وفى المنطقة التى تعزل مصر عن الشام والعراق كان مقصودا بها إجهاض منطق التاريخ، وإرباك حقائق الجغرافيا لصالح القوى القادمة من خارج المنطقة بقصد السيطرة والهيمنة وبعد مقاومة عنيدة للمشروع الصهيونى الإمبريالى كانت موازين القوى فيها تميل لصالح العدو لأسباب موضوعية كثيرة جاءت حرب أكتوبر المجيدة ولكن الإدارة السياسية لهذه الحرب ونتائجها عاكست المنطق وبدلا من استثمار النصر الذى تحقق سلم أنور السادات بكل مطالب العدو (أنظر مذكرات هنرى كيسنجر) ثم جاء ارتفاع أسعار البترول ليخلق أزمة لاتزال الأمة العربية تعانيها حتى اليوم.

ويمكن تفسير أزمة أمة العرب فى ضوء الخصام بين التاريخ والجغرافيا فى زماننا هذا الذى نشكوه ويشكونا هذا الزمن ضحية لنا ولسنا أبدا من ضحاياه:

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

وتفسير ذلك أن الجغرافيا كانت سخية وكريمة مع بعض مناطق فى العالم العربى بحيث أدخلت السكان فى هذه المناطق إلى القرن الحادى والعشرين على المستوى المادى فالطرق والبنايات والأجهزة والسيارات ومظاهر الرفاهية تدفقت بشكل متسارع على هذه المناطق بشكل يعكس درجة سخاء الجغرافيا التى منحتها الموارد البترولية الهائلة على حين وقف التاريخ ممسكا شحيحا ووقف بالناس فى هذه المناطق عند حدود التطور السياسى والاجتماعى والثقافى الذى ينتمى إلى عالم العصور الوسطى فمازالت القبيلة هى الأساس على الرغم من الأعلام والأناشيد الوطنية وعلى الجانب الآخر، كان التاريخ كريما مع المناطق ذات التراث الحضارى العربية فى العالم العربى، فوصل سكانها إلى درجة من التطور التاريخى بلغت ذروتها فى النصف الأول من القرن العشرين حيث تكاثرت حركات التحرر الوطنى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى وعرفت هذه المناطق التاريخية تقدما فى شتى أساليب الحياة بحيث صارت عواصمها قبلة لسكان المناطق الجغرافية التى لم يكن البترول قد لعب دوره فيما بعد. أن التاريخ لم يجد مؤازرة من الجغرافيا فى هذه المناطق التاريخية وظلت الجغرافيا شحيحة مع سكان تلك المناطق.

التاريخ فى خدمة الجغرافيا

واستمر خصام الجغرافيا والتاريخ فى الوطن العربى كامنا تحت السطح حتى سبعينات القرن العشرين فظهرت قوة الجغرافيا حين ارتفعت أسعار البترول فى أعقاب حرب أكتوبر وتحولت إلى قوة جذب تشد الخبرات وقوة العمل إلى المناطق الجغرافية وهكذا صار التاريخ فى خدمة الجغرافيا بشكل يعاكس المنطق والأساس الذى تقوم عليه حركة الإنسان فى الكون فالمعلوم أن الجغرافيا فى خدمة التاريخ

وليس العكس (أى أن الجغرافيا بمعطياتها تمثل المسرح الذى تجرى عليه العملية التاريخية كما أن البيئة - المكان - تشكل أحد أركان العملية التاريخية الثلاثة أى الإنسان والزمان والمكان).

وبهذا المنطق المقلوب سارت الأمور فى العالم العربى منذ السبعينات حتى اليوم فاستسلم أهل التاريخ (الأكثر تقدما) لأهل الجغرافيا (الأكثر بداوة) وعملوا فى خدمة هذه المناطق تحت تأثير قوة الثروة وسلبياتها فخضعوا لأشد مفاهيم العمل غلظة وبدائية تقربا من السخرة (تأمل مسألة الكفيل التى لا يوجد مثيل لها فى أى مكان بالعالم) كما استسلموا لسياق ثقافى متخلف يرتكز على القبيلة والتمايز الطبقى، والعنصرية البدوية الشهيرة وكان حتما أن تتوارى مفاهيم الثورة أمام إفرازات الثروة، لاسيما وأن الثروة لم تكن نتاج مشروع تنموى وطنى فى أى من هذه البلاد، وتدفقت إلى العالم العربى أموال كانت تكفى لبناء دولة إقليمية كبرى تصل فى قوتها إلى سبعة أمثال الدولة العباسية فى عز مجدها ومع هذه الأموال المتدفقة جاءت قيم استهلاكية وتدفقت مواقف انتهازية وآراء استسلامية وبدلا من أن يصبح المال مصدر قوة بات مصدر ضعف وخوف.

كما بات المال مصدر إغراء لبعض القوى لمحاولة زعامة العالم العربى ظنا منها أن موارد الجغرافيا تغنى عن حقائق التاريخ وانتفخ بعض الصغار بالمال فظنوا أنهم كبار، ولكن تصرفاتهم السياسية كانت فى تصرفات الصغار فقد حاولوا شراء الدور من أهل التاريخ بأموالهم ولعبوا دورا فى إشاعة الفرقة بين مناطق العالم العربى وساد منطق العزلة والقطرية بسبب خوف أصحاب الموارد الجغرافية على ثرواتهم من مطامع أهل الخبرة التاريخية.

تراجع مشروع العمل العربى

فى ظل هذه الأوضاع المقلوبة الناجمة عن الخصام بين الجغرافيا والتاريخ تراجعت كل دعاوى العروبة والقومية والتقدم القائم على أساس التعاون بين الشعوب العربية ومعها تراجعت كل مشروع العمل العربى المشترك وأخذت كل مجموعة متجاورة تحاول أن تجعل من نفسها كتلة فى مواجهة العرب الآخرين وكانت النتيجة الحتمية لهذا التشرذم السياسى والضياع الاقتصادى (أنظر إلى حجم العلاقات الاقتصادية البينية فى العالم العربى ومدى ضآلتها مقارنة بالعالم الخارجى) أن سقطت كل الدول العربية فى براثن المشكلات الداخلية وعلاقات التبعية بالقوى الخارجية والاستسلام المفرط لرغبات العدو الأمريكى - الصهيونى.

وكان ما جرى خلال العقد الأخير من القرن العشرين (بدءا من الغزو العراقى للكويت وانتهاء بمشهد سيل الدماء المتدفق على أرض فلسطين يوميا، ومسرحية الإذلال اليومى للحكام العرب فى الشأن الفلسطينى والهم العراقى، ومرورا بكل ما بين هذا وذاك من مشاهد التدهور والانكسار) نتيجة حتمية لمنطق مقلوب،

ومعايير سقيمة وأنانية لحكام ظن كل منهم أنه يقتر بالثروة أن يكون زعيما.

أين أنت يا صلاح الدين ؟

هذا المشهد العربي الكئيب هو الذي جعل البعض يصرخون أين أنت يا صلاح الدين؟. لقد كان صراخ البعض ناجما عن حيرة وارتباك وعدم رؤية الطريق للخروج من الأزمة التي تمسك بخناق العالم العربي على حين كان صراخ البعض الآخر نوعا من البحث عن منقذ ومخلص يخرج بالأمة من أزمتها فهل نحن - حقا - بحاجة إلى صلاح الدين؟

قد يبدو هذا السؤال نوعا من العبثية الفكرية إذ أنه لا يمكن استعارة أحد الأشخاص من التاريخ كما أنه لا يمكن - طبعا - إعادة التاريخ من أول السطر ولكن هذا السؤال يحاول استكشاف الدور التاريخي لصلاح الدين الأيوبي في فترة مرت بها الأمة العربية بأزمة خانقة تشبه أزمته الحالية. بل إنها كانت السابقة التاريخية لهذه الأزمة الناجمة عن وجود كيان استيطاني غريب يسانده ظهير غربي قوي.

إن البحث عن دور صلاح الدين في التاريخ يمكن أن يكون إجابة صحيحة عن السؤال الذي يبدو نوعا من العبثية الفكرية هل نحن - حقا - بحاجة إلى صلاح الدين؟

***

كان المسرح السياسي في المنطقة العربية قبل ظهور صلاح الدين الأيوبي ينطق بكل التناقضات السياسية التي أفرزت الهزيمة التي أدت إلى قيام الكيان الصليبي في قلب هذه المنطقة إذ أن نجاح الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م خلق عدة حقائق سياسية وعسكرية وسكانية مؤلمة بالنسبة للمسلمين والعرب فعلى مدى نصف قرن من الزمان تقريبا استطاع الفرنج الصليبيون التوسع على حساب العرب ليمدوا حدود الكيان الصليبي إلى البحر الوسط غربا، والعريش جنوبا، والرها وأنطاكية (في تركيا حاليا) شمالا وخليج العقبة على البحر الأحمر شرقا.

لقد كانت الصدمة السياسية والثقافية والنفسية الناجمة عن النجاح الصليبي قاسية ومؤلمة على الناس في العالم العربي إذ أنها كشفت عن مدى التشرذم والفرقة السياسية في المنطقة العربية من ناحية كما فضحت ضعف حكام المنطقة وتخاذلهم من ناحية أخرى. إذ كان الصراع بين حكام المنطقة العربية أشد في تأثيراته السلبية من كل اعتبارات الحضارة المشتركة والدين الواحد والمصير المشترك ومن ثم لم يكن عجيبا أن فشل هؤلاء الحكام في كل محاولاتهم المتهافتة للوقوف في وجه التوسع الصليبي أو بناء جبهة متحدة ضد العدو.

ولكن الناس أصحاب المصلحة الحقيقية في هذا الصراع كان لهم رأي آخر وموقف مختلف عن رأي الحكام وموقفهم المتخاذل ذلك أن حكايات الفظائع التي ارتكبها المستوطنون القادمون من أوروبا ضد عرب فلسطين والشام وموجات اللاجئين الفارين من المذابح الصليبية الشهيرة راجت في الأوساط الثقافية والشعبية لتخلق رأيا عاما قويا وضاغطا على الحكام الذين بات



راجت الفظائع والمذابح الصليبية ضد عرب فلسطين والشام في الأوساط الثقافية والشعبية لتخلق رأيا عاما قويا وضاغطا على الحكام

بقاؤهم على كراسى الحكم رهنا بقيامهم بواجبهم الجهادى وخرج الجهاد من بطون الكتب ليصير حقيقة يومية فى حياة الناس الذين راعهم تخاذل الحكام فى مواجهة الغطرسة الصليبية والعدوان المستمر على الناس والأرض والمقدسات وفى ساحات المساجد والتجمعات فى الأسواق وحلقات الدروس أخذ المثقفون يتحدثون عن فضل الجهاد والمجاهدين ومكانة بيت المقدس والمسجد الأقصى.

حقيقة إن الجهاد لم يتوقف يوما ضد الكيان الصليبى ولكن عدم التنسيق والفرقة والتنافس بين الحكام أدى فى معظم الأحوال إلى الفشل والإخفاق ومن عباءة الفشل السياسى والعسكرى للحكام برزت الاستجابة السياسية العسكرية للحروب الصليبية وتوارت خجلا أو عجزا نظم الحكم السياسية التقليدية وفى مكانها نشأ نمط جديد من نظم الحكم يتبلور حول الأمير المحارب أو الملك المحارب الذى يقود الناس فى ساحة الجهاد ويخرج للقتال ضد الفرنج الصليبيين.

نموذج الدولة العسكرية

وبدأت هذه الاستجابة السياسية العسكرية على استحياء فى بيت أتابكة الموصل الذين نجحوا فى الاستجابة للتحدى الذى طرحته الحملات الصليبية على الوطن العربى وحينما نجح عماد الدين زنكى فى توطيد مركزه السياسى والعسكرى تجسد فيه وفى دولته نموذج الدولة العسكرية التى يقودها أمراء يقاتلون فى حركة الجهاد ضد الصليبيين

وبعد أن استقرت له الأمور نجح في استرداد إمارة الرها من الصليبيين وكانت أول إمارة أقاموها على الأرض العربية وقد أعاد استردادها الطابع العربي الإسلامي إلى منطقة الفرات كلها، وضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات بين شمال الشام وأعالي العراق.

وكانت دولة عماد الدين زنكي التي ارتكزت على محور الموصل حلب هي السابقة التاريخية أو التجربة الأولى في صياغة الدولة العسكرية الموحدة التي يقودها ملك محارب يقود جيشه بنفسه في ميدان القتال كما كانت هي البذرة التي نمت منها شجرة الدولة التي بناها صلاح الدين الأيوبي وقد سار نور الدين محمود - ابن عماد الدين زنكي وخليفته على نفس المنهج الذي سار عليه أبوه وعزز اتجاهات توحيد القوى العربية في مواجهة الصليبيين ومن هذا المنطلق انضمت إليه دمشق سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م بعد فشل الحملة الصليبية الثانية في اقتحامها ولتنهي بذلك فترة التعايش الشاذ بين حكامها وبين الصليبيين.

في هذه الظروف السياسية والعسكرية والثقافية ولد صلاح الدين الأيوبي ونشأ وفي خضم الصراع الذي نشب بين المسلمين بقيادة نور الدين محمود والفرنج بقيادة أو الريكوس (عموري) ملك بيت المقدس للسيطرة على مصر التي كانت آنذاك أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف النيل، تعلم صلاح الدين الأيوبي دروسه السياسية الأولى عن حقائق الصراع وقد جاء صلاح الدين ضابطا في جيش نور الدين محمود الذي يقوده عمه أسد الدين شيركوه.

الدرس السياسي الأول

ولن ندخل في تفاصيل القصة التعسة للصراع بين شاور وضرغام والذي تحول إلى صراع بين المسلمين والصليبيين على أرض مصر ولكننا نشير إلى أن انتقال الصراع من بلاد الشام والجزيرة إلى وادي النيل لم يكن مجرد انتقال جغرافي وإنما كان تحولا في المفاهيم فرضه منطق التاريخ وحقائق الجغرافيا فلم يكن ممكنا لمصر أن تعزل نفسها أو يعزلها أحد بحيث يكون دورها هامشيا في ذلك الصراع الطويل المضني وكان هذا هو الدرس السياسي الأول الذي تعلمه صلاح الدين ولذلك اتخذ مصر قاعدة لملكه ولتحركاته العسكرية والسياسية.

وقد تم حسم هذا الصراع لصالح القوى الإسلامية ثم شاءت التطورات السياسية أن ينفرد صلاح الدين بالوزارة ثم يعلن نهاية الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية التي سعت ونجحت في توحيد المنطقة العربية ثم سارت الأمور في مسارها المعروف بحيث جاءت معركة حطين (٤ يوليو ١١٨٧م) لتشهد تدمير أكبر جيش أمكن للصليبيين أن يجمعوه ثم تحرير القدس بعد أسر دام بضعا وثمانين سنة (٢ أكتوبر ١١٨٧م).

ولكن يبقى أن نلقي نظرة جماعية على الدور التاريخي لصلاح الدين الأيوبي في محاولة للإجابة عن السؤال الذي طرحناه في البداية هل نحن - حقا - بحاجة إلى صلاح الدين.

هل جاء صلاح الدين فردا ذا صفات خارقة ليحيى أمة ميتة؟ هل يمكن للفرد أن يغير من اتجاه التاريخ؟ وهل الانسان هو الذى يصنع التاريخ أم أن التاريخ هو الذى يصنعه؟

هذه الأسئلة وما يتفرع عنها بالضرورة - هى التى تواجهنا حينما نبحث في مجمل الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى وفى تقديرى أن التاريخ صناعة جماعية أى أن فردا مهما كانت قدراته لا يمكن أن يصنع التاريخ بيد أن وجود شخص ذى صفات ومواهب معينة متوافقة مع متطلبات المرحلة التاريخية التى يظهر فيها يجعل منه شخصية تاريخية بارزة وبمعنى آخر فإن البطل التاريخى نتاج للعصر التاريخى وليس صانعا له، وإذا ما حاولنا تطبيق هذا الكلام على الناصر صلاح الدين الأيوبى لوجدناه صادقا وصحيحا إلى أبعد الحدود فقد كان الرجل ابنا لعصره وحين وظف مواهبه وقدراته لتحقيق الأهداف الجماعية لأمته احتل مكانته فى التاريخ لقد ولد صلاح الدين فى زمن شهدت فيه المنطقة العربية حالة من البعث الدينى والأخلاقى والسياسى جعلت الجهاد محور الحياة العربية، وجعلت أحاديث الخاصة والعامة تدور حول الجهاد والمجاهدين وفضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وبقية المقدسات الإسلامية فى فلسطين وبات القضاء على الخطر الصليبى وتحرير الأماكن المقدسة والأرض العربية مطلبا شعبيا يمثل نوعا من الضغط السياسى والأخلاقى على حكام ذلك الزمان.

الجهاد عمل جماعى

وهذا فى تصورى مفتاح الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى إذ كان اهتمامه منصبا على الجهاد، والجهاد عمل جماعى بطبيعة الحال ولكنه يحتاج دائما إلى قائد يؤمن به ويوجه طاقاته ومواهبه فى سبيل توجيه الأمة على طريقه ومن هنا كسب صلاح الدين الأيوبى وأمثاله شهرته التاريخية ومن هنا ينبغى أن ننظر إلى شخصية صلاح الدين ودوره التاريخى فى ضوء الظروف التاريخية الموضوعية التى أفرزته ومعطيات العصر الذى عاش فيه.

لم تكن الأمة ميتة حين ظهر صلاح الدين ولكنه كان إفرازا لحيويتها وهى فى حالة نضال مستمر ضد عدوها وكان عشرات من العلماء والفقهاء الذين هم المثقفون فى ذلك الزمان يمهدون الأرض لظهوره من ناحية، كما كان دوره من ناحية أخرى استمرارا لأدوار مودود وعماد الدين زنكى ونور الدين محمود ولم يكن أبدا انقطاعا تاريخيا لقد كانت الظروف التاريخية تتطلب وجود قائد يواصل دور نور الدين محمود ويطوره وكان تقلب صلاح الدين فى تطورات السياسة والحرب مذ جاء فى جيش عمه أسد الدين شيركوه حتى الانتصار الرائع فى حطين بمثابة المدرسة السياسية التى تلقى فيها دروسه حول حقائق الصراع الدائر على أرض المنطقة العربية بين أصحاب الأرض والحق والتاريخ وأولئك الغزاة القادمين من أوروبا للاستيطان فى

الأرض العربية بفلسطين.

وعندما وضع صلاح الدين نفسه فى خدمة مصالح أمته (لم يمنع كونه كرديا من أن يعتبر نفسه من أبناء الحضارة العربية الإسلامية بل إنه حاول أن ينتحل لنفسه نسبا قرشيا) كان طبيعيا أن يرتقى من مجرد ضابط فى جيش أسد الدين شيركوه إلى بطل يملأ القلب والعقل بالنسبة لكل المسلمين وقد وضعه التاريخ فى مكانه زعيما مثاليا للمسلمين تمكن من توحيد المنطقة العربية فى جبهة النضال ضد الصليبيين وقد بنى صلاح الدين الأيوبى دولته على أساس من الوحدة الأخلاقية والدينية للعالم الاسلامى تحت راية الجهاد وكان يحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة الإقليمية الكبرى بفضل التأييد والمساندة التى لقيها من المسلمين فى العالم وتميز صلاح الدين الأيوبى بالطموح والإخلاص للمبادئ التى اعتنقها وكان بسيطا فى أخلاقه واضحا فى رؤيته حاسما فى أداء دوره.

من ناحية أخرى لم يكن صلاح الدين الأيوبى ملاكا وإنما كان حاكما من الحكام الذين تزخر بهم صفحات التاريخ وسطوره وكانت له بطبيعة الحال أخطاء ومواقف ضعف يفضل كثيرون ممن يكتبون عنه أن يتجاهلوها ولكن هذه الأخطاء ومواقف الضعف تتوارى أمام حقيقة أنه كان تجسيدا لدور الحاكم الذى يتبنى مطالب الأمة فترفعه أمته إلى مصاف الأبطال.

البطل الفرد والتاريخ

والأهم من هذا كله أنه حينما توفى صلاح الين الأيوبى كانت الظروف التاريخية التى أفرزت زعامته لاتزال قائمة فى المنطقة العربية، إذ كانت بقايا الوجود الصليبى موجودين فى فلسطين وكان خطرهم لايزال يهدد المنطقة، وكانت وفاة صلاح الدين نهاية مرحلة تاريخية وبداية مرحلة تاريخية غيرها وكانت تلك لحظة تكررت كثيرا فى مختلف عصور التاريخ



عندما يختفى البطل الفرد حين تكون مهمته التاريخية لاتزال بحاجة إلى أن تستكمل، ولذلك فإن حكام الأيوبيين الذين ورثوا دولتـــه ولكنهم لم يرثوا دوره التاريخى انصرفوا إلى المنازعات الداخلية مما أطال عمر الكيان الصليبى مائة سنة أخرى، وربما يؤكد هذا ما ذهبنا إليه من أن البطل الفرد لا يصنع التاريخ بقدر ما يصنعه التاريخ لقد سار التاريخ مساره الطبيعى لأن صلاح الدين لم يستطع ولم يكن ليستطيع بأى حال من الأحوال أن يحول مسار التاريخ وسقطت الأسرة الأيوبية حين فشلت فى أداء الدور التاريخى الذى بدأه صلاح الدين وحين انتزع فرسان المماليك هذا الدور لأنفسهم انتزعوا معه شرعية الحكم الذى انتزعوه من الأيوبيين الصغار.

***

ويبقى السؤال: هل نحن – حقا – بحاجة إلى صلاح الدين؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستكون بالنفى طبعا لأننا بحاجة إلى تغيير الوضع المزرى الذى تعيشه الأمة العربية ولا يمكن أن يحدث ذلك بإرادة الحكام الذين تسببوا فى هذا الوضع وإنما يأتى الحل وهو آت حتما – من قبل الناس أصحاب المصلحة الحقيقية صحيح أن أدوات النضال قد تغيرت مع تبدل الأزمان ولكن جوهر الحقائق لا يمكن أن تبدله الأيام فالمثقفون ومؤسسات المجتمع المدنى عليهم قيادة مجتمعاتهم صوب الخروج من نفق الأزمة لأن هذه مسئوليتهم التاريخية فنحن لسنا بحاجة إلى صلاح الدين، وإنما نحن بحاجة إلى الوعى بحقيقة الموقف وإلى إدراك قدرتنا على الصمود وعلى الخروج من هذه الأزمة.

فالأمم العريقة لا تنتحر ولا تستسلم للموت. ■



درس فى الجامع العتيق

لغويات

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

انتظم الطلاب فى المسجد حلقا، وتوسطهم أبو بكر الكندى، عالم عصره، وبدأ درسه على غير العادة غاضبا مكفهر الوجه يصيح : اسمعوا يأهل المعرفة ورالفهم ما يقوله المتنبى فى مديحة لأميرنا :

وما طربى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

أرايتم شاعرا منذ كان الشعر العربى يقول لممدوحه، إنى لم أعجب لطربى عند رؤيتك أيها الأمير، لأننى كنت أؤمل أنى سأملأ الدنيا ضحكا عندما أراك . إن المتنبى أيها الطلاب قدم إلى مصر ليفرج عن نفسه برؤية أميرنا المضحك

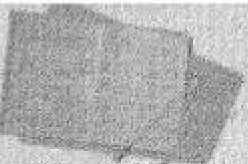
ثم ، من علم هذا الشاعر العربية حين يقول : «لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب؟ فيرفع الفعل أطرب، وهو منصوب لامناص، لأنك إن جعلت الفاء حرف عطف وجب ونصبه بالعطف على أرى، وإن جعلتها فاء السببيه وجب نصبه بأن مضمرة فكيف ساغ لهذا الرجل رفعه ؟

من آخر الحلقة صاح طالب : قد يكون الفعل معطوفا على «أرجو» وهو مرفوع .

رد الشيخ : هذه حيلة العاجز يابنى، وتخرج نحوى ضعيف فى الصناعة ، أو محب للمتنبى دوره فى العلم أن يبرر أخطاء هذا الشاعر ويدافع عنها، لأن الطرب مترتب على رؤية كافور لا على رجاء رؤيته .

– معك الحق شيخى، ولست أدرى كيف غاب عنى هذا المعنى الدقيق البعيد .

عندما انتهى الدرس بدأ الطلاب يعاودون رأيهم فى المتنبى، لا بوصفه شاعرا عظيما، فذلك أمر لا يختلف عليه أثنان، مهما أخذنا عليه من هنات، ولكن فى موقفه من أمير مصر، فمصر وطنهم، وكافور أميرهم مهما اختلف الرأى فيه . ■



الشباب والكوكايين

بقلم
د. مصطفى سويف

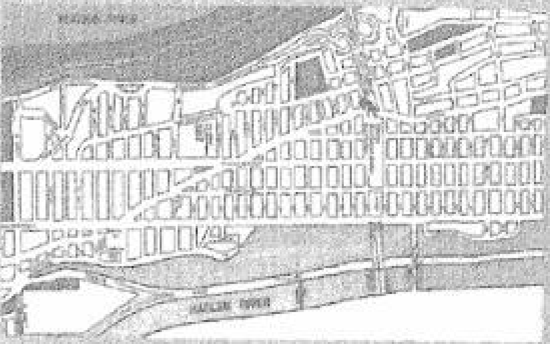
هذا كتاب على جانب كبير من الأهمية، لأنه يتناول موضوعا شديد الجدية في حياتنا الاجتماعية، وهو موضوع المخدرات كما يتعاطاها ويتداولها صغار الشباب، ونظراً لأن المؤلف تناول الموضـــوع بأسلوب علمى هادىء، بعيداً عن الإثارة فقد وفق فى أن يقدم لنا كتاباً يهم فئات عديدة من القراء الجادين، منهم الآباء والمربون بوجه عام، والمصلحون الاجتماعيون، والمشرعون، والأطباء النفسيون، هذا بالإضافة إلى الدارسين والباحثين فى حقل العلوم النفسية والاجتماعية.

ويضم الكتاب خمسة فصول تؤلف في مجموعها صورة شارحة وشافية حول الموضوع الذي يتصدى الكاتب لمعالجته، وهو: كيف يدخل الفتيان المراهقون عالم المخدرات بغرض التعاطي والتوزيع، وكيف يخرج بعضهم منه، وما هي الدوافع المباشرة التي تقف وراء هذه الحركة دخولا وخروجا، وما هي السياقات العامة والخاصة (الحي والطبقة، والجيران، والأسرة، والأصدقاء) التي يعيش في كنفها هؤلاء الفتيان.

وقد استعان المؤلف في إنجاز عمله هذا بما يعرف عند أهل الاختصاص بأسلوب «دراسة الحالة»، وهو أسلوب معترف بجدواه

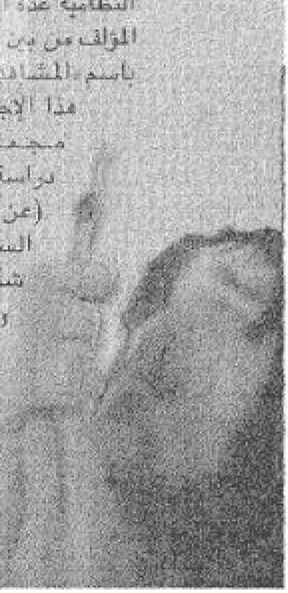






رسم تخطيطي للأحياء المكدسة بتجارة الكوكايين

في مجالات الطب النفسي، وعلم النفس العيادي، وعلم النفس القانوني، والانثروبولوجيا (علم الحضارات والسلالات البشرية)، وفيه يقدم الدارس وصفا كيفيا دقيقا لعدد من الحالات التي يمكن تصنيفها تحت بعض الاضطرابات النفسية، أو بعض السلوكيات الإجرامية، أي تحت بعض الأطر الحضارية، ومع أن هذا الأسلوب لا يغني عن التحليل العلمي في إقامة المعرفة العلمية، فإنه خطوة هامة على الطريق، لأنه شكل من أشكال المشاهدة المباشرة للظاهرة موضع الدراسة. وتقتضي هذه المشاهدة النظامية عدة إجراءات عملية، وقد اختار المؤلف من بين هذه الإجراءات ما يعرف باسم «المشاهدة بالمشاركة»، ويقتضي هذا الإجراء أن يعايش الدارس مجموعة الأفراد الذين يزمع دراسة سلوكياتهم، لكي يشاهد (عن قرب) جوانب هذه السلوكيات لا من حيث شكلها الخارجي فحسب ولكن من حيث ما تنطوي عليه من معان ودلالات، وهذا بالضبط ما فعله المؤلف بالنسبة لمجموعة الشباب الذين اتخذ منهم موضوعا لدراسته.

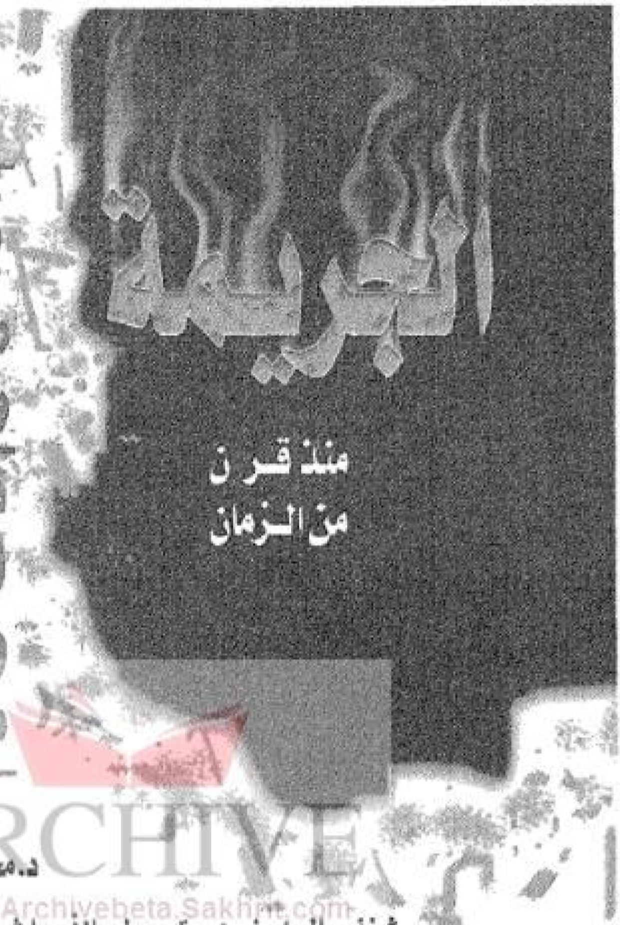


ومن خلال هذه المقاربة (وهي دراسة الحالة، بطريقة المشاهدة بالمشاركة) يعرض المؤلف عددا من الحالات، هيكتور، وجيك، وشيلي، وكيمي، إلخ، بعضها ينتمي إلى أسفل السلم الاجتماعي، والبعض الآخر ينتمي إلى الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة، ومعظمهم من الأقليات العرقية في المجتمع الأمريكي. وقد اختار المؤلف هؤلاء الفتيان لأنهم يكونون في جملتهم تشكيلا عصابيا متكاملا، ومن خلال متابعة المؤلف أدوارهم المختلفة وكيف يؤدونها داخل هذا التشكيل استطاع أن يقدم لنا صورة حية تجمع بين أنماط الأشخاص وديناميات النموذج التجمعي (العصابي) الذي يؤلف بينهم، وقد حرص المؤلف على أن يقدم لنا أولئك الشبان لا من خلال أفعالهم فحسب ولكن من خلال أقوالهم كذلك، وفي معظم المادة التي قدمها في هذا الصدد نجد الأفعال والأقوال ثرية في دلالاتها النفسية الاجتماعية، وإلى القارئ مثالا أو مثالين في هذا الصدد، يتعلق هذا

المثال بشاب يدعى ماستر راب، «... وهو الذي يحل محل شيلي عندما يغيب عن المكتب، معنى ذلك أنه... يعد الرجل الثاني بعد شيلي.. إلا أنه هو الرجل الأول في الطاقم بكامله الذي يتبين الصورة الأكبر ويفهمها، وهو يعلم جيدا أن الوقت يعمل ضد كل أولئك الذين يعملون في تجارة الكوكايين، وهو ليس من أولئك الذين يسرفون في تعاطيه..» يقول ماستر راب «الكوكايين هو مجرد طريق أسلكه لجمع شيء من المال وإنجاز بعض الأشياء التي لن تسنح الفرصة بإنجازها من غير هذا الطريق في هذا العالم الذي نعيش فيه. الكوكايين ليس حقيقة.. أنا أود أن أحكي لك قصة حياتي في يوم من الأيام، وبعد أن تدونها أود الاطلاع عليها. وربما عندئذ أصدق أن ذلك الذي يحدث إنما هو واقع فعلا وليس من قبيل الأحلام»، وفي موقف آخر يقول ماستر راب (موجها كلامه إلى المؤلف) «شريكي هنا يظن أن أفضل الطرق لجمع المال هو الاتجار في المخدرات، ولكن ذلك يختلف تماما عما تعلمته من خبرتي.. كل الناس يظنون أن بوسعهم أن يجمعوا مبالغ كبيرة بسرعة كبيرة.. ولكن هذه الظنون خاطئة، لأن الأمر لا يسير على هذه الشاكلة.. إن تعاطي الكوكايين يمكن أن يصيب الإنسان بالارتباك وعدم النظام، لقد أدار الكوكايين عقول الناس .. وإن فئة كبيرة من أولئك الناس أشرفت الآن على الجنون، والسبب في ذلك أنهم .. لا يدركون أو يفهمون الآثار السيئة التي تحدث لعقولهم وأجسادهم من جراء تعاطيهم الكوكايين.. إنهم ليست لديهم أية فكرة عن هذا الموضوع. أرجو أن تصدقني في ذلك، وتأخذ كلامي على محمل اليقين». هذه الأحاديث وغيرها كثير مما لا يقل عنها دلالة، ومع الأحاديث كثير من وصف شخصيات أصحابها وأفعالهم تملأ حيزاً كبيرا من الكتاب، وتسهم بنصيب وافر في إقرار قيمته العلمية وربما التربوية كذلك.

يحتوى الكتاب أيضا على مادة علمية عن مخدر الكوكايين، وهذه المادة ليست غزيرة، ولكنها سليمة علميا. ويتكلم المؤلف عن أشكال التعاطي وكيف تطورت عبر سنوات الثمانينيات، وعن تطور أسعار المخدر في السوق غير المشروعة ما بين سنتي ١٩٨٠ و١٩٨٨، كما يتكلم عن تجارة الكوكايين بوجه عام، ولكنه يقتصد في تقديم هذه المعلومات بحيث لا تزيد على أن تظل مجرد خلفية تبرز فوقها شخصيات الشباب وأفعالهم وأقوالهم، وهو ما يحفظ للكتاب شخصيته ككتاب في السيكولوجيا الاجتماعية للشباب الذين يتعاملون مع المجتمع ومع بعضهم بعضا من خلال المخدر.

جدير بالذكر هنا أن أسلوب المترجم في ترجمته يستحق الثناء لما يتميز به من الوضوح والسلاسة، وقد حرص المترجم على أن يزودنا في نهاية الكتاب بقائمة بالمصطلحات الإنجليزية وترجمتها العربية، ولهذه القائمة قيمة خاصة لأن المصطلحات الواردة بها ليست مجرد كلمات بمعانيها المعتادة ولكنها كلمات تحددت معانيها حسب حياتها الاجتماعية على أفواه الشباب الذين يدرس المؤلف حالاتهم، وكما أن بعض هذه الكلمات لا تنتمي إلى مفردات الإنجليزية الفصحى ولكنها من مفردات الأمريكية العامية فقد اتجه المترجم إلى ترجمتها بالعامية المصرية. ■



ريا وسكينة

رقص وطبل وغناء...

قصة عصابة السبع وحريق ميت غمر...

بقلم

د. محمد رجب البيومى

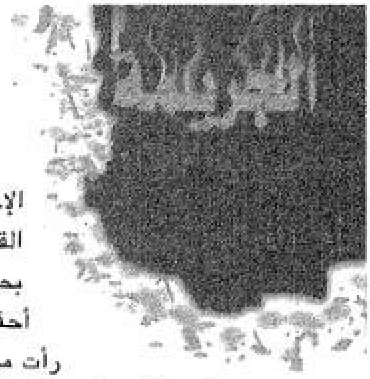
شغف المؤرخون بتسجيل الأحداث السياسية، كبيرة كانت أو صغيرة، وبالغ الكثيرون منهم فى تضخيم الأحداث عن بعض الشخصيات التى تمثل دورا هامشيا، لحاجات فى نفوسهم، وفى الجهة المقابلة نجد قصورا كبيرا فى تسجيل الأحداث الاجتماعية، وهى من التأثير فى المجتمع المصرى بحيث تتغلغل فى صميم الصميم، وما أنكر أن بعض الفضلاء قد خص هذه الناحية بالتفاته الفكرى ، ولكن ذلك وشل ناضب جوار بحر مائج! وقل لى بربك، كم كتابا صدر عن الزعيم الاقتصادى العظيم محمد طلعت حرب، وأثره ماثل بين عيوننا فى كل مكان! وكم صحيفة يومية أو أسبوعية أو شهرية اهتمت بإحياء ذكراه، كما تفرد الصحف وتضج الإذاعات كل عام بإحياء ذكرى الصغار من المطربين والمطربات! .



٣٣

الهلال

محرم ١٤٢٤هـ - ابريل ٢٠٠٣م



وحوادث الإجرام التي روعت القطر المصري بحريه وقبليه في أحقاب متكررة، هل رأت من يرصدها باحثا عن أسبابها، ومهتديا إلى نتائجها، هل رأت من كاتبي المسرحيات من يعرضها في سياق توجيهي ناجع؟ إن القصص البوليسية التي تترجم في لغة ركيكة عن أوربا وأمريكا أخذت تنتشر كالوباء منذ عهد بعيد، ولاتزال الأسماء الرنانة تخترع لها مثل «قصص الرعب» وما يدور مدارها، فلماذا لايكتب الروائيون قصصا عن إجرام الأشقياء في مصر، تُرى الناس كيف يتقون حيل هؤلاء الأشرار؟! .. كل مالدينا قصة عن «ريا وسكينة» استهلكت سينمائيا وإذاعيا، وأعيدت صياغتها مرة بعد مرة في أعوام متقاربة، بل تحولت في بعض ماكتب إلى فكاهات عامية ذات رقص وطبل وغناء، فخرجت عن مدلولها الاجتماعي، ومغزاها الخلقي إلى شذوذ باركه الناقدون الذين يصفقون للممثلين في كل دور يؤدونه، فهم حملة المباخر، لا هداة الطريق ..

وأتعرض اليوم للحديث عن عصابة من أكبر عصابات الإجرام روعت الناس في إقليمي الشرقية والدقهلية على مدى ربع قرن، وكان من فظائعها الرهيبة أنها أحرقت مدينة بأكملها هي مدينة «ميت غمر» وأذكر أن طلاب المدارس إلى عهود قريبة كانوا يحفظون قصيدة حافظ ابراهيم التي يقول في مطلعها.

سائلوا الليل عنهموا والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى
أين طوفان صاحب الفلك يروى
هذه النار فهي تشكو الأوارا

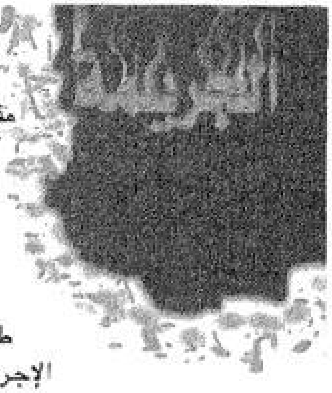
كما كانوا يدرسون مقال الاستاذ الإمام محمد عبده الذي وجهه إلى الأمة المصرية في هذه المناسبة الحزينة داعيا إلى التبرع العاجل لبناء المدينة من جديد، فاستجاب أولو الفضل لندائه، وبتأثيره الشخصي جُمعت التبرعات، وبدأ التنفيذ.

على أن الذي دفعني إلى تسجيل بعض الأحداث الخاصة بهذه العصابة عودي إلى قراءة قصة أدبية تحت عنوان «الشيخ الصالح» كتبها الأستاذ «علي حسنين علي» أحد خريجي دار العلوم وقد أتم تعليمه في انجلترا، وحاز درجة علمية في أصول التربية، وعاد ليدرسها في دار العلوم والمعلمين العليا حينا من الزمن ثم انتقل إلى التفتيش بوزارة المعارف، وله ترجمة موجزة في كتاب «تقويم دار العلوم» وهي في إيجازها مفيدة شافية، وقد ظهرت الطبعة الثانية للكتاب سنة ١٩٣٨، وأظن أن الطبعة الأولى ظهرت قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات، لأنه يقول في المقدمة : إن القصة الأدبية في مصر مفقودة تماما، وأنه يتقدم بهذه القصة بعثا لهذا الركن المفقود، وسدا لفراغ يتطلب أقلاما

متضافرة وعقولا مفكرة، وأخيلة واسعة، ! فهو إذن قد أصدر الطبعة الأولى قبل ظهور «إبراهيم الكاتب» للمازني و«عودة الروح» لتوفيق الحكيم و«الأيام» لطه حسين و«باب القمر» لابراهيم رمزي! وكلها قد نشرت قبل سنة ١٩٣٨، ومع نشر هذه القصة مرتين لم أجد من التفت إليها من مؤرخي القصص الحديثة، وأظن أسلوبها الأدبي المتأثر بمحمد المويلحي في تشبيهاته وازدواجه، لا بالمنفلوطي في تدفقه وانسيابه قد باعد بينها وبين الذيوع المدوي، وهي جديرة به عن يقين!

إن العصابة التي أتحدث عنها هي عصابة «السبع» أكبر العصابات خطرا على الأمن وترويعا للأبرياء، وزعيمها «محمد السبع» نشأ في أسرة ميسورة يحتل عميدها المركز الأول في قريته، وقد دلل ابنه تدليلا جعله نافذ الأمر والنهي في القرية دون معارض على حداثة سنه، ثم أجبره على الالتحاق بالأزهر ليستكمل وجاهة علمية تؤهله لرئاسة القرية من بعده، ولكنه لم يحضر دروسه العلمية بل التحق بفريقي الفتوة في الجمالية والحسينية، وظهرت مواهبه الجسمية والخلقية في زمن وجيز، فسار له اسم ذائع بين الفتوات، وقام بأعمال إجرامية أوجبت مطاردته فارتحل سرا إلى قريته «كفر الجهنمي» ليجد والده قد رحل عن قريب، وليجد أطيانه التي تبلغ ثمانين فدانا قد خرجت من يد الأسرة إذ كانت رهنا لديون باهظة تضاعفت قيمتها بتوالي الزمن بناء على الأرباح المستحقة، ولم يبق منها قيراط واحد، وهنا صمم الولد على تأليف عصابة إجرامية تجمع بعض فتوات القاهرة الذين استعان بهم كبذرة أولى، وإذا كانوا لايعرفون شيئا عن طرق البلاد ودروبها التي تصلح للاختفاء فقد بحث عمن سمع عنهم من عتاة المجرمين في العصابات الأخرى، وشجعهم بما بذل لهم من الوعود حتى أصبحت عصابته الأولى في ميدانها الخطير، وبدأت بالتنفيذ دون إمهال.

وكان الطريق الممتد بين ميت غمر والزقازيق هو ميدان العمل الأول فهذا الطريق بين المزارع المتشابكة ضيق في أكثر مراميه، ويحفل بالمرتفعات والمنخفضات والمنعطفات وقد نبتت الأشواك على شتى جوانبه، فمثلت عوائق شديدة لايتجنبها غير ذوي الدربة ممن سلكوا الطريق مرات بعد مرات وفي كثير من منعرجاته مستنقعات مائية تغطيها الأعشاب والحشائش، وهي ملأى بالأفاعي والحيات القاتلة التي كونت عصابة أخرى لاغتيال الأرواح الآدمية إذ أكثرها سام قاتل، أما الحقول الجانبية ذات الأشجار والزروع الممتدة دون انقطاع فهي أوكار اللصوص في أثناء النهار، ومسرحهم الذي ينطلقون منه في غياهب الليل، وقد ترك الفلاحون بعض ممتلكاتهم فيها، خضوعا لشر هذه العصابة، فصار منهم من يتولى تثميرها باستحضار من يجبر على زراعتها دون



مقابل وإلا دبر اغتياله الفورى بأيسر الوسائل، وبعد أن أتم «السبع» اختيار العتاة من زملائه عرض عليهم طريق العمل الإجرامي ووسائله، وكان من بعض وسائله اختيار بعض من يحفظون آيات القرآن ليكونوا كرجال الطرق الصوفية يلبسون العمائم الملونة من سوداء وحمراء وخضراء ويزورون بيوت الأثرياء من سكان المنطقة، ليعرفوا دخائل الثراء، ومواعيد البيع والشراء للمحصولات وأماكن التجارة فى الرواح والغدو، بل ليحاولوا أن يعرفوا أماكن المال المدخر، أفى أطباق الأرض تحت البلاط، أو بين الجدران المطلية بالجير الرقيق أو الصفيق، أو فى صناديق تحت الأسرة والأرائك، وربما عاود الشيخ زياراته مرات ومرات، وفى يده المسبحة الطويلة، وعصاه التى يتوكأ عليها اصطناعا للعجز البدنى، مع لحيته الممتدة إلى أسفل رقبته، وزبيبته التى أكلت جبهته من كثرة السجود، وشفته التى لاتفتر عن التسبيح الصامت فوق حبات المسبحة، وبهذه الحيل الشيطانية ألم رئيس العصابة ومستشاروه الأشرار بكثير من مصادر النهب والاغتصاب وقد جعلوا القتل السريع لمن يحاول الاعتراض حلا واحدا لامحيد عنه، وذلك هو البند الأول فى وثيقة العدوان.

المأساة!

وكان من الملاحظ أن يختفى الشيخ الزائر فجأة، فيغير زيه الصوفى، ويرتدى جلبابا ريفيا، ثم يذهب إلى رئيس العصابة فيخبره بأن فلانا سيذهب إلى المدينة ليبيع المحصول يوم كذا، وسيرجع من طريق كذا حاملا ثمن المحصول، فإذا أتم رسالته رجع إلى مثوى الضحية متعللا بأنه كان يذكر الله فى الخلاء أو يجلس فى رحاب المقابر أنسا واعتبارا بمن سبقوا إلى رحمة الله، فيقابل بالتجلة والاحتفال، ويسأله السائجون دعواته الصالحة، وألا ينساهم عند ابتهالاته وتسبيحه فدعاؤه مقبول، ورجاؤه مأمول، ثم تتم المأساة حين يذهب الرجل الأمن بمحصوله، ويرجع فى الطريق، فيدهمه من لايرحم، يسلبه ماله وحيوانه وكساءه، وكثيرا ما يقضى عليه إذا حاول الاعتراض، ويكون الشيخ فى تسبيحه حين يأتى الخبر إلى أهل المنزل، ويرتفع الصراخ بالبكاء على الراحل أو التوجع لما سلب واغتصب إن سمح له بالعودة خالى الوفاض، والمجرم معهم يتألم ويتوجع!

ومن السذاجة التى تصل إلى حد البله أن يطلب الشيخ الزائر معرفة أماكن الثروة ليقرأ عليها آيات تحفظها من السرقة، وهذا الطلب فى ذاته مصدر ريبة حقيقية فى دخيلة هذا الرجل الآثم، ولكنه يقع موقع الرضا والابتهاج من رب البيت، فيسارع باصطحابه إلى أماكن الذهب والحلى ويبدأ الماكر بالتوضؤ ثم الصلاة ويقبل على القراءة فى طمأنينة كاذبة، وطبيعى

ألا يترك الثرى المغفل باطنا من الثروة إلا أظهره، وأن تتوالى الدعوات والآيات في كل مكان يضم الذخيرة، والماكر الخادع يعرف من شئون المنزل الداخلية والخارجية ما يسهل نفاذ الجريمة عند حدوثها، فيعرف متى ينام صاحب البيت، ومن الذى يحرس المنزل من الخارج، ومن يسهر داخلا على مراقبة كل من تسمح له نفسه بالولوج إلى مكان محظور، حتى إذا استكمل أمره، غير ملبسه وفر إلى رئيس العصابة فيطلعه على كل خاف، ويتهيأ الأشرار إلى تنفيذ الجريمة عاجلا غير آجل. فيبدأون بقتل الحارس بعد أن يكمموا فاه كيلا يصيح ويسيرون فى منافذ البيت وفق خطة دبرها الشيخ الآثم حتى يصلوا إلى حجرة الثروة فيفتحوها فى هدوء، فإذا تيقظ صاحب المنزل هدد بالاغتيال إن حاول الضجيج وإذا صرخت الزوجة عوجلت بالمسدس المسكت، وفى ساعة أو ساعتين فى غسق الليل تكون الخزينة المالية قد نهبت ، ويكون الذهب والأساور والأقراط والخلاخيل قد غصبت، ويكون نفر من القتلى البائسين قد سالت دماؤهم فى غير مبالاة، فإذا ارتفع الصباح، وكشف الأمر، وقام البوليس بتحرياته التقليدية يوما بعد يوم، قيدت القضية (ضد مجهول) ونجا الأشرار بما يأثمون!

حيل أخرى

هذه بعض حيل رئيس العصابة، ومن الحيل الأخرى أن يرسل تابعا من مجرميه إلى السوق الريفى العام فى يومه الأسبوعى ، فيعرف من يشترى ومن يبيع، ومن يرجع بالمال الكثير ويتابعه حيث اتجه فإذا عرف أنه يرجع فى طريق العصابة الزراعى ادعى أنه مثله يسلك طريقه إلى بلده، وأنه فى حاجة إلى رفيق كريم مثله يعاونه على مصاعب السير وإن حدث حادث، ويقيه شرور الأفاعى القاتلة، وصعاب الأشواك الممتدة التى تداهم السائر إذا لم يكن متيقظا، ويسر صاحبنا برفيق الرحلة، ويبدأ معه الحديث عن عمله الآنف فى السوق، ماذا باع، وماذا ربح، ويسهب الرجل البرىء فى سرد الإجابات غير محترز حتى يعرف صاحبه ما معه على وجه التحديد، فإذا انقضت ساعة، وخاض الرجلان فى ظلال الشجر الممتد وتوسطا الحقول المترامية عن شمال ويمين، أخذ المجرم فجأة بتلابيب الرجل، وصاح صيحة يعرفها من دبروا الأمر معه، فيخرجون أرسالا، وكأنهم فى كتيبة حربية تحيط بالرجلين، فيصيح المجرم الشريك قائلا : هذا الرجل سلبنى حقى، ومعه كذا وكذا من النقود التى بعت بها محصولى، ويتبرأ المسكين من الاتهام الفاجر، فيجد التكذيب والتسفيه من العصابة، ويصيح قائد الكتيبة: «إلى المحكة إلى المحكمة» فيتعجب المسكين ويتساءل: أى محكمة هنا فيقودونه كراهية إلى قاعة الحكم، ونترك المؤلف ليصف الجلسة القضائية فيقول بتصرف لا يمنع الدقة فى وصف ما كان :

«ساروا نحو خمس دقائق فى أدغال من القصب والشجر الملتف، حتى وصلوا إلى ساحة مربعة الشكل قام على رأسها حاجب المحكمة، وجنود مبثوثون من هنا وهناك، ثم صاح الحاجب فجأة فتحت الجلسة، فنهض الكل إجلالا للقاضى ساعة دخوله، وأخذ يستفهم عما كان، وأعاد المجرم اتهامه باغتصاب ماله، والبرىء تنصله مما لحق به من افتراء، وبعد أخذ ورد، يظهر القاضى اقتناعه بكذب المتهم . ويصدر الحكم بتجريده من كل ما معه من النقود تأديبا له، ثم بالإعدام حرقا!!

ويصيح الفلاح المغلوب على أمره صيحة اليأس ويرمى نفسه عند قدم القاضى العادل طالبا الرحمة، فلا ينطق القاضى بكلمة، وهنا يقول له الحاجب: استأنف الحكم، فهنا محكمة أخرى، فلايجد المغلوب على أمره غير أن يقول : أستأنف أستأنف.

فيأمر القاضى بأخذه إلى المحكمة العليا، فيساق فى ممر ضيق متشابك الأغصان من أعلاه وكثير العثرات من أسفله، حتى يصل إلى ساحة القضاء، وهى شبيهة بساحة المحكمة الابتدائية تماما، وقد جلس على المنصة ثلاثة قضاة لاقاض واحد والرئيس ضخم هائل المنظر أسود الوجه، يحدق بعينيه فى الفريسة وكأنه يريد أن يأكلها أكلا، ويستمع إلى شكوى المجنى عليه فى اشمئزاز وإلى رد الجانى فى بشاشة وترحيب، ثم يقول بعد اصطناع مداولة موهومة حكمت المحكمة بتثبيت الحكم من حيث تجريد المتهم من النقود وإلغاء الحكم بالإعدام رحمة بأسرته وأولاده! فلا يصدق المسكين بنجاته ويصيح مستعطفا: يحيا العدل، يحيا العدل: ويدفع به صفعا ولكما إلى الطريق، وهو لايصدق بالنجاة، ويسأل الله ألا يُستأنف الحكم من جديد!

معجزة السبع!

ومعجزة السبع، إن عد التفوق فى الإجرام والبراعة فى التنصل،معجزة، أنه لاتثبت عليه شبهة فى كل مايرتكب من الأعمال، لأن أعوانه ينسبون الجريمة لأنفسهم إذا وقعوا فى قبضة القضاء وينفون كل علاقة تجمعهم وإياه، كما أن المجنى عليهم يحاذرون اتهامه العلنى كيلا يتعرضوا لكيده إذ يُسلط عليهم من زبانيته من يسومهم سوء العذاب، وهو لذلك يسير فى الطرقات آمنا مرهوبا ويقابل بالاحتفاء تقية وخيفة. أما رؤساء العصابات الأخرى فلا يملكون موهبته السحرية فى رياسة اتباعه، وفى السير علانية فى الطريق دون أن تأخذهم أعين الرقباء، لذلك نجد منهم الرئيس الذى يسكن المقابر ويتخذها مقرا لاجتماع الاتباع، وموضعا لتسلم ماينهبون من الأموال، ولتفريق هذه الأموال على جنوده الناهبين، وكان أول من اتخذ المقابر موضعا للاجتماع السرى هو

السبع نفسه قبل أن تندلع شهرته كالحريق فيصبح البعد عن صاحبها غنيمة الغنائم، وقد وصف مؤلف (الشيخ الصالح) أحد هذه اللقاءات فى فصل قوى الإيحاء، رائع الدلالة، فذكر عن رئيس العصابة محمد السبع ووكيله عيسى الكومى ما أحاول إيجازه قدر المستطاع فأقول :

بدا شخصان يزحفان من جوف قبر مفتوح، كأنهما شيطانان رجيمان، فقال أحدهما وهو الرئيس، هل اكتمل العدد؟ فردوا بالإيجاب، فانطلق يقول: كنت أنتظر أن تزداد أرباحنا، ولكن طرأ من الأحداث ماتعرفون، وقد أكلت هذه الأحداث الشىء الكثير مما جمعنا وجمعتم، وقد أتممت الحساب الدقيق فوجدت نصيب كل واحد منكم مائتين وخمسة وسبعين جنيها!! وأنا والوكيل مثلكم تماما لاتزيد عنكم مليما واحدا، وأذكر لكم أنى أدخلت فى الحساب أسر شهدائنا الأبرار الذين استشهدوا فى المعارك مع البوليس، فأخذت كل أسرة ماكان يستحقه فقيدها وخالفت قانون الجماعة الذى يجعل للرئيس نصيبين وللوكيل نصيبا ونصفا، لأنى لا أحب أن أتميز عنكم فى شىء» فصاح المجتمعون: كلا كلا، لابد أن يتميز الرئيس فهو صاحب الفضل فى التوجيه ورسم الخطة، وحصول النجاح، فرد قائلا، أشكر لكم هذا الشعور ولكنى متمسك بالمساواة المطلقة فى الأمور المادية إذ لا رئيس ولا وكيل، بل أعلن لكم إنى تبرعت وتبرع الوكيل معى بالنصيبين الخاصين بنا لأسر الشهداء، فهم بعد استشهادهم أعز علينا من نفوسنا جميعا! فصفق الحاضرون مبتهجين!.

والذى يستنكر وصف هؤلاء المجرمين بالاستشهاد، له ألا يعجب إطلاقا من انحراف هؤلاء الأشرار فى فهم معنى الشهادة لأن انجلترا المتحضرة فى هذا الوقت بالذات، كانت فى حرب (البوير) الظالمة تسلط نيران المدافع على الإفريقيين العزل فتحصد آلاف الأرواح دون مبالاة فإذا سقط من جنودها بعض المعتدين منحوا أوسمة الشرف، ونشرت الجرائد الإنجليزية صورهم الآثمة باعتبارهم أبطالا يؤدون رسالة الحضارة فى افريقيا السوداء، وهم فى صميم أفعالهم لصوص معتدون أزهقوا أرواح الأبرياء ليستولوا على كنوز الأرض من معادن وآبار، ولم يرحموا الأسر الآمنة حين سلطوا عليها القذائف من السماء، والمدافع من الأرض، فالذى لايستسيغ وصف قتلى عصابة الصبع بالشهداء، يجب أن يتذكر أن هؤلاء الأشرار الجهلة ليسوا أسوأ من ممثلى الحضارة الإنسانية فى أعظم دول العالم حينئذ! فكلهم مجرمون سفاحون.

توجيه دنىء

على أن شر رئيس العصابة وأشياعه لم يقتصر على السطو الغادر نهارا وليلا، بل تعداه إلى تنفيذ أوامر الاغتيال بأجر مكافىء، إذ دأب رؤساء القرى على التخلص من خصومهم على يد هؤلاء

القتلة، فيقومون بالتنفيذ العاجل لقاء أجر ثمين، ورئيس العصابة يستغل هذه الثقة من الأعيان والوجهاء كي يكونوا طوع يده إذا احتاج إلى شهادتهم الآثمة في بعض مواقف القضاء، حين يقع أحد أفراد العصابة في الشرك، ويتلمس النصير، ومما رواه المؤلف مثالا لهذا التوجيه الدنيء إلى اتخاذ أفراد العصابة أداة للاغتيال، ما قام به شيخ إحدى القرى من التصميم على اغتيال شقيقه العمدة: شقيقه من أمه وأبيه كي يكون العمدة من بعده، وصاحب الأمر والنهي من دون سلطة تعلو عليه، وإن كانت سلطة أخيه المدعو (محمد بك شهاب) فلما وسوس له الشيطان بجريمته ، اتصل بفردين من عتاة العصابة بعيدا عن علم رئيسها، وأجزل لهما العطاء، فقاما بالتنفيذ في حندس الليل بإتقان ماكر من الأخ المجرم، حيث رسم لهم طريق الاغتيال بأن سهل ارتياد المنزل وعين حجرة النوم، فتمت المؤامرة على وجه سريع، ثم دفن الميت في حديقة المنزل قبل أن يبزغ نور الفجر وادعى الشقيق أن أخاه سافر في المساء دون أن يدري وجهته، ولما ارتاب الناس في غيبته جعل يصرخ ويبلغ دوائر الشرطة لتنهض في البحث عنه! أما ما لم يكن يعلمه الأخ الغادر فهو أن عضوي العصابة قد أبلغا السبع بكل شيء وقدما له ما أخذا من المال وأراد السبع أن يستغل الموقف لنفسه فاتجه إلى العمدة الجديد يخبره بعزمه على خطبة بنت أخيه الراحل، وكانت ذات ميراث هائل، ففوجيء الرجل بما لايمكن أن يوافق عليه، ودار النقاش رقيقا في البدء، ثم عنيفا حادا حين قال العمدة للسبع إن عائلة العمدة لاتنحدر إلى الشبهات حين تصاهر شخصا مثله! وكاد الرد المباغت أن قال له السبع وسينحدر العمدة إلى السجن فالقتل حين يخرج جثة أخيه من الحديقة، وحين يشهد الشاهدان بمؤامرته الخسيسة، فكاد يسقط على الأرض، وأعلن الموافقة التامة دون اعتراض.

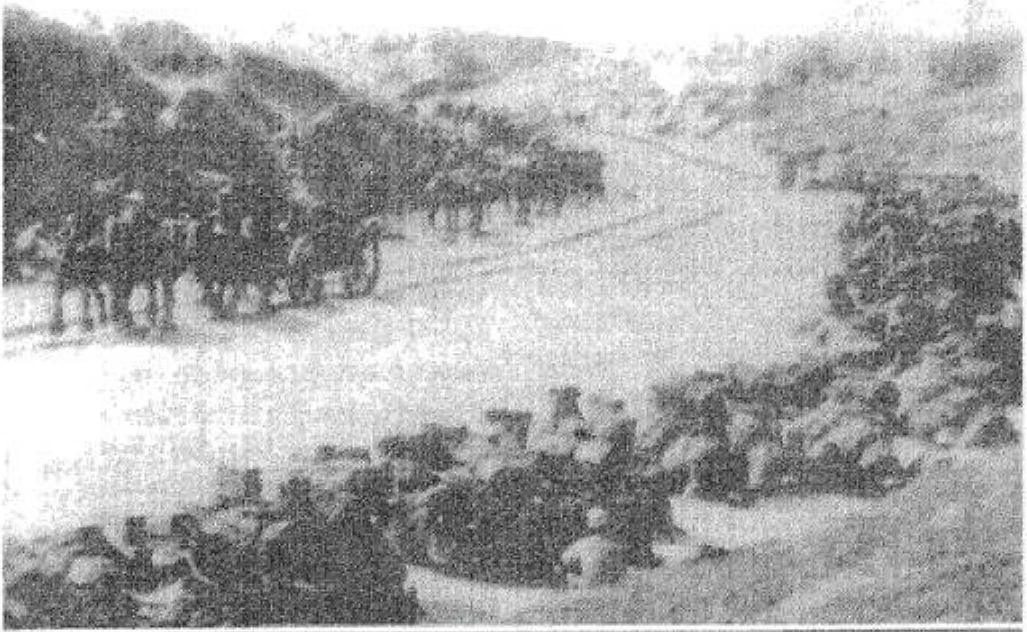
على أن الهواجس قد ركبت العمدة الأثم، فاعتقد ألا أمان له مع وجود الصهر الجديد، فبذل جهد الجن كي يسترضي شخصين من أفراد العصابة بعد أن منحهما من المال مايكفيهما مهما امتد بهما العمر، وتعهدا أن يخبراه عن السبع، حين يهاجم بالليل بعض الدور ليأخذ العمدة أهبته فيهاجم بالبوليس العصابة وعلى رأسها السبع، وتدور المعركة التي تنتهي حتما بمصرعه، وتحقق الوعد بعد قرابة شهر إذ عمد السبع إلى مهاجمة إحدى الدور بقرية قريبة، وجمع عصبته الباغية لتأخذ للأمر أهبته، وعلم العمدة بالموعد. وكان البوليس ينتظر مثل هذه الفرصة لينجو من قلاعه الداخلية في القاهرة التي

رصدت الجوائز لمن يأتى بالسبع متلبسا! واشتدت الرقابة الدقيقة على المنزل المشار إليه منذ الغروب بحيث لايشعر أحد بالمراقبة فتنكل العصابة عن مشروعها، وما أن انتصف الليل حتى هجم السبع بعصابته، وكان من قبل سنوات يترك القيادة لغيره كما أسلفنا من قبل، ولكنه شاء بعد مصرع الكثيرين أن يشجع أنصاره الباغين بوجوده، وانتظرت الحملة حتى ولجت العصابة داخل المنزل، وهنا أطبقت العساكر بعددها الكثيف وسلاحها المتأهب على اللصوص، فصدموا بما لايتوقعون وأمر السبع بإطلاق النار فى كل اتجاه، فلاقى أضعاف ما أطلق وسقط أكثر جنوده، كما قتل من رجال الشرطة نفر من المستبسلين، ثم رأى السبع فى جحيم المعركة أن يصعد إلى أعلى المنزل هاربا، ليسقط على منزل مجاور، ويلجأ إلى الفرار، وتم له ما أراد بعد أن أسخن بالجراح! وانتصر البوليس وقيد المحاصرون من اتباعه إلى دار الشرطة فلاقوا من صنوف العذاب ما جعلهم يعترفون على أسماء كثيرة من رجال العصابة، فقبض عليهم، وجاءت الأنباء إلى السبع فى مخبئه، وكانت لديه وسائل التخفى والتمويه، كالعيون الزجاجية، والحواجب الكثيفة والشارب المصبوغ، واللحية البيضاء فبرع فى ارتداء مالايشير إليه إذ اجتاز الطريق فى حندس الليل، ففاز بنفسه حين توجه إلى طنطا فى زى درويش من اتباع السيد البدوى، ثم اكتشف أمره فى حديث يطول، فقبض عليه ليجد كشفا بأسماء القتلى الذين أصابهم من قبل وفر من التبعة ولكن من قتلهم ليلة المحاصرة الأخيرة بمسدسه، تتعلق دماؤهم برقبته عن يقين!! ولم تطل المحاكمة، لأن الجرم واضح شنيع والمجرم شيطان بعث الرعب والفوضى والموت فى الإقليم أكثر من عشرين عاما!! فصدر الحكم بإعدامه الفورى وحاول الفرار ليلة التنفيذ فخابت أمانيه! وبموته تشتت الجمع الأثيم إلا بعض العتاة!

قلت فى صدر المقال إن إحدى هذه العصابات هى التى أحرقت مدينة ميت غمر، وتفصيل ذلك أن جماعة من تلاميذ السبع بعد وفاته لم يتركوا إجرامهم البغيض فساروا سيرته فى اقتحام المنازل ليلا وترويع السائرين فى الطرقات الزراعية نهارا، ثم داهمهم البوليس ذات ليلة، وقد هاجموا بعض المنازل، فلاذوا بالهرب، ورأوا من دواعى الانتقام أن يشعلوا النار بعد ليلة واحدة فى أرجاء المدينة، وكانت المنازل حينئذ متخمة بالقش والحطب فى أعلاها، فتآمروا على إلقاء الغاز فوق القش فى أكثر الأحياء، وأشعلوا النيران فتلاقت ألسنتها الملتهبة من كل مكان، حتى صارت البلدة المسكينة، كما قال حافظ إبراهيم عن نارها المشبوبة

أكلت دورهم فلما استقبلت
لم تغادر صغارهم والكبارا

■



من دوافع ثورة ١٩١٩

العمال المصريون بناة الإمبراطورية

بقلم
سلمان أبو ستة *

* باحث فلسطيني



قرية دير سنيد قرية فلسطينية قديمة تقع على الساحل الفلسطينى الجنوبى. دخلت دير سنيد التاريخ المصرى مرتين خلال القرن العشرين. المرة الثانية عندما احتلت القوات المصرية مستعمرة يد مردخاى القريبة من القرية فى ٢٣/٥/١٩٤٨. كان ذلك أول انتصار للجيش، ومن أهم الانتصارات القليلة فى حرب ١٩٤٨. ولم يكن ذلك غريباً لأن الكتيبة التى اقتحمت الموقع الإسرائيلى كانت بقيادة السيد طه، بطل الصمود وقمة الشرف العسكرى الذى رفض التسليم فى حصار الفالوجة مع مساعده جمال عبدالناصر.

أمـا المرة الأولى – وتركناها متأخرة لأن هذا موضوع المقال – فهو عند مرور آلاف العمال المصريين التابعين لجيش اللنبى الذى غزا فلسطين قادماً من مصر عام ١٩١٧ بها وإقامتهم معسكراً للعمل هناك.

اليوم محت الصهيونية آثار قرية دير سنيد، ولم يبق إلا نصب تذكارى بسيط ارتفاعه ٣ أمتار وكتب عليه بالانجليزية «هنا يرقد ١٩٢ عامل مصرى من قوات العمل المصرية، ١٩١٤ – ١٩١٨»، وبالعربية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

مجرد رقم، لا أسماء ولا تعريف ولا إسم البلدة التى جاءوا منها. ربما كانوا من الصعيد، جاءوا للقمة العيش، وربما جُلبوا كعمال للسخرة أو شبه السخرة. لم يحظوا بأى تكريم أو احترام يكنه الجيش البريطانى لجنوده حتى لو كانوا من جنود المستعمرات فى الهند ونيبال. لو كانوا كذلك، لبنت لهم «هيئة مقابر الحرب» البريطانية مقابر منظمة كاملة التسجيل وبها حدائق ولها أسوار ولها موظفين للصيانة، يعملون حتى اليوم، فى بقاع كثيرة من العالم الذى داست عليه أقدام جنود الامبراطورية البريطانية، وعلى كل قبر شاهد عليه اسم الجندى وتاريخ ميلاده ووفاته وجنسيته وبلد المنشأ. أما هؤلاء العمال، فقد ردموا فى حفرة كبيرة أو عدة حفر صغيرة، ولم يبق من آثارهم إلا هذا العمود الحجرى الجماعى. لابد أن أحدهم أوصى زميله وهو يعانى سكرات الموت بعائلته الباقية فى أقصى الصعيد أو أطراف الدلتا. لابد أن ريس العمال أو أحدهم ممن يقرأ القرآن صلّى عليهم صلاة الجنازة، قبل دفنهم على عجل. لابد أن ابن عم المتوفى أو صديقه حمل الأنباء المؤلمة للعائلة المنكوبة بعد شهور عديدة أو سنوات من الوفاة، عندما سُمح للرسول أن يعود إلى بلده.

حملة اللنبى

كيف حدث هذا؟ فى صيف ١٩١٧، تسلّم الجنرال اللنبى قيادة «قوات الحملة المصرية» بعد فشل الجنرال موراى فى احتلال غزة مرتين المحصنة بالدفاعات التركية. وفى ٣١ أكتوبر ١٩١٧، استطاع اللنبى احتلال مدينة بئر السبع شرق غزة بحركة التفاف مفاجئة. وعندما سقطت بئر السبع، أبرق اللنبى إلى لندن قائلاً «أخذنا بئر السبع. ستكون القدس هدية عيد الميلاد لكم». وبهذا انتهى ألف وأربعمائة عام – عدا فترة الصليبيين القصيرة – من الحكم العربى الإسلامى لتلك البلاد. وصلت البرقية فى ١ نوفمبر فأصدرت لندن فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ وعد بلفور المشئوم، الذى كان مخبأ فى أدراج الوزارة بعد الاتفاق عليه بين الاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية قبل ذلك بشهور. أعطى وعد بلفور موافقة بريطانيا لليهود على إقامة «وطن قومى» لليهود فى فلسطين. وهذا وعد من لا يملك لمن لا يستحق دون علم صاحب الحق أو موافقته.

لم يكن بالامكان تحقيق انتصار اللنبى دون قواته الانجليزية والاسترالية والنيوزلندية والهندية بالطبع. لكن كان على الجيش أن يقطع صحراء سيناء الخالية من المياه اللازمة لجيش عرمرم،

فاستلزم ذلك جر مياه النيل إلى فلسطين! لقد قام العمال المصريون بهذا العمل الجبار. لقد مدوا أنابيب المياه أمام القوات البريطانية بسرعة كبيرة حتى يتمكن الجيش من التقدم. أما العتاد والأسلحة الثقيلة، فقد بنى لها العمال السكة الحديد من القنطرة إلى العريش وغزة مع التفرع بخط نحو بئر السبع. لقد كان الجيش البريطاني يقبع خلف جحافل العمال المصريين الذين يمدونه بالماء والذخيرة، وسرعة تقدمه متوقفة على سرعة إنجازهم للعمل. لقد شقوا الطرق أيضا، بما فيها طرق الاسفلت والطرق الصحراوية ذات الشبك. لقد بنوا المبانى المؤقتة والدائمة، وانشئوا ورشات للحدادة والنجارة، وقطعوا الأحجار من المحاجر، وأقاموا المخازن للمؤن ونقلوها من موقع إلى موقع. لقد نقلوا على ظهورهم الذخائر والقنابل، ويعلم الله كم عشرات منهم قد تفتتت اشلاؤهم عند انفجار إحداها. لقد نقلوا على ظهورهم مئات الأطنان من المؤن من البواخر إلى البر، ويعلم الله كم عشرات منهم قد غرقوا فى البحر. ورجال البحر والصيادون منهم نقلوا المؤن والعتاد فى مراكب صغيرة لترسو فى أماكن خطرة تحت قنبال المدفعية وتفرغ حمولتها فى سريّة. لقد حفروا الآبار فى الصحراء، وجففوا المستنقعات، ويعلم الله كم منهم مات من الملاريا. لقد رماهم الانجليز فى ساحة الحرب، فحملوا النقالات لإخلاء الجرحى وفى عمليات الإنقاذ. وأمشى على ضفاف التيمس فى لندن، أتأمل هذه المأساة، وأنزل فى قبو تحت الأرض، وأقلّب فى صور هؤلاء العمال، أخذها مصور «مجلة لندن المصورة» التى كانت تصدر فى الحرب العالمية الأولى. لا أعتقد أن المصور أخذ هذه الصور احتفاء بجهد العمال، لكن ربما لأنهم كانوا «خلفية» مناسبة لصور الجنود البريطانيين. وأجد فى الصورة رقم ١ هؤلاء العمال الغلابة بجلابيبهم الزرقاء البهيجة (حسب التعبير الانجليزى المتهكم) وهم يحفرون الأرض طبقات طبقات لشق السكة الحديد على المستوى المناسب. وأرى فى الصورة رقم ٢ عشرات الجمال المحملة وبجانب كل واحد جماله قابع جنب الجمل البارك على قاع وادى بئر السبع ينتظر الأوامر للتحرك، بينما تمر أمامهم قوات الخيالة الاسترالية تجر عربات المدافع.

العمال نواة الجيش

لقد كان هذا هو الجيش الحقيقى، بجانب الجيش المحارب. بجانب كل جندى بريطانى كان يقابله عامل مصرى، نفس العدد تقريباً. لقد بلغ عدد العمال المصريين الذين اشتركوا فى حملة فلسطين البريطانية مائة وخمسة وثلاثون ألفاً. بل لقد وصل عدد المشتركين ما يزيد على ربع مليون (حوالى ٢٧٠,٠٠٠) أخذاً فى الاعتبار هؤلاء الذين استبدلوا أو الذى سقطوا أثناء العمل. ويسجل لنا التاريخ الرسمى البريطانى أعداد هؤلاء فى وثيقة بعنوان «التاريخ المختصر لتقدم قوات الحملة المصرية (إلى فلسطين) من يوليه ١٩١٧ إلى أكتوبر ١٩١٨». تقول الوثيقة أن توزيع ١٣٥,٠٠٠ عامل كان كالآتى: ١٠٠,٠٠٢ عامل من بينهم ٦٤٠٦ عامل ماهر أو شبه ماهر،

والباقون عمال عاديون، و٢٣,٤٥٢ جمالاً لنقل الأحمال و١٩٩٦ مكارياً (سائق حمار) و١٤٣٣ سايساً و٤,٣٤٩ لخدمة الخيل و٣,٤٩٦ للخدمات البيطرية و٢٤٧ جمالاً لفرقة الهجانة الامبراطورية.

كيف تم تجنيد هذا الجيش؟ بالطبع لا تذكر الوثيقة البريطانية. كيفية جمع عمال السخرة وجلب العمال بالقوة . تقول فقط إنها فتحت مكاتب للعمل في سوهاج وأسيوط وجزيرة الروضة، وسيق كل ٢٠٠٠ عامل في القطار إلى القنطرة حيث رشوهم بالمبيدات وسلموهم جلابيب زرقاء وجهزوهم بالمعاول والفئوس، وتظموهم في فرق عمل كل فرقة من ٥٠ عاملا عليها «ريس» غالبا من أهل البلد التي جاء منها العمال. وصرف لكل عامل مبلغ ٣ جنيهات مقدماً للصرف على عائلته، وهذا مبلغ كبير، لكن ربما كان آخر مبلغ يستلمه العامل قبل وفاته.

واتسع العمل، ففتحت مكاتب أخرى للعمل، وسعى الجيش سعياً حثيثا للبحث عن ضباط إنجليز غير مهمين للجيش، أو أوربيين يعيشون في مصر يعرفون بعض العربية، وأعطوهم دورات سريعة فيها، لكي يشرفوا على العمال. وتوزع العمال على نسق نظام الجيش. فأصغر وحدة هي خمسون عاملاً برئاسة الريس المصري، وكل ١٢ وحدة من هؤلاء تساوي كتيبة عددها ٦٠٠ شخص، أو ربما ضعفها (١٢٠٠) بقيادة ضابط انجليزي أو أوربي لا يصلح للحرب.

ويغطرسة إنجليزية ونظرة سفلية، يقول التقرير إن هؤلاء العمال بجلاليبهم الزرقاء البهيجة وغنائهم وحدائهم وبابتساماتهم الطيبة المشرقة كانوا يقومون بأكثر الأعمال مشقة دون كلل أو شكوى، ووصل إنجازهم (وهذا بيت القصيد) إلى مستوى عال في بناء الطرق والسكك الحديد وأنابيب المياه مما مكن الجيش من القيام بواجبه على الوجه الأكمل.

والثمن الإنساني لهذا الإنجاز؟ لقد مات عدد كبير من الإرهاق والاجهاد والعمل في الصحراء تحت أشعة الشمس الحارقة. تقول الوثيقة البريطانية إنه في عامي ١٩١٧ و١٩١٨ فقط توفي ٢٦٨ عاملاً منهم ٢٣٥ من الإجهاد و١٤ قتلوا في المعركة و١٩ ماتوا من جروحهم. وتعترف الوثيقة بأن هؤلاء العمال قد «ساهموا بشكل كبير في العمليات العسكرية»، وأنهم تحملوا المشاق «بنفسية الشرقي التي تؤمن بأن كل شيء مقدر ومكتوب».

ضحايا الحملات

ولا شك إن أعداد الذين سقطوا في خدمة الامبراطورية أكبر بكثير، ففي دير سنيد وحدها توجد مقبرة جماعية لعدد ١٩٢ عاملاً. فكيف إذن إذا أخذنا باقي المحطات التي سقط فيها هؤلاء العمال ويفنوا جماعياً. تذكروا هذه الأسماء للبلاد التي توفي فيها العمال المصريون في مقبرة معروفة أو غير معروفة: إسدود، الرملة، غزة، بئر السبع، أبو إقيق غرب بئر السبع، النبي يونس، يبنه، عرطوف، يافا، بيت نبالا، الشيخ مونس، ملبس، إجليل، أريحا، السلط، نابلس، حيفا، بيروت، دمشق، بعلبك، طرابلس ، حمص



عبد الناصر أثناء حصار الفالوجة

وغيرها.

صحيح أن بعض هؤلاء العمال كانوا من البلاد الشامية، ولكن عددهم لا يقاس بالعمال المصريين، فلم يتجاوز عددهم ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف)، من بينهم ١٥٠٠ عامل ماهر. وهؤلاء كانت تدفع أجورهم كل أسبوع، ويناموني في قراهم كل ليلة، ويمكنهم ترك العمل في أي لحظة. بينما يغيب العامل المصري عن عائلته سنة أو سنتين، مع أن عقد العمل ٦ شهور فقط. وليس لدينا علم بأن دفعت أجورهم كاملة أم لا، وربما كان هناك وسطاء وفاسدون وقعوا بالاستلام بالنيابة عنهم أو دفعوا لهم أجورهم منقوصة. وبالقطع لا يوجد أي دليل على دفع تعويض لعائلة المتوفين أثناء العمل.

وكم من القهر والإجبار تحمله هؤلاء العمال قبل إدخالهم سلك العمل. لقد كانت سياسة الكرباج سائدة. لقد كان مدير المديرية يجمع العمد ويأمرهم بإحضار العمال بالتهديد وبالرشوة وبالبلاغات عن المختفين.

يقول عبدالرحمن الرافعي في كتابه «ثورة ١٩١٩» إن السلطات البريطانية كانت توهم العمال أن عقدهم لبضعة شهور، ولكنهم يرغمون على البقاء لمدة أطول بكثير، ويعاملون أحياناً كمساجين وعندما يتحركون، يربطون بالحبال ويوضعون في عربات الماشية تحت حراسة شديدة. لقد كان منهم أطفال في سن الرابعة عشرة وعجزة في سن الستين. ويقول الرافعي إن عمال السخرة أو ما شابهها قد وصل عددهم إلى المليون.

أما عدد المتوفين الحقيقي، فهو أكبر بكثير من العدد الرسمي (٢٦٨). إذا كانت مقبرة دير سنيد تضم ١٩٢ رفاتاً،

فإن أكبر مقبرة توجد عند إم كلخة وهي تقاطع السكة الحديد القادم من مصر والقدس ويافا. وهناك مقبرة أخرى في باب الرحمة في القدس، وعند محطة سكة حديد طولكرم وفي شاطيء الكرمل في حيفا. وفي مقبرة اللد وحدها يرقد رفات ٩٦٦ عاملاً مصرياً، عديم الاسم والهوية والأصل. وفي اللطرون في الطريق إلى القدس من يافا يرقد رفات، ٦٨ عاملاً، وعليها نصب تذكاري، لكن الاسرائيليين أزالوه بعد حرب ١٩٦٧.

لقد قام الباحث الإسرائيلي أمرام شاير، اثناء بحثه في تاريخ لورنس العرب، بالبحث عن مواقع مقابر العمال المصريين فوجد أن معظمها أزيل واندثر، لان النصُبُ، حتى لو أقيمت، لا تعدو عموداً من الحجر ولا تشير إلى مواقع القبور أو اسماء المتوفين.

وحسب وثائق «هيئة مقابر الحرب» البريطانية فإن المصريين دفنوا في ١٧ موقعاً. وعدد المتوفين لا يقل عن ٢,٢٠٠ شخص. وهذا أقل تقدير.

أين الحكومة المصرية من كل هذا؟ لقد عارضت الحكومة السلطات البريطانية آنذاك في تجنيد العمال بالقوة والاستيلاء على عشرات الآلاف من الجمال والخيل والحمير، ولكنها لم تعلن عن ذلك في الصحافة.

وجاء ذكر اعتراض الحكومة في تقرير اللورد الفرد ملنر وعنوانه: «تقرير البعثة الخاصة لمصر عام ١٩٢١». وعند عودة باقي العمال، واكتشاف آلاف العائلات أن أولادهم قد قضوا نحبهم في خدمة الامبراطورية البريطانية، ثار المصريون، واضطرت بريطانيا إلى إعلان الأحكام العرفية وحل البرلمان وفرض الرقابة على الصحافة. كل هذا أدى، من بين المظالم الأخرى، إلى ثورة ١٩١٩، التي قادها سعد زغلول، قائد الثورة وعلى إثر ذلك، نفي سعد زغلول إلى سيشل، وأتت بريطانيا بضابط لحكم مصر، ما هو إلا قائد الجيش البريطاني الذي استخدمت قواته جيشاً آخر من عمال السخرة، وهو اللورد اللنبي. وقد سعت الحكومة المصرية لمعرفة المزيد عن مصير العمال المصريين المفقودين. لكن هيئة مقابر الحرب رفضت اعطاء الحكومة قوائم باسماء المتوفين، ربما لأنها لم تكترث حتى بتسجيل اسمائهم، لكن الأهم أنها رفضت اعطائهم منحاً أو معاشات لعائلاتهم، وهذا هو السبب العملي في عدم تزويد مصر بسجلات الأسماء. وهناك سبب آخر، لم ترغب بريطانيا في عقد المقارنة الفاضحة بين المعاملة التي يتلقاها جندي بريطاني سقط في المعركة، من قبر عليه شاهد باسمه ومعلومات عنه في حدائق ترعاها بريطانيا إلى اليوم ومعاش لأسرته سارى المفعول حتى وفاة والديه أو زوجته، وعامل مصري سقط في نفس المعركة، وليس له قبر ولا شاهد ولا ذكر ولا معاش.

أما آن الأوان للاقتصاص من بريطانيا عن هذه الوحشية؟ أليس هذا خرقاً لأبسط حقوق الإنسان التي تتشدق بها بريطانيا؟ ألا يقع الواجب على الحكومة اليوم أن تكرم هؤلاء وترغم بريطانيا على الاعتراف بدورهم معنوياً ومادياً؟ ■

قدام البحر

شعر
عماد غزالي

من سنوات
عرف البحر صبانا
قلت :
سأصل هناك سريعا
وأحادثك ،
ذهبت إليه،
تواجهنا
أياما أربعة
.. .. ..
كنت خجولا
والعرى الكونى
يفض بكارة أيامى
الهاتف لم ينطق أبدا
والساعات
تدلت كالحبل المعقوف
ودرت حواليه
ثرثرت كثيرا
وحكيت حكايتنا
للرجل الجالس قدامى
نظارته السوداء
مرايا للبحر
وجوه تأتى وتروح

وأنت – كما أنت – هناك
والهاتف لا ينطق .
.. .. ..
عدت من البحر
النظارات السوداء
على وجهى
وصبانا
وارته الموجة
أنت أمام البحر الآن
ترجـيـلة أيامى بين
شفاهك
فيما أجلس وحدى
– كالعادة –
خـاصـمـت الـبـحـر
وخاصمنى
حتى إذ لاقيتك
لم يدر الغفران بخاطره
فتخاصرنا حينا
والرقصة خانتها الأنغام
ووجهانا
حملا توقيع البحر

عائلات ثقافية

الشيخان الشقيقان

بقلم
السفير: ممدوح عبد الرازق

ولو اتسع المجال لأضفت إلى العنوان «بالروح» فوق أنهما شقيقان بالدم، وإلا لما كان للكتابة عنهما مجتمعين وجه ولأفردنا لكل واحد منهما مقالا، وهو ما جرى عليه العرف حتى اليوم فى ذكر الشيخين مصطفى وعلى عبدالرازق.

أما الذى أهلنى للتصدى لمثل هذا الحديث، الذى أشهد أنه لا يلبث أن يتجدد كلما طال العهد بانتقال صاحبيه إلى الرفيق الأعلى، فهو أننى ولدت لمصطفى وعشت فى كنفه إلى أن توفى، رحمة الله عليه فى الخامس عشر من فبراير ١٩٤٧، فكفلنى وأخوتى وأخواتى من بعده عمنا على عبدالرازق طيب الله ثراه، وكنت وقتها صبيا لم يجاوز الرابعة عشرة من العمر إلا بشهور قليلة.

ولا أزال أذكر إلى اليوم كيف انهار عمنا على عبدالرازق إلى جوار فراش شقيقه حينما أبلغ بنبأ وفاته وحضر إلى دارنا على عجل، وكانت صورته لدينا حتى تلك اللحظة أنه قادر على أن لا يظهر عواطفه وانفعالاته فى العلن وإلا لكان أظهرها يوم غرق ابنه البكر فى النيل قبل ذلك بسنوات ولخانه تجلده وهو يستقبل جثمانه بعد أن جرفه التيار بعيدا فلم يظهر إلا بعد الحادث بأيام وفى موقع يبعد عن قريتنا إلى الشمال بأميال.



الشيخ على عبد الرازق



الشيخ مصطفى عبد الرازق

ثم تكرر المشهد أمامي مرة أخرى في حفل التأبين الذي أقيم على ما أذكر بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، إذ وقف على عبدالرازق ليشكر المتحدثين باسم الأسرة إلا أن التأثر غلبه فلم يستطع أن ينطق بأكثر من كلمتي «أخي شقيق روحي» ثم احتبس صوته، وكانت هذه الكلمات عندي أبلغ في التعبير عما يعتمل داخله من كل ما كان يمكن أن يقوله لو استطاع أن يغالب تأثره ويكمل الكلام.

وما كان جديداً علينا، أهل بيت مصطفى وأهل بيت على ونحن بعد في سن مبكرة أن نلحظ بين الشقيقين علاقة خاصة ترقى إلى مراتب الصداقة في أسمى صورها، وما كان غائبا علينا أيضا أن هذه الصورة من الصداقة بين الأشقاء تكررت من قبل بين عمينا حسين ومحمود وكلاهما يسبق مصطفى وعلى في السن مباشرة، وكلاهما كان من خريجي مدرسة الحقوق العليا في ذلك الوقت مثلما تجمع الدراسة بالأزهر بين مصطفى وعلى.

ولست أريد أن أثقل على القارئ بتتبع جذور النشأة إلى أبعد مما يحتمله السياق وإلا لتوقفت عند تأثير البيئة العائلية التي نشأ فيها الشيخان ودور أبيهما وأمهما في تهيئة هذه البيئة التربوية والتعليمية التي غرست في هؤلاء الأشقاء روح الفريق وجعلتهم أصدقاء فوق أنهم أخوة.

هذه الروح التي تجعلني أقطع بأنه إذا كان التاريخ قد شاء إلا أن يحتفظ بذكرى أطول لاثنين منهما، فإن ذلك لا يجب أن يغفل حقيقة أنه لولا مؤازرة الآخرين بل وتضحياتهم ربما لما أتيح لمصطفى وعلى أن يكملا تعليمهما بالخارج بل ولا أن يلعبا الدور الذي

لعباه في الحركة الاجتماعية والإصلاحية والثقافية التي شهدتها مصر في النصف الأول من القرن الماضي.

أما أن الأخوة كانوا يعملون كفريق أمرهم شورى بينهم، منذ وفاة أبيهم عام ١٩٠٧ فلم أجد في تصويره أفضل مما خطه مصطفى عبدالرازق في مذكراته الخاصة حول موضوع عودته لاستكمال دراسته بأوروبا، وكان قد عاد إلى مصر في إجازة إذ يكتب بتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩١٢.

«رجعت مع أخوتي إلى منزلنا نصف الليل فاجتمعنا في الحجرة التي ينام فيها أخواي علي وإسماعيل وجعلنا نتحدث في ذلك الموضوع الذي كررنا الحديث فيه على غير جدوى موضوع عودتي إلى ليون لتتميم دراستي.

وقد أخذوا يثبتون لي أن لا معنى لهذا السفر وأنه مضيعة لشطر من العمر، وفهمت من أعراض كلامهم أنهم يعدون رغبتي في السفر نوعا من التشهي للذات أوروبا، وأنني أطيل أيام بقائي هناك فرارا من تكاليف الحياة العملية.

وإني لمقتنع برجحان الفائدة من سفري على ما يكون من مبادرتي بالبقاء هنا، ولكن الجماعة لا يريدون أن يقتنعوا.

وقد قلت لهم أخيرا: إنكم لو قررتم أن لا أسافر استبدادا بالأمر أو شعورا بضرورة وجودي في مصر لمصلحة العائلة لكان في المسألة موضع لتضحية أقدمها على وجه ما، أما محاولة إقناعي بأن مصلحتي أنا هي التي تتطلب ذلك فهي أضعف الوسائل لما تريدون».

ولا تمضي أيام إلا ونجده يدون في مذكراته بتاريخ أول أكتوبر من العام نفسه: «عزمت على السفر إلى أوروبا بإذن الله يوم ٧ من هذا الشهر وسيسافر معي أخي علي.

صممت على السفر بعد أن كان سفري موضعا لمناقشة كادت تيئسني منه لأن أخوتي يرونه غير لازم بل وفيهم من ينكر فائدته لي.

كنت أكره أن أقطع دراستي قبل تمامها وكنت أخشى أن تبقى من ذلك حسرة في نفسي، فلما تقرر سفري ورضي به أخوتي لم أشعر بلذة العودة إلى تتميم مسعاي وحدها ولكنني صرت أحس بأنني أمد في حياتي الدراسية ومجال الحياة العملية يحتاج إليّ.

فمن الحق علي أن أضاعف من نشاطي وأعمل على جعل فائدتي من رحلتي متناسبة مع ما أضحية في سبيل عودتي إلى أوروبا.

فأنا أشعر بثقل الواجب في ثنايا لذتي بأن سيري إلى أمانيّ زال ما كان يهدده من انحراف».

***

أما عن العلاقة الخاصة بين علي ومصطفى داخل هذا الإطار الأخوي المتماسك فلاشك أنه من عوامل توثقها انتماء الاثنين إبان دراستهما بالأزهر إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وقد كان انتماء مصطفى عن طريق

التقائه بالأستاذ الإمام وجها لوجه ووقوعه في دائرة تلك الجانبية الروحانية التي كان يرى أن أستاذه يتمتع بها وكان يتمتع بها قبله السيد جمال الدين الأفغاني شأن العلماء الذين يحبون العلم لذاته.

أما على فقد كان انتماؤه عن طريق التأثر عن البعد بروح الأستاذ الإمام وتشربه لمبادئه وآرائه الإصلاحية فهو قد كان يصغر شقيقه بسنوات أربع ولم يتسن له بحكم سنه أن يجلس إلى الأستاذ الإمام في مجالس أبيه مثل شقيقه الأكبر أو يحضر الدروس التي كان يلقيها الإمام بالأزهر.

وربما كان فيما كتبه مصطفى في مذكراته بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩١٥ ما يوضح أثر هذا البعد الأزهري في تذكية روح التقارب بين الشقيقين إذ يقول:

«خلع أخي على صبح اليوم لبسة الأفندية وعاد إلى لباس الشيوخ، وأرسل لحيته بعدما كان حلقها في إنجلترا وظل يحلقها بعد مجيئه إلى مصر.

ولقد كان أناس كثيرون يعيبون على عليّ رغبته عن لباس زملائه الأزهريين ويخشون أن يوجد ذلك وحشة بينهم وبينه فيذهب ما يرجى من نفعه لهم وعمله فيهم.

وكنت أنا في الحقيقة راضيا عن عمل أخي في تغيير ملبسه لعلمي بما في ثياب الشيوخ من المعايب وقلة المعونة على النشاط.

ولكنني وجدت اليوم شيئا من السرور حينما رأيت عمامة على إلى جانب عمامتي لأن والدنا رحمة الله عليه كان يريد أن يجعل بين أولاده شيخين يمثلان التقاليد القديمة المتوارثة إزاء العنصر الجديد حتى يبقى لبيتنا مظهر قدمه وتدينه ويسرني أن نحقق رغبة ذلك الأب العزيز».

ورغم أن ظروف السفر والدراسة في الخارج أدت إلى تباعد بين الشقيقين مكانيا وثقافيا، باعتبار أن أحدهما درس في فرنسا والآخر في إنجلترا إلا أن الذي بين يدي من أثر مكتوب يكاد يثبت أنه رغم المسحة التي يتركها عادة التعرض لتأثير بيئات ثقافية متباينة على سلوكيات الأشخاص ومنازعهم الفكرية فإن الشقيقين لم تزدهم سنوات الاغتراب إلا تقاربا روحيا وفكريا عبر عنه مصطفى عبدالرازق أفضل تعبير فيما وجدته مدونا بمذكراته بتاريخ ١٣ أبريل ١٩١٤ وكان وقتها نزيل مصحة خارج ليون إثر إصابته بمرض صدري وحضر شقيقه على من إنجلترا لعوده فيها فهو يقول:

«حينما يكون معي أخي على نصرف وقتنا في الحديث والمزاح ولا نستطيع أن يخلو كل واحد منا لحظة إلى عمل خاص، أعني أننا نريد أن نجعل كل حركة وسكون شركة بيننا ما دمنا معا، لهذا أترك ما كان بيدي من الكتب أقرأه وأكاد لا أجد فرصة حتى لمطالعة جريدة.

وأحسب ذلك من قوة العاطفة الأخوية فينا واتفاقنا في كثر من وجوه الإحساس واختلافنا في نزعات طبيعية يحفظ التوازن بيننا ويجعل في مجموع قوانا ومشاعرنا انسجاما من غير اتحاد في عناصرها ولا تنافر.

أتممت مع أخي المقال الذي أشرت إليه في صحيفة أمس (في رثاء المرحوم فتحي باشا زغلول) ويخيل إلينا أنه مقال حسن، وهو في الحقيقة يعلو على متوسط

عائلات ثقافية

ما يكتب عادة في الرثاء والطريقة التي سلكناها في كتابة تلك الجملة حيث كنا نفكر معا ونختار الألفاظ والمعاني معا، مما تدل على ما أسلفته من تقارب الذوق العقلي بين أخي وبيني.

فإنني لا أستطيع أن أشارك كثيرين على هذا النمط في التفكير والبيان مهما كان شريكي ذكيا كفؤا، وليس هذا التشارك عاديا في الناس».

لم يكن إذن ما بين الشقيقين توحد في الذاتية وتطابق في الشخصية بكل مقوماتها بقدر ما كان تكاملا بين ذاتيتين مستقلتين لكل منها مقوماتها ومنهجها، وإن اتفقتا في كثير من المبادئ والمثل والأفكار.

ونعود مرة أخرى إلى ما دونه مصطفى في مذكراته إذ يتبين منها أنه كان على بينة من نواحي الاختلاف في الشخصية بينه وبين شقيقه فهو يكتب بتاريخ ٢٨ مايو ١٩١٤:

«قرأت في عدد من الجريدة وصلني اليوم رسالة لأخي على يحي بها الدكتور طه حسين بمناسبة نجاحه في الجامعة وهي حسنة الأسلوب مختارة العبارة جيدة المعنى.

وقد تنبهت بهذه المناسبة إلى أن أخي يكتب دائما ما يكتبه في الجرائد بتوقيعه الصريح، أما أنا فأرمز إلى اسمي أو اختار لي اسما مستعارا وذلك يدل على ما في فطرة على من الجراءة وما في غريزتي من التهيب».

وأستأذن القارئ في أن أقف وقفة عند تهيب مصطفى هذا الذي يشير في مواقع كثيرة من مذكراته إلى أنه يعده نقصا عليه أن يعمل على تلافيه من ضمن جهوده لتهذيب النفس وتلافي عيوبها.

فهو يكتب في مذكراته بتاريخ ٤ سبتمبر ١٩١٢ ما قد يلقي الضوء على أبعاد هذا التهيب وجذوره في أعماق النفس اللوامة التي اعتادت محاسبة الضمير لها عند نهاية كل يوم حسابا صارما.

وكان وقتها يمضي أجازته بمصر وتصادف وجود زوجة زميله في التدريس بجامعة ليون الأستاذ فييت بمصر وأرادت أن تزور الجامعة التي درس بها مصطفى فدبر لها زيارة للأزهر كان من نتيجتها ما دونه على الوجه الآتي:

«يظهر أن خروجي وأخي علي مع مدام فييت وصاحبتها حين ذهبنا إلى الأزهر قد استرعى أنظار كثير من الناس وحرك ألسنتهم بالنقد، وتناقل الأزهريون فيما بينهم هذا الحديث ونقل إلينا عنهم من وجوه متعددة.

ومع أنني لا أجد في الأمر ما يجدون من دواعي الاستنكار فإنني شعرت بشيء من التأثر أحلله في نفسي فأراه يرجع إلى التألم من التعرض لذم الجمهور فيما له مساس بالآداب المحترمة بينهم.

كلا، لم أحسن التعبير ما في نفسي، فإن أكثر ما أشعر به يرجع إلى رقة يبعثها الإشفاق من إيلام الناس في إحساسهم الديني أو المقدس عندهم تقديس الدين.

وعلى الحالين، فإن ضعفى أمام كلام الناس فى عمل لا أنظر إليه كما ينظرون دليل على أن حظى من الرسوخ فى مبادئى يحتاج إلى تمحيص فى ميدان العمل بتلك المبادئ.

أنا من الداعين إلى إصلاح شأن المرأة عندنا، المعتقدين بأن آراءنا وعاداتنا فيما يتعلق بالنساء تحول دون كل تقدم نريد أن نصل بالأمة إليه.

ومع شيوع هذه الدعوة بين معظم الشباب المصري المتعلم فإن كل حركة إلى تحقيق هذه الأماني تلقى من الناس ما تلقى البدع، لأن دعوة الإصلاح لاتزال بيننا أضعف من أن تغلب الناس على تهيبهم لمس القديم».

بل نجده يعود ليصور الاختلاف في درجة الإقدام على الفعل بينه وبين علي بعد أن عاد الشقيقان إلى مصر وقد اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فيكتب بتاريخ ١١ فبراير ١٩١٥ من مسقط رأسيهما بأبو جرج:

«سافر علي إلى مصر بعد ظهر اليوم ليتولى بنفسه العمل فى مسألة (الجريدة) بعد أن كان فى أول الأمر يعدني أنا لهذا المركز ولما يئس من تحريك رغبتي قويت فى نفسه الفكرة وتحفز لها بجد حتى صار يختار العاملين معه ويعد لكل عامل عمله مصمما العزيمة على أن يشتغل بالإدارة أو بالتحرير بصفة رسمية. وقد أعجبتنى من أخي تلك الطريقة فى المضى إلى رغائبه مسرعا غير معط للنظر الفكرى إلا بمقدار ما يرمى السائر بنظره إلى الجهة التي يتوخاها.

ولو كنت مكانه لاحتاج انعقاد عزيمتي بمثل ما صمم إلى إسراف فى التدبر يذهب بحرارة الهمة الأولى فى جدتها ويضيع بعض الزمن».

وقد يكون مما تكتمل به الصورة أن نورد تقدير مصطفى لموقع عليّ عبدالرازق فى الإطار الأوسع للأشقاء مجتمعين كما جاء فى مذكراته بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٩١٤ حيث يقول:

«وصل أخي عليّ مغرب اليوم من غير أن يؤذننا بحضوره فلم ينتظره أحد فى المحطة ولم ندر إلا وهو بيننا، على أننا كنا نقدر مجيئه فى هذا النهار.

جمعيتنا محتاجة إلى ما فى علي من رزانة وحسن تصرف في شئون الحياة فموضعه بيننا موضع عامل ذي أثر.

نحن صنوف من الطبائع والميول ويخيل إليّ أن تمام الانسجام يحتاج إلى وجود عليّ فى مجموعتنا يكمل به عنصر لا يستغنى عنه بغيره.

وكذلك أحس الليلة براحة وطيب نفس، وأرجو أن يتهيأ لنا حظ جديد من السعادة العائلية باعتبارنا مجموعا عائليا».

***

ولأنني أخشى أن يمضي بنا سياق الحديث حتى يضيق الوقت وتفرغ السطور فسوف أحاول أن أجيب الآن على تساؤل يدور بأذهان الكثيرين إذا أتى ذكر الشيخين، ألا وهو: ما السبب فيما يبدو كسمة مشتركة بينهما من ندرة آثارهما المكتوبة إذا قورنا بكثيرين من أبناء جيلهم من المفكرين والمصلحين. وفى تقديرى أن السبب ليس واحدا بل أسباب، بعضها يتعلق بما أسلفنا من انتمائهما القوى إلى أسرة مترابطة لها تقاليدها المتوارثة ولها

عائلات ثقافية

دورها السياسي والاجتماعي في الريف والحضر والتزام أبنائها بما يفرضه هذا الدور من اعتبارات قد تتعارض أحيانا مع منازعهم وآرائهم الفردية.

وليس السبب الآخر ببعيد عن هذا الالتزام العائلي، فتجربة علي عبدالرازق عندما نشر كتابه «الإسلام وأصول الحكم» ولم يكن وقتها قد بلغ الثلاثين من عمره، قد أثبتت في وقت مبكر أن تداعيات نشر آراء جديدة في مجتمع لم يكن مستعدا بعد لتقبل التجديد لا يمكن أن تقف بسبب الانتماء الأسري والحزبي لصاحبها، عند حدود قضايا الفكر وحرية الرأي بل لابد من مضاعفات سياسية أدت إلى حالة الكتاب إلى نشوب أزمة وزارية انتهت بسقوط الحكومة القائمة وباقي القصة معروف للقراء.

وربما كانت تجربة مصطفى عبدالرازق ذاته أسبق على تجربة شقيقه في مواجهة المناخ السياسي الذي كان سائدا وقت عودته إلي مصر عام ١٩١٤ فنجده يسجل بمذكراته بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٩١٤:

«كنت بالأمس أتحدث في الشئون السياسية الحاضرة مع علي باشا شعراوي وطلعت بك حرب وأخي حسن، فقال لي الأول: خفف من حدة لهجتك ويحسن بك أن تسافر إلى البلد وتقضي هذه الأيام في الريف.

وسمعت اليوم من طلعت بك وأخي حسن أنهما كانا عند الأمير حسين كامل فذكرني مرارا بذكر حسن وأشار إلى أنني أتطرف في القول.

ومن العجيب أنني أبوح بآرائي السياسية المتطرفة - إن صح أن لي آراء من هذا الطراز - بين من لا تعرض لي شبهة فيهم.

فياليت شعري هل فسد الناس جميعا في هذا البلد؟».

إلا أنه لابد أن نكمل للإنصاف أن ذلك مجرد جانب من الإجابة على السؤال والجانب الآخر يتعلق بما إذا كانت ندرة الأثر المكتوب تعني التوقف أو الإحجام جملة عن المشاركة في حركات الإصلاح السياسي والثقافي والاجتماعي التي كانت تشهدها مصر في النصف الأول من القرن الماضي؟.

والواقع يشهد أنه على العكس فإن الاستغراق في كل نواحي هذا النشاط كان بالنسبة لمصطفى عبدالرازق عائقا عن أن يفرغ نفسه ولو لدقائق أحيانا ليدون مذكراته اليومية التي اعتاد أن يخطها في أواخر كل يوم بانتظام منذ عام ١٩٠٩.

فإذا أضفنا إلى ذلك نظرته الخاصة المدققة إلى الكتابة ووظيفتها والتي أتركه يعبر عنها بقلمه فيما دونه بمذكراته بتاريخ ١٤ أبريل ١٩١٤ حيث يقول:

«أخاف أن يغلب على أسلوبي الكتابي نزوع جماعة اللفظيين بحيث تكون بهجة ما أكتبه لفظية أكثر مما هي معنوية وهذا العيب الكتابي شائع عند قومنا حتى لتجد بين الأذكياء منا من يرى قيمة البلاغة كلها في اختيار الألفاظ وكنت أنا نفسي في حداثتي أجري بالرغم عني في هذا التيار،

أنظر إلى ديباجة القول من قبل أن أمتحن معانيه ثم ارتقى ذوقي الإنشائي قليلا فصرت أشعر بأن الجمال اللفظي ليس إلا زينة لحسن المعاني ودخل في أماني العلمية أن أعدل ذوق قومي من هذه الجهة.

شعرت كما قلت بأن ما نفهمه من معنى البلاغة ليس صحيحا ولكنني أشفق من أن يكون للرأي السائد عندنا أثر خفي في ذوقي ولهذا أريد أن أراعي من نفسي هذه النزعة وأعنى بتهذيبها، وسآخذ بذلك في هذه الصحائف».

والحق إنك لا تجد تجمعا من التجمعات الفكرية أو التعليمية أو الإصلاحية مما يعرف الآن بالجمعيات الأهلية أو غير الحكومية إلا وكان مصطفى عبدالرازق شريكا فيه، حتى أنه كان يتلقى وهو بعد يدرس بفرنسا، من أصدقائه في مصر دعوات لقبول المشاركة في مثل هذا النشاط عند عودته، ومثال ذلك ما يدونه بمذكراته بتاريخ ٢٥ فبراير ١٩١٤، وكان وقتها مازال بليون:

«وصلني رقيم من هيكل وكامل حسين وطه حسين ومنصور فهمي ومحمود عزمي يبلغونني فيه أنهم اجتمعوا مرتين للمفاوضة في إنشاء مجلة علمية وكنت أنا أول من فكروا فيه للاشتراك معهم ويسألونني رأيي.

كتبت إليهم شاكرا لهم تفكيرهم فيَّ عند اجتماعهم لعمل جليل هو من أكبر أمانيَّ وقلت لهم أنني أعرفكم أفرادا ولي فيكم ملء الثقة فإن وثقتم من أنفسكم جماعة فإني معكم».

ولا يأت عام ١٩١٨ أي بعد سنوات أربع من عودة مصطفى عبدالرازق من فرنسا إلا ونجده يدون في مذكراته بتاريخ يونيه من ذلك العام:

«يقول بعض أصدقائي عني أنني برزخ بين رجال الدين وبين الناشئة الحديثة وعسى أن أحقق بقدر ما أضحيه من ذاتي صلة بين القديم والحديث تمحصهما جميعا حتى يبقى ما هو خير للأمة في رقيها المنشود».

وأعتقد أنني لست بحاجة لأن أعيد الحديث عن صالون أولاد عبدالرازق بحي عابدين ودوره كندوة أدبية وثقافية وسياسية أمدت النهضة المصرية في النصف الأول من هذا القرن بروافد من الحيوية والرقي والتجديد ولا كدور الشقيقين كقطبي الرحى في تلك الندوة وإلا لاحتجت إلى أضعاف هذه الصفحات.

لم يبق لي إلا أن أضيف أنه بالنسبة لعلي عبدالرازق الذي قال كلمته في وقت مبكر من حياته وتحمل في سبيلها ما تحمل فلقد شاء الله إلا أن يمد في حياته حتى رأى العروش تتهاوى في مصر وبعض أقطار العالم الإسلامي وتقوم محلها نظما جمهورية لا تشبه من قريب أو من بعيد نظام الخلافة، حتى وإن أضيف إلى بعضها لقب الإسلامية ولم ترتفع لقيامها أصوات احتجاج ولا عقدت محاكمات ولا أتهم أحد في دينه.

وكأني بالشيخ الحكيم يتمثل وقتها فيما بينه وبين نفسه بقول الشاعر العربي القديم:

نصحتكمو أمري بمنعرج اللوى
فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد. ■

عقدة الخواجة.. (٢/٢)
عند المصريين

بقلم
د. جلال أمين

من المفيد أن نذكر أنفسنا بأن عقدة الخواجة عند المصريين (أى شعورهم بالدونية إزاء الأوربى أو الأمريكى) ليست شيئا عريقا فى القدم، بل ظاهرة لا ترجع أكثر كثيرا من مائة عام.
فأنا لا أشك مثلا فى أن جدى لم يكن يعانى من هذه العقدة على الإطلاق، بل ولا حتى أمى. نعم، لابد أن المرض قد أصاب أبى بدرجة أو بأخرى، وأنه انتقل منه إلى والى بقية إخوتى، بل لعله انتقل أيضا منى إلى أولادى. ولكن القصة تحتاج إلى بعض التفصيل.

الهلال
محرم ١٤٢٣هـ - أبريل ٢٠٠٢م

لقد ولد جدى لأبى فى منتصف القرن التاسع عشر، أى قبل بداية الاحتلال الانجليزى لمصر بنحو ثلث قرن. كانت واقعة الاحتلال صدمة كبيرة بالطبع له ولجيله من المصريين، إذ لم يصدقوا أن هؤلاء «الكفرة» يمكن بهذه السهولة أن يوطدوا أقدامهم فى بلد مسلم، وأن يفرضوا إرادتهم على شعب يؤمن بالله ورسوله، ويدين بالولاء والطاعة للسلطان المسلم فى استانبول. لم يجد جدى تفسيرا لما حدث إلا خروج المصريين على قواعد الدين الصحيح وتنكرهم لما فرضه الله عليهم من واجبات، فجاء عقاب الله لهم فى صورة تمكين

الانجليز منهم. كان الأمر في نظر جدي سهلا وواضحا ولا يقبل المناقشة. فعندما تجـرأ أبي مـرة وسـأله «وهل هؤلاء الانجليز مطيعون لله حتى ينصرهم علينا ويمكن لهم في بلادنا؟» زجره جدى ولم يجب .

ولكن من المؤكد أيضا أن جدى لم يفقد للحظة واحدة ثقته بأنه هو وقومه أفضل وأرقى من هؤلاء الخواجات الذين ، وإن كانت في أيديهم البنادق والمدافع، لا يفضلوننا في أي شئ آخر. بل إنه وقومه أسعد حظا من الانجليز إذ ولد هو وقومه مسلمين ولم يولد الانجليز كذلك.

ليس من الصعب تفسير هذه الثقة التامة بالنفس عند جدى. نعم، لقد كان لدى الانجليز القوة العسكرية وتوفرت لديهم السيطرة على مقدراتنا، كما أن مستوى معيشة الأوربيين كان أعلى بلا شك من مستوى معيشة المصريين، حتى في أيام جدى، ولكن ما الذى شاهده جدى من مظاهر هذه القوة والسيطرة خلال حياته؟ وكم شهد من وسائل الراحة وبحبوحة العيش التى كان يتمتع بها الأجنبي؟ وما الذى رآه من آثار التقدم العلمي والتكنولوجي ؟

لقد ظلت نسبة المصريين الذين يتصلون اتصالا مباشرا بالأجنبي، خلال الجزء الأكبر من حياة جدى، أي منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب العالمية الأولى، ضئيلة للغاية، لا يمكن أن تكون أكبر من ٢٪ أو ٣٪ من إجمالي السكان، بالنظر إلى قلة عدد الأجانب الوافدين إلى مصر في ذلك الوقت وتركزهم في المدن الكبرى . طبعا كان للسياسة الاقتصادية التي فرضها الاحتلال الانجليزى على مصر آثار مهمة على حياة جميع المصريين . ولكن هذا شئ والمعاينة المباشرة والاتصال الشخصى شئ آخر . نعم، كان جدى متعلما ولكن تعليمه ، مثل تعليم الغالبية الساحقة من المتعلمين المصريين في ذلك الوقت، كان تعليما دينيا وأزهريا، وكان هذا يمنع جدى، كما كان يمنع أغلبية المصريين من التعرض لأى شك في عقيدته أو نمط حياته .

أما عن التكنولوجيا ، فما الذى عرفه أو سمعه عنها جدى؟ إنه لم يسمع الراديو إلا عاما في أواخر حياته ، ولم يعرف التليفون ولا رأى في حياته فيلما سينمائيا، ولا كانت قراءة الصحف قد أصبحت عادة يومية، وقد عاش معظم حياته بدون مصباح كهربائي. وهو وإن كان ركب الترام فقد كان في الجزء الأكبر

من حياته تراما يجره حصان، وكان ركوب القطار يعتبر في حد ذاته حدثا خطيرا. وغني عن البيان أن جدى لم يغادر مصر قط، فلم ير كيف يعيش الأجنبي في بلاده، ولا قابل أحدا ممن كان يمكن أن يصف له ذلك .

ولكن بصرف النظر عن هذا كله، ما الذي كان يعرفه الأجنبي نفسه من كل هذا قبل وفاة جدى في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين ؟ لقد كان الكثير من وسائل الراحة ورغد العيش الشائعة الآن مجهولا للأجنبي نفسه. ومعظم ما كان معروفا منها كان استخدامه مقصورا على نسبة ضئيلة للغاية من الأجانب أنفسهم ، حتى في داخل بلادهم . فمن أين كان يمكن أن تأتي عقدة الخواجة ؟

أمي وعقدة الخواجة !

كانت حال أمي – فيما يتعلق بعقدة الخواجة، قريبة جدا من حال جدى. كانت أمي امرأة «تقليدية» بمعنى الكلمة، لاتعرف عن الغرب إلا أقل القليل، ولم تتمتع بأكثر كثيرا مما تمتع به جدى من وسائل الراحة والترفيه. إنها لم تسافر غربا أو شمالا إلى أبعد من مدينة الاسكندرية، ولم تعرف من اللغات الأجنبية إلا ست أو سبع كلمات انجليزية كلها على وزن واحد (cat, rat, sat, fat) لم تكن تقولها إلا ضاحكة ومن باب السخرية بنفسها ولكن دون أن تشعر بأى نقص حقيقي بسبب ذلك.

إني أستطيع أن أجزم بأنها مثل جدى لم تكن تشعر قط بأى شعور بالدونية إزاء الأجنبي، وإن كانت أيضا لم تشعر بأنها أفضل من الأجانب . فمثلا عندما تزوج أحد إخوتي الكبار من فتاة نمساوية وأتى بها إلى مصر لم ألاحظ من أمي أى شيء يدل لا على الشعور بأنها تفضل هذه المرأة الأوربية أو بأن هذه المرأة الأوربية أفضل منها. كانت فقط تعبر عن إشفاقها على هذه الفتاة القادمة من أوربا لتعيش في مصر إذ اضطرت إلى الابتعاد عن أمها المقيمة بالنمسا، أو بالأحرى كانت أمي تشعر بالاشفاق على تلك الأم النمساوية التي سافرت ابنتها بعيدا عنها .

البرد والسمن البلدى

ربما كان الشيئان الوحيدان اللذان

كانا يعيبان الغرب فى نظر أمى هما: أولا البرد الشديد، من فرط الشكوى التى كانت تسمعها من ابنها الذى سافر للدراسة هناك، وثانيا عادة الأوربيين القليلين الذين صادفتهم فى مصر فى طهى الطعام بغير استخدام السمن البلدى الذى اعتادت هى استخدامه، مما كان ينتج عنه فى رأيها تدهور ملحوظ فى لذة الطعام الذى يتناوله الأجنبى، (أو «طعامته») بل وتدهور أيضا فى مستوى التغذية والصحة . فيما عدا هذين الأمرين أظن أن شعور أمى نحو الأوربيين أو الأجانب بصفة عامة لم يكن يختلف عما عبر عنه الراوى فى رواية الطيب صالح المشهورة (موسم الهجرة إلى الشمال) عندما عاد من أوربا إلى قريته السودانية وسأله أهل القرية عما إذا كان حال الأوربيين أفضل من حالنا، فكانت إجابته أنهم : «مثلنا تماما . مولودون ويموتون وفى الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلاما بعضها يصدق وبعضها يخيب» .

عقدة الخواجة عند أبى

كان أبى، الذى عاش حتى منتصف القرن العشرين، معرضا لاهتزاز ثقته بنفسه بأكثر بكثير مما كان جدى معرضا له . لقد دخل الراديو بيته ، وكذلك الثلاجة الكهربائية (وإن كان دخولها بعد أن بلغ الستين من عمره) . وركب أبى الطائرة، (وإن كان هذا لم يحدث أكثر من مرتين وبعد أن بلغ الستين أيضا) . وقد رأى الانجليز والفرنسيين والهولنديين فى بلادهم ، ورأى بعينيه معنى أن يكون البلد صناعيا ، وإن كان هذا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما كان هؤلاء جميعا مازالوا يدفعون ثمن الحرب ويعيدون بناء ما دمرته ، ولا يحصلون على بعض السلع إلا بالبطاقات . الأهم من ذلك أن نسبة المصريين الذين أصبحوا على اتصال مباشر بالأجنبى فى داخل مصر ، أو على الأقل بنمط حياة الأجنبى، كانت قد تضاعفت عدة مرات بين بداية القرن العشرين ومنتصفه . لم يكن هذا فقط بسبب الزيادة السريعة فى أعداد الأجانب المقيمين والعاملين فى مصر، بل وأيضا بسبب نمو الطبقة المتوسطة المصرية التى كان لديها أكثر من سبب للاتصال بالأجانب، فى البيع والشراء، وفى البنوك والشركات، وفى المدارس والجامعات، وفى النوادى الرياضية وأماكن الترفيه،

الخ وقد رأوا من الأجنبي في كل هذا ما يبهر العين ويسحر القلب . رأوا طريقته في عقد الصفقات ، وشاهدوا عاداته في الجد واللهو. وإذ اقترن كل هذا بمستوى أعلى من المعيشة والقدرة على فرض إرادته على المصريين زاد الإعجاب والتقدير ، وإن اقترن بالغيظ والغضب المكبوت . بل لقد بلغ الأمر بأبي، وهو يصف مدرسا للغة العربية أعجب به وهو في الثامنة عشرة من عمره ، أن قال عنه في كتابه (حياتي) بعد أن أثنى عليه ثناء جما، أن «تلاميذه كانوا يسمونه الشيخ الانجليزي ، لترفعه وحريته ، وصدق قوله وسعة فكره» .

التعليم وعقدة الخواجة

لابد أن نوع التعليم الذي تلقاه أبي بالمقارنة بما تلقاه جدي، كان له أثر بالغ العمق على شعوره نحو الأجنبي، مما ساهم بلا شك في نمو عقدة الخواجة لديه . ولا يمكن أن يعفى جدي تماما من المسئولية عن ذلك . نعم لقد كان جدي محصنا حصانة شبه كاملة ضد الشعور بعقدة الخواجة، ولكن يبدو أن بعض الشكوك بدأت تعتريه فيما إذا كان ما تلقاه من تعليم هو أفضل أنواع التعليم لابنه أيضا. لابد أنه كان قد بدأ يسمع عن افتتاح مدارس حديثة تعلم ، إلى جانب أصول الدين وقواعد اللغة العربية وبعض الحساب، علوما «عصرية» قد تكون ثمة فائدة من الإلمام بها بما في ذلك خدمة الدين نفسه . فإذا بجدي يسأل كل من يتوسم فيهم الحكمة وسداد الرأي عما إذا كان من الأفضل أن يرسل أبي إلى هذا النوع الجديد من المدارس أو يرسله إلى نفس ما تعلم فيه هو من معاهد. وحيث إنه سمع من هؤلاء كل الآراء الممكنة فإنه أخذ يخرج أبي من أحد النوعين من المدارس ليلحقه بالنوع الآخر . ثم يعيده مرة أخرى إلى النوع الأول. وكان هذا يعني، فضلا عن تخبط أبي واضطراب تعليمه في سنواته الأولى اضطرابا شديدا ، اضطرار أبي إلى تغيير ملابسه المرة تلو المرة، من الزي الأزهري من جبة وقفطان إلى الزي المدني من قميص وبنطلون ثم بالعكس، مما أثار سخرية بعض رفاقه منه خاصة ممن كانوا يدرسون بالمدارس الحديثة، إذ رأوه في أحد الأيام وقد خلع الزي الأوربي وارتدى

الجبة والقفطان وهو ما زال صبيا صغيرا. وقد تركت هذه السخرية ألما في نفسه، وربما كانت هذه هي بداية عقدة الخواجة لديه.

كانت هذه الصدمة الأولى تتعلق بشيء مادي بحت، وهو الزي، ولكن الأهم من ذلك، هو ما تعرض له أبي من صدمات «فكرية» بحتة. كان من أكبر هذه الصدمات اكتشافه أن من الممكن جدا أن يكون ما كتبه بعض المستشرقين «الخواجات» عن تاريخ الاسلام أفضل مما كتبه كثيرون من المؤرخين المسلمين. ويحكي أبي قصة هذه الصدمة الجديدة على النحو التالي:

«ويوما قابلت صديقي، وجلسنا في مقهى، وذهب الحديث فنونا إلى أن وجدته يقول إنه عثر على كتاب انجليزي قيم لمستشرق أمريكي اسمه ماكدولاند (واسم الكتاب Theology of Islam).

وأنه قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام، قسم يتعلق بنظام الحكم في الإسلام، وقسم في تاريخ الفقه الإسلامي، وقسم في المذاهب والعقائد الإسلامية، وأخذ يطري الكتاب ويحكي بعض آرائه فاستفزني الموضوع وقلت: هل تستطيع الآن أن تذهب معي إلى مدرسة (برليتز) لأرتب دروسا لي في الانجليزية؟ فقبل. وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب بلغته».

مرت سنوات كثيرة على هذه الصدمات المتتالية، ولابد أن أبي قد واجه بعد ذلك الكثير من الصدمات المماثلة، ولا شك أنه حاول بقدر ما استطاع أن يتكيف معها. فهو يتعلم الانجليزية ولكن يبقى على ولائه واحترامه للغة العربية. ويستخدم المنهج العلمي في بحث تاريخ الإسلام ولكن يبقى على إيمانه وإخلاصه لتعاليم دينه. ويقوم بتدريس الأدب العربي في كلية الآداب ولكنه يخلع الزي الأزهري مسايرة للمناخ العام في هذه الجامعة الجديدة (جامعة فؤاد الأول أو القاهرة الآن) التي تتخذ الجامعات الأوربية مثالا وقدوة.

ولكن على الرغم من كل هذه المحاولات الدوب للتكيف والمواءمة، لا أظن أن أبي قد استطاع أن يتخلص تماما من عقدة الخواجة. لقد دخلت الجرثومة في جسمه فلم ينج منها مثلما نجا منها جدي ونجت منها أمي. وقد انتقلت العدوى منه إلي وإلى بقية إخوتي. ولعلها انتقلت أيضا إلى جيل أولادي، ولكن هذه قصة أخرى.

عن مجمع اللغة العربية
وغياب المرأة...

بقلم
وديع فلسطين

يواصل مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى اوائل الشهر الحالى مؤتمره السنوى الذى يشهده أعضاؤه الدائمون وأعضاؤه المراسلون من عرب ومستعربين للتداول فى موضوع المعاجم، وهو ما أوحى الىّ بأن أدير القسم الأول من هذا الحديث عن المجمع الذى بلغ الآن من العمر واحدا وسبعين عاما منذ انشائه فى عام ١٩٣٢.

هناك تعبير جديد خرجت به علينا منظمات الأمم المتحدة وهو «إعادة الهيكلة» وهو وإن انصرف الى ميدان الاقتصاد بما يقضى باعادة تشكيل مؤسساته والقواعد المنظمة لها تحقيقا لأنجع النتائج، الا أنه يصلح ايضا للنظر فى أوضاع الهيئات العلمية والثقافية لاكسابها مزيدا من الفاعلية والقدرة على أداء الرسالة المنوطة بها.

وليأذن لى أساتذتنا الكبار من أعضاء مجمع القاهرة - ولو بحكم زمالتى المتواضعة لهم كعضو مراسل فى مجمع دمشق وعضو مؤازر فى المجمع الأردنى - أن أسوق بعض المقترحات التى أعتقد أن من شأنها تعظيم قدرة المجمع على النهوض بالتبعات العلمية الجسام المسندة اليه فى ضوء نظرية «إعادة الهيكلة».

فعندما كان عدد السكان فى مصر ثلاثين مليونا أو نحو ذلك، رُئى أن يكون عدد الأعضاء المصريين الدائمين فى المجمع ثلاثين عضوا، ويبقى هذا الوضع متجمدا الى يومنا الى هذا بعدما وصل عدد السكان الى ما يقرب من سبعين مليونا، فغدا العدد الحالى للمجمعيين غير متناسب مع عدد السكان مع تزايد عدد العلماء الذين تؤهلهم مكانتهم العلمية لدخول المجمع، ولكنهم يبقون مع ذلك



د. عائشة راتب



د.فرخندة حسن

خارجه بسبب هذا العدد المحدود من الأعضاء. وفى اعتقادى انه بات حتما تغيير قانون المجمع بحيث تتسع دائرته، وذلك بمضاعفة عدد اعضائه الحاليين نشدانا لضم الكفاءات التى مازالت شبه مطرودة من عضوية المجمع .

وحبذا أن ينص القانون الجديد على أن يكون شغل أى مكان بشغر فى عضوية المجمع حجراً على نفس التخصص الذى كان يحمله العضو الراحل، بمعنى أنه اذا شغر مكان كان يشغله عالم فى الطب، اختير لخلافته عالم فى الطب، وهكذا يحل فيزيائى محل فيزيائى واستاذ لغة محل أستاذ لغة وهكذا، مراعاة لاستمرار التنوع فى الاختصاصات داخل المجمع، فلا يتغلب تخصص معين على تخصصات أخرى مطلوبة.

ومما يلاحظ أن المجمع بتشكيله الحالى يخلو من تخصصات لها أهميتها فى الحياة، وهى علوم الفضاء والذرة وعلوم البحار والصحافة والفنون المختلفة وعلوم الاتصالات وعلم النفس، وكلها علوم لايصح أن تبقى بمعزل عن المجمع .

وثمة ملاحظة تتعلق بغياب المرأة عن عضوية المجمع. لقد كان مجمع اللغة العربية بدمشق من أسبق المجامع الى فتح الباب أمام عضوية المرأة فانتخب استاذة التاريخ الدكتورة ليلى صباغ ضمن أعضائه العاملين كما اختار الأستاذة المصرية الدكتورة وفاء كامل فايد والسورية الدكتورة فاتن حجازى ضمن أعضائه المراسلين. ولم يتخلف المجمع العلمى العربى العراقى بدوره عن ضم المرأة الى عضويته، فاختار سيدة لتكون ضمن أعضائه العاملين .

أما مجمع القاهرة فمازالت أبوابه موصدة أمام المرأة، وعندما رشحت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى انتخاباته الأخيرة، لم تظفر بالنصاب القانونى الذى يؤهلها للعضوية مع أن فى مصر كثيرات تتوافر فيهن مؤهلات العضوية اذكر منهن الدكتورة عائشة راتب استاذة القانون والوزيرة والسفيرة السابقة والدكتورة فينيس كامل جودة وزيرة البحث العلمى السابقة والدكتورة هدى وصفى استاذة اللغة الفرنسية فى الجامعة والدكتورة فاطمة موسى استاذة اللغة الانجليزية بالجامعة والدكتورة فرخندة حسن أستاذة علم الجوامد بالجامعة الامريكية والدكتورة مديحة خطاب عميدة كلية

الطب بجامعة القاهرة والدكتورة أميرة مطر أستاذة علم الجمال بجامعة القاهرة وغيرهن.

ومن المفارقات انه فى حين يمتنع على المرأة المصرية دخول المجمع بين أعضائه، فإن الجهاز الادارى للمجمع يضم نسبة كبيرة من السيدات .

الشاعر خليل جرجس خليل

توفى فى الولايات المتحدة مؤخرا الشاعر المصرى الصعيدى خليل جرجس خليل عن ثمانية وثمانين عاما، فهو من مواليد ٨ نوفمبر ١٩١٥ وجاء مولده فى مدينة المنيا التى استكمل فيها دراسته الثانوية ثم نزح الى القاهرة فى الاربعينيات حيث عمل فى عدة صحف منها مجلة «الدنيا الجديدة» التى كان يحررها عبدالمنعم حسن. وقد عرفت الشاعر عندما اتصل بى فى عام ١٩٤٥ مبديا رغبته فى انشاء رابطة للأدباء، فرحبت بفكرته من حيث المبدأ ولاسيما عندما علمت منه ان الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى (١٨٩٨ - ١٩٥٣) قد وافق على الانضمام اليها وانه يسعى الى ضم آخرين من أدباء تلك الفترة. وقد نجح فعلا فى عقد اول اجتماع للرابطة فى بيت متهالك فى شارع شبرا، واسفر الاجتماع عن انتخاب الدكتور ناجى رئيسا لرابطة الادباء وانتخابى وكيلا لها وانتخاب خليل سكرتيرا لها، وظل هذا التشكيل يحظى بثقة الاعضاء سنويا الى أن انفضت الرابطة فى عام ١٩٥٢. وشارك خليل بعد ذلك فى تأسيس رابطة الأدب الحديث بدعوة من محمد ناجى وهو شقيق ضرير للدكتور ابراهيم ناجى، واختير لرياستها الناقد مصطفى عبداللطيف السحرتى (١٩٠٢ - ١٩٨٣) وخلفه أستاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى اطال الله بقاءه.

وكان الشاعر خالد الجرنوسى قد أنشأ رابطة شعراء العروبة التى كانت تجتمع شهريا فى جمعية الشبان المسيحية، فلما توفى خلفه الشاعر عبدالله شمس الدين (١٩٢١ - ١٩٧٧) وآلت رياستها بعد وفاته الي خليل جرجس خليل الذى بقى يضطلع بهذه المهمة الى أن قرر الهجرة الى امريكا للحاق بأنجاله الذين سبقوه إلى هناك. أما عمله الدائم الذى استمر طويلا، فهو رياسته لتحرير مجلة «صوت الشرق» الهندية بعد وفاة محررها الأول أحمد قاسم جودة فى ١٧ فبراير ١٩٦٦ وحوّل هذه المجلة من نشرة للدعاية الهندية الى مجلة ادبية يكتب فيها كثيرون من الادباء والشعراء.

اصدر خليل ديوانه الأول عام ١٩٣٩ بعنوان «الصيدح» وفى عام ١٩٥٨ اصدر


خليل جرجس خليل


محمد عبد المنعم خفاجي

ديوانه الثانى أيام عشناها» بمقدمة للشاعر عزيز اباظة (١٨٩٨ - ١٩٧٣) وترجم ديوان شعر عن هانز كريستيان اندرسن بعنوان ملحمة الاسرار) - حكمة الله) وله ديوان من الشعر الاخلاقى والدينى عنوانه «محفليات العهد الجديد». وترجم «أقاصيص من الهند» نشرت بمقدمة لعباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) و«مسرحية تشيترا» التى ترجمها عن الشاعر رابندرانات طاغور .

كان خليل جرجس خليل يقيم فى جزيرة بدران بدوران شبرا، وهى منطقة ما من مرة زرتها الا خضت فى الاوحال حتى فى غير مواسم الامطار. ولهذا كنت من اكبر المحمسين له على الهجرة الى امريكا ولو تغييرا لهذه البيئة الكئيبة التى تكتنفه من كل جانب.

وعندما أصدر خليل ديوانه «أيام عشناها» كان قد حطم الاربعين من العمر، وعجب كيف سرقته الأيام فلم يحس بها وهى تنسل من حياته، فعبر عن ذلك فى قصيدة «وحى الأربعين» قائلا فى مطلعها :

الأربعون بلغتها بالله كيف بلغتها
أنا لست أذكر أننى صافيتها وأطقتها
ما كنت أنهى ساعة إلا حسبت المنتهى
وحمدت أنى ذاهب وعجبت أنى عشتها
هل فى الحياة مبرر للعيش؟ إنى ذقتها
سفر طويل والسبيل تروع ، كيف طويتها ؟
الأربعون بلغتها بالله كيف بلغتها ؟

ومما قاله فى هذه القصيرة الطويلة التى تذكرنا بلا أدريات الشاعر المهجرى إيليا أبى ماضى (١٨٨٩ - ١٩٥٧)

لى فى الحياة تجاربى ومتاعبى وبنون سبعه
يسرت خلقهمو باذن الله، هل أستطيع منعه؟

شدوا إلى عنقي فما من لقمة بد وجرعه
شحذوا قواى ووكنوا كدحي وأضحى الكدح شرعه
أنسوا إلى، وقد أنست بهم ، أأتركهم بلوعه؟.

إلى أن قال :

ما كنت استاني الردى إلا لدفع بني دفعه

كان خليل ممن ينطبق عليهم قول الشاعر:

أشكو اليك عيالاً لست أحصرهم   إلا بتثبيت عداد على الباب !

فأبناؤه السبعة أصبحوا ثمانية بعد مارزق بمولود جديد، فقلت له مداعبا : يا خليل، لقد انكسر البيت في قصيدتك، ولكن المهم الا ينكسر البيت الذى تقيم فيه .

وكأنما شاءت المقادير الاينكسر البيتان فقد فجع خليل في ابنته منى التى وصلت إلى السنة النهائية في كلية الهندسة عندما افترستها عجلات المترو، وجاء الوالد المكلوم يلملم أشلاءها

ومنذ هجرة خليل إلى أمريكا أنقطعت عنى أخباره إلا من نتف كنت أسمعها من بعض مراسليه أو من قصيدة يتيمة أو أثنتين نشرهما في «الأهرام» ولكنني صادفته من نحو خمسة عشر عاماً في أحد شوارع القاهرة، وكان بصحبة واحدة من بناته، ولم أصدق عيني تلقاء هذه المفاجأة : وسألته عن أحواله، فقال إنه الآن خبير في الكمبيوتر - الذى يسميه المجمعيون بالحاسوب - ولم يعد لديه وقت لترف الشعر وقال إنه برغم تجاوزه سن العمل في أمريكا، مازال يواصل الاشتغال في تخصصه بعدماأتقن اللغة الإنجليزية . وقا إنه في زيارة سريعة للقاهرة وسيعود فوراً إلى وطنه الجديد فودعته وتمنيت له الصحة والتوفيق .،

لقد توهم وهو في الأربعين أن الردى له بالمرصاد، ومع ذلك مد في عمره حتى أشرف على التسعين. ولابد هنا من أن أصحح ما قرأته مؤخراً من أن العقاد كان يطلق على خليل جرجس خليل عبارة « لوبيا فجل لوبيا » فالذى أعرفه من اتصالى بالعقاد وخليل أنه كان يعجب بشعره، بل جرت بينهما مطارحات في مناسبات اجتماعية، كما أن العقاد كتب مقدمة للأقاصيص الهندية التى ترجمها خليل، كما أسلفت ثم أن صلة خليل بجميع المشتغلين بالأدب كانت صلة طيبة، ولا يذكره عارفوه إلا بكل الحب والإعزاز والتقدير..

وصية الشاعر نزار قباني


نزار قباني


أحمد شوقي

مع أن الشاعر نزار قبانى (١٩٢٣ - ١٩٩٨) قضى معظم عمره بعيداً عن دمشق حتى بعدما هجر وظائفه الدبلوماسية، وتوهم الناس أنه مطرود من وطنه سورية أو مهاجر منه، مرة إلى بيروت ومرة إلى القاهرة، وأخيراً إلى لندن حيث استقر بها بصورة دائمة فإن دمشق لم تغب أبداً عن حياته وخاطره، وقد حياها فى إحدى قصائدة واصفا اياها بانها « كنز أحلامى وفاتنتى ودعا هذه الحبيبة إلى أن تستلقى على ذراعه ولا تستوضع السببا وفى قصيدة أخرى قال عن دمشق :

هذى دمشق، وهذى الكاس والراح
أنى أحب، وبعض الحب ذباح
أنا الدمشقى، لو شر حتمو جسدى
لسال منه عناقيد وتفاح
ولو فتحتم شراييني بمديتكم
سمعتم فى دمى أصوات من رحلوا

***

زراعة القلب تشفى بعض من عشقوا
وما لقلبى إذا أحببت جراح
ألا تزال بخير دار فاطمة
فالنهد مستنفر والكحل صداح
إن النبيذ هنا نار معطرة
فهل عيون نساء الشام أقداح ؟
مآذن الشام تبكى إذ تعانقنى
وللمآذن كالأشجار أرواح

وعندما تقرر إطلاق اسم نزار على أحد شوارع دمشق فى حى أبو رمانة فى منطقة المهاجرين بين شارعى أحمد شوقى والمهدى بن بر كة وصف نزار هذا الخبر

بأنه «هدية العمر، وهو أجمل بيت أمتلكه في تراب الجنة . فالسكنى في الجنة والسكنى في دمشق شئ واحد، الأولى تجرى من تحتها الأنهار، والثانية تجرى من تحتها القصائد والأشعار».. وفي الأسكندرية أيضاً أطلق اسم نزار على أحد شوارعها .

كان من الطبيعي إذن أن يكتب الشاعر وهو على فراش المرض في لندن وصية يتوق فيها إلى العودة بجثمانه إلى دمشق، وهى وصية وافاني بنصها الصديق الروائى السورى الدكتور عبد السلام العجيلى كما كتبها نزار بخط يده، وفيها يقول

« لندن ٢ تشرين الثاني ١٩٩٧

وصية

أنا الموقع أدناه الشاعر والكاتب العربي نزار توفيق قباني، أعلن وأنا على سرير المرض في لندن عن رغبتي في أن ينقل جثماني بعد وفاتي إلى العاصمة السورية دمشق ، ويدفن فيها في مقبرة الأهل فأرجو من جميع إخوتي وأهلي تنفيذ هذه الرغبة التي أعتبرها نهائية، لأن دمشق هي الرحم الذي علمني الشعر، وعلمني الإبداع، وأهداني أبجدية الياسمين.

وهكذا يعود الطائر إلى بيته، والطفل إلى صدر أمه.

نزار توفيق قباني

وقد حققت الدولة السورية وصيته، فأمر الرئيس حافظ الأسد بنقل جثمانه من لندن - حيث امتنع جامع لندن عن الصلاة عليه - إلى دمشق ووري الثرى في مشهد رسمى وشعبى لا يتكرر.

عود إلى موسوعات الأعلام

من آفات الاعتماد على الذاكرة النسيان، ولست أعفى نفسى من هذه الآفة، وإن كنت أحاول دائماً استدراك ما فاتنى.

وعندما تحدثت عن موسوعات الأعلام فى عدد ديسمبر الماضى من «الهلال» ذكرت شيئاً وفاتتنى أشياء، ومن الأمانة أن أقرر أن الأديب الأردنى أحمد العلاونة والأديب الكويتى فهد محمد نايف الدبوس قد نبّهانى إلى بعض ما فاتنى.

فمن الموسوعات التى ظهرت فى مصر «الموسوعة القومية» التى نشرتها وكالة أنباء

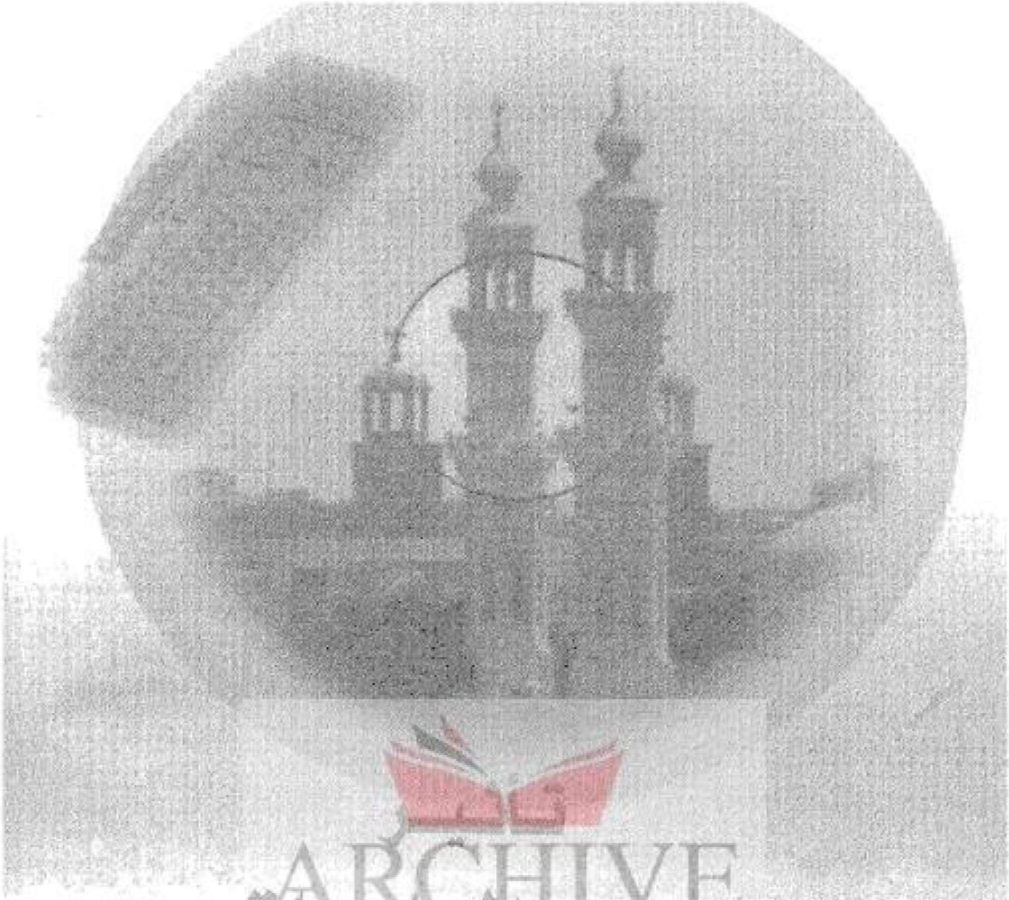

جرجي زيدان


ابراهيم المازني

الشرق الأوسط فى عهد مصطفى نجيب وموسوعة «المستشرقين» لنجيب العقيقى وله أيضاً موسوعة عن الأدباء ضمن الجزء الثانى من كتابه «الأدب المقارن» وموسوعة «أعلام الإسكندرية» وموسوعة «أعلام دمياط» للأديب نقولا يوسف وموسوعة «أعلام مضيئة فى تاريخ مصر» للدكتور مينا بديع عبد الملك وموسوعة «الأعلام الشرقية» لزكى محمد مجاهد وإن كانت نشرت مؤخراً فى بيروت.

أما الموسوعات الخاصة بالأعلام التى نشرت في البلاد العربية فهي «المعاصرون» للعلامة محمد كرد على وقد صنفها محمد المصرى، و«تتمة الأعلام» لمحمد خير رمضان وله أيضاً تكملة معجم المؤلفين «الذى أصدره عمر رضا كحالة، ولهذا الأخير معجم خاص بالنساء العربيات. وللأديب السورى عيسى فتوح موسوعة من ثلاثة أجزاء عن الأديبات العربيات، وثانية عن الأدباء المعاصرين. وللأديب السورى حسّان الكاتب «الموسوعة الصغيرة»، وللأديب العراقى جعفر الخليلى موسوعة صدرت بعنوان «هكذا عرفتهم» نشر فى حياته سبعة أجزاء منها ونشرت ابنته فريدة جزءاً ثامناً بمقدمة لروكس بن زائد العزيزى. ولأدهم آل الجندى موسوعة عنوانها «أعلام الأدب والفن» ولعبد القادر عياش السورى «معجم المؤلفين السوريين فى القرن العشرين». ولإبراهيم الحازمى موسوعة «أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجرى». وللأديب الكويتى خالد سعود الزيد «معجم أدباء الكويت فى قرنين». وللأديب العراقى المغترب مير بصرى موسوعة عنوانها «أعلام الأدب في العراق الحديث». وللأديب السعودى عبد الكريم الحقيل موسوعة «شعراء العصر الحديث فى جزيرة العرب».. ولجرجى زيدان مؤسس دار الهلال موسوعة «مشاهير الشرق» وقد تكون هناك موسوعات أخرى لا أعرف أخبارها.

وكان قد وقع تحريف فى اسم صاحب «قاموس المؤلفين في شرقى الأردن» وصوابه كايد مصطفى هاشم. ■



محرم ١٤٢٣هـ - ابريل ٢٠٠٢م

عصر المعلومات على الأديان

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إن ما يسمى عصر المعلومات نشر تأثيره بشكل تدريجى إلي مجال الدين ونعنى تحديدا فى الطرق والوسائل التى تستعملها الاديان للتعليم والهداية والإرشاد ومجمل انشطة

التحويل العقائدى وأيضا فى أنظمة المعتقدات وحدثت تطورات بارزة جدا تضمن فى الحقيقة إمكانية الفرصة لأى دين الآن للانتشار إلى ما بعد حدوده الوطنية وتسمح لحركات دينية جديدة وصغيرة فى القيام بأنشطة الهداية والإرشاد للتحويل من عقيدة إلى أخرى خارج الحدود الوطنية ويؤدى ذلك إلى تطورات دينية غير مرئية حتى الآن ومع الايقاع السريع فى الانغماس فى عصر المعلومات تنتج ظاهرة الآن يمكن أن نسميها عولمة الدين

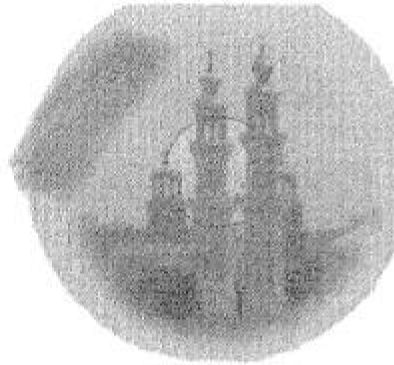
والكلام هنا عن الدين كظاهرة وليس الدين نفسه ولو أنه من المستحيل التخمين كيف ستتطور هذه العملية فى المستقبل لكن من الأرجح أن المعلوماتيه البينية ستنتشر وتوزع باستفاضة، وعلى نحو متزايد وبطرق مختلفة لم تكن معهودة وستتشكل أنماط جديدة من المؤسسات الدينية محتويات نشاطاتها وتعاليمها أكثر خبرة وتجربة وأكثر تمردا وتغييرا من قبل بهذا المعنى الاديان عموما ستواجه نقطة تحول كبيرة

لمناقشة هذه القضايا نبدأ بوصف شامل حول معنى عصر المعلومات بينما هذا التعبير يسمع فى أغلب الأحيان ، فهو يعكس مفاهيم لأشخاص مختلفين لهم مجالات متباينة من الاهتمامات الخاصة وبالتالى يختلف معنى عصر المعلومات وفقا لاهتمامات صاحبه وإذا امتد السؤال حول طبيعة المعلومات نفسها يصبح تورطنا فى الاجابة أكثر تعقيدا .

على أية حال لايمكن أن ننكر بأن بيئة المعلومات تغيرت بشدة على مدى السنوات العشرين الماضية ويمكن أن نبدأ مناقشتنا بالتذكير بالخصائص الرئيسية لهذا التغيير، أولا : بيئة المعلومات نعني بها طريقة توليد المعلومات وتحديدا الوسائل المادية مثل أجهزة الكمبيوتر وتكنولوجياتها وثانيا : المدى الجغرافي والاجتماعي لتوليد المعلومات، وثالثا : كمية محتوى المعلومات المتولدة وعلى ذلك فإن عصر المعلومات يشير إلى الاختلافات النوعية العظيمة التى حدثت فى طريقة توليد المعلومات واتساعها الجغرافى والاجتماعى وايضا في كمية ومحتوى المعلومات المتولدة بالمقارنة بالفترات السابقة وهذه التطورات كانت سريعة وثابتة لدرجة كان من المستحيل توقع أنواع التغييرات التى ستؤثر على مجتمعنا فيما بعد !

أساليب جديدة للاتصال

ولا يمكن إنكار ظهور أساليب جديدة للاتصال نجمت عن التطوير الهائل فى التقنيات واجهزة الإعلام الجديدة وكان لها تأثير حاسم على التغييرات الاجتماعية الحالية فالكميات الهائلة للمعلومات والتى يمكن أن تكون مرسلة الآن بصورة فورية ودقيقة وفى أشكال



متعددة وإلى مقاصد واتجاهات عديدة هذا التقدم التكنولوجي حتى الآن يغير نظمنا الاجتماعية ويمتد تأثير هذا التطوير حتما إلى الظواهر الدينية .

فالتغيير الحاسم في وسائل الاتصالات بواسطة اختراع الكمبيوتر وانتشاره الجماهيري والتطوير المذهل في ورسائل الميديا السمعية والبصرية مثل الأقمار الصناعية المذاعة والانتشار المستمر لأجهزة الميديا الشخصية مثل الهواتف النقالة جعلنا نعيش في عالم متعدد الوسائط أو المالتي ميديا التي تتسع وتنتشر الآن بسرعة متزايدة ومن أول النتائج التي لوحظت أن الجماعات الدينية المختلفة استعملت تكنولوجيا الاتصال الحديثة في أنشطة التحويل العقائدي مثل الدعوة والتبشير لعقائدها والكثير من المؤسسات الدينية الان توظف تلك الميديا الجديدة في انشطة الهداية والارشاد والميزة الأخرى لعصر المعلومات هي المدى أو النطاق الجغرافي والاجتماعي الجديد أو يسمى بوصول المعلومات ،وأحدث التنوع الشديد في المعلومات وانسيابها قلقا شديدا بين المهتمين بالسيطرة على المعلومات والتحكم فيها لأغراض سياسية أو اقتصادية وثقافية وأصبحت عمليات السيطرة تمثل عبئا ثقيلا جدا ويزيد على ذلك أن انفجار المعلومات جعل من معرفة كيفية جمع واستعمال المعلومات ذات العلاقة الأكثر بالموضوع المستهدف أكثر أهمية من معرفة كيفية مقابلة أكبر عدد من الناس وتعميق الثقة المتبادلة معهم وفي ضوء الرؤية السابقة لمفهوم عصر المعلومات، أصبحنا مجبرين على الاعتراف بأن عصر المعلومات مهد الطريق إلى تحويل عميق في الثقافة الإنسانية

حقائق جديدة

والكيانات الدينية تكافح الآن من أجل موازنة تقاليدهم الأصلية في أغلب الأحيان بالحقائق الجديدة لعصر المعلومات لكنهم في بعض الحالات يصرون على أهمية عمل الأشياء بالطريق التقليدي كما هو الحال مع قضايا الطلاق للمسلمين في مصر التي حكمت المحكمة بأن مراسيم الطلاق لا تسلم بالبريد الالكتروني بينما هناك آخرون حاولوا استعمال الفرص التي وفرتها التقنيات الجديدة في محاولة لتقوية مؤسساتها الحالية فقد بدأت كنائس ايرلندا الكاثوليكية بتجنيد الكهنة على الانترنت بعد أن واجهت نقصا في الكهنة فحرصت على توظيف التقنية لجذب شباب أكثر للتدريب ككهنة ،واصبح للعديد من الكنائس والمساجد والمعابد في الولايات المتحدة مواقع على شبكة الويب ووظفوا التجارة الالكترونية لجمع الأموال لنشاطاتهم الدينية وللأغراض الخيرية، وفي نفس الإطار

استغل المسلمون البريطانيون التليفون المحمول للأذان للصلاة وأذاعت وكالة رويتر في مايو ٢٠٠٢ في مدينة مشهد بشمال ايران حيث دفن الإمام رضا الإمام الثامن المتوفى عام ١٨١٧ م ويحج إلى هذه المدينة ٢ مليون مسلم شيعي سنويا ليزوروا قبره وقد أقيم أخيرا مركز للاتصالات لخدمة هذا العدد الضخم وقد رأى مندوب وكالة رويتر في التليفزيون المحلي عمالا يمسكون بسماعات التليفون من خلال النوافذ لكي يتمكن الراغبون من بث صلواتهم !!

الدين والإنترنت

توم بيودوين عالم ديني كاثوليكي ومؤلف كتاب الإيمان التخيلي (١٩٩٨) قال «الإنترنت دعوة للناس الشكاكة لتلقى كافة الإجابات عن أسئلتهم الدينية التي يريدون بها استكشاف جوهر الدين فقد استلم رسائل بريدية الكترونية في الساعة ٣ صباحا من ناس عمرهم ما دخلوا كنيسة في حياتهم» . السيد بيودوين قلق جدا من مواقع الأديان على الإنترنت يقول بأنهم يساهمون في جعل الدين مثل قوائم برامج الكمبيوتر تختار منها ما يفيدك أو مثل قائمة الطعام تختار منها ما يعجبك ! مجرد اختيار شخصي فالإنترنت توسع النطاق الجغرافي الذي يمكن أن تصل اليه الاديان ولكنها في نفس الوقت تعمل على تاكل جذور تلك الأديان ! وكل المعتقدات خلقت لها على الشبكة بيوتا روحية لكن بعض المواقع خلطت بين الصلاة والربح لقد أحدث الإنترنت تحولات كبيرة في الاستثمار والتسوق.والآن تؤثر على الكيفية التي يمارس بها الناس عقائدهم ! إن النجاح العظيم الآخر للإنترنت بأنّه يوصل بين الناس المتباعدين جدا، حيث تستعمل الإنترنت لتوسيع النطاق الجغرافي لوصول وانتشار شعبية الكهنة، والشيوخ، والرهبان، والوعاظ، والقساوسة، والحاخامات سواء التقليديين منهم أو نجوم التليفزيون والاعلام! بل وسمحت لهم بالوصول إلى المنحرفين اجتماعيا في جميع أنحاء العالم، والذين يتجنبون دخول المساجد والكنائس والمعابد وبقية دور العبادة.

عولمة الدين

يبدو وكأن هناك إجماعاً على أن تلك العولمة - سواء الثقافية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو البيئية، تعرف بأنها زيادة مستويات التكافل والتكامل والاندماج عبر المسافات الواسعة. وإذا كان من الممكن قياس تأثيرات تقنيات المعلومات على الاقتصاد، فهناك صعوبة شديدة في قياس تأثيرها الكامل على الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية! فالعولمة في الظواهر الثقافية تبرز في خصائص مختلفة ترتبط بالمجال المعنى من الثقافة والذى اقتحمته العولمة. فخصائص العولمة في مجال اللغة، على سبيل المثال، من أدب ومخطوطات وطنية، تختلف عن خصائص العولمة في مجال آخر من الثقافة، مثل الحقول الفنية للموسيقى والرقص. والشكل الدقيق لخصائص العولمة في مجال الدين ليست واضحة بدقة حتى الآن، وإن بدأت بوادرها، رغم صعوبة رصدها! فقد رصد اتجاه التغيير القادم من منطلق إن العولمة



الثقافية تشترك فى بعض خصائص العولمة فى مجالات الاقتصاد والسياسة الأخرى مثل إضعاف أو تكسير الحدود بين الأمم والمجتمعات والمجموعات العرقية، وآنية نشر الأحداث على مقياس عالمى، وسيادة مبدأ المنافسة على أساس السوق الحرة. وعند تطبيق هذه الرؤية عن العولمة على مجال الدين، نزعم بأننا سنرى تغييرا فى الشكل التقليدى الثابت للدين المرتبط ارتباطاً حميماً بالتاريخ، والثقافات الخاصة للأمم، والمجموعات العرقية، فبدلا من ذلك الشكل، رصدت عالميا زيادة نشاطات وتنافس بين جماعات دينية فردية، هناك أيضا إشارات مستقبلية، تحوى إمكانية مشاهدة تحويلات كبيرة فى التركيب التقليدى للأديان التاريخية. فهناك ظاهرة جديدة هى توسع وانتشار الدين، بدون أن يكون ذلك مرتبطاً بأمة معينة، أو مجتمع بالذات، أو مجموعة عرقية خاصة! فالدين أساسا موهوب بصفة الديمومة والبقاء. على سبيل المثال، بوذية الماهايانا طوّرت لنفسها وظائف اجتماعية مختلفة بشكل كبير جدا فى البلدان المجاورة لكوريا واليابان التى نشأت فيهاهذه الديانة، ومن جانب آخر هناك الكثير من ذوى الجنسيات الأمريكية والأوروبية، الذين أسلموا فى بلادهم، أو انحدروا من أسر مسلمة تعيش هناك، وأغلبهم من الزنوج، لهم كتبهم ومطبوعاتهم ومجلاتهم ودعاتهم ومشايخهم وأغانيهم وأناشيدهم الخاصة، إنهم لا يعرفون أى مؤسسة دينية رسمية أو أهلية من المنطقة الإسلامية الكلاسيكية، بل لهم منظماتهم، وهيئاتهم، وهم هناك لهم همومهم كأقليات، وتفسيراتهم وفقا لعاداتهم وتقاليدهم هناك، والبعض منهم يطالب بفقه إسلامى خاص بهم يناسب احتياجاتهم، بهذه الطريقة، كلّ منطقة فى العالم يمكن أن تعرّف وتميز بواسطة خريطة توزيع مجموعاتها الدينية الرئيسية، بينما الدين فى الوقت نفسه ضمن كلّ أمة أو مجموعة عرقية يمتلك خصائصه الفريدة المميزة.

فى هذا السياق، يمكن أن تفهم عولمة الدين كعملية إعادة اصطفاف وتدعيم الموقف العالمى للاديان، وهذه العملية تتضمن ثلاث حقائق: الأولى تتضمن تحولات وتغييرات فى المؤسسات الدينية، والثانية هو إمكانية توقع إنتاج وإظهار خصائص جديدة فى محتويات المذاهب، والطقوس، والممارسات، والثالثة العولمة ستكون مصحوبة بتغييرات فى المنظومة الفكرية - الثقافية المساندة لأديان البشر.

التحولات فى المؤسسات الدينية

والسؤال الأول ماهى أشكال المؤسسات الدينية التى لها أسبقية وأولوية فى زمن العولمة؟ لقد ظهر مفهوم

«الدين الدولي أو متعدد الجنسيات multinational religion متناظرا مع مفهوم «الشركات المتعددة الجنسيات» هو ليس فقط شكل من أشكال التناظر، لكنه يستند إلى نفس الشروط العالمية الحالية التي تؤثر، بالطريقة نفسها على كلتا النشاطات الاقتصادية في الشركات المتعددة الجنسيات، ونشاطات التحويل والهداية للمؤسسات الدينية. ومن الطبيعي للشركات لنجاح استراتيجياتها على مستوى العالمية، أن تصبح شركات متعددة جنسيات! وبالطريقة نفسها يصبح من الطبيعي للكيانات الدينية في سعيها للانتشار العالمي أن تختار منظوراً متعدد الجنسيات، بغض النظر عن كونها مجموعة دينية تقليدية أو جديدة. ومن ناحية الخصائص التنظيمية، يمكن وصف الدين المتعدد الجنسيات بأنه مجموعة نظّمت ووظفت أنظمة حديثة لعمليات الهداية والارشاد من خلال عملية تنظيمية شبه مستقلة في كلّ بلد وفقا للحالة الثقافية والاجتماعية المميزة لكل دولة، ويتميز أيضا بوجود علاقات عضوية متبادلة بين الفروع الوطنية المختلفة، وموجه نحو التوسع المستمر من قبل المنظمة ككل.

وفى عصر «الملتي ميديا» أو الأوساط المتعددة، ظهرت أشكال جديدة إضافية للاتصال الإلكتروني مستند على الحاسبات، وأصبحت المعلومات الدينية يتم تبادلها باستعمال البريد الإلكتروني، وغرف الدردشة . وبينما نحن لا نستطيع توقّع مستقبل اتصالات الحاسوب، نجد أن المؤسسات الدينية التى تستند على مثل هذه الاتصالات الحاسوبية تعطى إمكانية أيضا لظهور «أديان بلا وطن» لا ترتبط ببلد المنشأ أو لها مقر واضح، ونذكر هنا أن الفجوة بين العقلية التقنية ووجهة النظر الدينية قد لا تكون كبيرة كما تبدو! . فالذين يعتنقون كل التقدم التقني الجديد فى تكنولوجيات المعلومات، ويوظفونه فى خدمة الأديان، غالبا ما يكونون مدفوعين بأحاسيس دينية.

التوفيقية الجديدة

من الظواهر الاجتماعية الطبيعية في المجتمعات، هى حالة التعايش وأحيانا الاندماج والمزج بين مجموعات العناصر المختلفة من التيارات العقائدية، حيث تتعايش تقاليد دينية متعددة مثل العلاقة التوفيقية بين عقيدة الشنتو والبوذية المعروفة في اليابان، بينما توفيقية أخرى وجدت بين ديانة تاويسم، والكونفوشيوسية والبوذية فى الصين، وبين البوذية والهندوسية فى المناطق الواسعة من جنوب وبلدان جنوب شرق آسيا، لكن ما هو الاختلاف بين هذه الأشكال الكلاسيكية للتوفيقية وبين التوفيقية الجديدة التي نقصدها في عصر المعلومات؟ الاختلاف فى أن التوفيقية الجديدة حدثت باندماج بين المذاهب والطقوس والشعائر بحماس شديد على أساس المعلومات التى توفرت من خلال تكنولوجيات المعلومات والاتصال الجديدة، وفي نفس الوقت ليس شرطا بالضرورة حدوث أيّ اتصال فعلي بين تلك المجموعات الدينية، لأن أهم تأثير لعصر معلومات على الظاهرة الدينية، أنه جعل



الأمر أكثر سهولة فى الوصول إلى المعلومات المتعلقة بالتعليمات والنشاطات والشعائر والطقوس للأديان الأخرى، وأصبح فى إمكان أولئك الذين لا يملكون التأهيل والتدريب الدينى المحترف، يمكنهم أن يحصلوا على المعلومات بيسر، وهذا يجعل الأمر أكثر سهولة لتشكيل حركات دينية جديدة، بدون ضرورة الاصطدام بتقاليد مجتمعية، بل من خلال تبنٍ شخصى عبر مصادر الاتصال المتعددة! ورصدت ظواهر مشابهة فى الأديان الجديدة فى الولايات المتحدة، والتعبير «الأديان الجديدة» هناك يستعمل للإشارة إلى الأديان التوفيقية التى تتضمن قاعدة مسيحية بإضافة عناصر استعيرت من الهندوسية، والبوذية أو أى فكر شرقى آخر، وكانت بداية هذه الأنواع من الحركات الدينية على الساحل الغربى الأمريكى فى الفترة بعد الحرب العالمية الثانية، مثال حركة معبد الناس المشهور، بالانتحار الجماعى فى جويانا عام ١٩٧٨، وكانت بقيادة جيم جونز، الذى قيل بأنه كان متأثرا بشدة بالفكر الماوى الصينى.

من الناحية الأخرى، العديد من البلدان فى الشرق وجنوب شرق آسيا كانت من الناحية التاريخية مفتوحة إلى حركات دينية توفيقية. وفى العديد من المناطق الإسلامية، والمسيحية، والبوذية، والهندوسية، ومناطق ديانات تاويسم، والكونفوشيوسية، توفرت فيها بيئة ثقافية تسمح لفترات طويلة من التعايش والسماحة بين الأديان المختلفة، بما يتيح فى المستقبل كما يقول علماء الاجتماع الدينى، زيادة فرص التعايش والسماحة فى تلك المناطق التاريخية مع انتشار تكنولوجيات المعلومات والاتصال، ويوفر ذلك تربة مناسبة لظهور حركات دينية توفيقية جديدة!

والتوسع فى تقنيات المعلومات يضيف إلى العولمة عادات جديدة أكثر من كونها تسهل الاتصال فقط. وتخاف بعض الأمم من الانترنت، ويعتبرونها محركا يقود هيمنة الثقافة الأمريكية. ويرى الآخرون أن الإنترنت يعتبر محفزا لخلق المجتمعات الثقافية العالمية، فمن متحمسى الألعاب الرياضية المغاربة الذين يشجعون فريق الهوكى الجليدى الكندى إلى مناهضى العولمة والمحتجين على الحرب ضد العراق ويتظاهرون ضد الولايات المتحدة الأمريكية، تعتبر الإنترنت وسيلة غير مسبوقة وليس لها مثيل لنشر العقائد والأيديولوجيات إلى جمهور العالم الواسع، حيث نرى مواقع نشطاء مناصرين للديمقراطية فى صربيا يعيدون توجيه مواد مذاعة معارضة إلى الشبكة العالمية الويب، أو ثوار الشيشان يبثون خدمة أخبارهم

الخاصة على الإنترنت، واستغل الأصوليون المسلمون أرباح النفط فى توظيف مكثف لتكنولوجيات المعلومات والاتصال الجديدة لنشر أفكارهم وممارساتهم (٧٠٪ من المواقع العربية على الإنترنت مواقع لجماعات أصولية).

والسؤال كيف تغير عمليات العولمة حالة أولئك المهتمين والمشغولين بالدين؟ هنا، البيئة الثقافية التى يعيش فيها هؤلاء المشغولون تكون هى الحاسمة! حيث تأثير عصر المعلومات بالغ الأهمية على تغيير البيئة الثقافية، بمعنى أن عصر المعلومات حول تلك الأعداد المتزايدة من الناس يصبحوا ليس فقط مستهلكين للمعلومات، لكن أيضا مرسلين للمعلومات بحكم حقهم الشخصى. وتقنيات المعلوماتية تساعد على رفع المستوى الثقافى والفكرى الدينية على نفس النمط، لا يمكن أن تحتكر فى عصر المعلومات من قبل المحترفين الدينيين، فكل شخص عنده فرصة الآن بأن يكون مرسلاً، ومستلماً، ووسيطاً للخطاب الدينى، وأعطيت الفرصة لأعداد متزايدة من الأشخاص، تظهر من الخلفية الشعبية، ويصبحون زعماء دينيين، يعظون ويبشرون برسالة الهداية، ليس فقط لبسطاء الناس، بل يلتف حولهم آخرون، وأولئك الأتباع يمكن أن يستديروا بسهولة ويرسلون الرسالة إلى الآخرين. ضمن هذه الحالة، نجد السلطة والقوة التقليدية المسيطرة على المؤسسات والمنظمات الدينية ستميل إلى الضعف والتحول! وفى عملية العولمة الدينية، تظهر السوق الدينية الموجهة من قبل المستعمل، إلى جانب نظام المنتج الموجه! الأخير يعنى تحديدا، استمرار السلطة الدينية التقليدية فى المحافظة على تعاليم وشعائر وتقاليد كل دين، فيقوم الكهنة، والشيوخ والرهبان، والوعاظ، والقساوسة والحاخامات بترجمة وتفسير وتأويل المعلومات الدينية إلى المؤمنين، وعلى المؤمنين فقط أن يقبلوا تلك الترجمة وذلك التفسير والتأويل؛ فهو دورهم الوحيد المقبول فى هذا الوضع، وعلى الجانب الآخر نجد السوق الدينية الموجهة من قبل المستعمل، ونعنى بها استجابة الشخص لقيمه الشخصية وأحاسيسه ومشاعره، وافكاره واعتباراته واختياراته، ويفكر مليا، ويختبر ويجرب تلك العناصر التى يجدها مناسبة وأكثر جاذبية من كتلة الأديان المتنافسة المعروضة عليه من خلال تكنولوجيات المعلومات والاتصال! وهذا السلوك من منظور نظام المنتج الموجه مركزيا، يقيم كعدم جدية دينية واستخفاف، أو تردد وضعف فى الإيمان، لكنه منطقى فقط من وجهة نظر المستعمل الدينى، الذى يجد من حقه فى المحاولة لاختيار أفضل البدائل القائمة على المنطق والعقل! وعلى هذا الأساس تصبح الفروق والتميزات بين المرسل للمعلومات الدينية، وبين مستقبل المعلومات الدينية، فروقا غير واضحة وغامضة، حتى الفروق بين الزعيم الدينى، والتابع، من المحتمل أيضا أن تصبح غامضة جدا، وغير مميزة فى عصر المعلومات!

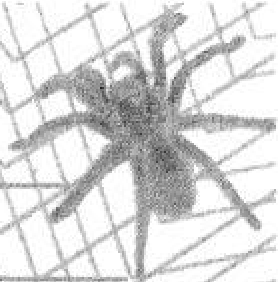
وزادت الأمثلة والنماذج فى الأديان المختلفة التى نرى فيها تلك الأديان تنتشر بدون الاعتماد على المحترفين الدينيين فى



أنشطة التبشير والدعوة، على سبيل المثال، تكسب الأديان الجديدة في اليابان أعضاء أجانب كثيرة بالجهود غير الرسمية للأعضاء العاملين اليابانيين الذين يرسلون للعمل في الشركات أو المصانع في البلدان الآسيوية الأخرى، وفي الاسلام أيضا نجد الكثير من الأجانب يسلمون وهم في أوطانهم، بدون جهود رسمية من المؤسسات الدينية الاسلامية، بل نتيجة اختلاطهم بالمسلمين المهاجرين هناك للعمل أو الدراسة، ففي عصر المعلومات، نجد عمليات التوسع العالمي للأديان تتم بدون الاعتماد على رجال دين محترفين! وهذا الموقف يعكس انكماش وضعف سلطة المحترفين الدينيين في الأديان القائمة، وهي ظاهرة نتجت تحت تأثير عصر المعلومات، حيث يخسر المحترفون الدينيون سلطتهم وهيبتهم التقليدية مثل الكهنة، والشيوخ والرهبان، والوعاظ، والقساوسة، والحاخامات!

نحن دخلنا فعلا في عصر لن تتوفر الفرصة والقدرة للمجموعات الصغيرة من المحترفين الدينيين على احتكار المعلومات الدينية. وأصبح المؤمنون العاميون الآن عندهم القدرة المتزايدة على الوصول للمعلومات الدينية والاستفادة منها، حتى تلك المعلومات الباطنية أو الأسرار في بعض الأديان غير المسموح لأحد بمعرفتها ما عدا رجال الدين المخولين خصيصا، وليس من الضروري أن نذكر مرة ثانية أن ذلك يعتبر خسارة في السلطة والهيبة التقليدية للمؤسسات الدينية التي حافظت وصانت طوال العصور على هيبة وكرامة رجال الدين، رغم وجود رجال الدين المحترمين والفاسدين على مر العصور، في كل دين وفي كل منطقة.

خلاصة القول إن عصر المعلومات يؤدي إلى انعدام المسافة بين المحترفين الدينيين والأتباع العاميين، ولم يعد ذلك حالة استثنائية أن نجد ناساً عاديين يمتلكون فهماً أعمق لفلسفة الأديان أكثر من الكهنة، والشيوخ والرهبان، والوعاظ، والقساوسة، والحاخامات! وعلى الأرجح هذه النزعة ستتنامى في المستقبل، ففي مجتمع المعلومات عموما ستزول الفروق بين أهل الخبرة والمتخصصين والأفراد العاديين! ومعنى هذا التطور أن الأديان التاريخية، والأديان السماوية من المحتمل أن تجد صعوبة لتطوير أنظمة لتدريب أجيال جديدة من المحترفين الدينيين. وتصبح هناك صعوبة متزايدة جدا لأي مذهب أو مجموعة داخل أي دين لادعاء الشرعية الدينية الفريدة! وبينما عصر المعلومات يتقدم، سيتزايد أعداد الناس الذين ينظرون إلى الخطاب الديني في أي دين من خلال منظور نقدي، ورؤية نسبية! ■



حرير العنكبوت أقوى خمس مرات من الصلب

نسج الملابس الواقية من الطلقات من خيوط العنكبوت

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

تصاعد الاهتمام بالعناكب فى السنوات الأخيرة، وهو ما يلمسه المتصفح للمواقع التى تعرض الدراسات الخاصة أو الموضوعات المتصلة بالعناكب على شبكة الانترنت، إذ تحوى بعض هذه المواقع مئات بل وآلاف من الدراسات والموضوعات، تلك الدراسات والموضوعات التى صفت من هذه المواقع طبقاً لترتيب خاص للمدخلات، إن مدخلا مثل «حرير العنكبوت» Spider Silk توافق فى منتصف شهر فبراير الماضى من خلال محرك البحث Yahoo فى شبكة الانترنت مع ٩٠,٦٠٠ (تسعون ألفا وستمائة) من الموضوعات والدراسات، يزخر هذا الفيض من الموضوعات والدراسات بكل ما هو قديم وجديد من المعلومات عن العناكب، ولكن أعجب ما جاء فى هذا العدد الهائل من الموضوعات هو ما نشرته صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية الشهيرة بعددها الصادر فى يوم الجمعة ٣١ مايو ٢٠٠٢، وهو موضوع كتبه تيرنس شياو حمل العنوان التالى: «شركة للتقنية الحيوية تغزل خيطاً أقوى خمس مرات من الصلب»!، لقد أثارنى العنوان ولفت انتباهى بحكم تخصصى

كأستاذ فى الهندسة الميكانيكية ، فمضيت أتصفح ما حوته بعض المواقع على الانترنت من موضوعات، وعدت إلى مكتبتى الخاصة لأجلو بعض ما غمض علىّ من معلومات، وفى النهاية وجدت أنه من الواجب علىّ أن أشرك قراء «الهلال» فيما علمته عن موضوع أراه مثيراً ومبشراً بآفاق جديدة يرتادها العلماء.

تنتمى العناكب إلى طائفة العنكبوتات وهى إحدى فصائل المملكة الحيوانية، وتنتشر تلك الطائفة - التى تطورت عبر ملايين السنين - وبأعداد هائلة فى كل البيئات بأنحاء الأرض المختلفة فيما عدا إنتاركتيكا (القارة القطبية الجنوبية)، ومن طرائف تلك الأعداد ما ذكره أحد العلماء البريطانيون من أن فداناً واحدا بأحد الحقول فى مقاطعة سكس قد حوى أكثر من مليونين من العناكب!، ويشير العديد من المصادر العلمية مثل موسوعة هاتشينسون البريطانية إلى وجود حوالى ٣٠.٠٠٠ (ثلاثون ألفا نوع معروف من العناكب فى العالم، بينما تذكر موسوعة «المعرفة» فى نسختها العربية إلى أن هذا العدد يرتفع إلى ٤٠.٠٠٠ (أربعون ألف) نوع، ومن أشهر هذه الأنواع: عنكبوت المنزل - عنكبوت الحديقة - عنكبوت الماء - عنكبوت مجالومورف (وهو أكبر العناكب حجماً) - وعنكبوت الأرملة السوداء الذى يعيش فى أمريكا الشمالية ويتميز بعضته القاتلة والتى يتميز بها أيضا عنكبوت أتراكس الاسترالى.

يتراوح حجم العناكب بين بضعة ملليمترات كما فى حالة العناكب المنزلية وحتى تسعة سنتيمتر لبعض الأنواع التى تعيش فى المناطق الحارة، ويتكون جسم العنكبوت من منطقتين.. الأمامية وهى الرأس - صدر ... والخلفية وهى البطن ويفصل بينهما خصر نحيل يسمى العنق، تبرز من أعلى المنطقة الأمامية ثلاثة أو أربعة أزواج من الأعين ويتصل بها من أسفل أربعة أزواج من الأرجل، بينما تحوى بطن العنكبوت الرئة وأعضاء الهضم والتكاثر إضافة إلى غدة الحرير.

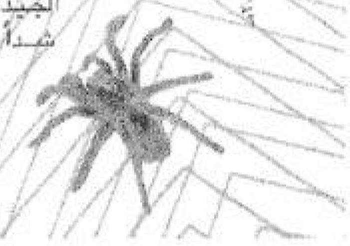
العناكب ناسجة الحرير

تعد قدرة البعض من العناكب على نسج الحرير أهم الخصائص المميزة لهذا الفصيل من المملكة الحيوانية، ومما هو جدير بالذكر أن العناكب المنتجة للحرير تشكل عددا صغيرا من الأعداد الكبيرة المعروفة لعناكب، وأن صناعة هذا الحرير تعد مهمة أنثوية تضطلع بها إناث العناكب أثناء تجول الذكور بحثا عن الزواج، ولعل ذلك هو مصدر الايحاء فى الأسطورة اليونانية القديمة عن أصل العناكب، إذ تقول تلك الأسطورة بأن فتاة تدعى أراكن رغبت فى أن تكون نسّاجة، فما كان من ألهة الحكمة أثينة الا أن حولتها - عندما غضبت منها - إلى عنكبوت كى تمارس مهنة النسيج إلى الأبد، فإذا ما تركنا تهاويم الأساطير وعدنا إلى أرض الواقع.. لوجدنا أن أنثى العنكبوت تقوم بافراز الحرير على هيئة سائل صمغى

من ست من الغدد تفتح عند أقصى السطح السفلى لمنطقة البطن، تقوم تلك الغدد ببثق سائل الحرير – الذى يتجمد عند ملامسته هواء الجو – من خلال عدد كبير من الفتحات، وهو ما يعنى أن الخيط من حرير العناكب يتكون فى حقيقة الأمر من عديد من الخيوط التى تلتف معا لتكون خيطا واحدا يماثل فى تكوينه سلك الكهرباء الذى يصنع بتضفير العديد من الشعيرات الدقيقة المقطع!.

بدأ الاهتمام بحرير العناكب – الذى يعد المادة الأولية فى نسيجها المعروف Web – خلال عقدى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، إذ أكدت نتائج العديد من الاختبارات التى أجريت فى كثير من مراكز الأبحاث المنتشرة بأمريكا وأوروبا أن حرير العناكب يتميز بمقاومة للشد أكبر من مثيلتها للصلب، سواء كانت تلك المقاومة منسوبة لوحدة الحجوم أو لوحدة الوزن من الخيط المختبر، بل إن دراسات أخرى أوضحت أن الخيط من حرير فصيل عناكب نيفيلا Nephila وهو من نوع الحائك الدوار Orb weaver يعد أقوى ثلاث مرات من مثيله المصنوع من كفلر Kevlar (وهى مادة ذات أساس بترولى تستخدم فى صناعة الصدارى الواقية من طلقات الرصاص). لذلك يعد حرير العناكب واحداً من أقوى المواد الموجودة على سطح الأرض والتى يمكن أن تغزل فى شكل خيوط، وقد أمكن للباحثين الجزم بأن حرير العناكب الجيد يمكن أن يتحمل شداً حتى ٦٠٠.٠٠٠ (ستمائة ألف) رطل على البوصة المربعة وهو ما يعادل حوالى ٤٢.٠٠٠ (اثنان وأربعون ألفا) من الكيلو جرامات على السنتيمتر المربع!. إن تلك القدرة الفائقة على احتمال الشد لدى حرير العناكب هى التى أكسبت النسيج المصنوع منها قابليته المدهشة للمط Stretching ، مما ترتب عليه قدرة هذا النسيج على الايقاع بالحشرات دون أن يتمزق، إن مادة كحرير العناكب تعد الأمثل لإنتاج خيوط تصلح لبعض الأغراض الخاصة والحيوية فى آن واحد، من ذلك صناعة السترات المقاومة لطلقات الرصاص– بعض التجهيزات الطبية مثل الأربطة وخيوط الجراحة فائقة المتانة – إضافة إلى بعض المنتجات الأخرى مثل خيوط الصيد والملابس الخاصة ، إن تلك الآفاق الطموحة لاستخدامات حرير العناكب تتطلب البحث والتفكير فى كيفية إنتاج هذا الحرير بكميات كبيرة تكفى لمواجهة معدلات الطلب التجارية عليه، وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار وجود مفارقة طبيعية فى إنتاج هذه الكميات الكبيرة، تلك المفارقة مفادها أن العناكب المعروفة مثل عناكب الحقل أو المنزل لا يمكن تربيتها أو إكثارها للاعتماد عليها فى إنجاز هذه المهمة، وذلك لأنها يفترس بعضها البعض!، لذا كان من الطبيعى أن يتجه البحث إلى محاولة إنتاج حرير العناكب صناعياً.

قبل أن تبدأ محاولات العلماء لإنتاج حرير العناكب صناعيا، فإن أبحاثا عديدة أجريت لمعرفة تكوين حرير العناكب وفهم الأسباب الكامنة وراء مقاومة هذا الحرير الهائلة للشد، وقد



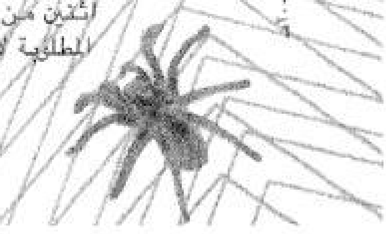
أجريت بعض هذه الأبحاث على النوع الأقوى من حرير العناكب والمسمى بحبل السحب Dragline silk يشكل حبل السحب الإطار الخارجي لنسيج العنكبوت والذي يقوم العنكبوت باستخدامه ليغزل بسرعات فائقة - تقدر بحوالي متر واحد في الثانية - خيطا من الحرير يهبط به شجرة أو جدار منزل هرباً من عدو يلاحقه، يبلغ قطر هذا النوع من غزل العنكبوت حوالي من ثلاثة إلى خمسة ميكرونات (الميكرون جزء من مليون جزء من المتر)، أتاح التقدم المذهل في أجهزة الفحص المجهري للعلماء أن يشاهدوا رأي العين التركيب الدقيق لخيط حبل السحب، إذ أوضحت الصور المأخوذة من هذه الأجهزة المتقدمة أن الخيط الواحد مكوّن من آلاف من الشعيرات أو الخيوط الدقيقة التي يبلغ قطر الواحد منها بضعة نانومترات (النانومتر جزء من مليار جزء من المتر)، مما يجعل من مشاهدتها بالمجهر الضوئي العادي أمراً مستحيلا، إن هذه البنية المركبة للخيط من حرير العناكب تعد السبب الظاهري لمقاومة الشد الهائلة التي تميزه، لكن السبب الحقيقي والخفي وراء هذه المقاومة يكمن في جزئيات بروتين الحرير نفسها، وهو ما توصل إليه جون جاتس وشيريل هاياش ومساعديهما في جامعة كاليفورنيا خلال عام ٢٠٠١م، من أن الأحماض الأمينية من نوع السلسلة الطويلة هي التي تعطي حرير العناكب من نوع الحائك الدوار تلك القابلية المدهشة للمط أو الاستطالة، حيث تسمح تلك السلسلة من الأحماض الأمينية لجزئيات بروتين الحرير بالاصطفاف جنبا إلى جنب وكأنها جذوع من الشجر تكوّن طوفاً خشبيا، ومن ثم لتكون صفائح (ألواح) الكريستالات الصلبة التي تعد قلب شعيرات الحرير، إن تلك البروتينات لا تصنع وحدها حريرا قويا.. كما أن تلك الشعيرات لا يمكن أن تعد مادة ذاتية الاتصال، هنا... فإن الخصائص الفائقة لخيط الحرير يمكن أن تعزى إلى أنه قد غزل بطريقة غاية في التعقيد.

غزل حرير العناكب

يمكن إيجاز طريقة غزل خيط حرير العناكب كما يلي: إن البروتينات التي تكون حرير حبل السحب في نسيج العنكبوت تفرز من خلايا تقع على جدار كيس طويل يشبه الغدة في الجزء الخلفي من البطن، تتشكل هذه البروتينات التي تكون على شكل محلول مائي في هيئة مخروطية خلال ممر يتخذ شكل عروة أو حلقة طويلة، بعد ذلك تصطف جزئيات البروتين لتتخذ اتجاه تدفق المحلول ومن ثم لتغدو كريستالات سائلة، يتم مط معجون الكريستالات السائلة خلال تدفقه في الممر المخروطي وبالتالي يتم تخفيض سمكه، وفي النهاية.. يُغمر هذا المعجون في حامض لينزع منه الماء.. فيتماسك ويتجمد ويتحول إلى خيط الحرير بشكله المألوف، إن تلك العمليات التشكيلية والكيميائية المعقدة - التي لا يستطيع الإنسان محاكاتها إلا بمصنع مليء بالمضخات والمعدات والأحواض والسوائل المختلفة - تتم في جزء من بطن هذا الكائن المدهش لا تستطيع العين المجردة أن تتبينه، فسبحان الخالق

العظيم الذي نظم فأبدع وأعجز!.

عندما اكتشفت تلك الحقائق عن حرير العناكب مؤخرا، وفي وجود العديد من الحوافز الاقتصادية والبيئية ، فإن الحاجة لإنتاج هذا الحرير بمعدلات صناعية.. باتت هي الشغل الشاغل لمراكز البحث المنتشرة في العديد من جامعات الدول المتقدمة ، وقد تصادف أن تزامنت تلك الحاجة مع بداية ثورة التقنية الحيوية التي بدأت في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، تلك الثورة التي دفعت الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكار ديستان للتصريح آنذاك بأن القرن العشرين هو قرن العلوم الحياتية (البيولوجية)، تلك العلوم التي حوت العديد من الأفكار الثورية في بعض فروعها مثل علم الجينات - علم الأعصاب - وبيولوجيا الخلية ، دأب العلماء العاملون في مهمة إنتاج حرير العناكب صناعيا منذ أواخر السبعينيات على محاولة الاستفادة بفكرة إدخال جينات غريبة إلى البكتريا - والتي كانت تستخدم لإنتاج كميات كبيرة من الأدوية ذات الأساس البروتيني - في مجال إنتاج حرير العناكب صناعيا، لذلك اتجهت الجهود طوال عقد الثمانينيات إلى تطوير الهندسة الجينية، لتثمر تلك الجهود عن تمكن راندي لويس (المتخصص في الأحياء الجزيئية بجامعة وايومنج من لارامي بالولايات المتحدة الأمريكية) في عام ١٩٩٠م - وبدعم يتمثل في منحة بحثية من الجيش الأمريكي - من تمييز اثنين من الجينات المطلوبة لإفراز بروتين حرير العناكب، وبهذه المعلومات الجينية أمكن لعلماء الجيش الأمريكي وفرقة الكيمياء الحيوية في ناتيك بولاية ماسوتشوستس بالإضافة إلى جامعة وايومنج وشركة للصناعات الكيميائية أن يقوموا بإنتاج كميات كبيرة من بروتين حرير العناكب باستخدام البكتريا، ولكن نوعية الحرير المنتج لم تكن بالجودة المطلوبة، وذلك لأن البكتريا تعمل على قطع وحدات الجين.. مما يترتب عليه تخليق بروتينات صغيرة تنتج الخيط الرديء.



إنتاج بروتين الحرير

لتحسين نوعية خيط الحرير المنتج.. بدأ تيرنر (وهو باحث في علم وراثة الحيوان بجامعة ماكجيل في مونتريال بكندا) في عام ١٩٩٣م أبحاثا لتطوير الأبقار جينيا كي تنتج بروتين حرير العناكب في لبنها، وعندما أخفقت تلك الفكرة في إنتاج بروتين الحرير بنوعية جيدة، فإن محاولات إحدى شركات التقنية الحيوية بكندا جذبت انتباه تيرنر لحل تلك المشكلة التي فتنته وملكت عليه حواسه ، كانت الشركة الكندية قد قامت بتربية المئات من الماعز المهجنة جينيا في حقول بضواحي مونتريال وفي شمال نيويورك، استهدفت الشركة الكندية بمحاولاتها الأولى لتهجين ماعز حلوب أن تحضر دواءً مبدأ للسعال في لبنها، بعد ذلك بدأت الشركة - بعد أن حصلت على ترخيص من جامعة وايومنج لاستخدام تقنية فصل واستنساخ جينات حرير العناكب - بحثاً مشتركاً مع مركز أبحاث الجيش الأمريكي في ناتيك لإنتاج

حرير العناكب بكميات كبيرة وبنوعية جيدة، ثم قامت الشركة بعد ذلك بترويج الفكرة لدى المستثمرين بالإعلان فى ديسمبر ٢٠٠٠ م عن أن السوق سوف يستوعب إنتاجها من خيوط حرير العناكب المنتجة صناعيا والتى اختارت لها اسم «الصلب الحيوى» Biosteel تمييزا لها عن معدن الصلب، فكان أن حققت أسهم الشركة مبيعات قدرت بمبلغ ٤٠ مليون دولار كندى (أى ما يعادل ٢٦ مليون دولار أمريكى) فى واحد من أكبر عروض البيع لأسهم شركات التقنية الحيوية فى كندا.

بعد ثلاثة أعوام من البحث.. تمكن علماء الشركة الكندية وبمعونة علماء الجيش الأمريكى من تحقيق أهدافهم، فقد تمكن هذا الفريق البحثى من إنتاج بروتين حرير العناكب بنوعية جيدة وذلك بإدخال جينات حرير العناكب فى خلايا غدد ضروع البقر وكلى الهمستر Hamster (وهو حيوان من القوارض يشبه الفأر)، بعد ذلك يقوم علماء مركز أبحاث الجيش الأمريكى بتنقية بروتين الحرير المنتج وكبسه داخل أنابيب بالغة الصغر، ليتحول إلى خيوط فائقة القوة من الحرير ذات مقاومة تعادل قيمة مثيلتها من حرير العناكب الطبيعى، وعندما نشرت الشركة فى شهر يناير ٢٠٠٢م أنباء إنجازاتها فى مجال إنتاج حرير العناكب صناعيا وذلك بمجلة «العلم» Science .. فإن رأسمال الشركة حقق زيادة قدرت بحوالى ٤٠٪.

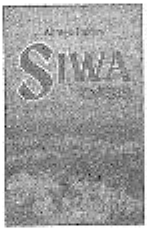
جينات حرير العناكب

تعكف الشركة الكندية الآن على تربية أعداد من الماعز المعدلة جينياً بطريقة جديدة، تعتمد هذه الطريقة على إدخال جينات حرير العناكب فى أجنة الماعز، لتقوم الماعز المولودة والمعدلة جينياً والتى كانت أجنة فى بطون أمهاتها عند بدء التجربة وتشبه الماعز العادية تماما بإنتاج بروتين الحرير فى لبنها، ومن الجدير بالذكر أن تلك السمة الجينية الخاصة لأجنة الماعز المعدلة جينياً فى بداية التجربة تتلاشى فى نسلها من خلال التكاثر الطبيعى، إن تلك النتائج الباهرة التى تحققت من خلال البحث المشترك بين الشركة الكندية والجيش الأمريكى كانت حافزا للعلماء فى العديد من الدول على الادلاء بدلوهم فى هذا النبع الجديد للعلم والمعرفة، وها هى مجموعة من العلماء الألمان تعلن مؤخرا أنها قد نجحت فى إنتاج حرير العناكب من البطاطس، وفى نفس الوقت فإن الشركة الكندية الرائدة فى هذا المجال تعلن مؤخرا أنها بصدد البدء فى إنشاء مصنع كبير للأنسجة الطبية المصنوعة من حرير العناكب المنتج بالتقنية التى كان للشركة فضل ابتكارها، وتأمل الشركة مع وجود جينات لمختلف أنواع حرير العناكب أن تنتج أنواعا متعددة من غزل العناكب وبمواصفات مختلفة ، فأين نحن من تلك الثورات العلمية والتقنية؟ ■

واحة سيوة

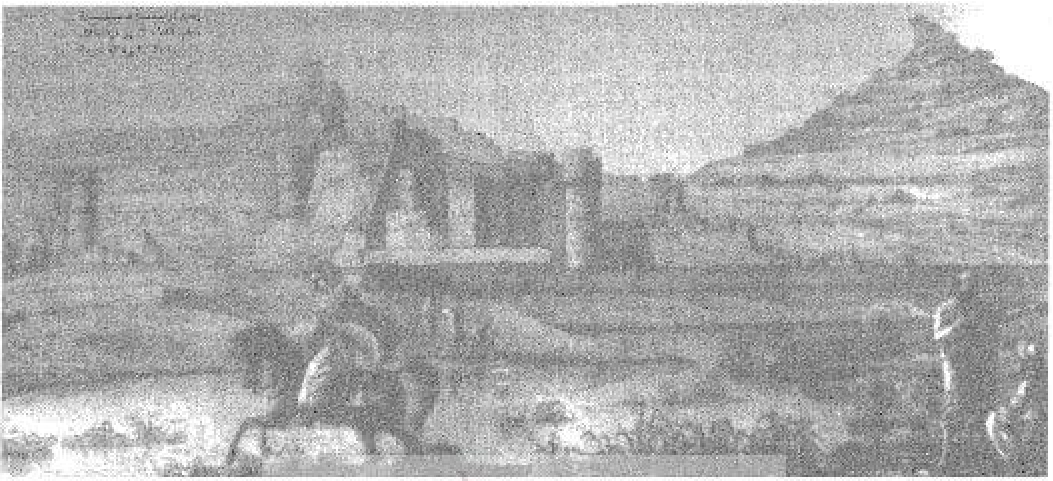
بين العزلة والاتصال

بقلم
مصطفى نبيل



أقبلت بشغف على قراءة كتاب «واحة سيوة» للدكتور أحمد فخري، فقد سبق وزرت تلك الواحة الساحرة، أجمل وأصغر وأبعد واحاتنا السبع.

ورأيت خلال هذه الزيارة أن الواحة تمثل نموذجاً فذاً للفرق بين العزلة والاتصال، وشاهدت رأي العين كيف تقتحم موجات المدنية مجتمعاً تقليدياً مغلقاً، عندما لا يتم كبح جماح تلك الحداثة أو السيطرة عليها وضبط حركتها! وهو موضوع جدير بالتأمل والمناقشة.



والكتب التي تتناول مناطق نائية أو مميزة في مصر، مثل هذا الكتاب، تستحق أن تقرأ، وهي جديرة بالاهتمام، وتشير إلى إحدى وسائل الخروج من الوادي الضيق إلى تلك الصحراء الواسعة . وكما يوجه د. أحمد فخري كتابه الذي أصدره في السبعينيات إلى الأجانب يحثهم على القيام برحلات في الصحراء، يزيد الاحتياج لكتب تقدم المناطق المختلفة من مصر، وفرص التنمية في كل منها .

والواحة التي قدمها د. أحمد فخري هي التي أطلق عليها قديما أرض جوبيتر آمون، والتي كان كهنتها هم الأقدر في العالم على التنبؤ بالمستقبل، ومكشوفا عنهم الغيب، يأتي إليهم الفراعين والقياصرة والأباطرة، عسى أن يطمئن كل منهم على مستقبله.

قرية شالي

كان يعيش أهالي سيوة قديما وخلال عزلتهم في عالمهم الخاص، الذي تشكل من خلال تراكم الخبرة الإنسانية، وفي تعاملهم المستمر مع البيئة التي تحيط بهم، وهي أبعد الواحات المصرية عن الوادي، تصل إليها القوافل من خلال دروب الصحراء، وكانت محطة ونقطة التقاء القوافل ، تنتهي القوافل الخارجة منها والمتجهة إلى الوادي في كرداسة، والواحة إحدى النقاط الهامة على درب الأربعين الشهير والقائم منذ أيام الرومان، والذي توجد على طوله محطات بها آبار رومانية قديمة، وسيوة أيضا إحدى محطات قوافل الحج القادمة من دول شمال أفريقيا، ينتقلون من سيوة إلى الواحات البحرية ثم الفرافرة والداخلة ثم الخارجة، ومنها إلى أسيوط أو فرشوط وتنتهي عند قوص أو قفط.

وأقرب المعمور إليها هو واحة جغبوب إلى الغرب، الواحة المصرية حتى سنة ١٩٢٦، وبعدها انتقلت السيادة الليبية إليها، وكلتا الواحتين تقعان في منخفض واحد، يومها كان الجمل والحمار وسيلتي الانتقال من الواحة وإليها، أحد الدروب يصلها إلى مسرب الاسطبل على البحر الأبيض بجوار مرسى مطروح، ودرب آخر يصل القوافل الخارجة منها إلى العلمين، ودرب يقطع الصحراء، في طريقه إلى الفيوم ومنها إلى كرداسة، وكانت القافلة تستغرق نحو تسعة أيام من مرسى مطروح إلى سيوة.

وفي هذه العزلة عاش الأهالي حياة راضية، أقاموا بيوتهم على ربوة عالية فوق جبل شالي، في عمارة مميزة قليلة الفتحات، وبمادة خاصة هي الفورشيف وهو طين طفلي رملي مما حولهم، وهو في متانة الأسمنت أو أشد، أما السقوف

والأبواب والشبابيك وحتى الأثاث فمن جذوع وجريد النخيل، ولهذا البناء ميزة فريدة فهو طارد للذباب والحشرات، التي كان يعاني منها الأهالي نتيجة وفرة التمر، وعلى طريقة المذهب الأباضي (أحد المذاهب الإسلامية)، يتحلقون حول الجامع الذي أقيم على أعلى نقطة في الجبل، ولم أتبين اتباعهم لهذا المذهب إلا عند زيارتي لوادي مزاب في جنوب الجزائر، فلفت انتباهي النظام الاجتماعي المتماثل ووحدة التقاليد بينهما، وأكد كبيرهم في مزاب وجود المذهب الأباضي في سيوة وأنه كثيراً ما يزورها، وأن أتباع المذهب الأباضي يمتدون حتى واحة سيوة مروراً بجبل نفوسه في ليبيا، فالأقليات المذهبية تحتمي بالواحات المعزولة وقمم الجبال الوعرة، والغريب حقا غياب هذه المعلومات في أي كتاب مدرسي عن مصر.

ويتحدث أهل سيوة لغة خاصة غير مكتوبة، يقول عنها د. أحمد فخري اللغة السيوية، وهي لغة البربر والقبائل، وبالطبع فهم يتحدثونها إلى جانب اللغة العربية.

والمدينة العتيقة التي كانت تقوم فوق قمة جبل شالي، ذات بوابة كبيرة محكمة المتاريس. حتى تصمد أمام هجمات البدو، ولا يسمحون للغرباء بالدخول إليها، ولا يسمح حراس تلك البوابة لأحد بالدخول سوى سكانها العائدين من العمل من أرض النخيل والزيتون.

وينظم العلاقات بين الأهالي الأعراف والتقاليد العريقة، ويلجأون للتحكيم فيما يحدث بينهم من منازعات، وقد حصلت خلال زيارتي للواحة سنة ١٩٧٩ على مخطوط يسجل القواعد التي تنظم العلاقات بينهم وكأنه الدستور، إن النظام الداخلي للواحة يحدد حقوق وواجبات كل طرف، وهو يقوم في معظمه على الأعراف والتقاليد، فمثلا يحكم على الأرملة التي توفي زوجها أن تظل في منزلها لا تبرحه مدة أربعين يوماً، وعليها لكي تعود إلى الحياة أن تغتسل في عين مياه بذاتها.

وعندما كانت الواحة تعيش في عزلتها، تعرضت بيوتها للانهيار أكثر من مرة، حيث تكثر الأملاح في مادة البناء، رغم ندرة سقوط الأمطار في الواحة، وقد حدث ذلك مرتين في عامي ١٩٣٠ و١٩٧٠.

ومازالت قرية شالي شاهداً على الزمن القديم، وبقيت أطلال القرية بأزقتها وزخارفها.

العزلة والاتصال

هكذا كانت الحياة في الواحة في أرض النخيل ووسط سحر الصحراء، وألق نجومها في الليل.. علاقاتهم بالسلطة المركزية واهية، لا يكاد يصل إليها سوى القليل من التجار، يشترون زيت الزيتون

وتمر الواحة المميز، ولا تصلهم الطرق المعبدة، فلا سيارات ولا كهرباء، ولا إذاعة أو تليفزيون، ولهم فنونهم وموسيقاهم وأغانيهم.. وهناك رسالة دكتوراه تتناول الموسيقى الشعبية فى واحة سيوة للباحثة الألمانية بريجيت شيفر انتهت منها سنة ١٩٢٣، وسجلت العديد من الأغانى والإيقاعات ورصدت الآلات الموسيقية، ومنها أغانى تطهير مياه العيون، وأغانى تلقيح النخيل وخروج القوافل من الواحة، وهم يستخدمون الطبول والنايات، كما تناولت الباحثة العمارة ودلالة الأزياء والزخارف، والأساطير، وربطت بين أنواع الحلى والزخارف وبين الموسيقى والرقص، وأكدت أن هناك فرقاً بين موسيقى سيوة وموسيقى البدو من حولها، ووجدت اتصالا بين موسيقى سيوة وموسيقى البربر، وبقيت الواحة حافظة للتاريخ وحاضنة للتقاليد، وانصهرت داخل الواحة تيارات مختلفة فى سبيكة واحدة.

وينقل د. أحمد فخرى بعض صور الماضى كما قدمها المؤرخون والرحالة، والتى تقدم ملامح ذلك المجتمع التقليدى، وجاء فى كتاب الخطط للمقريزى ذكر للواحة التى أطلق عليها سانتريه، وهو الاسم الذى أطلقته عليها المراجع الرومانية والإغريقية القديمة، كما نقشت على جدران معبد إدفو صور من الواحة الواقعة جنوب غرب وادى النطرون، وقال العلامة ابن خلدون عن أهلها إنهم يعودون إلى قبيلة لوانه البربرية.

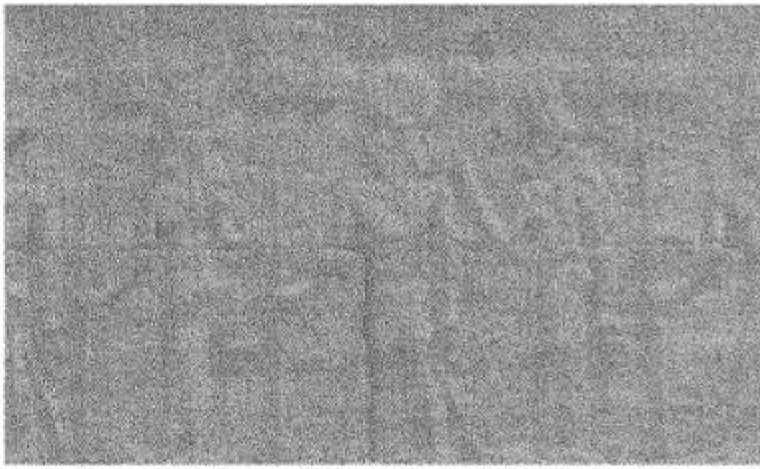
أما عندما زارها الرحالة الإنجليزى براون فى القرن الثامن عشر وتحديداً فى ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٢، فقد لاحظ أن أهل سيوة لا يحتسون القهوة ولا يدخنون، وأن النفوذ فى الواحة يملكه خمسة من شيوخ القبائل.

ويذكر الرحالة بلجريف.. «كان أهل سيوة يسكنون الحصون، ويعيشون وراء أسوار عالية، وكانت المدينة مقامة فوق ربوة عالية ، ومبنية فى خطوط هندسية مستقيمة، ويبلغ ارتفاع أسوارها ٢٠٠ قدم..»، ويصفها الرحالة الألمانى فريدريك هورنمان سنة ١٧٩٨، أنها مجتمع صغير مستقل، لا يدفع ضرائب للسلطان العثمانى، وثروته تقوم على التمر وعلى تجارة القوافل».

وهذا يؤكد ما خلفته قرية شالى من أطلال.

المدنية الحديثة

وعادة لا يبقى شيء على حاله، ولا يفلت أحد من الزمن وتقلباته، ولنتابع ماذا جرى فى واحة سيوة، عندما انتهت عزلتها واستبدلت السيارات بالقوافل.. والطرق المعبدة بدروب الصحراء. ونتابع معاً كيف



نقوش فرعونية على جدران معبد آمون بواحة سيوة



اطلال سيوة القديمة



عين كليوباترا



منارة مسجد بين بقايا «شالي» القديمة

وصل إليها ممثلو المدنية الحديثة.. بعد أن اختارت السلطة المركزية العمدة والمأمور، فأقيم قسم الشرطة قبل المدرسة والمستشفى والمتحف.

وما أدى إليه ذلك من تبدل حياة أهالي سيوة، واختلال التوازن البيئى القائم، واستبدال الأسمنت بالفورشيف المستمد من البيئة ، واستبدلت الأوانى البلاستيكية بالفخارية.

وتخلى الأهالى عن خبرتهم التاريخية المتراكمة، وهبطوا من التلال إلى السهل حول العيون، وبدأت متاعب من نوع آخر.. هل ذلك بسبب النموذج الذى قدمه الزحف الإعلانى الذى تعرضوا إليه عن طريق الصحف والإذاعة والتليفزيون؟!!

وها هو الكتاب يتناول التحول من العزلة إلى الاتصال ومن القرون الوسطى إلى العصر الحديث، بادئا من فترة حكم محمد على باشا، وأرسل الوالى العسكر إلى الواحة عام ١٨٢٠ بقيادة حسن بك الشمشرجى، ولم يجد وسيلة للسيطرة سوى عن طريق إطلاق البنادق، ولقى عدد من الأهالى مصرعهم، ووصلت فى النهاية السلطة المركزية إلى الواحة، ولم يكتف الشمشرجى بإطلاق البنادق وإنما فرض على الواحة دفع ١٢ ألف ريال غرامة وثمنا لعصيانها ، واختير «على بالى» عمدة للواحة، معززاً بأربعين جنديا، وأعقب ذلك تعيين «فرج الكاشف» مأموراً للواحة!.

وأقيم أول بيت حكومى، خارج قرية شالى وعلى الطراز الحديث، والأدهى من ذلك أن المأمور الجديد «محمود عزمى»، هدم معبد «أم عبيده»، حتى يقيم بحجارته مركزاً للشرطة!.

وتعتبر سيوة بالنسبة للمواطنين إحدى المناطق النائية التى لا يسعدهم العمل أو الانتقال إليها، ومنذ أيام محمد على تكررت أعمال العصيان والتمرد، والصدامات بين الشرطة والأهالى.

وأخذت موجات المدنية تزحف، وظهرت السيارة القادرة على اقتحام الصحراء، وكانت الواحة ساحة لصراع مسلح عنيف، لا ناقة لها فيه ولا جمل، خلال الحربين الأولى والثانية، ودخلتها القوات البريطانية فى ٥ فبراير ١٩١٧ ، ووصلتها قوات استرالية وإنجليزية ونيوزيلاندية خلال الحرب الثانية، كما تعرضت للقصف بالطائرات وتم احتلالها من القوات الإيطالية ثم القوات الألمانية، ودُعى القائد الألمانى الشهير روميل لشرب الشاى فى أحد بساتينها ، وبقيت القوات الغازية مدة ثلاثة شهور وثمانية عشر يوماً.

وكما ترى لم تر الواحة من المدنية إلا القهر والحروب وجباية الضرائب، وحتى عندما وصلها ممثلو الإدارة، لم يعرفوا عنها سوى أنها نائية عن الوادى، وأن

طلقات الرصاص هى وسيلة التعامل معها، وعندما أقيمت المدرسة، طاقة النور، قامت دون أدنى علاقة بالبيئة من حولها.

وأخذ هذا المجتمع يتداعى، واختل توازنه البيئى والتناغم القائم بين الإنسان والطبيعة، وانهارت شالى وهبط سكانها من الجبل إلى الوادى، وأقاموا بيوتهم بعيداً عن الطابع القديم، ولأول مرة تصبح المشكلة فى واحة وسط الصحراء هى الغرق، فيمكن أن تغرق جزيرة وسط البحر، أما أن تغرق واحة وسط الصحراء، فهذا هو العجب العجاب، والمشكلة ليست الرى بقدر ما هى الصرف، واستخدام المياه بلا ضابط، مما أدى إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية، وزيادة ملوحة بعض عيونها، ومن ناحية أخرى زحفت كثبان الرمال على أرض الواحة المزروعة.

ورغم سهولة الحل، فمازال بعيداً، فهو يكمن فى عودة الأهالى إلى سكن التلال، وزرع أنواع خاصة من الأشجار تثبت الكثبان الرملية، وتركيب محابس على العيون، لعدم تجاوز ما تحتاجه الأرض من المياه.

وهناك أيضا مشروع على الورق، لم ينفذ بعد والذى يقضى بتصريف المياه فى منخفض القطارة.

ومن ناحية أخرى يهدد النمل الأبيض النخيل فى الواحة، وبدلاً من مواجهة هذه المعضلات الحقيقية، يتركز الاهتمام على إنعاش السياحة فى الواحة، ولدى البنك الدولى استعداد لتمويل المشروعات السياحية، ومازالت محاولات نقل الواحة إلى العصر الحديث مستمرة، واكتمل الطريق البرى الذى يصل مرسى مطروح بسيوة منذ عام ١٩٨١، وهناك طرق أخرى تصل سيوة بالفيوم، وقد تم تعبيد الطرق التى كانت فى الماضى دروباً للصحراء، كما أقيم العديد من الفنادق، وبعضها أدرك روح الواحة وطبيعتها، مستبعداً كل المستحدثات، من الهواتف إلى الكهرباء، ويقدم جمال الحياة الفطرية، وعمارة الواحة المميزة وحتى يشعر الزائر بسحر الصحراء.

وتقدم العديد من الدول مساعداتها فى هذا الإطار، مثل ألمانيا وإيطاليا وكندا التى أقامت بيت التراث السيوى جمعت فيه المنتجات اليدوية المحلية.

مخاصمة الحداثة!

هل معنى ذلك العرض، أنه دعوة مستحيلة إلى العودة إلى الوراء ورفض صور المدنية الحديثة؟!، أى أنه دعوة ضد إقامة المدارس والمستشفيات، ورفض مستحدثات العصر التى ظهرت حتى ترتقى بالإنسان؟!

قطعا.. ليس هذا هو المقصود ولكن الهدف هو التنبيه إلى خطورة تلك المدنية



بعض من أهالي سيوة بملابسهم التقليدية

المصحوبة بالعشوائية، والتي لا تفهم ولا تلتـزم روح المكان، ولا تقـوم على خطة علمـية مـدروسـة، وأهداف واضـحـة، وألا تسير الحداثة مثل العربة الطائشة التي لا مقصد لها، ولا تعرف مع أية قيم قائمة تصطدم!

فلابد أن تسـيـر خطة التـحـديث على دراسة عميقة للواقع، ومعرفة بمتطلباته حتى لا تعود بالمجتمع إلى الخلف، وبدلاً من التقدم إلى الوراء.

ولا يجوز أن يصبح المدخل إلى تطور هذه المناطق البـعـيـدة عن طريق البـدء بجـبـاية الضـرائب قبل تقديم الخـدمـات، وضـرورة العمل على التـنمـيـة القـائمـة على الحفاظ على خصـائص وطابع هذه الواحـة وأن تراعي روح المكان وروعته وحرمته.

وغني عن البـيـان أن السـيـاحـة رغم أهمـيـتـهـا، لا تنتـعـش مـا لم تكن جـزءاً عضويا من تنمية شاملة ، ولابد أن يشمل النهوض كل الاتجاهات.

وجاذبية الواحة للسياحة لا تنكر، فقد زارها الإسكندر حـتـى يعـرف من الإله أمون المستقبل، وغرق في رمال صحرائها جيش قمبيز.

لؤلؤة الصحراء

نعود إلى الكتاب المهم للدكتور أحمد

فخرى، الذى ينقل تجربته الحية فى الواحة، عندما كان ينقب عن الآثار، والتى سحرته بغموضها، فهى لؤلؤة وسط الصحراء وهى أغنى وأبعد نقطة بعيداً عن الوادى .

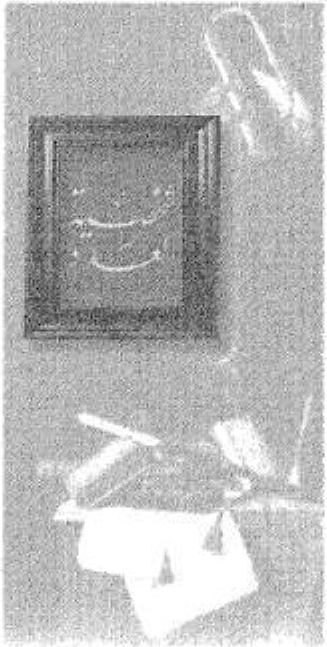
وهذه هى معالم الواحة كما يصفها د. جمال حمدان، تقع سيوة فى نصف منخفض نصفه الآخر هو واحة جغبوب، وهى مفتوحة غرباً على جغبوب، أعمق نقطة فى المنخفض ١٧ مترا تحت سطح البحر، مساحة الواحة حوالى ألف كيلو متر، بطول ٧٥ كيلو مترا وعرض فى المتوسط ١٥ كيلو مترا، يبدو قاع الواحة مثل الغربال المثقوب، تنتشر فيه العيون ، ويظهر أن قاع المنخفض كانت تحتله بحيرة واحدة، وهناك نحو ٥٠٠ عين نصفها صالح للشرب والرى، وبعضها ساخن والآخر بارد، يتجاور أحيانا الحلو والمالح، والبارد والساخن، وبها نحو ١٨٠ ألف نخلة و ٢٠ ألف شجرة زيتون وهى أكبر مزرعة زيتون فى مصر، ومتوسط دخل الفرد فى سيوة أعلى من متوسط دخل الفرد فى الوادى، وتتوسط مدينة سيوة جبل الموتى وجبل التكرور وآغورمي فى الشمال والذى يقع فوقه معبد آمون .

وبعد هذا الاستعراض يلح علىّ سؤال يبحث عن إجابة.. وهو لماذا يرتبط سكان الصحراء الغربية بمن فيهم سكان الواحة وما حولها من قبائل أولاد على بالمغرب، ويتجهون غرباً نحو ليبيا والمغرب؟.. ولماذا أيضا يرتبط بدو سيناء بالشرق ويرتبطون بامتدادهم فى النقب ومعان والجزيرة العربية؟!، ولماذا ثالثا يتجه أهل النوبة وقبائل العبابدة والبشارية جنوباً إلى السودان رغم أن وادى النيل هو أقدم كيان حضارى على مر التاريخ، شكل على الدوام إشعاعا حضارياً؟!!.

ربما كان ذلك نتيجة غياب المعرفة من أهل الوادى لطبيعة سكان الصحراء، وخصوصيتهم، أو ربما بسبب ما يجلبه سكان الوادى إليهم من مدينة منقوصة أو مغشوشة، ولعل ذلك هو السبب الذى من أجله أقامت وزارة الدفاع مركزاً ثقافيا كبيراً فى سيوة، كخطوة مهمة على طريق الفهم المتبادل.

وأخيرا ..

لقد أصدرت الجامعة الأمريكية هذا الكتاب، والأجدر أن ينشر هذا النوع من الكتب من خلال الجامعات المصرية، ولا أدرى لماذا يدفع المتبرعون خمسة وخمسين مليونا من الدولارات من أجل بناء مبنى جديد للجامعة الأمريكية، والجامعات المصرية هى الأكثر حاجة إلى تجديد مبانيها. ■



كامل زهيري

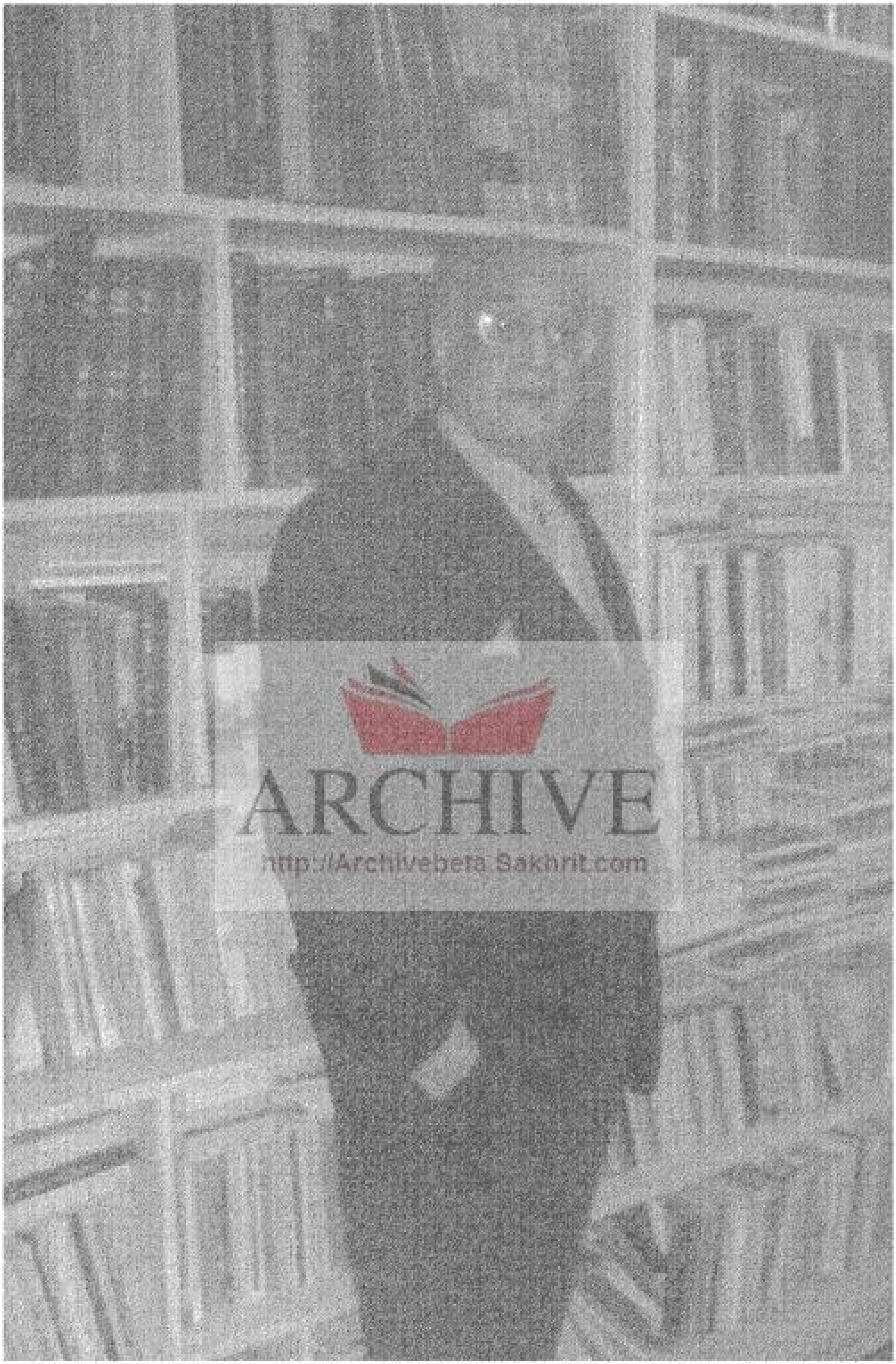
مثقف مصري
بلا مطامع ولا خيانات

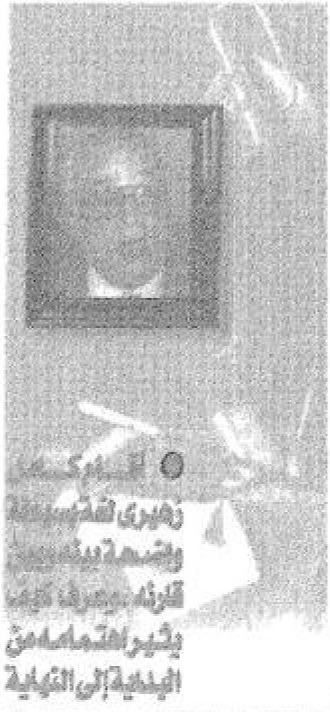
بقلم
علاء الديب

محمد كامل زهيري «أستاذ كامل». هكذا أحب أن أناديه. أعطاه الله بسطة في الجسد والروح والحضور. ظله أمامه وخلفه. يمشي وسط محبة من الزملاء والحواريين. له في العقل والقلب مكانة - رغم بعد الشقة وندرة اللقاء. آثاره باقية في نقابة الصحفيين المصريين، رغم تغير البناء، وباقية أيضا في المؤسسات الصحفية التي عمل بها رغم التغيير والتبديل (دار روز اليوسف - دار الهلال - دار التحرير).

مكانته خاصة عصية على التصنيف. لا يشبهه أحد ولا يقف في طابور. هو الأستاذ والصديق، وبالنسبة للقارئ الذي يعرفه من كتابته هو محرك للفكر، داعية للحرية.

لو أن الزمن غير الزمن، لكتبنا قصائد مديح في شخصه ورحلة فكره وحياته. يكفي الآن أنه ظل واقفا بيننا شامخا هكذا، وصلبا.





مثقف مصري بلا مطامع ولا خيانات.

يحب النيل وأم كلثوم

ابن عائلة قاهرية، عريقة في قاهريتها. يقال أنه السابع الذي يحمل اسم محمد. والده تاجر ناحية الأزهر. تقلب بين الغنى والستر. لم يرث إلاّ حب المعرفة والعلم، والتطلع الشغوف في كتاب الكون. على خلاف أكثر المثقفين فإن علاقته بالشارع وبالناس وبالعمارة والفن جزء من وجوده. ضاحك، سمح بسيط، يحب النيل، وأم كلثوم (أليس قاهريا) إذا حضر مجلسا لا يمكن أن تنسى وجوده.

ولد ١٩٢٧ وتخرج في حقوق القاهرة ١٩٤٧. سافر عقب تخرجه إلى الهند ليعمل في الإذاعة. هناك كان هو «الجالية المصرية» هكذا أطلق على نفسه أو أسماه السفير. لعل السفر في هذا الاتجاه كان بداية التفرد. فعلى الرغم من معرفته بالثقافة الفرنسية، ومحبته لباريس، فلم يكن من المنبهرين الواقعين في شباكها. «علمته الهند أن لا ينبهر بشيء، أعطاه السفر إلى هناك أولا، مناعة وحصانة، وتقديرا لن يزول بعد ذلك أبدا: للروح والتقاليد، والذوق، ومعنى اتساع التجربة الانسانية وتنوعها. فظل واحدا من الاشتراكيين المصريين القلائل الذي لم يرتد بدلة جامدة، أو يسير في فكره على قضبان حديد.

●●●

أول صورة أذكرها له، هي صورته وهو يخرج باب «خارج الحدود» أوائل الستينات، وقتها كان الباب والمجلة نافذة حقيقية على الحركات والتيارات السياسية والثقافية في الخارج، في ذلك الحين كان الاطلاع أو الاتصال بالخارج صعبا ومقلقا. كان يؤدي دوره بإمكانيات قليلة وبمساعدين أقل (كان من بين مساعديه قرينته الزميلة خديجة قاسم). كان مكتبه - كما في الصور - أكواما من الورق والكتب والمجلات. لكنها لا تستطيع أن تخفي جسده الفاره، ولا حيويته المتدفقة. كان موجودا في مجلة روز اليوسف كلها بالرأي والفكر وبالروح «الأستاذية الصديقة» التي اختلف بها عن غيره من أساتذة ذلك الزمن.

وهذه موهبة ربانية لا تكتسب.

جيل الأساتذة هذا الذي شاهدته في مجلة روز اليوسف لعبوا - مع قليل غيرهم - لعبوا الكراسي الموسيقية في شغل كراسي قيادة المؤسسات الصحفية. تولى كل منهم أكثر من منصب في مواقع مختلفة. اقترب بعضهم جدا من السلطة.

وابتعد البعض قليلا أو توارى في الظلام.

أعتقد أن الأستاذ كامل يظل هو الوحيد الذى لم يرتد ثيابا غير ثيابه، ولم يقم بدور غير الدور الذى اختاره لنفسه وأراده لها. اقترب كثيرا وابتعد من مراكز القوى والسلطة والنفوذ. ولكنه ظل الأستاذ كامل.

دخل انتخابات نقيب الصحفيين ونجح مرة وهو «مرشح الحكومة»، كما نجح مرة أخرى وهو «ليس كذلك». يذكر تاريخ النقابة له مواقفه وأداءه القوى والحذر في وسط أجواء عاصفة حول حرية الصحافة ودور النقابة. كما أحسبه أيضا آخر رئيس لاتحاد الصحفيين العرب قبل عصر التكتلات والانقسامات العربية، عندما كان هناك أمل واحد يعمل له الجميع.

●●●

«قارئ محترف.. وكاتب هاو» هكذا يحب أن يقول عن نفسه، ومع ذلك فقد ظل يكتب بالم واحد في كل مكان وكل موقع. أقام لغة بسيطة واضحة بينه وبين قارئه. عامل القارئ بنفس روح الأستاذية الصديقة، فقدم له معرفة جديدة، ورأى واضح دون تقعر أو تعال. كتب المقال السياسى، والاجتماعى، والثقافى والفنى، وكتب «العامود الصحفى» والتحقيق والدراسة. وعندما أراجع ما قرأت له، أجد الخاصية المميزة، أننى لم أمل أبدا، ولم أقفز فوق السطور. عرف دائما كيف يمسك باهتمام قارئه فى البداية كما فى النهاية.

أعرف أنه ضد المقال الطويل فى الجريدة أو المجلة، كما أعرف أنه ضد الخطاب «الدرامتيكى» فى المقال السياسى. ولعله واحد من كتابنا السياسيين القلائل الذين ظلوا يكتبون «للقارئ» وليس «للمسئول» أو صاحب السلطة. لا تصريحا ولاتلميحا . وأظنه كتب مرة - أو ردد - أنه يتمنى أن يكون هناك مقعد خال فى مجلس تحرير الجريدة أو المجلة لكى يشغله.. القارئ.

فى كتابة الأستاذ كامل ملمح أخير هو أنك ترى خلف خطوط السياسة وحساباتها عين الأديب.. والفنان، وترى فى كتابته عن الثقافة والفن حس من يحمل بوعى المسئولية الاجتماعية.

●●●

تنير كثير من أفكار الأستاذ كامل عن طريق الصياغة الخاصة المحكمة التى يقدمها فيها. براعة خاصة مليئة بالملاحية والسخرية لعل أوضح دليل على ما أقول هى صورته أو فكرته عن المياه الجوفية». فقد تصور أن تلك الأغلبية الصامتة التى تبدو لا مبالية وغير مهتمة لا بالسياسة ولا بالشأن العام.. هى مياه جوفية نسبح فوقها. تشكل خطورة غير منظورة، وبالرجوع إلى التاريخ القريب، نرى أن هذه المياه الجوفية تفاجئنا كل عدد من السنين بحركة أو انفجار مفاجئ، بعد أن كنا نحسب أن خطرها الوحيد هو مجرد «النشع».

كلمات مثل «الشعب» أو «الجماهير» اختفت من القاموس السياسى ولم



● لم يرتد أبدا ثيابا غير ثيابه ولم يقم بدور غير الدور الذي اختاره لنفسه وأراده لها

يعد الكتاب يستعملونها كثيرا، حتى حسبنا أن المعانى التى تدل عليها قد اختفت أو تبدلت، حتى تقع فى صياغة للأستاذ يقول فيها ببساطة الشعب والجماهير هم «كل من ليس لهم مصلحة خاصة ضد الصالح العام».

وعلى الرغم من أنه أطلق على صحافة السنوات التى أعقبت الثورة «صحافة التعبئة» فإنه - وقليل غيره - استطاعوا أن يتمسكوا بنبرة موضوعية عاقلة محاولين قدر المستطاع التمسك بخدمة القارئ وليس مجرد المسئول أو النظام «موسوعة الاشتراكية» التى صدرت عن دار الهلال تحت إشرافه أوضح دليل على ما أحاول أن أقول.

عندما يحتار فى توصيف حال البلد يقول «علينا أن نخرج من النهر إلى البحر» عاكسا شعار فلسطين التاريخى، وعندما يلتقى بالشباب الذى يلقى بكل المسئولية على ثورة يوليو يقول «لقد دخلوا الفيلم من نصفه». كما كان له اعتراض أساسى متكرر على فكرة «أوراق اللعبة» التى فى يد أمريكا وحدها. وله تعليق ساخر حقيقى على من يتفاوض فى السياسة والاقتصاد فى وقت واحد.

يعرف «الأستاذ» دائما كيف يضع فكرته السياسية المجردة فى صورة مجسمة تصل إلى القارئ وتبقى معه.

يعود بنا كثيرا فى كتابته وحديثه إلى مظاهرة أحمد حلمى (خال صلاح جاهين) من أجل حرية الصحافة. تلك المظاهرة التى وقعت ١٩٠٩ واستمرت لمدة ٤ أيام واشترك فيها (١٠ آلاف مصرى!).

هو ذلك المثقف العارف بحضارة الغرب. لكنك لا تلمس لا فى الكتابة ولا فى السلوك. ذلك الذى يقال عنه «فرنجه». تجد عنده معنى حقيقيا للتحضر يجمع فى خصوصية فريدة بين الأصالة، والذوق، وسماحة المعرفة، والقدرة على قبول الآخر.

الأستاذ كامل فوق ذلك كله، رسام يحب ألوان الباستيل، ويتقن الرسم بألوان الزيت الصعبة موضوعه المفضل فى الرسم هو النساء والورد، وعلاقته ومعرفته بالعمارة القاهرية والإسلامية علاقة مكملة لبنائه الفكرى والثقافى.

هو يسكن جوار النيل قريبا جدا من المكان الذى سقطت فيه «فيللا أم كلثوم» العريقة - واحدة من جرائمنا التى لا تغتفر. ولعله يحاول أن يعوضنا عنها بذلك المكان البديع الذى يتولى إدارته: مكتبة القاهرة الكبرى بالزمالك. ■



يـا دجـلة الخيـر

للشاعـر العراقـي الكبيـر
محمد مهدي الجواهري

حييتُ سفحكِ عن بُعدٍ فحيّيني ... يادجلة الخيرِ، يا أمَّ البساتينِ
حييتُ سفحكِ ظمآناً ألوذُ به ... لوذَ الحمائمِ بين الماءِ والطينِ
يادجلةَ الخيرِ يانبعاً أفارقُهُ ... على الكراهةِ بين الحينِ والحينِ
إنّي وردتُ عيونَ الماءِ صافيةً ... نَبعاً فنبعاً فما كانت لترويني
وأنتَ ياقارباً تَلوي الرياحُ به ... ليَّ النسائمِ أطرافَ الأفانينِ
وددتُ ذاكَ الشراعَ الرخصَ لو كفني ... يُحاكُ منه غداةَ البينِ يَطويني
يادجلةَ الخيرِ: قد هانت مطامحُنا ... حتى لأدنى طِماحٍ غيرُ مضمونِ
أتضمنينَ مقيلاً لي سواسيةً ... بين الحشائشِ أو بين الرياحينِ؟
خِلْواً من الهمِّ إلاَّ همَّ خافقةٍ ... بين الجوانحِ أعنيها وتَعنيني
تَهزُّني فأجاريها فتدفعُني ... كالريحِ تُعجِلُ في دفعِ الطواحينِ

* * *

يادجلةَ الخيرِ: ياأطيافَ ساحرةٍ ... يا خمرَ خابيةٍ في ظلِّ عُرجونِ
ياأمَّ بغدادَ، من ظَرفٍ، ومن غَنَجٍ ... مشى التبغدُدُ حتى في الدهاقينِ
ياأمَّ تلك التي من «ألفِ ليلتِها» ... للآن يعبِقُ عِطرٌ في التلاحينِ
يامُستَجمَّ «النّواسيِّ» الذي لبِستْ ... به الحضارةُ ثوباً وشيَ «هارونِ»

أحمد طه

ونصف قرن من النضال

بقلم
د. رءوف عباس

فقدت مصر ، بل فقد النيل أحد أبنائه المناضلين من أجل حياة حرة كريمة للكادحين من أبناء وادى النيل ، ومن أجل رفع راية الاستقلال الوطنى على مصر والسودان . فقدت مصر ، وفقد النيل أحمد طه المناضل النقابى ، والنائب المدافع عن قضايا وطنه وقضايا جماهيره . ارتبط بالنيل وواديه منذ مولده فى منتصف عشرينات القرن العشرين . والده المريس طه أحمد الذى عاش حياته على صفحة النهر المبارك ، يقود المراكب الشراعية التى تقطع النهر صعودا وهبوطاً ، كما كانت تفعل منذ كانت الحضارة لاتزال فى مهدها ، وقدم هذا الإنسان المصرى البسيط لوطنه ولدين تعلما تعليما فنيا ، التحق أكبرهما «عبدالقادر طه» بخدمة الجيش المصرى ، وأصبح ضابطا من الضباط الأحرار ، واغتاله «الحرس الحديدى» ، قبيل قيام ثورة يوليو . وكان ولده الثانى «أحمد طه» مناضلا وطنيا يعمل بين الجماهير ، ويعيش قضاياهم ، وقضايا الوطن ، حتى وافاه الأجل فى نهاية الشهر الماضى .

عرفت أحمد طه في شتاء عام ١٩٦٥، كنت – عندئذ – أعد أطروحة الماجستير حول «الحركة العمالية المصرية» ، واستطعت خلال عام ١٩٦٤ أن ألتقي النبيل عباس حليم ، وأن أضع يدي على الخيوط التي قادتني إلى مجموعة النقابيين الذين تعاونوا معه ، وكانوا يمثلون «اليمين» في الحركة العمالية . أما اليسار، فلم يكن هناك سبيل للتعرف على أقطابه فقد كان معظمهم قد خرج من المعتقل قبل شهور معدودة ، ولم يطمئن أولئك الذين طرقت أبوابهم إلى ذلك الشاب المجهول الهوية ، الذي يطرح الكثير من الأسئلة ، ويستعلم عن كيفية الوصول إلى دوريات وأوراق الجناح اليساري في الحركة العمالية .

وشاءت الصدفة أن ألتقي زميلا قديما بكلية الآداب جامعة عين شمس ، هو الصديق سعد صمويل ، بينما كنت أتفحص الكتب على سور الأزبكية ، وكنت لم أسمع عنه منذ سنوات ، وعندما علم بموضوع أطروحتي وما أعانيه من صعوبة العثور على مادة عن الجناح اليساري في الحركة العمالية ، رحب بمساعدتي على الفور وتقديمي لبعض الشخصيات المهمة في هذا الفصيل من الحركة العمالية .

لم أكن أعرف أن غيبة الزميل التي طالت لسنوات كان سببها الاعتقال ضمن الموجة الشهيرة التي وقعت عشية ختام عام ١٩٥٨ وجمعت كل نشطاء وكوادر التنظيمات الشيوعية . وبعد أن سرنا معا إلى إحدى العمارات القديمة بالقرب من حديقة الأزبكية ، صعدنا إلى إحدى الشقق تؤجر غرفها كمكاتب ، وفي إحدى تلك الغرف كان مكتب «دار الجماهير للنشر» ، وهناك قدمني سعد



كان أحمد طه من الكوادر النشطة التي أسست «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» - ديسمبر ١٩٤٥

صمويل إلى أحمد طه ، الذي قدمني – بدوره – إلى محمود يوسف المدرك ، ومحمود العسكري، وعن طريق هؤلاء المناضلين الثلاثة ، استطعت أن أتعرف على الدور البارز الذي لعبه اليسار في الحركة العمالية.

وقد فتح لي «أحمد طه» بيته (برقم (١) شارع طاهر – قسم الساحل) حيث كنت ألتقيه عدة ساعات صباح الجمعة في الأسبوع الأول من الشهر ، ولمدة أربعة شهور ، قدم لي فيها معظم ما حصلت عليه من معلومات حول «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» الذي تأسس في أواخر الحرب العالمية الثانية ، «واللجنة التحضيرية لمؤتمر نقابات عمال مصر» التي شكلت في ١٩٥٠ ، والجهود التي بذلت لتمثيل مصر في المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمي عام ١٩٥٤ . مما شجع

المدرك والعسكري على مدى بالمعلومات وبعض الأوراق الخاصة «بلجنة العمال للتحرير القومي» ، وأتاح لي فرصة إبراز دور اليسار في الحركة العمالية : وتبين - من خلال حديثي مع آخرين من مختلف فصائل اليسار - أن الرجل كان موضوعيا ، أمينا ، في كل ما قدمه لي من معلومات ، لم يحاول خلالها أن يبالغ في الدور الذي لعبته كوادر «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) نفي الحركة العمالية على حساب غيرهم من المنتمين إلى الفصائل الأخرى ، رغم انتمائه إلى الفريق الأول .

***

جاء أحمد طه إلى الحركة العمالية من خلال نضاله شابا في مطلع العقد الثالث من عمره من خلال نقابة عمال ماركوني ، وهي شركة الاتصالات التليفونية الدولية التي احتكرت هذه الخدمة في مصر وغيرها من بلاد البحر المتوسط لنصف القرن ، قبل أن يلتحق أحمد طه بها كفني اتصالات . فلا غرابة أن يتفتح وعيه على هيمنة رأس المال الأجنبي على الاقتصاد المصري في مختلف القطاعات ، وما تعرضت له الطبقة العاملة المصرية من التعرض لأسوأ ظروف العمل وشروطه في تلك الشركات الأجنبية التي مارست كل أشكال التمييز بين المصريين والأجانب من ناحية ، وبين المصريين وبعضهم البعض ، أي بين العمال والفنيين المصريين والنفر القليل من موظفي الإدارة من مواطنيهم ، وكان ذلك التمييز واضحا في الأجور وساعات العمل ونظام الأجازات على وجه الخصوص .

وعندما نزل أحمد طه سوق العمل في نهاية الأربعينات كانت مصر تموج بحركة سياسية وطنية نشطة تطالب بالتخلص من ربقة معاهدة ١٩٣٦ التي وضعت مصر ومواردها وشعبها في خدمة «الحليفة» بريطانيا في حرب عاد غنمها على الحلفاء وبقي غرمها للمصريين . ولذلك نشطت التنظيمات السياسية الرافضة للممارسات السياسية للأحزاب الليبرالية التقليدية التي تقلبت على الحكم في ظل دستور ١٩٢٣ ، تجاه القضية الوطنية (الاستقلال الوطني) ، وقضية الإصلاح الاجتماعي ، ونعني بها المنظمات الشيوعية ، ومصر الفتاة ، والأخوان المسلمين . فما أن وضعت الحرب أوزارها في ١٩٤٥ ، حتى عمت مصر من أقصاها إلى أقصاها حركة تطالب بالاستقلال التام ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، كانت حركات الرفض السياسي والطليعة الوفدية في مقدمتها» .

وهكذا أضاف أحمد طه إلى وعيه بما لهيمنة رأس المال الأجنبي من خطر على مصر ، وعيا أعمق ، بأصل هذه الظاهرة ، وهو الوجود الاستعماري البريطاني في مصر . وكان طبيعيا أن يختار الوقوف في خندق اليسار . ورغم اختياره النضال في صفوف الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ، إلا أنه كان حريصا على الالتحام بالجناح اليساري للحركة العمالية، والتعاون مع النقابيين من الفصائل الشيوعية الأخرى من أجل تحقيق الأهداف المشتركة للحركة العمالية المصرية .

ولا أعرف - تحديدا - متى انضم أحمد طه إلى «حدتو» ، فلم أسأله عن ذلك، وكان الرجل لايحب الكلام عن نفسه.

ولكننا نجده بين الكوادر النشطة التي شاركت في تأسيس «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» الذي تكون في ديسمبر ١٩٤٥ . فقد كان

قانون الاعتراف بنقابات العمال الصادر في ١٩٤٢ يحرم تشكيل اتحاد عام لنقابات العمال . ومن ثم كان التحايل على القانون بإطلاق اسم «مؤتمر» على تجمع مايزيد على ٢٥ نقابة من نقابات عمال القاهرة في قطاعات النقل والصناعة والخدمات في شكل اتحاد هدفه المطالبة بتحسين أحوال العمل والعمال ، وخاصة مواجهة مشاكل الغلاء وانخفاض الأجور والبطالة وعدم توفر التشريعات التي توفر الحماية للعمال وتؤمنهم ضد مختلف الأخطار .

★★★

وقد لعب النقابيون اليساريون دورا مهما في حشد النقابات وراء هذا التنظيم العمالي في خريف ١٩٤٥ ، عندما نجحوا في الترويج لفكرة اشتراك النقابات المصرية في الاجتماع التأسيسي للاتحاد العالمي لنقابات العمال (W.F.T.U) . واستطاعوا جمع التبرعات الكافية لإيفاد ممثلين عن عمال مصر إلى الاجتماع التأسيسي المزمع عقده بباريس ، فتم إختيار محمد يوسف المدرك ، ودافيد ناحوم ، ومراد القليوبي ، ومحمد عبدالحليم ، ممثلين لمجموعة من النقابات التي تقودها عناصر يسارية ذات توجهات مختلفة .

وتم اختيار محمد يوسف المدرك عضوا بمجلس الاتحاد العالمي للنقابات ، كما تجدد انتخابه - مرة أخرى - في المؤتمر الثاني الذي عقد بميلانو في يوليو ١٩٤٩ ، رغم غيابه وعدم وجود غيره ممثلا لمصر في ذلك المؤتمر . أما المؤتمر الثالث الذي عقد في برلين عام ١٩٥١ فقد شارك فيه أحمد طه وحسن عبدالرحمن ممثلين «للجنة التحضيرية للاتحاد العام لنقابات عمال مصر» .

وخلال تلك السنوات الست (١٩٤٥ - ١٩٥١) كان أحمد طه ، الشاب الذي بدأ نضاله النقابي مع عمال ماركوني قد أصبح كادرا نقابيا متميزا بفضل الخبرات التي اكتسبها من العمل النقابي والسياسي في تلك الفترة .



فلم يقتصر دور «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» - الذي كان أحمد طه من بين قياداته - على تبني المطالب العمالية فحسب ، بل شارك في العمل السياسي المطالب بتحقيق الاستقلال الوطني ، وانضم «المؤتمر» إلى «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» ، ومن ثم اشترك في تنظيم الاضرابات التي دعت إليها اللجنة ، ومن بينها إضراب «يوم الجلاء» (٢١ فبراير ١٩٤٦) وطالب المؤتمر من خلال نشرته التي كان يصدرها تحت اسم «المؤتمر» بتحقيق الجلاء عن وادي النيل ، وتخليص الاقتصاد الوطني من السيطرة الأجنبية ، وبين للعمال أن الكفاح ضد الاستعمار يؤدي إلى تحقيق المطالب الاقتصادية والاجتماعية للعمال ، وأن «إنتصار قضية الوطن إنتصار لقضية العمال» .

وكان التحام «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية بالنضال السياسي الوطني عام ١٩٤٦ ، مشجعا لتوسيع نطاقه ، وتحويله إلى تنظيم يضم جميع نقابات العمال في مصر ، فأعلن «المؤتمر» عن تنظيم احتفال كبير بعيد العمال في الأول من مايو ١٩٤٦ ، يعلن فيه تأسيس «مؤتمر نقابات عمال مصر . وعبثا حاولت الحكومة إجهاض المحاولة بمحاصرة مقر الاجتماع ، ومنع العمال من دخوله ، فتم عقد الاجتماع في مكان بديل ، حيث أقرت لائحة التنظيم الجديد . وبدأ المؤتمر ينظم حركة للمطالبة بتحقيق

الجلاء التام «سياسيا واقتصاديا وعسكريا عن وادى النيل» ، والمطالبة بتحسين الأجور ومكافحة البطالة والتأمين ضد البطالة ، والافراج عن المعتقلين من القادة النقابيين .

وسعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر لتنفيذ إضراب عام (فى ٢٥ يونيو ١٩٤٦) إذا لم تستجب حكومة إسماعيل صدقى باشا لمطالبهم . ولكن الحكومة نجحت فى إقناع عمال النقل بالعدول عن فكرة الاضراب ، على وعد ببحث مطالب العمال والاستجابة لها ، وبذلك فشلت محاولة الاضراب العام . ثم جاءت ضربة ١١ يوليو ١٩٤٦ عندما ألقت حكومة صدقى القبض على كل العناصر النشطة فى الحركة السياسية من المثقفين والطلبة والعمال على اختلاف إنتماءاتهم وتوجهاتهم السياسية ، وكان قادة «مؤتمر نقابات عمال مصر» من بين المعتقلين . وبذلك تم القضاء على تلك المحاولة التى استهدفت إقامة تنظيم موحد لقيادة الحركة العمالية .

كان أحمد طه - المناضل الشاب - طرفا فى تلك الأحداث ، شريكا فيها فى حدود موقعه بين عناصر الصف الثانى من القيادات النقابية ، ولكنه برز إلى الصف الأول فى المحاولة الثانية التى تزعمها كوادر «حدتو» لتأسيس اتحاد عام للعمال، فكان من قيادات «اللجنة التحضيرية للاتحاد العام لنقابات العمال بالقطر المصرى» التى شكلت عام ١٩٥١ ، ورفعت المطالب المزمنة للعمال المتعلقة بالأجور وساعات العمل ، وتشريعات العمل ، إضافة إلى الاعتراف القانونى بحق الإضراب العام باعتباره حقا مشروعا ، والاعتراف بحق العمال فى إقامة اتحاد عام يجمع شمل النقابات ويدافع عن مصالح العمال .

وكان أحمد طه من بين القيادات التى نشطت لحشد النقابات وراء هذه اللجنة ، فتم ضم أكثر من مائة نقابة إليها ، وتحدد مساء الأحد ٢٧ من يناير ١٩٥٢ لعقد مؤتمر عام بمقر نقابة عمال ترام القاهرة ، لتبادل الرأى حول النظام السياسى ، وكانت النية متجهة إلى إعلان تأسيس «الاتحاد العام لنقابات عمال القطر المصرى» .

وكانت الأحداث تخبىء مالم يكن فى الحسبان . فقد شب حريق القاهرة فى صباح السبت ٢٦ من يناير عام ١٩٥٢ ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وبذلك أصبح انعقاد المؤتمر مستحيلا ، وخاصة أن السلطات ألقت القبض على معظم زعماء النقابات وقادة اللجنة التحضيرية ، وأفلت أحمد طه من الاعتقال ليشارك بعض زملائه إصدار وتوزيع بيان باسم «اللجنة التحضيرية» تستنكر فيه حريق القاهرة ، وتنبه إلى أن أعمال التخريب والشغب لا تخدم إلا الاستعمار ، وأنه «لا سبيل إلى إجلاء الاستعمار إلا بالكفاح الإيجابى والمحدد الأهداف وبتوحيد الصفوف» .

***

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وكان من بين المحاكمات التى تمت فى شهورها الأولى محاكمة قتلة «الشهيد عبدالقادر طه» الملازم الفنى ، عضو الضباط الأحرار ، وشقيق أحمد طه ، وجاءت الإنجازات الأولى للثورة وما أعلنته من مبادىء محققة لما كافح من أجله أحمد طه وجيله من المناضلين النقابيين ، ولكن الطريقة التى عومل بها عمال كفر الدوار عام ١٩٥٢ وإعدام خميس والبقرى ، وتغير موقف (حدتو) من مساندة «حركة الجيش» إلى إتهامها بالفاشية ، وارتباط أحمد طه بالتنظيم جعله يتعرض للاعتقال طوال عقد الخمسينات ، لايترك المعتقل إلا هاربا تارة ومفرجا عنه أخرى حتى كانت

سنوات الاعتقال الخمس التى التقيت به بعدها بشهور قلائل .

★★★

ولكن سنوات السجن لم تزده إلا صلابة ، واستمرارا فى النضال الوطنى بطريقته الخاصة . وعندما بدأ مشروعه الصغير الذى لم يقدر له النجاح أو الاستمرار ، وهو «دار الجماهير للنشر» بدأ بكتابين أحدهما بعنوان «المرأة .. كفاحها وعملها» . تناول فيه قضية المرأة ، ودورها فى العمل الوطنى ، ونصيبها من سوق العمل ، ونضالها النقابى . والكتاب الآخر شاركه فى تأليفه بعض زملائه من «حدتو» ، وحمل عنوان «الطبقة العاملة والكفاح السودانى المصرى المشترك» ، ولا أعرف شيئا عن الظروف التى دفعته إلى التوقف عن المضى قدما فى المشروع ، ولكنى استطيع أن أتصور المضايقات التى قد تتعرض لها مثل هذه الدار ، وخاصة أنها كانت ملتقى رفاق نضال الأربعينات

وتمضى السنوات ، وأحمد طه لايكف عن العمل العام ، فكان من بين المؤسسين الأوائل لحزب التجمع ، ثم فترت علاقته به لظروف ما ، وظهر اسمه بين مؤسسى «الوفد الجديد» ولعل ذلك يرجع إلى وجود بعض كوادر «الطليعة الوفدية» بين المؤسسين ، وعندما اختلفوا مع فؤاد سراج الدين حول طريقة إدارته للحزب وتركوه ، كان أحمد طه فى مقدمتهم .

وأخيرا ، رأى الرجل أن يعمل مستقلا فى خدمة أبناء حى الساحل الذى قضى حياته كلها فيه ، وعندما رشح نفسه فى أول انتخابات تعددية تم إجراؤها فى عهد أنور السادات اختار أن يرشح نفسه مستقلا ، ولكنه ظل ينسق مواقفه داخل المجلس مع ممثلى اليسار ، وخاصة فى معارضة كامب



ديفيد ومعاهدة السلام مع إسرائيل والتطبيع وضاقت الحكومة ذرعا بمواقفه واستجواباته ، فلفقت له قضية تخابر مع بلغاريا ، ووقف وزير الداخلية ليعلن بيانا زعم فيه أن لدى الحكومة أدلة دامغة على الاتهام ، وتم القبض عليه والقائه فى سجن القلعة مع بعض رفاقه حتى تكتمل ملامح القضية .

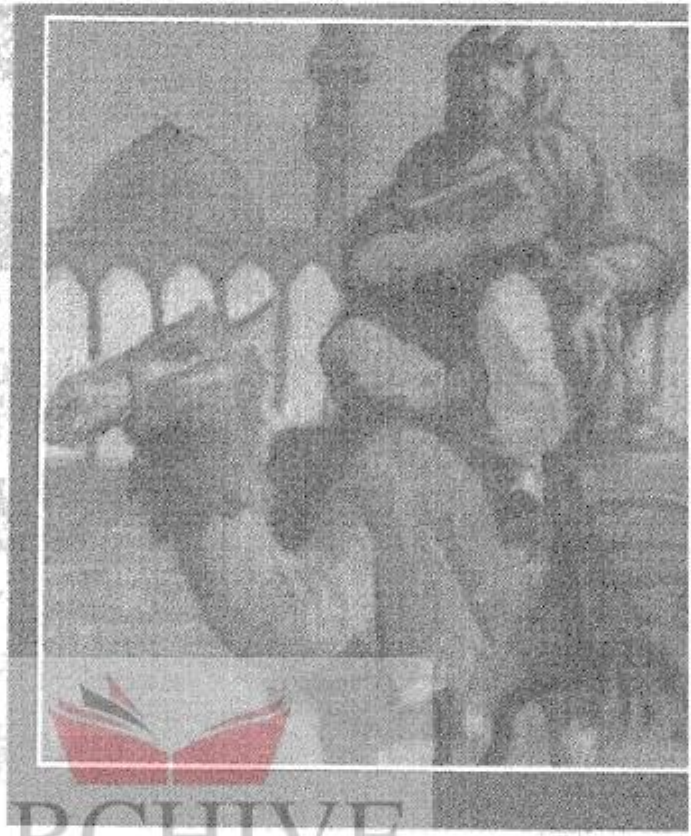
ولم تهن عزيمة أحمد طه ، فرشح نفسه فى الانتخابات بدائرة الساحل وهو فى السجن ، واكتشف بعد خروجه من السجن عندما برأ القضاء المصرى النزيه ساحته وساحة زملائه ، اكتشف أنه نجح فى المرحلة الأولى ، وأن النتيجة زورت لتتم الإعادة بالدائرة ، وهو الهدف الحقيقى من تلفيق قضية التخابر له لإبعاده عن مجلس الشعب .

ولكن النفس التى جبلت على النضال جعلته يخوض الانتخابات معتمدا على رصيده الكبير فى خدمة الجماهير الذين عاش بينهم طوال حياته ، فاستعاد مقعد الدائرة بمجلس الشعب ، وظل يلعب دور المعارض الوطنى الملتزم بقضايا أمته ، طوال وجوده بالمجلس .

وعلى صعيد العمل العام أسس «جمعية الشهيد للإسكان التعاونى» وقام ببناء عمارات سكنية تعاونية حقة ، ولم يتخذ منها - كما فعل غيره - وسيلة للإثراء غير المشروع ، بل اتخذ منها رسالة لخدمة أبناء دائرته ، ولذلك خرج أبناء الساحل عن بكرة أبيهم لوداعه يوم الرحيل ، تاركا ذكرى عطرة لإنسان نبيل ، أوقف حياته لخدمة جماهير شعبه بإخلاص .

■

قراءة معاصرة فى رحلة ابن بطوطة



بقلم

د. صلاح عبد اللطيف

الرحالة العربى المغربى ابن بطوطة يبدو فى مخطوطه الضخم الذى سجل فيه وقائع وأحداث رحلاته منذ سبعمائة عام كمراسل صحفى بمفهوم العصر الذى نعيشه، فهو ينقل كل ما يراه وما يسمعه ويحاول أن يبدو محايدا يبدى كثيرا من المجاملة والإشادة بمن التقى بهم من سلاطين وولاة وفقهاء، وينسب رواياته وأخباره لمصادرها كأن يقول «حدثنى فلان» وإذا نقل رواية مشكوكا فيها قدمها بكلمة «يزعمون» أو «فى زعمهم»، ولكى يستكمل وضعه الصحفى فهو عندما يذكر الأخبار وسرد الروايات، يهتم بالوصف بديلا عن الصورة، ويصف المساجد والزوايا والأشخاص الذين التقى بهم من سلاطين وحكام وقضاة وولاة كأنه يمسك بكاميرا.



خريطة توضح رحلة ابن بطوطة الكاملة

في هذه الرحلات ينقل ابن بطوطة صورة كاملة للحياة في الدول العربية والإسلامية سواء في آسيا أو أفريقيا منذ سبعمائة عام.. كيف كانت الحياة وعلاقات الناس وعاداتهم وملابسهم وتقاليدهم فهو لم يهدف من رحلاته هذه كعالم أو مكتشف وإنما كفقيه مسلم كانت وجهته في أول الأمر السفر إلى الأراضي المقدسة وأداء فريضة الحج عن طريق مصر، لكنه وجد نفسه منساقا إلى السفر هنا وهناك، خاصة أنه لم تكن هناك تلك القيود والحواجز التي تواجهها الآن بعد ٧٠٠ سنة من حدود بين الدول، وجوازات سفر، وتأشيرات دخول، وبدل سفر.. المواصلات كانت هي الخيل والبغال والجمال أو السفن والمراكب في البحار والأنهار، والناس تسافر معا في جماعات، يساعدون بعضهم بعضا، وبينهم تكافل اجتماعي قائم على الدين والزوايا الدينية والولاة والقضاة يتكفلون بهم طالما أنهم يؤدون الشعائر الدينية، ويقرأون القرآن، ويحافظون على الصلاة، فهو لم يحتج إلى بدل سفر أو صحيفة تنفق عليه بل أنه حصل على هدايا كثيرة من السلاطين الذين التقى بهم، وأهديت له الجواري خاصة في بلاد آسيا، وتزوج أكثر من مرة وأسندت إليه مهام القضاء في الهند والصين.

أقام في حاشية السلطان «أبي عنان» من أمراء بني مرين يحدث الناس بما رآه وسمعه فأمره السلطان بأن يكتب هذه الأخبار، وكان الهنود قد سلبوه كل ما يملك في بعض رحلاته بما فيها مذكراته التي دون فيها ما شاهده واطلع عليه، فأملى عن ظهر قلب ما تذكره على كاتب عينه له السلطان يدعى «محمد بن جزى الكلبي» وذلك يفسر ما يؤخذ عليه من مبالغات وهفوات جغرافية، وبلغ مجموع ما أملاه على كاتب السلطان ٧٠٠ صفحة سميت «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» التي عرفت بعد ذلك

برحلة ابن بطوطة. فقد اهتم بها المستشرقون في إنجلترا وفرنسا والبرتغال وألمانيا وترجموها أو ترجموا معظمها إلى لغاتهم وطبعوها، ولقبه المستشرق «ووزى» «بالرحالة الأمين».

لم يسلم به أحد في تونس .. فبكى

كانت أول محطة له في الجزائر بمدينة تلمسان، ومن هناك خرج مع بعض التجار إلى تونس فاهتم أهلها بهم ولم يسلم عليه أحد لعدم تعرفهم به فتأثر وعبر عن ذلك بقوله «فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة، واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج فأقبلوا على بالسلام والإيناس».

كانت هذه أول صدمة له في بداية رحلته فكانت بمثابة الترياق الذي مكنه بعد ذلك من احتمال الشدائد ومواجهة الأهوال التي رآها وتعرض لها وخاصة في الهند، فواصل رحلته بعد ذلك إلى تونس وطاف بمدنها على الساحل وتزوج فتاة من تونس لكنه فارقها بعد مشاجرة وقعت بينه وبين صهره. ومن تونس خرج إلى طرابلس في صحبة الحكومة فارس.

الإسكندرية منذ سبعمائة عام

وصل إلى مدينة الإسكندرية أول جمادى الأولى عام ٧٢٦ هـ فانبهر بها.. ووصفها بقوله «هي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والأحكام مبانيها، فهي الفريدة في تجلي سناها، والخريدة تجلى في حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنفوا في عجائبها فأغربوا».

ويواصل وصف المدينة ومنارها بتفصيل دقيق كأنه رسام أو مصور لا يترك صغيرة أو كبيرة ولا ينسى أن يتحدث عن أمير الاسكندرية وعلمائها مثل القاضي «عماد الدين الكندي» ذي العمامة الكبيرة، والشيخ «ياقوت الحبشي» تلميذ أبي العباس المرسي الذي هو تلميذ أبي الحسن الشاذلي، والشيخ «أبي عبدالله المرشدي»، وكلهم كما يقول أصحاب كرامات ومقامات عالية.

قرى ومدن الدلتا

يخرج من الإسكندرية في طريقه إلى القاهرة فيطوف بقرى ومدن الدلتا ويصف كل قرية ومدينة بإسهاب، ومن وصفه لا تخلو قرية أو مدينة من المساجد والزوايا ورجال الدين وأولياء الله الصالحين، ويصف بلاد البرلس ونبروة بأنها «بلاد الصالحين، كثيرة النخل والثمار والطير البحري والسمك المعروف بالبوري»، ومنها يسافر إلى دمياط «وهي مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، وشجر الموز بها كثير»، ويواصل طريقه إلى «فارسكور» و«أشمون» المشهورة بالرمان وهي مدينة على النيل ترسو عليها المراكب. ومنها إلى سمنود وهي على شاطىء النيل ومنها إلى «المحلة الكبرى»، ومن هذه المدينة ركب النيل وصعد إلى مدينة مصر «القاهرة» ما بين مدائن وقرى منتظمة ومتصل بعضها ببعض.

مصر .. كما وصفها ابن بطوطة

ويبدو أنه وقع في حب مصر فكتب عنها أحلى ما كتب.. يقول «هي أم البلاد

وقرارة فرعون ذى الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية فى كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه ووضيع ونبيه، وشريف ومشدون، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، وشبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم، ولها خصوصية النيل الذى أجل خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها ومسيرة شهر لمجدّ السير، وكريمة التربة، مؤنسة لذوى القربة، وفيها يقول الشاعر:

لعمرك يا مصر بمصر، وإنما
هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان، والحور عينها
وروضتها الفردوس، والنيل كوثر

ثم يتحدث عن الحياة فى مصر وعادات المصريين فى ذلك الوقت، والمساجد والزوايا فيقول «إن بمصر من السقائين على الجمال أثنى عشر ألف سقاء، وبها ٣٠ ألف مكار (الذين يؤجرون الحمير لركوبها كوسيلة مواصلات)، وأن نيلها به من المراكب ٣٦ ألف للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية».. لم يذكر كيف استقى هذه المعلومات والأرقام لكنه كمن يكتب تقريرا صحفيا، ويصف المصريين قائلا «وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر (السلطان قلاوون) من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما».

ويصف مسجد «عمرو بن العاص» بأنه مسجد شريف كبير القدر، شهير الذكر، يقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية، حيث كان يدرس «أبوعبدالله الشافعى»، وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها، وأما الزوايا فكثيرة ويسمونها الخوانق، والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا، وكل زاوية معنية بطائفة من الفقراء.. وأكثرهم الأعاجم، ولكل زاوية شيخ وحارس ومن عوائدهم فى الطعام أن يأتى خادم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل يوم واحد ما يشتهيه من طعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى أناء على حدة، لا يشاركه فيها أحد، وطعامهم مرتان فى اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهرين ٣٠ درهما للواحد، ولهم الحلاوة من سكر فى كل ليلة جمعة والصابون لغسل ثيابهم، والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح، وهم أعزاب، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية».

ويصف المقابر فيقول.. «ولمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بها، وقد جاء فى فضلها أثر إخراجه القرطبى وغيره لأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة

«وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة، ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور، ويبنون بها البيوت، ومنهم من يبنى الزواية والمدرسة إلى جانبى التربة ويخرجون كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف الأكل، ويرفعون القرآن، ويقرأون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان.

ويواصل وصفه لمساجد القاهرة، ولا ينسى أن يتوقف عند نهر النيل والأهرامات، ويصف نهر النيل بأنه «أفضل أنهار الدنيا عذوبة ومذاق واتساع قطر وعظيم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها. ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس في الأرض نهر يسمى بحرا غيره». وهنا يتدخل الجانب الدينى فيه كفقيه فيقول أنه في الحديث الصحيح فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى، فإذا فى أصلها أربعة أنهار، نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات، وفي الحديث أيضا إن النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة، ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافا لجميع الأنهار.

ويتحدث عن الاهرامات فيقول عنها «أنها من العجائب المذكورة على مر الدهور». «ويزعمون» أن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت عن «هرمس» الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، ويسمى «اخنوخ» وهو «إدريس» عليه السلام، وأنه أول من تكلم فى الحركات الفلكية والجواهر العلوية، وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابى وصور فيها الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة.

وقد شغلت الأهرام عقول الناس واهتماماتهم فى الزمن القديم فيقول ابن بطوطة أنه مما يذكر فى شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك، وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه، واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة وكتب عليها «بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة» فليهدها من يريد ذلك فى ستمائة سنة فإن الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل فلج فى ذلك وأمر أن يفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التى بها إلى اليوم، ووجدوا بازاء الثقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه. ولا ينسى أن يذكر أنه عندما وصل مصر كان الحاكم هو السلطان قلاوون المعتصم بالملك الناصر. وكان يعرف بالالفى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا وكان له أفعال البر وخدمة الحرمين الشريفين.

رحلة إلى صعيد مصر

يواصل ابن بطوطة رحلته فى مصر بعد أن يترك القاهرة ويتحدث عن ولاة

الأمر فيها من قضاة ومشايخ وأصحاب كرامات ولا ينسى أن يأتي بأسماء عدد من الصحابة غير المشهورين المدفونين في مصر، وهو في انطلاقه إلى صعيد مصر إنما يهدف إلى الوصول إلى ميناء عيذاب في أقصى الجنوب ليصل عن طريقه إلى جدة ومنها إلى مكة والأراضي المقدسة، يمر على مدن وقرى الصعيد ويذكرها بالاسم واصفا كل واحدة منها بما تستحق وما تشتهر به، «فالمنيا» أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية ، ومدينة «البهنسا مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة، «وأسيوط» «مدينة رفيعة أسواقها بديعة، ومدينة «أخميم» عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشأن» يلتقي بأحد الأولياء وهو السيد الشريف أبو محمد عبدالله الحسيني فيسأله عن وجهته فيجيبه بأنه يريد الحج للبيت الحرام عن طريق جدة فقال له «لا يحصل لك هذا في هذا الوقت فارجع وأتم الحج أول حجة على الدرب الشامي».

وهكذا عاد مرة أخرى من أقصى جنوب مصر سالكا نفس الطريق الذي جاء منها مارا بمدينة قنا وبها قبر «الشريف الصالح الولي عبدالرحيم القناوي». ومنها إلى مدينة قوص لها خيرات عميمة ، بساتينها مورقة، وبها مساجد كثيرة، ومدارس وفيرة ثم سافر إلى الأقصر وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد «أبي الحجاج الأقصري» ومنها إلى «أرمنت» «وهي صغيرة ذات بساتين»، ومنها إلى «إسنا» وهي «مدينة عظيمة متسقة الشوارع ضخمة المنافع كبيرة الزوايا والمزارات والجوامع»، ومنها إلى «إدفو».

وتختلف ملامح رحلة ابن بطوطة في الأقاليم العربية عنها في الأقاليم الآسيوية الصغيرة سواء كانت في تركيا أو الهند أو الصين فقد مرت سنوات طوافه بالعالم العربي في مصر والشام والعراق واليمن والجزيرة العربية في سلام وأمان ولم نر فيها أشياء غريبة سوى تلك الحياة الإسلامية السمحة والاهتمام بالمساجد والزوايا والأولياء والفقهاء ، أما في أجواء تركيا أو الهند والصين فإن الصورة تختلف وتتناقض بين الكرم الشديد لملوك الهند والقسوة المتناهية في التعامل مع الخصوم.

من مصر إلى فلسطين والشام

خرج من مصر إلى فلسطين عن طريق بلبيس وكانت غزة هي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الأقطار، «كثيرة الأعمار حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار عليها»، ومن غزة خرج إلى مدينة الخليل وخطيب مسجدها هو «برهان الدين الجعبري» و – هكذا تمتد أصول عائلة الجعبري في الخليل – وبداخل المسجد قبر يوسف، ومن الخليل خرج إلى القدس، وزار بيت لحم ووصف المسجد الأقصى وصفا مسهبا «ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه»، من القدس إلى عسقلان ومنها إلى مدينة «الرملة» ثم إلى «نابلس»، «وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار، من أكبر بلاد الشام زيوتا ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء «الخروب»، ومن «نابلس» إلى «عجلون» شرقي الأردن وبها قلعة كبيرة وهي «قلعة

الربض» التي يشقها نهر ماءه عذب، ومنها إلى اللاذقية في سوريا وبها قبر «أبي عبيدة بن الجراح»، ومن اللاذقية إلى «عكا» وكانت قاعدة بلاد الإفرنج في الشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى بها عين ماء تسمى عين البقر، وبها قبر النبي صالح»، ومن عكا إلى صور وصيدا ثم العودة إلى مدينة طبرية «التي بها الحمامات الصحية وبها البحيرة الشهيرة وبها مسجد يعرف بمسجد الأنبياء وفيه قبر النبي شعيب»، ثم عاد ابن بطوطة إلى بيروت ووصفها بأنها «مدينة صغيرة حسنة الأسواق». واصل رحلته إلى طرابلس وإلى جبل لبنان «وهو أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوارفة» وبعدها إلى بعلبك ثم إلى مدينة دمشق، يتوقف كثيرا في دمشق ويقدم وصفا تفصيليا للمسجد الأموي والقضاء في دمشق ويروى حكايات عن المشايخ والقضاة ويصف أهل دمشق أنهم يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس وهم يحسنون الظن بالمغاربة.

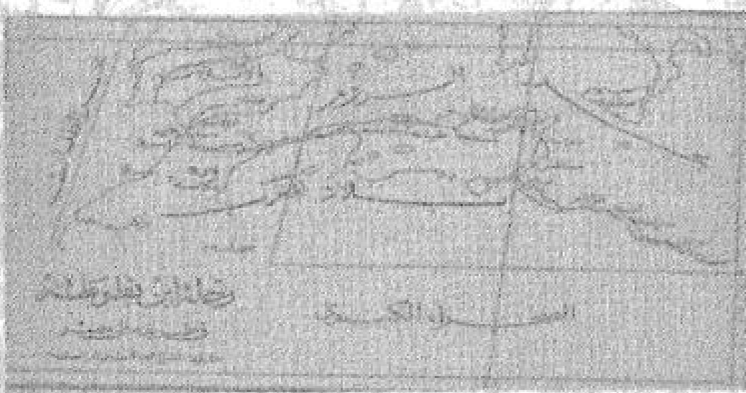
في الأراضي المقدسة

ولما جاء شهر شوال بدأ يعد عدته للحج إلى الأراضي الحجازية فسلك طريق الشام والأردن ووصل إلى الكرك ومعان آخر بلاد الشام ومنها واصل سيره إلى المدينة المنورة وقدم وصفا كاملا لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة والبقيع. «ويحكى أن معاوية أراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون، وعصفت ريح شديدة وكسفت الشمس وبدأت النجوم نهارا، وأظلمت الأرض، فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ ٩ درجات».

ثم سافر إلى مكة وقدم وصفا للمسجد الحرام والكعبة الشريفة والحجر الأسود والصفا والمروة والجبانة المباركة، والجبال المحيطة بمكة ولا يفوته أن يذكر أن الملك الناصر السلطان قلاوون حاكم مصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة وما يحتاجه الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة.

خرج من مكة إلى العراق وطاف بمدن العراق حتى وصل إلى فارس وأصفهان ووصف أهلها بأنهم «حسان الصور» ألوانهم بيضاء زاهرة مشربة بالحمرة يغلب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم «ومن بلاد فارس سافر إلى جزيرة سيلان» ودخل جزيرة سيلان هذه «وهم يقيمون على الكفر إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويؤونهم إلى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون في بيوتهم بين أهاليهم وأولادهم خلافا لسائر كفار الهند فإنهم لا يؤون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم».

ثم يعود إلى الكوفة ويزور دار الإمام علي ابن أبي طالب وبالقرب منه موضع يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح وينتقل إلى بغداد ويصف مساجدها ومدارسها ويقول عن حماماتها «أنها كبيرة ومن أبدع الحمامات وأكبرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل للناظر أنه رخام أسود» وبعد أن يطوف بمدن العراق يعود إلى جدة ومنها إلى اليمن ويزور مدينة تعز وصنعاء، ويصف مدينة صنعاء فيقول عنها «أنها مفروشة كلها بالبلاط فإذا ما نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها»، أما مدينة عدن فهي مدينة كبيرة لا زرع



بداية رحلة ابن بطوطة إلى مصر

بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، الجبال تحف بها وهي مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر، وهي مرسى أهل الهند، ومن عدن سافر إلى زيلع ومنها إلى مقديشيو في الصومال ثم مدينة ممباسا في كينيا.

إلى تركيا والهند والصين

واصل رحلته بعد ذلك إلى تركيا ثم إلى الهند والصين ويحكي عن غرائب الحياة في هذه الأقاليم وعن حياة السلاطين والفقهاء، ويدهشه العربات التي راها في تركيا قال عنها «هم يسمون العجلة عربة، وهي عجلات تكون للواحدة منهم أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضا البقر والجمال في ثقلها أو خفتها، والذي يخدم العربة يركب أحد الأفراس التي تجرها ويكون عليها سرج وفي يده سوط يحركها به للمشي وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل تكسى باللبد أو باللف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه، ويتقلب فيها كما يحب، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا، وعليها قفل»، وهم يشربون النبيذ وهو عندهم حلال، ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي البوظة.

وسجل ابن بطوطة ظاهرة كتاب التقارير في الهند بقوله «أما في الهند فملك الهند له في كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجري من الأمير وما يرد عليه من الواردين، وإذا أتى الوارد من أي البلاد كتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدمه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شئون تصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها، فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف بجميع أحواله فتكون كرامته على قدر ما يستحقه».

يصف أهل الهند وعاداتهم وانقساماتهم بين كفار ومسلمين، والهند

عنده تشمل الهند وباكستان وبنجلاديش وأفغانستان ويحكي عن مشاهداته فى هذه البلاد ما يشيب له الولدان.. رأى جلودا بشرية محشوة تبنا ومعلقة فى الأشجار، ورءوسا مقطوعة مكومة مثل تل، وتحدث عن الصراعات بين السلاطين فى الهند، وبين الأخ وأخيه، والأب وابنه، ويتحدث عن هذه الصراعات نقلا عما يسمعه كأن يقول «حدثنى الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبى عبدالله ابن الولى الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشى».

شاهد الأهوال فى الهند، وكذلك نعم بالهدايا والعطايا من السلاطين من جوارى وغلمان وذهب وفضة، لكنه فقد كل ذلك عندما خرج إليه جماعة من قطاع الطرق واستولوا على ما معه هو ورفاقه أثناء خروجهم من الهند ليعود من جديد يستكمل رحلته فى الهند، وبعدها يسافر إلى الصين ويقول عنهم «أنهم أعظم الأمم أحكاما للصناعات وأشدهم اتقانا، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى أحكامه من الروم ولا من سواهم، وجميع أهل الصين إنما يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى ويقولون هو الرجل الثالثة، والحرير عندهم كثير وهو لباس الفقراء والمساكين ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير».

ويشير إلى أن الصين سبقت غيرها فى نظام الجمارك وقوائم السفر فيتم تسجيل أسماء المسافرين فى البحر من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يتاح لهم السفر، وعلى صاحب المركب أن يملى ما يحمله من سلع وينزل ما فيه والسلع الممنوعة يغرم صاحبها، وأهل الصين جميعا يبيعون بناتهم وأولادهم وليس ذلك عيبا عندهم، والمسافر فيه يشعر بالأمان فى كل منزل، وفى كل بلد يوجد فندق عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه يكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم، وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاجه المسافر من الزاد وخصوصا الدجاج والأوز وأما الغنم فهى قليلة عندهم».

والتجار المسلمون فى الصين إذا أقدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الإسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم، ويواصل حكايته عن غرائب الحياة من سحر وخوارق وكلها حكايات منقولة عما يسمعه وإنما يرويها دون مراجعة أو تدقيق، وإنما يرويها كما سمعها، ويعود من الصين إلى الهند ثم إلى ظفار ومسقط فى عمان ثم إلى فارس، ومنها إلى البصرة وهناك يزور قبر «الزبير بن العوام».. و«طلحة بن عبدالله» و«حليمة السعدية»، «وأنس بن مالك»، «والحسن البصرى»، ويواصل أسفاره إلى الكوفة والحلة وبغداد، ثم يواصل سفره إلى سوريا، وإلى مدينة تدمر ودمشق التى

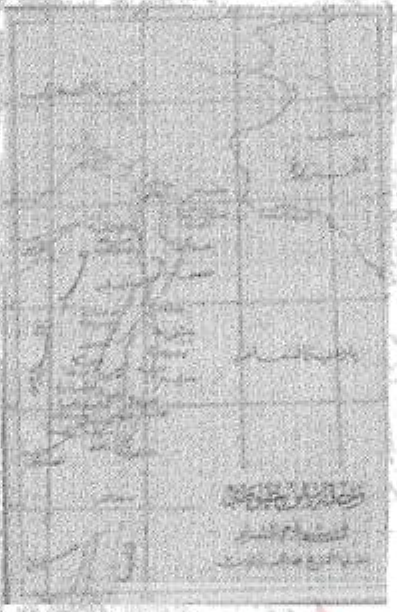
يعود إليها بعد غياب عشرين عاما، ويطوف بمدن الشام فى حمص وحماة وحلب.

الأوبئة تحاصر الناس

وفى الصين شهد كثيرا من حالات الأوبئة وحالات الموت بالطاعون والموت بالحمى وعمليات القتل والاغتيالات بين السلاطين والأمراء، وانتقل الوباء إلى البلاد العربية ، يقول فى عام ٧٤٩ علمت أن الوباء وقع بغزة ومات ألف فى يوم واحد وانتقل الوباء إلى حمص، ويوم دخولى إليها مات ٣٠٠ إنسان، ثم سافر إلى دمشق وفيها مات ٢٤٠٠ من الوباء، ثم سافر إلى عجلون، ومنها إلى بيت المقدس، وإلى الخليل، ثم إلى غزة، ومنها إلى دمياط، ثم فارسكور، وسمنود، ثم إلى المحلة ، ثم إلى دمنهور، والإسكندرية، ثم سافر إلى القاهرة ومن القاهرة إلى صعيد مصر حتى ميناء عيذاب ومنه إلى جدة ومكة والمدينة المنورة ومن الجزيرة العربية سافر مرة أخرى إلى بيت المقدس ثم الخليل وغزة ثم إلى مصر.

العودة إلى أرض الوطن

ومن مصر ركبت البحر إلى تونس والجزائر وهناك عرف بموت والدته بسبب الوباء، وكان والده قد توفى منذ خمسة عشر عاما، ثم وصل مدينة فاس عام ٧٥٠ وهناك امتثل أمام الإمام أمير المؤمنين، وهنا أفاض فى وصفه ومدحه ووصفه بالعدل والشجاعة والعلم والفقه ورفع المظالم، وأما بلده المغرب فقد انطلق فى ذكر محاسنها فهى «أرخص أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد» وبعد «فاس» وصل إلى «طنجة» وزار قبر والدته رحلنا إلى مدينة «سبته» التى مرض بها لمدة ثلاثة أشهر، ثم واصل رحلته إلى بلاد الأندلس وعاد إلى مراكش، ثم سافر إلى السودان ومالى وبلاد النوبة ودنقلة وانتهت رحلته عام ٧٥٦ هـ التى حرص فيها على أن يكتب تقارير وأخبار البلاد التى زارها كما لو كان مراسلا صحفيا يحتفظ بهذه الأخبار والتقارير ليجمعها كلها فى كتابه الذى انتهى منه فى شهر صفر عام ٧٥٨ والذى عرف برحلة ابن بطوطة.



مواصلة الرحلة إلى بلاد الشام

ماذا نقصد

بالنقد الثقافى؟

بقلم
د. صلاح قنصوه

النقد الثقافى مصطلح حديث جدا ، ولم يقدر له الذيوع أخيرا إلا بمقدم المتغيرات والعوامل التى أدت إلى العولمة وما بعد الحداثة . فلا يعد نتيجة لهما بقدر ماهو شريك ينبع من نفس المصادر ، وينتسب إلى ذات المناخ .

وهو ليس منهجا بين مناهج أخرى ، أو مذهبا أو نظرية . كما أنه ليس فرعا أو مجالا متخصصا من بين فروع المعرفة ومجالاتها . بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء كانت مادية أو فكرية . ويعنى النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلا ، تولد معنى أو دلالة .

فالجديد فى النقد الثقافى هو رفع الحواجز بين التخصصات والمستويات فى الممارسات الإنسانية لأنها تنتمى جميعا إلى الثقافة التى هى مجمل صنيع الإنسان فى البيئة الطبيعية . ومن ثم ينكر النقد الثقافى التفرقة التقليدية المألوفة بين القاعدة (البناء التحتى) والبناء الفوقى ، وكذلك التمييز بين الواقعى والايديولوجى . أو بين المادى والروحى . فالثقافة «اسم جمع» يصدق على أمور متباينة تضمها تسمية واحدة .

ولا يعنى النقد كشف الايجابيات والسلبيات ، بل يشير إلى ما يقصده الفيلسوف «كانط» بالنقد وهو بيان الإمكانيات المتاحة ، والحدود التى ينبغى الوقوف عندها فى إنتاج أو استقبال الدلالات للممارسات التى تحمل معنى فى كل السياقات الثقافية ويتبدى ذلك فى إجراءات التفكيك والتحليل والتفسير . فمجال النقد الثقافى إذن هو ما يسمى «الدراسات الثقافية» وهى مفهوم حديث

نسبياً بما ينطوى عليه من دراسة الثقافات الرفيعة والشعبية والفرعية والايديولوجيات والأدب وعلم العلامات ، والحركات الاجتماعية ، والحياة اليومية ، ووسائل الإعلام ، والنظريات الفلسفية والاجتماعية ونحوها ، على أن يتخذ من كل ذلك أدوات للتحليل والتفسير دون هيمنة لإحداها على سائرها، أو استبعاد متعمد لبعضها . بعبارة أخرى ، لايمارس النقد الثقافي عمله وكأنه «خطاب» متخصص مثل الخطاب الفلسفي أو السياسي أو الاقتصادي الخ : الذي يتناول الواقع القائم بمنظوره وأدواته . فلا يمكن التسليم بوجود واقع خارج الممارسات المولدة للمعنى ، وهي جميعا وسائط ثقافية .

وقد نشأ مصطلح «الدراسات الثقافية» عام ١٩٧١ عندما بدأ مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة بيرنجهام في نشر صحيفة « أوراق عمل في الدراسات الثقافية» ولكنها لم تستمر طويلا . ولقد سبق ذلك ما استخدمه عالم الاجتماع «بيرنباوم» ، وهو من اليسار الجديد في ستينات القرن الماضي ، من مصطلح «التحليل الثقافي» ، وقصد به دراسة التعبيرات أو التمثلات الرمزية والايديولوجية عن موقف تاريخي معين، بوصفها جزءا متكاملا ومحددا لهذا الموقف . فهو يرى أن هذه التمثلات «لاتعكس» ببساطة الضغوط المادية ، بل قد تستبق أو ترهص ، أو ربما تخلق إمكانيات مادية جديدة للمواقف التاريخية ولا يعنى التحليل الثقافي في نظره مجرد تكرار للقول القديم بالتفاعل بين القاعدة والبنية الفوقية ، بل هو يمثل تأثيرا على الماركسية نفسها ، واكتشافا جديدا ، فبدلا من تحليل الوعى ، ينبغى تحليل الثقافة .

ولم يقدر للتحليل الثقافي أن يكون ذا خطر أو أهمية إلا عندما تحددت القسمات الحديثة للمناخ الفكرى في التسعينات ، فخبا حماس الماركسيين الجدد في التفرقة بين القاعدة والبناء العلوى ، فعندئذ أقبلوا على النقد الثقافي دون تصريح بالمصطلح . فهذا «تيرى ايجلتون» عام ٢٠٠٠ يؤلف كتابا بعنوان «فكرة الثقافة» ومن قبله بخمسة أعوام يختار «فردريك جيمسون» عنوان «المنعطف الثقافي» لمجموعة مقالاته عن ما بعد الحداثة التي يعتبرها «المنطق الثقافي» للمرحلة الأخيرة للرأسمالية .

ولا يهم الموقف أو وجهة النظر التي يتخذها المفكر لكي يشتغل بالنقد الثقافي . ففي ساحته الفسيحة تختلف الآراء ، ولكن يبقى في النهاية أسلوب المواجهة للموضوعات . وكذلك الاتفاق إلى حد كبير على استعمال الأدوات نفسها .

بعبارة موجزة ، يعمل النقد الثقافي على مهاد متسع من منجزات وتطورات العلوم الاجتماعية والإنسانيات والعولمة وما بعد الحداثة . ولانبالغ كثيرا إذا ما زعمنا أنه المرحلة الراهنة الأخيرة للاشتغال بالفلسفة .

العولمة والنظام العالمي الجديد

نخلط كثيرا بين العولمة والنظام العالمي الجديد ونجعل منهما شيئا واحدا . فمصطلح النظام العالمي الجديد يعود إلى الرئيس «بوش» الأب بعد أن فرغ من تأديب النظام العراقي في حرب

الخليج الثانية ، وخلو المسرح السياسي من الشرير السوفييتي . وكلمة نظام order التي استخدمت تعني أيضا الترتيب ، والأمر ، ومعنى هذا أن العالم على امتداد تاريخه حتى اليوم يمثل تعاقبا للنظم العالمية التي تسيطر فيه دولة ما على دول أخرى كثيرة . فهنا يشير الترتيب بين الدول إلى مركز وأطراف . كما يعني الأمر هيمنة دولة ما على أخريات .

وهو نظام «جديد» لأنه جاء بعد اختفاء قطب آخر منافس كان هو المركز بالنسبة لأطراف أخرى ، وكان يمثل هيمنة على دول تابعة له .

أما العولمة ، فهي صيغة أخرى ومختلفة تماما عن النظام العالمي . فعلى حين تهيمن دولة ما على غيرها بما تملك من نفوذ اقتصادي بشركاتها القومية وبنصيبها الكبير في الشركات المتعددة الجنسيات أو القوميات : تعتمد العولمة على الشركة المتعدية أو المتجاوزة للقوميات، أي التي لايهم أصحابها مصالح دولهم حيث يكون انتماؤهم رهنا بتلك الكيانات المستقلة الجديدة .

وللعولمة ، وجهان ، الأول هو الاقتصادي وما يتبعه سياسيا ، والثاني ثقافي . فأما الوجه الأول فلم ينجز مهامه بعد التي تتمثل في سيادة الشركات المتعدية الجنسية ، وليس المتعددة ، وهذا من شأنه ، إذا ما تم ، أن يؤدي إلى تحولات فادحة في دور الشركات والمصالح القومية ، فضلا عن مؤسسات الدولة الراهنة مما يفضي بدوره إلى التأثير في سائر المؤسسات .

أما الجانب الثقافي فقد كان حظه موفوراً بما حققته الأدوات العولمية التكنولوجية من تغيير بالغ الخطر في قنوات التواصل والتداول بين الأفراد حيث أوشكت على نسف المسافات بين أطراف العالم .. وتسمى هذه الأدوات «بالنانوتكنولوجيا» أي التكنولوجيا خاطفة السرعة (النانوثانية = جزء من بليون من الثانية) ، وكذلك «التيلنكنولوجيا» أي المؤثرة عن بعد ، ومن ثم أوشك الإنسان على قهر فاصل الزمن وبعد المكان كما تبتدي بعض آثاره في السماوات المفتوحة ، والتعامل مع برامج الكومبيوتر ، والانترنت على سبيل المثال .

غير أننا اليوم ، وهذا سر الخلط بين الأمركة (أي النظام العالمي الجديد) وبين العولمة ، نجتاز مرحلة «تمفصل» مازالم مشتبكا فيها مع السائد القديم . فثمة مفصل يربط بينها وهو ما نتبينه في تطور الرأسمالية إلى الاقتصاد المالي بدلا من الاقتصاد العيني لسهولة نقله وتداوله ، وسرعة معدلات دوران العملات والتوظيفات المالية ، والاتجار في العملات استنادا إلى المضاربات وألعاب الخط والمصادفة مما حفز على تسميته باقتصاد «الكازينو» أحيانا واقتصاد الفقاعات أحيانا أخرى . وكان من نتيجة ذلك تركز الأصول المالية والانتاجية بتأثير حركة الاندماجات بينها في صور نشاط مشترك ، وتقسيم الأسواق ، وتخليق كيانات عملاقة تضم مصارف وشركات تابعة للعمل في مجالات متنوعة

. وكان لابد لهذه الاندماجات أن تسلم إلى انخفاض المنافسة فى بعض ميادين الاقتصاد العالمى بسبب سيطرة قلة من الشركات على هذه الميادين ، وبطبيعة الحال مازال الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا تستأثر بالغلبة والنفوذ فى نطاق مصالحها القومية.

وبينما تتضاءل المسافات والفواصل فى هذا الاقتصاد المالى ، تتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، وتزداد البطالة بين الشباب .

وحينئذ يمكن أن نتفهم مقاومة الشباب ومظاهراتهم المنددة بالعولمة . فالعدو الحقيقى ليس العولمة ، بل هو النظام العالمى بقيادة أمريكا الذى يستغل أدوات العولمة ووسائطها . ولا يعنى هذا أن العولمة أفضل من النظام العالمى الجديد ولكنها تعنى أنها تؤدى نتائج أخرى : إذا ما أنجزت شقها الاقتصادي ؛ أهمها نهاية الهيمنة القومية على توابعها ، وانفراط المركزية الغربية ، وزوال القبضة القومية للدولة ، وانحسار وظائفها ، وبدلا من الهيمنة أو التبعية ، سيكون الاختيار بين المشاركة أو التميش .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحقق الكثير من نتائج العولمة الثقافية مما تنبىء به حال السيولة والفوضى ، وغياب المعايير ، فالعالم ، كما يقول برجنسكى يغلب عليه الشمول والتفتت معا مما أدى إلى نشأة العديد من «الجيتو» داخل إطار البلد الواحد ، فقد أحدثت الثورة فى التكنولوجيا الالكترونية أزمة توتر بين الإنسان الداخلى والإنسان الخارجي . كما أن تدفق المعلومات أو انفجار المعرفة يؤذن بخطر التشظى الفكرى بازدياد حالة عدم اليقين كلما ازداد التوسع المتاح للمعرفة . وربما تسمح الخشية من عجز الإنسان على التكيف مع التعايش بين المجتمعات أو الثقافات المتفاوتة ، ربما تسمح بتقويض ما كان يعد من قبل جوهرا إنسانيا واحدا لا يمكن المساس به.

ومن هنا يشتد حنين الإنسان المعاصر إلى خصوصية حميمة حينما يحيا فى بيئة متشابكة مربكة وخالية من الخصوصية أو الهوية القومية ، وذلك إزاء الزوال القريب للدولة – الأمة .

كما يؤكد «توفلر» على ذلك بتنويعة مختلفة بقوله ببزوغ الخصوصيات الثقافية لكل اقليم أو منطقة مع اثارة المشكلات العرقية وتشوب الحروب الأهلية . ويرد ذلك إلى تفكك المجتمع الجماهيرى ، أى مجتمع الجملة المتكتل ، وقيام ما أسماه بديموقراطية الموزايكو ، وكأننا إزاء طبق سلاطة ، تختلط فيه المكونات محتفظة بتفردها ضد التجانس القديم ، أو ضد ما يسمى «ببوتقة الانصهار» التى تواجه مقاومة متزايدة .

وربما كان من علامات الانشقاق عالية النبرة ما نصادفه اليوم من الأهمية المتصاعدة للمجتمع المدنى المحلى والعالمى ، وجماعات حقوق الإنسان ، وكذلك النزعات الجديدة مثل النسوية وغيرها ويضاف إلى ذلك النزعات الأصولية الدينية.

العلوم الاجتماعية وما بعد الحداثة

كان علم النفس وعلم الاجتماع

والانثروبولوجيا أشد فروع العلوم الاجتماعية تأثرا بالعولمة وما بعد الحداثة في السنوات الأخيرة من القرن الماضي وبدايات هذا القرن ويفصح علم النفس عن ذلك التأثير في مجالين ، الأول في الفروع العلمية الجديدة التي توصف بأنها ثقافية ، مثل علم النفس الثقافي ، وعلم النفس عبر الثقافي (أو التبادل الثقافي) الذي يستند إلى علم نفس الشعوب، وعلم النفس المجتمعي (وليس الاجتماعي) وعلم النفس البين ثقافي ، وكذلك علم النفس الانثروبولوجي ، والانثروبولوجيا المقارنة . وتتفق هذه الفروع جميعا على أن الثقافة مكون رئيسي في فهم السلوك الإنساني . ويقول أصحاب علم النفس عبر البين الثقافي، أن علم النفس (دون أن نضيف إليه وصفاً أو تخصصاً بعينه) إذا ما وضع في الاعتبار أثر الثقافة على السلوك الإنساني (وكذلك العكس) فلن نغدو في حاجة إلى تخصيص علم نفس ثقافي لأن علم النفس، بوصفه كذلك، سيتعهد بهذه المهمة.

والمجال الثاني لعلم النفس هو نظرية الشخص، أو الذات. ولقد برزت نظريات جديدة تماماً في هذه الصدد، وانقلبت على المفهوم التقليدي الذي كان يجعل منهما هوية وذاتاً مكتفية بذاتها على نحو ما تكون متجانسة داخلياً، ومتميزة عن غيرها خارجياً. فلقد كان هذا امتداداً وتطبيقاً لفكر النزعة الإنسانية المتمثلة في «الأنا» الديكارتية، والفكر الفردي النزعة.

ولهذا خرجت نظرية «الذات الحوارية» التي تتجاوز الفردية والعقلانية كما يقول أصحابها «هرمانس»، و«كمين»، و«فان لون» من هولندا. فهم يرون أن الطابع الفردي والعقلاني للنظريات السيكولوجية عن الذات (Self) إنما تعكس نظرة المركزية العرقية الأوروبية للشخصية. بينما يرون على نقيض ذلك أن الذات يمكن أن تدرك بوصفها، حوارية بحيث تمثل أصواتاً متعددة داخلها مما يتجاوز كلا النزعتين الفردية والعقلانية كما يقدم «سامبسون» مراجعة وتنقيحاً لمفهوم النظام الشخصي والاجتماعي تحت ما يسميه لا مركزية الهوية (أو الذاتية المنقسمة)، وهو بذلك باحث ينتمي إلى «ما بعد البنيوية» لأنه يرفض البنية المركزية والمتوازنة للشخصية التي هي في صيرورة متصلة. وأسهم «هازل ماركوس» و«باولا نوريوس» في طرح مفهوم «الذوات الممكنة» في مجال معرفة الذات، وتشتق «الذوات الممكنة» من تمثلات (أفكار) الذات عن نفسها في الماضي وفي المستقبل، وهي تختلف وتنفصل عن ذوات اللحظة الراهنة. والفرد حر في خلق تنوع من الذوات الممكنة، ولكن الحوض الذي تتجمع فيه يتألف من المقدرات التي يجعلها الفرد مهمة رفيعة الشأن عن طريق السياق الاجتماعي – الثقافي والتاريخي الخاص بالفرد، وبوساطة النماذج والصور والرموز التي تتيحها له وسائل الإعلام،

وبمقتضى خبراته الاجتماعية المباشرة.

ويبدو من تلك التطورات الأخيرة في علم النفس سمة مشتركة وهي تفكك الذات وانقسامها، وخروجها عن عزلتها الداخلية إلى فضاء الثقافة المتعدد لجوانب.

ونجد مثل ذلك في علم الاجتماع والانثروبولوجيا. فيعتقد «ويلسون» في أن الحوار والتعاون في البحث مع الزملاء من البلدان الأخرى يمكن أن يعجل بتحقيق ما يسميه «بالمقافزة» Consilience التي تعني «القفز معاً» للخروج من التخصصات المعزولة لتحقيق النتيجة التي يثمرها ربط الوقائع بالنظرية المؤسسة على الوقائع عبر الفروع المختلفة والمنوعة لخلق إطار مشترك للتفسير. فالقفز معاً أو المقافزة العولمية هي التحدي الذي يواجه الباحثين في الألفية الراهنة كما يقول.

ويطرح «أبا دوراي» مفهوماً عن الاندياح (أو اتساع المشهد) الثقافي من ثنايا الاندياح الإعلامي medias-cape، والفكري، والتكنولوجي، والعرقي، والمالي. ولابد في نظره من درس المشهد العام بأسره وليس في بلد دون الآخر أو ثقافة دون أخرى.

ويوثق «روبرتسون» بين العولمة المحلية في مصطلح واحد هو العولحلية، لأنه يرى أن العولمة لا تمتد بنفوذها إلا من خلال ما هو محلي.

ويتفق الباحثون في تلك العلوم على أن الفردية أو الأنا لم تعد الوحدة الاجتماعية للتحليل والتفسير. فالإنسان ليس فردا يملك أدواراً، بل هو مجموع أدواره، كما أن الأشخاص كيانات تتحدد هوياتهم بمواقعهم الاجتماعية.

كما يعترفون بأن اجتهاداتهم واكتشافاتهم مساوقة لحقبة ما بعد الحداثة فهي تعبر عن مناخ افتقد فيه اليقين، والتحديد. وتحللت فيه النظريات الكبرى. فهي إذن مجموعة النتائج المترتبة على انقشاع الأوهام التي كانت تحكمنا كحقائق مطلقة تنتظم وفقاً لها الأمور جميعاً، وتدور حول مركزها.

فلم تعد ثمة سلطة نهائية، ومن هنا سادت «الأناركيا» أي اللاحاكمية، أو اللاسلطة. كما ذاعت «البارالوجيا» أي الخروج عن مركز التخصيص إلى الهوامش التي تشتبك بسائر الأشياء، وضد التصنيف الذي هو مهم وتحديد مسبق، لأنه تقرير جازم، وتكرار ملح.

ولئن كان الواقع متعدد الأبعاد، فإن اللغة التي تعبر عنه، ونتواصل بها أحادية البعد، ولا سبيل إلى تطابقهما، ولا يمكن فهم ذلك الواقع عن طريق التفكير فيه أو التفاعل معه دون شفرات السياق الثقافي ووسائطه وأعرافه.

ولأننا في مرحلة انقشاع الأوهام فقد انصرفنا عن تشييد صروح من المذاهب أو النظريات الكبرى، كما كان الحال سابقاً. وليس في مقدورنا، إن آثرنا الأمانة والمصارحة إلا أن نغرس أوتادنا بثقة وثبات في تلك الأرض الزلقة بما يتيسر لنا من النقد الثقافي. ■



ما يقوله

نجيب محفوظ عن المثقفين

مرايا

مرافقة لأحزان الوطن

بقلم

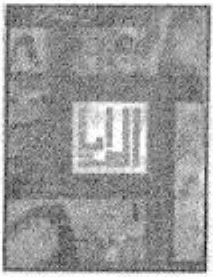
د. فهمى عبد السلام

المسيرة الروائية عند أديبنا الرائع نجيب محفوظ مسيرة طويلة تتميز بعطاء غزير فى الكم وتنوع هائل فى الشكل الروائى وفى الرؤية الفنية وفى التوجهات النهائية للعمل، فعلى سبيل المثال فى روايتى الشحات والطريق تطرحان متاهات فلسفية، إذ يتعرض بطلا العمل لمتاهات وجودية تتعلق بجدوى الحياة والصراع الأزلى بين الخير والشر، والحب تحت المطر مغامرة إبداعية خاضها نجيب محفوظ لاستعراض العضلات، وإظهار القدرة على التجريب ومحاكاة اللا معقول والعبث كصيحة أدبية كانت تسود الكتابة آنذاك. وفى ميرامار يتغير الشكل الفنى محاكياً شكل رباعيات الاسكندرية لداريل، عندما تتحدث عدة شخصيات وكل منها على حدة، وتروى الحدث نفسه من وجهة نظرها، محققاً نسبية الحقيقة التى تمتلك أكثر من وجه. وكتب محفوظ الروايات التى تدين أوضاعاً أو تحولات سياسية واجتماعية برصد مباشر لا

محرم ١٤٢٣هـ - أبريل ٢٠٠٢م

رمز فيه ولا مجاز كما فى «الكرنك» و«أهل القمة» و«الحب فوق هضبة الأهرام». كل هذه الأشكال والتوجهات تأتى فى إطار الإحكام الشديد والقدرة الهائلة على التثقيف والسمو الرائع باللغة الروائية التى كثيراً ما تصل إلى درجة الشعر، فنسمع خلال الكلمات إلى الجرس الموسيقى العذب الذى يضفى شجناً إضافياً إلى تلك الروائع بسردها العبقرى .

هناك أعمال لنجيب محفوظ كان شاغلها الفن الجميل، وتصوير الشخصيات النابضة بالحياة







وإذا كانت هناك أعمال طغت عليها توجهات - أديبنا الكبير - السياسية أو الفلسفية أو الوجودية أو مغامرات الشكل الأدبى، إلا أن هناك مجموعة من الأعمال لم يكن لمحفوظ شاغل سوى وجه الفن الجميل، فن الشخصيات الحية التى تنبض بالحياة، فن المصائر وضربات القدر الموجعة والآمال وخيبات الآمال، وكل هذا بلا نية مبيتة ولا هدف إلا وجه الفن الجميل، وتلك المجموعة تتربع على قمة العطاء الروائى عند محفوظ، وكأنها جواهر ثمينة فى تاج زاخر بالأحجار الكريمة. إنها روايات الثلاثية وخان الخليلى وزقاق المدق ورابعتهم درة زمانها.. رواية المرايا.

فى المرايا سنستمع إلى هدير الحياة وتلاطماتها العنيفة، وسنجد اندفاع الأبطال إلى مصائر مروعة، وسنرى الحياة اللغز وهى تتدفق على أوغاد بلا خلاق وتنهال بالضربات على قديسين بلا منطق سوى منطقها المجنون، وفى المرايا تتبدى قدرة الكاتب الفذة على استبطان الشخصيات والنطق بمنطقها، وألف باء العمل الأدبى الذى يظهر براعة الكاتب وموهبته هى قدرته على أن يجعل القارئ يتوحد مع الشخصيات التى أبدعها ، وأن يرثى لها، وهذا جانب يقدر عليه الكثير من كبار الكتاب، إلا أن هناك قلة قليلة من العمالقة تدخل بالقارئ إلى منطقة الإبداع الأعظم، فتجعل القارئ يغبط البطل الدرامى على أحزانه النبيلة ويتمنى أن يكابد القارئ الانعطافات الروحية الحادة التى تعصف به، وانظر إلى هاملت ولير وإيفان كرامازوف وكمال عبد الجواد وجوليان سوريل فى الأحمر والأسود لـ ستندال ، وفى فيرتر التى كان نابليون العظيم لا يرتوى من قراءتها. هذه القدرة لا تتأتى إلا للقلة النادرة من كبار الكتاب، الذين وهبهم الخالق عز وجل منحة ملكية عظمى، ألا وهى موهبة الإنحناء أمام الحياة تواضعاً وإكباراً. وهذا التواضع الجليل أمام الواقعة المعاشة بقسوتها وبجلالها هو مكمن العظمة الأدبية ولبها. وفى حوار بين الراوى (وهو الروائى والكاتب) وبين عبده البسيونى وهو كاتب أيضاً - وسنعود إليه فى حينه - وكان الحوار يدور حول هجرة الطبيب بلال بن عبده البسيونى إلى أمريكا، يقول الراوى: إن بلال الطبيب يملك لغة العلم وهى لغة عالمية، أما مهنتنا فهى «ألغاز محلية». وإذا عرفنا أن المرايا مكتوبة عام ٧٠ تقريباً، سنرى مدى تواضع أديبنا العظيم الذى لا يرى فى كل انتاجه الهائل من عام ٣٨ حتى

عام ٧٠ سوى ألغازاً محلية، ولا يسع المرء أمام هذا التواضع النبيل الذى يعبر عن نفس صافية جميلة إلا الإعزاز والإكبار.

شكل أدبي جديد

ورواية المرايا من تلك الرواية التى أخلص فيها كاتبنا العظيم لوجه الفن، وهى سيرة ذاتية، وتلك السيرة الذاتية الرائعة فى جانب من جوانبها المتعددة، هى إلا اعتراف حميم حزين بالعجز والحيرة أمام الحياة وأهوالها، تلك «الفاتنة المجنونة» كما يقول عنها فى أكثر من موضع. فالمرايا قصة التواضع أمام الحياة وهذا الهول العظيم الذى تقف فيه النفس حائرة عاجزة.

...وفى المرايا ينحنى أديبنا الكبير إلى شكل أدبى لم يعرفه الأدب الروائى من قبل، على المستوى المحلى أو الأدب العالمى، فالأشكال الادبية الروائية المعروفة أن تحكى الرواية تاريخ أسرة مثل الثلاثية أو كرامازوف، أو حياة بطل فرد محورى وصراعه مع المجتمع والحياة، مثل «الأبله» أو «اللص والكلاب»، أو مكان يضم مجموعة من الشخصيات مثل «زقاق المدق» أو «خان الخليلى»، أو حكاية مكان مادى حتى لو كان جسراً كما فى جسر على نهر درينا. لكن فى المرايا اعتمد محفوظ شكلاً أدبياً يعتبر بكل المقاييس من المغامرات الكبرى وابتكاراً خالصاً ينسب إليه. فقد اعتمد شكل البورتريهات القصيرة المكثفة، بورتيرهات منفصلة وفى الوقت نفسه متصلة ببقية البورتيراهات. وكل بورتريه منها يصلح لأن يكون عملاً أدبياً مكتملاً فى حد ذاته. وآية ذلك أن أهل السينما أخذوا بورتريه «عبده سليمان» وفصلوه عن بقية العمل فصلاً تاماً وصنعوا منه فيلم «أميرة حبى أنا»، تلك البورتيريهات الشجية وعددها بالعشرات، إذا ما أتم القارئ قراءتها إكتملت الرؤية الفنية ووصلت المتعة الفنية إلى منتهاها. وكل هذا فى انسجام لا طاقة لكاتب به إلا من دانت له الصنعة وكشفت له أدق أسرارها. فالوحدة الفنية فى العمل والبورتريه تضىء نفسها، وهى فى الوقت نفسه تضىء زاوية جديدة لشخصيات أخرى لتكون فى النهاية بانوراما عريضة طويلة (الزمن من عام ٢٠ تقريباً حتى عام ٧٠ تقريباً) حافلة بالبؤر المتوهجة والظلال الشاحبة والبين بين، وهى بانوراما شجية وتأريخاً فنياً رائعاً ينبض بالحب للحياة وللإنسان وللوطن.

أما عن الأشخاص والأبطال فهم خليط هائل جميل حيث ننتقل من قادة الفكر فى الصالونات الأدبية والسياسية والفكرية إلى أوكار البغايا ومناطحات القوادين ودنيا المومس فى درب طياب، وننتقل من شخصية د. ماهر عبد الكريم أستاذ الأداب وقطب الحزب الوطنى العتيد إلى «صبرية الحشمة» صاحبة بيت الدعارة فى السكاكينى، يقدم لنا الكاتب الكبير أشكالاً وألواناً من النماذج الإنسانية المتفردة والعجيبة، ونستطيع أن نحصرها داخل مجموعات، والمجموعة الأولى هى مجموعة رفاق الصبا والشباب الأول فى العباسية، ونرى من بورتريهات تلك الفترة كيف تفاوتت الحظوظ، وحين يجتمعون فى جنازة أحدهم إذا بالحياة قد جعلت منهم الطبيب اللامع (سرور عبد الباقى) مع تاجر المخدرات سيد شعير، وجعلت من رضا حمادة مناضلاً متقشفاً زاهداً متطهراً وهى نفسها الأقدار التى جعلت من خليل زكى قواداً رهيباً يسيطر على بيوت دعارة منطقة السكاكينى كلها، وبينما يتقلب رضا حمادة بعد ٦٧ فى نار الهزيمة كأنه الملسوع بالنار حزناً، فإذا برفيق الصبا وزميل المدرسة السابق سيد شعير وتاجر المخدرات الحالى يسأل الراوى نجيب محفوظ هل صحيح أن تهريب المخدرات سيتوقف بعد إحتلال سيناء!؟ وهذا يطلق عليه الراوى «غاية الإستلقاء خارج الزمن»... إذا ما خرجنا من أقدار ومصائر شلة العباسية سنجد مجموعة بورتريهات يجمعها خيط واحد أساسى، وهى خاصة بالجامعة والمناخ الجامعى من أساتذة إلى طلاب إلى موظفين بإدارة جامعة القاهرة، ولأن كاتبنا عمل موظفاً بوزارة الأوقاف، لفترة طويلة، يقدم لنا نماذج من الموظفين وعالمهم العجيب، ومن هذه العجائب مثلاً أن هذه الوزارة التى

تعتبر مؤسسة دينية عريقة، يكشف لنا الراوى أن الشذوذ الجنسي كان يرتع داخلها بشكل مدهش. وكاتبنا منذ مطلع شبابه وهب نفسه للمعرفة والكتابة والثقافة (كتب روايته الأولي عام ٣٨)، سنجد بورتريهات عجيبة من الوسط الثقافى والفكرى والأدبى، تشكل مجموعة رابعة من الرواية الفاتنة، والرواية الجميلة مكتوبه بلسان الراوى، وهو الروائى نجيب محفوظ، ونستطيع أن نتعرف بشكل حقيقى على أعماق كاتبنا وعلى آرائه السياسية وعلى حسه الأخلاقى الرفيع من خلال مرآته الناصعة التى تنضح بالصدق وبالجمال وطيبة القلب، وإذا كان محفوظ فى المرايا أخلص للفن، وهو الفنان الكبير سنجد أن كاتبنا لم يبعد لحظة عن هموم مصر السياسية، وطيلة العمل فهو الوفدى المخلص، فإذا ضربت الثورة كل مثله العليا التى نشأ عليها مثل الديمقراطية والحرية (مع حس عميق بالعدل الاجتماعى) إلا أنه وهو صاحب الضمير المرهف ينصفها فى الاستقلال وفى بعدها الإجتماعى وتحسين معيشة الفقراء، وعندما وقعت الهزيمة عام ٦٧ يحترق بها ويكتب «عقب النكسة كنت فى تلك الأيام ألتمس مجامع الزملاء والأصدقاء كما يلتمس المحترق مادة - غطاء أو تراباً أو ماء - ليطفىء به النار المشتعلة فى «[illegible]» حرقته ٦٧ ورغم أن الثورة أهالت التراب على معبوده الأول سعد زغلول، فيكتب عن سرور عبد الباقى وغيره ممن أضمروا الشماتة آنذاك» وشد ما جزعت عندما أنست فى نبرته شماتة عقب هزيمة يونيو عام ١٩٦٧»، وعندما يزور كاتبنا أحمد قدرى جلاد الشرطة فى عهد إبراهيم عبد الهادى وإسماعيل صدقى والذى أحالته ثورة يوليو ٥٢ إلى المعاش، يعرب أحمد قدرى عن شماتته، فيكتب أديبنا الرائع.

«ففطنت على البداهة إلى من يعني. كان ٥ يونيو مازال ممتزجاً بريقنا كالعلقم، وأدركت من فورى مدى الحقد الذى عاشره منذ إحالته على المعاش، وكرهت مناقشة شماتته المنغصة بسوء حاله لتحديها الجارح لعواطفى الشخصية، أما عن تواضع أديبنا الرائع فيذكر فى حوار له مع عبده البسيونى بعد ٦٧، وكلاهما من الكتاب (الراوى وعبده) بصدد هجرة بلال بن عبده وهو طبيب كفر بالوطن وبالوطنية.

- العلم لغة عالمية أما مهنتنا يقصد (الأدب والثقافة) فهى ألغاز محلية..

هذه الجملة عام ٦٧ تقريباً أو بعدها بقليل، بعد أن كتب أديبنا الكبير روائعه الخالدة، بعد ذلك العطاء الغزير، فلا يرى فيه أديبنا من فرط التواضع سوى «ألغازاً محلية» ونتسائل فى أفسال لم يكد الواحد منهم يخرج من البيضة وظهر له كتاب أو إثنان فإذا به يصعد على العالمين زهواً وتطاوساً يدعيان للرثاء.

من نماذج المرايا

لأن المجال لا يتسع لتقديم كل تلك النماذج الفريدة والتى لا تنسى التى أبدعها محفوظ فى عمله الهائل المرايا، سأقدم للقارئ نموذجين ناصعين، النموذج الأول من عالم الجامعة، عام ٣٠ حينما تولى صدقى باشا الوزارة وحل البرلمان وانقض بقبضته الحديدية على الحرية لصالح الملك والإنجليز سنوات يرى فيها محفوظ بعين الشباب العشرينى، كانت أزمة تهاوت فيها القيم إلى الحضيض، وتقوضت كرامات الكثيرين من الرجال، ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن صفوفهم لم تبرأ من فساد. عصر البراكين المتفجرة والزلازل، عصر إحباط الأحلام وانبعاث شياطين الإنتهازية والجريمة. عصر الشهداء من جميع الطبقات».

وفي هذا الجو الذى يشهد غلياناً سياسياً، يقدم لنا محفوظ فى عالم الجامعة بورتريهات لحماس نبيل من أجل الحرية والاستقلال الوطنى، وجوه رضا حمادة وماهر عبد الكريم وعجلان ثابت وسالم جبر، وهي وجوه مضيئة لأساتذة وطلاب منهم من تعرض للإعتقال ومنهم من أوذى من أجل مبادئه، ويقدم وجوها إنتهازية منحطة، بل وجوه لطلاب مخبرين يكتبون التقارير على

زملائهم. وفي هذا الجو المكفهر يقدم لنا نجيب محفوظ وجه سعاد وهبي ليرطب به الوهج السياسي اللافح، يأتي وجه سعاد وهبي كما يقول أمل دنقل «كنا بذكراك نرطب الشفاة اليابسة». أنثى جميلة طويلة القامة «تضيق الفستان حتى ينطق»، وهي جريئة تتحدث إلى الأساتذة بصوت مسموع، وفي بعض الأحيان كانت تتلو ماتيسر من عطيل في نعومة ساحرة فتشعل الصفوف بالرغبات المكبوتة، وكانت تتعمد أن تدخل إلى المدرج متأخرة ريثما يجلس الطلاب ويقف الأستاذ على المنصة، فتتظاهر باللهفة وتهرول كالمعتذرة، فيرتج ثدياها النافران فتشتعل الفتنة في الصفوف وتند عنها همهمات كطنين النحل» - انظر يا عزيزي القارئ إلى اللغة الشعرية المصقولة كقطعة الماس الخالص في دقتها وروعتها وبهائها».

... أتت لهم سعاد «كنجم هبط من السماء» في جو مكبوت متزمت وعدد طالبات الكلية لا يزيد على العشر عداً، محتشمات في الثياب والسلوك يجلسن علينا منكمشات في الصف الأول «كأنهن في غرفة الحريم بالترام». أما سعاد وهبي ذات الجسد الذي يضج بالأنوثة فهي مستعدة لأن تتحدث مع الزملاء في جرأة ومن القوة بحيث إذا ما حاول أحدهم إنشاء علاقات معها فهي قادرة على أن توقفه عند حده. وأصبح إسمها على كل لسان، وكان طلاب الكليات الأخرى يحضرون لمشاهدة سعاد، ونحتت لها الأسماء والأوصاف فهي «آبلة سعاد» و«كلية سعاد» و«بانت سعاد». ويلخص كاتبنا الموقف بأنها «وبالجملة تحدت الزمان والمكان».

كان لابد وأن يحدث الصدام، فالظاهرة السعادية تمادت أكثر مما تسمح به التقاليد والمناخ، وتصدى لها د. إبراهيم عقل أستاذ الآداب الذي كان يفرض سلطته الأبوية على طلابه ذات مرة دخلت سعاد وهرولت واشتعلت الصفوف، فوجه الدكتور إلى سعاد توبيخاً جارحاً «أن هناك فرقاً بين صالة بديعة وبين مدرجات الجامعة» بصوت عال، ثم طلب منها المثول في حجرته، ووقف جموع الطلاب على باب الغرفة في انتظار ما سيحدث، وخرجت غاضبة وقالت بتحد وبصوت مسموع «إنها لن تسمح بمصادرة حريتها الشخصية»، واستمرت متحدية الأستاذ والتقاليد الفستان الذي ينطق، تلوين الوجه، هرولة المدرج والثديين النافرين وإشعال الصفوف فأصدرت إدارة الكلية قراراً بفصلها، وبعد فترة حضر والدها إلى الكلية ولازال بالعميد حتى حمله على سحب قرار الفصل بعد أن تعهد والدها بتحقيق مطالب الكلية.

وعادت سعاد «واستقبلناها بالتصفيق» هذه المرة بوجهها الطبيعي بلا مساحيق وبفستان محتشم طولاً وعرضاً «أما ثدياها فلم يستطع تعهد الوالد بتغيير موضعهما ولا فتنتهما فظلا نافرين يتحديان العميد والتقاليد جميعاً»، وانظر يا عزيزي القارئ إلى خفة ظل الكاتب المطورة أن ثديا سعاد وهبي النافرتين أقوى من العميد ومن التقاليد جميعاً» ... نالت سعاد هزيمة مريرة، وهي كما يوحي لنا الراوي خلقت لتتحدى لتزهو بنفسها وبجمالها وبأنوثتها، وأثبتت الأيام أن هزيمة سعاد كانت مؤقتة، إذ سرعان ما تحدت الجميع من جديد، وتحدتهم عندما رآها البعض مع مدرس اللغة الإنجليزية وهو الإنجليزي الجنسية والشاب الحديث السن، شاهدوهما يسيران في الحديقة اليابانية، وعندما سألها الطلاب أجابت أنهما تقابلا في الحديقة مصادفة فسارا معاً يتحدثان. سددت لهم سعاد ضربة مزدوجة مروعة، فها هي تقيم علاقة علنية والأدهى والأمر أن علاقتها كانت مع إنجليزي محتل للبلاد، وبلغ الخبر جميع المسئولين في الكلية، وتبودلت السخريات على مسمع من العميد»، لم يكن بمقدور العميد أن يتخذ إجراء مع المدرس، خشية إغضاب المندوب السامي، أوجع سعاد خشية اغضاب المدرس. وقال أحد الظرفاء من الطلاب.

«إنجلترا ازدادت من تحفظات ٢٨ فبراير تحفظاً جديداً خاصاً بسعاد وهبي».

وقال آخر «الأسطول البريطاني يهدد باحتلال الجمارك إذا تعرضت سعاد وهبي لأي ضغط».

وتسببت سعاد في مشكلة «تحدث الجميع بقوة لا مثيل لها».

... بقية بورتريه سعاد وهبي أن العطلة الصيفية أتت، وفي بدء العام الدراسي الجديد فوجيء الطلاب أن المدرس لم يشأ أن يجدد عقده، وسعاد لم ترجع إلى الكلية، «وكان السؤال أين ذهبت سعاد، قيل أنها سافرت مع المدرس الإنجليزي، وقيل إنها تزوجت، وقيل أنها أصبحت غانية في شارع الألفي ومع كثرة تقلبي في أنحاء القاهرة لم تقع عيناي عليها منذ ذلك التاريخ». وإذا ما تأمل المرء هذه المصائر الأربعة لسعاد وهبي يرجح القارئ من السياق أن سعاد تزوجت وسافرت مع الإنجليزي الذي لم يأخذ غلوة في يد سعاد، لأن هذا الجمال الخارق عادة ما ينتظره مصير خارق، أما حكاية غانية وفي الألفي فهذا خيال موتور ناقم، ومصدر هذه النقمة هي رغبة مستعرة في هذا الجمال العصي والمستحيل المنال.

... ولا يجد القارئ ذكراً لسعاد وهبي في بقية العمل، اللهم إلا مرة واحدة أخرى في بورتريه محمود درويش وكيف كان أول الواشين بسعاد عند العميد وكان يهتف حين يراها «إنها غانية».

وإذا كان هناك لغط يدور حول الوسط الثقافي وكيف تحول إلى مستنقع كريه يطفح بالانتهازيين والوصوليين والأفاقين وتجار المبادئ والانحلال الجنسي الفاحش، فيبدو أن المسألة قديمة، بالجاحظ العظيم يكتب في رسائله عن الكتاب، وأن أهل المهن والحرف يتكاتفون إذا تعثر أحدهم كي يقيلوه من عثرته، إلا أن أهل حرفة الأدب أهل تحاسد وإحن ولدد في الخصومة، لأن صنعتهم هي فهم النفس البشرية، فهم يعلمون كيف يضربون في مقتل، فمن خلال مجموعة بورتريهات الوسط الثقافي يقدم لنا محفوظ العظيم صورة روائية فنية رائعة للوسط الثقافي في الأعوام من ٤٠ تقريباً (وقبلها بقليل) حتى بعد النكسة بقليل، وهي تضم مجاهدين أفذاذ إلى جوار حشرات دنيئة، قديسون عظماء، وأوغاد بلا خلاق، ويكشف لنا محفوظ بالمرة عن حسه الأخلاقي الرفيع، فنرى لوحته الجبارة الخالدة ونتأمل حياتنا الثقافية، فنصل إلى تأكيد مقولة أن لا جديد تحت شمس مصرنا الغالية في مناخها الثقافي..

عدة بورتريهات تتلاقى كلها في بورتريه أماني محمد، لها بورتريه خاص، لكن ذكرها (بخلاف بورتريه - سعاد وهبي) يأتي في بورتريهات كل من بلال عبده البسيوني، جاد أبو العلا، درية سالم سالم، د. صادق عبد الحميد، عجلان ثابت، وخلالها وتأتي أماني محمد على بهيئة معلومة، أو حديث عن شخص له علاقة بها..

وتظهر أماني محمد في بورتريه خاص بها عندما تتلفن امرأة إلى الراوي الروائي الموظف بالأوقاف في مقر العمل، والمرأة تطلب لقاء للنصح والمشورة في دنيا الأدب والثقافة، ولأنها لا تفضل جو العمل (وزارة الأوقاف) فتقترح إستراحة الهرم مكاناً للقاء، فيقول الراوي إن هاجساً يقول له «أن الفن - وحده - لن يكون ثالثنا»، وعندما يرى الراوي أماني محمد يصفها بأنها امرأة أربعينية ناضجة، «تتأرجح في الحد الفاصل بين حرية المرأة العصرية وبهرج الغانية»، وهذه الجملة المسبوكة كسلاسل الذهب تجعلنا نرى أماني محمد ونتعرف عليها. وفي الاستراحة إذ بيد أماني البضة تتسلل كي تستريح على يد الراوي، فيقول لها الراوي.

- «هل إلى هذه الدرجة تحبين الفن (....)»، فترد ضاحكة.

- بل الفن والحياة ...

وأثناء تجوالهما في صحراء الهرم، وهما الإتيان لمناقشة التاريخ فإذا بهما يناقشان الواقع المعاصر، وإذا بهما يتركان الواقع المعاصركله ولا يناقشا منه سوى واقع الشقة الصغيرة التي تعيش فيها مع خالتها المسنة، تحديداً ساعات نومها.. انظر إلى السخرية العذبة وخفة الظل المفطورة

والتى لا أعرف كاتباً عظيماً إلا وجدتها سمة من سماته، وأمانى تخبره أنها مطلقة، ويتم اللقاء وتقدم أمانى أداء رائعاً فى المودة وتعبر عن تعطشها الهائل للحب.. والحنان.

وفى بورتريه أمانى محمد الرائع - كما فى الحياة - تذهب السكرة وتجىء الفكرة، وتأتى الفكرة على هيئة رجل يحضر إلى الوزارة ويجلس أمام الراوى، وعندما يسأله الراوى عن قصد الزيارة إذا بالرجل يقول له

- جئتك بصفتى زوج أمانى محمد... فأنا زوج المرأة التى كنت عندها بالأمس» .. فيقول الراوى واصفاً مشاعره «الحق أننى غبت عن الوجود بمعنى ما، تلاشى الزمان والمكان»... وعبده البسيونى زوج أمانى ليس فرداً من الشارع، فالذى يضاعف بشاعة الموقف وقسوته ووطأته الشديدة شيئان، أولهما أن الراوى تعرف فى شخص عبده البسيونى على زميل الآداب اللامع والثرى المدلل، والشىء الثانى أن عبده قبل أن يلقى قنبلته الرهيبة حكى للراوى كيف غلبته الدنيا أولا - على أمره، كيف أوفدته أسرته إلى باريس وعاد بدون شهادة، وكيف فاز بعضوية البرلمان وتزوج من أمانى، وقامت الثورة لتنقلب حياة عبده من الجاه والثروة والنفوذ إلى البؤس والعفر، فقد تعاون عبده فى البداية مع الثورة، ونتيجة لوشاية وجد نفسه فى المعتقل ليخرج بعد فترة قصيرة وقد صورت ممتلكاته ليجد نفسه متسولاً فى الشارع، وإبان المحنة ساءت علاقتهما هو وأمانى ، ووجد نفسه مضطراً ينحت فى الصخر ينفق على أسرته، وهو مضطر للكتابة من الباطن لنقاد ومترجمين ومسلسلات إذاعية لأنه بلا واسطة.

... كان مطلب عبده من الراوى أن يقطع علاقته بأمانى، يشعر الراوى بعاصفة من الرثاء حيال الزميل القديم وبالحيرة عندما يقول له عبده «لا تنزعج فلست أول صيد لها.. وفى كل مرة أسارع بإنقاذها».

فيقول الراوى «لم لا تطلقها».

فيرد عبده أنه لو طلقها ستتمادى وستصل إلى الإحتراف وأنهما لهما ابن وابنة فى طور المراهقة وعبده يخشى على صورتها لو طلقها ستتدهور حتى الإحتراف.

بورتريه لكل وجه

... على الفور وفى أول لقاء يقطع الراوى علاقته بأمانى محمد، ويقول الراوى صاحب الحس الأخلاقى الرفيع لأمانى معاتباً كيف أخفيت عنى أنك متزوجة، وتعبر عن كرهيتها العميقة لزوجها بأنه «لا غيره عنده ولا يحب إلا نفسه» وتصف زوجها «بالوحش»، ويعتذر الراوى فى أدب بأنه «لم يعد أهلاً للحب» ويكتب «ورجعت وفى أعماقى شعور بالتحرر والنجاة والندم. ثم إجتاحنى حزن عميق وظل إحساس حاد بالرثاء يطاردنى نحو زميلى القديم عبده البسيونى وزوجه أمانى محمد »، وصفت بهما السياسة المتقلبة وحولت حياتهما إلى جحيم من الفقر والإحباط والكراهية ...

... ثم يأتى بورتريه جاد أبو العلا ليكشف لنا بقية حكاية أمانى محمد وعبده البسيونى وماذا فعلت بهما الأيام...، البورتريه الأساسى يخص جاد أبو العلا - ويحكى عنه الراوى الآتى، تاجر تحف عادى الذكاء كثير المرح أقرب إلى السطحية ذا طلاء ثقافى بلا أعماق. سافر إلى فرنسا حيث قضى هناك ثلاثة أعوام، آثر أن ينهل من منابع الفن الحر وأن يتزود من التجارب الإنسانية الحية ومعرفة الإنسان، ودون ارتباط بدراسة منتظمة، وأنه عاد مضطراً لوفاة والده تاجر التحف ليدير تجارته، وقسم وقته الضيق بين الأدب والتجارة. وهذه هى المعلومات التى قالها جاد أبو العلا إلى الراوى.

أما الحقيقة التى كونها الراوى من استنتاجاته ومعلومات الآخرين، أن رحلة فرنسا قضاها جاد فى المجون والعبث واللهو بحجة التزود بالتجارب الحية. قبل أن يقابله الراوى كان جاد قد أصدر خمس روايات طبعها على حسابه طبعات فاخرة، وكانت المقالات النقدية تنهال بالثناء والتمجيد وكلها تترجم إلى لغات أجنبية، وتعد للإذاعة والتليفزيون وكأنها الدرر، ولم يستطع الراوى أن يكمل واحدة فانصرف

عنيا جميعاً. واكتشف الراوى أن كل هذا الضجيج الذى لا يصدر إلا لكاتب ذى خطر وشأن مسألة تزييف فى تزييف، فذاك الضحك لا يكتب ولا يقرأ، فقد صمم على أن يكون أديباً وأن يكمل ما ينقصه من الموهبة بالمال. فهناك من يكتبون له من الباطن، وكله بالهدايا وبالنقود، والنقد كذلك، وبنفس الأسلوب شق طريقه إلى السينما وإلى التليفزيون ويحكم الراوى عنيه بأنه محب للفن وربما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يعتد بها مما دفع به الى طريق ملىء بالمتاعب، فقد صمم على أن يكون أديباً. وهو يحتقر بيئة التجار وهى مصدر جاهه وثرائه وهو فيها كركب محترم، ويغرس نفسه غرساً شيطانياً فى بيئة الفن وهى تأباه وهو فيها غريب محتقر.

... هذا الأديب الزائف الذى لم يرتح الراوى له يكمل لنا بورتريه أمانى محمد، وسرعان ما ترامت الأخبار إلى الراوى، وكان قد شاهد عبده البسيونى فى صالون جاد أبو العلا فقال الراوى لنفسه (وفى ذهنه الكتابة من الباطن) «على عبده قد ظفر بصيد ثمين»، فقال عبده للراوى أنه تعرف على جاد أبو العلا منذ عامين، وأن أغلب مسلسلات جاد الإذاعية والتليفزيونية من تأليف عبده، ثم يهمس عبده ساخراً ومع هذا لم أوفق حتى الآن إلى بيع مسلسلة باسمى، ثم تأتى مفاجأة كبرى على لسان أحد الكتاب وهو عجلان ثابت، إذ يفوز أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعية (!!)، فيكتب د. زهير كامل الناقد الملوث رسالة فى أدب أبو العلا، تلقى فيها الناقد زهير طاقم تحف عربى وألف جنيه، فيقول عبده عن الرسالة «هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه سوى مومس!».

... كيف بدأت الصلة بين عبده البسيونى المؤلف الملاكى وللأديب المزيف جاد أبو العلا، تأتى الإجابة على لسان عجلان ثابت الذى يخبر الراوى أن الحكاية بدأت بعلاقة آثمة بين جاد أبو العلا وبين أمانى محمد، وأن عبده اكتشف العلاقة فسارع عبده إلى ضبطهما فى فيلا جاد بالهرم، واكتفى عبده بقطع العلاقة وتسلم حرمه، ثم أعقب ذلك صداقة وطيدة (....) بين الزوج والعشيق السابق، والأعجب أن هذه الصداقة أثمرت عن عهد أدبى - هو امتداد للعهد السابق، والأعجب والأعجب يسجله الراوى الجميل على لسان عجلان ثابت إذ يقول «العجب أن أبطال روايات جاد مُثل للصدق والكرامة والفضيلة».

أما ما أسفرت عنه علاقة عبده بزوجته، نعلم أنهما تعايشا (....)، ويقدم لنا الراوى ثمرة هذه الزيجة المضطربة الممزقة بالمشاحنات وبالعداءات وبالكراهية، أنه بلال عبده البسيونى (صاحب بورتريه خاص) وابن عبده وأمانى هو، طبيب الامتياز النابه الغاضب الناقم على كل شىء، وهو مصر على الهجرة إلى أمريكا ونعلم أن شقيقته الصيدلانية الصغيرة ستلحق به فى أسرع وقت، أما آخر مرة يرى الراوى أمانى محمد، كان اللقاء بالصدفة أمام سنترال رمسيس، وكان العمر قد تقدم بهما، وبدت له أكثر رزانة وقد أفرطت فى البدانة ومد الراوى يده غير أن ارتباكها أقنعنى بأنها تعانى مسئولية السيدة المتزمتة إذا ما ورطتها ظروف خارجة عن الإرادة فى مصافحة رجل «غريب»!!..

عمل ثرى

المرايا عمل رائع ثرى، تتعدد فيه الحكايات والمصائر والوجوه، كما يكشف محفوظ فى مراياه عن الفضيلة والفسق والنهايات والمصائر وصرعى الحياة وعبدة الشهوة والسلطة، يكشف فيها عن مرآة نفسه الرائعة كمصرى أصيل فى طيبة القلب وفى حب الناس والوطن وفى التسامح والغفران للضعف البشرى، ويظهر وطنية صادقة مخلصة وروحا جميلة تلقى بالنكتة الحلوة وتطرب لها... متع الله شيخنا الجليل بالصحة وبالسعادة كما أمتعنا. ■

الدكتور: محمد محمود شرابى

أيام معه وذكريات عنه

بقلم

يوسف الشريف

نشر الهلال فى العدد الماضى مقالا بعنوان الطيور المهاجرة ذكريات وثلاثة كتب عن مصر تناول فيه كاتبه مصطفى نبيل علاقته الوثيقة بالدكتور شرابى وعشقه لبلده برغم هجرته إلى ألمانيا وابتعاده عن مصر.
ننشر مقالا آخر لواحد من أصدقائه ليتحدث عن هذه الشخصية المميزة

مع بداية الخمسينات عرفت الدكتور محمد محمود شرابى النابغة المعمارى والأستاذ بجامعة دار مشتاد بألمانيا فيما بعد وكانت العلاقة قد توثقت بيننا عبر جيرة السكنى فى جزيرة الروضة، ثم نمت وترعرعت بعدما ذاكرنا معا دروس شهادة الثقافة ثم الشهادة التوجيهية فى بيتى وبيته بالتناوب، فكان من الطبيعى أن يتعرف كل منا على أسرة صديقه، وأذكر أن الألفة جمعتنى على صغر سنى آنذاك بوالده إذ يبدو أن الحاج محمود شرابى رجل الأعمال العصامى كان حريصا على الاطمئنان على أنه عبر التأكد من حسن سير وسلوك أصدقائه وأننى نجحت فى الاختبار إلى حد زياراتى الدورية له فى ورشة تشكيل الحديد التى كان يملكها ويديرها وشقيقه الأكبر فى السبتية!



د. محمد شرابى مع كاتب المقال

كانت بيننا هوايات أثيرة مشتركة إبان مرحلة الدراسة الثانوية، بينها نهم اقتناء وقراءة كتب التاريخ والاسلاميات وروايات نجيب محفوظ وبينما حببت إليه لعبة التنس وتدريباتها فى نادى التوفيقية، حبب إلى لعبة المصارعة وتدريباتها بجمعية الشبان المسلمين ورغم أن الحاج مصطفى مدرب المصارعة نصحنى أولا بأداء تمرينات رياضية معينة لتنمية عضلات الكتفين الهشة حتى تتحملان السقوط إلا أننى واصلت التدريب مع محمد شرابى بعدما أفضى لى بسر إقباله على هذه الرياضة تحديدا إذ كان همه القصاص من زميل له بالمدرسة السعيدية اسمه سامى أصبح فيما بعد طبيبا للأسنان ومن عجب أن يتوقف عن تدريبات المصارعة فجأة بعد أن تصالح معه أثر تدخلى لإزالة سوء الفهم الذى نشب بينهما ومن يومها أدركت كم هو صبور وعنيد ومستبسل فى تحقيق ذاته ونيل مآربه ودفاعه عن كرامته واشهد أنه لم تصادفه مشكلة إلا وتغلب عليها عبر شحذ إرادته واعتماده التخطيط الجيد والعمل الدؤوب!

على أنه كانت بيننا هواية أخرى أحسب أنها كانت من معالم تكويننا الثقافى المبكر إذ كنا نمشى على أقدامنا ساعات ومسافات بعيدة نستمتع خلالها بمصافحة عيوننا لملامح الناس وتكوينهم الجسمانى وملابسهم وحركاتهم وسكناتهم ثم يدور بيننا الحوار من باب تدريب عضلات الخيال أو التخمين حول مهنهم أو أوضاعهم الاجتماعية ومدى سعادتهم أو تعاستهم كما لو أننا نشترك معا فى كتابة قصة أو سيناريو فيلم سينمائى وأحيانا كانت الفرجة وجولات المشى تشدنا تارة إلى ربوع القاهرة الفاطمة والمملوكية وتأمل عمارتها الإسلامية وربما الإعجاب والحسرة على ما آلت إليه بقايا العمارة الأوربية البديعة فى وسط البلد والزمالك والحلمية القديمة والعباسية.

فلما ظهرت نتيجة الشهادة التوجيهية عام ١٩٥٤ قرر والد محمد شرابى إرساله لدراسة الهندسة المعمارية لأنه لم يحرز الدرجات التى تؤهله للالتحاق بكلية الهندسة، بينما كان الطريق أمامى سالكا للالتحاق بكلية الحقوق والعمل محرراً تحت التمرين فى عدد من الصحف والمجلات عهدئذ لكن محمد شرابى لم يستمر فى الدراسة بالنمسا سوى عام واحد وبعدها قرر استكمال دراسة فى ألمانيا وكتب لى

أيام معه وذكريات عنه

خطابا شائقا مثيرا يروى فيه الحكاية وأنه تعرض لهجمة عاطفية حادة من طرف واحد وكانت ربة الأسرة التي سكن معها وكيف أدرك وهو المسلم الشديد التدين أنه هالك حتما أمام جمالها واندفاعها الجنوني تحود كما لو أنها امرأة العزيز التي راودت سيدنا يوسف عن نفسها لولا أن رأى برهان ربه. رغم علم زوجها المسن بمسلكها الشائن أو ادعائه الجهل.

خطاب آخر وصلني منه كان أكثر إثارة فقد التقى في القطار الذي حمله من النمسا لألمانيا بشاب أفريقي رائع واسع الثقافة ورياضي مفتول العضلات، وخلال حديثهما المتبادل عرف أنه تنزاني الجنسية وأنه هارب من بلده وأسرته متوجها لألمانيا حتى يجرب حظه في الدراسة والعمل والثراء.

هكذا ظل الحوار بيننا حميما متصلا فترة اغترابه عن مصر، فكنت دائما أتخيله أمامي بلحمه وشحمه وابتسامته الهادئة وتوهانه لحظات عن الدنيا وما فيها، وعادته التي ظلت تلازمه في قضم إبهامه لا إراديا ثم انكفئ على الورق وأكتب له صفحات مطولة عن أحوال مصر وأخبار أهله وأصدقائه وتلخيصا وافيا عن الاهتمامات العامة والشواغل الغالبة في الصحف والمجلات المصرية ثم أروى له آخر نكتة وآخر فيلم وآخر أغنية أو كتاب، ثم أطرح عليه قضية سياسية أو اجتماعية أو ثقافية للمناقشة، أو أرد على سؤال أو قضية طرحها على في آخر خطاب وصلني منه!

ومن هنا ظلت الصداقة تجمعنا على الود والاحترام المتبادل عبر الخطابات إرسالا واستقبالا وحتى عاد لأول مرة إلى القاهرة بعد أن نال بكالوريوس الهندسة المعمارية وعاد معه اثنان من أصدقائه المصريين الجدد الذين تعرف عليهم في ألمانيا وهما الدكتور حسن رجب الكاتب الآن بصحيفة الأخبار، والمهندس إسماعيل الشافعي وسافرنا جميعا في إجازة قصيرة إلى بورسعيد وهناك لاحظت أن بعضا من طباع محمد شرابي قد تغيرت إلى حد ما، فقد غادرنا وهو يصلي وعاد مترمتا دينيا وكان يطرب للنكتة والدعابة وعاد وقورا ومتحفظا وهو كان لا يمل الحوار شدا وجذبا بشغف وحرارة فأصبح يفضل الاستماع أكثر وتأجيج الحوار عن بعد ولاحظت كذلك ويا أثر رجعي أن ولعي بكتابة المطولات إليه كان يرد عليه بكتابات مختصرة وتقريرية على غرار القول المأثور ما قل ودل ويبدو أنه لم يعد يملك ترف استهلاك الوقت في الثرثرة إذ كان مشغولا لشوشته في التحضير لنيل شهادة الدكتوراه وحتى نال مأربه ليتفوق وكان موضوع رسالته على ما أذكر عن العمارة الإسلامية الفاطمية أو المملوكية التي كان يعشقها في شرخ شبابه ثم ثنى عليها تباعا بنيل الدكتوراه في الفلسفة!

أذكر في إحدى إجازاته القاهرية أنه عمل من باب التدريب بعد حصوله على البكالوريوس في مشروع هندسي تشرف على تنفيذه شركة كروب الألمانية

فكان يصحب معه إلى بيوت عائلته أو بيوت أصدقائه بعض زملائه من المهندسين الألمان، ثم يتركنا ليراقب من بعيد كيف نتبادل معهم التعارف والمعرفة والمناقشات السياسية، وكنا نصحبهم بدونه أحيانا إلى المعالم الأثرية أو الترفيهية، ثم يعرض على مسامعنا طرفا من آرائهم ورؤاهم حول أفكارنا دون رتوش خاصة أن القضية الفلسطينية والبؤرة الصهيونية الاستيطانية التي زرعت في قلبها وعلى أشلائها كانت تفرض نفسها على الحوار مع هؤلاء الألمان، وبينهم من كان يلتقى معنا فى الرأى عند منتصف الطريق ومعظمهم كان يظل على حياده أو إعلان انحيازه لاسرائيل بدعوى انتهاجها للديمقراطية وتقدمها العلمى رغم محاولتهم جميعا إخفاء كراهيتهم الدفينة لليهود وقال لى محمد شرابى أنه مضطر مهنيا للتعامل مع الجميع بحذر ولا يستبعد أن يكون نشاطه وعلاقاته وغيره كثر من المصريين والعرب فى ألمانيا موضع مراقبة اليهود وقد تتطور إلى ملاحقة ومالا يحمد عقباه!

والحقيقة أن محمد شرابي كان أول من سمعت منه تعبير «الصراع الحضارى» وهو الوصف الذى أطلقه فى الستينات على الصراع العربى الاسرائيلى، إذ كان يعتقد أن اسرائيل كما هى مشروع صهيونى إلا أنها أيضا مشروع غريب أمريكى لاستلاب الإرادة العربية وخلب لب العرب عبر تفوقها العسكرى والاقتصادى والتكنولوجى حتى يشعرون بعقدة النقص أو العجز عن مواجهتها وكان يرى أن اعتماد العرب فحسب على جعجعة السياسة أو السلاح لن يجرى على المدى القصير فى مواجهة اسرائيل وردعها أو الانتصار عليها وأن المطلوب أن ينطلق العرب فى صراعهم الحضارى مع اسرائيل عبر بناء قاعدة علمية مؤسسية تعتمد خطة استراتيجية بعيدة المدى لإنقاذ فلسطين وإنقاذ الأمة العربية مما تبغية الصهيونية وأمريكا لها، بل وكان يدعو إلى ضرورات استقراء واستيعاب نفس المنهج والمنوال الذى اتبعته الحركة الصهيونية فى زرع اسرائيل أولا، ثم تنمية قدراتها الذاتية علميا وعسكريا واقتصاديا كمرحلة ثانية ولابد كذلك من تمتين اللحمة بين الشعوب والأنظمة العربية وأنظمتها ومؤسساتها كبديل عن الاحتماء بقوة دولية فى مواجهة احتماء اسرائيل بأمريكا ولعله من هنا كان دأبه فى معظم رسائله على ضرورة العناية القصوى بالتعليم والبحث العلمى فى مصر من حيث النوعية وليس من حيث انتشار التعليم وكم المتعلمين والخريجين، بل وكان يطالب كذلك بأن تكون مراقبة ومتابعة أحدث النظم فى مجال العلم والتعليم والبحث العلمى ضمن اهتمامات السفارات وأجهزة المخابرات العربية!

وكان قد وصلنى منه خطاب عام ١٩٦٨ من بلدة دار مشتاد حيث كان يعيش ويعمل بعد أن أصبح أستاذا لمادة الهندسية الوصفية بجامعتها وفوجئت به يطرح على سؤالا: لماذا لا نلتقى؟ ثم قال: إذا سمحت ظروفك فأنا على

استعداد لاستضافتك وكان قد تزوج بفتاة ألمانية أسلمت على يديه تدعى ريجينا وأنجب منها طفلين!

ولأن اليد كانت قصيرة والعين بصيرة، من هنا تدبرت أمر الرحلة مع ثلاثة من الأصدقاء بينهم الكاتب المسرحي الراحل عبدالرحمن شوقي صيف عام ١٩٦٩ وسافرنا بالطائرة إلى بيروت ومنها بالسيارة إلى دمشق، ثم دخلنا إلى تركيا عبر النقطة الحدودية المعروفة باسم باب الهوا حتى وصلنا إلى استانبول وعندئذ عاودتني آلام الحصوة التي راحت تضرب في كليتي وبدني ونافوخي إلى حد الصراخ، فلما توقف الألم تلقائيا ركبنا قطار الشرق السريع إلى بلغاريا ومنها إلى يوغسلافيا، ثم النمسا حيث تفرق الأصدقاء كل إلى سبيله بينما واصلت الرحلة إلى ميونخ ومنها بالقطار الداخلي إلى بلدة دارمشتاد حيث وجدت الدكتور محمد شرابي في انتظاري وهات يا أحضان.

في منزله البسيط المريح تعرفت على زوجته وأولاده وعلى الفور صحبني إلى مكان مبيتي ثم تركني حتى أستريح من عناء الرحلة، وبعدها تناولت العشاء مع أسرته، ثم انتحينا جانبا ورحنا نسبح ونغوص في بحر الذكريات وعندما أدرك مدى الألم الذي يعتصرني صحبني في الصباح إلى عيادة طبيب ألماني وبادرته بتشخيص مرضي ثم صارحته من البداية بأنني غير مستعد لتجرع شراب الصبغة الذي يسبق أشعة الكلى ومن ثم كتب لي روشتة لتناول حبوب مسكنة وأخرى مدرة للبول ونصحني بشرب الماء قدر استطاعتي تباعا.

فلما خرجنا من العيادة وركبت معه في سيارته إذا بصديقي الدكتور محمد محمود شرابي يلتفت إلى فجأة ويقول في لهجة جادة: يوسف إياك أن تمرض في ألمانيا العلاج هنا مكلف جدا، وفهمت من حديثه أمرين: الأول أنه على غير استعداد لأن يشغله شيء عن عمله، والثاني أنه وهو الأستاذ الجامعي يصرف مرتبه على داير فرنك في التأمينات والضرائب والمعيشة وشراء الكتب، ومن جهتي برمجت نفسي في ضوء هذه الحقائق.

كان يتركني صباحا في وسط دارمشتاد ويتوجه إلى عمله في الجامعة وعلى أن أدبر حالي في التسكع والمعرفة على هدى خريطة تفصيلية لعالم المدينة وحين يحين موعد أوبته من العمل، علي أن أتصل به تليفونيا لتحديد مكاني في المدينة حتى يمر علي ويصحبني إلى منزله وفي المساء وأنا الذي لم يسبق لي النوم منذ عشرينات العمر قبيل انبلاج ضياء الفجر، كان علي النوم مبكرا وعندما ضقت ذرعا باحتباسه لحريتي وأدرك رغبتي في العودة راجعا إلى القاهرة، من هنا عهد إلى أحد طلبته واسمه فريدريك أن يتدبر معي مهام السهر وكان عند حسن ظنه به، فقد كان خبيرا في كل كافتيريات وملاهي الاندرجراوند التي يرتادها الشباب تحت الأرض!

فريدريك كان واحدا من أربعة أبناء لليونير ألمانى يملك مصنعا ضخما فى ميناء هامبورج لبناء السفن وناقلات البترول، وحكى لى أن والده كان يمنح أشقائه بعد تخرجهم تباعا من الجامعة مبلغا من المال وجواز سفر، وعلى كل منهم أن يجوب العالم ويخوض التجارب حتى تمتلئ صفحاته بأختام الوصول والمغادرة للدول التى يختار زيارتها بحرية تامة، وعندئذ فقط يعهد والده إليه شغل الوظيفة أو القيام بمهام متباينة فى شركته، ووعدنى أن تكون مصر فاتحة زياراته بعد تخرجه من الجامعة.. وقد بر بوعده!

وعلى ما يبدو أنه أدرك ثمة اختلاف ما فى أفكارى أو سلوكى مع أستاذه الدكتور شرابى، من هنا أفضى إلى أنه يشعر دائما بحرصه الشديد على أن تظل شخصيته وطباعه شرقية ومستقلة عن النمط الألمانى رغم تفوق العلمى ونبوغه وأسلوبه الشائق والمبتكر فى تلقين مادته لطلبته وتفانيه فى مساعدتهم وحكى لى أنه كان قد صحب طلبته فى رحلة علمية وترفيهية إلى باريس فكان يغمض عينيه حتى لا يرى مشاهد الراقصات العاريات حين يرتاد معهم الملاهى الليلية فكانوا يداعبونه حتى يضطر إلى فتح عينيه لمشاهدة الراقصات غصبا عنه.

على أن الدكتور شرابى كان كريما ومضيافا كما عرفته فى مقتبل شبابنا الغض الإهاب وكان يصحبنى وزوجته وأولاده فى رحلات خارج مدينة دارمشتاد خلال إجازته الأسبوعية.

وأظنه كان يعانى آنذاك وطأة الصدمة الحضارية وهو المتدين المحافظ الشديد الولاء لمصريته وعروبته وإسلامه!

فلما عدت إلى مصر كتبت له خطابا أشكره على الأيام السعيدة التى عشتها معه فى ألمانيا، لكنه لم يرد على خطابى، وعبثا كتبت له ولكنه ظل عند موقفه حتى بعثت له عام ١٩٨١ بكتابى آخر ظرفاء ذلك الزمان حول سيرة حياة أستاذنا لشاعر كامل الشناوى وعندئذ فقد أرسل إلى خطابا مطولا لأول مرة يرد فيه على كل خطاباتى السابقة ويعلن اعتذاره عما بدر منه أمامى مع زوجته وعن سوء ظنه فى إجاباتى على تساؤلاتها حول الرقص الشرقى والغربى!

وحين قدر للدكتور محمد محمد شرابى أن يعود إلى مصر فى إجازة طويلة لأول مرة أواخر السبعينات كان قد تغيرت بعض طباعه بنحو ١٨٠ درجة، فكان أكثر نضجا وأكثر ميلا للتسامح والتوافق الفكرى والمزاجى مع الآخرين، وكان أيضا قد أصبح من الأثرياء فقد صحبنى ذات مساء بالقاهرة للقاء بالأمير محمد الفيصل وأدركت أنه سمع بنجاحاته فى تشييد العديد من الصروح العمرانية الحضارية فى السعودية والكويت، ويتطلع لاسهامه فى تصميم بعض مقرات البنك الاسلامى ومشاريعه التنموية فى ربوع العالم الاسلامى وتمنيت له التوفيق ولم ألتق به مجددا حتى عرفت من صديقنا المشترك الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال بقصة مرضه العضال والخطأ الفادح الذى ارتكبه الأطباء السويسريين فى علاجه إلى حد فقدانه للذاكرة شفاه الله وعافاه! ■

الفن والفنانون الغجر

في مصر

بقلم

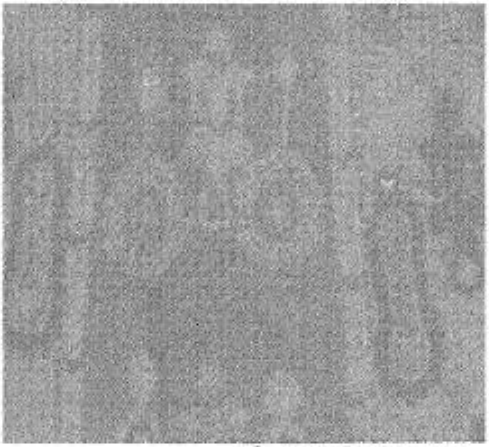
مهدى الحسينى



ثلاث غوازي
من غجر مصر
١٨٩٠



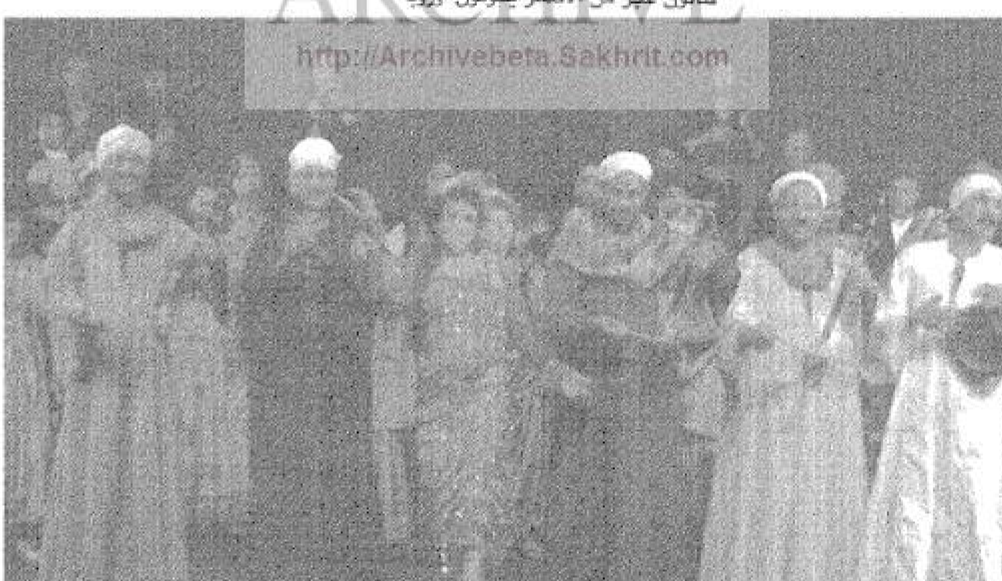
«دق» عين الحسود وطيور وعرائس



تمائم سحرية .. تطريز على ثوب

لن نتحدث هنا عن «الغجر» الذين «وصلوا»، فكلهم ينكرون هويتهم الغجرية ويخفون أصولهم، وبعضهم يتنكر لها بل ويستنكرها إلى حد أن يعلن انتسابه إلى هويّات مصرية أخرى أصيلة، أو وافدة، أو منتحلة ومزعومة!! فالمركزية المصرية القاهرة لن تعترف إلا بهوية الحكام وطبقتهم المهيمنة والتى تتغير بتغير هوية الحاكم. هنا فقط نتحدث عن «عامة» الغجر وهؤلاء أيضا يصمتون عن غجريتهم - خلافا للغجر فى الدانوب وفرنسا وغيرها - بل يتركون غيرهم يطلقون عليهم ما شاءوا من المسميات.

فنانون غجر من الأقصر يطوفون اوروبا



غير أنه من واجب الإنصاف لركزيتنا المحافظة، خاصة السنة المسلمة والأورثوذوكسية المسيحية واليهودية المصرية، أن الغجر هنا لم يتعرضوا للمذابح والمعتقلات والمطاردات مثلما تعرضوا في أوروبا خاصة في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والاتحاد السوفيتي وإسبانيا فرانكو وأخيرا في بعض دويلات البلقان ثم أخيرا في كوسوفو على يد المتشددين العنصريين الألبان. إلا أن هذه المسألة هنا في مصر تأخذ أبعادا اعتبارية ومعنوية- نفسية أو قيمية أو ثقافية أو طبقية أو اجتماعية وكلها أمور أخف وطأة مما حدث لهم في بلاد تزعم أنها أكثر تقدما وإنسانية وتمدنا وحضارة.

وأظن أن الغجر المصريين قد وجدوا شيئا من الرحابة والتسامح لدى المجتمع المصري في مراحل التحول الكبرى، فلعلهم لقوا من الفاطميين الشيعة المغاربة متسعا لفنونهم وحرفهم وأساليب حياتهم الخاصة التي كان السنة المشارقة يتشددون إزاءها. ولعلهم حين ردوا أو - أنشأوا - سيرة الظاهر بيبرس وأشاعوها في ربوع مصر كلها، كانوا يمجدون لحظات البداية في الدولة المملوكية الفتية ولعلهم أيضا أشاعوا السيرة الهلالية بأبعادها البطولية بعد هزيمة عرابي، قد أفادوا من خلخلة قبضة المركزية (الخديوية) بينما لم تكن السلطة المستجدة الانجليزية قد تمكنت بعد.

أما أثناء الحرب الأولى حين زلزل الصراع الوطني السلطة الانجليزية المتحالفة مع السراي، كما تم شل تردد حكومة حسين رشدي وحسم مناوراتها، وتهيأت البلاد لثورة ١٩١٩ فقد اندفع عدد كبير من الفنانين الغجر إلى الحياة الفنية في الريف والمدينة، سواء في أفراح القرى حيث لعب موسم جني القطن والمحاصيل الزراعية رغم جرائم الانجليز دورا في إنعاش فرص الاحتفالات الريفية وتعدد مناسباتها وأسبابها أو في حياة المدن في صورة نشاط اقتصادي وتجاري وحرفي وصناعي أسهم في تمويل أنشطة فنية وثقافية تتسم بالطابع القومي والثوري ولا شك في أن شخصية غجرية مثل الشيخ محمد عبدالرحيم المسلوب (من المساليب بقنا) والذي لعب دورا كبيرا في إنشاء قوالب الدور والموشح والمقطوعات الموسيقية المصرية ودفع إلى الحياة الفنية بألمظ وعبده الحامولي ومحمد عثمان وعازفين مشهورين كبار مثل العقاد وكامل الأصلي وغيرهما، كما أسهم في تكوين العديد من الفرق والجوقات الموسيقية المؤثرة، لأكبر دليل على الدور المرموق للفنانين الغجر في نشأة وتكوين الحياة الفنية المصرية منذ منتصف القرن ١٩ تقريبا وحتى مطلع القرن العشرين.

الحدادة حرفة الإيقاع

لا ينظر السمكري إلى رفرف السيارة المهشمة بعينيه حين يصلحه بل يتحسسه بكفه ويظل يضرب عليه بشاكوشه في إيقاعات متدرجة من الخشن فالأقل خشونة فالناعم فالأنعم ويظل يتحسسه بعد كل مرحلة حتى يتلمس ما تم إنجازه وما تبقى إلى أن يصل إلى نعومة الفابريقة وهو مطمئن إلى سلامة عمله لأنه مطمئن إلى سلامة أذنيه من ناحية حسها الايقاعي فهم أهل حدادة وحرفة وإيقاع، دقة على الوتد، ودقة على السندال وايقاع صانع الذهب غير ايقاع صانع الفضة.. غير صانع النحاس والحديد والخشبة، وهو لا يخشى دقة الأجنة على إصبعيه ولاحد المنشار ولا لهيب النار طالما أن إيقاعه سليم لأن معلمه حين لقنه أنواع الايقاع وألوانه حتى وصل به إلى حدود الإتقان وأبعده عن المخاطر لذا لا تدهش حين تجد هذا السمكري أو الحداد أو النجار أو الصنايعي يرقص في أحد الأفراح على الايقاع بمنتهى التوافق

والانضباط أو يمسك بطبلة ويدق عليها كطبال محترف.

وليس إلى مهنة الحدادة وحدها يرجع الفضل إلى دخولهم مجتمعنا المحافظ، ثم أهل حرف عديدة يمارسونها مستندة إلى مختلف الإيقاعات وأنواع الغناء، الأمر الذى يساعد على قبولها وقبولهم اجتماعيا، وهم أهل حكمة أيضا ولعلهم أصحاب المثل السائر «سبع صنايع والبخت ضايع» إلا أن هناك ملاحظات أربع لابد من وضعها فى الاعتبار:

الأولى: أن ليس كل من يعمل فى هذه المجالات المنسوبة للغجر يكون حتما غجريا بل المقصود هنا فقط أن هذه هى الحقول التى برع فيها هؤلاء الغجر أو المتغجرون الذين تربوا لديهم وتعلموا الكار على أيديهم وهى مجالات بطبيعتها تبرز مهاراتهم الخاصة سيما أعمال الخطر كالحدادة والسيرك وصيد الحيات والرقص مع الثعابين إلخ.

الثانية: أن أغلب هذه الأعمال تمارس مصحوبة بأنواع الإيقاع وفنونه وبألوان الغناء الغفل أو المصحوب بالعزف وأحيانا بألوان من الأداء الحركى.

الثالثة: أن أنشطة الغجر الفنية والإبداعية والحرفية والتجارية مبررها الأساسى هو خدمة القرية وحرفتها الأم أى الزراعة والتى ورثها الفلاحون المصريون عن أجدادهم الفراعنة كما تقوم على مساعدة الحرفيين المصريين بالمدينة فى ممارسة مهنهم كى تعفيهم من ممارسة الأنشطة المحفوفة بالأخطار مثل الحدادة، وفى الحالين فى القرية والمدينة فقد تولوا مهمة الترفيه عن جميع طبقات المجتمع خاصة الطبقات الشعبية أى أنهم تحملوا عنهم مسئولية القيام بالأعمال التى أنف أو شق على مجتمعنا ذى الطبيعة المحافظة والذى ألف مهنه التقليدية المستقرة.. القيام بها.

الرابعة: لعل سر توافق جماعات الغجر مع البنية الاجتماعية الشعبية خاصة المصرية وعناصرها الأصيلة والقديمة الفلاحية الحرفية، منذ مجيئهم إلينا وفقا للتاريخ المفترض وغير الأكيد كصناع سيوف وعجلات وعربات وبيطرية فى جيوش الاسكندر أو بعد ذلك حسب ما سوف يثبته البحث الأنثربولوجى والتاريخى الذى نرجوه، سر هذا أنهم جاءوا إلى مجتمع مستقر راسخ له نظمه وتقاليده التى لا يؤثر فيه غريب أو وافد، بل هى تستوعبه فتجعله جزءا من منظومتها ونظامها بل ونظرا للتشابه الكبير بين مهارات الغجر ومهارات المصريين. فقد لبت فنون الغجر وآدابهم بعض حاجات الوجدان المصرى.

الغجر والآلة الموسيقية

فى إسبانيا يحملون الجيتار وترقص نساؤهن بالكاستانيت والتارة ذات الشخاليل ويدق الرجال بكعوب أحذيتهم الصلبة على الأرض الجافة، وفى جبال البرانس يستخدمون الـ «أرد» وهو عود ضخم للغاية، وفى الدانوب يحملون الكمان الصغير والربابة ذات العلبة المستطيلة الكبيرة كما يعزفون على الشبابة (الصفارة الخشبية متعددة الأنابيب مثل تلك التى اشتهر بها العازف الغجرى زامفير وهذه الآلة أصلها مصرى وموجودة بمتحف الاسكندرية من مقتنيات طريق الاسكندرية الفيوم من القرن الثانى الميلادى وفى روسيا يحملون مختلف أنواع الاكورديون وأحجامه وفى انجلترا يهتمون بالصلاصل وبالصفارة المزدوجة (صفارتان متماثلتان متساويتان فى الحجم والطول ومنفردتان مختلفتان فى مواضع الثقوب وعددها) يعزف بها العازف معا أو منفردتين أو بالتبادل وهى من أصل مصرى أيضا إذ نراهما فى لوحة العازفات المصرية الشهيرة من مقبرة رعموزا بالبر الغربى بالأقصر، وفى تركيا يستخدمون آلة

البونجوش وهى عبارة عن عود كبير ذو قصعة من النحاس، وفي اليونان يستخدمون البوزوكيا والسنتورى، أما في الشام فآلتهم المفضلة هى البوزوق ثم الصفارة وأحيانا الشبابة، وفى العراق يعزفون على الشبابة والربابة ذات الصندوق الكبير والصلاصل من الحديد والصدف والمحار والعود والكولة (وهى صفارة تتميز فصيلتها عن الناى بخلوها من ثقب خلفى «الغمّاز» وقد سميت كولة نسبة إلى كابول بزعم أنها جاءت إلى العراق من أفغانستان وهذا مخالف لتاريخ هذه الآلة المصرية القديمة من قبل التاريخ وكما جاء في قصة العازف الأخرس، أما فى الموطن الأصلى أى الهند فـهم الذين أبدعوا آلة السيتار وغيرها من الآلات الموسيقية والطبول فى الهند القديمة. ولا يوجد غجرى فى هذا العالم لا يعشق آلة موسيقية ما ولعله يصنعها بيديه إذا لم يجدها وبالطبع ليس كل عازفى هذه الآلات وصناعها يكون بالقطع غجريا.

غجر مصر والموسيقى

وأما في مصر فهم يعزفون على آلات عديدة أهمها الربابة والتي يقال أنها دخلت إلى مصر مع الفتح العربي، والكولة ولها مسميات عديدة أخرى كالسلامية والعفاطة والسناوية والصفارة وتتعدد أصواتها بتعدد أحجامها وأطوالها وعقدها وثقوبها وسمك جدارها، وجميعها ليس له ثقب «غمّاز» من الخلف، أما أنواع الأرغول ألغاب المزدوج فهو قصير جدا يسمى مجرونة أى أنبوب من البوص مقرون إلى أنبوب ثان وأحيانا ما يضيفون إلى نهاية إحدى قصبتيه بوقا من قرن غزال أو من الصفيح، ومنها الجورمة وهو أرغول متوسط الطول، وأما الأرغول الطويل فيرسل صوتا عريضا وقويا (باص بارتيون) وكذا يتقنون العزف على أنواع عديدة من المزمار الخشبي من خشب المشمش في الأغلب ذو البوق، أحيانا مطعم بالنحاس، ويسمى القصير الحاد منه بالسبيس والمتوسط بالصعيدى فى الصعيد والتركي في الدلتا أما الطويل فيسمى بالآبا أما عن أنواع الطبول والدفوف فهى أكثر من أن تحصى فمنها طبلة الحوش أى الدهله ومنها طبول الزار ومنها الصغيرة «الحُق» ومنها البلدى متوسطة الحجم وهناك الدفوف ذوات الأقطار المختلفة الأطوال والتى تستخدم فى الأفراح والأحزان (الندابات) والموالد والمواكب وطقوس الزار، وهناك المزاهر وهى عبارة عن دفوف ذات شخاليل نحاسية وهى تعزف فقط فى الزار والمناسبات السعيدة وكذلك آلات الطرق المعدنية من النحاس والنيكل وأهمها التورة والصاجات والكاسات والنواقيس والأجراس والمثلثات وهى بطلة حلقات الذكر ومقدمة الطرق الصوفية وعازفة ضبط التون والإيقاع فى الكنائس والمعابد اليهودية وهناك أشكال أخرى من الإيقاعات منها البازة وهى آلة مشدودة على طبق من الفخار أو النحاس أو الصاج بأحجام مختلفة وأحيانا تسمى النُقارة والصغير منها يستخدمها المسحراتى وبعضها يستخدمها الراقصون فى المواكب حين يعلقونها على صدورهم وينقرون عليها نقرا رقيقا موقعا مؤثرا وهناك الطبل المزدوج (النقرزان) الكبير منه تحمله الجمال يدقون عليه بعنف حين يرحلون مع الحجاج ولعلها كانت طبلة حرب والصغير فيه يرقص عليه أهل الفن والعدوة وبيا ومقاغة وما حولها ويسمونها «العلبة».

أما أهل النوبة فهم لا يستخدمون الطبول بل الدفوف فقط (فرقة النوبة الحالية تستخدم الطبل وهذا خطأ) وآلة الطنبورة وهى بعض من بقايا الهارب الفرعونى الذى هجرنا وقد استعار منها أهل بورسعيد (العمليون) آلة السمسمية فحولوا الطبق الفخارى إلى طبق معدنى كصندوق رنان

وغيروا الجلد من حيواني إلى بلاستيك واستبدلوا الأوتار الطبيعية بأوتار من النحاس.

الغجر والأغنية والقصص الشعبي

«جرجا.. وبرديس.. والبليذا.. أهه.. أااه.. هاه.. أه..» يغنيها غجر الجنوب في حزن وشجن وعشق حلو ومر مصبوب في لحن ممتد عميق مرسل إلى أفق لا نراه، وهناك أغان شهيرة تفنن المغنون الغجر في أدائها مثل: (يابو العيون السود ياللي جمالك زين ومثل: أبازين العابدين، وآمنت بالله، يا نخلتين في العلالي، ويا حسن يا خولي الجنينة.. وغيرها من الأغنيات الشائعة والتي غذت الوجدان بالشجن والجمال لسنوات وسنوات ومازالت. وهناك تيمات ملحمية وقصصية ودرامية حملها الفنانون الغجر وداروا بها في القرى والأسواق والسوامر والأجران يروونها أو يحكونها أو يغنونها وأحيانا يشخصونها ولكن أحدا لم يستطع إثبات أصولها الغجرية أو غير الغجرية!! فهي تيمات مصرية ولا شك، فقصة سعد اليتيم أحد تنويعات صراع حورس مع عمه الآله ست، وقصة حسن ونعيمة تنويعة أخرى على حب ايزيس للإلة الذبيح أو زوريس، وقصة بهية وياسين تشكل احتجاج قبائل العبابدة - حراس الجنوب - على مصرع بطلهم المتمرد ياسين واغلاق الحدود المصرية السودانية بأمر الانجليز، وأدهم الشرقاوي المثقف العفوي في مواجهة كبار الملاك والرجعيين والانجليز، وشفيقة ومتولي بصيغها الجديدة تشكل احتجاجا على الفقر والانحدار الانساني، وهكذا كانت كلها نابعة من التراث المصري وصميم حياتنا الاجتماعية ومع ذلك تبناها الغجر، وكأنما اتخذوا موقع المدافع عن الفقراء والضحايا والمظلومين والأبطال، لهذا لا توجد صيغة واحدة (موحدة) لهذه التيمات، بل هناك عشرات من الصيغ الأدبية والأشكال الفنية والالحان والأصوات الداخلية التي يطرحها الفنان الغجري على الجمع المتحلق حوله في سامر أو مولد أو عرس وأحيانا في عزاء. ولا يفوتني هنا أن أنوّه إلى أن كتابا مسرحيين أبرزهم نجيب سرور وشوقي عبدالحكيم قد استوحيا هذه التيمات الأثيرة في نصوصهما، كما استوحاها كتاب ومخرجون سينمائيون مثل الشاعر عبدالرحمن الخميسي والمخرج هنري بركات في فيلمها الشهير



جدارية من النقش الغجرى



«حج مبرور وذنب مغفور» هكذا



تميمة القوة والفروسية

حسن ونعيمة، كما استوحاها وغيرها فنانون آخرون موسيقيون وشعراء ورسامون، فهل يستطيع ناقد محنك تمييز العناصر المصرية من الغجرية في ثنايا الموال القصصي الغنائي وفي الأغاني والحكايا والأمثلة الشعبية؟ أظن هذا أمرا عسيرا للغاية فبقدر ما كانت المركزية سدا صارما عابسا في وجوه الغجر كانت الحياة الشعبية حقلا فسيحا تسرح فيه أرواحهم وتنطلق فيه إبداعاتهم والجماعة الشعبية دفئا وعباءة يتدثرون بها.

الغجر والسيرة الشعبية

هم فرسان السيرة وشعراؤها يتفننون فيها بقدر ما يحافظون عليها ينطلقون جميعا من متن متفق عليه، ولكن لكل شاعر طريقة ولكل شاعر تفسيره، ولكل شاعر لغته ولهجته ولكنته، بعضهم يحكي حكيا قصصيا أو شعريا مرسلا دون أن يستخدم آلة موسيقية وبعضهم يوقع بكفه وبعضهم يوقع بدف صغير ذو قبضة وفيهم من يحمل الربابة وحده، ومنهم من يقول الشعر بالربابة وسط صحبة من المرددين، بعضهم هلالي وبعضهم زغابي وبعضهم زناتي إذا كانوا يحكون السيرة الهلالية (أو السير الهلالية) ومازال هناك بعض الرواة يحفظون سيرا أخرى أكثرها بقاء للآن هي سيرة الزير سالم لارتباطها بالتاريخ المزعوم للغجر. المهم هل شاعر الربابة مجرد راو أو مردد أو ناقل أم هو مبدع؟ لو ظل النص على ما هو عليه في بدايته التي لا ندريها متى وكيف.. لما أصبح بهذا الثراء والتفريع والتعدد والتركيب. فدراسة تاريخ السيرة وفنون أدائها يكشف بشفافية كبيرة كيف يتكون الفولكلور ويتبلور، إنه يتكون بالتراكم طويل المدى، فلكل شاعر إضافة ولكل شاعر تعديل ولكل شاعر بيت شعر على الأقل قد أضافه مرتجلا في نوبة حماس أو ابداع أو كشف وهكذا.. وهكذا.. تبلورت هذه السيرة الشعبية أو تلك في صيغتها النهائية غير النهائية، ولقد سمعت خطوطا بعينها كانت قد استهوتني من أكثر من شاعر فلم أجد بينها تطابقا حرفيا لا في النص الشفهي ولا في فنون الأداء ولا في المزاج العام ولا في التأثير الجماهيري الذي لا تكمل السيرة بغيره، هنا صدق استاذنا عبدالحميد يونس حين وصفها بأنها فن الممثل الفرد.

الغجر والسيرك

وتكاد العائلات الغجرية المصرية تسيطر على فنون السيرك المصري المتجول من مئات السنين بفنونه المختلفة ابتداء من التهريج إلى اللعب مع الأسود والنمور والأفيال والكلاب والقرود والخيول والحمير والعنز والثعابين ومهارات ركوب العجل والدراجات النارية والمشي فوق الحبال وألعاب الأكروبات والترابيز وهي لعبة خطئها يعني الموت المحقق.

أما عن مجموعات السيرك الصغيرة الجائلة وعازفي ومغني الشوارع ولاعبي البيانولا والنقرزان والحواة والأراجوزات ولاعبي خيال الظل وفناني المولد، فقد قامت سلطات الأمن المصرية في الستينيات بالتضييق عليهم بحجج أنهم متسولون أو لصوص، يفضحوننا أمام الأجانب فقبضوا عليهم بقرار من زكريا محيي الدين ومن بعده عبدالعظيم فهمي وزير الداخلية حينذاك مع مصادرة حيواناتهم وأدواتهم فازدحمت بهم السجون، بدلا من إعانتهم اجتماعيا ورعايتهم إنسانيا، وترويجهم فنيا بحكم أنهم يملكون قدرات فريدة ومهارات نادرة من خلال أجهزة الدولة (الشئون الاجتماعية والجامعة الشعبية ومصلحة الفنون) مثلما حدث في المجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا وتشيكو سلوفاكيا وأسبانيا وفرنسا أو كما حول الفنان الكبير الراحل زكريا

الحجاوى أن يفعل فى ساحات الحسين والسيد البدوى وغيرها بعد ذلك.

الغجر والاحتفالات الشعبية

فى الموالد والأفراح والمناسبات الدينية والاجتماعية والوطنية والشعبية يجد الفنانون الغجر متسعا لفنونهم ولأنشطتهم التجارية أيضا من جنوب مصر إلى شمالها قراها ومدنها وأحياؤها الشعبية، وتعتبر الصورة الفنية الشهيرة الليلة الكبيرة التى أبدعها الشاعر صلاح جاهين والموسيقار سيد مكاوى وثيقة فنية دقيقة لحياة المولد، وهى رغم قصرها البالغ إلا أن إيحاءاتها لا تنتهى مهما تأملت فيها وكذا عكست أعمال فنية سابقة لكامل الخلعى وزكريا أحمد هذه الحياة الشعبية كما صورت السينما المصرية جوانب عديدة منها ولم يبق سوى أن ينكب باحث جاء على كل هذه المواد «الجاهزة» لصفها ودرسها والخروج منها بصورة راصدة محللة مستنتجة - ويعتبر الذكر - الذى اهتم تشكيليون كبار بتصويره - من أهم فنون الأداء الحركى الذى يمارسه المصريون فى الموالد حيث تقوم المنشدة أو المنشد بصحبة عازفى التورة والمزهر والكولة بأداء أجمل الأشعار الصوفية ويعتبر الفنان محمد عبدالنبى الرنان من أسنا والفنان ياسين التهامى من منقلوط من أهم الذين أدوا الشعر الصوفى فى أيامنا هذه وهناك فى الدلتا كانت هنايات شعبان الراحلة والحاجة روحية وفى الاسكندرية كانت الراحلة بدرية السيد من أبرز الفنانات اللاتى قمن بإحياء ليالى الغناء الصوفى فى مولد المرسى أبو العباس وابراهيم الدسوقى والسيد البدوى وغيرهم من الأولياء.

أما باقى المظاهر الاحتفالية فكلنا لسنا غرباء عنها ولا حاجة لنا هنا بالتوقف عندها، هذا وتتكفل المغنيات الغجريات بأغانى العرس والميلاد والطهور كما تتكفل الندابات المحترفات بأداء نصوص موروثة - وبعضهن يرتجلن الأشعار - فى نعى المتوفى ووداعه - بل قد تتجاوزن ذلك إلى موضوعات الموت والحياة والوجود والآخرة.

الغجر والفن التشكيلى

وهم يتمتعون بذوق بصرى رفيع وفريد وغريب، فقد رسموا على صندوق مغلق ضخم محمول على عربة تجرها البغال أطلقوا عليها أودة العفاريت وتستخدم ضمن مفردات السيرك أو الملاهى، رسموا أجسادا عارية (بلا عورات) مستطيلة استطالة كاريكاتورية.. وكأنها تسبح فى مكان ما.. ليس فضاء ولا بحرا ولا سماء ولا أرضا.. وقد تشاركهم عقارب وحياة وأنياب تماسيح (كلها فى بعد واحد) لهم عيون جاحظة مندهشة أو مذعورة أو ساخرة أو متظاهرة بالخوف وشفاه مبتسمة فى مرارة أو عبث أونهم أو ندم، والسؤال هنا: من رسم هذا الرسم؟ من هو أول من رسم الذى تناقله (نقاشوا) الغجر واحدا جنب أو بعد الآخر؟ ومن هذا الذى بثه هذه المعانى الدهشة والأحاسيس العجيبة؟ وبالمثل فإن الرسومات التى على جدران عربات السيرك من وجوه (أقنعة) مفترسة فإنك لو تأملتها فلسوف تجد فيها (أرواحا) بشرية وكذا العربة التى تنقل مسرح الأراجوز وكذا بارافانة وعدة خيال الظل وأشكاله وعرائسه وستائره ولوحة النيشان (فتح عينك تاكل ملبن) ومسرح الفتاة الكهربائية، وزخرفة المراجيح كلها مزخرفة إما بأشكال ممكن أن تسميها بالسيريالية أو تضاهيها بالأشكال الـ أوبتكال أرت عند فازاريللى إنك لا تستطيع أن تنسى كيف صور النقاش/ الرسام الغجرى الأراجوز وسط أسرته وهو يضرب خصومه ملقيا بهم على الأرض مهددا إياهم بعصاه «النبوت».

ولا ننسى رسومات الحج والأعراس بألوان الجير الطباشيرية أو الترابية من درجات الأزرق والأصفر والأحمر غير

الصـريحـة وتنم عن ذوق مـصـرى/ هندى متسق وكذا زخرفة مقابر «الهو» الشهيرة بمحافظة قنا وكذا زخرفة قوارب الصيد وعربات الكارو وهى فى حالات التشخيص تكتفى برسم الموضوع فى ملامح عامة وفى حالات التجريد فإنها تستخدم المثلثات والدوائر وفى حالات التصريح فهى تلجأ إلى الكتابات الدينيـة والأحـاديث والأقـوال والأشعار والدعوات وفى حالات التعبير تستخدم أشكالا كالهلال والثعبان والتمساح والعقرب والقمر والشمس والسمكة رمز الخصوبة وكف اليد (خمسة وخميسه) وعين الحسود وشكل الساعة والنخل والشجرة وحوا وآدم والثعبان والفتاة التى ترقص حاملة سيفين والعصفورة إلى غير ذلك وهذه الأشكال نفسها استخدمها الوشامون وقد أفردت له د. سوسن عامر كتابا رائدا وفريدا.

غجريات فنانات

أما نسائهن فهن بارعات فى أنواع الزينة يتقن رسم الكحل لكل عين وشكل الحلق لكل أذن ووجه وشكل التسريحة اللكة والقصة والكعكة والضفيرة والضفائر المستعارة بمنديل أو بدون منديل كما يصممن الحردة والقمطة والطرحة وكلها من أغطية الرأس ويزينها بورود الصوف أو خيوط الحرير أو الخرز أو الترتر ولقد قابلت فى الأقصر فتاتين (فايزة وسامية) متفننتان فى التطريز اليدوى على الفساتين بالخرز والخيوط الملونة وخرج النجف حيث شهدت على أيديهما أفكارا تصميمية مبتكرة وجميلة علما بأنهما لم تتلقيا تعليما ولم تخرجا إلا نادرا خارج المدينة والتقيت مغنية وراقصة فى دشنا وقد صنعت لنفسها فستانا من مالها الخاص كى تظهر به دقائق فى إحدى مسرحيات قصر الثقافة لا أبالغ حين أظن أن هذا الفستان يتفوق فى تصميمه وجماله وذوقه عن أرقى بيوت الأزياء المصرية والعربية والأجنبية.

وفى زمان الرواج للاقتصاد الفلاحى تنافست الفلاحات على الزينة بالذهب والفضة وشهدت عديدا من القطع صيغت على يد الصاغة الغجر والقبط فى قيسارية (قيصرية) جرجا.. وأيضا فى ميدان الشيخ جبارة بالعريش حيث يعيش الـ «سيجونا» أى غجر العريش ورفح وجنوب فلسطين، ولقد بهرني عقد ذهبى شهدته على صدر الفنانة الأقصرية الكبيرة سعاد مازن كانت بمثابة تحفه لا تقدر بمال عبارة عن ميزان بسلاسل فإذا هى مالت فإن الميزان لا يميل بل يتخذ شكلا أفقيا مستقيما دائما: جمال وقيمة ومعنى، وفى أحد الأيام طرقت بابى شحاذة غجرية تخطت السبعين أو الثمانين ولحظت على الفور قطعتين فضيتين تغطيان مساحة كبيرة من ساعديها (يسمونها ظرف) مشغولة بأشكال ووحدات نباتية ومفردات رمزية كثيرة فعرضت عليها شراءها فكان ردها علىّ مشمولا بابتسامة ساحرة معناه لقد طلبت منك طعاما لا أن تأخذ منى كل ما أملك فى هذه الدنيا.

والنساء الغجريات ماهرات فى العمل على المغازل والأنوال بالصوف والحرير والقطن يصنعن أثواب السودانيات التى تشبه السارى الهندى كما يصنعن الملاءة والبردة وأقمشة الأثواب النسائية ومفروشات الأسرة والستائر وذلك فى أخميم والزوك الغربية بسوهاج ونقاده بقنا وجراجوس بالأقصر جنبا إلى جنب سيدات آخر من غير الغجر من المسلمات والقبطيات ولعل دراسة فى هذه الثقافة الشعبية المادية تقدمها الباحثة وداد حامد فى هذا المجال سوف تفيدنا كثيرا وكذا دراسة مشتركة من الفنانتين المثقفتين الكبيرتين: عزة فهمى وشهيرة محرز سوف تستكمل هذا الموضوع

الرائع حيث أعلم أن لهما دراية واسعة به وأن لديهما مقتنيات نموذجية وصور نادرة.

هل عندنا مسرح غجري؟

ليس مثل كارمن ولابوهيم وغيرها من التيمات الغجرية الخالصة والتى استوحاها الفنانون الأوروبيون «الرومانسيون» من ثقافة الغجر خاصة فى الدانوب ووسط وشرق أوروبا وروسيا والأندلس وجبال البرانس ليس مثل هذه المسرحيات والأوبرات والباليهات الأوروبية التى تنفرد بطعم حريف ونكهة ساخنة ورائحة نفاذة وملمس شديد الخصوصية والانسانية معا، فهى تتميز بتأثير عاطفى روحى خاص للغاية حيث الحب حتى الموت والعنف حتى يسيل الدم، والقتل حتى الفناء والصداقة حتى الفداء: لا.. ليس عندنا مثل هذه الأشياء فالأمر جد مختلف.

لا يوجد عندنا مسرح غجرى مصرى أو عربى.. أو إفريقى، ولكن هناك فنانين غجر عملوا بفنون المسرح المختلفة وكذا السينما، ممثلون ومؤلفون ومخرجون وموسيقيون وعازفون ورسامون ومصممون وراقصون ولكن هؤلاء لم يصنعوا فنا مسرحيا غجريا وإن كان حضورهم بداخله كثيف ومؤثر للغاية، لا أستطيع أن أسمى فنانة أو فنانة منهم هنا، لأن هذا أمر شبه محرم منهم ومن الغير فى آن واحد، حتى المسرحيات التى تعرضت لشخصيات أو تيمات غجرية لم تكن مسرحيات غجرية بل هى مسرحيات ترد ضمن السياق العادى للمسرح المصرى فى سياقه العادى إن كان منتظما أو مضطربا هناك مؤثرات غجرية على بعض ملامح المسرح المصرى فى أحيانا الموسيقى وأحيانا فى الاستعراض وأحيانا فى الملابس ولكنها فى النهاية لا تشكل مسرحا غجريا.

إلا أننا يجدر بنا أن ننوه بأن الزار يشكل عرضا مسرحيا متكاملا هكذا كتب الباحث الكبير الراحل عبدالمنعم شميس فى كتابه الصغير المهم «الجن والعفاريت فى الأدب الشعبى» وكذا أ.د. فاطمة المصرى وأخيرا د. عادل العليمى فى كتابيهما المهمين عن الزار، وهو طقس شفائى سحرى شعبى يشارك فى صياغته خليط من الغجر والجماعات الشعبية ابتداء من غجر الحبشة وأم درمان أى الفلاتة إلى غجر الدلتا من برمكية وخُمُر ومسلاف وغوازى وغجر.

ولنا فى فنون الأراجوز ومسرح خيال الظل والمجبنين/ المحبظين/ المحبظاتية وفى الحكائين وشعراء السيرة المشخصين وغير ذلك من فنون الشعب مصدر ولا ينضب من الأشكال والمضامين المسرحية الشعبية التى يمكن أن تشكل مسرحا مصريا/ غجريا أو غجريا مصريا.

الأكاديميون والغجر

أظننى فى هذا المجال لم أثر إلا تساؤلات وخواطر وليس هذا بالعلم العليم، وفى ظنى أن الإجابات الدقيقة لاتجئ إلا بالانكباب والبحث والتنقيب والتحليل وفقا لمناهج علوم الأنثربولوجى الثقافية والتاريخ والاجتماع والمصريات والفولكلور معا. الأمر الذى لن يتحقق إلا بعد إنشاء معهد للدراسات الشعبية والفولكلورية على أنقاض معهد الفنون الشعبية الحالى شرط أن يخصص كرسى للدراسات المصرية الغجرية وأن يقيم صلة أكيدة وعميقة ومنظمة ودائمة مع الفنانين الشعبيين وأهل الحرف اليدوية والجميلة أصحاب الفنون التطبيقية منصتا وناظرا إليهم كبشر – لا كعينات للفرجة أو للفحص أو كمادة لتدبيج أكوام من رسائل الماجستير والدكتوراه – فيشركهم معه فى برامجه كأصحاب حق أصلاء، معهد منحاز للشعب المصرى وتاريخه وحياته وقضاياه ومستقبله.

من ذخائر الكتب العربية

منهل اللطائف في الكنافة والقطايف

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي عالم الدين والدنيا

بقلم

د. عوض على الغبارى

كان الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي - نسبة إلى أسيوط بصعيد مصر (٨٤٩ هـ - ٩١١ هـ) مؤلفا موسوعيا، وكان تجسيداً للتأليف الموسوعي الذى كان من السمات المميزة للعصر المملوكى الذى عاش فيه. وقد امتلك السيوطى ثقافة دينية ولغوية وأدبية واسعة أهلته لأن يكون مجدد عصره، وعلما من أعلام الثقافة العربية الإسلامية. تبحر السيوطي فى سبعة علوم هى : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع. وقد اشتغل السيوطى بالعلم والتأليف، ولكنه لم ينعزل عن الحياة فكانت له رحلات داخل مصر وخارجها وقد حج

*أستاذ مساعد الأدب المصرى لكلية الآداب جامعة القاهرة - قسم اللغة العربية

وأقام سنة بالحجاز، وتواصل مع علماء عصره فأثر فيهم، وتأثر بهم. وقد عين قاضيا على كل القضاة لمكانته العلمية والأخلاقية ، كما أشرف على المدارس التى اهتمت بتدريس العلوم الدينية فتولى إدارة المدرسة البيبرسية وهى أكبر مدرسة مصرية فى عصره . كما تولى كثيرا من المناصب الرسمية الرفيعة فى التدريس والإفتاء، ولكنه عزف عن كل هذه المناصب الهامة لما واجهه من حسد وأحقاد المنافسين له من العلماء، ومن أشهرهم السخاوى الذى تحامل عليه وجرحه فى (الضوء اللامع) وقد كان السيوطى عالما جليلا صالحا فترفع عن هذه الصغائر، وتفرغ للعلم والتأليف والعبادة، وانعزل عن هذه الحياة الفاسدة متخذا «الروضة» سكنا له وأبدع فى وصفها فى «مقامة الروضة» تعبيرا عن حبه لوطنه مصر، وإن جار عليه أهلها. وقد قمت بدراسة مقامات السيوطي فى كتاب بعنوان مقامات السيوطي دراسة فى المقامة المصرية، وهو أول دراسة لمقامات السيوطى، حيث لم يسبق أن قدم أحد هذا الموضوع فى كتاب .

وقد أثرى السيوطى المكتبة العربية بأكثر من ستمائة كتاب، ذكر كثيرا منها في ترجمته لنفسه في كتاب (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) الذي أرخ فيه للحركة العلمية والأدبية والثقافية لمصر حتى عصره، كما ألف كتابا فى سيرته الذاتيه هو كتاب (التحدث بنعمة الله)، وذكر فيه، كذلك، كثيرا من مؤلفاته .

أهم حفاظ الحديث

ويعد السيوطى مرجعا فى علوم القرآن فى كتابه الفذ (الإتقان فى علوم القرآن) وهو من أهم الكتب فى الدراسات القرآنية، كما يعد إمام الحديث فى عصره فهو من أهم حفاظ الحديث فى مصر بعد الحافظ ابن حجر والحافظ - فى مصطلح الحديث - هو الذى أحاط علمه بمائة ألف حديث متنا وسندا ، وأحوال رواته جرحا

وتعديلا، وقد ألف السيوطي في علوم الحديث أكثر من مائة كتاب، ويعد كتابه «جمع الجوامع أو «الجامع الكبير» نموذجا فريدا في علم الحديث، كما يعد موسوعة للسنة النبوية، فهو دائرة معارف كبرى في الحديث مع رواياته وأسانيده، إضافة إلى أنه المعجم الوحيد المتداول بين المسلمين حتى الآن في الحديث النبوي رواية ودراية. ويعد «تفسير الجلالين» الذي بدأه جلال الدين المحلي وأتمه جلال الدين السيوطي أشهر التفاسير تداولا بين المسلمين حتى الآن، وله أيضا تفسير كبير يسمى (الدر المنثور في التفسير بالمأثور). وقد كان السيوطي مرجعا أصيلا ومصدرا مهما من مصادر اللغة العربية وقد قدم كثيرا من الكتب اللغوية والنحوية، أهمها «المزهر في علوم اللغة» الذي يعد من أنفس كتب اللغة في المكتبة العربية. ويعد كتاب (الأشباه والنظائر) في النحو من أهم الكتب في هذا الميدان. وقد كان السيوطي من أهم مجتهدي القضاء في عصره، وكانت فتاواه ممثلة لشخصيته العلمية والدينية العظيمة. ومن أهم هذه الفتاوى التي تمثل حسه الحضاري فتواه بعدم جواز البناء على النيل حفاظا على جمال طبيعة هذا النهر العظيم. وقد جرت عليه جرأته في الحق كثيرا من ألوان الشدة والعناء، ووصل الأمر إلى حد محاولة قتله من قبل السلطان والعلماء وذوي المصالح الذين اعترضتهم مواقفه إلى جانب العدل والحق .

إثراء الثقافة

لقد كان للسيوطي أثر عظيم في إثراء الثقافة العربية والإسلامية بمؤلفاته الموسوعية التي كانت من أهم إسهامات العلماء والأدباء من أبناء مصر في ازدهار الثقافة العربية التي كان إنجاز مصر فيها تعبيرا عن الأصالة العربية، وانعكاسا لمظاهر الحضارة العربية الإسلامية في الثقافة والفكر والفن والأدب في مصر على امتداد عصورها، خاصة عندما أصبحت مصر بعد سقوط بغداد عل يد جحافل التتار ملاذا للثقافة العربية، وكعبة قصدها العلماء والأدباء من كل حدب وصوب، ومصدرا لعطاء الحضارة الإسلامية، وإسهامها في بناء الحضارة الإنسانية.

ولكن السيوطي عالم الدين لم ينغلق على نفسه، اذ تتجلى روحه المصرية الفكهة المحبة للحياة جامعة في توازن فريد بين حب الدين وحب الدنيا، مما يعد

من أهم ظواهر الشخصية المصرية .

ويتضح من الجانب الأدبي في شخصية السيوطي هذه الروح المصرية المولعة بالتورية وما يرتبط بها من فكاهة، وهو ما توازيه (القفشة) في العامية مما يعكس حب المصريين للتلاعب بالألفاظ. وقد اتضح ذلك في مقامات السيوطي من مثل مقامة النساء التي صور بها على لسان عشرين عالما في علوم مختلفة وصف ليلة الزواج الأولى، وتسمى هذه المقامة أيضا «رشف الزلال من السحر الحلال» وهي مقامة فريدة أنشأها السيوطي لهدف أخلاقي اجتماعي هو التحبيب في الزواج، إذ فشا في عصره مرض أخلاقي خطير هو الشذوذ بين الرجال. وتتضح المفارقة اللفظية للتورية بين ظاهر العبارات التي يوردها كل عالم في مجاله، ولا يقصد مصطلحاتها العلمية، وإنما يقصد ما وراءها من معان أرادها للتحبيب في الزواج .

المقامة النيلية

وعلى ذلك جاءت «المقامة النيلية» التي تصور ارتباط حياة المصريين بالنيل في حالتي وفائه ونقص مائه، واضطراب هذه الحياة، تبعا لذلك، بين الرخاء والغلاء. لقد تحدث السيوطي بأسلوب التورية في المقامة النيلية على لسان عشرين عالما هم المقرئ والمحدث والفقيه والفرضي - وهو العالم الذي يبحث عن كيفية قسمة تركة الميت بين الورثة - والأصولي - عالم أصول الفقه - والجدلي - وعلم الجدل عند المنطقيين هو القياس المؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة، وصاحب هذا القياس يسمى جدليا- والصوفي والنحوى والتصريفي واللغوى والمعنوى والبياني والبديعي والعروضي والشاعر (عربيا ومولدا) والكاتب والطبيب والمنطقي والموسيقي والميقاتي، ويقول على لسان النحوى، مثلا، في التعبير عن نقص الغذاء، وارتفاع الأسعار حال الشدة الناتجة عن جفاف النيل «السعر ممدود والمال مقصور، وانا وكتبي للبيع جار ومجرور، قد كسر باب الإنافة، ورفع باب الإضافة - تعبيرا عن توقف الرخاء، وقلة الضيافة -، لقد لقينا أمر إمرا وضرب زيدا عمرا ! فيعبر تعبيرا مرحا، رغم الأزمة، ويحقق دلالة التورية على أصالة الشخصية المصرية المولعة بالتورية بالألفاظ .وتتناقض هذه الصورة مع صورة وفاء النيل، وعموم الخير كما رسمها على لسان هذا النحوى أيضا، وقد «ضم» إليه كتبه وقال : «قد زال الغم والهم

وصار البر - القمح - الكر قفيز بدرهم، وسنل الشعيرا تريد أم برا؟ فقال كليهما وتمرا !»

وقد عبر السيوطي بمثل هذا على لسان العلماء العشرين بصور تعبيرية مرحة، في موازنة بين الجد والهزل مما تتصف به الشخصية المصرية تصبر وتتجمل وتعبر من روح الأمل والتفاؤل رغم الشدة والضيق .

وتتضح هذه الرؤية كذلك في المقامة الطاعونية التي تصور الطاعون الذي اجتاح مصر سنة ٨٩٧هـ، وأفنى نصف سكان القاهرة فوصفه على لسان العلماء بأسلوب تورية مزج بين الإحساس بالمأساة الإنسانية التي سببها الطاعون وبين الفرح بعد زواله مما عكس بعض جوانب الحياة المصرية في عصره .

تجسيد روح العلم

وكتاب (منهل اللطايف في الكنافة والقطايف) وقد حققه محمود نصار مجلى آخر من مجالي شخصية السيوطي الذي يجسد روح العالم حتى في تناوله للكنافة والقطايف، وهما من أحب أنواع الحلوى للمصريين في شهر رمضان المبارك مما يتبين معه امتزاج روح العلم بروح الأمالي الحلوة الفكهة. وقد ذكر محقق هذا الكتاب أن هذا الموضوع فريد في مجال الأدب، وقد قدم له السيوطي بمعنى المادة اللغوية للقطايف في صحاح الجوهري والقاموس المحيط للفيروز أبادي فهي في الصحاح «القطيفة دثار مخمل، والجمع قطايف وقطف ومنه القطيفة التي تؤكل» وهي في القاموس «القطيفة دثار مخمل والجمع قطائف». ويبين السيوطي خصوصية القطايف المصرية بقوله: «والقطائف المأكولة لا تعرفها العرب». وأما الكنافة فلم يذكرها - على حد قول السيوطي «أحد من أئمة اللغة، ولا في الألفاظ اللغوية ما يصلح أن يكون مادة لها. والذي يظهر لي أنها لفظ أعجمي أو يوناني، فإن الأطباء أكثر ما يستعملون الألفاظ اليونانية والأعجمية». ويروي السيوطي قصة ابتداء الكنافة، ويردها إلى معاوية بن أبي سفيان الذي كان يجوع في رمضان جوعا شديدا فشكا ذلك إلى محمد بن أثال الطبيب فاتخذ له الكنافة فكان يأكلها في السحر - أي في السحور قبل الفجر - فهو أول من اتخذها. ويخصص السيوطي القسم الأول من الكتاب لما قاله الشعراء في الكنافة مبتدئا

يقول الشاعر المصري أبي الحسين الجزار فيها :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وجاد عليها سكرا دائم الدر
وتبا لأوقات المخلل إنها
تمر بلا نفع وتحسب من عمري
أهيم غراما كلما ذكر الحمى
وليس الحمى إلا القطارة بالسعر
وأشتاق إن هبت رياح قطائف
السحور سحيرا وهي عاطرة النشر

ويقول فيها جمال الدين ابن نباتة أمير شعراء المشرق في العصر المملوكي:

ذكرتك والأسماء تذكر بالكنى
فلله يا أسما الكنافة والذكر
ولم أنس ليلات الكنافة قطرها
هو الحلو إلا أنه السحب الغر
تجود على ضعفي فأهتز فرحة
كما انتفض العصفور بلله القطر

وفي البيت الأخير تضمين جميل للبيت الشعري المشهور

وإني لتعروني لذكراك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر

وتتجلى التورية بالقطر يعني ظاهرا المطر، ويريد به الشاعر السكر المذاب في الكنافة.

أما القسم الثاني من كتاب «منهل اللطايف في الكنافة والقطايف» فيذكر فيه السيوطي ما قاله الشعراء في القطائف مثل قول الشاعر :

لله در قطائف محشوة
من فستق دعت النواظر واليدا
شبهتها لما بدت في صحنها
بحقاق عاج قد حشين زبرجدا

ومن الشعر الذي جمع بين الكنافة والقطائف قول الشاعر :

وقطائف مقرونة بكنافة
من فوقهن السكر المذور
هاتيك تطربني بنظم رائق
ويروقني من هذه المنثور

ويقول ابن عربي الصوفي الأندلسي الشهير:

غدت الكنافة بالقطائف تسخر
وتقول : إني بالفضيلة أجدر
طويت محاسنها لنشر محاسني
كم بين من يطوى وآخر ينشر
لحلاوتي تبدو وتلك خفية
وكذا الحلاوة في البوادي أشهر

فالكنافة تفضل نفسها على القطائف لأن حلاوتها منشورة ظاهرة أما حلاوة القطائف فخفية غير ظاهرة، والحلاوة البادية أفضل من الخفية !

ويورد السيوطي لغزين كتبهما الأديب

برهان الدين القيراطي إلى الشيخ تاج الدين السبكي، أحدهما في الكنافة، والآخر في القطائف، في قصيدة طويلة تزيد أبياتها على أربعين بيتا يقول فيها عن الكنافة والقطائف ملغزا.

اسمان كل خماسي قد اكتتبت
حروفه وهما لاشك خدنان

فحروف كل من الكنافة والقطائف خمسة، وهما خدنان أي حبيبان وصاحبان ويشير الشاعر إلى الكنافة ملغزا بقوله :

ثبت أرى النار قد أبدت لنا ورقا
فأعجب له ورقا ينمو لنيران
فقدها خيط فجر أبيضا عجل
بالبرق يسطو عليها سطوة الجاني

فيجعل الكنافة سلوكا من ورق - فضة - تنضجها النيران فيعجبه ذلك، ويجعل قدها خيط فجر يعجله البرق. أما القطائف فيلغزها قائلا :

بالطي والنشر في حال قد اتضحت
والطي والنشر فيما قيل ضدان
كم سكرت ففتحنا للدخول لها أبوابها
فتلقتنا بإحسان

ويتلاعب الشاعر بالنشر والطي ضدين تتضح بهما حلاوة القطائف في إشارة إلى طريقة صنعهما، وبالتورية عنها بباب بلاغي بديعي هو اللف والنشر، أو التلفيف وهو كما ذكر ابن أبي الإصبع المصري في كتاب (تحريرالتحبير) أن «يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سئل عنه فيلف معه معنى آخر يلازم كلمة المعنى الذي سئل عنه». ويصور الشاعر القطائف أبوابا مغلقة تتلقى فاتحيها بإحسان. وقد أجاب القاضي تاج الدين السبكي على هذا اللغز بستة عشر بيتا بدأها بقوله حلا له، مخاطبا برهان الدين القيراطي :

لك الحلاوة في قلبي بإيمان
وفي لساني بإفصاح وتبيان
وفي الصحون إذا مدت قطائفها
مع الكنافة من صين لأسوان

ويورد السيوطي أبياتا لظافر الحداد شاعر الإسكندرية في العصر الفاطمي من قوله في القطائف :

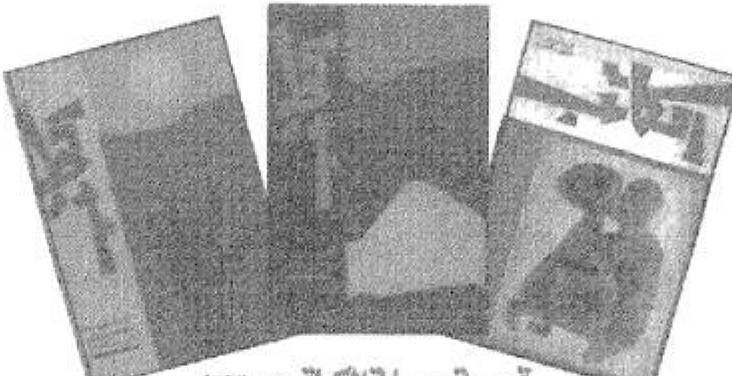
قطائف لواطف روابي
لم تحش بل رصت على اصطحاب
في المسك والفستق والجلاب
كأنها ألسنة الأحباب
في الشكل والنكهة والرضاب
ملمسها كوجنة الكعاب
فطعمها كلذة العتاب
من بعد صد طال واجتناب

تنزل في الحلق بلا حجاب
وهي طعام وهي كالشراب
كأنها زيارة الأحباب
والعمر في الصحة والشباب

أما القسم الثالث من كتاب (منهل اللطايف في الكنافة والقطايف) فيقدم فيه السيوطي ألغازا في القطائف والكنافة كهذا اللغز الذي تلقاه الصلاح الصفدي في القطائف يقول صاحبه : «ما اسم يعتني الصائمون غالبا بتحصيله، وتتنافس الأكابر في جملته وتفصيله، خماسي الحروف في الترصيف والترتيب، مسطح الشكالة في البساطة عند التركيب، وإن حذف خمساه رأيته طائرا وسيما طالما قص الأثر فاهتدى به «وفي هذا إشارة إلى القائف الذي يقتفي الأثر».

ويشير اللغز أيضا إلى حذف الحرف الأول من كلمة قطائف مورياً بقوله تعالى «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم» (القلم، ١٩ ، ٢٠) ويرد الصفدي مجيبا على هذا اللغز، واصفا القطائف وصفا بديعا بقوله «قد راقت للعيون ملاحته، وحشيت بالقلوب حلاوته، مختص بشهر رمضان، لأن في قلبه حلاوة كحلاوة الإيمان».

ويورد السيوطي ألغازا أخرى في القطائف يختمها بلغز من إنشائه، كما يورد، أيضا، لغزا من إنشائه في الكنافة يقول منه « ما اسم خماسي الحروف، ليس بمألوف في اللغة العربية ولا معروف .. وإن طرحت أوله وصحفت ثانيه كان حقيراً، أو رابعه صار بعيرا ... هو في المائدة آية، وفي الأنفال غاية، يشابه بيت العنكبوت، وله في النحل رغبوت». ويشير السيوطي إلى أن حذف أول حرف من كنافة وتصحيف الحرف الثاني بجعله تاء بدلا من النون يعني تافه، وتصحيف الرابع وجعله قافا بدلا من الفاء يعني ناقة ويشير إلى بعض سور القرآن كالمائدة والأنفال والنحل والعنكبوت ليصف الكنافة أجمل وصف. وقد اختلف في صحة نسبة كتاب (منهل اللطايف في الكنافة والقطايف) إلى السيوطي، ولكني أرجح أن يكون صحيح النسبة إليه، لأن أسلوبه ومنهجه هو أسلوب ومنهج السيوطي في التأليف، وهذا يسلمنا إلى أمر آخر متعلق بتصنيف هذا الكتاب، من حيث النوع الأدبي، والحق أنه يمكن أن يندرج تحت نوع الكتاب، كما يمكن إدراجه تحت نوع الرسالة، وكذلك المقامة، وقد كانت هذه الأنواع الأدبية متداخلة في التراث العربي. ■



السباحة فى بحر من العصور الوسطى

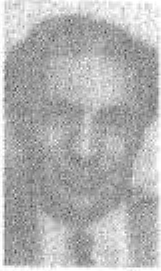
بقلم
أحمد عباس صالح

منذ أيام قليلة شاهدت المفكر والمستشرق الفرنسى ماكسيم رودونسون فى مقابلة تليفزيونية يقول أن مشكلة العالم العربى أنه مازال يعيش بفكر القرون الوسطى، وعلى الرغم مما فى هذه العبارة من تعميم وربما شىء من التسرع إلا أنها تستحق التأمل.

فالواقع أن ماكسيم رودونسون ليس معاديا للعرب، وهو من اليهود القلائل الذين لم يشدهم انتماؤهم الدينى أو العرقى إلى القبول بالأفكار الشائعة فى إسرائيل. وفى هذا اللقاء بالذات نصح اليهود بأن يهجروا الدولة الإسرائيلية متنبئا بأن مصير هذه الدولة إلى زوال بسبب قيامها غصبا وفى محيط عربى بالغ الاتساع.

الهلال
محرم ١٤٢٤هـ - أبريل ٢٠٠٣م

وفكرة أننا نعيش بعقليات العصور الوسطى تحتاج إلى تفسير ولعله يقصد أن مجتمعاتنا لم تعرف الحداثة بمعناها الجارى، بل لعله يتجاوز هذا إلى مابعد الحداثة فهو ينظر إلى قيام الدولة الإسرائيلية من زاويتها القومية التى يرفضها أصلا ويرجعها إلى ظروف وملابسات النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولعل خلفيات هذا الرفض ترجع إلى تخليص الانتماءات المعاصرة من القومية ومن الطائفية الدينية على حد سواء، وهو مع كونه فرنسيا من حيث المولد والجنسية واللغة يفكر فى المصير البشرى أكثر مما يفكر من زاوية كونه فرنسيا أو يهوديا، وهو كدارس للحضارات وبصفة خاصة الحضارة الإسلامية وما تتطلبه الدراسة من التدريب على الموضوعية والحياد وبالتالى الانسلاخ من كل الانتماءات المفسدة للرؤية الصائبة صار فى استطاعته النظر إلى العالم بحرية وحياد، وسواء تم تحرره العقلى بسبب



ماكسيم رودينسون



أحمد عباس صالح

اجتهاده الشخصي أو التحولات التي حدثت في العالم الأوربي المتقدم على المستوى الاجتماعي والثقافي، فإنه صار يشعر ببعده عن العوالم أو المجتمعات التي تهيمن عليها الثقافة القومية أو الدينية أو الاقليمية، وبالتالي فعلى الرغم من قسوة ملاحظته فإنه ينبغي النظر إليها باحترام ومراجعتها بدقة.

أسباب التعثر

وتجربة «الكاتب» تثير هذه القضية بقوة، فهل كنا نسبح في بحر من أفكار العصور الوسطى؟ أي ما قبل تحرير العقل من المرجعيات المسبقة مهما يضفي عليها الاتباع من قداسة؟ وهل كنا نتأرجح في مجتمع ما قبل صناعي ينتمي تقسيم العمل فيه إلي ماقبل الثورة الصناعية؟ لقد سقط النظام الإقطاعي في أوروبا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر أما نحن فقد كان على ثورة ٢٣ يوليو أن تسقط الإقطاع في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، وكان عليها أن تنتظر طويلا لتؤتي البنى التحتية الجديدة ثمارها الثقافية أو الفكرية، وحتى مع وجود الثورة كانت عمليات التنمية الاقتصادية أو قل التصنيع كما كانت العبارة السائدة، تتعثر ذات اليمين وذات الشمال وتتجاذبها نظريات وأفكار متعددة كلها أو أغلبها على الأقل مستمدة من خبرات الدول الصناعية الكبرى ويغلب عليها الطابع الأكاديمي غير العملي أو التجريبي، وإلى اليوم لانعلم على وجه الدقة أسباب فشل التجربة، هل هو الاقتصاد الموجه الذى كان يفتقر إلى الحافز الفردي أو قل حافز الربح؟ هل هو الافتقار إلى الكوادر سواء على المستوى التكنوقراطي أو البيروقراطي؟ أم هو في النهاية بسبب سيادة فكر القرون الوسطى وسيطرته على غالبية المجتمع ابتداء من العمالة البسيطة إلى القيادات العليا؟.

عندما بدأت الكاتب في الصدور من أول يناير سنة ١٩٦٤ لم نكن نفكر بهذه الطريقة، لم نكن نعتقد أن الجزء الأكبر من المجتمع يفكر بعقلية القرون الوسطى، كان الفكر العقلاني موجودا بصورة أو بأخرى، وكانت حركة الاستنارة تمضي على قدم وساق وشارك فيها عدد من الكتاب البارزين ذوي التأثير القوى بدءا من الشيخ محمد عبده حتى طه حسين وتوفيق الحكيم، حقا كانت مهمة الأستاذ الإمام هي الكشف عن الجوانب العقلية في الفكر الإسلامي، وربما يمكن اعتباره مفكرا كبيرا في سلسلة «التوفيقيين» التي عرفها تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ ابن رشد والتي كانت تسعى بشكل دائم إلى التوفيق بين اجتهادات العقل والنص الشرعي، ولعله كان أكثر صراحة من ابن رشد فهو لم يخض معركة التأويل كما فعل الفيلسوف العظيم إذ كان حاسما في حكمه عند اصطدام النص الشرعي بالعقل أن ينفذ الاجتهاد العقلي، وعلى الأرجح كان محمد عبده يجتهد وأمامه منجزات عصر النهضة في أوروبا من العقلانية إلى التنوير وربما كان مطلعا بشكل جيد على الفلسفة الأوربية السائدة في زمنه ابتداءا من هيجل إلى كارل ماركس، وهو على أية حال تراسل مع ليو تولستوى الروائي الروسي العظيم وكان منغمسا في المشكلات الفكرية العالمية إلى جانب اهتماماته المحلية الاقليمية والقومية، وقد أدهشنا الأستاذ الإمام برأى له نشر ضمن مجموعة من المقالات اعتبرتها دارالهلال مذكراته أو سيرته الذاتية ونشرتها في بداية الستينات هاجم فيها

تجربة محمد علي واعتبرها ردة ضد حركة التطور المصرية والتي كانت توشك، منذ أواخر القرن الثامن عشر، أن تتحول من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي أو البورجوازي على نفس النمط الذي تحولت أو تطورت به الدول الأوروبية في زمن قريب من الزمن المصري، واعتبر هيمنة محمد علي على الاقتصاد المصري في الزراعة والصناعة نوعا من المصادرة على حركة التطور الطبيعية التي كان يتجه إليها النظام الاجتماعي المصري، وهي مقولة مدهشة وتأتي على العكس من غالبية الآراء السائدة حول تجربة القائد الألباني، والغريب أن باحثا أمريكيا هو بيتر جران وصل إلى نفس النتيجة من خلال دراسته للحركة الفكرية المصرية في مصر قبيل الحملة الفرنسية على مصر في كتابه «الجذور الإسلامية للرأسمالية» واعتمد في دراسته على الكتب والمخطوطات والوثائق المتداولة في فترة بحثه، ولم يكن بيتر جران يعلم شيئا عن رأي محمد عبده في الموضوع لأنني الذي نبهه إليه بعد نشر كتابه، والحق أن قصة التطور في مصر لا يمكن إدراكها والحكم عليها دون مراجعة تفصيلية للانتكاسات التي أصابتها فأغلب العوامل المضادة لحركة التطور جاءت من القوى الخارجية ومحاولات قمعها للنهوض المصري، وأعرف أن هذا رأي قد لايوافق عليه كثير من الدارسين، ولكن قراءة متأنية أو مستريبة ربما تكشف أن المجتمعات قد تمضي في التطور الاجتماعي وفقا لظروفها الذاتية ولكنها لاتلبث أن تتعثر بفعل التدخل الخارجي خاصة عند تفشي الظاهرة الاستعمارية وجنوحها المدمر نحو الهيمنة السياسية والاقتصادية بطبيعة الحال، حقا إن الانكسار أمام القوى الاستعمارية هو انكسار للقوى الذاتية أو أن هذه القوى لم تكن من النضج والتطور المناسب لتتوقى الهجمة الاستعمارية، وبالتالي يصح تفسير التخلف الآتي بعد ذلك على أنه كامن في القوى الذاتية للمجتمع.

تحطيم مراكز التعليم

لم تكن مجموعة «الكاتب» تنطلق نحو التنوير أو قل الفكر الحداثي من فراغ، حقا كان التخريب الاستعماري للاقتصاد المصري وما تبعه من تأثير على الأفكار والثقافات قد أصاب المجتمع بالجمود في الكثير من جوانب الحياة الفكرية والاقتصادية، كانت سياسة التعليم تهدف إلى انتاج ثقافة كتبة وموظفين إداريين تتحدد أعمالهم في الاجراءات الإدارية اليومية، وبالفعل تم تحطيم مراكز التعليم العليا مابعد الدراسات الأولية أو الثانوية، وانحصر التعليم في أضيق الحدود وكانت معركة التعليم هي التي خاضها سعد زغلول في بداية حياته السياسية ولعلها التي كونت وعيه السياسي الذي قاد به بعد ذلك معركة الاستقلال التي عرفت بثورة ١٩١٩، على أن التجربة المصرية تثير تساؤلات عديدة، فغالبا ما كانت البنية التحتية تضرب وهو ماحدث بانقلاب محمد على الذي ألغى التحولات إلى المجتمع الرأسمالي بهيمنته الكاملة على الاقتصاد المصري، وهو أسلوب كان غريبا على زمنه ولعلي لهذا أصدق زعما يقول أن محمد علي كان تلميذا نجيبا لجماعة السان سيمونيين الذين كانوا يؤمنون بضرورة هيمنة العلماء على النشاط الاجتماعي وممارسة نشاط جماعي منظم أشبه بالنظام الشمولي قبل ظهوره فكرا وعملا، وكان الذين قاموا بالنهضة الصناعية هم من أعضاء هذه الجماعة الناشطين من الفرنسيين، وكان محمد علي لايثق كثيرا في المصريين وقدراتهم على القيام بنهضة شاملة تساعده على الحلول محل الامبراطورية العثمانية المتآكلة، وكان اعتماده أساسا على الفرنسيين كقيادة عليا ثم على الأتراك والألبان والشركس والأرمن وقصته مع الجنرال سيف الذي كلفه بتكوين جيش كبير معروفة، فلم يفكر على الإطلاق في المصريين وكان الجنرال سيف هو الذي اقترح عليه أن يجند المصريين وأن يدربهم ويجعلهم جوهر

الجيش المأمول، وهذا الجنرال الفرنسي هو الذى عرف بعد ذلك بسليمان باشا الفرنساوى وهو الجد المباشر للملكة نازلى زوجة أول ملك لمصر نصبه الاستعمار البريطانى وهو الملك فؤاد وأم الملك الثانى فاروق.

وهذه الفترة فى حاجة إلى مراجعة جيدة وقراءة جديدة لكل الانجازات التى تمت فى عهد محمد على وفى مقدمتها البعثات التى أرسلت إلى فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية والمراجعة السريعة والتى تحتاج إلي تأكيد علمي أن عدد المصريين فى هذه البعثات كان قليلا جدا دعك من رفاعة الطهطاوى وعلي مبارك بعد ذلك فالقوائم المتاحة كانت الأسماء المصرية فيها نادرة جدا، ومحمد على على أية حال لم يستفد جيدا من القيادات المصرية التى كانت موجودة قبل تسلمه السلطة ومن أشهرهم الشيخ عبدالرحمن الجبرتى والسيد عمر مكرم، وللجبرتى معه قصة مؤلمة تشير إلى أن محمد على قتل ابن الشيخ الجبرتى ليحرق قلبه وهى قصة أوردها باحث معاصر هو محمود الشرقاوى فى دراسته عن الشيخ وإن كان قد شكك فيها، دعك من المشايخ المستنيرين الكبار مثل الشيخ الزبيدى وتلاميذه ومنهم الجبرتى بصفة خاصة، أما قصة عمر مكرم فمعروفة، وإذا تفحصنا قراءة بيتر جران لثقافة المرحلة واتجاه دراسة الحديث وجهة عصرية معبرة عن المفاهيم التى شجع عليها التحول إلى نظام رأسمالى جديد، لوجدنا أنه لم ينضم إلى محمد على إلا الشيخ حسن العطار الذى كان أكثر تفاؤلا بمشروع محمد على فى تحديث مصر.

ثورة القطن

مهما يكن الأمر فإن هذه النهضة العريضة التى تمت فى عهد محمد على سرعان ما انتهت تماما بعد هزيمته حيث ضربت صناعة القطن والتى كانت فى هذا الزمن أهم اكتشاف وأروج تجارة تنافست فيها مصر مع انجلترا وأمريكا واليابان ويرى مؤرخ فرنسي عظيم هو برودل أن ثورة القطن هى التى صنعت الانقلاب الصناعى ثم بريطانيا العظمى، وقل الشيء نفسه عن الصناعات الأخرى كالسفن والسلاح وغير ذلك من الصناعات التى استحدثها نظام محمد على من أجل بناء جيش قوى فى الأساس، كل هذا اندثر بمنتهى البساطة، وانكمشت مصر على ذاتها سريعا ورجعت إلى العصور الوسطى فى عهد عباس الأول، فأين ذهبت ثقافة التحول الصناعي وكيف تندثر بمجرد تغيير فى البنية التحتية؟ أنها أسئلة جديرة بالتأمل وهو ما كنا نفكر فيه بالفعل أثناء صدور الكاتب والتفكير فى موضوعات البحث الواجب تناولها، حقا إن فكرة التحديث لم تختف تماما من ثقافة المجتمع المصري ولكنها كانت أشبه بقشرة سطحية، ربما لأن أغلب عمليات التحديث قام بها أجانب لصلحة سلطة قائمة سواء كانت هذه السلطة محلية مثل سلطة محمد على وأبنائه أو أجنبية مثل سلطة الاحتلال البريطانى وحلفائه وبمجرد أن تنفض رغبة السلطان فى المشروع الحداثى وتنسحب قواها المساعدة من الأجانب تعود الحالة إلى ما كانت عليه حيث تكمن جذور ثقافة العصور الوسطى المتغلغلة فى التركيب الطبقى والاجتماعى وتبقى الأفكار الحداثية مع حامليها من الوارثين المصريين لكن بلا سند من قوى اجتماعية ترتبط بها وتسعى إلى التغيير بواسطتها.

وكثيرا ما كنا نظن أن جذورنا فى الأرض الثقافية ليست ثابتة تماما وكانت بالتالى ثقافة الحداثة بأبعادها المختلفة تحتاج إلى وقت طويل حتى بعد التغيير فى البنى التحتية الذى كان فى أحسن حالاته فى ظل وجود نظام أبوى يتصدره الرئيس جمال عبدالناصر مما يتناقض مع جوهر فكرة الحداثة ذاتها، ولذلك لم ترحب قوى اجتماعية كثيرة فى المجتمع المصرى بفكر «الكاتب الحداثى»، وهى فى مجملها قوى

محافظة تستمد شرعيتها أو قل تأثيراتها الثقافية والاجتماعية من مرجعيات تعود إلى ثقافة تمت إلى العصور الوسطى فى أغلب تصوراتها أو مفاهيمها، وهكذا كنا نجد مقاومات فى الإدارات الثقافية المختلفة التى كانت جذورها اليمينية المحافظة متغلغلة فيها، ولم يكن طردنا من مؤسسة التحرير أو قل خروجنا منها آخر عمليات الأبعاد التى عانيناها من المؤسسات الثقافية التابعة للدولة على الرغم من موافقة القيادة العليا لاتجاهات الكاتب الحداثية، على أنه ورغم كل هذه المشكلات كانت «الكاتب» تشق طريقها بين التيارات المختلفة فى هذا البحر العميق من أفكار القرون الوسطى، فعندما تولى الرئيس أنور السادات وقرر الانقلاب على مشروع عبدالناصر الاشتراكى وأبعاده الحداثية إلى حد ما، كان من الطبيعى أن تغتال القوى المحافظة التى استند إليها السادات أو تحالف معها قوى التحديث ومرجعيتها الحداثية.

لم يكن انقلاب السادات سريعا إذ كان عليه أن يخوض حرب سنة ١٩٧٣ قبل أن يقلب الأوراق جميعا بعد ذلك، ولاشك فى أن انتصارات حرب أكتوبر وفرت للسادات أرضية شعبية لتصفية المجتمع المصرى من الأفكار الحداثية سواء كانت تتحرك بمرجعية اشتراكية أو ليبرالية، وبالفعل بدأنا نصطدم مع وزير الثقافة الجديد يوسف السباعى، فى البداية طلب منى تعيين أحد أتباعه مديرا للتحرير ولكنى رفضت بطبيعة الحال لأننا لم نكن بحاجة إلى ملء مثل هذه الوظيفة، ثم جاءنا عمال المطبعة للوزارة والذين كانوا متعاطفين معنا تماما بخطاب موجه إلى مدير المطبعة من وزير الثقافة يطلب منه عدم طبع أى مقالة تخص مجلة الكاتب إلا بعد أن يراها هذا الشخص ويوافق على نشرها، وهو اجراء لم يفاتحنى فيه الوزير واجتمع مجلس التحرير ثم قرر ندب ثلاثة أو أربعة منا هم على ما أذكر كمال رفعت ومحمد أنيس وعبدالعزيز الأهوانى وكاتب هذه السطور، وكان من الواضح أن هناك قرارا أكيدا بالرقابة على الكاتب مهما يكن موقف مجلس تحريرها، وبالفعل انتهت المقابلة العاصفة بتقديم استقالة جماعية.

التنقل بين الثقافات

على أننى كلما تأملت فترة نشر الكاتب الطويلة والتى امتدت إلى حوالى اثنتى عشر سنة نجد أن المجتمع المصرى كان محتفلا بها، فهل كنا نتحرك فى دائرة المثقفين أكثر من أى دائرة أخرى فى المجتمع؟ حقا عرفت مصر بصورة ملفتة للنظر نقلات نوعية من ثقافة إلى ثقافة أو قل انقطاعا لتيار ثقافى ما انقطاعا تاما أحيانا، ولكنى أعتقد أن هناك خيطا مستمرا دائما ينتقل من جيل إلى جيل داخل الحركة الثقافية وبالتالى فإن حركة التحديث لم تتوقف أو تنطفىء طوال المائتى سنة الماضية على الأقل، ولقد جرت مياه كثيرة تحت الجسور كما يقال منذ رفاعة الطهطاوى حتى اليوم إلا أن التواصل بين أفكار هذه الطلائع المفكرة لم يكد ينقطع على الرغم من الاضطرابات المختلفة التى مست البنى التحتية وقلبت النظم الاجتماعية رأسا على عقب، لقد انقطع الفكر التحديثى الذى ازدهر فى الفترة قبيل الحملة الفرنسية ثم محمد على، ثم انقطع فكر الثورة العرابية الذى كان حداثيا تماما، ومن عجائب المكتشفات مقالة ترجمها الشاعر محمود سامى البارودى الذى رأس الوزارة فى عهد الثورة العرابية تشرح أحدث مناهج نظريات المعرفة الحديثة ونشر هذه الوثيقة المخطوطة محمود الشنيطى الذى رأس الهيئة المصرية للكتاب والذى كان احد ثالوث من المفكرين المصريين ذوى النزعة اليسارية أو قل الحداثية هم شكرى عياد ومحمود عبد المنعم مراد، وهو نفسه الذى نشر أيضا كتاب «الكلمات الثمان» للشيخ حسين المرصفى والتى كانت تشرح كلمات حديثة دخلت القاموس الثقافى مثل



محمد عبده



رفاعة الطهطاوى

الحرية والديموقراطية والمساواة، ولم تكن الثورة العرابية ذاتها بعيدة عن ميراث الفكر الليبرالى الذى انتشر فى فترة حكم الخديوى اسماعيل واصطدامه مع الوزيرين الفرنسى والإنجليزى اللذين فرضا على السلطة المصرية بحجة الاشراف على موارد مصر لتسديد الديون التى استدانها الخديوى المذكور، وهى فترة عرفت التمثيل النيابى ودستورا ديموقراطيا بالغ التقدم فى زمانه، وأدت فى النهاية الى اشتعال الثورة . ولقد اخمدت الثورة وانتكس الفكر الحداثى او قل حركة التحديث ذاتها فى الواقع الاجتماعى المصرى، وكانت هزيمة الثورة وفكرها انقطاعا ثانيا او ثالثا فى تيار التحولات الحداثية، على أنه لم يمض الثلاثون عاما او اكثر قليلا وقامت ثورة اجتماعية اخرى هى ثورة الاستقلال سنة ١٩١٩ والتى كانت تقوم بشكل صريح على فكر تحريرى ليبرالى يمتد الى المفاهيم العلمانية ويتسع لتسامح دينى لم تكد تعرفه مصر من قبل وربما من بعد أيضا وبعد اكثر قليلا من ثلاثين عاما أخرى قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ التى خاضت جولات من التجربة والخطأ خلال عقد واحد او اكثر قليلا حتى وضعت أقدامها على أول أبواب الفكر الحداثى. ولكن بعد عقد آخر أمكن الانقلاب على هذا الفكر وذهبت الى ابعد مدى فى الفكر الدينى السياسى الذى انتج بعد ذلك أجنحة متعددة للفكر المتطرف والذى رد مصر بالفعل الى العصور الوسطى.

بين التخلف والتقدم

ربما كان الفكر المصرى العربى أسبق من التحولات الاجتماعية ونظم الانتاج، او ربما كان النهوض الاجتماعى والتدهور موجات متلاحقة بشكل ملفت للنظر اكثر من اى بلد آخر وبالتالى كانت تأرجحات الفكر بين التخلف والتقدم ظاهرة غريبة فى هذا المجتمع. ولكن «الكاتب» لم تكن وحيدة على اية حال فى المجتمع وكانت ـ حتى دون أن تعى ذلك ـ استمرارا لتلك الحركة النشيطة المتطلعة الى الحرية والفكر التنويرى منذ القرن الثامن عشر حتى الزمن الحاضر . وربما كان هذا هو السبب وراء تعلق المثقفين المصريين بها . لكن الشىء الذى ينبغى أن يدرس بشكل تفصيلى هو تعلق المثقفين العرب ـ بشكل عام ـ بالمجلة اذ كنا نوزع فى بلد مثل العراق وحدها فى أواخر الستينيات أكثر من عشرة آلاف نسخة . وكان لإستقالة مسئولى المجلة دوى فى العالم العربى وكان أشبه بضربة انتكاسية لمد ثورى وحداثى شمل المنطقة العربية بأسرها . وكان من بين العلامات البالغة الدلالة على انتهاء زمن بأسره وبداية زمن جديد زحفت فيه أفكار العصور الوسطى على الوطن العربى كله .

بالفعل صفيت كل المجلات الثقافية الاخرى مثل مجلة المجلة ومجلة الفكر المعاصر ومجلة الطليعة . وشهدت مصر بالفعل وليس مجازا انقلابا ثقافيا هو الذى انجب بعد ذلك فكر التعصب المنغلق وفكر الكراهية والارهاب

ربما كان من الأفضل أن أروى قصة الكاتب بشئ من التفاصيل، وخاصة الانجازات او قل الفتوحات الفكرية التى قام بها كتابها فى مجالات الثقافة المختلفة ، لكنى فى الحقيقة كنت فى حاجة ـ مثلى مثل القراء ـ أن أحاول فهم ما حدث فى إجماله اكثر من تفاصيله. وهو امر لم يزل مفتوحا على أية حال . ■

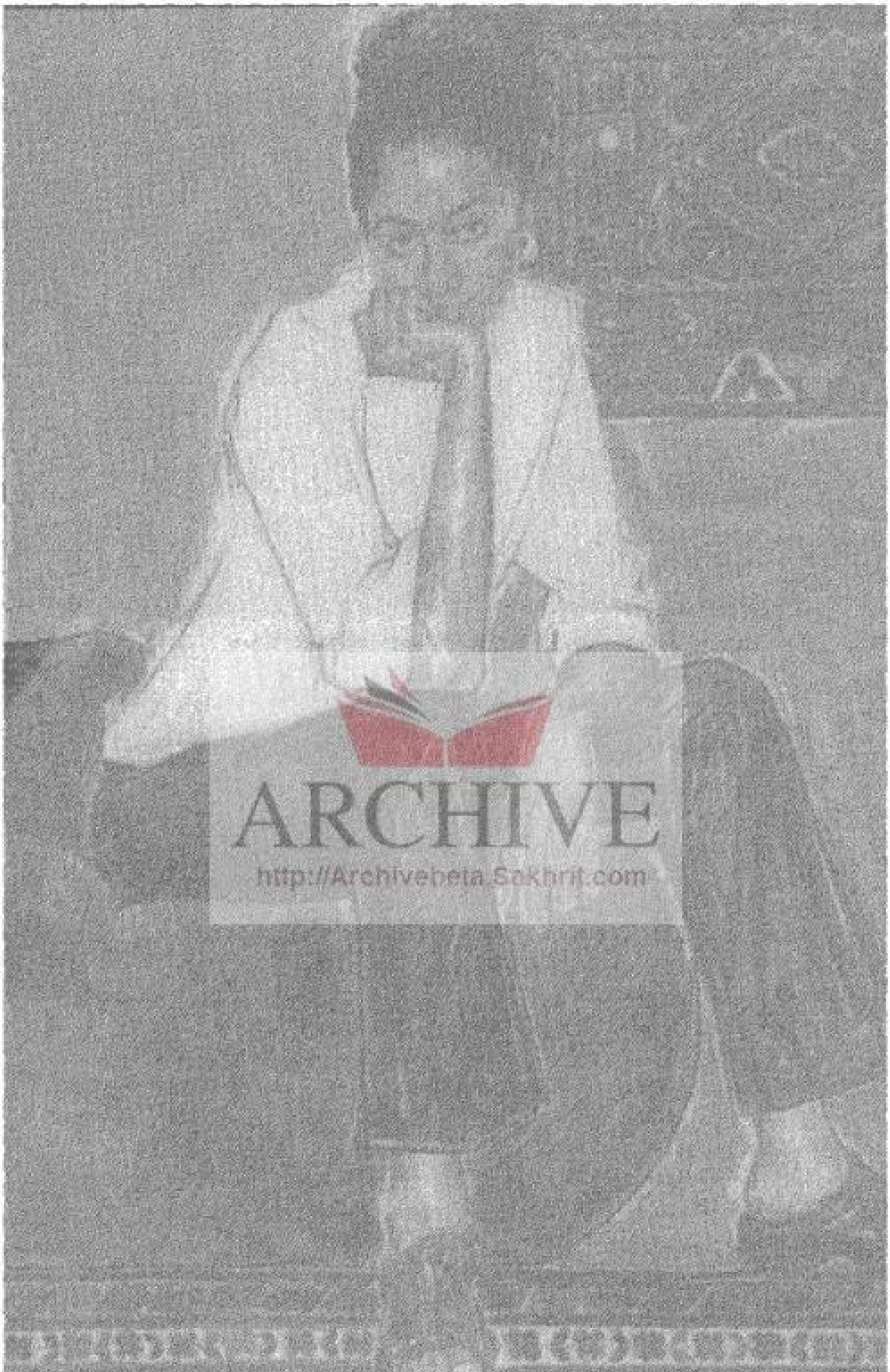


الفنانه مى رفقى
وتحديات الجيل الجديد

بقلم
صبرى منصور

على الرغم من انصراف الجمهور، وعزوف النخبة المثقفة عن متابعة نشاط الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة، والذى كان يمكن أن يؤدى إلى تقلص الإبداع التشكيلى وانحسار موجته، بل وجفاف منابعه، إلا أن إصرار الأجيال الجديدة على متابعة إنتاجهم، وإقامة معارضهم، وتقديم رؤاهم، إنما يعكس رغبة المصريين فى مواصلة ارتياد هذا النوع من الإبداع الإنسانى، استكمالاً لمسيرة فنية صاحبت صحوة مصر الثقافية والحضارية منذ حوالى مائة عام. فمازال الفن التشكيلى يجتذب إلى عالمه المواهب والطاقات، وتمثل فترة التسعينات فترة الازدياد الوافر فى عدد الممارسين لأنواع الفنون وفروعها المتعددة، ودخلت إلى حلبة الخلق الفنى مواهب جديدة واعدة - بما قدمته فى خطواتها الأولى - بإثراء الفن المصرى واستمرارية عطائه.

من أعمال الفنانة مى رفقى





التلقائية وبساطة الأسلوب فى عالم مى رفقى

عالم مىّ رفقى

ومن بين المواهب الجديدة المتميزة المصورة مى رفقى، التى درست فن التصوير فى الفنون الجميلة وتخرجت منها عام ١٩٩٨، ولقد فضلت التفرغ للعمل الفنى على وظيفة المعيدة، وبدأت تشارك بهمة ونشاط فى العديد من المعارض، حيث لفتت موهبتها الانتباه كوجه جديد يقتحم عالم الإبداع بقوة وجرأة، وهى على عكس العديد من جيلها اختارت أن تقدم أسلوبها الفنى المختلف عن التيار السائد حالياً، والذى يضع النماذج الغربية فى فنون الحداثة وما بعد الحداثة هدفاً يرمى إلى تحقيق ما يماثلها، على اعتقاد بأن فى ذلك مواكبة لروح العصر.

ولقد استفادت مىّ من الأساس الأكاديمى الذى كونته خلال دراستها بالفنون الجميلة، فهى حاذقة فى الرسم، وتمتلك ناصية الخطوط التى تطوعها فى سلاسة ويسر، كما أن مقدرتها واضحة فى التلوين بدرجات قوية من خلال مجموعة لونية ساخنة، وكل ذلك فى صياغة تشكيلية اتسمت بجرأة المعالجة التشكيلية، حين برعت فى إجراء حوار ذكى بين المساحات المسطحة والأشكال المجسمة، وكذلك بين المناطق الخالية وبين المناطق الموشاة بزخارف متنوعة تجيد اختيار وحداتها بما يثرى العمل ويضفى عليه مسحة غنائية رقيقة.

والفنانة بهذا المزيج الفنى الذى تكمن قوته فى صدقه وبساطته وعدم افتعاله تؤكد أنها قد اختارت الطريق السليم نحو التعبير الفنى، وأن خطواتها الأولى فيه خطوات واثقة ومنطقية، وقد انتقلت بها من مرحلة دراسية كان





برعت الفنانة فى إجراء حوار بين المناطق الخالية وبين المناطق الموشاة بزخارف لإثراء العمل

هدفها الإلمام بقواعد فن التصوير وأصوله ، إلى مرحلة البحث عن ملامح شخصيتها الفنية ومعالمها الذاتية التي ستزداد وضوحاً ورسوخاً من خلال التجربة والعمل الدائبين.

العلاقة بإبداع الماضى البعيد والقريب

وفى محاولة للاقتراب من فكرِ جيل جديد، ناقشت مع الفنانة مى بعض النقاط الأساسية التى تعتقد بأنها يجب أن تكون ضمن اهتمام هذا الجيل، وكان أولها العلاقة بالتجارب الفنية السابقة فى فن التصوير المصرى المعاصر منذ جيل الرواد وحتى اليوم، وأجابت مى بأنها منذ فترة طفولتها – ومن خلال مكتبة أسرتها – أتيحت لها الفرصة للتعرف على أعمال جيل الرواد، حيث انجذبت لأعمال محمود سعيد ومختار وسيف وانلى، وكذلك اطلعت على أعمال الفنانة تحية حليم التى قدّرت فيها التلقائية وبساطة الأسلوب وصدق التعبير، وأيضاً تعرفت على أعمال الفنانة إنچى أفلاطون وأعجبت بمعالجاتها الفنية، وعبرت مىً عن أملها فى أن تأتى تجربتها منتمية إلى مجمل الإبداع الفنى المصرى وليست منفصلة عنه.

وقد تكون تلك الرؤية غائبة عن فنانى الجيل الجديد، الذى يبدو معظم إنتاجه الفنى منقطع الصلة بالماضى الفنى القريب، ناهيك عن الماضى الفنى البعيد الممثل فى فنون التراث المصرى خلال حقبه الأساسية، المصرية القديمة والإسلامية والقبطية، ويهمنا التأكيد على أن الاتصال بالتراث لا يعنى التقليد والعودة إلى طرز فنية سابقة، وإنما

يعنى حسن استيعاب هذا التراث، وفهم أصوله، وإدراك جمالياته . فليس طبيعيا أن يلجأ فنانو الغرب لاستقاء عناصر تغذى فنونهم وتثريها من هذا التراث، ونحن أصحاب الشيء لا ندرى عنه شيئاً ، وهناك أمثلة لا تحصى لفنانين أوربيين استفادوا وبشكل صريح وواضح من جماليات الفن المصرى القديم والإسلامى والقبطى ، ومزجوا عناصرة ومعالجاته بأساليبهم ، ثم نأتى نحن لنمتد ونتصل بهذه الأساليب، غافلين عن النبع والكنز الثمين بين أيدينا ، والذي يمثل - لو أن هناك وعياً كافياً - جزءاً أصيلاً وعميقا من أصول تكويننا الثقافي والوجداني.

نحن والفن الغربي

وعن تساؤل حول مدى ارتباطها بأساليب فنية أثبتت وجودها فى الفن الأوربى، وهل تضعها الفنانة نصب عينيها كنماذج تسعى إلى الوصول لنتائج مماثلة لها؟ خاصة وأن التجربة التى تقدمها تحمل تأثيرات واضحة من أسلوب «جوجان» فى وضعيات الأشخاص المرسومة ، وكذلك «ماتيس» فى استخدامه للزخرفة الإسلامية من أجل خلق إيقاعات غنائية ؟ أجابت مى بأنها فى هذه المرحلة مازالت تكتشف امكانياتها بأسلوب تلقائى حر، ولا تريد أن تعمل تحت عنوان محدد بطريقة مغلقة، وذلك لأنها تحب الحرية وتعشق الانطلاق والتعرف على كل ما هو ممكن، وتذوق كل قيمة فنية تحققت، ومع ذلك فهى تنظر إلى إبداع الفن الغربى فى حدود التجربة الإنسانية التى يمكن الاستفادة منها، وليس بفرض احتذائها وتقليدها، كما أنها فى الوقت نفسه لا يعنيها اللهاث وراء الجديد فى الفن لمجرد أنه جديد، وإنما تقدره وفقا لما يحدث فى نفسها من تأثير ، وما يحتويه من قيمة .

والفنانة فى إجابتها تثير قضايا ذات أهمية فى عالم الإبداع الفنى، حين ترى أهمية الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين، لكنها استفادة يحكمها الوعى، وتخضع لمبدأ الاختيار والانتخاب وليس لمبدأ المحاكاة والنقل، وأيضاً الحرية التى يجب أن يحظى بها الفنان فى بداية تجربته، التى يجب أن تنأى عن الانطواء تحت «المانشيتات» المغرية بحداثتها ، إذ أن تجربته الحرّة يمكن أن تقوده إلى آفاق أوسع وأرحب لو أنه منحها فرصة النضج الكافى، فإذا كان الانتماء تحت أسلوب معين سبق وأن أرسيت دعائمه ونال شهرته أسهل لفنان حديث التجربة ، مما قد يزيف له نضجاً مبكراً أو نجاحاً مضموناً، فإن هذا الانتماء قد يقضى - بالتقليد - على معالم ذاتيته الفنية، ويطمس رؤيته الشخصية، والتى يمكن أن تبدأ بسيطة متواضعة ، ولكنها تنضج عبر التجربة وبمرور الوقت، لتكتسب فى النهاية استقلالية واضحة ، وتميزا وتفرداً يكون سبباً فى قيمتها الحقيقية كإضافة مختلفة تثرى عالم الإبداع الفنى.

ومما يؤسف له أن هذه الحقيقة البسيطة التى تحكم الإبداع الفنى فى أى مجال وفى أى مكان، لا تلق اهتماماً حول قيمة الأعمال الفنية من خلال منح الجوائز وإقامة المعارض، حيث يتجه تقديرهم إلى تلك التجارب التى تماثل نماذج مسبق لهم رؤيتها ويطمئنون إلى قيمتها الفنية، فهم لا يملكون - ولا يسعون لامتلاك - أدوات الكشف التى تساعد على التعرف والتقاط كل ما هو أصيل ومبتكر، ويعتقدون بأن قدرة الفنان الشاب وموهبته تتجلى فى إنتاج العمل الفنى المشابه لتلك القوالب التى

يعرفونها ومجاراتها وإعادة تقديم معالجاتها، وهنا يحدث التشتت والتضليل الذى يوجه الشباب توجيهاً خاطئاً فيفسد مبدأه وفطرته، ويقضى على أصالة شخصيته وهو مازال فى بداية تجربته.

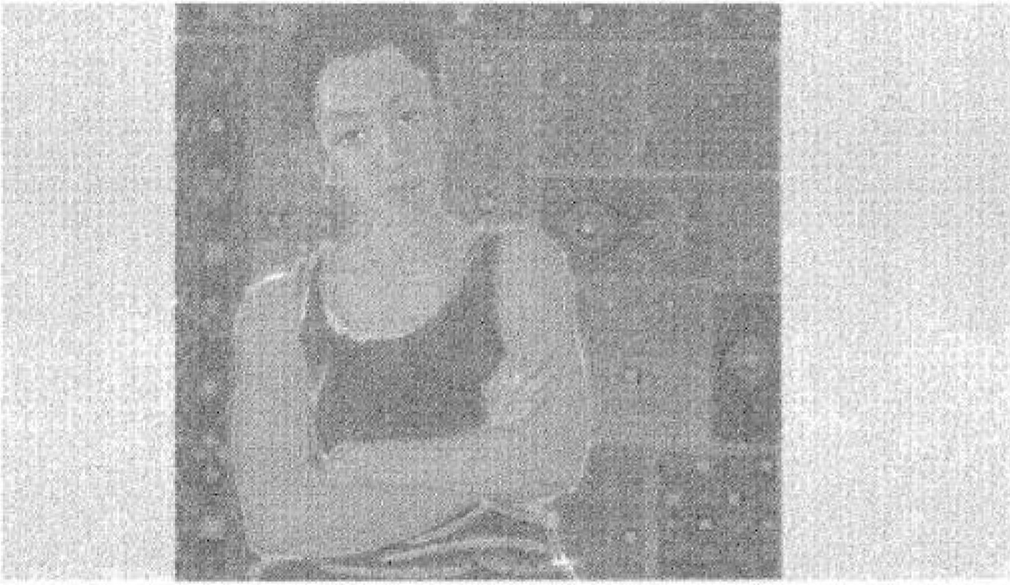
الخلفية الثقافية للفنان

وفى سؤال عن مقدار الأهمية التى توليها الفنانة مى لتذوق الفنون الأخرى، والاقتراب من جمالياتها وأسس ابداعها ، كفنون السينما والمسرح والموسيقى والأدب بفروعه المختلفة من شعر ورواية وقصة قصيرة، أجابت الفنانة بأن صلتها بفن الموسيقى صلة حميمة، إذ كانت تعزف البيانو وتمارس فن الباليه فى طفولتها، كما أن لها علاقة محدودة بفنون الأدب والمسرح، ويبدو لنا أن معظم الفنانين الشباب يعزل تجربته عن مجالات الإبداع الفنية الأخرى، غافلا عن أن الفنون جميعاً تشترك فى أصول واحدة وإن اختلفت وسائط التعبير، ولذلك فعلى شباب الفنانين أن يقاوم تلك النظرة المتخلفة التى كانت سائدة فى فترات زمنية سابقة ، والتى ترى أن الفنان التشكيلى ما هو إلا مجرد صانع محترف ، أو موهبة فنية حرة لا ترتبط بفكرة عميقة، أو تحمل رؤيا ثقافية ذات قيمة رفيعة ، واعتماداً على ذلك فإنه يندر أن تجد فناناً معنياً بأمور الثقافة والمعرفة، معتقداً أن فى موهبته ما يكفى لخلق أعمال فنية ذات قيمة، وهو وهم تجدر الإفاقة منه، لأنه لا قيمة تنبع من نفس مسطحة جاهلة بمعرفة كل ما يمكن إدراكه عن قضايا الفن الذى يمارسه ، ومعزولة عن عوالم الإبداع الأخرى، ليس فى وطنه فقط وإنما فى الأوطان الأخرى كذلك، فعلى الفنان أن يعرف نظرياً ماهية الفن الذى يبدعه والمبادئ التى تقوم عليها جمالياته، كما أن عليه الإلمام بقمم الإبداع الفنى الإنسانى عبر التاريخ ما وسع إلى ذلك سبيلاً، وليس ذلك مجرد وجاهة ثقافية ، وإنما لأن تعرُّفه هذا سوف ينضج تجربته ويعمقها ويزيدها ثراء ، ويمنحها بعداً إنسانياً مطلوباً لكل تجربة فنية أصيلة.

إننا إذا كنا نريد فعلاً الاقتداء بالفن الأوربى الذى وصل إبداعه التشكيلى إلى قمم رفيعة، فلنقتد بطريقة إيجابية، ليس بتقليد ومحاكاة نماذجه، وإنما فى الكيفية التى تساعد على انضاج المواهب الفنية وتغذيتها دائماً بما يساعدها على النمو السليم والعطاء الصحيح، فالفنان التشكيلى لا ينفصل عن المجالات الفنية الأخرى، بل هو جزء من كل متكامل، ومن هنا جاءت حركات التجديد فى كل الفنون متزامنة يسهم فيها الجميع كل فى مجاله، فلم تكن المدرسة التأثيرية مقصورة على فن التصوير فقط، وإنما كانت هناك موسيقى تأثيرية أيضاً، وكذلك المدرسة السيريالية فى الأدب والسينما إلى جانب الفن التشكيلى .

المناخ الثقافى المطلوب

كم من مرة لاحظنا مواهب مبشرة، تملك من رهافة الحس ما يؤهلها لأن تكون إضافة مميزة لحياتنا الفنية، ولكنها سرعان ما تختفى حين تجرفها ظروف الحياة إلى مسارات بعيدة، وإذا ما تهيأت لها الأحوال التى تساعدها على الاستمرار فى عالم الفن، فإنه يضحى استمراراً مشوباً بعوامل النقص وعدم النضوج، والاختيار الخاطئ الذى لا يؤدى إلا إلى إنتاج أعمال لا تساوى حتى قيمة الخامة التى استعملت فيها، إذ لابد من خلق المناخ الثقافى الملائم ، الذى يساعد على بلورة التجربة الشابة،



التلوين بدرجات قوية من خلال مجموعات لونية ساخنة

وتوجيهها التوجه السليم، فالتجربة البادئة تكون بمثابة الطفل الوليد الذى يحتاج إلى رعاية وعناية وتغذية سليمة بعناصر تساعده على النمو الصحيح المعافى، والعناصر المفيدة والمناسبة لإنماء التجربة الفنية وإنضاجها تتمثل فى توفير حلقات البحث والمناقشة وعقد المقارنات، وإجراء الحوار الخلاق، وتوضيح الحقائق حول الفن وأهميته، وإتاحة الفرصة لنشر الدراسات الفنية النظرية المفيدة . والتى تلقى الضوء على قضايا الفن وتكشف أسراره وخفاياه، كما تتمثل أيضا فى تشجيع المواهب التى تمتلك بالفعل علامات الأصالة ، وتتمتع بعناصر ذاتية مهما كانت بسيطة.

وعلى الرغم من أن كل ذلك يبدو مستحيلاً فى مجتمع أصبحت العوامل السطحية والمظهرية هى المسيطرة على مناخه الثقافى، الذى تتوه فيه القيم الأصيلة فى زحام القيم الهابطة والمزيفة، إلا أن ذلك لن يمنعنا من مطالبة جيل الفنانين الجديد الذى اختار الفن التشكيلى مهنة وعملاً نبيلاً — مثل الفنانة مىّ رفقى — أن يقاوم هذه العوامل السلبية ، وألا يدعها تؤثر فيه، أو تثبط من عزيمته فى السعى الجاد والمسلح بالوعى والمعرفة ، نحو إبداع فن مصرى يليق ببلدنا وتاريخه الفنى العريق ، ليكون إضافة حقيقية لمسيرة الإبداع الفنى للإنسان. ■

نجاة الصغيرة

صوتها قررها الاعتزال

بقلم
صافى ناز كاظم

عندما ظهرت «نجاة حسنى» فى منتصف أربعينيات القرن الماضى، طفلة صغيرة قصيرة ونحيلة تغنى ببراعة وإعجاز كل أغنيات أم كلثوم، كانت هناك، على ساحة الغناء، مغنية كبيرة ذائعة الصيت اسمها «نجاة على»، مثلت وغنت أمام ومع محمد عبد الوهاب فى فيلم «دموع الحب». وكان الخطاط الفنان محمد حسنى من هواة السمع والغناء والفن والموسيقى، وقد أنجب الكثير من الصبيان والبنات الذين يملكون كل مواهب الفن، وراثة عنه وغراما، يعزفون الآلات الموسيقية المتنوعة، ويغنون بأصوات تتفاوت درجات حلاوتها لكنها، جميعها، قادرة على الغناء بحساسية أذن موسيقية بالغة الدقة.



تعرفنا في طفولتنا على مواهب هذه الأسرة من خلال برنامج «حديث الأطفال»، وكان يقدمه الرائد الإذاعي الفذ «محمد محمود شعبان»، الذي اشتهر بلقبه «بابا شارو». قدم «بابا شارو» الأسرة الفنية: سميرة وسامي وعز الدين ونجاة وسعاد وخلافه تحت اسم «بيت الفن»، بقيادة أجمل وأعظم وأفضل من ألف ولحن أغنيات الأطفال الأستاذ «أحمد خيرت»، مفتش الموسيقى بالمدارس، وكان قد تزوج من ابنة الموسيقى أستاذ أم كلثوم الفنان «الشيخ أبو العلا محمد»، غير أنه ما لبث أن تزوج «سميرة حسني» التي تبلورت لتصبح «نحاته» خارجة من فرقة «بيت الفن». تحت جناحيه احتضن «أحمد خيرت» بيت الفن، الذي ناسبه، وبروز في بؤرة اهتمامه «نجاة»، التي ألحقوا باسمها صفة «الصغيرة» حتى لا تختلط أوراقها الفنية بالمغنية الكبيرة «نجاة علي».

والتصقت «الصغيرة» بالطفلة الموهوبة المعجزة «نجاة حسني» حتى سن الشباب والنضج في الخمسينيات إلى أن بدأت تنسلت منها شيئا فشيئا حين أصبح اسم «نجاة» لا يعني على الساحة الغنائية سوى المطربة الشابة المتألقة «نجاة» صاحبة أشهر الأغاني القريبة من وجدان الناس: « ليه خلتني



أحبك»، «طاير يا حمام مرسال الغرام»«ساكن قصادي ويحبه»، «كلمني عن بكره وابعد عن إمبارح أخاف من الذكرى وسهمها الجارح»، «وطني وصباي وأحلامي»، «أيظن»، و«وحديه وحديه أيامي سهد وليالي».. إلخ .
وأصبح اسم «نجاة» واحداً من أهم ركائز الغناء بين جيل «فايزة أحمد» و«شريفة فاضل» ونجاح سلام صامدة أمام من سبقها مثل «صباح» و«شادية» و«فايدة كامل» ومتحدية من بزغ بعدها مثل «وردة» و«مها صبري» ومختارة دائما من عبد الوهاب لتقف في الصف الأول لغناء «وطني حبيبي الوطن الأكبر».

***

لم يكن جيلي يتدهش من الصعود الوثاب لبنت جيله «نجاة الصغيرة» التي صارت «نجاة» وحدها على سن ورمح، فهي لم تزل بآذاننا منذ طفولتها وطفولتنا تغني : «طوفوا ببيت الله يا معشر الحجاج» اللحن المطعم بالمدات والفرد الصوتي والنفس الطويل، اللحن الذي كنا نعجز عن غنائه وترديده وراءها، كما كان يحلو لنا مع أغنيتها «ياهجرة المختار الله حياك، تتلألأ الأنوار.. في يوم ذكراك .... إلى آخر بقية أغنيات بيت الفن، والذي جعلنا نتوقع أنها تخرج من عباءته «مغنية» محترفة وليس مجرد طفلة تغني لنا في حديث الأطفال، وقد تأكد لنا هذا التوقع عندما بشّرنا «بابا شارو» بمفاجأة الأغنية الجديدة التي تقدمها «أختكم نجاة الصغيرة»، وكانت الأغنية تقول: «أنا عاوزة ألعب وأغني، مادام فؤادي متهني ، غني يا بلبل فوق غصنك، وريني فنك

من فني، وحياة عينيك تسأل عني، ده أنا عاوزة ألعب، ده أنا عاوزة ألعب وأغني...»، وقتها ربما كان الزمان عام ١٩٤٧، ونجاة قد بلغت ١٢ سنة - (مولودة أغسطس ١٩٣٥) - وكنت أنا في العاشرة - (أنا مولودة ١٧ أغسطس ١٩٣٧) - حين استمعنا إليها وضعنا أكفنا على فمنا وقلنا في المدرسة: «نجاة الصغيرة غنت كلام عيب، إزاى تقول وحياة عينيك؟». اعتبرنا هذه الأغنية العتبة التي نقلت «نجاة الصغيرة» من «حديث الأطفال» إلى حفلات غناء محترفي الغناء: صارت «مغنية» وبدا لنا ذلك الأمر كأنها انجرفت إلى «الضلال»! لم يكن هناك مانع لدينا أن يغني الطفل لكن أن تصبح «أختنا نجاة الصغيرة» مغنية في حفلات فهذا يؤكد تحذيرات الآباء والأمهات - في تلك السنوات - من الإسراف في تشجيع الأطفال أصحاب المواهب الصوتية لأن هذا «قد» يؤدي إلى «احتراف» الفن، الذي كان لايزال «فضيحة» في العائلات، والأسر المصرية الكريمة. غير أن هذا الإحساس لم يتملكنا، نحن الأطفال، طويلا، بل بدأنا ندافع عن «أختنا نجاة الصغيرة» ونقول إنها تغني قصائد أم كلثوم «سلوا قلبي» و«زهر الربيع يرى أم سادة نجب، وروضة أينعت أم حفلة عجب»، التي غنتها أم كلثوم في حفل افتتاح جامعة الدول العربية! وظلت «نجاة» تغني من داخل ثوب أم كلثوم، تقف على الكرسي أو الطاولة وتمسك المنديل وتحاكي طبق الأصل كوكب الشرق. في البداية تلطفت معها أم كلثوم، لكن أم كلثوم لم تكن تكره أحداً قدر كراهيتها لمن يحاكيها ويستنسخها - (ربما لأن هذا يثبت أنها يمكن أن تتكرر) - وكان لابد أن تخرج «نجاة» من «الصغيرة» ومن «أم كلثوم» لتكون نفسها فكانت. أصبحت لها بصمتها الصوتية الخاصة، وأصبحت المثال الرومانسي للشباب في جيلي، لكن صوتها الحنون المميز «القيثارة» جنح إلى الانغلاق بعد وصولها ووصوله إلى أعلى قمم التألق والتوهج. أصبح «صوت» نجاة ذكرى «صوت» جميل يعيش على رصيد غزير متنوع وعلى مشوار فني خصب وإذا كان لابد لراقصة الباليه أن تعتزل في الثلاثين، وللاعب الكرة والسباح والعداء والفارس والمصارع أن يتوقفوا في لحظة يفقدون فيها لياقتهم البدنية، فهكذا كان لابد لصوت «نجاة» أن يرغمها على «الاعتزال» الذي أخبرت به الأستاذة سناء البيسي رئيس تحرير مجلة «نصف الدنيا» فناشدتها بحرارة في افتتاحية مجلتها أن تتراجع عن القرار، وكان على الأستاذة سناء البيسي أن تعرف أن «نجاة» لم تملك «القرار» ليمكنها أن تملك «التراجع».

هكذا: يجب على كل مغنية بلغت الخمسين أن تقنع بما وصلت إليه من مجد، قبل أن يشيع الناس عنها أذانهم، الاستثناء الوحيد كانت أم كلثوم، والنصيحة مقدمة بدون مجاملة وتخص الرجال والنساء على حد سواء. ■



نجاة في السادسة من عمرها تغني لأم كلثوم



أم كلثوم

صوت مصر فى القرن العشرين



بقلم
محمد سعيد

هذا كتاب يغوص فى أعماق المجتمع المصرى بصفة خاصة والمجتمع العربى بصفة عامة من خلال منهاج يعتمد على التحليل الانثروبولوجى لعلاقة الفرد بالمجتمع والعكس ، وذلك عبر التناول العميق لشخصية سيدة الغناء العربى وعلاقات التأثير والتأثر فى حياتها وحياة المجتمع الذى تنتمى إليه.
الكتاب هو (صوت



من طماى الزهايرة الى الكوكبية .. شدت أم كلثوم ومن ورائها جيل من عظماء الموسيقيين

مصر.. أم كلثوم.. الأغنية العربية والمجتمع المصرى فى القرن العشرين) من تأليف فرجينيا دانيلسون وترجم الكتاب من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية عادل هلال عنانى.

الكتاب من إصدارات المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة عن واحدة من إصدارات الجامعة الأمريكية فى مصر .

تمهد الكاتبة لمؤلفها بالإشارة إلى أنها تعنى بموضوع الفاعلية فى المجتمعات الانسانية وخاصة الدور الذى يضطلع به الفرد الفذ فى الثقافة التعبيرية، وتوضح الكاتبة أنها أمضت ما يزيد على خمس سنوات من المتابعة والاستماع والبحث الميدانى فى مصر تجمع مادتها من الموسيقيين ووسطاء الثقافة والمستمعين والتعرف على آراء عامة الناس من مختلف الفئات فى الاسكندرية والقاهرة وأيضا فى محافظة المنيا التى عاشت بها نحو عامين ، كما تشير لبعض من أعانوها فى فهم النشاط الموسيقى المصرى وحيث ذكرت بالاسم بعضا منهم مثل الدكتورة بثينة فريد

والمرحوم سامى الليثى نائب رئيس تحرير «المصور» السابق ومصطفى نبيل رئيس تحرير «الهلال» والملحن الراحل بليغ حمدى وعدد آخر من كبار الموسيقيين فى مصر، كما تشير الكاتبة أيضا إلى جهد زوجها الذى أقام معها فى مصر وهو «جيم توت» الذى أحب معها غناء أم كلثوم وأسماء نجوم الغناء العربى فى عصرها الذهبى ولهذا أهدته إصدار هذا الكتاب .

تحويل الثقافة إلى أيديولوجية

ترى الكاتبة أن أم كلثوم كانت بلا شك أوسع المغنين شهرة فى العالم العربى فى القرن العشرين، وكانت أيضا رائدا ثقافيا بالمعنى الكامل للكلمة ، وكانت فى جميع جوانب حياتها العامة تبرز قيما تعد قيما قومية فقد ساعدت على تشكيل الحياة الثقافية والاجتماعية، وكانت فى جميع جوانب حياتها العامة التى تساعد على تشكيل الحياة الثقافية والاجتماعية وعلى التعجيل بتحويل الثقافة المصرية إلى أيديولوجية، كانت أقوى وسيلة لديها للتعبير هى أسلوبها الغنائى ، فقد استنبطت لنفسها أسلوبا شخصيا من أساليب سابقة من بين الأساليب العربية والإسلامية .

تشرح فرجينيا دانيلسون منهاجها فى الكتابة فتقول: إنها كانت على دراية بعدد من الحقائق عن أم كلثوم فإنها باشرت العمل فى دراساتها بطرح أسئلة بسيطة مثل ما هى الأسباب التى مكنت هذه الشخصية من



الحفاظ على تلك الشعبية على مدى هذه الفترة الطويلة؟ وكيف تمكنت من ذلك؟ وتجيب : أنه سرعان ما قادتها أسئلتها عن أم كلثوم إلى أسئلة أوسع عن الثقافة فى مصر وعن الثقافة العربية وعن المجتمع المصرى والمجتمع العربى.

تقول المؤلفة : إن أم كلثوم بحديثها الراقى وأناقتها كانت أيضا بنت بلد بالفعل، ولم يكن صوتها السبب الوحيد فى نجاحها ، لكن السبب الأعمق هو فى شخصها، فالمصريون لا يحبون صوتها فقط لكنهم أيضا يحترمونها ، وحول هذا الفن وتلك الشخصية التى تتحدث عنها المؤلفة باحترام قوى المؤلفة أنها مع من يستخدمون صفات مثل «أصيل» – «تراثى» – «كلاسيكى» و«متطور» فى مناقشة رصيد أم كلثوم الغنائى وهى كلمات ذات دلالة لأن معظمها يحمل فى طياته إشارات إلى جماعات اجتماعية ، فكلاسيكية تتصل بالنخبة وأصيل يرتبط بالالتزام السلوكى والمبدئى والمستمد من التقليد العربى المميز، وترى الكاتبة أن تطبيق التصنيفات الغربية ترهق من يحاولون رصيد غناء أم كلثوم عبر هذه التصنيفات ، وحيث يستعصى ما قدمت من غناء وما لديها من رصيد على المفاهيم المتعلقة بتطبيقات الموسيقى الفنية والجماهيرية والشعبية وما إليها وغيرها .

متحدث باسم أمة

وانطلاقا من قيمة الفرد كمتغير حيوى فى هذه الدراسة ترى الكاتبة أن المكانة التى تحتلها أم كلثوم كمغنية

محترفة ليست بالأمر غير العادى فى ثقافة القرن العشرين وحيث صقلت مواهبها ومهاراتها وصارت متحدثا باسم أمة كبيرة أو ممثلة لهذه الأمة على نحو ملحوظ أدركه علماء الانثروبولوجيا حيث أن دراسة حياة الفرد النجم تكشف أيضا عن حياة المجتمع ، الأمر الذى يوضح أن حياة أم كلثوم وكذلك حياة بعض المغنيات المعاصرات لها تتحدى التصورات الغربية الشائعة عن النساء العربيات ووصفهن بأنهن نساء مزعنات صامتات، وهؤلاء الذين ليسوا على علم بالشرق العربى قد يتساءلون : كيف لامرأة أن تكون مثالا على ماتحقق فى تلك المنطقة من انجازات ثقافية؟!

وتشير المؤلفة فى كتابها الذى يضم ٣٢٥ صفحة من القطع الكبير إلى تاريخ ميلاد أم كلثوم وتوفق فى التدقيق فى تاريخ ميلادها الذى يعود إلى ٤ مايو ١٩٠٤ والمدون فى سجلات المواليد فى محافظة الدقهلية وهو ما أمكننا قبل ذلك من توثيقه فى فصل من كتابنا [أشهر مائة فى الغناء العربى] بعنوان «سيدة الغناء لا قبل .. لا بعد» وحيث يذهب البعض إلى تواريخ أخرى لعيد ميلادها غير موثقة، الأمر الذى جعل بعض المؤسسات الثقافية والفنية تحتفل بمئويتها (مائة عام على ميلادها) قبل ٦ أعوام كاملة من قدوم هذه المناسبة المهمة التى تحل - فى الواقع - فى النصف الأول من العام الميلادى القادم ٢٠٠٤ .

عبقرية أم كلثوم

وتتطرق الكاتبة فى دراستها إلى عوامل التأثير التى صعدت بأم كلثوم إلى الصفوف الأولى فى بداياتها وبعد انتقالها من مسقط رأسها فى طماى الزهايرة إلى العاصمة فى النصف الثامن من عشرينات القرن العشرين فتعود إلى كمال نجل الموسيقار المصرى (يهودى الديانة) داود حسنى الذى يوضح لها أن أم كلثوم كانت سريعة الحفظ وذلك بفضل مرانها على حفظ القرآن الكريم ، وأن من بين أهم مقومات عبقرية أم كلثوم ما تعلمته بجهدها الخاص ومثابرتها ، فالمدى الذى ذهبت إليه فى تدريباتها الغنائية والموسيقية هو الذى جعلها تتميز عن غالبية نظرائها من أهل الطرب ومن تلك النتيجة الاشارة لبعض ما قيل فى أم كلثوم فى بداياتها والذى أوردته الكاتبة نقلا عن وسائل الاعلام التى أشارت إلى الأسلوب واللهجة الخاصة فى فن وشخصية أم كلثوم ، فقد أعربت الملكة السابقة نازلى عن إعجابها باختيار الآنسة أم كلثوم لأزيائها فهى تجمع الاحتشام مع الأناقة فى ذوق رفيع وحسن انتقاء وكذلك فى اختيار مجوهراتها والحلى التى تتزين بها ، وعلق فضيلة الشيخ المراغى على ثقافتها قائلا: إنه لاحظ أن الآنسة أم كلثوم هى المطربة الوحيدة التى لا تستخدم لغة عربية غير

محمد القصبجى



بيرم التونسى



سليمة في غنائها وأنها تلتزم أشد الالتزام بما هو مكتوب من حيث النطق والنحو والاعراب .

وتصل الباحثة فرجينيا دانيلسون إلى أسلوب أم كلثوم الغنائي فترى أنها اعتمدت الأسلوب الرومانسي الذي أسهمت في صياغته تجديدا وتطويرا لأشكال غنائية مطروقة ، فكانت أغانيها كلها من الأنواع الراقية من الغناء وسواء الدور أو مناجاة النفس (المونولوج) وعلى النحو الذي كان في غنائية «ان كنت أسامح وأنسى الأسية» التي كتبها رامي ولحنها القصبجي، وقد وصل الأسلوب الموسيقي الذي استحدثه محمد القصبجي من أجل أم كلثوم إلى ذروته في الأغاني التي لحنها لفيلم «نشيد الأمل» وبعد ذلك مالت أم كلثوم إلى التنويع فى أساليب غنائها فاتجهت إلى أعمال زكريا أحمد بطابعهاالعامي المصرى والشرقى، وأعمال رياض السنباطى بطابعها المستحدث والذى يميل إلى التجديد الكلاسيكي وحيث قام بتحديث أسس التأليف الموسيقي العربي بالتجديدات الإيقاعية والآلية (توظيف الآلات الموسيقية) والحرص على المذاق العربي والشرقي في وقت كان فيه محمد عبدالوهاب في ألحانه وغنائه عنصرا فعالا بما ينهل باقتباساته الكثيرة من الموسيقي الأجنبية .



وترى الكاتبة أن وسائل الاتصال الجماهيرى أسهمت في نشر القدر الأكبر من غناء أم كلثوم وخاصة في تسجيلات الاذاعة الرسمية بعد عام ١٩٣٤ ومن خلال السينما الغنائية، إضافة إلى الحفلات ومن قبل تسجيلات الاسطوانات وهي التي جعلت لها جماهيرية فائقة في أرجاء الوطن العربي .

أديبة تدرك معنى ماتقول

وتتساءل الكاتبة إلى أين وصلت أم كلثوم بفضل مواهبها وتدريباتها الصوتية الشاملة؟ وتجيب بأنها نجحت في تأدية الأسلوب الرومانسي المعتمد على براعتها حتى برغم أن أخريات غيرها من بينهن ليلي مراد واسمهان ونجاة على ونادرة وفتحية أحمد ولورد كاش وغيرهن أجدن هذا الأسلوب، لكن أم كلثوم تفوقت عليهن حيث اعتمد الأسلوب المميز لها أو لهجتها الخاصة في الأداء على حجم صدقها وعلى سيطرتها عليه بدقة فائقة ، كما كان التلوين في خروج الصوت ونوعيته وسيلة من وسائل الزخرفة واظهار البراعة في الأداء أيضا وفي الأسلوب المميز لها فكان في هذا التلوين يمكنها من تصوير المعنى ، وحيث أقامت أم كلثوم مقدرتها الغنائية على أسس من هذا النسق الجمالي الذي جعل الشاعر أحمد شوقي يقول قبيل رحيله عن الحياة في عام ١٩٣٥ أن أم كلثوم بجانب روعة وجمال صوتها أديبة تدرك معنى ما تغنى له، وفي إشارة أخرى إلى عدد خاص من مجلة «الموسيقى» التي صحب صدورها عقد أول مؤتمر للموسيقى العربية في مصر، أجمع المتخصصون المشاركون فيه وهم يتناولون بالتحليل أساليب الغناء

أن أسلوب أم كلثوم هو الأفضل في تنطق القصائد وجميع ألوان الغناء وسواء باللغة الفصحى أو العامية بقدرة غير مسبوقة، وتكاد تكون الوحيدة التي تنفذ إلى المعنى وتكشف أسرار النص الشعري.

وتتوقف المؤلفة فرجينيا دانيلسون عند العصر الذهبي لغناء أم كلثوم فتشير إلى تميز أسلوب زكريا أحمد في ألحانه لها عبر اهتمامه بالطابع العربي الأصيل، فهو لم يقتبس أو يضم إلى موسيقاه أي استعارة من لون آخر لأن موسيقاه كانت تنبع من روحه ومن مصريته، ومع موسيقى زكريا أحمد تشير الكاتبة إلى أشعار بيرم التونسي العامية فتقول لقد ألف بيرم نصوصا لأم كلثوم استخدم فيها عبارات التقطها من مفردات الشارع ومأثورات الشعب ووضعها في تراكيب حديثة بارعة، كما هو الحال في معظم أشعاره، لكن المؤلفة تخص من روائعه أغنية «الأولة في الغرام» بوقفة خاصة فهي تشير إلى تناول النص الغنائي الذي يمضي عبر الأشكال المتعارف عليها في الموال المصري من حيث استخدام صيغة الأولة والثانية والثالثة وعبر تدرج يقول في مطلعه: «الأولة في الغرام والحب شبكوني بنظرة عين... ...» وحتى آخر كلمات النص الغنائي والتناول اللحني.

رياض السنباطي



زكريا أحمد



مع رياض السنباطي

وتبحر الكاتبة في تراث أم كلثوم ويكون لها وقفة متأنية مع ألحان العملاق رياض السنباطي وخاصة في القصائد والذي كان من أبرزها ما قدمته في سنوات الأربعينيات من القرن العشرين وخاصة ما قدمته في العام ١٩٤٦ من شعر أحمد شوقي، وتشير الكاتبة بالكلمة وعبر التدوين الموسيقي (النوت الموسيقية) إلى القصائد العشر التي قدمتها أم كلثوم وتتميز بنهجها المجدد في التراث الموسيقي العربي والذي استمر بعد ذلك حتى مع تقديم أغنيات بالعامية المصرية ثم ما جاء بعد ذلك من قصائد أخرى تحيي في الأسماع ما كان لأم كلثوم من تفوق وتألق في بداياتها ومنذ قصائد أستاذها الشيخ أبو العلا محمد.

وتشير فرجينيا دانيلسون بعد ذلك إلى قصائد أم كلثوم ورياض السنباطي وأحمد شوقي التي كان أولها «سلوا قلبي» في القدوة الحسنة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ثم قصيدة «سلوا كؤوس الطلا» وهي قصيدة رومانسية كتبها شوقي خصيصا لها لمعرفته بأنها لم تذق أبدا طعم المسكرات وبعدها اختارت من شعر شوقي أيضا «ولد الهدى» ثم «نهج البردة» وحتى قصيدة «السودان» وصولا إلى قصيدة «النيل» وحتى تأتي نهاية الأربعينيات بلون آخر رائع من القصائد الكلثومية السنباطية وعبر مختارات من رباعيات عمر المختار

والتى ترجم قصائدها إلى اللغة العربية الشاعر أحمد رامى .

الشكل المعمارى

وعلى الرغم من المحتوى الدينى لبعض هذه القصائد مثل «سلوا قلبى» صارت القصيدة تعرف بأنها تعبير وطنى مثلما تعرف أيضا بأنها تلامس الوجد الدينى وهى اعتبارات استوعبتها أم كلثوم وأجاد رياض السنباطى فهمها وحيث أخذ بالنزعة الكلاسيكية التجديدية فابتدع شكلا موسيقيا يعادل التعبير الشعرى وأدى نجاح السنباطى كما توصلت الكاتبة إلى وضع هذا التناول الشعرى فى قوالب جديدة أدت إلى فتح سبل الابداع فى أغانى أم كلثوم حتى صارت القصيدة السنباطية اللحن عماد رصيد أم كلثوم الغنائى فى بقية مسيرتها الفنية وحيث أبقى السنباطى على الشكل المعمارى المعقود الذى اتصفت به الألحان العربية الرصينة فاللحن يبدأ عادة بالطبقات المنخفضة من المقام الموسيقى المستخدم ، ويستمر اللحن على هذا النحو وداخل هذا المدى حتى يصعد إلى الطبقات الأعلى من المقام نفسه، ثم تأتى الانتقالات إلى مقامات أخرى، وتشكل تلك الانتقالات المقامية الجزء الأوسط من اللحن وحتى تنتهى القصيدة بالعودة إلى المقام الذى بدأت فيه.. هذا المعمار اللحنى استخدمه السنباطى فى تأليف ألحان صعبة يصعب على المطرب العادى تأديتها، ولكنها تتلاءم تماما مع عبقرية أم



كلثوم ، وقد أدخل السنباطى تجديدات من بينها خطوط «الباص» كما اشتملت موسيقاه من آن إلى آخر على مسحة من الهارمونية كما فى صياغاته الموجزة للائتلاف الثلاثية فى اللحن أو الموسيقى المصاحبة للغناء ، إضافة إلى قفلات أم كلثوم الساخنة التى تلهب العواطف وتسحر الحضور من جمهور حفلاتها بفضل طريقتها فى الأداء ونطقها الواضح لمخارج الألفاظ وسيطرتها المتمكنة على كل نقلات مقاطع أغنياتها .

أم كلثوم وعبدالناصر

وتمضى فرچينيا دانيلسون فى بحثها القيم وهى ترصد علامات ابداع أم كلثوم العاطفية والدينية والوطنية والوصفية وتتوقف أمام روائعها الوطنية فى سنوات الثورة وتعارفها مع جيل جديد من الملحنين كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى وسيد مكاوى ، وتتناول الصداقة والاعجاب المتبادل فى علاقة زعيمة الغناء العربى أم كلثوم بالزعيم قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ جمال عبدالناصر ومنذ قيام الثورة فى بدايات الخمسينيات بل وقبلها ومنذ عودته من حصار الفالوجا فى فلسطين ، وترى المؤلفة أن الارتباط بين الشخصيتين مازال ماثلا فى الذاكرة الجماعية وإلى اليوم، وتقول فرجينيا دانيلسون ان بين أم كلثوم وعبدالناصر الكثير من الأمور

جمال عبد الناصر



المشتركة فكل منهما خرجا من بين صفوف الشعب واستفاد من فرص الحراك الاجتماعي الصاعد، وكل منهما كان شخصية قوية له مكانة متميزة برعت في الوصول إلى جميع أفراد الشعب المصرى ثم إلى الشعب العربى بأكمله .

يتفوق كتاب «صوت مصر» أم كلثوم » في أنه اهتم بكل كبيرة وصغيرة في منحنى الابداع البيانى لأم كلثوم فهى تشير إلى التعاون الذى جرى متأخرا بين أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب منذ أغنية «أنت عمرى» والتغطية الاعلامية غير المسبوقة وحتى ماتلاها من أعمال مثلما «أنت الحب» - «أغدا ألقاك» - «فكرونى» - «أمل حياتى» وغيرها لكن الباحثة من خلال ضمير الكاتب ومنهاجيته وموضوعيته تعود بعد ذلك إلى ألحان رياض السنباطي متحدثة عن مرونة وحيوية هذه الألحان وخاصة في رائعة «الأطلال» شعر د . ابراهيم ناجى وتصف الكاتبة السنباطى بأنه يتصف بالعبقرية ، كما أنه عملاق برغم تعمده عدم جذب الكثير من الانتباه إليه وإلى شخصه العابد في محراب فنه ، ومع ذلك نال احترام الجميع وأدت قدراته البارعة وقوة شخصيته الموسيقية إلى إجبار أم كلثوم على احتماله خلال تعاونهما الطويل وعلى العكس مع الآخرين ممن انقطع تعاملها معهم!

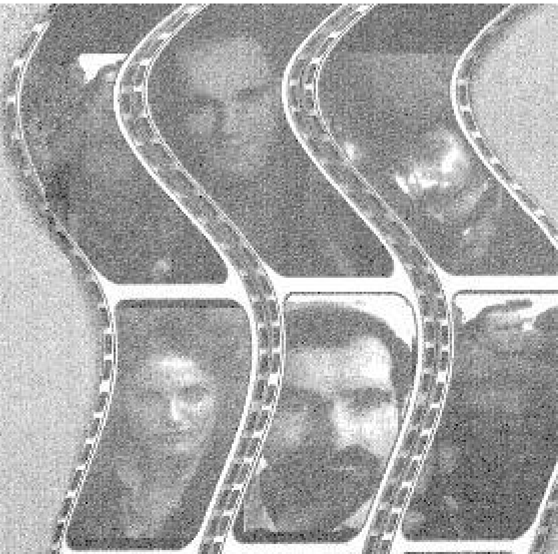
صوت وقلب مصر

ويمضى عطاء أم كلثوم حتى صارت صاحبة مكانه مرموقة جعلتها ملتزمة بطموحات وطنها وعلى النحو الذى كان في حفلاتها من أجل مصر في الداخل والخارج فيما عرف بدعم المجهود الحربى لإزاعة آثار عدوان ١٩٦٧ وحتى صارت ثومة صوت وقلب مصر الذى لم يزل يدفع الحرارة والوطنية والانتماء في وجدان الشعوب العربية كلها وليس شعب مصر فقط ، وترى الكاتبة أنها لاحظت في جولاتها في أوروبا وأمريكا الشمالية أن حقبة التسعينيات الأخيرة ومع تطور تقنيات التسجيل وطبع الغناء على اسطوانات «السى دى» "CD" صار لثومة معجبون في العالم كله يقبلون على اقتناء روائعها واتسع متابعو فنها فصار لها جمهور في مختلف القارات .

ومع كل هذا التألق مازالت أم كلثوم إلى اليوم نموذجا يقيم على أساسه أهل المغنى، وكما حدث مع عبدالناصر صارت في نظر الناس جزءا من زمن فات بحلوه ومره، وكثيرا ما يبدى الناس حنينا إليه وعبر أعمال تدفع بالأمل إلى مشاعرهم، والناس يواجهون من حولهم متغيرات صعبة وتحولات أصعب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وحتى على المستوى الثقافى . ■


أحمد شوقي


محمد الموجي



السينما والأوسكار

[illegible]

بقلم
مصطفى درويش

شاء القدر أن يجيء فى وقت واحد عيد الأضحى وإعلان أكاديمية الفنون والعلوم السينمائية بهوليوود لترشيحاتها لجوائز أوسكار.

وكلا المناسبتين وثيق الصلة بعالم الأطياف فالعيد تحتكر فيه الأفلام المصرية الجديدة جميع شاشات السينما، بطول وعرض البلاد.

والإعلان يكشف ما أسفرت عنه مداولات تلك الأكاديمية، أى الأفلام ارتأت ترشيحها، وحظ كل واحد من الترشيحات.

وبقدر ما كانت الأفلام المصرية التى جرى طرحها فى دور السينما، بمناسبة العيد، مخيبة لأمل كل من يهمه أمر انتشال السينما الوطنية من عثرتها، والنهوض بها فى مستقبل قريب.

بقدر ما كانت الترشيحات لأوسكار باعثة على اطمئنان نفس كل من يهمه أمر استمرار هيمنة هوليوود على أسواق السينما فى مشارق الأرض ومغاربها، وامتداد نفوذها، وازدياد سطوتها على مر الأيام.

وإذا بطرح الأفلام المصرية فى العيد الكبير، الأول أن عددها قد انحصر على أقل عامة، إلى ثلاثة لا غير، وهى معروضة [illegible] النماء [illegible] مشاكل.

ومن الأكيد أن هذا الانحسار أمر غير مسبوق فى تاريخ السينما المصرية، منذ [illegible] على الأسواق العربية، وانحسرت من أسواق آسيا وأفريقيا [illegible] على هذا النحو الفاجع، غير المتوقع، وفى وقت عصيب، أى فى ذلك الوقت الذى [illegible] السينمائيين المصريين [illegible] أوسكار [illegible] السينما [illegible] الأفلام الأجنبية [illegible]

[illegible] على هذا النحو [illegible] الطيف [illegible] والاستقرار [illegible]

ولكل هذا الطوفان والانبهار بالحسين [illegible] حتى؟

فى زمن عصيب [illegible] المنافسة بين صناعات السينما على مدار [illegible] كل واحدة منها تسعى إلى إحكام السيطرة على سوقها [illegible] من [illegible] أسواق أخرى

خارجية

ولكن سبيل تحقيق هذا الهدف [illegible] النهوض [illegible] حتى تستطيع الصمود [illegible] ثقافة [illegible]

[illegible] هوليوود [illegible] من [illegible] العالمية [illegible] من القهر والعزم

[illegible] سوق السينما العالمية [illegible] إلى عهد قريب فى [illegible]

والعزم [illegible] فى [illegible] الأكاديمية [illegible] الأعوام [illegible] بأحوال [illegible] والظروف

[illegible] هوليوود [illegible] الترشيحات التى أعلنتها الأكاديمية [illegible]

[illegible]

ومغزاها، اختتم الحديث عن الأفلام الثلاثة التى أهداها لنا السينمائيون المصريون، احتفالا بالعيد . لا قول أن أيا منها لم يأت بجديد ، وأيا من أصحابها لم يبذل جهدا ، ولو ضئيلا، لعله به يعيد إلى السينما المصرية، بعضا من وهجها الذى فقدته شيئا فشيئا، على امتداد سنوات عجاف، غاب فيها الوعى بأهميتها فى معركة الحفاظ على هويتنا .

والسؤال الذى تردد فى خاطرى، وأنا أشاهد الأفلام الثلاثة، هو عن مدى المام مخرجيها بالتحديات التى تواجه السينما الآن .

وأرجح الظن أن الجهل بها كان - فيما أعتقد - سبب وقوعهم فى أخطاء كثيرة، مرة بعد مرة ، دون أن يتعظوا من هذه الأخطاء .

ومن بينها، على سبيل المثال ، توهم المخرجة « ساندرا » صاحبة «حرامية فى تايلاند» أن تجديد السينما المصرية ، قد يكون بشد الرحال ، مع طقم فيلمها السابق «حرامية كى جى تو» إلى بلاد تركب الأفيال

والأكثر غرابة ، تصديقها ما توهمته ، بالذهاب فعلا مع أبطال فيلمها الثلاثة «كريم عبدالعزيز» ، «حنان ترك» ، و«ماجد الكرانى» إلى تايلاند ، حيث تكثر الأفيال ويطبيعة الحال لم يبدأ أبطال فيلمها مغامراتهم فى تايلاند، وإنما بدأوها فى مصر، ومنها انتقلوا إلى «بانجوك» العاصمة التايلاندية، والفيلم يقترب من الانتصاف، ومعهم صورة مسروقة للفنان فان جوخ، مخبأة فى فستان زفة «ترك» «لكريم».

وفى بانجوك تستمر مغامراتهم ، مكررة، باهتة، بلا لون وبلا طعم، وطبعا بلا قبلات، لأن «ترك» أفتت بأنها حرام .

أين المفر ؟

وعلى كل ، فبعد الانتهاء من مشاهدة الأفلام الثلاثة، تساءلت أين يقع من صناعة السينما عندنا مكمن الداء الذى إذاما رفعنا عنه جرثومة العلة، شفيت الصناعة من عوامل تقصيرها الابداعى وقصورها؟

وانسابت فى رأسى الخواطر، بادئة بهمسة فيها حسرة، ثم عتاب على تأخرى فى طرح السؤال ، حتى انتهى الأمر إلى استفحال الداء، على نحو قد يتعذر معه العثور على جواب ، إن لم يكن يستحيل!!

وانتقل إلى ترشيحات أوسكار ، لاقول إن الأفلام التى أعلن عن ترشيحها يوم الحادى عشر من شهر فبراير ، إما لجائزة أفضل فيلم، أو لغيرها من الجوائز المتصلة بعملية الابداع السينمائى ، كالاخراج والتمثيل، والتصوير والموسيقى والتوليف، هذه الأفلام وصل عددها إلى خمسين .

وفيما عدا قارتنا السمراء، جميع القارات ممثلة بفيلم أو أكثر .

فنسيا ، على سبيل المثال، لها أكثر من فيلم فى قائمة الترشيحات، من بينها «بطل» انتاج الصين الشعبية، و«الروح الهاربة» لصاحبه مخرج الرسوم المتحركة اليابانى هايا أو يازاكى» .

وأول ما يلاحظ على أفلام تلك القائمة، بالنسبة لنا، أنه لم يعرض منها فى مصر، حتى الآن ، سوى عشرة أفلام ، أحدثها « عصابات نيويورك»، الذى جرى عرضه بعد إعلان ترشيحه لعشر جوائز أوسكار، بسبعة أيام .

وهو من بين أفلام أربعة مرشحة لجائزتى أفضل فيلم وإخراج معا .

والأفلام الثلاثة الأخرى «شيكاغو»، «الساعات» «عازف البيانو» .

والفيلم الأخير مرشح لست جوائز أوسكار من بينها علاوة على جائزتى أفضل فيلم واخراج «رومان بولانسكى» ، جائزة أفضل ممثل رئيسى «أدربين برودى» .

وينافس «برودى» على تلك الجائزة كل من «نيكولاس كيج» عن (التكييف) والسيرمايكيل كين» عن «الامريكى الهادئ» و«دانييل دبى لويس» عن « عصابات نيويورك» و«جاك نيلكسون» عن «عن شميت» وباستثناء «برودى» فجميع المرشحين لأوسكار أفضل ممثل رئيسى سبق لهم الفوز بها، وبعضهم فاز بها أكثر من

مرة .

وهذا قد يرجح كفة «برودى» ، خاصة وأنه يؤدى فى الفيلم دور عازف بيانو يهودى فى أحد معسكرات الاعتقال النازية، حيث يكتب له بفضل عزفه كلاسيكيات الموسيقى أمام الضباط الألمان، النجاة من موت أكيد فى إحدى محارق اليهود .

الهوى الجامح

وإن كان ترجيح كفته من الصعوبة بمكان امام روعة أداء «دانى داى لويس» لدور بيل الجزار البروتستنتى الانجلو سكسونى فى «عصابات نيويورك» .

ولو كانت الجوائز توزع بالعدل والقسطاس لكانت جائزة أفضل مخرج من حظ «سكورسيزى» صاحب «عصابات نيويورك»، لا ريب.

غير أنه مما قد يضعف من رجحان كفته، سابقة فوز «عازف البيانو» وصاحبه «بولانسكى» ، عكس كل التوقعات ، بجائزتى «بافتا» لأفضل فيلم ومخرج، ومعروف أن «بافتا» هى المعادل البريطانى لأوسكار .

وفوز نفس الفيلم بست جوائز سيزار المعادلة لأوسكار ، من بينها جائزتا أفضل فيلم ومخرج وأعود إلى «عصابات نيويورك» لأقول أنه فيلم ملحمى دموى، ترتد أحداثه إلى منتصف القرن الثامن عشر وأين ؟

فى نيويورك ، وبالتحديد فى ميدان « باراديز» (الفردوس)، ملتقى شوارع افقر أحياء مانهاتان «فايف بوينتس» - (خمس نقاط) ، حيث أرأنا «سكورسيزى» صراعا لم نر له مثيلا، من قبل، على الشاشات، صراعا دمويا، يشيب من هوله الولدان، بين مهاجرين جدد قادمين من ايرلندا، فرارا من الموت جوعا، وأبناء البلدالمستوطنين العالم الجديد، منذ عشرات السنين، حيث أباد أجدادهم الهنود الحمر، سكان أمريكا الشمالية الأصليين، وحيث ثار آباؤهم ضد الاحتلال البريطانى، مطالبين بالاستقلال .

مشهد لا ينسى

و«سكورسيزى» يعرض فى فيلمه لهذاالصراع من البداية، بعد الدقيقة الثالثة، من بدء اللقطات ، وذلك من خلال مشهد مرت دقائقه التسع، مرا سريعا، وكأنها ثوان .

والحق أن هذا المشهد، بسيوفه، وسكاكينه وسواطيره، تسيل الدماء انهارا، يعد ، بحق خير فاتحة لفيلم رأته عيناى حتى الآن.

أنه ، وغيره من المشاهد الزاخر بها الفيلم ، بمدته التى قاربت الثلاث ساعات ، إنما يذكرنى بمذبحة سلالم أوديسا فى رائعة «سيرجيى ايزنشتين» «المدرعة بوتيمكين» .

القضاء المحتوم

وأن نسيت فلن أنسى ، تداخل الصراع الدموى بين فئتى الانجلو سكسون البروتستانت والايرلنديين الكاثوليك» الوافدين بألوفهم المؤلفة إلى أرض الميعاد، مع صراع آخر أكثر دموية، الحرب الأهلية بين الجنوب الأمريكى القديم المتمسك بنظام الرق ، والشمال المتحرر، تحت قيادة الرئيس ابراهام لينكولن ، محرر العبيد .

وكأى صراع دموى لم يفلت من قضائه أحد، لا أوباش نيويورك، ولا أعيانها فى ذلك الزمان الموغل فى القدم ، ولا حتى محرر العبيد إنه الزمان الموغل فى القدم، ولا حتى محرر العبيد .

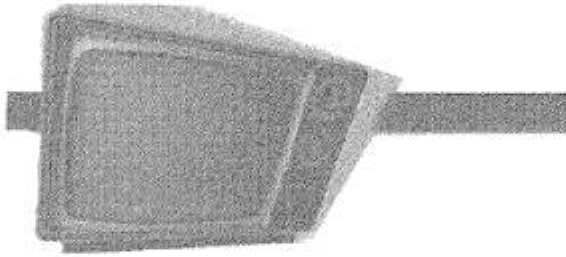
انه القضاء المحتوم الذى لا يستطيع أحد لأحكامه نقضا، ولا تغييرا.

حتى حى «الخمس نقاط» حق عليه حكم هذا القضاء، دمرته مدافع اسطول محرر العبيد، لم تبق منه شيئا .

اختفى تماما ، كما اختفى برجا نيويورك، يوم الحادى عشر من سبتمبر .

مكانه تم تشييد مانهاتان أخرى، من أول وجديد .

والسؤال هل سيفوز «سكورسيزى» بجائزة أوسكار أفضل مخرج عن ملحمته «عصابات نيويورك» ، أم ستفلت منه كما افلتت منه أكثر من مرة، على امتداد ربع قرن من عمر الزمان . ■



المتفرجة

بقلم : ميرفت رجب

فى العشق والخصام

كنت قد جهزت القلم والأوراق، عازمة على الجلوس للكتابة بعد أن اكتملت فى رأسى خطة المقال ومحتواه، ولأن الأيام غير الأيام، وشأنى فيها شأن غيرى ممن ينطبق عليهم حالى فى الدنيا، فقد امتدت يدى تفتح باب الإطلال على نافذتى الأثيرة، لمتابعة مجريات ما يعصف بعالمنا من أحداث، ومن القناة الخامسة الفرنسية «TV5» أطل على الرئيس جاك شيراك وهو يعلن على العالم تصميم فرنسا على عدم الموافقة على الحرب طريقا لحل المشكلات الدولية، وعلى الفور تبينت أن هذه أول إذاعة لهذا الحديث الذى يجريه أمام عينى مذيعان فرنسيان نابهان، من المتمرسين فى شئون السياسة الدولية، بقدر تمرسهما فى حذق طرح الأسئلة على الزعماء من قامة رئيسهم جاك شيراك. ورغم وضوح عبارات الرئيس الفرنسي فى بيان الأسس المنطقية التى بنى عليها موقف بلاده، إلا أن أسئلة محاوريْه جاءت وكأن كلا منهما قد أخذ لنفسه موقفا من مواقف المعارضة من سياسته فى أزمة العراق، علما بأن هذه المعارضة لا تجاوز العشرة فى المائة من أبناء الشعب الفرنسى.

ولأن هذا الحديث التاريخي للرئيس الفرنسي ليس في حد ذاته موضوع ما أكتبه اليوم لحضراتكم، فسأكتفي بالإشارة إلى سؤالين، فقد سأله أحد محاوريه عن الأزمة التي تعانيها أوربا الآن وقد تسببت مشكلة العراق في حدوث انقسام واضح في مواقف دول الاتحاد الأوربي قد يخشى منه على مستقبل الاتحاد، ويأتي الرد الواثق من جاك شيراك الذي يؤكد أن مثل هذه الخلافات في الرأي حدثت من قبل، وأنه، وهو العارف بشئون أوربا، يؤكد أن أوربا تخرج دائما من مثل تلك الأزمات وهي أكثر قوة. وإذ بالمحاور الثاني يسأل رئيس جمهوريته، وماذا لو شرعت الولايات المتحدة الأمريكية في اتخاذ اجراءات، من قبيل مقاطعة المنتجات مثلا؟، ويرد جاك شيراك بالحديث عن مكانة العلاقات الاقتصادية وعن أواصر الصداقة والالتقاء في الفكر والقيم، والتي طالما جمعت بين البلدين.

ولا أخفي عليكم أنني من فرط إعجابي وتقديري لكل كلمة صدرت عن شيراك في هذا الحديث، لم أكن أريد أن أسمع أحدا يقاطعه أو يطرح أي سؤال.. ومع ذلك، فبوصفي «متفرجة» محترفة، ربما يتوجب على تسجيل بعض الملاحظات .. أولا: جاء المحاور الأول من جيل رجال الأخبار المخضرمين في التليفزيون الفرنسي، له من الخبرة ما يتجاوز ربع القرن، بينما جاء المحاور الثاني من جيل أصغر في السن وفي الخبرة بالتالي، وربما يفسر ذلك أن اختيار الكلمات في الأسئلة التي طرحها، لم يكن في دقة ولا إحكام العبارة عند الأول.

ثانيا: حرص المحاوران على الانتباه لكل ما يرد في إجابات شيراك فلم يصدر عن أي منهما سؤال يضطره إلى تكرار ما لا يلزم تكراره.

ثالثا : انتبه المحاوران إلى أن جاك شيراك في هذا الحديث لا يخاطب الفرنسيين وحدهم، كما لايقف كلامه عند حدود ما يهم دول الاتحاد الأوربي وحسب، وإنما، ولأن الأمر مرتبط بتزعم فرنسا للرأي الرافض لشن حرب على العراق، فقد اجتهد المحاوران في ألا تقتصر أسئلتهما على وجهات نظر المعارضة الفرنسية أو حتى الأوربية، وإنما غطى الأمر جوانب الموقف الأمريكي برمته، فخطورة الأمر تمس مستقبل كل بني البشر..

حب الأوطان

وحين بدأ المحاوران في توجيه الشكر للرئيس شيراك، هممت بمغادرة مقعدي الذي ثبت فيه لا أقوى على حراك، وقبل أن يتشكل في ذهني السؤال، عن كيفية الرجوع لموضوع الذي نويت الكتابة فيه، كانت القناة الفرنسية «TV5» قد بدأت على الفور حوارا آخر لم يفصله عن الحوار مع شيراك أي فاصل، وإنما بعد آخر كلمة شكر تغير المشهد، من مكتب الرئيس الفرنسي إلى استوديو الأخبار، والمائدة المستديرة تجمع ثلاثة يقدمهم مدير الندوة واحدا فواحدا، وهم من كبار الصحفيين المختصين بالشئون الدولية، وممن يتكرر حضورهم للندوات رفيعة المستوى، أحدهم فرنسي، والثاني روسي والثالث أمريكي، وبدلا من أي فاصل موسيقي أو غنائي من النوع المألوف لدينا في مثل تلك المناسبات، ومع أنني

المتفرجة

واثقة أن قلب كل فرنسي كان في تلك الساعة يهتف Vive la France إلا أن حب الأوطان عندهم لا يستبدل به الغناء!!

وإنما على الفور احتدم الحوار بين أطراف الندوة، فالموضوع المطروح على مائدة الحوار، هو ذروة الخلاف الفرنسي الأمريكي، كما يتأكد من الاستشهادات المتتالية التي تخللت الكلام، وقد جاءت في جمل محددة الإيجاز لتثبت في الأذهان أن فرنسا ستقول في مجلس الأمن «لا» لضرب العراق، كما تثبت في الأذهان شرح الرئيس الفرنسي لكيفية التصويت على أي قرار، ومعنى تحقق الأغلبية، إن تحققت، ومغزى استخدام حق الفيتو لعرقلة القرار الذي يستهدف استبدال أسلوب التفتيش بأسلوب النسف، كذلك اشتمل الحوار على استشهادات من تصريحات رئيس الوزراء الروسي الذي يبلور موقف روسيا المعارض للجوء للقوة ضد العراق، ولكم أن تتصوروا نوع الكلام حين يشرح الصحفي الأمريكي مبررات الرئيس الأمريكي الراهن في ضرورة تغيير نظام الحكم في العراق، أو حين يدلل على وجود تأييد لرئيس جمهوريته من دول يبادر الصحفي الفرنسي بشرح موقفها وهو يمثل بيده شكل المسدس المصوب للرأس وبأوضح عبارة يحدد ما هو معروف عن الضغوط التي تمارسها الإدارة الأمريكية على الدول غير المنصاعة لرأيها.

وقبل أن يتبلور في ذهني السؤال: هل شاهدت حوارا بمثل هذه السخونة من قبل على أي من شاشات التليفزيون؟ كان مدير الندوة قد وجه الشكر لأطرافها وإذ بعناوين أخرى تتوالى

100 minutes pour comprendre

«مائة دقيقة من أجل الفهم»، والبرنامج يذاع على الهواء مباشرة شأن الندوة التي سبقته، ولكنه في نفس الوقت يبث على القناة الثانية الفرنسية بالاشتراك مع الخامسة TV5 التي أتابعه من خلالها..

ذكاء المخرج

ولقد صدق حدسي، وألزمني البرنامج بالفرجة المدققة، وفرض نفسه ليكون موضوع كتابتي اليوم، فكيف أنجز مهمته، وسيطر على مشاهده بهذا الإحكام؟

أولا: نجح البرنامج من أول لقطة في شد الانتباه بخلفية ظهر عليها العلم الأمريكي والعبارة المكتوبة بأقصى وضوح تقول Planet Us?، وكأن السؤال هو: هل تملك الولايات المتحدة هذا الكوكب، ومقدم البرنامج يظهر على لقطة تسمح بظهور الضيف الرئيسي الذي يقدمه لنا على أنه السيد هيوبرت فيدرين Hubert Vidrine وزير خارجية فرنسا السابق الذي كان أول من وصف الولايات المتحدة الأمريكية بأنها hyper potente أي مغالية في القوة، وعلى الفور تتسع اللقطة لتبين وجود جمهور من المشاهدين يصطفون جلوسا على مسافة كبيرة من الضيف الرئيسي وعلى اليسار مقاعد خالية بما يوحي بحضور آخرين للمشاركة.

ثانيا: أبدع المخرج فى اختيار اللقطات التى تعطى عمقا للصورة، وقد جعل مذيع البرنامج الواقف فى مركز وسيط من الخلفية قادرا على الالتفاف بكل جسده، إما ناحية الضيف الرئيسى، السيد فيدرين، أو ناحية الضيوف الذين يتتابع ظهورهم فى البرنامج، تصلنا صورتهم بالقمر الصناعى لتظهر فى مربعين كبيرين على يمين ويسار الخلفية «العلم الأمريكى»، كما حرص المخرج على استخدام اللقطات البعيدة أثناء إلقاء المذيع لأسئلته، وفى سلاسة تتحول اللقطة إلى التركيز على المتحدث فقط، إما باستخدام اللقطة المتوسطة أو التحول إلى اللقطة المقربة حين يقتضى الحال التركيز على وجه المتحدث فقط، فى مثل حال تلقى د. هنرى كيسنجر لسؤال السيد فيدرين عن تقييمه لأداء الإدارة الأمريكية الراهنة لأزمة العراق ردا على حسراته التى أبداها بأكثر من تعبير على الصداقة والحميمية التى كانت بين فرنسا والولايات المتحدة، أو حين أحرجه السيد فيدرين مرة أخرى فاضطر للقول بأنه يشترك فى البرنامج على أساس أنه سيتحدث عن كتابه الجديد القوة الأمريكية الجديدة La Nouvelle Puissance Americaine ويدور ويلف فى الكلام، وفى حذق ينقل لنا المخرج بلقطة أخرى مقربة على «فيدرين» سؤاله لكيسنجر، ولكن هل أمريكا تريد شريكا، هل تقبل أمريكا أن يكون لها شريك؟ كذلك لم ينس المخرج أن ينقل لنا لقطات ذكية تتيح لنا قراءة وجوه جمهور المشاهدين الحاضرين فى الاستوديو، ولقد فعل ذلك على مدى المائة دقيقة التى استغرقها البرنامج، والتى استضاف فيها ثلاثة عشر شخصا، ومشهد الجمهور حاضر، فى اللحظات المناسبة فقط، ولثوان معدودة، ودونما أى إسراف.

ثالثا: صدر عن كل متحدث من الكلام مايثبت تخصصه فى فرعه، وتبنيه لوجهة النظر التى يعرضها، يصدق ذلك على هيوبرت فيدرين الذى فند العديد من الحجج المنطقية الداعمة لموقف فرنسا المؤيد لإتاحة الوقت والإمكانات الملائمة لإنجاز مهمة المفتشين الدوليين المكلفين بنزع أسلحة العراق، كما يصدق على وزيرة خارجية إسبانيا ANA PALACIO، وكذلك ينطبق الحال على كل المشاركين فى البرنامج .

رابعا: أن البرنامج الذى يذاع بعد أقل من ساعة واحدة من إذاعة واحد من أخطر أحاديث الرئيس الفرنسى جاك شيراك، فى أعقد مشكلة تواجه العالم بعد الحرب العالمية الثانية، يرتفع إلى مستوى الأهمية، فيشرك فى الحوار والنقاش أربعة وزراء، فقد اشترك وزير بولندى سابق هو المؤرخ برونيسلاف جيريميك Bronislaw Germek إضافة فيدرين وكيسنجر وبالاسيو الإسبانية.. ومعهم مستشاران للرئاسة الأمريكية، واحد من إدارة كلينتون، والثانى من الإدارة الراهنة..

خامسا: أطلعنا هذا البرنامج - الذى استمر للمائة دقيقة التى ألزم مقدمه نفسه بها فى أول عبارة - على نوع فريد من تقسيم المهام لا يجعلك تتأكد هل جاء تلقائيا، أم أنه معد سلفا؟! ذلك أننى لاحظت أن الضيف الرئيسى، وهو السيد روبرت فيدرين وزير خارجية

المتفرجة

فرنسا، هو الذى يحاور كيسنجر وهو الذى يحاور السيدة بلاسيو وزيرة خارجية إسبانيا.. كما أنه هو الذى يحاور النائب الفرنسى آلان مادلين ALAIN Madelin، قرب نهاية البرنامج ، كما أنه هو الذى يجيب على أسئلة الصحفيين، أما مقدم البرنامج، فهو الذى يحاور، داڤيد فروم David Frum مستشار الرئيس الأمريكى الراهن ويسأله عن القوى الدينية المتشددة المسيطرة على الرئيس الأمريكي وحين يجيب المستشار بأن الحرب دفاع عن الحق وضد الباطل، يحرجه مقدم البرنامج بالسؤال، ومن الذى يحدد ما هو الحق، وماذا عن بن لادن وجماعته والذين يقولون نفس الكلام، إنهم يدافعون عن الحق ويحاربون الباطل؟!!

وبنفس الجدارة يسأل مقدم البرنامج مستشار الرئيس الأمريكى السابق كلينتون «روبرت مالى Robert Maley» عن العلاقة بين تمكنه من اللغة الفرنسية وموافقته على الآراء الفرنسية بشأن الأزمة موضوع البحث (لا لضرب العراق) يرد روبرت مالى بأنه خصص ست سنوات لدراسة اللغة الفرنسية – بين أمور أخرى بالطبع – أما مسألة التوافق بين رأيه ورأى الفرنسيين فى شأن أزمة العراق، فهى لأنه، ومعه جناح كبير من رجال السياسة والفكر والفن وأبناء الشعب الأمريكى، يدركون فداحة الأخطار التى تنتظر العالم إن أقدمت حكومة بلاده على ضرب العراق، ويؤكد أن الولايات المتحدة على هذا النحو غير مقدرة للاستفزاز المباشر الذى ستشكله هذه الضربة لعناصر الإرهاب فى العالم كافة. كذلك فإن مقدم البرنامج هو الذى يدير الحوار مع المؤرخ والوزير السابق الذى اشترك فى الحوار من بولندا وجاهد ليشرح التناقض فى الموقف البولندى كما بلوره له مقدم البرنامج فى سؤاله..

المهم أن البرنامج يمضى فى سلاسة مدهشة ساعد على تحقيقها الاكتفاء بلغة واحدة على مدى المائة دقيقة، وبدلا من طباعة الترجمة أسفل الكادر، وصلتنا ترجمة دقيقة باللغة الفرنسية – لكل ما جاء على ألسنة المتحدثين باللغة الانجليزية وبدرجة من الجودة تنسيك أصلا أنها ترجمة.

سادسا : قدم البرنامج ثلاثة تقارير تسجيلية، الأول عن الرئيس الأمريكى الراهن جورج بوش، والثانى عن خطة الإدارة الأمريكية لتغيير الأنظمة الحاكمة فى الشرق الأوسط، والثالث عن الدولار المستخدم للترغيب وترهيب الدول المترددة!!.

حرفية الأداء الفنى

ويكفى للتدليل على أن كل تقرير جاء فى أنسب موضع، أن أشير هنا إلى أن التقرير الخاص بالرئيس الأمريكى الراهن أذيع أثناء حديث مستشاره David Frum والذى وصلتنا صورته من مينا بوليس ليدافع عن التوجهات الدينية المتشددة للرئيس الأمريكى الراهن، وأما التقرير المسجل فهو الذى نقل لنا صورة لجورج بوش من أيام أن كان مدمنا

للخمور إلى أن أصبح الرئيس الأمريكى الراهن الذى يفاخر بالقول we are the finest people «نحن أروع شعب».

سابعاً : انتظم إيقاع البرنامج وجاء اتساقه مدهشا، ذلك أن أحداً لم يعط فرصة للتكرار أو الإملال، فأى كلمة تنم عن نية فى تكرار ما سبق قوله تكون فرصة لطرح سؤال جديد يكون أكثر إحراجا للمتحدث، ولقد كان هذا الضغط ومواصلة الإحراج فى صالحنا كمشاهدين إذ أمتعنا على مدى المائة دقيقة بتنوع جوانب وجهات النظر، سواء المؤيدة لموقف فرنسا المجيد ، أو المعارضة له.. وسواء جاءت تلك المعارضة من أطراف أمريكيين أو من أطراف فرنسيين كما هو الحال بالنسبة للصحفيّين الفرنسيّين اللذين ظهرا فى أحد مراحل البرنامج جالسيْن قبالة وزير خارجيتهم السابق روبرت فيدرين ليسألاه عن مغزى اختلاف موقف فرنسا من أزمة العراق الراهنة عن موقفها فى أزمات تم فيها من قبل التصرف بعيدا عن مجلس الأمن كما فى حالة كوسوفو، وكان ذلك فرصة لفيدرين ليشرح للعالم أهمية وثقل العراق وأهمية وثقل وخطورة بلدان الشرق الأوسط وثقافة شعوبه، .. وفوق كل عوامل الجذب والتفوق السابق الإشارة إليها، لا يفوتنى أن أشير إلى الدقائق الأولى من البرنامج.. مقابل الدقائق الأخيرة منه.. فبينما طرحت الدقائق الأولى أكثر الأمور جذبا وشدا للانتباه، حيث حضر رئيس إحدى مؤسسات استطلاع الرأى الفرنسية ومعه نتيجة أحدث الاستطلاعات لرأى الفرنسيين ويسأل السيد فيدرين عن رأيه فى أن اثنين وثمانين فى المائة من الفرنسيين يبغضون أسلوب الإدارة الأمريكية الراهنة، وتبدأ إجابة فيدرين بأن معهم الحق... إلخ. وأما عن نهاية البرنامج فقد ادخر لها معدوه أقوى سجال بين السيد فيدرين والنائب الفرنسي الان مادلين Alain Madelin وهو من أشد المعارضين لموقف الرئيس الفرنسى المجيد برفض ضرب العراق والانحياز للطريق السلمى لنزع سلاح العراق وبالتالى أسلوبا معتمدا لفض المنازعات.. وهكذا ظل البرنامج محتفظا بقدرته على جذب أقصى اهتمام من مشاهديه حتى آخر دقيقة، ذلك أن الدقائق الأخيرة، كانت تلخيصا محددا لكل جوانب الاتفاق والاختلاف وكان التوتر على أشده بين الجانبين المتقارعين بأقوى منطق للكلام.

وصحيح أن هذا البرنامج، وما سبقه بدءاً من حديث الرئيس الفرنسى جاك شيراك ، كان السبب فى أننى انصرفت إليهما بالكلية، والدافع لأن أخصهما بكتابتى للسطور السابقة بدلا مما نويته أصلا موضوعا للمقال إلا أننى أعترف أن انبهارى بحرفية الأداء الفنى والسياسى بلغ حدا لا تستدعى ذاكرتى له الآن أى مثيل ومن أجل ذلك أبقيت على العنوان، لأن تفسيرى لهذه الرفعة فى الإتقان والتجويد، وسرعة الاستجابة لمجريات الأحداث إنما هو عندى يرجع إلى احترام الفرنسيين لأنفسهم، وعشقهم لوطنهم، وهو العشق الذى يترجمونه عملا وهدفا ومهارة.

أما الآخرون الذين يتغنون بحب الأوطان وتأتى أفعالهم مخاصمة للكلام الذى به ينطقون، فلنا فيهم كلام ، وكلام. ■

مدينة الموصل

وحكاية مسجد النورى

بقلم
سهيلة الحسينى *

الموصل.. مدينة موغلة فى العراقة.. اتسم أهلها منذ فجر التاريخ بالابداع والابتكار فى مجالات الفن والابداع .

وقد حملت أسماء «نينوى» و«الحدباء» و«أم الربيعين» فكلها أسماء لمدينة جمعت أمجاد الحضارة من طرفيها، ففى العصر القديم كانت حاضرة الدولة الأشورية بعاصمتها «نينوى» و«نمرود» التى غدت العاصمة الثانية لها «١٢٨٣ ق.م» .

وفى العصر الاسلامى الأول كانت تمثل سلة الخبزوالمعبر والبوابة للجيوش الإسلامية المجاهدة وهى تنطلق فى فتوحاتها شرقا وغربا .

كما عرفت بأنها كانت من أهم مدن العراق حضاريا وثقافيا وتاريخيا بعد العاصمة بغداد وكانت أول من تصدى بشجاعة للزحف الصليبى على أرضنا العربية الإسلامية منذ أول حملة انطلقت من أوروبا سنة ١٠٩٧م.

* كاتبة وباحثة عراقية



جامع النوري في الموصل ، وتظهر فيه المنارة الحدباء ، مع جانب من أقواس صحن الجامع

ورغم حروبها الطويلة المتواصلة عبر التاريخ.. لم تكن لتميت روح فنانها المتعشق للجمال، ففي عبقريته رأينا فنه في العمارة الهندسية يسامي فنه في «التكفيت» أي تطعيم الأواني النحاسية بخيوط الفضة والذهب والعاج، ومازالت هذه التحف من أسلوب مدرسة الموصل وأعمال فنانيها موجودة (للأسف) في متحف المتروبوليتان في أمريكا واللوفر في باريس، وفي انجلترا واليونان وتركيا، مدموغة بأسماء صانعيها ومساعديهم .

لقد بقيت «الموصل» متفردة في هذا الفن تهدي تحفها للرؤساء والأمراء والحكام خارج العراق حتى دخول «التتار» وتدميرهم حضارة دار الخلافة، مما ألجأ الكثير من أمهر صناعها للهجرة إلى دمشق ومصر.. حيث نقلوا فنهم المتميز إليها .

على أن ما يعنينا من عبقريات هذه المدينة هو فن عمارة المساجد، وبالذات ثاني أقدم مساجدها (الجامعة) وهو الجامع«النوري»..!.

وطبيعي أن للمسجد خصوصية القداسة.. لذا أولاه الخلفاء والحكام اهتماما كبيرا، وتطور من البناء البسيط في صدر الإسلام إلى العمارة الفارهة في نهاية القرن الأول تخليدا لذكرى بناته من الحكام حتى بلغوا قمة الإبداع في العصور العباسية، ويصنف «الجامع النوري» كثالث أروع أعمدة المعمار في هذه الفترة .

صاحب الأثر..

لا يمكن الحديث عن هذا الصرح الشامخ دون المرور على صاحب الأثر، فقد عرفت «الموصل» حكم الأسرة الأتابكية ٥١١هـ - ٥٦٩هـ - ١١٢٧ - ١٢٦٢م. وكان قدر ملوكها الشجعان المنحدرين من أصول سلجوقية والتي «تعد من أعظم رعاة الفنون والصناعة في عصرها». إضافة إلى بسالتها في الحروب، مما جعل ملوكها وأتابكتها التصدي لغارات الصليبيين بحملاتهم العديدة، ليبرز المجاهد الكبير «نور الدين محمود زنكي» (٥١١ - ٥٦٩هـ) ابن المجاهد عمادالدين، الذي غادر الموصل تاركا ملكها لإخوانه ومتخذا من حلب ودمشق عواصم وقواعد لجهاده، وإنزال أفدح الضربات بالصليبيين. ويكفي من صفاته استشهادنا بالمؤرخ الكبير «ابن الأثير» عندما ذكر: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز، ملكا

أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه» .

حتى قيل فيه:

جمع الشجاعة والخشوع لربه

ما أحسن المحرابُ في المحرابِ

لقد أوقف هذا الزاهد البطل حياته لجهاد الصليبيين - اسوة بأبيه وأجداده - من خلال إخضاعه الإمارات العربية المستسلمة للفرنج، كذلك ضمه للإمارات الضعيفة تحت نفوذه حتى اتسع ملكه .. فلم يرحل عن دنيانا إلا وقد أرسى قواعد الوحدة بين المسلمين ، حتى خفقت أعلامه فوق الموصل والجزيرة والشام ومصر. ليسلم راية الجهاد إلى البطل صلاح الدين الذى توج هذه الملحمة باسترداده القدس الشريف!..

والحق .. لم تكن حروبه الطاحنة لتصرفه عن بناء المنشآت الخيرية العديدة فى معظم مملكته والتفكير فى المدينة التى شهدت مولده وملاعب طفولته وصباه وصدرا من شبابه، فكان دائم الحنين لزيارتها وتفقد أحوالها رغم ضيق وقته فى الجهاد حتى أهداها «درة المساجد» الذى ارتفع شامخا حتى اليوم فى قلب المدينة الأثرية العتيقة المعروفة بوفرة الآثار الإسلامية النفيسة .

وقصة الأثر

فى سنة ٥٦٦هـ زار نور الدين الموصل، ولمس ضيق مسجدها الجامع المنشأ منذ العصر الأموى بمصليه. فاختار موقعا يتوسط المدينة ومعروف بكثافته السكانية وأسواقه ليقصده أكبر عدد من المصلين ، وكان الموقع و(خرابة)، فاستحسن ذلك كى لا يشرد أحدا من بيته كما أمر «ألا يؤخذ شئ بغير اختيار أصحابها، وشرائها منهم بأوفى الأثمان».

وعندما عوتب نور الدين من بعض أجناده ممن طمع فى بنائه، باسناد البناء للشيخ الزاهد عمر الملا، قال:

«إذا وليت هذاالشيخ غلب على ظنى أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علىَّ». واستغرقت مدة بنائه العامين . حتى إذا تم بهر مرآه المؤرخين فذكره ابن شداد والعماد الحنبلى وابن الأثير والذهبى بالقول« إليه الغاية فى الحسن والاتقان»

إن سر خصوصيته التى لم تتوفر فى سائر مساجد العالم يومها ، هو (قبته وزخارفه ومنارته) و«أما قبته فتمتاز أنها فى الحقيقة قبتين إحداهما داخل الأخرى وبينهما فراغ!!» .

وأما زخرفته فمن أجملها ما يشاهد على محرابيه، أحدهما كان فى (المصلى الصيفى) للجامع وهو من المحاريب

الرائعة لما يحويه من زخارف نباتية وكتابات جميلة «لكن للإسف لم يحتفظوا عند تجديده بأكثر آثاره النفيسة . فبعضها نقل إلى المتحف العراقي في بغداد، وبعضها تلف ، وبعضها احتفظ به في الجامع » . ويحف من جانبيه زخارف نباتية دقيقة كل وحدة منها يشبه المحراب وهي تستمر إلى أعلى المحراب مما «يدل على تطور كبير في رسم الأرابسك ونضوج في عمل الزخارف الهندسية» . كما أن المسجد قائم على دعائم مثمنة .

وهناك محراب ثان قام بعده في الصحن الذي استعمل من ثم في المصلى ، ويقابل الباب الرئيسي له مزيدة بزخارف وكتابات جميلة، «وتظهر آثار تقليد الفنانين لزخارف هذا الجامع في المحاريب التي انشئت بعد هذا التاريخ» مما يدل على روح الابتكار والإبداع .

أما (منارته) التي تباهي الزمن بصمودها وشموخها فتعد من أطول

«الثور المجنح» من آثار نينوى عاصمة الدولة الأشورية (الموصل)



منائر العراق حتى عهد قريب، «إذ يبلغ ارتفاعها ٥٥ مترا وتمتاز بما يزينها من زخارف أجرية نافرة على شكل حلقات تحف بظاهرها» وهي تتألف من قسمين أحدهما منشوري يسند الجزء الأعلى منها بقاعدة رباعية ضلعها ٧٠ و٥٠ مترا وارتفاعها ١٥.٨٠ مترا مبنى بالحجر، أما الجزء الذي يعلوه فمشيد بالآجر وهو «بدن اسطواني ينتهي بقمة تشبه الخوذة» وهذا البدن» تزينه سبعة أشكال زخرفية» وفي عالمية تفرد هذا البدن أو المنارة دون غيرها، «وجود درجين داخلها لا يلتقيان إلا في أعلاها عند الحوض الذي يقف عليه المؤذن» .

كذلك بانحنائها انحناء واضحا نحو الشرق!.

ومن الطريف تعليل أهل الموصل لأسلوب درج المنارة «إذ يقولون بأن باني هذه المنارة قد حسده استاذه على عمله الجميل هذا وأضمر له الشر، ولما انتهى البناء من عمله استدعى استاذه ليطلعه عليه، وعندما صعدا معا داخل المنارة،

«قره سراي» أو القصر الأسود . من آثار الدولة الأتابكية بالموصل بناه بدر الدين لؤلؤ - القرن الخامس الهجري



أغلق الاستاذ الباب وسار خلف تلميذه وهو يضمر أن يلقيه من أعلى المنارة، لكن البناء عندما وصل إلى الحوض نزل من الدرج الثاني دون أن يعلم به استاذه، وهكذا نجا من الموت، واعترف له استاذه بالمهارة» .

مدرسة المسجد!..

رأى الملك (نورالدين زنكي) إقامة مدرسة لهذا الجامع، هدفها الجمع بين العلوم الدينية والعلوم المعرفية الأخرى. فبنى مدرسة ذكر أنها «من أحسن المدارس وأوسعها، جعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين». ورغم كون نورالدين شافعي المذهب، لكن التدريس فيها على المذهب الحنفي أيضا ، مما يعتبر مؤشرا حول عدم تعصب بانيها لتهبه أمام المذاهب الإسلامية الأخرى، وهذا من أخلاق القادة العظام .

هذه المدرسة جعلها ملحقا لمسجده الجامع، وتشاء الصدف بعد اكتمالها مرور الفقيه «عماد الدين أبو بكر التوقاني الشافعي، وهو من أصحاب الإمام محمد بن يحيى» في الموصل، فسأله نورالدين الإشراف والتدريس فيها. والحق أن نورالدين قد أكثر من إنشاء المدارس الدينية «المقامة بين الموصل ودمشق» حتى وصفه الشاعر :

ومدرسة سيفنى كل شئ

وتبقى في نمو علم ونسك

تضوّع ذكرها شرقا وغربا

بنورالدين محمود بن زنكي

لكن بكل أسف أن هذه المدرسة درست بفعل التغيرات والتجديد الذى نال ساحات وأروقة المسجد، فلم تتوصل بحوث علماء الآثار من تحديد موقعها الأصلي .

إن هذا المسجد أو التحفة المعمارية قيل في تكاليفه : « وبنى بالموصل جامعا غرم عليه ستين ألف دينار» ولعل مبلغا كهذا يومها ثروة ضخمة!

أما ما أوقفه نورالدين على المسجد، فتذكر المصادر التاريخية أنه أوقف «قرية من قرى الموصل بنلّتها»، أوقف أيضا «أعظم قيسريات الموصل وذكر أن عدد دكاكينها ٦٩٩ دكانا» .

إن وقع منارة الجامع من القلب والوجدان، لايدركه سوى أبناء «الموصل الحدباء» .. ففي توسطها في قلب المدينة، وارتفاعها السامق، تبدو كالأم الحنون التي ما تفتأ تتفقد أبناءها حيث تواجدوا فوق أرض الموصل.. رغم شيخوختها وانحناء قامتها، فهم يرونها من بعيد فتحتضنها عيونهم وقلوبهم معا بدءا من

قبيل الساحل الأيسر «لدجلة» الموصل، فتمتلئ نفوسهم غبطة وتفاؤلا واطمئنانا

هذا المسجد الجامع مازالت تقام فيه الصلوات الخمس والجمع، ويمارس دوره في الاشعاع الديني من عقد ندوات، وتحفيظ القرآن الكريم على مدار السنة، كما يعتبر مزارا سياحيا مهما لعلماء وطلاب الآثار والثقافة الاسلامية .

رحم الله هذا المجاهد البطل الملك نورالدين عماد الدين زنكي، فقد أهدى الموصل «درة المساجد» يومها .

بقيت إشارة لابد من التنويه إليها ..

إن نورالدين هذا الفنان الإسلامي الورع ، له في كل بقعة من دولته أثر إسلامي جميل يشيد بمآثره، ففي حرصه على إظهار الإسلام بأبهى حلة، قرر صنع منبر للمسجد الأقصى ، حيث مسرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأولى القبلتين وثالث الحرمين، فنورالدين لفرط تفاؤله وشدة ورعه رأى إقامته ليضعه بنفسه في مسجد الأقصى عندما «عزم على فتح بيت المقدس» فكلف لصنعه أمهر فناني النجارة، ولدقة المنبر قيل: « فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله»، ليأتي كتحفة فنية لانظير لها في كل مساجد العالم .



احد المحال في مدينة الموصل

لكن المنية وافته، على أن حلمه تحقق عندما فتح المجاهد صلاح الدين الأيوبي القدس، عندها «حمل من حلب ونصب في القدس وكان بدء عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وهذا من كرامات نورالدين وحسن مقاصده رحمه الله» . لكن مما يؤسف له حقا أن هذا المنبر والأثر الإسلامي العريق أحرقه اليهود ضمن حريق المسجد الأقصى (١٩٦٩/٨/٢١م) بعدما بقي يحمل خطباء الجمعة مؤديا أنبل رسالة ولمدة (٨١٣سنة) . ■

قصة قصيرة

قصة
محمد جبريل

بريشة الفنانة
سميحة حسنين



خطرت الفكرة في باله كالومضة لم يكن – في تلك اللحظة تحديداً – يفكر إلا في اللقاءات التي تملأ أيامه الأربعة في بيروت محاضرتان وربما ثلاث في اليوم الواحد، وأحاديث في وسائل الإعلام ولقاءات بمسئولين لم يعد نفسه حتى لمجرد السير في شارع الحمراء الذي يحب محاله ومقاهيه وصخب الحياة فيه ..

وسخفت الفكرة استبعدها أزمع أن يختصر المحاولة إن جاوز الإخفاق، فهو يستعيد الثقة الغائبة وإذا لقيت المحاولة صدى، فعليه أن يظل الأمر مقيداً داخل حجرته بالفندق الفخم نفسه الذي ظلت في سهرته بالشقة المطلة على نيل الزمالك ..

قال الطبيب : التردد يؤدى إلى الحوادث كان يقصد حوادث المرور، لكنه لاحظ أن المعنى ينسحب على كل شئ ..

تحسس – بعفوية – موضع العملية الجراحية فى صدره كيف يواجه النظرات المشفقة، أو المشمئزة؟

وبخ نفسه لأنه استدعى الفكرة، وقلبها يدعو المرأة إلى زيارته فى حجرته يقضيان معاً وقتاً لم يستمتع بمثله من قبل ..

خادمة الغرف ؟!..

يفر من المشكلة الحقيقية، فيثير مشكلات هو فى غنى عنها ..

قضى موظف الاستقبال على تردده : هل يقدم نفسه باسمه الحقيقى، أو يخترع اسماً يختفى وراءه ؟..

طلب الموظف جواز السفر تأمل البيانات وأودعه خانة مفتاح الحجرة :

– سنعيده عند نزولك..

أضاف الموظف بلهجة مرحبة :

– عدد الأيام ؟

– ثلاثة أيام أو أربعة..

ثم وهو يتكلف ابتسامة :

– مهمة عاجلة ..

استشرفت نفسه حياة غير التى يحياها غلبته الحيرة، فهو لا يقدر أن يفعل شيئا، ما يؤلمه أنه لا يقوى على البوح، السر فى داخله لا يكشف عنه يقاوم الرغبة فى أن يتكلم مع أحد يفضى عما بنفسه، يحكى ويحكى لا يسكت حتى يهدأ قيمة الصمت أنه يخفى ما نعانيه لو أن الملامح أظهرت ما فى النفس، ما قدم من القاهرة العجز معه يصحبه إلى أى مكان يقصده ليس فى جسده، وإنما فى مواجهة الظروف التى تواجهه .

قالت فادية :

– ماجد يستهلك نفسه فى إظهار الغضب لكنه لا يؤذى ..

وعلت ضحكتها فاهتز صدرها :

– ماجد كائن مسالم..

ينظر – فى استياء – إلى نظرتها المستخفة تجيش مشاعره يعلو صوته بما يمور فى داخله يبدى رأيه ويعلن ما ينوى فعله الابتسامة على شفتيها تزيد من إحساسه بالغضب، يغلبه ارتباك لا يفلح معه فى أن يقول شيئاً، يغمض عينيه يروح فى عوالم يصعب عليه تبينها، خليط من المشاعر والذكريات والميل إلى الفضفضة حتى المواقف التى لم تشغله فى وقتها ونسيها، تستعيدها ذاكرته وتملأها ..

أهمل النصيحة بأن يلغى سفره إلى بيروت، أو يؤجله، تحدث على عبيد عن اتساع حرب الميليشيات والقتل على الهوية. داخله شعور لم يستطيع تفسيره كأنه التحدى أو الرغبة فى المغامرة تأكيد ما يطمئن إليه فى نفسه، ولايراه فى أعين الآخرين حتى ضابط الجوازات فى مجمع التحرير لم يوقع بالموافقة إلا بعد أن دفع إليه على عبيد ببطاقة التوصية ..

أدار الولد النوبى الملامح مفتاح الحجرة، ودفع جرار الشرفة الزجاجى أطل من الطابق التاسع فى الفندق ذى الطوابق العشرة فى أسفل طريق الكورنيش فى زاويته المطلة على صخرة الروشة، كأنها ساقا عملاق فى قلب المياه



وأكشاك الملابس والكاسيتات والطعام وعربات الفول والترمس والذرة متجاورة فوق الرصيف ويتقافز فى الزحام باعة الورد والفل والياسمين ومياه البحر تمتد إلى نهاية الأفق، فوقها سماء صافية تتخللها سحب بيضاء ..

تأمل وجهه فى مرآة الحمام ..

التجاعيد دوائر أسفل العينين، وحول الفم، وتتباين مع شعره المصبوغ بالسواد، والبشرة باهتة والوجنتان غائرتان ..

استعاد الفكرة فى وقوفه أمام المصعد حرص على أن يتجه بنظراته - فور خروجه من المصعد -

إلى الناحية المقابلة الكاونتر الاستقبال يفطن الموظف إلى مكانته، فلا يهبه الفرصة كى يلقى اسئلة أو يعرض خدمات، هو واحد من نزلاء الفندق لا شأن له بأحد، ولاشأن للآخرين به، لكن كيف يجد ما يطلبه ؟ كيف تنشأ العلاقة ؟..

لو أن موظف الاستقبال، أو أى عامل فى الفندق فطن إلى ما أزمع فعله فستؤذيه الفضيحة بما لا يتصوره..

لحقة صوت عادل :

- أريد نقوداً ..

اتجة ناحيته بنظرة غاضبة :

- أنا أنفق على البيت كله وليس عليك وحدك

- أردت أن تصبح أباً لذلك ثمنه ..

ثم وهو يطرقع

أصابعه :

- أريد نقوداً ..

هز رأســـه دلالة الرفض..

قال عادل :

- إذا لم أحـصل على ما أريد لن أضمن تصرفى .. تفجرت فى داخله رغبة فى الشتم أو فى العراك .

- أفعل ما تشاء !

وهو يزيح شهادات التقدير والأوسمة والميداليات عن الأرفف والجدران، ويقذف بها من النافذة المطلة على بقايا بناية متهدمة :

- هذا ما أفعله ..

اكـتـفى بنظرة الذهول تملأ ملامحه فكر فى أن يمنعه، يصرخ فيه أو يدفعه أو يصفعه، لكن العجز شل تفكيره وتصرفه خشى تصرفاً لايتوقعه ماذا يفعل لو أن الولد رد إليه أذيته ؟!.. يصفعه فيرد عادل الصفعة بمثلها ينتهى كل شئ لا أبوة ولا بنوة ولا أسرة لا أى شئ.. يتمنى الموت ..

قال لنبرة الإشفاق فى قول على عبيد :

- أنت لا تعمل حساباً للمستقبل..

- معى ما يكفى المستقبل ..

وتلكأت الكلمات :

- يهمنى أن أنفق ما أملكه فى حياتى ..

ثم وهو يصر على أضراسه:

- لا أريد أن يرثنى ابنى فى مليم واحد ..

- أعطاك الله العمر لكن الحرص على ألا يرثك عادل يثير التأمل .

- لماذا ؟

يقلب الكلمات فى ذهنه، فلا يجد إجابة محددة برفض لأنه يريد ذلك. ما معنى أن أعمل وأكسب ثم يرث أى أحد ما ضيعت العمر لتدبيره يجب أن يعلم عادل وفادية أنه قادر على اتخاذ القرار، أنا أرفض وأقبل وامنع وأعطى اتخذ قرارى بكل الثقة، أملى إرادتى لا تشغلنى ردود الأفعال، ما افعله هو حقى..

اعتذر عن المرافقة بأنه يريد السير فى شوارع الكويت بمفرده ، سأل عن السوق استعاد التسمية:

- واجف ؟

- إنها مجرد سوق شعبية ..

أهمل التحذير وسأل عن الطريق ..

مضى من ساحة الصفا الأسقف الشبيهة بالقيساريات دفعت معظم المحال إلى إضاءة الداخل. غالبية البضائع قديمة، أو مستعملة ، فى الوسط طاولات خشبية فوقها ملابس نسائية ومفروشات وسجاجيد ،

استعاد زحام وكالة البلح..

قال الرجل :

- أفهم ماتريد التعبير عنه ..

ثم وهو يحدجه بنظره تتوقع رد الفعل :

- سأعد لك وصفة لا تخيب !

غلبه الارتباك ادرك أن الرجل خمن عكس ما يعانيه قال :

- أنا لا أشكو ضعفا. ابتسم الرجل بالحيرة :

- ماذا تشكو إذن ؟

كان يضايقه التقاط تلميحه بما يعانيه بمعنى لا يتغير تقتصر الأحاديث علي ما يضيف إلى حيويته، تقترن بالإيماءات والكلمات الملتفة بالغموض ما يعانيه كائن في داخله لا دخل له بمرض، ولا يحتاج إلى شيء مما يشيرون عليه به، شيء لا يدري مصدره ، وإن



استقر في داخله، يثيره ويشقيه بالإحباط بأنه غير قادر على التصرف وعاجز ..

قال البائع فى شارع الحبيب بورقية :

- أفهم ما تريد التعبير عنه ..

أضاف وهو يقدم له حبة صغيرة:

- خذ هذه .. تجعل ما تعانيه من الماضي ..

وضع الحبة بين شفتيه تبعها بجرعة ماء تصاعد فى اللحظات التالية مالم يخطر له ببال : خيالات ومشاهد ونشوة تقربه من الغيبوبة، سرى ما يشبه الخدر فى أعصابه أغمض عينيه فى استسلام، تصور- بتأثير النشوة - أن أنفه طال فكاد يسد الطريق أبطأ من خطواته حتى لا يصطدم بالمارة أو العربات، داهمه التوجس فعوج أنفه باصابعه ليحقق انتظام المرور خطر له أن يصرخ ، ويغنى ويرقص ويجرى إلى حيث تذهب به قدماه، عبر الطريق إلى الناحية المقابلة، استبدل البائع شرائط كثيرة حتى هز رأسة بالموافقة الصوت الأنثوى يتغنى بالعلاقة منذ بداياتها يتعمد المط والتلكؤ والبحة المتحشرجة والأنفاس اللاهثة مالت الرءوس وتقاربت الأجساد، وتعالت الهمسات الصاخبة ..

قال البائع وهو يقلب الشريط على الوجه الآخر:

- أثق أن هذا ما تريده ..

ابتسم للتعبيرات والتعليقات التى علقت

على الدكاكين المجاورة للكاتدرائية بشارع الحبيب بورقيبة دفع - في زيارته الأخيرة إلى تونس أربعة دولارات لكي يكتب له البائع أمنية على بطاقة مزينة بالورود أطال التفكير فيما يتمناه لها، طلب البائع أن يترك العبارة الأمنية، استقبلته بما اعتاد من الجفاء، فلم يتذكر البطاقة إلا عندما فتشت في جيوبه قبل أن يبعث البدلة إلى المغسلة..

نسي حتى ما قدم من أجله إلى بيروت وهو يجلس في كازينو لبنان ينصت إلى المغنية الصغيرة المتلئة تردد أغنية فيروز باحبك يا لبنان، وثمة آلاف النقاط الضوئية تفترش مساحات السواد فوق الجبل حرص على تناول ما يميز الطعام اللبناني الكبة والتبولة والفتوش والحمص بالطحينة واللحم بالجبن وورق العنب والمحاشي والمتبلات حتى الحلويات - رغم الضغط والسكر - أكل البقلاوة والقطائف وعيش السرايه والعثمانلية وزنود الست..

عانى كثرة الحواجز على مفارق الطرق مدرعات وسيارات جيب، وبزات عسكرية وذات الوان متباينة والميكروفونات يتعالى منها التعليمات والأوامر والشعارات مكتوبة بالبويات الملونة والطباشير تملأ الحوائط وأسفلت الطريق وأبواب الدكاكين المغلقة وسواتر البنايات المتهدمة والملصقات على الجدران ولافتات القماش تصل ما بين أعمدة النور في تقاطعات الشوارع تؤيد وتستنكر وتحيي وتبايع وتبشر بالخلاص وصور الزعماء والقادة معلقة على النوافذ والمشربيات والأعلام التي تنتمي إلى تنظيمات يسمع عنها أو لا يعرفها أنهله الدمار في وسط بيروت سوق الطويلة وباب إدريس وساحة البرج البنايات المتهدمة، وفجوات الصواريخ وثقوب الرصاص ..

أشار سائق التاكسي إلى النافذة التي كان يقف وراءها وبيده بندقية يصعد بها إلى من يحدده التلسكوب لم يعد القتل على الهوية ولا بعد القاء الأسئلة من يجري بسرعة أو يمشي ببطء، أو يتلفت يصوب عليه دون أن يتلقى أمراً أو يعطي إنذاراً استعاد التسمية :

- قبرص ؟

أعاد فاروق معوض القول :

- قبرص وهي غير قبرص ..

ثم بلهجة محرضة :

- بها نبع ماء ساخن يتدفق من الصخر لو أنك أكثرت من الغطس فيها فالنتيجة مؤكدة أشفق من الارتفاع الهائل الذي بلغته السيارة على

الطريق الصاعدة بدا الوادي في أسفل مفروشاً بالخضرة تنتهي بالشريط الساحلي الجبل الصاعد المتعرج نفسه ارتقته السيارة في قريات وإن تسربل الجبل العماني بالصخور والوحشة واختلطت – في الوادي – مساحات الصخور والرمال ويقع الخضرة القليلة ..

المياة تجري ساخنة إلى الدائرة الحجرية المتصلة بالبحر تبلغ مستوى الركبة تظل السخونة على ارتفاعها إلى خارج الدائرة، على عشرات الأمتار في اختلاطها بموج البحر ..

– من أين تأتي هذه العين ؟

– من الصخور البداية لا يعرفها أحد، لكنها تنبثق من الصخور

دلى قدميه في مياه الدائرة الحجرية، لسعته السخونة فرفعها تشجع



عندما أبقت الفتاة قدمها في الماء دلى قدميه، وتحمل الحرارة .

تنبه على صيحة اربكته . كان الشاب ذو الأفرول الكاكي يتفحصه بنظرة مرتابة :

– ماذا تريد ؟

أدرك أنه أكثر من التلفت فيما يثير التأمل والأسئلة غالب إحساسه بالارتباك :

– أنا أتنزه ..

وهو يرغده بكعب البندقية في جنبه :

– تتنزه في منطقة عسكرية

المناطق متشابهة : الحواجز والمتاريس واللافتات والشعارات والمليشيات العسكرية تعمد ألا يواجهه بعينيه يخشى أن يلمح التخاذل في نظرته :

– لم أكن أعرف .

لم يعد قادراً على الفهم، ولا الاستيعاب، ولا التصرف ثمة شئ ينقصه، وإن لم يدركه على وجه التحديد، عاني ما يشبه شلل الإرادة اختلطت الرؤى، والخيالات والأصوات التي يغيب مصدرها ..

أعاد الشاب دفعه بكعب البندقية تأوه وسقط واصل الشاب دفعه وهو يزحف اعتمد على راحتيه وركبتيه، حتى توقفت الضربات، وانحسر ظل الشاب، زم شفتيه، وإن ظل على تلة، وهو يرقب الشاب مبتعداً، في وقفته المنعزلة وسط الميدان الصغير ..

كان ذهنه قد خلا من كل شئ . ■

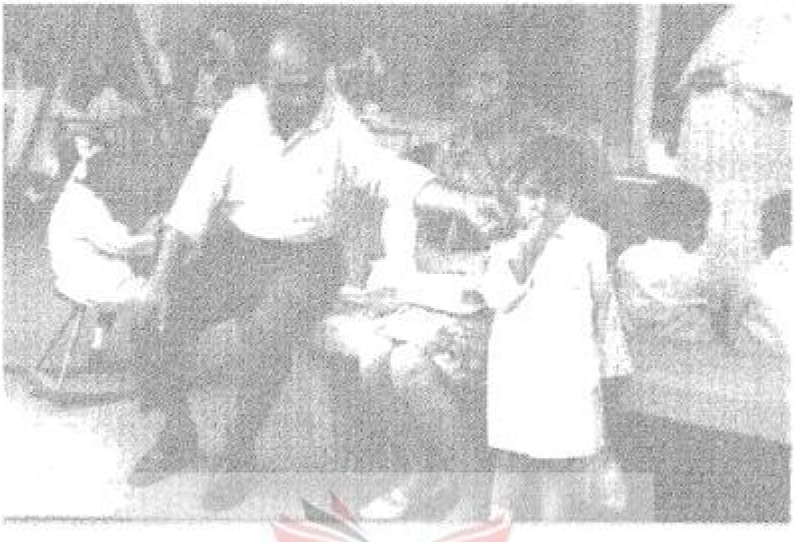
التكوين

هرولة الحياة

سناء البيسي

عندما طلب مني «الهلال» الكتابة عن التكوين - تكويني - شعرت بأنه يدفعني إلي كرسي الاعتراف.. ساءلت نفسي هل أستطيع الجلوس إليه بنيّة خالصة لقول ما لم أفصح عنه من قبل؟.. في أن أفتح درج الأسرار وأمزّق الشرانق ليلتقي المخبأ الدفين الراقد المتقوقع في دهاليز الغفلة بوهج الكشف وعري اللا تخفي وفيض الوضوح نافضا عن كاهله تراب الكمون والاحتواء والاختفاء والتواري والمكوث في الركن الظليل البعيد؟.. قرار البوح؟.. النية في تذوق حلاوة التصريح؟.. نزع الخوف من القلب؟.. خروج الساحة الخلفية إلي المسرح الأمامي؟.. مواجهة ما قد كان ليكون؟.. حسم الاكتواء بنار الانغلاق والهداية لنعيم الإفصاح؟.. النظر إلي الماضي بعين الحاضر؟.. إزماع وضع النقاط علي الحروف؟.. محو الشطب وإباحة المغلق؟.. نية السرد وتأصيل ما قد أوجز واختصر وبتر في هرولة الحياة؟.. الفضفضة بعد الخصخصة؟.. جواز المرور لحقائق كان قد صدر القرار من قبل بعدم جدواها أو أهميتها أو أثرها وكان قرارنا بمنعها من السفر والترحال والتجوال؟.. الآن مرحبا بخروج الصرخة المكتومة بالأعماق، ونزول الدمعة المحبوسة في المآقي، وجلجلة الضحكة التي قطعها حادث أليم... أن يقرأ أحد تاريخي. أن يدخل آخر أعماقي. أن أغدو مرشدة للقارىء ليسبح في ثنايا دهاليزي ويطرق غرفي الخاصة.. هذا قدري، ولتفتح كل الأبواب علي مصراعيها لنشر الغسيل تحت عين الشمس ليداعبه الهواء يطهره من أشواك النميمة وملاحقات الكدر وفضول المتلصصين، ورواسب إحباطات وسأم..





هشام فى اليوم الاول بالحضانة

التكوين.. لابد وأن تكويني قد ارتبط ارتباطا وثيقا بحكم موقعى الأسرى كالابنة الوسطى بين الشقيقتين، لا أنا الكبرى لألقى حظوة الصدارة ولا أنا الصغرى المدللة كآخر العنقود، هذا وإن كنت بحكم صحة الإنجاب قد جئت بعد ميلاد شقيقتين: البكرية رجاء، التي توفيت إثر إصابتها بحمى التيفود ، وكانت حكاياتهم الموجعة من حولى أن العدوى قد انتقلت منى اليها، لتسللها إلى فراشي لتقبّلني فى غفلة من الجميع، فذهبتْ هى ونجوتُ أنا ليبقى الإحساس بالذنب مسيطرا على طفولتى . كلما أتى ذكرها ولمعت الدمعة فى عيون والدي الذى كان يخبىء حقيبتها الوردية الصدفية، ذات السلسلة الذهبية الطويلة ، فى درجه الخاص لأفاجئه مرات وقد ضمها إلى صدره ورفعها يتشممها الى أنفه كأنه يستعيدها إليه..

أنا السبب.. أنا السبب.. ومع رحيل الأيام وخفوت حدة الألام، خرجت الحقيبة الى النور بعد العديد من الرجاوات لتعلقها شقيقتى الكبرى فى كتفها، ولا أجسر أنا أن ألمسها بيدى.. وأصبح وضعى المؤكد بحكم التسلسل الابنة الوسطى التى تريد أن ينسى الجميع فعلتها، وأن تشد إليها الانتباه بأى شكل.. أن تقول للمحيطين اللاهين من حولها أنا هنا.. أن تشب على أقدامها لترتفع بحكم ذكائها، أو

موهبتها، أو شدة طاعتها أو دبلوماسيتها أو مداهنتها للسيد الوالد أو السيدة الوالدة.. أنا بحبك يا بابا أكثر.. أنا بحبك أكثر ياماما.. أن تلفت إليها الأنظار فلا يمرون عليها مرور الكرام، بعدما يمدحون آمال الكبيرة ويصطفون بثينة الصغيرة.. لكن حقيقة شيئا من الغيرة من أى منهما، لم يتطرق يوما إلى مشاعرى . فقد نشأنا إلى جانب صلة الدم الوثقى صديقات لا يستقيم يوم إحدانا إلا بسماع صوت الأخرى فى التليفون مرات، أو رؤيتها بالعين، وإن كان فى زيارة متعجلة للاطمئنان، وربما أتى هذا الترابط نتاج التربية الصارمة لأمى فى هذا الاتجاه بالذات: «مش عايزه أسمع واحدة منكم بتقول كلمة إشمعنى.. لازم تعرفوا وتحطوها حلقة فى ودانكم أنا ماعنديش فى بناتى خيار وفاقوس».

ومكثت حتى يومنا هذا لم ألتق بهذا الفاقوس ولا بشخوص وعفاريت طفولتى بدءا من «أبو رجل مسلوخة» الذى اكتملت أسباب سلخه فى خيالى بوقوع الماء المغلى عليها ومن هنا لم أعد أخافه، والشمامة التى تأتى لتشم أى واحدة منا إذا لم تغسل يديها وأسنانها قبل النوم، وأمنا الغولة التى تطرح كتاكيتها وتقعد تسرح شعرها إذا ما انعدل مزاجها أو تلملمه وتنكش شعرها إذا ما نوت على الشر، والسيد زوجها الغول الذى لا نجاة من سطوة جبروته إلا بأن ترخى ست الحسن والجمال ضفائرها الطوال ليتسلقها الشاطر حسن، فترفعه إليها قبل أن تناله أنياب الغول فى حر الجبال، وتوته توته فرغت الحدوتة، حلوة يا روحى ولاّ ملتوتة.. كمان يا ماما حدوتة.. صلى على النبى، اللهم زد النبى صلاة.. كان ياما كان يا سعد يا إكرام ما يحلى الكلام إلا بذكر النبى عليه أفضل الصلاة والسلام.. وتغفو على حواديت كلها ملوك وشطّار وأمراء وبنات الحور، وارتفاع قيم الخير وقهر قوى الشر. وخيال كله جمال بنخلة فضة ، ونخلة دهب، وبحيرة متلئلئة تحت ضوء القمر وفسقية حصاها لآلى، وفيروز ومرجان ومراكب محملة زاد وزوّاد وبلاد تشيلك وبلاد تحطك، وبرنسيسات وصولجانات وتيجان، وعلى بابا والأميرة ذات الهمة وسندريللا والعروسة للعريس والجرى للمتاعيس، وعاشوا فى تبات ونبات وخلفّوا صبيان وبنات... وبين مجلدات مكتبة، والدى الزاخرة وجدتها.. ألف ليلة وليلة بطبعتها القديمة غير المنقّحة ولا المحتشمة.. لم يعترض قراءتى لها بل تركها لى، وزاد، على ذلك بأن دعانى بعقلية متفتحة لأنتقى ما يحلو لى من رفوف الكتب والمجلدات والمخطوطات والموسوعات.. غطست بين صفحات التاريخ والتراث والتفسيروالأدب والشعر.. فى سن مبكرة نهلت المعرفة فى، جميع الاتجاهات.. قرأت الأدب الروسى والروايات المترجمة لكبار الكتاب، ومازلت



في ظلال لوحة تجريدية لكنعان ..
صافي ناز كاظم وسناء وكنعان



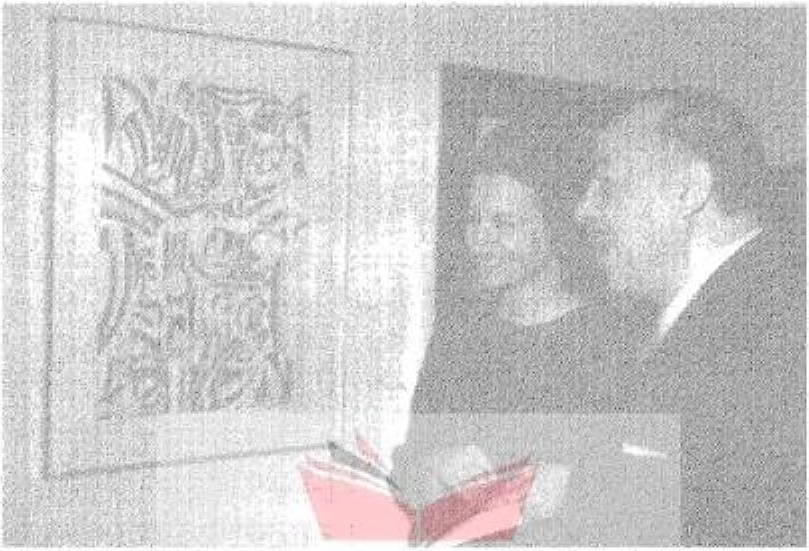
الشقيقات الثلاث آمال وسناء وبثينة

حتى الآن أستعيد ـ ربما سنويا ـ مجموعات دستويفسكي وتشيكوف ومكسيم جوركي وجوجول وتورجنيف، وقرأت مجلدات مجلة الرسالة والفصول والمختار، وروايات جورجي زيدان، وكنت الابنة المتُعِبة في العائلة التي لا تهوى الزيارات أو المصاحبة لحفل أو عيد ميلاد، فمتعتي الوحيدة هي، القراءة، وكانت أجمل، هدية تصلني ما كان يحمله لي عبدالحميد إبن عمتي بين وقت وآخر من حقيبة سفر ضخمة تضم عشرات الروايات الأجنبية التي تستغرقني وألبي أثناء قراءتها صوت أمي الصارخ لتناول الغذاء وأنا كالمنوَّمة أبتلع اللقيمات شاردة وذهني على ما قد تركته من سرد لم يكتمل وأحداث لم أصل لنهايتها...

عشق للآثار

كان الوالد يشغل منصب مدير مصلحة الآثار العربية، وكان أقرب الأصدقاء ، إليه هو عالم الآثار الإسلامية حسن عبدالوهاب الذي قام بتجديد وتحديث قبة الصخرة في القدس، وأشرف على غطائها الذهبي ،وأيضا جامع محمد على بالقلعة في زمن الملك فاروق.. كان لي بمثابة جامعة تاريخية تمدني وقت الحاجة بما لا يملكه أحد من معلومات نادرة.. أسأله: يا عم حسن هل كانت هناك سكرتيرات في الإسلام؟!.. ولا تمضي الدقائق ،إلا ويطلبني ليملي على قلمي عشرات الأسماء في الدولة العباسية والفاطمية والأيوبية.. والمرأة الفنانة في التاريخ الإسلامي؟!.. فيأتي لي عالم الآثار ـ الذي أطلق اسمه

التكوين



في معرض الفنانة سناء البيسي الذي افتتحه د. عبد القادر حاتم

على أحد شوارع مصر القديمة - من الفنانات بالعشرات ويدعم علمه باللوحات والصور الفوتوغرافية التي التقطها بنفسه فقد سجلت عدسته الرائعة جميع الآثار الإسلامية في مصر بقاهرتها ومحافظاتها ووجهيها البحرى والقبلي، وأيضا الأثر الإسلامي في العديد من البلاد المجاورة وقد تم جمعها في عدة مؤلفات للأسف اختفت وسط ركام الأدعياء.. هذا الرجل العظيم حسن عبدالوهاب الذي احتلت مكتبته النفيسة ثلاثة أدوار في منزله بشبرا وكان الصاعد إليه يمر بين صفوفها المتراصة على كلا جانبي السلم..

عمى حسن من ترك له والدى أمر تسميتي عند ميلادى كان فيما بعد أول من بارك ارتباطي العاطفي بالفنان منير كنعان وأقنع والدى بأنه أصلح من يكون لي زوجا وشريكا..

مع الكتاب وعوالمه

ولابد وأنها الجينات التي جعلتني أعشق الكتاب وصحبته وأندس بين صفحاته وعوالمه أتآخى مع شخوصه. أحيا تاريخه وتنطبع سطوره على شاشات لا مرئية بداخلي لا علم لي بمكانها أو محتواها ظاهريا، حتى أنني أحيا بمشاعر الصفحة



تورتة الاحتفال بعيد ميلاد مصطفى أمين

البيضاء المسطحة والفراغات المجوّفة.. وكأن لا سطرا قرأته ولا اسما طالعت نقشه، ولا كتابا فتحته، ولا كاتبا أعجبت به.. إلى أن.. إلى أن تجيش عواطفي.. إلى أن تلمع الشرارة.. إلى أن تدوى دقات المسرح لينكشف الستار عن كلماتى.. لحظة الكشف هذه التى قد تفاجئنى، أوقد لاستحضارها غابات بخورى تدفعنى لأمسك بالقلم، لأجد ما كان مشتورا غائبا فى الخفاء المكنون قد انهمر يتسابق يتلاحق يتوالى ليهبط على الأوراق صيغا وجملا ومحتوى كأن شخصا متعجلا هناك واقفا من خلفى يملى على قلمي، وغالبا ما أعانى من فيض كلمات بنفس المعنى ومرادفات ليس لها حصر تتسع دوائرها لتبتلعنى، وتحملنى الغواية اللغوية إلى ماليس له مدى، فبحور اللغة العربية الغاطس فيها مولود والزاهد فيها مفقود، لكنى حتى لا يتوه القصد الذى كتبت من أجله فى البداية أتوقف، أهمد لأجنب الكثير وأشطب السطور بمشاعر قاتلة.. تلك الحصيلة الكنز لابد وأن تكون سكنتنى لنهمى وولعى بالقراءة، فمنذ طفولتى وكتابى قائم نائم فى فراشى

لا تزورنى الغفلة ولا أسقط فى جُبِّ النوم إلا بعدما يسقط على صدرى.. ولا أفتح كتابا جديدا إلا وتحضرنى نصيحة أمى مدمنة القراءة التى ما كان يغادرنا والدى إلى عمله إلا وتهرع إلى نظّارتها ذات الشنبر المكسور لتجلس تقرأ تقرأ إلى قرب موعد عودته فتهرع إلى المطبخ لتجهيز وجبة "نىّ فى نىّ" بمساعدة الشغالة لا مكان فيها لصنوف المحشى أو الصوانى المسبّكة.. كانت نصيحتها الغالية بألا تصدقى بدايات الكتب فتسد نفسك عن قراءتها ، فما البداية سوى رصف الطريق لمدخل مدينة عامرة زاخرة وعالم ينبض بالحياة والتجارب والحكم، وكلما توغلت فى الصفحات تأتى الحلاوة أكثر فأكثر، وأهم شىء فيما بعد النهاية الجلوس إلى النفس لاستعادة المفاهيم التى عرضها الكتاب ومدى أهمية موضوعه، ومراجعة كيفية نقلاته واستهلالات فصوله.. كانت أمى قد مارست هوايتها فى القراءة منذ الصغر على ضوء البطارية تحت اللحاف حتى لا تُكتشف مخالفتها وطيشها ورعونتها فتنال العقاب، وكانت تكتب القصة القصيرة فى الخفاء وترسلها لمجلات وصحف عصرها مذيلة باسم «لولو» وتحتها عبارة «مترجمة عن الفرنسية» ومازلت للآن أحتفظ بإحدى أعداد مجلة «الصباح» التى نشرت إحدى قصصها الناعمة.. كانت رحمها الله لا تترك سطرا فى الجرنال إلا وتقرأه عاشقة للمقالات والتحليلات السياسية وكانت من المعجبات بالمقال الافتتاحى لعمى الدكتور سيد البيسى لجريدة «الزمان» وذلك قبل أن ترى والدى بسنوات، وأذكر جلستها بالروب الستان ذى الوردات الكبيرة أمام عمى العائد من باريس بعد حصوله على الدكتوراه من جامعة مونبلييه حول علاقة السياسة بالاقتصاد .. كانت توجه إليه سؤالها الدائم إيه رأيك يا دكتور فى الأوضاع؟!.. وتجادله وتعرض رأيها المتواضع بثقة بالغة فى مسائل السلام والحرب والاحتلال البريطانى والكومنولث..

أمي وحضورها الطاغي

كم روت لنا أمى عن أحداث ثورة سنة ١٩١٩ وخروج المرأة فى المظاهرات تطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، ومنها عرفت أن الزعيم سعد زغلول كما سمعته كان ينطق حرف القاف كاف فى خطبه الحماسية، وأن أمتع متحدث إذاعى كان الكاتب الصحفى فكرى أباظة.. وكانت من عشاق روايات مصطفى لطفى المنفلوطى «فى سبيل التاج» و «تحت ظلال الزيزفون» وبالذات «الفضيلة» التى قاربت أن تجعلنى أحفظها عن ظهر قلب لمحتواها الأخلاقى..

كانت تستهل أوتوجراف الذكرى لنا بجملتها المعهودة «وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا» وإذا ما استرسلت فى مهمتها التربوية المدوّنة تضيف عبارة «الغوانى يغرهن

الثناء.. وليتني كنت في مثل شخصيتها وقوة حجتها وحسن بيانها وحضورها الطاغي الذي مازال أفراد أبناء ذوي القرابة حتى البعيدة منها يحكون عنها بإعجاب بالغ ويروون عنها مواقف كلها شهامة قامت بها معهم.. ذلك الحضور الذي جعلها في زمانها رغم تعليمها المنزلي ترأس لجان الأوقاف الأهلية التي تنادي بحل الوقف على أساس الشرع لا كما أوقفه بعض أصحاب الثروات الضخمة الذين أصيبوا بما يشبه العتة فقد كان منهم من حرم الأبناء والأحفاد من الميراث ليتركه للقطط، ومن أوقف أمواله على مجاذيب سيدنا الحسين، ومن أوصى بكافة ممتلكاته لأحد الأبناء تاركا عائلته تعاني الفقر، وكانت والدتي نفسها تعاني من جور عقلية جدها ووالدها اللذان أوقفا ثرواتهما على الذكور دون الإناث بحجة أن الأنثى سوف تتزوج حتما وبالتالي لا يجب أن تذهب الثروة إلى الرجل الغريب وأبنائه ..

كانت أمي تدافع عن قضيتها بجسارة وتعود من جولاتها تروي كيف استقبلها الرئيس جمال عبدالناصر بحفاوة في بيته بمنشية البكري وإنصاته وتعاطفه مع وجهة نظرها، وكيف حادثت الكاتب أحمد الصاوي محمد في مكتبه بالأهرام، ليتبنى في عاموده «ما قل ودل» قضية الحق، وكيف اندفعت تدخل مكتب الشيخ



في معرض كنعان ودردشة ضاحكة مع أحمد بهاء الدين ود. رفعت كامل

الباقوري لياصر الشرع، وكان يلازمها في جولاتها لطفي الخولي - الكاتب الشهير فيما بعد - أحد المتدربين في مكتب المحامي المعروف موريس أرقش والذي تزوج ابنته فيما بعد، وكانت تتنبأ للشاب الوسيم لطفي بمستقبل مرموق من حيث كتابته المذكرات القانونية، وتناوله لبنود الدفاع، وكان يحضر اجتماعاتها بصفة دائمة النبيل عباس حليم الذي يرسل لها المذكرات المذيلة بتوقيعه على عنوان بيتنا.. و.. يتمادى إعجابي بوالدي الذي كان يشجعها وينصت بإعجاب بالغ لشجاعتها ويعضد إنجازاتها، ولم أجده يوما معها متزمتا أو ممارسا تعسفات سي السيد أو ضيق أفق الكثير من الأزواج الذين مازلت أراهم ونحن في القرن الواحد والعشرين..

في عالم القلم

على نهج سعة الصدر والأفق نشأت في

التكوين

محيط يحترم المرأة وكنت معجبة بأمى مسترشدة بثقافة والدى وثقته البالغة فى تربية بناته حيث لم يزج بنا يوما فى حظيرة الحريم أو يحرمنا من ممارسة أى نشاط اجتماعى أو ترفيهى أو رياضى بحجة أنه وقفٌ على صنف الذكور وحدهم، ومازلت أذكر الشقيقة الصغرى بثينة التى كانت تهوى التمثيل وتقوم بأداء دور البطولة على المسرح المدرسى ومن قبلها تجرى البروفات فى حجرة والدى الذى يصفق لها إذا ما أجادت ويستعيد معها دورها مرات ومرات، ولقد مارستُ هواية ركوب الخيل وشجعنى لأكون أول فتاة تقوم بمهمة الجوكى مادامت هذه رغبتى لكن الدراسة منعتنى من أن أحققها، وقد توقع لى مبكرا نجاحا فى عالم القلم خاصة عندما نلت جائزة اللغة العربية وأنا فى السنة الثالثة من المرحلة الابتدائية عن موضوع للإنشاء تخيلت فيه غروب الشمس مشهدا دمويا بعرض السماء تقاتل فيه جيوش الظلام المغيرة فلول جيوش النور المنسحقة، لتنتصر عليها فى ساحة القتال لمعركة الأزل وتعاقب الليل والنهار.. كانت أمنيته أن يرانى يوما مثل الدكتورة بنت الشاطىء، وابتلعت غصتى بعد سنوات عديدة عندما كانت سيارة الأهرام تقلنا معا أنا والأستاذة القديرة عائشة عبدالرحمن فتمدح كلمات كتبتُها فأحكى لها عن أمنية والدى.. فتذكر الدكتورة تلك الواقعة فى إحدى مقالاتها..

والدى كان قد ارتأى لى فى البداية أن أغدو محامية لأستعين بمكتبته القانونية العامرة فيما بعد، وبالفعل قدمتُ أوراق التوجيهية التى حصلت على نجاحى فيها بدرجة تفوق عالية تمنحنى المجانية، قدمتها لكلية حقوق عين شمس الواقعة فى آخر شارعنا بالعباسية. وانتظرت مشوار القانون، وقبل الدخول بأيام سمعت النداء على اسمى يأتينى من مدخل عمارتنا.. صديقة العمر منذ الطفولة صافى ناز كاظم من كانت تدخل معى فى مضمار السباق التفوقى فى الإنشاء والتعبير وتتهمنى بأن أبى هو الذى يكتب لى مايعجب به أستاذ اللغة العربية.. كانت تصرخ لأسمع نبأ حلم حياتى.. فتحوا قسم جديد للصحافة بجامعة القاهرة، ولم أكمل طلبى من أبى الذى سارع ليلحقنى به لنلتقى أنا وصافى ناز بجهابذة الأساتذة .. الدكتور محمد مندور والدكتور عبداللطيف حمزة والدكتور خليل صابات والدكتور يوسف مراد والدكتورة عائشة راتب والدكتور ابراهيم إمام والدكتور أحمد الصاوى.. أساتذة المعرفة فى كل مجال، لأن الصحافة موسوعة تشمل جميع الميادين، وعلى من يمارس العمل فى بلاطها أن يكون ملمًا بما يدور فى كل الأمور واعيا السياسة والثقافة والرياضة والتصوير والطب والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والتصوف والموسيقى والأدب والشعر و.. الخ.. ولقد مهدنى والدى بالفعل ودون أن يدرى لعملى

الصحفى داخل روح الفريق ،وذلك بأن كان يشترك لي أنا والشقيقات فى جميع الرحلات والمخيمات المدرسية والجامعية في الداخل والخارج. وكان اسم أى زميل يأتى على لسانى بشكل طبيعى لأروى لأبى نوادره وتفوقه، فيبارك الروح الجامعية ومرح الشباب، وكان أعذب حديث على سمعه عند عودتى من عملى الصحفي لأجلس أحكي له ماجرى مع مصطفى أمين وعلى أمين، وماسمعته فى ندوة العقاد ، وعن فنجان الشاى مع الأديب محمود تيمور، الذى يدعونا إلى محاضرته ببطاقات مطبوعة تذكر عنوان موضوع المحاضرة وبعدها عبارة «ويعقبها شاى» لهذا كنا نسأل بعضنا «حتروح النهاردة يعقبه؟» وتذهب الشلة وتستمع وتناقش وتشرب الشاى وتأكل الجاتوه، وكانت ابتسامة والدى المشجعة تكسبنى بخيلاء لا نظير لها عندما ينصت للتفاصيل الدقيقة المصاحبة لحواراتى العديدة مع عمالقة الجيل أمثال عبدالرحمن صدقى وتوفيق الحكيم وأحمد رامى وطه حسين ومحمد عبدالوهاب وأحمد لطفى السيد وسيف وانلى و.. وكانت أذان استشعار والدى شديدة الوعى لأى بادرة تفوق لدى بناته لهذا كان يدعو صديقه الفنان الحسين فوزى لبيتنا ليطلعه على مدى استعدادنا للرسم فيقوم معه بتشجيع جذوة الفن فى دمائنا مما جعل لوحات شقيقتى الكبرى آمال تغطى جدران المدرسة، وتحلم بمستقبل تلتحق



عالم الفروسية الذى عشقته

فيه بأكاديميتنا فى روما لدراسة الفن، وعلى الجانب الآخر فقد أرسى التشجيع فى دمائى عشق الفرشاه وأصحابها ليقودنى العشق إلى مرتبة الارتباط العاطفى بالفنان كنعان، قبل أن تراه عيونى فقد كنت أقوم مع آمال بقص رسومه الصحفية فى مجلات وإصدارات دار الهلال - الإثنين والمصور والإيماج وروايات الهلال - لجمعها داخل مجلد خاص به وحده ،مع مجلدات أخرى للرسامات أمثال عزيزة وسميحة .وبعد ارتباطنا الفعلى عرفت أن الفنانتين كانتا تلميذات لكنعان الذى أصبح أستاذى فى الفن والحياة..

وللتكوين بقية

عاطف مصطفى

الهلال.. ووحدة الثقافة العربية

التهنئة واجبة على قراء الهلال لمجلتهم العريقة بعد أن أصبح سجل الهلال فى أكثر من ١١٠ أعوام بين يدى القراء خدمة للفكر والثقافة العربية ، ولابد لهذه الخطوة أن تتبعها خطوات أخرى لنشر روائع تراثه الخالد .. وبين يدى كتاب «أحسن ما كتبت» «علم . فن . فلسفة . اجتماع باقلام طائفة من خيرة العلماء والأدباء فى الشرق العربى عنيت بنشره دار الهلال سنة ١٩٢٤».

وانقسمت مقالات هذا الكتاب إلى قسمين : قسم اختار اصحابه مقالاتهم باعتبار انها أحسن ما كتبوا فى الماضى ، وقد اكتمل لنا من عملية الاختيار نحو ٧٣ - مقاله - فى موضوعات شتى لنحو ٦٧ كاتبا وشاعرا من أعلام الكتاب والشعراء فى البلاد العربية ، وفى طليعتهم : عبدالعزيز البشري ، عبدالرحمن شهبندر ، أمير بقطر ، خليل مطران ، فريد وجدى ، عباس العقاد وغيرهم.

وكتاب «أحسن ما كتبت» ، يكشف بعمق عن وحدة الثقافة العربية والتى أرست «الهلال» قواعدها منذ أن صدر فى سنة ١٨٩٢ ، ولقد ضربت مثلا واحدا على أن كنوز الهلال وروائعه لم تنشر بعد ، والمطلوب أن يكون من بين إصدارات الهلال كتاب شهرى بعنوان «تراث الهلال» لنشر روائع كنوزه وتراثه الخالد .

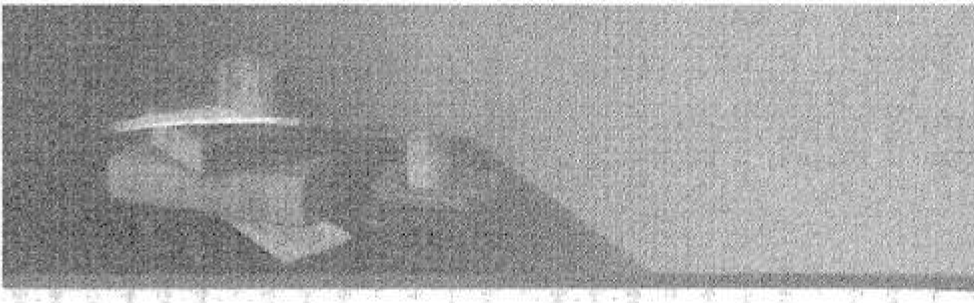
عمرو عبدالمنعم حموده
برما - مركز طنطا

الهلال : نحرص على طبع تراث الهلال وابرازه فعلا ، وذلك من خلال التعاون مع دار الكتب ، وبعد الانتهاء من الجزءين المتبقيين من «سجل الهلال» والمتوقع طبعهما هذا العام ، وندرس فعلا نشر إصدارات من تراث الهلال وما أكثرها .

متى نتخلص من العقلية البيروقراطية؟

هل يمكن لأحد أن يصدق ذلك ، مقال أرسله الدكتور سلمان حسين أبو ستة الباحث الفلسطينى للنشر فى الهلال ، وبعثه عن طريق D.H.L حرصا على وصوله ، فإذا حامل الرسالة يرفض تسليمها إلا بعد أن يحصل على خمسين جنيها جمارك ، وهى رسالة صحفية ستنشر فى مجلة مصرية ، ولأول مرة نرى تحصيل جمارك على الكلام الذى سينشر فى إحدى مجلاتنا القومية ..!

فهل هناك عقل وراء هذه الاجراءات ...



ثم نتحدث عن الدور الثقافى العربى لمصر .. ونشكو من غلبة المحلية وتقلص الدور العربى للقاهرة ..

قل لى بالله عليك .. متى نتخلص من تلك العقلية البيروقراطية الجاثمة على صدرنا ...

تحرير مجلة الهلال

الجواهرى يناجى الفرات

وكأن الشاعر العراقى الكبير محمد مهدى الجواهرى يناجى العراق فى محنته من وراء الغيب ، من خلال شعره الذى تغنى فيه بوطنه ، هذا الوطن الذى يتعرض الآن لمحنة قاسية تتمثل فى العدوان الأنجلو أمريكى على أرض العراق ، وهذه أبيات قرأتها من ديوانه ، وكأنه معنا الآن

طغى فضوعف منه الحسن والخطر ... وفاض فالأرض والأشجار تنغمر
وراعت الطائر والظمآن هيبته ... فمر وهو جبان فوقه حذر
كأنما هو فى آنيه جبل ... على الضفاف مطل وهى تنحدر

* * *

هو الفرات وكم فى أمره عجب ... فى حالتيه وكم فى آيه عبر
بينا هو البحر لا تسطاع غضبته ... إذا استشاط فلا يبقى ولا يذر
إذا به واهن المجرى يعارضه ... عود ، ويمنعه عن سيره حجر
وصفحة من بديع الشعر منظرة ... طامى العباب مطلا فوقه القمر
وقد بدت خضرة الأشجار لامعة ... مغمورة بسناه فهى تزدهر
ومن على ضفتيه انصاع منغمرا ... فى الماء نصف ، ونصف فوقه الشجر
باتت على خطر ناس بثورته ... وراح يؤنسنا فى المنظر الخطر
وهكذا الناس يغريهم تخيلهم ... حتى يجيئوا إلى البلوى فيختبروا
كما أتى الحرب فنان ليرسمها ... فى حين آخر يصلى جسمه الشرر

* * *

كان العراق سوادا من مزارعه ... على بنيه يفئ الظل والثمر
• تفيض خيرا على الأقطار غلته ... موفورة لسنين الجوع تدخر

من قصيدة «الفرات الطاغى»
نشرت فى ٧ مايو ١٩٣٥

ويل لمن لا يشهد

ما عاد يخفى المشهد ... ويل لمن لا يشهد
عاد الأعادى عودة ... لبلادنا لا تحمد
عادوا بكل سلاحهم ... وسلاحنا يستبعد
يتسلحون وما لنا ... هذا ولا حتى يد
ويفتشون على الذى ... هو عندنا ليبددوا
فى أرضنا فى عرضنا ... سادوا هنا واستعبدوا
صرنا لهم ولأمرهم ... وعلى الجميع السيد
سبحان من هو ناظر ... لعباده لا يبعد
لابد من عود له ... حتى تعود لنا اليد

*

عودوا إليه فإنه ... رب يعين وينجد
عودوا إليه بضعفكم ... فهو القوى المنجد
وتوحدوا فعدوكم ... كم فله المتوحد

حسن أبو الغيط
المصيلحة - منوفية

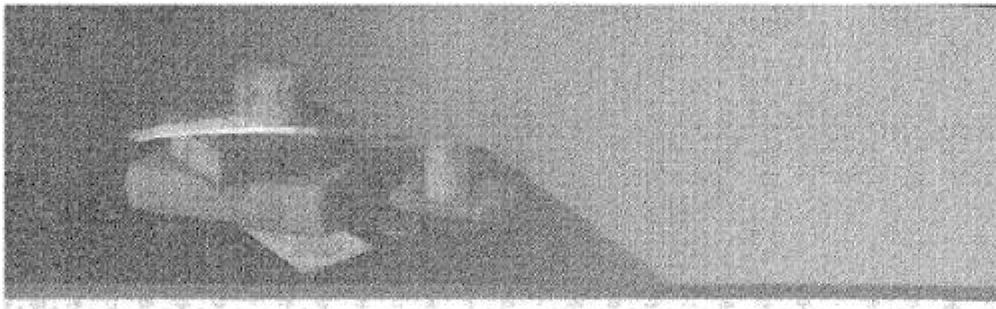
الخوف من الاستنساخ

العلم هو من عند الله . ولا يمكن لبشر أن يحيط بأسرار علمه ولا بمشيئته . فلا داع إذا من الخوف من الخوض فى أسرار الحياة خاصة وقد كلفنا بالنظر فى كيفية بدء الخلق . فهذه هى مهمة الإنسان التى خلق من أجلها دون باقى المخلوقات . وفى ذلك العمل عبادة خالصة .

قد تحدث خلال الاكتشافات العلمية بعض الأضرار لكن من الممكن دائما تفاديها بمعونة من الله كى تعم الفائدة .

حدث ذلك فى أبحاث الذرة ، ورغم خطورتها لا يمكن إنكار ما أحدثته من تقدم وفائدة .

مثلها أبحاث الفضاء رغم الأخطار المحدقة بها . كما وينطبق ذلك أيضا على أبحاث الكروموزمات والجينات وبالتالى علوم الاستنساخ وما قد يستجد من أبحاث



فى علوم أخرى لم تطرق بعد .

إن العلم يحتاج منا إلى التشجيع وإلى الاهتمام ، وتلافى الأضرار ، ويحتاج إلى صبر وتماسك وهدوء حكيم ، حتى لا يحدث الإحباط وحتى نكون مساهمين فى الخيرات .

وثقتنا فى الله كبيرة فهو خير حافظ ، كما لا يؤده حفظ السماوات والأرض وما فيها . ولم يوجد ولن يوجد من يتحدى الله فكل شئ يجرى بإذنه ومشيئته فلتطمئن النفوس .

مهندس رستم غالب
القاهرة - مصر الجديدة

لماذا الصمت تجاه العدوان علينا !؟

إن مصير بوش وهيبة واشنطن أصبحا مرتبطين بمصير الحرب على العراق والتى يشتد أوارها على الجبهة العراقية الآن.

والمسألة لم تعد قضية أسلحة دمار شامل ، ولكنها تتمحور فى سمعة أمريكا وقدرتها على فرض القرارات ، حرصا على مصالحها وبعث الرعب فى قلوب الآخرين ، ورسم مستقبل الدول والشعوب فى منطقة الشرق الأوسط .

والغريب أننا نقف صامتين لا ندرى ماذا نفعل إزاء هذا العدوان ، ويحضرنى هنا بيتان لشاعر قديم يقول فيهما :

مالى أراكم نياما فى بلهنية ... وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
فاشفوا غليلى برأى منكم حصد ... يصبح فؤادى له ريان قد نفعا

والشاعر هنا يعجب أن قومه ينعمون بما هم فيه من رغد العيش وقد غفلوا عما يرون من نذر الحرب ، ومن ثم يدعوهم إلى الأخذ برأى حازم من موقعهم هذا حتى تطمئن نفسه ويرتاح باله !

إن ما شجع بوش على إعلان الحرب ، ذلك الضعف الواضح فى جبهة مناهضة الحرب ، وموقفها هذا يتيح لأمريكا وإسرائيل العمل على تبديل حدود ومعالم المنطقة العربية ..

ولا ينبغى أن نقف مكتوفى الأيدى إزاء هذه الهجمة الأمريكية الصهيونية الشرسة ، حتى نسلم من شرها وننجو من عار الهزيمة !

د. صموئيل لبيب سيحه
باحث تاريخى - المنيا

أنت والهلال

استجابة فورية من المجلس الأعلى للثقافة

قرأت موضوع رئيس التحرير والمنشور فى عدد مارس بعنوان : حكاية أحد الطيور المهاجرة : ذكريات وثلاثة كتب عن مصر وتعجبت كثيرا لماذا لم تقوموا بترجمة كتاب «القاهرة» لمؤلفه البروفسير محمد شرابى خاصة أنه يسجل أهم نواحى العمارة فى مصر .

أحمد ابراهيم
ميونيخ

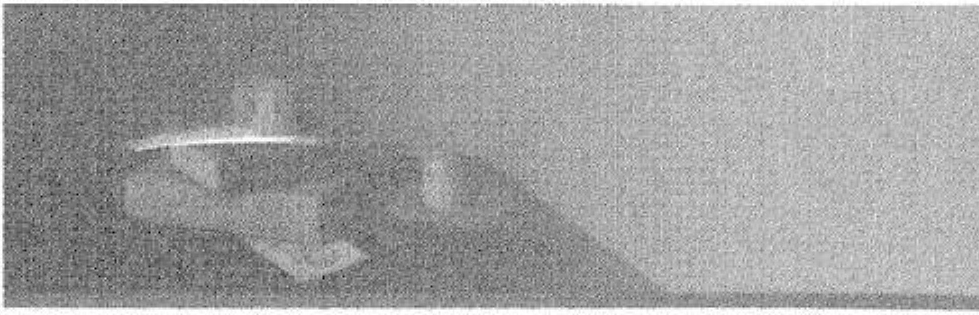
الهلال : فعلا هذا الكتاب له أهمية خاصة ، وقد قرر الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة بترجمته ودخل بالفعل ضمن خطة الترجمة.

ونتمنى أن تتم أيضًا ترجمة الكتابين الآخرين للدكتور محمد شرابى وهما «البازار» و«الصناعة والتصنيع فى مصر» .

الربيع

تلألأ الضوء فى وجه الزمان وقال ... هذا الربيع القادم الفتان
هذا الربيع كسا الأشجار من حلل ... وألبس الورد ألوانا فألوان
فيهتف الطير فوق الغصن مبتسما ... فتسمع الصوت ألحانا فألحان
ما أبدع الكون والألوان تغمره ... والورد صفق مثل الطير فرحان
تطيب الكون من تلك العطور فما ... أمست بقاع إلا فيها ريحان
ما أبدع الله فى آلائه حكم ... كأن كل الدنا تهتف بإيمان
فسبح الله فى احجاره النمل ... وقدس الله تحت الماء حيتان
نرى الربيع وقد عمت حدائقنا ... بهجة ونرجس فيها وسنان
ما أروع الحق والإيمان إن نظرت ... عين اللبيب بلا زور وبهتان

أحمد نادى عبدالرحمن
أسيوط - ديروط



الفطير والأرز باللبن في مدارسنا !

بدأت تنتشر فى هذه الأيام إعلانات على سور المدارس فى القاهرة والاسكندرية وغيرها «المدرسة نظيفة ومنتجة ومتطورة» ولكونى عملت طبيبا بالمدارس لعدة سنوات تساءلت ما هو إنتاج المدارس ؟ .. والجميع أجاب بقوله هل اشتريت الفطير والأرز باللبن صناعة مدرسات المدرسة ؟ ولأن المهنة ، مهنة الطب تغلب على ، تساءلت ، هل لدى هؤلاء المدرسات شهادات صحية ؟ ثم هل توضع مدة صلاحية على ما تقوم به تلك المدرسات ؟

إن كانتين المدرسة يقدم أغذية مغلفة مضمونة وعليها مدة الصلاحية وهذا يجنب الطلاب أية أضرار من الممكن أن تحدث لهم .

لماذا يكون نشاط المدارس فى هذا النوع ، فقط ، وهل انتهى الإنتاج عن حد ملء البطون ؟ ..

أين النشاطات الأخرى .. إننا نرغب فى ملء العقول بأنشطة عديدة مأمونة ومتنوعة أيضا .

د. جمال على العطار
الأسكندرية - كامب شيزار

حكايا المحبين والعشاق

تعترى المحبين أعراض وعلامات ، ويضفى عليهم الحب صفات وعادات ، ومع شدة الجوى يكثر الأرق والسهر ، بل وقد تصل إلى حد مصرع العشاق .

يقول الشاعر :

أسهرتمونى أنام الله أعينكم　　لسنا نبالى إذا ما لمت من سهر

وللشعراء العشاق مبررات للبكا وذرف للدموع ، وفى ذلك يقول الشريف الرضى :

يقولون ما بقيت بالعين عبرة　　فقلت جوا لو تعلمون أليم
لو بخلت عينى إذن لعتبتهـــا　　فكيف ودمع الناظرين كريم

وقال ابن الدمينة مخاطبا محبوبته مى :

وهل للحب إلا زفرة بعد زفرة　　وحر على الأحشاء ليس له بـرد
وفيض دموع العين يامى كلما　　بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

سأل المأمون كل من ثمامه ويحيى بن أكثم : ما هو العشق ؟

فقال يحيى : العشق سوانح تسنح للمرء يهتم بها القلب وتأسرها النفس .

أنت والهلال

وقال ثمامه : العشق جليس ممتع وأليف مؤنس ، وصاحب ملك مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآرائها ، توارى عن الأبصار مدخله وعمى فى القلوب مسلكه !

محمد أمين العيسوى -الاسماعيلية

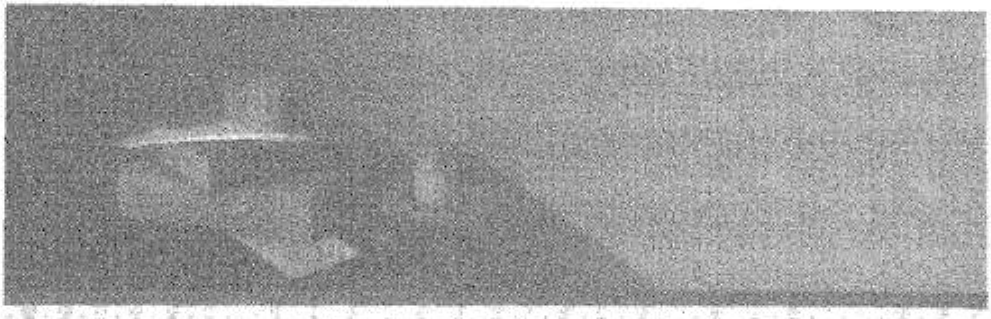
حبيبتى

حبيبتى ..
أشكوك يا حبيبتى إليك ..
لأنك فى سجن صمتى
غاضب عليك ..
هل تعلمين كيف أقتل الكلام
ولا أبوح يا حبيبتى
بحرقة الغرام
فتارة يصرعنى الضياء
وتارة
يقتلنى الظلام
لأننا لا نلتقى
ولا نقول ما نريد
مثل كل عاشق
لأننا .. لأننا
لأن حبنا حرام
إذا ضحكت مرة
تعذب القمر
وإن حزنت مرة
تهاطل المطر
يا قبلة لذيذة فى خاطرى ..
متى يكون الموعد ؟
اليوم فات وانقضى ..
فهل يفوتنا الغد ؟

***

حبيبتى
هل تعلمين كم أنا أحب
وأننى لا أستطيع أن أقول
وأن الحب فيك قصة جديدة
فصولها تطول
والقول فيك لعبة خطيرة
والصمت فيك حيرة كبيرة
وأنت يا حبيبتى
ندية
كزهرة الحقول
وأنت يا حبيبتى
قاهرة
كدورة الفصول
وأنت يا حبيبتى
شهية
كنكهة الحياة فى حشاشة القتيل.
ما أجمل الصباح فى خديك ..
وأرحب السماء فى عينيك

الشاذلى زوكار - تونس



مع الأصدقاء

عاصم فريد البرقوقى - الاسكندرية - جليم

إن أصدقاء السلام يحتاجون منا إلى وقفة لكى نوفيهم حقهم فى موقفهم الشجاع ، ولقد كان أملنا أن تحدث المعجزة ، وينقذ حاكم العراق شعبه بدلا من الحرب المدمرة .

محمود أحمد عيد - بيلا

الرجاء عودة باب «لغويات» وهو باب مفيد جدا ومهم فى التعرف على جمال وثراء لغتنا العربية ، والتى تعانى من الغربة بين أبنائها ، على حين يعتز الآخرون بلغتهم .

أيها الصديق : بدأ الهلال من الشهر الماضى بعودة هذا الباب ويكتبه الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ولا تخف على لغتنا العربية لغة القرآن الكريم ، فهى أبدا لن تكون غريبة بين أبنائها .

رمضان ابراهيم بشير - قنا - دشنا - أبو دياب

شكرا على مساهمتك والتى نجتزئ منها هذه السطور

للبنت التى أشعلت فى الحرائق
ثم أعلنت فجأة الرحيل
للبنت التى ابتسمت
لوجهى دقائق
ثم تركته عليل
للبنت التى لوثت
ورد الحدائق
وخلفته ذابلا ذليلا
لتلك البنت
أهدى دفاتر شعرى كلها
وقبلة من جمر قلبى
التى احرقته منذ سنين

الكلمة الأخيرة

محنة العراق



بقلم: محمد عودة

ربما كان واجباً ونحن نمر بهذه الفترة العصيبة أن نراجع تاريخنا وتراثنا نسائل وأن نستمد منه العزم والصمود.

وقد خرج العرب إلى التاريخ بعقيدة وشريعة غيرت حياة الإنسانية وتفتح العرب وتشربوا كل الحضارات والثقافات بلا تحجر وبذلك تفاعلوا وأبدعوا في كل الميادين: الفلسفة والعلوم والفنون والآداب والسياسة والحرب والطب.

وقدر للعرب على مر تاريخهم أن يواجهوا أدق التحديات وأكثر المواجهات وأصبح ذلك محور كفاحهم ومحك إيمانهم.

واجه العرب مسلمين ونصارى مائتي عام من زحف راية الصليب، وزعمت أنها سوف تحرر وتسترد قبر المسيح ولم يخدعوا أحداً وعرفها العرب باسمها الصحيح حروب الفرنجة، والذين دفعهم أسلاب وأحلام كنوز الشرق بعد أن ضاقت بهم أوروبا وتتالت تلك الحروب تسع حملات مكثفة حفلت بكل الفظائع والكبائر وانتهت آخرها بأسر الملك [illegible] لويس التاسع ملك فرنسا في دار ابن لقمان في المنصورة، وقدر العرب [illegible] أشد هولاً ومداه [illegible] خمسمائة عام ويطلق عليه عصر السيادة الأوروبية بعد من سقوط غرناطة عام ١٤٥٩ حتى سقوط الإمبراطورية [illegible] الأعظم [illegible] عام ١٩٥٦.

وخلال تلك [illegible] العربي مثل الكعكة وتنافس فيها [illegible] وانتهت سيادة أوروبا نهاية دلة [illegible] بطل شاب غير تاريخ العرب واسمه جمال عبد الناصر.

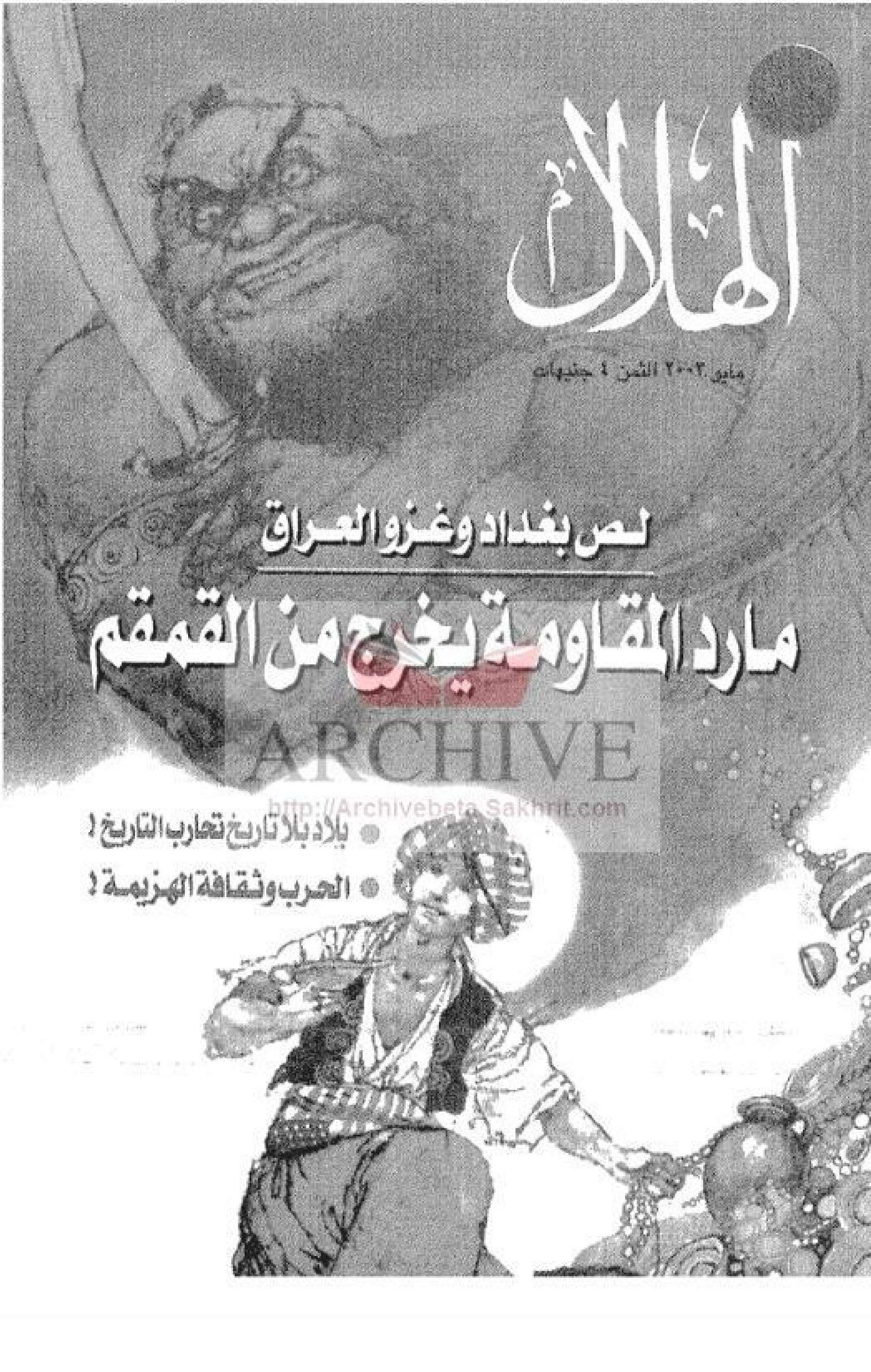
ولم يقدر للعرب أن يهنأوا طويلاً بالنصر الذي خرج منتزعاً من الشاطئ الأيمن للأطلنطي بحق على سقوط الإمبراطوريتين «العريقتين» ترك فراغاً خطيراً في المنطقة والميزان الدولي وأن على القوة الجديدة الأعظم أن تملأه على الفور وتمت صياغة الافتراء في نظرية استراتيجية أطلق عليها اسم الرئيس الأمريكي «أيزنهاور» وأصبح قدر العرب أن يواصلوا المواجهة غير المتكافئة والتي تضاعفت وطأتها وضراوتها إلى أقصاها والمحنة التي تواجهها العراق الآن هي استمرار للنظرية وتحقيق لها في ثوب جديد.

وتقول القاعدة الاستراتيجية التي وضعها نابليون بونابرت ولا تزال سارية ثابتة: من يريد السيطرة على العالم لابد أن يسيطر على الشرق، ومن يريد ذلك لابد أن يبدأ من الشرق الأوسط.

ولم يشعر الرئيس بوش بالقلق أو الحرقة ولم يصارحه أحد بأن الأرض العربية تحفل بمقابر الغزاة!


تعلن عن
تخصيص خدمة تليفونية للجمهور
٣٩٠٣٤٤٤
(ثمانية خطوط) من ١٠ ص حتى ٥ م
لسرعة الرد على استفساراتكم في الحجز و تأكيد الحجز
و معرفة اسعار و مواعيد الرحلات
كما تعلن عن تخصيص ارقام التليفونات
التالية للرد على استفسارات شركات السياحة
ت: ٢٩٢٩٧٨٧ - ٢٩٢٧٤٤٤
٢٩٢٧٤١٧ - ٢٩٢٧٣٣٩
و للاستعلام عن مواعيد الاقلاع
و وصول رحلات مصر للطيران
يمكن الاتصال باستعلامات المطار ارقام :
ت: ٦٣٥٠٢٦٠ - ٦٣٥٠٢٧٠
www.egyptair.com.eg


أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢



الهلال

مايو ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

لص بغداد وغزو العراق

مارد المقاومة يخرج من القمقم

- بلاد بلا تاريخ تحارب التاريخ!
- الحرب وثقافة الهزيمة!



لوحة وفنان

تكوين
للفنان العراقى
رسول علوان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
السنة الحادية عشرة بعد المائة ربيع أول ١٤٢٤ هـ - مايو ٢٠٠٣ م

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتب: ص.ب : ٦١٠ العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - التلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
٣٦٢٥٤٧٠ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

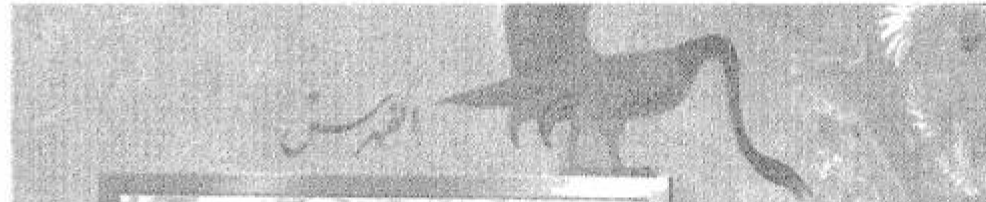
محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار - إيطاليا ٥ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٣ جنيه - أمريكا ٨ دولارات



الفهرس

٨ - الوعي بالتاريخ .... د. مصطفى سويف

١٦ - ثقافة الهزيمة ..... د. أحمد يوسف أحمد

٢٢ - مستقبل النظام العربي

.... سيد أحمد أبوزيد عمر

٢٦ - غزو العراق وانهيار النظام الدولي

.... د. منير زهران

٣٦ - شعراء مصر يحيون العراق

.... د. محمد رجب البيومي

٤١ - بغداد .. قصيدة .... محمد التهامي

٤٦ - الشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة

.... وديع فلسطين

٥٠ - [illegible] قصيدة

.... سليم الرافعي

٥٦ - الشعر الحر في العراق

.... د. يوسف عزالدين

٦٤ - الإعلام والحرب على العراق

.... د. جلال أمين

٧٠ - بغداد .. مقطعات من قصيدة مطولة

.... عبداللطيف عبدالحليم

٧٢ - حرب العراق على الانترنت

.... د. أحمد محمد صالح

٨٢ - الحرب والثقافة

.... زاهد مطر



تصميم الغلاف للفنان

محمد أبو طالب

عن رسم للفنان

فيكتور امبروس

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عدداً) [illegible] داخل جمهورية مصر العربية [illegible] بحوالة بريدية غير حكومية [illegible] البلاد العربية ٢٥ دولاراً، أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً، باقي دول العالم ٥٥ دولاراً.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت 13079 ت ٧٤٦١٨٦٤

القيمة تسدد مقدماً نقداً أو بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.



٨٨ - ايديولوجية الحرب الأمريكية على العراق
.... جميل مطر
٩٦ - بلاد بلا تاريخ تجارب التاريخ
.... محمد يوسف عدس
١٠٦ - جرحك يا صويحب .... صافي ناز كاظم
١١٠ - المتحف البغدادي: العراق محنة ثقافية
١٢٢ - العراق من الحضارات القديمة حتى حضارة العصر العباسي .... د. عطية القوصي
١٢٤ - سقوط بغداد .... د. يوسف زيدان
١٤٢ - ثورة العشرين .... د. علي بركات
١٥٢ - العتبات المقدسة في العراق
.... هاني فحص
١٦٢ - معلقة مانثور الأبد «قصيدة»
.... محمد عفيفي مطر
١٨٠ - المتفرجة (النجاة) .... مرفت رجب
١٨٤ - «شيكاغو» تعرية لطريقة الحياة الأمريكية
.... مصطفى درويش
١٨٨ - الرجل الذي يبكي أمام البنك «قصة»
.... محمد السيد سالم
١٩٢ - لبيبة هاشم وفتاة الشرق
.... أحمد حسين الطماوي
٢٠٢ - المعركة التي فجرها منصور فهمي باشا
.... شكري فؤاد

الأبواب الثابتة

- عزيزي القارئ...... ٦
- أقوال معاصرة .. ٢١
- لغـويات.. ٨١
د. الطاهر أحمد مكي
- من ذخائر الكتب العربية
كتاب الموسيقى الكبير
د. نبيل حنفي محمود
.... ١٧٠
- ... بالهـلال
عاطف مصطفى ٢٣٠
- الكلمة الأخيرة
محمود أحمد...... ٢٣٦



العراق يبعث من جديد

بعد سقوط بغداد، تلك اللحظة التاريخية الفارقة التي نعيشها، لا يمكن للنظام العربى أن يقف عاجزا، أو أن يدور فى حلقات مفرغة، وأن يكتفى بأن تلقى الأنظمة العربية المسئولية على هذا الفريق أو ذاك، وتستثنى نفسها على الدوام.

وعلى المفكرين والمثقفين والخبراء القيام بمراجعة شاملة لدروس التجارب المريرة الماضية، التى مرت بالبلدان العربية، والخروج من هذه المراجعة بخطة عمل، تعالج جذور التخلف الذى أوصلنا لهذه الحالة من الضعف والهوان.

ويلاحظ أنه كلما وقعت هزيمة، نبحث عن أسبابها فى العوامل الخارجية، أو يتهم كل طرف عربى طرفا آخر، ورغم أن ذلك على الأرجح صحيح فى بعض جوانبه، إلا أن البحث فى عوامل القصور الذاتى هو الأجدى والأنفع، والذى يساهم بحق فى علاج أسباب الضعف الذى نعانيه.

والاهتمام بالخارج والتغاضى عن الداخل، هو ما حصل بعد هزيمة ١٩٤٨ فى فلسطين، وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى مصر، ولا يجوز أن يحصل عقب هزيمة أبريل ٢٠٠٣ فى العراق.

حقا .. كانت الفرقة والمنازعات الداخلية فى كل بلد عربى، أحد «جنرالات» قوى العدوان، كما كان الانقسام الداخلى «جنرالا» آخر فى خدمة العدو، ولكن الاكتفاء بتبادل الاتهامات ، لا يؤدى لأية نتيجة سوى أنه يزيد من عوامل الضعف والوهن، ويؤكد حالة التخلف، ويخفى حقيقة المرض، وهو ما جرى طوال القرنين الماضيين.

فبعد كل هذه التجارب، حان وقت الإفاقة.. فليس أمام العرب سوى العمل المتواصل بفكر جديد، ومنهج جديد، وعقلية عصرية جديدة..

ولعل اختفاء النظام العراقى، يساهم فى استرداد النظام العربى فاعليته، فلاشك أن احتلال الكويت، أصاب النظام العربى فى مقتل، واليوم لم يعد مقبولا أن يظل العرب فى مقاعد المتفرجين، ولا يقدمون العون الصادق للشعب العراقى.

وهذه إطلالة على ما وقع فى العراق خلال نصف القرن الماضى.. لا نقصد منها النظر إلى الوراء، وإنما من أجل التعرف على مسار التجربة ودروسها وقوانينها، ومن ثم طريقة مواجهة المستقبل، ونلمس كيف عانت العراق من العشائر والطغيان وأخيرا الاحتلال الانجلو أمريكى، فقد كانت العراق قبل ثورة ١٩٥٨ جزءا من أحزمة الاستعمار الغربى، وإحدى ركائز حلف بغداد، وعلى وفاق مع جاراتها، إيران الشاه، وتركيا حلف الأطلنطى، أيامها استولى الغرب على نفط العراق، وسكنت المشكلة الكردية، وهدأت عشائر الوسط والجنوب.

وفجأة قامت الثورة كجزء من المد القومى، وكجزء من حركة التحرر الوطنى وانسحبت العراق من حلف بغداد، وأدارت العراق ظهرها للغرب واتجهت نحو العرب، فواجهت حكومات الثورة المتعاقبة الكثير من المصاعب، ولم تنعم تلك الحكومات يوما بالاستقرار ، وقامت حركات التمرد الكردى فى الشمال، وسقطت تلك الحكومات فى الصراع الداخلى، الذى شغلها عن مواجهة تحديات التخلف.

وعانت البلاد من صراعات المدارس الفكرية المختلفة وبين القوى السياسية، ولم تمهلها الأحداث لتجاوز العلاقات العشائرية والأوضاع الطائفية، وتصادمت القوى الحديثة التي كان يقع عليها عبء النهضة، وحيدت بعضها البعض وفقدت تأثيرها على الأحداث.

أما أولئك الثوار الذين حملوا أرواحهم على أكفهم يوم الثورة، فسرعان ما دب الخلاف بينهم، ووقع الصراع بين قطبي الثورة، عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف، ووقف الحزب الشيوعي العراقي وراء قاسم، ووقفت القوى القومية وراء عارف..!

وبعد سقوط قاسم وتولي عارف السلطة في فبراير ١٩٦٣، قامت القوى القومية بالعمل على تصفية الحزب الشيوعي العراقي، ولم تلبث هذه القوى حتي انقسمت على نفسها، وقام أطرافها بتصفية الحرس القومي الذي أنشأه حزب البعث، ويرجح الكثيرون أن مصرع الرئيس عبدالسلام عارف كان مدبرا، وعاد حزب البعث وأسقط عبدالرحمن عارف، وتولى البعث السلطة منفردا في ١٧ يوليو ١٩٦٨، ولم تتوقف التصفيات، واستمر نزوح العراقيين الى الخارج، وكان أبرز هذه التصفيات تلك التي أسفرت عن إعدام ما يزيد على ثلث القيادة الحاكمة والتي ضمت عدنان حسين وغانم عبدالجليل وغيرهما.

هذا كان أحد أسباب إشعال الحروب، إحداها ضد إيران والأخرى ضد الكويت.

ورغم كل ما أوقعته هذه الحملة الأمريكية الإنجليزية على الشعب العراقي، ورغم تدمير قواه السياسية ومدنه ومصانعه، ونهب جامعاته ومستشفياته ومتاحفه، فقد خرج الشعب العراقي يعبر عن نفسه في مظاهرات ترفض كلا من الاحتلال الأجنبي والطغيان والعشائرية.

فإذا كانت قوات الاحتلال خاضت هذه الحرب من أجل التخلص من أسلحة الدمار الشامل التي لم تجد لها أثرا، وإن قامت من أجل إسقاط النظام العربي، فقد سقط!!

أما إذا كانت تسعى إلى تأكيد السيطرة الأمريكية على العالم، أو حتى إلى فرض نظام إقليمي وخريطة جديدة، أو من أجل ثروات العراق البترولية، أو تأمين وجود إسرائيل، وتطبيقا لما جاء في العهد القديم والذي يروي خروج اليهود مرتين، إحداهما من العراق على يد الأشوريين والكلدانيين، قبل ما يزيد عن ألفين وخمسمائة من السنين، والأخرى من مصر، وجاء في العهد القديم..«قطع الرب من إبرام (إبراهيم) ميثاقه.. لنسلك أعط هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير في الفرات»!

فهذه مسألة أخرى..

والذين يسعون إلى ذلك واهمون، ويجهلون الكثير عن الشعب العراقي، وعمق انتمائه إلى أمته، ويأتي هذا الوهم من تصور أن الموقف من إسرائيل يفرضه نظام حكم بعينه، ويتجاهلون أن هذا الموقف ينبع من الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، ومن غطرسة القوة، ومن قتل النساء والأطفال وهدم البيوت واقتلاع الزرع الذي تمارسه السلطات الإسرائيلية!

أما إذا كان كل ذلك غير صحيح، كما تدعي السلطات الأمريكية والناطقون باسمها من العرب فلا يحق للشعب العراقي بعد صمت المدافع أن يختار نظامه وحكامه؟! وأليس على أولئك الذين تظاهروا في كل أنحاء العالم، رافضين الحرب ضد العراق، أن يعملوا من أجل إنقاذ العراق، ومساندته في اختيار حكومته والسيطرة على ثرواته؟!

كما حان الوقت لعودة نحو أربعة ملايين عراقي إلى وطنهم، وهم جميعا، من الصفوة المتعلمة الذين يتمتعون بكفاءة وخبرة عالية، مما سيضيف قوة وقدرة للعراق في مواجهة تحديات المستقبل؟

ونتساءل..

لماذا تلاحق سلطات الاحتلال العلماء العراقيين واستجوابهم؟! وتغريهم بالرحيل من العراق إلى كندا وأمريكا والدول الأوربية، وتحظر عليهم السفر إلى دول عربية و آسيوية؟!!

وستخرج العراق في النهاية مثل العنقاء من أتون النار والرماد، تجدد قواها، وتسترد عافيتها، وتعود أكثر قوة وعنفوانا وستهزم تلك الغزوة الغاشمة.

فكم مر على العراق من محن؟ وكم مرة تكسرت النصال على النصال، وفي كل مرة يخرج العراق الذي أعطى العالم الحضارة والقانون والرياضيات وأكبر انجازات العالم في العصر العباسي من محنه أكثر قوة.

بل لقد أعطى العراق وحده الحضارة العربية، ما لا يقل عن ربع تراثها. ■

المحـــرر

الوعى بالتاريخ

بقلم
د.مصطفى سويف

على امتداد الشهور المنقضية من يناير سنة ٢٠٠٠ وحتى مارس سنة ٢٠٠٣ نشرت على صفحات مجلة الهلال الغراء تسعة عشر مقالا تسرد فى مجموعها قصة القرن العشرين كما عايشتها من خلال رؤية تحكمها عوامل ثلاثة: شخصية ، وقومية، وعالمية، وقلت فى مستهل هذه السلسلة إننى أقدمها كشهادة تضم إلى عشرات الشهادات التى تنشر هذه الأيام حول القرن العشرين، وقلت كذلك اننى أدعى بهذه المقالات أننى أحاول التأريخ لفترة من الزمن المصرى أو العالمى بحياد المؤرخ المتخصص، ولكنى أنصرف باجتهادى إلى بيان الكيفية التى نفذت بها الأحداث العامة إلى نفسى، كيف قرأتها، وما هى، وما هى الشفرة التى اختزنت بها معانى الأحداث فى عقلى ووجدانى، وأنا أقدّم بذلك وثيقة نفسية اجتماعية أرجو أن تضم فى مقبل الأيام إلى وثائق مماثلة يكتبها غيرى من المهتمين بالهم العام، كل من زاوية قراءته ، ليتكون من مجموعها سفر يكون بمثابة شروح نفسية اجتماعية على متن التاريخ.



الأرض والثروة هدف المستعمر من قديم الزمان .. هكذا فهم العالم !!

لماذا هذه الشروح ؟

هذا سؤال مهم أبدأ بالإجابة المباشرة عنه، ثم أوضح القارئ طريقى الذى أسلكه إلى هذه الإجابة وتداعياتها ، وجه الحاجة إلى هذه الشروح أنها هى وحدها التى يمكن أن تكشف عن الدلالات المتكاملة لأحداث التاريخ، لأنها تقدم لنا ما يمكن أن نسميه التاريخ المعاش، هذه هى إجابتى المباشرة، أما عن الطريق إلى هذه الإجابة فيبدأ بمقدمة أولى مؤداها أن التاريخ كما نقرأه فى معظم كتب التاريخ يبدو وكأنه سلاسل من الأحداث تمر مر الكرام فوق رءوس البشر من المواطنين العاديين، لا شىء عن الخبرة البشرية لهؤلاء المواطنين بهذه الأحداث، أعنى خبرة التلقى، وخبرة التأويل أو إدراك الدلالة كما تقع عليهم (أى على غير المشاركين مباشرة فى صنع هذه الأحداث)، وما أدعيه أنه بدون رصد هذه الخبرة وتسجيلها من حيث بُعدها الوجدانى (مقبولة أم مرفوضة) وبعدها الإدراكى (أى معناها) بدون ذلك ستظل كتابة التاريخ مبتورة: فلان من الحكام قرر كذا، وفلان الآخر غير كذا، صحيح أن هذين الحاكمين صنعا أو أطلقا طاقة صُنع الأحداث الفلانية، ولكن هذه الأحداث لا تكتمل دلالتها إلا من وقعها على من تلقوها فأثرت فى حياتهم، ومع أن الأحداث تكتسب جزءاً من دلالتها اعتماداً على ما ارتسم فى ذهن صانعها، مع ذلك فإن هذا الذى يرتسم فى ذهن الصانع ليس سوى جزء محدود من الدلالة الحقيقية للأحداث، بينما هى

بطبيعتها دلالة يتكامل فى بنائها قصد منشىء الحدث ووقع الحدث على المتلقى، بعبارة أخرى لابد وأن تقدم الدلالة متكاملة بشقيها ، شق الإنشاء وشق التلقى، والاجتزاء فى هذا الشأن (بذكر شق الإنشاء وحده) يقدم الحقيقة التاريخية منقوصة أو مبتورة.

ويثير هذا الكلام نفسه سؤالا جديدا: ولماذا نريد أن نعرف الدلالة المتكاملة للأحداث؟ والإجابة أن هذه الدلالة المتكاملة هى وحدها التى تلقى الضوء على حقيقة اتجاهات المواطنين نحو الحدث أو الأحداث، وتوضح مدى التقارب أو التباعد بين قصد صانع الحدث ورؤية متلقي الحدث، ولما كانت اتجاهات المواطنين نحو الحدث تعتبر من أهم محددات ردود أفعالهم (نحو هذا الحدث بعد وقوعه) فإن ما يشكل هذه الاتجاهات (التى تتدرج بين القبول والرفض) هو البداية الحقيقية للطريق إلى التفسير الصادق لما ترتب من ردود أفعال على الحدث، وبدون السعى إلى توفير مكونات هذا التفسير يظل التاريخ تسلسلاً من الأحداث المتتابعة الصماء ، أو بعبارة أخرى يظل تاريخاً ميكانيكيا لا معنى له، وحتى عندما يحاول أحد المؤرخين أن يتطوع بالتفسير فإنه إذا لم يكن مزوداً بما يشهد فعلا برؤية المتلقين للحدث (ثم ردود أفعالهم بناء على هذه الرؤية) يظل تفسيره تخميناً أو فرضاً يعوزه البرهان المقنع. جدير بالذكر فى هذا الصدد أن إحدى المشكلات المنهجية المعقدة التى يواجهها علم التاريخ مشكلة العلّية ، أى الكشف عن علاقات العلة والمعلول أو السبب والنتيجة بين الأحداث المتتابعة، وهنا يمكن القول بأن وفرة الشهادات (من نوع الشهادة التى قدمتها) وإتاحتها للمؤرخين يمكن أن تكون منفذاً لا بأس به (إذا أحسن استخدامها ضمن منافذ أخرى) لإلقاء الضوء على علاقات السبب والنتيجة بين الأحداث سواء أكانت هذه العلاقات مباشرة (أو قريبة)، أم غير مباشرة (أى بعيدة).

الرسالة الاجتماعية لعلم التاريخ

أتصور أن علم التاريخ، شأنه شأن المنظومات العلمية التى نعرفها جميعا، يمكن أن يكون له أحد توجهين، توجه أكاديمى يكون مطلب الباحث فيه هو اكتشاف الحقيقة ومتعلقاتها، وتوجه تطبيقى، يكون المطلب الرئيسى فيه تطويع مكتشافات الشق الأكاديمى للإفادة العملية فى عدد من مجالات الحياة الاجتماعية، ومهما تكن سعة الخلاف فى الرأى بين الكتّاب والمفكرين حول حجم هذه الإفادة أو كيفية تحقيقها فالأمر الذى لا شك فيه هو أن مطلب الإفادة العملية نفسه قائم، وممارسته بأقدار متفاوتة تتم على مشهد منا،

صراحة أحياناً ويوضحناً أحايين أخرى، ورحم الله في هذا المقام الشيخ عبدالرحمن الجبرتي، فهو القائل في مستهل تاريخه: «ولما كان علم التاريخ علماً شريفاً فيه العظة والاعتبار، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار...» ولا شك في أن الشروح الشهادات التي أشير إليها، وكل ما ييسرها ويدعمها ويؤكد مصداقيتها هذا كله من شأنه أن يتيح الإفادة العملية التي نتكلم عنها، ويزيد من فرض تعظيم حجمها وضمان سلامتها، ويبقى بعد ذلك سؤال مهم حول مدى الموضوعية في شهاداتي التي أقدمها، وفي ما يمكن أن يقدمه (أو ما أرجو أن يقدمه) أمثالي من شهادات في هذا المجال.

موضوعية الشهادة والشهادات المماثلة

كانت مسألة الموضوعية ولازالت وستظل واحدة من ركائز الفكر العلمي أيا كان مجال تفعيله، وقد اهتم بالنظر في هذه المسألة كثيرون من العلماء والمفكرين والفلاسفة وفلاسفة العلوم خاصة، ولا يسمح المقام هنا بالخوض تفصيلاً في مثل هذا الحديث، ولذلك وجب الإيجاز، فقد ناقش أندريه لالاند (أحد كبار أساتذة الفلسفة الفرنسيين في القرن العشرين) هذا المفهوم مناقشة مستفيضة في معجمه ذائع الصيت للمصطلحات الفلسفية، ويمكن تلخيص مناقشته على الوجه التالي: إن ما يوصف بأنه موضوعي تكون له مصداقية بالنسبة لجميع العقول لا بالنسبة لعقل صاحبه فحسب ، والموضوعية منظوراً إليها على هذا النحو مفهوم مركب، وليست مفهوما بسيطا، فهناك موضوعية المدرك مستقلا في وجوده عن كيفية إدراكنا إياه، وهناك موضوعية الناتج الذي نصل إليه نتيجة لاستخدام طرق الاستنباط المنهجي من فرض معين أو من نظرية، أو من مقدمة أو مقدمات بعينها. وجدير بالذكر أنه إذا نظر المؤرخ إلى الشهادة التي قدمتها عن القرن العشرين وضم إليها ما يماثلها من شهادات الغير محاولا أن يمحصها لاستخلاص ما بينها من تقارب أو تكامل وإسقاط ما بينها من تناقض أو تعارض، فسوف تكون حصيلته من ذلك ذخيرة من الحقائق تتعلق بوقع أحداث التاريخ على من وقعت عليهم ، أي تتعلق بدلالة هذه الأحداث ومعانيها بالنسبة لمن خبروها وتأثروا بها في أفعالهم وانفعالاتهم ، وسيتاح له بذلك أن يقدم التاريخ في جدليته: الحدث، وما يترتب على الحدث من دلالات إنسانية هي التي تشكل ردود الأفعال الإنسانية التي من شأنها أن تشارك في تشكيل الحدث التالي.. وهكذا.

من الحاضر إلى المستقبل

والآن، وبعد هذا التقديم عن الرسالة الاجتماعية التطبيقية للتاريخ، وعن

مستوى الموضوعية المفترض فى الشهادات التى أقدمها أنا وأمثالى من المواطنين وما تقوم به هذه الشهادات من دور الشروح على متن التاريخ يأتى دور السؤال الذى هو بيت القصيد: ما هى أوجه الإفادة من دروس التاريخ؟ يحسن بنا النظر إلى التاريخ بنظرة وظيفية، أى من حيث هو منظومة صغرى لها وظيفة معينة (ضمن منظومات فرعية أخرى متعددة) داخل المنظومة الكبرى التى هى مجمل الحياة الاجتماعية، ومن وجهة النظر هذه يبدو أن التاريخ يؤدى عددا من الوظائف الرئيسية فى حياتنا الاجتماعية، وفى مقدمة هذه الوظائف ما يأتى:

١ - فهو سجل لصياغات معينة (كالعقود والمعاهدات.. إلخ) ابتكرت لتنظيم فئات بعينها من النشاطات (كالنشاطات الاقتصادية والتشريعية والسياسية) فى الحاضر الذى وضعت فيه، وفى المستقبل المنظور، ويمكن الرجوع إلى هذا السجل كلما اقتضى الأمر.

٢ - وهو مستقر لبدايات أفعال (كالخطط والمشروعات التى يمر تنفيذها بمراحل) نواصل السير فى الحاضر وفى المستقبل المنظور لتحقيقها، ومن هذه الزاوية للنظر فهو يضغط علينا فى مسعانا إلى اكتمال ما بدأناه، وفى الوقت نفسه يضغط علينا فى سبيل أن نحافظ على درجة معينة من الاتساق بين خطوتنا فى الحاضر وخُطانا كما خطوناها من قبل.

٣ - وهو مصدر إشعاع لمثيرات المشاعر الإيجابية نحو موضوعات بعينها (مثل موضوعات الانتماء الوطنى / القومى ، أو الانتماء الدينى .. إخ) ويلجأ المواطنون إلى هذا المصدر عادة فى أوقات الأزمات المجتمعية الكبيرة.

وللتاريخ إضافة إلى ذلك وظائف أخرى داخل منظومة الحياة الاجتماعية، لكننى أكتفى فى هذا الموضع بما ذكرت لكى أنتقل بالحديث نقلة أخرى.

الوعى بالتاريخ

يبدو لمن ينظر فى حقيقة الوظائف التى أوردت ذكرها أنها جميعا تدل على أن التاريخ منظومة تستخدمها كآلية نتوجه بها نحو المستقبل لترشيده، بمعنى جعله أكثر انصياعاً لمصالحنا، وموجز القول فى هذا الصدد أننا فى جميع توجهاتنا إلى المستقبل إنما نسعى إليه عبر الماضى، وفى مسعانا هذا يتراوح مطلبنا بين إضفاء معنى على المستقبل، وصياغة هذا المستقبل بصورة نرتضيها، جدير بالذكر هنا أن هذه النقطة على وجه التحديد تعتبر إحدى القواعد الاستراتيجية فى الحياة (الجماعية والفردية) سواء وعينا هذه القاعدة أم لم نكن على وعى بها، وما ندعيه فى هذا المقال هو أننا لا نعى هذه

الحقيقة بما فيه الكفاية، وأن اختلال وعينا بها يعتبر نوعا من الإهدار يضاف إلى أنواع الإهدار الأخرى التى شاع وجودها فى حياتنا الاجتماعية الحديثة ، وفى هذا الشأن يلزمنا مناقشة النقاط الآتية:

أ – إن رفع مستوى الوعى بقاعدة استخدام التاريخ لترشيد المستقبل من شأنه أن يزيد من كفاءة هذا الاستخدام ، ومن استدرار الترشيد المطلوب.

ب – إن توفير الشهادات/ الشروح من النوع الذى أتحدث عنه فى المقال الراهن من شأنه أن يغرى بالعمل على زيادة مصداقية عملية الرجوع إلى التاريخ، وذلك بمزيد من العناية بالرجوع إلى الشهادات التى من شأنها أن تُكسب الأحداث الصماء دلالاتها الاجتماعية المتكاملة فى السياق الذى وقعت فيه، وهذا كفيل بأن يقلل من غموض معانى بعض الأحداث، وكفيل بأن يقلل من فرص الشطح فى تأويلها، أو الأخذ بتفسير شائع لها لمجرد كونه شائعاً، أو الأخذ بالتفسير الرسمى لها (أى التفسير السلطوى) وهو الذى يكرس وجهة نظر صانع الأحداث على حساب دلالاتها المتكاملة.

أحداث العالم الآن

نضرب هنا مثلا ما يحدث حولنا الآن على الصعيد العالمى؛ كيف نفهم هذا الذى حدث ويحدث تحت عنوان «الحرب على العراق»؟ يبدو لى، على ضوء مسيرة العالم (كما عايشتها ورصدت تسلسل أحداثها ووقع هذا التسلسل علينا... إلخ) أن أى محاولة لتحصيل هذا الفهم دون تنبيه إلى هذه الخلفية التاريخية محكوم عليها (أى على هذه المحاولة) بأنها ستكون مبتورة ، وهو ما من شأنه أن يورطنا فى كثير من الأخطاء فى أحكامنا وفى استنتاجاتنا وتنبؤاتنا وتدابيراتنا التى نبنيها على هذه التنبؤات، وربما كان أسوأ هذه الأخطاء جميعا القول بأن هذا الذى نشهده من حرب شنتها الولايات المتحدة على العراق يُعتبر شيئا غريبا على السياسة الأمريكية، وأن أمريكا التى نراها من خلال هذه الحرب وأعقابها ليست أمريكا التى نعرفها، ليست أمريكا المجتمع المفتوح، داعية الديمقراطية وحاملة لواء الحرية، هنا فى هذه الاستنتاجات وأمثالها يكمن خطأ استراتيجى فى التفكير، ويتمثل هذا الخطأ أساساً فى اجتزاء الأحداث الراهنة، أى فى الوقوف عندها دون النظر إليها على أنها حلقة وثيقة الاتصال بأحداث وقعت ضمن تسلسل طويل يمتد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥.

هنا بالضبط تأتى أهمية الوعى بالتاريخ، وخاصة إذا كانت وقائع التاريخ تُعرض أمامنا مدعومة بأقدار معقولة من الشهادات/ الشروح (التى تحيل التاريخ الميكانيكى إلى ما يمكن

تسميته التاريخ المعاش)، فأما الوقائع فلنذكر منها المحاولات التى بذلتها الولايات المتحدة للحلول محل بريطانيا فى منطقة الشرق الأوسط العربى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وهى محاولات متعددة حملت أسماء مختلفة نذكر منها على سبيل المثال «النقطة الرابعة»، ومبدأ أيزنهاور، وحلف بغداد.

هذه محاولات عايشها جيلى، وكانت الولايات المتحدة تقدمها (على خلفية الحرب الباردة) فى إطار تبرير محدد هو حماية المنطقة ضد الشيوعية، وكان هذا التبرير يجلب معه (ضمناً لا صراحة) الهيمنة على دول المنطقة، بمعنى السيطرة على قراراتها السياسية، والتحكم فى ثرواتها وفى مقدمتها النفط، وقد استطاعت شعوب المنطقة أن تنفذ ببصيرتها إلى حقيقة ما يراد بها من وراء هذه المحاولات، فقاومتها بطرق متعددة.

ولكن بغض النظر عن تفصيلات قصص المقاومة فالشىء المهم أن المحاولات المشار إليها لم تساعد جماهير المنطقة على أن يروا الولايات المتحدة باعتبارها داعية للديمقراطية ولا للحرية.

فى هذا السياق نفسه ظهرت حركة عدم الانحياز حوالى منتصف الخمسينيات، وقرأناها حينئذ باعتبارها ابتكاراً ممتازا فى عالم السياسة الدولية للابتعاد بالكثير من دول العالم الثالث عن الوقوع فريسة لهيمنة أى من قطبى الصراع فى الحرب الباردة.

لكن الولايات المتحدة لم ترض عن هذه الحركة، وبدا واضحا من ذلك أن أحد المبادىء المسيرة للسياسة الأمريكية الخارجية هو مبدأ «من لم يكن معنا فهو علينا»، وكانت حركة عدم الانحياز هذه أحد العوامل الرئيسية فى الغضب الأمريكى على عدد من الحكومات الوطنية بما فيها حكومة عبدالناصر فى مصر ، وفى هذا السياق (ضمن أمور أخرى كثيرة) جاء ضلوع الحكومة الأمريكية مع إسرائيل فى حرب يونية ١٩٦٧، ومرة أخرى لم يكن ممكنا لنا فى هذا السياق أن نرى الولايات المتحدة على أنها حاملة لواء الحرية، ثم جاءت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣: وتدخلت الولايات المتحدة بثقلها العسكرى ثم الاقتصادى فالسياسى إلى جانب إسرائيل، لضبط ميزان المنطقة حسب مقتضيات الاستراتيجية الأساسية الأمريكية، وانتهت الحرب الساخنة، وامتد التدخل الأمريكى فى شئوننا، وكان من أهم أدواته هنرى كسنجر، والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وانتهى الأمر بإعادة صياغة التوجه السياسى الاقتصادى المصرى على النحو الذى ترضى عنه أمريكا، وكان من أهم العلامات على الطريق إلى هذا

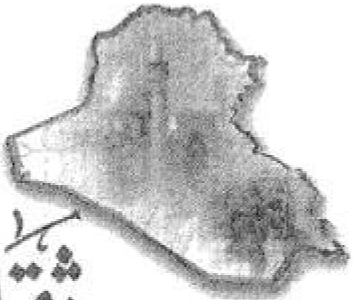
الرضى ، زيارة الرئيس نيكسون لمصر فى يونيـة سنة ١٩٧٤، وزيارة الرئيس السادات إلى القدس في نوفمبر سنة ١٩٧٧، والتوقيع النهائي على اتفاقية كامب دافيد مع إسرائيل فى مارس سنة ١٩٧٩.

ومرة ثالثة لم يكن للجماهير المصرية (والعربية) أن ترى فى هذا التسلسل للأحداث دليلا على أن الولايات المتحدة هى رسول الديمقراطية وحامى حمى الحرية.

ثم كان ما كان بعد ذلك من أحداث عالمية صحبت تراجع الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى، وأذنت بتبلور سريع لعالم ذى قطب أوحد، وانبرت الولايات المتحدة (على امتداد الثمانينيات المتأخرة والتسعينيات) تسرع الخطى إلى تبنى كل من شأنه أن يفصح عن مظاهر الهيمنة، وتأتى الحرب على العراق باعتبارها أحدث الحلقات المتسقة تماما مع هذا السياق، هكذا يلزمنا أن نفهم الدلالة المتكاملة لهذه الحرب على العراق، ولكن هذا الفهم مشروط بالوعى بالتاريخ، والوعى بالتاريخ يقتضى الجمع فى الذهن بين تسلسل الأحداث لا فى ميكانيكيتها ولكن فى جدليتها ، أى من حيث كونها أحداثا أطلقتها قوى معينة، وكان لها فى الوقت نفسه وقع معين على المقصودين بها ، فالحدث التاريخى حوار لا يكتمل معناه إلا بالجمع بين صانعه ومتلقيه .

عود على بدء

ونعود الآن إلى نقطة البدء فى هذا الحديث. لماذا هذه الشهادات/ الشروح؟ لأنها مصدر إكساب الأحداث التاريخية دلالاتها ومعانيها ، وهى لذلك جزء مهم من الإطار المرجعي للأحداث، وبدون هذا الجزء يرتفع احتمال الغلط والمغالطة فى تفسير تيار الأحداث وما يبنى عليها من استنتاجات وتنبؤات، وهى بهذا وقاء للأمناء من صانعى القرارات والسياسات، وهى في الوقت نفسه أداة للمواطنين تعينهم على الحكم بمدى مصداقية المؤدين السياسيين. لهذه الأسباب مجتمعة نرى أن من واجب كل من يتوسم فى نفسه الاهلية أن يكتب شهادته عن الفترة التاريخية التى عايشها ، حتى يجد أساتذة التاريخ فيها (بعد التمحيص والمقارنة والغربلة) ما يعينهم على تجلية المعانى الحقيقية للأحداث، وحتى يجد المواطنون فيها (والشباب منهم خاصة) أدوات تعينهم على تحقيق قدر من التربية الذاتية السياسية الرشيدة، التى تسهم فى جعلهم مواطنين فاعلين فى مواجهة كل ما يقرأون وما يسمعون من أغلاط ومغالطات تنهمر عليهم من أدوات الإعلام، ومن كبار السياسيين وصغارهم فى الداخل والخارج. ■



ثقافة الهزيمة

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

منذ حوالى السنتين وبالتحديد فى مارس ٢٠٠١ كتبت فى هذه المجلة الرائدة عما أسميته «بثقافة الخنوع» ذكرت حينذاك أن ثقافة الخنوع تهدف «بالوعى أو باللاوعى، بسوء النية أو بالسذاجة إلى تطويع الإرادة العربية لكل محاولات تشكيلها - إن لم يكن القضاء عليها - أيا كان مصدر هذه المحاولات، بحيث تصبح إمكانية إنجاز أي تصحيح - ولو نسبى - لميزان القوى المختل بين العرب وخصومهم وهماً بلا جدال» . أضفت أن مروجى ثقافة الخنوع يستندون إلى «الواقعية» حسب زعمهم ، وأن «الواقعية قد ظلمت كثيراً مع أن أى باحث علمى أو رجل حركة سياسية لا يستطيع أن يؤسس جهوده إلا على الواقع بعد تحليله وفهمه ، غير أن ثمة فارقاً هائلاً بين أن تلوذ بالواقع لتبرير العجز عن المقاومة والتغيير إلى الأفضل ، وبين أن تنطلق منه بخطى راسخة نحو المثالية المنشودة» . .



لم يكن العراقيون الأسرى و المدنيين وحدهم هم الذين تمت تعميتهم !!

من ثقافة الخنوع إلى ثقافة الهزيمة

حديثى اليوم عن «ثقافة الهزيمة» بعد ثقافة الخنوع، وهى لاشك حالة خاصة - لنقل إنها صارخة - من حالات ثقافة الخنوع لأنها فى هذه المرة لا ترتبط بمحاولة تطويع سلمية بعيدة المدى للإرادة العربية وإنما تتزامن مع واحدة من أشرس موجات العدوان على وطننا العربى كما جسدها العدوان العسكرى الأمريكى الأخير الذى انتهى باحتلال العراق .

لن أتوقف عند هذا الحدث - أى احتلال العراق - الذى هو مذهل بكل المعايير لأن غايتى هى فضح «ثقافة الهزيمة» ومروجيها . نذكر عندما تصاعدت موجة التحرش والتنديد الأمريكية بالعراق بغير سند من أى قانون أو قرار دوليين أنه بات مؤكداً لدى الغالبية العظمى من المحللين والمراقبين أن العدوان العسكرى الأمريكى على العراق واقع لامحالة ، عند هذا الحد لاحظنا فى عديد من وسائل الإعلام العربية المرئية والمسموعة والمكتوبة أن ثمة سيمفونية رديئة قد بدأ عزفها فى تكرار سخيف لمثلها فى وسائل الإعلام الأمريكية تتحدث عن جبروت القوة العسكرية الأمريكية، والفارق الهائل بينه وبين ما كانت عليه تلك القوة إبان حرب الكويت فى ١٩٩١، وكيف أن هذا الجبروت سوف يفضى لامحالة فى خلال أيام قليلة قدرت بأسبوع على الأكثر إلى

هزيمة عراقية ساحقة .وعندما بدا واضحا أن العراق .الذى يغرب بانتظام ويغيير سند من القانون منذ تحرير الكويت في ١٩٩١ لم يخش ذلك الترهيب بدأ العزف على نغمة ضرورة رحيل صدام حسين لينقذ شعبه ويجنبه ويلات حرب لا تبقى ولا تذر..

لم يكلف أصحاب المنطق السابق أنفسهم مشقة الحديث عن التهديد الأمريكي غير المشروع للعراق، أو عن القيم العليا التي ينبغي الدفاع عنها حتى ولو كان الانتصار في معركة الدفاع عن هذه القيم غير ممكن، أو عن أن الشعوب قد تقاوم وتبلي بلاءً حسناً دفاعاً عن تلك القيم ، أو عن أن صدام حسين موجود في العراق منذ عام ١٩٦٨ بمواصفات نظام حكمه نفسها التي يصفونها الآن باللاديمقراطية بعد سكوت دام ما يزيد على ثلث قرن على ذلك النظام . وفي ثلث القرن هذا تحالف مع نظام صدام حسين معظم أولئك الذين شغلتهم كثيراً مطالبته بالرحيل في أول موقف غير ملتبس له في سياسته الخارجية وهو يتصدى لمحاولات الهيمنة الأمريكية، أو عن أن رحيل صدام حسين لن يحمي العراق من الوقوع في براثن السيطرة الأمريكية وانما سوف يحمي الأمريكيين من تكلفة عالية – ولو نسبياً – للعدوان على العراق .

وعندما بدأ العدوان وغطى الجميع أعينهم وآذانهم كي لا يتابعوا مشهد السقوط السريع والمريع للعراق ليكتشفوا بعد أيام قليلة أن العراق صامد صموداً مذهلاً ، تساءل أنصار ثقافة الهزيمة : وماذا تجدى المقاومة إذا كان مآلها الأخير هو الانكسار أمام ضربات العدو ؟ أليس الإصرار على المقاومة مساوياً للإصرار على تدمير قدرات العراق وتقتيل شعبه ؟ ، لم يسألوا أنفسهم بطبيعة الحال عن سبب المقاومة وهو صد عدوان جائر، ولم يكن ممكنا أن يرتفع منطقهم الخائر العميل إلى مستوى فهم القيم الرفيعة التي حفزت المقاومة دفاعاً عنها بغض النظر عن حسابات التكلفة التي لاتعدو أن تكون طريقة رخيصة للبقاء في حال كهذه .

ما كان أسعدهم إذن حين دنست أقدام الجنود الأمريكيين شوارع بغداد التاريخ والحضارة ! كانت الشماتة حالهم، وخرج سؤال «ألم نقل لكم؟» من أفواههم كأبغض ما يكون السؤال . وانهمكوا في همة ونشاط في تصعيد الحرب النفسية على الأمة فبدأت السخرية من المقاومة العراقية الباسلة وطرحت التساؤلات المغرضة حول حقيقة ما جرى، وانتشرت النكات

التي تمس شرف المقاتلين على نحو يذكرنا بأجواء ما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وكتبت المقالات المستفيضة عن «إعجاز» الانجاز العسكرى الأمريكى فى العراق، لم يسر أنصار ثقافة الهزيمة بحرف واحد إلى معجزة الصمود العراقى طيلة واحد وعشرين يوماً فى ظل خلل فادح فى ميزان القوى العسكرى، ولم يتطرقوا من قريب أو بعيد إلى الغياب الكامل لأى دعم عربى للعراق على الصعيد الدبلوماسى ناهيك عن الصعيد العسكرى، على العكس من كافة الحالات السابقة التى تعرضت فيها أقطار عربية لعدوان عسكرى خارجى.

ثقافة الهزيمة وثقافة المقاومة

ليس بمقدونا أن نترك ثقافة الهزيمة تعيث فساداً فى أرضنا العربية خاصة وأن القصة لم تنته فصولها بعد. لم يكن هناك مجال لأدنى شك فى أن العراق لن يكون سوى البداية، لكن الكثيرين - وأعترف اننى واحد منهم - لم يكونوا يتوقعون أن تأتى الخطوة التالية بهذه السرعة، فها هى سوريا الآن - ومعها لبنان بكل تأكيد - تتعرض للمسلسل الفج نفسه الذى تعرض له العراق منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ والذى انتهى باحتلاله عسكرياً، ويحلو لأنصار ثقافة الهزيمة فى هذه المناسبة أن يذكرونا بأن طبيعة النظامين فى سوريا والعراق (قبل الاحتلال) واحدة، هم بعبارة أخرى يلمحون إلى أن سابقة السقوط السريع لبغداد على عكس كافة التوقعات سوف تتكرر فى دمشق.

لم يعد الصمت ممكناً إذن على ثقافة الهزيمة ولا يفل الهزيمة سوى المقاومة، ومن حسن الحظ أن التاريخ المعاصر محمل بخبرة شديدة الوضوح مما أسميه بقانون التحرر الوطنى، وجوهره أن أى مشروع استعمارى أو احتلالى لابد أنه سيفضى إلى تناقض مع الشعب الخاضع للاستعمار أو الاحتلال الأمر الذى ينتهى بظهور المقاومة الوطنية لهذا الاحتلال أو ذلك الاستعمار ولو بعد حين، ولم يوجد حتى الآن فى تاريخ العالم المعاصر أى استثناء من هذه القاعدة، وليس لدى سبب واحد يدعونى إلى الاعتقاد بأن الشعب العراقى سوف يكون هو هذا الاستثناء. سوف يرد أنصار ثقافة الهزيمة بطبيعة الحال بحجج «موضوعية» وحسابات «دقيقة» عن الخلل الفادح فى ميزان القوى بين الولايات المتحدة والعراق، بما يعنى أنه ليس ثمة أمل فى المقاومة وما ستفضى اليه، غير أن التاريخ يقف لهم ولمنطقهم بالمرصاد، فكافة حركات التحرر الوطنى المعاصرة بدأت فى ظل موازين للقوى غير مواتية على الإطلاق، غير أنها

ابدعت من الأساليب ما عوض الخلل المادى فى موازين القوى الأمر الذى أوصلها فى نهاية المطاف إلى الاستقلال .

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلي أن متطلبات هذا الاستقلال ليست بالضرورة هزيمة القوات المحتلة، فهذا لم يحدث إلا على سبيل الاستثناء فى حركات التحرر الوطنى المعاصرة، وانما المطلوب هو رفع تكلفة الاحتلال إلى الحد الذى يصبح فيه عائده أقل من تكلفته، وهنا لابد للمحتل أن يعيد حساباته وصولاً إلى الجلاء عن الأراضى التى يحتلها .

ليست المسألة سهلة بطبيعة الحال، غير أنها ممكنة . من كان يصدق أن معركة ستدور فى «رأس العش » بين قوات مصرية محدودة وقوات إسرائيلية كبيرة عن أيام قليلة من هزيمة يونيو ؟ وإن القوات المصرية سوف تنتصر فى تلك المعركة؟ ومن كان يصدق أيضا أن يستأنف الطيران الحربى المصرى نشاطه فوق سيناء فى يوليو ١٩٦٨ ؟ وأن تغرق زوارق البحرية المصرية أكبر قطع الاسطول الإسرائيلى «إيلات» فى أكتوبر ١٩٦٧، وأن تبدأ حرب الاستنزاف بعد ذلك وتتصاعد يوماً بعد يوم حتى تصل إلى إنجاز أكتوبر ١٩٧٣ بعد ست سنوات تقريباً من الهزيمة الفادحة؟

ومن كان يصدق أن القوات الإسرائيلية الغازية للبنان سوف تضطر إلي الرحيل من تلقاء نفسها دون أن يطلب أحد منها ذلك تحت وطأة المقاومة اللبنانية الفلسطينية بعد أن ظننا أننا مقبلون على حقبة طويلة من الهيمنة الإسرائيلية؟ ومن كان يصدق أن يواصل حزب الله هذا النهج العظيم ليجبر القوات الإسرائيلية بدوره على الهروب بليل من الشريط الجنوبى المحتل فى يوم من أيام مايو ٢٠٠٠ بعد أن تحول تحت ضربات المقاومة من شريط أمن إلى شريط «مستهلك للأمن» ؟ ومن كان يصدق أن القوات الإسرائيلية مازالت غير قادرة على كسر إرادة المقاومة الفلسطينية بعد قرابة ثلاثة أعوام من البطش الهمجى الوحشى على شعب فلسطين ؟.

إلى انصار ثقافة الهزيمة نقول : موتوا بحقدكم سوف يخيب التاريخ آمالكم، وها هى بوادر الرفض الشعبى العراقى للاحتلال العسكرى الأمريكى تتبلور بسرعة لكى تمهد الطريق لعمليات مقاومة حقيقية لذلك الاحتلال . موتوا بحقدكم لان الشعوب لاتموت، ولأنها لاتحسب حساباتها بطريقتكم الرخيصة . ■

أقوال معاصرة

● « الحروب تصنع التاريخ ، لكنها غالبا ما تفسده» .

المفكر العربى
عبدالوهاب بدرخان

● «الحرب يغلب فيها الفن على العلم» .

الجنرال ريتشارد مايرز
رئيس أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية

● «إذا كان ثمة من يفكر أنه يستطيع أن يدير العلاقات الدولية ، كما يدير مزرعته ، فإنه يرتكب خطأ كبيرا» .

ميخائيل جورباتشوف
الرئيس السوفييتى الأسبق



ميخائيل جورباتشوف

● « كان يمكن توفير حياة الأبرياء ، لو أدركت القيادة في بغداد عدم القدرة على المواجهة» .

محمد الدورى
آخر سفراء نظام صدام
لدى الأمم المتحدة

● « نريد أن يصبح العراقيون شعبا محررا ، وليس شعبا مهزوما !» .

جيمس بيكر
وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق



جيمس بيكر

● «ما نحتاجه الآن ليس فقط تغيير صدام حسين والنظام العراقي ، ولكن أيضا تغيير النظام في الولايات المتحدة» .

السناتور الأمريكى
جون كيرى

● « نعيش في عالم يجرى إنتخابات زور تعطينا رئيسا بالزور، يخوض حربا لأسباب زور » .

من كلمة المخرج مايكيل مور
أثناء إستلامه أوسكار أفضل فيلم

● « أشعر أننى ممثلة فاشلة» .

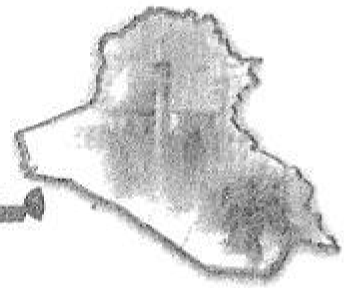
النجمة الأسترالية نيكول كيدمان
الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية
عن أدائها لدور الأديبة ڤيرجينيا وولف



نيكول كيدمان

● « هزيمة العراق كانت نتيجة طبيعية لأى قوات لاتدافع عن الوطن ، بل تدافع عن نظام » .

ديمترى يازوف
وزير الدفاع الروسى السابق



مستقبل النظام العربي

بقلم
سيد أبو زيد *

أولا : أصبح النظام العربي في محصلته النهائية مشجبا يعلق عليه جميع الأطراف أخطاءهم وخطاياهم ، والأغلب أن هذا يأتي في مقدمة الأسباب التي تدعو الأقطار العربية إلى الحفاظ على هذه الرابطة الواهنة التي فقدت كل قدرة على الحركة أو التأثير . ولعل المشاهد المأساوية التي جعلت من المنطقة مسرحا لها خلال العقد الأخير دليل على مدى التردي الذي لحق بالنظام العربي، وحيث بدا ما يحدث وكأنه مسرحية عبثية لا تتسق أحداثها مع أي منطق :

● فلم يكن من المعقول أن تشهد الأراضي الفلسطينية المحتلة كل هذه المذابح اليومية، وأن تسقط اتفاقيات السلام الخاصة بالمسار الفلسطيني تحت سنابك قوات الاحتلال وفي ظل حكومات إسرائيلية متعاقبة، وتحت سمع وبصر الدولة الداعية للسلام ، بل وبتواطىء منها ، ويقبع النظام العربي متظاهرا بالتحرك مقدما لمبادرات سلام لا يكترث بها أحد ، ومناشدا الجلاد ومسانديه الاستجابة لدعوة السلام. وأصبح كل ما يأمله في الوقت الراهن أن يعلن مايدعي براعي السلام عن خطته الرامية إلى تصفية القضية الفلسطينية بغض النظر عن فحوى هذه الخطة وأهدافها ، وأي نوع من «البانتوستانات» ستصبح عليه فلسطين إذا ما تحققت رؤية الرئيس الأمريكي.

● ولم يكن من المقبول أن نترك القيادة الفلسطينية محاصرة تحت هذه الضغوط دون سند أو معين، سوى البيانات المؤيدة والشاجبة، وبعض من الأموال تحصل عليها كمعونة بشق الأنفس. ولهذا لم يكن من الغريب أن تبدو هذه القيادة عاجزة، وأن تقبل بشتى الاتهامات التي توجه لها ، بل وأن تبادر بالاستجابة لدعاوى إصلاح شأنها.

وكأنه اعتراف منها بما انتهت إليه من فساد مالي وإداري، وأن يكون هذا التشتت بين فئات تواصل كفاحها المسلح ضد الاحتلال وأخرى وصلت

* مساعد وزير الخارجية السابق

تنازلاتها فى سبيل الوصول إلى التسوية السلمية إلى أن أصبح ظهرها لصيقا بالحائط ولم يعد لديها أى هامش للمناورة أو الحركة .

سقوط العراق

● وجاء سقوط العراق المدوى تعبيرا عن قمة المأساة وشاركت أغلب الدول العربية فى العدوان الأمريكى البريطانى كل على قدر طاقته، فالبعض قد قدم أراضيه كمنطلق للعدوان، والبعض بالتسهيلات الإدارية، والأخرى بالسند الاعلامى.

ولم يخف البعض أمله لدى الدول المعتدية لكى تنتهى من عملياتها فى أقصر وقت ممكن، وعنى أغلبهم بانتقاد القيادة العراقية فى عز المعركة والترويج للمطلب الأمريكى بنصحه بالتنحى، وآثر البعض الصمت البليغ تعبيرا عن الحكمة.

وإن كانت الجامعة العربية - إحقاقا للحق - لم تقف مكتوفة الأيدى، بل أصدرت بيانا قويا وصفه وزير خارجية قطر بما يعنى أنه لا يساوى الحبر الذى كتب به . وكان صادقا فى وصفه إذ لم يكن للبيان أى تأثير أو يلفت نظر أحد أو أعطاه طرف من الأطراف أى اعتبار.

ولعل هذا يذكرنا بلجنة المتابعة العربية الخاصة بالعراق، والتى لم تجد أذانا صاغية بين نيويورك وبغداد.

● ولقد أصبح العراق الآن تحت الاحتلال الأمريكى البريطانى تدنس مراقد أهل البيت الأجلاء فى النجف وكربلاء، وأمراء المؤمنين والخلفاء والأئمة فى بغداد والبصرة والموصل والحلة والناصرية. ويقف النظام العربى يائسا عاجزا عن النطق والحركة.

● وتقف سوريا الآن بين مطرقة الاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق وسندان إسرائيل مرشحة لأن تكون الخطوة التالية على خريطة طريق العدوان الذى يستهدف السيطرة على هذه المنطقة.

● لقد فشل النظام العربى فى تقديم دعم حقيقى لليبيا خلال أزمة لوكيربى، كما يترك السودان لمصير الانقسام دون أى تدخل له شأنه يساعدها على مواجهة الضغوط الأمريكية، ولم تجد الصومال لدى النظام العربى ما يجمع من شتاتها أو أن يقيلها من عثرتها.

فاقد الشيء لا يعطيه

ثانيا : أسباب واعتبارات عديدة أفرغت النظام العربى من كل مضمون، ووصلت به إلى حالة من السيولة جعلته عاجزا عن مواجهة التحديات وملاحقة المتغيرات الدولية.

ومقاومة الضغوط الخارجية، فى مقدمتها أن الأداة الرئيسية المنوط بها ضبط إيقاع العمل العربى لم تعد قادرة على القيام بمهمتها، وفى الواقع فإن فاقد الشىء لا يعطيه، فالجامعة العربية أنشئت فى الأساس لكى تكون حاصل جمع تراكمى للأنظمة القائمة، ولا يوجد ثمة إلزام بتنفيذ قراراتها، أو ثمة مساءلة عن مخالفة تلك القرارات، بما يؤدى فى النهاية إلى تكريس أكبر للقطرية.

فهى فى الحقيقة نموذج حى لما يقال عن أن العرب ظاهرة صوتية. فما أكثر بياناتها وقرارتها دون أن يكون لها تأثير على أرض الواقع، وكم يحزن المرء كثيرا على اجتماعات عقدت حتى ساعات متأخرة من الليل للتوصل إلى صيغة مقبول لكلمة أو جملة فى بيان قد لا

يقرؤه الكثيرون بعد صدوره.

لقد كان وجود الدولة القائدة أو مجموعة الدول النواة داخل الجامعة وسيلة مثلى لتفعيلها فى بعض مراحلها، فقد كانت هذه الدول ضامنة لاستصدار القرار المناسب ومتابعة تنفيذه. غير أن هذا الأمر قد أصبح من الصعب تحقيقه بعد أن أصيبت الدول القادرة على القيادة بالوهن، وتركت الساحة خالية للدول الهامشية لكى تصول وتجول فى أروقة الجامعة، وما الذى يمكن أن يفعله أمين عام بحجم عمرو موسى فى مثل هذه الظروف.

ولايمكن اغفال الصدمات الكبرى التى أصيب بها النظام العربى من داخله، فقد تقطعت أوصاله باتجاه مصر المفاجىء إلى عملية السلام وتغييب مصر عن الجامعة العربية على مدار عقد كامل، كما أصيب النظام العربى بالفصام نتيجة لحربى الخليج، إذ لم يكن من السهل ابتلاع حرب مع دولة إسلامية، وكان أشبه بالمستحيل قبول إزالة دولة عربية من الخريطة مهما كانت الأسباب والمقدمات.

العودة إلى ما قبل ١٩٥٨

وكان من سوء الحظ أن تحدث هذه الصدمات فى الوقت الذى دهمتنا فيه متغيرات دولية جذرية بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، والذى كان يعطى النظام العربى هامشا من المناورة فى إطار الثنائية القطبية. ووضح أن الأحادية القطبية قد عنيت بتدعيم مواقعها بوجه خاص فى منطقتنا، وكشفت الحرب على العراق حجم الاختراق الذى حدث بهذه المنطقة، ودعونا نضع النقاط على الحروف بالقول أن الأحادية القطبية لا تملك إسرائيل كهراوة لها فى المنطقة فحسب، وإنما فتحت لها أراضى مجموعة دول الخليج لاستخدامها كهراوات مباشرة لها ولحلفائها، وتعاد العراق حاليا إلى أوضاع ما قبل ١٩٥٨ والتى كانت تعتبر القاعدة الأمريكية الرئيسية فى المنطقة.

يحدث هذا فى الوقت الذى تتزايد فيه عوامل الضعف الذاتى العربى، فقد أصبح التقدم على الساحة العالمية يسير بوتيرة أسرع من الخطى العربية، ومن ثم نزداد تخلفا عن الركب العالمى عسكريا واقتصاديا واجتماعيا. أليس من المحزن أن يكون حجم الانتاج الكلى العربى بما فيه من نفط وزراعة وصناعة يزيد قليلا على نصف ما لدى إيطاليا، وأن لا تزيد التجارة البينية والاستثمارات العربية داخل المنطقة على نسبة ٨٪ ، بما يعد دليلا أكيدا على ضعف الهياكل الاقتصادية الداخلية. وأليس من المخزى أيضا أن يكون التسليح العربى كله من الخارج، رغم أنه كانت هناك محاولات لبناء صناعة عسكرية عربية، تلك التى وئدت فى مهدها قصدا وعمدا. ولقد كان التأرجح الحاد بين الاقتصاد المخطط والموجه بما له من بعد اجتماعى، والاقتصاد الحر المنفتح دون قيود أو حدود سببا آخر لإضعاف الكيان العربى.

ولا تقتصر أسباب الضعف على النواحى المادية فقط، إذ ليس بالخبز وحده تحيا الشعوب، وعلينا أن نعترف بأن فجوة حقيقية تتسع بين الأنظمة والشعوب فى المنطقة، يلمؤها مزيج من أجهزة الشرطة والتطرف والفساد، فى غياب مشروع قومى يلتف حوله الجميع يجعلهم قادرين على الصبر والتضحية.

مراكز تنوير لا تنطفىء

ثالثا: لا يمكن أن يتأخر الوقت لأية

بداية على الطريق الصحيح، ونحن لن ننطلق من فراغ بأي حال، فالثابت أن المنطقة العربية هي جزء مهم وحيوي من هذا العالم، يمثل فيما بينه وأمام العالم الخارجي كيانا واحدا اتصل جغرافيا وتاريخيا وبشريا بصورة لا نظير لها، ولم تكن عالة على الفكر والحضارة الإنسانية، بل ووضعت الحروف الأولى لكل العلوم والفنون التي مازال الإنسان على ظهر هذه البسيطة يمارسها ويعمل على تطويرها، وستظل جامعاتنا القديمة في هليوبولس والاسكندرية والأزهر الشريف وجامعات بغداد ودمشق والزيتونة والقرويين مراكز تنوير لا تنطفيء جذوتها.

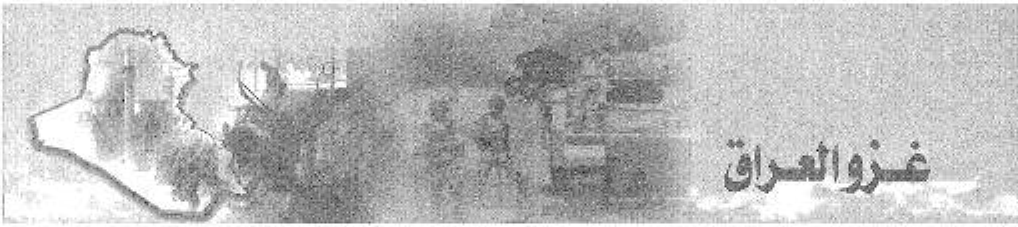
والثابت أن الأمة العربية قد وقر في فؤادها هذا الانتماء بحيث أصبح حقيقة بديهية لا مراء فيها، وتنظر إلى مصر على أنها بمثابة القلب لهذه المنطقة، وكان هذا قدرها، لم تسع إليه وإنما فرضته ظروف موقعها وموضعها ومواقفها عبر عصور التاريخ، ولم يكن هذا الوضع سهلا ولم يكن محلا للترف، وإنما كانت مسئولية شاقة في أغلب الأحيان، ومع هذا حملتها مصر راضية بأنها كانت من واجبات الأخوة مهما كان ثمنها، ألم يدخل رمسيس الثاني معركة قادش منذ عدة آلاف من السنين دفاعا عن الأمن العربي وتأمينا لمصر.

مطلوب نظام عربي جديد

نحن في حاجة إلى نظام عربي جديد، موحد الفكر والرؤى، يتجنب الأسباب الكامنة وراء الشلل الذي أصاب النظام الاقليمي العربي، ويحاول الاقتراب من تطلعات الشعوب العربية في الوحدة أو على أقل تقدير في التكامل وتوحيد الصفوف، حتى لو احتاج الأمر في البداية الاعتماد على مجموعة نواة عربية، أو أن ينتهي الأمر إلى استبعاد دول عربية بعينها من النظام العربي، تلك التي جعلت من نفسها حصان طروادة لضرب هذا النظام.

لقد توصلت الجامعة العربية إلى العديد من المعاهدات والاتفاقات والقرارات التي لو توافرت الإرادة السياسية لدى الدول الأعضاء لتنفيذها أو تفعيلها لكان النظام العربي في حال أفضل، ولن يتم هذا إلا من خلال عمل جاد ومخلص وهادف، حتى لو تقلصت عضوية الجامعة العربية إلى نصف عدد الأعضاء الحاليين. ولقد حان الوقت لأن تؤخذ بجدية الأفكار التي تقدمت بها دول عربية - ومن بينها ليبيا - لتطوير الجامعة، كما قد حان الوقت لمزيد من التركيز حول خلق مصالح اقتصادية حقيقية بين الدول الأعضاء، من خلال التعجيل بتنفيذ ما اتفق عليه من انشاء السوق العربية المشتركة في إطار مجلس الوحدة الاقتصادية، واتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجاري في إطار المجلس الاقتصادي والاجتماعي، والعمل بتجرد لحل اشكالية ازدواجية وجود هاتين الهيئتين الاقتصاديتين تحت مظلة الجامعة العربية.

إن الشعوب العربية في حاجة إلى من ينظم خطواتها على المستوى القومي، ويجعل لكلمتها وزنا، ومن حركتها تأثيرا، إن عقد اجتماع من القيادات العربية الشعبية على مختلف اتجاهاتها على مستوى الوطن العربي قد أصبح ضرورة ملحة من أجل بناء التنظيم العربي الواحد. ■



غزو العراق

وانهيار النظام الدولي

بقلم
د. منير زهران

في هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها القضية الفلسطينية من مقاومة الاحتلال الإسرائيلي والممارسات الوحشية التي تقوم بها سلطات الاحتلال لقمع انتفاضة الشعب الفلسطيني وإحكام الحصار عليه وسقوط ألوف الشهداء من الرجال والنساء والأطفال وتدمير المنازل والمزارع والبنية التحتية في الضفة الغربية وقطاع غزة انتهاكا لأحكام القانون الدولي الإنساني ولمرجعية مدريد واتفاق أوسلو، أعدت الولايات المتحدة بالتحالف مع بريطانيا العدة وعبأت الجيوش والأساطيل لاجتياح العراق والاعتداء على استقلاله السياسي وسلامته الإقليمية وذلك منذ صيف عام ٢٠٠٢: وحاولت الحليفتان تلمس الذرائع لتبرير الاعتداء على القطر الشقيق والسيطرة عليه ومقدراته تارة بمحاولة ربط النظام العراقي بتنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن والانتقام لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

وتارة أخرى باتهام العراق بحيازته لأسلحة الدمار الشامل بادعاء استئناف النظام العراقي لبرامج انتاج تلك الأسلحة، بعد مغادرة بعثة الأمم المتحدة للتفتيش عن تلك الأسلحة عام ١٩٩٨.

كما جاءت الحملة الدبلوماسية والإعلامية لكل من الولايات المتحدة وبريطانيا كغطاء لمحاولة تغيير نظام الحكم في العراق بحجة دكتاتورية النظام وانتهاكه للحريات الأساسية وحقوق الإنسان وسبق اعتدائه على جيرانه إشارة للحرب العراقية الإيرانية خلال الثمانينات وغزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ ثم تحريرها عام ١٩٩١، واستخدام النظام العراقي للأسلحة الكيماوية في حربه ضد إيران بل وضد المواطنين الأكراد في العراق. وقد انعكس ذلك في الخطاب الذي ألقاه الرئيس بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة مع بداية الدورة العادية السابعة والخمسين في سبتمبر ٢٠٠٢ والذي حمل تهديداً مباشراً العراق بنزع أسلحة الدمار الشامل بالقوة إذا لم يتم نزعها طواعية.

القرار ١٤٤١

وهكذا تعاونت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في تقديم مشروع قرار جديد أمام مجلس الأمن وإجراء مشاورات حول صياغة المشروع مع الدول الأعضاء لنزع أسلحة الدمار الشامل في العراق من خلال بعثة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش «UNMOVIC» مع إعطاء مهلة زمنية لحكومة العراق للتجاوب والتعاون مع تلك البعثة تحقيقا لهذا الهدف، ونتيجة للمشاورات التي عقدت أمكن تعديل صياغة المشروع وإلغاء ما تضمنه المشروع من النص على اللجوء إلى القوة تلقائيا لنزع أسلحة الدمار الشامل الفوري والكامل من العراق، وتهديد العراق بتحمل تبعات وخيمة في حالة عدم تعاونه serious conse- quences، وهكذا صدر قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ في نوفمبر ٢٠٠٢، وبدأ فريق المفتشين الدوليين عملهم بقيادة هانز بليكس وزير خارجية السويد السابق والدكتور محمد البرادعي المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية اللذين أوضحا في تقاريرهما أمام

٢٦

٢٧

مجلس الأمن تعاون العراق، بدرجات متفاوتة.

وكان من المفروض أن يقدم المفتشون الدوليون تقريرهم الأخير يوم ٢٧ مارس ٢٠٠٢، إلا أنه بناء على طلب بعض الدول الأعضاء في مجلس الأمن عجل هؤلاء تقريرهم تمهيداً لوضع جدول زمني بمعرفة المجلس حتى يمكن انهاء مهام التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في اطار زمني محدد. لذلك عرض المفتشون تقريرهم أمام جلسة مجلس الأمن يوم ١٩ مارس ٢٠٠٢ ومساء نفس اليوم وقبل وضع الجدول الزمني المشار إليه، شنت قوات التحالف الأمريكي البريطاني غارات بالصواريخ والطائرات ضد العاصمة بغداد وتلتها قوات الغزو أرضا انطلاقا من أرض الكويت التي تمركزت فيها مخترقة بذلك المنطقة منزوعة السلاح التي سبق لمجلس الأمن انشاؤها بين الدولتين بعد سحب الأمين العام للأمم المتحدة يوم ١٧ مارس ٢٠٠٢ لقوات حفظ السلام (UNIKOM) التي قرر مجلس الأمن نشائها منذ ١٩٩١ ولم يصدر مجلس الأمن قراراً آخر بسحبها أو تعليقها، كما لم يستجب مجلس الأمن لمشروع قرار بريطاني أمريكي أسباني يسمح باستخدام القوة ضد العراق في الوقت الذي طالبت فيه غالبية الدول الأعضاء في مجلس الأمن باعطاء مزيد من الوقت للمفتشين الدوليين لاستكمال مهامهم.

إعلاء منطق القوة

وهكذا يشهد العالم منذ ١٩ مارس ٢٠٠٣ مرحلة جديدة في العلاقات الدولية يسودها إعلاء منطق القوة - وإهدار مبادىء وأحكام القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة التي تقضي بتسوية المنازعات بالطرق السلمية، وعدم التهديد بالقوة أو استخدامها في العلاقات الدولية. ويذكرنا ذلك بقيام دولتين من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن بالعدوان على مصر بالاشتراك مع إسرائيل عام ١٩٥٦ بعد تأميم مصر - بقيادة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر - لقناة السويس. ويلاحظ في الحالتين اشتراك بريطانيا - العضو الدائم في مجلس الأمن - في العدوان على كل من مصر والعراق الأولى عام ١٩٥٦ والثانية عام ٢٠٠٣. وهو امتداد لتاريخ بريطانيا الاستعماري في المنطقة سواء في مصر أو في العراق أو في فلسطين.

انها مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة وزوال الحقبة الاستعمارية بشكلها التقليدي، وبداية القرن الحادي والعشرين، أننا بصدد حقبة جديدة من الاستعمار الجديد وامبريالية انجلو سكسونية للهيمنة على بلدان وشعوب المنطقة التي حباها الله بمواقع استراتيجية وثروات طبيعية وبشرية يسعى الغزاة للسيطرة عليها وتطويعها لخدمة مصالحهما الاقتصادية في ظل عولمة الاقتصاد والتجارة، وتهميش الدول النامية.

هذه المرحلة تتمثل في تعبئة وحشد الجيوش والأساطيل وأكثر الأسلحة تقدما وفتكا ودماراً لدولتين تتمتعان بمقعدين دائمين في مجلس الأمن،

وتتحملان مسئولية خاصة مع باقي الأعضاء الدائمين - في حفظ السلم والأمن الدوليين انتهاكا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة، وتقويضا للنظام الدولي الذي تم بناؤه على انقاض أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية التي ذاق الأوروبيون ويلاتها.

وسوف نعرض فيما يلي أولا حكم الميثاق بالنسبة لغزو العراق ثم الموقف في مجلس الأمن، وأخيراً موقف الأمين العام للأمم المتحدة، وننتهي ببعض الملاحظات.

أولاً : الميثاق وغزو العراق

نص ميثاق الأمم المتحدة على عدد من الأهداف والمبادىء والأحكام التي يعتبر غزو العراق انتهاكا صارخا لها، وأهمها ما نصت عليه الديباجة وهي روح الميثاق، من أن شعوب الأمم المتحدة آلت على نفسها «أن تنقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف». وهكذا نعيش ويلات حرب جديدة غير شرعية وتتجدد أحزان الإنسانية. كما نص الميثاق على عدد آخر من الأحكام التي تعتبر الحرب الدائرة في العراق انتهاكا صارخا لها وخاصة:

١ - تأكيد الحقوق الأساسية للإنسان والمساواة في الحقوق بين جميع الأمم كبيرها وصغيرها وليست الحرب الدائرة ضد العراق إلا انتهاكا للحقوق الأساسية للإنسان سواء حقوق جماعية مثل حق تقرير المصير أو الحق في الحياة، وخرقا لمبدأ المساواة في السيادة فيما بين الدول وهو أحد أركان النظام الدولي الذي أرساه ميثاق الأمم المتحدة.

٢ - تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي، وهكذا لم يكن غزو العراق وخضوعه للاحتلال الأجنبي مرة ثانية، وقتل المدنيين من النساء والأطفال والرجال والشيوخ وترويعهم وهدم منازلهم وتدمير البنية التحتية والمرافق الأساسية بما في ذلك محطات تحلية المياه وتوليد الكهرباء إلا انتهاكا للعدالة والمساواة ولجميع المواثيق والمعاهدات الدولية بما في ذلك القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني

٢ - كما يعتبر غزو العراق اعتداء صارخا على استقلال وسيادة العراق ووحدة ترابه الوطني وسلامته الاقليمية بالمخالفة للغايات والمبادىء التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة الذي أكد ضمن أمور أخرى على الآتي:

أ - أن يسود التسامح العلاقات الدولية، وأن تعيش شعوب الأمم المتحدة في سلام وحسن جوار.

ب - ضم قوى الشعوب للمحافظة على السلم والأمن الدوليين.

جـ - أن تكفل مبادىء وخطط الأمم المتحدة عدم استخدام القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة - ووفقا لما يقرره مجلس الأمن باعتبار أن اختصاصه الأصيل هو المحافظة على السلم والأمن الدوليين.

كما نشير إلى عدد من مقاصد

ومبادىء الميثاق على نحو ما جاء فى الفصول الأول والسادس والسابع وأهمها:

١ - نصت المادة الأولى على مقاصد الأمم المتحدة وفيها:

أ - حفظ السلم والأمن الدوليين، وتحقيقا لهذه الغاية تتخذ الأمم المتحدة التدابير الفعالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم وإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الاخلال بالسلم، وتنتهج الوسائل السلمية، وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولى، لحل المنازعات الدولية التى قد تؤدى إلى الاخلال بالسلم - وتسويتها.

ب - انماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذى يقضى بالتسوية فى الحقوق بين الشعوب، وبان يكون لكل منها حق تقرير المصير، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام.

جـ - أن تكون الأمم المتحدة مرجعا لتنسيق أعمال المنظمة وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

وهكذا ضربت قوات التحالف التى غزت العراق عرض الحائط بتلك المقاصد وتخطت الأمم المتحدة لكى تقصره على تقديم المساعدات الإنسانية للمدنيين وإغاثة المنكوبين من ضحايا هذا العدوان.

٢ - ولقد نصت المادة الثانية من الميثاق على المبادىء التي تعمل الأمم المتحدة وفقا لها، ويهمنا - فى حالة العدوان على العراق - الاشارة إلى المبادىء الآتية:

أ - مبدأ المساواة فى السيادة بين الدول الأعضاء.

ب - مبدأ حسن النية فى القيام بالالتزامات المنبثقة من الميثاق وفي كفالة الحقوق والمزايا المترتبة على العضوية.

جـ - أن يفض جميع الأعضاء منازعاتهم الدولية بالوسائل السلمية على وجه لا يجعل السلم والأمن والعدل الدولى عرضة للخطر.

د - أن يمتنع الأعضاء في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستخدام القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضى والاستقلال السياسى لأى دولة أو على أى وجه لا يتفق مع مقاصد الأمم المتحدة.

هـ - أن يقدم جميع الأعضاء كل ما فى وسعهم من عون إلى الأمم المتحدة فى أى عمل تتخذه وفق الميثاق، كما يمتنعون عن مساعدة أى دولة تتخذ الأمم المتحدة إزاءها عملا من أعمال المنع أو القمع.

و - لا يوجد بالميثاق ما يسوغ للأمم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التي تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما.

٣ - وبالاضافة إلى ما يقضى به الفصل السادس من الميثاق من حل أى نزاع من شأن استمراره أن يعرض حفظ السلم والأمن الدوليين للخطر بالوسائل السلمية (المواد من ٣٣ إلى ٣٨)، فإن الفصل السابع جاء بالأحكام المتعلقة بالأعمال التى يمكن لمجلس الأمن اتخاذها فى حالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان (المواد ٣٩

حتى ٥١).

٤ - تحدد المادة ٥١ من الميثاق ولاية مجلس الأمن في حالة الاعتداء على دولة عضو في الأمم المتحدة، حيث تنص على أنه.. «ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص من الحق الطبيعي للدول - فرادى أو جماعات، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة»، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدوليين، والتدابير التي اتخذها الأعضاء استعمالا لحق الدفاع عن النفس تبلغ إلى المجلس فوراً، ولا تؤثر تلك التدابير بأي حال فيما للمجلس بمقتضى سلطته ومسئولياته المستمدة من أحكام هذا الميثاق من الحق في أن يتخذ في أي وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدوليين وإعادته لنصابه «نهاية الاقتباس».

وبالنسبة لحالة العدوان على العراق، مارس العراق حكومة وشعبا حق الدفاع الشرعي على انفراد، ولم تشاركه في التصدي للعدوان أي دولة - سواء شقيقة أو صديقة - رغم معاهدة الدفاع العربي المشتركة - التي تعتبر أي اعتداء على أي دولة عربية اعتداء على الدول العربية جميعا، بل انطلقت من أراضي بعض الدول المجاورة للعراق جيوش وأساطيل الدول المشاركة في العدوان في الخليج الصواريخ والطائرات المحملة بأعتى الأسلحة والذخائر والجيوش التي تشمل أحدث الدبابات والمدافع للاعتداء على العراق وانتهاك سيادته والمساس بترابه الوطني كما لم يجتمع مجلس الأمن إلا بعد أسبوع من بدء العدوان لمناقشته ولم يصدر عنه أي قرار بإدانته ووقفه بسبب الضغوط التي مارستها الولايات المتحدة وبريطانيا على الدول الاعضاء لعدم تحمل مجلس الأمن لمسئولياته.

ثانياً: مجلس الأمن والعدوان على العراق

بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ في نوفمبر ٢٠٠٢ بشأن نزع أسلحة الدمار الشامل في العراق، وإعطاء فرق التفتيش الدولية برئاسة مستر هانز بليكس رئيس فريق المفتشين الدوليين على تلك الأسلحة - وافقت حكومة العراق على استقبال المفتشين الدوليين والتعاون معهم، وأكدت خلو العراق من تلك الأسلحة منذ مغادرة فريق التفتيش الأول unscom للعراق عام ١٩٩٨.

لم تحقق التأكيدات اللازمة بشأن عدم وجود أسلحة الدمار الشامل وغيرها من الأصناف المحظورة في العراق، وأنه لم يعد هناك وقت لعمليات التفتيش التي نقوم بها، وأن الأعمال العسكرية تبدو الآن وشيكة» جاء ذلك صباح نفس اليوم الذي بدأ فيه العدوان الانجلو أمريكي على العراق وهكذا يوضح رئيس المفتشين الدوليين بأنه حتى يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ لم يثبت أو يتأكد

لدى فريق التفتيش وجود أسلحة دمار شامل فى العراق - وهو نفس ما سبق أن أكده الدكتور محمد البرادعى مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى تقريره الأخير أمام المجلس والذى يوضح أنه لم يثبت أى دليل على وجود برنامج نووى لغير الأغراض السلمية لدى العراق، وأنه يحتاج إلى عدة أشهر حتى يستكمل مهمته. وكانت هذه هى الذريعة التى استند إليها كل من الرئيس الأمريكى ورئيس الوزراء البريطانى فى شن العدوان على العراق ورغم توغل تلك القوات واحتلال العراق بالكامل لم يتم اكتشاف أى من تلك الأسلحة. ويؤكد ذلك أن إزالة أسلحة الدمار الشامل من العراق كان ذريعة لشن العدوان ونظام الحكم فى العراق وتنصيب نظام آخر يضمن سيطرة المصالح الأمريكية البريطانية فى منطقة الخليج.

كما سجلت روسيا بيان الرئيس بوتين بشأن العراق الصادر يوم ٢٠ مارس ٢٠٠٣، والذى شدد على أن العملية العسكرية ضد العراق تجرى رغم معارضة الرأى العام العالمى وخلافا لمبادىء وقواعد القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة.

وعندما اجتمع مجلس الأمن يومى ٢٦ و٢٧ مارس ٢٠٠٣ بناء على دعوة جامعة الدول العربية وحركة عدم الانحياز لاجراء مناقشة حول العدوان الأمريكي البريطاني على العراق، ألقيت بيانات من الأمين العام الذى أعرب عن حزنه لبدء العمليات العسكرية وركز على دور الأمم المتحدة لتقديم المعونات الإنسانية للأهالى من المدنيين والنازحين، وطالب باحترام اتفاقيات جنيف وخاصة بالنسبة لمعاملة أسرى الحرب وحماية المدنيين. كما ألقى المندوب المراقب لجامعة الدول العربية بيانا - كرر فيه ما سبق أن أرسله للأمين العام للأمم المتحدة حول بيان مجلس جامعة الدول العربية الذى عقد على المستوى الوزارى فى القاهرة يوم ٢٤ مارس ٢٠٠٣، وأشار بصفة خاصة إلى: إدانة العدوان الأمريكى البريطانى على العراق.. واعتبار هذا العدوان انتهاكا لميثاق الأمم المتحدة ولمبادىء القانون الدولى وخروجا على الشرعية الدولية وتهديداً للأمن والسلم الدوليين وتحديا للمجتمع الدولى والرأى العام العالمى، والمطالبة بالانسحاب الفورى وغير المشروط للقوات الأمريكية البريطانية الغازية من الأراضى العراقية، وتحميلها المسئولية المادية والأخلاقية والقانونية عن هذا العدوان، ومطالبة مجلس الأمن باتخاذ قرار بوقف العدوان وسحب القوات الغازية فوراً خارج الحدود الدولية لجمهورية العراق، والتأكيد على احترام سيادة العراق واستقلاله السياسى وحرمة أراضيه وامتناع جميع الدول عن التدخل فى شئونه الداخلية، دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لعقد جلسة طارئة لبحث العدوان على العراق والمطالبة بوقفه الفورى وسحب القوات المعتدية من جميع الأراضى العراقية واحترام وحدة وحرمة أراضيه فى حالة عدم اتخاذ مجلس الأمن القرار اللازم

لوقف العدوان والانسحاب .

ثالثاً: موقف الأمين العام

بعد اجتماع قادة الولايات المتحدة وبريطانيا وأسبانيا في جزر الأزور يوم ١٦ مارس قرر الأمين العام للأمم المتحدة يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ سحب جميع الموظفين الدوليين العاملين في العراق بما في ذلك فرق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل - نظراً لعدم ضمان سلامة موظفي الأمم المتحدة والعاملين تحت علمها من مختلف وكالات وأجهزة المنظمة الدولية. وهكذا تم سحب فرق التفتيش الدولية للأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية والعاملين في لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش (UNMOVIC) وبعثة حفظ السلام التي انشئت بعد انسحاب العراق من الكويت في عام ١٩٩١ (UNIKOM) وموظفي الاغاثة الإنسانية والمشرفين على تنفيذ برنامج النفط مقابل الغذاء.

وقد أخطر الأمين العام مجلس الأمن الذي اجتمع يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ باعتزامه تقديم مشروع تعديل على برنامج «النفط مقابل الغذاء» يخول الأمين العام بعض السلطات للتصرف في جانب من حصيلة مبيعات النفط العراقي لشراء الاحتياجات الضرورية من المواد الغذائية والطبية لصالح الشعب العراقي.

وفي الوقت الذي برر الأمين العام تصرفه بمسئوليته عن حماية وضمان سلامة الموظفين الدوليين - طالما أنه تم اخطاره بذلك، إلا أن تصرف الأمين العام انتقدته العديد من الدول واعتبرت تصرفه خروجا عن صلاحياته باعتبار أن مجلس الأمن هو صاحب الاختصاص الأصيل في هذا الشأن. وربما يرجع السبب في التحايل على مجلس الأمن وتخطيه، توقع أمريكا وبريطانيا عدم امكانية المجلس اتخاذ مثل هذا القرار لعدم أغلبية تسعة أصوات وتفادى ممارسة حق الفيتو من جانب فرنسا أو روسيا أو الصين في حالة اكتمال نصاب التصويت لاصدار قرار من المجلس أى تسعة أصوات. مما كان سيشكل عقبة قانونية إضافية أمام الغزو الأمريكى البريطانى للعراق.

هذا وتجدر الاشارة إلى أنه في بداية أعمال مجلس الأمن الذى عقد بناء على مبادرة من جامعة الدول العربية وحركة عدم الانحياز يوم ١٩ مارس ، ألقى الأمين العام للأمم المتحدة بيانا ذكر فيه أنه يوم حزين للأمم المتحدة أن تفشل الجهود الدبلوماسية في تسوية النزاع حول اتهام العراق بامتلاك أسلحة الدمار الشامل. وأضاف في جلسة المجلس التي عقدت يوم ٢٦ مارس بأن بدء العمليات العسكرية الأمريكية البريطانية يوم ١٩ مارس يشكك في مشروعيتها «its legality is questianable» وبناء على المشاورات التي جرت فيما بين الدول الأعضاء في مجلس الأمن ومنها سوريا - العضو العربي الوحيد بالمجلس - أدخلت تعديلات على مشروع القرار الذى قدمه الأمين العام إلى المجلس بتاريخ ١٩ مارس ٢٠٠٣ حول تعديل برنامج «النفط مقابل الغذاء» وصدر قرار

اجتماعي من المجلس يوم ٢٨ مارس ٢٠٠٣ باعطاء الأمين العام سلطة اضافية لادارة البرنامج لمدة ٤٥ يوما. ويمكن تجديد القرار لفترات مماثلة وفقا للحاجة. وقد أعطى قرار مجلس الأمن الصادر يوم ٢٨ مارس الماضي الأمين العام سلطة القيام بعدة مهام - مثل اعادة تقييم العقود التي سبق الموافقة عليها في لجنة العقوبات التابعة للمجلس بما في ذلك المسائل الفنية واللوجستية وبدائل المواقع ووسائل التموين. كما منح القرار الأمين العام سلطة التفاوض حول عقود جديدة لمواجهة الاحتياجات الطبية للشعب العراقي. ولم يعف القرار الدول التي احتلت العراق من مسئولياتها في هذا الشأن ويغطي هذا البرنامج ٦٠٪ من احتياجات الشعب العراقي الذي يبلغ تعداده ٢٧,١ مليون نسمة.

وقد وجه الأمين العام للأمم المتحدة الدعوة لاعضاء مجلس الأمن للاجتماع به يوم ٧ ابريل ٢٠٠٣ - في اجتماع غير رسمي بعد أن شارف العدوان الأمريكي البريطاني على تحقيق أهدافه باحتلال غالبية أراضي العراق وحصار العاصمة بغداد وبعد اعلان الادارة الأمريكية انشاء إدارة مدنية مؤقتة برئاسة الجنرال الأمريكي المتقاعد «JAY GARNER» يكون مقرها المؤقت مدينة أم قصر بعد. وكأن دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن - يجب أن يكون مقصوراً على التعامل مع الأمر الواقع لانقاذ المنكوبين وتعبئة الموارد اللازمة لتقديم المساعدات الإنسانية للمدنيين.

وقد عين الأمين العام السيد/ رفيع الدين أحمد الباكستاني الجنسية مستشاراً له لشئون العراق، وصرح الأمين العام بأنه يعتقد أنه يجب أن يكون للأمم المتحدة دور مهم في إعادة بناء العراق، وأنه كلف السيد/ رفيع الدين أحمد باعداد عدد من السيناريوهات حول الوضع في العراق بعد انتهاء الحرب.

ورغم محاولات أمريكا للهيمنة على إعادة أعمار العراق لصالح شركاتها وحرمان الدول التي لم تؤيد غزو العراق من ذلك، فقد أكدت قمة الاتحاد الأوربي في منتصف ابريل ٢٠٠٣ على الدور المركزي للأمم المتحدة في إعادة أعمار العراق بينما ترغب الولايات المتحدة في أن يقتصر دورها على الإغاثة الإنسانية

* * *

أما بعد يتضح مما تقدم أن دور الأمم المتحدة في تسوية الأزمة التي تم افتعالها حول العراق كان دوراً مهمشاً، ويعكس ذلك عدم تمكن مجلس الأمن من تحمل مسئولياته وفقا لما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة، ويعتبر الغزو الانجلو سكسوني للعراق في مارس / ابريل ٢٠٠٣ هو الفصل الأخير من هزيمة العراق التي بدأت منذ يناير ١٩٩١ واستمرار حصاره وفرض العقوبات عليه وقصف مواقعه في شمال وجنوب العراق طوال اثني عشر عاما بمعرفة الولايات المتحدة وبريطانيا وكان الدور الذي قام به المفتشون الدوليون دوراً تمهيدياً لغزو العراق الأخير، فقد سمحت مهمة المفتشين بالتأكد من خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل وإزالة الشكوك حول ذلك، وهو ما طمأن قوات التحالف

الانجلو أمريكية إلى تقليل المخاطر البشرية ازاء امكانية استخدام العراق تلك الأسلحة لمواجهة الغزو المخطط له، ولم يكن دور الأمم المتحدة إلا الدور الذى ترضى عنه القوة العظمى الوحيدة - بعد فرض الأمر الواقع، إما لتعبئة توزيع المساعدات الإنسانية لانقاذ منكوبى المقاومة العراقية الباسلة وضحايا القصف الجوى للأحياء السكنية واستئثار الولايات المتحدة وشركاتها بعمليات إعادة أعمار العراق من خلال استنزاف ثروات الشعب العراقى النفطية مع حرمان الشركات التابعة للدول التى عارضت الحرب ضد العراق من المشاركة فى إعادة البناء عقابا لها. مع التحكم فى إنتاج وتسعير النفط على المستوى العالمى لصالح شركاتها عبر القومية. وتحجيم دور الأوبك.

وهكذا كانت شعارات التحالف لغزو العراق من تحرير وديمقراطية وحقوق الإنسان شعارات زائفة «مكيافيلية» الغاية تبرر الوسيلة، «وكلمة حق يراد بها باطل» عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه. الذى واجه فى القرن الأول الهجرى الفتنة الكبرى وتآمروا عليه ودفن فى العراق، وإذا بالعراق يتعرض للمؤامرة الكبرى للهيمنة عليه في القرن الخامس عشر الهجرى وبداية القرن الحادى والعشرين الميلادى.

وهل لنا أن نستذكر أن الصراع على بترول العراق يرجع إلى الحرب العالمية الأولى مع قرب نهاية الامبراطورية العثمانية ومحاولة ألمانيا والنمسا - من خلال تحالفهما مع تلك الامبراطورية للسيطرة على العراق وثرواته البترولية وقد تصدت لهما بريطانيا والولايات المتحدة، وكانت النتيجة اقتسام غنائم الامبراطورية العثمانية فيما بين هؤلاء الذين انتصروا فى الحرب والتاريخ يعيد نفسه.

والتاريخ يعيد نفسه

والمخطط الحديث للسيطرة على منابع البترول فى الخليج يرجع إلى بداية السبعينات مع انسحاب بريطانيا من تلك المنطقة وفى ظل إدارة الرئيس نيكسون ووزير خارجيته هنرى كيسنجر، وتبلور هذا المخطط بعد حرب أكتوبر المجيدة على أن يجرى تنفيذه على مراحل منذ بداية الثمانينات فكانت الحرب العراقية الايرانية ثم غزو الكويت وأخيرا غزو العراق، ونحن لا نعلم يقينا ما هى المراحل القادمة لاستكمال المخطط.

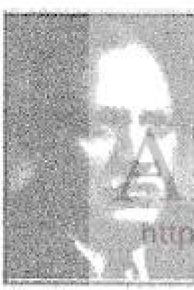
التحذير من المخططات الصهيونية الأمريكية والتى سبق تسريبها بتوطينهم اللاجئين الفلسطينيين فى العراق، ونخشى أن تكون «خريطة الطريق» غطاء لذلك.

إذا كانت ذريعة بوش وبلير فى غزو العراق وتدميره واحتلاله هو التخلص من أسلحة الدمار الشامل التي لم يثبت وجودها فأولى بهم ثم أولى أن يذهبوا إلى إسرائيل لنزع أسلحة الدمار الشامل منها ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ومن هنا يلزم تأييد مبادرة سوريا فى مجلس الأمن لنزع أسلحة الدمار الشامل من جميع دول المنطقة والتى هى فى إسرائيل. ■



شعراء مصر يحيون العراق

بقلم
د. محمد رجب البيومي


محمود غنيم


علي الجارم


د. زكي مبارك

من رأى المظاهرات الصاخبة التى اندفعت فى قلب القاهرة، وعواصم المحافظات وساحات الجامعات تستنكر العدوان الغاشم على العراق، وتعده عدوانا على مصر نفسها لأن العراق شقيق مصر وقد اتحدتا فى الشعور والآلام والآمال، من رأى هذا الطوفان المزيد الجامش يغلى بالحفيظة والغيظ، ويترقب يوم الانتقام العاجل أيقن أن الأمة الإسلامية جميعها جسد واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه تداعى له الجميع بالحمى والسهر.

بل من رأى المجالس الخاصة في المنازل وقد تلهف المجتمعون على مشهد من مشاهد الحرب الدائرة تنقلها القنوات الفضائية كاشفة ما يدور على أرض العراق من وقائع أظهرت بسالة الجندي العراقي الذي تشتعل الحمية في قلبه فتنسيه نفسه ويهجم وهو الأعزل الضعيف على الدبابات القاذفة باللهيب كما أنه يجود بروحه في سبيل المقدسات الغالية من تراب الوطن الحبيب ، من يرى هؤلاء الجالسين وقد تصاعدت زفرات الألم من الآباء وجرت دموع الحسرة من الأمهات ، لا يشك لحظة أن المصاب ليس مصاب العراق وحده بل مصاب مصر وسائر الأمم العربية . وكأن القذائف التي أصابت البصرة والنجف وبغداد قد أصابت القاهرة والإسكندرية والمنصورة فالخطب مشترك والعدو واحد والأمل في النصر قريب غير بعيد.

والشعر اليوم قد عبر قدر استطاعته عن مأساة الحرب الدامية في العراق ، ولكن أسلوبه التأثيري لا يوقد النار في الشعور ، لأنه خالف النسق العربي الأصيل الذي يهز المشاعر هزا ويرج الأحاسيس رجا ، وشعراء الجيل الماضي كانوا أقدر على التعبير الصادق الذي يملك عواطف القراء بما يفصح عن مشاعرهم الواضحة دون التواء في رمز غامض أو تصوير متكلف أو شطط يجنح إلى الافتعال ، لذلك رأيت أن أعرض للقراء الكرام ما يحسون به من مشاعر الحب نحو بغداد من خلال ما قاله شعراء الأمس ، فإن تعبيرهم الطبيعي غير المتكلف يروى النفوس ، ويشفي الصدور وليس ضبابا حائرا يعشي الأبصار.

إذا ذكر الذين هتفوا بمجد العراق من أبناء مصر وشعرائها فاول من يطرأ على الذهن من هؤلاء هو الدكتور زكي مبارك فقد زار العراق من قبله أساتذة كبار من أمثال عبدالرزاق السنهوري ومحمود عزمي وأحمد حسن الزيات وعبدالوهاب عزام ، وكلهم تحدث عن ذكرياته بالعراق حديثا يحمل الحب والإخلاص ولكن الدكتور زكي مبارك كان أمة وحده ، وحسب القارئ أنه قضى في عاصمة الرشيد تسعة أشهر فقط!! أي أقل من عام وقد اتسعت هذه الفترة القصيرة لتأليف ستة كتب عن العراق وأدبه هي ليلى المريضة في العراق في ثلاثة أجزاء ووحي بغداد وعبقرية الشريف الرضي، غير ما نظمه من الشعر الوجداني الرقيق ومما قاله عن أهل مصر «إن المصريين يغدون إلى العراق وليس في صدورهم ثروة غير الحب، ومن أجل هذا يحبهم العراقيون ، فإن سمعتم أن مصريا شقى في العراق فاعلموا أنه مصري مزيف» .

كما قال زكي مبارك عن أهل العراق «إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فلتعلموا أننا نحبهم ونتمنى لهم كل خير

وتنظر إلى بلادهم نظر الأخوة الصادقة التي لا تضمر غير العطف والصدق».

وحين أزمع على الرحيل أنشد في النادي العراقي قصيدة رنانة شارفت المائة من الأبيات وقد قال فيها:

ستذكر أرجاء الفراتين شاعرا
تفجر من مكنونة الدر عصماء
سيسأل قوم من زكي مبارك؟
وجسمي مدفون بصحراء صماء
فإن يسألوا عني ففي مصر مرقدي
وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي

وفي النقاد من يحسد حين ينقد، فهو ينظر بعين موجعة عوراء، وقد أخذ على زكي مبارك حين راعه تدفق خاطره، وتعداد صوره، وشبوب عاطفته أخذ عليه أنه تغزل في حسان العراق، وما كان له أن يفعل ذلك وهو مأخذ طائش لأن زكي مبارك تغزل في حسان مصر بما ملأ قرابة الديوان من شعره، وما عد أحد ذلك عيبا على شاعر يصور ما يحس إن كان لم يذكر اسم الحبيبة تصريحا أو تلميحا بل جعلها (ليلى المريضة في العراق) ثم ماذا في هذه الأبيات مما يوجب الملام!

عفا الحب عن بغداد كم بت لاهيا
أكاثر أيامي بليلى وظمياء
فكيف وقعت اليوم في أسر طفلة
مكحلة بالسحر ملثوغة الراء
أصاول عينيها بعيني والهوى
يشيع الصبا في عروقي وأعضائي

والذي يقول هذا في غيد بغداد يقول في حسناوات مصر الجديدة:

تعالوا ففي مصر الجديدة ما بها
من النرجس الفينان والفل والورد
إذا جلت فيها جولة الفتح أسلمت
مفاتحها فيما تسر وما تبدي
شوارعها عند الأصيل مشارع
لكل محب من حبيب على وعد
وأنفاسها بالليل كالمسك نفحة
وظلماؤها كالخال في صفحة الخد
تجمع فيها الحسن من كل أمة
كبغداد بين العرب والفرس والكرد

فلنترك زكي مبارك إلى سواه!

صلة مصر بالعراق

وأبدأ بالشاعر الكبير الأستاذ علي الجارم وهو من ألمع شعراء العربية في عصره لأنه شاعر العروبة المتحدث عن آلامها وآمالها ولشعره صولة نافذة إلى القلب إلقاء ومضمونا لذلك كان شوقي رحمه الله يخصه بإلقاء قصائده في أكثر المحافل الشعرية، وقد زار بغداد ثلاث مرات، أنشد في كل مرة قصيدة تؤكد صلة مصر بالعراق وقد أفصح عن الحقيقة الصريحة حين قال:

إذا مست البأساء أكتاف دجلة
رأيت الأسى في صفحة النيل والكمدا

ولو كان الجارم بيننا الآن لرأى مصداق قوله في هذا الغليان المتأجج في الصدور والغيظ الملتهب في العروق، فالأسى في صفحة النيل قد حول ماءه إلى حميم آن، وكم مقلة في مصر قد اضطربت سهدا حين طرفت عين بغداد من القذى تصديقا لقول الشاعر الكبير:

وإن طرفت عين ببغداد من قذى
فكم مقلة في مصر قد ملئت سهدا
إخاء على الفصحى توثق عهده

وشدت من الإيمان أركانه شدا

أما قصيدته التي ألقاها بالمؤتمر الطبي بالعراق سنة ١٩٣٨ فلو لم تكن موقعة باسم الجارم ونسبت إلى شاعر عراقي كبير لعبرت عن شعور كل عراقي، وصارت أنشودة جميلة يرددها في مراحه، لقد كان الجارم عراقيا في قصيدته لأنه شاعر عربي مسلم، يحس ما يحسه أبناء الأمة العربية الأصلاء من روابط الدين واللغة والدم ويحن إلى تاريخ المجد القديم في عهد الرشيد فيقول مخاطبا بغداد:

يا سطر مجد للعروبة خط
في لوح الخلود
يا راية الإسلام والإسلام
خفاق البنود
يا مغرب الأمل القديم
ومشرق الأمل الجديد
يا زورة تحيي المنى
إن كنت صادقة فعودي

والجارم شاعر مؤرخ معا وتاريخه لبغداد ينفح بالشاعرية العذبة وليس نظما سرديا كما ينظم سواه ونصيب الوجدان فيه كنصيب الفكر يمتزجان ولا يفترقان فإذا استسلم إلى عاطفته الوجدانية فذكر بغداد دار الفن والطرب فإن مدده في حديثه مما علم ودرس عن أثر الفنون الجميلة في نتاج هذا البلد الحبيب، فالشعراء العظام، ومجالس الأدب، وسمر الرشيد وجعفر بن يحيى والقيان الضاحكات! هذه الحقائق الفكرية الخالصة يرفدها الوجدان بتصويره الأخاذ ويمدها الشعر بموسيقاه العذبة والخيال بريشته الأنيقة فيتألف من ذلك مهرجان رائع حافل بالظل والضوء والإيحاء يتجلى في قوله:

بغداد يا دار النهى
والفن يا بيت القصيد
نبت القريض على ضفافك
بين أفنان الورود
سرق التدلل من عنان
والتفنن من وحيد
بغداد أين البحتري
وأين أين ابن الوليد؟
ومجالس الشعراء في
بيت ابن يحيى والرشيد؟
أين القيان الضاحكات
يمشين في وشي البرود
السافرات مع النجوم
الآنفات من الهجود
يخطرن حتى تعجب
الأغصان من لين القدود
وإذا سفرن فأين
ضوء الشمس من شفق الخدود
يعبثن بالأيام والأيام
أعبث من وليد
خبأ الجمال لهن كنزا
بين سالفة وجيد

هذه عظمة الفن وجماله أما عظمة السلطان وجلاله، حين كان الرشيد سيد العالم، يسعى إليه سفراء الممالك مذعنين، وجنود أمير المؤمنين من حوله في شلة المحارب وبأس الصنديد يستقبلون الرسل في عزة وكبرياء فإذا حان وقت الصلاة طهروا جبهاتهم بالسجود، هذه المعاني التي سجلها

التاريخ في دقة الباحث رسمها الشاعر بريشة المصور فقال:

كم جاش جيشك بالفوارس
من أساورة وصيد
ملك إذا صورته
عجز الخيال عن الصعود
الرسل تتلو الرسل من
بيض صقالبة وسود
ساروا لقصر الخلد يعشي
طرفهم وهج الحديد
يتعثرون كأنهم
يمشون في حلق القيود
الجو يسطع بالظبا
والأرض تزخر بالجنود
حتى إذا رجعوا بدا
بجباههم أثر السجود

ويستطيع المؤرخ الدقيق أن يجعل من قصيدة الأستاذ على الجارم عناصر قوية لبحث يكتبه عن عظمة بغداد في عصر الرشيد وإذا كنت لا أستطيع أن استشهد هنا بجميع ما يدل على هذه العظمة الخالدة فيكفي أن أشير إلى أفكار تتعلق بالناحية العلمية، في هذا العصر حين كانت الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات مجالا للبحث النظري والعملي معا وحين كان الغرب كما قال الجارم:

والغرب ينظر في جمود
نحو قاتلة الجمود

وحين كان الجاحظ وأمثال الجاحظ يكتبون المجلدات الممتازة في شتى الفنون، فإذا انتقل الشاعر إلى الحاضر بعد حديثه عن الماضي فإنه يتفاءل كثيرا، تيمنا بطلائع نهضة تشرئب إلى الصعود سالكة النهج السديد، ولم ينس أن يذكر العلاقة الوطنية بين العراق ومصر وتغلبه روح الدعابة حين يقول:

أهلوك أهلونا وأبناء
العشيرة والجدود
بين القلوب تشوف
كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نخلك
نخل أهلي في رشيد
شطت منازلنا وما
احتاج الفؤاد إلى بريد

وكل ما ألمت إليه لا يغني عن قراءة القصيدة في ديوان الشاعر الكبير.

قصيدة عن بغداد

أما الشاعر الثالث الذي أخصه بالحديث فهو الأستاذ محمود غنيم وقد تواردت خواطره مع خواطر الأستاذ الجارم في كثير من المعاني لا لأن الأستاذ غنيم قد احتذاه بل لأن الحقائق التاريخية والأدبية التي أشار إليها الشاعران قاسم مشترك بين دارسي الأدب والتاريخ جميعا مع فرق واضح في الأسلوب الشعري إذ يميل الأستاذ الجارم إلى الرصانة الأسلوبية حيث يكون قريبا من شوقي أما الأستاذ محمود غنيم فأقرب الشعراء إلى حافظ ابراهيم وقد يتعمد السهولة المفرطة في بعض ما يقول حتى لكأنه ينثر ولا ينظم وذلك حينما يطيل القصيدة لمولا لا تحتمله، كما في قصيدته عن بغداد إذ بلغت أكثر من ثمانين بيتا، وكان فيما دون ذلك ما يبلغ المراد، وقد ابتدأ

قصيدته رائعا حيث جعل بغداد في القديم أم الدنيا ، وهي حقيقة كذلك وأشار بوضوح إلى انكسار الغرب أمام مدينتها الزاهرة المضيئة ، وهذا ما ألم إليه الجارم أيضا ولكن في إيجاز ونستمع الآن إلى قول الأستاذ محمود غنيم الرائع:

بغداد قرة عين الشرق بغداد
لحن تغنى به الإسلام والضاد
الدهر يعرفها للكون عاصمة
تقوده ، كيفما شاءت فينقاد
إن تبتسم تشرق الدنيا وإن غضبت
ففي السموات إبراق وإرعاد
تزهى الحواضر ما شاءت بحاضرها
وكلها لك يا بغداد أولاد
الغرب يعرف ما أدى بنوك له
الكتب تنطق والأقلام شهاد

وهي نفثة قوية معبرة احتشد لها الشاعر في المطلع وكان في طوقه أن يسير على منوالها إذا تريث ، ولكن الخواطر المزدحمة في صورة تجبره على الاسراع كما نفعل جميعا ، وقد أشاد بالرشيد إشادة جميلة ومن الذى يتحدث عن بغداد ولا يتحدث عن الرشيد وقد أرجع جميع الفتوح العلمية في الأدب والشعر واللغة والعلم إلى عهده ، ولا أدرى لماذا لا يذكر المأمون وهو في هذا المجال ذو أثر أقوى من أبيه على أنه لم يجاوز الحق حين قال عن الرشيد:

ينهي ويأمر في الدنيا وفي يده
بعد المقادير إشقاء وإسعاد
تزجى إليه هدايا الروم لاكرما
إن الضعيف لمن يخشاه وداد
أهاب بالسحب أنى شئت فاسكبي
فكل نبتك لي، يا سحب إيراد
رب القصور قصور العز شامخة
كأنها في نطاح السحب أطواد
رب الجوارى اللواتى مالهن سوى
عواهل الفرس والرومان أجداد
من كل جارية للشعر راوية
كأنها غصن في الروض مياد

وهو يشير في قوله (أهاب بالسحب) إلى ما روى عن الرشيد من أنه رأى سحابة في الأفق تسير مبتعدة عن بغداد فقال لها: إذهبى ما شئت فحيث أمطرت سيأتيني خراجك ، وقد جاءت صياغة البيت في حاجة إلى اتئاد ولكنها السهولة التي يختارها غنيم ، وأنا أعرف عنه القوة في قصائد أخرى ولعله كان يفرق بين الشعر الذى يلقى في المحفل بدءا والشعر الذى يظهر في الصحف دون إنشاد سابق فيتعمد إرضاء الأوساط من السامعين بما ينتحيه من السهولة وكذلك كان حافظ!

وقد أجاد الشاعر محمود غنيم كل الإجادة فيما مدح به خلفاء الإسلام في العصور الزاهرة ، وهي إجادة من تشبع بحب العروبة والإسلام ، ومن يحن إلى الماضي الزاهر حنين معجب فخور ، ومن يدعو إلى القوة الباطشة بالأعداء استرجاعا لعهود العزة والاستقلال ، ولعل طلاب المدارس يجدون في نصوصهم الأدبية ما يبعث في نفوسهم الحمية ، حين يقرأون قول الشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم:

لنا أوائل سنوا كل مكرمة
شم الأنوف أباة الضيم أمجاد
شادوا المعاقل والآطام شامخة
لله والمجد والعمران ما شادوا
لهم رءوس على الأغماد ثائرة
لكن لها قلل الأبطال أغماد
ينقض كالصقر فوق المتن جيشهم
كأنما هي صيد وهو صياد
في السلم إن عاهدوا والحرب إن ظفروا
شطرة عن شرعة العدل والإسلام ماحادوا
لا تلمس الأرض منهم بيض أوجههم
إلا وهم لجناب الله سجاد

والبيت الأخير يذكرني بقول شوقي عن خلفاء الأندلس

في فتية لا تنال الأرض أوجههم
ولا رءوسهم الا مصلينا

وقد سعدت مصر بزيارة شاعري العراق الكبيرين جميل صدقي الزهاوي، ومعروف الرصافي، إذ جاءها الأول في سنة ١٩٢٤ ووفد إليها الثاني سنة ١٩٣٦ فرحبت بهما البلاد ترحيبا أخويا نادر المثال واستقبلتهما الصحف أكرم استقبال. ولكن غيوما داكنة قد خيمت في مختتم زيارة الزهاوي لأنه أخذ ينشر في جريدة السياسة اليومية قصائد تعبر عن وجهة نظره حينئذ في الموت والحياة وهي من الجرأة بحيث صادمت الشعور الديني العام، وكان من هذه القصائد ما نشره بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢٢ بجريدة السياسة تحت عنوان الدمع ينطق وفيها يقول:

وسائلة هل بعد أن يعبث البلى
بأجسادنا نحيا طويلا ونرزق
فقلت مجيبا إنني لست واثقا
بغير الذي حسي له يتحقق
فهيهات أن ترجى الحياة لميت
إليه البلى في قبره يتطرق
تقولين يفنى الجسم والروح خالد
فهل بخلود الروح عندك موثق

وما كادت القصيدة يتداولها القراء حتى ثار عليها الكثيرون وتقدم أحد علماء الأزهر بكتاب إلى رئيس الوزراء نشرته جريدة الأخبار لأمين الرافعي بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢٤ يندد بالقصيدة ويدعو إلى مغادرة الشاعر القاهرة والتنديد بالقصيدة له مبرره قطعا، ولكن دعوة الشاعر إلى مغادرة البلاد شطط لا مبرر له، وأذكر أن الأستاذ الكبير العلامة محمد فريد وجدي قد وجه إلى الشاعر على صفحات جريدة السياسة خطابا أخويا قال فيه بأسلوبه المهذب الرائع إنه يقرأ ما تجود به على قراء العربية من نفثات رائعة ويحيي تلك الروح السمحة والعاطفة الرقيقة التي توجد لديك، ولكنك ذو جرأة لم أجد من ساواك فيها غير الدكتور شبلي شميل رحمه الله إلى أن قال بعد حديث أخوي يضرب المثل الأعلى في حسن الحوار وجمال التأتي فهل للأستاذ أن يساجلني البحث في هذا الموضوع الخطير فيعرض أدلته على نفي الروح وأعرض أدلتي على إثباتها فيشهد القارئون من هذه المعركة القلمية أجمل مشهد من مشاهد النضال العلمي بأسلحته الحديثة».

ولكن الأستاذ الزهاوي رد شاكرا

ومعتذرا وقال إنه مصمم على الرحيل عن مصر ولا يجد وقتا للمناظرة ولعل من المهم أن أذكر أن شيخ العروبة أحمد زكي باشا أقام للزهاوي حفلة تكريم بدار العروبة جمعت أئمة الفضل من أعيان الأدب والسياسة وفي ذلك ما يدل على تقدير الزهاوي والاهتمام بأدبه وإن جاء بعضه مصادما للشعور العام.

أما زيارة الشاعر الكبير الأستاذ معروف الرصافي فقد هب النسيم بها رخاء لم يصادف بلبلة ما ، وقد استقبل استقبالا رائعا ، حيث أقام له الأستاذ الكبير محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ يومئذ ورئيس الرابطة العربية بمصر حفلة كبرى ترحب به وبالوفد العراقي الذي صحبه ونشر الشاعر المعروف الأستاذ محمود رمزي نظيم قصيدة عامرة ترحب بالشاعر والوفد العراقي وتشيد بعظمة بغداد وتاريخها العربي المجيد وما بها من مشاهد الطبيعة الساحرة في دجلة والجسر والرصافة وليالي الصفاء حول الفرات ومجالس الأدب بها في القديم والحديث وقد ابتدأ الأستاذ محمود رمزي نظيم قصيدته بقوله:

أهلا بسادة بغداد وشاعرها
من شاد بالشعر ركنا من مفاخرها
تهز أعطافها تيها قصائده
بما يصور فيها من خواطرها
هيهات تذهب بغداد وما صنعت
فالله خلد غرا من مآثرها
تلك الرصافة قد عادت مباهجها
والحسن في الجسر مجد من سرائرها
ونهر دجلة فياض كعادته
في المجد يربط ماضيها بحاضرها
فكم ليال تغنت في شواطئه
أصغى الزمان إلى تطريب زامرها

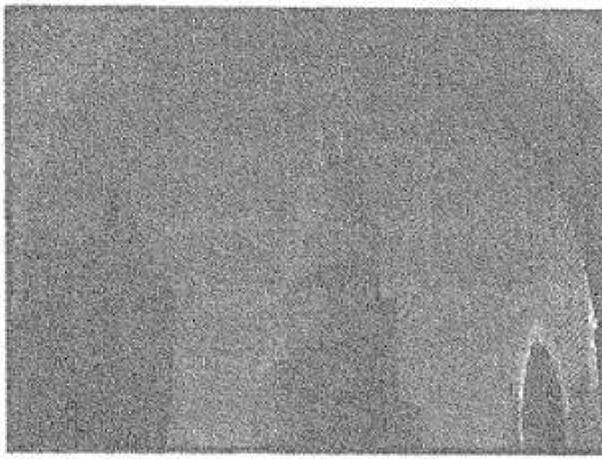
وتمضي القصيدة على هذا المنوال الجيد، وهي تؤكد ما يضمره الشاعر من حب غامر لبلاد الرافدين وتضاف إلى أمثالها الجياد!

وعلى صفحات الرسالة التي رأس تحريرها الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات مقالات وقصائد تشيد بالعراق أدبا وتاريخا وجهادا وأذكر أن قصائد الأستاذ الزهاوي كانت تجلجل على صفحات الرسالة التي وصفت ناظمها بالشاعر الفيلسوف وكان الزيات ذا لباقة حصيفة إذ كان يحذف ما يند به الشاعر من أبيات في قصائده لا تجري مع التيار العام! وهو احتياط مشكور ، لأن الرسالة الحبيبة كانت ذات رسالة في الأدب والدين معا!

لقد طال الحديث ولم أبلغ كل ما أريد من تصوير المشاعر الدافقة نحو العراق وماضيه الزاهر وحاضره المجيد ولعل الشاعر الكبير الأستاذ علي الجارم قد أوفى على الغاية حين قال:

حبيب إلى نفسي العراق وأهله
وسالفه الزاهي المجيد وحاضره
إذا شئت مجد العرب في عنفوانه
فهذي مغانيه وهذي منائره

■



بغداد

شعر
محمد التهامي

بغداد.. إن فاضت ببابك دمعتى
سيرى إلى الأحداث شامخة الخطى
أما أنا فدعى الشجون لخاطرى
فلقد أتيتك لا أقول مواسيا
فوجدت عندك ما اشتهيت.. تجلدا
ورأيت حزنك حول بابك هيبة
فالحزن حولك كالخضم تدفقا
حتى الدموع لديك لاح وميضها
ومواكب الشهداء حولك هالة
يتنزلون ويلمسون جدارها
وتموج فى ألق الجلال مشاعر
فالناس والأملاك حين تعانقا
وإذا ببغداد العزيزة قلعة

لا ترحمى ضعفى ولا تتلفتى
فوق اضطراب الحزن فوق المحنة
ودعى العذاب المر يتلف مهجتى
لكن لأنشد فى جوارك سلوتى
حين الجبال تململت فى الوقفة
زادت على ما حوله من هيبة
والصبر عندك كامتناع القمة
كالنور تلمع قطرة فى قطرة
فيها ملائكة تطوف بكعبة
فيصير نورا من جلال اللمحة
كم دمعة فيها وكم من قبلة
كاد التراب يذوب فى قدسية
فيها رياض من رياض الجنة

قد مارس الشهداء طعم نعيمهم ... ويمارس الأحياء طعم العزة

* * *

بغداد.. يا روح العروبة حرة ... لم تحن يوما رأسها لمذلة
كابدت تاريخ النضال أبيه ... وكتبت للتاريخ أروع صفحة
ولمعت فى طول البلاد وعرضها ... جرحا تضرج فى جباه حرة
هل تذكرين المجد حين تضوعت ... أنفاسه فى يوم مولد طفله
قد كنت يا بغداد كل عبيره ... حتى وأنت هناك برعم زهرة
وحكمت حتى فى السحاب فلو مضى ... فخراجه مستغفر فى العودة
والمالكون أمام بابك خشع ... أعناقهم فيها خضوع البيعة
وأدرت حكم القادرين عدالة ... لم تظلمى أحدا ولم تتعنتى
أتاك ربك نعمة فشكرتها ... وعلامة الإيمان شكر النعمة

* * *

وتقلبت من حولك الدنيا وكم ... من حلوة فيها وكم من مرة
ومشيت يا بنت النعيم على اللظى ... ما اهتز عودك فى جلال المشية
سيان هامتك الرفيعة إن مشت ... فى خضرة الأيام أو فى الحمرة
وغسلت بالدم تربة لو أنصفوا ... وزنوا بساحتها الحصاة بدرة

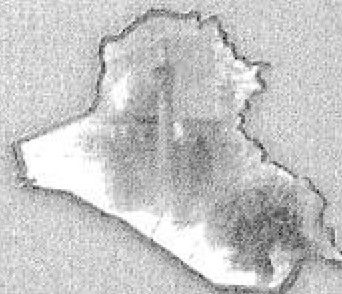
* * *

بغداد.. قد جاء التتار وكلهم ... يأتى لباطله الهزيل بحجة
ولدى العراق بصيحة من شعبه ... عند الوغى حجج الدليل المسكت
بغداد.. قد ساقوا إليك بغاثهم ... وتوهموك فريسة لن تفلتى
حتى انتفضت وقد لويت رقابهم ... فصغيرهم وكبيرهم فى القبضة

* * *

يا أيها العرب الكثار تجمعوا ... قد دقت الغيلان باب القلعة
وأتوا بيأجوج ومأجوج لنا ... ويفتشون ببابنا عن فرجة
فى موجة فك الضلال عقالها ... والويل كل الويل خلف الموجة
ولنا النجاة إذا ترابط جمعنا ... فى صدق إيمان وقوة عزمة
هذا السبيل إلى الخلاص لأمة ... لا شئ ينقذها بدون الوحدة
ياويل من خانوا ومن قد هادنوا ... والواقفين على دروب الحيرة
هذا التمزق قد أضاع شعوبنا ... فى عالم لا وزن فيه لقلة
سيسوقنا سوق الغبار أمامه ... حتى يوارينا هناك بحفرة
ويسجل التاريخ عن أوطاننا ... فيقول: قد كانوا هناك وكانت





الشاعرة لميعة عباس عمارة

بقلم
وديع فلسطين

فى أمسية من أماسى شهر رمضان لعام ١٩٨٤ دعاني الشيخ صقر بن سلطان القاسمي (١٩٨٤ـ ١٩٩٣) الشاعر الذي كان حاكماً للشارقة إلى السحور في حديقة غناء في مصر الجديدة كانت تعرف باسم «غرناطة»، وقال إن هناك شاعرة من العراق اسمها لميعة عباس عمارة ستكون «بيت القصيد» فى هذه الأمسية وكنت أعرف أطرافا من أخبار هذه الشاعرة، سواء مما كتبه عنها الدكتور بدوي طبانة (١٩١٤ـ٢٠٠٠) في كتابه «أدب المرأة العراقية» وهو قد كان أستاذاً للميعة في المرحلة الجامعية - أو من مداعبات صالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٦) لها عندما كان يحرر مجلة «الهلال» ولكنني لم أكن قد قرأت لها الأقصائد متناثرة دون أن أظفر بأي ديوان كامل لها .

ودعى إلى هذا السحور مجموعة من الأدباء والشعراء من أصفياء المضيف، منهم محمد عبد الغنى حسن(١٩٠٧ـ١٩٩٢) والشاعر الفلسطينى على هاشم رشيد (١٩١٩ـ١٩٩٥) والأديب الفلسطينى الدكتور كامل السوافيرى (١٩١٧ - ١٩٩٢) وغيرهم. وهلت طلعة الشاعرة وهى تتألق فى ثوب أسود ينم على ذوق رفيع زادها جمالاً ووقارا وتصدرت المائدة بجلالة ملحوظة وأخذ الحاضرون يستنشدونها شيئا من شعرها ولم يلبثوا أن أخضعوها لامتحان فى اللغة وآدابها بغية تعجيزها ولكن لميعة سحرت الحاضرين، سواء بشعرها أو بنثرها وأكاد أقول إنها أسكتت الذين أرادوا إحراجها بأسئلتهم «المعقربة» !

سجال بين الشاعرة والنقاد

ولم أحاول فى هذه الندوة أن أزج بنفسى فى هذا المعترك الشعرى - وأنا من الشعر خالى الوفاض - أو اللغوى فلزمت الصمت قانعا بدور السامع أو على الأصح المتفرج على هذا المشهد الرائع وهو سجال بين شاعرة تملك أدواتها فضلاً عن جاذبيتها، وبين نقاد أشداء ولكن لميعة استدرجتنى إلى الكلام قائلة إنها معجبة بربطة العنق التى كنت أتزين بها وكان الشاعر صقر بن سلطان القاسمى قد أسمعنا أبياتا فى ربطة عنق يعتزبها أهديت إليه من أرملة الأنقلابى السورى الزعيم حسنى الزعيم ، وفيها يقول :

أغلي الهدايا لقلبي ربطة العنق
من ذا يحررني منها ومن عنقي
كأنها قيد حبٍ لا يفارقنى
تلوي بلارحمة جيدى ولم تفق
تضمنى ضم من أحببت صورته
في الزهر ،في الموج، فى الآهات، في الأفق

فألهمنى حديث ربطات العنق أن ألفق حكاية قلت فيها إن الربطة التى ترونها مهداة من شابة حسناء قلت لها بعد شكرها :مادمت أردت أن تطوقى عنقي فهل أدلك على طريقة أجمل وأشهى وأرخص لتحقيق هذه الغاية؟ فارتجلت لميعة على الفور بيتين من الشعر صورت فيهما هذه الحكاية الملفقة وإن كانت اكدت أنها حكاية حقيقية حيث قالت:

أهديته ربطة، فارتد يسألني
الطوق تعنين أم تعنين تطويقي؟
يداك أجمل تعبيراً وأبلغه
لم العناء إذن في زحمة السوق؟

وأقول استطراداً إنني رويت هذه الحكاية للأديبة السورية سلمى الحفار الكزبرى التى كانت تقيم فى أسبانيا مع زوجها الدكتور نادر الكزبرى سفير سورية فى مدريد فقامت سلمى بإهدائى ربطتى عنق مع رسالة قالت فيها أنها على الرغم من تحذيرات لميعة من المزاحمة فى السوق حرصت على خوض

هذا الزحام نكاية في لميعة !

أعود إلى ندوة السحور لأذكر أن الشاعر الفلسطيني علي هاشم رشيد سجل خواطره عنها في قصيدة قال فيها :

لميعة هل تري تنسين يوما
أتي الشعراء والأدباء ليلاً
للقيا من أتت بالسحر شعراً
ومن نجوي الأحبة كان أحلي
بدعوة «ماجد» فأحاط جمع
بلؤلؤة لبدر قد تجلي
تلفت وهي تتلو مثل ظبي
بهمسة فاح نسرينا وفلاً
وفي العينين من وجد بريقا
وهدب بات فوق الورد ظلاً
وكنا الظامئين وما روينا
فمازلنا بنا للشعر شوق

وفي ندوة أدبية تالية شهدتها أهدت لنا الشاعرة آخر دواوينها المطبوعة بعنوان «لو أنبأني العراف» فبدأت لتوي أستكشف هذه الشخصية الأدبية المتفردة بالحسنيين: حسن المظهر وحسن المخبر

وعندوصول لميعة إلى القاهرة للمرة الأولى أستأجرت شقة مفروشة في منطقة روكسي بمصر الجديدة، فعانت من أوضاعها السيئة أهوالاً وصفتها بقولها :

سكنت يوما شقة مفروشة
كأنها زريبة منكوشة
بقدر ما في مصر من نفوس
فيها من الصرصور والناموس
صراصير علي أختلاف الحجم
تدخل حتي في ثناء الحجم
تدخل حتي في ثناءالجسم
أسرابها تسكن بطن الهاتف
آمنة ليس بها من خائف
وتسكن الطباخ والثلاجة
وباختصار ضمن (أي حاجة)
إلي أن قالت :
حوقلت وانتفضت كالشغالة
ثم بدئنا حملة الزبالة
بنصف شهر من جهود قاسية
ومقرفات أفقدتني العافية
تحسنت أوضاعنا الرذيلة
وأصبحت شوهاتنا جميلة
وحين كدنا أن نقول الحمد
وقد بدأ يخف عنا الجهد
فاجأنا المالك بالإنذار
أن ندفع المزيد في الإيجار !

وتقول لميعة إنها تركت هذه القصيدة - وهي طويلة واكتفيت هنا بمقاطع منها - قرب الهاتف لكي يقرأها المالك ، وتنازلت عن بقية إيجار الشهر المدفوع مقدما وهربت راجعة إلى لبنان الحرب!

ولدت لميعة عباس عمارة في مدينة كوت العمارة في العراق وزاملت في المرحلة الجامعية عددا من الشعراء منهم بدر شاكر السياب (١٩٢٦ - ١٩٦٤) وبلند الحيدري (١٩٢٦-١٩٩٦) وتزوجت بعد تخرجها من مواطن عراقي ينتمي إلى مذهبها الديني وهو الصابئة المندائية

واسمه مبارك ، وأنجبت منه ابنها البكر فسمته زكي وصارت تعرف باسم «أم زكي مبارك» العراقية وأنجبت بعد ذلك زيدون وابنة .

إعجاب بالسياب

وفي المرحلة الجامعية بدأت لميعة تبرز كشاعرة ولم يكن مستغربا أن يقوم الشعر بينها وبين زملائها الشعراء سفيرا للمودات فضلا عن الزمالات . وكان الانجذاب الأكبر إليها من جانب بدر شاكر السياب الذى سجل قصة حبه في ديوان كامل عنوانه «الأساطير» . وكان طبيعياً أن تبادله لميعة هذا الانجذاب . وكان طبيعياً أيضا أن تتصادم هاتان الشخصيتان لاعتبارات بعضها شخصي وبعضها اجتماعي ، فازداد التباعد بينهما وإن كان هذا لم يطفىء جذوة الإعجاب ولو من جانب لميعة . فلما عرفت أن السياب مريض جدا ومشرف على الموت ، لم تستطع أن تمنع عينها من أن تترقرق بالدمع . وعند ذلك ذهب شخص إلى السياب وقال له إن لميعة بكت إشفاقا عليك في مرضك . فكان رد السياب قاتلا ، حيث قال :

وتلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها
تفرقت الدروب بنا ، نسير لغير ما رجعة
وغيبها ظلام السجن، تؤنس ليلها شمعة
فتذكرني وتبكى ، غير أني لست


علي هاشم رشيد


بشارة الخوري

أبكيها !

فلما بلغتها هذه الأبيات، وكانت وقتها تجرب ظلام السجون، دفنت كل مشاعر الهوى القديم

وإذا كانت الاعتبارات السياسية تتغول أحيانا حتى على الأدباء والشعراء فلا ينجون من الوشايات التى تزج بهم في السجون، فإن القيمة الأصيلة للفنان تبقى مستعلية على كل الوشايات ومن هنا اختيرت لميعة لتكون الممثل الدائمة للعراق في منظمة اليونسكو في باريس ، ثم وكيلة للملحق الثقافي العراقي في العاصمة الفرنسية ، كما شغلت منصب مديرة الثقافة والفنون في الجامعة التكنولوجية ببغداد واختيرت عضوا في الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء العراقيين وعضوا بالمجمع العلمي السرياني ببغداد .

وعرفت لميعة بعد ذلك إقبالاً من عواصم العالم المختلفة على الاصغاء إليها وهي تنشد شعرها، فشاركت في ندوات في معظم البلدان العربية وفي

أمـريكا وانجلتـرا وبلجـيكا وفـرنسـا وغيرها، وكان رسولها دائما هو الشعر وإن كـان هذا شـجع حـتى الكوليج دى فرانس إلى دعوتها للتحدث عن تجربتها الشـعرية مع إنشاد نماذج من شـعرها وقام بتقديمها المستشرق الفرنسي جاك بيـرك. وقـد نشـرت حـتى الآن سـبـعـة دواوين هـى «الزاوية الخـاليـة» و«عـودة الربيع» و«أغـانى عـشـتـار» و«عـراقـيـة» و«يسمونه الحب» و«لو أنبانى العراف» و «البعد الأخير» وقد تعددت طبعاتها ، وأحدثها طبعة لبنانية اشتغل كل ديوان منها بغلاف ذى لون مستقل تحمل فى مجموعها ألوان طيف السحاب. ولهذا باتت لميعة تطلق عليها اسم «قوس قزح».

استهلت ديوانها «لو أنبانى العراف» ببيتين هما:

كل أشعـاري قبل لقياك سدى
وهبـاء كل مـا كنت كـتـبت
أطْوِ أشعـاري ودعْهـا جـانبـاً
وادنُ مني ، فـأنا اليـوم بدأت

وعندما سمعت هذين البيتين منها قلت لها : كان ينبغي أن تقولى «وادن مني، فأنا اليوم ولدت» لأنها كانت فى مولدها على موعد مع هذه العاطفة الجياشة التى تسرى فى معظم شعرها.

***

ظلت لميعة فى حالة عدم استقرار ، فلا تكاد تحط رجالها فى مكان حتى تحزم أمتعتها متوجهة إلى مكان آخر.

ولما أثقلتـهـا أشـيـاؤها ، تركت عندى أوراقها وكتبها، وتركت فى تونس حقائب مـلابسـهـا، وحـتى الوسام الذى أهدى إليها فى لبنان تركته وديعة عند بعض الأصدقاء ، فارتحل وراءها من لبنان إلى تونس ثم إلى واشنطن وسان فرنسسكو ولم تتسلمه إلا بعد أن استقرت فى مدينة سان دييجو فى ولاية كليفورنيا حيث يقيم ابنها ويدرس هناك.

وعندما منحت هذا الوسام اللبنانى ، كانت الحرب الأهلية فى أوجها، فنظمت قصيدة قالت فيها:

على أي صدر أحط الوسام ؟
ولبنان جرح بقلبى ينام ؟

وفي أمريكا قررت لميعة أن تصدر جريدة متعددة اللغات باسم «المندائى» لتحمل إلى أبناء ملتها من الصابئة المندائية أخبارهم وتعرض قضاياهم وتنشر أدبهم . ولكن الجريدة وجدت الأبواب موصدة فى وجهها فى البلدان العربية فى حين كان قراؤها المعدودون يقيمون فى المهاجر الأمريكية والأسترالية والأوروبية ، واضطرت بعد خسائر فادحة إلى وقفها.

وكانت لميعة قد تلقت دعوة لتكريمها فى لندن، وهناك ألفت نفسها فى حشد من الأدباء كان من جملتهم رجل طاعن فى السن بقى يتحدث عن مغامراته النسائية وكأنه دون جوان فقالت له لميعة : واضح أنك ZERO فى النســاء !

وانفجر الحاضرون بالضحك لهذه «القفشة» !

تونس البيضاء

وكنت أزور تونس للمشاركة في مهرجان أقامته مجلة «الفكر» لصاحبها محمد مزالي رئيس الوزراء في ذلك الوقت ومحررها البشير بن سلامة وزير الثقافة - أطال الله بقاءهما - وذلك بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على إصدار المجلة . وتبارى الأدباء والشعراء المدعوون من البلدان العربية المختلفة في ارتقاء المنبر والتحدث عن الدور الثقافي الذي اضطلعت به هذه المجلة حتى صارت سفيرة ثقافية لتونس في كل صقع يتكلم العربية . وعندما حل الدور على لميعة، ألقت قصيدة وصفت فيها تونس الخضراء بتونس البيضاء ، وامتزج إلقاؤها الجميل بشخصيتها الساحرة . وكان بين الحاضرين شاعر تونسي هزته شاعرية لميعة، فارتجل أبياتاً استأذن في إلقائها فدوت القاعة بالتصفيق ولاسيما لأنه كان يتغزل جهراً في الشاعرة . وما كان من لميعة إلا أن غادرت المنبر واتجهت نحو الشاعر وصافحته في لفتة استدرت إعجاب كل الحاضرين، بما فيهم وزير الثقافة الجليل.

في لبنان سكنت لميعة فترة من الوقت في دير من الأديرة ، ولكن المعجبين لم يتركوها تنعم بسكينة النفس في هذا المعتكف الروحي ، فعبرت عن مشاعرها قائلة :

يعلم الله أنني أتعذب
رهبة من مشاعري أترهب
لاتقل لي «أحب» هذا بعينيك
اشتهاء ونزوة سوف تذهب
لست «أيوب» لن تطيق وصالي
هو شيء من الخرافة أقرب
أن تراني وحشية التوق للحب
وتبقى معي الرقيق المهذب
إبعد الشعلتين - كفيك - عيني
لاتلامس هذا الكيان المتعب
أنا رهن الديرين أنساني الحرمان
جسمي ، ولذتي أن أصلب!

وفي المغرب أطلت لميعة من نافذة حجرتها في الفندق على شاطىء الأطلسي ، فأوحى إليها هذا المنظر بقصيدة قالت فيها :

وحيدةً على شواطىء الأطلسي
ليس سوى ذكرك كان مؤنسي
في غرفتي ، عفوا ، فليست غرفتي بل محبسي
أرقب من شباكها الأحياء ملء الشاطىء المشمس
عيد لكل اثنين في مثل جموح الفرس
مجردين ، غير خيطيْن ، بقايا ملبس
من غرفتي أحكي عن الحب أنا وعن هوىً لم ألمس
كفيلسوفٍ يصف الخمر التي لم يحْتسِ !

وكان لبنان قد اعتزم في عام ١٩٦٩ إقامة مهرجان كبير فى ذكرى شاعره بشارة الخورى المكنى بالأخطل الصغير (١٨٩٠ - ١٩٦٨) وهو مهرجان دعى للمشاركة فيه شعراء من لبنان والعالم العربى منهم عمر أبوريشة (١٩٠٨ - ١٩٩٠) وعزيز أباظة (١٨٩٨ - ١٩٧٣) وعبدالمنعم الرفاعى (١٩١٧ - ١٩٨٥) وحسن عبدالله القرشي وسعيد عقل ومحمد الفيتورى أطال الله بقاءهم . وكان المهرجان قد دعا شاعر العراق محمد مهدى الجواهرى (١٩٠٢ - ١٩٩٧) للمشاركة فى حفل التأبين ولكنه اعتذر فى آخر لحظة . فاستنجد منظمو المهرجان بلميعة عباس عمارة لتمثل العراق، فلبت الدعوة وألقت قصيدة صادفت استحسان جميع الحاضرين ومنهم رئيس الوزراء صائب سلام (١٩٠٥ - ٢٠٠٠) وفيها قالت:

أغنيك لا أبكيك يخذلنى شعرى
ومازلت ملء الحب واللحن والعطر
وكيف يلم الموت روحاً توزعت
بأرواح كل الناس كالطيب فى العطر
بشارة ، ياعمر الهوي وشبابه
تخيرته أوجاً فلم تبق فى العمر
وبوأتها حواء قلبك لاغوت
ولازغت حب الأرض ضوءاً من البدر

كانت لميعة تلهم الشعراء حينما حلت، وكيف لا وهى تجسم فى شخصيتها وفى لحاظها وفى أنوثتها العارمة كل سحر هاروت وماروت . وإذا أغضيتُ عن قصائد بدر شاكر السياب التى أفرغها فى ديوانه الكامل «أساطير» فلأقنع ببعض من كلام الشعراء ، وهو يغني عن الاستشهاد بمزيد من هذا الإعجاب العاطفي.

فالشاعر المصرى سعد درويش (؟- ١٩٨٨) الذى عرف لميعة عندما كان يعمل فى العراق، وجه إليها على شاشة التليفزيون (وقد سمعته بأذنى) قصيدة نشرها بعد ذلك فى «جريدة الأهرام» فيها دعوة مفتوحة لكى تؤنس وحدته، وأنا أنتقى منها بعضا من أبياتها:

لميعة يا هوي كل القلوب
نشدتك بالهوي ألا تغيبي
فأنت تركت لي طيفا حميماً
يطالعني علي كل الدروب
بمثلك كنت أحلم في شبابي
فهذي أنت جئت مع المشيب
تري، ماذا يريد الحب مني
وهذا العمر آذن بالغروب؟
وفيك نعومة وبي اشتياق
وأخشي إن ضممتك أن تذوبي
لميعة كنت لي قدراً ووعدا
«تـــــــــــــــــــي
رمين القلب بالسهم المصيب
بصوتك هامساً يسري جنوناً
كمسري نسمة الفجر الرطيب
بذاك الشعر منهمراً خضيباً
كشلال تدفق باللهيب
بذاك الكبر في الصدر الغضوب
بذاك الدل في الخصر اللعوب
إلى أن قال:
تعالي نملأ الدنيا غناءً

وأفـراحـاً مع الطيـر الطروب
تعـالي نبـتكر للطيـر لحناً
يودعنا به عند المغـيـب !

وعندما قرأت قصيدة سعد درويش في جريدة الصباح هاتفت لميعة وقلت لها تقبلين أن أكون درويشاً ؟ فقالت أخشي أن يطول انتظارك في الطابور!

أما شاعر الشارقة صقر بن سلطان القاسمي فقد قال في لميعة:

نشوانة الحسن اخطري في أمان
قلوبنا مـفـروشـة للحسـان
فـامشي عليـهـا خطوة خطوة
في خـيـلاء التـيـه والعنفـوان
لاتسـرعي فـالطيب يامنيـتي
على خطاك والهـوى يمرحـان
تبـسـمي مـا أنت إلا الشـذا
يرف في الورد سنى أرجـوان
سـمـراء يا أعـذب أنشـودة
رددها للحب ثغـر الجنان
فـداك قلب كـاد من وجـده
لو لامست أنفاسه الصخر لان
أهواك ، أهوى فيك سحر الصبا
وبسمة مفـترة عن جمـان
يامن بهـا من دجلة سـمـرة
سـابيـة الفـتنة في كل آن
أهوى الهـوى فـيك ولولاك لم
يحـز في جنبي وخـز السنان

وأما الشاعر الفلسطيني علي هاشم رشيـد الذي وقف نصف ديوانه على التغني بلميعة ، فقد قال في إحدى قصائده الكثيرة المنشورة في ديوانه «على غير موعد»:

بلاغة لاتجاري في عذوبتها


محمد مهدي الجواهري


محمد الفيتوري

ورقة ذهبت بالعاقل الفطن
تحس في الحرف روحاً هامساً ولها
ذكاء كل فصيح النطق واللسن
كـأنما أرضعت شعر الألى سلفوا
كـأنما قد سقوها الشعر في اللبن
فتلك خير فتاة في ملاحتها
وتلك أعـذب من غنت على غصن
فأنت شحرورة والقلب روضتها
بأعذب الشعر قد غنت على فنن
مـفاتن ليس تحصى هل يرى عجباً
أن تغرق النفس في بحر من الفتن

***

وبعد ، أليس حديث الشعر والحب أحري بالبشر من خطط التدمير والقتل والحرب؟

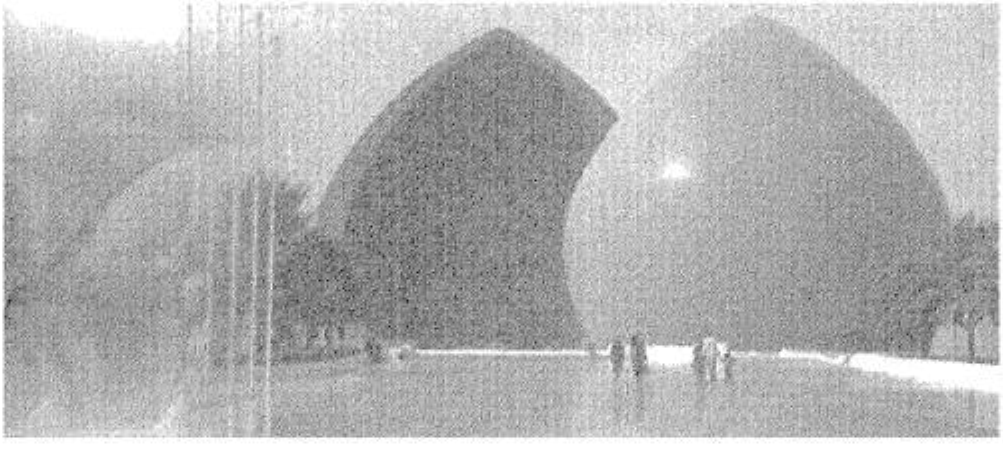
عش الصميم

على نخيل البابليين والآشوريين والعباسيين

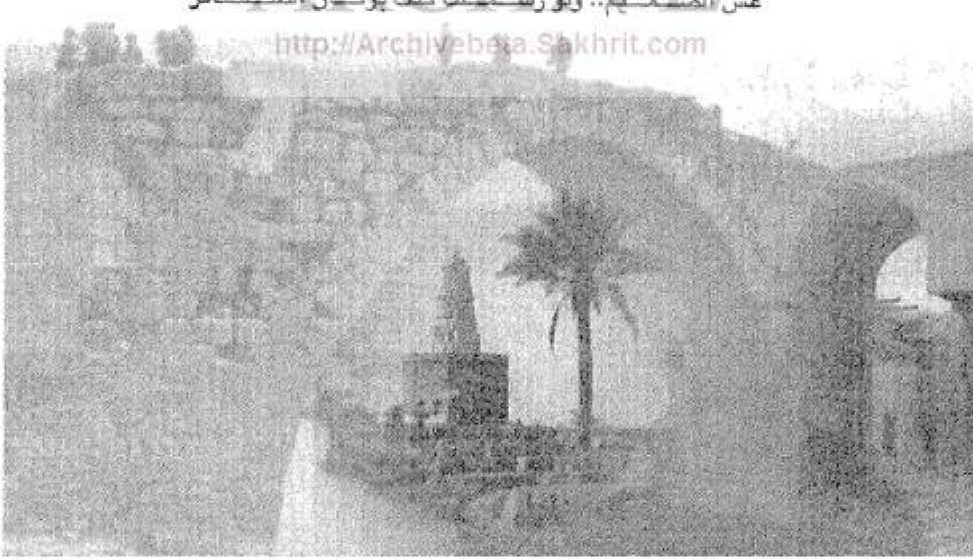
بقلم
سليم الرافعي

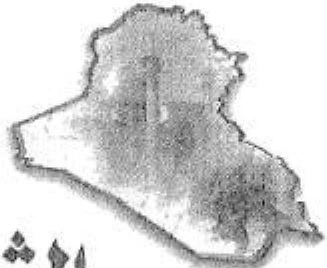
طرابلس - لبنان

يا أيها العش الذى غنى وألهم كل طائر
من أيك تاريخ ترقرق من أشور ومن تماضر
ومقدس الطيف الحميم مقدس أسمى المشاعر
إن الحروف قضية فلتصرخن من المحابر
مستنقع الذل احتسى كل الضفادع فى المعاصر
لم يبق غير ثمالة.. ومن الثمالة كأس شاعر
يهذى بما قد سطروه من الفواتح والبواكر
يسقى الجلال من الدماء وليس يسقى بالمنابر
يا أيها الحراس حراس الأوابد فى الحواضر



غضبت عظام الخالدين فهل سمعتم صوت زاجر؟
أنفوا من الموت المعتق في دهاليز المقابر
لا يسمعون سوى الفناء ولا يرون سوى السواتر
من هؤلاء؟ فإننا غرباء عنهم في الأواصر
عظماء يرتعشون من إفك المداهن والمكابر
فلينشروا منهم (حمورابي) وراية (شلمناصر)
أولم يروا عرش الرشيد وقد تألق في الدياجر؟
وصحائف المأمون من فكر الأوائل والأواخر؟
يا أيها الرواد معذرة إذا اضطربت مشاعر
في كل أرض صخرة لا تستكين ولا تغادر
إني أقبل هيكلا من عبقريات البصائر
أمضي إليه مصليا بين القواصف والمجازر
ما في الصميم سوى الحقيقة والأصالة في السرائر
تحيا الشعوب عليه.. لا تحيا الشعوب على المظاهر
وتشع منه النار والنور المبارك والأزاهر
عش الصميم.. ولو رسمتك كنت بركان الضمائر





الشعر الحر في العراق

بقلم
د. يوسف عز الدين

من هو الرائد؟

مازال بعض الكتّاب المعاصرين جاهلين ريادة الشعر الحر فى العراق بعد أن كثر دعاته لعدم التروى والاطلاع الواسع على جذوره التاريخية مع أننى أصلت هذا الشعر وضربت الأمثلة الكافية فى كتابى (التجديد فى الشعر الحديث) ومن عدم وضوح الرأى الاختلاف فى الشاعرين بدر السياب ونازك الملائكة:

إن هناك اختلافا جوهريا بين الشاعرين فى الثقافة الأدبية والقاعدة الاجتماعية والمكونات الفردية.. وبالرغم من هذه الاختلافات فقد اتفقا فى العوامل النفسية والجذور الروحية بإحساسهما العميق بالشعور إلى إثبات الذات والتنفيس عن عقدة الشعور بالنقص النفسى تجاه الجنس الآخر.

فموت أول حبيبة لبدر وموت أمه وشعوره بالقبح كانت دوافع نفسية لإثبات الذات بالتجديد للفت نظر الأنثى اليه لسد الحرمان العاطفى والظمأ الروحى اللذين كان يعانى منهما.



نازك الملائكة

ويتفق إحساس نازك الداخلي مع الشعور الباطني لبدر لأنها لم تنل رعاية الرجل وتنعم بالرضا الروحي منه فأرادت أثبات الذات وتحدي الرجل بالتجديد وصقل مواهبها ومواصلة العمل والدراسة لتغمر نفسها الحساسة بالعمل وتنسى ما تحس به أنثى أمام الرجل الذي لم يلتفت إليها، مع أن نازك كانت في أمن روحي وحنان سابغ من أمها واسرتها فقد اخذت تدرس أمورا متعددة مثل اللغة اللاتينية واللغة الفرنسية والأدب الانكليزي في المعهد الثقافي البريطاني ودخلت إلى معهد الفنون الجميلة لدراسة العود والعزف وكانت تجيد كل ذلك، لتنسى الفراغ الروحي وشوق الطبيعة الملح في كيان امرأة ذكية ناضجة، وزادها ثقافة دراستها في أمريكا لذلك سمت فنيا وارتفعت روحيا وملأت الفراغ النفسي والظمأ الداخلي.

كانت أمها الملاذ الروحي والملجأ النفسي فقد كانت ترتوي من حنانها وحبها ولكن موتها في الغربة معها وهي وحيدة هز كيانها فقد صاحبتها في مشهدها الأخير.

قالت تصف هذه المعاناة وهي ترى أمها في منظر مفزع أسهرها بعدها عدة أشهر طويلة، وكانت مضطرة وهي وحيدة مع أمها المتوفاة في لندن إلى أن تنهض بأعباء الجنازة والدفن وهي أعمال صعبة لم تعتدها قط وقد كانت تفزع منها طيلة حياتها. وكانت فوق ذلك شديدة الحب لأمها بحيث عذبها موتها عذابا شديدا وقد عادت إلى العراق بعد أسبوعين ذابلة حزينة مهزوزة النفس إلى أعماقها، ومرضت بعد ذلك ولجأت إلى طبيب الأعصاب يعالجها من أثر الصدمة.

وكان من حسن حظها أن أرسلت في بعثة إلى جامعة (وسكونسن) وتعرفت على اساتذة الأدب ريتشارد بلاكمور، وآلن داونر، وديلمون شواتز ودرست عليهم فكانت هذه الفترة من الدوافع التي وجهتها نحو النقد، وكان النظام لا يتطلب كتابة أطروحة إنما يعتمد على البحوث التي يقدمها الطالب ففتح أمامها ميدان الكتابة النقدية.

ولما قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أثرت في حياتها وسعدت بالاتجاهات القومية،

وعندما قلب ظهر المجن للتيار القومي تركت العراق خوفا من التيارات الجديدة وسكنت بيروت، وفي عام ١٩٦٢ م تزوجت أستاذا فاضلا من خيرة الأساتذة هو الدكتور عبدالهادى محبوبة وأنجبت منه (البراق) فعادت الطمأنينة إلى روحها والهدوء العاطفي إلى كيانها وأعصابها.

ملائكة بلا صوت

نازك من أسرة هادئة كريمة عربية من أهل الكاظمية انتقلت إلى بغداد ونزلت بجوار الشاعر الكبير عبد الباقي العمرى(★) ، ولما سألوه عن جيرانه قال إنهم ملائكة بلا صوت ولا ضجيج إنما سكون وهدوء فغلب الاسم على أسرة الجلبي هذا الاسم الجديد.

كان لشهرة الشاعرة الكبيرة أثر في ابتعاد الرجال عنها، فأحست بهذا التجاهل فتأخرت أمومتها فكانت شديدة الألم وكان الشعر خير معبر عن هذا الألم وفي ديوانها (شظايا ورماد) صدق التجربة العاطفية وروح المراهقة المتأججة وفي (قرارة الموجة) الألم العميق واليأس الحزين رسمت فيه مشاعرها بصدق قالت:

لا تسلني عن سر أدمعي الحري
فبعض الأسرار يأبى الوضوحا
بعضها يؤثر الحياة وراء الحس
لغزًا وأن يكن مجروحا

إنها ذات كبرياء واعتزاز بالنفس لامبالها أنثى متدفقة الحياة، رقيقة المشاعر وهل هناك أسعد للمرأة في الحياة من وجود من يكملها روحيا ليقضي على متاهة الغربة النفسية فقالت:

سمعت روحي في إغفاءة الظلمة صوتا
لم يكن حلما خرافي الشعور
بعثته رغبة خلف شعوري
كان شيئا ، كان في صمت الدجي صوتك أنت!

والشعر خير معبر عن مشاعرها الرقيقة، هي والشاعرة الرقيقة فدوى طوقان لأن كل منهما متملك المشاعر القوية واللغة الجميلة والمعاني الصادقة تقول نازك في


بدر شاكر السياب

القصيدة نفسها:

ذلك الصوت الذى يعرفه سمعى مليا
صوت ماضى الذى مات وما خلف شيئا
غير أشتات احتقار باهت
رسبت فى قعر قلبى الصامت

إن إهمال صدق مشاعرها حسبته إهمالا فرسب فى حناياها ولا أظنه إلا هيبة وخوفا من صيتها وسمعتها التى طبقت الآفاق والعرب بصورة عامة يرهبون صاحبات الصيت الواسع وذوات الجمال البارع لشدة غيرتهم والاعتزاز بالرجولة وسوء الظن وفي التاريخ أمثلة عن خوف الرجال من الجميلات والمشهورات.

وخير مثال الشاعرة فدوى طوقان ومى زيادة المعروفة بالجمال فقد هام الرجال بها ولكنهم خافوا منها فقد كتب أحمد داود أحد الذين يحضرون مجلسها بأنه أحد المعجبين بها وقال أنه يرى السعادة كل السعادة فى الاقتران بها لجمال خلقها وجمالها (ولكن كنت أرى نفسى لست فى مستواها العلمى، فلم أقدر على طلب يدها وكان لى أمثال كثيرون يخافون من جمالها ومن مستواها الفكرى العالى).

وهدأت عواطف الشاعرة نازك عندما تزوجت فقد ردت الأمومة إليها الطمأنينة والهدوء إلى روحها وليس من أمر أعز من الأمومة على قلب المرأة السوية وكانت فترة الأمومة فترة راحة للإبداع لأنها انصرفت إلى واجبها فى التربية والعناية بولدها حتى قالت (إننى كنت أحسب أنى انتهيت شعريا إلى الأبد) وقالت: (لا أشعر بدافع يزج بى فى درب القصيد) لكنها لما أدت رسالة الأنوثة تدفق الإبداع هادئا والشعر رخيا سهلا فقد هدأت الثورة والغضب لأنها أخصبت فقالت فى ١٩٧٣ م (إننى أتدفق تدفقا شعريا خصبا لا انقطاع له) قالت فى قصيدة عن العود معبرة عن موسيقى روحها: فى مجموعة شعرها (الصلاة والثورة):

يأخذني من يد أحزاني في رحلة حب صيفية
ويدا بيد أنا والأوتار
نرحل نحو بلاد الأقمار

في غاب الأنجم في بيد منسية
ورؤانا تسبح في برك مرجانية
نبحر محمولين على موجة أغنية

دوافع الابداع عند الشعراء

تختلف دوافع الشعر عند الشعراء بالنسبة للقاعدة الفكرية وأصولهم النفسية فى طفولتهم وشبابهم، وكل هذه الدوافع تقوم على قاعدة واحدة هى الشعور بالنقص - وكل إنسان يحس بهذا الشعور - لأن هذا الشعور هو الذى يدفع إلى الإجادة فى الإبداع ولولاه لما تقدمت العلوم وتطورت الآداب والفنون الجميلة.

وقد كانت نازك الملائكة التى أحست بأنها بعيدة عن حنان الرجال والتقرب إليها أرادت إثبات الذات بشيء تملكه وحدها هو الإبداع الشعرى فوجدت السياب أمامها فى الكلية شاعرا معروفا محبوبا فكانت خصومتها خصومة الأنثى للرجل لتنفس عن مشاعرها المستكنة فى اللاباطن المتألم من الرجل وفى المقابل كان السياب يرعف قلبه من إهمال المرأة الذى جرحت كبرياءه وهى الأنثى . فظهر تحديه للشاعرة بإبداعها ليفرغ شحنة الألم الداخلى ضد المرأة متمثلا فى نازك.. ولكن هذه الخصومة أفادت الأدب بالتسامى الفنى.. وكان شعر نازك أصفى ديباجة وأقوى أسلوبا وأعمق أصالة فظهرت مشاعرها المتكلسة فى قوة النسج وجزالة الألفاظ ودقة المعنى والأحاسيس الحبيسة.. أما السياب فقد كان أكثر حرية فى القول وأوسع مجالا فى التعبير عن مشاعره ولا يخشى المؤثرات الاجتماعية التى تؤثر فى نازك إمراة ملتزمة ومحافظة على التقاليد الاجتماعية التى تحسب لكل كلمة حسابها وكان السياب أكثر تجديدا وأوسع قولا فى التطور الفنى.. ولا تنسى أثر العقيدة فى ثنايا الشعر فالشاعرة قومية الفكر مسلمة محافظة على إسلامها وكان السياب شيوعيا يتمتع بحرية الفكر الشيوعى فى القضايا الفكرية والاجتماعية وتقاليد المجتمع.

فارتفعت الأصوات من حولهما وكان كل اتجاه يناصر شاعره فزادت هذه الأصوات من السمعة وبثت له الصيت الواسع وزادت حدة النقاش عند المؤيدين.. والطريف أن سار بدر السياب فى طريق الشاعرة وانضم إلينا فى جمعية المؤلفين والكتاب التى سبقته إليها الشاعرة وأصبحت أحد أعضاء الهيئة الإدارية فى

دوراتها.

وانتشرت طريقة التجديد فى كثرة شعرائها مثل عبدالوهاب البياتى وعبد الرزاق عبدالواحد وشاذل طاقة وبلند الحيدرى وحسن البياتى وصلاح نيازى وعبد الجبار البصرى وراضى مهدى السعيد ويوسف الصائغ وحميد سعيد وشفيق الكمالى وسامى مهدى وغيرهم كثير ومنهم الجيد ومنهم الضعيف وأوغل بعضهم بعد ذلك فى الغموض والتعمية والرمز الضبابى والوجودية المزيفة.

هل نازك الملائكة أول من جدد؟

اعتمدت نازك على قصيدتها (الكوليرا) التى انتشرت فى مصر بأنها أول من نظم الشعر الحر فى نظمها للقصيدة وهى قصيدة ممتازة بالمعايير الفنية صادقة العاطفة فقالت (كانت بداية الشعر الحر فى ١٩٤٧ م فى العراق بل من بغداد نفسها زحفت هذه الحركة وامتدت حتى غمرت الوطن العربى كله.. وكانت أول قصيدة حرة الوزن تنتشر قصيدتى المعنونة (الكوليرا) وهى من الوزن المتدارك (الخبب ١) والمقطع الأول من القصيدة هو:

سكن الليل
أصغ إليَّ وقع صدي الأنات
في عمق الظلمة تحت الصمت علي الأموات
صرخات تعلو تضطرب
حزن يتدفق يلتهب
يتعثر فيه صدي الآهات
في كل فؤاد غليان
في الكوخ الساكن أحزان
في كل مكان روح تصرخ في الظلمات
في كل مكان يبكي صوت
هذا ما قد مزقه الموت
الموت الموت الموت
يا أحزان الليل الصارخ ما فعل الموت

ولو اكتفت الشاعرة بهذا المقطع لكانت محقة بعض الحق ففي هذا المقطع عدة تفعيلات ما بين اثنين وست ولكنها لما نظمت المقاطع الأخرى التزمت بهذا المقطع وساوت بينها في عدد السطور والقوافي ولم تخرج عنه لأن جميع الأبيات الأولى في المقاطع الأخرى متساوية التفعيلات فكل مقطع فيه ثلاثة عشر سطرا وقوافيها منتظمة في نظام واحد مع أن الشاعرة نفت عن الموشحات الاندلسية والبند هذا التجديد فقالت (الموشح أبعد ما يكون عن الشعر الحر إنما الشعر الحر شعر تفعيلة بينما الموشح شطريا) وهي التي التزمت في مقاطع القصيدة بكل ما يلتزم به الشعر من طول البيت والقافية وعدد أشطر كل مقطع.. ولعل سبب هذا الرأي ظهور (أزهار ذابلة) للسياب في ١٩٤٧ م وتأكيد رفائيل رطي في المقدمة بأن الشاعر جاء بجديد وبذلك غلبت شاعرة أنثى أرادت غلب الرجل الشاعر الذي ينافسها، رجلا وشاعرا.

الشاعرة كتبت في هذه السنة عددا كبيرا من هذا النوع، وكفاها فخرا هذه الكثرة والإصرار على النظم.

ومن نافلة القول أن أقول بأننا هذا الجيل تحيف عندنا ميدان الثقافة العربية لأننا درسنا علوما ولغات جديدة أخذت الحيز الذي كان قد ملأه جيل الرصافي والزهاوي والشبيبي باللغة العربية والعلوم الإسلامية.

وقد درس الزميل الشاعر الدكتور نور الدين صمود قصيدة الكوليرا دراسة مطولة وقال: (لقد تجاهلت نازك أن قصيدتها الكوليرا قائمة على أساس المقطوعة وتحافظ على طول ثابت بين الأسطر، وأوهمت المهتمين بالتاريخ لهذه الحركة من خلال المقطع الأول أن القصيدة من الشعر الحر وأنها أول من كتب شعرا حرا سابقة بذلك بدر شاكر السياب بنصف شهر وتجاهلت تجارب السابقين من أمثال علي أحمد باكثير في تعريبه لمسرحية (روميو وجوليت) لشكسبير شعرا حرا والدكتور نقولا فياض في قصائده الحرة بديوانه رفيف الاقحوان.

ونفت أن يكون البند شعرا حرا وقال (لتثبت لنفسها الأسبقية في كتابة الشعر الحر، ولو اكتفت بالإحدى عشرة قصيدة التي كتبتها بطريقة الشعر الحر في ١٩٤٨ م وهو وقت مبكر بالنسبة لبداية انتشار هذا اللون من الشعر في العالم العربي لكفاها ذلك فخرا كرائدة من رواد هذه الحركة الشعرية).

ولو اطلع الدكتور صمود على جذور حركة الشعر الحر في كتابي (في الأدب العربي الحديث، مقالات وبحوث نقدية) المطبوع في بغداد وبيروت والقاهرة والرياض

لوجد أن الجذور تذهب إلى أوائل القرن العشرين وقد لخصت ذلك فى مقالة لى نشرت فى الشرق الأوسط.

وقالت (إننى أحسست هذا الأسلوب الجديد فى ترتيب تفاعيل الخليل بطلق جناح الشاعر من القافية) وضربت مثلا من قصيدة (جدران وقلال) قالت:

وهناك في الأعماق شيء جامد
حجزت بلادة المساء علي النهار
شيء رهيب بارد
خلف الستار
يدعي جدار

وقال الدكتور صمود (وقد بحثت فى هذا الديوان عن قصيدة تحمل عنوان (جدار وقلال) فلم أعثر عليها كما لم أعثر على المقطع فى قصيدة أخرى فى هذه المجموعة، والمقطع من الشعر الحر ولكن أين هو ومتى تكلم؟).

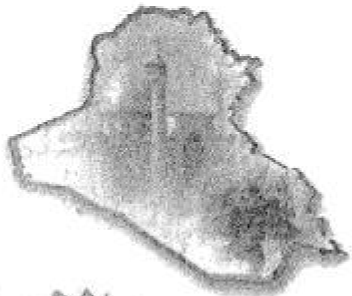
وبذلك ينهار الرأى القائل بأن قصيدة الكوليرا أول شعر حر فى الشعر العربى ويصبح بدر أول الذين نظموه فى الأربعينات وانتشر بعدهما عند الشعراء ولكن كلا الشاعرين لم يكونا أول من نظم الشعر الحر فقد سبقهما أكثر من شاعر فى العراق أولا والبلاد العربية ثانيا.

وأول من فكر فى التجديد هو جميل صدقى الزهاوى ثم اتسعت الحركة بعد أن جاء أمين الريحانى إلى العراق متأثرا بالشاعر الأمريكى (ولت ويتمن) فرأينا شعرا حرا عند بسيم الذويب و(سمير الكواكب) عبداللطيف السامرائى ومير بصرى وطارق عبدالحافظ وخضر صالح.

كما نشرت الجرائد قصائد لنقولا فياض وشكرى الفضلى على اختلاف فى الاسماء فسمى الشعر الطلق أو الشعر المرسل وسماه (أحدهم) بالشعر الحر والشعر المنثور.

وأقرب إلى فكرة الشعر الحر السياب فقد كان التجديد واضحا فى ذهنه لأنه اتصل بالأدب الأنكليزى اتصالا مباشرا وطلب من رفائيل بطى أحد مشجعى الحركة الجديدة أن يقدم ديوانه فاشار المقدم إلى هذا الجديد فى شعر السياب. ■

عبدالباقى العمرى : شاعر من أهل الموصل سكن بغداد فى القرن التاسع عشر وكان إلى جواره أسره الجلبى من الكاظمية



الإعلام والاعتداء على العراق

ثورة معلومات أم تلويث للمخ؟

بقلم
د. جلال أمين

لاحظت منذ يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أن كثيرا من الناس يقبلون الكثير مما تردده وسائل الإعلام عن الحادث، وعن المتهمين بارتكابه وأهدافهم من ورائه، على الرغم من أن جزءا كبيرا مما تقوله وسائل الإعلام يتعارض تعارضا صارخا مع المنطق السليم، بل ومع بعض البديهيات.

ولاحظت ان هذا الاستعداد للتسليم بما يتعارض مع البديهيات لا يستثنى منه حتى عقلاء الناس ومثقفوهم. فقد رأيت من هؤلاء مثلا، من يقبل كثيرا مما يقال عن أسامة بن لادن مما يصعب أن يقبله العقل، وكذلك عن هوية الأشخاص الذين تنسب إليهم عملية تفجير البرجين فى نيويورك ووزارة الدفاع فى واشنطن ، وما يقال عن أهدافهم من هذه العملية.. الخ، مع الفارق الشاسع بين ما يتطلبه هذا الحادث من قدرات والقدرات المتاحة لهؤلاء الأشخاص.

ثم لاحظت أشياء مماثلة فى موقف كثير من الناس من الأحداث الأخيرة فى العراق (التى لا أحب أن أسميها حربا لأنها بعيدة كل البعد عن ذلك) فوجدتهم أيضا يصدقون الكثير مما يقال ، ويصعب تصديقه، عن مواقف صدام حسين ودوره، وعن علاقته بالولايات المتحدة، وعن أهداف الإدارة الامريكية من هذا الاعتداء.. الخ.

وفى الحالين، أى حادث ١١ سبتمبر والهجوم الامريكى على العراق، كان هؤلاء الذين يصدقون ما لا يجوز فى رأيى تصديقه، ممن يجلسون أمام شاشة التليفزيون ساعات طويلة، ويستمعون إلى مختلف القنوات الفضائية وغير الفضائية، ولا يفوتهم تعليق أو تصريح نشرته الصحف ولا أى تفاصيل ، مهما كانت صغيرة ، تتعلق بما يدور من أحداث.

وقد أثار هذا فى البداية دهشتى، من أن تكون هذه طريقة تفكير أشخاص يحوزون هذا القدر من المعلومات ، وهو ما ظننت أنه يجب أن يحميهم من اعتناق هذه الأفكار التى أعتقد بخطئها . ثم خطر لى أن الأمر قد لا يكون داعيا للدهشة على الإطلاق، إذ قد تكون كثرة ما يتلقونه من معلومات هى نفسها سببا مهما فى الوقوع فى الخطأ. وكلما أمعنت فى التأمل فى هذا الاحتمال قوى ترجيحى لصحته. وسوف أبين للقارىء أسباب ذلك.

نحن مازلنا للأسف الشديد، نتعامل مع ما يرد الينا من وسائل المعلومات وكأنها فى الأساس معلومات محايدة خالية من التحيز ، ونميل إلى التمييز، باكثر مما ينبغى بين «التعليق» ، الذى نعرف أنه قد يكون متحيزا و«المعلومة» التى نعاملها وكأنها محايدة.

والظاهر أن ميلنا إلى إضفاء هذه الميزة على المعلومة ، أى ميزة الحياد وعدم التحيز، يزداد قوة كلما كانت وسيلة الإعلام التى تبث بها هذه المعلومة أكثر «أبهة» و«فخامة»، أو كما قد يحب البعض أن يقول : أكثر «تقدما» . انظر مثلا إلى طريقة تعاملنا مع الكلام المكتوب بخط اليد، فى رسالة شخصية مثلا يحملها لنا البريد، وموقفنا من نفس الكلام إذا كان مطبوعا فى كتاب أو حتى مكتوبا بالآلة الكاتبة أو الكمبيوتر. إن مجرد التقدم التكنولوجى الذى تتسم به وسيلة ما من وسائل

الإعـــلام يضفي عــلى الكــلام الذى يصل الينا من خـلالها درجة أكبـر من الحياد وعـدم التحيز، أو هكذا نظن. هذه الظاهرة فـــى حد ذاتها تستحق التأمل ، وقد يكون مـن بين أسـبابها شيء شبيه باستعدادنا أحيانا لتصديق الكذبة الكبيرة أكثر من استعدادنا لتصديق كذبة صغيرة، إذ يرفض العقل أن يصدق أن يصل الأمـر بالشـخص الكاذب إلى هذه الـدرجـة مـن السفالة ، فيسمح لنفسه بأن يختـرع كذبة بهـذا الحجم . كـذلك قد نكون عـلى استعداد لتصديق كذبة تصدر مـن فـم رجل يبدو محـترما، ويظهر لنا كـامل الهندام. وهو يلقى علينا نشـــرة الأخـبار بمنتهى الثقـة والاطمئنان من خلال جـهاز مبهـر كالتليفزيون، وأمـام كل هـذه الكاميرات والأجهزة الفنية المعقدة، أكثر من استـعدادنا لتصـديق رجـل يقـول نفس الكــلام بدون ميكروفون، أو أجهزة تصوير، وهو جالس معنا بلحمه ودمه.

ولكـن هـذا الموقف مما تبـثـه وسـائل الإعـلام هـو بلاشك موقف لا عقــلاني بالمـرة. فالمعلـومة التى يبثها إلينا جـهـاز كجـهاز التليفزيون، حتى بفــرض أنها معلومة صحيحة ابتداء ، تمر بمراحل متعددة منذ وقوع الحادث وحتى وصول خبره إلينا، وفى كل مرحلة تزداد المعلومة تلونا وتحيزا ، حتى يكون أثرها النهائى، لدى وصولها إلينا، أبعد ما يكون عن الحياد والموضـوعية. فحتى بفرض أن المعلومـة لم تختلق اختلاقا، فإنها تتأثر أولا بطريقة صياغتها، وهى صياغة قد تكون متحيزة فى اتجاه ضد آخر، ثم تخضع ثانيا مع غيرها من المعـلومـات، لعملية اختيار تحدد ما الذى سـوف يلقى به إلينا، ومـا الذى يجرى استبعاده. ثم هناك ثالثا موضع الخبر من بين الاخبار الأخرى التى لم يجر استبعادها، هـل سيذا ع كخبر أول أو أخـيـر؟.. وهناك رابعـا الفتـرة الزمنية التى تخـصص له فى نشـرة الأخبار، هل سيحكى لنا بالتفصيل أم باختصار؟.. ثم هناك طريقة إلقـاء الخبر ودرجة الحماسة التى يلقى بها وعدد المرات التى تتكرر بها إذاعتـه.. الخ.

المعلومـــة تصل إلينا إذن وهى «ملغمة» أى محملة بالألغام، فـإذا زاد عـدد المعلومـات التى تحـمل تحيزا بعينه عن حد معين. فلابد ان ينتقل هذا التحيز، بدرجـة أو أخـرى، إلى متلقى المعلـومات، وقد يفسد كل هذا ما قد

يؤدى إليه الاستنباط البسيط بين عدد قليل من المعلومات المهمة التى لاشك فى صحتها. وإذا بالمشاهد أو المستمع بدلا من أن يكون ، كما يظن بنفسه ، مجرد متلق لمجموعة من المعلومات المحايدة. قد عرض نفسه لسيل من التحيزات التى تقوم بغسل مخه غسلا ، أو بالأحرى تلويثه.

هكذا أفسر مثلا ميل الكثيرين إلى تصديق ما يلقى من مسئولية على أسامة بن لادن عن أحداث ١١ سبتمبر ، بل وإلى تصديق أن مجموعة من المسلمين والعرب الاشرار هم الذين دبروا ونفذوا هذا الحادث ، مع أن هناك عشرات الأسباب الوجيهة للغاية للشك فى هذا وذاك، وتشير فى اتجاه مخالف تماما..

وهكذا أيضا أفسر ميل الكثيرين إلى تصديق إحدى صورتين ذهنيتين لصدام حسين شاع التأكيد على إحداهما أو على الأخرى فى وسائل الإعلام، مع أن هناك عشرات الدلائل على منافاتها للعقل. إحداهما هى صورته كشيطان رجيم، ذى قوة خارقة، وله مطامع وميول للسيطرة لا حد لها، لمجرد إشباع رغبات ذاتية. ناهيك عن تصور ان تصرفات صدام حسين فى مجالات ذات أهمية بالغة فى السياسة الدولية (كالهجوم على إيران ثم على الكويت.. الخ) يمكن أن تكون مجرد نتيجة لهذه الصفات الشخصية لرجل غير طبيعى. هذه هى الصورة التى يميل إلى تصديقها كثير من الكويتيين مثلا، ولكن هناك كثيرين أيضا غيرهم، خاصة فى الولايات المتحدة، ممن يصدقونها ايضا.

والصورة الأخرى هى صورة رجل وطنى مخلص للعروبة والإسلام وكاره لإسرائيل والغرب ولا يهتم بالا باسترداد حقوق الفلسطينيين وتحقيق المجد للعرب.. الخ. وهذه هى الصورة البعيدة بدورها كل البعد عما يمكن ان يقبله العقل، هى التى مال كثيرون إلى تصديقها أثناء حرب الخليج الأولى ثم الثانية، وكاد يعود إليها كثيرون خلال الأيام الأولى من الهجوم الامريكى البريطانى الأخير على العراق.. وكلتا الصورتين لا تستقيمان البتة مع تاريخ الرجل ومجمل تصرفاته، ولا مع مقتضيات السياسة الدولية وقوانينها، ولا مع موقف الولايات المتحدة من صدام حسين

طوال الثلاثين عاما التى حكم فيها العراق أو لعب دورا مهما فى حكمه.

***

إن الخطر من استخدام وسائل الإعلام على هذا النحو ليس هو مجرد أنه يؤدى بالناس إلى اعتناق أفكار خاطئة، ولكنه يصل إلى حد تشكيل عواطف الناس وتوجيه هذه العواطف فى الاتجاه الذى يحقق مصالح المسيطرين على هذه الوسائل. فإذا أضفنا إلى هذا ما أصبحت تتسم به وسائل الإعلام من درجة لا يستهان بها من احتكار ، اذ أصبح يهيمن على أهم ثلاث أو أربع شبكات تليفزيونية مركز واحد من مراكز صناعة الأفكار والاتجاهات السياسية، وأن هناك تداخلا بين هذه الشبكات التليفزيونية، على قلتها ، يجعلها تكاد تعبر عن نفس الاتجاه وتصب فى نفس المصالح، فإن الخط الذى يتعرض له مشاهدو التليفزيون (بل وقراء الصحف والمجلات بدرجة متزايدة مع تزايد درجة الاحتكار فى ملكيتها) أصبح خطرا شديدا حقا ، اذ أصبح هؤلاء المشاهدون (والقراء) محكومين فى تحديد اتجاه عواطفهم ودرجة التهاب هذه العواطف، بما يناسب المسيطرين على هذه المصالح ويحقق أهدافهم.

***

ها قد بدأ الهجوم العسكرى على العراق وكاد ينتهى، فماذا سمعنا ورأينا ، نحن المشاهدين الساكين للتليفزيون والمثبتين كالتماثيل أمام شبكاته المختلفة، التى تقول نفس الكلام ولكن بطرق مختلفة؟ قالوا لنا وبإلحاح. منقطع النظير، إن الهدف من الهجوم هو إحلال نظام ديمقراطى محل نظام ديكتاتورى، فصدق هذا الكلام كثيرون رغم منافاته التامة للعقل ولتاريخ الدول القائمة بالهجوم فى معاملتها لشعوب الدول الأخرى. ثم قيل لنا إن الهجوم قوبل بمقاومة عنيفة، وظلت وسائل الإعلام تكرر إذاعة بيانات لإعلامى عراقى اختير لانه ذو جاذبية شخصية وطريقة مؤثرة فى الكلام تبعث على الثقة مهما كان محتواها منافيا لما كان يجب ان نتوقعه من نتيجة القتال. ثم اختفى هذا الرجل فجأة بنفس السرعة التى ظهر بها، ولا يدرى احد من الذى عهد اليه بهذه المهمة ومن الذى تسبب فى اختفائه إذ كيف يكون صدام

حسين هو الذى طلب منه ذلك بهدف إذكاء روح المقاومة ، مادام صدام حسين نفسه لم تبد منه اي مقاومة ولا أصدر الأوامر اللازمة لجيشه وحرسه بالاستمرار في المقاومة؟.. ثم رأينا صورا لتمثال ضخم، ظلت الكاميرات مسلطة عليه مددا طويلة أثناء اسقاطه وتحطيمه. وكان هذا الاسقاط والتحطيم لهذا الامثال الضخم هو الهدف الاساسى من عملية الهجوم كلها، أو كان المتفرجين والمشاهدين كان لابد أن يكافئوا على صبرهم الطويل على متابعة السير البطيء للقتال فى الأيام الأولى، فكان لابد ان يعرض عليهم مشهد سقوط وتحطيم، ان لم يكن للحاكم المستبد نفسه فلا أقل من سقوط تمثال ضخم له! والله أعلم بحقيقة هؤلاء الذين قاموا بهذا التحطيم والاسقاط ، هل فكروا فى الأمر بمطلق الحرية أم كلفوا بهذا العمل الخطير من بعض القائمين بالهجوم العسكرى؟ خاصة وإن كان من سمات هؤلاء المشتركين فى هذا العمل وطريقة تنفيذهم له ، ما يلقى الكثير من الشك فى تلقائية العمل الذى قاموا به.

ثم فجأة رأينا صور النهب والسرقة ، والله أعلم أيضا بحقيقة هذه الأعمال ومداها ودرجة تلقائيتها. نعم كان من الطبيعى ان تحدث بعض أعمال النهب والسرقة بعد كل هذه السنوات الطوال من المعاناة والعوز والجوع والبطالة، ولكن هل وصل الأمر بالفعل إلى هذا المدى، ام ان هذه الصور هى بالضبط ما يريد القائمون بالهجوم، والمستفيدون منه، غرسه فى أذهان العالم عن الشعب العراقى، والعربى عموما، والاسلامى كله، تأكيدا لما بدأوا غرسه والإلحاح عليه منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟

***

إن ما حدث من اعتداء على العراق لم يحدث فقط بالمدافع والبنادق والدبابات ، بل حدث أيضا بأجهزة التصوير ورسائل مندوبى التليفزيون والصحف ووكالات الأنباء. والقتل المادى الذى جرى لآلاف العراقيين لا يقل عنه ظلما وقسوة القتل النفسى الذى جرى لملايين من العرب والمسلمين فى العراق وخارج العراق. وقد اصطلح على تسمية الوسائل التى تم بها هذا النوع الثانى من القتل بـ «وسائل الإعلام» وهى تسمية لا تقل فى درجة تضليلها عما تبثه من سموم. ■



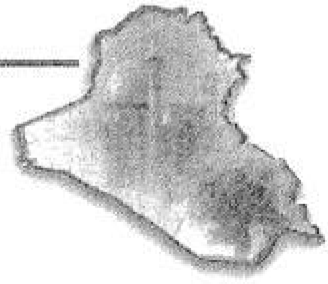
بغداد

مقطعات من قصيدة مطولة

شعر
د. عبد اللطيف عبد الحليم

بغداد، ياطفلة يغازلها الندى، ويغفو بحجرها القمر
توشحت بالنجوم واعتقدت عقد الثريا، تزينه الدرر
اعتصمت بالشباب جبهتها، لا يتمشى في نبضها كبر
ترتشف الحسن والخلود، وهل بغداد إلا الخلود يدخر؟
إني دعتني اليك داعية الحب، وإني بالحب أتمر
شوق قديم، يظل يرفده الى تراك الأيام والذكر
كم قد رتعنا بظلها زمنا، ليلاته - في صفائها - سحر
دجلة شاج، والكرخ، والأمل العذب وشرخ الشباب والزمر
والنخل ذات الأفنان، راهبة الليل تسلي بشجوها النهر
والعود و«الموصلي»، والوتر المخمور، والشاربون قد سكروا
أضغاث زهر هناك، تنثرها القيان، والود ليس ينتثر
مجامر الزهر في مآرجهم، تأتي اليها الرياض تعتذر
«ذات الأكيراح» ماصحا «حسن» عنها، وشكواه دهره القصر
لكنني قد صحوت معتذرا فرائدي: الخيال والفكر
بغداد دار السلام ماشطحت بنا النوى والعشاق تنتظر
ففي ثرى كربلاء قد سجدت أرواحنا، والدموع تنهمر
أعراقنا بالحسين واشجة، وعند آل النبي منحشر
وبالشريف الرضي مافتئت أشعارنا من هواه تنعصر
شيعة بيت النبي، يشدو بها الشاعر في شعره ويفتخر
ياليت لي نسبة وقد صديت نفسي اليهم وطال بي سفر
وطاف بالنفس في تذكرها الأفق يدمى، والفجر ينتحر

دم الشهيدين والردى قدرهما ضياء الآفاق والغرر
بغداد دار السلام إن لنا شوقا الى الشاعرين يبتدر
مهبط وحي وطيب منتجع حج اليه الهاتفون واعتمروا
تأخذ علم الخليل، تقتبس من شعر ابن برد، تهزك الصور
وابن جريج الرومي تنظره مصورا لا يخونه النظر
وللشريف الرضي جزالته الفكر فيها كاللفظ مختصر
وللمعري في تلبثه، منقبضا في بغداد مؤتمر
والخلفاء الذين كعبتهم بغداد طاب الورود والصدر
تاريخهم في بياض أوجههم يضيء وجه الآفاق ان سفروا
العدل سلطانهم ورائدهم الله جل المعبود لا البشر
البأس ضد الأعداء ليس بهم من جبروت ولا بهم بطر
لغير وجه الرحمن ماسجدت جباههم ما تعسف الخطر
تلحفوا بالأمجاد وادثروا تعمموا بالشموس واتزروا
بغداد يا ألف ليلة سلفت رق دجاها وراق لي السمر
وشهرزاد اذا انقضى وطر من سحرها جد بالهوى وطر
يطرق فيك الخيال متشحا بالصمت، تشكو الحروف تنتهر
عذبني العشق والضنى حفيت أقدامه والأشواك والحجر
جزائر السحر لم تطأ قدم شعابها والمرجان منتثر
والوهج البكر يستفيق ضحى ويستبيه الصفصاف والغدر
ياشهرزاد اليك معتبتي والعتب للشاعرين مفتقر
بغداد إن الأسى يخالجني والحرف باك والشعر منكسر
الأمل الحلو غال بهجته واحسرتاه: الخلاف والخور
والذل والجبن والقطيعة والحرب - كلاما - والكذب والنذر
وأين قومي وأين نجدتهم ليسوا بشيء وإن هم كثروا
لسنا من العرب طاب ذكرهم وانتحرت في عروقنا مضر
وطاردتنا البغاث ليس لنا إلا بماضي التاريخ مفتخر
وفي فلسطين والجراح دم يمشي بها بالمخيلة الصعر
في كل شبر تنوح أندلس من أرضنا والمنصور يحتضر
شنجول سيف الخذلان في يده من خشب والأدفونش منتصر
ونحن نبكي ولا ذنوب لنا والمذنبان: الأيام والقدر
بغداد تهفو اليك أفئدة من مصر ترنوا اليك تبتدر
أجنحة الطير بعض رحلتها وزادها النيل ليس يعتكر
تحضن ذوب الإخاء، تشرب من صفوك: صفو الفرات ينهمر
هنا يطيب اللقاء تنسرب الروح حنانا والشعر والصور
هنا تضج القرون، تصرخ في الروح حياة تجول تنتصر
والغد لي كيف لا يكون وفي يدي منه الآيات والسور
بغداد أشكو اليك قافيتي بغداد إني أتيت أعتذر .



غزو العراق على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

بعد الهجوم الأمريكى البريطانى على العراق ، تحولت مفاهيم مثل العولمة ، والنظام العالمى الجديد ، وحقوق الانسان ، والحرية ، والديمقراطية ، والسلام العالمى ، والشرعية الدولية ، والأمم المتحدة ، والجامعة العربية إلى مفاهيم جوفاء ، لاتحمل أى معنى. فقد تراجع العالم كله على الأقل ١٠٠ سنة إلى الوراء ؛ ووقفت البشرية كلها على أطراف أصابعها ، تحبس أنفاسها احتجاجاً على الحرب العبثية القائمة على التعصب والعنصرية والغطرسة بين نمطين من الديكتاتورية ، ديكتاتور شرقى كلاسيكى ، يتوارى وراء شعارات دينية وقومية ، وهو متمسك بالسلطة حتى آخر نقطة من دم شعبه ، مثل معظم حكام العرب! وعلى الطرف الآخر ديكتاتور غربى ، نمط جديد من ديكتاتورية القرن الحادى والعشرين ، ديكتاتورية عصر المعلومات ، يتوارى هو الآخر تحت شعارات دينية ، والدعوة لنشر الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ، وعينه على منابع البترول مصدر الطاقة والقوة ، ويأمل فى السيطرة على أمن الطاقة لكل من دول الشرق الأقصى ، وأوروبا الغربية . وكذلك السيطرة على الامتداد الجغرافى الخلفى لأوروبا الغربية ، والذى سيطرت عليه تاريخياً كل من فرنسا وإنجلترا ، ويحلن فيما فشل فيه أبوه ، بإمبرطورية جديدة يفرض فيها إرادته على العالم كله ، ويعيد ترتيب المنطقة العربية لصالح إسرائيل! والضحية فى الحالتين هى الشعوب!



والعجيب أن وكالات الأنباء بثت مؤخراً خبراً يقول إن إدارة بوش تنصت لصوت الصلاة، وتعقد الاجتماعات بهدف الصلاة أثناء الليل وأطراف النهار، ولذا ليس من المستغرب أن ترى العاملين في البيت الأبيض وهم يهرعون وبأيديهم الأناجيل، أثناء قذف بغداد، عاصمة بلاد ما بين النهرين، مهد الحضارة، وأرض الأديان السماوية ، وفيها العديد من المقدسات الدينية في البصرة والنجف الشريف وكربلاء! وفي إطار الحملة الضخمة التي يقوم بها البيت الأبيض لتصوير «بوش الابن على أنه وكيل للرب! نشرت مجلة نيوزويك على غلافها العنوان التالي : بوش والرب». والملاحظ أيضاً للخطاب العراقي، وللخطاب الأمريكي أثناء الحرب، يجد أن كلا منهما يستخدم نصوصاً دينية لدغدغة المشاعر الدينية بين الناس في كل طرف ! وينسون أنها لعبة خطيرة، وعواقبها وخيمة، تنذر بحروب دينية طويلة، لأنه لايوجد دين من الأديان يقبل الهزيمة من دين آخر!

ويبدو أن ساحات الحرب في العراق وحدها غير كافية لتحقيق الأهداف الأمريكية البريطانية، فتوسعت ميادين هذه الحرب إلى عالم الإنترنت ، حيث اشتعلت حرب أخرى بشأن العراق في فضاء الإنترنت، وتركزت في ٣ مستويات، المستوى الأول الحرب الإعلامية بين المواقع المؤيدة والمعارضة لكل طرف، وهي صورة مكررة من الحرب الاعلامية والنفسية التي تدور على الفضائيات ، ونتابعها يومياً على شاشات التليفزيون، ونسمعها من الإذاعات المختلفة، فمعظم الفضائيات لها مواقع على الإنترنت، حيث تقدم الأخبار والتحليلات السياسية والعسكرية، مدعمة بالصور وملفات الفيديو، ونرصد أن نصيب الحقيقة فيما تنشره مواقع الإنترنت الاعلامية يتباين من موقع لآخر ، بحسب موقفه من الحرب، وكل موقع استخدم التكنولوجيا في تكييف المعلومات واستخدامها لتحقق أهدافه التي تخدم موقفه من الحرب! والمستوى الثاني كانت حروب الهاكرز المؤيدة والمعارضة لكل طرف، والمستوى الثالث كانت حرب المظاهرات التي اشتعلت في منتديات الحوار على الإنترنت! ونركز في هذه العجالة على المحور الثاني، على أمل مناقشة المستوى الثالث في مقالات قادمة.

حروب الهاكرز

عبر المؤيدون والمعارضون للحرب على العراق، عن آرائهم بالهجوم على مواقع شبكة المعلومات الدولية الإنترنت وتعطيلها، فتعرضت مواقع أمريكية وبريطانية لحملة تخريب واسعة، طالت في الأسبوع الأول للحرب، حوالي ألفي موقع، قام المحترفون بتشويه صفحاتها من خلال وضع شعارات مناهضة للحرب في العراق، ومناوئة للرئيس الأمريكي بوش، وزعمت الأنباء أن مصدر هذه الاختراقات هو ماليزيا واندونيسيا وعدة دول شرق أوسطية! وفي ظل المعلومات المؤكدة التي تلقتها المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة التحقيقات الفيدرالية ، التي تشير إلى استعداد تنظيم القاعدة لشن هجوم إلكتروني ضخم ضد شبكة الإنترنت وبعض المؤسسات الاقتصادية الأوربية والأمريكية، قال متحدث باسم المخابرات الأمريكية إن هناك معلومات لا يرقى إليها الشك تؤكد مشاركة العديد من الجماعات الشرق أوسيطة، وجماعات إسلامية آسيوية على علاقة بتنظيم القاعدة في التخطيط لهذا الهجوم الذي بدأ بالتزامن مع بدء الحملة العسكرية الأمريكية ضد

العراق! وكان الشيخ محمد عمر بكرى المعروف زعيم جماعة المهاجرين المعروفة بعلاقتها الوثيقة بتنظيم القاعدة قد أعلن فى حوار تليفونى مع مجلة كمبيوتر وورلد أن تنظيم القاعدة والعديد من التنظيمات الإسلامية المرتبطة به تستعد لإعلان الحرب الإلكترونية المقدسة عبر الإنترنت، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ضد الحرب الشعواء التي يشنها عليهم الغرب. وكانت جماعة ماليزيان هاكرز الماليزية التى يتزعمها القرصان الشهير كامل طراز، المعروف باسم ميل هاكر أعلنت قبل الحرب أنها قامت بتصميم خمسة فيروسات خطيرة من نوع «ميجا فيروس» التى تتسم بقدرتها التخريبية الهائلة . وأنها تستعد بالفعل لإعلان الجهاد الإلكترونى باستخدام هذه الفيروسات إذا أقدمت الولايات المتحدة على شن عدوانها على العراق. وقال زعيم الجماعة كامل طراز إنه قام بتصميم فيروس خاص لاستهداف المواقع العسكرية الامريكية والبريطانية على شبكة الإنترنت، يحمل الاسم الكودى سيزيدا (Sсezda)، وهو يجمع فى خصائصه التدميرية بين ثلاثة فيروسات سابقة هى نيميدا وسيركام وكليز، مؤكداً أنه انتهى بالفعل من تصميم هذا الفيروس فى شهر أغسطس الماضى، وقام بتجربته فى المعمل الخاص به، وكانت نتائجه التدميرية عظيمة. واعترف طراز بأنه وجماعته على علاقة وثيقة بأعضاء فى تنظيم القاعدة، وأنه استعان بمجموعة من الأصدقاء الباكستانيين والروس فى تصميم هذه الفيروسات، وأنهم شاركوه فى تصميم عدة فيروسات سابقة من بينها فيروسات «بج بير ونضال وشت دوان وبالاباجى»، وبعث طراز برسالة عبر البريد الإلكترونى إلى مجموعة «أى ديفينس وثيقة الصلة بمكتب التحقيقات الفيدرالى» أكد فيها أنه حدد ساعة الصفر لهجومه الفيروسي المرتقب ليكون متزامناً مع العدوان الأمريكى على الشعب العراقي، حتى يدرك العالم كله حجم الكارثة الإنسانية البشعة المترتبة على هذا العدوان. وقال براين كيلى رئيس مجموعة أي ديفينس إنه قدم نص رسالة طراز إلى المسئولين فى وكالة المخابرات المركزية ووكالة التحقيقات الفيدرالية لأن الأمر فى غاية الخطورة، ويجب التعامل معه بكل جدية، ومن ناحية أخرى قال فنسنت جلوتو نائب رئيس شركة مكافى لمكافحة الفيروسات إن شركته تلقت نسخة من رسالة القرصان الماليزى كامل طراز وتعاملت معها بكل جدية، لذلك أصدرت تحذيراً عالي الخطورة إلى جميع عملائها فى مختلف أنحاء العالم، وأكد فنسنت أن خبراء شركة مكافي قاموا بتحليل شفرة الفيروس الدودى المعروف باسم نضال (Nedal) الذى صممه نفس القرصان خلال الأيام القليلة الماضية، واكتشفوا أنه يتضمن العديد من الأسماء، والحروف العربية التي يعتقد أنها تخص تنظيم القاعدة!

هذا ويملك عدد كبير من النشطاء المؤيدين والمعارضين للحرب، القدرة على اختطاف أو شل مواقع على الإنترنت للمعسكر المعارض، مخلفين وراءهم، مقبرة من المواقع المشوهة فيما يوصف بأنها عمليات قرصنة إلكترونية. وغالباً مايجرى وصف عمليات طمس مواقع الإنترنت بأنها شكل إلكترونى لكتابة الشعارات على الجدران! ولأن مسرحها هو الشبكة العنكبوتية فإن الرسالة تنتشر على نطاق واسع، لكنها تستمر لمدة قصيرة. والأكثر إثارة للقلق هو عندما يتمكن أحد القراصنة من الوصول إلى الكمبيوتر

الخادم للموقع لأنه المستودع الرئيسى لبيانات الشركة أو الهيئة المستهدفة. وتوقع روبرتو بريتونى مؤسس «زون إتش» وهى شركة إستونية تراقب وتسجل حالات تخريب أو تعطيل المواقع على الإنترنت أن تكون هذه الاحتجاجات الأسلوب الأكثر شيوعاً فى المستقبل. وسجلت الشركة منذ بدء الحرب على العراق مايزيد على ٢٠ ألف حالة من حالات طمس وتعطيل مواقع الإنترنت! وذكر خبراء فى أمن شبكة الإنترنت أن المئات من مواقع الشركات الأمريكية والبريطانية وكذلك المواقع الحكومية تعطلت عندما بدأت الحرب نتيجة لسيل من الرسائل المناهضة للحرب. وقد لاحظ خبراء الشركة تزايد دراماتيكى فى أعداد هجمات القرصنة والاختراق منذ اندلاع الصراع ، ففى الأيام الأولى هبت محاولات عديدة تهدف للدخول على المواقع الحساسة مثل موقع القوات البحرية الأمريكية . وفى تصريح لأحد خبراء الشركة بعد الحادثة السابقة قال فيه: «إن محاولات تشويه واختراق المواقع التى تقوم بها جماعات قرصنة مناصرة للإسلام والمسلمين ومناهضى الحرب ودعاة السلام تعنى بدء عصر جديد من حروب قرصنة الإنترنت». وتقول الشركة فى تعليقها على الموقف إن القراصنة يقتربون الآن أكثر وأكثر من الأهداف والمواقع الحساسة مثل البيت الأبيض الذى شهدت عشرة من مواقعه محاولات اختراق فى الأيام الماضية . ويضيف مدير الشركة جاسون هولواى محذراً من أن مشاركة الأشخاص والأفراد فى هذه الحمى يتزايد بشكل أكبر من الهجمات التى تشنها المؤسسات أو الجماعات، ويضيف أن الهجمات تتخذ أشكالاً عديدة غير الهجوم المباشر، فهناك العديد من الرسائل التى تدعو لمناهضة الحرب وتطالب بالسلام ويقول أحد الخبراء البريطانيين فى علوم الإنترنت إن الحرب الدائرة حالياً فى العراق أفرزت جيلا جديداً من القراصنة يختلفون بشكل جذرى عن قراصنة التخريب والتدمير التقليديين، فهم دعاة السلام المتحدون مع أنصار الإسلام وأنصار الأقليات فى الولايات المتحدة، المعبرون عن أسفهم وحزنهم من خلال الإنترنت. ويعتبر العديد من العلماء هذا الحدث دليلاً على انعكاس القلاقل السياسية حول العالم على شبكات الإنترنت التى تربط العالم وتجعله قرية صغيرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر شهد الصراع الهندى - الباكستانى تبادل الهجمات على المواقع لتشويهها وتعطيل خدماتها من قبل قراصنة البلدين. وأخيراً يشهد العالم صورة جديدة من هذا الصراع تابعة للأزمة فى العراق، فهناك هجمات اختراق وهجمات فيروسية مثل انتشار فيروس دودة الغاندا Ganda worm الذى تم الكشف عنه أول يوم الحرب بعد انتشاره السريع بسبب إقبال سكان العالم على متابعة أخبار الحرب! وعلى الطرف الآخر، وفى غضون ساعات من بداية الحرب شن قراصنة مؤيدون الحرب على مايبدو هجمات على مواقع عربية كثيرة.

هجوم أمريكى على موقع قناة الجزيرة

ومن أبرز ضحايا عمليات القرصنة أثناء حرب العراق ، كان موقع قناة الجزيرة على الإنترنت، «الجزيرة نت»، الأمر الذى حجب محتويات الموقع عن الظهور لبعض الوقت، وذكر الخبراء الفنيون فى شركة «هدرايزون ميديا» التى تدير الموقع ان جميع المؤشرات تشير إلى أن مصدر الهجوم هو قراصنة من الولايات المتحدة. وبدأت هذه الهجمات منذ اليوم الأول لتغطية الموقع لأحداث الحرب

على العراق، والتى خصص لها موقع جديد يحمل نفس عنوان الموقع الأصلى (الجزيرة نت) ليسهل دخول الزائرين إليه. ثم وصلت الهجمة إلى ذروتها فى أعقاب نشر الموقع لصور الأسرى والقتلى الأمريكيين يوم السبت مساء ٢٣ مارس، الأمر الذى أثر على إمكانية الوصول للموقع لعدة ساعات. وأكد خبراء أنه تعرض لعملية قرصنة غير عادية لايمكن أن ينفذها أفراد بل مؤسسات ضخمة تملك إمكانات مادية وتقنية هائلة.

ويرى مراقبون أن هذه العملية المنظمة جاءت رداً على تغطية الجزيرة لأخبار الغزو وبثها صور الجنود القتلى والأسرى الأمريكيين والبريطانيين فى العراق، والتى نشرت على موقع الجزيرة نت. وفوجئ زائرو الموقع بصور العلم الأمريكى وعبارة تقول «دعوا الحرية تصدح» فى إشارة إلى الحرب. وفوجىء بعض زوار موقع الجزيرة بأنهم يدخلون إلى موقع إباحى عندما كتبوا اسم موقع الجزيرة، ووجد أيضاً من حاولوا الدخول إلى الموقعين العربى والإنجليزى لقناة الجزيرة رسالة كتبت تحت العلامة التى تحمل صورة العلم الأمريكى تقول «تم اقتحامه من قبل الميليشيا الوطنية لقوات الحرية الفضائية». وتقول الرسالة: «جاءتكم هذه الأنباء من ميليشيات قوات الحرية الفضائية. بارك الله فى قواتنا».

وصفت المحطة الهجمات التى استهدفت مواقعها بأنها اعتداء شرير على حرية الصحافة. ويقول الخبراء إن هذه الهجمات تعرف بأسلوب الحرمان من الخدمة، حيث يمطر المخربون الموقع بوابل من المعلومات غير ذات قيمة ، الأمر الذى يحد من مساحة الدخول الحقيقى إلى الموقع. ويذكر أن الجزيرة تعتبر أكثر القنوات العربية تأثيراً فى العالم العربى، وقد أثارت غضب أمريكا وبريطانيا عندما عرضت صور القتلى والأسرى من البلدين ، وبالطبع لن تكون هذه هى آخر جولات الحرب الإلكترونية ، تماماً كما أنها لم تكن الأولى. فلا تزال ماثلة فى الأذهان حادثة اقتحام مجموعة تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية (FBI) والاستيلاء على الأجهزة المرتبطة باستضافة موقع الجزيرة فى سبتمبر عام ٢٠٠١، ورفض أكبر شركة برمجيات وأنظمة نشر فى العالم عقداً للشراكة مع الجزيرة نت، متعللة بتعرضها لضغوط رسمية لاتستطيع تحملها.

وامتدت هذه الضغوط إلى مجموعة من كبريات مواقع الإنترنت العالمية الأمريكية التى اعتذرت عن عدم نشر إعلان يتعلق بإطلاق الجزيرة نت موقعها الإنجليزى، متعللة بأنها لاتستطيع تحمل الضغوط التى تعرضت لها من جهات رسمية أيضاً، لدرجة أن يصل الأمر بالشركة المستضيفة للموقع فى الولايات المتحدة إلى أن تطلب صراحة من الجزيرة نت البحث عن مستضيف آخر «خارج الولايات المتحدة بأكملها» فى غضون أيام قليلة! وفيما يبدو أن الضغوطات «الفنية» التى يتعرض لها موقع الجزيرة تتزايد يوماً بعد يوم، وتتناسب فى قوتها مع زيادة أعداد زوار الموقع، والتى وصلت نسبتها خلال الأسبوع الأول للحرب فقط إلى أكثر من ١٠٠٪، مقارنة بالأسبوع السابق للحرب، وهو ما تزيده الإحصائيات التالية وضوحاً: وصل ترتيب الموقع فى قائمة أكثر مواقع العالم حركة على الشبكة العالمية إلى رقم ٤٥ بعد أن كان ترتيبه الـ ٤٤٤ قبل بداية الحرب فى ٣/٢٠. زادت سعة نقل المعلومات (bandwidth) من ٢٥ ميغا/ثانية قبل يوم ٣/٢٠ (بداية الحرب) إلى ١٨٥ ميغا. زاد متوسط عدد الصفحات المشاهدة للزائر الواحد حتى وصلت إلى ٤.٢ صفحة وهو مايزيد على مواقع كثيرة

شهيرة فى عالم الأخبار مثل الـ .C.N.N والتى بلغ متوسط صفحاتها المشاهدة بالنسبة للزائر الواحد ٣,٢ صفحة.

ولم تكن هجمات القراصنة أو «الهاكرز» كما اعتادت لغة الإنترنت على تسميتهم هى ردود الأفعال الغاضبة الوحيدة على شكل ومضمون تغطية المواقع للحرب على العراق. ولم يكن موقع الجزيرة نت الوحيدة الذى تعرض للقرصنة، فقد كانت مواقع أخرى على الجانبين أهدافاً وكذلك مواقع لم تكن لها صلة واضحة بالحرب.

مواقع تعكس أبعاد الصراع

اهتمت وكالات الأنباء بموقع يعرض مذكرات شاب يعيش فى بغداد، ويصف الموقع الإلكترونى كيف تبدو الحياة فى بغداد تحت القصف والغارات، وتأثير ذلك على الحياة اليومية فى العاصمة ووجهات نظر المواطنين العراقيين. ويقدم الموقع واسمه «عزيزى رائد» عرضا مختلفا عن أخبار العمليات العسكرية التى يتلقاها الناس عبر شاشات التليفزيون. ويبدو أن مهندسا معمارياً شابا (٢٩ سنة) يحمل الاسم المستعار «سلام باكس» يتولى نشر هذه الصحيفة الإلكترونية. ويقدم سلام فى موقعه عرضا للأحداث فى العراق منذ العام الماضى وبينها الانتخابات وعمليات الأمم المتحدة الخاصة بالتفتيش عن الأسلحة والاستعدادات للحرب. وقد أخذت شعبية الموقع بالازدياد خلال الأشهر الستة الماضية، لكنها وصلت ذروتها مع بدء العمليات العسكرية الأخيرة. ويقدم سلام عرضا مباشراً للغارات على بغداد ، ويتابع مثلا رحلة طائرات بى ٥٢ التى يعرف أنباء إقلاعها من بريطانيا من الصور التى تعرضها محطات التليفزيون ويتوقع قصفها بعد ست ساعات من ذلك. وقد ساعده على تحديث موقعه استمرار التيار الكهربائى وخطوط الهاتف بالرغم من القصف، حتى وقت كتابة المقال، وأكثر ما يأسر المهتمين بالموقع وصف سلام للأحداث التى تخرب الحياة اليومية للمواطنين العراقيين. فقد كتب سلام أن الحياة توقفت فى بغداد بعد إغلاق الكثير من محالها التجارية ونقص السلع التموينية وارتفاع الأسعار باطراد. وقال : «لم أر مطلقا بغداد فى مثل هذه الحال»، ويضيف أن الطرق هادئة وأكبر التجمعات فى الشوارع مكونة من أعضاء حزب البعث الذين اتخذوا مواقع فى الساحات ومفترقات الطرق والخنادق . وقد انتشر نبأ وجود هذا الموقع عن طريق البريد الإلكترونى وغرف النقاش على الإنترنت وإبلاغ المهتمين لبعضهم. لكن شعبية موقع «عزيزى رائد» ارتفعت ارتفاعاً كبيراً ويلقى البعض الشكوك على مصداقيته ويتساءل إذا كان نظام الرئيس العراقى صدام حسين هو المسئول عنه أم أرباب الدعاية الأمريكية.

هذا وتنصب اهتمامات المواقع الالكترونية الأمريكية حالياً على العراق لتقديم وجهة النظر الامريكية من الحرب الدائرة على أرض العراق، سواء لجهة تبرير الحرب وضروراتها لنزع السلاح العراقى، أو لجهة ابراز سير هذه المعارك، بالإضافة إلى مستقبل العراق بعد الحرب الذى انتهى الأمريكيون من الإعداد له على مايبدو فى موقعهم الالكترونية الكثيرة على شبكة الانترنت، والتى يبدو فيها العراق هو الطرف الأضعف، إذ إن له موقعا واحداً هو لوكالة الأنباء العراقية وعنوانه ، www.uruklink.net مقابل عشرات المواقع الأمريكية التى تقدم فيضاً من المعلومات، تسهل للمتابع معرفة كل شىء

عن العراق. والحرب الدائرة على أرضه من وجهة النظر الأمريكية، فيما تبدو الأمم المتحدة آخر من يعلم في مواقعها التي تتحدث عن الوضع العراقي. كما انشأت المؤسسات الأمريكية موقعاً خاصاً للعراق وهو موقع «عراق واتش» فقد انشأه مركز وسكونسن لمراقبة الأسلحة النووية، ويتضمن هذا الموضع معلومات عن الأسلحة المحظورة المشتبه بأن العراق يمتلكها. وظهر موقع جديد يقوم بتسجيل أعداد ضحايا الحرب الانجلو - أمريكية على العراق، وأعلنوا أن عدد زواره بلغ ١٠٠ الف زائر يومياً. وأضافوا أن المصادر العسكرية الأمريكية والعراقية، وعدداً من وكالات الأنباء تعتبره من المواقع الموثوق بها. وصرح المسئول عن هذا الموقع بقوله «اننا نسجل بأمانة ومسئولية أعداد ضحايا القنابل الامريكية والبريطانية .. واننا نفعل المستحيل كي لا ننسى أحد الضحايا المدنيين». ويظهر على مدخل الموقع عدد لأكبر واصغر عدد من الضحايا التي تستقي انباؤها من غالبية المواقع الاعلامية العالمية الرصينة. ويشرف على الموقع ١٦ من الاكاديميين والفنانين في الولايات المتحدة وبريطانيا. واطلقه سلوبودا البروفسور في علم النفس بجامعة كيل البريطانية، وحميد داردغان أحد الباحثين المقيمين في لندن. عنوان الموقع : www.iraqbodycount.net . ومن الغريب ان هناك مواقع تقامر على مستقبل صدام! وتسأل عند الدخول هل أصبحت أيام الرئيس صدام حسين معدودة؟ هل تراهن على ذلك؟ إذا كانت الإجابة نعم، فما عليك سوى الدخول إلى عدة مواقع للمقامرة على شبكة الإنترنت، للمراهنة على مستقبل أكثر الأشخاص المطلوب إطاحتهم من الحكم من قبل الولايات المتحدة ، ألا وهو الرئيس العراقي صدام حسين. فقد استقطب أحد مواقع المراهنات، ترايد سبورتس دوت كوم، مبلغاً وصل إلى ١,٢٥ مليون دولار!

عسكرة ألعاب الكمبيوتر

حتى ألعاب الكمبيوتر تمت عسكرتها! تنتشر على الإنترنت لعبة أطلق عليها اسم «حرب الخليج٢». ونشرت وكالة رويترز تقريراً قالت فيه إن اللعبة تعتمد على أن ينتحل اللاعبون شخصية الرئيس الأمريكي جورج بوش، الذي يتلقى نصائح من دونالد رامسفيلد وزير الدفاع وكولن باول وزير الخارجية وكوندوليزا رايس مستشارة الرئيس الأمريكي لشئون الأمن القومي. وتبدأ اللعبة بسقوط بغداد السريع، لكن يعقبه هجوم عراقي بجراثيم الجمرة الخبيثة على إسرائيل، التي ترد بضربة نووية انتقامية. ثم تحدث ثورة في السعودية وانقلاب كردي في شمال العراق. ولدى العثور على جثة صدام حسين، يواجه اللاعبون اختياراً لاختيار واحد من ثلاثة خلفاء متشابهين، مما يستلزم دعماً عسكرياً لردع إيران التي تشعر بالقلق من الأحداث الجارية. كما تندلع انتفاضات مناهضة للولايات المتحدة في مصر والاردن ولبنان وسوريا وباكستان، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى تهريب رؤوس حربية نووية للجماعات المتشددة. ويقول موقع اللعبة على شبكة الإنترنت www.idleworm.cm إن «هذا التوقع هو النتيجة الأكثر ترجيحاً لأي حرب جديدة في منطقة الخليج». وصمم الموقع ديرموت أوكونور ٣٢ عاماً، في نوفمبر الماضي وهو مبرمج كمبيوتر انتقل من إيرلندا ليعيش في كاليفورنيا قبل ثلاث سنوات. ويقول أوكونور إنه بنى هذه الاحتمالات من لقاءات وتقارير نشرت

فى مجلة «اتلانتيك مونثلى»، وصحف واشنطن بوست، ونيــويورك تايمز الأمــريكيــتين، وتايمز أوف لندن، والجارديان البريطانيتين، وصحيفة صنداى هيرالد الاسترالية. وتبدو اللعبة فى البداية وكأنها تفاعلية، إلا أنها تقود اللاعبين فى طريق محدد سلفا صممه أوكــونور لإبراز مــخــاطر الحــرب فى المنطقة. ونقلت عنه وكالة رويترز قوله: «هناك نتيجة حتمية واحدة فقط. فقد وجدت أن منح اللاعبين الشعور بإمكانية تجنب الأسوأ أمر غير منطقى». وأضاف أن نحو ٢٠ ألف شخص يلعبون لعبة الحرب يومياً. وقال أوكونور إن «الضغوط المستمرة وأصوات طبول الحرب تطغى على أى تصور أمريكى لما قد يحدث عقب الصراع المبدئى». أضاف أنه يشعر أن لعبته التى ترسم «أسوأ سيناريو» تقدم انعكاسا دقيقا لمخاطر شن هجوم على العراق. وقال: «لا أعرف كيف يمكن لإدارة بوش شن الحــرب دون أن تخلف فوضى. لا أعتقد أن ماستحققه الحرب يستأهل المخاطرة».

وقبل اشتعال حرب العراق انتشرت فى أسواق العالم لعبة فيديو بالكمبيوتر تمثل الحــرب بين القــوات الأمــريكيــة والعــراق، يدخل فــيــهــا اللاعب عــدة مستويات، يخطط ويحارب ويغزو، يكتسح مناطق العراق، وتنتهى بمستوى أخير حــيث يدخل اللاعب الفــائز إلى قــصــر صدام حسين ويصيبه فى مقتل وهو مرتد ملابسه العسكرية. ويشارك قطاع عريض من الأمريكان فى ممارسة تلك اللعبة. وقبل ذلك انتشرت فى الولايات المتحدة خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ألعاب كمبيوتر شعبية تمثل حرب أمريكا ضد الإرهاب كما تدعى، وتعلم تلك الألعاب المراهقين كيف يكسبون الحرب ضد الإرهابيين الذين عادة يتميزون بملابس وإشارات وأسماء تحوى انهم من العرب والمسلمين، ولكن لا يعلن عن ذلك صراحة فى اللعبة، واللعبة أصبحت شعبية جداً فى وزارة الدافع الأمريكية وبين القوات الأمريكية، لدرجة اتخاذ قرار فى شحن أجهزة كمبيوتر إلى أفغانستان، حتى يتمكن الجنود الأمريكان من ممارسة اللعبة هناك! والهدف الحقيقى لهذه اللعبة هو حث الشباب الأمريكى على التجنيد فى القوات الأمريكية، ويدعى الجيش الأمريكى بأن هناك ٤٧٠٠٠٠ فرد عندهم اللعبة أو يلعبونها الآن. لكن هناك بعض الشكوك فى أن يترجم هذا النجاح إلى جذب مجندين أكثر. ويتوافر فى تلك الألعاب عامل الواقعية مع الأحداث! وتظهر الكتب والقصص والأفلام التى تحكى المعركة بين الجنود الأمريكيين وبن لادن فى الصومال وأفغانستان، وتنتشر ألعاب الكمبيوتر التى تحمل عنوان عاصفة الصحراء التى تعتمد على العمليات العسكرية السرية ضد البنية الدفاعية التحتية للعراق، والمغزى هو الدعاية المتزايدة لعسكرية أمريكا لتعزيز الحرب ضد مايسمى الإرهاب فى نظر أمريكا وإضفاء الشرعية على تلك العسكرة. هى الحرب إذن، تتسع ميادينها وتتناثر شظاياها يوما بعد يوم، وتزداد ضراوة كلما ازدادت الحرب على العراق تعقدا، لتطال مبادىء الحرية والديمقراطية والتعددية والدفاع عن الشعوب والاقليات المضطهدة، واحترام القانون وحقوق الإنسان، والتى كثيرا ماانتشى العالم لسماعها، وغيرها من الشعارات التى عاش الناس فى أوطان كثيرة يحلمون بها. ■

لغويات

بغداد

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

الكلمة فارسية الأصل، تتكون من مقطعين «بغ» ومعناها الإله أو الملك .

و «داد» ومعناها العطية، إذن فالكلمة تعنى «عطية الله»، وهى تذكر وتؤنث، وفيها سبع لغات، أشهرها بغدان، يقول الشاعر :

فيا ليلة خرس الدجاج طويلة
ببغدان ما كانت عن الصبح تنجلي

وبغداذ يقول أبو العلاء المعرى :

يالهف نفسى على أنى رجعت إلى
هذى البلاد ولم أهلك ببغداذ

وهى تقع على ضفتى نهر دجلة، فى المنطقة التى يقترب فيها دجلة من الفرات، فى نفس الوادى الذى ضم عددا من أعظم عواصم العالم القديم : بابل ونينوى وأور وغيرها، الجانب الذى يقع على الضفة اليمنى يسمى «الكرخ» والذى على اليسرى يسمى «الرصافة».

وقد وضع أساس المدينة مدورا، وجعل قصر الخليفة فى وسطها، وأحكم حولها سورا له أربعة أبواب، ثم بنى المنصور لابنه المهدى قصرا آخر، كان يسمى «الخلد» يقول طاهر بن المظفر الخازن :

سقى الله صوب الغاديات محلة
ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هى البلدة الحسناء خصت لأهلها
بأشياء لم يجمعن مذكن فى مصر
هواء رقيق فى اعتدال وصحة
وماء له طعم ألذ من الخمر

وقد اشتقت من الكلمة أفعال وصفات، يقال تبغدد الرجل إذا انتسب إلى بغداد، أو تشبه بأهلها فى خصالهم التى اشتهروا بها، تقول العامة فى أعلى الصعيد : هذا الرجل يبغدد على أسرته، أو على نفسه إذا سخا فى الإنفاق عليها، وتسمى المولود بغدادى أملا فى أن يصبح سخيا، وتبغدد على غيره إذا تكبر وافتخر .

وشهرت بغداد باسم دار السلام ومدينة السلام، وإليها ينسب كوكبة من خيار العلماء فى اللغة والأدب والتاريخ ..



الحرب والثقافة

بقلم
زاهد مطر


طه حسين


محمد حسين هيكل

لأول وهلة ، قد يبدو العنوان للقارىء وكأنه يجمع بين نقيضين ، وله العذر إن تعجب أن نجمع بين الحرب بما تمثله من أدنى غرائز الإنسان والتي يشترك فيها مع الحيوان ، والثقافة التي تمثل أفضل نتاج العقل البشرى من أدب وفن وفلسفة وفكر وأخلاق ، وكلها مما يتميز به البشر عن المخلوقات الأدنى . فإذا أردنا أن نورد سابقة من تاريخنا المعاصر للتداخل بين حديث الثقافة وحديث الحرب ربما تطمئن القارىء إلى أنه من المشروع الجمع بينهما فلدينا مساجلة فلسفية شهيرة على صفحات جريدة «السفور» التي كانت تصدر في مصر في الربع الأول من القرن الماضى بين اثنين من كبار مثقفينا ، الدكتور طه حسين من ناحية والدكتور محمد حسين هيكل من الناحية الأخرى حول مشروعية اللجوء للحرب لحل المنازعات بين الدول ، وذلك بمناسبة الحرب العالمية الأولى التي كانت قد بلغت عامها الثالث وارتفعت خسائر الأطراف المتحاربة فيها من البشر والعتاد إلى أرقام لم تعرفها البشرية في تاريخها الطويل من قبل .

والطريف فى تلك المساجلة أن الدكتور طه حسين كان يبرر الحرب كضرورة لا مفر منها فى لحظات معينة فى العلاقات الإنسانية ، فى حين كان الدكتور هيكل من دعاة السلام ومن أعداء الحروب ، الأمر الذى لفت نظر صديق لهما فكتب معلقا أن مواقف الطرفين لا تلائم خلفياتهما الثقافية فقد كان من المتوقع أن يكون الشيخ السابق طه حسين من دعاة السلام والوئام، فى حين يكون رجل القانون هو الذى يبرر مبدأ اللجوء للسلاح فى حل المنازعات الدولية .

والتناقض على كل حال من المفروض أن يزول قرب نهاية هذه السطور ، إذا قدر لى أن أنجح فى أن أوصل للقارىء المعنى الذى أقصده من وراءها ، ولكن الذى أود أن أوضحه من البداية أمرين :

أولهما أننى أستخدم كلمة ثقافة فى موضع دأبنا مؤخرا على أن نستخدم فيه إصطلاح «حضارة» فنقول بصمة حضارية، وحوار الحضارات الخ .

ذلك أن الثقافة أقرب فى الدلالة على المعنى الذى سوف أتناوله فى هذه السطور فهى الاكثر إلتصاقا بالإنسان من حيث كونه إنسانا ، والأصدق تعبيرا عن محتواه المعرفى والفكرى والأخلاقى

وقائع الحاضر والماضى

والأمر الثانى هو وأن تزامن هذا الحديث مع مايجرى (حتى وقت كتابة هذه السطور) على أرض العراق الشقيق من قتل ودمار لايعنى أن هذا هو موضوع الحديث الوحيد ، وإن كان قد أوحى به ، فموضوع الثقافة والحرب يغطى بالضرورة وقائع الحاضر والماضى معا ، ومنذ أن كانت على وجه الأرض ثقافة وكانت حروب.

والحق أن التداخل أبعد تاريخنا فى مجرى العلاقات الدولية ، فما من إمبراطورية قامت فى الأرض لأهداف الغلبة وتحقيق المصالح إلا وبحثت لنفسها عن غطاء من المبادىء الثقافية والأخلاقية والقانونية ، مثل السلام الرومانى ، وكم سارت الجيوش تحت رايات خفاقة من الشعارات والرموز الدينية .

إلا أنه علىّ أن أبادر فأضيف أن التاريخ فيما أذكر لم يشهد مثل حرب اليوم التى مهدت فيها الثقافة بمفهومها الواسع للمعركة الدائرة بين أكبر قوة عسكرية فى عالمنا المعاصر وبين موطن من المواطن الأولى للحضارة البشرية فى أرض الرافدين وبين النهرين .

بل ومازالت أصداء المواجهات الثقافية تغالب دوى المدافع وأزيز الطائرات التى تنبعث ليل نهار من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، فى مدن العالم من أقصى شرقه إلى أقصى غربه .

ولعلنا لا تكون نسينا فى غمرة متابعة الأحداث اليومية والإنفعال بها أن

التمهيد الثقافى لهذه الحرب ربما يكون قد غطى العقد الأخير من القرن الماضى ومطالع هذا القرن ، بحيث جاءت الحرب كمرحلة لا أريد أن أقول أخيرة ، فى حلقات المواجهة العسكرية الممتدة على طول قرون بين الشرق والغرب ، والتى تأخذ شكل دورات تبدأ حلقاتها دائما أو تنتهى بالبحث عن غطاء ثقافى ، إذا أعتبرنا الفكر الاستراتيجى والسياسى من أدوات الثقافة أو أحد فروعها .

وللتذكرة فإن الباحث فى كتابات معلقينا ومحللينا السياسيين خلال تلك الفترة السابقة على الأحداث الأخيرة سيجد أن أطروحة فرانسيس فوكوياما حول نهاية التاريخ ، وكتاب صموئيل هنتنجتون حول حتمية المواجهة بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى ، تحتلان جانبا كبيرا من تلك الكتابات والتحليلات وأن كثيرا من معلقينا أعتبروهما مرجعا يمكن الاعتماد عليه فى تحديد الإطار الفكرى لنظام عالمى جديد يتربع على قمته قطب عالمى واحد .

ويجمع بين المرحلة الحالية التى يشهد العالم اليوم تداعياتها الساخنة ، وبين المرحلة التى سبقتها والتى شهدت عقودا من الحرب الباردة ، إن كليهما تمثل الثقافة بعدا واضحا جليا فيه ، إذ كانت المواجهة فى المرحلة الماضية والتى انتهت بتفكك الأتحاد السوفييتى بين معسكرين يستند كل منهما على نظرية سياسية اقتصادية مختلفة اتخذت شكل العقيدة .

إلا أن الفارق يبقى أنه بينما كان نزاع الأمس بين قطبين كلاهما داخل إطار الحضارة الغربية المستندة على قاعدة الثقافة اليهودية المسيحية cheristian judeo ، أى بين أبناء البيت الواحد حتى ولو تطرف أبناؤه فى مواقعهم جغرافيا ، فإن نزاع اليوم بين ثقافتين مختلفتين وقاعدتين حضاريتين مختلفتين ، مما يعنى أنه قد يؤدى إلى انشقاق أخطر فى القاعدة العالمية للثقافة الإنسانية أو التراث الثقافى الإنسانى برمته .

وهنا ولابد أن يثور التساؤل حول أسباب بقاء هذا التحفز الكامن بين الثقافتين السائدتين على جانبى البحر المتوسط منذ قرون طويلة دون حل ينزع فتيل الصدام والمواجهة الدورية بينهما .

مطامع وهيمنة الدول الكبرى

والسبب الغالب والبديهى لدى المحللين السياسيين المعاصرين لدينا فى الغرب أن تكدس الجانب الأكبر من مخزون الطاقة الاستراتيجى العالمى تحت أرض المنطقة العربية هو الذى يجعلها مطمعا لهيمنة الدول الكبرى التى تحتاج إلى تأمين إمداداتها الاستراتيجية من الطاقة .

وهذا صحيح ، ولكنه لا يمكن أن يمتد بأثر رجعى ليشرح أسباب الصدام والمواجهة طوال القرون التى سبقت إكتشاف البترول فى مطالع القرن

الماضى، فهو من المستجدات على ملف «المسألة الشرقية» وليس من أصولها .

أما تقديرى فإن الأسباب تكاد لا تخرج عن ثلاثة :

أولها : عامل القرب الجغرافى بين قاعدتين ثقافيتين مختلفتين واحدة على شرق البحر المتوسط والأخرى على شاطئه الغربى . وقد كان هذا البحر منذ تاريخ مبكر عاملا من عوامل تسهيل الانتقال بينهما لا حاجز مائيا يفصل بينهما .

ثانيهما : أن البحر المتوسط بشاطئيه يمثل ومازال قلب العالم القديم وقلب الحضارات والأديان الإنسانية العالمية ، وبالتالى أحد الدعامات الأساسية لأى نظام سياسى دولى يراد له البقاء والدوام.

ثالثاً : عالمية العقيدتين المسيحية والإسلامية ونزعتهما إلى التوسع والانتشار من خلال التبشير والغزوات والفتوحات مما يوسع دائرة الصدام وخطوط المواجهة بينهما على امتداد العالم.

ولكن تلك ليست كل الأسباب ، فإنه لايمكن تجاهل التناقض الكامن فى جوهر العقيدتين ، مابين التوحيد فى الإسلام ، والتثليث فى المسيحية ، وهو ماجعل من السهل على من يريد إثارة الفتنة والنعرات الدينية بين الجانبين أن يجد فى كتب التراث ، وللإنصاف بخاصة المسيحى ، ما يحقق غرضه حتى وإن كان يرمى إلى تحقيق أغراض ومصالح لا شأن لها بالدين .

وطبيعى أن ما تشهده المنطقة اليوم من عنف القوة الغاشمة قد يكذب القول بأن العناصر الأساسية فى بناء مجد الأمم معنوية قبل أن تكون مادية ، وأن الأمل فى حوار الحضارات قد تبدد إلى غير رجعة ، وأن النظام العالمى الجديد فى طريقه إلى أن يقام على دعائم من الحديد والنار وحدهما .

وقد يجعلنا نعتقد أن شاعر الحكمة العربية المتنبى كان أصدق فى قوله :

السيف أصدق إنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

منه عندما قال :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني
لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسان

ولكن الحقيقة أن البيت الأول كان من شعر المدح ، وأما الأبيات الثانية فهى من شعر الحكمة ، والحكمة تنسخ المدح حتى فى الشعر .

ودعونا ننظر إلى الوقائع نظرة أكثر تدقيقا ، ولنبدأ بالمقارنة بين العناصر المادية والموارد الطبيعية لكل من القوتين المعتدية والمعتدى عليها ، وأنا هنا أعد المنطقة العربية برمتها محلا للعدوان وضحية للطغيان .

وسنجد مع بعض التجاوز أن القوتين، تكادا تكونا متكافئتين بما أتيح

لهما من عناصر القوة المادية والبشرية . بل على العكس فإن المنطقة العربية تتميز بالموقع الاستراتيجي في قلب العالم الحضاري والسياسي والعسكري بالإضافة إلى البعد التاريخي .

قطب النظام العالمي الأوحد

وسنجد أن الفارق الحاسم إذن ليس ماديا وإنما هو أساسا في المكون الثقافي، فهو الذي مكن أوروبا من قبل ، والولايات المتحدة الأمريكية المتطرفة جغرافيا ووليدة الأمس تاريخيا أن تنمي قدراتها العسكرية وتخترع وتصنع من أسلحة الدمار وغير أسلحة الدمار ما جعلها في مصاف قوى العالم الكبرى ثم لم تلبث أن صارت اليوم أو توشك أن تصير قطب النظام العالمي الأوحد .

ونحن على الجانب الآخر نملك من مقومات القوة الشاملة ، بشقيها المادي والمعنوي ما لو استطعنا أن نجمع شتاته ومتفرقاته بالمنهج الثقافي السليم في كل متكامل لكان لهذه المنطقة منذ أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر شأن آخر في تاريخ العالم ومجرياته ، ولما أصبحت فراغا سياسيا يغري كل قوى التاريخ الكبرى بالتحرك بالجيوش والأساطيل لملء هذا الفراغ .

لقد كانت هناك محاولات للنهضة وبخاصة في مصر خلال القرنين الماضيين، وكانت هناك كتابات تتميز بشمولية النظرة واستشراف آفاق المستقبل مثل كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» الدكتور طه حسين ، وكتاب «الشرق الجديد» للدكتور محمد حسين هيكل ، وكلها تعثرت في تقديري بسبب افتقاد القابلية لتسخير روافد المنطقة الثقافية المتعددة في كل تتولد عنه قوة دافعة من خلال التفاعل interaction بين المكونات ، كما فعل الإمبراطور الياباني المصلح ميجي ، والمعاصر لتجربة محمد على في تحديث مصر في نفس القرن .

ربما كان هذا بسبب رفض العقل العربي لنظرية pluralism التي تجعل من تعدد الروافد والآراء في المجتمعات الغربية مصدرا لإثراء المكون الثقافي للأمم، أو ربما لارتباط كل دعوات النظر العقلي والتجديد في الأذهان بتيارات التغريب والمخاوف من الغزو الثقافي الغربي بعد التجربة الطويلة للغزو الاستعماري التي تعرضت لها المنطقة .

ولو كان الحال غير ذلك لكان هناك شأن أكبر لدعوة الإمام الشيخ محمد عبده في أواخر القرن التاسع عشر في رسالة التوحيد إلى أن الإنسان المسلم تهيأ له بمقتضى دينه أمرين عظيمين طالما حرم منهما :

أ - استقلال الإرادة

ب - استقلال الرأي والفكر .

وبهما كانت إنسانيته وبهما أستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها .

ولفهمنا مدلول قوله منذ ماينيف على قرن من الزمان أن الإنسان المسلم «أصبح عبدا لله وحده وسيدا لكل شيء بعده» .

ونحن بعد لا نملك أن نيأس لأن

اليأس إحدى الراحتين والإنسان مكتوب عليه ألا يرتاح فهو قد خلق في كبد ، وعلينا أن نخرج من التجربة على قسوتها بمحاولة جديدة للنهضة والتحديث نضع أولوياتها طبقا لما يقضي به منطق العقل والحكمة لا خيالات الوهم وشطحات العاطفة .

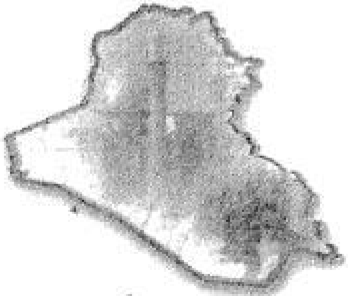
وعلينا ألا ندع استعراض القوة العسكرية في معركة غير متكافئة أبتداء يزغ قلوبنا ويجعلنا ننحرف عن حقيقة أن الجيوش والطائرات ماهي إلا مكون واحد من مكونات القوة الشاملة ، وإلا لما كان الرأى العام الداخلى والعالمى قوة يحسب لها حساب ، وإلا لما قامت لكل من ألمانيا واليابان قائمة بعد هزيمتهما العسكرية الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، ولاستطاع نابليون أن يقيم نظاما أوروبيا أستنادا على عبقريته العسكرية وحدها ، إلى غير ذلك من عبر التاريخ .

والمهم أن نبدأ من حيث يجب أن تكون البداية ، مكانا وموضعا وتاريخنا بعد ذلك حافل بالتجارب ورصيدنا من الحكمة والتراث لايضاهيه تاريخ أمة أخرى من أمم الأرض .

والمطلوب أن نتجرد من كل الحساسيات حتى نستطيع أن نتعرف أول كل شيء على موطن الداء الذى عاقنا طوال قرون من الزمان عن أن نحسن استغلال مواردنا المادية والمعنوية ، وأحسبه عدم قدرتنا حتى الآن على أن نجمع شتات ميراثنا الثقافى ولا أقول الدينى ، فى كل متكامل ، وبالتالى عدم وضوح الخطوط العامة للشخصية المصرية خاصة والعربية عامة ، واختلاط مفاهيم مثل المواطنة والوطن بدوائر أوسع من الانتماءات الجغرافية والقومية ، إلى حد إبهام الخطوط الفاصلة على أرض الواقع بين كل هذه الإنتماءات .

ولاشك أن الدروس والعبر المستفادة من تجربتنا وتجارب الآخرين تكاد تجمع كلها على أنه لابد ، من حيث المنهج ، لحركة الإصلاح التدرج من مركز للانطلاق أو بؤرة تجميع تصبح مركز إشعاع فى الدوائر الأوسع من حولها ، وأن محاولات الطرح على الواسع ، وأقربها فى أذهان الأجيال المعاصرة محاولات السيد جمال الدين الأفغانى خلال القرن التاسع عشر تنبيه الشرق الإسلامى على اتساعه من غفلته ، كثيرا ما تصطدم فى النهاية بحقيقة أنه لابد وأن يكون لديك نموذج متقدم يصبح مع الوقت مركز إشعاع فيما حوله تستطيع أن تشير إليه إن أردت أن تقنع الناس بأن الإصلاح ليس مجرد أمانى وأوهام ، وهذا صحيح فى تعليم الأفراد كما هو صحيح فى تربية الأمم على حد سواء :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
بالقول منك ويقبل التعليم ■



الكذب أحد أركان السياسة الأمريكية...

أيديولوجية الحرب الأمريكية على العراق

بقلم
جميل مطر

فى مقال طويل يستحق القراءة أثار جون ديدون في شهر يناير الماضى فى واحدة من أهم مجلات عروض الكتب التى تصدر فى نيويورك قضية هى بالفعل من أهم القضايا الأمريكية المعلومة، وهى محاولة فهم العقل السياسى الأمريكى. عنوان المقال «آراء مغروسة أو ثابتة». يحكى جون ديدون أن كاتباً أمريكياً كبيراً أدلى بحديث إلى إحدى الصحف الإقليمية التى تصدر فى جامعة من جامعات كاليفورنيا قال فيه «إن أول ما لاحظه زائر مثلى تصادف وجوده فى نيويورك يوم ١١ سبتمبر كان هذا الإقبال الغريب والغير معهود على كل الكتب التى تحمل عناوين الإسلام والسياسة الخارجية الأمريكية والعراق وأفغانستان. فى كل مكان فى نيويورك على الأقل كان النقاش الجوهرى يدور حول طبيعة الوجود الأمريكى فى العالم، هذا الوجود الذى خلق وضعاً جعل حركات مثل القاعدة تنمو وتنتعش».

ويستطرد الكاتب الكبير فى مقاله فيقول «عندئذ عرفت أن هذه إشارة واعدة للغاية بالنسبة للمستقبل» ثم قال « إلا أن هذه المناقشة حدث لها أمر غريب. حدث أنها اختزلت، أو إذا صح التعبير تقزمت. ففى شهر أكتوبر وأوائل نوفمبر من العام نفسه كان النقاش الجوهرى قد تحول إلى السؤال التالى، ما هو هذا الشئ الخطأ أو المعيب فى العالم الإسلامى الذى يجعله يفشل فى إنتاج ديمقراطية وعلم وتعليم وفى تنوير نفسه، ولا ينجح إلا فى خلق مجتمعات تربى الإرهاب.. وعندما سأله محادثه فى مقابلة صحفية عن الأسباب التى أدت إلى هذا التحول فى جوهر المناقشة فى الولايات المتحدة، أجاب « لا أعرف ولكنى أقول إنه فشل طويل الأمد من جانب قياداتنا السياسية ونخبتنا المثقفة وصناع الرأى فى هذا البلد، جعلنا لا نأخذ هذه المناقشة التى أعقبت مباشرة انفجار ١١ سبتمبر مأخذ الجد وطورناها نحو أتجاه بناء».

قليلون الآن هم الذين لا يربطون بين ١١ سبتمبر والعدوان على العراق وكثيرون هم الذين بدءوا يتعمقون فى محاولة فهم ظاهرة أخطر وأوسع محاولة أن جماعات تبدأ بزرع فكرة يتولى مسئولية ريها ورعايتها مؤسسات فائقة القوة والقدرة حتى تصير فكرة مغروسة بعمق يستحيل اقتلاعها إلا بظروف قاهرة . كان الرئيس روزفلت مثلا أول رئيس فى الولايات المتحدة أراد أن تقوم أمريكا برعاية إسرائيل وإقامة دولة لها مكان فلسطين، ومع ذلك كان روزفلت نفسه هو الذى وضع الأساس للعلاقات الأمريكية السعودية. وكان يعرف أن فى السياستين تناقضا ولكنه أخذ بمبدأ أن يبقى صانع السياسة فى أمريكا جميع الخيارات مفتوحة، وكانت نصيحته لن سيأتون بعده من الرؤساء : «قدم وعوداً معينة فى العلن وقدم نقيضها فى السر»، ورغم ما تحتوى عليه هذه السياسة من مخاطر إلا أنها عادت على الولايات المتحدة بمكاسب طائلة فقد حصلت على ثقة اليهود الغالية وحصلت على النفط من السعودية . ومن التناقض فى السياستين حصلت الولايات المتحدة على عقود لتوريد أسلحة للطرفين بلا حدود . هكذا وضع روزفلت الأساس لسياسات ظلت قائمة إلى الآن تستند إلى وعود فى العلن لا تنفذ ووعود فى السر هى التى تنفذ ستون عاماً مرت والولايات المتحدة تنفذ هذه المبادئ فى الشرق الأوسط .

يقول جون ديدون إن هذه السياسات ربما قاربت نهايتها فقد تطورت الأرضاع الداخلية فى الولايات المتحدة، وحققت الجالية اليهودية فيها أقصى

طموحاتها بحيث صارت قوة رئيسية أو أصبحت عنصراً رئيسياً فى صنع السياسة الخارجية الأمريكية. وأصبح من الصعب جداً على رئيس أمريكى أن يتعامل معها على الأسس نفسها التى وضعها روزفلت منذ ستين عاماً، أى وعود فى العلن وتناقض فى السر ويعترف الكاتب جون ديدون أن نفوذ هذه الاقلية وصل إلى حد أن جعل رئيس جامعة هارفارد إحدى أرقى المراكز العلمية فى الولايات المتحدة يوجه إنذاراً إلى أساتذة الجامعة بأن أى انتقادات تخص الحكومة الحالية فى إسرائيل قد تؤخذ على أنها أعمال مناهضة للسامية، عقابها الفصل .

لقد وصل الأمر فى العلاقة الأمريكية اليهودية إلى أنها أصبحت من المحظورات فى المناقشات العلنية وفى الصحف صارت فى نيويورك وفى واشنطن موضوعاً لا يثار أو موضوعاً متفجراً ويتعامل معه الأمريكيون العاديون كما يتعاملون مع حقيبة متروكة فى حافلة من الحافلات ولا يطالب بها أحد «إننا فى أمريكا الآن نجلس فى انتظار أن يهدأ الموضوع بأسره من تلقاء نفسه فكلنا نعرف أنه أصبح واحداً من الأفكار المغروسة فى العقل الأمريكى ولن تقتلع من جذورها إلا بقوة قاهرة ».

لقد كانت الشهور الأخيرة مسرحاً عرضت فيه حكومة الجمهوريين، والتى يسيطر عليها شلة متهورة فى اتجاهاتها اليمينية، عدداً من هذه الأفكار المغروسة حديثاً فى الفكر الأمريكى ولم تكن هكذا من قبل . إنها المرة الأولى التى يشعر فيها الأمريكيون أن ولاؤهم للوطن مفروض عليهم فرضا وأن الاعتراض على سياسة من سياسات الرئيس بوش أو انتقاد قرار من قراراته يعتبر خيانة للوطن. الفكرة ليست جديدة وقد وجدت دائما فى حالات الحروب ولكنها لم تصل فى أى وقت من الأوقات إلى أن يجرى اتهام للمنتقدين بأنهم خونة وأنهم يهددون سلامة الجنود الأمريكيين فى الخارج . بل أن القول بأن من ليس معنا فهو ضدنا، أو بتعبير أدق أنت أما معنا وإما مع الإرهابيين، فهذه ثنائية غريبة كل الغرابة على عقل ما قبل ١١ سبتمبر . وقد اتضح بعد ذلك أن بعض الأفكار التى غرست فى ١١ سبتمبر غرست بهدف تبرير عملية إعادة صياغة الدور الصحيح لأمريكا فى العالم على كافة المستويات النظرية والأكاديمية والإستراتيجية والواقعية. هذا الدور الصحيح لأمريكا هو بالتحديد المبادرة بشن حرب دائمة «خاتلية» بمعنى أن تعيش أمريكا منذ ١١ سبتمبر فى حال تعبئة مستمرة لحرب واقعة أو محتملة . وإذا لم توجد الأسباب لشن حرب

حقيقية فلتخلق الظروف والمسارح والسيناريوهات التى تجعل الناس يعيشون حالة حرب لقد بلغ ذكاء مخططى هذه الأفكار وذكاء مهندسى الحرب الإليكترونية جدا جعل المواطن الأمريكى، بل والمواطن العالمى، غير مدرك تماما إذا كان ما يشاهده على شاشات التليفزيون وفى حياته العادية وفى الاختلافات وفى سياسات الدول وفى الاختلافات بينها حالة حرب حقيقة أم حرب خائلية، روجت لها هذه الجماعة المتهورة حتى صدقتها .

وظيفة سياسية دولية

من هنا لم نعرف كمراقبين أو حتى لو كنا مواطنين وجنود أمريكيين، إن كانت الحرب ضد أفغانستان انتهت بالنصر أم بشئ آخر وإن كان بن لادن حقيقة أو بطلا من أبطال الألعاب الإليكترونية التى تنتجها شركات سونى وغيرها ونحن، حتى الآن، لا نعرف إن كانت حرب الإرهاب مستمرة أو غير مستمرة أم أنها صارت وظيفة سياسية دولية تشتغل فيها أجهزة الأمن فى دول كثيرة. أين الطالبان؟ وهل فعلا تم القضاء عليهم؟ وأين هذه الأصولية الإسلامية الراديكالية العنيفة التى قررت أعظم دولة فى العالم أن تشن عليها حربا بدأتها منذ عامين ولا يبدو أنها ستنتهى ولا يبدو فى الوقت نفسه أنها مستمرة؟ وقد دافع رئيس الأركان الأمريكى فى نوفمبر ٢٠٠٢ فى محاضرة فى معهد بروكنس فقال لقد فقدنا زمام المبادرة فى أفغانستان لأن الطالبان والقاعدة كانتا أسرع فى التأقلم مع التكتيك الأمريكى من قدرة أمريكا على التأقلم مع تكتيك الطالبان والقاعدة. ويبدو لى وإن كان القول مفهوما وقد يكون صريحا إلا أنه لا يفسر الحال الراهن فى حرب غير حقيقية تماماً وغير خائلية أو وهمية تماماً أسمها الحرب فى أفغانستان .

هكذا لعب الكذب دوراً أساسياً فى السياسة الخارجية الأمريكية ولعلنى لا أبالغ إن قلت إن الكذب ركن من أركان هذه السياسة أقرأ ما كتبه جون ديدون فى عام ١٩٨٨ عندما قال أنه بعد إبريل ١٩٦١، عندما فشلت مؤامرة خليج الخنازير على كوبا، ظهرت قياسات الرأى العام فى الولايات المتحدة وقد منحت الرئيس جون كيندى أربع نقاط أكثر مما كان لديه فى شهر إبريل أى قبل حادثة الخنازير وبعد العدوان على جمهورية الدومينيكان فى ١٩٦٥ إرتفعت شعبية ليندون جونسون ٦ نقاط وبعد غزو جرانادا فى ١٩٨٣ زادت شعبية روناld ريجان أربع نقاط ولم يتذكر أحد فى الولايات المتحدة لا البيت الأبيض ولا أجهزة الإعلام ولا الحزب الديمقراطى أن

يقوم باستقصاء رأى فى شتاء العام الذى أرسل فيه رونالد ريجان قوات البحرية الأمريكية إلى بيروت فمات منهم مائتان وواحد وأربعون جنديا .

وبعد أربعة عشر عاماً عدنا نجلس أمام شاشات التليفزيون لنشاهد ما يجرى فى مسرح آخر من مسارح الألعاب الحربية الأمريكية التى يلعبها الكبار بعقلية الصغار هذه المرة كان المسرح فى الشرق الأوسط والشرق الأوسط ليس جرانادا وليس جمهورية الدومينيكان وليس جمهورية هايتى التى ذهب إليها فى التسعينيات ٢١ ألف جندى أمريكى «ليحرروا» هايتى من حكم العسكر ويقيموا ديمقراطية كتلك التى يقول الأمريكيون أنهم يزعمون إقامتها فى العراق. الشرق الأوسط ليس الكاريبى الذى يحب الأمريكيون أن يطلقوا عليه «بحيرتنا» وعلى كل حال سقطت هايتى سقوطا إذ عم الفساد وأصبح جان برتران اريستيد الرئيس الذى عينته أمريكا بانتخاب ديمقراطى زعيم عصابة يطلقون عليها فى هايتى عائلة لافسال .

حتمية الهيمنة الأمريكية

ولم يأت صيف ٢٠٠٢ إلا وكانت فكرة جديدة قد غرست فى العقل السياسى الأمريكى وصار يقبلها كأى فكرة مغروسة أخرى وهى الذهاب إلى حرب فى العراق إن الفكرة التى غرسوها فى عقل الرئيس بوش أو النظرية التى تحكمت فى فكره وأساليبه على امتداد الشهور الماضيه تحولت بفعل فاعل فى ظل هذه النظرية الثابته إلى ما يعرف بمبدأ بوش، وشكلها الخارجى يأخذ شكل الأحادية الأمريكية الجديدة تتلخص النظرية فى أن سقوط الاتحاد السوفيتى قد فتح الباب أمام حتمية الهيمنة الأمريكية، هذه الهيمنة تمثل عباءة يرتديها الرئيس الأمريكى لتوحى لكل الناس بل لكل الدنيا، أن هذا الرئيس يجسد قوة خيرة مصدرها إشارات سماوية ويعتقد بوش وأعوانه أن كافة الدول ستقتنع بها يوما ما وستطلب منا أن لا نخلعها أبدا ما عدا الدول المارقة بطبيعة الحال فى هذا يقول تشارلز كروفهامر «نحن نذير إمبراطورية فريدة فى دليتها ونواياها»، فى مقال نشره فى يونيو ٢٠٠١ فى عدد من مجلة وكيلى ستاندراد صوت اليمين المتطرف وقال أيضا نحن بما نكتبه الآن لا نهنئ أنفسنا ولا نشكر فى ذواتنا ولكنها حقيقة تظهر وتتأكد من واقع ترحيب الآخرين بهذه العباءة التى نرتديها وبهذه القوة التى ننفرد بها».

إذا أخذنا فى الاعتبار هذه النظرية الأمريكية التى يؤمن بها الرئيس بوش وبطانته فلعل القارئ يشترك معى فى تخيل جماعة معينة تقف على قمة السلطة الأمريكية هى فى حالة حلم دائم لا تريد أن تفيق منه ، وهى تجد دائماً أو

تخلق ما يدعم هذا الحلم ويضمن استمراره، مثل الإدعاء بأن الرئيس رونالد ريجان أحد الآباء المؤسسين لهذه النظرية تسبب فى انهيار الاتحاد السوفيتى حينما قرر أن يرفع شعار إمبراطورية الشر فى خطابه الشهير وبين هذا الخطاب الذى ألقاه ريجان وأطلق على الإتحاد السوفيتى تعبير إمبراطورية الشر وبين مقال كتبه جيم هوجلاند فى صحيفة الواشنطن بوست فى يونيو ٢٠٠٢ مرت سنوات غير قليلة وكان الحلم مازال يتدعم ويقوى ويكاد يقترب من التحقق ويقول هوجلاند «أن هناك موافقة متزايدة وقبول مطرد فى البيت الأبيض بفكرة الحاجة إلى عملية احتلال شامل ومقيم وليس أن تقوم فرقة غازية بالغة القوة بدخول العراق والبقاء فيها لوقت محدد. إن الوجود الأمريكى فوق أرض العراق سوف يكون القوة أو الطاقة التى ستحول دولة عربية كبرى كالعراق إلى نموذج للمنطقة على اتساعها وتنوعها عراق جديد قد يفيد فى تحقيق أمن أكثر للأمريكيين فى الشرق الأوسط». ثم كتب من يقول « أن الوقت حان لتبدو الولايات المتحدة ليست كعدو لشعوب المنطقة وإنما كمحرر طبيعى لها وهذا من حقها. صحيح أن نفكر أننا نعيش فى مرحلة مصيرية فى التاريخ، ومن الخطأ أن نفكر أن قوتنا الرهيبة فى هذه اللحظة تغلق الباب فى وجه المصالح الأمريكية فلتكن الخطوة الأولى من جانبنا تدمير صدام حسين وتحرير شعب العراق وبعدها سوف يبدأ فعلا التاريخ دورة جديدة ».

إن الذين سيكتبون تاريخ هذه الشهور السابقة على العدوان الأمريكى على العراق سيميزون بين حكومة غارقة لأذنيها فى نظرية مغروسة تتعلق بأحادية القوة الأمريكية والهيمنة الأمريكية، وبقوى الشر ومحوره فى العراق وإيران وكوريا، وفى ثنائية الخير والشر وثنائية من معنا ومن ليس معنا وبين شعب غير مقتنع بهذه النظرية وغير مؤمن بها. إذ دلت معظم المقالات التى كتبت فى هذه المرحلة عن أن الناس لم تخرج من ١١ سبتمبر بروح الانتقام أو بأى دافع تبشيرى يعتمد على إدعاء أن الأمريكيين هم الأخيار وكل العالم أشرار.

وقد بدا فى وقت من الأوقات أن النخبة الحاكمة الأمريكية ومعها عدد من المفكرين الذين يدورون فى فلكها قد غلبتهم حماسة النظرية فصاروا يتحدثون عن إمكانية استخدام الولايات المتحدة أسلحة ذرية ضد العراق، إذا إحتاج الأمر، على أساس أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل جرثومية أو بيولوجية. وقال أحد المسئولين فى البنتاجون فى ذلك الوقت أن بعض المخابئ التى حفرها وشيدها نظام صدام حسين هى من القوة بحيث لا

يمكن أن يهدمها أو يقضى عليها إلا أسلحة نووية شديدة القوة . خطورة هذا التوجه فى التعبئة الجماهيرية من أجل الحرب أنه سمح لغوغائية التفكير والتخطيط أن تمتد إلى الحديث عن استخدام أخطر الأسلحة وأشدها فتكا فى حرب هى فى الحقيقة حرب ثانوية إذا قيست بحروب أمريكا العالمية .

الدفاع عن أمن اسرائيل

لغزو العراق أسباب كثيرة ويخدم مصالح أمريكية متعددة ومنها الدفاع عن أمن إسرائيل والسماح لها بأن تكون اليد العليا فى أقليم الشرق الأوسط . إلا أن هذه النظرة البراجماتية إلى السلوك السياسى الأمريكى أثبتت فشلها فى كثير من الأحيان. يدفع إلى هذه البراجماتية اعتقاد الكثير من المفكرين فى شتى أنحاء العالم وبخاصة فى عالمنا العربى أن أمريكا لا علاقة لها بالأيديولوجية وأنه لا يوجد بين قادتها من يبنى سياسته الخارجية على أسس أيديولوجية . هؤلاء يجانبهم الصواب فى كثير من تقديراتهم للسياسة الأمريكية وردود فعلهم . إن مسألة المصالح حقيقية ولكنها ليست كل شئ، الشئ الأهم فى أمريكا كما فى عدد من الدول الأخرى هو الاعتبارات الأيديولوجية . إن الذى يحرك الولايات المتحدة الآن ويحرك سياستها الخارجية ويفسر ما قامت به من حروب فى الآونة الأخيرة وما ستقوم به من حروب فى المستقبل سواء فى سوريا أو فى إيران بوسائل وأشكال متعددة لن يفهم كل هذه التطورات إلا إذا إقتنع بالفكرة الراسخة أو النظرية المغروسة فى العقل السياسى الأمريكى وهى الفكرة القائلة بأن هذه اللحظة التاريخية «هدية» إلى أمريكا من السماء لبناء إمبراطورية طيبة القلب خيرة تسعى لنشر الديمقراطية، تحرر الشعوب من الظلم، وتقضى على الأشرار فى كل مكان إذا اقتنعنا بهذا اقتنعنا فى الوقت نفسه بأن ما حدث فى العراق لم يكن أساساً لمصلحة نفطية فقط أو لمصلحة إسرائيل فقط أو لمصلحة إستراتيجية فقط وإنما هو حلقة فى مسلسل يهدف فى النهاية إلى بناء هذه القوة «الخيرة الطيبة الجديدة التى سيكون على أيديها أو بفضلها خلاص العالم من كافة الشياطين والشرور والحروب الصغيرة ».

مبعوث العناية الإلهية

ما كان يمكن الدولة عظمى أن تفعل ما فعلته حكومة الرئيس بوش مع حلفائها خلال العامين الأخيرين إلا إذا كانت مدفوعة بما تتصوره قوة خارقة عن العادة، أو بمعنى أصح، قوة فوق بشرية ولم يحدث على ما أذكر فى التاريخ السياسى الأمريكى الحديث أن رئيسا أعتمد إلى هذه الدرجة على تأييد جماعة أصولية شديدة التطرف فى الولايات المتحدة يؤمن بأفكارها وينطلق بكل قوته لتنفيذ كل ما تطلبه منه. لم

يحدث أن رئيسا استخدم هذه المفردات الدينية الكثيرة بهدف الإساءة إلى ما يتصورهم خصوم الولايات المتحدة وأعدائها، وتوهم بهذه السذاجة أنه مبعوث العناية الإلهية لتنفيذ مخططات الرب على الأرض . ولم يحدث حسبما أذكر أن جاء إلى أمريكا رئيس إلى هذه الدرجة مندفعاً حتى أنه ينسى أنه يردد أقوالاً غير صحيحة ولا أقول أنه كان يكذب عندما تحدث عن عدد حلفاء أمريكا في الحرب ضد العراق، وحدد واحدة من الحلفاء بأنها دولة تقع في المحيط الهادى من صغر حجمها لا تظهر على معظم خرائط العالم بل أن رئيس وزراء أحد هذه الدول «النتوء» وهو رئيس جزر سولومون عندما سئل عن عضويته في هذا التحالف المناهض للعراق قال لم أسمع عنه ولم أعرف أنني عضو في أى حلف في هذا العالم . الرئيس لا يكذب ولكنه يتصور أموراً غير صحيحة ربما لأنه يعتمد أكثر من اللازم على الرؤى والأحلام، أو على الذين يضعون أمامه تصورات وصور ويغرسونها كفكر أو نظرية في عقله، فيجعلونه يتصرف في السياسة الخارجية كما في الداخلية على أساس هذه التصورات وعلى أساس عالم خيالي..

هل كان يستطيع أى عالم أمريكي في العلاقات الدولية أن يتصور أنه سيأتي يوم تشكل فيه الولايات المتحدة حلفاً عالمياً لا يضم من دول أمريكا اللاتينية إلا دولة واحدة هي كولومبيا فقد رفضت البرازيل والأرجنتين وفنزويلا وتشيلي وبقية دول أمريكا اللاتينية رفضوا جميعهم الانضمام إلى الحلف باستثناء كولومبيا وكوستاريكا وبعض الدويلات قليلة العدد وصغيرة الحجم تعيش في البحر الكاريبي وحوله لا أجد معنى لهذا الوضع إلا أن هذه الدول رغم كل هذه الهيمنة الأمريكية أكتشفت أمريكا تحلق في عوالم أخرى غير العالم الواقعي الذى تعيش فيه والذى يربط بينها وبين الولايات المتحدة لم يتصور أحد أن ١٩ دولة تقودهم المكسيك أقرب جيران أمريكا اجتمعت بغرض إدانة التدخل الأمريكي في فنزويلا . وقتها لم يقف بجانب الولايات المتحدة إلا السلفادور شئ ما تغير بعد ١١ سبتمبر في العلاقة بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تماماً كما تغير بين أمريكا الشمالية وبقية أنحاء العالم . إذ تمكنت إدارة بوش بخيالها الواسع أو بعالمها الخاص الذى تعيش فيه أن تقلب العالم رأساً على عقب من عالم مؤيد للولايات المتحدة ومتعاطف معها في أزمتها بعد ١١ سبتمبر إلى عالم تنتشر فيه الكراهية لها من أقصاه إلى أقصاه . ■

بلاد بلا تاريخ

تحارب التاريخ!

بقلم

محمد يوسف عدس

قذفتنا الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس السابق بل كلينتون بمؤتمرين للسكان أحدهما فى القاهرة والثانى فى بكين .. صحيح أن الأمم المتحدة هى التى قامت بتنظيم المؤتمرين تحت شعارات براقة ولكن المحتوى الموضوعى والتعريفات الغريبة أو المريبة للأسرة والزواج والحرية الشخصية التى عرضت فى المؤتمرين كانت صناعة أمريكية. وقد استشعرت وفود المؤتمرين أن قيما ثقافية دخيلة ومناقضة لقيمها الثقافية والدينية يراد فرضها على شعوب العالم فى «زفة» العولمة الشاملة فقاومت وتحفظت.

حقيقة الأمر أن توجهات المؤتمرين التى نمت عنها التعريفات المريبة لم تكن شيئا مستغربا فى المجتمع الأمريكى بل هى جزء طبيعى من نسيجه الثقافى وانعكاس لمفاهيم الزواج والجنس والحقوق الشخصية كما يتبناها مايسمى بالجناح الليبرالى أو التقدمى الذى يعتبر «بل كلينتون» وحزبه الديمقراطى بعض ممثليه فى الساحة السياسية

لو نجح هذا المؤتمر بدون تحفظات لأصبح لزاما على بلاد مثل بلادنا أن تقوم بتعديل قوانينها الخاصة بتحريم الزنا وتحريم الزواج المثلى، أعنى زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، وكذا القوانين المتعلقة بالشذوذ الجنسى .. فإن أخفقت هذه البلاد فى تعديل قوانينها وصياغة مجتمعاتها على النمط الأمريكى تتعرض للعقوبات الدولية وتحرم من المساعدات.

المثير فى الموضوع حقا هو أن ماقذفتنا به إدارة كلينتون ليس إلا أحد وجهى العملة الأمريكية وأن الوجه الآخر يحمل صورة مختلفة تماما هى إدارة بوش .. أراد كل منهما (كلينتون وبوش) الغزو والهيمنة ولكن اختار الأول سلاحا ناعما من حديقة الشيطان واختار الثانى سلاحا من قاع الجحيم هو الحرب والعدوان العسكرى، ولقد عرفنا ماجرى فى أفغانستان ونشهد الآن مايتعرض له العراق وشعبه من كوارث وهى بداية قد تقود العالم إلى كارثة كونية.

والسبب أن إدارة بوش تحكمها أيديولوجية دينية إمبريالية، تمثل الجناح المحافظ المضاد للجناح التقدمى فى الصراع الثقافى المستعر منذ بضعة عقود فى المجتمع الأمريكى.

لهذا الجناح اليمينى الصهيونى فى السياسة الأمريكية الخارجية أجندة عدوانية تحمل عداء رهيبا للإسلام والمسلمين وترى مصالحها فى العالم العربى بالذات مرتبطة أوثق رباط بإسرائيل وبمشروعها التوسعى فى هذه المنطقة.

لهذه النزعة الرسالية النبوئية خلفيات دينية عميقة الجذور تم تناولها من قبل فى عدة مقالات سابقة، ويهمنى هنا أن أضع بين يدى القارىء ملاحظتين: أولهما أن هناك شىء يدور فى المجتمع الامريكى اسمه الصراع الثقافى، وسنرى أنه صراع مروع يصفه بعض الكتاب بانه لم يسبق لمجتمع آخر أن تعرض لمثله من حيث العنف والحدة والآثار المدمرة.

والملاحظة الثانية: أننا فى منطقتنا العربية نتأثر بنتائج هذا الصراع وإفرازاته فى السياسة الخارجية الأمريكية وقد ضربت لذلك مثلا بإدارتى كلينتون وبوش.

■ من هنا جاء اهتمامى باستكشاف أبعاد الصراع الثقافى فى



الولايات المتحدة الأمريكية.

جيمس ديفيسون هانتر

عالج الموضوع بشمول واقتدار «جيمس ديفيسون هانتر» في كتاب له بعنوان: «الحرب الثقافية - الصراع من أجل تحديد الهوية الأمريكية».

ربما أول مايصدم القارىء من الحقائق التي يعالجها هذا الكتاب أن الهوية الأمريكية في أزمة!! ومرجع ذلك أن هذه الهوية ليس لها عمق تاريخي، فالمجتمع الأمريكي حديث النشأة، لاماضي له ولا حضارة ضاربة في القدم، مثل الحضارات التي نشأت منذ آلاف السنين على ضفاف النيل أو على ضفاف دجلة والفرات أو في الصين والهند ولاحتى في أوربا. ولكي يعوض الأمريكيون هذا القصور في تاريخهم القومي لجئوا إلى الأساطير الضخمة التي تدور حول قداسة النشأة الأمريكية والرسالة الإلهية التي اختص بها الشعب الأمريكي في صنع مستقبل البشرية.

لذلك نلاحظ أن كل حرب وقعت في التاريخ الأمريكي وصفها الأمريكيون بأنها حرب صليبية مقدسة، وأن هدفها (ليس التوسع الإمبريالي) وإنما القضاء على أبناء الشياطين واستئصال الشر والأشرار من الأرض.

قالوا هذا عن حرب الإبادة التي شنها المستوطنون الأمريكيون على سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) وعن حرب الثورة على الوجود البريطاني، وفي الحرب الأهلية كان الهدف المقدس هو تحرير العبيد، وكان الهدف المقدس في الحرب العالمية الأولى هو جعل العالم آمنا صالحا للديمقراطية، أما في الحرب العالمية الثانية وفي الحربين الكورية والفيتنامية فكان الهدف المقدس هو هزيمة التوسع الشيوعي، وفي حرب الخليج (١٩٩١) كان الهدف المقدس هو القضاء على التوسع الاستغلالي الدكتاتوري للنظام العراقي، وفي أثناء ذلك كله ظل الساسة والصحفيون الأمريكيون يتحدثون عن أمريكا نموذج الحرية والديمقراطية لشعوب العالم، وقائدة النظام العالمي الجديد.

في الخطاب الأمريكي تتوارى المصالح المتناحرة خلف الحديث عن صراع الخير والشر، سواء كان ذلك في السياسة الخارجية أو الداخلية.. وخلال المناقشات والمناظرات السياسية ترتفع نبرة الخصوصية الأمريكية ونبل رسالتها في العالم .. هذه النزعة المثالية سمة مشتركة للجدل الدائر بين طرفي الصراع الثقافي من المحافظين المتدينين والعلمانيين التقدميين على السواء.

يقول «جيمس ديفيسون هانتر» إن هذا النوع من الخطاب مصدره النخبة الدينية التي تلعب دورا أساسيا في تشكيل الحجج والاتهامات التي يتقاذفها الطرفان حيث يتوارى المنطق والعقلانية ويرتفع الكلام الطنان والأحكام المطلقة والنهائية.

■ ولكن لماذا نشهد الآن صداما

ثقافيا بهذه الابعاد فى أمريكا؟

- يقول المؤلف : «ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة أو بسيطة بل تحتاج إلى كتاب منفصل»، ولكنه يقدم إلينا بإيجاز أهم الأسباب كما يلى: شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تغييرات اجتماعية واقتصادية هائلة .. فقد تحول النظام الاقتصادى من اقتصاد صناعى إلى اقتصاد معلومات، ورأينا توسعا كبيرا فى عدد الذين يكسبون عيشهم من صناعة المعلومات والمعرفة، كما رأينا توسعا مماثلا فى التعليم العالى اعتبارا من عقد الستينات .. وكان لهذا كله تأثير ملحوظ على مركز المرأة فى المجتمع من الناحيتين الاقتصادية والسياسية.

وقد عزز هذا كله تدفق الهجرة القادمة من بلاد العالم لتزاحم المستوطنين البروتستانت الأوائل، حيث تكاثرت أعداد المهاجرين الكاثوليك واليهود والمسلمين كما تزايدت نسبة المجموعات الإثنية من الإفريقيين والهسبانيين القادمين من أمريكا اللاتينية وغيرهم، ومن ثم ارتفعت صيحات التعددية الثقافية، والدعوة إلى مجتمع متعدد الإثنيات.

مع هذه التغييرات فى بنية المجتمع الأمريكى انبثقت الحرب الثقافية على شكل صراع حول إقامة اتفاقات جديدة تحكم العلاقات الاجتماعية المتغيرة وأصبح كل طرف من أطراف الصراع يناضل من أجل تفسير جديد لماضى أمريكا ولرسم أجندة لمستقبلها.

لاينبغى أن نفهم من وجود الصراع الثقافى أنه قائم بين من يدافعون عن الحقيقة وبين آخرين يحاولون تشويهها - وإنما هو خلاف بين مجموعات كل منها يتبنى رؤية مختلفة لهذا العالم وفى ضوء هذه الرؤية يتساءلون: ماهى أمريكا؟ ماذا كانت؟ وماهى الآن .. وماذا ينبغى لها أن تكون؟.

النشطاء فى هذه المجموعات ينتمون إلى الطبقات الوسطى، ولكن يمكن تقسيمهم إلى مجموعتين أساسيتين: مجموعة تصف نفسها بأنها «تقدمية» تجذب إليها فئات ذات تعليم عالٍ من مهن مرموقة يشغلون الشرائح العليا من الطبقة الوسطى، أما المجموعة الثانية فتجتذب الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى غالبيتهم من العمال ويطلق عليهم اسم المحافظين، يجمع هؤلاء شعور مشترك بأنهم يعبرون عن إرادة الله فى تاريخ البشرية وينتمى معظمهم إلى البروتستانتينية.

مظاهر الحرب الثقافية

سوف نلاحظ أن كل طرف يحاول تكذيب مزاعم خصمه ويصمه بالتطرف، ويستخدم كل منهما فى خطابه لغة حادة النبرة، ونورد فيما يلى نماذج من الأوصاف التى يطلقها كل طرف على الطرف الآخر، فماذا يقول التقدميون عن المحافظين:

«المتدينون الحمقى، المتعصبون، المتهوسون الأخلاقيون، مبغضو البشر،

المتشائمون المتشككون فى الدوافع الإنسانية، اللاعقلانيون، أصحاب التفكير الساذج والرسالة الفارغة».

وينسبون إلى المحافظين أن أنشطتهم تعكس أيديولوجية ضيقة الأفق تؤدى إلى تمزيق المجتمع، ويتهمون الثقافة المحافظة بأنها قائمة على الخديعة والتزييف وقتل الشخصية الإنسانية وغمط الحقيقة وعلى إنكار الحرية الشخصية والحرية الدينية، وأن المحافظين - خلال حملاتهم الإعلامية يضخون الخوف والهستيريا والإرهاب إلى ملايين البيوت الأمريكية والمجتمع الأمريكي.

فبماذا يرد المحافظون على خصومهم ؟

إنهم يصفون العلمانيين (التقدميين) بأنهم متغطرسون مخادعون غادرون .. وأنهم المثقفون البرابرة الذين لا أخلاق لهم ولادين لهم، الملاحدة أعداء المسيح، ويصفون مذهبهم (العلمانى الإنسانى) بأنه ليس فقط أكبر شر ولكن أكبر فلسفة مضللة .. وأنه دين شيطانى.

ويتهم كل طرف خصمه بأنه سبب كل الأمراض السائدة فى المجتمع الأمريكى، ويحذر كل طرف بأن الطرف الآخر قوة يزداد خطرها فى الحياة الأمريكية.

نقرأ فى إعلان كبير على صفحة كاملة من صحيفة «نيويورك تايمز» تقول فيه جماعة علمانية: «إن الأصوليين الدينيين حركة متطرفة ضد حقوق الإنسان .. أجندتهم واضحة مروعة فهم يخططون للاستيلاء على سلطة الدولة لكى يستخدموها فى إقامة نظام رجعى فى الدين وسلطوى فى السياسة .. وأن جهودهم تتجه بقوة لخلق حركة سياسية جديدة هائلة سوف تؤدى إلى تدمير الحزبين الجمهورى والديمقراطى معا لتنفرد بالتحكم فى مقدرات الولايات المتحدة. وتضيف جماعة أخرى: إن هذا قد أصبح بالفعل واقعا متحققا، فالمحافظون قد سيطروا على الحزب الجمهورى ويسيطرون على العمليات الانتخابية الفيدرالية، وأمريكا على وشك أن تشهد مكارثية دينية وأخلاقية جديدة، إنهم نباتات سامة إذا لم ننتزعها من جذورها فإنها ستنمو كنظام شمولى بأسلوب أمريكى.

فى هذا السياق تصف صحيفة «شيكاغو تريبيون» المحافظين الجدد بأن أنشطتهم حملات صليبية تذكرنا بمحاكم التفتيش الأسبانية، وبالأصولية الإسلامية، ويصف «أنتونى بودستا» القس سواجارات بأنه «لويس فرخان» زعيم أمة الإسلام، وقال آخرون عن القس «جيرى فالويل» بأنه آية الله الخمينى الجديد .. وأن مزج الدين بالدولة الذى يسعى إليه المحافظون الجدد سوف يؤدى إلى مذابح كالتى حدثت فى إيران وأيرلنده ولبنان خلال الحرب الأهلية.

يتصدى لهذه الحملات من اليمين المحافظ رجال أمثال «بل برايت» الذى

يقول: «إننا في خطر أن نفقد أمتنا إذا تقاعسنا عن أداء واجبنا .. وسنفقد حريتنا الشخصية بل حياتنا نفسها، والسبب واضح وهو سيطرة ونفوذ العلمانيين (التقدميين) في كل موقع .. إنهم يعملون بشراسة ضد الحرية الحقيقية .. ضد الحياة والأخلاق .. وضد المسيحية .. وضد أمريكا نفسها .. إن التقدميين يتسربلون بعباءة التسامح ولكنهم أعداء التسامح وأعداء الحقيقة».

جبهات القتال في الحرب الثقافية

تتعدد جبهات القتال في الحرب الثقافية لتشمل الأسرة والقانون والتعليم والإعلام والانتخابات، ويدور الصراع حول قضايا مثل حق الإجهاض والقتل الرحيم وعقوبة الإعدام .. إلى غير ذلك من قضايا المجتمع الأمريكي الساخنة.

وفي إدارة هذه الحرب يقوم كل طرف برسم استراتيجيات قتال فعالة ويخطط برامج وأنشطة لتوفير الموارد المالية والبشرية، ويتحفز لاستغلال الفرص والأحداث المواتية لشن حملات إعلامية حامية، فهي حرب حقيقية جادة لاهزل فيها.

الأسرة :

دعا الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر إلى مؤتمر وطني في البيت الأبيض حول الأسرة حيث استشعر المفكرون أنها مؤسسة أيلة للسقوط في المجتمع الأمريكي. كان الرئيس كارتر يأمل أن يوفق بين الاتجاهات المتعارضة وأن تصل قيادات المجتمع الأمريكي إلى قيم ومبادئ مشتركة تنقذ الأسرة من الانهيار، وترسم لإعادة بنائها وصيانتها سياسة يلتزم بها الجميع. إلا أن هذا المؤتمر انتهى إلى فشل ذريع ولم يتفق حتى على تعريف الأسرة.

وصفت صحيفة «واشنطون بوست» المؤتمر بأنه كان مسرحا حيا للضجيج الذي أحدثه أنصار حق المرأة في الإجهاض وأنصار حق الشواذ جنسيا وأنصار قيم الأسرة التقليدية .. كان الجميع يروجون لأفكارهم الخاصة ويهاجمون معارضيهم بشراسة شديدة، وقال آخرون: كان المؤتمر تناطحا بين المصالح المتباينة ولم يكن منبرا للتنوير أو إضاءة للحقائق والمشكلات التي تعصف بالأسرة الأمريكية. وعلقت عليه صحفية من مجلة «نيو ريبابليك» قائلة بأن «ماحدث لم يكن شيئا مستغربا بل مجرد انعكاس لمحاولة عبثية لبناء سياسة للأسرة في حين أننا لانملك فهما مشتركا مقبولا من الجميع لماهية الأسرة ولا ماهي الأهداف التي نريد تحقيقها».

طرفا الصراع في هذه الجبهة - كما في الجبهات الأخرى - هما المحافظون والتقدميون، فماذا يرى المحافظون على وجه التحديد في مشكلة الأسرة الأمريكية؟

يقصد المحافظون بالأسرة الأشخاص الذين يعيشون معا وينتمون

بعضهم إلى بعض بروابط الدم أو الزواج أو التبنى، فى هذه الأسرة الأبوية يعرف كل عضو فيها دوره المحدد ويقوم به برضاء وسعادة، هذا النمط الأسرى هو استمرار للنشأة الفطرية للأسرة وتحقيق للأوامر الإلهية ويمثل بالفعل الانسجام المنشود فى المجتمع، وفى هذا يقول أحد الدعاة البروتستانت: «إن معظم الصراعات داخل الأسرة الحديثة ترجع إلى عدم فهم وإلى رفض كل عضو فى الأسرة الدور الذى رسمه الله له .. ولكى تسير شئون الأسرة كما ينبغى على المرأة أن تستسلم لقيادة زوجها».

أما التقدميون فإنهم يرون أن هذه الأسرة البرجوازية التقليدية التى يسيطر عليها الرجل والتى كانت سائدة منذ القرن التاسع عشر لم تعد صالحة للعصر، فهى مصدر عدم المساواة بين الرجل والمرأة ومصدر لقهر النساء فى المجتمع، وأن القيم التى تحكم هذه الأسرة تقف حجر عثرة فى طريق تحرير المرأة ونمو شخصيتها.

لذلك يطالب التقدميون بمفهوم جديد للأسرة والزواج وتغيير جذرى فى المجتمع .. ويرى المتطرفون منهم ألا يكون الزواج هو الأساس فى بناء الأسرة وإنما مجرد الصحبة والمعاشرة، ولايهم جنس المتعاشرين فقد تقوم الأسرة على أساس علاقة بين رجل وامرأة أو بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة أخرى، بهذا - فى نظرهم - تتحقق الحرية الشخصية والحرية الجنسية لأفراد المجتمع على السواء.

ومادام مبدأ الحرية الشخصية يسمح للمرأة أن تتصرف فى جسمها كما تهوى وتشتهى فلها مطلق الحرية أن تحتفظ بالجنين الذى ينتج من علاقاتها الجنسية الحرة أو تتخلص منه بالإجهاض، ويتبع ذلك إطلاق حرية أى شخص فى إنهاء حياته الخاصة إذا يئس من الشفاء أو فشل العلاج الطبى فى وقف آلامه، وهذه ما يسمونه بالقتل الرحيم.

يرفض المحافظون كل هذه الدعاوى، ولايقتصر رفضهم على الحملات الإعلامية الدينية والأخلاقية، ولكن يدفع الغضب بعضهم فيقومون بأعمال عنيفة ويهاجمون مستشفيات الإجهاض بالرصاص ويعتدون على أطبائها والعاملين فيها.

الموسيقى والفنون

حول الموسيقى والغناء والأفلام والمطبوعات الإباحية تدور معارك شرسة فى الإعلام وفى الشوارع والمؤسسات. فى سنة ١٩٨٩ ظهر «ألبوم» به أغنية بعنوان: «As Nasty as they wanna be» أثارت ضجة هائلة وجدلا واسعا بين أنصار حرية التعبير وأنصار القيم الدينية والأخلاقية. فى هذه الأغنية تتكرر الكلمة التى تعبر عن الفعل الجنسى مائتى مرة، وترد بها أوصافا للأوضاع الجنسية فى ثمانين موضعا، وتحتوى على كلمات سباب مقذع مائة وخمسين مرة.

وتأتى فرقة «موتلى كرو» لتمثل على المسرح مواقف شيطانية جنونية، وفرقة أخرى تمثل عملية الاستمناء على خشبة المسرح، وشاعت أغنيات تحض على العنف والانتحار.

وقد وصفت هذه الأعمال منظمات نسائية دينية بأنها تلويث مروع للعقل والجسم وأنها أعمال سامة وخطيرة على شباب المجتمع وأطفاله، إلا أن صحفا تبدو محترمة مثل واشنطون بوست والتايم ونيويورك تايمز تعلق على هذه الأعمال بعبارات مشجعة، وتقول إنها تعبير مبرر عن استياء قطاعات كبيرة من الشباب على أوضاع مجتمع سلطوى.

من الأفلام التى أثارت جدلا واسعا فيلم عن السيد المسيح بعنوان «آخر غوايات المسيح» يقول مخرجه، نيكوس كازنتزاكس»:

«إن الهدف من الفيلم هو إبراز إنسانية المسيح وقد اعتوره الشك وأصبح عرضه للشهوة والفخر والغضب والسلطة والخوف من الموت، أما أحداث الفيلم وتفاصيله والاعترافات التى وردت على لسان السيد المسيح فشئ قبيح (لايصح الخوض فيه، ولم يكن يصح أن ينسب إلى نبى عظم).

ومع ذلك قالت عنه مجلة «USA Today» : إنه إنجاز غير عادى، وقالت عنه صحيفة «لوس أنجليس تايمز» «إنه قطعة باهرة من العمل الفنى شديد العاطفية بالغ الإخلاص والإثارة» .. بل تضيف القول بأن مخرجه قد نجح فى إبراز رسالة المسيح ومعناها»، وقالت عنه واشنطن بوست: «عمل فنى يتمتع بالأمانة والمهابة والوقار .. وعلى درجة عالية من الجمال السينمائى»، وقالت عنه «لوس إنجليس هيرالد إكزاميز»: إنه واحد من أكثر الأفلام جدية وإتقانا وتأثيرا فى المشاعر الدينية».(١).

على الطرف الآخر يقف المحافظون يهاجمون الفيلم بعنف شديد، إذ يعتبرونه حملة مقصودة ضد المسيحية وتجديف فى الدين، وزندقة من أحط الأنواع .. وقد دفع الغضب الشديد إلى احتجاج ومظاهرات بين البروتستانت والكاثوليك على السواء، وخرج ٢٥ ألفا من المتظاهرين فى مسيرة احتجاج أمام مقر الشركة المنتجة للفيلم .. وأعلن «بل برايت» فى الحضور مقاطعة واسعة للفيلم وضرورة سحب كل نسخه من دور السينما، وتعويض الشركة المنتجة من أموال دعا إلى جمعها من جمهور المتطوعين.

وهكذا تتواصل الحرب الثقافية فى مجالات الفنون الأخرى، وتستخدم أسلحة هجومية مختلفة، فإذا جاء من يخالف «التقدميون» فى أذواقهم فإنه يتهم على الفور بأنه عديم الفهم .. أو بأنه إنسان بدائى أو على وجه التحديد إنسان «نياندرتالى» .. وأن هؤلاء ينتمون إلى الفاشية الفكرية .. أو إلى جماعات القتل الأدبى والإرهاب الثقافى.

ويرد المحافظون بانه لايمكن أن ندع المتسترين تحت شعار حرية التعبير أن يفسدوا حياة المسيحيين ويدمروا القيم الأخلاقية المسيحية، وأنه في دولة ديمقراطية من حق المجتمع أن يقرر بنفسه ماهو فن جميل وماهو مجرد إباحية، ولاينبغي أن يفرض فرد أو مجموعة من الأفراد أذواقهم ومعاييرهم الخاصة على المجتمع بأسره.

■ نلاحظ هنا أنه إذا كان المحافظون المتدينون يتحدثون بغضب دفاعا عن الأخلاق المسيحية من موقع الدفاع عن «المقدس» الديني ، فإن أنصار حرية التعبير الفني يجادلون بغضب مماثل من منطلق أن الفن هو دينهم المقدس.

القانون والقضاء

في كل المجالات تتحول قضايا الصراع الثقافي إلى قضايا قانونية تنظر فيها المحاكم بما في ذلك الصراع حول التعريفات، ومن أبرز النماذج التاريخية في هذا المجال اثنان:

١ - التعريفات المختلفة التي أصدرتها المحاكم الأمريكية عبر العصور لمفهوم الدين.

٢ - التأويلات المختلفة للعلاقة بين الكنيسة والدولة كما ظهرت في القضايا المرفوعة أمام المحاكم.

يصف الكتاب التطور الذي حدث في هاتين الحالتين منذ سنة ١٨٩٠م إلى اليوم عندما تصدت المحكمة العليا لأول مرة لتعريف الدين فكان تعريفا ضيقا قصرته على المسيحية حيث جاء في تعليق القاضي ديفيد بروور : «إن حضارة أمريكا ومؤسساتها مسيحية .. فمنذ اكتشاف هذه القارة حتى الآن كان هناك صوت واحد يؤكد هذا المعنى أن هذه الأمة هي أمة مسيحية».

ولكن المحكمة العليا نفسها سنة ١٩٦١م أدخلت في مفهوم الدين معتقدات أخرى لاعلاقة لها بالايمان بالله كالبوذية والطاوية، بل أدخلت بدائل وظيفية للدين مثل الثقافة الأخلاقية والمذهب المسمى بـ (العلمانية الإنسانية).. جاء هذا التطور موازيا ومعاصرا التوجه المتنامي في المجتمع الأمريكي نحو التعددية الثقافية، ومن ثم شمل الدين في تعريفه كل الايديولوجيات اللادينية.

أهمية التعريفات القانونية أنها تمد أطراف الصراع الثقافي بوقود جديد لتدعيم مواقفهم ، وهذا يفسر لنا الجهود المتواصلة التي قام بها المثقفون (التقدميون) خلال ثلاثة عقود لاستخلاص اعتراف من القضاء بالمذهب العلماني على أنه دين أو على الأقل بديل وظيفي للدين، وكان هذا يعاكس موقف الأوساط المحافظة خصوصا البروتستانت الإنجيليين لأنه يتحدى المركز الخاص الذي كانت تتمتع

به البروتستانتينية فى القانون الأمريكى.

الحملات الانتخابية والسياسية

جاء فصل الكنيسة عن الدولة فى مرحلة مبكرة ترجع إلى سنة ١٨٠١م برسالة توماس جيفرسون لجمعية البابتيست فى ولاية كونيكتنت.

ولكن الجدار الذى أقيم بين الكنيسة والدولة ظل مثار جدل شديد حتى جاء الرئيس ريجان من اليمين الجديد فأحدث انقلابا فى مؤسسة الرئاسة ثم تابعه فى نفس الاتجاه جورج بوش الأب وبلغ ذروته فى إدارة بوش الابن.

خلال هذه الفترة أصبحت القضايا الدينية والأخلاقية التى يروج لها المحافظون جزءا فعالا فى قلب الحملات الانتخابية، واكتسبت أولوية فى خطاب المرشحين من الحزب الجمهورى، بينما تبنى الديمقراطيون أجندة التقدميين فى الحرب الثقافية.

يتحدث كارتر الديمقراطى عن العدالة والأمن السلام فيأتى ريجان الجمهورى ليتحدث عن أمريكا فيقول: إنها أرض القدر .. خلقت بمقتضى خطة إلهية لغاية إلهية .. وأن أمريكا تعانى من جوع روحى .. وأن القانون ينبغى تأسيسه على دين علوى.

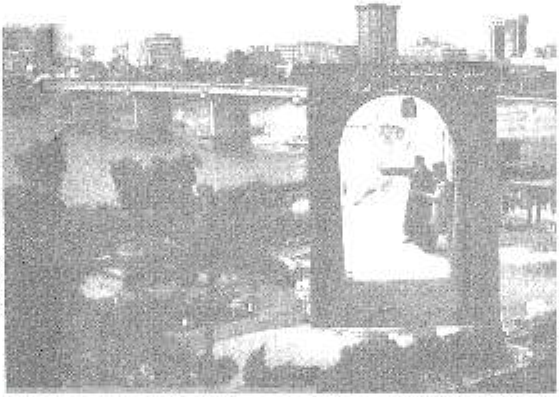
وهكذا يكشف لنا الكتاب أن السياسات الانتخابية بقدر ماتتأثر بالحرب الثقافية فإنها تلعب دورا خطيرا فى تعميق العداء بين طرفى هذه الحرب المستعرة فى مثل هذا المناخ لايحتاج المرشح السياسى إلى عبقرية أو شخصية كاريزماتية مثل جون كيندى لكى ينجح فى انتخابات الرئاسة بل يكفى أى شخص ذى مواهب متواضعة مثل بوش الابن لكى يملأ المكان .. لماذا؟ لأن الحرب الثقافية توفر له كل مايحتاجه من لغة وشعارات وعبارات جاهزة للتأثير على الجماهير المبرمجة، وكلما أجاد التمثيل وكان له صوت عميق عريض مثل ريجان كلما عظم تأثيره فى جماهير الناخبين.

رغم كل هذا لايعتقد «جيمس ديفيسون هانتر» أن وجود الحرب الثقافية يحط من قدر الديمقراطية الأمريكية، إنه يعترف أن السياسيين قد أصبحوا رهائن للقضايا والرموز والمصالح المتضاربة فى الحرب الثقافية ولكن الأمر – فى النهاية – يتوقف على استجابة الأفراد والمؤسسات الانتخابية، إنما تتفاقم المشكلة – فى نظره – عندما تنحدر المناقشات والمناظرات الانتخابية إلى مستنقعات تشويه الخصوم وتبادل الاتهامات الشخصية بدلا من التركيز على القضايا التى تهم المجتمع، بذلك يتقلص الأمل أن تنتهى المعارك فى الحرب الثقافية إلى حلول سعيدة، ومن ثم فإن التصدعات التى تقسم أمريكا إلى معسكرات متحاربة تزداد عمقا وتأثيرا فى المجتمع الأمريكى. ■

جرحك يا صويحب بعطابة ما يلتم..

بقلم
صافي ناز كاظم





كان ديوان مظفر النواب «الريل وحمد» دائما أمامي، بحثت عنه اليوم طويلا، فامتلأت يدي بغبار مكتبتي ولم أجده.

«مظفر النواب» شاعر العراق العظيم الذي قابلته لأول مرة عام ١٩٦٩ في دمشق، وظل رحالة بين العواصم العربية ولا يمكنه العودة إلى بغداد، إلى «شريعة النواب»: المنسوبة إلى عائلته والمنسوجة في الغناء الشعبي العراقي، في دمشق سوريا، وفي القاهرة المصرية، وفي طرابلس ليبيا، على مدى قارب سنوات كان التلاقي بمظفر النواب، وكان غناؤه الفاجع يقتلنه، حين يبدأ، من لمة الجالسين ليحلق به وحيدا عبر أزمنة الآلام العراقية جاذبا معها نداءات الخلاص البشري.

غناؤه داويا في أذني:

«أضحك إيش لون أضحك؟

أبكي إيش لون أبكي؟»

جملة مجدولة بين الآحزب والإيواءة الموسيقية الفاترة كالنصل في القلب. كنا شعر ومعوسيقى وغناء. الشعر مكتوب، والفن الفائز ارتجالات لحظية كنت أراها عرضا مسرحيا لا مثيل له.

في ديوانه «الريل وحمد» - الذي يعني «القطار وحمد» - توجد قصيدته عن شهيد من الشعب - هو كل الشعب - اسمه «صويحب»، ولفظ تصغير لاسم عراقي شائع هو «صاحب» كنت كلما التقيت بمظفر النواب أبادره بمطلعها الصارخ في الركبات:

«ميلن! لا تنجطن كحل فوق الدم!

ميلن! وردة الخزامة تنجط سم!»

وهي كلمات أم الشهيد «صويحب» التي ترفض البكاء وتقول ما ترفضه:

«قلن! لا تسقطن الكحل فوق الدم!

قلن! حلية الأنف الوردة تنجط السم!»

وكان مظفر ينطلق بها ملوعا حين يكمل مقطعها «هاه! شو ربع جرحك يا صويحب»..

أي «ها هو ما أوسع جرحك يا صويحب».

حتى يصل إلى الحسم القاطع:

«جرح صويحب بعطابة ما

يلتم...»
أي «جرح صويحب لا يلتئم بدواء...»

★★★

- ويعذرني مظفر إذا كانت ذاكرتي قد أخطأت في كلمة مما ذكرت أو أسأت هجاءها لأن الديوان الذي كان أمامي قد تعمد الاختفاء! -

★★★

وربما يبلغ مظفـــر النواب الآن السابعة والستين من عمره، ولا أعلم بأي مكان هو الآن، وإن كنت على يقين أنه لايزال محروما من العراق، حتى صار بذاته عراقا كاملا مفترشا الدنيا، مخترقا كل الحدود ونقاط التفتيش، مواصلا ، كالمتنبي ، الحسم:
«جرح صويحب بعطابة مــا يلتم...»

★★★

أول سمـاع لي للغناء العراقي كان في نيويورك عام ١٩٦٤ حين التقيت بمهاجرين من العراق ظلوا بعد هجرتهم على ولائهم لتراث بلدهم وعاداته من أكل «السمك المسجوف» إلى غناء ناظم الغزالي ومقامات القبنجي. حتى في الحب يبكون، حتى في الفرح ينشجون، كأنهم في مأتم أبدي. وحين زرت العراق لأول مرة في محرم عام ١٩٦٩ علموني أن الموت عند العراقي هو الهجرة ، هو : النزوح، هو ألا يكون بالعراق يشمه ويحتضنه ويواسيه . كان العراقي إذا انتقل من حي إلى حي، يشكو اغترابه! وعلموني من أغنياتهم الشعبية:

«شي مالي والي ،
بو يا اسم الله ،
متعذبة بدنياي يابابا
شي مالي والي ..
... ...
بطة وصادتني ،
صدقة لـ الله ،
بشريعة النواب يا بابا
بطة وصادتني ...» .

وهي طويلة جداً بلحن غـاية في العذوبة، حملتها معي وعلمتها لكل أصدقائي المحبين للغناء ، وكان منهم الشاعر الفلسطيني محمود درويش، الذي قال لي إنه كلما حضر حفلا موسيقيا عراقيا طلب منهم غناء «شي مالي والي..» التي صارت تذكره بوقته في مصر عبر ذبذبات الوجد العراقي!

★★★

وتلك الأغنيـة التي تعني: «كي أن ليس لدى حاميا، متعذبة في دنياي؟»، هي واحدة من أغنيتين شعبيتين عراقيتين

تشعلان القلب حنينا والصدر شوقا وأنينا - والسجع منى غير مقصود - أما الأغنية الأخرى فهى :

«يازارعا بذر الجوش،
ازرع لنا حنة،
وجمالنا غربت،
واويلى،
للشام وما جنة،
... ...
... ...
يا محبوبى جرحتني داويني،
جرحك يا قلب خزّن
ولا تسكينة،
يا زارعا بذر الجوش
ازرع لنا حنة ... ...»

و«بذر الجوش» مذكور فى قاموس المنجد باسم «المرزنجوش» و«المردقوش» ويعرفها بأنها فارسية وقد تعنى نبات «الزعفران» أو نبات مثله عطرى له فوائد طبية. والأغنية تطلب كذلك زرع «الحنة» بكل ما تعنى «الحنة» من فرح وخير، وهى تحكى عن القلق على قافلة الجمال التى سافرت غربا إلى الشام ولم تعد، «ما جنَّة» يعنى «ما جاءت لنا»، وتنطق «يا قلب» بالجيم المصرية «يا جلُب» و«خزّن» يعنى امتلأ بالصديد المؤلم، و«لاتسكينة» ينطقونها «ولا تسشينة»، وتعنى الشكوى أن جرح القلب قد امتلأ بالوجع ولا مواساة يمكن أن تهدىء من الألم! أليس هذا صحيحا تماما:

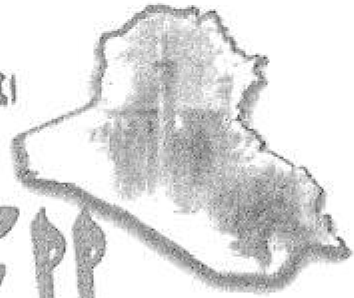
«جرحك يا جلب خزّن ولا تسشينة»!

* * *

كل خطوة فى العراق تاريخ وتراث إنسانى لا يعوض، منذ السومريين، منذ شريعة حامورابى، منذ الخصب بين النهرين، أرض الحضارة والتاريخ ومنشأ العقائد السامية وشرائع القانون والأخلاق وفقه حقوق الإنسان، متحف التاريخ البشرى بكنائسه الباقية منذ القرن الأول الميلادى، منذ قتل الملك سنحاريب ابنه لأنه اعتنق المسيحية فأقاموا لاستشهاده كنيسة القديس. العراق وبغداد، عاصمة الخلافة العباسية الزاهرة، التى أقامها أبو جعفر المنصور على الشط الغربى لدجلة فى القرن الثامن الميلادى لتشهد على مدى خمسة قرون ما لم ينسه التراث الإنسانى من علوم وفنون وآداب، وليخلدها كل ذلك لتكون، ولتظل «محمية ثقافية»، لا يجوز لجاهل أن يخدشها ولا لحمقى أن يدمسوها ويمسوها بأبشع أشكال السوء ...

و ... ...

جرحك يا عراق بعطابة ما يلتم ■



المتحف البغدادى

العراق

محمية ثقافية

العراق كله محمية ثقافية، كل خطوة أثر، وكل أثر تاريخ. تدميرها جريمة لاتغتفر ضد التراث الحضارى الإنسانى.



إنها متحف لواحدة من أهم الحضارات منذ فجر الجنس البشرى: حضارة السومريين، حضارة بابل وأور، حضارة مابين النهرين، حضارة عهودها المتعاقبة حتى بلغت قمتها فى عصرها العباسى الذى أسس فى القرن الثامن الميلادى عام ٧٦٢م، عاصمتها بغداد التى معناها: «هبة الله»، وكنيتها «مدينة السلام».

عنها قال أبو عمرو بن العلاء: «من أقام ببغداد ومات فيها نقل من جنة إلى جنة». وقال الرحالة ابن جبير: «لايستكرم البغداديون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لايعتقدون أن لله بلادا أو عباداً سواهم». وقال أبو القاسم الديلمى: «سافرت إلى الآفاق ودخلت البلدان من حد سمرقند إلى القيروان، ومن سرنديب إلى بلاد الروم، فما وجدت بلداً أفضل ولا أطيب من بغداد.

***

نختار لوحات من المتحف البغدادى الذى أقيم عام ١٩٧٠ لتسجيل الحياة البغدادية ومظاهرها الشعبية للحفاظ على الموروث من الحرف والعادات والشخصيات، ومرجعنا فى شرح اللوحات هو البحاثة العراقى عبد الحميد العلوچى.

ص.ك



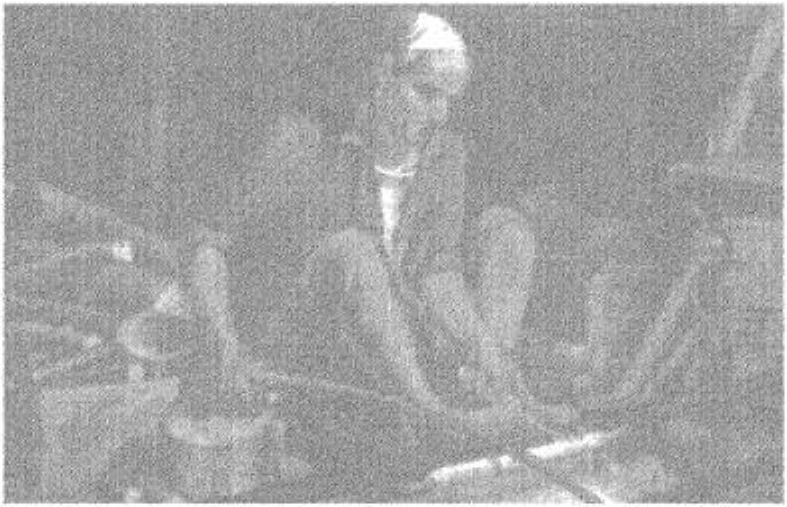
البلام والبلم

لوحة للفنان فريد أسعد

البلم : هو القارب أو الزورق النهرى الصغير، ومن ينسب إليه يقال له بلام. وقد عرفت بغداد فى أيام العباسيين عدداً كبيراً من البلامة (الملاحين) الذين كانوا يتكسبون بزوارقهم الصغيرة. ففى القرن العاشر الميلادى كان نهر دجلة يتباهى بثلاثين ألف زورق قدر المؤرخون دخل ملاحيها اليومى بتسعين ألف درهم.

وكانت العادة الجارية عند أصحاب الزوارق - على شواطىء دجلة - أن يفصلوا بين النساء والرجال فى زوارقهم عند عبور النهر ، لأن المجتمع البغدادى لم يحبذ اختلاط الجنسين.

وقد راجت مهنة أصحاب الزوارق وصناعتها رواجاً كبيراً يوم كانت جسور بغداد محمولة على الجساريات العائمة. وكانت الزوارق يومذاك تتهادى فوق دجلة مع غروب الشمس فى نزهة نهرية ، وكان بعضها يحمل التنتة الجميلة التى تعصم الازواج والعشاق من النظرات المتطفلة.



جراخ الخشب لوحة نعمان هادي

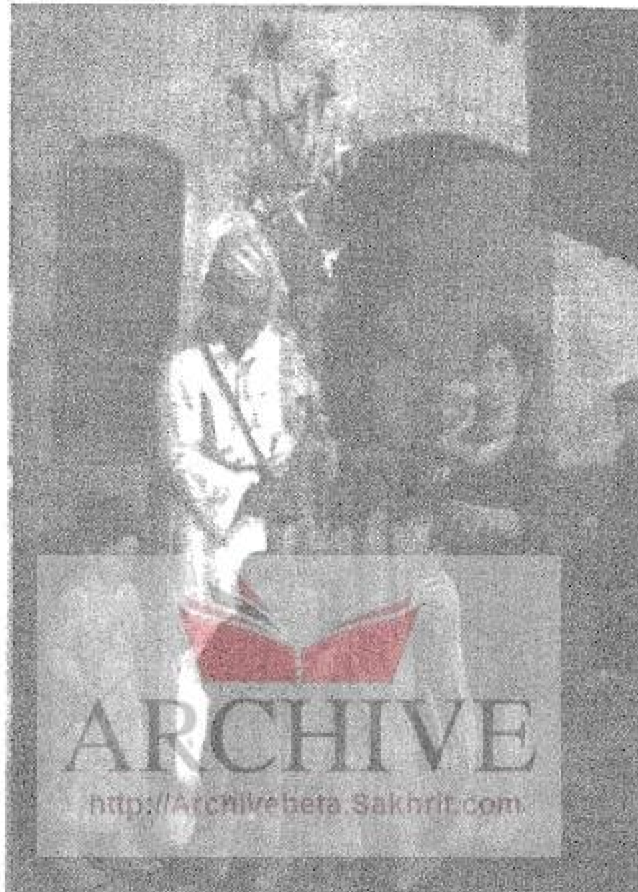
تعتبر الجراخه من الصناعات المتحدة بالنجارة لاعتمادها على مادة الخشب . ويتوزع الجراخون البغداديون على جميع فنون الجراخه ، فبينهم من اختص بفن واحد ومن هيمن عليها جميعاً وقد عرفت بغداد منذ عهد بعيد جراخ الخردة كار الذى يمارس نحت القطع الخشبية مخططة وغير مخططة كما عرفت الجراخ المغزلى.



أم الباقلاء
لوحة شاكر الشاوي

ترتبط الباقلاء فى بغداد ببائعها وجوداً وعدماً، فإذا كان موسمها الزراعى هزيلا هرب بائعوها إلى مهنة أخرى . وقد شاع فى بغداد طبخها لوحدها لأن البغداديين ولا سيما فقراءهم يميلون إلى ذلك .

وكان ماء الباقلاء هدف الفقراء من البغداديين فى القرن العاشر الميلادى .. إذ كانوا يشترونه ليقتاتوا بالأرغفة التى تنقع فيه، وكانوا يضعون عليها عصير الليمون والسماق المدقوق ناعماً تنشيطاً للشهية.



أبو الفرارات لوحة ميسر الفاضلي

الفرارة لعبة تشبه المروحة الكهربائية .. كان الطفل البغدادي يصنعها من الورق الملون ويثبتها في نهاية قطعة نحيفة من جريد النخيل .. ليحركها الهواء إذا ركض بها.

وفي الربع الأول من القرن العشرين انتشر باعة الفرارات في انحاء بغداد، وكانوا يتجولون في أزقة المحلات، ويستدرجون الأطفال إلى شرائها منهم بالأغاني الجميلة والنداءات الجذابة.

واعتاد بائع الفرارات أن يحمل على كتفه عصا طويلة خيطت في أعلاها سيقان الحلفاء وغرزت فيها الفرارات الملونة.

ربيع أول ١٤٢٤هـ - مايو ٢٠٠٣م

أم المهافيف لوحة فائق جميل



من بركات النخلة في بغداد أن تأخذ أم المهافيف مكانها المناسب بين باعة المصنوعات الشعبية. وأم المهافيف امرأة فنانة تنسج من خوص السعف ما يؤدي مهمة المروحة في أيام الصيف الحارة . وتبيع انتاجها بثمن بخس.

لقد اشتهر المراوحيون (وهم باعة المراوح اليدوية) في بغداد تحت ظل الخلافة العباسية .

زفة العريس لوحة ماهود أحمد



العريس موضع حفاوة الناس في كل مكان .. غير أن الزفة البغدادية انفردت بطابع مسرحي لا نظير له، فهي تتخطى العرف الأخلاقي بأغانيها الجريئة التي تواطأت عليها الهوسة والشعبية والفوانيس والسراديج والطبول والمزامير.

وللزفة البغدادية تفاصيل رائعة يتمثل بعضها في العريس بملابسه النظيفة الأنيقة وبعباءته الفضفاضة وقد تهادى في مشيته بين صديقيه اللذين يماثلانه قواما وهنداما، ويتمثل بعضهما الآخر في الكثرة الكاثرة من أصدقائه وهم يمشون خلفه على ضربات الطبل والنقارة ونغمات المزمار.

ومن تقاليد الزفة البغدادية أن يكسر أحد أبناء المحلة عدداً من الاباريق عند خروج العريس من باب المسجد ، وأن يتصايح الزفافة خلال الزفة بقولهم (شايف خير .. ومستاهلها).



الغزالة لوحة نعمان هادي

الغزالة ، مع جميع العهود التى اجتازتها بغداد، امرأة أحوجتها تكاليف العيش إلى العمل الشريف لتضمن لقمة الخبز، وترتفع بأطفالها أو بنفسها عن العطف اللئيم. وكانت هذه المرأة ومازالت تغزل الصوف فى بيتها بمغزلها الخشبى بعد شرائه من بعض البيوت البغدادية التى تتعاطى بيع الصوف.

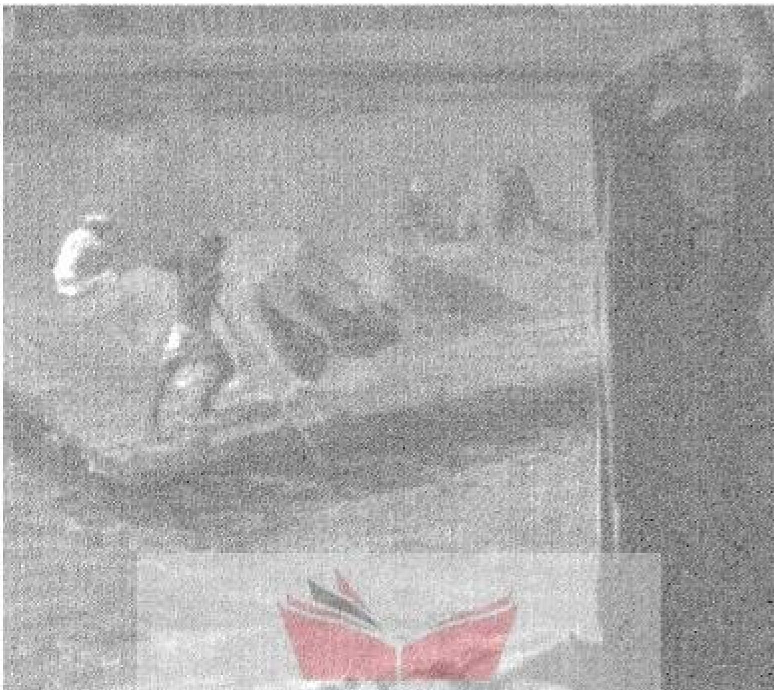
وقد تقوم الغزالة ببرم الحرير على مغازل خاصة لتبيعه إلى حائكة الفوط.



السقاء لوحة نعمان هادي

كان السقاء البغدادى انسانا نبيلاً يترفع عن اخلاق اللئام.

والذى يجدر بالتنويه هو ان هذا السقاء كان ينفذ تعليمات الرقابة الاجتماعية بدون تذمر، فكان يشد فى أعناق حميره الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس لتنبيه الضرير والغافل وكان يزود بيوتها وجوامعها وحماماتها ومقاهيها بالماء. وكان من السقائين من يرش الأسواق والطرق بالماء لتبريدها فى أيام الصيف.

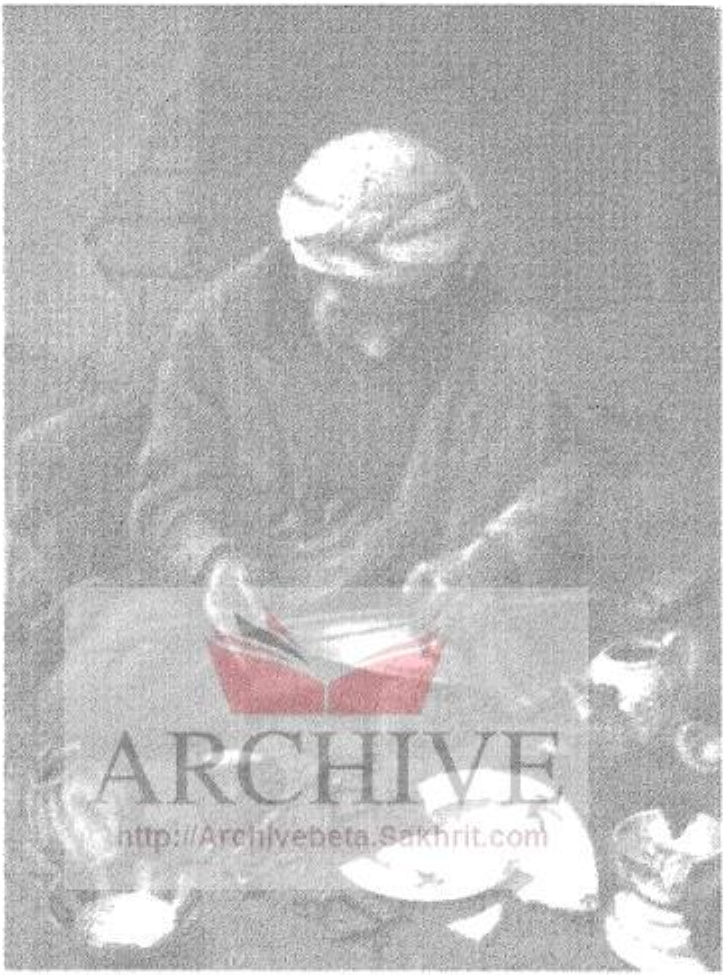


الچلج لوحة ماهود أحمد

كان الچلج (أو الكلك .. أو الرمث وجمعه أرماث) من أشهر وسائل النقل فى العراق القديم فهو وسيلة نهرية استخدمها القدماء فى الحروب والتجارة والاسفار ، وكانوا يجدون فيه خير ملجأ يقيهم من الأمراض والأوبئة.

وكان الجلج يمر ببغداد أو يرسو فيها خلال رحلته الطويلة فى نهر دجلة .

وفى منتصف القرن العشرين اختفى الجلج من مسرح الملاحة النهرية فى بغداد.



خياط الفرفوري
لوحة شاكر الشاوي

من الحرف التى رسخت فى بغداد مع الأيام خياطة الأوانى الزجاجية والخزفية والفخاريات وقد تعاطاها بعض الساعين وراء الرزق . ولربما اتخذ خياط الفرفورى اسماء آخر في عهد العباسيين لم ينحدر الينا فى كتاب أو حكاية .. وقد يؤكد وجوده عهدئذ ان الزجاج البغدادى كان معروفا . ومن المحتمل جداً أنه كان ممن لم تدع الحاجة اليه لترف الحياة البغدادية واستكفاء البغداديين بالجديد من الأوانى والأوعية الزجاجية بديلاً من المكسور .. ولذلك قال الشاعر : (مثل الزجاجة كسرها لا يجبر).



الحفافة لوحة صلاح جياد

من لوازم الزواج عند البغداديين تجميل العروس وتزيينها لتبدو أشد فتنة وأطغى جمالا فى مواجهة زوجها ليلة الدخلة .. فهى تجلس بين يدى الحفافة صابرة خلال استئصال شعرها من الوجه واليدين والساقين، وتزويقها بالعطور والمساحيق والادهان.

وقد تقوم الحفافة - اضافة إلى ازالة الشعر - بتجميل العروس وتعطيرها.

وكانت الحفافة ومازالت تكحل عيني العروس، وتزين وجهها بالسبداج، وتصبغ شفتيها بالديرم ووجنتيها بالقطن الأحمر ، وتدهن شعرها بعصارة الياسمين.

الحلاق لوحة شاكر الشاوي



لعب الحلاق البغدادى دوراً بارزاً فى الحياة الاجتماعية أيام الخلافة العباسية ، وكانت جماعة الحلاقين تنظم فى نقابة مهنية شملتها رعاية الخليفة الناصر لدين الله العباسى خلال السنوات ١١٨٠ - ١٢٢٥ ميلادية.

واقتحم الحلاق البغدادي أكثر من مكان فى حكايات ألف ليلة وليلة ، ولكنه رغم هذه المنزلة المرموقة اتهم بالحماقة والسخف والثرثرة أسوة بالنداف ومعلم الصبيان.

ومن الحلاقين ، فى بغداد، من كان يمارس مهنته متجولا أو مرتبطاً بالحمامات.



صياد السمك بالكفة لوحة ماهود أحمد

الصياد ، هنا ، رجل احترف الصيد بشبكة من الخيوط المتينة تسمى حذافة .. وهو فى قفته التى تنساب فوق نهر دجلة.

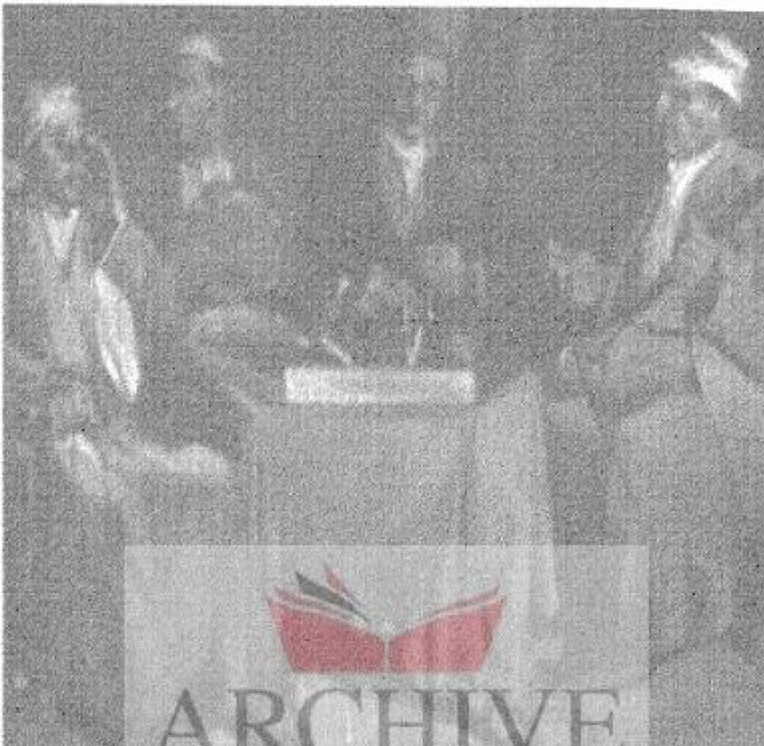
والقفة وعاء كبير عميق يشبه السلة، يصنع من أعواد الرمان أو الصفصاف أو التوت على هيئة الاضلاع، ويطلى وجهه الخارجى بالقير منعاً لتسرب المياه إلى جوفه . وتسير القفة فى النهر بلا دفة ولا صارى ويكتفى ملاحوها بالمجداف وحده ، وقد استعملها البغداديون فى نقل الأشخاص والحيوانات والبضائع الخفيفة .. ولكن الصياد البغدادى استعان بها على صيد الاسماك .



النداف لوحة شاكر الشاوي

ويعتبر النداف البغدادي حلاجا يضرب على القطن بآلة خشبية ذات وتر غليظ يقرعه بأداة غليظة من الخشب تسمى (الچك) وبهذه الآلة يعود القطن القديم منفوشاً نظيفاً. وقد مهر النداف البغدادي في خياطة المفارش والوسائد والألحفة، وتزيينها بالنقوش والزخارف. ومن هنا قوتها على مزاحمة البطانيات في أسواق بغداد.

ومازال النداف البغدادي يؤكد وجوده في بعض انتاج المعامل الحديثة.



الچالغي البغدادي لوحة نعمان هادي

حين ظهـرت المقـاهى فى بغـداد انطلق إلى تخت الغناء فيها رعيل جديد من ذوى الحناجر الذهبية يبكون عراقهم المنكوب بالاحتلال الأجنبى. ويتمـاوجون بالمقام العراقى وهـم يلعنون الحظ العـاثر ويؤاسون القلب المفتون . ويعذلون الدهر اللئيم ويصاولون الغزو الأجنبى ..

وعند حلول شهر رمضان المبارك كان الجالغى يقام فى المقاهى البغدادية .. ولا سيما قهوة القيصرية فى شارع المصارف ، وكان المغنى يستغرق جميع المقامات على اختلاف فصولها.

(مثل الزجاجة كسرها لا يجبر).



العراق

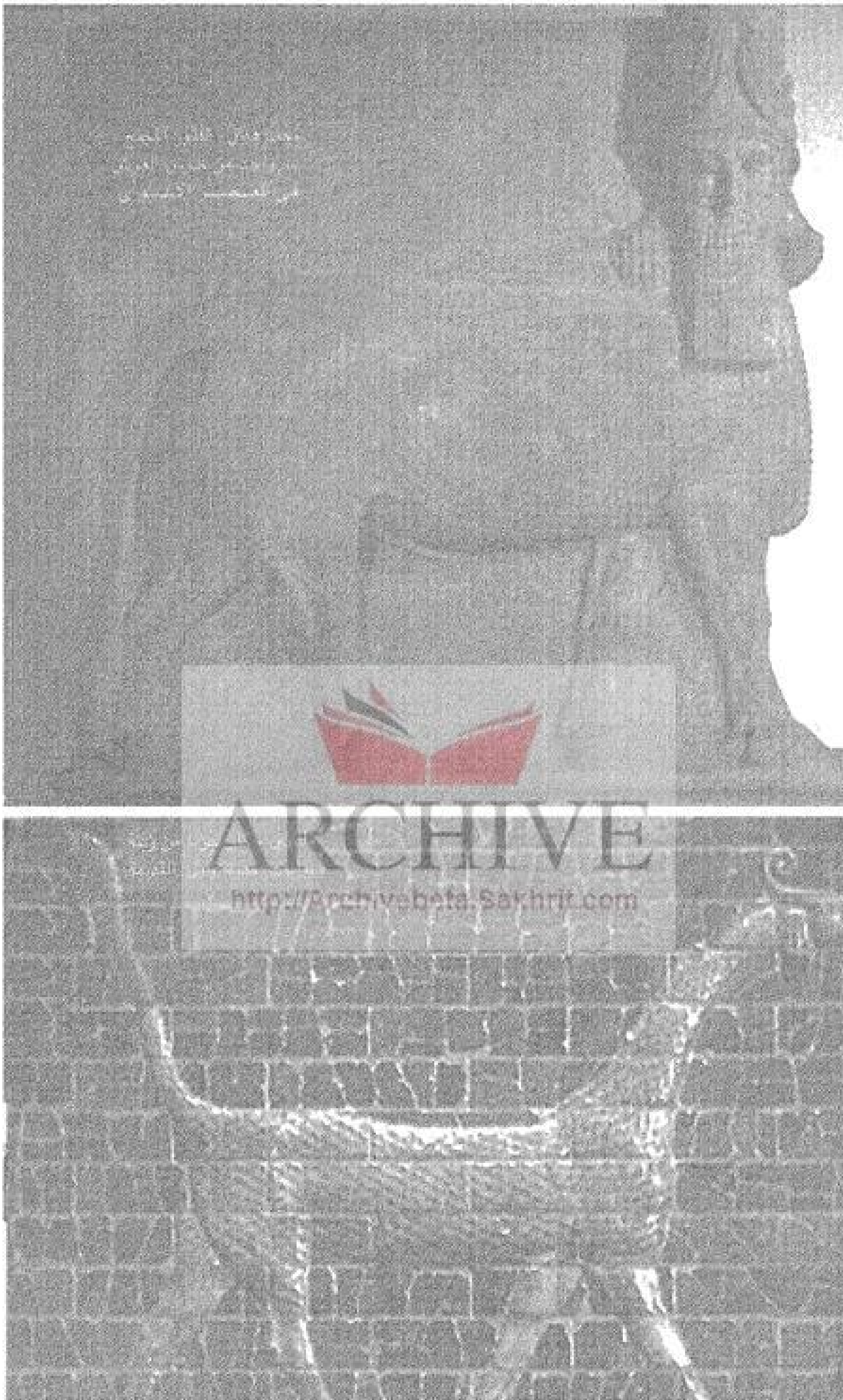
من الحضارات القديمة حتى حضارة العصر العباسي

بقلم
ا.د.عطية القوصى*

١٢٢
الهلال
ربيع أول ١٤٢٤هـ – مايو ٢٠٠٣م

العراق.. الوطن العربي العزيز الغالي.. موطن الحضارات.. والمحمية الثقافية الكبري التليدة التاريخ وأصل العروبة ورافد القبائل العربية إلي الجزيرة العربية التي تسمت باسمها.. ومسقط رأس ابراهيم الخليل أبي الأنبياء وحاضرة خلافة العباسيين تتعرض اليوم لعدوان غاشم استهدف القضاء علي هذه المحمية الثقافية وإحتلال أرضها وإذلال شعبها واستنزاف مواردها وتحقيق حلم الصهيونية العالمية بتوصيل حدود اسرائيل إلي الفرات ثم إلي النيل.

* استاذ التاريخ الأسلامى - كلية الآداب- جامعة القاهرة



لقد منح الله تعالى أهل العراق الأقدمين خصبا وكفاية ووفر لهم نهرا دجلة والفرات نصيبا كبيرا من الاستقرار فى المعيشة والسكن، الأمر الذى ساعد مدنياتهم الأولى على أن تنضج فى عصور مبكرة لا تبعد كثيرا عن العصور التى نضجت فيها المدنيات المصرية الأولى وعمل النهران وفروعهما على تيسير الاتصالات والمواصلات المائية وإتاحة فرص الارتقاء بصناعة السفن منذ أواخر فجر التاريخ العراقى القديم فى الألف الرابع قبل الميلاد.

وترجع أوائل العصور التاريخية فى العراق القديم بعصر بداية الأسرات السومرى ما بين أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد وبين القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وتعددت مراكز التجمع والتحضر حينذاك فى النصف الجنوبى من سهول بين النهرين وعرفت حضارة الدولة التى قامت هناك باسم الحضارة السومرية وعرف أهلها باسم السومريين وقد عرف هؤلاء السومريون الكتابة المسمارية على ألواح من الطين وتوسعوا فى البناء بالطوب اللبن والآجر وقد جرى السومريون على بناء هياكلهم الرئيسية فوق مسطحات عالية إلى جانب بناء المعابد الأرضية العادية.

واحتفظت بعض مدن محمية العراق الثقافية بأطلال بسيطة لمعابد سومرية قديمة.

واستمر عصر بداية الأسرات السومرى أكثر من خمسة قرون، حصلنا على تماثيل منحوتة ترجع إلى تلك الفترة من أحجار الحجر الجيرى والألباستر وقليل منها منحوت من أحجار صلبة.

وحكم الأكاديون العراق بعد السومريين وخلفوا حضارتهم بها فى الفترة ما بين سنوات ٢٣٤٠ ق.م - ٢١٨٠ ق.م، وهم ينتسبون إلى عاصمتهم (أكاد) التى أصبحت مركزا لنشاطهم السياسى والحربى بعد استقرارهم بالعراق وقد كان الاكاديون فرعا من الهجرات السامية المتتالية على العراق والشام قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد نزلوا بوسط العراق وسيطر زعماؤهم على بضع مدن سومرية النشأة كانت أهمها مدينة كيش، ونجحوا فى إقامة دولة كبيرة مستقرة فى العراق حكمته مدة قرن ونصف من الزمان، وتعاقب على حكم كيش عدد من الرؤساء الساميين ثم اغتصب العرش منهم رجل من عامة الساميين يدعى سرجون إتخذ له عاصمة جديدة أسماها «أجاده» ربما كانت هى «أكاد» التى كانت المركز الرئيسى لعبادة الإلهة «عشتار» التى اعتبرها راعيته منذ صغره.

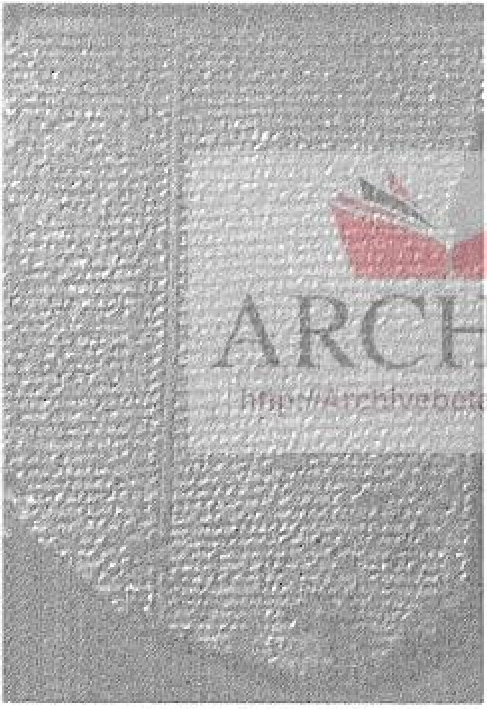
★★★

وحكمت العراق دولة بابل الأولى سنة ١٨٨٠ ق.م، وكان عصب هذه الدولة جماعة من «الأموريين» الذين انتشروا بين المدن المتحضرة فى العراق واستقروا فيها وتولوا حكم بعضها مثل مدينة بابل بمعنى باب إيل، أى باب الإله



سارجون الثاني ٦٢١ – ٧٠٥ ق.م

إيل، وهي مـــدينة مندثرة الآن وتقع أطلالهــا جنوبي مـدينة بغــداد على الشاطئ الشرقي للفرات واعتلى زعماء هؤلاء الأموريين الساميين عرش بابل منذ عام ١٨٨٠ ق.م وتعاقب منهم خمسة ملوك في عصرهم الأول ثم وليها سادس ملوكهم وأكثرهم شهرة وهو (حمورابي). وقد حكم حمورابي البلاد سنة ١٧٢٨ ق.م، لمدة ٤٢ عــامــا قــدر له أن ينهض ببابل من دويلة صغيرة إلى عاصمة دولة كبيرة ذات امكانيات متعددة وأملاك واسعة وشهرة ضخمة وبدأ تشريعاته التي خلدت اسمه في التاريخ منذ العام الثاني من حكمه، وهي تشريعات سجلها رجاله على ن.. ب. كثيرة اشتهر منها نصب كبير من الديوريت ارتفاعه ٢.٢٥ مترا، وهو محفوظ بمتحف الآثار العراقية في بغداد ومنه نسخة بمتحف اللوفر بباريس.

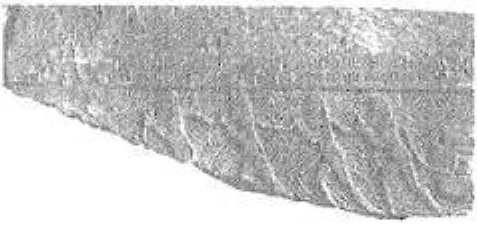


نقوش توضح أوقات الفيضان في بلاد الرافدين

وقد تعاقب بعد حمورابي على عرش بابل خمسة ملوك شهدت أيامهم صورا مختلفة من الحرب والسلام.

هذا ولقد خلف لنا البابليون على الألواح الطينية بالقلم المسماري قصصا وأساطير سامية كبيرة سجلوها بأسلوبهم الخاص، ومن أشهر تلك الأساطير أسطورة جلجميش وقصة الطوفان وأسطورة صعود إيتانا إلى السماء.. وإيتانا ملك من ملوك كيش القدماء كان يلقب بالراعي وأسطورة نشأة الوجود.

وتعرضت الدولة البابلية في أواخر



جنود اشوريون يسحبون مركبا – من عصر سرجون الثاني

أيامها لهجمات جماعات هندو أرية من أواسط آسيا عرفت باسم الكاسيين أو (الكاستيين) وقد حكم هؤلاء أعالي العراق من سنة ١٥٨٠ ق.م حتى أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد حين قضى العيلاميون (الإيرانيون) على دولتهم في العراق، غير أن بابل ذات الماضي المجيد لم تكن لتموت بسهولة وإن ترنحت طويلا تحت ضربات خصومها فتحاملت على نفسها حتى نهضت وتزعمها ملوك ناضلوا في سبيل تحرير أرضهم من ربقة السيطرة العيلامية، ومن هؤلاء الملوك نبوخذ نصر الأول إلا أن هذه النهضة البابلية لم يطل أمدها، إذ تعرضت بابل لهزات عنيفة أتتها من قبل دولة أشور التي نضج كيانها في المرحلة الثانية من عصرها الوسيط وهزات أخرى أتتها من قبل الأراميين الذين فرضوا وجودهم على العراق فرضا. وقد تغلب الأشوريون على الأراميين وحكموا العراق بمفردهم بعد انتصار شلمانصر مليكهم عليهم في موقعة قرقر حوالي عام ٨٣٣ ق.م، وقد قام الأشوريون بضم بلاد سوريا إلى دولتهم حتى مدنهم البحرية على ساحل البحر المتوسط كذلك دخل الأشوريون في حرب مع جارتهم اللدود عيلام وتبادلت الدولتان النصر والهزيمة حتى فت في عضد عيلام إختلاف حكامها على أنفسهم ثم أتت النهاية السياسية لعيلام على يد جيوش آشوربانيبال فدمر عاصمتها سوسة تدميرا تاما وذكرت نصوص بانيبال أنه استولى على كل كنوزها وأنه لم يدع في قصور ملوكها شيئا إلا وأمر بحمله معه إلى آشور ووصلت حدود دولة آشور إلى مملكة ليديا في أسيا الصغرى غير أن دولة آشور أخذت في الانحلال والضعف بعد موت مليكها سرجون الثاني سنة ٧٠٥ ق.م، وبسبب عوامل النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة.

***

وقد جاءت نهاية الدولة السرجونية الآشورية على يد الكلدانيين البابليين وهي أسرة كلدانية قوية استطاعت أن تستغل تداعي حال الأشوريين وتستعيد السباق البابلية على العراق بداية من سنة ٦٢٦ ق.م وأن ترث ممتلكاتهم في العراق وخارجها وقد عمل هؤلاء البابليون على السيطرة على بادية الشام وسوريا وفلسطين في عهد مليكهم نبوخذ نصر الثاني الذي اعتلى العرش (من ٦٠٥ ق.م - ٥٦٢ ق.م) وبدأ هذا الملك بالسيطرة على لبنان وعلى آرشليم (القدس) سنة ٥٩٧ ق.م.

وقد قام نبوخذ نصر بنفي الأسرى اليهود إلى بابل جميعا وعرفت فترة النفي هذه عند اليهود باسم السبي البابلي الأول وقد صحبهم فيها نبيهم حزقيال وخضعت مملكة يهوذا اليهودية للبابليين أحد عشر عاما ثم ثارت ضدهم فعاودت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة أورشليم سنة ٥٨٧ ق.م وحاصرتها عامين ثم استولت عليها عام ٥٨٥ ق.م

ودمرتها وأحرقت هيكل سليمان ونقلت خزائنه، ونفت خمسين ألفا من أهلها إلى بابل «لينوحوا عند مياه الفرات» على حد قول التوراة. وتابعت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة المدن الفينيقية والسورية، وكانت مدينة صور، أشد هذه المدن مقاومة لها وقد ظلت هذه المقاومة ١٣ عاما انتهت في النهاية بالاستسلام واعترفت بسيادة البابليين.

وتمثلت أهم عمائر ومعالم بابل الكلدانية في قصر نبوخذ نصر، وفي برج بابل وفي الحدائق المعلقة ببابل التي هي إحدى عجائب الدنيا السبعة، ثم بوابة عشتار وأسوارها الضخمة.

ولقد جاءت نهاية دولة بابل على يد قورش ملك الفرس. وانتهى دور بابل العراق في التاريخ القديم كدولة مستقلة في عام ٥٢٩ ق.م كما انتهى قبلها دور آشور بعد عام ٦١٢ ق.م، ولكن زوال دورهما السياسي لم يستتبعه على الاطلاق زوال تأثيرهما الحضاري في الشرق والغرب معا. ولقد رأى فيها المؤرخون الاغريق الذين زاروها منذ عصرها الفارسي وخلال عصرها السليوكي صورة تجمعت فيها المفاخر العقلية للعراق القديم كله فتحدثوا عن تراثها الفلكي وتراثها المعماري كذلك تحدثت بقايا آثار ملوك بابل الحضارة الزاهرة التي كانت عليها بلاد العراق أيام حكمهم وكيف أنهم كانوا سادة الدنيا، وكيف جعلوا من العراق القديم محمية ثقافية خالدة تضم بين ثناياها تاريخ تالد عظيم وحضارة إنسانية زاهرة كانت حلقة من حلقات سلسلة الحضارة الإنسانية نهلت من علومها وفنونها حضارة الاسلام في العصور الوسطى وحضارة أوروبا في العصر الحديث.

التراث الاسلامي

وكما شاءت إرادة الله للعراق أن يكون محمية ثقافية لتراث التاريخ القديم والحضارات القديمة الاشورية والبابلية والكلدانية، شاءت إرادته أن يكون في العصور الوسطى محمية للتراث الاسلامي، وهو تراث أزهر حضارة عرفتها الانسانية في تلك العصور وهي الحضارة التي قطف ثمارها الغرب الاوروبي وأقام عليها حضارته في العصر الحديث.

ولقد دخل العراق، ضمن بقية بلاد الشرق تحت تبعية دولة الفرس الاخمينيين، التي دخلت في حروب مع اليونانيين ولما انهزم الملك الفارسي (دارا الثالث) من الاسكندر الأكبر المقدوني سنة ٣٣٣ ق.م، ضعفت دولة الفرس وتقسمت إلى ولايات صغيرة حكم كل ولاية منها ملوك عرفوا باسم ملوك الطوائف ظلوا على حكم البلاد مجزأة حتى سنة ٢٣٠ ق.م، وفي هذا التاريخ ظهر ملك فارسي كبير، هو (أردشير بن بابك) استطاع أن يوحد بلاد فارس من جديد ويؤسس فيها دولة حاكمة قوية هي دولة الفرس الساسانية.

وقد جاءت هجرة عرب اليمن إلى العراق أيام حكم ملوك الطوائف وكانوا من قبيلة لخم اليمنية بعد انهيار سد مأرب باليمن إلى غربي الفرات وقد نزل هؤلاء موضع مدينة الحيرة. واستقر هؤلاء العرب حيث هاجروا منتهزين فرصة ضعف الدولة الفارسة أمام حكم ملوك الطوائف وكونوا لهم دويلة صغيرة عربية على أطراف العراق عرفت بمملكة الحيرة أو مملكة المناذرة، لكن دولة الفرس بعد أن قويت وتوحدت تحت حكم ملوك آل ساسان عملت على إجلاء هؤلاء العرب عن حدود دولتهم لكن الملك أردشير آثر في النهاية أن يصطنعهم لنفسه ليكونوا حلفاء له ضد الروم وضد حلفائهم الغساسنة فيقيموا بذلك إمارة حاجزة بينهم وبين الروم مثلما كان وضع العرب الغساسنة في بلاد الشام، ولذلك أبقى الملك الفارسي كتيبة من رجاله الفرس عند ملك الحيرة قوامها ألف رجل يتجددون في كل عام أطلق عليها إسم الأشاهب يستعين بهم ملك الحيرة العربي على الخارجين عن سلطانه من عرب البادية وفي نفس الوقت يضمن ملك الفرس في استمرار ولاء المناذرة العرب له.

ولقد تولى حكم مملكة الحيرة ملوك كان أبرزهم (المنذر الثالث) الذي حكم في الفترة ما بين سنوات ٥٢٠ و٥٥٤م وكان معاصرا لأشهر ملوك الفرس قباذ وابنه كسرى أنوشروان وأشهر ملوك الروم الامبراطور جستنيان وأشهر ملوك الغساسنة الحارث بن جبلة وقد استمرت مملكة الحيرة قائمة حتى الفتح الاسلامي لبلاد العراق وفتح القائد العربي الكبير خالد بن الوليد للعراق، والحيرة ضمن ما فتح من بلدان العراق، سنة ١٢ هـ (٦٣٣م) وضمها إلى دولة الاسلام.

ودخلت مملكة الحيرة دولة الاسلام بحضارتها التي كانت جزء من الحضارة الفارسية الساسانية آنذاك وكان ملوكها قد تشبهوا بملوك الفرس الساسانيين في حياتهم الخاصة وفي نظام بلاطهم وقد اتصف هؤلاء الملوك بالعلم وحب العلم لذلك قربوا إليهم العلماء والشعراء ومن أشهر شعراء الجاهلية والمخضرمين الذين وفدوا على بلاطهم طرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة وحاتم الطائي وعنترة بن شداد العبسي، والنابغة الذبياني وغيرهم وقد ترك لنا هؤلاء قصائد شعر خالدة كتب بعض منها ضمن المعلقات السبع التي علقت على جدار الكعبة.

وازدهر العمران في عهد دولة المناذرة ويشهد على ذلك بقايا آثارهم فيما ابتنوه من قصور مثل: قصري الخورنق والسدير وقصر الدوسر وقصر المشتى، تلك القصور التي تأثرت بالفن والمعمار الساساني وما صاحبه من نقوش بديعة على جدرانها فضلا عن فخامة مبانيها وتجلت مظاهر جمال أبنية ملوك الحيرة أيضا فيما ابتنوه من كنائس وأديرة فخمة وبخاصة دير هند بنت النعمان بن المنذر الشهير.

العراق العربية

ولقد جاء الفتح العربي الاسلامي للعراق في عهد خلافة الصديق أبي بكر وتحريرها من التبعية لدولة الفرس في الساسانيين ولم تستطع قوات الفرس أن تتصدى للقوات الاسلامية الفاتحة بسبب حالة الضعف التي كانت عليها آنذاك والارهاق العسكري التي خلقها لهم حروبهم مع الروم قبل الإسلام.

★★★

حين شرع الخليفة الصديق أبو بكر حركة الفتوح الاسلامية بدأها بفتح العراق غداة فراغه من حرب المرتدين فعهد إلى قائده الصحابي الجليل المثنى بن حارثة الشيباني بفتح العراق ثم عهد إلى قائده سيف الله خالد بن الوليد بمعاونة المثنى في فتح العراق.

وكان يلي أمر العراق القائد الفارسي الكبير هرمز نيابة عن ملك الفرس. ووصلت إلى قوات المسلمين الفاتحة العراق قوة إضافية بقيادة الصحابي الكبير القعقاع ابن عمرو التيمي وقد نجح ملك القوات في فتح العراق كله في عهد خلافة عمر بن الخطاب وكان فضل قيادة القوات الفاتحة آنذاك الصحابي أبي عبيد بن مسعود والصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، صاحب الانتصار الحاسم في معركة القادسية سنة ١٦ هـ (٦٣٧م) وكان فتح المسلمين لبلاد العراق بداية لاسقاط الدولة الفارسية الساسانية جميعها في يد المسلمين ودخول تلك البلاد في الإسلام وتبعيتها لدولة الإسلام الكبرى في عهد الراشدين والأمويين.

وصارت بلاد العراق جزءا عزيزا من أجزاء الدولة الاسلامية وتحول أهلها من الديانة المجوسية الزرادشتية إلى الإسلام ومن الحديث باللغة الفارسية الأعجمية إلى اللغة العربية. وقد قام الفاتحون المسلمون للعراق ببناء المدن الاسلامية على تراب أرضه وهي مدن: البصرة، والكوفة، وواسط، وبغداد، والرصافة، وسامرا، وكربلاء.

وقد بنيت البصرة سنة ١٦ هـ (٦٣٦م) في خلافة عمر بن الخطاب واختطها القائد عتبة بن غزوان، ولم يكد يمض على تأسيسها عشرون عاما حتى عدت من أهم المراكز التجارية والملاحية في العالم الاسلامي وخاصة مع بلاد الهند والصين. وحلت البصرة محل ميناء الابلة على الخليج العربي ولم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل ومحط رحال الشرق والغرب، من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى، وباتت البصرة العاصمة الثانية للعراق الجنوبي وظهرت فيها حضارة أدبية وعلمية كثيرة وتأثر علماؤها بتأثير الفلسفة اليونانية ومن أشهر العلماء الذين خرجتهم هذه المدينة: الامام الحسن البصري، المتوفى سنة ١١٠هـ (٧٢٨م) وتلميذه واصل بن عطاء رئيس جماعة المعتزلة وشعبة بن الحجاج عالم أهل البصرة وأمير المؤمنين في الحديث، والمتصوفة الكبيرة رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي، وكذلك كان من أشهر علمائها في علوم اللغة والأدب أبو عمر

عثمان الجاحظ والخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه والأصمعي.

أما الكوفة فقد بناها العرب بعد فتحهم الحيرة في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ (٦٣٨م) وقد تولى بناءها معا سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان، الصحابيان الجليلان على مقربة من الحيرة حين بعثهما سعد بن أبي وقاص لتخير مكان بنائها. وقد اختط أبو الهياج ابن مالك شوارعها وحاراتها وأسس بوسطها مسجدا جعل دار الامارة إلى جواره وسرعان ما ازدحمت الكوفة بالقبائل العربية النازحة إلى العراق وصارت قصبته أعلى العراق، وكان واليها يعين ولاة الموصل والرى وهمذان وأذربيجان.

الكوفة جاهزة للخلافة

ولقد اتخذ الامام على بن أبى طالب الكوفة حاضرة لدولته عند توليه الخلافة لوجود شيعته وأنصاره بها ولخصوبة أرضها وكثرة خيراتها واستراتيجية موقعها. ولقد أحب الامام على الكوفة كثيرا حتى أنه قال فيها: الكوفة كنز الإيمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء والذى نفسى بيده لينتصرن الله بأهلها فى شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز. وكفى تلك المدينة فخرا أن اتخذها رابع الخلفاء الراشدين عاصمة له وأحبها ودعى لها ولأهلها بالنصر كذلك عاش فى هذه المدينة عدد من آل البيت. وبقربها الأعتاب المقدسة بالنجف حيث يوجد مسجد الإمام على وتتشرف تربتها باحتواء جثمان ابن عم رسول الله الطاهر.

كذلك ينتسب إلى هذه المدينة المطهرة أشهر العلماء الذين ولدوا وعاشوا فيها ومنهم الامام أبى حنيفة النعمان (ت ٨٠هـ) أحد ائمة الفقه السنى وصاحب المذهب المنتسب إليه وهو المذهب الحنفى كما ينتسب إليها أيضا الامام سفيان بن عيينة أحد أعلام التابعين وغيرهم.

وتقع كربلاء على بعد ٤٠ كم شمال غربى مدينة الكوفة جنوب غربى العراق على حافة بادية الشام، وهى المكان الذى نزل فيه القائد سيف الله خالد بن الوليد عند فتحه الحيرة، وهى البلدة التى استشهد فيها الامام الحسين سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠م)، ودفن جسده بها وأقيم عليه ضريح ومسجد كبير. ويعتبر مشهد الحسين بكربلاء ومشاهد أخرى فى الكوفة والنجف الأشرف من أهم المزارات ذات القدسية والاجلال حيث يتوافد عليها الشيعة من كل مكان ويطلقون عليها اسم العتبات المقدسة وقد اتسعت كربلاء وبنيت فيها المساكن والدور والمساجد ومن أشهر مساجدها بعد مسجد الحسين مسجد القمر، ومسجد العسكر وغيرها.

أما واسط فهى مدينة ينتسب بناؤها إلى الحجاج بن يوسف الثقفى حين كان واليا للعراق وقد بناها فى موقع متوسط بين بغداد، والبصرة أى عاصمة الشمال

وعاصمة الجنوب، ولذلك تسمت بذلك الاسم وقد اتخذها الحجاج عاصمة للعراق أثناء ولايته وولاية بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر أيام خلافة الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٤).

بغداد حاضرة الامبراطورية الاسلامية

ولقد جاء بناء مدينة بغداد مواكبا لقيام دولة الخلافة العباسية في العراق تلك الدولة التى حكمت العالم الاسلامى والعالم بمدة تزيد على الخمسة قرون، من سنة ١٣٢هـ - ٦٥٦هـ / ٧٤٩ - ١٢٥٨م. وقد بنى هذه المدينة الخليفة العباسى الثانى ابو جعفر المنصور ليتخذها حاضرة الامبراطورية الاسلامية الكبرى، التى امتدت حدودها آنذاك من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا، ومن غانا فى افريقيا جنوبا إلى فرغانة فى الروسيا شمالا.

وكان المنصور قد بنى فى أوائل حكمه دولة العباسيين بالعراق مدينة بنواحى الكوفة سماها الهاشمية ولكنه كره الاقامة فيها بسبب حركة تمرد قام بها جماعة خارجية عرفت باسم الراوندية. كذلك كره الاقامة فى الكوفة لتشيع أهلها للعلويين، فخرج بنفسه يبحث له عن موضع يسكنه وأهله وجنده، فوقع اختياره على منطقة خصبة يسهل فيها الاتصال بكافة أرجاء الدولة وتتوافر فيها سبل العيش وتقع وسط العراق وكان موضع هذه المدينة قرية صغيرة كان قد بناها أحد ملوك الفرس على شاطئ نهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه مع نهر الفرات.

وتسمت هذه المدينة أول الأمر بمدينة المنصور وأبتدى البناء فيها سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) واستغرق أربع سنوات وجعلها مدورة وجعل قصره والمسجد بوسطها وسميت باسمها القديم بغداد. كذلك تسمت هذه المدينة بأسماء أخرى منها. الزوراء، لا زورار سمتها عن القبلة والكعبة، ودار السلام والروحاء لطيب هوائها والمدورة لإستدارة بنائها وبغداد. وبغداد كلمة فارسية مركبة من مقطعين باغ بمعنى الله، وداد بمعنى عطية، فيكون معناها: عطية الله، أو المدينة التى أعطاها الله أو مدينة الله فهى مدينة مقدسة منذ أن كانت قرية صغيرة.

ولقد أحضر المنصور المهندسين والبنائين والصناع من نجارين وبنائين من البصرة والكوفة وواسط وطبرستان والشام ومصر ليشرعوا فى بنائها وقيل أن عدد هؤلاء بلغ مائة ألف رجل. وجعل المنصور الاشراف على بنائها لقائده الحجاج بن أرطاة وللامام أبى حنيفة النعمان الذى كان ذا معرفة بالهندسة وفن العمار وسرعان ما ازدحمت بغداد واتسع بناؤها على مر السنين. وأقطع المنصور قطائع خارجها لتخفيف الضغط السكانى على المدينة فعمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان واتصلت بالعاصمة.

واتصل ببغداد بناء مدينة الرصافة التى بنيت شرقى بغداد فى الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لبغداد وعرفت ببغداد الشرقية، واتصلت الرصافة

ببغداد وصارتا مدينة واحدة بلغ عدد سكانها بعد عام من انشائها المليون نسمة من السكان وصارت عاصمة العالم.

وقد عاشت بغداد عصرها الذهبي في العهد العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ)، وخاصة في عصر الرشيد والمأمون والمعتصم. وبلغت ذروة الرخاء في عهودهم وقد تقاطر عليها العلماء والأدباء ورجال الفن من جميع الملل والنحل وجعلوا منها مركزا للثقافة في الدنيا، وقد خلف أولئك العلماء الكم الكثير من الكتب والأبحاث والمؤلفات في سائر العلوم والفنون وابتنى خلفاء العباسيين وقواد الفرس والترك الذين تولوا الحكم فيها في العصر العباسي الثاني، المدارس والمعاهد العلمية والمساجد والدور والقصور التي لاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم تشهد على مدى قمة الرقي الحضاري الذي وصلت إليه دولة الاسلام في العصر العباسي وتتطلب منا نحن أبناء أمة الإسلام الحفاظ على هذا التراث التليد داخل محمية العراق الثقافية وكفانا ما تعرض له هذا التراث على يد برابرة المغول حين داهموا دولة الإسلام وداسوا تحت أقدامهم الدنسة ذلك التراث الخالد، الذي حدثنا عنه ما تبقى من مصادر تاريخية سلمت من عدوان المغول والتتار.

وقد حدثتنا هذه المصادر عن حياة الترف التي كان يعيشها خلفاء العباسيين وكبار رجال الدولة، ويتمثل ذلك فيما إبتنوه من قصور وما كان يحيط هذه القصور من حدائق غناء وبساتين وما تميزت به من فخامة بنائها واتساعها، وأحسن مثل لذلك قصر عيسى بن على العباسي، على نهر الرفيل، المتفرع من دجلة. كذلك قصور البرامكة وزراء العباسيين وقد بنى جعفر ابن يحيى البرمكي قصرا في الجانب الشرقي من دجلة، كان غاية في الفخامة والزينة كذلك بنى الخليفة المتوكل العباسي عدة قصور فخمة من بغداد وسامرا منها قصر العروس، وقصر الجعفري وقصر البرج وقصر التاج وقصر الثريا.

كذلك بنى الخليفة المقتدر دار الشجرة وكان بها شجرة من الفضة زنتها خمسمائة ألف درهم وعليها طيور مصوغة من الفضة تصفر بحركات معينة وهي وسط بركة كبيرة من الماء، وقد استقبل الخليفة المقتدر في قصره المعروف بقصر التاج رسول الامبراطور البيزنطي الذي عدد الكميات الهائلة التي بهذا القصر من الستور والبسط.

أشهر مكتبات بغداد

وبنى الخليفة هارون الرشيد خزانة الحكمة أو بيت الحكمة وأكملها من بعده إبنه المأمون، وكانت من أشهر مكتبات بغداد وقد احتوت هذه الكتب على أعداد كبيرة من الكتب المؤلفة والمترجمة عن الفارسية واليونانية وخصوصا الكتب التي حفظت التراث اليوناني من الضياع وكانت تضم هذه الدار غرفا خاصة للترجمة والنسخ.

سقوط بغداد

ولقد عمرت هذه الحضارة العربية العظيمة محمية العراق خمسة قرون من قرون العصور الوسطى، وفي أعقابها تعرضت لعدوان غاشم جاءها من الشرق

على يد المغول والتتار، ويصف جوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب ذلك بقوله: «واستولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وخربوها تماماً، وخنقوا آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله بأمر هولاكو رئيس الغالبين ونهبوا ما في بغداد من الأموال وحرقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة المريعة محبو العلم والقوها إلى نهر دجلة فتألف فيها جسر كان يمكن للناس أن يمروا عليه رجالا وركبانا وأصبح ماء دجلة أسودا من مدادها كما روى قطب الدين الحنفي ولكن اولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخربوا كل شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم حتى أن هولاكو الذي خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها، بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره فلم يلبث أن صار من حماتها. وفي المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم وشملوا مثقفي العرب وعلماءهم برعايتهم وأقاموا في بلاد الهند دولة عربية قوية من فورهم ما لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ولأن سلطان حضارة العرب لايزال مسيطرا هناك حتى اليوم».

ويواصل لوبون تعليقه على هذا الغزو المغولي الغاشم بقوله:

«أجل قامت بغداد من تحت الأنقاض ولكن الترك استولوا عليها بعد ثلاثة قرون فأصيبت بانحطاط تام فغابت عنها المكتبات ورجال الفن والعلماء.»

★★★

وما أشبه اليوم بالبارحة، وها هي العراق تتعرض اليوم لعدوان صليبي غاشم جاءها من ناحية الغرب، على غرار عدوان المغول الذي وقع عليها من الشرق وكأن التاريخ يعيد نفسه، وكما استهدف المغول الإسلام وخلافته في الماضي، فصيلبي التاريخ الحديث يستهدفون الإسلام أيضا هذه الأيام متواطنون في ذلك العدوان مع الصهيونية العالمية. لقد جاء هؤلاء ليهدموا محمية ثقافية من محميات الإسلام، ويهدموا بعد ذلك بقية المحميات رغبة منهم في القضاء على الإسلام والمسلمين أخذا بثأرهم من المسلمين الذين هزموهم في التاريخ الوسيط في حطين وعين جالوت وعكا.

لكن الله ناصر دينه، وقد وعد عباده المسلمين بالنصر، وستظل راية الإسلام خفاقة إلى يوم الساعة.. ولو كره الكافرون.. ولو كره المشركون.. ولو كره الأمريكان والبريطانيون.. ولو كره بوش وشارون. ■







جنكيز خان

سقوط بغداد

بقلم
د. يوسف زيدان

«إن ما يحدث اليوم هو نفس ما حدث عندما سقطت بغداد أيام هولاكو»

كنت قد قطعت على نفسي موثقا غليظا، ألا أكتب حرفا فيما يجرى من حرب فى العراق، نأيا بالكلمات عن الخوض فى أوحال هذا الموضوع الذى لا تجدى معه كلمات.. ولما طلبت (الهلال) المشاركة فى هذا العدد الذى بين أيدينا، قدمت ما يشبه الاعتذار.

فى اليوم نفسه، كانت الحشود الأمريكية والبريطانية تتوالى على حواف العراق، ولا أقول: حدودها! وزعموا فى اللحظة الأولى من اجتياحهم أرض العراق، أنهم أسقطوا (أم قصر).. وكنت ليلتها، بعد الاكتواء بنار النشرات الإخبارية، أقلب الكتب والمتون التراثية التى تجثم فوق رفوف مكتبتى وتثقل روحى بوطء عميم يسمونه التراث العربى.

وقع فى يدى المجلد الثانى عشر من كتاب (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير، فقرأت فى صفحته الثامنة والخمسين بعد الثلاثمائة، تحت عنوان (ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام) سنة ٦١٧ هجرية، ما نصه:

يقول ابن الأثير: لقد بقيت عدة .. سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأوخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمى لم تلدنى، وياليتنى مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا.. فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها،

لكان صادقاً. فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.. فمن أعظم ما يذكرون من الحوادث، ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعيين من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟! فإن مدينة واحدة ممن قتلوا ، أكثر من بني إسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم.. ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر قبحهم الله، أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، ومنها أن الذي سلم من هاتين الطائفتين - من أهل الإسلام - فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق.

ملاحظة مهمة: كان الله رحيما بابن الأثير، فاختاره إلى جواره سنة ٦٣٠ هجرية، فلم يشهد هذا المؤرخ سقوط بغداد، سنة ٦٥٦ هجرية.. وإلا فما الذي كان سيقوله ابن الأثير عن ذلك، وما الذي كان سيعصف بروحه التي تألمت هذا الألم المجهض، لمجرد بدايات الاجتياح المغولي لمشارق العالم الإسلامي وتدمير جنكيز خان للمملكة الخوارزمية.. وما ذلك، بجانب ما فعله هولاكو بعد ذلك ببغداد؟

ملاحظة أخرى مهمة: يورد ابن الأثير بين ثنايا كلامه في هذا الفصل الذي رأينا فيما سبق مدخله (حوادث سنة ٦١٧ هجرية) إشارة يجب علينا الوقوف عندها طويلاً متأملين .. يقول: نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم، فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم الأمر، لعدم المانع.

وسبب عدمه، أن محمد خوارزمشاه كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها. فلما انهزم من التتر، لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها.

سبب البلاء

دفعتني هذه الملاحظة الأخيرة، إلى التأمل فيما كان من أمر محمد خوارزمشاه، فوجدته حاكما عربيا شديد المعاصرة ! كان خوارزمشاه قد ملك المنطقة الممتدة من فرغانة إلى بحر أرال، ومن نهر سيحون (سرداريا) إلى أفغانستان، وهي منطقة واسعة تستغرق الرحلة فيها اليوم بالطائرات ، ساعات ، ومع ذلك، دفعه الطيش وسطوة السلطة

إلى الاستيلاء على بغداد، فأرسل لها جيشا سيطر أولا على همذان، ثم انطلق منها قاصداً بغداد.. وفي كردستان.. هبت عاصفة ثلجية شديدة، فبددت شمل الجيش وقتلت الألوف وتخطف الأكراد ما تبقى من فلول الجيش، فلم يعد منهم إلى خوارزم إلا عدد قليل.

ولم يهدأ محمد خوارزمشاه بعد هذه الواقعة، وإنما واصل رعونته وأحلامه التوسعية، ونجح في استفزاز أقوى قوة عسكرية في العالم آنذاك: جنكيز خان.. بدأ الأمر باتصال بينهما، وتبادل سفارات، وإبداء الرغبة في التعاون الدولي بين البلدين: المملكة الخوارزمية، والدولة المغولية التي كان جنكيز خان قد أقامها على أنقاض إمبراطورية الصين التي احتلها، وكان خوارزمشاه يحلم قلبه بامتلاكها.

وبدأ النشاط التجاري بين الدولتين، بقافلة أرسلها جنكيز خان، مع هدايا لخوارزمشاه ورسالة تقول ضمن كلمات تودد: إنه لا يخفى على عظيم شأنك وما بلغت من سلطان، وإني أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي ولا يخفى عليك أيضا أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أعنت لي قبائلهم .. فإن رأيت أن تهيىء للتجار في الجهتين سبيل التردد والحركة، عمت المنافع وشملت الفوائد.

واعتقد خوارزمشاه أن جنكيز خان أهانه! لأنه وصفه بأنه (مثل أعز أولادي) فأرسل لحاكم مدينة (أوترار) الواقعة على الحدود بينهما، بأن يتم الاستيلاء على القافلة التجارية التي بادر جنكيز خان بإرسالها، وتباع حمولتها (خمسمائة جمل تحمل سلعا تجارية) ويرسل المال إلى خوارزمشاه، ! بل أكثر من ذلك، يقتل جميع أفراد القافلة.. فقتلوا جميعا (كانوا ٤٥٠ رجلاً، كلهم من المسلمين).

وبالطبع، استشاط جنكيز خان غضبا، ولم يصدق أن خوارزمشاه يفعل ذلك، فأرسل له سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال أحدهما مسلم والآخران مغوليان، ومعهم خطاب احتجاج على ما جرى من الغدر بالقافلة.. فما كان من خوارزمشاه، إلا أن قتل المبعوث المسلم، وحلق لحية زميليه المغوليين إمعانا في إذلالهما.

وهكذا اندفع جنكيز خان بجيوشه ليجتاح مشرق العالم الإسلامي، وانتقم لكرامته بقتل كل ما كان حيا في البلاد التي صادفته: الناس، الحيوان، الشجر.. ومات مئات الألوف من المسلمين.. رجالا ونساء وأطفالا، أما خوارزمشاه نفسه..

فقد هرب!

وتمضى السنون بطيئة، ويتولى مملكة جنكيز خان حفيديه: بركة خان، هولاكو ويستكمل هولاكو ما بدأه جده، ويوغل فى العالم الإسلامى، مخلفا أهرامات من القتلى المسلمين، حيث وصل إلى بغداد.

الانهيار

من العسير تبيان ما تمثله بغداد فى تاريخ الحضارة الإسلامية، فهى تحتل مكانة لا يمكن لمدينة أخرى أن تقاربها، فهى كما يوجز ياقوت الحموى (معجم البلدان ٤٥٦/١): أم الدنيا وسيدة البلاد، ولما سأل ابن العميد، الصاحب بن عباد، عن بغداد بعد عودته من زيارتها، قال: بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد.

أما من حيث مشاركتها فى صياغة التراث العربى، فهى المدينة الأكبر إسهاما والأكثر عطاء عبر قرون طوال، كانت فيها قبلة العلماء ومواطن العلوم والجامعات والمجامع العلمية.. حتى أن التراث العربى يحفل بأعمال علمية لأكثر من ألف مؤلف، كلهم يحملون لقب البغدادى.. وهؤلاء هم الذين خرجوا من بغداد إلى مدن أخرى، فانتسبوا إلى موطنهم الأول، أما الذين وفدوا إليها وأقاموا بها، فلا يكاد عددهم يقع تحت الحصر.

كان صدر هولاكو يوغر ضد المسلمين، وكانت زوجه (طقز خاتون) نسطورية تكره المسلمين كراهية شديدة وتحفزه دوما على النيل منهم.. وكان هولاكو قد وصل بجيوشه بغداد وتدميرها، آملا فى أن تقوم على أنقاض الدولة العباسية.. دولة شيعية فى العراق يكون هذا الوزير الشيعى حاكما لها.. وهو ما لم يحدث أبداً..

١٢٥٨/١/١٨

فى هذا اليوم المشئوم، طوقت جحافل هولاكو مدينة بغداد بعدما سقطت المدن المحيطة بها.. ولن أفيض هنا فى ذكر ما حدث، مكتفيا بالفقرات التالية الواردة فى كتاب الدكتور السيد الباز العرينى (المغول) حيث يقول ما نصه:

أعلن هولاكو عزمه على الاستيلاء على بغداد.. واعتقد الخليفة بأنه سوف يلبى نداءه كل من الأيوبيون فى الشام والمماليك فى مصر، فيهرعون إلى الانضواء تحت العلم الأسود شعار العباسيين، وسوف تعلن إيران وتركستان التمرد والعصيان على المغول، على أن هذه الآمال كانت خادعة.. أخذت الجيوش المغولية تهبط إلى بغداد، وسيطروا على الموصل، واحتشدت كل

الجيوش يوم ١٨ يناير ١٢٥٨، وخرج جيش الخليفة إليهم، فهاجمه المغول وقتلوا منه أثني عشر ألف مقاتل.. حل بسكان بغداد من تدهور الروح المعنوية ما لم يحل بغيرها فى سائر المدن، حاول عدد كبير من رجال الحامية الفرار، غير أن المغول أوقعوا بهم.. وفى العاشر من فبراير صدرت الأوامر لجميع سكان بغداد بالخروج من المدينة، وإعلان الإذعان برفع أيديهم إلى أعلا، فصاروا يخرجون إلى المغول طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم المغول عن آخرهم.. على أن جانبا من سكان بغداد لم ينفذوا ما صدر إليهم من أوامر، فلما دخل المغول إلى المدينة ، أجروا فيهم مذبحة جماعية، وأشعلوا الحرائق، وظل عساكر المغول ينهبون المدينة ويستبيحونها مدة سبعة أيام، وأمر هولاكو جموع عساكره المرابطة أعلى الأسوار، بالهبوط إلى المدينة والاشتراك فى الإجهاز على كل السكان، ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما.. وبلغ عدد ضحايا المغول، نحو ثمانين ألف نسمة (هذا ما يذكره د. العرينى، أما ابن العماد فيؤكد أن مجموع قتلى المسلمين فى بغداد كان مليونا وثمانمائة ألف).

سوريا

بعد سقوط مدن العراق الواحدة تلو الأخرى، وبعد الانتهاء من بغداد.. توجهت أنظار القوات الغازية إلى سوريا، وأرسل هولاكو إلى الملك الناصر حاكم دمشق رسالة نقل منها ابن العماد الحنبلى فى كتابه (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) هذه السطور التى ينبغى لنا اليوم، أن نتأملها طويلا.. يقول هولاكو فى رسالته لحاكم دمشق: إنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم ، قتلناهم.. ووجدوا ما عملوا حاضراً، أحب ملك البسيطة ، ولا تقولن قلاعى المانعات ورجالى المقاتلات ، ولقد بلغنا أن شذرة من العسكر (السلطة العراقية المنهارة) التجأت إليك هاربة وإلى جنابك لائذة:

أين المفر ولا مفر لهارب
ولنا البسيطان الثرى والماء

فساعة وقوفك على كتابنا، تجعل قلاع الشام، سماها أرضها، وطولها عرضها، والسلام.

وبعد أيام أرسل هولاكو للناصر رسالة ثانية، بدأها بقوله: أما بعد ، فإنا فتحنا بغداد واستأصلنا ملكها وملكها.. ونحن فى طلب الازدياد على ممر الآباد.. أجب ملك البسيطة تأمن شره.

وفى سياق هذه الحملة الإعلامية الشرسة، أرسل هولاكو رسالة ثالثة، يقول فيها للناصر: نحن قد أهلكنا البلاد وأبدنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد ،

فنيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون، ونحن جيوش الهلكة مقصودنا الانتقام وملكنا لايرام.. ونحن إليكم صائرون ولكم طالبون، ولكم الهرب وعلينا الطلب (راجع: شذرات الذهب ٥/٢٧٣).

ثم اتجه هولاكو إلى دمشق، وفى طريقه دمر حلب، وحين وصل إلى أسوار دمشق، كان الناصر قد هرب.

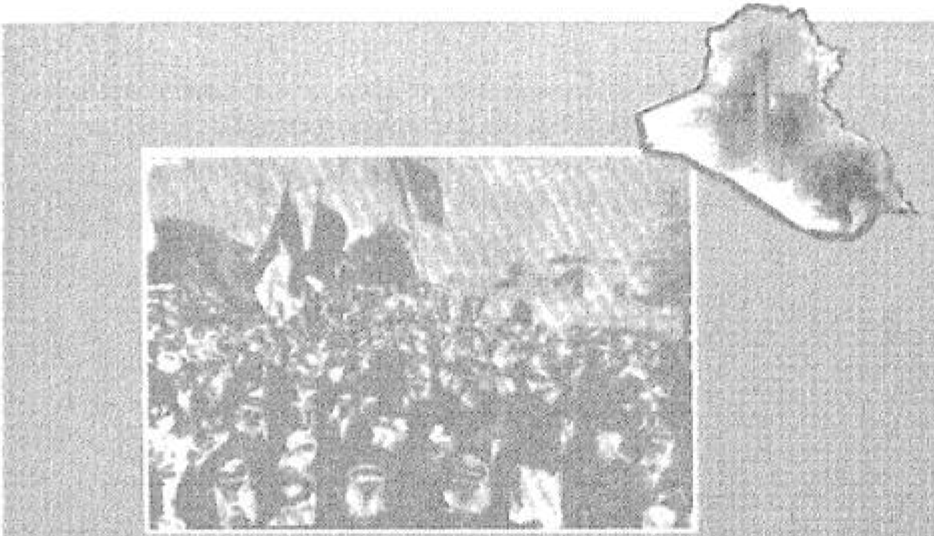
الآفاق الحزينة

دخلت الحضارة العربية الإسلامية بعد سقوط بغداد أفقا مأساوياً حزينا لم يخرج منه المسلمون إلى اليوم.. ولا اعتقد أننا وعينا بهذه الواقعة - حتى اليوم - تمام الوعى، ولم ندرك حتى مفرداتها وأخبارها فعلى سبيل المثال، قالوا لنا فى حصص التاريخ، أن هولاكو حين دخل بغداد أمر بإلقاء المخطوطات المحفوظة بمكتبات بغداد فى نهر دجلة، حتى يعبر عليها عساكره بخيلهم! ولعمرى ، أى خيل هذه التى ستعبر نهراً فوق مخطوطات؟

واقع الأمر، أن عاصمة الخلافة كانت تحوى مئات الألوف من نوادر المخطوطات العربية التى تمثل (كتاب الحضارة) وتتجلى فيها أيات الإسهامات العلمية العربية فى العصور السابقة.. ويعلم المشتغلون بالمخطوطات أن أخطر ما يهدد المخطوطات : الماء ، فهو يغسل الحبر ويمحو ما هو مكتوب بالمخطوطة، فلا يمكن استرجاعه.

لقد أراد الغزاة محو الحضارة العربية بإلقاء المخطوطات فى النهر، ولم يفكروا فى نهب ثروات البلاد بقدر ما فكروا فى إخماد جذوة الحضارة فيها بهذه الفوضى التي أحدثوا، وبهذا الخراب غير المعلل، وبهذا الإهدار غير المسبوق.

وضاعت الآلاف من المخطوطات مع سقوط بغداد بأيدى المغول، وماتت الحضارة هناك، وغربت المجامع العلمية بالعراق، ولم تشرق بعدها أبداً.. قلبى عليك يا بغداد.. أين أنت اليوم، وأين المخطوطات التى تجمعت فى خزائنك خلال القرون الأخيرة، أين الآن مخطوطة لمتحف العراق التى اعتمدت عليها فى تحقيق كتاب (الشامل فى الصناعة الطبية) لابن النفيس، وكانت أكثر مخطوطات الكتاب اكتمالاً.. أين تلك النسخ التى كتبت بخط مؤلفيها.. أين أصدقاؤنا من الشعراء والكُتاب والمفكِّرين، أين المفر.. الدموع تعوقنى عن الاستمرار فى الكتابة. ■



الثائرون فى وجه الاحتلال البريطانى هبوا مطالبين بالاستقلال

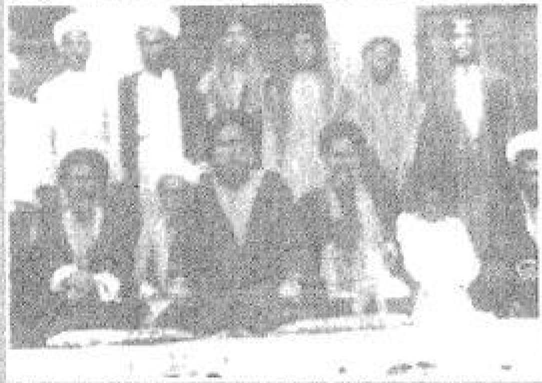
ثورة العشرين

قراءة فى تاريخ الحركة الوطنية العراقية

بقلم
د. على بركات *

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) كانت الحركة الوطنية العربية المطالبة بالاستقلال تعانى انقساما واضحا، فالمغرب العربى كان قد خضع للاستعمار الأوربى، فالجزائر وتونس والمغرب قد خضعت للاستعمار الفرنسى، وخضعت مصر للاستعمار البريطانى كما خضعت ليبيا للاستعمار الإيطالى رغم وجود جيوب للمقاومة، وعلى هذا فإن الحركات الوطنية فى المغرب العربى بما فى ذلك مصر كانت موجهة ضد الاستعمار البريطانى والفرنسى والإيطالى.

* أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة حلوان



شيوخ العشائر الذين قادوا الثورة

أما المشرق العربي فقد كان لايزال يخضع للسيادة العثمانية وكانت الحركة العربية المناهضة للحكم العثماني والتي عبرت عن نفسها في شكل جمعيات أدبية وسياسية تطمح في البداية في الحصول على قدر من اللامركزية في إطار السيادة العثمانية إلا أن وصول الاتحاديين إلى السلطة في استانبول واتباعهم سياسة تقوم على مركزية الدولة وتتريك ولاياتها وتمجيد العنصر الطوراني الذي ينحدر منه الأتراك، كل ذلك دفع بالحركة العربية إلى الدعوة إلى الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال الولايات العربية، وكان أبرز الجمعيات التي تبنت هذا الاتجاه جمعية العهد العسكرية التي تأسست بشكل سري في استانبول عام ١٩١٣ بزعامة عزيز على المصري ومجموعة من الضباط العرب الذين كانوا يعملون في الجيش العثماني، وكان بعضهم من العراقيين من أمثال طه الهاشمي ونوري السعيد وجميل المدفعي وقد اقتصرت عضوية تلك الجمعية على العسكريين مع استثناءات قليلة.

وكان هدف الجمعية هو حصول الأقطار العربية في المشرق على استقلالها عن العثمانيين ولما كان الضباط العراقيون يتمتعون بثقل عددي ملحوظ في تلك الجمعية فقد أنشأت الجمعية لها فروعاً في الموصل وبغداد.

ويرجع زيادة عدد الضباط العراقيين فى الجيش العثمانى إلى أن الدولة العثمانية كانت قد أسست عددا من المدارس العسكرية منذ أواخر القرن التاسع عشر فى العراق ومن الواضح أن السلطات الاتحادية قد أدركت بتحركات الضباط العرب في الجيش العثماني فقامت بالقبض على الرائد عزيز على المصرى فى فبراير سنة ١٩١٤ قبل دخول تركيا الحرب.

وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى حاولت بريطانيا الاستفادة من سخط العرب على العثمانيين وتشجيعهم على الثورة ضد الأتراك وكان ذلك سوف يرغم تركيا على الاحتفاظ بجزء من قواتها فى مواجهة الثوار العرب، وفى الوقت نفسه فإن قيام الثورة فى شبه جزيرة العرب سوف يحول دون اتصال القوات التركية فى اليمن وعسير والقوات التركية فى بلاد الشام ومعها لا تصبح القوات التركية فى جنوب شبه جزيرة العرب خطرا على القاعدة البريطانية فى عدن، وعلى هذا فقد عقدت السلطات البريطانية عددا من الاتفاقات مع أمراء شبه جزيرة العرب ومن بينهم الأدارسة فى عسير، لكن أخطر تلك الاتفاقات كانت تلك التى عقدتها بريطانيا مع الشريف حسين بن على فى الحجاز وكان بدوره على خلاف مع العثمانيين بسبب مشكلات تتعلق بمستقبله كشريف لمكة وعلى الرغم من أن الحركة العربية فى بلاد الشام كانت أقوى وقادتها أكثر نضجا إلا أن بريطانيا رأت أن تتعامل مع الشريف حسين لقيادة الثورة ضد العثمانيين لأن ذلك كان يحقق لبريطانيا هدفين:

الأول : تفتيت الاجماع الإسلامى عن طريق طرح قيادة إسلامية عربية مناوئة للسلطان العثمانى فى استانبول.

الثانى : أن قيادة الشريف سوف تكون أسلس من زعماء الحركة العربية فى بلاد الشام الذين ينتمون إلى المثقفين وبرجوازية المدن.

وقد أعلنت الثورة ضد العثمانيين فى ١٠ يونيو ١٩١٦ وفى أول وزارة عربية تشكلت برياسة الشريف على أصبح عزيز المصرى وزيرا للحربية ومن ثم شرع فى تشكيل نواة لجيش نظامى إلى جانب قوات القبائل غير النظامية لكن عزيز المصرى ما لبث أن ترك القيادة لجعفر العسكرى ونورى السعيد الذى أصبح نائبا له وكلاهما من الضباط العراقيين، ويرجع ذلك إلى خوف الشريف حسين من أن تصبح القوة الحقيقية فى يد عزيز المصرى وربما أيضا بسبب موقف الإنجليز الذين رأوا



الشريف حسين بن علي



الملك فيصل الأول

فى عزيز المصرى قائدا طموحا يصعب ترويضه.

إنجلترا وغزو العراق

وهكذا اختلف موقف عرب المشرق من الإنجليز والفرنسيين أعداء الحركة الوطنية فى المغرب وربما يفسر ذلك لماذا لم تلق القوات البريطانية مقاومة عنيفة من الشعب العراقى عندما بدأت إنجلترا غزو العراق فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٤.

وكان العراق موضع اهتمام السياسة البريطانية منذ بدأ النفوذ البريطانى يستقر فى الهند فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وكان لورد كيزون نائب الملك فى الهند أكثر الساسة البريطانيين اهتماما بالعراق فى مطلع القرن العشرين ويرى أن المصالح البريطانية لا تقتصر على الخليج بل تمتد إلى بغداد، وكان الرحالة والتجار والقناصل البريطانيين قد مهدوا عبر ثلاثة قرون لهذا الغزو من حيث إعداد المعلومات والخرائط ومعرفة أوضاع السكان منذ وصول الإنجليز للبحار الشرقية، وعلى هذا فعندما نزلت القوات البريطانية كان لدى البريطانيين أهداف واضحة فى احتلال العراق واستغلال موارده وثرواته فضلا عن موقعه.

بدأت العمليات العسكرية فى الشرق الأدنى فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ أى بعد يومين من إعلان تركيا الحرب ضد بريطانيا عندما نزلت قوات إنجليزية فى شط العرب ثم استولت تلك القوات على البصرة فى ٢١ نوفمبر ثم على القرنة فى ديسمبر وبذلك احتلت بريطانيا جنوب العراق، إلا أن تلك القوات فشلت فى احتلال بغداد ثم هزمت القوات البريطانية هزيمة كبيرة أمام العثمانيين

فى كوت العمارة فى إبريل سنة ١٩١٦.
إلا أن البريطانيين قد تحولوا إلى الهجوم مرة أخرى فى النصف الثانى من عام ١٩١٦ واستولوا على كوت العمارة فى فبراير ١٩١٧ وعلى بغداد فى مارس ومع حلول شهر نوفمبر كان البريطانيون قد استولوا على معظم العراق بعد أن احتلوا الرمادى وتكريت، وقد استغرقت عملية غزو العراق بكامله أربع سنوات، ذلك أن الموصل ومناطق أخرى فى الفرات الأعلى قد ظلت بعيدة عن السيطرة البريطانية إلى ما بعد توقيع الهدنة عام ١٩١٨.

وقد بلغت خسائر البريطانيين فى الحملة على العراق مائة ألف ما بين قتيل وجريح بسبب المقاومة التى أبداها العثمانيون وبعض العشائر.

وعلى الرغم من أن السلطات البريطانية قد أعلنت غداة الاستيلاء على بغداد بأن القوات البريطانية لم تدخل العراق غازية أو فاتحة بل محررة للعراقيين من نير الحكم التركى، إلا أن البريطانيين سرعان ما أقاموا إدارة استعمارية أصبحت بمقتضاها فى يد العسكريين وبذلك حل البريطانيون محل الإدارة العثمانية ، وتسرعت تلك السلطة فى اتخاذ سلسلة من الاجراءات تؤكد تكريس الاحتلال العسكرى للعراق لأجل غير معروف، وهذا الاتجاه فى السياسة البريطانية يتضح فيما يلى:

❑ محاولة صبغ العراق بالصبغة الهندية وخاصة الجنوب الذى كان هناك اتجاه لضمه إلى إدارة الهند.

❑ استمالة رؤساء العشائر ومنحهم الاقطاعات لضمان ولائهم للوجود البريطانى وفى هذا الاتجاه خلقت بريطانيا أحد المعوقات لتطور العراق، السياسى والاجتماعى وأوجدت الأساس الذى أصبحت تلعبه العشائر فى السياسة العراقية.

❑ تركيز السلطة فى أيدى كبار الموظفين الإنجليز واشراك العراقيين وبشكل تدريجى فى الوظائف الثانوية بحجة عدم كفاءتهم، الأمر الذى أثار حفيظة العراقيين.

❑ تطبيق قدر من الإصلاحات فى مجال الطب الوقائى والعلاجى لحماية الموظفين البريطانيين وقوة الاحتلال وإن كان الشعب العراقى قد استفاد من تلك الإصلاحات .

❑ إصلاح النظام الإدارى وخاصة الإدارة المالية لضمان تدفق الفائض للخزانة البريطانية.

كل هذه الإجراءات كانت تشير إلى إطالة أمد الاحتلال البريطانى للعراق، وهو ما أكدته قرارات مؤتمر سان ريمو

التي صدرت في نهاية إبريل ١٩٢٠ والتي وضعت العراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي تنفيذاً للمخططات السرية التي جرى وضعها خلال الحرب.

وكان الرأى العام العربي قد أحس بأبعاد المؤامرة التي جرى تدبيرها ضد العرب، ومن ثم جرى عقد المؤتمر السوري في دمشق في مارس سنة ١٩٢٠.

واتخذ عدداً من المقررات من بينها الاعتراف باستقلال العراق، كما انعقد مؤتمر آخر من مجموع العراقيين الذين كانوا ضمن عناصر الثورة في بلاد الشام ومن انضم إليهم من قادة الحركة الوطنية في العراق واتخذوا قراراً مكملاً لقرارات المؤتمر السوري فيما يتعلق باستقلال العراق.

مؤتمر سان ريمو

وعلى ذلك فإنه فور إعلان قرارات مؤتمر سان ريمو ومعرفة العراقيين بها في أوائل مايو سنة ١٩٢٠ اندلعت الثورة ضد الإنجليز في العراق والتي يمكن أن تحدد لها أكثر من سبب:

أولاً : تنكر الحلفاء لوعودهم ومنها مبادىء ولسون الأربعة عشر والتي جرى إعلانها عند دخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا عام ١٩١٧ وأهمها حق تقرير المصير للشعوب التي كانت تخضع للدولة العثمانية، بالإضافة إلى ما أعلنه قادة الغزو البريطاني عقب الاستيلاء على بغداد من أن القوات البريطانية جاءت لتحرير العراق من العثمانيين (ما أشبه الليلة بالبارحة).

ثانيا : نمو الروح القومية والوطنية لدى العراقيين في إطار تيارات اليقظة التي يشهدها المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وانضواء عناصر من العراقيين في الجمعيات التي أشرنا إليها وأبرزها جمعية العهد العسكرية.

ثالثاً : النجاح المبدئي الذي حققته الثورة العربية وقيام الحكومة العربية في دمشق شجع العراقيين على أن تكون لهم دولتهم المستقلة.

رابعاً : الصدى الذي تركته ثورة عام ١٩١٩ في مصر على المنطقة العربية ومنها العراق وكانت الصحف المصرية والسورية التي تتحدث عن الثورة وأحداثها تصل إلى العراق، وتقرأ باهتمام شديد في الأوساط العراقية.

خامساً : الدور الذي لعبه العراقيون في الثورة العربية من الضباط الذين تركوا الجيش العثماني وانضموا لقوات الثورة أو الذين جرى أسرهم من الجيش

العثمانى ثم أطلق الحلفاء سراحهم، هؤلاء أصبحوا دعاة للثورة ضد الإنجليز ثم مقاتليها بعد قيامها.

سادساً : الدور الذى لعبته القوات البريطانية خلال سنوات الحرب والتى عمقت التناقض بين الشعب العراقى وسلطات الاحتلال ومنها جمع العراقيين لخدمة المجهود الحربى البريطانى واستغلال موارد العراق فى الاتجاه نفسه واستخدام وسائل النقل المختلفة لصالح قوات الاحتلال كما حدث فى مصر.

سابعاً : اتجاه السلطات البريطانية إلى العنف فى مواجهة التحركات السياسية العراقية التى سبقت الثورة ومنها منع الاحتفالات الدينية والتجمعات الجنائزية من قبل العراقيين.

يضاف إلى ذلك أن عمليات غزو العراق من قبل البريطانيين لم تلق من البداية قبولا من الشعب العراقى، على الرغم من كراهية الشعب العراقى للعثمانيين بل أن بعض العشائر قد دخلت فى مواجهات عسكرية وصلت إلى حد الحرب مع القوات البريطانية الغازية رغم السياسة البريطانية التى حاولت احتواء العشائر فى العراق، وقد بدأت الثورة فى شكل تحركات واجتماعات فى المساجد كانت تلقى فيها الخطب والقصائد الشعرية التى تحض على مواجهة الاحتلال وقد أسفرت تلك الاجتماعات عن تفويض خمسة عشر مندوبا تم انتخابهم من أهالى بغداد والكاظمية لمقابلة المندوب البريطانى ارنولد ولسون بعرض مطالب الشعب العراقى عليه، وأهمها الدعوة إلى مؤتمر وطنى يمثل جميع العراقيين لتقرير مصير العراق ونوع الحكم الذى يراه الشعب العراقى واقرار حرية الصحافة ليتمكن الشعب العراقى من التعبير عن نفسه.

وفى الوقت نفسه استمرت الاتصالات بين قادة الحركة الوطنية فى اتجاه الإعداد للثورة فى حالة رفض السلطات البريطانية للمطالب الوطنية، وخلال تلك التحركات برز بعض أعضاء التنظيمات السرية وخاصة جمعية العهد من أمثال جعفر أبوالحسن ويوسف السويدى ومحمد الصدر.

أسباب الثورة

وكان السبب المباشر للثورة هو قيام السلطات البريطانية بالقبض على الشيخ شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظوالم من بنى حجيم بالرميثة بسبب موقفه المناهض للإنجليز ، على أثر ذلك قامت مجموعة من عشيرته بإطلاق سراحه بالقوة بعد اقتحام سراى الحكومة فى ٣



نورى السعيد



جميل المدفعى

يونيو سنة ١٩٢٠، وفى ذلك الهجوم قتل شرطيان وأطلقت النار على دار الحاكم البريطانى الذى اعتصم مع الحامية البريطانية فيها، ثم قام الثوار بعد ذلك بتدمير خط السكة الحديد شمال وجنوب المدينة لمنع وصول الإمدادات البريطانية إليها، وفى تلك الأثناء تحركت عشائر أخرى فى السماوة وحاصرت الحامية البريطانية فى المدينة وبالمثل تم قطع خط السكة الحديد شمال وجنوب المدينة لمنع وصول أى نجدات إليها، ثم هاجم الثوار قطارا قادما من البصرة وأرغموه على التراجع وكان متجها إلى بغداد، وعندما استطاع البريطانيون فك الحصار عن الحامية كانت خسائرهم قد بلغت ثلاثة ضباط و ٣٢٠ جنديا، كما بلغ عدد الجرحى ضابطين و١٥٠ جنديا إلى جانب خسائر الحامية المجاهدة التى بلغت ١٤٨ ما بين قتيل وجريح ولما لم تستطع القوات البريطانية الاستمرار فى المعركة اضطرت إلى الانسحاب فى ٢١ يوليو، وخلال تلك الفترة امتدت الثورة إلى معظم مناطق العراق فشملت الفرات الأوسط ومدن بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء حطم خلالها الثوار الخطوط الحديدية وطرق النقل البرى فى كل أنحاء العراق على شاكلة ما حدث فى ثورة ١٩١٩ فى مصر، وكان الهدف من ذلك هو شل حركة الجيوش البريطانية، وإرباكها وإفقادها السيطرة على البلاد حدث ذلك بسبب مشاركة قطاعات واسعة من الشعب العراقي من العشائر ورجال الدين وزعماء الحركة الوطنية فى المدن وجماعات العسكريين من أعضاء الجمعيات القديمة والضباط الذين كانوا يعملون فى الجيش العثمانى مما جعل

السلطات البريطانية تعتقد أن قوات من الجيش التركى تعمل إلى جانب الثوار، وقد برزت أسماء خلال تلك المعارك من أمثال سامى النقشلى وعلى الباذركان وعبدالكريم العلاف وغيرهم.

وعلى الرغم من أن القوات البريطانية استطاعت فى النهاية أن تضع حدا للثورة بسبب تفوق آلة الحرب البريطانية واستخدام الطائرات على نطاق واسع لضرب تجمعات الثوار مقابل أسلحة الثوار المتواضعة، فإن الثوار ورجال القبائل استطاعوا أن يلحقو بالقوات البريطانية خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات والجوانب المادية وقد استمرت الثورة قرابة خمسة أشهر تكبد البريطانيون خلالها ٢٢٦٩ ما بين قتيل وجريح ومفقود كما قدرت الخسائر المادية بحوالى ٤٠ مليون جنيه استرلينى كما بلغ عدد ضحايا الثوار ٨٠٠٠ ما بين شهيد وجريح.

حكومة عربية مستقلة

وتجدر الإشارة هنا إلى عدم وجود قيادة مركزية للثوار تتولى التخطيط والتوجيه والمتابعة بين المناطق الثائرة وقيادتها قد ساهم فى سرعة تصفية الثورة ، فعلى سبيل المثال لم يتزامن قيام الثورة فى مناطق العراق وألويته المختلفة فعلى سبيل المثال أن أعمال العنف فى الألوية الجبلية ومن بينها الموصل قد بدأت فى عام ١٩١٩ وفى الوقت نفسه استمرت عمليات المواجهة فى بعض المناطق مع البريطانيين إلى ما بعد قيام حكومة عبدالرحمن الكيلانى التى اختارها الإنجليز لسرعة تهدئة الأوضاع فى ٥ أكتوبر ١٩٢٠، واضطرت السلطات البريطانية للدخول مع عناصر الثورة فى تلك المناطق إلى مفاوضات مباشرة كان أهم شروطها أن تكون للعراق حكومة عربية مستقلة وأن يضمن الإنجليز الاستقرار فى تلك المناطق وفى الرميثة والسماوة.

وقد أثبتت أحداث الثورة أن الشعب العراقى كان يتمتع بقدر من الوعى والنضج السياسى والاجتماعى وضح ذلك فى محادثات الزعماء العراقيين مع السلطات البريطانية وخلال البيانات والمنشورات التى أصدرتها عناصر الثورة والحكومات المحلية التى اقيمت فى بعض مدن العراق مثل النجف وكربلاء وداندلى لإدارة شئون تلك المدن بعد سقوط السلطة البريطانية فيها (يشبه ذلك الحكومات التى أقامها الثوار فى بعض المناطق فى ثورة ١٩١٩ مثل جمهورية زفتى)، ورغم التركيبة الإثنية والعرقية المعقدة فلم تر خلال الثورة أى دعوة انفصالية فى أى من أقاليم

العراق.

لقد كانت أبرز نتائج ثورة العشرين كما يسميها العراقيون هو ارغام بريطانيا على تغيير سياستها فى العراق من الحكم العسكرى المباشر إلى شكل من أشكال العلاقة التعاهدية فى معاهدة ١٩٢٢ ثم إلى علاقة أساسها التحالف فى معاهدة ١٩٣٠، عندما بدأت السلطات البريطانية اجراء مشاورات مع مجموعة من الأعيان المعروفين انتهت بتكليف عبدالرحمن الكيلانى نقيب أشراف بغداد بتشكيل حكومة مؤقتة والتى شملت ٩ وزارات إلى جانب ١٢ وزيرا بلا وزارة فى أكتوبر ١٩٢٠، ورغم الظروف التى أحاطت بتلك الوزارة فإنها تعد أول حكومة عراقية فى تاريخ العراق الحديث والمعاصر كما أن قيامها كان يعني اعتراف بريطانيا بوجود الدولة العراقية.

وقد شهدت الفترة التى أعقبت قيام حكومة الكيلاني حوارا حول شكل الحكم انتهى بإجراء النظام الملكى كنظام حكم للعراق ونودى بفيصل بن الحسين ملكا على العراق فى ١١ يوليو ١٩٢١ وأصبحت الخطوة التالية هى تنظيم علاقة الدولة الجديدة ببريطانيا ومن ثم توقيع معاهدة ١٩٢٢ بين بريطانيا والعراق، وفى إطارها أصبحت علاقة بريطانيا بالعراق علاقة تعاهدية غير أن القيود التى تضمنتها تلك المعاهدة جعلت الحركة الوطنية تعمل جاهدة لتغييرها، وخلال الفترة التى أعقبت توقيع معاهدة ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٢٦ حاولت السياسة البريطانية استخدام قضية الموصل كورقة ضغط على الحركة الوطنية العراقية في محاولة لترويضها وكانت قضية الموصل أحد القضايا التى نجحت عصبة الأمم في حلها لصالح العراق فى مواجهة ادعاءات تركيا، عندما قررت عصبة الأمم بأن الموصل أرض عراقية واعترفت كل من تركيا وبريطانيا بذلك فى معاهدتين منفصلتين وقعتا مع العراق عام ١٩٢٦ واعتبرت الحدود الحالية بمقتضى المعاهدتين حدودا نهائية للعراق.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت الحركة الوطنية تعمل على تغيير معاهدة ١٩٢٢ إلى معاهدة تحمل طابع التحالف والندية، ومن ثم وقعت بريطانيا مع العراق معاهدة ١٩٣٠ والتى اتخذت شكل تحالف بين الدولتين وفتحت الطريق لقبول العراق كعضو فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢. ■

العتبات المقدسة في العراق



النجف وكربلاء والكاظم
مقامات الأئمة

بقلم
د. هاني فحص (لبنان)

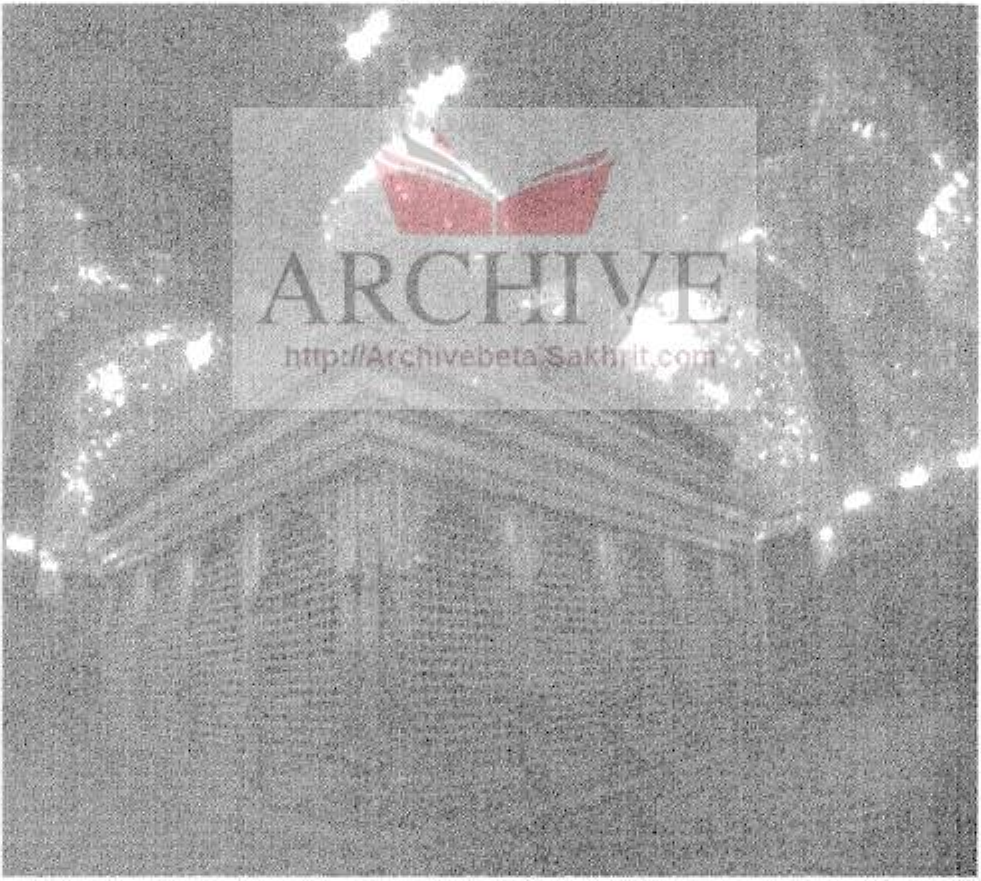
مكان مخيم الإمام الحسين وأهل بيته في كربلاء، قبل استشهاده



فى معجم البلدان: «النجف بالتحريك.. وهى بظهر الكوفة» تبعد عن الكوفة غربا (١٠ كم) وعن بغداد جنوبا (١٦٠كم) وهى على مقربة من الحيرة، عاصمة المناذرة، وتبعد عن الحلة (بابل) ٦٠ كم جنوبا وعن كربلاء ٨٠ كم جنوبا كذلك.

دفن فيها الإمام على وفيها وادى السلام من أكبر المقابر فى العالم، تحولت إلى جامعة «حوزة علمية دينية» عام ٤٤٩هـ بعد ما احتل «طغرلبك» السلجوقى بغداد وهدم منزل كبير علماء الشيعة الإمامية وأحرق مكتبته، فرحل الشيخ (أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى) ٣٨٥ - ٤٦١هـ إلى

ضريح الإمام على



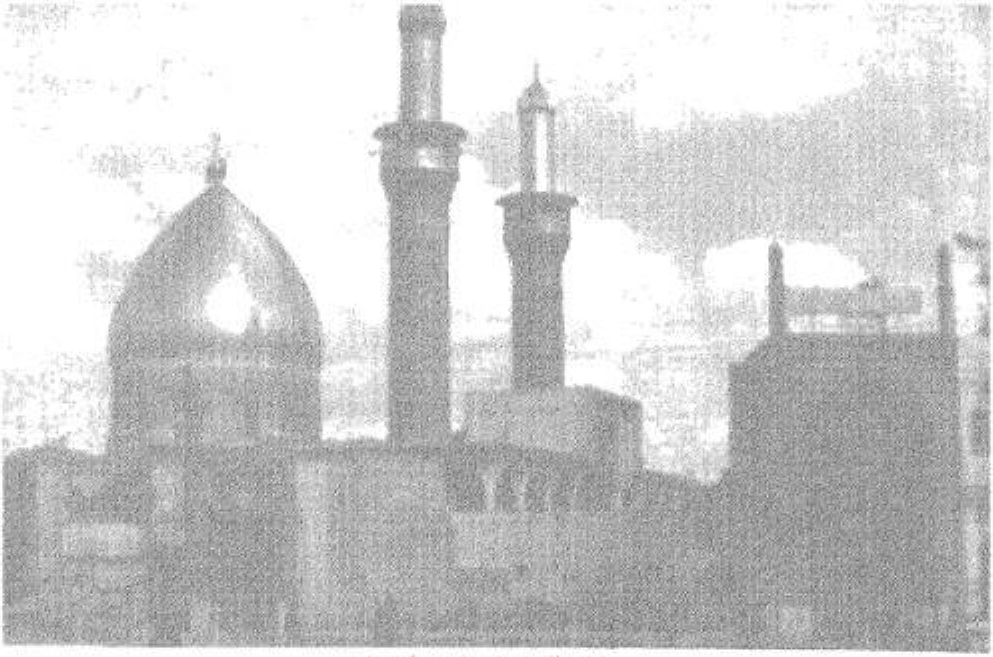
النجف وبنى فيها حوزة علمية على الأساس الذى كان قد أسسه عضد الدولة البويهى عام ٣٧١هـ ، تخرج فيها عدد يصعب إحصاؤه من المجتهدين والعلماء المتخصصين فى سائر العلوم الإسلامية والعربية ، وانفتحت على الحواضر العلمية فى العالم الإسلامى وخاصة مصر وأزهرها. قاد علماؤها ثورتها عام ١٩١٨ - ١٩١٩ ضد الإنجليز ثم قادوا فيها ثورة العشرين إلى جانب الدولة العثمانية رغم وضعها المتراجع.

النجف

تعتمد الحوزة فى النجف دراسة الحلقات أسلوبا وتطورها باستمرار من دون تفريط بحرية اختيار الطالب والأستاذ فى الدراسة والمرجعية أو الاستقلال المالى الذى جعلها عصية على محاولات السلطة لمصادرتها ، ولكن النظام الحالى عمل على تشتيتها وإضعافها وحصارها وحقق نجاحا ملموسا فى ذلك لم يمنعها من الممانعة التى ظهرت ثمراتها فى مقاومتها للعدوان أخيرا. تبلورت فيها تجربة تحديث منذ أواخر الخمسينيات من خلال جمعية منتدى النشر وكلية الفقه التى انفتحت على حقول علمية حديثة وعلى الدراسة الفقهية المقارنة وعلى الجامعات العربية من بغداد إلى القاهرة وعين شمس وقد درس فيها من المصريين الدكتور عبدالله درويش والدكتور حسين نصار ، ونال بعض خريجيها شهادات الدكتوراه من جامعات مصر وغيرها. وقد كانت حوزة النجف ناشطة منذ وقت مبكر فى مجال التقريب بين المذاهب الإسلامية ومحاولات تفادى النكبة فى فلسطين منذ شاركت بشخص مرجعها الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء فى مؤتمر القدس ١٩٣١ وقد أم المؤتمرين أثناءه. وتظاهرت النجف واعتصمت فى مسجد الإمام على أثناء العدوان الثلاثى وسقط فيها شهيدان.. يقع المسجد فى وسطها وهى تتحرك منه وإليه فى كل شئونها ويلتقى فيها طلاب العلم من إيران وباكستان وأفغانستان ولبنان والبحرين والاحساء والقطيف وسوريا وعمان وغيرها.

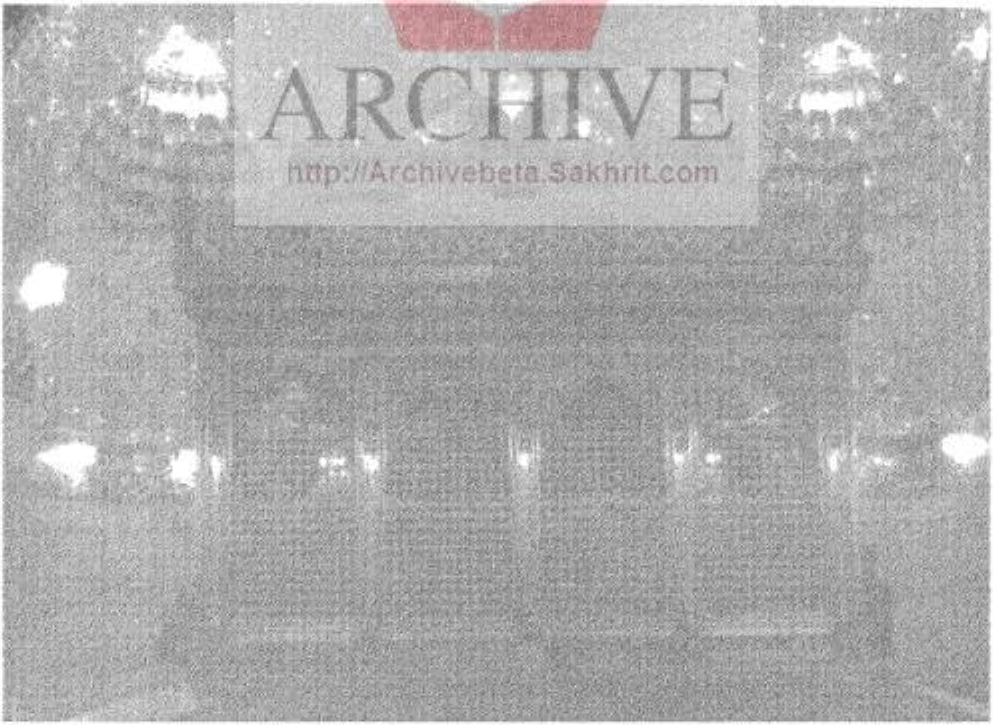
كربلاء

منحوتة من «كوربابل» أى مجموعة قرى بابلية . وفى رأى الأب أمنستاس الكرملى أنها منحوتة من «كرب - إيل» أى حرم الله، على بعد ٨٠ كم، شمال النجف و٨٠ كم جنوب بغداد غربى الفرات، فتحت بعد القادسية وكانت قاعدة المسلمين قبل تمصير الكوفة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتل يزيد بن معاوية الحسين بن على واثنين وسبعين من أصحابه وأهل بيته فيها



مرقد العباس بن علي بن أبي طالب

وضريحه رضي الله عنه من الداخل



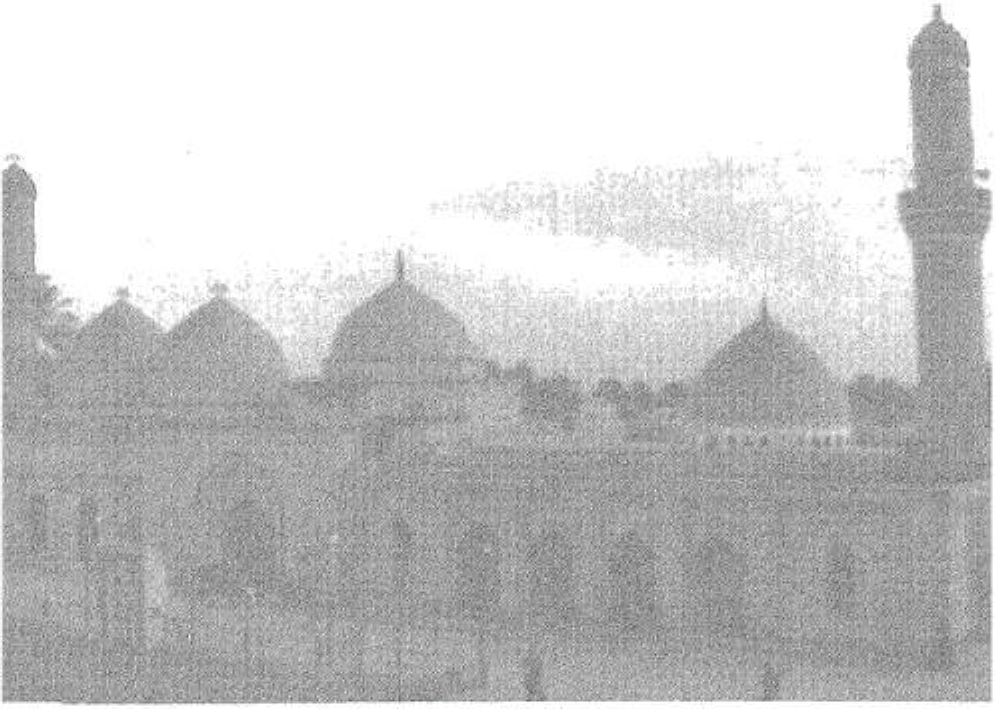
سنة ستين للهجرة وأكمل طريقه إلى المدينة فقتل من أهلها خلقا كثيرا وأباحها لجيشه وأخذ البيعة من الناس على أنهم عبيد ليزيد وانتقل جيشه إلى مكة فقتل من قتل وهدم الكعبة وأحرقها. وحمل رأس الحسين مع السبايا إلى الكوفة ثم إلى الشام حيث وضعه يزيد في طشت وأخذ ينكثه بخيزرانة وهو يحتسي الخمر متمثلا شعر ابن الزبعري شماتة بشهداء أحد ويختمه بالقول:

لعبت هاشم بالملك فلا

خبر جاء ولا وحي نزل

وحمل الرأس إلى عسقلان ومنها إلى القاهرة بعد بنائها .. حلت كربلاء مرات عدة محل النجف في دورها العلمي عندما كانت تتعرض النجف للحروب والأوبئة والمجاعة وشاركتها قيادة وقاعدة في ثورة العشرين والعقوبات التي تلقتها من الإنجليز عليها.. يزورها كما يزور النجف والكاظمية وسامراء عشرات الآلاف من المسلمين عموما والشيعة خصوصا من سائر الأقطار الإسلامية ويمدونها بأسباب الحياة والازدهار، ويتوسطها مسجد الإمام الحسين الذي يحتوي ضريحه وأضرحة الشهداء وعلى مقربة منه ضريح أخيه العباس وقريبا من الكوفة دفن الحر بن يزيد الرياحي الذي كان قائد كتيبة في جيش يزيد جعجعت بالحسين في البداية ثم انفصل عنها الحر وانحاز إلى الحسين وكان أول الشهداء بين يديه.. وفي أربعين الحسين من كل عام، وأي في العشرين من صفر، تغص كربلاء بمئات الآلاف في الزوار من العراق وخارجه.. وأكثر العراقيين يأتونها مشيا على الأقدام ويقيم لهم أهل الطريق مضايف لراحتهم ومئونتهم.. ومنذ أخذت الحكومة تزيد من حصارها وتضييقها على العراقيين عموما وأهالي كربلاء والنجف خصوصا، تحولت هذه الزيارة إلى حركة سياسية ما جعل الدولة تطلق عليها النار في إحدى السنوات ثم تعمد إلى منعها منذ عقدين من الزمان في الأقل.

ومن النجف وكربلاء انطلقت حركة مناهضة للشيوعية بعدما عمت فوضى الشيوعيين العراق بأجمعه وهددت أنظمة العلاقات والقيم والأفكار الإيمانية وصدرت فتوى المرجع السيد محسن الحكيم بتحريم العمل مع الشيوعيين فانتبهت الحكومات إلى أهمية دوره ووضعت عينها على النجف التي عاد مرجعها السيد الحكيم فأفتى بحرمة قتال الأكراد فأربك الدولة .. وتذكر الجميع مرجع الشيعة في أواخر القرن الثامن عشر (الميرزا الشيرازي) الذي أفتى بتحريم التنباك الايراني بعد اتفاق ناصر الدين شاه القاجاري مع شركة التنباك الانجليزية على حصر التنباك الايراني فيها ، وخاف ناصر الدين شاه فألغى الاتفاق. وكان ذلك تمهيدا للانخراط في الثورة الدستورية «المشروطية» التي امتد أفقها من اسطنبول إلى طهران إلى النجف وكربلاء والكاظمية وبغداد وتجاوز الجميع حساسياتهم المذهبية والتقوا على



مرقد سلمان الفارسي رضي الله عنه

الإمامان موسى الكاظم ومحمد الجواد



الحرية والديمقراطية والعدالة والوحدة والأصالة المعاصرة أو المعاصرة الأصيلة.

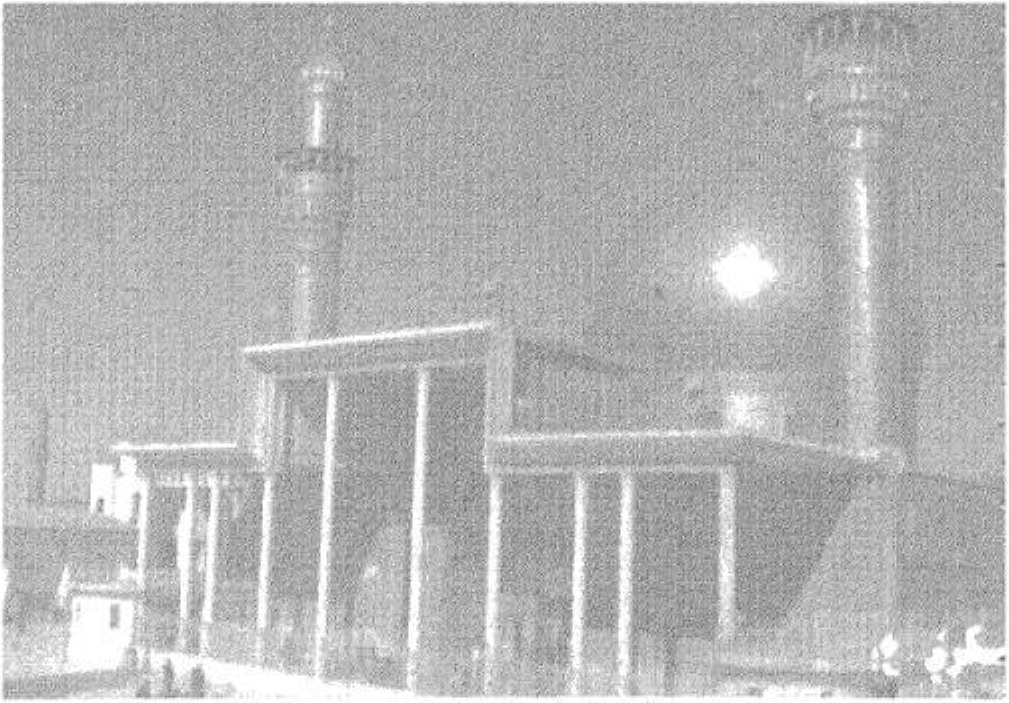
الكاظمية

منسوبة إلى الإمام موسى بن جعفر (الكاظم) لشدة كظمه للغيظ .. بينها وبين الجانب الغربي من بغداد ثلاثة أميال، ومسجدها الذي يحتضن ضريحي الإمامين الكاظم والجواد، لا يعرف تاريخ بنائه سوى أن الطائع العباسي ٣٦٣ - ٣٨١هـ صلى الجمعة إماما فيه أكثر من مرة .. عن الإمام موسى الكاظم يقول إبن شهر آشوب: «كان أفقه أهل زمانه وأحفظهم لكتاب الله وأفصحهم لسانا سليل النبوة وعقيد الخلافة» تضايق هارون الرشيد من مكانته في الناس وإعراضه عنه، ووشى مسرور به إلى الرشيد الذي أمر السندي بن شاهك بحبسه فحبسه وجعل على حبسه أخته المتدينة فكانت إذا رأته قالت: «خاب قوم تعرضوا لهذا الرجل الصالح» مكث في السجن أربع سنوات ومات بالسم الذي دسه له السندي، ولخوف السلطة من أثر فعلتها وضعت جنازته على الجسر ليراها الناس ويصدقوا بموته وكونه طبيعيا ، ودفن في الكاظمية سنة ١٨٣هـ. المحلة التي سميت باسمه ويقال لها «الكاظميين» نظرا لوجود ضريح الإمام الجواد وتغليبا لاسم الجد على اسم الحفيد في التثنية كما هو معروف لغويا.

أما الإمام محمد الجواد جار الكاظم فهو حفيده ونجل الإمام على الرضا الذي قرر المأمون نقل الخلافة إليه استمالة للمسلمين المحبين لأهل البيت، فأبى وقبل بولاية العهد، وعندما رأى العباسيون احتفاء المسلمين بذلك أيقنوا أن خلافتهم في خطر فتدبروا له موتة بالسم، فأصر المأمون على توجهه فزوج ابنته أم الفضل من نجل الرضا أي محمد الجواد الذي كان معروفا من فتوته المبكرة بسعة علمه، وما عتم المأمون أن توفي وخلفه أخوه المعتصم فاستدعى الجواد إلى العراق من خراسان وتآمر عليه مع ابن أخيه جعفر بن المأمون واحتالا لقتله سنة ٢٢٠هـ وعمره ٢٥ سنة فدفن إلى جانب جده ليصبح ضريحاهما مثابة للمسلمين من دون فوارق مذهبية خاصة وأن مقامهما يقع مقابل الأعظمية وقريبا منها، أحد أهم أحياء بغداد السنية وفيها ضريح الإمام أبي حنيفة تلميذ الإمام جعفر الصادق والذي دفع غاليا ثمن حبه لأهل البيت ومناصرته لهم . وقد تميزت الكاظمية بأنها كانت ملتقى للحوار وقد بذل علماؤها عموما وآل الخالص (الشيخ مهدي والشيخ محمد) خصوصا جهودا توحيدية كبيرة كانت لها ثمرات سائغة تذوقتها بغداد وقد عمدوا حوارهم بالجهاد ضد المحتلين وأهل الجور من كل لون.

سامراء

سامراء المدينة بناها المعتصم العباسي سنة ٢٢٠هـ ولم يكن هو الذي وضع اسمها على رأي الكرملي، لأن الاسم ذكره المؤرخ الروماني «أميانس



الحسن العسكري وعلي الهادي

مرقد مسلم بن عقيل في الكوفة



مرقلينس» ت ٣٩٠م «سومرا». أما مدها سامراء فقد أحدثه العرب والحريرى يقول: الصواب «سرمن رأى» مثل تأبط شرا عرفت فى أيام الساسانيين باسم «الطير هان» وكان فيها دير أصبح بيتا لمال المسلمين وفيها وحولها كانت للنصارى أديرة كثيرة لقربها من دجلة . أهمها «دير مرمارى ودير العذارى».

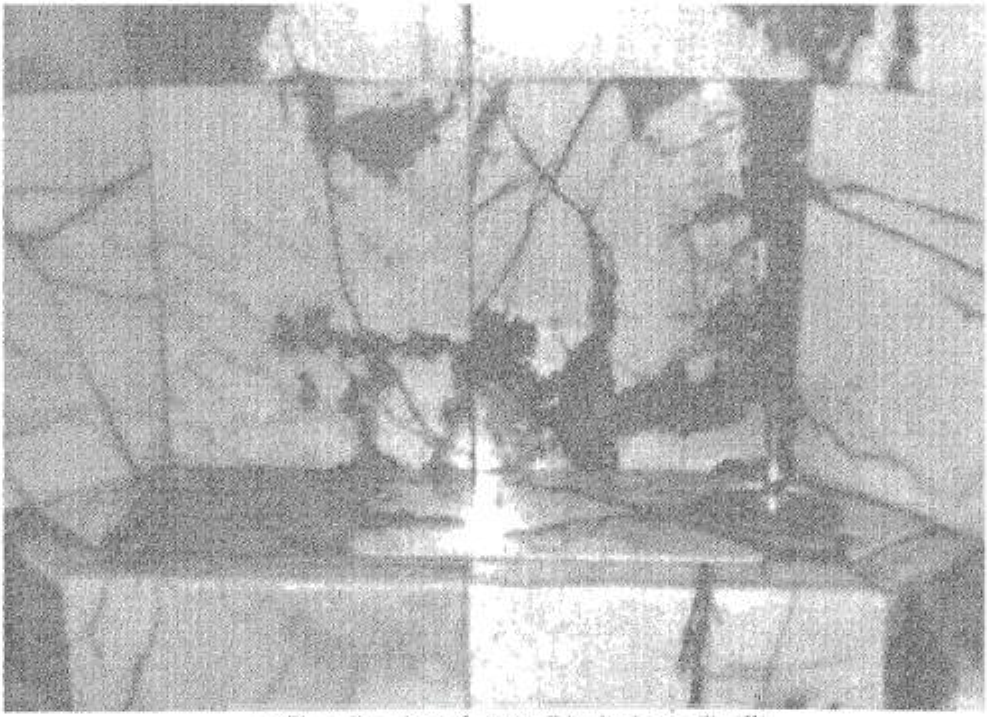
عندما ضجت بغداد من رقيق المعتصم الأتراك قرر أن يخرج بهم من بغداد فبنى سامراء وجعلها عاصمته ومن بعده خلفاؤه ومنهم المتوكل الذى عظمت عنايته بها فبنى المسجد الجامع الذى تقع على بعد خمسة وعشرين مترا منه المئذنة المشهورة بالملوية.

انتقل إليها المرجع الإسلامى الشيعى رئيس الحوزة العلمية فى النجف الميرزا محمد حسن الشيرازى حيث زاره فيها السيد جمال الدين الأفغانى مؤيدا له فى حركته ضد اتفاق ناصر الدين شاه القاجارى مع إنجلترا على جعل التنباك الإيرانى حكرا على شركة انجليزية وأصدر الشيرازى فتواه المشهورة بتحريم التنباك وأحدث ضجة داخل قصر الشاه وبين نساء القصر وخدمه حيث امتنع الجميع عن تدخين التنباك وخدمة المدخنين وكسروا «الأراجيل» فخاف الشاه وألغى الاتفاق.. واستطاع الشيرازى فى سامراء أن يزيل الحساسية بين السنة الأكثرية وبين الشيعة فى سامراء حتى أقاموا مجالس تعزية بالحسين مشتركة، ما جعل الوالى العثمانى يعجل بتفجير العصبيات والفتن لولا حكمة العلماء من الطرفين.

سكنها الإمام على الهادى عاشر أئمة أهل البيت ودفن فيها سنة ٢٥٤هـ ثم دفن فيها ولده الإمام الحسن العسكرى والد الإمام محمد بن الحسن «المهدى المنتظر» سنة ٢٦٠هـ إلى جوار أبيه فاتخذ الشيعة هذين المرقدين مزارا وأنشئوا العمائر حولهما فازدهرت المدينة ولاتزال بالزوار من كل الأنحاء والأقطار والمجاورين من السنة والشيعة، لأن الجميع اجتمعوا على محبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذاته وفى أهل بيته والاقتداء بهم .. ولم تخل سامراء من حوزات علمية محدودة على الدوام، كانت تزدهر ويتعاظم دورها عندما يتراجع دور النجف تحت وطأة الأحداث.

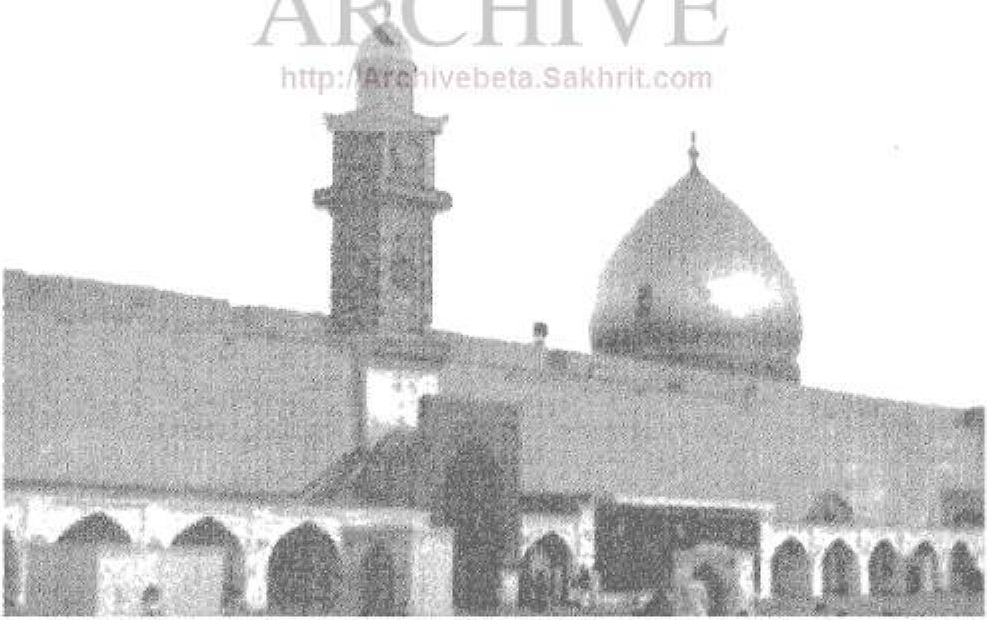
سنة ٦٤٠هـ احترق الضريحان فأمر المستنصر بعمارتهما مع المشهد وسنة ١٢٨٥هـ جدد ناصر الدين شاه شباك الضريحين (القفص) وغشى القبة بالذهب والمآذن بالقاشانى أسوة بمشاهد الكاظمية والنجف وكربلاء.. وفى الصحن الثالث من صحون المشهد يقع سرداب الغيبة الذى غاب فيه الإمام الثانى عشر (المهدى) كما يعتقد الشيعة من دون أن يعتقدوا بأنه يخرج منه عندما يخرج ليملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا .

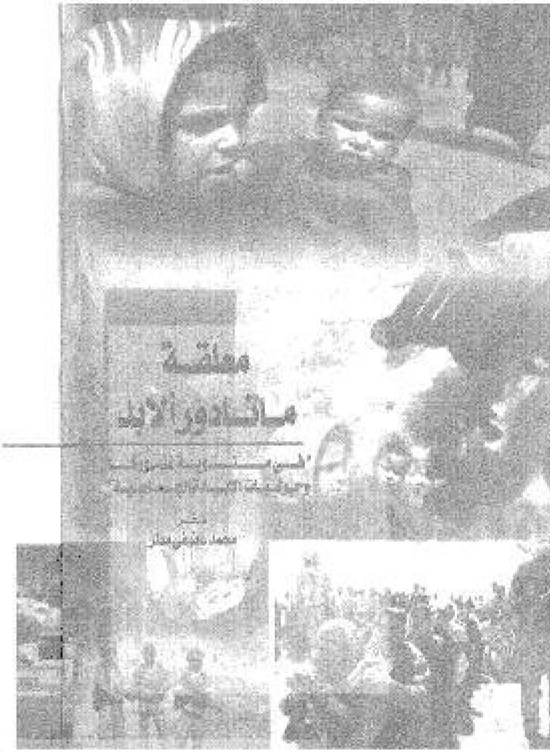
إلى هذه المشاهد يوجد فى الكوفة مشهد يضم ضريحى مسلم بن عقيل وهانى بن عروة وهناك مشهد لأبناء وأحفاد الأئمة فى أنحاء متفرقة من العراق. ■



المكان الذي نحر فيه السبط الحسين في كربلاء على يد الجيش الاموي

مسجد الكوفة





- ١ -

لم تكن تعرف ما يخفى زجاج الأفق الشفاف..
لم تعرف لهاث البرق.. هل كانت غوايات
الفضا المفتوح تغويه فيلهو
أم شهيق الرعد بالنار نصال كسرتها في
رخام الليل روح الغابرين!
أيها المنشد.. هل أقسمت ألا تحني إلا لعشب
الأرض أو قطر الندى،
هل تدرك المعقود أن تجدل من هذا الرخام
روحه الحرة والشاه وأن تقتاد لوق البرق والقيم
بحبل من تفاعيلك،
أن تنشد في رحل قوافيك رمالاً وبلاداً
ثم تحفر لزجاج الأفق كى تمسح من غبشته
غيم دخان ورماد ودم خلفه موت القدامى المنشدين!!
أيها المنشد.. هذا قسم سهل ونذر مستحيل
فعلى أى قوافيك تميل
هبط الصقر على أغصان معناك.. أترى أم صهيل
أو هو المغزل في صوف السماوات
لعين ونسيل وأفيل
وخيوط الذهب المطفأ حتى يحجل الطير بها تزغب
المعتم
في غيم بعيد يتلظى غسقاً في كهرمان في
تراب في دخان أم هو الكون يسيل
يتمطى في هيولاه دوى كدوى العصف قبل الخامسة!!
ساعة الكون على الحافة لما تتهيأ بعد في
هذا الزجاج المعتم المشروخ بالأسراب
والقافية العليا وإيقاع النداءات،
وفي الأفق نجوم من حصى النخل،
وغربان لها أجنحة الريح تعالت تلقط
المنثور من جمر الحصى،
تعلو وتهوى في انتظار الخامسة.
لامع هذا الرخام الأسود المرفوع في غيم الظلام..
البرق لا يكشف إلا رجفة المعدن في
أوردة الصمت الذى يسبق رعد الخامسة.
لم يكن تروقت أن يبدأ
هذا أزل من زمن الفعل الذى
لم يكتشف صيغة ماضيه،

عجين برزخ ما بين ماءين،
وطين ذاهل فى أبد القتل
ومكنون على هاوية النطق قبيل الخامسة
إنه الغمر ومكنون الدم المعقود فى عاصفة الظلمة
دقت ساعة الكون تمام الخامسة
وردة هائلة من شفرات الصوت والأصداء والمعدن،
ثورا بامتداد الأفق والريح،
بقرنيه الهلاليين محراثان فى عمق الفضا
يحتفران الملكوت
سككا للكوكب السيار والنجم وروح الفجر
فى ألوانه الأولى،
وأخدوداً لمن فى النعش أو من يحملون النعش،
مسرى للتفاعيل إذا لج غناء أو بكاء
إنه الثور الإلهى الذى سدد عينيه إلى كل وميض
من دم أو شفق أو وردة،
كل الحضارات غوايات حرير أرجوان والتواريخ
نجيع نابض فى طرف قرنيه
وقد دقت تمام الخامسة
إنها من أزل البدء وحتى أبد القتل تدق الخامسة
يخرج القرد..
وليداً كان فى مفتتح الرؤية يحبو أم
عجوزاً وقديما قدم الأدهر يصحو
من نعاس الأزل الأول؟!
يطوى وحشة الظلمة فى دهشته الأولى بما
يقطر من شمس الندى فى الشجر العالى أم
الدهشة شمس طلعت فى ظلمات الذاكرة
كى يرى ما قد رأى؟!
هل صخب البحر البعيد
صخب ينبع - من أقمطة النسيان فى أعماقه - موج نداءات،
أم الخطوة نحو البحر ميراث جديد
لدم يقطر حتى أبد القتل؟!
أم البحر ثوانى الساعة الخامسة امتدت
من الكون لكى تفتح فى أحشائه ذاكرة العصف؟!
وهل وزن النشيد
من تفاعيل الصدى والموج؟!
فاسمع أيها المنشد
صقر الموت قد حط على أغصان معناك

وثور بامتداد الريح..
والوقت تمام الخامسة:
يسامر البحر أهله الأقدمين من غرقى الغزو
ومغامرى القراصنة والمخدوعين بالفتح والكشف
وصرعى الأهوء،
كنوز الأسلاب من إبداعات الذهب والفضة
وألهيات المعدن النفيس والخسيس
تتنفس أوانى الطين المحروق بأشكالها وعوالم
صورها التى تأبدت بالنار المتوقدة من أرواح
خالقيها وأوهام تجارها ونشوة الشاربين والطاعمين،
المراكب القديمة - منذ ركب الإنسان البحر - ترقد
بهياكل العظام والاصطرلابات ومسلات التحديد
المطلق لمغناطيسية الشمال وسائر الجهات،
وما المد والجزر إلا شهيق الامتلاء بالإيقاعات وزفير
الأحلام المكتمة فى خزائن الرصاص وأوزان العروض
المجهولة،
فى جوف الظلمة أسواق للموت معقودة وثرثرة
بالملاحم لا تنقطع،
تنفخ مواقد الماء وأفران الزبد دخانها السيال بالرخويات
والغرويات ومخاط العشب ورغويات الرفات الذائب،
هياكل الملوك والأباطرة تدير الجماجم لاستراق السمع
صدئت التيجان والعيون العظمية الفاغرة تحدق فى
ظلمات الأعماق عل صيحة الزينة تتفجر
بحشود الرعايا
ولا يغسل صدأ السيوف إلا الدم، ولا تسترد
التيجان وأرائك العروش شموس جواهرها إلا
برهج الزحف وشحذ السلاح على السلاح
فيا أيها الملوك والأباطرة والحشود المحشودة
دقت الساعة الخامسة
فحدقوا فى الظلام واسترقوا السمع..
امرأة على الشواطىء شاردة
لا تسمع من كل شىء إلا صيحة الوداع الظافرة
وتنهدات السقوط بين أحضان العودة المؤجلة،
ولا تبتل أصداف الأصابع العارية إلا برجفة الحنين
إنها الساعة الخامسة فى دم العناصر كلها
تحل الأنشوطة ليستدير الثور ويسدد عينيه وقرنيه
إلى ومضة الدم وأرجوان القصيدة

تماما فى الخامسة
فى الخامسة تماماً

- ٢ -

من وراء الأفق الشفاف يعلو قمر الرمل نديا
يتزى خضرة الطحلب يلتف على الجبهة لبلاب الغيوم
ثم يعلو فى سماوات الصحارى فيشف الرمل عن
نهر دم كنت أراه
منذ ما فتحت عينى،
ولم أبصر سواه
نازلاً من نفس الماء خفيفا معشب الخطوة
يستاق إلى الوديان قطعان وعول وفهود من
مسامير الكتابات على الألواح،
يرعى حمر الوحش وأطلاء الغزالات (وكان الموت لم يخلق ولم
يعرف عمود الشعر إلا قصب المستنقعات المنتشى بالريح)
لم أبصر سواه
ينطق المرمر فى كفيه أجناسا من الأحرف
والطير ويشنين الكلام
لوتس تعقده الحية فى التاج وأرض زخرف تنغل
بالخلق فقطعان من الوحش وأسراب صلال تتمشى
فى رواق المرمر المنحوت
(كان الموت لم يخلق.. ولم يعرف عمود
الشعر إلا قلبه المحموم بالرمل وبالظمى)
ولم أبصر سواه
طالعا من ذاته للأرض
يختط الأقاليم ويحدو رجز التجار فى
البر وفى البحر إلى أرض بخور وبهارات من
القرفة والفلفل والصندل،
ملتفا بمنقوش الحرير،
تاركاً فى ملمس الكشمير والمخمل آيات الحواس الخمس:
ورد كفه.. ينثره اللمس على نبق الصبايا وسهول
الزغب الأصهب، نوار اشتهاءات، وشوك
مرهف بالوجع البكر على جغرافيا الوعد الأمومى،
وورد من دخان
يتعالى من بصيص الجمر، والخضرة فى الروح لبانا وبخوراً
زاكياً يفضح ما يكتمه المرمر فى خلجانه من شهقة
العشق وشمس العشب والكحل
وأحلام العناقيد الجمان

ثم يغفو مثلما يغفو رنين الكأس فى بلوره،
يصحو كما يصحو عمود الصبح مبتلاً براووق الرضاب
واختطاف العنب السكران من تعريشة الوجه الجميل
آه يا مواله الطالع من وقد التفاعيل ووهج الغزل الرائق والتشبيب
لم أبصر سواه
يحرث الأفلاك بالمخطوط والكاغد، والحبر المصفى
شرر يرفض ما بين أديم الليل والخيل فترفض طيور
وفراشات لها أجنحة من خطه الكوفى والنسخى
والمسند رفت بين أعشاش من الخط
الثمودى على تبر الجبال
آه يا مواله البارق فى همهمة الغيم.. أموت خالق
هذى الرياضيات أم هذى اكتمالات عمود الشعر؟!
لم أبصر سواه
خالعاً شالاً من الذكر على هام القباب
عاقداً من بردة الرحمة بالخلق مناديل النبوات على
مئذنة الكون، ومن دمع العيون
لغة القسطاس فى رد السلالات إلى جنس التراب
ويرى المرأة إذ ترفو رقاعا من فراشات الدم النازف،
ترفو مزقا من زبد الروح،
تلف الرأس بالشال الذى يسقط من مئذنة الكون،
تسجيه على هدهدة الرعدة والفضة فى خلخالها،
ترفو فتوق الفجر..
يصحو حاملاً جثته بين ذراعيه،
ومن أروقة المرمر طوفان دم يعلو..
فيطفو صاعداً فوق مراقى المطر الأدهم
لم أبصر سواه
يحمل الموت على أكتافه.. جثته بين ذراعيه
ولم أبصر سواه
راكضا عبر مفازات التواشيح وأزجال ابن قزمان وطعم
الكتب المحروقة الزخرف والحكمة والفقه،
ولم أبصر سواه
وردة محروقة تسقط من عروة نهدين ومن ظل ضفيرة
وهى فوق العدوة الأخرى من البحر شرود ذاهل ،
حيث تجر الذيل يرفض دم الرمل،
ولم أبصر سواه
لا، ولم أبصر سواه..

ما الذى جاء بكم من رقم الطين خفافا وثقالا،
ليس هذا موسم الحج ولا عشتار عادت من كهوف
العالم السفلى، من جاء بكم من طلل الوادى قبيلا فقبيلا!
جررت أكفانها الوديان واصطفت سلالات رمِيم فى
انحلال الوقت كى يعجنها الموت المعاد
ليس هذا الذهب المصهور فيضا من مسامير الكتابات على
المرمر والطين..
فمن جاء بكم فى زمن يشوى به الطابوق
والفخار من لحم شعوب وبلاد!!
أم رأيتم فانسللتم أمما من غابر الموت؟!
وهل عشبة جلجامش من بين الهدايا،
أم هى الأفعى التى تلهث ما بين شقوق الذاكرة!
مرأة شاردة بين الزقورات ومن موطىء خفيها يطول النخل،
من فخار نهديها يسيل الدبس والعنبر،
من هفهفة المرط على الرمل ينابيع دم تشخب،
والشاعر يجرى حاملا جثته بين ذراعيه
وشال الموت نضاح على أكتافه،
نوع من الصلب المذاب
ترتخى أحشاؤه فوق عواليه فتنشق السموات
وتنشق بطون الأمهات
علق الأرحام يعدو.. حبله السرى ملتف على أعناقه فى
كرنفال الموت،
طير لاحم من معدن البرق،
سماط البحر ممدود على حاشية الأرض وقد أقعى
قرونا فى ظلام الملح والتوتياء
يختص بمنقوع الرميم
فاتحا أشداقه فى لحظة الخلق الرجيم:
يخرج الماموث قطعانا من الفولاذ،
والأبراج تعلو تحرث الأجواء بالليزر والسحر،
ونفاطون من آلهة الموت،
تعاوى الوحش بالثأر الكظيم
إنه البحر.. وهذا علق الأرحام يعدو..
حبله السرى ملتف على أعناقه فى
كرنفال الزينة العظمى..
خوار جوهر منكتم فى مرمر الثور الأشورى،
جناحاه من الفضة والشذر وعيناه

زجاج الروح
شمس الذهب الخالص تاج من مسامير الكتابات
مضىء وجهه فى هالة اللحية بالتمر وبالقمح
وريح العصف تذروه شظايا فى شقوق،
الأفق والشاعر يعدو حاملا جثته بين ذراعيه
وشال الموت نضاح على أكتافه
من قصب الأهوار حتى نينوى المرمر يعدو فى برارى القتل
من أشلائه ينبض شكل الأرض
فى قمصانه النخل القتيل
والقوافى قسم سهل ونذر مستحيل،
أم هو البدء الجليل
يتلظى شررا فى كهرمان فى دخان فى تراب
أم هو الكون بسيل!!

- * -

قل لنا يا خازن الانفس والمال، وقد تم تمام القافلة،
بعد أن تستقرىء الأرض شطوطا وأقاليم
أيبقى من سبيل
لم تغلقه علينا السابلة؟!
كم دفنا من حصاد القتل،
كم أبقت لنا الزلزلة الكبرى من الأحياء
أو أبقت لنا من جمرة الحلم ومن برد اليقين؟!
ما الذى يحمله الشاعر من أزمنة القتل الجماعى وما من
مطر أو نهر يغسل ملح الموت عن عينيه أو قيثاره؟!
يا امرأة المرمر والرمل.. اكشفى وجه الغلام
أنضجت طينته ثم شوت صلصاله الحرب
وفى فخاره ينسل نمل الروح يستل
الغوايات وأشباه التعاليم وأشباه الكلام
أيقظى فى فضة الخلخال مكنون الرنين
هدهديه وامسحى عينيه.
لم يبق سوى مرقمه المشحوذ للنقش على الألواح
والصيد السماوى لقطعان الفضاءات
أغنيك، أغنى وجهك المكحول بالقشمش والتمر،
أغنى طعمك الحريف فى الرشاد والسماق،
فى مستنقعات القصب المحروق قطعان وعول وفهود من مسامير
الكتابات وفجر من دم الفصحى
وفصحى لا تموت.. ■

كتاب الموسيقى الكبير

لأبى نصر محمد بن طرخان الفارابى

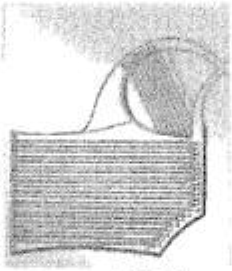
أو قران الموسيقى بالفلسفة

بقلم
د. نبيل حنفي محمود

للمؤرخ الشهير وعالم الاجتماع الأشهر: عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ/١٣٣٢م - ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) مقولة مهمة فى مقدمة تاريخه المعروف باسم «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر»، تنص تلك المقولة - التى كثيرا ما استعان بها البعض من المشتغلين بالموسيقى لوصف تطورها الطبيعى - على الآتى : «وهذه الصناعة (أى صناعة الموسيقى) آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ، والفرح، وهي أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه» ، ولعل فيما أصاب الأمة العربية الآن من ضعف وتفكك - يلمس المتابع آثاره الواضحة من ضحالة واغتراب نكبت بهما موسيقانا العربية المعاصرة - ما يبرهن على صحة ما قال به ابن خلدون قبل ستة قرون، إن ملايين المستمعين العرب ممن تطلق عليهم وسائل الإعلام من أجهزة مرئية ومسموعة العديد من الألحان الحديثة فى هيئة أغنيات أو إعلانات تجارية قد لا يعرفون أن هذه الألحان لا تمت بحال إلى مقامات الموسيقى العربية.

والمقام - وهو مفرد مقامات ويناظر السلم فى الموسيقى الغربية - بمثابة جدول يضم وينظم الأنغام العربية ويعطى الموسيقى العربية هويتها الخاصة، لقد شهدت موسيقانا العربية فى السنوات الأخيرة غزوا حضاريا لم يدهمها مثيل له على امتداد تاريخها الطويل، حتى أن تلك المقامات التى كان عددها قرابة المائة قبل سبعة قرون ، توارى معظمها واندثر من جراء دخول مقامات تركية وشركسية وغربية إلى صناعة الموسيقى العربية، وهو ما أثمر فى أن عدد المقامات العربية المتداولة فعلا بمصر خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين قد أصبح آحاداً لا تجاوز عدد أصابع اليدين، إن ما شهدته الموسيقى العربية من ثراء مقامى فى عصرها الذهبى قرابة منتصف العصر العباسى جاء نتاجا لجهد جيل من عباقرة المفكرين الموسيقيين الذين توالوا على هذه الفترة وكأنهم الشهب اللامعة، نذكر من هؤلاء المفكرين ثلاثة كانت لهم اليد الطولى فى تنظير الموسيقى العربية والكتابة عنها، وهم تبعاً للسياق التاريخى لظهورهم: الكندى (١٨٦هـ/٨٠١م - ٢٥١هـ/٨٦٥م) - الفارابى (٢٦٠هـ/٨٧٤م-٣٣٩هـ/٩٥٠م) وابن سينا (٣٧٠هـ/٩٨٠م-٤٢٨هـ/١٠٣٧م)، ومن الغريب أن هذه الأسماء الثلاثة أضاءت فى الذاكرة العربية والإنسانية قرين فروع من العلم عدة شملت الفلسفة - الطب - الرياضيات - اللغات - الفلك - المنطق والفقه، وكيف لا؟.. وقد واكب ظهورهم وصول شمس الحضارة الإسلامية إلى سمت الفكر الإنسانى.





آلة « الشاه ورد » .. آله قديمة تشبه القانون

فيلسوف وموسيقار

ولد أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ المعروف بالفارابى فى بلدة وسيج من مقاطعة فاراب بخراسان فى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م، وقد انفرد الحافظ شمس الدين الذهبى بين كل من ترجم لأبى نصر من مؤرخين باسم «أوزلغ» هذا لجدّ والده ، ولقب بالفارابى نسبة إلى مقاطعة فاراب التى شهدت سنوات صباه التى تَنبأت بظهور أحد العباقرة، تلقى الفتى محمد تعليمه الأولى فى فاراب حيث توسم فيه والده - الذى كان قائدا عسكريا - مخايل النجابة والذكاء، فأرسله إلى بغداد التى كانت حاضرة العصر ومنارة العلم، يصف شمس الدين الذهبى رحلة الفارابى مع الدراسة فيقول : «قدم أبو نصر بغداد، فأتقن بها اللغة، وأدرك بها متى بن يونس الفيلسوف المنطقى، فأخذ عنه، وسار إلى حرّان فلزم يوحنا بين جيلان النصرانى فأخذ عنه، وسار إلى دمشق وإلى مصر، ثم رجع إلى دمشق، وكان مفرطاً فى الذكاء» ، برع الفارابى مثله فى ذلك مثل عباقرة عصره فى عديد من فروع العلم والمعرفة، فبالإضافة إلى ما تردد عن إجادته لسبعين لغة، فإنه أجاد أيضا وصنّف فى الطب والرياضيات والكيمياء وقبل كل ذلك وفوقه الفلسفة التى عرف بها وأعطت لاسمه الشهرة والخلود، بدأ الفارابى إنتاجه الفلسفى بشرح كتب أرسطو

المنطقية والطبيعية والأخلاقية، والتى ضمت كتب: القياس - البرهان - الجدل - العبارة - المقولات العشرة - المغالطة - الخطابة - الشعر - السماع الطبيعي - السماء والعالم - والآثار العلوية، كذلك قام بشرح كتاب «المَجِسْطِي» في علم الهيئة لبطليموس الفلكي وجوامع كتاب النواميس لأفلاطون ، وغيرها من كتب علماء اليونان وفلاسفته ، فكان من الطبيعي أن ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة التأليف والتصنيف، فتوالت كتبه التى شملت عديدا من فروع العلم، نذكر من هذه الكتب التى وصل إلينا منها القليل ما يلي: إحصاء العلوم - رسالة فى معانى العقل - آثار أهل المدينة الفاضلة - الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون الإلهى وأرسطو - والرسائل الفارابيّة، ويعد الكثير من الباحثين كتاب «إحصاء العلوم» الذى شمل عرضا مختصراً لكل العلوم المعروفة فى عصر الفارابى أشبه بموسوعة أو دائرة معارف سبقت كل ما عرف من موسوعات عربية أو غير عربية بقرون عدة.

يمكن للمطلع على كتب الفارابى الفلسفية أن يحصر ما أضافه الرجل إلى هذا الفرع المهم من العلوم العقلية فى إنجازين اثنين، يتمثل أولهما فى محاولته التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام، وذلك بإثباته أنه ليس هناك خلاف بين طروحات الفلسفة اليونانية وبين معتقدات الشريعة الإسلامية، بينما ينحصر الإنجاز الثانى فى تبشيره بالمدينة الفاضلة التى كان يريدها نموذجاً لدولة مثالية تنشر الفضيلة والعدل فى العالم، على غرار تلك الجمهورية المثالية التى نادى بها أفلاطون فى أثينا قبل حوالى أربعة قرون من ميلاد السيد المسيح ، ولقد طارت تلك الانجازات باسم الفارابى إلى الآفاق، فقرّبه أهل الفكر من رجال الدولة إلى مجالسهم بغية الإفادة من علمه أو المباهاة به كواحد من أفذاذ عصره، وهو عصر تميّز بالثراء المادى والفكرى، إذ يكفى أن نطرح هنا أسماء بعض من قربوا الفارابى إلى مجالسهم، لنعرف قيمة هذه المجالس وما دار فيها، وأول هذه الأسماء هو الأمير أبو الحسن على بن عبدالله بن حمدان التغلبى (٣٠٠هـ/٩١٣م - ٣٥٦هـ/٩٦٧م) .. أمير حلب الذى عرف بسيف الدولة الحمدانى، يقول عنه شمس الدين الذهبى: «كان مقصد الوفود، ومطلع الجود، وكعبة الآمال، ومحطّ الرحال، وكان أديباً شاعراً» ، ثم يضيف الذهبى إلى ذلك واصفا مجلس سيف الدولة بقوله : «إنه لم يجتمع بباب ملك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء» ، وأما ثانى الأسماء فهو الوزير أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى (٢٦٦هـ/٨٧٩م - ٣٤٣هـ/٩٥٤م)، وقد تولى أبو جعفر الوزارة فى خلافة الراضى بالله بن المقتدر لمدة ثلاثة أشهر ونصف فيما بين رجب وشوال من سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م، ثم تولى الوزارة مرة أخرى لمدة ثلاثة وخمسين يوما فى سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م إبّان خلافة المتقى بالله بن المقتدر.

كانت الفلسفة أول ما أثرى به الفارابى مجلس سيف الدولة بدمشق، إذ اتفقت روايات المؤرخين على أن أول لقاء بين الفارابى وسيف الدولة حدث بدمشق فى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، ومن ذلك ما أورده ابن كثير فى تاريخه المعروف «البداية والنهاية» حيث يقول: «فقصد

سيف الدولة ابن حمدان دمشق فأخذها من أصحاب الأخشيد (محمد بن طغج)، ففرح بها فرحا شديداً، واجتمع بمحمد بن محمد بن نصر الفارابى التركى الفيلسوف بها» ، ثم يصف لنا شمس الدين الذهبى ما حدث فى اللقاء الأول بين الفارابى وسيف الدولة بقوله: «فقعد فى الصدر (أى الفارابى) وأخذ يتكلم مع علماء المجلس فى كل فن، ولم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل» ، وعندما سأله الحضور: «من أعلم، أنت أم أرسطو؟، فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه» ، ولم يلبث الفارابى كثيراً حتى أسفر عن ثانى ما أثرى به مجلس سيف الدولة فى دمشق، إذ تجمع كل المصادر التاريخية على أن أبى نصر أذهل الحضور عند سيف الدولة بعزفه على العود.. عزفاً لم يحفظ تاريخ الموسيقى العربية له مثيلا، فقد أجمعت تلك المصادر على أن عزف الفارابى أضحك الحضور فى أوله.. وأبكاهم فى منتصفه.. ثم ملك عليهم الحواس حتى غلبهم النعاس فى آخره!، ولما لم يكن للوزير أبى جعفر مثل ثقافة سيف الدولة وشاعريته، فإن حذق الفارابى لصناعة الموسيقى.. كان هو ما جمع بين الرجلين، وعندما ملك الفارابى على أبى جعفر عقله وقلبه بثراء قريحته الموسيقية، فإن الوزير تمنّى على الفارابى أن يجمع له علوم الموسيقى فى كتاب، وهو ما أثبته الفارابى فى مفتتح «كتاب الموسيقى الكبير» بقوله: «ذكرت تشوّقك النظر فيما تشتمل عليه صناعة الموسيقى المنسوبة إلى القدماء، وسألتنى أن أثبته لك فى كتاب أؤلفه وأتحرى فيه شرحه وتكشيفه بما يسهُل به على الناظر فيه تناوله» وبالرغم من أن «كتاب الموسيقى الكبير» يعد أهم مؤلفات الفارابى فى الموسيقى، بل يعده البعض أعظم ما صنّفه العرب طوال تاريخهم فى الموسيقى، لكنه لم يكن مؤلفه الوحيد فى الموسيقى، إذ تثبت بعض المصادر وجود مؤلفات أخرى للفارابى فى الموسيقى منها: «كتاب فى إحصاء الايقاع» - «كتاب في النقلة مضافا إلى الإيقاع» و«كلام فى الموسيقى» إلا أن هذه الكتب فقدت جميعها أثناء ما نزل بالحضارة الإسلامية من هجمات وغزوات، فلم يصل إلينا منها سوى «كتاب الموسيقى الكبير» وإشارات إلى أسماء الكتب الأخرى فيما حوته كتب تراجم الأعلام من ترجمة للفارابى، مثل تلك الترجمة التى أوردها موفق الدين أبو العباس أحمد بن أبى أصيبعة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م - ٦٦٨هـ/١٢٧٠م) فى كتابه الشهير «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»، وكذلك تلك القائمة الكاملة التى أثبتها هنرى فارمر فى كتابه «مصادر الموسيقى العربية» لمؤلفات الفارابى فى الموسيقى.

تسجل أحداث التاريخ ما جناه أهل الفكر من منافع وثروات مقابل اتصالهم بأهل السلطة، ولكن الفارابى الذي تقول لنا كتب التراجم عنه: «وكان زاهداً كزهد الفلاسفة، لا يحتفل بملبس ولا مسكن» نحا فى ذلك نحواً لم يسبقه فيه إلا الأنبياء والأولياء، إذ يصف لنا ابن أبى أصيبعة ما كان من أمر الفارابى إزاء ما يصله به رجال الدولة من هبات يتصاغر لها الكثرة ممن يُظن بهم أنهم أهل فكر فيقول: «ولم يكن الفارابى يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة فى اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضرورى عيشه، ولم يسكن إلى نحو من أمور الدنيا البتة، ويذكر أنه كان يخرج فى الليل إلى الحراس يستضىء بمصابيحهم فيما يقرؤه!» ، فكان من الطبيعى أن يخلف لنا رجل كالفارابى ما خلف من مصنفات تنوه بها مجموعة من المفكرين

وليس مفكر واحد، وهو ما نبأ عنه ترحاله الدائم من أجل العلم حتى السنة الأخيرة من عمره الذى شارف على الثمانين من السنوات، وقد سجل ابن أبي أصيبعة ذلك بقوله: «نقلت من خط بعض المشايخ، أن أبا نصر الفارابى سافر إلى مصر فى سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م، وعاد إلى دمشق وتوفى بها فى رجب سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م، عند سيف الدولة على بن حمدان فى خلافة الراضى، وصلى عليه سيف الدولة فى خمسة عشر رجلا من خاصته

الجزء الأولى : مدخل للصناعة

لا يجد من يتصدى للتعريف بهذا الكتاب خيرا مما قال الفارابى نفسه عن ذلك فى مفتتح الكتاب، يقول الفارابى: «والكتاب.. يشتمل على جزءين، جزء فى المدخل إلى الصناعة، وجزء فى الصناعة نفسها، والقسم الذى فى المدخل إلى الصناعة جعلناه فى مقالتين، والقسم الذى يشتمل على الصناعة نفسها جعلناه ثلاثة فنون: الفن الأول فى أصول الصناعة والأمور العامة منها، وهذا الفن هو الذى نجد جل القدماء الذين وقعت إلينا كتبهم والحدث الذين اقتفوا آثارهم نحوا نحوه فقط، والفن الثانى جعلناه فى الآلات المشهورة عندنا وفى مطابقة ما قد حصل بالأقاويل فى كتاب الأصول على ما هى فى الآلات وإيجادها فيها، وتبين ما اعتيد أن يستخرج من آلة آله، والارشاد إلى أن يستخرج فى كل واحدة من تلك الآلات ما لم تجر به العادة فيها، والفن الثالث فى تأليف أصناف الألحان الجزئية، وكل واحد من هذه الفنون الثلاثة فى مقالتين» (ص ٣٨-٣٩).

تدور المقالة الأولى من الجزء الأول بالكتاب - وهو المدخل إلى صناعة الموسيقى - حول الأسس النظرية لهذه الصناعة، ويبدأ الفارابى تلك المقالة بتعريف «اللحن» على أنه قد يكون إما «جماعة نغم مختلفة رتبت ترتيبا محدودا» أو «جماعة نغم ألفت تأليفا محدودا وقرنت بها الحروف» (ص ٤٧)، ثم يناقش بعد ذلك دلالات استخدام أى من التعريفين، لينتقل بعدها إلى هيئات صناعة الموسيقى، فيقول بأنها إما أن تكون «محسوسة للسامعين» أى تؤدى بشكل مناسب وتدرك بالسماع، وإما أن «تصاغ وتركب فقط» دون أن تؤدى بشكل مسموع، ويقرر الفارابى بأن هاتين الهيئتين لصناعة الموسيقى تندرجان فيما أسماه «صناعة الموسيقى العملية»، ويضيف إلى ذلك أن هناك هيئة ثالثة هى «صناعة الموسيقى النظرية» وهى التى تعنى العلم بالنغم والأصوات والألحان كأحد العلوم الطبيعية (ص ٤٩ - ٥١)، فإذا ما بلغ الفارابى فى المقالة الأولى إلى «هيئة أداء الألحان».. فإنه يقول بأنها «مركبة من نطق أو فعل نطق، ومن هيئة أخرى فى جسم آخر» (ص ٥٣) وهو ما يعنى قدرة الأحبال الصوتية فى الحنجرة البشرية على أداء الألحان، أو قدرة الجهاز التنفسى على دفع الهواء فى آلات النفخ، أو استطاعة اليد قرع الأجسام بنظام معين يصدر الأنغام المطلوبة، حتى إذا ما بلغ «هيئة صيغة الألحان».. فانه يقول بأنها تعنى «تمييز ما بين الجيد والردئ من الألحان والملائم وغير الملائم والنغم المتلائمة والمتنافرة، وكيف ينبغى أن ترتب حتى يصير ترتيبها ترتيباً ملائماً للسمع» (ص ٥٥)، ثم ينتقل بعد ذلك إلى «أصناف

الألحان وغاياتها» فيقول بأن أصناف الألحان ثلاثة: «أحدها الألحان المُلِذَّة، والثاني الألحان الانفعالية، والثالث الألحان المُخَيِّلَة» (ص ٦٦)، ويوضح أنه يعني بالألحان المُخَيِّلَة تلك الألحان التي تدفع النفس للتخيل والتصور والتأمل، وعندما يتعرض بعد ذلك لنشأة الألحان الغنائية.. فإنه يقول بأن وراء ذلك طلب البعض «بالترنُّمات الراحة واللذة وأن لا يُحس بالتعب أو بزمانه، وبعضٌ طلب بها إنماء الأحوال والانفعالات وتزييدها أو إزالتها والسلو عنها وتنقيصها، وبعضٌ قصد بها معونة الأقاويل في التخييل والتفهيم» (ص ٧١)، ويمضي الفارابي في المقالة الأولى من الجزء الأول من الكتاب ليتحدث بعد ذلك عن نشأة الآلات الصناعية التي صنعت لتحاكي الأنغام التي تتألف منها هذه الألحان، فيعدد هنا من الآلات: الرباب - المزامير - العيدان - الدفوف - الصنوج - الطنابير والمعازف، فإذا ما أوفى كل آلة حقها من التقديم، فإنه يكون بذلك قد أكمل حديثه عن كيفية نشوء صناعة الموسيقى ومتى اكتملت، وليكون ختام مقالته الأولى بالحديث عن تعلم الموسيقى والمبادئ الأولية في صناعتها.

يمكن لقارئ هذا العرض لما حوته المقالة الأولى من الكتاب أو لقارئ المقالة نفسها أن يستشف منهج الفارابي في مجمل الكتاب، وهو منهج يتسم بشمول النظرة ومنطقية وتسلسل الأفكار، وتدعم هذا المنهج معرفة موسوعية تستند إلى خبرة عملية واضحة بدقائق هذه الصناعة، فإذا ما انتقل الفارابي إلى المقالة الثانية من «المدخل إلى صناعة الموسيقى»... فإنه يبدأها بتعريف الألحان الطبيعية للإنسان، فيقول بأنها ألحان سكان المناطق والأقاليم فيما بين خطَّي عرض ١٥ و٤٥، ويقرر بعد ذلك: «وأما من خرج عن مساكن هؤلاء الأمم إلى الجنوب مثل أجناس الزنوج والسودان، وإلى الشمال مثل كثير من أجناس ترك البرية من ناحية المشرق وكثير من أجناس الصقالبة من ناحية المغرب، فإنهم خارجون على المجرى الطبيعي للإنسان» (ص١٠٩)، أي أن تلك الألحان الطبيعية في طرح الفارابي هنا هي ألحان أهل الشرق كالعرب والفرس وترك الأناضول والهنود، ثم يصنِّف الأنغام المؤلفة لهذه الألحان الطبيعية إلى أنغام أساسية تشكل أساس تلك الألحان وأسماها «أصول الألحان ومبادئها»، وأنغام ثانوية شأنها شأن «التزاويق والأصباغ» - بنص تعبيره - وهي التي أطلق عليها اسم «تزييدات الألحان»، ثم ينثني بعد ذلك للتحدث عن اقتران الأنغام وترتيبها في الألحان، فيوضح أن اقتران الأنغام إنما يعني اجتماع اثنين منها أو أكثر، بينما يُقصد بترتيب الأنغام في الألحان تقديمها أو تأخيرها، بعد ذلك يطرح الفارابي مفهومَيّ «الحدَّة» و«الثقل» كأداة للتمييز بين الطبقات الطبيعية للأصوات، إذ من المعروف أنه لا يقال «النغمة إنها ثقيلة أو حادة إلا بالنسبة إلى أخرى، فإن النغمة المسموعة من نصف الوتر حادةٌ بالنسبة إلى النغمة المسموعة من مطلقه (كله)، ثقيلة بالنسبة إلى النغمة المسموعة من ربعه»، وهو ما يعني أن ثقل النغمة يرجع في المقام الأول إلى طول الوتر وغلظه وإرخائه في الآلات الوترية، أو إلى اتساع الثقب وبعده عن فم النافخ في آلات النفخ، بينما تُعزى الحدة إلى قصر الوتر ودقّته وزيادة شدّة أو ضيق الثقب وقربه من فم النافخ، وحتى يجعل الفارابي من طرحه لمفهومَي حدة وثقل الأنغام قريبا من مخيلة قارئه، فإنه يعرض في سياق حديثه بالمقالة الثانية من جزء الكتاب الأول لواحدة من أكثر الآلات إعطاء للنغم في

بلاد العرب، وهى آلة «الشاه رُود» «شكل آلة» «الشاه رود» ص ١١٨ والتى تشبه كثيرا آلة «القانون» التى نعرفها الآن، ويقول الفارابى إن أول مبتكر لهذه الآلة هو رجل من أهل صُغد سمرقند يدعى خُليعى بن أحوص ، وأن تاريخ الابتكار يرجع إلى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م، ويوضح الفارابى هنا مدى قوة الأنغام الصادرة عن هذه الآلة بقوله: «إذا أخذنا أثقل نغمة فيها وقسناها إلى أحدّ نغمة فيها، وجدنا الأحدّ صياحَ صياحَ صياحَ صياحَ أثقل نغمة فيها، وهو قوة الأثقل الرابعة، وفيما بينهما ثلاث قوى، وهذا أبعد ما أعطتنا هذه الآلة «ص ١١٨)، والصياح هو نغمة النظير الأول الأحدّ بالقوة... والذى يستدل عليه بالنسبة (٢/١) فيما بين نغمة مطلق وتر وصياحها.

عندما أتم الفارابى تمييز الطبقات الطبيعية للأصوات... فإنه انتقل إلى تطبيق ما أرساه من مبادئ على الآلات التى تُصدر أنغام الألحان الطبيعية، فيبدأ بتعريف هذه الآلات بقوله : «وأكمل الألحان الطبيعية التى ألفت وتؤلف هى التى تُؤلف عن النغم الخارجة عن العود ثم من الناى ثم عن الرباب وأما سائر الأخر (أى الآلات الأخرى) فإن جلها تابعة للعود مثل المزامير والمعازف والطنابير الخراسانية» (ص١٢٠)، ولعل مقولة الفارابى تلك تكشف لنا السر فى استخدام كوكبة ملحنّى العصر الذهبى للأغنية العربية - إبان النصف الأول من القرن العشرين - لآلة العود فى تلحين أغنياتهم الخالدة، ثم يقوم الفارابى بإحصاء النغم الطبيعية المستخرجة من العود كنتيجة لتقسيم أوتاره عند مواضع متفق عليها، فيثبت أنها «اثنتان وعشرون نغمة فى كل دور»، ولا يفوته أن يثبت أن الآلات الأخرى كالناى والرباب لايمكن أن تصدر مثل هذا العدد من الأنغام، فإذا ما انتقل بعد ذلك إلى تجنيس الألحان... فانه يرسى أولا القواعد الحاكمة لذلك، وهى القواعد التى تحدد دور كل إصبع من يد العازف فى تجنيس الأنغام الصادرة عن آلة العود، ومن ثم فإنه يثبت عدد «القوى والنغم» التى تصدر عن الآلات الوترية على اطلاقها، ثم يسهب فى تعريف الأبعاد بين «القوى والنغم» مستعيناً على ذلك بحساب النسب والمتواليات العددية، فإذا ما أتم ذلك.. ختم المقالة الثانية من الجزء الأول من الكتاب بالحديث عن «المبادئ النظرية فى الصناعة» و«الكمالات العشر فى الصناعة العملية»، ولا يفوت الفارابى فى ختام الجزء الأول من الكتاب أن يذكّر قارئه بأنه لجأ لتحليل مبادئ الصناعة فى هذا الجزء... بينما سيكون تركيب هذه المبادئ وتجميعها هو منهج الجزء الثانى من الكتاب.

الجزء الثاني : تطبيقات عملية

بدأ الفارابى هذا الجزء بالحديث عن الفن الأول من فنون صناعة الموسيقى والذى أسماه «إسْطَقسات صناعة الموسيقى»، والاسطقس لفظ أعجمي معرب عن اليونانية ويعني الأصل أو الجوهر»، وقد قسم الفارابى حديثه عن الفن الأول إلى مقالتين، تناول فى الأول تعريف كل من : «حدوث الصوت والنغم فى الأجسام» - «أسباب الحدة والثقل فى الأصوات» - «البعد بين نغمتين» و«مقادير الأبعاد بقسمة الوتر»، ثم أتبع ذلك بتوضيح مقادير الأبعاد الصوتية الحادثة بالتركيب

والجمع والتنصيف والتقسيم، فإذا ما انتهى من ذلك.. فإنه يكون قد بلغ ختام المقالة الذى جعله عن ترتيب الأجناس وتقسيم أصنافها وإثبات الأعداد الدالة على نغم الأجناس فى جداول، ويطلق لفظ الجنس فى الموسيقى على جميع أصناف المتواليات اللحنية وعلى أصناف الأصول فى الايقاعات اللحنية، ومن الجدير بالذكر هنا.. أن الفارابى فصّل رتب الأجناس إلى رتبتين هما الجنس اللّين والجنس القوى، ومن هاتين الرتبتين تتفرع أصناف عدة مثل الجنس اللين المنتظم غير المتتالى - الجنس اللين المنتظم المتتالى - الجنس القوى ذى التضعيف والجنس القوى المتصل، وتعد الأجناس القوية فى ترتيب النغم ابتكاراً عربياً بحتاً، وهى الأكثر استعمالا فى الألحان العربية، وأشهر هذه الأجناس هو جنس «الراست» الذى تلحق به الثالثة الوسط المشهورة باسم «وسطى زلزل»، نسبة إلى منصور زلزل (توفى ١٧٥هـ/٧٩١م) أشهر عازف على العود فى الدولة العباسية، وتقدر وسطى زلزل بنسبة ٢٢/٢٧ من مطلق الوتر.

بدأ الفارابى المقالة الثانية من الفن الأول بالحديث عن أصناف جماعات النغم التامة وترتيب النغم فى هذه الجماعات، فمن ذلك قول الفارابى: «فنغمة (ى) وهى أحدُ نغمتىَ الذى بالكل الأثقل. أسميها (الوسطى)» (ص ٣٣٦)، وتقع تلك النغمة فى حال التسوية الطبيعية للعود على (دستان) سبابة الوتر الثالث، والدستان لفظ أعجمى معرب وهو مفرد دساتين وهى العلامات التى تستعرض عنق العود والآلات الوترية لتحديد أماكن النغم، وقد جرى العرف على تسمية النغمة (ى) التى عرفها الفارابى باسم (بوسلك)، وهى مقابلة لنغمة (دو) فى التصنيف الغربى، وقد يستغنى عن (الوسطى) بالنغمة التى تليها فى الحدة والتى تسمى (جهاركاه) وتقابل نغمة (رى)، ومن الممكن الاستغناء عن (الوسطى) أيضا بالنغمة الأعلى منها فى الحدة وهى نغمة مطلق الوتر الرابع وتسمى (نواه) وتقابل نغمة (مى)... وهكذا، ولكن العرف جرى على أن النغمة (الوسطى) هى نغمة (جهاركاه) (ص ٣٣٦ - ٣٣٧)، ثم انتقل الفارابى بعد ذلك إلى تعريف مبادئ التمديد، وهو حال النغمة فى الجماعة من حيث مدى امتدادها ثقلا أو حدة على جانبى الجمع المفروض، واتبع ذلك بالحديث عن تمزيج النغم وخلط أبعادها المختلفة التمديدات، فيضع قاعدة لذلك تنصّ على: «إن النغم المختلفة فى الحدة والثقل، قد يمكن أن تخرج من أوتار مختلفة حتى ينفرد كل وتر بنغمة، ويمكن أن تخرج من وتر واحد» (ص ٣٨٩)، ولتعميق معنى القاعدة فى ذهن القارئ... يتبع الفارابى تعريفها بمثال توضيحى يقول فيه: «والنغم إنّما يمكن أن يخلط بعضها ببعض متى كانت من وتر واحد، فمتى أخرجت نغمة من مطلق وتر، ثم وضع الاصبع على موضع فيه محدود، من قبل أن تنقطع النغمة، صارت النغمة المسموعة مخلوطة من نغمة المطلق، ومن نغمة الجزء الذى وضعت عليه الاصبع» (ص ٣٨٩-٣٩٠)، فإذا ما انتهى من تعريفه لتمزيج وخلط النغم بحديثه عن خلط الأجناس، فانه يحصر أعداد النغم الحادثة من تمزيجات الأجناس فى ثمانية جداول لتبسيط دراستها للدارسين ولتسهيل قسمة الأوتار حال الحاجة إليها، يتابع الفارابى بعد ذلك ما تبقى من موضوعات المقالة الثانية من الفن الأول، فيتحدث عن مبادئ الانتقالات من نغمة إلى نغمة أو من بعد إلى بعد أو من جنس إلى جنس، ويكون حديث الختام فى هذه المقالة هو تعريف أجناس الايقاعات،

فيقول أولا بأن الايقاع: «هو النُقْلةُ على النغم فى أزمنة محدودة المقادير والنسب» (ص٤٣٦)، ثم يفصّل أزمنة الايقاع المختلفة ويقول بأن بدايات النغم فى الأزمنة التى بين النغم إنما تحدد بالنقر أو بالقرع، وهو ما يقوده فى النهاية إلى تقسيم أجناس الايقاعات إلى موصلة ومفصلة،» و«المفصل هو الذى تنفصل فيه أزمنته المتتالية بعضها عن بعض بزمان أكبر من كل زمان يقع فى المتوالية، والموصل هو الذى تنفصل أزمنته المتتالية بعضها عن بعض بزمان آخر أصلاً لا أطول ولا أقصر» (٤٧٨).

يوضح الفارابى مقصده من الفن الثانى بالجزء الثانى من الكتاب وهو الخاص بالآلات المشهورة والنغم المحسوسة فيها، فيقول فى بداية هذا الفن: «وفيه يتبين ما يوجد من الأشياء التى لُخصت فى كتاب الاسطقسات محسوساً فى الآلات المشهورة، وإحصاء ما أعتيد أن يحس فيها، وما قد يمكن أن يوجد منها فى هذه الآلات محسوساً، وإن كانت العادة لم تجر به» (ص ٤٩٣)، والآلات المشهورة يعنى بها الفارابى هنا العود والطنابير والمزامير والرباب والمعازف، وقد تحدث عن تسوية الأوتار فى الوترىّ من هذه الآلات، وعدّد النغم والقوى المتجانسة واتفاقاتها مع مواضع الضبط (الدساتين) لهذه الآلات، وأعطى فى النهاية الأسس العلمية لضبط هذه الآلات وتحديد الأماكن الصحيحة لإصدار النغم منها، أى أن هذه المقالة جاءت كتطبيق عملى للأمثلة المطروحة فى الفن الأول من الجزء الثانى، وذلك باستخدام الآلات المعروفة حال تأليف الفارابى للكتاب.

إنه لمن البديهى الآن أن يدرك القارئ أن العقل الذى استوعب مبادئ صناعة الموسيقى التى حواها الفن من الجزء الثانى للكتاب، ثم ترجم – هذا العقل – تلك المبادئ فى صورة أنغام مستعينا بالآلات الموسيقية المشهورة على غرار ما أوضحه الفن الثانى، فإن هذا العقل يصبح مؤهلا بمساعدة الفن الثالث من هذا الجزء على أن يصنع من الألحان ما هو قائم على الأصول الصحيحة لتلك الصناعة كما يراها الفارابى ومن سار على نهجه من موسيقيين، وقد قسّم الفارابى الفن الثالث إلى مقالتين وجعل له اسم «فى تأليف الألحان الجزئية»، حيث اشتملت المقالة الأولى على «تعريف صنعة الألحان التى تركّب عن النغم باطلاق وعن الحادثة فى الآلات الصناعية»، أما المقالة الثانية فإنها «اشتملت على تعريف صنعة الألحان التى تتركب عن النغم الحادثة بالتلحينات الإنسانية، وهى التى يقرن بها الحروف التى تركّب منها الألفاظ منظومة على مجرى العادة فى الدلالة بها على المعانى وما بها ، ومنها تحصل هذه الألحان مؤتلفة (ص ٨٧٩) ، لذلك لجأ الفارابى فى المقالة الأولى من الفن الثالث لترتيب الجماعات التامة المنفصلة غير المتغيرة فى جداول تحوى أعداد النغم وملاءمات كل نغمة من نغم تلك الجماعات ومنافراتها، ثم أتبع ذلك بالحديث عن مبادئ الانتقالات ومبانى الألحان، وأوضح أن الانتقال قد «يكون على نغم الجماعة بأسرها وقد يكون على بعض نغم الجماعة» (ص ٩٥٩)، وأما مبانى الألحان فإنه يعرّفها على أنها «هى النغم

الضرورية التى منها تأتلف الألحان (ص ٩٦١)، ويختم الفارابى تلك المقالة بالحديث عن أصناف الايقاعات وأزمنتها والتغيرات التى تلحق أصولها والايقاعات العربية المشهورة، ويذكر من الايقاعات العربية المشهورة الايقاعات التالية: الهزج وخفيفه – خفيف الرمل – الرمل – الثقيل الثانى – خفيف الثقيل الثانى (الماخورى) – الثقيل الأول وخفيف الثقيل الأول، وأما المقالة الثانية فى الفن الثالث فقد أدارها الفارابى حول الصنف الثانى من الألحان، وهى الألحان التى تتركب من التصويتات الإنسانية المقرونة بالأقاويل ذات المعانى، فيتحدث أولا عن «التصويت الإنسانىّ»... فيقول بأنه «يحدث بسلوك الهواء فى الحلوق وقرعه مقعّرات أجزاء الحلوق وأجزاء سائر الأعضاء التى يسلك فيها مثل أجزاء الفم وأجزاء الأنف» (ص١٠٦٦)، ويقرر هنا بأن أسباب الحدة والثقل للصوت الإنسانى هى نفسها أسباب الحدة والثقل فى النغم المسموعة من المزامير، ثم يرتب بعد ذلك أنواع الأصوات الإنسانية، وينتقل بعدها الحديث عن الحروف المصوّتة وغير المصوّتة، وهو ما يقوده فيما بعد إلى تحديد أجزاء الحروف ونظائرها فى الايقاع، فإذا ما فرغ من ذلك تحدث عن أصناف الأقاويل، وعرج بعدها إلى صنعة الألحان، واقتران نغمها بحروف الأقاويل، ثم يتحدث فيما تبقى من المقالة الأخيرة من الكتاب عن أصناف الألحان الإنسانية وترتيباتها، فيقول عن أصنافها بأنها ثلاثة: الألحان الملوّة النغم – الألحان الفارغة النغم والألحان المخلوطة من فارغة النغم والملوّة، وفى ترتيبات الألحان يتحدث عن أجزاء الأقاويل واقترانها بفصول الألحان – أوائل الألحان واستهلالاتها – نهايات الألحان ومجازات أجزائها وتزيينات الألحان بفصول النغم الانفعالية، فإذا ما انتهى من ذلك.. فإنه يكون قد أحاط قارئه علماً بأسرار صناعة الموسيقى، تلك الإحاطة التى إذا ما اكتملت لدى القارئ أدرك سرّ انحطاط صناعة الموسيقى فى زماننا هذا، وكيف لا ؟... والصناعة أضحت فى معظمها حرفة الجهال والمتفرغين، ولم تبق فى أرجائها سوى فرقة قليلة من الموهوبين تقبض على «كتاب الموسيقى الكبير» وأمثاله من كتب تراث الموسيقى العربية كالقابض على الجمر فى زمن (يقبض) فيه من لا موهبة لهم الملايين من الجنيهات فى ألحان لقيطة لا هوية لها

كلمة أخيرة

لايفوت قارئ الكتاب أو المتحدث عنه ما بذله محققه الأستاذ / غطاس عبدالملك خشبة من جهد ينبىء حجم الكتاب (١٢١٠ صفحات) بأنه قد استغرق منه سنوات، وقد استعان المحقق فى مهمته بثلاث نسخ للكتاب، أولى هذه النسخ مخطوط فى ١٣٣ ورقة محفوظ بمكتبة ليدن تحت رقم ١٤٢٧، وثانية هذه النسخ مخطوط فى ٤٦٤ ورقة محفوظ برقم ٢٢ فى مكتبة الأستانة، أما النسخة الثالثة فإنها نسخة خطية فى ١٢٩ ورقة محفوظة بمكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية تحت رقم ٩٠٥٢، وقد راجع المحقق تلك النسخ على ما ورد فى الترجمة الفرنسية للكتاب التى أصدرها البارون رودلف دى أرلانجيه بباريس فيما بين سنتىّ ١٩٣٠ و١٩٣٥م. إن كتاب الموسيقى الكبير لأبى نصر الفارابى يعد أكمل مرجع عربى فى صناعة الموسيقى قدمته لنا دولة الإسلام فى أوج سطوعها بسماء الفكر الإنسانى. ■



المتفرجة

النجـــاة

بقلم : مرفت رجـــب

صرخت المرأة فى وجه محدثها المختفى وراء الكاميرا «أين هى الرفاهية التى تتحدثون عنها؟! أنتم كذابون مزورون.. من هم الناس الذين تظهرونهم على شاشات التليفزيون؟ أين هؤلاء الأمريكيون المرفهون؟ إنهم أقلية لا تعيش عيشتنا ولا تقاسى ما نقاسى.. انظر حولك.. هل ترى منهم أحدا فى هذا المتجر؟! بالطبع لا.. الكل هنا من أمثالى.. وأنا كما ترى.. انظر ماذا أشترى.. علىّ أن أتغاضى عن معظم الضروريات.. إننى أعمل إثنتى عشرة ساعة فى اليوم، ومع ذلك فالأجر لا يكفى، لا يكفى..!!»

زادت حدة صوت المرأة الغاضبة.. ولم تفلح محاولتها فى كبت الدموع.. فقد انهمرت من عينيها، وأكد اقتراب اللقطة على إحساسنا بغضبها، والعجز!!

كيف النجاة ؟!

كنت - كالعادة - أقلب القنوات، وأتوقف عند أى صوت أو صورة تقترب من واقع ما يجرى فى أرض فلسطين المحتلة.. وكانت الانتفاضة الفلسطينية فى ذروتها.. والوحشية الإسرائيلية فى أقصى مدها الشيطانى.. والسؤال الملح على الذهن دوما.. كيف النجاة؟!

فى ذات الليلة التى وقعت فيها - بالصدفة - على مشهد تلك المرأة الصارخة.. وبينما كنت أنتظر حلول موعد نشرة الأخبار على إحدى القنوات.. تسمرت يدى على محول القنوات حين قرأت على الشاشة عنوان برنامج تسجيلى عن «النفى الذاتى» "Self Exile" وإذا بالكاميرا تنقلنا إلى غابة موحشة.. وبينما تستعرض الكاميرا بعد الغابة عن أماكن العمران، كان مقدم البرنامج يحدثنا عن موضوعه، ذلك أنه قرر أن يعرفنا فى هذا البرنامج على نماذج من شخصيات أمريكية حكمت على نفسها بالنفى، ورأت فى العيش خارج المجتمع الأمريكى طريقا أمثل للنجاة.

وفى أقل من دقيقة انتقل بنا البرنامج إلى ثلاثة أركان قصية من أرض الولايات

المتحدة الأمريكية الشاسعة.. وفي كل ركن رأينا واحدا من أبطال النفي.. ليس فيهم من يقل عمره عن الستين، وليس فيهم من يصطحب أخا أو ابنا أو زوجة وليس فيهم من ينوي الرجوع فيما اتخذ من قرار، ثم بدأ البرنامج ينقلنا إلى قلب حياة كل من أبطاله الثلاثة، وقد عاش معهم أياما وليال، وجعلنا بذلك نراهم ونعيش معهم أفكارهم.. ونتبين لماذا اختار كل منهم أن يعيش بعيدا.. ولأن الحكايات متشابهة، تكاد في تفاصيلها أن تتطابق، فسأكتفي هنا بحكاية الأستاذ الجامعي الذي اختار أن يعيش في غابة شبه جليدية، ولأن البرنامج صوره وقت الشتاء.. فقد أتاح لنا التعرف على مهارات الرجل في التكيف مع تقلبات الطقس القارس وكيف يفضل أن يصرف إليها طاقاته وإبداعاته مفضلا عليها ما يظنه الناس من سهولة ورفاهية حياة المجتمع الأمريكي.. حكى لنا الرجل عن الضغوط التي طالما صارعها والتي كانت تقيد حريته في البحث العلمي.. فالأرقام الفلكية التي نقرأ عنها مرتبطة بالبحث العلمي، لا يترك للعالم حرية التصرف فيها.. وإنما عليه أن يمتثل ويوجه أبحاثه لتحقيق الأغراض المحددة سلفا.. وعليه في هذا أن يكرس جهوده في انتقاء فرق البحث المعينة، من صغار العلماء الذين يتوجهون إلى الجامعات في أمريكا منخدعين بدعاوى حرية البحث العلمي الذي لا توفره لهم إمكانات بلادهم الفقيرة أو الضعيفة.. يحكي الرجل عن الصراع النفسي الذي ظل يطحنه وهو يتبين مع الأيام أنه بانصياعه لإرادة الشركات التي تمول الأبحاث إنما يرتكب جريمة مضاعفة.. فهو يشارك في سرقة مواهب صغار العلماء وخداعهم .. كما يشارك في خيانة ثقة عموم الأمريكيين المنخدعين دوما بفعل الإعلام الأمريكي الكذاب.

ديمقراطية مغشوشة

ولم يخل حديث الرجل من انفجارات غضب حانق، خاصة وهو يتحدث عن الديمقراطية المغشوشة المفروضة قسرا على الشعب الأمريكي، وأكد لنا أن مقولة «صوت لكل مواطن» هي محض خرافة ذلك أن الشركات تشحن العاملين فيها في السيارات التي تنقلهم إلى صناديق الاقتراع.. ولا يجرؤ أحد على تصويت مخالف لإرادة صاحب العمل.

ليس عليّ أن أزيد في التفصيل هنا.. ولكن المهم أن أبطال النفي الثلاثة في برنامج «النفي الذاتي» أكدوا على أمر واحد.. هو أن الحلم الأمريكي خرافة.. وأن الإدارة لا تعبر إلا عن الحفنة المستغلة، وأنهم باختصار مقتنعون أن بلادهم لا تتمتع بأي حرية.. فهي بلد مستعمر.. يتحكم فيه الصهاينة.. لذلك قرر كل منهم أن يهرب بجلده .. ويعيش بعيدا.. هربا من بطش المستعمرين.

البينة على من ادعى..

ولا أظن القارئ العزيز يندهش من حكاية المرأة الصارخة التي صدرت بها الكلام.. فأمثالها بالملايين في بلادنا.. يتابعون الشاشات ويتعجبون!! من هؤلاء الناس الذين يظهرون في البرامج والتمثيليات! ما صلتهم بالغالبية العظمى من المصريين؟! والناس في بلادي لا تعوزها الفطنة.. كما لا تعوزها القدرة على التعبير.. وتعبيرهم يتسم دائما بالايجاز والنفاذ، مع أنهم في الغالب أميل إلى التلميح، منهم إلى التصريح وربما لذلك لا يلجأون إلى «النفي الذاتي» كما فعل أبطال

المتفرجة

البرنامج الثلاثة، وكذلك لا تمتلى بهم المصحات العقلية كما هو الحال فى بلاد العم سام وألف شكر لك يارب.

نحمدك يا الله .. ونسبح بفضلك على شعبنا الأصيل حميته من أن ينخدع بتكرار عرض الزيف على الشاشات، ولم يطل الزيف وعيه الأصيل برغم سيول العبارات المنمقة التى تكذبها الأفعال. نحمدك يا الله أن قويت عزم مئات الألوف من أبناء شعبنا الذين تفجرت من قلوبهم آيات الغضب فخرجوا فى المظاهرات يعلنون كشفهم لكل الأكاذيب، ويبرءون ذمتهم من دم إخوة لهم يُسفك فى العراق وفى فلسطين.

نحمدك يا الله أن كشفت كل الأكاذيب التى يختفى وراءها زعماء إمبراطورية الشر وأشياعهم، وستبقى الأسابيع الثلاثة للاستبسال المعلن لإخوتنا فى العراق نورا يضىء لأبناء العروبة الأصلاء مسار كفاحهم الأبدى.. لن ينسى الناس فى أرجاء الأرض مشاهد كفاح إخوتنا فى العراق لأسلحة الإبادة الأمريكية.. ولن ينسى الناس مشاهد الفتك والترويع والإذلال التى مارسها المتشدقون بالديمقراطية.. ولن ينسى الناس أعمال الحصار والقصف الذى تعمده الأمريكيون والبريطانيون ليخرسوا به أى صوت ينطق بحق ويمنعوا به تصوير أفعالهم الإجرامية وأى محاولة لرصد الإبادة المتعمدة للمدنيين الذين ادعوا أنهم جاءوا لتحريرهم.. نحمدك يا الله أن قوضت كل دعائم الإنكار لدى المعتدين.. وتركتهم أمام التاريخ عراة مفضوحين!

نحمدك يا الله أن جعلت المؤتمرات الصحفية لقادة إمبراطورية الشر والكتب دورات مكثفة للمشاهدين فى أنحاء الأرض يتأكدون فيها بالصوت والصورة من عجز قادة غزو الإبادة عن النطق بجملة واحدة مفيدة، أو ظل من دليل على ما يدعون ويفترون نحمدك يا الله أن جعلت فى أبناء شعبنا من الذكاء والفطنة ما يمكنه من قراءة قسمات الوجوه ومعها قراءة ما تنطق به عيون الكذابين قبل أن تتمكن ألسنتهم من النطق بالثرثرة الساكنة فى خانة الخواء.

نحمدك يا الله أن قويت عزم إخوة لنا فى العراق فاستبسلوا.. وصدوا زحف الغزاة رافعى شعارات التحرير الكاذب والديمقراطية المغشوشة.. ومعهم يستبسل المناضلون فى سبيل إظهار الحقيقة بالصوت والصورة لتنقل الشاشات سجلات استماتتهم فى سبيل إظهار الحقيقة، كما تنقل تهافت الآخرين من مرتعشى الإرادة، يواصلون رسالة التضليل والإلهاء المكلفين بها بإذاعة الأفلام والمسلسلات، بينما تسقط على أرض العراق الطاهرة دماء إخوتنا الشجعان ويذهب منهم الشهداء، ومن السماء تطل أرواحهم الطاهرة تلعن الكذابين فى كافة الأنحاء، وتخص باللعنة أولئك الذين سخروا أنفسهم لخدمة أسيادهم من قادة العدوان يفردون لهم أحاديث خاصة تتكرر إذاعتها ونشرها فيتأكد فعل التواطؤ ويتركهم مستأثرين بكل الخزى.

ثمن النجاة

وإذ يفضح المشهد العربى المعاصر شلل إرادة السياسة وتهتك ممارسات الاقتصاد ، بينما الأداء الإعلامى يترنح بين أداءات العمالة، ومحاولات ذر الرماد فى العيون، فإن الحقيقة أبدا لا تغيب .. وإذا كان الأمريكيون قد انتقوا عملاءهم وأشياعهم مطابقين للمواصفات، يقتدون بأسيادهم

فيحكمون الفصل بين الكلام والفعل ، فالناس فى بلادى أبداً لا ينخدعون، والحوار مع أبسط الناس فى أى حارة أو زقاق يدلك على وعيهم التام بأن إفساد المحاصيل مرتبط بشل الإرادة السياسية، وتشويه الرأسمالية الوطنية ونفى الأقلام الحرة والبرامج الجيدة فى الصحف الصغيرة والقنوات المشفرة مرتبط بشل الإرادة السياسية وملء الشوارع بالمطاعم والمقاهى الفروع للأصول الأمريكية مرتبط بتشويه الثقافة الوطنية طريقا لإحكام الهيمنة على الاقتصاد ومنه يضيق الخناق على الإرادة السياسية فلا تجد إلى النجاة أى مخرج.

لكن الشعوب العريقة ومنها بناة الحضارة فى مصر والعراق تعرف دائما طريقها النجاة.. وهى بقدر وعيها بدوافع ومبررات كل من أسهم أو ساند أو روج أو سكت عن حرب الإبادة التى استهدفت مجد وشموخ إخوتنا فى العراق، وبنفس قدر فهمها لأن كل من يشترى سلعة أمريكية، أو يدخل فى شراكة مع جهة أمريكية، هو بالقطع مشارك فى تمويل آلة الإفناء الأمريكية، تماما بنفس القدر تدرك شعوبنا العريقة – فى مصر والعراق على الأخص – أن نجاتها لن تكون إلا بالامتناع التام عن التعامل مع كل ما هو أمريكى.. ولأن ذلك لا يخفى على منظرى إدارة الإفناء الأمريكية فهم يركزون حملتهم الدعائية الآن على مشاهد النهب والعبث برموز الدولة العراقية وتراثها، ويصرون على تكرارها فى كل نشرات الأخبار والبرامج، ومعها الصفحات الرئيسية من كبريات الصحف العميلة، ذلك أنهم يظنون أنهم بذلك قادرون على تزييف الوعى وتشويه الذاكرة، لعل الناس تتصور أن أبناء العراق هم من عينة تلك الحفنة المضللة المشتراه لتحقيق أغراض الغاصبين الكذابين!

ومع ذلك فإن أحدا لا يستطيع أن يتوهم أن طريق النجاة سهل مفروش بالورود.. فتاريخنا العريق يشهد بأن للحرية الحمراء باباً بكل يد مضرجة يدق، وليس شرطا أن تسيل الدماء فى ساحة حرب، فإن حرب النفس أشد وطأة وإن لم تسل منها الدماء.. وحرب التضليل التى بدأت بمشهد سقوط التمثال وبدء هجمة الرعاع المأجورين فى بغداد تصحبها حرب دعائية موازية تستميت فى محاولة زعزعة ثقة المواطنين فى جدوى المقاطعة، وتحاول إفساد منطقهم بالقول إن مقاطعة السلع الأمريكية تؤثر على مصير العاملين الوطنيين المشتغلين بإنتاجها .. لكنه منطق خائب يفضحه ما حدث لمئات الألوف ممن كانوا يعملون فى مصانع القطاع العام التى بيعت والكل يعلم أين ذهبت أموالها ومن الأطراف المستفيدة من بيع الندامة فى صفقات إحكام الخراب.

لا يليق بنا أن نقتنع بنموذج المرأة الصارخة فنكتفى بالمكتوم أو المعلن من الصراخ.. ولا يليق بنا أن نقتدى بنموذج النفى الذاتى الذى فرضه العلماء المخاصمون للكذب الفاضح فى المجتمع الأمريكى، لأننا وقد دفعنا الدماء الغالية لإخوتنا فى العراق وفى فلسطين، ثمنا للحقيقة التى تكشفت أبعادها نورا يفقأ عيون المغالطين، لابد أن نقاوم حملات التضليل بكل ما أوتينا من قوة حتى لو قصفوا منا الأقلام أو منعوا عنا حرية الكلام أو سمموا لنا الطعام فإن أى حر أصيل يأبى أن يسهم ولو بقرش فى تغذية آلة الإفناء التى تعيث فى أرض المجد إبادة وإفسادا .. وتظل أرواح الشهداء معلقة بين الأرض والسماء ، تبارك خطى المكافحين على طريق النجاح ، وتلعن السائرين على طريق الندامة. ■

كتاب الهلال

متفرجون أم لاعبون في الساحة الدولية

بقلم السفير

سيد قاسم المصرى

يصدر ٥ مايو
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

كتاب الهلال

ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله

بقلم

محمد جبريل

تصدر ١٥ مايو
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٨٤
الهلال
ربيع أول ١٤٢٤هـ - مايو ٢٠٠٣م

شيكاغو

تعرية لطريقة الحياة الامريكية

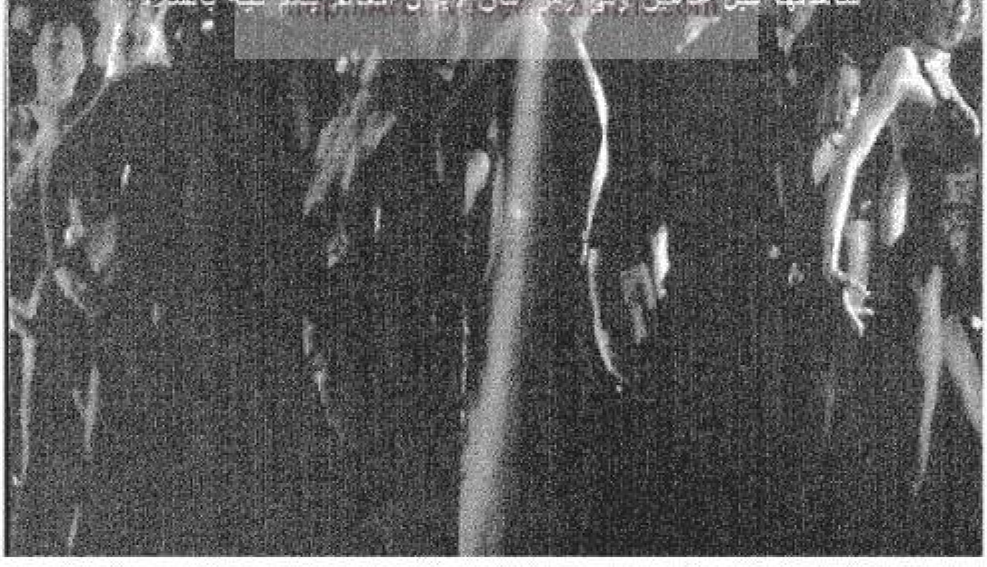
بقلم

مصطفى درويش

سيداتي .. سادتي

أنتم على وشك مشاهدة حكاية موضوعها القتل الجشع ، الفساد ، العنف ، الاستغلال ، الزنا ، والخيانة ، كل هذه الأشياء العزيزة القريبة إلى قلوبنا .

بهذا الاستهلال المذهل بدأ عرض المسرحية الاستعراضية شيكاغو على خشبة مسرح شوبرت العريق في برودواي بحي مانهاتان حيث شاهدتها قبل عامين وفي زمن كان لا يزال العالم ينعم فيه بالسلام .



عبارات طلقات

ومثلما كان الاستهلال بتلك العبارات الطلقات فاتحة في غاية التوفيق لمسرحية أحداثها ترتد إلي عشرينات القرن العشرين المعروفة في الولايات المتحدة بالعشرينات الصاخبة أو الهادرة.

وتدور وجودا وعدما حول نساء عاشقات، قاتلات، لا خلاق لهن، ولا هم يشغل بالهن، سوي تضليل العدالة من أجل الفوز دون حق بحكم يبرئهن من تهمة القتل العمد فضلا عن الحفاظ علي شهرة اكتسبنها بطول وعرض البلاد بفضل صحافة صفراء لا تقيم وزنا إلا لأخبار الجريمة والجنس.

كان الختام هو الآخر مذهلا فبعد ساعتين إلا قليلا مرتا سريعا كالأحلام عبرت بطلتا المسرحية روكس هارت وفيلما كيلي وقد قارنتا في نهاية المطاف بالبراعة والشهرة معا، عبرتا بطلتا المسرحية عن سعادتهما قبل ثوان من أدائهما للرقصة الأخيرة بكلمات وجهتها «فيلما» لنا نحن المتفرجين وهي من الفرح تكاد تطير.

شكر ودعاء

وها هي هذه الكلمات كاملة غير منقوصة كما جاءت علي لسان فيلما

شكرا.. شكرا

روكسي وأنا نود أن ننتهز هذه الفرصة كي نعبر عن شكرنا لكم علي ثقتكم بنا وإيمانكم ببراعتنا فرسائلكم وبرقياتكم وعبارات تشجيعكم لنا ساعدتنا علي مواجهة المحنة الرهيبة التي عانينا منها كثيرا تعرفون كم الناس الذين فقدوا ثقتهم في أمريكا.

ولكننا المثل الحي علي بلدنا، كم هو رائع فليحمكم الرب، وليبارككم دائما!!

ولأن المسرحية انتقدت بجرأة غير معهودة كل ما هو سلبي في طريقة الحياة الأمريكية إذ لم تترك صغيرة أو كبيرة من سلبيات تلك الحياة إلا وعرتها بأسلوب ساخر فيه من عمق التفكير الشئ الكثير.

سخرية وتعرية

فجنون الشهرة وعبادة المال وتشوه الحياة الزوجية، وفساد نظام السجون واستهتار الصحافة الصفراء وانهيار الثقة في القضاء كل ذلك عرته المسرحية وسخرت منه.

أقول لأنها انطوت علي هذا القدر الكبير من التعرية والسخرية لم تظفر بالنجاح الذي توقعه لها كبار النقاد والمولعون بفن بوب فوس مصمم رقصاتها ومخرجها وصاحب فيلم «كاباريه» الفائز بثماني جوائز أوسكار (١٩٧٢) من بينها جائزة أفضل إخراج.

وسرعان ما اختفت دون أن تترك أثرا ولتبقي مسرحية منسية زهاء عقدين من عمر الزمان.

والغريب أن أحدا من هوليوود لم يحاول انتاجها سينمائيا طوال هذه المدة الطويلة وذلك رغم ولع أصحاب الأمر والنهي في مصنع أحلام عاصمة السينما، بترجمة مسرحيات برودواي

الموسيقية إلي لغة الفن السابع ولعل خير مثل علي ذلك قصة الحي الغربي وسيدتي الجميلة وهيللو دوللي.

وعلي كل، والقرن الماضي يوشك علي الرحيل عادت شيكاغو إلي برودواي حيث لاقت نجاحا كبيرا.

رقابة رشيدة

وعندما رأيتها في نيويورك قبل سقوط البرجين التوأم بحوالي ستة شهور لم أتصور أنه لن يمر سوي ثمانية عشر شهرا إلا ويكون قد جري ترجمتها إلي لغة السينما، في فيلم أشهده علي شاشة كبيرة وأين؟.. في القاهرة حيث جري الترخيص بعرضه للكبار فقط.

ومع ذلك استخسرت رقابتنا الرشيدة عرضه كاملا فحذفت منه بضع لقطات حماية لنا من أنفسنا وقد جاء عرضه عندنا مواكبا لفوزه بست جوائز أوسكار، من بينها جائزة أفضل فيلم وأفضل ممثلة مساعدة التي فازت بها النجمة الفاتنة كاترين زيتا جونز عن أدائها لدور «فيلما كيلي» الراقصة قاتلة عشيقها وأختها عندما ضبطتهما معا متلبسين بممارسة الفحشاء.

والفيلم يبدأ بها في لقطة حذفتها رقابتنا وهي تقتل في لحظة غضب عشيقها وأختها.

وما أن تنتهي هذه اللقطة المحذوفة حتي تغسل يديها الملطخة بالدماء.

قتل وشهرة ومجد

وماهي ذي، بفضل ايقاع لاهث في الملهي الليلي حيث يلقي القبض عليها وهي ترقص وتغني «كل هذا الجاز».

وفي نفس الليلة تقتل «روكسي هارت» رينيه زلتجر - المعجبة بفيلما والمتخذة منها مثلا يحتذي عشيقها فرد كازلي ويلقي القبض عليها هي الأخري . وداخل السجن حيث يزج بهما مع معبودتها فيلما تتداخل حياة الاثنين وتتشابك مع حياة كل من السجانة ماما مورتن كوين لطيفة والمحامي اللعوب بيلي فلين (ريتشارد جير) وبعد صراع مرير علي الشهرة بين القاتلتين الفاتنتين وبفضل تضليل المحامي لرئيس المحكمة والمحلفين ينتهي الأمر بهما بريئتين معبودتين من الجماهير.

والفيلم بفضل مصمم رقصاته ومخرجه روب مارشال رفيع المستوي فنيا معظم مشاهده تنهض إلي مستوي مشاهد المسرحية المأخوذ عنها وبعضها يتفوق أحيانا.

مسك الختام

ورغم ذلك فالفيلم شابته بضعة عيوب، لعل أهمها حذف استهلال المسرحية الفاضح لسلبيات طريقة الحياة الأمريكية وكلمات فيلما باسمها واسم زميلتها روكسي هارت الموجهة لنا قبل نهاية المسرحية بثوان والتي تعتبر والحق يقال، مسك الختام!! ■


الرجل الذي يبكي أمام البنك

قصـــة قصيـرة: بقلم / محمـد السيـد سالم

تجلس أمـام البنك، تتكوم عند بابه الكبير المدجج بالحراس والنظرات ومشاعر الارتياب.. تضم ركبتيك، تحيط وجهك بيديك، وكل عضلات كتفيك تنقبض وتنبسط، وتنتفض.. من يقترب منك يسمع حفيف تأوهات محمومة، متتابعة، يحس نحيبا مشروخا لا ينقطع، كأنك تعاني صفعات على وجهك، ركلات في مؤخرتك.. مظهرك لا يزيد عن متشرد، لا يقل عن عاطل يلزمه لدواعي الأمن محضر تحري، حيث لا أدنى صلة لك بهذا المكان الذي اخترته لتبكي على بابه.. إن مدخل هذا البنك أو غيره، ليس بالمكان المناسب الذي يفجر فيه الإنسان عواطفه، ويمسح بدموعه مدخله الرخامي.

وبصراحة لم يكن مظهرك الباكي عند الباب الكبير شيئا لائقا، فأنت ومهما بكيت لا تزيد عن نقطة زاحفة من طابور نمل، خدش على جدار بالوعة مظلمة، كما أن جلوسك أمام البنك، يعد في حد ذاته شيئا غريبا، عجيبا، لفت أنظار العملاء، وفضول المارة، وألهب قلق رجال الأمن.. فالحكاية ليست ناقصة، وأخبار السطو المليارى مازالت مشتعلة رغم كل مياه التبريد، وكافة مواد الاحتباس الحراري.

الساعة كانت حوالي الثانية بعد الظهر، وقت الشمس الحارقة، وضوضاء حركة المرور الهادرة أمام البنك ورغم كل هذا لم تتوقف عن ممارسة حقك في البكاء أمام البنك، وليس عند ضريح السيدة زينب أو ناحية قرافات باب الوزير.

لم تكن مهما في البداية، ولكن حين ازدحمت أنظار المارة حولك، وتمهل العملاء في سيرهم بجانبك، بدأ رجال الأمن وجند الحراسة في الاستعداد والتأهب خاصة بعد أن تأكدوا أنك لا تحمل سلاحا، لاتملك إلا الدموع.

وفي القاعة الكبرى المكيفة ينعقد اجتماعا طارئا يضم كبار رجال الإدارة، ورجال التفتيش والمراقبة بعد أن ظلوا يختلسون النظر إليك عبر النوافذ العالية.. ولاشك كما أرى أنهم أبلغوا سلطات الأمن أخبار هذا الخطر الذي يبكي أمام أبواب البنك.

أحد المارة يغمغم وهو يرقب في دهشة

مشهدك الباكي، ويهمس:
في سره:
- لعل هذا المسكين يتعرض لأزمة مالية، وأتى سعيا الى قرض لا يزيد عن بضعة جنيهات، ولما وصل ولم يجد إلا ركلات الرفض بسبب هزاله المالي، وضعف كيانه، صعبت عليه نفسه، فاضطر أن يبكي.

يمضي المار، وقبل أن ينعطف نحو اليمين عند الناصية، يستدير نحوك ليراك من زاوية بعيدة، وهو يردد:
- وربما هو متسول، ظن أن مال البنوك السائب، لن يضن عليه بشيء له، باعتبار أن الحسنة القليلة، يمكن أن تمنع بلاوى كثيرة.. ومع ذلك منعوه من دخول البنك، وتركوا له حرية البكاء عند أبوابه.

بالمصادفة يخرج صحفي من البنك حاملا جريدة تتحدث في



صفحتها الأولى عن أزمة القروض ومأساة التعثر، ومشكلة ضياع الديون، وكلام كثير قاله كبير البنوك حول هذه الظواهر التي تحدث في كل زمان ومكان، والتي يكفي أن مثلها قد حدث أيام الفراعنة وظهرت تفاصيله باللغة الهيروغليفية على جدران المعابد، وقمة المسلات ومؤخرة أبو الهول.. وأن الوضع المالي تحت السيطرة، والدليل أن الناس لم تمت جوعا فمازالت طوابيرها العامرة تمتد أمام أكشاك العيش في تكاتف اجتماعي رائع.

يتوقف الصحفي أمام مشهدك الباكي، يتأمل في حيرة تكومك البائس، يسمع حرارة نحيبك، يسأل عن الحكاية، يخبره رجل بدين من رجال الأمن:
- أن الرجل لاشك مجنون، لأن ما يفعله الآن أمام البنك، لم يحدث من قبل، ليس له مثيل.
- ولم لا تقول أيها جعل هذا الرجل يأتي اليوم، ليبكي أمام البنك هو حزنه الشديد على بلايين البنك، التي انتهت عند مطارات بعيدة، غريبة.
- ولم يفعل ذلك، وهي أساسا ليست أموال أبيه، ولا صلة له بها من بعيد أو قريب.
- كيف هذا.. وهو..
- ولم لا تقولأيها السيد إنه يبكي لسبب آخر، ليس مهما في حد ذاته، ولكنه كاف لتذكيره بفشله في الحياة، بمتاعبه، بوضعه التافه في زحام المجتمع والناس.

يتطلع الصحفى الى رجل الأمن البدين، الذى جمدت ملامحه، وتجهم وجهه ويقول فى همس دون أن يرفع عينيه عن الرجل الذى مازال يبكى:

- ولم لا تقول أنه يبكى بسبب شخص سأله صباح اليوم: كيف حالك فتذكر حكاية القروض والديون ، وتنبه لأيام طفولته، ظروفه، حاضره، مستقبله، وراح يستعرض كل الأشياء، كل حياته التى تخلو من ضحكة صافية واحدة.

يضحك رجل الأمن، يهتز بدنه البدين وهو يتلمس فى حذر مكان سلاحه المعلق.

ورغم كل هذا وذاك.. فمازلت أيها الرجل تبكى عند الباب الكبير، تحتوى رأسك بين يديك، وجسدك ينتفض فى تشنجات ملاحقة، وأنات خافتة، كطفل يتيم، ضاع تحت أقدام جموع تمضى فى



كافة الاتجاهات.. بينما يرزح فوقك بناء البنك بكل طوابقه التى تحوى أقساما للتفتيش والمتابعة، ولجانا للمعاينة والمراجعة، وفروعا للعمليات ، ومكاتبا للتحقيقات والمعايير الحسابية، وأشياء أخرى كثيرة، عديدة جعلت البناء مع الوقت يعلو، يتسع ، يتفرع ، يتراكم فوق رأسك، حتى صرت بالكاد تستطيع التنفس، تحتفظ بقدرتك على البكاء، تحت أجهزة تكييف تطن فوقك وتنز قطرات ماء تتساقط فوق رأسك، وعلى سواد الأسفلت، طوابق تعلو فوق رأسك إلى ارتفاع لا نهاية له، وفوقها تمرق طائرات تبتعد وتختفى بين طيات سحاب، وسحاب.

تأتى الأشارة بالهجوم ، الأوامر بالانقضاض، على الفور يتم حصارك أيها الرجل الذى تبكى.. يتقدم نحوك رجل الأمن وجند الحراسة بالأسلحة والهراوات وأجهزة الاتصال فى حذر مشوب بالشدة والإصرار.. يلقون بك داخل سيارة سوداء، تقرفص داخلها بعينيك المطفأتين بقطرات دموع مالحة، لا تجف، تحدق الى لمعان أحذية ثقيلة. تتطلع إلى بناية البنك الشاهقة، الى هدير الناس، نمل يسير فى منعرجات طرقه ومنحنياته من حيث لا يدرى أحد، والى حيث لا يعرف أحد.

تتحرك السيارة بعد أن تصدر عويلا، وتبقى أيها الكومة التى تبكى، تتضاءل فى البعد شيئا فشيئا حتى يغيبك الزحام والغبار والقيظ.■



١٩٢
الهلال

لبيبة هاشم

وفتاة الشرق

بقلم
أحمد حسين الطماوى



كانت لبيبة هاشم أو لبيبة ماضى فتاة الشرق، لا لأنها أصدرت مجلة «فتاة الشرق» ولكن لأنها تعرف جيدا آداب الشرق وأصوله، وتدرك مثالبه وعيوبه وتعمل ما أمكن على تلافيها، وهى فتاة الشرق التى لم ترغب فى أن تثب بالمرأة وثبا من البيت إلى الشارع، أو من الحجاب إلى السفور، وهى قضية شكلية أريق فيها مداد غزير، وقد عادت المرأة إلى الحجاب بعد سفور طويل، فما انتقص من الحياة شيء، وإنما كانت قضية لبيبة هي تثقيف المرأة وتنويرها وتعليمها فن التربية لتنشيء رجال وأجيال المستقبل، وهى لاتنكر العمل للمرأة، ولكن ذلك يكون بمقتضى، أو إذا دعت الحاجة .. وهى فتاة الشرق التى تنتصر للغتها العربية وتغار عليها بالرغم من ثقافتها الأجنبية، وتعدد اللغات الأوروبية التى تتقنها .. وهى فتاة الشرق التى تدافع عن قضاياه وقيمه، ولم يقع تحت نظرى من كتاباتها مايفيد أنها متفرنجة تلبس قبعة وتتعالى علينا، بل كانت تهاجم الغرب ممثلا فى المدارس الأجنبية فى الشرق، وتحذر من خطورتها، وتنادى بالتوسع فى التعليم الوطنى لنعد أبناءنا كما نريد لا كما يريد الأجنبى

مولدها وثقافتها

وإذا كان لابد من ترجمة لصاحبتنا، فإن الأقلام لم تختلف في تراجم المعاصرين القريبين مثلما اختلفت فى ترجمة لبيبة هاشم حتى اسمها فيه خلاف.. فبينما يقول يوسف أسعد داغر فى «مصادر الدراسة الأدبية» إنها بنت يوسف ماضى يقول عمر رضا كحاله فى «أعلام النساء» وفيليب طرازى فى «تاريخ الصحافة العربية» جـ٤ إنها بنت ناصيف ماضى، وبينما يقول داغر أنها ولدت فى ١٨٨٢/١٢/١٦ فإن عباس خضر يقول فى «القصة القصيرة فى مصر..» إنها

ولدت سنة ١٨٨٠، ويذهب طرازي إلى أنها تعلمت الخط على يد الشيخ إبراهيم اليازجي، أما هي فتقول في مجلتها «فتاة الشرق» إنها تعلمت الخط على يد نجيب هواويني، ويسجل كل الذين ترجموا لها إنها هاجرت إلى مصر مع اسرتها في مطلع القرن العشرين، وهو خطأ، حتى سنة وفاتها فيه تباين وخلاف، فبينما يقول عباس خضر إنها توفيت عام ١٩٤٧، يقول داغر إنها رحلت عام ١٩٥٢، ولعل هذا يرجع إلى أنها لم تسجل حياتها بيدها، أو لم يكتب ترجمتها أحد المقربين منها، وكان أسعد داغر المحرر بالأهرام وصاحب «مصر الحديثة المصورة» أحد مساعديها في تحرير وإدارة فتاتها، ومات بعد سنة ١٩٥٢ ولم يقدم عنها ترجمة وافية، وكانت لها تلميذة وصديقة تدعى «توليفيا عويضة عبدالشهيد» التي عرفها قراء السفور وفتاة الشرق والثقافة باسم «الزهرة» ولم تترجم لها.



كان أول مقال وقعت عليه (لبيبة ماضي - بيروت) في «الهلال» عدد أول يونيه ١٨٩٥ وكان عن «النساء وأوقات الفراغ» وحملت فيه على النسوة اللائي يقضين أوقات فراغهن في القيل والقال والمباراة في الأزياء وتهملن المطالعة والثقافة، والمقال بليغ جيد اللغة مما جعل صاحب الهلال ينشره، وفي منتصف شهر يونيه ١٨٩٥ قرظت «الهلال» روايتها المترجمة «الغادة الانجليزية» ووصفتها بأنها متناسقة الأحداث رشيقة العبارة، وحثت الأدباء على مطالعتها، وما يعنينا من ذلك أنها مارست التأليف والترجمة عام ١٨٩٥، وهذا يجعلنا نميل إلى أنها ولدت قبل ١٨٨٢/١٢/١٦ وقبل سنة ١٨٨٠ لأنه ليس من المعقول أن تنهض طفلة صغيرة في الثانية عشرة وستة أشهر من عمرها أو حتى في الخامسة عشرة بهذين العملين، وربما كانت لها كتابات قبل ذلك!!

وعلى أية حال فإن لبيبة أدخلت مدرسة الراهبات اللعازريات وأتمتها في مدارس المرسلات الإنجليزية الأمريكية على حد قول يوسف أسعد داغر وهذا كل ماذكر عن تعليمها، والظاهر أنها عكفت على الكتب لتنمي ثقافتها، حتى إذا وثقت في قلمها أخذت تراسل المجلات المصرية، ففي ١٨٩٦/٧/١٥ نجد مقالا لها عن «فوائد العلوم للنساء» في مجلة «الثريا» وفي ١٨٩٦/١٠/١٥ نجد قصيدة لها عن زهرة الربيع، وفي عدد ١٨٩٦/١١/١٥ يقول إدوارد جدي صاحب «الثريا»: «أنسنا بلقاء حضرة الكاتبة المجيدة الآنسة لبيبة ماضي صاحبة الرسائل الغراء في الثريا، قدمت العاصمة لمشاهدة حضرات شقيقيها الأديبين نجيب وخليل ماضي وقضاء فصل الشتاء في هذا القطر وتفقد آثاره ومعالمه فنحن نرحب بحضرتها ونرجو لها طيب الإقامة» وبناء



من كتابات لبيبة هاشم
فى الهـــلال - ١٨٩٥

على هذا فإن هجرتها إلى مصر كانت فى خريف ١٨٩٦، وكان أخواها قد سبقا إلى القاهرة، أما القول بأنها هاجرت مع الأسرة إلى مصر فى مطلع القرن العشرين فهو خطأ، وقد يقول قائل ربما عادت إلى لبنان بعد الزيارة، وأقول إنها لم تعد بعد هذا التاريخ إلى لبنان إلا زائرة، والدليل أنها في مارس ١٨٩٧ نشرت مقالا وجهته إلى السيدات بمجلة «البيان» اليازجية ذكرت المجلة فى صدره «لحضرة الكاتبة الأديبة السيدة لبيبة ماضي بالقاهرة» وهذا لايعني أنها فى مصر فقط بل تبين أنها تزوجت فقد ذهبت كلمة «آنسة» وجاءت كلمة «سيدة» وكان زواجها من عبده هاشم الذى اقترن اسمها باسمه وتواصل عطاؤها فى المجلات المصرية مثل «انيس الجليس» و«الضياء» و«المجلة المصرية» و«المقتطف» وغيرها من دوريات مصر.

وفى عام ١٩٠٦ أصدرت مجلتها «فتاة الشرق»، وراحت تتنقل بين مصر ولبنان وتعتلي المنابر وتخطب، وتحث فى خطبها الشبان إلى العمل والنساء إلى النهوض، وولاة الأمور إلى إصلاح التعليم، وكانت لبيبة هاشم خطيبة مفهومة، فمنذ عام ١٩٠٧ وهى ترتقى المنابر وتخاطب الناس من فوقها، وقد ألقت خطبا فى زحلة وفى بسكنتا بلبنان وفى جمعية الإحسان السورية، وفى جمعية النهضة المصرية وغير ذلك مما يبين أن الخطابة إحدى أدواتها فى بث أفكارها.

وفى العام الدراسى ١٩١١/١٩١٢ ألقت سلسلة من المحاضرات بالجامعة المصرية فى التربية والتعليم ثم جمعتها فى «كتاب فى التربية» وتناولت فى هذه

المحاضرات «أصول التربية العقلية والجسدية» وبينت الخطة التي يجب أن يسلكها المربون والمعلمون في تقوية أجساد الأولاد وتهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم، وانتقدت التربية البيتية، والتربية في المدارس الابتدائية لما فيها من سخف وخرافة وتضليل للعقول.

ونظرا لاستطارة صيتها، وعمق ثقافتها في المجالين التعليمي والتربوي عينتها الحكومة السورية عام ١٩٢٠ في وزارة المعارف للتفتش على المدارس، ولكنها لم تلبث كثيرا في هذه الوظيفة، فتركت سوريا وارتحلت إلى «شيلي» بأمريكا الجنوبية وفي سنتياجو العاصمة أصدرت عام ١٩٢٣ مجلة «الشرق والغرب» التي لم تعمر أكثر من عام، وليست هناك أية معلومات عن محتويات هذه المجلة، وفي عام ١٩٢٤ عادت إلى مصر لتشرف على «فتاة الشرق»، ويقول يوسف أسعد داغر «وتولت كريمتها اليس أسعد داغر شئون فتاتها في غيابها». ومع بداية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ توقفت الفتاة، ويبدو أن لبيبة لم تشارك في أنشطة ثقافية فنسيها الناس، وبعد رحيلها التقط بعض مصنفي الكتب أخبارا عن حياتها كيفما تكون فجاءت مفردات سيرتها مضطربة متنافرة.

القاصة الشاعرة

وكانت لبيبة أديبة مبدعة، قاصة



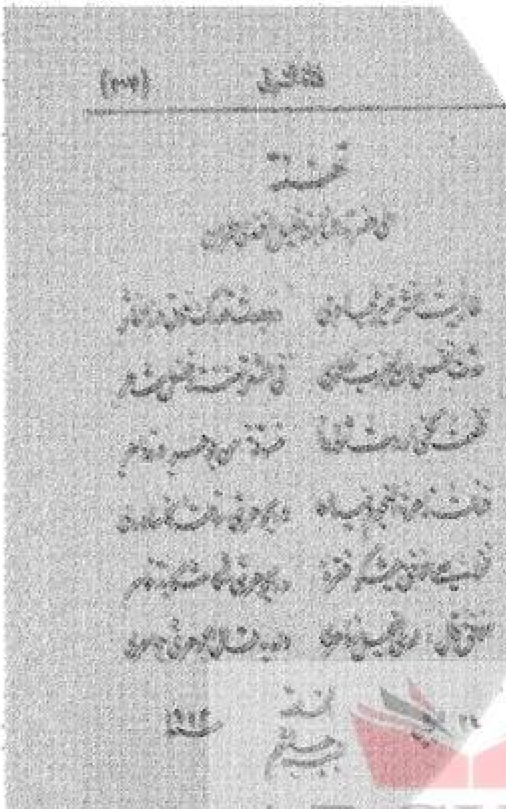
وروائية، ومترجمة في هذين المجالين، فقد ترجمت عددا غير قليل من القصص الأوروبية في مجلة «الضياء اليازجية» و«فتاة الشرق» كما ترجمت «الغادة الإنجليزية» كما مر بنا، ووضعت عددا آخر من القصص القصيرة في المجلتين السالفتي الذكر، منها «جزاء الخيانة» و«شهيد المروءة والوفاء» و«حسنات الحب»، و«شيرين»، ورواية «قلب الرجل» وفي الأخير حملت على الرجل فما دفع «حنا سركيس» إلى انتقادها، والانتصار للرجال في مجلة «انيس الجليس» ١٩٠٤.

وقصتها «الفوز بعد الموت» التي نشرتها في الضياء عام ١٨٩٩، وأعادت نشرها في «فتاة الشرق» عام ١٩١٠ تستهلها ببيتين من الشعر، وتضمنها في الوسط بيتين آخرين، وجميعها تأتي في موضعها ولكن مثل هذا يعد مستحبا في القص الحديث، وتحكي قصة شاب صحفي «جبرائيل» من حلب توقفت صحيفته لعدم موافقة مادتها الحكومة القائمة، فهاجر إلى بيروت، وعمل مدرسا، وكان كلما فرغ من عمله جلس إلى نافذته وتجول ببصره في كل اتجاه، فوقع نظره على فتاة جميلة تسكن قصرا في مواجهة البيت الذي يقيم فيه، فلم يمض وقت حتى أحبها وأحبته، ولما طلب يدها من أبيها الثري لم يجبه على طلبه بسبب فقره، فغادر لبنان إلى مصر حيث التحق بحملة غردون إلى السودان فأسره المهديون وظل

في الأسر فترة، ولما بلغه قدوم الجيش المصري الإنجليزي لاسترداد السودان هرب من الأسر وانضم إلى هذا الجيش، وأصيب أثناء المعارك، ونقل إلى المستشفى، وعندما أفاق من الألم فتح عينيه فرأى حبيبته (ماري) التي تركها في بيروت جاثية قرب سريره، وكانت قد ترهبت زهدا في الدنيا بعد رحيله وانقطاع أخباره، والتحقت بجمعية الصليب الأحمر لخدمة مرضى الحرب، ولكن جبرائيل يلفظ أنفاسه الأخيرة، فلا يتحقق الفوز إلا عند الموت.

والقصة لطيفة ومسلية، وأسلوبها بديع غير مصطنع، وتحمل مشاعر نبيلة وإحساسات رهيبة، ويتخللها تحليل نفسي للعواطف المحبين من تخيلات وأوهام ويأس وأمل ودهشة، والحوار فيها نابع من ميول العاشقين وكاشف عما يعتمل في نفسيهما، وتظهر القصة الجو الفكري زمن الحكم العثماني لبلاد الشام، فبطل القصة يغلق صحيفته لعدم موافقة آرائه لنظام الحكم، كما تبين أطرافا من الثورة المهدية وأخرى زمن استعادة السودان فيما عرف بحملة دنقلة التي قادها كتشنر عام ١٨٩٦، وقد أوحت هذه الحرب للقصاص بأكثر من قصة مثل «وقعة الخرطوم» و«أسير المتمهدي» ومسرح قصة لبيبة واسع فأبطالها يتحركون بين سوريا ولبنان ومصر والسودان وهي مساحة تصلح لعمل روائي لا لقصة قصيرة، وإذا كانت القصة القصيرة تصور جزئية في الحياة، فإن كتاب القصص القصيرة في تلك الفترة لم يكونوا يراعون تعريفها العلمي أو مفهومها الفني، ومن ثم تأتي وكأنها قصة طويلة مختصرة.

وإلى جانب القص كانت قريحتها تجود بالشعر الرائق الجميل، وقد عثرت على قصيدة لها في مجلة «الثراء» عن زهرة الربيع وهي وجدانية رومانسية الطابع تناجي فيها زهرة، وفي حفل تكريم خليل مطران بالجامعة المصرية سنة ١٩١٣ جادت قريحتها بالأبيات



أبيات من شعر لبيبة [illegible] تكريم خليل مطران

التالية فى تهنئته :

لما رأيت النثر غير مجاوبى
ووجدت قدرك فوق در الناثر
حدثت نفسى أن أجرب خاطرى
فى الشعر تهنئة لأفضل شاعر
فنظمت لكنى أردت شواردا
منسوقة من جوهر وزواهر
فسألت زاهرة النجوم ضياءها
والجوهرى سألته كناسوري
فحنا على الأفق يشكو فقره
والجوهرى شكا شكاية خاسر
الأفق قال: لدى الخليل زواهرى
ولديه قال الجوهرى جواهرى

والأبيات من أرق شعر التهانى، وهى أشبه بنجوى نفسية تتوارد فيها الخواطر، وتتابع فيها المشاعر، والمعنى الذى وصلت إليه هو أن شعر الخليل مثل الجوهر والزواهر، وقد وصلت إليه بعد أن حكت قصة نفسية اختلجت فيها عواطفها، ومهما تكن قيمة ما وصلت، فالشعر ليس معنى فقط بقدر ماهو خيال وشعور ووراء تأخذ النفس، وقد تمثل كل هذا فى هذه القطعة البديعة التى تشير إلى أن قائلتها عرفت أسرار الشعر.

★★★

لاشك فى أن لبيبة هاشم إن لم تكن أول صوت نسائى يدعو إلى تجمع نسائى منظم فإنها من أوائلهن، جاء فى مجلة «مرآة الحسناء» عدد ١٥ أبريل ١٨٩٧ أن لبيبة ماضى عزمت على إنشاء جمعية علمية أدبية غرضها «تبادل



الفوائد وتوسيع نطاق المعارف والسعى وراء تعزيز شأن المرأة فى الشرق» وذكرت المجلة أن الجلسة الأولى ستكون يوم السبت فى غرة شهر مايو ١٨٩٧، وتدعو السيدات الفاضلات إلى الحضور للإطلاع على قوانين الجمعية الأساسية، ويقول سليم سركيس صاحب «مرآة الحسناء» إن هذه العزيمة هى أول خاطر نسائى فى هذا الموضوع على ما أظن.

ولا أدرى إن كانت هذه الجمعية النسائية انعقدت أم لا، ولكن من المؤكد أن هذه الصيحة لم تذهب بددا، فقد كانت ناقوسا نبه النساء المثقفات إلى ضرورة التآلف وتنظيم الصفوف، ومخاطبة المجتمع من خلال جمعية منظمة لها مبادىء وأهداف.

ومهما يكن من أمر فقد سبقت لبيبة ماضى غيرها من النساء اللاتى دعون فيما بعد إلى تكوين جمعيات واتحادات نسائية تدافع عن المرأة وتعلى من قدرها من أمثال هدى شعراوى واستر فهمى وسيزا نبراوى، وعنايات سلطان وغيرهن، لقد كانت الرائدة والملهمة لهذا النوع من العمل الجماعى المنظم.

وكانت لبيبة تطوف أرجاء لبنان، وتجمع النساء وتحضن على تصحيح أوضاعهن، وتتابع حضورها فى التجمعات النسائية لتنشيط المرأة، وتصحح فهمها للرقى والتمدن، وعندما عقدت «جمعية النهضة النسائية» أول اجتماع لها يوم ٢٧ يناير ١٩١٧ بمنزل حرم إسماعيل عاصم المحامى، كانت لبيبة من

المؤسسات، وعندما خطبت أذكت الحماسة في النســاء، وبينت دور الإســلام في الارتقاء بالمرأة المسلمة، وقالت : «تعزز مركز المرأة بعد الإسلام، وزاد نفوذها، واحترامها بما ورد في الشريعة السمحة من النظامات الضامنة لحقوقها، الحافظة لكرامتها، فلا بدع أن بلغت بها أوج المجد والرقي».

وقد كانت التربية هي جوهر دعوة لبيبة هاشم، وفي زعمها أن المرأة تصير سوية كاملة إذا استنارت وتحلت بالفضيلة، ومتى كانت كذلك ساست أولادها ذهنيا وبدنيا وصاروا صالحين للمجتمع، وينتقل هذا الصلاح من جيل إلى جيل، وكأن الأم المربية المستنيرة هي التي تستطيع أن تصنع المجتمع الفاضل أو المدينة الفاضلة، فالتربية هي الأداة التي تقوم المرأة، وممارستها لها تقوّم الأولاد ومن هنا تهدي رجالا صالحين للمستقبل، هذا ما استطعت أن أفهمه من مقالاتها المتناثرة في دوريات عديدة، وهي أقوال نظرية مقبولة ولكن الظروف لاتساعد كل امرأة على ذلك.

المرأة وفن التربية

وفي سلسلة مقالات كتبتها في «أنيس الجليس» ١٩٠٠ تبين أن هناك تقصيرا في تعليم المرأة واجبات الأمومة، وتدعو إلى وضع مصنف يعلم المرأة فن التربية الذي هو أساس العمران ليمكنها من سياسة أبدان وأذهان أولادها، وتهاجم الدروس الابتدائية التي تتعلمها المرأة في المدارس لأنها لاتمكنها من إعداد رجال للمستقبل، ومما يجدر ذكره أن خليل زينيه أحد كبار محرري الأهرام وضع كتابا عن «العلم والتربية» قبل أن تكتب لبيبة مقالات في «أنيس الجليس»، وإذا كان زينيه لايخص المرأة بكتابه فإنه يتناول تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس والتآلف بين أفراد المجتمع ليرتقي عقل المرء ويتسع علمه، وتتنامى ثروته، ويزداد تعلقه بالوطن، ولكن يبدو أن كتاب زينيه لم يرقها وكانت ترغب في كتاب آخر يصلح للمرأة.

ويتواصل كلامها في تنوير المرأة وتثقيفها وصقلها بالتربية الحسنة والتعليم العملي النافع فتقول)(فتاة الشرق ١٩٠٩): «علمنهن الطبخ فهو أنفع لهن من الموسيقى، أفهمنهن ماهية الواجبات العائلية قبل تعليمهن اللغة الإفرنسية فإنهن سيصبحن ربات أسر، أبثثن فيهن روح الميل إلى مطالعة الكتب الأدبية بحيث تجد الفتاة فيها بعد مفارقة المدرسة مدرسة ثانية» ولم تكن لبيبة تجهل قيمة الموسيقى، فإنها كانت تدعو أيضا إلى تربية الذوق لتحقق سعادة الإنسان، وسعادة الإنسان تكون على قدر حسن ذوقه، وتذهب إلى «أن أفضل الوسائل لتربية الذوق هي الموسيقى والتصوير» الأولى «تنمي عواطف الحب والشفقة» والثانية «تساعد على إدراك قدر المحسوسات وكيفية نظامها» فقولها علمنهن الطبخ والواجبات العائلية والتدبير والاقتصاد في الانفاق، والمحافظة على المال وما إليه يعني ضرورة التمسك بالأسس التي تنهض عليها الأسرة.

مواقف قومية

وقد ظلت لبيبة هاشم زمنا وعبر عدة مقالات تندد بالمرأة السورية واللبنانية

خاصة التى تعرف اللغات الأجنبية وتجهل لغتها العربية، وتنتقد العائلة التى تبذل قصارى جهدها فى تعليم الأبناء اللغات الأوروبية، وتهمل لغة الضاد «الشريفة» حتى إذا شبوا لا يستطيعون إيضاح الأمور إلا باللغات التى تعلموها، وتبين أن هذا النهج فى التعليم سيىء ويجب ملافاته، وترى أن يربى المدرس تلامذته على يحب لغتهم «حتى إذا ما عثروا على شىء فى سواها يبادرون إلى نفع أبناء وطنهم بترجمتها وتعريبها» ليشدوا أزر اللغة العربية، ولبيبة تنكر إجادة اللغات الأجنبية، ولكن إتقان العربية يجب أن يكون أولا، وهى تقدر فى هذا أن القومية تتكىء على اللغة، علومها وآدابها، أكثر مما تتكىء على شئ آخر.

وتهاجم المدارس الأجنبية فى مقال لها «بفتاة الشرق» ١٩٠٧ وتبين أن الأجانب يدرسون العلوم بلغاتهم «وبطريقة توافق مصلحتهم» غير مهتمين بما يهذب أخلاق الشرقيين ويبث فيهم روح الإقدام».

وتحذر من أن هذه المدارس تجعل الأجانب يسيطرون على أفكار المتعلمين، وتظهر الآثار النفسية لهذه المدارس والأضرار التى تنال من الكرامة الوطنية تقول: «ندخل المدارس الأجنبية فيمتهننا أصحابها ويعاملونا بما فطر عليه الغربى من احتقار الشرقى فتنحنى رءوسنا لدى جبروتهم وتصغر نفوسنا لخشونة



معاملتهم، ومن ثم خبط فى يم لغتهم فتأخذ قواعد العلم كما هى مسطورة فى كتبهم دون أن نعرف القصد منها أو ندرك الغاية التى وضعت لأجلها»، وترى أن نتوسع فى إنشاء المدارس الوطنية «لنسعى بأنفسنا إلى ما فيه مصلحتنا».

ولا ريب أن المدارس الأجنبية، فى ذلك الوقت، كانت تعمل على إضعاف اللسان العربى لدى المتعلمين، وفتور الإحساس بالوطن نظرا لانتمائهم إلى ثقافة الدولة التى يتلقون العلم فى مدارسها، واكتساب العوائد الأوروبية مما يباعد بين أبناء الوطن الواحد، وتنبيه لبيبة إلى مزالق التعليم الأجنبى له أهميته فى تلك الفترة، ويمثل موقفا قوميا.

شرح أبعاد المشروع الصهيونى

وكان لصاحبة «فتاة الشرق» يد طولى فى التنديد بالحركة الصهيونية فى فلسطين، فأخذت المجلة على عاتقها شرح أبعاد المشروع الصهيونى فى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، واستفاضت فى ذكر جهود اليهود فى هذا المجال من جمعيات أسسوها، ومؤتمرات عقدوها، وتناولت المجلة منذ عام ١٩٢٩ مقاومة الفلسطينيين للمشروع الصهيونى وأبرزت دور المرأة الفلسطينية والمؤتمر الذى شاركت فيه الفلسطينيات وطالبن فيه بإلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وظلت المجلة تتابع مايجرى على الساحة الفلسطينية فترة غير قصيرة.

وهذا الموقف من لبيبة أو من مجلتها يأتلف من مواقفها القومية، وبوائم نزعتها العربية التي تأصلت فيها، ولاجرم فقد كانت تردد على صفحات مجلتها قولها : الأمة العربية أمة كريمة شهد لها التاريخ بأنها أعرق الأمم في المدنية وأسبقها إلي العلوم والاختراعات .

فتاة الشرق

ومجلة فتاة الشرق هي أكبر أعمالها ومستودع أفكارها وآدابها، ولاتتم الترجمة لها بدونها، وهي ليست أول مجلة نسائية، فقد سبقتها «الفتاة» و«العائلة» و«مرآة الحسناء» و «أنيس الجليس» وغيرها . ولكن فتاة الشرق تمتاز عنها بأنها أطول عمراً وأكثرها مراعاة لتقاليد الشرق.

صدر العدد الأول من «فتاة الشرق» في ١٥ أكتوبر ١٩٠٦، وقد عرّفتها صاحبتها بأنها مجلة أدبية تاريخية روائية، وبينت في افتتاحية العدد الأول أن دافعها إلي إصدار مجلتها هو قلة المجلات النسائية، وأوضحت أنها ستتضمنها الأفكار النسائية، وخلاصة الأبحاث العلمية التهذيبية، وفور صدورها استقبلتها مجلة «الهلال» في عدد أول نوفمبر ١٩٠٦ قائلة: «... وأكثر قراء العربية يعرفون اسم السيدة هاشم ولاسيما السيدات لما كانت تنشئه من المقالات الأدبية الاجتماعية والتهذيبية في المجلات العربية منذ بضع عشرة سنة فضلا عن الكتب واسمها يومئذ «لبيبة ماضي» على أن اسمها الجديد وما رافقه من المشاغل العائلية لم يمنعها من مزاولة الكتابة عن سنوح الفرصة، ثم رأت في الصحافة العربية فراغا لمجلة نسائية تبحث في التاريخ الأدب فأنشأت «فتاة الشرق» التي نحن بصددها، والست لبيبة يندر بين سيدات الشرق من تجيد الإنشاء العربي مع الضبط والسهولة مثلها. فضلا عن حسن اختيارها المواضيع ولذلك فنحن نرجو للفتاة الشرقية مستقبلا مجيدا» وفتاة الشرق شهرية سنتها عشرة شهور، ومقسمة إلى أبواب ثابتة مثل باب شهيرات النساء وتدبير المنزل وآداب وعادات وغيرها من الأبواب المفيدة، وقد أفسحت مساحات واسعة للأدب الموضوع والمترجم، ونشرت مادة شعرية وافرة وافاها بها العقاد وأحمد زكي أبو شادي والرصافي والزركلي ورضا الشبيبي وحليم دموسى وعلى العزب، وكتبت وشعرت فيها عدة نساء مثل وردة اليازجي ونبوية موسى والزهرة والكسندرا أفرينوه وعفيفة كرم وملك حفني ناصف. وعرّفت بالكتب التى صدرت في زمنها مثل مسرحية السموأل لأنطون الجميل والمساكين للرافعي والنظرات للمنفلوطي وازدهار حلم لمي زيادة.

والعجيب أن صاحبة المجلة لم تشترك في معركة الحجاب والسفور التى كانت على أشدها زمن ظهورها، ربما لأنها كانت محافظة من جهة، ومن جهة أخرى كانت تعرف أن المرأة لاتتقدم بالسفور أو الحجاب، وإنما تتقدم بالعلم والتربية والثقافة وهو ما ركزت عليه. ■

منصور باشا فهمى

وكتابه عن «وضع المرأة فى الاسلام»

بقلم
شكرى فؤاد

شهدت نهاية الربع الأول من القرن العشرين وبداية الربع الثانى منه معركتين حول حرية الفكر والبحث العلمى فى مصر أثارتا كثيرا من الجدل والضجة فى الحياة الأدبية والثقافية والسياسية فى ذلك الوقت. كانت المعركة الأولى حول كتاب الشيخ على عبدالرازق الذى ظهر عام ١٩٢٥ وعنوانه «الإسلام وأصول الحكم» أما الثانية فكانت حول كتاب الدكتور طه حسين الذى ظهر عام ١٩٢٦ وعنوانه «فى الشعر الجاهلى»

وقد أسهمت فى إذكاء نيران المعركتين الملابسات السياسية والحزبية التى احاطت بكل منها بدرجة أو بأخرى فانقسم الرأى العام فى الحالتين بين مؤيد بدون تحفظ ورافض لا يقبل تنازلا عن موقفه، على أن هناك معركة أو أزمة أخرى حول كتاب نشر عام ١٩١٣ لمؤلف لم يكن معروفا فى ذلك الوقت هو الدكتور منصور فهمى (منصور باشا فهمى بعد ذلك) وعنوان كتابه «وضع المرأة فى تراث الحركة الإسلامية عبر تطورها» ولكنها معركة مرت بهدوء وكادت تذهب الآن نسيا



منصور فهمى

منسيا بالرغم مما قابله صاحب الكتاب من مشاكل بسبب كتابه وما لاقاه من عنت لا يقل عما لاقاه الشيخ على عبدالرازق أو الدكتور طه حسين من بعده، ولذلك أسباب لعل أهمها: فى تقديرى أولا أن الكتاب صدر باللغة الفرنسية فى باريس ولم يترجم إلى العربية ولم ينشر فى مصر فظل فى متناول عدد محدود من القراء، ثانيا: أن المعركة دارت بشكل أساسى داخل أروقة الجامعة المصرية وفى دوائر كلية الآداب ومجلسها بشكل خاص. ثالثا أن المؤلف فيما يبدو لم يكن صاحب فكر سياسى يناضل من أجله أو موقف من التطور والإصلاح الاجتماعيين بدافع عنه، بل كان باحثا أكاديميا استهوته مناهج البحث العلمى فى جامعة السربون حيث يدرس واستطاب جو الحرية التى كفلتها له إقامته فى باريس مشيرا إلى ذلك بقوله: «ذكرياتنا حول الحى اللاتينى العزيز والنظم المفيدة التى حولتنا إلى أرواح حرة» فاندفع فى بحثه غير مقدر لعواقب التطرق إلى موضوع تحيط به كثير من المحاذير، فلما أدراك مخاطر السبيل الذى سلكه آثر الانسحاب بهدوء والانحناء للعاصفة حتى تمر فتنزع فتيل الأزمة قبل أن تصل إلى الرأى العام وجمهور المثقفين.

سيرته وثقافته

ولد منصور فهمى فى قرية شرنقاش بالدقهلية عام ١٨٨٦ ودرس فى كتاب القرية ثم فى مدرسة المنصورة الابتدائية فلما أتم دراسته الابتدائية انتقل الى القاهرة ليلتحق بإحدى المدارس الفرنسية الخاصة وحصل منها على شهادة البكالوريا عام ١٩٠٦ م فالتحق بكلية الحقوق ولكنه لم يكمل دراسته بعد أن أمضى بها عامين، ذلك أن فكرة انشاء جامعة مصرية كانت قد تحققت،

فأعلن عن إنشاء الجامعة عام ١٩٠٨م ثم رأى القائمون عليها ضرورة تأهيل عدد من المصريين للتدريس بها ليحلوا محل الأساتذة الأجانب، فأعلنت الجامعة في العام نفسه عن مسابقة لاختيار عدد من الدارسين تبعث بهم إلى بعض الجامعات الأوربية للحصول على درجة الدكتوراه ثم يعودون إلى مصر للتدريس بالجامعة المصرية وتقدم منصور فهمي لمسابقة المبعوثين لدراسة الفلسفة في فرنسا، وفاز بها فسافر إلى باريس في سبتمبر ١٩٠٨، حيث قضى خمس سنوات حصل خلالها على عدة شهادات كانت أخرها الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السربون، عن وضع المرأة في الإسلام، وكان طالب البعثة يتلقى من الجامعة اثنا عشر جنيها شهريا لنفقات معيشته، ويتعين عليه بعد عودته أن يقوم بالتدريس في الجامعة لمدة عشر سنوات، وإلا ألزم بتسديد نفقات بعثته ولم يكن يسمح للطالب بالزواج أثناء دراسته (وافق مجلس الجامعة على استثناء طه حسين من هذا الشرط بسبب ظروفه الخاصة).

نشاط سياسي بارز

وعند وصوله إلى باريس شارك في تكوين «الجمعية المصرية» هناك، وكانت «الجمعيات المصرية» هي أبرز صور تنظيمات المصريين في المدن والعواصم الأوربية في ذلك الوقت فأنشئت جمعيات مماثلة في لندن وادنبره وليون وجنيف وغيرها من المدن، وفي غياب وجود سفارات أو قنصليات لمصر في الخارج حينئذ أصبحت كل جمعية عبارة عن رابطة تجمع المصريين يمارسون تحت ستارها نشاطهم السياسي ودعوتهم لقضيتهم الوطنية. يقول مرسي محمود في رسالة بعث بها من باريس إلى الزعيم محمد فريد بتاريخ ١٩٠٨/١٠/١٠ ألفنا جمعية سميناها الجمعية المصرية وقد اعطيناها الصبغة العلمية في الظاهر لأن أكثر اعضائها من إرسالية الجامعة المصرية، وباقي المصريين كما لا يخفى على سعادتكم أموات... وانتخبت رئيسها محسوبكم الفقير مرسي ووكيلها منصور فهمي المكلف بدراسة الفلسفة. ويبدو أن منصور فهمي قد انضم إلى الجمعية باعتبارها ذات صبغة علمية كما يقول مرسي محمود ولم يكن في ذهنه أو في نيته أن يشارك في عمل سياسي. إذ يذكر د. محمد حسين هيكل (هيكل باشا) في مذكراته عندما كان يدرس في باريس على نفقته الخاصة واقعة تبين جانبا من جوانب شخصية منصور فهمي، مجملها أنه

عندما بدأت الأنباء ترد إليهم أن الحكومة المصرية تزمع مد امتياز شركة قناة السويس آثار الأمر اهتمام الطلبة ورأوا أن يكون للجمعية رأى يتم إبلاغه إلى الرأى العام فى مصر باعتباره رأى الجمعية المصرية فى باريس ولكن بعض مبعوثى الجامعة من الأعضاء ومن بينهم منصور فهمى اعترضوا ودفعوا بأنه لا يجوز بحث هذا الموضوع فى الجمعية لأنه موضوع سياسى ونظامها يحرم عليهم الاشتغال بالسياسة كما أنهم تعهدوا للجامعة قبل ايفادهم ألا يشتغلوا بالسياسة، ووصف هيكل أنه وجد حلا للمشكلة وهو أن الاشتغال بالسياسة المحرم على الجمعية هو الاشتغال بالسياسة الحزبية حتى لا يجر الخلاف الى خصومات داخلها، أما مجرد ابداء الرأى فى أمر انعقد عليه اجماع الأمة فلا يعد اشتغالا بالسياسة «وهل إذا جاءت فرصة اقتضت المصريين أن يقولوا أنهم حريصون على حرية بلادهم، أفيكون مجرد هذا القول اشتغالا بالسياسة؟» وانعقدت الجمعية ودافع هيكل عن وجهة نظره ولكن مبعوثى الجامعة وضمنهم منصور فهمى اعترضوا على بحث الموضوع فانسحبوا من الاجتماع وقرر الباقون بالاجماع رفض مد امتياز شركة القناة، ولا نعرف بعد ذلك نشاطا يذكر له فى الحياة العامة بين المصريين في باريس.

وضع المرأة في الإسلام

أما كتاب منصور فهمى الذى آثار الضجة فهو أطروحته التى نال عليها درجةالدكتوراه، وكان المشرف عليها ليفى برول أستاذ علم الاجتماع المرموق، وقد نشر الكتاب للمرة الأولى عام ١٩١٣ فى باريس بعنوان «وضع المرأة في تراث الحركة الإسلامية عبر تطورها» ثم نشر فى طبعة ثانية فى باريس أيضا عام ٢٠٠٢ بعنوان «وضع المرأة فى الإسلام» وهو كتاب صغير الحجم يقع فى حوالى ١٤٠ صفحة من القطع الصغيرة وقد تناول المؤلف فى تقديمه للكتاب الدافع وراء اختياره لموضوع رسالته والمنهج الذى التزم به والنتائج التى خلص إليها، وكيف تأثر بجو حرية البحث العلمى فى «السربون» فقال: إن غرابة أوضاع المرأة المسلمة صدم الأوربيين منذ وقت طويل عبر عنه نابليون عند بدء حملته على مصر بقوله «إن الشعوب التى سنذهب إليها تعامل المرأة بشكل يختلف عن معاملتنا لها» وأن أول ما يصدم الأوربيين فى وضع المرأة المسلمة هو احتجابها وعزلها عن المجتمع الذى تعيش فيه، ولذلك

كان للموضوع فى نظره أهمية باعتباره أحد هموم البلدان الإسلامية المتقدمة التى ترى ضرورة إصلاح تقاليد وأعراف مجتمعاتها ويضيف المؤلف أن دراسته أثبتت أن عزل المرأة لم يكن السبب وراءه دينيا فقط ولكنه كان أيضا نتيجة التميز الطبقى داخل المجتمع ولذلك استدعى الأمر منه بحث جوانب العقيدة والشريعة والاعراف والتقاليد التى اجتمعت وامتزجت معا فيما يتعلق بموضوع دراسته كما استدعى تناول علاقات الرسول بزوجاته باعتبار الرسول نموذجا يحتذى بسننه وبسلوكه المسلمون.

ثم ينتقل بعد ذلك ليعلن عن سعادته بما تأثر به من حرية البحث العلمى فى السربون فقد ولد مسلما وقضى شبابه فى بلد مسلم ثم جاء إلى باريس فاكتسب تحت اشراف استاذه «ليفى برول» مناهج البحث الاكاديمى، فقام بدراسته وليس أمامه من هدف غير الوصول إلى الحقيقة، وهو يدرك أن هذه الروح النقدية ستعرضه لمؤاخذة من جانب اولئك المسلمين الذين يضفون على التقاليد قداسة واحتراما دينيا «ولكن اردنا أن نكون جادين فى بحثنا بالرغم مما قد يسببه ذلك من جرح لمشاعر من هم أعزاء لدينا».

ثم يقول ان دراسة الوثائق التاريخية انتهت به إلى وجود روابط بين ظاهرة عزل المرأة وتحجبها وبين ظاهرة العبودية فى المجتمعات الإسلامية وأن العزل والاحتجاب كان يهدف أساسا إلى التمييز بين الحرة والأمة وهو ما جعل الإماء أحظى عند الرجال من الحرائر لأن الزوج قبل أن يملك الأمة يكون قد تأمل كل شيء فيها وعرفه على عكس الحال مع الحرة.

احترام التقاليد الدينية

والكتاب بشكل عام دراسة اكاديمية علمية بعيدة عن الأسلوب الخطابى الداعية لتحرير المرأة أو سفورها فهو بحث تاريخى تحليلى استعان فيه بكتب التراث الإسلامى والسيرة واكثر من الاستشهاد لها والاشارة إلى ما تضمنته من وقائع تدعم وجهة نظره ولكن من الواضح أن المؤلف قد انبهر بمناخ الحرية الذى لا يضع على الباحث قيودا أو محاذير وكان قد انتقل إلى هذا المحيط الجديد عليه وهو فى سن الشباب فانساق وراءه دون أن يضع فى اعتباره مدى تقبل المجتمع الذى جاء منه لهذه الحرية التى تكاد لا تعرف حدودا فتناول باستهانة بعض

المسلمـــات التي تصل إلى درجـــة التقديس وتضمن الكتاب عبارات لا تتفق مع احترام التقاليد الدينية، من ذلك مثلا أنه عندما يأتي ذكر الرسول يذكـره باسمـه الأول مـجـردا من عبارات التوقير والتكريم التي جرى عليـهـا العـرف في المجـتـمـعـات الإسلامية كما كان انتقائيا فيما استشهد به من وقائع وردت في كتب التراث والسيرة خصوصا في الفصل الخاص بعلاقة الرسول بزوجاته الذي أشار فيـه إلى جرأة بعض زوجاته عليه عند مخاطبته خصوصا السيدة عـائشـة ، ولعل خيـر مـا يوصف به كتابه هو ما قاله الدكتور إبراهيم بيومي مدكور في تأبينه: «رسالته للدكتوراه فيـهـا منهج قويم ودرس واستيعاب ووقوف على أهم المصادر الإسلامية وأن خرج الحماس ببعض احكامها عن دائرة الموضوعية.. وقد يكون فيما كتب ما يثير نقدا أو يقتضي ملاحظة.. ولكن حرمة البحث العلمي أفسح صدرا وأسمى من أن يعتدى عليها بسبب لفظ أو عبارة.

غضب الجامعة المصرية

بعد أن انتهى منصور فهمي من اعداد رسالته المشار إليها نما الى علم مـجلس الجـامـعـة المصـرية أن الرسـالة تشوه الإسـلام وتطعن في رسـوله وأنهـا تمت تحت اشـراف أسـتـاذ يهـودي مـعـاد للإسـلام والمسلمين فأبرق المجلس إلى باريس طالبا تأجيل مناقشة الرسالة (حتى تعرض على مجلس الجامعة) ولكن المناقشـة جـرت في مـوعـدها ونال منصور فهمي درجة الدكتوراه فأبرق المجلس بطلب عـودته فـورا إلى القاهرة وارسال النسخ الباقيـة من الرسالة - وكانت الجامعة قد سددت نفـقـات طبـاعـتـهـا - إلى مـجلس الجامعة.

وعاد الدكتور منصور إلى القاهرة في شهر يونيو ١٩١٣ فالتحق بهيئة التدريس بالجامعة طبقا لتعاقده مع الجامعة قبل ايفاده للبعثة ومر الأمر بهدوء في البداية ولكن يبدو أنه عندما بدأ يمارس التدريس مع بداية العام الدراسي تنبه البعض إلى وجوده وأثاروا الموضوع من جديد فاضطر مجلس الجامعة إلى فصله في ديسمبر ١٩١٣.

عمل منصور فهمي بعد الاستغناء عنه من الجامعة سكرتيرا لجمعية الهلال الأحمر وقضى ست سنوات يكافح في سبيل كسب عيشه، يشعر شعور المطرودين والمحرومين حتى عينته الجامعة مرة أخرى لتدريس الفلسفة بنظام المكافأة عام ١٩٢٠ م ولما مر الأمر دون متاعب او اعتراض أعارته الجامعة في العام التالي

كعضو منتظم في هيئة التدريس، وتدرج في مناصبها من استاذ مساعد إلى إلى وكيل لكلية الآداب، وعندما فصل طه حسين من عمادة كلية الآداب تم تعيين منصور فهمي خلفا له من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٦ ثم عين مديرا لدار الكتب عام ١٩٣٦، ومرة أخرى يحل محل طه حسين كرئيس لجامعة الاسكندرية عام ١٩٤٥ بعد الاستغناء عن طه حسين عقب إقالة حكومة الوفد عام ١٩٤٤.

وكان منصور فهمي عضوا عاملا في جمعية الهلال الأحمر وجمعية الشبان المسلمين ورابطة الإصلاح الاجتماعي، وعين عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ ، وفي العام التالي أصبح أمين سر المجمع حتى وفاته عام ١٩٥٩ كما كان عضوا مراسلا للمجمع العلمي العربي بدمشق.

تنوع نشاطه الفكري

لم يؤلف منصور فهمي كتابا بعد رسالته ولكنه اتجه إلى كتابة المقالات والخطابة والاحاديث الإذاعية والمشاركة في المؤتمرات والندوات واتجه أغلب نشاطه الفكري نحو الأخلاق والإصلاح الاجتماعي ، ولاشك أن تجربته القاسية مع الجامعة كانت نقطة فاصلة في حياته حولت نقده الجرئ إلى حذر وحيطة، وثقته بالناس إلى شك وريبه، يقول عنه محمود تيمور في هذا الصدد «وليس عجيبا أن ترى منصور فهمي بعد أن عرك الحياة في حقائقها الواقعة قد اصطبغت مبادئه ودعواته ونشاطاته بصيغة المحافظة والاستمساك بمأثور التقاليد وموروث القوميات ، اختط لنفسه خطة واضحة في توجيه الحركة الفكرية . خطة تأبى الثورة والانتفاضة وتؤثر الهوادة والرفق في ملاءمة التطور والانتقال من حال إلى حال وتوصي بالتبصر في ترك ما تترك من القديم وفي قبول ما تأخذ من الجديد».

ولكن الملفت للنظر هو موقفه بعد ذلك من المرأة، فمع انه اختتم رسالته في فقرتها الأخيرة بقوله «إنني لأنحني امام ذكرى الكاتب المصري قاسم أمين الذي نذر نفسه كلية لقضية المرأة وتوفي قبل أن يسعد بجني ثمار عمله الذي سوف تقوده الحركة التقدم الحتمي الى النجاح في نهاية الأمر». فإنه في مقالاته وأحاديثه يرى أنه من الباطل والخديعة والتمويه أن تتساوى المرأة مع الرجل في كل شئون الحياة الاجتماعية وأعمالها وأنه من التملق إليها أن تهون لها الحقوق السياسية والتشريعية والحزبية فتساق إلى

المطالبة بمراكز الحكم والنيابة، ويرى أن الخير للمرأة ألا تخرج من ميدان البيت وما يزيد في بهجته واشراقه، ومن ميدان الأمومة وتربية الأولاد وتعهدهم بحسن التنشئة ، ومن ميدان الزوجية والسهر على راحة الزوج وأمور الولادة والتمريض وما يتصل به مما تتفوق فيه المرأة على الرجل لاتصاله بطبيعتها وأنه إذا تغلب فوز المرأة بما تصانع من حقوق موهومة فذلك كتغلب الاظلام على الضياء، وكأنما يشعر منصور فهمي بما في هذا الموقف من تناقض مع موقفه السابق فيقول «قد يرميني البعض بالتقهقر وبالرجعية المغالية وقد يبدو له فيما ذكرته ما يمثل ذهنية العصور الخوالي التي ذهبت بلا رجعة «ولكن» الباعث الى كتابة ما كتبت لا يرجع إلى سوء تقدير للمرأة وإنما مرده الايمان بالعائلة التي هي الدعامة الكبرى لحياة البشر إذا فسدت يفسد. فعندي أن العائلة هي الركاز الأول في سلام الإنسان والمرأة، هي عميدة هذا الركاز الأول، وكل أمر يشغلها عن مركزها في العمادة انما هو تفويت لما تنشده الإنسانية من خير وسلام. وكل خروج بالمرأة الى اعمال المجتمع هو محسوب ومطروح من حساب خصائص العائلة وتراحمها وتساكنها».

منصور فهمي في «المرايا»

واخيرا فلعل كاتبنا الكبير نجيب محفوظ كان قاسيا عليه عندما تناوله في شخصية ابراهيم عقل استاذ الفلسفة في كتابه «المرايا» فقال عنه «اهتز الدكتور من جذوره حيال الحملة العاتية ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة ولا قبل له بتحدي الرأي العام فضلا عن حرصه على وظيفته وشدة حاجته إليها فأنكر التهمة ودافع عن عقيدته وتوسل بكثيرين لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيها ، ولما التحقت بالجامعة عام ١٩٣٠ وجدته استاذا مساعدا بها والظاهر أن المحنة التي مر بها علمته كيف يركز نشاطه في دروسه الجامعية وينسحب من الحياة الفكرية خارج جدران الكلية ولاحظنا ان همته يطويها الفتور والملال وان دروسه اقرب إلى التوجيهات العامة منها إلى المحاضرات الدسمة.. لم أكن له احتراما يذكر لعزوفه عن التأليف ولعدم اخلاصه في عمله..

وفي مطلع العام الدراسي تولى منصبا جامعيا كبيرا «عمادة كلية الآداب خلفا لطه حسين» ولكن اغتال في سبيله جميع مثله العليا. ■

التكوين

هرولة الحياة (٢)

سناء البيسى

تحدثت في العدد الماضي من الهـلال عن بدايات التكوين ومنابع الثقافة وجذوري الفكرية والشخصيات التي أثرت في تكويني الثقافي والفكري وفي هذه الحلقة استكمل الحديث عن معالم التكوين خاصة في مجال الصحافة والفكر والآدب والثقافة .



أبي .. القدوة في كل شيء

وحينما أتطلع إلى تكويني الروحي أجد تعاليم الإسلام في النشأة كانت سمحة، الوالدان لايتركان فرضا، ولرمضان شهر الصيام تقاليده الحميمة، وللعيدين طقوسهما التي تبدأ فجرا عندما يقف أبي للوضوء مكبرا قبل ذهابه للجامع بصوت مرتفع الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا .. نندس في أحضانه ليمسح بكفه الجميل على رؤوسنا وهو يتلو أوراده ودعاءه، ويغني لنا حتى ننام في سلام: «يانِنّه ياكبابة وديني ع البوابة تعجن لي وتخبزلي وتقضيلي الحاجة»، ومازلت أذكر مشهدا كان فيه يدور حاملا الشقيقة الصغيرة بثينة على كتفيه تحتضن رأسه وتقبلها ويذكر لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عندما يركع يمتطي ظهره كل من الحسن والحسين .. كان عالما في الدين ملما بالفقه حتى أنه قام بتأليف كتابين في الصلاة والوضوء والشهادة، وكنت مبهورة في طفولتي به لدرجة ظننته يطاول بمكانته خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب، وبعدها كنت موقنة بأنه الأحق بأن يكون رئيسا للوزراء أو حتى الملك.. كانت إجاباته حول الأسئلة الدينية الحرجة تهبط أماناً وسلاماً على القلب بلا تزمت ولاتعصب .. مكتبته تضم أئمة كتب التفسير والبلاغة والتاريخ الإسلامي ومجموعة نادرة من المصاحف، ومن معاشرتي لها صار أمر فن الرجوع إلى دقائقها سهلا ميسورا بحكم التعود، ولأنني قد ورثتها بعد رحيله لمكتبتي الخاصة أصبح لها مكانتها المقدسة فأغلفتها المقوّاه السوداء بعناوين محتوياتها مع اسم أبي المُذهب في نهاياتها تجعلني عندما أمد يدي لأي منها لأفتحه مرجعاً أشعر بأنني أحادث أبي أتواصل معه أسلّم عليه أقرأ له الفاتحة، وأترحم على علم تركه يُنتفع به وابنة تدعو له.

في معترك الحياة

ولابد وأن من أركان التكوين النفسي والثقافي والاجتماعي ماتصنعه العِشرة مع الآخرين .. سنوات التلاصق الصباحي، وتعاقب رؤساء العمل، ومئات الحوارات وعشرات المواقف، وشراكة العيش والملح وفنجان الشاي، وزخم الذكريات والضحكات والقفشات والدموع والهموم والأفراح والأتراح، والدخول بحكم الجوار المكتبي وداخل جدران واحدة في تفاصيل حياة الآخر، ومتابعة نمو الأنجال على الجانبين والشكوى من شريك البيت، والأماني والأحلام والرد على التليفونات التي تحمل طلبا جهوريا أو نغمة عاطفية.. كلها .. كلها .. لابدوأن تترك ظلالها علينا .. تحيد بنا بعض الشيء.. توجه خُطانا بعض الشيء .. تشارك في قراراتنا بعض الشيء .. على مدى سنوات العمر ضمتني حجرة مكتب

التكوين

واحدة مع الكاتب الساخر محمد عفيفي، ومن بعده اللا متكرر صلاح جاهين، ومن بعدهما الفنان يوسف فرنسيس، والكاتب أحمد بهجت، وفي فترة عملي كمستشارة بالبنك الدولي في واشنطن شاركت ستة من الفنانين الرجال مكتب العمل، من السادسة صباحا حتى السادسة مساء. ربما في ذلك ما يجعلني لا أشعر بغربة في عالم الرجال، بل أجد بينهم نفسي وأجروميتي وحَتّي وما أفتقده في الجلسة النسائية، وكثيرا ماتمنيت في الصغر أن أكون شاباً لافتاة من أجل أن أرتاد أماكن محظورة على أنوثتي أقرأ عن تجاربها المثيرة الغنية بالأحداث والمواقف الإنسانية، ومن أجل أن أحمل حقيبتي لأسافر لأي مكان في أي زمان، ولكي أعود للبيت وقتما أشاء، ولكي أحادث من أريد على أي أرض تتراءى لي دون أن تلاحقني النظرات والغمزات، ولكي لايستدعي أمري التوقف أمام المرآة لتهذيب مظهري وملاءمة ألواني وغلق فتحة صدري وتغطية لحم ركبتاي، ولكي يكون الوصف عندما أطير وأحلق وأنتقي وأغطس وأعوم وأتنقل من زهرة لأخرى وأمر بالتجارب الكبرى هو طيش الشباب وليس قلة أدب وعدم تربية وعود الكبريت الذي لا يتوهج إلا مرة واحدة، وربما من هذا المنطلق فضلت ارتداء البدلة والبنطلون في غالبية المناسبات، وزهدت في الفستان وأدوات التجميل ووقَّعت لوحاتي باسم «البيسي» بدلا من «سناء» لكي يسعد بي والدي الذي لم ينجب سوى الإناث وإن كان بالنسبة لهن أكثر الآباء حنانا واحتواء وصداقة حتى ظننته أكثر تفهما من أمي رغم ما كانت تكيله لي من عبارات الحب حتى قولها لي ذات يوم لا أنساه : «لاتغيبي كثيرا عن سمعي وعيني .. أنا يابنتي باعشقك»..

بيت العز

بيت العائلة كانت جدرانه كرامة وحدوده كرامة وإطلالته كرامة وأساساته كرامة .. بيت طيب حريص إلى أبعد حد على مشاعر الآخرين .. بيت مهاود سلس التعامل والتناغم والتواصل والألفة والمحبة والصداقة والتآخي مادمت لم تدُس على طرف أي فرد به أو تخدش كرامته ولو من بعيد أو تجرح مشاعره بقصد أو غير قصد، وإلا، فذنبك على جنبك فالتعامل معك لا مؤاخذة قد انقطع، والعودة إلى سابق عهدك به بلا رجعة، والمياه أبداً لن تعود إلى مجاريها، والعودة إذا ما اتصلت على أي نحو فهي في أضيق الحدود وفي منتهى الحذر فنحن ناس نقدُر الناس وبالتالي نحب أن نجد المقابل مماثلاً .. ومازلت أذكر عندما جاءت جدتي والدة أمي من المنصورة لتنزل ضيفة علينا، مهابة الجانب، مبجلة المقام، مرهوبة الإطار ..الكل في خدمتها. الكل رهن إشارتها . الكل يعمل لها ألف ومليون حساب وحساب، لكنها عندما

أشارت لي بيدها الطيبة الوردية المكتنزة التي ننكفيء لنلثمها صباحاً ومساءً موجهة لي عبارتها التقليدية التي تقولها قبل بدء الصلاة، وامتثل لها أجيال متعاقبة من إناث الإسرة: «وطيّ يابت إفرشي لي السجادة» عندما قالت لي جدتي العظيمة «يابِت» هذه صُدِمتُ بشدة. تخشبت. انقهرت. انصعقت.. مُتّ من وجع الكرامة. أصابتني طعنة الاستهزاء في مقتل. قلبت الكلمة المهينة حالي لأغدو في لحظات من طفلة وديعة مطيعة لكتلة غضب أعصاب شايطة .. وأتت أمي على صوت نشيجي .. مالك ياروح ماما؟!! قوليلي ياحبيبتي فورا؟! بتعيطي ليه ياست الستات؟!!. قالت لي يابت... وانفردت أمي بجدتي طويلاً وتردد اسمي على لسانها ولأول مرة تحتد أمي في النقاش لأسمعها تقول لأمها : «أرجوك ياماما، إلا بناتي من فضلك» .. ونادتني جدتي تأخذني في حضنها فيعلو نشيجي لتزداد في احتوائي وندماً، وبعدها صار اسمي على لسانها له من التدليل دلالته.

الأب الروحي

وفي بداية تدريبي الصحفي في أخبار اليوم بين مجموعة لاتتعدى أصابع اليد الواحدة من صبيان وبنات انتقاها الراحل الكبير الأستاذ مصطفى أمين من بين صفوف المدرج الجامعي بعد أن عقد لنا امتحانا إثر إلقائه إحدى المحاضرات كأستاذ زائر .. وكانت رعايته الأبوية لنا ونحن ندب ونبرطع في ردهات أخبار اليوم بشرائط الشعر الملونة والجوارب الرياضية القصيرة والحذاء المنخفض نكاد تصل إلى حد التدليل، فلا أحد ممن حولنا من الصحفيين الكبار له الحق في تقويمنا أو عقابنا أو توجيه أي نقد لنا سخطاً أو حتى إعجابا، أو أن يدوس لنا على طرف، فنحن في كنف الأب الروحي صاحب المكان المسئول عنّا بالكامل في التدريب والتهذيب والتوجيه والتشجيع، حتى أنه بجلالة قدره كان يهبط لمواقعنا في الدور الأول من مكانته المرتفعة في الدور التاسع حاملاً لنا على ذراعيه هرماً من الصحف والمجلات والدوريات ليعلمنا كيف نقرأ مابين السطور السياسية والاجتماعية والفنية والرياضية .. الخ .. حتى أعمدة صفحات الوفيات التي تعكس الوضع الاجتماعي بأشمله، وكان اجتماع يوم الجمعة في العاشرة صباحا معه بمثابة محاضرة لانظير لها في عالم الصحافة نحرص عليه كأنه العيد ونستمع في نهايته لتعليقاته الساخرة وبديهته الحاضرة وتشجيعه للكفاءات وإنصاته للشكاوى بصدر أب واسع الغفران عقابه اللوم الهادىء الذي يهبط على المذنب كالسياط .. مصطفى بيه نرفع سماعة التليفون إليه طول النهار لنسأله ونشكو إليه ونطلب رأيه .. مصطفى بيه الدبابيس خلصت .. مصطفى بيه الأستاذ طنطاوي كشّر في وشي .. مصطفى بيه ماما قالت لي ما تتأخريش .. مصطفى بيه نفسي أركب طيارة.. وبين أوراقي الخاصة

مازلت محتفظة بقرار من الراحل العظيم بتعيينى أول محررة طيران فى أخبار اليوم، ليتسنى لى السفر على خطوط الطيران الجديدة لجميع بلاد العالم .. من هذا المنطلق، وتبعا لتلك النشأة فى البيت والغيط وقعت من طولى عندما أشار لى الكاتب والناقد الراحل جليل بندارى من داخل مكتبه وأنا فى انتظار خروج الزميلة والصديقة سناء فتح الله الموجودة عنده.. «تعالى يابتْ لمّا أقولك» يانهار أغبر .. يا سنة سودة .. كارثة .. بيقول لى أنا أنا أنا يابتْ .. بكيت وانهرت لدرجة الإغماء، ولم أستعد رشدى إلا على يد رجال الإسعاف الذى جاءوا على عجل لإنقاذ الحالة السيئة المتدنية، وكان هناك كنعان حبيبى وزوجى فيما بعد الذى أتى عند سماع الضجة من مكتبه ليتصدى للبندارى ويفهمه غاضبا أن مش كل البنات زى بعض، ومش كل البنات يتقال لهم يابت.. وروحت بيتنا بقرار عدم العودة للعمل مع ناس بيقولوا لى يابت، وغبت وعدت بعد راحة نفسية طويلة ليأتينى البندارى يطيبُ خاطرى ويؤكد لى أنه لم يقل قوله هذا إلا من باب العشم والمعزة والحب، ورغم اعتذاره ظل لا يفهم سببا لبكائى اللهم إلا إذا كان فى مخى حاجة غلط لم يقصدها، ورجانى أن أرسم له لوحات كتابه الجديد كنوع من بناء جسر للمودة بيننا لكننى اعتذرت وأيد والدى قرارى، وابتعدت، وظللت حريصة على وجود المسافة التى لاتجعله يهزر معى رغم حرصى على قراءة كل كلمة نقد يكتبها بأستاذيته..

إنسانة محظوظة

ولست كما كان يقول لى الكاتب الراحل يوسف السباعى متفاخرا بمظهره ورئاساته ومناصبه العديدة وإقبال الدنيا عليه قبل أن يصاب فى مقتل بيد الإرهاب فى قبرص.. كان قولة «أعمل إيه لحظى فأنا واحد وُلدت محظوظا».: أنا بقى واحدة ماشية جنب الحيط حامدة لله وشاكرة فضله وبلا حسد لنفسى، وما يحسد المال إلا أصحابه، وقل أعوذ برب الفلق.. أنا.. وأعوذ بالله من قوله أنا، أعُد نفسى إنسانة محظوظة للقاءاتى وصداقاتى وجيرانى وتلمذتى على خلاصة رجالات الفكر والثقافة والصحافة فى مصر، وليساعدنى المولى فى أن يصدر لى كتاب يحمل تجربتى مع كل منهم.. التقيت أثناء عملى فى أخبار اليوم بالأساتذة التابعى وكامل الشناوى وأنيس منصور وموسى صبرى، وفى الأهرام بمحمد حسنين هيكل، والدكتور بطرس غالى والدكتور لويس عوض، وكان من سكان الطابق الذى يعلونا الدكتور حسين فوزى وتوفيق الحكيم وإحسان عبدالقدوس وصلاح طاهر وعبدالرحمن الشرقاوى.. وكان هناك الأستاذ أحمد بهاء الدين الذى تحتوى أزرار تليفونه الخاص على زرار يحمل اسمى لا يستدعى منه سوى أن يضغط



الزواج الجماعي الذي بدعته «نصف الدنيا»

عليه لألبى دعوته على بعد خطوات قُبالتى فأجلس إليه أرتوى.. تابعته من موقعى كتلميذة ومرءوسة وناهلة من بحور ثقافته وأستاذيته، وكان فى تواضعه طوال لجوئى إليه يكاد ينسينى موقعى، وأكاد أشعر بندية صداقته، فهو الذى يلقانى ليحكى وينتظر وقع كلامه على ملامحى مراقبا تجاوبى أسفا لحزنه أو سعادة لفرحه، وأروى له فأجده ملك أدب الإنصات، مبتسما لمشاكلى، مجففا لدموعى، مندهشا لاكتشافى، مشجعا لمشروعى، ممهدا لطموحى، مقوِّما لشطحاتى، ناقدا لعملى، صندوقا لسرى، سعيدا لفرحى، ناصرا لقضيتى، متحفزا لعدوى، مرحبا بصديقى، ممتنا لشكرى، مقبلا للقائى، سائلا عن غيابى، زائرا لمرضى، آخذا بيد انطلاقى، مرشدا لعثراتى، مقننا لدربى، منقِّبا عن منفذ يخرجنى به من سجن السأم لأتابع نهج تدفق المياة، بينما يكون هو ساعاتها وأنا فى غفلة الانشغال بذاتى - ساكن شرنقة الاكتئاب.. أستاذى.. أحمد بهاء الدين عندما أجلس إلى أوراقى أداعب الذكرى أجده مايزال مسيطرا على قلمى محيطا أبدا بعذوبته ذكرياتى.. كان متابعا لنموى وسطرى ورأيى وحلمى وطموحى وقصة حبى.. شاهدا على زواجى، مواكبا لسلم جهدى، كاشفا لى بضوء عقله عن

نتوءات الطريق.. من بعد غيابه عنا مرضا وموتا أشقى الآن من حمل فدان أسئلة وحده كان المجيب عليها.. المجاهل تتعقد دروبها بعد أن تخلى نافذ البصيرة عن موقع الكشف.. كان حييًا خجولا غير مقتحم، حتى فى مواجهة الموت الذى خجل منه رغم قسوته فعامله معاملة المثل لينا ورقة، ولم يأخذه على حين غِرة بل احتواه على مهل واصطحبه فى تأن..

أحببت الآداب والثقافة

فى مسيرة التكوين عاهدت نفسى ألا يشغلنى العمل السياسى وألا أنتمى لحزب معين فأنا ممتلئة غراما وهياما بالآداب والثقافة، وكان اسم الوزارة فى طفولتى يأتى على لسان والدى فى حديثه مع أمى فأتعجب من كونها تأخذ الأمر بمنتهى البساطة وهو يحكى لها نوادره مع الوزارة التى يذهب إليها كل يوم ويقعد عندها طول النهار.. كنت أعجب لأمى كيف تجلس وتنصت إليه باهتمام وتستغرق فى الضحك ساعة، وساعة تنصحه بأن يمشّى حاله مع الوزارة القاهرة القادرة صاحبة الكلمة المسموعة.. كان اعتقادى أن الوزارة تلك ماهى إلا امرأة خطيرة تسكن حى لاظوغلى، وأن والدى قد أقنع والدتى بطريقته السحرية بمدى أهمية تلك المرأة فى حياته وأنه لا غنى له عنها، وكنت أفكر فى أنه قد اقترن بها وأصبحت الزوجة الجديدة وضُرَّة أمى التى تقبلت وضعها مجبرة وذلك لأن بيتنا لن يستطيع العيش إذا لم يطع والدى أوامر أمر الست ـ الوزارة ـ الثرية التى تمنحه مع كل طلعة شهر ما يفتح البيت.. واعتقدت رغم سيطرتها التامة على تحركاته وأحاديثه وآلامه وأفراحه أنها فى النهاية طيبة القلب وتعرف الواجب، فقد منحتْ أبى علاوة عندما أنجب شقيقتى الصغرى بثينة، وأرسلته على حسابها فى مهمة خاصة للخارج، وعاقبتْ من أجله من افترى عليه، ووقفتْ فى صفه عندما قدم مذكرة ضد المدير المتعسف مع الموظفين.. ويشير أبى من شباك الترام إلى مبنى الوزارة فأحسده على أبهة القصر الذى يرتع فيه يوميا مع ضرة أمى، وألومه لأنه يعود من عندها فى بعض الأيام ثائرا عاقدا جبينه.. وعلى درب السياسة كانت علاقتى بالانتخابات يوم أن رشحت نفسى لعضوية مجلس نقابة الصحفيين، ومن وقت ذلك التوتر الذى يخطف النوم من عينى ليلا ليسقطنى فى نهارى لا إراديا فى الغطيط وأنا أقول فى سرى عندما تظللنى أية لافتات متصارعة: «لك الله يا مرشح أينما كنت وإلى أى مقعد تبغى وتروم».. وأبدا لن أنسى نعيم وسادة الراحة بعدما انقضت فترة المجلس الموقر، وشرخ رنين التليفون هدوء فجرى ليأمرنى أحد زملاء المهنة ممن له الفضل فى منحى صوته الكريم فى الانتخابات أن أجد له حلا عاجلا وفوريا لمشكلة حصوله هو وأسرته مجانيا على عضوية شرفية للنادى الأرستقراطى الكبير الذى لا أملك أنا

شخصيا عضويته.. أجبته من شاطئ الوداعة والوداع ممتنة لانقضاء فترة مسئوليتي عن شطحات رغبات الناخبين الذين يطالبون بالمستحيل بثقة وغلاسة وقلة ذوق وعنجهية وإلزام: أسفة.. خلاص حصلت على الخلاص.. انتهت ياعزيزي الدوق مدة تجنيدي لخدمة معاليك في السراي وعدت إلى نعيم البلاط.. أنهيت الاتصال ورجعت إلى وسادتي أكيل لها اللكمات لينخفض داخل قطن التنجيد موضعا لرأس فارغ مرتاح مرجل الشعر لا مستنفر البصيلات كان بالأمس صندوقا من الطنين النقابي..

مشوار مرهق ومتعب!

ومعذرة لعدم ترتيب مراحل التكوين فرغم توارد الذكريات يضع النهايات في سياق الحديث والخواتم في مستهل البدايات، ويترك هناك ثغرات مفتوحة كأبواب يلهو بها عبث الريح أو كجراح مزمنة لا تلتئم.. مشوار التكوين مرهق ومتعب وطويل تعب لي قلبي. أخذته وارتحلت للمداوى في مستشفى كليفلاند.. قال الطبيب يامصرية قلبك مشرخ ومطلوب لإنقاذه شق ومزع ونزع وتسليك وتبديل وتقطيع وترقيع.. نلتقي في الغد من بعدما تكتبي لنا تعهدا بأنك فوضت أمرك لنا وتذكري موقعه باسمك ثلاثيا الشخص الذي سيقوم بالاستلام في حالة إذا ما.. أنا.. فوضت أمري لربي.. وابني روح أمه مثلما حملني إليكم هنا في آخر الأرض هو من سيقوم بتسلمي منكم سواء على كرسي أو على



الصداقة الممتدة مع النجل الوحيد هشام

ظهري.. القلب؟! جاءني خبره من بعد ما فتحتُ عيني حول نزعه وحيدا على ترابيزة التفصيل من أجل ما يعدلوا المايل ويغيروا الهالك ويسلكوا المسدود ويلحموا شروخه ويرمموا ما انهار.. دمي؟!.. لم أحقق عوضا عما هدر منه تخوفا من أية عدوى، والنتيجة الخروج من جراحة القلب المفتوح شبحا بقفص صدري ملضوم بإبرة خيوطها أسلاك ستانلس تيل، وقد يكون

ربيع أول ١٤٢٤هـ - مايو ٢٠٠٣م

التكوين

من حظى أو لا يكون هذا حظا من أصله أن من قام بدخول قلبي هو دكتور «فلويد لوب» بالذات الذى لا يؤمن بجراحة التجميل فى مثل تلك العملية الخطرة تخوفا من التلوث.. لذا كانت صدمتى مهولة عندما لاقانى من بعد عودة الروح ونبض القلب ذلك الثعبان الضخم الراقد على صدرى بسيقانه المتشعبة الوارمة والذى سيمكث رابضا فى موضعه طوال ماهو مكتوب لعمرى يشهد بأن فى دماء دكتور لوب الأمريكى إرثا صعيديا يدفعه لأن يخيط أرض الجرح وكأنها قفة بداخلها بلاص مش..! وفى الغربة لم أكن أما ولدت ابنى.. أبدا ابنى من كان لى أمًّا بل وأبا.. سافر مرافقا لى تاركا عمله.. أرهقته. نسيت دورى. عانى الكثير منى. وضعت حملى وألمى وعمرى وتكالى عليه. شاف الويل. أذقته كأس الهلع ووخط المشيب شاب شعره خلال شهر.. وعدت من رحلتى العلاجية.. من العملية الجراحية الخطيرة التى دخلت فيها جب الآلام المبرحة.. عدت للعجب متفائلة. رجعت جوعانة شغل.. عدت بعزيمة تقلب الضعف قوة.. رجعت أفتح الشباك. رجعت أنظر للأمام أعب الحياة. رجعت أحب الحياة. رجعت كأنى اغتسلت فى نبع صافٍ. رجعت كأنى كنت فى رحلة حج قدسيةٍ. رجعت كأنى تهاديت فوق جمل محمل.. رجعت أسجد لربى. رجعت ممتنة لمن لم يدخر وسعاً لإنقاذى.. لزميل العمر ورئيسى وربان سفينتى وقبطان مؤسستى.. إبراهيم نافع.. رجعلت لـ«نصف الدنيا» لبناتى وأبنائى لجمع الشمل ودفع الهمم واستكمال مشوار الانفراد والتفوق الصحفى.. رجعت وهات ياشغل.. ولكن.. جرح القلب أبدا لم يلتئم بل زاد اتساعا.. رحيل شريك العمر الذى مضى معى عمرا لا يحب فيه أن يتعبنى مثقال ذرة.. الذى عندما كنت أجلس لأوراقى ساعات لم يكن يجد غضاضة فى أن يحمل لى صينية طعام يضعها أمامى فى سكون حتى لا يخدش إطار توحدى مع القلم.. الزوج الذى حاولت مرة من باب حب إثبات وجودى كزوجة وأم ومسئولة عن بيت أن أصنع حلوى فى الفرن ولو قالب كيك فنهرنى ودعانى للخروج الفورى من المطبخ قائلا باقتناع: ليس هذا دورك، والكيك موجود فى الفرن على الناصية، وروحى شوفى لك كتاب أو لوحة أو اسمعى لك قطعة موسيقى... رحل ... وكاد يميتنى عجزى عن إعادته لقربى.. بداخلى مازال رغم مضى السنوات بوسعى أن أخاطبه وبوسعه أن يجيبنى ولو فى الرؤى. أخلد للذكرى مستعيدة ذلك الحنان الهائل الذى لا يعود.. كنا متقاربين بشكل يفوق الوصف.. عندما مضى سارع ذكائى ليلحق به.. مشتْ فى ركبه غبطتى. ألم قبل أن يذهب إشراقتى.. أخذ معه الزمان والمكان والوصف والنقد والانطباعات والغيرة والتدفق والالتصاق.. حمل كل ذلك



سناء البيسى بين إبراهيم نافع وبنت الشاطئ

فى حقيبة سفر بلا عودة، ظللت رغم بعد المغيب حتى الآن لا أستطيع أن أبوح بدخيلة نفسى لأحد بتلك الحرية التى كنت أحادثك بها.. فى غيابه الذى طال لا أجد حضورا يشابهه بقوتى.. أين منى أن يُذكر اسمى محمولا على منصة لقب زوجة فلان الفلانى ولست أرملتك. من يضع السماعة المشاغبة والتطاول على وضع المرأة عند حده، ففى بيتنا رجل. هذا الجمال فى السماء والسحاب وشروق الشمس وطلعة القمر وطلّة الأحفاد من حولى أشعر أنه لا يكتمل لأنك لا تشاركنى فيه.. كلما أتت نورا الحفيدة بمهارات الطفولة وأشار شقيقها حسين لصورتك تمنيت أن ترجع.. أن تأووب.. ولو لحظة ليس غير... تركت لنا تراثك الفنى الرائد إرثا ومسئولية وعهدا فكنا على العهد حافظين.. أقمت لك أنا وابنك الغالى الوحيد هشام معرضا شاملا لأعمالك كان حدثا ضخما لا يتكرر فى تاريخ الفنون غطت أعمالك فيه جميع جدران متحف الفن الحديث وقصر الفنون بصالاته وردهاته فى وقت واحد... و.. أتانى صوت أستاذى محمد حسنين هيكل بالثناء فكان بلسما وشافيا كأنه الإكسير.. قال لى: أنت إيزيس الجديدة.

■

أشهر الجرائم

تعليقا على مقال د. محمد رجب البيومى فى عدد ابريل الماضى «الجريمة منذ نصف قرن» صدر مؤخرا كتاب عن جريمة ريا وسكينة الشهيرة بالاسكندرية بعنوان «رجال ريا وسكينة».

فهل هناك مرجع يمكن أن نقرأ فيه مثل تلك الجرائم الكبرى مثل جريمة السبع التى رواها بأسلوبه الدكتور البيومى خاصة أن تلك الجريمة كانت من الجرائم الكبرى المروعة؟!

إبراهيم عبدالله
أسيوط

الهلال: اتصلنا بالدكتور رجب البيومى والذى قال لنا بأن هناك كتبا عديدة صدرت عن الجريمة من بينها كتاب الجريمة للدكتور مصطفى السعيد.

والكتاب الذى رجع إليه فى مقاله مؤلفه هو الشيخ الصالح وهو من رجال التربية والتعليم وقد طبع الكتاب طبعتين وهذا النوع من المقالات يبحث عن مصادره فى صفحات الحوادث من الجرائد اليومية التى لاتزال إلى الآن تعرض لنا فواجع مؤسفة!

تعقيبات

من خلال قراءتى لهلال مارس الماضى لدى بعض التعقيبات ففى مقال د. صلاح قنصوه ماذا نقصد بالنقد الثقافى أقول عن نقد الثقافة بالمفهوم الموضح فى المقال فذلك يستلزم بصفة مبدئية شمول الإلمام بكافة جوانبها ويعد ذلك الإلمام الشامل اللازم قبل مرحلة النقد أمرا مستحيلا لاستحالة وجود الكائن البشرى الموسوعى المحيط بسائر جوانب الثقافة فى زمن تتضاعف فيه المعارف البشرية كل ٥ سنوات.

وتعقيبا على ما جاء فى مقال تأثير عصر المعلومات على الأديان بقلم د. أحمد محمد صالح فلابد أن نميز بين ما يلى: البيانات، المعلومات، المعرفة، الحكمة وهى المراتب الأربع من الأدنى إلى الأعلى التى يكتمل بها الصرح المعرفى فليست كل البيانات مفيدة بالضرورة وليست كل المعلومات صحيحة بالضرورة وقد لا تشكل بيانات أو معلومات ما معرفة... إنه بتطور المعلوماتية والاتصالات وزيادة الفجوة الرقمية بين الشعوب وبين الجماعات وجدت ظاهرة الفقر المعلوماتى لدى شعوب العالم الثالث.

ولدى مطالعتى لمقال واحة سيوه بقلم رئيس التحرير أشير إلى أن كلمة فورشيف للتعبير عن المادة التى تستخدم فى البناء فى سيوه واللفظة المستخدمة هناك تنطق وتكتب كارشيفه علما بأن اللهجة السيوية قد انقطعت بها الشقة لآماد طويلة عن اللهجة البربرية أيضا طبعت الجامعة الأمريكية مؤلف لسيدة اسمها فيفيان وهو أحدث نسبيا من كتاب د. أحمد فخرى ويتناول قضايا كثيرة تخص واحة سيوه وسكانها وأصولهم.

عمرو عبدالمتعال - المهندسين - جيزة



ذكرياتي

فيك أودعت مفاتيح حياتي
أسطري قد زاحمتها كلماتي
فغدوت وصل ماضي بآت
قصتي فوق لسان الحكواتي
وغدى حبك موصولا بذات
فأنا منذ لقاك وإلى يوم وفاتي
فأنا بين يديك قلبي في صفحاتي
لم تغيبي عنى دوما فى خلايا ذكرياتي

وجدي أبو الريحة - لندن

فضل الهلال

أعجبني جدا المقال الذى تناول الأستاذ كامل زهيرى، هذه الشخصية المثقفة الجادة وفور قراءتى للمقال رأيتنى أعود إلى عدد الهلال الماسى ٧٥ عاما والذى صدر فى ديسمبر ١٩٦٧ وهو فكرة جيدة للأستاذ كامل ولفت نظرى فى هذا العدد مقال الشيخ مصطفى عبدالرازق يتحدث فيه عن أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده وأتعرف معه على ما تناوله مسلسل قاسم أمين من أن الأميرة نازلى فاضل كانت صاحبة صالون أدبى يجمع صفوة قادة الرأى وصفوة أهل العلم والأدب والفن وأنها تعرفت على الشيخ محمد عبده وكان قاضيا بمحكمة الاستئناف العليا ضمن من كانوا يجتمعون بصالونها الأدبى.

وتعرفت على معلومة أخرى تفيد بأن قاسم أمين قد وصف الشيخ محمد عبده فى نفس المقال بأنه نفس خلقت على أحسن شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثلا فى الجمال يجب أن نضعه دائما أمامنا.

هكذا تبين لى فضل الهلال فيما يقدمه لنا فى مجالات العلم والأدب والفن.

سامي منير - الاسكندرية - كلية التربية

لغويات

الأيام تمر وهلالنا في تقدم مستمر شكلا وموضوعا وهذه المجلة العريقة كما عودتنا فالتجديد فيها مستمر لا يتوقف وفي كل عدد من أعدادها تضيف لنا كاتبا بارزا يتناول موضوعا يهم كل مثقف وكل محب للغة العربية الرصينة فمازالت الهلال تحافظ على اللغة الفصحى وتعد خير حارس أمين لها.

لقد وصلتم القمة منذ زمن طويل ومازلتم تحتفظون بهذه القمة أعانكم الله ووفقكم فى مسيرتكم الناجحة.

سليم عبدالرحمن سيد - مهندس زراعي
القاهرة - روض الفرج

العراق فى ضميرنا جميعا

أحسنت مجلة الهلال بنشر موضوع عن الموصل للأديبة العراقية سهيلة الحسينى فى هذا الوقت الذى تتعرض فيه العراق والموصل بشكل خاص لمحنة كبرى بعد احتلالها من قبل ما يسمى بقوات التحالف.

نرجو أن تواصل الهلال الغراء إمتاعنا بالعديد من المقالات والدراسات عن العراق من مختلف جوانبه الحضارية والثقافية والتاريخية والسياسية لتظل دائما فى ضمير كل عربى مخلص وحتى تتخلص من هذه الهجمة البربرية الشرسة.

عاطف المغربى
بلقاس دقهلية

الهلال: فى هذا العدد تجد ملفا شاملا وموسعا عن العراق الذى يعيش فى ضمير ووجدان العرب جميعا على الرغم مما تعرض له من نهب لأغلى وأغنى آثار العلماء وبشكل منظم والذى ينهب بتروله وثرواته على مرأى من العالم الذى يتفرج على هذه المأساة المدوية.

الجواهرى والعراق

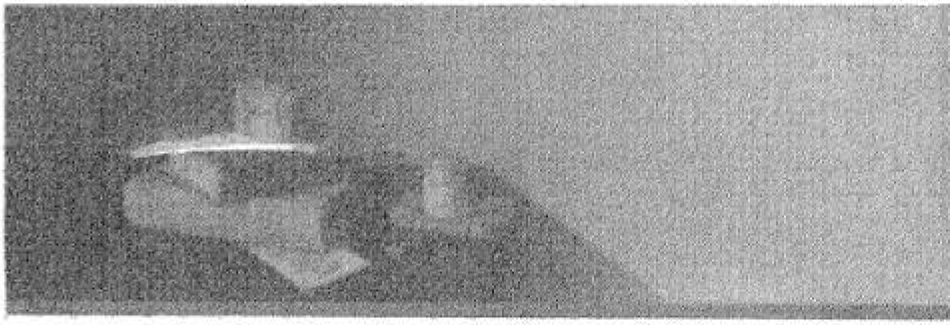
طالعنا فى العدد الماضى قصيدتين لشاعر العراق الكبير محمد مهدى الجواهرى والذى رحل عن عالمنا منذ عدة سنوات وقد قرأت بأن هذا الشاعر قد عاش فى المنفى طويلا نظرا لمواقفه السياسية فهل لكم أن تقدموا لنا نبذة عن حياة هذا الشاعر وإصداراته الشعرية.

كريم حسن مذكور
مصر الجديدة

- الهلال: الشاعر العراقى الجواهرى من أصول كردية من العراق وله مكانة كبيرة فى تاريخ الشعر العراقى والعربى وقد أدت به مواقفه السياسية الجريئة والحادة إلى أن عاش لسنوات طويلة فى منفى اختيارى فى كل من تشيكو سلوفاكيا وسوريا وغيرها من العواصم الأوربية والعربية.

وقد شارك الجواهرى فى احتفال دار الهلال بالعيد المئوى لمجلة الهلال عام ١٩٩٢ بقصيدة شعرية رائعة ألقاها بنفسه أمام حشد كبير من المثقفين بدار الأوبرا.

صدرت أعماله الشعرية الكاملة فى بيروت كما أصدر ذكرياته فى العراق وفى الدول التى عاش فيها فى مجلد تحت عنوان ذكرياتى روى فيه ذكرياته وانطباعاته بصراحته بأسلوب أدبى رفيع.



فوق أعتاب الفرات

كيف لى أن أحتمى
من كل وقع للهزيمة؟!
والبلاد العاليات
تلبس الآن وجوها
للخيانات القديمة
والشياطين العلوج
ومرت لى
كل شبر من كيانى
بالنفايات الرجيمة
روعوا القلب على
قبح الجريمة
كلما نام على صدر الأمان
واحتمى داسوه
فى ليل البلاد الفوضوية
تحت أقدام المدافع
روعوه
أيقظوه
كى يغنى للحضارات العقيمة!
روعوه
حطموه
حاوطوا تلك الوليمة!!
حاصروا قلبى زمانا
طالبوا دوما سقوطى
قلت لا خوف علىّ
كنت قد جهزت جيشا
وقفلت الباب خلفى
خارجا من قمة الحزن المميت
لاعنا وجه الحقيقة
لاعنا صوت الرصاص
لاعنا كل قتال الأغبياء
فالفصول والقصيد
والورود والبحار والصباح
والبنات والعصافير
الموانئ اشتعال
وانتحار
فوق أعتاب الفرات!!

محمود أحمد المصلي
شربين - دقهلية

من يقتل الشيطان؟!

هذا البكاء.. لمن تنزى فى التخوم
لكى تكذب كل عين؟!
هل فــرت الأعــراب فى غــور
الهروب
مجددا
وتحالفت قبل الطواف
مع المخاوف.. مرتين؟!
مات القصيد.. على الفرات
وكان مكتوف اليدين
وتمردت فينا الهزائم
من قبائل (حضر موت)
إلى بلاد الرافدين
بعناك يا بغداد - عمدا -
مثلما بعنا (الحسين)

أنت والهلال

فى كربلاء الآن نهر.. من دماء
مهدرا
فلمن نسدد كل دين؟
من يطمس الأكفان من؟
من يطمس الأحزان من؟
من يطمس الأوجاع من؟
من يقتل الشيطان من؟
أو يعطنا شرف القتال
بخوذتين؟!
فترحموا
شاخ الصهيل..
ومات سيدنا الحسين!!

عبدالناصر أحمد الجوهري
دكرنس - المنصورة

أخطاء تحدث

يسعدنى أن إبدى إعجابى بمجلة الهلال والاصدارات الأخرى مثل الكتب والروايات واختيار الكتاب وانتقاء الموضوعات والإخراج الفنى ولكن تقابلنى بعض هنات الأخطاء أضرب لها مثالين ففى عدد فبراير ٢٠٠٣ صفحة ٢٠٧ الصورة المنشورة للدكتور على باشا ابراهيم هى صورة عبدالخالق باشا ثروت وفى كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ صفحة ٥ التاريخ الهجرى لوفاة أسامة بن منقذ سنة ٥٤٨ وصفحته ٥٨٤.

مع أمنياتى بازدهار الهلال

محمد إبراهيم سالم
دسوق غربية

نشكر القارئ العزيز على ملاحظاته القيمة ونعتذر عن هذه الأخطاء التى تحدث بلا قصد.

خطبة بعد الأربعين

حلمت يوما بزوج
يلقى على القصورا
حلمت أن وزيرا
يحبنى أو أميرا
عيناه غابات حب
تغرى الندى والعبيرا
يحتل روحى سريعا
ويشترى لى الحريرا
لكن حظى كوحل
جاء العريس فقيرا



لا يملك الصب إلا
رداءه والسريرا
وحزنه وطموحا
يبكي السنى والعطورا
دوما يغني ويشدو
يهوى الغنا والصفيرا
كأنه يملك البحر
والسما والأثيرا
إن الغرور بطبعي
ضاع الشباب غرورا
ترددا وانتظارا
تفكرا وزفيرا
رفضت ألف عريس
يوما ركلت النسورا
والآن جاء غراب
ظن الصخور نهورا
ماذا أقول لأهلي؟
جاء العريس أخيرا
قبرا مخيفا يغني
يروم قبرا قريرا

د. هيثم الحويج العمر
دمشق

القصر المنيف

كان ابراهيم عليه السلام أبو الأنبياء خلاصة لما سبقه من أنبياء قيضهم الله لهداية البشرية منذ بدء ظهور الانسان على ظهر البسيطة.

وكان أيضا بداية لمجموعة من الأنبياء والرسل من نسله الكريم جاءوا من بعده.

كان ابراهيم صاحب هذا القصر المنيف الذي هو الإسلام حاد الذكاء واسع المعرفة ذو عزم شديد ورأى سديد خلقه وعلمه يفوقان ما منحه الله به من إلهام كبير كان هو والصالحين من نسله بناة للإسلام بمعنى التسليم بوجود الخالق العظيم وحده رب الناس مرسلا لهم دين الحق والخير والسلام.

وقد ختم الله هذا الدين بنسل اسماعيل ابن ابراهيم ليتولاه محمد بن عبدالله (ص) خاتم الانبياء ليعلمه للبشر أجمعين بعد نجاح تجربة انتشاره في أرجاء الدنيا.

وجاء هذا الختام بما هو جدير ليؤكد ويركز على مسئولية كل فرد بفكره وإيمانه واختياره الخاص لطريق الخير والسلام وكان محمدا عليه السلام كما جاء في حديثه الشريف مكملا لهذا القصر المنيف الذي سماه بيتنا كلبنة صغيرة فيه ثمينة في المخبر كبيرة في القيمة مقرة بوحدانية هذا البيت الكبير الذي هو دين الاسلام دين الله الواحد الأحد الذي يشمل الناس جميعا كل منهم فيه حريص على ما يتبعه طرائقهم المختلفة لا يعوقها توحدهم في الهدف والمضمون والجوهر الواحد قصرا زاهرا باهرا لا ينقضه أحد.

مهندس رستم غالب
القاهرة صديق الهلال

الصحافة والخطر



بقلم : محمود أحمد

أصيب ملايين المشاهدين بالذهول.

وهم يرون بأعينهم على شاشات التليفزيون – قبل يوم واحد من سقوط النظام في بغداد – واقعة إصابة ومصرع الصحفي الأردني طارق أيوب وعدد آخر من الصحفيين العرب والأجانب.

وهي واقعة تجسد جريمة حرب مكتملة الأركان، عرضت تفاصيلها على الملأ .. وبالبث المباشر لكن لا أحد يعرف إن كان المجتمع الدولي سيقوى على طرحها بهذه الصفة، فالجاني جاء إلى هنا حاملاً لواء «التحرير» ومكلفاً بشعارات تشمل ، فيما تشمل، الحرص على الشفافية في إظهار الحقيقة وحشد لإثبات دعاواه كتائب من المراسلين وأطقم التليفزيون كان قد اختارها قبل فترة طويلة.

أما «الضحايا» فلم يتمتعوا بأي حماية لامن قوات «التحالف» ولا من غيرها، اللهم إلا مايفضحه «البث الحي» ولأنهم كانوا موضع شكوك من الأساس، ولأن «تغطياتهم» جاءت مناقضة للسياق المرسوم، فقد اعتبروا «مزعجين» و«غير مرغوب في وجودهم».

لقد كانت الصحافة توصف، قديماً بأنها «مهنة البحث عن المتاعب»، ولكن ها هي تتحول إلى مهنة مواجهة الخطر، ومعايشته، بل وتحديه إلى حد «الاستشهاد» من أجل أداء الواجب الذي تفرضه المهنة.. «نقل الحقيقة . بدقة وسرعة».

ولعل مشهد إطلاق النار من جانب القوات الأمريكية على تلك المجموعة من الصحفيين الذين كانوا يقيمون، ويعملون، في أحد فنادق بغداد، قد أثار تساؤلات لدى جمهور مشاهدي التليفزيون .. عن المدى الذي يمكن أن يذهب إليه الصحفي في التضحية من أجل مهنته، ومن أجل أن يقوم بواجبه على أعلى مستوى من الأداء.. حتى ولو فقد حياته نفسها!.

ولكن الأمر لايقتصر، في الحقيقة، على ذلك الجانب وحده، وإلا لأصبح أداء هذه المهمة الخطرة معلقاً بقدر مايملك الصحفي من شجاعة وثبات في مواجهة الخطر.

وربما أستطيع، من منطلق تجربة شخصية، أن أقدم شهادة في هذا الخصوص.. فقد قدر لي أن أغطي الحرب اللبنانية، بكل أهوالها، لفترة امتدت إلى عشر سنوات. وطوال هذه المدة . كثيرا ما كنت أواجه تساؤلات الأهل والأصدقاء عما يدعوني للبقاء وسط الخطر .. خاصة وأن بيتي قد تعرض للدمار أكثر من مرة، وكذلك المكتب والسيارة، كما تعرضت مع زملاء آخرين ولمرات عديدة لمواقف كان الموت فيها قريباً حتى ليكاد الإنسان يحس به!

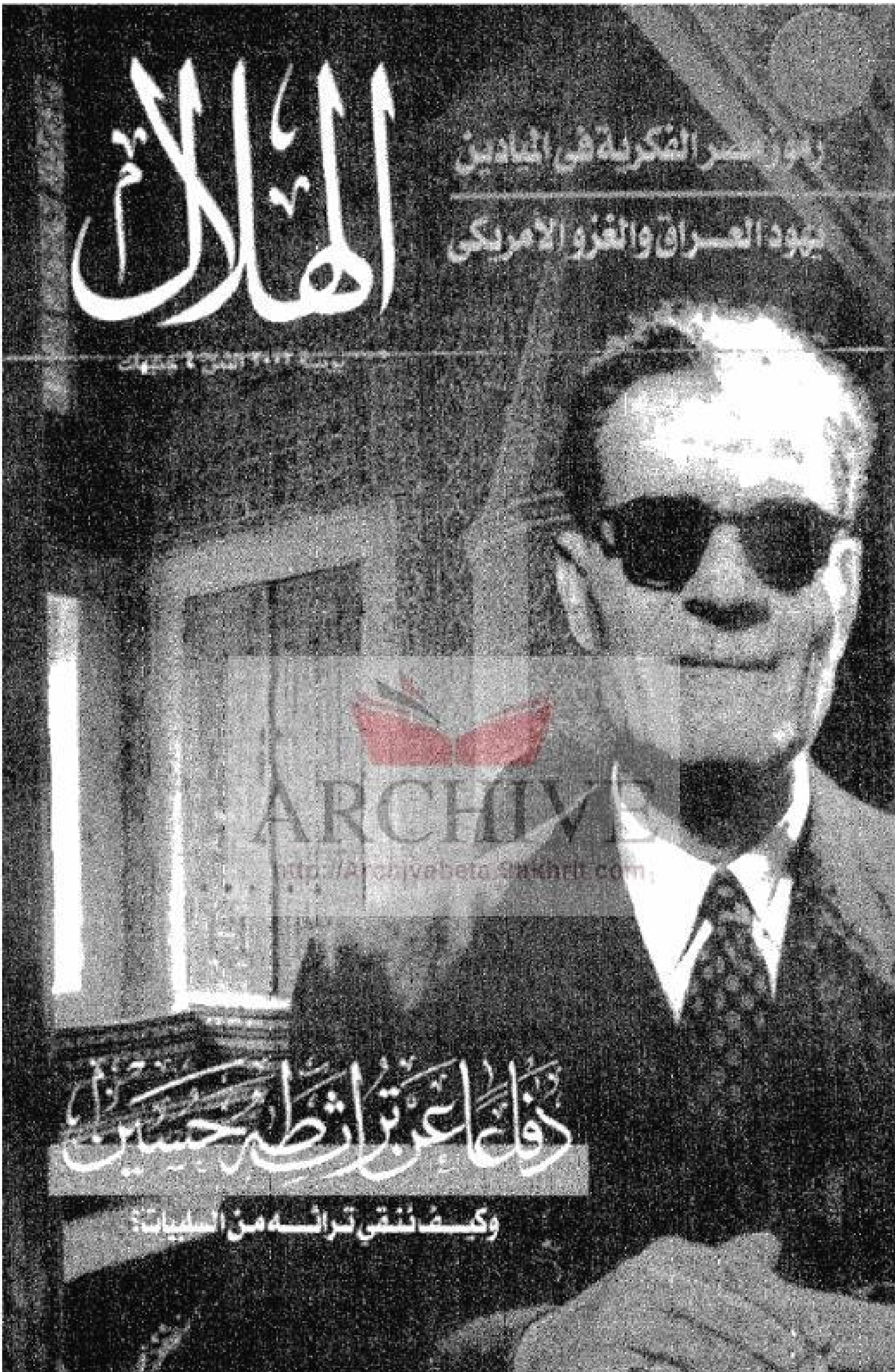
ومع ذلك ، لم أفكر في التخلي عن المهمة ، أو الإفلات من الخطر .. بل إنني – باستثناء حالات قليلة – لم أجد من بين زملائي الصحفيين الذين تواجدوا في بيروت في تلك السنوات الصعبة ، من آثر السلامة وأدار ظهره للخطر.

وأستطيع أن أقرر، من واقع هذه التجربة، أن الصحفي يتملكه في مثل هذه المواقف إحساس .. لا أقول له إنه «مهني» تماماً ولا أقول إنه «إنساني» بحت .. بأن عليه أن يستمر إلى جانب الآخرين الذين يواجهون الخطر نفسه .. كما تتملكه رغبة دفينة في أن يبقى لكي يرى نهاية هذا الفصل المرعب الذي وجد نفسه فيه! هذا بالإضافة إلى «الغريزة» المهنية التي تحفز على التفوق في الأداء.

إنني اليوم، وبعد مرور سنوات كثيرة على هذه التجربة ، كثيراً ما أتساءل بيني وبين نفسي عما دفعني إلى البقاء وسط الخطر ، وبكل هذا العناد. ولكن الإجابة تأتيني كلما حملت إلى الأحداث، عبر وسائل الإعلام المختلفة ، ما ينقله زملاء من وقائع وهم يعيشون وسط الخطر .. وربما يضحون بحياتهم على نحو ماحدث لطارق أيوب !

لكي يروا الحقيقة..


أدبيات
سيكولوجية الإرادة
رفاعة الطهطاوي
من شرفات التاريخ
الإعلام.. والمخدرات
المرأة العاملة
طبعه ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس: ٦٨٢٧٠٠٢


الهلال
رموز مصر الفكرية فى الميادين
يهود العراق والغزو الامريكى
دفاعا عن تراث طه حسين
وكيف ننقى تراثه من السلبيات؟

لوحة وفنان



فتاتان
زيت على خشب
للفنان العالمى
روبنز

من مقتنيات - متحف الجزيرة

الهلال

مجلة شهرية تصدر عن دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
[illegible]

الإدارة: القاهرة ١٦ شارع محمد عز العرب (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) [illegible] الرقم البريدي ١١٤٥١ - العنوان: القاهرة [illegible] الهلال [illegible] فاكس [illegible] darhilal@idsc.gov.eg

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان [illegible] ليرة - الأردن [illegible] دينار - الكويت ١ دينار - السعودية [illegible] ريالات - البحرين ١ دينار - قطر [illegible] ريالات - دبي وأبوظبي [illegible] - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية [illegible] ريال - غزة/الضفة/القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢ جنيه - أمريكا ٤ دولارات

٨ - دفاعا عن تراث طه حسين...... د. عبدالرشيد محمودي

١٦ - دور المرأة في حياة طه حسين .... د. محمد الدسوقي

٢٤ - هل للأكاذيب؟...... د. عبدالعظيم أنيس

٣٠ - مبكيات الأفراح ...د. محمد رجب البيومي

٣٨ - على هامش رحلة أبو الغار .... د. جلال أمين

٤٤ - يهود العراق والغزو الأمريكي .... مصطفى نبيل

٥٦ - دور مصر في حفظ الذاكرة العربية .... د. يوسف زيدان

٦٢ - سفر أول [illegible] في العراق .... عدنان الرشيد

٧٠ - [illegible] على العراق .... ابراهيم فتحي

٧٨ - [illegible] على شط العرب «قصيدة» .... جلال عابدين

٨٠ - عمرو موسى والنظام العربي .... سيد أبوزيد عمر

[illegible] أمريكا [illegible]

[illegible] - تشكيل الثقافة [illegible] ممارسة الحق .... محمد [illegible]

١٠٢ - المحافظون الجدد [illegible] .... د. [illegible]

١٠٧ - الاستراتيجية الأمن القومي الأمريكي .... محمود [illegible]



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات [illegible]

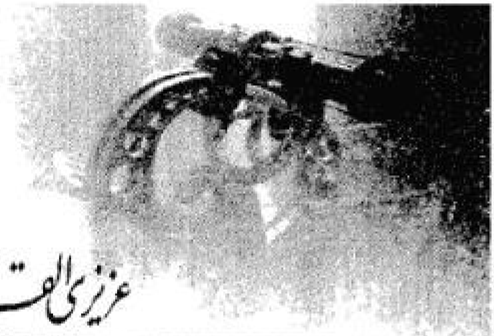
● وكيل الاشتراكات بالكويت [illegible]

13079 [illegible]

١٢٦ - أساطير بيت الكريتلية ..... أماني عبدالحميد
١٣٨ - أضواء على إبداع الفنان أحمد صبري
د . صبري منصور
١٤٨ - وأخذت نفسي للسير في الغورية ....
صافي ناز كاظم
١٥٤ - عفوا أيها الشعراء ....
وديع فلسطين
١٦٠ - محمد فريد أبو حديد في ذكراه ....
د . ماهر شفيق فريد
١٦٦ - الساعات .. انتصار للموت أم للحياة ....
مصطفى درويش
١٧١ - من مرايا الزمن «قصيدة» ....
د . صابر عبدالدايم
١٧٢ - المتفرجة (.. ومن يهن يسهل الهوان عليه)
مرفت رجب
١٧٨ - في عز الضهر .... مهدي الحسيني
١٨٥ - المنظمة العربية لحرية الصحافة ....
مصطفى الحسيني
١٨٨ - رحيق الكتب ....
١٩٢ - كاتب مغربي يفك أسر الرواية العربية
عبدالمنعم الجداوي
١٩٨ - ملك الغناء في الاسكندرية «قصة» ....
مصطفى نصر
٢٠٢ - زمن المجلات القديمة .... محمود قاسم

الأبواب الثابتة

- عزيزي القارئ ٦
- أقوال معاصرة . ٢٣
- شخصية العدد كوفي عنان - مؤمن حسين ٨٨
- لغويات د . الطاهر أحمد مكي ٩٣
- من دفاتر الكتب وصف مصر
د. عبدالمنعم الجميعي ١٢٨
- الكويس قصيرة الجبل د. منير زهران ٢٠٨
- أنت والهلال عاطف مصطفى ٢١٨
- الكلمة الأخيرة
د. صلاح قنصوه ٢٢٦



عزيزي القارئ

إقامة تمثال للأديب العالمي نجيب محفوظ يعد عملاً حضارياً غير مسبوق، حيث لم يحدث من قبل أن أقيم تمثال يعيش صاحبه بيننا ، ذلك لأن مكانة هذا الأديب الكبير الذى يعتز به المصريون والعرب على حد سواء، دعت المسئولين فى محافظة الجيزة والتى تضم أعرق آثار مصر القديمة ، لأن يفكروا فى إقامة هذا التمثال لمحفوظ الذى يستحق التكريم فعلاً .

وفى الوقت الذى يكرم فيه نجيب محفوظ ، كان هناك حرص على وضع تمثاله فى منطقة مهمة تتوسط شارعا يؤدى إلى النيل الذى يعشقه، والذى طالما شق طريقه فيه كل صباح سيراً على الأقدام، وهو يشهد هذا النبع الخالد الذى يروى تراب مصر وإنسانها، فى رحلته اليومية المحببة إلى نفسه من منزله إلى عمله، أو إلى المقهى الذى يذهب إليه بالقاهرة للقاء أصدقائه ومحبيه.

وضمن خطة تكريم رموزنا الثقافية والتى يحرص عليها محافظ الجيزة النشط يقام تمثال لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى ميدان الجلاء.

فعلى مبعدة أمتار قليلة ونحن نغادر محافظة القاهرة إلى الجيزة تلمح العين واحداً من أبرز مفكرينا العظام، وأحد الرموز الثقافية فى عصرنا الحديث ، صاحب مقولة إن التعليم كالماء والهواء ، ينبغى أن يتاح لكل مصرى ومصرية ... وعلى الرغم من أنه فقد نعمة البصر، إلا أن نعمة البصيرة كانت عالية لديه، فعاش يبدع ويؤلف فى كل مجالات الفكر والثقافة العربية، وصنع لنفسه مكاناً بين عظماء الأدب فى العالم كله.

والذى يتوقف أمام هذه الظاهرة الجيدة، يجد تمثالاً لأمير الشعراء أحمد شوقى ، يقف شامخاً فى حديقة بيته «كرمة بن هانىء» على نيل الجيزة أيضاً، بالإضافة إلى تمثال آخر له ، وضع إلى جوار فنان الشعب الموسيقار محمد عبد الوهاب بجوار الأوبرا.

إن من الظواهر الطيبة فى عهد الرئيس محمد حسنى مبارك أن يتم مثل هذا التكريم لرموز الفكر والثقافة والفن، وحتى بشهدائنا الأبرار الذين بذلوا دماءهم الغالية فداء وحباً لوطنهم ومن أبرزهم الشهيد عبد المنعم رياض.

وضمن هذه الخطة الطموحة يتم حالياً بأسوان توسعة الميدان الذى يضم تمثالاً للعقاد، وعلى الرغم من إقامة تمثال لأم كلثوم بمدينتها المنصورة، فقد أبدع الفنان آدم حنين تمثالاً رائعاً لها سيوضع بحديقة متحفها بالروضة بالقاهرة ، كما أقيم تمثال



رموز مصر الثقافية تزدان بها الميادين

للعالم مصطفى مشرفة ، تم وضعه بمدينة دمياط مسقط رأسه.

لقد سبق أن طالبنا بوضع تمثال لأحمد لطفى السيد أمام جامعة القاهرة أول جامعة مصرية أنشئت وكان أول مدير مصرى لها. فضلاً عن أننا نبدى الدهشة من أن حكام مصر لاتوجد لهم تماثيل، فعلى سبيل المثال لانجد تمثالاً لجمال عبد الناصر ، وكانت قد أعدت له قاعدة لكى يوضع عليها بميدان التحرير، وتم عمل اكتتاب ليساهم كل المصريين فى إقامة هذا التمثال بعد وفاته المفاجئة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، وأزيلت هذه القاعدة، وتغير شكل الميدان.

كما لم يتم عمل تمثال لأنور السادات صاحب قرار العبور العظيم فى أكتوبر عام ١٩٧٣ وتحقيق النصر للجيش المصرى على إسرائيل.

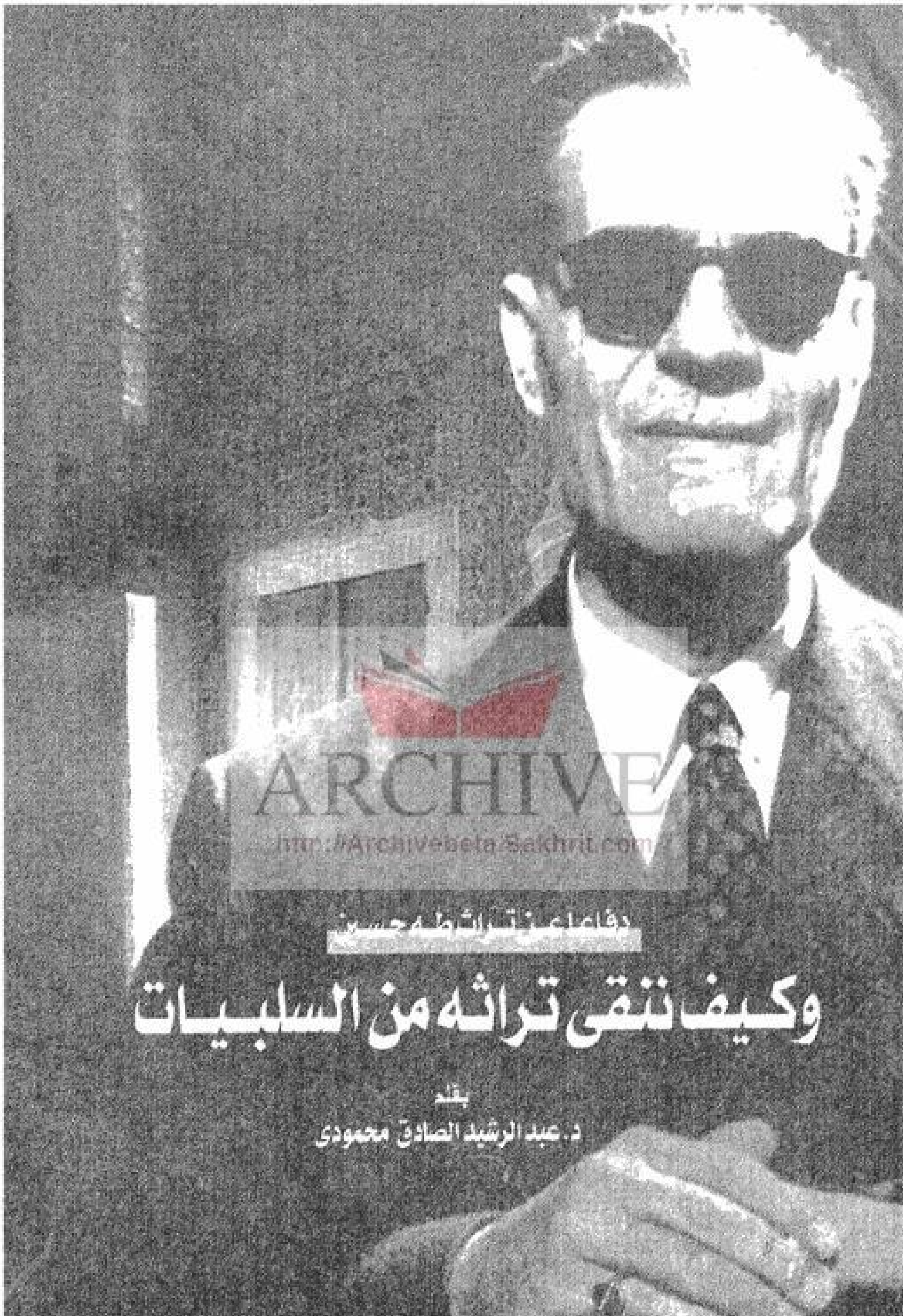
ولابد من الاهتمام بتكريم الرموز التى لاتتكرر فى حياتنا وإقامة تمثال لكل واحد منهم يذكر الأجيال بالدور الكبير الذى قام به من أجل وطنه وهنا يكمن المعنى والمغزى فى إقامة هذه التماثيل.

إن مانراه الآن، نشاط محمود ومطلوب بالفعل ولكنه يحتاج إلى اشراف فنى على مستوى عال، ويخضع لآراء مجموعة من المتخصصين، لديهم القدرة على اختيار الموقع المناسب ، ووضعية التمثال، لأن هذا العمل يستمر لعقود من الزمن، وبالتالى لابد أن يتسم بمسحة من الجمال والجاذبية للمشاهد ولنا أن نتأمل ذلك من خلال المكان الذى وضع فيه تمثال الشهيد عبد المنعم رياض، والآراء المتباينة التى قيلت عنه!

إن القاهرة واحدة من أكبر العواصم العربية والعالمية ولذلك لابد أن نضع فى الاعتبار، ضرورة ايجاد هيئة قومية ، تضم عدداً من المتخصصين من فنانينا فى الناحية المعمارية للطريقة التى نجمل بها ميادينا العامة ، ولا يتم عمل أى مشروع، إلا بعد إقراره من هذه الهيئة والموافقة عليه، فكثيراً ماشاهدنا مسلات توضع فى ميادين ثم يتم إزالتها ، أو تماثيل يقوم فنانون بعملها ، ثم تستبدل بغيرها كما حدث لتمثال أم كلثوم بالمنصورة .

شىء واحد لابد أن يستوقفنا ، هو تلك التماثيل التى صممها فناننا المبدع محمود مختار كتمثال نهضة مصر وتمثال سعد زغلول فى الجيزة والاسكندرية .. مثل هذه الأعمال الجيدة ينبغى أن تكون هى النماذج التى يحذو حذوها فنانونا فى هذا المجال .. مجال «فن التمثال» إذا صح التعبير! ■

المحـــرر



دفاعا عن تراث طه حسين

وكيف ننقى تراثه من السلبيات

بقلم

د. عبد الرشيد الصادق محمودى

فى مقالة كتبتها منذ سنين عن «الكتابات المجهولة لطه حسين ومتى تصدر أعماله الكاملة فى طبعة موحدة؟» (الأهرام ١٨ اكتوبر ١٩٨٥) دعوت إلى الاضطلاع بمشروع لنشر الأعمال الكاملة لعميد الأدب العربى. وكان من رأيى عندئذ أن يوضع المشروع تحت إشراف لجنة من الباحثين المتخصصين، وأن تكون هذه الطبعة الكاملة كاملة من حيث الكم (أى أن تكون شاملة) ومن حيث الكيف (أى أن تكون علمية نقدية وذلك أننى كنت ومازلت - أرى أن ما يسمى بمجموعة الأعمال الكاملة للدكتور طه حسين التى تصدر فى بيروت ليست كاملة بأى المعنيين . وكان المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات يحاول فى تلك الفترة أن يسد بعض جوانب النقص فيها بأن يضيف إليها مزيدا من كتابات طه حسين التى لم تكن قد جمعت من قبل ولكن المجموعة تظل رغم ذلك ناقصة كما وكيفا .





أما أنها مازالت ناقصة من حيث الكيف ، فهذا أمر واضح لأن النصوص التى تتضمنها لم تخضع لأى تحقيق دقيق ولم توضع لها فهارس يعتد بها ولم تصنف على أى نحو معقول . أما من حيث الكم، فإن المجموعة مازالت ناقصة لأنها لم ترتكز على حصر منظم لأعمال طه حسين وهى فى واقع الأمر أبعد ما تكون عن الشمول والدليل على ذلك صدور مجلدات عديدة لباحثين مختلفين جمعوا فيها مقادير ضخمة من كتابات طه حسين المهملة أو المنسية ومن بين هذه المجلدات أربعة نشرها المرحوم سيد محمد كيلانى وجمع فيها عددا ضخما من مقالات طه حسين السياسية وقد نشر كاتب هذه السطور مجلدا جمع فيه وترجم كتابات طه حسين الفرنسية (طه حسين من الشاطئ الآخر القاهرة ١٩٩٧) ومجلدا آخر ضم منتخبات من الكتابات المبكرة لطه حسين (طه حسين الكتابات الأولى، القاهرة ٢٠٠٢) وإن نظرة سريعة على القائمة الببليوجرافية التى أعدها الدكتور حمدى السكوت والدكتور مارسدن جونز (أعلام الأدب المعاصر فى مصر، ١، طه حسين) لتبين أن هناك المزيد من مقالات طه حسين التى مازالت تنتظر الجمع ويبدو أن طه حسين كان أكثر معاصريه إهمالا فى حق نفسه، لأنه كان أقلهم عناية بجمع مقالاته كان كاتبا غزير الإنتاج، فقد كان وافر النشاط خصب القريحة حريصا على تلبية الدعوة إلى التأليف سواء صدرت عن نفسه أم أملتها الضرورات الخارجية ولم يكن من ثم قادرا على تعهد إنتاجه الوفير بالمراجعة والتنسيق، وكان يؤثر انتخاب بعضه للجمع وإعادة النشر

وإهمال بعضه الآخر حتى يفرغ بسرعة للتأليف من جديد .

رعاية خاصة

ومن المعروف أيضا أن طه حسين قد تعمد أن يضرب صفحا عن كل ما كتب من شعر ونثر فى الفترة المبكرة من حياته الأدبية، أى قبل تأليفه لرسالة الدكتوراه التى خصصها لأبى العلاء (ذكرى أبى العلاء ١٩١٥) وذلك لسوء رأيه فى تلك الكتابات وحصر هذه الأعمال وجمعها لابد أن يواجه الباحثين بمشكلة ضخمة لأن بعض الصحف والمجلات التى نشرت فيها لم تعد متاحة في دار الكتب أما لأنها اندثرت أو تسربت أو لأنها فى حالة يرثى لها . ومن المعروف أيضا أن طه حسين قد أهمل جمع كتاباته الفرنسية لسبب نجهله ويضاف إلى ذلك أن الرجل فى نهاية المطاف كان معتمدا بغيره - كما كان يقول نقلا عن أبى العلاء فلم يكن باستطاعته أن يصحح بنفسه نصوص أعماله بعد تأليفها مباشرة أو في مرحلة الطباعة ولكل هذه الأسباب كانت أعماله التى خلفها، ما جمع منها وما لم يجمع، جديرة برعاية خاصة حتى تحفظ من الضياع وتنقى من الشوائب التى لحقت بها .

وإنه لما يثلج صدرى إذن أن أرى أن الدعوة التى أطلقتها فى سنة ١٩٨٥ كان لها أصداء مسموعة وأن الجهود المبذولة لجمع تراث طه حسين قد أخذت تتسم بشئ من التنظيم فقد بدأت دار الكتب والوثائق القومية تنشر سلسلة من المجلدات تحت عنوان تراث طه حسين وقد نشر من هذه السلسلة حتى الآن مجلدان ضخمان يضم أولهما المقالات الصحفية التى نشرها طه حسين عن التعليم من سنه ١٩٠٨ حتى سنة ١٩٦٧ بينما يضم ثانيهما المقالات الصحفية التى نشرها فى إسلاميات والنقد الأدبى فى حدود نفس الفترة ويتضح من المقدمة التى صدر بها الدكتور رءوف عباس حامد (المشرف على المشروع) المجلد الأول أن المشروع فى البداية كان يستهدف جمع ما نشر لطه حسين من مقالات سياسية متناثرة فى الصحف والدوريات. كما يتضح أن التركيز على هذا الجانب من إنتاج طه حسين كان يستند إلى أهمية الدور الذى أداه طه حسين فى مجال الشأن العام فهو كما يصرح الأستاذ المشرف لم يكن يتخذ لنفسه برجا عاجيا يعيش فيه بمعزل عن مجتمعه الذى تربى فيه وتمثل ثقافته وتراثه وقد ينبغى أن نضيف إلى ذلك فكرة ترد ضمنا فى حديث الأستاذ وتتعلق بالأهمية التاريخية لمقالات طه حسين السياسية وذلك أنه رصد فيها أحوال مصر والعالم طيلة عدة عقود ويستطيع المؤرخ إذن أن يجد فيها «مرآة» لتلك الأحوال ثم هناك شئ لم يقله الأستاذ لاصراحة ولا ضمنا -- وهو شئ جدير بالتنوير - وهو أن المبدأ الرئيسى المتبع فى نشر السلسلة هو جمع مالم يجمع من أعمال طه حسين .

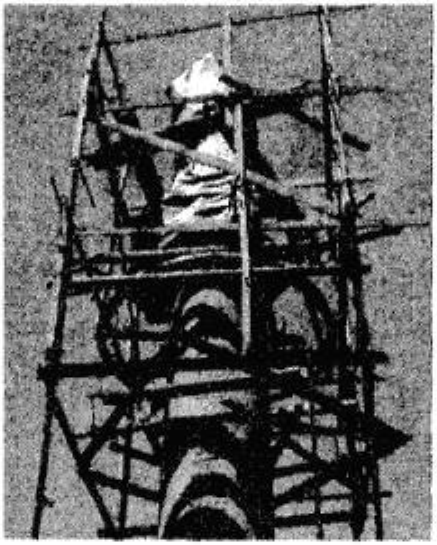
مجلدات تتناول مقالات سياسية

وإنه لمن حسن الحظ أن المشروع فى مرحلة التنفيذ قد تجاوز ذلك المنحى السياسى وأخذ يمتد إلى ميادين أخرى ومن نشاط طه حسين الهائل فقد رأينا أن المجلد الأول يعنى بمقالات طه حسين فى التعليم بينما عنى المجلد الثانى بمقالات طه حسين فى الإسلاميات والنقد الأدبى وبذلك أرجئ نشر المقالات السياسية إلى المجلدات الأربعة التالية من السلسلة فلكأن القائمين على تنفيذ المشروع قد أكتشفوا عند فتح باب الكتابات السياسية أن ثمة أنواعا أخرى من الصيد فى بحار طه حسين فقرروا من ثم أن ينشروا شباكهم على نطاق أوسع وحسنا فعلوا .

كما أحسن القائمون على هذا المشروع صنعا عندما طبقوا المبدأ السالف الذكر



تمثال طه حسين للفنان عبد الهادي الوشاحي



التمثال الجديد للفنان حسين كامل قبل ازاحة الستار عنه

بصورة مرنة فقد أخبرني الدكتور رءوف عباس أنه تقرر أن يتضمن أحد المجلدات بعض المقالات التي سبق أن جمعها الأستاذ الراحل محمد سيد كيلاني لأن أصول هذه المقالات لم تعد موجودة في دار الكتب .

أما الجهاز الذي قام على تنفيذ المشروع فهو يتألف من الأستاذ المشرف ومستشارين (هما الأستاذ نبيل فرج والأستاذ إبراهيم عبد العزيز) وفريق للبحث يبلغ عدد أعضائه ثمانية، وهم الذين يضطلعون بمهمة البحث عن المقالات وجمعها ومراجعة التجارب المطبعية وعند الفراغ من هذه المهمة يعهد بالمقالات إلى أحد الباحثين لتصنيفها في نطاق مجلد والتقديم لها بدراسة . من هنا نرى أن المجلد الأول يتضمن دراسة للدكتور سعيد إسماعيل على عن «رؤية طه الثقافية للمسألة التعليمية»، بينما تضمن المجلد الثاني مقدمتين بقلم الأستاذ إبراهيم عبد العزيز إحداهما خاصة بالإسلاميات وثانيتهما خاصة بالجزء الأدبي .

ومن الواضح أن هذا الجهد الحميد يقتصر على جمع سد النقص من ناحية الكم وهو يعد إذن امتدادا لجهود الدكتور الزيات وجهود غيره من الباحثين الأفراد العاملين في هذا المجال ومن الواضح أيضا أن إعداد طبعة كاملة كما وكيفا لأعمال طه حسين مازال أمرا بعيد المنال ولكن المشروع جدير بالترحيب لأن من شأنه أن يقربنا خطوة أو خطوات من هذا المطلب البعيد ومما يبعث على السرور بصفة خاصة أن تتاح لدراسي طه حسين ومحبيه كل مقالاته في التعليم وفي السياسة .

وسوف يجد القارئ بعض المفاجآت السارة في المجلد المخصص للإسلاميات والنقد الأدبي فالمقالات التي جمعت في الجزء الأول، أي الجزء الخاص بالإسلاميات ستكمل ما نعرفه من كتابات طه حسين الكبرى في هذا المجال . وسوف يجد المهتمون بالأدب ما يثير إهتمامهم في الجزء الثاني من المجلد وصحيح أن بعض

الكتابات المجموعة في الجزئين ذو قيمة ثانوية. ولكن ذلك لن يثني الدارسين والمعجبين عن قراءة هذه الكتابات بحثا عن فائدة تستفاد أو طلبا للمتعة الخالصة .

غير أنني أستميح القراء والقائمين على هذا المشروع الجليل عذرا إذا نقدت ما نشر منه حتى الآن وأود أن أؤكد لهؤلاء السادة أنني أقدم على هذا النقد على مضض وفي حزن ثقيل فليس يمكنني أن أغض الطرف عن العيوب التي تشوب تنفيذ المشروع وتحط من قيمته فالغرض منه كما أفهمه متواضع نسبيا ولكنه ضرورى وشديد الأهمية على تواضعه فهو لا يرمى إلى إعداد طبعة نهائية من الأعمال التي يشملها وإنما يرمى إلى تقديم هذه الأعمال في أفضل صورة ممكنة في ظروف البحث الراهنة غير أن تنفيذ المشروع كما رأيناه حتى الآن يقصر تقصيرا شديدا في تحقيق هذا الغرض والعيوب التي سنشير إليها تندرج في هذا الإطار .

مواد دخيلة

أود أن أقول إن المجلدين اللذين صدرا حتى الآن يحملان بعض المفاجآت غير السارة خذ مثلا المجلد الذي يضم مقالات طه حسين في التعليم لماذا يخصص جزء من هذا المجلد لنشر النصوص الكاملة لمقالات كتبها آخرون مثل عباس فضلي ومصطفى صادق الرافعي ومحمود غنيم وعبد المنعم الصاوى؟ ولست أريد أن أبدى رأيا في مضمون هذه المقالات أو قيمتها الذاتية ولا أنكر أنها تتصل على نحو أو آخر بأعمال طه حسين وتعد جزءا من سياقها الفكرى والتاريخى. ولكنها في نهاية المطاف مواد دخيلة وينبغي أن توضع في مكانها الصحيح إذ يكفي أن يشار إليها في مصادرها أو أن تدرج على أحسن تقدير في ملحق خاص في نهاية المجلد .

أما المجلد الخاص بالإسلاميات والأدب فإنه يتضمن مقالة لتوفيق الحكيم وكان ينبغي أن تدرج بدورها في ملحق إذا رئى أن هذا هو الوضع الأمثل يضاف إلى ذلك أن المجلد يتضمن عددا لا بأس به من المقاولات التي سبق أن جمعت في كتب معروفة لطة حسين ولم يكن هناك ما يدعو إلى نشرها من جديد والمقالات التي أعنيها هي : الفأل ومن عمل الشيطان وهما قطعتان من النثر تردان في باب القصص ولكن سبق نشرها في كتاب أحاديث وكان طه حسين أكثر توفيقا عندما وضعهما في باب الأحاديث ومقالة مؤتمر العلوم التاريخية التي سبق نشرها في كتاب من بعيد والمقالتان المخصصتان للبحترى وابن الرومي على التوالي واللتان سبق نشرهما في كتاب من حديث الشعر والنثر ومقاله عن سلمى وقريتهما لأمي خير وأهل الكهف لتوفيق الحكيم، وهي مقالة سبق نشرها في كتاب فصول في الأدب والنقد

والمجلدان فضلا عن ذلك مليئان بالأخطاء المطبعية والأخطاء الناجمة عن الجهل باستخدام الكمبيوتر (ومثال ذلك أن علامات التنصيص المستخدمة عند الاستشهاد تخدش البصر إن لم تخدش الحياء) وأنا أعلم أننا في مصر قد أصبحنا نتسامح في هذه العيوب ونتعايش معها ونعدها جزءا لا يتجزأ من المشاهد الطباعية، تماما كما نتعايش مع القمامة والدمامة كجزء لا يتجزأ من المشاهد الطبيعية والحضرية ولكنني لا أرتضى لمشروع جليل كالمشروع الذى نحن بصدده أن ينفذ في ظل ذلك التسامح البغيض.

ومن المفاجآت غير السارة مقدمة الدكتور سعيد إسماعيل علي، فهي مليئة بالحشو واللغو والعبارات المفككة التي تصك الآذان ولست أنكر أن الكاتب يورد هنا وهناك فكرة نيرة تجعلني أتهلل وأستبشر خيرا ومثال ذلك ما يقوله في مستهل المقدمة

عن إهتمام كبار المفكرين بهموم أممهم والعمل على أصلاحها وما يقوله فى هذا الصدد عن جمهورية أفلاطون ونداءات فختة إلى الأمة الألمانية وآراء مصطفى كامل عن أهمية التعليم وتربية العقول فى مقاومة الاستعمار مثل هذه الإشارات تبعث على التهلل والاستبشار لأنها توحى بأن الكاتب قد أهتدى إلى المستوى المناسب لتقديم أفكار طه فى التربية والتعليم ولو أن طه حسين أتيح له أن يقرأ هذه الإشارات لشعر بالرضا والاغتباط لأنه وجد أخيرا من يضعه فى تلك الصحبة الكريمة وشبيه بذلك إشارة الكاتب إلى مقالة ألفها طه حسين عن الابتهاج بالمعرفة الخالصة المجردة من الغرض فواقع الأمر أن الابتهاج بالمعرفة موضوع أساسى فى فهم طه حسين .

آراء ساذجة

ولكن هذه البوادر سرعان ما تتبدد بفضل استطرادات لا داعي لها وحشو لا طائل من ورائه وآراء ساذجة خذ مثلا هذه الفقرة التى يستهل بها الكاتب حديثا (من أربع صفحات تقريبا) عن مقالات طه حسين التى أشاد فيها بالملك فاروق فهو يقول لعمالقة المفكرين وكذلك الزعماء التاريخيين سحرا كذا على النفوس إلى الدرجة التى نراهم عندها وقد أوتوا من الكمال والرفعة والعظمة بحيث يتصور الإنسان أنهم بشر قد يخطئون أو على أقل تقدير قد يسرفون فى حبهم أو يغالون فى بغضهم، ومن هنا فإن المرء عندما يرى من أحدهم أمرا ينكره قلبه، أو لا يقبله عقله يشعر وكأن خللا كبيرا قد حدث فى نواميس الكون ! ولعل هذا يفسر الموقف العكسى أى أنه لو حدث وأن وجه أحد نقدا إلى عملاق من عمالقة الفكر، انبرى له كثيرون /فزعين وكأنه قد كفر، ويدافعون ويتطرفون فى الدفاع فهل ينبغى للمرء أن يكتب هذه الفقرة المطولة المتعثرة الساذجة للتعبير عن معنى بسيط هو أن الإنسان ليعجب أحيانا لسقطات العظماء الذين يجلهم - من الواضح أن الكاتب يريد أن يعرب عن شئ من الحرج لأن طه حسين كان - فيما يقول - يتملق الملك فاروق ولكن هل هناك ضرورة للجوء إلى عبارات مثل « إلى الدرجة التى نراهم عندها وقد .. بحيث ولعل هذا يفسر الموقف العكسى أى أنه لو حدث ؟ ولماذا يشعر أن نواميس الكون ستختل إذا تشجع ونقد طه حسين وهل يستدعى الأمر شجاعة حقا؟ ألم يعلم أن النقد التاريخى يتخذ من العظماء هدفا مشروعا وضروريا لسهامه ؟

والواقع أن موقف الكاتب فى هذا الصدد مختلط ومتناقض فالرجل الذى يتخوف من تصدع السماء والأرض إذا هو انتقد طه حسين يطيل القول فى منافقة هذا الأخير للملك، بل ولا يرى غضاضة فى أن ينقل دون تثبت رواية عن مصدر لا يوثق به فى مجال التاريخ ومفادها أن طه حسين أقدم على تقبيل يد فاروق . أنا لا أفهم كيف يسمح بنشر هذا اللغو فى معرض تقديم أعمال طه حسين وهل هان طه حسين على أهله إلى هذا الحد بحيث يجاز تصدير أعماله بذلك النثر السمج، ولو أننا تفكرنا قليلا لأدركنا أن الموضوع لا يستحق كل تلك المعاناة، وقد كان الأجدر بالكاتب إذا رأى ضرورة لنقد طه حسين أن يؤدى مهمته بوضوح وإيجاز وموضوعية .

طلب العلم لذاته

أما فيما يتعلق بالإشارة إلى ابتهاج طه حسين بالمعرفة لذاتها، فقد بددها الكاتب عندما أرجع آراء طه حسين فى الصدد إلى تأثره بالفكر اليونانى وهو رأى ينطوى على تبسيط مخل ويرجع إلى جهل بالسياق الذى وردت فيه تلك الآراء فليس من الممكن فهم هذه الآراء دون أن نتذكر أولا أن طه عرف عن طريق التجربة الحية

معنى الحرمان من المعرفة ومعنى الفرح بها عندما تصبح متاحة لا يقف دونها حجاب وقارئ الأيام لا يفوته ما رواه طه عن جذله عندما خيل إليه أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من «بحر» العلم فى الأزهر وعن يأسه فى نهاية المطاف من هذا العلم الأزهرى الذى تراكمت عليه الشروح والحواشى والتقارير وعن انتشائه بالعلم الذى يقدمه الأساتذة المصريون والأوربيون فى الجامعة المصرية الناشئة كلا وليس من الممكن فهم الدعوة إلى طلب العلم لذاته دون أن نتذكر ثانيا المناخ الفكرى والإصلاحى الذى أحاط بنشأة الجامعة فقد كان أنصار الجامعة ومؤسسوها من الزعماء المصريين مثل أحمد لطفى السيد وعبد الخالق ثروت وأحمد زكى يتبنون تلك الدعوة مقاومة للنزعة المنفعية السائدة والتى كانت ترمى إلى تخريج موظفين أو تروس فى الجهاز الحكومى وكان طه حسين متأثرا بأولئك الرواد وهو عندما ذهب إلى فرنسا والتحق بالسوربون تأكدت لديه الفكرة الداعية إلى طلب العلم لذاته فقد كانت يد الإصلاح قد إمتدت إلى هذه الجامعة فنحت بها نحو الدراسة الأكاديمية وإعداد نخبة تقوم على الجدارة الفكرية بدلا من إعداد المعلمين لمدارس الدولة كما كان الوضع فى السابق ولم يكن النموذج المحتذى فى ذلك الإصلاح يونانيا، بل كان ألمانيا فهل تأثر طه أيضا بالنموذج اليونانى؟ ربما الموضوع جدير بالبحث ولكن بحثه لا يأتى إلا بعد مراعاة المؤثرات ذات الأولوية

أما فيما يتعلق بالمجلد الثانى الذى خصص للإسلاميات والنقد الأدبى فهو بدوره أشبه بالمخلاة أو الزكيبة التى نلقى فيها بالمواد كيفما اتفق دون مراعاة لمدى تجانسها فلم يكن من المناسب فى رأيى الجمع بين الإسلاميات والنقد الأدبى فى مجلد واحد. وكان الأحرى تخصيص المجلد بأكمله للجزء الخاص بالأدب لأنه يحتل الحيز الأكبر ولعله أن يكون الأهم، على أن ينظر فى حل آخر لجانب الإسلاميات وسوف يلاحظ القارئ أننى أقول النقد الأدبى تارة وأقول الجزء الخاص بالأدب تارة أخرى وشتان ما بين هذا وذاك ولكن هذا الاضطراب مصدره الكتاب ذاته العنوان الأول هو ما تجده على الغلاف أما العنوان الثانى فهو ما نراه فى المتن وحقيقة الأمر أن العنوان الثانى هو الأدق لأن الجزء المعنى يحتوى على أشعار وقصص وتعليقات على الكتب وخواطر ونقد وما إلى ذلك من ألوان الكتابة الأدبية .

ويتضمن هذا المجلد الثانى مقدمتين للأستاذ إبراهيم عبد العزيز إحداهما للجزء المخصص للإسلاميات وثانيتهما للجزء المخصص للأدب ورغم أننى أقدر الجهود التى يبذلها فى نشر تراث طه حسين فإننى لا أعتقد أنه قد حقق الهدف المرجو من مقدمتيه على أفضل وجه فالهدف الذى يحدده لنفسه فى المقدمة الأولى هو الإجابة على هذا السؤال ما الذى أضافه طه حسين بإسلامياته المنشورة والمجهولة المتناثرة فى الصحف والتى هى موضوع هذا الكتاب غير أن هذا الهدف الذى أصاب الكاتب فى تحديده يضيع فى ركام من الهواجس والأفكار المشتتة ويكاد يختفى عن الأنظار فالكاتب مشغول مهموم بالدفاع عن صدق ايمان طه حسين ضد الذين يتهمونه بالمروق والإلحاد وهو يذهب فى ذلك كل مذهب بحيث لا يقتصر الأمر على طه حسين بل يمتد الحديث إلى قضية الشعر الجاهلى بل وإلى زوجة طه حسين وأبنائه وأحفاده فهم أيضا فى حاجة إلى من يثبت صحة إيمانهم ومن حق الكاتب بطبيعة الحال أن يعرض آراءه هذه وأن يدافع عنها، ولكن هذا ليس هو المكان المناسب فالهدف الأول فى هذا المقام هو التعريف بالكتابات

المقدمة وتحديد ما تحتويه من إضافة ولا ينبغي للكاتب أن يشغله عن هذا الهدف أي شاغل حتى ولو كان ذلك هو نواياه الطيبة تجاه طه لحسين وأسرته وكأنه قد نسي أن طه حسين نفسه هو الذي قرر في أول دراسة علمية له عن أبي العلاء أنه لا يريد أن يحشر موضوع الدراسة في زمرة المزمنين أو الملحدين

أما المقدمة الثانية التي مهد بها الأستاذ إبراهيم عبد العزيز للجزء الخاص بالأدب، فيعيبها بدورها الاستطراد الذي يخل بالتوازن وينحرف بالأبصار عن الأمور الأساسية فهذه المقدمة التي تتألف من ثلاثين صفحة تتضمن إحدى عشرة صفحة كاملة عن أشعار طه حسين وهو تطويل مخل ومشتت للانتباه إذا لاحظنا أن المجلد لا يتضمن إلا أربع قصائد لطه حسين وإن الشعر الذي نظمه طه في مطلع حياته الأدبية وتوقف عن قوله في سن مبكرة ليس له إلا قيمة تاريخية وأن كاتب المقدمة لم يأت في هذا الباب بشئ جديد بالنظر إلا بعض الآراء التي يمكن أن تسجل في فقرة أو فقرتين . ومن ذلك ما يقوله عن الشاعرية في نثر طه حسين وتأثير خبرته في قرض الشعر على نقده للشعراء.

تحقيق النصوص

والواقع أن مستشاري المشروع كانا في غنى عن الكلام الكثير فما دام الغرض من المشروع هو تقديم تراث طه حسين في أحسن صورة ممكنة فإن مهمتهما الأولى هي - أو ينبغي أن تكون - مهمة المحرر وهي مهمة متواضعة ولكنها أكثر ملاءمة للغرض فهي تقتضي تحقيق النصوص وتطهيرها من الأخطاء المطبعية والتعريف بها عن طريق تزويدها بالحواشي الشارحة والنبذ التي توضح أهميتها بصفة عامة وتربط بينها وبين ما كتبه طه حسين في نفس المجال، وتضعها في سياقها الفكري والتاريخي ويقتضي أداء هذه المهمة من مؤديها شيئا من إنكار الذات والامتناع عن السجال واللغط ومساعدة القارئ على استقبال النصوص دون عائق .

وينتهي بنا كل ذلك إلى المسألة العامة المهمة، مسألة توزيع الأدوار وتحديد المهام في هذا المشروع الجليل هناك كما قلت فريق للبحث مهمته هي التنقيب عن أعمال طه حسين وجمعها ولكن يتضح مما سبق أن عمل هذا الفريق ينبغي أن يتم تحت إشراف وتوجيه دقيقين ولا يكفي أن يجمع هذا الفريق مجموعة من الأعمال التي تعطى لمستشار ليكتب لها مقدمة فقد رأينا كيف أن مجموعة من هذا القبيل يمكن أن تتضمن أعمالا دخيلة أو أعمالا سبق أن جمعت في كتب أخرى بل ينبغي لشخص آخر- قد يكون هو المستشار الحالي أو قد لا يكون - أن يشرف على عمل الفريق ويوجهه وينبغي لهذا الشخص أن يهتم في المقام الأول بأداء مهمة التحرير التي سلف شرحها وينبغي الحرص في جميع الحالات على أن تأتي المجموعة في النهاية حسنة التبويب خالية من الأخطاء جذابة إلى أقصى حد ممكن عندئذ يمكننا أن نقول : الآن قد فرغنا من وضع لبنة سليمة راسخة في البناء ككل .

أقول هذا وأنا أعلم أن ما أقوله لن يروق الكثير من الناس فقد تعودنا في هذا البلد على التساهل والتراخي في كل شئ وعلى إفساد كل عمل نأتيه بالتهرب من التجويد والإتقان ولكنني لا أبتغي مما أقول إلا أن تأتي المجلدات التالية أفضل من المجلدين الأولين وأن يكون العمل عند إكتماله خطوة على الطريق الصحيح ونقطة انطلاق لمزيد من الأعمال .

■

دور المرأة فى حياة طه حسين

بقلم
د. محمد الدسوقى

مما لا مراء فيه ولا اختلاف عليه أن طه حسين طاقة فكرية متميزة، وقد تجلت إرهاصات هذه الطاقة منذ التحق عميد الأدب العربى بالأزهر طالبا به، فقد ضاق ذرعا بالمنهج الذى كان الشيوخ يأخذون به فى دروسهم، لأنه تقليدى، ينفر من التجديد، ويردد ما قاله الأقدمون دون نقد له أو إضافة إليه، وكانوا إلى هذا يعدون الخروج على منهجهم مروقا من الدين وتطاولا على ما قدمه السلف من الآراء والاجتهادات..

ونمت تلك الطاقة المبدعة بمرور الأيام عن طريق القراءة مع زميليه أحمد حسن الزيات، ومحمود زناتى، ثم الدراسة فى الجامعة الأهلية، والجامعات الفرنسية ليجمع العميد فى ثقافته بين الشرق والغرب، ويكون له بهذا الزاد الفكرى دور فاعل فى النهضة العربية المعاصرة.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والعميد الذى فقد بصره فى طفولته الباكرة عاش فى دائرة ضيقة من حيث علاقاته الاجتماعية، وبخاصة بالنسبة للمرأة، فلم تتجاوز علاقته محيط الأسرة ، ومن ثم لم يخفق قلبه بالمشاعر الطبيعية نحو المرأة، فلما أوفدته الجامعة الأهلية لمواصلة دراسته فى فرنسا، ولأن الحياة فى الغرب فى القرن الميلادى المنصرم كانت تختلف اختلافا واضحا عن الحياة فى الشرق من حيث مشاركة المرأة فى الحياة العامة، وتمتعها بحق العلم والعمل، وحضورها فى المجالات العامة - وجد العميد نفسه فى بيئة لها أعرافها الاجتماعية التى لم يألفها من قبل، بيد أنه لم يضق لها، أو يزور عنها، بل رأى فيها ما ينبغى أن تحظى به المرأة العربية، حتى تسهم بجانب الرجل فى تطوير الأمة ونهضتها، لتقوى شوكتها ، وتحرر إرادتها من سطوة المحتل، وغطرسة الدخيل، ولا ريب فى أن ما قرأه العميد لقاسم أمين فى تحرير المرأة، والمرأة الجديدة ، وما سمعه فى دار الجريدة من أحمد لطفى السيد وغيره، وما وقف عليه من أفكار الإمام محمد عبده - كانت للعميد زادا فكريا اجتماعيا متطورا وجد له تطبيقا عمليا فى فرنسا، فرحب به، وتكيف معه، ومع هذا ظلت عاطفته نحو المرأة فى حالة من الكون، حتى وقع الاختيار على فتاة فرنسية، لتكون مساعدة له فى القراءة، والتنقل، وكان لسلوك هذه الفتاة مع العميد - وهو سلوك اتسم بالرقة والحنو والاهتمام بأبحاثه ودراساته - أثره فى تحريك مشاعره نحو المرأة، وقويت هذه المشاعر شيئا فشيئا حتى دفعت بالعميد إلى أن يصرح لهذه الفتاة بما خفق قلبه به نحوها، ولم يجد منها ما يصدم عاطفته أو يخيب آماله، ولعل عطفها عليه تحول إلى حب له بعد أن عرفته عن كثب وأنست منه نبوغا وعبقرية تعد بمستقبل مشرق، ومن ثم لم ترفض ما عرضه العميد عليها من رغبته فى البناء بها، وإن كانت قد آثرت أن تستشير بعض أهلها، وهؤلاء أبوا أن تتزوج امرأة فرنسية مسيحية رجلا ضريرا شرقيا مسلما، بيد أنها لم تصغ لما أشاروا به. وتم الزواج الذى سعد به العميد، وكان بداية مرحلة جديدة فى حياته.

صراعات فكرية

ورجع العميد الى مصر بعد أن حصل على درجة الدكتوراه ومعه زوجته وابنته، وبدأ حياته الجامعية التى امتدت أكثر من ربع قرن، وشهدت هذه الحياة ما شهدت من صراعات فكرية كان من أهمها قضية

انتحال الشعر الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر، ولست في هذه الكلمة بصدد تفصيل القول في تلك الصراعات وما تمخض عنها من قضايا ومشكلات ، وإنما أومأت إليها للإشارة إلى أن العميد خرج من كل هذه الصراعات مظفرا وإن أثارت حوله بعض الشبهات التي تجاوزت تأثره بالفكر الاستشراقي إلى النيل من عقيدته ووطنيته، ولا ريب في أن حياته الأسرية المستقرة وما تبذله زوجته من أجل راحته والوقوف في شجاعة أمام خصومه أو المتحاملين عليه كان من أهم العوامل التي جعلته يواصل حياته الفكرية دون أن يعبأ بالسهام التي انطلقت في غير موضوعية نحوه، والتي حاولت أن تقلل من مكانته الفكرية والأدبية، أو تزري بمؤلفاته وآرائه التجديدية.

ولأني دخلت بيت العميد في العقد الأخير من عمره، وأتيح لي أن أطلع على طرف من حياته المنزلية والعائلية فإني أقصر الحديث عن زوجة العميد مالها وما عليها على ما عرفته عنها في تلك الفترة الزمنية التي كان العميد يعاني فيها من ضعف في صحته، وعجز عن السير على قدميه بصورة طبيعية، وما أورثه ذلك من اضطراب في معدته حمله على أن يقلل من طعامه، وكانت زوجته تحاول إكراهه على الأكل حتى تقوى مناعة الجسم ليقاوم ضعف الشيخوخة ، وكان العميد في بعض الأحيان ينزل عند إرادتها ، وأحيانا أخرى لا يستجيب لما ترغب فيه، فكانت لا تملك غير العزوف عن الطعام أو البكاء كما أخبرني العميد.

وكانت لزوجة العميد في العقد الأخير من عمره الكلمة الأولى في البيت حتى في علاقة العميد ببعض أصدقائه . فقد سألت يوما الأستاذ الزيات عن أسباب فتور علاقة الصداقة بينه وبين العميد، فقال: إن زوجة العميد هي المسئولة عن فتور هذه العلاقة، لأننا كنا إذا ذهبنا إليه ليخرج معنا في نزهة أو الجلوس في مكان خاص فإن زوجته كانت تزعم أن حرارته غير مستقرة، ولا يستطيع الخروج، وكان العميد لا يعقب على قولها، فكنا بعد ذلك لا نذهب إليه حتى فترت العلاقة وأصبحنا لا نراه إلا في المجمع اللغوي.

وكان من مظاهر هيمنة زوجة العميد على البيت أنها كانت ترفض أن يعطي بعض المال لمن يطرق باب «رامتان» كما كانت تعارض أن يساعد أقرب الناس إليه بالمال. وأذكر أن العميد طلب مني يوما أن أزيد في الصك الذي أصرفه من البنك مبلغ عشرين جنيها، وأخذ مني هذا المبلغ

بعد عودتى من البنك. وتسلمت زوجته النقود التى تعود صرفها كل شهر، ولكنها طلبت منى أن أقرأ لها رقم المبلغ المسجل فى الصك، ولم أجد بداً من أن أقرأ العدد الصحيح، وهنا انفجرت فى عصبية تخاطب العميد، ولم أفهم مما قالت شيئا وإن كان كل كلامها دار حول الزيادة التى وردت فى الصك وإلى أين تذهب، وظل العميد صامتا حتى انتهت ثورة الزوجة وخرجت من حجرة المكتب، وأخذنا فى قراءة الصحف.

لم تتعلم العربية

وزوجة العميد التى عاشت فى مصر أكثر من نصف قرن لم تكن تعرف اللغة العربية قراءة وكتابة، وكل ما تعرفه منها بضع كلمات عامية تنطقها فى لكنة أعجمية تخاطب بها العاملين فى البيت، فلماذا لم تدرس هذه اللغة، وهى تعيش فى مجتمع عربى وزوجها كفيف، وقد يحتاج إلى من يقرأ له فى أى وقت رسالة أو برقية بالعربية مع أن أولادها تعلموا منذ الصغر العربية فى البيت، وكان يمكنها أن تدرس مع أولادها لو رغبت، ولكنها لم تفعل . فهل يدل هذا فى نظرها على اعتبار العربية لغة ليست جديرة بتعلمها . وأن ما كتب بها من علم وأدب لا يستحق أن يقرأ أو أنه التعصب للفرنسية وعدم الاعتراف بلغة سواها.

وكانت صحيفة الأهرام قد نشرت يوم الجمعة الموافق ١٩٨٩/٧/٢٨ أن زوجة العميد توفيت ليلة الخميس الموافق ١٩٨٩/٧/٢٧ عن عمر بلغ الرابعة والتسعين، وقالت الصحيفة بعد هذا: وكانت السيدة سوزان قد أعلنت إسلامها بعد زواجها من عميد الأدب العربى، وتركت باريس لتعيش معه فى القاهرة.

والصحيح أن السيدة سوزان لم تعلن إسلامها بعد زواجها من العميد وظلت على عقيدتها المسيحية إلى وفاتها ، وكانت تذهب كل يوم أحد إلى الكنيسة، وما كانت تتخلف عن هذا إلا لضرورة. كما كانت تستقبل فى رامتان بعض رجال الدين المسيحى، وكان أصدقاؤها من المصريين والذين كانوا يحافظون على زيارتها مسيحيين، بالإضافة إلى بعض المسلمين الذين غلبت عليهم الثقافة والتقاليد الفرنسية.

وتؤكد اللوحات الزيتية التى كانت تزين جدران رامتان الطابع الفرنسى فى الفن، ولم يكن يوجد بين هذه اللوحات ما يعبر عن الطابع الفرعونى أو العربى أو الإسلامى.

تلك بعض الجوانب السلبية فى حياة زوجة العميد أما الجوانب الايجابية فيأتى

في مقدمتها عناية الزوجة الفائقة بزوجها، واهتمامها بمظهره، ومراعاتها لمشاعره، فقد كانت ترعاه من حيث غذائه في مواعيد ثابتة وما كانت تدعه يذهب لقضاء حاجته وحده ، خوفا من أن تزل قدمه، وكانت في بعض الأحيان تقف عاجزة عن مساعدته في ترك فراشه ومرافقته الى الحمام، فتلجأ إلى بعض الخدم لمعاونتها. وكان من المألوف في طلب أحد هؤلاء أن يُدق الجرس مرة واحدة، فإذا دُق مرتين فإن هذا يعني أن على السكرتير أن يصعد إلى حجرة نوم العميد، وكنت أجلس في حجرة المكتب، فدق الجرس مرتين فصعدت إلى الطابق الثاني وطرقت باب الحجرة ففتحت لي زوجته ظنا منها أني أحد الخدم ونسيت انها دقت الجرس مرتين لا مرة واحدة، ومع هذا أذنت لي بالدخول، ورأيت العميد يجلس في أرض الحجرة مسندا ظهره الى السرير ، وساعدت الزوجة في حمل العميد إلى فراشه، وقرأت في وجهها مظاهر الإجهاد، ويبدو أنها حاولت وحدها أن ترفع زوجها فلم تقدر.

تحمل المسئولية كاملة

ومن شواهد اهتمام السيدة سوزان بزوجها ورعايتها له أنها كانت تحمل معها كل الأدوية التي قد يحتاج إليها العميد سواء في التجول بالسيارة في بعض المناطق الزراعية بعيدا عن المدينة، أو في انعقاد جلسات المجمع اللغوي وكانت تعهد إليّ بحمل هذه الأدوية في أثناء الجلسة مع إرشادي إلى كيفية استعمالها عند الضرورة.

ولم يكن حرص زوجة العميد على جمال مظهره أقل من حرصها على رعايته صحيا، فالثياب منتقاة، وهي دائما نظيفة، ويبدو العميد في ارتدائها أنيقا، لا تقتحمه العيون، بل تهش لرؤيته، وتسعد بلقائه.

وأما عن مراعاة زوجة العميد لمشاعره، فقد قال لي العميد: لقد فشلت في اقناع زوجتي بشراء جهاز تليفزيون..

إن زوجة العميد قامت بمسئوليتها نحو زوجها في صدق وإخلاص وعطف وإحسان، وقد صور العميد في آخر الجزء الأول من الأيام ما طرأ على حياته بعد زواجه فقد قال وهو يخاطب ابنته: فإن سألتني كيف انتهى إلى حيث هو الآن، وكيف أصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدريه، وكيف استطاع أن يهيىء لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية، وكيف استطاع أن يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة، وأن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع - إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال فلست أستطيع أن

أجيبك، وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب فسليه ينبئك.

أتعرفينه، انظرى إليه ، هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ . ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج، ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار .

لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيما، ومن اليأس أملا، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادة وصفوا .

صحيح أن السيدة سوزان تمتعت بخير زوجها ، وهى مع هذا أحسنت إليه وغيرت حياته، وكانت له كما شبهها بالملك الذى أغدق عليه من الحنان والرعاية ما أغدق، وإن كانت قد عاشت معتصمة بعقيدتها المسيحية فلا تثريب عليها فى هذا ، لأنه لا إكراه فى الدين، ولكن عزوفها عن تعلم العربية هو الذى يطرح أكثر من سؤال.

وبعد فهذه كلمات مجملة عن زوجة العميد، وأطمع أن أقدم مستقبلا، إن شاء الله، دراسة أكثر وفاء بحياة هذه الزوجة ودورها فى حياة عميد الأدب العربى رحمه الله. ■

قالوا

● إن واجبنا أن نمنع الغرب من الانتحار، وأن نمنعه من أن يسوقنا معه نحو الهاوية.

د.محمد شفيق غربال

● القلق أشبه بالرمل داخل قواقع اللؤلؤ القليل منه يساعد على إنتاج اللؤلؤ والكثير منه يقتل الحيوان بداخلها.

● الإرادة التى لا تنثنى تعلو كل شىء وحتى على الدهر.

شاتوبريان

● الإنسان سيد طالعه وفى غالب أحوال الفشل يكون هو نفسه المسئول عن فشله لانجمه وطالعه.

شكسبير

● ليس من الصعب أن تعثر علي الحقيقة .. ولكن المشاكل الكبرى هى ألا تحاول الهروب منها إذا وجدتها.

اتيين جلسوت

أقوال معاصرة

● «أزمة المسلمين تكمن في أنهم فسروا الشريعة الغراء بمفهوم ضيق، وحصروها في العبادات والتواكل من دون فعل إيجابي»

مهاتير محمد حوت
رئيس وزراء ماليزيا



مهاتير محمد

● «الحكام العرب أفراد يسهل التأثير الأمريكي فيهم ترهيباً وترغيباً»

د. سعيد النجار

● «لن يعرف العرب الديمقراطية الاعندما يتجرأ رئيس الحكومة فيلف ساقا على ساق في حضرة رئيس الدولة»

المفكر اللبناني غسان الامام



د. سعيد النجار

● «أن نقول أن رواية ماغير أخلاقية هو الإيمان بأن الروايات يفترض أن تكون أخلاقيه، وهذا أقرب أن يكون محض هراء»

المفكر الدكتور ادوارد سعيد

● «نحن نتحرك باسترخاء عباسي، ونباهي بما ثرنا، دون تردد، وكأننا أباطرة العقل، وسادة المنجزات»

الروائية العراقية لطيفه الدليمي

● «أحس الرقابة وحسن كامن تارة، وسافر كاشر انيابه تارة أخرى، انه يترصد الكتابة، ولا اتوقف عن مجالدته، أو الغاء وجوده»

الروائي المصري ادوار الخراط



إدوار الخراط

● «سندرس في الجامعة مجلات سمير وميكي عما قريب حتى نحافظ على ثوابت الأمة !!»

د. سامية محرز
استاذة الادب العربي في
الجامعة الامريكية بالقاهرة

● «القضية الانسانية حقا هي التي تحيي الذات، وتحيا بها الذات وتساعد الآخر على الحياة»

الشاعر السوري أدونيس



هل الذكاء الصناعي أكذوبة؟

روجر بنروز ROGEAR PENROOS

بقلم
د. عبد العظيم أنيس

روجر بنروز عالم رياضي فيزيائي واسع الاهتمامات، كان أستاذا للعلوم الكونية (الكوزمولوجى) في جامعة أكسفورد لكنه الآن أستاذ علم الهندسة فى جامعة لندن .

نشـأ فى عائلـة علـم جامعى، فأبوه كان أستاذا للوراثـة البشـرية Human gonetics بالكلية الجامعية University Cullege بجامعة لندن، وأمه كانت طبيبة مرموقة ، وكان لوالده اهتمام بالرياضيات (الاحتمالات) بطبيعة تخصصه ، وأخوه أوليفر كان يسبقه فى الدراسة بأربع سنوات، تعلم الرياضيات فى الكلية التى يعمل بها والده وأصبح أستاذا بها . وهكذا فعل روجر بعد أخيه أوليفر. وإن كان والده وأمه يرجوان أن يتخصص فى الطب، لكن روجر اختار أن يدرس الرياضيات لأنه كان شغوفا بهاويرسم الأشكال الهندسية متعددة السطوح منذ كان فى العاشرة .

ولد روجر فى مدينة كولشستر (مقاطعة إسكس) حيث كان أبوه آنذاك مسئولا عن مشروع يسمى «مسح كولشستر» وكان المطلوب دراسة تحديد ما إذا كانت عوامل الوراثة أم عوامل البيئة هى الأهم فى ظهور الاضطرابات العقلية لدى الانسان، وكانت نتيجة هذا البحث ما تبين من أن المشكلة أكثر تعقيدا من هذا التبسيط .

ومع أن روجر درس الرياضيات فى كلية والده فى لندن إلا أنه التحق بجامعة كمبردج لإجراء أبحاث فى الهندسة الجبرية تحت إشراف وليم هودج . وبعد سنة من الدراسة قرر هودج أن المسائل التى تشغل روجر ليست محل اهتمامه ، وخلال تلك الفترة أصبح أكثر اهتماما بالفيزياء بفضل صداقته مع دينس سكياما Dennis Sciama الذى كان صديقا لشقيقة أوليفر، ولقد تأثر دينيس من الأسئلة التى وجهها له روجر عن وضع الكون فى حالة الاتزان الدائم ، وهى أسئلة ربما لم يفكر بها هو من قبل . وهكذا أثار هو اهتمام بنروز بالبحث فى الفيزياء وفى المسائل الكونية بالذات.

ويتذكر روجر أنه حضر فى جامعة كمبردج ثلاث مقررات ليس لأى واحد منها علاقة مباشرة بالبحث الذى كان من المفترض أن يقوم به فى الفيزياء، وأولها مقرر هرمان بوندى عن النظرية النسبية العامة، والثانى مقرر لبول ديراك عن ميكانيكا الكم، والمقرر الثالث عن المنطق الرياضى، وهو موضوع بدا بعيدا جدا من مجال أبحاثه أن أثبت أنه ذو تأثير هائل على تفكيره فيما بعد، وكان المحاضر هو استين Steen .

ويقول روجر إنه تعلم من المقرر الأخير (المنطق الرياضى) شيئا عن ماكينة تورنج Turing Machine وعن نظرية جودل Godel. وربما كان من المهم أن نتوقف هنا لإلقاء نظرة على نظريات جودل هذه (فى عام ١٩٣١ أثبت شاب نمساوى صغير السن يدعى كيرت جودل نظريتين أحدثتا دويا هائلا فى البحث الرياضى وبين الرياضيين ، وقد قضت هذه النظريات الجديدة على برنامج الرياضى الألمانى الكبير دافيد هلبرت الذى طالب فى عام ١٩٠٠ رياضيى العالم بإثبات أن مسلمات علم الحساب متسقة أى أنها لا تؤدى إلى تناقض. ثم جاء جودل وأثبت أن محاولة عمل نظام رياضى كامل ومتسق هو عمل مستحيل، ومن الممكن تلخيص اكتشافاته فى تقريرين. أولهما أنه إذا كانت نظرية المجموعات ذات المصادرات (أى المسلمات) متسقة فإن هناك نظريات لا يمكن إثبات صحتها أو خطئها .

وثانيهما أنه لا توجد طريقة عملية

لإثبات أن النظرية ذات المصادرات متسقة .

وفي الجوهر فإن التقرير الأول لجودل يقول إنه مهما كانت مجموعة المصادرات المستخدمة في الرياضيات فهناك مسائل لا تستطيع الرياضيات الإجاب عليها أي أن الاكتمال غير محقق والأسوأ من ذلك فإن التقرير الثاني يقول إنه مهما فعل الرياضيون فإنهم لن يستطيعوا التأكيد من أن اختيارهم للمصادرات (المسلمات) لن يؤدى إلى تناقض أى أن الاتساق لا يمكن تحقيقه . وهكذا أثبت جودل أن برنامج هلبرت الذي أشار إليه في محاضرته في المؤتمر الرياضي الدولي في باريس عام ١٩٠٠ هو عمل مستحيل .

هذه الأفكار جالت في ذهن روجر منذ ذلك الوقت وأقنعته بالفكرة التي لازال متمسكا بها إلى اليوم، وهي أن هناك شيئا ما في ظاهرة العقل البشري (وعلى وجه الخصوص في فهمنا للرياضيات) لايمكن حصره (تغليفه) بأي نوع من الحسابات . وقد أدى هذا به - كما سيرد فيما بعد - إلى تأليف كتاب (العقل الجديد للامبراطور) الذي رد فيه على علماء الذكاء الصناعي الذين يتصورون أن العقل البشري يعمل مثل الكومبيوتر تماما .

* * *

لقد عمل روجر بنروز في ميادين بحثية عديدة ، ولنبدأ بأعماله في الكوزمولوجي مع ستيفن هوكنج الذي اكتشف نظريات المفردات (جمع مفردة Pingularity)، وهي النظريات التي اكسبتهما جائزة وولف.. عن ماذا تتحدث هذه المفردات وماذا تقول عن الزمكان؟

المفردات هي مناطق في الزمكان حيث لاتعمل قوانين الفيزياء. والمفردة الأساسية التي يكثر الحديث عنها هي (الخبطة الكبرى Big Bong) التي تمثل أصل الكون في نظر البعض .

ويقول روجر إن بعض العلماء - وهو منهم - كانوا قلقين من هذه النتيجة لأنها تمثل نهاية لما يمكن فهمه عن علم الفيزياء . ونفس هذا الوضع نشأ فيما بعد عندما بدأ البعض يقلق عما يمكن أن يحدث لنجم شديد الثقل بحيث لا يستطيع حمل نفسه ثم تنشأ مفردات . وفي عام ١٩٣٠ أوضح العالم الهندي شاندرا سيكار أن نجما قزما أبيض - وهو جسم شديد التركيز - يمكن أن تكون له كتلة الشمس وربما أكبر. ونحن نعلم أن مثل هذه الأجسام موجودة .



ومع ذلك أوضح شاندرا أن الجاذبية سوف تتغلب في النهاية إذا أصبح النجم أكثر تركيزا. ولذا فإن نجما له ضعف كتلة الشمس لن يكون له فيما يبدو وضع استقرار حيث هو، بل سيبدأ فى الانهيار إلا إذا استطاع أن يتخلص من بعض مكوناته، لكن من غير المحتمل أن يتخلص من مادة كافية لا سيما إذا بدأ بكتلة ضعف كتلة الشمس مثلا. وإذن ماذا يحدث؟

لقد أنشأ روبرت أوبنهايمر وتلاميذه نموذجا لانهيار جسم. لقد بحثوا فى أجسام ممائلة كرويا وليس بها ضغوط وأثبتوا أنها عندما تنهار تنتج ما نسميه اليوم (الثقب الأسود) Black Hole هل الثقوب السوداء موجودة مثلا فى الكون؟

إنها نتائج نظرية تخضع للمناقشة.

* * *

اهتم روجر بنروز بوضع نظرية الملغفات وهي محاولة للتوفيق بين نظرية الكم والنظرية النسبية العامة. كما اهتم اهتماما شديدا بمشاكل «القرمدة» Til-ing، وهى اهتمامات تبدأ عنده منذ الصغر لمجرد الفكاهة. فإذا شعر بالملل من عمل ما حاول أن يوفق عن طريق القرمدة العديد من الأشكال لأى سبب علمي، على الرغم من أنه لابد أن يكون هناك صلة ما بين هذا واهتمامه بعلم الكوزمولوجى حيث تبدو مركبات كبيرة فى الكون شديد التعقيد وإن كان لابد أن تحكمها قوانين بسيطة فى الجوهر.

وفى عام ١٩٨٩ نشر بنروز كتابا جديدا اسمه (العقل الجديد للامبراطور) Empror's new mind تناول فيه قضية الحاسبات والذكاء الصناعى وقوانين الفيزياء. وكان هذا الكتاب ردا على برنامج أذيع فى محطة الاذاعة البريطانية B. B. C لاثنين من العلماء مارتين منسكى، وإدوارد فريدكن، وهما يحاولات تصوير العقل البشرى وكأنه يعمل مثل الحاسب الآلى، وبالتالى تنشأ نظرية الذكاء الصناعى.

ويقول روجر بنروز أنه فى أول شبابه كان متعاطفا مع الفكرة التى تقول إننا جميعا آلات حاسبة We are all Computers. لكنه بدا له من التأمل فى نظرية جودل أن هناك جوانب فى إدراكنا لا يمكن حصرها فى صورة محسوبة. «ومع ذلك لازلت احتفظ بنظرة

• كل الأسئلة العميقة تطالبنا أن نعرف كيفية تركيب هذا الكون، وما نعلمه فى هذا المجال قليل جدا !

علمية تقول إن هناك شيئا فى قوانين الفيزياء يسمح لنا أن نتصرف كما نفعل ، وإن كانت معرفتنا عن هذه القوانين أقل مما يظن الكثيرون» .

وهكذا كان روجر مستعدا للاعتقاد أن هناك ثمة شئ خارج الحسابات .

كان روجر مهتما لمدة طويلة بالمنطق الرياضى، ومنه عرف أن هناك أشياء ذات طبيعة رياضية وإن كانت خارج الحسابات. ولم تفزعه هذه النتيجة ، حتى رأى برنامج الـ B.B.C. فأفزعه أن يقول المتحدثان إن الحاسبات سوف تتفوق على كل شئ نصنعه ، واعتبرا هذا قولا مستفزا .

وما كانا يقولانه يكون منطقيا إذا كنا فعلا حاسبات . وحيث أنه لا يؤمن بذلك بعد اكتشافه جودل ونظرياته فقد بدا له أن هناك شيئا ما فاتهم . ومن هنا نشأت فكرة الكتاب .

ويقول روجر إنه فى أول الأمر فكر أن يكتب كتابا شعبيا (أو نصف شعبى) عن الفيزياء وصورة الكون قدر ما تعرف ، ولكن من بؤرة مختلفة، أن بحث قوانين الفيزياء لرؤية إن كان هناك شئ ذو طبيعة غير حسابية. وحيث أنه لم يجد إنسانا يقوم بهذا العمل من قبل فقد ألف هذا الكتاب لهذا الغرض .

ولقد رد عليه البعض هذا الهجوم على الذكاء الصناعى بتذكيره ماقاله إن علم ميكانيكا الكم غير مكتمل، ولذا فإن فهم قوانين الفيزياء يجب أن يسبق فهم كيف يعمل العقل .

وهو يوافق على ذلك ويقول إنه شعر أنه إذا كان هناك شئ ذو طبيعة غير حسابية فلابد أن يكون خارج القوانين التى نفهمها اليوم عن الفيزياء لأنها جميعا قوانين حسابية . ولذا تبدو له أن أعظم فجوة فى فهمنا الحالى ترتبط بعلاقة نظرية الكم بالأجسام الكبيرة . فقوانين ميكانيكا الكم تقول لنا إن القطة يمكن أن تكون حية وميتة فى نفس الوقت - وهو كلام سخيف طبعا - لأننا لا نرى كوننا على هذا الشكل . والحقيقى أنه يبدو له أن نظرية الكم لا يمكن أن تكون دقيقة عندما تصطدم بأجسام كبيرة الحجم فلابد أن يكون هناك تغير ما .

ثم ألف بعد كتابه الأول كتابا آخر يدعى (ظلال العقل) هو بمثابة رد على الانتقادات التى وجهت للكتاب الأول .

مثلا قيل إنه فى الكتاب الأول لم يهتم بذكر أن النظام الرياضى الذى

تحدث عنه تتوفر فيه كل الخصائص المذكورة فى نظرية جودل وإن لم يهتم بالتأكيد على هذا .

إن الكتاب الأخير (ظلال العقل) هو كتاب فنى قصد به الرد على التساؤلات والافتراضات التى أثارها الكتاب الأول (العقل الجديد للامبراطور) .

سئل روجر بنروز بعد صدور هذين الكتابين: أنت الآن تقدم نقدا كفيلسوف هل وصلت إلى تفاهم مع اللغز الكبير وكيف ؟

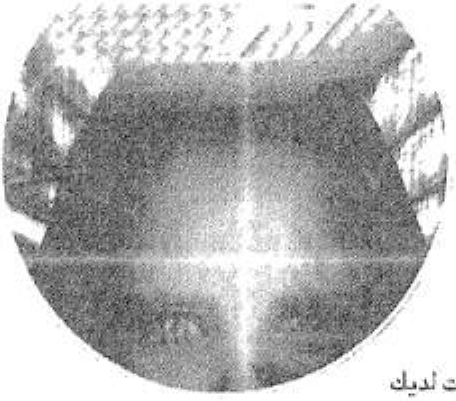
وكانت إجابته على النحو التالى :

هناك عدد كبير من الاسئلة التى لا نعرف لها إجابة. فحتى لو كان كل ما أقوله عن طريقة عمل المخ صحيح تماما فإنه لن يجيب على هذه الأسئلة .

لقد حدث تقدم صغير فى طريق الاجابة على الأسئلة العميقة التى تدور فى عقولنا: من نحن؟ وماهو الوعى؟ لماذا نحن هنا؟ هل هناك حياة بعد الموت؟

كل الأسئلة من هذا النوع يبدو لروجر أنها تطالبنا أن نعرف كيفية تركيب هذا الكون، ومانعلمه فى هذا المجال قليل جدا .

إن الفيزيائيين يقولون إن نظرية الكم جميلة وتعمل بشكل جيد وتشرح كيف تعمل الذرات الدقيقة .ولكن لنتحدث بصراحة .. إنها تعطينا الاجابة ، الخاطئة . ما تقوله هذه النظرية أنه إذا



كانت لديك قطة شرودنجر الشهيرة فإنها يمكن أن تكون حية وميتة فى نفس الوقت . وهذا خطأ فاضح .

لذا يعتقد بنروز أن ثمة شيئا كبيرا غائب عنا فى هذا العالم .

سؤال : وماعلاقة نظرتك هذه بما يقوله رجال الدين ؟

أجاب بنروز : أعتقد أننى أكثر تأييدا لوجهة النظر الدينية عن رجال العلم . لا يعنى هذا أننى أؤمن بالدوجما المرتبطة بكل الأديان. إننى لم أكن كذلك فى الماضى ولست كذلك الآن . لكنى أنظر إلى الدين نظرة إيجابية لدوره فى القيم ، وهى الشئ الذى لاينشغل به العلم .

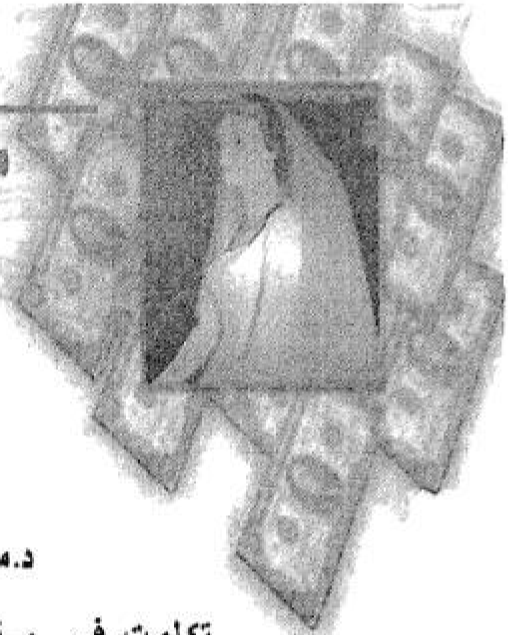
إن الديانات تحاول أن تجيب على أسئلة لا يجيب عنها العلم ، وعلى وجه الخصوص مسألة القيم .

وإننى أعتبر الاخلاق شيئا مطلقا له مركبة أفلاطونية تقع خارجنا ، هل هناك مفهوم مطلق أفلاطونى عن «الخير» .

يجيب روجر بنروز : نعم إننى أميل قبول هذا الرأى .

من أمراض المجتمع

مبكيات الأفراح



بقلم
د. محمد رجب البيومى

تكلمت فى مقال سابق عن مضحكات المآتم، فعرضت بعض مايرهق المجتمع المصرى من التقاليد الجائرة التى يضيق بها الناس، ثم يخضعون للعرف الشائع فلا يملكون عنها حولا، وإذا كانت المآتم ذات مضحكات، فالأفراح لدينا ذات مبكيات، لأنها أبهظت الناس بما ينوءون به من أثقال، فرضت عليهم فرضا، وهم أيضا لايستطيعون عنها حولا لأن مجاراة العرف الطارىء أصبحت قانونا لازما، ومن يخالفه يقع فى عذاب نفسى، دونه عذاب القانون القضائي: وألسنة الناس فى مثل هذه المناسبات أقوى من السياط

وأطرف القارىء بواقعة مشهورة فى بعض الإدارات الحكومية لها مدلولها الصريح، حيث ضمت هذه الإدارة فيمن ضمت من الموظفين والموظفات، أربعا يحملن الدرجة الجامعية العالية، وقد تجاوزن الخامسة والثلاثين، وهن عانسات، كما ضمت خمسا من العاملات المتواضعات اللاتى يقمن بالفراشة، ولم يتجاوزن الخامسة

والعشرين وكلهن متزوجات مع أن الجامعيات ذوات رونق لافت فى الهيئة والملبس والمظهر العام، والعاملات ليس معهن غير الشباب المتدفق بالحياة، الجياش بالأمل، فكيف وقعت هذه المفارقة، وماتعليلها؟.

تعليلها هو الالتزام بالتقاليد الصارمة التى ارتضاها المجتمع، وجعلها سورا حديديا منيعا لا يكاد أحد من الشباب المتطلع يخرج عن دائرته، فالموظفة الجامعية تريد شقة ذات حجرات متعددة وأثاثا يملأ الحجرات والتزاما بالكماليات الوافدة التى أصبحت مجال المباهاة، والزوج إن وجد ليس فى يده مايرضى فتاة أحلامه: أما الموظفة العاملة فترضى بمن هو فى مستواها الاجتماعى وكلاهما يبحث عن الستر فى حجرة أو حجرتين وعن الأحياء المتواضعة المناسبة، وكل ذلك ميسور .. ى تلاقت الرغبتان، واتفق الطرفان! لذلك نعمت الثانية بالاستقرار، وظلت الأولى فى مهب الرياح قلت إن الزوج إن وجد ليس فى يده مايرضى فتاة أحلامه، وإن هذه كما يقول النحاة للشك لا لليقين، إذ أن وجود الزوج الشاب القادر فى هذه البطالة المكتسحة قليل قليل لأن هذا المسكين يبحث عن المأكل لا عن المنزل، يبحث عن المأكل فإذا وجده فى بيت أبيه فقد حمد الله أن وجده حيث لايستطيع أن يرهقه بما فوق ذلك، وقد بذل الشيخ جهده الجاهد حتى أتم تعليمه وتعليم بعض أخوته، فماذا يفعل بعد ذلك وهو لايملك خزائن الأرض، أما إذا لم يجد المأكل - وكثيرا مايحدث - فهو يتطلب مالم يهيأ له من المهن التى لم يكن يعرف من أمرها شيئا، وقد نشرت الجرائد اليومية أهات حارة لبعض المتخرجين فى الجامعات، وقد أصبحوا يغسلون الأطباق ويمسحون الموائد فى الفنادق الراقية بالمصايف يجدون هذا العمل فى أيام وينقطع فى أيام، تبعا لارتياد الوافدين وانقطاعهم، وهم أحسن حالا ممن لايجد عملا بالمرة، وهم كثير كثير، وأنا أعرف بنَّاءً أميا عصاميا بالمنصورة قد أتقن عمله، فأصبح رابح السوق فى المدينة هذا البنَّاء لديه سبعة من خريجى كلية الهندسة يعملون لديه أجراء يعملون ما يعمل الأمى الذى لم يتعلم شيئا ولم يفك الخط فى مدرسة فيحملون الطوب على الظهر ويفحرون الأرض ويرصفون البلاط، وهم حامدون شاكرون إذ يتقاضون راتبا يوميا من هذا البنَّاء العصامى، وقد حسدهم زملاؤهم ممن لايجدون مثل حظهم فى العمل، فجعلوا يتوسلون للبنَّاء كى يلحقهم بإخوانهم والرجل يأخذ الأسماء لديه مع العناوين، واعدا من يتوسم فيه النشاط بالعمل إذا خلا مكان لسبب من الأسباب.. وهيهات أن يخلو! وأنا أرثى لهؤلاء



•غلاء المهور مشكلة مزمنة لا تتقيد بجيل دون جيل

المساكين حين انتشوا بالفرحة الغامرة يوم ظهرت نتيجة الثانوية وأخذوا من الدرجات ما فوق الخامسة والتسعين وقدموا الأوراق للالتحاق بإحدى كليات القمة كلية الهندسة. ثم أصبحوا بعد التخرج فى وضع سواء مع من لم يقرأ صحيفة، أو يدخل مدرسة! فكيف يوجد الزوج المناسب فى هذا المأزق الأليم! كيف يوجد؟

التيسير مطلوب

وقد ييسر الله فيكون الأب على شىء من القدرة، أو يكون الشاب قد سعد بعمل حكومى بعد الكدح الطويل، فيبحث عن السكن والزوجة ولكن هل يبحث عمن يشتهى ويرغب لصفات تجذب نفسه، ذلك مما يتعسر فى كثير من الأحيان، ولكنه يبحث عن شريكة فى محل تجارى تماما، يبحث عن موظفة يعرف راتبها على حقيقته، وهى أيضا تبحث عنه عارفة مايتناول من الأجر، وبدل أن تكون أيام الخطوبة مسرحا للأحلام الدافئة والأشواق الحارة فإنها تكون فى الحديث عن الوضع المادى المنتظر، وعما يجب نحو الشقة والأثاث وضروريات الحياة، وتظل أوجه الخلاف فى الرأى كثيرا كثيرا حتى يتوسط أولو الأمر فى تذليل العقبات! ثم يأتى اليوم الموعود، فتطرد الحياة على نحو من الأنحاء .. إن اليسر المريح الذى يتم به زواج العاملة والعامل يقابله عسر شاق عند زواج غيرهما من أرباب الوظائف أو العمل الحر، فقد كان العرف فى الجيل الماضى عند الزواج يمضى بالتيسير إلى أبعد غاياته، فالخطبة لاتتطلب غير الدبلة أو ما هو قريب من أجرها كسوار المعصم مثلا، وكان المهر مناسبا لمقتضى الحال مالا وحفل الزفاف فى المنزل لايخرج إلى حد السرف، وكذلك حلة العروس، وهذا كل مايتطلب ، كان هذا من قبل، أما الآن فللخطبة شبكة غالية تقدر بالآلاف لا بالمئات، ولها أيضا حلة مناسبة تتفق مع ماترجوه العروس من نفاسة المادة ورونق المنظر، ثم يكون المهر من الجسامة بحيث يقضى كماليات الترف وأبهة المنزلة، ويلى ذلك حفلة الزفاف التى يتحتم أن تكون فى مكان مرموق يدعى له الصفوة من المعارف والوجهاء ويعد ذلك يأتى مكان شهر العسل الذى يجب أن يكون مطمح الأنظار!! بلاءٌ متراكب إن تنازل بعض الواقعيين عنه عُد نقصا واضحا لدى من يتمنون خراب المنزل قبل أن يسكن، وأصبح موضع ملاحظة لدى ذوى الغرض فيكثر اللغط السفيه دون مبرر، وقد فكر كثير من المخلصين فى تجاوز بعض هذه الأعباء، ووضعوا من الاقتراحات مايخفف العبء الثقيل لدى المراهقين والمراهقات فى زمن التكاثر

بالأموال والمناصب، ويحضرني في هذا اقتراحان واقعيان أحدهما خاص بالشقة، وثانيهما خاص بالأثاث، وهما عماد الأسرة الضروري مما لايمكن الاستغناء عنه إذا استغنينا عن سواهما في جراءة تحمد ولا تذم بحال، أما اقتراح الشقة فقد تقدم به المهندس الكبير الدكتور ميلاد حنا، حين استنكر وجود هذه الأبراج العالية التي تهيأ لنفر من الخاصة وهم قلة لاتسد هذا الفراغ الذي اتسع اتساعا كانت عقباه أن تظل الشقق الفسيحة خاوية على عروشها، وأن يبحث أصحابها عن ذوي الجيب الثقيل فلا يجدون غير أن يعضوا بنان الندم آسفين، هذا الاقتراح يقضي أن تبنى عمائر خاصة بالشباب الطامح للزواج، على أن تكون نوعين، نوع يحتاجه من تزوج منذ ثلاثة أعوام ورزق طفلا أو اثنين وهما حسبه دون أن يزيد ونوع آخر لمن ينشيء الأسرة السعيدة عقب الزفاف ، فالفريق الأول في حاجة إلى العمارة التي تضم ثلاث حجر فحسب والفريق الثاني في حاجة إلى العمارة التي تضم حجرتين يظل بهما حتى يأتي الطفلان فيتركهما لعروس جديدة ثم يلحق بالعمارة ذات الحجر الثلاث! وعلى هذا النحو تسير مشكلة الإسكان نحو الحل المناسب دون بهرجة أو اتساع! وقانون المساكن الجديد يعطي الحق في تحديد المدة وجواز الانتقال من مكان إلى مكان، ولو عرف أصحاب الأبراج العالية أن الكسب الشره لايتيسر دائما. وأن المسألة لاتخرج عن حدود العرض والطلب، لأعدوا الشقق المتواضعة لمن يتطلب اليسر دون إرهاق، ولما أصبحوا الآن يعرضون الشقق للإيجار بنصف ما كانوا يفرضون من الأجر بعد أن أعياهم التمليك الدائم كما كان من قبل، وقاتل الله الأطماع!.

غلاء المهور

أما غلاء المهور فهو مشكلة مزمنة، لاتتقيد بجيل دون جيل، وفي السنوات الأولى من الثلاثينيات كانت الأزمة المالية آخذة برقاب الدول جميعها، إذ كانت أزمة عالمية وقد تأثرت بها مصر تأثرا بالغا، وهنا ظهرت أزمة المهور بصورة أوجبت الوقوف لديها من كبار المفكرين وكان في طليعتهم الأستاذ الكبير محمد مظهر سعيد الذي درس علم النفس في أرقى مدارس انجلترا وكان عضوا من أعضاء المجمع العلمي البريطاني ثم عميدا لدار المعلمين العالية ببغداد، وأستاذا لعلم النفس بالجامعة الأزهرية وله صيته المدوي حينئذ في الندوات والصحف وكان من حظه أن تشاركه زوجته المربية الاستاذة نظلة الحكيم في اتجاهاته الاجتماعية وهي متخرجة في كلية اكسترا الإنجليزية، وأستاذة بمعهد البنات العالي بمصر، وقد راعهما تفاقم أزمة الزواج لغلاء المهور، فعقدا ندوة علمية توضح علاج هذه الأزمة بما فعلاه



ملاذا تصرف الاف الجنيهات فى حفلة يهدر فيها المال وتنتهي برقص ماجن كريه؟

فمثلا حين قرر ا زواجهما السعيد، وقد نشرت مجلة المعرفة الصادرة بتاريخ اكتوبر سنة ١٩٣٢ خلاصة ما قاما به معا لحل هذه الأزمة، وكان مما قاله الاستاذ محمد مظهر سعيد إن غلاء المهور هو العامل الحقيقي فى تصاعد هذه الأزمة، وقد اتفق مع السيدة نظلة الحكيم قبل الزفاف على أن يشتركا فى شراء أثاث المنزل قطعة قطعة بعد الاقتران الذى لم يكلفهما غير الضرورى من الفراش، وقد قاما بشراء مايلزم بالتدريج شهرا بعد شهر دون أن يثقلا على نفسيهما بشراء كل مايلزم مرة واحدة، إذ تعودا على ادخار جزء من الراتب الشهرى لكل منهما يقوم بشراء شيء جديد يحتاجه المنزل، وقدرا للاكتفاء عامين يتم فيهما الأثاث على أفضل مايريدان دون إرهاق! وهذا ما كان.

وقد أسهب الاستاذ محمد مظهر سعيد فى توضيح فكرته كى تحوز القبول من السامعين، وترك المنبر لزوجته الفاضلة الاستاذة نظلة الحكيم، فأيدت كل ما قاله الاستاذ مظهر وفاخرت به زوجا مديرا، ثم تطرقت إلى نقد ما عرف بين الخطيبين من ضرورة الشبكة الذهبية . فقالت إنه لاضرورة لها على الإطلاق، لأنها تقف عائقا دون إتمام الزواج على وجه سريع، لأن الذى دفع ثمن الشبكة سيحتاج إلى أمد طويل حتى يجد المهر المتفق عليه، والذين يتباهون بغلاء ثمن الشبكة وارتفاع قيمة المهر، يخضعون لعقل مادى لايلتفت إلى المعاني الروحية الجميلة التى يجب أن تكون فى اعتبار الزوجين كما أنها لاتقبل هذا التبذير الفاضح فى نفقات ليلة الزفاف إذ الأحرى أن تصان هذه النفقات لإسعاد الأسرة مستقبلا حين نضطر إلى مزاولة أسلوب الحياة على وجه منطقى مريح، وكانت السيدة نظلة الحكيم قد درست من قبل بعض الرهقات ذات العبء الملموس فشنت حملة على مايسمى بالنقوط وهو أمر لايزال مستمرا فى كثير من الأوساط فقيرة أو مثرية، لأن النقوط دين سيسترد فيما بعد، وسيحاسب عليه العروسان بعد أن يبدداه فى كماليات غير ضرورية وقد يفاجأن برده فى وقت لاتسمح ظروفهما بالسداد عند مناسبة تطرأ دون موعد محدد ، وبذلك أصبح النقوط دينا، ومن يتأخر عن سداده يقابل بالتقريع وكأنه أتى جرما شديدا..

التغلب على شقاء الحياة

وقد قالت مجلة المعرفة بعد أن نشرت كل ماقيل فى هذا المجال «إن هذه الآراء لو وجدت طريقها للذيوع لحققت لمن يريد الزواج أسباب التغلب على صعوبة المهر وشقاء الحياة الزوجية التى مازالت انباؤها تؤلف لنا أفجع

المآسي وتظهر حياتنا في أسوأ الصور».

وهذا الكلام الذي قيل منذ سبعين عاما لم يشمل ما جدّ من تطور باهظ في الإسراف البالغ حد السفه، إذ لو امتدت الحياة بالاستاذين مظهر سعيد ونظلة الحكيم، لتحدثا عن الفنادق الرفيعة التي تقام بها حفلات الزفاف ويحدد لكل مدعو ثمنا للمأكل والسهرة لايقل عن مئة جنيه، فإذا كان المدعوون مائة فهذه عشرة آلاف مع أن هؤلاء المتظاهرين بالوجاهة يدعون في كثير من الأحيان من لايكترث بدعوتهم لكنهم يلحون في حضوره استكمالا لما يتوهمونه من الوجاهة الكاذبة ثم يأتي بعد ذلك النشر في الجرائد في مساحات تقل وتزيد وفوق مايدفع من الأجر الفادح أو اليسير فلابد أن يظهر العروسان في أجمل مظهر، وقد يذكر من شرّف الحفل بالحضور، والمكانة التي سيقضي فيه العروسان أيام الهناء الأولى، ثم يلحق ذلك تهنئات من الأحبة يقدر حسابها فيما بعد إذ أنها كالنقوط دين يجب أن يسترد! فبالله ، فيم هذا العناء فيما لاطائل تحته غير الولوع بالتقليد السفيه!.

لقد كان الريف بعيدا عن هذه المظاهر الكاذبة قبل أن يتصل بالمدينة اتصالا تؤكده أدوات الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون، حيث ساعد ذلك على إحكام التقليد من المدينة والقرية بحيث يرى أثرياء القرية من النباهة أن تقام الأفراح في المدينة، وفي أفخم قاعاتها المعدة لذلك والخاسر في هذا المجال هم الفقراء وحدهم، إذ كان من عادات الأثرياء في القرية من قبل أن تذبح الذبائح يوم الفرح، وأن يحضر الفقراء صفوفا لأخذ ما يلذ لهم من اللحم الطيب، وهم يترقبون هذه المناسبات ويعدونها عيدا ينفحهم بالخير، فبطل ذلك، وقام مقامه التباهي بالذهاب إلى المدينة وإذا لم تكن عاصمة المحافظة لائقة فالعاصمة الكبرى وهي القاهرة أفخم وأروع، وكم يتكلف ذلك ولكنه التكاثر بالمال والجاه.

لكم تطورت الأيام في أقل من نصف قرن فقد كان احتفال الزفاف في كثير من حالاته يتجه في إحدى ليلتيه إلى قراءة كتاب الله من تلاوة قارىء حسن الصوت يقوم مقام الطبل والرقص والزمار، وقد شاهدت في الخمسينيات بمدن الصعيد، هذه الظاهرة الحميدة التي تذكر الناس بالتقوى والبر وتبعد بهم عن سفاف اللهو والعبث، وهي ظاهرة تمتد بعروقها إلى زمن متقدم، ولعل قراء الهلال يذكرون أني أشرت في بعض مقالاتي إلى وصف شائق بديع كتبه الشاعر الكبير خليل مطران عن حفلة زفاف، اكتفى صاحب أمرها، وهو من وجهاء القاهرة وكبراء أثريائها، بإقامة حفل قرآني تتصدره قارئة ذات صوت مؤثر بلغت من نفوس السامعين أشجى وأعذب ما يبلغه مغرد



والمطلوب أن نعود للسنن الحميدة بقراءة كتاب الله بدلا من الطبل والرقص والمزمار!

طروب، وأنقل هنا بعض ما هتف به الشاعر الكبير في مقاله الفريد بعد أن ذكر اسم صاحب الاحتفال، واسم القارئة المجيدة اسمهان».

«كان صوتها يسلسل الآيات كعقد الجواهر، على صفاء، وكان تلحينها مستويا كأنه يمهد لما سيتلوه، وأخذ الصوت يتنقل بين الحزن والفرح، والترغيب والترهيب والزجر والوعد، وكلما تمادت في القراءة عظم الشعور في نفوس الحاضرين وجميعهم من ذوي المقام، فيكون صدى شعورهم التكبير والتهليل».

إهدار المال

ولا أطيل في اقتباس ما ذكره الأستاذ خليل مطران، حيث أشرت إليه في مقال سابق، ولكني أتساءل: أيهما أدعى إلى الروعة والتسامي في هذه المناسبة قارئة حسنة الصوت تتلو كتاب الله فتقابل بالتكبير والتهليل، أم بذل آلاف الجنيهات في حفلة تنتهي برقص ماجن كريه ثم تكون العاقبة إهدار المال في أحسن وجوه الإنفاق! وإذا كان كثير من المدعوين ذوي الوجاهات المزعومة لا يحضرون فإن ما يترك من الطعام يضيع ثمنه على الداعي الفخور إذ لو كان هذا المال أو بعضه تبرعا لعائلة مسكينة أخنى عليها الدهر، أو جمعية خيرية تعين أرباب الحاجات، أو نقودا مجزية تعود على الأسر الكادحة في القرية التي أنجبت صاحب هذه الوليمة، أفما كان ذلك جميل الأثر لدى الله ولدى الناس؟

على أنني قرأت منذ شهور مايدعو إلى العجب حقا، فقد ذكرت باحثة اجتماعية في رسالة تحدثت الصحف عن بعض نتائجها، وإن نسبة كبيرة من زوجات هذه المحافل قد طلبن الطلاق بعد أقل من عام، كما أن إحصائية دقيقة ذكرت أن نسبة المطلقات من المتعلمات أضعاف أضعاف نسبة غير المتعلمات؟ فما معنى ذلك؟ معناه في الحالة الأولى أن الزواج كان صفقة بيع لا ثمرة حب وتقدير وأن الأيام القليلة التي أعقبت الزواج قد كشفت مطامع أحدهما فدب الخلاف لدرجة لم تحتمل الصلح إذ كان أبغض الحلال لدى الله هو الحل، ومعناه في الحالة الثانية أن المتعلمة ذات الوظيفة المحسوبة قد أفاقت من غشيتها فعلمت أنها تقوم بما يجب أن يقوم به الزوج من أعباء! وإذا كانت ذات استقلال مادي مضمون، فلم تتحمل نفقات كان من الواجب على الزوج الطامع أن يقوم بها؟ وقد كنا في الماضي قبل أن تكثر وظائف المتعلمات نرجع في تعليل هذه الظاهرة ظاهرة الطلاق إلى أمية الزوجة، وعدم ثقافتها التي توجب عليها أن تكون زوجة ذات رسالة فماذا يقول الآن أصحاب هذا التعليل حين يرون أن غير المتعلمة

المخلصة تؤدى دور الزوجة فى رضا وابتسام، وتعرف أن سعادة الأسرة لاتتم بغير التسامح والاحتمال، وبذلك تستمر الحياة العائلية دون شقاق، ويعيش الابناء فى جو طبيعى لاتعصف به الأهواء! حيث يرون فى الناحية الأخرى بواعث الشقاق تحتدم عند المتعلمات، لقد كانت الأمية مظلومة كل الظلم حين أرجعنا إليها السبب فى الشقاق! على أننا فى الحقيقة نجهل معنى الأمية حين نحصرها دائما فى التعليم المدرسى وحده. وهو حصر لايجد مدلوله المنطبق تماما، لأن الأمية الخلقية أدهى عاقبة، وأشد نكالا من الأمية التعليمية، فإلى حين نستطيع أن نمحو الأمية فترتفع بالسلوك الإنسانى إلى مستوى لائق، نكون قد عرفنا الأمية بمعناها الشامل الأكيد، وأقول بعد ذلك إن من ذوى الشهادات الجامعية أميين وأميات، لأنهم لم يجدوا التربية الخلقية الدافعة إلى التسامح والحلم والإيثار! وأن مناهج الدراسة فى حاجة إلى توجيه جديد !!

إن التواضع المعقول فى حفلات الزواج يعطى الزوجين درسا نافعا فى ضرورة الاعتدال، والبعد عن التبذير فيستقبلان الحياة استقبالا طبيعيا لامجال فيه للتزيد والادعاء، كما يفهمان منه أن السعادة الحقيقة تنبع من داخل الإنسان ولن تأتى من المظاهر الخارجية الجوفاء، فإذا استشعرا السعادة الداخلية فإنهما بها يتغلبان على العقبات دون عناء، ويكونان من الذين قال الله فيهم:

(والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .■

كلمات عاشت

● ما أيسر أن تفقد الخرافة سطوتها حين تعترض غرورنا بدلا من أن تتملقه ، وشأن الخرافة فى ذلك شأن وهميات أخرى كثيرة.

جيته

● أربع صحف معادية يخشى بأسها أكثر من ألف حربة!

نابليون الأول

● حتى اغتراف الماء بالمصفاة، تستطيع أن تحققه ، إذا صبرنا حتى يتجمد الماء.

محمد رفعت

● الكلمة أسيرة فى وثائق الرجل، فإذا تكلم بها صار فى وثاقها.

● دقات قلب المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثوان

شوقى

على هامش رحلة

أبو الغار

بقلم
د. جلال أمين





د. محمد أبو الغار

لاشىء فى رأيى، أفضل للكاتب الذى يريد أن يصل إلى قلب القارىء ويحظى بتعاطفه، من أن يترك نفسه على سجيته، فإذا كان هذا شيئاً محموداً ومطلوباً في مختلف أنواع الكتابة الأدبية، فهو أوجب وأفضل فى كتابة السيرة الذاتية. وهذا بالضبط مافعله الدكتور محمد أبو الغار فى كتابه الذى صدر أخيراً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بعنوان (على هامش الرحلة).

ليس فى هذا الكتاب أى مظهر للتحذلق أو التقعر أو التظاهر بغير الحقيقة، بل يكتب المؤلف وكأنه يتكلم يحكى لك قصة حياته، وعلى الأخص ماتعلق منها بتطور مصر السياسى والاجتماعى، بصدق وإنصاف وتلقائية تامة ، فكانت النتيجة كتاباً جميلاً يأسرك ويحظى على الفور بتعاطفك ، ولكنه أيضاً يمدك بمادة غزيرة للتفكير فى آلام مصر وأوجاعها.

الدكتور محمد أبو الغار يظهر من هذا الكتاب كحكاء عظيم، يجيد رواية ماحدث له، فلا يغرقك في تفاصيل لاحاجة لك بها ولا مغزى لها، ويمتلىء حديثه بالطرائف الغنية بدورها بالمعنى والمغزى (وإلا ماستحقت أن تروى بل وربما ما اكتسبت طرافتها)، كما ينم حديثه عن تعاطف إنساني عميق مع مآسي الآخرين.

لقد عرفت في حياتي عدداً من الحكائين العظام، كان يدهشني منهم دائماً قدرتهم على الاستحواذ على اهتمام الناس بما يقولون، والاحتفاظ بهذا الاهتمام حتى وهم يروون أدق تفاصيل حياتهم أو تفاصيل حادث طارىء مر بهم، إذ كنت أتعجب كيف يقبل المرء على الاستماع إلى هذه التفاصيل منهم بشغف، مهما كانت تفاصيل صغيرة وقليلة الشأن، بينما ينفر تمام النفور من الاستماع إلى أمثال هذه التفاصيل من أشخاص آخرين؟ وقد توصلت إلى التفسير الآتي: إن الأمر لايتعلق بمجرد طريقتهم في رواية هذه التفاصيل بل يتعلق في الأساس باختيارهم لما يروى ومالا يروى، والأهم من ذلك، أنه يتعلق بالمغزى الذي فهموه من هذه التفاصيل ويريدون توصيله إليك. إن نفس الحادث يصادفه شخصان فيفهمه كل منهما على نحو مختلف عن فهم الآخر، ويستخلص منه معنى غير الذي يستخلصه غيره. فإذا روى الشخصان نفس الحادث فلا مفر من أن تقترن رواية الحادث بالمعنى الذي فهمه الراوي منه، فإذا كان معنى تافهاً كانت القصة كلها تافهة، والأرجح أن تثير في نفس سامعها السأم والضجر.

ليست هكذا رواية الدكتور أبو الغار لما مر به من أحداث مصر في النصف الثاني من القرن العشرين، فالمعاني التي يستخلصها هي دائماً معان ذات قيمة تثير الاهتمام، وأكثرها معان نبيلة تثير الاحترام.

ولكن رواية د. أبو الغار لقصة تطور مصر السياسي خلال الخمسين عاماً الماضية، لاتأسرك فقط بعمق معانيها ونبلها بل وأيضاً بإنصافها. فسرعان ماتدرك، بعد أن تقرأ بضع صفحات من تعليقاته على أحداث ثورة يوليو، أنه لايحكم على أحداث الثورة من وجهة نظر رجل صاحب ثأر، أو رجل له حساب يريد تسويته. إن له طبعاً تفضيلاته وتحيزاته (فمن يستطيع أن يتخلص من جميع التحيزات أو حتى يحب أن يتخلص منها؟).

ولكن تحيزاته ليست تحيزات أنانية، بل مستمدة من انتماء قوي لبلده وقومه، وعلى الأخص للمضطهدين منهم. ومن ثم فالأرجح أن تكسب روايته تعاطف معظم من يقرأونها، إذ إن معظمهم ليس لديهم ذلك الثأر أو تلك الحسابات المطلوب تسويتها.

الحقبة الناصرية

إن لدى الدكتور أبو الغار انتقادات مرة للحقبة الناصرية ولكنه يدرك بوضوح

ماحققته السياسة الناصرية من منافع للجماهير الغفيرة المصريين في الريف والمدن، ممن لم يلتفت إليهم أحد لا قبل ١٩٥٢ ولا بعد انتهاء الحقبة الناصرية في ١٩٧٠. فلتقرأ مثلاً ماكتبه عن الوحدات الصحية التي انشئت في الريف المصري في عهد عبدالناصر:

«أعتقد أن مشروع الوحدات الريفية كان أحد المشروعات الصحية التي بدأت بفكرة عظيمة وخطط لها جيداً ونفذت بسرعة وكفاءة وأدت خدمات صحية جليلة للمواطنين في الريف المصري، لكن تغير استراتيجية الدولة قضي تماماً على هذا المشروع. وأعتقد أن كل القرى قد بنيت فيها وحدات ريفية، وكان بكل وحدة طبيب، وكانت الأدوية تكفي المرضى في القرية ، وكان التطعيم ضد الأمراض المعدية وعلاج الأمراض المتوطنة يتم مجاناً بكفاءة معقولة ، وكانت الحالات التي تستدعي علاجاً أو تدخلاً جراحياً ليس في مقدور طبيب الوحدة تحول إلى المستشفى المركزي، وكانت معظم الوحدات منتظمة، وكان الأطباء في أغلبهم سعداء بالعمل في هذه الوحدات، وبالتأكيد كان لهذه الوحدات الفضل الأكبر في رفع المستوى الصحي للفلاح المصري، وللأسف مع انهيار النظام الاشتراكي وضعف المخصصات الصحية وارتفاع أسعار الدواء، أصبحت معظم الأدوية المطلوبة غير موجودة بالوحدات الريفية ، وتحولت الوحدات الريفية بالتدريج إلى عيادة خاصة للطبيب الذي يتقاضى مرتباً ضعيفاً بالنسبة لارتفاع مستوى المعيشة ، فأصبح يكشف فيها بالأجر ويصرف للمريض الدواء من الصيدلية الخاصة. وهكذا انتهى مشروع الوحدات الريفية العظيم إلى مشروع إنشاء عيادات خاصة للأطباء على حساب الدولة في عهد الاقتصاد الليبرالي المفتوح» (ص١٩١).

نقد عصر السادات

والكتاب يحتوي على نقد لاذع وشديد المرارة لما جلبه انفتاح عصر السادات على المجتمع المصري. يظهر هذا من الفقرة التي اقتطفتها حالا عما جرى للوحدات الصحية في الريف، ولكنه يظهر

أيضاً عند حديثه عن أثر الانفتاح على مجالات أخرى، كهذه الفقرة المؤثرة جداً عما أصاب تعليم الطب فى عصر السادات:

«فى تلك الفترة بدأ أعضاء هيئة التدريس بكلية الطب فى التخلى بالتدريج عن العمل فى قصر العينى، وأصبح هذا المكان الذى يعطيك المكانة العلمية والوجاهة الأكاديمية ويمكنك أن تستغله فى رفع أسهمك فى العمل فى القطاع الخاص ... ودخلت لغة الإعلام، وأصبحت الشهرة فى العمل الخاص تأتى من الصحف ومن التليفزيون ومن العلاقات العامة ... وسمعنا عن قضايا دفع فيها الأطباء رشوة ليظهروا فى البرامج التليفزيونية .. وفى سنوات بسيطة فى تلك الفترة تم تفريغ قصر العينى من معظم أعضاء هيئة التدريس وأصبح الأمر لاضابط له ولا رابط ، وأصبح الحضور منعدماً، فهناك مدرسون وأساتذة يذهبون لقصر العينى مرة كل شهر أو شهرين أو أكثر، وأحياناً لايذهبون إطلاقاً، وفقد العلم أهميته ، وبالتالى فقد قصر العينى مكانته كمؤسسة علمية ... ولم يعد يهتم العميد أو رئيس القسم بأى مجهود علمى. وتدريجياً تم إلغاء المرور الاكلينكى لهيئة التدريس على المرضى وفى بعض الأقسام، وتدريجياً اختفى الاجتماع العلمى الأسبوعى وبالتدريج توقف البحث العلمى، وتبقى الأبحاث التى تنشر فى المجلات العالمية فى القليل النادر ومن أفراد معدودين يقومون بمجهودات فردية لوضع اسم مصر على الخريطة العالمية ......» (ص ٢٨٥ – ٧).

ولكن المؤلف لديه أشياء طيبة أيضاً ليقولها عن السادات (لا أوافقه فى بعضها، ولكن هذا ليس موضوعى الآن) وانتقادات مرة لعصر عبدالناصر، تتعلق أساساً بافتقاد الديمقراطية السياسية وتقييد الحريات الفردية . وللدكتور أبو الغار نفس الموقف المنصف من الجماعات الإسلامية بمناسبة نشاطها فى نقابة الأطباء واكتساحها لجميع مقاعد مجلس إدارتها، فيعقب على ذلك بقوله:

«يجب أن أعترف بأنه بالرغم من سلبيات وجود نقابة يتحكم فيها بالكامل تيار دينى، إلا أن هذا المجلس كان له السبق فى القيام بخدمات كثيرة للأطباء من أهمها مشروع التأمين الصحى على الأطباء وعائلاتهم والذى حقق نجاحاً كبيراً وكان المثال الذى طبقته باقى النقابات ، وهذا النظام لم يخدم الأطباء وعائلاتهم فقط بل منع المغالاة فى أجور الأطباء وحد من رفع أسعار العلاج بالمستشفيات الخاصة... وقامت النقابة أيضاً بعمل دورات تدريبية طبية وسلسلة من المحاضرات

العلمية وكذلك مؤتمر علمي سنوي ....» (ص ٢٩٨).

هكذا يستقر لدى القارىء، شيئاً فشيئاً، شعور راسخ بأن هذا المؤلف رجل منصف، لن يمنعه حب غامر لشخص من أن يذكر أخطاءه، أو سخط شديد على آخر من أن يذكر محاسنه. وترتب على ذلك نتيجة طيبة للغاية ، إذ عندما جاء دور الكلام عما أنجزه المؤلف نفسه في مجال تخصصه ، وهو الطب، ودفعه الانصاف نفسه إلى أن يذكر ماقام به هو من أعمال جليلة، تعاطف القارىء معه كل التعاطف، إذ إنه لم يعهد من المؤلف محاباة الغير فلماذا يأتي الآن ويحابي نفسه؟ إن روح الانصاف قد جعلته يعطى لنفسه أيضاً حقها، ولكن الحس السليم جعله يتكلم عن إنجازاته هو بسرعة ودون إطناب، إذ لابد أنه يعرف جيداً أن من الأفضل والأحكم أن يترك المرء الإطناب في الحديث عن مآثره لغيره ، حتى وهو بصدد كتابة سيرته الذاتية، وهذا هو مافعله المؤلف بالضبط.

شاهد على تطور المجتمع المصري

والكتاب غني بالمعلومات عن تطور المجتمع المصرى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وخاصة خلال الستينات والسبعينات، ومن ثم أجده مصدراً ثميناً لأى دارس لحياة مصر الاجتماعية والسياسية في هذه الفترة . فوصفه للفترة التى عمل فيها المؤلف مسئولاً عن الوحدة الصحية فى إحدى قرى المنوفية فى الستينات، يخرج منه القارىء بصورة بالغة الوضوح والدلالة للحياة الاقتصادية لسكان الريف المصرى وعلاقاتهم الاجتماعية وعلاقتهم بالحكومة فى القاهرة.

ولكن القارىء لابد أن تصيبه الدهشة (والحزن أيضاً) لما يظهر من ثنايا الحديث، من سمات إيجابية للغاية، كانت تطبع حياة الطبقة الوسطى المصرية قبل نصف قرن، وأخذت تتلاشى بالتدريج وحلت محلها سمات مناقضة تماماً وبعضها كريه جداً . تتعلق هذه السمات بما كانت عليه العلاقة بين المسلمين والاقباط فى مصر منذ

خمسين عاماً وما آلت إليه بالتدريج، وموقف المصريين من الأجانب الذى كان يتسم بثقة أكبر بالنفس منه الآن ، مع تسامح أكبر، وموقف المصريين من الدين الذى كان بدوره أكثر تسامحاً وأشد عقلانية مما نراه الآن .. الخ.

التلقائية والبساطة

لا أستطيع أن أزعم أن ترك المؤلف نفسه على سجيتها ، وتلقائيته فى الكتابة، مع كل مالهما من مزايا وآثار طيبة على الكتاب، لم يكن لهما أى ثمن على الإطلاق. ذلك أن ترك المرء لنفسه على سجيتها تماماً لابد أن يكون ثمنه التضحية ببعض الأناقة . من مظاهر هذه التضحية فى هذا الكتاب مايلاحظه القارىء من تشعب الحديث فى الفصل الواحد إلى موضوعات متعددة لايربطها إلا حدوثها فى نفس الفترة من حياة المؤلف، ومن ثم جاءت عناوين بعض الفصول ضعيفة الدلالة على محتوياتها. ومن مظاهر هذه التضحية أيضاً التخلى أحياناً عن اعتبارات البلاغة فى سبيل مراعاة الصدق التام فى التعبير عن المشاعر أو ذكر حقيقة الحدث كما وقع بالضبط. ولكن هــذا الثمن الذى دفعه الكتاب فى سبيل أن يحتفظ الكاتب بالحرية الكاملة فى التعبير عن نفسه ، كان ثمنا زهيداً جداً فى رأيى، وقد حصل القارىء فى مقابله على كتاب على درجة عالية من الحيوية والجاذبية. بل إن ترك المؤلف لنفسه على سجيته قد سمح له أيضاً بفرص أكبر للتعبير عن معانى مبتكرة وأفكار جديدة حتى أثناء تطرقه لموضوعات تناولها من قبله.

***

فى الصفحات الأخيرة من الكتاب وتحت عنوان «خاتمة»، قد يتوقع القارىء أن يتكلم الكاتب عن آخر إنجازاته وأعماله، أو أن يلقى نظرة عامة على حياته فيلخص أهم أحداثها أو يستخلص منها العبر ولكن الكاتب هنا أيضاً يطلق لنفسه الحرية فيختار أن يتكلم عن آخر أيام أبيه ثم وفاته ، والأحداث هنا عادية ، ولكنها تكتسب من حب المؤلف لأبيه وحدبه عليه وتقديره له مذاقاً خاصاً وتترك فى القارىء أثراً قوياً .

نحن إذن مدينون للدكتور محمد أبو الغار بكتاب جميل، يجلب المتعة والفائدة، ويثير فى النفس مشاعر نبيلة، ويجعلنا نتطلع إلى المستقبل بأمل أكبر. ■

يهود العراق والاحتلال الأمريكي

بقلم
مصطفى نبيل

حـان الوقت لكى نفـتح ملف يهـود العراق..

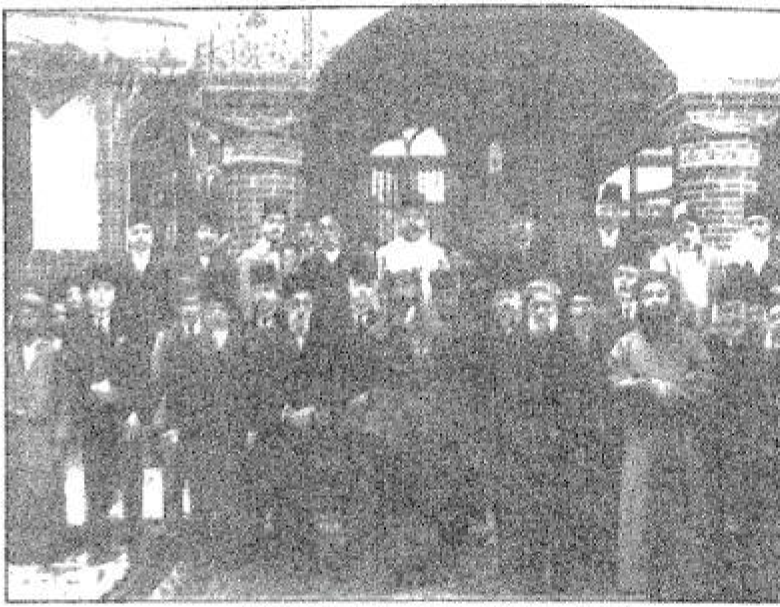
خـاصة بعد أن انهـمرت على سلطات الاحتلال الأمريكية طلبات يهود العراق من أجل زيارة العراق، أحيانا من أجل الحصول على تعويضات عن أملاكهم، وأحيانا، حنينا للمناطق التى ولدوا فيها.

وجاء زمن استرداد ثمن الدور الذى لعبه يهود العراق قبل وخلال غزو العراق، والذى كشفت بعض جوانبه وبقى الكثير منها فى طى الكتمان!

وبدأت - على الفور - المطالبة بإعادة تشغيل خط الأنابيب الموصل - حيفا والذى توقف سنة ١٩٤٨.

والسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح اليوم هو .. هل تبعث من جديد تلك المقايضة التى طرحت عام ١٩٤٩ بين بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل ونورى السعيد رجل العراق القوى؟!





الملك فيصل الأول فى زيارة للطائفة اليهودية - ١٩٢٤

وهو اللقاء الذى كشف عنه مؤخراً نعيم جيلادى اليهودى العراقى المقيم فى نيويورك، والذى كشف عن جانب من نشاط الحركة الصهيونية فى العراق، والذى يقول فيه.. "تم لقاء بين بن جوريون ونورى السعيد سنة ١٩٤٨ فى فيينا بترتيب خاص من السلطات البريطانية.

وطرح خلال هذا اللقاء طلب بن جوريون تسهيل هجرة اليهود العراقيين إلى إسرائيل، واستقبال العراق عدد من الفلسطينيين.. وأن ينقل يهود العراق بشاحنات عراقية عن طريق الأردن.

وكان رأى الإنجليز أن هذه مقايضة لم يحن أوانها بعد.

وبعدها أرسلت إسرائيل مردخاى بن بورات إلى بغداد، الذى وعد نورى السعيد بمساعدات مالية كبيرة، إذا صدر قانون يجرد اليهود العراقيين من الجنسية..".

وهو ما وقع بالفعل بعد ذلك عام ١٩٥٠، عندما شكل توفيق السويدى وزارته، وكان صالح جبر وزيرا للداخلية، وأصدرت الحكومة قانون إسقاط الجنسية عن اليهود الراغبين فى ترك العراق!

ويلقى الماضى الضوء على الحاضر والمستقبل.

ولم يبق اليوم من اليهود فى العراق سوى أعداد قليلة لا تتجاوز العشرات من كبار السن. رغم أن عدد يهود



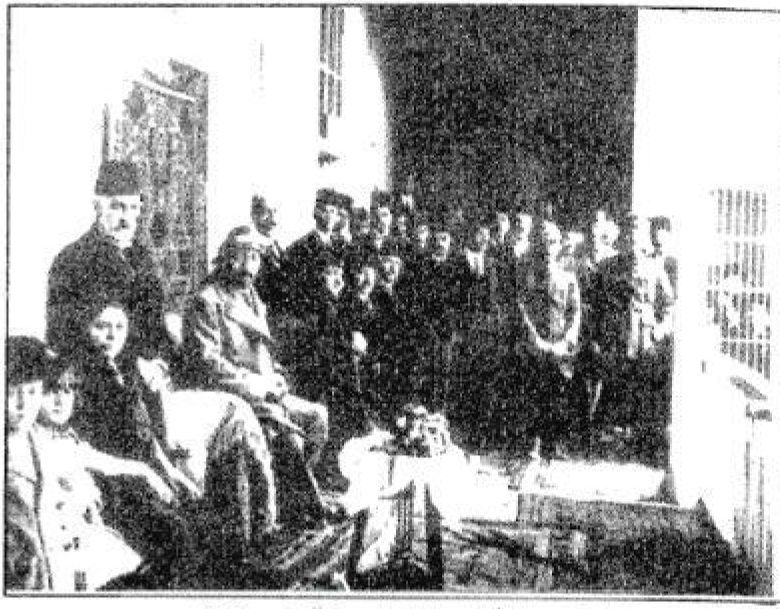
مجموعة من المدرسين فى مدرسة الاليانس التى اسستها جمعيه الاليانس الإسرائيليه الفرنسيه - ١٩٢٦

العراق، كان يأتى فى المرتبة الثانية من عدد اليهود العرب بعد يهود المغرب، وبلغ تعداد يهود العراق فى منتصف القرن الماضى ، أى بعد قيام إسرائيل نحو ١٢٠ ألف يهودى، وتراجعوا سنة ١٩٥٨ إلى ستة آلاف، ثم تناقصوا سنة ١٩٦٩ إلى ألفين وخمسمائة يهودى!

هذا غير اليهود الأكراد الذين بلغ عددهم ١٠٠ ألف (موسوعة اليهود واليهودية د. عبدالوهاب المسيرى)، وفى المقابل كان يهود البلاد العربية يشكلون أقلية صغيرة بالنسبة ليهود العالم، وأصبح اليهود العرب يشكلون أغلبية سكان إسرائيل.

نزهة المشتاق

وصدر كتاب قديم سنة ١٩٢٤ ، يستعرض أوضاع يهود العراق، كتبه يوسف رزق الله غنيمة، أحد المثقفين والوزراء السابقين ، وعنوانه «نزهة المشتاق، فى تاريخ يهود العراق»، يمكن أن يعتبر هذا الكتاب مدخل ملف يهود العراق، فالرجوع إلى ما جاء فيه يلقى الضوء على الكثير من الحقائق.. ولا ينال من موضوعية الكتاب أى مأخذ، فهو مسيحى عراقى، وقد أبرز خلال كتابه أن يهود العراق ليسوا مثل غيرهم من اليهود، فهم يعيشون على أرض العراق منذ العصر البابلى، أى منذ ٢٥٠٠ سنة وقبل ميلاد المسيح بستمائة سنة، ويعتبرون .. «العراق وطن أجدادهم



الملك فيصل الأول في زيارته لمدرسة الأليانس - ١٩٢٤

ومنشأ آبائهم ومهد لغتهم»، ولعبوا على الدوام أدواراً حيوية في المجالات المختلفة، ودليله على ذلك تولي ساسون حسقيل منصب وزير المالية، وإعلان الملك فيصل في لقاء مع ممثلي يهود العراق، المساواة بين العراقيين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم».

وهذا لا يعني بالطبع، أن أيامهم كلها كانت «لبنا وعسلا»، فأي تجمع بشري، يمر بأيام سعد وأيام ضيق.. ففي أيام الضيق أجبر غير المسلمين على ارتداء أزياء مميزة، فمثلا أجبر بعض الولاة النساء اليهوديات على ارتداء أحذية ألوانها مختلفة، إحداها سوداء والثانية بيضاء!.

وقد أصدر الفقهاء فتاوى يدينون فيها

التفرقة بين البشر..

ونعود إلى ما جاء في كتاب «نزهة المشتاق».. «تواصل دور يهود العراق من العصر البابلي إلى العصر العباسي، وفي العصر العباسي اشتهر من اليهود سعديا بن يوسف الفيومي، وهو من أصل مصري والمتوفى سنة ٩٤٢م ، والذي ترك خلفه العديد من المؤلفات القيمة، وعلى رأسها الترجمة العربية للعهد القديم، والتي سماها «تفسير» تواضعاً وتحاشيا لسوء الفهم، وتولى منصب الرئيس الروحي لليهود، وتحولت ترجمته إلى نص مقدس.

وأورد الكتاب عددا غفيرا من اليهود الذين لعبوا أدواراً هامة في مجالات مختلفة.

ومن أسباب رضاهم أن الشريعة الإسلامية لا تفرق بين اليهود والنصارى، لذا استمرت العراق مركزا للتشريع اليهودى سواء أيام بابل أو بغداد.

في العصر العثماني

أما أيام الدولة العثمانية، فيورد قول أحد اليهود هو إسحق زرفاتى الذى يبعث رسالة حول يهود العراق ويرسلها إلى يهود كل من ألمانيا والمجر، يدعوهم خلالها إلى القدوم إلى بلاده، ويصف ما يتمتع به اليهود من امتيازات.. «فى أرض الدولة العثمانية لا ينقصكم شىء» وإن شئتم وافتكم كل الأحوال وفق رغباتكم.. أفليس الأفضل لكم أن تسكنوا تحت حكم المسلمين، فهنا ترتدون أفخر الثياب، ويتمكن كل واحد منكم من الجلوس تحت كرمته أو شجرة تينه. أما هناك فلا تجسرون على إلباس أبنائكم اللون الأحمر أو اللون الأزرق!».

ظهر التسامح جليا أيام العثمانيين فى القرن السادس عشر، فسمحوا مثلا للاجئين اليهود الذين طردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢ بالعيش فى بلادهم، فكان وضع اليهود داخل المجتمع المسلم أحسن من وضعهم فى أوروبا القرون الوسطى.

ويذكر الرحالة «نيبور» خلال رحلته التى قام بها إلى العراق سنة ١٧٦٦.. «يكسب القوم (اليهود) معيشتهم بحرية تفوق الحرية التى يتمتعون بها فى أوروبا، التى يحظر عليهم فيها السير فى الطريق!».

ومن ولاة بغداد الذين يذكرهم اليهود بالخير الوالى مدحت باشا الذى نزل بغداد سنة ١٨٦٨م، وبث فيها روح المساواة والحرية والعدالة، وانتعشت أيام ولايته الحالة الاقتصادية.

ويمضى يوسف رزق الله قائلا.. «عندما بدأ مجلس المبعوثين فى الأستانة عمله عام ١٨٧٦، انتخب من يهود بغداد «مناحيم دانيال»، كما انتخب «ساسون أفندى» حاخام حسقيل لمجلس المبعوثين بعد إعلان المشروطية «الدستور»، وتجدد انتخابه فى دورات المجلس جميعها وحتى قيام الحرب العالمية الأولى.

وهو أول وزير مالية فى حكومة العراق، شغل الوزارة من ٢٠ حتى ١٩٢٥ مع انقطاع عام، واشترك فى وزارتى عبدالمحسن السعدون وعبدالرحمن النقيب.

عليا وعصام

ويكمل كتاب «نزهة المشتاق» مير بصرى الذى استعرض ما جرى ليهود العراق فيما تبقى من القرن العشرين، عندما ظل معظم يهود العراق بمنأى عن التهميش وتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار والرخاء الاقتصادى.

.. كل فرد من اليهود ينتمى بعربيته إلى السموأل اليهودى العربى، فقد ساهم اليهود فى نهضة العراق، فمثلا جلبت إحدى شركاتهم أول استوديو للإخراج السينمائى، التى أخرجت أول فيلم سينمائى فى العراق «عليا وعصام» سنة ١٩٤٨، كما أسس اليهود المصارف والتى كان فى طليعتها بنك زلخة الذى امتدت



الحاخام الياهو يهوشع عوبديا



ساسون حزقيل



مناحم دنيال

فـروعـه من العـراق إلى سـوريا ولبنان ومصر وباريس ونيويورك.

وعندما انتخب المجلس التأسيسى العراقى سنة ١٩٢٤، كان عدد ممثلى اليهود خمسة نواب، وفى سنة ١٩٤٦ زيد عدد النواب اليهود إلى ستة نواب، (٣ من بغداد و ٢ من البصرة و١ من الموصل) وانعكست هذه الفترة فى كتاب السير أرنولد ولسن «عـــواطف الولاد: بلاد الرافـدين»، وجـاء فيه.. «أنه حين علم بصدور وعد بلفور، دعى إلى مكتبه بعض وجهاء اليهود ليبشرهم بالخبر، لكنه لاحظ الوجوم على وجوههم، وقالوا: إن فلسطين مركز روحى لنا، ولكن وطننا هو العراق، وهى البلاد التى عشنا فى ربوعها آلاف السنين وعملنا فيها وتمتعنا بخيراتها..».

وأعلن يهود العراق دائما وفى مختلف المناسبات معارضتهم للحركة الصهيونية وتمسكهم وولاءهم للعراق.

وكان هناك وجود يهودى ملحوظ فى الحياة السياسية، وكذلك وجود فى الحزب الشيوعى العراقى كالصحفى اليهودى نعيم قطان ومراد العمارى، اللذين تبنيا موقفا معاديا للصهيونية، بل وأسسا منظمة «عصبة مكافحة الصهيونية»، كما طلبت الحركة الشيوعية العراقية استقالة أعضاء القيادة من اليهود عندما احتدم الصراع فى فلسطين.

ويقول د. عبد الوهاب المسيرى فى موسوعته.. «فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبعد احتلال بريطانيا العراق، أقامت الوكالة اليهودية جهاز مخابرات يتبعه قسم عربى، ويترأسه «موسى شاريت»، وبعدها قام الموساد عام ١٩٢٧ بتأسيس مركز تدريب يدرب يهود العراق على أعمال الجاسوسية».

وزرعت بذور الشقاق!

نعيم يتكلم

وكتب نعيم جيلاوى اليهودى العراقى مقالاً حول «يهود العراق»، وهو الذى أصدر كتاب «فضائح بن جوريون» وكيف أخرجت الموساد والهاجانا اليهود من ديارهم»، والذى اعترضت عليه الرقابة فى إسرائيل، ونشره على نفقته فى أمريكا، وهو يبلغ من العمر تسعة وستين عاماً، ويعترف أنه ارتكب أعمالاً فى صباه

عندما كان فى الثامنة عشرة من عمره ، اشترك مع الحركة الصهيونية فى أعمال عنف بهدف دفع يهود العراق إلى الرحيل، وهو يعتبر نفسه ينتمى إلى الثقافة العربية فهو عربى الثقافة ، يهودي الديانة، أمريكي الجنسية.. «فنحن اليهود القادمين من البلاد الإسلامية لم نغادر ديارنا نتيجة أى صورة من صور العداء للسامية، لذا أطالب الولايات المتحدة بوقف تأييدها للعنصرية فى إسرائيل ، والمتمثلة فى التفرقة بين اليهود والفلسطينيين ، وبين اليهود الاشكناز والسفارديم، ووقف تأييدها للاستيلاء على أراضى الغير..».

ويروى قصته أو قل اعترافاته.. وكيف ألقى القبض عليه خلال قيامه بتهريب اليهود من الحدود العراقية الإيرانية سنة ١٩٤٧، «رغم أنى كنت أعيش سعيداً مع عائلتى فى مدينة الحلة القريبة من مدينة بابليون، ورفضت عائلتى الحركة الصهيونية، وتمكنت من الهرب من سجون العراق فى سبتمبر ١٩٤٩، واستقر بى المقام فى إسرائيل ، حيث عانيت من العنصرية، وهناك اختفى الحلم الصهيونى أمام ضراوة العنصرية، وتبينت أن الاشكناز يعملون على تشجيع اليهود العرب على الهجرة إلى إسرائيل، حتى يوفروا لهم عمالة رخيصة.

ونجحت الحركة الصهيونية فى تهجير ١٢٥ ألف يهودى من العراق ، بين سنتى ١٩٤٠ و١٩٥٢، عن طريق ترويعهم ، وبقيت أسرتى ضمن ستة آلاف يهودى تمسكوا بالبقاء فى العراق.

وقادته تجاربه المريرة ومعاناته من العنصرية إلى الانضمام إلى حركة «الفهود السود» ، ثم يستعرض ما قامت به الصهيونية بجبر يهود العراق على الهجرة، ولا يكتفى بذكر أقوال مرسلة بل يقدم معلومة موثقة، وشهادة شهود عاشوا جانبا من هذه الأحداث.

ثورة الكيلانى

ويقدم تحقيقا موثقاً عن وقائع «المذبحة» التى وقعت لليهود فى منتصف سنة ١٩٤١ أثناء الحرب العالمية الثانية، مؤكداً أن السلطات البريطانية هى التى دبرت وحرضت عليها، واشترك فيها عدد من رجالها، حتى يصبح التوتر العنصرى ذريعة لتدخل القوات البريطانية بحجة فرض القانون والنظام.

ووقعت تلك المذبحة فى ظل صراع حاد بين السلطات الاستعمارية والحركة الوطنية، عقب قيام ثورة رشيد عالى الكيلانى سنة ١٩٤٠، وسقوط وزارة نورى السعيد.

وبدأت الاضطرابات بعد سقوط رشيد عالى الكيلانى وفراره إلى إيران، وحصل التمهيد لهذه الفتنة، من البصرة ثانى أكبر المدن العراقية، والتى كان يعيش بها ثلاثون ألف يهودى، عندما نشرت الصحف فى عناوين كبيرة على الصفحات الأولى، «يهود البصرة يستقبلون القوات البريطانية بالورود»! وعندما بدأ الشغب ، وأغار الغوغاء على أحياء اليهود ومحلاتهم ، ووقعت مذبحة استمرت يومين فى أول



المطرب محمد القبانجي يتوسط بعض الفنانين اليهود في مؤتمر الموسيقى الشرقية المنعقد في القاهرة - ١٩٣٢

يونيو سنة ١٩٤١.

هذه هي الوقائع التي يحققها ويعلق عليها نعيم جيلاوي ويقول.. «كانت العلاقات بين يهود العراق وبقية المجتمع العربي جيدة، واشترك عدد من اليهود في ثورة رشيد الكيلاني. فكيف انقلبت الصورة؟

ويستشهد بأقوال الصهيوني يوسف ماير، اليهودي العراقي الذي يعيش في إسرائيل، .. «بعد فشل ثورة رشيد الكيلاني، قامت السلطات البريطانية بإشعال الفتنة في بغداد، حتى تتدخل قوات الاحتلال..». ويعلق نعيم جيلاوي.. «إن أقوال ماير صحيحة، وتأكدت منها، عندما التقيت في الأربعينيات في إيران، بأحد الممرضين الذي كان يعمل في مستشفى في بغداد، خلال وقوع هذه الأحداث، وهو أرمني اسمه ميشيل توصسيان، والذي قال له، أثار اهتمامه اثنان من المصابين استقبلهما المستشفى، وكلاهما ادعى الصمم وعدم القدرة على الكلام، أحدهما أصيب بطلقة في كتفه والآخر في قدمه، ورفض كل منهما خلع ملابسه لإزالة آثار الدماء، وتبين أنه حول رقبة أحدهما أداة التعريف بشخصيته والتي تستخدمها القوات البريطانية، والثاني لديه وشم هندي على كتفه، أي أنه من القوات الهندية المصاحبة للقوات البريطانية، وأخرجهما من المستشفى في الصباح

الباكر لليوم التالي أحد الضباط البريطانيين.

ولا يكتفي بهذا الدليل على ما وقع ولكنه يستشهد بإحدى محاضرات دافيد كيمحي في لندن، عندما سئل عن المذابح التي ترتكبها القوات الإسرائيلية ضد المدنيين، استفزه السؤال فقام بتذكير الحضور بما قامت به القوات البريطانية في مذبحة بغداد سنة ١٩٤١.

ويضيف «إنه رجل يعرف الحقيقة، فقد عمل في المخابرات البريطانية ثم في الموساد وأخيراً مديراً لوزارة الخارجية الإسرائيلية..» لذا لم يعد لدى شك أن الطلقات التي أطلقت على اليهود عام ٤١ كانت مخططة من السلطات البريطانية بدوافع سياسية».

قنابل صهيونية

ويستعرض بعد ذلك أحداث ١٩ مارس سنة ١٩٥٠، عندما انفجرت القنابل في أماكن تجمع اليهود في بغداد. فانفجرت المتفجرات في المركز الثقافي الأمريكي والمكتبة الأمريكية، مما أدى إلى تدمير وإصابة عدد من المواطنين.

ويؤكد أن هذه العمليات كانت بتدبير المنظمات الصهيونية لحث اليهود على الهجرة، وهي وقائع تشبه وقائع فضيحة «لافون» في مصر، عندما سعى الموساد إلى تفجير بعض المراكز الأمريكية حتى يوقع بين حكومة الثورة في مصر والولايات المتحدة، وانفجرت المتفجرات في بغداد لدوافع سياسية أيضا.

وبعدها قامت سيارة في ٨ أبريل



يهوديات من بغداد يرتدين «الإزار» - ١٩٢٠

١٩٥٠ يقودها ثلاثة شبان، وألقت قنبلة على مقهى الدار البيضاء في بغداد، وهو المقهى الذي اعتاد اليهود اللقاء فيه، وأصيب أربعة منهم بإصابات خطيرة.

ويقول «آهارون بريجمان» في كتابه «تاريخ إسرائيل».. إن اليهود كانوا ينقلون من العراق إلى إسرائيل في عملية تسمى «عزرا ونحميا» والتي استمرت من مايو ١٩٥٠ حتى ديسمبر ١٩٥١.

واللافت للنظر قول السير فرانس همفرى السفير البريطاني في بغداد.. «يتمتع اليهود في العراق بامتيازات فريدة، تزيد عن أي أقلية أخرى في أي بلد آخر حتى تدخلت الصهيونية، بين العرب واليهود.

لذلك سارع الصهاينة بتوزيع منشورات في المعابد تحتوى على شعارات تسيء إلى العلاقات بين اليهود وباقي شعب العراق، مثل «لا تشتروا من المسلمين» ثم تحريضهم على الهجرة إلى إسرائيل.

وتتابع إلقاء المتفجرات وإطلاق الرصاص ومع تتابعها تزايدت هجرة اليهود إلى إسرائيل.

والملاحظة الجديرة بالتسجيل - ومازال الكلام للسيد نعيم جيلاوى - أنه خلال حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، لم يمس أى يهودى، ولم تكن هناك أحداث جديدة في سنتى ١٩٥٠ و١٩٥١ تثير الضغينة والمشاعر ضد يهود العراق.. والحقيقة المرعبة أن القنابل التى انفجرت، والمدافع التى أطلقت، كانت بأيد صهيونية.

وقد نشرت مجلة هحولام هازيه عام ١٩٦٦ مقالا بقلم يورى أفنيرى، اتهم فيه صراحة مردخاى بن بورات بالمسئولية عن انفجارات بغداد، ومازال يهود العراق يطلقون عليه «مراد أبو القنابل» ومراد هى مردخاى بالعبرى.

وتتوالى الأسرار، وأن الكثير من المعلن غير ما هو خفى، والظاهر ليس مثل الباطن، ويؤكد جيلاوى أن عبدالكريم قاسم بعد ثورة ١٩٥٨ ، أرسل وفدا عراقيا للاتفاق مع إسرائيل ، ويزعم أن بن جوريون رفض استقبال الوفد، لحرصه على استمرار التوتر بين العرب وإسرائيل لكى يخدم سياسته فى هذه الفترة.

وفى هذه المرحلة، رفعت ثورة ١٩٥٨ عن اليهود كل القيود، بل وألغى قانون إسقاط الجنسية.

ومن ناحية أخرى أصدر محسن الحكيم مرجع الشيعة الأعلى، ووالد محمد باقر الحكيم - فتوى بضرورة حسن معاملة اليهود ورفع أى ظلم عنهم.

وسمحت العراق لليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل بحق العودة .

ويختم نعيم جيلاوى مقاله بالقول.. «لقد سجلت تلك الحقائق التاريخية مع علمى أن الأسهل على العالم أن يقبل كذبة بسيطة على أن يقبل حقيقة مركبة، فأسهل على العالم أن يقبل ادعاءات الصهيونية بهجرة اليهود نتيجة العداء للسامية، وأن يقبلوا أن الإسرائيليين وليس العرب، هم طلاب السلام!

يهود أكراد

وبقى فى ملف يهود العراق، اليهود الأكراد، والذين تبين أنهم لاعبون أساسيون فى إثارة المسألة الكردية، والعاملون على إثارة الشقاق بين العرب والكرد، كما تبين أن «الموساد» المخابرات الإسرائيلية لها وجود ومحطة دائمة فى شمال العراق، وقامت هذه المحطة بدور كبير خلال الغزو الأمريكى للعراق، ويقف اليوم بين الستر والإعلان خاصة بعد الإعلان عن زيارة وفد من يهود الأكراد للعراق!

ويكشف الكاتب الأمريكى «جوناثان راندل» فى كتابه «أمة فى شقاق» * والذى يتناول فيه القضية الكردية، والذى

* هلال أكتوبر ١٩٩٨

يكشف خفايا دور اليهود الأكراد.. «قدمت إسرائيل مستعينة باليهود الأكراد الدعم والمساندة لأكراد العراق فى قتالهم مع حكومة بغداد، حتى تحول دون التفات بغداد للصراع العربى الإسرائيلى..» .. «هاجر معظم اليهود الأكراد الذين يبلغ تعدادهم نحو مائة ألف كردى إلى إسرائيل».

ومعروف أن إسحق مردخاى وزير الدفاع الأسبق من يهود الأكراد، فؤاد أو بن اليعازر وزير الدفاع الذى يليه ورئيس حزب العمل السابق من يهود العراق.

تقرير بايك

وينشر كتاب «أمة فى شقاق» ما يطلق عليه تقرير بايك السرى، الذى يصف تفاصيل التنسيق الذى تم بين السافاك والموساد فى شمال العراق، ويروى الكتاب على لسان دافيد كيمحى أحد رجال الموساد - والذى سبق ذكره - أنه «تم إطلاع كيسنجر على الجهود الإسرائيلية والإيرانية (أيام الشاه) لدعم مصطفى البرزانى وتشجيعه، وأن الشاه طلب من كل من «نيكسون» و«كيسنجر» إقامة صلة دائمة ووثيقة مع البرزانى.. وقام بالفعل خبراء إسرائيليون وأمريكيون بتدريب الأكراد فى معسكرات خاصة.

وزار البرزانى إسرائيل ، وأبلغ شيمون بيريز أن الأكراد مستعدون للعمل على الإطاحة بنظام البعث فى العراق.

والتقى البرزانى فى إسرائيل مع عدد من وزراء وجنرالات إسرائيل.

وهناك كتاب إسرائيلى آخر كتبه شلوم نكديمون وترجم للعربية فى عمان يرصد العلاقات بين البرزانى والموساد، وبه عدة لقطات للبرزانى مع كل من اليهودى الكردى دافيد حباى، ومع ليفى أشكول ومع موشى ديان.

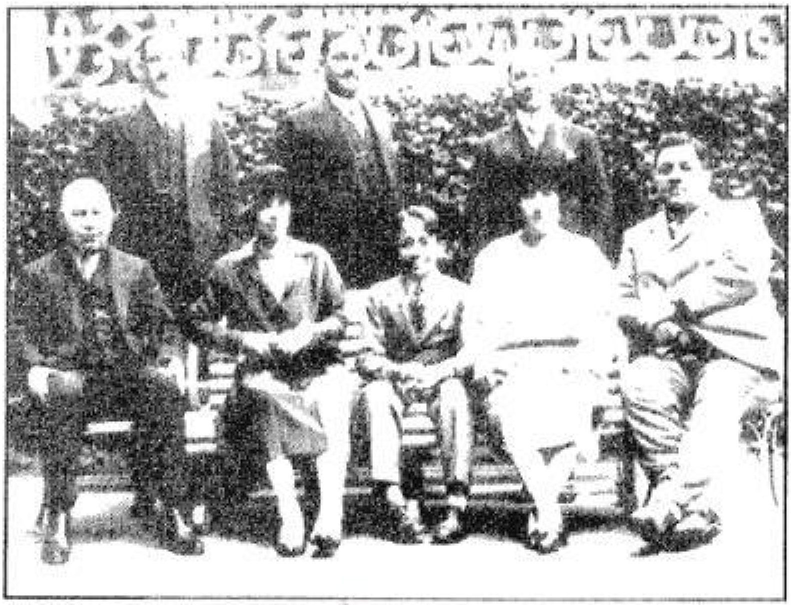
وأجاب البرزانى على تساؤل وفد النساء الفلسطينيات حول علاقاته بإسرائيل .. فقال : «أنا مثل الشحاذ الأعمى الواقف على باب الله، لا أعرف من الذى يضع فى يدى ما أحتاجه من النقود!».

ويبدو نجاح يهود الأكراد فى إقامة العلاقة مع قيادة أكراد العراق، فى مشهد الاحتفال الكبير بتأبين مصطفى البرزانى فى أبريل ٧٩، بوصفه حليف إسرائيل على مدى عقدين من الزمان، وحضر حفل التأبين إسحق رابين، ورؤساء الموساد وعدد من زعماء الأكراد، وعدد من ضباط الجيش الإسرائيلى الذين اشتركوا فى العمليات السرية فى شمال العراق!

وينقل الكاتب عن دافيد كيمحى قوله «تهدف إسرائيل من عدم تمكين الجيش العراقى فى الاشتراك فى أى صراع مقبل مع العرب»!!

الموساد

ويروى راندل حكايات مثل الروايات البوليسية عن تطور العلاقة بين الموساد والأكراد، نقلا عن حديث عميل الموساد «مناحيم نافون» حول بداية لقاء إبراهيم أحمد سكرتير حزب البارتى بالسفير الإسرائيلى والتر إيتان، وعندما قرأت جولدا مائير فحوى اللقاء أصدرت تعليماتها بإقامة علاقات وثيقة ودائمة مع



الأمير غازى ولى عهد العراق فى لندن - ١٩٢٦

الأكراد، وعاد أحمد يحمل عشرين ألف دولار قدمتها له الموساد وتبعته أول شحنة من الأسلحة الإسرائيلية مقدمة من إسرائيل إلى حزب البارتى، وتوالت بعد ذلك أوجه التعاون فى مختلف المجالات وتكررت زيارة المسئولين الإسرائيليين للشمال، ومن ناحية أخرى ساهم الموساد فى إنشاء جهاز المخابرات الكردية الذى يحمل اسم «بارا ستين».

وعادت العلاقات بين الموساد والأكراد بنفع كبير على إسرائيل، ففى ١٥ أغسطس ١٩٦٦ ساعد الأكراد الموساد على تهريب طيار عراقى هو منير روفا بطائرته الميج ٢١ إلى إسرائيل، وهى أول طائرة سوفييتية تخضع لبحث الولايات المتحدة، كما أسهم الأكراد فى تهريب ما تبقى من يهود العراق!

وهنا ليس من الممكن تجنب السؤال التالى، لماذا تغلبت اليهودية على القومية الكردية، وهاجر اليهود الأكراد إلى إسرائيل..؟ ولم تتغلب الديانة على القومية، ويقبل الأكراد العيش فى سلام مع أبناء دينهم فى العراق؟!

وبعد..

ماذا سنفعل عندما تبدأ إسرائيل فى ترحيل عدد من الفلسطينيين إلى العراق الخاضع للسيطرة الأمريكية؟!

وهل كتب علينا أن نعيش فى مرحلة تقضم خلالها حقوقنا قضمة بعد قضمة؟! ■

دور مصر
في حفظ الذاكرة العربية

بقلم
د. يوسف زيدان

فى مقالنا السابق، كان حديثنا ذا شجون وآفاق حزينة، إذ استدعت مقالنا (سقوط بغداد) وقائع متماثلة لما تمر به هذه الأمة التى فقدت - وسط الأنواء - بوصلتها .. ولم تكن غايتنا نبش الأحزان، وإنما أردنا توجيه الأنظار إلى تلك (البنيات) المتماثلة فى تاريخ هذه الأمة، المتماثلة على نحو عجيب مشعر بتطابق لحظتين بينهما قرابة ثمانية قرون ممتدة من سقوط بغداد (الأول) بيد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨ ميلادية) وسقوطها (الأخير) الذى أكتوينا جميعاً بناره ولهيبه.

وما هذه المقالة إلا امتداد يستبصر امتداد اللحظة التاريخية التى أعقبت السقوط الأول لبغداد .. وهاكم طرف مما جرى.

مدير المخطوطات والإهداءات بمكتبة الاسكندرية

في النصف الأول من القرن العشرين، كتب المستشرق الألماني الشهير ماكس مايرهوف، الذي كان يعيش بمصر منذ مطلع هذا القرن (توفي سنة ١٩٤٥) مقالة بديعة، تعد مثالاً نموذجياً للكتابات الاستشراقية: العميقة، المكثفة، الرائدة.. التي لاتخلو من غرض خفي! وطارت المقالة في الآفاق، وحذا حذوها كثيرون من الدارسين العرب والأجانب، وأسهبوا في تفصيلاتها.

كان عنوان المقالة (من الإسكندرية إلى بغداد) وكان موضوعها، انتقال التعليم الطبي - والعلمي بوجه عام - من الإسكندرية القديمة، حيث تمركزت خلاصة الحضارة اليونانية؛ إلى بغداد عاصمة الحضارة العربية الإسلامية في الفترة الممتدة منذ تأسيسها سنة ١٤٦ هجرية حتى سقوطها سنة ٦٥٦ هجرية. ومن الإسكندرية إلى بغداد، مروراً ببعض مدن الشام! كان الانتقال المؤكد أثر الحضارة اليونانية في التراث العربي الإسلامي، وهو أثر لم ينكره العرب المسلمون يوماً، سواء في الطب أو في غيره من العلوم؛ ففي المجالات الطبية والصيدلانية، ظل علماؤنا عبر القرون، يشهدون بفضل أبقراط وجالينوس، ولا يذكرون اسم أحدهما إلا مسبوقاً بلقب (الفاضل) .. كما عرفوا فضل المتأخرين من أهل الحضارة اليونانية، من أمثال ديسقوريدس العشاب الشهير، وعكفوا على كتابة (الحشائش) بالدرس والشرح والتحشية. وفي غير الطب، طالما اعترف العلماء العرب بفضل فلاسفة وعلماء اليونان، وتناولوا تراثهم بالشروح والتحريرات والتنقيحات، حتى إن كثيراً من النصوص اليونانية القديمة، لم تعرفها أوروبا الحديثة، إلا من خلال ترجماتها وشروحها العربية.

وهكذا صار الكلام عن الأثر اليوناني في حضارتنا، مشهوراً؛ خاصة أنه لم يكن منكوراً عند أجدادنا.. أما المنكور المستور، اليوم، فهو أمران الأول منهما: الأثر الكبير للحضارة العربية الإسلامية في أوروبا إبان عصر نهضتها الحديثة .. والأمر الثاني، هو الدور الذي قامت به مصر في الحفاظ على التراث العربي الإسلامي، من بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجرية؛ ولعدة قرون تالية.

ولما كان الكلام عن الأثر العربي الإسلامي في أوروبا، له تفصيل يطول، وليس هذا بموضعه.. فسوف نقتصر فيما يلي على تبيان النقطة الأخرى، الأكثر استتاراً وغموضاً لدى معاصرينا؛ أعني دور القاهرة المملوكية في استلام مشعل الحضارة من بغداد عقيب انهيار الخلافة العباسية، وهو ما كان مقدمة لانتقال تراثنا - بعد ذلك - إلى أوروبا، عبر معابير حضارية نشطت في الترجمة العربية إلى اللاتينية: باليرمو، صقلية، قرطبة .. وغيرها. فنقول وعلى الله قصد السبيل:

من بغداد والأندلس إلى القاهرة

لما اهتز كرسي الخلافة العباسية تحت وطأة الشيخوخة العباسية، ومؤامرات القصور وتهديدات المغول .. بدأت المجالس العلمية تتسرب من بغداد،

إلى الشام ومصر .. كان ذلك منذ مطلع القرن السابع الهجرى، حتى كان اليوم المشئوم فى منتصف هذا القرن - أعنى سنة ٦٥٦ هجرية - الذى دخل فيه هولاكو بغداد . فطمس وجهها على نحو لم يسمح لها باستعادة دورها من بعد ذلك قط.

وعلى الطرف الآخر من العالم الإسلامى (الطرف المغربى) آذنت شمس الأندلس بالمغيب، مع عصر ملوك الطوائف الذين حكموا بقاع الدولة الإسلامية هناك، واقتتلوا فيما بينهم طمعاً فى وراثة الدولة الأموية المتشظية .. وامتد نزاعهم حتى كاد يذهب بريحهم وريح المسلمين فى الأندلس، لولا أن عبر إليهم سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين من ساحل المغرب سنة ٤٧٩ هجرية - ١٠٨٦ ميلادية) وأحيا الوجود الإسلامى من جديد، وأقام دولته التى ورثها بعد ضعف المرابطين ملوك الموحدين الذين تغلبوا على المرابطين فى عدة مواقع عسكرية بمدن الساحل الأفريقى (من سنة ١١٥٢ إلى سنة ١١٦٠ ميلادية) ثم عبروا إلى الأندلس وورثوا دولة الإسلام هناك ، بعد انتصارهم على هلال ألفونسو الثامن فى موقعة الأرك، سنة (٥٩١ هجرية - ١١٩٥ ميلادية).

وهكذا توالت دول الإسلام على حكم بقاع الأندلس، حتى أفلت شمس العرب المسلمين هناك، وضعف الحكام وتفرقت بهم السبل .. وما أن تزوج الملك فرديناند الخامس بالملكة إيزابيلا واتحدا ضد المسلمين، حتى أخرجوا العرب من الأندلس، وكان خروج الإسلام من هناك خاتمة قرون بوقائع الزمان ، وجدلية النصر والهزيمة . ففى سنة ١٤٩٢ ميلادية، سقطت غرناطة - آخر معقل للمسلمين - فى يد فرناندو ملك قشتالة (وإيزابيلا)، بعدما تخلف المماليك فى مصر والعثمانيون فى البلقان والحفصيون فى تونس، عن إغاثة غرناطة .. وسدوا آذانهم عن استغاثاتها الأخيرة ... وخرج آخر الحكام المسلمين (أبو عبد الله الصغير) من آخر مدينة مسلمة فى الأندلس (غرناطة) سنة ٨٩٧ هجرية - ١٤٩٢ ميلادية .. عند صخرة مشرفة على غرناطة، وبكى طويلاً .. ثم مضى بعدما تنهد تلك التنهيدة الحرى التى عرفت فى التاريخ باسم : زفرة العربى الأخيرة.

الأفق القاهري

على النحو السابق ، كان الاضطراب - والدمار المتوالى - يلف مشرق العالم الإسلامى ومغاربه، ولم تعد هناك بقعة آمنة إلا ديار مصر، خاصة بعدما نجح المصريون فى سد التقدم المغولى وتوالى على حكم البلاد جماعة من المماليك الذين حرصوا على بيان (مشروعية) سلطاتهم، برعاية الدين والعلوم وعمارة المساجد ودور العلم.

فى العقود الأخيرة من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وجدت القاهرة نفسها وحدة، وسط عالم يرتج؛ فالمشرق الإسلامى - بلاد فارس وما بعدها - لايزال يترنح من الضربات المغولية طيلة خمسين سنة ابتدأت بخروج جنكيزخان للثأر من محمد خوارزمشاه، وانتهت بتأسيس الدولة الإسلامية المغولية على يد بركة خان - حفيد جنكيزخان، زعيم القبيلة الذهبية - بعد انكسار هولاكو على يديه .. والمغرب الإسلامى انزوى، وصار منطقة طرد حضارى واجتماعى، وفزع منه الناس إلى مصر والشام، مثلما التجأ العلماء والصوفية؛ أمثال: ابن عربى، التلمسانى، الششترى، الشاذلى، المرسى. ومن قبلهم - من العلماء - موسى بن ميمون الطبيب الفيلسوف ابن البيطار العشاب المعروف؛ وغيرهما.

وكان على مصر أن تقوم بدور كبير لإنقاذ الكيان الحضارى العربى/الإسلامى، فكما تعين عليها عسكريا، صد فلول المغول وجحافل الصليبيين، وكما تعين عليها سياسياً، إحياء الخلافة الإسلامية (ولو كان إحياء رمزياً) وكما تعين عليها اجتماعياً واقتصادياً، أن تستوعب الهجرات الوافدة عليها من المغرب، ومن العراق والشام.. تعين عليها حضارياً، أن تقوم بدور كبير فى حفظ الحضارة العربية الآيلة للاندثار مع دمار الممالك الإسلامية ومراكز التحضر.

أدت مصر ما عليها فى ذلك كله، حتى دخل القرن الثامن الهجرى، وقد استتب الحال فى مصر، وصارت القاهرة - أنذاك - أهم مركز حضارى فى العالم الإسلامى، وأكثر العواصم العربية أمناً وازدهاراً .. حتى إن ابن خلدون، كتب فى أواخر القرن الثامن الهجرى، قائلاً إن من أراد أن يرى (عز الإسلام) فليذهب إلى القاهرة.

كانت ذاكر الأمة قد هددها الاندثار، فقد ضاعت ألوف المخطوطات - كتاب الحضارة - فى المشرق والمغرب، وكان المغول والصليبيون - كلاهما يحرصون على طمس التراث العربى/ الإسلامى بالتخريب وإفناء المخطوطات، وقد اشتهرت فى التاريخ واقعة إفراغ هولاكو لمخطوطات بغداد فى نهر دجلة، لغسل ما دونته الأمة، ومحو ما خلفته القرون.

حفظ الذاكرة

من هنا، كان على مصر أن تقوم بدور كبير لحفظ ذاكرة الأمة، وإنقاذ هويتها من الانطماس. فبدأ علماء مصر، من بعد سقوط بغداد، فى تدوين المطولات والكتب الضخمة والموسوعات - فى مجالات العلم - مع أن كتابات المصريين كانت دوماً، على هيئة كتب صغار، ورسائل، ومساجلات علمية. لكن الحال تغير مع جهود علماء من أمثال علاء الدين القرشى (ابن النفيس) الذى وضع مايقرب من عشرة شروح على موسوعة ابن سينا (القانون فى الطب) بغية إعادة بعثها مرة أخرى إلى أذهان المشتغلين بالطب، حتى إن ابن فضل الله العمرى، فى ترجمته لابن النفيس

بكتابه (مسالك الأبصار) يقول عنه : هو الذى جسر الناس على قانون ابن سينا.

ومن بعد بعثه للقانون، يعكف العلاء (ابن النفيس) على تدوين أكبر موسوعة علمية فى التاريخ الإنسانى، يكتبها شخص واحد: الشامل فى الصناعة الطبية. فيضع المسودات بحيث يأتى (الشامل) فى ثلاثمائة مجلد، بيّض منها ثمانين؛ ثم وافته المنية - عن ثمانين سنة - سنة ٦٨٠ هجرية بالقاهرة، وأهدى المجلدات الثمانين، بل كل مكتبته وداره وأمواله، إلى البيمارستان المنصورى بالقاهرة - مستشفى قلاوون حالياً - الذى كان مشرفاً عليه، بحكم أنه أكبر مستشفيات القاهرة آنذاك ، ومحل عمل رئيس أطباء مصر.. وهو المنصب الذى شغله العلاء (ابن النفيس) حتى وفاته فى السنة المذكورة.

وقريب من هذا (النمط) من الكتابة الموسوعية الحافظة للذاكرة ، وفي مجال آخر غير الطب: سوف يضع ابن فضل الله العمرى - المتوفى ٧٤٩ هجرية - موسوعته التاريخية (مسالك الأبصار) فيؤرخ لكل شيء : الملوك، العلماء، الوقائع؛ ويتحدث عن كل شيء: الأقاليم، النبات، الحيوان.. إلخ. وقد كان ابن فضل الله من أصل شامي، ثم توطن فى مصر وارتبط بها بقية عمره، حتى إن الناصر محمد بن قلاوون، لما أراد أن يعاقبه، نفاه إلى الشام .. ولما رضى عنه، بعد حين: أعاده إلى القاهرة!

وفى القرن الثامن الهجرى، فى القاهرة؛ يكتب شهاب الدين النويرى - المتوفى ٧٧٢ هجرية - موسوعته الأدبية الضخمة : نهاية الارب فى فنون الأدب. فيقع الكتاب فى ثلاثين مجلداً تشتمل على خمسة فنون، الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمسالم السفلية، والثانى : فى التاريخ .. وقد لخص النويرى فى كتابه، كتباً متوناً من التراث السابق عليه، منها : إحياء علوم الدين، اللمعة النورانية، الملل والنحل، فقه اللغة، نزهة المشتاق فى افتراق الآفاق، القصيدة العبدونية - قصيدة ابن عبدون فى التاريخ - وشرحها لابن بدرون، مباهج العبر .. بالإضافة إلى ديوان الحماسة لأبى تمام، ودواوين الشعراء: المتنبى، البحترى، البستى، وغيرهم.

وفى القرن الثامن الهجرى، عاش فى القاهرة - وكتب - واحد من أغزر المؤلفين فى تاريخ الإسلام : ابن حجر العسقلانى، وكلنا نعرف ضخامة - وأهمية - مؤلفاته فى التاريخ وعلوم الدين ، وقد كانت لأعماله أصداء واسعة فى أرجاء الأرض. وقد حكى لنا المقريزى، أنه حين انتهى ابن حجر من (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) عمل حفل خارج سور القاهرة، أنفقت فيه على الذبائح وحدها خمسمائة دينار! ويوم الحفل وصلت وفود من ملوك الأرض، تطلب نسخاً من الكتاب.

ولم يقف هذا الدور المصـــــرى، التدوينى، الحافظ للذاكرة؛ عند حدود القرن الثامن الهجرى، فقد تعداه إلى القرن التاسع الهجرى، الذى عاش فيه بمصر، مؤلف من أغزر المؤلفين مادة - فى التاريخ الإنسانى - كله - أعنى به: جلال الدين السيوطى، المتوفى ٩١١ هجرية، ذلك الرجل كتب فى علوم اللغة (المزهر) وفى علوم الدين (جمع الجوامع) وفى التاريخ (حسن المحاضرة).. وكلها مجلدات كبار، وله مؤلفات صغار الحجم، جاءت على شكل رسائل حافظة للملامح الثقافية فى تفصيلاتها، فكتب : منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف، در الغمامة فى الطيلسان والعمامة، الدوران الفلكى على ابن الكركى .. ولم يخرج، وهو العالم الجليل ، عن كتابه أعمال عنوانها: الوشاح فى فوائد النكاح، الجواهر الثمينة فى فضائل السمينة، نواضر الأيك فى نوادر (...)!

وهكذا كان السيوطى حلقة من حلقات المشروع المصرى لحفظ ذاكرة الأمة وتدوين ثقافتها - فى أجل الصفات وأدق التفصيلات - وهو مانجح علماء مصر فى تحقيقه، بجهود تأليفية جبارة ، لولاها لكان تراثنا قد انطمس.

والعجيب فى الأمر، أن مصر لم تتخل عن دورها الحافظ، حتى فى زمن التراجع الحضارى. فما كادت تفيق من دخولها تحت سلطان العثمانين، حتى استعادت دورها القديم - الذى لم تقم به الأستانة : عاصمة الخلافة الجديدة - وبدأ العلماء المصريون من القرن الحادى عشر الهجرى فى استكمال دورهم الحافظ، عبر جهود نخبة من أمثال عبد القادر البغدادى (المتوفى ١٠٩٣ هجرية) صاحب : خزانة الأدب، والشيخ أحمد الدمنهورى (المتوفى ١١٩٢ هجرية) صاحب الثلاثين كتاباً فى اللغة والدين والطب والطبيعيات - وهو شيخ الأزهر! - والإمام محمد مرتضى الزبيدى (المتوفى ١٢٠٥ هجرية) صاحب : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (عشرة مجلدات) تاج العروس من جواهر القاموس.

ثم تبدأ مصر مرحلة جديدة فى مسيرتها الحافظة لتراث الأمة، مع ابتداء مطبعة بولاق - الرائدة سنة ١٨٢١ (ميلادية) ثم افتتاح الكتبخانة الخديوية المعروفة اليوم بدار الكتب المصرية.

وبالطبع ، فما تلك إلا محض إشارات للدور المصرى الباهر، فى حمل (الأمانة) التراثية عبر قرون ممتدة من سقوط بغداد (الأول) إلى عصرنا الحالى. وما من شك فى أن هناك تفصيلات لاحصر لها ، تحت تلك (الإشارات) الموجزة؛ غير أن المقام لايتسع لذلك هنا، ولا يسمح الزمان إلا بإشارة أخيرة، أو بالأحرى (أمنية) مفادها : هل ستقدر مصر اليوم، على القيام بدورها التاريخى الذى (قدرت) عليه قبلا حين (قدر) عليها؟

٦٥ عاماً على

سُفور

أول طالبة فى بغداد

بقلم

د. عدنان الرشيد*

تمر هذه الأيام ذكرى مرور ٦٥ عاماً على سفور أول طالبة فى كلية الحقوق فى بغداد ، وكان ذلك فى عام ١٩٣٤ عندما خلعت الطالبة (صبيحة الشيخ داود) العباءة ودخلت الكلية فانبهر الطلاب من هذا المشهد الذى لم يألفوه .

وتعود هذه الحركة الحضارية إلى أوائل العشرينات عندما ناشد الشاعر معروف الرصافى فى قصائده المرأة بضرورة خلع العباءة (يطلق عليها العراقيون العباية) لأنها دخيلة علينا كما ناشد الشاعر الزهاوى المرأة بضرورة خلع العباءة .

وقد بدأت هذه الظاهرة الحضارية تبرز على سطح المجتمع البغدادى عام ١٩٢٢ عندما أصدرت فتاة مسيحية اسمها (يوليانا حسون) أول مجلة نسائية وكانت هذه البادرة قفزة نوعية فى مسيرة تحرر المرأة من عبودية الجهل والتخلف ، وكانت المرأة البغدادية تلبسها أمها فى ليلة الزواج ستة لبسات لكى تثبت أن ابنتها فى حرز حريز ويصعب

* اكاديمى وكاتب عراقى



الملك فيصل الأول



محمد مهدى الجواهرى



معروف الرصافى

على الرجل أن ينالها بسهولة .... كان ذلك فى العشرينات من القرن الماضى ..

كما أسست شقيقة الشاعر الزهاوى واسمها (أسماء الزهاوى) أول ناد نسائى أطلقت عليه نادى النهضة النسائى وكان من إفرازات هذه الحركة النسائية ظهور الطالبة «صبيحة الشيخ داود» فى كلية الحقوق فى بغداد عام ١٩٣٤ .

فقد دخلت قاعة المحاضرات وهى سافرة حيث أحدث منظرها ضجة ولغطا بين أوساط الطلبة الذين كانوا يضعون على رءوسهم الفيصلية (نسبة إلى الملك فيصل) وهى عبارة عن سدارة سوداء كانت تصنع فى إيطاليا وكان الهدف من ذلك تعويد العراقيين على التخلى عن الجراوية والكشيدة وراح الطلبة يرسمون الطالبة صبيحة الشيخ على السبورة ويلوكون سمعتها ولكن والدها سلمان الشيخ داود شجعها على المضى ، وبدأ الطلاب يتقبلون هذه الثورة الجديدة وتبعتها فتاة أخرى هى خالدة الرحال وشيئاً فشيئاً أدركت النساء البغداديات المغزى الحضارى من السفور .

المرأة فى العصر العباسى

وإذا رجعنا إلى عهود التاريخ العراقى القديم وجدنا أن مكانة المرأة لم تكن سيئة لاسيما فى العصر العباسى إذ لم يكن الحجاب الحالى معروفا فقد كانت المرأة المصونة تشد حول خصرها وشاحاً أسود لكى تتميز به عن الجارية ثم تطور ذلك أثناء غزوات الفرس للعراق من ١٥٠٨ و١٧٤٩ وحتى سقوط مملكة بابل على يد قورش الفارسى عام ٥٣٨ (قبل الميلاد) وحتى مجىء الإسلام عام ٦٣٨ ميلادية (١٧) هجرية وكان عاملا من عوامل التحرر .

فى العهد العثمانى

وفى عهد الحكم التركى المتخلف كانت المرأة تعانى المهانة والإذلال بعد أن شوه

العثمانيون المغزى الإنساني والتقدمي للدين الإسلامي فكان الجندرمة الاتراك في بغداد يفرضون على المرأة أن تتلفح بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وإذا ماظهر جزء يسير من ثوبها من تحت العباءة ، فإن الجندرمة الاتراك يضعونها فوق ظهر الحمار بالمعكوس ويهتف الناس حولها «متبرجة .. متبرجة» .. ثم يرمونها بالحجارة وقشور الفاكهة لإهانتها .

في الحضارة الآشورية والبابلية

وكانت للمرأة مكانة عالية في حضارة العراق الآشورية والبابلية إذ لم تعرف الحجاب الحالي فقد كانت «المرأة سيئة السمعة» تغطي وجهها ببرقع أسود لتميزها عن المرأة الحرة ولكي لايتعرف عليها الرجال ويتحرشون بها ..

وعندما كانت المرأة البابلية تشعر أن زوجها أخذ يشعر بالملل منها تذهب إلى سوق الجواري وتشتري له جارية وتتركها له في الطابق الأسفل وتذهب هي إلى الطابق الأعلى لتنام لأن بيوت البابليين كانت تتألف من طابقين .

أسباب اضطهاد المرأة

وعقب تدفق المد البدوي على أرض العراق انتشرت المفاهيم المتخلفة عن المرأة ولايزال سكان الجنوب في العراق يقولون عن المرأة (حشي قدرك مرة) أي حاشى أن تصل إلى مقامك المرأة ..

غريب جداً أن يفكر الرجل البدوي بهذا الأسلوب الساذج رغم أنه خرج إلى الدنيا من بطن المرأة ..

ويبدو لي أن سبب تخلف العرب يعود إلى تخلف اللغة العربية فكلمة مهنة مشتقة من مهانة (إذلال) وكلمة ثقافة مشتقة من ثقاف وهي آلة لتعديل السهم المعوج في حين كلمة ثقافة في اللغة اللاتينية مشتقة من كلمة (كولتونس) وتعني حقلاً زراعياً مليئاً بالخضار وانتقلت إلى اللغات الأوروبية وأصبحت تسمى كلشر وفي الألمانية (كولتور) وفي الفرنسية واليونانية الشيء نفسه وكلمة امرأة مشتقة في العربية من (مرارة) وكلمة نساء مشتقة من (النسيان) وهكذا فإن الاشتقاقات في اللغة هي التي تحدد معاني الكلمات .

وكانت المرأة في العهدين الآشوري والبابلي تملك حقوقاً كبيرة وكان الرجل يدفع مبلغاً كبيراً في حالة طلاق زوجته ولا تقل هذه الحقوق عن حقوق المرأة اليوم في المجتمعات المتقدمة باستثناء سويسرا التي ظل دستورها حتى نهاية الخمسينيات يحمل النص الذي جاء به دستور (١٧٥٠) والذي ينص «على أن المرأة واللص صنوان» .

وقد أرادت الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل الخمسينيات أن تسخر من سويسرا فعينت إمرأة سفيرة لها في جنيف الأمر الذي جعل سويسرا تغير دستورها وتمنح المرأة السويسرية جميع الحقوق .

في عهد الملك فيصل الأول

وقد كانت للملك فيصل الأول ملك

العراق مواقف حضارية جيدة فى هذا المضمار فأثناء زيارته لمدينة النجف الاشرف عام ١٩٢٥ طلب من المسئولين تأسيس مدرسة لتعليم البنات ولكن مظاهرات واحتجاجات المتزمتين أفشلت المشروع وكان الملك فيصل ذا عقلية حضارية بمقاييس ذلك الزمان فقد طلب من الشاعر الكبير (محمد مهدى الجواهرى) خلع (الجبة) و(العمامة) وارتداء الزى الأوروبى وعندما رأى الملك فيصل الأول أن الجواهرى التزم بالنصيحة طلب من خياطه الخاص أن يخيط له خمس بدلات على حسابه تشجيعاً لخطوة الجواهرى ... وكان الجواهرى يعمل عام ١٩٢٨ فى البلاط الملكى .

وقد أساء العثمانيون للمرأة كثيراً وكانت تصرفاتهم تتناقض مع مبادىء الدين الإسلامى ، فقد كان منصب الوالى التركى يباع فى المزاد العلنى فى اسطنبول وعندما يتسلم منصبه فى بغداد يحاول أن يسترجع مادفعه للسلطان من رشوة وعندما كان هذا الوالى يصلى بالمسلمين يوم الجمعة يسقط أرضا من شدة السكر فيهرع حراسه إليه ويحملونه وهم يهتفون .. «الله أكبر سقط الوالى من خشية الله .....» ..

ومن هنا ندرك السر فى تخلف المرأة ، بل والمجتمع بأسره لأن النساء يشكلن فى مجتمعاتنا العربية نصف سكانه .

وفى أواخر الحكم العثمانى فى العراق أى فى عام ١٩١٤ صدرت فتوى «الاصابة فى منع النساء من الكتابة ....» ..

ومن السخرية أن رئيس الوزراء فى العراق عام ١٩٢٥ يحذر النساء من خلع العباءة وهن فى داره من أن يراهن الطيار ؟!

أول مدرسة لتعليم البنات

وفى أوائل العشرينيات من القرن العشرين تأسست أول مدرسة لتعليم البنات وكانت تقع قرب جامع سوق الغزل (يقع حالياً فى شارع الجمهورية) ، وكانت غرفة الدراسة عالية بحيث يتعذر على المارين من أمام المدرسة رؤية الطالبات من النوافذ .. ولعلنا فى هذا المقام نذكر دور الفتيات المسيحيات واليهوديات فى إحياء حركة السفور فى بغداد وقد برزت نساء شديدن البنات الأولى للحركة النسوية فى العراق ولكن متأثرات بصبيحة الشيخ داود منهن فطينة النائب وسليمة الملائكة وخالدة الرحال وراشيل ساسون وايفين سمحيرى وغيرهن .

لقد انعكس الصراع بين القديم والجديد فى الأغانى العراقية حينذاك فنرى المطربة سليمة مراد تغنى فى الثلاثينات أغنية تقول فيها «لبنية بنت البيت كصت شعرها على المودة تمشى دلوع عافت سترها .....» .

لقد كان قص الشعر الطويل يعد عيباً

فى مفاهيم الناس .

ومما يثير الدهشة فى أخلاق الرجال حينذاك أنهم يعارضون المساواة والتحرر الاجتماعى للمرأة ، لكنهم كانوا يمضون شطرا من الليالى فى مواخير الفساد والملاهى الليلية وعندما تحين عودتهم إلى البيت وقد تعتهم السكر يطالبون بناتهن بضرورة ستر سيقانهن وصدورهن فترى بوضوح ازدواجية الرجل الشرقى فى العشرينات والثلاثينات وترجع هذه المفاهيم إلى أيام الحكم التركى الذى استمر من عام ١٥٣٤ وحتى عام ١٩١٧ عند دخول الانجليز وكان هذا الحكم عاملا من عوامل التحرر فعرف العراقيون الصحافة الحرة والبرلمان والمظاهرات وتنظيم الأحزاب وحرية الرأى والفكر . وقد ادركت المرأة العراقية المغزى الايجابى للسفور فإذا كنت المرأة سمينة تلجأ إلى نظام (الجيم) لتصبح رشيقة ووجدت المرأة العراقية فى السفور مزية صحية فإن الرجال يرمقونها بإعجاب أيضاً .

المد البدوى

إن أغلب المفاهيم عن المرأة وصلت إلينا مع المد البدوى فرسخت فى أذهان الناس رسوخ الراحتين فى الأصابع (على مايقول قيس بن ذريح) ولكن تيار الحضارة اليوم بدأ يجرف أمامه الأفكار القديمة لتحل محلها المفاهيم الجديدة وما كان مستحيلاً قبل (٧٠) عاماً اضحى اليوم مقبولا عند الناس ، بل جزءاً من تفكيرهم الناضج وأصبحت المرأة العربية تتمتع بحقوق كثيرة وتقود سيارة شحن (اللورى) وتقود التاكسى فى بعض دول الخليج وأصبحت بوليس مرور . المرأة كانت تقيم فى سوق عكاظ المطارحات الشعرية وتحارب مع الرجال وتضمد جراحهم ولم يكن الحجاب معروفاً ومن هذا الواقع انطلقت صيحات رائدات الحركة النسائية لأن المجتمعات الحالية تغير تركيبها الاقتصادى والاجتماعى فما كان موجوداً قبل (١٤٠٠) سنة اختلف الآن وقال النبى صلى الله عليه وسلم للأعراب الذين كانوا يكثرون السؤال فمثلا يأتيه نفر يسألونه قائلين .. وأنا أصلى مرت من أمامى امرأة فهل تبطل صلاتى ؟ وآخر يسأله وأثناء الصلاة مرق من أمامى كلب أسود فهل يبطل صلاتى ؟

وكان يجيبهم .. ما يراه المسلمون حسناً فهو حسن عند الله .. ورغم مرور (١٤٠٠) عام على الدين الإسلامى فلازال الرجال يجهلون المحتوى التقدمى والإنسانى للدين فهم يفرضون على زوجاتهن أن يضعن القفازات (الكفوف) على ساعدهن وراحاتهن لكى لايظهر شىء منها وبعض رجال الدين يروجون بين النساء أحاديث مختلفة مثلا .. إن المرأة التى لاترضى زوجها فى الليل وتعانده فإن الملائكة يوم القيامة يحملونها من شعرها

ويغطسونها فى الماء المغلى وهكذا سخر هؤلاء الدين لمصلحتهم الشخصية مثلما حدث فى أوروبا عندما كان القساوسة يبيعون صكوك الغفران فى الجنة لقاء قطع من الذهب ويأخـــذون نصف مايحصلون عليه لهم والنصف الآخر يسلمونه للفاتيكان !!.

النظرة المتخلفة للمرأة

كما أن أحد الوعاظ تحدث مرة قائلاً : «إن الزواج بأكثر من واحدة هو رأفة من الزوج على زوجته الأولى فإذا مرضت ولا توجد من تسهر على صحتها وراحتها ولذلك يتزوج المسلم بامرأة ثانية لكى تقوم بخدمة الزوجة الأولى إذا مرضت الثانية يتزوج بثالثة لكى تقوم الأخيرة بالسهر على الثانية وهكذا وجد هؤلاء تخريجات بعيدة عن روح الإسلام إذ أن المجتمع فى الجزيرة العربية كانت نسبة النساء فيه أكثر من نسبة الرجال وقبل الإسلام كانت المسألة معكوسة فعدد الرجال كان أكثر من عدد النساء فلم يجد المجتمع حلا سوى السماح للمرأة بالزواج من ثلاثة رجال فى وقت واحد والطفل يأخذ اسم الأم مثلا (شرحبيل بن حسنة) أخذ اسم أمه حسنة لأنها متزوجة من ثلاثة رجال وهكذا وجد المجتمع حلا لهذه الظاهرة مثلما كان موجوداً فى التبت والهند ودول أخرى .

فـإذا كانت المرأة نصف المجتمع ، فلماذا فشل نصفه ؟

ثم إن كثيراً من الدول الإسلامية وضعت المرأة فى المقام الأول وساوتها مع الرجال فالباكستان تملك منذ عام ١٩٥٠ فرقة للمظليات اللائى يقفزن من الطائرة إلى الأرض بشجاعة وماذا ستصنع الدول الإسلامية إذا هاجمتها إسرائيل بجيش من النساء ؟ أليس من العار أن يستهين بنا الأعداء ؟ والمرأة فى السعودية وصلت مرحلة عالية من التطور ففى أوائل الستينات سمح الملك فيصل بن عبدالعزيز (رحمه الله) بتعليم البنات ، وهاج وماج المتعصبون عليه وقال لهم .. وهذه المدارس مفتوحة من يريد ارسال بناته هو حر ومن لايريد فهو أيضاً حر وبعد سنة وجد هؤلاء مزايا تعليم البنات وقد تطور تعليم البنات وتخرجت فى الجامعات مهندسات وطبيبات ومحاسبات يبلغ عددهن اليوم بالآلاف وقد سار الملك فهد بن عبدالعزيز على خطى أخيه الملك فيصل ونشر التعليم فى كل مكان وقفزت المملكة قفزات حضارية قل أن تجد مثلها فى دول المنطقة ودخلت المرأة فى الخليج العربى مجلس الشورى وقال النبى صلى الله عليه وسلم ... «الجنة تحت أقدام الأمهات» .

وقال نابليون «إن المرأة التى تهز المهد بيمينها لابد من أن تهز العالم بيسارها» .

في ذكرى مئوية أورويل



كابوس جورج أورويل يخيم على العراق

بقلم

ابراهيم فتحي

في يونية ٢٠٠٣ تحل مئوية الكاتب البريطاني جورج أورويل (١٩٠٣ - ١٩٥٠) وقد أصبح اسمه مرادفا لفضح كابوس ما يسمى بالحكم الشمولي وسياسته القائمة على الحرب الدائمة ولغته المنافقة: «الحرب هي السلام»، «الحرية هي العبودية». وتنطبق هذه الأوصاف على الوضع العالمي اليوم وتبرير غزو البلاد العربية والإسلامية في أفغانستان وفلسطين والعراق بالإضافة إلى الغزوات القادمة المحتملة، إن كلمات مثل المجتمع الدولي أصبحت تعني تصفية الأمم المتحدة وقوانين الشرعية الدولية. وأصبح الإرهاب يعني أي حركة معارضة لسياسة الولايات المتحدة أو أحد عملائها، وتستبيح «الحرب على الإرهاب» قتل المدنيين واغتيال القيادات السياسية وقتل وتشويه عشرات الآلاف من المدنيين وتدمير كل مرافق الحياة أما «تحرير العراق» فأصبح يعني، بالإضافة إلى ذلك التدمير المغولي لأمة بكاملها تاريخها ورموز حضارتها ومتاحفها، وإحراق مكتباتها، وقد استلزم هذا «التحرير» قصف الأحياء وتدمير مرافق المياه والكهرباء والمستشفيات والأحياء السكنية، إن آلاف الأطفال

القتلى مبتورى الأذرع والأرجل والذين أسالت القنابل العنقودية أمخاخهم يقول عنهم وزير الحرب البريطاني إن امهاتهم ستشكر القوات الأنجلو أمريكية على استخدام هذه القنابل التى تواصل الانفجار لأزمنة غير محددة، ويبدو هذا التصريح كأنه صادر من رواية «١٩٨٤» لأورويل الحافلة بالمفارقات الدامية

وما الغرض من هذا «التحرير» الذى سيكون نبراساً لشرق أوسط جديد؟ الغرض هو تصفية أى حكومة ذات سيادة وتعيين القادة «الديمقراطيين» من جانب الولايات المتحدة فى انتخابات شكلية «حرة» ويقول بعض المحللين البريطانيين (مثل ناعومى كلاين فى كتابه «حواجز ونوافذ» !!. جريدة الجارديان ١٤ أبريل ٢٠٠٣ - إن الهدف هو إقامة اقتصاد كامل الخصخصة تنهبه الشركات الامريكية بالاشتراك مع نخبة عراقية فاسدة مستوردة من الخارج، لقد ابرمت شركة خدمات الشحن والتفريغ الأمريكية تعاقداً لدنا ... ميناء أم القصر الذى دمره القصف.. والمناقصات الكثيرة مطروحة، فقد دعت وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية الشركات الامريكية متعددة الجنسية ان تقدم عطاءاتها لكل شيء، فليس الغزو من أجل النفط وحده، بل من أجل إعادة بناء الطرق والكبارى والمياه والكهرباء والتليفونات بعد التأكد من تدميرها بالكامل بالقنابل «الذكية» وهناك رجال اعمال عراقيون فى المنفى يقفون مع قوات تدمير العراق مطالبين بان تستولى شركات إكسون موبيل وشل على صناعة النفط العراقية بعد إلغاء تأميمها . وقد وعدهم بوش بمناصب فى الحكومة «الديمقراطية» المعينة، ويقول الكاتب إن تدمير البلاد واحتلالها هو أسهل طريقة «لإعادة بنائها» بالطريقة التى تريدها المصالح الأمريكية الاقتصادية والاستراتيجية، فمذهب بوش هو «إقصف بالقنابل قبل أن تشترى»، ونفس هذا النوع من الخصخصة ستشقه قاذفات أمريكا التحريرية إلى بلاد البترول، ومزاد «الديمقراطية» فى عملية النهب يتم إقصاء الشعب العراقى عنه بعد عقوبات الجوع والمرض والسحق التى استمرت ما يزيد على عقد كامل، وبعد تدمير الحرب، إن عراقا «حرا» جاهز الآن للبيع بالكامل، وسيجد الشعب بلده مقيداً بقرارات اقتصادية اتخذت أثناء القصف، وسيجد نفسه مطالباً بالتصويت «لزعماء جدد» من الأفاقين والنصابين سبق «انتخابهم» من جانب البنتاجون مطلقين أغنية «مرحبا بالشعب العراقى فى عالم الحرية والديمقراطية».

إن عالم أورويل بسخريته من استخدام الكلمات بعكس معناها يتجلى الآن فى أبشع صوره باستخدام كلمات التحرير والديمقراطية ، فقد أصبحت تعنى تصفية أى حقوق ومشاركة سياسية لأغلبية المواطنين الذين يرفضون الهيكل المفروض عليهم لامتيازات أقلية ضئيلة العدد لها علاقات تبعية وثيقة بالشركات الأمريكية واستراتيجيتها العسكرية.

وأورويل هو مبتكر اسم «الأخ

مذهب بوش هو «القصف بالقنابل قبل أن تشتري»، وبعد تدمير العراق سوف تجد عراقاً حراً جاهزاً الآن للبيع.!

الكبير» الذى أصبح يطلق على نوع خاص من الديكتاتوريين (ستالين وهتلر وحكام العالم الثالث (من أمثال صدام حسين) فى القاموس الليبرالي الغربي، وأول أشهر أعماله هو «مزرعة الحيوان» ١٩٤٥ - الذى باعت طبعاته المبكرة فى انجلترا وأمريكا ما يزيد على مليون نسخة، وترجم إلى أكثر من ١٤ لغة (منها العربية)، وقد فسر باعتباره الخيانة الحتمية لأى ثورة يقوم بها العاملون من جانب سلطة خنازير ستالينية، وثانى أشهر اعماله هو ١٩٨٤ وقد لقي الحفاوة نفسها باعتباره تحذيرا هجائيا ساخراً من أى دولة اشتراكية فى المستقبل لابد أن يحكمها حزب مطلق السيطرة يلغى الحريات الشخصية ويفرض ايديولوجية واحدة خانقة لا تسمح بأى تعددية أو معارضة وقد جرى إعداد هذين العملين تليفزيونيا وسينمائيا بنجاح تجارى كبير، وقد أسهمت وسائل الإعلام الأنجلو أمريكية، ومعها بيروقراطيتها الأكاديمية الأدبية فى تحويل اسمه وعبارات روايتيه إلى سهام حادة ضد أى شكل من أشكال الثورات القومية أو الاجتماعية فى أى مكان من العالم، وكأنه كاهن المشروع الرأسمالى الحر وليبراليته الكوكبية ضد الشمولية الحتمية للاشتراكية والقومية، ولكن مفارقة ساخرة وأصلت عملها فى قراءة كتاباته وتمزيق الأكفان الصفراء التى لفت حول اسمه، ولم يكن اليساريين هم الذين قاموا بهذه القراءة الجديدة فى مجال النقد الأدبى، بل قام بها مفكرون أبعد ما يكونون عن اليسار فى تشخيصهم للنظام الرأسمالى العالمى منذ نشأته وحتى النظام العالمى الجديد اليوم، إن العالم «الشمولى» الذى تصوره ١٩٨٤ عند هؤلاء هو عالم اليوم الذى يسمونه «أورويليا» لنأخذ كتابات ميشيل فوكو عن «المجتمع الانضباطى» وكتابات مفكر حزب العمال الجديد الآن أنتونى جيدينز فى الثمانينات «الدولة القومية والعنف فى أوروبا» - ١٩٨٥ - أى دولة البيروقراطيات الضخمة والمراقبة الشاملة، ثم كتابات مارشال ماك لوهان عن هيمنة أساطير الإعلام المعاصرة فى تحديد الذوات الفردية وقيم سلوكها.

جورج أورويل والعالم الحر

ولد جورج أورويل فى الهند، وكان أبوه موظفا فى «مصلحة الأفيون» البريطانية بعد انتصار «حرية» تجارة الأفيون فى حربين شنتهما بريطانيا، الأولى ١٩٣٩ - ١٨٤٢ والثانية ١٨٥٦ - ١٨٦٠، على الصين فى أوج الليبرالية البريطانية من أجل مشروعية تجارة الأفيون، وكانت «حرية» تجارة العبيد من افريقيا إلى أمريكا قد امتدت من القرن السادس إلى منتصف القرن التاسع عشر. على أيدى البريطانيين، وحققت تراكما رأسماليا ضخما، فالتجارة هى أسمى قيمة إنسانية. وقد عمل جورج أورويل فى بوليس بورما، وهو جانب قليل المكانة من الخدمة المدنية الامبراطورية، لمدة خمس سنوات. وهاجم ادعاءات الاستعمار

البريطاني في روايته الأولى «أيام بورمية» ١٩٣٥ ، ثم طرح تساؤلاً في محاولاته المستمرة لجمع مواد لرواياته حول معاناة العمال البريطانيين كأمثالهم من أهل بورما، وعاش حياة التشرد والفقر بين لندن وباريس وعمل غاسلاً للأطباق، وهو يكتب كما جاء في كتابه «ملقى على الأرض مطروداً في باريس ولندن» ١٩٣٣، وفي رواية أخرى كتب عن كيف يعيش العاطلون الانجليز في مناطق المناجم «الطريق إلى ويجان بير» ثم حمل السلاح في إسبانيا ضد هجوم فرانكو الوحشي على الجمهورية الديمقراطية هناك ورفض لامبالاة الديمقراطيات الغربية ورفعها شعار عدم التدخل أو المساعدة رغم التدخل السافر لقوات موسوليني وإلقائها الغازات السامة على مقاتلي الجمهورية، واخترقت رصاصة جسمه. وفي رواية «تحية إلى كتالونيا» رفض المحاولة الستالينية للسيطرة على اليسار العالمي، كما نقد مواقف حزب العمال البريطاني ورفض أن يدافع عن «ديمقراطية منافقة زائفة دعية مصنوعة من نفايات ومواد رديئة باسم معاداة الفاشية، وفي عمله «الأسد ووحيد القرن» – ١٩٤١ – توهم أثناء الحرب، التي أعفي من التجنيد فيها لأنه كان مصدوراً، أن ثورة اشتراكية تتشكل وتمضي في طريقها داخل صفوف الجيش البريطاني وظلت اشتراكية ترفض الانساق النظرية . وفي وقت مبكر من الحرب وضع خطة ضخمة لثلاثية روائية تقوم على التحليل الاجتماعي وتصور مأزقه الخاص بين تعفن النظام «الديمقراطي» في بريطانيا وخيانة الثورة من جانب الستالينية، وكيف ستكون الشمولية البريطانية إذا وثبت إلى السلطة؟ ولم ينجز من هذه الخطة إلا «مزرعة الحيوان» و«١٩٨٤» وقد قام النقاد الأمريكيون بقراءة الروايتين بمعنى عكسي، ذلك أنه ظل دائما اشتراكيا ديمقراطيا (البرفيسور برنارد كريك في «معجم الثقافة الحديثة» تحرير جرستين وينتيل) .

ماذا عن «مزرعة الحيوان» ؟

هي أمثولة تنتمي إلى كوميديا الأفكار وتستمد أساليبها من سويفت وديكنز، وتعتمد على حدة الذهن اللماح ونفاذ البصيرة والمبالغة الميلودرامية التهكمية لا على البناء المحكم أو تصوير الشخصيات الحية. ويرى النقاد أن ضعف البناء تعوضه وفرة طافحة من الأفكار وخصوصية في الاستطرادات والمواقف المضحكة اللامعقولة وتعليقات المؤلف الذكية (كل الأفراد متساوون ولكن بعضهم أكثر تساويا من الباقين) ، وكان نقد الخنازير الستالينية قائما على أنها تعيد من جديد أساليب صاحب المزرعة الرأسمالي في التحكم والاستغلال والامتيازات ، وتنتهي الرواية بالخنزير الأعظم حاملاً السوط منتصبا على قائمتيه الخلفيتين متقبلا التهاني من الرجال الرأسماليين (وقد أصبح يشبههم) الذين يعجبون بأساليبه الاستبدادية في استغلال الحيوانات الكادحة، فالنغمة الرئيسية في الرواية هي إدانة الشمولية الستالينية لأنها الطريقة المؤدية إلى عودة الرأسمالية ، وهو تنبؤ أثبتته الأيام، إن الاتحاد السوفييتي لم تقم فيه ثورة من أجل الديمقراطية، ولم يتعرض لحرب مسلحة من جانب الرأسمالية العالمية، بل لقد تحولت قيادة الحزب فيه تدريجيا «اعضاء

المكتب السياسي واللجنة المركزية، إلى الاقتصاد الرأسمالي، وأبرز حكام الاتحاد الروسي، ورجال أعماله اليوم قادمون من صفوف الحزب ومؤسسات الاستخبارية والاقتصادية والإعلامية. ومن الشائع السكوت عن معاداة الرواية الرأسمالية ، وكان جورج أورويل قد كتب مقدمة لمزرعة الحيوان انتقد فيها المجتمعات الحرة التي لا تردعها كوابح الدولة، وأوضح حقيقة بشعة عن الرقابة فى انجلترا أيامه فهى تطوعية إلى حد كبير. فالأفكار المعارضة غير المقبولة يمكن اسكاتها والحقائق غير المريحة يمكن إلقاؤها فى الظلام دون حاجة إلى حظر رسمي، هناك التحكم فى الصحافة بواسطة ملاك أغنياء لديهم كل الدوافع ليكونوا مضللين بلا نزاهة فيما يتعلق بمسائل شديدة الأهمية، وهؤلاء يلقون دعما من اتفاق صامت راسخ يؤسسه ويراكمه نظام تعليمي وثقافي قوى التأثير، ومن يخطر بباله أن يتحدى «العقائد القويمة» سيجد نفسه وقد جرى إسكاته بقوة مدهشة .. فهل استطاع أورويل أن ينشر هذه المقدمة ؟ لقد ظلت بدون نشر لمدة ثلاثين عاماً . وأشار إليها البروفيسور برنارد كريك سابق الذكر فى الملحق الأدبى للتايمز ١٩٧٢/٩/١٥ . ثم نشرت فى طبعة مكتبة إفرى مان.. ولم يعتبر أورويل ان الدولة وحدها هي قوة الرقابة. فالشركات الخاصة المتحكمة فى وسائل الإعلام والنظام التعليمي تفرض بيئة من المعتقدات والتحيزات الراسخة النابعة من إيديولوجية المشاريع التجارية تحت ضغط المعلنين ورجال الأعمال الذين يبيعون الأفكار والمواقف.

من هو الأخ الكبير وما هو نظامه الحزبي ؟

لم تتنكر رواية ١٩٨٤، وهى عن بريطانيا متخيلة بعد حرب ذرية فى الخمسينات وثورة اعقبها نظام غاشم، أن الأخ الكبير شخص معين هو الديكتاتور.. إن أحدا لم يره قط ولا يعرف أحد متى ولد وهو لا يستطيع أن يموت ابدا، وتبرز الرواية سخرية نظام الأخ الكبير من النازية والستالينية السوفييتية صراحة، فهذا الأخ تجسيد رمزى لتنظيم ضخم يسيطر على كل شئون الحياة الاقتصادية والسياسية، والفكرية والعاطفية. والجسدية والجنسية والادبية والفنية، وهو لا يوجد على نحو ما يوجد أي فرد فهو لا يشغل مكانا محددا ولا زمنا محددا، إنه يختلف عن هتلر وستالين فلا يوجد إلا على لوحات الإعلانات الضخمة باعتباره روح النظام كلية القدرة والانجازات والانتصارات والمعرفة وصورته توجد على شاشات التليفزيون تراقب الكثيرين. انها لا تراقب البروليتاريا والكتل العجماء، أغلبية الناس أو ٨٥٪ من المجتمع، بل تراقب ما يسمى بالحلقة الداخلية للحزب اقل من ٢٪ من السكان، والحلقة الخارجية أى أقل من ١٥٪ من السكان، فالعالم فى هذه الشمولية ليس عالم الماركسية والمجتمع اللاطبقي وساطة العاملين، بل عالم شمولية تراتبية طبقية سافرة.

إن نظريتها المعلنة تقوم على أن

المجتمع ينقسم - كما كان دائما - إلى ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا، وتدعو إلى امتلاك الاقلية العليا للثروة والامتياز والسيطرة امتلاكا لا فرديا شخصيا، فهو إرهاص بعالم الشركات المساهمة ومجالس الإدارات واتحادات المصارف والصناعة واتفاقيات التسعير والتسويق والبيروقراطيات القائدة، أما الطبقة الوسطى (الحلقة الخارجية) فتأتى بعد طبقة المخ والتوجية بوصفها الأيدى المنفذة ذات الكفاءة المتشربة لعقلية النظام. وهاتان الطبقتان ليستا وراثيتين ولا ينقل أفرادها السلطة إلى ابنائهم بل إلى ابنائهم بالتبنى، أى الأكفاء الذين يؤمنون بمنطق النظام التراتبى ويمارسون طرائق حياته وعمله وفقا لقواعده وهناك حراك وتداخل بين الطبقة العليا والوسطى لتدعيم هيكل الامتيازات التراتبية، أما «الجماهير» فسيعمل ملايينها ويتناسلون ويموتون دون دافع للتمرد، فكل المعتقدات والأنواق والعواطف والمواقف المبثوثة مصممة لحجب الطبيعة الحقيقية لهذا المجتمع عن الإدراك.

فالجماهير قد فقدت المقدرة على إدراك أن النظام الاجتماعى يمكن أن يكون شيئا مختلفا عما هو قائم، ويمكن إعطاؤهم الحرية العقلية فلا عقل لهم. وأمامهم تشكيلة منتقاة من الصيغ والقوالب يمكنهم الثرثرة حولها، على العكس من افراد اقلية القمة والاقلية الوسطى الذين يجب أن يكون خضوعهم كاملا.

شمولية العالم الحديث:

يذكر أنتونى جيدينز توازيا بين عالم أورويل وعالم الحداثة فمجتمع اليوم منظم بشكل لم يسبق له مثيل مراقب إلى أعلى درجة فالحياة اليومية مخططة ومرتبة بواسطة مؤسسات بيروقراطية تجعلها كعالم الأخ الأكبر مداره روتينيا على نحو منهجي وليست عالم الافراد الأحرار فى الايديولوجية الليبرالية أيام الانتاج العائلى الصغير والمشروع الحر، فنحن فى عصر البيروقراطية الهائلة، أنظمة خبراء ومؤسسات محكمة لتنظيم جداول الأوتوبيسات والقطارات والطائرات وإمدادات الكهرباء والتليفزيون وانتاج الأطعمة والملابس وتوزيعها وحسابات البنوك، ويتطلب ذلك جمع معلومات دقيقة عن الناس وانشطتهم، فالرقابة الروتينية شرط ضرورى للتنظيم الاجتماعى الكفء، إن التحجر الميكانيكي يصاحب القفص الحديدى للتنظيم العقلانى القانونى (الصورة الأوروبية للمجتمع)، فكل المعلومات عن كل شخص مسجلة.. ميلاده سكنه، تاريخ اعماله ومكالماته، وكل ذلك ضرورى فالمعلومات عن الافراد بالغة الضخامة دون حاجة إلى مراقبين شخصيين يتجسسون عليه، وكل هذه المعلومات عن الافراد بالغة الضخامة دون الرقابة الموجهة ضد الاعداء الخارجيين والأعداء فى الداخل معارضى النظام من وجهة نظر تلك الأجهزة ان جهاز الاستخبارات العسكرية البريطانى القسم الخامس إم أى فايف MI5 لديه فى مقره مكتب كومبيوتر مشترك له طاقة حفظ عشرين مليون سجل، ولديه ملفات حتى الثمانينات تخص مليونا من الأشخاص (دنكان كامبل وستيف كونور «الرقابة والكمبيوترات والخصوصية ١٩٨٦)، وقد كشفت التسريبات أن الرقابة تشمل النقابيين ونواب حزب العمال ونشطاء نزع السلاح النووى ورجال الجامعات

وشخصيات وسائل الإعلام ، الأعداء المحتملين ويذكر ستانسفيلد تيرنر مدير مخابرات كارتر فى مقاله المخابرات لنظام عالمى جديد ضرورة التجسس الصناعى والعسكرى والعلمى على الدول الصديقة فى الخارج والتكافل بين المخابرات والبزنس فى الداخل . أما الحداثة فرمزها الآن شبح الأخ الكبير العليم بكل شىء جهاز رؤية كل شىء «البان أوبتيكون (وفقا لفوكو) فى المجتمع الانضباطى الحديث حيث يحيا الناس فى بيوت من زجاج وليست تلك قصة خيال علمى أو ادبى لأن الشمولية ورقابتها تبلغ حدها الاقصى فى الدولة الديمقراطية الحديثة، فالرقابة فى المشروع الرأسمالى مفتاح الإدارة والإدارة تعتمد على المعلومات وتتدخل فى الحياة الشخصية لموظفيها وتتلصص على المنافسين وكيف تبيع الشركات منتجاتها دون دعم اعلانات الميديا ورعاية برامج تليفزيونية إثارية تجمع ملايين المشاهدين حول حوارات ومسلسلات ومناقشات رياضية لتجميل اسلوب حياة مناسب مفترض؟

وفى عالم الأخ الكبير فى رواية أورويل تمنح الجماهير برامج ترفيهية مماثلة لبرامج اليوم، فليس المطلوب منها الاهتمام الحقيقى بالسياسة، بل وطنية بدائية متعصبة ضد اعداء ما ومتابعة لكرة القدم وخصوصيات نجوم المجتمع وكانت هناك إدارة لتأليف الروايات الخيالية، فالكتب سلع مثل أربطة الاحذية، وهذه الروايات (مثل مسلسلات عالم اليوم) لها ست حبكات وتباديلها: قصص جريمة وحب ومغامرات يصنعها جهاز الكاليدوسكوب وبعضها بورنو (فاحش جنسيا) مثل لمسات على المؤخرة وليلة فى مدرسة بنات تباع سراً للشباب الذين يظنون انهم يتمردون ويشترون شيئا غير قانونى، وكل التوقعات عن السلوك الإنسانى تقدم داخل قوالب تبسيطية جدا كيف تقع فى الحب وما هى الأوضاع المختلفة للحياة العاطفية الناجحة والفاشلة، وفى عالم الأخ الكبير إنتاج بالجملة للموسيقى والاغانى لاستهلاك الجماهير يتم فيها تثبيت الحياة العاطفية فى صيغ محددة للولع والانطفاء وطرز معروفة من الانفعالات ، علامات مصطلح عليها لمجالات العاطفة وامثلة جاهزة للحب والرغبة والأسى تتضمن موت الشخصية الدينامية، وتغنى امرأة من البوليتاريا اغنية مصطنعة على آلة النظم «يقولون إن الزمن يشفى كل الأشياء، وأنت تستطيع دائما النسيان، ولكن الابتسامات والدموع عبر السنين ماتزال تعصر أوتار قلبى»، فتذكرك بما تكتبه حنا أرندت فى نقدها لأغنيات عالم اليوم (الوضع البشرى - ١٩٥٨) . ويناظر اعداد منتجات الشباب الروائية والغنائية والموسيقية فى الكابوس الأورويلى ايماءات حنا أرندت الى التشجيع التجارى والسياسى لما يسمى بثورة الشباب اليوم وبتمردهم ، هنا وهناك مغازلة لأميتهم المنتحلة المخادعة، وترويج سوق ضخمة للشباب، ملابسهم وقصات شعرهم وأغنياتهم واشعارهم وقاموسهم، والجيل الشبابى قصير العمر جدا فى ذلك ولا داعى لأن يبذل احد أى جهد لمناقشة هذه الموضات السلوكية والفنية فستموت من تلقاء نفسها، وكان الأخ الكبير يسمح بالحرية الجنسية الكاملة عند الجماهير فهم والحيوانات أحرار تماما، ومجتمع الإباحة ضرورى

السلطة القمعية مثل ضرورة الانضباط الحديدى للكادر.

ماذا عن التقييدات ومنع حرية التفكير وإبداء الرأى فى مجتمع الأخ الكبير ومجتمع الحداثة اليوم ؟

ينصب ذلك كله على الأقلية من التكنوقراطيين والبيروقراطيين أصحاب الامتيازات فى القمة والمرتبة الوسطى . ومن الواضح أن أورويل يكتب عن مجتمع متخيل دمرته الحرب الذرية ومازال فقيراً جداً فى قواه الإنتاجية . وتكاد الأخلاقيات الرسمية المعلنة لقياداته تشبه الأخلاقيات البروتستانتية فى مطلع الرأسمالية وأخلاقيات اليمين المحافظ فى أمريكا اليوم (العفة الجنسية والتمسك بمظاهر التفانى فى العمل والشخصية المحترمة والعقائدية القويمة السياسية المعادية لأى هرطقة) . وبطبيعة الحال كان كابوس الشمولية عند أورويل يقوم على محاور بوليس التفكير ، أى التحكم فيه من جانب «وزارة الحقيقة» ، وكراهية العدو الذى يكره مبادئنا وعملائه الذين يشكلون «أخوية» معارضة ، واللغة الجديدة والتفكير المزدوج : فالحرب هى السلام ، والحرية هى العبودية ، والجهل قوة ، وإعادة بناء الذاكرة والماضى (الحقائق التاريخية يقذف بها إلى حفرة سوداء فى الذاكرة) . وكان الخط «الحزبى» كما يقول ناعوم تشومسكى فى هذا السياق واضحاً صريحاً تعلنه وزارة الحقيقة (أكاذيب الدعاية) تجب إطاعته ومن يعارضه تسجنه وتعذبه «وزارة الحب» . أما مجتمع الحداثة ، مجتمع الأحزاب الانتخابية المتعددة ، فله خط مؤسسى واحدى لجوهر النظام ليس معلناً ولكنه مفترض مسبقاً . إن المعارضين لا يسجنون ولا يقتلون ، ولكن هرطقاتهم يقذف بها دائماً وخاصة بعد سقوط المنظومة السوفيتية - إلى هامش الهامش ، فمعظم الناس يجدون من الصعب فهم ما يقوله معارضو النظام حتى فى المناسبات الاحتفالية التنفيسية لسماعهم ، لأن الناس محشوون من الطفولة فى المدرسة والكنيسة وبواسطة أجهزة الإعلام بصور وقوالب تفكير وبديهيات وصيغ لغوية وأفعال منعكسة تتعرف بالرفض الفورى على أى نقد لأسس النظام باعتباره بلاهة غريبة الأطوار لا تستحق أى مناقشة . أما الحوار فليس ممكناً إلا حول التنويعات الفرعية لمذهب الايمان بالرأسمالية وأشكالها السياسية . ومن الصعب لديهم تصور عالم معقول لا يقوم على هذا النظام كما كان من الصعب تصور بلد بدون ملك مطلق فى القرون الوسطى . ويختلف مجتمع الحداثة عن الكابوس الأورويلى فى أنه لا يجد ضرورة للرقابة الصريحة لأن التحكم فى التفكير أصبح صناعة مزدهرة ضرورية لمجتمع يقوم مثل مجتمع الأخ الكبير على احتكار نخبة قليلة العدد القرار ، وهى التى تعين نمط من يمكن أن يتقدموا للترشيح وتمول حملاتهم الانتخابية بالملايين وتفبرك صورهم التليفزيونية وتقوم بتبديلهم . وما على أغلبية المجتمع إلا المناصرة السلبية . لقد كف «الأخ الكبير» عن أن يكون قناعاً شخصياً وأصبح سلسلة لا شخصية من القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية والجامعية والإعلامية . وتحولت «وزارة الحقيقة» إلى بيزنس العلاقات العامة وفبركة التوافق

الفكرى القسرى . فليس الناس العاديون فى هذا الزعم أفضل من يعرف مصلحتهم الخاصة ، وعلى بعض الاكاديميين وإعلاميى المؤسسة تقديم الأوهام الأوروبلية لتقويض المشاركة الديمقراطية الحقيقية فى تشكيل السياسة العامة . حقاً إن الطبقات الشعبية والمثقفين انتزعوا حقوقاً ديمقراطية حقيقية ، ابتداء من حق الانتخاب والترشيح وتشكيل الأحزاب والنقابات وإصدار الصحف وحرية التفكير والتعبير وانتهاء بحق الاجتماع والتظاهر والإضراب ، وما تزال هذه المكاسب قائمة رغم محاولة الانقضاض عليها وتظل تشكل حصوناً لمقاومة الشمولية الجديدة .

أما «اللغة الجديدة» وقاموسها فى رواية «١٩٨٤» ، فتقوم على اختزال اللغة إلى أقصى حد وتدمير الكلمات ومفاهيمها بالمئات واختراع كلمات جديدة عبارة عن حروف للإشارة إلى مؤسسات وأفكار وتوجيهات لتضييق نطاق الوعى ، وصياغة عبارات شعارية عقائدية هى عموميات فارغة طنانة تتكلم داخل الناس تفكر بدلاً من عقولهم وتمحو إمكان التفكير المستقل . وهذه اللغة الجديدة القائمة على التفكير المزدوج تعتمد على إثارة مستمرة للشعور بالخطر والتهديد من جانب دول شريرة معادية وعملائها فى الداخل وتشكيل حالة عقلية أو لا عقلية عن الانخراط فى حرب أو سلسلة حروب مفروضة تجعل المواطنين مهووسين سهلى التصديق فى بلاهة . وشعور الناس بالخطر تنفخ فيه أبواق السلطة دائماً ليجعل من تسليم كل السلطة لأجهزة الأمن والتنازل عن الحقوق أمراً طبيعياً عقلانياً . فحالة الحرب ينبغى افتعالها ، والحرب المستمرة تصبح شرطاً للسلام (الحرب هى السلام) . كما أن التنازل عن الحريات والخضوع للأوامر والعبودية للثوابت الزائفة فى القول والفعل تؤدى جميعها إلى حرية أعمق وأنبل (الحرية هى العبودية) . وهذا الوضع المحفوف بالمخاطر الداعى إلى أن يأخذ كل فرد موقعه الذى حدد له من أعلى ، وأن تقتصر معرفته على تخصصه الضيق وإجراءات مزاولته لعمله لكى يجيدها يفترض ألا يشغل ذهنه بتخصصات الآخرين وألا يسأل عن أسرار الوضع العام والسياسة العامة والنظريات (الكلام الكبير) ، ولذلك يصبح الشعار الثالث هو «الجهل قوة» الناس يخضعون بكامل إرادتهم الحرة ويتم تفريغهم وحشوهم بالخردة المؤسسية طوال النهار والليل .

وما هى أوجه الشبه والاختلاف بين الشمولية القديمة والجديدة ؟ الكابوس الأورويلى القديم كان اشتراكية مزعومة فى أوضاع تخلف اقتصادى (بعد حرب ذرية أو إنتاجية ضئيلة للعمل) ، ولم تكن النازية بعنصريتها وسيادة العرق الجرمانى بواسطة الحرب على العالم وتحالف احتكارات رأسمالية ضخمة مع منظمات الهتلرية هى موضع اهتمام أورويل . فقد كانت الشمولية القديمة تتخذ من الاشتراكية قناعاً .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الشمولية الرأسمالية قد أحكمت الآن سيطرتها وأن بربريتها انتصرت بالكامل ، فالمقاومة ممكنة ومن البلاهة اعتبار الشمولية قالباً موحداً لا علاقة له بمضمون الحكم وتركيبه الطبقى وتغيرات الزمان والمكان .

ولنبدأ «باللغة الجديدة» فى عالم اليوم

، عالم فبركة التوافق والرأى العام التى تتضمن تصميم صيغ وألفاظ لها معنى اصطلاحى معزول عن معناها «القديم» . وتعتمد هذه اللغة الجديدة على «الهندسة التاريخية» أى تزييف صور الماضى العالمى ، وفبركة ذاكرة وهمية ، تلقى بالأحداث والحقائق إلى حفرة سوداء للنسيان ، إبى فقدان الذاكرة . وأول كليشيهات اللغة الجديدة «القيم الديمقراطية الانسانية للعالم الحر» ، بريطانيا وأمريكا يحاربان النازية من أجل الحرية . الدول المستنيرة كرست وستكرس نفسها بانكار ذات للدفاع عن حقوق الانسان ترشدها مبادىء وقيم «الديمقراطية وحقوق الانسان والتحرير» . ولنأخذ كليشيه استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد المدنيين والأبرياء من جانب الديكاتوريين الذى شكل مبرراً لغزو العراق . إن الوثائق التى لم تعد سرية وقدمها معهد استوكهولم العالمى لأبحاث السلام كشفت عن أن القيادة البريطانية اعتبرت أن استخدام الأسلحة الكيمائية فى شمال روسيا فى حرب التدخل ضد الثورة الاشتراكية عام ١٩١٩ تم بنجاح عظيم . أما الديمقراطى العظيم وينستون تشرشل وكان وزير دولة الحرب عام ١٩١٩ فكان متحمساً لآفاق استخدام الغاز السام ضد القبائل غير المتحضرة ، وما هى تلك القبائل ؟ إنها لمفارقة تاريخية إن تلك القبائل غير المتحضرة ليست سوى القبائل الكردية والأفغانية ! وما أوقح مزاعم اليوم . وقد صرح تشرشل لقيادة سلاح الطيران الملكى فى الشرق الأوسط باستخدام الأسلحة الكيميائية ضد العرب المتمردين على الامبراطورية كتجربة ، وأعلن عن رفضه لأى اعتراضات على ذلك باعتبارها «غير معقولة» وعن أسفه لفرط الحساسية والوسوسة حول استخدام الغاز السام . فهذه الأسلحة وفقا لتشرشل ليست إلا تطبيق العلم الغربى على الحرب الحديثة . ولم يعد سراً استخدام سلاح الجو الملكى البريطانى للغازات السامة ضد تمردات الأكراد طوال الثلاثينات ، كما استخدمت الولايات المتحدة هذه الأسلحة فى جنوب فيتنام ١٩٦١ - ١٩٦٢ ضد المدنيين واستخدمت أسلحة بيولوجية ضد كوبا ، ١٩٧٧ وقد بررت حالة الحرب الدائمة (الحرب هى السلام) ضد العدوان الشيوعى (كل الوثائق السوفيتية السابقة بين أيدى الأمريكان الآن ولم ينشر شىء ينفى العجز العسكرى الكامل عن التحرك خارج حدود المجال الحيوى الجغرافى لمنطقة النفوذ السوفيتى)تدبير الانقلابات العسكرية ضد الأنظمة الديمقراطية وتأييد أبشع أنظمة الحكم فى العالم .

وكما تمت أحياناً صياغة رمزية اسم أورويل ليناسب إيديولوجية الذين قضى حياته فى معارضتهم ، استمرت المفارقة الكوميدية فى شىء اسمه جائزة أورويل للصحافة . فعلى الرغم من أن واحداً من أعضاء اللجنة التى تمنح الجائزة سير برنارد كريك سابق الذكر أستاذ خبير فى أدبه ، فإن العضوين الآخرين سير ديفيد هير وكارمن كاليل ينتميان إلى ذلك النوع من الناس الذى لم يكن أورويل يشعر قط بالود تجاهه ، ومن حصل على الجائزة هذا العام ؟ كاتب شديد الرجعية فى إيفننج ستاندرد اللندنية اسمه بريان سويل ، ما كان من الممكن قط أن يكون صديقاً له . لقد أدخلوا اسم أورويل إلى «اللغة الجديدة» للشمولية الحديثة التى كان أول من فضح زيفها .

■

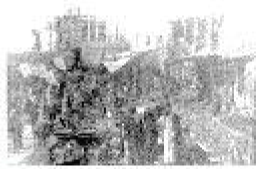
البكاء على شط العرب

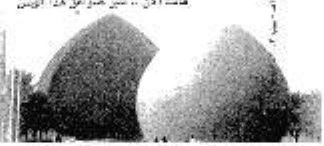
شعر
جلال عابدين

يا ملك الجن مرّ بك دمنا .. ولا نخشاه..
واخلع نعلك بعيداً عنا ..
واخرج ما فيك من الرّقص..
من العينين .. من الكفين .. ومن دمنا
فسبيل جمالك .. أيجمد
ولهيب ساعدك يقصنا دون ذنوب..
في طرق الشطآن
ولتعلم أنك تقتسم يا ملك الجن .. ومنك مباح..
من بابك حتى الشريان
ولن يحميك الرمانون الآن فإن الحراقين..
الآن بسطك المرائين .. ولا الجيران
ونحن الآن هنا .. فيما بين البين ..
فنحن ندين سيوف العرب .. وفيما بين البحر ..
نحمي القدس ونحن جلوس في مقهانا..
ونفرح بهجة بالصبار وبالتذكار وبالأعلان
ونحفظ الكل كتاب الموت ..
ولن التذكر والأسفار وطقوس الإعلان
فاحمل وتقرب الآن وسافر
يا هذا الوطن الماكر
لا تتمسح بالأعتاب .. ولا تدخل بالأصحاب
ولا تتعلق بالأشعار وبالأشجار وبالجيران
وأغلق هذا الوطن علينا
كي أسكر من ماخور الحكمة
وتعري في زمن العصيان
فأنت الآن .. تلين صوامع هذا الوطن

وتجيء سوءاً بالأعراس..
وتلعب بالأشياء وبالأشعار وبالألوان
وتحيطها بالشعر وسلاح .. على الجدران
فلهم بصراخك عنا ..
فأنت تفرح عصر الحكمة .. في زمن العصيان
وأنت تشمخ والأرض
وتبيع السكاكين .. وتطلب الجيران
وتبيع تشرب .. [illegible] وراك
أهل الشطوط والأطيان
وجعلت تشير .. تنير عيانا .. وشواراً ونخلاً
وأنت تشاغب صور الأرض .. وتحترف العصيان
أنت معاً .. وعطك مباح بالدور الكفن
ويطلب رأسك صمت هذا الوطن جميعاً
ويندت على زنانة السلطان
أهلك مباح .. منذ كسوت كفوفك ريحاً..
يا هذا الوطن الزق..
من قال بأن غريباً مثلك .. يحترف الشعر
أنت ضار..
منذ تعرت رؤوس الديكة .. تيك .. ديك
وعرفت رقاب الكهنة والأوثان
وحين رحلت عنا كالعصفور الأعمى..
في وجه البركان .. أنت ضار
يا هذا الوطن الغريق
لا تكفر من فوق السور
وابعد بصهيلك عنا .. فنحن هنا
لن نعبد ذا القرنين .. ونقتل ذا النورين
ونقيم على سيف مكسور
ونحن اعتدنا حبل مشنق
أن نشق سيف معاوية .. ونبيع عمر وعثمان
ونمسح رأس الوطن .. في عظم مسموم
ونعدونا .. أن نشرب قهوته ..
نغرق صباحاً .. في سوق الغلمان ..







عمرو موسى
ودوره فى النظام العربى

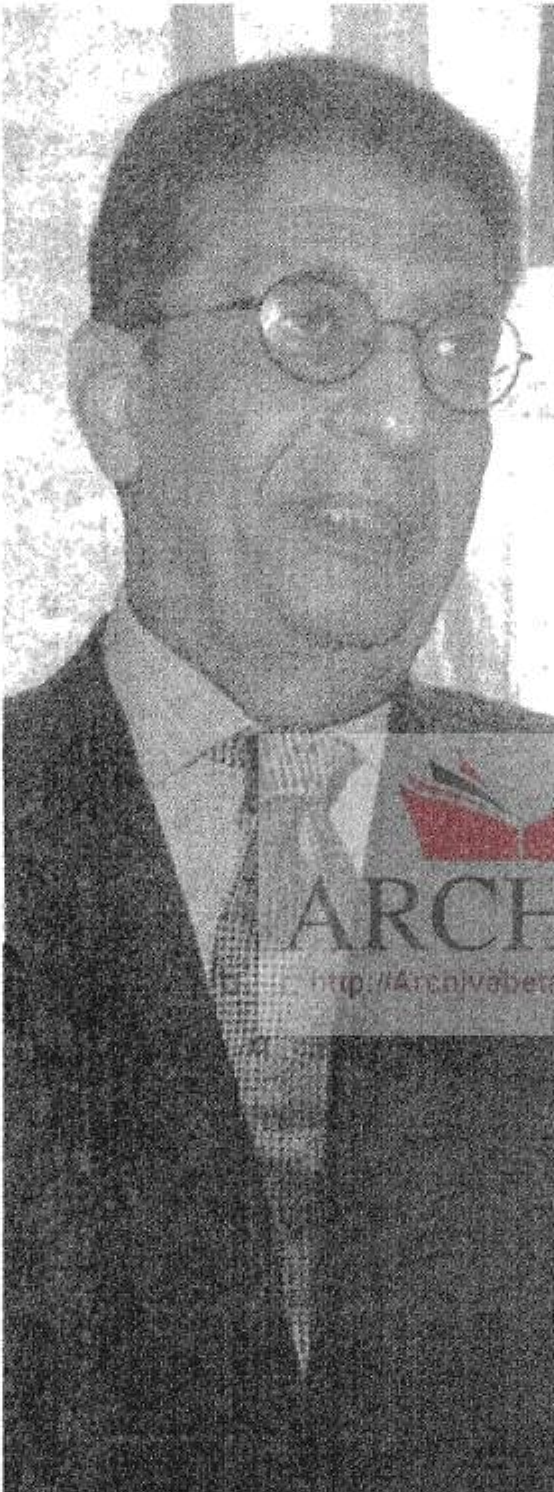
بقلم
سيد أبو زيد عمر

مشاهد من الذاكرة:

استدعت الحملة الاعلامية الموجهة إلى أمين عام الجامعة العربية مؤخرا لدى شريطا من المشاهد، قد تبدو متناقضة ولا صلة مباشرة لها بالموضوع إلا أن الذاكرة تمزج عادة بين الحدث والموقف، ولا تستطيع بأى حال أن تتحايد فيما لا مراء فى وضوحه وصدقه، فإن لم يكن بمقدورنا أن نسير فى دروب هذا الزمن الردىء، الذى ركب فيه القوم فى أغلب الأحوال أسافلهم، إلا ونحمل غصة فى حلوقنا تكاد تخنق أنفاسنا. ونشعر بثقل فى نفوسنا يكاد يوهن عزائمنا، فإن مشاهد الماضى على الأقل تهدىء بعض الخواطر وتلقى الضوء على بعض جوانب الأمور التى تحاول قوى الظلام تزييفها ولى الحقائق حولها.

المشهد الأول... حين تبادلت الكويت مع الحكومة البريطانية رسائل ألغت بمقتضاها معاهدة ١٨٩٩ وأعترفت فيها بريطانيا بالكيان المستقل لدولة الكويت، وكان انضمامها إلى الجامعة العربية فى ١٩٦١/٧/٢٠ تأكيدا لوضعها كدولة كاملة الاستقلال والسيادة. وشجب وزير الخارجية الكويتى فى أول بيان له أمام مجلس الأمة الكويتية كل تكتل من شأنه أضعاف جامعة الدول العربية، وذلك خلال تحديده لسياسة بلاده الخارجية، وهو الموقف الذى حظى بموافقة المجلس الكويتى بالاجماع.

ولم تهنأ الكويت كثيرا باحتفالات استقلالها، فى ظل تحرك نظام قاسم فى العراق للمطالبة بحقوق تاريخية لهم فى الكويت، مجددا مطالب العراق المعروفة فى هذا الصدد منذ العهد الملكى. ووقفت مصر منفردة ومن خلال الجامعة العربية بصلابة فى مواجهة هذه الأطماع، وكانت



وقفتها التى تكررت بعد ذلك عام ١٩٩١/٩٠ عاملا فيصلا فى وأدها.

المشهد الثاني... عند التحاق عمرو موسى بالخارجية المصرية عام ١٩٥٧ - أى قبل أربع سنوات من تلك الأحداث - فقد كان قريبا من صنع القرار بالخارجية منذ بدايته مؤثرا فيه ومنفذا أمينا له، إلى أن تولى رئاسة جهاز الدبلوماسية المصرية، هذا الجهاز الذى كان وسيظل خزانا بشريا للوطنية والعروبة، أثبتت الأحداث الجسام التى مرت على منطقتنا مدى إخلاصه وجديته وصلابته، لقد قدمت مصر عند ترشيح الوزير عمرو موسى لرئاسة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية أبرز فرسانها وأفضل رجال قلعتها الحصينة، والتى سبق أن أهدت إلى الجامعة العربية أمنائها الأجلاء الذين نجحوا فى الحفاظ على كيان الجامعة العربية والسير بها رغم الأنواء العاتية داخلها ومن حولها.

المشهد الثالث ... فى نيودلهى عام ١٩٩٦، فقد وقف وزير الخارجية الهندى يرحب بوزير الخارجية المصرى فى حفل عشاء أقيم على شرفه قائلاً إن «الصديق عمرو موسى رجل دولة مرموق من طراز فريد له تقديره على المستوى الدولى وأنه يتعلم منه الكثير..»

ورد الوزير المصرى بكلمة

مرتجلة بلغة إنجليزية رفيعة المستوى. عقب بعدها جارى على طاولة العشاء من الخارجية الهندية بأنه كان يأمل أن تكون الكلمة مكتوبة حيث اعتاد أن يحتفظ بكلمات من هذا المستوى لكي يقتطف منها بعض تعبيراتها.

وتصادفت معى كثيرا مثل هذه المواقف وفى العديد من العواصم.

المشهد الرابع.. فى مطار إحدى العواصم العربية عام ٢٠٠١. وكنا مع وزير خارجية دولة عربية شقيقة فى انتظار الوزير المصرى لبدء أعمال لجنة مشتركة، وتأخرت الطائرة بضع دقائق، توقف الوزير العربي خلالها أمام خبر تناقلناه عن أن مصر قد رشحت عمرو موسي لمنصب أمين عام الجامعة، وقال بعد فترة صمت وتأمل، أن رئيس دولته قد طلب عند الأتصال به لاستمزاج رأيه فى هذا الترشيح بأن يقدم كمرشح ليس عن مصر فقط وإنما عن بلده العربى أيضا.

وأضاف وزير خارجية الدولة الشقيقة أن عمرو موسى بأنتقاله إلى الجامعة العربية سوف يفتقد أمرين. أولهما مبنى وزارة الخارجية المنيف باضوائه المسلطة على زهرة اللوتس على صفاف النيل، فليس هناك من كائن لا يتمنى أن يقف في ردهته فخورا لاستقبال الضيوف الأجانب، وثانيهما وضعه بين قرنائه من وزراء الخارجية العرب. ويبدو أنه كان يستشرف المستقبل..

المشهد الخامس.. عشية القمة العربية فى عمان فى مارس ٢٠٠١ والتى قررت بالإجماع فى ختام أعمالها الموافقة على تعيين عمرو موسى أمينا عاما الجامعة وتكليفه باتخاذ الخطوات اللازمة لأعادة هيكلة الأمانة العامة بما يمكنها من الاضطلاع بمهامها، ووافق أيضا على المستويين الوزارى والقمة على القرارات الخاصة بتطوير الجامعة وتفعيل دورها، تلك القرارات التى كان الأمين العام الجديد قد تقدم بصياغات لمشاريعها. وكانت المفاجأة لى أن الموافقة على هذا المستوى قد تمت بيسر وسرعة، وذلك أننى كنت قد أمضيت ليلة كاملة فى مناقشات صعبة حولها فى اللجنة التحضيرية والمكونة من وكلاء وزارة الخارجية وكنت أترأس وفد مصر خلالها. ووضح خلال المناقشات أن دولا بعينها كانت تعمل على عرقلة صدور هذه القرارات أو على الأقل عدم أعطاء الأمين العام صلاحية كاملة لإجراء الإصلاحات المطلوبة، ولم ينقذ الموقف بالنسبة لى سوى التعليمات التى جاءتنى من الوزير موسى بإغلاق المناقشة وإحالة الموضوع إلى المستوى الوزارى. واجتماع كبار المسئولين عادة هو المطبخ الذى يكشف المواقف الحقيقية الكامنة فى الضمائر.

مشكلات الجامعة الحالية تعود إلى نقطة البداية

تكسرت النصال على صدر كل من الجامعة العربية وأمينها العام فى الآونة الأخيرة، إذ تتهم المنظمة بالضعف، والانقسام، وأن مواقفها أصبحت عديمة الأثر على المستويين الإقليمى والدولى، وتهاجم الأمين العام من جانب آخر بأنه يتجاوز اختصاصاته وسلطاته التى تراها أحد الدول الأعضاء بأنها لا يجب ألا

تتجاوز شئون إدارة جهاز الجامعة وبانه قد أنحاز بهواه إلى صف النظام العراقى خلال الأزمة الأخيرة.

وفى الواقع فإنه يصعب الفصل بين الأمرين سواء فى أسباب هذه الحملة أو أهدافها النهائية. ولعل من المفيد أن نعود بإيجاز إلى نقطة البداية فى رحلة أنشاء الجامعة، ذلك أن فكرة إقامة تنظيم عربى واحد يجمع شمل البلاد العربية، لم تتجسد بغرض تلبية الدعوة إلي الوحدة العربية التى تنامت منذ بداية القرن الماضى، بقدر ما كان الغرض منها أجهاض تلك المشاعر وتحويلها إلى قنوات يمكن السيطرة عليها والتحكم فى توجهاتها.

ولعل الاستعراض المتأنى للمشاورات التمهيدية التى تمت منذ يوليو ١٩٤٣ بين بعض الزعامات العربية، والتى سميت «بمباحثات الوحدة العربية» وحتى توقيع الميثاق في مارس ١٩٤٥، قد كشفت بوضوح مدى البراعة فى إذابة توجهات الوحدة الاندماجية المطروحة فى ذلك الوقت (مشاريع سوريا الكبرى/ الهلال الخصيب / الوحدة الشاملة) لكى ينتهى الأمر إلى أتفاق على أنشاء «جامعة للدول» تراعى بدقة سيادة الدول العربية واستقلالها عن بعضها البعض وبأن لا تكون الجامعة سلطة عليا تفوق سلطات أعضائها.

وكرست المادة السابقة من الميثاق هذا التوجه من خلال النص على أن ما يقرره المجلس بالأجماع يكون ملزما لجميع الدول المشاركة فى الجامعة، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزما لمن يقبله. وفى الحالتين تنفذ قرارات المجلس، فى كل دولة وفقا لنظامها الأساسى. ولا يتضمن الميثاق أو النظام الداخلى مسائلة أى عضو لا يلتزم بقرارات المجلس عدا ما جاء فى النظام الداخلى متعلقا بتأخر الأعضاء فى تسديد المبالغ المستحقة عليها، وهو النص الذى لم يحدث أن طبق على أى دولة عضو.

هذه هى القواعد القانونية التى يتحرك فى نطاقها الامين العام، والتى عبر عن صعوبتها أحد فقهاء القانون الدولى «بأن جماعة أو منظمة من المنظمات لا توفق إلى وسيلة غير الاجماع للتعبير عن ارادتها لهى جماعة أو منظمة مهددة بالفناء».

ورغم ذلك فقد استطاع الامناء العامون للجامعة على مدار تاريخها الحفاظ على المنظمة بل وأن يصدر عنها مجموعة من القرارات والاتفاقات والمواثيق، لو توفرت الارادة السياسية لدى الدول الاعضاء لوضعها موضع التنفيذ، لتسببت فى اتاحة النهوض لهذه الامة.

دور واختصاص الأمين العام

يعد أمين عام الجامعة، طبقا للميثاق ولوائح النظم الداخلية، شخصية اتحادية عربية دولية ، لا يمثل أية دولة عضو على انفراد، يشغل منصبه بالتعيين السياسى POLITICAL APPOINTEE ينوب عن الجامعة فيما تتخذه من اجراءات مستندا على نصوص الميثاق وقرارات مجلس الجامعة وميزانيتها، وهو غير مسئول إلا أمام مجلس الجامعة عن جميع أعمال الامانة العامة، وتمثل اختصاصاته الادارية نسبة ضئيلة مما هو مطلوب منه، إذ أنه يحق له أن يوجه نظر المجلس إلى أية مسألة يرى أنها قد تسىء إلى العلاقات بين الدول الاعضاء أو

بينها وبين الدول الأخرى، وله أن يقدم في كل وقت اقتراحات في موضوعات غير مدرجة على جدول الأعمال، وأن يعرض على المجلس تقارير أو بيانات شفوية عن أية مسألة يكون المجلس في صدد بحثها، وأصبح من المعتاد طبقا للوائح الداخلية أن يعد الأمين العام مشروع جدول الأعمال لمجلس الجامعة على مختلف مستوياته ويبلغه مع المذكرات التفسيرية والوثائق ذات العلاقة للدول الاعضاء.

وقيمة القرارات تتوقف إلى حد كبير على مستوى العمل التحضيري، كما أن محتوى الاتفاقات التي تصاغ في نطاق الجامعة يعتمد على مدى نجاح الجهد التنظيمي ومساهمة الامانة العامة.

فالامانة العامة في الواقع أداة لاتخاذ القرارات والاتفاقات ولا يقل دورها في تنفيذ قرارات المجلس عن دور التحضير لها. ولا يخلو قرار يصدر عن المجلس على المستوى الوزاري أو القمة عن الطلب في عجزه من الأمين العام بمتابعته أو تنفيذه وتقديم تقرير فيما يتم بشأنه.

وفي اطار ما سبق لم يخرج الأمين العام الحالي عن اختصاصه عندما حاول أن يرأب الصدع بين دولتين عربيتين أدى النزاع بينهما إلى شرخ عميق وخطير في لجسد العربي، ولم يخرج الرجل في تحركه عن اطار ما قررته القمتين العربيتين في بيروت وشرم الشيخ.

ألم ترفض القمة في بيروت - رفضا مطلقا - ضرب العراق أو تهديد أمن وسلامة أية دولة عربية باعتباره تهديدا للأمن القومي لجميع الدول العربية؟

وطالبت القمة في موضع أخر باحترام استقلال وسيادة العراق وأمنه ووحدة أراضيه وسلامته الاقليمية.

ألم تعد القمة في شرم الشيخ تأكيد نفس المعاني السابقة، وتأكيد القمة على الامتناع عن المشاركة في أي عمل عسكري يستهدف أمن وسلامة ووحدة أراضي العراق؟، وإقرار القمة بأن شئون الوطن العربي وتطوير تنظمه أمر تقرره شعوب المنطقة بما يتفق مع مصالحها الوطنية والقومية بعيدا عن أي تدخل خارجي، وفي هذا الاطار استنكر القادة ما يتردد من محاولات رامية إلى فرض تغييرات على المنطقة أو التدخل في شئونها الداخلية وتجاهل مصالحها وقضاياها العادلة.

الأمناء العامون السابقون.. تاريخ مشرف

أول أمين عام للجامعة هو السيد عبدالرحمن عزام في الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٢، وكان يتولى قبل تعيينه عدة مناصب سياسية مهمة، وقد لعب دورا بارزا في المشاورات والمباحثات، التي توجت بإعداد الصياغة النهائية الميثاق وذلك بصفته عضوا بالوفد الرسمي المصري لاجتماعات اللجنة التحضيرية. وفي عهده صدر قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ووقعت الحرب العربية الاسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨، والتي أشرفت خلالها الجامعة العربية على الدفع بجماعات المتطوعين لمساندة الجيوش العربية.

وقد يمكن أن نطلق على هذه الفترة مسمى مرحلة التأسيس، فقد اتفق خلالها على عدة اتفاقات في المجال الثقافي والطيران المدني والبريد والهاتف ومكافحة المخدرات والقضاء. وتوجت بالتوقيع على معاهدة الدفاع المشترك والتعاون

الاقتصادى عام ١٩٥٠.

وخلفه السيد عبدالخالق حسونة فى الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٢ والذى سبق أن عمل فى السلك الدبلوماسى المصرى ومحافظا للإسكندرية ووزيرا للشئون الاجتماعية ثم المعارف ثم الخارجية. وقد قاد أمانة الجامعة بحكمة فى فترة هامة شهدت فيها المنطقة متغيرات جذرية، واتسعت قاعدة العضوية بعد أن حظيت العديد من الدول العربية باستقلالها حيث انضمت ليبيا والسودان وتونس والمغرب والكويت والجزائر واليمن والبحرين وقطر وسلطنة عمان والأمارات العربية.

وكان للجامعة العربية دور فى دعم الجهود نحو الأستقلال وتحقق خلال هذين العقدين من الزمن الكثير من الأنجازات سواء بعقد الأتفاقات، فى المجالات الأقتصادية والثقافية والأجتماعية، وفتح سبل التعاون مع المنظمات الدولية وإنشاء اتحادات عربية نوعية، وأنشأت خلالها مجلس الوحدة الاقتصادية الذى أقر مشروع إنشاء السوق العربية المشتركة. وعقد خلالها خمس قمم عربية.

وتولى السيد محمود رياض منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية فى الفترة من ٧٢ - ١٩٧٩، عمل قبل ذلك بالسلك الدبلوماسى المصرى ومندوبا دائما لمصر لدى الأمم المتحدة ثم مستشارا سياسيا لرئيس الجمهورية ثم نائبا لرئيس الوزراء ووزير الخارجية. وحفلت فترته أيضا بالإنجازات رغم قصرها. فقد أنشأت الصندوق العربى لمعونة أفريقيا، وأكاديكية النقل البحرى وصندوق النقد العربى، والمؤسسة العربية للاتصالات.. وغيرها.

وعقد خلالها أربع قمم عربية عادية، حيث قررت قمة ١٩٧٤ اعتماد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطينى، والموافقة على إقامة السلطة الوطنية المستقلة بقيادة المنظمة على أية أرض فلسطينية يتم تحريرها.

وتقدم رياض باستقالته عقب القمة العربية والاجتماع الوزارى العربى الذى قرر نقل الأمانة العامة بصفة مؤقتة إلى تونس، وخلفه السيد الشاذلى القليبى فى ١٩٧٩/٦/٢٨ والذى كان يشغل منصب وزير الأعلام والثقافة فى تونس، وهو الوضع الذى أستمر حتى ١٩٩٠/٣/١١ حين قرر مجلس الجامعة عودة الأمانة العامة إلى مقرها الدائم بالقاهرة طبقا للميثاق فى سبتمبر من نفس العام.

وتولى الدكتور أحمد عصمت عبدالمجيد أمينا عاما فى الفترة من مايو ١٩٩١ إلى مايو ٢٠٠١ والذى كان يشغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وسبق أن تقلد عدة مناصب دبلوماسية رفيعة فى باريس ونيويرك، وهو من رجال القانون الدولى المرموقين وقد ترك خلال فترته بصمات مميزة يأتى فى مقدمتها ترسيخ مبدأ دورية أنعقاد القمة العربية.

وبدأ تنفيذ أتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجارى بين الدول العربية. وأطلاق مبادرة المصالحة العربية الشاملة عام ١٩٩٣.

لم تتطرق خلال هذا السرد لكثير من تفاصيل ما تم التوصل إليه فى اطار الجامعة من أتفاقات وقرارات، ولكن النظرة المتجردة لما سبق تبين أن الأمناء العامين للجامعة لم يكونوا موظفين فى دائرة جامدة، فقد كانت مستوياتهم قبل تولى مناصبهم بالجامعة العربية لا تقل

• هل المطلوب الآن ألغاء الجامعة العربية واستبدالها بكيان شرق أوسطي؟!

عن المستوى الوزارى المتميز، وكانوا أساتذة أجلاء فى الدبلوماسية والعلاقات الدولية، وكانت لهم أسهاماتهم العملية والفكرية فيما توصلت إليه الجامعة العربية من أدبيات وأتفاقيات خلال الفترة الماضية.

بيت القصيد..

لم يتوقف النقد الموجه إلى الجامعة العربية منذ أنشائها، وكان هذا النقض يأخذ صورا تختلف بأختلاف الظروف والأهداف، وكان يتراوح بين التعبير عن الضيق لسيطرة دولة ما على توجهات الجامعة، أو إن أمينها العام ينحاز قليلا إلى طرف دون الآخر في نزاع من النزاعات التى تملأ أروقة هذه المنظمة، ويتصل النقد دون أنقطاع للجامعة عن الحصيلة الضئيلة لنتائج أعمالها.

وفى ظنى أن الحملة الموجهة إلى الجامعة وأمينها العام هذه المرة تتخذ نفس الصور، إلا أنها جاءت بأسلوب مختلف يصل إلى حد التجريح الشخصى الذى هبط بمستوى الحوار إلى حضيض لم نألفه من قبل، كذلك فقد جاءت لأهداف تتجاوز مسالة الضغط على الأمين العام لترويضه وتحجيمه. وفى اعتقادى أن أهدافها لا تخرج عن أحد الاحتمالات التالية:

- تجميد الجامعة تماما بحيث يلغى وجودها كبيت يمكن أن يجتمع فيه العرب للخروج بموقف موحد ضد ما يرتب للمنظمة العربية من مخططات خارجية، وليس هناك ما يمنع فى ظل هذا الاحتمال من بقاء الجامعة كمبنى دون محتوى أو مفهوم.
- تطويع الجامعة بحيث يصدر منها ما يخدم هذه المخططات.
- فض الجامعة كمنظمة وإلغائها من الوجود استنادا إلى أنها لم تقم بدور فى الماضى أو يصبح هناك حاجة لها فى المستقبل.
- إعادة صياغتها فى منظمة جديدة تحمل عنوان الشرق الأوسط بحيث يمكن أن تضم إسرائيل وقد يمكن أن تقتصر على التعاون الاقتصادى الإنمائى!!

الأسباب...

وفى تصورى أن هذه الاحتمالات تأتى فى سياق المخططات التى وضعت لإعادة ترتيب المنطقة من جديد، وبخاصة أن الجامعة وأمينها العام الجديد أبديا بعض الحركة التى دعت إلى تركيز الحملة ضدهما فى الأونة الأخيرة.

فمنذ قمة القاهرة ١٩٩٦ على وجه التحديد، أخذ البرنامج التنفيذى لاتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجارى بين الدول العربية طريقا للتنفيذ العملى منذ يناير ١٩٩٨ وبحيث قطعت جهود إنشاء المنطقة التجارية العربية الحرة شوطاً أصبح ملموسا بما يتيح الأمل بأن تضع هذه المنطقة أقدامها على الطريق لتعاون اقتصادى حقيقى، كذلك فإن اتفاقات انشاء السوق المشتركة الرباعية فى بغداد، والرباعية الثانية فى اجادير انما تمثل علامات مهمة على نفس الطريق. وجاء قرار القمة بالموافقة على عقد مؤتمر اقتصادى عربى لكى يوضح رغبة عربية حقيقية لعمل اقتصادى عربى مشترك.

وننتظر أن تبادر مصر بتجسيد هذا الهدف.

إن الاتفاق على دورية القمة العربية لم يبق أسيرا للملحق الذى تم ضمه إلى الميثاق، وانما أخذ طريقه الفعلى بعقد أكثر من قمة فى نطاق هذا الاتفاق.

ولقد صدر عن القمم الثلاثة الأخيرة (عمان / بيروت / شرم الشيخ) قرارات تبعث على عدم الارتياح لدى الجانب الآخر، الذى يسوءه كثيرا أن يصل العرب إلى مواقف هذه القوة، رغم اختلافهم العلنى، ورغم أن هذه القررات لم تجد طريقها إلى التنفيذ الفعلى.

هذا فضلا عن جهود الأمين العام الجديد فى تطوير الأمانة العامة للجامعة، وتفعيل حركتها ، والتنسيق مع الاتحادات والمنظمات العربية، وإدخال العمل العربى المشترك فى مجالات جديدة تمس خطوطا حمراء معروفة، كالالتقاء بالمنظمات العربية الأمريكية، والدعوة إلى التركيز على التكنولوجيا والاتصالات والمعلوماتية، ومواجهة دعاوى صراع الحضارات والثقافات.

ما العمل

إن المتغيرات الدولية الجارية والمخططات التى رسمت للمنطقة، وبدأت بالاحتلال العسكرى للعراق، تجعل من الجامعة العربية ضرورة للتنسيق العربى فى مواجهة هذه التحديات التى تهدد كينونة الدول العربية ومصالحها الحيوية.

ومن ثم فإن الأمر يتطلب أن نقف ابتداء للدفاع عن كيان الجامعة العربية وشخص الأمين العام، فالهجوم على الأمين العام ليس موجها ضده بقدر ما هو موجه إلى قواعد الجامعة ذاتها.

ولا سبيل إلا بمواصلة العمل العربى المشترك بنفس القوة والاندفاع، بما يلقى مسئولية خاصة على مصر بأن تواصل عملها كدولة محورية ضابطة لايقاع العمل العربى بالتعاون مع دول الارتكاز العربية الأخرى، بغية التوصل إلى تنسيق سياسى كامل يصل بنا إلى مواقف سياسية واضحة من مختلف القضايا التى تواجه أمتنا حاليا، تلك المواقف التى تخلق عادة رأيا عاماً عربى شعبى يكون مساندا وداعما للموقف الرسمى، وما أعظم أن يلتحم الموقفان.

وكذلك التوصل إلى تنسيق عسكرى بأحياء اتفاقية الدفاع العربى المشترك، ترهبون بهذا التنسيق عدو الله وعدوكم، وتعاون أقتصادى حقيقى قطعنا بالفعل خطوات هامة على طريقه.

إن هذا يمكن أن يحقق الغرض منه اذا ما تم بين مجموعة دول عربية صادقة النية والحزم، فلم تعد الظروف تسمح بأن يترك الدول العربية الهامشية أن تواصل عملها كمخلب قط لهدم النظام العربى.

وقد حان الوقت أيضا للتحرك عربيا على الصعيد الإقليمى لاقامة حوار مع إيران بعد أن هبت عليها رياح من الاعتدال، ومع تركيا بعد أن أبدت التفاتة إلى العالم العربى، وكانت تضع كل أوراقها فى الملعب الأوروبى، وأن ننطلق من هذا الوضع الإقليمى إلى ساحة دولية تتطلب دعم التحالف الرامى إلى الحفاظ على كيان الأمم المتحدة وإقامة علاقات دولية أكثر توازنا ومقاومة المخططات الامبراطورية للاحادية القطبية. ■



كوفى أنان

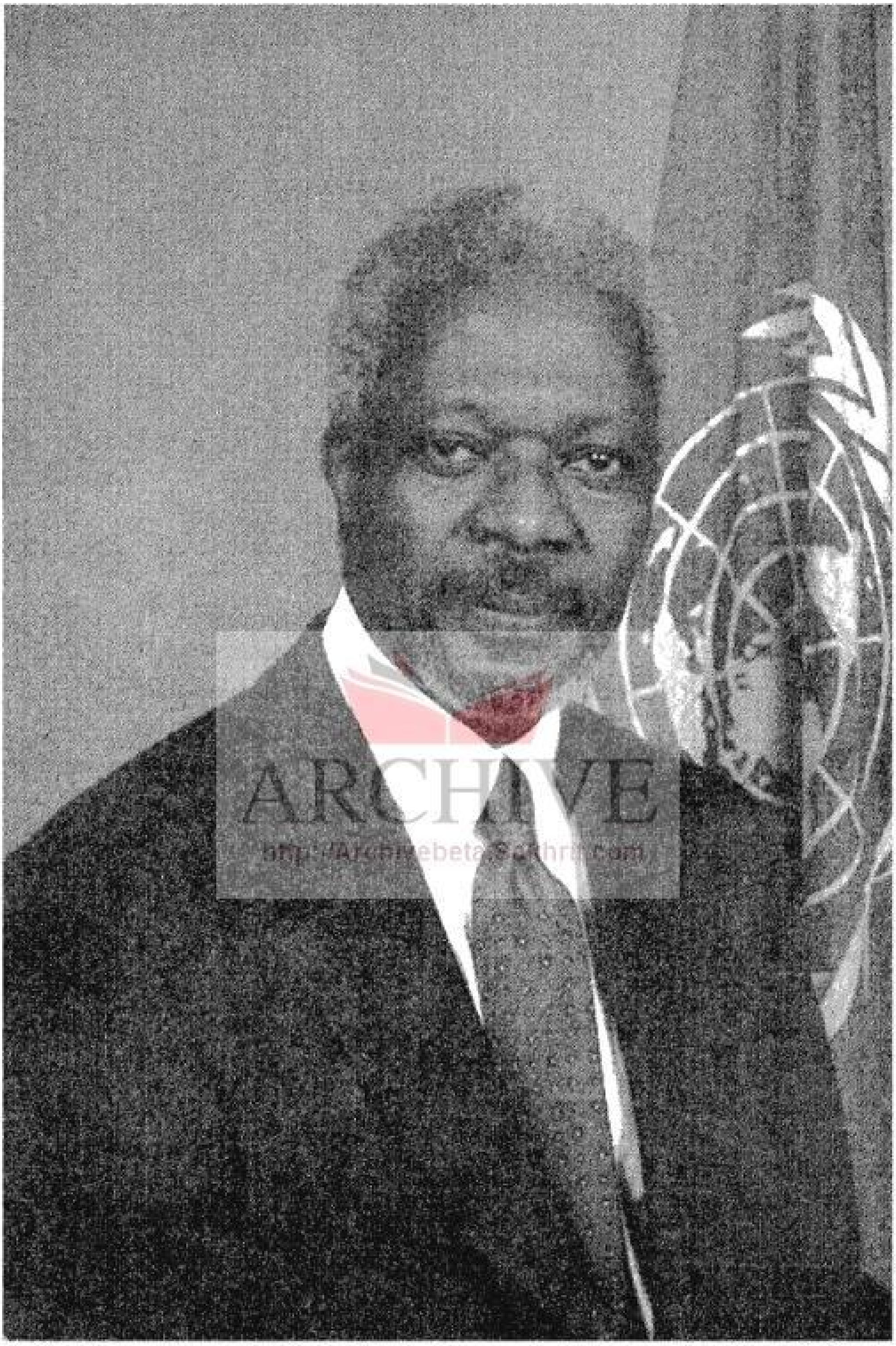
ودوره فى النظام الدولى

أثار الدور الذى قامت به الأمم المتحدة وأمينها العام كوفى أنان علامات الاستفهام فى الأوساط الدبلوماسية والإعلامية ، وهو الدور الذى عمل على تصعيد العقوبات والحصار ضد الشعب العراقى، وانتهاك سيادته بمختلف الذرائع ، وبصفة خاصة تدمير أسلحة الدمار الشامل ، ثم التمهيد لغزو العراق .

لقد سهل أنان للولايات المتحدة القيام بالتدخل فى الشئون الداخلية للعراق والتأثير على العلاقات الدولية . إلى الحد الذى أصبح معه بلا شخصية، بل بدا كعروسة قفاز فى يد أمريكا ، يفكر بعقلها ، وينطق بلسانها، وأضحى الأمر ملتبسا على مشاهدى المسرح السياسى .. هل الأمين العام هو رجل الأمم المتحدة الذى يرعى السلم والأمن الدوليين، وحقوق الإنسان ، وإقامة القانون الدولى ، أم هو رجل أمريكا القائم برعاية مصالحها ولو على حساب ميثاق الأمم المتحدة ؟!

كانت البداية عندما استخدمت الولايات المتحدة حق النقض للاعتراض على إعادة انتخاب الدكتور بطرس بطرس غالى ، ودفعت بترشيح كوفى أنان لكى تنتخبه الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بناء على توصية مجلس الأمن ، لمنصب الأمين العام لمدة خمس سنوات اعتبارا من أول يناير ١٩٩٧ . وكان السبب غير المعلن لاعتراض الولايات المتحدة على إعادة انتخاب الدكتور غالى ، هو سماحه بنشر تقرير التحقيق فى المذبحة التى تعرض لها مخيم اللاجئين الفلسطينيين فى قانا ، التابع للأمم المتحدة فى جنوب لبنان ، والذى حمل اسرائيل المسئولية عن قصف المخيم .

وكوفى أنان هو الأمين العام السابع للأمم المتحدة ، شغل قبل تعيينه فى هذا





● **كوفى أنان.. هل هو أمين الأمم المتحدة أم رجل أمريكا المطيع؟**

المنصب وظيفة وكيل للأمين العام لشئون عمليات حفظ السلام ، وهو يعمل فى الأمم المتحدة منذ ما يزيد على ثلاثين عاما ، عمل خلالها فى عدة مناصب متنوعة بالاضافة للإدارة والميزانية وشئون الموظفين ، كما عمل فى قضايا اللاجئين وحفظ السلام ، وأسندت له عدة مهام دبلوماسية شملت التفاوض من أجل عودة تسعمائة من الموظفين الدوليين إلى أوطانهم وإطلاق سراح الرهائن الغربيين فى العراق عقب غزوه للكويت سنة ١٩٩٠ ، وبدء المناقشات بشأن صيغة «النفط مقابل الغذاء» .

بعد إشراف الأمم المتحدة على إجراء استفتاء فى تيمور الشرقية ، والذى انتهى باستقلال ذلك الإقليم عن اندونيسيا ، حصل كوفى أنان والأمم المتحدة على جائزة نوبل للسلام . ومن المعروف الدور الذى دفعت به الدول الغربية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة واستراليا ، نحو تنظيم الاستفتاء فى تيمور الشرقية تمهيدا لانفصالها بعد زوال الخطر الشيوعى ، بينما كانت نفس هذه الدول تؤكد على انضمام تيمور الشرقية لاندونيسيا بعد انسحاب البرتغال منها فى السبعينات خشية وقوع الإقليم تحت نفوذ الاتحاد السوفيتى .

غير أن مواقف كوفى أنان اتسمت بالميل الواضح لأمريكا ، وظهر هذا من خلال مجموعة من التصريحات والمبادرات ، خاصة فى تعامله مع الأزمة العراقية ، التى صبت كلها فى تسهيل غزو العراق .

لقد طالب أنان فى ٢٠ سبتمبر ١٩٩٩ بتعبئة التأييد الدولى لمواجهة الانتهاكات الجسيمة والمستمرة لحقوق الإنسان ، والتى تعتبر فى نظره سببا لممارسة حق التدخل لاعتبارات إنسانية، وهو إحدى الذرائع التى استخدمتها كل من امريكا وبريطانيا فى غزو العراق . وقد هاجمت الدول النامية هذا الاقتراح ، وكان على رأس الدول التى رفضت هذه المبادرة الدول اللاتينية ، والدول الأفريقية والدول العربية ، باعتبار أن مثل هذه المبادرة تعتبر انتهاكا صريحا لأحكام الميثاق ، وبصفة خاصة لمبادئ وأهداف المنظمة التى نصت عليها المادتان الأولى والثانية من الميثاق .

ثم كان ما جاء فى تقرير الأمين العام المعروض على قمة الجمعية العامة لعام ٢٠٠٠ والتى سميت بقمة الألفية والتى وصف فيها الأسلحة الصغيرة والخفيفة بأسلحة الدمار الشامل . فخلط بذلك الأوراق مع أسلحة الدمار الشامل ، التى عرفتها قرارات الجمعية العامة ، والتى حددت تلك الأسلحة بالنووية والكيماوية والبيولوجية ، واعتبرت السلاح النووى أكثر فتكا

ودمارا ، وكانت هذه المبادرة غطاء لتهرب الدول النووية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، من التزامها بإزالة السلاح النووى .

كما كان موقف الأمين العام محيرا عندما أبلغ مجلس الأمن يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ بأنه قرر سحب الموظفين الدوليين العاملين فى العراق ، بما فى ذلك فرق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل ، وبعثة حفظ السلام بين الكويت والعراق ، وذلك حفاظا على سلامتهم ، وبناء على ما تلقاه من الولايات المتحدة وبريطانيا . وهكذا أفسح الطريق أمام قوات الغزو الأمريكى البريطانى لقصف العراق تحت سمع وبصر العالم . وكان هذا الموقف مثار تعجب وتساؤل إضافى ، خاصة أن قرار السكرتير العام جاء عقب قمة الحرب التى انعقدت فى جزر الأزور يوم ١٦ مارس ٢٠٠٣ بين بوش وبلير ورئيس وزراء إسبانيا .

فى يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ ، وأثناء اجتماع مجلس الأمن ، قدم كوفى أنان بصفته أمينا عاما للمنظمة اقتراحا لتفويضه فى بعض السلطات لبيع نفط العراق واستخدام جانب من حصيلة المبيعات فى شراء الاحتياجات الضرورية من المواد الغذائية والطبية للشعب العراقى ، تمهيدا لما بعد العمليات العسكرية ، والتى كان من المتوقع أن تؤدى إلى كوارث إنسانية فى العراق .

وفى الوقت الذى برر فيه الأمين العام تصرفه بمسئوليته عن حماية وضمان سلامة الموظفين الدوليين مادام قد تم إخطاره بذلك ، فإن عدة دول انتقدت تصرف الأمين العام ، واعتبرت تصرفه خروجا عن صلاحياته باعتبار أن مجلس الأمن هو صاحب الاختصاص الأصيل فى هذا الشأن ، وقد قابل سفير العراق ، ومندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة ، الأمين العام يوم ٢١ مارس ، وسلم له رسالة مطولة من العراق ، يحتج فيها على تصرفات الأمين العام ويوضح له حدود مسئولياته وفقا للمادة ١٠٠ من ميثاق الأمم المتحدة ، والتى تنص على أنه ليس للأمين العام ولا لأحد الموظفين أن يتلقوا فى تأدية واجباتهم تعليمات من أية حكومة أو من أية سلطة خارجية عن الهيئة ، وعليهم أن يمتنعوا عن القيام بأى عمل يسئ إلى مراكزهم بوصفهم موظفين دوليين مسئولين أمام الهيئة وحدها .

لقد سمح سحب بعثة الأمم المتحدة للمراقبة بين العراق والكويت باستخدام القوات الغازية المنطقة منزوعة السلاح بين البلدين كممر لقواتها الغازية ، كما أدى سحب موظفى برنامج «النفط مقابل الغذاء» إلى توقف البرنامج عن تلبية الحاجات الإنسانية الأساسية لشعب العراق ، وسحب موظفى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة أوقف أنشطة هذه الوكالات الصحية والتنموية فى العراق ، كما أدى سحب مفتشى الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية إلى وقف عمل هاتين المنظمتين الذى هو أساسى ليس فقط لإكمال التحقق من خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل



بل أساسي لتنفيذ بقية متطلبات قرارات مجلس الأمن التي يرتبط تنفيذها بانجاز أعمال التفتيش ، وفي مقدمة ذلك رفع الحصار الجائر المفروض على العراق .

لقد اتضح للمجتمع الدولي أن سحب موظفي الأمم المتحدة جاء انسياقا من الأمانة العامة وراء المخطط العدواني الأمريكي - البريطاني الذي ينتهك القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن بشأن العراق ، ولم يكن له مسوغ قانوني أو أخلاقي ، كما أنه جرى خلافا للآليات المتبعة ، وبدون موافقة مجلس الأمن .

● لماذا وقف أنان صامتا أمام غزو امريكا للعراق؟

وأخيرا يقف السيد أنان صامتا أمام الغزو ، ولم يحرك ساكنا لمدة أسبوع ، رغم الولاية التي منحه إياها ميثاق المنظمة في المادة ٩٩ التي تنص على أن «للأمين العام أن ينبه مجلس الأمن إلى أية مسألة يرى أنها تهدد حفظ السلام والأمن الدوليين» ، ظل أنان صامتا إلى أن اجتمع مجلس الأمن بناء على مبادرة جامعة الدول العربية وحركة عدم الانحياز يوم ٢٧ مارس ٢٠٠٣ ، وافتتح الجلسة ببيان عبر فيه عن الحزن لبدء الحرب والعزاء للضحايا ، وأشار إلى أن غزو العراق تم بدون تصريح من مجلس الأمن وهو ما يطرح التساؤل حول مشروعية هذا الغزو ، واكتفى بأن يقتصر دور الأمم المتحدة على تنسيق تقديم المساعدات الإنسانية للسكان المدنيين وهو أقصى ما سمحت به سلطته !!

مؤمن حسين

كوفي أنان

- من مواليد ٨ أبريل عام ١٩٢٨ في كوماسي - غانا .
- متزوج من «نانى أنان» وهي محامية وفنانة سويدية ولها ثلاثة أولاد .
- درس أنان في جامعة العلوم والتكنولوجيا في كوماسي ، وأكمل دراسته الجامعية في الاقتصاد في كلية «ماك ألستر» في سانت بول مينيسوتا عام ١٩٦١ ، كما أجرى دراسات عليا في الاقتصاد بالمعهد الجامعي للدراسات العليا الدولية في جنيف .
- نال درجة الماجستير في الإدارة من معهد ماساتشوستس .
- إلى جانب أنه أمين عام مجلس الأمن ، يعمل حاليا في مجلس أمناء كلية «ماك أستر» ، وهو أيضا عضو في مجلس أمناء معهد المستقبل في «مينلوباك» بكاليفورنيا .
- يعمل في الأمم المتحدة منذ ما يزيد على ٣٠ عاما .

لغويات

كلا وكلتا

بقلم
د. الطاهر أحمد مكي

اجتمع قوم على شراب فغنتهم جارية بشعر لحسان بن ثابت:

وإن التي ناولتني فرددتها
قتلت، قتلت! فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطني
بزجاجة أرخاهما للمفصل

قال أحدهم: امرأتي طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضي، وكان عالما مرموقا، عن علة هذا الشعر، لم قال: «إن التي فوحد»، ثم قال: «كلتاهما» فثنى؟ فتوجهوا إليه، وشرحوا له خبرهم، وسألوه الجواب فقال:

«إن التي ناولتني فرددتها عنى بها الخمر الممزوجة بالماء» ثم قال من بعد: كلتاهما حلب العصير يريد الخمر المتحلبة من العنب، والماء المتحلب من السحاب، المكنى عنه بالمعصرات في قوله تعالى: «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا».

ويقى في الشعر ما يحتاج إلى كشف سره: إن قوله: «التي ناولتني فرددتها قتلت، قتلت!» خاطب به الساقي، الذي ناوله كأسا ممزوجة بالماء، تقول العرب: قتلت الخمر، أي مزجت بالماء، وأراد الشارب أن يخبر الساقي أنه فطن لما قام به، فدعا عليه بالقتل، وبين قتل الخمر وقتل الساقي جناس، اتفقا لفظا، واختلفا معنى، الأولى على معناها الحقيقي والثانية تعني المزج.

ثم عقب الشارب فاستعطى الساقي كأسا صرفا لم تقتل، أي لم تمزج بالماء، وأما قوله أرخاهما للمفصل فعنى به اللسان، لأنه يفصل بين الحق والباطل، والكأس الصرف أقوى، ومعها يصبح اللسان أشد ارتخاء.

للبحث بقية

تفكيك الشخصية وممارسة العنف

بقلم
محمد يوسف عدس

• لماذا يستلذ البعض تعذيب الآخرين؟

• أسباب شهوة المارينز للعنف والتدمير

كنت أطالع صحيفة التايمز اللندنية يوم ٢ أغسطس ٢٠٠٢م عندما وقع بصرى على عنوان بالبنط الكبير: ما الذى لا يقدرون عليه؟ يليه عنوان فرعي: أربعة من القوات الخاصة الأمريكية قتلوا زوجاتهم الشهر الماضي.

لست من هواة قراءة حوادث القتل المثير ولكن موضوع القوات الخاصة وجنود المارينز الأمريكيين كان هو الذى يشغل ذهنى منذ فترة، وربما ترجع إلى الغزو الأمريكى للصومال الذى سمي حينذاك «بعثة الأمل»

تسمر في ذاكراتى مشهد تلفازي من هذه الغزوة لا يفارقني: قدم جندى من المارينز تضرب رأس صبى صومالى لعله كان يتطلع إلى طعام يسد به رمقه. فذهب إلى الميناء ليحظى بهدية من القادمين فى بعثة الأمل فكانت هديته هذه الركلة.. لم يكن فى جعبة المارينز سوى القتل والقصف والتدمير وكانت هذه هديتهم فى بعثة الأمل إلى الصومال، وهى نفس الهدية التى حملوها معهم إلى أفغانستان ولكن علي نطاق أوسع وأشد فتكا، ثم زادوا عليها من أحدث مخترعاتهم فى الغزوة العراقية.

مثل هذه الخواطر كانت تدور في عقلي وأنا أبحث عن إجابة لسؤال ملح: من أي نسيج بشرى صنع هؤلاء الناس!؟، لذلك استوقفني عنوان التحقيق الصحفي الذي أشرت إليه آنفا.

المارينز وقتل الزوجات

يتناول التحقيق قصة عدد من جنود المارينز الذين أقدموا على قتل زوجاتهم بشكل مفاجيء ولأسباب غير مفهومة. خذ مثلا حالة «براندون فلويد» وهو أحد أفراد مجموعة الصفوة في القوات الخاصة تسمى «قوة دلتا» اشتهرت بأنها تحيط أعمالها بدرجة عالية من السرية. وقد عرف براندون فلويد بين أصدقائه بأنه شخصية قتالية متميزة، يصفه زملاؤه بأنه النموذج الأمثل لآلة القتل، ويسمونه «السيد U.S.A الكامل». يتمتع ببناء جسدي متين وهيأة جميلة وله زوجة على قسط وافر من الجمال، أنجب منها ثلاثة أطفال خلال تسع



سنوات من الزواج المستقر، مما جعله في أعين الجميع أسعد رجل في فرقته فكانوا ينظرون إليه بمزيج من الإعجاب والحسد.

ولكن في ظهيرة يوم فانظ «١٩ من يولية» وكان في مسكنه بمعسكر القوات الخاصة في «فورت براج» تفجر شيء في رأس براندون بعد مناقشة حادة بينه وبين زوجته «أندريا» فاندفع إلى حقيبته وأخرج مسدسه الأوتوماتيكي وأطلق الرصاص على زوجته فصرعها ثم وضع المسدس في فمه وأطلق الرصاص على جمجمته ففجرها.

وقع هذا الحادث فور عودة براندون من رحلة عمل طويلة شملت هاييتي والبوسنة وحرب الخليج «١٩٩١» والصومال وكان آخرها في أفغانستان..

وهكذا يمضي التحقيق الصحفي يحكي لنا تفاصيل جرائم قتل الزوجات التي ارتكبها «وليام رايت» و«ديفيد شانون» (٤٠ سنة وقائد عمليات) و«ريجو برتو نيفيز» و«سيدريك جريفين» الذي طعن زوجته خمسين طعنة بالسكين.

بعضهم انتحر بعد قتل زوجته ولكنهم - فيما يذكر التحقيق - يشتركون جميعا في كونهم من القوات الخاصة وأنهم عائدون من مهمات قتالية في أفغانستان، وأن جميع هذه الحوادث كانت مسبوقة بمشاحنات بين الزوجين سمعها الجيران وشاهدها بعض الأصدقاء.

اللافت للنظر هنا هو أن بعض الشهود في تحقيقات الشرطة من الخبراء ومن أقارب الضحايا نبّهوا إلى جوانب أخرى ذات أهمية بالغة. حيث قالت أم «أندريا» زوجة الضابط «براندون فلويد»: «أعتقد أن أسلوب تدريبه وطبيعة هذا التدريب هما السبب الذي أدى إلى هذه الجريمة.. فقد تدرب براندون على فكرة (إذا لم تستطع السيطرة على شخص ما فاقتله).. وكان براندون يتمتع بسيطرة كاملة على حياته الزوجية..».

آلات قتل

تقول الخبيرة «دوروثي ماكاي» وكانت كابتن سابق في القوت الجوية: «إن القوات المسلحة الأمريكية تدرب قواتها الخاصة ليتحول أفرادها إلى آلات قتل Kiling Machines غير عابئة بآثار مثل هذه العقلية على تدمير الحياة الزوجية» وتؤكد الشاهدة أن هذه الحوادث لم تثر دهشتها وإنما كانت متوقعة فقد شهدت السنوات الأربعة الماضية تصعيدا غير مسبوق بين أفراد القوات المسلحة في الإساءة إلى زوجاتهم.. «ولا أظن أن تتحسن هذه الحالة في المستقبل طالما أن القيادات العسكرية تتجاهل إشارات الخطر هذه.. إنهم يدربون الأفراد على ممارسة العنف المفرط دون أن يجعلوا له صمام أمان للتنفيث.

وقد كشفت دراسة أجريت سنة ١٩٩٩ إلى أن العنف الأسرى بين القوات المسلحة ارتفع بنسبة أكثر من الثلث مقارنة بحالة العنف الأسرى بين المدنيين.. وأن تسارع هذه الحالة كان ملحوظا بوضوح منذ واقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م.

قالت إحدى الزوجات التى عاشت مع زوجها أربعة عشر عاما فى حالة من الرضا والسكينة: «عاد زوجى من أفغانستان منسحبا من الحياة الاجتماعية منعزلا بنفسه عن الجميع.. لا يتحدث عن خبراته فى أفغانستان لأنه غير مسموح لأحد بالحديث عن ذلك! ولكنى عرفت من زملائه العائدين أنه قتل أناسا كثيرين هناك.. وقد أصبح مزاجه متقلبا سيئا بدرجة مخيفة».

هنا يتبادر إلى أذهاننا هذا السؤال كيف يتحول شخص عادى سعيد فى أسرته إلى مجرم يمارس أبشع أنواع القتل بلا رحمة؟

تعليم التعذيب (النموذج اليونانى)

فى دراسة كاشفة حول موضوع «تعليم التعذيب» قام بها باحثان هما «جانيس جيبسون» و«ميكا هاريتوس - فاتيوراس» ربما نجد إجابة تتصل بهذا السؤال.

العينة التى أجرت عليها الباحثتان دراستهما كانت تتألف من ٢١ جنديا من قوات الشرطة العسكرية اليونانية حوكموا سنة ١٩٧٥ بعد إسقاط النظام العسكرى الذى كان يحكم اليونان، وكانت تهمتهم أنهم انخرطوا فى عمليات تعذيب وحشى لمدة سبع سنوات من (١٩٦٧ - ١٩٧٤).

اعتمدت الباحثتان على اعترافات المتهمين أمام المحكمة ثم على سلسلة من المقابلات الشخصية معهم. ولم تجدا فى الحياة السابقة للمجرمين أى نزوع أو اتجاه للعنف ولا اضطرابات نفسية ولا جنوح فى السلوك.

وتبيَّن لهما أن اختيار هؤلاء الأشخاص للقيام بالتعذيب قد تم بناء على عنصرين: أنهم جميعا كانوا يتمتعون ببنية جسدية قوية وأنهم نشأوا فى أسر تكن للشيوعية كراهية ملحوظة.. فيما عدا هذا فقد تمثلت فيهم القيم العسكرية السائدة فى الجيش: الكتمان والطاعة العمياء لرؤسائهم.. بعد ذلك يأتى دور التدريب الذى يعزز هذه الاستعدادات ويؤكد على الحوافز لتعذيب المعتقلين.

خلال برنامج التدريب الأساسى كان المتدربون يتعرضون لمعاملات قاسية فيركلون بالأقدام، وتصوَّب إليهم



اللكمات الموجعة بمناسبة وبغير مناسبة وتصب عليهم اللعنات والإهانات بلا حساب، ويجبرون على الجرى ساعات طويلة حتى تنهار قواهم فيسقطون على الأرض.

فإذا انتهى برنامج التدريب الأساسى كان عليهم أن يقسموا يمين الولاء المطلق لرؤسائهم وهم راكعون على ركبهم، ولتشجيعهم على ممارسة التعذيب عمليا كان يسمح لهم بمشاهدة عمليات التعذيب والمشاركة فى توجيه بعض اللكمات إلى المعذبين كنوع من التدريب العملى.. وفى نهاية الجولة تشترك مجموعة المتدربين فى حلقة تعذيب جماعى للمعتقلين تحت إشراف الضابط المدرِّب.

العصى والجزرة

كانت هناك عقوبات رادعة لمن يتردد فى إطاعة الأوامر أو التراخى فى تعذيب المعتقلين.. وكان التهديد مستمرا «أن كل من يخفق أو يتوانى فى إيقاع أشد الآلام بالمعذبين سوف يتعرض هو نفسه للتعذيب الأليم» - كذلك كان الضباط يحرضون كلا منهم على أن يكون جاسوسا على الآخرين ويشجعونه على تقديم تقارير عن كل بادرة يتراخى فيها أحدهم عن تعذيب السجناء.

من ناحية أخرى كان هناك إلى جانب العصى جزرة مؤكدة، فقد كان القادة يفاخرون بالمبتدئين ويقولون لهم: كم أنتم محظوظون لأنكم أصبحتم أعضاء فى مجموعة الأقوياء المهمين الذين يدافعون عن النظام، ويوحى إليهم القادة بأنهم قد أصبحوا من صنف آخر من الناس مستثنون من الأخلاقيات والفضائل الشائعة بين العوام، وأن لديهم - بحكم وضعهم الجديد - حصانة أن يتصرفوا بجرأة ضد أى شخص حتى ولو كان من الضباط الأعلى رتبة إذا تشككوا فى ولائه للنظام.

كان شعورهم بالانتماء إلى مجموعة خاصة من النخبة المتميزة يتأكد من خلال اللغة الخاصة المتداولة حولهم والمحاضرات اليومية التى يجرى فيها التأكيد على خطورة الأعداء الذين يحاربهم النظام، وأن الشيوعيين ليسوا إلا ديدان وحشرات ينبغى سحقها بالأقدام.

أساليب التعذيب البغيضة كان يطلق عليها أسماء لطيفة تجعلها محببة إلى قلوب القائمين بالتعذيب: فالضرب العادى لأحد المعتقلين باللكمات الجماعية هو «حفلة شاى»، أما إذا كان الضرب المطلوب بالعصى الغليظة فهذه «حفلة شاى بالجاتوه»!..

والطاعة التامة والإخلاص فى تنفيذ أوامر الضابط المختص هما المعيار الذى توزن به كفاءة القائمين بالتعذيب، فالذين

يؤيدون طاعتهم وإخلاصهم على طول الخط يعفون من قواعد النظام الصارم الذى تخضع له حياة الجنود العاديين، حيث يسمح لهم بإطالة شعر الرأس كما يحلو لهم، وأن يغادروا المعسكر حين يرغبون دون استئذان أو تصريح، وأن يستخدموا سيارات الجيش الرسمية لقضاء شئونهم الخاصة، ويستطيعون الحصول على وجبات غذائية متميزة بالمجان من المطاعم، وكانوا يحصلون على وعود مؤكدة بمنحهم وظائف مدنية محترمة بعد انتهاء مدة الخدمة العسكرية.

منظومة متكاملة

هكذا نجد أنفسنا أمام منظومة حياة كاملة منفصلة الحياة تماما عن سياق الحياة العامة.. منظومة لها أسرارها وقوانينها الخاصة ولها لغتها ومصطلحاتها الخاصة.. ولها قيمها ومعاييرها وأساليبها فى العمل المختلفة عما تعارف عليه الناس فى المجتمع العام.

الوظيفة الوحيدة لهذه المنظومة هى القمع والتعذيب، فيها تتم صناعة فئة من البشر ليكونوا أدوات تعذيب وحشى إلى حد القتل، أدوات تجردت من العقل والشعور والضمير، ثم أطلقت على طائفة أخرى من البشر قدر لهم – بلا ذنب ولا جريرة – أن يخضعوا لأهوال من التعذيب والآلام البدنية والنفسية المروعة.. لا حدود لها ولا أمل فى توقفها.. لا شاهد هناك يشهد ولا قانون يردع، فالقانون الوحيد السائد هو قانون زبانية الجحيم.

استطاعت جانيس وميكا شرح قدرة هؤلاء الرجال على تعذيب كائنات بشرية كل يوم على مدى سبعة أعوام كاملة، فى ضوء عاملين: الأول أن هؤلاء الرجال تم إدخالهم فى عالم التعذيب الرهيب بالتدريج خلال برنامج ذى مراحل، والثانى أن قادتهم قد اتخذوا من الإجراءات ما يكفل ترجيح كفة المكافآت «أو الثواب» المصاحبة للطاعة على كفة التوتر النفسى الذى قد ينتج من ممارسة تعذيب الآخرين.

المارينز (النموذج الأمريكى)

تنتقل «جانيس» و«ميكا» إلى موضوعنا الأساسى وهو «المجندون فى البحرية الأمريكية»، فقد وجدتا تشابها ملحوظا بين برامج التدريب التى يمارسونها وبرامج التدريب التى سجلتها فى دراستها لجنود الشرطة العسكرية اليونانية، فكلها برامج مبنية على العنف والإرهاق المفرطين.

فالمارينز الجدد يتم عزلهم عزلا تاما عن أسرهم وأصدقائهم وعن المجتمع الخارجى بأثره أثناء فترة التدريب، وذلك



لتمكين مجموعة من القواعد والقيم الجديدة في نفوسهم.. فهم معرضون لعمليات إنهاك مستمر واضطهاد وإهانات لفظية وشتائم.. لإشعارهم بأنهم لا قيمة لهم.. لا شيء.. ! ويخضعون لتدريبات بدنية بالغة القسوة مشتملة على الجرى الإجبارى مع الحرمان من النوم.. إنهم دائما مرهقون بدرجة لا تسمح لهم بالتفكير الواضح في القيم الجديدة التى يتم غرسها في عقولهم.

أبسط المخالفات يترتب عليها عقوبات قاسية تتمثل في ساعات إضافية من التدريبات البدنية الشاقة وفقدان الامتيازات المتعلقة بالطعام والنوم.. وهم يتعلمون الإشارة إلى العدو بأسماء ازدرائية، ويخصهم المدربون على الصياح بأعلى أصواتهم أثناء طوابير السير أو الجرى بأناشيد وعبارات تمجد القتل.

عندما ينجح المجندون المتدربون يتم الترحيب بهم أعضاء في مجموعة النخبة المتميزة، وتتغير أساليب المعاملة، فبعد أن كان يقال لهم أنكم لا قيمة لكم يبدأ ضباطهم في تمجيد المارينز ويشعرونهم بانتمائهم إلى الفئة الممتازة، لأنهم استطاعوا أن (يفعلوها!) كأنهم قد حققوا المعجزة، لقد استطاعوا تحقيق ذواتهم «الجديدة» بصبرهم على المعاناة وتحملهم الإهانات وبصرامتهم وخشونتهم.

نلاحظ أن العنصر الأساسي أو المفتاح لخلق شخصية آلة التعذيب أو آلة القتل كما في النموذجين اليونانى والأمريكى هو التدمير المنظم للهوية الشخصية والاحترام الذاتى عند الفرد المتدرب، وإحلال بديل عنهما يتمثل في الشعور المتعالى وتقدير الذات على أساس من العنف، بمعنى آخر أن هؤلاء الأفراد يتم تفكيكهم بواسطة التدريب المنظم ثم يعاد تركيبهم في شخصية أخرى مختلفة، يعتقدون أنها أفضل من شخصيتهم السابقة، لمجرد أنهم استطاعوا تحمل وحشية التدريب وعنفه، ومن ثم يشعرون بأنهم قد أصبحوا مقبولين في مجتمع النخبة المتميزة.

إنها نفس العملية التى أنتجت من قبل ضباط الرايخ الثالث في عهد النازية الهتلرية، الذين ارتكبوا عمليات قتل وإبادة جماعية بدم بارد. وقد سجل الأطباء النفسيون الذين أجروا دراسات على هؤلاء الضباط بعد الحرب العالمية الثانية أنهم لم يجدوا لديهم أى علامة تشير إلى اضطرابات عقلية، ومرجع الأمر كله هو عملية التفكيك والتركيب التى أشرنا إليها.

لعل من المفيد هنا أن نشير إلى أهم نظرية في تفسير الإبادة الجماعية التى ارتكبها النازيون والستاليون ثم الأمريكيون في الوقت الراهن، وهى نظرية عالم النفس المشهور «روبرت جاى

ليفتون» سوف نجد أنه يؤكد على أن الإبادة الجماعية تستند دائما إلى أيديولوجيات شمولية تقوم على أساس فكر متصلب مطلق.. قد يتغير محتوى هذه الأيديولوجيات ولكنها تنطوى على ملامح مشتركة للسيطرة على الآخرين وتجيز القضاء على غير الأنقياء.. وأزعم أن هذا ليس بعيدا عن الفكر الإمبريالى الأمريكى الجديد، ولقد عالجت النقطة فى عدد من المقالات المنشورة، والإرهاب - حسب المفهوم الأمريكى - هو المرض الذى يلوث العالم ولابد من القضاء عليه، فإذا تم القضاء على هذا المرض الذى تفشى «بيننا» تعود الأساليب التقليدية للتفاهم العالمى ويسود الشعور بالأمن والعافية!

ولكن ليفتون يحذر من أن عملية التنقية هذه لن تكتمل أبدا! وستظل حملات القتل والإبادة تتفجر فى كل مكان حيث يسقط مزيد من الضحايا والأبرياء، فالقضاء التام على هذا المرض عملية مستحيلة طالما أن المرض حالة جوانية، ومن ثم تظل التعاسة مسيطرة والرغبة فى القتل والإبادة متزايدة، وتصبح عملية تطهير العالم نوعا من تدمير الذات أو الانتحار الجماعى. ■

قالــوا

● إسمان متضادان بمعنى واحد: التواضع والشرف وقيل إذا ارتفع الشريف تواضع، وإذا ارتفع الوضيع تكبر.

القيروانى

● سئل سقراط: لماذا لاتتكلم أجاب: خلق لى أذنان وفم واحد لكيما يسمع الانسان أكثر مما يتكلم.

● لاتفرح بالغنى والرخاء، ولا تغتم بالفقر والبلاء، فإن الذهب يجرب بالنار والمومن يجرب بالبلاء.

الإمام على

● قال لقمان لابنه : لايكونن الديك أكيس منك ينادى وقت السحر وأنت نائم

● سئل أعرابى: هل لك فى الزواج؟

فقال: لو استطعت لطلقت نفسى

المحافظون الجدد الأصول والمفاهيم

بقلم
د. السيد أمين شلبي

لماذا زادت سطوة المحافظين الجدد في عهد بوش الأب؟!

على الرغم مما يبدو أن تيار المحـــافظيـــن الجـــدد New Conser -vatism وشخصياته وسيطرتهم على مفاهيم وتوجهات السياسة الخارجية الأمريكية إنما يرتبط بالإدارة الجمهورية الحالية منذ أن جاءت إلى الحكم فى يناير ٢٠٠٠، إلا أنه فى الواقع فإن جذور هذا التيار تعود إلى الفترات المبكرة للحرب الباردة وتصاعد المد المعادى للشيوعية

وقد تبلور هذا التيار حول عدد من المنابر والمؤسسات والشخصيات الثقافية مثل: The Co-nyvess Culture Freedom، ودوريات مثل: Commentary im-counter، وفى السبعينيات بدأ هذا التيار يؤكد نفسه ويلتقى أساسا حول معارضة التوجه الذى بدأ يتطور فى السياسة الخارجية الأمريكية الذى تبنته إدارة نيكسون وكيسنجر لإعادة ترتيب العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وهو ما تبلور فى مفهوم سومر الوفاق بهدف نقل هذه العلاقة من مرحلة المواجهة إلى مرحلة الحوار والتفاوض والتعامل مع قضايا سباق التسلح الاستراتيجي والتوغل إلى عدد من الإتفاقيات حول خفضها.

وقد بلغ تيار المحافظون الجدد ذروته فى نهاية السبعينيات حيث توسعت معارضتهم للعلاقات مع الاتحاد

السوفيتي واتفاقيات الحد من الأسلحة الأستراتيجية SALT وكان آخرها قد تم التوصل إليه «جيمي كارتر وبرجنييف عام ١٩٧٩» وإلى جانب معارضتهم لسياسات كارتر «الرخوة» اعتبروا أن استمراره في عملية الوفاق تمثل تنازلاً أخلاقيا واستراتيجياً للاتحاد السوفيتي الذي يستخدمها لتوسيع نفوذه واكتساب مواقع على حساب الولايات المتحدة.

ومع اقتراب معركة الرئاسة في نهاية السبعينيات كان المحافظون الجدد قد بلوروا مفاهيمهم ونظرياتهم حول المبادىء الآتية:

١ - أن الاتحاد السوفيتي هو قوة تكمن فيها العدوانية وبصورة لا يمكن تغييرها أو إصلاحها من خلال المفاوضات أو الاتفاقيات وإنما من خلال مواجهته من موضع القوة وممارسة ضغوط جادة ومتماسكة عليه تجبره على تغيير طبيعته، فجوهر الصراع مع الاتحاد السوفيتي يكمن في هياكل نظمه وسياساته وهو بالتالي صراع لا يحل بمجرد تطويعه Mellowing وانما سوف ينتهي بموت أحد النظامين أو تحوله.

٢ - إن مصدر المشكلة بالنسبة للولايات المتحدة هي في القيادة الضعيفة وليس نتيجة ضعف كامن في أمريكا التي مازالت تحتفظ بالقدرة على أن تظل الأمة المسيطرة في العالم إلا أن هذا يتطلب الرجوع إلى القيم التقليدية التي تلهمها وقيادات قوية توقف الاتجاه نحو الاضمحلال.

٣ - إن النضال الأساسي في العالم المعاصر هو بين الحرية والعبودية، وفي هذا النضال فإن أمريكا هي الحاملة لشعل الحرية بينما



الشيوعية، وبالتحديد الاتحاد السوفيتي هي تجسيد للعبودية.

٤ – إن الدفاع القومي هو الشرط الرئيسي القوة والمكانة الأمريكية وأنه إذا أريد وقف تراجع وضع أمريكا الدولي فإن القوة العسكرية والبناء العسكري يجب أن يكون الأولوية المطلقة.

٥ – إن الولايات المتحدة ليست هي المسئولة أو المطالبة بالتكيف مع العالم، إن أمريكا القوية الواثقة من نفسها هي التي ستجعل العالم يتكيف معها (!).

بهذه المفاهيم وقف تيار المحافظين الجدد بكل قوتهم وراء المرشح الجمهوري في انتخابات عام ١٩٨٠ رونالد ريجان وكانوا وراء نجاحه وبحيث تبنى أجندتهم في مراجعة سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتي ووقف محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية والأهم من ذلك أنه، وخاصة في عهد ولايته الأولى ١٩٨٠ – ١٩٨٤، قد شن ودخل في مواجهة أيديولوجية وسياسية وسباق للتسلح وطبق أكبر ميزانية للتيار العسكري في تاريخ الولايات المتحدة، وكان طبيعيا أن يحتل عدد من رموز هذا التيار مناصب مؤثرة في إدارة ريجان من أمثال ريتشارد ابيرل، واليوت ابزمتر، وجن كيركباتريك، وبفعلهم تبلورت مفاهيم استراتيجية مثل مبادرة الدفاع الاستراتيجي. Stratigic Defense Iniutive Sdi والتي اعتبرت من أكثر أدوات إدارة ريجان في المواجهة مع الاتحاد السوفيتي، واليها وأول خدمة السياسات التي اتبعتها للضغط على الاتحاد السوفيتي، يرجع هذا التيار ويفاخر بأن لهم الفضل في انتهاء الحرب الباردة بالشكل الذي انتهت إليه ليس فقط بتطويع واحتواء الاتحاد السوفيتي وانما باختفائه من المسرح الدولي.

وفي متابعة أصول ومصادر تيار المحافظين الجدد وتحالفه مع قوى أخرى، من المهم أن نشير إلى ارتباطين أساسيين الأول هو ارتباطه بتيار اليمين المسيحي وشخصياته من أمثال جيري فالديل وباث روبرتسون وحيث كانوا من الشخصيات المقربة إلى إدارة ريجان والبارزة في مؤتمراتها، وليس مصادفة أن تكون هذه الشخصيات نفسها من الشخصيات المقربة للرئيس الحالي، ومثلما يرتبط المحافظون الجدد واليمين المسيحي، سيرتبط بالعديد من المنظمات اليهودية المتطرفة كذلك كان الحال في عهد ريجان مع منظمات مثل بناي بريث الأمر الذي جعل مصالح إسرائيل وأمنها من ركائز إدارة ريجان وسياستها الشرق أوسطية وبفعلها نشأ مفهوم التوافق الاستراتيجيي -Sratigic Consem sus ثم تطوره إلى مفهوم. التحالف الاستراتيجي والذي أصبح الأساس الذي ستبنى عليه العلاقات الأمريكية الإسرائيلية في الإدارات التالية.

ارتفاع سطوة المحافظين الجدد

غير أن المكانة التي اكتسبها

المحافظون الجدد وفكرهم في عهد إدارة ريجان لم يشأ لها أن تستمر أو تتأصل في عـهـد إدارة جـورج بوش ١٩٨٨ - ١٩٩٢، ذلك أن الرئيس الجديد بخبرته الطويلة في الشئون الدولية ودرايته بقضاياها المعقدة لم يشأ أن يرتبط بفكر المحافظين الجدد وساعد على هذا انتهاء الحرب الباردة ومناخها ووجود الاتحاد السوفيتي الذي كان يشجع ويغذي هذا الفكر، ورغم وجود شخصيات في إدارته تمثل هذا الفكر مثل بول وولفيتز الذي كان وكيلا لوزارة الدفاع لشئون السياسات، إلا أن المناصب المؤثرة في السياسة الخارجية مثل وزارة الخارجية والأمن القومي والبيت الأبيض شغلتها شخصيات متوازنة مثل جيمي بيكر، وبرنت سكوكرفت. ورغم هذا فإن ممثلي هذا التيار ظلوا يرفضون بفكرهم ومشروعاتهم حيث قدم أثنان من ممثليهم وهم بول وولفيتز، وأي لويس ليبي عام ١٩٩١ إلى البنتاجون «دليل السياسات الدفاعية عن الاستراتيجية الأمريكية خلال عقد التسعينيات»، وهو الدليل الذي قام على ثلاث ركائز:

١ - ضمان التفوق العسكري الأمريكي.

٢ - العمل على منع قيام قوة أخرى تنافس الولايات المتحدة في وضعها الدولي العالمي كما خرجت به بعد الحرب الباردة.

٣ - امكانية قيام الولايات المتحدة بعمليات وقائية Preventive strikes ضد أخطار محتملة.

وفي عام ١٩٩٧ جدد هذا التيار جهوده لتقديم مفاهيمه الاستراتيجية والأمنية حيث قدم مشروعا عرف بـ «مشروع القرن الأمريكي الجديد» والذي ركز على وجوب تبني سياسة أمريكية شجاعة تعتمد على السيطرة العسكرية الأمريكية كذلك ظل هذا التيار خلال التسعينيات يطالب بتكثيف القوة العسكرية الأمريكية لضمان استمرار الوضع الأمريكي المتضرر لما بعد الحرب الباردة ولقيادة العالم في القرن الـ ٢١. غير أن إدارة كلينتون لم تستجب لهذه المشروعات حيث كان لها أجندتها وفكرها الخاص الذي كان يركز على النمو الاقتصادي وبناء التحالفات والمنظمات الدولية الاقليمية التي تخدم أهداف الولايات المتحدة التجارية مثل منظمة التجارة العالمية، ومنظمة NAFTA بينها وبين كندا والمكسيك، ومنظمة IPAC.

غير أن فرصة المحافظين الجدد قد حانت وتجددت مع مجيء إدارة جورج بوش في يناير عام ٢٠٠٠ . ذلك أنه لم تمض عدة شهور على تولي الإدارة إلا وكان هذا التيار وممثلوه قد احتلوا مناصب مؤثرة في وزارة الدفاع، والخارجية،



ومجلس الامن القومى، والبيت الابيض، شخصيات من أمثال: دوجلاس فايث، دافيد وورمتر، وبول ولفيتز، وريتشارد بيرل، وجون بولتون، واليوت ابرامز، وتم جولجن - وقد تعاون هؤلاء كذلك بشكل وثيق مع عدد من مراكز البحث المؤثرة . كما يلاحظ ارتباطهم الوثيق بأعنف الدوائر الإسرائيلية ذات الميول الجابوتنسكية وتقف ميولها متعارضة تماما مع ما يعلنه الرئيس الأمريكى عن رؤيته لدولة فلسطينية، ومما يجدر ذكره فى هذا الشأن فإن شخصيات منهم مثل فايث وولفيتز وبيرل هم أنفسهم الذين يقول عنهم ادوارد سعيد أنهم «وبشكل علنى طالبوا بضم إسرائيل للضفة الغربية وغزة، ودعوا إلى وقف اتفاقيات أوسلو واعتبروها فى غير صالح إسرائيل، ودعوا إلى الاستمرار فى بناء المستوطنات كما عملوا كمستشارين شخصيين لنيتانياهو خلال حملته الانتخابية عام ١٩٩٦».

وفى تأمل المشروعات التى قدمها هذا التيار خلال التسعينيات مثل مشروع «وبعد السياسات الدفاعية»، «مشروع القرن الأمريكي الجديد»، سوف نكتشف توافقها على الاستراتيجية الأمنية التى تبعتها إدارة بوش الحالية والتى تبلورت فيما عرف «باستراتيجية الأمن القومى»، والتى أعلن عنها فى سبتمبر ٢٠٠٢ وكان أبرز عناصرها : ضمان التفوق العسكرى الامريكى، وضمان استمرار الهيمنة الامريكية ومنع اى قوة أو قوى اخرى من أن تنافس الولايات المتحدة على موقعها المنفرد فى العالم، ثم تبنيها لمفهوم الضربات الاستباقية . وهو المفهوم الذى طبقته عمليا فى افغانستان والعراق.

وواضح أن أحداث ١١ سبتمبر وما فعلته فى العقلية والتفكير الامريكى ونظرتها لنفسها وللعالم وهزها المفاهيم الامنية والتقليدية، قد جاءت لكى تقدم دعماً قوياً لفكر المحافظين الجدد ومنطلقاتهم الاستراتيجية، ويخشى المراقبون أن يأتى الانتصار السريع والسهل الذى حققته العملية العسكرية فى العراق لكى يفتح شهية هؤلاء ويؤكد مكانتهم فى السياسة الخاصة الأمريكية وتوجيهها. غير أنه إذا كان هذا هو انطباع اللحظة الراهنة فإن من يفكرون من المنظور الدائم والطويل لا يرون مستقبلاً لمثل هذا التيار فى السياسة الأمريكية إذ سوف تكتشف أنه يضعها فى مواجهة مع العالم، ويعقد ويؤثر علاقاتها مع حلفائها، ويقوض تدريجيا مصادر قوتها، وسوف يبدو يوما بعد يوم أن هذا التيار يتغذى على ثلاثة عوامل غير طبيعية: الخوف المرضى من الارهاب وأسلحة الدمار الشامل، والسذاجة والتعصب.



كيف تفكر أمريكا؟!

استراتيجية الأمن القومى الأمريكى وآفاق الهيمنة الأمريكية

بقلم

محمود عزمي



تولى جورج بوش ، الأب ، (الرئيس الأمريكى الحادى والأربعون ١٩٨٩ - ١٩٩٣) رئاسة الولايات المتحدة فى ٢٠ يناير ١٩٨٩ . وفى يوم ١٩٩٠/٣/٩ جددت إدارته الحملة الإعلامية المضادة لليبيا متهمة إياها مرة أخرى بتصنيع أسلحة كيميائية فى مصنع «الربطة» . وفى ١٩٩٠/١/٤ مدد الرئيس بوش العمل بالعقوبات الاقتصادية الأمريكية على ليبيا بحجة : «أنها لا تزال تلجأ إلى الإرهاب الدولى وتدعمه» واعتبر بوش ، فى رسالتين قدمهما إلى الكونجرس بمناسبة تمديد العقوبات ، أن : «التصرفات والسياسات الليبية تشكل تهديدا غير عادى وغير طبيعى للأمن القومى الأمريكى والمصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية فى مجال السياسة الخارجية» .

وفى ١٩٩١/١١/١٤ فاجأت إدارة بوش العالم بإعادة فتح ملف حادث طائرة «بان أمريكا» ، ولمحت إلى احتمال شن عدوان عسكرى على ليبيا . ونجحت



فى استصدار قرار مجلس الأمن رقم ٧٣١ ، يوم ١٩٩٢/١/٢١ ، الذى طالب ليبيا بتسليم المتهمين بتفجير الطائرة المذكورة إلى السلطات الأمريكية والبريطانية . ووقتها حض أحد المسئولين فى إدارة بوش على العمل لإطاحة العقيد القذافى مذكرا بأن وزارة الدفاع الأمريكية قدرت القوة اللازمة لاحتلال ليبيا فى العام ١٩٨١ بنحو ٩٠ ألف جندى

وفى ١٩٩٠/٨/٢ اجتاح العراق الكويت فبدأت بذلك «أزمة الخليج» ، التى تحولت إلى «حرب الخليج» الثانية ، بعد انقضاء مهلة «الفرصة الأخيرة» فى ١٩٩١/١/١٥ ، التى كان الرئيس بوش قد أعلنها غداة صدور قرار مجلس الأمن رقم ٧٦٧ فى ١٩٩٠/١١/٢٩ الذى أتاح «للأمم المتحدة» استخدام القوة العسكرية لتنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولى الأحد عشر السابقة المتعلقة بإدانة الاجتياح العراقى للكويت وضرورة الانسحاب غير المشروط من أراضيها إلخ .

وكانت حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ هذه ، التى حقق فيها بوش انتصارا عسكريا متألقا ، تطبيقا واضحا من قبل بوش (الأب) لمبدأ كارتر فى حماية المصالح الحيوية الأمريكية فى منطقة الخليج العربى والشرق الأوسط .

وتمشيا مع سياسة فرض الهيمنة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط ، بعد انتهاء حرب الخليج الثانية ، وإرساء حق التدخل الأمريكى فى شئون دولها الداخلية بحيث يبدو ذلك أسلوبا طبيعيا لا يثير ردود فعل سياسية من قبل حكومات وشعوب دول المنطقة ، أقدمت الولايات المتحدة (وشاركتها بريطانيا ، ومازالت ، فى التنفيذ) ، يوم ٨ أبريل ١٩٩١ ، على إقامة «منطقة حظر طيران» . (محمية جوية) شمال خط عرض ٣٦ بشمال العراق . وذلك بعد يومين من أمر الولايات المتحدة للعراق بإنهاء كافة النشاطات العسكرية ، بما فيها طلعات الطيران العراقى المضادة للتمرد الكردى الانفصالى على السلطة المركزية العراقية ! ثم فرضت «محمية جوية» ثانية مماثلة ، يوم ١٩٩٢/٨/٢٧ ، فوق المنطقة الواقعة جنوب خط العرض ٣٢ الذى يمر بمدينة النجف فى جنوب العراق لحماية تمرد السكان الشيعة !.

مبدأ مونرو ، مزيد من الاستعمار الاستيطانى وفرض الهيمنة

فى بيان إلى الكونجرس يوم ٢ ديسمبر ١٨٢٣ ، أعلن الرئيس جيمس مونرو (الرئيس الأمريكى الخامس ١٨١٧ - ١٨٢٥) بيانا ، عرف فيما بعد بـ «مبدأ مونرو» ، تضمن فيه ثلاثة توجهات رئيسية للسياسة الخارجية الأمريكية آنذاك كان أولها : أن «العالم الجديد» ، أى القارات الأمريكية ، لم يعد متاحا لمزيد من الاستعمار الأوروبى .

وثانيها : عدم السماح بأى تدخل أوروبى فى شئون حكومات النصف الغربى من الكرة الأرضية ، ومحاولة فرض نظامهم على أية دولة مستقلة منها . وبالتالى فإن الولايات المتحدة سوف تعتبر مثل هذا التدخل تهديدا لسلمها وأمنها الخاصين ومن ثم فإنها ستتصدى لمثل هذه التدخلات الأوروبية . وثالثها : امتناع الولايات المتحدة عن التدخل فى الشئون السياسية الأوروبية . ومن ثم كان «مبدأ مونرو» يقضى ، أساسا ، بتركيز سيطرة الولايات المتحدة الكاملة على القارة الأمريكية الشمالية ، مع التوسع فى الوقت نفسه فى السيطرة على أمريكا الوسطى والجنوبية ضمن جهودها فى السيطرة على «السوق القومى» ، وحمايته من مزاحمة الرأسمالية الأوروبية والآسيوية القادمة من وراء المحيطات التى تفصلها عن بقية العالم .

وقد مثل «مبدأ مونرو» ردا أمريكيا على التوسع الروسى فى منطقة ألاسكا بأقصى شمال قارة أمريكا الشمالية من جهة ، ومن جهة أخرى - أكثر أهمية - تصديا للخطر المفترض من أن دول القارة الأوروبية سوف تتدخل فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية لتعيد إلى أسبانيا مستعمراتها المتمردة التى حصل معظمها على استقلالها عام ١٨٢٢ نتيجة احتلال فرنسا النابليونية لاسبانيا وحرب الاستقلال التى أعقبته (١٨٠٤ - ١٨١٤) وما ترتب على ذلك من اضطرابات سياسية .

وفى بداية القرن العشرين تقريبا تولى الرئاسة الأمريكية تيودور روزفلت ، نائب الرئيس مكينلى ، يوم ١٩٠١/٩/١٤ ، أثر وفاة الأخير نتيجة إطلاق الرصاص عليه يوم ١٩٠١/٩/٦ . وكان تيودور روزفلت (الرئيس الأمريكى السادس والعشرون / جمهورى / ١٩٠١ - ١٩٠٩) يؤمن ، فى مجال السياسة الخارجية ، بأن الأمم القوية هى التى تبقى ، فى حين أن الأمم الضعيفة تفنى . ولهذا عمل بكل جهد على تطوير القوة العسكرية الأمريكية عامة ، والبحرية منها خاصة، بحيث أصبحت البحرية الأمريكية ، فى نهاية عهده ، قوة بحرية رئيسية . ولذلك عمل على شق قناة تربط بين المحيط الأطلنطى - عبر البحر الكاريبى - والمحيط الهادئ . ولهذا وقع ، فى نوفمبر ١٩٠٣ ، معاهدة مع جمهورية بنما فى أمريكا الوسطى ، توفر للولايات المتحدة حقوقا دائمة فى السيطرة على شريط طويل من الأرض عرضه ١٠ أميال (أكثر قليلا من ١٦ كم) لشق القناة المطلوبة . مقابل ١٠ مليون دولار تدفع فورا ورسم سنوى قدره ٢٥٠ ألف دولار بعد تسع سنوات . وقد افتتحت قناة بنما للملاحة فعليا عام ١٩١٣ .

وقد لاحظ روزفلت فى مجال تطور صراع القوى الدولية أن ألمانيا أصبحت تشكل تهديدا كامنا للولايات المتحدة ، خاصة من حيث احتمال توسعها فى البحر الكاريبى وأمريكا اللاتينية (الجنوبية) . ولذلك انتهج سياسة تطوير لمبدأ مونرو أوضحها للمرة الأولى فى خطابه السنوى للكونجرس عام ١٩٠٤ ، حيث قال إنه حيث أن الدول الأوروبية قد تبرر دخلها العسكرى فى شئون دول النصف الغربى للكرة الأرضية بدعوى إهمالها سداد ديونها المستحقة للدول الأوروبية، فإن الولايات المتحدة توضح أن مبدأ مونرو قد حرم التدخل الأوروبى فى شئون دول النصف الغربى للكرة الأرضية ، وليس

تدخل الولايات المتحدة في الشئون الداخلية لهذه الدول ، وذلك لأنها ستمارس دور قوة بوليس دولى في هذه المنطقة ضد مثل هذه التداخلات ، وستؤمن في الوقت نفسه وفاء هذه الدول لالتزاماتها الدولية وتطبيقا لهذه السياسة أجبر روزفلت جمهورية دومينيكان على تعيين مستشار اقتصادى امريكى فى العام ١٩٠٥ ، سرعان ما أصبح بعد ذلك المدير المالى لهذه الدولة الصغيرة القريبة من كوبا ، لحين أن يتم تعويض الدائنين الأجانب عن ديونهم المستحقة! وقد عرف تطوير روزفلت هذا لمبدأ مونرو بـ «نتائج روزفلت المترتبة على مبدأ مونرو» .

هذا وقد أصبحت سياسة التدخل الأمريكى فى شئون الدول الأمريكية الأخرى ، المترجمة عمليا بتفسيرين مختلفين ، جزءا من سياسة الجار الطيب التى انتهجها فى الثلاثينات من قبل الرئيس فرانكلين روزفلت (الرئيس الأمريكى الثانى والثلاثين /ديمقراطى / ١٩٣٣ - ١٩٤٥) .

وهكذا ظل «مبدأ مونرو» يشكل المؤثر الرئيسى للسياسة الخارجية الأمريكية قرابة قرن كامل تقريبا .

السياسة الخارجية والأمن القومى الأمريكى ١٩١٤ - ١٩٤٥

ومع بداية القرن العشرين بدأت الرأسمالية الأمريكية ، بعد أن توفرت لها عوامل النمو الصناعى والمالى والعسكرى ، فى التطلع إلى خارج حدودها القارية ، لفتح الأسواق الدولية أمام منتجاتها المتزايدة . ولقد عبر الرئيس ويليام مكينلى (الرئيس الأمريكى الخامس والعشرون / جمهورى/ ١٨٩٧ - ١٩٠١) ، عن هذا التوجه على صعيد السياسة الخارجية الأمريكية فى تصريح له عام ١٩٠١ قال فيه : «إننا وصلنا إلى درجة من فائض الإنتاج ، تتطلب منا أن نفتح لهذا الفائض أسواقا جديدة تستوعبه . لكى لا نواجه مرحلة من الكساد الاقتصادى قد تقضى على نمو وتطور بلادنا» .

وقد شاركت الولايات المتحدة بعد ذلك فى المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، ولكن دورها السياسى الخارجى بقى محدودا وتغلب عليه سياسة «أنصار العزلة» الذين يرون عدم التورط فى مشكلات سياسية خارج القارتين الأمريكيتين .

ثم نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، التى سيطرت ألمانيا خلال سنتيها الأوليين (١٩٤٠ - ١٩٤١) على معظم القارة الأوروبية . دون أن يحرك ذلك الولايات المتحدة إلى المشاركة فيها . واقتصر دورها على تقديم بعض المساعدات العسكرية إلى بريطانيا دون مقابل فورى ، وفقا لقانون الإعارة والتأجير الذى أصدره الرئيس فرانكلين روزفلت فى ١٩٤١/٣/٨ ، إلى أن هاجمت اليابان قاعدة «بيرل هاربور» البحرية الأمريكية فى جزر هاواى بالمحيط الهادئ يوم ١٩٤١/١٢/٧ . فاضطرت الولايات المتحدة إلى المشاركة فى الحرب بكامل قدراتها العسكرية والاقتصادية .

وقد قيل بعد الحرب إن الرئيس روزفلت تغافل عن عمد - رغم علمه المسبق بنوايا اليابان - عن اتخاذ إجراءات فعالة مسبقة ضد الهجوم الياباني المحتمل حتى يتيح الفرصة لنجاح الهجوم ، وبذلك تتوفر له الظروف السياسية الملائمة للتغلب على «أنصار العزلة» في الكونجرس وإدخال الولايات المتحدة طرفا في الحرب العالمية الثانية .

مبدأ ترومان ، الاحتواء

خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية قوية سياسيا وعسكريا واقتصاديا بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخها ، دون أن تلحق أراضيها أو مدنييها أية أضرار مباشرة نظراً لبعدها عن متناول الطائرات والسفن الألمانية أو اليابانية ، ومن ثم برز دورها كقطب رئيسي في التوازن الاستراتيجي العالمي . في مواجهة المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفييتي . وبدأت مرحلة «الحرب الباردة» والتدخلات العسكرية الامريكية الخارجية المباشرة في آسيا (التي بدأت بالحرب الكورية ١٩٥٠ - ١٩٥٣ ثم الحرب الفيتنامية - الأمريكية ١٩٦٥ - ١٩٧٥ التي قتل خلالها ٨٥ ألف أمريكي) . وضمن هذه الأوضاع السياسية والعسكرية طرح الرئيس هاري ترومان (الرئيس الأمريكي الثالث والثلاثون / ديموقراطي / ١٩٤٥ - ١٩٥٣) يوم ١٩٤٧/٣/١٢ ، أمام الكونجرس ، مبدأ جديداً في السياسة الخارجية الأمريكية اقترن باسمه ، هدفه صيانة المصالح الأمريكية ، والنفوذ الامريكي المستجد ، عن طريق محاربة امتداد الشيوعية في جنوب شرق أوروبا (وغيرها من المناطق) ، تحت ستار صيانة السلام العالمي ، لمناسبة حصوله على موافقته لتقديم عون عسكري وشبه عسكري لتركيا واليونان قيمته ٤٠٠ مليون دولار ، وكانت تركيا تتعرض وقتئذ لضغوط سوفييتية بسبب الملاحة في مضيق الدردنيل ، كما كانت اليونان تخوض غمار حرب عالمية يلعب فيها الحزب الشيوعي اليوناني دوراً رئيسياً ، وذلك بعد أن أعلنت بريطانيا - صاحبة النفوذ التاريخي في الشرق الأوسط والبحر المتوسط - أنها لم تعد قادرة على تقدم مساعدات اقتصادية لدول حوض البحر المتوسط .

وهكذا كرس «مبدأ ترومان» بصورة حاسمة انتهاء عصر «العزلة» و «التدخلات العابرة» وافتتح عصر المسئولية الأمريكية العالمية . واقترن المبدأ المذكور بسياسة «الاحتواء» التي مارستها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، لوقف التغلغل الشيوعي في أوروبا خاصة وكسياسة عالمية عامة . فجاء «مشروع مارشال» (١٩٤٧) ، و «منظمة حلف شمال الأطلسي» (١٩٤٩) ، بمثابة تطبيق اقتصادي وعسكري أشمل لمبدأ ترومان ، وكان التجلي الأمثل لتطبيق «مبدأ ترومان» في الشرق الأوسط هو تشكيل دولة اسرائيل وتحول الولايات المتحدة إلى مصدر الدعم الرئيسي لبقائها واستمرارها .

وفي ١٩٤٩/٩/٢٣ فجر الاتحاد السوفيتي قنبلته الذرية الأولى ، منهيا بذلك الاحتكار النووي الأمريكي ، ثم فجر قنبلته الهيدروجينية الأولى في ١٩٥٣/٨/١٢ . وقد دفع هذان الحدثان النوويان المهمان ، بالإدارات الأمريكية المتتالية إلى إعادة النظر بمرتكزات استراتيجية الأمن القومي الأمريكي التي لحقت بها ، منذ ذلك الحين .



تطورات مستمرة ومتلاحقة ، تجاوبا مع التغييرات فى التكنولوجيا ، ومع التعقد المتزايد فى فهم المشكلات الاستراتيجية ، ارتبط ابرزها بأسماء بعض الرؤساء الأمريكيين .

مبدأ إيزنهاور وملء الفراغ

بعد فشل العدوان الثلاثى على مصر العام ١٩٥٦ أملت الولايات المتحدة فى وراثة نفوذ الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية فى الشرق الأوسط . لذلك أعلن الرئيس الأمريكى دوايت ايزنهاور (الرئيس الأمريكى الرابع والثلاثون / جمهورى ١٩٥٣ - ١٩٦١) ورقة عمل بخصوص الخطوط العامة للسياسة الأمريكية الجديدة فى «منطقة الشرق الأوسط» ، بعد أن وافق عليها الكونجرس يوم ١٩٥٧/١/٥ ، عرفت بمشروع أو «مبدأ ايزنهاور» وقد قامت فكرته الرئيسية على ما عرف بنظرية «ملء الفراغ» فى منطقة الشرق الأوسط للحيلولة دون دخول الاتحاد السوفييتي لشغل مراكز الاستعمار القديم الشاغرة . وذلك بعد أن شكل تزويد الاتحاد السوفييتي لمصر بالأسلحة وفقا لصفقة الأسلحة المصرية التشيكية، التى أعلن عنها يوم ١٩٥٥/٩/٢٧ . بداية خطر الوجود السياسى والعسكرى للاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط . والذى عززه الإنذار السوفييتي لدول العدوان الثلاثى (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) على مصر ، يوم ١٩٥٦/١١/٥ ، بضرورة وضع حد نهائى للعدوان إلا استخدم القوة لسحق المعتدين وضرب لندن وباريس بالصواريخ . وذكر إيزنهاور ، فى ورقته هذه، أنه سوف يستخدم القوة العسكرية لحماية أى دولة مستقلة فى الشرق الأوسط تطلب العون الأمريكى .

وأبرز تطبيقات «مبدأ إيزنهاور» فى الشرق الأوسط كان إنزال نحو ١٥ ألف جندى من قوات مشاة البحرية الأمريكية على شواطىء بيروت بلبنان يوم ١٥ يوليو ١٩٥٨ ، بطلب رسمى مسبق من الرئيس اللبنانى كميل شمعون فى رسالة بعث بها إلى الرئيس إيزنهاور يوم ١٥ يونيو (وكذلك وصول نحو ٢٢٠٠ من قوات المظليين البريطانيين إلى عمان بالأردن)، لردع المد القومى العربى ، المتعاطف مع الرئيس المصرى جمال عبدالناصر، من تهديد البلدين وبقية دول المنطقة العربية بعد إقامة الوحدة المصرية - السورية فى ١٩٥٨/٢/٢٢ ، وحدوث الثورة العراقية بزعامة عبدالكريم قاسم فى ١٩٥٨/٧/١٤ .

كما مهد «مبدأ إيزنهاور» الطريق للتدخل العسكرى الأمريكي فى جنوب شرقى آسيا . وأدى إلى حالة استقطاب حادة فى منطقة الشرق الأوسط بين الاتجاهات والنظم الراديكالية (بزعامة عبدالناصر) والاتجاهات والنظم المحافظة المرتبطة بالحليف الأمريكى .وكان من نتائج هذا حرب اليمن (١٩٦٢-١٩٦٧) وحرب ١٩٦٧ .

مبدأ نيكسون، والإنابة المدعومة

ونتيجة لفشل الولايات المتحدة فى فيتنام. بعد نحو ست سنوات من تدخلها

العسكرى هناك ، أعلن الرئيس ريتشارد نيكسون (الرئيس الأمريكى السابع والثلاثون/ جمهورى / ١٩٦٩-١٩٧٤) فى رسالة عن «الوضع العالمى» لعام ١٩٧١ - بإيحاء من مستشاره لشئون الأمن القومى هنرى كيسنجر - عن ضرورة إيكال مهام حربية معينة لبعض «الدول الصديقة» (أساسا دول فى آسيا) ، نيابة عن «الولايات المتحدة» ، والاعتماد على «الشركاء» المحليين لقمع ثورات الشعوب فى العالم كله بدعم مادى وتكنولوجى من الولايات المتحدة . ولذلك عرف فكرته السياسية هذه بـ «مبدأ نيكسون» والإنابة المدعومة».

وهكذا تراجع «مبدأ نيكسون» خطوة إلى الوراء بالنسبة لـ «مبدأ ترومان» الذى طالب الولايات المتحدة ، باعتبارها «قائدة العالم الحر» باحتواء الشيوعية فى العالم كله ، إذا اقتصر «مبدأ نيكسون» على مطالبة دول فى آسيا (كوريا الجنوبية ، الصين الوطنية. فيتنام الجنوبية.. الخ) بأن تضمن أمنها الداخلى والاستعداد للدفاع عن نفسها ضد جميع القوى الدولية الرئيسية تقريبا.

وشهدت منطقة الشرق الأوسط تطبيقا لمبدأ نيكسون فى التحركات «المكوكية» لهنرى كيسنجر من أجل : «أن يقرر الشرق أوسطيون مستقبل الشرق الأوسط» ، برعاية «العراب» الأمريكى بالطبع.

مبدأ كارتر ، «حذاء اليانكى» فى الشرق الأوسط

ومع بداية السبعينات ، وخاصة بعد حرب ١٩٧٣ التى قطع خلالها تصدير النفط من الدول العربية، بدأ بعض المستشارين والخبراء الأمريكيين يتحدث بوضوح عن أنه : «إذا تعاظم اعتمادنا على النفط الخارجى، أو تدهورت سيطرتنا فى السياسة الخارجية والنفوذ الدولى ، فإن البديل قد يكون إرسال حملة عسكرية إلى الشرق الأوسط، تجعل فيتنام تبدو - بالمقارنة - كنزهة» . وتصاعدت هذه الاتجاهات فى السياسة الخارجية الأمريكية فى عهد إدارة الرئيس جيمى كارتر (الرئيس الأمريكى التاسع والثلاثون/ ديموقراطى/ ١٩٧٦-١٩٨٠) ، خاصة بعد قيام الثورة الإيرانية فى ١٩٨٩/١/١٦ واحتجاز الرهائن فى السفارة الأمريكية بطهران فى نوفمبر ١٩٧٩ . ثم بدء التدخل العسكرى السوفييتى المباشر فى أفغانستان يوم ١٩٧٩/١٢/٢٧ . ولذلك أعلن الرئيس كارتر، فى خطابه عن أوضاع الاتحاد الأمريكى والسياسة الخارجية يوم ١٩٨٠/١/٢٣ . أن «أية محاولة من قبل قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسى سوف تعتبر هجوما على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية ، وسوف يتم الرد على مثل هذا الهجوم بأية وسائل ضرورية، بما فى ذلك القوة العسكرية» . وأطلق على هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الخارجية الأمريكية اسم «مبدأ كارتر».

وتطبيقا لهذا المبدأ بدأت القيادة العسكرية الأمريكية، منذ ١٩٨٠/٣/١، تشكيل «القوة المشتركة للتدخل الأمريكى السريع»، التى ضمت فى أوائل العام ١٩٨١ (عندما تولى رونالد ريجان الرئاسة الأمريكية) أكثر من ٢٠٠ ألف جندى (بينهم ١٠٠ ألف من القوات البرية ، و٥٠ ألف مشاة البحرية، والباقى من القوات الجوية وأفراد البحرية) ،

وجرى تدريبها وفقا لظروف دولية مشابهة لمنطقة الخليج العربى خاصة والشرق الأوسط عامة . وكذلك جرى تعزيز الوجود العسكرى البحرى الأمريكى فى المحيط الهندى، والبحث عن تسهيلات وقواعد عسكرية فى البلدان المعنية والقريبة منها. وتمت زيادة ميزانية الدفاع الأمريكية عن عام ١٩٨٠ بنسبة ٢٠٪ ، فبلغت ١٠٦ بلايين دولار.

هذا وقد تم فى عهد الرئيس كارتر التوصل إلى اتفاقية جديدة للحد من الأسلحة الاستراتيجية ، وهى «سالت -٢»، مع الاتحاد السوفييتى ، وجرى التوقيع عليها مع الرئيس بريجنيف في فينا يوم ١٨/٦/١٩٧٩.

استراتيجية ريجان ، التطويق والمجابهة

تسلم الرئيس رونالد ريجان (الرئيس الأمريكى الأربعون / جمهورى/١٩٨١-١٩٨٩) السلطة فى ٢٠ يناير عام ١٩٨١ ، ممثلا للتيارات اليمنية والمحافظة في الدائرة الحاكمة الأمريكية، وملتزما ببرنامج سياسى واضح، قوامه داخليا إقالة عثرة الاقتصاد الأمريكى ، وخارجيا محاولة تطبيق استراتيجية «استعادة عظمة أمريكا» ، أى بسط سيطرتها وهيمنتها فى مختلف أنحاء العالم . ويمكن اختصار هذه الاستراتيجية «استعادة عظمة أمريكا» ، أى بسط سيطرتها وهيمنتها فى مختلف أنحاء العالم . ويمكن اختصار هذه الاستراتيجية فى اعتبار العالم ينقسم إلى لونين فقط : الأبيض «نحن» والأسود «هم» . و«هم» مقصود بها الاتحاد السوفييتى والمعسكر الاشتراكى أولا، ثم كل من لايخضع لابتزاز القوة ولا ينصاع للمصالح الأمريكية، أى حركات التحرر الوطنى والدول الساعية إلى الاستقلال أو التى تتناقض - ولو جزئيا - مع المخطط الأمريكى للسيطرة على العالم.

واستندت هذه الاستراتيجية بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتى، والمعسكر الاشتراكى ، إلى أسلوب التطويق والمجابهة ، وعدم اقتصار المجابهة على المجال العسكرى وحده، وإنما تمتد إلى كل الميادين التجارية والغذائية ونقل التكنولوجيا وإثارة الخلافات والصراعات داخل «الكتلة الشرقية» الخ ، وذلك فيما أطلق عليه «استراتيجية التطويق والمجابهة» والسعى ، فى الوقت نفسه ، إلى خلق «سلسلة مترابطة من الأقاليم الاستراتيجية فى العالم» بحيث يقتضى أمن كل منها تحقق الأمن الشامل للمنطقة الأخرى ، فيما عرف باستراتيجية «الترابط الإقليمى» .

والجدير بالذكر أن إدارة ريجان كانت قد أعلنت ، عند تسلمها السلطة ، عن تمسكها بالأفكار الرئيسية التى تضمنها «مبدأ كارتر» وعن تعهدها باستكمال بناء قوة الانتشار السريع ، وذلك انطلاقا من قناعة ذات شقين :

أولهما : إن مصلحة الغرب تحتم الحفاظ على خيار إبقاء أية مواجهة عسكرية بين الشرق والغرب فى نطاق الشرق الأوسط فقط دون تطرقه إلى أوروبا .

ثانيهما : إن الوصول إلى هذا الهدف كان يستلزم احتفاظ الحلفاء الأطلسيين بمكونات مقدرة عسكرية ضاربة فى مسرح الشرق الأوسط ، تمكنهم من مجابهة

الأزمات دون حاجة إلى الاستعانة بالقوات الموجودة على المسرح الأوروبى .

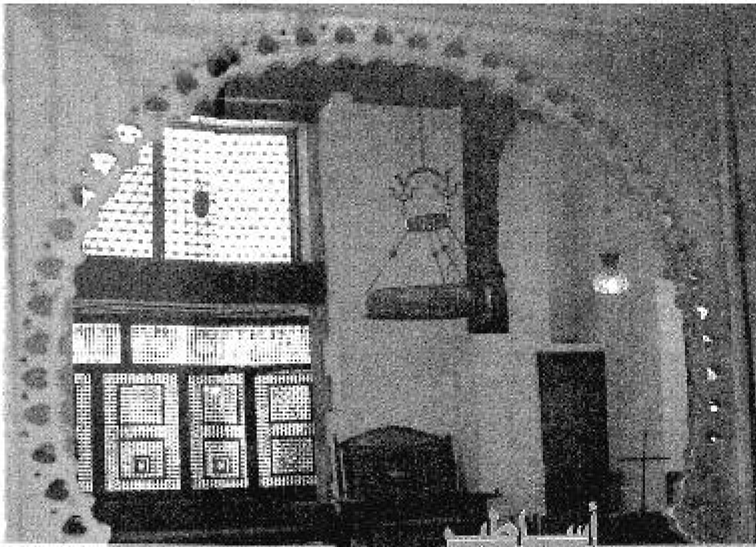
ومن ثم قامت إدارة ريجان بدفع «مبدأ كارتر» إلى حده الأقصى من الناحية العسكرية ، وذلك فى إطار تصعيد التسلح فى شتى المجالات . وكان من نتائج ذلك ، مثلا ، زيادة التحرش السياسى مع الجماهيرية الليبية الذى كان الرئيس كارتر قد بدأه بإغلاق السفارة الأمريكية فى طرابلس عام ١٩٧٩ (التى أحرقها المتظاهرون الليبيون بعد ذلك فى العام ١٩٨٠) وذلك من خلال التحرشات العسكرية مع ليبيا ، التى بدأت بالاشتباك الجوى فوق خليج سرت الليبى ، الذى جرى يوم ١٩٨١/٨/١٩ ، وأسفر عن إسقاط مقاتلتين ليبيتين من طراز « سوخوى -٢٢» . ثم مهاجمة الطائرات الأمريكية لقاعدة صواريخ ليبية مضادة للطائرات فى سرت وتدمير أربعة زوارق بحرية ليبية على امتداد يومى ٢٤ -٢٥ مارس ١٩٨٦ . ثم مهاجمة الطائرات الأمريكية لمنشآت عسكرية ومدنية ليبية فى طرابلس وبنغازى (بما فى ذلك مقر إقامة الرئيس القذافى فى «باب العزيزية» بطرابلس) يوم ١٥ أبريل ١٩٨٦ ، ردا على قنبلة ألقاها مجهول على ملهى «لابيل» الليلى فى برلين الغربية ليلة ١٩٨٦/٤/٥ قتل بسببها جندى أمريكى . وذلك بالإضافة إلى إعلان الإدارة الأمريكية ، فى ١٩٨٦/١٢/٧ ، فرض عقوبات اقتصادية وعسكرية على ليبيا . وقد تمت كل هذه الاعتداءات والإجراءات بدعوى أن ليبيا تشكل «بؤرة» مهمة للإرهاب الدولى يجب ضربها .

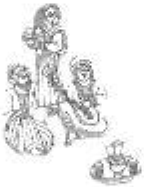
ولم تشأ إدارة ريجان أن تنهى ولايتها الثانية قبل أن تجدد تحرشاتها واعتداءاتها على ليبيا ، وتمهد لعدوان جديد عليها بدعوى بناء مصنع للأسلحة الكيميائية فى منطقة «الربطة» على بعد ٦٠ كلم جنوب غرب طرابلس وذلك فى أواخر العام ١٩٨٨ . مستغلة فى ذلك حادث سقوط طائرة ركاب أمريكية تابعة لشركة «بان أمريكان» فوق بلدة «لوكربى» فى اسكتلندا يوم ١٩٨٨/١٢/٢١ . وعشية عقد مؤتمر باريس الدولى بخصوص انتشار الأسلحة الكيميائية ، فى الفترة ٧-١١ يناير ١٩٨٩ ، أسقطت المقاتلات الأمريكية من طراز «ف - ١٤» ، يوم ١٩٨٩/١/٤ ، مقاتلتين ليبيتين من طراز «ميج - ٢٣» أثناء قيامهما بدورية استطلاعية عادية فوق مياه البحر المتوسط بدعوى أن الطائرتين قامتا بتحد عدوانى للقوات الأمريكية التى كانت تقوم بمناورات روتينية فى البحر المتوسط !

الصراع بين الخير والشر

وفى ضوء المواقف السياسية العربية والدولية التى أدانت حادثة إسقاط الطائرتين الليبيتين ، ونتائج مؤتمر باريس ، تراجعت إدارة ريجان عن ضرب مصنع «الربطة» الذى كانت تهدد بتدميره «وتلقين طرابلس درسا» .

والجدير بالتذكير أن الرئيس ريجان وصف الاتحاد السوفييتى ، فى خطاب له يوم ١٩٨٣/٣/٨ بفلوريدا ، بـ «إمبراطورية الشر» . وذلك فى إشارة إلى الفكرة الدينية من أن هناك صراعا بين «الخير» و«الشر» على الأرض . ■





أساطير

بيت الكريتلية

منى عبد الحميد

تصوير: نسرين شوقي

مرويات قديمة عن الحي المبارك والجبل المقدس والجامع المطهر

خرافات شعبية حول البيت المسكون والبئر المسحور، والحيات الطيبة

«اسمع يا صاحبي حكايات البيت العتيق بيت الكريتلية، الذي توارثه أجدادي من زمن بعيد..»

هكذا بدأ الشيخ سليمان يسرد للضابط الإنجليزي جاير أندرسون عن معجزات تخرق العادة وتضاهي الخرافة. تحكي تاريخ الحي المبارك وجبله «يشكر» والبركة التي حلت عليه وعلى أهله وظلت تلازمهم. وعن مرويات موروثة كلها خيالات تفوق غرابة قصص ألف ليلة وليلة: عن «البيت المسكون» و«البئر المسحور» و«الحيات الطيبة».

صدر حديثا كتاب «أساطير بيت الكريتلية» لكاتبه جون جاير أندرسون عن دار شرقيات. ورد فيه سرد أربع عشرة أسطورة خرافية، تناقلها أهالى حى السيدة زينب عبر الزمان، بمصاحبة رسومات توضح تفاصيل كل أسطورة ويقترب شكلها من المنمنمات الفارسية القديمة. لذا لم يكن صدور هذا الكتاب ليمر مرور الكرام خاصة أنه يقدم للقارىء المصرى والعربى محاولة جادة لتسجيل كنز ثمين من التراث الشعبى الشفهى، الذى بدأ يأخذ طريقه إلى الزوال والاندثار، برغم كونه جزءا رئيسيا من تاريخ وتراث الأمم المتحضرة.

صدر الكتاب لأول مرة باللغة الإنجليزية خلال فترة الخمسينيات من القرن الماضى فى بريطانيا فى طبعة محدودة ونفدت، لذا فإن تقديمه بعد مضى أكثر من خمسين عاما وقيام تامر الليثى بترجمته هى محاولة تستحق الوقوف أمامها. نظرا لأهمية تلك الحكايات الخرافية فى تكوين الجزء الكبير من ثقافة البسطاء من البشر. بل ومكمن عظمة تلك المرويات الشفهية أنها تحكى كل ما يحتفظ به هؤلاء البسطاء من خيالات، ترتبط فى أذهانهم بمكان ما لتضفى عليه روح القداسة وتحيله إلى محراب بعيد المنال، قريب من القلب، لذا فهى علاقة يشوبها دائما الخرافة والعجيبة حتى تظل مكانة أبطالها منيعة لا ينافسها شىء آخر.

والحكايات التى ورد ذكرها فى الكتاب تشبه أساطير ألف ليلة وليلة وتتخذ بعضها. آيات قرآنية كسند لمرجعيتها التاريخية. تدور حول جبل «يشكر» أعلى جبال مصر المحروسة كما ورد فى الكتاب وجامع «أحمد ابن طولون» ثالث جامع بنى فى مصر الإسلامية بعد جامعى «عمرو بن العاص» و«العسكر» والأكبر مساحة (٦.٥ فدان) والأقدم الباقى على حالته الأصلية، والمبنى على الطراز العباسى، حيث نشأ «بن طولون» فى مدينة «سامراء» واقتبس تصميم مئذنة جامعة منها كما تدور حول بيت الكريتليه، وهو عبارة عن بيتين متصلين. أنشأ الأول الحاج «محمد بن سالم بن جلمام الجزار» عام (١٠٤١ هـ ١٦٣١ م)

واشتهر باسم بيت الكريتليه وسكنته سيدة من عائلة تنتمي لجزيرة كريت. أما المنزل الثاني فبناه المعلم عبدالقادر الحداد عام ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) باسم امنه بنت سالم ، وهي تنتمي إلي نفس العائلة.

أما جامع الأساطير فهو جون جاير أندرسون طبيب بالجيش البريطاني جاء إلى مصر عام ١٩٠٦ ليلتحق بالعمل بالجيش المصري. وهو آخر من أقام داخل البيتين قبل أن يؤولا كمتحف للحكومة المصرية في عام ١٩٤٥ . أما الشيخ سليمان الكريتلي آخر سلالة عائلة الكريتلية . والتي اندثرت بعد وفاته. وهو الخادم الوراثي لضريح «سيدي هارون الحسيني» وهو شيخ صوفي!

استطاع «أندرسون» أن يقيم معه علاقة صداقة ويستنطقه بالحكايات التي توارثها عن أجداده ويفصح عن الأساطير التي ظل أهل البيت والحي يتداولونها فيما بينهم، يتناقلونها شفاهة أبا عن جد. لكن دون أن يتجرأ أحدهم على تدوينها .

وقام «أندرسون» بتدوينها في كتاب منذ ستين عاما مضى. وكلف أحد الفنانين من أبناء الحي وهو «عبدالعزيز عبده القاهري» برسم أساطير بيت المرأة الكريتلية وحفرها على أطباق نحاسية لاتزال معروضة داخل متحف البيت . كما توجد الرسومات الأصلية في ألبوم يمتلكه متحف «فكتوريا وألبرت» في «لندن» كان القاسم المشترك في خلفيات رسومات «عبدالعزيز» هي أربع موتيفات رئيسية . جامع بن طولون ممثلة في مئذنته الشهيرة ، والبيت بنوافذه وأبوابه المقوسة المميزة، وضريح سيدي هارون الملاصق للمنزل، والشجرة المدببة شعار عائلة «أندرسون» .

والطريف أن مكان الخرافة لايزال ماثلا علينا في قلب القاهرة . الجامع والبيت والضريح في حي السيدة زينب الشهيرين، وداخل البيت متحف «جاير أندرسون» الذي تعتبر زيارته ومشاهدة

المؤلف في البيت ١٩٢٤



الشيخ



الفنان





غرفه استكمالا للأساطير المتداولة والمدونة فى الكتاب.

جامع العجائب

هناك مقولة «للإدريسى» أحد المؤلفين المصريين فى القرن السابع الهجرى «١٣ م» وهى «كل من لا يتطلع للعجائب يكون عقله خائب» مقولة تنطبق على شخصية «أندرسون» فهو لم يكن مجرد جامع للتحف والآثار، لكنه أدرك أهمية تدوين الحكايات الخرافية والعجيبة التى كان يسردها الشيخ سليمان الكريتلى، وإن كان قد أهمل أجزاء كبيرة منها كما ذكر فى كتابه «كان الشيخ يميل إلى التكرار وادخال كثير من تاريخ عائلته فى رواياته . لم أحاول أن أقاطع حديثه، وإن اكتفيت بتدوين ما ظننته مثيرا.. ويضيف لم اجمع جزءا كبيرا من هذه الحكايات لكونها تافهة أو مملة أو مكررة فقمت بحذفها».

ونجده يصف نفسه فى كتابه بأنه مستشرق مولع بالشرق قضى معظم أعوام حياته جامعا للتحف منها ٣٦

عاما قضاها فى القاهرة.

تبدأ قصة ارتباطه ببيت الكريتلية عندما قام بزيارة جامع أحمد بن طولون. وانبهر بالمنطقة المحيطة به ذات الدلالة الدينية الكبيرة حيث تقع مساجد وأضرحة آل البيت «زينب / نفيسه . عائشة / سكينة . رقية» إلا أن إنبهاره اتجه نحو البيت الحجرى الأشبه بالقلعة الحصينة ويلتصق بالجامع. بيت الكريتلية أحد أجمل ما تبقى من نماذج البيوت الإسلامية القديمة. وظل على ولعه بالبيت حتى تكررت زيارته للجامع بعدها بـ ٢٩ عاما عندما شاهده بعد خضوعه لعمليات ترميم واسعة من قبل لجنة حفظ الآثار الإسلامية عام ١٩٣٥ وبالفعل تقدم «أندرسون» بطلب إلى الحكومة المصرية لتسمح له بالإقامة فى البيت خلال الفترة المتبقية من حياته مجانا بدون إيجار فى مقابل أن يعاد الى الدولة المصرية بعد موته معدا ومجهزا بمجموعة من التحف الإسلامية الكبيرة. واعتمد على نفوذه لتأتى الموافقة على طلبه ويصبح البيت ملكا له فى اكتوبر ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٤٢ عندما اعتلت صحته واضطر لترك المنزل والسفر إلى انجلترا ووفاته فى «لافنهام» عام ١٩٤٥.

ولع الاقتناء

داخل البيت بدأ رحلته مع الغرائب والعجائب. فاشتهر بغرابة الأطوار واهتماماته المتعددة. وكان يهوى الاقتناء فحرص عى شراء الأثاث ، والمفروشات والأبواب وشبابيك البيوت الإسلامية القديمة المجاور والتى بدأت عمليات إزالتها تنتشر خلال القرن الماضى. كما حرص على شراء الأدوات والأشياء الغريبة من تجار «الروبابيكيا» والعاديات . مثل أدوات الموازين النحاسية والمعدنية والتى كان التجار والباعة الجائلون يستخدمونها فى الماضى. أو إقتناء عدد كبير من كراسى الولادة القديمة وهى كراسى خشبية كانت تستخدم فى عملية توليد النساء وفق طقوس معينة تقوم بها «القابلة» منحوت عليها نقوش وأدعية وتعاويذ، بل قام باستجلاب غرفة نوم كاملة من خارج مصر مثل الغرفة الدمشقية التى استوردها من سوريا من بيت قديم يرجع الى القرن «١٧م» وأعاد



بناءها داخل البيت مرة أخرى. علاوة على قيامه بتأسيس غرف على طرز معمارية وتيمات مختلفة مثل الغرف «الصينية / التركية . الفارسية / الانجليزية. غرف الملكة آن» وحرص على اقتناء مجموعة من القطع الفرعونية، وتوابيت المومياوات . وشواهد القصور يرجع تاريخها الى العصر القبطي والإسلامي والمنسوجات والأيقونات القبطية علاوة على التحف واللوحات الأوروبية.

ومن غرائبه اقتناء مجموعة في التمائم والاحجبة التي صنعت من الاحجار المختلفة مثل الحجر الصوان والبازلت والتي تستخدم في حماية الأطفال من الحسد.. وإن كان اهم ما يميز البيت مجموعات من المشربيات التي تحفظ داخلها القلل لتبريد ماء الشرب لها» والمشرفيات التي تطل منها النساء دون أن يراها احد. فقد أحاط «أندرسون» السطح بمشرفيات متميزة بخشب خرط وزخارف وكتابات نسخية مثل «لا إله إلا الله» وغيرها من بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: «وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب» - ١٣ الصف كما حرص على عمل بورتريهات من الجبس لكل الاشخاص الذين يقومون على خدمته حتى وصل عددهم الى ١٥٠٠ قناع جصي تبقى منها ١٥ قناعا فقط. ومعروض منها خمسة بالمتحف داخل حجرة الولادة واشهر تلك الاقنعة كان لخادمه النوبي دبيش الذى عشقه وقام أيضا برسم بورتريه له يتسم بالجمال وعلقه داخل غرفته الخاصة التي خصصها للقراءة ويؤكد لنا نيكولاس وارنر الذى قام بترميم البيت بمشاركة حفيد اندرسون أنه كان شخصا غريب الأطوار يعشق الوحدة ويقدس الحجر والأشياء أكثر من البشر. وولعه بالاقتناء فاق كل تصور. ولم يكن يسمح لأحد من خدمه ان يقيم معه في البيت. ويرى نيكولاس أن قصر المدة التي أمضاها داخل البيت لم تمنعه من تكوين مجموعات فنية أثرية نادرة يصعب أن يقتنيها شخص عادي طوال حياته. ويذكر ان اندرها واجملها معروض دخل حجرتي العرائس والولادة. الأولى





معروضة بها متعلقات يومية كانت النساء تستخدمها مثل القنينات الزجاجية والامشاط المصنوعة من خشب الابنوس ومجموعة ضخمة من الملاعق الخشبية والعاج والصدف. اما الحجرة الثانية فهى الاكثر غرابة وثار حولها جدل كبير حيث تضم مجموعةمن الدمى الصغيرة المصنوعة من العاج والخشب، ومنها ما هو ملفوف بقطعة قماش متهالكة وبالية ، يرى نيكولاس انها عرائس كانت تستخدم فى أعمال السحر والشعوذة وهذا يتنافى مع ما تردد بأنها عرائس يلعب بها الأطفال، بل إن اندرسون كان يهوى اقتناء «طاسات الخضة» النحاسيةالتى حفرت عليها طلاسم سحرية وأدعية وآيات قرآنية حيث كان الناس قديما يعتقدون فى علاقة الطاسات السحرية بشفاء المريض.

أساطير العالم السحري

كل أسطورة أو حكاية تتخذ لها نقطة ارتكاز تقوم عليها داخل العالم



الروحانى السحرى. فنجد كثيرا منها ترتكز على خرافة او عالم الجن او السحر، والشعوذة تدور أحداثها وسط عالم غريب عجيب لا يقبله العقل او العلم الحديث. لكنها تجتمع حول ضرورةوجود العبرة أو الموعظة داخل مضمونها لترشد الإنسان نحو الطريق الصواب.

والأساطير التى دونها أندرسون فى كتابه عبارة عن أربع عشرة أسطورة اتخذت من جبل «يشكر» وجامع «أحمد بن طولون» و«بيت الكرتيليه» نقاط ارتكاز لها وداخلها دارت أحداث تلك الأساطير وسط جو من السحر والغموض وإن كانت دائما تدافع عن الخير وتحارب الشر بمختلف صوره. أربع من تلك الأساطير تحكى عن بركة جبل «يشكر» وتحكى تاريخ الحى المبارك الموجود فيه هذا الجبل والذى تبارك به. فهو الذى رست فوقه سفينة نوح بعد الفيضان وهو نفس الموقع الذى تحكى الأسطورة الثانية ان الله اوحى لإبراهيم بأن يذبح ابنه اسماعيل فوقه لكن ملاكا

طاهرا نزل من السماء حاملا كبش فداء فسجد ابراهيم شاكرا ومن هنا جاء اسم الجبل. وبنى عدها أهل الحى اكبر قلعة اسموها قلعه «الكبش» أما الأسطورة الثالثة فهى عن «مصطبة» فرعون العتيقة حيث وقف سيدنا موسى ملك السحرة ليقابل اعوان فرعون الكفرة ويهزمهم، وهو نفس المكان الذى تجلى فيه الله لسيدنا موسى فى صورة شجره مشتعلة ومكانها بنى ابن طولون.. مسجده بعدها بآلاف السنين وبرغم انها أساطير غير صحيحة من الناحية الدينية او التاريخية لكنها تمنح البسطاء قناعات بقدسية المكان الذى يعيشون بجواره وهذا ينطبق على الأساطير التى دارت حول جامع ابن طولون. نفسه كما رواها الشيخ سليمان فتحكى الأسطورة ان السلطان العظيم بنى جامعه عندما سمع عن بركة «يشكر» فأحضر الجزار وذبح اربعة خراف بعث بلحم كل واحد منها الى مكان وقد ظل لحم الخروف الموضوع على جبل «يشكر» «طازجا» لأربعة ايام فى حين فسد الباقى خلال يومين فقط.. فأمر السلطان بتفكيك سفينة «نوح» المستقرة على قمة الجبل واخذ خشبها العتيق ونقشه بالخط الكوفى بآيات قرآنية. وامر بتعليقها على حائط الجامع. اما الأسطورة الاخرى فتحكى انه اثناء البناء ظهر ملك الجان لابن طولون وأرشده على كنز مدفون على أن يصرف المال على جامعه والبنائين وتؤكد الحكاية ان المتبقى من المال لايزال موجودا ومحفوظا فى دهليز طويل ومنسى مردوم يصل بيت الكريتليه بالجامع.

سحر البئر المبارك

وتذكر أسطورة اخرى أن الجد الأعظم لعائلة البيت قرر أن يبنيه حول بئر الوطاويط وذلك البئر المبارك الموجود منذ أيام طوفان نوح . وقيل أن أمير الجان هو الذى أوحى له بأن يبنى بيته فى هذا المكان ودفع ثمن بنائه وزخرفته الفاخرة وأخرى عن الثعبان الطيب الذى سكن البيت ليحميه ويبعد عنه الحيات ويصد الشر والجن والعين. لينام اصحابه أمنين ونجدها فى حكايات البئر التى لا تنتهى خاصة ان بيت الكريتليه من النماذج المعمارية النادرة فى



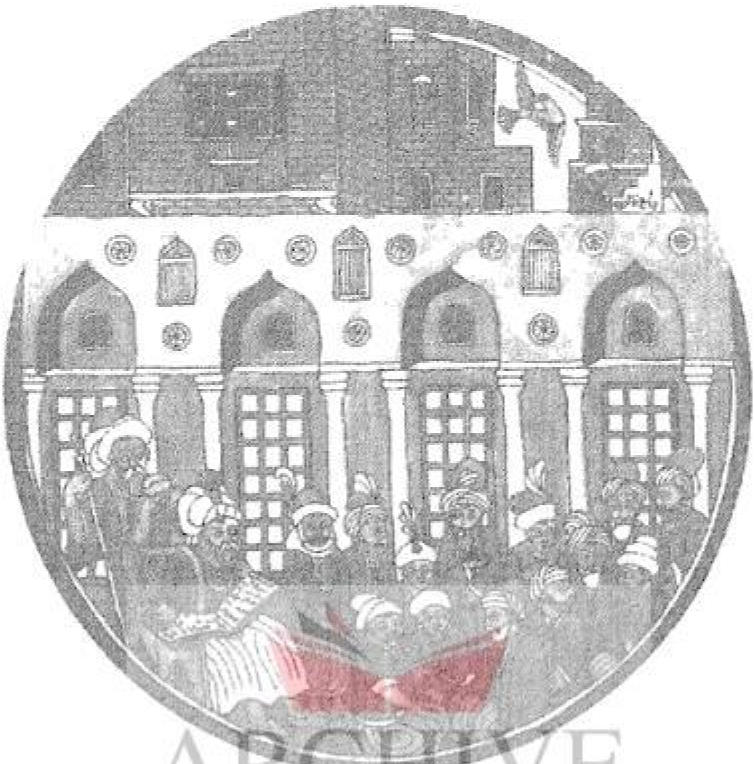
تصميمات المنازل الإسلامية القديمة ففى الماضى كانت الأسبلة والآبار يتم بناؤها منفصلة وقائمة بذاتها بعيدا عن المنازل يعلوها طابق مخصص للكتاتيب وتعليم القرآن الكريم ولكن هذا البيت النموذج الوحيد داخل القاهرة والذى يحوى البئر داخله كما يؤكد الأثرى احمد سعد مدير متحف أندرسون وبالطبع هذا قد زاد من الأساطير حوله. خاصة ان البئر كان دائما موطنا لعالم الجن ومعقلهم الرئيسى من خلال أساطير القصص الشعبى. فنجد إحدى الأساطير تحكى عن أرملة غنية سكنت البيت مع ابنتها الحسناء «لطيفة» والتى ضاهى جمالها البدور عندما نظرت الى جوف البئر هاج ماؤه وبدأ يفيض خارجه ، وأخذت تطاردها خارج البيت ، مندفعة نحو الحارة ومنها الى الخليج القديم، حيث استقرت وسط مائه.. وأطلق أهل الحى على الطريق الذى سلكته المياه سكة بئر «الوطاويط» وتحدثت اسطورة اخرى عن سكان البئر سلطان الوطاويط وبناته السبع الحسان نائمات على أسرتهن الذهبية لا يقدر أحد ان يوقظهن ووالدهن ساحر يحميهن بالسحر. وأخرى تؤكد ان بالبئر كنز مدفون مسحور كان سلطان الجان يساعد به الأرامل واليتامى بأن يضع داخل دلو المياه قطعة ذهب او فضة تفك ضيقهم وتوسع رزقهم.

وتسرد الحكايات مزيدا من سحر الوطاويط بانه اذا قام احدهم بزيارة البئر فى ضوء البدر الكامل المنير وألقى بحصاه فى جوف البئر وانصت الى وصولها للقاع بعدها تهدأ الأمواج وتزول الشوائب سيرى حينئذ بعين الفؤاد صورة محبوبة على مرآة وجه الماء.

سيدي هارون

وعن المقام الملاصق لبيت الكرتلية فهو لسيدى هارون الحسينى يذكر الشيخ سليمان فى روايته انه احد احفاد الرسول عليه السلام، وكان الضريح قد خضع لعملية إعادة بناء خلال عمليات ترميم المنزل فى الثلاثينيات فى القرن الماضى من قبل لجنة حفظ الآثار الإسلامية ووجوده يضفى مزيدا من الأجواء الأسطورية خاصة أن أهالى الحى كانوا يحتفلون بمولده حتى وقت قريب





وبالطبع فإن هناك حكايات كثيرة عن كرامات سيدى هارون أهمها أنه ابن الشهيد الحسين حفيد الرسول الذى استشهد فى مدينة «كربلاء» وأن وجوده اضفى على الحى بهجة وكرامات كثيرة تصل الى حد أنه يشفى من الأمراض، وينجى من المهالك، ويحمى من الشرور ومن أغرب كراماته حكاية اللص الشرير الذى جاء ليسرق البيت لكن سيدى هارون حفظ البيت أمنا وأفقد اللص بصره وأضل طريقه جزاء على عمله.

وفى ختام سرده لحكايات وأساطير «بيت الكرتيلية» دعا الشيخ «سليمان» قائلا : «والآن يا صاحبى العزيز ها أنذا أكملت لك حكايات البيت التى طلبتها وأكملت لها تاريخ الحى الطويل. ذلك الركن المبارك فى القاهرة المحروسة .. قل ربنا بارك فى حينا وأصحابه وناسه وصلوا معى على أشرف المرسلين خير الأنام وبدر التمام سيدنا محمد عليه أفضل السلام».

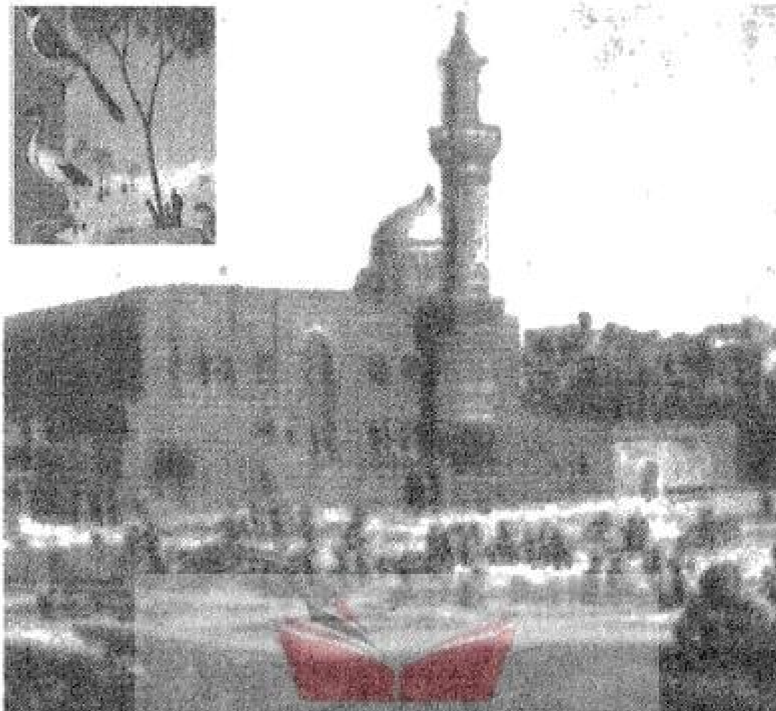
وصف مصر

دائرة معارف مصرية كتبت بأيد فرنسية

بقلم

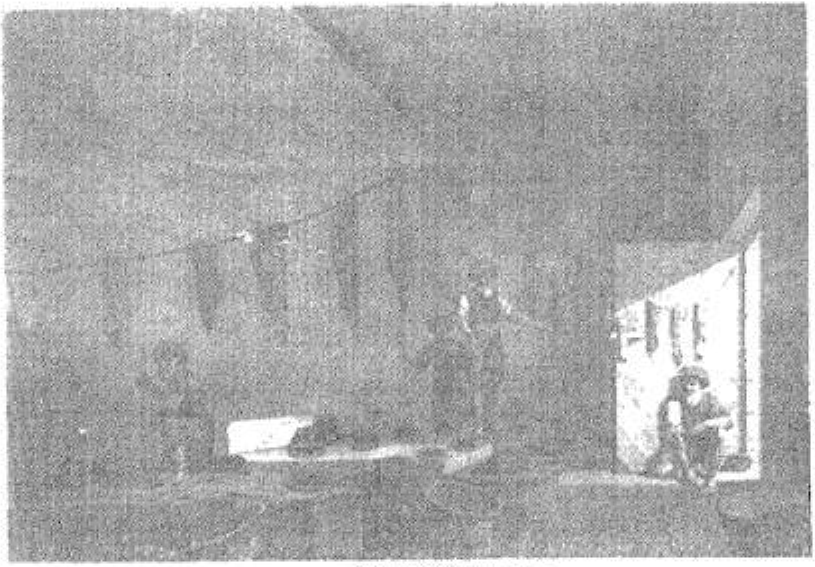
د. عبدالمنعم الجميعى

ترجع فكرة إصدار هذه الموسوعة الضخمة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية تحت عنوان: وصف مصر Desc irption De L' Egypte والتى تعد وبحق إنسيكلوبيديا مصرية. تتحدث عن تاريخ مصر وجغرافيتها وتصف آثارها وتربتها ونيلها وترعها وموارد ثروتها الحيوانية والنباتية والمعدنية، ومناخها وعادات أهلها ترجع إلى الجنرال «كليبر» الذى وجه النظر إلى ذلك فى أمر أصدره بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٧٩٩ إلى ضرورة تأليف لجنة من أعضاء المجمع العلمى لدراسة آثار مصر القديمة وأحوالها، وشئونها الحديثة فقام أعضاء المجمع



آثار مصر الإسلامية كما صورها كتاب «وصف مصر»

بالاشتراك مع لجنة العلوم والفنون بدراسة ذلك الموضوع وتوزيع المهام فيما بينهم، فأحضروا البحوث التى كانوا قد جمعوها عن تاريخ مصر وجغرافيتها، والمذكرات التى كتبوها، والخرائط التى رسموها، والانطباعات التى احتفظوا بها وما وقع تحت أبصارهم من آثار وعمارة وفنون وثروات طبيعية، وما عرفوه من أحوال أهلها وعاداتهم وبدأوا فى العمل على إصدار هذا الكتاب الذى لقيت فكرة تأليفه أشد الترحيب من «بونابرت» القنصل الأول لفرنسا فى ذلك الوقت.

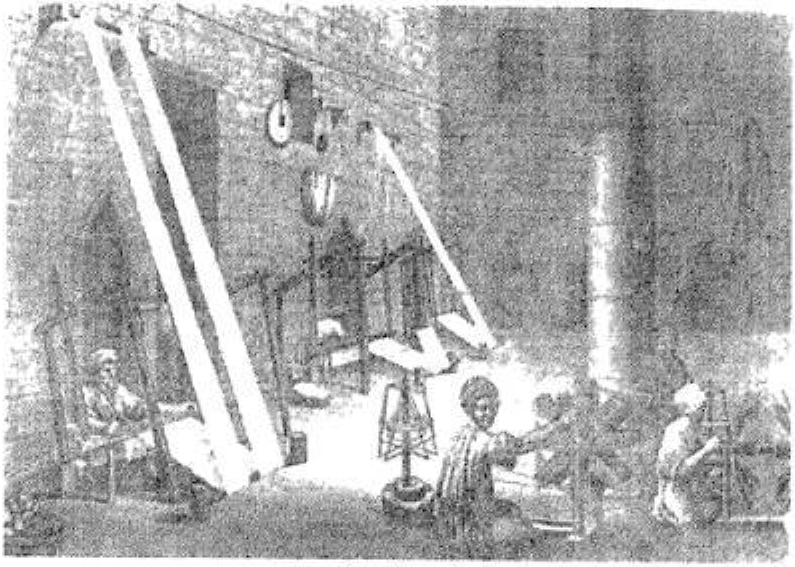


محل صبغ الاقمشة والملابس

وعلى الرغم من رحيل الحملة فى عام ١٨٠١م وانقطاع كل صلة لها بمصر فقد استمر العمل فى المشروع خاصة أن «نابليون بونابرت» الذى جذبته مصر بحضارتها وتاريخها وجمال طبيعتها والذى كان يرغب فى ربط صورته بالشرق كأسطورة جديرة بالتمجيد فى ذاكرة الشعب الفرنسى كان حريصاً على استكمال المشروع وظهوره إلى النور، فأصدر قراراً فى ٦ فبراير ١٨٠٢ بأن تقوم الحكومة الفرنسية بنشر هذا الكتاب وأن تتكفل الخزانة العامة بجميع نفقاته، وأن يعطى العلماء المشاركين فى تأليفه المكافآت المناسبة. وإلى جانب ذلك، فقد عهد إلى لجنة من ثمانية علماء للإشراف على تبويب الكتاب وإنجاز العمل فيه وتقدير نفقاته، كما كلفوا بتأليف المقدمة التمهيدية له وكان هؤلاء الثمانية: برتوليه، كونتيه، كوستاز، ديجنت، فورييه، جيرار، لانكريه، مونج: وقد حل جومار وجولوا Jollois. محل لانكريه وكونتيه بعد فترة . كما ضم دليل وشابرول دى فيلليه ديتراج إلى هذه اللجنة فى عام ١٨١٠.

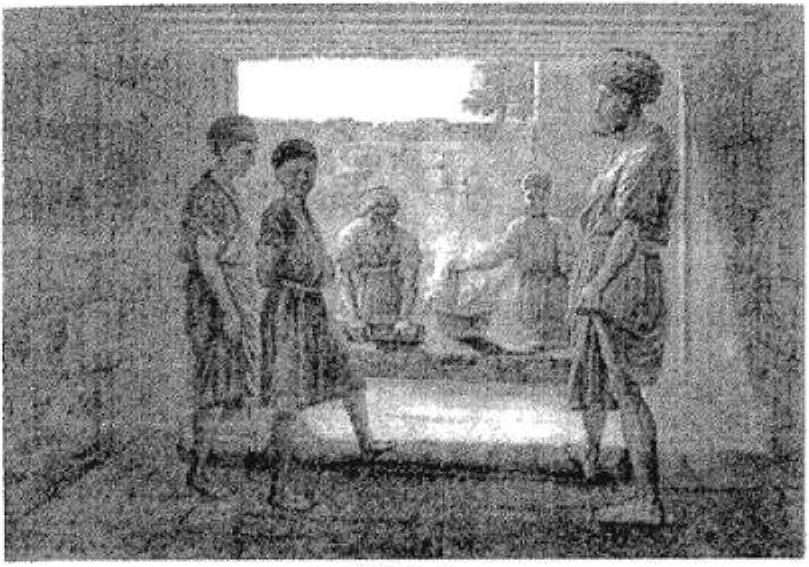
من الفتح العثمانى حتى الحملة الفرنسية

وقد استمر العمل فى هذا الكتاب على قدم وساق وتم تكليف العالم «فورييه» بكتابة المقدمة بنفسه بعد أن أبدى بعض الملاحظات عليها. وقد اشتملت مقدمة «فورييه» على ذكر ما



المنسوجات اليدوية

كانت عليه مصر من الفتح العثماني إلى وقت مجيء الحملة، وتناولت علاقات مصر التجارية بغيرها من البلدان، وأوضحت أهمية موقع مصر بالنسبة للتجارة العالمية ثم انتقلت بعد ذلك إلى ذكر تاريخ الحملة حتى عهد «مينو» ثم رحيلها عن مصر . وقد ظهر الجزء الأول من هذه الموسوعة في عام ١٨٠٩م، وكتب على غلافه أنه طبع بأمر من الإمبراطور نابليون، وحدث ذلك أيضاً على غلاف المجلد الثاني، ثم حالت الظروف السياسية في فرنسا دون نشر بقية أجزائه في عهد الإمبراطورية، فظهر آخر أجزاء هذه الطبعة في عام ١٨٢٢ أي بعد سقوط نابليون. لذلك كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة. وتتألف هذه الموسوعة من تسعة مجلدات تشتمل على مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم ثم أحد عشر مجلدا أخرى تحوى الرسوم والخرائط. وقد أعيد طبع هذا الكتاب في عهد الملك لويس الثامن عشر في عام ١٨٢١ وتم الفراغ من طبع أجزائه في عام ١٨٢٩ وتختلف هذه الطبعة عن الطبعة الأولى في زيادة عدد الأجزاء حيث تتألف من ستة وعشرين مجلدا مع أنها تحوى نفس الدراسات والبحوث التي شملتها المجلدات التسعة في الطبعة الأولى ولكن في مجلدات أصغر حجما. هذا بالإضافة إلى ١١ مجلداً تحوى الرسوم والخرائط وهي المجلدات نفسها التي صدرت مع الطبعة الأولى


مصانع المفروشات

مع اختلافات طفيفة بين الطبعتين تبرز فيما يلى:

١ - إن المجلدين الأولان من الطبعة الأولى أهديا إلى الإمبراطور نابليون، أما الطبعة الثانية فقد قدمت إلى صاحب الجلالة الملك لويس الثامن عشر.

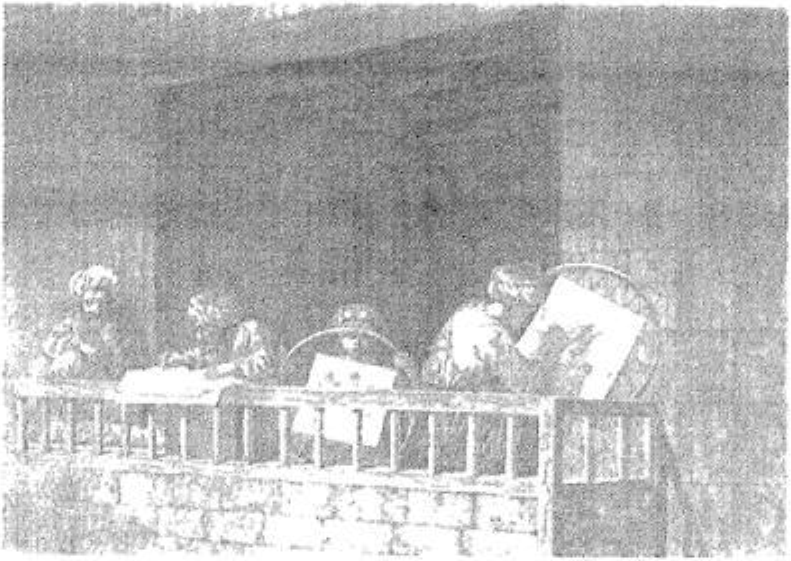
٢ - إن الطبعة الأولى بدأت بمجلدات الدولة الحديثة بينما بدأت الطبعة الثانية بوصف آثار العصور القديمة.

٣ - إن الطبعة الثانية تشتمل على دراسة لم ترد فى الطبعة الأولى وهى عن جامع أحمد بن طولون وحياته وعلى أية حال فإنه يمكن تقسيم موضوعات هذه الموسوعة فى طبعتها الأولى إلى أربعة أقسام: على النحو التالى:

- مجلدات لوصف آثار مصر القديمة، وبها تخطيط دقيق لموقع هذه الآثار وحالتها فى المدن المصرية المختلفة ابتداء من الجنوب عند جزيرة فيلة إلى الشمال حتى الإسكندرية.
- مجلدان لدراسة تاريخ الدولة القديمة حتى بدايات الفتح الإسلامى.
- ثلاثة مجلدات لدراسة الدولة الحديثة من الفتح الإسلامى حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر.
- مجلدان لدراسة التاريخ الطبيعى لمصر وبهما دراسات عن طيور وحيوانات ونباتات وأسماك وحشرات مصر.

صور لمختلف الحياة فى مصر

أما عن المجلدات الخاصة بالصور



الفنانون المصريون

والرسوم واللوحات الفنية والمشاهدات فقد شملت مناظر عن مختلف نواحي الحياة في مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها ومصوروها هذا بالإضافة إلى أطلس جغرافي، وهذه يمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام هي:

١ - مجلد يشمل تقديم اللوحات وشروح لها.

٢ - خمسة مجلدات لرسوم العصور القديمة.

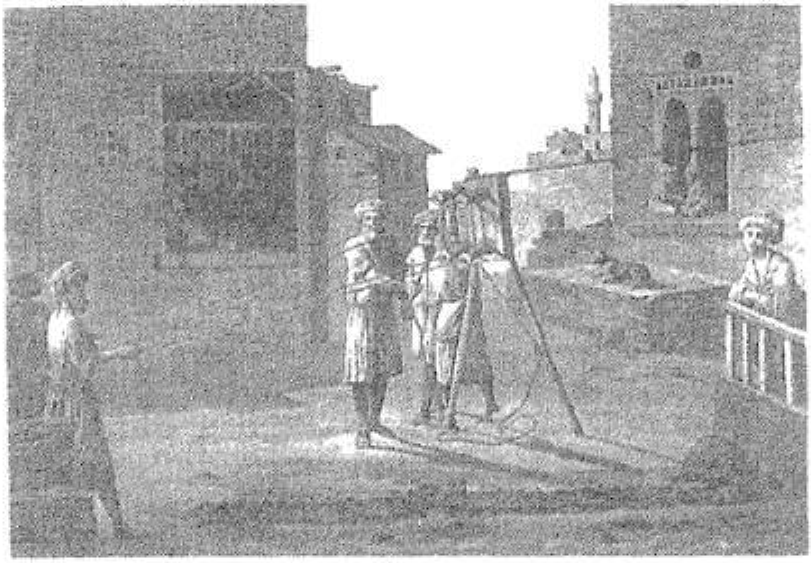
٣ - مجلدان لرسوم وتوضيحات عن مصر الحديثة.

٤ - مجلدان في ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعي.

٥ - أطلس جغرافي ويشتمل على خرائط مفصلة للأقاليم المصرية والشامية.

وهذه المجلدات تقدم في مجملها صورة واضحة لحياة المصريين أثناء وجود الحملة تنم عن دقة في استيعاب الحقائق العلمية، وجهد ضخم بذل لتصوير كل جوانب الحضارة المصرية.

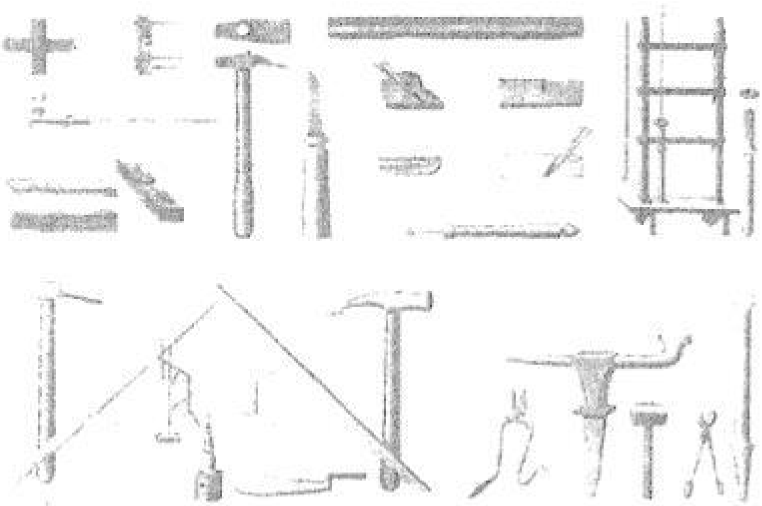
وبالرغم من أهمية هذه الموسوعة التي صورت تفاصيل الحياة المصرية وسجلت كل صغيرة وكبيرة في حياة المصريين بوجهة نظر غير مصرية، وقدمت للعالم فيضاً من المعرفة كان في حاجة إليها فإنها ظلت حوالى قرنين من الزمان في حاجة إلى من ينقلها إلى لغة الضاد، ومع ذلك فقد ترددت العديد من المؤسسات الثقافية في الاضطلاع بترجمتها إلى العربية ونشرها إما لقصور إمكاناتها أو خشية المجازفة في الدخول في مشروع ضخم يصعب التنبؤ



صناعة الحبال

بنجاحه. وقد حاول الأستاذ «زهير الشايب» الذى تحمل عبء هذا العمل وحده إقناع بعض هذه المؤسسات الثقافية بالمساهمة فيه ولما لم يجد استجابة واضحة منها أقدم دون أية معاونة مادية أو أدبية من أحد بل بدافع من ضميره الوطنى وحبه لمصر فى ترجمة أجزاء من هذه الموسوعة الضخمة التى تثبت عبقرية علماء الحملة فى استيعاب الحقائق واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التى جمعوها خلال الفترة القصيرة التى قضوها بمصر (١٧٨٩ - ١٨٠١) كما تؤكد ما تتميز به مصر وحضارتها من عظمة وخلود وعلى الرغم من ذلك فقد عانى المترجم الكثير من المصاعب، والظروف العصيبة والبالغة القسوة خلال قيامه بترجمة هذا الكتاب والتى نتجت عن فصله من عمله من مؤسسة صحفية اعتبرته متغيبا بدون إذن لمدة تزيد على عشرة أيام رغم علمها بقيامه بهذا العمل وحصوله على منحة تفرغ من وزارة الثقافة لمدة عام لإتمامه وتحايله فى بعض الوقت للحصول على وقت لإنجاز هذا العمل الوطنى الكبير، ومع كل ذلك فإن قلبه الذى ينبض بحب مصر، وثقته فى تخطى الصعاب مهما كانت حدتها وقسوتها، وقدرته على الصمود والتحدى أمام الملاحقات الشرسة والظروف الإنسانية بالغة القسوة كل ذلك دفعه إلى استكمال مشواره.

يقول المترجم فى مقدمة الجزء الأول من ترجمته أنه يقدم هذا الكتاب خدمة لمصر والمصريين، وأنه على الرغم من أن



الأدوات التي استعملها المصريون في صناعاتهم المختلفة

وراء هذه المبادرة لترجمة كتاب وصف مصر - ككل مبادرة فردية - دوافعها وأسبابها الخاصة إلا أنها ينبغي أن توضع ضمن إطار أوسع وأشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة لترتبط بذلك الاهتمام الكبير الذي بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر منذ صدمة يونيو ١٩٦٧م والذي زاد بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣م الذي أعاد لمصر بعض توازنها وبعض ثقتها بالنفس، كما أوضح أنه يسعده أن يضع في داخل هذا الإطار ذلك السفر الضخم الذي لا يفوق شهرته سوى طول إهمالنا له.

حياة المصريين

وقد ركز المترجم عمله في ترجمة مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة حيث تناولت حياة المصريين في مختلف مناحيها الاجتماعية والثقافية والحرفية وغيرها فصدر له المجلدات التالية:

١ - دراسات المصريين المحدثون (فبراير ١٩٧٦).

٢ - دراسات عن العرب في ريف مصر وصحراواتها (مارس ١٩٧٨).

٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية (سبتمبر ١٩٧٨).

٤ - موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر (الجزء الأول) الزراعة - الصناعات والحرف والتجارة (نوفمبر ١٩٧٨).

٥ - الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر (الجزء الثاني) النظام المالي والإداري في مصر العثمانية (سبتمبر ١٩٧٩).

٦ - موسوعة الموازين والنقود (يناير ١٩٨٠).

٧ - الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين (ابريل ١٩٨١).

٨ - الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين (أغسطس ١٩٨١).

٩ - الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين (يناير ١٩٨٦).

١٠ - وصف مدينة القاهرة.

ومعنى ذلك أن هذه الموسوعة لم يتم ترجمتها كلها بل قام الأستاذ زهير بترجمة الدولة الحديثة فقط أى ما يعادل ثلث هذه الموسوعة، ولم تمهله الأقدار لاستكمال هذا العمل الكبير حيث توفى فى ٢ مايو ١٩٨٢. ويتبقى من يقوم بترجمة الدولة القديمة والتاريخ الطبيعي بالإضافة إلى اللوحات. وحول استكمال ترجمة هذه الموسوعة وإظهارها إلى الوجود، تنوى السيدة عفت الشريف حرم الأديب الراحل، وابنته منى القيام بها بعد أن تغلغل هذا العمل فى عروقهم منذ سنوات طويلة، وفعلا بدأت المسيرة فى هذا الطريق.

والجدير بالذكر أن الذى كتب مقدمة لجزءين التاسع والعاشر هما السيدة زوجته حيث شاءت إرادة الله أن يجف المداد فى القلم وأن يتوقف النبع عن الجريان وأن يترك المترجم المجلد التاسع والعاشر مخطوطاً دون أن يكتب لهما المقدمة.

ومما يؤخذ على كتاب وصف مصر ما يلى:

١ - أن الدراسات التى اشتمل عليها تتجاوز دون نسق منهجى واضح فمثلا نجد دراسة عن ملح النوشادر تعقبها دراسة عن مدينة القصير، وتليها دراسة عن الضرائب على الأطيان الزراعية ثم دراسة عن مقياس النيل ودراسة عن طيبة إلى جانب مقال عن تربية الدجاج وهكذا.

٢ - الخلط فى أحيان كثيرة بين بعض الطقوس الداخلية على المصريين بل وبعض الممارسات الشاذة، والعقائد والعبادات بشكلها الصحيح.

٣ - وجود بعض أشكال الأفكار المسبقة التى لا تنهض على أساس علمى حقيقى خاصة أن بعض هذه الأفكار لدى الأوروبيين عن المصريين فى القرن التاسع عشر لم يقم العلماء بتمحيصها.

٤ - إن الدراسات فى هذه الموسوعة غير متسقة الحجم فبعضها طويل وبعضها متوسط وبعضها الآخر مجرد ملاحظات لا تستغرق أربع أو خمس صفحات لا يوجد رابطة منهجية بينها.

٥ - وجود تفسيرات متباينة بين بعض الدراسات وتكرار فى بعض الأحيان واختلاف فى البنيان العام للكتاب خاصة أن كل مؤلف عمل بمفرده على الرغم من وجود لجنة لضبط هذه الأمور.

٦ - أن لجنة المؤلفين التى شكلت لوضع هذا الكتاب لم تضع فهرسا له كما أنها لم تنشر أى موجز للكتاب يتيح للقارئ السير على هداه وسط هذا الكم الضخم من المعلومات.

٧ – عدم الدقة في نقل الزخارف الموجودة في عدد من الآثار الإسلامية خاصة مجموعة السلطان حسن المعمارية، وجامع أحمد بن طولون وجامع سنان باشا.

ومع كل ذلك فخلاصة القول أن هذا الأثر العلمي كان وبلا شك من أعظم آثار الحملة الفرنسية ، وابقاها خلوداً على مر الأيام والعصور كما أن ما قام به المرحوم زهير الشايب من جهود ضخمة في الترجمة قد أضفى على هذه الدراسات طابعاً منهجياً وأدبيا واضحاً فعمل على تجميع بعض الدراسات المتناثرة ليتكون هذا العقد الثمين، فقدم ترجمة أمينة نصا وروحاً.

ولم يتدخل في النصوص إلا في أضيق نطاق، وآثر أن يقدم ترجمة أمينة لاعتقاده أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة كل ما يقال عنا لأن الأقوياء لا يخشون معرفة ما يقال بشأنهم، وأن الصمت عن ذلك ليس هو الطريقة المثلى، كما حرص المترجم على اختيار عناوين لدراساته بالشكل الذي يتقبله القارىء لا يمكن أن يستسيغ عنواناً لدراسة يبلغ أحياناً حوالي ثلاثة أو أربعة أسطر، يضاف إلى كل ذلك سلاسة أسلوبه في الترجمة والقدرة على تصوير روح العبارة وشاعرية الأسلوب في النص الفرنسي بأسلوب عربي رصين والقدرة كذلك على نقل التفاصيل الدقيقة بكل صبر وأناة.

وهكذا قدم زهير الشايب بكل إخلاص عملا هو من أخص خصوصيتها قامت مكتبة الأسرة أخيراً بإعادة نشره خاصة أنه يعد وبحق خير مرجع وأدق مصدر تناول فيه علماء الحملة الفرنسية أحوال مصر منذ قرنين من الزمان تقريباً. ■

كلمات عاشت

● تجتمع المثل العليا كلها في الكرامة، ولقد فتشت عن مثل أعلى يحقق لصاحبه السعادة. كما تحققها له الكرامة فلم أجد.

العقاد

● الدين يجعلني أنا والإله على متاعب الحياة، والإلحاد يجعلني أنا وحدي ضد الله وضد متاعب الحياة وشتان مابين الوضعين.

أحمد أمين

● أن المثقف التام التثقيف، هو أسعد رجل على هذه الأرض، وهو سعيد ما بقى له شعاع عقله، ودفء قلبه، وتفتح بصيرته.

د. أحمد زكي

من أعلام الفن المصرى الحديث

أضواء على إبداع المصور الرائد

أحمد صبرى

١٨٨٩ - ١٩٥٥

بقلم
د. صبرى منصور

أقامت وزارة الثقافة خلال الشهور الماضية بقاعة العروض المتحفية بمتحف محمد محمود خليل معرضا للفنان أحمد صبرى، وهو أحد الروّاد الذين بدأوا مسيرة الإبداع الفنى التشكيلى المصرى الحديث فى بدايات القرن الماضى وكان على رأسهم المثال محمود مختار والمصورون محمود سعيد ومحمد ناجى وراغب عياد. ولا شك فى أن فكرة إقامة المعارض المتحفية لأعمال الفنانين الراحلين من الرواد والمتميزين هى فكرة طيبة، حين تصدر عن رغبة فى تقديم الماضى للأجيال المعاصرة، من خلال تجميع انتاج الفنانين المتناثر هنا وهناك، لتكوين صورة أكثر وضوحا وتكاملا لرؤيتهم وأسلوبهم الفنى، وخاصة أنه لم تتوافر فى مصر المتاحف الخاصة والنوعية.

عازفة العود - ١٩٤٤ ◀



وللأسف فإن ذلك العرض المتكامل – الذي كان ينتظر رؤيته كل من تداعى إلى سمعه من المهتمين خبر إقامة أول معرض ضخم للفنان الرائد أحمد صبرى – لم يأت بالشكل المنشود للعرض المتحفى – بل جاء يضم نتفا من أعمال بسيطة، ودراسات سريعة وغابت عنه أعمال الفنان التى توضح أسلوبه، وتؤكد استاذيته وكان يمكن بذل جهد أكبر فى تجميع الأعمال المقتناة من الأفراد، بالإضافة إلى استعارة الأعمال الشهيرة الموجودة بمتحف الفن الحديث أو المتاحف الأخرى.

حياة حافلة بالأحداث

لم تكن الحياة التى عاشها أحمد صبرى حياة هادئة مستقرة، بل كانت حافلة بالتغييرات ومليئة بقصص الكفاح والصراع والمعاناة. ففى حى المغربلين بالقاهرة ولد الفنان من أبوين ذوى أصول تركية، وفقد أمه وهو مايزال فى الثانية من العمر، ومالبث أن فقد أباه وهو فى الثامنة، وكره الدراسة فتعثر فيها. ومع ظهور ميوله نحو الرسم والموسيقى التحق بمدرسة الفنون الجميلة بعد إنشائها بثلاث سنوات، حيث لفتت موهبته الفنية المبكرة أنظار أساتذته الأجانب الذين رشحوه لبعثة دراسية إلى فرنسا على نفقة الأمير يوسف كمال مؤسس المدرسة ولكن سفره تأجل بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، وأنهى دراسته فى الفنون الجميلة عام ١٩١٦. وحاول أن يكسب عيشه فعمل مدرسا للرسم فى مدرسة مصطفى كامل الابتدائية، ولكنه سرعان ما ترك الوظيفة حين بدأت أعماله تحوز الإعجاب وتجد من يقتنيها، وعندما استطاع تدبير ما يساعده على السفر إلى باريس شد رحاله إليها عام ١٩١٩. والتحق هناك بأكاديمية «شوميير» ثم انتقل إلى أكاديمية «جوليان» التى كان المثال مختار قد سبقه إليها بسنوات فساعده فى التعرف على ملامح المجتمع الجديد. وحين نضبت مصادره المالية بعد ثلاث سنوات عاد أحمد صبرى إلى مصر ليواجه من جديد نفس الصعاب، ويعانى شظف العيش مما اضطره للعمل عام ١٩٢٣ فى وظيفة رسام للحشرات بوزارة الزراعة، ولكن الحظ يبتسم له حين ينتقل إلى وظيفة رسام بوزارة الأشغال، إذ منحته الوزارة الفرصة للسفر فى بعثة دراسية إلى باريس لاستكمال دراسته الفنية. وفى تلك الفترة حظى الفنان باستقرار نسبى فى حياته، مما ساعده على المضى قدما نحو تجويد أسلوبه الفنى، وإكتساب الخبرات الفنية والمهارات الحرفية التى بلغت ذروتها فى لوحته الشهيرة «الراهبة» والتى عرضت



زوجـة الفنـان



توفيق الحكيم



طبيعـة صامتـة

في معرض «الجران باليه» بباريس عام ١٩٢٩ وقد حصل بها على جائزة الشرف من جمعية الفنون الفرنسية. وحينما عاد إلى مصر في نفس العام كانت مدرسة الفنون الجميلة العليا قد تم افتتاحها لأول مرة بعد انتقال تبعيتها إلى وزارة المعارف العمومية، وكان جميع أساتذتها من الأجانب. وقد أسند إلى أحمد صبرى مسئولية رئاسة قسم التصوير الحّر الذى أنشئ بهدف رعاية المواهب الفنية للهواة. ثم انتقل الفنان بعد ذلك لرئاسة قسم التصوير النظامى عام ١٩٤٩. وفى سنواته الأخيرة يشاء القدر أن تختتم حياته بمأساة هى من أقسى ما يمكن أن يلاقيه فنان تشكيلى يمثل له البصر نعمة لا تعوض، فبدأ التدهور التدريجى لإبصاره حتى وصل إلى درجة الظلام الكامل حتى توفى وقد بلغ السادسة والستين من العمر.

ماذا بقى من أسلوب أحمد صبرى؟

سيظل الإتجاه الفنى الذى التزم به الفنان مثيرا للعديد من التساؤلات، فإن هذا الاتجاه لم يتعرض لتبديل أو تغيير أو إضافة منذ بدأ دراسته فى الفنون الجميلة واللافت للنظر أيضا أن موضوعاته التى طرقها فى لوحاته لم يطرأ عليها هى الأخرى تحولات نحو موضوعات جديدة عبر سنوات مشواره الفنى الطويلة.

فالوجوه وهى مجاله الأول الذى صال وجال فيه، مستعرضا مهارات فنية وحرفية ورهافة حس فنى لا مثيل لها فى تاريخ الفن المصرى الحديث. ومجموعات الطبيعة الصامتة وما تحفل به من أدوات وخامات متنوعة أجاد فى إظهارها وتجسيد ملامسها وبعض الدراسات لجسد المرأة العارى، وقد عكست قدرة فنية ملحوظة على تقديم معالجات رقيقة لجماليات الجسد الأنثوى، وأخيرا مجموعة من المناظر الطبيعية التى انفردت بمعالجات مختزلة، تقتنص الضوء، وتختصر التفاصيل فى مساحات فنية بليغة.

ولقد تبدت أستاذية أحمد صبرى فى لمسات فرشاته الواثقة، والتى تبنى الشكل بتجاوزاتها المحسوبة والرقيقة، والانتقالات الناعمة بين مناطق الظلال والأضواء، واختياراته لدرجات لونية غاية فى الرهافة والرقة كل ذلك مع تكريس كامل للقواعد الأكاديمية التقليدية المعروفة فى نقل الواقع والتى لم يحد عنها فى إبداعه الفنى، وظل مخلصا لها مؤمنا بأنها الهدف النهائى والغاية المثلى للعمل الفنى. دافعا تلاميذه إلى الإحساس بجماليات الطبيعة ومنطقها الفنى. وعرف عنه الصراحة الشديدة كأستاذ ومعلم بهذه التعاليم طيلة حياته



فلاحة بقسط اللبن - ١٩٢٠



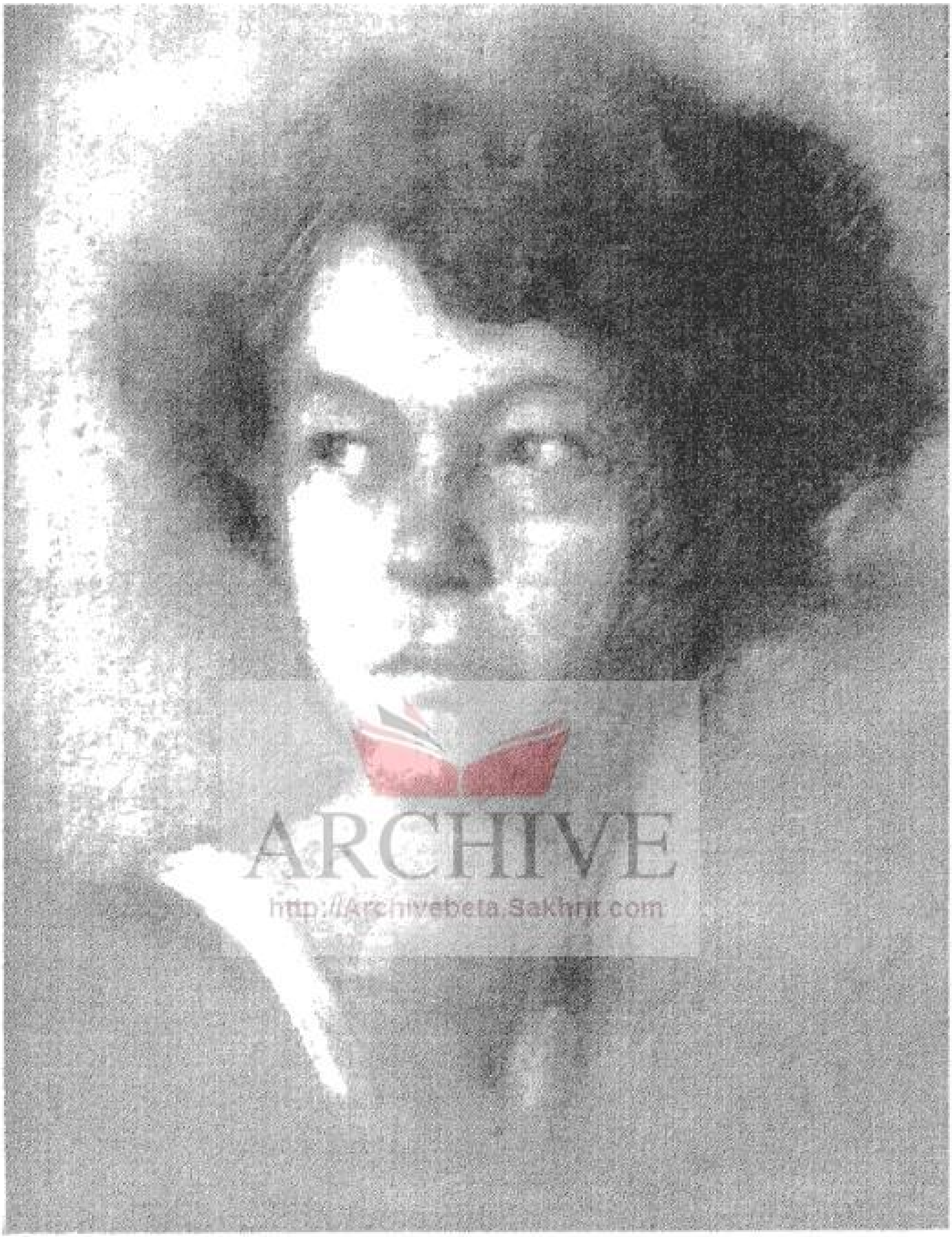
ذات البرقع - ١٩٣٠

كما يجسد إبداعه نموذجا مثاليا لهذا الضرب من التصوير وعلما عليه لم يتخطاه أحد من الأجيال اللاحقة، كما يظل أول مصرى يلج عالم فن التصوير بمفهومه الغربي - وقد كان جديدا على المصريين - ويثبت فيه جدارة فنية ودقة حس تضارع أمهر وأقدر المصورين الأوربيين الأكاديميين وكان المصريون حديثى المعهد فى بدايات القرن بالفنون الجميلة، ومازالت هناك أصداء الأعمال الفنية التى صاحبت الحملة الفرنسية على مصر والتى أبهرت المصريين بأسلوبها الواقعى، إلى جانب لوحات الفنانين الأوربيين من المستشرقين التى تصور الشخصيات والأثرياء بأسلوب واقعى أكاديمى، مما أوجد مناخا ثقافيا عاما لدى الكتاب والمفكرين من رجالات التحديث والتنوير واقتناء ملامح النهضة الأوربية بتقدير هذا النوع من الرسم والذى يضاهى الفن الأوروبى ولا يقل عنه اتقانا وروعة فى إظهار التفاصيل الدقيقة وربما يفسر ذلك التوجه الإعجاب الشديد الذى كان يبديه كبار مثقفى تلك الفترة بفن أحمد صبرى من أمثال عباس العقاد وتوفيق الحكيم والمازنى وعبدالرحمن صدقى.

حب مشترك للموسيقى

ويضم إبداع أحمد صبرى تراثا غنيا فى مجال الصورة الشخصية، ولعل أبرز الوجوه التى صورها بأسلوب متميز لوحة صور فيها تلميذه الموهوب حسين بيكار عازفا على العود، وقد كان يجمعهما حبهما المشترك لفن الموسيقى وقدرتهما على العزف، وهناك صورة الكاتب توفيق الحكيم ممسكا لكتاب بين يديه، بالإضافة إلى اللوحات التى قام فيها بتصوير زوجاته الثلاثة وأبنائه وأصدقائه المقربين كما يضم انتاجه تلك الأعمال التى نفذها مستخدما خامة الباستيل التى كانت قريبة إلى نفسه وقدم من خلالها معالجات فنية على قدر كبير من الرقة والنعومة، ممتزجة بجرأة التنفيذ والإعتماد على الخطوط المتجاورة (التهشيرات) لإبراز الشكل وتجسيده.

ويثير إبداع أحمد صبرى تساؤلات لا تجد لها إجابة شافية، وأهمها عن سر عدم تفاعله مع معالم الحداثة الفنية التى كانت تعج بها باريس خلال السنوات التى قضاها الفنان فيها دارسا فى العشرينات والثلاثينات من القرن الماضى، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر وبعد ظهور المدرسة الرومانتيكية التى مهدت الطريق نحو ثورة الفن الحديث وانطلاقه نحو تحطيم الأفكار والمفاهيم التقليدية فى الفن التشكيلى، مما أدى إلى توالد تيارات التجديد، وتوالى المدارس والاتجاهات الفنية منذ أوائل القرن العشرين فكان هناك الاتجاه الانطباعى وما بعده والاتجاه التعبيرى والرمزى والتكعيبى والسيريالى والتجريدى وغيرها من اتجاهات بعضها استمر لفترة وجيزة كالدارية وبعضها نما وتفرع كالتجريدية وقد أسفرت تلك الفترة الحيوية فى تاريخ الفن الأوربى عن قدرة الخيال الانسانى غير المحدودة على الابتكار والتجديد والابداع ولم يظهر من هذا العالم الثرى بالأفكار والمفعم بالتجديد أى انعكاس على إنتاج أحمد صبرى ويبدو أنه كان من شدة إيمانه باختياره الفنى قد صنع لنفسه قوقعة أغلقها على ذاته، معرضا على المشاركة أو التأثر بأية عوامل تبعده عن أسلوبه ومنهجه الفنى، وهو بهذا الإعراض قد اختلف عن زملاء جيله من الفنانين الذين تلمح فى ثنايا أعمالهم لمحات من روح الحداثة ومنهجها، وتلمس تطورا فى رؤيتهم الفنية، واجتيازاً لمرحلة الدراسة الأكاديمية التقليدية إلى مراحل أكثر نضجا ووعيا واستفادة من المفاهيم الفنية الجديدة فمحمود مختار يتخطى مرحلة تماثيل الفلاحات ذات المعالجة التقليدية ويبدع أعماله «نهضة مصر» وتمثالى «سعد زغلول» بالقاهرة والاسكندرية ورائعته «الخماسين» وفيها



عزة كريمة الفنان أحمد صبري -١٩٥١

من معالم التحديث والتجديد التى تمثلت فى تلخيص الأشكال وإضفاء البعد الرمزى إليها، ومحمود سعيد ينتقل إلى مرحلة امتزجت فيها عناصر رمزية وتعبيرية، ومحمد ناجى يطور أسلوبه مستفيدا من اتجاهات ما بعد التأثيرية، ويوسف كامل يتبنى أسلوب التأثيريين، وراغب عياد يبلور أسلوبا خاصا ذا نكهة تعبيرية. ووسط هذه الكوكبة يظل أحمد صبرى فريدا فى إخلاصه لأسلوبه التقليدى بل يسعى لتجويده وإرساء دعائمه.

والتساؤل الثانى الذى يبحث عن إجابة شافية، فهو عن علاقة أحمد صبرى بدعوة الصحوة الثقافية التى واكبت ثورة ١٩١٩، والتى نبهت الأذهان إلى تاريخ مصر الحضارى العريق، وما يمكن أن يمثله للمصريين من جذور يستمدون منها ملامح أصالتهم وتفرد شخصيتهم فى مواجهة الغرب، ولقد ظهرت أصداء تلك الدعوة فى أعمال باقى جيل الرواد، فالنحت المصرى القديم مثل لمختار مصدر إلهام أساسى، وكذلك لراغب عياد - وبنسب محدودة - لمحمود سعيد ومحمد ناجى وإلى جانب معالم التراث الفنى المصرى القديم، تمثل هؤلاء الفنانون الحياة المصرية الشعبية والريفية المعاصرة، فجسدوا بعضا من ملامحها فى أعمالهم مستكشفين سحرها الخاص ولونها المميز، وذلك فى محاولة لتخليق فن يشى بالروح المصرية، ويتمتع باستقلالية الصياغة التشكيلية. ولكن أحمد صبرى يظل نائيا عن هذه التأثيرات عازلا نفسه عن التفاعل معها متباعدا عن نتاجها مفضلا البقاء بعيدا فى صومعته التى أحكم إغلاقها على نفسه، فلن تجد فى أعماله أية إشارات أو تضمينات تراثية أو ملامح مصرية شعبية، فهو قد اختار أسلوبا فنيا صارما لا يحيد عنه، ولا يفصح عن هويته، ومع ذلك فقد باشره بحساسية فنية مرهفة وإتقان شديد.

لوحات غريبة على أسلوب الفنان

ويلفت الإنتباه أن هذا المعرض الذى لم تكن أعماله من مقتنيات متاحف الدولة قد ضم عددا من اللوحات تفاجئ العين بمستوى فنى أدنى بكثير من مستوى فنان قدير ومصور بارع كأحمد صبرى فذلك الفنان الذى يختار درجاته اللونية بحساسية فائقة وخبرة نادرة، وتتمتع خطوطه السريعة الواثقة بالقدرة على التعبير البليغ عن الأشكال، من الصعب أن يصور لوحات مثل لوحة «فلاحة بقسط اللبن» ولوحة «سيدة بالملاية والبرقع» وهما منفذتان بألوان الجواش وفضلا عن أن هذه الخامة لم تكن ضمن الخامات المفضلة للفنان الذى

كان معظم انتاجه من الألوان الزيتية والمائية والباستيل، فإن الرسم يبدو ضعيفا وخاصة رسم الأطراف، كما أن الدرجات اللونية وتدرجاتها ومعالجة الخلفية فى اللوحتين بعيدتان عن أسلوب الفنان، أما لوحة «ورد بلدى» ولوحة «مطالعة على الشيزلونج» وهى منفذتان بالألوان المائية فإنهما بعيدتان عن نعومة ورقة أسلوب الفنان فى مائياته. وهناك رسم بالفحم لفلاحة جالسة تدل خطوطه غير الحساسة ورسم الأطراف الضعيف مع استخدام الظلال الداكنة على بعده عن أسلوب الفنان، كما أنه يتناقض مع رسم آخر «لعازف الربابة» الذى يعد نموذجا مثاليا للرسم السريع (الاسكتش) الذى كان أحمد صبرى أستاذا فى معالجته.


على سلم سراي كلية الفنون بالزمالك - ١٩٤٨

ولقد أرخت هذه الأعمال فى أوائل الثلاثينات وهى فترة كان الفنان قد بلغ قمة إبداعه، واكتمال مهارته الفنية. ■

كلمات عاشت

● الذين دفنت قلوبهم بالمحبة والجود والصدق والرضى والعدل دفنت أعوامهم بالسلام والبحبوحة والعطر والطمأنينة.

ميخائيل نعيمة

● لقد وجدت أن نصيب الانسان من السعادة يتوقف فى الغالب على رغبته الصادقة فى أن يكون سعيدا.

لنكولن

● إن لكل منا فلسفته الخاصة به، وكلما كانت هذه الفلسفة متفائلة يسرت أمورا وهونت صعابا.

د. ابراهيم مدكور

.. وأخذت نفسى للسير في الغورية

بقلم
صافى ناز كاظم

عبرت بى السيارة الأجرة كوبرى الأزهر إلى الناحية الأخرى ، وحين تلفت عند مدخل شارع الغورية وامتلأت عينى بجامع السلطان الغورى ضاويا وبوابته مفتوحة ، طلبت من السائق التوقف . هذه الغورية قطعة من كبدى ، حين حضر الشاعر محمود درويش إلى القاهرة عام ١٩٧١ ، لتطأ قدمه أول مدينة عربية يدخلها فى حياته قادما من وطنه المحتل ، اخترت له الغورية لألقيه فى أحضانها سيرا وسط زحام الناس وعربات الكارو بالخيل والحمير ، وقلت له هذا المكان هو عبير القاهرة ، استنشقه وخذ منه زادك قبل الرجوع إلى غرفتك فى فندق شبرد

كان هذا الأثر للسلطان الغورى ، المسجد ، الجامع ، المدرسة ، على يمينى وأنا أدخل ، فيما مضى شارع الغورية من شارع الأزهر ، مطفأ ، كابيا ، لا أجرؤ على مجرد التفكير فى ارتقاء درجه المخيف ، بينما تدخل القطط فيه بحثا عن جرذانه المتوالدة بحرية . ها هو بعد الترميم وأنا أدخله أهلا وسهلا أقلب ناظرى بين أرجائه المتألقة . لماذا كان السكوت عن الانقاذ لسنوات طويلة ؟ قيل: الخوف كان يكبل الجميع ، الأوقاف كانت خائفة ، والمحافظة متحفظة ، والآثار تريد دفعة للتحرك ، حتى كان زلزال ١٢/١٠/١٩٩٢ الذى أدت نتائجه إلى الإسراع بقرار الترميم الذى بدأ عام ١٩٩٣ واستمر حتى نهاية ٢٠٠٠ ، تم فك الأثر بكامله وأعيد تركيبه بعد خطوات علمية حريصة ودقيقة وبلغت التكاليف عشرين مليونا من الجنيهات : والله يا بلاش أمام كل هذا الإنجاز المعجز .

* * *

صاحب الأثر هو الملك الأشرف أبو

جامع السلطان الغورى اهم مساجد القاهرة



النصر قانصوة الغورى الجركسى الأصل الذي ولد ، والله أعلم ، عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م - (الغورى = الجورى .. نسبة إلى جورجيا فى روسيا ، أليس كذلك ؟ ممكن !) - اشتراه الأشرف قايتباى مملوكا ثم أعتقه وعينه فى عدة وظائف حتى نودى به ملكا على مصر يوم الإثنين أول شوال - عيد الفطر - عام ٩٠٦ هـ / أبريل ١٥٠١ م ، وبويع بقلعة الجبل بحضرة الخليفة المستنصر بالله وقضاة المذاهب الأربعة . ظل الغورى سلطانا على مصر ١٥ سنة وتسعة أشهر و٢٥ يوما إلى أن لقى مصرعه بمرج دابق شمال حلب فى قتاله مع السلطان سليم فى ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/٢٤/٨/١٥١٦ - (اقترح على من يريد من القراء كتابا مهما وشيقا هو العصر المماليكى فى مصر والشام ، للأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، لأن به معلومات أوسع تبين الشخصية الداهية للسلطان الغورى ، الذى انزوى بعيدا يرقب اقتتال المماليك الآخرين على الملك ، وحين انتهوا من القضاء على بعضهم البعض ، تقدم وقطف السلطة بهدوء ، واتسمت خطواته السياسية بالحكمة حتى جاء أجله المحتوم صريعا فى مقاومته لموجة اتساع الدولة العثمانية ، التى بدأت حكمها لمصر ٢٢ يناير ١٥١٧م، بعد هزيمة المماليك فى الريدانية. وقد ألقى السلطان سليم العثمانى ، حين دخل مصر ، القبض على آخر سلاطين المماليك الشهيد طومان باى ، وشنقه على باب زويلة بين بكاء الناس وتحييهم) .

☆ ☆ ☆

أنشأ السلطان الغورى المئذنة الشهيرة ذات الرأسين فى الجامع الأزهر، وأنشأ بمكة المكرمة مدرسة ورباطا للمجاورين ودائرة الحجر الشريف ، وبعض أروقة المسجد الحرام وباب إبراهيم، لكن أهم عمائره كان هذا المسجد الذى افتتحه مستهل ربيع الآخر عام ٩٠٩ سبتمبر ١٥٠٣ م - بعد توليه السلطة بعامين تقريبا - وتشمل مجموعة السلطان الغورى : المدرسة - (واحدة للبنين وواحدة للبنات ، منذ ٥٠٠ سنة مدرسة للبنات لها مكانتها قبل عم قاسم أمين وسلالته الفكرية لذا لزم التنويه) - والقبة ، والسبيل ، والكتاب ، والمقعد ، والوكالة . وهذه المجموعة المعمارية للسلطان الغورى يعتبرها الأثريون أكبر وأضخم وأكمل مجموعة أثرية إسلامية على مستوى العالم العربى والإسلامى .

☆ ☆ ☆

كان تسرب المياه من شبكات المرافق + الصرف الصحى + مياه الشرب + المياه الجوفية ، قد أدى إلى ضرر مباشر أثر على أحجار المسجد وخاصة الطابق الأرضى ومكوناته ، وتدهورت حالة المسجد ، كما حدث خلل بالهيكل الإنشائى للبناء وتفككت العقود المطلة على الصحن بسبب تعديات أصحاب المحلات - التى تسمى الحواصل أسفل المسجد - الذين قاموا بإزالات غير مدروسة لبعض الحوائط الحاملة للمسجد ، وتم رصد مظاهر التدهور



بالمسجد قبل البدء في الترميم ما بين : شروخ في معظم الحوائط وهبوط بالأرضيات ، وتداعي الحوائط والأقبية بالدور الأرضى بالكامل ، وإزالة بعض الحوائط الحجرية والأكتاف وبنائها بالطوب الأحمر الحديث لتوسعة المحلات ، وتفتت وتكسير بأرضيات البلاط المعصراني وتهالك طبقة الملاط التى تكسو سطح المسجد ، وتدهور أرضيات الرخام والوزرات ، وفقد أجزاء منها ، تدهور وفقد بعض الشبابيك الجصية ذات الزجاج الملون ، معظم الأشرطة النحاسية والمصبعات غطاها صدأ النحاس ، فقد أجزاء من الزخارف النحاسية التى تغطى مصراعى باب المدخل الرئيسي ، وفقد معظم الأبواب الخشبية ، وفقد أجزاء من الزخارف الخشبية المطعمة بالسن من المنبر وكرسي المصحف ، و ... و... إلى آخره

الحمد لله بعد سنوات من العمل الدقيق والدوب ، ثم الانقاذ ، وعادت التكبيرات إلى المئذنة ، والصلوات إلى الصحن والإيوانات ، وعاد الخطيب إلى المنبر والتلاوة إلى كرسي المصحف الشريف ، وعادت الروح إلى الأثر العتيق بخطو الناس ودفء الأنفاس . صليت وحمدت الله ثم أخذت نفسي للسير فى شارع الغورية ، بعد أن تم غلق مدخلها من شارع الأزهر ، قلت لن أتلفت إذن خوفا من سيارة أو حصان ، فالشارع قد تحدد لسير المشاة فقط . لكن ما هذا الذى أغوص فيه ؟ تحت قدمى «كلاكيع» أسفلتية ، هابطة وصاعدة ، سوداء دميمة .. أين الرصف الحجرى القديم الذي كان يحمى الناس والبغال من التعثر ؟ المنطقة تدخل ضمن اختصاص موزع بين الآثار والمحافظة والأوقاف ، لاشك أن هذا الابتكار الاسفلتي «الكلاكيعى» من اختصاص البلدية والمحافظة . لن أعكر مزاجي ، إن لم يكن إبلا فماعز . هى حكمة الرضاء بما تطوله اليد ، ثم إنني أخذت نفسى إلى الغورية احتمى بها من كل وجوه تعكير المزاج .

☆☆☆

دلفت إلى المدخل المؤدى إلى حوش قدم ، بيت الشيخ إمام - رحمة الله عليه - والفنان محمد على والشاعر أحمد فؤاد نجم ، أطلال يقابلها بيت أبو الدهب الأثرى المرمم . قهوة «حسن بطنجها » لاتزال تسند ظهرها على أطلال منزل الشاعر والموسيقى والرسام ، مسجد الفكهانى الأثرى مفتوح كعادته للمصلين. أقاوم حتى لا أعكر مزاجي بملاحظة أن كلاكيع الأسفلت قد قضت تماما على أحجار الرصف المستطيلة الجميلة التى كانت تميز حارة وعطفة حوش قدم ، أخذت نفسى قدما إلى باب زويلة ، يسمونها بوابة المتولي ، وأحيانا الدلي. «الدلي» غالبا كان المقصود به الشهيد السلطان «طومان باى» الذى شنقه السلطان سليم العثمانلى فى شتاء ١٥١٧م لأنه قاوم اجتياحه لمصر . قررت أن أقرأ الفاتحة وأهبها إلى روحه . أعدت القراءة مرة ثانية لأنى أخطأت وقلت : الفاتحة على روح قايتباى ، بدلا من طومان باى . السوق أمامى به كل



بشائر الفاكهة الجديدة مثل الجوافة ، مع آخر فلول البرتقال أبو سرة ، وأشياء أخرى لطيفة مثل الجزر الأحمر والفول الأخضر الحراتي ومشابك الغسيل الخشب . شيل ، شيل ، عبّي ، عبي ، أحمدك يارب . الساعة الثانية والنصف ولم أصل الظهر . عند الخيامية ، بعد مسجد «الصالح طلائع» سألت الجالس عند زاوية صغيرة عن إمكانية الوضوء والصلاة . اتفضلي ، ميضة نظيفة ، أنظف من مكان الوضوء بالجامع الأزهر شخصيا . توضأت براحتي من دون لخمة رغم أكياسي التي امتلأت بالجزر والفول الحراتي والجوافة والليمون والحذاء المريح الذي اشتريته برخص التراب . يبدو أنني صرت فعلاً سيدة مسنة ، وإلا فلماذا كل هذا الإجلال والحفاوة اللذان يعاملني بهما رواد الزاوية وأصحاب الحوانيت ، إن لم يكن لكبر سني ؟ تذكرت نادرة من نوادر شقيقتي الكبرى حين سألتني شبه باكية : هل أبدو عجوزا جدا ؟ وحين طمأنتها : طبعا لا ، قالت : إذن لماذا كل ما أشاور لتاكسي يقف لي ؟

* * *

زادت حمولتي بالكليمين الفيوميين بعد أن عجزت عن غض بصري لأهرب من جمالهما ، صناعة مصرية يدوية ، أجمل ما يمكن أن أعطيه هدايا لضيوفي الأصدقاء من كل بلاد العالم ، ليحملوها تذكاراً لبراعة اليد المصرية . «فخراً صنع في مصر» ، هذه الجملة قرأتها مطبوعة على كيس حلوى «ملوكي» ، ومعها ترجمتها بالإنجليزية تؤكد : «برودلي ميد إن إيجيبت» . «الخيامية» بعدها «المغربلين» ، بعدها «السروجية» ، ولاشك أن هناك «الفحامين» لأنني شاهدت أكثر من حانوت فحم ، هذه كلها مناطق تسمى باسم السلع والصناعات ، لكن الشارع من مدخل الغورية حتى شارع القلعة اسمه «المعز لدين الله» ، مستمرا من مبتداه عند «بوابة الفتوح» آخذا معه «الصاغة» – بكل ما يتفرع منها ، «خان الخليلي» ، «التربيعة» ، «الصنادقية» ، و«الموسكي» الذي يقطعها قبل عبور شارع الأزهر إلى «الغورية» .

في منطقة «المغربلين» ارتفع أذان العصر وكنت على وضوئي منذ صليت الظهر في «الخيامية» . أمامي مسجد لم تمتد إليه يد الترميم بعد وبوابته بمستوى الشارع ، يشبه في نسقه مسجد الغوري : الصحن المربع المكشوف ، تطل عليه الإيوانات التي ترتفع عن أرضيته بمقدار ٣٠ سم تقريبا ، مفروش بالسجاد القيم ، والإيوان المخصص للنساء تقفله ستارة سميكة ، صليت العصر جماعة وعرفت أن اسمه «مسجد الجنابكي» . بحثت عن لافتة الآثار لأتأكد من صحة الاسم فلم أجد ، وحين تجولت بعيني في الأسقف تذكرت جملة جاءت في تقرير المختصين بالآثار عن حال مسجد الغوري قبل الترميم : « تعاني الأسقف من الحشرات والطفيليات التي تنمو بالأخشاب، ومن تراكم الأتربة الناعمة التي دخلت في مسام طبقة



الألوان» . دعوت الله مخلصة أن يمن علي المكان الجميل بترميم يعالج «الأسقف الزخرفية والمقرنصات واللوحات الخشبية والأحجبة الجصية ذات الزجاج المعشق مختلف الألوان ، بنفس ألوان الزجاج وعناصره الزخرفية واستكمال الأحجبة الجصية الناقصة مع ترميم الأبواب النحاسية كالباب الرئيسي للمسجد ، وكذلك ترميم كرسي المصحف والمنبر» ، و ... إزالة كل اقتحامات النيون ، وهذه إضافة من عندي!

☆☆☆

عند منطقة «السروجية» مدرسة «وقية جانم البهلوان ، ٨٨٣هـ/١٤٧٨م» مساجد مساجد مساجد ومدارس مدارس مدارس للبنين والبنات بأموال رجال ونساء ثم يأتي «مثقف» معاصر جاحد ليطلق على كل هذه الحضارة «ظلامية» تهدد «المجتمع المدني» !

تضوى آثار الثقافة والحضارة الإسلامية على جانبي الشارع الذي يبدو لي الآن بلا نهاية ، يذكرني كتفي وظهري بآلامه فأجلس على كرسي في مقهى وأنا أقول : اسمحوا لي الجلوس بالمشروب ، فيكون الرد : ياستي وعلى حسابنا . استريح والساعة قد بلغت الرابعة عصرا . ألاحظ أن الشارع لم يعد للمشاة فقط كما هو مفروض ، فالدراجات البخارية وعربات النقل الصغيرة تروح وتجيء ، بلا خوذة وبلا أحزمة كما تقتضي التعليمات المرورية: شعب دمه خفيف !

هل كان اليوم استثنائيا ، أم أن أهل هذا الشارع الطويل صاروا لا يتصايحون بأي سباب ناب أو كلمة تجرح بذاتها الأذن ؟ بل لقد لاحظت أنه لم يكن هناك صياح من أساسه . نعم : نظافة ومودة وتكافل ودين ، كأن الشارع طرقة طويلة في بيت واحد لعائلة واحدة ، فأي وزن هنا لـ «مثقف» أزعر جاهل - بحق شعبه - يلقى بالكلام على عواهنه من غير علم أو فهم أو تواصل صادق مع نبض الناس ؟

☆☆☆

تماما ، كما قال من سألته عن سيارات الأجرة وقد أنهكني المسير مع أحمالي الثقيلة ، وجدت ، بعد خطوتين ، نفسي عند ناصية شارع القلعة ، وإذا الدنيا كما أعرفها : زحام زحام زحام وكركبة حافلات فوق سيارات فوق عربات كارو فوق بشر كثيف وصياح عنيف ، فأفقت ، ليت أني لم أفق ، من رحلتي التي أخذت نفسي فيها للسير في الغورية ، من مدخلها ، على مدى خمس ساعات غسلت فيها القلب وملأته بالغبطة مؤقتا ، قبل أن تعود نشرات الأخبار لتهطل فيه بصور الإذلال والهوان ، وتسمم البدن بوعيد ديمقراطية الحذاء الثقيل ، واليد «الطرشة» والتعليمات الوقحة الآمرة بسحق المقاومة ، وتعزيز حق الاحتلال بدك المساكن وقتل الأطفال وخرق جماجم الصحفيين بالرصاص ، وانزال العقوبات بكل دولة ، ذات سيادة ، تجرأت وأعلنت عن رأي مخالف لديكتاتورية «ديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية» ! ■



عفواً أيها الشعراء

بقلم
وديع فلسطين



عبد الغنى العطرى



بولس سلامة

وأقول عفواً لأننى أبيح لنفسى أن أتحدث دون أن أكون منكم، بل دون أن أكون من نقابكم المغاوير! وأحب أن أطمئنكم بأن أحب مطالعاتى هى فى دواوين الشعراء، وأن كثيرين من زملائكم قد صافونى الود ولم ينفروا منى لأننى لست من فصيلتهم، وسيبقى الشعر ديوان العرب مهما تفيهق المتفيهقون وزعموا أنه أخلى مكانه لفن آخر من فنون القول، فاعذرونى إذا تطفلت على ساحتكم!

وأغراض الشعر تتعدد ولا تكاد تنحصر فى أى تصنيف. فمن تلك الأغراض الفخر والهجاء والغزل والتزلف والمديح والحماسة والشكوى إلى آخر الأغراض التى منها يستوحى الشاعر موضوع شعره، وهى أغراض تتسم بالصدق آنا وبالافتقار إلى الصدق فى أحيان أخرى.

ولعل من أصدق الأغراض التى تراءت بصورة صارخة فى شعر بعض الشعراء غرض المعاناة، سواء من المرض أو من العوز أو من المحابس المختلفة ومنها الزج فى الزنازين.

معاناة الشاعر
بولس سلامة

وإذا كان شاعر قد قال:

إذا ما الجرح رم على فساد
تبين فيه إهمال الطبيب

فإن هذا القول يتطبق أشد انطباق على الشاعر اللبنانى بولس سلامة (١٩٠٢ - ١٩٧٩) الذى عاش نحو ربع قرن مستمرا فى فراشة بسبب خطأ طبى أجرى فى أثنائها أكثر من عشرين جراحة عساه يوفق إلى إصلاح هذا الخطأ دون جدوى. فاستسلم الشاعر لقدره ولم يجد سلواه إلا فى القراءة والكتابة ونظم الملاحم الطوال.. وعندما زرته فى بيته فى بيروت المرة الأولى فى عام ١٩٥٥ استقبلنى فى غرفة نومه قائلا إنها فى واقع الأمر غرفة مكتبه لأنه حول فراشة إلى مكتبة تتكدس مفرداتها إلى جواره، ولأنه ألف جميع كتبه ودواوينه وهو مستلق على فراشة - أو تحته - كما كان يصفه.

ولكن كيف تستطيع مشاغل القراءة والكتابة أن تنسيه المعاناة الشديدة بسبب عجزه عن التحرك حتى داخل هذه الغرفة ، ودع عنك غشيان مجالس الأدب والأدباء فى وسط العاصمة فانتهز الشاعر بولس سلامة مناسبة بلوغه الستين من العمر ونظم ملحمة طويلة من نفس البحر والوزن والقافية عنوانها «عيد الستين» كان مما قاله فيها يصف حالة:

سالت على حد المباضع مهجتى
فشفارها مصبوغة بدمائي
صبحي أمر من المساء فعيشتي
موصولة الظلماء بالظلماء
أواه لو كان الرقاد يزورني
لرضيت من دنياي بالاغفاء
لا يلتقي جفناي إلا خلسة
فكأن بينهما قديم عداء
أيوب! ما أيوب! ماذا خطبه
هو قطرة وأنا خضم بلاء
رويت رهيفات المشارط من دمي
أثري المشارط من دمي شركائي
دنياي تختي والأساة صحابتي
والمبضع الرعاف من عشرائي
عشرين حولا في اللظي متقلبا
الشوك دوني، والهموم غطائي.
وإذا الجريح أتيته لتعوده
فلقد أتيت مقابر الأحياء

وقد ترفقت السماء بالشاعر ، لا على يد طبيب نطاسى، بل بفضل «عذراء لورد» فى فرنسا التى يؤمها كثيرون من المرضى طلبا الشفاء، فصار بولس سلامة - كما رأيته - يسير منتصب القامة يحيط بخاصرته حزام عريض ويتوكأ على عكازة.

أما الشاعر المصرى محمود أبوالوفا (١٩٠١ - ١٩٧٩) الذى عانى فى حياته

كثيرا من شظف العيش فضلا عن هشاشة صحته وساقه المبتورة، فقد جأر بدوره بالشكوى من معاناته، حيث انتهز فرصة صدور رواية «البؤساء» لفيكتور هوجو من ترجمة الشاعر حافظ إبراهيم (١٨٧١ - ١٩٣٢) ووجه إلى «صاحب البؤساء» شكواه قائلا:

يا صاحب البؤساء جاءك شاعر
يشكو من الزمن اللئيم العاتي
لم يكفه أني على عكازة أمشي
فحط الصخر في طرقاتي
ثم انثنى يزجي على مصائبا
سحبا كقطعان الدجى جهمات
في ليلهن فقدت آمالي الألى
صاحبنني مذ لاح فجر حياتي
فغدوت في الدنيا ولا أدري
أمن أحيائها ؛ أنا أم من الأموات ؟
خففت يا هوجو عليك فلم أطل
وبعثتها فصلين من مأساتي
ولو أنني أعطيت بؤسي حقه
وصفا، لصور معرض النكبات.

أما الشاعر السورى الصعلوك فائز سلامة (١٨٩٥ - ١٩٤١) الذى سجل سيرته وعنى بدراسة شعره وجمعه الأديب جورج عيسى، فقد عبر عن معاناة الأديب عموما، وكأنه يقصد نفسه حيث قال:

باع الأديب كتاب الصرف من «طفر»
وعضه الظالمان البرد والسغب
«أرنست أصفر» سل عنه خزانته
ما في خزانته نكل ولا ذهب
والأرمني الذي كانت أنامله
كالمغنطيس إليها النقد ينجذب
جاء الشتاء ولا ثوب أرد به
برد الشتاء، ولا فحم ولا حطب
وليس في غرفتي نار تدفئني
غير التي في ضلوعي كلها لهب!

النويهي يفسر الشعر بلغة الشارع

الدكتور محمد النويهى (١٩١٧ - ١٩٨٠) أستاذ كبير وناقد له باع عريض، وقد عرفته عندما كان يعمل أستاذا فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وهو قد جمع بين الثقافتين العربية والإنجليزية لأنه قضى سنوات فى لندن ونال منها شهادة الدكتوراة. وهو وإن يكن أستاذا أكاديميا، إلا أنه اتخذ لنفسه مذهبا فى تفسير الشعر الجاهلى (الكلاسيكى حسب وصفه) يعتبر مذهبا شديد الغرابة، بل الشذوذ، لأنه انتهى إلى أن أقرب أسلوب لتفسير الشعر هو لغة العوام، أو لغة الحياة اليومية حسب تعبيره.

فهو يرى أن الشاعر فى الجاهلية كان يستخدم لغة الحياة اليومية فى عصره فى نظم قصائده، ومن ثم يتعين علينا عند دراسة الشعر الجاهلى أن نترجمه إلى هذه اللغة اليومية الدارجة

كي نتذوق ما فيه من جمال ومعان.

وقد طبق الدكتور النويهي هذا المنحى الفريد في كتابه «الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه» على قصيدة للشاعر الجميح الأسدي، وهي قصيدة صور فيها الشاعر مشاجرة بين زوجين، وكان مطلعها:

أمست أمامة صمتا ما تكلمنا
مجنونة ؟ أم أحست أهل خروب

وحتى يقرب الناقد هذه القصيدة إلى القاريء، استعار من لغة العوام عبارات أعتذر للقاريء، إذا ما استشهدت بها، لأنها شبيهة بالردح في أزقة القاهرة. فهو يقول: «الست بسلامتها مبوزة خرست ما تنطقش ! مالها كدة ملوية بوزها طوله شبر؟ ما أحناش قد المقام! الله! مالها ياخوية جرى لها أيه الولية دي؟ اتجنت؟ ركبها عفريت. الست بسلامتها قابلت واحد من قرايبها (من عائلة خروب) من وراء ضهري! الله، الله، اضبط! فهمت .. فهمت! ياستار ياستار! اللهم احفظنا يارب! يا خلق يا هوه من جراءتها ! دي وحش دي والا إيه؟ ياهو! حتاكلنا ياناس، حاتبلعنا بلع! لو كانت بنت أصل صحيح لما تنكرت له. بنت الأكابر، معذورة البنت والله! بس بقى ياست ! ارضى علينا ! ماتتكبريش كده قوي! إخص بقى أمال! اصبري است وربك يعدلها! إن شاء الله يجي الفرج، بس اصبري معانا شوية، وبكره الأحوال تبقى معدن. بكره ربنا يعدلها وأشتري لك كيلو لحم بحاله!».

هذه عينة من العبارات التي انتقاها الدكتور النهويهي من أفواه العوام ليشرح قصيدة من الشعر الجاهلي، فليس أبلغ من هذه العبارات في وصف المشاجرة التي جرت بين الزوجين في ذلك العصر الجاهلي. فقد تخيل مشاجرة بين زوجين جرت في حواري القاهرة وفسر الشعر الجاهلي في ضوئها!

والغريب أن الدكتور النويهي أهدى كتابه هذا بجزئيه إلى الدكتور طه حسين «أستاذه العظيم»، ولا أدري ماذا كان رأي طه حسين في هذا المذهب العجيب الذي ارتأى الناقد تطبيقه على الشعر الجاهلي.

فإذا كانت للكتاب شطحات ، ففي اعتقادي – مع إجلالي الكبير لصداقة الدكتور النويهي، أن هذا المذهب هو من الشطحات.

ولم يسلم الشعراء بدورهم من الشطحات ، ولعل أغرب شطحة هي التي طلع بها على القراء الشاعر اللبناني الكبير سعيد عقل الذي أصدر ديوانا أسماه «يارا» صاغة باللهجة اللبنانية العامية وبالحروف اللاتينية.

وكان لبنان يقيم حفلا فى ذكرى الشاعر أحمد شوقى (١٨٦٩ - ١٩٣٢) وكانت للشاعر سعيد عقل قصيدة فى هذه المناسبة، وعندما وصل الشاعر إلى قوله: أنا الشعر شوقى، أينا اليوم أشعر؟ نهض شاب من بين الحاضرين ووضع على هامة سعيد عقل تاجا مضفورا من الورق المفضض ايذانا بأنه أمير الشعراء!

بلاد العرب أوطاني

نبهنى الروائى السورى الدكتور عبدالسلام العجيلى إلى أن الأبيات التى نسبتها إلى الشاعر السعودى عبدالله بلخير (١٩١٤ - ٢٠٠٣) نقلا عن مذكراته هى من نظم الشاعر السورى فخرى البارودى «١٨٨٦ - ١٩٦٦) وهى:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد الي يمن
الي مصر فتطوان

وكان الشاعر البارودى قد أشار على المطرب محمد عبدالوهاب أن يغنى هذه الأبيات، ولكن عبدالوهاب اعترض على لفظة «فتطوان» وطلب من الشاعر تعديلها، ولما رفض الشاعر تعديل عبارته، صرف عبدالوهاب النظر عن تلحين الأبيات . وقيل إن عبدالوهاب تعلل بهذه الملاحظة حتى لا يغنى هذه الأبيات أصلا ربما لأنها لم تعجبه.

وفخرى البارودى صاحب سبع صنائع. فهو سياسى وشاعر وموسيقار وكاتب ونديم ومازالت دمشق تتحدث عن سهراته ونوادره . ومارس الصحافة فى العهد التركى فأصدر جريدة شعبية أسماها «حط بالخرج» حفلت بالنكات والمستطرفات والمنادمات.

وكان فخرى البارودى على موعد مع العلامة محمد كرد على «١٨٧٦ - ١٩٥٣) مؤسس مجمع دمشق، ولكن المجمعى نسى الموعد، فوجه اليه البارودى عتابا جاء فيه:

إني لأعجب من وعد يخالفه
رئيس مجمعنا العلمي في البلد
مادام «ريسنا» دامت سلامته
معلم النشء هادي الناس للرشد
قد بات يخف في ميعاده علنا
فلا ملام ولا عتب على أحد!

الصحفي الأديب عبدالغني العطري

فقدت دوحة الفكر فى سورية الصحفى الأديب عبدالغنى العطرى ، إذ أطاحت به سيارة مسرعة فى ليلة مظلمة فأردته قتيلا فى الثالث والعشرين من فبراير ٢٠٠٣، وكان برغم سنوات عمره الأربع والثمانين (فهو من مواليد ١٩١٩) يواصل العمل يوميا فى مكتبه المتواضع نهارا وليلا، وقد زرته فى هذا المكتب فى إحدى الأمسيات أثناء مشاركتى فى العيد الماسى لمجمع اللغة العربية بدمشق.

وقد نعاه فى الصحف السورية

صديقه الأديب عيسى فتوح مسجلا تاريخ حياته الذى بدأ منذ ما تخرج فى الكلية العلمية الوطنية على يدى علامة دمشق خليل مردم بك (١٨٩٥ - ١٩٥٩) وأصدر وهو مازال فى شرخ الشباب مجلة «الصباح» فبرزت على صفحاتها أقلام أدباء وشعراء ملأوا الدنيا بعد ذلك بثمرات أقلامهم منهم نزار قباني (١٩٢٣ - ١٩٩٨) وخليل تقى الدين (١٩٠٦ - ١٩٨٧) وبديع حقى (١٩٢٠ - ٢٠٠٠) وفؤاد الشايب (١٩١٠ = ١٩٧٠) والشاعر العراقى أحمد الصافى النجفى (١٨٩٦ - ١٩٧٧) والدكتور عبدالسلام العجيلي والدكتور سهيل إدريس أطال الله بقاءهما. ولكن هذه المجلة لم تعمر طويلا، فانتقل إلى جريدة «الأخبار» يتولى رياسة تحريرها ثم حول هذه الجريدة إلى مجلة «الدنيا» التى كانت من أروج المجلات السورية ولاسيما لاهتمامها بالأدب الضاحك. ولكن القيود التى فرضت على الصحافة فى سورية فى زمن الوحدة مع مصر قضت بوءد هذه المجلة.

ولكن كيف لصاحب القلم أن يبقيه فى غمده . فأخذ يواصل المجلات فى الداخل والخارج بنفثات قلمه ، وعكف على إصدار مجموعة من الكتب التى تعد فى جملتها موسوعة عن الأعلام السوريين الذين عرفهم العطرى ومنها «عبقريات شامية» و«عبقريات من بلادى» و«عبقريات وأعلام» و«عبقريات وأعلام مبدعون» و«حديث العبقريات». هذا عدا مجموعة من الأقاصيص عنوانها «قلب ونار» كتب مقدمتها صديقه محمود تيمور «١٨٩٤ - ١٩٧٣) وكتاب «أدبنا الضحاك» وكتب أخرى منها «دفاع عن الضحك» و«همسات قلب» و«بخلاء معاصرون».

كان عبدالغنى العطرى يمثل فى رأيى مدرسة تخرج الأفذاذ من رجال القلم، وما اهتمامه بالعبقريات التى عاصرها الا لكى يقيم أمام الناشئة أمثلة حية على شموخ الفكر وأهمية الإصلاح ودروس الوطنية.

لم أكن فى حاجة إلى موعد مضروب معه لزيارته فى مكتبه الذى تتكدس فيه الكتب والصحف والمجلات. فقد كان بابه مفتوحا يلجه كل قاصد، وما حاجته الى جحافل رجال الامن تحرسه او الى جيوش السكرتيرات الحسناوات «تذب» عنه الزائرين وقد جاءت منيته فى الشارع وهو يسير كواحد من الناس بلا حراسة أو «بودى جارد» وهذا ديدن أصحاب الرسالات الذين لم ينعزلوا عن الشارع ولا نسبوا أنفسهم إلى أرستقراطيات كاذبة. رحم الله عبدالغنى العطرى، فقد ترك وراءه تراثا يحصيه ضمن عباقرة الشام.



محمد فريد أبو حديد

بعد ستة وثلاثين عاما من الرحيل

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

« مازال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة فى حاضرهم إلى ذلك.. » هكذا كتب محمد فريد أبو حديد (الذى رحل عن عالمنا فى ١٨ مايو ١٩٦٧) فى تقديمه لكتاب توفيق الطويل «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة». وفى هذه الكلمات

تلخيص بليغ لاهتماماته وتوجهاته .

فقد كانت «الرؤية التاريخية» هى جوهر فكر هذا الأديب المؤرخ المربى (ولد فى أول يوليو ١٨٩٣) الذى لعب دورا كبيرا فى الحياة الثقافية لعصره من خلال المناصب القيادية التى تولاها: مديرا لرقابة الصحف فى ١٩٤٢، وكيلا لدار الكتب المصرية فى ١٩٤٣، عميدا لمعهد التربية فى ١٩٤٥،. مديرا للإدارة العامة للثقافة عام ١٩٤٧، مديرا للجامعة الشعبية عام ١٩٥٠، وكيلا مساعدا لوزارة المعارف عام ١٩٥٢، مستشارا فنيا لنفس الوزارة من ١٩٥٣ - ١٩٥٥ (أنظر يوسف الشارونى): مع الأدباء، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩) فضلا عن رئاسته تحرير مجلة «الثقافة» (١٩٦٣-١٩٦٥)، ومساهمته فى إنشاء نادى القصة، واشتغاله فى ١٩٥٥ مستشارا فنيا لوزارة المعارف فى ليبيا والمملكة المغربية، ومشاركته فى إنشاء لجنة التأليف والترجمة والنشر مع أحمد أمين وآخرين، وعضويته بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وحضوره فى الحياة الثقافية منذ تخرجه فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤، واشتغل بالتدريس - متدرجا فى جميع وظائفه - لمواد الجغرافيا والترجمة والتاريخ، وحصل على ليسانس الحقوق فى ١٩٢٤، وبدأ ينشر فى صحيفة «السفور» وغيرها.

الرؤية التاريخية هى النبع الذى صدر عنه القسم الأكبر من إنتاج أبو حديد فقد كان عاشقا للماضى يرى فيه بذرة للحاضر ومحددا لمسار المستقبل، فى الرواية كتب «ابنة الملوك» و«الملك الضليل» (عن أمرىء القيس) و«زنوبيا» ملكة تدمر (التى خصص لها المؤرخ البريطانى إدوارد جيبون فصلا فى كتابه «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) و«أبو الفوارس عنترة بن شداد» و «الوعاء المرمرى» (عن سيف بن ذى يزن) و«جحا فى جانبولاد» و«آلام جحا» و«المهلهل سيد ربيعة» و«مع الزمان» وكلها مستوحاة من فترات مختلفة من التاريخ العربى والإسلامى، وكتب بالشعر المرسل مسرحيتى «مقتل سيدنا عثمان» و«خسرو وشيرين» و فى أدب التراجم أخرج «صلاح الدين وعصره: ترجمة حياة» و«السيد عمر مكرم - «ترجمة حياة» و«أمتنا العربية: دراسة تاريخية»، ونقل إلى العربية «فتح العرب لمصر» من تأليف المؤرخ الفريد بتلر (أنظر ملف محمد فريد أبو حديد بقلم

محمد صبري السيد في مجلة «القصة» أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٩٣).

النفس البشرية واحدة

ويذكر أبو حديد في حديث أجراه معه فؤاد دوارة (في نوفمبر ١٩٦٤) أنه تأثر في كتابة هذه الأعمال التاريخية بالسير ولترسكوت ومآسي شكيسبير التاريخية، ويفسر اتجاهه هذا بقوله «كل جو تاريخي أرى داخله النفس البشرية الخالدة التي استمرت في الماضي ولاتزال مستمرة في الحاضر وستستمر في كل وقت، فقد تختلف الوجوه والملابس والعقائد والعادات ولكن النفس البشرية واحدة في كل زمان ومكان (فؤاد دوارة، عشرة أدباء يتحدثون، كتاب الهلال، يوليه ١٩٦٥). هكذا سعى - في معالجته للتاريخ والفولكلور والأسطورة - إلى تبين الثابت وراء المتحول، أو الباقي وراء المتغير.

لم يتوقف أبوحديد عند الماضي - على ولعه به وغوصه على لآلئه - وإنما اتخذ منه منصة وثب إلى الحاضر، فكتب رواية «أزهار الشوك» عن الفوارق الطبقية التي تفصل بين الرجال والنساء، و«أنا الشعب» عن إرهاصات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ويستوقفنا في هذين العملين - إلى جانب البعد السياسي والاجتماعي - حيوية رسمه لشخوص نسائه خاصة «تعويضة» في الرواية الأولى، و«فطومة» في الرواية الثانية. كلتاهما رمز للطاقة الأنثوية المتوفزة المتوقدة المشتعلة حيوية ورغبة وجاذبية. وكلتاهما أيضا تقفان على النقيض من «مني» - محبوبة سيد زهير في رواية «أنا الشعب» - فهي الأنثى التي ارتفعت بمشاعر البطل إلى مرتبة الإنسانية الرفيعة، ولم تكن مجرد تجسيد لليبيدو الفرويدي الذي يناوش حواسه في علاقته بتعويضة وفطومة.

وفي أدب الرحلات أخرج أبوحديد «أيامي في ليبيا» عن تجربته هناك عام ١٩٥٥ ومساهمته في إرساء قواعد النظام التعليمي لذلك القطر العربي الشقيق، وينطق الكتاب بمحبة أبو حديد الغامرة لرفاقه في العروبة، وحدبه على مصالحهم وحرصه على الأخذ بأيديهم على طريق التطور والتقدم، وقد كان الإيمان بالقومية العربية - وهو ما بلغ ذروته في الحقبة الناصرية قبل انكسار ١٩٦٧ الأليم - من ثوابت أفكار فريد أبو حديد، وعقيدة لم يتحول عنها حتى يوم مماته.

وهناك كتاباته للمسرح مثل «وردة» وهي مسرحية غنائية مثلتها فرقة عكاشة و«عبدة الشيطان»، و«ميسون الغجرية» وهي أوبرا غنائية، وتعد - إلى جانب مسرحيات أمين الخولي «الراهب المتنكر» وغيرها - من أولى محاولات كتابة المسرح

العربي قبل أن يظهر توفيق الحكيم ومن تلوه.

ترجمة لمسرحيات شيكسبير

وكان أبو حديد - كالعقاد والمازني وشكري وعلي أدهم وسائر أدباء ذلك الجيل - من المطلعين في اللغة الإنجليزية المطلعين على آدابها - في مختلف عصورها - إطلاع المتعمق التواقة مما انعكس على كتاب شيكسبير - «روميو وجوليت» وغيرها - بالشعر المرسل، وبلغت تجربته هذه ذروتها في ترجمته الكاملة لمسرحية «مكبث» مع مقدمة ضافية تناول فيها تجربته في معالجة الشعر المرسل (قارن تجربة باكثير) وما يجبه به الناظم المعاصر من صعوبات وما يتيحه من إمكانات، وفي منظومة الترجمات المتميزة لمسرحية «مكبث» - بأقلام خليل مطران وعامر بحيري وجبرا إبراهيم جبرا وزاخر غبريال ومحمد مصطفى بدوي - تقف ترجمة أبو حديد في مكان متميز لما نمت عليه من براعة في تطويع النظم التفعيلي لشعر شيكسبير المرسل أو نظمه الأبيض (بتعبير المازني) القائم على استخدام بحر الأيامب الخماسي المكون سطره من خمس تفعيلات كل منها من مقطعين: أولهما غير منبور والثاني منبور، وفيما يلي نموذج من هذه الترجمة (المنظر الخامس من الفصل الخامس) يصور مكبث وقد أتاه نبأ موت زوجته معذبة الضمير مشتتة العقل فيروح يتأمل حياتنا الدنيا المليئة بالصخب والعنف ثم لا معنى، والقطعة من خوالد المسرح الشيكسبيري: «ليتها قضت بعد حين، عل فيما يكون بعد من الدهر أوان لمثل هذا الحديث، بل غد، بعده غد، وغد، تحبو بتلك الخطى القصار دبيبا، تتوالى يوما فيوما، إلى آخر حرف مسجل للزمان كل أمس لنا أضاء لحمقى، في طريق يفضي لموت التراب، أيتها الشمعة الضئيلة بعدا لك بعدا! فإنما العيش ظل كخيال يمشي، وكاللاعب المسكين في مسرح يضج ويزهى ساعة قدرت له، ثم لا يسمع من بعدها مدى الأيام، إنها قصة يرددها المعتوه، صوت وهيجة دون معنى».

كذلك نقل أبو حديد إلى العربية قصيدة «سهراب ورستم» للشاعر الإنجليزي ماثيو أرنولد من القرن التاسع عشر بالشعر المرسل أيضا، وهي مستوحاة من ملحمة للشاعر الفارسي الفردوسي تصور بحث سهراب عن أبيه رستم قائد الجيوش الفارسية ومبارزته له (دون أن يعرف أنه أبوه) إلى أن يلقى الابن حتفه في المبارزة





بيد الأب. والقصيدة تأمل في سخريات القدر، وعلاقات الأبوة والبنوة على نحو يستبق حديث فرويد عن التهديد الأبوى بإخصاء الابن، مع تشبيهات ملحمية (وضع أرنولد فصلا خالدا عن ترجمات هوميروس إلى مختلف اللغات الأوربية) تنقلنا إلى أجواء شعراء المآسى من قدامى الإغريق.

ومن ترجمات أبو حديد - فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - كتاب «دعائم السلام» لمؤلفه أ.كار.

وعنى أبو حديد بأدب الأطفال فكان مشرفا على سلسلة «أولادنا» التى تصدرها دار المعارف برسوم بيكار وترجم لها رواية هـ.ج.ويلز آلة الزمن» (للرواية ترجمة أخرى بقلم المازنى) و«نبوءة المنجم»، وألف لنفس السلسلة قصتى «عمرون شاه» و«كريم الدين البغدادى» فكان - إلى جانب الرائد العظيم كامل كيلانى - من أقدر من كتبوا للطفل بلغة عربية جزلة بليغة تعين الناشىء على تذوق كنوز لغته وتتدرج به فى مدارج النمو والنضج والإدراك. وترجم كتابا عن «فن التعليم» لجابرت هايت مع مقدمة تبسط آراء المترجم فى أصول التربية والتعليم.

كان فريد أبو حديد - على أنه لم يصب الشهرة التى نالها طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل واترابهم - موضع تقدير أدباء عصره، ينظرون إليه نظرتهم إلى «زنوبيا» (تجده فى كتاب طه: فصول فى الأدب والنقد، دار المعارف) فقال إنها شغلته عن نفسه وعن شروط القص التى يضعها الأدباء والنقاد «فلم أفكر فى قصص، ولا فى وصف ولا فى أشخاص، ولا فى حوار، وإنما رأيت نفسا عذبة تتحدث إلىّ حديثا عذبا فأغرقت فى الاستماع لهذا الحديث، وأغرقت فى الاستمتاع بعذوبة هذه النفس، ووجدت فى هذا الإغراق هذه اللذة الممتازة التى أجدها حين أقرأ الآثار الأدبية الرفيعة».

أبحاث متنوعة

ومما يذكر بالخير للمجلس الأعلى للثقافة بقيادة الدكتور جابر عصفور، أنه احتفل فى عام ١٩٩٧ بمرور الذكرى الثلاثين لوفاة أبو حديد فأخرج بهذه المناسبة (بالاشتراك مع الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية) كتابا له لم تجمع محتوياته من قبل هو «دراسات لغوية وأدبية» بتقديم للدكتور محمود فهمى حجازى. ويضم هذا الكتاب أبحاثا ألقاها أبو حديد بمجمع اللغة العربية فى موضوعات مختلفة: موقف اللغة العربية العامية من اللغة الفصحى. اللهجة الليبية وصلتها بالفصحى، نظرات فى جموع الثلاثى، جموع غير الثلاثى، الموضوع والأسلوب فى الأدب. ويدهش قارىء هذا الكتاب، إذ يرى تضلع المؤلف - الذى لم يكن متخصصا فى اللغة، بمعناها الدقيق - فى لغته العربية، وإحاطته الواسعة بتراثها شعرا ونثرا، وكأنما هو يقرأ للغوى أديب

من طبقة على الجارم أو إبراهيم الإبيارى أو شوقى ضيف وسائر إخوان ذلك الطراز.

وأخرجت مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة فى نفس المناسبة كتابا لفريد أبو حديد عنوانه «مقالات مختارة» قدم له محمود فهمي حجازي وأعده للنشر نبيل فرج. وتضم مقالات فى الدوريات الثقافية المصرية (١٩٣٤ - ١٩٦٥): «الثقافة» و«الرسالة» و«الكتاب»، وتغطي موضوعات المقالات رقعة واسعة تشمل - فيما تشمل - روح مصر، ومشايخ الأزهر والسياسة فى القرن الثامن عشر، والخديو إسماعيل، واللغة والشعر، وحلم الإخاء الإنساني، والزمن بين الفلسفة والشعر، والتفسير الرمزى للأدب، والمذاهب الواقعي فى الأدب، والبحث العلمي والتقدم وغير ذلك من المباحث.

ونتمنى على المجلس الأعلى للثقافة أن يتم صنيعه فيخرج كتابين آخرين: أحدهما يضم شمل مقالات أبو حديد المتفرقة فى بطون الصحف والمجلات ومنها - على سبيل المثال لا الحصر - سلسلة مقالات نشرت فى مجلة «الأدب» (بعد رحيل منشئها الأستاذ الكبير أمين الخولى) تحت عنوان «لمحات من أسرار البيان» عام ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ، وكتاباته الكثيرة على صفحات مجلة «الثقافة» فى إصدارها الأول وإصدارها الثاني، ومقالته «سوط الكاتب والمجتمع» (التى تظهر فى كتاب: فى الفكر والفن فى أدب يوسف السباعى، لعدة أقلام من تقديم غالى شكرى، دار الفكر/ مكتبة الخانجى) ومقدمته لكتاب «معارك بين الآلهة» لمحمد حسنى عبدالله (وقد نشرها نبيل فرج فى مجلة «القصة» يوليو أغسطس سبتمبر ١٩٩٧) وغير ذلك من الشوارد المتفرقات.

والكتاب الثاني يضم مختارات مما كتبه عنه الأدباء والنقاد عبر السنين: بدءا بطه حسين وانتهاء بصافى ناز كاظم، ومرورا بالعقاد ومحمد عطا وأحمد هيكل ومحمد صبرى السيد ومحمد عبدالمنعم خاطر ويوسف الشارونى وزكى نجيب محمود وعز الدين إسماعيل وسمير عوض وإبراهيم عبدالعزيز وصلاح عبدالصبور وطه وادى وعباس خضر ومحمود تيمور وعصام بهى وحلمى سالم وحلمي القاعود وفؤاد دوارة وعبدالقادر القط ومحمود حامد شوكت وعبدالمحسن بدر ونعمات فؤاد ومحمد عبدالحليم عبدالله ويوسف نوفل وشفيع السيد وعزة بدر وعلى شلش وحمدى السكوت (بالإنجليزية).

كان محمد فريد أبو حديد كما كتب عنه صلاح عبدالصبور على صفحات «الأهرام» (١٩٦٧/٥/٢٦) عقب رحيله «أحد الذين جددوا الحياة» لقد بعث الماضى كائنا حيا يمشى على قدمين ويخاطبنا بلسان الطبيعة الإنسانية الباقية، لهذا لانكاد نشعر أنه قد مرت ثلاثة عقود ونصف على رحيله، وإنما نجده - كلما فتحنا صحائف كتبه - معاصرا وحيا، مشاغله هى مشاغلنا واهتماماته ، مع زيادة هنا - كما هو طبيعى - أو نقص هناك. ■



الساعات انتصار للموت أم للحياة

بقلم
مصطفى درويش

يبدو أن قصر عرض أفلامنا المصرية على أشهر الصيف الثلاثة، دون أشهر الفصول الأخرى، قد أصبح قدرا محتوما.

وإلا فبماذا نفسر اختفاء إنتاجنا من الأفلام طوال أشهر فصلي الشتاء والربيع.

فباستثناء فيلمين من إنتاج التليفزيون، أحدهما متسمع زورا وبهتانا في بطولات أبناء مصر، واسمه «حفار البحر».

والآخر «عليه العوض»، وهو فيلم قيل فيه من بين ما قيل إنه ظل حبيس ظلام العلب، زهاء ستة أعوام، رغم أن مخرجه «علي عبدالخالق» صاحب «أغنية على الممر» و«العار»، وبطلته النجمة «إلهام شاهين»، الفائزة في ختام المهرجان القومي للسينما المصرية الأخير بجائزة أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها في فيلم «الرغبة»، لصاحبه المخرج علي بدرخان



نيكول كيدمان تتقمص شخصية فيرجينيا وولف

باستثنائهما، فقاطع جمهور السينما المصريا، أهم فيلمين في السنة، تاركين بمحض إرادتهم عدا، دور السينما بطول وعرض البلاد، نهبا للأفلام الأجنبية، لا سيما ما كان منها من إنتاج ستوديوهات هوليوود الكبرى، المتحكمة في مسار ومصير السينما العالمية.

فحاليا، جميع الأفلام المعروضة في دور السينما، أمريكية الصنع، من إنتاج تلك الاستديوهات، صانعة الأحلام وبعضها كان مرشحا لأكثر من جائزة أوسكار. ومع ذلك لم يفز بأي منها، مثل فيلم «الرحلة» واسمه الأصلي «عن شميدت» بطولة «جاك نيكلسون» و«كاثي بيتس».

فكلاهما كان مرشحا لتلك الجائزة التي فاز بها بدلا منهما «أدريان برودي» عن أدائه لدور بيانو مستقل في أحد المعسكرات النازية في فيلم «عازف البيانو» لصاحبه «رومان بولانسكي» الفائز هو الآخر بجائزة أوسكار عن أفضل إخراج.

وكاترين زيتا جونز عن أدائها لدور «فيلما» قاتلة عشيقها وأختها في «شيكاغو».

وبعضها الآخر خرج من مضمار المنافسة ، فائزا بجائزة أو أكثر من جوائز أوسكار ، مثل «شيكاغو» ، الفائز بست جوائز أوسكار ، من بينها جائزة أفضل فيلم .

و «سيد الخواتم - البرجان» الفائز بجائزتى أوسكار أفضل تأليف للصوت ، وأفضل مؤثرات مرئية .

و «ثمانية ميل» الفائز بجائزة أوسكار أفضل أغنية «إفقد نفسك» .

و «الساعات» الفائزة إحدى بطلاته الثلاث «نيكول كيدمان» بجائزة أفضل ممثلة رئيسية ، عن أدائها لدور الأديبة الانجليزية «فيرجينيا وولف» التى آثرت أن تنهى حياتها بالانتحار .

صدق وعمق

ومن بين هذه الأفلام ، لن أقف إلا عند «الرحلة» و«ثمانية ميل» و «الساعات» .

والفيلم الأول ، وصاحبه «ألكسندر بين» الذى سبق له ، قبل بضعة أعوام إخراج رائعته «انتخاب» ، يحرص بصدق وعمق لطريقة الحياة فى وسط الغرب الأمريكى ، من خلال التناول بأسلوب السهل الممتنع لحياة رجل عجوز (٦٦ عاما) فى أدق تفاصيلها ، فى لحظة فاصلة ، وهو يواجه المستقبل المجهول ، أثر إحالته إلى التقاعد ، ثم فقده شريكة عمره ، التى عاشرته ، زوجة فى الحلال حوالى اثنين وأربعين عاما .

ولقد أدى دور ذلك الرجل العجوز «شميدت» وهو يواجه وحيدا ما يخبئه له الغيب ، الممثل القدير «جاك نيكلسون» الذى يعد ، بحق ، واحدا من أشهر نجوم السينما العالمية ، وأكثرهم حضورا .

نجم النجوم

فمسيرته مع الأطياف ، ترجع إلى أربعين سنة مضت ، ورصيده من الأفلام العلامات كبير .

كما أن رصيده من الترشيح لجوائز أوسكار ، ومن الفوز بها ، لا يعادله فيه أحد من الممثلين ، وذلك على امتداد خمسة وسبعين عاما ، التى هى عمر أوسكار .

فقد فاز بجائزة أوسكار أفضل ممثل ثلاث مرات وقبل شهرين ، كان على وشك الفوز بها ، مرة رابعة ، لولا عازف البيانو، الذى لم يكن فى الحسبان .

ونجم بمثل هذا الرصيد من الأفلام والجوائز ، تقديرا له عن أدائه لأدوار متميزة ، متنوعة ، فى عدد من روائع الفن السابع ، نجم هذا شأنه ، سيصبح ، ولا ريب ، حديثا من أحاديث التاريخ السينمائى ، ستحفظه ذاكرة الأيام .

قصة صعود

والآن إلى الفيلم الثانى «ثمانية ميل» بداية الفيلم من إخراج كورتيس هانسن «صاحب عدد ، لا بأس به ، من الأفلام الممتازة ، من بينها أذكر رائعته عن فساد الشرطة «لوس انجلس ، خاص جدا» المتوجة بجائزتى أوسكار أفضل سيناريو مأخوذ عن عمل أدبى ، وأفضل ممثلة مساعدة «كيم باسنجر» .

وفيه يحكى «هانسن» سيرة حقيقية لشاب «أمينيم» أول مغن أبيض تحدى السود فى عقر دارهم ، حيث غنى بأسلوب الراب الذى استحدثه المغنون

السود ، وظلوا منفردين به ، متميزين فيه ، بلا منازع ، حتى اليوم الذى صعد فيه نجمه ، أى «أمينيم» ، فى هذا النوع الغريب من الغناء .

وأصفه بالغرابة لأن قوامه ارتجال أبيات شعرية ، عامية ، هجائية ، أشبه بالردح المقفى فى حاراتنا الشعبية ، تصاحبها موسيقى ذات إيقاع ثابت ، ونغم عماده التكرار .

وكما هو معروف «فأمينيم» قبل أن يذيع صيته ، عاش فى بيئة فقيرة ، بواحد من أبأس أحياء ديترويت التى كانت ، فى ماض ليس ببعيد ، عاصمة صناعة السيارات وقد جاءته الشهرة ، رغم حياة قاسية مع أم مطلقة أدت دورها «كيم باسنجر» - تعاشر عشيق ، لا يطاق .

وهى لم تجئه إلا بفضل مجالس السود ، الذين كانوا خير رفاق .

ولأنه فى ريعان الشباب ، لايزال ، وأغانيه منتشرة ، لها الصدارة فى قوائم المبيعات ، توقعت أن يقبل شبابنا على مشاهدة الفيلم ، وإن يكون الإقبال منقطع النظير .

خيبة أمل

وكم خاب توقعى ، عندما وجدتنى أقف أمام شباك التذاكر وحيدا ، وأجلس أثناء عرض الفيلم ، فى قاعة خاوية ، دون أنيس.

أما لماذا خاب توقعى بالنسبة لفيلم «أمينيم» كما خاب بالنسبة لفيلم «نيلكسون» ، بفشل كليهما عندنا فشلا ذريعا ، فذلك لارتفاع ثمن تذاكر السينما ، على نحو ، لابد وأن يحول بين الشباب وبين الذهاب إلى دور السينما لمشاهدة الأفلام .

والأهم لأعمال الرقيب مقصة بغلظة ، فى كلا الفيلمين ، حتى أصبح فهم المتفرج لفيلم «أمينيم» بالذات ، أمرا عسيرا .

والساعات لم يسلم ، هو الآخر ، من غلظة مقص الرقيب ، لم يشفع له أنه مأخوذ عن رواية فائزة بجائزة بوليتزر وصاحبها الأديب مايكل كاننجهام .

وموسيقاه التصويرية من تأليف «فيليب جلاس» صاحب أوبرا إخناتون الفرعون الملعون .

ومخرجه ليس إلا «ستيفن دالدراى» الذى سبق ترشيحه لجائزة أوسكار أفضل مخرج عن فيلمه الرائع «بيلى إيليوت» (٢٠٠٢) .

وفوق هذا ، فقد كان أى الساعات ، مرشحا لتسع جوائز أوسكار ، بينها جائزتا أفضل فيلم وإخراج وفازت بإحداها النجمة نيكول كيدمان .

كل ذلك ، لم يشفع للساعات .

طريق السلامة

فتأخر البت فى أمر الترخيص بعرضه من عدمه ، هو ومقدمته السينمائية ، لا لسبب سوى أن أحد أبطاله «الشاعر ريتشارد» (ادهاريس) مريض بالايدز ، وأن ثمة حبا مثليا بين «كلاريسا فوجان» (ميريل ستريب الفائزة بجائزة أوسكار مرتين) وبين «سالى لستر» (أليسون جانى) وأن «فينسابيل» (ميراندا ريشاردسون) طبعت على شفتى شقيقتها المكتئبة «فيرجنيا وولف» (كيدمان) . قبلة طويلة

أساء الرقيب أو الرقيبة الظن بها ، فعمل على حذفها حتى يبعد عن الرقابة شبهة إباحة أفعال فاضحة .

وكان من نتائج هذا التأخير ، عرض الساعات فجأة ، دون تمهيد له بدعاية مكثفة ، تأخذ شكل إعلان عنه ، فى صورة مقدمة سينمائية بمحاسنه ، على نحو يدفع من يشاهده فى دور السينما، إلى ترقب تاريخ عرضه ، ومتابعة أخباره ، حتى إذا ما جاء اليوم الموعود ، سارع إلى مشاهدته ، بعد طول ترقب وانتظار

رغبة الانتحار

وأيا ما كان الأمر فى هذا فالفيلم يبدأ، وقبل ظهور العناوين ، «بفرجينيا وولف» . وقد عزمت على الانتحار ، وها هى ذى تكتب رسالة إلى زوجها «ليونارد وولف» (ستيفن ديلان) ، تعتذر فيها عما هى مقدمة عليه ، ثم تسير بخطى ثابتة إلى النهر حيث تغوص فيه ، وقد أثقلت جيوب معطفها بالأحجار ، حتى تختفى نهائيا .

ومع نهاية هذه البداية الفاجعة ، يظهر اسم الفيلم وبعض أسماء المشاركين فى إبداعه ، وخاصة نجماته الثلاث «ستريب»، «جوليان مور» و «كيدمان» .

ورغم أن «الساعات» يبدأ بانتحار «فيرجينيا» فى «سسكس» عام ١٩٤١ ثم بها ، قبل ذلك بثمانية عشر عاما ، فى «ريشموند» حيث تعيش مع زوجها «ليونارد» مكتئبة ، وقد شرعت فى كتابة رواية جديدة «مسز دالاوى» رغم ذلك ، فالفيلم لم يستوح أحداثه من مسيرة «فيرجينيا» وإنما اتخذ من معاناتها ، وهى تكتب روايتها الجديدة منطلقا لمعاناة امرأتين أخريتين «لورا» و «كلاريسا» ، من مكانين وزمانين مختلفين ، لوس انجلس ١٩٥١ ، ونيويورك ٢٠٠١

فهاتان الأمرأتان ، كما رسمت الرواية وسيناريو «دافيد هير» المستوحى منها ، شخصيتهما ، كلتاهما قرأت «مسز دالاوى» ، وتأثرت بفاجعتها ، وبفاجعة مؤلفتها «فيرجينيا» ، تأثرا شديدا .

انتصار الحياة

حتى ان إحداهما «لورا» شرعت ، من فرط تأثرها فى الانتحار ، وهى تقرأ الرواية ، إلا أنها ، فى نهاية الأمر ، تغلبت على الموت ، انتصارا للحياة .

والفيلم ، مثل الرواية ، يعرض ليوم واحد فى حياة بطلاته الثلاث ، بل قل لساعات من هذا اليوم المشحون بالأحداث.

وكم كان رائعا الانتقال السلس بين الأمكنة والأزمنة حيث تمر أحداث اليوم سريعة ، بفضل توليف (مونتاج) «بيتر بويل» اللاهث .

وكما بدأ الفيلم بفاتحة الانتحار ، انتهى بخاتمة لاتعدو أن تكون استمرارا للفاتحة ، نسمع فيها صوت «فيرجينيا» يردد الكلمات التى أنهت بها رسالة الاعتذار لزوجها «ليونارد» عن واقعة الانتحار ، تعبيرا عن حبها له «تدوم بيننا الأعوام ، يدوم الحب ، تدوم الساعات » !! ■

من مرايا الزمن

شعر
د. صابر عبد الدايم

طفل يتسلق فى زهو زمن الحرمان
تنداح بعينيه الأفراح وتأتلق الألوان
يأتى الشيخ فيتلو .. فى ظل عصاه القرآن !!
لا يملك إلا أن يحفظ ما يكتبه فى اللوح
المحفوظ من النسيان !!
الشيخ ضرير .. يبصر بالأذنين !!
يشهر ما يسرقه الطفل من اللوح المنسوخ على
الوجهين !!
يسترق الشيخ السمع .. وتهوى ضربته فى أى
مكان !!
يشتعل الطفل صراخاً
يقرأ فى نغم أسيان
«بسم الله الرحمان»
يختبىء البرعم فى أحضان الجدران
أنف الشيخ يراه .. وتلقفه الكفان
يقرأ فى صمت مرتعشا
ألا تطغو فى الميزان !!
الشيخ يغمغم .. يشهد فى وجه الطفل عصاه
ويواجهه بالظاهر والمكنون
أخطأت .. فجاء الإدغام بلا غنة !!
ووضعت النار مكان الجنة !!
وختمت الأنفال .. وبسملت وقلت
.. «براءة»
وهجرت الفرض وجبت الأرض
.. تنادى بالسنة !!
أدغمت حروف الحلق بحروف النون !!
وجلعت المد المهموز قصيراً جدا شبه سكون !!
ومزجت الكوثر بالماعون !!

* * *

يندى البرعم .. يكبر .. تشرق فى فمه الآيات
يرفع رايته .. تتحلق فى مجلسه كل الأصوات
.. لكن مازال الشيخ .. عصاه تدب على
الأرض
.. فيتلو .. البرعم فى ظل صداها القرآن
لا يملك إلا أن يحفظ ..
ما يكتبه فى اللوح المحفوظ من النسيان !!

المتفرجة

بقلم : مرفت رجب

ومن يهن يسهل الهوان عليه

أنكرت على نفسى إدراك الصوت، غير مصدقة أن يكون برنارد بيفو Bernard Pivot ، صاحب أشهر البرامج الثقافية على الشاشات الفرنسية ، مشاركا فى وصف مباراة لكرة القدم. كنت على مدى السنين شديدة الإعجاب ببرامجه منذ تعرفى على برنامجه Apostrophe أواسط السبعينات من القرن الماضى، وصولا إلى برنامجه الأحدث دويل جو Double Je ، فقد كان فى البرنامج الأول يعرض أهم الكتب الصادرة، فى فرنسا، يناقش مؤلفيها فى حضور نخبة من جمهرة المثقفين، بينما نجده فى البرنامج الثانى يعرفنا بأفراد ينتقيهم، ممن ينطبق عليهم اسم البرنامج، أى هؤلاء الذين يعيشون بشخصية مضاعفة، إما لأنهم تركوا أوطانهم للعيش فى فرنسا، أو تركوا فرنسا للعيش والعمل المؤقت أو الدائم فى أوطان أخرى..

وحين تابعت البرنامج قبل أسبوع، كان بيفو، كالعهد به دائما، يستأثر بالقدرة على إثارة الدهشة والمتعة وقد امتزجتا إعلاء لتغذية العقل والروح، بحيث لاينتهى البرنامج إلا ليتركك وقد تأكدت من رحابة الكون، وامتلائه بسعي الكادحين الموفقين.

بدأت حلقة Double Je الأخيرة بتقديم بيفو Pivot لأول نجومها الذى مالبث أن ملأ الشاشة مرحا وغبطة تجدها أسرة، وكيف نعجب وهو الذى انتقل من مسقط رأسه فى دولة مالى إلى باريس بفضل تفوقه الدراسى الذى أهله للحصول على منحة جامعية، استعان استثناها على ماخطر له من مصاريف إضافية بالالتحاق بأحد معاهد الرقص مدربا، مما أكد قدرات السيد موديبو ديار Moudibo Diarra على سلاسة التكيف السريع مع مقتضيات طموحه، ورغم النجاح المطرد الذي حققه فى العمل على أرض فرنسا، نجده يعبر الأطلنطى متجها إلى الولايات المتحدة حيث يقيم حاليا، متفرغا لشئون المركز الجامعى الذى أرساه هناك، يفتح عبره أبواب الاتصالات ببني وطنه فى مالى وغيرها من الدول الإفريقية، يسهل للمؤهلين منهم فرصا للدراسات العليا فى فروع من العلوم شتى، وكل ذلك بالوسائل الإلكترونية.

هل يملؤنا السرور من الحضور الآسر، أم من الضحكة الإفريقية المجلجلة فى صفاء، أم من عمق الانتماء للوطن والجذور أم من حذق أسئلة السيد «بيفو» من قبيل سؤاله لضيفه المالى، كيف تفاضل بين اللغات التى تتقنها وقد جمعت بين لغة أهلك فى مالى والفرنسية التى أتقنتها ونجحت وسعدت بالعيش بين أهلها فى فرنسا واللغة الإنجليزية التى بدأت فى تعلمها بعد وصولك لأمريكا؟!!، أم من ثراء الشخصية يتكشف فى بساطة الإجابات الدالة، فقد أكد السيد موديبو ديارا أنه يستعمل اللغة الإنجليزية حين يقتضى الكلام محتوى تقنيا محددا، ويستعمل اللغة الفرنسية فى معالجة الأفكار، ولكنه ينطلق بلغة أهل بلاده فى مالى حين يتصل الأمر بالمشاعر والمسائل الاجتماعية.. أم أن أكثر ما يحفزنا على متابعة مشاهدة البرنامج، هو أن الضيف، صاحب قرارات أقل ماتوصف به، هو الشجاعة؟! أم لأن كل ماطرأ برأسنا من أسئلة طرحت لنتلقى عنها إجابة شافية، ذلك أن السيد موديبو ديارا عرفنا بمفاتيح أسراره، فهو من محبى الحياة، من المندفعين ينهلون من كل أسباب السعادة فيها، ولكنه إزاء العمل والواجب، ينافس الالتزام والتفانى فى بلوغ الغايات.

هائم جميل مقتبه

هل آن لنا أن نلتقط الأنفاس فما

المتفرجة

أجدر اللحظة بتأمل، لكن هيهات، لن يتركك برنامج دوبل جو Double je ، إذ يبدو أن مقدمه السيد برنارد بيفو مصمم على إثارة موجة التفتيش فى الذات والكون، فها هو يقدم لنا ثانى نجوم الحلقة، المطربة الفرنسية إيطالية الأصل Carla Bruni، وخلافا لأى هاجس قد يساوركم من وجه شبه بسطحية أو تفاهة أو قدرة على إثارة السخط والضجر فى المعروض على الشاشات من مواد تدعى صلتها بعالم الغناء، فنحن مع كارلا برونى فى عالم جميل منتبه، فالمغنية على جمالها وجمال معانى الأغانى التى تكتبها لنفسها تعرف جيدا لماذا قررت ترك حرفة عرض الأزياء واستبدال الغناء بها، فهى ترى أن عالم الغناء أكثر رحابة، يمكنها من التعبير عن أفكارها ومشاعرها وثمار تأملاتها فى الكون ومضاهاة كل جميل فى مخلوقاته .. هذه فتاة تعرف أسباب حبها الشديد للغة الفرنسية، وتفهم تماما كيف أن حياتها فى أسرة موسرة من عائلات شمال إيطاليا يساعدها على تبين مبررات تكيفها السريع مع المجتمع الفرنسى الذى انتقلت الحياة فيه وهى بعد فى السابعة من العمر .. تعرف تماما أسرار الصلة بين ما قرأت فى صباها وشبابها من عيون الأدب الفرنسى شعرا ونثرا، وبين إحساسها الآن بأنها فرنسية، كما تعرف بالضبط كيف تشكل وجدانها الفنى، فوق ذلك ومعه، من تعرفها الوثيق بالمدارس الفنية الفرنسية عبر العصور، وكلامها أمامنا يشى بنوع تلك المعرفة، فالمسألة ليست مجرد سرد أسماء لامعة فى الغناء الشعبى أو الأوبرالى أو النحت أو التصوير أو أو .. إنما فيما تورده من أفكار استقرت لديها عن كل ممن أوردت ذكره فى إجاباتها الفصيحة المتدفقة على أسئلة محاورها الذى لايفتأ يبدى دهشته من أنها حين قررت التحول إلى الغناء كان قرارها أن يكون غناؤها بالفرنسية وليس بلغتها الأم، وكلنا يعرف ما فى الإيطالية من جرس موسيقى محبب حتى لمن لايعرف معنى مفرداتها.. ولايخفى علينا بالطبع أن السيد بيفو يدرك كما أدركنا من متابعتها أن إجابتها ستأتى شهادة عاشق فى لغة يعرف مواطن جمالها، وقدرتها على معالجة المعانى بصيغ تقوى على إضافة الجمال إلى الدقة، ولقد سحرتنا كارلا برونى بحضورها الفاتن، كما سحرتنا بكل ماجاء على لسانها من أفكار ترفعها فى بساطة إلى مصاف الأعلام المعاصرين.

إرادة من جديد

وقد نظن أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، لكن إمكانات برنارد بيفو

تخالف ظننا على الفور، فها هو ذا ينقلنا إلى مقر الـ Acade'mie francaise وقد أخذ مكانه في آخر القاعة وفي مواجهة الأديب الفرنسي فرانسوا شينج الذي انتقل إلى فرنسا قبل أكثر من أربعين سنة مبعوثا من موطنه في الصين في منحة لدراسة اللغة الفرنسية التي لم يكن يعرف منها كلمة ولكنه الآن، وبعد روائع الشعر والنثر التي كتبها بالفرنسية، يستعد ليأخذ مكانه على المنصة المقابلة له في قاعة الأكاديمية الفرنسية، التي يشرف بتولي رياستها أواخر هذا العام، ليكون أول أجنبي ينتخب رئيسا للأكاديمية الفرنسية وإذ يحاوره برنارد بيفو نجده يفضي لنا بكل هدوء وأناة كل ما تخفيه هيئته الضئيلة من أمارات نفس عملاقة وإرادة من حديد، فقد اختار السيد شينج أن تكون المنحة التي فاز بها لدراسة اللغة الفرنسية، وليس الإنجليزية لسبب بسيط من وجهة نظره، إذ رأى أن الأجدى له أن يبتعد عن اللغة الإنجليزية لوفرة العالمين بها بين الدارسين في الصين، بينما يندر بين أهل بلاده من يعرف الفرنسية، إضافة إلى أنه أحب اللغة الفرنسية في صباه، عن طريق الأعمال الأدبية الفرنسية التي قرأها مترجمة إلى الصينية .. ولم يكن السيد شينج من النوع الذي يمكن أن يقنع بأعباء الدراسة على مشقتها، فقد أضاف إليها أعباء العمل في حمل الطلبات وتوصيلها إلى الزبائن وحين يتعجب محاوره من هذه القدرة والسيد شينج على ماهو عليه من ضآلة الجسم، نجد الرجل يرد على السؤال ضاحكا ومذكرا بأنه في ذلك الوقت كان شابا صغيرا، يتمتع بما يتمتع به الشباب من صحة وعنفوان .. ويحكي الرجل كيف أنه لم يقتنع بأنه أصبح عارفا باللغة الفرنسية، قادرا على الكتابة بها إلا بعد أن أمضى عشرين عاما كاملة، في الدراسة والعيش في فرنسا.. والحديث بالطبع يلمس التوصيف الحميم للحضارة، الصينية، والظروف السياسية والاقتصادية التي جعلته يختار الإقامة الدائمة في فرنسا، والزواج من فرنسية والإصرار على الاستيعاب الكامل لكل ما من شأنه أن يجعل منه أديبا فرنسيا، يعتز به الفرنسيون ويفخرون بتنصيبه رئيسا لصرحهم الفكري، الأكاديمية الفرنسية، وعلى طول الخط، ومع تصاعد انبهارنا بالشخصية، يتصاعد فهمنا لولائه وحبه للثقافتين الصينية والفرنسية، فنفهم لماذا اختار لنفسه اسم «فرانسوا» ولماذا احتفظ باسم عائلته الصيني سينج، ويأتي سؤال الأستاذ بيفو في موضعه تماما، كيف ترى نفسك، ويبتسم السيد فرانسوا تشنج مجيبا « أنا حوار» ..

شعور بالصدمة والخزي

وأرجو أن أكون قد وفقت في بيان بعض من الأسباب التي شكلت ذلك النوع

المتفرجة

من الغبطة الذى غمرنى مدة مشاهدتى للبرنامج، وكيف يبقى مع المرء ذلك الشعور يدفعه للبحث دوما عن أى برنامج من تقديم برنارد بيفو توقعا لثمار من ذلك النوع مضمونة .. كما لعلى أوفق فى نقل شعور آخر بالصدمة والخزى غمرانى وأنا أشاهد وقائع المباراة الوبية التى جرت بين فريقى مصر وفرنسا أوائل شهر ابريل ٢٠٠٣ على أرض استاد باريس، حين أدركت أن أحد المعلقين على المباراة، هو السيد برنارد بيفو، على أغلب الظن.. ولا أظن أن حالى كان يختلف عن حال أى مصرى يتابع وقائع المباراة «المهزلة» التى أدخل فيها لاعبو فرنسا خمسة أهداف سلسة فى شبكة المنتخب المصرى، ذلك أن أسباب غضبنا واحدة وإن تباين لدى كل منا ما لكل من عناصر تلك الأسباب من قوة أو ثقل، فنحن غاضبون من الاستهتار والتسيب وعدم الكفاءة، وغياب اللياقة والاستهانة بالأموال المهدرة على كرة القدم ولاعبيها ومدربيها إذا ما قورنت بالتقتير على غيرها من الأنشطة الرياضية أو حتى العلمية ومهما كانت الملاءات الاقتصادية مبررة لذلك أم دامغة له بالسفه .. والأهم عندى هنا أن هذه الحفنة المكونة لمجتمع كرة القدم في بلادنا، أقل ماتوصف به من الأوصاف السلبية تضيف الجهل إلى الغطرسة، ولذلك يأتى نوع الأداء الذى شهده استاد باريس فى ذلك اليوم من هذا المستوى المتردى بلا خجل، والأدهى والأمر، أن كل ذلك يمضى بلا حساب أو عقاب، فالمسألة ليست مسألة مباراة خسرت، وإنما هى جريمة فى حق مصر وسمعة مصر، خاصة وقد تابعت بنفسى الاهتمام الإعلامى الذى أولته فرنسا لهذه المباراة، فقد بدأت الإشارة إليها قبل أكثر من شهر، وظل الاهتمام يتزايد لدرجة أن جميع النشرات الإخبارية المذاعة فى فرنسا فى يوم المباراة واليوم السابق عليه، كانت تتضمن خبرا ضافيا عن اللقاء المرتقب، بين فريق فرنسا وفريق مصر فى كرة القدم.

أما الوجع الفعلى الذى أصابنا بعد انتهاء المباراة وانتقال الكاميرا من الملعب إلى صفوف المتفرجين، وتركيزها على المعلقين، وتأكدى ساعتئذ أنه فعلا برنارد بيفو، وما صدر منه ومن زميله من عبارات العزاء والإشارة إلى «أن مصر على كل حال بلد ساحر، صاحب حضارة جديرة بكل تقدير!!!!» فأترك لحضراتكم تصوره كما تشاءون.

ليس الوجع لأنها مباراة خسرت، وإنما لأنه فى شأن كرة القدم ليس أول الخسائر وفى هذا الصدد يصدق العنوان «ومن يهن يسهل الهوان عليه» وكذلك

لأننى على الفور بدأت أحاول أن أتصور، لماذا اختار برنارد بيفو أن يشارك فى التعليق على هذه المباراة .

القارىء العزيز يستطيع الآن، وبعد ماقدمت من التفصيل فى الكتابة عن برنامجه .. يستطيع أن يتوقع نوع الأفكار التى قد تكون شكلت توقعاته ليختار، أو يقبل اختياره لإذاعة مثل هذه المباراة، كما أننى أستطيع أن أطمئن إلى أن القارىء العزيز يوافقنى على أن المسألة ليست مسألة كرة قدم وأن أى شىء مرتبط بكل شىء .. ورغم هذا الاطمئنان لا أستطيع أن أفوت التنويه بأن الحفاظ على اللغة العربية واجب قومى ودينى كما علمنا طه حسين ، وكذلك التنويه بأن الخيبة تبدأ حين نسكت على متبجح يسمح لنفسه بالكلام على الملأ ويأتى كلامه وقد زادت مواضع الخطأ اللغوى فيه على مايرد من صواب، ولكنها تستقر حين نقبل من يمثلنا فى أى محفل ثقافى أو علمى أو سياسى، ويتحدث إلى الأجانب بلغة غير العربية لغته الأم فمن هنا تبدأ رحلة التفريط فى كل ماهو وطنى. ■



فى عز الضهر

عرض غير مسرحي .. لا يكشف شيئا

بقلم
مهدي الحسيني

عادت بنا هذه المسرحية - نصا وإخراجا - إلى أيام حسني العطار الذى لم يكن يدعي فكرا ولا فنا ، إلى ما قبل ريادة نعمان عاشور للحركة المسرحية الجديدة التى انطلقت منذ «المغناطيس» و«الناس اللى تحت» اللتين قدمتهما فرقة «المسرح الحر» هذه الفرقة المستقلة .

ونقصد بـ «قبل عدد» تلك الأعمال الرائعة التي قدمها المبكرة محمد تيمور وبيرم التونسي وأمين صدقي وبديع خيري وعزيز عيد والريحاني والكسار ويوسف وهبي .. فهؤلاء كانت لديهم مشاريع إبداعية ووطنية كبيرة .. وأحلام وقضايا ومسائل ودوافع فنية .. كما أننا لا نقصد أيضا القالب المسرحي الشعبي من كبار المتخصصين والمرتجلين من أمثال حمام العطار وأحمد العدل والسيد ... ولا حتى فناني الموالد والسوامر والأفراح الرائعين باستخداماتهم الفنية البسيطة العميقة الساخرة المدهشة .. لا .. فالأمر هنا خروج عن كل المسابقات السابقة .. كما أنه خال من أي مبادرة أو مغامرة أو جديد .. فلا هو عمل مسرحي تجريبي أو تقليدي .. ولا هو عمل تليفزيوني أو سينمائي أو إذاعي أو فيديو كليب .. ولا يصلح أيضا للقراءة .. أي لا ينتمي لأي لون من الفنون العربية أو وسائلها .. أو غيرها .

المفاتن المسرحية ... وتوابلها

إن كان توابل المسرحية - كما شاهدناها - أن تحكي قصة ظاهر بيه التي عرفتها في مرحلة الستينيات (المجيدة) وتحولت بفعل مهنتها إلى نوع رخيص من سيدات الأعمال (تمثل بعض العقارات وتأجير الفرش والسمسرة وتبيض على جانب من بلاج العجمي .. الخ) حيث حاول المؤلف أن يصور من خلالها جانب من حقبة طويلة مركبة من تاريخ المجتمع المصري أو فئة من الفئات الطفيلية العالقة بجسده .. لم يفلح المؤلف في هذا المسعى لأنه لا يملك الرؤية الفكرية أو الفنية .. ولا القدرات الإبداعية والتقنية اللازمة لذلك!

ولكن لم يقدم المخرج سوى مجموعة شاليهات وبعض ... على البلاج .. وقام بتغيير هذا المنظر إلى مشهد قسم الشرطة لا لزوم له .

أما الملابس فقد كانت ملائمة تماما .

الموسيقى والغناء

رغم جمال كلمات بهاء جاهين ، فأغنية الافتتاح والختام قد بدتا مثل تترات المسلسلات التليفزيونية .. ليس لها أي صلة عضوية بموضوع العرض ولن تكون أبدا من فكرته .. كما بدت المؤثرات الموسيقية التي كنا نسمعها طول العرض كموسيقى مسلسلات الإذاعة الصباحية .. لم تحقق احساسا ولم تصور جوا .. ناهيك عن أي دور درامي لها .

الممثلون .. والادوار
حسب الظهور

* على عبد الرحيم فى دور شعبان البواب والسمسار والخادم عند المعلمة زينات هو وزوجته فلك نور فى دور الخادمة هندام ، فشعبان هو الغطاء الذهبى (ماركة الجمل) لكل ألوان السقوط التى تمارس فى مملكة «زينات» بينما يبدو تمنع هندام أمراً غير منطقى وسط هذا الكم الهائل من العهر والتسيب والضياع واللامبالاه والزيف . أدى على دوره كإمكانية فنية لم يستغلها المسرح المصرى بعد رغم أنه يحترف التمثيل لأكثر من ٢٥ سنة . كذا قدمت الممثلة فلك دور خادمة الشواطىء التى تحافظ على عفتها وعلى علاقتها بزوجها وعلى عبوديتها للجميع بالمناورة والمداورة وكأنها تمضى على حافة هاوية لا تبغى السقوط فيها ، وقد ساعدها صوتها العريض وتكوينها الجسمانى على أداء هذا الدور المبتور . لقد أشركها وزوجها أصحاب العرض فى مؤامرة حاكها «عرفة» بالاتفاق مع الأبناء الستة أن يختفوا ليصنعوا ما يشبه الصدمة لدى جميع الكبار ، من أين يأتيهما الوعى والدافع اللذين يحفزناهما على هذه المشاركة رغم علمهما بجبروت «زينة» وطغيانها ؟

* سميحة أيوب فى دور المعلمة «زينة» العاهر السابقة والقوادة والحاجة التائبة سيدة الأعمال الطفيلية والصغيرة ، يبدو أن مطامح المؤلف والمخرج كانت تصبو إلى تقديم نموذج مسرحى كبير ، ولكن النموذج الدرامى الكبير لا تتم صياغته على هذا النحو من الكروكية والتعجل والسطحية فقد كان على المؤلف أن يراجع معلمات باب واحد وستة وعشرة فى موانى الاسكندرية اللواتى عقدن صفقات التهريب والمخدرات الكبرى وكانوا على علاقات برجال الادارة والمال والبرلمان ، سيما أن بعض قصصهن منشورة أو معروفة وقد نشرت إحدى مجلاتنا الأسبوعية قصة واحدة من هؤلاء الخطيرات الشهيرات ، ومنذ بضعة أسابيع ، علماً بأنه حين يكون الفن أفقر من معطيات الواقع فإنه لا يكون فناً . والسؤال هنا : لماذا ارتضت الفنانة صاحبة التاريخ الطويل المزدحم بالمنجزات والأعمال الهامة من علامات المسرح المصرى هذا الدور وتلك المسرحية ؟!

* سلوى خطاب فى دور لولا مومس الشواطىء والليالى ، أكثر إمكانية أدائية أهدرت فى هذا العرض ، سيما وأنها فنانة غير مؤهلة للميلودراما السطحية ولا للكوميديا الفجة الرخيصة ، فى هذا العرض لم تفلح شذرات مونولوجات الميلودراما التى صرخت بها فى مطلع الفصل الثانى فى تقديم موهبتها الحقيقية .

* عمر الحريرى فى دور الصول عرفه الذى عاد من هزيمة يونيو ١٩٦٧ وسينا سيراً على الأقدام لمدة ١١ يوماً يكلله إدانته للذات لأنه لم يشارك فى المعركة (أية معركة

!!؟) والمفروض أنه شخصية ذهانية لكنه أحيانا يبدو غير ذلك ، ذلك لأن الشخصية سيئة الرسم ، فالذهاني له إيقاع غير مرئي وغير محسوس إذ ثبت عند لحظة معينة غائرة فى الماضى ، وتلح عليه وتشكل كل تصرفاته ، ولا يستطيع أن يتقن أى عمل منتظم أو فعل مرتب أو مدبر ، تلك الحيلة التى ادارها بإقناع لأولاده الستة أن يتواروا بعيداً ، ريثما يفرخ القلق فى صدور ذويهم .. ثم يعيدهم فى نهاية المسرحية .. وهكذا لم يستطع عرفة أن يقنعنا بذهانيته المزعومة .

* سامى مغاورى فى دور الأحمدى أبو راغب الذى يعمل فى بلد عربى ما ، وها هو الآن فى إجازته يضع زوجته وابنته وابنه فى شقة على البلاج ليمضى فى سفريات داخلية كى يسجل الأراضى ويودع الأموال ويجدد تصريح العمل وأمور أخرى تخص زيجته السرية التى كشف عنها قرب نهاية المسرحية وإيڤا زوجته نجوان سيدة الأعمال الصاعدة الناضجة والتى تعشق ابن عمها ويكونان معاً وسراً شركة تجارية بأموال جلبها الزوج من الخليج . إلا أن هناك نقص ما فى بنية العلاقة بين الأحمدى ونجوان ، فقد كانا فى الماضى زوجين عاديين راكدين ، لكن لما حثته زوجته على التحرك فى سبيل الثروة ، مضى محققا ومنجزاً وكأنه كان ينتظر الفرصة ، الأمر الذى أدى إلى حرمان نجوان من الدفء الجنسى والاجتماعى والأولاد من الرعاية ، الأمر الذى أدى إلى ظهور ابن العم الفقير الحب القديم فى حياتها ، ليؤسسا شركة استثمارية بالأموال التى يلقيها الزوج تحت أقدامها ، بينما يظهر لنا أنه كان يعلم بعلاقة زوجته بحبيبها ، مع ذلك كان لا يتوقف عن السعى وراء المال الذى كان يعطيه للزوجة والاولاد (كيف؟!!) وفجأة بسبب إلحاح زوجته أن يبقى بجانب الأسرة بعد أن اكتفت من المال يعلن أنه كان متزوجا فى السر معلنا تخليه عن الأسرة كلها خاصة نجليه المحبين المحبوبين .. ثم يمضى إلى زوجته الجديدة إذن لماذا كان يمول مشروع زوجته وعشيقها حتى آخر لحظة ؟ ولماذا يهجر ابنه وابنته دون ذنب منهما خاصة وان الابنة بالذات كانت منحازة اليه ضد أمها؟ إن الكاتب التليفزيونى الكبير لم يحكم البنية الدرامية باستخدام عنصر السلبية لمسلسله المسرحى. أما عن أداء هذين الممثلين فقد اجتهد فى حدود ما أتيح لهما من مادة درامية.

* توفيق عبد الحميد أوصاصه أو مصاصة أو جابر هذا الفتى الذكى اللماح المخدر الضائع. ولكنه لماذا يقرر المؤلف أنه خريج اقتصاد وعلوم سياسية ؟ عادة ما تسعى العاهر الطموح إلى ادخال ابنها أو شقيقها إحدى كليات الادارة خاصة وأنها التى تختار وتنفق ولا يخطر فى بالها كليات كالهندسة والطب والاقتصاد، وفى تاريخ الشخصية المروى بطريقة غير درامية بالمره قفزات كثيرة غير منطقية أين ومتى حصل على الثانوية العامة بتفوق؟ وأين ومتى تخرج من كلية الاقتصاد؟ أين كان يستذكر

دروسه ومتى؟ من كان ينفق عليه؟ هل كان يعيش أثناء دراسته فى كنف شقيقته العاهر؟ إذن كيف حقق هذا التفوق ! ثم ذهب إلى أماكن التخدير والمتعة وأقسام الشرطة؟ متى؟ وكيف التقى مع لولا وكيف جمعتهما زينات فى مستعمرتها الصغيرة على البلاج؟ إن القصة غير مقنعة لأنه يعتريها الكثير من التلفيق والتعسف وهذا أمر لا يتعلق بتوفيق فهو فنان يملك ذهنا متوقدا له تاريخ من التجارب والذكريات والقراءات والمشاهدات، ولأنها عناصر لم تستغل فى هذا الدور الخالى المنطق، فانه قد لجأ إلى الزعيق والخطابة خاصة فى مونولوجاته على نحو لا يمس القلب ولا العقل.

* داليا مصطفى أو داليا شابة صغيرة متأججة المشاعر حادة الذهن، تحاكم أمها دون مراعاة لحقوق الأم المهجورة من أجل المال وتتعاطف مع الأب الغائب الذى تزوج سرا قضايا كلها لبس وخلل مع ذلك فقد اجتهدت فى أداء دورها الذى يعتبر رغم كل هذا أفضل الادوار كتابة .

* يوسف داود فى دور خربوش رجل الاعمال الطفيلى ولعله بدأ من القاع وله طعم ابن البلد ومهاراته العملية وأسراره الرخيصة، ولكنه كشخصية مسرحية جزء من الاعتباطية التى قذفت به إلى هذا المكان بأمر من المؤلف .

* محمد توفيق فى دور الزبون الذى طارد لولا إلى هنا بعد أن اكتشف ضياع ساعته الثمينة، وهو كما يقول عرفة أنه مليونير يملك الكثير ولكنه شغوف بمومسات الكورنيش. وبغض النظر عن أنه دور خارجى وإيضاحى يمكن الاستغناء عنه فى بنية درامية متينة ، إلا أن الممثل قد أداه على نحو يصوره تماما.

* ماجدة الخطيب أو بثينة زوجة خربوش التى أسند لها المؤلف مونولوجات مطولة لامبرر لها فحجم الدور اكبر من وظيفته الدرامية بما لا يقاس وهذا النوع «يحرق» الفنان أمام جمهوره، لذا رغم الجهد الذى بذلته الممثلة - لا نجدها مقتنعة بدورها غير مشبعة به.

* صبرى عبد المنعم ومحمد العدل أى بائع الفريسكا والضابط دوران لاداعى لهما ولا مبرر، لذا يبدو المجهود المبذول فيهما ضياع للوقت والجهد والمال.

فى البناء الدرامى

علاوة على ما سبق إيضاحه فالملاحظ أن البناء كله يقوم على المصادفة والاعتباطية لاعلى الضرورة الدرامية، فكأن الشاليهات جاءت بالمصادفة وكان من الممكن أن يأتى غيرهم من أنواع أخرى، وبالتالى يتغير موضوع المسرحية، وقصة عرفة نعرفها بالمصادفة حين يسأل زينة عن الساعه .. وهكذا.

فن المونولوج المسرحى

حفلت المسرحية بعدد كبير من المونولوجات ولعل الغرض منها هو (إرضاء)

الممثلين، فضلا عن إزجاء بعض المعلومات والايضاحات والمونولوج الدرامى المسرحى، وأحيانا يسمونه المونولوج الداخلى فن يقوم على البوح بأسرار النفس أى حديث النفس للنفس، شريطة ألا يكون مجرد استرسال أو اسهاب فى كلام كثير يتعلق بالشخصية التى تلقى بالمونولوج وذكرياتها وآرائها ومشاعرها وآمالها وخيالاتها، لا .. ليس هذا هو المونولوج المسرحى لأنه لا يقتصر على العناصر السابقة فحسب بل لابد من أن يتضمن صراعا دراميا ما «أكون أو لا أكون .. تلك هى المسألة» أو بمعنى آخر أن المونولوج يتضمن ثلاث مستويات من الصراع : صراع بين الذات ونقيضها داخل وحدة جدلية هى النفس الانسانية ككل، ثم صراع يمارسه الذات والنقيض معا ضد الوحدة التى جمعتهما سويا وهى الشخصية ، ثم صراع ثالث بين هذا الثالوث وبين ما هو خارج الانسان وما يكتنفه سواء كان المجتمع أو سلطة ما أو الاعداء أو الطبيعة أو فكرة كونية أو ميتافيزيقية مهيمنة ، هذه هى شروط المونولوج الدرامى المسرحى، فهو ليس سطورا مستطيلة من كلام يقوم على التداعى أو المصادفة أو الثرثرة أو مجرد البوح.

حيلة خائبة

أن يعود الأولاد (الغرقى الستة) سيرا على أقدامهم وقد التفوا بالبشاكير وعلى ووجوههم أقنعة مسرحية، ويقدمهم عرفة.. الواحد بعد الآخر ويلقى كل منهم بجملة ما تصل ما انقطع بغيابهم.. ويخاطبهم ذويهم ويتعرفون عليهم فإن مسألتهم هنا انتهت. إذن ما الغرض من حضور الضابط وإعلانه هم العثور على جثث الشباب الستة وتقديمه صورا لجثثهم كى يتم التعرف عليهم؟ ويمضى الضابط دون أن يستكمل الاجراءات المعروفة فى هذه الحالات وأهمها عمل محاضر معاينة كى يقر الأهالى بحقيقة كل جثة ما الغرض إذن ؟

هل هو إرباك المشاهد ؟ أم طرح أسئلة تخص قدرة الحواس والذاكرة الانسانية على المعرفة؟

أم تحويل المسرحية إلى مسرحية تتبع المذهب الطبيعى إلى مذهب اللامعقول أم أن الغرض هو مجرد إثارة إلى عابثة لفضول المتفرج؟ أم الأمر تمهيد لنهاية المسرحية التى لم يمهد لها جيدا؟.

نهاية مصطنعة

لماذا لم تظهر مجموعة الشباب الستة فى بداية العرض كى نتعرف عليهم كشخوص وقضايا وأفكار ومشاعر وأهواء، لماذا لم يظهروا أول العرض فى لحظة عميقة بارقة خاطفة ثم يختفون فيصبحون سؤالا معلقا فى ذهن المشاهد.. أو حلما جميلا أو حضورا مدهشا مفتقداً ؟ إنهم بالنسبة لباقى هذه الشخصيات التالفة قشة الغريق والأمل الغائم، وبالنسبة لنا كجمهورهم سؤال عن الخلاص وعن المستقبل. ان المؤلف كانت نيته أن

يستخدم تقنية الحاضر الغائب مثل «آل روز مير» لإبسن أو «في انتظار جودو» لصامويل بيكيت.. وغيرهما، ولكن ليس أي شئ لكل شئ فهناك فروق، فـ «جودو» هو المجهول أو القدر أو الميتافيزيقا أو الأمل المستحيل أو الله «GOD». وكما كانت البداية باهتة.. أتت النهاية خائبة، فحين عاد الأولاد من البحر، وفقا للعبة دبرها الصول عرفة – فإننا نشهد مجموعة مصطنعة مسرحيا، ومفتعلة دراميا، ومخيبة للآمال معنويا يغنون أغنية تافهة ويقولون كلاما تافها ويمضون إلى ذويهم دون أن يحدثوا أثرا إيجابيا ولا سلبيا. هل هذا هو جيل المستقبل في مصر؟ أم هم فقط نبت هذا القطاع من أبناء الطبقة الجديدة ؟ النص لم يحدد عما يتحدث وماذا يريد.

إن الحديث عن القطيعة التي يجب أن تتم مع هذا الماضي الردئ والمهزوم والضائع زينات وعرفة وصاصة والباقين ولكن لحساب من؟ لحساب هذه الشلة الهزيلة التالفة من الأولاد والبنات؟ إنهم هم أيضا مشاريع لشخصيات سيئة كذويهم.. إن رسالة اليأس .. اليأس التام.. هي الرسالة التي تنضح بها هذه المسرحية، فالماضي سئ والمستقبل أسوأ. لا أمل.

وإذا ماتحدث الكاتب عن صراع الأجيال وهي نظرية لنا تحفظات عليها فأي صراع هذا؟ فجيل النكسة أفرخ لنا فقط جيل الكاچوال والتيك أواي والفيديو كليب!!؟

ولعل القارئ يعلم أن مصر لم تكن كذلك ولم تصبح كذلك ولن تكون فقبل النكسة كان هناك من هم أصحاب مواقف شريفة ونظر بعيد، وبعد النكسة أصبح هناك من يدركون أسبابها والحلول الصحيحة لإزالة آثارها، وقبل أكتوبر ٧٣ وبعده طرح عديدون مناهج نهضوية وطنية لمستقبل هذه الأمة ومازالوا ولست أدري لماذا اكتفى العرض بتقديم هؤلاء الذين في عيونهم قذى وفي نفوسهم مرض وفي حياتهم عفن؟ هل لا يرى العرض سوى هؤلاء؟

ولماذا ركز على هذه الجزئية المشوهة واجتهد أن يجمعهم في بلاچ واحد وفي مسرحية واحدة؟

وألم يفلت من خيال المؤلف شخص أو شخصان صحيحان فيشكلان نقيضا دراميا لهؤلاء الفاسدين الذين اكتفى المؤلف بتقديمهم؟

إذن لماذا نقدم مثل هذه الأعمال ؟ هل هو واجب قسري أم نفوذ يكتسح المنطق والذوق والعدالة؟ أم مقطوعية لابد من أدائها؟ أم نصيب مخصص من كعكة مسرح الدولة ولابد وأن يأخذها أشخاص بعينهم هم أصحاب القسمة كل موسم وكل عام؟ ■

"المنظمة العربية لحرية الصحافة" حارس تورط فى شهادة الزور!!

بقلم
مصطفى الحسينى

شهدت نقابة الصحفيين المصريين بالقاهرة، بين يومى ٥ و٧ من شهر مايو الماضى ما أسمته الصحافة المصرية «ندوة دولية» موضوعها: «أخلاقيات العمل الصحفى، نحو صحافة حرة ومسئولة». تعاملت صحافة القاهرة الرسمية مع ذلك النشاط وكأن فضله يرجع إلى النقابة التى استضافه مقرها

واقع الأمر، حسب البيان المرفق مع برنامج هذا النشاط والصادر عن «المنظمة العربية لحرية الصحافة» (باللغة الانجليزية ويختلف اختلافا بينا عن «ترجمته» العربية أن ما انعقد كان حلقة أولى من سلسلة من «ورش العمل» تزمع المنظمة المذكورة تنظيمها فى عدد من العواصم العربية إعدادا لمؤتمرها الثانى الذى تتجه إلى عقده فى موعد لاحق من هذا العام. أما نقابة الصحفيين المصريين، فتأتى مشاركتها ضمن ما استثنته المنظمة لنفسها من مشاركة نقابات الصحفيين فى البلدان المضيفة لورش العمل تلك. الشاهد، أن تغطية الصحافة القاهرية كانت تغفل الجهة المنظمة الأصلية، لا تذكرها إلا لماما، ويبدو أن هذا السلوك لم يكن مجرد «خطأ مهنى» فقد كان وصف «الندوة الدولية» هو الأبرز فى عناوين ما نشر من مواد، كان أبرز الأمثلة فى هذا الشأن عنوان فى «الأهرام» (٧ مايو) يقول إن «الندوة الدولية تشيد بحرية الصحافة فى مصر».. يبدو غنيا عن الذكر، لكنه قد يحتاجه أن شيئا من هذا القبيل لم يصدر عن «الندوة»، وأن الإشادة لم ترد إلا فى خطابين ألقاهما اثنان من المشاركين لا يستغرب أن يأتى منهما ذلك، هما نقيب الصحفيين المصريين الأستاذ إبراهيم نافع ورئيس المجلس الأعلى للصحافة فى مصر (وهو مصطفى كمال حلمى). كما وردت «إشادة موارية فى أولى مداخلات الجلسة الأولى التى قدمها الدكتور أسامة الغزالى حرب، عضو مجلس النقابة المصرية ورئيس تحرير مجلة السياسة الدولية التى تصدر من مؤسسة «الأهرام». كما وردت إشادة مفعمة بالمرارة فى تدخل عرضى وقصير للزميل السورى حسين العودات الذى قال موجها حديثه إلى زملائه المصريين ما معناه أن حالكم فى هذا الشأن أفضل من حال زملائكم فى بقية البلاد العربية. واستكمالا للسجل، ربما أدرجت «الأهرام» كلمة

رئيس المنظمة العربية لحرية الصحافة الزميل إبراهيم نوار، ضمن هذه «الإشادة»، إذ أنه قدم عرضا نقديا موجزا ومركزا لأوضاع حرية الصحافة فى عديد من البلدان العربية التى ذكرها بأسمائها، بينما أغفل تناول أوضاع الصحافة المصرية، وكان هذا الإغفال محل انتقاد أحد المتحدثين.

ونشرت الأهرام مقتطفات غير قصيرة من مداخلة الغزالى حرب، دون إشارة إلى ما وجه اليها من نقد استغرق الجزء الأكبر من الجلسة التى تحدث فيها.

أليس هذا كثيرا، فى التعامل مع «ندوة» موضوعها: «أخلاقيات العمل الصحفى: نحو صحافة حرة ومسئولة»؟

مع ذلك، فإن لهذه المعالجة التى تميزت بها «الأهرام» ميزة كبيرة هى أنها تثبت صواب كل ما وجه إلى أوضاع الصحافة المصرية من انتقادات، من حيث كون أغلب مؤسساتها التى تسيطر على ما يقدره العارفون بحال الصحافة فى البلاد على ما يزيد على ٩٠٪ من سوق القراءة الصحفية المحلية.

على أن «نقد» ذلك النشاط الذى كان يمكن أن يكون «حدثا» فى تاريخ النقابة المصرية و«يوما» من أيامها لو أنه نظم تنظيما مستقلاً وعومل بما هو جدير به من استقلال، هذا النقد لا يقتصر على «تغول» النقابة المصرية على سجل الجهة الأصلية المنظمة ولا على المعايير الأخلاقية المهنية «مفرطة المرونة» التى اتخذتها الصحافة الرسمية فى التعامل معه، من قبيل تلك الإشادة التى سبق ذكرها بـ «حرية الصحافة المصرية»، بينما تصف المراجع الرسمية حدودها بأنها «هامش»، مجرد هامش، ومن قبيل إضفاء صفة «الدولية» على «الندوة»، التى لم يكن من بين المشاركين فيها من له صفة «دولية» سوى مندوبين، الأرجح أنهما مراقبين، أحدهما من «الاتحاد الدولى للصحفيين» ومقره بروكسل / بلجيكا ويمثل الثانى «الاتحاد الوطنى للصحفيين» فى انجلترا.

النقد يجب أن يتناول أيضا الجهة المنظمة الأصلية لهذا النشاط: المنظمة العربية لحرية الصحافة.

من باب التعريف، نشأت هذه المنظمة فى لندن فى العام ٢٠٠٠ بمبادرة من عدد من الصحفيين المصريين (والعرب) كان الزميل إبراهيم نوار هو أكثرهم فعلا فى تجسيدها وتحقيق وجودها الفعلى، فأصبح - بجدارة واستحقاق - رئيسها الذى تفرغ لها. مجمل مهمة المنظمة هو العمل على حماية حرية الصحافة العربية وتوسيع آفاقها وملاحقة ما يقع بحقها من انتهاكات.

فى حدود ملاحظة هذا الكاتب الذى كان طرفا فى صياغة فكرة هذه المنظمة وفى جهد توفير تمويل أولى غير مشروط لإنشائها، سار نشاط المنظمة على وجه جدير بغرضها على مدى عمرها اليافع، حتى كانت هذه الندوة.

فى تقدير هذا الكاتب وفى ملاحظته، أنه فى الإعداد لهذه «الندوة» أبدى رئيس المنظمة من المرونة واستغرق فى «اللياقة والمواءمة»، إلى الحد الذى أضفى على نشاط جهة مستقلة هى هذه المنظمة ما

يكاد يكون طابعا حكوميا، على أى حال. قصور لجنة صياغة خلاصات «ورشة العمل» عن إصدار بيان احتجاج (اقترح عليها) على التناول المغرق فى الخلل المهنى لأعمالها فى الصحافة الرسمية، كلمة رئيس المنظمة الزميل إبراهيم نوار والتى استثنت الصحافة المصرية من النقد الواجب.

هذه النقطة الأخيرة سبق ذكرها، لكن الغرض من تكرارها هنا هو التنبية لأمرين أقلهما خطراً أن المجاملة فى شأن حرية الصحافة من جانب منظمة مهمتها ومبرر وجودها حراسة حرية الصحافة، إنما يهدد مصداقية هذه المنظمة.

الأمر الآخر والأخطر والذى هو استطراد على الأول، أنه لو تابعت المنظمة قاعدة مجاملة البلدان التى تستضيف نشاطاتها، كُما فعلت مع مصر، فإنه سيتراكم فى سجلها ما يلغى مبرر وجودها: شهادات منها بأن حال الصحافة فى تلك البلدان بألف خير، حتى ولو كانت شهادات عن طريق إغفال النقد الواجب واللازم، حتى لو كانت شهادات بمفهوم المخالفة.

باختصار، مع قسوة العبارة، لكنها قسوة لازمة، لا تستطيع المنظمة العربية لحرية الصحافة أن تكون حارسا أمينا لتلك الحرية وشاهد زور عليها فى الوقت نفسه. ■

رحيق الكتب



المهمشون في صعيد مصر
(آليات السيطرة والخضوع)
تأليف : د . آمال طنطاوى
دار نشر : ميريت

صدرت دراسة جادة تحاول سبر أغوار قضية التهميش الاجتماعي في مصر. وذلك من خلال مناقشة مشكلات المهمشين وهمومهم. وانطلقت من مبدأ الاهتمام بتلك القضايا التى تقترن دوما ببنسية المجتمعات وبمدى قدرتها على مواجهة مشكلاتها العامة، وبهموم بعض شرائحها الاجتماعية بخاصة.

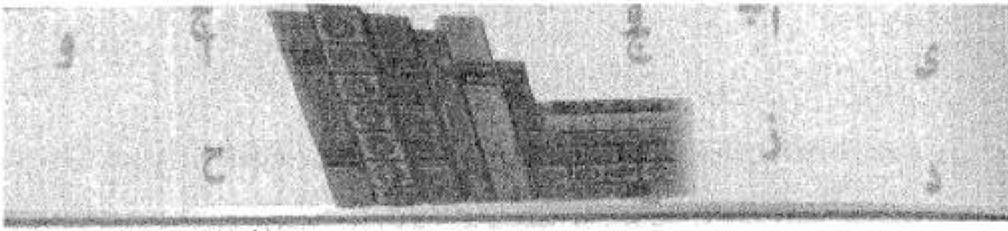
والجديد فى الدراسة أنها لم تنظر إلى مجتمع الصعيد متمثلا فى عينة الدراسة محافظة أسيوط على إنه مجتمع يجسد كل ما هو تقليدى فى مقابل مجتمع القاهرة الذى من المفترض أن يمثل كل ما هو حداثى. لكنها تخطت ذلك وسعت إلى دراسة عملية التهميش نفسها لا دراسة جماعة بعينها على اعتبارها ممثلة للجماعات الهامشية .

واستطاعت الدراسة أن تجيب على عدة تساؤلات عن مفهوم الهامشية فى علم الاجتماع الغربى وصورته التى انتقلت إلى دراسات العالم الثالث . كما أوضحت آليات السيطرة ومردوداتها الثقافية والسياسية والاقتصادية، مما جعل الدراسة تمثل نقله نوعية فى بحوث علم الاجتماع السياسى على الصعيدين العربى والمصرى. كما أوضح الدكتور محمود الكردى أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة .



رواية «عابر سرير»
تأليف : أحلام مستغانمى
دار نشر: منشورات أحلام مستغانمى

«عابر سرير» رواية جديدة للروائية الجزائرية أحلام مستغانمي، صدرت مع بدايات العام الحالي لتكمل ثلاثيتها التى



تدور حول مأساة الجزائر وشعبها . وبالطبع لاقت الرواية الجديدة رواجا شعبيا كبيرا كروايتيها السابقتين . «ذاكرة الجسد» عام ١٩٩٣ و«فوضى الحواس» عام ١٩٩٨ . ونفدت أعداد طبعتها الأولى فور صدورها ، وانقسمت الآراء حولها كما حدث من قبل . واستطاعت «مستغانمي» من خلال روايتها الأولى أن تحقق من الشهرة ما لم يتحقق لغيرها . وأن تطبع من كتاب واحد ثماني عشرة طبعه . الأمر غير المسبوق في العالم العربي . مما دفعها إلى تأسيس دار نشر يحمل اسمها وتكون روايتها الجديدة أولى تجاربه .

تستكمل «مستغانمي» في روايتها رؤيتها للواقع المرير الذي يعيشه الجزائر متمثلا في شخوص يعانون في ارهاصاته . كل ذلك داخل فانتازيا غريبة ومحيرة . وتستعير شخصية «خالد ابن طوبار» بطل روايتها الأولى « ذاكرة الجسد» لتواصل معه معادلتها الروائية حول مأساة الوطن والمنفى .

ورغم الانتقادات التي تواجهها حول استخدامها لمفردات ذات دلالات جنسية شهوانية .

تصر «مستغانمي» على إطلاق روايتها الجديدة تحت عنوان إيحائي «عابر سرير» لكنها تعود داخل العمل لتوضح أن السرير هنا ليس بمعناه المبتذل لكن له دلالات وجودية تتصل بلحظتي الولادة والموت وما بينهما في حياة .. «عابرون في أسرة عابرة» .



محمد حسنين هيكل يتذكر

إعداد : يوسف القعيد
الناشر: دار الشروق (٢٠٠٣)

ظلت علاقة الزعيم الراحل جمال عبدالناصر بالثقافة والمثقفين موضع جدال ومعارك صحفية منذ رحيله (في سبتمبر ١٩٧٠) أثيرت خلالها العديد من الآراء والاجتهادات والشهادات المتناقضة التي تدين وتبرئ .

وصدرت في هذا الشأن بعض الدراسات والشهادات حول هذه القضية الشائكة، ولكنها دراسات وشهادات كانت تأتي من خلال شخصيات لم تكن قريبة من عبدالناصر بالقدر الكافي، أو كانت بعيدة أصلا . فجاءت شهادتها أما ناقصة أو مجروحة !

ولذلك تأتي أهمية كتاب «عبدالناصر والمثقفون والثقافة» من خلال حوارات يوسف القعيد مع الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فى أن هيكل من أقرب الكتاب إلى عبدالناصر، بل كان على الأصح - هو الكاتب الوحيد الذى ظل قريبا من عبدالناصر منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى رحيل الزعيم الخالد .

وتحتوى فصول الكتاب على عدة موضوعات أثير حولها الكثير من الجدل مثل قصة توفيق الحكيم مع جمال عبدالناصر وعلاقة نجيب محفوظ به وإحسان عبدالقدوس وعلاقته مع كل من د . طه حسين والعقاد والشاعر نزار قباني ، وعلاقته مع الفنانين الكبار أمثال: أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وسبب اهتمامه بالمطربة عفاف راضي وكيف تمنى أن تصبح «فيروز» أخرى!

وإذا كان هذا الكتاب لم يستطع تغطية كل جوانب الصورة في علاقة عبدالناصر بالمثقفين مثل رسالة نزار قباني المباشرة إلى عبدالناصر بعد قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» والتي أفرج بعدها عبدالناصر عن منع القصيدة وسمح بدخول الشاعر إلى مصر، وفيلم ميرامار ، كذلك موقف عبدالناصر من فكر سيد قطب ومن الأخوين علي ومصطفى أمين ، إن هذا الكتاب قد ركز على القضايا الأكثر إلحاحا خاصة فيما يتعلق بقضية الديمقراطية وحرية الرأي إنها شهادة تاريخية لكاتب كبير اقترب كثيرا من صانع القرار .

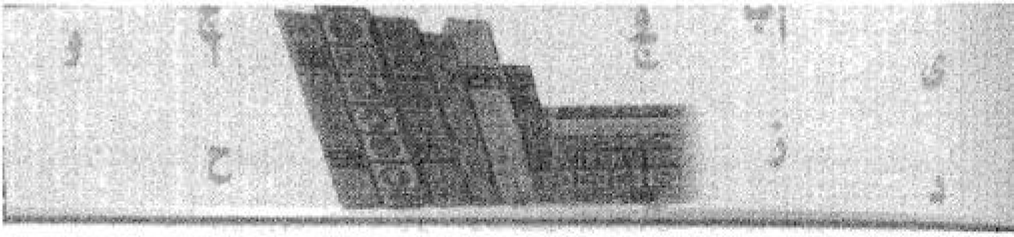
ولم يبخل الكاتب الكبير بامداد المؤلف ببعض المستندات مثل صور من رسائل توفيق الحكيم ونزار قباني لهيكل وإن كنت أعتقد أن هيكل مازال لديه الكثير من التفاصيل التي يمكن أن يرويها لنا بقلمه المهم والذى لم ينس معده أن يضع فى نهايته مجموعة من الصور النادرة لعبدالناصر مع بعض رجال الادب والفن والفكر فى مصر والعالم .



تاريخ السينما التسجيلية في مصر
تأليف: ضياء مرعى
الناشر: مكتبة الاسكندرية

هذا الكتاب موجز من مائتين وثمان وعشرين صفحة لرسالة من ثمانمائة صفحة أعدها صاحبها لمعهد النقد التابع لأكاديمية الفنون .

وحتى يوم مناقشة تلك الرسالة . لم تكن وقائع تاريخ السينما التسجيلية فى



مصر معروفة ، على نحو ناف للجهالة .

فلم تكن ثمة معلومات موثقة عن هذا التاريخ الموغل فى القدم ، ولا دراسات وأبحاث جدية ، من ذلك النوع الذى يعين فى توضيح الرؤية أمام العاملين فى مجال تلك السينما الرائدة .

باختصار كان تاريخ تلك السينما شبه مجهول سواء بالنسبة لصانعيها ، أو المولعين بها، أو الباحثين .

ورغم بعض عيوب شابت الرسالة، من بينها على سبيل التمثيل أن المخرج التسجيلى جون فينى كندى الجنسية ، فى حين أنه فى حقيقة الأمر نيوزيلندى، أى أنه من بلد يفصله عن كندا آلاف الأميال ، رغم ذلك فالرسالة مرجع هائل، ووثيقة وحيدة صحيحة عن السينما التسجيلية فى مصر ، وبوصفها كذلك ، فالكتاب الموجز لها جدير بقراءة كل من يهمه أمر سينما ترتهن بالاهتمام بها ورعايتها نهضة السينما المصرية .

«إذا أراد أحد من الناس أن يكتب مسيرته فى الحياة، فهو بين أمرين لا ثالث لهما، أن يقول كل شئ بصراحة وصدق، فإذا لم يقو على ذلك فخير له أن يلجم لسانه..» جملة بليغة كتبها مصطفى درويش لتعبر عن الأسلوب الذى انتهجه فى كتابه «أربعون سنة سينما» الصادر عن صندوق التنمية الثقافية .

فقد كرّم المهرجان القومى التاسع للسينما المصرية عددا من رموز السينما من ممثلين ومخرجين وكان من ضمنهم الناقد مصطفى درويش عن تاريخه الطويل مع الكتابة السينمائية النقدية والدور الذى لعبه خلال فترة الستينات كرقيب على المصنفات الفنية .

وصدر ضمن فعاليات المهرجان الكتاب الذى بين أيدينا . يستعرض فيه «درويش» محطات حياته ويكشف عن بعض المواقف الشائكة التى تعرض لها خلال عمله كرقيب . خاصة أن تلك الفترة قد شهدت محاولات من قبل وزارة الإعلام للهيمنة على وزارة الثقافة والقضاء عليها ككيان مستقل بدعوى أنها تفتح الباب أمام دعاة اليسار . متمثلين فى رقيبها المنتدب فى مجلس الدولة ، مصطفى درويش .

ويضم الكتاب مختارات من مقالاته التى قام بنشرها فى مجلة الهلال على مدى تاريخه وبعض كتاباته الأخرى فى مجالات (الفن السابع / شئون فلسطينية . المستقبل العربى..) ■



مصطفى درويش .. أربعون سنة سينما

تأليف: مصطفى درويش

أصدار صندوق التنمية الثقافية

كاتب مغربى .. يفكك أسر الرواية العربية ..!

كائنات محتملة

مكان يبحث عن زمان وفراغ يمتلىء بالوهم

بقلم
عبد المنعم الجداوى

دائماً تجد فى الرواية العربية شيئاً ناقصاً .. لاتدرى ماهو على وجه التحديد..؟ إنه إحساس يتكون فى الوجدان والذهن .. فإذا ماقرأت رواية لكاتب غربى وجدت هذا الشىء بارزا . يشق الذهن، ويقيم فيه..!

هذا الشىء استوفاه الكاتب المغربى «محمد عز الدين التازى» باقتدار فنى. مزج فيه التخطيط الأوربى الواسع الثقافة - بالفن الإنسانى، وروح الشرق..!!

الرواية التى صدرت فى مارس الماضى من سلسلة روايات الهلال. للكاتب المغربى «محمد عز الدين التازى» . لايجب أن تقرأ فقط، لكن على الذين يتصدون لكتابة الرواية العربية أن يتأملوها، ويعكفوا على سطورها سطراً بعد سطر، وأن يدخلوا إلى جوانح شخصياتها . شخصية بعد أخرى، فإذا انتهوا من الشخصيات . أقبلوا على المؤلف فى إصرار على معرفة أسلوبه، وطريقته المبتكرة فى السرد، وجمعه غير المسبوق بين المكان الواحد ، والأزمنة المتعددة من أحداث الحياة فى صميم أعمار الشخصيات، وكأنه جاء بوطن كبير متضارب التيارات. تقطنه الملايين، وتطحنه المتناقضات الموروثة، والوافدة، وتتصايح فيه الأفكار فى القمة .. ثم يهبط بالصراع حارا مجسماً . إلى المقاهى والحانات، والمطاعم الرخيصة، وكل ذلك يقدمه فى عبارات تبدو لك

ساذجة . لكنها تأخذ طريقها إلى الأعماق فى سهولة ويسر. كأنه يقذف المعنى إلى هدفه دون صعوبة، وفى عفوية غير متعمدة..!

فهو يطالعك فى الصفحات الأولى بمدينة أو قرية كبيرة . يؤكد لك أنها على شاطىء بحر أخذت اسمها من زرقة مياهه فاسمها «زرقانة»، وفى براعة يعرضها عليك. يرسمها كما يرسم الفنان لوحته. فإذا بها ذات حوار، وازقة، وشارع هام فيه الأسواق، ويوزعها أحياء للفقراء، ومساكن للأغنياء. وبعد أن يجعل القرية الكبيرة. تملأ وجدانك . بالشكل الذى تختاره أنت من ذكرياتك وماضيك. فلا بد أنك شاهدت وعشت مثل هذه المدينة، وإذا ما اطمأن إلى أنها سكنت فؤادك بدأ يقدم لك الأشخاص الذين يعيشون فيها، وهم يتصارعون يومياً. لكى يظلوا على قيد الحياة، وليس صراعهم كله لليوم. بل إن الغد هو الذى يقلقهم، ويمسك المؤلف بهذا الغد. فيكشف دخيله كل فرد من المتصارعين..!

والقلب بسبب الغد وهمومه، هو نبض الحياة والحداء الذى تسير عليه أمورهم. كلهم يشغلهم الغد. من أول العامل فى المطعم الذى يستقبل الأغراب، والفقراء الذين يستعدون للاغتراب، والذين يملكون ثمن كوب



الشاى ينتظرون الأصدقاء، أو يسمرون مع الورق، والعامل .. يحمل اطباق الطعام للبعض، والشاى للآخرين .. وبعد أن يقدم المؤلف كل هذا للقارىء، يبدأ فى تسريب الشخصيات التى سترافقه مساحة من صفحات الرواية، واحدة تلو أخرى، بشكل لايفطن فيه القارىء، وفجأة يتوقف ليقول للقارىء.. أنه لايكتب رواية، ولا هو المؤلف .. وإذا لم تكن رواية، ولم يكن السارد مؤلفاً. فمن هو..؟

إنه أحد الشخصيات الوافدة على «زرقانه». كان يسمع عنها، وتمنى ذات يوم أن يراها، وأن يزور معالمها، وهى ليس فيها الا معلما واحداً. هو «برج قديم» . يقال إنه أقدم من «زرقانة» وتشرف عليه وزارة المعارف، وإدارة الآثار، وتدور حوله الأساطير .. وهذا البرج القديم، هو الذى استدعى الراوى، وهو فنان درس فى كلية الفنون الجميلة ، وعشق الرسم ونبغ فيه، وقدم أوراقه إلى الوزارة، مشفوعة برسم «لبرج زرقانة»، وطالب أن يعين للعمل فى ترميم هذا البرج الذى يعشقه ، وكان العمل الذى أهله للحصول على بكالوريوس الهندسة، واستجابت الوزارة . بعد متاعب صغيرة ، لم تفت فى عضده ، وشد الرحال من العاصمة إلى «زرقانة»، وحينما ألقت به حافلة المسافرين . فى



ميدان «زرقانة» حمل متاعة واتجه إلى هذا المطعم الذى يتوسط الميدان فجلس على مائدة ووضع متاعه على الأرض. فجاءه عامل المطعم، وقبل أن يصله أرسل نحوه ابتسامة. نفضت عنه متاعب السفر، فلما وقف أمامه. حدثه كأنه كان معه منذ ساعة فقط، وقال له أنه يمكنه أن يضع متاعه على مقعد بجواره بدلاً من الأرض واعتبر هو ذلك ترحيباً، ودعوة إلى صداقته..!

ثم يقول هذا الوافد، ويخط بارز، وبصوت عال: (الوقت منفلت فى زرقانة، ولكل زمنه الذى يحيا فيه، ولربما هى أزمنة يحياها الزرقانيون فى وقت واحد، ولكل زمنه لايلتقى مع أزمنة الآخرين).

بهذه العبارة الجديدة على الرواية العربية، والتى لاتسير كما تسير الروايات، وإنما هى مصائر، وأحلام، وأمان لقلوب شابة، ونفوس عاشقة للحياة وللغد.. هذه المصائر تداخلت بمقادير بعيدة أو قريبة ، ولم تمتزج إلا فى مواضع قليلة، ويبقى بين الجميع الخطوط الفاصلة التى كونت وجوده، وتجمعت لتصيغ مايريد، ومالا يريد. لايعطى الا بقدر ما يأخذ، وفى كل الحالات يرنو إلى الغد. يتمناه نهاية لمتاعبه. فإن لم يكن كما يتمنى . لا أقل من أن يكون مرحلة جديدة.

سيان غادر «زرقانة» أو بقى بها .. من أجل ذلك كانت هذه القرية الكبيرة، ليلها قلق، ونهارها صراع .. إن أهلها جميعاً يحكمهم قلق المسافر. حتى وان لم يكن على سفر .. وعامل هذا المقهى أو المطعم يسلمه مفتاح المدينة.. فهو يبحث له عن مكان يقيم فيه، ويختار له من يسكن معه، وتبدأ الصداقات بلا صعوبات. كالجدول الذى يجرى فيه الماء بسهولة ويسر..!

ومن خلال «المروانى»، و«الغرناطى» الذى شاركه السكن وهو بحار متعطل، ومن خلال «عبدالصادق» عامل المطعم. تبدأ الشخصيات تتوالى . فهم يجتمعون فى المقهى قبل أن يذهبوا إلى سكن «الغرناطى» لكى يسهروا ، والسهر، والشراب يجعل كل شخصية تطرح هموم اليوم، والغد، وأحلام ما بعد الغد.. كل شخصية تتبع همومها من رسمها، وظروفها، وحتى ملابسها تتلاءم مع مايرقد فى الأعماق من أوهام، وأحلام التى هى فى حقيقتها زوارق صغيرة يسافر بها المتعبون إلى الغد، وكلهم يريدون أن يصلوا. لكن الوصول قلما يتحقق. فالأمواج عاتية، والرياح ليست كما يتمنون، والمجهول لايبالى، والفشل يترصد بالزوارق المعطوب أكثرها..!

انزلاق قصص الشخصيات، والدقيق من وجدانهم، والرقيق من أحاسيسهم.. يجىء إلى خضم الرواية. كالمد والجذر الذى يمارسه بحر «زرقانة» ليل نهار. ينطح صخور الشاطىء، فلا تكاد أنت كقارىء تشعر أن عليك تتبع هذا. أو

تجرى وراء ذاك كما في الروايات التي نقرأها منذ الثلاثينات، ومن الصفحات الأولى يحمل القارئ لها على عاتقه متاعب البطل، ويسير بها عبر الصفحات، فلا يضعها إلا آخر الرواية، ثم يغمض عينيه ليستريح ..!

في (كائنات محتملة) وببراعة وضع المؤلف الأحداث حول القارئ ، وليس أمام بصره، وتركها تتحرك .. «المعلم»، و«المرواني»، و«عبدالصادق»، و«فردريكو»، و«الفقيه» ، و«الساحرات»، و«الإمبراطور».. ثم «صلاح التافرواتي» الذي جاء ليرمم «برج الزرقانية» فإذا بها تستحوذ على وجدانه. يعشق أيامها ولياليها، ولا يرى «البرج» ولا يذهب اليه سوى مرة واحدة .. انشغل بترميم الإنسان عن ترميم «البرج»، وبذل من الإخلاص مايستطيع لترميم النفوس المعطوبة، والقلوب الجريحة .. لكنه كان ينفخ في رماد .. فالأحداث وقحة رهيبة .. خربت النفوس، وجعلت جراح القلوب غائرة .. لاتجدى فيها الأدوية، ولا تنجح في علاجها المراهم..!

●●●

وفي السهرات يعلن «الغرناطي» أنه سوف يخطب «عشوشة». قبل أن يهاجر إلى الخارج ليعود بما يحسن به مستقبله. بعد أن ضاقت عليه «رزقانة». والخبر تهتز له الجلسة .. كل منهم يتلقاه في موقعه بمشاعر مختلفة . «فصلاح» سوف يتحمل أجرة السكن وحده. بعد أن يهاجر «الغرناطي»، و«عبد الصادق» سوف يفقد صديقاً عزيزاً، و«المعلم» يضيع منه من دائما يستمع اليه ويواسيه، والمدرس يوشك أن يبكي لإنه لن يجد من يقدم له الطعام والشراب، والمكان مجاناً، ويحاورون «الغرناطي» في موقفه من «عشوشة» كيف يخطبها، ويهاجر في نفس الوقت؟ فيرد أنه سوف يعقد قرانه عليها في الغد، ولابد من ذهابهم جميعاً معه إلى والدتها بالقرب من «حي الساحرات»، وذهبوا بالفعل إلا «عبدالصادق». الذي اعتذر بأنه لايمكنه أن يترك المقهى.. لكنه في الواقع كان يخفي معارضته لهذه الزيجة ، وكتم رأيه حتى لايغضب «الغرناطي». فهو يعرف عن «عشوشة» وأمها مالا يعرفه «الغرناطي» الذي أوصاه أن يرعاها في غيابه، وأنه سوف يرسل إليها النقود عن طريقه وباسمه لكي يسلمها لها هو و«صلاح» فلم يترك في «زرقانة» أعز عليه منهما و«عشوشة» ، ورغم انزعاجه من كلام «الغرناطي». لجمعه بينهما وبين «عشوشة» في جملة. إلا أنه صمت، وبكي وهو يودعه بدموع صادقة.. فالرحلة محفوفة بالمخاطر، وقد لايراه..!

وفي أول سهرة بعد سفر «الغرناطي». يخيم الحزن على الإخوة، وعلى السهرة، وعلى أدوات السهرة. حتى الكئوس حينما توضع على المائدة، ويزفر «المعلم» فيتكلم عن النيران التي تشوي قلبه على «سعد الدين» ابنه الشاب الذي احتال حتى أخفاه عن عيون المخابرات .. ثم بعث به إلى الخارج في زورق أتقن صناعته. فهو «نجار» يتحدث إلى الخشب ، ويتحدث

الخشب إليه .. ويشرع في مأساته، وكيف عذبه رجال المخابرات حتى ماقبل الموت، لكي يقول لهم اين ولده. بعد أن ضبطوا في بيته المنشورات، ولم يكن يعرفها فهي في أوراق ولده .. ورغم مضى السنوات إلا أن آثار التعذيب مازالت بصماتها على جسده، وقد تعطبت ساقه اليمنى عن العمل، ومن أجل ذلك يدور حول نفسه إذا أراد الوقوف، ويترنح، وهو يستمر في سرد همومه، وأمله الذي يتبدد مع الزمن في رؤية ابنه قبل أن يموت إلى حد أنه يبحث عن من يأخذ كل ثروته، مقابل أن يجمع لحظة بينه وبين ولده «سعد الدين»، ومن خلال دموعه يعتذر للصحاب لأنه أحزن سهرتهم بسيرة ولده..!!

●●●

السهرة أدركتها الشيخوخة. بعد سفر «محمد الغرناطي»، وسفر «المرواني» إلى المانيا، وتحققت مخاوف «عبدالصادق» من سلوكيات «عشوشة» وجاءت تطالب بنقود من «صلاح»، وعبد الصادق» فقد وعدها، ووعدهما، ولكنه لم يرسل، ولم يخاطبهما في التليفون يطمئنه على نجاته، وكانت تطالب بوقاحة إلى حد أنها اتهمتهما باللصوصية، واضطر «صلاح» أن يعطيها مبلغا من ماله الخاص الذي تقاضاه من الحكومة لترميم «البرج» الذي دخله مرة واحد..!

ويموت «المعلم» دون أن ينال أمنيته في رؤية «سعد الدين»، و.. و.. و..! وتتحول «عشوشة» إلى فتاة ليل .. ويقول «عبد الصادق» «لصلاح» لعلك أدركت الآن لماذا تخلفت عن حضور عقد قرانها على «الغرناطي»..!

في الصفحة التي تليها .. يذهب «صلاح» صباحاً إلى المقهى .. فنجد «عبدالصادق» بعد أن ترك لحيته، واتسمت عليه آيات الورع، والتقى، يقول له إنه لايدرى إذا كان يجب عليهما أن يذهبا لتشييع جنازة «عشوشة» أم لا..؟

عثر أحد رجال الشرطة على جثتها مذبوحة في طريق بجوار البحر .. وزعمت التحريات أن عصابة لتهريب المخدرات.. قتلتها بعد أن أعطوها ثمن كمية كبرى، فأنكرتها ، ورتبت مع لص أن يتظاهر بخطف الحقيبة منها – لكن الحيلة لم تنطل على العصابة فقتلتها .. واليوم سوف تدفن .. وعليه وحده إذا ظل في «زرقانة» أن يخبر «الغرناطي» أو يدعه في حلمه .. لأنه من اليوم سوف يصعد إلى شيخه في خلوة في الصحراء ليجاوره هناك، فيترك المقهى أمانة بين يديه، وله أن يبيعه، ويأخذ ثمنه..؟

●●●

تغرب شمس الرواية، ويميل كل زمن «زرقانة» إلى الأفول، وتحت عنوان (تعليق السارد) تجيء لغة السطور (تلاحظون أيها القراء أن المؤلف قد صنع مصائر كل أبطال الرواية إما بالرمي بهم في دروب الهجرة أو في دروب القتل والموت أو في دروب غامضة كالدرب الذي ذهب فيها «عبدالصادق». المؤلف يقول إن

«زرقانة» هى التى صنعت هذه المصائر، وأنا أقول لو ترك لى أمر صنع مصائر الأبطال لفكرت فى خواتم أخرى محتملة).

شكل رائع من أشكال إمتاع القارئ، ولباقة رفعت عن كاهل القارئ مايعانيه وهو يتابع فى توحد متعب مايعانيه أبطال أو أشخاص المكتوب .. لقد تضافرت فى هذه الرواية أمشاج، وروح الثقافة الغربية مع الوجدان العربى. فانطلقت الرواية العربية من الاغلال التى رسفت فيها طوال النصف الأخير من القرن الماضى، وفكت أسرها من الأشكال التى حبست داخلها وطال عليها الأمد..!

ويعود «الغرناطى» من رحلته، ويعانق «صلاح»، ويرتبك هل يقول له أخبار «عشوشة» أم يقدم له العزاء أولاً، ولكن «الغرناطى» ينقذه من الورطة. إذ يقول له إنه عرف الأخبار فى غربته، وتغلبت متاعب الغربة وأهوالها على فجيعته فى «عشوشة». فالهموم كالأسماك يبتلع كبيرها صغيرها، ويجىء الليل، ويسهران يتكلمان حتى يبدأ الفجر، وينام «الغرناطى» والكلام على شفتيه يروى أهوال ماعاناه فى رحلته .. ويتنفس «صلاح» الصعداء، وكان قد أعد العدة لمغادرة «زرقانة»، وحتى لايضعف إذا استيقظ «الغرناطى»، وعدل عن رغبته لحظة الوداع .. تسلل يحمل متاعه، وأغلق الباب، وهبط يودع «زرقانة» حتى فجرها الذى تخنقه الظلمة، والحوارى، والقمامة، والكلاب الضالة.. وهدير البحر القادم من بعيد .. ويقترب من «الحافلة التى ستأخذه وحيداً. كما جاء وحيداً .. وأحس أنه تخلص من دموع «الغرناطى»، وقسوة الوداع .. لكنه شعر بكل وعيه.. أن يدا تمسك بملابسه، وتتعلق به كطفل يتمسك بأمه .. كانت «زرقانة» المكان، والمدينة، والزمن.. تحاول أن تعيده .. لكنه أفلح، ومضى..!!

●●●

وتنتهى الرواية المكتوبة.. لكنها لاتنتهى من وجدان القارئ الذى يجد نفسه شاء أو رفض أحد شخصياتها. يبحث هو الآخر عن حصيرة فى «زرقانة»، ويضع الكاتب المقتدر عدة سطور قبل النهاية فيقول (أنا سارد تقليدى، والرواية تجريبية أو حداثية كما يدعى المؤلف وبيننا خصام ، وأنا أنتظر أن يفصل بيننا القراء) هذا الكلام على لسان «صلاح»..!

مرة أخرى أقول إن «محمد عز الدين التازى» جدد شباب الرواية العربية ، وخلع عنها القيود التى كانت ترسف فيها، وفك أسرها من البداية ، والحبكة ، والنهاية .. ليت الذين يكتبون الرواية . أو ينوون كتابتها أن يدرسوا منعطفات (كائنات محتملة) .. فإذا لمسوا أسرارها كتبوا أحسن منها . أو مثلها، وفى الحالتين سوف تكسب الساحة العربية أدبا جديدا..!! ■

ملك الغناء في الاسكندرية

قصة قصيرة

قصة
مصطفى نصر
بريشة
سميحة حسنين



فرح مرسى الحسينى كثيرا لإقامة اذاعة فى الاسكندرية . فقد ظل هو وأصدقاؤه الموسيقيون ومؤلفو الأغانى يحلمون بأن تكون لهم اذاعة قريبة منهم ، تذيع أعمالهم وتغنيهم عن السفر إلى القاهرة لتقديم أعمالهم هناك . لهذا ، دعا مرسى أصدقاءه - هؤلاء - فى بيته للاحتفال بهذا الحدث المهم ، ودعا - أيضا - أحد العاملين فى الاذاعة (وهو مذيع كبير كان يعمل فى اذاعة القاهرة) تحدثوا عن آمالهم فى الاذاعة .

تحدث مرسى طويلا فأشاد بفنانى الاسكندرية من ملحنين ومغنين ومؤلفى أغان . وقال إنهم لا يقلون مقدرة عن فنانى القاهرة ، بل هم أفضل منهم بكثير .

ثم أمسك مرسى عوده وعزف عليه وغنى أغنية «عش الهوى المهجور» لأحمد صدقى . كان عزفه سيئا وصوته لا تطيق سماعه . وكان يقطع العزف والغناء ليتحدث عن الأغنية . وكيف أوحت المطربة «نجاة على» لمؤلفها «امام الصفطاوى» بكلماتها من خلال ما كانت تمر به من مشكلات أسرية .

ود الحاضرون لو ظل مرسي يحكي طوال الوقت ، ولا يعود لعزفه وغنائه . لكنه أصر إلا أن يأتى على آخر الاغنية . مما جعلهم يتثاءبون ويتمنون أن يمر الوقت سريعا .

ثم عزف سعيد الطويل لحنا من الحانه ، وغنى بصوته الجميل . فصفق الحاضرون طويلا .

لم يرتح مرسى لعزف الطويل وغنائه . ولو أتاحوا له الفرصة لبين لهم عيوب اللحن ونقط الضعف فيه وردد لنفسه : عادة فنانى الاسكندرية السيئة . الا يعترفوا بفنان منهم إلا إذا جاءت شهادته من القاهرة .

وسعيد الطويل - هذا - عاش فى القاهرة عدة سنوات . غنى فى اذاعتها ومثل ثلاثة أفلام مع ممثلين وممثلات كبار .

ثم قدم مرسى - فى الجلسة - مفاجآته التى ستهد الاسكندرية على من فيها : مغنى شاب اسمه «صبحى شعبان» غنى أغنية من تلحينه . ومرسى - بجواره - يومىء برأسه منتشيا ومستحسنا عزفه وغناءه وتلحينه . بعد كل مقطع يقفز عاليا من شدة التأثر .

قال مؤلف أغان مسن له باع طويل فى هذا المجال :

- صوته حسن لكنه فى حاجة إلى صقل طويل .

ضرب مرسى على صدره قائلا :

- هذه مسئوليتى . سأتولى تدريبه ورعايته وصقله .

ولأن الوقت كان متأخرا ولا يسمح للمعارضة والمناقشة ، فلم يطيلوا فى الاعتراض على قوله خاصة أنهم فى بيته

قبل أن تنتهى الجلسة عرض مسئول الاذاعة أن يشرف سعيد الطويل على ناد تابع للاذاعة ، تقدم فيه ندوات عن الموسيقى والغناء . لكن الرجل اعتذر لمشاغله . وكذلك اعتذر آخرون . لكن مرسى صاح لمسئول الاذاعة :

- إطمئن . سأشرف على النادى وسأعطيه خبرتى وعلمى .

لم يكن الرجل مرتاحا

لمرسي ، فهو يعرف قدراته المحدودة . لكنه اضطر للإذعان عندما لم يجد أحدا ممن كان يريدهم قد تحمس لذلك .

عندما خرجوا تهامسوا . قال أحدهم معلقا على تحمس مرسي لصبحي شعبان:

– الولد خامة طيبة ، لكن تحمس مرسي له – هكذا – سيفسده .

وقال آخر :

– كيف يعلمه العزف وهو لا يجيده ؟!

أصدقاء مرسي – الذين عاشروه طويلا – يعرفونه تمام المعرفة . فقد اتصل في أول حياته ببعض فرق العوالم في الاسكندرية . لكن صوته الأجش حال بينه وبين أن يكون مغنيا . كما أنه لم يستطع إجادة العزف على أية آلة موسيقية ليعمل في فرقة من الفرق . لكنه لم ييأس . فاشترى بعض المجلات التي تهتم بالموسيقى والغناء . وذهب إلى مكتبة البلدية ، قرأ فيها عن حياة الموسيقيين العالميين والعرب . وكان مغرما بتحديد نوع



المقامات الموسيقية التي اعتمد الملحن عليها في تلحين موسيقاه . ورغم أنه يخطيء كثيرا في تحديد هذه المقامات ، إلا أنه لم يمتنع عن ذلك .

ولا ينكر أحد عليه حماسه الشديد للفني ومغني الاسكندرية . وأنه ينفق – أحيانا – كل ما يملك على شراء الاسطوانات الموسيقية والكتب والآلات .

أعلن مرسي الحسيني في النادي التابع للاذاعة : إن صبحي شعبان هو أفضل ملحن في الاسكندرية وأنه – رغم صغر سنه – فاق كل من سبقه من ملحنين ، بما فيهم سعيد الطويل . وأن على رواد النادي الصغار أن يتعلموا من عبقريته وموهبته .

تعامل معظم رواد النادي الشبان مع صبحي على الأساس الذي وضعه مرسي الحسيني . فقلد البعض صبحي شعبان متمنين أن يصبحوا مثله . ورددوا – حتى في غياب مرسي صبحي – أن صبحي هو أمل الغناء في الاسكندرية . بل وفي مصر كلها . ولو كان يعيش في القاهرة لتفوق على عبد الحليم حافظ وربما على عبد الوهاب في التلحين .

لكن بعض رواد النادي كانوا يتجاسرون وينتقدون ما يقدمه صبحي . وكان مرسي يثور عليهم ويتهمهم بالجهل . وينتهي الأمر بهم بأن يبتعدوا عن النادي .

أما الملحنون الكبار فقد اعتبروا نشاط النادي أقل من قدراتهم وامكانياتهم . فهم لا يأتون إليه إلا في الحالات النادرة : مثل استضافة ملحن كبير من القاهرة . أو اقامة حفل كبير تحت رعاية الاذاعة .

وإذا سمعوا مدح مرسي لصبحي ، يمطون شفاههم دون اعتراض . فبعضهم لا يريد أن يفسد

العلاقة بينه وبين مرسى أو صبحى . وآخرون اعتبروا أن الحديث فى موضوع مثل هذا أقل من مستواهم ولا يجب الخوض فيه .

شاعت فى الوسط الفنى أقاويل تحاول تفسير العلاقة بين مرسى وصبحى . فيقول البعض أن صبحى سيتزوج شقيقة مرسى - فلم يكن لمرسى فى ذلك الوقت بنات فى سن الزواج - ويرد آخرون أن صبحى غنى . وينفق على مرسى - ذى المرتب الضئيل ، والاسرة الكبيرة العدد . لكن بعض الخبثاء ادعوا بأن العلاقة بين مرسى وصبحى علاقة غير شريفة .

* * *

استطاع بعض رواد النادى الجدد أن يحققوا نجاحا ملحوظا فى القاهرة ، فاعتمدتهم الاذاعة مغنين فيها ، أو ملحنين أو عازفين . واستضافوا بعضهم فى برامج الاذاعة والتليفزيون ، ونشرت الصحف صورهم وأحاديثهم . فانصب حديث النادى على هؤلاء . وأعلن مرسى أن صبحى أكثر موهبة ومقدرة منهم جميعا لكنهم استطاعوا الوصول لما وصلوا إليه بطرق غير مشروعة وغير شريفة . فهم ينفقون على ملحنى القاهرة الكبار ، ويدعونهم إلى الاسكندرية ليقدموا إليهم الجمبرى والكابوريا . بل وصل الأمر لأن يفتحوا شققا للملحنين ونقاد الموسيقى والغناء ويقدموا إليهم الخمر والنساء .

ويصدق بعض الرواد الصغار هذا فيرد دونه لغيرهم . ويقسمون أن صبحى شعبان هذا فنان كبير لولا ..

* * *

يجلس صبحى شعبان فى النادى كالملك ، ينحنى له الرواد الصغار ، يسألونه عن ألحانه العظيمة التى تذيعها اذاعة الاسكندرية . وعندما يغنى بعضهم - فى النادى - ينظرون إليه منتظرين رأيه . لكن صبحى غير مؤمن بأى مغنى فى الاسكندرية سواه . فكان يهاجم الأغانى التى تقدم فى النادى بحماس شديد يماثل حماسه فى الهجوم على رواد النادى الذين وصلوا إلى القاهرة .

ويؤمن مرسى على قوله قائلا لرواد النادى : لا تنسوا أنه أفضل مغنى فى مصر كلها .

واكتشف مرسى فجأة مغنيا موهوبا ، يستطيع أن يخلف صبحى على عرش الغناء فى الاسكندرية . لم يهتم صبحى وقابل الخبر (الذى أعلنه مرسى فى ابتهاج شديد) قابله فى برود شديد ، وشك فى أن يوجد من يخلفه .

وكان صبحى محقا فى رأيه هذا . فقد ذاب الشاب ولم يقدم اعمالا تبهج مرسى بعد ذلك . بسبب تأثره بما يقدم فى إذاعات القاهرة وتلفزيونها . ولأنه لم يعد يسير على طريقة صبحى شعبان . وأعلن مرسى صراحة أنه كان مخدوعا فيه .

وبعد وقت قصير آخر يكتشف خليفة آخر لصبحى ، ويذوب هؤلاء جميعا ولا يحققون شيئا . فكيف يصبح ولى العهد

ملكا . والملك مازال يجلس متربعا على عرش الغناء في الاسكندرية .

* * *

شكا صبحي لمرسى كثرة الذين يتمردون على النادى ويهربون من صولة مرسى إلى القاهرة ، فينتشرون ويحققون نجاحا ملحوظا . فتتحدث الصحف والمجلات عنهم كثيرا . طمأنه مرسى وقال أنت أفضل منهم جميعا وسوف تصير أكثر شهرة وتألقا منهم فى المستقبل .

لم يكتشف مرسى مرور الوقت فقد تعدى صبحي الاربعين وهاجم الشيب شعره . ومازال ينتظر اليوم الذى يتربع فيه على عرش الغناء فى مصر كلها . كما تنبأ له مرسى . لكن ذلك لم يحدث . لذا . قرر صبحي أن يسافر إلى القاهرة ليفاجىء المسئولين فى الاذاعة بموهبته الجبارة .

دهش صبحي لما رآه . أولاد أتوا إلى نادى الاسكندرية ، ولم يكن مرسى معجبا بهم ، وتنبأ لهم بمستقبل مظلم فى الغناء والموسيقى ، يجدهم



صبحي أمامه وقد صاروا أكثر أهمية . لدرجة أن أحدهم أوصى مسئولى الاذاعة عليه . قال : اهتموا به . أنه صديق قديم لكن اللجنة لم توافق على اعتماده مغنيا . لأن قدرات صوته ضعيفة . واللحن الذى قدمه سيىء ..

الغريب أن ما أخذوه عليه فى اللحن والغناء . كان مرسى يشيد به ويعتبره أهم ما فيه ..

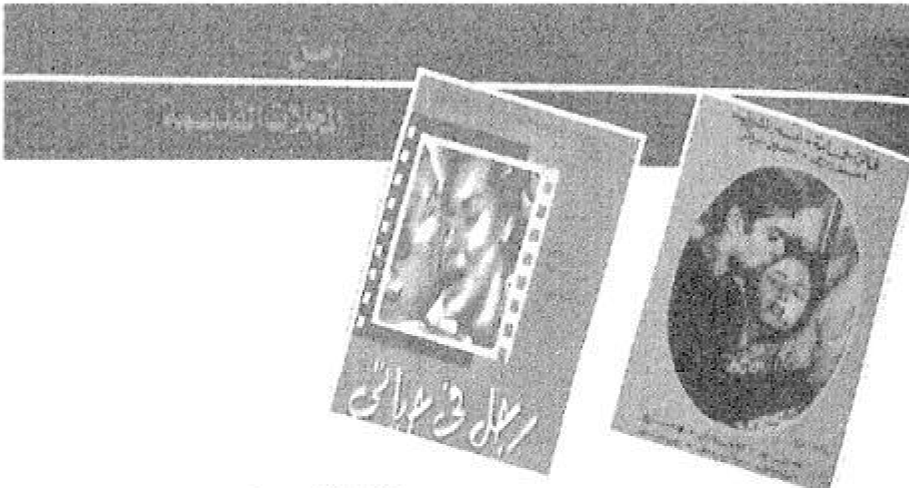
* * *

بينما كان صبحي شعبان يجلس فى قطار العودة إلى الاسكندرية فكر فى الفارق بين جلسات القاهرة وجلسات نادى الاسكندرية التابع للاذاعة . حيث لا يهتمون بأحد سواه .

فى القاهرة لا يذكره أحد . عندما جلس فى قهوة روادها المغنون والملحنون والعازفون . اكتشف أنه مجهول تماما لم يعرفه سوى الذين كانوا روادا لنادى الاسكندرية . وجدهم فى القهوة يثنون على مغنين مازالوا يعيشون فى الاسكندرية ولم يذكره أحدهم بالخير .

فى أول اجتماع للنادى . اعلن صبحي أن الشرفاء واصحاب المواهب الحقيقية ليس لديهم امكانيات الوصول لملحنى القاهرة . فهم لا يهتمون إلا بالمواهب الضحلة ، أو لمن يقدم لهم كذا وكذا .

بحث صبحي بين الموجودين . لم يجد رفاق الماضى . كلهم انتقلوا إلى القاهرة يغنون أو يلحنون . وبعضهم اكتفى بدوره كعازف فى فرق القاهرة الكثيرة . لم يتبق من شلة الماضى سوى مرسى الذى يعلن دائما أن صبحي هو ملك الغناء فى مصر كلها لكن .. ■



الهوس اللذيذ للحنين إلى الماضي

بقلم
محمود قاسم

من المهم أن نعود مرة أخرى إلى ما يكتبه الروائى الفرنسى باتريك بيسفتون أسبوعياً فى مجلة «لوبوان».

فالموضوع الذى أثاره أخيراً مثير للجدل بالفعل، والغريب أن أحداً من الكتاب، أو الصحفيين، لم ينتبه إليه، ولعل هذا الموضوع يفتح نقاشا حول الأديب الذى يتجه إلى كتابة صفحة، أو عمود، فى إحدى المجلات أو الصحف



أثبت بيسون أنه صاحب قلم متميز ، وأن ما يكتبه فى الصحف ليس سوى توظيف بارع لموهبته الأدبية، ولاشك أن بيسون هو واحد من كبار الكتاب الذين استعانت بهم الصحافة في كل الدنيا من أجل الاستفادة من مواهبهم الأدبية، وذلك دون أن تؤثر الكتابة المنتظمة فى الصحف والمجلات على لغة الأدب، مثلما حدث لجون شتاينبك، وهيمنجواى، والكثير من الكتاب المعاصرين، خاصة أن فى نفس العدد الذى كتب به بيسون مقاله يتضمن اشارة إلى أحدث رواياته الصادرة فى نفس الأسبوع بعنوان «سبب الناس».

الموضوع أن بيسون يحب قراءة واقتناء الجرائد والمجلات القديمة، ويشترى منها دائماً من المكتبات المتخصصة هذا النوع من المطبوعات خاصة الموجودة على ضفتى نهر السين، وغالباً ما يقوم الباعة بعرض هذه المجلات مغلفة بطريقة تغرى المرء لشرائها، وبأثمان عالية جداً وتتراوح أسعار بعض النسخ منها قيمة ٢٠-٣٠يورو، أى قرابة ١٨٠ جنيها مصريا.

هذه الهواية التى تستبد بالكاتب، لها من العشاق والمريدين الكثيرين، خاصة بالنسبة للمجلات، وباعة هذه المجلات يعرفون قيمتها جيداً فكلما صارت المجلة قديمة ارتفع سعرها، وذلك بسبب أن الهواة غالبا ما يجدون أنفسهم ضعفاء، وهم يدفعون الاثمان المرتفعة عن طيب خاطر، من أجل استكمال مجموعاتهم، أو الحصول على عدد ما بالذات من هذه المطبوعات التى صارت أثرية، وقبل أن يستعرض بيسون حالته، نصح قارئ مجلة «لويوان» بشرائها أسبوعياً، وأن يحتفظ بها لابنائه، فسوف تكون الاعداد، في المستقبل بمثابة تراث بعد سنوات.. والذى حدث أن بيسون قد استطاع الحصول على العدد الأول من مجلة « qmlle age tenedre» أو الانسة ذات العمر الرقيق القديمة فأثارت لديه الشجن وكتب المقال عن عشق المجلات القديمة..

إذاعة خاصة بالحنين

نحن نتساءل، مثلما فعل بيسون: لماذا هذا الجنون باقتناء المجلات القديمة، فالمجلة التي اشتراها بيسون وخصص عنها مقالا كاملا ليست سوى مجلة موسيقية عادية، أى أنها مجلة شبابية تملؤها «الصور» و«أخبار» المطربين، خاصة النساء.

وقبل أن نتوقف عند مفردى «صور» و«أخبار» نود أن نحكى للقارئ سحر المجلة المقصودة، ففى بداية الستينات ظهر جيل جديد من المطربين فى فرنسا، أحدثوا دوياً كبيراً فى الساحة الغنائية فى أوروبا والعالم، ومنها مصر، ونجحت أغنية بعنوان Les coyains†Salut» للمغنى جيليبر بيكو، مما دفع احدى الموسسات الصحفية إلى اصدار مجلة تعنى بهذا الجيل الجديد من المطربين، ومنهم جونى هاليداى، وكلود فرانسوا، وشيلا، وفرانسواز هاردى، وآخرين.

والذين عاشوا فى الستينات، فى مصر، يعرفون كم ولع الشباب بهذه المجلة التى كانت تاتى إلى الأسواق شهريا، فتنفد تماما. وفى نهاية الستينات صدرت مجلة «الانسة ذات العمر الرقيق» لتكون لسان حال المطربات.

وقد ارتبط نجاح هذه المجلات بلمعان جيل من المطربين، بدا بريقه ينطفىء فى نهاية السبعينات فتوقفت المجلتان عن الاصدار، ولم يظهر جيل جديد من المطربين يعوض الاختفاء الغامض لشباب الطرب قبل ذلك، والغريب أن فرنسا وسويسرا قد أحستا بهذه الخسارة أخيرا، فقامتا بانشاء محطة اذاعية تحمل اسم «الحنين» nostalgie لا تذيع فيها سوى أغنيات هذا الجيل من المطربين، ليس فى فرنسا وحدها، بل فى كل انحاء العالم.



أذن، فقد توافق عثور بيسون على هذا العدد من المجلة مع حالة خاصة تستبد بأوروبا والعالم، تسمى «الحنين» إلى الماضى من خلال الأغنيات، والاجواء والإبداع الأدبى والسينمائى.

لكن السؤال هو: لماذا المجلات بالذات؟

لا شك أن أى كتاب قديم مهما كانت قيمته، لم يكن له أن يباع بنفس سعر هذا العدد من المجلة، وذلك لعدة أسباب، فالكتاب يمكن طباعته العديد من المرات، أما المجلة فلا يطبع العدد الواحد منها سوى مرة واحدة، وغالباً ما يجُب العدد الجديد زميله الصادر قبله، حتى وان كان عدداً خاصاً من المجلة.

كما أن المجلة تتضمن «الصورة» و«الخبر» -، كثيراً ما تكون الصورة جديدة، حين صدور العدد، لكنها تصبح تاريخا عقب فترة من الوقت، بعد أن تزحف علامات الزمن على الذين ظهروا فى الصورة أو يختفى أصحابها فى أماكن متعددة.

وفى عالم الصحف المجلات، كثيراً ما يكون للخبر الجديد طزاجته، لكنه لا يلبث أن يتحول إلى ذكرى خاصة بعد أن



يمر عليه الزمن، ومن هنا يأتي هوس الحصول على المجلات القديمة. باعتبار أن الهواة لا يمكنهم استرجاع الماضي، أو أشباع الحنين إليه إلا من خلال الحصول على هذه المجلات، والصحف، واقتنائها..

«العروسة» في «الاستوديو»

وإذا كان بيسون قد تحدث في مقاله عن هوس اقتناء المجلات القديمة، فان هذا الهوس معروف في كل انحاء العالم، ليس فقط لدى الأفراد، بل والمؤسسات المختلفة، فالناس تعشق تراثها وتحاول الاحتفاظ به، وإذا كان الأقدمون قد سجلوا تراثهم بالرسم والنحت والكتابة على جدران المعابد والمسلات، وفي المقابر، فإن إنسان العصر قد سجل أجمل تراثه في الصحف والمجلات.

وفي مصر هناك سوق خاصة لاشباع الهوس بهذه المجلات، لكنني، قبل الحديث عنه، أود الاشارة إلي تجربة خاصة قمت بها، فعند زيارتي الأولى لأوروبا عام ١٩٨٦، ساقتني قدماي إلى مكتبة لبيع المجلات القديمة، ولم أكن أعرف لغة أسعارها بعد ورأيت عديداً من المجلات تباع بأرقام فلكية لمجلات سينمائية فرنسية منها «Cini Monde..Cine revu، وغيرها، كنت أقتني منها المئات، مع فارق واحد، أن المكتبة تضع كل عدد في كيس سلوفان، وتحافظ عليه مثلما يفعل الأثريون وهم يحافظون على مقتنيات نادرة يعتزون عليها.

التجربة الثانية حدثت لي منذ عدة سنوات قريبة، حين صادقت كاتبا عربياً، كان يأتي إلى مصر كل عام، مع معرض الكتاب، ويتجول لدى باعة الكتب القديمة في سور الأزبكية، يبحث عن الإعداد القديمة لمجلات فنية من طرازي «العروسة» و«الاستوديو» وأيضاً «المصور» القديم، ومجلة «إيماج» التي كانت تصدرها دار الهلال.. كان يعمل جاهداً على أقتناء المجموعات الكاملة من بعض هذه المجلات، واكتشفت أن هناك صناعة خاصة بعمل مثل هذه المجموعات، يقوم أصحابها بجمع الاعداد من مصادر مختلفة، ويقومون بتجليدها، ويبيعها بأسعار فلكية.

هذه الأسعار تدفع الباعة إلى اعداد المزيد من المجلدات، والبحث عن قدامى الهواة، أو من ورثهم من أجل تحقيق

المزيد من المكاسب، وعرفت أيضاً أن هناك أشخاصاً بأعينهم لديهم مؤسسات متكاملة لجمع هذا التراث، والاحتفاظ به، أو بيعه

يومها اصابني أرق شديد، فقد رأيت بعينيّ كيف يخرج تراث مصر بشكل شرعي إلى خارجها خاصة أن الهواة المصريين لا يمكنهم بأي حال من الأحوال شراء هذه المقتنيات بمثل هذه المبالغ، فقد بيعت المجموعة الكاملة لمجلة «العروسة» منذ سبع سنوات، أمام عيني، بمبلغ ٣٥ ألف جنيه، وربما أكثر، حيث تمت الصفقة بالدولار.

وقد فتحت هذه التجربة الاعين إلي تتبعها، ومعرفة أسرارها، ومن خلال الأديب محمد جابر غريب، أحد أشهر باعة الكتب في سور السيدة زينب، عرفت أن هواة جمع المجلات القديمة، لديهم حاسة رصد خاصة لاستحضار النسخ الكاملة من المجلات، والصحف القديمة، وقد فسر هذا سر الإعلان الذي كانت تنشره صحيفة الوفد طوال الثمانينات عن شخص غير محدد الهوية يطلب إعداد المجلات القديمة وعلى رأسها «الهلال»، المصور، وخاصة الاعداد الخاصة، ومنها على سبيل المثال العدد الخاص من مجلة «المصور» الصادر عام ١٩٤٢ بمناسبة زفاف الملك فاروق.

ثقافة تجدد نفسها

انه نوع مختلف من الثقافة، والاقتناء، يمكن تسميتها بقراءة القديم جزء منها يعتمد على الاقتناء وهوساً، وجزء آخر يعتمد على إعادة استرجاع الماضي، وقراءته بشكل جديد، فالذين يشترون المجلدات لن يقرأوها بنفس الاستمتاع الذي يحدث للعدد الواحد. أما إعادة قراءة الأمس فتتمثل في مزج الحاضر بالماضي، والحنين إلى هذا الأخير، وربما رفض للحاضر، ولاشك أن هذا الهوس يزداد يوما وراء آخر، فما كان جديداً البارحة، يعتبر «حنينا» بالغد. وطالما أن الزمن ينطلق للأمام، وفي زمن تزدهر فيه الصحافة، على الأقل عدداً، فان هذا يؤكد أن كل ما نراه اليوم جديداً سوف تنبث منه رائحة أطلال الماضي في السنوات القادمة.

وليس غريباً أن هذا الهوس اللذيذ، قد انتقل من الهواة، والباحثين، إلى ذاكرة أكثر اتساعاً، هي دائرة الناس العاديين، وتنبهت صحف كثيرة، ومجلات، إلي هذا المرض المستبد بالناس نحو النزوع إلى الماضي، فخصصت العديد من الصفحات عن صحافة الماضي، ومنها مجلات «نصف الدنيا» و«أحوال مصرية»، و«حواء»، ولعل هذا يفسر نفاد الطبعات الخاصة من مجلة «الهلال» التي صدرت عند «١٠٠ سنة هلال» «١٠٠ سنة سينما»، و«٥٠ سنة ثورة يوليو».

ياالهي.. كم هو جميل.. الأمس البعيد..!!

وكم هو لذيذ.. هوس الحنين إلى الماضي.!! ■

من رحلة العمر

منير زهران

لم أكن أتوقع أن تطلب منى مجلة الهلال - ذائعة الصيت - أن أكتب تحت باب «التكوين»، وقد ترددت لسببين، أولهما تفضيلى البعد عن الأضواء وقد اقتربت من السبعين، وثانيهما أننى لم أكتب مذكرات عما قمت به طوال حياتى، سواء الخاصة أو المهنية.

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» صدق الله العظيم، وأرجو الصفح إن جاء فيما أكتب إيجابيات قد يأخذها البعض على أنها مديح للذات

ولدت عام ١٩٣٥ ونشأت فى القاهرة فى عائلة محافظة، وكان ترتيبى وسطا، أى الثالث من خمسة أولاد بينهم بنت واحدة تكبرنى مباشرة كان الوالد رحمه الله محام فى البنك العقارى المصرى ثم محام فى قلم قضايا وزارة الأوقاف إلى أن صار وكيلا دائما لتلك الوزارة. الوالدة ربة بيت كانت رحمها الله مفعمة بالثقافة والقراءة والكتابة، وكانت تكتب تحت اسم مستعار للرد على مقالات الراحل الكاتب الكبير توفيق الحكيم عندما اشتهر بأنه عدو المرأة.

فى هذه البيئة المحافظة نشأت متأثراً بتكوين الوالدين، فبالإضافة إلى تعليمى فى مدرستى المنيرة الابتدائية وقصر الدوبارة الثانوية كنت أقرأ فى مكتبة الوالدين سواء الكتب الادبية أو التاريخ أو القانون وأكثر ما شدنى كتاب المرحوم على باشا عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»، ومن هنا اخترت دراسة القانون وتخرجت فى كلية الحقوق - جامعة القاهرة. وكان من خريجى نفس الدفعة السيد/أحمد ماهر وزير الخارجية والدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالى والبحث العلمى والسيد/أمين المهدى رئيس مجلس الدولة السابق والدكتور مأمون سلامة رئيس جامعة القاهرة السابق والدكتور نعمان جمعة رئيس حزب الوفد وغيرهم. ثم حصلت على دبلومين الدراسات العليا فى الاقتصاد من نفس الجامعة ثم الدكتوراة فى الاقتصاد شجعنى والدى على عدم التوقف فى

الحكومة فاشترى باسمي أسهما في شركة مصر للألبان والأغذية وشركة ادفينا للمنتجات الغذائية قبل تأميمهما تمهيدا لأن أكون عضوا بمجلس إدارة أى منهما بالاضافة إلى مساعدتي في تأسيس مكتب محاماة في شارع طلعت حرب وقد مارست المحاماة بالفعل لمدة سنتين قبل التقدم لمسابقة التعيين في وظيفة ملحق دبلوماسي.

بداية الحياة العملية

بدأت العمل الدبلوماسي عام ١٩٥٨ عملت مع عدد من الزملاء في إدارة الأبحاث وهي الإدارة التي كانت تعمل حينئذ على مدار الساعة وكان بها مجموعة مختارة من الدبلوماسيين من مختلف الدرجات وكان منهم المرحوم السفير كمال الدين خليل والمرحوم السفير صلاح بسيوني والسفير أسامة الباز والسيد/عمرو موسى وزير الخارجية السابق والأمين العام للجامعة العربية حاليا. وبمناسبة تعيين الدكتور مراد غالب وكيلا لوزارة الخارجية عام ١٩٥٩ بعد أن كان مديرا لمكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، اختارني للعمل بمكتبه، وقد لمست طوال عملي مع سيادته سعة اطلاعه وثقافته المتنوعة وأدبه الجم وهدوء أعصابه. وكانت تلك الفترة من حياتي الدبلوماسية حافلة بالأحداث ومنها خاصة الوحدة بين مصر وسوريا وانشاء الجمهورية العربية المتحدة وكان الدكتور محمد زكريا إسماعيل من سوريا مديرا لمكتب الدكتور مراد غالب وقد شغل الدكتور زكريا إسماعيل فيما بعد منصب نائب وزير خارجية سوريا ثم الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية. وكان المرحوم الدكتور محمود فوزى وزير خارجية دولة الوحدة كما كان لوزارة الخارجية نائب للوزير - المرحوم حسين ذو الفقار صبري من مصر والدكتور فريد زين الدين من سوريا.. وقد عاصرت في تلك المرحلة ثورة ١٧ تموز في العراق التي أنهت الملكية ووضعت حداً لحلف بغداد. كما عاصرت في تلك الفترة بزوغ حركة عدم الانحياز حيث شاركت في مؤتمر القاهرة التحضيري للحركة الذي عقد في القاهرة في يونيو ١٩٦١ برئاسة المرحوم الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية حينئذ، وقمت بإعداد تقرير عن أعماله تلقيت بعده خطاب شكر من وكيل وزارة الخارجية حينئذ المرحوم السفير محمد حافظ إسماعيل.

الحصول على الدكتوراة

وتقدمت أثناء عملي مع الدكتور محمد مراد غالب عندما كان وكيلا لوزارة الخارجية - بطلب للحصول على إحدى البعثات المخصصة لوزارة الخارجية للحصول على درجة الدكتوراة من الجامعات الأمريكية والفرنسية، وكنت أحد من وقع عليهم الاختيار للحصول على



درجة دكتوراة الدولة فى الاقتصاد الدولى من جامعة باريس، وأهلنى لذلك درجاتى فى ليسانس الحقوق وحصولى على دبلومين للدراسات العليا فى الاقتصاد التطبيقى من كلية الحقوق - جامعة القاهرة.. كما وقع الاختيار على زميلى الدكتور سيد أنور أبو على للحصول على درجة الدكتوراة فى القانون الدولى من نفس الجامعة. سافرنا لباريس فى أغسطس ١٩٦١ فى وقت كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفرنسا مقطوعة منذ العدوان الثلاثى على مصر وسوريا - ناهيك عن مساعدات مصر لجبهة التحرير الجزائرية. وهكذا كان وضعى وزميلى فى باريس محل شك السلطات الفرنسية، وقد استفحل الأمر بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى سبتمبر ١٩٦١، ثم محاكمة الدبلوماسيين الفرنسيين الذين كانوا فى مصر لإنجاز العمل القنصلى وبعثة تصفية الحراسة على أموال الفرنسيين التى أعقبت تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ثم العدوان الثلاثى على مصر. ولم ينفرج الأمر إلا بعد توقيع اتفاقية ايفيان عام ١٩٦٢ والتى حصلت الجزائر بموجبها على الاستقلال ثم إنهاء محاكمة الدبلوماسيين الفرنسيين أمام المحاكم المصرية.

رحلة التعليم

وبعد استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفرنسا عام ١٩٦٣ طويت صفحة وفتحت أخرى من استكمال الدراسة للحصول على الدكتوراة فى جو أكثر مواتاة لتحصيل العلم، حيث انخرطت فى دراسة دبلوم العلوم الاقتصادية ثم دبلوم القانون العام ثم عكفت على إعداد رسالة الدكتوراة فى العلاقات الاقتصادية الدولية، وكان موضوعها «هيئة التنمية الدولية» (التابعة للبنك الدولى) ودورها فى تحقيق التنمية الاقتصادية .

وقد حضر الدكتور فتحى سرور الذى كان المستشار الثقافى بالسفارة المصرية المناقشة العامة لرسالتى وحضر معه المرحوم الدكتور جابر جاد عبد الرحمن الذى كان عميداً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة وتصادف وجوده فى باريس، وكان هذا تشريف لى أمام أساتذتى الفرنسيين وزملائى من المصريين، خاصة وقد حصلت على دكتوراة الدولة فى نهاية المناقشة بتقدير جيد جداً.

***

وينقسم العمل الدبلوماسى إلى ثلاث تجارب، تختلف كل تجربة عن الأخريات من حيث الخبرة المكتسبة ومن حيث المسئولية من العمل فى الديوان العام إلى الدبلوماسية الثنائية إلى دبلوماسية المؤتمرات والمحافل الدولية، ورغم أن بعض الزملاء لم يتسن لهم المرور بتجربة دبلوماسية المؤتمرات والمحافل الدولية، إلا أن حظى كان أوفر بالمرور بالتجارب الثلاث.

دبلوماسية المقر

سبق أن أوضحت أننى اكتسبت خبرة العمل فى إدارة الأبحاث ومكتب وكيل وزارة الخارجية فى الخمسينات وبداية

الستينات وعندما عدت للقاهرة فى نهاية عام ١٩٦٦ بعد حصولى على الدكتوراة الحقت بالعمل بإدارة الهيئات الدولية، وهى إدارة تختص بالأمم المتحدة ونشاط الوكالات المتخصصة وإعداد المذكرات ذات الصلة بالموضوعات الواردة على جدول أعمال كل منها واقتراح المواقف التي تلتزم بها الوفود التى تمثل مصر فى الأجهزة السيادية والتنفيذية لكل منها تمهيدا لعرضها على وزير الخارجية. وأذكر خلال فترة عملى فى تلك الإدارة فى الستينات أن تعرضت مصر للعدوان الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧، وتم تعبئة الدبلوماسية المصرية منذ ذلك الحين للدفاع عن مواقف مصر لمواجهة العدوان ومتابعة عرض القضية على مجلس الأمن ثم الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى أن صدر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى نوفمبر ١٩٦٧، ثم متابعة مهمة مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة جونار يارنج فى الاتصال بين أطراف النزاع فى الشرق الأوسط لتنفيذ القرار الذى لم يجر تنفيذه بالكامل حتى الآن.

كما كان من المسئوليات التى كلفت بها تنسيق المعونات الفنية التي تحصل عليها مصر من برنامج الأمم المتحدة الانمائى وتقوم الوكالات المتخصصة بتنفيذها فى مصر ضمن خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد اكسبتنى هذه المسئولية خبرة كبيرة حول إعداد احتياجات مصر من المعونات الفنية بالتنسيق مع وزارة التخطيط والجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ومختلف الوزارات والجامعات ومراكز البحوث أواخر الستينات ومكتب الممثل المقيم لبرنامج الأمم المتحدة الانمائى فى القاهرة وبعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة فى كل من نيويورك وجنيف .

رحلة الدبلوماسية

وبعد أن نقلت للعمل فى كل من واشنطن ونيويورك خلال الفترة من عام ١٩٦٩ إلى ١٩٧٤ عدت للديوان العام حيث كلفت بالعمل فى الإدارة الاقتصادية ومتابعة موضوع الحوار العربى الأوروبى والحوار فيما بين الشمال والجنوب على أثر أزمة الطاقة التى نشأت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحظر تصدير البترول عن الدول المؤيدة لإسرائيل، ومطالبة الدول الأوروبية والدول المتقدمة عموما بالحصول على ضمانات لعدم توقف امدادات البترول من الدول المصدرة للبترول واعادة تدوير عائدات البترول لصالح شركات الدول المتقدمة بينما طالبت الدول النامية عموما بانشاء نظام اقتصادى دولى جديد أكثر عدالة وانصافا وعقدت من أجل ذلك دورتان خاصتان للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤ و ١٩٧٥ برئاسة السيد عبدالعزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر



حينئذ ورئيسها حاليا.

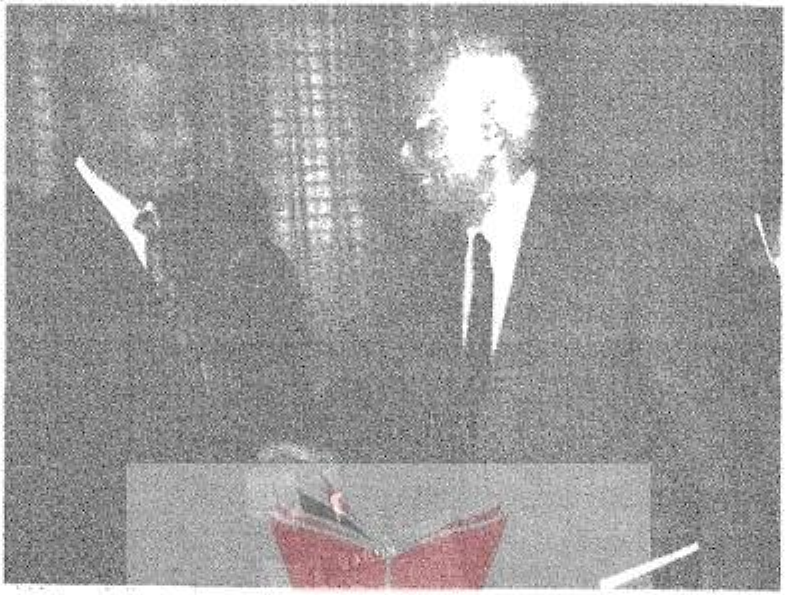
خبرات العمل

واعتباراً من يونيو ١٩٧٥ طلبني المرحوم إسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية للعمل كمستشار بمكتبه الذي كان يديره حينئذ السفير أسامة الباز. وكان العمل يتناول عرض أهم ما يرد من السفارات والبعثات في الخارج وما تعرضه إدارات الوزارة ووكلاؤها على الوزير ثم إبلاغ توجيهات وتعليمات الوزير لجميع تلك الجهات بالإضافة إلى الاتصالات التي تجرى فيما بين مكتب وزير الخارجية ورئاسة مجلس الوزراء ومكاتب الوزراء فيما يخص عمل ونشاط العلاقات الخارجية، يضاف إلى ذلك إعداد المذكرات اللازمة للمباحثات التي يجريها وزير الخارجية مع أقرانه الذين يزورون مصر، ومتابعة نتائجها مع الوكلاء والمديرين المختصين والوزارات المعنية، ومن خلال عملي هذا اكتسبت خبرة لا تقدر بمال من حيث الاطلاع على احتياجات الدولة وأولوياتها والتي يلزم متابعتها من خلال الاتصالات بالعالم الخارجي سواء عن طريق المباحثات التي تجرى في القاهرة أو في الخارج من خلال سفاراتنا وبعثاتنا المعتمدة في مختلف العواصم والمنظمات والمؤسسات الدولية.

ثم توليت منصب نائب مدير الإدارة الاقتصادية خلال الفترة من ١٩٨٢ حتى ١٩٨٤ حيث شاركت في مباحثات اقتصادية عديدة سواء في مصر أو ضمن وفود مصر في مختلف العواصم سواء مع المجموعة الاقتصادية الأوروبية (الاتحاد الأوروبي حاليا) لمتابعة تنفيذ اتفاقية التعاون بين الجانبين أو اتفاقيات التجارة والتعاون الاقتصادي مع العديد من الدول المتقدمة سواء اشتراكية أو رأسمالية وكلها تصب لصالح تمويل وتنفيذ مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى المشاركة في وفود مصر في اجتماعات الجات والانكتاد واللجنة الاقتصادية لأفريقيا واللجنة الاقتصادية لغرب آسيا والبنك الإسلامي للتنمية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الوحدة الإفريقية وجامعة الدول العربية.

وكنت مديراً لإدارة الهيئات الدولية بدلا من السفير عمرو موسى الذي تم تعيينه عام ١٩٨٩ مندوبا دائما لمصر لدى الأمم المتحدة في نيويورك. وكان الرئيس حسني مبارك يتولى رئاسة منظمة الوحدة الإفريقية حيث كنت مبعوثا خاصا لسيادته لدى الرؤساء الأفارقة خاصة بالنسبة للنزاع فيما بين موريتانيا والسنغال والأزمة في القرن الإفريقي ومتابعة الاتصالات فيما بين أثيوبيا والصومال وجيبوتي، والنزاع فيما بين ليبيا وتشاد حول إقليم أوزو والحرب الدائرة في أنجولا حيث تم إيفادي لرؤساء زائير وأنجولا.

وقد عاصرت في تلك الفترة انتقال جامعة الدول العربية من تونس إلى القاهرة بعد غياب زاد على عشر سنوات ثم انتخاب الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد أمينا عاما للجامعة العربية وحل محله السيد/عمرو موسى الذي ترك موقعه



منير زهران فى لقاء مع نيلسون مانديلا - عندما كان مانديلا رئيسا للمؤتمر الإفريقى الوطنى - ١٩٩٢

فى نيويورك للسفير الدكتور/نبيل العربى ونقلت مندوبا دائما لمصر لدى مقر الأمم المتحدة فى جنيف وغيرها من المنظمات الدولية الأخرى التى توجد مقارها فى سويسرا - واستمر قيامى بتلك المهام حتى يوليو ١٩٩٩.

تجربتى فى الدبلوماسية الثنائية

يمكن ايجاز تجربتى فى الدبلوماسية الثنائية فى العمل فى إحدى السفارات المصرية المعتمدة فى إحدى عواصم الدول المختلفة وهكذا فقد عملت لفترات قصرت أو طالت فى سفارات مصر فى باريس وواشنطن وبروكسل والرباط وخرجت من عملى فى كل منها بخبرة وتجربة تختلف عن تلك التى اكتسبتها من باقى السفارات فبعد حصولى على الدكتوراه من جامعة باريس طلبت من وزارة الخارجية الانضمام لسفارتنا فى باريس حتى نهاية عام ١٩٦٦ بتكليف محدد، هو متابعة طلب الرئيس ديجول نقل قصر حلف الأطلنطى من باريس الذى انتقل حينئذ لبروكسل ثم متابعة الإجراء العقابى للولايات المتحدة ضد فرنسا بخروج الاستثمارات الأمريكية فى فرنسا واقتراح وزير المالية الفرنسى حينئذ «فاليرى جسكار ديستان» الذى تولى الرئاسة بعد ذلك فى السبعينات باصلاح النظام النقدى الدولى الذى كان مرتبطا بقاعدة الذهب والاستفادة من تجربتى واتصالاتى بمراكز البحث فى

إعداد تلك الدراسات وقد بذلت قصارى جهدى فى إعداد تلك الدراسات التى أوضحت بجلاء حرص فرنسا تحت زعامة الرئيس ديجول بأن يكون لها سياسة دفاعية قوية ومستقلة مع زيادة الاعتماد على الذات والحرص على الاعتماد على الذات أيضا اقتصاديا بعد تجربة سحب الاستثمارات الأمريكية من الاقتصاد الفرنسى فى لمح البصر تاركة انعكاسات اقتصادية واجتماعية فى غاية الخطورة بمالها من تأثير على النظام السياسى فى فرنسا.

أما تجربتى فى واشنطن: فهى تنقسم إلى مرحلتين: الأولى بنقلى من القاهرة عام ١٩٦٩ للعمل بقسم رعاية المصالح المصرية فى واشنطن التابع لسفارة الهند حيث وافقت الهند منذ عدوان يونيو ١٩٦٧ وقرار الرئيس جمال عبدالناصر قطع العلاقات الدبلوماسية مع واشنطن على رعاية المصالح المصرية فى واشنطن ووافقت سويسرا على رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة.

وكان يرأس قسم رعاية المصالح المصرية فى واشنطن السفير الدكتور أشرف غربال، وقد عملت تحت رئاسته إلى بداية عام ١٩٧٢ حيث نقل للقاهرة ليعمل مع مستشار الأمن القومى برئاسة الجمهورية المرحوم حافظ اسماعيل ثم مستشارا صحفيا للرئيس السادات. وفى الوقت نفسه نقلت من واشنطن إلى وفد مصر الدائم فى نيويورك بعد خفض عدد أعضاء قسمى رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة والمصرية فى واشنطن بعد اتهام القاهرة لبعض الدبلوماسيين الأمريكيين بالتجسس وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وفى نهاية عام ١٩٧٣ تقرر بناء على طلب السفير الدكتور أشرف غربال عودتى إلى واشنطن ضمن أعضاء السفارة المصرية بعد استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

العمل فى واشنطن

وهكذا عشت فى واشنطن تجربتين: الأولى فى ظل علاقات مقطوعة رسميا ولكنها فعليا موصولة بفضل كفاءة الدكتور أشرف غربال النادرة ونشاطه الدائب، والثانية بعد استئناف العلاقات الدبلوماسية رسميا ورفع العلم المصرى على السفارة عام ١٩٧٤، حيث عشنا فى تلك الفترة شهر عسل العلاقات التى توجت بزيارة الرئيس نيكسون للقاهرة مرورا بفض الاشتباك الاول وانسحاب القوات الاسرائيلية من غرب القناة إلى ما بعد خط بارليف.

وكان العمل فى واشنطن سواء فى قسم رعاية المصالح المصرية أو بعد استئناف العلاقات بين البلدين مثل خلية النحل على قدر كفاءة المايسترو أشرف غربال الذى أشهد أننى تعلمت منه الكثير سواء من حيث الاتصالات التى كان يثابر عليها أو المحاضرات التى كان يلقيها أو الاستقبالات التى كان يدعو لها ومن ناحيتى فقد كنت حلقة الاتصال مع البنتاجون فى فترة قطع العلاقات مع متابعة موضوعات الطاقة والعلاقات

الاقتصادية بين البلدين وبعد استئناف العلاقات كنت حلقة الاتصال مع الكونجرس الأمريكي بمجلسيه - النواب والشيوخ - في الوقت نفسه الذي كان فيه السفير دائب الاتصال مع الجميع كما كنت على صلات وثيقة مع معهد American Enfterise I nstitute وهو التنظيم الذي كان يتولى إعداد الدراسات ويقوم باللوبي لصالح شركات البترول في الكونجرس.

وفي بروكسل عملت كمستشار ثم وزير مفوض بسفارتنا هناك فقد كانت تجربة فريدة من نوعها فقد عملت مع سفيرين مرموقين الأول المرحوم كمال الدين خليل الذي نقل بعد سنة إلى باريس ليحل محل السفير محمد حافظ اسماعيل وقد عين في بروكسل بدلا منه السفير أحمد توفيق خليل الذي رافقته في تقديم أوراق اعتماده للملك بودوان ملك البلجيك وإلى الدوق الأكبر لدوقية لكسمبرج وإلى رئيس اللجنة الأوروبية روي جينكنز وهكذا كانت السفارة المصرية في بروكسل معتمدة لدى كل من بلجيكا ولكسمبرج ومعتمدة كذلك كبعثة دائمة لدى المجموعة الاقتصادية الأوروبية عندما كانت الدول الأعضاء تسعة قبل انضمام أسبانيا والبرتغال واليونان وقبل انضمام السويد وفنلندا والنمسا كما تختص السفارة المصرية في بروكسل بمتابعة ما يجري في حلف الأطلنطي من اجتماعات ومواقف تؤثر على مصر والشرق الأوسط وأخيرا متابعة اتصالات مصر مع مجلس التعاون الجمركي الذي تحول إلى منظمة التعاون الجمركي.

ومن خلال وجودي في بروكسل كانت العلاقات بمختلف أشكالها تنمو وتزدهر سياسيا واقتصاديا مع كل من بلجيكا ولكسمبرج والمجموعة الاقتصادية الأوروبية.

تجربة المغرب

وفي الرباط بدأت مهمتي عام ١٩٨٥ كرئيس لقسم رعاية المصالح المصرية التابع لسفارة السنغال ثم عندما استؤنفت العلاقات الدبلوماسية بالكامل عام ١٩٨٧ اختارني الرئيس مبارك سفيرا لدى الملك الحسن الثاني حيث قدمت له أوراق اعتمادي وبقيت هناك حتى يوليو ١٩٨٩ واختلفت تجربتي الثانية في المغرب عن باقي التجارب فلم يكن من المتوقع أصلا أن تقطع المملكة المغربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر بعد ترتيب لقاءات بين مسئولين مصريين واسرائيليين في المغرب ثم تأييد الملك الحسن للرئيس السادات سواء بالنسبة لزيارته القدس عام ١٩٧٧ أو بالنسبة لاتفاق كامب ديفيد لذلك كان لدى مصر مرارة من التصرف المغربي ثم كان من المتوقع استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر والمغرب بعد زيارة الرئيس مبارك للرباط عام ١٩٨٤ في طريق عودته من الولايات المتحدة وبالتالي كان من المنتظر أن أبدأ مهمتي في الرباط كسفير معتمد وليس كرئيس لقسم رعاية المصالح المصرية إلا أن توقيع معاهدة الاتحاد العربي الأفريقي بين المغرب وليبيا اعتبره البعض صفقة تم فيها تبادل المصالح بين البلدين وفحواها ألا يستأنف المغرب العلاقات الدبلوماسية مع مصر مقابل عدم دعم ليبيا لجبهة البوليساريو

ومع الوقت اتضح أن معاهدة الاتحاد العربي الأفريقي لم تصمد أمام زيارة شيمون بيريز لإيفران ثم فتور العلاقات بين البلدين وقد استوعبت معاهدة اتحاد المغرب العربي التي ضمت جميع دول المغرب العربي بما في ذلك موريتانيا معاهدة الاتحاد العربي الأفريقي.

وهكذا ساهمت في تعزيز العلاقات بين مصر والمغرب بعد أن استؤنفت تلك العلاقات تدريجيا مع جميع الدول العربية على أثر القمة العربية في عمان.

ودعا الملك الحسن الرئيس مبارك لحضور أول قمة عربية تحضرها مصر في الدار البيضاء عام ١٩٨٩ حيث تقرر عودة مصر لشغل مقعدها في جامعة الدول العربية - قبل انتهاء مهمتي كسفير لمصر في الرباط في صيف عام ١٩٨٩.

التجربة مع دبلوماسية المؤتمرات والمحافل الدولية

كان أول عهدي بالدبلوماسية متعددة الأطراف فكان بمناسبة مشاركتي في الاجتماع الوزاري التحضيري الذي عقد في القاهرة في يونيو ١٩٦١ ثم مشاركتي في المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو عام ١٩٦٦ ثم رئاستي لوفد مصر في مؤتمر المفوضين لمنظمة الأنتلسات (الاتصالات عن طريق الأقمار الصناعية) الذي عقد في واشنطن عامي ٦٩ و١٩٧٠.

وبعد عملي في قسم رعاية المصالح المصرية في واشنطن نقلت إلى نيويورك كسكرتير أول بوفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة الذي رأسه الدكتور عصمت عبدالمجيد رائد الدبلوماسية الهادئة القائمة على الحوار، وقد شاركت في اجتماعات عديدة في إطار دورات الجمعية العامة واجتماعات مجلس الأمن وخاصة في كل ما يتصل بقضية الشرق الأوسط.

خبرة متعددة

وفي جنيف استكملت خبرتي في الدبلوماسية متعددة الأطراف حيث نقلت كمندوب دائم لدى المنظمات الدولية في جنيف عام ١٩٩١ واستمر عملي هناك حتى يوليو ١٩٩٩ وكانت فترة حافلة بالعمل المتواصل في الاجتماعات الدولية انعكس عليها ضغوط القطب الأوحد بها تفكك الاتحاد السوفيتي في نهاية ١٩٩١ وقد شاهدت ذلك في الاجتماعات الدولية التي رأستها أو رأست وفد مصر فيها سواء في مؤتمر نزع السلاح أو رئاستي لاجتماعات في إطار الانكتاد ولجنة التجارة والتنمية ورئاستي لمجلس الجات والأطراف المتعاقدة لمدة سنتين ورئاستي لاجتماعات مؤتمر نزع السلاح ولجانه واجتماعات في منظمة العمل الدولية والملكية الفكرية ورئاستي لفريق المفاوضين في نهاية جولة أوروجواي وإنشاء المنظمة العالمية التجارة ثم مشاركتي في أربعة اجتماعات وزارية في هذا الاطار وبزوغ واستفحال ظاهرة العولمة لهيمنة الدول المتقدمة على الاقتصاد الدولي لصالح الشركات عبر القومية وتهميش دور الدول النامية ومحاولة الدول المتقدمة تفكيك التضامن فيما بين الدول النامية ومجموعاتها من خلال العلاقات الثنائية



مع بطرس غالي أمين عام الأمم المتحدة السابق - ١٩٩٦

إما بالتهديد أو الوعيد.

وأخيرا فقد تشرفت بأن أكون ممثلا شخصيا للسيد الرئيس في مجموعة الخمسة عشر للدول النامية وشاركت في الاعداد لستة مؤتمرات لقمة المجموعة منذ عام ١٩٩٥ منها مؤتمران للقمة عقدا في القاهرة عامي ١٩٩٨ وعام ٢٠٠٠ برئاسة الرئيس محمد حسني مبارك أسفرا عن مواقف مشرقة لدعم المركز التفاوضي للدول النامية سواء بالنسبة لمواجهة أزمة الأسواق المالية التى بدأت في دول جنوب شرق آسيا منذ صيف عام ١٩٩٧ وإصلاح النظام المالي الدولي أو بالنسبة لاستراتيجية التنمية للدول النامية في القرن الحادي والعشرين وأولوياتها.

كما كسبت باختياري عضوا بالمجلس القومي للمرأة لمدة ثلاث سنوات حيث كنت مقررا للجنة العلاقات الخارجية أليست هذه صدفة فأسرة والدتي تنتسب إلى عائلة قاسم أمين.

هذه نبذة عن مسيرة حياتي الشخصية والوظيفية أردت أن أسطرها في أضيق الحدود وهي مسيرة أثرت في تكويني مع مرور الزمن وتسابق الأحداث، بحيث أضافت كل مرحلة من مراحلها إلى رصيدي ومكنتني من مواصلة عطائي بمعنى أنني وإن كنت قد تعلمت أكاديميا الحد الأدنى الذي أعطاني القدرة على العطاء سواء في مجال المحاماة، التي عدت إليها بعد أن بلغت سن المعاش والعود أحمد، فإنني كنت أتعلم في كل مرحلة لكي أصحح من مساري وأضيف في المرحلة اللاحقة . والله ولي التوفيق.

● عاطف مصطفى

منصور فهمي ووضع المرأة في الإسلام



وصلتنا هذه الرسالة من الأديب أحمد حسين الطماوى يتناول فيها بالرأى عدد مايو الماضى من الهلال .

● عن موضوع المرأة فى الإسلام لكاتبه شكرى فؤاد قال : جاء فى ص ٢٠٣ أن كتاب منصور صدر باللغة الفرنسية فى باريس - ولم يترجم إلى العربية ، ولم ينشر فى مصر ، والكتاب المذكور ترجمته رفيده فؤاد ، وراجعه هاشم صالح ، ونشرته دار الجمل - كلونيا - ألمانيا وأشتريته من أسواق الكتب فى مصر .

ويقول الأستاذ شكرى فؤاد ص ٢٠٥ إن كتاب منصور فهمي نشر فى طبعة ثانية فى باريس أيضا عام ٢٠٠٢ ، وتفيدنا الترجمة العربية للكتاب ص ١٥٨ أن الكتاب طبع طبعة جديدة فى باريس عام ١٩٩٠ وكتب مقدمتها بالفرنسية محمد حربى ، وهنا يتبين أن الطبعة التى يشير إليها كاتب المقال سنة ٢٠٠٢ هى الطبعة الثالثة .

وقد فصل منصور فهمي من الجامعة لأن كتابه تضمن طعنا فى الإسلام ، ويقول شكرى فؤاد إنه حدثت حول الكتاب «معركة مرت بهدوء ، وكادت تذهب الآن نسيا منسيا» .

ويقول أيضا عن د. منصور فهمي «فلما أدرك مخاطر السبيل الذى سلكه آثر الإنسحاب بهدوء ، والإنحناء للعاصفة حتى يمر ونزع فتيل الأزمة قبل أن تصل إلى الرأى العام وجمهور المثقفين» والواقع أن معركة كتاب المرأة المسلمة لم تمر بهدوء ولا نسيتها الأجيال منذ وقوعها .

حملت على الكتاب جريدة المؤيد فى ٣٠ يناير ١٩١٤ ، وعاودت «المؤيد» الهجوم على الكتاب واعتبرت ما جاء فيه حملة مدبرة على نبى الإسلام الكريم فى مارس ١٩١٤ لكن د.طه حسين تعاطف مع الكتاب ، وكذلك أنور الجندى ود. إبراهيم بيومى مدكور .

● عدد مايو ليس عملا دعائيا وإنما دراسات علمية تكشف عن المخططات الأمريكية الصهيونية ضد العرب .

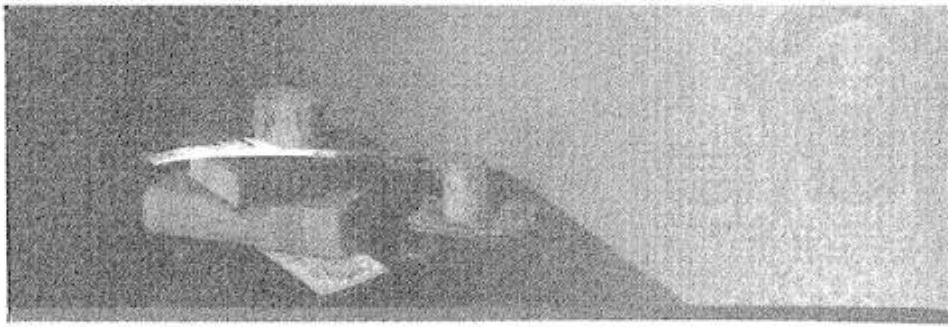
الجنوح إلى السلم أمان

«وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم» أى تسعى للقوة لتخيف الآخر فلا يعتدى عليك والحروب يضطر لها الإنسان ، وأضرارها تمس الشيوخ والنساء والأطفال .

وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ففى الصبر أمان ، «ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين» .

وفى الإسلام الحرابة ممنوعة ، لأنها عدوان ، أما الإرهاب بمعنى الإخافة فمسموح بها لأنه عدم عدوان ، وفى الجنوح إلى السلم أمان ، والتغافل عن الحقائق له حساب وخيم عند الله

مهندس - رستم غالب - القاهرة



وبعد القدس بغداد !

سيسويعد القدس بغداد ... وكم للكفر أبعاد
لأمريكا وأوربا ... طموحات ومن هادوا
لهم أمل له عمل ... يناسبه وإعداد
فكم هذى مكاسبهم ... على الأيام تزداد
ونفقد نحن ما كنا ... وكم للفقد أسياد
ننام وغيرنا صاح ... له خيل وأجناد
سينتصر الذى يسعى ... وما للنصر إخلاد

★

علينا بالقوى دخلوا ... ليحتلوا ويصطادوا
وكم قالوا لنا خلوا ... لنا عود وما عادوا
نصدقهم وهم كذب ... له فى القرب أبعاد
وكم كذبوا على صدق ... وكم عن حقنا حادوا
نعانيهم مرارات ... ونهواهم ونرتاد
ونحميهم معرات ... كأن العار أمجاد

★

لنا كم كان إعداد ... ونحن الآن أعداد
على إيقاعهم نحيا ... خيالات ونعتاد
على ماض لنا ماض ... تلهت عنه أحفاد
وتاهت بين كم ماض ... بتيه والهوى زاد
همو لا نحن إرهاب ... فكيف تطارد الضاد ؟!
وكيف يقود من قادوا ... وهم كفر وإلحاد ؟!
لنا مجد ينادينا ... من الماضى وأجداد

حسن أبوالغيط - المصيلحة - منوفية

مشروع حضارى للأمة العربية

فى افتتاحية العدد الماضى «العراق يبعث من جديد» دعا رئيس التحرير النخبة والصفوة فى العالم العربى للقيام بالمراجعة الشاملة لدروس التجارب المريرة الماضية بدءا من نكبة ١٩٤٨ إلى احتلال العراق مؤخرا مرورا بنكسة يونيو ١٩٦٧ .

بعد هذه النكسة ظهرت مشاريع فكرية عربية معاصرة فى مصر وسوريا والمغرب ، تحاول وضع تساؤل ضرورى وهو : كيف يمكن للأمة العربية أن تنهض من كبوتها ، واختلفت الآراء وتعددت المشروعات ابتداء من «تجديد الفكر العربى فى مصر» لزكى نجيب محمود ،

ودعوة أحمد بهاء الدين إلى اقامة الدولة العصرية ، و«نقد العقل العربي» لمحمد عابد الجابرى .

فهل منعت هذه المشاريع الفكرية من احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق ؟ .. وهل وصلت هذه الاجتهادات الفكرية والفلسفية إلى المواطن العربى البسيط على الأرض العربية من الخليج إلى المحيط ؟

إننى أضم صوتى للهلال فى دعوته إلى النخبة والصفوة العربية للمشاركة إيجابيا ، والإسهام فى طرح مشروع حضارى للأمة العربية للخروج من المأزق التاريخى الذى تعيشه الآن .

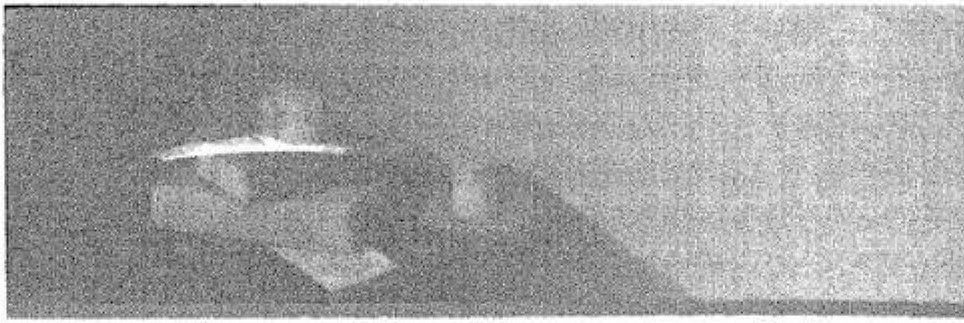
عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - طنطا - غربية

● الهلال : نحن بالفعل نؤكد على هذا المشروع الحضارى وننتظر إسهامات المفكرين والكتاب العرب وسوف ننشر كل ما يصلنا من كتابات جادة تتناول ترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان من أجل نظام عربى جديد يحفظ للأمة العربية دورها التاريخى والحضارى .

ذكريات .. خبأتها المسافات

عندما تلتقى مقلتانا
ستبتسمان كعادتهما
وستنثر زهر الجوى
عطره للوجوده
وتؤوب طيور السنونو ..
على سقفنا
لتغنى تمائم شوق
يسافر .. فى عشقنا للخلود
فلتكن ذكريات المساء ..
تعانق فينا
بقايا أخضرار (الورود)
هكذا لم نعد بالصباحات ..
نفرح ..
عند ابتهال الوعود
هكذا حلمنا لايزال يحن لطيف
تدلى
بدفء الدروب ..
لكيما يفك القيود

إننى مثل لحن الهيام ..
الاطم .. منحدرات الجنادل ..
وحدى ،
وأخشى السدود
فإليك .. شجونى ،
وعمرى ،
وقلبى ،
وعقلى ،
وكلى ،
وبعضى ،
وصمتى ،
وصمت الشرود
وإليك .. حروفى التى علمتنى
ارتجال القصيد ،
لترسل عند الحنين ..
اشتياق الحدود
كيف تنتظرين ..
لجرح قديم على جسرنا ؟!



إنني الآن - يامهجتي -
جئت أمسح دمعاً تناثر ..
فوق الخدود

عبدالناصر أحمد الجوهري
دكرنس - دقهلية

مساندة العراق الشقيق

لابد لكل منصف أن يتوقف طويلا أمام العدد الماضي ، وأعتبره عددا خاصا عن العراق ، هذا البلد العربي الذي يحتاج معه كتاب مصر ومثقفيها مساندته في هذه المحنة التي تعرض لها على يد قوات التحالف وليواصل النزيف الذي بدأ للأسف الشديد بحرب الخليج الأولى ضد إيران في سبتمبر ١٩٨٠ ، ومازال شعبه المنكوب يتجرع الآلام .

إن أكثر ما أعجبني في ذلك العدد هو تركيزه على أهمية العراق التاريخية وحضارته المجيدة بأقلام صفوة من كتابنا العرب .

وإذا كان الحديث يركز على حضارة هذا البلد وتاريخه دون أن يلتفت إلى بعض القيادات الزائلة من منطلق أن العراق هو الباقي ، وأن الأهم هو شعبه العريق الذي طالما عاني من بعض حكامه المتجبرين الذين لم يؤمنوا إلا بالحديد والنار .

أعجبني من المقالات «شعراء مصر يحيون العراق» للدكتور البيومي ، ومقال وديع فلسطين عن الشاعرة الجميلة لميعة عباس عمارة ومقال الإعلام والحرب على العراق لجلال أمين والشعر الحر في العراق للدكتور يوسف عزالدين ... نتمنى أن تواصل الهلال مجلتنا الثقافية الأولى في الوطن العربي الكتابة عن هذا القطر الشقيق .. تسانده ونقف مع شعبه ليسترد حريته ويعود لمواصلة حضارته العربية الأصلية .

ميار رفقي عبدالرحمن - المنصورة

روح شريد

مـــا الذي أملك في هذا الوجـــود ؟
حين نبـضي في دجى الليل كـمـــا
حين روحي دوحـــة عـــاثت بهـــا
فـغـدت قـفـراً ، وقـاعـاً صـفـصـفـا
حـــينمـــــا أدركت أني إنما
سكنتـــهـــا الناس ، يومـــا ، قـــبل أن
كل حب صـــار زيفـــا كـــاذبا
ذاك صـــوتي (عـــبـرة مـــهـــراقـة)
ليـست البـسـمـة في عـيني صـدقـا
لست أبكي الناس ، كـــلا ، بل أنا

حين قلبي - رغم من حـولي- وحـيـد
خـفق طيـر ، مـتـعب الروح ، شـريد
ريح نحس ، نفث شـيطان مـريد
وغـدت سـوداً بهـا ، حـتى الورود
أنسج الـوهم ، على أرض تميـد
تمسخ الناس أسـودا ، بل قـرود
كل عـدل صـار حـيـفـاً وجـحـود
هي شـعـري ، وغنائي ، والقـصـيـد
هل ترى خلف ابتسـامـاتي المزيد ؟
أنثني ، عطفـا ، على قلب عنيـد

٢٢١

أنت والهلال

يطلب النور ، وفى الكون ظلام … يرتجى دفء قلوب من جليد
أيها الروح التى عاشت بروحى … دون أن أدرى ، ومن دهر بعيد
هاك شعرى ، إنه وحى ضميرى … إنه نفسى ، وفى جسمى وريد
دعك من أرض بها مات الوفا … ليس قد ثم بها شخص رشيد
وتعالى نتلاقى فى السما … ولتكن رحباً لنا ، دون حدود

أمانى حاتم بسيسو – عمان – الأردن

أين شعراؤنا ؟

كان الشعراء العرب فى الماضى هم الذين يثيرون الحماس فى نفوسنا بل كانوا هم بمثابة الإعلام لقبائلهم وشعوبهم ، حتى قيل إن الشعر ديوان العرب .. فلماذا لم يعد الشعر كما كان فى الماضى ؟

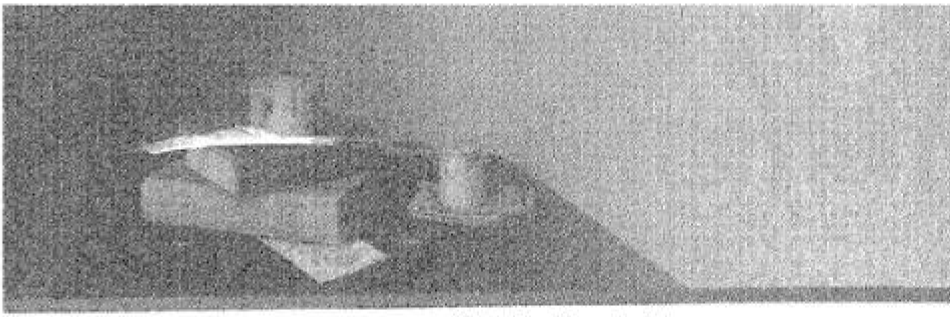
إبراهيم أحمد – أسوان

● **الهلال** : لقد غلبت أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية ، فانحسر دور الكتاب وبالتالى دور الشعر ، كما أن الرواية طغت فى السنوات الأخيرة فانصرف الناس إليها ، أيضا عدم الاهتمام باللغة العربية وقواعدها ، فضلا عن ندرة المواهب الحقيقية هو سبب آخر من أسباب قلة الشعراء ، كما أن طغيان مايسمى بشعر الحداثة الذى يهدم قواعد الشعر العربى الأصيل أدى أيضا إلى تراجع النموذج الحقيقى للشعر ، ونتمنى فعلاً أن يعود للشعر دوره فى حياتنا .

هذا ما قالته نظرتها الأولى

مطر يعوى وبحور صامتة
ورحيق أعنف من طوفان العشق
هدأة نهر وقوارب
رعد
برق
وعواصف
تعزف وجدى الصاخب
كى تكتمل طقوس البوح ..
وتولد أطياف الحب الهارب
أرقنى الليل برغم مناجاتى
مازال حنينى يسبح ..
فى قلب تائب
كم أرقنى
وكأنى كنت بوجعى الأزلى ..
أجوب كواكب حزنى
لأفتش بين جراحاتى عن أمل غائب
كم أوجعنى أن رهان الحب جحيم
كيف يعانق غدر غدراً ..
دون مخالب
هذا ما قالته نظرتها الأولى

صابر صبرى معوض



رد على مقال د. البيومي

أعجبت بمقال د. محمد البيومى المنشور فى العدد الماضى بعنوان «شعراء مصر يحيون العراق» .

ويقول فى ص ٣٧ «وشعراء الجيل الماضى كانوا أقوى على التعبير الذى يملك عواطف القراء بما يفصح عن مشاعرهم الواضحة دون التواء ... فقد رأيت أن أعرض للقراء الكرام مايحسون به من مشاعر الحب نحو بغداد من خلال ما قاله شعراء الأمس .

ولكننى أقول على سبيل المثال ، جيل الخمسينيات فى معركة العدوان الثلاثى على بورسعيد كانت لبعضهم - إن لم يكن للكثيرين منهم - قصائد أكثر حيوية ونبضا من خلال لغة عربية رصينة .

إن تكريم أستاذنا د. رجب البيومى لنا بعلمه فضل لا ننكره ، ولكم قولة حق لابد نزجيها فى حق بعض شعرنا الأصيل فى المعارك وغيرها مما يشهد بأن هؤلاء المعاصرين الأكفاء يستحقون أن يدخلوا تحت مظلة حماية د. البيومى النقدية وهم كثر .

د. سامى منير عامر
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

ثلاثة مقاطع للألم

كيف لى
أن أغنى ؟!
وأنا ..
ليس لى ياصاح دار
حائر
سائر فى ذا المدار
والذى جمعته
فى سلتى ..
كان بعضاً من محار !!
كل العصافير التى ..
حطت على شباك بيت لى ..
قد أخبرتنى :
أننى لم أمتلك يوماً ..
وطن
طائرى ذاك الحزين
طار فوق السحاب
كان يغدو أو يروح
كان إشراقاً فغاب
كان إشراقاً فغاااب !!

محمود المصلى - شربين

الاستعمار الجديد !

ملاحظات مهمة لابد أن تقال ونحن فى هذا المأزق ، وينبغى أن نستفيد ونعى الدرس جيدا .
لمواجهة الغزو السوفييتى فى أفغانستان ظهرت شخصية أسامة بن لادن ، وبعد أن خرج السوفييت أصبح عدوا للأمريكيين وسقطت أفغانستان ومازال ابن لادن حرا طليقاً !
ولمواجهة الثورة الإسلامية فى إيران جاء دور صدام حسين واستمرت حربه مع إيران ثمان

سنوات ، وبعد انتهاء مهمته أصبح العدو الأول لأمريكا وسقطت بغداد بعد الدمار الذى شهدناه جميعا ولم يظهر صدام ، وبدأنا نسمع عن شرائط بصوته تماما كما يحدث مع أسامة بن لادن .. سيناريو مكرر ويستحق أن نتوقف عنده طويلا !

لكن سؤالي هو : إلى متى يتوقف العقل العربي عند كل مايحدث هل يبدأ مفكرونا بالكتابة عن هذه الظاهرة لكى تنبه الشعوب ولا تخدع ونتنبه إلى ذلك القادم إلينا لنهب ثروات العرب ؟!

أحمد السيد السرى
دمياط - عزبة البرج

إنهم يكذبون في إبريل !

إبريل شهر الكذب ، وكنا قبل هذه السنة نطلق كذبة واحدة فى بداية هذا الشهر .. أما إبريل هذا العام فهناك عشرات الأكاذيب من بينها :

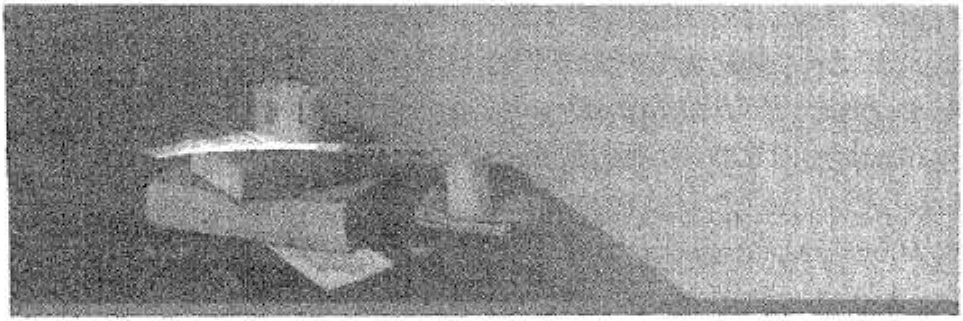
- أن أمريكا تعرف أن أسامة بن لادن وصدام حسين موجودان وتعرف مكانيهما ولكنها لاتعرف مكان المتحف العراقي !
- أن الجنود الأمريكيون يعشقون أى شىء اسمه فلسطين ولهذا كان أول ما احتلوه فى بغداد فندق فلسطين .
- أن أمريكا لن تصلح أنبوب البترول العراقى ما بين كركوك وحيفا فى فلسطين .
- أن الزبيدى رئيس الإدارة المدنية فى عهد صدام خرق القانون الأمريكى وأنه مجرم حرب لأنه عراقى ولا يحمل الجنسية الأمريكية .
- أن أمريكا كانت لاتعرف أن هناك حضارة ومتاحف فى بغداد ، وأن العراق لايزال يخفى أسلحة الدمار الشامل فى الأماكن التى احتلتها القوات الأمريكية .

د. جمال العطار: كامب شيزار - الإسكندرية

مع الأصدقاء

مشاركة من الطالبة آيات محمد أحمد - أم الأبطال بنات بعنوان : فلسطين نجتزئ جزءا منها فليست بالفصحى ولا موزونة ، ولكنها دفقة شعورية :

بكاء فلسطين ينادى
يقول وين بلادى
وين الأمة العربية



فى ظل حماها أشاكى
وين صلاح الدين
أو دين بلادى
دم دره ينادى
الثأر من الأعادى
....
أتعلمت أصل الكرم
من كتاب تاريخ أجدادى
أرسل لكم وصيتى
ياعرب أنصروا بلادى

● يوسف طويل - الجزائر يطلب الاشتراك فى مجلة الهلال ونرحب بك أيها الصديق ، ويسأل عن باب «لغويات» وهل مازال ينشر بإنتظام ، كما يطلب تصوير كل مانشر منها منذ بدأ أستاذنا الراحل الكريم كمال النجمى يكتبها بقلمه الرشيق .

أقول للقارئ العزيز إن لغويات بعد إنقطاع لفترة بدأت تعود لمكانها من جديد ويكتبها الدكتور الطاهر مكى .. أما تزويدك بمانشر من «لغويات» فنفكر جيدا فى أن يستفيد بها قراء الهلال سواء بإعادة نشرها أو جمعها فى كتاب .

● رسائل كثيرة وصلتنا من صلاح جميل سعد - غزة - ش عمر المختار يشيد فيها بمجلة الهلال وكتابها ويطلب بعض الكتب التى صدرت لرئيس التحرير وللكاتب مصطفى درويش ، كما ينوه إلى توقف وصول الصحف والمجلات المصرية لبعض الوقت وهذا سبب له ألما شديدا لأنه لم يستطع قراءة مايكتبه كتاب مصر ومفكريها الذين يحبهم .

ولصلاح أقول بأننا سوف نلبى بعض ما طلبته .

● صديقنا الدائم من الإسكندرية عاصم فريد البرقوقى عاد يكتب لنا وهو يقول : لقد أجمعت شعوب العالم على : لا للحرب ويستشهد بمقولة كاتبنا الكبير نجيب محفوظ «كنت أتصور أن حضارة الإنسان قد أوصلته إلى مرحلة يرتفع فيها فوق نزعاته التدميرية ، لكن يبدو أن العكس هو الصحيح» .

إن مايحدث فى العراق هو ضد منطق الحضارة ، ولن يطول ليل العراق فلابد للصبح أن ينجلى ، ويعود هذا الشعب العريق كما كان يواصل مع أمته العربية مسيرته .

الكلمة الأخيرة



الركض خارج الملعب

بقلم: د. صلاح قنصوه

ليس من حق الفريق المغلوب على أمره الذي يفترض أن يدخل مباراة يتنافس فيها فريقا آخر أن ينكر عامدا قواعد اللعبة التي يشارك فيها غيره، ويظن نفسه حرا في إعادة رسم حدود الملعب، فيجعله ضيقا بحيث لا يدخل في منافسته إلا من يخضع لشروطه، ولا يعترف بالحكم الذي يطبق قواعد دولية، بل ربما يلغي وظيفته ويستبدل به حكما متخيلا ليس متاحا في الواقع، مثل الماضي القديم، أو العقيدة الدينية عندما يضيق تأويلها عند طائفة معينة، أو حلم الأمة المجيدة ذات الرسالة الخالدة... إلخ.

والنتيجة معلومة سلفا قبل النزول إلى الملعب، بل إن ذلك الفريق لم يتفق بعد على لون الفانلة التي تجمع أعضاءه، فهم يتفرقون حتى في تحديد الانتماء إلى ناد بعينه، وينشغلون في صراخهم، لا أقول صراعهم، فيما بينهم حول ما يصوغ «هويتهم» أو «خصوصيتهم»، وما زالوا يتناوبون الوقوف على خشبة المسرح الجماهيري أو الإعلامي بحيث يلقي كل منهم «مونولوجه» الخاص الذي لا يسمح بديالوج (حوار) مع غيره، ويحصر كل منهم اتهام الآخر بالعمالة أو التطرف، أو العلمانية إلى آخر هذه الاتهامات التي تستنفد مدادا غزيرا في المطابع والكتابات، وتستهلك طاقة كهربائية هائلة في الميكروفونات والندوات.

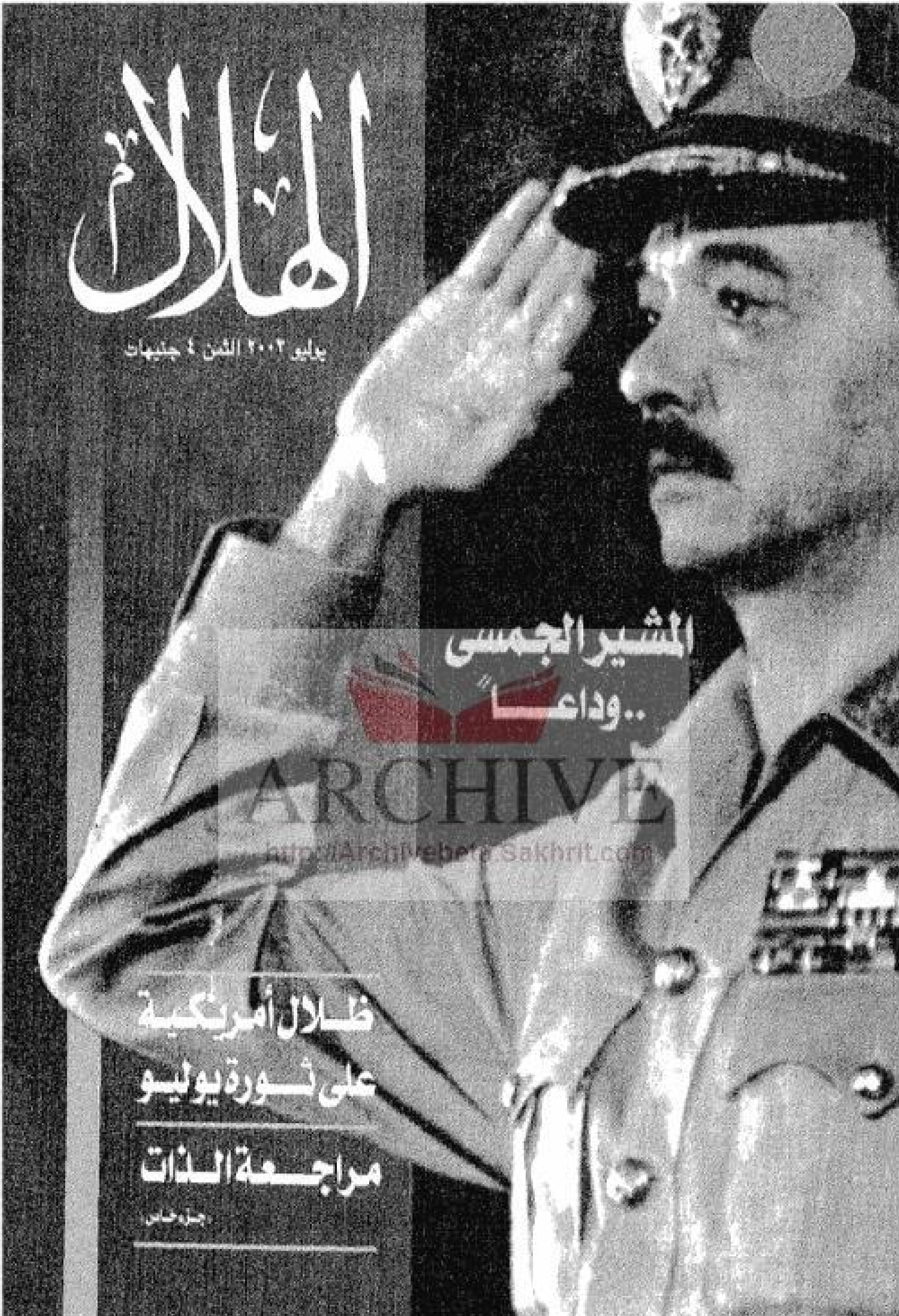
والواقع أن الملعب الحقيقي هو «الوطن» الذي غاب استخدام مفهومه، وأضعناه في ركضنا خارج الملعب عندما نضع هوان شتاتنا في رقبة مؤامرة وتواطؤ من الغرب، أو الكفار الذين يتآمرون على العروبة والإسلام. وعندما نستنيم إلى أحلام يقظة عن ماض تاريخي نجعله المبرر لحقد الأعداء علينا.

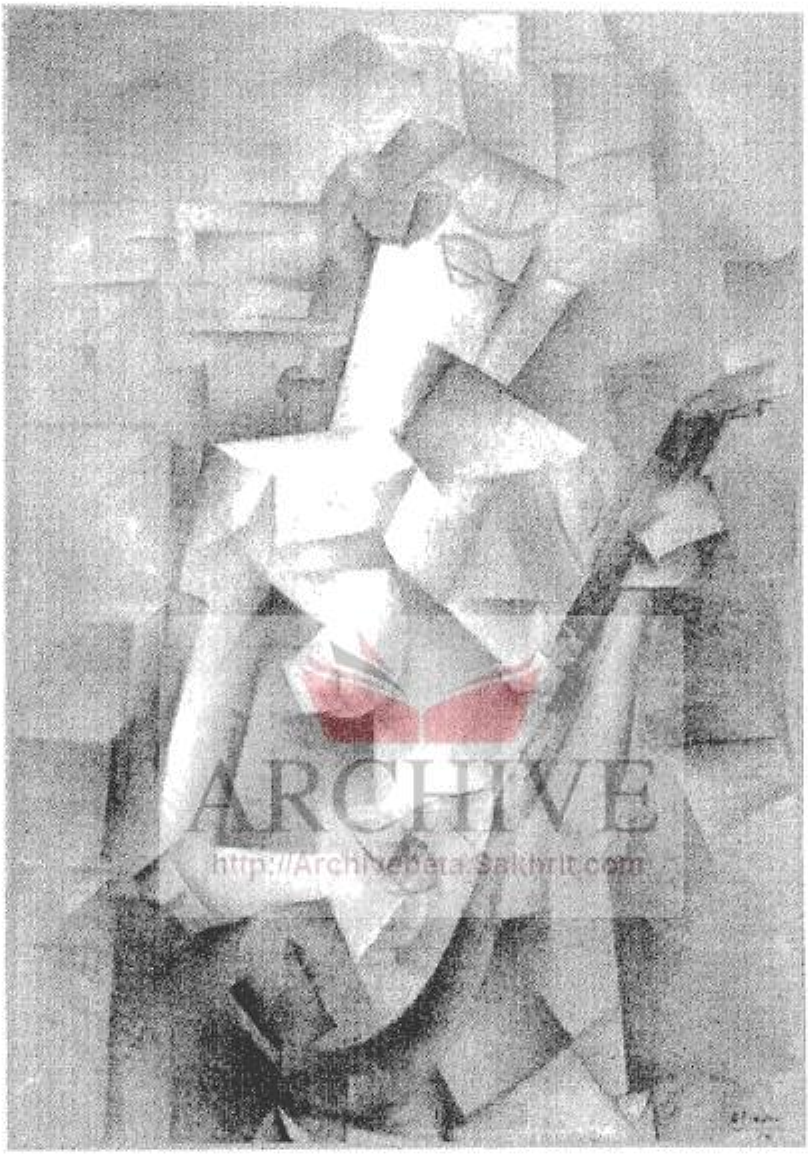
وعندما يؤدي ذلك جميعا إلى العجز عن وضع برنامج محدد المعالم للمستقبل، أو استراتيجية قابلة للتنفيذ، أي قائمة على ما يسمى «بدراسة الجدوى».

الحل الوحيد الذي سبقنا إليه الغرب هو الانطلاق من مفهوم الوطن، أي الدولة القومية التي لا تنمو أو تزدهر، أو تدخل المنافسة إلا بصعود الرأسمالية الوطنية. فهي وحدها الكفيلة بضمان التطور العلمي والتكنولوجي، والتعددية، والحرية السياسية والفكرية، وتعظيم ممارسات المجتمع المدني. ■


لربط ابناء المهجر بالوطن الام
و لخدمة الجاليات العربية و حركة السياحة
رحلات مباشرة بدون توقف
بين القاهرة و مونتريال
مع مصر للطيران
الثلاثاء و الجمعة
بأحدث طرازات الطائرات
اعتبارا من ١٠ يونية
www.egyptair.com.eg


أدبيات
نبع الأدب والثقافة المعاصرة
ستتحول حتى الإرادة


الهلال
يوليو ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
المشير الجمسى
.. وداعاً
ظلال أمريكية
على ثورة يوليو
مراجعة الذات



لوحة وفنان

عازفة الجيتار
للفنان العالمى بابلو بيكاسو
(المتحف القومى بباريس)

الهلال

مجلة ثقافية شهرية يصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الحادي عشر بعد المائة جماد أول ١٤٢٤ هـ - يوليو ٢٠٠٣م

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)

المكاتبات: ص ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج م ع مجلة الهلال

تلكس ٩٢٧٠٣ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

---

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١.٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

٨ – التاريخ وإرادة البشر....... د. مصطفى سويف

١٦ – لماذا شاع الغباء بين البشر؟... جميل مطر

٢٤ – أخى فى العروبة «قصيدة»........................ محمد إبراهيم أبو سنة

٢٨ – المشير الجمسى « وداعا » :...................
عندما دمعت عينا البطل....... مصطفى نبيل

مراجعة الذات (جزء خاص)

٤٠ – آن الأوان للنزول من السندرة .... د . صلاح قنصوة

٤٨ – الأمريكيون ونظامنا التعليمى .... د . جلال أمين

٥٦ – إشكالية الهوية الثقافية .... د. مراد وهبة

٦١ – أما لليأس العربى من نهاية؟........... د . أحمد أبو زيد

٦٦ – ماذا بعد العراق؟: إيران.. هل جاء دورها؟ .... د. رءوف عباس

٧٢ – مابعد خريطة الجينوم.. د. أحمد مستجير

٧٨ – المعهد المصرى فى مدريد لم ينشئه طه حسين ! .... د . الطاهر أحمد مكى

٨٦ – أسرار حافظ نجيب... أحمد حسين الطماوى

٩٤ – شاعر كبير يتعذب بين فاتنتين .... د. محمد رجب البيومى

١٠٨ – فى الشعر الحلمنتيشى .... د . مصطفى رجب

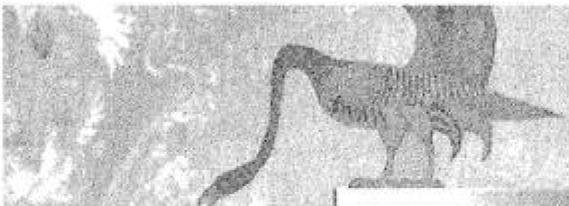


تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٨٠ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا، أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٥٠ دولارا، باقى دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - صرب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد



١٢٢ - رواية غير تقليدية لرضوى عاشور ....
.... د . محمد أبو الغار
١٢٨ - الكاتب الجزائرى محمد ديب... إبراهيم فتحى
١٣٦- الفنانة مارجوفيون: أوربية الأبوين مصرية الهوى
.... د . ماهر شفيق فريد
١٤٦ - تحية حليم والمدرسة المصرية فى الفن التشكيلى
.... د . صبرى منصور
١٥٤ - نصف «قصة قصيرة» نبيل صلاح الدين
١٦٢ - الموسيقى العراقية ....نصير شمة
١٦٦ - المتفرجة «مربط الفرس»............مرفت رجب
١٧٠ - ذكريات مع مكتبة ومجلات السينما .....
.... مصطفى درويش
١٧٦ - الثقافة الجماهيرية في ثورة جديدة.
.... أماني عبدالحميد
١٨٢- رحيق الكتب
١٨٦ - عائلات ثقافية (والدى أمين الخولى) ......
.... د . سمحة أمين الخولى
١٩٢ - عن بعض العروض المسرحية هذا الموسم ....
.... مهدى الحسينى
٢٠٠ - أين نحن من ثورة يوليو؟
.... عبدالرحمن شاكر
٢٠٦ - ظلال أمريكية على ثورة يوليو ....
.... عبدالقادر ياسين

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ...٦
- أقوال معاصرة . ٢٧
- من نخائر الكتب العربية (ديوان المتنبى) : د . عبداللطيف عبدالحليم ١٠٢
- شخصية العدد الفنانة سميحة بقلم صافى ناز كاظم ١١٦
- لغويات ... ١٧٥
- التكوين أحمد حمروش . ٢١٠
- أنت والهلال عاطف مصطفى ٢١٨
- الكلمة الأخيرة د. حامد عمار ... ٢٢٦



أيها المثقفون العرب.. ماذا أنتم فاعلون؟

تشهد القاهرة اليوم ولمدة ثلاثة أيام أعمال المؤتمر القومى للمثقفين العرب الحوار حول مبادئ خطاب ثقافى جديد والذى يشارك فيه نخبة من مثقفى مصر والبلاد العربية، ليكون ترجمة حقيقية لتفعيل العمل الثقافى العربى فى مواجهة ما يحدث على الساحة العالمية والاقليمية من تطورات وأحداث، تأخرنا كثيرا عن مواكبتها، والتعرف على جوانبها إبتداء من الكلام الكثير الذى يقال حول العولمة وآثارها علينا، وهذا التطور الكبير الذى شهدناه بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١ وما استتبعه من إجراءات كان لها تأثيرها المباشر على المنطقة العربية بشكل خاص، وعلى المسلمين بشكل عام، والذين وجه إليهم اتهام صريح بأنهم وراء ما يحدث من إرهاب يقلق الغرب ويغضبه منا، وكان لذلك تأثيره السلبى علينا، فتحركت الجيوش الأمريكية أو ما يسمى بقوات التحالف، فى البداية صوب أفغانستان ثم ارتدت إلى المنطقة العربية حيث دخلت العراق لتدمر حضارة يعتز بها العرب والمسلمون، وبدأ القتل والخراب فى أرض فلسطين لتأنيب ما يسمى بالإرهابيين الذين يدافعون عن الأرض والعرض ويدافعون عما تبقى من بلادهم التى تغتصب ويقتل أبنائهم بجميع أنواع أسلحة الدمار الشامل، والعالم الغربى الذى تشدق بكلمات حرية الشعوب واحترام المواثيق التى أطلقتها الأمم المتحدة غزا العراق ومزقه وضيع حضارة من أعرق الحضارات الانسانية.

واليوم يجتمع مفكرو العرب يستضيفهم المجلس الأعلى للثقافة على أرض مصر يتحاورون ويتناقشون فى محاولة نرجو أن تكون جادة، للوصول إلى استراتيجية للعمل المستقبلى، وصياغة مبادئ خطاب ثقافى جديد من خلال خطة عمل تستمر لمدة ثلاثة أيام تتضمن ست جلسات نقاشية وموائد مستديرة، تناقش منظورا جديدا للثقافة القومية فى عصر مجتمع المعرفة، وموضع الثقافة العربية على الخارطة الثقافية الكونية فى العصر الجديد وعلاقتها بعالم البحر المتوسط وثقافات آسيا وأفريقيا وأزمة النظام الإقليمى العربى فى الأزمة الراهنة للنظام العالمى، ومحاولة التوصل إلى مشروع

للإصلاح الثقافى فى إطار الاصلاح السياسى للمجتمعات العربية مع التركيز على قضايا حرية الإبداع والتعبير وتأكيد حقوق الإنسان العربى، بالإضافة إلى تناول كيفية تطوير السياسات الثقافية بما يؤدى إلى تغيير البرامج الإعلامية والتعليمية وضرورة وضع أسس لتجديد الخطاب الدينى وتحريره من التطرف.

وبنظرة جادة لبرنامج هذا المؤتمر الذى يناقش واقعنا الثقافى فى ظل الظروف بالغة الحساسية التى نعيشها فهل يمكن أن تناقش أوضاع الثقافة العربية الحالية والمستقبلية أو مثل هذه المحاور فى أيام قليلة وهى من الخطورة بمكان ثم ينتهى المؤتمر بتوصيات ويتصافح المجتمعون ونقول لقد دقت ساعة العمل؟!

يا سادة إن كل محور من هذه المحاور المطروحة فى المؤتمر يحتاج إلى عدة مؤتمرات وندوات لكى نخرج بخطة عمل شاملة على المستوى العربى، ويحتاج إلى آليات للتنفيذ والمتابعة لنكون قد حققنا شيئا مفيدا لأمتنا العربية.

فالخطاب الثقافى هو انعكاس للواقع الذى نحياه الآن ولكى يتم تغيير هذا الخطاب فإن ذلك يقتضى تغيير الواقع الراهن.

إن لدينا مهمة أساسية فى هذا المؤتمر وهى مناقشة أزمة النظام الإقليمى العربى فى ظل الأزمة الراهنة ومحاولة التوصل إلى مشروع للاصلاح الثقافى وضرورة وضع أسس رئيسية لتجديد الخطاب الدينى، ولو اكتفينا بذلك فى هذا المؤتمر وتوصلنا إلى شئ مفيد، خاصة وكل مثقف مشارك يعلم تماما المأزق الذى تعيشه الأمة العربية والإسلامية فيكون ذلك انتصارا ما بعده انتصار.

إن رهاننا ينتظركم يا مثقفى الأمة لكى تفعلوا شيئا، فالعدو يعيش بينكم وداخل بيتكم هذه المرة فبالله عليكم ماذا أنتم فاعلون؟!

هل تلتقون فى شوق وعناق ثم ينفض السامر ويبقى هذا المؤتمر كغيره؟

إننا نريد عملا جادا، وخططا تعيد للثقافة دورها فى إيقاظ الأمة، فكفى مثقفينا نوما وأكبر عاصمة ثقافية تحتل وجارتها تهدد، وأبناء فلسطين يقتلون والكل يتفرج والعجز يملؤه والمسلمون يطاردون فى بلاد أوروبا والتى يقال عنها بلاد الحرية!

المحرر

التاريخ وإرادة البشر

بقلم

د. مصطفى سويف

يعنينا من التاريخ عادة مواكب الأحداث فى تدفقها متلاحقة ومتداخلة، ونحن إذ نعاين هذا التدفق يهمنا فى المقام الأول أن نواكب إيقاعه حتى لايفلت من قبضة عقلنا الدارس، وأن نتناول دفقاته بالتحليل إلي سلاسل أو حزم متشابكة من الوقائع جاهدين أن ندرك ماتنبىء عنه من دلالات وماترهص به من مؤشرات . وهذا مايعتبره الكثيرون التوجه الموضوعى كما ينبغى أن يتوافر لدى كل من تصدى لدراسة التاريخ، وهو المدخل الطبيعى فى الوقت نفسه لكل من زاد طموحه فتطلع إلى أن يحقق لنفسه أقداراً متنامية من الوعى بالتاريخ.

غير أن حشد الجهد على هذا النحو لدراسة واقع الأحداث التاريخية لم يكن ليثنينى عن بذل نوع آخر (إضافى) من الجهد، هو جهد النظر فى نقطة التماس بين الذات الدارسة والواقع التاريخى المدروس.

وقد جاء هذا البذل الإضافى نتيجة منطقية لتحديد طبيعة الدراسة التاريخية كما أقدمت عليها منذ خطوت الخطوة الأولى فى هذا السبيل، إذ أوضحت أن موضوعى فى هذه الدراسة هو التاريخ كما عايشته، لا كما توالت أحداثه فحسب، أى أننى اتجهت منذ الخطوة الأولى إلى دراسة الوقائع فى مبناها ومعناها، لا فى مبناها فحسب. وقد كرست المقال الراهن لهذا الموضوع، موضوع نقطة (أو منطقة) التماس بين الذات الدارسة (الأنا) والموضوع (وقائع التاريخ)، للإجابة عن سؤال : ماذا يحدث فى منطقة الحدود هذه؟

محاور التفاعل الرئيسية

لم تكن الذات متلقية فحسب، ولكنها كانت متلقية/فاعلة.

وقد انتظمت فاعليتها إزاء دفقات

التاريخ ثلاثة محاور رئيسية، هى : توظيف الوعى، وتوظيف العمل، وتوظيف الهوية. وفى مقابل ذلك كان هناك محور واحد انتظم الوجه الذى ظهر به أفق الوقائع التاريخية فى مواجهة الذات ، وكان هذا المحور هو اللامبالاة العدوانية أحياناً والخاملة أحياناً أخرى.

جدير بالذكر أن المحاور الثلاثة التى تنتظم فاعلية الذات يقع التداخل فيما بينها من حين لآخر، وفى هذا الصدد كنت ألاحظ من حين لآخر أن عناصر الوعى تغلف العمل، وكنت ألاحظ أيضاً أن بعض عناصر العمل تفعل فعلها فى تعديل الوعى. وكذلك الحال فيما يتصل بالعلاقة بين الوعى والهوية، وبين الهوية والعمل، كل التباديل والتوافيق كانت واردة، لكن هذه التداخلات لم تكن لتنفى عن المحاور الثلاثة شخصية كل منها. وجدير بالذكر أيضاً أن الوجه الذى ظهر به مشهد الوقائع التاريخية أمامى جاء محملاً بحقيقة كونى مواطناً ينتمى إلى دولة من دول العالم الثالث، وهو مازاد من نسبة عناصر العدوانية التى كنت أراها تبرز من حين لآخر فوق أرضية اللامبالاة الغالبة على هذا الوجه.

علاقتنا بالتاريخ

وقبل أن أنتقل بالقارىء إلى تفصيل القول فى هذه المحاور والكيفية التى انتظمت بها فاعلية الذات أرى أنه لابد من الإشارة إلى حقيقة الإطار العام الذى ينتظم هذا الحديث جملة وتفصيلا: أعنى بهذا الإطار حقيقة علاقتنا بالتاريخ، فنحن (أفراد البشر) نختلف فى الشكل الذى تنتظم به هذه العلاقة معنا، والاختلافات فيما بيننا فى هذا الصدد لانهاية لها، ولكنها فى مجموعها تمثل مواقع متفاوتة على تدريج متصل يمتد بين قطبين ، أحدهما السلبية التامة، والآخر الإيجابية أو الفاعلية القصوى، بعضنا (وهؤلاء قلة) يعيشون التاريخ بأسلوب يصدق عليه وصف الشاعر العربى القديم:

«كجلمود صخر حطه السيل من علٍ»، والبعض الآخر (وهؤلاء قلة أيضاً) يحاولون بشتى الطرق أن يغيروا سيرة التدحرج بقدر كبير، وبين البعضين نجد غالبية الناس يتدحرجون مع أحداث التاريخ بنسب متفاوتة من السلبية والفاعلية معاً. وقد حاولت على امتداد عمرى الواعى أن أقلل ما أمكن من نصيب السلبية فى حركتى وأن أزيد فى

> **حتمية التاريخ مشروطة بشروط من صنع البشر**

الوقت نفسه من حظ الفاعلية في مجمل الأدوار التي كنت أقوم بها. وهذا ما أضفى شيئاً من الخصوصية على نقطة التماس التي لا أفتأ أشير إليها.

رسائل دفقات التاريخ إلى الذات

عندما نكتب عن تاريخ عايشناه يختلف الأمر كثيراً عنه حينما نكتب عن تاريخ ترامت إلينا أنباؤه: ذلك أن معايشة التاريخ تصحبها معاينة لتوالد وقائعه، فنحن نعيش مع هذا التوالد لحظة بلحظة، ومن ثم يستقر في وجداننا معنى محدد لما يسمى بحتمية التاريخ، فهي حتمية مشروطة بشروط من صنع البشر، وليس حتمية خارجة عن إرادتهم مثل حتمية الظواهر الفلكية. خذ مثلاً أحداث حرب العراق، فقد عايشنا لحظات توالد هذه الأحداث جميعاً: قبيل وقوعها كان هناك صراع إرادات بشرية، اشتركت فيه إرادات ملايين من المواطنين من دول وكيانات مختلفة (الملايين التي خرجت في تظاهرات ضد الحرب في جميع أنحاء العالم). واستمر هذا الوضع (كل يعجم عود الآخر في صراع غير محسوم) حتى مساء ٢٠ مارس سنة ٢٠٠٣، وفي ذلك المساء بدأت الحرب فعلاً، وشهد العالم كله لحظة الميلاد، صدر قرار بإشعال الحرب، وبدأت دفقات تاريخ حرب العراق تتوالد دفقة بعد دفقة على مشهد منا جميعاً.

أمام هذا المشهد كان لزاماً أن تستقر في وجدان المشاهد معان متعددة منها أن دفقات التاريخ هي نفسها تحركات السياسة (القرارات وملحقاتها) إذ تنتقل من الحاضر إلى الماضي، ومنها أن وقائع التاريخ تشف في لحظات توالدها عن عناصر الإرادة البشرية، ومنها كذلك أنها في لحظة الميلاد لا تولد كمجرد أحداث تقع في مكان بعينه وزمان بعينه، ولكنها بالإضافة إلى ذلك تأتي محملة بأنواع وأقدار لاحصر لها من الدلالات والشحنات الوجدانية. وثمة معان أخرى كثيرة تستقر في وجدان المشاهد، ولكن المقام لايسمح بحصرها.

حفرة الرصد في الذات

تتدفق صور أحداث التاريخ إلينا ويجري تشفيرها على هيئة تكوينات ذات أبعاد متعددة: أحد هذه الأبعاد أنها وحدات معرفية (صيغت في ألفاظ وصور)، وهذه تختزن في الجزء من ذاكرتنا الموكل بهذا النوع من الواردات، ويُعد آخر هو المعاني والتداعيات بالشكل الذي تحدثت عنه منذ قليل (مسألة السياسة/التاريخ، ومسألة دور الإرادة البشرية في الأحداث التاريخية ..الخ)، ثم

هناك بُعد ثالث يمكن أن نسميه بالدلالات أو الأصداء الأكثر اختلاطاً بذاتيتنا: وفى هذا الصدد نذكر ثلاث فئات من الأصداء: الفئة الأولى تضم كل مايتعلق بشدة الرنين الانفعالى، وتضم الثانية كل ماتعانيه فى نفوسنا (فى هذه اللحظات) من تغيير فى الأوزان النسبية لاهتماماتنا وهمومنا، وتحتوى الفئة الثالثة على أقدار من الاستثارة لمشاعر الإحباط أو المساندة. هكذا يجرى تشفير دفقات التاريخ داخل ذواتنا.

أما كيف جرى التشفير فى حالتى فعلى امتداد المسيرة فى ربوع القرن العشرين (منذ أواخر العشرينيات وحتى ختام التسعينيات) تنامت فطنة الذات إلى أن تعاملاتها مع السياقات التاريخية المتوالية تمضى سلسة لينة أحياناً وعسيرة شديدة المراس أحيانا أخرى. كما فطنت إلى أن مواطن السلاسة واليسر كانت مع مرور الزمن، تتضاءل كما وكيفا بينما كانت مواطن العسر تتزايد بدرجات متسارعة، ثم فطنت فى خواتيم المسيرة إلى أن كفة الصعوبات فاقت كثيراً كفة السلاسات. كان هذا صحيحاً بالنسبة للتفاعل مع السياق الوطنى، وكان صحيحاً أيضاً فيما يخص السياق العالمى. وكانت المحصلة النهائية لهذه الحقائق جميعاً أن غلبت صفة الصراع (بأنماط ودرجات مختلفة) على تفاعلات الذات مع السياقات التاريخية المتوالية. وكان لابد والحال كذلك أن تؤسس نقطة التماس بين الذات والسياقات التاريخية على الصراع أكثر مما تؤسس على أى شكل آخر من أشكال العلاقات (كالوفاق، والتوازى ...الخ).

> • جوهر المقاومة بعيدة المدى هو إحكام العلاقة بين العمل والهوية

إدارة الصراع

كيف أدرت هذا الصراع؟ هذا ما أكرّس له البقية الباقية من المقال الراهن. لا أذكر أننى واجهت لحظة بعينها قررت فيها بوعى كامل أن يكون الصراع استراتيجية أساسية فى حياتى. ولكن ماحدث فعلاً أننى وجدتنى منغمساً فى سلسلة من المعارك تسلمنى كل واحدة إلى التى تليها، وبعملية استقراء لمضامين هذه المعارك استنتجت أن الصراع هو الغالب والذى سوف يغلب على لقاءاتى مع السياقات المختلفة. ووجدتنى بعد ذلك أقبل هذه الحقيقة بغض النظر عن صيغ النسبة والتناسب بين إسهاماتى وإسهامات السياقات فى نشوب الصراعات المختلفة. ثم وجدتنى بعد ذلك

أرفع حقيقة الصراع إلى مرتبة الموضوع الذى أتناوله بقدر كبير من التفكير والوعى المكثف، وأتجه به إلى هدف واضح هو تحديد الأسلوب الأمثل لإدارته بالكفاءة المناسبة، (بتقليل المغارم وزيادة المغانم بالنسبة للذات). وجدير بالذكر هنا أن هذا القبول للصراع كخط أساسى للحياة تحقق منذ وقت مبكر فى حياتى، وأن عملية القبول نفسها أنقذتنى من التورط فى أخطاء جسيمة، ربما لو كنت تورطت فيها لأصابتنى بأضرار فى صميم عملى، بل وفى تشكيل هويتى (كما ارتضيتها كواقع وكمشروع آخذ فى التحقق).

أساليب إدارة الصراع

تخلقت عندى على مر الأعوام عدة طرق فى هذا الشأن جرت عليها كثير من عمليات المراجعة والتنقيح والتعديل، وشيئاً فشيئاً صارت هذه الطرق تكوّن فى مجموعها عدتى الرئيسية فى إدارة الصراع، وعندما أنظر الآن فى قائمة مكونات هذه العدة أجد فى مقدمتها مكونين رئيسيين، أحدهما يمكن أن نسميه تفعيل قواعد المقاومة طويلة الأجل أو بعيدة المدى، والمكوّن الآخر هو دعم عناصر المناعة النفسية، وتحت هذين المكونين كانت تندرج عمليات وآليات أضيق نطاقا فى مجال توظيفها، ولكن هذا لايعنى أنها كانت ضئيلة الوزن فى توجيه الصراع أو حسم نتيجته، كل مافى الأمر أن هذه العمليات والآليات كانت لها بدائل يمكن اللجوء إليها إذا اقتضى الأمر، أما المكونان الرئيسيان فلم يكن لهما بدائل، هكذا جاءت الخبرة فى مسيرتى وفى البقية الباقية من مقالى هذا سوف أركز الحديث على موضوع المقاومة بعيدة المدى، أما موضوع دعم عناصر المناعة النفسية فأرجو أن أفرد له مقالاً آخر بإذن الله .

تفعيل قواعد المقاومة بعيدة المدى

يحضرنى دائماً بشأن هذا الموضوع قول أبى العلاء المعرى:

أحسن بالواجد من وجده
صبر يعيد النار فى زنده
ومن أبى فى الرزء إلا الأسى
كان بكاه منتهى جهده

جوهر المقاومة بعيدة المدى هو إحكام العلاقة بين العمل والهوية بحيث يصبح العمل داعماً للهوية، وتصبح الهوية هى السند المباشر للعمل، وقد تمنيت فى إحدى مقالاتى التى نشرتها فى هذه المجلة الغراء أن تهتدى أعداد متزايدة من مواطنى (المصريين والعرب جميعاً) إلى هذه الصيغة يوماً من الأيام، وأن يتقنوا المهارات اللازمة لتحقيقها (نوفمبر سنة

٢٠٠٢) حتى يمكننا تجميع الجهود والعمل على تراكم نتائجها الوقوف بأوطاننا فى وجه شرور مستطيرة تنطوى عليها سياقاتنا الداخلية والخارجية على حد سواء.

أما كيف جرى تفعيل هذه الصيغة فقد وجدتنى كلما اشتدت وطأة إحدى أزمات الصراع بينى وبين السياقات المحيطة (كما أقرأها) أزداد إمعاناً فى الإقبال على العمل الذى ارتضيته لنفسى وارتضيت التوحيد بينه وبين ذاتى . ربما يذكر القراء فى هذا الصدد الثلث أو الأثلاث الأخيرة فى كثير من مقالات المسيرة ، حيث كنت أترك الحديث عن أحداث العالم وأحداث مصر واتجه إلى الكلام عن مواقف الذات إزاء هذه الأحداث ؛ كيف توجهت وكيف استجابت.

وعلى سبيل التذكرة أورد بعض الأمثلة . ففى سياق حديثى بعنوان «عقد الستينيات فى العالم: عقد الكوارث» (المنشور فى فبراير سنة ٢٠٠١)، وفى مواجهة هذه الكوارث العالمية كما عايشتها، قلت مايأتى: «لم أغفل لحظة عن ذكر قرارى الذى اتخذته مبكراً، وهو أن أكرس حياتى للاشتغال بالبحث العلمى... (كنت) أعايش الأحداث السياسية وأنفعل لها بصورة ما، ولكنى أحتفظ بمسافة محسوبة تفصلنى عنها لأنصرف بمعظم طاقتى إلى

•بعض الأعمال نقوم بها استجابة لمطالب الغير وبعضها نقوم بها لضرورات حياتية لا نستطيع أن نتجاهلها

حياة البحث والدراسة فأتعلم ، وأنشر ، وأعلم ... كنت فى ذلك الوقت مشدود العقل والهمة إلى عملين من أعمالى البحثية، أحدهما ميدانى أجريه على أنواع معينة من الأمراض النفسية ... (لكى) ألقى الضوء على مشكلة لها وزن كبير فى عالم التخصص ، هى مشكلة العلاقة بين المرض النفسى والإطار الحضارى للمريض، وآمل فى الدراسة الثانية أن ألقى الضوء على بعض إسهامات الفكر العربى الإسلامى القديم فى التاريخ المبكر (لإرهاصات) علم النفس الاجتماعى».

وفى سياق حديث آخر بعنوان «وكان العام ١٩٧٤» (ديسمبر ٢٠٠١) قلت مايأتى : «منذ وعيت الارتباط بالتخصص كان ذلك على خلفية الارتباط بالهم العام» . وفى سياق حديث ثالث بعنوان «انتفاضة الحرامية بين الاختمار والانفجار» (مارس سنة ٢٠٠٢) قلت مايأتى : «سيطرت على مخيلتى فى تلك الأيام ، أيام ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ صورة بين الحلم والكابوس، رأيتنى من خلالها

أسبح طوال الوقت في بحر ثائر، وينصرف معظم جهدي إلى محاولة أن أبقي رأسي فوق سطح الماء، لا أريد أن أغرق، وأحاول في الوقت نفسه أن أواصل الوعي بالذات وهي تباشر البحث العلمي من ناحية، وتعليم الطلاب من ناحية أخرى. كنت أحاول مخلصاً أن أحيي حياة البحث العلمي، تلقيا وإبداعاً، ولم أكن مستعداً في سبيل ذلك لأن أغفل عما يدور حولي في مصر وفي العالم».

وفي سياق حديث رابع بعنوان «العراق بين الأمس واليوم» (نوفمبر ٢٠٠٢) قلت ما يأتي:

«وقد تنبهت إلى عمليات ترسب أزمة العراق مع الولايات المتحدة منذ بدأت نذرها المبكرة في سنة ١٩٩٠... وكنت أشعر أننا مقبلون على زلزال اجتماعي عنيف، وأسوأ ما تصيبنا به هذه الزلازل وأمثالها أنها (على غيرنا وعلى بنا) تغير الأوزان النسبية لاهتماماتنا وتوجهاتنا. وقد تعلمت على امتداد عمر الوعي والنضوج كيف أروض آثار هذه الزلازل في نفسي حفاظاً على صيغة التوازن الأمثل بين الأنا والنحن، وكان من أهم معالم الطريق أمامي في هذا الشأن تفعيل قواعد المقاومة طويلة المدى. في فترة الحرب نفسها (حرب العراق سنة ١٩٩١) اشتد حرصي على أداء واجباتي العلمية، والبحثية منها بوجه خاص، وازداد وعيي بأنني بذلك أقيم استرتيجياتي بكل مكوناتها في مواجهة استراتيجيات قهر الإرادة (في العراق وفي المنطقة العربية كلها) وتدمير إمكانات الرقي، بل وإمكانات الحياة»..

في هذه الأمثلة وغيرها يتضح معنى المقاومة بعيدة المدى، حيث يزداد لجوء الذات إلى تنشيط العمل وثيق الصلة بالهوية. جدير بالذكر في هذا الصدد أن هذه البطاقة اللفظية، أعني بطاقة «المقاومة بعيدة المدى» يصدق عليها وصف بعض الشعر بأنه السهل الممتنع، فهي تبدو بسيطة ميسورة لمن أراد حينما يريد، ولكن هذا غير صحيح، لأنها، لكي تكون مؤثرة فعلا، تحتاج إلى كثير من البصيرة المبكرة والإعداد المسبق، والتدريب المتواصل... الخ، وذلك حتى تصير طبيعة ثانية للشخص. تحتاج إلى أن يكون الشخص على بينة من أنه يقوم بأعمال متعددة ومتباينة في حياته، وأن بعض هذه الأعمال أقرب إلى نفسه من أعمال أخرى؛ بعض الأعمال نقوم بها استجابة لمطالب الغير، ولا بأس بذلك وبعض الأعمال نقوم بها لضرورات حياتية لانستطيع أن نتجاهلها، ولا بأس بذلك أيضاً ولكن هناك بعض الأعمال نؤديها لأنه يطيب لنا أن نؤديها، ولأننا لانستطيع

أن نتصور أنفسنا بدون أدائها، فهى جزء لايتجزأ من هويتنا . هذا النوع الأخير من الأعمال هو المقصود فى صيغة «المقاومة بعيدة المدى» والتبصر المبكر بمحوريته بالنسبة لنا شرط مبكر فى تفعيل الصيغة، لأن هذا التبصير يدفع إلى التمسك به وزيادة دعمه بزيادة مزاولته، كما يدفع إلى مزيد من الإعداد له بالحرص على توفير الشروط اللازمة لإتقانه . ثم بعد هذا وذاك لابد من قدر معقول من الوعى بالرابطة التى تربط بين هذا العمل وهويتنا، لأن هذه الرابطة المغلفة بأعلى درجات الوعى هى ركيزة الدعم المتبادل بين هذا العمل والهوية.

جدير بالذكر أن هذه الصيغة (صيغة المقاومة بعيدة المدى) لاتزكى نوعا بعينه من الأعمال دون غيره ، ولكنها تزكى أى عمل يعتبره صاحبه وثيق الصلة بصميم ذاته ، وجزءا لايتجزأ من هويته . وجدير بالذكر أيضا أن هذه الصيغة نفسها لاتغنى عن الحاجة أحياناً إلى العمل المباشر ضد أعمال قهر الإرادة، لكن جذوة العمل المباشر تخبو من حين لآخر، أما صيغة المقاومة بعيدة المدى فهى الكفيلة باستمرار إرادة البناء والتقدم، وهى معين لاينضب لتفعيل هذه الإرادة فى مواجهة إرادة الهدم والبناء. ■

الغباء

لماذا شاع الغباء بين البشر؟!

• الغبى هو الذى يسبب ضرراً لنفسه أو لغيره بدون الحصول على مميزات تعادل هذا الضرر

• الإنسان دائماً يقلل من عدد الأغبياء المحيطين به

• بنو البشر يندرجون تحت أربعة عناوين رئيسية: العاجزون والأذكياء واللصوص والأغبياء

بقلم
جميل مطر

لاحظت فى الآونة الأخيرة، كثرة ما صار يعصى على فهمى. لم يعد التبادل سهلاً بين ما أقول وما يقوله الآخرون. تعقدت هذه العلاقة. أصبح معظم ما أقرأ وأسمع صعباً ومعقداً وغير متناسق، حتى استحالت، أو كادت تستحيل ممارسة حق الرد أو التعقيب. صارت المتابعة فى حد ذاتها عبئاً. وسألت نفسى هل زاد نصيبى من الغباء عن الحد المقرر أو الذى تعودت عليه، أم أن الغباء ازداد بصفة عامة، بحيث أصبح كثير من الناس بطيئين فى فهم ما أعنى. وأنا من ناحيتى بطىء فى فهم ما يقصدون، وكلنا نتباطأ عن دافع أو عن عمد، فى الفهم والتعبير والاقتناع والتصديق؟

> **الأفضل أن تسكت ويظن الناس أنك غبى، عن أن تتكلم فيزول الشك**
> **أبراهام لنكولن**


أبراهام لنكولن

ثم فكرت أننى خلال فترة قصيرة من الزمن عاصرت عدداً هائلاً من الأخطاء ارتكبها المسئولون عن صنع السياسات الخارجية وتنفيذها فى دول شتى، ناهيك عن الأخطاء فى السياسات الداخلية وفى التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفى التعليم وشئون أخرى. بل أننى كدت أكون واثقاً من أن الأخطاء التى ارتكبها السياسيون فى الدول العظمى والمتقدمة فى تطويع التكنولوجيا وفى إنتاج السلاح وفى الاقتصاد أكثر كثيراً من الأخطاء التى ارتكبها صانعو السياسة ومنفذوها فى الدول الأقل تقدما . خلعت عباءة الغرور . لم أحاول تقييم السياسات التى صاغها هؤلاء السياسيين بقدر ما اعتمدت على تقييم هؤلاء السياسيين أنفسهم لعملهم وعمل زملائهم، أو بقدر الصدامات التى وقعت بين الدول التى يصرف أمورها هؤلاء السياسيون أو بقدر ما يمر به العالم، ونحن جزء منه، من كوارث وحروب وجوع وفقر وأوبئة وظلم بسبب سياسات يصنعها هؤلاء السياسيون.

قيل إن الغباء فى ازدياد. والدليل أنه حين تتعدد البدائل يزداد عدد الناس الذين يقدمون على اختيار وتنفيذ أسوأ هذه البدائل. ونحن بالتأكيد نعيش عصر البدائل المتعددة. هناك أفراد بطبيعتهم تجذبهم الخيارات السيئة. وهناك أفراد صاروا فى الواقع أقل ذكاء من الآلات الحديثة التى يستخدمونها. ويبدو أنه كلما تقدمت التكنولوجيا ازدادت الهوة فى الذكاء بين المنتج من التكنولوجيا المتقدمة وبين الإنسان المستخدم لهذا المنتج. هل حقاً الغباء فى ازدياد، أم أن الغباء ركن من أركان الطبيعة الإنسانية لا يزيد ولا يقل، أى أنه طبيعة ثانية لبنى البشر؟. ثم اكتشفت أن موضوع الغباء مثار على أوسع نطاق وليس كما كنت أتصوره ظاهرة طارئة، لا تحظى بالاهتمام. فبالبحث علمت أن هناك ٩٦٩ ألف مدخلاً فى الشبكة الإلكترونية لموضوع الغباء. وكان أول ما وقعت عليه عينى هو عرض لكتاب موسوعى جديد بعنوان «موسوعة الغباء». ويركز مؤلفها فان بوكسل فى هذه الموسوعة على الجوانب المرحة والأدبية فى موضوع الغباء، حيث تتضمن موسوعته مجموعة مختارة من القصص والروايات والملاحظات استندت إلى الخرافات والرسوم المتحركة والنكات ومؤلفات الخيال العلمى.

ويقول عارض الكتاب أن أفضل تعريف للغباء يعود فى الحقيقة إلى أستاذ الاقتصاد فى جامعة بيركلى كارلو تشيبولا. جاء هذا التعريف فى مقال

كتبه في عام ١٩٨٨ تحت عنوان «القوانين الأساسية للغباء البشرى». يقول التعريف إن «الشخص الغبى هو الذى يسبب ضرراً لنفسه أو لغيره بدون الحصول على مميزات تعادل هذا الضرر»، ولكنه يضيف أربعة قوانين أساسية تنظم وتقنن الغباء.

أولها أننا عادة نميل إلى التقليل من عدد الأغبياء. هذا على الرغم من أن كاتباً شهيراً كتب فى عام ١٩٣٤ كتاباً تحت عنوان «مقدمة قصيرة لتاريخ الغباء الإنسانى» قدر فيه عدد الأغبياء بنسبة ٨٠٪ من سكان الأرض.

القانون الثانى هو أن الغباء لا يوجد ملتصقاً أو مرتبطاً بالضرورة بسمات أو علامات أخرى فى الشخصية. أى أن الغباء سمة لاترتبط دائماً وحتماً بأى سمة أخرى فى الإنسان.

ثالث القوانين هو أن نسبة ٢٠٪ من الذين لا ينسب إليهم الغباء، يميلون بغباء، إلى التقليل من شأن الخطر الذى تمثله الأغلبية الغبية.

القانون الرابع يقول إن الشخص الغبى خطر. وسنعود إلى هذه القوانين تفصيلاً فى محاولة أخرى لفهم حقيقة هذه الظاهرة وأبعادها.

يستطرد عارض الكتاب فيقول إن الإلمام بالغباء أو العلم به هو فى الواقع علامات من علامات الحياة الذكية لأنها تدل على حب البقاء. لا يعرف الكثيرون إن أحد الكتب الأوسع انتشاراً فى السنوات الأخيرة من العصور الوسطى كان كتاب سباستيان برانت الذى ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان «سفينة أغبياء هذا العالم» ونشر فى عام ١٥٠٩.

ويبدو أن رحلة كريستوفر كولومبس هى التى أوحت إلى سباستيان برانت بموضوع هذا الكتاب. هذه الرحلة التى توصف أحيانا بأنها أخطر مغامرة غبية فى التاريخ، وبخاصة بعد أن أصبح جليا حجم معاناتنا ومعاناة غيرنا فى هذا العالم جاء نتيجة هذه الرحلة. وكان الرمز فى هذا الكتاب يشير إلى الدافع الذى حدا بمجموعة من سيئى الحظ ليتكدسوا فى قارب يبحر نحو هدف غير معلوم. ويؤكد سباستيان أنه لم يجمع بين ركاب هذه السفينة غير الغباء والضعف.

ويشير إلى ما كتبه امبروز بيرس بعنوان «بعض سلبيات العبقرية». جاء فيه أنه من الصعب فى الغالب فهم ما يقوله أو يكتبه بعض العباقرة. إن العبقرية والجنون قريبان إلى بعضهما. وقريبان أيضا الغباء والذكاء الشديد. فلا هذا ولا ذاك يمكن فهم أصحابه بسهولة. وينهى العارض للموسوعة عرضه بأن فيلسوف الوضعية وتجنشتاين كان يقول إن «التقدم الإنسانى يعتمد على الممارسة المستمرة للغباء. دعنا إذاً نسعد بفكرة أن التقدم مضمون».

★★★

نعود إلى مقال كارلو تشيبولا عن القوانين الأساسية للغباء الإنسانى، وأولها أن الإنسان دائماً وحتماً يقلل من عدد الأغبياء المحيطين به. ويبدو للوهلة الأولى أن هذا القانون تافه غامض وإلى حد كبير ظالم، ولكن التدقيق عن قرب

ربما كشف عن أنه واقعي. يقول إن الإنسان كثيراً ما يفاجأ بحقيقتين . أولهما أن الناس الذين سبق أن ما حكم عليهم بأنهم عقلاء وأذكياء تبين أنهم أغبياء إلى حدود قصوى . ثانيتهما أنه يوما بعد يوم يتعرض الإنسان إلى تحرشات من جانب أفراد أغبياء يظهرون فجأة وبدون سابق إنذار فى أماكن غير متوقعة وفى أوقات شاذة.

ومن القانون الثانى نفهم أن الاتجاهات الثقافية السائدة فى الغرب تميل إلى المساواة. إذ يعتقدون فى الغرب أن الناس ولدوا متساوين ثم اختلفوا بعد ذلك. ويعتقد تشيبولا على العكس أن الناس غير متساوين وأن بعضهم غبى والبعض الآخر ليس كذلك، وأن الاختلاف هنا تحدده الطبيعة وليس القوى أو العوامل الثقافية. فالإنسان قد يكون غبياً بالشكل نفسه الذى تجد فيه إنساناً آخرشعره أحمر. الإنسان الغبى يولد غبياً والغباء ميزة لكل الجماعات البشرية. وتتوزع علة هذه الجماعات البشرية بعدالة وبنسب ثابتة. هذه الحقيقة يعبر عنها القانون الثانى الذى يؤكد أن احتمال أن يكون الإنسان غبياً لايعتمد على توفر أى سمة أخرى فى شخصيته.

يقول تشيبولا إنه توصل من خلال دراساته إلى نفى الافتراض القائل بأن التمييز والفقر والنقص فى التعليم كلها عوامل مسئولة عن الغباء. وعندما طبقت المعايير نفسها على طبقات اجتماعية وسطى أو غنية تأكدت القاعدة وهى أن نسبة الأغبياء إلى المجموع الكلى هى نفسها نسبة ثابتة. ويقول إنه سواء كانت العينة من الطلبة أو الأساتذة وسواء كان مسرح العينة جامعة أو كلية صغيرة، مؤسسة مشهورة أو مؤسسة غير معروفة، كانت النسبة دائما ثابتة. بل أنه يحاول أن يؤكد أنه عندما بحث حالة حاملى جوائز نوبل وجد أن نسبة الأغبياء بينهم هى النسبة العامة نفسها فى المجتمع الأوسع. ويعتقد تشيبولا أن حركة تحرير المرأة ستؤيد هذا القانون الثانى لأنه يبين أن نسبة الأغبياء الموجودة فى الرجال هى النسبة نفسها الموجودة بين النساء، وسوف ترتاح شعوب العالم الثالث عند الاقتناع بهذا القانون لأنه الدليل على أن الذين حققوا نسبة عالية من النمو فى هذا العالم لم يغيروا فى نسبة الأغبياء فى هذا التجمع ، وبالتالى لم يتحقق النمو كما يدعون.

يبنى القانون الأساسى الثالث للغباء على فكرة أن بنى البشر يندرجون تحت أربعة عناوين رئيسية: العاجزون والأذكياء واللصوص والأغبياء. يقول القانون إن الشخص الغبى هو الشخص الذى يتسبب فى خسائر لشخص آخر أو لمجموعة من الأشخاص بينما هو نفسه لا يحقق أى مكسب، بل قد يحقق خسائر

«قد يكون للعبقرية حدودها ولكن الغباء ليس هكذا معاق»

ايلبرت هابارد

لنفسه كذلك. ويتوقع تشيبوللا أن كثيرين من العقلاء لن يرتاحوا لهذا القانون، ولكن دعنا نفكر بأسلوب يختلف عنه. فقد يحدث أحيانا أن يقوم شخص بإجراء أو نشاط معين يحقق من ورائه استفادة لنفسه وخسارة لنا. هذا الشخص لص، أو قاطع طريق. ونعرف حالات قام فيها شخص بإجراء أو عمل معين تسبب في خسارة له ومكسب لنا.

عندئذ نجد أنفسنا أمام شخص عاجز. ونتذكر حالات قام فيها شخص بإجراء كانت نتيجته أن الطرفين حققا مكسباً . هذا الشخص كان ذكياً.

هذه الحالات تحدث . ولكن بالتفكير والتأمل سنعترف أن هذه الحالات ليست هي التي نقابلها كثيراً في حياتنا. إن معظم الحالات التي نواجهها هي حالات نخسر فيها أموالاً أو وقتاً أو طاقة أو شهية أو سعادة أو صحة جيدة بسبب أعمال غيرمتوقعة قام بها مخلوق آخر لا يكسب شيئاً من التسبب في أن يخلق لنا حرجاً أو صعوبات أو ضرراً. لا أحد يعرف أو يفهم أو ربما يشرح لماذا هذا المخلوق يفعل ما فعله. في الواقع لايوجد تفسير. سوى أن هذا الشخص الذي نتحدث عنه إنسان غبي.

الغباء المطلق

ويضيف تشيبوللا أن معظم الناس لاتتصرف بشكل ثابت. ففي بعض الظروف يمكن لشخص ما أن يتصرف بذكاء وفي ظروف أخرى يتصرف بعجز أو كشخص ناقص الإرادة. الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة يقدمه الأفراد الأغبياء الذين عادة ما يكونوا أكثراستعداداً لأن لايغيروا شيئاً من أساليبهم في جميع ميادين الحياة. اللص الممتاز هو الذي يتسبب في خسائر للآخرين تساوي المكاسب التي حصل عليها . إن الشخص الذي يسرق منك ١٠٠ جنيه دون أن يتسبب في ضرر أكبر أو خسارة إضافية هو لص كامل. انت تخسر ١٠٠ جنيه وهو يكسب ١٠٠ جنيه. هناك لصوص يحصلون من نشاطاتهم على أرباح أكبر من الخسائر التي سيتعرضون لها. هؤلاء يجب أن نعترف أن لديهم طاقة إضافية من الذكاء يقتربون بها من مواصفات الشخص الذكي. هناك أيضاً اللصوص الذين يحصلون بأعمالهم على مكاسب أقل من الخسائر التي يتسببون فيها لأناس آخرين. إذا قتلك شخص ليحصل منك على ٥٠ جنيه، أو إذا قتلك ليقضي إجازة مع زوجته على الساحل، أو ليقضي وقتاً طيباً مع صديقته، فإننا متأكدون أنه ليس سارقا كاملاً أو متميزاً حتى مع استخدام معاييره التي يقيس بها مكاسبه. هذا الشخص يظل أقرب مايكون إلى الغباء المطلق. إن جنرالات الجيوش الذين يتسببون في خراب كبير وضحايا عديدين من أجل الحصول على ترقية أو نيشان يصنفون في الخانة نفسها، لذلك نقول ونكرر أن الفرق شاسع بين اللصوص والأغبياء. فبينما يتنافس اللصوص في مساحة واسعة، يتركز الأغبياء على خط واحد. الأغبياء هم هؤلاء الناس الذين يصرون على إلحاق الضرر والخسائر

بأناس آخرين دون أن يحصلوا على أى مكسب من وراء ذلك سواء كان هذا المكسب إيجابياً أو سلبياً. ولا يجب أن ننسى أمر الأشخاص ذوى الغباء الخارق للعادة، هؤلاء الذين بتصرفاتهم يتسببون في ضرر للناس الآخرين، وبالإضافة لذلك يتسببون فى ضرر لأنفسهم.



أينشتاين

ويكتب تشيبوللا عن قوة الغباء فيقول إنه ليس من الصعب فهم كيف أن المؤسسات الاجتماعية والسياسية تشجع القوة المتسببة فى الضرر عند الشخص الغبى. ومازلنا لا نعرف بالدقة ماهو هذا الذى يجعل الإنسان الغبى خطراً على الآخرين. بمعنى آخر ماهى العوامل التى تشكل القوة عند الأغبياء أو ما يسمى بقوة الغباء. الأغبياء خطرون ومضرون ومؤذيون لأن العاقلين يجدون صعوبة فى فهم تصرفاتهم غير المألوفة. إن الشخص الذكى قد يفهم منطق اللص، فأعمال اللص تتبع عقلانية سيئة ولكن مازالت عقلانية . يريد اللص إضافة مزيد لحسابه أو لما يحصل عليه ولكن بما أنه غير ذكى الذكاء الكافى ليخترع وسائل للحصول على هذه الإضافة بدون أن يمنحك إضافة مقابلة فإنه سوف يحقق إضافته بأن يتسبب فى نقص فى حسابك. وهذا سيىء ولكنه مفهوم ومعقول، وخاصة إذا كنت من العقلانية بحيث تستطيع أن تتنبأ به. ويمكنك أن تتوقع ماسيفعله اللص، وتتوقع مناوراته وطموحاته القبيحة ويمكنك بالتالى أن تعد دفاعاتك المناسبة.

«الأفكار العظيمة تواجهها دائماً معارضة عنيفة من العقول الضعيفة»

ألبرت اينشتاين

★★★

ولكن مع الشخص الغبى كل هذه الأمور تبدو مستحيلة وفقاً للقانون الثالث للغباء. فالشخص الغبى سيطاردك بغير ما سبب وبغير مصلحة وبدون خطة أو مشروع وفى كل الأوقات والأماكن غير المتوقعة. لن تجد وسيلة رشيدة للاستدلال عن أين وكيف ولماذا يهاجمك هذا الإنسان الغبى. وفى كل الأحوال فإنك عندما تواجه إنساناً غبياً فأنت فى الحقيقة تكون تحت رحمته. إن تصرفات الإنسان الغبى لا تتسق ولا تتناسب مع قواعد الرشادة. وبالتالى يصاب الإنسان عادة بالدهشة لكل هجوم يشنه إنسان آخر غبى من ناحية أخرى، حتى وإن كان قد ألم بهذا الهجوم، فإن الإنسان محل الهجوم لا يمكنه أن يرتب دفاعاً عقلانياً مناسباً، لأن الهجوم فى حد ذاته يفتقد إلى أى هيكل عقلانى. يتصرف الإنسان الغبى تصرفات تدخل فى دائرة اللاعقلانية بحيث لاتضخم فقط من إشكالية الدفاع ولكنها أيضاً تجعل الهجوم المضاد صعباً للغاية. ومثال ذلك محاولة إصابة هدف قادر على الحركة السريعة غير المتصورة وغير المحتملة.

ويدال تشيبوللا على كلامه بما كتبه ديكنز وشيللر. كتب ديكنز يقول «إنه مع غباء وهضم جيد يتمكن الإنسان من التغلب على أى قوة معادية». وكتب شيلر يقول «حرب دون جدوى تلك التى تشنها الآلهة على الغباء».

احتقار الذات

ثم ينتقل تشيبوللا للقانون الرابع فيقول إن الناس العاجزين لا يستطيعون عادة معروفة إلى أى حد يعد الأغبياء خطيرين، وهذا فى حد ذاته لايدعو إلى الاستغراب. الفشل هنا هو تعبير آخر عن عجزهم. ويقول إن الأمر الغريب حقاً هو أن الأذكياء واللصوص على حد سواء يفشلون فى الغالب فى معرفة قوة التخريب أو قوة الأذى الموجودة داخل الغباء أو المغروسة فيه. ومن الصعوبة بمكان فهم تصرفات الأذكياء واللصوص الذين إذا ووجهوا بالأغبياء وأصابهم أذى منهم ينغمسون فى مشاعر احتقار الذات بدلاً من صنع دفاعات لمنع تكرار هجوم الأغبياء. ويميل بعض الناس إلى أن الرجل الغبى قد يؤذى نفسه فقط لأنه فى واقع الأمر ربما لا ينوى ولايدرك أنه يؤذى الآخرين، ولكن هنا يأتى الخلط بين الغباء والعجز. ففى حالة من الحالات يلجأ فرد إلى الارتباط بفرد آخرغبى لاستعماله فى تنفيذ مشروع من مشروعاته أو بعض خططه . حالة مثل هذه قد تؤدى إلى آثار مدمرة لسببين على الأقل : أولهما أنها تصور علاقة مبنية على عدم فهم لطبيعة الغباء، ثانياً أنها تمنح الشخص الغبى إطاراً أوسع لاستثمار مواهبه وتجديدها. قد يظن البعض أنه يمكنه التفوق على الأغبياء. ويحدث هذا أحياناً، ولكن إلى حد. ومع ذلك فإنه بسبب السلوك غير الثابت للفرد الغبى لايمكن لإنسان آخر أن يتوقع أعماله وردود فعله. ولن يمضى وقت طويل حتى يجد نفسه قد أصابه على يد شريكه الغبى. لذلك ينص القانون الرابع على أن الناس غير الأغبياء يقللون دائما من قوة التدمير الموجودة عند الأشخاص الأغبياء. وبوجه خاص فإن الناس غير الأغبياء ينسون دائما فى كل الأوقات والأماكن وفى كل الظروف أن التعامل مع أناس أغبياء أو الارتباط بهم ينتهى دائما بافدح الأخطاء . وعلى مر التاريخ فشل الكثيرون من الأفراد والمجتمعات فى أخذ هذا القانون فى اعتبارهم، وكانت نتيجة هذا الفشل خسائر وكوارث لا يمكن حصرها لحقت بالإنسانية.

أما القانون الأساسى الخامس فينطلق من ضرورة الاهتمام بالمجتمع وليس فقط الفرد عند التعامل مع قضية الأغبياء. يقول القانون الخامس إن الإنسان الغبى هو أخطر أنواع البشر على الإطلاق. ويتبع هذا القانون القاعدة التى تقول إن الإنسان الغبى أخطر من اللص على المجتمع . وينتهى تشيبوللا فى هذه المناقشة إلى أن السارق المثالى هو الذى يقوم بعمل يضيف إلى حسابه ما يعادل تماماً ما فقده طرف آخر. أما المجتمع ككل فإنه لن يكون أسوأ حالاً أو أفضل حالاً فى هذه الحالة. وحتى إذا كان كل أعضاء المجتمع لصوصاً كاملين

فإن أقصى ما يمكن أن يواجهه المجتمع هو أن يرقد لوقت من الأوقات ولكن لن تصيبه كارثة. ما يحدث عادة هو أن جماعة من الجماعات تستطيع خلال فترة أن تنقل نقلات هائلة من الثروات والرخاء لصلحتها نتيجة أعمال السرقة التى تقوم بها. وفى مرحلة أخرى تقوم جماعة أخرى بنقلات هائلة لحسابها وعلى حساب الطرف الأول الذى سبقها فى هذا العمل. النتيجة النهائية وضع استقرار مثالى. يحدث العكس تماماً لو حل الأغبياء محل اللصوص فى هذا المجتمع.

نسبة مزعجة

ففى حالة حلول الأغبياء محل اللصوص ستختلف القصة اختلافاً كبيراً. إذ يتسبب الأغبياء فى خسائر فادحة للأطراف الأخرى بدون تحقيق أى قدر من المكاسب لهم. وبناء على ذلك تتدهور حالة المجتمع ويزداد فقراً. وطبقاً للقانون الثانى لا تتغير نسبة الأغبياء مع الزمن أو الجنس أو الطبقة أو أى متغير تاريخى أو ثقافى. ومن الخطأ العميق أن نصدق أن نسبة الأغبياء فى مجتمع متخلف أكثر من نسبتهم فى مجتمع متقدم. كلا المجتمعين يحوى النسبة نفسها من الأغبياء. الفرق بين المجتمعين هو أن الأغبياء فى المجتمع المتخلف يسمح لهم الأعضاء الآخرون فى المجتمع بأن يمارسوا نشاطاً أكبر وأن يعملوا أكثر. ثانيا أن هناك تغيراً دائماً فى تركيبة الجزء غير الغبى فى المجتمع. والتاريخ يؤكد هذه الظواهر فسواء كنا نناقش حالة فى العصور القديمة أو الوسطى أو الحديثة فإن المرء ينبهر بحقيقة

> «الإبداع هو التوقف المفاجئ عن الغباء»
> إيدوين لاند

أن المجتمع الصاعد لديه النسبة من الأغبياء التى لا يستطيع تفاديها ولديه أيضاً النسبة نفسها من الأذكياء. هؤلاء الأذكياء يستطيعون أن يحافظوا على نسبة الأغبياء عند حد معين أو عند نشاط معين وينتجون مكاسب أكثر لأنفسهم ولغيرهم من أعضاء المجتمع بحيث يتقدم المجتمع. وفى المجتمعات الصاعدة تظل نسبة الأغبياء مساوية للنسبة المتعارف عليها فى كل المجتمعات. ولكن بين بقية السكان يلاحظ المرء أنه داخل الطبقة السياسية توجد نسبة مزعجة من أنشطة اللصوص مختلطة بأنشطة الأغبياء، وكذلك بين هؤلاء يستمر تزايد عدد الأفراد العاجزين.

هذا التغيير فى تكوين الجزء غير الغبى من السكان يقوى بالضرورة القوية التدميرية لهذه النسبة الثابتة من الأغبياء التى تجعل التخلف أمراً قطعياً ومؤكداً، وإلى الجحيم يذهب المجتمع، وإلى الجحيم قد يذهب العالم إذا هيمن على مقاليد الدول الكبرى سياسيون أغبياء. ■

أخى فى العروبة

شعــر
محمد ابراهيم ابو سنه

تعقَّل ..
«أخى فى العروبة»
لاتعترضهم ..
.. ودعهم يمرون فوق عظام أخيك ..
وجثة أمك ..
فوق التراب الذى ..
لم يضن .. وناح لرؤيتهم ..
إنهم أصدقاؤك ..
لابأس إن هدَّموا ..
بعض دارك .. لابد من تضحيات
لتنعم بالجنة القادمة
.....
لماذا غضبت ...
وهم يتركونك حرا
لتنهب. ما خلفته العصور . وتضرم
نار السعادة فى كل ماقد بناه ..
الأوائل ..
تسخر من جهل آبائك الأقدمين ..
وتطعن إخوتك .. العابرين
تدوس على جبهة
العاصمة
....
تلطف..!!
ودعهم يجيئون فى الريح ..
هذا النسيم الذى يحملون .. يطهر
ماقد تراكم من شعر قيس
وبشار والمتنبى
وبعض مجون
ابن هانىء «إن المجون الحقيقى..
يأتى من الغرب»
هذا نسيم التحضر
سوف يبدد كل ..

الخرافات والحذلقات التى ..
سطرتها أكف شيوخ
قضوا قبل أن يكتبوا كلمة
بجهاز الطباعة ..
أو يبصروا بالعيون النذير الذى
أطلقته من الساحل الأطلسى
لكم قبضة الشعلة الحازمة
....
ولاتنزعج يا أخى ..
إن رأيت عيون المارينز
تلصص .. تبصر ماقد
فعلت بغرفة نومك
هم أبصروك كثيرا
ومن قبل خلف السحاب بأقمارهم
تغاض
ودعهم يغوصون
فى الماء والرمل ..
لاتخش أن يأخذوا
النفط منك.!!
لماذا ؟؟
وهم فى الولايات ..
يمتلكون بحارا من النفط ؟؟
هم يحرصون على أن تزيد
ادخاراتك العربية ..
كل مصارفهم فى انتظارك
لكن حذار
التظاهر بالفهم
حتى إذا ما فهمت
تعاجلك الضربة القاصمة
.....
تحضر ودعهم يعيدون صنعك
يا أيها البربرى



ولست غبيا لترفض
تلك هى الفرصة الآن
جاءت إليك .. وحتى ديارك
لاتقس. هم رحماء بأمرك
هم أوصياء عليك
إلى أن تشب
عن الطوق ..
تدعو لهم فى المساجد
كى يمنحوك الرضا
والبقاء بأرضك
ترفض كل الذى عرفت
وكل الذى قد ألفت
وكل الذى ترتجيه نوال العطايا السخية
إن يسمحوا تتقى بالركوع
بكل الخضوع ..
التعرض للغضبة العارمة

....

تمهل ..
ودعهم يقيمون
[illegible] تحت النخيل
الحزين
ولاتنتفض فى وجوه الذين
لأجلك جاءوا
هم الأصدقاء
هم الرحماء
فهيا تمدد
ومت فى هدوء
فإن عشت
عش «يا أخى فى العروبة»
كالغنم السائمة
لتنعم بالرحمة الدائمة

أقوال معاصرة

● «ما علمته التربية العربية المعاصرة ومناهجها كان اقصاء المختلف»

محمد صالح الغامدي
الأستاذ في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

● «الامريكيون هم من القوة بحيث يمكنني أن أغيظهم وأن أغيظهم فقط لأنني لا أستطيع أن ألحق شرا بأمريكا»

المخرج الدنمركي لارس فون ترير
صاحب فيلم مدينة الكلاب المعادي لطريقة الحياة الأمريكية



الصادق المهدي

● «مصلحة مصر والسودان أن تكون السودان موحدة وحدة طوعية»

الصادق المهدي
رئيس حزب الأمة ورئيس وزراء السودان الأسبق

● «التاريخ خزانة كبيرة للوثائق المزيفة، الهدف من تلفيقها جعل البشر يؤمنون بوقوع شئ لم يقع»

الأديب الايطالي امبرتو ايكو



أدونيس

● «في زيارتي الأخيرة للبنان، لم أكد أسمع أحدا يتكلم حقا، إلا الجرس والمئذنة»

الشاعر السوري أدونيس

● «تزوير الانتخابات في ظني أهون من الدخول إلى قصر الرئاسة على دبابة تطلق نيرانها في وجه الجميع»

عبدالرحمن الراشد
رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط



أرثر ميللر

● «أي عمل يسلي الناس يجعلهم يضحكون أو يبكون، يصدمهم أو يجعلهم ينسون أنهم يشاهدون مسرحية، يعتبر عملا جيدا»

الأديب الأمريكي ارثر ميللر

● «النظام الدولي بات أقرب إلى التبلور، يحسب المفهوم الأمريكي لتراتب القوى والمكانة»

الكاتب الفلسطيني محمد خالد الأزعر

● «تجربة العراق أكدت أننا أمة لا تقرأ، وإذا قرأنا لا نستوعب»

د. مصطفي عثمان اسماعيل
وزير الخارجية السوداني

المشير الجمسى

وداعاً

عندما دمعت عينا البطل !

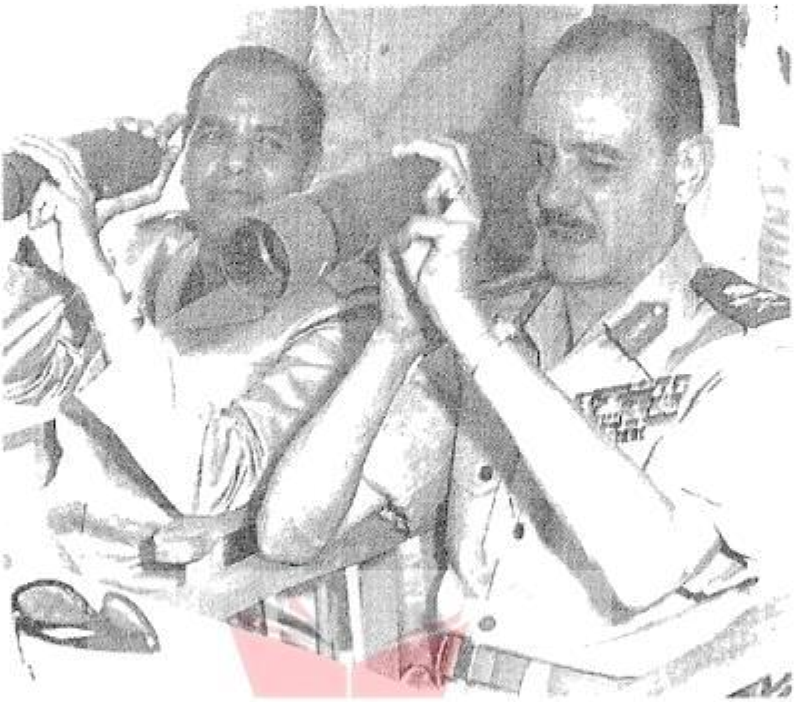
بقلم
مصطفى نبيل



كان من أمانى أن ألتقى به وجها لوجه ..

وعندما ذهبت إليه لكى أطلب مساهمته بالكتابة فى ذكرى أكتوبر عام ١٩٨٦ ، باعتباره أحد قادتها المرموقين، والذى لعب دورا مميزا فى الحرب .

وبعد إلحاح، اقتنع بكتابة مقال عن «مفاجآت العبور فى حرب أكتوبر» والذى نشر فى هلال أكتوبر ١٩٨٦ وأظن أن كتابة هذا المقال، كانت بداية كتابة مذكراته التى صدرت عام ١٩٩٠ ، وهى المذكرات التى وضع فيها رحيق تجربته وعصارة خبرته خلال أربعين عاما من العمل فى القوات المسلحة



عبدالغنى الجمسى .. خرج من رحم الريف المصرى ليخوض جميع الحروب العربية – الإسرائيلية

وسجل اسم محمد عبدالغنى الجمسى كأحد أبرز العسكريين فى التاريخ المعاصر.

وتعددت بيننا اللقاءات، ونقلت له مدى حب وتقدير المواطنين لما قام به، ومكانته الرفيعة لديهم، بعد أن حقق مع كوكبة من الرجال أعظم الانتصارات.

ووجدت لديه شعوراً بالضيق بعد أن انفض من حوله البعض بعد تركه منصبه كوزير للحربية وقائد عام للقوات المسلحة منذ ٣ أكتوبر ١٩٧٥، وما كان يشكو منه، ذلك التوقيت الذى خرج فيه، وأخذ يتساءل .. ألم يكن الأنسب أن ينتظر عليه الرئيس الراحل أنور السادات، حتى يحتفل بذكرى ٦ أكتوبر وسط رجال؟!.

بعد أن ظلت تجربة حرب أكتوبر محفورة فى أعماق وجدانه، فهى الحرب التى خرجت منها مصر كالعنقاء، تجدد

حياتها، والتي قامت في فترة زمنية محددة لم تتجاوز تسعة عشر يوما، ولكنها تسعة عشر يوما غيرت العالم، وتجاوزت آثارها المكان والزمان، وبرز خلالها عناد واستماتة شعب لاستعادة أرضه، وأمة تبينت طريق النصر..

وبقيت ذكرى هذه الحرب تلهب خيال الأمة وتحرك وجدانها.

خرج عبدالغني الجمسي من رحم الريف المصري من البتانون منوفية، وهو مثل مئات غيره دخل مدرسة المساعي المشكورة في شبين الكوم، .. «بدأت حياتي العسكرية وعمري سبعة عشر عاما وواحد وعشرون يوما ..» حين التحق بالكلية الحربية..

ومنذ ارتداء الزي العسكري وهو يشارك في كل الحروب العربية الإسرائيلية باستثناء حرب فلسطين ١٩٤٨، التي كان خلالها في بعثة عسكرية خارج البلاد، وخلال حرب أكتوبر كان رئيسا لهيئة عمليات القوات المسلحة، وهو منصب مهم تجتمع فيه كل الخيوط..

يقول عنه كيسنجر «إن العسكريين الإسرائيليين يقدرون تماما كفاءة الجمسي، واعترفت إسرائيل بأنها تخشاه أكثر مما تخشى القادة الآخرين».

ويقول عنه الإسرائيليون «إنه النحيف المتجهم» ويقول وايزمان .. «إنه رجل مثقف، وموهوب ومنطو على نفسه، وهو مصري يعتز بمصريته كثيرا».

وقرر الرجل تسجيل رأيه في مذكراته حتى ينير الطريق للجيل الجديد، ويرد خلالها عن الذين يشككون في جدوى حرب الاستنزاف، التي كانت ضرورية، وأدت إلى آثار بعيدة المدى، في أسلوب الإعداد والتخطيط للحرب، وتأثيرها أيضا على الأداء الكفء للقوات المسلحة، فكانت التمهيد العملي الذي جعل قرار حرب أكتوبر ممكنا.

ويجمع المحللون العسكريون على أهمية الدور الذي قام به خلال الحرب وخلال الإعداد لها، ويقول المحلل العسكري البريطاني إدجار أو بالانس إن الجمسي .. «ظل خلال الحرب باردا ومتزنا».

ويكتب هذه المذكرات بعد أن مزج قلمه بالروح الوطنية العالية.. «كنت يوم ٦ أكتوبر ٧٣ في مركز عمليات القوات المسلحة، أرتدي زي الميدان عندما بدأت الحرب» .. وهذه الحرب هي امتداد لحروب سابقة وبعد خمس سنوات في أكتوبر ١٩٧٨، انتهت خدمتي وانتهى عملي»



اجتماع يضم الرئيس الراحل أنور السادات ، عبد الغني الجمسي، إسماعيل فهمي ، أحمد إسماعيل وممدوح سالم - ١٩٧٤

وسجل مشاهداته بين البداية والنهاية.

ثوثة الجمسى!

نقلب هذه المذكرات ونتوقف عند بعض ماجاء فيها .. يقدم الجمسى هذه المشاهد كرمز وواحد ضمن كوكبة من القيادات العسكرية، وجيل من العسكريين نادرا مايجتمع مثله، خاض كل منهم ثلاث حروب، ويتمتع كل منهم بخبرة نظرية وعملية وكل منهم جمع المعارف العسكرية من الشرق والغرب، درس فى الأكاديميات العسكرية فى الشرق والغرب، وعاش كل منهم فى أتون الصراع العربى الإسرائيلى وخبر أبعاده، إنه جيل لا يعوض.»

«و معظم الرجال الذين اشتركوا فى حرب يونيو هم أنفسهم الذين خاضوا حرب أكتوبر، بفاصل زمنى لايتجاوز ست سنوات، وهى فترة قصيرة، لايمكن أن يقال إنه جيل مختلف رغم الأداء المختلف، وكان الموقف العسكرى الاستراتيجى فى أكتوبر أشد وأصعب .. فانتصرت اسرائيل في حرب يونيو من حدود اعتبرتها غير آمنة، وانتصرنا فى حرب أكتوبر من حدود اعتبرتها آمنة..»

ومايثير الدهشة حقا، أنه رغم أن حرب أكتوبر هى معكوس حرب يونيو، فمازال الكثير من الكتابات تذكر هزيمة يونيو وتنسى أو تتناسى نصر أكتوبر. وكأن الزمن توقف عندها!!

ولعل ما سجله الجمسى فى كشكوله

أو «النوتة» التى كان يحملها فى جيبه لاتفارقه دليل على استخدام محصلة العلوم المختلفة فى الحرب، وهى تنطوى على آلاف التفاصيل لسيمفونية الاقتحام والعبور، وتتناول على نحو عملى مغالبة المصاعب المحتملة، مستخدمة جماع العلوم والحلول المبتكرة، لم تترك شاردة أو واردة إلا ذكرتها منذ الطلعة الجوية الأولى حتى الوصول إلى المضايق. وتم التخطيط لحرب أكتوبر بأسلوب علمى دقيق ، بحث العقبات ووضع الحلول لها، وأصبحت الحلول العلمية بديلا عن الذرائع التى تؤدى للتقاعس.

وهذه هى بعض نماذج مما ورد فى «النوتة» ومما ذكره فى مذكراته .. «سجلت المواصفات الفنية لقناة السويس من حيث المد والجزر وسرعة التيار واتجاهه وساعات الإظلام وساعات ضوء القمر والأحوال الجوية، وحالة البحرين الأبيض والأحمر، التى تحقق أفضل استخدام لقواتنا للقيام بالهجوم بنجاح وتحقق أسوأ الظروف للعدو، وأسلوب اختيار أفضل التوقيتات التى تناسب تنفيذ الهجوم على الجبهتين المصرية والسورية فى وقت واحد.

درسنا كل شهور السنة لاختيار أفضل الشهور لاقتحام القناة على ضوء حالة المد والجزر وسرعة التيار واتجاهه، وجدنا أن فرق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر هو ٨٠ سنتيمترا فى القطاع الشمالى للقناة (الاسماعيلية - بورسعيد)، بينما فرق المنسوب فى القطاع الجنوبى (الإسماعيلية - السويس) هو متران، كما أن سرعة التيار فى القطاع الشمالى هى ١٨ مترا فى الدقيقة، بينما سرعته فى القطاع الجنوبى هى ٩٠ مترا فى الدقيقة. أما اتجاه التيار فإنه يتغير دوريا كل ٦ ساعات من الشمال للجنوب وبالعكس.

وكان مطلوبا معرفة هذه الظواهر الطبيعية لتحديد تأثيرها على وسائل العبور بالقوارب، وعلى إنشاء وتشغيل المعديات والكبارى وعلى أفضل التوقيتات لشن الحرب.

وانتقلنا فى الدراسة لتحديد طول الليل يوميا لاختيار ليل طويل يكون النصف الأول منه فى ضوء القمر والنصف الثانى فى حالة إظلام، حتى يسهل تركيب وإنشاء الكبارى فى ضوء القمر ويتم عبور القوات والمعدات فى الظلام.

وأحد طرق استدعاء الاحتياطى فى إسرائيل يكون بوسائل غير علنية بإذاعة كلمات أو جمل رمزية عن طريق الإذاعة والتليفزيون، وتبين أن يوم كيبور وهو يوم سبت هو اليوم الوحيد الذى تتوقف فيه



فى جبهات القتال كانت جولات الجمسى ترفع الروح القتالية لدى الجنود

الإذاعة والتليفزيون..

وبالتالى كان تحديد يوم الهجوم وساعته عملا علميا على مستوى رفيع.

فكم سيرتفع الأداء فى المجالات المختلفة، إذا استخدم ذات الأسلوب فى اتخاذ القرارات، وبحث البدائل؟!.. ويستعرض السلبيات التى إذا درسناها عرفنا الدروس المستفادة.

● لم تكن هناك يوما على الجانب العربى منذ عام ١٩٤٨ خطط عربية مشتركة أو أية خطط للتعاون العسكرى بين الدول العربية.

● عدم التنسيق المسبق بين القيادة العسكرية والقيادة السياسية، وعدم التنسيق بين القيادة السياسية ومسار المعركة على الأرض.

● ضرورة وضع استراتيجية عليا للدولة، حتى تؤدى هذه الاستراتيجية العليا إلى تحقيق الأهداف القومية خلال فترة زمنية محددة.

الوقائع وتحليلها!

لا تأتى أهمية مذكرات الجمسى من

قيمة كاتبها فحسب، بل بما تميزت به من عقلانية، وبعد عن الذاتية، فأكثر ماكتب عن حرب أكتوبر - رغم قلته - كان عاطفيا حماسيا، أو يعطي مساحة كبيرة للقضايا الخلافية، التي كان الكاتب طرفا فيها، أما كاتبنا فيشرح العديد من المواقف، ويعطي كل صاحب حق حقه، ويفرق بين الوقائع وتحليلها، ويتحفظ في إطلاق الأحكام.

فمثلا يروى هجوم الفريق صادق على السوفييت في معسكرات الجيش، ويتحفظ في إبداء رأيه في ذاك، ويحكى قصة تنحية الرئيس جمال عبدالناصر لرئيس أركانه أحمد إسماعيل بسبب حادثة الهجوم على رادار الزعفرانة، ولايقول رأيه في هذا القرار، فهو شحيح في إبداء الرأي عن هذه الشخصيات التي تعامل معها ..

ورغم هذا التحفظ، فهو يشيد بكل من عبدالمنعم رياض رئيس الأركان الذي سقط شهيدا وسط جنوده على جبهة القناة، وإبراهيم الرفاعي الذي استشهد وهو يقاتل القوات الإسرائيلية في الدفرسوار.

..«كان اختيار الفريق أول محمد فوزي والفريق عبدالمنعم رياض اختيارا موفقا، فقد كان الأول شديدا في الانضباط العسكري الذي يصل إلى حد القسوة، وهو ماكنا نحتاجه، أما عبدالمنعم رياض فقد كان ذا علم عسكري غزير، وله نظرة استراتيجية واسعة.. ويعتبر دور عبدالمنعم رياض حيويا.. وعند استشهاده يوم ٢٩ مارس ٦٩ كانت خسارة القوات المسلحة بل ومصر كلها فادحة، فقد فقدنا قائدا عسكريا متميزا كنا في أشد الحاجة إليه، تعبيرا عن الروح العسكرية المصرية، التي تتطلب من كل قائد أن يقدم القدوة والمثل حتى الاستشهاد بين جنوده»

أما العقيد إبراهيم الرفاعي البطل فأسطورة العسكرية المصرية، فيقول .. إنه من رجال الصاعقة الذين يوصفون بالشجاعة النادرة، وإعطاء القدوة والمثل لمرءوسيه أثناء تنفيذ العمليات الفدائية الكثيرة التي قاموا بها، لقد كانت المجموعة التي تعمل مع إبراهيم الرفاعي من المقاتلين الأشداء، وعلى درجة عالية من الكفاءة القتالية، والروح المعنوية العالية، وإذا كلفت مجموعته بعمل ما، فلا بد من تنفيذه، مهما كانت المخاطر والصعاب.

لقد قامت هذه المجموعة بالكثير من العمليات ذات الطابع الخاص التي تتسم بالتضحية خلال مرحلتي الدفاع النشط والاستنزاف، ومنها عملية ميناء إيلات، وهو امتداد لجهود المجموعة ٣٩ التي يقودها..

وشاء القدر أن تتصدى هذه المجموعة للقوات الإسرائيلية فى إحدى عملياتها الفدائية خلال حرب أكتوبر، وأن يستشهد العقيد إبراهيم الرفاعى.

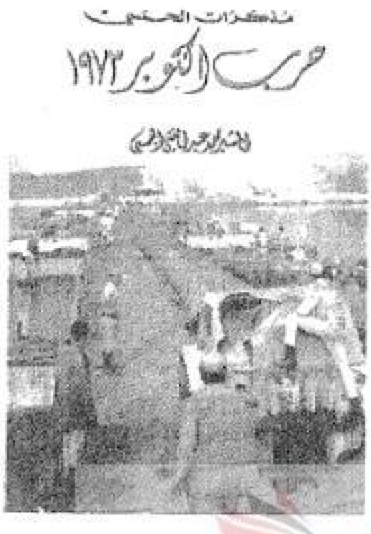
السياسة والعسكرية !

ورأيه أن السياسة تؤثر سلبا على تفرغ العسكرى لعمله وقد تفسده، ويستشهد الجمسى بقول وزير الدفاع أحمد إسماعيل .. «السياسة عندما تدخل الجيوش تفسدها..» ويرد الجمسى .. «إننا فى القوات المسلحة يجب أن نحترف عملنا العسكرى فقط..».

هذا فى الوقت الذى تجده غارقا فى السياسة إلى أذنيه.. وتتناثر آراؤه السياسية في مذكراته . هل لأنه انتقل من كونه عسكريا إلى المفاوض وإلى منصب الوزير، أى إلى منصب سياسى؟!

هكذا تكلم الجمسى !

ويبدو أن التداخل بين ماهو عسكرى وماهو سياسى أمر لامفر منه، فيسجل الجمسى رأيه واضحا فى تلك البرقية التى أرسلها حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى إلى هنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى الأمريكى، والتى أبلغه ثانى أيام الحرب يوم السابع من أكتوبر .. «أن مصر لا تعتزم تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة» ويرى أن هذه البرقية أفصحت عن نوايا مصر، وأبلغت هذه النوايا



للولايات المتحدة التى أبلغتها بدورها لإسرائيل، ويرى أن العمل السياسى لم يكن لصالح العمل العسكرى. وأن هذه البرقية التى أرسلت عن طريق الخط الساخن، تفسر «الوقفة التعبوية» التى طالت بعد الإنجاز السريع للعبور، وعدم الوصول إلى الممرات كما كان مقررا فى الخطة الرئيسية.

«... فليس هناك مايدعو لأن نعطى أمريكا وبالتالى إسرائيل الاطمئنان على مصالحها، فى وقت تقف فيه ضد مصر وسوريا، إلى جانب إسرائيل. ولم نكن نعلم طوال مدة الحرب، وحتى بعدها



السادات ، الجمسي ، مبارك في الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر

بفترة طويلة، أن أحد القادة الأمريكيين وصل من أمريكا إلى إسرائيل فجر يوم ٨ أكتوبر، للاشتراك في التخطيط والعمل على إنقاذ الموقف العسكري الإسرائيلي المتدهور، ويعترف اليعازر رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي.. كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا. عند وصول مسئول الشرق الأوسط في البنتاجون على طائرة عسكرية، ويحمل معه الصور الخاصة بالمعارك، ومواقع القوات كما التقطها القمر الصناعي الأمريكي .. وكان رأيه الذي عملت به إسرائيل .. أن الحل هو عزل إحدى الجبهتين السورية والمصرية عن الأخرى، وتوجيه ضربة مكثفة على إحدى الجبهتين، حتى يستقيم لاسرائيل القتال على جبهة واحدة.. وأوصى بعمل اختراق لضرب رؤوس الكباري بعد توجيه ضربة قوية لسلاح المدرعات وأرتال الدبابات المصرية على الضفة الشرقية للقناة لشل فعاليتها، ومحاولة جذب القوات الجوية لمعارك بعيدة عن أرض المعركة، مما يشل عمل صواريخ «سام ٦».

وبعدها بدأ تدفق السلاح على

إسـرائيل من مطار العريش، وفي مقدمة هذه الأسلحة صواريخ «سيدوندر».

● وفى تمام الساعة الثامنة عشرة والدقيقة العاشرة من يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر أبلغ كيسنجر السفير الأمريكى دينتز قرار الرئيس الأمريكى نيكسون .. إرسال جميع قطع الغيار والمعدات المطلوبة، وكل التجهيزات والمعدات الإلكترونية عدا قنابل الليزر، وتعويض إسرائيل عن كل ماتفقده!

وأخذت الإمدادات العسكرية الأمريكية تصل مطار العريش يوم ١٠ أكتوبر.

ويمضى المشير عبدالغنى الجمسى قائلا ..

«وبالفعل اتخذ الرئيس نيكسون قرارا يوم ١٣ أكتوبر بإقامة جسر جوى أمريكى تستخدم فيه طائرات النقل العسكرية الأمريكية لنقل احتياجات إسرائيل رأسا من المستودعات ..

هذا والقوات المصرية مازالت فى «الوقفة التعبوية» ولم يكن التخطيط العسكرى قاصرا أبدا على تدمير خط بارليف كهدف نهائى، بل كان التخطيط يهدف إلى تحقيق هدف استراتيجي عسكرى، وهو الوصول إلى خط المضايق» ويأتى صوته صادقا :

«لقد كان القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل حذرا أكثر مما يجب، وأبطأ مما يجب، مما دعاه إلى استمرار «الوقفة التعبوية» من ١٠ إلى ١٣ أكتوبر، وأتاحت هذه الفترة لأمريكا إمداد إسرائيل بالأسلحة، كما قامت بعمل استطلاع جوى لجبهة سيناء وعمق الدولة وفى يوم ١٣ اكتشفت أن الفرقة ٢١ مدرعة انتقلت من غرب القناة إلى شرقها..

وعلق قائلا .. «إن الإدارة السياسية للحرب، لابد أن تنطلق من العمل العسكرى الذى يتحقق فى ميدان القتال وليس العكس!».

آخر الحروب!

ويتساءل .. هل تصرفات إسرائيل منذ حرب أكتوبر، توحى بأنها تسعى للسلام؟ أم أنها تسعى لفرض الأمر الواقع على العرب..؟! .. لقد قال ديان، «إن يونيو ١٩٦٧ هى الحرب التى انهت كل الحروب»!

ونادى الرئيس الراحل السادات .. أن .. «تكون حرب أكتوبر هى آخر الحروب..»، ولكن الحقيقة الواضحة للعيان، أن الحرب الرابعة فرضت حتميتها فى أكتوبر ٧٣، وستفرض الحرب الخامسة حتميتها إذا لم يكن هناك مفر منها».

صحيح أن الحرب والسلام يتحققان بإرادة مشتركة ويتعاون أطراف النزاع، ويطرح الجمسى السؤال من جديد.. هل حرب أكتوبر آخر الحروب..؟ ويجيب.. .

الحقيقة المؤكدة .. «أن حرب أكتوبر ليست آخر الحروب .. لذلك لم يكن غريبا بعد توقيع الاتفاقية المصرية الإسرائيلية أن يستدعيني السادات يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر ٧٨ في القناطر ويبلغني أن «مرحلة جديدة» قد بدأت لذلك قررت إجراء تغيير شامل في مؤسسات الدولة وأجهزتها، وتعيين قيادة عسكرية جديدة، وتغيير اسم الوزارة من «وزارة الحربية» إلى «وزارة الدفاع».

«وهكذا لم تكد الحرب تنتهي حتى انتهت خدمتي»!

كامب دافيد!.

وكان قد طالب - قبل سفر الوفد المصري إلى كامب دافيد - بانضمام أحد القادة العسكريين إلى الوفد المصري، ولم يوافق الرئيس السادات على هذا الاقتراح، وعادت لنا سيناء بقيود شديدة، كي تضع إسرائيل في الموقف العسكري الاستراتيجي الأقوى!.

ورغم إبداء رأيه بوضوح في خطورة الدور الأمريكي، ومعارضته للاتفاقية المصرية الإسرائيلية، ورغم إعلان السادات أن الجمسي باق إلى نهاية العمر .. وأعلن .. «ستكون هذه هي وصيتي، ألا يترك الجمسي القوات المسلحة أبدا» وصدر بذلك قانون لم ينفذ!

إلا أنه ساير وشارك في كل مالم يوافق عليه!. وهو هنا يشترك في هذه المظاهرة مع عدد آخر من الشخصيات المصرية التي لعبت أدوارا سياسية مهمة .. والتي لم يعرف عنها دفاعها عن وجهة نظرها، ولا حتى عدم المشاركة في عمل لاتوافق عليه، وخاصة عندما يكون الخلاف حول قضايا جوهرية.

كذلك فعل - مثلا ، حافظ إسماعيل وصاحب كتاب «أمن مصر القومي» الذي تلمس فيه هذه المواقف.

ولعل ذلك يعود إلى المناخ السياسي السائد، أو إلى أصولهم العسكرية التي تفرض عليهم «نفذ ثم ناقش» الذي يفسر .. لماذا يغير العديد من أصحاب المناصب آراءهم بعد تركهم مناصبهم..

يقول الجمسي .. إنه اعترض على الاشتراك في مفاوضات الكيلو ١٠١ .. «بعد أن أمضيت حياتي العسكرية كلها في حرب ضد إسرائيل فضلا عن أن حرب أكتوبر لم تكن قد انتهت بعد، برغم توقف القتال مؤقتا، وليس هناك مايدعو لبحث أي موضوع عسكري معهم، واعتذرت للقائد العام راجيا تعيين آخر يقوم بهذه المهمة .. ورفض الفريق أحمد إسماعيل رأيي وطلب تنفيذ المهمة فأذعنت!

عندما دمعت عيناه!

ويذكر أنه عندما دعي لحضور اجتماع المفاوضات بين الوفدين المصري

والأمريكى فى أسوان، والذى حضره حينذاك إسماعيل فهمى وزير الخارجية لإجراء المفاوضات للوصول إلى اتفاقية فض الاشتباك والفصل بين القوات.

كانت المفاجأة عندما ذكر كيسنجر خلال الاجتماع أن الرئيس السادات وافق على تخفيض حجم القوات المصرية على الضفة الشرقية للقناة لتصل إلى سبعة آلاف رجل وثلاثين دبابة وشعرت بفداحة هذا التخفيض الذى سيحدث لقواتنا، بعد أن كان لنا قوات جيشين يصل عدد أفرادهما إلى أكثر من عشرة أمثال العدد المقترح!

وأبديت رفضى هذا التخفيض، وقلت بحدة: «إنك تعطى إسرائيل كل مايضمن تأمين قواتها.. وتحرمنا من كل مايضمن تأمين قواتنا .. ولا أوافق على ذلك كرئيس أركان حرب القوات المسلحة ولايمكننى أن أجد المبرر له، وفى انفعال غادرت غرفة الاجتماعات بعد أن اغرورقت عيناى بالدموع.

ويضيف .. «وكان هذا من أصعب المواقف التى تعرضت لها».

كان ذلك أصعب وأسوأ من أيام القتال، يقول «كنت أدرك الجهد والتضحيات التى تحملتها القوات المصرية فى القتال، وعدم وجود مبرر لتقديم هذا التنازل الكبير سياسيا أو عسكريا ...»

واستدعانى الرئيس فى اليوم التالى .. وقال إنه علم بغضبى، وعدم موافقتى، ولكن الإتفاق الذى تم مع كيسنجر يجب الالتزام به.

ووقع المشير الجمسى الاتفاق مع رئيس الأركان الإسرائيلى!

★★★

اختفى أحد عمالقة حرب أكتوبر.

والمشير الجمسى بشخصيته ودوره وتاريخه يستحق أعظم تكريم، واقترح أن ينشر د.سمير سرحان «مذكرات الجمسى» فى مشروع القراءة للجميع، وهو مدرسة فى الوطنية، وضع فيه رحيق تجاربه، ولمس العديد من عناصر الهزيمة والكثير من عوامل النصر، وهو - بحق - أهم الكتب التى صدرت خلال ربع القرن الأخير..

كما اقترح أيضا على محافظ بورسعيد أن يوضع تمثال المشير الجمسى فى مدخل قناة السويس، فله فضل المساهمة فى العبور والتحرير وعودة الملاحة الدولية إلى قناة السويس.

تحية إلى روح الفارس الشجاع، الذى رحل ولم يطلب لنفسه شيئا، تاركا وراءه نموذجا حيا للعطاء للوطن، الذى كان واحدا من أبطاله المعدودين فى العالم أجمع. ■



آن الأوان للنزول من السندرة إلى المطبخ

بقلم
د. صلاح قنصوه

كلما اتسعت المسافة بين النظام الحاكم ومعارضيه فى بلد ما، تقلصت بطبيعة الحال حدود التسامح والحرية. وكلما أدرك النظام أنه لا يحظى بالموافقة عليه والرضا به لدى معظم المواطنين، وتيقن من افتقاده للاستقرار؛ انكمشت مساحة الديمقراطية والحوار الذى يرحب بالتعددية والمشاركة فى اتخاذ القرار. فعندئذ تقوم السلطة «بطمس» هذه المسافة أو الخلاف بين النظام والجماهير بحيث لا يبدو سوى الاجماع والاتفاق بينهما فى كتلة متجانسة واحدة. ومن ثم يصبح المعارضون حالات إجرامية، وليس مواقف سياسية، يتعامل معها القانون الجنائى ومن قبله أجهزة الأمن والمخابرات. أو يعزلون فى معتقلات تقوم بدور الحجر الصحى الذى يحول دون عدوى الآخرين، وبدور الأمثولة والعبرة لغيرهم من المواطنين.

والإجراء الأخير ليس أمرا جديدا للنظم الاستبدادية، ولكن الجديد هو عملية «الطمس» التى استحدثها ممهداً لهزيمة ٦٧. فقد أقام النظام سُتاراً كثيفاً من الشعارات شديدة الطموح مثل الحرية، والاشتراكية والوحدة العربية، وشكل من هذا الستار نسيجاً لواقع وهمى بديل للواقع الفعلى الذى انصرفت



حافظ عفيفي



طلعت حرب باشا

الجماهير عن التعامل معه قانعة مزهوة بذلك الخيال الذى تجسد فى الإعلام والفنون، والأغانى، والأناشيد، والمقررات القومية والبيانات التاريخية.

وعندما استيقظ المفكرون والمثقفون على انهيار الآمال وانقشاع الأوهام، كانت ردود أفعالهم ملائمة لقدراتهم وعاداتهم المألوفة التى لم تجرب من قبل ممارسة الفعل السياسى أو تقدير الواقع الموضوعى، فجاءت استجاباتهم على صعيد نوع زائف من المثالية العقلية. فاقبلوا جميعا على نقد الفكر أو العقل العربى، وزاوجوا بين ما يسمى بالأصالة والمعاصرة، ونشطوا إلى «تجديد الفكر العربى»، والدعوة إلى الأخذ بأساليب العلم ووسائل التكنولوجيا لصياغة الدولة العصرية، أو العودة إلى القيم الروحية الدينية الأصيلة.

ولا ينبغى أن نلقى اللوم على هؤلاء المفكرين والمثقفين ، لأنهم ، بالرغم منهم، ألفوا التعامل مع واقع وهمى بديل نسجته السلطة ليكون ستاراً يحجب أو «يطمس» المسافة بين الحاكم وسائر المواطنين.

ومن ثم استعان المثقفون بتقنيات نفسية وعقلية معينة عندما تبين لهم الإخفاق فى تحقيق المواطنة الفعلية والحفاظ عليها، أو على الأقل تحديدها وتعريفها. فحولوا يأسهم واستسلامهم إلى موقف يتقنع ويتنكر تحت تسميات ذات جرس أسر لعلها توحى بمقاومة أو جسارة دون أن تحمل مضمونا حقيقيا للمقاومة أو الجسارة. فلم يعد المفكر يبحث فى نطاق الوضع الممكن أو الواقع وما يتطلبه الالتزام إزاءه، بل عمد إلى تحويل فشله وتصعيده إلى سماوات الشعارات التى لا تكلف صاحبها شيئا بقدر ما تفيد فى صرف الانتباه عن المسئولية المباشرة، فيخرج المفكر من ساحة المعركة أو ميدان السياسة آمنا موفوراً، وقد أفلح فى إطلاق سحب الدخان الكلامية لتأمين الفرار.



ورغم التنوعات الهائلة العدد فى طرح المأزق لدى أصحاب «المثالية الزائفة»، إلا أنهم يشتركون جميعا، مع تفاوت فى درجة العمق أو السطحية، وتفضيل أجهزة اصطلاحية معينة، يشتركون فى اختزالهم الطريق الطويل بين الوسائط والمجالات المحددة من جهة، وبين الأهداف المعلنة من جهة أخرى: فهم يقفزون مباشرة إلى المثل والأهداف العليا. وعلينا أن نسلم معاً بأن الخلاف الحقيقى لا ينبغى أن يكون دائراً حول هذه المثل والقيم العليا، بل ينبغى أن يبدأ الخلاف عند التحديد النوعى للمشكلات القائمة، والخطوات المؤدية إلى حلها تحقيقاً لهذه المثل والأهداف فى نطاق أوضاع وشروط معينة. فهناك يمكن أن تتعدد الاجتهادات والبرامج، بينما ما يواجهنا من هذه المثاليات الزائفة، فى معظم الأحيان، هو التفكير القائم على الدخول فى «دور منطقى» تتحول فيه أو تنتقل النتيجة (أى المطالب والأهداف) إلى المقدمة (أى الشروط والوسائل التى تحققها).

المثالية الزائفة

ومهما يكن من أمر المثالية الزائفة، فإنها يمكن أن تصنف إلى أنماط رئيسية ثلاثة، وهى التى جاءت استجابة لهزيمة يونيو، فمنها ما يمكن تسميته بالنقد المتعالى، ومنها ما يطلق عليه المشروعات الحضارية النهضوية، ومنها نزعات التنادى بالعودة إلى جادة القيم الدينية الأصيلة. فأما طوائف النقد المتعالى فتطل جميعا من مرصد بعيد للنظر فى وقائع المأزق لتختزلها إلى بعد واحد ييسر لها عمليات التحليل والتفسير، ومن ثم العلاج.

فهناك من ينطلق من افتراض وجود «عقل عربى» ويمضى متحمسا فى تعقب مراحل تكونه وبيان عناصر تركيبه.

ولا يمكن أن نتوقع من هذا الافتراض أن يؤدى إلى نتائج متماثلة فى كل زمان، لأن هذا العقل المزعوم أقرب ما يكون كياناً ميتافيزيقيا تتباين من حوله شتى التصورات. ولا أحسب أن هذا الافتراض شىء مفيد لأنه أمر تعسفى مفروض على وقائع التاريخ وأحداثه، وليس هناك بنية عقلية مستمرة للأمة، أو منهج واحد ثابت للتفكير. وأقصى ما يمكن أن نفترض وجوده هو صبغة سائدة للثقافة ما تلبث أن تتغير من عصر إلى عصر عبر المراحل المختلفة للممارسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وربما أفضى ذلك الزعم بوجود عقل عربى إلى التسليم بكل الآراء العنصرية السيئة السمعة.

ومن ألوان النقد المتعالى التناول

المسطح للمشكلات وردها إلى عامل وحيد يختار من بين عوامل متعددة، ويجرى تكريسه تفسيراً لكل صور الانحراف أو الاخفاق مثل القول بغياب الفكر العلمى، أو الضمير الخلقى، أو التسلح بالتكنولوجيا. وهو نقد لا يبذل أى جهد فى التحليل الشامل للسياق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فيكفيه الوعظ والتقريع.

وقد ينضم إلى هذا النوع اليسير من النقد تفسير كل تغير أو انحراف بكونه ظاهرة عالمية جريا على نمط تفسير التدهور الاقتصادى بالمتغيرات الدولية.

ولا بأس أحياناً بهذا التفسير، ولكن بشرط ألا يعنى أن ما يحدث لدينا هو نتيجة لحدوثه فى الخارج. فالأصح هو أن ما يحدث فى الخارج إنما هو نتيجة لمتغيرات معينة إذا ما نشأت لدينا فلابد أن يقع ما يماثل نتائجها فى الخارج، فالمتغيرات المتماثلة تحدث نتائج متماثلة إذا ما تشابه السياق الذى تعمل فيه، وليست المسألة زحفاً خارجياً وقدراً عالميا لا مرد له.

أما المشروعات الحضارية والنهضوية، فهى تنطلق جميعا من شعور عميق بالإحباط القومى الذى نشأ عن الوعى بالهزيمة والعجز عن إعادة البناء. وكان لابد لهذا الشعور أن يشق قنوات متعددة من النقد الذاتى تصب جميعا فى هدف مشترك هو استعادة ما يسمى «بالهوية» عن طريق إعادة رسم حدودها وتقييم معالمها. وتتراوح المشروعات الحضارية والنهضوية فى هذا الصدد، بين قطبين على متصل واحد، هما ما يسمى «بالتحديث» من جهة، والإلحاح على ما يسمى «بالخصوصية» من جهة أخرى.

والمتصل الواحد الذى يجمع تلك المشروعات هو ما يسمى فى علم النفس الاجتماعى «بتغيير الاتجاهات» إزاء مجالات الواقع المتعددة. فهى تعنى جميعا بالجوانب النفسية والعقلية، وتلح على إبراز أهمية الأفكار والمثل العليا، ولا شأن لها بالبنية أو القاعدة الموضوعية التى تؤلف الأساس الاقتصادى الاجتماعى للأمة. ولا توظف المعطيات التاريخية إلا بوصفها واجهات متحفية ينتقى منها المفكر ما يؤكد به تلك السمات النفسية والعقلية التى تتخذ معياراً لرسم ملامح الهوية المنوه عنها عند كل مشروع من تلك المشروعات.

فهى تتفق إذن فى تأمين المسافة البعيدة والانفصال عن أية شبهة فى الدعوة إلى تغيير جذرى فى بنية المجتمع. فهذه فى نظرهم مسألة مبتذلة لا ينبغى التورط فى تناولها، وحسبها نقل تبعات المعركة أو هموم البناء إلى مجال الفكر والسلوك الفردى فى أغلب الأحيان.

مفهوم الهوية

ولا ريب أن مفهوم النهضة أو



الحضارة أو الهوية سواء أهاب بالتحديث الليبرالي، أو أشاد بالجوانب المنتقاة من عصر ذهبي قديم، أو موهوم ، هو مفهوم آمن لا يعرض صاحبه للمساءلة من جهات الضبط والتحقيق. بل إنه يخلع على أصحابه رداء المهابة والتوقير. فهو لا يواجه المشكلات الفعلية التي يعانيها المواطنون بأن ينازلها في مجالها وحقلها الأصلي في الاقتصاد والسياسة، بل يلوذ أصحابه بالمجال العقلي والنفسي الذي يتخذون منه التعريفات المستعارة (وليس الواقعية الفعلية) للمشكلات بحيث تظل أيديهم نظيفة ناعمة، ونائية عن المواجهة المباشرة للواقع. وعلى هذا الوجه تقوم شعارات النهضة والهوية والحضارة بوظيفة المخابيء أو الأقنعة التي تذود عنهم غبار المعارك الحقيقية في الساحة الموضوعية المادية بأوضاعها ومشاكلها وتبعاتها.

ويعبر هذا النوع من «الوعي المستعار» عن الوضع الواقعي للانكسار أو الركود أو العجز عن إعادة إنتاج الذات المادية للأمة، ففي غيبة الإنتاج الحقيقي يتقهقر الوعي ليصبح مستهلكاً لصيغ جاهزة من المعلبات الثقافية.

فالمواطن لم يعد يملك ماضيه لأنه قد فر من يديه إلى غير رجعة، كما لا يملك حاضره لأن الحاضر يملكه الأقوياء خارج الحدود. ومن هنا عليه إما أن «يستهلك» ما هو جاهز في الماضي، أي التراث، وهو ما لم ننتجه بأنفسنا بل أنتجه الأسلاف، وإما أن «نستهلك» ما يفد عليه من الخارج، وهو جاهز لم يصنعه بنفسه.

وفي الحالين، ينأى أصحاب المشروعات الحضارية والنهضوية عن مخاطرة الإنتاج مؤثرين السلامة والعافية باستهلاك ما أنتجه الغير، السلف أو الغرب، مستخدمين في ذلك تسميات مثيرة جذابة.

النظريات الفاسدة

ولئن كنا لا ننحي باللائمة كثيراً على كتّاب ما بعد ٦٧ لأنهم كانوا يكتبون في ظل سلطة غاشمة، وتلويح بأن لا صوت يعلو على صوت المعركة، فإننا لا نجد ما نعذر به كتّاب اليوم في استجاباتهم لنواعي الخذلان والاحباط سواء في دوائر السياسة أو الاقتصاد.

فثمة مندوحة للمراجعة ووضع البرامج بدلاً من أن نكون دمى تحركها مصطلحات الكتّاب الاستراتيجيين الأمريكيين.

فنحن اليوم نصنع على أفضل وجه ما يتطلبونه منا لتبرير نظرياتهم . وبدلاً من كوننا ضحايا نجعل من أنفسنا جناة، أو نتيح لهم الذرائع لبيان صحة تحليلاتهم وتفسيراتهم المخاتلة ، واستحقاقنا للعقاب.

ويبدو أننا استمرأنا أن نخوض المعارك البديلة وقنعنا بأسلحة الألفاظ والمصطلحات التى عادة ما تكون أسلحة فاسدة ترتد إلى صدورنا وليس إلى أفواهنا وألسنتنا التى تشدقنا بواسطتها.

فأما نظرية صدام الحضارات، وهى نظرية فاسدة علمياً، فنسعى إلى تحقيقها بتقسيم العالم إلى مؤمنين وكفرة يقبع كل منهم فى فسطاط ليناصب العداء للآخر.

ونتحدث عن أمة إسلامية بالمعنى السياسى، بينما المعنى الأصلى الصحيح جماعة المؤمنين بالإسلام سواء فى أندونيسيا أو أمريكا أو فرنسا، فلكل وطنه ونظام حكمه وجيشه وإلا كان المسلم الأمريكى جاسوسا لبلده.

ونكثر الحديث عن المسيحية الصهيونية فى أمريكا ونجعلها برنامج الإدارة الأمريكية واستراتيجيتها، ثم نقارن بين الإسلام، وهو الدين السماوى والدعوة الإنسانية الشاملة، بينه وبين الغرب.

لقد حاول الأمريكيون تصنيع عدو جديد، فسارعنا إلى تقديمه لهم جاهزا بأكثر مما يطلبون منا.

أما المصطلح الذى شاع وغلب على كل الكتابات والندوات والإذاعات مرئية ومسموعة، فهو «الآخر».

ولا أدرى كيف تسرب ذلك المفهوم من فلسفة سارتر الوجودية ليتربع على عرش التحليلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية، بل والفنية كما حدث فى السينما عندنا.. بيد أنى أعتقد أن انسلاخه من الفكر الوجودى الذى يتحدث عن الأفراد وانتقاله إلى هذه المجالات شديدة الاتساع، أعتقد أنه أمر يؤدى إلى التخليط والتشويش حيث لا يميز شيئا عن آخر ولا يمكن أن يكون أداة تحليل أو تفسير. وأعتقد أنه، إذا ما أتيح لى أن أستعير عبارة «ماركس»، أفيون المثقفين العرب. فهم أولاً يتعاطونه وهم قعود على المصاطب الأنيقة للندوات والمؤتمرات حيث الامتناع عن الفكر والعمل المثمر، والاستنامة إلى راحة التخدير وطمأنينة الدماغ، فكل شىء قد تم تصنيفه. ولا يعنى هذا التعاطى السكون والصمت، بل على النقيض من ذلك، تؤدى «قعدة التعاطى» إلى الصخب والشغب، فهذا هو ما يحدث اليوم على الساحة الفكرية، فمهمة المثقفين الآن هى إحداث الشغب بين الألفاظ والمصطلحات مثل: إسلام – غرب، إسلامى – علمانى، عربى مسلم – مسيحى صهيونى، منبطح انهزامى – مقاوم استشهادى... إلخ.

ولنأخذ مثالاً واحداً مما ينثال علينا من صفة «الآخر». وقبل ذلك علينا أن نذكر بأن استخدام وصف الآخر وإطلاقه على مجموعة كبيرة من أية مفردات كانت إنما يفترض ابتداءً أن هذه المجموعة – الآخر متجانسة فيما بينها ولا يوجد أى اختلاف بين مكوناتها فكلها متشابهة



متماثلة وتعامل فى مجموعها كفرد واحد.

ولنمض إلى «الآخر» الذى هو الغرب عند معظم من يستخدمون المصطلح. هل هو شىء واحد؟ هل هو فريق متحد واحد؟ هل مصالحه واحدة؟ هل تتماثل مكوناته؟ هل هو حزب واحد؟ فكر واحد؟ دين واحد؟ طائفة واحدة؟.

بالطبع لا، فالحربان العالميتان كانتا بين بعض مكوناته.

وإذا ما تأملنا مسألة العراق، أين احتشدت أكثر الجماهير ضد حرب العراق؟ أليس فى الغرب؟ أين تظاهر الشباب ضد العولمة وسقط من بينهم قتلى؟ هل اتفق الغرب معاً فى مجلس الأمن عند مناقشة غزو العراق؟ أين نشأت الماركسية؟ وثمة أسئلة كثيرة لا يتسع المقام لبيانها.

فكرة «الآخر»

إن صمويل هنتنجتون هو أبرز القائلين مثلنا بفكرة الآخر حيث مقولته الشهيرة، الغرب والباقى (أى الآخر) West and the rest، وكل ما ذكره تمييزاً للغرب إنما يعود كله دون استثناء إلى صعود الرأسمالية وما أدت إليه من ديمقراطية وتطور للعلم والتكنولوجيا ومن ثم غزو العالم لفتح الأسواق والاستيلاء على المواد الخام والأيدى العاملة الرخيصة، وقبل ذلك نشأة الأوطان الحديثة أى الدول القومية والمنافسة بينها.

إن السر فى تقدم الغرب وتخلفنا هو الشروط المواتية لنشأة الرأسمالية وصعود البورجوازية التى كنا فى الشرق أحد روافدها. ولكننا عندما أوشكنا أن نصنع مثله حالت دوننا عوامل موضوعية كثيرة.

كلمة السر

ففى مصر، على سبيل المثال، كما يقول د. رءوف عباس بدأت تبرز «طبقة وسطى» (أى بورجوازية) لازدهار نشاط رأس المال التجارى فى القرون ١٦، ١٧، ١٨، وإعادة بناء شبكة التجارة الدولية التى تربط بين عالم المحيط الهندى بعالم البحر المتوسط عبر البحر الأحمر ومصر، كما أخذ رأس المال التجارى يلعب دورا بارزا فى تجرفة الزراعة والاستثمار فى الصناعة، وتطوير العمل المنزلى، وظهور درجة من درجات تقسيم العمل، وفى إطار هذه التطورات ازدهرت صناعة السكر فى مصر تلبية للطلب الأوربى لها وكذلك المنسوجات المصرية فى أسواق فرنسا وهولندا وإسبانيا. ويستطرد د. رءوف قائلاً إن فى منتصف القرن الثامن عشر انقطعت مسيرة التطور لأسباب داخلية وخارجية منها سطوة المماليك فى مصر الذين كانوا يتطلعون إلى دعم سلطتهم عسكريا لتحقيق قدر من الاستقلال عن الدولة العثمانية، أو ضمان بقاء السلطة فى أيديهم على الأقل، ولهذا أثقلوا التجارة والصناعة بالمكوس والضرائب، وشجعوا التجار الأوربيين على غزو السوق

المحلية ومنافسة الإنتاج المحلى.. وذلك نظير ما يدفعونه لهم.

وتحت عنوان «طلعت حرب كلمة السر لحل الكثير من المشاكل المعاصرة» كتب الأستاذ مصطفى نبيل ، طالب الاقتصادى الكبير فى وقت مبكر من القرن العشرين بأداة فاعلة من أجل تراكم رأس المال الوطنى وتوظيفه من خلال بنك وطنى يلبى الاحتياجات الاقتصادية بعد أن زاحمت البضائع المستوردة المنتجات المحلية. كما طالب بعدم قصر إنفاق المدخرات المصرية على شراء الأرض الزراعية والعقارات. ونادى بالتصنيع وعدم الاعتماد على المحصول الواحد وهو القطن. وهو يدرك أن الاستقلال السياسى لابد أن يصاحبه الاستقلال الاقتصادى.

ولقد استطاع طلعت حرب كطليعة للرأسمالية الوطنية فى ظل احتلال أجنبى وملكية فاسدة أن يقيم مشروعات احتضنت كل مجالات الإبداع المصرى ، ومنها السينما والمسرح.

ولم يكن من الممكن للاحتلال البريطانى أن يتيح للرأسمالية المصرية فرصة الازدهار والمنافسة، فنحى طلعت حرب عام ١٩٤١ عن إدارته لبنك مصر وأحل مكانه صديق الإنجليز الوفى حافظ عفيفى والذى أصبح رئيساً للديوان الملكى. وهذه دلالة رمزية واضحة على أن العدو الحقيقى للاستعمار والملك هو الرأسمالية الوطنية.

وجاءت حركة الجيش لتمارس تجاربها المتضاربة حتى بلغت أخيراً مرحلة رأسمالية الدولة بمفاسدها المعروفة فقضت على التطور الطبيعى للرأسمالية الوطنية. وعندما أتى السادات وارتبط بالمصالح الأمريكية قضى على آخر أمل للرأسمالية الوطنية التى أحل مكانها شركات التوكيلات والعمولات فيما يسمى بالانفتاح الذى أدى تلقائيا إلى ظهور فئة جديدة من رجال الأعمال المتخصصين فى استنزاف أموال البنوك والهروب بها خارج مصر.

ما الحل أو ما العمل إذن؟

ينبغى أن نقلل من استهلاك الطاقة الكهربائية فى الصريخ فى الميكروفونات ، وإسالة أنهار المداد فى إعداد الخطابات والبيانات التى يمكن ايجازها فى العبارة الشعبية الطريفة: «شيلوه من فوقى لأموته» (ارفعوه من فوقى لكى أقتله) والمقصود هو الآخر اللعين الذى هو الغرب.

وبدلاً من ذلك علينا أن ندرس لماذا سبقنا ، واستعمرنا. والإجابة هى أنه استطاع أن يقيم رأسماليته الوطنية، التى أدت إلى أن ينشىء كل إقليم من أقاليمه دولته القومية ، أى وطنه الذى يستوعب أمته، وأن يطور علمه وتكنولوجيته، وأن يرفع من قيمة العصامية أو الفردية ، ويسمح بالتعددية ، وتداول السلطة . ومن ثم تزدهر جميع الآراء ومنها نقد الرأسمالية نفسها. ■

مراجعة الذات

جزء خاص



الأمريكيون ونظامنا التعليمى

بقلم

د. جلال أمين

لم تمض أكثر من أيام معدودة على احتلال الأمريكيين للعراق، حتى أعلن مسئولون فى الإدارة الأمريكية عزمهم على تغيير مناهج التعليم فى العراق، ومراجعة الكتب المقررة على الطلاب، كتابا كتابا، لحذف منها مالا يجوز ووضع أشياء أخرى محلها بل وقيل إن الولايات المتحدة ستقوم بنفسها بإعداد وطبع بعض الكتب وتوزيعها على التلاميذ العراقيين، هدية منها إليهم.

وقد قال الأمريكيون فى تبرير ذلك أشياء كثيرة غريبة تتلخص فى الآتى: قالوا أولا إنهم يريدون تخليص الكتب المدرسية فى العراق من أى شئ ينطوى على تقديس أو تمجيد الرؤساء كصدام حسين مثلا. وقالوا أيضا إن نظام التعليم فى البلاد العربية كلها، وليس فى العراق وحده، نظام لا يتفق مع نظريات التعليم والتربية الحديثة، إذ يقوم على الحفظ وترديد كلام القدماء دون فهم أو مراعاة لمتطلبات العصر، ومن ثم فهو يخلق عقليات متبلدة عاجزة عن الابتكار،

فى أهون الأحوال ، أو عقليات متعصبة بل وإرهابية فى بعض الأحوال ، مما يهدد أمن وسلام الجميع . وقيلت أيضا أشياء أخرى غريبة منها أن تغيير نظام التعليم يمكن أن يغرس فى التلاميذ حب الديمقراطية ويعلمهم التمسك بها ، فإذا بالعالم العربى شيئا فشيئا، نتيجة لتغيير نظام التعليم ، قد تحول من عالم تسوده الديكتاتورية ونظام الحزب الواحد، إلى عالم تسوده التعددية السياسية وتتداول فيه السلطة ويسوده التسامح مع الرأى المخالف أو مع «الآخر» بصفة عامة .

لم يكن غريبا أن ينهض فى بلادنا من الكتاب والمعلقين من يقول بأن هذه الأهداف الأمريكية من إصلاح نظام التعليم فى العراق والبلاد العربية الأخرى هى نفسها أهداف المصلحين العرب. ولا يهم فى الحقيقة ما إذا كانت الدعوة إلى الإصلاح تأتى من هنا أو هناك، طالما أن الهدف واحد . كان هناك بعض المحتجين الذين رفعوا شعار «بيدى لا بيد عمرو» قاصدين بهذا أنه إذا فرض أن كان التغيير ضروريا فدعنا نقوم به نحن لا غيرنا، فهذا شأننا ولا يجب أن يكون شأن أحد سوانا .

هل هو إصلاح ؟!

والحقيقة أنى منذ أن سمعت أقوال الأمريكيين عن إصلاح التعليم فى البلاد العربية وأنا أتميز غيظا وانتفض غضبا . ليس بالضبط إيمانا منى بأن المفروض أن يكون الإصلاح «بيدى لا بيد عمرو» ، ولكن لأسباب أخرى كثيرة، أهم وأخطر .

نعم إن إصلاح التعليم هو طبعا شأن داخلى، ولكن الأخطر من هذا أن التغيرات المزمع تنفيذها لا علاقة لها بالإصلاح أصلا ، بل هى فى حقيقتها أقرب إلى الإفساد منها إلى الإصلاح . وهو بالطبع ما يجب أن نتوقعه وألا نتوقع شيئا غيره ، والزعم بغير ذلك هو خداع كريه كان المفروض أن يكون واضحا كالشمس.

فأولا ليس هناك عاقل يمكن أن يصدق الزعم بأن من بين الأهداف التى تهم الإدارة الأمريكية ، إزالة الإشارات التى تنطوى على تقديس حاكم بعينه أو المبالغة فى تمجيده. فالعالم الثالث ملئ منذ ما يقرب من نصف قرن، بالأمثلة على نظم وحكومات موالية للولايات المتحدة وتتمتع برضاها ومباركتها ، وغارقة حتى قمة رأسها فى مختلف أساليب تقديس الحاكم والمبالغة فى تمجيده، دون أن يبدر من الولايات المتحدة أى بادرة لإصلاح هذا الخلل أو تنبه إلى ضرورة التخلى عنه .

أما إذا كان الأمر يتعلق بحالة صدام حسين بالذات وحزب البعث العراقى ، وما يحيط بهما وبمبادئهما فى الكتب المدرسية من تمجيد ، فالمهمة أبسط بكثير مما يتصورون ، ويمكن أن يتم إنجازها فى يوم وليلة دون نفقات تذكر، ودون أن تكلف الإدارة الأمريكية عناء ونفقات طباعة كتب جديدة تقدمها للعراقيين كهدية. إذ يمكن للأمريكيين والاسرائيليين



أن يعتمدوا في هذا على أى نظام جديد يحل محل نظام صدام حسين وأن يتركوا مهمة إزالة كل إشارة إلى صدام وحزب البعث للعراقيين أنفسهم إذا ترك العراقيين حكم العراق بدلا من الأمريكيين والانجليز.

لا يمكن إذن أن يكون هذا من بين الأهداف الحقيقية لتعديل مناهج التعليم العراقية . أما إصلاح مناهج التعليم باستبعاد طريقة الحفظ وترديد كلام السلف دون فهم ، وإحلال منهج نقدى تحليلى محله يعود الطالب العراقى على التفكير المستقل ويشجع على الابتكار والإبداع ، فقد بدا أيضا فى نظرى هدفا مشكوكا جدا فيه وتعجبت من قبول كثيرين من المعلقين له وتصديقه . إن وجدت من الصعب أن أقبل فكرة أن الإدارة الأمريكية ، ومعها الاسرائيليون ، يجدون من مصلحتهم تشجيع الابتكار والابداع العراقى ويحبون أن يروا العراقى أو العربى عموما ، وقد أصبح يفكر تفكيرا حرا مستقلا ويتخذ موقفا نقديا مما يقرأ ويسمع . والأقرب إلى التصديق أن من مصلحة الإدارة الأمريكية والاسرائيلية أن يكون العراقيون والعرب عموما أقرب إلى التخلف منهم إلى التقدم وأن تظل نظمهم التعليمية أبعد عن تشجيع روح النقد والابتكار .

أما الزعم بأن طريقتنا فى التعليم تشجع على التعصب وتخلق من التلميذ شخصا سهل القياد وتجعله فريسة سهلة للحركات الدينية المتطرفة ، مما يجعل هذه المنطقة معمل تفريخ للإرهاب، فإنه يثير في الذهن كثيرا من المشكلات المنطقية . فبفرض أن هناك نظاما للتعليم يجعل الشخص أكثر انقيادا للغير من نظام آخر ، فلماذا يفضل الأمريكيون والاسرائيليون أن يكون العرب أقل استعدادا للانقياد للغير والخضوع لمشيئته مادام لهم ، أى للأمريكيين والاسرائيليين ، مصلحة أكيدة فى أن يجعلوا العرب منقادين لهم وخاضعين لمشيئتهم ؟ المهم فى نظر الأمريكيين والاسرائيليين ، فيما يبدو لى ، ليس هو الانقياد أم عدمه، ولكن موضوع الانقياد ووجهته . فإذا استطاعوا أن يضعوا نظاما للتعليم يجعل العرب أكثر استعدادا للانقياد للسياسة والإرادة الأمريكية وأكثر قبولا للتصالح مع اسرائيل ، ونسيان محنة الفلسطينيين ، والسكوت على طريقة إسرائيل فى إرهابهم ، فلابد أنهم سوف يفضلون هذا النظام من نظم التعليم على نظام آخر يجعل العرب أكثر استقلالا فى الرأى وأكثر حرية فى الفكر وأكثر ممارسة لملكة النقد .

فلسفة التعليم الأمريكى

والملاحظ على أى حال، أن الأمريكيين فى داخل بلادهم، قد أرسوا عبر تاريخهم

القصير نسبيا، أسس نظام للتعليم لا يشجع أولادهم وبناتهم على النقد والتفكير المستقل. صحيح أنهم طوال تاريخهم كانوا يزعمون بغير ذلك، ولكن هذا لا يغير من الحقيقة شيئا، وهي أن الشعب الأمريكي من أكثر شعوب العالم انقيادا لما تقوله له السلطة، ومن أقلها صبرا على من يخرج على الرأي السائد والمألوف. صحيح أن التليفزيون قد يكون مسئولا عن إضعاف الروح النقدية لدى الشعب الأمريكي أكثر من المدرسة. ولكن الحقيقة أن المدرسة الأمريكية تساهم مبكرا في خلق هذا الاستعداد النفسي لقبول الرأي الشائع دون مناقشة، والتسليم بما تقوله السلطة دون تردد، بل والنظر نظرة الشك والريبة إلى كل معارض حقيقي أو متمرد على الرأي السائد والمألوف، وأن الحرية التي يزهو بها نظام التعليم الأمريكي هي في أغلب الأحوال حرية في أمور قليلة الأهمية، وتتعلق في الأغلب بحق الاختيار بين بدائل لايوجد بينها فوارق مهمة، مثلما هو الحال في الانتخابات السياسية حيث يظن الناخب أنه يتمتع بحرية واسعة بينما هو يختار في الحقيقة بين حزبين ليس ثمة أي فارق مهم بينهما.

وعلى أي حال فلنفرض جدلا أن نظام التعليم الأمريكي يشجع بالفعل على تنمية ملكة النقد والاستقلال في الرأي، ولكن يأتي التليفزيون وسائر وسائل الاعلام لتعمل في الاتجاه المضاد تماما، فما وجه الحماس لإدخال نظام التعليم الأمريكي في بلد كالعراق أو غيره، مادام أنه سيدخل مصحوبا بالتليفزيون الأمريكي وسائر ملامح نظام الإعلام الأمريكي؟ بل إن التليفزيون قد دخل بالفعل المدرسة الأمريكية، والمدرسة الأمريكية لا تطلب من تلاميذها أن يكفوا عن تعريض أنفسهم للتليفزيون ساعات طويلة كل يوم، ولا تتوقع منهم غير ذلك، بل تحاول المدرسة الأمريكية (ولا شك أن هذا أيضا سيجرى تطبيقه في العراق وغيره إذا قدر للأمريكيين تنفيذ مايريدون) تشجيع التلاميذ على التأقلم والتكيف مع مختلف مظاهر الحياة في خارج المدرسة ومن أهمها بالطبع البرامج التليفزيونية.

هناك أمر آخر لا يقل عن كل ذلك أهمية، وهو أن الفلسفة الأمريكية في التعليم، كما في غيره، تفترض أن الديكتاتورية والتسلط والإرغام وتقليص الحريات لا تأتي كلها إلا من مصدر واحد هو الدولة، ومن ثم تفترض أن الحرية والاستقلال في الرأي لابد أن يزيدا مع كل تقلص في دور الدولة. وهذا الموقف يغض البصر تماما عن مصدر آخر لا يقل خطره في العصر الحديث عن خطر سلطان الدولة في التضييق من حريات الناس، إن لم يزد، وهو سلطان الشركات التجارية. الفرق الحقيقي بين خطر الدولة وخطر الشركات التجارية في تقييد حريات الناس وافقادهم استقلالهم في الرأي، لا يتعلق بقوة الأثر بل بطريقة إحداثه، فالدولة لديها السجون وليس



الشركات التجارية مثلها. والارغام الذى يأتى من جانب الدولة غليظ وظاهر ومباشر، بينما الإرغام الذى يأتى من الشركات التجارية ناعم ومستتر وملتو. ولكن من الصعب أن نقول أيهما أسوأ من الآخر .كلاهما، تسلط الدولة وتسلط الشركات التجارية، يحول الناس إلى قطيع مطيع ومسالم، ولكن الخطر من ذلك قد يكون أكبر عندما تأتى الطاعة والمسالمة مقترنتين بالرضا الناتج عن تطويع المخ، مما إذا اقترنتا بالسخط الناتج عن استخدام العنف. فإذا جاء نظام التعليم الأمريكى ليفتح الأبواب على مصاريعها (كما لابد أن يفعل إذا دخل معه النمط الأمريكى للحياة) أمام نفوذ الشركات العملاقة التى تبيع مختلف السلع والخدمات، بما فى ذلك الخدمات الثقافية والاعلانية، فللمرء أن يتصور أثر ذلك على تشجيع أو تعطيل حرية الاختيار أو الاستقلال فى الرأى .

أخطار النمط الجديد

فإذا كان هذا النمط الجديد من التعليم والحياة المطلوب إدخاله فى بلد عربى ينتمى إلى ثقافة مغايرة، ويتبنى فى الأصل قيما مختلفة فى الحياة والعلاقات الاجتماعية، وكان المطلوب من تطبيق هذا النمط الجديد من التعليم إحلال هذه الثقافة المغايرة والقيم المختلفة، بزعم تفوقها «وتخلف» الثقافة المطلوب عزلها وإزاحتها ، فللمرء أيضا أن يتصور الخسارة المضاعفة التى ستصيب حرية الاختيار والاستقلال فى الرأى .

أضف إلى كل ذلك ماقد يترتب على هذا التغيير المخطط لنظام التعليم من زيادة فى جرعة تعليم اللغة الأجنبية، عن الحد اللازم ، وتقليل جرعة تعليم اللغة القومية، خاصة إذا كانت هذه الزيادة من ناحية والتقليل من ناحية أخرى نتيجة لمجرد تسلط أمة على أمة، دون أى مبرر مقبول يستند إلى توسيع المعارف وتعميق الفهم ، أو كانت نتيجة شعور بالدونية واحتقار النفس دون أى مبرر لهذا الشعور وهذا الاحتقار. إذا حدث ذلك فإن الخسارة والضرر يتضاعفان عدة مرات ، وتصاب الأمة ليس فقط فى عقلها وثقافتها بل وأيضا فى كبريائها واحترامها لنفسها

بل والأرجح أن يترتب على هذا التدهور فى حال اللغة العربية والتهاون فى تعليمها ضعف حتى فى الملكة الابداعية والقدرة على الابتكار. إذ أدرك علماء التربية منذ وقت طويل العلاقة بين قدرة المرء على الابداع والابتكار وبين ميله للتفكير والتعبير عن نفسه بلغته القومية أو بلغة أجنبية . قد لا تكون هذه العلاقة قوية فى ميدان العلوم الطبيعية والتكنولوجيا، ولكنها تكاد أن تكون مؤكدة فى غير ذلك من ميادين الفكر والإبداع ، كما فى العلوم الاجتماعية والدراسات الانسانية

والفلسفة والآداب. وقد وقع في يدي منذ وقت قريب تقرير قام بترجمته الدكتور عبدالرشيد صادق محمودي ونشر في جريدة أخبار الأدب (١٥ سبتمبر ٢٠٠٢) وكاتب التقرير هو المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون الذي كان أستاذا لطه حسين في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) وكتبه في ١٩١٢ أي منذ تسعين عاما عن حركة الأفكار الفلسفة وتدريس الفلسفة في البلاد العربية . فإذا به يصف في إحدى فقرات هذا التقرير حالة الطلاب المصريين الذين تلقوا تعليما حديثا ، بالعبارات الآتية :

« هؤلاء الطلاب تخرجوا في المدارس الحكومية واطلعوا على معظم الأفكار العصرية ولكنهم لم يتعلموا مناهجنا إلا على نحو سطحي، والأسوأ من ذلك أنهم قد تلقوا هذا الإعداد الفكري بلغة أجنبية، هي الانجليزية، دون أن تتاح لهم أي فرصة لتنمية معرفتهم بالعربية عن طريق التفكير بلغتهم الأصلية. ومن ثم فهم عاجزون تماما عن التفكير على نحو أصيل، إذ يبدو من المستحيل تقريبا (كقاعدة عامة) ابتكار أي شئ بلغة مستعارة وبأداة مصطنعة، وذلك أن الأداة لن تسمح أبدا للطاقات الكامنة في أعماق الشخصية بأن تؤدي دورها بنفس المرونة التي تتوافر للغة الأصلية» .

الحفظ أم الفهم ؟

دعنا الآن نتأمل بروية أكبر، هذا التحقير المستمر لطريقة الحفظ عن ظهر قلب ، كبديل للتحليل والفهم ، وهو البديل الذي يزعم أن النمط الأمريكي في التعليم يقوم عليه ويشجعه .

فلنتفق أولا على أنه لا وجه للدفاع عن نظام للتعليم يقوم على ترديد المعلومات بغير فهم ، ويطلب من التلميذ أن يحفظ عن ظهر قلب المعلومة أو القانون العلمي بصرف النظر عما إذا كان يفهم أو لا يفهم مغزى المعلومة أو أساس القانون العلمي وسببه، ويقيم التلاميذ على أساس قدرتهم على الحفظ وقوة ذاكرتهم بدلا من القدرة على التحليل والفهم . والضرر من هذا النوع من التعليم واضح ولا يحتاج إلى بيان ، فهو فضلا عما يقترن به عادة من عذاب للتلميذ، وفقدان متعة التعلم، لابد أن يقلل من فرص الابتكار والإضافة إلى العلم ، حيث لا ابتكار ولا إضافة إلى العلم دون فهم .

كل هذا صحيح ، ولكن من الصحيح أيضا أنه ليس لكل معلومة من المعلومات ولا لكل عنصر من عناصر المعرفة سبب ينبغي دائما الإحاطة به ، بعبارة أخرى، لابد من الاعتراف بأن هناك أنواعا من المعلومات ، وبعض عناصر المعرفة المطلوبة، لا يجدي معها دائما محاولة معرفة سببها ، ومن ثم قد لا يكون من المجدي أن يطلب من التلاميذ استقصاء أو معرفة هذا السبب .

فلنضرب بعض الأمثلة على ذلك. إن أسماء المدن أو الدول أو المناطق لابد بالطبع أن يكون لها أسباب، ترجع إلى ظروف أو أحداث تاريخية، ولكن من غير



المجدى (بل قد يكون من العبث التام) أن يطلب من التلاميذ فى كل مرة يدرس لهم فيها درس فى الجغرافيات أن يعرفوا أو يستقصوا السبب الذى سميت من أجله هذه المدينة أو هذا النهر بهذا الاسم دون غيره . يمكننا أن نقول مثل هذا على كثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية . فمن المفيد مثلا أن يعرف التلميذ أن الملك الفرنسى الذى قامت فى عهده الثورة الفرنسية كان اسمه لويس السادس عشر وليس الخامس عشر أو الرابع عشر ، ولكن من العبث الإصرار على الخوض فى تفاصيل التطور التاريخى الذى أدى فى النهاية إلى أن يكون لويس الثورة الفرنسية هو السادس عشر فى الترتيب وليس أقل أو أكثر من ذلك .

إن مثل هذا يمكن أيضا قوله فى بعض الحقائق الرياضية . نعم ، هناك «سبب » بالطبع ، بمعنى من المعانى ، لكون حاصل ضرب ٥×٦ ثلاثين وليس أكثر أو أقل من ذلك . ولكن من العبث أيضا انفاق وقت على البحث عن هذا السبب ، والتلميذ الذى يتوقف فى كل خطوة من خطوات جدول الضرب بحثا عن «سبب» كل خطوة لن يحصل الكثير من العلم .

كذلك فيما يتعلق بقواعد النحو لأى لغة من اللغات . ليس من المفيد، فيما أظن ، إنفاق وقت على محاولة «فهم» لماذا كان المفعول به منصوبا فى اللغة العربية والفاعل مرفوعا بدلا من العكس . نعم ، لابد أن هذا أيضا له سبب، ولكن ليس من المفيد (لمعظم متعلمى اللغة على الأقل) معرفة هذا السبب .

إنى لا أنوى بالطبع محاولة استقصاء مايجب «حفظه» وما يستحسن «فهمه» ، ولكنى أريد فقط أن أزعم أن هناك من عناصر المعرفة اللازمة ، ماقد لا يفيد انفاق الوقت على «فهمه» ومن المفيد مع هذا «حفظه» .

هناك بعض الأمثلة الأخرى على بعض عناصر المعرفة التى لابد بالطبع من الإصرار على فهمها ولكن قد يكون من المفيد جدا، بالاضافة إلى ذلك، حفظها عن ظهر قلب. من أوضح الأمثلة على هذا أن يحفظ المسلم أجزاء من القرآن الكريم، والمسيحى أجزاء من الإنجيل. الفهم والاستيعاب مطلوبان فى كلا الحالين بالطبع، ولكن بعض الحفظ أيضا مطلوب ومفيد .

أضف إلى ذلك أيضا حفظ بعض النماذج الرفيعة من الأدب والشعر حيث لابد هنا طبعا من الفهم والاستيعاب، ولكن كم أفاد الحفظ هنا فى صقل لغة من يقوم بالحفظ وتعميق إحساسه بجمال هذه اللغة. لقد ظلت أجيال متتالية من الانجليز تحفظ أجزاء من شكسبير عن ظهر قلب، وكذلك فعلت أجيال متتالية من الفرنسيين مع راسين، ومن الألمان مع جوته... الخ

وكم أفادت أجيال من المتعلمين المصريين والعرب من حفظ القرآن الكريم وشعر المعلقات وغيرها من عيون الشعر والنثر العربي، في الارتفاع بمستوى التعبير والفصاحة، والتمكن من الحصول على الكلمة المناسبة بالضبط للمعنى المقصود. فضلا عما تتضمنه درجة معقولة من الحفظ من تمرين مفيد للنفس على ممارسة فضيلة الصبر والانضباط لا تختلف كثيرا عما يستهدف تدريب الجنود على القيام ببعض الأعمال الشاقة، التي قد لا تكون ذات فائدة في حد ذاتها إلا تحقيق هذا الانضباط نفسه . إني لا أقول هذا مدفوعا بالرغبة في الدفاع عن نظام قديم في التعليم بالحق أو بالباطل، ولكن فقط لألفت النظر إلى عدة أمور مهمة كثيرا ما تغيب عن البال تحت وطأة الاستخفاف بكل ما هو قديم وتقديس كل ما هو جديد . من هذه الأمور أن الحفظ عن ظهر قلب ليس مستهجنا ومرفوضا في جميع الأحوال، وهناك من المهتمين بأمر التعليم في الولايات المتحدة والغرب عموما من يشكون من قلة حصيلة التلاميذ وتدهورها بسبب المبالغة في ترك الحرية للتلاميذ في تحديد ما يتعلمونه ومالا يتعلمونه ، ما يحصلونه من معلومات وما يتركونه .

وقد شكا بعض التربويين من أن السماح للطفل الصغير بأن يسأل باستمرار عن سبب أو تبرير لما يطلبه منه أبوه أو أمه (وكذلك معلمه)، كثيرا ما يبلغ درجة الشطط. وهناك من التربويين الأمريكيين أيضا من يمتدح في نظام التعليم الياباني أو الألماني وجود درجة أكبر من الصرامة والانضباط والاصرار على تحصيل التلميذ حدا أدنى من المعلومات بالمقارنة بما يطالب به عادة التلميذ الأمريكي .

بل إني أذهب إلى حد القول بأن الميل المتزايد لانتشار العنف في المجتمع الأمريكي، بل وداخل المدرسة الأمريكية نفسها، قد لا يكون منبت الصلة بنظام في التعليم تسيطر عليه روح التدليل الزائد للتلاميذ والمبالغة في التساهل معهم، بزعم تنمية الشخصية واحترام الميول الفردية وتشجيع التفرد والتميز، وهو نظام مساعد على خلق مجتمع من أكثر مجتمعات العالم نفورا من أي خروج عن المألوف، اللهم إلا فيما يتعلق بإنتاج السلع وتسويقها .

من الحماقة القصوى إذن أن نظن أن أحدا قد توصل بعد إلى النظام المثالي في التعليم والتربية ، أو أن المجتمع الأمريكي بالذات لديه ما يعلمه لبقية البشر في هذا الصدد أكثر من غيره .

وإذا كان التواضع فضيلة مطلوبة ومحببة ، فهو أكثر ما يكون وجوبا عندما يصل الأمر إلى حد محاولة تشكيل عقول الناس وتغيير طريقتهم في التفكير . ■

مراجعة الذات

جزء خاص



إشكالية الهوية الثقافية

بقلم

د. مراد وهبة

عنوان هذا المقال يلزم منه تحديد معنى ثلاثة مفاهيم: الإشكالية والهوية والثقافة، ثم بيان العلاقة بينها.

الإشكالية هي خاصية لحكم يمكن أن يكون صادقا ولكن صاحبه غير واثق من هذا الصدق. وصياغة مثل هذا النوع من الأحكام إما أن تكون على هيئة قضية شرطية متصلة أو قضية شرطية منفصلة. مثال للشرطية المنفصلة: إذا كان ثمة عناية إلهية فثمة عقاب للشرير. ومثال للشرطية المنفصلة: إما أن يكون العالم وليد الصدفة وإما أن يكون بسبب علة خارجية، وإما أن يكون بفعل علة محايثة. وفي هذا المثال ليس ثمة إثبات لأي من هذه القضايا الثلاث، وإنما احتمال لإثباتها. ولهذا فالرأي الشائع أنها إثبات قضية من غير حجج كافية، ومن ثم ينطوي الإثبات على التشكك. ومعنى ذلك أن الاشكالية تنطوي على تناقض

والسؤال إذن:

ماهي إشكالية الهوية الثقافية؟

أو في صياغة أخرى:

ماهو التناقض الكامن في الهوية الثقافية؟

للجواب عن هذا السؤال - سواء في صياغته الأولى أو الثانية - يلزم تحديد معنى الهوية الثقافية.

السؤال إذن:

ما الهوية؟

تساءل أرسطو (٣٢٤ - ٣٢٢) في كتابه المعنون «أورجانون» أي «آلة»: كيف نفكر؟ وكان جوابه أننا نفكر استنادا إلى ثلاثة قوانين، ويأتي قانون الهوية في مقدمة هذه القوانين، ولفظ الهوية ينطق بضم الهاء لأن فتحها يعني البئر البعيدة القعر. وهو لفظ مشتق من «الـ هوهو» أي بقاء الشيء ثابتا كما هو رغم مايحدث له من تغيرات عرضية وبذلك قضى أرسطو على أصحاب التغير.

وفي العصر الوسيط انحصر مصطلح الهوية في الأبحاث اللاهوتية الخاصة بهوية الله. وفي العصر الحديث تناول الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) قضية هوية الإنسان فارتأى أنها مشكوك فيها، إذ هي علاقة متخيلة بين جملة إحساسات وإدراكات لا رابط بينها، والذاكرة هي التي تنتج الهوية. ثم اتجه علماء النفس من أمثال فرويد واريكسون وفروم إلى دراسة الهوية الشخصية والاجتماعية، وفي عام ١٩٧٥ دعيت إلى مؤتمر فلسفي في لاهور بباكستان يتناول «أزمة الهوية». وفي عام ١٩٨٢ دعيت إلى مؤتمر فلسفي في دوسلدورف بألمانيا موضوعه «الهوية الافريقية». وفي عام ١٩٨٣ عقدت مؤتمرا في القاهرة تحت عنوان «الهوية الثقافية في الزمان». وكان مبرري في اختيار هذا العنوان هو أن الهوية مغروزة في الثقافة.

والسؤال إذن:

ما الثقافة؟

ثمة مائتا تعريف للثقافة، ولكن التعريف الشائع هو تعريف ادوارد تيلر في مفتتح الجزء الأول من كتابه «جذور الثقافة» والمعنون «الثقافة البدائية» (١٨٧١).

إنه يعرّف الثقافة بأنها «الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والإيمان والفن والقانون والأخلاق والعرف وجميع القدرات الأخرى للإنسان من حيث هو عضو في مجتمع».

والسؤال إذن:

ماهو هذا الكل المركب؟

هل هو استاتيكي أم ديناميكي؟

إذا كان استاتيكيا فليس في الإمكان تفسير تطور الثقافات وتباينها. إذن هذا الكل المركب ديناميكي. وإذا كان ذلك كذلك فنحن في حاجة إلى البحث عن سبب هذه الديناميكية. وفي تقديري أن هذا السبب هو الأيديولوجيا. وفي رأيي أن الايديولوجيا رؤية مستقبلية من إبداع الإنسان وعندما تتموضع الايديولوجية تتحول إلى ثقافة. ولهذا فثمة علاقة عضوية بين الإبداع والايديولوجيا



والثقافة.

الابداع مرتبط بالمستقبل وليس بالحاضر أو الماضي، ومعنى ذلك أن الإبداع يستدعي وضعا قادما pro quo لكى يتجاوز به وضعا قائما stotusquo ولهذا فالابداع تصور غاية، ولكن هذه الغاية ليست علة لأنها إذا كانت علة فمعلولها لن يكون جديدا من حيث أن المعلول متضمن فى العلة، الإبداع إذن مجاوزة، والمجاوزة معطاة على هيئة رؤية مطروحة فى المستقبل، وهذه العلاقة العضوية بين الإبداع والمستقبل لم تكن متصورة عند فلاسفة التنوير .صحيح أنهم ناضلوا من أجل مستقبل أفضل، ولكنهم نظروا إلى هذا المستقبل على أنه لازمانى وأبدى، ومن ثم فإنه يتحول، عند تجسيده، إلى ثقافة أبدية فيمتنع تطويرها، ومن ثم يتم إحالتها إلى معتقد، أى إلى مطلق.

ومن أجل منع الثقافة من أن تتمطلق علينا تجاوزها إلى رؤية مستقبلية، أى إلى ايديولوجيا. ومن غير هذه المجاوزة المتواصلة نقع فى براثن الدوجماطيقية . والدوجماطيقية تعنى توهم امتلاك الحقيقة المطلقة.

الهوية الثقافية إذن - فى إطار الايديولوجيا والإبداع - ليست ثابتة على نحو ما ارتأى أرسطو، وإنما هى متطورة، والتطور ينطوى على التناقض وإلا لما كان ثمة تطور .. ومعنى ذلك أن الهوية الثقافية، أيا كانت ، تحمل فى طياتها نقيضتها وهى الهويات الأخرى. وقد فطنت القمة الأوروبية التى انعقدت فى كوبنهاجن فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٣ إلى مغزى التناقض الكامن فى الهوية، إذ قرر الوزراء التسعة فى تلك القمة أن الهوية الأوروبية ستتطور ديناميكيا حسب مقتضيات بناء أوروبا الموحدة، وتقترح الدول التسع، فى علاقتها الخارجية، تحديد هويتها بالنسبة إلى هوية الدول الأخرى، وهم يعتقدون أنهم بذلك يقوون تماسكهم، ويسهمون فى تشكيل سياسة خارجية أوروبية أصيلة».

أما الهوية الثقافية - عند المثقفين العرب المنتمين إلى الأصولية الدينية - فإنها ترفض التطور وذلك للأسباب الآتية:

إن العقل العربى، بحكم معاناته من الاستعمار، رافض للتعامل مع الأجنبى، ثم هو بحكم أنه كان قديما من صناع الحضارة فلديه اكتفاء ذاتى. وإذا وقع الاكتفاء الذاتى فى أزمة فإن العقل العربى لامانع لديه من طلب قروض من الدول المانحة، بل لا مانع لديه من اتهام هذه الدول بسوء الطوية إذا امتنعت عن الاستجابة. ثم إن العقل العربى لايريد لتراثنا أن يتلوث بأى عنصر أجنبى، وقد ورثنا هذه الحساسية ازاء هذا اللون من التلوث من أبى حامد الغزالى فى القرن التاسع، إذ كفّر الفلاسفة المسلمين، ومصدر كفرهم، فى رأيه، انحيازهم إلى

فلاسفة اليونان من أمثال طاليس وسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو.

ثم إن الهوية الثقافية - عند هؤلاء المثقفين العرب - مليئة بالمحرمات الثقافية التي ينبغي المحافظة عليها، وهم بالفعل قد حافظوا عليها فاتهموا من يخرج عنها بالكفر والزندقة كحد أدنى وقتله كحد أقصى. وكان من ضحايا الحد الأدنى الشيخ على عبدالرازق بسبب كتابه المعنون «الإسلام وأصول الحكم»(١٩٢٥) وطه حسين بسبب كتابه «فى الشعر الجاهلى» ١٩٢٦ ومحاولة قتل نجيب محفوظ بسبب روايته «أولاد حارتنا» (١٩٥٩) وتكفير نصر حامد أبوزيد والتفريق بينه وبين زوجته.

وكان من ضحايا الحد الأقصى قتل فرج فوده؛ إذ أسس حزبا أسماه حزب المستقبل، وقد أسماه هكذا لمواجهة حزب الماضى الذى رفض الابداع بحكم رفضه لإعمال العقل .. وكان فرج فوده يجوب الشوارع ويتحدث إلى الجماهير ويحاورهم من أجل بث الاستنارة فى عقولهم فكان أن صدر حكم سرى بقتله وتم تنفيذه علانية.

ومع بزوغ ظاهرة «الكوكبية» تنافس المثقفون العرب فى نقدها إلى حد الرفض خوفا من تلويثها للهوية الثقافية

والسؤال إذن:

لماذا الخوف من «الكوكبية»؟

ونجيب بسؤال:

ما الكوكبية؟

الكوكبية، فى رأيى، تأتى فى المرتبة الثانية من مراتب ما أسميه «رباعية المستقبل». كان الإنسان يبحث فى الكون وهو مقيم على كوكب الأرض مثل نيوتن وأينشتين، أما الآن فالإنسان يبحث فى الكون من خلال الكون ذاته بفضل سباحة الإنسان فى الكون. والكوكبية لازمة من لزوم الكونية، أى رؤية كوكب الأرض من خلال الكون فيبدو وحدة بلا تقسيمات. ويلزم من الكوكبية الاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب، وحيث إن كلا من الكونية والكوكبية والاعتماد المتبادل ينطوى على تناقض فهذا التناقض ليس فى الإمكان رفعه إلا بالإبداع. تفصيل ذلك:

التناقض فى الكونية يكمن فى أن الإنسان - وهو جزء من كل - قادر على رؤية الكل وهو الكون، أى أن الجزء يدرك الكل فكيف نرفع هذا التناقض؟.

والتناقض فى الكوكبية يكمن فى أنها مضادة للأصوليات الدينية التى تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة، ومضادة بسبب ذلك للهويات الثقافية المنغلقة على ذاتها والتى تعتقد أى منها أنها الهوية الوحيدة الصالحة للحياة. ولهذا فعلى الهويات الأخرى أن تخضع لها وإلا فالصراع أمر محتوم فكيف نرفع هذا التناقض؟

لدينا هنا سؤال واحد يتكرر ثلاث مرات، وهو كيفية رفع التناقض. وهذا الرفع ليس فى الإمكان تحقيقه إلا بتوليد فكرة جديدة، أى فكرة مبدعة. ومن هنا جاء تعريفى للابداع بأنه «قدرة العقل على تكوين علاقات جديدة من أجل تغيير الواقع». واللافت للنظر فى تعريفى هذا



أنه ينطوي على عنصرين: «الجدة والتغيير» وهما متضايفان، أي لايمكن فهم أحدهما من غير الآخر، لأن الجدة دون تغيير الواقع تدخل المبدع في مجال الأمراض النفسية والعقلية لاحساسه بأنه عاجز عن التغيير فيصاب بالإحباط الذي يفضي مع تكراره إلى تدمير ذاته.

الإبداع إذن هو البعد الرابع في رباعية المستقبل، بل هو البعد المتكرر في التناقضات الكامنة في الأبعاد الثلاثة إن شئنا الدقة. والإبداع، في بلادي، مرفوض، وذلك بسبب أننا محاصرون بملاك الحقيقة المطلقة الذين يروجون للمحرمات الثقافية. وإذا كانت الكوكبية على علاقة عضوية بالإبداع، وإذا كان الإبداع مرفوضا فالكوكبية بالتالي مرفوضة، ومن ثم فإن عدم رفضها يثير الخوف من تطور الهوية الثقافية. ومن هنا يقال إن تطور هذه الهوية يفقدها هويتها. إذن يلزم محاربة الكوكبية. وقد تولت الغالبية العظمى من المثقفين إشعال هذه الحرب في وسائل الإعلام المكتوبة والمقروءة والمسموعة.

هذا بالإضافة إلى خداع بصري أصيبت به هذه الغالبية العظمى من توهم أن أمريكا، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، قد أصبحت هي القطب الأوحد. وهذا الوهم ناشيء من الجهل بالسمة الأساسية للكوكبية وهي أنها أساس الاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب. وحيث الاعتماد المتبادل حيث لاقطبية. ولا أدل على ذلك مما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فقد بزغ الإرهاب كوكبيا فلزم القضاء عليه كوكبيا فنشأ مايسمى بالتحالف الدولي، أو بالأدق التحالف الكوكبي ضد الإرهاب، وبالتالي أصبح كوكب الأرض نفسه مهددا إذا تحكم فيه الإرهاب الكوكبي.

وهذا الوهم ناشيء أيضا من تصور زائف لعلاقة عضوية بين الكوكبية وأمريكا.. والصحيح هو أن الكوكبية أعلى مراحل الثورة العلمية والتكنولوجية، إذ هي إفراز حيوي من التنوير وشعاره «لا سلطان على العقل إلا العقل نفسه».

وإذا كان التنوير قد برغ في القرن الثامن عشر فإن أمريكا في ذلك الزمان لم تكن في المقدمة.

والسؤال إذن:

هل في إمكان هذه الغالبية العظمى من المثقفين العرب التحرر من وهم ثبات الهوية الثقافية؟

وفي صياغة أخرى:

هل في إمكان هذه الغالبية العظمى من المثقفين العرب التحرر من وهم ثبات الهوية الثقافية؟



أما لليأس العربي من نهاية؟!

بقلم
د. أحمد أبو زيد

حين تفجرت المظاهرات والمسيرات فى أكثر من ستمائة مدينة فى مختلف قارات العالم احتجاجا على قرار الولايات المتحدة شن الحرب على العراق بحجة امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل ورفضت إعطاء مزيد من الوقت لفرق التفتيش للتأكد من وجود هذه الأسلحة أو إتاحة الفرصة لإيجاد حل سلمى للأزمة لم يكن ذلك تعبيرا عن التعاطف مع صدام حسين أو نظامه الديكتاتورى المتسلط وإنما كان احتجاجا على انفراد أمريكا باتخاذ قرار الحرب دون تفويض دولى من هيئة الأمم مما يعنى الاستهانة بالقانون الدولى وبالرأى العام العالمى اعتمادا على انفراد أمريكا بأعظم قوة عسكرية تستند إلى التفوق التكنولوجى والعلمى والاقتصادى على بقية دول العالم وقد شاركت الشعوب العربية فى التعبير عن تلك المشاعر الغاضبة وإن كانت هذه المشاركة أضعف بكثير مما شهدت مجتمعات أخرى أكثر إدراكا لخطورة الخطوات التى أقدمت عليها أمريكا.



كما وقفت النظم الحاكمة فى العالم العربى موقفا أقرب إلى السلبية ربما لاعتبارات سياسية تغيب عن إدراك وتقدير الإنسان العادى وإن كان من الصعب التفرقة بشكل قاطع فى مثل هذه الأوضاع والأزمات بين الشعب والحكومة لأن أزمة العراق وتداعياتها وتوحش السياسة الأمريكية ورغبتها فى التسلط والهيمنة على العالم بأسره وليس فقط على المنطقة العربية تدعو كلها إلى ضرورة اليقظة والتكاتف للخروج من الوضع المأساوى الحالى الذى قد يدعو إلى اليأس. فالشعور العام السائد فى الوقت الحالى لدى جموع الشعوب العربية – وهو أمر لا يخفى بغير شك على المسئولين السياسيين وأصحاب القرار السياسى – هو أن ما حدث للعراق مجرد خطوة أولى سوف تتلوها خطوات أخرى لتغيير نظم الحكم – ولو جزئيا – فى دول عربية وإسلامية أخرى بينما تبدو هذه الدول عاجزة عن التصدى للقوة الأمريكية الطاغية فى كل المجالات فى الوقت الذى يعانى فيه العالم العربى من كثير من المشكلات السياسية والاقتصادية والثقافية مما يجعله أقرب إلى الإذعان والاستسلام لما قد يعتبره الكثيرون أمراً واقعاً لا سبيل إلى تغييره، وهذا القبول للأمر الواقع هو أعلى مراتب اليأس والقنوط والإحباط.

يحضرنى هنا بهذه المناسبة حادث تاريخى يكشف وإن يكن على مستوى مختلف عن ما يفعله الشعور باليأس بالأفراد والشعوب حين تواجههم قوة طاغية يصعب التصدى لها والصمود فى وجهها. الحادث أو الواقعة حدثت للفيلسوف الفرنسى دنيس ديدرو فى القرن الثامن عشر أثناء إصداره هو ومجموعة من الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين العظام من أمثال دالمبير الأنسيكلوبيديا الكبرى فى الفترة بين عامى ١٧٤٥ و١٧٧٢، وقد اعتبرت هذه الموسوعة الشهيرة أهم وأكبر عمل ثقافى فى تاريخ فرنسا حتى ذلك الحين. فقد اكتشف فى آخر الأمر أن الناشر كان يخدعه ويتولى تغيير بعض العبارات والآراء التى كتبها هو وزملاؤه، وبطبيعة الحال لم يرض ديدرو عن ذلك ولكنه لم يرض لنفسه فى الوقت ذاته أن يذيع الخبر فيصطدم بالناشر الذى قد يتوقف عن تمويل العمل وإصداره، فاكتفى بأن يكتب إليه يخطره باكتشافه الغش والخداع والتزوير وينهى خطابه بأنه لابد له من التسليم بالواقع وأن يحمل ذلك السر معه إلى القبر. وقد يكون فى ذلك قمة التعالى أو الترفع، ولكنه ترفع العاجز الذى يدفعه عجزه إلى اليأس من إمكان الإصلاح وإلى التسليم بالتالى بما حدث وقبول الأمر الواقع. وقد يكون هذا هو حال العالم العربى الآن إزاء الولايات المتحدة. وقد كان ديدرو حكيما فى فهمه لطبيعة العلاقة بين القوى والضعيف، وقد عبر عن ذلك فى أحد أعماله فى عبارة شهيرة تقول إن تاريخ الحضارة هو تاريخ الدم، فصفحاته مليئة بدماء الطغاة ودماء المقهورين على السواء.

ولا يكاد موقف العالم العربى من القوة القاهرة التى تتركز فى أيدى الولايات المتحدة وعجزه عن التصدى بفاعلية للمشكلات الكثيرة التى تواجهه فى الداخل وللهيمنة الأمريكية التى تريد فرض آرائها وتفكيرها بمختلف الوسائل يختلف كثيرا عن حال ديدرو الإنسان الفرد المثقف

العاجز بسبب ثقافته في نظرته إلى الحضارة الإنسانية وفي خضوعه لتسلط الناشر المتحكم بقوة ما يملكه من مال يستطيع أن يحجبه إذا شاء فينهار المشروع الثقافي الضخم الذي كانت تتعلق به حياة وآمال الإنسكلوبيديين.

موقف امريكا للآخرين

وموقف أمريكا من العالم العربي والإسلامي هو امتداد لنظرتها العامة إلى العالم ككل، وهي نظرة نابعة من الشعور الطاغي بالانفراد بالقوة وما تستلزمه القوة الفيزيقية من فرض الإرادة على الآخرين الذين ينبغي عليهم الانصياع والإذعان. وهنا يستوي العالم العربي مع العالم الغربي. فلم تعد أمريكا تعامل دول أوروبا (القديمة) . كما يصفها وزير الدفاع الأمريكي - معاملة الأحلاف الأنداد وبخاصة بعد موقف هذه الدول المعارض لغزو العراق، وقد عبر عن هذا الموقف الاستعلائي من أوربا كاتب ومفكر سياسي أمريكي هو روبرت كاجان في مقال شهير نشره في عدد يونيو - يوليو ٢٠٠٢ من مجلة السياسات العامة بعنوان (القوة والضعف) وقد أشرت إلى هذا المقال منذ بعض الوقت في غير هذا المكان، والذي يهمنا هنا من هذا المقال هو ما يذهب إليه المؤلف - وهو على صلة وثيقة بالبيت الأبيض، من أنه في الوقت الذي تشعر فيه أمريكا القوية بضرورة التدخل العسكري حين يلزم الأمر لتغيير الأوضاع التي لا تتلاءم مع مصلحتها الخاصة ومع مصالح العالم بشكل عام تعمل أوربا - لضعفها العسكري، على الالتفاف حول هذا الاتجاه بدعوى الرغبة في تحقيق التعاون الدولي وهو اتجاه ناجم في حقيقة الأمر من الشعور بالضعف الذي يدفع إلى المساومة والمسالمة أكثر مما هو ناجم عن التمسك بالقيم الإنسانية وبالقوانين الدولية. ويذهب كاجان إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن موقف فرنسا وألمانيا - كمثالين لأوربا القديمة - كان دائما وخلال كل مراحل التاريخ موقف الدول الضعيفة بل وكان ذلك هو موقف أمريكا نفسها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أمام قوة النظام الأوربي الطاغي في ذلك الحين. وقد لقي مقال كاجان قبولا حسنا من القارىء الأمريكي دفعه إلى أن يتوسع في المقال وينشره في شكل كتاب قصير يحمل عنوانا له مغزاه هو (عن الجنّة والقوة: أمريكا وأوربا والنظام العالمي الجديد) احتفظ فيه بنفس الاتجاه العام والآراء التي يحملها المقال.

إذا كانت هذه هي نظرة أمريكا إلى الدول الأوربية التي انحدر السكان البيض في أمريكا من شعوبها والتي ترتبط بها بروابط قوية من التراث والتاريخ والثقافة والمصالح السياسية والاقتصادية فإن لنا أن نتصور نوع النظرة المتعالية التي تنظر بها إلى العالم العربي والإسلامي وإلى الثقافة العربية الإسلامية التي تختلف اختلافا جذريا عن الثقافة الأمريكية المعاصرة بل وتقف منها موقف المعارضة الصريحة، وذلك فضلا عن الدور الذي يقوم به اليهود في أمريكا لتشويه صورة العرب والمسلمين دون أن تلقى هذه الدعايات المغرضة مقاومة جادة وفعالة ومؤثرة سواء من العرب المتأمركين أو من الدول العربية ذاتها لتوضيح الأمور من موقف قوة واعتزاز بالعروبة والإسلام وليس من موقف الدفاع السلبي المتخاذل.

وقد يكون لأمريكا بعض العذر في هذا الموقف المتعالي من العرب والمسلمين بسبب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية



والسياسية والعسكرية المتردية في العالم العربي الإسلامي الذي جعل من نفسه ميدانا للصراعات والفتن العرقية والدينية والقبلية وأصبح سوقا لتصريف السلاح الأمريكي إلى جانب ما يعانيه من تفاقم مشكلات البطالة والجريمة وتلوث البيئة وتدهور الأحوال الاقتصادية وازدياد الفقر بوجه عام وتراجع وهبوط مستويات الكفاءة في العمل وفي المنظمات، والمؤسسات الحكومية. وتدهور السلوك العام والعلاقات بين الناس وضعف الشعور بالانتماء وغير ذلك من المشاكل المعقدة التي تثير القلق في النفوس وتدعو إلى اليأس خصوصا حين يقارن المرء ما هو قائم الآن بما كانت عليه الحال في الماضي الذي يتصور - صواباً أو خطأ - أنه كان جميلا وزاهيا وخاليا من المتاعب والنقائص. ويزيد من هذا الشعور القاتل محاولات فرض العولمة التي تتزعم أمريكا الدعوة إليها والتي تخفي وراءها رغبة الغرب وأمريكا بالذات في الهيمنة على أقدار ومقدرات بقية دول العالم وإعادة تشكيل ثقافات وقيم المجتمعات المستضعفة ومن بينها المجتمعات العربية والإسلامية بحيث أصبح التساؤل الذي يدور في الأذهان هو عما إذا كانت هذه هي بداية النهاية للثقافة الإنسانية لصالح دولة وحيدة تنفرد بالتفوق التكنولوجي الذي يكفل لها إخضاع أو استعباد الآخرين وهل ستقف مجتمعات العالم ساكتة وساكنة ومكتوفة الأيدي أمام هذه الهيمنة أم أن لها من المقومات ما يدفعها إلى التحدي والتمرد الصادرين عن اليأس الذي يمسك بخناق الكثيرين ويكاد يصبح فلسفة عامة للحياة ترتكز على مبادىء التسليم بالأمر الواقع وقبوله والرضوخ له وحمله معها حتى القبر حسب ما قال ديدرو.

وليس من شك في أن مثل هذه التساؤلات تغزو بعنف عقل الإنسان العربي وتطارده طيلة الوقت خاصة وأن للعرب من تاريخهم وتراثهم وثقافتهم وعقائدهم الدينية ما يساعدهم على الوقوف صامدين أمام الهجمة الشرسة التي يتعرضون لها بشكل سافر أو مستتر وتحت الدعاوى الكثيرة البراقة التي تخفي وراءها النوايا الحقيقية عن فرض الإرادة الغربية التي تتعارض مع كل مقومات الحياة التقليدية المتوارثة وتهدف إلى محو وإزالة الهوية الثقافية والاجتماعية باسم الاندماج في المجتمع العالمي أو (الكوكبي) حسب بعض المسميات.

لماذا التمسك بالعولمة؟

ومن الطريف أن نجد مفكرا فرنسيا معاصرا، وهو جان بودريار - يتساءل مستنكرا في مقال نشره في الملحق الدبلوماسي لجريدة لوند الفرنسية بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٢ عما إذا كانت العولمة أمراً محتوما لا مفر منه وعن الذي يغري الناس بالتمسك بهذه (الفكرة المجردة) - إشارة إلى العولمة - وعن القوة التي تقف وراء هذه الفكرة وتدفع بها لكي تكون أمراً واقعا ملموسا يصعب الخروج عليه ويتقبله الكثيرون بدون تحفظ لدرجة أن التشكك فيه يعتبر نوعا من المروق الذي لا يرضى عنه أصحاب تلك الفكرة المجردة الذين يؤلفون القوة الوحيدة المسيطرة على عالم اليوم. وهذا السؤال الذي يطرحه بودريار خليق بالعرب أن يتعمقوا في تأمله ومحاولة الإجابة عليه من واقع حياتهم المتردي عسى أن يخرجوا بموقف إيجابي يحقق لهم

مكانا محترما بين دول العالم الأكثر تقدما وينتشل الناس من وهدة اليأس التي تحيط بهم والاحتفاظ بالهوية العربية الإسلامية المتميزة التي يراد القضاء عليها بشتى الطرق والوسائل بما في ذلك الاعتداء المسلح والحروب التي تهدف إلى فرض السيطرة وسلب الحرية وغرس اليأس في النفوس، وإذا كان العنف أسلوبا للتعبير أحيانا عن اليأس فإن العولمة تواجه ذلك بعنف مماثل أو أشد ضراوة حتى تضمن القضاء على أي محاولة للخروج عن طاقة القوة العظمى الوحيدة في عالم اليوم. فهي تواجه إذن العنف بالعنف للقضاء على العنف الناجم عن اليأس الذي أفرزته هيمنة العولمة.. والخطورة هنا هي أن يصبح العنف أسلوبا مقبولا للتعامل وأمرا مرغوبا فيه في ذاته ولذاته. وعلى أي حال فإن العولمة باعتبارها شكلا من أشكال الأيديولوجيا ترفض - كما هو شأن كل الأيديولوجيات - أي اتجاه معارض لها. وهذا واضح من موقف الغرب من الإسلام بحيث يعتبره هو عدوه الأول، لأن الإسلام كثقافة وأسلوب للحياة ومنظومة من القيم هو الذي يبدي أشد أنواع المعارضة والمقاومة للقيم الغربية التي يراد فرضها من خلال العولمة.

ونعود إلى جان بودريار الذي يرى أن الكراهية التي يحملها العالم اللاغربي نحو الغرب ليست ببساطة مجرد كراهية شعوب أخذ الغرب منها كل شيء ولم يعطها شيئا، وإنما هي بالأحرى كراهية شعوب يقدم لها الغرب الآن أشياء كثيرة جدا مثل العلم والتكنولوجيا والديمقراطية دون أن تستطيع هي أن تعطيه شيئا في المقابل لأنها لا تملك ما تقدمه مما يولد عندها شعورا بالعجز، وذلك في الوقت الذي ينظر الغرب إليها في غير اكتراث أو احترام بل ويعاملها معاملة مهينة تكشف عن الشعور بالاستعلاء. فهي إذن كراهية صادرة عن الشعور بالمهانة مع عدم القدرة على مواكبة الآخرين وتحقيق تقدم مماثل في مختلف مجالات الحياة، بل واليأس من إمكان اللحاق بهم. وهذا في نظره هو التفسير الصحيح لأحداث ١١ سبتمبر حيث عبر الشعور بالمهانة وتملك اليأس من العقول والنفوس بمحاولة أكبر قدر ممكن من الإهانة بالقوة العظمى المسيطرة على العالم. وليس المهم في هذا الهجوم الخسارة المادية الفادحة التي نجمت عنه وإنما المهم هو توليد الشعور بالمهانة لدى الأمريكيين، وهي إهانة لا يمكن ردها بالمثل لأن الإرهاب ليس له وطن كما أن الجماعات التي قامت بذلك الهجوم لا تؤلف دولة محددة يمكن إذلالها وإهانتها. فالهزيمة التي لحقت بأمريكا هزيمة رمزية ومعنوية في رأي بودريار، أما الهزيمة التي قد يمكن إلحاقها بمنفذي الهجوم المهين فهي هزيمة فيزيقية بحتة يمكن تحقيقها بفضل التفوق في القدرات الفيزيقية، وأن أي حرب قد تشنها أمريكا على تلك الجماعات فلن تكون سوى مجرد رد فعل أو استجابة للاعتداء الفيزيقي الذي تعرضت له وليست رد فعل على التحدي، وهو رد فعل لا يتناسب أو يتكافأ مع الإهانة التي تعرضت لها. فهذه إهانة لا يمكن ردها بالقنابل والصواريخ.

وهذه أيضاً آراء وأفكار خليقة بأن تجد ما تستحقه من اهتمام وتفكير وتأمل الإنسان العربي لكي يستخلص منه بعض المؤشرات التي يمكن أن توجه سلوكه ونظرته إلى نفسه وإلى العالم من حوله وترسم له الخطوات التي ينبغي أن يتخذها في تعامله مع القوى المعادية وأن يستمد بالاضافة إلى ذلك من تاريخه وتراثه وقيمه مبادىء يرتكز عليها في هذه المواجهة حتى يحقق لنفسه ولمجتمعه حياة كريمة يعترف فيها الجميع بحقوق بعضهم بعضا. ■



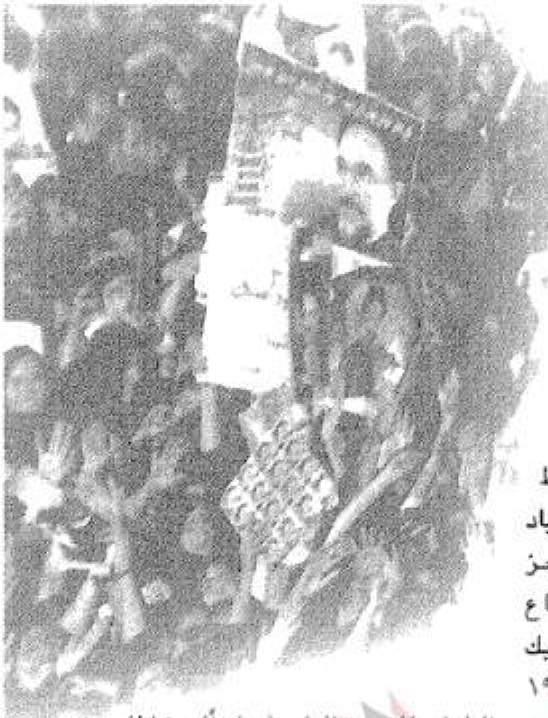
ماذا بعد العراق

إيران .. هل جاء دورها؟

بقلم
د. رءوف عباس

جاء الاحتلال الأمريكى للعراق فى إطار المشروع الامبراطورى الأمريكى للسيطرة على عالم لم يعد فيه منافس تخشى أمريكا بأسه ، وتأتى السيطرة على مناطق انتاج البترول ومواطن احتياطياته الضخمة لتشكل حجر الزاوية فى المشروع الامبراطورى الأمريكى . ما كاد الاتحاد السوفييتى يتداعى ، حتى هرعت الاحتكارات الأمريكية للحصول على امتيازات النفط فى جمهوريات منطقة بحر قزوين التى خرجت لتوها من الحظيرة السوفيتية ، واستغلت كل الثغرات ، ونقاط الضعف ، والفساد ، لتدعم مصالحها هناك . كما استثمرت حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتنفذ جانبا من خطة الهيمنة على مصادر البترول بغزو أفغانستان لفتح الطريق أمام مشروع خط الأنابيب الذى يصل منطقة بحر قزوين ببحر العرب عبر أفغانستان وباكستان . وأخيرا جاء احتلال العراق ليضع مصادر بترول الخليج والعراق تحت السيطرة الأمريكية ، ولم يبق سوى إيران التى بدت محاصرة بين فكى الحوت الأمريكى الذى يكاد يطبق عليها من الشرق (أفغانستان) والغرب (العراق) .





ولا شك أن إيران تحتل موقعا بارزا فى الاستراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط بشقيها البترولى والسياسي فقد لعبت المخابرات المركزية الأمريكية الدور الرئيسى فى إجهاض الحركة التحررية التى قادها الدكتور محمد مصدق للتخلص من السيطرة الأجنبية وتأميم شركة النفط البريطانية ، وتذرعت فى ذلك الحين بازدياد نشاط الحزب الشيوعى الإيرانى وعجز الحكومة القائمة عن ردعه . واستطاع عملاء المخابرات الأمريكية تحريك مظاهرات فى وسط طهران فى ١٩ أغسطس ١٩٥٣ تطالب بتخليص البلاد من الشيوعية . وفى مساء نفس اليوم قام الجنرال فضل الله زاهدى بانقلاب عسكرى لصالح الشاه ، أطاح بمصدق ورجاله ، وعاد الشاه من منفاه ، ليصبح بمثابة كلب الحراسة للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وليجرى بعض الإصلاحات الشكلية (استجابة لنصيحة الولايات المتحدة) فيما عرف بالثورة البيضاء ، وتغاضت أمريكا عن الحكم الاستبدادى الذى مارسه الشاه ، وإهدار حقوق الإنسان على يد البوليس السياسى الإيرانى (سافاك) .

الشيطان الأكبر

وعندما سقط الشاه عام ١٩٧٩ على يد الثورة الإسلامية بزعامة الخمينى ، تركت الولايات المتحدة الباب (مواربا) حفاظا على مصالحها الاستراتيجية ، فتنكرت للشاه ، وضنت عليه بالعلاج والإقامة فى أراضيها ، وتركت صديقها الجديد أنور السادات ليقوم بهذا الدور نيابة عنها ، ولكن أبواب إيران أوصدت فى وجه أمريكا التى اعتبرها الثوار الإيرانيون «الشيطان الأكبر» ، واستولى الحرس الثورى على السفارة الأمريكية فى طهران ، وأخذ العاملين فيها كرهائن لمدة تزيد على العام ، كما توقف التعاون التجارى تماما مع الشركات الأمريكية .

وأمام هذه التطورات اتبعت أمريكا سياسية «الاحتواء المزدوج» التى صاغها الدبلوماسى الصهيونى الأمريكى العتيد



«مـــــارتن إنديك» وتقـضـى باحـتـواء إيران والعراق لصالح إسـرائيل والمصـالح البـترولية الأمريكية فى السـعودية والخليج . وفى ضـوء تلك السياسة ، شجعت صدان وساعدته على شن الحرب على إيران ، ولعبت أمـريكا دوراً مزدوجا بتقديم المعلومات العسكرية لكل طرف عن خـصـمـه من وراء ظهـر الطرف الآخـر ، كـمـا قـامت بتـزويد الطرفين بالسـلاح : فـزودت صـدام بالأسلحـة الكيـمـاوية ، وزودت إيران بالسلاح وقطع الغيار للمعدات العسكرية من خـلال إسـرائيل (وهو مـا عـرف بفضيحة إيران - جيت) ، رغم ادراجها لإيران فى عـداد «الدول الارهابيـة» وفرضـها عقوبات اقتـصادية عليها - وخـاصـة فـيـمـا بين ١٩٨٤ ، ١٩٨٧ - وقيامها بأعمال عدوانية ضد إيران مثل إغراق بعض الزوارق البحرية فى الخليج وضـرب منصـات اسـتـخـراج البـتـرول البحرية ، واسقاط طائرة ركاب إيرانية «مصادفة» وقتل جميع ركابها (٢٩٠ راكبا) .

الاحتواء الكامل للعراق

وبعدمـا أنهكت الحرب الإيرانيـة - العراقية البلدين ، وكلفتهما ما يزيد على المليون نسمـة من الخسـائر البـشرية ، واسـتنزفت اقـتـصـادهـمـا ، جـاء دور الاحتـواء الكامل للعراق فى حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ مع الابقاء على النظام البـعـثـى وصـدام فى السلطة كـشـبح اسـتـخـدام لتـخويف دول الخليج وتدعيم الوجـود الأمريكى العسكرى فى الخليج ، حـتى إذا تم ذلك ، أصـبح وجـود صـدام ونظامه لا نفع فيه للمصـالح الأمريكية ، ومن ثم جـاء احـتـلال العـراق ضـرورة استراتيجية لإحكام السيطرة على مصادر البترول فى الخليج إضافة إلى بترول وسط آسـيـا (بحـر قـزوين) ، وبذلك تفـرض الولايات المتحدة ما تشاء من شروط على دول الاتحاد الأوروبى ، واليابان ، والصين ، كما تفرض ما تشاء من قواعد التجارة الدولية بما يكفل لها إحكام قبضتها على العالم باعتبارها القوة الأعظم التى تقصر دونها قامات غيرها من الدول .

ولكن تبقى إيران جزيرة منعزلة وسط منطقة الهيمنة الأمريكية الممتدة من وسط آسيا إلى الشرق الأوسط ، ويرى اليمين الجديد الذى يوجه السياسة الأمريكية ، ويتـحكم فى مـراكـز صناعـة القـرار منذ إدارة ريجـان وبوش الأب ، وحـتى أيام كلينتون ، يرى فى النظام الإيرانى الحالى حـجـر عثـرة فى طريق بناء الامبـراطورة الأمـريكيـة ، والمشـروع الأمـريكى - الصـهيونى الجديد بالتعاون مع «اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة» (AIPAC) ، وحكومة الليكود فى الكيان

الصهيونى . ومن ثم أصبح التخلص من النظام الإيرانى «ضرورة حيوية» لتحقيق الأهداف الصهيو - أمريكية .

من أركان محور الشر!

وليس التخلص من النظام الإيرانى وليد الساعة ، ولكن الإشارات التى أطلقتها أمريكا بهذا الصدد منذ وقوع الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ تفوق الحصر ، ولكن إيقاعها ازداد مع انفراد اليمين الجديد بالسلطة فى إدارة بوش الابن الذى راح يردد وصف إيران بالدولة الإرهابية ، وعدها من أركان «محور الشر» الذى ضم العراق وإيران وكوريا الشمالية ، وزاد من تصعيد العداء ضد إيران الوجود الأمريكى فى العراق ، فقد أخطأ صناع السياسة الأمريكية التقدير لوزن الشيعة فى العراق ، الذين يمثلون أغلبية السكان ، إذ كانوا يراهنون على أن ما عاناه الشيعة من مظالم تحت حكم صدام كفيل بأن يجعلهم يهرعون إلى الترحيب بقوات «التحرير» الانجلو - أمريكية ، وخاصة أن زمرة المعارضة العراقية التى تعاونت مع أمريكا جاءت غالبيتها من الشيعة ، ولعلهم أدخلوا فى روع سادتهم الجدد أن الشيعة سيحمدون لأمريكا صنعها . ولكن الواقع جاء مناقضا لذلك : فقد اتحد الشيعة مع السنة للمطالبة بعراق مستقل يحكمه العراقيون وأعلن آية الله خامنئى - مرشد الثورة الإيرانية - صراحة وباللغة العربية فى اجتماع عام أن إيران التى وقفت على الحياد عند ضرب النظام البعثى سوف تقف إلى جانب شعب العراق للتخلص من الاحتلال ، وإقامة حكومة عراقية يختارها العراقيون أنفسهم .

ومع تكرار حوادث المقاومة التى كلفت القوات الأمريكية ثلاثين قتيلا فى شهر واحد ، والمسيرات المليونية التى نظمها الشيعة فى مناطق «العتبات المقدسة» وفى بغداد (بالتعاون مع السنة ، تزايدت احتمالات اتجاه اليمين الجديد الصهيو - أمريكى إلى السعى للتخلص من النظام الإيرانى ، وجعله الهدف العاجل الذى يلى احتلال العراق .

قرع طبول الحرب

ويتضح ذلك من ارتفاع أصوات طبول الحرب التى تقرع فى واشنطن ولندن على السواء ، فركزت الصحف المعبرة عن دوائر السلطة هجومها على إيران بصورة متواترة ، فهى «أخطر مركز للإرهاب الدولى» ، تأوى العناصر النشطة من تنظيم «القاعدة» وتقلق راحة «واحة الديمقراطية» فى الشرق الأوسط «إسرائيل» برعايتها للإهارب الموجه ضد إسرائيل (حزب الله فى جنوب لبنان وفصائل المقاومة الفلسطينية) . وتواترت التصريحات على لسان الرئيس الأمريكى وأركان إدارته حول امتلاك إيران لأسلحة الدمار الشامل (الأسلحة الكيماوية) ،



وتطلعها إلى إنتاج السلاح النووى من خلال بناء مفاعل نووى فى بوشهر ، رغم أن هذا المفاعل بنى عام ١٩٧٠ فى عهد الشاه ، ولم تر فيه الولايات المتحدة - عندئذ - خطرا محتملا ، فإذا سعت إيران اليوم لتجديده وتحديثه وتوسيعه أصبح ذلك خطرا يهدد أمن العالم ، على حين يمثل امتلاك إسرائيل لكل أسلحة الدمار الشامل خيرا للبشرية جمعاء!!

وبدأت تعلو عبر وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية المقروءة والمرئية والمسموعة ، أصوات «المعارضة الإيرانية» التى تطالب بتغيير النظام الإيرانى ، وإقامة نظام «علمانى ديمقراطى ليبرالى» بديل . وتوثقت الروابط بين تلك المعارضة ودوائر صنع القرار فى الإدارة الأمريكية . وعاملت الإدارة الأمريكية قوات «مجاهدى خلق» المتمركزة فى العراق معاملة خاصة، فأبقت لها قواعدها وسلاحها الثقيل فى إطار اتفاق خاص ابرم بين قيادة مجاهدى خلق والإدارة العسكرية الأمريكية فى العراق ، مما يكشف عن احتمال اسناد دور إلى هذه القوات عندما تحين ساعة الصفر لإسقاط النظام الإيرانى ، وتعالت أصوات «الإصلاحيين» فى طهران تطالب النظام بإدخال إصلاحات دستورية دعما للمواجهة المحتملة مع أمريكا تحقيقا لتلاحم صفوف الشعب وراء النظام .

وتلقى رموز السلطة فى طهران هذه الإشارات مدركين خطرها ودلالاتها ، فراح أحدهم يحذر فى خطاب رسمى من تقديم التنازلات والاستجابة لما تطلبه امريكا من «اصلاحات» لأن طريق التنازل لا نهاية له ، ولا يكفل لإيران النجاة من العدوان . وأعلن مرشد الثورة نفسه أن العدوان الأمريكى على إيران لن يحقق نصرا ، ولكنه سيلقن أمريكا درسا لن تنساه .

وتدرك إيران أنها تقف وحدها فى مواجهة العدوان الأمريكى المرتقب ، فقد جاءت نتائج مؤتمر وزراء خارجية المنظمة الإسلامية مخيبة لآمال القيادة الإيرانية ، فلم تنجح فى إقناع «أخوة الإسلام» بالإشارة إلى الاحتلال الأمريكى للعراق بوصفه عدوانا على شعب العراق ، أو إدانة السياسات الأمريكية التسلطية ، فجاء البيان الختامى سلبيا مائعا دون مستوى التحديات التى يواجهها العالم الإسلامى ، ويزداد الاحساس بها فى إيران .

وريث عرش الطاووس !

وفى نفس الوقت ، راحت بعض الأقلام الأمريكية تتحدث عن البديل المحتمل للنظام الإيرانى بعد «تحرير» إيران من حكم آيات الله ، وعن الحكومة

العلمانية «الليبرالية» التي تخلف نظام الحكم الحالي الثيوقراطي ، وكما سبق العدوان على العراق الحديث عن عودة الملكية إلى العراق باعتبارها الضمان الأمثل لقيام حكم ديمقراطي ليبرالي ، هناك كتابات أمريكية تشير إلى ابن الشاه السابق ، وتتحدث عن وريث عرش «الطاووس» وعودته التي تكفل نجاح «التحول الديمقراطي» في إيران «المحررة»

فهل تنجح الولايات المتحدة الأمريكية في السيطرة على إيران بعد تصفية النظام الثوري الإسلامي ؟

إن إقدام أمريكا على التعامل مع النظام الإيراني على طريقة ما فعلته في العراق أمر وارد ، إذا وضعنا في اعتبارنا حجم القوات الأمريكية المحتشدة في الخليج ، وما قيل عن احتمال دعمها بالمزيد من القوات ، إلى جانب التصعيد المتواصل للحرب النفسية ضد إيران . ولكن أمريكا لا تستطيع أن تقدم على مثل هذه الخطوة إلا إذا ضمنت استقرار الأمور في العراق استقرارا تاما ، وهو مازالت تعجز عن تحقيقه لعوامل لم تدخلها في الحسبان : فقد راهنت على قيام حرب أهلية طائفية ، وسمحت بتجارة السلاح في الشوارع تحت سمعها وبصرها ، ظنا منها أن هذا السلاح سيوجه بأيدي العراقيين إلى صدور مواطنيهم ، فإذا به يستخدم ضدهم في حركة مقاومة مرشحة للتصاعد . هذا فضلا عن حركة الاحتجاج الشعبي المستمرة ، والعجز عن حل معضلة إقامة حكومة مدنية عراقية ، وشواهد عدم الارتياح للسياسة الأمريكية التي تبديها بعض رموز « المعارضة» العراقية التي تعاونت مع أمريكا لاسقاط نظام صدام .

لذلك نرى أن العدوان على إيران صعب التحقيق على ضوء معطيات الموقف الراهن ، ولعل الولايات المتحدة تبحث عن سبيل آخر لإسقاط النظام من الداخل بتشجيع عناصر المعارضة الإيرانية على إقامة حالة من الفوضى من داخل حركة المطالبة بالإصلاح يستغلها أحد الجنرالات للقيام بانقلاب على طريقة فضل الله زاهدي لحساب أمريكا .

ولا يبقى أمام إيران من سبيل للإفلات من الفخ الأمريكي سوى العمل على دعم الجبهة الداخلية دعما حقيقيا ، والاستجابة لمطالب دعاة الإصلاح من داخل النظام ، مع التركيز على التخلص من العزلة التي تحاول أمريكا أن تدفعها إليها بفتح قنوات التعاون على المستويين الاقليمي والدولي مع الدول التي تعارض الهيمنة الأمريكية ، وأن تظل - في نفس الوقت - تتحسب للعدوان بخطة رصينة للمقاومة تستوعب دروس ما حدث في العراق . ■

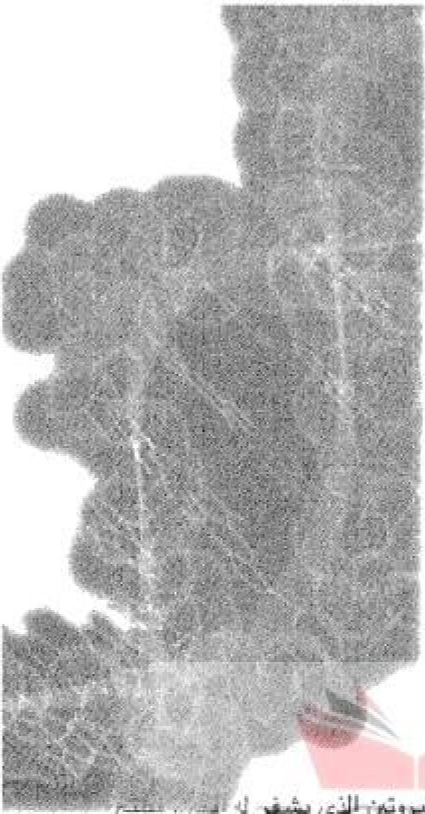
خريطة هاب ماب

بقلم
د. أحمد مستجير

بدأ مشروع الجينوم البشرى رسميا فى أول أكتوبر ١٩٩٠. والجينوم البشرى هو مجمل المادة الوراثية (المسماة الدنا DNA) التى يحملها الحيوان المنوي أو البويضة. والموجودة بنواة كل خلية من خلايا أجسادنا. يوجد الجينوم فى صورة خيط طويل مقسم إلى ثلاثة وعشرين جزءاً (منفصلا) يسمى كل منها كروموزوماً. يتألف خيط الدنا هذا من تتابع من «نوتيدات» أو «قواعد» أو «حروف»، بشكل سلسلة يبلغ طولها نحو ثلاثة آلاف مليون «حرف». وأبجدية الدنا فى الإنسان (وفي كل الكائنات الحية) تتألف من أربعة حروف (هى: أ، ث، س، ج). تتفاوت الكروموزومات فى الطول (الذى يقاس بعدد الحروف)، فأطولها هو الكروموزوم رقم ١ (٢٤٥,٢ مليون قاعدة) وأقصرها هو الكروموزوم ٢١ (٤٦,٩٨ مليون حرفا).

والجينات هى الأساس المادى للصفات البشرية، وهى مقاطع من الكروموزومات تختلف أطوالها من بضع مئات من النوتيدات أى الحروف، إلى ما قد يربو على المليونين. ولكل جين موقع محدد على كروموزوم بذاته، وتقول النتائج الأخيرة لمشروع الجينوم إن جينومنا يحمل نحو ٣٠ - ٣٥ ألف جين، وكان يُظن أنه يحمل مائة ألف. تؤلف الجينات نحو ٥٪ فقط من مجمل الجينوم، أما الباقى (٩٥٪) فيقال له «سقط الدنا» ، ولا تُعرف له حتى الآن وظيفة واضحة.

يحمل جنس البشر ما قد يصل إلى سبعة آلاف مرض وراثى، ويوجد بكل منا فى المتوسط عدد من الجينات المرضة يصل إلى أربعة أو ستة جينات. و لقد كان تعقب الجينات المرضية فى الحق هو أهم أسباب البدء فى مشروع الجينوم البشرى. كانت أولى مهام هذا المشروع هى سلسلة النوتيدات جميعاً، أى معرفة ترتيبها على طول



الكروموزومات. ولقد تمت السلسلة وأعلنت فى ١٤ أبريل ٢٠٠٣ قبل الموعد المحدد (آخر سبتمبر ٢٠٠٥) بأكثر من سنتين (وكانت المسودة الأولى لهذه الخريطة قد أذيعت فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٠). تم حتى الآن تحديد مواقع الآلاف من الجينات، ومعرفة تتابعاتها من النوتيدات، ولا يزال العمل يجرى للعثور على بقية الجينات، وتشريحها جزيئياً.

أمراض الجين الواحد

يمكننا أن نقسم أمراض الإنسان الوراثية إلى فئتين: أمراض الجين الواحد (وتسمى أيضاً الأمراض المندلية)، والأمراض متعددة الجينات. وأمراض الجين الواحد هى تلك التى يكون فيها جين بذاته هو المسئول مسئولية مباشرة عن المرض، ومن الممكن أن يحدد موقعه بالضبط على كروموزوم معين، ثم يُسلسل (أى يحدد تتابع نوتيداته)، ثم يقارن بالجين «الطبيعى» لمعرفة الاختلاف فى التتابع الذى ينعكس فى اختلاف البروتين الذى يشفر له الجين، فينتج بروتينا معيبا يسبب المرض. ولقد يكون مثل هذا الاختلاف فى نوتيدة واحدة لا أكثر من بين النوتيدات التى تشكل الجين، فيما يسمى «بالطفرة النقطية». فمرض أنيميا الخلايا المنجلية مثلا يحدث بسبب تغير النوتيدة رقم ١٧ من نوتيدات الجين الطبيعى المشفرة (وعددها ٤٣٥) والموجود على الكروموزوم ١١، إذ تتحول هذه النوتيدة من أ إلى ث، فتنتج بروتينا معيباً. ثمة طفرة شهيرة هى طفرة بالجين المسئول عن مرض هنتنجتون الموجود بطرف الكروموزوم الرابع، وتحدث بإضافات متكررة بوسط الجين من ثلاثية معينة من النوتيدات (هى الثلاثية «س أ ج»). والغريب فى الأمر أن عدد هذه الثلاثيات المضافة (والتى تسمى بالتهتهة الوراثية) يحدد العمر الذى ستبدأ فيه أعرض هذا المرض العصبى الخطير القابل فى الظهور على المريض. فإذا كان الجين يحمل ٤٠ مكررة، بدأت الأعراض فى الظهور عند عمر ٥٩ سنة، أما إذا كان عدد المكررات ٤١ فتبدأ فى عمر ٥٤ سنة، فإذا ما كان ٥٠ مكررة ظهرت الأعراض مبكراً جداً فى عمر السابعة والعشرين.

هناك فرق واضح بين أمراض الجين الواحد والأمراض متعددة الجينات

ولقد أمكن بالفعل التعرف على الكثير من مثل هذه الجينات الرضية، ومنها بجانب الجينين السابقين جين التليف الكيسي، وجين مرض تاي ساكس، وجين مرض ليش نيهان.

الأمراض متعددة الجينات

لكن معظم الأمراض الشائعة لا تخضع لفكرة «جين واحد للمرض الواحد» هذه، فعدد الجينات الذي يؤثر فيها كبير قد يصل إلى العشرات أو ربما المئات، ثم إن البيئة تؤثر فيها أيضاً - كثيراً أو قليلاً. من بين هذه الأمراض هناك السرطانات ومرض السكر، ومرض القلب، وارتفاع ضغط الدم، والربو، والشيزوفرانيا والسمنة وإدمان الكحوليات. والإسهام الوراثي في هذه الأمراض المعقدة والشائعة ليس واضحا ومن العسير تحديده، ومن الصعب أن يكشف بالطرق التي تصلح لأمراض الجين الواحد. وهناك أيضا تباينات أخرى مثل هذه، صعبة التحديد ، في قابلية الأفراد للإصابة بالأمراض، وفي استجابتهم للأدوية - ولنذكر أن الاستجابة الخاطئة للأدوية تتسبب في وفاة أكثر من مائة ألف شخص كل عام بالولايات المتحدة وحدها . تحتاج هذه جميعاً إلى معالجة خاصة لكشف الأساس الوراثي لها . ولقد أوحى إتمام الخريطة الكاملة للجينوم البشري بالبدء في رسم خريطة «هاب ماب» (HAP MAP) التي ستمكن الباحثين من الفحص الدقيق والشامل للجينوم على اتساعه بحثاً عن مواقع الجينات المرضية والتباينات الوراثية، التي نستطيع بها التنبؤ بخطر الإصابة أو قابلية الإصابة بهذه الأمراض الوراثية المعقدة، أو مدى استجابة الفرد للعقاقير.

السنابس

يتطابق تتابع دنا أي فردين منا في ٩٩.٩٪ من النوتيدات، نعني أننا إذا قارنا النوتيدات (الحروف) على كروموزومات أي شخصين فسنجد اختلافاً في نوتيدة كل ١٠٠٠ موقع (وتماثلاً في ٩٩٩) ، فتكون هذه النوتيدة مثلا (أ) في فرد وتكون (ج) في الآخر. ولما كان الجينوم يحتوي على نحو ثلاثة آلاف مليون نوتيدة، فإننا نتوقع أن يختلف كل شخصين في ثلاثة ملايين موقع. ستكون هذه إذن هي أيضا قدر الاختلافات التي نتوقعها بين فردي أزواج الكروموزومات التي يحملها أي شخص منا، فهما يمثلان جينومين، واحد من الأب والآخر من الأم. فإذا كانت المقارنة بين أعداد أكبر من الناس، لا بين فردين فقط، فسنجد اختلافات في نوتيدات أخرى إضافية، وقد يزداد هنا عدد الصور عن اثنتين بالنسبة لكل نوتيدة [فتكون مثلا (أ) أو (ج) أو (س)]. وعدد المواقع بالدنا التي يتباين فيها الأفراد غير معروف، وربما تراوح ما بين ١٠ ملايين و٣٠ مليون موقع (أي نوتيدة)، أي واحدة بين كل ٣٠٠ أو ١٠٠ نوتيدة. يسمى موقع النوتيدة الذي يختلف فيه الأفراد باسم «السنبسة» (أي تعدد صور

النوتيدة المفردة SNP) . من بين كل هذه السنابس ربما كانت هناك أربعة ملايين سنبسة شائعة.

خريطة هاب ماب

كان مارك دالي، عالم الإحصاء الوراثي ، مستغرقاً في معمله يتأمل بيانات وراثية فجة، عندما لاحظ أمراً غريباً. كان يفحص منطقة من الكروموزوم البشري الخامس، منطقة يعتقد زملاؤه أنها تحمل جيناً يسبب مرض كرون Crohn's disease وهذا مرض وراثي خطير يصيب الجهاز الهضمي، كان ثمة تتابع للنوتيدات يكاد يكون متطابقاً في كل العينات التي فحصها، رغم أن كل عينة قد جاءت من شخص مختلف. اكتشف دالي وجود بقع كل ألف نوتيدة أو نحو ذلك ، يختلف فيها حرف واحد من شخص لآخر. ثم جاءت المفاجأة : الكثير من تباينات هذه الأحرف المفردة تحدث على ما يبدو سويا، كما لو كانت مرتبطة عبر مسافات طويلة من الدنا، تعني أنه كلما نظر إلى مقطع معين من الدنا ووجد به (مثلا) حرف أ فسيجد حرف ج (مثلا) بعد نحو ١٠٠٠ حرف، ثم حرف س (مثلا) في موقع ثالث بعد ذلك بألف حرف، وهكذا. وبعد بضع عشرات الآلاف من الحروف يبدأ نموذج آخر.

يبدو أن المقاطع الطويلة من هذه الحروف المرتبطة، تقسم الكروموزوم إلى حزم محددة بدقة تتباين أطوالها ما بين عشرة آلاف وخمسين ألف حرف. ثم كان هناك ما هو أكثر إثارة للدهشة ، ذلك أن دالي قد وجد فيمن يدرسهم من الأفراد خمس أو ست صيغ لا أكثر من هذه الحروف المتباعدة المرتبطة ، وذلك بالنسبة لأي مقطع معين من الكروموزوم . يبدو أن ثمة في الأفق تغيراً جذرياً على وشك الظهور بشأن نظرتنا إلى التباين الوراثي في دراسات الأمراض. لقد كان دالي يكتشف في الحق بنية تحتية للجينوم البشري. الجينوم مقسم إلى عدد كبير من «حزم السنابس» التي يسهل التعرف عليها. كان الرجل يتأمل مشارف المشروع البيولوجي الجديد الكبير - مشروع رسم خريطة الهاب ماب، خريطة حزم السنابس، الخريطة التي تعرفنا بحدود هذه الحزم، والصيغ المختلفة من السنابس بكل حزمة بالعشائر المختلفة عبر العالم.

> رسم خريطة هاب ماب ستمكننا من الفحص الدقيق والشامل للجينوم البشري

وفي أكتوبر ٢٠٠٢ ، بعد عام من كشف دالي، قام عدد من كبار الوراثيين العالميين بوضع «المشروع الدولي لخريطة هاب ماب» - وهذا مشروع سيتكلف مائة مليون دولار ويستمر ثلاث سنوات ينجز فيها الخريطة، وسيبدأ ببضع مئات من عينات دم مأخوذة من نيجيريا واليابان والصين والولايات المتحدة . كان هذا المشروع هو النتيجة الطبيعية للانتهاء من سلسلة الجينوم البشري . أصبح المطلوب الآن هو

التعرف على المناطق من الجينوم التي تتباين، وستكون فهرسة التباينات المثبطة لأى مرض، أو المشجعة له، قيمتها الهائلة. وكلما اتسع مجال العشائر المشتركة ازدادت الفائدة.

البعض من صور هذه السنابس يسهم إسهاما فعلياً فى خطر الإصابة بالمرض، تعنى أن احتمال إصابة من يحملها بالمرض أكبر من احتمال إصابة من لا يحملونها. لكن معظم السنابس ليست من هذا الفصيل، وإنما يمكن أن تستخدم كواسمات نستطيع بها كشف الخطر منها. ولكى نعثر على المناطق التى تحمل جينات هذه الأمراض، فإننا نقارن بين تكرار صور السنابس هذه فى المرضى وفى الأصحاء. فإذا ما وجدنا أن تكرار البعض منها أكثر فى المرضى منه فى الأصحاء قلنا إنها ترتبط بالمرض. ومثل هذه الارتباطات تشير إلى احتمال وجود جينات بالمنطقة تسهم فى المرض.

المعروف أن تكلفة كشف السنابس مرتفعة جداً فى الوقت الحالى، وليس من المعقول أن نفحص منها الملايين عبر الجينوم بأكمله بحثاً عن العدد المرتبط بالمرض. أما إذا كان بالمنطقة عدد محدد فقط من الحزم أو المجاورات، فسيكفى التعرف على قلة من السنابس لتحديد هوية كل حزمة تحملها هذه المنطقة، تعنى أنه يكفى أن يحدد الباحث الحرف الواشى فى كل حزمة ليعرف بقية الحروف دون فحص، وبدلاً من أن يقوم برصد السنابس العشرة ملايين التى تميز جينوم الفرد، يكفيه أن يحدد فقط نحو ٥٠٠ ألف منها.

ستقدم خريطة الهاب ماب دعماً كبيراً للطب ولصحة الإنسان. هناك عقاقير عديدة تركت على الرف لأنها تسبب آثاراً جانبية خطيرة على نسبة صغيرة - إن تكن جوهرية - من الناس، وهناك عقاقير لا تفيد إلا نسبة محدودة فقط من المرضى. إن اكتشاف اختبارات يمكن بها تحديد استجابة المريض، قد يفتح الأسواق أمام الكثير من هذه العقاقير المهملة، مما قد يدر البلايين على شركات الأدوية. من هنا تنهمك الكثير من كبريات شركات الأدوية فى بحوث تهدف إلى التنقيب عن صور وراثية بالجينوم تفيد فى «تفصيل» علاجات أفضل للأفراد - وستسهل خريطة هاب ماب كثيراً من أعمالها. ثمة شركة انتهت مؤخراً من دراسة على المئات من الناس لتحديد واسمات وراثية يمكن التنبؤ بدرجة استجابة الأفراد لعقاقير تخفيض الكولسترول.

تختلف العشائر البشرية فى تكرار الأفراد حاملى الحزم المختلفة من السنابس، لكن ٨٥٪ من هذه الحزم المتباينة موجودة داخل كل العشائر، أما الـ ١٥٪ الباقية فتختلف بين العشائر. وتقول النظرية الحالية إن الصور الشائعة من الحزم التى تسهم

فى مرض ما بمجموعة بشرية، تسهم أيضاً فى نفس المرض بالمجاميع الأخرى، وإن اختلف قدر الإسهام.

العرقية تطل برأسها

لكن خريطة هاب ماب تحمل فى طياتها مخاطر كامنة فى زماننا هذا الذى تصاعدت فيه قضية العرقية حتى فى الممارسات الطبية، كثيراً ما يقوم الأطباء باتخاذ قراراتهم الروتينية بناء على افتراض بوجود فروق وراثية بين أفراد السلالات البشرية المختلفة. هناك اختلافات معروفة فى معدلات أمراض معينة بين السلالات البشرية، فمعدل الإصابة بالتليف الكيسى أعلى بين القوقازيين عنه بين الآسيويين أو السود، كما أن الأمريكان الأفارقة يتميزون بمعدلات مرتفعة من مرض ضغط الدم والسكر. يصل إلى الصيدليات الآن أول «عقار عرقي» لعلاج القلب موجه خصيصا للأمريكان الأفارقة . وستؤكد خريطة هاب ماب وجود فروق وراثية بين شعوب المناطق الجغرافية المختلفة بالعالم، الأمر الذى يثير القلق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والأخلاقيات البيولوجية من أن تعمم هذه التباينات على صفات أخرى جوهرية، ليهيكل البشر فى صورة فئات عرقية تختلف اختلافاً إنسانياً جذريا.

نُشر مؤخراً بحث صنف فيه البشر إلى سلالات جغرافية خمسة: أوروبية، أفريقية ، شرق أسيوية، أو شيانية، وأمريكية، وهاجم فيه المؤلفون فكرة رفض التصنيف الوراثى للسلالات وأهميته، وانتهوا إلى ضرورة تفحص الفروق فى الاستجابة للعقاقير وفى مخاطر المرض فى الفئات الخمس كل على حدة، وإلا فإن البحث الوراثى سينحو إلى إهمال قضايا تهم جماعات الأقليات. فى الوقت نفسه ، هناك بحث آخر أجرى على الشتات الأفريقى بفحص الإصابة بارتفاع ضغط الدم بين السود الأفارقة فى مواطنهم المختلفة، اتضح منه أن نسبة المصابين بالمرض تبلغ ٧٪ فى الريف الأفريقى ، و١٤٪ في المدن الأفريقية، و٣٤٪ بين الأمريكان الأفارقة، الأمر الذى يشير بجلاء إلى أهمية البيئة فى هذه القضية. لكن الأمر يتطلب فحص حزم السنابس فى هذه المجتمعات الثلاثة.

> بالرغم من أهمية خريطة هاب ماب فإنها تحمل في نفس الوقت مخاطر كامنة للإنسان

القضية كما نرى شائكة . الفحص المدقق سيؤكد بالطبع وجود فروق وراثية بين المجتمعات، قد تؤدى إلى تفسيرات عرقية خطيرة غاية فى الخطورة. فإذا نحن لم نقم بهذا التفحص الوراثى الدقيق خوفاً من أن يُستخدم ما سيظهر من تباين كدليل «علمي» على صحة مبدأ «العرقية»، حجبنا عن العشائر المستضعفة إمكانيات الاستفادة من التقدم العلمي، وحرمناهم من ثماره ! ■

المعهد المصرى فى مدريد لم ينشئه طه حسين!

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

«الحق أحب إلىّ من أستاذى أفلاطون» أرسطو

فى سلسلة «إقرأ» الشعبية، كتيب صغير بعنوان: «**فى بيت حسين مؤنس**، لابنته الدكتورة منى، ألقت فيه ضوءا **كاشفا على جانب** من حياة والدها، فى أسلوب عذب رشيق **جذاب، وكذلك** كان والدها حين يكتب، ومن شابه أباه **فما ظلم. وشهادة** أى ابنة فى أبيها ينبغى أن تؤخذ دائما، **عند أى مؤرخ** موضوعى بحذر شديد، فكل فتاة بأبيها **معجبة، لكنها مع** ذلك أسدت إلى الحقيقة والتاريخ خدمة **جليلة، حين تصرح** أو تلمح أو توارب أو تصمت، لأن ماذكرته **يصعب الوصول إليه على غيرها** .

وفى ضوء ما قالت يستطيع الباحث أن يفسر ويعلل الكثير مما قرأ أو عرف أو سمع عن حسين مؤنس الأديب، وكان رحمه الله صاحب أسلوب طلى شائق، قبل أن يكون مؤرخا صاحب منهج وموقف!.. فقد حدثتنا عن «حسين مؤنس الزوج والأب والصديق والإنسان، وهو الوجه الذى لا يعرفه إلا المقربون منه».

ولست بصدد ما قالته الدكتورة منى عن هذا الجانب من حياة والدها، مصوبا أو مؤكدا، فأهل مكة أدرى بشعابها، ولكنى بصدد قضية واحدة عامة الآن، اختلط فيها الأمر على الكاتبة تماما، وهى

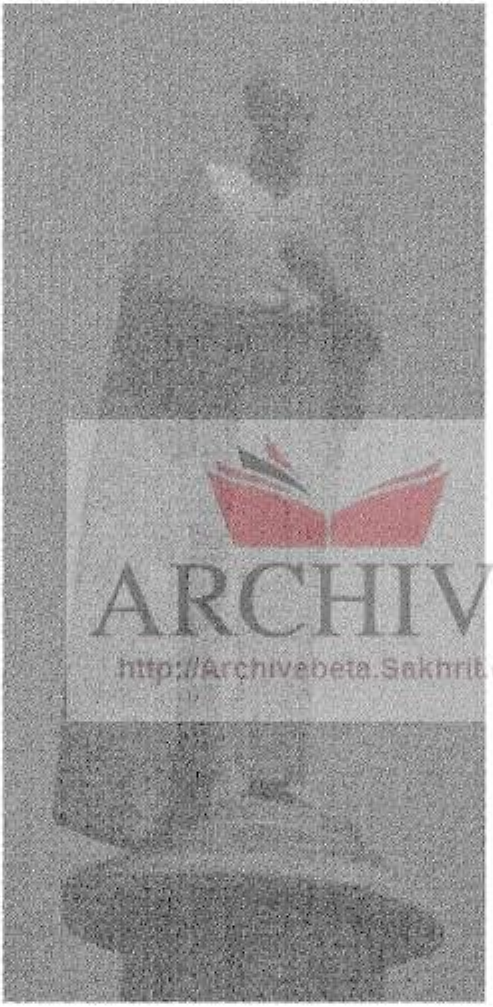
قضية إنشاء معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، الفكرة والإنشاء على السواء :

من صاحب المشروع ؟

تقول الدكتورة منى فى كتابها (ص ٨٦) مانصه حرفيا.

«وأحب أن أذكر هنا شيئا يخفى على الكثيرين اليوم عندما يذكرون المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، وهو أن أبى كان صاحب فكرة إنشاء معهد مصرى فى مدريد يقوم بدراسة اللقاء بين حضارتى الشرق والغرب، إذ كان قد تقدم بمشروع مكتوب بهذه الفكرة فى الأربعينات للدكتور طه حسين الذى كان يعمل فى هذا الوقت وزيرا للمعارف ، وقرأ د. طه حسين المشروع المقترح، ولأنه كان ذا بصيرة وافق ذهنى واسع وافق مبدئيا على المشروع ، واستمر أبى وراء مشروعه هذا حتى أوجدت له الوزارة الميزانية المطلوبة، ثم بعد سنوات تحقق مشروع المعهد، وأصبح له مكان ووجود، وكل ما أريد توضيحه هنا أنه لولا تفكير أبى فى مثل هذا المشروع، ولولا تتبعه له، لبقى بغير إنجاز .

إن فضل د . طه حسين فى هذا كله أنه تحمس للفكرة وأيدها «وحدث بعد إنشاء المعهد فى عام ١٩٥٠ لم يعين أبى أول مدير له، بل عينت الوزارة الدكتور



تمثال طه حسين للفنان حسن كامل تم ازاحة الستار عنه في أواخر يونيو الماضى بميدان الجلاء بالجيزة

عبدالهادي أبو ريدة - أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة - رحمه الله، وكان معه الدكتور عبدالعزيز الأهواني - أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة - رحمه الله، وكيلا للمعهد » .

وهذا كله خلط، ينقض بعضه بعضا، ويحتاج إلى إعادة تحرير وفضل بيان .

جماعة المنتفعين بطه حسين

أحسب أن الدكتورة منى كانت ضحية إعلام كاذب صنعه النفاق والجهل، وجماعة المنتفعين بطه حسين ، وتجلى ذلك واضحا فيما حدث من أعوام ثلاثة، حين بدأ المعهد يدعو أفواجا من المصريين إلى مدريد، احتفالا بمرور خمسين عاما على إنشائه، وجعل من ذلك مناسبة للحديث عن منشئه (المزعوم) طه حسين أديبا ومفكرا وليس فيهم على جملتهم (منهم من صحب زوجه وبعض أبنائه) من يحسن الحديث بالاسبانية، وليس في إسبانيا من يعرف العربية، ولست أدري لمن كانوا يحاضرون ، وبأي لغة كانوا يتحدثون ، وفي المعهد كانت القاعة الكبرى تحمل اسم طه حسين تكريما له، ولأن الأمر كان مجرد «زفة» تدفع نفقاتها وزارة التعليم العالي بالعملة الصعبة فإن أحدا من الذاهبين ، على كثرتهم، لم يحاول أن يتعرف على تاريخ المعهد، وأن يكتب عنه شيئا، ولو من باب الفضول .

وأول ما يجب تصويبه في كلام الدكتورة منى أن طه حسين لم يكن وزيرا في الأربعينيات ، وأن أول مرة تولى فيها الوزارة بعد مدافعة شديدة من القصر الملكي، كان في وزارة الوفد الأخيرة التي تألفت في يناير ١٩٥٠ .

مقالات في الهلال

نعم، كان طه حسين مستشارا في وزارة المعارف في عهد وزيرها أحمد نجيب الهلالي، في وزارة الوفد التي تألفت في ٤ فبراير ١٩٤٢، ومع سقوط الوزارة في ٩ أكتوبر ١٩٤٥ انقطعت صلة طه حسين بوزارة المعارف تماما، لأن الوزير الذي خلف أحمد نجيب الهلالي عليها، وهو د . عبدالرزاق السنهوري كان خصما فكريا لدودا لطه حسين ، ولم تكن خصومة صامتة، فقد نقلها طه إلى المجلات الأدبية، حين كتب عدة مقالات في مجلة الهلال إذ ذاك، في شكل صور أدبية رمزية لمن اختصمهم، تناول في بعضها السنهوري شكلا وخلقة بالسخرية الحادة الجارحة، على طريقة الجاحظ في رسالته الشهيرة «التربيع والتدوير» ، وكان لها، نوعا أدبيا غير مألوف، صدى غير بعيد .

ونعرف أن طه حسين قبل أن يتولى الوزارة، كان مفكرا قلقا ومقلقا، كتب في كل القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية التي تهم الوطن ، وكان في كثير منها سباقا ومبدعا ولكنه لم يعرض ولا مرة واحدة لتمثيل مصر ثقافيا في العالم الغربي .

أما كيف نشأت الفكرة فقصتها على النحو التالي :

غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية عام

١٩٤٥ برز على سطح الحياة السياسية العربية أمران مهمان: قيام الجامعة العربية، واندلاع ثورة الجزائر الأولى، وقامت فرنسا بكبح جماحها فى قسوة، واتخذت اجراءات عنيفة لفصل المغرب العربى كله عن المشرق العربى، وبدأت فى فرنسته تماما، لغة وثقافة وعادات، فمنعت دراسة اللغة العربية، وحالت دون دخول الصحف العربية المشرقة، وخروج الشباب الجزائرى للدراسة فى مصر، فى الأزهر خاصة، وكان أمين الجامعة العربية، الوطنى المناضل، عبدالرحمن عزام يتلقى هذه الأخبار مهموما ، ويفكر جادا فى وقفها، أو على الأقل التقليل من خطورتها .

حاول بالمساعى الدبلوماسية أن يوفد بعثة من المدرسين المصريين لتدريس اللغة العربية فى الجزائر فراوغت فرنسا، كما رفضت بشدة فكرة إنشاء مركز ثقافى مصرى فى الرباط عاصمة المغرب، ولم تتزحزح فى موقفها من منع الصحف والمجلات والكتب المشرقية، خاصة المصرية منها .

موقف مشرف للعرب

فى هذا الوقت كانت إسبانيا معزولة دوليا، لأنها فيما رأى الحلفاء المنتصرون، اتخذت جانب المحور، فقررت كل دول أوربا وأمريكا اللاتينية سحب سفرائها من مدريد، وكانت الدول العربية التى لها سفارات فى العاصمة الإسبانية، الوحيدة التى امتنعت عن تنفيذ هذا القرار،

> لم يكن طه حسين ولا حسين مؤنس من أصحاب فكرة إنشاء المعهد

وعندما تقدمت إسبانيا للانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة صوتت كل الدول العربية إلى جانب دخولها، فى الوقت الذى عارضت فيه الدول الشيوعية، وبعض دول أوربا الغربية، وكانت إسرائيل أشرس المعارضين فى دخول إسبانيا. وفتح هذا المناخ أمام عبدالرحمن عزام الباب ليحاول مع إسبانيا فى السماح بفتح معهد ثقافى مصرى فى طنجة، وكانت هذه تدار دوليا، ولكنها بعد انتهاء الحرب أصبحت عمليا تحت النفوذ الإسبانى، ولم تقبل إسبانيا هذا العرض، واعتذرت بأنها لا تملك الموافقة وحدها على هذا الأمر، وأنها سوف تلقى معارضة شرسة من فرنسا، وربما أيضا لأنها خشيت على نفسها، فقد كانت تحتل شمال المغرب حيث تقع طنجة ، ولكنها ألمحت إلى أنها ترحب بمركز ثقافى مصرى يكون مقره مدريد .

مذكرة إنشاء المعهد

واهتبل عبدالرحمن عزام الفرصة، وشئ خير من لا شئ، وعلى رأس وزارة المعارف محمد حسن العشماوى (تولى الوزارة للمرة الثانية فى وزارة حسين سرى التى تألفت عام ١٩٤٩)، وتربط بين الاثنين صداقة وطيدة، إذ كانا زميلين

عاملين فى «رابطة الإصلاح الاجتماعى» التى يرأسها العشماوى ، وتمارس نشاطا ملحوظا فى مجال الخدمات الاجتماعية، وتصدر مجلة شهرية تحمل اسمها، وتبشر بأفكارها.

واقتنع العشماوى بالفكرة، وأعد مذكرة باسمه إلى مجلس الوزراء، للموافقة على إنشاء المعهد ، ونصها:

وزارة المعارف العمومية

مكتب الوزير

مذكرة لمجلس الوزراء

باقتراح إنشاء معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية بإسبانيا

إن المكانة التى وصلت إليها مصر فى هذا العصر الحديث، لا سيما بعد أن ظفرت باستقلالها السياسى، التى تفرض عليها أن تمثل فى الخارج تمثيلا ثقافيا يدعم مركزها فى الثقافة العالمية، يضاف إلى ذلك أن بلادا أصغر من مصر ، وأقل منها ثروة قد حرصت على هذا التمثيل الثقافى ، وأنشأت معاهد فى كثير من عواصم الشرق والغرب ، وقد أخذت مصر أهبتها منذ سنة ١٩٤٣م للمضى فى هذا السبيل، وتمثيل شخصيتها فى العواصم الكبرى، فأنشأت المعهد المصرى بلندن ، ثم أنشأت المعهد المصرى بواشنطن، لإطلاع المصريين على ما ينبغى أن يعرفوا من الأمور العلمية والفنية والإدارية فى البلدين ، وإطلاع الأجانب على ما ينبغى أن يعرف من شئون النهضة المصرية، ونشاط المصريين فى فروع الحياة العقلية على اختلافها ، ثم توثيق العلاقات الثقافية بين مصر وتلك البلاد .

واليوم وقد أثبت المعهدان الناشئان ما كان معقودا بهما من آمال فى هذا الشأن لابد من إعداد العدة للاستمرار فى هذا النحو من أنحاء التعاون الثقافى العالمى، وإن بين مصر وإسبانيا من أسباب التقارب الثقافى والعلمى وووشائج التاريخ ما يلفت النظر إلى ضرورة إنشاء معهد إسلامى عربى فى إسبانيا ، لا شك أنه سيكون عظيم الخطر ، بعيد الأثر فى الثقافة العربية ودراسة التاريخ العربى ، فقد ازدهرت اللغة العربية فى إسبانيا قرونا طوالا، وتركت فيها آثارا خالدة، ومن حق هذه الآثار أن تدرس على أحسن وجه وأدقه ، وهذه الآثار مختلفة متنوعة، منها ما يتصل بالأدب والفلسفة وعلوم اللغة العربية والدين ..

وفى إسبانيا مخطوطات عربية قديمة قيمة، من حقها أن تنسخ لتستقر نسخ منها فى مكاتبنا المصرية، يرجع إليها الباحثون فى غير مشقة ولا نفقة، ومن حق بعضها أن ينشر ليتمتع به الباحثون فى الشرق والمغرب ، ويستمتع به المثقفون جميعا ، ومادام الأدب العربى يدرس فى معاهدنا فى إسبانيا والمغرب ، ومادام فى مصر معهد للآثار الإسلامية ومتحف للآثار العربية، فمن الحق علينا أن يكون علمنا بالآثار الإسلامية فى إسبانيا



عبد الرحمن عزام



محمد العشماوى

والمغرب دقيقا عميقا ، وليس مما يلائم الكرامة المصرية، ولا الكرامة العربية الإسلامية أن يستأثر المستشرقون بكل هذه العلوم وأن يكون اطلاعنا عليها سطحيا يسيرا لا دقة فيه ولا عمق ، وقد أخذ المصريون يستأنفون حياة فنية خصبة ، وأنشئت فى مصر مدرسة خاصة للفنون الجميلة ، وإسبانيا موطن من مواطن الفنون يرتادها الفنانون المتخصصون من جميع أقطار الأرض ليدرسوا ما فيها ن روائع العمارة والنحت والتصوير . ولفرنسا معهد خاص للفنون فى مدريد ولها معهد آخر ثقافى ، وما ينبغى من الآن أن تستأثر الدول الأوربية بإنشاء المعاهد الثقافية فى إسبانيا ونحن أحق الناس بالثقافة الإسلامية ، قديمها وحديثها، وليس يعرف بلد إسلامى نظمت فيه العلاقات الثقافية مع إسبانيا الإسلامية لمصر، فقد كانت الإسكندرية فى القرون الوسطى مدينة يحبها العلماء الأندلسيون ، يهاجرون إليها ويستقرون فيها ، ومازال الأزهر الشريف إلى الآن يعيش على آثار العلماء الأندلسيين فى النحو والقراءات ، فإنشاء هذا المعهد إحياء للتقاليد المصرية الإسلامية القديمة ، هذا إلى أن مصر توجه منذ قريب عناية خاصة إلى دراسة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة ما يتصل منها بالحضارة الإسلامية .

على أن حكومة إسبانيا لا تزال تظهر رغبتها المؤكدة فى توثيق علاقاتها بالبلاد الإسلامية وقد أنشئ فى برشلونة معهد خاص بدراسات البحر الأبيض والعالم العربى .

وإن عصر الفاروق لجدير بأن ينشأ فيه معهد مصرى عربى إسلامى تنظم فيه العلاقات الثقافية بين إسبانيا وبين الجامعة الناشئة التى تحمل اسم الفاروق أعز الله ملكه .

من أجل ذلك نتشرف برفع الأمر إلى مجلس الوزراء رجاء الموافقة على إنشا معهد مصرى إسلامى فى إسبانيا باسم: « معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية بإسبانيا والإذن فى اتخاذ

الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذا المشروع »

وزير المعارف

محمد العشماوى

(إمضاء)

● ● ●

إلى وزارة المعارف العمومية

وافق مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة فى ٤ يناير ١٩٥٠ على ما جاء فى هذه المذكرة وقد ألغت وزارة الخارجية هذا القرار .

رئيس مجلس الوزراء

حسين سرى

(إمضاء)

قطعت جهيزة قول كل خطيب، ولا اجتهاد مع النص كما يقول علماء الأصول !

● ● ●

أنشأ محمد حسن العشماوى المعهد، وبعد إقراره بقليل سقطت وزارة حسين سرى فى يناير ١٩٥٠، لتخلفها وزارة الوفد ، وفيها تولى طه حسين وزارة المعارف العمومية، وفى تلك الأيام من تاريخ العالم كانت الحرب الباردة على أشدها بين الولايات المتحدة وحلفائها من جانب، والمعسكر الشيوعى من جانب ، وكل طرف يسعى فى ضم بقية الدول إليه، ويبدأ جون فوستر دلاس وزير خارجية الولايات المتحدة يطوف منطقة الشرق الأوسط ، يبشر بمشروع «ملء الفراغ» الذى دعا إليه الجنرال أيزنهاور ، بعد انحسار نفوذ الاستعمار البريطانى والفرنسى فى المنطقة ، **ورفض الوطنى العظيم الدكتور محمد صلاح الدين، وزير خارجية مصر، مدعوما من النحاس باشا رئيس الوزراء**، فى لغة حاسمة قاطعة هذه المشاركة: «إن مصر لن تشارك فى أى معاهدة دفاع مشترك قبل أن تجلو عنها القوات البريطانية الرابضة على أرضها، وبعد رحيلها سوف يكون لكل حدث حديث » .

فى ذلك الوقت كان الفاتيكان يدعم الولايات المتحدة بقوة فى حصار مايدعوانه بالمد الشيوعى ، وكان نفوذ الفاتيكان أقوى مايكون سياسيا فى إسبانيا لأن مرتين أرتاخو رجل الكنيسة القوى ، ورئيس مجلس إدارة صحيفة «يا» اليومية الكاثوليكية كان وزير الخارجية فى حكومات الجنرال فرانكو المتتابعة ، وأخذ على عاتقه تطويع العالم العربى بحكم الصداقة التى تربط بينه وبين إسبانيا .

وتمهيدا للأمر وبإشارة من المستشرق الإسبانى الكبير إميليو غرسية غومث أستاذ اللغة العربية فى الجامعة المركزية فى مدريد، ومستشار وزارة الخارجية فى الشئون العربية، تقرر دعوة الدكتور طه حسين وزير المعارف لزيارة إسبانيا رسميا، ووصلها فى أوائل نوفمبر عام ١٩٥٠، وأعدت له الحكومة الإسبانية استقبالا حافلا يتمثل فى :

● أن تمنحه الجامعة المركزية درجة الدكتوراه الفخرية .

● ترجمة كتابه الأيام إلى اللغة الإسبانية، وكانت هذه أول ترجمة لشئ من مؤلفاته ، وقام بها غرسية غومث ، ونشرت فى مدينة بلنسية، فى طبعة فاخرة أنيقة، وطبع خمس مئة نسخة فحسب، قدمت له نسخة منها فى حفل كبير، واقتصر توزيعها على الهدايا، ولم تعرض للبيع فى أى مكتبة، ولم يشعر بها القارئ، ولم تطبع بعد ذلك ثانية، حتى يومنا هذا، وربما كانت الكتاب الوحيد لغرسية غومث الذى طبع مرة واحدة، وأملك نسخة من هذه الترجمة توصلت إليها بعد جهد كبير .

● أن يقوم بافتتاح المعهد رسميا ، وتم ذلك فى حفل رسمى أقيم فى ١١ نوفمبر ١٩٥٠ .

ثم أقيلت حكومة الوفد إثر حريق القاهرة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٢ ، وبعدها بشهور قامت الثورة، وسقط النظام الملكى، وكان النظام الجديد أشد شراسة فى مقاومة الأحلاف المشبوهة، ومع ذلك ظلت إسبانيا تعمل لحساب الفاتيكان ولحساب الولايات المتحدة، ومدفوعة بكراهيتها الشديدة للشيوعية، ولكنها لم تحقق من وراء ذلك شيئا، ولكن مصر والعالم العربى ربح من وراء تقوية العلاقات مع إسبانيا الشئ الكثير، فى موقفها من عدم الاعتراف باسرائيل طوال حياة نحو فرانكو، وجانب كبير من الأسلحة التى كانت تهرب إلى الجزائر أثناء الثورة، عن طريق المغرب أو ليبيا أو مباشرة كانت تشحن فى أغلبها من ميناء قرطاجنة الإسبانى على ساحل البحر الأبيض، وكانت الحكومة الإسبانية تغض الطرف عن كل ما يجرى على أرضها .

يجب تكريم اسم صاحب مشروع المعهد الحقيقى حتى لا تتوه الحقيقة بين أصحاب الهوى والغرض

● ● ●

أرأيت ظلما أبلغ من هذا الظلم؟ محمد حسن العشماوى أنشأ المعهد المصرى ، وذهب طه حسين وحده بالمجد كله دون أن يكون له دور أساسى فى الإنشاء !

وتبقى كلمة أخيرة

مر على إنشاء المعهد أكثر من نصف قرن من الزمان ، تغيرت فيه أشياء كثيرة، فى وسائل الإعلام والاتصال والخطاب، وتعددت وتنوعت فى مصر الخارج، ومنطقى إذن أن أتمنى على وزارة التعليم العالى أن تدرس أمر هذا المعهد ، وأن تكل إلى لجنة علمية فنية محايدة تقوم بعمل «دراسة جدوى» له، هل لملايين الدولارات التى انفقت عليه عائد يساويها؟ وكل ما أرجوه أن يعصم الله اللجنة من الهوى والغرض لصالح هذا الوطن المنهك اقتصاديا إلى حد بعيد!. ■



أسرار حافظ نجيب

الصحفى والشاعر والأديب

(١٨٧٩ - ١٩٤٦)

بقلم
أحمد حسين الطماوى

للسقوط الأخلاقى أثره الظاهر فى المكانة الاجتماعية للكاتب، فإننا لا نكن احتراما لأديب محتال وإن ابتنى قصوراً للثقافة، ولا نطرب له وإن شدا فى دوحة الأدب، ذلك أن سلوكه الشائن أظهر فى عيون الناس من كتاباته ، ومن ثم إذا ذكر اسمه ابتسمنا ساخرين، وإذا أطلعنا شخص على أدبه، استخففنا به متندرين، وقد كان حافظ نجيب وافر الملكات، متنوع المواهب ، منسرح النظرة فى الحياة، له أفكار واضحة متزنة، وأشعار تتجلى فيها شخصيته وقصص يحلل فيها النفوس والعواطف، وموضوعات اجتماعية يتعامل فيها مع الحقائق، وكل ذلك لم يرض الناس عنه، ولم ينسهم انحرافاته، ونتج من هذا تضارب الأقوال فيه، والتهوين من شأنه، وتبديد آثاره، والتناول العابر لما بقى منها ، ولو كانت آثاره لرجل آخر محمود السيرة لاحتل بيننا مكانة عالية.. وتناولته دراسات جادة.

وإذا كنا قد عرضنا لحافظ نجيب الفيلسوف المحتال، فى مقال نشرته «الهلال» (اغسطس ١٩٩٤) فإننا اليوم نستكمل مسيرته الأدبية والصحفية، بعيداً عن كتاب «اعترافات حافظ نجيب» الذى توفر عليه من كتبوا عنه، وقلما تجاوزوه

بدأ حافظ نجيب حياته الأدبية بالكتابة للمسرح بعد فشله في التجسس لصالح فرنسا وعودته إلى مصر.

وفي نحو ١٩٠٥ اتهم بالاحتيال وألقي القبض عليه، وزج به في سجن الحضرة، ومن السجن أرسل بقصائد شعرية وبقصة طويلة إلى جورج طنوس، وقد نشر هذا الشعر أو قدر منه في مجلات وكتب وعلق خليل مطران في المجلة المصرية (فبراير ١٩٠٩) على قصيدة من قصائد حافظ، وجاء كلامه تحت عنوان:

«مجرم شاعر» قال: «تناقلت بعض الجرائد قصيدة لناظمها حافظ نجيب وهو اسم فتى عرفه سكان القطر بغرائب حيله، ونوادر الوقائع التي سجن بسببها، قالها وهو معتقل في الحضرة منذ سنتين وهذه مختارات منها:

«تجرد رأسي يا زمان من الفكر
وأصبحت محموما أبيت على الجمر
كذلك مات الحب في القلب يائسا
وزال به ما كان يحرق في الصدر

ومنها:

وأصرف وقتي بين هند وزينب
أعاقرها راحا إلى مطلع الفجر
وتسلب مالي ذات خد محمر
وأصبح محروق الفؤاد من الخمر

ومنها:

فياليت من يهوى يرى اليوم حالتي
لينظر ما تأتي النساء من الغدر
فما باعني للسجن إلا مليحة
علقت بها يا قوم من أول الأمر

«ومن تصفح هذه الأبيات المرسلة مع السليقة على ما فيها من ركاكة وضعف



مقالات «الحاوي» اتسمت بالهدوء والاعتدال، تحاذر من السلطة، وتنأى عن السياسة

تركيب من استشف خلالها فطرة لو عولجت وتدوركت لصلحت للشعر والأدب، ولا يسوء بعض أدمياتنا ممن يتصدون بمقال لكل مقام أنه لو كان للمنشآت قانون عقوبات لدخلوا السجن تأديبا.

ولم يجدوا بينهم حافظا نجيبا..

وليس لي أن أعقب على كلام الخليل، وهو من هو في الشعر والنثر والنقد، ولكن أريد أن أوضح نقطة مهمة وهي أن شعر حافظ نجيب هذا وغيره يعد من شعر الشخصية، وقد كان الأستاذ العقاد يعيب على شعر شوقي، أو الغالبية العظمى منه، خلوه من شعر الشخصية، وكان يقول: «الشاعر الذي لا تعرفه من شعره لا يستحق أن يعرف.. وشعر الشخصية هو الشعر الذي يعبر فيه الشاعر عن أحاسيسه، ويستظهر فيه أعماقه.. ويستمده من حياته، ومن هنا يكون مطبوعا وليس متكلفا، وشعر حافظ كان ينقل فيه أحاسيسه ويضمنه معالم نفسه، ويعبر فيه عن تجاربه وواقعاته،

ومنها قضاؤه الليل حتى الفجر مع راقصات فى الأزبكية وغيرها مثل شفيقة القبطية وحميدة وغيرهما ويقابل هذا فى شعره السالف قوله: «وأصرف وقتى بين هند وزينب».. ومنها تجربته الكبرى مع الأميرة الروسية فيزنسكى التى عشقته، وأعدته لنفسها، ودفعتها الغيرة عليه من الراقصات اللاتى ينادمهن حتى الفجر إلى التحريض عليه وسجنه، فكرهها وقال فى الأبيات السالفة- «مات الحب فى القلب يائسا».. ثم قال:

«فما باعنى للسجن إلا مليحة»..

ويقول فى قصيدة أخرى يربط فيها بين السجن والحب نشرتها مجلة «الأقلام» (ديسمبر ١٩٠٦):

ولولا الهوى ما بت فى القيد مثقلا
ولا بت فى وادى الهموم كما ترى
ولا تعجبوا إن بات لى السجن منزلاً
فقد ينزل الإبريز فى منجم الثرى

ويعرب عن ضيق نفسه وتبرمه بالحياة فى قصيدة أرسلها إلى جورج طنوس من سجن الحضرة ونشرت فى كتاب «نابغة المحتالين» فيقول:

يا صاح قد غدر الزمان ومن هوى
أحرى به سم بكأس مفعم
خير من السجن الطويل وضيقه
فالسم أطيب من شراب العلقم
ولقد سئمت من الحياة وذلها
وغدا الممات أحب من لثم الفم

هكذا كان يعبر فى شعره عن الحب والسجن، ويعرب عن رغبته فى فض علاقته بالحياة، وقد يكون فى صياغة شعر حافظ قليل من الفن، ولكن فيه كثير من الصدق، ولعل هذا ما قصد إليه خليل مطران عندما ذهب إلى أن شعر حافظ فيه ركاكة وفطرة، وقد كان العقاد يعرف الشعر بقوله:

«التعبير الجميل عن الشعور الصادق»

وإذا كان شعر حافظ خلا من التعبير الجميل، فقد تمثل فيه الشعور الصادق، وعلى أية حال فإن مطران فضله على غيره وذلك عندما أخرج حافظ نجيب من بين الأدباء الذين يدعون الأدب.

فترة غامضة

سجل حافظ نجيب ترجمته الذاتية منذ مولده حتى يناير ١٩٠٩ فى كتاب «اعترافات حافظ نجيب» فأضاء تلك الفترة.. وكشف عن العناصر التى كونته، والأفكار التى غلبت عليه، وكان فى نيته أن يكمل ترجمته الذاتية، ولكن المنية وافته عام ١٩٤٦، ومن هنا صارت الفترة من يناير ١٩٠٩ إلى تاريخ وفاته يكتنفها الغموض الشديد، وبالرغم من البحث الدوب فإن المعلومات فيها شحيحة، والهوات فيها واسعة، ومع ذلك نذكر ما وقفنا عليه ، فقد أصدر جورج طنوس عنه كتابين أولهما كان فى صيف ١٩٠٩ وعنوانه «نابغة المحتالين أو حافظ نجيب» ويشتمل على نوادره فى الاحتيال وعدد من القصائد وقصة واقعية، وقد تناولته مجلة «المحيط» (أكتوبر ١٩٠٩) وقالت: إنه «كتاب جمع كثيرا من الحوادث الواقعية التى أتاها هذا النابغة فى النصب والاحتيال فجاء كرواية تلذ مطالعتها لأن وقائعها لا تقل فى الغرابة

عن وقائع الروايات الخيالية.. أما الكتاب الثاني فهو الراهب المسلم صدر عام ١٩١٠.

وفي سنة ١٩١٢ طبعت دار المعارف كتابين لوسيلة محمد الأول عنوانه «روح الاعتدال» مترجم عن شارل وانير، والثاني «غاية الإنسان» مترجم عن جان فينوت، ووسيلة محمد هي زوج حافظ نجيب ولا صلة لها بالكتابين، وقد قال حافظ مرة إنه ألفهما، ومرة أخرى أنه ترجمهما، وفي آخر عام ١٩١٢ قبض عليه وقدم للمحاكمة عام ١٩١٣ وحكم عليه بالسجن، وفي عام ١٩١٥ طبعت له دار المعارف كتاب «الناشئة» ويدخل في إطار العلوم الاجتماعية، وفي عام ١٩١٦ تفيدنا جريدة المحروسة أن الشرطة كانت تبحث عنه وتصدر نشرات بأوصافه ليتسنى لها القبض عليه، وهذا يعني انه ربما هرب من سجن طرة، أو أنه أمضى فترة العقوبة ثم ارتكب جرائم جديدة، ولم يتيسر لي أن أعرف شيئا عن حياته في الفترة من ١٩١٦ إلى ١٩٢٠.

والظاهر لي أنه قضاها أو قضى معظمها في السجن، وأنهى جميع العقوبات وصار حرا، ودليلنا أنه ظهر في المجتمع جهاراً بعد سنة ١٩٢٠، وأصدر المجلات ومثل المسرحيات وأهم من كل ذلك إصداره القصص والروايات المترجمة والمؤلفة.

القاص

ومن رواياته المترجمة: أصبع الشيطان ١٩٢١ حذاء الميت ١٩٢١ زواج جونسون ١٩٢١، قاضي التحقيق ١٩٢١ عفريت بيكار ١٩٢١، قاتل اليدى بلتهام ١٩٢٢، القطار المفقود؟ وفاء هيلين؟



رواية من مؤلفات حافظ نجيب - ١٩٢٦

وجميعها من روايات جونسون وتقع في سبعة مجلدات وعددها ٢٢ جزءا، عدا ثماني روايات ملتون اضافة الى الغرفة الصفراء، الشيخ المخيف ١٩٢٥، سر الجريمة (فهارس دار الكتب ومجلة الحاوي ١٩/١/١٩٢٦) ومما يجدر ذكره أن هذه الروايات كانت الغذاء الثقافي الأول لنجيب محفوظ الذي يقول: سنكلير وميلتون توب وغيرها من الروايات التي كان يترجمها حافظ نجيب بتصرف.. هذه الروايات هي كل قراءاتي الأولى.. (كتاب نجيب محفوظ - صداقة جيلين لمحمد جبريل ص ١٥، ١٦).

أما الروايات والقصص المؤلفة فنذكر منها: موت حافظ نجيب ١٩٢١، ثورة العواطف ١٩٢٦، الحب والحيلة ١٩٣٧ ويذكر حافظ نجيب في الحاوي أن له عشر روايات اسمها «روايات حافظ نجيب» ويبدو أنه أضاف إليها، فإن صلاح عيسى يذكر أن في مكتبته واحدة منها بعنوان «كنوز السلطان عبدالحميد صدرت عام ١٩٣٧ (القاهرة

٢٠٠٢/١١/١٢).

وقد سارت قصص حافظ نجيب فى خطين: الأول هو الخط البوليسى الذى يساير حياته فعمله بالتجسس ثم مغامراته مع الشرطة، وإجادة الإخفاء والتمويه والتنكر جعلته يميل إلى ترجمة وتأليف القصص البوليسية، والثانى هو الخط الغرامي، وهذا ليس بعيدا عنه فقد عرف منذ الصبا الألفة والحب وفى اعترافاته مادة وفيرة فى هذا الجانب، هذا إلى جانب ثقافته فى هذين المجالين فقد كان يهيم بقراءة الروايات، وكان يرى أن الأحداث الخيالية تشغل باله عن الهموم ولأنه تنقل فى بعض دول أوروبا فإن عددا من قصصه المبتدعة تجد فيها البيئتين المصرية والأوروبية.



إعلان فى الصارى عن فرقة حافظ نجيب ومسرحية «بم بم»

وأول رواية كتبها تلك التى نشرها جورج طنوس فى كتابه «نابغة المحتالين» وتقع فى نحو مائة صفحة، وبطلها عزيز تقسو الحياة عليه، فيسخط عليها، ويستخف بالقيم، ويتملكه الحقد والحنق على الناس.

ويضمر الانتقام من الدنيا فيؤذى البشر وهى فكرة شريرة، وكان عليه أن يستعلى على الحياة ويزهد فيها، أو يتعامل مع معطياتها ويحاول توجيهها إلى صالحه، ولكن آثر أن يحيا حياة بوهيمية شيطانية.

ولعل حافظا كان يعبر عن نفسه، ويبرر سلوكه الشائن وهو نزيل سجن الحضرة عام ١٩٠٦.

وقصته «ثورة العواطف» ١٩٢٦ يعالج فيها غرام أديب أرمل فى الأربعين بفتاة دون العشرين (ثريا) ابنة صديقه وجاره، ولكن «ثريا» كانت تحب شابا يناسبها، وترفض الزواج من الأديب، وتقترن بالشاب الذى يسىء إليها ويبدد ثروتها فتندم على عدم الزواج من الأديب، أما ابراهيم فيموت كمدا، وتنتحر ثريا حزنا عليه.. وهذه القصة تذكرنا بعشق جوته وهو فى السبعين من عمره لأولريكه وهى دون العشرين ورفضها الزواج منه، وبعشق العقاد وهو فوق الخمسين لفتاة شابة الهمته ديوان شعر «أعاصير مغرب» وبعد أن امضت معه وقتا هجرته.

ونسيت اسم حكيم قال ما معناه: إن الشاب عند المرأة أفضل من جميع حكماء العالم. وهذا صحيح لأن الأنثى فى الصبا لا تطلب السلام مع كهل، ولا تنشد الهدوء مع شيخ وإنما تتيقظ نفسها مع شاب يميل إلى المغامرة والمجازفة ويشب بها وثبا إلى حيث تكون سعادتها.

صور حافظ عاطفة الأديب الرقيقة، وانفعالاته القوية، وحنانه وحياءه عندما يحب، وعند المؤلف أن الأديب أكثر رقة من الموسيقى والمصور «المصور تغريه المناظر والأجسام والأوضاع، أما الكاتب فتكفيه التخيلات. والأمانى والأحلام.. والموسيقى لا يتنبه شعوره إلا

بالنغمات والأوزان...

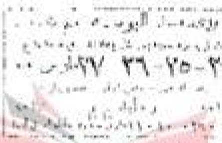
والقصة رقيقة العبارة ، جميلة العرض، مهذبة الألفاظ، ومن تقنياتها أن المؤلف جعل المشاهد والحوادث مناسبة إلى حد كبير لشخصياتها.

العالمين والحاوى

لا ريب فى أن حافظ نجيب حقق شهرة واسعة من كثرة ما كتب عنه فى الجرائد، ومما زاد فى شهرته تلك الروايات الكثيرة التى ترجمها وألفها فى عامى ١٩٢١، ١٩٢٢، وربما كان ذلك دافعا له للاشتغال بالصحافة، فأصدر مجلة «العالمين» اسبوعية ادبية علمية مصورة فى ١٩٢٢/٥/٨.

وقد خلت ترويسة المجلة من اسم حافظ نجيب، ولكن فى فهرس الدوريات التى تقتنيها دار الكتب، تجد المجلة منسوبة إلى عبدالقوى الحلبى وحافظ نجيب، وبالرغم من أن المجلة واصلت الصدور حتى ربيع ١٩٢٤، فلم أشهد منها إلا الاعداد التى صدرت من مايو إلى أكتوبر ١٩٢٢ وهى الاعداد الموجودة فى مجلد واحد بدار الكتب.

فى العدد السابع من «العالمين» (١٩٢٢/١٠/١٢) أظهر صاحباها غرضهما من مجلتهما وهو تناول شخصية مصر وابراز دورها فى الحياة العصرية من خلال عطائها، وعلاج عللها، وأظهر ان صحيفتهما ستكون معرض صور مصرية، ومرآة تتراءى فيها نفسية هذه الأمة، وتتعكس عنها أخلاقها وتطورها ونظرها إلى الحياة، وإسهامها فى حركة التقدم الإنسانى لذلك فقد وجهت انتقادات شديدة لبعض المسرحيات الهابطة، ونددت بالفودفيل القذر، وبروح التبذل والسوقية فى المسرح، كما انتقدت طلبة البعثات العلمية المصرية إلى أوروبا والذين عادوا بالألقاب الكبيرة ولم يحدثوا انقلابا فى المواد العلمية لدينا أو غيروا وجهة الأدب عندنا أو أثاروا نهضة اجتماعية.. وقد حفلت المجلة بمادة أدبية شعرية وزجلية، وقصصية، ونشرت محاضرة مهمة لطنطاوى جوهرى اثبت فيها سبق المسلمين للأوروبيين فى المخترعات العلمية مثل الجاذبية ورقاص الساعة، وغيرهما، وكان من كتابها يونس القاضى ومحمد السباعى وعباس حافظ وقد توقفت «العالمين» نتيجة دسيسة، فقد رأينا حافظ يكتب فى أول عدد من مجلة «الحاوى» انقطعنا عن الكتابة مكرهين، ولم نشعر بغير الوحشة لانقطاعنا عن الاتصال بقرائنا.. اكرهنا بوسائل غير شريفة على وقف ظهور مجلة العالمين.



اعلان فى «الحاوى» عن مسرحية «الهوسة»

وأصدر حافظ نجيب فى ١٤ من يوليه ١٩٢٥ مجلة «الحاوى» وهى أدبية علمية مصورة.. والحاوى هو الشخص الذى يخرج من جرابه أشياء كثيرة متنوعة، وكانت المجلة أو حافظ كذلك، ففى أول غلاف لها نجد رسما لرجل، هو الحاوى يخرج من جرابه أشياء مثل: أبحاث اجتماعية ، فكاهات ألعاب رياضية ، ألعاب بيتية، فوائد منزلية، قصة الأسبوع، رواية مسلسلة، أسئلة وأجوبة، المسرح، النقد، اكتشافات حديثة،

الأدب المختار، وهى ابواب الحاوى، وقد قدمت المجلة قصصا مترجمة عن ٧ وموليير وغيرهما، ومؤلفة مثل «زهرة هانم».، وانتقدت منيرة المهدية ومسرحيات كانت تمثل، وقدمت نماذج مختاره من البلاغة العربية العالية، وكان من كتابها محمد عبدالمجيد حلمى صاحب مجلة المسرح، وكامل كيلانى، وسيد ابراهيم (الخطاط) ومحمد أمين حسونة وغيرهم وقد لاقت المجلة تشجيعا وترحيبا من القراء فقال أحدهم فيها:

أهلا وسهلا بالحاوى
يابو الجراب محشى فتاوى
تشرح وتمزح وتداوى
يابو نجيب يحيا الحاوى
يا رفاعى مسدد
فى كل عدد
وتهيص يا وليد
وتعيش فى رغد

ومن مواد هذه المجلة ما يكشف عن البون الشاسع بين حياة صاحبها وكتاباته.. فإذا كان قد اشتهر بالاحتيال فإنه فى قصة «جنى على نفسه» هاجم فيها الدجالين، والمحتالين وإذا كنا نعرف من اعترافاته أن من أسباب شقائه عشقه للنساء الأوروبيات السافرات مثل فيزنسكى . فإنه فى «الحاوى» ينتصر للحجاب،، وينتقد منيرة ثابت التى تحض على السفور ، يقول: «إذا كانت المرأة وهى محجبة على هذا الحال من الخلاعة، فكيف تكون إذا هدمت الحجاب، ومزقت النقاب وانفتح لها الباب.. وحافظ الذى كان يتنقل بين الراقصات ويستغرق فى الملذات وينفق الأموال إرضاء لمزاجه، يحارب فى الحاوى، الاسراف فى المطالب ويقول «لو قارن كل فرد بمن هو دونه فى الغنى والجاه ونظر إليه كيف يرضى ويسر بالضروريات إن حصل عليها لاستطاع أن يردع النفس عن غيها، وقوى على كبح جماحها وأرضاها بما يرضى القنوع الراضى.

الحاوى تهاجم الملك

ومقالات الحاوى الصحفية والأدبية، يسيطر عليها العقل، وتتسم بالهدوء والاعتدال ، وتناقش موضوعات أدبية وفنية، وتحاذر من السلطة، وتنأى عن السياسة، واستثنى من ذلك مقالا خاطبت به الملك فؤاد، باطنه الشدة، وظاهره اللين عنوانه «تحية وضراعة» جاء فيه: «شعبك يا صاحب الجلالة فى ضائقة ، يضرع اليك.. من ضيق ومن قهر، يستغيث لا عن عجز ولا عن مكر، ففي القرن العشرين فى عصر المدنية والنور يربط شعب على الخسف ويراض على الضيم، ويساق كالماشية أو يطرح فى الشاوية.

يا صاحب الجلالة.. انتزعت من الشعب إرادته، وسلخت منه حريته، واحيط به بالحديد، وفى كل يوم إرهاق جديد.. سلاح شعبك يا مولاى الحق واللسان، وسلاح مرهقيه القوة والحديد، ولولا وداعة الشعب وحكمته، ولولا لطف الله ورحمته لما صمدت القوة ولا استعصى الحديد».

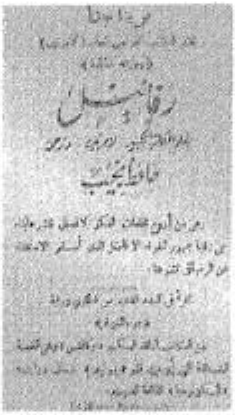
وتحذر الملك من الثورة وتقول:

« طبيعة الشعب فى كل زمان ومكان كطبيعة الحليم الوديع يصبر فى استكانه، ويحتمل الضيم والإهانة إلى حين، فإذا أحرجته المصائب، وإذا نفدت قوة الاحتمال، فهو البحر فى هياجه، والعاصفة فى ثورتها، وشدة الألم تسوق إلى الجنون ».

« ياصاحب الجلالة الشعب فى كل مكان عاطفة لا عقل، ومن المستحيل أن تبيد أمة ليحيى فرد، الجميع يامولاى من شعبك ، والكل يضرعون إلى جلالتك بضراعة ليست ظلما وليست حماقة يطلبون الحرية.. والمساواة .. يطلبون العدل والعدل اساس الملك .. المحرر »

جاء هذا الخطاب فى افتتاحية آخر عدد من اعداد «الحاوى» بدار الكتب فى تاريخ ١٦ / ٨ / ١٩٢٩ ولا أدرى هل احتجبت «الحاوى» بعد هذا التاريخ بسبب هذا الخطاب أو لأسباب أخرى لا أدريها .

وتتمة لسيرته الأدبية نذكر أن من مؤلفاته «مناهج الحياة» ١٩٢٢» ودعائم الأخلاق» «الغرور» وهى موضوعات اجتماعية ونفسية، أما فى مجال التراجم فلابد من ذكر «اعترافات حافظ نجيب» ١٩٤٦ وهى ترجمة ذاتية اتبع فيها منهج السيرة، أو طريقة التسلسل الزمنى وكتبها بطريقة قصصية فجاءت مشوقة، وضمنها اعترافات خطيرة منها ضعف إيمانه وارتكابه الخطيئة الجنسية والاحتيال على الناس وغير ذلك مما يجعلها كاعترافات الأوروبيين، وكان حافظ ملما بالتاريخ، عارفا بالاديان، فكان واعظا مسيحيا فى دير المحرق وواعظا اسلاميا فى سجن طرة، ففى عام ١٩١٣ القى الواعظ الشيخ



إعلان فى مجلة الحاوى عن رواية «روفائيل» لـ «لامرتين» التي ترجمها حافظ نجيب

على الجربى موعظة على المسجونين «فلما انتهى من وعظه وإرشاده، انبرى أحد المسجونين وأخذ يعظ ويرشد بلسان زلق وفصاحة رائقة، وعظات حكيمة ودام يتدفق فى عظاته ساعتين والمسجونون مصغون والاستاذ الجربى يعجب بنصائحه وأقواله وتساءل عن هذا المرشد فإذا هو حافظ نجيب المشهور بشعره، والمشهور بنسكه والمشهور بتاليفه والمشهور فوق ذلك كله بنصبه واحتياله ».

أما عن حياته بعد إغلاق «الحاوى» فالمعلومات عنها قليلة وتفيدنا مؤلفاته بأنه أصدر روايتين عام ١٩٢٧ وذكر يوسف الشريف فى مجلة «الدبلوماسى» ديسمبر ١٩٩٩ أنه كان يقطن فى المنيل فى أواخر حياته وأنه كان يحضر ندوة يعقدها أبوه، وأنه كان يشاهده وهو يسير فى أبهة واضعا قبعة على رأسه كأنه لورد أو بارون . ■

من أزمات القلوب...

شاعر كبير

يتعذب بين فاتنتين

بقلم
د. محمد رجب البيومى

يقول حافظ إبراهيم فى رثاء الشاعر الكبير إسماعيل صبرى :

وكم لك شكوى هوى أو أسى ... لها نفثات تذيب الحجر
هتفت بها مرة فى الهجير ... فكاد يدب إليك الشجر
وكم كنت تشعل فحم الدجى ... بأنفاس صب طويل السهر
فياويح قلبك ماذا ألح ... عليه من الداء حتى انفطر
أيجعله تحت الدجى وحده ... لذكرى ألف سلا أو هجر

وهذا وصف حقيقى لقلب الشاعر إسماعيل صبرى لم يتزيد فيه حافظ، ولو شاء لأطال ولما يعرف من لوعة لصديقه وأستاذه . فى جحيم شوق مستعر، حاول أن يتقيه بشتى الوسائل المانعة، فكان أقوى من شدة الغرم، وقوة الحسم، وإذا كان حافظ قد كشف هذا الغرام بصراحته الواضحة فإن شوقى رحمه الله، وهو الذى يعلم من أمر صبرى ما يعلمه حافظ قد آثر التلميح فاستنبط القارئون من حديثه ما أغناه عن التصريح، فقد تحدث فى رثاء صبرى عن مآل الحسان الفاتنات بعد الممات وقد زال رواؤهن، وغاض جمالهن - ومنهن شبيهات فى الحسن بمن كن سبب بلواه، ومهبط نجواه - فأصبحن فى التراب سليبات النضرة، شائهات الرونق ! يقول شوقى :

فترى العيون القاتلات بنظرة ... منهوبة الأجفان والأسياف
وأزيل من حسن الوجوه وعزها ... ما كان يعبد من وراء سجاف
من كل لماح النعيم تقلبت ... ديباجتاه على بلي وجفاف


الكسندرة الخوري


اسماعيل صبري


مـــى زيـــادة

وأنا ما قرأت هذه الأبيات وما بعدها في القصيدة إلا تذكرت جمالا رائعا هزني هزا ورجني رجا، ثم زرته في سرير المستشفى بعد حين ، قعدت بحسرة لما شهدت ، وهو لا يزال يشم رائحة الحياة، فكيف به بعد الممات !

لا أتحدث عن حياة الشاعر الذي بلغ من المجد الدنيوي ماكفاه، فقد تولى أكبر المناصب الإدارية والقضائية، ونال رتبة الباشوية، وطلب إحالته للمعاش وكيلا للحقانية . حين كانت وكالة الوزارة يومئذ واحدة لا تتعدد في الوزارة الواحدة، ولو لم يطلب الإعفاء لنال ما بعدها ، إذ كان لا يزال له مديد من السنوات! وتسألني عن السبب الباعث للاعتزال فتجده في كرامة النفس، فقد كان في عهد كرومر الطاغية يأبى أن يزوره في حشد الموظفين في المناسبات الداعية، ويجاهر بوطنيته الصارخة فيما ينظم من رثاء الزعماء ، وقد سار في جنازة محمود سامي البارودي مع ثلاثة من الأفذاذ هم محمد عبده والشيخ علي يوسف وخليل مطران ، وخاف الوزراء والمستوزرون أن يشاركوا في توديع أحد زعماء الثورة العرابية، فيغضب عليهم القصر والمحتل،وقد قال الاستاذ خليل مطران في ذلك (وخير لثلة - البارودي - أن يعتاض بالشيخ محمد عبده عالما، واسماعيل صبري شاعرا، والشيخ علي يوسف كاتبا، من وزراء لم يعرفوا الوزارة مرة كما عرفها ، ومحافظين ومديرين لم يألفوا الأحكام شريعة كما ألفها» .

أجل لا أتحدث عن حياة الرجل الرسمية ، ولكني أتحدث عن هم خامره ، فقد وصفوه، وعاق هناته وما كان يستطيع له دفعا ، وقد زاد من حدته في نفسه ، وسطوته على قلبه ماتحلى به من شدة الحياء وموفور الكرامة ، فكان حياؤه يمنعه أن يأنس بمن يود أنس الحبيب بالحبيب ، لا أنس الجليس بالجليس ولكنه يدفعه من ناحية

ثانية إلى معاناة نفسية ، قد تورطه إذا اشتد تأثيرها . وغلى بركانها فى أن يذل فى الإفصاح عن رغبة حامية ، وهو شاعر ولابد لابن الأيك أن يترنم .

عبث ضائع !

كان إسماعيل صبرى يقول الشعر التقليدى فى مديح صاحب القصر، وهو طالب بمدرسة الإدارة لأن مجلة « روضة المدارس» كانت تشجع هذا الضرب من المديح ، وتعده بابا أصيلا من أبواب الأدب بالمجلة وقد نشر منه فى ديوانه الذى صدر بعد وفاته بخمسة عشر عاما ما لو كان حيا لأنكر نشره ، إذ أنه عبث ضائع لا يتصل بفنه البارع الذى نظمه بعد عودته من فرنسا ، فقد قرأ هناك من الشعر الرومانسى المحرق ماغير نظرته إلى ما قال من قبل ، ثم ظهر صداه فى مقطوعاته الغزلية التى سنشير إلى القليل منها ، ولو خير وشأنه بعد العودة ما نظم فى غير الغزل . ولكنه اضطر إلى مجاملات فى التهنئة ، وبعض قصائد الرثاء لا كلها ، فقال ما قال غير مبرز سابق ، وإن عرف له مكانه الشعرى بما قال، حيث لم ينخفض مستواه عن مستوى ما قيل فى هذه الأغراض أو بقيت مقطوعاته الوجدانية التى كان يقولها لنفسه ، وما بقى منها قليل . إذ لم يكن ليرغب أن يكشف خوالجه الدفينة للقراء ، ولكنه إذا استراح بها إلى التنفيس عن مشبوبها الساخن عدا عليها من بعد تمزيقا وتقطيعا أقول ذلك اعتمادا على قول خليل مطران الذى لازمه وفاء وحبا، وخبره خبرة الناقد الدقيق له ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه إليه ، فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشيا ، وربما قاله فى حضرة صديق ، وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنة بمثل ما تنطق لفظة (إيه) مستطيلة فينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة . وقلما يزيد على هذا العدد إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ، حتى إذا استقام ما يريده ذوقه من رقة اللفظ . وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه وهكذا يجيش فى صدره الشعر ، فيرسل ببيتيه إطلاق زوجى طائر، فيذهبان فى الفضاء ضاربين بأجنحة ملتمعة ، شادين على توقيع العروض إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما فى عالم النسيان ، وذلك هو الشعر للشعر !» .

ترنيمة الشادى

أقول تعليقا على هذا الوضع الذى يتنكر فيه الشاعر لما أبدع من الشعر مفضلا أن يذهب الفضاء بترنيمه الشادى إلى غير عودة ، إن الحياء المفرط ، والاعتزاز الزائد بمعنى الرجولة هو الذى يوقعه إلى إهمال ما تردد على لسانه من خفقات قلبه . فالشاعر يحس تباريح شوقه فلا يجد مناصا من التعبير عنها تنفيسا لبخاريئز بين

ضلوعه . ثم هو يعرف جيدا أن الغادة الفاتنة التى أوحت له بما قال ستعلم من شأنه ما يتنزه عن البوح به ، وهو حريص على أن يظل فى أوجه الخلقى . ومركزه الاجتماعى ، وليس بعيب عليه أن يهتف بما يجد كما هتف من قبله الملوك والأمراء من أمثال امرئ القيس والمعتمد بن عباد وسيف الدولة وأبى فراس الحمدانى وأسامة بن منقذ ومحمود سامى البارودى ! ولكنه كان أحيى منهم جميعا . والرجل لم يخلق أحاسيسه كما شاء فيخضعها إلى ما يريد ! لذلك ضحى بترانيمه الصادقة ، وإبداعه الصادق، وهو أسير مثله الرفيع! ولعله عانى من ضياع هذه الفوائد أقسى مما عاناه من وجد الكظيم .

شاعر وملهمتان

وسأتحدث عن أديبتين رقيقتين ملأتا قلبه فى وقتين مختلفين لا فى وقت واحد، وكأن الأدب كان شرطا أساسيا من شروط الجمال لدى الشاعر ، إذ أنه رأى دون شك من هى أجمل منهما تكوينا ورشاقة ولم يرو عنه أنه شغل بها ، إنما كان شغله الشاغل ، هو الجمال المثقف ، الذى يبلغ بروعة الفكرة ولطف التعبير ، ورقة الإحساس ما يبلغه بإشراق الوجه ، وبسمة الثغر، ورشاقة القوام! والعبء فى ذلك مضاعف تماما على قلب الشاعر وثقيل على إحساسه، لأنه مضطر أن يحوز قلب هذه الجميلة الساحرة برونقها وأدبها معا ، وكأن ما بينه وبينهما من فارق السن البعيدة عبئا ثالثا ووجه به ذات مرة فكاد يصعق!

الأميرة الشاعرة

أما الفتاة الأولى فهى الأميرة الكسندرة الخورى ، وكانت ذات دوى فى المحافل الأوروبية حيث حضرت اجتماعات المرأة فى شتى العواصم الأوروبية ممثلة لفتيات الأمة العربية فسحرت الناس هناك بما قالت وفعلت واقترحت ونالت الأوسمة اللامعة من كبار الملوك والرؤساء . وخلعت عليها إحدى الأميرات الإيطاليات لقبها ، فأصبحت أميرة كما يجيز القانون هناك : وأى مجد أبعد من هذا لفتاة شرقية نشأت فى الشام . وتعلمت فى مدارس الراهبات والأمريكان ببيروت وأتمت تعليمها فى الاسكندرية حتى أتقنت عدة لغات حية مع العربية منها الفرنسية والإيطالية . وانتشرت مقالاتها السيارة فى المؤيد والأهرام ثم تزوجت ثريا إيطاليا هو (ميلتادى أفرنيوه) فحملت اسمه وجنسيته . ووضع ماله تحت قدمها ، فكان عونا لها على أن تصدر مجلة شهرية تسمى (أنيس الجليس) وجريدة يومية تسمى الإقدام . ولئن قطعت الأولى خمسة أعوام كانت أثناءها ذات رنين مدو بين القراء فقد أفل نجم الثانية سريعا ، وكان اسماعيل

صبرى محافظا للاسكندرية حين عين بها فى أول مارس سنة ١٨٩٦، فسمع الكثير عن أنبائها الثقافية والاجتماعية ، واشتاق إلى رؤيتها ، ولكنه كظم مشاعره .

حتى تتاح رؤيتها فى اجتماع رسمى، لم يدع له ، وظل يترقب حتى فاجأت الكسندرة الشعب الاسكندرى بإصدار مجلة «أنيس الجليس» ، وهى مجلة تعبق بأريج الأدب شعرا ونثرا وقصة ، ويكتب بها نوابغ الشباب ، ولصاحبتها مقالها الأسبوعى، وتعليقاتها الذكية ، كما لها ندوتها الأدبية التى تنعقد أسبوعيا بإدارة المجلة ؟! إن المناسبة الأدبية تتيح للمحافظ الشاعر الاديب أن يزور ندوتها مشجعا ، وقد قوبل بما يليق ، من الاحتفاء! ولم يطق أن يكتم ما ملأ قلبه من الحنين نحوها ، بل من الهيام بها ، ولكن كيف يكون ذلك منه وهو لا يتأكد من حسن وقعه ، لقد نشر فى «أنيس الجليس» عدة أبيات جعل نصيب الثقافة والجدال لديها أكبر من وصف الجمال ، ليكون تقديره إياها مرتكزا على سموها العقلى، فلا يؤاخذ بنقد ، هكذا ظن ، وهكذا قال :

إن للفضل رونقا وجمالا ... بهرا الحاضرين فى ناديك
قد تفردت فى الأنام برأى ... غض من صوت معشر جادلوك
وتحليت بينهم بخلال ... لم تكذب سيما الإمارة فيك

وكثر ترداده على الندوة فى أوقاتها المعلومة وقد لاح فؤاده أن يرى الشباب من الأدباء يحظون منها بما لم يحظ به الاصطفاء ! ومع حزمه الصارم ، وعزمه الراسخ لم يستطع أن يكتم مشاعره ، فقال قصيدة (لواء الحسن) أثناء مقامه بالاسكندرية ، وما يعنى باللواء غيرها أقول ذلك بناء على أن الطالب الأزهرى على الجارم قد شطرها إذ ذاك ونشر تشطيره فى ديوانه الأخير مؤرخا فى عام سنة ١٩٠١، وصبرى مشغول حينئذ بصبابته نحوها ، ولم تكن الآنسة (مى) قد سطعت فى حياته بعد. والشاعر فى هذه القصيدة قدوصف محاسن الأميرة وصفا بارعا ثم اتجه إلى مقصوده الذى أحس بناره المتوهجة فى صدره ، وهو عدم العدل بين الزوار من عشاقها ، إذ تخص بالمودة فريقا دون فريق ، نلحظ ذلك واضحا فى قوله :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى ... أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
إن هذا الحسن كالماء الذى ... فيه للأنفس رى وشفاء
لا تزودى بعضنا عن ورده ... دون بعض واعدلى بين الظماء
وتجلى واجعلى قوم الهوى ... تحت عرش الشمس فى الحكم سواء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت ... لتوارى بلثام أو خباء !
لا تخافى شططا من أنفس ... تعثر الصبوة فيها بالحياء

راضت النخـــوة من أخـــلاقنا وارتضى آدابنا صـــدق الولاء
فلو امــتــدت أمـانينا إلى ملك مـا كــدرت ذاك الصـفـاء !

والبيتان الأخيران كانا لدى الشاعر بينه وبين نفسه شفيعيه فى هذا الكشف السافر عن عواطفه المشبوبة ! بعد أن أعلن أسفه لحرمانه من العدل المنشود ! وقد قال قائل من كبار الأدباء إنه نظم القصيدة لتكون مثالا للغزل الجديد فى اللغة العربية ، حين طلب من شعره مثال يترجم إلى الفرنسية ! وهذا كله لا يخفى بواعثها الدقينة ، وتجربتها الملتهبة التى أشرنا إليها من قبل ، ولم يستطع الشوق المحموم فى أحشائه أن يصبر على كتمان عواطفه دون صراحة كاشفة فقد اعترف للأميرة بخالصة نفسه ، حين عرضت عليه ديوانها الشعرى كى يبدى رأيه فى إبداعها الفنى ، فكتب بخطه على غلاف الديوان .

أمـاجـــــــرتى أطـفـى: لـواعـج لاتـنـتــــــــهى
مـــضت فى هواك السنون ومـــا نلت مـــا أشـتــــهى
إذا قـــــيل مــــات الأديب بفـــــاتنة ، أنـــت هـــى

وقد صدمته الأميرة صدمة عنيفة ، حين أرسلت له هذين البيتين :

زمـــــانك قـــبلى انتــــهى وهل يرجع المنتــــهى
فـحــســبى أن أزدهــــى وحـــسبك أن تشــتــهي

ومثل صبرى فى تعاليه الأبى، وكظمه الأليم لابد منصرف عن هوى جويه برفضه ، فطوى جراحه وانصرف عن الأميرة! حتى فاجأه الهوى الثانى، حين رأى وجه الآنسة (مى) !

مى .. ويوم الثلاثاء

لم يكن للآنسة «مى» ذكر أدبى قبل أن تقف فى حفلة تكريم مطران سنة ١٩١٣ لتلقى كلمة جبران خليل جبران ، ثم تتبعها بكلمة من وحى خاطرها ، كانت موضع دهشة للسامعين إلقاء وتعبيرا ومشهدا جذابا ، لفتاة أديبة نادرة المثال ، وقد ذكر الدكتور طه حسين فى الجزء الثالث من الأيام أنه حضر الحفل فلم يرقه شئ مما سمع عن الشعر والنثر إلا ماقالت «مى» ، يقول الدكتور طه :

« إنه سمع صوتا واحدا اضطرب لم اضطرابا شديدا ، وأرق ليلته تلك ، كان الصوت نحيلا ضئيلا ، وكان عذبا رائعا ، وكان لو يبلغ السمع حتى ينفذ منه فى خفة إلى القلب، فيفعل ، الأفاعيل ، ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئا ، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث ، كان صوت الآنسة «مى» التى كانت تتحدث

إلى جمهور من الناس للمرة الأولى » .

لقد كان بين الحاضرين اسماعيل صبرى شيخ الشعراء ، وصديق المحتفل به ، فبهره ما سمع من الآنسة ، وإذا كان الشاب طه قد تأثر هذا التأثر ، فقل ما شئت فى شيخ شاعر فنان ، هاجته ذكرى الأميرة الاسكندرانية إذ رآها ممثلة فى أديبة بارعة الحسن ، رائعة الصوت ، قوية الاحساس ، دافقة الخواطر الشعرية ذات اللون الأنثوى الرقيق ، لقد شغل الشاعر بمن رأى ، ورجع من الحفلة كما رجع طه يلتمس الطريق إلى لقائها ، وإذا التمسه طه عن طريق أحمد لطفى السيد، فقد التمسه الشاعر عن طريق الأستاذ إلياس زيادة صاحب مجلة «المحروسة» ووالد «مى» لقد سارع الشاعر فجالسها مقدرا ما أظهرته من البراعة الفائقة فى حفل مطران وقد مست الرقيق من أوتار فؤاده فضبط انفعاله قدر ما استطاع ، وكانت الآنسة قد تهيأت لإقامة ناد أدبى يجمع الصفوة من أعلام الفكر في منزلها يوم الثلاثاء، ويؤمه العلية من ذوى الفكر شبانا وشيبا وإذا كان الجمهرة من الشباب، فقد كان من الشيوخ يعقوب صروف ، وشبلى شميل، وإدريس راغب! ومتى كان الأمر كذلك ، فليكن منهم إسماعيل صبرى ! لقد عد ذلك الاجتماع الأسبوعي بسمة تألق بالضوء في وجه الحياة العابس إذ حرص عليه حرصه على نور عينه ، وكان بالاسكندرية فى أحد أيام الاثنين ، فخاف أن يفوته مجلس الثلاثاء وشغله هذا الشاغل فصاح :

روحى على نور بعض الحى هائمة كظامئ الطير تواقا إلى الماء
إن لم أمتع بمى ناظرى غدا أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !

وكأنى بالموقف السالف قد تجدد من جديد ، موقف الصراع بين الصبا الغض والكهولة المودعة، وهو موقف طالما عصف بالشاعر عصف الريح بالرمال، وكان ذكر الشباب أول ما يخطر له في مأساته ، ولا يذكره إلا ذكر آنسة ساحرة هيفاء مرهفة القوام ، تثب إلى رؤيتها القلوب فتطفر من الضلوع لتطل مع العيون من الأجفان ، تلك التى عناها اسماعيل صبرى حين قال :

تمسي تذكرنا الشباب وعهده حسناء مرهفة القوام فتذكر
تثب القلوب من الصدور إذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيت تكفر بالنحور قلائد فإذا بدت من نحرها تستغفر

وأفجع ما كان يعتصر قلب الشيخ العاشق، أنه يعلم يأسه من ثمرة هذا الحب، وأن الآنسة تجامله لمركزه الأدبى الاجتماعي فحسب ، وكان عليه أن يفهم ذلك قبل أن يسمح لعاطفته أن تشتعل فتصير نيرانا تلفح ! وآه من لوعة الذكرى حين يتصل

الحاضر الماثل بالماضي القريب ، فتثور الأشجان ، ويعز السلوان ، كل ذلك نجده فيما خاطب به الشاعر نفسه إذ قال :

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
ماكان ضرك إذ علقت شمس ضحي لو ادركت ضحايا العشق أحيانا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق نيرانا

ومع هذا اليأس القاتل كان مع علته الجسمية، ونبحته الصدرية ، لا يترك موعد «مي» يوم الثلاثاء وكيف ترك موعدها وهي كما قال :

ريحانة أنت في صحراء مجدبة من الخمائل حيانا بها الله
زيني الندى وسيلى في جوانبه لطفا يعم رعايا اللطف رياه!

أو كما ناجاها بقوله :

هل النعيم سوى يوم أراك به أو ساعة بت أقضيها بناديك
وهل يعد على العمر واهبه إن لم يجمله نظم الدر من فيك

وديوان الشاعر حافل بهذه الجذوات ، وما لم يسجله من خواطره أكثر مما سجله ، لأنه كان يستحيي من الإفصاح عن خوالج قد تخدش ما يرعاه من الوقار ، فذهب ما قاله ، كما يذهب الطائر ضاربا بجناحيه في الفضاء دون أن يعلم أحد كيف طار ؟ وأين استقر ؟ كما قال مطران، وقد مات اسماعيل صبري، فرعت «مي» ذكراه ، وكتبت عنه فصلا بديعا من صحف النقد الأدبي سجله كتابها (الصحائف) وكانت ناقدة نافذة النظر حين وضعته موضعه الأدبي الصادق فقالت عنه :

« ينبوع صغير ، بلوري المياه ، عذبها ، ينبوع يرشح بالبيتين والثلاثة، وينتظم مرة أخرى تسلسله المكور اللماع اللون ، على أنه غير فياض لا يدهش بروعته ، ولا يرهب بجلاله ، ولكن يجذب بحسنه المأنوس، ويرضى ببساطته وجلائه ، ويدخل الطرب على النفس الطروب ، برقة عواطفه ، وسلامة ألفاظه ، وهل ألطف من الينبوع الصغير ، في تدفقه الموزون بلا تهور ، وهل أقرب منه إلى دار ولا الظماء !

أنستي العزيزة ! لماذا لم تكتبي عنه في حياته بعض هذه الخواطر ، فتردي الروح إلى جسم خائر متهالك ، أتكونين كتلك التي قال عنها القائل !

أنت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل! ■

ديوان المتنبى

بقلم
د. عبد اللطيف عبد الحليم

فى الخامسة أو نحوها كان مجلس عزاء يضم جمهرة من قراء القرآن الكريم ، يتذاكرون الفائدة المالية التى تدرها عليهم المصائب، فإذا بأحدهم ينشد «مصائب قوم عند قوم فوائد» بضم الدال فحفرت فى نفس الصبى، يومئذ، كما استمع فى هاته السن بعض العوام ينشد متمثلا:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا

ينطق الكلمة الأخيرة «تتمردا» وإن فى بداية الشطر الثانى «وإذا» مع كسر الوزن.

ثم أتيح له فيما بعد أن يقرأ هذا الكلام فى ديوان المتنبى فأدرك إلى أى مدى كان الرجل مجدودا سائرا على ألسنة الناس وقد «أصبح الدهر منشدا» كما قال فى قصيدة أخرى، وذكرته هذه السيرورة بما ذكره الرواة - باختصار - عن شانئ للمتنبى أقسم ألا يقيم فى بلد يذكر فيه الشاعر أو شعره، فارتحل لطيته وكلما حل ببلد سأل أهله هل يعرفون الشاعر فيجيبونه بالإيجاب، فيرحل حتى وصل إلى محلة سأل أهلها عن الشاعر فلم يذكره أحد، فحمد الله وأنس بالمكان حتى كان يوم الجمعة فصعد الخطيب المنبر وبعد حمد الله والثناء عليه قال:



أساميا لم تزده معرفة

وإنما لذة ذكرناها

وهو بيت ذائع من قصيدة ذائعة للمتنبى، فإذا بالشانئ يعود إلى بلده من جديد قائلا: هذا الرجل كالقدر لايقاوم!!

الحسد

هذه السيرورة فسرها المازنى فى دراسته المسهبة عنه فى «حصاد الهشيم» «بقوة» الشاعر، ورجعها العقاد إلى «الحسد» مظهر كل فضيلة، وكان المتنبى شديد الشعور بهذه الخلة حتى سمى ابنه «محسدا» «وحتى إن الأيام يحسد بعضها بعضا «وحتى يكون اليوم لليوم سيدا».

والحق أن أبا الطيب رزق من القوة كفلا عظيما، ورزق من حسد الحاسدين كفلين من العذاب الذى تلذه النفس القوية، لأن غير المحسود كائن لا يستأهل الحياة حيث إنه عاطل من المواهب التى يحسد الناس من أجلها، خامل من معانى الرجولة أو الإنسانية، خلو من الأخلاق العليا التى تثير الغيظ، وتشعل النار فى العرفج، وقد أحسن ابن رشيق حين وصفه «ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس»، وهى كلمة نافذة تصدق على جبابرة المواهب وأفذاذ العقول.

وقد أحس المتنبى بهذا المعنى فقال:

أنام ملء جفونى عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

وما كان الرجل إلا نافذ النظر إلى ما وراء سجف الغيب، فلم يصف زمنه فحسب، وإنما امتد حتى يومنا هذا، دون ان يغالط أو يغالى فى تعبير شعرى كعادته وعادة نظرائه حين يفخرون.

جاء المتنبى إلى الدنيا فى مستهل القرن الرابع، وكان أوان النضج والقطاف فى كل ما زرعته الحضارة العربية الإسلامية ثقافة وسياسة ومذاهب ونحلا، وطوائف وشيعا، وقد اعتورها ما يعتور الحضارات وأهلها من شيوع المطامع والشغب، والدسائس والمؤامرات، وكانت الكوفة خاصة مباءة الشاغبين، فالتقطت باصرته وبصيرته صورة هذه الحياة وعاشها، واكتوى بنارها، ونضجت فى شعره حكمة منخولة بحكم نحيزته المتأملة، وكأنه لم يلتقط الصورة حسب بل خلقها، ولذا لا ينظر إلى هذه الحكم كأنها خلاصة دراسة وتأمل، وافادة من قراءاته. ربما تفيده الدراسة والقراءة، ولكنها لا تخلق منه الشاعر الحكيم لولا أنه مهيأ لها سليقه، وكأين من شعراء حكماء قرأوا ما قرأ، ولم يكن لحكمهم مثل ما رزقته حكمة المتنبى، حيث تعمل البداهة وفحوله الشاعر عملهما فى كل ما خطته يراعته.

شاعر مأزوم

المتنبى رجل مأزوم، وكل الشعراء عادة أصحاب أزمات، لكنها هينات لينات فى طبائع الشعراء الذين يخف محمل الدنيا عليهم، بيد أن صاحبنا ورث هذه الأزمات، واكتسبها، فغدت أزمته الفذة، كانت جدته قد أسرت إليه بحقيقة نسبه العلوى، واحتمل الرجل هذا السر، تعلى به مراجله فى امة تقيم للأنساب كل وزن، وتحيفته وضاعة هو براء منها. وكشف هذا السر او وقع عليه الاستاذ محمود شاكر فى كتابة الرائد عنه، كما تحمل الشاعر نبزة بالنبوة وافسح لها من كلامة ما يرشح هذا المغمز لواصب ودافع عنه ابو العلاء لغويا بأنها من «النبوة» اى الارتفاع ومرض الاستاذ العقاد فى الرواية وان كان يرى ان الذى غمزه بها انما هو من جبابرة الشياطين وذلك فى دراساته عن المتنبى فى مطالعات فى الكتب والحياة وهى دراسات غير مسبوقة خاصة فى مقارناته بين المتنبى وفلسفة القوة لدى نيتشه، والبقاء للأقوى لدى داروين، واطلع عليها دون اميليو غرثيه غومث عميد المستشرقين الاسبان فى دراسته الجيدة والبليغة عن الشاعر الذى نعته بأنه شاعر العرب الاكبر وان كان لم يشر الى افادته.

ترجم هذه الدراسة فى امانة وبلاغة د. الطاهر مكى.

نوادر وحكايات

وهذه النبوة التى قرف بها المتنبى لعلها نسيت واسدل الستار على بواعثها، ونحن لا نؤمن بها ولا نعتقد ان الشاعر ارتضاها، برغم الحكايات التى تشاكه الأساطير وتنسب اليه بعض المعجزات فهذا من الملح الذى يشوب النوادر والحكايات، ولم يكن الشاعر ممن تجوز عليه الغفلة، أو استغفال الآخرين فيصدق فى نفسه هذه المثلبة، وثمة شاعر حاول ان يعلل هذه التهمة فقال عنه:

هو فى شعره نبى ولكن
ظهرت معجزاته فى المعانى

صحيح ان شاعرنا بعيد المطامح، شديد الاعتداد بذاته، لكننا نحسب للتعبير الشعرى حسابه فلا نأخذه كحقائق الرياضيات. ولذا فكل تعبيراته فى هذا المقام تحسب للمبالغة الشعرية حسابها دون ان تفتئت على حق الشاعر فى كبريائه الباذخة التى ترى أنها فوق كل محل يرتقى، وكل عظيم يتقى، ويجوز الفخر فى الشعر حين لا يجاز فى النثر كما يؤكد القدامى.

فى شاعرنا كثير من طموحات دون كيخوتي دى لامنشا، وكثير من أحزان هاملت الأزلية لكن يغلب تعقله سذاجات فارس لامنشا، وتغلب ارادته احزان هاملت وتردداته، انه نسيج وحده - حين قيلت هذه العبارة اول مرة - قبل ان تلوكها السنة الابتذال.

خلق للملك والسياسة

كان المتنبى مجدودا، ذائع الصيت، تزدلف اليه تيجان الأمراء فى زمنه، وينشدهم الشاعر مدائحه جالسا مثلهم، او يجلسه الامير مكانه. ولكن ذلك لم يرض مطامحه، فخيل اليه انه خلق للملك والسياسة واصطنع اليها الذرائع غير المزرية بالطبع، ولم يكن الرجل الا واهما لأنه من رجال النظر والفن، ولو كان الزمن اسعده بهذه الولايات لخسرت الانسانية - لا العربية حسب - فقد مسح الزمان بذيوله على كثير من هذه الأسماء وبقي مذخورا مصونا كل ما خطه قلم المتنبى، وما هذا بالشيء الهين او اليسير .

لقد غدا شعره فى سمع الدهر ووجدانه ، وحل فيه ارفع محل حتى فى حياة صاحبه، وحتى تغيب العربية من الدنيا ولن تغيب الا بغياب الحياة، جمع المتنبى ديوانه فى حياته، وارخ لكثير من قصائدة، وارخ ابو فهر للديوان كاملا. وقامت حوله معارك فى حياته وخاصة مع النحاة والشانئين عليه، واصطفى الشاعر صديقه ابن جنى بشرح ديوانه وغوامضه وكان يحيل سائليه عليه، وكان ابن جنى - وهو ممتع بإحدى عينيه - كفاء هذه الرسالة فشرحه لم يقف عند اللغة والنحو، بل كان يطبيه ان يجرب نظر الاديب البلاغى، وان كان بعض معاصريه يقرفه بانه نبلد حماره حين يمد عينه خارج اللغة والنحو، وما نظنها الا المعاصرة!!

وقد تعددت شروح الديوان قديما وحديثا، كا تعددت الدراسات عنه وعن الشاعر، لدرجة يمكن ان نطلق عليها اللفظ المعاصر فى الجامعات الاوربية «كرسى شعر المتنبى» وليس من هدف هذه الكلمة ان تحصر هذه الدراسات او الشروح ، وحسبها ان تشير الى بعض منها. واعتمادنا فى ذلك على تحقيق د. عبدالمجيد دياب لمعجز احمد، وبعض هذه الكتب مع المتنبى، وبعضها شديد التشنيع عليه، وطرف منها يلتزم «الوساطة» وكما هو حال القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى الذى صبغت مهنته قاضيا طريقة حكمة فالف الوساطة بين المتنبى وخصومة وقد سبق ان ذكرنا ابن جنى. وله شرحان، وللمعرى شرحان، والواحدى، وابن فورجة، والتبريزى، والسمعانى، والاعلم الستمرى. والافليلى، والانبارى، وابن وكيع، والعكبرى، والدانى، والخوارزمى،

والعروضي، والربعي، وابن القطاع الصقلي وابن سيدة والحاتمي، والجزري، والعميدي وغيرهم، كما شرحه حديثا البستاني، والبرقوقي، وان كان الاخير افاد من شروح قديمة تنخل منها ما تنخل ، وذاع هذا الشرح وطبع مرات متعددات.

أفضل الكتب عن الشاعر

ولا تكاد تخلو دراسة عن شعراء العربية من اسم المتنبي او الاستشهاد بشعره، وربما كان الكتاب الامام كتاب شاكر عن الشاعر، فهما واستيعابا، وتذوقا للشعر، اما كتاب طه حسين عنه «مع المتنبي» فليس افضل كتب طه حسين، وفيه نظر كثير من فهم الدكتور للشعر وصاحبه، وربما كان الرجل ينظر الى كتاب بلاشير، وهو مثل غيره من المستشرقين يباشرون العربية وخاصة شعرها بلسان أعجمي ، ونفوس اشد عجمة احيانا، حيث لا يبلغ غور الشعر العربي الا اصحاب اللسان والافذاذ منهم خاصة، وقد اعترف غومث الاسباني بشجاعة بهذه الحقيقة رغم نفاذه في فهم المتنبي، فقال ان المتنبي خلق عالما ربما يعسر علينا نحن الاوربيين النفاذ اليه. وهي كلمة حق بريئة لان المتنبي محير في ذرع القلة ان تغوص معه، وان كانت له الآيات البينات في حكمه السائرة ، لكننا نأخذ منها بقدر حظنا من الفهم والفطنة، كما ان المتنبي، فيما نعتقد كان يصوغ الفكر الشاعرة في قالب كان ينتظر هذه الفكرة، فهي تخرج وعليها ميسمه غير مموهة، حيث هي موشوجة بلحمة ودمه واعصابه، وان كانت فيها اثارة من كلام سابق.

ومن الدراسات المتعمقة عن المتنبي وشعره ما كتبه العقاد منجما، عن فلسفة الشاعر وعن صنعته ومقارنته بالمفكرين العالميين، سابقا بهذه المقارنة المدرسة الامريكية وراندما رينيه ويلك بعقود من الزمن، وكان الغالب على المقارنات المدرسة الفرنسية التي تحتم التأثير والتأثر ومسالكه، وكذلك موازناته بين المتنبي وأبي تمام حيث ارتأى ان للأول عالما، وللثاني إجادات، واسهم المازني بدراسات جيدة عن المتنبي وفلسفته، وشعره في حصاد الهشيم، ولعل مثل هذه الدراسات كانت تؤكد في نظر اصحابها ومعاصريهم، ان التجديد الذين يدعون اليه له سند ركين من التراث الذي يمثل سلامة الشعر وسلامة الطبع، ويرون ايضا انهم يكتشفون مناطق غير مأهولة في النظر النقدي كما هو الحال في دراساتهم لابن الرومي وابي العلاء، والمتنبي وغيرهم، وليس من هدف هذه الكلمة استقصاء الدراسات عن المتنبي ، فهي تحتاج إلى ببليوجرافيا يحرز بها صاحبها درجة جامعية.

المتنبي في مصر

ولديوان المتنبي باية رحبة في الأندلس ، لا تقل عن اهتمام المشارقة به، وربما كانوا هنالك وراء البحر يريدون ان يقولوا بلسان الحال أو المقال إن شئت – نحن وإن شطت بنا الديار فإن لنا رحما ماسة بالمشرق، وربما فقنا المشارقة فيه، ولعل اقامة المتنبي في مصر مهدت له ان يلتقي بطلبة العلم وشيوخة من أهل الأندلس ،

حيث كان للمتنبى ما يمكن تسميته «صالون» وكانت الرحلة دائبة فقد تلمذ له وسمع منه ابو بكر الطائى، وابراهيم المغربى، وزكريا بن الأشج وهو الذى حمل معه ديوان المتنبى الى الأندلس ، وأثر هذا الرجل فى تلاميذه النابهين مثل منذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى، وكلاهما علم فى بابه، وقد شرح ابن الأشج ديوان المتنبى. وان كان لم يصلنا شرحه، لكنه - بلا ريب - تناثر فى مؤلفات الأندلسيين فيما بعد، وقد رأينا اكثر من واحد يلقب بالمتنبى من شعراء الأندلسيين ، وربما كان ابن دراج القسطلى اهم شاعر تأثر بالمتنبى فى معارضات الأندلس له وهى كثيرة - من اشهرها الرائية «باد هواك صبرت ام لم تصبر» وقد عارضها شوقى حديثا فى قصيدته عن الأزهر، وشتان بين الشعراء الثلاثة فى كل شئ، فالمتنبى لا يلحق شأوه ولا غباره، وماذاك الا للنفحة، أو الفحولة البادية فى كلام صاحبنا شاعر الكوفة العظيم.

فى كتاب أدب ونقد لكاتب هذه السطور موازنة بين المتنبى وابن دراج.

لا ينبغى ان تؤخذ الدواوين القديمة والمعاصرة بموضوعات القصائد او بالاحرى بعناوينها، لأن قصيدة المدح او الرثاء او ما يسمى بشعر المناسبات انما هى من صميم الشعر الصادق وخاصة من مثل المتنبى، فضلا عن ان فى تضاعيف القصيدة تصويرا لصاحبها وتدسسا خفيا لمكامن هذه الشخصية، وهكذا كان شعر المتنبى انه اهابه وتجاليده، ومعارف وجدانه.

شعر أقرب الى الجلال

وصياغة المتنبى صياغة نادرة، وصفه الناس بأنه هجام على المعانى، وهذا صحيح، لكنه لا يهجم، الا وقد غدا شاكى السلاح لنازلة عنيفة، تؤدى فرائض الفكرة وفرائض الفن، وكان له من متانة طبعه ما يبنى بها جواسق وحصونا، لا يتسلل اليها وهىَ الا كما يتسلل الى اى كائن تجرى عليه اعراض النقصان الذى هو خصيصة بشرية، لكن سلمت له جواسقه وحصونه مهيبة جليلة، حيث كان شعره اقرب الى الجلال منه الى الجمال، وان كان لم يتحيف حق الجمال لانه الجمال العاطل الحالى بالقوة والصدق . حيث كان كلام بعض نظرائه يعرف «مضغ الكلام وصبغ الحواجيب».

ويشى ديوان المتنبى بله يصرح بدمامة الامارات الموكوسة التى شهدها وغدا شاهد صدق عليها. وشد الرجل حيازيم راحلته باحثا عن امير ماجد فى زمن أفلت فيه شمس المجادة، وحفل بكل عبد فى مسلاخ حر، وارتأى فى سيف الدولة قرينا له فى مجادته وفى فروسيته، وفى ذياده لعلوج الروم، يصرخ فيه الدم العربى، وكان حزن الشاعر جليلا بقدر احزان، امته، وهوان امرائها ، وكأنه يشاطرنا حزننا من وراء الغيب!! ■

فى الشعر

الحلمنتيشى

المعارك الفكاهية التى أشعلها محمد الأسمر

بقلم

د. مصطفى رجب *

الشاعر محمد الأسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٦م) واحد من الشعراء الكبار الأفذاذ الذين ظلمتهم شهرة غيرهم فقد كان هو وأقرانه محمود غنيم وعلى الجندى والعوضى الوكيل ومحمد عبدالغنى حسن وطاهر أبو فاشا ومحمد مصطفى حمام وعبدالحميد الديب ومحمد مصطفى الماحى من الجيل الذى أبدع أيما إبداع ولكن الساحة فى الثلث الأول من هذا القرن لم تتسع إلا لشوقى وحافظ ومطران ، وفى الثلث الثانى من هذا القرن هاجت البشرية وماجت فى حرب عالمية وتقلبات سياسية أثرت فى الذوق العام والثقافة العامة فتدهورت مكانة الأدب والفن لحساب السياسة ، والتيارات الفكرية الجديدة .

وكان ما يجمع بين هؤلاء الشعراء الذين

* كلية التربية سوهاج

ذكرنا أسماءهم هو حبهم جميعا للمرح والدعابة وارتباط بعضهم ببعض فى صداقات خالدة بقيت ظلالها واضحة فى آثارهم الشعرية ، والشاعر الأسمر ولد فى دمياط فى ٦ نوفمبر ١٩٠٠م وتعلم بمدارسها ، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم فى مدرسة القضاء الشرعى ثم فى الأزهر ، وعين بعد تخرجه موظفا فى مكتبة الأزهر حتى أصبح أمينا عاما لها . وله عدة كتب ضمت مقالاته الاجتماعية وديوانين شعريين كبيرين احتويا على أشعاره .

ولم يكن الشاعر الأسمر أسمر اللون ولكنه لقب بهذه التسمية لأسباب عائلية ، إذ يبدو أن هذا هو لقب عائلته . أما هو فقد كان وسيما أبيض اللون وكان حريصا على ارتداء الزى الأزهرى حتى آخر لحظة فى حياته .

ومن أشهر فكاهات الشاعر محمد الأسمر ما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان «ثلاثة جنيهات دعابة شعرية» وقصتها أن الشاعر محمد الأسمر أودع عند صديقه اليوزباشى «النقيب» عبدالحميد فهمى مرسى مبلغا قدره ثلاثة جنيهات بصفة الأمانة واحتفظ بها الرجل فى مكتبه وكان يعمل إذ ذاك أركان حرب وزارة الدفاع المصرية . واستبد القلق بشاعرنا محمد الأسمر وكتب إلى صديقه يحثه على بذل الجهد فى المحافظة على جنيهاته الثلاثة فيقول :

(أعبدَ الحميد) وأنتَ امرؤٌ عرفتك من عنصـــــر طيب
لنا عندكم مهجـةٌ أودعـت لشهر الصيام على الأغلب
ولــو أســتطيع لأودعتـها إلى رمضـان على كوكب!

فلا تغف عينك عن حفظها ولا تنـأ عنـها ولا تلعب

وينبه شاعرنا صديقه إلى أنه يخشى على نقوده الغالية من أن تمتد إليها يد اللصوص المغامرين الذين يتفننون ويتحايلون ويبتكرون طرقا مختلفة فى سرقاتهم ، ولولا ثقة شاعرنا لما يتكدس فى مكتب صديقه الضابط أركان حرب وزارة الدفاع من أسلحة لما استطاع أن يترك له مهمة حفظ جنيهاته الثلاثة:

فإنى أخاف عليها النسيم وأخشى امتداد يد الأجنبى
ولولا السيوف ولولا الحراب لديك لما ساغ لى مشربى!
معلقة ترهب السارقين وتبعث بالمنظر المرعب
ومهما يكن فحذار اللصوص حذار حذار ولا تغضب
فإن لهم حيلا كلما تذكرتها دارت الأرض بى !

وبعد هذه الصورة الطريفة التى صور فيها الشاعر نفسه حائرا خائفا تدور به الأرض كلماتفكر فى الحيل التى يمكن أن يلجأ إليها اللصوص، نجده يلح على صديقه فى حفظ وديعته وأن يجعل الشك رائده مع كل ضيوفه :

وراقب ضيوفك ياصاحبى وحتى ذوى النسب الأقرب
وراقب يديك ولا تعتب وراقب يدى ولا تعجب
وحاذر من «السيد المرغنى» وإن كان فخر بنى يعرب
أبيت وجسمى فى منزلى وروحى وعقلى فى المكتب
ووالله لا الحرص من شيمتى ولا جمعى المال من مذهبى
ولكنه مرض طارئ يزول وعدوى الغني المتعب
ثلاث من الورق العبقرى لديكم، وكيلى عليها النبى!
إذا علمت أننى ربها بحثن ولا شك عن مهرب !

وقد علق على هذه القصيدة الشاعران الأستاذ (عبدالحميد فهمى



محمود غنيم

مرسى) والأستاذ (على الجندى) فمما قال الأستاذ عبدالحميد :

تروح وتغدو إلى مكتبى   كأنك تسعى لقبر النبى !
تحج إليها لكى تطمئن   على ما لجيبك من مأرب
ولست أخاف عليها سواك   إذا ما تسللت كالأرنب
فلا تجزعن، ولا تهلعن   ونم مطمئنا ، ولا تتعب

ومما قاله الأستاذ على الجندى :

ثلاث من (البنكنوت)النفيس   تنفس عن تعب المتعب
أفى الحق أن يقتنى شاعر   ذخائر فى عامنا الأجدب ؟
ألم يكفه أنه بيننا   يحل محل (أبى الطيب) ؟
فيا أسمر العين ماذا دهاك   وما ذلك الطمع الأشعبى ؟
أتسمن والضر قد شفنى   وتمزح والجوع قد جد بى ؟
وتختال فى ثوبك الأزهرى   وثوبى بال على منكبى ؟
أعنى فإنى أخوك الذى   يفديك بالنفس والمنصب

ومن المعارك الفكاهية الكثيرة التى كان الأسمر يشعلها معركة خروف العيد وقصتها أن شاعرنا الأسمر كان قد طلب من صديقه القائمقام (العقيد) الشاعر عبدالحميد فهمى مرسى أن يعيره خروفا فى عيد من أعياد الأضحى التى جاءت خلال الحرب العالمية الثانية مع اشتداد الغلاء وارتفاع الأسعار، فبعث الأسمر إلى صديقه يقول :

عبدالحميد وأنت معوان إذا   هز الخدين حبال ود خدينه
إن كان ذو القرنين عندك حاضرا   فابعث به لنرى ضياء جبينه
ولكى يجاوب - لو يمأمئ مثله   فى بيت جارى - مأمأت قرينه
وليعلم الجيران أجمع أننى   إن جاء عيد لم أضق بشئونه
ولكى يراه من أساء ظنونه   بدراهمى، فأنال حسن ظنونه

وليطمئن الدائنون ويعلموا أنى امرؤ يقضى جميع ديونه

ويؤكد شاعرنا لصديقه أنه لن يمس هذا الخروف المستعار بسوء، بل سيسهر على تأمين سلامته من الذبح أو العدوان، فكل ما يبغى هو أن يتباهى به - كما قال سابقا - أمام جيرانه، ودائنيه وأولئك الذين يسيئون الظن بقدراته المالية :

وأنا الأمين عليه وهو بمنزلي من كل جزار ، ومن سكينه
يمسى ويصبح وهو عندى آمن من (فلفل) الطاهى ومن (كمونه)
فابعث به (عبدالحميد) فإنه شيء يرد إليكم فى حينه
لسنا نميل إلى نعاجك بل إلى كبش لك التفويض في تعيينه !!

ثم حدث بعد ذلك أن اتصل القائمقام عبدالحميد فهمى بقريبه الأديب الكبير الأستاذ عبدالعزيز سلطان وكان بينه وبين الشاعر الأسمر صداقة ومودة ، فبعث بأربعة خراف ، وأرسلها من محافظة المنيا بالصعيد إلى قريبه القائمقام عبدالحميد فهمى بحيث يعطى خروفا لكل من الأسمر وعبدالحميد ، ويعطى خروفا لكل من الشاعرين على الجندى ومحمد عبدالغنى حسن وكانا قد طلباهما ووصلت هذه الخراف من المنيا متعبة قد نال منها طول الطريق وهدها السفر فظهر عليها الإعياء ولم تعد صالحة للتضحية بها فكتب الأسمر يسخر منها ويقول :

ويح عبدالعزيز أرسل هرا ت إلينا، وقال عنها خراف
لم تمأمئ بل نونوت فضحكنا ثم قلنا ماذاك الإسراف ؟!
أهدايا، أم تلك بعض الرزايا ؟ رب سلم ونج مما نخاف
أربع أقبلت ، فقلت خراف ما تراه العيون ، أم أطياف؟

ثم يذكر مصيبته فى الخروف الذى خصص له. فهو خروف ضئيل تكاد العين لا تراه من فرط ضعفه فبينه وبين ما يعرفه الناس عن

خراف الأرياف فارق كبير :

كان منها لنا خروفٌ عجيبٌ هو من فرط ضعفه شفاف

لاح كالوهم بل هو الوهم يمشي لا خروفٌ جاءت به الأريافُ

هو بين الكباش كبشٌ صناعيٌ وزيفٌ أدقه الزياف

أثريٌ من عهد يوسف موميا خلفته لنا السنون العجاف

ليس فيه من الخراف التى نعرفُ إلا القرون والأظلاف

كم تمنى أطفالنا أن يروه ورأوه، فأنكروه وخافوا

أبصرته القدور عندى فمالت ضاحكات وفرت الأضياف !

خذه عبدالحميد خذه ، وحسبى هبه حكما أما له استئناف ؟



عبد الحميد الديب

أما الأستاذ محمد عبدالغنى حسن الذى كان معروفا بمجاملاته وخلقه الرفيع فلم يشأ أن يذهب مذهب الأسمر فى السخرية ، بل مدح خروفه قائلا :

وصل الخروف وقد حسبتك مازحا فإذاك قد بالغت فى تسمينه

الله زينه بكل جميلة وجميل صنعك زاد فى تزيينه

ومما أبدع فيه الأستاذ محمد الأسمر تلك القصيدة التى جعل عنوانها (قربا مربط النعامة منى) وهو شطر بيت شهير قاله المهلهل بن ربيعة أثناء حرب البسوس الشهيرة وكرره فى قصيدته ، وقصة هذه القصيدة أن السيد الشريف مرغنى الإدريسى شيخ السادة الأدارسة بالمغرب العربى - وهو سودانى الجنسية شريف النسب - كان قد بعث إلى الشاعر الأسمر هدية من الديوك الرومية ، والتمر ، وقصب السكر، وحوت كبير ، وأرسل هذه الهدية عن طريق صديقهما المشترك الشاعر القائمقام عبدالحميد فهمى مرسى ، فاستأثر عبدالحميد بالحوت وأرسل الباقى إلى الأسمر وبعد أيام مرض السيد المرغنى وكان الأسمر قد عرف بقصة استيلاء عبدالحميد على الحوت

فكتب إلى السيد المرغنى يواسيه ويذكر ما صنعه عبدالحميد فيقول :

يا سليل النبى عــوفــيت مما بت تشكوه من أذاة الليــالى
قال أشكو الأمــلاح قلت عجيب كيف يشكو الأملاح حلو الخصال؟
الصديق الكريم ، والعسل الصافى شهى الوداد ، عــذب الخــلال
والذى أرسل الديوك فــقلنا أديوك أم تلك بعض الجــمــال ؟
والذى أرسل العجيب من التمر نـــواه يبــاع بالمثقـــال
ولطيف الأعواد من قصب هش رمـــاح وافت بخمــر حلال

وهكذا يذكر الأسمر هدايا صاحبه المتعددة فتجيش نفسه بذكرى تلك الخراف الضعيفة التى أهداها لهم صديقهم عبدالعزيز سلطان وكانت غاية في الضعف، والهزال فكأنها النمال، ثم يذكر لصديقه المرغنى كيف استولى صديقهما عبدالحميد فهمى على الحوت :

لا كعبد العزيز وهو صديق حين أهدى الخراف مثل النمال
أو كعبد الحميد حين أتى الحوت إلينا فسفــــه لم يــبال
سفه سفة فجاء عليه وهو فرق العشرين فى الأرطال
هل رأيتم ، أو هل سمعتم بمزح مثل هذا فى سابق الأجيال؟
ليت شعرى وإن كان ذلك مزحا من صديق فكيف حد القتال؟
(قربا مربط النعامة منى) إن خطف الصديق للحوت غال
(قربا مربط النعامة منى) سف عبدالحميد رزق العيال

وحدث أن كان الأديب الدكتور سيد نوفل - الذى أصبح فيما بعد أمينا عاما مساعدا بجامعة الدول العربية - يعمل سكرتيرا للدكتور محمد حسنين هيكل باشا وزير المعارف ، فطلب الشاعر محمد الأسمر منه أن يتوسط الوزير لكى يعاون تلميذا فقيرا فى الحصول على منحة ليتعلم مجانا - وكانت المجانية آنذاك بالاستثناء - ويبدو أن السيد نوفل قد تباطأ فى تلبية رغبة الشاعر الأسمر ، فبعث إليه موبخا وهو

يستخدم بعض الألفاظ العامية للدعابة على عادة القدماء فقال :

يا سـيد ياجعرو هـل أنت حقل سكـرو ؟
إن كـان ذلك حقـا فـاصنع صـنيعا يسر
يا نوفـلانى قل لـى وأنت شيـخ شخـر
خلـف الوعـود حلال فى الشـرع أم هو نكـر ؟
يا دلـدلا قـد تـدلى عـلام لا تـستقر ؟
تهـز فى غير شـئ كـأنما أنـت زر
فلسـت تنفع يومـا ولست يومـا تضـر
محـرنجـم مزبـئر مهلضـم ليـس غير !
لولا الـوزير ولـولا أنـى بصحبـى بـر
سمـعت زأر قواف تـبيت منـها تهـر
فمل إلى الصـدق وافعل خيـرا فذلك خـير

وهكذا لا تنتهى دعابات الشاعر محمد الأسمر التى تفيض بها دواوينه، والتى تنم عن شخصية مرحة تتعاطى الفكاهة والدعابة طبعا لا تكلفا فتأتى معانيه مليئة بالروح الجذابة والظل الخفيف ، فى إطار من ألفاظ عربية رصينة غير مبتذلة، وهو فى الوقت نفسه يبتعد عن الإسفاف والتدنى اللذين كثيرا ما يتزلق إليهما من يتفاكهون تكلفا وطباعهم تأبى عليهم أن يكونوا خفاف الظل . ■

أقوال

- مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
- إنما السالم من ألجم فـاه بلجـام

أبو نواس

- أركان السعادة الثلاثة هى : أن تجد شيئا تعمله ، وشيئا تحبه ، وأملا ترجو تحقيقه إذ تسعى إليه

قاسم أمين

سميحة

ملكة فن لوحة الغلاف

بقلم

صافى ناز كاظم

كلما فتحت عددا من أعداد الهلال ووجدت رسمها وإلى جواره: «بريشة سميحة حسنين» ، أفرح وأدعو الله أن يبارك أناملها التى ماتزال تمسك بريشتها على مدى ٥٧ عاما لتعطى أغلفة روايات الهلال، وكتاب الهلال، أزهى الألوان وأجمل الخطوط . إنها عندى معرفة بـ «سميحة» فقط. متيمة مغرمة برسوماتها منذ وعيت التذوق وحب الفن. لم تبهت أبدا فى ذاكرتى صورة تلك الطفلة الجميلة باكية العينين التى رسمتها «سميحة»، وشغلت صفحة كاملة من صفحات قصة مترجمة بعنوان «اليتيمة» نشرتها مجلة الهلال بين عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ وكنت فى العاشرة من عمرى . تعلقت عينى باللوحة التى أثارت شغفى فقرأت القصة، وبين كل سطر وآخر كنت أتطلع متأثرة غاية التأثر بالوجه الحزين الذى رسمته «سميحة» لبطلة القصة الطفلة التى كان عليها أن تثبت جدارتها فى تحمل مسئوليات البيت بعد وفاة الأم . توحدت مع يتم العيون الدامعة وأحسستها عيونى .

أكثر من نصف قرن الآن واللوحة بذاكرتى لم تبهت . كانت رسومات «عزيزة عيد» - إبنة الفنان عزيز عيد وفاطمة رشدى -



الفنانة سميحة حسنين .. نذرت ريشتها للتوهج والوسامة







«سميحة» فى مجلة الهلال تشد انتباهى وأتكلم عنها مع صديقاتى ونتناقش : أيهما أفضل ؟ كنا نحب رومانسية «عزيزة» وخطوطها المشغولة بالرقة والدانتيل وحروف اسمها التى تكتبها ممطوطة تائهة نهايتها كالدخان الذى يوشك أن يتلاشى . بعد قليل أعلنت للجميع انحيازى الكامل لـ«سميحة» وقلت : انظرن إلى خطوطها التى تجتمع فيها الرومانسية الهفهافة مع الحيوية النابضة والحضور الطاغى الذى يجعل من شخوصها كائنات حية ، ثم هذا التناسق الأنيق فى توقيعها الذى يبدو فيه اسمها مبتسما سمحا حقا : «سميحة» ، هكذا باختصار وبساطة ولطف

● ● ●

صاحبتنى رسومات «سميحة» من طفولتى وصباى وشبابى إلى وقتنا الحالى. لا يمكن أن يقع ناظرى على رسم لها ولا يستوقفنى، وحين أرى غلافا لكتاب أو رواية غير موقع وأجزم أنه لـ «سميحة» يتأكد يقينى بإشارة داخلية تنوه: «الغلاف بريشة الفنانة سميحة حسنين». تميزت بوجوه حلوة بؤرتها العيون ، معسولة وآسرة، حزينة كانت أو مبتهجة ، جادة أو مراودة ، مفكرة ولاهية . وريشة نذرت نفسها للتوهج والوسامة ، لا تحتمل الانطفاء ولا تجيد القبح . بلا مقدمات وراثية وجدت الطفلة «سميحة» يدها ترسم بمهارة ، وحين تقدمت فرحة بإنجازها لم تصدقها مدرستها بالابتدائى ولطمتها على وجهها : « إنت كدابة مش ممكن ده يكون رسمك .. قولى أبوك.. قولى أخوك .. لكن إنت مش معقول..» وكانت تلك الصفعة هى أول أجر تقاضته تقديرا لموهبتها . تركت دراستها الثانوية وأعلنت مبكرا انضوائها تحت لواء الرسم وحده : «ماكنتش عاوزة أذاكر أو امتحن .. عاوزة أرسم وبس..» والدها لا علاقة له بالفن « موظف شريف فقط»، ولم يكن لها أخ: من ثلاث شقيقات ، الكبرى فاطمة والصغرى عايدة وهى فى الوسط بينهما . تزوجت فاطمة وكان شعارها : «احنا هوانم وكفاية» ، ولكن عايدة أكملت دراستها



● تفرح بتكليفات الرسم وبرغم مرضها وآلمها تدب العافية فى روحها عند التقاط فرشاتها لإنجاز المطلوب



الجامعية وأخذت سلك التدريس ، واستمرت «سميحة» مع الرسم ، درسته فى أكاديمية رسم خاصة كانت بميدان مصطفى كامل، والتحقت بدار الهلال ١٩٤٦ وهى فى الحادية والعشرين لتكرس توجهها: «رسامة صحفية» ، ولتكون مع «عزيزة عيد» أول مصريتين تقتحمان هذا الحقل فى الصحافة المصرية وتسجلان فيه ، مع الريادة، التفوق المبهر . كان الفنان كنعان من أبرز فنانى دار الهلال فى ذلك الوقت ، أفادها ووجهها وأرشدها لأساليب انضاج موهبتها . فى دار الهلال اشتغلت فى المطبعة وفى الإعلانات وفى التحرير ، تقول بحب: «لم أرفض أى تكليف ، كان معنا في تلك السنوات الفنان جمال كامل ولما طلبوا منه الرسم فى الإعلانات رفض وراح روزاليوسف، أنا ما فرقتش معى ، رسمت فى الإعلانات وصاروا يطلبوننى بالاسم ، وكنت أحصل على مكافأة فى نهاية العام ، وهذا لم يكن يحدث بسهولة فى دار الهلال أيام إميل وشكرى زيدان

• • •

كنت دائما تواقة إلى لقائها منذ خطوت للعمل بدار الهلال عام ١٩٦٦، ولكن بدا لى دائما اللقاء معها مستحيلا، لم أصادفها بالدار أبدا وكلما سألت عن طريقها كانت الاجابات تأتينى شاردة. تمكنت منذ عامين فقط من تحديد موعد للقائها عبر الهاتف، جاءنى صوتها، رغم ضعفه، هاشا باشا مرحبا، قلت لها أننى من جمهورها الممتن لفنها فاندهشت متسائلة: «هل أنا أعنى أى شئ لأحد»؟ مولودة فى ١٩٢٥/١٠/١٣ ولذلك فلم أستغرب جملتها التى تنم عن تواضع جم، فهى تحمل سمات برجها «الميزان» ، الانسحاب من الأضواء والزحام والخجل من كلمات الإطراء: «أنا انطوائية، لا أسعى إلى إقامة صلات وعلاقات ، تجبرنى السلبية على إضاعة حقى، أخذت الصفعة من المعلمة وسكت، لم أدافع عن نفسى . سعادتى فى الرسم والصمت والاختباء» . تزوجت من الكاتب المسرحى، ضابط البوليس ، سعد الدين وهبة بعد أن قابلته فى مجلة الرسالة الجديدة عند عبدالعزيز صادق، وطلب منها أن ترسم لمجلة البوليس التى كان يرأس تحريرها بعد ١٩٥٢/٧/٢٣ . أنا التى أجتهد فى تحديد «التاريخ» فلا جدوى من أى

سؤال خاص بتحديد «أى سنة» مع «سميحة» فهي لا تتذكر الآن أى تاريخ ، عرفت تاريخ مولدها من حفيدتها الجميلة سهام فاروق ، الطالبة بآداب القاهرة قسم اللغة الانجليزية، وهى ابنة ابنتها الكبرى منى سعد وهبة، لا تذكر متى تزوجت سعد وهبة ولا متى تم بينهما الطلاق ، ولا متى أنجبت منه ابنتيها وحيدتيه : « منى» و«أمانى» تذكر فقط أن الطلاق وقع أثناء ولادتها لابنتهما الصغرى أمانى . تألمت بتكتم ونبل: « عندى المقدرة إنى أنسى وألغى مصدر الإزعاج ، أغرق فى الرسم ، كنت ألبى طلبات الرسم الكثيرة في دار الهلال وغيرها من المجلات .. كل طلب رسم أهتم به وأخدمه بضروراته بإخلاص ... واجباتى فى الرسم للمجلات كانت لا تعد ولا تحصى، رسمت فى مجلة التحرير، والرسالة الجديدة رسمت فيها رواية لنجيب محفوظ ، وطبعا مجلة البوليس ... حياتى كانت الرسم ومازلت حتى الآن بعد كل هذا العمر أفرح بتكليفات الرسم ، ورغم مرضى وآلامى، تدب العافية فى روحى عندما ألتقط فرشاتى وأنجز المطلوب...» تناديها حفيدتها سهام بـ «أنه» ، أى جدتى بالتركية، رغم كونها صعيدية ابنة عائلتى مسلم وحسنين من سمالوط ، أسيوط . حين طلبت منها مشاهدة لوحاتها لم تستطع أن تجمع بين يديها سوى حفنة قليلة من كتب رسمت أغلفتها ، وما لا يزيد عن خمسين قطعة رسم بالجواش وألوان الماء على ورق سميك مساحته ٣٠سم×٢٠سم، فى زهد قالت : «هذا كل ما تبقى لدى من شغلى ... كله ضاع فى المطابع .... لم أستطع أن أسترد الأصول لأننى لا أعرف الإلحاح فى المطالبة» هذا القليل المتبقى من الحياة الحافلة لهذه الفنانة المبدعة يشهد على استحقاقها لقب : «ملكة فن لوحة الغلاف لأكثر من نصف قرن» . أشارت إلى واحدة من لوحاتها : «هذه تعجبنى ... تصورى أننى لم أتأمل قيمة رسوماتى من قبل .... أرسم وأعطى وأنسى أول ما أطلع الرسم أنسى اللوحة حتى أننى وأنا أجمع هذه اللوحات الباقية لم أصدق أننى أنجزتها ..» .

● ● ●

كنت حين قابلتها قد أحضرت معى جهاز تسجيل، لكننى



● انطوائية لا تسعى إلى اقامة صلات وعلاقات تجبرها السلبية على اضاعة حقها





اكتشفت أن لا جدوى من التسجيل ، فهى لا تتكلم إلا باقتضاب شديد ، وكان على أن أفهم ماتريده بالاحساس وبالاستنباط . أعمالها مبعثرة، أوراقها ضائعة ، صورها الشخصية اندثرت : « فيلا العائلة تهدمت ، وكل واحد أخذ نصيبه، وضاعت صناديق مليئة بالصور والأوراق ... ولا يهم ... أنا ح أكون ايه؟... تراب ....»، تقول هذا من دون أسف . أسألها : هل ترى الدنيا مثل ألوانك مرحة جياشة أم ترسمين ما تتمنين؟ تضحك : «تصدقى... أنا شايفة الدنيا كده ... مرحة جياشة!» تحب الوجوه الجميلة التى تنقلها فى رسومها من مخترنها الذهنى. لم تكن لديها فرصة لإقامة معرض ، لكنها تذكر لوحتين لها فى متحف وأخرى فى بينالى ، تهدى لوحاتها ولا تبيع أبدا : «بكامل وعيى بددت ثروتى الفنية» تقولها ضاحكة ، لكنها مازالت تحتفظ بلوحتها التى رسمتها لابنتها منى وهى طفلة ، أما لوحة سهام حفيدتها فقد أخذها والدها .

● ● ●

أشاعت برسومها على مدى ٥٧ عاما الضياء الخلاب ، ومازالت تؤثر أن تبقى دائما بعيدا بعيدا عن الأضواء ، تنعشها ذكرى زيارتها لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين : « لم يكن هناك زحام على الإطلاق ، كنت أجلس مع قريبتى .. هى تقول الدعاء وأنا أردده وراءها، شعرت بيد تربت على ظهرى، تلفت ولم أجد أحدا .... مرتين يتكرر الأمر ... قالت قريبتى الملائكة تربت عليك .... تخوفت .... قالت لا تخافى .... الحكاية لا تزال تنزل على قلبى بردا وسلاما .....» .

● ● ●

تحية لـ «سميحة» ملكة فن الغلاف وهى تخطو إلى عامها الثامن والسبعين فى ٢٠٠٣/١٠/١٣ إن شاء الله، وأدعو الله أن يبارك أناملها وهى ترسم بريشتها على صفحات مجلة الهلال وأغلفة رواياته وتبعث فى نفسى الفرح. ■





قطعة من أوروبا

رواية غير تقليدية لرضوى عاشور

بقلم
د. محمد أبو الغار

قطعة من أوروبا هى أحدث ماكتبته رضوى عاشور التى أثرت الواقع الثقافى المصرى برواياتها المتميزة وكتاباتها النقدية وهذه الأعمال الضخمة لم تؤثر على ريادتها فى عملها الأكاديمى وقبل كل ذلك هى المصرية العربية الوطنية الرائدة التى تتفجر حماساً دفاعا عن الوطن والحق والحرية

جماد أول ١٤٢٤هـ - يوليو ٢٠٠٣م

نحن بصدد رواية غير تقليدية يقوم ببطولتها الراوى وهو الذى تطلق عليه المؤلفة لقب الناظر وتعنى أن له نظراً ثاقباً فى قراءة التاريخ والحاضر وربما المستقبل وأحداث حياة الناظر هى جزء هامشى فى هذا العمل فالناظر ابن للطبقة الوسطى أبوه كان يعمل موظفاً بالبنك الأهلى تزوج شهر زاد وأنجب منها ولكنها أخذت بناته وتركته وطلقت منه والسبب فى ذلك هو أنه كان هائما فى تاريخ مصر الحديث منذ غزوة نابليون يقرأه وينقب فيه عن أحداث مهمة ولكنها منسية أو منزوية فى أركان مهملة من كتب التاريخ ولم يعطها المؤرخون حقها

فى التحليل، وكان الناظر يستلهم عبق التاريخ من مبانى وسط القاهرة التى بناها الخديو إسماعيل مستعيناً بأوسمان مهندس باريس الحديثة والتى أراد لها إسماعيل أن تكون قطعه من أوروبا وأصبحت بالفعل قطعه من أوروبا ليس فقط فى الشكل المعمارى ولأن سكانها أيضاً كانوا خليطاً من الأوروبيين وكان اليهود يلعبون بينهم دوراً محورياً أما المصريون فكان دورهم هامشياً فى القاهرة الأوربية وقد كان استشهاد الأخ الأصغر للناظر فى حرب ١٩٦٧ بمثابة صدمة أثرت على حياته وفكره وكانت من الأسباب المهمة لعزلته الإختياريه فى شقته يتأمل ويفكر ويجتر أحزانه العامة والشخصية .

وقرر بطلنا الذى ولد فى عام ١٩٣٧ أن يكتب هذا المخطوط عندما كان عمره خمسة وستين عاماً وهو الرجل الذى لم يكتب أبداً كتاباً أو حتى مقالاً قبل ذلك .

بداية الحكاية

تتخلل الأحداث القليلة التى تخص حياة البطل حوادث عامه قرأها بعين لاقطة فقام بكتابتها ويبدأ التدوين بزيارة تشرشل وروزفلت لأبى الهول فى الجيزه أثناء الحرب العالمية الثانية ويقارن بين ما شاهداه وبما كتبه المقريزى عن أبو الهول الذى سماه طلسم الرمل والذى وصف أيضاً تمثالاً آخر مشابها له على الضفه الأخرى من النهر والذى اندثر بعامل الزمن .

وتبدأ فكرة قطعه من أوروبا بزيارة الخديو إسماعيل لأوروبا وهو طفل للعلاج ثم وهو خديو شاب عاش فى فرنسا وانبهر بأوروبا وشاهد المهندس الأشهر أوسمان يخطط ويبنى باريس الحديثة فقرر على الفور إنشاء قطعه من أوروبا أو من باريس على وجه الدقه فى القاهرة المحروسة ويحكى الناظر كيف أنقذت السرعه فى بناء المشروع قاهرة المعز من الهدم فبنيت القاهرة الأوروبية بجوار القاهرة القديمة يفصلهما شارع إبراهيم باشا وميدان الأوبرا وسكن فى هذه القطعة من أوروبا سكانها الأوروبيين وامتلك المحلات والفنادق والمطاعم والمقاهى الراقية أوربيون معظمهم من اليهود وكان وجود المصريين نادراً عدا طائفة الخدم والسفرجية الذين كان لهم سلم خاص للصعود والهبوط سمى سلم السكندو(أى السلم الثانى بالايطالية) حفظاً لماء الوجه وهو ما يسمى فى أوروبا الأصلية بسلم الهروب أو سلم الحريق .

تاريخ القاهرة الحديثة

وكان الناظر يتأمل ويحكى حكايته من مسكنه فى شارع قصر النيل بجوار ممر بهلر فأمتعنا بدراساته المستفيضة وبحثه المتأنى والعميق فى تاريخ أسماء ملاك البيوت والمحلات مثل الألمانى بهلر والسويسرى الأيطالى جروبى واليهودى المتجنس بالمصرية شيكوريل وتحدث الينا الناظر من شوارع هذه القطعه من أوروبا فوصف شوارعها ومبانيها بل وذكر أسماء مهندسيها أحياناً وما هدم وأعيد

بناؤه منها وطاف بنا من الأوبرا وشارع إبراهيم إلى ميدان الإسماعيليه (التحرير) ووصف الميادين والتماثيل وأرخ لها جميعاً .

وكان للناظر وهو ساكن قديم لوسط المدينة جيران معظمهم من الخواجات الأوربيين وكان يحكى بطلاقة عن جارته الخياطة الايطالية والطفل اليهودى صديق أخيه الشهيد وكانت ذاكرة الناظر وأوراقه تنتقل من عصر إلى عصر وقد أخذ مشهد حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ جزءاً مهماً وحيوياً فى تاريخ القاهرة الأوربية وشغل المؤرخين والصحفيين وشهود العيان وقراء التاريخ بل وجميع المصريين طوال نصف قرن وكتبت فيه الكتب واحتل جزءا مهما من الأبحاث التى درست تاريخ مصر فى القرن العشرين، وقد نقل الناظر فقرة عن المؤرخ الشهير عبد الرحمن الرافعى يصف فيها حريق القاهرة اتهم فيها الغوغاء بتدبيره وتنفيذه ولم يشرح لنا الرافعى أية أسباب وراء غضب الغوغاء ولماذا غضبوا من هذه القطعة من أوروبا، ولماذا كان الحريق مركزاً على أبنية ومحلات بذاتها مع ترك محلات بجوارها لم تمس فشيكوريل وإريكو وشملا وبنزيون وشالون وبقية المحلات اليهوديه احرقت بينما ترك المعبد اليهودى المجاور لم يلمسه أحد وترك محل سمعان صيدناوى لم يمسه أحد وانهالت (الغوغاء!!) على جروبى بفروعه الأربعة سليمان وعدلى والأمريكين سليمان وعماد الدين .

كان اهتمام الناظر بوصف حريق القاهرة كبيراً وتم ذكره فى عدة أماكن من مخطوطه ونقل عن شهود عيان كيف بدأ الحريق فى ميدان الأوبرا بحرق كازينو بديعة وكيف شاركت بلوكات النظام (الأمن المركزى بلغة الآن) فى الحريق وتكاسلت ووقفت تتفرج على ما يحدث بل وشوهدت مظاهرات من بلوكات النظام فى طريقها إلى ميدان الأوبرا تهتف ضد الإنجليز ويركز الناظر على أن أحمد حسين وجماعته مصر الفتاة وكذلك الإخوان المسلمين كان همهم الأول هو تحطيم البارات ودور السينما ويعود الناظر ليحكى جذور الحريق بدءاً من مظاهرات ١٩٤٦ وانطلاق الفدائيين ليؤرقوا مضاجع الانجليز، بعد أن ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦، وكيف عم الشعور الشعبى كل مصر ضد الإنجليز وكيف ضرب الإنجليز مبنى محافظة الإسماعيلية الذى استشهد فيه خمسون رجل شرطة مصرى.

وينتقل الناظر إلى أبيه الوفدى الهوية والموظف الصغير فى البنك الأهلى المصرى ويذكر طفولته وكيف كان يتسلق كرسياً ليفتح الراديو ويستمع إلى الف ليلة وليله ويتحدث عن صوت شهرزاد الذى سحره أعواماً طويله من طفولته وشبابه ويتذكر إعجاب أبيه بأغانى عبد الوهاب

وينتقل الناظر مرة أخرى إلى الإنجليز

وكيف قتلت المقاومة منهم أربعة وعشرين جنديا وكيف انتقمت انجلترا باكتساح قرية كفر عبده بالسويس ونسفت منازلها ويذكر الناظر مره أخرى مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى حين قامت مظاهرات كفر الدوار بعد الثورة بشهر واحد وكان رأيه أنها فتنة وهياج ولم يعلق المؤرخ الكبير بالرأى على إعدام خميس والبقرى بل ونادى الطلبة بالاجتهاد فى المدرسة وترك الإدارة لأولى الأمر. واضح أن الناظر لا يحب وجهة نظر الرافعى فى التحليل والتعقيب على الأحداث التاريخية وربما يشارك الكثيرون الناظر فى هذا الرأى .

وكان تعليق الناظر على رأى الرافعى هو (قتلتنى يامؤرخ) إلا أن الناظر عاد وانتقد نفسه فى فصل لاحق بسبب هذه الجملة .

حكاية اليهود فى القاهرة

وعندما نصل إلى اليهود فى القاهرة الأوروبية يحتار القارئ هل هذه رواية أم كتابا للتاريخ أم للجغرافيا لكن الناظر يمزج الجميع فلا تحس بالملل أو الضجر وإنما تفتح الكلمات شهيتك على قراءة تاريخ اليهود فى القاهرة والمرتبط بتاريخ بعضهم فى أوروبا ومرتبط أيضا بتوطين اليهود فى فلسطين فى أوائل القرن العشرين وحين تقرأ هذا الجزء تشعر بأن الناظر يرى أمامه دائما أخاه الشهيد والذى حمله وهو وطفل بين يديه ويتصرف أحياناً كأن أخاه لازال موجوداً .

ويكتب الناظر عن المليونير اليهودى الإنجليزى كاسل الذى أنشا وامتلك خمسين بالمائه من أسهم البنك الأهلى المصرى والذى كان مسئولاً عن إصدار أوراق النقد المصرية بعد طبعها فى انجلترا، أما يعقوب قطاوى باشا فهو يهودى قدم إلى المحروسة من حلب وأصبح أغنى الأغنياء وأقربهم للسلطة وكيف كانت حفلات ختان أولاده وأحفاده أحداثا كبرى وحفلات ضخمة وكيف تحولت هذه العائلة الشرقية فكراً ولبسا وتصرفا بالتدريج إلى عائلة إفرنجية ويذكر الناظر أن علاقة قطاوى باشا مع حاييم وايزمان كانت وثيقة وأن بنت قطاوى حضرت حفل زواج أبا إيبان أول وزير خارجية إسرائيلى مع بن جوريون الذى جاء خصيصا من فلسطين لحضور الفرح .

ويصف الناظر العلاقة المتشابكة التى يجمعها الحب والكراهية والغيرة والمواقف السياسية بين سكان هذه القطعة من أوروبا .

فيذكر التعصب الشديد بين الجنسيات ويذكر تعصب اليهود الغربيين ضد اليهود الشرقيين ورفض زواج بناتهم من أولاد الحاره الشهيرة، يتداخل وصف القاهرة الرومية كما تسميها الكاتبة مع مشاهد تاريخية مهيبة تحرك فيها مئات الآلاف من المصريين داخل أوروبا المصرية مثل جنازة عبد المنعم رياض ويوم تنحى عبد الناصر وكذلك يوم رحل .

ولكن عندما يكتب الناظر من هنا

وهناك ويقفز عبر الفترات التاريخية ذهاباً وعوده قد تعتقد أن به مساً من الجنون أو أن ذكرى استشهاد أخيه مازالت ماثلة أمامه أو أن حال مصر قد أصابه باكتئاب شديد .

وعندما دعى الناظر لحضور فرح ابنته اعترض على إقامة الفرح فى فندق شبرد بسبب التاريخ الاستعمارى للفندق وقسوة أول من أنشاه على المصريين وفعلا تم نقل الفرح إلى فندق ماريوت ليس بسبب احتجاج الناظر وإنما لأن العروسين يريدان فندقا أفخم وأكبر وترك الناظر الفرح ليجلس على القهوة يرتشف فنجاناً من القهوة ويتأمل حتى استدعوه على عجل للسلام على المدعوين وتوديعهم .

ويوم أن حضر لزيارته الشاب الاسرائيلى الذى كان يسكن نفس العمارة عندما كان طفلاً وكان أعز أصدقاء أخيه الشهيد استقبله ببرود وفتور شديدين ووصلته رسالة من الشاب بعد سفره مع سلسلة من مقالات ضد دولة اسرائيل بعد أن تركها ليعيش فى أوروبا .

ويتحدث الناظر عن أمشل اليهودى الألمانى المؤسس لعائلة روتشيلد الذى أنجب خمسة من الذكور أصبح كل منهم من أساطين المال فى برلين ولندن وباريس وفيينا ونابولى وكلهم ساهموا بطريق مباشر أو غير مباشر بما حدث لنا فأولهم أقرض أربعة ملايين جنيه استرلينى للمفاوض الإنجليزى الذى اشترى أسهم مصر من قناة السويس ليدفعها الخديو إسماعيل والثانى هو الذى اتفق على وعد بلفور بإعطاء فلسطين وطن قومى لليهود والثالث هو الذى بنى المستوطنات الأولى ودفع الأموال لشراء الأراضى الفلسطينية فى مطلع القرن العشرين .

وينتقل الناظر من روتشيلد إلى الجندى الإسرائيلى اليهودى كردى وهو العربى الأصلى والمجنون بكرة القدم والذى رفع علم فريقه على البلدوزر الرهيب واستمر يهدم منازل جنين فى فلسطين لمدة ٧٥ ساعة متصلة وهو يتجرع الويسكى .

ويحكى حكاية الطفل فارس عودة الذى كان يلقى بالحجارة كل يوم على الدبابات الاسرائيلية وكان لايخشاها ويرقص أمامها حتى ضرب وترك ينزف حتى مات .

ولكن الناظر ينهى كتابه بجرعة من الأمل عندما يصور الاحتفال بولادة محمد الدره الصغير الذى سماه أبويه على اسم أخيه الذى اغتيل غدراً برصاص اسرائيل.

***

هذا كتاب جميل فيه من الفن والفكر والتاريخ الكثير والمؤكد أن جمع مادته العلمية استغرق وقتاً وجهداً فالحكاية لم تكن فقط ابداعاً وانما كانت عملاً أكاديمياً عظيماً أكمل الإبداع وقدم لنا هذه الدرة الجميلة .. ■

تحيــة إلى الكاتب الجزائرى الـراحـل

محمد ديب

بقلم

ابراهيم فتحى

نعرف محمد ديب الكاتب الجزائرى الذى يكتب بالفرنسية باعتباره فى المحل الأول مؤلف ثلاثية الجزائر التى تمتد أحداثها بين ١٩٣٨ و١٩٤٢ والتى ترجمها إلى العربية المترجم السورى الرائع د. سامى الدروبى ونشرتها دار الهلال . وقد صدرت أجزاء الثلاثية بالفرنسية تباعا : الدار الكبيرة عام ١٩٥٢ ولم تطبع بعد ذلك . أما الحريق عام ١٩٥٤ فقد صدرت لها طبعة ثانية عام ٢٠٠١ وكذلك الحال مع النول عام ١٩٥٧ التى صدرت طبعتها الثانية عام ٢٠٠١ أيضا . فلا يعتبر أحد أن الثلاثية عمل دعائى قصير العمر ينتمى إلى التحريض السياسى ولا تستهدف كتابته باللغة الفرنسية إلا تعريف العالم بوحشية الأوضاع التى تعيشها الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسى دون أن تكون لها قيمة أدبية متميزة. فهناك دراسات متعددة بالفرنسية لا تقف إلا عند الأساليب اللغوية والصيغ الشكلية لبعض أجزاء الثلاثية (مثل دراسات شارل بون المغرقة فى الشكلانية) .

ولكن محمد ديب (المتوفى فى ٤ مايو ٢٠٠٣ والمولود فى ١٩٢٠) كتب ما يزيد على ٢٠ كتابا ، وصدر كتابه الأخير «سيمورج» غريب العنوان بعد وفاته . ولم تكن الثلاثية الشهيرة أولى كتاباته المنشورة . فقد بدأ شاعرا من نوع خاص ، وتدفق عالمه الشعرى المبكر فى عروق رواياته اللاحقة، فالشعر هو الذى يغزل الخيوط الهادية التى ترشد النقد إلى قراءة متاهات أعماله متعددة الأنواع. وأشعاره التي سبقت الثلاثية مثل أعماله كلها تطارد المعنى المراوغ لوجود الإنسان فى عالم اليوم انطلاقا من تجربة محو هويته فى أرض ميلاده ، وجوعه إلى قضمة خبز، وظمئه الجنسى . وإدراكه عبر التساؤلات المتعثرة لذاته الفردية والوطنية . وهناك تجربته فى المنفى ، تجربة اقتلاع الجذور واستحالة العودة إلى الدار الكبيرة مرة ثانية الغارقة في دماء الاشقاء ، أو الاستقرار فى فم الأفعى الباريسية وفردوسها الكابوسى. إن علامات الطريق فى كتابة محمد ديب تدعو إلى الحيرة ، فهى تتعقب مغامرة بلا خريطة مسبقة تحاول استكشاف الإنسان فى كليته الحسية والانفعالية والعقلية والروحانية من خلال اللغة . وهى لغة عملية لكى يكون إنسانا حرا ، يقرر مصيره الذاتى بنفسه أن يدخل فى صراع معها كوسيط تعبير . إنه منفى ، بدوى متجول مرتحل فى مراع لغوية غريبة . فقد اضطرته الظروف إلى أن يكتب بلغة غير لغته . ولم تكن العربية هى اللغة التى تعلم بها أو استمد ثقافته وورثه منها أو أجدادها . وإن تكلم بلهجة من لهجاتها العامية الهجين في الشئون العملية . وفى طفولته كما يقول فى كتابه الأخير لم تكن لديه أدنى معرفة عن معنى أن يكون أى شخص مواطنا جزائريا .. بل إن نصف سكان مسقط رأسه تلمسان كانوا يتوهمون أنهم أتراك . ويذكرنا ذلك بالانتماء إلى الخلافة العثمانية وجنسها السيد قبل تبلور الحركة الوطنية المصرية . وكانت الفرنسية تدخله إلى عالم الوعى والثقافة وتعلمه الانضباط فى الكتابة بمفردات وصيغ مكتسبة .. كما كانت تمكنه من مخاطبة قراء متعلمين فى بلده ومن التوجه إلى متلقين أوسع فى العالم . ومن البداية فى أشعاره كان يصارع الترابطات والتداعيات والمعانى المتداولة في الفرنسية التى ينجرف إليها الفرنسيون دون وعى . وفى تلك الأشعار نجد عرقا يتصبب نتيجة لجهد محمد ديب فى الصراع مع البديهيات اللامرئية فى

الصيغ الكتابية المتعارف عليها وما تؤدى إليه من سلاسة ملساء زلقة سطحية وهو جهد يبذله لكى لا يعبر عما صممت الكلمات والجمل والبلاغيات الفرنسية بحكم استعمالها المقر من جانب السلطات التعليمية والسياسية لكى تغطيه وتخفيه : القهر الاستعمارى والاستغلال الطبقى والمتناقض واللايقيني . لذلك اختار اتجاها فى الشعر الفرنسى يبدو غريبا على كاتب مثله يعمل محررا فى جريدة الحزب الشيوعى الجزائرى : الاتجاه الرمزى ، واختار شاعره ستيفن مالارميه مصدرا للإلهام دون أن يتبنى آراءه فى وظيفة الشعر واللاسياسة .



الإلهام الأورفيوسى

يرى معظم نقاد محمد ديب أن هذا الإلهام الأورفيوسى بصيغته الأسطورية الكتبية الغامضة هو الخط الهادى فى متاهة أعماله . وكانت نظريات الحداثة وما بعدها تعتبر هذا الإلهام وأسطورة أورفيوس أصلا لكل إبداعات نهاية القرن العشرين فيما يتعلق باللغة والصمت . ولكن تعامل محمد ديب مع الأسطورة له وجهه الخاص الشخصى والفنى والجزائرى .

أورفيوس الشاعر وعازف القيثار تغادره زوجته يوريديس بموتها ويذهب إلى العالم الآخر لاسترجاعها ويفشل وتمزقه النساء إربا . ولكن رأسه المنطلق نحو البحر يواصل الغناء والبحث عن السر، كما أن قيثاره منزوع الأوتار يواصل العزف . (الفنان فى المنفى ، يبحث عن اتحاد مع أصله المختفى) الشمس ومن ناحية أخرى كان أورفيوس كاهن أبولو الشمس أى «الانسجام العقلانى للنور ومثاليته تصور الأشياء كما ينبغى أن تكون» بعد نزوله إلى الأعماق السفلى المظلمة قد تصالح مع ديونيسوس أسيوى الأصل ممثل الكائنات التى تتصل بذواتها المظلمة تحت الأرض . أورفيوس يصالح العناصر الجامحة العاصفة فى الإنسان وأغنية النشوة العربيدة ، على نور الانسجام في صيغ دينامية ، مصالحة حافلة بالتوترات المتجددة . وقد أضاف محمد ديب إلى أشعار مالارمية ذلك الإلهام الأورفيوسى الشرقى ، فى شكل يماثل بعض الطرق

الصوفية الشعبية الفلاحية فى الجزائر . وهى تقوم لا على الإدراك الواعى أو المعرفة العقلية بالله الخالق ، بل على صلة مباشرة دون توسط عرفانية (غنوصية) حسية شخصية كثيفة بأسرار الوجود التى يتخللها المعبود عن طريق الوجد والحدس .

ويمزج محمد ديب التصوف الفلاحى المغربى ونزعته الإشراقية بالإلهام الأورفيوسى عند شعراء الرمزية متجاوزا أى فلسفة نظرية للشعر أو أى جانب تقديسى للإغريق عندهم . فلم يكن يعنيه إلا الجانب اللغوى متمثلا فى انصهار الكلمة بالجسد داخل رقصة وجود دائرية تشى بانسجام الأفلاك ولكنها لا تتحقق إلا عبر حلقات ذكر ، ورقصات دراويش (رقصات التنورة) صارخة بعبارات تبعث فى الأعضاء حالة التوثب والانتشاء والترنح وخرق الانسجام الظاهرى . وكانت أغنية أورفيوس عند محمد ديب تمتزج بالطبيعة والحياة السرية للأشياء باحثة دون توقف عن تآلف مراوغ فى عالم مختل. إنها أغنية يلتقى فيها الإدراك باللغة ، والشعر بالجسد ، فهى الوعى الذاتى للكيان العضوى الصوفى اللغوى المتكامل للإنسان .

لذلك نرى فى الأشعار المبكرة وفى قصائد المنفى (ظلال حارسة - الكثير جدا فى الشمس - تحالفات مستحيلة)، بل وفى روايات المنفى كذلك محاولة الكلمات والإيماءات الرمزية وقنوات الحكى أن تتمرد على حصرها فى «علامات» أو «شفرات» فهى تغتصب لنفسها كتلة وكثافة الأشياء ، وطاقات الفاعلية السحرية كأنها تعاويذ أو رقى، مقتنصة فى صياغتها إيحاءات الأسماء الملتبسة (مابيل - ليلى - سيمورج .... إلخ) وتداعيات الألفاظ وجرسها وهالاتها . ونصل بعد ذلك إلى أن أشعار محمد ديب ورواياته التى سميت بعد ذلك سيريالية ورمزية - بطريقة اختزالية كسول - لم تغرق فى الجسدى الفيزيقى باعتباره الوجه الوحيد بل بعثت فيه أنوار تساؤلات التجريد الفكرى الإنسانى .

ثلاثية الجزائر .. ماذا يبقى منها ؟

كثيرا ما تقارن تلك الثلاثية عن الجزائر بثلاثية نجيب محفوظ عن مصر (القاهرة) وكثيرا ما يتكلم النقد السطحى عن قطيعة إبداعية عند الكاتبين بين مرحلتين. فى مصر لا يقرأ أحد القصص القصيرة المبكرة عند نجيب محفوظ (صوت من العالم الآخر، همس الجنون ، الشر المعبود) ، وفى فرنسا لا يقرأ أحد

أشعار محمد ديب السابقة على الثلاثية . فهنا وهناك لم يقف الأسلوب عند المظاهر والسطوح وجلود الواقع المسلوخ بل نفذ إلى عالم التجربة العميقة . وفى الثلاثيتين احتفظ الأسلوب بالسطح المعتاد المألوف ولكنه استخدم أدوات تسمح للواقع الأعمق (النفسى والاجتماعى) أن يشق طريقه وأن يفصح عن نفسه فى مواقع الأزمة للتعبير عن المدى الكامل للتجربة الإنسانية . فى «الدار الكبيرة» على العكس من «بين القصرين» تنعقد البطولة لشخصية واحدة بدءا من الطفولة ويظل عمر بطلا «للحريق» و«النول» كذلك . وابتداء من السطر الأول بل ومن عنوان الرواية الأولى نلمح رمزية كامنة . فالدار هى دار «سبيتار» واسم الموقع هو التحريف العامى الجزائرى لكلمة «اسبتالية» ، المحرفة عن كلمة مستشفى اللاتينية وفرسان المستشفى فى الحرب الصليبية ، «الاسبطارية» عند العرب . وذلك للتأكيد على الاختلال العام والمرض والتشوش وما يتطلبه ذلك من التقلب على الجنبين والرغبة فى الشفاء. والسطر الأول سؤال لعمر إلى طفل آخر يرجوه قضمة من لقمة خبز يشاركه فيها . رغبات ونظرات



وتململ واستياء وإحباط وتعبير عن طرائق سلوك وشعور . ولن نجد فى «الدار» وهى استعارة للجزائر كلها أنظمة أفكار أو تحليلات سياسية أو إعلان مذهب أو عقيدة بل سنجد أشكالا مختلفة من الجوع تلازم جماعات متشابهة من الناس تقابل أشكالا مختلفة من الشبع عند بيض البشرة والمتعاونين معهم . الأم بعد موت الأب منحنية على ماكينة خياطة الجلد نهارا وليلا تصنع الصنادل لتطعم الجياع دون نجاح وتبيعها بثمن بخس لمستوطن . الحنان والتضامن والأمل فى أن يتعلم عمر . فلم يكن محمد ديب جراحا يشرح جثة مجتمع . بل كان يرسم لوحة من الحياة الإنسانية ، تتجاوز الوثيقة الاجتماعية والسيكولوجية بالمعنى الوصفى المعتاد، بواسطة لغة وأساليب سرد مبتكرة إنه يصور تجارب الحياة فى لغة التعبير الخارجية وأشكال الوعى والوجدان الجماعية المراوغة غير الملموسة ولن نجد فى كلمات عمر أو الراوى أفكارا خالصة . بل سنجد الأفكار كما يحس بها الأفراد والجماعات ولن نجد مشاعر بدائية لم تمر خلال استجابات التفكير

للأوضاع الحية . وتصور الرواية الاختلال والفقدان وسلبية اليأس من خلال أصوات إنسانية عادية تمارس حياتها من خلال حلم بإمكان طريقة أخرى للحياة بواسطة لغة الاهتمام والرعاية والحنان والحب (الأم والزملاء والأصدقاء والأقرباء) ، والظمأ إلى المعرفة وطرح طرق التعليم بالفرنسية للتساؤل الممتزج بمشاعر الفخر والامتياز . فلم تقف الرواية عند دراما الوصف الاجتماعي بل صورتها من خلال درامات أخرى ، حالات الجوع الحسي وظمأ مشاعر الكرامة والتحقق والوعي . وكان كل ذلك يجد ترحيبا لدى أقلية من قراء الطبقة الوسطى المتعلمة في الجزائر وأقلية من المهاجرين المغاربة في فرنسا تتعدي إعدادهم الآلاف . إنها صرخات شخصية مكثفة في الظلام لها ايقاعات أغنية حزينة عند بعض مثقفي الطبقة الوسطى الفرنسية .

أما «الحريق» فقد اندلعت نيرانها الأدبية واللغوية في النقد الفرنسي طويلا

لقد كان عمر الشاعر المغنى (شبيه أورفيوس) في «الدار الكبيرة» طفل شمس الجزائر التي كانت وحدها عطوفا على الجزائر . فالجغرافيا والسكان والتاريخ لم تكن جميعا كذلك (كامو) . إن النور هو العنصر الغالب على الظلمات . وينزل عمر في براعم مراهقته إلى الريف في إجازة مدرسية في قرية بني بوبلين حيث انتزع المستوطنون الفرنسيون من الفلاحين الجزائريين أخصب الأراضي واستعبدوهم كأجراء .

والتقى عمر بمن هم أكثر وعيا منه في أقصى درجات القدرة على تحمل الجحيم الأرضي . وعلى الارتباط الوثيق العميق بالأرض. وأحداث هذه الرواية منقولة عن وقائع حقيقية وصفها محمد ديب عام ١٩٥١ في الصحيفة الشيوعية «الجزائر جمهورية» عن إضراب في عين طايا . وقد نقل محمد ديب هذه الأحداث من منطقة العاصمة إلى تلمسان التي يعرفها وإلى عام ١٩٣٩ . فهناك توازٍ بين عمر ومحمد ديب . أورفيوس يهبط إلى جحيم متعدد الطبقات بحثا عن حبيبته . النار تشتعل في العصيان الفلاحي وفي يقظة الجنس . وفي أحداق السلطات الاستعمارية والمتعاونين الجزائريين معها، بيوت الفلاحين المتداعية ، وفي الحلم بالحريق الثوري القادم .

روايات المنفى

إن الكاتب اليساري الثوري بعد طرده من الجزائر عام ١٩٥٩وتوسط أندريه مالرو وألبير كامو له لكي يمنح حق الإقامة

في فرنسا وجد باريس منفى شديد القسوة لأمثاله على العكس من جوليا كريستيفا وكلامها عن متع المنفى . لقد مكنته بساريته من أن يواصل الترحال والسفر في أرض أوروبا الشرقية (الاشتراكية الواقعية الفعلية) وربما عرف من مشاهداته أن المجتمع الألفى السعيد خرافة كاذبة . وفي اليوم الرهيب ١٧ أكتوبر ١٩٦١ خرج آلاف الجزائريين المهاجرين ، من الرجال والنساء وحتى الأطفال في مسيرة سلمية تماما مغادرين الجيتو ومدن الصفيح في الضواحي ، جاهلين بموعد حظر التجول المفروض عليهم وحدهم ، متجهين إلى باريس . وكان ذلك استجابة لنداء جبهة التحرير الجزائرية . وكانت القوات الفرنسية الخاصة في انتظارهم . وقد قتلت منهم المئات وتم انتشال جثثهم من نهر السين . ولم يتكلم الحزب الشيوعي قط عن هذه المجزرة بل كان نوابه قبل ذلك قد وافقوا على منح سلطات خاصة لجي سولية لكي يخمد بالقوة ثورة الجزائر، ثم واصل ديجول تلك الحرب القذرة، وكان كتاب هنري أليج الشيوعي «السؤال» الذي يفضح شناعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر صادرا من خارج الحزب وبدون إقرار منه . بل لم يعمل الحزب على إقامة تضامن بين العمال المهاجرين والنقابات الفرنسية . ومن ناحية أخرى كان الديمقراطيون واليساريون في فرنسا يتحدثون عن مستقبل الجزائر «الحرة» بسخرية. إنها ستكون محكومة بالحزب الواحد ممثل التكنوقراطية العسكرية، وستنفرد الطبقة البورجوازية «الوطنية» بالحكم لتصب دماء وبطولات الشعب الجزائري كامتيازات في جيوبها ، وسيظل العمال والفلاحون وفقراء الطبقة الوسطى محرومين من أي امكانية للتنظيم النقابي أو السياسي المستقل . وكان الواقع الجزائري تحقيقا للنبوءة الساخرة، وما أتى بعد ذلك كان أشد وطأة ويقترب من صراع دموي بين العلمانية والأصولية. لقد أزهقت روح سؤال التحرر الإنساني بأشكاله القديمة ولكن محمد ديب ظلت كتابته تحمل الجزائر في قلبها . ونزل أورفيوس إلى الجحيم بحثا عن محبوبته .

وفي «من يتذكر البحر» (١٩٦٢) حكايتان متوازيتان لكل منهما تسلسلها الخاص. الحكاية الأولى عن مدينة الاستعمار مدينة الاحتجاز والسجن والصروح البشعة والتحجر والحكاية الثانية الاقل حجما عن طفولة الراوي، وتؤكد الحكاية الأولى تحويل سكانها إلى جثث محنطة وتحكي عن زمن متجمد في مستنقعات ، وملوث بالسواد على الأسفلت وحتى تفرض على السكان مقاومة القمع الاستعماري أي تجبر الجزائريين على اللجوء إلى مدينة سرية

تحت الأرض وبالمثل نجد الحكاية الأولى منحصرة عند طفولة الراوى داخل منزل متداع مقام على قلعة تحول ثلاثة أرباعها إلى حطام . والراوى يتسكع بين مدينة الاستعمار التى سيغزوها البحر حتما لتتحول إلى انقاض وسيكون مثلها مسوقا إلى الموت إذا لم يغادرها وبين المدينة السرداب، أدغال المقاومة بحثا عن نفيسة . البحر يتواطأ مع مدينة المقاومة ومدينة الاستعمار محكوم عليها بالفناء ومدينة الطفولة متلاشية، والراوى الأورفيوسى متعاطف مع مدينة الثورة تحركه الرغبة فى الاتصال والتوحد بالبحر والريف ولكنه لن يجد البحر ولا نفيسة . بل إن امرأة أخرى غير نفيسة انزلقت بلهجة آمرة إلى فراشه . ويبدو العالم للراوى المنفى الغريب مظلما يظل يبحث فيه عن قبس من نور، عن تحقيق واتحاد بعد أن حرم من ذكريات وطنه (داره) ومن أوهام أرض ميعاد فى المستقبل ، ومن عودة محبوبته الضائعة وابتداء من رواية «من يتذكر البحر» التى تصور الجزائر وحرب تحريرها بطريقة رمزية تشبه تصوير قرية جيرنيكا فى لوحة بيكاسو الشهيرة لم تعد الحياة الفردية للشخصيات المركز الرئيسى، فروايات السير على الضفة الوحشية» (١٩٦٤) وهابيل» (١٩٧٧) وشرفات أورسول» (١٩٨٥) كتبت بعد أن رفض الجنسية الفرنسية عام ١٩٦٢ . وكان قد بدأ فى كتابة «شرفات أورسول» قبل الثلاثية الأولى ولم يكملها إلا بعد ذلك فأصبحت فاتحة لثلاثية الشمال وجاءت بعدها إغفاءة حواء «وثلوج المرمر » من ١٩٨٥ - ١٩٩٠ وكلها ارتحال وبحث بعد فقدان المدينة الأصلية لليقين والانفصال عن وجوده الأول وعبور إلى شواطئ أخرى خلسة ، فلا استقرار فيها ولا وصول . فلم يعد ديب يروى عن أفراد فى مشهد واقعى هو المنفى المكانى المحدد بل عن أسماء هى تجسيدات لمواقف إنسانية أساسية، ولم يعد يروى عن أحداث لها بداية محددة تؤدى إلى نهاية بل عن أنماط بين الأوضاع يتساءل هل ستظل تتكرر؟.. إنه لا يحكى حكاية بل يستكشف أوضاعا ملغزة متغايرة عن طريق تنظيم الصور الشخصية والمواقع والعبارات المتداخلة المتنافذة.

وفى رواية «الرب فى البربرية» (١٩٧٠) نبوءة لحكيم عن أن الفلاحين بمجتمعهم وصمتهم سيشكلون للعالم نفى خطابات المدينة وسيشغلون مدن الكلام الرائعة بقوة العدد وحدها وهو وعد عرقوبى .

وستظل المدن تلفظ الشاعر المغنى الباحث عن معنى وعن إجابات وعن طرق جديدة لصياغة الأسئلة القديمة، وعن

جسد للكتابة . ويلقى كتابه الأخير «سيمورج» أضواء على رحلته . سيمورج بالفارسية (ربما) هو طائر النفس وهو الورقاء عند ابن سينا: هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع . فالنفس كانت فى الأعالى عند أفلاطون أيضا وعرفانها تذكر، وبعث فى الروح. مثل نفس الراوى الشاعر فى بلده وثقافته وقد هبطت إلى مدن المنفى . إنها نفس تشبعت بالثقافات المختلفة وترفض المركزية الأوروبية أو الأمريكية المغتصبة للتراث العربى واليونانى والمسيحى وتطويعه لأهدافها . وهو يسخر من الفرنسيين الذين يمنون على الكتاب الجزائريين بأفضالهم ، وبين تناقض السياسة الخارجية الأمريكية مع خطاب الحريات المعلن ضدها ، ومن عولمة تقوى الحواجز وتحصن الحدود أمام حركة البشر ومن أصولية مدعاة تغطى يأسها بالدم والعقم والاستفادة.

إن الورقاء (السيمورج) عند محمد ديب ، كما كانت عند ابن سينا ، يترابط «إشراقها» بالنفاذ من الأعالى إلى الأعماق وتخلل الظلمة وتلبس الجسد والأشياء واكتشاف طرائق الكتابة والغناء ، مثل أورفيوس على الرغم من منفاها . ■



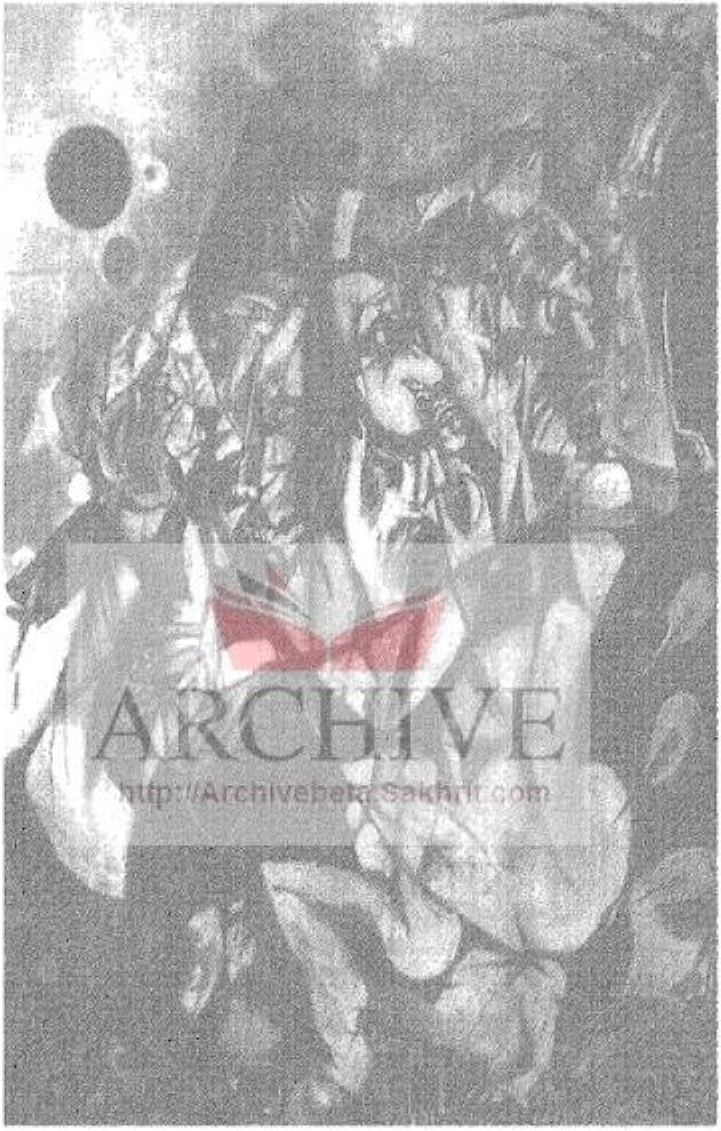
مارجوفيون

أوروبية المولد مصرية الهوى

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

أما الفنانة فهى مارجوفيون التى ولدت بمدينة القاهرة فى ١٩٠٧ لرجل أعمال سويسرى وزوجته النمساوية . وقد أنفقت قسما كبيراً من حياتها فى الفن تحاول اقتناص ما تتسم به الحياة اليومية فى مصر من حيوية وحركة . وكانت تقسم وقتها بين بيتها فى القاهرة وبيتها فى سويسرا . وقد سبق أن أصدرت مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ثلاثة مجلدات من لوحاتها تحت عنوان : الحركة المتفجرة (١٩٩٦) حصاد مصرى (٢٠٠٠) احتفالات مصرية (٢٠٠٢) . واليوم تصدر نفس الجهة ، فى عيد ميلاد الفنانة السادس والتسعين ، مجلدا كبيرا بالألوان ، من القطع الكبير ، فاخر الطباعة والإخراج عنوانه «تصوير مصر» Painting Egypt يضم مائة من لوحاتها التى تقتنيها الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وقد أشرف على إصدار المجلد برونو رونفارد الذى يعيش فى القاهرة ويتعاون مع الفنانة فى تقديم عملها تعاونا وثيقا .


مارجوفيون



وسط الزهور – ١٩٦٤

أقامت مارجوفيون عديدا من المعارض فى مدن مختلفة: القاهرة والاسكندرية وزيوريخ وبرن ولندن . كان أول معرض لها فى صالون جمعية محبى الفنون بالقاهرة فى ١٩٢٨ وأحدث معرض فى قاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى ٢٠٠٢.

يقول مارك لينز مدير النشر فى مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى تصديره للمجلد : إن م. فيون - التى تتميز بالإبداعية والتصميم والاستقلال - قد سجلت ، على امتداد قرن تقريبا ، جوهر الحياة اليومية فى مصر فضلا عن حياتها فيها منذ عشرينيات القرن العشرين حتى مطلع هذا القرن الجديد .

كذلك مارست فنها فى باريس وسافرت إلى إسبانيا وإيطاليا واليونان والمكسيك وجواتيمالا ، ثم إلى لندن ونيويورك ، وكثيرا ما تسافر إلى سويسرا حيث تقضى شهور الصيف الطويلة . ولكن بيتها والفضاء الفنى الذى تتحرك فيه إنما هما مصر ، صحاريها وقراها ، محصولاتها واحتفالاتها ، نهرها الذى تابعته أيضا فى النوبة والسودان وإثيوبيا ودلتا النيل ، لتعود دائما إلى مرسم بيتها بالمعادى حيث تعيش منذ أكثر من خمسين سنة .

يعرف أصدقاؤها القلائل القريبون منها اليوم - وقد كان لها أصدقاء كثيرون جاءوا وذهبوا - حرارة التزامها برؤيتها الفنية للحياة من حولها وهى حياة تزخر بالطاقة والحركة والجمال والصدق إذ يمارس المصريون حياتهم جدا أو لهوا فى المدن والريف . وتقف الفنانة فى مركز عملها إذ تصور الناس واللوحات الوجهية والمنظورات .

والقول بأن مارجوفيون قد عاشت حياة غير عادية ، ملؤها الإنتاج والقلق ولكن ملؤها الحكمة أيضا ، لا يفى عملها الفنى واسع المدى ، شديد التنوع ، حقه : فقد أنتجت آلاف الرسوم والتصاوير الملونة وصور الجواش والحفر والصور التخطيطية والصور الفوتوغرافية واليوميات والنوادر والذكريات : وكلها أعمال تتسم بالتعقيد والمباشرة الجسور .

حياة مكتملة ومتنوعة

أما برونو رونفارد محرر المجلد فيصف مرسم الفنانة فى المعادى : لقد بنت بيتها هناك فى نهاية أربعينيات القرن العشرين ، وجعلت مرسمها يقع من البيت فى المركز ، يواجه الشمال كى يقتنص النور غير المباشر الذى يحتاج إليه المصور . وإذ يعبر المرء بوابة البيت الخضراء يجد نفسه فى حديقة تتزاحم فيها الأشجار والشجيرات الكثيفة . إن هذا الركن الصغير من الأرض انعكاس صادق لحياتها فى فن التصوير : حياة مكتملة ومتنوعة ، تملؤها الأصداء والذبذبات . أما حديقتها السرية فهى الأماكن والصداقات الكثيرة التى نسجتها خلال حياتها الطويلة . ليس من السهل أن نصف حياة فنانة عاشت مثل هذا العمر الطويل : لقد قضت فترة من الزمن قريبة من الحقبة التكعيبية الثانية فى باريس ، ثم عادت إلى أسلوب فى التصوير أكثر كلاسيكية ، يبرز قدرتها على الرسم وإحساسها بالتكوين ، وذلك قبل أن تطلق العنان لخيالها ويدها : ثم جمعت بين هذه الأساليب الثلاثة فى سلسلة لوحاتها التى تحمل عنوان : منظورات عالمية Globri

Bers Pectives . هناك كل أنواع الحياة بقدر ما يوجد من فنانين . فهناك حيوات تسير في أخدود بعينه ، بصبر، وكثيرا ما تعيش في الظل - يفكر المرء هنا في فنان مثل بالثوس - وهناك فنانون يعيشون بسرف وبلا حدود مثل بكاسو . وقد اختارت مارجو أن تعانق هذا كله ولكنها حرصت على أن تظل بعيدة عن الاتجاهات الكبرى وصخب المشهد الفني . ومع ذلك نستطيع أن نتتبع عدة خيوط في عملها : مصر التي علمتها كيف تنظر وكيف تركز لكي تقتنص جوهر الإيماءة والحركة ، متحفها التخيلي (بعبارة أندريه مالرو) الذي نجد فيه تصاوير من كل الفترات ومناظر صحراوية جنبا إلى جنب ، ثم المنظورات العالمية وهي اكتشافها الرئيسي .

ولدت مارجو لأسرة من الطبقة المتوسطة (كان أبوها تاجرا واسع الاسفار) وكانت مبكرة النضج قررت منذ البداية أن تتجه إلى الفن: «كانت لعبتي وأنا صغيرة جدا هي أن أتتبع الرسوم التخيلية التي تجري على طول الموائد الخشبية أو الرخامية بإصبعي» وفيما بعد ، حين بلغت الثانية والعشرين ، سافرت إلى باريس لمدة عامين وهي فترة وصفتها بأنها فترة القنانة initiation في حياتها ، هناك قرب نهاية العشرينيات ، سرعان ما هجرت الدروس الشكلية لتتحرك حرة بين مصورين أجانب آخرين في مرسم قرب مونتبارناس . وتعلمت من خلال الممارسة كيف تتحرر من المحاكاة الأكاديمية لكي ترسم ببطء ، بضربات قصيرة من فرشاتها ، دون أن تنزع عينيها عن النموذج الذي تصوره . وأنتجت هذه الفترة بعض تصاوير بالغة القوة قريبة من السريالية ، مع أثر تكعيبي ، إذا كان لابد لنا من أن نستخدم هذه البطاقات . خلفت فيها هذه السنوات من التدريب التجريبي ندوبا عميقة خصبة ، ولكنها اتخذت قرارا حاسما في حياتها الفنية وحياتها الشخصية هو العودة إلى مصر والعيش بها ، وإن ظلت تكثر من الاسفار (إلى إبيزا بإسبانيا ووادي النيل بصفة خاصة) ، بصحبة مصور ألماني هو مارتن سيدل الذي مات مبكرا ولكنه خلف تأثيرا في عملها) .

هكذا عادت - بعد باريس - إلى مدرستها المتواضعة الفنية : مدرسة الحياة المصرية كي تسجل تفاصيلها في صور تخطيطية معبرة قوية . وفي القرى المحيطة بضاحية المعادي وجدت ما عرفت به أكثر ما عرفت: آلاف الرسوم للحياة المصرية التي أنجزتها في ثلاثينيات القرن العشرين وكانت أشبه بلوحة حية Tableau Vivant تجتمع فيها إيماءات الأسلاف وتجسدها يدها البارعة . صورت الاحتفالات والعمل في الحقول والحياة اليومية للنساء فلم تقتصر على نقل حقيقة هذه الأمور وإنما أبرزت على نحو أعمق - الجمال الخفي للعالم ، وذلك بنظام وعاطفة حارة في آن . كان العالم المرئي ، بالنسبة لها ، يملك من السحر ما يكفي لأن يكون مادة لعملها . والتقطت أيضا عدة صور فوتوغرافية تشهد بحدة بصرها - بصر العقاب - وراء يدها الماهرة كما صورت بلطيم عند نهاية الخمسينيات .

توعات لا نهائية

يبدأ متحف مارجو الخيالي بمستنسخين بسيطين علقتهما ، بعد فترة قصيرة من بناء بيتها عند مدخل مرسمها



جبل يمون - ١٩٤٥

كأنما ليؤنساها : كلاهما صورة وجهية لفنان يحمل لوح ألوانه : إحداهما لرمبرانت والأخرى لبرويجل . من المحقق أنها قد أخذت عن هؤلاء الأساتذة القدامى (كما تعلمت من بلانكيت) إحساسها «الفطرى» بالتكوين ، وميلها إلى التصوير المكتمل، ونزوعها إلى لونين من التصوير لهما تنوعات لا نهائية تسمح للفنان بأن يركز على ما هو أساسى : اللوحات الوجهية (واللوحات التى تصور الذات Seff - Partvaits والحياة الساكنة Stiff life) ثم هناك تأثير بكاسو . لقد كان بالتأكيد مصدر إلهامها حتى أنها تروى أنها حلمت به فى نومها فى عدة مناسبات (حلمت ذات مرة أنها وجدت نفسها فى ميدان تسفعه الشمس ، بين نافورة وسوق ، بينما هو جالس يصور) . وقد تحدثت إليه وأراها محتويات صناديقه الملیئة بأشياء مختلفة الأشكال والأحجام . وقد سألتها : «ألا ترمى أى شىء ؟» فأجابها : بالتأكيد لا . لا أرمى شيئا البتة ! . ويمكن أن ينسحب هذا على مارجو ذاتها التى احتفظت - عبر السنين - إلى جانب صورها التخطيطية ولوحاتها بمئات الأحجار وغيرها من الأشياء وصنفتها واقتنتها . لكنها سكلت أيضا - مثل أستاذها - دروبا تجريبية كثيرة منها التصاوير الفانتازية ورسومها الحديثة بالقلم الرصاص : دروب مشت فيها ، ثم هجرتها ، ثم عادت إليها مرة أخرى.

وفى متحفها الذى كونته ثمة مجموعة مدهشة من الأحجار هى بمثابة منحوتات فعلية ذات أشكال لا تصدق جمعتها من



بلا تعليق - ١٩٨٨

صحارى مصر التى لم تكف عن استكشافها .

وهذا الجزء الكلاسيكى من عملها قد أتاح لها - من غير شك - حرية فى الخط لم تعد مجرد تمثيل للواقع وإنما هى جوهر الأشياء ، حركتها ، وتركيبها الداخلى ، ويتجلى هذا فى رسمها للعاريات Nudes وما تسميه الليليات Nac-turnes (مثل بعض أعمال شوبان الموسيقية) وهى مئات من الارتجالات ملؤها نفاد الصبر وحرارة العاطفة أنتجتها خلال حرب الخليج . إن الخط هو من أى مصور بمثابة توقيعه وطابعه وملمحه المميز . وفى الوقت ذاته فقد ظلت طوال حياتها تسعى إلى العمق ، وأكثر استجاباتها شخصية ولمعانا إنما هى سلسلة تصاويرها المرسومة بـ «منظورات عالمية» .

المرئى والمحسوس

وتشغل هذه المنظورات مركز المجلد الذى نتحدث عنه كما تشغل مركز عمل مارجو . كانت أولى رسوماتها فى هذا الباب ضربا من الاستثارة التلقائية . وقد أرخت لها على نحو دقيق : فقد أنجزت ستة منها فى ١٩ أكتوبر ١٩٦٦ وأربعة فى اليوم التالى . ومنذ ذلك الحين حتى عام ١٩٩٨ ظلت تسعى - فى هذا العمل المطرد - إلى أن تصور، فى آن واحد ، ما تراه فى المرسم الذى تجلس به وما لا تسمح لها حدود الرؤية البشرية برؤيته . أو بمعنى آخر لم تقتصر على ما تستطيع العين رؤيته وإنما مدت شبكتها إلى ما كان يراد به أن يكون حاضرا فى هذا المكان : المرئى والمحسوس . وقد صبت كل طاقاتها فى هذه السلسلة من عشرين

لوحة - أو نحو ذلك - بالزيت والعديد من الرسوم التمهيدية والجواش والألوان المائية وكأنما هى عاكفة على آيتها الكبرى . وهذه الرؤية الكلية التي أرادت أن تضعها على قماش اللوحة تشترك في أشياء مع التكعيبية ، ولكنها تكعيبية بلا شكلانية . لئن كانت أعمالها عن الحياة اليومية المصرية ترمى إلى أن ترى العالم الذى تصوره بحرية من خلال إيماءاته ووجوهه واحتفالاته ، فإن منظوراتها العالمية - وفى فترة لاحقة : ليلياتها - تعالج قضية وحدة عالم شذرى . وفى هذه السلسلة من اللوحات الزيتية التى أنجزتها فى الفترة ١٩٨٦ - ١٩٨٨ كان الحل الذى توصلت إليه هو التحريف وإعادة بناء الفراغ وأحيانا استخدام مناطق كبيرة من اللون الراسخ الصلب . إنها ترمى لا إلى تقديم مرسم فى حالة فوضى شعثاء وإنما إلى تقديم وحدته الداخلية ، لا ما تراه وإنما ما تريها يداها إياه . تريد أن تتغلب على التعدد المتنافر وذلك بإماطة اللثام عنه.

وتقول: «لا تستحوذ على فكرة الموضوع فى ذاته، خطه، وطابعه التصويرى وإنما أنا أدركه من خلال مدخل مغاير من حيث علاقته بالكل وبلا شئ، ومن حيث علاقته بنفسى. إنه لم يعد ببساطة بصريا وفى هذه التصاوير نجد الفنانة حاضرة دائما ترسم أو تصور بالألوان، ونحن نراها عادة من ظهرها وفى يدها دائما قلم رصاص أو فرشاة وثمة نوافذ أمامها، يتذكر المرء هنا ماتيس الذى كان يستخدم النوافذ لكى يضع العالم فى تصاويره. هكذا تصبح الفنانة بوضوح، معنا تتأمل تصاويرها، ولكننا نصبح أيضا واقفين وراءها إن قماشة اللوحة تسجل ملاحظتها ورسمها، ويدها هى الوسيط بين العالم وبيننا لا عجب إذن أن نرى لليد مكانة بارزة فى عملها كما فى لوحاتها المسماة «خداع غرامى» والليليات والنساء المصريات فى لوحتى «صنع الخبز» و«صنع الزبد» ومن المحقق أن اليد هى أكثر ما يشد الانتباه فى منظوراتها العالمية.

وللفنانة صورتان ذاتيتان Self portraits تواجهنا فيهما داخل إطار : كأنها تصوير داخل تصوير . أما أحدث لوحة زيتية لها فلا تصور فيها الفنانة نفسها لقد انسحبت . إننا مازلنا نرى المرسم، ولكن هذه المرة من خارج النافذة، كما نرى ريف دلتا مصر، والانفصال بين البيت والمنظر الطبيعى هنا انفصال حاد وفى الوقت ذاته يلوح كل شئ مفتوحا كالنوافذ إن كل شئ يتحول إلى فراغ واحد ليس فيه أبواب داخلية ولا أبواب خارجية كل شئ يغدو أكثر تحررا وأبسط. لقد اكتمل العمل بكل عمقه.

★★★

شهدت باريس مولد الرؤية الفنية لفنانتنا فى عشرينيات القرن الماضى اجتمع فيها حشد من الفنانين الأجانب: من بكاسو إلى سوتين، ومن دى كيريكو إلى موندريان. وهنا غازلت مارجو تقنيات السريالية والتعبيرية وقبل كل شئ - التكعيبية إن تصاويرها التى ترجع إلى هذه الفترة تصاوير كلها إبداع وانقشاع أوهام لم يعف عليها الزمن: فهى مشربة بحساسية عالية وفيها تكمن بذور اتجاهها الفانتازى اللاحق.



نساء -١٩٩٤

والافتتان بحياة القرية المصرية ملمح جوهرى من عمل الفنانة لقد راحت ترسم من الواقع أرباب الحرف والنساء وهن يعملن، وألوان الاحتفالات والأعياد والموالد، ووجوه الفلاحين المشرقة. وتتميز هذه التصاوير أيضا بحسها التكوينى فكل شئ فيها فى مكانه الصحيح وسيطرتها على أدواتها كاملة. لئن كانت الألوان الزيتية تضفى جلالا، من لون معين - على الحركة الأولية لشخوصها، فإن توازن الألوان والأشكال ونوعية الخط تولد إحساسا بالهارمونية، وتميز هذه الأعمال التى وضعت لها اسما فى عالم الفن التشكيلى.

وقد ظلت الصحراء تطارد خيال مارجو. كانت هى حديقتها فقد تجولت فيها وحدقت فى مجاليها والتقطت ثمارها: نعنى أحجارها، فى بحث دائب عن الشكل، وصورتها. إن هذه الطبيعة - التى تلوح لأول وهلة خاوية جرداء - تتمتع بحياة فائقة فى ناظريها. إنها تقاتلها لكى تمسك بكل نبضة من نبضاتها. وتصاويرها التى تحمل آثارها إنما هى دفقات كبيرة من اللون، تقذف بها على قماش اللوحة فى دفعات باستخدام السكين، وفى عجلة، قبل أن تولى اللحظة المناسبة والشعور الدافق.

ومن هذه التقنية تنبثق تصاوير شديدة الشبه بالحياة غدت مؤارة بالانفعال من خلال الألوان المتدافعة، يخيم عليها أيضا صمت العالم عندما يتحدث الشكل عن نفسه.

مصادر للإلهام

وأسفار مارجو مصدر آخر للإلهام فهى موضوع المئات من رسومها

وصورها الفوتوغرافية ومذكراتها التي جمعت فيها صورا تخطيطية من الحياة وتأملات وأوصافا. إننا إذا نحينا جانبا سنتي تدريبها في باريس، وزياراتها المنتظمة في كل صيف كزيوريخ منذ ستينيات القرن الماضي، فسنجد إنها وهي التي عاشت في المعادي ثمانين سنة - قد جابت أنحاء ليست بالقليلة من الكرة الأرضية لقد قضت عدة أشهر في برشلونة وإيبيزا، بعد أن عبرت البحر المتوسط في ١٩٣٥. وأنتجت هذه الرحلة لوحات مائية لامعة. ثم في الفترة من الأربعينيات إلى الستينيات قامت بعدة رحلات على طول نهر النيل، واكتشفت لندن (التي زارتها عدة مرات في الستينيات) فضلا عن اليونان وإيطاليا ولبنان والمكسيك وجواتيمالا ونيويورك.. ومن هذا الثراء اللانهائي للمواجهات والاكتشافات رسمت مئات الصور التخطيطية والانطباعات، وإن كانت قد تركت الكثير منها دون اكتمال على قماش.

وتشرح مارجو ما كانت ترمي اليه في منظوراتها العالمية - وهي معنية، بمعنى الرؤية فتقول: «في البداية ثمة فكرة مباغتة مؤداها أن أبقى بلا حراك في غرفة، ألا أحرك رأسي وأن التقط ما تستطيع عيني أن تبصره في ثانية، ولا ما هو أمامي فحسب، وإنما يمينا ويسارا فوق وتحت إني لا أحرك رأسي ولا يعني تظل نظرتي ثابتة الحملاق، هكذا أرى الأرض ترتفع والحائط الأيسر يميل يسارا والحائط الأيمن يميل يمينا، وتغدو الغرفة محرفة تماما تحت عيني. وفي وسط هذا كله عليّ أن أصور نفسي بطريقة أو بأخرى، لأني أرى نفسي هناك أيضا. إني أرى قدمي وساقي، ولكني أيضا أحس بجسدي - ثقله، والطريقة التي يتحرك بها. أشعر بيدي تتحرك، بيدي ترسم. وإذا كانت واقفة أو إذا كنت جالسة، فإن إدراكي للمكان ذاته يجيء مختلفا كلية. هكذا يوجد مصدر لتنوعات لا نهاية لها.

والرؤى الفانتازية هي نتاج الأصايف التي قضتها في زيوريخ في التسعينيات، بل أحدث رسوم لها في عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢ وهي تبلغ المئات عددا. هذه الرسوم - كما تصفها صاحبتها - «حرة وبلا مخاوف»، تتبع فيها اليد طريقها على الورق أو القماشة، دون توقف. وتقول، «إني أحشد نفسي. يجب أن يكون كل شيء مستعدا، لا تعرقله أفكار. وأنا أجد طريقي باستخدام الألوان والإيقاعات وآلية اليد إذ تهديها إرادة شبه واعية. وقرب النهاية أكون في حالة غيبوبة تقريبا، ويكاد يعادل ذلك يسراً أن أنتهي وأنا أرقص».

وفي تصاويرها للحياة الساكنة تبذل كل جهدها في صياغة التكوين. هذه التصاوير بالغة الاكتمال، أو على حد تعبير الفنانة: «أحسن تصويرها» إنها تصنع ثم تفكك - وكأنها تطرز - موضوعات من الحياة اليومية: فواكه، أزهارا، أوان، أسماكا، باحثة عن التوازن أو انعدام التوازن. وكثيرا ما كانت تصور تكويناتها بآلة التصوير، من أجل المتعة أو كمصدر تسجيلي لتصاويره تزمع القيام بها في المستقبل. ولا يمل المرء النظر إلى تصاويرها هذه. أو كما كتبت الفنانة في يومياتها في لندن

في منتصف صيف ١٩٨٨ «تشعر العين وكـأنما يربت عليـهـا نسيج الأجسـام واستدارتها» .

و«الليليات» مزيج من الحدة والحرية، وكأنها تعبر عن العالم الداخلي للطفولة . إنها تمثل الجهد الصبور الحاد لامرئ يمشي في نومه (مسرنم) . بدأتها في ليالي حرب الخليج الأولى ، استجابة لغارات القصف المأسوي ، وكأنما تحلق الفنانة في طائرة وحيدة مستوحشة . يتذكر المرء هنا لوحة بكاسو عن جرنيكا إن ضربات حادة كالصرخة تقطع خطوطا مفاجئة ، تتكسر في وليمة من الألوان . وتفيض هذه التصاوير بنفاد الصبر : فهي قد أنجزت بسرعة إزاء خلفية من الموسيقى الحديثة . إن العين تتوه أو هي تدع نفسها تستهدي بهذه الاحتفالية من الألوان وضربات الفرشاة . في هذه الأشكال المتعددة – التي لا تغيب عنها التورية الساخرة irony – ثمة مواجهة ليلية للأسرار وشذرات التاريخ . إنها مواجهة مستخفية أو هي لا تعدو أن تكون قد رسمت لها صورة تخطيطية ، طروب وصعبة .

غنى الألوان

وماذا عن لوحاتها الوجهية ولوحاتها الذاتية ؟ عن المصورة ونظيرها إذا جاز التعبير ؟ أن مارجو – إذ يفتنها الناس – تحب أن ترسمهم إذ يقضون ليلة بالخارج ، أو يحتفلون ، أو يضطربون في غمار حياتهم اليومية . إنها لا تحول عينها عن النموذج الذي ترسمه . ضربات فرشاتها سريعة حتى وهي ترسم بالزيت . حسبها أن ترسم خطا أول ، ثم بضع لمسات ، ثم عجينة لونية تدفقها بسخاء على السكين ، وسرعان ما يظهر جوهر شخصية بوضوح على قماشة اللوحة . ولوحاتها الذاتية ترسم معالم حياتها وتكشف عن غنى الألوان على لوح الألوان . وكما هو الشأن في لوحاتها الفخيمة في السبعينيات ، فإنها تركز عادة على النظرة وعلى اليد التي ترسم .

وينتهي الكتاب بعدد من الشهادات عن الفنانة بأقلام فنانين وأساتذة جامعيين ونقاد للفن التشكيلي وكتاب ونقاد منهم الفنانة جاذبية سري ، والكاتبة جيل كامل ، وأن رضوان مديرة لجنة فولبرايت بالقاهرة ، وجون رود فك أستاذ الأدب الانجليزي والمقارن بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

واللوحات المائة التي يضمها المجلد، حسبنا هذا كلاما ولنبدأ في النظر – دعوة إلى التمشي في حديقة عمل مارجوفيون : حديقة بالغة التنوع، لافتة التكوين ، يفوح منها العبير. ■

رحيل الفنانة مارجوفيون

بعد إعداد هذا المقال رحلت الفنانة مارجوفيون عن الحياة في ١١ يونيه الماضي بعد حياة فنية حافلة أوقفتها علي التعبير عن الحياة المصرية بكل صورها

تحية حليم
(١٩١٩-٢٠٠٣)
والمدرسة المصرية فى الفن التشكيلى

بقلم
د. صبرى منصور


تحية حليم

رحلت الفنانة الكبيرة تحية حليم عن دنيانا فى الشهر الماضى، واختفت بجسدها الصغير، لكنها تركت لنا بعضا من روحها فى لوحات تنبض بالصدق والشفافية، فى نفس الوقت الذى تعكس فيه قبسا من الروح المصرية الأصيلة الممتدة عبر آلاف السنين.

ولقد أوجدت الفنانة لنفسها - بإبداعها المتميز - موقعا مهما بين رواد الاتجاه المصرى فى الفن التشكيلى، والذى بدأت تتضح معالمه وتتكشف أبعاده ويزداد أتباعه بعد حوالى مائة عام من بدء الحركة الفنية الحديثة فى مصر.


العودة من السوق ١٨٧٠



منظر في منيل الروضة - ١٩٤١

وحين يذهب الفنان إلى حيث لا عودة، فإنه يصطحب معه كل ما هو مزيف ومصطنع ، من بريق وعلاقات وادعاءات، ولا يبق منه سوى مجموعة من الأعمال الفنية هي قربانه الحقيقي الذي يقدمه لرب الخلود، وعطاؤه المصفى الذي يخضع - دون أية تأثيرات جانبية - لمعايير النقد والتقدير من الأجيال اللاحقة. ويمثل مجمل ما أبدعته تحية حليم نموذجا فريدا في نواح عديدة. فهي - أولا - تقدم لنا تجربة إمرأة مصرية قادرة على الخوض في مجال كان مايزال جديدا على المصريين، وينظر إليه باعتباره لهوا وتسلية، ولا يتم تصنيفه تحت الأنشطة الفنية المحترمة كفنون الأدب والشعر. وكان إصرار تحية حليم واضحا - منذ بداية تجربتها - على جدية تعلم مبادىء وأصول فن التصوير، مما دفعها إلى منذ سن العشرين وحتى سن الثلاثين بين مراسم الفنانين لتتلقى علي أيديهم أصول الفن وتتعرف على أسراره، وربما كان عدم اتمامها دراستها الثانوية سببا في عدم التحاقها بالدراسة بالفنون الجميلة، وإن كانت قد عوضت ذلك حين سافرت إلى باريس لتدرس في أكاديمية «جوليان» لمدة ثلاث سنوات على نفقة أسرتها. ويأتي رفض التقليد والانطواء تحت أي من المذاهب الفنية الحديثة - التي راج الحديث عنها والدعاية لها في الأوساط الثقافية المصرية خلال فترة الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، أحد أهم ملامح تجربة هذه الفنانة التي استطاعت وسط ضجيج التحديث أن تحافظ على استقلالية فكرها، وصفاء أسلوبها، ولاشك أنها كانت تتمتع برغبة فردية حصنتها



سليمان والهدهد - ١٩٥٤

وجعلتها تصمد أمام إغراء الإنضمام إلى الجماعات الفنية التى كانت تصدر بياناتها المؤثرة ذات الرنين، والتى تبنت الترويج لأفكار واتجاهات التحديث فى الفنون على هدى الأنماط الأوروبية ،وكان أعلاها شأنا وأشدها دويا جماعتى الفن السيريالى والفن التجريدى.

ولقد منحت هذه الاستقلالية الفكرية للفنانة فرصة تطوير أسلوبها الذاتى فى هدوء، وعدم الوقوع فى دائرة الإلتزام بحدود معينة يفرضها الإنتماء لجماعة ذات منهج محدد، فكان التزامها فقط تجاه صفاء إحساسها الصادق والمباشر، مبتعدة عن عوامل التصنع والإدعاء.

وعلى الرغم من أن دراستها الفنية فى مستهل تجربتها خلال الخمسينات قد قامت على أسس الفن الأوروبى . مما ترك أثره واضحا على أعمالها المبكرة، والتى جاءت متأثرة بأسلوب الفنانين التعبيريين والحدشيين، حين لجأت الفنانة لاستخدام الألوان الصارخة، ولمسات الفرشاة القوية المنفعلة والعجينة اللونية السميكة، كما يبدو ذلك واضحا فى لوحة «الأمومة» المؤرخة عام ١٩٥٣ ، إلا أنها ومنذ بداية الستينات بدأت تكتشف أسلوبها الذاتى الذى عرفت به، فلقد فجرت رحلة الفنانة إلى بلاد النوبة فى تلك الفترة ينابيع الإبداع فى فنها، فكأنها قد عثرت على ذاتها، وبدأت مرحلة جديدة فى حياتها الفنية ظلت مخلصة لعالمها حتى نهاية حياتها، وقدمت من خلالها تنويعات لا حصر لها لموضوعات إنسانية استمدتها من حياة الناس البسطاء فى النوبة، فتناولت فى لوحاتها أفراحهم وطقوسهم الاحتفالية ممتزجة بعناصر البيئة النوبية المختلفة من البيوت والنخيل ، وذلك فى

صياغة فنية تمثل مزيجا فريدا استمدته من روح الفن المصرى القديم والفن القبطى الإسلامى، وهى الفنون التى ازدهرت على أرض مصر وتمثل تراثها الفنى فى تنوعه وثرائه بالإضافة إلى ملامح من الفن الشعبى.

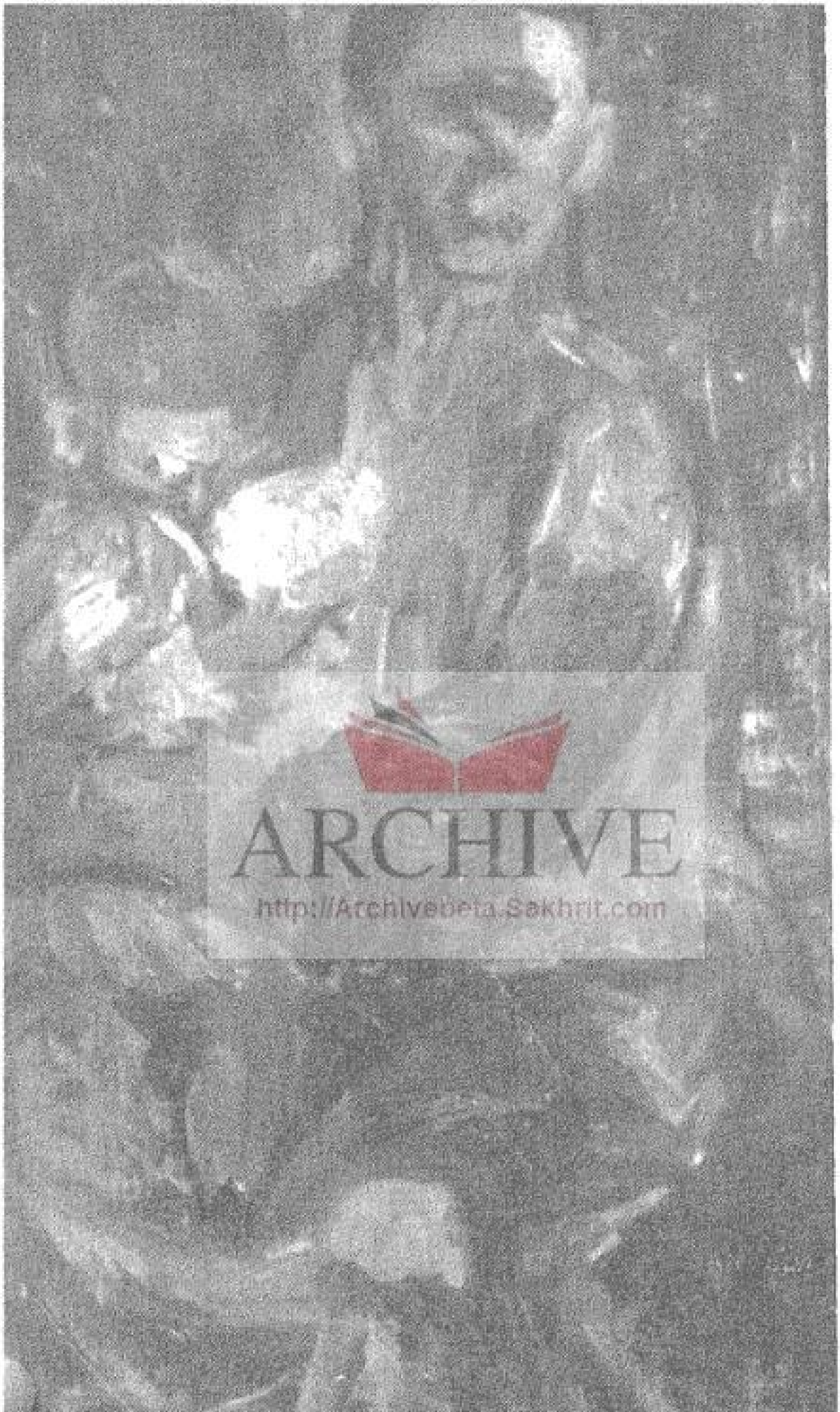
أسلوب فنى بسيط وصادق

ولقد اتسم أسلوب تحية حليم بطابع البساطة فى الصياغة والتركيب والمعالجات الفنية، فهى لم تلجأ لتكوينات معقدة، ولم تشغل بالها بتجريب تشكيل جديد مبتكر عما هو مألوف وتقليدى، وأشكالها محورة بأسلوب يقترب من طرق الرسم الطفولية البريئة، كما أنها لم تسع نحو خلق أوضاع تصويرية مبتكرة، فأسلوبها الفنى لا يتطلب جهدا فى تقبله والإستمتاع به، وقد أتاح كل ذلك لفنها أن يكون أقرب إلى تذوق وتقدير قاعدة عريضة من المثقفين ومتذوقى الفنون التشكيلية، فلقد إعتمدت الفنانة على إحساسها الصادق والمباشر فطرحته بصورة تلقائية دون أن تحاول إضفاء دلالات رمزية، أو تضمنه أبعادا فلسفية أو فكرية عميقة الغور، كما أنها ومنذ عثرت على ضالتها الفنية فى منطقة النوبة فإن أعمالها قد تحولت من الموضوعات التعبيرية الدرامية والمؤثرة إلى غنائيات مبهجة، تحتفل بمظاهر الحياة اليومية، وتمجد الجمال الإنسانى فى أبسط أشكاله. كل تلك العوامل قد ساهمت فى أن يصل إبداعها إلى الوجدان مباشرة، دون أن يرهق النفس والفكر بعناء الكشف عن المعانى والدلالات، أو أن يفاجىء العين بعلاقات تشكيلية غريبة وغير مألوفة.

الخبز من الصخر

يظل لكل فنان فى مجموع إنتاجه الفنى عمل بعينه يكون علما عليه، ويمثل قمة إنتاجه وذروة تألقه، حين تتجسد فيه معالم أسلوبه، وتكتمل ملامح شخصيته، ففى ظروف معينة - ليس لها حساب دقيق - يمتزج المثير الفنى مع نضوج موهبة الفنان، وتوقد شعلة الإبداع الفنى عنده، حينئذ يولد ذلك العمل مكتملا متميزا ليتخذ مكانه ضمن الأعمال الفنية النادرة التى كتب لها الخلود. ولقد تهيأت تلك الظروف للوحة تحية حليم «الخبز من الصخر» التى أبدعتها عام ١٩٦٤ فى مساحة ضخمة الحجم نسبيا (٢٣٧ × ٢٥٢ سم). وقد صورت فيها امرأة منكفئة على الصخر وهى فى حالة إعداد للخبز، وهو مشهد استقته من معالم الحياة اليومية، وأعادها إلى مرحلة موضوعاتها التعبيرية الدرامية، وظهر ذلك واضحا من خلال وضع المرأة الذى يعكس المعاناة من أجل الخبز أو الحياة. وفى تشكيل رصين إعتمد على الحوار بين الخط الأفقى الذى تمثله المرأة المنكفئة على الأرض، وبين الأشكال الرأسية لمجموعة من البيوت النوبية، التى تبدو وكأنها واقعة تشارك فى المشهد كمجموعة «الكورس» ، وقد ساهم التناقض الشديد بين الدرجات اللونية القاتمة لجسم المرأة والدرجات الفاتحة للبيوت والخلفية فى تأكيد درامية المشهد وقوة تعبيره.

ومما يمنح هذه اللوحة قيمة كبرى تلك الدلالات والمعانى متعددة الطبقات، فتلك المرأة الفقيرة بردائها المصرى التقليدى، وملامحها النوبية، تتخطى فى دلالتها





مجرد امرأة نوبية تكافح من أجل لقمة العيش، وإنما يمكن لها أيضا أن تشي بمعاناة مصر في سبيل الحياة الكريمة، كما أنها في النهاية تعكس كفاح الإنسان المطحون - أينما كان على وجه البسيطة - من أجل البقاء واستمرار الوجود.

ولقد أهلت القيمة التشكيلية الرفيعة، والدلالات التعبيرية تلك اللوحة كي تتبوأ مكانة رفيعة بين أعمال فنانين آخرين، تمثل لوحاتهم بصمات واضحة وعلامات مؤثرة في تاريخ التصوير المصرى المعاصر. مثل لوحات «بنات بحرى» و«ذات الضفائر الذهبية» لمحمود سعيد، و«الرجل الأخضر» و«فرح زليخا» لعبد الهادى الجزار، و«فرح عزة» و«الفجر» و«الفرقة الموسيقية» لحامد ندا.

تحية حليم والمدرسة المصرية

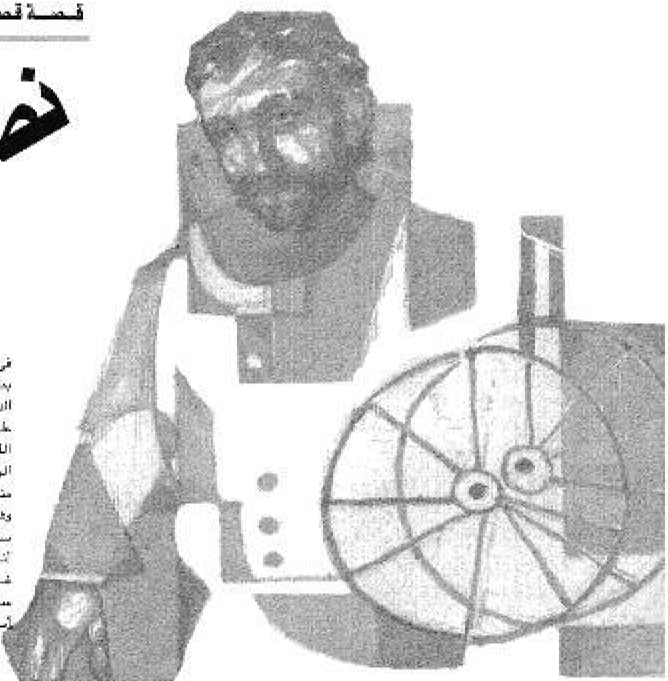
مايزال تصنيف أساليب الفنانين المصريين ضمن مناطق الاختلاف بين الباحثين والدارسين، وإن كان معظمهم يميلون إلى اتخاذ التصنيفات الأوروبية دليلا إلى تحديد وتوصيف اتجاهات الفنانين المصريين، فهم يطبقون عليهم تلك القواعد التى اتفق عليها واستقرت مبادئها، فى نفس الوقت الذى يطيب فيه لعديد من الفنانين المصريين إدراج أساليبهم تحت لواء الاتجاهات الأوروبية الحديثة، إذ يتصورون أن ذلك يعنى عالمية إبداعهم، وتخطيه نطاق المحلية المحدود، وربما كان ذلك منطقيا وطبيعيا فى الوقت الذى بدأت فيه الفنون المصرية نهضتها الحديثة دون أن تستند الى تقاليد فنية قريبة العهد، فالفنان فى إبداعه لا يبدأ من فراغ، وإنما لابد أن يتصل انتاجه بحلقات فنية أخرى. لذلك فقد وجد الفنان المصرى نفسه واقعا تحت تأثير حلقتين. تمثل الأولى منهما الفن الأوروبى الحديث الذى يعكس روح الحياة الحديثة وتطور أفكارها، لكنه لا يعكس روح المكان وثقافته، فى حين تمثل الحلقة الثانية تراث مصر الفنى الذى بعد به العهد فانفصل عن روح العصر وإيقاعه، ولكنه مع ذلك يمثل الجذور الأصيلة التى يجب أن يتصل بها الفنانون المصريون، فهى أكثر تعبيرا عن وجدانهم وروحهم الجماعية الممتدة والمتصلة عبر التاريخ.

ولقد مثلت تلك الإشكالية الإبداعية هما ثقافيا عند بعض المصورين المصريين الذين رفضوا كلا الطريقين، واختاروا إبداعهم فى أسلوب يحاول الجمع بين معالم الحداثة الفنية فى صياغة تشكيلية تتصل بشكل أو بآخر - ووفقا لوهبة وإمكانية كل منهم - بأصول الفن المصرى عبر تنوعاته المختلفة، فتربط بين الماضى والحاضر، وتبلور خصائص متفردة تتمتع بالاستقلالية عن أشكال الفنون العالمية الأخرى، ويعتبر المصور الرائد محمود سعيد الأب الروحى لهذا التوجه حين وضع لبناته الأولى، وزامله من جيل الرواد المصور راغب عياد، وجاء من بعدهما آخرون أضافوا أبعادا مختلفة، وصيغا جديدة فى نفس الاتجاه. كما جاء إبداع تحية حليم ليمثل ملمحا آخر من ملامح تلك المدرسة المصرية التى تمثل إضافة حقيقية وإثراء للإبداع الإنسانى فى الفنون التشكيلية المعاصرة. ■

أخوة - ١٩٦٤

نصفاً

قصة
نبيل صلاح الدين
بريشة
سميحة حسنين



لعله أنصف مخلوق في الوجود، تقولها عنه بدية الفم قمي حجته الدامغة والدليل الساطع على ذلك. هو، حفظكم الله، نصف رجل في الواقع. النصف العلوي منه فقط. رجل بذراعين وهذا كل ما لك.. دون ساقين! غني عن القول أنه النصف الأهم ولا شرو.. فلا وجود وما سمعنا بنصف بشري أسفل يتحرك مستقلا

النصف السفلي وحده لا قيمة له بلا دماغ يوجهه دماغ طبيعي أو صناعي أو الكتروني من تقنية متقدمة عالية. ولكن لا بأس فالأمر أبسط مما تتصورون، والحال خير مما تتخوفون، فهو يعيش عيشة الأسوياء بلا فرق جوهري، سوى أنه ومنذ تشكل وعيه، قعيد كرسي متحرك، والأكثر من ذلك ما يتمتع به من ميزات كبرى لا ينعم بها

الأصحاء. الكل مطالب بإعانته، الجميع مدعوون لنصرته ونجدته أينما تعرض لظلم أو جور. أو موقف يعجز فيه عن الدفاع عن نفسه. وفوق كل هذا وذلك، لا يرجى منه الكثير. في الحقيقة ولا القليل، لا يرجى منه شيء البتة. لكن الضروري المستحب والمرغوب، بل والمرجو، أن يخفف من ظهوره قدر الامكان، ويبتعد ويغرب عنهم بنقصه وعاهته، رحمة بهم ورأفة بضمائرهم وبسبب إحساس متوطن بالعجز.

في البداية ، ومنذ شب عن الطوق، عفوا فهي عبارة غير معبرة ولا هي موحية، فلم تكن في الأمر أطواق، لكنها تعبر عن المرحلة السنية أو الفترة العمرية التي يتعين على الفرد فيها أن يمضي في الحياة وحيدا معتمدا على نفسه دون عون خارجي، مستقلا عن الأبوين والأسرة. عليه ايجاد عمل، أو البحث عن وظيفة، هذا ما أعلنته به الأسرة صراحة ودون مواربة، ظنهم أول الأمر يهزلون، فلم يقوموا على تعليمه يوما وما كانوا هم أنفسهم من المتعلمين. عموما وبالتدرج المريح لم يكن بحاجة لاستنباط أو ابتداع طرق للارزاق وكسب المال، بطبيعة الحال، كان الجميع أو الكثير ممن يلتقيهم أو يصادفونه، من يعرف أو لا يعرفهم يسارعون فيبادرون باعطائه مالا قل أو كثر. والعطايا والمعونات والكثير والكثير من نظرات الاشفاق أينما حل. هذا ، ومن عجب أن يجد الكثير من الأصحاء الأشداء صعوبة، وقد يلقون عنتا ومشقة في اكتساب المال، لكنه لم يعرفها أبدا، يكفيه وحسبه أن يقف في مكان أو يتخذ موقعا في هيئة معينة وبكيفية تنامى اقتداره عليها مع تراكم خبرات المراس وخوض التجربة خاصة في المواقع الحساسة والميادين الكبرى، تجار أو كبار يتسابقون كلهم في اغداق العطايا سرا وعلانية، يالها من أيام! لذلك لم تدم طويلا، فدوام الحال من المحال.. وذلك زمان ولى، لم يعد أحد يتعطف حتى بنظرة عطف أو شفقة حقيقية،



كلها مصمصمة شفاه فارغة، دون فعل او عطاء او تكافل ذى معنى.. بل لا يعدم نفر منهم يؤذونه ويسيئون إليه قولا وفعلا. يسخرون منه ويلمزونه تلميحا او تصريحا. لكن الحياة تمضى ولا تتوقف فعليه أن يحيا، يعيش أو يتعايش.

فكر فى الرحيل،لم يعد له «مستقبل» هنا، لكن إلى أين؟ فالمناطق كلها تعانى ذات الفقر وضربها نفس الكساد. لأسباب عديدة مركبة لم يعد هناك «حجاج» زمان، ممن يبادرون باللحم والثريد. وحلاوة المولد فى موسمها، والكستور فى الشتاء، دون طلب أو الحاف فيه. تلك طائفة انقرضت ، لم تعد موجودة ولا يدرى كيف انقرضت. فقيم البقاء فى هذه الأنحاء، عليه أن يبحث عن أرض وفرة، أرض براح، مجتمع رخاء كما سمعهم يقولون فى التلفاز.. لابد أنها هناك حول بيت الحاكم.

جاءت الصورة الواقعية كما تصورها تماما، لم تختلف كثيرا عما تابعة مرارا من مشاهد الصندوق السحرى المثيرة، طرقات نظيفة وأكثر اتساعا، تخلو من المتسكعين والمتسولين، الكل يمضى لحال سبيله. تغسل الشوارع كل يوم، والأشجار مقلمة بعناية، أرصفة جيدة التبليط.. أما قصر الحاكم فكان مهيبا رائعا بحق، لم يعرف قبلا هذا البهاء وتلك الروعة، وكل ما حوله مرسوم بعناية والخطوط بيضاء ناصعة لامعة حول القصر الكبير. هنا يمكنه أن يختار موقعا، أو بقعة يحتلها بكرسيه، بعيدا عن رذالات البشر. القوم هنا أكثر مالا وقدرة ونفوذا عن بقية المناطق، ويسعد من يجاور السعداء.

بدأ «النصف» يتبين طريقه. الأمر بسيط للغاية ، كل ما عليه أن يقبع فى الجوار، أن يتعايش فى هذه الجيرة، أن يظل قريبا من هذه المرابع ما أمكن . لا داعى للابتعاد كثيرا ، فقد يلاقى ما لا يحب. هنا الأمان الكامل ولا يأتى الا ذو حيثية ونفوذ، والموقع ولا شك طارد للآفات كافة. هنا يمكنه الارتزاق بسهولة، الحاكم ورهطه، فى بحبوحة اكيده، والاغداق خصلتهم ومن شيمهم لا ريب.

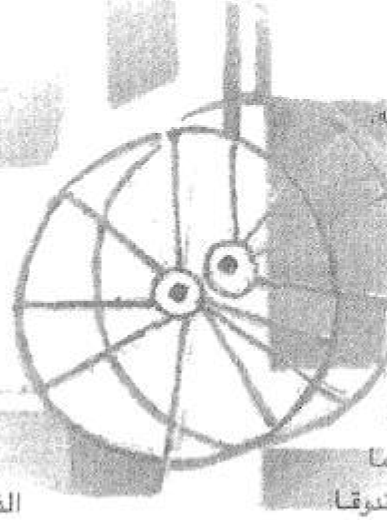
جاءت التجربة كما توقعها تماما، المؤشرات مشجعة لغاية والتدفقات مرضية تماما، أكدت صدق حدسة وحيوية، وعافية الموقع وأهله. مواكب تكاد لا تنقطع من كبار القوم تفد لزيارة الحاكم، فلا يحرم من عطاياهم، فى

الحياة الرغدة كما يقولون. لم يخل الأمر في البداية من بعض التحرشات من «الاوغاد» اللئام المتخمين غذاء ورياء، حاولوا بطرق شتى ابعاده، فلم يكن من اللائق، كما قالوا، أن يطالع الحاكم او زواره من كبار القوم وعلية الناس، أمثاله من الحالات المزرية، لكنه تعلم المراوغة وتفنن في الاستخفاء عن ابصارهم، وهو موجود هنا أو هناك، في الزوايا المهملة حول القصر الكبير وحوله جوقته وصحبه (الأوباش) المتشردين الجياع!

ولما كانت واحة آمنة من تحرشات رجال الأمن، فقد طابت المنطقة مقاما لثلة من بائعات الهوى، الأمن في عصر (السوق)، منشغل بمهام أخرى يتضاءل الى جانبها بعض المتسولين أو الأوباش المتشردين، أو بضع جانحات، وظيفتهم ومسئوليتهم الأساسية، همهم الاكبر سلامة الحاكم وأمنه الشخصي من مضايقات الرعاع او عداوات الخصوم والمناوئين. وضمان سلامته الشخصية صادروا المنطقة فلا يؤمها سوى الحاكم وحاشيته وزواره والوفود، يأتون في مواكب فخمة مهيبة، يسبقهم الأتباع والحاشية توسع الطريق وتجهز الموقف. كلها طوائف لا تقلقه، اختلاف (طبيعة العمل) لا يدع مجالا للمنافسة، ولا يمكن اغفال حقيقة اختلاف «طبيعة الزبون» هم صنف اخر من الناس، شريحة مختلفة من السوق، لا تعارض هناك بالمرة ولا من يعارضون. بارك الله فيما رزق، وبارك وطوبى للحجاج من كل لون، من كل حدب وصوب. لكن للأيام تقلباتها وللدهر تصاريف، طالما كان مدركا لتلك الحقائق، ربما هاجس في النفس يحدثه بزوال النعم، وهل هناك ما هو أنعم مما يأتي (رغدا) دون سعي أو كد.

ما نفدت الأعيب (الأوغاد) وما فترت افاعيهم في العمل على ابعاده عن المنطقة. وبين ترغيب وترهيب جاء عرضهم واضحا محددا، عليك أن ترحل. قبل أن يعبر عن اين ولم؟ كانت الاجابة ان اعتبارات امن وسلامة الحاكم توجب ذلك بل تفرضه، ولكن ما هي المستجدات، فقيل ان التطورات المدهشة في القدرات الاجرامية لأولئك الرعاع والجياع، أصبحت تتطلب خططا متقدمة لتطوير أداء جهاز أمن الحاكم وهو ما يحتل اولوية اهتمام كل مواطن محترم. ولكن لا تخش شيئا فقد

اعددنا للأمر عدته، ولن نتركك الا بعد تمام التجهيز والتأهيل لتصبح كصحيح البنية سواء بسواء، وبعد سكتة قصيرة وربما افضل. فتح صندوقا كبيرا كان يحمله، سرح (النصف) بفكره وغاب عن اللحظة وهو يرى امامه اجمل ساقين يمكن ان تحملا رجلا، مقاييس مثالية، صحة فتوة، تقليد متقن بارع جدير بالثناء. استخرج احدهم كتيبا صغير ليشرح له مزايا الساقين، من قوة لسرعة لاحتمال لرشاقة، طاقات عالية، وتضمن العرض اضافة لذلك مشروعا (متناهى الصغر) يمكن أن يدر على صاحبنا عائدا طيبا ومضمونا مجزيا. بذلك ولكل ما سبق فليس ما يحول دون انطلاقه ويزخم عال



للشارع الاقتصادى وعالم السوق. لم يكن (النصف) يوما ممن يؤكلون بسهولة او من يسمون باللقمة الطرية. أسعفته قريحته او خبرته، لا شيء يغلب الخبرة، فاجاب ببساطة أنه كان يود لو قبل العرض الكريم لكن لا يسعه سوى الاعتذار. وتعلل بأسباب خاصة اعتبرها شخصية يفضل الاحتفاظ بها، وبالتضييق عليه بما خبره «الأوغاد» من أساليب الاستجواب اقر أمامهم، وهو يتمنى لو

انشقت الأرض وبلعته، أنهما سبيان وجيهان انه امى لا يقرأ ولا يكتب ومن سواقط القيد فلا بطاقة لديه. ظل الاوباش يتندرون ببطولة «النصف» الذى هزم الأوغاد فى تلك الوقعة وجعلهم اضحوكة المجالس بكلمات ودقائق معدودات.

تسارعت بعدها الأحداث بشكل درامى ملفت، وتصاعد منحنى ضغط الأوغاد، لكن الحيلة التى قلبت الموقف بشكل درامى، كانت ذلك المسخ العجيب الغريب الذى فوجىء به يحتل موقعه مع بداية الوردية الصباحية من يوم أغبر لا ينسى، غريب. فلا يذكر أنه رآه من قبل، عجيب إذ كان كالنصف تماما، بلا

ساقين ولكن تفوق عليه بكم الجلباب يتأرجح الى جواره خاليا من إحدى الذراعين، يتمتع بعاهة إضافية، مما يعد إعاقة مركبة، والأغرب أنه كان بمعية بعض (الأوغاد) يتحدثون في ود واضح ما أضفى على المشهد مسحة من واقع أليم.

تدهور الموقف بعدها في تسارع أوضح، إذ قبل أن يقيم الموقف كما يجب بإتاحة الفترة المناسبة الضرورية للجو العام المحيط بعملية اتخاذ القرار، ما يعرف بالتعايش الموازي لحالة صنع القرار، فجأته طوارىء مستجدة، تدني وانخفاض حاد يدعو للقلق في التدفقات النقدية أو (الغلة) ، كان ذلك ما حاول شرحه لرفاقه من الأوباش القلقين من تدني نصيبهم مما كان يصيبهم . وأرجعه لما يمتصه المسخ الملعون (أبو دراع) من القدرات والطاقات، دعا الجميع على المذكور بالخراب او الموت وأمّن النصف بالقلب والعينين. قال بعض الخلصاء إنه أخطأ يوم رفض الساقين الصناعيين والمشروع «متعاظم الصغر» فمن الممكن بل والمفروض ان يبارك الله في مثل هذه المشروعات الطموحة إذ تهدف لتحقيق التنمية المستدامة وهي الأهم، وليس مجرد التنمية وحدها فقط فهي الى زوال، ولم يعدم من يقول إن عليه ان يستوعب المعطيات وصولا لإمكان التعايش مع المستجدات الوافدة.

ثم جاءت الأنباء بأن الأوغاد استصدروا بأساليب أفعوانية مؤسفة ، قرارا بالإزالة، حتى بلغت بهم الصفاقة أن هددوا بالتنفيذ بالقوة الجبرية، وبات الأمر صراع البقاء أمام الونش، والونش لمن لا يعرف وحش مارد لا يجدي أو ينفع معه منطق أو حجة أو حقوق أو شرع أو قانون أو برهان. تحفظ البعض وذهبوا إلى أن هناك ما يمكن أن يفيد في هذا الموقف. وحده فقط ونش آخر، اشد منه قدرة ، أعلى طاقة، أكبر حمولة، أحدث تقنية مما لا يتوفر إلا للحكام والسلاطين ومن لف لفهم. اشار بعض الأوباش أو من ذوي الرأي منهم ألا يركب رأسه فلا قبل له ولا لغيره بالونش وليس أمامه سوى الرحيل. هي الحرب إذن! والحرب كما يقولون خدعة، فعليه بالمكيدة فهي أمضى سلاح. هز رأسه في صمت كمن يضمر أمرا وهو يتسمع لذلك الهواء المتهافت ممن حسبهم أحباءه، بطانته وعزوته وسنوات من عطايا

ومعونات وإغداق كان فيها بحق الراعي الرئيسي بما كان يضخه، نقدا وعينا، طعاما ودخانا.

فى الصباح قام (النصف) لساعته، فعمد إلى ذراعيه فبترهما قبل أن يرمي بهما جانبا فى بساطة أخاذة أثارت حسد كل من حضر، استهول الأوباش الأمر واستغربوا فعلته، وايقنوا من سوء العاقبة، ولكن ابتسامة الواثق من انتصاره كانت تملأ وجهه وهو يخاطبهم قائلا «النصر أكيد، ها أنا الآن أقوى وأقدر على لقائهم من أي وقت مضى» لم يرسم علامة النصر بإصبعيه لأسباب غير خافية ، وخرج (النصف) على الأوغاد بجلباب تتأرجح على جوانبه الأكمام خاوية بين تهليل الأوباش وهتافهم. بهت الأوغاد . فارتج عليهم وأسقط فى يدهم وبان فى عيونهم التسليم. هذا وتجمع أدبيات هذه المرحلة على عبقرية هذه الخطوة، إذ أصاب (النصف) عصفورين أو أكثر بحجر واحد، ضمن موقعه بتأكيد مكانته بلا مناوىء، وتخلص من هاجس الونش، على العكس من (أبو دراع) الذى بات تحت رحمة الونش ليل نهار. لكن السؤال ظل قائما بعدها وتناقلته الأجيال لعقود طويلة، هل انتصر النصف على تلكم الأوغاد؟ أم أن الأوغاد كانوا هم الفائزون؟



يحتضن العراق تعددا غريبا من الثقافات التي قامت علي أرضه الخصبة (والتي جلبت عليه الأطماع) علي مر عدة آلاف من السنين، وجاء تنوع الحضارات ليكون أحد أهم روافد التميز لأوجه الحياة المختلفة.

دوما يبرز الفن حينما تتضح وتترسخ معالم حضارة بمعني الكلمة، كل زمن أفرز نوعا من أساليب التفكير والتعبير من خلال الفنون وأبرزها الموسيقي.

الموسيقى العراقية

ثراء... تنوع... تفرد... خصوصية

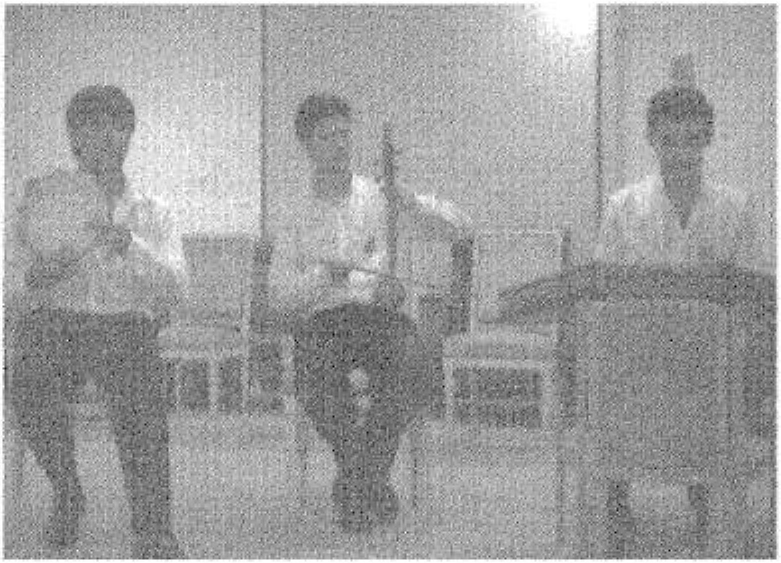
بقلم
نصير شمة

كل جزء من أرض العراق قامت عليه حضارة، بدءا من حضارة أور جنوبا، ونينوى شمالا، وبابل في وسط العراق، وآشور في شمال العراق، وحضارة سومر في جنوب العراق، وأكد وصولا إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد والبصرة والكوفة، في كل ما ذكرت وما لم أذكر قامت شعوب وثقافات وأعراق وديانات وطقوس كانت الموسيقى تأخذ روح المجتمع وثقافته وجوهره وتعكسها كما لو كانت مرآة.

نحتاج هذه المقدمة لنعرف لماذا تعددت اللهجات الموسيقية داخل العراق بهذه القوة والوضوح.

تتوزع الموسيقى العراقية بين المقام العراقي، الغناء الريفي، البدوي، الموسيقى الكردية، الآشورية، الموسيقى الكنسية، الأغنية البغدادية، الأغنية الموصلية، الأغنية البصراوية، والغناء التركماني والكلداني إضافة إلى الموسيقى الدينية الإسلامية وهي كذلك تتوزع على الأشكال والمذاهب المختلفة.

إذن هي لوحة فسيفسائية زاهية الألوان والأشكال تكمل بعضها،



الموسيقي العراقية لوحة فسيفسائية زاهية الألوان

والغريب أن الشعب العراقى بكافة فئاته يطرب لكل هذه الأشكال ويتبناها كونها تراث البلد، وفى الثلاثة عقود الأخيرة تغيرت خارطة مواقع الأشكال الغنائية فلم تعد الأغنية الريفية محصورة بالمناطق التى نشأت بها، بل وصلت إلى العاصمة والمدن وأصبح حضورها طاغيا كونها فنا وجدانيا موغلا فى الألم الذى يستطعمه غالبية أفراد الشعب العراقى.

الغناء الريفى

والغناء الريفى له خصائصه المتفردة، وهو يستخدم اللهجة الشعبية المحلية للمدن والأرياف وكذلك يستخدم تكنيك أداء خاص لهذا الشكل الغنائى ، وقد برز رموز لهذا الشكل الغنائى أحبهم الشعب العراقى بقوة هم : حضيرى أبو عزيز وداخل حسن وزهور حسين، إضافة إلى أصوات برزت فى أوائل السبعينيات منهم حسين نعمة الذى حاول أن يقدم بصوت ريفى أغنية معاصرة، أى مؤلفة حديثا لكن لها خصائص الإيقاعات والأنغام واللهجة الريفية، وتلا ذلك قائمة من المغنين فى مجال الأغنية الريفية من أعمار مختلفة.

وحتى بالنسبة لسلالم الموسيقية التى تستخدم فى الأغنية الريفية فهى لها خصوصيتها، وهناك سلالم موسيقية لاتستخدم إلا فى الغناء الريفى العراقى،

منها المحمداوي والصبى وسلالم أخرى.

الغناء البدوى

أما بالنسبة للغناء البدوى فقد تحدر من البادية بقوة إلى المدينة بدبكاته وبإيقاعاته وبآلة الرباب ذات الوتر الواحد وأصبح المغنى البدوى جبار عكار نجما رغم كبر سنه رفع شعبية اللون البدوى إلى درجة عالية والتف حوله غالبية محبى الفنون الأصيلة. أذكر عندما شاركنا جبار عكار فى جولة بين فرنسا وعدة مدن ألمانية عام ١٩٨٦ وكان لحضوره تأثيرا كبيرا على الجمهور الأوروبى لأنه قدم فناً منفردا، بالإضافة إلى أنه يشكل طقسا غنائياً ، خصوصا وأن هذا الغناء يقدم على آلة واحدة هى الربابة، وسرعان ما طبعت له الأسطوانات وقد منح العكار لهذا الفن تميزا داخل العراق وخارجه وبالتأكيد فإن شعر البادية يعتمد على ما يشبه الحكم ولكن باللهجة البدوية التى تحتاج فى الغالب إلى تفسير.

الموسيقى الكردية

فيما يخص الموسيقى الكردية فلها سلالمها الخاصة بها، بمعنى إن قلنا مقام البيات فهو لا يشبه البيات فى جنوب العراق أو وسطه، وتتميز الموسيقى الكردية بإيقاعاتها الحية وبالنبرة العالية الحادة والسريعة وترافق هذه الموسيقى حتى وإن كانت تتناول موضوعا حزينا دبكات يشترك بها النساء والرجال مجتمعين. وكثير من الموسيقيين فى بغداد وفى مدن أخرى يعزفون تراث العراق الكردى بجودة ومهارة إلى الحد الذى لانستطيع فيه أن نفرق بين العازف إن كان عراقيا من الشمال او عراقيا من الجنوب ، وطبعا فإن اللغة الكردية هى لغة مختلفة بشكل كلى عن اللغة العربية.

ويعد المغنى محمد جزراوى واحدا من أهم أقطاب الأغنية الكردية التى قدمت الكثير من العازفين والمغنيين البارعين.

أما عن المقام العراقى فإنه يعد خلاصة النتاج الابداعى فى مجال الغناء لدى العراقيين عبر أكثر من ١٥ قرناً، وهو شامل لكل الأشكال الموسيقية الموجودة أو لتلك التى نشأت فى بلاد ما بين النهرين وكأنه أصبح نهرا ثالثاً، وحين نقول مقام لا نعنى هنا سلما موسيقيا ، بل هو قالب غنائى صارم على المغنى والفرقة المصاحبة له والتى تسمى (الجالغى البغدادى) أن يتبعوا طريقة أداء أصبحت قوالب لايسمح العبث أو التغيير بها، وتجد ضمن المقام العراقى أجزاء من الريفى وتسمى (الفراكيات) وأجزاء من الجمل الكردية وباقى الموسيقات العراقية، والمقام يبدأ بمقدمة موسيقية ثم التحرير فالمتن ويستخدم فيه أبيات من الشعر العربى الفصيح ويدمج مع الفصيح الزهيرى وهو شعر عراقى شعبى، وهناك الميانة الأولى والميانة الثانية وهى التسلسل إلى درجات

حادة فى السلم الموسيقى. ثم التسليم الذى هو العودة بداية المقام الأصلى بعد أن عمل المغنى والفرقة عدة انتقالات نغمية وإيقاعية ، وبعد أن يتم المغنى التسليم يبدأ بغناء البستة وهى أغنية من المقام نفسه وفيها نفس الانتقالات الداخلية تقريبا وكان هذا الشكل الغنائى حكرا على المجالس الخاصة لسنوات طويلة.

ويعد الشعر فى المقام أحد المقومات الرئيسية ، وهناك مقامات تغنى بالكامل من الشعر العربى الفصيح وهناك مقامات أخرى تغنى عبر كلمات من الشعر العراقى الشعبى.

هناك أكثر من ٥١ مقاما رئيسيا، وهناك مقامات كثيرة فرعية، وقد وصلتنا هذه المقامات بطريقة شفاهية وكانت فترة العصر العباسى هى الفترة الذهبية لتطور المقام العراقى بوجود إبراهيم الموصلى وإسحاق الموصلى وزرياب ويعتقد أنها وصلت إلينا بشكلها القديم. وهناك عدد كبير من الإيقاعات تستخدم مع المقامات.

وغالبية الموضوعات التى يتناولها الشعر المغنى فى المقام هى موضوعات الحب والفراق والتفاخر والوطنية، وأشهر قراء المقام من بدايات القرن العشرين هم محمد القبنجى الذى نال الجائزة الذهبية فى مؤتمر الموسيقى العربية ١٩٣٢ فى القاهرة، ويوسف عمر وسليمة مراد وهى أول سيدة كانت تغنى المقام وناظم الغزالى ومن المعاصرين حسين الأعظمى وحامد السعدى وفؤاد الأعظمى وفريدة محمد على وآخرون.

أما الأشكال الموسيقية التى ذكرت أعلاه والتى تنتمى إلى مواقع جغرافية وإلى أقليات فهى أيضا غنية وثرية بتنوعها وبلهجاتها ولغاتها لأن الأغنية التركمانية والكلدانية والآشورية هى لغات لايعرفها إلا أبنائها، وموسيقى الكنيسة تختلف عن كل هذه الاشكال وكذلك موسيقى الذكر والتواشيح الدينية، وهناك فنون غنائية أخرى داخل بغداد شعبية منها فن المربعات وهو مجموعة من الرجال وآلات إيقاعية فقط وهو فن مسل كثيرا ويغنى فى المحلات الشعبية ولكنه قديم جدا ويرتدى فيه الرجال أزياء تقليدية ويستخدمون الاكف للتصفيق كإيقاع مع آلات النقر وأصوات الرجال ككورس وهناك دائما عدة مغنيين منفردين يتبارون.

لم أشأ التعمق فى شرح كل شكل لأن هذا يتطلب عددا كاملا من المجلة كى يتسع لغزارة المعلومات المتوفرة لدى لهذه الأشكال الغنائية، وما أردته فقط هو أن أفتح قوسا بشىء من الضوء على هذه الفنون العريقة التى يقف عليها العراق. ■

المتفرجة

بقلم : مرفت رجب

مربط الفرس

ظهرت علينا «الست»، وقد ألقت بنصفها العلوى على المائدة، تاركة لساعديها مهمة إحكام وزن كتلة جسدها على المقعد الذى يقوم بالكاد على حمل من فى نصف وزنها. بدا بياض الوجه والذراعين شاهقا بفعل التناقض مع لون ردائها الأحمر الشاهق أيضا.. كان اليوم الخميس الموافق الثانى عشر من يونيو ٢٠٠٣ وهو اليوم التالى لوقوع الهجمة الإسرائيلية التى استهدفت حياة المناضل الفلسطينى د. عبدالعزيز الرنتيسى، وكان الجالس إلى جوارها على مائدة الحوار هو سفير إسرائيل فى فرنسا.. أما ذات الرداء الأحمر فقد كانت الست «ليلى شاهين» ممثلة السلطة الوطنية الفلسطينية فى فرنسا.

لم تكن المرة الأولى التى أراها فيها على الشاشات الفرنسية، فهى وإن تكرر ظهورها إلا أن الصفة التى تقدم بها تتراوح بين «سفيرة» السلطة الوطنية الفلسطينية و«ممثلة السلطة الوطنية الفلسطينية»، وليس مجالنا مناقشة الصفة وإنما الوقوف بالبحث والتأمل عند الموصوف.. وكذلك لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يظهر فيها سفير إسرائيل فى فرنسا على شاشاتها التليفزيونية، والأحداث المتلاحقة تبرر، لكن المهم أن آخر ظهور له كان فى اليوم السابق مباشرة لظهوره بجوار الست الناصحة ليلى شاهين فقد كان يوم الأربعاء الحادى عشر من يونيو ٢٠٠٢ هو اليوم الذى تحدد قبل نحو شهر لإذاعة برنامج كبير تكرر الإعلان عنه، كما تكررت الإشارة إلى أنه سيشمل الصراع العربى الإسرائيلى بالبحث عن قرب، والإعلانات عن البرنامج تحفل بمقتطفات تسجيلية تنبىء بصدق المقصد، وكذلك العنوان الذى كتبوه على خلفية بدت كأنها دماء سائلة تظهر من بينها حروف كلمتى «Reves Brises» أحلام محطمة»

جاءت ساعة إذاعة البرنامج فى مساء نفس اليوم الذى وقعت فى صباحه محاولة إغتيال الرنتيسى، وصحيح أن الرجل خرج منها سالما إلا من جراح، لكن الهجوم الآثم عليه فضح أكاذيب القيادة الإسرائيلية، ونسف خارطة الطريق، وترك قيادات العالم تخبط بين إعلان غضب كسيح، والتمسك بتصريحات عن السلام أثبتت الواقعة ما بها من ضلال.. وانعكس ذلك كله على البرنامج ومقدمه وضيوفه، لكنه بالقطع أعطى مزيداً من المصداقية لكل ما نطق به السيد، صائب عريقات وممثل الاتحاد الأوربى، والشابة الفلسطينية التى ظهرت فى البرنامج لتتحدث باسم الحكومة الفلسطينية ولتشرح بمنطق هادىء مقنع معنى تضييع فرص السلام، وفى المقابل تزعزع منطق الضيف الإسرائيلى واختلت معه حجة السفير الإسرائيلى الذى كان وجهه يزداد امتقاعا مع استمراره فى كلام خلا من أى تفسير لما أقدمت عليه حكومته لتكون المحصلة فى هذا البرنامج أن الموقف الإسرائيلى كان مخزيا وقد عجز كلام السفير الإسرائيلى عن ايجاد مخرج..

المتفرجة

لكن الست الناصحة ليلى شاهين ظهرت إلى جواره فى اليوم التالى لإذاعة البرنامج الذى شهد خزيه، ولم يكن التعليق على واقعة محاولة اغتيال الرنتيسى، وإنما كان التعليق على ردة الفعل الشعبية، فماذا قالت الست ليلى شاهين

الزكاة..

قالت السبب فى كل ذلك هو الزكاة.. هكذا نطقتها بالعربية.. وشرحتها بالفرنسية قائلة.. إنها تلك الأموال التى تجمع فى المساجد وترسل إلى حماس.. سألها محاورها الفرنسى مذعورا: تقصدين أن الفرنسيين هم الذين يدفعونها؟! فأكدت له.. ليس فى فرنسا وحدها إنما فى فرنسا وانجلترا وأمريكا وألمانيا، وكل بلاد الدنيا.. أنهم يجمعونها فى المساجد ويرسلونها إلى حماس ولابد أن يوقف جمع الزكاة فى المساجد حى يمكن لمفاوضات السلام أن تنجح!!!؟

وطبعا تمت إذاعة هذا المقتطف من كلام الست ليلى شاهين فى بقية نشرات الأخبار التالية فى ذلك اليوم.. وفشلت محاولاتى فى العثور على أى تعليق عربى على هذا التصريح.. وإن كنت واثقة أن الأيام - كعادتها - ستوافينى بالرد الشافي إلا أننى أجد من واجبى «كمتفرجة» أن أضع بين أيدى القراء الأغراء بعضا من الأسئلة التى تزاحمت على ذهنى المنصعق من هول ما نطقت به الست الناصحة ليلى شاهين.. أول الأسئلة عن الدور الذى ترسمه لنفسها وقد قبلت أو اختارت أن تتحدث باسم السلطة الوطنية الفلسطينية.. فهل مثلا ننسب حجمها لهذا الدور ولنا أن نستنتج من فرط البدانة إيحاء بأن ممثلى السلطة يعيشون خارج الوطن المحتل عيشة هانئة أقل ما توصف به هو الرغد.. وهل ، مثلا ، نسمح لأنفسنا بتفسير اختيارها لأن تطلع علينا - حال ظهورها فى برنامج إخبارى يستضيف سفير إسرائيل إلى جوارها - وقد اختارت أن يكون رداؤها بذلك اللون الأحمر الزاهى؟! كيف لنا أن نفهم العقلية التى حددت هذا الاختيار والأحداث المأساوية على أرض الوطن تفرض على الروح الأسى، حتى وإن بعد

خاطر التعاطف الراعي إلى الاحتشام..

ثم هل هي فعلا سفيرة اختارتها السلطة الوطنية الفلسطينية لتتحدث باسمها في برامج التليفزيون الفرنسي؟ وعلى أي أساس تم اختيارها؟ وهل هي موفدة أصلا لهذا الغرض؟! أم أنها مقيمة في فرنسا لأغراض أخرى وعليه جاء ذلك من أسباب اختيارها أو من الأسباب التي استند إليها من رشحها للقيام بهذا الدور؟!!

وإذا كانت هي السفيرة، فلماذا انتدبت الحكومة الفلسطينية تلك الشابة ذات المنطق الموزون.. والتي ظهرت في برنامج «Reves Brises»، «أحلام محطمة».

ثم هل نفسر ظهور الست ليلى شاهين إلى جوار السفير الإسرائيلي في فرنسا محاولة من جانب «نصاحتها» بأن تقيل السفير الإسرائيلي من عثراته، وتقدم له المخرج ليظهر بصورة أفضل من تلك التي ظهر بها على الشاشة في اليوم السابق في برنامج «أحلام محطمة» .

التحريض..

ويبدو أن قلمي يؤجل عني الحديث في مربط الفرس.. الذي قد يكون «التحريض» والسؤال الملح .. كيف جرؤت الست السفيرة أن تقوم بهذا التحريض العلني الكوكبي على المسلمين المؤدين لفرض من أركان دينهم وهو الزكاة.. هل افترضت مثلا أن مشاهدي البرنامج الذي ظهرت فيه - والمنقول إلى أنحاء الأرض عبر الفضائية الدولية الفرنسية - يعلمون عن الزكاة ما يفيدهم بأنها ركن أصيل من أركان الإسلام يفرض علي المسلم في ماله حقا معلوما ينفق من حصيلة تجميعه على إعانة فقراء المسلمين في معاشهم، وهل خطر ببالها «المرتاح» أن تلتفت إلى صنوف الحرمان والهوان التي يعيشها المسلمون في ظل الاحتلال، أم أن ذكاءها صور لها أن خروجها على الدنيا بهذه النصيحة كفيل بالأخذ بها وبعدها تنجح مفاوضات السلام؟! لكن ترى ما هي الوسائل التي خطرت ببالها «المرتاح» والكفيلة بمنع جمع الزكاة في عواصم بلاد الدنيا التي يعيش على أرضها مسلمون؟!! أم أن برأسها هدفا تريد الوصول إليه بكونها صاحبة هذا التصريح؟؟!!! ■

ذكريات مع مكتبة ومجلات سينما

بقلم
مصطفى درويش

بدأ العام الذى لانزال نعيش أيامه ولياليه الحالكة السواد بداية رديئة، ولا تبشر بأى خير.

فلم يكد ينتصف شهره الأول، حتى جاء الموت «ايفيت فرازلى» صاحبة «الكتاب الفرنسى» «ليفردى فرانس»، تلك المكتبة التى يرجع مولدها إلى الربع الثانى من القرن العشرين.

وبعد بضع ساعات من إعلان وفاتها، يوم الثامن عشر من يناير.

وبينما أهلها وعمال المكتبة، مع نفر من روادها، يلقون النظرة الأخيرة على نعشها، مودعين

حدث امر لم يكن فى الحسبان

انقض نفر من الشركة المالكة لعمارة ايموبيليا، بشارع قصر النيل، حيث المكتبة، منتهزا فرصة أنها مغلقة حدادا، وإلى حين الانتهاء من طقوس الوداع الأخير، انقض كخساس الطير فاستولى عليها، بإحكام اغلاقها بسلاسل من حديد.

الكتاب أم الحذاء

وعن هذا الاستيلاء البربرى، غير المسبوق، والذى جرى، وبالسخرية الأقدار، فى تاريخ مواكب لافتتاح معرض الكتاب، تحت اشراف الهيئة العامة الكتاب،

عنه كتب الاستاذ أنيس منصور فى عموده اليومى بجريدة الأهرام متنبئا بتحول المكتبة من منتدى فكرى إلى محل لبيع الأحذية ، بدلا من الكتب.

جوليا مور فى «بعيدا عن النعيم» ، ومع الزوج الشاذ دينس كويد فى أحد مشاهد الفيلم

كما كتبت الأستاذة «صافى ناز كاظم» فى الجريدة نفسها استغاثة إلى كل من يهمه الأمر، بأمل أن تفيد استغاثتها، قبل فوات الأوان، فى انقاذ قط من موت أكيد، شاء له عبث الأقدار، وبدون ذنب جناه، أن يجد نفسه سجين المكتبة المغلقة.

ورغم ما كتب دفاعا عن المكتبة والقط السجين لم يحرك احد فى وزارة الثقافة ساكنا.

هذا، ولم يتم انقاذ القط إلا بفضل مجهود جمعية حماية حقوق الحيوان، الأمر الذى حدا بصاحبة الاستغاثة إلى أن تتساءل ساخرة فى مقال ثان.

وأين جمعية حماية حقوق الكتاب؟

ولأن كل شيء فى مصر ينسى، بعد حين، أصبح إغلاق مكتبة لها من العمر خمسين سنة، وازدادوا ثلاثا. ولها دور كبير فى اسعاد اجيال من المثقفين، اصبح امرا منسيا.

ولأمر ما، لعله إحدى المعجزات ، لم تتحقق النبوءة القائلة بانحدار المكتبة من منتدى فى خدمة الأذهان ، إلى محل فى خدمة الأقدام.

يحيا العدل

ففى السابع والعشرين من فبراير، أصدر قاض مستنير حكما برد حيازة ورثة صاحبة المكتبة ، على العين.

ورغم صفة الاستعجال، عاند تنفيذ الحكم النفر المعتدى ومحرضوه عناد البغال.

فاستمروا فى غلوهم متحايلين بشتى الوسائل، إلى أن قضى الأمر الذى كانوا فيه يتنازعون، دون وجه حق، بعودة الروح إلى المكتبة فى الثالث من يونيه «حزيران».

ففى ذلك اليوم السعيد، استقبلت زوارها الظامئين.

وهكذا ، انتهى كابوس، مرت أيامه بطيئة، ثقيلة، اشهرا بعد اشهر، وجدتنى، خلالها، محروما من مكتبتى المفضلة، التى لم انقطع عن التردد عليها، على امتداد نصف قرن من عمر الزمان.

ولهذا ، فما أن زال سبب الحرمان، حتى وجدتني داخلها، في اليوم التالي لافتتاحها، متصفحا الكتب التي طال الشوق إليها والحنين.

خارجا من فردوسها ، ومعي من زاد الثقافة طقوس الارباب وحوارات مع جان بول سارتر «أغسطس سبتمبر ١٩٧٤» لصاحبته رفيقة عمر سارتر «سيمون دى بفوار».

ولأنه من مجموعة كتب «فوليو»، زهيدة الثمن، لم ادفع ثمنا له، وبعد التخفيض المريح، سوى خمسين جنيها!!

واحه حرية

أما لماذا كانت مكتبتي المفضلة ، ولاتزال، فذلك لأنني كنت فيها اجالس الأصدقاء، اتناقش معهم فى موضوعات شتى، دون خوف او وجل من رقيب، فى جو من الحرية تحسد عليه فى اكثر من مكان.

واطلع على احدث الكتب والمجلات، وكأنني فى الحي اللاتيني، او على ضفاف السين.

واشترى ما استطيع شراءه من كتب ومعاجم وقواميس عن الفنون، لاسيما فن السينما.

والحق، انه لولاها، لما كان فى وسعي أن أعرف مبكرا، بأمر وجود مجلتين كان لهما شأن كبير فى تثقيفي سينمائيا.

وهاتان المجلتان هما الآداب الفرنسية وكراسات السينما.

ضحايا العدوان

فبفضل قراءتي بانتظام للآداب الفرنسية التي استمر الشاعر «أراجون» رئيسا لتحريرها، حتى اغلاقها ، عقب غزو الجيش السوفييتي، تحت غطاء حلف وارسو، لتشيكوسلوفاكيا، عقابا للمجلة على موقفها المناهض لعدوان وأد ربيع براغ، على نحو اصبح معه أي امل فى اشتراكية ذات وجه إنساني، كأمل ابليس فى الجنة.

بفضل ذلك، اصبحت حصينا من السقوط فى هاوية الانجذاب إلى تأييد النظم الديكتاتورية فى البلاد المتحررة من رق الاستعمار، بدعوى حماية الاستقلال وانجازاته، من كيد المعتدين.

وتعلمت من متابعة كتابات كل من «جورج سادول» و«ميشيل كابدنياك» فى نقد الأفلام، تعلمت كيف تكتب المقالات بأسلوب سهل، خال من التعقيد ومن ذلك النوع المسمى بالسهل الممتنع، لأنه يتيح للقارىء العادي، غير المتخصص ان يتذوق فن السينما، ويفهم من امره الشيء الكثير، دون جهد كبير.

نكسة ثورة ومجلة

وحتى قيام الثورة الثقافية فى الصين الشعبية، وتبنى مجلة كراسات السينما «للماوية» ، منهجا لسينما جديدة، منبتة

الصلة بالسينما القديمة، المخدرة للشعوب، خدمة للامبريالية، والفئات الطفيلية، الدائرة في فلكها.

حتى هذا التاريخ الفاصل، كانت كراسات السينما، تجيئني بانتظام عن طريق المكتبة.

ومما يعرف عن هذه المجلة التي لاتزال، كعهدنا بها، تصدر كل شهر، انها لعبت دورا كبيرا في النهوض بالسينما الفرنسية، بفضل موجة جديدة، اكتسحت بأفلامها الشابة، ما كان يطلق عليه، من باب السخرية، سينما بابا.

ولولاها لما ذاع صيت كوكبة رائعة من صانعي الاطياف، اذكر من بينهم على سبيل المثال «جاك ريفيت» «فرانسوا تريفو»، «كلود شابرول» أو «جان لوك جودار».

ومن بين مزايا المجلة الأخرى، انه، وبعد تخلصها من المنهج الماوي، شاء نقادها للسينما الا تكون لونا من ألوان الترف الفني، وانما اداة من أدوات الحياة.

فلم يجنحوا إلى الاعتصام ببروج عاجية، وإنما سعوا جاهدين ان يجعلوا من الكراسات منبرا للفن السابع، حتى في بلاد لايزال فيها هذا الفن يحبو، مثل بعض الدول الافريقية وسري لانكا وفلسطين.

العدو الأخير

وقد لا اكون بعيدا عن الصواب، اذا ما قلت ان عدد الكراسات عن شهر ابريل الماضي، خير دليل على هذا النهج السليم.

فهو عدد استثنائي، عنوانه «اطلس السينما - عام ٢٠٠٢ بالارقام، وجهات نظر نقاد من اربعين دولة، من بينهم نقاد من مصر وفلسطين.

وأول ما لفت نظري في هذا الأطلس الفريد ان جميع مقالات النقاد الواردة بين دفتيه، قد روعي في نشرها ان تكون مكتوبة باللغتين الفرنسية والانجليزية معا.

وان ايا من تلك المقالات المزدوجة لغويا، لا تحتل من صفحات الاطلس سوى صفحة واحدة، احيانا تقل بضعة سطور، او تزيد قليلا.

وان الغرض من الاطلس معرفة حال السينما عالميا في مجالات انتاج، وتوزيع وعرض الافلام.

وفضلا عن ذلك، فمن بين ما لفت نظري استكتاب المشرفين على الاطلس لثلاثة نقاد امريكيين.

وباستثناء صورة من فيلم حديث صاحبه «بول توماس أندرسون»، وهو مخرج لم يعرض له اي فيلم في بر مصر، باستثنائها، لم تنشر سوى صورتين من فيلم واحد صاحبه «ستود هينز» والفيلم اسمه «بعيدا عن النعيم».

الاستثناء لماذا؟

وهذا يعني ان فيلما واحدا قد حظي بصورتين في حين ان جميع الأفلام الأخرى، فيما عدا فيلم اندرسون لم

تحظ باية صورة، رغم ورود ذكر لها بشكل أو بآخر فى إحدى المقالات الثلاث، ورغم ان بعضها من الإنتاج الضخم، مثل الرجل العنكبوت ، عصابات نيويورك وشيكاغو.

والسؤال لماذا انفرد «بعيدا عن النعيم» بصورتين، دون غيره من الأفلام وأين؟

فى مجال ضيق من اطلس لايزيد على اربع صفحات بداية هذا الفيلم شاهدته ، بفضل اسطوانة مدمجة.

الحلال والحرام

وما ان وصلت إلى خاتمته حتى أيقنت انه لن يكتب ان تصل الينا منه، ولو نسخة واحدة، فى المستقبل القريب، ربما لانصراف نية أصحابه عن توزيعه عندنا، لعلم أولى الأمر فى هوليوود علم اليقين انه من ذلك النوع الحرام، الممتنعة مشاهدته علينا. أو ربما لجنوح أصحاب الأمر والنهى فى بلاد العم سام إلى حرماننا من مشاهدة طريقة الحياة الأمريكية، كما هى على حقيقتها، دون تزويق.

أما لماذا هذا اليأس اليائس من عرضه فى ديار مصر المحروسة، فذلك لانه فيلم دامغ للعنصرية فى الولايات المتحدة ، من خلال عرض رائع لحياة الشرائح العليا فى المجتمع الأمريكى، فى منتصف عقد الخمسينيات من القرن الماضى، عندما كانت الولايات المتحدة محكومة بالجمهوريين ، تحت رئاسة الجنرال «دوايت ايزنهاور» ، والذى كان يوصف بالضعف والغباء.

فيلم أم جحيم

ففى هذا الزمن الموغل فى القدم، كانت تلك الشرائح تعيش حياة لذيذة، ترفرف عليها السعادة والهناء، بحيث كان يبدو وكأنها تعيش فى نعيم مقيم.

فى حين أنه فى حقيقة الأمر نعيما زائفا أقرب إلى الجحيم، ينخر فيه سوس الشذوذ المغلف بالنفاق الاجتماعى والفجاجة والغباء، فضلا عن عنصرية مقيتة افسدت على ملايين السود فى الولايات المتحدة حياتهم، واضطرتهم الى الوان من الذل والهوان، اقل ما توصف به انها لا تلائم كرامة الإنسان.

وكل ذلك الشذوذ والعنصرية قد عكسهما الفيلم بصدق وعمق، وباسلوب يقطر بساطة وانسيابا، خال من بهلوانيات هذه الايام.

واغلب الظن ان كشف العلاقات الشاذة والعنصرية فى ارض الأحلام، هو الذى حال دون مجىء اية نسخة من بعيد عن النعيم، حتى الآن، وربما يحول دون عرضه فى مستقبل غير بعيد!! ■

لغويات

كلا وكلتا (٢)

اجتمع قوم على شراب فغنتهم جارية بشعر لحسان بن ثابت:

سأل شاب لا يزل يطلب العلم: لكنك ياشيخنا أوضحت مافي الشعر، ولم تعرض القاعدة نفسها التي نحتكم إليها عند الخلاف.

ـ الحق معك يابني، لا بأس، إليك مجملها:

كلا وكلتا مفردان لفظا، مثنيان معنى، مضافان أبدا لفظا ومعنى إلى كلمة واحدة معرفة، اسما ظاهرا أو ضميرا، تدل على اثنين حقيقة أو مجازا، الأولى كلا لتأكيد المثنى المذكر، والثانية كلتا لتأكيد المثنى المؤنث.

إذا وليهما اسم ظاهر لزما حالة الألف دائما: في الرفع والنصب والخفض.

يقول أمير الشعراء شوقي:

ضل الأمير كما ضل الوزير بهم

كلا [illegible] ولم يصب

إسرائيل مشى [illegible] لم يبصر

وفي القرآن الكريم «كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا» (سورة الكهف الآية ٣٣)

أما إذا وليها ضمير فتلزم الألف في حالة الرفع، يقول شاعر:

كلانا غني عن أخيه حياته

ونحن إذا متنا أشد تغانيا

ويقول أمير الشعراء:

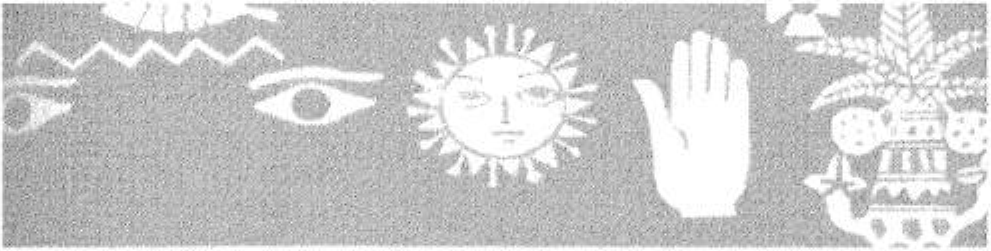
كم في الحياة من الصحراء من شبه

كلتاهما في مفاجاة الفتى شرع

أما في موضع النصب والجر فتصبح الألف ياء، يقول شاعر:

في عمق عينيها كليهما سحر يغني

ومن العرب من تستعمله بالألف مطلقا، في كل الحالات، الرفع والنصب والجر، كما لو وليا الاسم الظاهر. ■



الثقافة الجماهيرية

فى دورة جديدة

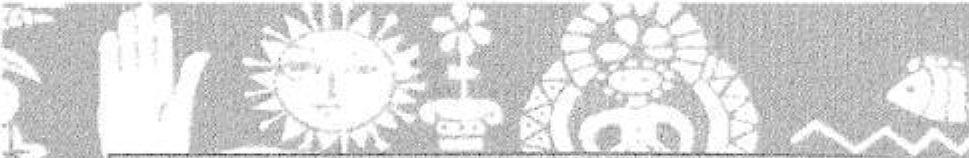
أمانى عبد الحميد

«الثقافة الجماهيرية» مفهوم موروث من زمن قديم يضع هيئة حكومية بأكملها داخل مأزق خطير وعسير، الهيئة العامة لقصور الثقافة أطلقت أخيرا استراتيجية جديدة للعمل الثقافى، ترى أنها وسيلة للخروج من المأزق الذى استمر يخنقها أكثر من ٢٥ عاما: فلسفتها تقوم على الابتعاد عن قضايا الأدب والثقافة بشكلها الجماهيرى، وتبنى أفكار وتوجهات الجماعة الرسمية مثل قضايا التنمية والتحديث وتنظيم الأسرة والصحة الانجابية.

فهل ستتمكن الهيئة بتطبيقها لاستراتيجيتها الجديدة الخروج من عنق الزجاجة؟ وهل ممارسة الهيمنة والتوجه الثقافى بما يتناسب مع الخطاب السياسى الرسمى هو الحل الأمثل؟؟

طرحت الهيئة العامة لقصور الثقافة مع حلول شهر يوليو الجارى استراتيجية جديدة للعمل الثقافى والفنى، لتكشف عن تحول فكرى ووظيفى بعد مرور أقل من عامين على رئاسة أنس الفقى لها. ويبدو أن الاتجاه الجديد يسعى إلى ربط الهيئة بالمنظومة السياسية والاجتماعية السائدة داخل المجتمع وبالثقافة والتى تتبناها الدولة فى وقتنا الراهن. فكما يرى الفقى أن على الهيئة التخلى عن الاهتمام الزائد بالأدب والأنشطة والمؤتمرات الأدبية وتتجه نحو خدمة قضايا المجتمع والدولة. بهدف الارتقاء بأنماط الحياة فى مصر».

تقوم الاستراتيجية الجديدة على ثلاثة محاور أولها: تحديث البنية التحتية



• لا أدب، لا ثقافة، لا جماهير

• «الفقي»: يجب توجيه أعمال أدباء الأقاليم نحو خدمة قضايا الدولة!

• ١٠٠ مليون جنيه، ١٢ ألف موظف، ٤٩٥ فرعا هل تكفي للدور الجديد؟

المنشآت والتي تحتاج إلى مايقرب من ٤٠ مليون جنيه للقضاء على الحالة السيئة التي تعاني منها القصور والبيوت التابعة لها، علما بأن الميزانية الحالية تصل إلى ٨ ملايين جنيه في العام، والمبلغ المخصص منها على الصيانة لايزيد على مليون و٦٠٠ ألف جنيه فقط كما أكد «الفقي».

ثانيا: تغيير النظم الإدارية وتنمية الموارد البشرية حيث تسعى الهيئة إلى وضع قواعد تحدد من الأصلح الذي سيستمر في العمل الثقافي كما أكد «الفقي» أن الهيئة ستلجأ إلى نظام التعاقد مع مستشارين من خارجها، لتتخطى عقبات الهيكل أو السلم الإداري، مع ضرورة إقامة صندوق مالي يسمح بمكافآتهم بشكل مجزي، إلى جانب تدريب العاملين وتنمية مهاراتهم الوظيفية.

وثالث: محاور الاستراتيجية وهو الأهم .. تعديل الفلسفة العامة، والنهج الذي تتبعه الهيئة خلال الفترة القادمة، حيث يوضح «الفقي» أن أنشطة الهيئة الثقافية جزء من المعطيات التي يتعرض لها الانسان والتي تؤثر على أنماط سلوكه وكيفية تعامله مع المجتمع، لذا تسعى من خلال فلسفتها الجديدة إلى خلق أجيال تخدم قضايا الوطن، فهو يرى أن الثقافة ليست قدرة الشعب على القراءة إنما على السلوك الحضاري والتفاعل مع القيم الجمالية للوطن.



أنس الفقي

ولكن يظل السؤال المطروح هل ستكفي تلك المحاور الثلاث للخروج من عنق الزجاجة الذي ظلت الهيئة حبيسة داخلها سنوات طويلة..؟

حارس ثقافي

إذا نظرنا إلى الهيئة العامة لقصور الثقافة كجهاز حكومي نجد أنها حملت فلسفة تقوم على نشر مفردات الثقافة من فن، وفكر وإبداع، وأدب إلى كل شبر في مصر حتى النجوع النائمة في أقاصي الصعيد، وقامت لتكون منارة للفكر ومركزا للإشعاع الثقافي.

وللحفاظ على التراث القومي والهوية المصرية واكتشاف الإبداع والمبدعين. كل ذلك من خلال المشاركة الفعلية لجمهور الأقاليم عبر مراكزها وأطرافها التي

يصل عددها إلى «٩٤٥» فرعا لذا فهي أخطر قطاعات وزارة الثقافة على اعتبار أنها الحارس على الميراث الثقافي.

ونظرا لأهميتها كانت دائما محطا للأنظار وللجدل حول الدور المنوطة به وكيفية القيام به خاصة أنها تعاني من أزمات متعددة أولها أزمة مصطلح ومفهوم تطبيقه وثانيهما أزمة أداء وإمكانية الخروج من دائرة الفكر البيروقراطي نحو صياغة جديدة للعمل الوظيفي . وغيرها من الأزمات التي تعتصرها. فهل ستتمكن الاستراتيجية الجديدة في التغلب على تلك الأزمات..؟!.

المصطلح والمنظومة الاشتراكية

ظهر لأول مرة مصطلح الثقافة الجماهيرية في عام ١٩٦٦ بقرار من الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة وذلك لإرساء قاعدة العمل الثقافي الذي يسعى إلى تسخير جميع الأدوات الثقافية للشعب المصري من خلال تأصيل القيم والمبادىء الإنسانية، واستلهام التراث الفكري والفني ونشر الوعي الثقافي بين الجماهير وإن كانت البدايات الأولى في عام ١٩٤٥ حيث تأسست الجامعة الشعبية والتي اقتصر نشاطها على الأهداف المدرسية والتعليمية، ثم تحولت إلى المراكز الثقافية في عام ١٩٤٨ لتعمل على إقامة الندوات والمحاضرات فقط، وفي عام ١٩٥٨ تم ضمها إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ليبدأ الاهتمام بالمسرح والموسيقى والفنون التشكيلية. لتظهر بعدها فكرة انشاء قصور الثقافة عام ١٩٦٠.

إن أهم ما اتسمت به فترة الستينات في القرن الماضي أن هيئة الثقافة الجماهيرية كانت ضمن منظومة سياسية وجزءا لايتجزأ من مشروع قومي كبير يسعى إلى تحديث الدولة المصرية، ومن خلال إقامة مجتمع اشتراكي يسعى إلى ترسيخ مفهوم الثقافة الجماهيرية ومراكزها المنتشرة في أرجاء البلاد، إلى جانب إعادة بعث الثقافة والفنون الأدبية والفكرية إلى الأقاليم البعيدة عن عاصمة النخبة المثقفة .

زمن بائد

لكن خفوت المد الاشتراكي والمنظومة الشمولية في أعقاب وفاة الرئيس جمال عبدالناصر دخلت مصر في سياسات انفتاحية مختلفة وتعرضت لتغييرات سريعة ذات اهتمامات مختلفة ليس من بينها الثقافة، لذا كان من الطبيعي أن يبدأ جهاز الثقافة الجماهيرية مرحلة هبوط سريع بعدما فقد الدافع المحرك له ، وأصبح أحد رموز عهد بائد، ففي عام ١٩٧٧ صدر قرار بتغيير اسمها إلى «المراكز الثقافية» ليوضح بصراحة الفلسفة الجديدة التي ينبغي للجهاز أن يتبناها وليكون أول قرار ينهي التوجه الجماهيري داخلها فتوالت من بعده الانهيارات وتقلصت الأنشطة من مسرح وسينما وأدب، مما دفع عدد كبير من أعضائها إلى الهجرة خاصة مع تزايد حملات مطاردة رموز الثقافة المصرية الذين ينتمون إلى ذلك العهد وهجرتهم إلى خارج البلاد، رغم أن عددا قليلا استمر على أمل أن تحدث صحوة أو نبضة ما لكن تلك الآمال لم تكن تكفي لتعيد الحياة مرة أخري لها. ومع منتصف ونهاية فترة السبعينات تحولت إلى جهاز يعج بالموظفين الذين لاصلة لهم بالثقافة

وأحوالها بل إن كثيرين منهم وجدوا أنفسهم يحتلون مواقع ثقافية لايعلمون بحقيقة الدور المنوط بهم.

ويحكى لنا الروائي ابراهيم عبدالمجيد وهو أحد العاملين في جهاز الثقافة الجماهيرية منذ عام ١٩٧٥ أنه قام بسؤال أمين مكتبة بأحد المراكز الثقافية بإحدى القرى عن سبب عدم قراءته للصحف اليومية فرد عليه أمين المكتبة بأن المخصص لشراء الصحف داخل المركز لايتعدى ثلاثة جنيهات في الشهر وأنه ذو دخل محدود لايستطيع شراءها على حسابه الخاص!!

مركزية شديدة

غرق الجهاز في مركزيته الشديدة وتقلص الاهتمام بالأطراف بل تحول التركيز المالي إلى «القاهرة» فقط .. وتقلصت باقي مخصصات الأقاليم البعيدة خاصة في أعقاب صدور قرار بإيداع جميع العوائد المالية في القاهرة مما حرم الأقاليم في العوائد الخاصة بهم. علما بأن جماعات الرواد داخل المراكز كان لها أنشطة تدر عليها دخلا ماليا مثل إقامة حفلات سينمائية.

كما عاني الجهاز من حالة انفصال مابين المركز والقواعد أو الرأس والأطراف. فلم يعد التدفق يسير في الاتجاهين كما كان في الماضي فلم تحتج القواعد على الإهمال المتواصل ولم يهتم المركز بتوطيد العلاقة بينهما، وفتح الباب أمامها لتمارس مايحلو لها من أنشطة طالما أنها لاتحتج حتى أصبحت القواعد فريسة سهلة أمام المحليات والمحافظات التي حولتها إلى مراكز احتفالية لمناسباتها الخاصة.

وإن كانت أهم المخاطر التي تعرضت لها القواعد كانت الهجمات الشرسة من داخلها من الموظفين ذوي الرؤية الضيقة، على سبيل المثال كان خلال إحدى الفترات التي شهدت حالة بعد المحافظ الشديد كان القائمون على قصر ثقافة طنطا ينظرون إلى فن المسرح على أنه نوع من أنواع الكفر بحب القضاء عليه، بل إن بعض المراكز اتجهت إلى إقامة جمعيات لتنظيم رحلات للحج والعمرة في مقابل تخليها عن باقي أدوارها الثقافية كما يوضح «عبدالمجيد».

قرار جمهوري

وفي عام ١٩٨٩ صدر قرار جمهوري رقم ٦٣ بانشاء الهيئة العامة لقصور الثقافة لتتحول من مجرد مراكز ثقافية إلى هيئة حكومية مستقلة ماليا، وتابعة إداريا إلى وزارة الثقافة، ونص قرار الانشاء بضرورة ألا تكون مهمة الهيئة الوحيدة هي تقديم الزاد الثقافي للمواطن المصري فحسب بل من مهامها اكتشاف المواهب ورعايتها حتى تنضج ويصبح أصحابها من صانعي الثقافة ..» والسؤال الملح هنا هل قامت الهيئة منذ قرار استقلالها وحتى يومنا هذا بذلك الدور المنوطة بها؟. الإجابة تحتاج إلى بحوث طويلة خاصة أن حسين مهران أول من تولى رئاسة الهيئة بعد استقلالها اعترف أن الثقافة الجماهيرية لم تكن لها خطة مدروسة للعمل الثقافي، وأنها تعاني من تكدس المواقع بعمالة زائدة غير مدربة ولا علاقة لها بالثقافة سوى الوظيفة كما أوضح أن الهيئة تعاني من مركزية في الإدارة حيث تتجمع كل الخيوط بالقاهرة كما جاء في التقرير الصادر في عام

١٩٩٠ والمعروف أن «مهران» قام بتقسيم مصر إلى خمسة أقاليم ثقافية (القاهرة الكبرى وشمال الصعيد، شرق الدلتا، غرب ووسط الدلتا. القناة وسيناء، ووسط وجنوب الصعيد) بهدف القضاء على المركزية الشديدة لكنه فى مقابل ذلك فتح الباب أمام مشاركة المحليات والمحافظات للمساعدة فى التغلب على ضعف الإمكانيات المادية على أقل تحريك الركود الثقافى القائم ولكن مع الوقت تحول الدعم إلى تدخل، وتحول النشاط الثقافى إلى الطابع الاحتفالى بما تراه المحافظات ملائما لها مما أدى إلى تزايد سيطرة المحليات على الفروع الثقافية. وبرغم ذلك أكد «مهران» أن هيئة قصور الثقافة هى المحرك الثقافى الذي يستطيع تحريك خمسة آلاف قرية فى وقت واحد. لذا كان على كل العاملين داخلها أن يفهموا خباياها ويتعرفوا على الناس كل على حسب طاقاته وإمكاناته».

وعندما نعود وننظر للتحول الفكرى الذى تسعى إليه الهيئة من خلال استراتيجيتها الجديدة، نجد أنها فى حقيقة الأمر لاتحمل فى مضمونها أى تحول من أى نوع. فهى كسابقاتها فى الاستراتيجيات التى تم وضعها على مدى تاريخ الهيئة لترتبط بالمنظومة السياسية التى تتبناها الدولة، كما حدث خلال فترة المد الاشتراكى الشمولى الذى يؤمن بدور الدولة فى توجيه الثقافة نحو الجماهير فى أرجاء المجتمع.

وكذلك حدث مع وجود سياسات الانفتاح التى أهملت مفاهيم الثقافة برمتها ومن بعدها المد المحافظ المتزمت الذي حاول تقييد الفكر والابداع والفن. وها نحن اليوم نجدد التجربة من خلال ربط العمل الثقافى بالعمل فى خضم ماتتبناه الدولة من مفاهيم ومضامين قد لاترتبط بالثقافة بشكل حقيقى. مثال ذلك الإصرار على مشاركة هيئة قصور الثقافة فى تنفيذ استراتيجية تهدف إلى تنظيم الأسرة والصحة الانجابية، بل وتعمل من خلال فروعها على إكساب المعرفة والاتجاهات الايجابية تجاه مثل تلك القضايا الأسرية وتهدف أيضا إلى استمرارية تصوير البرامج الإعلامية للتوعية بها. فنجد الإدارة المركزية للدراسات والبحوث تصدر تقريرها عن «انجازات الهيئة من الخطة التنفيذية للبرنامج السكانى لعام ٢٠٠٢/٢٠٠٣»، وتضع على قمة استراتيجياتها تنظيم الأسرة وتطالب بتعميم ذلك داخل نوادى المرأة التابعة للهيئة لتكون أماكن لتقديم الخدمة التنظيمية والصحة الإنجابية هذا علاوة على اتسام الأنشطة بالطابع الاحتفالى مثل الاحتفال بأعياد الأم والأسرة وعيد الأضحى والحج والهجرة ...!!

واستكمالا للاستراتيجيات التابعة لاستراتيجيات الدولة نجد «الفقى» يصر على عقد صالون «الشباب» الدورى تحت شعار «قادة المستقبل» وكأن الشعب المصرى يحتاج إلى القادة فقط ولايحتاج إلى زاد ثقافى يعينه خلال الأعوام القادمة.

الابتعاد عن الأدب

يقود أنس الفقى استراتيجيته الجديدة التي يطالب فيها بالتخلى عن الأنشطة

الأدبية حيث يرى أن «الهيئة تحاول استرداد ثقة المجتمع لها بعدما حدثت فجوة بينهما نتيجة أزمتي «وليمة لأعشاب البحر» و«الروايات الثلاث» لذا تحاول الهيئة التأكيد على احترام المتلقى والاهتمام بإعادة تقديم التراث والتخلى عن الأدب، وهذا ما حدث خلال مهرجان محكى القلعة وعروضها المسرحية والفنون الشعبية، لكن للأسف لم يدرك «الفقى» أن الأدب لم يكن يوما مصدرا للتقليل من احترام أية جهة. بل إن إدارة النشر داخل الهيئة تحولت إلى قوة لايتسهان بها ولايمكن إغلاقها أو حتى تقليل امكانياتها خاصة أن إصداراتها تباع بأسعار زهيدة حتى يقدر على شرائها الشباب ومحدودو الدخل لذا فمن الأجدى التفكير في كيفية تفعيل الدور الثقافى الإقليمى للهيئة بدلا من الابتعاد عن الأنشطة الأدبية.

وإن كانت إدارة النشر تواجه انتقاداتها داخل أوساط المثقفين حول الدور المطلوب منها والدور الذى أصبحت تلعبه بالفعل فترى الانتقادات أن الهيئة تحولت إلى مؤسسة للنشر حتى تداخلت وظيفتها مع وظيفة الهيئة العامة للكتاب على حساب دورها في النشر الجماهيرى، وأصبحت تصدر ١٢ سلسلة وثلاث مجلات برغم أن عليها عبء نشر كل ما يكتبه أدباء الأقاليم وتقديم المواهب الجديدة للحياة الأدبية للمرة الأولى فقط. علما بأنه خلال أول مؤتمر لأدباء مصر بالأقاليم الذى عقد فى المنيا خلال الثمانينات كان من أهم توصياته إقامة إدارة لنشر أدبهم من قصة وشعر.

وإن كان «الفقى» يرى أن ثروة مصر من أدباء الأقاليم يجب أن يتم توجيهها بحيث يكون نشر أعمالها لخدمة مفاهيم الثقافة الجديدة، لكى تلعب دورا فى بناء الدولة».

ويضرب مثالا لذلك ويقول: الحزب الوطنى الحاكم يدعو إلى مشاركة المثقف فى خدمة المجتمع وقضايا الدولة ..بل ويؤكد أن التغييرات على الصعيد السياسى لم يواكبها تغييرات مماثلة على المستوى الثقافى ومثال ذلك ضرورة نشر ثقافة العمل الحر والاستثمارات الصغيرة حتى يتخلص المواطن المصرى من فكرة العمل كموظف داخل القطاع العام.

***

وفى النهاية يظل السؤال الأهم مطروحا .. لماذا لاتكفى ١٠٠ مليون جنيه كميزانية سنوية و١٣ ألف موظف ، و٤٩٥ فرعا لتفعيل دور الهيئة كمنارة ثقافية حقيقية لا قصور رفاهية خاوية تعج بالموظفين؟؟ لذا فالمطلوب أن تعترف هيئة قصور الثقافة بفلسفتها الجديدة التى تتخلى عن مفهوم الثقافة الجماهيرية بمضمونه القديم، وتعلن عن توجهها القائم على الهيمنه الثقافية .. فالخطط والاستراتيجيات الجديدة تقوم على توجيه الجماعة الثقافية نحو وجهة بعينها .. وبرغم أن ذلك أثبت فشله طوال عمرها المديد!! ولكن علينا أن نقول : إن التنوع أو ما يمكن إن نطلق عليه الموازييك الثقافى الموجود داخل مجتمعنا لن يقبل الهيمنة والتوجيه مرة أخرى بل على العكس فهو يحقق الثراء الذى نلمسه فى مختلف أقاليمنا شمالا وجنوبا وغربا وشرقا. ■





رجال بيض أغبياء

المؤلف: مايكل مور
الترجمة: د. فاطمة نصر
الناشر: إصدارات سطور

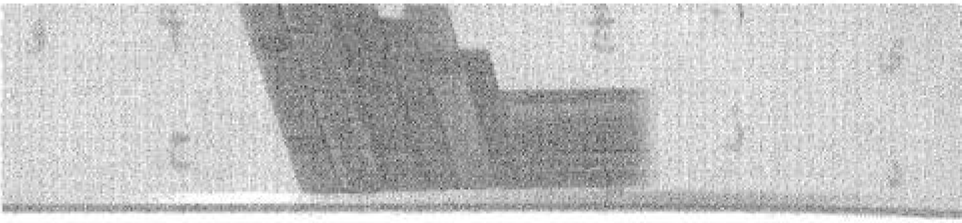
كتاب حقق أعلى نسبة مبيعات فى الولايات المتحدة الأمريكية واحتفظ بالمركز الأول فى قائمة «النيويورك تايمز» وفى كندا حتى يومنا هذا، برغم التعتيم الإعلامى المكثف الذى واجهه الكتاب من قبل رجال السلطة والإعلام الأمريكيين .

صدر من الكتاب – عمل أول «لمور» – تسع طبعات خلال الأيام الخمسة الأولى من صدوره، وكان من المقرر أن يتم توزيعه فى نطاق الولايات المتحدة وكندا فقط، لكن شعبية الكتاب الكاسحة فى ظل الأحداث المؤسفة التى قادها الرئيس الأمريكى جورج بوش، جعلت الطلب يتزايد عليه فى جميع أنحاء العالم، حتى صدرت الترجمة العربية له على يد الدكتورة فاطمة نصر .

ويبدو أن ما قدمه الكتاب من أفكار جريئة ورؤى مغايرة جعلت من العسير التغاضى عنها ، بل إن روح التهكم التى تمتلئ بها سطوره وعناوينه جاءت كأصدق تعبير عن آراء الجمهور الأمريكى، بعيدا عما تبثه وتفرضه أجهزة الإعلام المضللة فى بعض الأحيان .

يتناول الكتاب عددا من القضايا التى تؤرق عددا كبيرا من الأمريكيين . يعرضها «مور» بأسلوب بعيد عن التعقيد قريب من لغة المواطن العادى. يبدأ بعنوان مثير «انقلاب عسكرى أمريكى جدا» حيث يرى أن الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠١ والتى فاز بها جورج دبليو بوش ماهى إلا انقلاب عسكرى قاده لص قدير . لذا يوجه استغاثة الشعب الأمريكى لكوفى عنان أمين عام الأمم المتحدة لنجدتهم فى استعمار البيض الأغبياء اللصوص .

ومن أهم ما يفضحه «مور» العلاقة القائمة على التوتر والارتياب بين البيض والسود داخل المجتمع الأمريكى. ويرى أن الإعلام قام عن عمد بتدمير الصورة الذهنية لمجتمع السود الفقير فى نظير إعلاء مجتمع البيض برغم انحلاله وانحرافه . ويقر أن بلاده أصبحت الأمة رقم واحد التى يكرهها العالم من الأعماق . وإن كان أصدق ما كتبه هو رسالة يبعثها إلى الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات ، يقترح فيها تنظيم إضراب وعصيان مدنى جماعى للشعب الفلسطينى» . كفوا عن العمل لدى اسرائيل... تمددوا فى الطرقات...» حتى يكتشف العالم مدى فظاعة الآلة العسكرية الاسرائيلية أمام اعتراض الفلسطينيين السلمى .



مجموعة من الكتب عن الشاعر أمل دنقل

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

فى الذكرى العشرين على رحيل الشاعر أمل دنقل أقام المجلس الأعلى للثقافة احتفالية عربية بعنوان «الانجاز والقيمة»، صدر ضمن فعالياتها مجموعة من كتب:

الأعمال الشعرية الكاملة



أصدر المجلس الأعمال الشعرية الكاملة لـ«دنقل» فى طبعة منقحة بعد تصويب جميع الأخطاء التى وردت فى الطبعات الأخرى. كما ضمت الطبعة الجديدة مقدمة بقلم د. جابر عصفور عن الوعى لدى الشاعر بالانهيار القومى، يشرح فيها قدراته على رؤية اللحظة التاريخية لهذا الانهيار، وامكانياته فى أن يصل هذا الوعى المأساوى بين المفرد والجمع / والخاص والعام / الحاضر والماضى / مما جعل من قصائده مرات متكررة الرجع ... مراث لعالم يحتضر أو عالم ينتشر فيه الموت

عم صباحا أيها الصقر المجنح



إعداد وتقديم: حلمى سالم

كتاب يضم مجموعة من المراثى التى كتبها الشعراء العرب فى أمل دنقل (أثناء المرض أو بعد الموت). بعضها جاء كمناقشة لشعره ورصد الجوانب الفكرية والفنية فيه، وبعضها ذهب إلى رصد حياته الصعبة وموته المفجع فى إشارة إلى تماثل الحياة والموت فى مسار الشاعر.

النشيد الأبدى - أمل دنقل سيرة شعرية ثقافية

المؤلف: د. حسن الغرفى

يقدم الكتاب مجموعة من الكتابات النثرية لـ«دنقل» ومعظم الحوارات التى أجريت معه فى مختلف المجلات والجرائد، وذلك طبقا للتسلسل الزمنى من حيث النشر. كما يقدم مجموعة من الآراء حول القضايا الثقافية والفكرية وشهادات شعراء وكتاب أمثال نجيب سرور، أحمد عبدالمعطى حجازى وصلاح عبدالصبور.

بيليوجرافيا - أمل دنقل

إعداد: عبلة الروينى



تقول «عبلة» فى مقدمتها: إن العمل فى البيليوجرافيا استغرق أكثر من عشرين عاما. وهى الطبعة الثالثة بعد تحديث معلوماته. وتضم سردا لكل أعماله الشعرية

رحيق الكتب

والمقالات النثرية وقصائده المنشورة في الدوريات علاوة على التسجيلات المرئية والصوتية . بالاضافة إلى الكتب والدراسات والمقالات والرسائل الجامعية والمواقع الالكترونية . التي تحدثت أو تناول أمل دنقل وشعره بالدراسة والتحليل والنقد مما يسهل مهمة الباحثين



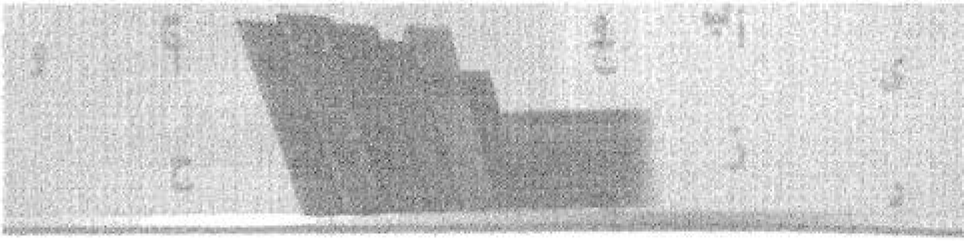
تأليف: جيمس د. واطسون
ترجمة: د. أحمد مستجير
د. محمود مستجير
الناشر: سلسلة إصدارات سطور

ممارسة العلم ليست أكثر من محاولة بشرية يقوم بها بشر ككل الناس، وهي ليست نشاطا معقما محنطا لأناس في معاطف بيضاء ذاهلين انفصلوا عن عالمهم. هكذا كان ينظر «واطسون» للبحث العلمي وهكذا عاش حياته. أدرك ذلك مبكرا حتى أخذه اكتشافه الذكي البسيط «اللولب المزدوج» أو (حل لغز جزئ الدنا) إلى استكهولم ليتسلم جائزة نوبل في الفسيولوجيا والطب عام ١٩٦٢ وهو لم يتعد الثلاثة والثلاثين من عمره .

الجديد في كتابه أنه يكسر الحاجز الوهمي بين العلماء وعامة البشر. حيث كتبه بأسلوب بسيط ملئ بروح الفكاهة. قدم به طريقة اكتشافه لتركيب الـDNA أهم الحوادث العلمية في القرن العشرين، والذي أحدث انفجارا غير مجرى علم الكيمياء الحيوية، ورغم أن الكتاب صدر في عام ١٩٦٧ إلا إنها المرة الأولى التي يترجم ويصدر بالعربية (٢٠٠٣) ، يعود الفضل إلى إصدارات سطور التي أخذت على عاتقها ترجمة الكتب المتميزة في مختلف المجالات (محمد - القدس - صدام الحضارات - عصر الجينات) وغيرها من الكتب التي استحقت عناء الترجمة وبالتالي القراءة .

الكتاب الذي بين أيدينا كتبه «واطسون» بعد فوزه بالنوبل بخمس سنوات. يقدم فيه دراما انسانية شيقة حول تجربته مع البحث العلمي والدنا . ويسرد تفاصيل حياته اليومية وعلاقاته المتعددة (مع أصدقائه زملائه من العلماء - أقربائه) والأماكن التي زارها من بلدان ومدن حتى دور السينما وذلك طوال فترة بحثه المتصلة عن تركيب ملح الحامض النووي .

ويذكر الدكتور أحمد مستجير في مقدمة الكتاب «أن اكتشاف واطسون غير



من طريقة تفكيرنا عن أنفسنا، وعن الكائنات الحية من حولنا. غير ثقافتنا وأصبح شعارا ثقافيا لعصرنا. وفتح الباب واسعا لعصر البيولوجيا الجزيئية والبيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية. ويوضح المترجم أن العلم الكبير إنما يأتي عن طريق الجدل والنقاش والاتصال بين الأفراد والمؤسسات العلمية في المجتمع العلمي العريض. وهو يخلق المناخ الصحي السليم الذي يحفز ويشحذ القرائح لتبدع.



المرأة الجديدة
تأليف: إقبال بركة
الناشر: دار قباء

بعد أكثر من مئة عام يصدر كتاب يحمل نفس الكتاب الشهير لقاسم أمين «المرأة الجديدة» الذى صدر فى عام ١٩٠٠ مبشرا بمرحلة جديدة يعيشها المجتمع المصرى. أما الكتاب الجديد فترى كاتبته أنه يتحدث عن المرأة الجديدة التى اقترن اسمها بتاريخ تحقيق حرية الأمة المصرية، وتوضح أنه جاء التزاما بمبدأ «حتى لا ننسى» أى انعاش ذاكرة القارئ بمواقف وأحداث وشخصيات من التاريخ المصرى الحديث سبق سرد تاريخ كل منهم فى كتب واصدارات متعددة، مثل الخديو عباس حلمى الثانى، الخديو اسماعيل، مصطفى كامل، علاوة على ورود بعض الشخصيات الأجنبية أمثال جون ستيوارت ميل / تشارلز داروين / كارل ماركس/ فريدريك إنجلز. وتبرر «إقبال» أن تأمل تلك الشخصيات والتوقف عندها يفيد فى فك طلاسم الأحداث الجارية ومواجهتها.

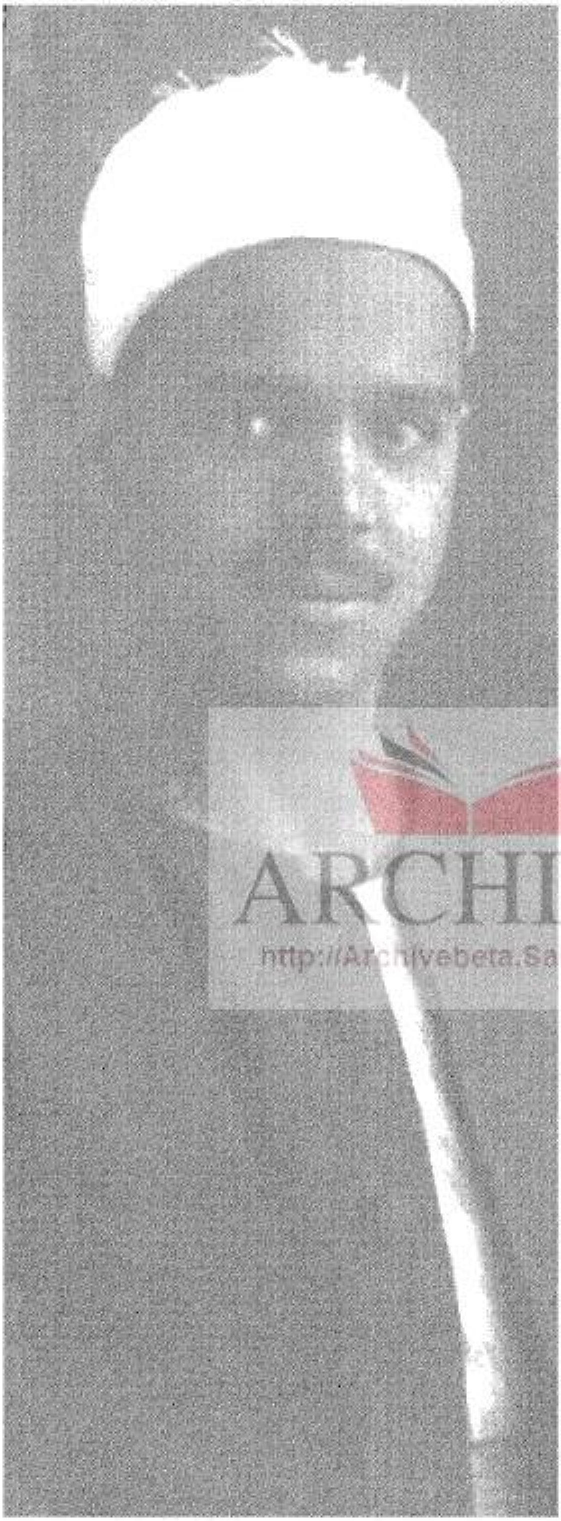
ويركز الكتاب على مسيرة المرأة المصرية والأدوار التى لعبتها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وتعتقد أن المؤرخين تجاوزوها أو استهانوا بمداولاتها أو تجاهلوا عواقبها وتأثيراتها على الأجيال اللاحقة. أمثال هدى شعراوى رائدة العمل العام، كما تلقى الضوء على بعض الرائدات فى مختلف المجالات أمثال عزيزة أمير أم السينما المصرية والعربية، شفيقة محمد أول شهيدة مصرية، وفاطمة رشدى وروزاليوسف والكسندرا أفرينو.

سمات أبجلها في شخصية

والدى أمين الخولى

بقلم
د. سمحه الخولى

دعتنى رئاسة تحرير مجلة الهلال العريقة منذ عام لكتابة مقال عما أخذته عن والدى - أمين الخولى وطرأت ظروف خارجة عن الإرادة أجلت تلبيتى لهذه الدعوة ولكنى أمعنت النظر فى فكرة المقال وتجلى لى ما يحيط به من محاذير لأن أغلب ما أخذت عن والدى كان صفات حميدة مميزة لهذه الشخصية المصرية النادرة ومعنى هذا أننى لو استسلمت لإغراء الكتابة عما أخذته عنه فقد ينتهى بى الأمر إلى مأزق حرج .. ولذلك رأيت أن أكتب هنا عن السمات التى سحرتنى فى والدى وتمنيت أن تكون لأبنائى بل ولكل أبناء مصر . ومن هنا جاء عنوان هذا المقال : «سمات أبجلها فى شخصية والدى أمين الخولى» . ولابد لى أن أعترف هنا بفضل الهلال فى اكتشافى أثناء كتابة هذا المقال ، أن فى حياتى مواقف متوازية ومشابهة لبعض مواقف حياته ولم أكن على وعى واضح بهذا ، إلا حين أخذت فى كتابة هذا المقال .. فشكرا للهلال على معاونتى للتوصل لهذا الاكتشاف المثير !



ولكى ندرك حقيقة ما أنجزه أمين الخولى فى حياته (١٨٩٥ - ١٩٦٦) ، ولأن الكثيرين من أبناء الأجيال الشابة اليوم قد لا يعرفون عنه إلا القليل ، فقد رأيت البدء بترجمة موجزة لحياته ليتابع القارىء من خلالها ، ما تحقق له من سعة الأفق والقدرة الباهرة على اندماج أفضل ما فى الحضارة العربية من قيم شب عليها ودرسها بتعمق ، وأفضل ما فى الحضارة الغربية من قيم فى العلم والفن والفلسفة ..

صبى صغير خرج من قريته شوشاى فى المنوفية وهو فى السابعة ، دفعت به أسرته للقاهرة ليتعلم فيها علوم الدين مثل والده الشيخ ابراهيم الخولى الذى حصل فى الأزهر قدرا من التعليم الدينى أعفاه من القرعة العسكرية (التجنيد) ثم عاد لقريته ليكون أسرته وليمارس فلاحة الأرض وفنون رياضات الريف (كالرماية وضرب النار والتحطيب .. الخ) . وفى القاهرة عاش الصبى أمين فى كنف جده لأمه الشيخ الأزهرى ، وفى رعاية خاله الأزهرى أيضا ، أى فى أسرة كل أبنائها خدمة للعلم فى الأزهر الشريف - وأرسلوه لمدرسة مدنية لصغر سنه ، وتولى جده فى نفس الوقت تحفيظه

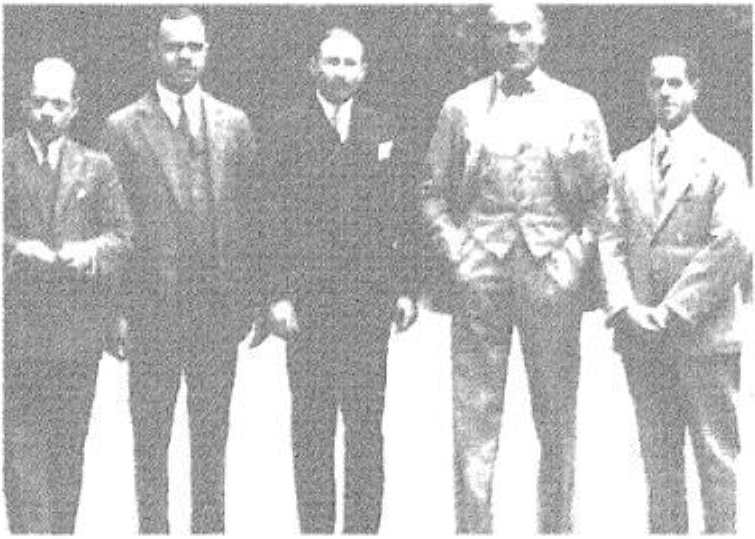
أمين الخولى فى مرحلة الشباب

القرآن الكريم وما يتصل به من التجويد ، كما علمه مبادىء الحساب » ثم التحق بمدرسة من نوع الكتاتيب . ويبدأ الصراع بينه وبين جده ، الذى أراد له أن يلتحق بالأزهر بينما كان هو متطلعا لدراسة مدنية . وإزاء اصرار جده أخذ يبحث بنفسه إلى أن وجد مدرسة «مدنية» هي مدرسة عثمان باشا ماهر التي تقبل طلابها من حفظة القرآن ومن لهم إلمام بالحساب وهي التي أهلته لما كان يتمناه من الالتحاق بمدرسة «القضاء الشرعي» وهي مدرسة عالية تخرج قضاة شرعيين تلقوا تعليما دينيا صحيحا مع تعليم دنيوي عصري . وفي القضاء الشرعي تألقت قدراته بفضل أساتذة متميزين متعددي الثقافات ، ما بين ثقافة دينية راسخة ، وثقافة أوروبية ، وكان من أهم عناصر التأثير في تكوين شخصيته فيها «ناظرها» عاطف بركات باشا بشخصيته الحازمة وثقافته الواسعة وسماته التربوية الأبوية الحقة ووطنيته التي غرسها في طلابه فكان نموذجا متفردا في جمعه بين حسم الإدارة وحنو الأبوة ..

وكان طبيعيا أن يندفع طلابه في سنوات ثورة عام ١٩١٩ للمشاركة فيها بكل قوة .. (وأظنني تأثرت بشكل غير مباشر بشخصية ومبادىء عاطف بركات في السنوات العشر التي توليت فيها عمادة معهد الكونسرفتوار «المعهد القومي العالي للموسيقى بأكاديمية الفنون» ، لكثرة ما سمعته عنه من والدي ، فكنت أتمثل فيه واحدا من المثل العليا التي حاولت أن أطاولها قدر الاستطاعة في الإدارة التعليمية والفنية!) .

وكان الطالب أمين الخولي طالبا نشطا متفوقا واسع الاطلاع ، وكون مع مجموعة من زملائه جماعة أطلقوا عليها اسم «إخوان الصفا» وكانت لهم مناظراتهم ومناقشاتهم في الأدب والسياسة واكتسبوا خبرة ومعارف واسعة عن طريق التبادل الفكري «والمناقشات الحرة» واتجهوا لدراسة اللغات الأوروبية مدرسة فرنسية ، وكانت تربطهم أواصر المحبة والوفاق . وعندما تخرج أمين الخولي بتفوق عام ١٩٢٠ عين مدرسا بنفس المدرسة ورئيسا لتحرير مجلتها حين وقع عليه الاختيار ليشغل وظيفة «إمام المفوضية المصرية» في روما ، التي قضى بها ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة الإيطالية واتقنها ثم نقل لوظيفة في برلين حتى عام ١٩٢٣ . وخلال السنوات الخمس التي قضاها في أوروبا تفتحت أمامه أبواب الثقافة الغربية بعلومها الطبيعية وفنونها . فاقبل عليها بنهم ولكن دون أن يهتز اعتزازه بتراثه وأصوله .. ومن أبلغ ما قيل عنه في هذا المجال ما كتبه تلميذه الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور :

«كان يحترم الحضارة الغربية في مظاهرها الثقافية والفكرية ، دون أن يستخذى أمامها فهو يرى أن من واجبنا أن نفيد منها في تفتيح مفهوماتنا وإثراء أرواحنا حتى تضيف إلى تقاليدنا الناضرة تقاليد جديدة .. ولعله حين رحل لأوروبا استطاع بهذا الذكاء الملهم ، أن يضم إلى وجدانه أثمن ما فيها من فكر وفلسفة وفن ، ثم مزج ذلك كله بتراثنا



أمين الخولى بين مجموعة من أفراد السفارة المصرية بروما

الممتد على طول الزمان» والذى لا شك فيه أن تجربة تلك المعايشة الكاملة للحضارة الغربية خلال تلك السنوات الخمس، كانت مرحلة جديدة فى تكوينه الثقافى شكلت فكره وآراءه للمستقبل، وزودته «بالمنهج» الجديد الذى تناول به علوم التراث فى اللغة والنحو والأدب والبلاغة والتفسير والفلسفة»

سيرته العلمية

استأنف أمين الخولى بعد عودته من برلين التدريس بمدرسة القضاء الشرعى، وعندما أغلقت أبوابها عام ١٩٢٨ عين مدرسا بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة)، وظل يتدرج فى وظائف هيئة التدريس بها إلى أن أصبح أستاذا لكرسى «الأدب المصرى» الذى كان من أبرز من نادوا بدراسته ودافعوا عنه، ورئيسا لقسم اللغة العربية ووكيلا للكلية. وانتقل فى عام ١٩٥٣ مستشارا لدار الكتب ثم مديرا عاما للثقافة، وهى الإدارة المنوط بها الفنون والثقافة فى مصر (لم تكن هناك وزارة ثقافة بعد) وظل بها حتى عام ١٩٥٥ حين بلغ سن المعاش. ولم تقتصر جهوده التعليمية على الجامعة وحدها بل تولى التدريس لسنوات طويلة فى كليات جامعة الأزهر «كلية اللغة العربية وكلية أصول الدين» وكذلك بمعهد الدراسات العربية العليا (التابع لجامعة الدول العربية) ومعهد الدراسات الإسلامية.

واستمر بعد المعاش يتابع نشاطه كعضو فى مجمع اللغة العربية ومقررا لإحدى لجانه، وأسهم بدراساته فى دوائر المعارف العربية والإسلامية

والباكستانية ، ومثل مصر فى عدد من المؤتمرات الدولية (بدأ أولها عام ١٩٣٦ فى بروكسل عن الأديان وقدم فيه بحثه عن «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» ، وفى تركيا عام ١٩٥١ وموسكو عام ١٩٦٠ وبغداد عام ١٩٦٥ وغيرها) - وأنشأ فى قريته «جماعة حياة القرية» وطبق فيها أفكاره ورؤياه لإنعاش حياة الريف اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا . وأصدر مجلته الشهيرة مجلة «الأدب» منذ عام ١٩٥٦ وعلى صفحاتها تفتحت مواهب فنية شابة ولقيت التشجيع والتوجيه ، ونوقشت قضايا وأفكار جوهرية فى حياة المجتمع ، واستمرت مجلة الأدب تصدر شهريا حتى عام ١٩٦٦ حين صدر آخر أعدادها (برئاسة تحريره) قبيل وفاته بأيام معدودة .. ولم يصدر منها بعد ذلك إلا عدد مزدوج (هو إبريل ومايو) عام ١٩٦٦ خصص بأكمله لتأبينه وفيه أفضى تلاميذه واصفياؤه بمشاعرهم عنه وتقييمهم لهذا النموذج الإنسانى والعلمى والثقافى المتفرد .

ولأننى لست متخصصة فى مجالات الأدب والنحو والبلاغة والتفسير وما إليها ، كما أننى لا أريد أن أقع فى محظور «الفتاة المعجبة بأبيها» ، فإنى أوثر أن أقدم للقارئ صورة متكاملة لشخصيته الانسانية والعلمية من كلمات بعض تلاميذه كتبوها عنه بعد رحيله عام ١٩٦٦ ونشرت فى العدد الأخير من مجلة الأدب :

شهادات معاصريه

كتب د . عبد الحميد يونس بعنوان «أمين الخولى الرائد العظيم»

«من الصعب على مثلى أن يتخلص من آثار تلك المفاجأة - المروعة .. فقد كنت أعلم كما يعلم اصفياؤه - أنه مريض ، ولكنى لم أفكر للحظة أنه يمكن أن يكون المرض الأخير .. أو البرء الأخير .. كنا جميعا نتصور أنه سيقاوم كما استطاع بقدرته الهائلة على المقاومة ، ويعود إلينا ببشاشته الدائمة وطمأنينته الغالية وفكره الناضج وقلبه الكبير» .

ويستطرد بعد هذه المشاعر الشخصية إلى صفاته العقلية كأستاذ فيقول :

«كانت طريقة المحاضرة التقليدية فى الجامعة أقل ما يأنس له فى دروسه. وذلك لأنه امتداد لفحول الأئمة الذين عملوا على تواصل المعرفة وتجديدها والإضافة إليها وكان يعتقد ويصرح بأن «الجامعة أستاذ ينهض به تلاميذه» ولذلك آثر منهج الجدل وتوليد الأفكار وآثر تدريب طلابه على فن التفكير أولا وعلى مواجهة المادة الأدبية المدروسة ثانيا .. ولا أستطيع أن أنسى أنه فى مناقشته إياى فى امتحان الدكتوراه أنه «يهد بهذه المعادلة ط = أ + ز .. ويفسرها أمام الجمع الحاشد بأنها : «الطالب هو الأستاذ مضافا إليه الزمن» أى أن الطالب خطوة تالية من خطوات الحياة يجب أن تجاوز خطوة الأستاذ ، وإلا توقفت الحياة وليس من طبيعتها التوقف .. وهذه خليقة نادرة قل إن تجدها بين الناس الذين تضيق أنانيتهم .. أما استاذنا أمين الخولى فلم يكن بالنسبة لنفسه ولنا وللحياة أنا» .. بل كان نحن» !

إنه كان فنانا قبل أن يكون استاذا للبلاغة والأدب . ولن ينسى زملاؤه فى القضاء الشرعى - إلى جانب زعامته للشباب فى ثورة عام ١٩١٩ - إنه من الذين ألفوا للمسرح ومثلت إحدى

مسرحياته وهى «الراهب المتنكر» .. ومن هنا كان أمين الخولى من أقدر الناس على استشفاف مثار الابداع الفنى .. ومن أبصرهم بحوافز الإبداع ووظائفه ، ومن أكثر الناس لماحية لومضات الفكر ونبضات القلب فى كلمة أو عبارة »

وكتب عنه د. شكرى عياد بعنوان «شيخ الأمناء» عبارات نقتطف بعضها هنا لتضيف للصورة الشاملة :

«كان له إيمانان الإيمان بالحياة والإيمان بالعقل ، والأمناء سموا أنفسهم مدرسة الفن والحياة» وكانوا - على قدر علمى - أول من رفع هذا الشعار فى تاريخ أدبنا الحديث هل نعود بشباب هذا الجيل إلى أواخر الثلاثينات أيام كنا نجلس أمام شيخنا فى قاعات الدرس ، ونحن نشعر كأننا نولد من جديد ؟ .. لم يكن جيلنا فى تلك السنوات العصيبة أحوج إلى شىء منه إلى الإيمان بالحياة والإيمان بالعقل .. كنا نحن الطلاب الذين قصدنا إلى كلية الآداب وإلى قسم اللغة العربية بالذات تحدونا آمال كبار - كنا نشعر بأن هذه الآمال تبوخ فى نفوسنا شيئا فشيئا بقدر ما كانت الحياة الاجتماعية والسياسية خارج الجامعة تصدمنا بجمودها الراسخ أو حركتها المفتعلة - وبينما كان الحل السياسى والإجتماعى خيالا يشفق من تصوره أجرأ الحالمين وكانت الحياة الجامعية .. تبدو لنا غريبة بهدوئها القاتل .. وكنا نشعر أننا نستطيع على الأقل أن نمارس حرية عقلنا فى البحث ووجداننا فى الإحساس .. وقد ارتبط اسم الاستاذ أمين الخولى بأكثر من دعوة فى الدراسات الأدبية ، ارتبط اسمه بما سماه التفسير الأدبى للقرآن الكريم وأثار المشاغبون من أعداء العقل ما أثاروا من ضجيج حول هذا المنهج حتى نشر الاستاذ أحاديثه «من هدى القرآن» وعرف الناس بعدها أن الضجة التى قامت حول الرسالة الجامعية الأولى فى التفسير الأدبى للفن القصصى للقرآن الكريم لم تكن غير نقيق مزعج (المقصود رسالة د.محمد أحمد خلف الله للدكتوراه والتى جلبت لأستاذه الخولى المشرف عليها الهجوم الضارى من المتزمتين) .

وكتب عنه عبد المنعم شميس :

فلاح خرج من قلب مصر يحمل خصب أرضها وصبر أهلها وقسوة صحرائها ، فكان المثال المتجسد لهذه البيئة التى وصفها بكلمته الشهيرة .. «إن مصر واحة فى صحراء» وكنت أراه وسأراه ما حييت ، وجها سمحا صلبا ، وعينين ذكيتين نافذتين ميز الله بهما أولئك القادة المجددين ، ويعجز عن وصفهما أى قلم مهما أوتى من البلاغة .. وابتسامة تتحول حين يضحك إلى نغم يعرفه الأقوياء المناضلون . عاش قويا لا يعرف الهزيمة ولا يحب لأحد أن ينسكر أمام عاصفة أو منهزم فى معركة ومنذ عرفت الاستاذ الإمام تعلق به فكرى ووجدانى ورأيت فيه المعلم الذى يقود تلاميذه فى خضم الحياة لا فى كتب الدرس .. وكان جيلنا يعيش فى فورة الاستعمار والطغيان ، نقود المظاهرات .. ويتزعم حركات التحرير فى وجه أعداء مصر ، والتقى هذا الجيل الناشىء فى أعقاب ثورة ١٩١٩ بالاستاذ الذى خاض غمار تلك الثورة .. وجلسنا فتياننا على مقاعد الدرس فى كلية الآداب بعقول متفتحة للعلم وقلوب ملتهبة بالوطنية ثم رأينا شيخنا (أمين الخولى) ينضم إلى

صفوفنا فى مجال التدريبات العسكرية ويدعو لمبدأ القوة الذاتية لجماهير الشعب حتى «تواجه الاستعمار بالسلاح لا بالهتاف ! هو معنا فى النضال الفكرى ، ومعنا فى النضال الوطنى» .

أما الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور فقد استهل مقاله «وداعا .. أمين الخولى» الذى نشر فى الأهرام فكتب يقول :

«أصبحت الحياة بدونه أقل جمالا وثراء ، وأندر شجاعة وحكمة ، وفقد تلاميذه ومريدوه فيه لا الأستاذ فحسب ، بل قيمة من قيم الحياة العليا ، كانت تمدهم بالعون على رحلتهم فى سبيل الحق ، وبالصبر على طريق المعرفة ، وبالنور حين يستخفى الجمال فى ضباب الزركشة والتمويه .. كان رجلا فيه صلابة حجر هذا الوادى وتدفق نيله بالخير والنعمة والحنان ، ومعلما من طراز المعلمين القدامى الذين يعلمون بالقول ، وحين بكيناه كنا نبكى الأب والصديق والمثل الأعلى» .

طلب منا الخولى أن يتقدم كل منا ببحث عن موضوع من موضوعات النقد ، وحين أشرف العام على نهايته سألنى عن البحث الذى سأتقدم به فاعتذرت .. فسألنى بحدة وماذا كنت تصنع طوال العام ؟ فتصايح الزملاء ضاحكين «كان يكتب شعرا .. لعل الشعر ينفعه» والتقط الخولى الصيحات وقال لى إنه سيقبل الشعر كبحث فى النقد ويعطينى عليه تقديرا لو كان شعرا جيدا . وقدمت له نوتة أودعتها خطرات ذلك العهد وقلبى يدق خوفا .. ولكن الله سلم وراقت خطرات ذلك العهد لشيخى وأحبنى منذ ذلك الوقت كشاعر.. ولعل هذا هو معنى الجامعية فيه ، أن يجعل من تلامذته أفضل ، كل منهم فيما أحب واختار» .

ولا تترك هذه الصورة بغير كلمات قلائل من قلم فاروق خورشيد بعنوان «كريم على نفسى» :

لكى نكون ، لابد أن نعرف مكانتنا وحقيقتنا ، نحن جزء من الوطن العربى ولكنه جزء لم يعرف نفسه - ولنبحث عن حقيقتنا بعيدا عما أرضى أصحاب السلطان وعميقا فيما أرضى أصحاب الأرض المعفرين جباههم بطينها والحاملين فوق رؤوسهم صخرها .. وبدأ الخولى يقدم لنا فى الأدب المصرى بحثا عن شخصية مصر وإيمانا بضرورة معرفة النفس لنعرف الكون ، وتحقيقا لمنهج يقول «إن معرفة الجزء سبيل إلى تبيان حقيقة الكل .. وعاش أمين الخولى ليرى فى حياته دعوته تمتد وتتحقق مناهج فى دراسة الأدب الشعبى وتخلق مدارس فى البحث عن مصر وعن العالم العربى كله من خلال مصر» .

ولعل القارىء أن يلتمس لى العذر فى اقتباس هذه السطور البليغة فما أظننى كنت قادرة على تقديم مثل هذه الصورة الحية لشخصية أمين الخولى بكل هذا الصدق والتلقائية التى أفاض بها تلاميذه من أبناء «الرأس» على حد تعبيره .. وأود هنا أن أنكر أننى لا أدعى أنى أخذت كل هذا الشمول والثراء فى الشخصية عن والدى ولكننى ربما أكون قد ورثت شيئا من ملامح شخصية أمين الخولى : الأستاذ والانسان والوالد .

البقية العدد القادم

مسرح

عن بعض عروض هذا الموسم

وجائزة اونسيس

بقلم
مهدى الحسينى

قد لاتتسع المساحة المتاحة هنا لتغطية كل عروض الموسم، وهذا أمر بديهى، فمقال واحد عن عرض واحد يجد مجالا بالكاد ليغطى معظم مسائله وقضاياه، فثمة غبن إجبارى لعروض أخرى بذل فيها مجهود ما وأنفقت عليها الأموال وذهب إليها بعض الجمهور، وظهرت فى ثناياها مواهب مصرية مبشرة، فدائما هناك - رغم كل شىء - بصيص من أمل

لذا اخترت لهذا المقال أربعة عروض لافتة دون الأخرى .. ثم أضفت إليها - فى النهاية - قضية مسرحية ذات دلالة.

الطعام لكل فم

نص توفيق الحكيم الذى كتبه ١٩٦٣، كان يبغى طرح خطين متوازيين متصلين ضمنا: الجوع الجسمانى والجوع العقلى، خط تطرحه أسرة من زوجة وزوج من متوسطى الحال، لاينجبان، يسكنان فى ملك لسيدة من بنات البلد، وخط افتراضى أو خيالى تطرحه أرملة لها ابن يدرس العلم الحديث فى الخارج وإبنة فنانة موسيقية تشك فى سلوك أمها وأسباب وفاة والدها المفاجئة وتظن أن مؤامرة اغتياله على يد أمها وقريب لها (كحكاية أجا ممنون وكليتمنسترا وإيجست وأنتيجون وأورست الإغريقية القديمة). هذا الخط أفرزه فى خيال الأسرة الأولى (نَشْعْ) ظهر فى الحائط يجسد رسمه صورة الأسرة الثانية، والنص الأصلى ملىء بالحوارات (المجادلات والأفكار) المطولة بأوسع مما يتطلبه هذان الخطان .. الأمر الذى عالجه المخرج المجتهد محمد متولى باختصارات غير مخلة، فتمكن من إدارة عرضه باقتدار - رغم فقر الامكانيات التى أتيحت له - بين هذين المستويين: الأمامى ثم الخلفى، فتنقل بينهما بسلاسة ويسر ووضوح تام.

وقد أجاد الممثل العصامى همّام تمام تقديم صورة الموظف محدود الطموح والأفق .. أمام الممثلة وفاء الحكيم، بينما أفلحت البادئة بينا نور فى تقديم الصورة الخارجية لبنت البلد الثرية المتبرجة، دون أن تلجأ إلى تقليد أحد ممن سبقوها من نجمات السينما والمسرح فى هذا اللون،

رغم أنها تقف على المسرح لأول مرة!! وفاجأتنا حنان كرم مطاوع بأداء واع ومرهف، لم يكن ينقصها شيء إلا أن تتلقى تدريبا فنيا لتوسيع مساحة صوتها كي يصبح صوتها مسرحيا بحق، وهذا الأمر ينطبق على كثير من الممثلات والممثلين الذين عملوا كثيرا بالتمثيل التليفزيوني الذي يضعف طاقة الممثل المسرحية، أما وليد جمال الذى قام بدور العالم الشاب فلم تتح له مساحة الدور المبتور أصلا فى نص الحكيم أن يعبر عن الشخصية ذاتها محققا طموحه الفني، أما الممثلة المخضرمة سلوى عثمان فلعلها توافقني أن هذا الدور لم يكن يناسبها رغم إخلاصها وجهدها الصادق، وقد أتاح الفنان محيي فهمي مصمم السينوغرافيا للمخرج فرصا للحركة وتوزيع الممثلين على نحو سلس، إلا أن نقصا ما في الميزانية لم يتح لمخرج العرض فرصة تقديم خلفية عبارة عن فيلم فيديو بروجكتور ليطرح قضية الجوع والعلم في عصرنا.

□□□

الجريمة والعقاب

عاد الممثل والمخرج حماده عبدالحليم بعد غيبة طويلة عن الوطن، ولكنه - كما يبدو - لم يفقد طموحه ولم تذبل مهاراته، فقد تميز بشخصية ضابط فرنسي في مسرحية «القدس» تأليف شريف الشوباشي، ثم طرح نفسه كمخرج فقدم عرضا جديدا أعده عن رواية الأديب الروسي الفحل «فيدور دويستوفسكي» في قاعة متناهية الصغر بثلاثة ممثلين ومساعدين: الممثلة منى حسين التى شهدت قصصة كفاحها كفنانة وتابعتها منذ كانت راقصة صغيرة في فرقة السامر للفنون الشعبية فطالبة تدرس الديكور بكلية الفنون الجميلة ثم عضوا في مكتب هندسي لتصميم الديكورات الداخلية، ثم عضوا بمسرح العرائس، بينما تقوم أحيانا بالتمثيل المسرحي والسينمائي والتليفزيوني، حيث تراوحت أدوارها بين الصغر والكبر وبين التألق والنجاح العادي، وهكذا تراكمت خبراتها حتى تمكنت أخيرا من دور عمرها بجوار رشدى الشامي الممثل النشيط المجتهد الذى لايترك دورا يسند إليه إلا ويمنحه لمحة جمال تجعل له مذاقا خاصا، وهكذا كان الأمر حين قام بدور القاتل «راسكلينكوف»، أما ممدوح عقل فإنني لم أره يمثل من قبل كما مثل دور المحقق .. هذا الذكي الهادىء الذى يبيت نواياه كي يصدر المتهم .. ثم يفاجيء الجميع بقراره الصارم.

أدار المخرج الحركة والمناورة بين الاتهام والمتهم حول المركز، أي «سونيا» المسكينة، واصطنع واقعة قتل المرابية العجوز في كواليس خانقة، كل ذلك في تتابع مذهل وإيقاع مثير لاهث، فمر الوقت الذى استغرق أقل من ساعة، وكأنه خمس دقائق!!.. غير أن لنا ملاحظة على المنظر المسرحي الذى اتخذ شكل رقعة الشطرنج على الأرضية، مؤكدا ذلك بقطع شطرنجية مكبرة على الجانبين محاولا نقل الممثلين في مربعات الأسود والأبيض وفقا لخطة في رأسه تعبر عن الصراع الدرامي بين



كارولين خليل وأشرف سرحان فى مشهد من مسرحية « اللحن المفقود »

الشخصيات، وكان قدرا مايحرك هؤلاء البشر نحو مصير محتوم، الأمر الذى ألزم المخرج وكذا المصممة صفاء العنانى بتصوير مكان واحد لكل هذه الأحداث الظاهرة، بينما كان مكتب المحقق الفخم ماثلا إلى يمين المشاهد كمكتب حقيقى وواقعى، كان المضجع يمثل كمستقر للضحية «سونيا» كمكان واقعى وحقيقى إلى اليسار ، فثمة تناقض بين الرمز والاختزال بالشطرنج وبين الواقعية الصريحة والتفاصيل باللجوء لمفردات طبيعية، رغم هذا فإن المعالجة الأدبية المسرحية للنص الروائى الأصلى الضخم وإيقاع العرض وجماله، لم يتأثرا كثيرا بهذا اللبس السينوغرافي، لذا كانت معالجة ثالثة ما، بعيدا عن الرمز الشطرنجي والتجسيد الطبيعى معا كانت سوف تجلو هذا العرض الجميل جوهرا ومظهرا.

□□□

اللحن المفقود

من تأليف نادية البنهاوى وإخراج عمرو قابيل، ورغم إحساسى بالغربة عن النص وعالمه فإننى ظننته قد أعد عن قصة إنجليزية أو مسرحية لا معقول فرنسية، إلا أن عالمه الانعزالى قد يوجد فى مصر بين بعض الأفراد والأوساط.

والعرض عبارة عن أربعة أشخاص يعانون العزلة أو عدم وجود إمكانية للتواصل فيما بينهم، هم منغمسون فى الـ «أنا» الخاصة بكل واحد منهم، وما يهمنا هنا هو كيف عالج المخرج الشاب عمرو قابيل ومجموعته الإخراجية : سينوغرافيا محمد عبدالمنعم ورقصات داليا العبد

وجيتار محمد درويش ولوحات تشكيلية خالد الحلبى، كيف عالجوا معا هذه المسرحية الغارقة فى الانعزالية ورنين كئوس المسكرات والأحزان والأشواق والرغبات المحبطة والأضواء الخافتة؟ يبدو أن المخرج ومعاونوه يملكون طاقات شعرية تفصح عن نفسها سواء فى الديكور الذى يتراوح بين الأبيض الناصع الشفاف البارد وبين الرمادى والأسود اللذين ينضحان حزنا ومرارة، وفى الإضاءة التى لا تتبدى إلا لكى تتحدث وتعبر بلغة من الشعر المرئى والفعل البصرى، فضلا عن وظائفها التقليدية الأخرى، كذلك الموسيقى الساحرة كأنما تخرج من جوف الشخصيات صارخة أو هامسة كى تحيط بهم وتظلل المكان بعبقها المشحون المثير الغامض.

وفى هذا المناخ الخاص للغاية ترك المخرج والمصممة الممثلين يتبادلون المواقع والأمكنة والمكانة.. سواء فى القلوب أو فى الزمن أو فى الذاكرة.

كانت الصاعدة الشابة كارولين خليل هى أبرز مجموعة الممثلين الصغيرة، هؤلاء الممثلين الذين اجتهدوا كل فى حدود دوره، إلا أننا ننتظرهم فى أدوار أكبر وأعمق حتى نستطيع الحكم عليهم أو إسداء النصح لهم.

. لقد أحسست بالغربة عن «الموضوع» المشوب بشىء من عدم الإشباع، ولكننى أدركت أن المسرح المصرى يستقبل شاعرا من شعراء المسرح ، أى مخرجا مرهفا لا يشبه أحدا.

❑❑❑

ياطالع الشجرة

تأليف الحكيم إخراج أردش بطولة أمينة رزق وأحمد فؤاد سليم وطارق اسماعيل ومحمود عبدالغفار وعبدالله الشرقاوى وعبير مكاوى وجمال زغلول ومحمد درديرى، وقد أدهشنى أن كثيرا ممن يرودون المسارح والحياة المسرحية لم يتزاحموا على مشاهدة هذا العرض والذى ترجع أهميته إلى حضور عملاقين قلما يجود الزمان بمثليهما هما الكاتب المفكر العبقرى توفيق الحكيم والفنانة المبدعة النادرة التى يعز علىّ وصفها بدقة أبلغ الكلمات، أدهشنى أيضا ذلك الجمهور الصامت الذى لايقول لا أو نعم وكأنه يعيش فى أرض غريبة بين غرباء فى زمن غريب!! سيما وأن هذا الكاتب الرائد حين كتب تحفته تلك إنما كان يناطح ثقافة مسرحية مستجلبة أراد وكلاؤها أن يبهرونا بلون من الأدب المسرحى ظنوا أنه لايوجد له مثيل عندنا سواء فى تراثنا الثقافى أو فى ميراثنا الفولكلورى أو حياتنا اليومية، فرد الحكيم عليهم بأحجيته التى حبكها بحنكة مراوغة دون أن يفض أسرارها أو يحل ألغازها أو يشرح رموزها ومقاصدها الخفية، معتمدا على المعية فنانى المسرح من مخرجين وممثلين ومصممين، ولأنه لم يسعدنى الحظ كى أشهد عرضها الأول على مسرح الجيب بالحديقة الفرعونية بجزيرة الزمالك سنة ١٩٦٣، فقد سارعت لمشاهدة عرضها الثانى هذا، أى بعد مضى ٤٠ عاما!! أما ما قرأته عن عرضها الأول، فهو إما كان انبهارا ساذجا، أو كلاما طيبا يعبر عن عدم فهم، أو مقارنة نظرية أو أدبية مع المثيل الأوروبى عند بيكيت ويونسكو، وكانا كلاهما اسمين جديدين علينا نحن الجمهور العام. ثم تابعت بعد



أمينة رزق وأحمد فؤاد سليم في مشهد من «يطالع الشجرة»



حنان كرم مطاوع ووليد جمال في مشهد من «الطعام لكل فم»

ذلك محاولات تالية لهواة ومحترفين ولكنهم لم يقدموا (تفسيرا فنيا لأسرار النص) رغم نجاح بعض محاولاتهم فى فن التمثيل أو رسم الحركة (الميزانسين) أو المنظر المسرحى (السينوغرافيا) .. الخ.

ولكننى سأشير إلى صورة العرض وإيقاعه العام وطابعه كما تخيله الحكيم فى مقدمته للنص المسرحى قبل أربعين عاما فهو يشرح انطباعه الشخصى عن الفن الحديث حينها: « أصبح التصوير مجرد بقع لونية، والنحت بقع كتلية. والموسيقى بقع صوتية ، والشعر بقع لفظية .. وينتج عن ذلك نوع من الفن يتصل مباشرة بالعين أو الأذن، دون أن يمر بالعقل».

ثم يشرح الحكيم إحساسه بشكل المسرحية فوق خشبة المسرح .. فيقول:

«بؤرة إحساسى التى تكونت فيها – أى المسرحية – هى مسرحية بحتة .. فالذى تمثلته فيها هى العلاقات التشكيلية والتركيبية فوق خشبة مسرح بين أشخاص ومواقف وأزمنة وأمكنة وأصوات يتداخل بعضها فى بعض تداخلا ماديا كما تتداخل الألوان والخطوط والأشكال فى التصوير الحديث».

ويقول أيضا: «لست أنصح بأى التجاء الى وسائل مساعدة .. كالموسيقى أو كالأضواء الحاصرة أو الكاشفة. لست أريد هنا تفسيرات خارجية».. ثم يقول: «الذى أريده هو استخراج كل مايتوقع ومالا يتوقع من نتائج فنية تشكيلية لهذه المقابلات المادية بين أحوال مختلفة

لشخص واحد فى مكانين معا دون أن يجعل ضوءا يفصل بين الأمكنة أو موسيقى تفصل بين الأزمنة».

هذه مقتطفات من مقدمة طويلة كتبها الحكيم حينذاك، وهو الذى عرف عنه. مرونته وتقدميته بقدر ما عرف عنه الميل للتأصيل، وهذه هى (صورة) عرض ياطالع الشجرة كما يراه ويتمناه، فهل استطاع المخرجون تحقيق رؤيته الخاصة تلك؟ إن من البديهى - فى الفن المسرحى بالذات - أن من حق المخرج (الخالق المفسر) أن يخالف المؤلف أو لا يلتزم بآرائه المتعلقة بمهنته .. وهى فن الإخراج، وعلى هذا الضوء سوف نحاول أن نشهد بعيوننا - لابعيون الحكيم أو سعد أردش - هذا العرض:

كان المخرج شديد الأمانة مع النص المسرحى حين نقله بحذافيره، وحين اختار مجموعة الممثلين بحكمة واقتدار، وخاصة حين اختار أمينه رزق وحين عقد المسابقة بين ممثلين هما أحمد فؤاد سليم بهادر أو الزوج الذى كان مفتشا للقطار وبين عبدالله الشرقاوى فى صورة المفتش حين كان بهادر أصغر سنا، وحين أدار عملية التحقيق بجدية وثبات وحين أفاد من الطابع الخاص بالممثل محمود عبدالغفار ثم دفع بممثلة صغيرة خفيفة الظل هى عبير مكاوى فى دور الخادمة، إلا أننا لم نجد تلك الصورة الوجدانية الحسية التى تخيلها الحكيم عن مسرحيته، وهذا حق للمخرج، ولكننا أيضا لم نجد الصورة العقلانية المضادة، إننى لم أتلق إجابة واحدة عن ألغاز النص! ماهى السحلية؟ ماهى الشجرة؟ من هى المرأة؟ من هو الزوج؟ أين اختفت المرأة؟ ولماذا؟ ما الوظيفة الدرامية للمحقق؟ ما أهمية عودة الزوج إلى الماضى؟ ماذا يعنى الماضى؟ وماذا يعنى الحاضر، وما الوظيفة الدرامية للمحقق؟ إلام يرمز القطار والمفتش والمساعد والجنايني؟ وما معنى أغنية الشجرة والبقرة؟ إن خلق (الحالة) التى شرحها الحكيم أو طلبها من المخرج تتطلب أدوات ووسائل على المخرج أن يكتشفها تجريبيا حتى إذا ما تحققت فإنها (تسيطر) على آذاننا وأبصارنا .. بل أحاسيسنا ووجداننا، ومن ناحية مقابلة يكون الوعى بمفردات النص متطلبا لأدوات ووسائل و(منهج إخراجى) مختلف تماما، إذن كيف نحل هذا اللغز؟ تلك هى المسألة.

وأظننى أكون محقا حين أرى أن عرض الطليعة الحالى قد اكتفى بـ «تقديم» النص من خلال إبداعات الممثلين كل حسب موهبته وقدراته وخبراته، أما الإعجاز الحق فقد كان فى الأداء المذهل للفنانة الكبيرة أمينة رزق، وأن تظل - حتى هذا العمر - فى مثل هذه المقدرة الابداعية، خاصة حين أنت «لا» لأكثر من مرة متلاحقة، وفى كل مرة تفتح عالما مختلفا، وكل «عالم» له سره وغوامضه وأحجياته .. فزادت الزوج والجمهور معا حيرة على حير، وهنا نحيى اجتهاد الممثل الجاد أحمد فؤاد سليم على محاولته الناجحة فى اللحاق بأستاذة الجميع، وكذا طارق اسماعيل الذى قام بدور المحقق، ومحمود عبدالغفار الذى نجح فى الحفاظ على غموض شخصية الدرويش، أما عبدالله الشرقاوى فقد كان متراوح الأداء

بين ليلة عرض وأخرى!! وأخيرا، لنتذكر دائما حين نعرض لنص ياطالع الشجرة - أن فى اعتبارنا مايلى :

١ - أن التيمة الرئيسية والدائمة عند الحكيم هى الزمن.

٢ - أنه درس القانون وعمل بالنيابة والقضاء.

٣ - أنه فى أغلب كتاباته فنان مراوغ لايفصح عن أغراضه بسهولة.

٤ - أن الفولكلور المصرى أحد مصادره الثقافية والإبداعية.

□□□

لغز جائزة أوناسيس

فى أعوام ١٩٩٧، ٢٠٠٠، ٢٠٠٥ رصدت هيئة جائزة أوناسيس فى الفنون المسرحية مبلغ ١٥٠٫٠٠٠ يورو للفائز الأول، و١٠٠٫٠٠٠ يورو للفائز الثانى، و٧٥٫٠٠٠ يورو لفائز الثالث لكل من المسابقتين فى مجالى التأليف المسرحى والعروض المسرحية الموسيقية الراقصة، وفى كل مرة تقوم اليونان بإبلاغ الجهات المعنية فى مصر، ولكن الأخيرة لاتبلغ أحدا يذكر!!

وفى عام ٢٠٠٠ طرحت الدورة الثالثة (الأخيرة) من هذه الجائزة السخية، وقام السيد يانيس الملحق الثقافى اليونانى النشيط بإبلاغ كل مايتعلق بالمسابقة الى العلاقات الثقافية الخارجية المصرية التى قامت بدورها بإبلاغ أ.د. جابر عصفور رئيس المجلس الأعلى للثقافة الذى قام بتكليف لجنة المسرح بالمجلس ورئيسها الكاتب والمفكر المسرحى الكبير الفريد فرج بتولى هذا الأمر، ولكن لجنة المسرح لم تفعل مثلما فعل سابقوها .. فلم تبلغ أحدا، اللهم إلا وضع إعلان صغير، قد يلحظ أو لا يلحظ وقد يبقى لمدة كافية أو لايبقى - قد علق فى مداخل قطاع المسرح - بينما انهمك أعضاء اللجنة أو بعضهم فى التأليف للمسابقة ، وترجمة نصوصهم إلى واحدة من اللغات اليونانية والإنجليزية والايطالية والألمانية والفرنسية كشرط من شروط المسابقة، وكأنما انحصر التأليف المسرحى فيهم وحدهم، أو لايوجد مؤلفون آخرون خارج اللجنة، لا يوجد فى أكاديمية الفنون، ولا يوجد فى الجامعات، ولا في تجمعات المثقفين والفنانين فى القاهرة والاسكندرية، ولا فى الأقاليم، ولا فى دور النشر والصحف، ولا فى قصور الثقافة، ولا هناك كتاب متفردون يعيشون بطريقتهم مع أفكارهم وثقافتهم ومجتمعهم ووطنهم .. ويحلمون بمسرح آخر وبفن جديد.

ولم تحاول اللجنة نشر إعلان بالصحف، ولم يحاول أعضاؤها أن يكتبوا فى الصحف والمجلات التى تزدحم بأسمائهم وأخبارهم وصورهم ومقالاتهم كل يوم كما لم يشر أحدهم إلى المسابقة عبر برامج التليفزيون والإذاعة التى تفيض برامجها بأحاديثهم، وأيضا لم يقولوا لأصدقائهم المقربين أو الـ (بعدا)!. فقد كفؤا على الخبر ماجورا من فخار مصمت بغير مسام.

ولكن هؤلاء الذين حجبوا خبر الجائزة عن المثقفين والكتاب والفنانين وعشاق المسرح فى مصر، هل يستطيعون حجبها عن المنافسين فى كل بقاع العالم؟ أم أن الأمر سوف يضيرهم لو فاز مصرى مجهول بهذه الجائزة .. بينما لم يفوزوا وهم العمالقة؟ أرجو أن يقدموا تفسيرا شافيا يبرئهم من هذه الفعلة غير الحكيمة. أتمنى من كل قلبى وعقلى. ■

«على الإستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل»

جمال عبد الناصر

أين نحن الآن من ثورة يوليو؟

بقلم
عبد الرحمن شاكر



مصطفى النحاس — النقراشى — ابراهيم عبد الهادى

لايسعنا، نحن أبناء الجيل، الذى عاصر ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، ومقدماتها ونتائجها، إلا أن نعقد بعض المقارنات، ونحن فى ذكرى الثورة، بين ملابساتها السياسية، والأوضاع التى يمر بها وطننا العربى حالياً، حيث سقطت واحدة من أهم البلدان العربية وأعرقها، وهى العراق الشقيق، تحت براثن احتلال جديد، من جانب أقوى دولة فى العالم، بل وفى التاريخ، وتابعتها بريطانيا، التى كانت عظمى!، وبعض نفايات الدول، مثل استراليا وبولندا ...الخ ومفهوم بالطبع أننى أقصد الولايات المتحدة الأمريكية، التى قادت تحالفها المذكور لاحتلال العراق.



جموع الشعب فى الإسكندرية بعد تنازل الملك فاروق عن العرش ورحيله عن مصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢



جمال عبد الناصر



الملك فؤاد



اسماعيل صدقى



أبو مازن

الثورة التى قام بها الضباط الأحرار فى الجيش المصرى عام ١٩٥٢، كانت تتويجاً لنضال الشعب المصرى للتخلص من الاحتلال البريطانى لمصر، والذى ظل جاثماً على صدرها لمدة سبعين عاماً حتى وقت قيام الثورة، لذلك كان هدفها الأول هو القضاء على الاستعمار وأعوان الاستعمار.

تطبيق سياسة جديدة

بعد ثورة ١٩١٩ المصرية، ضد الاحتلال البريطانى، شرع المستعمرون فى تطبيق سياسة جديدة فى مصر، تكفل لهم الاستمرار فى احتلالهم لها، دون التعرض للمواجهة العنيفة مباشرة

مع الشعب الثائر ضدهم، وذلك عن طريق محاولة احتواء بعض القيادات الوطنية، وتسخيرها فى قمع الثائرين من جماهير الشعب، فى مقابل مظاهر شكلية للاستقلال، وقيام سلطة وطنية. فكان تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ بانهاء الحماية البريطانية على مصر، وإعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة، وتسمية السلطان فؤاد بالملك فؤاد الأول، والسماح بوضع دستور للبلاد بصفتها دولة ملكية وراثية فى أسرة محمد على، وبعد ذلك إجراء الانتخابات، التى كان من الطبيعى أن يحصل الأغلبية فيها على الأغلبية حزب الوفد المصرى، وأن يعهد إلى زعيمه سعد زغلول برئاسة الوزارة. ولقد قمعت هذه الوزارة بعض التيارات الثورية التى كانت تحتبر متطرفة، مثل حركة الحزب الشيوعى فى الاسكندرية، ولكن هذه الحكومة لم تصمد، بعد أن أقدم بعض الشبان الوطنيين على اغتيال السيرلى ستاك المعتمد البريطانى فى مصر وسردار الجيش المصرى وأجبر الجيش المصرى على الانسحاب من السودان، واستقالت حكومة سعد، وعهد بالحكم إلى شخصيات سياسية مناوئة للوفد وأقل شعبية منه بكثير.

وظلت الحياة السياسية سائحة فى مصر على هذا المنوال حتى قيام الثورة: يستدعى حزب الوفد أو يسمح بتولى الحكم عن طريق الانتخابات، حينما تدلهم الأمور، أو يراد تمرير معاهدة من نوع معاهدة ١٩٣٦، بعد ثورة ١٩٣٥ الطلابية، التى قتل فيها الشهيد عبد الحكم الجراحى، والتى أذكت الروح الثورية عند جمال عبدالناصر. ثم يقضى على الوفد وتعود أحزاب الاقلية إلى الحكم، بما فيها أحزاب شكلها وفديون سابقون منشقون عليه مثل الحزب السعدى، بحيث لم يحكم الوفد، وهو صاحب الاغلبية الدائمة إلا سنوات معدودة من الحياة السياسية بمصر قبل الثورة.

قمع الحركة الطلابية

بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥، اندلعت من جديد نيران الحركة الوطنية ضد الاحتلال البريطانى، الذى كانت مساخره إبان الحرب واحدة من أهم دوافع الثورة عليه من جديد، وتولت حكومة النقراشى عرض القضية المصرية على مجلس الامن مطالبة بجلاء القوات البريطانية عن أرض مصر، وفى ذات الوقت تولت هذه الحكومة ذاتها، قمع الحركة الطلابية ضد قوات الاحتلال البريطانى حيث وقعت حادثة كوبرى عباس، الذى فتحته السلطات الحكومية أثناء عبور مظاهرة طلابية عليه، ووقع ضحيتها عشرات الطلبة مابين قتيل وجريح.

وتوالت الأزمات الوزارية مع تصاعد سخط الشعب على الاحتلال البريطانى، فسقطت حكومة النقراشى، وجاء إسماعيل صدقى، الذى حاول أن يمرر معاهدة جديدة مع سلطات الاحتلال، باسم مشروع صدقى - بيفن، وبيفن هذا

كان رئيساً لحزب العمال البريطاني والحكومة البريطانية فى ذلك الوقت، ولكن الشعب المصرى رفض المشروع، فسقط صدقى وعاد النقراشى إلى الحكم مرة أخرى، ولكنه قتل، وجاء بعده إبراهيم عبد الهادى، ولم تنجح أى من حكومات الأقلية هذه فى تهدئة الجماهير الثائرة، رغم نجاحها فى إقناع قوات الاحتلال بالانسحاب من المدن الكبرى، القاهرة والأسكندرية أساساً، والاكتفاء بقواعدها عند قناة السويس، التى هى المصلحة الكبرى لبريطانيا فى احتلالها لمصر!

إلغاء معاهدة ١٩٣٦

وكان لا مفر من الاستنجاد بالوفد مرة أخرى، فعاد إلى الحكم فى بداية الخمسينيات، ولم يتردد زعيمه مصطفى النحاس فى الإقدام على خطوة درامية إزاء الاحتلال تلخصها عبارة النحاس المشهورة: «من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أعلن إلغاء هذه المعاهدة»!

وازدادت الحركة الوطنية اشتعالاً واصرارا على جلاء القوات البريطانية من كافة الأراضى المصرية، وزاد جو الحرية الذى أشاعته الحكومة الوفدية من حدة النشاط الوطنى بما فى ذلك إنشاء أحزاب جديدة وإصدار صحف ثورية، حتى وصل إلى حد تنظيم حركة «الفدائيين» للعمل ضد قوات الاحتلال البريطانى فى منطقة القناة، واشترك بعض ضباط الجيش الأحرار فى تنظيم تلك الحركة وتدريبها وتسليحها، بموافقة ضمنية أو حتى مجرد غض الطرف من جانب الحكومة الوفدية ! حتى شعرت السلطات البريطانية بالخطر وقامت بالمذبحة الشهيرة فى ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ ضد محافظة الإسماعيلية التى أمر فيها وزير الداخلية الوفدى فؤاد سراج الدين ضباطه فى المحافظة بالصمود حتى أخر رجل وآخر طلقة من بنادقهم العتيقة فى مواجهة مدفعية ودبابات الجيش البريطانى! واندلع السخط الشعبى فى شوارع القاهرة فى اليوم التالى، وتحول إلى ثورة عارمة على الاحتلال والملك المتواطىء معه، ويتهم هذا التواطؤ بأنه المسئول عن تحويل ثورة القاهرة فى اليوم المذكور إلى حريق القاهرة المشهور، وترتب على ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقالة حكومة الوفد وعودة حكومات الأقلية من جديد، التى كان أول أعمالها هو الزج بالعناصر الوطنية فى السجون.

ولكن حكومات الأقلية عجزت عن الاستمرار فى الحكم، وتبدلت أربع وزارات متعاقبة على مدى ستة أشهر، حتى حزب الضباط الأحرار ضربتهم فى يوليو من العام ذاته وأسقطوا النظام برمته وشرعوا فى حكم البلاد، ونصب أعينهم هدفهم الأول هو طرد قوات الاحتلال البريطانى، وتحت غطاء سياسة ملاينة إزاء الاحتلال من نوع السماح لعمال «الأرنص» بالعودة إلى العمل فى معسكرات الاحتلال، والسماح بمرور قوافل المواد الغذائية والتموينية إليها، مارست حكومة الثورة سياسة تحويل حياة البريطانيين وعائلاتهم فى مصر إلى

جحيم! عن طريق عمليات فدائية غاية فى الدهاء تولى أمرها ضباط متطوعون، اتفق معهم على أن حكومة الثورة لن تعترف بمسئوليتها عن نشاطهم ضد قوات الاحتلال لو سقط أحدهم فى أيديهم! ونجحت هذه السياسة ذات الوجهين فى إجبار البريطانيين على توقيع معاهدة الجلاء الكامل عن أرض مصر عام ١٩٥٤.

الاحتلال الأمريكى

والآن جاء الدور للمقارنة المشار إليها فى أول المقال: فالاحتلال الذى أقدمت عليه الولايات المتحدة الأمريكية للعراق ، بدعوى ثبت بطلانها وهى امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل يهددها به كما يهدد جيرانه! قد انكشف أن للولايات المتحدة غايات أخرى منه فى مقدمتها الاستيلاء على النفط العراقى لاستكمال سيطرتها العالمية، وذلك من خلال الضغوط على الاتحاد الأوربى الذى أصبح منافساً اقتصادياً وسياسياً للولايات المتحدة والذى يعتمد كلية تقريباً على النفط العربى. وذلك مايفسر رفض القوى الرئيسية فى أوربا شن الحرب على العراق!

غرض آخر أعلنته الولايات المتحدة الأمريكية صراحة، وهو الاعتماد على وجودها المسلح فى العراق لما تسميه إعادة ترتيب الأوضاع فى الشرق الأوسط بما يلائم مصالحها، وفى مقدمتها ضمان أمن إسرائيل!

إن معنى ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تحكم الوطن العربى كله باحتلال العراق، ومعه كل أو بعض أجزاء العالم الاسلامى! تماماً كما كانت بريطانيا تحكم مصر عن طريق قواتها فى منطقة القناة.

ومن أجل استدامة هذا الحكم قدمت تسمية خارطة الطريق لحل القضية الفلسطينية على أساس إقامة دولة فلسطينية على قطعة من أرض فلسطين إلى جوار دولة إسرائيل، التى تصر على أن تجعلها يهودية خالصة، حتى لايفكر الفلسطينيون المطرودون منها فى العود إليها!

تحاول الولايات المتحدة بتلك الخطة أن تسكن ثائرة بعض العرب عليها، بما تجبر الدولة الصهيونية على إقراره لهم على قطعة من أرض بلادهم المستباحة المنهوبة منذ أكثر من نصف قرن! ومفهوم أنها القوة الكبرى المساندة للكيان الصهيونى والمسئولة عن إعاشته اقتصادياً وتسليحه عسكرياً ودعمه سياسياً.

تقدم الولايات المتحدة هذه الخطة وهدفها الأول منها هو إنهاء الانتفاضة الفلسطينية المسلحة ضد الاحتلال الصهيونى للأرض التى وافق الفلسطينيون طبقاً لقرارات مجلس الأمن على أن تكون هى أرضهم، وهى الضفة الغربية وغزة اللتين جرى احتلالهما فى عام ١٩٦٧، ولكن الطمع الصهيونى يحاول الاستلاء عليهما عن طريق التوسع فى إقامة المستوطنات اليهودية عليها.

والهدف الأمريكي من محاولة إنهاء الانتفاضة ليس هو الانزعاج الصهيوني وما يكبده للصهاينة من خسائر بشرية واقتصادية فحسب، فالخسائر على الجانب الفلسطيني أكبر وأفدح بكثير، ولكن استمرار المقاومة المسلحة الفلسطينية حال الاحتلال الأمريكي للعراق ، يعتبر تحريضاً مباشراً للعراقيين لكي يقاوموا الاحتلال الجاثم على بلادهم كما يفعل الفلسطينيون على أرض فلسطين! ومن المحتمل أن يقوم التعاون بين المقاومة في كل من القطرين عبر بلدان عربية لايتردد الكثير من سكانها العرب الغاضبين من صنع التواصل مابين جناحي المقاومة وتقديم ما يسعهم تقديمه من عون لهما!

لذلك لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى دعم حكومة محمود عباس «أبو مازن» عسى أن يقوم إزاء المقاومة الفلسطينية، بدعوى مكافحة الإرهاب، وبأعمال مثل ما كانت تقوم به حكومات الأقلية في مصر إزاء العناصر الوطنية المناوئة للاحتلال! محولة الرئيس الشرعي للفلسطينيين ياسر عرفات إلى زعيم للمعارضة ضد تلك الحكومة، على نحو ما كان عليه النحاس باشا في مصر في ظل حكومات الأقلية!

وقد سبق للأمريكان بعد أوسلو أن جربوا عرفات في قمع المقاومة فلم يفلح، وخاصة بعد أن رفض مشروع كلينتون للتسوية الذى كان يعطى نصيباً من «جبل الهيكل» ويعنون به ساحة المسجد الأقصى للصهاينة ، لكي يقيموا عليه الهيكل، فأقدم شارون على الاستفزاز بزيارته المسلحة المشئومة لساحة المسجد في سبتمبر عام ٢٠٠٠، مما ترتب عليه اندلاع الانتفاضة الحالية .

ولكن منظمات المقاومة الفلسطينية تزداد عناداً وإصراراً على عدم تسليم أسلحتها لأبى مازن حتى يتم انسحاب الصهاينة من الأرض الفلسطينية المحتلة بعد عام ١٩٦٧، وينسى الأمريكان أن احتلالهم للعراق إذا كان من شأنه إرهاب بعض الحكومات أو السلطات الحاكمة فليس من شأنه إرهاب من وطنوا أنفسهم على التضحية بالحياة من أجل تحرير أوطانهم، بل على العكس، فهم قد أصبحوا يشعرون بالانتكاس، فليسوا هم المنبوذين الوحيدين في الأرض العربية ، وهم في انتظار شبوب المقاومة الواقية التى بدأت بالفعل بشائرها مع تلكؤ الأمريكان في إعمار العراق، بعد أن دمروه كلية وأصبح شعبه يعيش بلا ماء ولا كهرباء ولا غذاء ولا علاج ولا وقود للطبخ أو تشغيل السيارات .. وأخيراً وليس آخرا بلا أمن أو حكومة وطنية!

وفضلا عن هؤلاء في فلسطين والعراق، فلسان حال كافة المنبوذين في المنطقة يقول : وأين نصيبنا في خارطة الطريق ؟ ويقولها المحتلة أرضهم في سوريا ولبنان، واللاجئون الفلسطينيون في كل منها، بل في الأردن أيضاً!

ومن يعيش ير، مصداق ماقاله يوماً جمال عبدالناصر: أن على الإستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل! ■

ظلال أمريكية

على ثورة يوليو

بقلم
عبدالقادر ياسين

تنفست مصر الصعداء بمجرد نجاح «حركة الجيش» في الاطاحة بالملك فاروق الأول علي أن هذا الارتياح سرعان ما أخذ في الانحسار، حين لم يشعر الشعب بتغيير ملموس، حتى أن رسام الكاريكاتير المصري الشهير عبدالسميع عبدالله رسم لوحة كاريكاتيرية في «روز اليوسف» القاهرية، وفيها يطلب ابن الشعب المصري إلي أحد البقالين أن يفك له «فاروق بصاغات» ودلالات هذه اللوحة في غير حاجة إلي توضيح، إذ تؤكد بأن التغيير كان في الأشخاص وحسب. فالملك فاروق حل محله بضعة ضباط معظمهم يحمل رتبة صاغ (رائد)!

بدأ التململ الشعبي يتحول إلى سخط عارم، مع ظهور مؤشرات قوية على ارتباط حركة الجيش بالأمريكان، ولم تستطع المبادئ الستة للحركة أن ترضى الطموح الشعبي المصرى، إذ بقيت مجرد حبر على ورق، بدءا من الاستقلال الوطني، إلى محاربة الاستعمار وأعوانه، والقضاء على سيطرة الاقطاع، والاحتكار، ورأس المال على الحكم، عبر بناء جيش وطني قوى، وعدالة اجتماعية، وحياة ديمقراطية سليمة كما أن الشعار الثلاثي الذى استحدثته حركة الجيش، والمتمثل فى الاتحاد والنظام والعمل لا يسمن ولا يغنى من جوع، والشئ نفسه يمكن قوله على قرار إحلال البيرية محل الطربوش، غطاء للرأس!

ظلال أمريكية

تجمعت مؤشرات وقرائن عدة على ارتباط حركة الجيش بالأمريكيين، فهذه الحركة جاءت فى شكل انقلاب عسكرى، فى الوقت الذى اعتمدت فيه الولايات المتحدة صيغة الانقلابات العسكرية فى أقطار العالم الثالث، وسيلة رئيسية لوراثة الامبرياليتين المتداعيتين، بريطانيا

وفرنسا، في مستعمراتهما، ومناطق نفوذهما.

الأمر الذى تعزز مع انكشاف أمر إبلاغ «الضباط الأحرار» السفارة الأمريكية فى القاهرة، دون سواها من السفارات، بساعة تحرك الجيش من ثكناته ضد النظام الملكى وجاء هذا الابلاغ، كما هو معروف، عبر مسئول مخابرات الطيران المصرى، آنذاك، قائد الجناح على صبرى.

فيما أعلن مسئول المخابرات المركزية الأمريكية فى مصر، وقتها، كيرميت روزفلت، بأنه فتش عن الضباط الأحرار، قبل حركة الجيش، فلم يجدهم، وإن كانوا هم الذين وجدوه!

بعد أن نجحت حركة الجيش أعلن روزفلت نفسه بأن ضباط هذه الحركة نزلوا إلينا من السماء، ذلك أن الولايات المتحدة كانت قد فقدت الأمل، تماما، فى تقويم السلوك الأخلاقى المشين للملك فاروق.

فى السياق نفسه من يمكنه أن ينسى السفير الأمريكى فى القاهرة، آنذاك جيفرسون كافرى وهو يرافق الملك فاروق من قصر رأس التين فى الاسكندرية إلى اللنش الذى نقل الملك إلى حيث يرسو يخت «المحروسة»، الذى نقل فاروق إلى أوروبا، خاصة وأن فاروق كان استنجد هاتفيا، بكافرى فى وجه تهديد حركة الجيش له، إذا لم يتنازل عن العرش، فما كان من السفير الأمريكى إلا أن نصح جلالته بالاذعان للتهديد، وتوقيع وثيقة التنازل عن العرش، فضلا عن أن الولايات المتحدة نصحت بريطانيا بعدم تحريك قواتها فى قناة السويس ضد حركة الجيش.

ما كان لهذه المؤشرات والقرائن إلا أن تتجلى فى غير موضع، فمجلس قيادة الثورة عين القائمقام (العقيد) عبدالمنعم أمين عضوا فى المجلس، ليلة التحرك (١٩٥٢/٧/٢٣)، وقد عرف عن أمين صلاته الودية بالسفارة الأمريكية، ناهيك عن الحضور الملموس لأصدقاء الولايات المتحدة الأمريكية فى محيط حركة الجيش، خاصة مصطفى وعلي أمين.

إلى ذلك أذعن مجلس قيادة الثورة فورا، لطلب السفارة الأمريكية بالعدول عن تكليف القانونى المصرى الشهير، عبدالرزاق السنهورى بتشكيل الوزارة التى ستخلف وزارة على ماهر باشا، الذى استقال فى ١٩٥٢/٩/٧ وقد تذرعت السفارة الأمريكية فى هذا الصدد بمجرد أقدام السنهورى على توقيع نداء ستوكهلم السلام، الذى وقفت أحزاب شيوعية وراء إصداره! على الرغم من انتماء السنهورى المعروف للحزب السعدى المعادى للشيوعية.

ثم ما كان من المواقف غير الودية لحركة الجيش من الشيوعيين المصريين، ومن الحركة النقابية المصرية وأذكر أن حركة الجيش عمدت إلى الافراج عن كل الذين اعتقلهم النظام الملكي، فى الأشهر الستة التى سبقت حركة الجيش، حين أعلنت حكومة الوفد الأحكام العرفية، غداة حريق القاهرة الشهير (١٩٥٢/١/٢٦)، فاقصاها الملك فاروق، بعد أن ورطها بإعلان الأحكام العرفية، التى استخدمتها أجهزة الأمن المصرية ضد مختلف القوى الوطنية المصرية (مصر الفتاة - الوطني الجديد -

الشيوعيين). واللافت أن قرار الافراج استثنى ثمانية من الشيوعيين؛ من قادة حدتو وكوادرها، فيما كانت حدتو أسهمت في حركة الجيش، والتحضير لها، وقد امتلكت نحو ثلث مجموع الضباط الأحرار، الذين تحركوا، يوم ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢. والأنكى أن عبدالناصر صرح بأن حركة الجيش أفرجت عن كل من اعتقل (١٦/١٠/١٩٥٢)، بعد حريق القاهرة، عدا ثمانية عملاء لبلد أجنبي ما دعا رأس أولئك الثمانية، يوسف حلمي، للرد على عبدالناصر ببرقية غاضبة، قائلا له: «نعم! نحن عملاء لبلد أجنبي عنك، هو مصر»! وكان عبدالناصر قد كتب مقدمة كتاب معاد للشيوعية، ألفه كل من أمين شاكر، وسعيد العريان، وعلى أدهم، حمل عنوان «حقيقة الشيوعية»، وصدر في ثلاث طبعات متتالية، بين سنتي ١٩٥٣ و١٩٥٥، عن دار المعارف القاهرية، ضمن سلسلة «اخترنا لك» ثم توسعت حركة الجيش في اعتقال الشيوعيين، اعتبارا من ١٦/١/١٩٥٣، ويضمنهم المسئول التنفيذي للضباط الشيوعيين في «الضباط الأحرار»، آنذاك، الصاغ (الرائد) أحمد حمروش، كما نحى مجلس قيادة الثورة عن عضويته وعن وزارة الأوقاف، بضربة واحدة، ذلك الضابط الشيوعي الذي أنقذ حركة الجيش بمبادرة، على مسئوليته، حين حرك قواته قبل ساعة الصفر بساعة كاملة، بمجرد علمه بتسرب أمر حركة الجيش إلى قيادة الجيش، والتي سارعت إلى الالتئام في قصر القبة، لمواجهة حركة الجيش، وهو القائمقام (العقيد) يوسف صديق فضلا عن العداء الذي أظهرته حركة الجيش للطبقة العاملة المصرية، وحركتها النقابية، وتجلى هذا العداء في الأحكام الجائرة التي صدرت في حق زعماء الإضراب في مصانع النسيج بكفر الدوار، والتي قضت بإعدام كل من مصطفى خميس، ومحمد حسن البقري، المتهمين بتنظيم الاضراب، فيما لم يمس المالك المشتبه في تحريضه للعمال (١٢ و١٣/٨/١٩٥٢).

محاولة للتفسير

لقد حافظت علاقة حركة الجيش بالأمريكان على درجة عالية من الحرارة، على مدى نحو ثلاثة أعوام متصلة، وحين أخذت هذه العلاقة في الفتور، ظن البعض بأن تكتيك حركة الجيش المبكر كان استغلال التناقضات بين الأمريكيين والبريطانيين في تحقيق جلاء قوات الأخيرة عن مصر، وما أن تحقق لحركة الجيش هذا المكسب حتى أدارت للولايات المتحدة ظهر المجن.

على أن الأمر لم يكن على هذا النحو، كما لم تكن حركة الجيش صنيعة أمريكية، وكل ما في الأمر أن المتنفذين في مجلس قيادة الثورة كانوا لا يعرفون حقيقة الامبريالية الأمريكية، حتى أن عبدالناصر لم يمنع نفسه من التطلع إلى تحديث مصر، على غرار ما فعل كمال أتاتورك، وبمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لكن اسرائيل كانت لعبدالناصر بالمرصاد، فحاولت ضرب علاقة «حركة الجيش» بالأمريكان والانجليز، عبر التفجيرات التي نظمها فرع المخابرات الاسرائيلية في

مراكز أمريكية وبريطانية، في القاهرة والاسكندرية (يوليو/ تموز ١٩٥٤)، للايحاء بأن «حركة الجيش» هي التي نظمت تلك الانفجارات، ما يحبط محادثات الجلاء مع الانجليز، ويدفع الأمريكان إلى النفور من حركة الجيش لكن المصادفة وحدها، أفضت إلى اعتقال أحد عملاء اسرائيل، فانكشف أمر المؤامرة الإسرائيلية، التي خطط لها أعوان الرمز الصهيوني المعروف ديفيد بن جوريون في وزارة الدفاع الاسرائيلية، وإن حرفوا أدلة الاتهام فاتجهت إلى وزير الدفاع نفسه، آنذاك، اسحق لافون، ما جعل المؤامرة المكشوفة تحمل اسم «فضيحة لافون» وإن كان الوزير المظلوم برئ، لاحقا.

حين فشل بن جوريون، وهو خارج الحكم عاد إليه، في أواسط فبراير، شباط ١٩٥٥، خلفا لموشيه شاريت، وبعد أيام شنت الوحدة العسكرية الاسرائيلية (١٠١) بقيادة أرييل شارون، هجوما مسلحا (٢٨/٢/١٩٥٥) على بعض المواقع في غزة وضواحيها، سقط ضحيته زهاء أربعين مصريا وفلسطينيا وسودانيا، فاندلعت انتفاضة شعبية في قطاع غزة، من أقصاه إلى أقصاه، طالبت بتحصين القطاع، وتسليح شعبه، واسقاط مشروع سيناء، الذي كانت الحكومة المصرية قد اتفقت على تنفيذه (١٩٥٣)، لتوطين اللاجئين إلى مصر وقطاع غزة في منطقة بشمال غربي سيناء، في سياق مشاريع توطين أخرى، هدفت الولايات المتحدة من ورائها إلى طي القضية الفلسطينية.

لم يف عبدالناصر بالوعد الذي قطعه على نفسه، بتحقيق كل مطالب المنتفضين فحسب، بل أضاف إليها تشكيل وحدات فدائية فلسطينية، حملت اسم الكتيبة ١٤١، وأوكل أمر قيادتها إلى البكباشي (المقدم) مصطفى حافظ، وهي الوحدات التي ألحقت بإسرائيل خسائر بشرية فادحة، خلال بضعة أسابيع (١٣٨٧ قتيلا)، كما استدار عبدالناصر إلى الاتحاد السوفييتي طالبا السلاح بعد أن حجبه عنه الأمريكان (سبتمبر/ أيلول ١٩٥٥)، وما كان من طلب الادارة الأمريكية إلى عبدالناصر الغاء صفقة الأسلحة هذه، ورده بالرفض، مما دفع الادارة الأمريكية إلى سحب عرضها تمويل مشروع السد العالي، وفي أذيال تلك الادارة سار مدير البنك الدولي، آنذاك، يوجين بلاك، ما اضطر عبدالناصر إلى تأميم قناة السويس، ليبني بدخلها السد العالي، الذي حلم به الزعيم الراحل، في سبيل تنمية مصر وتقدمها. ثم ما كان من ردود الفعل الغربية ضد قرار التأميم هذا، التي توجت بالعدوان الثلاثي (٢٩/١٠/١٩٥٦) على مصر وقطاع غزة، وهو العدوان الذي باركته الادارة الأمريكية، ثم عادت ورفضته، في محاولة لوراثة الاستعماريين البريطاني والفرنسي في المنطقة، ومنع السوفييت من استثمار هذا العدوان لتعزيز الحضور السوفييتي. ولهذا قصة تروى. ■

التكوين

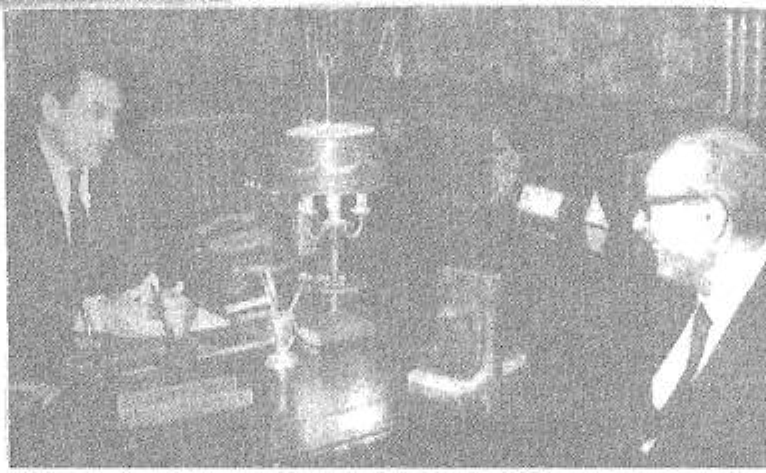
كتبت قصة ثورة يوليو في ثمانية مجلدات

أحمد حمروش

عندما طلب منى الهلال الكتابة عن تكوينى.. عادت بى الذكريات إلى هذه الدار الصحفية العريقة، ونحن نجلس فى إحدى غرفها خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر ١٩٥٢ نعمل على إصدار أول مجلة لثورة ٢٣ يوليو بعد أن حصلت على موافقة جمال عبدالناصر ووافق الأستاذ إميل زيدان على طبع المجلة فى داره الصحفية العريقة.

كنا مجموعة من الشباب.. الفنان حسن فؤاد وعبد المنعم الصاوى وعبدالرحمن الشرقاوى وصلاح حافظ.. وقد اخترنا للمجلة اسم (التحرير) تعبيرا عن رغبة مشتركة فى تحرير مصر من الاستعمار، وكنا في سباق مع الزمن لسرعة إصدار المجلة التى أخذنا الموافقة على صدورها يوم أول سبتمبر ١٩٥٢ وصدرت بعد ١٦ يوما فقط.





أحمد حمروش مع الرئيس مبارك

كانت هذه هى أول مرة أتحمل فيها مسئولية إصدار مجلة صحفية.. ولكنها لم تكن المرة الأولى التى أعمل فيها بالصحافة.. فقد أتاح لى الأستاذ محمد زكى عبدالقادر عام ١٩٤٦ الكتابة فى مجلته الشهرية (الفصول).. وكنت وقتها ضابطا فى الجيش المصرى.

كانت هواية الكتابة قد نشأت معى منذ درست فى كتاب قريتى (الخوالد) بمحافظة البحيرة أثناء الأجازات الصيفية التى اعتادت والدتى أن تقضيها مع أخوالى فى القرية.. فقد كان والدى قد توفى ولم أشاهده حيا أبدا.. ولم أقل فى حياتى كلمة (بابا) مثل بقية الأطفال.. لم أسرع الخطى لأرتمى فى أحضان الأب.. عيناى لم تكتحل برؤيته.

كان قد مات وعمرى عامان وبضعة شهور.. وكل ما عرفته عنه صورة كانت تزين المنزل، ويبدو فيها شخصا جليلا فى عمامته، له ذقن سوداء ليست مرسلة.. وكثيرا ما وقفت أمام هذه الصورة التى كان يضمها إطار مذهب عريض.. أتأمل الأب الغائب وأكاد أتحدث إليه.

وفى أحد الأيام لاحظ ذلك زوج شقيقتى وابن عمى أيضا والذى كان ولى أمرى وبمثابة والدى، فأقبل على وأخذنى بيديه محاولا تغيير انتباهى.

هل تعرف صور المشايخ الذين يجاورون صورة والدك على الحائط؟

وقلت له:

– نعم أعرف واحدا منهم هو الشيخ محمد عبده.

والآخر.

– لا أعرف.

وقال لى: (إنه الشيخ حسن العطار، إمام فاضل من أئمة المسلمين، كان شيخا

التكوين

للأزهر وكان أول من تولى الإشراف على «الوقائع المصرية»، أول مجلة أصدرها محمد علي.. وكان أستاذا للشيخ رفاعة الطهطاوى وهو الذى رشحه فى بعثة إلى فرنسا. ولما عاد أشرف على الوقائع بعد أن أصبح الشيخ حسن العطار شيخا للأزهر.

وواصل حديثه الذى كنت أستمع إليه فى تشوق وانبهار.

أسرة دينية

كان والدك وفيا لأساتذته.. ولذا أطلق اسم (محمد عبده) على أخيك الكبير.. واسمك (أحمد أبوخطوة) كان أستاذا له فى الأزهر ومفتيا للديار المصرية.. كما أطلق اسم الشيخ (محمود سعيد) أحد أساتذته أيضا على أخيك الصغير.

وهكذا نشأت فى أسرة دينية، وتحمست لآراء وأفكار الذين أحبهم والدى وأطلق أسماءهم على أبنائه أو زين جدران المنزل بصورهم.

وفرضت السياسة نفسها على حياتى عندما كنت فى الرابعة عشرة تلميذا فى مدرسة التوفيقية الثانوية فقد فوجئت عام ١٩٣٠ أن مدرسا يمنعنى من الدخول إلى المدرسة، وهو يلفت نظرى إلى كشف وضع على الباب الخارجى وكان فيه اسمى ضمن ٢٤ اسما من التلاميذ تقرر رفتهم نهائيا من المدرسة.. وكنت الوحيد من السنة الثانية والباقين فى معظمهم من تلاميذ السنة



الرابعة والخامسة.

ولما سألت عن السبب اقترب منى البواب النوبى وهو يربت على كتفى فى أبوة حانية، ويقول (علشان المظاهرات)!

كنت قد خرجت مع تلاميذ المدرسة فى مظاهرة كانت تهتف (يسقط هور ابن التور) .. وهور هذا هو صمويل هور وزير الخارجية البريطانى الذى أدلى بتصريح قال فيه : إن دستور ١٩٢٣ يجب أن يعود.

خرجت فى المظاهرة سعيدا بالانطلاق بعيدا عن الفصل دون إدراك لشئ، سوى أننا نهتف ضد الإنجليز المحتلين .. ولم أكن أعرف وقتها شيئا عن الدستور والفرق بين دستور ١٩٢٣ والدستور الذى أصدره إسماعيل صدقى باشا عندما تولى رئاسة الوزارة عام ١٩٣٠.

صدمت من قرار الرفت النهائى .. ولم أعرف كيف أنقل الخبر إلى أمى أو إلى زوج أختى ولى أمرى.. وشرعت أجوب الشوارع حتى تعبت فجلست على أحد المقاهى حتى حان موعد انتهاء الدراسة وعدت إلى البيت وكأن شيئا لم يكن.

زارنى يومها بعض الزملاء، وأبلغونى أن الدراسة لم تكن هادئة وأن التلاميذ خرجوا من الفصول ولكنهم لم يقتحموا البوابة للخروج إلى الشارع.

لم أخبر أمى.. لم أجرؤ على مفاتحتها فى هذا الموضوع.. بقيت فى الأيام التالية أخرج فى موعد المدرسة وأعود بعد انتهاء الدراسة، إلى أن فوجئت بزوج أختى يسألنى على انفراد (أين كنت وأين أمضيت اليوم؟).



حمروش مع مصطفى بهجت بدوى



.. ومع زوجته

وأجبت فى لعثمة : (كنت فى المدرسة)

الاهتمام بالسياسة

ولكنه قال فى حسم لم أعهده منه فقد كان شديد العطف والحنو (لا تكذب وقل الحقيقة) .

ولم أجد مفرا من الاعتراف قائلا (أصلى اترفت من المدرسة).

وكانت المفاجأة في قوله: (ولماذا تخفى الأمر وأنت لن ترفت لخطأ أو انحراف فى سلوكك الشخصى، وإنما لسبب سياسى).

سبب سياسى.. كان وقع الكلمة عندى غريبا .. فلم أكن أهتم بالسياسة حتى ذلك الوقت إلا على قدر ما يهتم بها الزملاء الآخرين من التلاميذ.. وهم يعلقون على ما تنشره الصحف.

وبقيت مرفوتا ٣٦ يوماً لا أذهب إلى المدرسة.. ولا أشاهدها إلا من بعيد.. وقاسينا الوحدة والحرمان من الأصدقاء إلى أن صدر قرار بعودة جميع التلاميذ إلى الدراسة بعد أن صدر قرار بعودة دستور ١٩٢٣ فى عهد توفيق نسيم باشا.

وبدأت الأسرة تراقب نشاطى.. ويحذرنى زوج أختى من لعنة السياسة.. ولذا فكروا وقرروا ادخالى الكلية الحربية بعد أن كان ١٧ تلميذا من المدرسة التوفيقية الثانوية قد دخلوا إليها بشهادة الثقافة في العام السابق.

وفى الكلية الحربية لحقت بنا السياسة أيضا عندما دعانا البكباشى محمد كامل الرحمانى مع عدد من الطلبة لتدارس الموقف إذا حاول البريطانيون إغراق الدلتا لمنع تقدم قوات المحور أثناء الحرب العالمية الثانية بعد أن كانت قواتهم قد وصلت إلى العالمين.

تخرجت فى الكلية الحربية عام ١٩٤٢

التكوين

ضابطا فى المدفعية بالأنوار الكاشفة وكنت فى هذه السن المبكرة أتطلع إلى تكوين أسرة أؤدى فيها دور الأب فى الوقت الذى غاب فيه عن الأب.. والتقيت مع شقيقة أحد زملائى الضباط وجمع بيننا عاطفة الحب.. وتزوجت وأنا لم أكمل بعد ٢٣ عاما من العمر.. ومازالت الحياة متصلة حتى كتابة هذه السطور.

وشاءت الظروف أن أشهد نهاية الحرب العالمية الثانية فى معسكر لمدرسة الدفاع الجوى البريطانية فى حيفا قريبا من قرية (الطيرة) .. عندما أذيع خبر إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وتوقع نهاية الحرب بين لحظة وأخرى.

السعادة التى غمرت المعسكر البريطانى فى هذه الليلة حجبت التفكير فى ضحايا المدينة اليابانية البائسة.. ولكنها كانت تعبيرا عن ابتهاج عام باقتراب اليوم الذى يعود فيه الجنود إلى أسرهم بعد عودة السلام.

وخلال الأسابيع التى قضيتها فى معسكر الجيش البريطانى، ألحت علينا مشكلة جديدة لم نكن قد اقتربنا منها كثيرا فى مصر فى غمار الاهتمام بالقضية الوطنية ومقاومة الاحتلال البريطانى.

حرب فلسطين

كانت هناك مستعمرات لليهود.. وكانت لهم متاجر فى حيفا والقدس وتل أبيب.. وكانت علاقاتهم فى ذلك الوقت مع العرب بدأت



تشكل واقعا يستحق الاهتمام.

ومازلت أذكر حديثا بين ضابط البعثة ومجندة من مجندات الجيش البريطانى فى القطار الذى أقلنا من القدس إلى يافا إذ قالت: إننى عربية رغم أننى يهودية وأخشى أن يوقع الاستعمار البريطانى بين العرب واليهود.

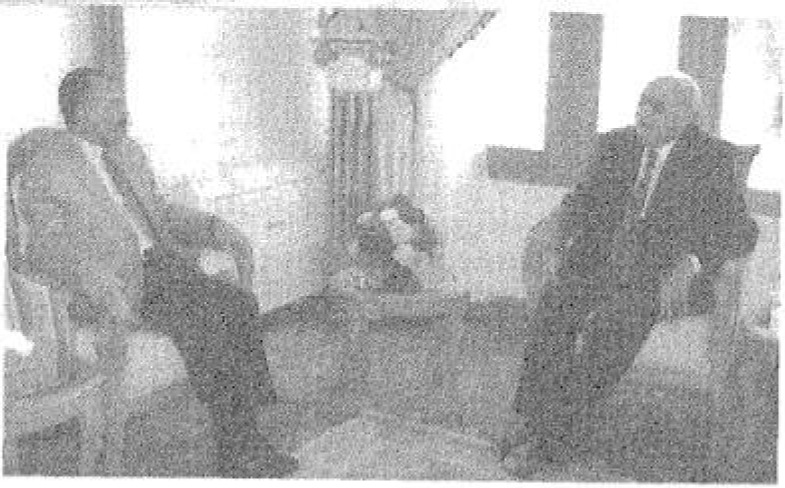
وبعد سنوات كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بعد أن رفض العرب قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ فى وقت كانت فيه معظم الدول العربية تحت نير الاحتلال.

ما كادت تنتهى الحرب العالمية الثانية حتى تصاعدت بشكل مثير مطالب الطوائف المختلفة التى عانت طويلا من القهر الاجتماعى.

وارتبطت الحركة الوطنية المعادية للاستعمار والاحتلال بالحركة الاجتماعية التى لم تعرفها مصر من قبل.

ولم تقف حياتى فى الجيش التى كنت قد اندمجت فيها اندماجا تاما.. لم تقف.. حائلا بينى وبين متابعة القضايا العامة.

وعندما قرأت خبرا فى الصحف أن عضوا فى مجلس الشيوخ قد قدم مشروعا لتحديد الملكية الزراعية، وجدت نفسى منجذبا إليه راغبا فى معرفة تفاصيله.. فقد كان يثير اهتمامى ما أسمعه فى الخوالد عن تفاتيش الأسرة المالكة فى إيتاى البارود وعن الأملاك التى تمتد لتصل بين محطات القطار.. وأسمع عن مظاهر الثراء الشاسع، وأقارن بين حال بعض أصدقائى من أبناء القرية لا يملكون ثمن الحذاء ويجبرون على



أحمد حمروش فى لقاء مع الرئيس اليمنى على عبد الله صالح

السير حفاة الأقدام، يضطرون إلى الرحيل بعيدا عن أهلهم فى لوارى عمال التراحيل.

لم أتردد فى كتابة خطاب إلى (حضرة صاحب العزة محمد بك خطاب عضو مجلس الشيوخ) الذى قدم مشروع القانون أطلب منه تفسيرا.. وكنت وقتها قد تخرجت فى الكلية الحربية والتحقت بسلاح المدفعية.

قانون تحديد الملكية

وفوجئت بخطاب أزرق يحمل اسم (مجلس الشيوخ) وعندما فتحته وجدته من محمد بك خطاب يدعونى إلى مقابلته عصر أحد الأيام من شهر مايو عام ١٩٤٥ فى منزله رقم ٢ شارع الطلمبات بجاردن سيتى، الحى الذى ضم السفارة البريطانية التى كانت تصل حديقتها إلى شاطىء النيل، ويسكنه أبناء الطبقة التى اعتدنا واعتادت الصحف وقتها أن تسميها الراقية أو «الهايلايف».

وبدأ محمد بك خطاب حديثه موضحا أهمية قانون تحديد الملكية الزراعية، بعد أن تفاوتت الثروات، وأصبح الفارق واضحا بين قلة قليلة من الأثرياء يملكون المئات والألوف من الأفدنة وأغلبية ساحقة لا تملك شيئا من الأرض، ولا تجد فرصا دائمة للعمل.

انبهرت بحديث محمد بك خطاب الذى لم يكن مشروعه يتعرض لمصادرة أو تأميم أية أراض زراعية، وإنما كان يحرم على من يملك خمسين فدانا شراء مزيد من الأرض، ويترك الأمر للقدر والوراثة حتى يصل الحد الأعلى إلى خمسين فدانا فقط.

وبعد جلسة امتدت ما يزيد على الساعة.. لم يعرف فيها صاحب المنزل أننى كنت ضابطا فى الجيش، فقد ترددت فى إعلان ذلك بعد أن أخذنى الحديث الشيق والجو الرشيق والوعد على لقاء جديد فى (دار الأبحاث العلمية) حيث كان محددا

لمحمد بك خطاب إلقاء محاضرة هناك بعد يومين.

وقدم لى محمد بك خطاب كتابا باللغة الإنجليزية بعنوان (بعثة إلى موسكو) كتبه سفير الولايات المتحدة السابق فى الاتحاد السوفييتى (افريل هاريمان).

ومنذ ذلك التاريخ وبعد حضور محاضرة محمد بك خطاب التى ضمت عددا من كبار المثقفين اليساريين ارتبطت بالتنظيمات اليسارية إلى أن أصبحت عضوا فى اللجنة المركزية للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى التى كانت تجمعنا لتنظيمات يسارية متعددة.

وفى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى تعرفت على «هنرى كوربيل» الذى كان قد شكل الحركة المصرية للتحرر الوطنى والتى ضمت عناصر من الجيش والطيران والأزهر والطبقة العاملة.

وفى قسم الجيش «بحدتو» لم نقتنع مطلقا بأن حربا وطنية يمكن أن تقوم فوق أرض فلسطين ومن خلف ظهورنا الجنود البريطانيون يحتلون قناة السويس.. ووصلنا إلى موقف عبرت عنه (حدتو) بقولها:

«إننا لا نريد أن ننزع فلسطين من العرب ونعطيها لليهود بل ننزعها من الاستعمار ونعطيها للعرب واليهود، ولا نوافق على التقسيم إلا مضطرين كأساس لاستقلال فلسطين ثم يبدأ كفاح طويل للتقريب بين وجهات النظر فى الدولتين العربية واليهودية».



وقد عارضت «حدتو» الدعوة المحمومة لدخول حرب دينية موضحة أنه لن يفيد منها سوى المستعمر منادية كما جاء فى مجلتها الجماهير، لتوجه السلاح إلى الاستعمار فى فايد وقناة السويس والسودان فلا يمكن تحرير فلسطين وظهورنا مكشوفة للعدو.

بداية دخولى إلى المعركة

وبادرت بدخول المعركة.. ولكن بطريقتى الخاصة.. ترجمت كتابا باسم (حرب العصابات) أهديته (إلى المضطهدين فى أوطانهم) وطبعته على نفقتى ووزعته على المكاتب بنفسى.

صدر (حرب العصابات) مع بداية حرب فلسطين .. ولحقه كتاب آخر اسمه (خواطر عن الحرب) وأهديته إلى (زملائى تحت ثرى فلسطين).

ولم تكن كتابة هذه الكتب هى تجربتى الأولى فى ميدان الكتاب.. فقد بدأت أمارس الكتابة الصحفية، تحت ضغط ظروف اقتصادية.

ولم تكن لغتى الإنجليزية تسمح وقتها بالترجمة الجيدة.. والتحقت بالمعهد البريطانى وبدأت أمارس الدراسة والترجمة معا منذ عام ١٩٤٥.

كانت تجربتى الأولى فى النشر كما ذكرت مع الأستاذ محمد زكى عبدالقادر الذى كان يصدر مجلة (الفصول) من شقة فى الدور الأرضى بإحدى عمارات شارع شريف.

وعندما قام الأستاذ زكى عبدالقادر برئاسة تحرير الأهرام، أتاح لى فيه فرصة

نشر مقالات سياسية، وكانت صلتى به قد توطدت، وثقته فى قد رسخت.. وكان قد تعرض لحملة الاعتقالات التى شنها إسماعيل صدقى باشا واعتقله فيها مع الأستاذ سلامة موسى والدكتور محمد مندور وأعضاء لجنة نشر الثقافة الحديثة .. عبدالرحمن الشرقاوى وسعيد خيال وسعد لبيب وغيرهم.

وشاءت الظروف أن ألتقى بهم فيما بعد وأن يصبح البعض منهم أصدقاء أعزاء.

كنت معجبا بما يكتبه الأستاذ سلامة موسى فى الصحف.. ولم تفتنى قراءة كتاب من الكتب التى أصدرها والتى أثرت تأثيرا عميقا فى ثقافة جيلنا لما حوته من أفكار عميقة وثقافة عصرية وبساطة ساحرة.

واقتربت من الدكتور محمد مندور الذى كان يشكل مع الدكتور عزيز فهمى ثنائيا متقدما ومضيئا فى صحافة الوفد.. اقتربت منه كثيرا بعد إعجاب واحترام لما كان يكتب بعد الثورة.. وقد تزاملنا بعد ذلك فى جريدة الجمهورية وفى المسرح القومى.

هؤلاء المثقفون الكبار وضعهم إسماعيل صدقى خلف قضبان السجون بتهمة الشيوعية .

وظهرت حركة الضباط الأحرار بعد حرب فلسطين وبادر قسم الجيش فى الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى الذى تشكلت قيادته من أحمد فؤاد الذى تولى رئاسة مجلس إدارة بنك مصر فيما بعد، والصول طيار شوقى فهمى حسن وكاتب هذه السطور بالاندماج معها تحت قيادة جمال عبدالناصر.

وسرعان ما قدمت ثورة ٢٣ يوليو التى كتبت عن قصتها ثمانية كتب.. ومعها عدت كما ذكرت إلى هوايتى فى الكتابة.. فأصدرت مجلة «التحرير» كما أوضحت، وفتحت الظروف لى بابا لدخول المسرح عندما استدعانى الأستاذ يحيى حقى مدير مصلحة الفنون وطلب منى أن أعين مديرا للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى خلفا للفنان يوسف وهبى.

كانت المفاجأة كبيرة.. ولكن قبلت وأمضيت فى المسرح سنوات من أمتع سنوات العمر سجلتها فى كتاب بعنوان (عشر سنوات فى المسرح).. وخلال هذه السطور كتبت عددا من المسرحيات ومجموعات القصص القصيرة وتمنيت أن يتواصل عملى فى هذا المجال الثقافى إلى أن فوجئت بعودتى إلى الصحافة عام ١٩٦٤ رئيسا لتحرير (روزاليوسف) بينما كنت مديراً لمؤسسة فنون المسرح والموسيقى وهكذا عدت إلى الكتابة والصحافة التى عشت لها.. ومازلت حتى اليوم أمارس الكتابة فى روزاليوسف إلى جانب العمل السياسى الذى ارتبطت به فى مجال التضامن حيث طلب منى الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى أن أتعاون معه فى منظمة التضامن الأفريقى الآسيوية ومازلت فى هذا المجال رئيسا للجنة المصرية للتضامن حيث أسجل حاليا كتابا تسلط فيه الأضواء على هذه الفترة باسم (مصر .. تضامن.. وسلام).. إيمانا منى بأن خبرة كل إنسان وتجربته ليست ملكا له ، وإنما هى ملك الجماهير. ■

أنت والهلال

جمال عبدالناصر صاحب قرار التأميم

فى العدد الماضى تحدثتم عن تكريم الدولة لرموزنا الثقافية والوطنية بإقامة تماثيل لهم فى أهم ميادين مصر، وذكرتم أن الزعيم عبدالناصر لم يقم له تمثال وأن السادات بطل العبور كان يستحق تمثالا جزاء قراره الجسور، وكنت أحب أن يذكر لجمال عبدالناصر أهم قرار يذكر به على مر التاريخ المصري وهو تأميم شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية في عام ١٩٥٦ حتى تستبين الأجيال التى غيب عنها كثير من تاريخنا المشرق ما خفى عنها، وتعرف مثلها العليا، وأيضا لابد أن يعلم هذا الجيل أن أول رئيس لجمهورية مصر هو اللواء محمد نجيب ، وهو يستحق أيضا التكريم ضمن هؤلاء .

د . سامى منير
الاسكندرية - كلية التربية

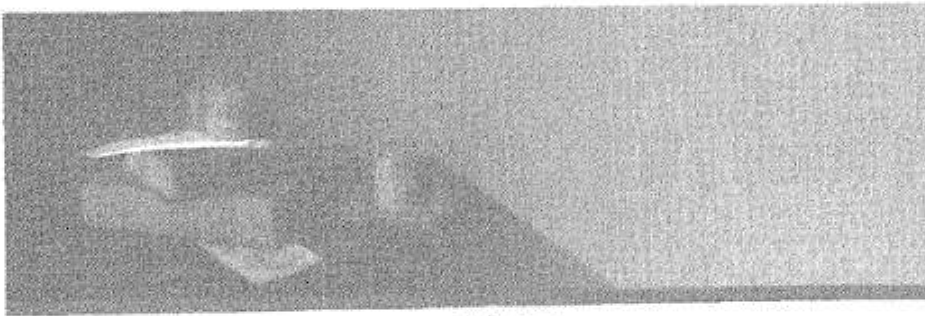
الهلال : نشكر لك ملاحظاتك ، وكما أشرت فذلك كان ضمن افتتاحية الهلال، وهى كلمة قصيرة ، وأما عن تكريم رموز مصر، فقد اقترحنا أن تكون هناك لجنة تشرف على هذا المشروع وتتولى اختيار كل الشخصيات التى أثرت الوجدان المصرى .

حيرة ملك

ما رأيت الهوى بعينيك غصنا
أذنت لى بالشدو رعشة جفن
ياحبيبي .. يمزق الروح رمز
صادح لا يطيق غيرك إلفا
نحن فى الكون وحدنا.. كيف أنسى
من شظايا شعاعة مزقتها
هذه الأنجم البعيدة تحكى
هذه الشمس حانة فى العشايا
هذه العاصفات غضبة سر

يانع العود .. بل سمعتك لحنا
لمن الوعد؟ هل طوى الوعد جفنا؟
يتمادى .. ولا يمزق سجنا
مستفيق للحظة منك وسنى
أننى خالق بحبك كونا ؟
قبلة سرمدية أشعلتنا
أن كوخا لنا وكرما ودنا
لعقتها الكئوس من شفتينا
جسد السر ينطفى ثم يبنى

سليم الرافعى - طرابلس - لبنان



دور مهم للهلال

وصلت رسالة مهمة من قارئ تونسي هو محمد قشيك يقول فيها : أقرأ الهلال التي تعتني بقضايا الساعة وخاصة بالتراث العربي الإسلامي والإنساني ، وأثني على هذا الدور المهم الذي تقوم به المجلة العربية الأولى في الوطن العربي ، وأتمنى أن يتواصل اشعاعها الأدبي المتنوع الذي يسهم في تطوير اللغة العربية ، والاستفادة من إعجاز القرآن الكريم .

وقال : إن النبي محمد (ﷺ) هو الذي تعتبر أمته خير أمة أخرجت الناس ، لا تقهرها النكبات العجيبة في هذه المنطقة أو تلك من الأرض الغنية بالتقوى والتراث العربي الأصيل ونحن نعيش الآن تحولات تاريخية وأزمة تثبت مرة أخرى قيمة الإسلام وضرورة تمسكنا به .

أمثال شعبية

* « لكل صغير كبير ولكل رئيس مرؤوس » !
* اللي مالوش كبير يشترى له كبير » !
* « لما أنت أمير وأنا أمير مين يسوق الحمير » !
* « اللي يتجوز امى أقوله يا عمى » !
* « أرقص للقرد في زمانه » !
* « بلد بتعبد ثور ، حش وارمى له » !
* « طاطى رأسك ما بين الروس أحسن الماشي عليه يدوس » !
* « إن طلع من الخشب ماشة ، يطلع من الفلاح باشا » !
* « مهما الفلاح اترقى قبان فيه الدقة » !
* « الاعتبار للمال مش للرجال » !
* « أصلك فلوسك وجنسك لبوسك » !
* « طلب الغني شققه ، كسر الفقير زيره » !
* « حاميها حراميها » !
* « ارشوا تشفوا » !
* «امشي سنة ولا تخطى قنا » !
* « أصبر على جارك السو، لا يرحل لا تيجى له غارة » !
* « يا بخت من بات مظلوم وما بتش ظالم » !

ألا تدل هذه الأمثال التي تتناقلها أجيال وراء أجيال على الخضوع والاستسلام والسلبية والرضا بالواقع ، وعدم الرغبة في التغيير .

أحمد الفيومى – نزلة السمان – الهرم

● **الهلال :**

● **هناك العديد من الأمثال الأخرى التى ترفع من قيمة الشجاعة والمبادرة ومقاومة السلطان الجائر .**

أنت والهلال

القراءة متعة ذهنية

أعجبني مقال «زمن المجلات القديمة: الهوس اللذيذ للحنين إلى الماضي»، والذى كتبه الأستاذ محمود قاسم ونشر فى عدد يونيو الماضى ، وقد أصاب الكاتب عندما قرر أن إعادة قراءة الأمس تتمثل فى مزج الحاضر بالماضى ، فكل ما نراه اليوم جديدا ، سوف تنبث منه رائحة إطلال الماضى فى السنوات القادمة .

إن الإنسان ليسعد عندما يقرأ أو يطالع صفحات مجلدات المجلات القديمة مثل الهلال والمقتطف والثقافة والرسالة ، ويجد بين صفحاتها عبق التاريخ وعبير المعرفة الانسانية فى أرقى صورها ، وهى متعة ذهنية للقارئ لا تدانيها متعة وليست هوسا!

عمرو عبدالمنعم حمودة

برما - مركز طنطا

أصل كلمة بغداد

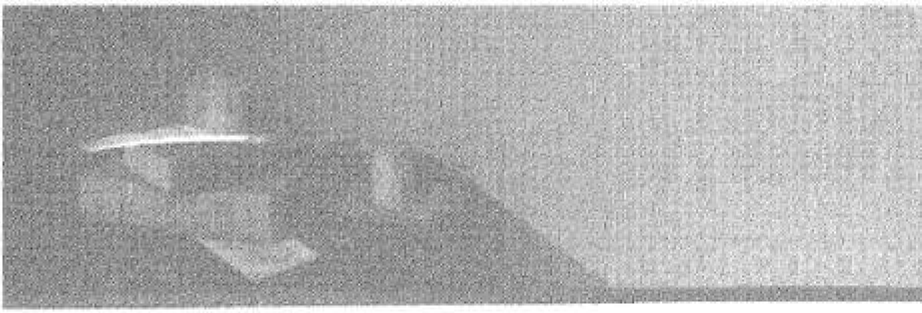
قرأت مقال الزميل الدكتور طاهر أحمد مكى عن بغداد والذى نشر فى عدد ابريل الماضى، فوجدته لم يطلع على الاكتشافات الأخيرة البابلية والآشورية بأن كلمة بغداد قديمة ، وبذلك نسخت النظرية القديمة بأن اسمها يتكون من كلمتين هما (باغ) و(داد) من الفارسية فقد وجدت مكتوبة (بغدادو) و(بغدادا) و(بكدادو) فالأصل قديم ولا علاقة بالتسمية التى كانت شائعة قبل قراءة الخط المسمارى .

د . يوسف عزالدين - انجلترا - ويلز

غدنا حلم قديم

أقسمت بالفجر أن العطر طل فى ثراها
ودبيب الخصب والثورة يسرى فى دجاها
ذهب اليأس وهذا أمل جدد للأرض قواها
أيها الشعب الذى حطم فى الغيب قيوده
ومضى يرفع للحق على النار بنوره
إنها ثورة شعب وانتفاضة
وضمير يتحرر
ومصير يتقرر
ودماء وشهادة
وتحد وإرادة
اسمعينى لحنك الثائر فى قلب الظلام
أنت يا أرض النبيين ويامهد السلام
حدثينى يانجوم
نبئينى يا رياح
غدنا حلم قديم
ليلنا فجر صباح
إنها ثورة شعب وانتفاضة
وضمير يتحرر
ومصير يتقرر
ودماء وشهادة
وتحد وإرادة

سامى محمد عبدالحميد



رأي عميد الأدب العربي في الغناء

تناولتم فى مقال شيق فى العدد الماضى الحديث عن جمع تراث طه حسين ، فما أطرف ما تضمنه هذا التراث ؟

محمد منسى -القاهرة

** لعميد الأدب العربى رأى فى الغناء ذكره فى حوار طريف نشر بجريدة الجمهورية فى أول أكتوبر ١٩٥٩ ..

* ألا تسمع الأغانى ؟

– مطلقا .

* ألم تسمع أى مطرب أو مطربة ؟

– أبدا .

* لماذا ؟

– لأن أغانينا تافهة .

* وكيف عرفت أنها تافهة دون أن تسمعها ؟

– سمعت بعضا منها مصادفة .

* لقد تطورت الأغانى وأصبحت شيئا جديرا بأن نستمع إليها .

ويرد طه حسين: مستحيل .. فأنا أكره طريقتنا فى تلحين الأغنية وتأليفها، وتأديتها ، أكره ما فى أغانينا من سطحية وتفاهة .

* ترى ماذا كان سيقول عميد الأدب العربي لو استمع إلى أغانينا الآن ، وأيضا إلى الأشعار السطحية التى تنشر أو نستمع إليها أحيانا ؟!»

لـؤلـؤة

ومعى امرأة
لى لى، بلون الخبز
طعم التوت
رائحة اللحاء
سميتها وطن السفر
سميت نظرتها المطر
سميت قبلتها الهدوء
ودفء قبلتها المساء
لو قيل هذى أم كنوز الأرض؟
قلت أخترتها
لكم الكنوز تركتها
حسبى من الدنيا العريضة
لـؤلـؤة

عبدالناصر عبدالرحيم أحمد
السويس

أنت والهلال

أقصوصة

الجنيه

رأس أصلع، ووجه حرقته الشمس، ولحية مبعثرة فى أنحاء الوجه .. أما العيون فتبدو مطفأة لا تستمتع بجمال الحديقة التى تقف على بابها .. السيارات تهدر فى الشارع ذهابا وإيابا ..

صرخت فى داخلى :

– إنه أعمى ..؟! كيف لم أنتبه لذلك قبلا؟

كان يقف بقامته الفارعة ، وملابسه البالية على جانب الطريق المؤدى إلى مدخل حديقة «شجرة الدر» بالمنصورة . كان يصيح بين الحين والآخر .

– سجاير «الملكة» .

نظرت فى يده الممدودة، كانت علبة وحيدة زرقاء ..

– مسكين هذا الرجل ، قلت فى نفسى .. يبدو فى حالة شديدة من البؤس .

تقدمت منه ببطء وقد أخرجت من جيبى عملة ورقية فئة الجنيه ، وقلت له :

– تفضل يا والدى .

انتبه لى ، ارتجف حاجباه ، وانفرجت شفتاه ويده تلامس الجنيه بمهارة شديدة ثم وضعها فى جيبه الداخلى ، ثم فتح علبة السجاير وراح يرد، ولكنى قاطعته :

– انى لا أدخن .

توقفت يده ، وبعد لحظة صمت وقال:

– لماذا أعطيتنى «الجنيه» إذن ؟

لم أجد ما أقوله فسكت ..

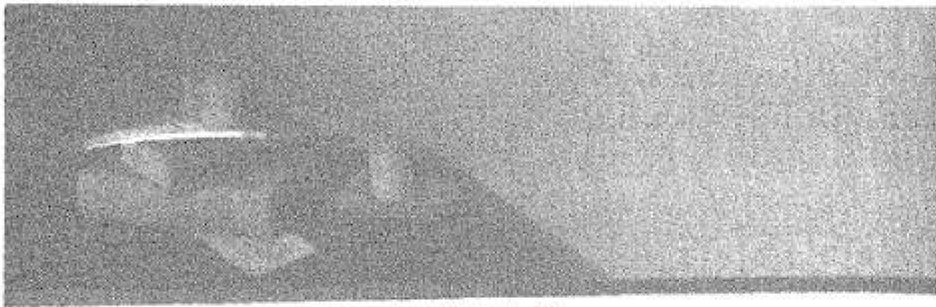
قال بتحد وإصرار وهو يخرج «الجنيه» من جيبه ويقدمه لى :

– لست شحاذا ياولدى !

بتردد أخذت «الجنيه» وإحساس يجعلنى أتضاءل حتى صرت كرأس دبوس ملقاة على رصيف الشارع ..

نظرت إليه .. كان جسمه كالطود ، ووجهه كالسماء والمدى .. انطلقت أعبر الشارع .. أهرب كأنى مطارد من قوة غير منظورة ، وعندما بلغت الجهة الأخرى من الشارع نظرت خلفى إليه .. رأيته واقفا فى شموخ نخلة شابة فى عنفوانها .. وكانت يده ممدودة ، وصوته يدوى ويطن فى أذنى وهو ينادى سجاير «الملكة» !

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين – دقهلية



وصية .. لم تحفظها العصافير

مات عصفور الحديقة
تاركا
للروض صكا
عند أوكار لصيقة
مرت الأعوام حيرى
كيف أوصى للفيافى
أن تذيع اليوم ضيقه؟!
كان يلزم الأنهار .. دوما
أن تدارى
كل جرح فى الوثيقة

ظل يعشق الترحال عمرا
ظل يعشق الهجرة ..
فى أرض سحيقة
ظل بالجرح يعانى
سنوات
كلما نامت جراح بالثرا ..
عادت جراحات عميقة

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس

السلام والقبضة

لعبة رياضية نعرفها جميعا وهى لعبة « الرست» أى لعبة الذراعين ، والقبضتين القويتين ، يتنازلان فوق المنضدة .. العضلة القوية تهزم العضلة الأضعف، وماذا بعد، هناك منتصر وهناك مهزوم .

الانتصار لا بأس ' والانهزام شئ سيئ ، ولكن لابد من التعايش معا بعد ذلك .

إذن لماذا الهزيمة والانتصار؟

إن التعايش هو الهدف ، وليكن لكل ما يعتقده فى حدود ، بينما يعرف كيف يكون التعايش ، وهنا الانتصار بدون هزيمة ، ومع التعايش يكون الكسب الحق ، ويكون النماء الذى يغمرنى لأنه يغمر الجميع ، أنا والقبضة الأخرى أيا كانت .

مهندس رستم غالب - القاهرة

مقال طبى بالهلال

أنا من عشاق مجلة الهلال وأتابع كل ما يكتب فيها ، وقد استوقفنى كثيرا ماكتبه د . صلاح قنصوة فى هلال مايو الماضى بعنوان : « الركض خارج الملعب» ، ولى ملاحظة وهى لماذا لا يتضمن الهلال موضوعا طبيا ، وأعلم أن دار الهلال تصدر طبيبك الخاص والكتاب الطبى .. وقد خصصا للأطباء المشاهير فى القاهرة فقط ، فلماذا لا يكتب فى هاتين المطبوعتين أطباء من خارج العاصمة؟..

أقول هذا وقد تربيت منذ ٢٥ عاما على مجلة طبيبك الخاص .

د . جمال على العطار - الإسكندرية - كامب شيزار

أنت والهلال

● الهلال : شكرا لملاحظاتك يا دكتور ، وفعلا تصدر عن دار الهلال مجلات تتولي الجانب الطبى ، وعموما ماذا لديك من مقترحات حول موضوعات طبية معينة يقوم الهلال بنشرها ؟.

حيلة التاجر

قدم تاجر عراقي إلى المدينة المنورة ليبيع بها خمرا ملونة «جمع خمار وهو غطاء لرأس المرأة » فباعها كلها الا السوداء منها ولما شكى ذلك إلى الدارمى الشاعر وكان قد تنسك وتعبد ، كتب شعرا أخذ التاجر يطوف بالمدينة وهو ينشده .

قل للمليحة فى الخمار الأسود	ماذا فعلت بناسك متعبد
كان قد شمر للصلاة ثيابه	حتى وقفت له بباب المسجد
فسلبت منه دينه ويقينه	وتركته فى حيرة لا يهتدى
ردى عليه صلاته وصيامه	لا تقتليه بحق دين محمد

ولما سمع الناس فى المدينة هذا الشعر قالوا : إن الدارمى رجع عن نسكه وعشق صاحبة الخمار الأسود فلم تبق امرأة بالمدينة الا واشترت خمارا أسود ، وباع التاجر كل ما كان معه .

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

الجواهرى من أصول عربية

فى عددى أبريل ومايو الماضيين من الهلال موضوعات تزيد من ثقافة الانسان العربى ..

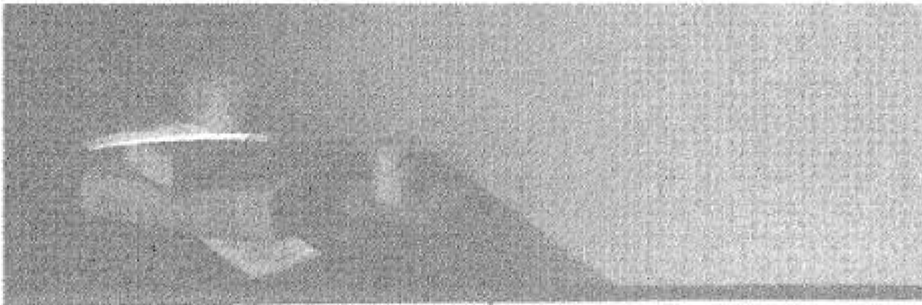
وفى عدد مايو وفى كلمة مختصرة عن الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى قلتم إنه من أصول كردية .

والحق أن الجواهرى من مشاهير الأسرة العلمية النجفية ، وهو من أصول عربية كانت تقطن النجف الأشرف .

وهذه الأسرة دوحة من دوحات الفضل العلمية ، بزغ بدرها فى أفق النجف ، واشتهرت بعنوانها الجواهر ، وكان لآبائها فى النجف ذكر قبل ذلك فى أوائل القرن الثانى عشر .

وقد ولد الجواهرى فى النجف سنة ١٩٠٣ أو ١٩٠٠ كما يقول مدونو سيرته .

واصل عبدالله البو خضر
الإحساء - الهفوف - السعودية



خطأ غير مقصود!

إشارة إلى مقالى «المحافظون الجدد» : الأصول والمفاهيم «الذى نشرته الهلال فى عدد يونيو الماضى، أود أن أوضح أن العنوان الفرعى الذى اخترتموه للمقال «لماذا ازدادت سطوة المحافظين الجدد فى عهد بوش الابن» جاء مناقضا لمضمون المقال الذى أوضح أن المكانة التى اكتسبها المحافظون الجدد فى عهد إدارة ريجان، لم يشأ أن تستمر أو تتأصل فى عهد إدارة بوش ١٩٨٨ - ١٩٩٢ لاعتبارات أوردها المقال. لذلك أرجو التنويه.

د. السيد أمين شلبى

أيضا جاء فى مقال مبكيات الأفراح بالعدد الماضى للدكتور رجب البيومى « وتبذل آلاف الجنيهات فى رقص ماجن خليع، فتكون العاقبة إهدار المال فى أحسن وجوه الانفاق ».

وصحتها فى أخس وجوه الانفاق.

«المعجزات»

أنا الفارس الهارب من كل الأساطير
وحكايا المعجزات
جئتكم أتساءل :
من ألبسكم أردية الخوف المرير
ونزع عنكم رداء الأمل ؟!
استيقظوا
الأحلام لا تفيد
فالمعجزات ...
لا تكون إلا فى الواقع
استيقظوا
الأمل الأخير لنا :
حين يملؤنا الإيمان
تحدث معجزة :
فتنبت حقول الألغام
ورودا وأمان
استيقظوا
المعجزة الحقيقية
اننا مازلنا نتنفس
رغم اختناق كل أمانينا

د. جاسر محمد رياض



إختلاف الأجيال حول رؤية التعليم

بقلم: د. حامد عمار

مع موسم الامتحانات تكثر ثرثرة جيل الكبار فى زهو رومانسى بين ما كان عليه تعليمهم فى الأيام الخوالى ، ويصبون نقدهم اللاذع على أحوال التعليم الحالية . ويتجلى ذلك فيما يتصورونه من مفارقة بين ماضى الأحوال الحياتية بما كانت عليه من ألوان وردية مشرقة وبما هو كائن حالياً من مشقة وعتمة وفى ذلك يتناسون تغير الظروف والسياقات المجتمعية وتبدل الأحوال ، كما يقول ابن خلدون . وفى تفنيد للنظرة الرومانسية للماضى التى تذكر إيجابياته وتختزل الحاضر فى سلبياته ، يقول أبوالعلا المعرى :

لكل جيل أكاذيب يدين بها • فما تفرد بالهدي جيل

واليوم تتواتر الشكوى من أحوال التعليم وتدنى مستوياته ومن مختلف الشكاوى والهموم التى تعانيها كل أسرة حسب رؤيتها للطلب من التعليم .

ومع مافى تعليم اليوم كما هو الشأن فى الماضى من إيجابيات وسلبيات فى جميع مراحله فإنه لا مشاحة فى أنه شهد توسعاً هائلاً فى فرصه منذ الخمسينيات ، حيث بلغ عدد الطلاب عام ١٩٥٠ (٥٤٠) ألفاً بمعدل (٢.٥)٪ من مجمل عدد سكان المملكة المصرية . ومنذ ومع تطبيق سياسة المجانية فى جميع مراحله حقاً دستوريا وإنسانياً ، تدفق سيل الطلب على التعليم ليبلغ عدد طلابه عام ٢٠٠٣ (١٥.٥) مليون أى أن ربع سكان مصر هم طلاب .

بيد أن هذه الزيادة الهائلة لم ترافقها زيادة متناسبة فى البنية الأساسية من المبانى والتجهيزات . ومن ثم جرى (حشر) الطلاب فى الإمكانات المؤسسية القائمة دون توسع ملحوظ ومن المعروف أن البنية الأساسية فى التعليم كالبنية الأساسية فى النشاط الاقتصادى ، شرط لازم لكفاءة الأداء وجودة المخرجات ، ومن هنا جاءت مشكلات التكدس وانخفاض المستويات وقلق التنافس الحاد للمرور من اختناقات عنق الزجاجة من المرحلة الثانوية إلى الفرص المحدودة فى التعليم الجامعى ، وبخاصة فى كليات القمة .

وبالرغم مما تم أخيراً من المبانى الجديدة ، فإن ما تراكم من أعباء الماضى يتطلب إيلاء أولوية متقدمة للاستمرار فى تشييد البنى الأساسية ، مما سوف يقضى على كثير من أعراض الاختلالات . ومن ثم يقتضى الأمر توفير كافة الموارد المالية اللازمة لذلك ، إذ ليس ممكنا توافر مدرسة من مستوى خمسة نجوم ينفق عليها (١٣٠) دولاراً فى السنة متوسط تكلفة لكل تلميذ ، وهو مبلغ لايكفى لعشاء أسرة فى فندق خمس نجوم ، ورحم الله الشاعر القائل (ومن يطلب الحسناء فليغلها المهر) . ■

أحدث إصدارات دار الهلال

د. رشدى سعيد



الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى

د. زكى مبارك



ليلى المريضة فى العراق

د. رمسيس عوض



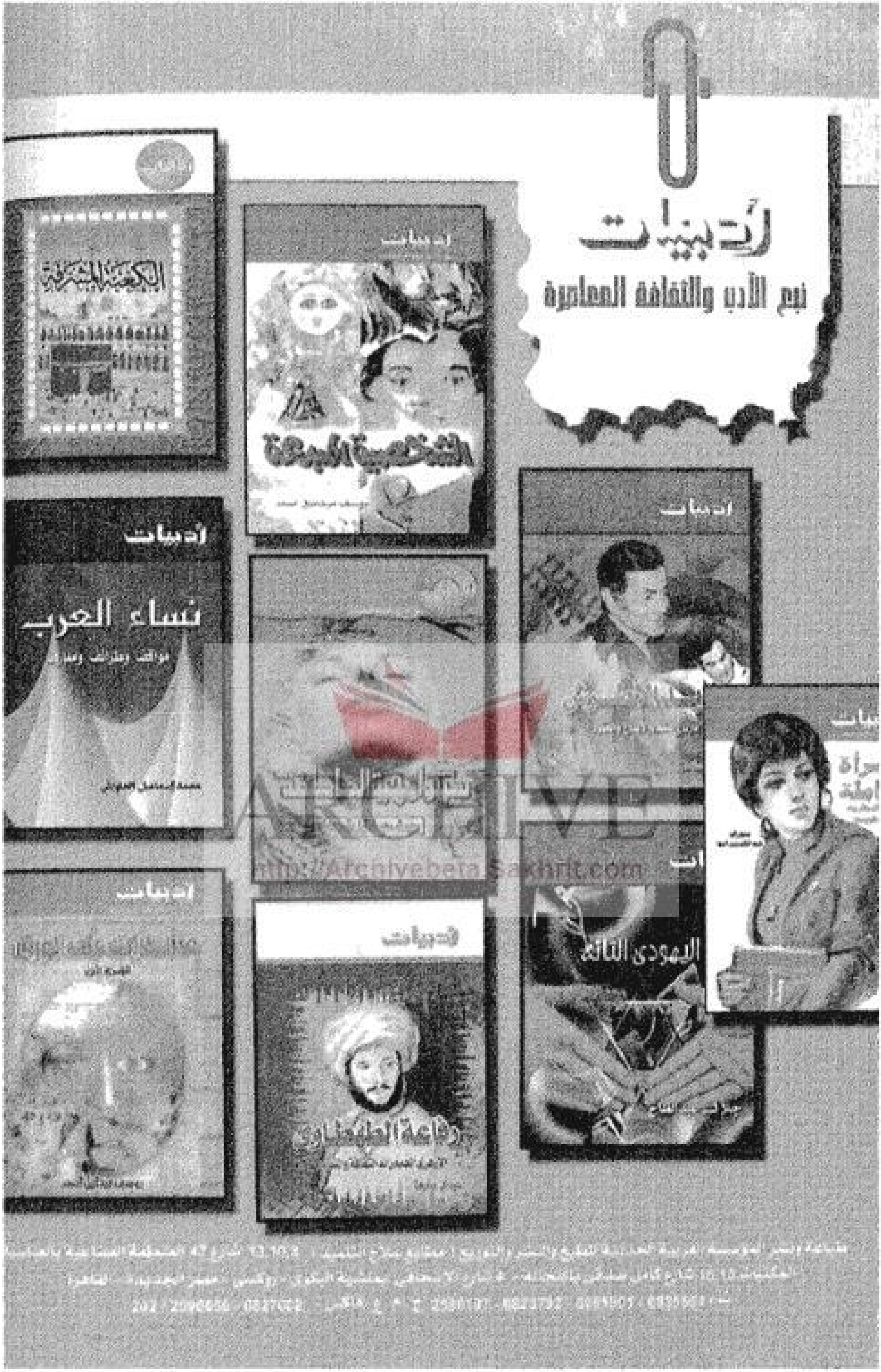
محاكم التفتيش

أسامة بن منقذ



الاعتبار

دار الهلال


أدبيات
نبع الأدب والثقافة المعاصرة
الكعبة المشرفة
الشخصية المبدعة
نساء العرب
مواقف وطرائف ونوادر
اليهودي التائه
رباعية الطهطاوي

الهلال

فوضى الواقع الثقافى

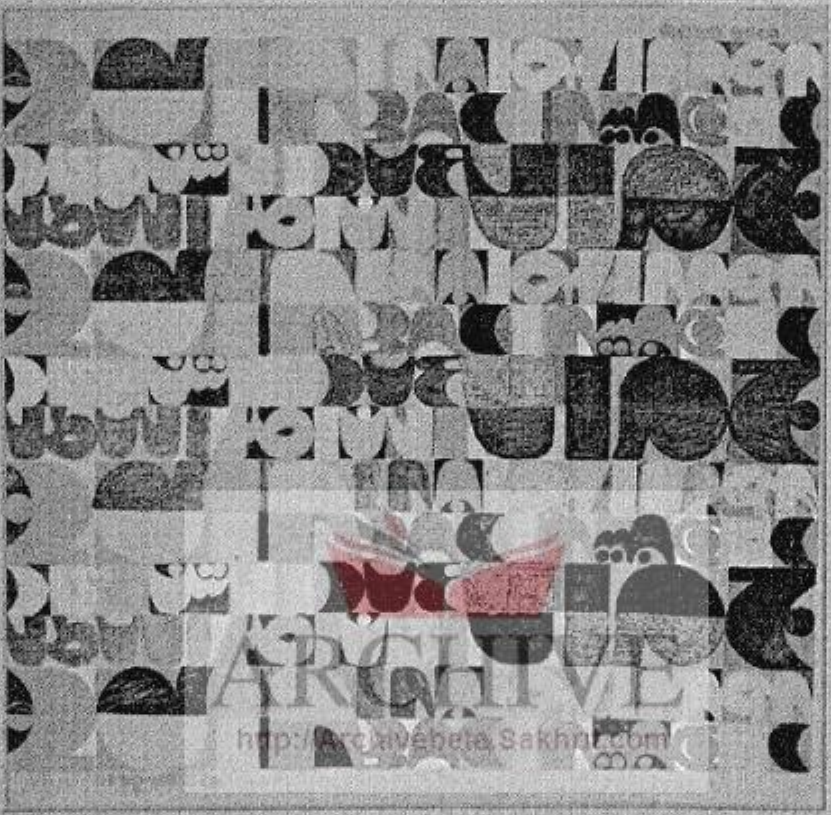
نهاية العروبة !!

أدم حنين الخيال فى التمثيل

أغسطس ٢٠٠٣ الثمن ١ جنيهات

٨ الهلال - أغسطس ٢٠٠٣ - 8 - AL-HILAL - August - 2003





لوحة و فنان

لوحة
جمال عبد الناصر
للفنان
فتحي جودة ١٩٧١

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الحادي عشر بعد المائة جمادى الثانية ١٤٢٤ هـ - أغسطس ٢٠٠٣م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
تلكس: ٩٢٧٠٣ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى / أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣
دينارات - المغرب ٢٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار
إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

١٠ – تجميل مصر بين التخطيط والعشوائية ....
.... د. صبري منصور

١٨ – فوضى الواقع الثقافي ....
.... د. محمد رجب البيومي

٢٦ – في مقام الشيخ الأكبر ....
.... د. يوسف زيدان

٣٤ – تسويق الأديان على الانترنت ....
.... د. أحمد محمد صالح

٤٢ – حكاية حالة أمريكية ....
.... محمد يوسف عدس

٥٠ – نهاية العروبة ..... د. أحمد يوسف أحمد

٥٦ – الاستقلال وقضية الديمقراطية ......
عبدالرحمن شاكر

٦٢ – زكي نجيب محمود: طوع اللغة وعبر عنها بلغة رصينة
.... د. عبدالرشيد الصادق محمودي

٧٠ – حامد ربيع: راهب في محراب المعرفة ...
.... د. نيفين مسعد

٧٨ – الإبداع وفلسفة التعليم «دائرة حوار» .....
.... د. شريف حتاتة

٨٤ – الحضارة الإنسانية: تزاوج لا صراع ...
.... فاروق خورشيد

٨٧ – على خطى النفري «شعر» ....
.... محمد عبدالسلام منصور



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبوطالب
تصوير الفنان
محمد صبري

الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٠ دولاراً.
ع وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



٨٨ - حداثة بيدبا الفيلسوف ودبشليم الملك ... . **صافي ناز كاظم**

١٢٤ - عائلات ثقافية (سمات أجلها في والدي) ... . **د. سمحة الخولي**

١٣٢ - رحلة الصين (في رحاب التنين الآسيوي)............ **ماجد يوسف**

١٤٤ - مرشد القارئ إلى الخطاب الثقافي... .... **د. صلاح قنصوه**

١٥٠ - مؤتمر الثقافة العربية .... **أماني عبدالحميد**

١٥٥ - رحيق الكتب ....

١٦٠ - سهر الليالي وفيلم هندي .... **مصطفى درويش**

١٦٦ - المتفرجة «العري» **مرفت رجب**

١٧٢ - ثلاثة من الأدباء (السحرتي وكرو والجر) .... **وديع فلسطين**

١٧٨ - أبو حنفي «قصة» .... **زاهد مطر**

١٨٦ - مسرحية في عز الضهر .... **أسامة أبو طالب**

١٩٢ - المسارح اللندنية اليوم «رسالة لندن» ... . **إبراهيم فتحي**

٢٠٠ - النديم والأفغاني في القفص السلطاني ... . **د. عبدالمنعم الجميعي**

٢٠٦ - استبصارات ...... **محمد عفيفي مطر**

الأبواب الثابتة

- عزيزي القارئ ٦
- أقوال معاصرة . ٢٥
- لغويات (د. الطاهر أحمد مكي) ٦١
- من ذخائر الكتب العربية (نجباء الصعيد) د. نبيل حنفي محمود ١٠٢
- شخصية العدد آدم عليك السلام، مصطفى الحسيني ١١٢
- آدم يبحث عن أصوله الأولى .... ١١٨ ياسر مصطفى
- التكوين (منح الصلح) ٢١٠..........
- أنت والهلال عاطف مصطفى ... ٢١٨
- الكلمة الأخيرة (اللمسة سر الحياة) ٢٢٦ .. د. أحمد مستجير



عزيزي القارئ

البقرات المقدسة

على طريق مراجعة الذات ، والبحث عن طريق للإفلات من التخلف ، وملاحقة العصر والعمل على نهضة البلاد ، وتحقيق العدل والحرية، حان الوقت لتأمل ما يجرى حولنا ..

وهنا .. نتجنب جلد الذات ، فهناك فرق بين نقد الذات وجلد الذات ، أقول ذلك لما نلاحظه من أن الثقافة إذا بعدت عن الواقع ، تتحول إلى حديث مجموعة من المثقفين يفهمون بعضهم ، ويعيشون فى برج عاجى بعيدين عن القراء، طالما نأوا عن الواقع ، وتجاهلوا مفرداته..

والسؤال .. لماذا يحلق المثقفون فى الأفكار المجردة، ويبعدون تدريجيا عن حقائق الواقع حولهم ، ولماذا يغوص البعض الآخر فى تفاصيل الواقع، ويبتعدون عن أى منهج شامل أو إطار فكرى، أى نسق يضم تفاصيل ذلك الواقع ، ويصبح كالتائه فى الصحراء لا يجد شربة الماء ..

وتتراوح خطى المجتمع بين من يرى الأفكار كالأبقار المقدسة التى يجب لىّ الواقع من أجل اتباعها ، وبين أولئك الذين يغرقون فى تفاصيل الواقع بلا خريطة ولا دليل يسترشدون به .

والمهمة التى مازالت تنتظر من المثقفين القيام بها ، هى الوصول إلى منظومة فكرية، بسيطة ومركزة، على ما ينبغى عمله فى مواجهة التحديات والأحداث المأساوية المتلاحقة، وتقديم حلول عملية للمواطنين ، وخلق تيار وطنى عام ، لا يتوحد حول الأهداف فقط، بل يتوحد أيضا على طرق الوصول إلى هذه الأهداف ، أى إلى برامج عمل واضحة ، وأدوات - أى مؤسسات مستقلة - تملك القدرة الذاتية على تحقيقها .

وهذا هو ما تحقق في كل مكان، وما تحقق في تاريخنا عندما قامت ثورة ١٩١٩، وطرحت شعارات الاستقلال الوطنى ، وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ ووضعت أهدافا وشعارات من الضمير الوطنى .

ويتاكد هذا الهدف بعد سقوط عصر «البقرات المقدسة» أو الأفكار والأيديولوجيات المسبقة ، التى تخفى أو تضلل الباحث فى رؤية الواقع والوصول إلى نتائج صحيحة . فمن الطبيعى أن تطوع كل الأفكار والأيديولوجيات من أجل تغيير الواقع، فيستحيل تطويع الواقع لكى يناسب تلك الأيديولوجيات .

وفى الماضى كانت «الاشتراكية» هى « البقرة المقدسة» وهى الذريعة لكثير من الحماقات التى ارتكبت .

واليوم «الرأسمالية» أى الليبرالية وحرية السوق هى البقرة المقدسة، بدون النظر للاعتبارات الواقعية أو العملية ، وبصرف النظر عن تاريخها ، وتطبيقها فى واقع مختلف، وتجارب تاريخية أخرى، وإذا كانت الدول الغربية قد تجاوزت الرأسمالية المتوحشة ، وإذا كانت أدركت الواجب الاجتماعى نحو شعوبها ، إلا أن أولئك الذين يعبدون البقرات المقدسة ، يطالبون بتطبيق تلك الرأسمالية المتوحشة ، وهو ما يفسر العديد من الأخطاء التى ترتكب ، باسم اقتصاديات السوق ، فمثلا ... حسن أن يباع القطاع العام ويتحول إلى القطاع الخاص ، ويدار بأسلوب اقتصادى ، ولكن أين تذهب حصيلة هذا البيع؟.. هل تفتح آفاق استثمارات جديدة؟.. وهل تنفق على أبحاث علمية تفتح مجالات جديدة للاستثمار والتصدير..؟ أم تصب فى الميزانية ، ويصبح حالنا مثل المفلس الذى يبيع أثاث بيته لكى يجد ما يسد حاجته للطعام.. ويتم ذلك بحجة الانتقال إلى قوانين السوق، وتنص البقرات المقدسة على عدم مشاركة الحكومة فى الاستثمارات .. مع



عزيزي القارئ

أن هناك وسائل عديدة، تقوم فيها الحكومة بالدراسة ، وتطرح المشروع الحيوى للاكتتاب العام ، وتجعل إدارته والسيطرة عليه للجمعية العمومية

قضية أخرى .. وإن كانت إحدى نتائج الفهم الخاطئ لمعنى الحرية، فهل معنى الحرية هو التسيب والفوضى؟.. وهل تتناقض الحرية مع وجود سلطة قوية تستمد قدرتها من القانون ، ففى العالم الثالث لا يمكن إنجاز النهضة إلا بسلطة قوية عادلة ، ولا تعنى السلطة القوية غياب الديمقراطية ، بل على العكس تحتاج بشدة إلى العدل لكى تحقق النهضة والنمو .

وأظن أن «العدالة» شعار يسبق غيره من الشعارات ، ثم تأتى «الحرية» التى تؤكد وتحقق إنسانية الإنسان .

كما يجب الحفاظ على الأولويات حتى لا يضيع منا الطريق .. ومتى يكف المثقفون عن الإغراق فى الحديث عن الآمال أو الأهداف البعيدة ولا يشغلهم أسلوب وأداة تحقيقها؟! أى أن يقرن القول بالعمل .. فلا يقوم التقدم سوى بامتزاج الفكر بالواقع .

* * *

وعند مراجعة الذات ، لا ينبغى لنا أن ننسى، أنه مهما كانت أهمية القرارات الاستثنائية التى تتخذ فى بعض الأحيان لمواجهة موقف ما ، يصبح بقاؤها واستمرارها أمرا ضارا حتى بالهدف الذى اتخذت من أجله

ويقرر علماء الإدارة ، ضرورة ربط أى قرار استثنائى بمدة زمنية محددة ، أو بانتهاء الأسباب الداعية إليه ، ويقول الأصولويون .. «تغير الأيام يقتضى تغير الأحكام» والثورة ذاتها حالة استثنائية ، يجب أن تنتقل من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية .

ولو أخذنا مثلا على ما أريد أن أقول .. اتخذت الحكومة قرارات خاصة بالإسكان ، واستمرت هذه القرارات بلا تغيير أو تعديل، فخلقت مشكلة، واختفت يافطة «شقة للإيجار» ، وتآكلت الثروة العقارية ، واستمر هذا الحال قرابة نصف قرن.. ومازال مستمرا .. إن المطلوب هو تغيير العقليات ، وتغيير المفاهيم هو الأصعب دائما .

* * *

ولابد أن نذكر أيضا عند مراجعة الذات .. أنه من العار أن تبقى مشكلتا الأمية والقمامة قائمتين! وليس عارا أن يعانى البعض من الفقر، فمن الممكن أن تكون نظيفا وفقيرا ، فالتدريب والتعليم يعالجان الفقر .. ومن العار أيضا ألا يستطيع المجتمع التخلص من فضلاته ، وأن يلجأ لشركات أجنبية لهذا الغرض .

أما الأمية التى أخذت تتزايد فى الآونة الأخيرة، رغم الميزانية التى رصدت والجهود البيروقراطية التى بذلت، ولست فى حاجة إلى القول إن الأمية لها تأثير مباشر على كل مناحى الحياة، وهى التى تزيد المصاعب التى تواجه المجتمع ، والتأثير على الإنتاج وحل مشكلة البطالة ، وعلى شيوع قلة الذوق والجمال والفن فى حياتنا .

ولا يمكن حل مشكلتى القمامة والأمية سوى بعقول خلاقة وحلول مبتكرة غير تقليدية، ترى عملها رسالة مقدسة يجب إنجازها . وقد قضت كوبا على الأمية عن طريق وقف الدراسة فى المدارس والجامعات فترة محدودة ، وانتهى المشروع بلا أمى واحد فى كوبا كلها . وهناك تجارب كثيرة أخرى تمكن أصحابها من القضاء على الأمية .

■

المحـــرر

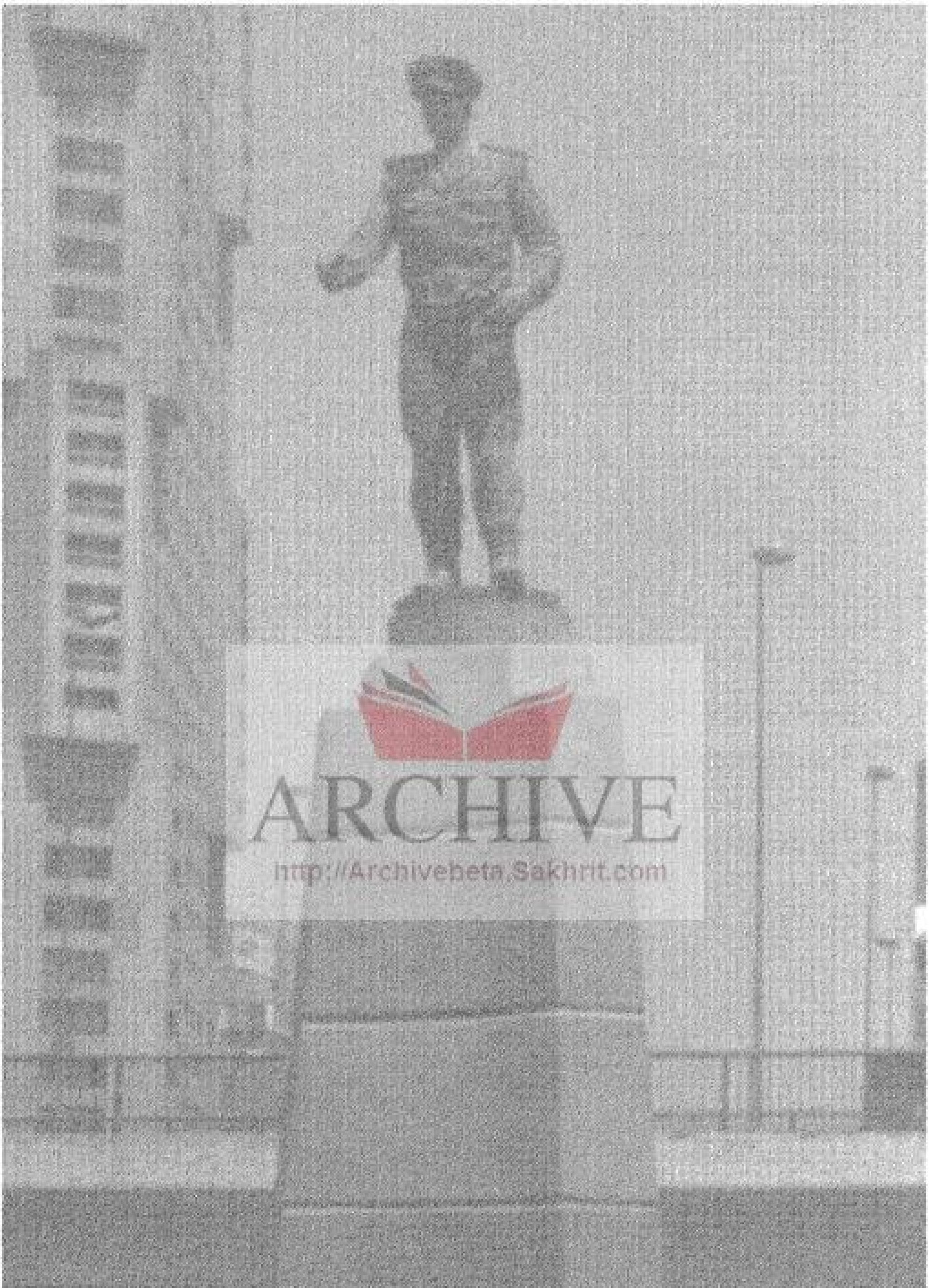
تجميل مصر

بين التخطيط والعشوائية

بقلم
د. صبرى منصور

أطلت علينا خلال السنوات الأخيرة ظاهرة طال انتظارها كثيرا، حين بدأت الأعمال الفنية التشكيلية تجد طريقها إلى الميادين العامة، وتمتد على أسطح وجدران المبانى والأسوار.. التى اكتست بصنوف الأشكال وشتى الألوان، وكانت مدينة الإسكندرية التى هى الرائدة، والتى خلقت نموذجا سرعان ما انتقل تأثيره إلى محافظات الجيزة والقاهرة، والأقصر وقنا، وبدا وكأن هناك صحوة فنية تسعى إلى تجميل البلاد، بعد طول إهمال للجوانب الجمالية فى حياتنا العامة، ونسيان لدور الفن فى الارتقاء بالذوق وتنمية المشاعر القومية المشتركة للمواطنين، ولكن - وآه من كلمة ولكن حين تفسد كل فكرة طيبة ذات هدف نبيل - فللأسف جاءت معظم المشاريع التجميلية مخيبة للآمال، فهى لاتتناسب إطلاقا مع تاريخ مصر الفنى العريق، وما تحفل به البلاد من آثار فنية خالدة، كان أهم سماتها العظمة والجلال، بل إن بعض هذه الأعمال التجميلية الحديثة تتناقض مع الغرض الذى أقيمت من أجله، فبدلا من نشر الجمال والذوق الرفيع، فإنها تجسد القبح بما تحتوى عليه من قيم جمالية مشوهة، وأشكال قميئة، وألوان منفرة

◄ تمثال عبد المنعم رياض



بين الأمس واليوم

إن المرء ليعجب كيف استطاع المصريون في بداية نهضتهم إقامة صروح فنية ذات قيمة جمالية رفيعة كتمثال نهضة مصر، بينما لايستطيعون اليوم وبعد عقود زمنية عديدة، وتنمية تعليمية وثقافية مستمرة، وازدياد أعداد الفنانين والمهندسين والمتخصصين، أن يواصلوا بنفس القيمة وعلى نفس القدر من المستوى الفني مسيرة تجميل بلادهم وتحديث مدنهم على مستوى العصر، فإن نظرة فاحصة إلى ماتم إنجازه أخيرا لتبرهن لنا على أننا غير قادرين على الاختيار الدقيق والسليم، وهى صفة أضحت من صفات المصريين خلال العقود الماضية، فانعدام التخطيط، والتسرع في التفكير وعدم منح الوقت الكافي لدراسة المشروعات اكتفاء بإسمها الرنان ومعناها السامي، وسيطرة جهاز الإداريين من الموظفين على آراء المتخصصين والدارسين، والربط بين إنجاز المشروعات ومناسبات معينة حتى يتم الافتتاح خلالها بأية طريقة كانت، وفي كل هذا لاندرك أن مشروعات تجميل المدن الكبرى - خاصة عاصمة البلاد - هى مشروعات خالدة، تمتد في الزمن إلى ماشاء الله، وهى بهذا تستحق العناء والتريث، والدراسة والتمحيص ودقة التنفيذ حتى تخرج إلى النور في أبهى صورة وأكملها.

وتعج مدينة القاهرة الكبرى بالعديد من الأعمال النحتية الركيكة، واللوحات الجدارية الهابطة فنيا، والنوافير الترخيصة، مما يسيء إلى تاريخ المدينة ومكانتها، ويقدم الدليل على تخلف الجهاز الإداري وجهله بشئون التعمير والتجميل.

وحين تتجول في شوارع وميادين القاهرة والجيزة فإن عينك تصدم بأشكال مشوهة لا معنى لها ولا دلالة، وتفتقد لأية قيمة فنية، والنماذج متنوعة مابين تماثيل لكلاب البحر والأسماك والضفادع والبلاليص والأواني المرصعة بالموزاييك، والتماثيل المتواضعة التي تصلح لميدان في قرية أو فناء في مدرسة ثانوية، ناهيك عن النخيل البلاستيكي المضيء الذي انتشر فجأة في شوارع وميادين محافظة الجيزة، واضطر المسئولون عنه إلى إزالته بعد هجوم حاد من الرأي العام.

ومما يثير الدهشة أن مصر تزخر بكفاءات هندسية وفنية راقية ومع ذلك لانرى حولنا إلا هذا المستوى الرديء من الفن، فكيف لم تسمح آليات اختيار الفنانين وتكليفهم بإتاحة الفرصة للمواهب المصرية المتميزة لكي تكشف عن قدراتها، وتقدم أعمالا ذات قيمة عالية .. فتشرف بلدها وترفع من شأن فنها المعاصر؟

عشوائية التجميل في الأقصر

أمّا ماحدث في مدينة الأقصر أخيرا فهو مأساة فنية بكل المقاييس، ويستحق

من تولى الإشراف والموافقة على المشروعات (التجميلية) فيها أن تتم مساءلته بتهمة إفساد الذوق العام، والإساءة إلى تاريخ مصر الفنى والحضارى، فمدينة الأقصر تتمتع بخصوصية فريدة، فهى من أهم مدن العالم الأثرية، بما تحتوى عليه من كنوز حضارة إنسانية راقية، وتضم معابدها ومقابر ملوكها من الأعمال الفنية التاريخية - فى فنى النحت والتصوير - مايعدُ إعجازا بشريا فى كمال الذوق الفنى ودقته ورهافته، ثم يأتى القائمون على أمرها اليوم ليقيموا نوافير غريبة الشكل والتصميم منفرة اللون إلى حد إيذاء العين المدربة الحساسة، ناشرين بذلك عناصر التلوث البصرى فى أرجائها وعلى مقربة من معابدها الدينية القديمة. والغريب فى الأمر أن الأقصر تضم كلية للفنون الجميلة تابعة لجامعة جنوب الوادى، ولكن المسئولين المحليين لم يلتفتوا إليها، ولم يستشيروا أساتذتها فيما ينفذون من أعمال فنية مما يثير التساؤل عن جدوى إقامة المعاهد والكليات المتخصصة فى ربوع مصر إذا لم يكن لها دور فى حياتنا العامة.

ملاحظات حول التماثيل الميدانية الجديدة

ولتماثيل الميادين أسس فنية وثقافية وتاريخية يجب أن تراعى بدقة شديدة، وكذلك مواقعها والوسط المعمارى الذى يحتويها، كما يجب أن يأتى تمثال الميدان فى نهاية الأمر كله صرحية شامخة تفرض وجودها على الفراغ المحيط والتمثال يجب أن يجسد شخصية صاحبه ويومىء إلى مجال تفوقه ونبوغه، وأن يحمل صفاتا اشتهر بها وأصبحت علامة دالة عليه، وفى جميع الأحوال فإن تمثال الميدان يجب أن يعكس شموخ الشخصية وكبرياءها، وتلك كلها عناصر



تمثال عبدالوهاب

افتقدتها مجموعة التماثيل التى نصبت فى أرجاء القاهرة والجيزة أخيرا، وعلى سبيل المثال فإن الوقفة التى اختارها الفنان لتمثال الشهيد عبدالمنعم رياض جاءت غير معبرة أو موحية بعظمة هذا القائد العسكرى الشجاع الذى واجه الموت بين جنوده فى الميدان، ولاتعكس مقدار قوته وصموده، وإصراره على النصر فى ميدان الحرب والقتال، فهى مجرد وقفة عادية لعسكرى يخطو ممسكا - فى ضعف - بنظارة الميدان، ويبدو كالتائه الباحث عن شىء مفقود. أما تمثال طه حسين فجاء أقرب إلى أن يكون تمثالا لكاهن حين اختار الفنان ذلك الرداء ليكسى به جسم التمثال، وهو رداء - رغم أن الفنان يقصد به الرداء الجامعى - لم يكن رداء مميزا لشخصية الأديب العبقرى، فهو فى بداية الشباب كان يرتدى الجبة والقفطان، ولكن الرداء الذى عرف به فترة طويلة من حياته فكانت السترة العادية أنيقة المظهر.

ولاشك فى وأن التفاصيل الصغيرة فى تمثال الميدان - داخل إطار الكتلة الصرحية. لها دلالة ورمزيتها كإيماءة الحركة وطريقة الوقفة، وشكل الثياب، وحركات الإيدى واتجاه النظرة، فكلها عناصر يجب أن تخضع للدراسة والبحث المستفيض التى يمكن أن يشارك فيه بعض معاصرى الشخصية من المثقفين والكتاب، حتى يأتى التمثال فى النهاية معبرا عن شخصية صاحبه أبلغ تعبير، وأن يقدمه فى الصورة النموذجية المتكاملة.

ويعدّ اختيار موقع التمثال من أهم عوامل إنجاحه، وذلك بإتاحة الفرصة لرؤيته بوضوح من جميع جوانبه، ومن أجل ذلك يجب دراسة الوسط المحيط من مبان ومنشآت، وضرورة مشاركة المصمم المعمارى لإيجاد علاقة متوازنة بين العمارة والنحت، وخلق الفراغ المناسب لوضع التمثال، فتمثال محمد عبدالوهاب فى ميدان باب الشعرية لايكاد تلحظه العين وسط الفراغ الضخم الذى يبتلعه، وتمثال عبدالمنعم رياض لايكاد يظهر وسط المسطحات العديدة التى تؤثر على إمكانية رؤيته، مابين مسطح، الكوبرى العلوى من خلفه والمبانى الضخمة التى تحيط به من باقى الجوانب، بينما يزيد حجم تمثال أم كلثوم فى الزمالك كثيرا عن الفراغ المحيط فيبدو مخنوقا، وإذا قارنا هذه الأوضاع بوضع تماثيل نهضة مصر وسعد زغلول وإبراهيم باشا مثلا فسنجد أن هذه التماثيل تتواجد فى فراغ يتناسب مع أحجامها ويتيح الفرصة الكاملة لرؤيتها.

والقاعدة التى ينتصب فوقها التمثال أهمية فائقة، ويُمنح تصميمها الفنى قيمة إضافية، وبها تكتمل الرؤية الفنية والجمالية للتمثال، ويلاحظ فى التماثيل الجديدة أن قواعدها فقيرة فى تصميمها، رخيصة فى خامتها، مما انتقص من القيمة الجمالية للتمثال نفسه، ولقد كان محمود مختار عبقريا حين أولى

قواعد تماثيله عناية قصوى، كما نلمس ذلك بوضوح فى تمثالين لسعد زغلول بالقاهرة والإسكندرية، فعلى جوانب قاعدة التمثال المقام أمام كوبرى قصر النيل نفذ مختار لوحات من النحت البارز تمثل ملامح من حياة المصريين وأحلامهم فى الحياة والتقدم، وذلك بأسلوب فنى يعتمد على الإيجاز البليغ والرموز المعبرة التى أكسبت تمثال سعد زغلول ثراء فى الشكل والمعنى.

تصوير أم تشويه جدارى

ولم تسلم المسطحات الجدارية من العشوائية فى التفكير وفى التنفيذ فمعظم اللوحات ذات تصميم ضعيف، وتنفيذ فنى ركيك لاينم عن خبرة وتمكن من أصول وتقاليد فن التصوير الجدارى، كما لاتربطها صلة وثيقة بالجدار نفسه ولابشخصية المكان، وإنما هى لطعات ملونة لاتحمل معنى أو دلالة، وصادرة عن مفهوم ساذج بأن التجميل هو أن تضع أشكالا وألوانا هنا وهناك كيفما اتفق ، ونذكر هنا كمثال تلك الجداريات المتقدة فى حي المنيب بالجيزة، والجدارية التى أطلق عليها جدارية نجيب محفوظ فى شارع النيل، واللوحة التى (تجمل) مدخل نفق ميت عقبة، وجدارية تمثل (ميكى ماوس) فى الإسكندرية، وكلها نماذج على أعمال

طه حسين



أم كلثوم



فنية تجارية تسيء للمكان الذى لو كان قد تم تنظيفه بطلاء مناسب لكان ذلك أفضل من جميع النواحي.

كذلك فإن ماتم اقامته بحديقة ميدان تريومف فى مصر الجديدة يعد مهزلة فنية لا مثيل لها، فهو عبارة عن كتل نحتية غريبة النسب، وقد رصعت بأشكال فرعونية تسيء إلى الفن المصرى القديم، ووحدات زخرفية بخامة الموزاييك، وهى فى مجموعها تمثل المستوى الفكرى والثقافى والجمالى المتواضع لأولئك المسئولين الذين باركوا وضعه هناك وهى تعد دليلا على فساد الذوق وهبوط مستواه.

أما ماقامت به مدارس القاهرة والجيزة من تشويه لأسوارها الخارجية التى تصافح عيون الناس صباح مساء بأشكال قميئة، وألوان رديئة ورخيصة ورموز ساذجة، فإنه أبلغ دليل على العشوائية التى ينتهجها المصريون المعاصرون من أجل تجميل بلادهم.

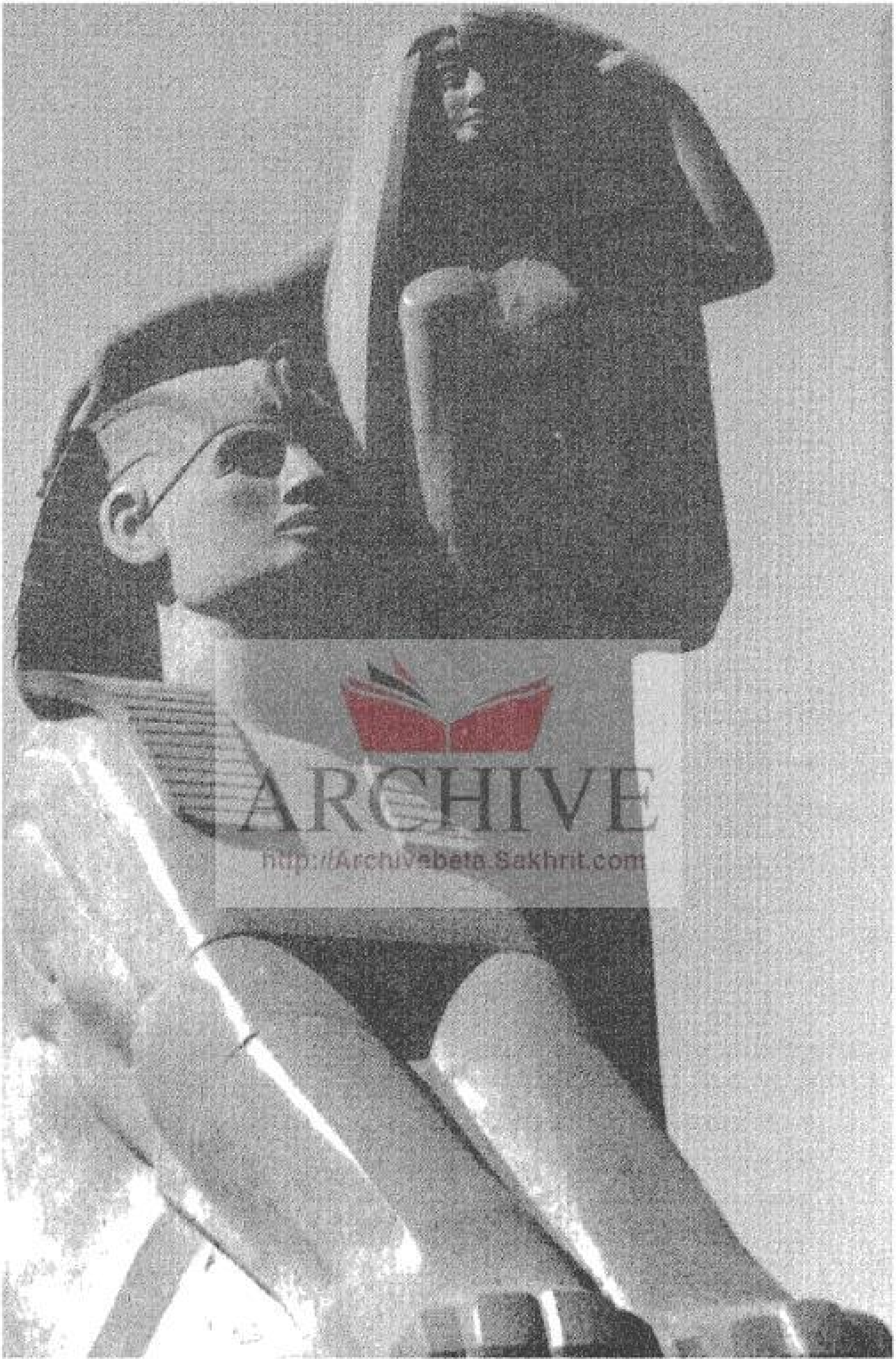
مطلوب هيئة قومية لتجميل البلاد

إن حصيلة الأعمال الفنية والمشروعات التجميلية خلال السنوات الماضية وما تضمنته من مستوى فنى لايعبر عن القدرات الفنية للمصريين المعاصرين، يدعونا إلى المطالبة بكفّ أيدى المسئولين فى أجهزة الحكم المحلى عن تولى تلك المسئولية، التى يرون أنها مسألة هيّنة. وأنهم قادرون على إصدار الرأي فيها واتخاذ القرار النهائى بشأنها بعيدا عن ذوى الخبرة والتخصص، بل إن هناك بعضا منهم قد تخيل أنه فنان موهوب فأقام فى مدينة سوهاج - فى التسعينات - نصبا فى قلب المدينة، وكان تصميمه الركيك ذا اللون الوردى نموذجا للقبح يفرض نفسه على الرائح والغادى، وينفث سموم التلوث البصرى فى عيون الناس.

وعلى وجه العموم فإنه يجدر إعادة النظر فى أسلوب حكم المحليات وطريقة اختيار مسئوليه، فقد أثبتت التجربة فيما عدا استثناءات فردية محدودة - إخفاق النظام الحالى فى تحديث أقاليم مصر، بل إنه حوّل بعضها إلى مدن خراب، وعاد بها فى الزمن - سواء بالإهمال أو بالفساد - عشرات السنين إلى الوراء، وحتى على مستوى مدينة القاهرة فإنه فشل فى معالجة مشكلة النظافة، أو تمكين الناس من السير على رصيف آمن! فما بالك بتولى مسئولية إقامة مشروعات تجميلية كبرى.

لذلك فإن إنشاء هيئة قومية يديرها متخصصون أكفاء فى جميع النواحى المعمارية والفنية التشكيلية، ويتولى المسئولية الكاملة فى التخطيط والتنفيذ للمشروعات التجميلية بالأسلوب الذى يتلاءم مع تاريخ مصر ووضعها المعاصر، كأكبر دولة عربية وأفريقية كان لها السبق فى النهضة ومواكبة العصر الحديث. ■

تمثال نهضة مصر ◀



فوضى الواقع الثقافي

التأليف... إلى أين؟!

بقلم
د. محمد رجب البيومي

ذكر الدكتور طه حسين فى مقدمة فجر الإسلام أنه اتفق مع الأستاذين أحمد أمين وعبدالحميد العبادى على أن يؤلفوا أجزاء تاريخية تدرس الناحية الأدبية والناحية السياسية والناحية العقلية لتصور الفكر الإسلامي فى وضعه المقارب، وقد بدأ أحمد أمين بإخراج «فجر الإسلام» سابقا صاحبيه، وقال الدكتور طه حسين فى تقديم الكتاب !

«وثلاثتنا متضامنون فى هذا الكتاب على اختلاف أقسامه، فقد استقل أحمد أمين بدرس الحياة العقلية، ولكنه قرأه معنا وأقررناه كما أقره، فنحن شريكان فيه على هذا النحو، واستقل عبدالحميد العبادى بدرس الحياة السياسية، ولكنه قرأه علينا وأقررناه كما أقره فنحن شريكان فيه على هذا النحو، واستقللت بدرس الحياة الأدبية، ولكننا قرأناه جميعا، وأقررناه جميعا، فنحن جميعا شركاء فيه على هذا النحو» .

هذا ما قاله الدكتور طه . وقد مرت الأيام ، ولم نر من حقق هذه الأماني غير أحمد أمين فى سلسلة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام»، فأين ما قرأه طه من مؤلف العبادى، وما قرأه زميلاه من مؤلفه:

سؤال توجهت به إلى صديق المؤلفين الثلاثة أستاذنا أحمد حسن الزيات، فذكر أن أعمال الدكتور طه الأدبية والسياسية والإدارية قد حالت دون أن يكتب ما وعد، أما الأستاذ عبدالحميد العبادى فقد ألف الجزء الأول فى الحياة



طه حسين



أحمد أمين



عبد الحميد العبادي



أحمد حسن الزيات

السياسية ، وعرضه على زميليه ثم استشعر نقصا فى الكتاب فتحرج من نشره ، مع أنه قرأه على زميليه ، فأعلنا سرورهما التام بتوفيق المؤلف، وكان ذلك كافيا لإقناع العبادى، ولكنه تريث، ثم عرض الكتاب علىّ فى مسودته فرأيته لا يقل عما كتبه الأستاذ أحمد أمين ، وأشرت عليه بضرورة نشره فأحجم، لما يرى من نواح مفقودة فى تقديره، ومرت الأيام ، ومات العبادى ودفن كتابه معه، لشدة حساسيته العلمية، وهى حساسية لم تصادف موضعها الصحيح: هكذا قال الزيات .

الضمير العلمى

أذكر هذا الموقف، فى مقدمة حديثى عن فوضى التأليف المعاصر، فهذا كتاب أجمع الأساتذة الكبار أحمد أمين وطه حسين وأحمد حسن الزيات على تقديره ورجاحة منزلته العلمية . ولكن المؤلف الكبير ، وهو أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة لأكثر من عشرين عاما، وقد تخرج على يده من التلاميذ من صاروا أساتذة يشاركونه العضوية فى هيئة التدريس ، ويحملون له من النجلة ما يحمله المدرس النابه لأستاذه الكفء البصير، هذا الأستاذ الكبير قد استشعر وجوها من النقص لم يلتفت إليها سواه ، فحمله ذلك على أن يهمل طبع صفحات سهر فى تسويدها الليالى الطوال ، ورأى ذلك مما يستريح له ضميره العلمى فآثر رضاه .

واليوم ماذا نقول فى هذا الطوفان الجارف الذى تصدره مئات المطابع ، وتسعون فى المائة منه ملئ بالغث الركيك ، وصورة من التقليد الشائه ، والتكرار السقيم ؟ لقد أصبحت عواصم المحافظات فى مصر مليئة بدور الطبع ، وأساتذة الجامعات فى الأقاليم ، وغير أساتذة الجامعات يمدونها بوقود لا ينفد ، وهذه حركة محمودة نشجعها كل التشجيع لو أطردت على وجهها الصحيح ، ولكنك تقرأ ما يقع فى يدك من هذا السيل الجارف، فترى كتابا لمؤلف لم يبلغ الثلاثين بعد ، وفى خاتمته صفحة تحمل عنوان (مؤلفات الكاتب) وهى لا تقل عن عشرة مؤلفات !! أو تزيد، فتساءل كيف استطاع هذا الناشئ المبتدئ أن يتحف القراء بهذه المكتبة

الحافلة، ثم تراجع نفسك ، فتقول لعله أحد الموهبين ، والله واسع الفضل العظيم ، وتقرأ ما بيدك من الكتاب ، فلا تجد غير الترداد المملول لصفحات من صحف الدروس الجامعية، قد نقلت باختلاف العبارة عن مؤلفات مماثلة ، بحيث لو عكف تلميذ مجتهد على تأليف كتاب في الموضوع ذاته لأتى بما جاء به مدرسه المعضال ! ولا يستغرب القارئ كثرة المؤلفات لدرس ناشئ فإن الفقر العلمي في أساتذة المادة ، جعل المدرس الذي يحبو حبوا في السنة الأولى من تعيينه يأخذ ثلاث مواد على الأقل ، ويرى من حقه أن يؤلف في كل مادة ليغنم ربحها المادي الجزيل، فإذا قضى ثلاث سنوات فحسب، فقد ألف عشرة ملخصات سماها كتبا: وصارت هي المثل المحتذى للطلاب !

المتشوقون للتأليف :

فإذا تركنا الجامعيين إلى هواة التأليف ممن يحسبون أنفسهم على شئ، فإننا نجد فريقا من الشباب المتحمس يعشق الأدب قراءة، ولا يستمر في القراءة حتى يؤتى أكله، ولكنه يتشوق للتأليف . وقد يجهد في توفير أعباء الطبع حتى يهون العسير ، وهنا يتلقفه الناشر كما يتلقف الصائد عصفورا قريبا من مكمنه ، وما إن يقع في يده حتى يستولى على ما في جيبه، ولا يهمه إن كان الكتاب رديئا أو جيدا . وكثيرا ما يكون قصة أو مسرحية ، وتكون القصة غرامية ترضى المراهقات والمراهقين ، فللتوزيع أسباب يحذقها الناشر كل الحذق، فهو وثيق الصلة بشركات النشر في الجرائد ودور الإعلان من ناحية ، ومن لجان الاختيار في الوزارات المتخصصة من ناحية أخرى ، أما شركات النشر فيقدم لها الكتاب في ورق السلوفان الملون ، ويكون الغلاف ذا إغراء جاذب ، فإذا به يحتل دواليب البيع جنبا إلى جنب الصحف والمجلات وفي القراء من يغتر بالشكل وحده أو بعنوان القصة الجاذب ، فيدفع الثمن عن سخاء ، وبذلك ينتشر الكتاب في أرجاء الجمهورية على وجه سريع ، ومهما كان المرتجع كثيرا فما بيع منه أكثر، أما اللجان التي تختار الكتب ، فالرجل الحاذق يعرض خدماته للأعضاء نشرا وتوزيعا ، ويجد الاستجابة في أكثر الأحيان فتمتلئ مكتبات المدارس والكليات ومخازن الوزارات لما كان التخلص منه أولى وأجدر ، وهكذا تنهال المؤلفات على القراء كما ينهمر المطر، بل إن للمطر موسما لا يتعداه ، وهذه تتقاطر دون انقطاع ، وأنت الآن تجد الشباب مدفوعا إلى القراء فتحمد هذا الاتجاه ، وقد ساعدت مكتبة الأسرة فعلا على التوجيه السديد الرائع حقا لكتب ممتازة بثمن زهيد ، ولكنها ليست كل شئ في هذا المحيط الواسع الذي يموج بالتيار المتلاطم فيسئ إلى الناشئة إذ ينحدرون بما يقرءون ، وقد حيل

بينهم دين مايثمر ويفيد!... وإذن فلابد من تكوين رأى أدبى عام، يقرر أن قدر التأليف ليس بالكثرة، أو بالقلة، بل بالطرافة والابتكار، وأن الأديب يأخذ مكانه اللائق بكتاب أو كتابين إذا أحسن تأليفهما وأن العالم يرتفع قدرا بكتاب واحد إذا أضاف من الحقائق ما يعد جديدا في بابه، وقد اشتهر لدينا مؤلفون كبار لم يخرج الواحد منهم غير كتاب أو كتابين، فتركوا دويا صارخا بهذه الصفحات المعدودات، فقاسم أمين ليس له غير تحرير المرأة، وهو كتاب زلزل المجتمع المصرى ربان صدوره وانهالت عليه ردود شتى رأى المؤلف أن يرد عليها فى كتاب تال «هو المرأة الجديدة» وقد كان أسلوب قاسم متميزا فى التأليف الاجتماعى المستنير، بحيث اقتفاه كثير ممن يشعرون بتأثيره أو لا يشعرون بل أن معارضيه قد تأثروا به منهجا وإن خالفوه اتجاها، وكذلك كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للاستاذ على عبدالرازق أحدث من الدوى ما لا يزال يتردد صداه إلى الآن، ومع أنى أخالف المؤلف كل المخالفة فيما اتجه إليه من آراء لم يثبت صوابها لدى الفاقهين لا الهواة، إذ هو فى رأيى قد اجتهد فاخطأ، وللمخطئ ثوابه فإنى أقرر أن كتابا واحدا يحدث هذه الثورة الفكرية لهو أفضل من عشرين كتابا لا تضيف الجديد، وقد بدأ الأستاذ كتابه سنة ١٩١٤، وأخرجه بعد عشر سنوات!

بمعنى أنه عانى فى بحثه معاناة طويلة كانت مدعاة بحث متصل! فما يقول هؤلاء الذين يتباهون بكثرة مؤلفاتهم، ويحرصون على رصدها فى كل غلاف، وهى كالبغاث كثرة بدون جدوى، أما الكتاب الثالث الذى أشير إليه فهو كتاب (إحياء النحو) للأستاذ إبراهيم مصطفى، وهو وحيد لم يردفه المؤلف بتابع ولكنه أحدث ثورة فكرية فى محيطه، ومازال موضعا للمجاذبة والمشادة بين كبار الدارسين يبحثون مسائل التيسير فى أبواب النحو! وقد يكون من المؤلفات فى هذا المجال مالم أحط به ولكن دلالتها الواضحة على أهمية الكيف دون الكم يجب أن تكون موضع الاعتبار لدى من يكتبون فى كل شئ ثم لا ينتهون إلى شئ غير المباهاة بسرد المؤلفات فى غلاف الكتاب!

ولست أنكر على المؤلف الموهوب، والباحث المتمرس الدءوب أن يكثر التأليف أدبيا وعلميا، وأن تتعدد مؤلفاته القيمة بمرور الأيام حتى تبلغ الستين أو السبعين أو تزيد فالاستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد ترك من الآثار المتنوعة فى شتى فنون المعرفة ما جعله عملاق الفكر العربى فى عصره، ولكن ذلك لم يأت من فراغ، بل من دراسة متصلة، واطلاع مضن مرهق، وقد كانت كتبه تتوالى هادئة فى أيام شبابه ولكنه منذ الكهولة تدفق كالطوفان، فكان مثل الشجرة الحافلة بالثمر الناضج، تسقط

ثمرها الشهي لأول هبة من هبات النسيم! بعد أن طاب الجنى، وأينع الحصاد ، وللعقاد في ذلك أشباه يقاربونه ولا يحاذونه وهم أولى بالتبجيل والاطراء، ومؤلفاتهم هي التي أسعدتنا في عهد التكوين ، فظفرنا منهم بما لم يظفر أبناء اليوم إذ يتلفتون في كل اتجاه فلا يجدون البديل، كنا في عهد التكوين طلابا متحفزين نقرأ مؤلفات العقاد وطه حسين وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل وتيمور والمازني والحكيم والرافعي وشكري والزيات والبشري فإذا جاوزنا هؤلاء فإلى من يقتفيهم من أمثال محمد مندور وزكي نجيب محمود ومحمود شاكر وعلي أدهم وسيد قطب ونجيب محفوظ، وعلي باكثير ويحيى حقي و نقرأ لهؤلاء فنجد الغذاء القوي ، والتوجيه الحافز، ويكون مقال أحدهم كأنه كتاب ذو صفحات ! لماذا يقرأ جيل اليوم ، والمطابع لاتني تصدمه بما يقطع به الوقت في ضيق وحسرة ؟! بل إن الناشئ المتطلع يقرأ الآن القصة ذات الغلاف المبهر والورق المصقول ، فيجدها قريبة مما يتصور ويتمثل ، فيخيل إليه أنه يستطيع محاكاتها ، وهو يستطيع فعلا ، فيمسك بالقلم ويضع قصة قريبة منها ، ويسارع إلى ناشر يغريه العنوان الجانب، فيحلم بالكسب العاجل وقد حذق طريقة التوزيع، فيبادر بطبعها ، بعد أن يكلف أحد نقاد اليوم بكتابة مقدمة ترتفع بمستوى القصة إلى منزلة الأعلام الكبار! وهذا مايحدث فعلا ، فإذا كثر اليوم الإنتاج القصصي في غير طائل، فهذا سبيله ، وتلك دواعيه .

انفصام في الأسلوب

وفيما نقرأه في أكثر مؤلفات اليوم ظاهرة تدعو إلى العجب ، فإنك تشاهد شبه انفصام تام بين أسلوب كثير من الكتاب في هذه الأيام والمؤلفين بنوع خاص وبين كتاب الجيل الماضي، فأسلوب المؤلفين اليوم لا يتقيد كثيرا أو قليلا بدقة التعبير ، وتواصل المعاني وصحة اللغة وسلامة النحو ، وكأن المعنى السطحي هو كل شئ، أما ابتداء القول بمقدمة تمهد لما بعدها وأما تناول العرض بانبساط يتم عن سعة الأفق، وشمول الإحاطة، وأما العناية بإيضاح النتائج التي انتهى إليها الفصل الممتد في غير طائل، فكل ذلك لا يعني أكثر كتاب هذا الجيل وهم لا يستشعرون قصورا فيما يسطرون بل ربما عدوا الانفلات من قواعد الأسلوب العلمي تحررا من قيود يجب تحطيمها، وقد كانت الصلة مطردة بين جيل المنفلوطي، وجيل طه والعقاد ، بحيث لم يكن هناك خلخلة واضحة بين اتجاه واتجاه ، فالمحافظة على سلامة اللغة ، ووضوح الفكرة ، وجمال الصورة قاسم مشترك بين الجيلين ، مع عمق في النظرة يحتمه ارتقاء الثقافة من جيل إلى جيل، ولكن تعال لنقرأ اليوم كتابا علميا أو أدبيا لهؤلاء الذين يندفعون إلى التأليف

المتواصل ثم قارنه بالكتب السالفة تعبيرا وتفكيرا وصورا ، حيث لا تجد وجها للمقارنة ، فتقرر في تأزم منفعل أننا نتحدث في الشارع ولا نكتب سطورا في صفحات ! والسبب راجع إلى تفاهة ما أخذه مؤلف اليوم من القواعد الأدبية في المدارس الثانوية ، ثم في الكليات الجامعية . حيث أحرز شهادة النجاح فعلا وربما كانت السبب الأول في وظيفته العلمية ولكن هذه الشهادة أصبحت في كثير من الأحوال كشهادات الميلاد، وشهادات الوفيات تعطى لأى طالب! وهل تصدق مثلا أن نتيجة اللغة العربية تعلن في السنوات المتوالية دالة على أن نسبة النجاح ٩٠٪ أو ٨٥٪ ثم تسال المتخرج عن البدهي الذي كان يعرفه حامل الابتدائية القديمة فلا يجيب ! وبعد هذا كله يهيم صاحبنا بالتأليف ، ويحرص على أن تكون له قصص تتداول ، ودواوين شعرية تحفل بعشرات القصائد ، ومؤلفات تباع في ورق السلوفان مع باعة الصحف والمجلات !

سيل من الإطراء

ويأتي الحديث عن مقدمة الكتاب، وعن تقريظ بعض الصحف، فعهدنا بالمقدمة أن يكتبها أديب نابه، أو باحث متميز، لتكون بابا للتعريف بموضوعات الكتاب قبل أن تكون سيلا من الإطراء يوجه للمؤلف ، ولكن المشاهد فيما يطبع اليوم للشباب أن يكون كاتب المقدمة زميلا للكاتب ليس له من الرصيد الأدبي ما يجعله يقوم بالتعريف إلا على وجه مفيد ، وهنا لا أنكر أن جماعة من الشباب في العقد الثاني من القرن العشرين قد اجتمعت على مذهب نقدي في فهم الشعر ونظمه ، فأصدرت من الدواوين الشعرية ما كان نمطا فريدا في زمنه ، وتولى كل منهم تقديم ديوان أخيه الشاب، موضحا اتجاه المذهب الحديث في الشعر ، وهؤلاء هم الأساتذة العقاد وشكري والمازني، فجاء ت مقدماتهم ذات توجيه نير لا يفهم ما نظموه تمام الفهم إلا في ضوئه الكاشف ، هنا كان تقديم العقاد لديوان شكري، وتقديم المازني لديوان العقاد، وتقديم العقاد لديوانيهما فنا جديدا من الدعوة لمذهب جديد، وهذا شئ وما نجده من تقديم القصص والدواوين هذه الأيام شئ آخر إذ هو في الحقيقة تصفيق شاذ في غير موضع الاستجادة، وليست المقدمات دائما مما ينحو منحى التأييد المطلق، فكثيرا ما يكون للمقدم الجاد وجهة نظره المخالفة لبعض ما في الصفحات من اتجاهات ، فيشير المقدم إلى ذلك في التزام خلقي أمين، وأذكر أن الإمام محمد مصطفى المراغي قد قدم كتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل وكتاب «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» للأستاذ أمين الخولي تقديما منصفا كريما لم يخله من لمحات النقد الهادف، فصادف استحسان صاحبي الكتابين قبل أن يصادف إعجاب الفضلاء من الدارسين كما أقول

للذين يرون المقدمة فنا من فنون الدعاية الأخوية أو تشجيعا متبادلا بين زميلين، أقول لهم إن أمانة الكلمة تفرض على المقدم ألا يتجاوز الحق فيما يقول ، واستشهد هنا بإمام آخر هو الأستاذ الأكبر مصطفى عبدالرازق، حيث رجاه مدرس بالمعهد الأزهرى أن يقدم له كتابا فى العروض واستحيا الشيخ الرقيق ، وهو شيخ الأزهر أن يرد صاحب الطلب كسير الخاطر، فكتب مقدمة صادقة قال فيها :

«طلب إلىَّ فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الصاوى المدرس بمعهد القاهرة أن أكتب مقدمة لكتابه فى العروض، ومع أنى درست العروض ، وحفظت فى عهد الطلب بعض متونه المشهورة ، وأديت فيه امتحان العالمية منذ عهد ، ومع أنى أقول منذ شبابى شعرا ، ولا أزال أميز بين المنظوم والمنثور ، لكنى أعترف أنى لست عروضيا بالذوق ، ولا أعتبر نفسى فنيا فى العروض، وإذن فإننى أرى من الجرأة أن أضع مقدمة لكتاب رجل فنى يشتغل منذ سنوات كثيرة بتدريس العروض ، ولكن لا يسعنى إلا أن أثنى على أستاذ يضع مجهوده فى صورة كتاب يقدمه للناس ليستفيدوا من ثمرة مجهوده من ناحية ، وليستفيد هو مما قد يصل إليه من ملاحظات ، وأعتقد أن هذه هى السبيل إلى بلوغ الكمال ، لأن المؤلف يستطيع على هذا الوجه أن يعيد طبع كتابه، فيوضح ويستكمل ، وعلى هذا الاعتبار أشكر للأستاذ مجهوده ، وإخلاصه لفنه ، وأسأل الله له التوفيق والنجاح » .

فماذا يرى القارئ فى هذا الالتزام الأمين بقول الحقيقة دون تزيد! إن ما كتبه الإمام مصطفى درس أدبى وخلقى معا ، وأظننى قد تحدثت من قبل عن هذه المقدمة على صفحات الهلال ، وقد اقتضى المقام أن أعيد الحديث ، فهو عبرة بالغة يزينها الترديد !

أما تقريظ الصحف، فيتوقف على الصلة الشخصية بمحرر الجريدة الأدبية ، وهى فى أكثر أحوالها صلة تقوم على الوساطة والمحاباة، وقل أن تهتم بنقد موضوعى يضع الكتاب فى الميزان الدقيق ، ولكن مجرد التنويه بالأثر يجعل الكتاب فى منطقة الضوء ، وهذا ما يحرص عليه المؤلف والناشر معا ، وحسبهما ذلك .

إن تحديد النسل البشرى لم يتيسر مع بذل الجهود فى سبيله ، ثم رئى أن يكتفى بتنظيم النسل لا تحديده حتى يتيسر التنفيذ ، ومع ذلك يواجه التنظيم صعوبات توقف اطراده المرجو فهل يمكن تنظيم النسل الفكرى على وجه يتيح للقارئ المتطلع أن ينقذ نفسه من غثاء متراكب يضر ولا يفيد! وأخيرا أكرر إعجابى الخالص بمكتبة الأسرة ، وأعدها جامعة ممتازة ، لها أساتذتها المؤلفون ، وطلابها الدارسون . ■

● «منتقدو حرب العراق ، يعتقدون أن تونى بلير سلم بلاده لهووس سلاح من تكساس» .

الكاتب الانجليزى ويليم رايس موج

● «مصر فى حاجة ملحة إلى إعداد ترتيب تفضيلي للموارد المتاحة والحاجات».

د. صليب بطرس
الأقتصادى والمحاسب الكبير

● «الجماهير تعبير أريد به ، منذ العصور ، اقتياد الناس إلى الشوارع من أجل أن تهتف ضد حريتها ، وضد حقوقها ، فى أن تكون أفرادا أخلاقيين ، مبدعين ، متساوين» .

المفكر اللبنانى سمير عطا الله


وديع فلسطين

● «أحس بأني خارج المجتمع الأدبى في مصر ، لا هم يهتمون بى ، ولا أنا أهتم بهم» .

الأديب وديع فلسطين

● «بعض اليسار أصبح كالقبائل البدائية شعاره : تتغير الدنيا ، ولا نتغير» .

المفكر التونسى عفيف الأخضر

● «التحديث المستنير خير سبيل لمكافحة الإرهاب» .

برويز مشرف
رئيس جمهورية باكستان


برويز مشرف

● «كل رجل دولة أوروبية غربية أسير شعورين متناقضين : فهو من ناحية يشعر بالارتياح ، لأن الولايات المتحدة الأمريكية موجودة ، ومن ناحية أخرى يشعر بالغيظ ، لأن حياة ورفاهية مواطنيه مرهونة إلى حد كبير بقرارات يتخذها رئيس دولة أجنبية ، وبعيدة» .

المفكر الألمانى الفريد جروس

● «إن أردت صديقا فى واشنطن ، فلتقتن كلبا» .

مقولة الرئيس السابق
بيل كلينتون مولع بترديدها


بيل كلينتون

● «الله لم يتخل عن المؤمنين ، وإنما المسلمون تخلوا عن العلم» .

د. مهاتير محمد رئيس حكومة ماليزيا

● «هناك نوعان من وزراء المالية ، نوع يفشل فى مهمته ، ونوع آخر ينجو بجلده ، قبيل فشله !!» .

وزير المالية البريطانى

في مقام

الشيخ الأكبر

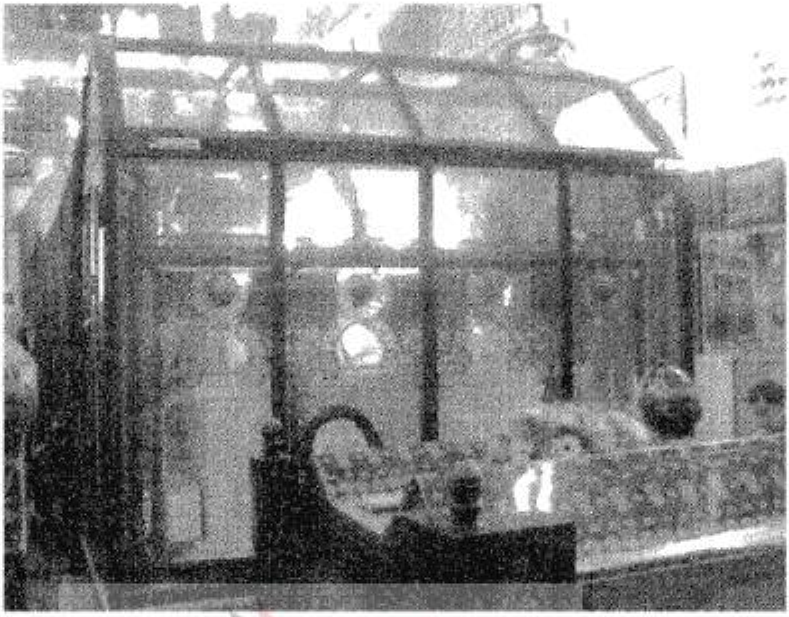
بقلم
د. يوسف زيدان

لطالما اشتقت لزيارة عاصمة الشام، ولطالما منعتني عنها الموانع مع أنني درت عدة مرات في فلكها الجغرافي، وكنت أرنو لدمشق من البلدان المحيطة بسوريا الأردن، لبنان، تركيا، وغايتي من دمشق، زيارة مقام شيخ الصوفية الأكبر: محيي الدين بن عربي.

كان الشيخ قد ولد بالأندلس سنة ٥٦٠ هجرية وارتحل عنها في شبابه فنزل مصر وزار الحجاز ثم قر مقامه ببلاد الشام، حتى وفاته بدمشق سنة ٦٣٨ هجرية تقول المصادر التاريخية: ودفن بسفح جبل قاسيون، وقبره ظاهر يزار!

الإذان بالزيارة

لم يسمح الزمان – أم لم يأذن لي الشيخ بهذه الزيارة المشوقة إلا آخر يوم من شهر مايو الماضي .. فقد كنت في بيروت لحضور مؤتمرين دوليين، أتاحا يومين بين الأول منهما والأخير، فاتجهت ليلاً من لبنان إلى الشام.. وعجبت من أمر الناس هناك، إذ لايقولون (دمشق) أبداً، وإنما يسمونها (الشام) ولم أجد عندهم إجابة عن السبب في إطلاق اسم البلد على المدينة تذكرت أننا نفعل الشئ نفسه. فنقول (مصر) لمدينة القاهرة، ونسمي محطة القطار المتجه من الإسكندرية إلى القاهرة (محطة مصر) وكأن الإسكندرية خارج نطاق مصر تأملت الأمر، فرجح عندي أن العواصم كانت دوماً تختصر البلاد، ويسكنها الحاكم الذي يختصر العباد ، وكأن لاشئ خارج المختصرين .



ضريح الشيخ الأكبر

وصلت دمشق بعد ساعتين، منها ساعة راحت فى بوابتى الحدود بين البلدين (هل سيسقط يوما سور برلين الفاصل بين بلاد العرب) كان ليل المدينة رائقاً من بعيد، وبدت أنوارها المستحية المتماوجة مع الجبال المحيطة بها .. أفهمنى الجمال المحيط بالمدينة، سبب تعلق القدماء ببلاد الشام وشكواهم من طبيعة مصر، تذكرت مخطوطة البقاعى المحفوظة بدار الكتب المصرية (هل لاتزال محفوظة؟) وهى كتاب كبير غير منشور جعله البقاعى بعنوان " الإعلام بسن الهجرة إلى الشام ".

الصخب الدمشقى

فوجئت بصخب المدينة، وإيقاعها القاهرى سألت السائق عن عدد سكان دمشق، فقال : كثير .. كان كثير من الناس فى الشوارع والميادين المليئة بصورتى الرئيس الحالى ووالده الرئيس السابق، مليئة على نحو لافت داع للتأمل . تأملت الأمر، فوجدتها فى الواقع ليست صوراً لأشخاص، وإنما هى تمائم تحمى الواحد من غيره، وتحتمى بها الجماعة من الآخر المتربص .. كثير الحول والحيل وارتجفت من هاجس جاثم على الروح: هل ستلقى دمشق يوماً مصير بغداد الأخير؟ .. سيحرسها الشيخ الأكبر .. هذا الخاطر مر ببالى فهدأت قليلا وسرعان ما انزعجت ثانية مع خاطر قاصف مضاد : ولماذا لم يحرس الإمام عبد القادر الجيلاني بغداد مما عصف بها هذه الأيام، ومما عصف بها من قبل مرات بيد الصفويين، ومرة بيد هولاكو ؟ فمن



مدخل مسجد ابن عربي بدمشق

الذي يحمي البلاد إذن، هل ربها أم أربابها أم أقدارها.. أم دم أولادها .. أم دعوات الأمهات ؟ قلبي عليك يابغداد ملتاع .

ذات مرة كنت محوطا بأهوال أهل الزمان، وبلغ بي السيل الزبى .. وفي لحظة وجد وفقد واعتصار، وقعت عيني على (رسائل محيي الدين بن عربي) فقمت إليها استفتح، لأرى ما يقول الشيخ لي .. فتحت الكتاب من منتصفه، فوقعت عيني على قوله :

لاراحة لك من الخلق، فارجع إلى الحق، فهو أولى بك !

في ليلتي الدمشقية الأولى سألت نفسي، هل النزوع لزيارة مقام الشيخ نابع من شوق أم اشتياق، وتذكرت كلام الشيخ في الباب التاسع والخمسين بعد الخمسمائة من كتابه الزاخر (الفتوحات المكية) حيث يقول : **الشوق يسكن باللقاء، والاشتياق يهيج بالالتقاء.. ماعرف الاشتياق إلا العشاق.. للنار التهاب وملكه، فلابد من الحركة، والحركة قلق، فمن سكن، ما عشق .. كيف يصح السكون، وهل في العشق كمون ؟ هو كله ظهور، ومقامه نشور**

الحضرة

سكنت فندقا بوسط دمشق، وأمضيت ليلة ملؤها القلق والترقب لنور النهار المؤذن بزيارة الشيخ في الصباح الباكر قلت للسائق أريد مدفن الشيخ محيي الدين، قال ذلك في (حي الشيخ محيي الدين) وانطلق دقائق، ثم أوقفني بمدخل سوق دمليزي للخضار



● المجاورون » لمقام الشيخ الأكبر

والفاكهة، نظرت متسائلاً، فقال السائق ما مفاده إن مقام الشيخ بقلب هذا السوق الصاخب .. كنت أتخيل الأمر دوما بعكس ذلك : جبل اسمه قاسيون يمتد من تحته واد فسيح، وعند سفح الجبل ساحة فيحاء ممتدة الأطراف، في وسطها مقام متسام للشيخ، تحيط به مراقد للأولياء، تجلله رهبة ويلفه خشوع ..

صياح البائعين شوشني، ويعثرني في الممرات الضيقة، في منتصف السوق سألت بائع فواكه عن الشيخ، فابتسم بسمة عذبة، وقال: الباب أمامك .. كان البائع يفرش فواكهه في مدخل مسجد منخفض بضع درجات، مكتوب على بابه: **جامع الشيخ محيي الدين بن عربي ، أنشاه السلطان سليم سنة ٩٢٤ هجرية !**

ما الذى دعا الفاتح العثمانى لبناء مسجد فوق مرقد الشيخ الأكبر، هل كان يتبرك به .. أم أراد للناس أن يتبركوا ليتفرغ هو للفتوحات؟ هل استبشر السلطان بالشيخ لأنه صاحب (الفتوحات) وهو يتوق أيضاً للفتوحات ؟ وهل ثمة صلة بين فتوحات الشيخ الأكبر (المكية) وفتوحات السلطان للبلاد الأوروبية والعربية .. وهل علم السلطان أن الشيخ كانت له مواقف فريدة من حكام عصره، حتى إنه كتب للملك الكامل يدعوه لجهاد الصليبيين بلغة حادة لم يسبق لحاكم عربي أن خوطب بها **(قال الشيخ للملك : إنك دنئ الهمة وإما أن تقاتلهم أو نقاتلك نحن) .**

كيف للصوفى، وهو المتعلق بالجانب الإلهى المتعالى، أن يقاتل لأمر دنيوى مهما بلغ

شـأوه . أم تراها إشارة إلهية وردت للشيخ تدعوه لدعوة الملك للجهاد بهذه اللغة الحادة التي لم نعرفها في أسلوب ابن عربي ولماذا ينزعج محيي الدين بن عربي من غزو الصليبيين للشام في زمنه، وهو الذي يقول في أبيات شعرية شهيرة، إنه يؤمن بدين (الحب) المتجاوز كل الديانات:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه دانى
وقد صار قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب انى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

.. ههنا لطيفة دقيقة، ومسالة عصية على الفهم فالبيت الأول من هذه الأبيات المذكورة، كنت دوما استحضره من ذاكرتي في مطلع هذه القطعة الشعرية .. وأوردته من ذاكرتي يوما في بحث انتهيت منه - كعادتي - ثم عدت إلى المصادر لأضع الهوامش والتوثيق اللازم للنصوص لم أتذكر موضع ورود الأبيات في كتب ابن عربي، فرحت أراجعها جميعها : الديوان، الفتوحات المكية، فصوص الحكم، الرسائل الصغرى .

العاشق الرباني

استغرق الأمر لليالي، حتى انقدح خاطري بأنها في كتاب (ذخائر الأعلاق) الذي شرح فيه الشيخ كتابه (ترجمان الأشواق) الذي أورد فيه أشعار قال معاصروه إنه تغزل فيها بفتاة أحبها اسمها النظام ابنة شيخة المقيم بمكة آنذاك (ابن رستم الكيلاني) يقول الشيخ في ديباجة (ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق) ما نصه:

الحمد لله الحسن الفعال الذي يحب الجمال .. أما بعد فإني لما نزلت مكة سنة ٥٩٨ هجرية ألفيت بها جماعة من الفضلاء ولم أرفيهم مع فضلهم .. مثل الشيخ أبي شجاع زاهر بن رستم الكيلاني .. وكان لهذا الشيخ رضي الله عنه، بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر وتزين المحاضر والمحاضر وتحير المناظر، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس .. ساحرة الطرف، عراقية الظرف، إن أسهبت أتعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت، إن نطقت خرس قس بن ساعدة، وإن كرمت خنس معن بن زائدة، وإن وفت قصر السموأل خطاه ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض السيئة الأغراض، لأخذت في شرح ما أودع الله تعالى في خلقها من الحسن، وفي خلقها الذي هو روضة المزن، شمس بين العلماء بستان بين الأدباء، حقة مختومة، واسطة عقد منظومة، يتيمة دهرها، كريمة عصرها.. مسكنها جياد وبيتها من العين السواد ومن الصدر الفؤاد، أشرقت بها تهامه، وفتح الروض لمجاورتها

أكمامه .. عليها مسحة ملك وهمة ملك فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب (ترجمان الأشواق) أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق وعبارات الغزل اللائق، ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس من كريم ودها وقديم عهدها إذ هي السؤال والمأمول، والعذراء البتول، ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق، من تلك الذخائر والأعلاق .. فكل اسم اذكره في هذا الجزء فعنها أكني، وكل دار أندبها فدارها أعني ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية، ولعلمها رضى الله عنها بما أشير إليه .. وكان سبب شرحي لهذه الأبيات، أن الولد بدراً الحبشي والولد إسماعيل بن سودكين (من تلامذة الشيخ المقربين) سألاني في ذلك، لأنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينكران هذا من الأسرار الإلهية فشرعت في شرح ذلك .

البيت الأول : راجعت (ذخائر الأعلاق) فوجدت الأبيات هناك، وليس معها البيت الاول الذي أوردته منذ قليل، فظننت أن البيت سقط من هذه الطبعة، فرجعت لمخطوطات الكتاب، فلم أجد البيت.. سألت الزملاء المتخصصين والدراويش الهائمين بابن عربي، فلم يعرفه واحد منهم !

من أين أتيت بهذا البيت الذي هو على وزن وقافية بقية الأبيات، ولاينتظم معنى الأبيات إلا به، خاصة أن البيت (الثاني) يبدأ بواو عطف تصله بما سبقه .. لا إجابة حتى الآن عندي .

مقام الشيخ

دخلت من بهو المسجد، فألفيت شارة تدل على مرقد الشيخ، نزلت بضعة درجات أخر (هذا هو مستوى سطح الأرض قبل ثمانمائة سنة) وفي غرفة مستطيلة، داخل سياج من الفضة الخالصة، كان مقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي .. أشهر صوفي في تاريخ الإسلام.

بجوار المرقد ثلاثة مشاهد لأولياء أرادوا أن يدفنوا تحت أقدام الشيخ، وإلى جوارهم قبر الأمير عبد القادر الجزائري الذي ولع بالشيخ، ونشر لأول مرة كتاب (الفتوحات المكية) وكان إلى جانب تاريخه الجهادي المعروف، ذا نزوع صوفي أصيل .. بل كان مؤلفاً صوفياً، نشرت له قبل أعوام شرحاً صوفياً بديعاً لأبيات صوفية مجهولة المؤلف شرحها أيضاً صوفية آخرون – وتقول :

رأت قمر السماء فأذكرتني
ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمراً ولكن
رأيت بعينها ورأت بعيني

يحيط بمرقد الشيخ مساحة تكفي لجلوس بضعة رجال، وفي الجانب المقابل مساحة أقل مخصصة للنساء وقد أسدلت بين الجانبين ستارة خضراء مشدودة بخيط .. وجدت لي بين الجالسين بالمقام موضعاً، كانوا خمسة أربعة منهم من يقرأون

المصاحف همسا والخامس مطرق أمام مقام الشيخ في استغراق لا آخر له ،، لما دخلت، رفع رأسه فرأيت فى وجهه ملامح شيخى - يوم كنت متصوفا - الذى فارق دنيانا قبل سنوات : مصطفى حلمى القادرى .

جلست لأقرأ الفاتحة قرأت فواتح كثيرة فانفتحت أمام بصيرتى كوة سطعت منها تجليات الشيخ الأكبر، رأيته - على بقايا مرايا ذاتى - ساطعاً فى أحواله ومقاماته، منذ بدو شأنه فى بلاد الأندلس، حيث نشأ وتلقى العلم وبرقت أعلام ولايته، وهو بعد - بحسب تعبيره - لم يبقل وجهه (يقصد : لم ينبت له شارب أو لحية).

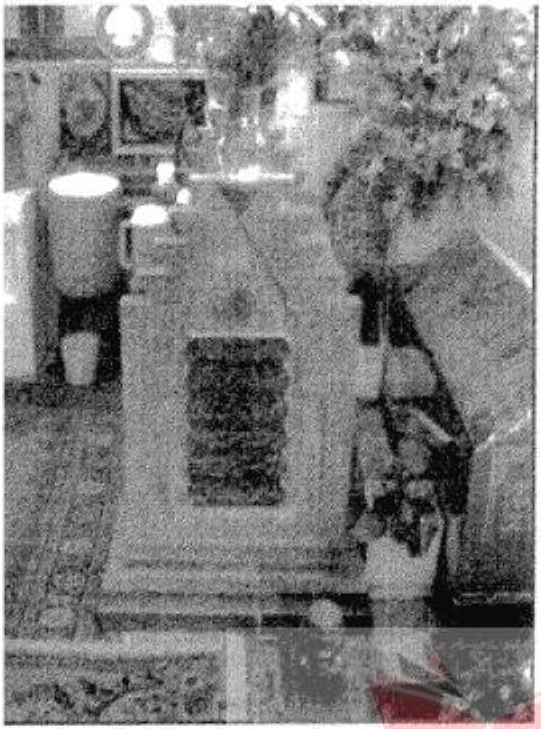
فى هذا الوقت المبكر من حياة محيي الدين بن عربى، سمع به الفيلسوف الشهير أبو الوليد بن رشد ، وكان الأخير صديقاً لوالد محيى الدين فطلب ابن رشد من الوالد لقاء ولده .. فكان لقاء الفيلسوف والصوفى يحكى لنا ابن عربى لقاءه مع ابن رشد، فيقول ما نصه :

دخلت يوما بقرطبة علي قاضيها أبى الوليد بن رشد، وكان يرغب في لقائى لما سمع وبلغه ما فتح الله به على فى خلوتي، فكان يظهر التعجب مما سمع فبعثنى والدى إليه فى حاجة، قصداً منه حتى يجتمع بى، فإنه كان من أصدقائه، وأنا (آنذاك) صبي ما بقل وجهى ولا طر شاربي فعندما دخلت عليه، قام من مكانه إلي محبة وإعظاما فعانقني وقال لي: نعم ! قلت له : نعم فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم استشعرت بما أفرحه فقلت : لا فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده وقال لى : كيف وجدتم الأمر فى الكشف والفيض الإلهى، هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت : نعم ولا، وبين نعم ولا تطيـــر الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها ! فاصفر لونه

وهكذا، كان لقاء ابن عربى وابن رشد عند تقاطع طريقين .. طريق الصبى العارج من العلوم الدنيوية إلى المعارف الإلهية، وطريق الشيخ الذى أفنى عمره فى الاشتغال بالفلسفيات الأرسطية وهموم الدنيا لم يكن الفيلسوف ابن رشد مؤمنا بالطريق الصوفى، لكنه كان قلقاً حياله كان يعلم أن (الحقيقة) غير محدودة، وعزيزة المنال.. الحقيقة عند ابن رشد تتجلى حينا فى ثوب فلسفى، وحينا فى إهاب الدين، وحينا فى إطار الدين .. فأين التجلى الأتم للحقائق، هل هو فى الكشف الصوفى، وهل يدرك الصوفية (الحقيقة) بنوع من الإشراق والفيض، وهل هذا الصبى - ابن عربى - قد عرف فى بداياته، الطريق الذى غاب عنه - ابن رشد - حتى فى نهاياته.. أسئلة قلقة كانت تعتمل بعقل ابن رشد (الشيخ) الذى كما رأينا، زاده ابن عربى (الصبى) حيرة على حيرته .

انتباه

رددت من غيبتى بالمقام المتوغل فى الأرض قدر قامتين، وانتبهت ثانية لمن حولى، كان الشيخ المواجه للمقام لايزال جالساً بإطراقته الخاشعة، وكان الجالسون حولى



لايزالون يترنمون بآى القرآن وسرت من خلف الستارة الخضراء همهمة النسوة اللواتى أتين مبكراً لمجاورة الشيخ، علت أصواتهن فى الجانب النسوى غير المعزول بالستارة وقف البعض منهن ليقمن الصلاة سألت الشيخ المهيب الجالس على باب المقام : هل تجوز صلاة النساء أمام الرجال ؟ نظر إلى هنيهة، ولم يجب ! عدت لأساله . هل أمضيت وقتا طويلاً حارساً للمقام ؟ هز رأسه إيجابا، ولم يزد .. أردت لو أسمع صوته، فسألته. هل هذا المقام هو قبر الأمير عبد القادر الجزائرى ؟ قال بهدوء : نعم .

أعرف أن رفات الأمير عبد القادر انتقلت للجزائر قبل سنوات، وأقيم له مشهد عند الطريق الممتد من المطار إلى العاصمة .. لماذا حرص الجزائريون على نقل رفات الأمير.. هو لإبراز اعتزازهم به .. أما كان من الممكن الاعتزاز به وهو مدفون بالموضع الذى اختاره لنفسه .. تراهم رأوا فى (سوريا) بلداً آخر، قاصيا وإن لم يكن قاسيا، تألت ماذا لو قام كل بلد عربى وإسلامى بنقل رفات أعلامه المدفونين فى البلاد العربية الأخرى فى هذه الحالة سينبش العرب أرضهم بطولها وعرضها .

الرحيل

كان النهار قد انتصف، مرت الساعات سريعة بمعية الشيخ ، وأدهشنى فور خروجى من المقام المستقر فى بطن الأرض، وذلك الصخب الآتى من السوق المحيطة .. لم يصل شئ إلى مسامعى داخل المقام، فقط كان السكون والسكينة والغوص فى بحار ابن عربى .. تلك البحار الهادرة المغرقة، الساطعة المشرقة .

فى طريق خروجى من المقام، عرجت لزيارة المسجد .. مسجد فسيح، ذى حضور خاص . على بابه وضع احدهم (لافتة) للنظر، عليها صورة تليفون محمول عليه شارة المنع.. وبجوار الصورة كتب :

اقطع اتصالك بالخلق، واجعل اتصالك مع الخالق !



تسويق الأديان على الإنترنت

المخاوف والنتائج (٢)

بقلم
د. أحمد محمد صالح

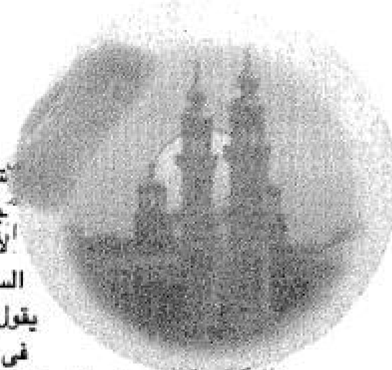
يوجد خط باهت بين الإنسانية والتقنية ، تلك العبارة هى ملخص الأفكار المقلقة لرأى كورزويل (Ray Kurzweil) ٥٤ عاما ، مؤلف كتاب «عصر المكائن الروحية : عندما تتجاوز الحاسبات الذكاء الإنسانى» ، الذى نشر فى يناير عام ٢٠٠٠ ، وكورزويل له حتى الآن مئات المقالات و٤ مؤلفات حول التكنولوجيات ، ومستقبلها ، وتطبيقاتها على المجتمع ، وهو مخترع ومؤلف موسيقى ، وكاتب ومفكر مستقبلى مشهور حول العالم ، استلم ١١ دكتوراة فخرية في العلم والهندسة والموسيقى والإنسانيات من جامعات العالم ، وأطلقت عليه صحيفة الوول ستريت العبقرى القلق! والبعض سماه ماكينة التفكير ، ويهتم فى مؤلفاته المستقبلية بالعلاقة بين الحواسيب والخلود ، ويأخذ كورزويل مكانه بشكل واضح كمستقبلي بارز في وقتنا الحاضر ، وتتم المقارنة بينه وبين توماس اديسون ! ، وكتاب كورزويل الأحدث والأكثر رواجا هو عصر المكائن الروحية

! نشر في ٩ لغات ؛ وحصل على العديد من جوائز الاختراع والإبداع العلمي ، كتابه الأول «عصر المكائن الذكية» سمي أفضل كتاب عام ١٩٩٠ في الحاسبات ، وكتب في أواخر الثمانينات ، وكانت تنبؤاته دقيقة جدا حول التسعينيات وبدايات ٢٠٠٠ سنة . كتابه القادم عنوانه The Singularity الخصوصية أو التفرد ، إن صح التعبير ، وسيصدر خلال هذا العام (٢٠٠٣)

الروح ورقاقة السيليكون

كورزويل يدعو قرائه إلى «نخيل عالم جديد ، حيث الفرق بين الماكينة والإنسان ، فرق باهت وضبابي ، ويتلاشى الخط بين الإنسانية والتقنية ، وتتحد الروح مع رقاقة السيليكون ! وكتب يقول : أن الاخصائيين بعلم الأعصاب من جامعة كاليفورنيا في سان دياجو ، وجدوا في جسم الإنسان ما يدعونه وحدة قياس الاتصال مع الله «God module» مكان صغير جدا من الخلايا العصبية في شحمة الأذن الأمامية ، التي تبدو منشطة جدا ، أثناء ممارسة الشعائر والطقوس والواجبات الدينية، ويمكن تحسين وتعميق وتفعيل تلك الممارسات من خلال مؤشر تنشيط تلك الخلايا! ويتوقع كورزويل قبل عام ٢٠٣٠ ، مكائن تنتج أقوالا مأثورة يستشهد بها الناس» وهذه المكائن اشتقت من التفكير الإنساني ، ولكنها فاقت البشر في القدرة والحنكة ، وستطالبنا تلك المكائن أن تكون واعية ! وستطالبنا أيضا أن تكون لها حياتها الروحية .. ! وستعتقد تلك المكائن بأنها تملك تجارب روحية ، ولديها القدرة على إقناعنا بأن تجاربها الروحية ذات مغزى .. ! مكائن القرن الحادي والعشرين – المستندة على تصميم التفكير الإنساني – ستفعل كما يفعل أسلافها الانسانيون – ستذهب إلى بيوت العبادة الحقيقية والمتخيلة للتأمل ، والصلاة ، والاعتراف بالذنوب والاستغفار !

ويضيف كورزويل ويقول : إن تقنية الاتصال بين العالم الالكتروني والعالم العصبي الإنساني تشكلت فعلا ! ونحن سنكون قادرون على تغذية ممراتنا العصبية مباشرة بسيول من البيانات ! ولسوء الحظ ، هذا لا يعني أننا قادرون على تغذيتها وتحميلها مباشرة بالمعارف ! لأن المعرفة تتضمن ملايين الرتباطات بين تلك البيانات ، وكذلك البنية المعرفية للإنسان لم تحصر في مكان معين ، ولم يزود الإنسان بممر مباشر لتعديل كل تلك الارتباطات ، ماعدا الطريق التقليدي البطيء ، وهو التعلم ! ويتوقع كورزويل عام ٢٠٠٩ بأن الحاسبات ستلعب دورا مركزيا في كل مظاهر التعليم ، وبحلول عام ٢٠١٩ ، يؤكد على أن عمليات التعلم ستتم بالكامل من خلال برامج الكمبيوتر المعتمدة على محاكاة المعلمين ، وحتى إذا كان المعلم إنسانا ، سيكون دوره مجرد مستشار من على بعد ، بدلا من المعلم التقليدي . وفي عام ١٠٢٩ ، يلمح كورزويل بأن البشر سيتعلمون مبدئيا عن طريق المعلمين التخيليين ، لكن التعلم سيتم بشكل واسع عن طريق زراعة وغرز البيانات في الشبكة العصبية المتوفرة في الإنسان ، التي ستستخدم لتحسين الذاكرة والفهم والإدراك ، ووقتها لن يستطيع الإنسان أيضا تحميل وتنزيل المعرفة مباشرة !



هل يريد كورزويل أن يقول لنا أن نيل وبلوغ المعرفة يبدو شكلا كارتباطات وتراكيب ، لكن الروحانيات ببساطة مسألة ميكانيكية ، تتم بإدخال البرنامج الصحيح أو تحديد مكان الأعصاب الصحيحة للاستثارة ، أي باتحاد الروح ورقاقة السيليكون ، حيث يبهت الخط بين الإنسانية والتقنية كما يقول ؟! ..

في السنوات الأخيرة ظهرت عدة أبحاث وكتب أشهرها كتاب الدكتورة شرى توركلي Sherry Turkle الحياة على الشاشة . الهوية في عصر الانترنت (١٩٩٧) ، ومازال يطبع منه طبعات جديدة كل عام ، والدكتورة توركلي من معهد ماساشوسيتس التكنولوجي ، وبدأت ملاحظتها المنهجية لقياس التغيير السيكولوجي لمستعملي الكمبيوتر مبكرا في عام ١٩٨٠ حين حدثت ثورة الكمبيوتر الشخصي ، خاصة بعد انتشار نظام النوافذ كنظام تشغيل . ومن أجمل ما قالته في كتابها : أن الكائنات الإنسانية أصبحت في تشابك تام مع الكائنات التكنولوجيا ، وأيضا مع بعضها البعض ، لدرجة الصعوبة التامة في التمييز بين ماهو إنساني وما هو تكنولوجي ! فنحن نعيش الحياة كلها الآن على شاشة الكمبيوتر أو شاشة الانترنت ، حتى أصبحنا مخلوقات ميكانيكية تتكون من خليط من البيولوجيا والتكنولوجيا والشفرات المكودة ، وصار من الصعب المحافظة على المسافة التقليدية بين الإنسان والآلات ! وأصبحنا نعيش بدلا من ثقافة الحساب والأعداد ، ثقافة المحاكاة بالملاحظة والتفاعل في بحور فضاء الانترنت ! وبينت نتائج دراسات علم النفس وعلم الاجتماع الحديثة ، أن هناك قلقا عاما بين البشرية من تآكل الحدود بين الحقيقي والتخيلي ، بين الحي والجامد ، بين النفس الاحادية والمتعددة! وهنا نتذكر مخاوف وقلق مارشال مكلوهان صاحب النظرية المشهورة في الاتصال منذ أواخر الستينات على نوعية الحياة القادمة التي سماها حياة الديسكارنيت «The discarnate life» ، وفيها يستطيع الإنسان عن طريق التقنية الالكترونية ، التخلص من جسمه بشحمه ودمه ، وينتقل فورا إلى أي مكان يريده ؛ حيث يجتمع الناس في أي وقت ، وفي أي مكان ، هناك في الفضاء لكي يصلون ، أو يغنون ، ويتأملون أو يفكرون ، أو حتى يأكلون ! وإذا استبعدنا حكاية الأكل هذه ، فإن الناس فعلا الآن تجتمع هناك في فضاء الانترنت لتصلي وتفكر وتتأمل !

الصلاة في فضاء الانترنت

يمتلىء فضاء الانترنت Cyberdpace بالمحتوى الديني ، ويقدم فرصا جديدة ، ويتحدى كل سمات واعتبارات الدراسات الدينية، سواء التاريخية أو النصية ، أو الدراسات الميدانية . علاوة على ذلك، يملك الانترنت كوسيط اتصالي مميزات فريدة ، التي ربما تعدل السياق الثقافي والاجتماعي للتدين الذي تنشغل به الدراسات الأكاديمية للدين . والثورة الاتصالية الجارية الآن ، ربما بقصد أو عن غير قصد ، سوف تغير واجهة ومظاهر الدين بتغيير السياق الاجتماعي والثقافي الذي يحدث فيه الدين . ومن المهم أن نفهم كيف ولماذا يحدث هذا التغيير ؟

وكما هو الحال مع ثورات إعلامية واتصالية سابقة ، بداية من اختراع الكتابة إلى

التليفزيون ، يجب أن نعترف بأن النتائج الاجتماعية يحتمل أن تكون عميقة جدا ، وإذا كانت الاستعمالات الدينية للانترنت تتشابه مع الاستعمالات الدينية للتليفزيون ، لكن يمكن رصد ثلاثة اختلافات مهمة وحاسمة : (١) الانترنت وسيط تفاعلي وليس مجرد جهاز للبث والإذاعة ؛ (٢) أي واحد يمكن أن يطلق نفسه على شبكة الويب العالمية ، مكونا موقعا بسهولة نسبية ونفقة صغيرة ' (٣) الانترنت عالمية الانتشار والوصول ، ويمكن لأي إنسان في العالم باستثمار مالي صغير نسبيا ، أن يجعل آرائه الدينية معروفة ، ومنتشرة ، على الأقل إلى مئات آلاف الآخرين في كافة أنحاء العالم ، فشبكة الانترنت عالمية ومفتوحة نظريا وعمليا لكل شخص في العالم .

ونزعم أن الأفكار والممارسات الدينية تواصل تزويدنا بالإطار النهائي للمعنى الضمني الذي يطرحه الناس حول مسائل الهوية والمجتمع ، لكن الرابطة بين الانترنت والدين ، خلال تجارب تشكيل وصياغة الهوية والمجتمع ، رابطة جدلية وليس سببيه . لقد مارست الأديان نفوذا عميقا دائما على مفاهيمنا عن النفس وإحساسنا بالمجتمع ، لكن إذا تغيرت الشروط المادية لتسهيلات الاتصال ، تظهر ممارسات وطرق تفكير جديدة حول النفس والعلاقات الاجتماعية على مقابس واسع ، ومن ثم يتغير الإطار الديني للشرعة الاجتماعية ، وبالطبع تلك التغييرات المستحدثة ستقاوم من قبل آخرين !

توظيف تقنيات الانترنت

كل الأديان كانت تعتمد على المطبوعات بكافة أشكالها لتوصيل رسالتها ، الآن أصبحت كل الأديان تدعو كافة المؤمنين لدخول عضوية فضاء الانترنت ! وفي إمكانك الآن ، إذا لم تكن عندك هواية معينة ، أن تنظم وتبني لك موقعا على الانترنت ، وتقدم نفسك كواحد من الكهنة ، أو من الشيوخ ، والرهبان ، أو الوعاظ ، أو القساوسة ، أو الحاخامات!

وكل الأديان لها نصوصها المقدسة ، بل أن بداية الإيمان دائما تبدأ بالنص ، وقد فهم المسلمون والبروتستانتيون ، والكاثوليكيون ، الأرثوكسيون، واليهود وغيرهم من أصحاب الديانات ، فهموا جميعا أهمية النص ، فكانت الرسالة المطبوعة هي الأداة الإئيسية التي تستخدمها الأديان في توصيل رسالتها ، ودائما كان أصحاب الديانات يملكون مخاوف وحساسية من أي تكنولوجيا جديدة يهدد مكانة وأهمية النصوص ، ويتوجسون من تهديد العقيدة نفسها ، فالمؤمنون دائما يلتفون ويتجمعون حول النصوص (أهل الكتاب)! ومن هذا المنظور احتفل كل أصحاب الدينات بالانترنت ، بتلك اللغة الإنسانية الجديدة hypertext، التي تفعل وتعني النصوص ، رغم أن هذه اللغة تتطلب مهارات وعادات خاصة في القراءة والكتابة ' بل أنهم أوجدوا تشابها بين خصائص النص المقدس ، سواء القرآني أو التوراتي أو الانجيلي النص الاليكترونيhypertext ، فكلاهما نص مطبوع يتكلم Talk Text! وكلاهما يحمل من الاشارات والأدلة ، أو الصلات التي تشير إلى الأجزاء الأخرى!

لقد أدرك أصحاب الدينات المختلفة بسرعة كبيرة ما للانترنت من أهمية في نشر أفكارهم والتبشير بها ، وايصالها إلى أوسع قاعدة ممكنة من أتباعهم أو للآخرين ، فقد نشرت صحيفه (صنداي تايمز) البريطانية ٢٠٠٢/٨/٢٠ تحقيقا موسعا عن العائلة اليهودية الاسرائيلية التي اعتنقت الإسلام بعد اقناعها به ، عن طريق الدردشة على الانترنت . ويقول التحقيق الذي بعث به مراسل الصحيفة في تل أبيب أن يوسف كوهين



وزوجته لونا وصلا إلى إسرائيل من الولايات المتحده قبل أربع سنوات وأنهما كانا عضوين في حركة شاس الدينية اليهودية المتشددة . وقال الصحيفة بأنه بمرور الوقت تعرف يوسف كوهين عن طريق غرف دردشة الانترنت على أحد مشايخ المسلمين ، وتبادلا الآراء والأفكار حول الأديان ، واقتنع كوهين بان يحصل على نسخة مترجمة من القرآن ، ويقوم بدراستها . وتحت رعاية هذا الداعية الإسلامي تعرف يوسف على المزيد من الدعاة في القدس الشرقية، واعتنق الإسلام هو وزوجته وأطفاله .

وعلى صعيد آخر وهو الأحدث والأطرف أن الصلاة أصبحت تبث على الشبكه ، ويمكن المشاركة فيها دون الانتقال إلى أماكن العبادة نفسها . وهذا بالضبط ما فعلته مؤسسة «لوريس للاتصالات» التي أنجزت المعجزات خلال حفل نهاية العام الماضي ، حيث كان يكفي لاتباع الديانة المسيحية أن يتطلعوا إلى شاشة ضخمة من نوع ويبكام لمتابعة الحفل الديني الذي أقيم بالمناسبة ، كما كان يكفيهم أن يقوموا بإرسال بريد الكتروني لتقديم واجب الصلاة . وإذا كان المسيحيون يستخدمون الانترنت للصلاة ، فإن المسلمين واليهود والبوذيين استخدموها للدعوة والتبشير بدياناتهم، فمئات المواقع الإسلامية ، التي لم تترك شيئا يخص العلوم الإسلامية إلا ونشرته! ومن ناحية أخرى قرر أحد القساوسة الخروج عن سلطة روما من خلال موقعه على الشبكة ، حيث يقول الأسقف غايو الذي سبق أن نبذته كنيسة روما ، بفضل الانترنت لم نعد مجبرين على المرور عبر روما وسلطاتها ، فاليوم على الكنيسة أن تنخرط وتنفتح على الخارج! والأمر ليس سهلا على الجميع ، فقد منعت السلطات الصينية الرهبان التبتيين من دخول المقهى السيبرنيتي بالعاصمة «اليهاس» حيث كانوا يتواصلون ويبعثون بصلواتهم إلى «دهار مسالا» منفى الدايلي لاما في الهند ، ورغم أن شبكة الانترنت أخذت طريقها لتحل محل الدروس الدينية التقليدية للمسلمين والمسيحيين واليهود ، إلا أن المناهضين للأديان يستطيعون بث نقدهم لها ، من دون أن تطالهم أيدي الدينيين والسلطات ، لأن جهل الهوية وإخفائها في الانترنت ، يشجع على المناقشة والنقد ، وتفنيد المسائل الدينية والروحية والناس الآن في الغرب يدخلون الانترنت على المواقع الدينية المسيحية واليهودية ، ويؤدون الصلاة وهم على الخط ، وأصبح من المعتاد عندما يواجه أحد الأفراد أزمة صحية ، تتوجه أسرته وأصدقائه لصلاة من أجله ، ليس في الكنائس ، بل على الانترنت من خلال المواقع الافتراضية للكنائس والمعابد ، بل حتى أصدقاء الأسرة الآخرين من عقائد مختلفة ، يدخلون الانترنت ويرسلون صلواتهم ، وهم مطمئنون أن أحدا لن يكتشف انهم على عقيدة مختلفة !

وفي دراسة أمريكية قامت بها مجموعة Barna البحثية ، تبين منها أن ٢٥٪ كل شهر من الأمريكان المتصلين بالانترنت ، يستعملونها لأغراض دينية ، من خلال الاتصال بالآخرين عن طريق البريد الاليكتروني . ومنتديات الدردشة ، والحوار ، لتبادل الافكار والتجارب الدينية ، وأظهرت الدراسة تزايد عدد الأمريكيين الذين يستخدمون الانترنت لأغراض دينية أكثر من استخدامهم لها من أجل القمار أو لإجراء عمليات مصرفية أو متاجرة في الأسهم . وقالت دراسة أخرى اذاعها مشروع بيو انترنت وأمريكان لايف منذ

شهور ، أن واحدا من كل أربعة امريكان يستخدمون الانترنت ، وحوالى ٢٨ مليونا تقريبا سعوا لاستقاء معلومات دينية أو روحية عبر الشبكة ، ويوميا يسعى ما يزيد على ثلاثة ملايين امريكى إلى الحصول على معلومات دينية عبر الانترنت وهو رقم يزيد عن العام الماضى بنحو مليونين . لكن الينا لارسن التى أعدت هذه الدراسة قالت أن الكنائس والمعابد فى الولايات المتحدة لن تبدو قريبا مهجورة من روادها ، لأن مستخدمى الانترنت يلجؤون إليها لإجراء أنشطة فردية مثل البحث ، فهم لا يستغنون عن الانشطة الدينية الجماعية . وخلصت الدراسة إلى أن من يلجؤون لأنشطة دينية عبر الانترنت ويبحثون عن مواد تعليمية أو مرجعية ٦٩٪ ، ونسبة من يبحثون عن معلومات تتعلق بديانات أخرى أكثر من ٥٠٪ ، و٣٥٪ يقدمون النصائح الروحية بالبريد الالكترونى ، و٢١٪ يطلبون تلك النصائح ، وقالت الدراسة أن من يبحثون عن المعلومات الدينية عبر الانترنت ، على الارجح ينتمون إلى هيئة ككنيسة أو معبد أو مسجد ، ويواظبون على حضور الصلوات أكثر من غيرهم ، كما أنهم يميلون إلى وصف معتقداتهم الدينية بأنها قوية للغاية . وقالت لارسن أنه من غير المرجح أن تغير الانترنت آراء ١٤ بالمئة من الامريكيين ممن ليس لهم أى انتماء دينى ، وأردفت بقولها أن الانترنت تقوى وتدعم الحياة الدينية لمستخدميها ، وفى تقرير آخر نفهم منه حين اندفع الامريكيون إلى الكنائس والمعابد والمساجد ، فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، تحول الكثيرون إلى أجهزة الكمبيوتر أيضا . وأوضح التقرير أن واحدا من كلعة أمريكيين يستخدمون الانترنت ، سعوا من خلالها للحصول على معلومات عن الإسلام بعد الهجمات ، وأن ٤١ بالمئة قالوا أنهم ارسلوا أو تلقوا طلبات بالصلاة عن طريق البريد الالكترونى ، كما تبرع سبعة بالمئة لأعمال خيرية عبر الانترنت ، وقال معتنقو ديانات أقل انتشارا أن الانترنت تسمح لهم بالبقاء على الاتصال بمعتنقى معتقداتهم . وقال ٦٢ بالمئة أنهم يعتقدون أن توفر المعلومات الدينية عن طريق الانترنت يشجع على التحلى بالتسامح ، بينما قال ٥٢ بالمئة أنها تسهل على الجماعات المتطرفة ايذاء مشاعر الغير . وتشير دراسة كومسكور بأن مواقع الويب الدينية تميل إلى جذب النساء أكثر من الرجال! وفى مقارنة بين السود والبيض هناك ، وجدوا ٣٣ بالمائة من السود على الانترنت و٢٠ بالمائة من البيض على الانترنت يبحثون عن معلومات روحية ودينية ، وأن النساء الافريقيات الامريكيات المتوسطات العمر على الأغلب يتجهن إلى الويب لأغراض دينية ، وأن الكنائس هناك استعملت البريد الالكترونى وبطاقات الأعياد على الانترنت لتجنيد الأعضاء الجدد .

وجود الدين على الانترنت

الدين حاضر جدا على شبكة الانترنت العالمية ، وخاصة فى منتديات الدردشة ومجموعات الاخبار . وكل الأديان الرئيسة العالمية التى سبق استعراضها ، ممثلة فى الانترنت ، بل كل الطوائف الكبيرة والصغيرة فى تلك الأديان موجودة على الانترنت ! وتقريبا كل الحركات الدينية الجديدة ، آلاف من الشيع والفرق والملل حاضرة وموجودة ، وصفحات ويب شخصية غير معدودة تدار من قبل مؤمنين عاديين ، وقيادات دينية معلنة ، ومرشدين، ودعاه ، ووعاظ ، وآخرون مهتمون بالأخلاق ، وأيضا هناك مرتدين وملحدين يهاجمون الأديان ! والشبكة افرخت مخلوقاتها الدينية ، فى مواقع الروحانيات ، والكنائس



المعابد الافتراضية ومواقع الأديان العلى الخط! هذا غير المواقع التجارية العديدة التي ترغب في الربح على حساب شهياتنا الروحية ، وتزودنا بالأخبار الدينية ، وتبيعنا معدات دينية متنوعة من ملابس وكتب وشرائط ، وبخور وروائح ! وتوصلنا أيضا إلى مئات المواقع الدينية الأخرى . وهناك أيضا الاف المواقع التي انطلقت لتعليم الجمهور أو لمتابعة القضايا ، والمناظرات الدينية .

والناس على الانترنت يمكن أن يمارسوا القراءة عن الدين ، والكلام مع الآخرين حول الدين ، وتحميل النصوص والوثائق الدينية ، وشراء الكتب الدينية والمصنوعات اليدوية ، ويقوموا برحلات سفر تخيلية إلى معارض الفن الدينى والمتاحف الدينية ، ويشاهدوا روائع العمارة الداخلية للكنائس والمساجد والمعابد ، ويفتشوا فى الكتب المقدسة التى تستعمل أدلة الكترونية ويحددوا أماكن الكنائس والمساجد والمعابد والمراكز الدينية ويشاركوا فى جلسات الطقوس والمراسيم والشفاعة والتوسط ، ويصوتوا على المقترحات التنظيمية ويروا صور زعمائهم الدينيين ، ويراقبون مقاطع الفيديو للمواعظ والتعاليم الدينية ، ويستمعون إلى الموسيقى الدينية مثل التواشيح والتراتيل والتسابيح والترانيم ، وأيضا إلى الخطب، والصلوات ، والتزكيات والمحادثات ، وقريبا جدا سوف يستطيعون الاحساس بنسيج وبنيه الأهداف الدينية المقصودة على شاشتهم ، ويشمون رائحة حرق البخور التخيلى على المذبح المولد بالحاسوب !

لقد أصبح النمو في الاستعمالات الدينية للانترنت شامل وسريع جدا ، بحيث من الصعوبة الشديدة حصر وإحصاء عدد المواقع المتوفرة ، فعددها يتجاوز قدرة مكائن وأدلة البحث على الانترنت ، لأن التغييرات سريعة ومتزايدة ، وصار من الصعب أن يحتفظ أحدا بخطوته فى فضاء الانترنت ، وظهرت حاجة ملحة ، على أية حال ، للبدء بدراسة وتخطيط ورسم تضاريس الانترنت بصورة أكثر وضوحا ودقة ، ونحتاج لمعرفة أكثر حول المحتوى والمضمون الموضوع على الشبكة ، ومن الذى وضعه هناك ؟ ولماذا؟! لهذا يقتضى التحليل العلمى لمضمون محتوى مواقع الشبكة ، بالإضافة إلى مسح ومقابلة صناع تلك المواقع ، ورؤساء جلسات ، ومستعملى مواقع الويب مثل جماعات المناقشة ، ومنتديات الحوار ، ومجموعات الأخبار ، وغرف دردشة . نحتاج لتوطير لمحة حياة أكثر دقة عن مستعملى المواد والفرص الدينية على الانترنت . نحتاج لمعرفة خصائص مستعملى الشبكة للمواقع الدينية العلى الخط (أعمارهم ، إنتمائهم العرقى ، نوعهم ، مهنتهم ، موضوعهم الجغرافى ، خلفياتهم الدينية ، الخ) . ماهى عاداتهم ، ودوافعهم ، والنتائج العائدة عليهم ؟ وهل التدين الافتراضى «Virtual religiosity» شيء حقيقى موجود فعلا ؟ فى هذه الحالة ، كيف ، ولماذا ، وماهى النتيجة ؟ وإلى أى التأثر ؟

التأثيرات والمخاوف

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ! كيف يمكن لهذه التقنية أن تؤثر على دينامبكايات من المؤمنين فى تجمع ما ؟ فالاتصال بالبريد الاليكرونى بين القيادات الدينية والأعضاء ، والاتصال بين الأعضاء أنفسهم ، يتم من خلال تبادل الاعلانات أو النسخ الالكترونية من

نشرات أخبارهم وصحفهم ومطبوعاتهم ، وبعض الكنائس والمعابد لها بريد الكتروني لاستقبال طلبات الصلاة الالكترونية ، وهذا لاشك يحسن خطوط التفاعل ويعزز الاتصال بين المؤسسة الدينية المعنية وقيادتها وبين التابعين ، لكن فى نفس الوقت يتوسط التفاعل بينهما ، وقد يأخذ مكان الثقافة الشفهية التي يتم فيها الاتصال بين الأعضاء عبر ساحة المؤسسة الدينية ، أو على فنجان من القهوة ، أو حتى عبر ثرثرة على التليفون ! فالنشرات الالكترونية الدينية من قيادة دينية إلى التابعين ليست تماما مثل الزيارة التى تتم شخصيا بين القيادة الدينية والتابعين ، ولا حتى مثل الثرثرة التى تتم عبر بريد الكترونى ، فلا شيء مثل الاتصال الشفهى ، والأثر الورقى للنصوص الدينية .

ومعنى تقنى ثانى يظهر فى ديناميكة مجتمع العقيدة ، وهو متعلق بالقوة والهوية - حيث يمكن «للعضو العادى» أن يلعب دور الزعامة الدينية بدلا من أحد رجال الدين ، ومن ناحية الأخرى ، اتصال الانترنت كنمط أساسى من الاتصال فى مؤسسة دينية يمكن أن يخلق صنفين من العضوية للتابعين لتلك المؤسسة ، عضوية تقليدية ، وعضوية أخرى على الخط ! وأيضا كما هو الحال مع التليفزيون عدلت الانترنت سلوك الوعاظ والجمهور بشكل جذرى! وعلى الرغمن من الممارسة شبه لموحدة للمواقع الدينية على الويب فى حرصها على عرض المعلومات الدينية الأساسية والتاريخ المقدس لكل دين ، فقد ابدى الكثير من المراقبين والمهتمين عدم ارتياحهم ، وقلقهم الكبير حول انضمام الدين إلى التقنية ، لكنه ممكن فى مجتمع العقيدة ، حيث الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، والمساجد الإسلامية يمكن أن تمد رسالتها وعضويتها إلى ما وراء مواقعها الطبيعية ، هناك فى فضاء الانترنت ! لكن هل هناك تخوفات واخطار من التحويلات والتبديلات الدينية التى تتم عبر مواقع الويب ؟! هل يمكن أن تنتهى تلك التحويلات بخلق أديان هجينية جديدة من صنع التابعين أنفسهم ؟! هل يمكن أن يلجأ البعض إلى الإدعاء أنه واحد من التابعين لعقيدة معينة ، ويدخل بتلك الهوية مواقع تلك العقيدة ، كنوع من المغامرة ، والبعض كحب استطلاع ، وآخرون بأهداف تعصبية ضد تلك العقيدة ؟ هل يمكن لأعضاء فى عقيده راسخة وقائمة أن يلجأوا إلى طوائف أو تجمعات دينية أخرى غريبة وشاذة ؟ على مقياس أكبر هل يمكن أن تكون المواقع الدينية فى فضاء الانترنت هو البدل المكافىء عن اندلاع والتهاب الحروب الدينية مرة ثانية ؟ وهناك من يقول أن الدافع الدينى يزدهر احيانا على أحاسيس ومشاعر كاذبة ، وعلى حاجات عاطفية ، وكبح أو سقوط ثقافى وتسطيح ثقافى ، فتندلع الحروب الثقافية الدينية !

والخلاصة أن الانترنت ، وخصوصا الويب ، أحدثت ثورة فى التفاعل الإنسانى ، وأمتد أثرها على الحياة الدينية ، ولو أن الدين على الشبكة لن يكون البديل لوجو (الإيمان الحقيقى ، لكن «الويب» عدل وغير الحياة الدينية . وإذا كانت ممارسة الدين حقيقة اجتماعية ،لذا فإن أى تغييرات فى تلك الحقيقة ، خصوصا التغييرات العميقة التى أحدثتها الويب ، ستغير معها التجارب الدينية . ■

حكاية حالة
امريكية



الفكر العنصرى وازدراء البشر

بقلم
محمد يوسف عدس

حيث تفرخ العنصرية تنعدم المساواة بين البشر وتتوارى حقوق الإنسان وتقوم العلاقات بين البشر على أسس من الاستعلاء والغطرسة والجور ، وهذه أبرز مصادر الاضطهاد والإرهاب والعدوان فى العالم .

ومما يثير الدهشة حقا أن تتوجه أمريكا بكل قوتها وضغوطها لمحاربة معاهد التعليم الدينى فى بلاد المسلمين بحجة أنها مراكز لتخريج الإرهابيين الكارهين لغيرهم من البشر ، بينما تتجاهل معاهدها التعليمية التى تكدس الفكر العنصرى وتمارس ازدراء البشر والتمييز العنصرى ممارسة عملية فى قلب الولايات المتحدة .

جامعة بوب جونز

هى جامعة دينية خاصة صاحبها «بوب جونز» الأصولى، تجمع فى تخصصاتها بين العلوم العلمانية والدينية ، وتوفر مناخا تربويا لتخريج آلاف الدعاة والمبشرين بالبروتستانتينية الجديدة ، وبالجامعة كنيسة يرأسها بوب جونز نفسه .

ولكن الجامعة كانت تمارس التفرقة العنصرية ضد الأمريكيين السود ، فلا تسمح للطلاب السود بالالتحاق بها أو بالمدارس التابعة لها، وفى هذا مخالفة صريحة لقانون الحقوق المدنية الذى



مظاهرات ضد التفرقة العنصرية تجتاح الولايات المتحدة الأمريكية

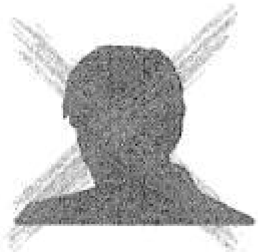
صدر سنة ١٩٦٤ فى عهد الرئيس جون كنيدى .

لذلك اعتبرتها السلطات الضريبية غير مؤهلة للإعفاء الضريبى الذى تتمتع به الجامعات والمدارس الخاصة. وقد بدأت المشكلة تتفاقم بعد تنبيه السلطات للجامعة بخطاب رسمى سنة ١٩٧٠م.. ولكن تمادت الجامعة فى موقفها العنصرى دون مبالاة، ومن ثم انتقلت الخلافات بين السلطات الضريبية وبين الجامعة إلى ساحة القضاء ، وظلت القضية تتصاعد حتى وصلت إلى المحكمة العليا الفيدرالية .

وخلال عقدين من الزمن ظل الجدل والمقارعة بالحجج متبادلا بين بوب جونز ومؤيديه من ناحية ، وبين القضاة وممثلى إدارة الضرائب والنقاد الذين هاجموا الممارسات العنصرية للجامعة من ناحية أخرى .

الغريب فى الأمر أن بوب جونز ومؤيديه حرصوا دائما على تصوير المسألة على أنها إصرار من الجامعة على مبدأ الحرية الدينية وليست موقفا عنصريا كما يرى الآخرون .

وقد شرح بوب جونز هذا الموقف فى مقال منشور فى «واشنطون بوسط» عدد يناير ٢٤/١٩٨٢م فقال . « النقطة الجوهرية فى القضية كلها هى الحرية .. حرية أن تمارس عقيدتك الدينية بإخلاص متحررا من تهديد سلطات



الضرائب أو أى مؤسسة رسمية أخرى تعارض عقيدتك التى تؤمن بها وتعتز بها ».

وهنا يأتى السؤال الكاشف .

ما الذى تتطلبه هذه العقيدة الدينية من المؤمنين بها ؟!

والإجابة عند بوب جونز هى :

« ألا نسمح باختلاط الأجناس » !.

* فهو لا يستطيع أن يفهم الآية القرآنية : ﴿ ياأيها الناس إنا **خلقناكم** من ذكر وأنثى **وجعلناكم شعوبا** وقبائل لتعارفوا ، إن **أكرمكم** عند الله أتقاكم .... ﴾ ولو فهمها لأنكرها .

و ثم اعتادت إدارة الجامعة أن تقدم لكل زائر مستفسر خلاصة لسياستها فى القبول التى تأسست على عقيدة التمييز العنصرى فى بيان مطبوع يشتمل على العبارات التالية :

« إننا نؤمن بأن الكتاب المقدس فى عمومه يشير بوضوح إلى أن الرب الخالق قد خلق أنواعا من البشر مختلفين وفرق بينهم لحكمة سامية فأقام بينهم الحواجز العازلة .. وليست هذه الحواجز جغرافية فحسب ولكنها أيضا حواجز لغوية وثقافية وعرقية ... فالإله – عند بوب جونز – قد خلق الناس مختلفين قاصدا أن تبقى هذه الاختلافات مستمرة .. وأى انتهاك لذلك هو عصيان للمقاصد الإلهية وتمرد عليها .... «ولا يوجد مسيحى حقيقى واحد يفكر أو يسعى لانتهاك هذه المقاصد الإلهية أو التمرد عليها ».

ويرجع بوب جونز مشاهد الاضطرابات المأساوية التى تسود العالم الآن إلى مخالفة البشر للحكمة الإلهية فى فصل الأجناس بعضها عن بعض ، حيث يقول « إن العالم أثناء الاضطراب العظيم كما يصوره «سفر النبوءات» سوف يحكمه عدو المسيح (المسيح الدجال)، حاكم النظام العالمى الواحد ... وهذا الضجيج والصخب حول جمع الأجناس وتوحيد البشر تحت نظام عالمى واحد من شأنه أن يطمس الاختلافات والسمات المميزة بين الأجناس البشرية وهذا من عمل الشيطان ، وهو فتنة وشر .. وليس من حق أى مسيحى أن يساهم فى بناء عالم المسيح الدجال فالمسيحى لا يستطيع أن يفعل ذلك ويزعم فى نفس الوقت أنه يحب المسيح .

آخر فقرات هذا البيان الجامعى تكرار للأسباب التى جعلت الجامعة تتمسك بموقفها من المزج العنصرى حيث تقول :

« تعارض جامعة بوب جونز الزواج المختلط بين الأجناس لأن فى هذا تحطيم للحواجز التى صنعها الرب .. إنه مزج بين ما فصله الرب وكان قصده أن يظل

منفصلا .. وكل جهد في تاريخ العالم لجمع البشر معا يؤكد غرور الانسان وتمرده على الرب ورفضه أن يبقى العالم كما أراد الله..».

ويمضي البيان في هذا السياق قائلا : «إن أي محاولة لتجميع العالم تحت حكم واحد هي اختراع بشري لنظام يستبعد منه الإله .. وهو ترويج لوحدة عالمية تستغني بقوتها المصنوعة عن الإله الخالق .. ونحن لا نريد أن نشترك في هذه الجريمة .. نحن لا نستطيع أن نكون مخلصين للرب وفي نفس الوقت مخلصين للنظام العالمي الواحد .. من أجل هذا السبب نقف حيث نقف » .

مؤيدو سياسة بوب جونز العنصرية يقولون إننا لا نتحدث عن جنس منحط وجنس سام، فإن الجنس إذا كان من خلق الله فليس منحطا ، وعندما ينتقل الناس إلى الحياة الآخرة سيتوحدون مع المسيح .. أما هنا في هذه الدنيا فإننا لسنا واحدا .. بل أجناس مختلفة وأمم مختلفة لا يصح امتزاجها .

محكمة شمال كارولينا

في هذا المشهد نحاول أن نستشكف الأساس الأيديولوجي لهذه العقيدة العنصرية في جامعة بوب جونز .

الزمن . ١٤ يوليه ١٩٧٥ .

والمكان قاعة محكمة شمال كارولينا .

والشاهد أمام المحكمة هو : مدير مدرسة «جولد سبورو» التابعة لجامعة بوب جونز .

يفسر جونز الاضطرابات المأساوية في العالم بسبب مخالفة البشر للحكمة الإلهية في فصل الأجناس بعضها عن بعض

تسأل المحكمة الشاهد أن يتحدث بالتفصيل عن السياسة السائدة في المدرسة، وعلى أي أساس ترتكز هذه السياسة.

بدأ الشاهد إجابته بتلاوة فقرات من الكتاب المقدس تشير إلى أن كل السلالات البشرية تنتمي إلى ذرية نوح (عليه السلام) الثلاثة وهم حام وسام ويافث ، من هذه السلالات الثلاث الرئيسية ظهرت أقسام وفروع كثيرة تطورت إلى شعوب، فمن السلالة الأولى خرجت الشعوب الحامية شاملة المشارقة والهنود والمصريين والأجناس السوداء، ومن السلالة الثانية خرجت الشعوب السامية ومنها اليهود، ولم يذكر الشاهد العرب ضمن هذه السلالة.

أما السلالة الثالثة فقد خرجت منها الشعوب اليافثية من القوقازيين والألمان والاسكندنافيين والإغريق والرومان والروس.

ومضى الشاهد شارحا حيث قال: إن هذه الأجناس منفصلة بعضها عن بعض لأن الله أرادهم كذلك.. فلابد أن يحتفظ كل جنس بخصائصه المتميزة وأن يحافظ



عليها امتثالا لإرادة الله».

يقول الشاهد. «لقد أراد الله أن توجد أجناس منفصلة لها وظائف ولا ينبغى أن تختلط هذه الأجناس ثقافيا أو اجتماعيا أو بيولوجيا فذلك أمر الله الذى لا يحب انتهاكه . لا يصح أن يتبنى شعب ثقافة أو أساليب حياة شعب آخر سواء كان ذلك فى التعليم أو فى العبادة.. فالانفصال هو الأصل المحمود والامتزاج هو البدعة المرذولة».

ينتقل الشاهد بعد ذلك إلى ذكر الآثار المفجعة التى ترتبت على انتهاك إرادة الله كما صورها الكتاب المقدس فى سفر التكوين.

حيث يسجل هذا السفر العواقب الوخيمة التى ترتبت على الزواج المختلط بين أفراد من جنس بأفراد من جنس آخر مختلف.. هنا تدخل الرب فى شئون البشر وصب غضبه عليهم فى ثلاث كوارث كونية مشهورة فى التاريخ.

فى الكارثة الأولى أرسل الله الطوفان فدمر به كل شىء على الأرض فيما عدا نوح وأهله.. وكان هذا الطوفان رداً على الغرور والشرور التى ظهرت فى الأرض عندما تزاوج أناس من سلالتين مختلفتين من البشر.

بمعنى لم تكن القضية فى نظر الشاهد هى قضية رسالة من عند الله رفضها أناس وكفروا بها فانتقم الله منهم.

فى الكارثة الثانية وفقا لرواية الشاهد نقلا عن الكتاب المقدس:تدخل الرب مرة ثانية عندما أراد أبناء نوح من أجناس متباينة أن يقوموا ببناء برج بابل.. وهنا يبدو أن امتزاج الأجناس سواء كان امتزاجا بيولوجيا (كما فى الزواج) أو ثقافيا حضاريا كما هو الشأن فى برج بابل.. هذا الامتزاج يعتبر فى الكتاب المقدس مجلبة للعنة الإلهية لذلك دمر الله برج بابل وشتت أصحابه فى الأرض.

أما الكارثة الثالثة فى نظر الشاهد استنادا إلى ما ذكره الكتاب المقدس فى سفر التكوين فصل ١٦، فقد حدث عندما اتخذ إبراهيم عليه السلام وهو سامى من هاجر المصرية وهى حامية زوجة له فولدت له ابنه اسماعيل.

ولما كان إسماعيل - على هذا النحو - نتاجاً لاختلاط خصائص لأجناس متباينة كان رجلا وحشياً.. ومن ثم ورثت سلالته العربية طبيعته الشكسة فلم تنقطع بينهم الحروب والاضطرابات والعنف إلى يومنا هذا.

بعد هذا السرد التوراتي المفصل وما أعقبه من تأويلات قال الشاهد:

لن تجد فى الكتاب المقدس عبارة واحدة تقول. لا ينبغى تعليم الأطفال من أجناس مختلفة فى مدرسة واحدة.. ولكنك تفهم منه أنك إذا فعلت هذا

استدعيت غضب الله ولعنته وخالفت إرادته.. ذلك لأن الاختلاط العرقى فى التعليم يؤدى إلى الزواج المختلط.. فإذا حدث هذا تلاشى التمايز الذى خص الله به كل جنس على حدة وزالت الفوارق الوظيفية المرتبة على هذا بين الأجناس.. لذلك فإن مدارس جولدسبورو المسيحية تقبل فقط اليافثيين (يقصد البيض) وتمنع السود والملونين.

لا يزال المشهد مستمرا فى المحكمة ولكن جاء دور القضاة لتوجيه الأسئلة . وسنرمز لهم بحرف «م» وللشاهد بحرف «ش».و هكذا دار الحوار .

م : هل نفهم من كلامك أنك على يقين تام أن الزنوج هم أبناء حام بن نوح وليس يافث ؟

ش : تماما ..

م . وليس عندك أى شك أن اليونانى من ذرية يافث بن نوح ؟

ش : تماما .. تماما ياسيدى ..

م : وهل الإيطالى أيضا يافثى ؟

ش : نعم أنه كذلك ..

م : وأن جميع القوقازيين يافثيون؟

ش : بالتأكيد ..

م . والشرقيين جميعا من سلالة حام .. أليس ذلك صحيحا ؟

ش . صحيح ياسيدى..!

م : فمن أين جاء الهنود الأمريكيون ؟

هنا تردد الشاهد قليلا ثم قال : ربما يحتاج الأمر إلى بعض البحث ولكن أعتقد بصفة عامة أنهم حاميون.

م : فما هو شأن الباكستانيين ..؟

ش : إنهم ينتمون إلى الشعوب الهندية .. وأغلب سكان هذه المنطقة من الحاميين الذين نزحوا إليها من مناطق أخرى ..

م . فما هو شأن اللبنانيين ؟

ش : أعتقد أن غالبيتهم من الساميين .

م : هل تعتبرهم بهذه الصفة عبرانيين يهود .

ش : إنهم ينتمون إلى العبرانيين ولكن أظن أن بعضهم قد اختلطت دماؤهم بالحاميين .. وقد أكون مخطئا .. ربما لأننى أجيب بسرعة .. ولكننى أعتقد أننى مصيب .

م : أعتقد أنك قلت إن العرب هم أبناء إسماعيل .. أليس كذلك ..؟

ش : تماما يا سيدى .

م : وهنا كان الزواج مختلطا بين أجناس مختلفة .

ش . نعم .. فقد كان إسماعيل ابن إبراهيم الذى أنجبه من هاجر المصرية وهى حامية .. تزوجها بناء على نصيحة زوجته سارة التى لم تكن قد أنجبت له أطفالا .. وقد أخبر الله إبراهيم أن هذا الطفل لن يكون وريثا لوعد الله الذى وعد به إبراهيم ..

م : وقد أنبأك كتابك المقدس أن عرب هذا الزمن هم نتاج هذا الزواج المختلط ؟

ش : نعم ياسيدى .. وتستطيع أن تتأكد من ذلك بنفسك فى الكتاب المقدس



.. كما يمكنك أن تلاحظ هذه السلالة (التعسة) وترى مسلكها حتى الوقت الراهن .

المشهد الأخير

جاءت قمة الدراما في هذه القضية عندما تم عرضها أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة . كانت طوابير الناس الذين ينتظرون دورهم للدخول إلى قاعة المحكمة لمشاهدة المحاكمة أطول ما حدث من طوابير في تاريخ هذه المحكمة لعدة عقود .. وكان الناس خارج المحكمة ينتظرون صدور الحكم النهائي في القضية بصبر نافد .

حاول محامي الدفاع أن يركز في مرافعته على المبررات الدينية لسياسة الجامعة في الفصل العنصري فقال : إنها جامعة دينية تؤمن بالكتاب المقدس وتنفذ تعاليمه بدقة ، وتعتقد أن الكتاب المقدس يحرم الزواج المختلط بين الأجناس المختلفة ، ومن ثم ترى أن الفصل العنصري في الزواج واجب ديني

وحرمان الجامعة من الإعفاء الضريبي حتى تتخلى عن عقيدتها الدينية التي يفرضها الكتاب المقدس هو أمر غير جائز .

كان عدد قضاة المحكمة تسعة بينهم امرأة هي القاضية «ساندرا داي أوكنر» ، سألت محامي الدفاع عما إذا كان القانون ينطبق أيضا على الكنائس التي تمارس الفصل العنصري بين السود والبيض ، وكانت إجابة المحامي بالنفي ..

الهجوم على المحكمة وتجريح القضاة

بعد ساعات قليلة من صدور حكم المحكمة العليا ضد جامعة بوب جونز في يوم ٢٤ مايو ١٩٨٣ كان بوب جونز الثالث يقود صلاة في كنيسته بالجامعة أمام حشد كبير من طلابها وأساتذتها وموظفيها ، فشجب قرار المحكمة بوصفه قرارا جائرا .. وهاجم القضاة هجوما عنيفا حيث قال : « إنه قرار ضد الدين وضد الإنجيل .. إنه تلويح بقبضة أرضية في وجه الرب ... إن قرار المحكمة العليا يعني أن عندنا إله آخر في الأرض أهم من إله السماء الذي نعبده .. إله يسمى الدولة ... وعندما يجد أولئك الذين يعبدون الله أن المعتقدات الإنجيلية التي يؤمنون بها تتناقض مع قوانين الدولة فإن عليهم أن يخضعوا للدولة أو يتعرضوا لغضبها» .

ثم تحول بوب جونز إلى الهجوم على قضاة المحكمة فقال : «إن أمريكا تواجه مأزقا خطيرا بسبب حكم جائر أصاب الحريات الدينية في الصميم .. حكم أصدره ثمانية رجال بلغوا من العمر أرذله وامرأة يائسة بائسة غبية .. إن

المحكمة العليا قد خرقت القوانين التى تحمى دين الدولة الأمريكية وانحازت إلى القوانين العلمانية ، وبهذا جعلت التابعين لدين الدولة الأساسى مواطنين من الدرجة الثانية ... لقد أخرجت المحكمة الدين من المدارس العامة من قبل وها هى الآن تشجع الدولة على تدمير الكتاب المقدس فى المؤسسات الدينية المسيحية حيث لا يزال هذا الدين يحظى بالاحترام والرعاية ، . كل ذلك لترتفع راية الدين العلمانى الذى تعتنقه سلطة شمولية » .

وأخيرا ..

١ - ليس التمييز العنصرى موقفا سياسيا فحسب بل عقيدة دينية عميقة الجذور فى العقل الأمريكى البروتستانتى ، عقيدة مؤسسة على نصوص من الكتاب المقدس لا يمكن تجاوزها ، هذه العقيدة الدينية العنصرية هى امتداد للنظرة التوراتية اليهودية تجاه الأغيار ، وهى نظرة تقسم العالم إلى شعب الله المختار وإلى الأغيار من الشعوب الأخرى المنبوذة وهؤلاء جميعا هم الخدم والعبيد وتلك وظيفتهم المقدسة كما اتضحت جلية فى شهادة رجل الدين مدير المدرسة أمام المحكمة فى كارولينا ، ولذلك لا نستغرب شتائم القيادات الدينية الاسرائيلية للفلسطينيين والعرب ووصفهم بأنهم الأراذل أبناء الثعابين ، ولا نستغرب شتائم الأصوليين من أمثال جيرى فالويل وبات روبرتسون وغيرهما للمسلمين ولنبى الإسلام من ذرية اسماعيل .

ليس التمييز العنصرى موقفا سياسيا فحسب بل عقيدة دينية عميقة الجذور فى العقل الأمريكى

٢ - بالنسبة لوعد الله لإبراهيم أن تكون الأرض من النيل إلى الفرات ملكا لذريته هو وعد مقصور على ذرية ابراهيم من فرع اسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فليس مشمولا بهذا الوعد الإلهى . إقرأ هذا فى الفصل السابع عشر من سفر التكوين (العهد القديم) .. عندما تجلى الرب ليبشر ابراهيم بابن آخر غير اسماعيل «فقال إبراهيم لله لو أن إسماعيل يحيا بين يديك ؟ فقال الله : بل سارة امرأتك ستلد لك ابنا وتسميه إسحق وأقيم عهدى معه ، وأما اسماعيل فقد سمعت قولك فيه ، وها أنا ذا أباركه وأنميه وأكثره جدا جدا، ويلد إثنى عشر رئيسا وأجعله أمة عظيمة ، غير أن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلده لك سارة فى مثل هذا الوقت من قابل».

* فلا بأس عندهم من كثرة عربية كثيرة ولكنها تبقى أمة من الخدم والعبيد فى المنظور التوراتى اليهودى الأصولى على السواء . ■

نهاية العروبة

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

يضطر المرء كارها أن يتوقف من حين لآخر عند بعض السخف الفكرى إذا كان الربط بين السخافة والفكر جائزا، ولو كان الأمر يقف عند حد أحاديث المجالس العابرة لجاز السكوت عليه ، لكن أنصار ذلك السخف - بغض النظر عن حسن نواياهم أو سوئها - يحاولون إلباسه ثوب العلم ، ونشره على أوسع نطاق من منابر مؤثرة ترويجا لأفكار يراد لها أن تكون أصفادنا الجديدة فى مستقبل إخطبوطى التكوين لن يقدر له أن يلتف حول وجودنا وهويتنا بإذن الله .

فى هذا الإطار تأتى الأفكار التى ينطق بها أنصارها بحماسة شديدة - وربما كان بعضهم مقتنعا بها حقا - عن نهاية العروبة، فكلما تعرضت الأمة العربية لمحنة قاسية خرج من يبشرون بنهاية العروبة إيذانا بميلاد جديد، وربما ادعى بعضهم الحزن على ما وقع ولكن ما حيلتنا وقد أصبح من قبيل تحصيل الحاصل. يختلف منطق هؤلاء بطبيعة الحال عن منطق شاعرنا الكبير نزار قبانى عندما تساءل فى قصيدته المشهورة: متى يعلنون وفاة العرب؟ فقد كان يطرح تساؤل المكلوم فى عروبتنا محاولا استثارة الهمة لا قتلها .

لم يكن التجرؤ على العروبة فى ظنى ملمحا دائما فى حياتنا الفكرية ، ثمة فارق يجب أن يسجل أولا بين «العروبة» باعتبارها تيارا فكريا وغيرها من

التيارات الفكرية الموازية لها أو المتقاطعة معها أو حتى المتصادمة، فالتنوع الفكرى هو الأمر الطبيعى ، وبين محاولات الهدم السياسية المغرضة لرابطة العروبة وما بنى عليها من إطار سياسى . بعبارة أخرى فإن ثمة فارقا هائلا بين أن تتباين التيارات الفكرية فى مجتمع ما بين دينى وليبرالى وقومى واشتراكى... الخ، وتتنافس بل وتتصارع فيما بينها على الصعيدين الفكرى والسياسى، وبين أن تكرس فئة ما جهودها لهدم تيار بعينه تمهيدا لترتيبات جديدة يراد لها أن تسود . فى الحالة الأولى نكون ازاء حياة فكرية وسياسية عادية وصحية، أما الحالة الثانية فتنطوى على محاولة للتخريب الفكرى والسياسى .

عندما وقعت هزيمة ١٩٤٨ أمام اسرائيل كانت الصدمة مروعة فى العقل والوجدان العربيين، لكن جل الجدل الذى أعقب الهزيمة انصرف إلى إصلاح الذات سواء بمحاولة تمتين الرابطة العربية على النحو الذى ظهر فى توقيع اتفاقية الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى فى عام ١٩٥٠، أو بموجة التحرر الوطنى والقومى الهائلة التى تفجرت فى عقدى الخمسينات والستينات من القرن الماضى وأنجزت ما أنجزته ، وعندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ شغلت الساحة الفكرية العربية كثيرا بحديث التطوير الديمقراطى كمخرج من الضعف الذاتى العربى، ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن التيار الاسلامى الذى بدا وكأنه يحقق انجازات سياسية متصاعدة فى أعقاب الهزيمه لم يفعل ذلك لأنه انشغل بالحديث عن هدم العروبة، وإنما فعله لأنه أثبت فى ساحة الممارسة فاعلية أكبر فى تحقيق الأهداف ذاتها التى تصدى التيار القومى لتحقيقها فى علاقته بمحيطه الخارجى.

غير أنه منذ وقع الغزو المشئوم للكويت فى ١٩٩٠ علا صوت الهاتفين بسقوط العروبة. قال بعضهم إن الغزو قد وضع نهاية للنظام العربى، وكان لحديثهم أساس من المنطق وإن عابهم أنهم لم ينظروا سوى إلى مواقع أقدامهم، لكن البعض الآخر زاد فتساءل: من قال إن النظام العربى كان موجودا من الأصل . ومرت الأيام والسنوات بطيئة لكن قدرة النظام العربى على البقاء تأكدت، إذ أخذ يستعيد عافيته بالتدريج، وعقدت قمة ١٩٩٦ فقمة ٢٠٠٠ التي قررت دورية انعقاد القمم العربية . لم تكن لدى أحد أية أوهام بأن تلك التطورات قد مثلت استعادة لفاعلية النظام العربى ، لكنها بالتأكيد أثبتت كما سبقت الإشارة قدرته على البقاء ، وكذلك على استعادة فاعليته ولو إلى حد ما، كما يظهر على سبيل المثال فى ذلك

الدعم الاقتصادي العربي لانتفاضة الأقصى الذى لا يصل إلى المستوى المطلوب ، لكنه بالتأكيد لعب دورا فى تدعيم قدرتها على الصمود .

لكن الأمر العجيب حقا أن دعاوى نهاية العروبة قد تصاعدت من جديد بعد احتلال العراق ، ووجه الغرابة هنا أنه إذا كان من المفهوم أن يقال إن العروبة قد أخذت فى التآكل بواقعة الغزو العراقي للكويت فإنه ليس من المقبول أن نتحدث عن انهيار العروبة بمناسبة محنة هائلة تتعرض لها الأمة بأسرها بفعل سياسة عدوانية مجنونة تقودها نخبة أعمتها مصالحها . لا يسمع المرء حديثا من أى نوع عن العدوانية الأمريكية التى بدأت محاكمتها سياسيا فى الداخل الأمريكى ذاته وإنما يتركز الحديث كله حول عيوبنا الذاتية .

صحيح أن هذه العيوب حقيقية فى معظمها ولكن ثمة فارقا هائلا بين أن يكون حديثنا عنها هو حديث المواجهة والاصلاح وبين أن يكون حديث التبرير أو على الأقل التمهيد للوقوع فى براثن الهيمنة الأجنبية .

مناقشة واجبة لحجج واهية

لم يعدم القائلون بنهاية العروبة حججا تساند موقفهم، فأى عروبة تلك التى تبرر غزو بلد عربى لآخر؟ أليس النظام العراقى الذى اتخذ قرار الغزو فى إطاره نظاما يستند فى شرعيته إلى القومية العربية؟ بل إن هذه الممارسة بمعنى من المعانى لم تكن هى الأولى من نوعها ألم ترتكب نظم تستند فى شرعيتها بدورها إلى العروبة مجازر فى حق الفلسطينيين؟ ثم أين هى تلك العروبة بنظمها الرسمية وجماهيرها فى مواجهة ما وقع للعراق من عدوان؟ ألم تقف بعض الدول العربية موقف المساندة الصريحة للعدوان ويسكت البعض الآخر بينما يكتفى الفريق المتبقى باستنكار لفظى سرعان ما خفت حدته وتلاشت نبرانه ليحل محله قبول ضمنى بالاحتلال وتعامل معه؟ ألم يقصر الرأى العام العربى فى حركته التى لا يمكن مقارنتها بمثيلتها فى الساحة الدولية رفضا للعدوان على العراق وإدانة له؟ ولأنه كان من الصعب على القائلين بنهاية العروبة أن يتجاهلوا حقيقة اللغة الواحدة التى تجمع القاطنين على الأرض العربية فقد قبلوا على مضض أن تبقى العروبة على الصعيد الثقافى دون أن تتجاوزه بطبيعة الحال إلى النطاق السياسى .

تظهر مناقشة الحجج السابقة وهنا ملحوظا فى منطق القائلين بنهاية العروبة، فالنظام العربى - على الرغم من بشاعة واقعة غزو الكويت - من أقل النظم الأقليمية فى العالم عنفا فى التعامل بين وحداته ، فغزو الكويت هو

الواقعة الوحيدة من نوعها فى أكثر من نصف قرن منذ نشأة النظام رسميا فى ١٩٤٥ . صحيح أن دوجة العنف هذه لا تقارن بالوضع السائد فى أوربا حاليا غير أننا يجب أن نتذكر أن القارة الأوربية ظلت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية - وهى نقطة زمنية ليست بعيدة تاريخيا - منتجة للعنف فى داخلها ونحو الخارج، ومعنى هذا أن واقعة غزو الكويت ليست بالتأكيد ولا ينبغى أن تكون شهادة الوفاة للنظام العربى ، وإنما هى مرحلة - صحيح أنها كئيبة - من مراحل تطوره يجب أن تفسح الطريق لمراحل أكثر رقيا على النحو الذى وقع فى القارة الأوربية على سبيل المثال .

أما القول بأن النظم المستندة فى شرعيتها إلى العروبة هى مصدر كوارث النظام العربى فليس سوى الخطأ بعينه ، ذلك أنه يتضمن تعميما مبنيا على حالة أو حالتين بينما شهدت التفاعلات العربية نماذج سلوكية مغايرة تماما لنظم ذات شرعية قومية . ألم يكن نبع النظام المصرى بعد ثورة ٢٣ يوليو تجاه المسألة السودانية مبنيا على حق تقرير المصير على الرغم من اعتراض فصائل عديدة فى الحركة الوطنية المصرية آنذاك أو على الأقل تحفظها؟ ألم يكن نهج النظام نفسه تجاه مسألة انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى ١٩٦١ قائما على رفض استخدام القوة المسلحة لابقاء سوريا فى دولة الوحدة على الرغم من حقه قانونا فى ذلك، وعلى الرغم كذلك من الضغوط التى مورست على جمال عبدالناصر فى الاتجاه المضاد؟ ألم يعمد النظام اليمنى الحالى ذى التوجهات القومية إلى حل كل مشكلاته الحدودية مع جيرانه بالوسائل السلمية على الرغم من الاهانات واتهامات التفريط فى الوطن التى تعرض لها من خصومه السياسيين وبالذات فى قضية احتلال أريتريا لجزر حنيش اليمنية؟ لماذا إذن الإصرار - عمدا أو باللاوعى - على اجتزاء حالة غير سوية والتعميم منها على النظم ذات الشرعية القومية ككل ؟

ولماذا هذا التجاهل التام للعنف الذى ينتجه خصوم العروبة على أرضها وفى الساحة الدولية ، فإذا كانت المقابر الجماعية تكتشف فى العراق لتكون علامة على ممارسات نظام بائد لماذا لا يكلف هؤلاء أنفسهم مشقة الإشارة الى المقابر الجديدة التى خلفها العدوان الأمريكى على العراق والذى دفن آلافا من العراقيين ليس بمقدورنا الآن أن نحصيهم عددا إلى أن يتم زوال الاحتلال الأمريكى بإذن الله لتفتح صفحتهم المخزية فى سجل الجرائم ضد الانسانية؟ وإذا كانوا يتحدثون بحماسة

عن الاستبداد السياسي في العراق في ظل نظامه السابق وعن ممارسات صدام ولديه وأقاربه فلماذا لا يكلفون أنفسهم مشقة تفقد الواقع العربي ولو بنظرة عابرة لكي يكتشفوا بيسر أنه يحتاج منهم إلى بعض هذه الحماسة الليبرالية ؟

أما الاستناد إلى تهافت مواقف النظم العربية تجاه العدوان على العراق لإثبات نهاية العروبة فهو في غير موضعه ، إذ من قال إن الرابطة العربية الحقة يمكن أن تبنى على أداء تلك النظم ؟ وإن كان يتعين علينا للأمانة أن نشير إلى أن شراسة الهجمة الأمريكية تبرر بعض هذه المواقف وإن لم تغفر لتلك النظم تقاعسها عن تطوير نفسها إلى الحد الذي أوصلها لهذا المستوى من الهشاشة في مواجهة السياسة العدوانية الأمريكية . وأما الاحتجاج بضعف حركة الرأي العام العربي تجاه العدوان على العراق فهو غير دقيق ، ذلك أن الجماهير العربية تكاد أن تكون على قلب رجل واحد في رفضها لذلك العدوان ، وإن كانت لم تصل إلى الآن إلى مستوى الفاعلية المطلوب كي تكون قادرة على التأثير في القرار السياسي في بلدانها لأسباب لا مجال الآن لمناقشتها ، ومع ذلك تبقى هذه الجماهير حاضنة لقوى المقاومة للسياسة العدوانية الأمريكية الاسرائيلية تجاه الوطن العربي مناهضة لدعم أي تغيير حقيقي إلى الأفضل في الواقع العربي ، ناهيك عن أن قدرتها على التأثير قد تتصاعد مع تبلورتطورات عربية (كالمقاومة العراقية للاحتلال الأمريكي) أو دوليه (كتضييق الخناق على بوش وبلير لتورطهما في الكذب الصريح لتبرير العدوان على العراق).

يستحق القائلون ببقاء العروبة على الصعيد الثقافي قدرا من الشكر دون جدال ، غير أن التنبيه واجب إلى أن الظواهر الاجتماعية لاتوجد منبتة الصلة ببعضها البعض، فليست العروبة الثقافية مجرد قصيدة يطرب العرب لسماعها ، أو أديب تقرأ له غالبية النخبة المثقفة، أو صحيفة واسعة الانتشار ، لدى القراء العرب أو مطربة يجمعون على تفردها ، أو مسرحية يقبل المشاهدون عليها في عديد من الأقطار العربيه ، وإنما هي قبل ذلك كله وبعده حقيقة هويه وانتماء . ومنهما تبدأ العروبة السياسيه وتنبعث وتقوى وترسخ أقدامها وتؤسس كيانها .

العروبة ليست إنسانا يموت

ثم ما هي حكاية نهاية العروبة أصلا؟ وهل يكون الحديث عن مثل هذه الظواهر الاجتماعية شديدة التعقيد في تركيبها بهذه الخفة؟ إن العروبة ليست إنسانا يموت فتتذكر محاسنه وعيوبه، وقد يمد في ذكره بعض الوقت لولد صالح أنجبه أو عمل طيب قام به لكنه يبقى في كل الأحوال مجرد ذكرى، وإنما العروبة كالأرض الصالحة قد تصيبها الكارثة

حينا لإهمال أصحابها أو لعوامل خارجة عن إرادتهم أو للأمرين معا ، غير أن الكارثة قد تدوم عاما أو أعواما ليعود للأرض ازدهارها وإيناعها من جديد حين يقدر لها من يحسن زراعتها ويجيد التحسب للعوامل الخارجية المتربصة بها ، لقد وقع العرب بأسرهم تقريبا تحت الاحتلال والهيمنة الأجنبية لكنهم استردوا استقلالهم في واحدة من أشرس وأعظم معارك التحرر في القرن العشرين ، فماذا كانوا فاعلين ياترى لو قدر لهم أن يصدقوا من يقول إن هويتهم القومية قد انتهت بواقعة خضوعهم للاحتلال والهيمنة؟ وتعرضت فلسطين ومصر وسوريا والأردن ولبنان لاحتلال اسرائيلي في ملابسات مختلفة ولكن القدرة على المقارنة والتحرير كانت لافتة كما تشهد بذلك المقاومة الفلسطينية وحرب الاستنزاف وحرب أكتوبر والمقاومة اللبنانية. وها هي العروبة تتعرض الآن لمحنة الاحتلال الأمريكي للعراق ومع ذلك فإن الشعب العراقي يفاجئ أشقاءه العرب والعالم بأسره بقدرة متصاعدة على المقاومة لم يتوقعها الكثيرون أن تكون بهذه السرعة والفاعليه .

يبقى السؤال الأهم بعد ذلك كله: ما الذي يريده هؤلاء ؟ إسقاط رايات العروبة ورفع رايات جديدة؟ أتكون الرايات الجديدة هي رايات القطرية الضيقة في عالم لم يعد يعرف إلا الأقوياء والتكتلات؟ أم رايات الشرق أوسطية المشبوهة التي تطالبنا بالسكنى في بناية واحدة مع كيان عنصري استعماري لم يتمكن حتى الآن من فهم منطق التاريخ وإدراك أن آفاق المستقبل مسدودة أمامه مالم يتحول جذريا من داخله على النحو الذي حدث في حالة النظام العنصري في جنوب أفريقيا ؟ أم رايات التبعية لمشروع بالغ الأنانية وضيق الأفق تتبناه إدارة أمريكية تعبر عن مصالح جشعة طالما حذر العقلاء من الساسة الأمريكيين من طغيانها على القرار الأمريكي ؟

لحسن الحظ أن الرد الحقيقي على منطق نهاية العروبة لا يأتي أساسا من كلمات كتلك التي سطرتها في هذا المقال، ولكنه يقرع رؤوس انصار ذلك المنطق بالانجازات التي تحققها قوى المقاومة الفاعلة ضد أشرس ظاهرتين في واقعنا الدولي المعاصر الاستعمار الصهيوني على أرض فلسطين ، والجموح العدواني الأمريكي لا في العراق فحسب، وإنما في وطننا العربي كله بل والعالم بأسره. فهل يثوب أولئك إلى رشدهم؟ أن المسألة برمتها غير ذات صلة بالجدل الفكري وإنما بأمور أخرى تخرج مناقشتها عن سياق كهذا السياق؟ ■



الاحتلال وقضية الديمقراطية

جمادى الثانية ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م

بقلم
عبد الرحمن شاكر

مع تصاعد أعمال المقاومة العراقية المسلحة، ضد قوات الاحتلال الأمريكية وحلفائها تذهب الادارة الأمريكية إلى القول بأنها باقية فى العراق حتى تتم تنفيذ أهدافها وفى مقدمتها حسب ماتزعم - إقامة نظام حكم ديموقراطى فى العراق يكون نموذجا يحتذى لكل دول المنطقة !!



تذهب إلى اتهام عناصر المقاومة ضدها بأنها من فلول قوات صدام حسين وحزب البعث، متناسية أن الحالة المتردية التى آل اليها العراق بعد الغزو الأمريكى وبسبب هذا الغزو وخاصة الغارات الجوية المكثفة على المدن العراقية ولاسيما العاصمة بغداد، وحالة التسيب الأمنى التى سادت العراق ومازال تسوده فى أعقاب الغزو .. هذه الحالة جعلت أغلبية الشعب العراقى تضيق ذرعا بالاحتلال ولاتطيق وجوده وتعتبر المقاومة ضده ضربا من البطولة، حتى ولا جاءت هذه المقاومة من جانب أنصار صدام حسين فيقدر كراهية الشعب العراقى للنظام البائد واستبداده إلا أن كراهيته للاحتلال الذى قضى على ذلك النظام أشد مصداقا لقول الشاعر العربى :

إذا استشفيت من داء بداء
فأقتل ما أعلك ماشفاكا !

وإذا كان مؤدى الديموقراطية هو تحقيق إرادة الشعوب فإن الادارة الأمريكية لو كانت لديها الشجاعة لإجراء استفتاء للشعب العراقى، عما إذا كان يريد بقاء قوات الاحتلال أم يرغب فى رحيلها، فإن الأغلبية العظمى منه سوف تجيب بأنها تريد رحيل قوات الاحتلال، وعلى الفور، حتى يفرغ الشعب العراقى

لأمره، لكي يعيد بناء حياته من جديد وعلى النحو الذي يريده هو، وليس الأمريكان ومن والاهم !

القيمة الأولى

لقد أصبحت الديموقراطية هي القيمة السياسية الأولى المرعية في عالم اليوم ليس بسبب أن الولايات المتحدة الأمريكية تدعيها وتدعي أنها راعيتها وحارستها الكبرى في هذا العالم، بل - ربما - رغم هذا الادعاء الأمريكي لها !

لقد أثبتت الديموقراطية جدارتها، أو استردت هذه الجدارة بعد ما حدث في المعسكر الاشتراكي السابق في بداية التسعينيات من القرن الماضي. حيث ثبت استحالة تخطي أو إغفال قيمة الديموقراطية في مختلف المجتمعات باسم العدل الاجتماعي، حيث كان هذا العدل هو القيمة الكبرى التي رفعت شعارها الثورة الأشتراكية في روسيا عام ١٩١٧، وحسب عبارة شهيرة لزعيم تلك الثورة فلاديميرلنين، فإن أكبر قدر من الحرية السياسية لايكفي لاشباع البطون الجائعة وبناء على ذلك أقدمت الثورة على العصف بالديموقراطية، وأقامت نظام «ديكتاتورية البروليتاريا» لإنتاج وتوزيع ما يكفي لأشباع تلك البطون ! ولكن رغم نجاح حكومة الثورة في أداء تلك المهمة إلى حد كبير، فإن استمرار الاستبداد السياسي باسم الاشتراكية وتحوله إلى طغيان ونظام بوليسي خانق في عهد ستالين خليفة لنين، قد أفضى في نهاية الأمر إلى تضعضع الأسس الاقتصادية للنظام الاشتراكي، وشحوب حتى فكرة العدل الاجتماعي ذاتها وحيث نشأت في ظل الاستبداد طبقة جديدة من البيروقراطيين والمتنفذين تحتكر السلطة والمزايا الاجتماعية والاقتصادية التي تستأثر بها دون كافة الطبقات العاملة التي تحكم باسمها، حتى فقد هذا النظام قدرته على الصمود في الحرب الباردة ضد النظام الرأسمالي في الغرب وانتهى الأمر في بداية التسعينيات كما سبق ذكره، إلى سقوط هذا النظام وحل الاتحاد السوفيتي واستسلام المعسكر الاشتراكي في شرق أوربا للنظام الذي كان مناوئا له !

وليس أدل على فشل الاستبداد باسم العدل الاجتماعي من جمود النظم الاشتراكية الديموقراطية في الغرب، وخاصة في الدول الاسكندنافية، تمكنها من تحقيق مزايا اقتصادية واجتماعية حقيقية للغالبية من الجماهير العاملة فيها. صحيح أن هذه قد انطلقت من مستوى اقتصادي وصناعي مرتفع كثيرا عن ذلك الذي انطلقت منه روسيا وحليفاتها السابقات في شرق أوربا، ولكن التجربة أثبت أن الديموقراطية السياسية هي الضمانة الواقية لاستمرار العدل الاجتماعي والتطلع إلى المزيد من إنجازاته..

وإذا كان صدام حسين وحزب البعث الخاضع لرئاسته في العراق، قد جنح إلى تقليد الاستبداد الستاليني باسم العدل الاجتماعي فقد تمادى في هذا الاستبداد إلى حد جعل نظامه أشبه

بالنظم الفاشية التى قامت فى أوربا - وخاصة فى ألمانيا النازية وإيطالية الفاشستية - ودفع بها إلى حرب عالمية طاحنة تحالف فيها الاتحاد السوفيتى ذاته مع الديموقراطيات الغربية فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية لدحر تلك النظم .

لذلك كان سقوط نظام صدام حسين على يد قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية مكسبا للشعب العراقى لايمكن إنكاره، ولكن إلى هنا وكفى، وتحقيق هذا المكسب لايقاس بالخسائر الفادحة التى سببها الغز والأمريكى للعراق بفقدان العراق استقلاله من ناحية وتعرض بنيته التحتيه للدمار الشامل من ناحية أخرى .

الديموقراطية الأمريكية

إن إقامة نظام ديموقراطى حقيقى فى العراق هو مطلب عاجل بعد طول ماعاناه،ولكن جلاء قوات الاحتلال عن أرضه هو مطلب أعجل، لكى يقوم هذا النظام الديموقراطى على نحو صحيح !

إن ظاهر الأمر أن الإدارة الأمريكية تتلكأ فى إقامة نظام سياسى مستقل فى العراق، سواء كان ديموقراطياً ، أو غير ديمقراطى كما تتلكأ فى إعادة أعمار العراق بعد الخراب الذى لحق به بسبب حربها عليه، وقد أفصح ساستها عن دخيلة أنفسهم فى هذا الصدد، حيث اعلنوا أنهم لن يسمحوا بأن يقوم فى العراق نظام شبيه بذلك الذى هو قائم فى جارتها إيران !

إن السبب فى هذا الخوف الأمريكى ما هو معروف من أن أغلبية الشعب العراقى هم من مسلمى الشيعة وغير بعيد إن تركت لهم حرية الاختيار والتصرف أن يقيموا نظاما دينيا يقوم على ولاية الفقية على نحو ما هو معمول به فى إيران، مع تعديلات معينة تكفل عدم الصدام مع مسلمى السنة والأقليات الدينية والعرقية الأخرى .

ولكن الديموقراطية فى نهاية المطاف تعنى حرية الاختيار من جانب جماهير الشعب والنزول عند إرادة القرار الذى تتخذه الأغلبية منه، وليس من حق الولايات المتحدة التى تزعم حراسة الديموقراطية، أن تحدد مسبقا للشعب العراقى ما الذى ينبغى لهذا الشعب أن يختاره أو يبتعد عن اختياره !

لست أحبذ بهذا القول أن يختار الشعب العراقى نظام حكم دينى كالذى يقوم فى إيران ولكننى أتمنى أن يختار نظام حكم ديموقراطى علمانى على نحو صحيح .

ولكن لايسعنى إلا أن أعتبر الولايات المتحدة الأمريكية وسياستها هى المسئولة عن تدهور قيمته الفكر السياسى الديموقراطى العلمانى فى البلدان العربية وسائر البلدان الإسلامية، وأن سياستها فى الانحياز المطلق للصهيونية وفكرها الرجعى العنصرى، وممارساتها الهمجية إزاء الشعب الفلسطينى وسائر الشعوب العربية المبتلاة باحتلالها، هذه السياسة هى

المسئولة عن ظهور نزعات التطرف الديني بما فيها تلك التي تتهمها الولايات المتحدة الأمريكية بالإرهاب !

إن الديموقراطية لاتنفصل عن العدل بين الشعوب وصحت مقولة كارل ماركس «ليست حرة تلك الأمة التي تستعبد غيرها ليست حرة الولايات المتحدة الأمريكية ولا ديموقراطية حقيقية، ما دامت تفرق هذه التفرقة الشائنة في المعاملة ما بين ربيبتها الصهيونية والشعوب العربية والإسلامية: لقد أقدمت على غزو العراق بدعوى البحث عن أسلحة دمار شامل فيه، فهل تنكر أن الدولة الصهيونية تملك من تلك الأسلحة أضعاف أضعاف ما كان يمكن أن يملكه العراق !!

ثم : هل هناك عدوانية على العلمانية أكبر من اشتراكها فيما يسمى خارطة الطريق على الفلسطينيين والدول العربية من الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود بصفتها دولة يهودية !! ما الفرق في المقياس الرجعي ما بين هذه الدعوى، بين ما قد يحاوله الشيعة في العراق من إقامة دولة توصف بأنها إسلامية إلا فرق واحد : أن أقصى رجعية يصل إليها متطرف مسلم ولو كان أسامة بن لادن هو إعادة خلافة إسلامية مضى عليها أقل من خمسة عشر قرنا، أما مدى رجعية الصهيونية وحلفائها من اليمين الأمريكي المتطرف فهو ثلاثون قرنا مضت على زوال هيكل سليمان الذي يسعون الآن إلى إعادة بنائة على ساحة المسجد الأقصى ويصمون كل من يناوئ السياسة الأمريكية الباغية في العالم الإسلامي بالإرهاب سواء المقاومة الفلسطينية أو العراقية وينسون ما يفعلونه داخل الولايات المتحدة ذاتها من اضطهاد للجاليات العربية والإسلامية ويكفي أن ثلاثة عشر ألفا منهم مرشحون للطرد من البلاد بعد أن جاءوا إليها واستقروا بها، وأصبح منهم البزال أبو زيد اللبناني الأصل الذي عينوه مكان فاتح العراق تومى فرانكس الذي انتهت مدة خدمته .

وماذا عن المعتقلين في قاعدة جوانتينامو حيث لايلقون أي قدر من المعاملة الإنسانية التي نصت عليها معاهدة جنيف لمعاملة أسرى الحرب، ولايقدمون لمحاكمة عادلة ليطلق سراح البرئ منهم وينال من ارتكب منهم جرائم حرب عقابه، وكثير منهم حاولوا الانتحار للتخلص من عذابهم المقيم .

وعلى ذكر المحاكمات الدولية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستثني مواطنيها من المثول أمام محاكم جرائم الحرب الدولية باعتبارها دولة فوق القانون، هي وربيبتها الصهيونية وتفرض على الأمم المتحدة الموافقة على هذه التفرقة الشائنة عن طريق التهديد بقطع حصتها في ميزانية المنظمة الدولية !

وإذا كانت سوف تقدم ديموقراطية حقيقية في العراق، فلن يكون ذلك انفاذا للإرادة الأمريكية، بل بالرغم عنها، ومن خلال مقاومة صادقة لقوات احتلالها ! ■

لغويات

الرشيد يؤدب ولديه

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

أرسل الرشيد فى طلب المفضل الضبى مؤدب ولديه ، فلما دخل عليه وجد الأمين عن يمينه، والمأمون عن يساره ، والكسائي النحوى بين يديه ، يطارحهما معاني القرآن والشعر . سأل الرشيدُ المفضل : كم اسما في هذه الآية «فسَيَكْفيكهُمُ الله»؟ فرد : ثلاثة أسماء : الله ، والكاف الثانية ضمير يعود على النبى ، والهاء مع الميم ضمير يعود على الكفار ، فعلّق الرشيد ، وبهذا قال الكسائى أيضا .

ثم التفت إلى ولديه يسألهما :

أفهمتما ما قال؟ . أجابا نعم ، فطلب منهما أن يعيدا عليه ما سمعا

ثم سأل الكسائى : أعندك مسألة؟

قال نعم : هذا البيت للفرزدق.

أخذنا بآفاق السماء عليكُمُ
لنا قمراها والنجوم الطوالع

التفت الرشيد إلى ولديه · أحفظتما ما قال الكسائى؟ قالا : نعم ، علّمنا علي بن حمزة أن القمرين ها هنا : الشمس والقمر ، كما قالوا سيرة العمرين ، يريدون أبا بكر وعمر ، وكما قالوا : «ما اطرد الأسودان ، يريدون الليل والنهار.

قال المفضل : أزيد يا أمير المؤمنين فى السؤال ؟ قال زد ، قلت : فيم استحسنوا هذا ؟ .

قال الكسائى . إذا اجتمع شيئان من جنس واحد ، واختلفا لفظا ، وأريد تثنيتهما ، جاءت التثنية من الاسم الأشهر منهما تغليبا له ، فالقمر أشهر عند العرب من الشمس، لأنسه، وكثرة بروزهم فيه ، ومشاهدتهم إياه دون الشمس ، والشيء نفسه يقال عن عمر، فقد كانت خلافته أطول ، والفتوحات فى عهده أوسع ، وشهرته أقوى، وكذلك الليل ، لأنهم فيه أفرغ، وسمرهم فيه أكثر .

وهكذا يجرى التغليب مع كل اثنين من هذا القبيل . ■

زكي نجيب محمود

طوع اللغة وعبر عنها بلغة رصينة

بقلم
د. عبد الرشيد الصادق محمودى

تعرفت علي الدكتور زكي نجيب محمود لأول مرة في سنة ١٩٥٦. كنت عندئذ طالباً فى السنة الثالثة بقسم الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة؛ وكان الأستاذ يحاضرنا فى المنطق. وتوثقت العلاقات بيننا فى السنوات التالية حتى أصبحت أنعم - مثلى مثل عدد آخر من زملائى - برعايته وحدبه. ولست أريد هنا أن أناقش مواقفه الفكرية والفلسفية بقدر ما أريد - من باب الوفاء والعرفان بالجميل - أن أسجل بعض ذكرياتى عنه بوصفه معلماً وراعياً، وأبين باختصار فضله فى تكوينى.

كان زكى نجيب محمود عندما رأيته فى تلك الفترة رجلاً أسمر البشرة قوى البنية عريض المنكبين، وكان كل ما فيه يوحى بالجد: ملابسه النظيفة الرصينة، وأسلوبه فى الإلقاء بلغة سلسة واضحة، وإسهابه فى الشرح والإيضاح حتى يصل المعنى إلى الجميع، وخلو حديثه من الفكاهة، وتركيزه الشديد، وحرصه على الوقت. كان إذا دخل قاعة المحاضرات استهل الدرس دون تلكؤ واستمر فيه حتى آخر دقيقة من الساعة المقررة، وكان حديثه متدفقاً وإن كان يلقى



من حين إلى آخر نظرة خاطفة على قصاصة من الورق سجل فيها عناصر الموضوع. وقلما كان يستطرد؛ فإذا فعل أشار إشارة سريعة إلى فيلسوف أو كاتب خارج نطاق الموضوع المباشر. وكنا نتشوق إلى تلك الاستطرادات النادرة التقاطاً للأنفاس أو طلبا للمتعة. ولم يكن الأستاذ ضيق الأفق أو بخيلاً بمعلوماته، ولكن كانت لديه خطة وأولويات لابد أن تراعى.

ومع ذلك فقد استطاع هذا الرجل الجاد الذي يعلم المنطق - وهو أكثر العلوم تجريداً وصرامة وبعداً عن الحياة - أن يشعل جذوة الحماس في نفوس بعض الطلاب الذين كان لدروسه في الوضعية المنطقية وقع شديد عليهم؛ فأحسوا أنهم بإزاء ثورة فلسفية بعيدة المدى، وصبوا إلى حمل رايتها. فكان أن ذهب إليه فريق منهم - من بينهم كاتب هذه السطور - ليقترح عليه تكوين جمعية «وضعية منطقية» تحت رئاسته؛ وذلك على غرار «جماعة فيينا» التي تكونت في عاصمة النمسا في أوائل القرن العشرين وأسست الوضعية المنطقية، وكان لها فروع وأتباع في بلاد غربية شتى، كما كان لها مانفستو أو بيان «ثوري». وكان ذلك الفريق من الطلاب المتعطشين إلى المعرفة والفلسفة يطرب لسماع أسماء أعلام المذهب مثل موريتس شليك ورودولف كارناب، ويتشوق إلى قراءة كتاب إيار في اللغة والصدق والمنطق، وإلى فك طلاسم الرسالة المنطقية الفلسفية لفتجنشتين. ولكن الأستاذ كان أكثر اتزانا وحصافة من طلابه الذين لعب الشباب والجهل برؤوسهم؛ فرفض الفكرة وإن أبدى استعداده لمناقشتهم خارج قاعة الدرس بطريقة غير منظمة فيما قد يعن لهم من استفسارات. ولاشك أنه كان يدرك أن التفكير في تكوين جماعة «ثورية» في ذلك العصر الناصري حري بأن يجر على أصحابه المتاعب.

أما لماذا خلبت الوضعية المنطقية ألباب أولئك الطلاب، فتفسيره يرجع في رأيي إلى عاملين. أولاً: أن المذهب كان ينزع نزعة علمية منطقية حاسمة في حل المشكلات الفلسفية. كان يرفض الفلسفات الميتافيزيقية (التي تتجاوز معطيات الخبرة) بناء على نظرية «علمية» في المعنى، فمعنى العبارة وفقا لأصحاب المذهب هو إمكانية التحقق من صدقها أو كذبها بالرجوع إلى المعطيات التي تشير إليها في عالم الواقع المتاح للجميع. ومثال ذلك أن عبارة «العصفور على الشجرة» ذات معنى لأن من الممكن أن نتأكد من صدقها أو كذبها بالتحقق مما إذا كان العصفور الذي تشير إليه موجوداً بالفعل على الشجرة المرئية. أما ما تصدره الميتافيزيقا من قضايا عن «المطلق» على سبيل المثال فهو فارغ من المعنى لأن من غير الممكن أن نتحقق من صدقه أو كذبه على ضوء ما نجده في الخبرة؛ فالمطلق - بحكم التعريف - يتجاوز هذا المنطق.

منطق اللغة والعلم

وقد كانت هذه الوضعية حاسمة لأنها كانت كالنصل في استئصالها لكل تلك الكائنات الغريبة الغامضة التي افترضتها الميتافيزيقا وحيرت بها العقول على مر العصور. ولقد شهد تاريخ الفلسفة

مذاهب أخرى نستبعد الميتافيزيقا؛ فذلك ما فعله «كانط» فى فلسفته النقدية التى تقيد العقل بنطاق الخبرة البشرية؛ وذلك ما فعله «أوجست كونت» مؤسس الوضعية الفرنسية فى القرن التاسع عشر، والذى رأى أن العقل البشرى فى تطوره قد تجاوز مرحلة الميتافيزيقا ودخل طور المعرفة الوضعية التى تقتصر على المشاهدة واستخلاص القوانين العلمية منها. ولكن الوضعية المنطقية كانت فيما يبدو أكثر من كل ذلك بساطة وأناقة وأشد حسما، وذلك بناء على أسس بدا أنها أشد رسوخا وأقدر على الإقناع لأنها تتعلق بمنطق اللغة والعلم. ولابد أن هذه الصبغة العلمية المنطقية كان لها دور مهم فى خلب ألباب الطلاب.

ويضاف إلى ذلك ثانياً: أن هؤلاء الطلاب كانوا - كما قلت - متعطشين إلى الفلسفة. وذلك أن تدريس الفلسفة كان فى ذلك العصر - ومازال حتى يومنا هذا - فى حالة مزرية. كنا نتوقع الكثير من قسم الفلسفة فى بداية عهدنا به، فلما تعرفنا على ما يقدم فيه أصبنا بخيبة أمل شديدة. كانت هناك محاضرات ممتازة فى علم النفس يقدمها الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى سويف. وكان الدكتور عبدالهادى أبوريدة يلقى محاضرات قيمة فى الفلسفة الإسلامية. أما فيما عدا ذلك فإن تعليم الفلسفة يقتصر بصفة عامة على تقديم نتف من المعلومات السطحية عن تاريخ الفلسفة وملخصات هزيلة لمذاهب الفلاسفة وأقوال مكرورة يراد بها الحفظ والتلقين لأغراض الامتحان بدلا من الفهم وإثارة الفكر والتشجيع على النقد. وكان تدريس الفلسفة - وأحسبه مازال - يتردى فى بعض الحالات إلى مستوى المهزلة المضحكة المبكية. فلما ظهر زكى نجيب محمود وأخذ يشرح مذهبه فى إطار من الحجاج المنطقى وتحليل المفاهيم ونقد المذاهب، شعرنا أننا أصبحنا نقترب من روح الفلسفة وأننا صرنا أقدر على ممارسة التفكير الفلسفى.

الفلسفة علم برهاني

وصحيح أن حماسي للوضعية المنطقية قد فتر بعد فترة قصيرة، وبدأت الشكوك تراودنى فى صحتها حتى قبل التخرج. ولما ذهبت إلى جامعة لندن لمواصلة تعليمى الفلسفى وجدت هناك البراهين الحاسمة التى تدل على بطلانها. ولكن ذلك لم يغير شيئاً من احترامى وتقديرى لزكى نجيب محمود؛ فقد تعلمت منه كثيراً من الدروس الباقية فى مجال الفلسفة وصنعة الكتابة والقيم التى ينبغى لدارس الفلسفة والمفكر والباحث بصفة عامة أن يستمسك بها. تلقيت على يديه - كما ألمحت من قبل - درساً أساسياً هو أن الفلسفة علم برهانى، وهذا قول صادق رغم أن البراهين الفلسفية قابلة للنقد والتفنيد؛ ولابد أن تكون كذلك. والقول صادق أيضا رغم التسليم بأن للبرهان حدوداً لا يتجاوزها؛ فالفلسفة مضطرة أحياناً إلى استخدام التشبيه والاستعارة وغير ذلك من الحيل البلاغية فى الإشارة إلى بعض الحقائق التى تند عن العقل البرهانى. بل إننى أصبحت أؤمن أن الفلسفة لا يمكنها أن تقدم معرفة يقينية نهائية؛ ومع ذلك فإن طريقها الرئيسى هو

طريق البرهان. وقد كان هذا الدرس الذى تعلمنه عن زكى نجيب محمود ركيزة أساسية فى دراسة الفلسفة بجامعة لندن؛ فهكذا كان يدرس الموضوع فيها عندما التحقت بها فى أوائل الستينيات.

وقد كونت بفضل الأستاذ قاعدة متينة من المعارف المتعلقة بتراث التجريبية البريطانية (وخاصة ديفيد هيوم وبرتراند رسل)، وبالفلسفة التحليلة والمنطق الرياضى. وكان كل ذلك عونا كبيرا فى دراسة الفلسفة فى الجامعة البريطانية.

وهنا ينبغى أن أشيد بفضل زكى نجيب محمود فى نقل هذه المعارف إلى العالم العربى؛ فقد طوع اللغة العربية وشحذ أسلحتها للتعبير عنها بطريقة سلسة سائغة رصينة. ولمن شاء أن يقرأ كتاب الأستاذ عن هيوم أو كتابه فى المنطق الوضعى ليرى كيف يمكن للغة الفلسفة أن تكون لغة جميلة؛ فقد تمكن المؤلف من صياغة المعلومات والمفاهيم التقنية الجديدة فى كلام مصقول كأنه سلاسل الفضة.

وهو ما ينتهى بى إلى فضل الأستاذ علىّ فى مجال الترجمة والكتابة بصفة عامة. فقد أتيح لى أن أترجم مع آخرين تحت إشرافه الموسوعة الفلسفية المختصرة (مشروع الألف كتاب، عام ١٩٦٣). ولكن التجربة التى خرجت منها بأعظم الفائدة هى تلك التى خضتها عندما ترجمت بمعونته وتحت إشرافه كتاب برتراند رسل «فلسفتى كيف تطورت» عام (١٩٦٠). ولذلك قصة لابد أن أرويها. كنا فى صيف سنة ١٩٥٩ عندما كتبت بحثا فى إطار السنة الأولى من برنامج الدراسات العليا بجامعة القاهرة. وكان البحث يتألف من ترجمة لمقالة لبرتراند رسل عنوانها «ديانة الرجل الحر» والتعليق عليها. وقد لاحظ الدكتور زكى عندما قرأ البحث أننى أشرت فى إحدى الحواشى إلى الكتاب المذكور؛ فسألنى كيف استطعت الحصول عليه وقد كان حديث الصدور، واقترح علىّ أن أترجمه. وقد فوجئت بالاقتراح ورفضته دون تردد. قلت إن الكتاب صعب وليس لى خبرة كبيرة بالترجمة. قال الأستاذ: «ترجمه وسأساعدك. سوف أراجعه». قلت: «لا أريد أن أضيع وقتك. لذلك أقترح أن أترجم عينة من الكتاب، ولتكن الثلاثين أو الأربعين صفحة الأولى. فإذا راقت لك الترجمة واصلت العمل. أما إذا لم ترض عنها، فخير لى ولك أن أتوقف». ووافق الأستاذ على الفكرة؛ وكان من حسن حظى أنه رضى عن الترجمة. وكانت تلك بداية للتجربة المفيدة التى حظيت بها. فقد اقتضت مراجعة الجزء الذى ترجمته أن أقرأ عليه ترجمتى جملة جملة فيصحح منها ما يرى حاجة إلى تصحيحه. وكانت تلك إذن مراجعة دقيقة مكثفة. أما مراجعة الترجمة فى بقية أجزاء الكتاب، فقد اقتصرت على تدخل الأستاذ من حين إلى آخر فى المواضع التى كانت تشكل علىّ فأطلب إليه المساعدة.

وكانت تلك تجربة مفيدة أعظم الفائدة لأنها أتاحت لى أن أشاهد زكى نجيب محمود وهو يعمل: كيف يفهم الانجليزية وكيف يتغلب على صعوبتها ويطوعها للأسلوب العربى السليم بحيث تخلو العبارة من الرطانة الأجنبية. وقد وضع

نصب عيني منذ ذلك اليوم مثلاً أعلى للترجمة؛ وهو توخي أقصى درجة من الدقة مع الحرص على فصاحة الأسلوب وجودته. وهو مطلب عسير المنال؛ ولكن لابد للمترجم من أن يسعى إلى بلوغه بقدر الإمكان. وكانت التجربة تنطوي ضمنا على درس أعم يتعلق بالكتابة بصفة عامة؛ فجمال الأسلوب كما فهمته منها هو وضوح العبارة وسلاستها وإحكام سبكها.

معركة على ساحة الورق

وقد لاحظت من خلال تلك التجربة وغيرها من التجارب أن زكي نجيب محمود كان إذا كتب تدفق تخرج الصفحة من قلمه جاهزة للطبع خالية أو تكاد من أي شطب أو تصويب. ولقد كان ينتمي إذن إلى فئة سعيدة من الكتاب أحسدهم؛ فالنص المكتوب يصدر عن قرائحهم كاملا. (قارن ذلك بما يفعله كاتب هذه السطور؛ فالكتابة عنده معركة تدور على ساحة الورق وتعج بغبار الكر والفر ويسيل فيها العرق ولا يبزغ المعنى المنشود وتظهر العبارة المبتغاة إلا بشق الأنفس). حدثني الأستاذ ذات يوم عن ترجمته لكتاب «جون ديوي» في المنطق – وهو مجلد شديد الضخامة – فقال إنه أنجز الترجمة في وقت قياسي وإنه كان «بحمد الله» يترجم النص كما لو كان ينسخه.

وما إن انتهت الجلسة الأخيرة في مراجعة كتاب رسل «فلسفتي كيف تطورت»، حتى نهض زكي نجيب محمود وذهب إلى غرفة أخرى ليعود بعد دقائق في كامل ملابسه مستعداً للخروج. قال: «هيا بنا». واصطحبني إلى مكتبة الأنجلو حيث اقترح على صاحبها أن ينشر الكتاب. فلما لاحظ الأستاذ تردد الناشر لأنني كنت صغير السن ولم أكن بالكاتب المعروف، قال: «انشره على مسئوليتي، لقد راجعته، وتستطيع أن تعلن ذلك على الغلاف. ولا تقلق من حيث التوزيع؛ فسأقرر الكتاب على الطلاب في العام الدراسي القادم». وقد كان.

ولا يفوتني أن أذكر في هذا السياق أنني انتهزت فرصة نشر الكتاب لكي أدس فيه – إلى جانب مقدمة زكي نجيب محمود – «كلمة للمترجم» لم يقرأها الأستاذ إلا بعد صدور الكتاب. وكانت هذه الكلمة تتضمن نقداً لفلسفة برتراند رسل، كما كانت تنطوي ضمنا على إعلان استقلالي الفكري عن الأستاذ . غير أنه لم يعلق على ما كتبت؛ ولم يبد عليه أنه وجد فيه مدعاة لأي لوم. ولعله ابتسم تفهما عندما قرأ تلك الكلمة التي نشرت دون الرجوع إليه. فنقد المترجم للعمل الذي ترجمه ليس بالأمر المألوف، ولكن كان لابد للشاب الذي كنته أن يثبت ذاته؛ وتلك هي سنة الحياة.

والواقع أنه ما كان لأحد أن يفهم الجوانب الإنسانية من شخصية زكي نجيب محمود إلا إذا اقترب منه وجالسه. فعندئذ كانت الصرامة البادية تزول، ويدرك المرء كم كان الرجل سخياً عطوفاً حسن المعشر مرحاً وعلى دراية بأحوال الدنيا . كان رءوفا بطلابه. على علم بعيوبهم، ولكنه لا يسمح لنفسه ولا لغيره بأن يذمهم أو يقسو عليهم بالنقد. وكان يرعى بعضهم كأنهم أبناؤه. وأذكر في

هذا الصدد أنه حاول غير مرة أن ينقذني من شر البطالة المستحكمة وأن يجد لي عملا بعد التخرج، وأنه كان يساعد بعض الطلاب بالمال. ورغم أنه كان صارما في تنظيم وقته، فلم يكن يبخل على طلابه بالمشورة والنصيحة ويفتح لهم أبواب مسكنه. (وكان العصر أحب الأوقات إليه لاستقبال طلابه، وعندئذ كان يقدم لهم الشاي على الطريقة الانجليزية. ويبدو أنه بعد الزواج أدخل تعديلا على هذه العادة عندما صار يقدم لهم الشاي مصحوبا بالحلوى).

اهتمام بالأدب والثقافة

ورغم جده في الالتزام بالوضعية المنطقية، فقد كان واسع الأفق متسامحاً إلى أقصى درجات التسامح. فلم يكن ذلك المذهب الصارم يحول بينه وبين الاهتمام بالأدب والامور الثقافية بصفة عامة. وكان يعد نفسه أديباً. وكلنا نعرف جهوده الممتازة في فن المقالة (باعتباره نوعا أدبياً) وفي النقد الأدبي. ولكن ما قد يجهله البعض أن زكي نجيب محمود لم يكن يرحب بالتخصص الفلسفي الضيق وكان يحبذ سعة الأفق وتعدد الاهتمامات. أذكر أننا التقينا ذات يوم في لندن وتحدثنا عن «فلان». وكان فلان هذا أحد تلاميذه؛ فذكره الأستاذ بالخير وأثنى على جده في دراسة الفلسفة، ولكنه عاب عليه - برفق - أنه «ليس من أهل الثقافة».

ولم تكن اهتمامات زكي نجيب محمود الواسعة النطاق تقتصر على الأدب: فلقد كان يرى أن للفلسفة مهمة تؤديها في إصلاح الفكر والمجتمع. وكان يعتقد على وجه التحديد أن ما تتسم به الوضعية المنطقية من نزعة علمية منطقية واهتمام باللغة وتحليل الألفاظ وتوضيح المعاني يمكن - بل لابد - أن يساهم في الإصلاح. ومن الواضح أنه كان يستلهم في نهاية المطاف النموذج السقراطي، فقد كان يفترض أن للجهد الفلسفي الرامي إلى تحديد مدلولات الألفاظ دوراً إصلاحياً مهما في شئون المدينة.

وكان معجبا ببرتراند رسل لأنه كان قريبا منه من الوجهة المذهبية، ولكنه كان معجبا أيضا بوايتهد كثير الاستشهاد به، رغم اختلاف هذا الأخير عن رسل وعن زكي نجيب محمود. وإذا تفكرنا قليلا في هذا الموقف تبين لنا أن الأستاذ كان معجباً بالفيلسوفين لأنهما كانا، كل على طريقته، من «أهل الثقافة» والإصلاح.

ولم يكن التزام زكي نجيب بمذهبه المعادي للميتافيزيقا يحول بينه وبين نوع جميل من التسامح الفلسفي. فلم يكن يرفض الإشراف على رسائل جامعية تتناول من يخاصمهم من الفلاسفة.

وكان يرحب في محاضراته بالحوار مع الطلاب ويرد على أسئلتهم واعتراضاتهم. وأذكر أنه احتد في النقاش ذات يوم لأنني ألحفت عليه، ولكنه سرعان ما كظم غيظه. وفي ذلك اليوم لحقت به بعد انتهاء المحاضرة، وكان في طريقه إلى خارج الجامعة، واعتذرت له. وكان بيننا صلح سريع. وربما كانت تلك المناسبة هي بداية توثق العلاقات بيننا. وفي تلك المناسبة، أو ربما في مسيرة أخرى نحو باب الخروج من الجامعة، سألني عن سني، وكنت عندئذ في العشرين أو الحادية والعشرين. فلما

المجلة
جمادى الثانية ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢م

أجبته، قال: «ما شاء الله! إن من يقرأ لك دون أن يعرفك يظن أنك صاحب تجربة طويلة في الكتابة كأنك شيخ في الستين». وأرجو ألا يسيء أحد فهمي فالقصد من رواية القصة ليس الدعاية لنفسي، بل هو الإشادة بكرم الأستاذ وحرصه على تشجيع طلابه وتعهد مواهبهم بالرعاية.

عف اللسان

وكان يضرب لهم مثلا بسلوكه. فلم أسمع منه في يوم من الأيام أي طعن في زملائه من الأساتذة رغم أن الطعن في الزملاء كان - وأحسبه مازال - رائجا في قسم الفلسفة. وكان عف اللسان؛ فلم يحدث قط أن سمعت منه - أو نقلا عنه - كلمة نابية أو جارحة. وذلك رغم أنه كانت لديه مآخذ على الأوساط الفكرية والأدبية في عصره؛ وكان ساخطا على سوء حظه في تلك الأوساط. فقد كان يشعر بالظلم لأنه لم ينل حقه من التقدير، ولكنه كان يصوغ سخطه بلغة التألم والشكوى دون عدوان على أحد. وبقدر ماكان متسامحا في نقد الغير، كان صريحاً قاطعاً في نقد نفسه. وقد سمعته ينحى باللائمة على نفسه وينقد بعض أعماله نقداً مراً. ولمن أراد أن يرى نموذجاً رائعاً لصرامة الأستاذ مع نفسه، فعليه أن يقرأ نص حديث أجراه معه الدكتور عبدالغفار مكاوي* ففي موضع معين من هذا الحديث يحاول عبدالغفار مكاوي أن يثبت أن تحليلات زكي نجيب محمود لمعاني الحرية تنطوي على فلسفة في الحرية، في حين أن هذا الأخير يرفض رفضاً قاطعاً أن يدعي لنفسه ذلك الشرف، ويصر على أن جهوده في مجال التفلسف لم تكن سوى «قفزات مجزءات أو طرقات على باب الفلسفة». وأستطيع أن أشهد أن ما رآه زكي نجيب في هذا الصدد لم يكن من قبيل التواضع بأي معنى من المعاني، بل كان تعبيراً صادقاً عما يؤمن به؛ فقد كان يأبى أن يستجيب للأوهام مهما كان إغراؤها.

وقد ازداد حظ الرجل من الرضا مع تقدم العمر به. فقد لقي التقدير بعد طول انتظار، كما اهتدى بعد عزوبية طويلة إلى زوجة مثالية نعم معها بالسعادة والنجاح، وصار له من طلابه أبناء كثيرون وهو الذي لم ينجب. ولكني أحسبه ظل على وعيه الحاد بغربة الفلسفة والتفكير العلمي في عالم عربي يتجه نحو التدهور وتسوده قيم واتجاهات معادية.

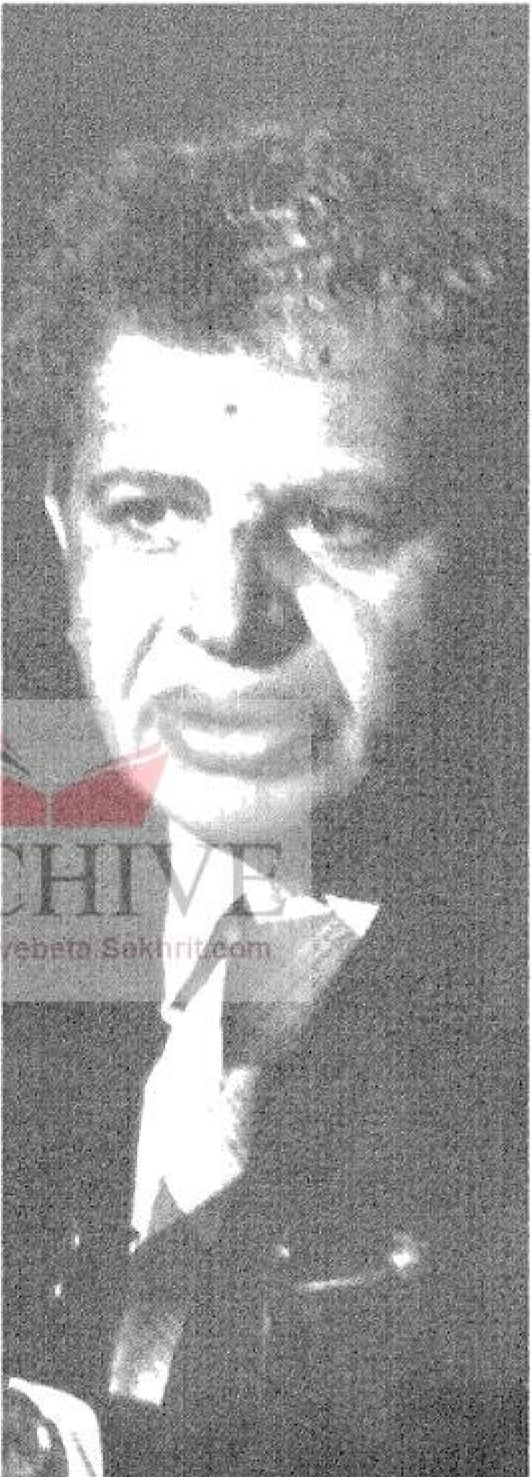
وكنت ألتقي به في لندن عندما يزورها، وأزوره في القاهرة عندما آتي إليها؛ وتبادلنا بعض الرسائل. ثم انقطعت عن لقائه والاتصال به لسنوات طويلة. ولما اتصلت به تليفونيا بعد غياب طويل ودون سابق إنذار، سمعته يهتف دهشاً: «من؟ أهو أنت فلان؟». قلت: «هو أنا. هل يمكنني أن أزورك؟» فرحب بالفكرة. قلت «متى أستطيع أن أراك؟» قال: «الآن على الفور إذا أحببت». وكان هو الذي فتح الباب، وفتح لي ذراعيه؛ فتعانقنا. كان كالأب الحنون إذ يرحب بعودة ولد ضال. ■

* عبدالغفار مكاوي، «حديث معه» - حسن حنفي (إشراف وتقديم)، زكي نجيب محمود (القاهرة عام ١٩٩٨)

حامد ربيع

راهب في محراب العلم

بقلم
د. نيفين عبد المنعم مسعد



كان يلفت النظر أن نحو نصف من حضروا احتفال قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد جامعة القاهرة، في ٢٩ و٣٠ يونيو الماضي، بإحياء تراث الدكتور حامد ربيع أحد أبرز أساتذة العلوم السياسية العرب في النصف الثاني من القرن العشرين، هم من جيل الثمانينيات أو على أقصى تقدير من جيل السبعينيات الذى لم يقدر له أن يتتلمذ على أيدي الراحل الكبير. ولعل أحد التفسيرات لهذا الحضور الكثيف لجيل الشباب مردود إلى كم الغموض الذى أسدله الرجل على نفسه وعلى سيرته وعلى علاقاته المتشعبة، والذى جاءت الملابسات المثيرة لوفاته متممة له. فمن المفارقة أن الرجل مع كثرة ما كتبه عن خبراء السلطة إلا أنه كان بعيداً عن زمرتهم.

حاول لفترة قصيرة أن يقترب من مركز صنع القرار زمن الرئيس عبد الناصر، لكنه سارع بالاحتفاظ لنفسه بمسافة كافية، مؤثراً موقع الناصح للسلطة من خارجها كما فعل شهاب الدين بن أبى ربيع الذى افتتن به عالمنا وحقق مخطوطته فى نصح المعتصم «سلوك المالك فى تدبير الممالك»، وكتب لها مقدمة هى الأطول من كل مقدمة (٥٠٠ صفحة) حتى لا تنافسها سوى مقدمة ابن خلدون، ومع ذلك فإن عالمنا كثيراً ما تجاوز النصح إلى التأنيب والتوبيخ إن لزم الأمر، وبالتالى بدا مفهوماً أن يظل الرجل طيلة حياته خارج دائرة الضوء، ويبقى تراثه على ثرائه ودسامته موضع اهمال وتجاهل. على أن الأمر الثابت أن هؤلاء الشبان الذين جاءوا يبحثون عن المعرفة، خرجوا بعد كل ما سمعوا ورأوا على مدار يومين كاملين وقد اشتعلت رؤوسهم بعشرات الأسئلة، بعدما تبينوا من الندوة وملابسات الاحتفال كم كان الرجل مثيرا للجدل والخلاف حيا وميتاً. فقد وجدوا بين تلامذته من يصفه بشيوويس علم السياسة ومن يجعله عالما بذاته، كما وجدوا بين هؤلاء من يقلل من شأن إسهامات الرجل ويصفها بأنها عادية، فهل كان إحياء تراث الدكتور حامد ربيع يحتاج أربعة عشر عاماً أخرى (توفى الرجل فى ١٩٨٩/٩/٩) ليصل مقيموه إلى كلمة سواء؟

قضى يدرس عشرة أعوام في دير إيطالي

صورة عن قرب

كان الشعور بالتفرد إلى حد يصل إلى التعالى يعد جزءاً تكوينيا فى شخصية الدكتور ربيع، ومفتاحا أساسياً من مفاتيح فهمها. هذا التفرد الذى كان يحرص عليه الرجل فى المضمون بل وفى الشكل الخارجى أيضاً. وكان يسجله فيما يكتب، ويكرسه فى علاقاته بمن حوله، مسئول، إلى جانب بعده عن دائرة الضوء، عن تجاهله وغمطه حقه، وبالتالى فإنه يجيب جزئياً عن السؤال الذكى الذى طرحه أحد الحضور، ومضمونه: لماذا عندما يذكر رواد الدراسات الإسرائيلية يسقط اسم الدكتور ربيع وهو الذى اهتم بالدولة العبرية بعد اثنى عشر عاماً فقط من تأسيسها؟ ولماذا عندما يكرم أداء الفكر السياسى الإسلامى ينكر الدكتور ربيع وهو الذى كان شديد التفاعل مع هذا الفكر تأليفاً وتحقيقاً؟

كان يستتر خلف هذا الشعور بالتفرد إدراك عميق من الرجل لمواطن قوته التى يمكن تلخيصها فى نقطتين أساسيتين تقود إحداهما للأخرى، التعبد فى محراب العلم والثقافة الموسوعية. ولا يؤخذ الحديث عن تعبد الدكتور ربيع فى

محرب العلم بالمعنى المجازى الذى يمكن أن ينطبق على عالم فى قامة الدكتور جمال حمدان على سبيل المثال، لكنه يؤخذ بالمعنى الحرفى من واقع تجربته الفريدة داخل أحد الأديرة الإيطالية لمدة عشرة أعوام كاملة، وهو بعد فى قمة سنوات نضجه: عقد الثلاثينيات. فى الدير تعلم الدكتور ربيع اللغة اللاتينية، واقترب من الحضارة المسيحية الكاثوليكية، ووقف على عدد من المخطوطات الإسلامية النادرة، واتخذ سبيله إلى دراسة فقه الحضارات وعلم الأديان المقارن ، هذا الفقه الذى قاده إلى اكتشاف جوهر الإسلام والتأكيد على الإطار القيمي المحدد للحركة السياسية. قسوة على الذات وتطرف فى المثالية نجسدها هذه التجربة التى كنا نستمع إليها بانبهار نحن طلابه ونحن ندرس على يديه مبادئ النظرية السياسية والعلاقات الدولية، لكن تلك القسوة وهذا التطرف كانا يعبران عن إيمانه العميق بالوظيفة الكفاحية لعالم السياسة ، تلك الوظيفة التى كان يعنى بها دور العالم فى تغيير مجتمعه وقيادته نحو الأفضل، والتى فرضت عليه تعاملاً عفوياً مع كل ما يمس المصالح العليا للأمة. ففى تحديد تلك المصالح وتعيين أدوات حفظها كان الرجل قاطعاً، كما قال أحد الحضور، فى أن هذه حرفة النخبة وصنعتها. ولذلك لا ينبغى أن نندهش عندما نتبين موقفه من استفتاء الشعب المصرى، على معاهدة السلام مع إسرائيل، ونجده وهو الذى يجعل من الديمقراطية جوهر نظريته عن القيم السياسية، يعتبر أن هذا الاستفتاء يمثل تشويها للمصلحة العليا المصرية، ويعكس فى هذه الحالة تحديداً لوناً من ألوان المهاترة.

الموطن الثانى الذى كان يستمد منه الدكتور ربيع تفرده هو ثقافته الموسوعية. فقد كان الرجل قانونى التكوين من حيث الأصل والمنشأ، لكنه عبر حدود القانون فلم يترك فرعاً من فروع العلوم الاجتماعية إلا ودرسه دراسة لا تقف عند سطح العلوم كما فى التعبير الشيعى المعروف، لكنها تغوص إلى أعماقها فإذا بحصيلته العلمية تشمل اثنين من درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس، وثلاثاً من درجة الدكتوراه الخاصة من جامعة روما، وستة دبلومات فى تخصصات مختلفة. لكنه مثله مثل أرسطو وشأنه شأن فخر الدين الرازى كان يعتبر أن علم السياسة هو أسمى المعارف بامتياز أو هو تاج العلوم ، لأنه العلم الذى يدرس ظاهرة الدولة. ومن هنا، فإنه على كثرة ما ألف وكتب، كان أكثر إسهامه فى علم السياسة وكما كان علم السياسة ينزل لديه منزلة خاصة، كانت النظرية السياسية هى مدخله إلى دراسة مختلف فروع علم السياسة والتأليف فيها. الفكر السياسى، العلاقات الدولية، نظم الحكم، الرأى العام، ولذلك عندما ذكر أحد

الحضور أن الراحل الكبير لم يكن متخصصاً في العلاقات الدولية، وأنه يكتب فيها بحس هاو وتوجه مهموم بالشأن العام، كان الرد أن الرجل كان في كل ما كتب منظراً سياسياً.

كان يكمل هذا التفرد في المضمون نفرد لا يقل أهمية ميز الرجل في مظهره الخارجي ولذلك فإن عيناً أبداً لم تكن تخطئه عن بعد، بنظارته السوداء الضخمة، وغليونه المدلى من بين شفتيه الغليظتين، وضخامة قامته وامتلائها، وموجات الشعر الأبيض والأسود تعلو رأسه،وفانتازيا الألوان المميزة لأربطة عنقه وغير المتجانسة بالضرورة مع تلك المربعات الشهيرة التي لم تكن تخلو منها بدلة واحدة مما بفتني. كان هذا المنظر بالنسبة لنا نحن طلابه منظراً شديد الاثارة والابهار، مكملاً للصورة غير التقليدية التي يجسدها الرجل. وكانت لطلته هيبة العالم، تلك الهيبة التي كانت تتجلى كأوضح ما يكون في قاعات الدرس، حيث المعرفة أقل والخبرة أدنى والثقة بالنفس أضعف. لكننا تعلمنا منه كما لم نتعلم من سواه، ولازلت بعد نحو خمسة وعشرين عاماً أذكر حديثه عن شد الأطراف أي الضغط على قلب الوطن العربي بجذب أطرافه في الصحراء الغربية وفي جنوب السودان وفي الخليج، ومبدأ توزيع الأدوار والمقارنة بين توظيفه في إدارة العملية السياسية في الدولة العبرية والفشل

• حصل على درجتي دكتوراه من باريس وثلاثا من جامعة روما

العربي التام في فهمه والتعامل معه، وتراتيبه المنظومة القيمية وأثر اختلال قيمة العمالة التي هي في نظره القيمة الأم في الحضارة الإسلامية على اضطراب الحركة السياسية على المستويين الداخلي والخارجي. أستعيد ما حدثنا به الرجل، وأقارنه مما يحدث على ساحتنا العربية وأجده وكأنه كان يقرأ في كتاب مفتوح.

عربي بين ثقافتين

استخدم أحد الحضور هذا التعبير للدلالة على أن الراحل الكبير احتك بالثقافتين الإسلامية والغربية وعاشهما معا معايشة تامة من دون أن يسقط في أحد النقيضين:

الانكفاء على الذات أو الاستلاب بواسطة الآخر، بل جاءت القسمة العقلية بين هذين الطرفين قسمة متوازنة إلى حد بعيد. وكلمة «بين» كلمة مهمة في الحقيقة لأنها تنسحب على قدرة الدكتور ربيع على ارتياد عوالم مختلفة والانفتاح على خبرات شتى ليخرج في النهاية بخلاصة لا تعكس سوى خبرته الذاتية ورؤيته الخاصة. ولذلك فإنه مع انبهاره



بتراث عصر الأنوار ، قوى الحنين إلى صدر الخلافة، وهو مع نقله عن ماكس فيبر وجوته وروزنتال وفشته، شديد الاحتفاء بآثار ابن خلدون وابن رشد والفارابى ، وهو مع تأكيده على أن كافة العلوم وفى مقدمتها علم السياسة لا تونع - والانياع أحد المصطلحات المحببة إليه - إلا فى مناخ الديمقراطية فإنه يؤكد أن القيم نسبية تختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر. تلك القدرة على استقبال الوافد من دون قطع مع الموروث سنجدها تتجلى لديه فى شكل أوضح على مستوى المنهاجية التحليلية . فلقد تأثر الرجل بالحركة السلوكية من جراء تردده على مركز الدراسات الاجتماعية المسحية فى جامعة ميتشجن التى سافر إليها مبتعثاً من جامعة القاهرة، لكنه ضبط هذا التأثر وسيجه بعدد من الضوابط والقيود. فالحركة السلوكية كانت لا تؤمن بغير التجريب وسيلة للتحقق من الشواهد وإثباتها، وكان الدكتور ربيع لا يكف عن تأكيد التلازم بين الفكر والحركة وعلى أنه يستحيل فهم الممارسة السياسية لهذا النظام أو ذاك حين ينزع عن إطاره القيمى ويدرس بمعزل عنه. والحركة السلوكية تمثل انقلاباً على المناهج التقليدية فى دراسة الظاهرة السياسية ، ومنها المنهاجان القانونى والتاريخى، لكن الدكتور ربيع الذى وظف بعض أدوات هذه المدرسة فى تحليله للطابع القومى المصرى وفى دراسة اتجاهات الرأى العام المصرى، لم يتخل عن الأداتين القانونية والتاريخية، أولاً بحكم تكوينه الأكاديمى المبدئى، وثانياً لاقتناعه بأن التاريخ هو مخزن للشواهد وبالتالى يمكن أن يكون بديلاً للتجريب حيثما يتعذر هذا الأخير.

والحركة السلوكية تركز على النظام السياسى كوحدة للتحليل وتهتم بمتابعة تفاعلاته فى مشابهة بينه وبين الجسد الإنسانى. أما الدكتور ربيع فلم يفقد للحظة واحدة اهتمامه بالدولة ووظائفها خصوصاً وظيفتها الاتصالية التى يعتبرها ضرورية لتحقيق جملة أهداف تتصل بتدعيم التكامل القومى والترابط الحضارى ومساندة السياسة الخارجية، ولا ننسى أن الدكتور ربيع كان يثق كثيراً فى الحرب النفسية كأداة لتحطيم إرادة الخصم واختراق صفوفه. لذلك فعندما يوصف الرجل بأنه كان له «هوى» سلوكى فإنه يفهم من ذلك أنه كان متأثراً بهذا التيار وكان واعيا فى الوقت نفسه بحدود هذا التأثير.

الظاهرة الصهيونية

تفتحت عيوننا وآذاننا نحن طلاب السنة الرابعة بقسم العلوم السياسية

بكلية الاقتصاد جامعة القاهرة على دراسة الظاهرة الصهيونية لأول مرة عندما قرر علينا الدكتور ربيع كتابه عن «النموذج الإسرائيلي للممارسة السياسية» الذي كان يقدم فيه تشريحا دقيقاً للنظام الإسرائيلي. لم يحدثنا أحد قبله عن إسرائيل ولا عن الصهيونية، وربما لم يقدر لأجيال تالية أن تعرف شيئاً عن كليهما عندما ترك الرجل مصر إلى عاصمة الرشيد ليدير من هناك معهد البحوث والدراسات العربية في ظل القطيعة بين مصر والعرب. فقط قبل سنوات قليلة أعيد الاعتبار لهذا النوع من الدراسات التي كان الدكتور ربيع رائدها في نطاق كليتنا.

كان النموذج الإسرائيلي يستفز أستاذنا الكبير على المستوى النظرى وأيضا على المستوى العملي. كان يثيره كعالم سياسة هذا التناقض الذى ينطوى عليه النموذج الإسرائيلي والذى يمثل تحديا للتصنيفات التقليدية للنظم السياسية. فالدولة جديدة هذا صحيح إن عدنا لتاريخ زراعتها على الأرض الفلسطينية، لكنها ليست كذلك إذا ما تتبعنا جذور الفكر الصهيوني الذى قدم للدولة العبرية صك الشرعية . والدولة ديمقراطية فى تقاليدها البرلمانية، لكنها عنصرية فى تنظيمها علاقة اليهود بالعرب، بل وعلاقة اليهود من الغرب باليهود من الشرق، وهذه النقطة تحديداً يهتم بها الدكتور ربيع كثيراً لأنه يعتبرها

هل كان للمخابرات الإسرائيلية يد فى قتله لمنع نشر وثائق ترسانتها النووية؟!

مسئولة عن السلوك الانبربالى الإسرائيلى جرياً على قاعدة تصدير الخلافات الداخلية إلى الخارج. ثم أن الدولة فى حينها لم تكن تقف فى مصاف الدول المتقدمة لكنها فى الوقت نفسه كانت فى نصف الطريق بين الدول النامية من خلفها وتلك التى تسبقها فى مستوى التطور العلمى والتقنى، والدولة العبرية تمزج بين الاشتراكية التى تعود لمخالطة الفكر اليسارى للفكر الصهيونى ، تلك المخالطة التى وجدت تطبيقها العملى فى مؤسسات كالكيبوتز والهستدروت، وبين الرأسمالية التى تنحاز لها جزئياً من خلال تشجيعها الملكية الخاصة. هذا إلى الخلط الذى تنطوى عليه منظومتها العقيمة ما بين القومية والدينية أو بين العلمانية واليهودية . بكل ذلك وجه الدكتور ربيع كعالم سياسة فى الدولة العبرية نموذجاً صالحاً للدراسة واستخلاص الدلالات والنتائج.

لكن على صعيد آخر، لم يكن كل

اهتمام الرجل بالنموذج هو اهتمام العالم بحالة دراسية، بل كان جزءا أساسياً من اهتمامه به مبعثه الخطر الذى يمثله الكيان الإسرائيلي على الامن القومي العربي. فمن وجهه نظره فإن الصراع بين العرب وإسرائيل هو صراع وجود لا حدود، وبالتالي فلا موضع للحديث عن تعايش مع الكيان العربي أو إقامة علاقة معه. يفسر ذلك موقفه القاطع من معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية، وهو الموقف الذى لم يتردد في المجاهرة به والذى ربما كان أحد أسباب سفره إلى بغداد، وإن كانت هذه المرحلة من حياة الرجل ستظل واحدة من أكثر المراحل غموضاً سواء من حيث ظروف السفر أو بشكل أدق من حيث ملابسات العودة.

وفي تحليله لأسباب استحالة استمرار التعايش مع إسرائيل، يعود الدكتور ربيع إلى ثلاثة مبادىء يعتبر أنها حاكمة لإدراك النخب الإسرائيلية المتعاقبة - وبغض النظر عن اتجاهاتها السياسية - لمفهوم الأمن القومي الإسرائيلي. المبدأ الأول هو الاندماج في المنطقة لأسباب جغرافية لا تستطيع الدولة العبرية الفكاك منها. والمبدأ الثاني هو استيعاب المنطقة وابتلاعها وتفتيتها وهو المبدأ الذى يؤكد على وجودية الصراع واستمراريته. المبدأ الثالث هو السلام الذى يعنى حق الدولة العبرية في أن تحقق الحد الأدنى من الأمن لشعبها بما في ذلك حقها في استباق التطورات التي يمكن ان تشكل تهديداً محتملاً في المستقبل. ضرب المفاعل النووي العراقي كان تجسيدا لهذا المبدأ، وهو بالمناسبة المبدأ نفسه الذى ترفعة الإدارة الامريكية الحالية بصقورها وحمائمها.

احتل الخطر الصهيوني إذن مكاناً مركزيا من فكر أستاذنا الكبير، ومرة أخرى في تجسيده لشعوره بالمسئولية الكفاحية حرص على ان ينقل احساسه بالخطر لنا نحن طلابه. ولذلك لم يكن مفاجئنا أن يختار لي موضوعا للماجستير «الصهيونية والقوى الضاغطة في فرنسا» انطلاقا من إيمانه بعلاقة التساند العضوى بين يهود الداخل ويهود الخارج، واقتناعه بانه في الدولة العبرية تتحدد السياسة الداخلية على وقع السياسة الخارجية وليس العكس (وهى مقولة قد يكون هناك من يختلف عنها من حيث شكل العلاقة وليس من حيث أصلها). لم يكن كثيرون في مصر في مطلع الثمانينات يملكون المجاهرة بالخطر الصهيوني، وأقل منهم أولئك الذين يبحثون عن هذا الخطر خارج الإطار الامريكي، فالنفوذ الصهيوني لا موضع له إلا داخل الولايات المتحدة، أو دعنى أقول لاموضوع له بهذه القوة وهذا التأثير إلا داخل الولايات المتحدة لكن عندما شققت طريقي إلى عاصمة النور لأبحث عن مراجع تعينني على دراسة هذا الموضوع الصعب، ووجدت

على بعد أمتار من مطار «أورلي»، المطار الوحيد فى حينه، لافتة تشير إلى أكبر مصحة فى فرنسا لعلاج الأورام تحمل اسم ville juif، تساءلت فى داخلي: هل يبدأ النفوذ الصهيوني من حدود الدولة الفرنسية؟.. وعلى الرغم من أني اكتشفت لاحقاً أنه لا دلالة تذكر لتلك اللافتة، ولا علاقة لها بالنفوذ الصهيوني من الناحية الفعلية، لكني تبينت أيضاً مبلغ تخلل هذا النفوذ حياة المواطن الفرنسي العادي دع عنك مركز صنع القرار فى قلب العاصمة - باريس.

المقال الحادي عشر

فى الوقت الذى كانت تتعرض فيه عروبة مصر لحملة ضارية بعد الصلح مع إسرائيل، وتتردد فيه المقارنة الخبيثة بين أمن مصر وأمن العرب من زاوية تروج لانفصالهما، كتب الدكتور حامد ربيع سلسلة من المقالات فى منابر مختلفة، يدافع فيها عن عروبته، فما كان لديه شك فى أن العروبة ظهير مصر كما أن لمصر دوراً قياديا لا تملك ترف التنازل عنه فى منطقتها العربية. حملت إحدى هذه السلاسل اسم «العرب فى قلب العاصفة»، والأخرى «أمتي والعالم»، والثالثة «سوف أظل عربياً»، والرابعة «إسرائيل والحرب القادمة» ثم «مصر والحرب القادمة». والسلسلتان الأخيرتان جاءتا على هيئة مقالات نشرت فى جريدة الوفد، وأثارتا قضية السلاح النووي الإسرائيلي، هذا الخطر المسكوت عنه لأنه يتعلق بالدولة العبرية، والمستباح فى غيرها خصوصاً ما طالها منه تهديد.

وعندما كان يهم الدكتور ربيع بكتابة المقال الحادي عشر فى سلسلة «مصر والحرب القادمة» قضى نحبه فى ظروف غامضة، مخلفاً وراءه سؤالاً كبيراً: هل ثمة شبهة فى قتل العالم الكبير؟.. وإذا كانت الإجابة بالايجاب فهل للمخابرات الإسرائيلية يد فى تدبير الحادث خصوصاً وقد وعد الراحل قراءه بنشر وثائق جديدة عن الترسانة النووية للدولة العبرية؟.. هل نحن إزاء إعادة إنتاج سابقة الدكتور المشد مع اختلاف السياق والظروف واتفاق الهدف: تأكيد التفوق العسكري الإسرائيلي المطلق والحيلولة دون تطوير أي من دول المنطقة للسلاح النووي؟.. لم تنجح السنوات الأربع عشرة الماضية فى إزالة الغموض عن ظرف رحيل العالم الكبير، وأظن أنه مع أهمية السؤال الذى أثير إلا أن كثيرين لم يكونوا يحفلون بإجابته، إما لأن التفسير لم يكن على هواهم باعتباره يسقط فى هاوية النظرية التآمرية التى يولع بها العرب، وإما لأن الرجل نفسه لم يكن على هواهم لأسباب كثيرة أهمها أنه لم يكن يجيد تسويق نفسه، والأرجح أنه للسببين معاً لم نعرف كيف فارقنا الدكتور ربيع. ■

الإبداع
وفلسفة التعليم

بقلم
د. شريف حتاته

فى ذلك اليوم فى الصباح الباكر من شقتنا فى «سبرنج ستريت» (أى شارع الربيع) بمدينة «بورتلاند» هبطت طبقات الثلج تمتد فوق الأرض مثل القطن الأبيض . والصقيع يخترق الملابس الصوفية السميكة التى لففتها حول جسمى . سرت فى الشوارع مستعينا بخريطة للمدينة أرسلتها إلى إدارة الجامعة . الشوارع تكاد تكون خالية من الناس، والسيارات فى هذا الوقت المبكر فيما عدا أطفال المدارس ألمح وجوههم الصغيرة الموردة تطل من أغطية الرأس الصوفية الملونة . عند تقاطع الشوارع يقف رجال يحملون فى أيديهم لوحات معدنية لإيقاف السيارات كلما اجتاز طفل أو مجموعة من الأطفال أحد الشوارع .



اجتزت غابة صغيرة . الأشجار ترفع أغصانها السوداء العارية إلى السماء ، وطيور النورس تدور حولها صارخة. فمدينة «بورتلاند» تقع على شاطئ المحيط الاطلسي في أقصى شمال الولايات المتحدة. جئت إليها لأقوم بالتدريس في جامعة «ساثرن ماين»، ورغم الثلوج والبرد القارس قررت أن أذهب إلى مكتبي سيراً على قدمي حفاظاً على عادة التريض التي لم أتوقف عن ممارستها طوال السنوات.

وصلت إلى مبنى «لوثر بوني» حيث يوجد مكتبي بعد خمسة وأربعين دقيقة. دفعت الباب الخارجي لأجد نفسي في صالة ضخمة مزدحمة بالطلبة، والطالبات يثرثرون في مجموعات، أو يجلسون على موائد تصطف على جانب ليقرأوا في كتاب أو يتناولوا قدحاً من القهوة، وفطيرة للإفطار.

خرجت من المصعد عند الطابق الثالث لأجد باب مكتبي المرقم ٣٢٥ أمامي. دخلت ملقياً نظرة سريعة حول الحجرة الفسيحة المريحة باتساعها، وأثاثها البسيط. خلعت السترة، والملابس الصوفية بسرعة ، وجمعت بعض الأوراق قبل أن أهبط إلى الفصل رقم ٢٠٨.

حول المنضدة المربعة الممتدة قرب الجدران كانوا يجلسون. خمسة عشرة من الطلبة، والطالبات. اخترت مقعداً خالياً إلى جوار السبورة، وأسفل شاشة العرض السينمائي المعلقة قرب السقف. جلست ثم درت بنظراتي على الوجوه. تطلعت إلى عيونها تفحصني في صمت.

قلت: «صباح الخير» . أريد أن نبدأ بالتعرف على بعض. فأرجو من كل منكم أن يذكر اسمه، وسنه، ومجال الدراسة الذي اختاره لنفسه، والأسباب التي من أجلها قرر أن يلتحق بالمنهج الذي سأقوم بتدريسه تحت اسم «كسر الحواجز».

هكذا بدأت الحصة الأولى التي أجاب فيها كل من الطلبة، والطالبات على الأسئلة التي طرحتها عليهم، اكتفيت فيها بالاستماع إليهم، والتدخل بالتشجيع كلما لاحظت عند بعضهم قدراً



من الخجل دفعهم إلى الصمت. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من الاستكشاف في التجربة التي خضتها في جامعة «ديوك» الامريكية منذ سنوات ست.

التعليم فى حاجة إلى فلسفة جديدة

«من علمني حرفاً صرت له عبداً».

هذه مقولة كانت شائعة أيام أن كنت تلميذاً في المدرسة، ثم طالباً في الجامعه أي منذ أكثر من ستين سنة. ربما لم يعد أحد يرددها الآن. مع ذلك مازالت الفلسفة العبودية هي السائدة في جميع نظم التعليم، وفي جميع البلاد. فهي في رأيي لا تصنع رجالاً، ونساءً أحراراً، وإنما عقليات لا تملك القدرة على التفكير المستقل، والإبداع ولا تهبهم تلك الثقة في النفس التي تجعل الإنسان يؤمن بأنه يستطيع أن يكون، بل هو بالفعل، منبع للمعرفة بحكم تجاربه. أنها تغرس الاعتقاد بأن المعرفة تأتي إلينا من غيرنا، ولا نستطيع أن نضيف إليها، أو نطورها، أو نبين الخطأ الذي قد نحمله. إن علينا أن نقبلها، ونستوعبها كما هي لنصبح من عداد المتعلمين، أو المثقفين.

فالمجتمع منقسم إلى أقلية حاكمة تملك المال، والسلطة، والسلاح، وإلى أغلبية مطلوب منها الخضوع والطاعة. حتى تستمر هذه الأقلية متربعة على قمة الهرم، وحتى يظل النظام الذي هو في صالحها قائماً دون تغيير، فإن هذه الاقليه الحاكمة في حاجة إلى تشكيل عقول الناس، وعلى الأخص عقول الشباب من الجنسين بحيث يقبلون الأوضاع كما هي، أو على الاقل بحيث تنقصهم المعرفة التي لا غنى عنها كي يتمكنوا من تغييرها، وليحققوا حلم الإنسان الأبدي في أن يعيش حياة تسودها الحرية، والعدالة.

ففي ظل الأوضاع السائدة في العالم، وفي بلادنا مطلوب منهم أن يظلوا خاضعين للظلم، والقهر، وعدم المساواة، ولمختلف أنواع التفرقة المبنية على الطبقة، أو الجنس، أو الدين، أو العرق.

عندما عملت لمدة ثماني سنوات في منظمة العمل الدولية، ثم كأستاذ زائر في بعض الجامعات، سمحت لي الظروف بأن أطلع على نظم التعليم في عدد من البلاد. في الوقت نفسه بدأت أستعيد تجربتي كتلميذ في المدرسة، وكطالب في الجامعة. فأدركت أن جميع هذه النظم في جوهرها لا تتجه إلى تكوين إنسان له عقل مبدع، وناقد، ومستقل. هذا في ظل مجتمعاتنا أمر طبيعي. فالتعليم إذا قام على فلسفة تؤدي إلى تكوين عقول واثقة في قدراتها، تمارس تفكيراً مستقلاً، عقول قادرة على صنع المعرفة، على النقد وعلى الإبداع، فإن سيطرة الأقلية المدججة بالمال والسلاح، والمسيطرة على التعليم، ووسائل إعلامنا مآلها حتى وإن طال الزمن قليلاً هو الزوال.

هذا هو حالنا منذ المجتمع العبودي،

منذ أن انقسم المجتمع إلى طبقات، إلى أقلية تملك، وأغلبية لا تملك وتفنى عمرها بحثاً عن لقمة العيش. منذ الحضارات الأولى التى نشأت فى كل من مصر، واليونان، والهند، والصين، والمكسيك، والعراق. ومنذ أن سادت الفلسفة العبودية فى المجتمعات. لذلك كان القطاف من شجرة المعرفة إثماً أدى إلى طرد آدم وحواء من الجنة ليثبت بذلك أن الأساطير القديمة تشير إلى حقائق يجب أن ندرك عمق معناها.

وفى عصرنا «الحديث» أو «ما بعد الحديث» تمارس الطبقات الحاكمة سيطرتها على العقول عن طريق التربية فى الأسرة، والتعليم، والإعلام، والمؤسسات الدينية.

ليس قصدى من هذا الكلام أن هناك مؤامرة مدبرة بواسطة الأقليات التى تحكم فى العالم وفى كل البلاد. لكن معناه أن أى نظام لابد أن تكون له فلسفته وآلياته التى تبقى عليه وتضمن استمراره. فالمجتمعات، والمؤسسات جميعاً بطبيعتها تسعى إلى الحفاظ على نفسها. هذه هى طبيعة الأشياء، طبيعة النظام الطبقى الأبوى الذى يسود فى عالمنا. لابد أن يفرز فلسفة عبودية فى جميع المجالات بما فيها التعليم، وهى فلسفة لا يمكن أن تؤدى إلى صنع مبدعين أحرار. الأحرار المبدعون دائماً أقلية خارجة عن القاعدة، ثائرة، ومتمردة، تكسر أطر التعليم الرسمى الذى تلقته فى الأسرة، أو المدرسة، أو الجامعة، أو فى بيوت العبادة التى يسرف عليها رجال نصبوا أنفسهم مفسرين لكلام الله.

التعليم حتى اليوم، وعلى الأخص فى البلاد الرأسمالية المتقدمة صناعياً تهتم بصنع المهارات، بالتخصصات، بالعلوم، بالمعارف التى يحتاج إليها المجتمع. لأن فى غيبة هذه المهارات سيعجز عن الاستمرار، سيعجز عن تحقيق التطور الذى تريده الأقلية صاحبة السلطة والمال. لكن التعليم لا يسعى أبداً إلى صنع عقول قادرة على تغيير الأسس الظالمة، التى مازالت تقوم عليه كل المجتمعات.

كسر الحواجز

عندما دعيت للتدريس فى جامعة «سوثرن ماين» قادنى هذا التفكير إلى خوض تجربة مختلفة فى منهج وأسلوب التعليم لا أدعى أنها الأولى من نوعها، فلاشك فى أن هناك محاولات تسير فى ذات الاتجاه. وأياً كانت مميزات وعيوب هذه التجربة فقد كانت نتاج حوار طويل، دار بينى وبين نوال السعداوى طوال السنوات، ونتاج القراءات وتجارب الحياة.

هذا المنهج سميته كسر الحواجز، ونظام التعليم الجامعى فى الولايات المتحدة الأمريكية يتمتع بمميزات. منها

الحرية التي تعطى للأستاذ، وعلى الأخص للأستاذ الزائر في تصميم المنهج الذي يريد تدريسه دون أي تدخل من رئيس القسم أو غيره من المسئولين القائمين على التعليم الجامعي، فهم يعتقدون أن تعرض الطلبة والطالبات لمختلف المعارف والخبرات وبالذات تلك الآتية من خارج البلاد يمكن أن تصنع نخبة من المتعلمين أقدر على تسيير شئون المجتمع في جميع المجالات، وربما أيضاً لأن سيطرة الرأسمالية النيوليبرالية في الولايات المتحدة مازالت قوية. فهي حتى الآن لا تخشى من أثر الأفكار المختلفة بل على العكس تبحث عن وسائل لاستيعاب التجارب الجديدة والاستفادة منها.

ورشة فكر جماعي

كانت لي حصتان في الأسبوع كل منهما تمتد لمدة ساعة، كنت أجلس بين الطلبة والطالبات كواحد منهم. أو يقوم أحدهم للكتابة على السبورة، وأحياناً يعرض فيلم فيديو يدور بعده نقاش. لكن من لحظة دخولي إلى الفصل إلى لحظة خروجي منه كان يدور حوار نشارك فيه جميعاً دون استثناء. في بعض الحصص كنت أترك الحوار ليدور بينهم وأظل صامتاً مشغولاً بتسجيل بعض النقاط التي أرى أهمية لإثارتها فيما بعد. ولكن في كل الأوقات، ماعدا في مناسبات نادرة، ظل دوري هو المشاركة وليس التدريس. قد أسأل أسئلة ليفكروا فيها أو أعرض فكرة تساعد على تطوير النقاش. لكني كنت أحرص دائماً على أن أتكلم باختصار وأن يدفعهم كلامي إلى التساؤل، أو إلى قدر أكبر من التعمق في القضية المثارة. ظل التساؤل دائماً هو سيد الموقف. ابتعد عن إملاء المعلومات أو فرض آرائي كأستاذ.

كنت أسعى إلى أن تكون النتائج التي نصل إليها نابعة من تفكيرهم وحوارهم المشترك. أدفعهم إلى التساؤل حول كل شيء دون أن يتملكهم الحرج أو الخوف مهما كانت حساسية الموضوع، إلى تحطيم التحيزات، والأفكار المسبقة، وفحص كل المعلومات والآراء بعقل ناقد. دوري كان مساعدتهم على تأصيل المعارف وعلى تتبع جذورها، وأسبابها وتاريخها. كيف نشأت، وكيف تطورت. أن أعينهم على أن يكتشفوا بأنفسهم أن لكل ظاهرة جوانب مختلفة، أن هناك صلة بين الاقتصاد، والسياسة، بين الاجتماع، والفلسفة، والثقافة، وعلم النفس، والجنس والدين، بين الفن والعلم. إن المعرفة الكلية هي المعرفة الحقيقية تساعد على ربط الجزء بالكل، والخاص بالعام. فالإنسان في حياته يمارس كل هذه الأشياء. والحياة تتعلق بكل هذه المجالات لا نستطيع أن نفهمها إلا إذا أدركنا هذه الصلات، ولا نستطيع أن ندفعها إلى الأمام إلا بكسر

الحواجز»، والقضاء على التحيزات المبنية على الطبقة، أو الجنس، أو الدين، أو العرق، أو القومية، أو التفكير الجزئي الذي يحول الحقائق الجزئية إلى حقائق كلية.

كانت القراءات المقررة عليهم أساساً عدد من الروايات العربية المترجمة إلى الإنجليزية. اخترتها ليطلوا على عوالم غير عالمهم. اخترت أن تكون أغلب قراءاتهم من الأدب الروائي بالذات لأن الأدب الروائي يعبر عن كلية الحياة، عن الإنسان الذي هو كائن اقتصادي، اجتماعي، ثقافي، فلسفي، نفسي. مكون من جسم، وعقل لا ينفصلان عن بعضهما. الرواية هي الإنسان في علاقته بكل ما يدور في المجتمع، وبالآخرين. والرواية هي حاضر وماض ومحاولة لاستشراف المستقبل.

كل أسبوع كنت أطلب منهم أن يكتبوا ورقة من ثلاث أو أربع صفحات حول موضوع معين أثير أثناء الحوار. في هذه الأوراق لم أكن معنياً بأن «يرصوا» فقرات من كتاب، أو يستعرضوا معلومات. كنت أحثهم على التعبير عن رؤيتهم للأشياء، عن تجاربهم الخاصة والحميمة، عما أثار انتباههم، عما أثر في حياتهم، عما طور تفكيرهم، عن نظرتهم للمجتمع والحياة، عن أحلامهم. كنت معنياً بأن يكتشفوا هم قدراتهم، ومواهبهم، وأن يثقوا فيها. أن ينتقدوا ما يدور في الفصل إن كان لهم انتقاد. أن يعبروا عن أنفسهم بجرأة وصراحة. أن ينبع كل ما يكتبون من أعماقهم وليس من الكتب، أو من الآخرين. كنا نستخدم القراءات لإثارة التفكير، والتساؤل، والتحليل وليس كمراجع للحفظ.

كانت ورشة جماعية للفكر، والحوار عن طريقها تعلمنا من بعضنا، واقتربنا. عن طريقها زادت ثقتهم في أنفسهم، في قدراتهم على التفكير، والتعبير، والإبداع. وطوال الوقت كنت واحداً منهم أتعلم منهم ويتعلمون مني. عن طريق هذه الورشة تفتحت أذهاننا للشمس والهواء، للمساحات، للمستقبل والآفاق. لا أريد أن أبالغ فيما فعلناه، لكننا على الأقل خرجنا من هذه التجربة أقوى، وأوعى مما كنا. نشأت بيننا عواطف من الاحترام، والصداقة. كنا كمن أبحروا في سفينة خاضت البحار في رحلة اكتشاف فيها علم وفن شاركنا فيها جميعاً، فأصبحت المعرفة نتاجا جماعيا لا تعتمد على فرد أعلى هو المعلم أو الأستاذ. نضجوا وكبروا أثناءها وخرجوا منها أعمق فكراً وأصلب عوداً، وأنا كذلك. وعندما ظهرت نذر الحرب تصدروا المظاهرات رافعين أعلامهم، حاملين اللافتات التي كتب عليها:

«لا للدم مقابل النفط». «لا للحرب ضد شعب العراق». ■

الحضارة الإنسانية

تـــزاوج لا صــــراع

بقلم
فـاروق خورشـيد

من أخطر المقولات التى راجت هذا العصر بعد الخطب الرنانة والتصريحات المتفاخرة لرئيس أمريكا وقادته ، مقولة، الصراع الحضارى . وقد فاتهم جميعا أن الذى يتصارع هو الدول وليس الحضارات ، بل إن الدول تتصارع داخل الحضارة الواحدة لتكون لها فى مرحلة ما صدارة هذه الحضارة والسيطرة الكاملة على كل مقوماتها البشرية وكل قدرات الثروات فيها - وتظل مسيرة الحضارة مترافعة ومتواكبة - والدول التى تتولى الصدارة تتغير ، بحكم الشيخوخة التى تصيب من فى القمة ، والداء الذى بسببه الثراء والاسترخاء ينخر في قدرتها على القيادة ، حتى تشب قوة شابة جديدة ، لتزيحها عن صدارة هذه الحضارة ، حتى تتجدد هذه الحضارة وتكون قادرة على الاستمرار والبقاء والإضافة الدائمة . أو هكذا قال ،ابن خلدون، فى مقدمته من قديم الزمان .

وهكذا أثبتت تواريخ الأحداث ، وتعاقب المتغيرات التاريخية التى أكدت أن الحضارة شىء أكبر من الدول ، والدول قد تتصارع داخل الحضارة الواحدة ، ولكن تظل الحضارة الإنسانية هي نتاج الوجود الإنسانى المتفاعل

والدائم والمستمر ، رغم صراعات الدول ، وارتفاعها أو تدهورها وسقوطها .. ويمكن أن تكون الدول فصولا أو عصور عصورا فى حضارة واحدة تشملها وتجسد صراع شعوب ودول أصحاب مصالح وطموحات متصارعة ومختلفة .. وإن كانت كلها تنتمى إلى حضارة واحدة أو تمثل مراحل متعددة ساهمت بتجدد شبابها فى تطور هذه الحضارة واستمرارها ، وتأكيد قيمها وبلورة هذه القيم وتأصيلها .

تطور الحضارات

فالحضارة الإغريقية .. التى هى الأم المباشرة للحضارة الغربية ، قادتها الدولة الإغريقية في ازدهار أثينا وفلاسفتها ومفكريها ، ثم قادتها الدولة الرومانية فى عصر ازدهار روما وسيطرتها العسكرية والفكرية معا على مقدرات العالم القديم كله ، ثم سادتها الإسكندرية فى عصر تحولها إلى ماسمى باسم الحضارة الهلينستينية التى جمعت الزخم الفكرى لأثينا وروما والإضافات التى جاءت من عواصم البحر الأبيض الحضارة الفينيقية والحضارة الفرعونية ، وحضارة شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وتزعمتها فى هذه المرحلة الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها والمدرسة الأفلوطينية رائدة هذه المرحلة الفكرية العالمية .. وهذا حدث أيضا بالنسبة للحضارة الإسلامية ، إذ قادتها مكة والمدينة صدر الإسلام ، ثم دمشق فى العصر الأموى ، فبغداد فى العصر العباسى ، ثم عواصم الشرق الأوسط الإسلامية كلها فى عصر الولايات إلى أن تركزت فى عاصمة الدولة العثمانية مع ما تضيفه إليها هذه الدول من الناحية الحضارية .. رغم الصراعات العسكرية بين بؤر التفوق العسكرى فى كل هذه البؤر ، إلا أن هذه الصراعات لم تعكس صراعا حضاريا ، لأن الأسس الثقافية والعلمية والفكرية التى قامت عليها هذه الحضارات ازدادت وضوحا ورسوخا وتطورا ، بشكل أو بآخر ، أثناء انتقالها من عاصمة حضارية إلى أخرى ، تضيف كل منها ما تستطيع ، إذ أن هناك تكاملاً تحققه توالى الدول داخل الحضارة الواحدة ، ذات الطابع الواحد ، وتوالى الحضارات داخل الزحف الإنسانى المتكامل نحو تحقيق مستقبل حضارى أفضل ، وأكثر تطورا لصالح الإنسان نفسه ، ولصالح تحقيق حقه المكتسب فى ثروات عالمه ، وفى الحرية والإخاء والمساواة .. وكل حضارة سادت فى مرحلة ما تقدم كل ما توصلت إليه فى دنيا المعرفة والسلوك والفكر إلى الحضارة التالية لها ، لبتكامل السير الحضارى الإنسانى ، ومن قديم أيضا قال (توتى) إن الحضارات تتعاقب ولكنها تتعايش .. وهذا يعنى أن ليست هناك حضارة نزول على

بد حضارة أخرى ، وإنما هناك حضارة تنزوى بعيدا عن الزحف العام للحضارة الجديدة ، محتفظة بكل خصائصها الحضارية ، وعن طريق هذه البؤر المتوارية حضاريا يمكن لنا أن نعرف كل المراحل التي مرت بها الحضارة الإنسانية منذ المرحلة البدائية الأولى - التى مرت بها الإنسانية فى تكوين وجودها الحضارى حتى وجودها المعاصر لنا - وقامت علوم إنسانية كثيرة على هذا الأساس كعلوم الميثولوجي والانثروبولوجي والفولكلور ، للكشف عن السمات الأساسية لكل حضارة والتى بقيت عبر الزمان لتكون الماضى الحى ، الذى يكشف الخصوصية الإنسانية لكل حضارة فى كل مرحلة وكل عصر من العصور الحضارية الإنسانية المتتالية . ولا يأتى هذا إلا بالدراسة العلمية لكل المتبقيات الحضارية واحترامها ، ومحاولة فهمه ، لتكشف لنا عن كل الوجوه المتعددة للصراع الإنساني ضد الجهل وضد المعوقات البدائية والمستمرة التى حاولت أن تعوق نمو الإنسان الحضارى ، ومسيرته الثقافية ، فالإنسان هو المخلوق الحي الوحيد في هذا العالم الذى لايكرر نفسه ، فكل الحيوانات تعيش من جيل إلى جيل تكرر نفسها وطرق معيشتها وطريقة سلوكها هى والطيور والحشرات والنباتات أيضا ، المخلوق الحى الوحيد الذى لايكرر سلوكه هو الإنسان ، لأنه يستفيد من تجربته ، وممارسته للعلاقة بينه وبين الزمان والمكان، ليتطور معتمدا على كل ثقافته القائمة على المعاناة والتجربة ومحاولا الاستفادة من معرفته بما حوله وتطويعه لكل ما حوله ليكون في خدمته الحضارية والثقافية معا ، لينطور من مرحلة إلى مرحلة ، وليخلق من هذه الحركة التطورية معنى حضارته النامية والمتكاملة أبدا .. وعلى هذا فالإنسان يبنى الجديد على ما حصله من ثقافة حضارية قديمة ، وهو لايهدم هذا القديم ولا يدمره ، لأنه يعرف ويحترم أنه يحتاجه ويبنى عليه ويكون منه عطاء ليومه الذى يريد أن يكون هو الأساس الذى يقوم عليه غده - وقد ركزت الدراسات الأنثروبولوجية وعلى رأسها دراسات سير (جيمس فريزر) على محاولة معرفة هذه الخصوصيات الثقافية ودراستها وإبرازها كعناصر أساسية في الوجود الحضارى الإنسانى العام .

هذه محاولة للرؤية ، وهى بالقطع محاولة قاصرة تحتاج إلى كثير من التوثيق والمناقشة والفهم ، ولست آمل إلا فى أن يكون طرحها بداية لمناقشة ومتابعة وإضافة وفهم . ■

على خطى النفري

موقف أنت معنى الكون

شعر

محمد عبد السلام - اليمن

قال لي في غمرة الشجن
ودموع الشوق تسكبني
أنت معنى الكون مكتملا
وأنا لولاك لم أكن
لم هذا الحزن؟ قلت له:
لا تسلني قال: تنهرني؟
قلت كلا بل عجبت لمن
هو أدرى. كيف يسألني
سكرة العشاق اكتمها
عن نديم بات يسكرني؟
فدع الأحزان خذ قدحاً
إن فيها الروح للبدن
هاتها أحيي بها ألماً
نازفاً فيني يذكرني
غفلة الماضي وقد سفحت
عمري فيها فيحرقني
وغداً في الغيب أجهله
كسيول الليل يفزعني
كيف أسلو والشجي قدر
جارح والروح تعصرني
فأضنها اقدح بها قبساً
واسقنيها حين تشربني
واعزف الروح انسكب نغماً
واستمعني فيه يعزفني
يانديماً عاشقاً ثملاً
سوف تبقى دائماً سكني

«حداثة»

بيدبا الفيلسوف ودبشليم الملك ؟ وكيف كان ذلك

بقلم
صافي ناز كاظم



الذئب الطماع

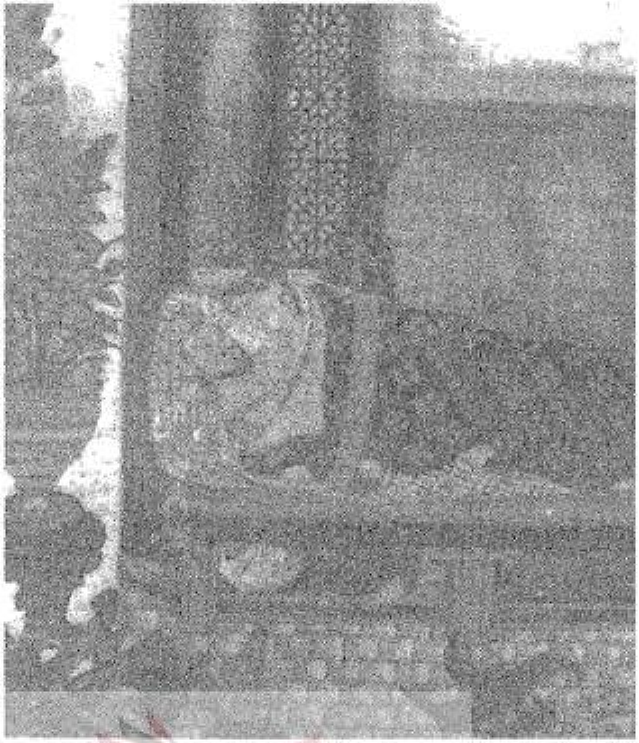


في أول فبراير سنة ١٩٦٨، وكان يوم خميس، أصدرت دار ومطابع الشعب كتاب «كليلة ودمنة» ١١٢ صفحة، في سلسلة «كتاب الشعب» التي كانت تقدم «كل أسبوع» كتابا من الذخائر بعشرة قروش، وكان شعار الدار: «أخصائيون في المطبوعات العاجلة»، ورئيس مجلس الإدارة «السيد إبراهيم». أخرجت الكتاب من مكتبتي لأقرأه من جديد بمناسبة صدور كتاب الأستاذ «برنارد أوكين»، عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، والذي عنوانه، مترجما عن الإنجليزية يكون، «الرسوم الفارسية المبكرة، مخطوطات كليلة ودمنة نهاية القرن الرابع عشر».

◄ هروب السلحفاة الثرثارة



غلاف كتاب الرسوم الفارسية المبكرة لـ «كليله ودمنة»



التجار وزوجته الخائنة وعشيقها

وكتاب الأستاذ «أوكين» مجلد ضخم، فاخر الورق، يزن ما بين كيلوين وكيلوين ونصف، تحسبه لأول وهلة أكثر من ألف صفحة، لكنه في حقيقته ٣٢٦ صفحة، وهذا يعطينا تصورا عن سُمك ورقه المصقول اللائق والمناسب تماما لنقل اللوحات الملونة - (صفحات ٩٧ إلى ١٢٨، و١٤٥ إلى ١٦٠، و١٧٧ إلى ١٩٢) - والأسود والأبيض - (صفحات ٥٣ إلى ٩٢، و١٣٤ إلى ١٤٢، و١٦١ إلى ١٧٠) - واللوحات المنقولة من مخطوطات استامبول ورامبور والقاهرة صورها المؤلف بنفسه عدا اللوحات الأخرى التي زودته بها بعض المؤسسات الثقافية وقد أشار إليها.

قسم الأستاذ «أوكين» كتابه إلى أربعة أقسام، غير المقدمة، ضمّن القسم الأول: النصوص، الرسوم والتاريخ، والثاني: المخطوطات، والثالث: تحليلات مقارنة، والرابع، ملحقات مخطوطات كليلة ودمنة.

***

كتاب الأستاذ «أوكين»، كتاب علمي فني ثقافي، ثري وغني، متقن غاية الإتقان، وإن ظهرت به بعض الأخطاء المطبعية، وهو فرجة ممتعة، بمعرض لوحاته، حتى لمن لا يصبر على قراءة البحث والشرح والتحليل. وأهمية هذا

◄ دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف - « باب الفحص عن أمر دمنة»

روزگار او بر سر انتقام و انتصاف از پای درآرد ابتغی بسیع ابلد وحم...

باب الفحص عن امر دمنه

ی گفت برهمن را که شنودم داستان ساعی نمام که چگونه جمال تیین را بخیال ... شت



الكتاب فيما يخصني شخصيا أنه انساني، مؤقتا، وجه جورج دابليو بوش ودونالد رامسفيلد وكوندوليزا رايس، وفك الارتباط قليلا بين «القبيح» وما هو «أمريكي»، فهذا كتاب لا يجابهنا بكلمات مثل «عليكم أن تذعنوا....»، بل لعله انعاش ذاكرة أصحاب الأحذية الثقيلة، والأيدي الصافعة، والنظرات الاستعلائية، لجانب من الحضارة الإسلامية التي مازالت، حتى الآن، تمتع خلق الله على مدار الكرة الأرضية وتشكل مصدرا رئيسيا في إثراء التراث الإنساني للكافة.

والأهمية الثانية لهذا الكتاب أنه أعادني لقراءة «كليلة ودمنة» في طبعة «كتاب الشعب»، التي ذكرتها في مقدمة كلامي هذا، وهي تنوه باختصار إلى أن «الكتاب» تأليف «بيدبا الفيلسوف» وترجمة «عبد الله بن المقفع»، من دون أن يذكر المشرفون المصدر الذي نقلوا عنه هذه الطبعة الشعبية، لا سيما وأن ما ذكره الأستاذ «أوكين»، في قائمة المصادر الخاصة بكليلة ودمنة، طبعتين بالعربية: الأولى صدرت في بيروت عام ١٩٠٥ تحقيق وتقديم الأب شيخو، لويس اليسوعي، والثانية صدرت بالقاهرة عن دار المعارف سنة ١٩٤١ بتقديم وتحقيق الدكتور عبدالوهاب عزام – ولم يشر الأستاذ «أوكين» إلى طبعة «كتاب الشعب» سنة ١٩٦٨ ربما لأنها قد تكون منقولة عن طبعة «عزام». والذي يبهرني في طبعة «كتاب الشعب» لكتاب «كليلة ودمنة»، أنها خالية تماماً من أي خطأ مطبعي، رغم تجشمها تشكيل كل الحروف بالفتحة والضمة والكسرة والسكون. وقد استعنت بكتاب الدكتور شوقي ضيف «العصر العباسي الأول»، الذي انتهى منه ديسمبر ١٩٦٦، لأفهم بالضبط الدور الذي لعبه «عبدالله بن المقفع» في نقله «كليله ودمنة» من اللغة الفارسية إلى العربية، هل كانت ترجمته حرفية لا زيادة فيها ولا نقصان أم أنه استعان بها للتعبير عن أزمات زمانه وعلاقته هو بأصحاب السلطان ومعاناته من مكائد المتحلقين حولهم؟ في هذا يقول الدكتور شوقي ضيف صفحة ٥٢٠ و٥٢١ التالي «... ورجح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد في الكتاب بعض الفصول والقصص، ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده، إذ ترجم الكتاب مرارا، شعرا ونثرا، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذي وضعه بين يدي القصص وسماه وعرض الكتاب، ...

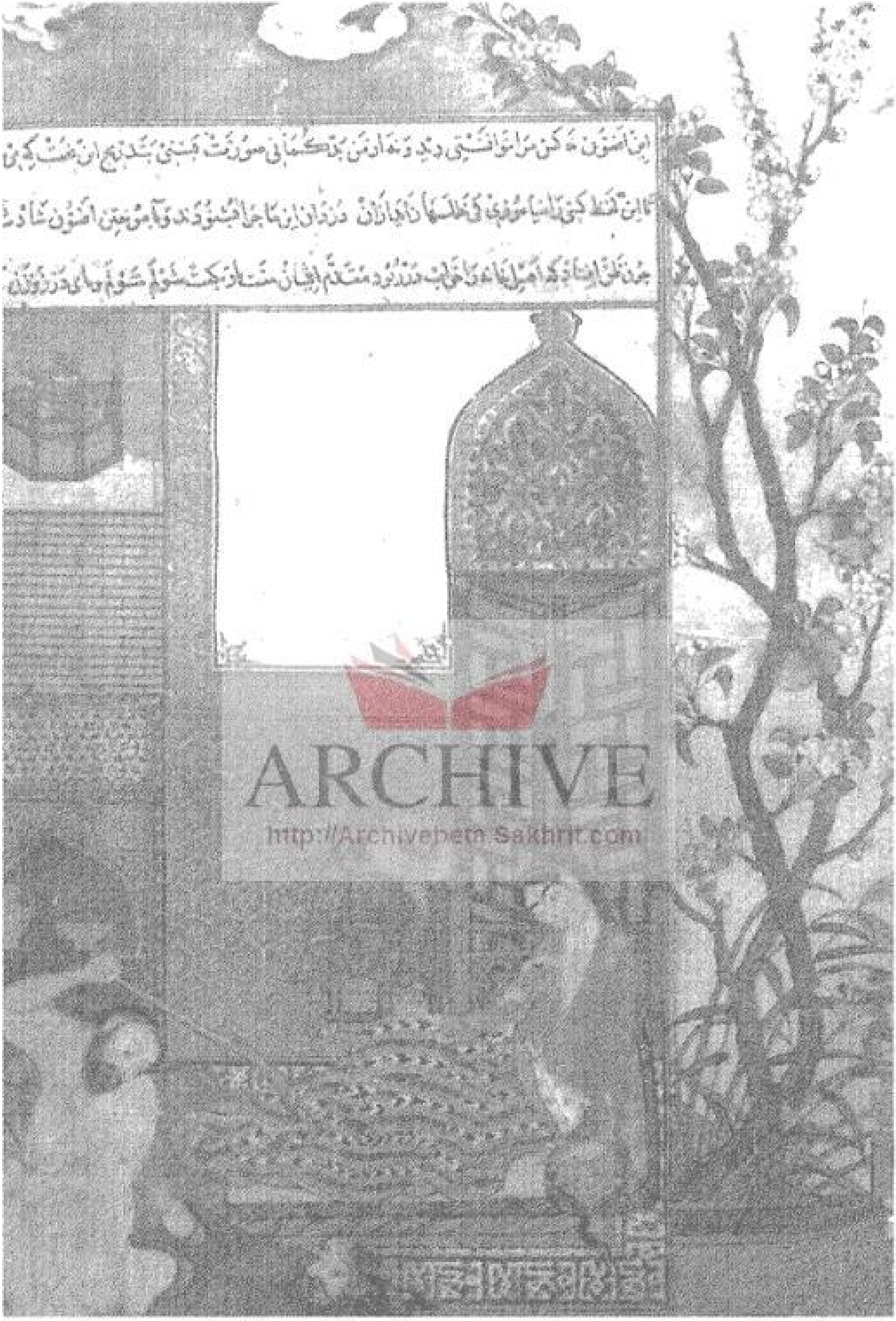
... ... ومثل ابن المقفع في ترجمة هذا الكتاب مثله في ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلقية يصب في دقة المعنى الذي يترجمه في القوالب العربية التي تلائمه وتلائم الذوق العربي، بحيث خيل إلى كثير من القدماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه

وتصنيفه، إذ لم يجدوا أى فارق فى الصياغة بين ما يترجمه وينشئه..»

ومع شهادة د. شوقى ضيف، يبدو أن الأستاذ «أوكين» ظل ميالاً إلى التصديق بأن عبدالله ابن المقفع قد أضاف، على الأقل، خمسة فصول أو أبواب إلى النص الهندى الأصلى لكليلة ودمنة، ويؤيده فى هذا التصديق الأستاذ نيكلسون فى كتابه الشهير «التاريخ

نصر الله امام بهرام شاه





الأدبى للعـــرب». وكل هؤلاء العلمـــاء معذور، فعندما نقرأ كليلة ودمنة العربية، لا نجد فيها خدشا من خدوش الترجمة – (كالتى نجدها فى مستخرجات الحداثة المحدثة لكلمات «الماضوية» ومثيلاتها التى «تكركبت» على أدمغتنا وآذاننا في حفل افتتاح «مؤتمر الثقافة العربية. نحو خطاب ثقافي جديد، من تحديات الحاضر إلى آفاق المستقبل، ١ – ٣ يوليو ٢٠٠٣»، حتى أننى لم أستطع متابعة معظم ما قيل...) – بالإضافة إلى اللمسات الإيمانية الإسلامية التى لازمت النص مع كل ذكر لله سبحانه وتعالى ومشيئته وأقداره – (مع ذلك حكم المنصور، ثاني خلفاء الدولة العباسية، بقتل عبدالله بن المقفع فقتله سفيان بن معاوية المهلبي ، عامل المنصور على البصرة، الذى كان يحقد على ابن المقفع فأمر بتنور ممتلىء بالوقود، وبعد أن حميت ناره قطع فيه جسد عبدالله بن المقفع قطعة قطعة ورماه فيه، ولا أدرى هل فعل فعلته الشنعاء وابن المقفع حيا أم بعد إسلامه الروح لمن خلقه سبحانه وتعالي، وقد تم ذلك قبل أن يبنى المنصور بغداد، حاضرته الثقافية! سنة ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ هجريا، الموافق ٧٥٧م أو ٧٦٠م . ولتبرير هذا الجرم أكد الكثيرون أن ابن المقفع كان زنديقا يروج للزندقة، وحتى لو صدق هذا الزعم فهل وافقت عملية قتله تعاليم الإسلام الحنيف؟ وهل كان ذلك السفيان بن المهلبى ، عامل المنصور على البصرة، أقل زندقة فى جريمته من ضحيته، لو تأكدت عليه تهمة الزندقة؟).

* * *

تقول المصادر العلمية إن قصص كليلة ودمنة تمت كتابتها فى الهند باللغة الهندية فى القرن الثالث الميلادى تقريبا، وترجمت إلى اللغة «الفهلوية» – الفارسية – فى عصر كسرى أنوشروان، ونقلها ابن المقفع إلى العربية فى القرن الثامن الميلادى، وتعود النسخة التى حققها الدكتور عبدالوهاب عزام إلى عام ١٢٢١م. وهذا كله كلام لا يعنينى كقارئ للنص فى طبعة كتاب الشعب، ١٩٦٨/٢/١، الذى لاحظته أن الكتاب كان دوائى من تعب النفس وضيق الصدر، وأنه شدَّنى من رمال الاكتئاب المتحركة، فلم أغص فيها طويلا، وهذا الكتاب وصفتى العلاجية لمن أرهقتهم أحداث شطحتنا، ومناظرات من تم تعيينهم، من قبل أنفسهم وأصدقائهم ، النخب الثقافية والإعلامية والسياسية، الذين لم يعودوا يشوفون عقبات لدينا نحو «التقدم» إلا «الإسلام» و«المسلمين» المصرين على إعلاء كلمة الحق والدين، والذين حين يتكلمون عن «الكارثة والكارثية» لا يرون إلا «كارثة ١١/٩/٢٠٠١»، التى لا نعرف حتى الآن من هم المتسببون فيها، وإن كنا نعرف

▶ صاحب الدار يضرب اللص فى غرفة النوم فى قصة « اللص وأشعة القمر »

من المتسبب في كوارث وكارثات ونوازل ١٩٤٨/٥/١٥ وتوابعها حتى الآن على أرض فلسطين المحتلة، و٥/٦/١٩٦٧، و١٤/٧/١٩٧٩، و٩/٤/٢٠٠٣، و٢٦ يناير ١٩٥٢ ... إلخ... إلخ... إلخ، ونعرف تماما سعة مقابرنا الجماعية وقدراتها الهائلة على الاستيعاب. ياااااااالله!

***

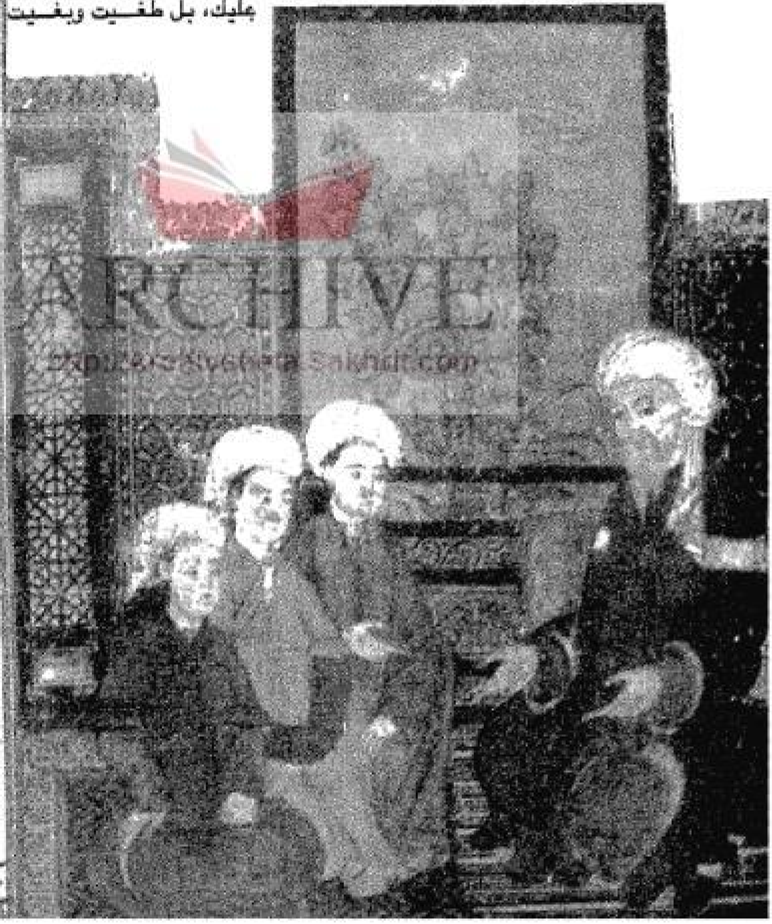
في فهرس طبعة «كتاب الشعب» نجد الإشارة إلى ١٥ بابامن الأبواب الأصلية لكليلة ودمنة بزيادة باب واحد عن أبواب النص الهندى التي تقول مقدمة الكتاب إنها ١٤ باب. يضاف إلى تلك الأبواب. «مقدمة الكتاب»، ١٢ صفحة، التي «قدمها بهنود بن سحوان ويعرف بعلى بن الشاه الفارسي. ذكر فيها السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندى رأس البراهمة لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة وجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوام، وضنا بما ضمنه عن الطغام – (الأرذال) – ، وتنزيها للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيوبها ، إذ هي للفيلسوف مندوحة، ولخاطره مفتوحة ، ولمحبيها تثقيف، ولطالبيها تشريف...» ، ثم : «بعثة برزويه إلى بلاد الهند»، ٦ صفحات، ثم «باب عرض الكتاب ترجمة عبدالله بن المقفع»، ٦ صفحات، وكلمة «ترجمة» هنا غير مقصود بها النقل من لغة إلى لغة، بل بمعنى «فاتحة الكتاب» أو «تمهيد» مثلا، أو «بقلم عبدالله بن المقفع». ثم «باب برزويه، ترجمة بزرجمهر بن البختكان» ، أى «بقلم بزرجمهر بن البختكان». و«بزرجمهر بن البختكان» كان وزير كسرى أنوشروان ويضرب به المثل لقيمته الثقافية والفنية وعظمته في صنعة الكتابة، وكان الناس يقولون «بزرجمهر زمانه وعصره وأوانه» للكاتب الذي يبلغ من صنعة فن الكتابة شأوا كبيراً، مثلما نقول نحن مثلاً عن الصوت الجميل «أم كلثوم زمانها» أو «عبدالوهاب عصره وأوانه».

***

تلخيص حكاية بيدبا الفيلسوف مع ملكه الهندى دبشليم، كما ترويها «مقدمة الكتاب» على لسان على بن الشاه الفارسي هي أن الإسكندر ذو القرنين الرومي اجتاح في غزواته للشرق، مع ما اجتاحه في العالم، البلاد الهندية وانتصر على مقاومة ملكها، الذي قاوم وتصدى ببسالة للاسكندر حتى وقع صريعا، وقرر الاسكندر أن يعين على بلاد الهند واحداً من أتباعه يحكمها باسمه قبل أن يمضى هو ليواصل اجتياحاته للبلاد الأخرى، ولكن أهل الهند لم يعجبهم الحاكم الأجنبي فاختاروا من بينهم «دبشليم» وجعلوه ملكا عليهم. هذا الدبشليم لم يحفظ عهد رعيته وأمانة الملك، فتبدل من ملك عادل رحيم بشعبه إلى طاغية جبار

يرتكب كل جرائم الحكام الفاسدين مما دفع بالفيلسوف الحكيم بيدبا إلى أن يقرر الذهاب إليه وتقديم النصح لهذا الملك الذي «لم تفزعه النوائب، ولم تؤدبه التجارب». وطلب بيدبا الإذن بالدخول على الملك دبشليم فأذن له وهو متصور أن الفيلسوف جاءه لحاجة يطلبها، «وقال له نظرت إليك يابيدبا ساكتا لا تعرض حاجتك ولا تذكر بغيتك... ... لم يكن لبيدبا أن يطرقنا على غير عادة إلا لأمر حركه لذلك، فإنه من أفضل أهل زمانه...» ،المهم أن بيدبا وصل مربط الفرس في كلامه حين قال للملك بعد تمهيد حكيم «... ... أقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود، فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت




التاجر الغني وأولاده

وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت منك البلية، وكان الأولى بك أن تسلك سبيل أسلافك .. وتقفو محاسن ما أبقوه لك.. تحسن النظر برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذى يبقى بعدك ذكره .. فإن الجاهل المغتر من استعمل فى أموره البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق، فانظر أيها الملك ما ألقيت إليك، ولا يثقلن ذلك عليك. فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازينى به، ولا التماس معروف تكافئنى فيه، ولكنى أتيتك ناصحا مشفقا عليك...» طبعا جن جنون دبشليم لأول وهلة وأمر بقتل وصلب بيدبا، ثم أحجم عن الإعدام وقرر استبداله بالحبس وتقييده . وعندما علم تلاميذ بيدبا بما حل بأستاذهم «هربوا فى البلاد واعتصموا بجزائر البحار»، ولكن دبشليم – ما شاء الله! – «سهد سهدا شديداً، فطال سهده، ومد إلى الفلك بصره ، وتفكر فى تفلك الفلك وحركات الكواكب، فأغرق الفكر فيه.. فذكر عند ذلك بيدبا، وتفكر فيما كلمه به، فارعوى لذلك، وقال فى نفسه: لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف، وضيعت واجب حقه، وحملنى على ذلك سرعة الغضب. وقد قالت العلماء : أربعة لا ينبغى أن تكون فى الملوك: الغضب فإنه أجدر الأشياء مقتا، والبخل فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده، والكذب فإنه ليس لأحد أن يجاوره، والعنف فى المحاورة فإن السفه ليس من شأنها. وإنى أتى إلىّ رجل نصح لى، ولم يكن مُبلغا – أى واشيا – فعاملته بضد ما يستحق ، وكافأته بخلاف ما يستوجب. وما كان هذا جزاءه منى ، بل كان الواجب أن أسمع كلامه، وأنقاد لما يشير به». وأرسل دبشليم الملك من يحضر له بيدبا من السجن «... يابيدبا أعد علىّ كلامك كله، ولا تدع منه حرفا إلا جئت به». وفعل بيدبا ذلك ودبشليم يستمع متأثرا: «يا بيدبا، إنى قد استعذبت كلامك؛ وحسن موقعه من قلبى، وأنا ناظر فى الذى أشرت به، وعامل بما أمرت . ثم أمر بقيوده فحلت. وألقى عليه من لباسه، وتلقاه بالقبول..» ، مع هذه النهاية السعيدة لبيدبا الفيلسوف كانت البداية لوضع كتاب فى الحكمة: «... إن الملوك لها سورة كسورة الشراب، فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء ... فكرهت أن يموت أو أموت وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف فى زمان دبشليم الطاغى فلم يرده عما كان عليه...» طلب دبشليم من بيدبا بعد ذلك كتابا يخلده: «... أحببت أن تضع لى كتابا بليغا.. ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية وأريد أن يبقى لى هذا الكتاب بعدى ذكراً على غابر الدهور».



موت ابن آوى « دمنة »



الطبيب الجاهل وابنة الملك

وهكذا جلس بيدبا مع تلاميذه ليحدد معهم «الخطاب الثقافي» المناسب لمثل هذا الكتاب: «حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام ، ورتب فيه أربعة عشر بابا، كل باب منها قائم بنفسه، وفي كل باب مسألة والجواب عنها، ليكون لمن نظر فيه حظ من الهداية . وضمن تلك الأبواب كتابا واحداً، وسماه كليلة ودمنة . ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير: ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة».

وفرح دبشليم الملك بخبر انتهاء بيدبا من وضع الكتاب المطلوب، وعقد مؤتمراً ثقافيا حاشداً حضره أهل المملكة ودخل بيدبا ومعه تلميذه حاملاً الكتاب، وأجلسه الملك على سرير مثل سريره: يابيدبا ارفع رأسك ، فإن هذا يوم هناءة وفرح وسرور، وأمره أن يجلس. فحين جلس لقراءة الكتاب، سأله عن معنى كل باب من أبوابه، وإلى أي شيء قصد فيه...»، وحين سأل الملك دبشليم بيدبا عن الأجر الذي يطلبه، لم يزد أن قال: «يأمر الملك أن يدون كتابي هذا.. ويأمر بالمحافظة عليه: فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند، فيتناوله أهل فارس إذا علموا به...»، والحقيقة أنني لم أفهم الحكمة في هذا الطلب الغريب من بيدبا الفيلسوف، فالمنطقي كان أن يطلب ترجمته إلى كل اللغات والعمل على توزيعه في أنحاء الدنيا، على أية حال، الذي حصل أن كسرى أنوشروان لما علم بخبر كتاب «كليلة ودمنة» لم يهدأ حتى «بعث برزويه الطبيب وتلطف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقره في خزائن فارس». ومن هنا يبدأ الفصل الخاص بحكاية تفاصيل الخطة التي وضعها «برزويه» طبيب كسرى أنوشروان ليتمكن من استنساخ الكتاب وترجمته من الهندية إلى الفارسية ، وهي خطة تشبه خطط الجاسوسية التي يكون هدفها سرقة الأسرار الحربية، غير أن الأمر الجميل هنا هو سرقة «كتاب» من كتب الحكمة - ولا أعتذر في هذا لاتحاد الناشرين - وقد استغرقت المهمة سنة كاملة و«... عشرين جرابا ، كل جراب فيه عشرة آلاف دينار...» ، وعندما عاد «برزويه» بالكتاب إلى كسرى أنوشروان فرح بدوره فرحاً شديداً، وعقد كذلك مؤتمراً ثقافيا لكل أهل فارس وطلب من برزويه قراءة الكتاب كله على الملأ - (لست متأكدة من تقسيم القراءة إلى جلسات صباحية ومسائية ، ولا من عدد الأيام الذي استغرقته تلك القراءة ، لكنني على يقين من أنها كانت خطابا ثقافيا جديداً جداً لأهل مملكة كسرى أنوشروان!) - الظريف أن الطبيب «برزويه» رفض أن يكون أجره من خزائن الجوهر والزبرجد

والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة وطلب طلبا معنويا لائقا بجهاده الثقافى الذى كلفه التعب والعنت ونحول الجسد ووجع الظهر والانكباب المرهق فى السر للنسخ والترجمة بمخاطرة كان يمكن أن تكلفه القتل والصلب وما هو أشد. قال برزويه موضحا أجره. «... حاجتى أن يأمر الملك، أعلاه الله تعالى، وزيره بزرجمهر بن البختكان، ويقسم عليه أن يعمل فكره، ويجمع رأيه، ويجهد طاقته، ويفرغ قلبه فى نظم تأليف كلام متقن محكم، ويجعله بابا يذكر فيه أمرى ويصف حالى، ولا يدع من المبالغة فى ذلك أقصى ما يقدر عليه ويأمره إذا استتمه أن يجعله أول الأبواب التى تقرأ قبل باب الأسد والثور: فإن الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بى وبأهلى غاية الشرف وأعلى المراتب، وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيا على الأبد حيثما قرىء هذا الكتاب... وتم للطبيب «برزويه» ما أراد، وهكذا تكون جوائز الدولة التقديرية وإلا فلا!

★★★

وكل عام وأنتم بخير بمناسبة بلوغي السادسة والستين هذا الشهر، أغسطس، إن شاء الله، هانت! ■



الثعلب والطبلة

الطالع السعيد الجامع

أسماء نجباء الصعيد

لكمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي

أول معجم بيوجرافي إقليمي

بقلم
د. نبيل حنفي محمود

تميز الأدب العربي منذ بواكيره وعبر مراحله المختلفة بالتراجم التي حفلت بها كتبه العامة أو مؤلفات خاصة أفردت لذلك، إذ شهد الأدب العربي من خلال تدوين سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بداية التأليف في التراجم، وهو ماتقوم به دليلا عليه طبقات الواقدي وتلميذه محمد بن سعد التي وضعت في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ثم تلا ذلك - وبدءا من القرن الثالث الهجري - سيل من كتب التراجم التي عقدت لأعلام في كل فن من فنون العربية، ويكفي أن نذكر هنا ثلاثة من أشهر كتب التراجم التي ظهرت في هذا القرن وأدارها مصنفوها حول الشعر - وهو النبع الأكثر ورودا من الكتاب - والشعراء، وأول هذه الكتب هو كتاب «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي (١٣٩ - ٢٣١هـ)، وثانيها هو كتاب «الشعر والشعراء» لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)، وأما ثالث هذه الكتب فهو كتاب «طبقات الشعراء» لعبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل على الله الشهير بابن المعتز (٢٤٩ - ٢٩٦هـ).

وقد تنوعت المحاور التي أدار عليها مؤلفو التراجم كتبهم فشملت. الأدباء - النحاة - الفقهاء - المفسرين - القضاة والأطباء ، وقد لمعت أسماء كثير من الكتاب في تصنيف التراجم ، ولعل أشهر أصحاب هذه الأسماء إثنان هما: شهاب الدين أحمد بن على الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢) هـ) وتلميذه شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ - ٩٠٢هـ)، تميز ابن حجر العسقلانى بكثرة مصنفاته فى مجال التراجم التى نذكر منها: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - طبقات الحفاظ - الإصابة فى تمييز الصحابة - إنباء الغمر بأنباء العمر - رفع الإصر عن قضاة مصر وغيرها كثير ، بينما تميز السخاوى بثراء المادة التاريخية التى يوردها فى معرض ترجمته لأعلام كتبه، إضافة إلى جزالة أسلوبه ودقة تصويره، وهى ميزات يلمسها القارىء لتراجم كتبه الشهيرة مثل الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - الشافى من الألم فى وفيات الأمم - وبغية العلماء والرواة ، وقد اختلف ترتيب التراجم فى هذه الكتب وفقاً لمناهج عدة، ولكنها اتفقت جميعاً فى أنها أديرت حول الأعلام والأعيان من ساكنى العواصم والقريبين من دوائر الحكم والسلطة، ولم يحدث عبر مئات السنين - التى شهدت مولد عشرات من كتب التراجم - أن أقدم كاتب على الترجمة لأعلام مدينة أو إقليم بعيد عن العاصمة، كما فعل جعفر بن ثعلب الإدفوى حينما عكف قبل منتصف القرن الثامن الهجرى على تصنيف كتابه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد».



كمال الدين الادفوى

ولد جعفر بن ثعلب الإدفوى الثعلبى مؤلف كتاب «الطالع السعيد» فى إدفو فى شهر شعبان من سنة ٦٨٥ هـ، وقد لقبه والده بكمال الدين - أبو الفضل - عبد الله وجعفر كما ذكر عبد الرحيم بن الحسن بن على الاسنوى (٧٠٤ - ٧٧٢ هـ) فى كتابه «طبقات الشافعية» (جزء١- ص ٨٦)، وتنتمى أسرة جعفر إلى الثعالبة وهم «بطن من طيىء من القحطانية» كما جاء فى «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» لعمر رضا كحالة (ص ١٤١)، وينتشر الثعالبة بصعيد مصر كما ذكر عمر رضا

كحالة فى كتابه «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» ، وكما أشار إلى ذلك أيضاً تقى الدين المقريزى فى كتابه «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا»، يقول المقريزى : «فيها (أى سنة ٤٦٩ هـ) اجتمع بميدينة طوخ من صعيد مصر عدد كبير من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لمحاربة أمير الجيوش» (جزء ٢ - ٣١٩)، وبالرغم من أن مدينة إدفو - مسقط رأس جعفر - كانت : «مدينة عظيمة واقعة على الشاطىء الغربى للنيل بين أسوان وإسنا فى جنوب إسنا» كم وصفها علي باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية الجديدة» (جزء ٨ - ص ١٤٥)، الا أن الروايات التاريخية لم تشر إلى وجود مدرسة بإدفو مثل تلك المدارس التى أضاءت باشعاعاتها كثيرا من الصعيد ، وأول هذه المدن ... عاصمة الجنوب: قوص، ومن ذلك ماذكره على باشا مبارك فى المجلد الرابع عشر من «الخطط التوفيقية الجديدة» نقلاً عن الكندى - وأظنه محمد بن يوسف الكندى (٢٨٣ - ٣٥٠ هـ) : «إن بمدينة قوص ست مدارس ، وبإسنا مدرستين، وبالأقصر مدرسة، وبأرمنت مدرسة، وبقنا مدرستين، وبهو مدرسة، وبقمولى مدرسة» (ص ٤٠٢)، ولقد ساهم الاصلاح السنى الذى نهض به سلاطين المماليك بدءاً من صلاح الدين الايوبى - لمواجهة انتشار المذهب الشيعى على يد الفاطميين بأكثر مدن الصعيد - فى إنشاء العديد من المدارس والجوامع ذات الطابع السنى بهذه المدن ، فأثمر ذلك مضاعفة عدد المدارس بقوص ليبلغ ست عشرة مدرسة فى مطلع القرن الثامن الهجرى وقد أحصى هذا العدد من المدارس محمد عبده الحجاجى نقلا عن المقريزى فى خططه وأثبته فى كتابه «قوص فى التاريخ الإسلامى»، وقد اتفق الفرنسى جان - كلود جارسان فى رسالته للدكتوراه والتى كانت بعنوان «ازدهار وانهيار حاضرة مصرية: قوص» مع محمد عبده الحجاجى فى هذا العدد لمدارس قوص عند بداية القرن الثامن الهجرى، لكل ذلك .. كان من الطبيعى أن يشد الطلبة الرحال إلى قوص طلباً للعلم فى مدارسها الكثيرة، وهو مافعله جعفر بن ثعلب عندما ترك موطن آبائه إدفو منحدراً فى النيل نحو قوص قرابة عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م، حدث ذلك بعد أن أتم جعفر دراسة كتاب «التنبيه» فى فروع الشافعية بمدينة إدفو، وقد أتمه جعفر على يوسف بن محمد بن أبى البركات السيوطى ... قاضى أسوان الذى جمع بين قضاء مدينتى إسنا وإدفو أيضاً، فلما أعجب القاضى يوسف بذكاء تلميذه جعفر فإنه زاده فى النفقة والغلة المخصصة لطلاب ذلك الزمان، وقد أثبت جعفر فى «الطالع السعيد» أن القاضى يوسف هو من نصحه بالتوجه إلى قوص لإكمال تعليمه، وعن ذلك يقول جعفر : «وأشار على (يعنى القاضى يوسف) بالتوجه إلى قوص ، فتوجهت إليها وأقمت بها سنين، وحصل خير، فجزاه الله عنى خير الجزاء» (ص ٧٢٨).

مكث جعفر بقوص قرابة خمس سنوات ، نهل فيها الكثير من العلوم الإسلامية

على أيدي مجموعة من الشيوخ ذكرهم في كتابه «الطالع السعيد» فيما بعد، ومن هؤلاء الشيوخ نذكر : أحمد بن محمد بن أحمد القرطبي القنائي - على بن هبة الله بن أحمد الشهاب الإسنائي محمد بن عثمان بن عبد الله سراج الدين الدندرى يحيى بن عبد الرحيم القوصى - ويونس بن عبد المجيد الأرمنى ، فلما أتم العلوم الاسلامية الأولية فى بعض مدارس قوص التي تردد عليها مثل : المدرسة العزية - المدرسة المجدية - المدرسة النجيبية - دار الحديث - المدرسة الشمسية نسبة إلى أستاذ جعفر الشيخ على بن هبة الله بن أحمد الشهاب الإسنائي - والجامع العمرى ، وهى علوم الفقه والتفسير والحديث والقراءات والفرائض .. إضافة إلى علوم النحو والأدب والتاريخ وبعض الرياضيات، فانه غادر قوص في عام ٧٠٦ هـ/ ١٢٠٦م مرتحلا إلى القاهرة لمتابعة رحلته مع الدرس والتحصيل.

عندما استقر جعفر فى القاهرة ، كانت سنوات طوال قد مضت منذ أن قدم العلامة الأندلسى أبو حيان الغرناطى (٦٥٤ - ٧٤٥) إلى القاهرة عقب خروجه من الأندلس فى سنة ٦٧٩ هـ، جاء خروج أبى حيان من الأندلس خوفاً من أن يبطش به الأمير محمد بن نصر إثر خلاف شجر بين أبى حيان وأحمد بن على الطباع، ولما كان أبو حيان حجة عصره فى النحو والتفسير والحديث والتاريخ ، فإن طلابا كثيرين بل وشيوخ كبار توافدوا لتلقى علوم النحو والحديث عنه بالمدرسة المنصورية، يقول تقى الدين المقريزى عن المدرسة المنصورية فى الجزء الثالث من خططه: «هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة، أنشأها هى والقبة التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى» (٣٤٢)، وكان كمال الدين الادفوى واحداً ممن تتلمذوا على أبى حيان، كذلك تلقى جعفر العلم بمدارس القاهرة الأخرى على شيوخ ترجم لبعضهم فى «الطالع السعيد» ، وذلك لانتمائهم لقوص وإقليمها، ولم يترجم للبعض الآخر فى «الطالع السعيد» وأولهم أبو حيان الغرناطى لانعدام صلتهم بإقليم قوص، ومن شيوخه بالقاهرة نذكر : عبد الرحمن بن يوسف الاسفونى (ت ٧٥٠هـ) - بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت ٧٣٣هـ) - علاء الدين على بن إسماعيل القونوى (ت ٧٢٩هـ) وشمس الدين محمد بن يوسف الخطيب الجزرى (ت ٧١١هـ).

جذب اهتمام جعفر بالعلم وتحصيله فى مدارس القاهرة أنظار شيوخه ، مما قربه اليهم وأثمر ذلك علاقة أقرب إلى الصداقة بينه وبين أبى حيان الغرناطى، ولما كانت قوص فى ذلك العصر - العقد الأول من القرن الثامن الهجرى - ثالثة المدن المصرية وموطن العلماء والشعراء والأعيان ، فان ذلك كان حافزاً لأبى حيان كى يقترح على تلميذه جعفر أن يضع كتاباً يترجم فيه لأعلام إقليم قوص الذى يحن اليه كثيراً منذ أن صل بالقاهرة، وهو حنين عبر عنه جعفر بقصيدة استهلها بالأبيات

التالية (الطالع السعيد - ص ٤):

أحن إلى أرض الصعيد وأهلها
ويزداد شوقي حين تبدو قبابها
وتذكرها في ظلمة الدجى مهجتى
فتجرى دموعي إذ يزيد إلتهابها

وقد اتصف جعفر إلى جانب حبه للعلم بالأمانة العلمية التى حفزته لتسجيل فضل أستاذه أبى حيان في إلهامه فكرة «الطالع السعيد» ، يقول جعفر عن ذلك في معرض حديثه عن أستاذه أبى حيان:

«وكان شيخى الأستاذ الحجة البارع جامع المناقب والمآثر، والمحامد والمفاخر، ذخر الأوائل وشرف الأواخر، ذو العلوم الجمة الفائقة، والآداب المنقحة المحققة الرائقة، والفضائل التى النفوس إليها شائقة وبها واثقة، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى، أبقاه الله تعالى للعلوم الشرعية يبرزها ويظهرها، وللفنون الأدبية يناضل عنها بالأدلة وينصرها، أشار علىّ أن أعمل تاريخاً للصعيد مرة ومرة، وراجعنى فى ذلك كرة بعد كرة، فرأيت امتثال إشارته علىّ متعيناً حتماً» (ص ٥).

اشتغل جعفر فى القاهرة بالعلم ووقف عليه حياته، وقد اتخذ من المدرسة الصالحية سكناً ومدرسة، وتقع المدرسة الصالحية «بخط بين القصرين من القاهرة»، بدأ بناءها الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ستمائة وأربعين للهجرة كما ذكر المقريزى فى الجزء الثالث من خططه (ص ٣٢٣)، وقد أثبت عبد الرحيم الاسنوى فى الجزء الأول من كتابه «طبقات الشافعية» المدارس التى عمل بها جعفر فقال: «سمع وحدث، ودرس قبل موته بأيام يسيرة بمدرسة للحديث أنشأها الأمير جنكلى بن البابا بمسجده، وأعاد (أى عمل معيداً لأحد الشيوخ) بالمدرسة الصالحية بالقاهرة، وكان مقيماً بها» (ص٨٦)، بينما أحصت الدكتورة فاطمة محجوب في ترجمتها لمؤلف «الطالع السعيد» بالجزء الثالث من «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» مؤلفاته فقالت بأنها أربعة، وهذه المؤلفات تشمل خلا «الطالع السعيد» الكتب التالية : «فرائد الفوائد ومقاصد القواعد» وهو فى علم الفرائض - «البدر السافر وتحفة المسافر» وترجم فيه لبعض شعراء القرن السابع الهجرى - و«الإمتاع فى أحكام السماع» وهو بحث فى الغناء والآلات الموسيقية، إن تعدد إسهامات جعفر الفكرية هو ماجعل الاسنوى يقول عنه فى الجزء الأول من «طبقات الشافعية»: «كان مشاركا فى علوم متعددة، أديباً شاعراً ذكياً كريماً، طارحاً للتكلف ذا مروءة» (ص ٨٦)، وقد توفى جعفر بن ثعلب بالقاهرة بعد عودته من الحج فى سنة ٧٤٨ هـ، قال بذلك ابن حجر العسقلانى فى الجزء الأول من «الدرر الكامنة بأعيان المائة الثامنة» (ص ٥٣٦)، وأكده الاسنوى فى «طبقات

الشافعية» بقوله «مات قبل الطاعون الكبير الواقع سنة ٧٤٩هـ».

منهجا الترجمة و الكتاب

كانت الترجمة لأعلام قوص . الإقليم والمدينة ... محور كتاب «الطالع السعيد» ، وقد أخذ جعفر نفسه بضوابط ثلاثة في الترجمة لمن ترجم لهم من أعلام، جمع بينهم جميعاً الانتماء لقوص وإقليمها، وأول هذه الضوابط أن يكون صاحب الترجمة من أهل الفكر وليس من أهل السياسة والمال، فجاءت أعلام «الطالع السعيد» بين فقيه ومحدث وراوية ومقرىء ومدرسي وشاعر وكاتب وأديب ونحوى ودمرس وولى، وإتفق أن جمع بعض أعلام الكتاب بين أكثر من صفة من صفات أهل الفكر السابقة، ومثال ذلك أحمد بن على بن هبة الله بين السديد الاسنائي صاحب الترجمة الثالثة والخمسين في الكتاب ، يقول عنه جعفر: «اشتغل بالفقه – على مذهب الشافعي – على الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطي، وتولى الخطابة بإسنا، وناب في الحكم بها، وبإدفو وبقوص، ودرس بقوص، وبنى بها مدرسة» (ص ١٠٢)، وصادف كذلك أن ترجم جعفر في الكتاب لبعض رجال الدولة من ناظر وحاكم وما شابه، أو لبعض التجار ، ولكن ذلك كان لجمعهم بين تلك المهن وبين صفة أو أكثر من صفات أهل الفكر، ومن هؤلاء الأعلام نذكر أحمد بن أبى الكرم بن عرام الأسواني. ناظر الأحباس الديوانية بالاسكندرية وصاحب الترجمة الثانية والثلاثين من تراجم الكتاب ، حيث جمع ناظر الأحباس الديوانية هذا بين وظيفته وبين نظم الشعر والنثر وصنف في الفقه والعربية أيضاً، وأما ثاني الضوابط التي التزام بها جعفر في تراجمه .. فقد تمثلت في أن معظم تراجمه كانت للراحلين من الأعلام ، بينما جاءت تراجمه للأحياء منهم : «إلا من النادر لغرض أو لأمر عرضه» (ص ٦)، وجعل لتراجم الأحياء شروطا أهمها . قلة التراجم الموجودة في باب الحرف ، أو أن يكون العلم قد جمع من الكمال والمكارم مايصعب معه إهمال ذكره، أو أن يكون صاحب الترجمة قد أسدى للمؤلف صنيعاً أو ساق إليه معروفا، وعن ثالث الضوابط يتحدث جعفر في مقدمة الكتاب فيقول . «ولم أشحنه بالأسانيد فقد أنسب إلى غرض مذموم، ولا أخليه منها فأوصف بأني منها محروم، بل أكسو بعض التراجم منها ذلك الوشي المرقوم» (ص ٦).

فإذا ما انتهى جعفر من توصيف منهجه في الترجمة ، فإنه ينتقل إلى بسط منهج الكتاب أمام قارئه ، فيوضح بأنه سيبدأ الكتاب بترجمة الاقليم نفسه، بأن يتحدث عن جغرافيته ويذكر بعض محاسنه وصفات أهله ، فإذا ما أوفى ذلك فانه يبدأ في تراجم الأعلام التي تترى في الكتاب مرتبة على حروف المعجم، وقد بلغت عدة هذه التراجم خمسمائة وأربعة وتسعين، كانت الكثرة الغالبة منها للرجال عدا أربع من النساء هنّ: تاج النساء إبنة عيس بن على بن وهب (الترجمة رقم ١٠٧) – خديجة بنت على بن

وهب (الترجمة رقم ١٦٤) - رقية بنت محمد بن على بن وهب (الترجمة رقم ١٧٠) ومظفريّة بنت عيس بن على بن وهب (الترجمة رقم ٥٠٦)، وهذا وقد أثبت محقق الكتاب سعد محمد حسن إخلال جعفر بترتيب بعض تراجم الكتاب تبعا لحروف المعجم، فمن ذلك أنه قدّم «خلف ابن عبدالرحمن» على «خديجة بنت على» و«عبدالله بن نصر» على «عبدالبارى بن أبى على الحسين» وغير ذلك كثير، ويمكن أن يكون راجعا إلى أن جعفر أتم الكتاب فى سنة ٧٣٨هـ، ثم عاد وأضاف إليه تراجم جديدة حتى سنة ٧٤٠هـ، ولما كانت تلك الإضافة قد حدثت فى السنوات الأخيرة من عمر المؤلف، ولعل الموت لم يمهله لترتيب ما أضاف إلى الكتاب من تراجم.

محاسن قوص

بدأ كمال الدين جعفر بن ثعلب معجمه الفريد بالترجمة لقوص وإقليمها، فقال عن إقليم قوص: «وأما مسافته فى الطول: فمسيرة إثني عشر يوما بسير الجمال السير المعتاد، وأما عرضُه: فثلاث ساعات وأكثرُ وأقل بحسب الأماكن، أعني العامر منها» (ص٧)، ويصف الإقليم فيقول بأنه مكون من كوُرتين: «شرقية وغربية، والنيل فاصل بينهما» (ص ٧)، والكُورة هى المدينة أو الصقع، ثم يذكر أن الكُورة الشرقية تبدأ من الشمال بمرج بنى هُميم المتصل بأرض جرجا وتنتهى جنوبا فى أُبْهُر التى تقع بأول أراضى النوبة، ويتبع ذلك بذكر مدن الإقليم فى الكُورة الشرقية والتى تبدأ بالمرج من بلاد إخميم شمالا وتنتهى جنوبا عند أُبْهُر الشرقية، بينما تعد برديس أول مدن الكورة الغربية من جهة الشمال وأُبْهُر الغربية آخر مدنها من جهة الجنوب.

يفيض جعفر بعد ذلك فى ذكر محاسن إقليم قوص، فمن ذلك قوله: «ومن محاسنه كثرة نخيله وأشجاره على شاطىء النيل من الجانبين الشرقىّ والغربىّ، يشقّ بينهما سبعة أيام، لا يخلو منها إلا القليل» (ص ٢٥)، يصف جعفر محاصيل هذه الأرض الطيبة ويحصى مقدار نتاجها من تمر وزبيب وغلال، وينقل عن الشيخ تقىّ الدين القُشيرى - قاضى قضاة مصر وابن ولىّ قوص إلى قوص، قال التلميذ وهو الشيخ العالم فتح الدين محمد بن سيد الناس: «قال لى الشيخ تقىّ الدين القُشيرى: تروح إلى قوص تدرس بدار الحديث بها، فذكرت له بعدها وحرارتها، فقال: أين أنت من طيب فاكهتها وعطريّة رياضها؟ ، ورُطُبها من أحسن الرُّطب، صادق الحلاوة، كثير السُّقْر» (ص٢٧)، والسُّقْر هو عسل التمر، ومن الواضح أن الشيخ تقىّ الدين قد أسدى هذه النصيحة لتلميذه أثناء إقامته بالقاهرة، وتمتد حلاوة الثمر من التمر إلى البطيخ الذى يقول عنه جعفر. «وكذلك البطيخ كثير الحلاوة، والبطيخ الأخضر منه كبير الحبّة، بحيث ما يكاد يستقلُّ بحمل الحبّة الواحدة إلا الرجل الشديد القوة»! (ص٢٨)، ولا ينسى جعفر مذاق لحوم الإقليم... فيتحدث عن طيب مطعمها ولذته،

ولكن كل تلك المحاسن الحسّية تتضاءل بجانب ما تميز به الإقليم وأهله من الفضائل والمكارم، فيذكر جعفر من ذلك: «ومن محاسنه أيضا الجليلة كثرةُ الأمن» (ص ٢٨)، ويلحق بذلك فضيلة أكثر في قوله: «والغالب عن إقليمه العلم والفهم والدين والرّياسة وحب العمارة وجمع المال والسماحُ والبهاء والزينة» (ص٢٩)، ويمضي بعد ذلك يحدث قارئ كتابه عن فضائل مدن الاقليم: مدينة مدينة، حتى إذا ما أوفى عاصمة الإقليم. مدينة قوص حقها في حديثه عن فضائل مدن الإقليم، فانه يجمل محاسن الإقليم بقوله (ص ٤٥). «وفيه من المحاسن ما لا ينطق اللسان بشكره، والبنان بذكره، عَرْفُ معروفهُ أعبق من عَرْف الرّياض، ووصف محاسنه أعلق بالقلوب من الحَدَق النُّجل والجفون المِراض، وفيها أقول:

بلاد بها أهل المكارم والنُّهى ... وللعلم فيها طارفٌ وتليدِ
صعيد علا فوق الأقاليم قدره ... به إلعيش حلو والمقام حميدِ
به مِن آدابٍ وعلمٍ وسؤددٍ ... معيدٍ ومن للمكرمِات مفيدِ
يضوع به المعروف حيثٌ يضيعه ... زمان فيلقي الجود وهو جديد»

غيض من فيض

قبل أن نعرض إلى ترجم الشعراء الثلاثة المختارة، يجدر بنا أن نستشف أسلوب جعفر في الترجمة، وهو أسلوب اختطه المؤلف لنفسه ولم يحد عنه كثيرا في كل ما قدم من تراجم، يبدأ جعفر الترجمة بإثبات نسب صاحبها... وذلك بذكر اسمه وألقابه وأسماء أبيه وأجداده، ثم يتبع ذلك بفقرة من جمل مسجوعة يصف فيها صاحب الترجمة. ويعدد سجاياه، لينتقل بعد ذلك إلى ذكر شيوخه وتلاميذه وبعض المواقف أو النوادر المرتبطة بسيرته، وتختلف التراجم تبعا لمحتوى الترجمة من العناصر السابقة، التي قد يختفي البعض منها نظرا لندرة المعلومات التي نمت إلى جعفر عن صاحب الترجمة، ولكن التراجم تتفق جميعا في أن ختامها دائما يذكر تاريخ وفاة صاحب الترجمة.

والشعراء الثلاثة الذين سوف نعرض لهم هنا كنماذج لما حفل به «الطالع السعيد» من تراجم لأدباء وشعراء، هم وبترتيب تاريخ وفاة كل منهم: أحمد بن عبد القوى الرّبعيّ القوصيّ (ت ٦٨٦هـ) وهو صاحب الترجمة رقم (٤٤) من الكتاب، عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصيّ (ت٧٠٨هـ) وجاءت ترجمته بالكتاب تحت رقم (٢٥٠)، ومجير الدين ابن اللَّمْطي (ت ٧٢١هـ) وترجمته هي الترجمة رقم (٧٢١) من تراجم الكتاب، يقول جعفر معرفاً الشاعر الأول: «أحمد بن عبد القوى بن عبدالله بن شداد الربعي، الكمال بن البرهان، ناظر قوص ورئيسها في زمنه» (ص ٨٥)، وبعد أن يعدد جعفر شيوخ إبن عبد القوى الربعي ومن أخذ عنهم العلم ومن تتلمذ عليه، فانه يعرض قصيدة كتبها ابن عبد القوى الربعي لتبديد جفوة حدثت بينه وبين صديقه

ضياء الدين أحمد بن محمد القرطبي، يقول جعفر واصفا ما حدث:
«كتب إليه ابن القرطبي الشيخ يستعطفه فيه، فكتب كمال الدين جوابه إليه، وابتدأ بقصيدة يقول فيها (ص ٨٧)

يابن الأكارم من بني الأنصار والمالكين زمام كلّ فخار
والسابقين الأولين إلى العلا والقائمين بنصرة المختار

ويختم ابن عبد القوى الربعى قصيدته تلك بالأبيات الأربعة التالية والتى أزالت ما بينه وبين ابن القرطبيّ من جفوة (ص٨٩):

ها قد محضت لك النصيحة طائعا وأعدت نفسي بعد طول نفار
الدهر أقصر أن تفرّق بيننا أيامه بالعتب وهو عواري
لا كانت الدنيا إذا هي لم تفدْ إسداء معروف إلي الأحرار
ولئن جنحت لما يكدّر بعدها حسبي وحسبك عالم الأسرار»

أما الشاعر الثانى فهو عالم وولىّ من أولياء قوص، يقول جعفر عن نسبه إنه: «عبد الغفار بن أحمد عبد المجيد بن عبدالحميد، الدروى المحتد، الأقصرى المولد، القوصي الدار الشيخ عبد الغفار بن نوح صحب الشيخ ابا العباس أحمد الملثم وهو دولى كبير بقوص ودفن بها، والشيخ عبد العزيز المنوفى، وتجرّد زمانا وتعبّد» (ص ٣٢٣ - ٣٢٤)، تلقى الشيخ عبد الغفار العلم بالقاهرة وقوص ومكة، ويقول جعفر عن إنتاجه: «وصنّف كتابا سماه (الوحيد فى التوحيد)، وكان له شعر حسن وقدرة على الكلام، وحال فى السّماع، وينسب أصحابه إليه كرامات» (ص٣٢٤)، ويعد الشيخ عبد الغفار حالة نادرة فى تراثنا الفكرى والدينى جديرة بأن تعرض على المتعصبين فى زماننا الذين ينكرون الغناء على الناس ويحرمونه، إذ ماهو شيخ كبير وولىّ من أولياء قوص أجمع الكل على كراماته وحسن عبادته، لايجد هذا الشيخ حرجـاً فى (السماع)، والسماع فى اللغة والتصوف بمعنى الغناء، بل والأهم من ذلك أن الشيخ عبدالغفار أعطى البعض من شعره الصوفىّ لملحن كى يلحنه ويتغنى به، وعن ذلك حدثنا جعفر فقال: «سمعت من شعره ما كتب به لجعفر المَزْمَزم ليلحّن، فلحّنه وغناه له، وهو هذا (ص٣٢٤):

أنا أفتي أن ترك الحب ذنبٌ آثمٌ في مذهبي من لايحبُّ
ذُقِ علي أمري مرارات الهوي فهو عذبٌ وعذاب الحب عذبٌ
كلّ قلبٍ ليس فيه ساكن صبوة عذرية ماذاك قلب»

وللشيخ عبد الغفار رباط بظاهر قوص من جهة الغرب، أقام الشيخ فى رباطه حتى حدثت فتنة بقوص، قام على أثرها استادار نائب السلطنة بنفس الشيخ إلى القاهرة، ليلقى الشيخ الشاعر وجه ربه بالقاهرة ويدفن بها . .

إن الهدف من اختيار نماذج من شعراء «الطالع السعيد» يتمثل فى إلقاء ضوء

كاشف على التكوين الثقافي لأعلام إقليم قوص في فترة إزدهاره، إذ تكشف لنا تلك النماذج مدى ثراء الوسط الثقافي الذي شكله مجتمع قوصي، مما أفرز عديد من الشعراء والأدباء مثل ابن عبد القوي الربعيّ، وهو أيضا- أى الثراء الثقافي - ما جعل من واحد من أولياء الاقليم مثل الشيخ عبد الغفار بن نوح يعالج قضايا شائكة إلى جوار قضايا الدين والفقه مثل نظم الشعر والغناء، لذلك كان من الطبيعي أن يفرز وسط ثقافي كهذا رجل سيف وقلم مثل الأمير مجير الدين ابن اللَّمْطى القوصي الذي كان واليا لقوص، وهو عمر بن عيسى بن نصر وينتهي نسبه إلى كعب بن سعد يتم، ويصفه جعفر فيقول عنه: «وكان فاضلاً نحوياً شاعراً أديباً، سمع الحديث من الشيخ أبي الحسن على بن وهب القُشيري، وابنه قاضي القضاة أبي الفتح» (ص٤٤٨) ويضيف إلى ذلك فيقول: «وله أدب فائقٌ ونظمٌ، رائق ولم يرض الشعر بضاعة، ولا إتخذه صناعة، وإنما دعاه إليه محبة الأدب، وسجية العرب» (ص٤٤٩)، ويبدو أن ما ساقه جعفر من رأى هنا كان ترجمة لما قاله إبن اللَّمْطى في مطلع القصيدة التاليه، والتي أوردها جعفر في ثنايا ترجمة ابن اللَّمْطى، ويقول مطلعها (ص٤٤٩).

وما الشعر مما أرتضي كنيتي به لعمرى ولا وصفي به في المحافل
ولا قلتُه كي أبتغي بمقاله هنالك أن أجزي عليه بنائل
ولكن دعتني شيمة مضرية إلي قولة معروفة في القبائل

يثبت جعفر في ترجمة ابن اللَّمْطى صلة الصداقة بينهما، مما مكنه من تقديم نماذج كثيرة من شعر الوالي القوصيّ، ومن ذلك قصيدة قال ابن اللَّمْطى إنه نظمها في سنة خمس وسبعين وستمائة وسماها «تذكرة الأديب»، وقد أوردها جعفر في سياق ترجمة ابن اللَّمْطى كاملة وقال عنها: «وهى قصيدة طويلة جيِّدة الشعر» (ص٤٥١).

يزيّن الشعر معظم تراجم «الطالع السعيد»، ولم لا؟... والشعر ديوان الأمة ولسان حال أعلام مجتمع تدل الشواهد الباقية منه على ثراء مادي وثقافي صبغ كل نشاطاته، لقد بلغ هذا المجتمع من الرقى الفكرى والثقافي حدّ تعاتب أعلامه بالشعر، لذا لم تصل إلينا منه إلا الأزاهر والأناشيد.

حق واجب

تلك كانت لمحة عامة إلى كتاب متفرد بين الكتب التي حفظت تاريخ مصر الإسلامية، وقد أنفق محققه: سعد محمد حسن - وهو من علماء الأزهر - من عمره إثني عشر عاما، حيث استعان على إخراج الكتاب في صورته الحالية بست نسخ مخطوطة له، واستخدم لتحقيق وشرح ما جاد بالكتاب من أعلام وأحداث ومواضع خمسة وسبعين ومائتين من المراجع، والله نسأل أن يجزيه عما أنفق في ذلك من جهد ومال وعمر خير الجزاء. ■

آدم

عليك السلام

بقلم
مصطفى الحسينى

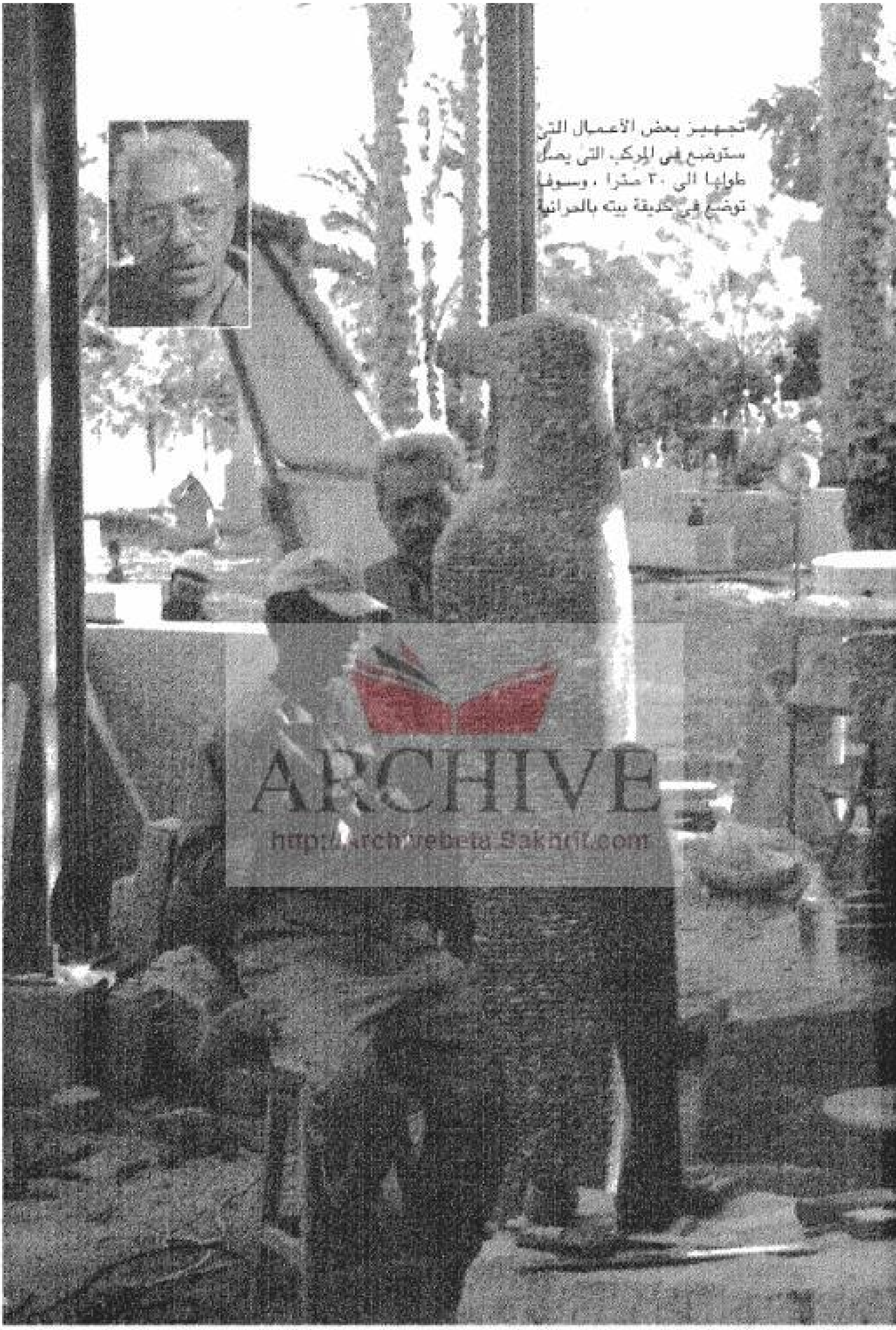
تصوير الفنان: **محمد صبرى**

بدأت زيارتى الأخيرة للقاهرة فى ربيعها المتقلب الأخير (قادما من لبنان حيث اخترت العيش) بالبحث عن آدم حنين. لم يكن فى المدينة. كان فى مأواه الثانى المختار «سمبوزيوم» - أى منتدى النحت فى أسوان. كان على أن أنتظر عودته.

عدا عن شوق الصداقة التى تقادم عليها الزمان دون أن تبلى، كنت أريد أن أرى إلى أين وصل مشروع «سفينة آدم» - أسوة بسفينة نوح.



صخور المركب يجلس عليها الفنان آدم حنين



تجهيز بعض الأعمال التي ستوضع في المركب التي يصل طولها الى ٣٠ مترا ، وسوف توضع في حديقة بيته بالحرانية

كنت فى العام الماضى قد شاهدت نموذجا مصغرا صنعه آدم لمشروع سفينته ، شرح لى أنها ، علي خلاف السفن، تصنع من الجرانيت وترسو وسط حديقة بيته الحرانية ولن تنزل أبدا إلى الماء، ناهيك عن أن تمخر عبابه . وأنه سيحشد عليها نماذج مصغرة من أعماله فى النحت أو مختارات منها .

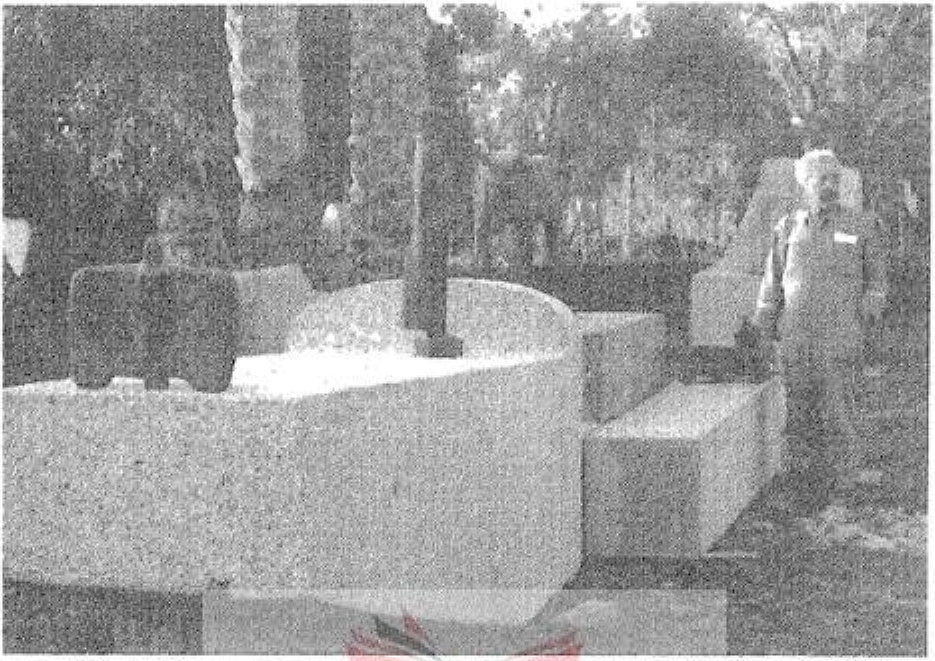
عندما عرفت أن آدم عاد من أسوان ، طرقت بابه فى الحرانية بعد ظهر أحد أيام أواخر شهر مارس الماضى، ما أن دلفت (كان يحيى حقى رحمه الله لا يستخدم هذه الكلمة إلا مصحوبة بابتسامة ساخرة لطيفة المكر لأن «الأدباء الشبان» يسرفون فى استعمالها) المهم ما أن دلفت إلي باحة البيت حتى قدمنى آدم إلى محمود ، واحد من اثنين من قاطعى الأحجار جاءا معه من أسوان لتنفيذ مشروع السفينة. يتعاملان مع الجرانيت بدقة وحزم وحنو. خطر لى أنهما مشروعين محبطين لنحاتين. لعن الله الفقر وقلة الفرص. كان العمل فى السفينة قائما على قدم وساق، أو بالأحرى بين أربعة أياد وعدد لا أعرفه من الأزاميل والمناشير ، ترقبها باطمئنان واضح عينا آدم اللتان لا يبدو فيهما أبدا أنه يتعمد النظر.

وجدت نفسى ، دون استئذان آدم أتسلل إلى الورشة.

بدلا مما كنت أبحث عنه فى أركانها المزدحمة، لقيتنى مفاجأة. تمثال شاهق لم يكتمل بعد، مغطى بقماش خفيف يلتصق ببعض أجزائه لأنه تمثال من نوع من الطين. تعقبنى آدم «لبزيح الستار عن التمثال». هناك كانت تقف شامخة أم كلثوم. الوقفة وميل الرأس إلى الخلف هما كل ما ينبىء عنها دون أى احتمال للخطأ، حتى لو كان الرائى لم يشاهد لها فى حياته أكثر من صورة من الصور. أما من لم يرها ولم يسمع أو حتى لم يسمع عنها، فسيدرك على الفور أن التمثال لواحدة من سيدات الغناء. لا ملامح فى الوجه. لا عينين، لا شفتين مضمومتين أو منفرجتين. لا معالم للجسد تتجاوز تموجات الثوب. لكنها بالتأكيد ومن النظرة الأولى هى أم كلثوم.

★ ★ ★

تعرفت على آدم حنين ، أو بالأحرى على صمويل هنرى، دون لقاء فى العام ١٩٥٤ . فى ذلك الحين كانت تصدر فى مصر مجلة ثقافية شهرية لم يكتب لها طول البقاء. كان اسمها «الغد». وكان الفنان الراحل حسن فؤاد هو «مدبرها» ومبدعها ومخرجها. وإن كانت رئاسة تحريرها قد انعقدت للكاتب الراحل



الفنان آدم حنين بجوار مركبه وعليها بعض أعماله

(أيضـا) عبدالرحمن الشرقاوى. كان صدور مجلة من نوع تلك المجلة فى ذلك الزمان يحتاج فعلا إلى «تدبير» من وجهين على الأقل؛ من ناحية كانت مجلة يصدرها الشيوعيون، بينما كانت الشيوعية فكرا وتنظيما محظورا فى البلاد. ومن ناحية أخرى كانت الحركة الشيوعية المصرية نفسها موزعة بين تنظيمات سرية متناحرة . كان «التدبير» يستلزم «تمرير» المجلة «من سم الخياط»، ليس القانونى وحده، إنما - بالضرورة - السياسى أيضا. لم يكن ذلك، فى حينه، سهلا. كان النظام الجديد الذى أقامه «الضباط الأحرار» يشرع أبواب أماله على الولايات المتحدة الأمريكية وكان قد أعلن قبوله مشروعا أمريكيا عرف باسم «النقطة الرابعة»، قوامه تقديم معونات اقتصادية للبلدان التى تحتاجها حتى تستطيع «مكافحة الشيوعية».

كما كان التدبير يستلزم التوفيق بين «الأطراف» الشيوعية ، حتى تأتى المجلة تعبيرا عن المشترك الثقافى بينها والذى يفترض اتساعه.. لكن العادة أن التنازع السياسى، خصوصا إذا كان «داخل

القبيلة» يفتت كل شيء».

الشاهد على نجاح حسن فؤاد أن المجلة صدرت، وأنها لقيت قبولا يشارف الرواج فى الحياة الثقافية وكسبت احترامها ، إلى أن أغلقتها الدولة.

فى أحد الأعداد القليلة التى صدرت من تلك المجلة، فى سياق تحقيق نقدى عن معرض لمجموعة من شباب النحاتين المصريين، استوقفت نظرى صورة تمثال يشخص عنزة.

لم يقف الأمر عند توقف النظر، تجاوزه بعيدا إلى رغبة داخلية تصل إلى حد التصميم أن أرى التمثال. لكن المعرض كان قد استوفى زمنه. وأن أتعرف على النحات صاحب التمثال. كان الاسم المكتوب تحت الصورة : صمويل هنرى.

كانت «العنزة» هى ما تسللت إلى ورشة آدم أبحث عنه، كعادتى كلما زرته فى بيته فى الحرانية.

* * *

لا أعرف كيف استقر فى «تكوينى»، إن جاز التعبير، أن السعى للتعرف إلى شخص بعينه هو نوع من التطفل لا يليق. المستقر عندى أن الناس يتعارفون عندما تجمع بينهم ظروف تؤدى إلى ذلك. لذلك مضى وقت غير قصير قبل أن أتعرف إلى «صمويل» لا أذكر كيف ولا متى، إنما بالتأكيد يناهز عمر صداقتنا الآن خمسا وأربعين سنة. توثقت الصداقة منذ بدايتها واختلطت بزمالة عمل فى مجلة «روز اليوسف» حيث حظيت فى بداية ستينات القرن الماضى بأن أكون واحدا من كتابها «المزاجيين». لعله وصف غريب على مهنة الصحافة، تزداد غرابته مع تحولها إلى صناعة. ولعل «روز اليوسف» – السيدة والمجلة – هى التى ابتدعته وتركه لها أصحاب الصحف، حتى ورثه «رئيس تحريرنا» إحسان عبدالقدوس. اختصارا، كان الكاتب «المزاجى» يكتب وقتما شاء، رغم أنه يتقاضى راتبا منتظما وإن لم يكن كبيرا. إنما ليس من حق الكاتب أن ينشر فى مطبوعة أخرى.

فى تلك الفترة كان «صمويل» يعمل رساما فى المجلة. فى ذلك الزمن كان الرسامون فى «روزاليوسف» هم «ملوكها» على ما كنا نقول جادين مازحين وربما حاسدين حسدا حميدا.

إذ لم تكن المجلة تنشر الصورة الفوتوغرافية، فكان الرسم فيها هو أداة التعبير الموازية للكتابة – لا المصاحبة لها. فى هذا المركب تزاملنا. أكتب ويرسم.

سألته مؤخرا إن كان يحتفظ بالرسوم البديعة التي وازت مقالات غيرى ومقالاتي، أجابنى بابتسامة تنطق بالأسف أننا كنا صغارا وحمقى. لم نكن نعرف قيمة عملنا. كان الرسم يذهب من عند سكرتير التحرير إلى قسم الحفر – «الزنكوغراف» وبعد ذلك لا أعرف مصيره.

* * *

فى سياق تلك الزمالة، فى العام ١٩٦٣، نشر الكاتب المسرحي البريطاني «جون أوزبورن» مسرحيته «لوثر» نسبة إلي مارتن لوثر والتى عالج فيها حركة الإصلاح الدينى التى شهدتها أوروبا فى القرن السادس عشر. كتبت مقالا عن مصادر المسرحية، نشر مصحوبا برسم لـ «صمويل». كان من مصادر المسرحية أن دعوة مارتن لوثر نبتت فى مناخ فشل «ثورة الفلاحين فى ألمانيا»، التى كتب عنها فريدريك إنجلز كتابا فذا. وكان من بين ما أعقب فشل تلك الثورة من ظواهر، أن قادتها الميدانين راحوا يجوبون الريف الألماني وهم يرتدون أثوابا تشبه ثياب ملوك العصر ومسوح كبار كهنته، سوى أنها مصنوعة من بقايا أثواب تخاط من مزقها الأرجوانية والقرموزية والزرقاء الملوكية. عرفوا باسم «الملوك الشحاذين». كان يحملون رايات عليها شعار «ثورة الفلاحين» التى يحاولون إحياءها. كان الشعار يجمع إلى الصليب، الحذاء الخشبى الذى كان الفلاحون الألمان ينتعلونه آنذاك، وهو المعروف عندنا باسم «القبقاب».

فكان أن اخترت عنوانا للمقال: «الصليب والقبقاب».

كان النعال «القبقاب» دارجا بين المصلين المسلمين عند ارتياد دورات المياه للوضوء، وقاية من ما قد يكون على أرضها من خبث.

لم أسلم من غضب الدكتور لويس عوض، رحمه الله، الذى أخذنى بمظنة تعمد إهانة الصليب. لم يشفع لى عنده أن هذا كان علم ثورة تطلب العدل المسيحى. ولم يشفع لى أن الراية التى جمعت «القبقاب» إلى الصليب مكنونة فى ذمة التاريخ. ولا شفع لى اسم «صمويل» الموقع على رسم من عناصره راية يتجاور فى وسطها «الصليب والقبقاب».

(لما نقلت إلى «صمويل» قصة غضبة لويس عوض - من باب تحذيره، ضحك من سذاجة المفكر الكبير).

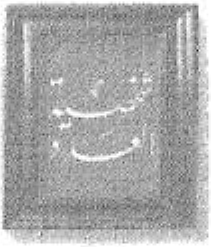
* * *

لا أذكر متى غير «صمويل هنرى» اسمه إلى «آدم حنين» وهو الاسم الذى تلبسه حتى لم يعد أحد يتذكر أنه كان «صمويل هنرى» لما لا يقل عن ثلث عمره حتى الآن.

لكننى يلزمنى أن أقرر أننى لم أعرف فى حياتى شخصا غير «صمويل هنرى/ آدم حنين» أو أنه آدم، فقط دون إشارات أو إحالات، اكتنز حياته كلها فى أمر واحد لا ينشغل بغيره على أى نحو. والغريب أنه لا يكاد يتكلم عنه إلا لماما، حتى لو حاولت استدراجه إلى الكلام فيه

هل يليق القول أن آدم لم يعرف فى حياته .. إلا النحت.

سيدنا آدم عليك السلام. وأطال الله لنا عمرك. ■



آدم

يبحث عن أصوله الأولى

ياسر مصطفى

لم نجد شيئا نكتبه عن أدم حنين هذا الفنان الجميل سوي ما كتبه عنه الاستاذ أحمد بهاء الدين في اخبار اليوم منذ ٤٠ عاما، ٢٤ أغسطس ١٩٦٣، وتناول رحلته الي النوبة التي عشقها وأحبها حيث يرى بهاء أن عودة آدم إلى النوبة إنما كانت من أجل أن يعود إلى أصوله ليستلهما لأن النوبة هى المكان الوحيد الذى مازالت حضارتنا المصرية مستمرة فيها ولذلك فان بهاء رأى ان ادم حينما يعود الى جذوره فإن ذلك كان بحثا عن منابعة الأولى ليستلهم منها فنه الذى احبه وتجلى فى اعماله الباقية



نموذج لمركب آدم حنين صنعه من الجبس بطول ١٥٠سم


تمثال أم كلثوم في مرسم

يقول الكاتب الكبير احمد بهاء الدين:

«هبط على الصديق المثال الموهوب صمويل هنرى فجأة، كما اختفى فجأة.. وكان اختفاؤه منذ سنة تقريبا. وكانت آخر الأنباء التي سمعتها عنه عقب اختفائه انه شوهد آخر مرة وقد خلع الجاكتة والبنطلون ولبس جلبابا واسعا، وحمل أدواته وأخشابه وأحجاره، وبعض الأثاث البسيط والزاد القليل، ورحل ليقيم فى قرية نائية مجهولة فى بلاد النوبة.. حتى البريد عرفت انه لا يمكن أن يصل إليه.. فقد ترك فى الطريق اسم «صمويل» كما ترك البدلة والجاكتة، وأطلق على نفسه اسم : آدم:.. هل هو آدم يخرج من جنه المدينة؟ آدم الذى يهبط أرضا جديدة، يريد أن يبدأ حياة جديدة.. يريد أن يبدأ من البداية نفسها؟ ولم أندهش يومها أن يقدم صمويل ابن القاهرة وميونخ وروما وفينسيا على هذا العمل. فقد كنت اعرف ان لديه مقدرة فطرية على مقاومة «عوامل الجذب» الطبيعية السائدة فى عصرنا هذا: المال والشهرة والنجاح السريع والأنباء المنشورة فى الصحف كل يوم.

وسألته كيف رحل.. وكيف وصل.. لقد ركب ببساطة الباخرة النيلية التى تقف عند كل القرى من اسوان الى الشلال حاملة البريد والمسافرين، واختار نقطة تبعد عن أسوان حوالى ٨٠ كيلو مترا، لينزل عندها ثم يبدأ فى البحث – بينها وبين اسوان – عن القرية الملائمة التى يعيش فيها. كانت النقطة التى نزل عندها قرية «ماريا» وكان الوقت ليلا، وقد وقف على الشاطىء والرجال يحملون الفوانيس يستقبلون السفينة يتسلمون البريد. أن البريد فى النوبة هو محور الحياة فكل الرجال القادرون على العمل يعملون بعيدا فى مدن الشمال ويبعثون ابناهم وتقودهم الى قراهم المعلقة بين الماء والجبل. وتسلم الرجال البريد. ثم وضعوا الفوانيس على الأرض وجلسوا حولها يقرءون العناوين ويوزعونها فيما بينهم ان كل قرية فى النوبة تتكون من عدة «نجوع» تمتد على مسافات طويلة. وكل رجل يأخذ بريد هذه النجوع وينطلق إليها. شبح واحد بقى واقفا فى الظلام.. بين أنوار السفينة المبتعدة وانوار الفوانيس التى يجلس حولها الرجال.. حتى فرغوا من توزيع البريد، ثم التفتوا إليه.. أهلا وسهلا.. ثم ماذا يريد وقال لهم انه يريد ان يرى عمدة القرية. فتقدم أحدهم وقال انه العمدة.

ولم يسأله العمدة مرة أخرى ماذا يريد. الترحيب والضيافة هنا أولا. كان الوقت ليلا ولابد انه سيبيت.. هكذا أخذه العمدة مرحبا الى بيته. وفى «الدوار» قدم له الطعام وقضى الليل معه فى نفس الحجرة دون أن يسأله ماذا يريد.

ومع الصباح شرح آدم للعمدة ماذا يريد.. شرح انه مثال يصنع التماثيل ويبيعها للناس. وقال له انه يريد بيتا يسكن فيه لا يزيد ايجاره عن جنيه واحد فى الشهر! «كنت قد سألت عن مستوى الايجارات.. فلو أننى نصرفت كسائح وعرضت مبالغ كبيرة بالنسبة للمنطقة فمعنى هذا أننى سأظل سائحا. غريبا ولو عشت هناك مائة سنة. وكنت كذلك استقر فى قريه صغيرة. فالقرى الكبيرة فيها موظفون ومعنى ذلك اننى سأعيش مع الموظفين.. وزوده العمدة بعناوين

كثيرة في قرى متعددة وقضى آدم خمسة عشرة يوما يسير في طرق صخرية على الأقدام، أو ينادي سفينة شراعية تحمله، أو نائم في بيوت العمد، حتى وصل إلى أسوان.

وهناك كان قد اقتنع بأن أول قرية نزل فيها وهي ماريا هي اقرب مكان إلى ما يريد فعاد الي القرية والي العمدة الطيب، الذي كان قد وجد له بيتا من ثلاث حجرات.. وفناء واسع .. بايجار مرتفع قليلا عن الايجار الذى كان يريده.. مائة وثلاثين قرشا في الشهر.

ويضيف أحمد بهاء الدين.

وعاش آدم في ماريا الى الآن.. وعندما هبط على فجأة كما اختفى فجأة منذ عشرة شهور، كان آتيا إلى القاهرة لأيام قليلة يقضي فيها بعض الأعمال ويعود.. وقال انه يبحث الآن عن قرية جديدة ينتقل إليها بعد قليل لأن ماريا سوف تغرقها البحيرة الكبرى بعد تحويل مجرى النيل عند السد العالي. وقد وجد - مبدئيا - جزيرة صغيرة قرب أسوان يريد أن يشتري فيها قطعة أرض - فالاراضي هناك ثمنها قروش وملاليم - ليبني فوقها بيتا يعيش فيه.

لماذا ذهبت؟ عن اى شيء تبحث؟.

لم أذهب بحثا عن موضوع ولا محاولة تسجيل الحياة في المناطق التي ستغرق وتختفي .. ولكني ذهبت بحثا عن اسلوب.

الفنان بعد ان يدرس ويفهم كل الأساليب الفنية القديمة والحديثة.

وبعد ان يرى ويقرأ كل فنون العالم المعاصرة.. يجب أن يعود إلى أسلوب بلاده.. يبحث عن اصوله .. ويستلهمها. ان النوبة هي المكان الوحيد الذى مازالت حضارتنا القديمة مستمرة فيها. صحيح انها موجودة بأسلوب متخلف ضعيف. ولكنها على قيد الحياة لو تأملت طراز المباني والنقوش.. فسوف تلاحظ شيئا غريبا: سوف تجد طرز المعبد الفرعوني والكنيسة القبطية والمسجد الإسلامي العربي. كلها مندمجة في طراز واحد متسق .. سوف تكتشف ملامحها كلها في البيت النوبي.

ثم ان هذه المنطقة تتمتع بانسجام فني لا يوجد في القاهرة، ولا في أي عاصمة عصرية كبيرة. هناك . المباني المنسجمة مع الثياب. مع الزخرفة.. مع العادات والتقاليد.. مع الاخلاق لا يمكن ان تجد هذا الانسجام في اى عاصمة حيث لا ترى الا عمارات ضخمة قبيحة، واسفلت واعمدة حديدية، وسيارات ونساء في ثياب غربية وتسريحات شعر مضحكة؟

ويواصل بهاء حواره مع الفنان آدم حنين فيسأله:

- أنت اذا تبحث عن اسلوب فني.. وليس مجرد البعد والعزلة؟

- الاثنان معا .. فهناك حيث تخفت كل الأصوات، وتندثر ملامح كل المشاكل اليومية..

تكتشف بوضوح شديد ماذا تريد بالضبط. حيث أصحو من نومي صباحا لا أجد بين يدى سوى ما جئت من اجله فقط . ان اعمل.

وحول ما استلهمه آدم حنين من سال فنية في هذه العزلة الاختيارية سأله بهاء

- وفي البيت المطل على النيل الراقد بين الصخور، وسط طبيعة جرداء.. أي تماثيل صنعتها إلى الآن؟



نموذج المركب فى طور التنفيذ

– طيور فقط. كل موسم له طيور تمر بالقرية، ويتوقف فيها ، خلال رحلتها الطويلة. اجملها البجع. طبق كبير من العدس والفول الجاف يستوقفها. وتذكرت رحلة الرسام الفرنسي الخالد بول جوجان «١٨٤٨ - ١٩٠٣ . ففى سنة ١٨٩١ باع الرسام جوجان كل لوحاته فى باريس فى مزاد علنى، ثم شد رحاله إلى جزر تاهيتى فى بحار الجنوب حيث عاش مع السكان البدائيين نفس حياتهم حيث عاشوا كما انتهت حياة البدائية هى العودة الى الشباب!.. ولقد تركت ورائى كل ما هو صناعى عادى الى حيث ادخل عالم الحقيقة. عالم الطبيعة.. وعاش جوجان هناك إلى آخر عمره.. وعندما سافرت اعماله عبر المحيطات من الجزيرة البدائية النائية الى العاصمة المتحضرة الصاخبة، ترك فى فنونها اعمق الآثار.

– وقد لا يرضى بعض الأدباء والفنانين عن هذه العزلة الطويلة قائلين ان الفنان يجب ان يكون فى قلب المشاكل، وفى وسط العاصفة، يتأثر بحياة بيئته ويؤثر فيها .

– وهذا صحيح، ولا شك ، وما صنعه صمويل هنرى – أوافق عليه . ولكننى لا اجعله نموذجا ليحتذيه كل فنان.

ولكن.. من قال ان كل الفنانين يجب ان يسيروا فى قافلة واحدة؟

اننا نحتاج الى الفنان الذى يعيش بيننا ونحتاج الى الفنان الذى يركب قاربا ويرحل الى المجهول!

الحياة ذاتها، حتى في واقعها المادى، لا تتقدم الا اذا توفر لها قدر من الاستكشاف والسعى وراء التجربة الجديدة والمجهول الذى.. نعرفه.. سواء في ذلك استكشاف قرية جديدة، او بئر بترول في صحراء مهجورة، او نظرية جديدة في معمل مغلق، او اسلوب فنى جديد في بيئة بدائية.

روى لي صمويل انه عندما وصل الي القاهرة ، ليلا كان مازال يلبس الجلباب! وسار في احد ضواحي القاهرة الساكنة بحثا عن بيت صديق له فاشتبه فيه عسكري البوليس ، واستوقفه . اشتبه فيه حين رأى امامه شابا يلبس جلبابا، ولكن كان يحمل حقيبة ثياب فيها بلدلة.. وفي جيبة نقود فسأله السؤال التقليدى عن مهنته وخشى صمويل الا يفهم الشرطى منه لو قال له أنه مثال او لعله اراد أن يعرفه انه رجل تعترف به الدولة، فقال له انه متفرغ! يعني أيه متفرغ.. يعني ان الدولةتدفع له مرتبا لكي يتفرغ لعمل تجارب فنيه. وضرب الشرطى كفيه عجبا وقاده الى قسم البوليس! قلت له: أن بعض المثقفين عندنا مازالوا يعانون من نفس هذه الدهشة – الطيبة المفهومة من الشرطى البسيط – عندما يجدون واحدا من الناس يبدأ في تجربة مجهولة وراء شيء صعب، ويحاولون ان يقودوا صاحبها إلى اقرب بوليس، ولكن هذه الروح.. روح الاستكشاف هى التى بنت الحضارة.. وهى التى تصنع تقدم الإنسان.

وسألت آدم عن اثر السد العالي والهجرة القريبة، على البيئة الساكنة هناك. فقال لي ان كبار السن من اهل النوبة يكرهون الهجرة ويفكرون فيها بتوجس شديد. انهم يريدون ان تنتهى حياتهم، حيث عاشوا كما انتهت حياة آبائهم واجدادهم. اما الشباب فهم فرحون بالهجرة ينتظرونها في لهفة وشوق شديد. انهم يستمعون الى الراديو، ويدركون عزلة بلادهم ان الهجرة الي اسوان وكوم امبو هي اشبه في مخيلتهم بحلم عظيم . أسوان هى اول الحضارة.. كوم معناها القطار الذى يؤدى إلى القاهرة رأسا.

والرجال بوجه عام اكثر تقبلا للسفر من النساء. فالرجل هناك مسافر دائما لا يعود إلي بلاده الا في زيارة أو حينما تتركه الشيخوخة. انه دائما في بلاد الشمال باحثا عن الرزق. اما المرأة فهى اساس الحياة هناك. وهى صانعة الفن بالذات.. انها تتسلم البيت جدرانا عارية وتتجمع النساء ليقمن بعمليات البياض ورسم النقوش. والمرأة هى التى تختار الألوان وتصنع الخوص والجريد.

واختتم أحمد بهاء الدين مقاله عن الفنان صمويل هنري» أو «أدم حنين» بقوله:

وتركني صمويل هنرى لكى يخلع البدلة ويلبس الجلباب ويعود الى هناك. ويذهب صمويل هنرى ليصبح آدم.

ان آدم يعود من حيث أتى.

آدم الذى خرج من الجنة الى الأرض يعود من حيث اتى.. باحثا عن المنابع الأولى، التى ربما تمنيناها فى رحلتنا الشاقة الطويلة. ■

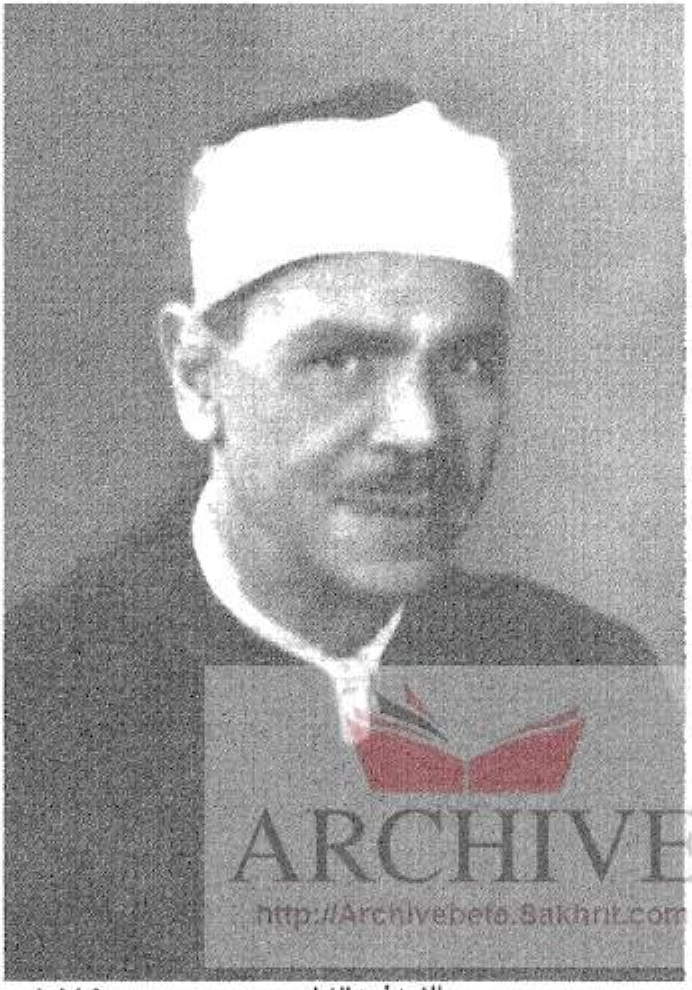
سمات أجلها في شخصية والدي

أمين الخولي (٢)

بقلم
د. سمحة الخولي

تناولت د. سمحة في العدد الماضي من الهلال بعض السمات الانسانية في شخصية والدها واليوم تستكمل الكاتبة حديثها عن تأثير والدها العميق في حياتها وموهبتها الفنية.

والأمر الذي أجدني أسير فيه إلى حد كبير على نهج والدي هو موقفه المتوازن الرشيد بين الحضارة الغربية والتراث العربي، أي موقفه التوفيقي الواقعي الذي ساد حياته العلمية وهو موقف «يمثل أحد الوجوه المتعددة للثقافة المصرية الحديثة التي تؤمن بتطور الذات بالتفاعل مع الغرب» (كما كتب سامي خشبة) وهو نفس الموقف الذي تنطلق منه كل ممارساتي وكتاباتي وآرائي التي آمنت بها عبر السنوات في كل مواقع عملي الموسيقي فأنا من المؤمنين بتحديث الخطاب الموسيقي لأنه من المستحيل أن تعيش الأجيال الجديدة على تراث كان في يوم من الأيام موسيقى جديدة أفرزتها مجتمعات مختلفة التركيب عن مجتمعنا الحاضر اختلافا جذريا - ولكني مؤمنة بنفس القدر بأن الحل الحقيقي والوحيد هو التوفيق بين جوهر الموسيقى العربية


الشيخ أمين الخولي

والسيطرة الكاملة على وسائل التعبير الغربية للتوصل لابتكار لغة موسيقية مصرية جديدة يكون فى مقدور مبدعيها أن يعبروا عن أنفسهم وهويتهم بعيدا عن التبعية الثقافية والروحية للغرب ، ولذلك فإننى لا آسف لشىء قدر أسفى على انكفاء الشباب المصرى على تقليد الموسيقى الغربية الخفيفة والراقصة (النابعة عن مجتمعات مختلفة تماما) ومحاولة تقليدها بما يلغى وجودهم ويحولهم لأبواق جوفاء وببغاوات هدامة لثقافتنا ولا تضيف إليها بل تنتقص منها يوما بعد يوم . وهذا ما يفسر حرصى الشديد على فهم الموسيقى الغربية فهما عميقا يغوص فى أغوارها ليس لذاتها فحسب ، كأحد الانجازات الانسانية القيمة ، بل ولكى تكون عدة فنية فى متناول مبدعى الموسيقى المصرية المعاصرة ، الذين يخاطبون الانسان المصرى الجديد ، المتفتح على العالم والراسخ فى جذوره الحضارية والثقافية فى آن واحد . ولا أريد أن أزحم القارىء بكل التجارب والنتائج التي تم التوصل فيها لتأكيد هذا المنهج فى الحياة الموسيقية فقد عملنا - زملائي بهيئة التدريس بالكونسرفتوار وأنا - لكى تدخل عناصر الموسيقى العربية فى كل مستويات التعليم

الموسيقى فى الكونسرفتوار وهى المناهج التى تعد فى مجملها مناهج غربية صرفة - فقد توصلنا فى هذا المجال إلى تطعيم دراسة الصولفيج (قراءة وكتابة النوتة) بالمقامات والإيقاعات العربية وتعليم وتوجيه عازفى الآلات الوترية (وبعض آلات النفخ الخشبية الأركسترالية) لعزف الموسيقى العربية ذات المقامات الربعية (٣/٤ الصوت) مثل الراست والبياتى والسيكاه والصبا الخ . وأنشأنا للكونسرفتوار أركسترا من الآلات الوترية بعزف موسيقى التراث العربى ، بجانب المؤلفات المصرية الحديثة ، والموسيقى الغربية (الكلاسيكية) من كل العصور وامتدت هذه السياسة القائمة على الاندماج العضوى ، إلى قسم الغناء حيث أصبح دارسوه مطالبين بغناء مقطوعات من التراث العربى كالموشحات ، وقد وجه هذا بمقاومة عنيفة من أساتذة الغناء (الأوبرالى) - ومع ذلك نجحت التجربة وأصبح من بينهم وبينهن فنانون قادرون على غناء أدوار سيد درويش بنفس الكفاءة مثل الأريات الأوبرالية الحافلة بالصعوبات (الكولوراتورا) ، وعلى مستوى رفيع من التمكن فى الحالتين ، وكانت حفلات جميعة الشباب الموسيقى منبرا لتشجيع ومساندة هذه النماذج غير العادية والمشرقة ، من التفاعل والتداخل الفني البناء بين عالمين مختلفين يتقابلان لأول مرة ليثرى كل منهما الآخر ..

أما دراسات التأليف الموسيقى (الأكاديمى) فقد كانت المجال الأمثل والأقوى لتطبيق هذه المبادىء «يجب أن ندرس فن التأليف الموسيقى العربى بكل تعمق ، لكى نوجه ما نفيده منه ، لخلق موسيقى مصرية جديدة» ، وهذا المبدأ هو الذى أثرى حياتنا الموسيقية برافد بالغ الأهمية هو «التأليف الموسيقى الجديد» فى ابداعات حياتنا الموسيقية بمؤلفين موسيقيين مصريين يعرفهم العالم الخارجى الآن ويكتب عنهم وقد رأينا كلمات تلاميذ أمين الخولى مدى حماسه لاحتضانه للمواهب الأدبية ورعايتها ، سواء فى الجامعة أو على صفحات مجلة الأدب الشهرية التى أنشأها بعد تقاعده فى عام ١٩٥٦ واستمرت تصدر شهريا بانتظام حتى مارس عام ١٩٦٦ فصدر العدد الأخير منها قبيل وفاته بأيام قليلة . وقد كانت صفحاتها المجال الأول الذى وجد كثيرون من الكتاب والشعراء والقصاصين فيه فرصتهم للتعبير ، ومنهم عبد الغفار مكاوى وصفوت كمال، وكنت أنا ممن

استفادوا من فترة التدريب على الكتابة في مجلة الأدب أيضا !

والحق لم أكن على وعي بأثر والدي غير المباشر عليَّ لانشائي لجمعية «الشباب الموسيقي المصري» بعد التقاعد . في أوائل الثمانينات (وسجلت رسميا عام ١٩٨٥) . ومن خلالها خطا عدد كبير من شباب المؤدين في العزف والغناء خطواتهم الأولى نحو الحياة الموسيقية الاحترافية الحقيقية ، وهم الذين اشتهروا فيما بعد ويقودون اليوم أنشطة الحياة الموسيقية . ومن خلال حفلات «جمعية الشباب الموسيقي» تم ارساء أفكار واتجاهات لها مغزاها في تحقيق التوازن بين أداء الموسيقى الغربية والموسيقى العربية بنفس التفهم والتخصص ولكن القيمة الكبرى لجمعية الشباب الموسيقي المصري هو دعمها ومساندتها الفاعلة والمتصلة لحركة التأليف الموسيقي المصري الجديد ، فهي تخصص حفلا سنويا على الأقل ، لتقدم أعمال المؤلفين الشبان وتتحمل نفقات أدائها وتقديمها للجمهور (وتسجيلها تلفزيونيا لنشرها على نطاق أوسع) ولعل حفلاتها لازالت حتى الآن المجال الحقيقي لنشر ابداعات المؤلفين المصريين الشبان الدارسين في مصر للجمهور ، ولذلك فإنه لا يمكن المبالغة في تقدير دورها في فتح الآفاق أمام المؤلفين بكل توجهاتهم وأجيالهم وتبني قضيتهم .

وبديهي أن السعي لتحقيق التوازن الرشيد بين تياري الموسيقى العربيه والغربية واتخاذ الوسائل العملية لتطبيقه في الأداء ، ثم العمل على استكشاف المواهب المبدعة في الأداء والتأليف ومساندتها ، كل هذا يتطلب قدرا كبيرا من الجلد والصبر والمثابرة (العنيدة أحيانا) والتفاني والرغبة في الاتقان ، وهذه كلها صفات محوريه في شخصية والدي . فمنه استمد القدوة والمثال وطاقة الكفاح في سبيل ارساء هذه القيم والمعاني وهي طاقة ضخمة، في بلادنا التي لاترحب بالجديد إلا بشق النفس.

وكذلك عملي في تقديم برامج التذوق الموسيقي تلفزيونيا من خلال برنامج «صوت الموسيقى» الشهير وأقول لعل هذا العمل الإعلامي المتصل انعكاس لجهود والدي العميقة في تقديمه لأحاديث «من هدى القرآن الكريم» في الإذاعة ، لسنوات طويلة تمكن من خلالها أمين الخولي من نشر أفكاره وفهمه المقدم للقرآن وربطه بقضايا المجتمع والحياة المعاصرة . وإن كان مما يؤسف له أن هذا الامتداد لأحاديث والدي لم يتحقق لبرنامجي صوت الموسيقى.

وإذا ابتعدنا قليلا عن أمين الخولي

العالم والمفكر والأستاذ فإننا نجد فى حياته انسانا ووالدا علامات بعيدة المغزى تركت فى نفوسنا نحن أبناؤه «من الصلب» أثارا عميقة فى تكوين شخصياتنا ومبادئنا الأخلاقية، ويكفى أننا أخذنا عنه سماحته الدينية الجميلة وتقبل الأديان الأخرى واحترامه لها ، فقد كان كأغلب أبناء جيله مثاليا فى فكره الديني الرحب ، ورغم زيه وسمته الدينى فقد تجلى فى تصرفاته الحياتية ومفاهيمه قدر أكبر وأعظم من المعتاد من السماحة وسعة الأفق الدينى .. وكثيرا ما راودنى - فى العقود الأخيرة - شعور بافتقادنا هذا النمط من الشخصيات الدينية المتسامية السمحة التي نحتاج إليها فى عصرنا هذا أشد الاحتياج...

وكان حب أمين الخولي على طلابه معنى كبيرا فى حياته تمثلناه جميعا ، نحن أبناؤه، وخاصة من سلكوا مسالك التعليم، فقد كانت صلته بطلابه صلة وثيقة عميقة وصادقة، يساندهم فى مواقفهم الانسانية والعلمية والعملية بكل قوته ولذلك ترددت فى كلماتهم عنه معانى «الحب والرعاية» بما جاوز مجرد صلة الأستاذ والطالب التقليدية بكثير- وفى هذا المجال فإنه من مصادر سعادتى ما أتيح لي من فرص مؤازرة وصداقة عدد كبير من طلابى الذين قمت بالتدريس لهم فى معهد الكونسرفتوار بكل أجياله طوال قرابة نصف قرن، وهم الذين أصبح أغلبهم الآن فى طليعة الحياة الموسيقية المصرية وتربطنى بهم صلات زمالة وصداقة وثيقة وممتدة.

أما المشاعر الوطنية المتأججة عند والدي (وأقصد بالوطنية هنا معنى أعمق بكثير من «الانتماء» الذى انكمشت إليه فى عصرنا كل صلة المواطن بوطنه) فقد كانت من أوضح معانى حياته، ولعلها هى التي ولدت اعتزازه المصرى العميق الذى أشرنا إليه قبلا وأذكر فى إحدى الرحلات الأوروبية لأركسترا الكونسرفوار - أثناء فترة عمادتى لهذا المعهد - أننى وجدت مكان الاستضافة المقرر لأعضاء الأركسترا فى مدينة ألمانية غير لائق ولامقبول، فطالبت بشدة بتغييره فورا حتى لانعود أدراجنا بلا حفلات.. واعتذر المنظمون الألمان بأنه المكان الوحيد الذى وجدوا فيه أماكن لهذا العدد، وأنهم على استعداد لتبنى أى مكان أفضل أقترحه عليهم (ولعلها كانت وسيلة للتعجيز) وفعلا قضيت أنا وزوجى (رحمه الله) يومنا فى البحث وأخيرا وجدنا مكانا لائقا بأبناء مصر ولم يأت المساء إلا وقد استقر بهم المقام

في فندق محترم يليق بهم وبمهمتهم الوطنية والثقافية.

كان يجيد الألمانية إجادة تامة

وفي المهرجان الدولي لأركسترات الشباب في أبردين (اسكتلندا) في أواخر السبعينات– فوجئنا بأن لإسرائيل أركسترا شباب من جامعة تل أبيب مشارك في المهرجان ، وأن برنامجه قد تضمن إحدى السيمفونيات التي كانت في برنامجنا (المبلغ منذ أسابيع ، وإذا بهم يطالبوننا بأن نقدم حفلا مشتركا للأركسترا المصري والإسرائيلي معا يكون من برنامجه سيمفونية بريتن المشتركة ورفضت الفكرة رفضا مطلقا وأكدت أن هذا المهرجان ليس سياسيا بل المعلن عنه أنه عمل موسيقي بحت ، وليس هناك أي قوة تجعلنا نقبل هذا العرض الذي نرفضه روحيا ووطنيا – ولم تجد محاولاتهم المستميتة في تغيير هذا الموقف – وعزف كل أركسترا وحده وكان نجاح أركسترانا المصري مدويا (واكتشفنا بالمناسبة أن كل أعضاء ذلك الأركسترا الإسرائيلي كانوا جميعا من الروس المهاجرين الجدد لتوهم لإسرائيل ، حتى أنهم لم يتحدثوا العبرية بل الروسية !).

ولعل وطنية والدي هي التي فتحت أعيننا على ريف مصر وتراثه الشعبي وأخلاقيات أبنائه وتقاليدهم فقد كنا نقضي الأجازات الصيفية أثناء سنوات الحرب العالمية الثانة في قريتنا شوشاي، وهناك اقتربنا من الأرض والمنابع ، وتعلمناالكثير من الطبيعة والفلك منه (كان ينبهنا لمجموعة الدب الأكبر) ويشجعنا على تعلم مهارات أبناء الريف وتذوق فنونهم وكان المثل الذي استنه لي أن أتقن كل ما تتقنه الفتاة الريفية والمدنية المصرية ، وكل ما تتقنه الفتاة الاوروبية ، وفعلا تحقق لي توجيه بفضل الأسرة قدر لا بأس به من كليهما فلا أنسى أنني ظللت أتوجه كل يوم خميس إلى مدرسة الراهبات الفرنسية المواجهة لبيتنا في مصر الجديدة لتلقي دروس خاصة في اللغة الفرنسية بها – وكان هذا الاتصال بالفرنسية من مصادر الخصوبة في حياتي، ولازلت أقدر لوالدي هذه المبادرة الحضارية المستنيرة.

ويبقى السؤال الكبير ماذا أخذت عن أمين الخولي الأب؟ هنا نصل إلى لب الموضوع، لأن منظومة القيم الأخلاقية هي بلا شك صنيع الأسرة ، ولأن الوالد هو الذي يحتك بالعالم الخارجي ويتعامل معه فإنه يتعرض أكثر للمواقف التي تتجلى فيها قيمه الأخلاقية أمام أولاده – ولعل أعمق هذه القيم الصدق وتحمل المسئولية وحرية الرأي والانضباط – وقد

يبدو هذا شيئا جانبيا ولكنه جزء من بناء الشخصية المتكاملة، فقد كان يضيق بأى صور الضعف أو التسيب، ولا يقبل أن يعتذر أحدنا فى صغره عن خطأ بقوله «دى وقعت منى غصبا عنى ! وهنا ينهره رافضا تماما أن يتخلى الانسان عن مسئولية تصرفاته بمثل هذه الحجج الواهية ... وقد تعودنا أن نأخذ أنفسنا بعد ذلك بنفس الجدية والمسئولية، وأن نحكم على تصرفاتنا فإذا أخطأنا اعترفنا بالخطأ لكى يصحح ...

وكانت نظريته فى «العقاب الطبيعى» ماثلة فى صغرنا بصورة مجسمة، فأى تصرف غير محسوب أو خاطئ يكون له دائما عقابه «الطبيعى»، فإذا لم يكن الانسان يقظاً فى مشيته فإن عقابه «الطبيعى» أن يتعثر ويقع أو يصيبه أذى مثلا ... والأهم من هذا أنه كان يطبق ذلك على نفسه وليس على أولاده فقط ..

قيم الصداقة والجمال

ومن السمات التى كانت تدهشنى فهمه فيه لمعنى الصداقة، فقد كان يحرص على أن يود الدكتور طه حسين ويزوره فى داره فى الأزمات التى يكون فيها بعيدا عن منصبه، أما فى ظروفه العادية فإنه لا يحرص على زيارته، وكان هذا جزءا من مثالياته الأخلاقية التى نسير أحيانا على عكس التيار السائد فى مجتمعنا، حيث يتكالب الناس على أصحاب المناصب، ثم ينفضون من حولهم إذا إبتعدوا عنها! أما هو فقد كان الصديق الصدوق فى الشدائد وإذا ابتعدنا عن منظومة القيم الأخلاقية إلى عالم القيم الجمالية فإننا نذكر - وأنا بصفة خاصة - أنه فتح قلوبنا وأعيننا على حب الطبيعة والنباتات والزهور، وهو الذى عود أعيننا منذ الطفولة فى بيتنا على روائع التماثيل العالمية فى مستنسخات رخامية صغيرة أحضرها معه من أيطاليا . وهو الذى أهدانى وأنا فى المدرسة الإبتدائية، أول كتاب عن الفنون التشكيلية الأوروبية. ولازمه عشقه للمسرح طول حياته، وانتقل بعضه إلينا (وإن اتخذ عندى صورة عشق الأوبرا) وكثيرا ما كنت أذهب للمسرح - بعد عودتى من البعثة - فى رفقته وكنت أجد فى تعليقاته عليه متعة حقيقية وكان حبه للأسفار والرحلات من أهم ملامح حياته، وعنه أخذت شيئا من هذا فقد أتيح لى السفر إلى كثير من قارات العالم والتعرف على شعوب وعادات وجوانب انسانية وثقافية شديدة الثراء .

وأخيرا وليس آخرا فإن أثمن ما أخذت عن والدى أمين الخولى أنه

وضعنى على الطريق الصحيح لهدف حياتى ومؤنسها ومكمن ثرائها وهو فن الموسيقى ...! فقد كان هو ووالدتى مرهفى الحس لما قيل لهما (فى روضة الأطفال) عن موهبة موسيقية أنعم الله علىَّ لها، وكان والدى هو الذى فتح أمامى أبواب عالم الموسيقى الساحر على مصراعيه منذ الطفولة - وتابع خطاى فيه عن كثب ولم يأل جهدا أو مالا فى سبيله - وإن كان قد عارض التحاقى بالمعهد العالى لعلومات الموسيقى معارضة شديدة بعد ذلك - رفضاً لمبدأ الاحتراف - إلا أنه عاد واقتنع بالحجج التى قدمتها والدتى وأخى الكبير أسامة (رحمهم الله) فوقف بجانبى بكل ثقله بعد ذلك، وأخذ يرقب تقدمى فيه بالتشجيع والمشورة (التى امتدت لفترة كتابة رسالتى للدكتوراه فى بريطانيا) ... وأذكر أنه عندما صحبنى إلى بورسعيد ليودعنى قبل أن أستقل الباخرة التى ستحملنى لمقر بعثتى فى بريطانيا، ذهلت عندما رأيت عينيه تغرورقان بالدموع؟! واكتشفت فى تلك اللحظة أن الوالد الحازم الشديد الصارم كان يحمل قلبا عطوفا حانيا لا يظهر على السطح بسهولة ولكنه سرعان ما تمسك واتخذ سمت المربى فقال لى «أذ لم تأخذى الدكتوراه فلست ابنتى!! ومن العجيب أننى كثيرا ما سمعت من زملائى وتلاميذى مثل هذا التعليق على شخصيتى وكيف أن المظهر الجاد الحازم يخفى وراءه طبيعة يرونها حساسة دافئة ..

ولعلى بهذة الصفحات أكون قد عرضت على القارئ بعضا مما يأخذه الأبناء (والبنات) عن الآباء ومدى إمتداد أثر الأب على حياة أولاده ..

وإنى لأشكر الهلال الذى أتاح لى بهذا المقال أن أكتشف أوجه التشابه والتناظر بين حياتينا فى عمله الإعلامى والإذاعة، وعملى الإعلامى فى التليفزيون - وفى تأسيسه لمجلة الأدب لرعاية الأدباء الشبان، وإنشائى لجمعية الشباب الموسيقى المصرى لرعاية الموسيقيين الشبان وخاصة المؤلفين منهم، ثم فى اهتماماته الاجتماعية بجماعة «حياة القرية»، واهتماماتى الاجتماعية برعاية الكفيفات موسيقيا (منذ الستينيات وحتى اليوم) وهو الاهتمام الذى أثمر «أركسترا النور والأمل» الشهير والذى كانت نجاحاته فى رحلاته العديدة لأوروبا وآسيا والبلاد الغربية تشريفا لمصر ولفنيانها وموسيقاها المعاقات .

ولكن مما يؤسف له هذا التشابة بين حياتينا لم يمتد إلى إنجازاته العلمية .. ■

ماجد يوسف: يكتب من الصين

رحلة إلى الصين

فى رحاب التنين الأسيوى

الصين فى سباق مع الزمن لتحقيق المعجزة الكبرى!

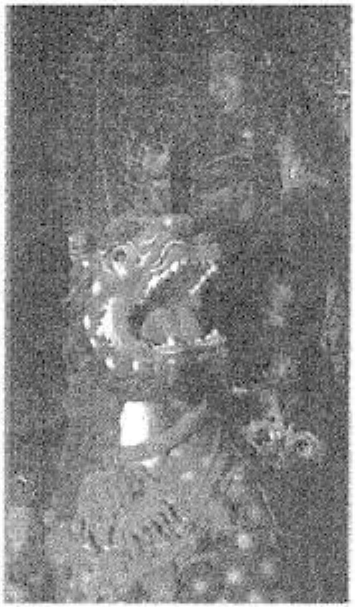


فرضت أعواد قصب البامبو الشكل المقوس للسقوف التى تميز بها الطابع المعمارى الصينى

عندما بدأت رحلة الطائرة من القاهرة إلى بكين أخذت أسترجع معلوماتى السابقة عن لغز التنين الأصفر، وكيف استطاعت الصين في خلال سنوات قليلة أن تنتقل من خانة الدول النامية إلى مصاف الدول المتقدمة، كإحدى الدول العملاقة سياسياً واقتصادياً وعسكريا.



فتاة صينية من فلاحي القرى



التنين الصيني الأسطوري رمز مقدس لدى الصينيين





حيث تكمن عناصر القوة عند العملاق الصيني في تلك القوة البشرية الهائلة المتمثلة في أكثر من مليار نسمة يشكلون خمس سكان العالم تقريباً وفي مساحة ضخمة تمتد إلى ٩.٥ مليون كيلو متر مربع تجعل الصين في المرتبة الأولى عالمياً في عدد سكانها، وضمن أضخم ثلاثة بلدان مساحة في العالم (روسيا - كندا - الصين) كما تكمن قوتها في اقتصادها القوى الذى يتمتع بامكانات طبيعية وبشرية كبيرة ، بجانب توظيف طاقاته الهائلة.

وأثناء ركوبنا الطائرة إلى الصين لإعداد حلقة في التليفزيون (قناة التنوير) عن هذا العملاق الصيني الكبير، برزت أمامي عدة محاور عما يمكن إنجازه في



هذه الرحلة لنتعرف من خلالها بالكاميرا، واللقاء المباشر، والحوار الموسع على جوانب مختلفة وفى أصقاع مختلفة من مساحة الصين (القارية) ومتنوعة المعالم الحضارية والفلكورية، فضلاً عن تنوع الطبيعة الجغرافية من جبال وسهول ووديان وأنهار وبحار وصحارى وخضرة، واختلاف طبيعة الطقس من حار إلى بارد، ومن شمس إلى مطر.

- ٢ -

صينى من شبرا
فى قلب بكين!

عند هبوطنا فى مطار بكين .. النظيف جداً . المنظم جداً .. الواسع جداً .. والذى يدير كل شىء فيه مجموعة من الشباب والشابات (المجتمع الصينى بالمناسبة هو مجتمع الشباب فى كل القطاعات والأنشطة والأنحاء والشوارع والمصانع والمتاحف والمطاعم .. الخ، ولا يعنى هذا أن الكبار غير موجودين فى كل هذه المظان .. هم موجودون .. نعم .. طبعاً ولكن الطابع الغالب أو العنصر المسيطر .. أقصد .. الأغلبية المسئولة .. الواضحة للعيان فى كل مكان هم الشباب .. هذا درس أول) وطبعاً، يخلق الشباب (المسئول) فى كل موقع بحكم حيويته وشبابه وثقته بنفسه وبدوره فى هذه السن الباكرة .. روحاً من الفاعلية والإتقان وسرعة الإنجاز والكفاءة .. فلم يستغرق خروجنا من المطار إلا الوقت الضرورى للعبور من الحواجز الأمنية والإجراءات القانونية، وملء الإستمارات، وتسليم الجوازات، والحصول على التأشيرات، ولا مشكلة على الإطلاق فى أى شىء .. فعربات الحقائب موجودة بوفرة، وحقائبنا سبقتنا ببساطة إلى «السير».

وهذا هو ما حدث معنا بالضبط حينما وصلنا إلى مطار بكين، كانت عيوننا تتأمل فى مطار بكين الواسع الكبير، والأهم النظيف - والملىء أيضاً بالورود والزهور والخضرة الموضوعة فى مكانها بتنسيق واضح وحساب مضبوط فى كل ركن تقع عليه عيناك تقريباً.

وفى منطقة الإستقبال الرئيسية، هناك صورة كبيرة مرسومة بالألوان الزيتية خلف مكاتب ضباط المطار - أقصد ضابطاته، فمعظمهن من البنات . فتيات صغيرات السن لا تتجاوز أعمارهن الخامسة والعشرين - وهذه الصورة البانورامية البديعة تمثل سور الصين العظيم، مرسومة ببراعة وبحلول تشكيلية ذكية للمساحة المتطاولة التى جسدت بتطاولها العرضى - أو حاولت - التطاول الأصلى لسور الصين العظيم بتدرجاته ونعرجاته فوق الجبال صعوداً والوهاد نزولاً، محاطاً بالأشجار وبالأسوار والأحجار .. كان العمل الفنى على هيئة شريط طويل على حائط ممتد يأخذ العين ويخطف البصر، فيما الضابطة الشابة تنهى إجراءات الباسبور فى ثوان معدودة، وتحاول أن تخبرنى أن اعتماد أوراقى قد انتهى .. وأنا لاه عنها فى هذه اللوحة الجميلة، ولاعتقادى التاريخى الراسخ داخلياً من مجموع التجارب السابقة فى المطارات المصرية وبعض المطارات العربية . إن إنهاء اعتماد جواز سفرى لايمكن أن يتم بهذه السرعة الفائقة والجديدة على تماماً!.

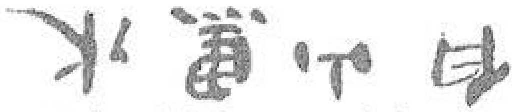
المهم، خرجنا نحن الأربعة (بعثة



سور الصين العظيم بتدرجاته ومعرجاته صعوداً ونزولاً ، محاط بالأشجار والأحجار



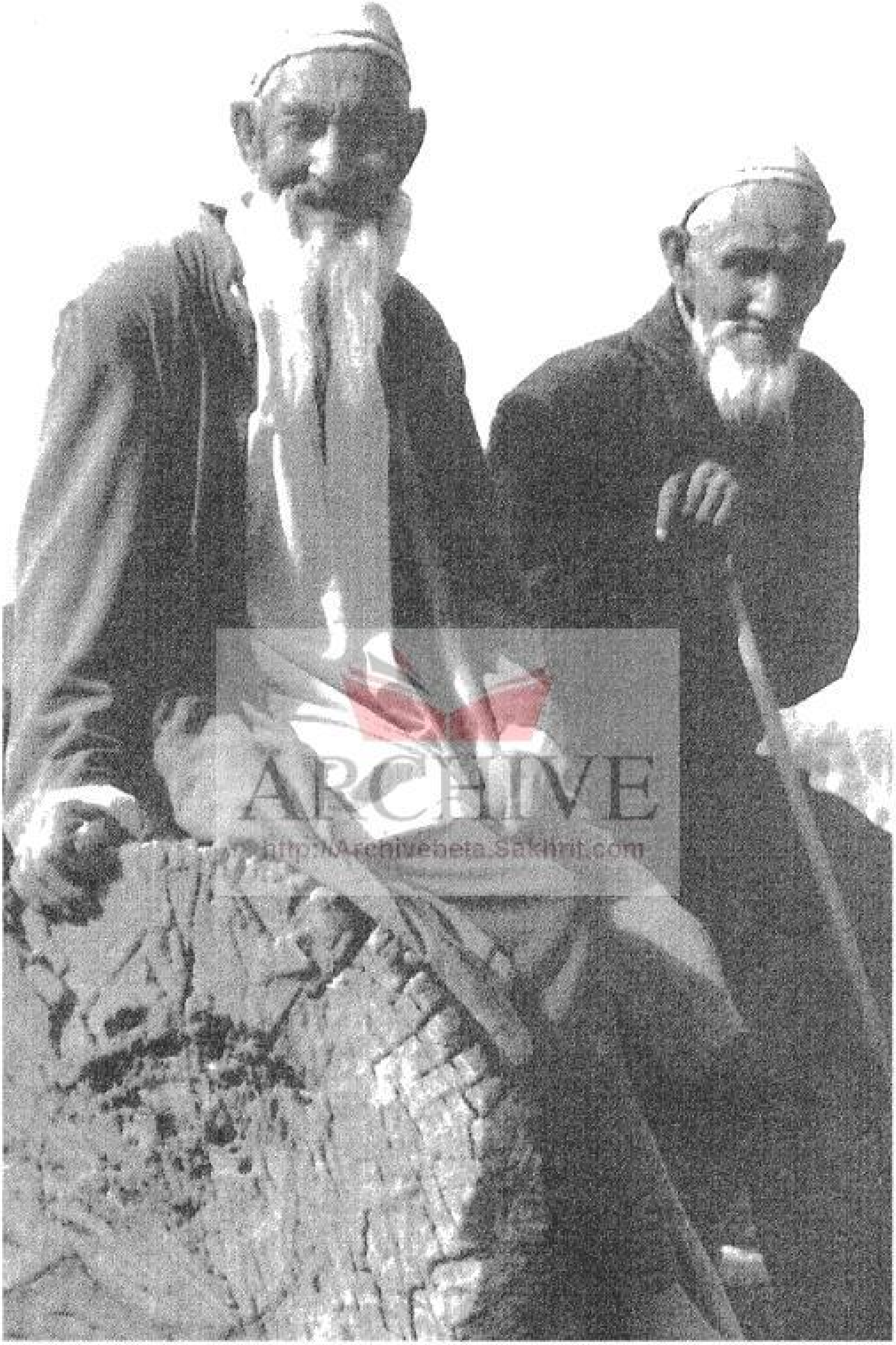
العمارة الصينية القديمة تتميز بألوانها التي يغلب عليها اللون الأحمر



قناة التنوير) لنجد من ينتظرنا ويتعرف علينا بسهولة ويقدم نفسه لنا باعتباره (صبحي) - اسمه بالعربية - وأنه مترجمنا ومرافقنا في هذه الرحلة طيلة إقامتنا في الصين، ومعه زميله الصيني (ساو) من وزراة الثقافة الصينية بالإضافة إلى السائق ، أما صبحي أو (Zhu Xi) - وهذا اسمه الصيني - فشاب في الخامسة والعشرين من عمره، تخرج من قسم اللغة العربية بجامعة بكين، وعمل لفترة في العراق مترجماً في السفارة الصينية هناك، وهو الآن يعمل مترجماً للوفود العربية في وزارة الثقافة الصينية في الإدارة الخاصة بدول شمال أفريقيا ، التي تحتل موقع الصدارة فيها .. مصر بطبيعة الحال .. وبدت عربيته الفصحى متلعثمة ومتكسرة، وإن كانت معبرة وموصلة وكافية لتحديد المعاني والمقاصد وبدت أيضاً وكأنها عربية كلاسيكية لحد ما .. قاموسية .. العربية كما تتمثل في القواميس ، وتفصح عنها المعاجم ، ولذلك ، فسنتولى نحن - في فترة بقائنا في الصين - نفخ الحياة والروح والحيوية في عربية السيد (صبحي) لتمتلىء بنبض الواقع وإيقاع الحياة وحرارة البشر، لا برودة الكتب، وتاريخية المعاجم، وقدم القواميس، وعتاقة المفردات .. وكانت نوادر ومغامرات في هذا الشأن مع السيد صبحي، ربما أتت الفرصة لقص طرف منها على القارىء العزيز في مقال آخر.

أما السيد (ساو) الذى لايعرف إلا الصينية فقط، والذى يكبر زميله الشاب صبحي بحوالي ربع قرن كامل ، فهو رجل في الخمسين من عمره ، إنيط به تخليص مسائلنا الإدارية والورقية وتذليل كافة الصعوبات لنا .. من مثل الحصول على التصاريح لدخول الأماكن المختلفة المراد تصويرها .. من متاحف، ومزارات سياحية ، ومكتبات عامة، وأبراج، ومصانع ،.. الخ.. ودفع الرسوم ، وحجز الفنادق ، وحساب المطاعم وتلبية الاحتياجات، وتجهيز الانتقالات ، والسيارات والسائقين .. الخ .. والحقيقة التى لابد أن نذكرها فى هذا السياق .. هو التفانى الكامل لهؤلاء الناس اللطفاء الكرماء فى أداء ماهو منوط بهم .. وبدا جليا لنا مدى حرصهم وخوفهم علينا باعتبارنا مسئوليتهم الشخصية المباشرة ، ومدى تلبيتهم لمطالبنا فوراً ، وأحياناً بمجرد الإشارة، ومن اللافت للنظر هنا، أن السيد (ساو) الذى لايجيد العربية ولا يعرف إلا الصينية .. كان يفهمنا - ولا ندرى كيف كان يتم ذلك حتى الآن - وكان يلتقط بحساسية مفرطة مقاصدنا ورغباتنا التى طبعاً لم نفصح عنها بالصينية التى لانعرفها نحن ولا يعرف هو سواها ، ولكنه كان يمتلك روحاً ذكية، وحساسية باللغة ، ورهافة خاصة، وكما نقول فى مصر (كان يفهمها وهي طايرة) .. وكان لماحاً للغاية يمتلك حساً راداريا يحقق به الاتصال المباشر والناجح مع معظمنا رغم عائق اللغة ، حتى إننى بعد عدة أيام دهشت للتفاهم شبه الكامل بينه وبين زميلنا شريف المصور إلى حد تبادل النكات والضحك لدرجة الإستلقاء على القفا .. نتيجة الإتصال العالى بين الإثنين بدون لغة .. أى لغة!.. ولكن - فى الواقع - كانت هناك لغة ، لغة أعمق للتفاهم ، لغة الروح الإنسانية الرحبة ، والأخوة البشرية العميقة والصداقة .. ولغة الروح والجوهر هذه - كما أسميها

الصينيون يستمتعون بالحياة كبارا وصغارا لما يتبعونه من نظام غذائي صحي متكامل ◀



- كانت الوجه الإنساني الفائق القدرة على التعبير عن مختلف الخلجات الشعورية، والإنفعالات الداخلية .. يلعب فيها الدور الأساسي في تحقيق هذا التواصل المدهش واللافت للنظر ..

خرجنا من مطار بكين ، الجو يبدو معتدلاً وغريباً لحد ما ، السيارة الميكروباص تقطع بنا الشوارع النظيفة جداً ، والمنسقة جداً ، والمشجرة جداً .. وندخل بعد نصف ساعة أو ربما أكثر قليلا، العاصمة العتيقة . بكين .. التي يخلتط فيها - بوضوح - تلك المباني الحديثة جداً ، والشاهقة والعالية ، وذات الخطوط التجريدية والهندسية الواضحة التي من الممكن أن تراها في أي مدينة من مدن العالم الحديث .. مع تلك المباني الأثرية التراثية التي تبزغ أمامك بين الحين والحين فيما أنت تخترق المدينة عبر كباريها وأنفاقها وشوارعها .. وهذه المباني القديمة ، قد تكون قصر الإمبراطور الشاسع الواسع في قلب بكين مرة .. وقد تكون معبداً بوذياً متميزاً وتاريخياً ، وقد تكون مسرحاً عتيقاً .. أو مطعماً قديماً .. وهكذا .. تتضافر الأنماط المعمارية الحديثة جداً ، مع أنماط معمارية أخرى تعود للقرن التاسع عشر مثلا، مع طرز تاريخية تعود للقرون الوسطى وتميز الطابع المعماري الصيني العتيق بسقوفه المقوسة باستخدام أعواد هائلة وغليظة من قصب البامبو التي لم أر ما يشبهها في حجمها في أي مكان من الدنيا ، والتي فرضت هذا الشكل المنحني المقوس للسقوف نتيجة انحناء ساق البامبو الطويلة من الوسط.

وحديث العمارة الصينية القديمة والحديثة ، حديث آخر يطول .. وتنتشر في كل مكان في مداخل بعض العمارات والمحال والبيوت والمطاعم والفنادق - تلك الثريات الصينية التي هي في الغالب حمراء اللون (اللون الأحمر لون مسيطر على مظاهر التزيين وأدوات الحياة والإعلانات والمداخل والأبواب وكتب ماوتسي تونج والعلم الصيني بالطبع .. و.. و.. الخ، هو خرج من حده - أقصد اللون الأحمر - ليكون مكوناً من مكونات الثقافة الصينية والرؤية الصينية للعالم .. وهذه الثريات المشار إليها مصنوعة في الغالب من الورق أو من القماش أحياناً .. وبأحجام مختلفة .. صغيرة جداً «أحياناً» وكبيرة جداً في أحيان أخرى .. أذهلتنا بحجمها الضخم جداً في ليلتنا الأخيرة في بكين ، عندما زرنا مسرح الأكروبات الصيني الشهير .

ودائماً على الباب - أي باب في الصين ، يربض أسدان أسطوريان على جانبي الباب ، بأحجام مختلفة حسب كل باب .. وبضخامات مختلفة حسب قيمة وأهمية المكان .. وهكذا استقبلنا هذان الأسدان الحجريان الضخمان أمام باب الفندق الدوار الذي وصلنا له الآن .. لنحط رحالنا - لليلة واحدة - لأننا في الصباح الباكر سنعاود رحلتنا بالطائرة إلى بلد آخر داخل الصين الكبيرة شاسعة الأرجاء

الملاحظة الغريبة ، أننا في المطار ، وفي الشوارع ، وفي الفندق ، وفي كل مكان ، لم نجد أي زحام ، من أي نوع يتوازى مع هذا الرقم المرعب لتعداد الشعب الصيني .. مليار و٣٠٠ مليون نسمة!!.. فقد ظل - مثلا - ميدان التحرير أو ميدان العتبة في عيوننا أكثر

زحاماً بكثير من أي مكان رأيناه في الصين .. حتى في قلب ميدان القصر الإمبراطوري الكبير ببكين ، ولكننا عرفنا بعد ذلك ، لماذا لم نلحظ أي زحام في أي مكان وفي أي وقت في الصين .. وهذا حديث آخر على كل حال!

– ٣ –

شعب على عجل !

لعل الظاهرة الشعبية التي تلفت نظر الزائر الأجنبي للصين – قبل غيرها من الظواهر الأخرى – هي هذا الإستخدام الشعبي الواسع للدراجة كوسيلة فعالة من وسائل الانتقال .

نعم .. الشعب الصيني بأكمله – تقريباً – يركب الدراجة .. من تلاميذ الإبتدائي لطلاب الجامعات ، ومن سيدات البيوت .. لفلاحي القرى ، ومن عمال المصانع لموظفي الحكومة .. الدراجة .. وسيله بطلة وعملية «صينية جداً» للإنتقال السهل والسلس من مكان إلى آخر .

ولنتخيل – للحظة – أن الشعب الصيني (مليار و٢٠٠ مليون) لم يخترع هذه الوسيلة الذكية لإنتقالاته الرئيسة ، واستبدالها بالسيارة مثلاً .. لكان من الصعب عندئذ أن تتسع لهذا الشعب شوارعه ، ولضاقت به ميادينه ، وطرقه السريعة ، وبلاده المترامية على سعتها ، ولوقع في مشكلة مرورية مستعصية على أي حل ، كالتي نعانيها في مصر !.

والحكومة الصينية ، من جانبها ، لم تتعامل مع هذه الظاهرة الإيجابية تعاملاً سلبياً .. بل شجعت ذلك بأخذ هذه الوسيلة الذكية مأخذ الجد والتخطيط ، فأختطت مسارات خاصة للدراجات .. في الشوارع والطرقات والميادين ، ليس ذلك فحسب ، بل وخصصت أماكن الإنتظار الملائمة أمام المصالح الحكومية والمصانع والمدارس والمحال العامة .. هناك باستمرار ، وفي كل مكان ، ساحات ومساحات موقوفة على الدراجات ، ولها اعتبارها المحسوب في أنظمة المرور ، وخطوط السير .. بين السيارات العملاقة والسيارات الصغيرة سواء .. فللدراجة حقوقها على الأرض ، ولراكبيها – خصوصاً الصغار والتلاميذ – حوقهم في الحركة والإنتقال السلس والمؤمن والحاني والعطوف من المجتمع كله .

والملاحظ – في هذا السياق – أن الناس قد حولوا هذه الوسيلة إلى وحدة متكاملة لقضاء عدة أغراض معاً .. فهي وسيلة انتقال ناجحة للفرد من ناحية ، أو لعدة أفراد ، فهناك دراجات مجهزه لحمل عدد من الأفراد معاً .. في الخلف والأمام (أسوة بحالها) ، وقد زودت كل دراجة – باستمرار – بصندوق أمامي من السلك المتين ، يتسع لحقيبة التلميذ ، وأدوات الجامعي ، وتسوق سيدة البيت ، وأغراض العامل ، وملفات الموظف .. كما تجد بصحبة كل راكب دراجة مظلة بلاستيكية تستخدم عند الحاجة .. مثلاً .. عند هطول الأمطار المفاجيء في أحايين كثيرة ، فالجو شديد التقلب في اليوم الواحد من الحر إلى البرد ، ومن الشمس إلى الضباب ، ومن الجفاف إلى الأمطار الغزيرة .. وهذه المظلة البلاستيكية يرتديها راكب الدراجة لتغطي رأسه وجسمه بالكامل ، وتمتد لتغطي أغراضه داخل الصندوق الأمامي للدراجة .. من حقائب وكتب وملفات وأغراض منزلية ، بحيث يصل سالماً من البلل إلى هدفه ، هو وملابسه وأشياؤه .. فهذه المظلة السابقة – عند الحاجة –

تنسدل عليه من رأسه إلى كامل جسمه فيما عدا الجزء الأسفل الذى يقود الدراجة .. وتمتد لتغطى على يديه الممسكتين بمقود الدراجة ، وعلى صندوقه الحافظ لمتعلقاته كلها .

وقد لاحظنا أن الدراجة الصينية مصنوعة بخامات متينة ، ففي حالات نادرة شاهدنا تلك الدراجات المصنوعة إطاراتها الداخلية من السلك المعدنى ، بل الدراجات هناك ، تصنع من أعمدة راسخة من الحديد القوى ، الذى يجعل الدراجة تتحمل العمل الشاق والخدمة الثقيلة ، واستبدال الحديد بالسلك ، منطقى فى هذه الحالة ، لأننا هنا لسنا إزاء استخدام ترفيهى خاص للدراجة بين الحين والحين .. بل إزاء خدمة شاقة ودائمة استوجبت صناعة أكثر قوة ومتانة لهذه الدراجة التى حلت - وببساطة شديدة - مشاكل المواصلات لعموم الشعب الصينى .. أو على الأقل .. الجزء الأكبر من هذه المشاكل .. وكان لابد للمرء فيما هو يرى هذا الحل السهل والعبقرى لمشكلة من المشاكل المستعصية ، وهى مشكلة المواصلات ، أن يتذكر نفس المشكلة فى مصر ، وأن يفكر فى هذه وسيلة ، لو تم الإقتناع بها وتعميمها فى بلادنا .. لانحلت - وببساطة متناهية - المشاكل المستفحلة للمواصلات العامة ، والزحام الدائم لشوارع القاهرة ، والاختناقات المرورية المزمنة ، التى لم يعد ينفع معها فى القاهرة الكبرى - على سبيل المثال - لا مترو تحت الأرض ، ولا كبارى علوية فوق الأرض ، ولا أنفاق ، ولا حتى شبكات الطرق الدائرية الضخمة .. لأن السيارات فى أزدياد مستمر ، ولأن المخطط لا يأخذ فى اعتباره المواءمة الضرورية بين عدد السيارات التى تعطى تصاريح جديدة كل شهر ، وطاقة الشوارع والطرق والميادين وأماكن الانتظار ، وطبعا لا نغفل فى هذا السياق ، الأسباب المظهرية التى تحكمنا - ولو ضد مصالحنا - فالدراجة عندنا هى وسيلة (الفقراء) والأوساط الدنيا من الناس ! وبالتالى ، فالدراجة - من هذا المنظور - لها مردودها الاجتماعى ، ومحمولها الطبقى .. فراكب الدراجة عندنا هو شخص أقل فى مرتبته الإجتماعية ، وقيمته المظهرية من راكب السيارة !.. نحن لا ننظر للدراجة باعتبارها مجرد وسيلة فعالة وعملية جداً للمواصلات .. لا تحيل إلى شىء آخر .. بل هى - عندنا - ترادف قلة القيمة ، وقلة الهيبة والاحترام ، والبهدلة .. الخ ، عكس السيارة التى تعطى إنطباعا مغايراً بالقيمة والهيبة والطبقة الإجتماعية والتميز والإحترام العام .. الخ ، ولعلنا مازلنا نذكر ذلك المذيع التليفزيونى المصرى الشهير فى عقد السبعينيات الذى حاول أن ينتقل من منزله فى كوبرى القبة إلى عمله بتليفزيون مصر بالدراجة .. فتحت عليه الصحف والمجلات النار .. نقداً وتريقة وسخرية منه ومن دراجته .. وهو المذيع التليفزيونى والإذاعى النابه شفيع شلبى .. وطبعاً تم وأد تجربته الجريئة فى مهدها .. والتى لو كان قدر لها الانتشار على نطاق واسع .. لحلت - وببساطة - مشكلة من أكبر وأعقد مشاكل القاهرة المستعصية على الحل حتى الآن كما قلنا .. وهى مشكلة الزحمة ، ومشكلة إكتظاظ الشوارع - المميت والمعطل أحياناً للسير



الغناء والرقص والموسيقى من أهم أشكال الثقافة الشعبية الصينية



تعتبر الأعمال اليدوية من مصادر الدخل للأسر الريفية الفقيرة والمتوسطة

وربما لساعات طويلة - بالسيارات والأوتوبيسات بمختلف مقاساتها ، وسيارات النقل بأنواعها ، والميكروباص بتجلياته ، والميني باص بتنويعاته ، بل والحنطور والكارو أيضاً وعلى أجدع كوبري في القاهرة ، وفي ساعات الذروة كمان !! .

***

والأهم ، أن هذه الدراجات - في الصين - توفر للمجتمع كله ، الوصول المنضبط إلى مواقع عمله في الوقت المناسب تماماً والمجتمع الصيني بالمناسبة له نظامه الدقيق في العمل ، الذي يبدأ بالإفطار في تمام السابعة (المجتمع كله) والغذاء في تمام الثانية عشر ، والعشاء في السادسة مساء .. ولك أن تتخيل عزيزي القارئ .. الأمة كلها .. وفي وقت واحد (تقريباً) تتناول طعامها في هذه المواعيد المقدسة .. الشعب بمختلف فئاته وتنوعياته ، وعلى تعدد أعماله ومستويات ناسه ، فمواعيد العمل والطعام مواعيد ثابتة بل حديدية .

والطعام ، بالمناسبة - ولو أن هذا سيكون موضوعاً لحديث آخر - طعام صحي بالمعنى الكامل للكلمة ، فهم لايعرفون السكر (تقريباً) على سبيل المثال.

وقد استلزم الأمر منا حوالي الأسبوع لنعثر على السكر لنضعه على الشاي ، فهم لا يستعملون السكر إلا فيما ندر ، والنزر اليسير من الملح ، ويغلب على أطباقهم الخضر والفواكة الطازجة ، والبحريات من الأسماك والقواقع والجمبري ومخلوقات بحرية أخرى .. ولا تجد لديهم - على الإطلاق - الأفضلية الطبقية الموجودة عندنا للحوم والدجاج مثلاً ، بل هي تحظى بنفس الأهمية التي تحظى بها بقية المأكولات الأخرى !!

وطبعاً لا أحدثك عن (صحة) شعب .. هو في حالة ركوب للدراجة معظم يومه ، ويأكل الخضر والفواكة والأسماك ، ولا يعطي أهمية مركزية (للحمة) ولا يعرف - تقريباً - السكر والملح .. لك أن تتخيل الحالة الصحية العامة لهذا الشعب العامل المجد المنتج ، ولرشاقته ولسلامة بنيانه .. رجالاً ونساءً ، شيوخاً وشباباً ، كباراً وصغاراً .. وبالتالي ، إمتلاء الحياة هناك .. من حولك ، وأينما تحركت .. بكبار السن الذين تجاوزوا الثمانين والتسعين من أعمارهم يتحركون ويروحون ويجيئون ويستمتعون بالحياة في هذه السن دون انحناء أو حتى عصا يتوكئون عليها!.

***

وبرغم ذلك ، لاتشعر أينما يممت وجهك في أقاليم الصين ، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .. إنهم مجتمع عامل فقط ، ومنتج فحسب .. بكل ما تعنيه هاتان الكلمتان من إمتلاء بالمعنى الكامل للعمل والإنتاج .. بل للمتعة بالحياة ، والاستمتاع بالطبيعة الجميلة نصيب وافر في برنامج الحياة اليومية لهذا الشعب .

ولا تشعر عند زيارتك لأية مدينة صغيرة أنه ينقصها شيء ، أو أنها تختلف عن العاصمة في درجة الأهمية .. على الإطلاق ، كل المسألة ، أن العاصمة بكين أو المدينة الثانية شنغهاي .. هما مدن كبرى فقط .. ولكن كل مايوجد فيهما من محال وملاه ومطاعم ومناحف ومسارح ودور سينما ومعابد وشوارع تجارية كبرى ومكتبات وفخامة ورفاهية


فريق عمل قناة النوير فى أحد مواقع التصوير بالصين

وحدائق غناء مليئه بالأعمال الفنية لكبار الفنانين الصينيين ومعارض للفن التشكيلي ومنتديات للفكر ومراكز للثقافة وقاعات للغناء والرقص والموسيقى .. الخ ، موجودة فى كل مدينه صينية كما هى موجودة فى بكين وشنغهاى لايوجد هذا الإحساس بالفارق - الذى نجده عندنا مثلاً - بين القاهرة وكفر الشيخ ، أو الأسكندرية والمحلة .. بل كلها مدن صينية تحظى بنفس القدر من الاهتمام والعناية على كل المستويات التى أشرنا إليها .. وهذا يترك أثره فى مواطنى كل مدينه .. أن مدينتهم تحظى بنفس القدر من الأهمية والاعتبار والقيمة ، مثلها مثل المدن التاريخية الكبرى كبكين وشنغهاى

ومن ثم لايفكر مواطن إقليم صينى ما فى ترك إقليمه والهجرة للعاصمة ، لأن العاصمة بها من المزايا الحياتية والفرص والمنح ماليس فى إقليمه ..

وكان هذا هو السر فى أنك لاتشعر على الإطلاق باى زحام أو كثافة بشرية خانقة كما تشعر فى القاهرة .. لأن المواطنين الصينيين موزعون على كامل الأرض الصينية (القارية) بعدالة وانسجام وحسن إنتشار .. ولأن كل مدينة أو إقليم - كما قلنا - يمتلك من مقومات الحياة والتقدم والرفاهية والمتعة والعناية ما تمتلكه بالضبط بكين وشنغهاى ، ومن ثم فلا يفكر المواطن فى ترك إقليمه الجميل والذى يتميز بتنوع طبيعى لخصائص سياحيه ربما ، أو إنتاجية أحياناً تفرقه عن بقية الأقاليم ، ولكنه فى نفس الوقت ليس محروماً من كل ما يميز العاصمة أو المدن الكبرى .. بل إن الإقليم بالإضافة إلى ما يشترك فيه بالضبط مع بكين وشنغهاى يمتلك خصوصيته المضافة .. كمنطقة سياحية مثلاً لوجود آثار قديمة بها .. أو كمنطقة زراعية ريفية أحياناً ، أو كمنطقة صناعية .. أو كمنطقة بحرية .. الخ ، ولكن الثابت والمؤكد أن كلها مدن صينية تستظل بعلم واحد ، وبعمل وجهد واحد .. وبفرحة وحب وإعتزاز بالوطن الذى ليس لديه خياراً وفاقوساً فى تعامله ورعايته وعنايته بأبنائه جميعاً وأقاليمه كلها

وأخيراً

فالإنطباع المؤكد الذى يتركه لديك تأملك للشعب الصينى .. أنه شعب على عجل .. بكل المعانى .. بمعنى أنه شعب راكب للعجل أو للدراجات .. وأنه أيضا على عجل بمعنى أنه فى سباق مع الزمن ليتبوأ مكانته التى هو جدير بها فعلا كقوة مقبلة بجدارة لتحتل مكانها اللائق بها عالمياً ودولياً فى غضون سنوات قليلة قادمة ، وعلى الجميع أن يحسب لهذه القوة ، أو لهذا التنين المستيقظ النابه النشط ألف حساب وحساب !

الخطاب الثقافي

بقلم
د. صلاح قنصوه

لا ينبغي أن يتبرم البعض بعقد مؤتمر وزارة الثقافة الأخير، أو يسخط على جدول أعماله، أو قائمة مدعويه التي وضعتها لجنته التحضيرية. بل هو يجدر بالحمد والتقدير لأنه كان أولاً مساوقاً ومتجانساً مع الأمر الواقع لدعاوى المثقفين العرب والمصريين فيما يكتبونه ويذيعونه في الفضائيات.

وثانيا جرى إعداده على نحو طبيعي خلال شهرين . فلم يكن من المتوقع من المثقفين أن يغيروا من آرائهم المعروفة، ويعدلوا عنها إذا أمهلناهم متسعا أكثر من الوقت، فالنتيجة واحدة سواء في شهرين أو في عام.

ولم يكن من المستطاع أن يستوعب المؤتمر كل من له الحق في إعلان موقفه، وكان لابد من اختيار البعض دون الآخر فيما يسمى «بالقائمة القصيرة» short list لأن اللجنة التحضيرية مشكلة من بشر وليس من حاسبات الكترونية تصنف المثقفين، كما يصنع مكتب التنسيق للجامعات، وفقا لأعلى المجاميع .

ومن ثم فالدعوة لم تقم على حكم تقدير أو تقليل لجدارة أعضاء الطائفة الواسعة من المثقفين. وربما لو استبدل بعض أعضاء اللجنة بغيرهم لتغيرت قائمة المدعوين.

فالأمر كله طبيعي مقبول إذا اعتبرنا المشاركين عيّنة ممثلة لكل فصائل أصحاب الرأي، ولعل أمراً آخر مضافاً يرفع الحرج عن منظمي المؤتمر، وهو أنه عقد في ظل وضع عالمي ومحلي طارئ، لا يغيب عن فطنة القارئ، ويتطلب حساباً وتقديراً خاصاً.

إذن، فالمؤتمر مناسبة محمودة وضرورية لنرى أنفسنا على حقيقتها في مرآة صافية. والمرآة مستوية وسليمة من العيوب، إلا أن ذلك لا ينسحب على ما تعكسه من صور من يقف أمامها لأنها تكشف عن نقائصه أو مآثره.

مضمون الرأي

وقبل أن نتناول الصورة، علينا أن نتفق أولاً على الالتزام بشرط منهجي غاب كثيراً عن خطاباتنا الثقافية.

وهذا الشرط هو ما نعلّمه أبناءنا في الفلسفة والمنطق بأن نميز بين مضمون الرأي (أو الحكم) وبين نوايا صاحبه. وهو ما يعني استبعاد ما يسمى بالحجة

الشخصي . فينصرف الأول إلى موضوعية النتائج التي تترتب على صحة المضمون، بينما يقتصر الثاني على الحكم الأخلاقي لصاحب الرأي. وهذا هو ما لا يعنينا لأن النوايا الفردية أو الأغراض الذاتية لا تهم في التحليل الأخير، ولا تؤثر في مجرى الحوادث والوقائع التي يتوجه إليها الرأي . فهناك من المثقفين على سبيل المثال من يؤدي دوراً رائعاً في الهجوم على السلطة لرفع سعر بضاعته وتسويق نفسه عندما تفكر الدولة في إيلائه منصبا أو حظوة أو دوراً أو شهرة . بل إن بعض من يهاجمون الحكومة بشراسة قد يتفقون عمليا وتعاقديا على امتداد صحافتهم أو وسائل الإعلام التي ينتشرون فيها . أو يقدمون المقابل للشيكات والجوائز والأسفار التي تغدقها عليهم دول أخرى غير أوطانهم، إلا أنهم قد يكتبون أو يقولون كلاماً يستحق المناقشة، وأحياناً التقدير.

وهناك بطبيعة الحال من لايختار جمهوره المتلقي من هيئات السلطة، بل يعوّل فقط على جماهير البسطاء من المتدينين لكي تحيل موقع النجم أو الزعيم الذي يسوقهم (ولا أقول يقودهم) بدغدغة عواطفهم، وإثارة حماسهم المشبوب.

فليس المهم إذن نوايا أولئك أو هؤلاء، أو ما حققوه من مكاسب، وهي كثيرة جداً، بل المهم هو «ماذا» يقولون، وليس «لماذا» يقولون. فالمهم هو النتائج التي تعود على الناس من مضمون الكلام. فالنية أو الغرض أو السيرة الشخصية يجب ألا تشغلنا ونحن بصدد الشأن العام، الذي هو الساحة أو الحلبة التي يعمل فيها المثقفون ويتنافسون. والتاريخ العام، كما نعلم، مفعم بمثل هذه الأمور، فربما استهدفت النية لدى البعض شيئاً، إلا أن الحدث يتخطى هذه النية إلى واقع موضوعي يتجاوز أصحاب النوايا، وقد يعارضه أو يصادقه.

كيف تجدد الخطاب الثقافي ؟

ولنقف عند «تجديد الخطاب الثقافي» للتأمل والمناقشة، ماذا عسى أن يكون الخطاب الثقافي، وماذا نفهم من تجديده.

يلوح لي أن ما قصد بالخطاب الثقافي عنوان أو تسمية موجزة لما يشيع من سمات مشتركة، غالبة على مجمل خطابات المثقفين، ولا يعني جملة الأنشطة الثقافية ومجالاتها. فالمقصود إذن هو المثقفون وليس الثقافة لأنها المجموع الكلي والرصيد الكامل لكل الصور المرهفة المنعكسة على المرايا المصقولة لكل وسائل التعبير والابداع، وهذا إذا اجتزأنا من دلالتها العامة ما يستوعب أنشطة وزارات التعليم والاعلام والثقافة. وبالتالي ننصرف عن دلالة الثقافة العامة التي تضم كل ما يفرق الفاعليات الإنسانية عن الطبيعة والحيوان. والمثقف ليس صفة تضاف إلى الفرد بقدر ما هو دور يقوم به. وهو دور لايتحدد إلا في نطاق السياسة العامة للوطن من حيث اكتشافه للمشكلات الرئيسية لبلده، وتحديده لمعالمها وعناصرها، وأسلوب طرحها ووضعها، واقتراحاته بحلولها، وذلك بعيداً عما يخص مصلحته الذاتية أو المهنية ويقترن ذلك بنقده للأوضاع الراهنة، وتقديمه للبدائل عبر حوار مع غيره من المثقفين، ومع هيئات السلطة التي تقوم بتنفيذ برامج معينة.

فهذا هو دوره الذي يفقده إذا ما تحول، في نظم تداول السلطة، إلى منفذ لبرامج السلطة الجديدة، لأنه حينئذ غير مطالب بالنقد والاقتراح كما كان مطلوباً منه عندما كان مثقفاً. ولكنه يحتفظ بدوره دوما إذا ما نأى عن تقلد المناصب التي تهيمن عليها السلطة في أية مرحلة من

مراحل تداولها . ولا يعيبه قط أن يتولى منصبا، على شريطة أن يخرج مؤقتا من زمرة المثقفين إلى هيئة المتنفذين، ثم ما يلبث أن يخلي موقعه فيعود موفوراً إلى جماعة المثقفين.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال يستنكر ما أقول: وهل يفقد المثقف ثقافته أو يخلعها عنه عندما يتبوأ منصباً؟ طبعا لن يفقد ذلك الشخص «صفته» كمستنير واسع الاطلاع، ولكنه يتخلى عن دوره كمثقف.

ولمزيد من الإيضاح يلزمنا أن نذكّر بأن مصطلح «المثقف» intellectual مستحدث لدينا وليس أصلاً في تاريخنا لأنه مرتبط بازدهار الرأسمالية في الغرب، وغلبة المشروعات الحرة، وانحسار وظائف الدولة الليبرالية التي أدت إلى تداول السلطة وتعددية الأحزاب وفاعلية السلطة التشريعية البرلمانية، وأهمية أصوات الناخبين الفعلية. وقد أدى ذلك إلى ظهور فئة المثقفين التي لا تكسب خبزها فقط من وظائف الدولة. وهؤلاء هم الذين يكشفون للناخب أوجه القصور في برامج السلطة القائمة، ويقدمون البدائل ويثيرون الطريق أمام المواطن ليحسن اختياره، فلهم دور مستقل معترف به. وهذا ليس موجوداً عندنا على نحو كامل أو فاعل، فمعظم المؤسسات التي تخرّج ذوي الثقافة والاستنارة تابعة للدولة، بل هي أيضاً جهة عملهم وكسب عيشهم.

كما أن ترجمة المصطلح الأجنبي اقترن في اللغة العربية بالثقافة وهو ما أفضى إلى ذلك الالتباس. بينما في اللغات الأخرى أوصاف كثيرة لمن هو مستنير أو متحضر، أو واسع الاطلاع، أو ذو ثقافة عميقة بخلاف ما يقصدونه «بالمثقف» كدور وليس صفة. ولا ريب أن المثقف كدور لابد أن يكون من بين أدواته الاطلاع الواسع العميق فهذا شرط ضروري، ولكنه ليس شرطاً كافياً لتسميته مثقفا بالمعنى المقصود في بلد المنشأ.

غير أن ذلك لايحول دون أن يمارس من نطلق عليهم المثقفين عندنا دور المثقف الحقيقي ولكن دون أن يكون دوره كاملا. وهو ما نتبين آثاره السيئة في كثير من الشئون . فالمثقف لدينا يحاول جاهداً، في كثير من الأحيان، أن يقوم بدوره، غير أن طبيعة السلطة هي التي تعوقه عن أداء دوره على نحو غير منقوص. ولا أدل على ذلك من أن الكثير من النواب المنتخبين موظفون يتبعون الوزراء الذين عليهم - نظرياً - مراقبتهم واستجوابهم! وكان دستور ٢٣ يفرض استقالتهم قبل ترشيح أنفسهم. كما نجد أن معظم الصحفيين والكتاب معينون من الحكومة. كما أن أساتذة الجامعات يمكن نقلهم إلى وظائف في المصالح الحكومية المختلفة عند هبوب أية بادرة من رياح معارضة.

نعود ثانية إلى خطاب المثقفين الذي أطلق عليه المؤتمر «الخطاب الثقافي» فنتساءل هل يمكن تجميع أو حشد المثقفين حول خطاب واحد؟

يفترض هذا المطلب، الذي لاشك في نبل مقصده، أن المثقفين فئة متجانسة من الموظفين أو التكنوقراط المهيئين للتوجيه إلى تنفيذ برنامج أو خطة بعينها. وكأن هنالك جهة ما ، هيئة ما، قوة ما سياسة ، ما .. إلخ تهيمن عليهم ويعترفون مقدماً بأنهم خاضعون لها ولتوجهاتها واستراتيجيتها. ولعل صياغة التوصيات الختامية للمؤتمر تشي بذلك حيث توجهت معظمها إلى السلطات صاحبة الحق في النقض أو الابرام.

وأغلب الظن أن هذا ينبىء بأننا قد درجنا وألفنا استخدام المصطلحات التي سكّت في بلد المنشأ بمدلولات مختلفة،

ليس بابتكار دلالات أو إضافات جديدة، بل باستخدام المصطلح الوافد بديلاً عن مدلول متهالك قديم لمصطلح تراثى آخر نشأ ونشط فى سباق تاريخى مغاير عما يجرى الآن من سباق جديد لم يعد يطيق الانغلاق على نفسه فى حدود مكانية معينة، بعد أن اجتاحت العالم كله متغيرات فاعلة متفاعلة بعضها مع البعض الآخر، ويستحيل الفرار منها والاعتصام بنجوة، أو فجوة، أو ربوة عالية.

نحن إذن فى حاجة إلى العودة إلى البديهيات المنهجية لنعيد الصياغة، ونتفق على الدلالة، ليس لأننا أقل ذكاء من الآخرين، بل لأننا نتعامل مع المفهومات والآراء والمصطلحات كما نتعامل مع واجهة لمحل سلع استهلاكية ننتقى منها ما نشاء لنصطنعه حسبما يلائمنا ونرتاح إليه، فلا يكلفنا تبعه أو عنتا.

فإذا كان وجود المثقف مشروطا بدوره فى مجتمع تعددى يسمح بتداول السلطة والتأثير فى المواطنين - الناخبين، أى يعمل فى سباق موات لحرية العمل الحزبى، إذا كان الأمر كذلك، فكيف نناقش خطابه بين مجموعة من الانتماءات إلى نظم لاتسمح بهذا السياق؟ وهل يمكن أن نخرج من المنافسة أو الحوار باتفاق على شيء مشترك يمكن عمله؟

فلكى نؤثر فى الواقع علينا أن نواجهه، ولا نتعامل مع واقع مستعار موهوم يجمع أجزاء متفرقة متباينة فى كتلة هلامية.

بعبارة صريحة، هل يجمع المتحدثين بالعربية سياق واحد، وواقع واحد ومشكلات واحدة؟ فى مكان ما يتهم المطالب بالأحزاب بالخيانة (من تحزب خان)، وفى أماكن أخرى تكتلات برلمانية لاتعترف بالأحزاب، وفى معظم المواقع لاتصرح بالأحزاب، ولا يسمح بتداول السلطة.

كيف نوحد الخطاب بين المثقفين، وكيف يتم تجديده ونحن نواجه مشكلات مختلفة أشد الاختلاف؟

ثمة تعبير شهير ابتذل من كثرة الاستعمال، وهو «الفرار إلى الأمام» يصدق، مع الأسف، تماماً علينا. فنحن نفر من مواجهة الواقع الذى ينتسب إلى كل بلد على حدة لكي نركض بعيداً فى أوهام الوحدة والتماثل. فنجعل من الهدف الذى نتمناه في المستقبل البعيد شرط تحقيقه هو نفسه. وهذا هو ما يسمى بالدور المنطقي أو الدائرة الشريرة.

إذن علينا أن نبدأ بالواقع الراهن الذى نملكه ونسعى إلى أن نستطيل به، ونمتد بإمكانياته حتى تشتبك مع واقع الإخوة الآخرين، فربما صنعت عرى وثيقة تتطلب دعما وترسيخاً بفضل برامج المثقفين واقتراحاتهم، ومن قبل، انتقاداتهم.

الانتماء للوطن

لماذا نخجل من الاعتراف أو الحديث عن الوطن، لا أقصد ما يسمى بالوطن العربى فهذا هدف بعيد وليس واقعا نحياه بالفعل ويملك كل منا دوره فيه كمواطن كامل الأهلية.

إن الاعتراف بالانتماء للوطن يعصمنا من عمليات الإقصاء والاستبعاد، دينياً أو عرقياً. فالاكتفاء بالعربى يعنى إقصاء الكردى والتركمانى والنوبى والأمازيغي... الخ. ويستبعد الإسلامى أصحاب الديانات الأخرى من وطنهم ليصبحوا غرباء.

إن ما يطلبه المصرى من الاعتراف أو إعلان الانتماء لمصر وطنا هو عين ما يطلبه لغير المصرى بالانتماء لوطنه. لم يطالب المتحدثون بالألمانية فى ألمانيا والنمسا وسويسرا وشمال إيطاليا وشرق فرنسا بالوحدة الألمانية. ولم يطالب المتحدثون بالفرنسية فى فرنسا وبلچيكا

ولوكسمبورج وسويسرا بالوحدة الفرنسية، كما لم يطالب الماليزيون والإندونيسيون بالوحدة لاشتراكهم فى لغة واحدة، كما لم يطالب سكان أمريكا اللاتينية بالوحدة الإسبانية، ولا المتحدثون بالتركية فى آسيا الوسطى والصغرى بالانضمام إلى دولة واحدة... إلخ.

وربما يقال لنا تاريخ مشترك. والواقع أن هذا لم يحدث قط بل نشبت الحروب واستعر القتال وتوزع المتحدثون بالعربية بين الخلافات المتحاربة فى زمن واحد: العباسية فى بغداد، الأموية فى الأندلس، الفاطمية فى أفريقيا ومصر واليمن فضلاً عن الدويلات التى يستعصى على الحصر. ويكشف لنا التاريخ عن تعدد السلطات بين الخليج والمحيط. وإذا كان ثمة وحدة فهى وحدة الأسرة الحاكمة وآخرها بنى عثمان، واستدرك، عفواً، ليست آخرها. ولقد سميت الأقاليم والبلدان باسم العائلة التى ملكت كل شيء. ولم يكن ثمة أوطان أو وطن واحد، بل أسرة حاكمة ورعايا. هذا هو التاريخ الفعلى. وعلينا أن نتذكره، كما ينبغى أن نعترف بأن لنا الآن أوطانا تجدر بالولاء لها وحل مشاكلها إن الوحدة المنشودة والمتاحة التى تزداد وثاقة وشمولا هى الثقافة المشتركة، وليس هناك ما يدعو إلى القلق بشأنها أو الخشية عليها.

وعلينا أن نؤكدها وننميها ولكن دون انفاق الجهد الضائع لإقامة وحدة سياسية.

والوطن، كما نعلم، مفهوم حديث، إلا إذا استثنينا مصر فهى أول دولة مركزية فى التاريخ. وقد نشأ الوطن مع الرأسمالية التى كان من مصلحتها إقامة الدولة القومية المكتفية بذاتها، والمنافسة لغيرها.

والوطن ليس مجرد بقعة جغرافية، بل هو محل لإقامة المواطنين (وليس الرعايا) الذين يتمتعون بحق المشاركة الحرة فى اتخاذ القرارات لحل المشكلات عبر الحوار والانتخابات.

أحلام اليقظة

لماذا لاتوضع أمام كل مشترك فى المؤتمر لافتة تحدد وطنه الذى يقيم فيه، وتكتب جنسيته إذا كان طريداً من وطنه؟ فهنا يكون الحوار مثمراً وحقيقياً بدلاً من الضباب الكثيف الذى يغلف الحضور، ويوهم بالوحدة والتماثل. ويتوجب علينا أن نستبدل بأحلام اليقظة مناقشة البرامج الفعلية والإمكانات الحقيقية المتاحة لخروج كل وطن من أزمته الخاصة. ورغم أننا نتحدث كثيراً عن الخصوصية والهوية إلا أننا نذروها عمليا فى الهواء الذى تخنقه الشبورة.

ولا يفوتنى هنا أن أطمئن المثقف العربى الراهن على نجوميته واتساع جمهور معجبيه. فلن يخسر نجوميته التى يستثمرها على امتداد جماهير الأوطان العربية لأن قراء مجلداته، ومستمعى ندواته، ومشاهدى فضائياته سيظلون مفتونين بتنديده لكل السلطات العربية وأشعار هجائه للغرب والامبريالية والصليبية.. إلخ.

بيد أنه يحسن صنعاً إذا ما حاول أن يستكشف مشكلات وطنه الحقيقية، وقدم لها الحلول عوضاً عن الندب والشجب!

أما ما يشغلنى حقاً ويثير حنقى فهو ما يطلق عليه «تجديد الخطاب الدينى» ولنسأل بادىء ذى بدء هل هناك خطاب دينى للمثقف؟

إن خطاب المثقف هو البيان أو المانيفستو الذى ارتضاه لمساهمته فى تسيير شئون الوطن بمنأى عن وضعه الشخصى كمهنى أو صاحب مصلحة، أو سليل عرق معين، أو مؤمن بدين بعينه. أى فقط بوصفه مواطنا مهموماً بالشأن العام الذى يشارك فيه الجميع بحصص متساوية. فعندئذ تتعين محاور التصنيف بين المثقفين على أساس الموقف الخاص المختار من قضايا الوطن المشتركة بين

الجميع على قدم المساواة.

أما إذا أدرجنا ما يسمى بالخطاب الدينى فى معالجة الشأن العام، فقد فرضنا محور تصنيف مختلفا لا يصلح للتمييز بين المثقفين، وبهذا نكون قد فرقنا بين المواطنين بحسب حظوظهم من البعد أو القرب من نقطة بدء السباق بل الأخطر من هذا هو ما يؤدى إليه من حظر واستبعاد لبعض المواطنين وحرمانهم من حق المشاركة في الحوار فيما يهمهم من شئون وطنهم الواحد الذي ينتمون إليه بنفس القدر من الامتيازات أو التبعات على السواء.

ولا يعنى هذا استبعاد الدين «ووضعه على الرف» كما يروق للبعض عندما يملأ فمه وتنتفخ أوداجه، بل يعني أن يواصل الدين تأثيره وهيمنته على المؤمن إذا ما استفتاه دوما فى كل شئون حياته بوصفه فرداً يحاسبه الله تعالى فى اليوم الآخر، يثيبه أو يعاقبه، أو يغفر له. كما لا يعنى ذلك التقليل من شأن الدين بتحويله إلى نصوص تماثل في مكانتها أية نصوص قانونية أو قواعد عملية نعلم جميعا كيف نشأت وتطورت وتبدلت دون وصاية خاصة أو حصانة.

وتسفر العبارة الاستنكارية «وضع الدين على الرف» عن تصور معيب للدين والإيمان لأن الدين فى نظر هؤلاء المستنكرين سيكف عن نفوذه لو لم تقم على إعماله وتنفيذه أجهزة سياسية ذات سلطة شاملة. فهذه نظرة إدارية غليظة تجعل من الدين لائحة بالأوامر والنواهى ينصاع لها المؤمن وغير المؤمن فى ظل نظم رقابية يخشى المواطن بطشها، وقد يلتمس القربى والجائزة من القائمين عليها لأنهم وحدهم المفوضون بإجراء الثواب والعقاب.

ويتحدث أصحابنا عن «المرجعية» التى الإيمان فى نظرهم. ولكن أليس هو الذى وقر فى القلب والضمير، ولا يمكن شق قلوب المواطنين وتفتيش ضمائرهم سياسيا للكشف عنه؟ ولا أحسب أن هناك وسيلة عملية أو دستورية لتطبيق ذلك الكشف عن «المرجعية»، وجعله شرطاً مسبقاً لازماً من شروط حق الانتخاب أو الترشيح، اللهم إلا إذا اعتمدنا التقارير والوشايات والبلاغات الوسيلة المثلى لإقصاء البعض أو حرمانهم من حقوقهم السياسية.

ولابد من الاعتراف بأن أصحاب هذا التوجه يلقون ترحيباً هائلاً ساحقاً من القاعدة العريضة من الجماهير. وربما كان ذلك المبرر لخشية بعض الأنظمة من الاحتكام إلى صناديق الاقتراع.

غير أن هذه الأنظمة نفسها هى التى ساهمت عمداً، أو غباءً فى تشكيل هذا الجيش الاحتياطى الذى ينتظر القادة «ذوى الأيدى المتوضأة» كما يصفون أنفسهم في الدعاية الانتخابية. ساهمت فى تكاثرهم عندما حاصرت التعليم، والاعلام داخل دائرة التلقين والتبرير. وحظرت على المواطنين التدرب والمران على أساليب الحوار والمعارضة والمصارحة، فأصبحت الجماهير فريسة سهلة لغزو، أو حشو أدمغتهم التى سبق أن أفرغها التعليم والاعلام من كل قدرة على التصدى والمواجهة واستقلال الرأى.

وتهب علينا الآن صيحات «تجديد الخطاب الدينى» التى أظن أنها لاتعنى فى نهاية الأمر سوى تطويع الدين لأهداف سابقة التجهيز.

إن الطريق الحقيقي يبدأ من الخروج من «نادي الخطاب الثقافى» ليمضى إلى ميدان الوطن. وهو طريق ذو اتجاهين؛ من الجماهير والمثقفين إلى السلطة، ومن السلطة إلى الجماهير حيث يلتقيان فيما اتفقا عليه معا من ثنايا الحوار، رغم تعدد الاجتهادات، في خدمة وطن واحد مشترك، مفتوح على العروبة والإنسانية. ■



د. جابر عصفور



عبد المعطى حجازى



د. محمود حمدى زقزوق

مؤتمر الثقافة العربية

هل هو مجرد إعلان نوايا أم بعث روح المقاومة؟؟

إعلان القاهرة الثقافى استعراض لمطالب قديمة تخلو من التجديد !!

أمانى عبد الحميد

لماذا كل هذا الضجيج والاعتراض والتشكيك، فقد خيم على المشهد الثقافى طوال الشهر الماضى حالات من القلق والتوتر. واعتصرته موجات من الاتهامات لم تترك رمزا من الرموز إلا وأصابته. ومن جديد تعالت أصوات - خفتت منذ فترة - تتوعد بالخطر والدمار وتتهم المعارضين لها بالارتداد والجنون. حتى بدت أجواء القاهرة فى أعقاب ختام مؤتمر الثقافة العربية كئيبة وخانقة تغلفها غيوم التشاؤم والانكسار. ورغم نجاح المؤتمر فى بعث رسالة مقاومة تعيد للمثقف العربى دوره الذى طالما همشته الأنظمة العربية. وقدرته على أن يكون فاعلا فى مواجهة نكبات الواقع المرير. إلا أن المؤتمر وإعلانه ألقى حجرا ضخما فى المياه الراكدة ليصبح لها موج صاخب عات، أخرج مافى باطنها من أحقاد ومخاوف وأفكار مهلهلة قديمة.

انفض مؤتمر الثقافة العربية الذى حمل عنوان «نحو خطاب ثقافى عربى جديد .. من تحديات الحاضر إلى آفاق المستقبل» بعد ثلاثة أيام بدأت فى الأول من يوليو الماضى جدلا واسعا بين أكثر من مئة باحث ومثقف مصرى وعربى من مختلف التيارات.

كان الهدف المطلوب من المؤتمر والمؤتمرين أن يحاولوا التوصل إلى صياغة مشروع ثقافى حضارى

• د. عصفور: «المثقفون استغرقوا في نقد الذات وتناسوا استشراف المستقبل».

عربى مستقبلى. يمكن الأمة العربية من مواجهة التحديات التى تعتصرها فى ظل صدمة الاحتلال الأمريكى للعراق، وتدهور الأوضاع داخل الأراضى الفلسطينية المحتلة. وانتهت فعاليات المؤتمر دون أن تنتهى ردود أفعاله. بل ظلت متواصلة مشتعلة لا تهدأ فأيام المؤتمر الثلاثة لم تكن تكفى لوضع آليات المشروع الثقافى ولا لصياغة خطاب ثقافى وآخر دينى جديدين. كما أن حرارة الجدال والمناقشات داخل قاعات المجلس الأعلى للثقافة دفعت كثيرا من المتشككين ومحبى الإثارة من الخارج إلى إيجاد الفرصة السانحة لاشعال الحرائق وتراشق الاتهامات القديمة بالخيانة والعمالة والكفر والجنون. والدخول فى دائرة مفرغة تبعدنا عن الهدف الأساسى الذى ينبغى لكل مثقف ومواطن عربى أن يسعى إليه.

إعلان القاهرة

وقد أصدر المؤتمر بيانه الختامى الذى أسماه «إعلان القاهرة الثقافى» يحوى تسعة بنود بالغة الأهمية كخطوة أولى نحو مشروع ثقافى أكبر ولكن الأهم الوقوف عندها وعدم مواصلة المسيرة وبقائها حبرا على ورق. طالب الإعلان بضرورة المحافظة على وحدة الثقافة العربية، والاستقلال الوطنى والقومى لكل الأقطار العربية، والدفاع عن حق الشعب الفلسطينى وتحرير

أرضه المحتلة، وندد بالاحتلال الأمريكي العسكرى للعراق . تلك كانت أولى بنود الإعلان الثقافي، جاءت في مستهله تأكيدا على أن المؤتمر عقد ليتحاور فيه المثقفون العرب حول كارثة الغزو الأمريكي للعراق ، وليواجهوا المخاطر والتحديات المترتبة على ذلك والتى تهدد الأمة العربية وتجعلها عرضة للهيمنة والسيطرة بجميع أشكالها السياسية والعسكرية والثقافية .

وطالب المشاركون فى المؤتمر الأنظمة العربية بمطالب صريحة بالغاء الأوضاع العرفية وحالة الطوارئ التى تحاصر الحريات العامة مثل حرية الرأى والفكر والمعتقد والابداع الأدبى والفنى، كذلك طالبوا بضرورة تحديث النظم السياسية بما يجعلها نظما دستورية تعطى الشعوب حق الرفض والقبول . كما طالبوا بتطوير التعليم العام والجامعى ومحو الأمية ، وخلق وعى قومى يحافظ على الوحدة الوطنية والقومية .

وتلك مطالب قديمة لكل مثقف ومفكر عربى يعيش داخل أمتنا ويلمس بسهولة ووضوح مدى التردى الذى وصلت إليه الأحوال داخل النظم التعليمية واستشراء التسطيح الثقافى وغياب الوعى والإدراك عند الكثيرين. كما أن المطالبة بإلغاء الأوضاع العرفية خطوة جادة يحلم بها مواطنو دول عربية عدة . هاجر كثير منها هربا من قيودها ولكنها أحلام أيضا قديمة تنتظر منذ فترة طويلة تحقيقها على أرض الواقع .

ثم جاءت باقى بنود الإعلان لتستكمل مطالب المثقفين العرب بضرورة تحسين الأوضاع الاجتماعية والثقافية التى من شأنها أن تنتج خطابا دينيا متطورا منفتحا على العصر . يتجاوز الخطاب الدينى المتزمت . وبضرورة التمسك بهوية الأمة العربية فى مقابل رفض دعوات الانعزال عن العالم أو مناصبته العداء، كما طالب السلطات بتأمين وصول الثقافة إلى المجتمع كله والارتقاء بالوعى الثقافى المجتمعى . ونادوا جميع المثقفين العرب بالخروج عن الصمت وتحدى القمع والتهميش . واختتم المثقفون مطالبهم بضرورة تشكيل لجنة لمتابعة نتائج الحوار وتوسيعه أملا فى تحقيقه وتطبيقه بشكل كلى أو نسبى .

وبعد استعراض بنود إعلان القاهرة الثقافى كيف يمكن لنا توصيفه . فهل هو مجرد إعلان نوايا كما يرى د . جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة . هل هو بعث جديد لروح المقاومة لدى المثقفين العرب؟ أم أن الأمر انتهى بانتهاء أيام المؤتمر وعادت كل الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، صامتة، عادية، تعانى من الاكتئاب وترزح تحت شعور بالهزيمة والصدمة .

يبدو أن ما أحدثه انعقاد المؤتر فى ظل الظروف القاسية التى تعيشها الأمة العربية من تأثير واسع وأعقبته ردود أفعال عنيفة سواء بالتأييد أو الرفض، يجعل أيامه لا تمر مرور الكرام .

أولا المؤتمر نجح فى مواجهة ما أسماه «د. عصفور» «بمثلث الرعب» أضلاعه تتمثل فى الرفض التام للهيمنة الأمريكية بجميع أشكالها .

ومواجهة فساد الأنظمة السياسية العربية وذلك عن طريق المطالبة الصريحة باطلاق الحريات العامة . كما خاض المؤتمر معركة حامية ضد «العناصر الثقافية الجامدة والخطاب الدينى

المتعصب والمتطرف» كما يرى «د . عصفور».

ولكن هل مواجهة «مثلث الرعب» تكفى لتشكيل خطاب ثقافى نهضوى جديد.. يؤكد د . عصفور أن إعلان القاهرة الثقافى مجرد «إعلان نوايا» فقط وأنه لبنة أولى فى سبيل طريق طويل ملئ بالعوائق والصعوبات . ويحتاج إلى عمل متواصل تقوم به أجيال متعاقبة . حتى نستطيع أن نشكل خطابا جديدا سواء أكان ثقافيا أم دينيا .

وبنظرة قريبة لفاعليات المؤتمر توقفنا عند محورين مهمين ثار حولهما الجدل والخلاف والاعتراضات .

نقد الخطاب الثقافى العربى

عندما نتحدث عن الخطاب الثقافى فعلينا أن نفكر فى نواقصه ونحلله ونقف عند تناقضاته . خاصة وأنه أصبح من الصعب تجاوزها وفك التعارض بينها .

وداخل قاعة «الآداب» دارت مناقشات المائدة المستديرة التى شارك فيها ما يقرب من ١٧ باحثا ومفكرا عربيا ومصريا . للوقوف على نواقص الخطاب الثقافى الراهن ومحاولة الوصول إلى خطاب جديد يفك جوانب التعارض القديمة . جاءت أغلب الأصوات الحاضرة معارضة فى الأساس لفكرة تشكيل خطاب جديد . حيث اتفق أغلب المشاركين أن بحث تلك الاشكالية يتطلب أكثر من مائدة مستدير داخل مؤتمر . وإن اتفقوا على ضرورة الخروج من دائرة ثقافة التعميم

والمضى نحو التنوير والاستنارة. فنجد المفكر اللبنانى كريم مروه يرى أن التحدث عن تجديد الخطاب الثقافى يدفعنا نحو كل ماهو شمولى وكلى وأحادى ويحدد أن ما نحتاجه هو القيام

• المؤتمر واجه الهيمنة الأمريكية، وفساد الأنظمة العربية.

بثورة ثقافية تعيد صياغة المفاهيم وطرق تفكيرنا وحياتنا . كما نادى بعضهم بالاتجاه نحو الجماهير العادية ودراسة مرجعية الثقافة الشعبية، أيضا يرى الدكتور كلوفيس مقصود أن الجماهير الشعبية تمتلك الوعى أحيانا أكثر من النخبة المثقفة. واتفق الجميع على أن مفهوم «الجده» أو الخطاب الجديد يعنى الهدم والتخلص من القديم وهذا غير مطلوب. ويدافع هنا د. «جابر عصفور» عن الخطاب الجديد بقوله أنه لايعنى التخلص من كل ماهو قديم «فالجده لاتعنى الالغاء الكامل للقديم» إنما تعنى «البدء من عناصر موجبة تكون قوة دافعة للأمام حتى يتأسس بذلك سياق يتناسب مع الواقع المعقد الذى نعيشه» ورغم ذلك انتهى الوقت المخصص للمناقشات ولم تنته جملة الاعتراضات والتساؤلات حول ماهية هذا الخطاب وما حقيقة جدته وإلى من يتوجه؟ فهل هو خطاب للنخبة المثقفة؟ أم: إنه خطاب السلطة السياسية؟ أم خطاب جماهيرى مفترح يلمسه رجل الشارع العادى؟

تجديد الخطاب الدينى

أشارت مناقشات المائدة المستديرة التى حملت عنوان «تجديد الخطاب الدينى» تحفظات واعتراض الكثيرين من ممثلى التيار الإسلامى خاصة الذين لم يحضروها، اتفق المشاركون فيها - والتى أدارها الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف - على ضرورة تحديد المقصود بمصطلح تجديد الفكر

الديني أحد محاور المؤتمر. فالشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي يطالب بخطاب ديني جديد ينافس بديله الشائع والمشكك في كل ما تحقق خلال القرنين الماضيين من استقلال، ودولة وطنية، وعلم، ودستور، وأدب، وديمقراطية، وحرية.. ويعتقد جمال البنا أن التجديد وحده لايكفي بل التغيير مطلوب أيضا خاصة مع سيطرة الجذور التراثية الوثنية على نفوس وتفكير البشر. ويحمل العفيف الأخضر التعليم الديني والاعلام مسئولية تخويف وإرهاب الشعوب العربية تجاه الحداثة وقبول الأفكار الغربية. أما الدكتور حسن حنفي فشدد على ضرورة تجديد اللغة والبعد عن غلق الدين على ذاته بعيداً عن حياة الناس والمجتمع . وتحرير الفرد من الخوف وتوحيد الأمة. وإن أكد فيصل دراج أن الحديث عن الاصلاح الديني لا معنى له دون الإشارة إلى دور الاصلاح السياسي والثقافي.

وعن ردود الأفعال العنيفة التي لاحقت مناقشات الندوة أوضح د.«عصفور» «أننا مجتمع فيه أناس عندما تقترب المناقشات من الدين يتهمون من قام بها بالكفر».

ويؤكد أن من يقود حملات التكفير والارتداد هم «سدنة التطرف والتعصب الديني في مصر». بل يرى أن ردود الأفعال السلبية والعنيفة ماهي إلا علامة مبشرة وصحيحة «لأنها تؤكد على نجاح المؤتمر في إحداث هزات قوية ضد جميع القوى المتخشبة».. مدافعاً عن المؤتمر ويصفه بأنه أحدث أثرا قويا لم يحدثه مؤتمر ثقافي من قبل.. مشيرا إلى أن «إشعال شمعة أفضل من أن نلعن الظلام» ومؤكداً أن اجتماع المثقفين هو السبيل الوحيد «لخلق خرائط عقلية جديدة وقوة دافعة للتفكير الحر».

***

وانتهت أيام المؤتمر الثلاثة دون أن يتم تحديد كثير من نقاط الخلاف كما بدأت . أهمها عدم التحديد الدقيق للمحاور الرئيسية واستخدام مفردات وعبارات مطاطة لاتنم عن مفاهيم محددة تفتح المجال أمام التأويل، والتكهن بالمقصود بها. كما فشل المؤتمر في بحث آفاق المستقبل الذي عُقد من أجلها. وشهدت قاعاته مناقشات استغرق فيها المثقفون نقد الذات واسترجاع ويلات الماضي والحاضر متناسين أو غافلين عما يجب أن نستشرف به المستقبل كما يرى د.«عصفور». حتى أن الإعلان الختامي أيضا لم يقدم الجديد وواصل دعوات طالما طالب بها مثقفي الوطن العربي. رغم أنه أعلن بشجاعة عن تلك المطالب وهاجم المؤسسات التي لم تكن تُمس من قبل - المؤسسة الدينية العتيقة، والأنظمة السياسية غير الدستورية التي تعصف بالحريات بعضها جميعها. أي أن المؤتمر وإعلانه الختامي جاء بكل ما ردد وطالب به المثقفون طوال قرنين من الزمان منذ أيام جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما من المفكرين والمجددين. ولم يضف شيئاً جديدا سوى اللقاء بين المثقفين العرب المتجدد دوماً وسط أجواء من الاكتئاب والكآبة الفكرية والنظرة التشاؤمية. لكن د. جابر عصفور يؤكد أن المؤتمر فتح بارقة الأمل وأشعل الرغبة في الواقع المرير. فلماذا كل هذه الضجة والاعتراض والتشكيك، والمؤتمر لم يخرج سوى بمجموعة من المطالب والمبادىء القديمة أملا في أن يأتي اليوم الذي يستطيع المثقفون العرب تكوين خطاب ثقافي جديد!! ■



بردة النبي .. الدين والسياسة في إيران

المؤلف: روي متحدة
المترجم: رضوان السيد
الناشر: المشروع القومي للترجمة .. المجلس الأعلى للثقافة

«على هاشمي» اسم غير حقيقي لشخص حقيقي .. هو أحد رجال الدين في إيران عاش متأملا حياة الإيرانيين ووصفها بصدق، خلال محاورات قام بها الكاتب معه ومع غيره ممن درسوا نصوص الشيوخ والأئمة في المدارس التقليدية سواء في إيران أو العراق، ويقدم قراءة تفصيلية لتاريخ الثقافة الإيرانية من خلال نص سردي شيق. يحكي برؤية هادئة ليبرالية تبتعد في كثير من المواقف عن الصورة النمطية لرجل دين من مدينة «قم» المقدسة حيث ينحدر ساداتها إلى صلب النبي «محمد» والتي تضم الحوزات العلمية التي تلقن العلم الشيعي التقليدي فيها.

يصفه الكاتب في مقدمته بأنه أستاذ في جامعة طهران، انصرف عن صحبة الملالي وآيات الله بعد أن أمضى سنوات طويلة معهم ودراسة نصوصهم، مفضلا «تحصيل دراسة علمانية. رغم أنه طوال حياته في «قم» كان يلبس العمامة الخضراء التي تميزه بلونها بوصفه سيدا من آل البيت.

يسرد الكتاب حياة الطالب المبجل داخل فصول الدراسة وطلب العلم، ويناقش دور دروس الفلسفة الإسلامية وفلاسفتها في إثراء الفكر الشيعي الديني، ويرصد تزايد اهتمامه بالتصوف منذ بلوغه السادسة عشرة من عمره، كوسيلة لفتح الطريق أمام معرفة أمور تبدل في وجود المرء، ويكشف عن تجربته الدراسية في مدينة «النجف» العراقية وهي القاعدة الوحيدة للتعليم الشيعي المنافسة لمدينة «قم» حيث التقى بآيات الله الخميني، وأنه اكتشف في خلال علاقته .. أن الملالي حصلوا أخيرا على قائد سياسي.

ويشرح الحياة بمختلف مظاهرها داخل إيران إبان حكم الشاه، ويكشف عن المشكلات والمظالم والاستغلال والفساد السياسي الذي رزحت تحت وطأته البلاد.

وإن كانت الخاتمة تكشف عن الصدمة التي أصابت الإيرانيين بمختلف اتجاهاتهم برغم مرور مايزيد عن ست سنوات على قيام الثورة الإسلامية فالصورة البطولية للمتحمس والمضحي اكتشفوا أنها كانت دورا ملحميا أو مجرد وضع استعراضي لم يعد بمقدورهم الحفاظ عليه، فالواقع مالبث أن علمهم شيئا آخر، وينتقد مدينة «قم» التي بقيت الدراسة الشيعية داخلها دون تغيير برغم نمو عدد المقبلين عليها في مقابل تناقص عدد الأكفاء والجادين. وفي النهاية يأمل «على هاشمي» أن يكون هو «المجدد» حتى يتحقق الحديث النبوي «إن صورة أبناء عائلتي كصورة سفينة نوح من يدخلها سينجو ومن يخاف دخولها



٣ ديسمبر ١٩٩٧

سيهلك ويغرق».

وإن كان أهم ما يكشفه الكتاب هى حقيقة المكانة التى يحتلها رجل الدين الإيرانى، ويوضح عن قرب تفاصيل حياته ونشأته والمناهج المتبعة لتنمية ثقافته وعلمه الدينى وسلطته (الملا والشيخ الشعبى والمرجع وآية الله) كل ذلك فى سياق اجتماعى وروحى سواء قبل الثورة الإيرانية أو بعدها. ليتبدى للقارىء من بعد قراءة الكتاب حقيقة السياق السياسى والدينى والثقافى الذى تعيش من خلاله إيران على مر العصور.



يوميات الكاريكاتير فى قضية فلسطين ١٩٩٧ - ٢٠٠٢
رسوم: أحمد طوغان
الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

«رسوم ليست ضحكا فحسب، ولا هى من قبيل المسخرة والهزء بالعدو، إنما هى عمل من أعمال المقاومة المجيدة. وليست مجرد ألبوم يضم صورا للذكرى أو للتاريخ إنما هى بذور لتخصيب روح المقاومة مجموعة بين دفتى كتاب ..» كلمات كتبها الروائى خيرى شلبى ليقدم بها رسوم أحد أهم رسامى الكاريكاتير فى مصر خلال القرن العشرين، أحمد طوغان فنان مرهف الحس بالنية الخفية للمجتمع وبملامح الشخصية الموغلة فى القدم، وعلى دراية كاملة بالمعترك السياسى ومتطلبات الوطن من حرية واستقلال وعزة هكذا كانت رسوماته تخرج على صفحات الصحف المصرية منذ الأربعينات لتعبر بقوة وتسرد تاريخ مصر المعاصر ومن خلال كتبه السابقة التى يصل عددها إلى عشرة مجلدات سنجد اهتمامه بقضايا التحرر الوطنى وفضح الفساد السياسى والاجتماعى والقضايا القومية والوحدة العربية، والكتاب الحادى عشر الذى بين أيدينا يقدم مجموعة رسومات ترصد المقاومة الفلسطينية الباسلة، لكنه يقتطع شريحة زمنية تتعلق بالانتفاضة الحجرية بداية من عام ١٩٩٧ وحتى ٢٠٠٢. وسنرى أن جميع رسوماته ماهى إلا يوميات لتلك الانتفاضة المجيدة يتوحد معها الفنان ويواكبها

لتخرج رسوماته كالقنابل التي تنفذ إلى قلب العدو ، ولم يكتف الكتاب بعرض يوميات الانتفاضة فقط، بل تعمق في الأحوال المتردية للأمة العربية ككل بجرأة متناهية.

فتناول عددا من القضايا الشائكة مثل الأوضاع داخل العراق وعمليات التفتيش على أسلحة الدمار الشامل، واتفاقيات السلام والانتخابات الإسرائيلية، احتلال الجنوب اللبناني، التطبيع العربي مع إسرائيل.



ثورة يوليو إيجابياتها وسلبياتها بعد نصف قرن
المؤلف: د.رؤوف عباس
الناشر: دار الهلال

مع استمرار وجود الاحتلال البريطاني وانتشار الفساد السياسي، ومع استمرار هيمنة الأجانب على الاقتصاد المصري ماعرف بالامتيازات الأجنبية واحتكار كبار الملاك الزراعيين لباقي البنية الاقتصادية كان لابد من انبعاث تيارات سياسية جديدة يقودها شباب يقدمون النموذج الأمثل لتحرير مصر من قبضة الاحتلال والفساد والاستغلال .

جاءت ثورة ٢٣ يوليو لتحقق المطالب الأساسية للحركة الوطنية المصرية في مختلف أبعادها السياسية والاقتصادية.

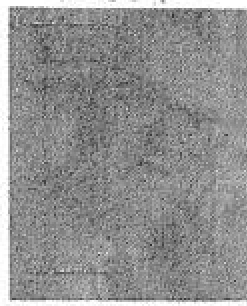
وفي الكتاب يقدم د.عباس خطابا جديدا للشباب يضم رؤية موضوعية عن أهم محطات مسيرة الثورة، ويطرح دراسة نقدية (مالها وما عليها) فيتناول المغزى من القيام بالثورة، والأوضاع التي قادت إلى قيامها. فيؤكد أنها جاءت في نهاية طريق طويل من الكفاح والنضال. كما يلقي الضوء على حقيقة الضباط الأحرار وتنظيمهم من خلال دراسة أحوال الجيش المصري أول الجيوش الحديثة التي تكونت في المنطقة العربية والحروب التي خاضها مثل الحرب العالمية الثانية حتى ظهور تنظيم الضباط الأحرار كتنظيم عنقودي باغت النظام الملكي الحاكم بثورته في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

يستعرض الكتاب الوثائق البريطانية التي كانت تعكس حالة القلق من الأوضاع الداخلية في مصر، وهي عبارة عن وثائق ومراسلات رسمية ترصد الواقع المصري سياسيا واقتصاديا من خلال تقارير دورية ترتكز على حالة عدم الاستقرار التي سادت منذ إقالة حكومة الوفد عشية حريق القاهرة.

وتتوالى الأحداث .. خروج الملك، محاولات التخلص من الاحتلال البريطاني، العدوان الثلاثي، حركات التحرر والقومية العربية، تحرر أفريقيا.

ويختتم د.عباس كتابه بالحديث عن الثورة وآفاق المستقبل، ويحاول أن يجيب عن التساؤل الذي طرحه في بداية الكتاب «ماتبقى من الثورة؟» في ظل نظام عالمي جديد وهيمنة أمريكية قبيحة الوجه، ليؤكد أن التاريخ لايتكرر والماضي لايعود لكن الذي يبقى هو ذاكرة الأمة ومحصلة تجاربها لتستلهم منها الأجيال المتعاقبة بما يحدد خطاها على طريق المستقبل.

كريم مروة يتذكر



كريم مروة يتذكر.. في ما يشبه السيرة

حاوره صقر أبو فخر

إصدار دار المدى طبعة ٢٠٠٢

«إنها تجربة مناضل عتيق .. شيوعي حتى النخاع. يسرد تفاصيلها حوار ليس بسيرة ذاتية .. وليس تأريخا للحقبة الماضية رغم أنه يحفل بالكثير من الأحداث وليس سجالا فكريا حول قضايا كانت ولاتزال موضع للجدل الدائم .. إنه كتاب من نوع خاص تمتزج فيه وتتداخل هذه الأمور كلها. وهو أقرب إلى القراءة النقدية لحقبة بكاملها هي حقبة نصف قرن في تاريخنا. «كلمات في كتاب لصقر أبوفخر حاور فيه كريم مروة المناضل والسياسي والمفكر اللبناني الكبير ليقدم للقارىء العربي خلاصة خمسين عاما.

وعن رحلته الطويلة التي اجتازها في مسالك النضال السياسي والاجتماعي وفي حقول الثقافة والفكر. كان يحلم خلالها بالعدالة للجميع، وبالحرية للأفراد، وبالديمقراطية للمجتمعات وبالتحرر للأوطان كلها.

يبدأ الحوار من عالم الطفولة. قضاها في منزل والده الشيخ أحمد مروة أحد وجهاء الجنوب اللبناني، ويحكي عن المؤثرات التي أسهمت في تكوين وعيه السياسي والتحولات التي طرأت على شخصيته، وأصبح بعدها عضوا في الحزب الشيوعي حتى ترقى داخله يتولى منصب نائب الأمين العام إلى أن يعتزل العمل السياسي في عام ١٩٩٩، يسرد «مروة» عن تجاربه مع مجلس السلم العالمي. وعلاقاته بالنضال التحرري لشعوب العالم.. وعن الشيوعيين العرب وعلاقة ذلك بالوحدة بين مصر وسوريا وشخصية جمال عبدالناصر ويبحث في النسيج السياسي اللبناني وعلاقاته وتحالفاته ورجال الحكم والسلطة والزعامة مثل كمال جنبلاط، رشيد كرامي، ريمون راده.

يتنقل بين عدد من القضايا الشائكة مثل المقاومة الفلسطينية للاحتلال وبداياتها وتطورها وحتى الانتفاضة الفلسطينية.

ومثل الحرب الأهلية اللبنانية وشرارتها الأولى وخفاياها وشخوصها وحتى خفوتها بعد سنوات مريرة. ويكشف بعض أسرار وخفايا العمل السياسي داخل الحزب الشيوعي اللبناني مثل حقيقة دعاوى التجديد والتطوير وأوضاعه المالية. علاوة على استعراض وجهات نظره في قضايا العولمة، والإعلام خاصة الإعلام الحزبي، وعالم الثقافة والمثقفين وعالم الكتابة والقراءة والسفر.

وينهي كتابه بنقد للذات وللمواقف التي ينظر إليها بعد سنوات على إنها أخطاء فادحة، يتحمل مسئوليتها بشكل شخصي أو شارك في تحملها مع زملاء ورفاق الطريق الطويل.



أبو همام شاعرا
تأليف: أحمد سيد شرقاوي
مكتبة النصر بجامعة القاهرة

يصدر هذا الكتاب عن الجانب الشعرى عند د. عبداللطيف عبدالحليم «أبو همام» الذى تتعدد اهتماماته من بحث علمي ونقد أدبى وترجمة عن الأسبانية ولكن مؤلف الكتاب اختار أن يقصر بحثه على شعر أبى همام باعتباره أحد الأصوات المتميزة فى ساحة الشعر.

وفى المقدمة التى صدرت الكتاب للدكتور الطاهر أحمد مكى يرى إن أشعار أبى همام صدى لداخله فى مختلف أطواره بدءاً بديوانه الأول الخوف من المطر وانتهاء بأخرها زهرة النار ومرورا بدواوينه الأخرى «لزوميات» «ومقام المسرح وهدير الصمت» وأغانى العاشق الأندلسي ومن خلالها كلها تستطيع أن تؤرخ له روحا ووجدانا فأصدق الشعر ما جاء تأريخا لحياة صاحبه على حد تعبير د. مكى.

يقع الكتاب فى أربعة فصول بخلاف مقدمة د. مكى والسيرة الذاتية للشاعر والفصول هى:

الفصل الأول: الموضوعات الشعرية ويتناول فيها الباحث أغراض الشعر عند أبى همام وهى المرأة التأمل فى الحياة والناس الرثاء – الخواطر الذاتية – الإخوانيات – الوطنية والقومية.

الفصل الثاني: عن الأسلوب واللغة وتناول فيها الباحث الوحدة الفنية والشعورية عند الشاعر ثم تحدث عن الظواهر التركيبية ثم القصة الشعرية فى شعر أبى همام وأخيرا المعجم الشعرى عنده.

الفصل الثالث: الصور الشعرية عند أبى همام والتى تناول فيها الصور الشعرية عنده ثم وسائل تشكيل الصورة والرمز والتشخيص والتجسيد والتجربة وتراسل الحواس.

الفصل الرابع: الموسيقى الشعرية تناول الباحث فى هذا الفصل الوزن والقافية والإيقاع عند الشاعر.

ثم الخاتمة التى يجمل فيها الباحث ما توصل إليه من نتائج ودلالات فى هذا المبحث الأدبى عن شعر أبى همام حيث يرى أن المرأة قد شغلت مساحات واسعة فى شعره وأن الشاعر قد مثل حياته خير تمثيل بالإضافة إلى أنه قد جمع فى شعره موضوعات شعرية غير متداولة كثيرا على ألسنة الشعراء إلى غير ذلك من الدلالات الفنية عند الشاعر.

ويجئ هذا الكتاب عن أبو همام شاعرا فى وقت كثرت فيه الكتب التى تروج لما يسمى بشعر الحداثة وقصيدة النثر وفى وقت كثر فيه هؤلاء الذين يحاولون تشويه صورة الشعر العربى الأصيل وأعلامه فى منظومة تشكل الشعر والقصة والأغنية واللوحة وكأن هناك مؤامرة غير مكتوبة للنيل من الأصالة خاصة من الشعر فن العربية الأول.





أحمد آدم .. حبيب منة شلبى أم أبوها ؟

سهر الليالى وفيلم هندى إرهاصات نهضة

الهلال
جمادى الثانية ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م

بقلم
مصطفى درويش

ما أن حل فصل الصيف بقيظه الشديد، حتى هرول أصحاب الأفلام المصرية، إلى طرح بعضها فى دور السينما، بطول وعرض البلاد .

وكان فرس الرهان بين ما طرحوه ، فيلم «كلم ماما» بطولة «عبلة كامل» ، «حسن حسنى» و«منة شلبى» تلك النجمة الصاعدة الواعدة، التى بدأت مشوارها مع الأطياف، فى «الساحر» فيلم «رضوان الكاشف» الأخير.

ومن عـجب أن يكون فرس رهان، ومخرجه «أحمد عواض» صاحب واحد من أفشل أفلام موسم الصيف الماضى «كذلك فى الزمالك» ، أول فيلم روائي طويل يقوم بإخراجه، بعد تخرجه فى معهد السينما ، قبل اثنى عشر عاما وعلاوة على «كلم ماما» ، جرى طرح ثلاثة أفلام ، أحدها «قصاقيص العشاق» بطولة نبيلة عبيد «نجمة الجماهير» وإخراج سعيد مرزوق ، بقى حبيس ظلام العلب حوالى أربعة أعوام .

وآخر «سهر الليالى» ، ظل توزيعه متعثرا ، زهاء عام أو يزيد .

أما ثالث الأفلام المطروحة ، علاوة على «كلم ماما» ، وهو «فيلم هندى» ، فقد طال التردد فى انتاجه زمنا كاد يصل إلى ثمانية أعوام .

نهاية سينما عجوز

هذا، ولم يمض سوى أسبوع على عرض «قصاقيص العشاق»، إلا وكان قد سقط سقوطا مدويا ، ومنتزعا ، غير مأسوف عليه، من معظم دور السينما .

وباختفائه السريع ، رغم بطولة نجمة الجماهير ، تقلص المعروض من الأعمال السينمائية المصرية إلى ثلاثة أفلام .

وفى البداية كان «كلم ماما» ، فى المقدمة ، محققا أعلى الإيرادات غير أنه سرعان ما فقد المركز الأول لصالح «سهر الليالى» الذى ازداد الإقبال على مشاهدته ، خاصة من بنات حواء ، رغم تحذير رقابتنا الرشيدة للجمهور غير الواعى بخطورة ما ينطوى عليه الفيلم من مشاهد وألفاظ خادشة للحياء ، وذلك بجنوحها إلى قصر عرضه على الكبار .

ولأن «كلم ماما» لم أشاهده ، حتى كتابة هذه السطور ، فلن أتناول بالحديث سوى «سهر الليالى» و«فيلم هندى» ، وكما سبق القول، فالفيلم الأول قصرت رقابتنا عرضه على الكبار .

كبار أم صغار

وفيما يبدو، فالكبار فى مفهومها، وهى تقصر عرض سهر الليالي عليهم ، لازالوا صغارا.

والا فبماذا نفسر جنوحها إلى حذف مشهد مطارحة «خالد أبو النجا» غانية الاسكندرية الغرام، دون جدوى، رغم حظر مشاهدة الفيلم على الصغار .

الأكيد أن الحذف فى مثل هذه الحالة أمر غريب ومرير معا ، لأنه يعنى استمرار الوصاية على الراشدين، لا فرق بينهم وبين الصغار ، فيما يتصل بالرقابة، إلا فى أقل القليل والحق، أن سهر الليالي ، كما شاهدته ليس فيه ما يدعو إلى حرمان الصغار، حتى وهم فى صحبة أولياء الأمور ، فهو خال من أية شائبة تسئ من قريب أو بعيد لحسن الآداب ، وذلك لأنه من نوع الأفلام التى

يحلو لدعاة الفضيلة وحماتها أن يطلقوا عليها الأفلام النظيفة، تمييزا لها عن نوع آخر، قوامه إثارة، لا تقيم وزنا للتقاليد والعادات .

فثلاثة من أبطاله الأربعة رجال يعيشون حياة زوجية تبدو مستقرة، ولا أقول نموذجية .

والوحيد بينهم غير المتزوج «شريف منير» ينتهي به الأمر ، والفيلم يقترب من الختام السعيد، وقد تزوج هو الآخر بمن يحب «علا غانم» في فرح ولا كل الأفراح

والبطلات الثلاث المتزوجات متمسكات بأهداب الفضيلة، محصنات ضد نداء الجسد، وما يصحبه من اغراءات .

إحداهن «مني زكي» أم محجبة، حامل في شهرها السابع من زوج زير نساء، يخونها عمال على بطال «فتحي عبدالوهاب» .

وأخرى «حنان ترك» وإن كانت متعالية. بعض الشئ على زوجها الذي ينتمي لبيئة واطية « أحمد حلمي » ، إلا أنها لا ترفض أن تهان كرامته بلسان أم متسلطة، سليطة اللسان «رجاء الجداوي

هزيمة الشيطان

أما الثالثة «جيهان فاضل» فتصون كرامتها، متغلبة على اغراء شيطان متمثلا في فارس شاب ، جميل المحيا ، يطاردها بحرارته ليل نهار ، حتى كادت تنهار ، في مشهد صحراوي من أروع مشاهد الفيلم ، يذكرنا «بدون جوان دي ماركو» الذي تقاسم بطولته «مارلون براندو» مع «جوني ديب» وأخرجه «جيريمي ليفين»، قبل ثمانية أعوام .

وهي تقاوم الإغراء ، وتتغلب عليه، رغم أن زوجها «خالد أبو النجا» لا يشبع رغبات جسدها المكبوتة ، لسبب لم يفصح عنه صراحة سيناريو «تامر حبيب » ، ربما ، رعبا من مقص رقيب ، لا يعيش عصرنا .

وهنا ، لا يفوتني أن أذكر أن سيناريو «حبيب» رغم النهاية السعيدة ، المفتعلة ، وغير المقنعة إلى حد كبير ، من ذلك النوع المتماسك، المحكم البناء، على نحو ذكرني بسيناريوهات الأفلام الإنجليزية الأمريكية الجادة، متعددة الشخصيات ومن بينها أذكر على سبيل المثال «أصدقاء بيتر» لصاحبه المخرج والممثل الانجليزي «كينيث براناج» (١٩٩٢) و«البرود الكبير» (١٩٨٣) و«جراند كانيون» (١٩٩١)، وكلاهما للمخرج الأمريكي، ذي البصمة المتميزة «لورانس كازوان» .

مولد مخرج

هذا ، ومن حسن حظ «حبيب » أن تقع مهمة ترجمة السيناريو على كاهل «هاني خليفة» ، وهو مخرج لم يسبق له، قبل «سهر الليالي» إخراج أي فيلم

روائى طويل ، رغم تخرجه فى معهد السينما ، قبل عشرة أعوام .

فالظاهر من فيلمه الأول أنه على دراية، واسعة بلغة السينما، وكيف تكون المخاطبة بها ، بحيث بدا لى وكأنه مخرج مخضرم ، صاحب رصيد ، لا بأس به ، من الأفلام .

فإيقاع سهر الليالى المنضبط أشد انضباط ، وتحريك الممثلين والممثلات ، وهم عكس المألوف كثيرر، واختيار الأماكن فى القاهرة والأسكندرية ، وتكوين اللقطات ، بحس تشكيلى رفيع المستوى ، كل ذلك ينبئ بميلاد مخرج يرجى منه الكثير .

يبقى لى أن أقول أن «هانى» كان موفقا غاية التوفيق فى اختيار كل من «هشام نزيه» ، و«أحمد عبدالعزيز» و«عماد الحضرى» و«خالد مرعى» ، الأول للموسيقى التصويرية والثانى للتصوير والثالث للديكور والرابع للتوليف (المونتاج) .

فالأربعة ، والحق يقال ، أصحاب مواهب واعدة ستنهل منها السينما المصرية بمقدار ما تستطيع أن تنهل ، فيما لو صح مسارها فى مستقبل قريب

علامة مميزة

وإذا كان «سهر الليالى» أول عمل سينمائى روائى طويل لمخرجه «هانى» «فقيلم هندى» ثالث عمل سينمائى روائى طويل لمخرجه «منير راضى» .

ورغم غرابة اسمه ، فكل ما فيه مصرى ، باستثناء أن بطلته «منة شلبى» مولعة أشد الولع بمشاهدة الأفلام الهندية ، مع حبيب قلبها «أحمد آدم» ، والبكاء على بطل أو بطلة الفيلم لما آل إليه مصيره أو مصيرها ، وهو غالبا مأساوى، تدمى له القلوب .

كما أنه بأحداثه ، وأسلوب تناولها ، لا ينتمى إلى الميلودراما الهندية ، بأية حال من الأحوال .

إنه فى حقيقة الأمر ، من ذلك النوع من أفلام الملهاة، ذات الطابع الاجتماعى ، التى تدغدغ حواسنا، بالإضحاك، بغير ابتذال .

الوحدة الوطنية

فبطلاه اللذان تدور حولهما الأحداث



، يؤدى دورهما «أحمد آدم»، و«صلاح عبدالله» الفائز بجائزة المهرجان القومى للسينما المصرية المخصصة لأفضل ممثل رئيسى (٢٠٠٢)، وذلك عن أدائه لدور مخبر فى فيلم داوود عبدالسيد «مواطن ومخبر وحرامى» (٢٠٠١) .

وكلاهما نجم كوميدى ، لامع، مشهود له بالقدرة على الاضحاك ، دون إسراف فى الإسفاف .

والإثنان حسب رسم سيناريو المؤلف السينمائى الموهوب «هانى فوزى» لشخصيتهما ، تجمعهما منذ الصغر صداقة استقرت فى قلب كليهما ، حتى استأثرت به ، وملكت عليه كل شئ، وذلك رغم اختلاف الدين .

فآدم (الشاب سيد) مسلم ، يمتهن الحلاقة، ومعها يهوى الطرب بأسلوب مغنى الراى الجزائرى (الشاب خالد) .

ومن حين لآخر ، يشارك فى الأفراح والليالى الملاح بحى شبرا ، حيث يعمل ويقيم .

وصلاح عبدالله (عاطف) ، هو الآخر من سكان هذا الحى، قبطى مهنته تركيب الأطباق الهوائية .

وعكس صديق عمره (الشاب سيد) شديد الحياء، والخوف من السقوط فى هاوية الخطيئة مع الجنس اللطيف .

مهرولا دائما إلى الكنيسة ، حيث يعترف بأية نزوة مع فتاة ، ملتمسا ، وهو يكاد يبكى ، الغفران.

وكلاهما ، خلافا لسيناريو «هانى فوزى» الذى جرى تشويهه بالحذف تارة ، وبالاضافة تارة أخرى ، قد جاوز سن الشباب من زمان .

ومن هنا ، فارق السن الكبير بين «منة» حبيبة «آدم» و«رشا مهدى» خطيبة «صلاح» ، وهو فارق نال ، لا ريب ، من مصداقية العلاقة الغرامية بين فتاتين فى عمر الزهور، وبطلين فى عمر الآباء، وربما الأجداد .



فشل كلم ماما !!

الله محبة

ومع ذلك ، «فـفـيلم هندى» عـلامـة مميزة فى تاريخ السينما المصرية .

فرغم طابعه الهزلى، يعتبر عملا سينمائيا جادا ، أراد به كاتب السيناريو أن يقول أشياء كثيرة ، ربما أهمها أن الله محبة ، وأن الصداقة خير وأبقى من علاقات عابرة ، قوامها مصالح ، عادة ليس لها دوام «فسيد» و«عاطف» كلاهما يضحى من أجل الآخر .

الأول بالتنازل لصديقه عن شراء الشقة اللقطة، محل النزاع بين الحبيبة والخطيبة .

والثانى بالامتناع عن توقيع عقد شراء الشقة ، الأمر الذى انتهى به فاقدا الشقة والخطيبة معا ، وذلك بمجرد الوصول إلى علمه أن صديقه ، بتنازله عن الشقة ، فقد حبيبته التى آثرت الزواج من سواق «ميكروباص» .

الاسم لماذا؟

ومن الأكيد أن هذه التضحية المزدوجة من قبل الصديقين، هى الدافع الأول والأخير إلى إطلاق اسم «فيلم هندى» على العمل السينمائى الأخير لكل من «هانى فوزى» و«منير راضى» .

فعادة مثل هذا النوع من التضحية لا يحدث إلا فى الأفلام الهندية .

وقد يكون من المناسب هنا أن أذكر أن كليهما كاتب السيناريو ، والمخرج مقل فى إبداعه ، فالأول رصيده من الأفلام المأخوذة عن سيناريوهات من تأليفه ثلاثة فقط ، وذلك على امتداد عشرة أعوام .

والثانى لم يخرج سوى ثلاثة أفلام على امتداد أربعة عشر عاما .

تعملق الأقزام

ولعلى لست بعيدا عن الصواب ، إذا ما جنحت إلى القول بأن فقر السينما عندنا ، هذه الأيام ، إنما يرجع أساسا إلى أن كاتبى السيناريو والمخرجين الجادين ، منصرفون عن الابداع .

وأغلب الظن ، أن ما دفعهم إلى ذلك ، إن هو إلا لون من ألوان اليأس ، وليد أكثر من إحباط ، وأكثر من ضرر ، أدى فى مجال الفن السابع إلى تعملق الأقزام !! ■



المتفرجة

بقلم : مرفت رجب

العرى

ظهرت الصورة في النصف الثاني من الدقيقة الأولي في النشرة الرئيسية لأخبار التليفزيون السويسري، ولأن الدقيقة الأولي مخصصة لموجز أهم ما تحمله النشرة من أخبار مصورة، فقد كان ظهور الصورة خاطفا لم يتجاوز ثوان، لكنها كانت كافية لإحداث الصدمة اللازمة لحشد كل أجهزة الترقب، لعلي أتأكد من صدق ما رأيت ولعلي أفهم السر وراء لوحه الإعلانات التي ظهرت تحمل صورة لخسمة من النساء العاريات تماما..

لم تكن مشاهدتى لتلك النشرة مجرد مصادفة، فقد سعيت إليها وانتظرتها فى موعدها اليومى متوقعة آن جد فيها متابعة لخبر الحادث المأساوى الذى وقع فى اليوم السابق، حين سقطت سيارة من فوق معبر بأحد شوارع لوزان، وتحير الناس فى سبب سقوطها الذى أودى بحياة ركابها وترك سائقها حيا.. وجاءتنى النشرة ببعض ما انتظرت ، فقد أفادت بأن حالة السائق لم تسمح بأى تحقيق معه، لكنها قدمت ما توصل إليه المحققون من معلومات حول السائق بما يفيد أنه كان بطلا رياضيا.. ولكنه نعرض على مدى

العامين الماضيين لحالات متكررة من الإخفاق.. وإن ظهر جبران له على الشاشة يؤكدون انه إنسان وديع لطيف المعشر إلا أن المرجح لدى المحققين السويسريين أنه قفز بالسيارة من على المعبر عمدا، في محاولة انتحار يحتاج فك لغزها إلى تحسن حالة السائق بما يسمح باستكمال التحقيق "

وتوالت أخبار النشرة السويسرية إلى أن وصلت إلى موضوع لوحة الإعلانات .. قالت المذيعة إن جماعة ناشطة فكرت في هذه الصيغة لتكون وسيلتها للاعلان عن الاحتجاج على التنميط.. وفي حوارات قصيرة سريعة أجريت مع المارة في الشارع السويسري المرفوع على أحد جانبيه الإعلان. نتعرف على رأي أكثر من رجل ومنها نفرا معهم محتوى تلك الصورة الفوتوغرافية التي تعمد ملتقطها أن يجعل خمسة من النساء يقفن متجاورات بحيث تكون ظهورهن العارية تماما موضحة لتباين الأحجام والاوزان، وإن خلت لوحة الإعلان من أي تعليق.. فمن أول نظرة إلى الصورة تستطيع أن تتكهن أن الأصغر حجما لاتزيد وزنها على الستين كيلو جراما وأضخمهن لا تزيد على المائة كيلو وإن بدت الأجسام مفرودة ممشوقة على تباين طول وعرض ودرجة استدارة كل واحدة عن الأخرى.

وملخص ما ورد في تعليق الرجال الذين ظهروا في تقرير النشرة، أنه «فعلا.. معهن حق.. ليس شرطا أن تكون المرأة نحيفة حتى تكون جميلة أو فاتنة».. أما صاحبات الفكرة، فقد ظهرت عنهن في النشرة واحدة لتؤكد أن الامور وصلت إلى حد لا يمكن احتماله.. فكل الصور والأفلام وعروض الأزياء ومحلات بيع الملابس تفرض شكلا وحجما يحصر المتاح والمقبول في حدود مقاسات وأوزان ضئيلة ، تستبعد الغالبية من النساء في سويسرا، ولما بلغ بهن الضيق والضجر مداه، قررن الاحتجاج من خلال الإعلان الرافع لصورة «المدورات» العاريات.

وحكاية النحافة إلى حد الجفاف والضآلة ، في مقابل تفاوت الامتلاء والاستدارة ليست غريبة على بلادنا.. فبالرغم من اختلاف الأصول والجذور عندنا سواء منها العرقي أو الثقافي عما عندهم أتتنا من الغرب موجة الإفراط في النحافة، ومعها موجة التصاق ما يلبس بجلد اللابس لتفرض نفسها فتكاد تشمل عموم شبابنا على اختلاف الطبقات والمشارب، وبإمعان البحث والتقصي، تبينت أن البنات والشابات محذورات الى حد ما ، فتلك هي المقاسات المتاحة في محلات بيع الملابس، تلك التي فرضت، وبكل قسوة، أشكالا ومقاسات لا تمت بصلة للمواصفات الجينية عندنا. مع استبعاد اعتبارات الجمال والاناقة، وهي التي يمكن توفيرها في حدود أي مقاس وأي جنس وأي لون .. المهم أن قسوة إحكام مواصفات المعروض في السوق تسفر دائما عن زيادة الضغوط النفسية والعصبية على الشباب، وقد أصبح مشغولا بفرض مزيد من القيود على نفسه، سعيا وراء محاولة مطابقة شكله



وحجمه ووزنه لمواصفات المعروض فى السوق.

ولقد ظللت أتابع الشاشات العربية، بحثا عن برنامج يهتم بمثل هذه الظواهر ، ويناقشها ، وظل بحثى بغير جدوى إلى أن وجدت ضالتى فى سهرة تليفزيونية عرضتها القناة الخامسة الفرنسية فى إطار واحد من أشهر وأمتع برامجها هو برامج Vie Privee Vie Public وهو البرنامج الذى يدور جوهره حول المقابلة بين الحياة الشخصية والحياة العامة ، حيث تتغير الموضوعات المطروحة فى هذا الإطار من حلقة لأخرى.. فكيف إذن وجدت فى تلك السهرة ضالتى.

كان السؤال الذى تطرحه الحلقة موجها لكل المشاركين.. هل عندك مشكلة مع شكلك؟!!

وأما المشاركون فهم من عموم الفرنسيين. باستثناء اثنين من الفنانين، وأما بقية المشاركين ، فهم سائق ، يعانى من قصر القامة، وامرأة فى الخمسينات من عمرها ترتدى قبعة حمراء، من ثلاثة أدوار، وفتاتان، واحدة فى العشرين، والثانية فى الثلاثينات، وامرأة أخرى تجاوزت الخمسين . وأما عن المذيعة مقدمة البرنامج فهى مثال للأناقة والبساطة والبشر والتلقائية، فهى دائما تطرح الأسئلة بشكل يبدو عفويا، ولكن كل كلمة وكل حرف له معنى يناسب موضعه، وهى أبدا لا تسبب أى قلق أو إزعاج أو إحراج لمن تحاور ، إنما هى دائما تعرف كيف تعينه على الإفصاح المثرى للحوار.

ومع أن معها سبعة ضيوف.. إلا أنها تنجح فى تحقيق التوازن فى توزيع وقت البرنامج واهتمامه بكل منهم، كما تعرف متى تنقل كرة الكلام ليتلقفها أكثر من مشارك بحيث يكون الحوار هنا بين المشاركين وبعضهم، حين تقرر Mirelle Damas أن تحتفظ لنفسها بدور قائد الاوركسترا.. ويزيد من ثراء البرنامج أنه يعرض تقريرا تسجيليا عن حياة كل منهم - فيما له صلة بموضوع الحلقة - تعرف المذيعة، أين ومتى أثناء الحوار، تدعونا لمتابعة مثل هذا التقرير التسجيلى، الذى يفتح آفاقا أغنى للكلام.. وفى براعة العارف بالمفاتيح، بدأت المذيعة كلامها مع الممثلين، وكأنما باعترافاتهما، تفك قيود الحرج، فيفصح كل من الحاضرين عن مكامن نفسه.

تحدث الممثل الأول عن زملائه فى المدرسة الذين كانوا يسخرون من حال أمه التى كانت تحضره إلى المدرسة كل صباح، وسخرية الشياطين الصغار تتركز على العكازين، تتوكأ عليهما الأم، وبطء الحركة والميل إلى كل جنب يتحرك إليه العكاز، يضاعف الغمز الصاخب من الأقران. وكان الألم الذى اعتصر قلب الصغير، هو المحرك لمكامن الكوميديا التى مكنته من تحويل سخرية أقرانه، حين عرف كيف يجعلهم يضحكون من

أنفسهم، بدلا من توجيه الضحك الساخر إلى أمه.

وأما الممثل الآخر.. فقد اعترف أن أنفه المفرط في الطول كانت وراء اتجاهه إلى التمثيل الساخر، وله من المشاهد المسرحية ما أتاح للبرنامج أن يطلعنا على قدرات هذا الممثل على تفجير الضحك الصاخب بين صفوف المشاهدين.. ولقد أضاف إلى الكوميديا علاجا اخر.. فقد اعترف بأنه كان يحرص دائما على مصاحبة الجميلات، بحيث تتوجه الى صاحبته نظرات الناس، بدلا من أن تركز عليه، واستمر في ذلك الى أن تزوج من واحدة من أجمل الجميلات.

وجاء دور صاحبة القبعة الحمراء لتقول لنا إنها كانت تدرك أن عدم الرضا عن الشكل أمر يحدث لمعظم الناس.. ولكنها قررت منذ فترة ان تريح نفسها تماما من هذا القلق، ذلك حين قررت هي الأخرى أن تصرف نظرات الناس الى ما تلبسه، وليس إليها.. وبالتحديد تركز حرصها على ارتداء القبعات الغريبة، تلك التي من فرط غرابتها، لابد أن تتعلق بها الأنظار بحيث يصعب أن تتذكر شيئا سوى القبعة، وكان التقرير المصاحب للحوار معها، فيه متابعة لها في أماكن ومواقف مختلفة، وفي كل لقطة نجدها تظهر بقبعة أكثر غرابة ولفتا للانتباه.. وهي الآن مرتاحة تماما لأن أحدا لا يلتفت لا إلى وجهها، ولا إلى شكل جسمها.

وأما عن ضيف البرنامج الشاكي من القصر، فهو الآخر لم يترك لمعاناته العنان لتهزمه وإنما انتصر عليها هو الآخر بطريقته. فبينما عرض لنا التقرير التسجيلي عن حياته مشاهد له تستعرض ما يلاقيه من صعوبات في اختيار ملابسه، حيث لا يجد ما يناسبه في أقسام الرجال.. فهناك يحتاج الأمر إلى الاستغناء عن ثلث طول أي شيء يقع عليه اختياره، وتلاحقه الصفة، «لأنك صغير» لكننا نراه في مشاهد أخرى مع صاحبته بادية الطول، وهو يتركها تسير تحت الرصيف، بينما هو يلتزم بمعانقتها وهو فوق الرصيف وحين ينتهي التقرير التسجيلي، وكل ضيوف البرنامج غارقين في الضحك، نجده معهم يضحك ويؤكد أنه كان حريصا أن يتزوج ممن هي أطول منه بكثير، تأمينا لمستقبل الأبناء.. كانت الشابة الأصغر سنا في مجموعة الضيوف صاحبة مشكلة كبيرة في نظرها، ذلك أنها كانت تشعر انها ليست ككل الفتيات، فصدرها لا يكاد يظهر، وتحدثت هي الأخرى عن اهتمامها بصحتها العامة، والاجتهاد في الدراسة والعمل، صرفا للانتباه، انتباهها هي، لهذا الأمر الذي قررت ونجحت في أن تتجاهله بأن تركز على مصادر رضى أخرى في شكلها، وفي حياتها بوجه عام.

وأما المرأة صاحبة الوجه المشدود فقد بين لنا التقرير التسجيلي المصاحب للحوار معها أنها تعمل في مركز تجميل، لكنها لم تكتف بالعمل وإنما ذاقت من الاناء مغرفة.. فقد عرضت وجهها لكل عمليات الشد والنفخ المستحدثة.. والنتيجة جاءت على لسانها هي، حين صرحت



بأنها الآن أقل رضى عما كانت حين اتخذت قرارها بإجراء تلك التغييرات في محاولة لإزالة أثر الزمن من ملامحها.. فهى الآن لا تشعر بالتوافق مع هذا الوجه خاصة وهى في صحبة أحفادها.. وتعترف بأنها تشعر الآن أنها ضحية ما فعلت!

وجاء الحوار مع الشابة الممتلئة التي تشع النضارة والمرح من وجنتيها.. هى في أواخر الثلاثينات من العمر.. تقول لنا إنها قبل عدة سنوات تبينت أنه من المستحيل أن يتحول جسمها إلى النحافة التي تنتشر بين قريناتها من بنات جنسها.. وقررت أن تقبل نفسها على حالها.. ليس فقط أن ترضى بأنها هكذا تنتمي إلى الممتلئات «المدورات» وإنما أن تتوجه بكل اهتمامها لمساعدة كل المدورات على تحقيق الرضى اللازم لحياة نفسية متوازنة.. عملت في تصميم الملابس الملائمة للمدورات، وأنشأت موقعا على الإنترنت اذا فتحته اي «مدورة» وجدت فيه كل ما تبحث عنه من عناصر الملبس والمأكل والتريض الملائمة.. والمذيعة الذكية الباسمة دوما، كعادتها. لا تفوت فرصة.. فتتيح لكل من الحاضرين مساحة للتعليق، لينتهي البرنامج ونحن معهم مقتنعون بأنه «طبعا.. ولم لا.. النحافة ليست شرطا للجمال أو الملاحة أو الصحة أو الأنوثة. المهم أن يتوافق الإنسان مع شكله فيكون نفسا راضية، أقوى على التكيف ومواصلة كفاح الحياة.. والمهم أيضا أن البرنامج لا يعطيك رأيا قاطعا في أي شيء.. فقد تكون كل الآراء فيه خلافية، لكن بطرحها وتحاورها، تتركك كمشاهد وانت اكثر قدرة على ترتيب افكارك.

التنميط

والرأى عندى أن مثل هذا البرنامج يعتبر نموذجا للبرامج الثقافية.. فالشأن الثقافي لا يقتصر على ما ينتجه الأدباء من مقالات وبحوث وكتب، أو ما يبدعه الفنانون من لوحات وتماثيل، وألحان، وإنما هو يشمل طرائق تفكير الناس وإبداعاتهم كذلك فيما يأكلون أو يلبسون، أو في إطاره يختارون أشكال بيوتهم ومحتوياتها. وفي كل أمور الحياة كيف يتعاملون، وفي كل ذلك تتضح قيمة التعرف على الموروث وقيمة الاحتفاظ أو الالتزام بنواميسه أو اختيار تعديلها على النحو الذي يجعل الأفراد أكثر قدرة على التصالح مع الذات واستكشاف مواضع القوة فيها والبناء عليها. أما الاستسلام الكامل لكل ماهو مستورد، مفروض علينا بدافع الرغبة في مضاعفة وتضخيم الأرباح التجارية، فلا يؤدى إلا إلى تعرية النفس من كل مقومات مناعتها وقدرتها على تكوين عوامل الرضى، ومنه الاعتزاز بما لدى كل منا كأفراد وبما في أوطاننا من كنوز.

كما أن الرأى عندى أن موجة النحافة بدأت أوائل التسعينات مع نهوض

اقتصاديات النمور الآسيوية.. وتواتر الأخبار المصورة عن نجاحات الآسيويين، ومنها التقط مصمموا الأزياء في الغرب فكرة تصغير حجم الملابس، اعجابا بنموذج المرأة الآسيوية دقيقة الحجم، وفي تدرج متسارع زحفت الموجة الجديدة معها زحف الى بلادنا نظام الفرانشيز Franchise كما زحف الى كل بلدان العالم الآخذة بانظمة اقتصادات السوق.. ولأن نظام الفرانشيز يفرض على الممنوح له ان يلتزم بشروط المانح التي تنص على أن يكون شكل المحل التجاري ومحتوياته وطريقة العرض فيه مطابقة، أي صورة طبق الأصل، مما تجده عند المحل التجاري صاحب الاسم الاصلي.. وجدنا الأذواق الوطنية من حيث اختيار الألوان او الاحجام - تختفي، ليحل محلها النمط المفروض من الشركة المانحة.. ذلك أنها لا تمنحك المال.. وإنما هي تكسب منك قدرا معلوما من حصة الأرباح مقابل منحك الاسم بشرط التزامك بكل مواصفات الشكل والمحتوى.. ولقد راق الامر الكثيرين ممن رأوا فيه فرصة ليتاح للسوق المحلي أن ينعم بكل ما هو متاح في اي بلد من بلاد الغرب التي نشر الفرانشيز وجودها الكثيف في بلادنا، وهو الذي القى بظلاله على المنتجات المحلية ايضا، إذ صارت تقلد المستورد سعيا وراء مكان في سوق المنافسة المحتدمة. ومن هنا عم التنميط في بلادنا كما عم في بلاد الغرب.

وإذا كان برنامج حياة خاصة حياة عامة يبين لنا، بين أمور اخرى، ان اكتشاف منابع القوة في النفس اقصر الطرق وأسهلها للتكيف مع الواقع، والانتصار على مثالبه. فإن لوحة الإعلانات التي ظهرت في نشرة الاخبار السويسرية بنسائها العاريات، توضح من خلال تقريرها التسجيلي المصاحب أن هناك آثارا سلبية، استفحلت معاناة السويسريات منها الى حد اللجوء الى هذا الشكل الصارخ للاحتجاج.. واما المصادفة التي جمعت بين هذا التقرير الاخباري والتقرير عن حادث انقلاب السيارة من على المعبر. في نشرة اخبارية واحدة. فإنني لا أراه مصادفة.. فإذا صح التوقع المشار إليه لدى السويسريين - من ان السائق تعمد الانتحار فيما بدا انه هروب من الاخفاق المتكرر للبطل الرياضي العاجز عن التكيف مع انسحاب البطولة. فهذا مثال حي على عواقب تراكم الاكتئاب بفعل فقدان الطريق الى منابع القوة في الذات.. وأما فشل السائق في تحقيق بغيته من الانتحار، وخروجه حيا بينما خرج بقية ركاب السيارة الثلاثة وقد فارقوا الحياة.. فنحن هنا امام سبب أقوى للتأمل. فتركنا لأفراد بيننا يسقطون في دوائر الاكتئاب، تشمل آخرين بآثارها السلبية الفادحة.. وتأتي مثل تلك الحادثة، كأنما هي صفعة كونية. لعلنا نفيق فنرى مهالك التنميط الذي هو بالقطع من ثمار العولمة. ■

ثــلاثـــة مـــن الأدبـــاء

السّحرتى وكرّو والجرَم

بقلم
وديـع فلسـطين

لشيخ الأزهر الراحل عبد المجيد سليم قولة ذهبت مثلاً .. فقد رأى الدولة تحول الأموال بلا حساب إلى الملك فاروق فى كابرى بفرنسا ليلهو هناك مع عشراء السوء، فى حين تضن بأموال الشعب على وزارات الصحة والتعليم والشئون الاجتماعية والمرافق العامة، فأعلن الشيخ صيحته قائلاً: إسراف هناك وتقتير هنا، ثم قدم استقالته راضياً مرضياً!

وأخشى أن تكون حياتنا الثقافية الحالية فى حاجة إلى مثل هذه الصيحة المدوية. فمن دواعى الحيرة فهم المعايير التى يستند إليها فى تقييم رجال الفكر والأدب، ففى حين تقام الاحتفاليات الصاخبة لشعراء هم فى أفضل الأحوال كتاب منشورات سياسية، أو لشعراء فيهم أدونيسية وماغوطية تنحدر بالشعر إلى متاهات العبث والغموض، فإن هناك إهمالاً تاماً ومتعمداً لرجال خدموا الثقافة خدمات جلى على مدى سنوات طويلة من العمر دون أن يحظوا بشىء من التقدير الذى يبذل بسخاء لمن لايحاكونهم فى المنزلة والقيمة الأدبية الباقية.



مصطفى عبداللطيف السحرتي



بلقاسم محمد كرو

هذه زفرة أطلقها بمناسبة مرور عشرين عاماً على وفاة الأديب الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي المولود في ميت غمر في ٢٣ ديسمبر ١٩٠٢ والمتوفى في ٢٩ مايو ١٩٨٣.

السحرتي الذي لايعرفه نقاد اليوم

مرت هذه الذكرى في غيبة من اهتمام المجتمع الأدبي كله، اللهم إلا من حفل متواضع بعيد عن الأضواء أقامته رابطة الأدب الحديث التي كان السحرتي رئيسها الأول وراعيها على مدى ثلاثين عاماً، والتي تجاهد في سبيل أداء رسالتها الأدبية بهمة رئيسها الحالي الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي.

ولو سئل بروفسيرات النقد الأدبي في يومنا الحاضر عن مصطفى عبد اللطيف السحرتي، فأكاد أجزم بأنهم يتلعثمون قبل الرد عن هذا السؤال المعجز، مع أن عشرات من الأدباء المعاصرين ترددوا - وهم بعد ناشئون - على رابطة الأدب الحديث ينهلون من علم رائدها السحرتي وينعمون بتشجيعه وتوجيهاته ويستضيئون بآرائه ونقده. فلما استقامت أعوادهم نسوا هذا المربي الرائد الجليل الذي لم يضن على أديب بآيات التشجيع والإشادة، وبقي طوال العمر يعطي ولا يأخذ إلى أن أقعده المرض دون أن يقعده ذلك عن متابعة الجيل الناشيء بالرعاية والتقويم. ومن حق السحرتي علي، وقد عرفته منذ أربعينات القرن الماضي، أن أحاول دفع بعض الظلم عنه، وهي محاولة يعيبها أن كاتبها يعيش على هامش الحياة الأدبية متفرجاً، وأن الحيز المتاح يفرض عليه حدوداً لا يريد تجاوزها.

كنا مازلنا نعقد مساء كل يوم أحد اجتماعات رابطة الأدباء التي أنشأها الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي في عام ١٩٤٥، وكنت أنوب عنه في رياستها بوصفي الوكيل المنتخب للرابطة. ومع أن هذه الرابطة عاشت ثماني سنين، فلم يتهيأ لنا أن نستقر في أي مكان فكنا مثل البدو الرحل الذين ينصبون خيامهم في أرض ليغادروها إلى أرض سواها. ولهذا كنا نرحب بأي دعوات لاستضافة الرابطة، فاجتمعنا مرة في مدرسة في حي السيدة زينب، ومرة في ساحة خلف إحدى العمارات في الجيزة، ومرة في مكتب للصحفي محمد زكي عبدالقادر (١٩٠٦ - ١٩٨٢) في شارع شريف باشا، ومرة في

مكتب للأدبية سنية قراعة (ت ١٩٩٠) فى ميدان سليمان باشا ومرات فى اتحاد للموظفين فى شارع عماد الدين وبسبب هذه التنقلات كانت تتردد على الرابطة وجوه تختلف من أسبوع إلى أسبوع، ربما بسبب قرب أو بعد مكان الرابطة عن أماكن سكناهم. ومن الذين زارونا ولو مرة واحدة الدكتور محمد صلاح الدين باشا (ت. ١٩٩١) وزير الخارجية الأسبق وإبراهيم فرج باشا (١٩٠٣ - ١٩٩٣) الوزير الوفدى السابق وزكريا مهران باشا وهو من رجال الأعمال والدكتور أحمد هيكل وزير الثقافه السابق والدكتور الشيخ أحمد الشرباصى (١٩١٨ - ١٩٨٠) وعشرات آخرون يعييني سرد أسمائهم

وفى إحدى جلسات الرابطة حضر الشاعر محمد عبدالغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) وكنت أعرفه وكان بصحبته رجل متوسط القامة غليظ العوينات لم أتبين معالمه تماماً . وكان معهوداً إلى بزمها فى رياسة الجلسة بسبب تأخر الدكتور ناجى فى عيادته ، فرحبت بعبد الغنى حسن وبالشخص الذى يرافقه الذى لم أقف على اسمه إلا عند مصافحة الحاضرين بعد انتهاء الجلسة.

وكنا وقتها نعقد ندوة أسبوعية فى مجلة المقتطف» الشهرية التى عاشت ٧٧ عاماً وودعت دنيا الفكر فى ديسمبر ١٩٥٢ ، فدعوت السحرتى لمشاركتنا فى هذه الندوة، وبادر بتلبية الدعوة. ولكنه جاء إلينا ومعه مشروع رغب إلينا فى مساعدته على إنجازه ، ألا وهو إعداد دراسه جديده عن الشعر المعاصر فى ضوء المذاهب النقدية الحديثة . ورجانا أن نزوده بما لدينا من دواوين الشعراء العرب حتى يستعين بها فى إعداد دراسته؛ ومن حسن التوفيق أننى كنت أقتنى مجموعة غير قليلة من دواوين الشعراء العرب، بعضها مهدى من مؤلفيها والبعض الآخر ظفرت به شراء، فوضعتها جميعاً تحت تصرف السحرتى إلى جانب الدواوين التى كانت مودعه فى خزانة كتب «المقتطف». ولم تمض أسابيع إلا والفصول الأولى من دراسته الرائده «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» بات جاهزة، فأخذنا ننشرها تباعاً فى «المقتطف» ونجهز للمؤلف نسخا إضافيه منها نهدى إليه بعد الفراغ من نشر جميع فصول الكتاب، وكانت هذه الهديه ، وهى بضع عشرات من النسخ هى المكافأة الوحيدة التى نالها السحرتى عن نشر كتابه، فقام بإهداء هذه النسخ إلى أصدقائه وأصبح هذا الكتاب الرائد المهم غير متداول على نطاق واسع إلى أن قامت دار تهامة فى المملكة العربية السعودية من سنوات بإعادة طبعه وإباحته لجموع الباحثين بتزكية من الأديب عبد الله عبد الجبار وبأريحية من مدير الدار محمد سعيد طيب أطال الله بقاءهما.

وبعد توقف رابطة الأدباء فى عام ١٩٥٢، لأن رئيسها الدكتور إبراهيم ناجى أدرج اسمه فى أول قائمة للتطهير أصدرتها حكومة الثوره ، ولأن وكيلها جرى اعتقاله ، فكر بعض الأدباء بتوجيه من محمد ناجى شقيق الدكتور إبراهيم ناجى - وهو ضرير - فى إنشاء الرابطة باسم جديد ، فعقدوا اجتماعاً فى بيت فى ميدان الدقى تقرر فيه إنشاء رابطة الأدب الحديث» باعتبارها امتداداً لرابطه الأدباء ، وانتخب مصطفى عبد اللطيف السحرتى رئيسا لها . كان هذا فى عام ١٩٥٣ بعد وفاة الشاعر ناجى فى

٢٤ مارس ١٩٥٣ (وهو من مواليد ١٨٩٩)، وبكل الحماسة والتفانى أدار السحرتى شئون الرابطة الجديدة التى اجتذبت كثيرين من ناشئة الأدباء والشعراء. وهى قد عانت بدورها من عدم الاستقرار فى مكان معين إلى أن انتهى بها المطاف فى غرفة فى رابطة أبناء الدقهلية فى شارع بنك مصر أمام البنك المركزى.

ولئن كان السحرتى سلك طريق المحاماة بعد تخرجه فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول فى عام ١٩٢٦ وبقى يمارس هذه المهنة ستة عشر عاماً عمل بعدها رئيساً للتحقيقات بوزارة التجارة ورئيس نيابة إدارية، كما عمل فى وزارة العدل، فقد كان الأدب هو هوايته الأولى. وبسبب ذلك زار باريس لكى يغشى مجالس الأدباء فى الحى اللاتينى ويتردد على المتاحف والمكتبات ودور الثقافة، وهى زيارة لم يتح له فيها الانخراط فى أى دراسة منهجية، وإنما كانت غايته أن يعيش فى هذا الجو الموحى فى عاصمة النور، شأنه فى هذا شأن سلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨) الذى رغب فى أن يعيش فى باريس لمجرد استنشاق أجواء الثقافة والفنون وحرية الفكر. وفيما بعد انتقل السحرتى إلى مؤسسة التأليف والترجمة والنشر مراقباً لأنشطتها.

وفى أثناء ذلك اختير السحرتى عضواً فى لجان المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

اكتشف السحرتى هواية الأدب فى سن مبكرة، فكتب سلسلة من المقالات فى مجلة «السياسة الأسبوعية» التى كان يصدرها الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٨٨٨ - ١٩٥٦) درس فيها حياة أعلام الفكر الغربى، ورأس تحرير مجلة «الأمام» واتصل بجماعة أبولو ورائدها الشاعر الدكتور أحمد زكى أبى شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) وكتب فى مجلتها، وأصدر فى عام ١٩٣٧ كتاب «أدب الطبيعة»، وفى عام ١٩٤٢ نشر ديوانه الوحيد «أزهار الذكرى» ثم توالت كتبه ومنها «شعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» و«أيديولوجية عربية جديدة» و«الشعر اليوم» و«شعراء مجددون» و«النقد الأدبى من خلال تجاربى» و«شعراء معاصرون» بالاشتراك مع الأديب العراقى هلال ناجى، وشعر عبد الحميد السنوسى» وهو تحقيق بالاشتراك مع محمد مفيد الشوباشى (١٨٩٩ - ١٩٨٤) و«الفن الأدبى» و«معروف الرصافى شاعر العرب الكبير» بالاشتراك مع قاسم الخطاط (١٩٢٣ - ٢٠٠٣) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، و«دراسات نقدية فى الشعر المعاصر»، وكان له مقال شهرى فى مجلة «الثقافة» على عهد الدكتور عبد العزيز الدسوقى.

رجل هذا بعض أياديه، كيف ينضم إلى قافلة المجهولين، وكيف يسقط من اهتمام النقاد المحترفين - وأكاد أقول المحتكرين - فى يومنا المعاصر؟ وسؤال أخير: متى تستقيم المعايير الأدبية فلا ينطبق عليها قول الشيخ عبد المجيد سليم إسراف هناك وتقتير هنا؟!

تكريم مزدوج
لأبى القاسم كرو

فى الأسبوع الأخير من شهر مايو الماضى تم تكريم الأديب التونسى الكبير «أبو القاسم محمد كرو» مرتين، حيث أقام بيت الحكمة التونسى - وهو المجمع اللغوى هناك - حفلاً لتكريمه قرر فيه إصدار كتاب تذكارى عنه . وبعد يومين اثنين أعلن عن

منحه أكبر جائزة ثقافية في تونس وهي «الجائزة المغاربية»، وهي تساوي من حيث قيمتها المادية جائزة مبارك في مصر. ولكن السلطات التونسية تعتمد في منح جوائزها أسلوباً لايستند إلى الترشيحات بين عدد من الأشخاص، بل تقوم بانتقاء الشخص الذي يستحق الجائزة بكل جدارة دون ان تعرضه لمسابقات ينجح فيها أو يفشل كما حدث عندنا في مصر.

وسبق لأبي القاسم أن نال جائزة الدولة التقديرية في تونس، وقلده رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي بنفسه أعلى وسام ثقافي.

وأبو القاسم محمد كرو عضو في جميع مجامع اللغة العربية في مصر وسورية والأردن، وعمل على مدى سنوات طويلة مستشاراً ثقافياً لوزراء الثقافة التونسيين المتعاقبين، كما كان ضمن الوفد المشارك لتوقيع أول اتفاقية ثقافية بين مصر وتونس.

ومن عامين فاجأ الحياة الأدبية بإصداره ستة مجلدات ضخام اختار لها عنواناً جامعاً هو «حصاد العمر» سجل فيه دوره في سنوات الكفاح إلى أن حققت تونس استقلالها، كما أنصف أعلاماً منسيين وعنى بدراسة الشاعرات العراقيات اللائي عرفهن عندما كان يتابع دراساته العليا في بغداد، وعقد فصولاً في الدفاع عن الثقافة العربية ، وتناول بالدراسة كتباً استأثرت باهتمامه ، وكان لابد أن يضم هذا السفر جزءاً يسجل فيه كرو مواقفه في تصحيح أوهام الباحثين والدارسين، ويبلغ عدد صفحات هذا السفر المتعدد الأجزاء ٢٤٠٠ صفحة.

ولأبي القاسم كرو الفضل الأول في الحفاظ على كل مايتعلق بشاعر تونس الأكبر أبي القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤) فينشر ديوانه الكامل مؤرخاً لكل قصيدة، وجمع رسائله ومذكراته ومخطوطاته وكل مايتعلق به. عدا أنه نشر مايزيد على ٦٠ كتاباً عرّف فيها بالأعلام التونسيين بحكم اقترابه من معظمهم ، كما أرخ للحركة الثقافية في تونس وعالج قضايا الأدب والفكر بدقة الباحث، ونشر كثيراً من الصفحات المطوية التي لاتكتمل دراسة التاريخ دون الإحاطة بها.

وقد دانت لأبي القاسم محمد كرو على مدى العمر خزانة ضخمة للكتب فيها كثير من النوادر باللغتين العربية والفرنسية ، فقام بإهدائها إلى كلية الآداب في مدينة منوبة بتونس حيث انفردت بجناح خاص تتصدر صورته، وأقيم بهذه المناسبة حفل كبير شارك فيه المسئولون الثقافيون الذين أشادوا بهذه المكرمة العلمية الجليلة.

وفي شهر مايو الماضي، كان أبو القاسم محمد كرو يزور مدينة الرباط في المغرب، وينزل في أكبر فنادقها، وفوجيء وهو يقيم في طابقه العاشر بهزة عنيفة اكتشف بعدها أن الفندق كان مستهدفاً من الإرهابيين الذين حاولوا نسفه ولكن متانة بناء الفندق جعلته يتماسك إلا من الطابقين السفليين اللذين دمرتهما المتفجرات. وهكذا نجا بأعجوبة حتى وإن كان قد فقد بعض أمتعته.

وكان الأديبان العربيان عادل زعيتر (١٨٩٧ - ١٩٥٧) وشقيقه أكرم زعيتر (١٩٠٩ - ١٩٩٦) ينزلان في فندق شبرد القديم الذي تعرض للإحراق في ٢٦ يناير ١٩٥٢، ولكنهما سلما من هذا الحريق وإن كانا فقدا جميع أمتعتهما التي ذهبت طعمة

للنار . فمد الله فى أعمار كرو والزعيترين كيما يواصلا أداء رسالتهما خدمة لأمة العرب.

صاحب فكرة العصبة الأندلسية

كنت من جملة الذين يعتقدون أن جماعة العصبة الأندلسية التى أقيمت فى سان باولو بالبرازيل عام ١٩٣٢ لتكون نظيراً للرابطة القلمية التى أنشئت فى أمريكا الشمالية إنما كانت من بنات أفكار أسرة المعلوف الشهيرة التى كانت تملك مصانع كبيرة للحرير، ولا سيما لأن الرئيس الأول للعصبة هو ميشال معلوف (١٨٨٩ - ١٩٤٣) وتولى رياستها فيما بعد شقيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦). ولكن الصديق اللبنانى السورى اليونانى تيوفيل بتسيدس المعنى بالأدب المهجرى فى أمريكا اللاتينية نبهنى إلى أن صاحب الفكرة فى إنشاء هذه الرابطة التى عاشت عشرين عاماً هو الشاعر المهجرى شكر الله الجرّ (١٩٠٧ - ١٩٧٥) مع أنه كان يقيم فى ريودى جانيرو بعيداً عن العاصمة البرازيلية.

فقد شجر نزاع غريب بين أفراد الجاليتين اللبنانية والسورية فى سان باولو حول اسم المستشفى الذى أقاموه هناك وأطلقوا عليه اسم المستشفى السورى واللبنانى، فى حين أراد آخرون من أفراد الجالية حذف حرف الواو من اسم المستشفى ليصبح «السورى اللبنانى» إيماناً منهم بأن الهجرة وحدت الجاليتين السورية واللبنانية، وأن حرف الواو يؤدى إلى التفرقة بينهما.

وعندما تفاقم هذا النزاع قرر الشاعر شكر الله الجرّ السفر إلى العاصمة البرازيلية وفى ذهنه مشروع جمع العرب المهاجرين تحت مظلة واحدة. أما المشروع المقترح فهو تأليف عصبة تضم جميع المهاجرين وتحمل اسم الأندلس تيمنا بالعصر العربى الأندلسى. وبمجرد وصول شكر الله الجرّ إلى سان باولو اتصل بكبار الأدباء هناك، وعرض عليهم الفكرة، فرحبوا بها فرادى، ثم ارتأوا عقد اجتماع تأسيسى يعلن فيه رسمياً إنشاء «العصبة الأندلسية» مع إصدار مجلة أدبية عنها تحمل اسم «العصبة» وفى الخامس من يناير ١٩٣٢ ولدت هذه العصبة رسمياً، واختير لرياستها ميشال معلوف باعتباره أكبر الأعضاء سناً.

وبعدما أنجز شكر الله الجرّ مهمته فى التوفيق بين الآراء المتباينة حول اتحاد أو انفصال الجاليتين اللبنانية والسورية، عاد إلى ريودى جانيرو ليواصل إصدار مجلته «الأندلس الجديدة» دون أن يسعى إلى عضوية العصبة، وجعل مجلته ساحة لنشر آثار أعضاء العصبة إلى أن تسنى لهم إصدار مجلتهم الخاصة. وقد وصف الأديب المهجرى نظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) عهد العصبة الأندلسية بأنه «أخصب وأزهى حقبة عرفها الأدب العربى فى المهجر».

وبسبب بُعد العهد بالحركة المهجرية ورحيل أعلامها الكبار من الشعراء والكتاب مع صعوبة الحصول على المراجع المهجرية، يقع الباحثون فى خلط حول بعض جوانب هذه الحركة ودور كل من الأعلام فى إذكائها، ولهذا رحبت بتصويب هذه الواقعة حول صاحب الفضل الأول فى إنشاء العصبة الأندلسية شاكراً للأخ تيوفيل بتسيدس تنبيهه إلى هذا الخطأ الشائع. ■

قصة قصيرة

أبو عنفى

بقلم
زاهد مطر
بريشة خميس خلف



١٧٨
الهلال

لدى نزعة فطرية إلى العزلة حجبتها سنوات الوظيفة والزواج الطويلة إلى أن توفيت شريكة عمرى رحمها الله ثم بلغت سن التقاعد بعد وفاتها بعامين، فإذا بهذه النزعة وكأنها قد تحررت مما كان يكبح جماحها، تعود إلى الظهور مرة أخرى وتنمو مع تقدم سنوات العمر وضعف القدرة على المقاومة حتى لأحسب أنها بلغت مراحل الحالة المرضية .

ومن أعراض هذه الحالة أننى أبيت بإصرار الرضوخ لمحاولات ابنى وابنتى لإقناعى الانتقال للسكنى مع أى منهما بدلا من العيش وحيدا فى شقة من شقق العمارة القديمة التى كانت تنسب فى لغة المخضرمين أمثالى إلى الشركة البلجيكية وهى بحى عابدين، تطل على شارع حسن الأكبر، وكان يشغلها صديق لى حميم أيام عمله بالمحاماة ورضى بأن يؤجدها لى بأجر شهرى معقول بعد أن تقاعد هو الآخر ولم يعد يمارس العمل .

وقد شمرت ابنتى جزاها الله كل خير عن ساعديها لتزيل عنها آثار وملامح مكتب المحامى وتحيل الغرف الأربعة الواسعة إلى مأوى سكنى لا ينقص مثلى فيه شئ مما يحتاجه بل ومما كان يحلم به، بما فى ذلك غرفة مكتب مريحة ومكتبة اتسعت لكل ما أملك من الكتب، وما كنت أجد لها من قبل مكانا إلا فى صناديق من الورق المقوى استطاعت زوجتى رحمها الله أن تتخلص منها بتخزينها فى بيتنا الريفى حيث تكفلت الفئران والقوارض الأخرى طوال السنوات الطويلة بالعبث بصفحاتها إلا ما شاء القدر أن تبقى سليمة منها إلى يوم الخلاص واستقر بى العيش طيلة شهور ثلاثة حتى خيل إلى أننى وجدت فى الحياة أخيرا ما كنت أنشده من عزلة وسكينة لا يقطعها على شئ إلا زيارات أولادى وأحفادى المتباعدة، ولا يشاركنى فيها إلا فتى يافع يتردد على يوميا ليقوم على خدمتى ويدبر لى مأكلى ومشربى وينصرف مع غروب الشمس .

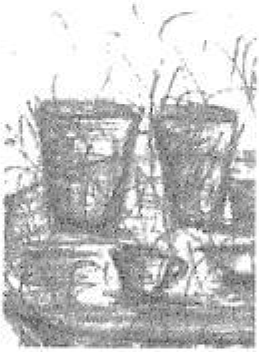
وفجأة وبلا مقدمات رن جرس الباب فى أمسية كنت مسترخيا فيها على مقعد مريح فى

مكتبى استمتع بمطالعة كتاب من كتب التراث، فمزق السكون فى أرجاء الشقة الخالية وأخل باتزان نفسى، فلم يكن الوقت مما أتوقع فيه زائرا من أهلى وقد عودونى على الاتصال تليفونيا قبل أن يقوموا بالزيارة .

واتجهت مضطربا صوب الباب فلم أعن حتى بالنظر من العين السحرية لأتبين الطارق قبل أن أفتحه، ووجدت أمامى فى الفرجة وجها مكتنزا لا أحسب أننى التقيت بصاحبه من قبل، وإن كانت ملامحه مألوفة فى بشرة مائلة للسمرة وعينين واسعتين يقظتين تتطلعان إلى بحرارة وكأنهما تتساءلان : ألا تعرفنى؟ «سعادتك الأستاذ فلان؟» .

غمغمت واضطرابى مازال واضحا «نعم» .

ارتسمت ابتسامة



على الشفتين امتد معها فى الاتجاهين الشارب المنمق فى مساحة الوجه المكتنز أنا جار سعادتك محمود الشيمى .. أتيت لأتعرف على سعادتك .. هل تسمح لى ؟

ولا أدرى إن كنت أنا فتحت له الباب أم هو دفعه بلطف ودلف إلى الردهة، فوجدتنى مضطرا لأن أدعوه للجلوس ففعل ببساطة والابتسامة لا تفارق وجهه

وكانت هذه البداية ، حضر إلى الأستاذ محمود ... أعنى «أبوحنفى» كما يصر هو على أن أناديه كلما اتبعت المألوف وناديته باسمه مضافا إليه لقب أستاذ ، ليتعرف على ثم ليدعونى لأصحبه إلى قهوة «حسن الأكبر» التى تقع على بعد أمتار من العمارة ليعرفنى بمجموعة من رجال الحى الأفاضل المحالين إلى التقاعد مثلى تواقين لأن يتعرفوا على منذ أن علموا بأننى أسكن بينهم !

حسبت أول الأمر أن الدعوة مؤجلة بطبيعتها إلى مناسبة أخرى أكون فيها مستعدا ، ولكن الذى حصل أن الأستاذ محمود .. أعنى أبو حنفى تسمر مكانه وأصر على أن ينتظرنى حتى أبدل ثيابى وأصحبه .

وغلبنى ذلك الضعف الآخر المصاحب عادة لنزعة الانطواء، أقصد فرط الحياء فوجدتنى وقد أعيانى البحث عن الحزم وعن كلمات الاعتذار قد اتجهت إلى غرفة نومى

وبدلت ثيابى ثم اتجهت وراء الأستاذ إلى الباب .

«سعادتك تذكرت مفاتيح الشقة؟».

وكان معه حق .. فلولا تذكرنى لخرجت وقد نسيت فى اضطرابى أن أضع المفتاح فى جيبى .

وجدت المجموعة المتحلقة حول مائدة منعزلة فى القهوة فعلا كما وصفها الاستاذ محمود ، أقصد أبوحنفى ، كلهم فى مثل سنى تقريبا من الرجال الطيبين الذين يضفى عليهم السن رزانة ، وهو إن كان بالغ فى شئ فهو المناصب والألقاب التى خص بها كل منهم وهو يقدمنى إليهم ، كما بالغ فى نفس الوقت فى لقب «سعادة الوكيل» الذى أطلقه على

انقضت الأمسية على خير وكنت متلهفا على العودة إلى عزلتى فى نهايتها فالأحاديث التى دارت خلالها لم يكن فيها شئ مما يحرك لدى شهوة الكلام أو يجذبنى لمتابعة المتحدثين ، وإن كان الرجال الأفاضل قد ودعونى بحرارة وأظهروا من الحفاوة بى ما أثر فى نفسى .

ومع هذا ورغبة فى زيادة الاحتياط فقد اخترت بعد ذلك بيومين حين غادرت الشقة لأقوم برياضة المشى التى تعودت أن أقوم بها على فترات متباعدة أن أتوجه إلى شارع جامع عابدين بدلا من أن أمشى فى شارع حسن الأكبر فى اتجاه القهوة .

ولم أكن ابتعدت لأكثر من خطوات فى اتجاهى الجديد حتى سمعت وقع خطوات مسرعة ورائى وصوت ينادى «ياسعادة الوكيل.. ياسعادة الوكيل»

والتفت لأجد أبوحنفى فى مواجهتى يجاهد ليلتقط أنفاسه وهو يردد معاتبا «ياسعادة الوكيل.. قطعت أنفاسى لألحق بك .. الجماعة منتظرينك بالقهوة على أحر من الجمر » .

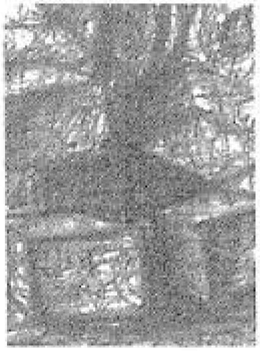
واكتشفت من يومها أن عضوية مجتمع القهوة التزام يومى لا فكاك منه، وأنه لا مهرب من عين «أبوحنفى» قطب الرحى فى ذلك المجتمع الذى لا يجمع



بينه وبين أعضائه شئ من تقارب العمر أو المظهر، اللهم إلا أنه من أولاد الحى ويحب صحبة الناس المحترمين .

واكتشفت بعد عدة أمسيات مع مجموعة المتقاعدين، أو أعيان الحى كما يحلو لأبو حنفى أن يطلق عليهم، أن نشاطهم لا يتوقف عند حدود جلسات القهوة فحسب، بل إن أداء الواجبات الاجتماعية من عزاء فى المآتم وتهنئة فى الأفراح مما يدخل فى برنامج الأمسيات الذى يعده أبو حنفى بدائرته الواسعة من المعرفة الاجتماعية وحرصه على الأداء الجماعى للواجب .

ولم أستطع أن أفهم إلى اليوم سر سيطرة هذا الرجل الذى لم يكمل بعد الأربعين من العمر على هذه المجموعة من أرباب المعاشات الذى هو فى مقام الابن منهم



وقدرته على أن يجمعهم ويحركهم بأسلوبه الفريد الذى يجمع بين الإلحاح والمجاملة والاستعداد لتقديم الخدمات حتى الطلبات المنزلية كما فهمت تلميحا من جلساتى المتكررة بينهم .

ولم أعرف فيما وراء ذلك شيئا عن أبو حنفى الذى يبدو أنه كان يعرف كان شئ عن كل فرد من أفراد المجموعة تفصيلا .

ولعل الأستاذ عبدالبارى بوصفه أقرب جار إليه فى الحارة الضيقة المتفرعة من شارع حسن الأكبر كان بالضرورة يعرف، ولكن حتى لو كان يعرف فإننى لم أر الجماعة قط ملتئمة من غير حضور أبو حنفى بعينه المدققة الفاحصة وسمعه الذى يلتقط دبيب النملة .

ويبدو أن الأيام هى أفضل مصدر للمعرفة، ففى ليلة كنت أستعد فيها لأن أوى إلى فراشى ، وكان هدير السيارات كاد يتوقف فى الشارع الرئيسى حتى عم الحى ما يشبه السكون إذا بجلبة وصياح وصراخ ترتفع من اتجاه الحارة الضيقة التى تطل عليها شقتى من الخلف وتقع فى نهايتها العمارة التى يقطنها أبو حنفى ، تختلط فيها أصوات نسائية حادة بأصوات الرجال الغاضبة .

ولو كنت من الذين يستهويهم استطلاع مشاكل الآخرين لكان من السهل على أن أتبين موقع المعركة وأشخاصها من نافذة الحمام ،

ولكنني آثرت أن آوى إلى فراشي ودفنت رأسي بين الوسادتين حتى لا تزعجني الجلبة واستطعت أن استجلب النوم .

وكان الفتى «أحمد» الذى يقوم على خدمتى هو الذى تطوع بأن يقص على وأنا أتناول وجبة إفطاري ما التقطته أسماعه عن واقعة الأمس فى جولته الصباحية للتسوق ، وتبين أن بطلها ليس أحدا أخر غير الأستاذ محمود .. أبو حنفى ، فقد أغارت عليه زوجته الأولى التى طلقها منذ عام فى جمع من أقاربها لتطالبه بنفقتها ونفقة الأطفال الخمسة الذين أنجبهم منها وتخلص منها ومنهم ليخلى البيت لزوجته الجديدة ... وهى حامل فى شهرها السادس .

والعجيب أن الزوجة الجديدة قد انضمت للأولى فى الشكوى من إهماله لأمور بيته وعياله وانطلقت تنفس عن نفسها هى الأخرى بمشاركتها سبه وإهانته ، وكاد الأمر يتطور إلى ما لا يحمد عقباه لولا تدخل أولاد الحلال لفك الاشتباك وتخليص أبو حنفى من أيدى المرأتين .

أعترف بأننى شعرت بارتياح إذ تصورت أن فى ذلك نهاية نشاط أبوحنفى الاجتماعى فى الحى ، وخلاصى بالتالى من سهرات قهوة حسن الأكبر ومن مهام المجاملات الاجتماعية التى كانت قدمى قد بدأت تنزلق إليها .

وأيقنت أننى قد عدت إلى برنامج عزلتى المحببة عندما انقضى يومان لم أغادر فيهما شقتى ولم أسمع فيهما حسا ولا خبرا عن العالم الخارجى ولم يقطع على صفو قراءاتى فى الأمسيات شئ .



حتى كانت الليلة الثالثة ، وكنت أستعد للجلوس فى الشرفة المطلة على الشارع أتلهى بمراقبة حركة السيارات والمشاة إلى أن يحين موعد نومى وإذا برنين جرس الباب ينطلق حادا مزعجا حتى كادت ضربات قلبى تتوقف من وقع المفاجأة .

وجدت وجه أبو حنفى يطل على بابتسامته المعهودة من فرجة الباب ، ووجدتنى أهتف فى دهشة غير مفتعلة :

« أستاذ محمود الشيمى؟» .

«وبعدين معاك ياسعادة الوكيل .. أبو حنفى ياباشا .. أبو حنفى» .

وقبل أن أنطق بكلمة أخرى كان قد انسل إلى الداخل واحتل مقعده المعتاد فى الردهة .

كنت محرجا لا أدرى ماذا عساى أقول أو لا



أقول وقد علمت بنبأ مشكلته الصاخبة مع زوجتيه؟ ولكنه كان يجلس أمامى هادئا مبتسما كعادته لا يبدو عليه أدنى تغيير .

«سعادتك وحشتنا فقلت أمر عليك لأطمئن... ولأحدثك فى موضوع لا يمكن أن أثيره إلا بينى وبينك على انفراد قبل أن ننزل إلى الجماعة فى القهوة»

توقعت أنه آثر أن يحدثنى عن الواقعة بنفسه فاتخذت وضع الاستماع وجاهدت أن أرسم على وجهى علامات التعاطف والتأثر مقدما .

«سعادتك رجل فاضل وتستحق كل راحة وتحتاج إلى من يملأ عليك فراغ هذه الشقة ويؤنس وحدتك وأنت ماشاء الله كل من يراك لا يصدق إلا أنك مازلت شابا..» .

وهنا صمت برهة ليتنحنح، وتململت فى مقعدى فلم أكن مرتاحا للوجهة التى بدأ يأخذها كلامه .

«هناك من السيدات الفاضلات من يليق بمقامك ، ومن تتمنى أن تصبح شريكة حياة شخصية عظيمة مثلك .. هناك مثلا سيدة فاضلة.. أرملة توفى زوجها منذ خمس سنين.. شقيقة حرم المستشار عبدالبارى ...» .

وقبل أن يكمل أبو حنفى حديثه الذى لم أسمع بقيته كنت قد اتخذت فيما بينى وبين نفسى قرارا بأن أرحل عن حى عابدين منذ الغد وأن أقبل عرض ابنتى للمعيشة معها فى غرفة

مستقلة بحمامها بين أحفادي حتى ولو كلفني الأمر أن أعيد وضع كتبي في صناديق الكرتون وأبعثها مرة أخرى إلى حيث تلتهم الفئران والقوارض صفحاتها وإلى اليوم وقد مضى مايقرب من عامين منذ رحيلي من عابدين مازالت صورة أبو حنفي تمر بخاطري كلما تذكرت أيام إقامتي بعابدين ، وتجعلني أشعر أحيانا بوخز في الضمير إذ يخيل إلى أنني ربما كنت مبالغا في نفوري منه رغم أنه لم يخطئ في حقي بل ربما كان مجاملا كما يفهم هو المجاملة وربما كان حسن النية فيما يفعل ، وربما كان يحاول أن يهرب من مواجهة مشاكله الخاصة بأن يلقى بنفسه في دائرة أوسع من مشاكل الآخرين .

وتذكرت أنني كنت أحتفظ بين أوراقي بقصاصة دونت بها سطور نقلتها عن مقال قرأته منذ سنين يكاد كاتبه يتحدث فيه عن مشاعر مشابهة تجاه نموذج لشخصية قريبة من شخصية أبو حنفي، وبحثت بين أوراقي حتى عثرت على القصاصة ووجدت مدونا بها:

«يوجد صنف من الناس لا يدري أشر هو أم خير، لين الجانب إن أحسن أو أساء، ليس بذي طعم مر فتلفظه النفس جملة ولا هو حلو حلاوة خالصة .

أمره مختلط وما يتركه في نفسك من الأثر غامض أيضا غير واضح، لا تستطيع أن تحبه لأنك تشعر بشك في إخلاصه وصفوه ، ولا تجرؤ أن تكرهه مخافة أن يكون طيبا .. لا يمكنك أن تأخذ عليه رذيلة عارية ولا يمكنك أن ترى له فضيلة بينة .

أعرف من هذا الصنف أناسا ممتازين بذكاء ونشاط وكفاءة، ولكنني أكره أن يكثر أمثالهم في الناس » .

ولو عاش من كتب هذه السطور منذ سنين إلى يومنا هذا لوجد أن أمثال الأستاذ محمود الشيمي، أعني أبو حنفي ، قد تكاثروا في الناس حتى صارت تتشكل منهم شعوب بأسرها . ■



في عز الظهر

بين نقد النقد وجاذبية مسرح الفضيحة..

بقلم
د. أسامة أبو طالب

بقدر ما حظيت به تجربة أسامة أنور عكاشة المسرحية الأولى «الناس اللى فى التالت» من شبه إجماع على الإعجاب، بقدر ما أحاط بعمله الثانى من هجوم - بدأ قبل الرؤية واستبق المعاينة - حتى بدا وكأنه نوع من التربص المسبق بالكاتب ينتظر الفرصة للتمحك به كى يطلق عليه اتهاماته بالقصور وأحكامه بالفشل. كان ذلك هو الطابع العام لغالبية ما كتب - نقدا علميا أو صحفيا - فيما عدا قلة من الكتابات ينسب أغلبها لغير متخصصين أبدت إعجابها بما شهدته نصا وعرضا.

وربما كان دافعها إلى هذا الإعجاب هو تأييد «الخطاب السياسى الاجتماعى للنص. ذلك الذى بدا سافرا يطل بوجهه - كل لحظة - متحديا صنعة الكاتب ومهارته المجربة فى صنع الحكايات باعتباره حكاء «قديما أو قاصا» أفرغ فى دراماته التليفزيونية «حواديته الواقعية» فلما اتجه إلى المسرح لم يعان من فقر فى الخيال يلجئه إلى «الموضوع المسرحى القديم» فيعيد تقديمه - مثلما فعل ويفعل الكثيرون - أو إلى «التاريخ» يتمحك فيه مستجديا منه موضوعا. أو ربما يتحول إلى «الكلاسيكيات» يعيد سبكها ناسجاً على بنيانها القائم معارضات غالبا ما تكون «ذهنية» تمتد أسهمها إلى «الخطاب» - أو عالم المعنى - بالمناقضة الفكرية أو بالتعديل فيما هى تخفى تعيشها على جسد النص: دمه ولحمه!.. أو تقوم بالاعتداء على «جسده» وبنيته - فى ادعاء للتجديد وتشدق بالابتكار - بينما لا يعدو دورها عن تشويه ملامحه بتعديلات لا تخرج عن كونها شكلية مفتعلة دون مجادلة للخطاب الأساسى أو مماحكة عميقة معه تبرر إحداث ما أريد به من تغيير!

لكنها تأييد الخطاب السياسى والاجتماعى فى العمل لم يكن وحده المتسبب فى صياغة موقف الإعجاب أو الرفض للعمل. فقد تدخلت عوامل أخرى ليست من صلب النقد المسرحى بل من حوله وعلى هامشه فى تشكيل موقف التلقى بشقيه القابل والرافض معا. يتضح ذلك من مراقبة جملة ما كتب عن



سميحة أيوب وعمر الحريرى فى مشهد من « فى عز الظهر »

عرض مسرحية «عز الضهر» – ما سبقها وما صاحبها من كتابات أو أعقبها – ومن استقرائها يتضح «الخلط» بين ما هو إدارى تنظيمى وما هو فنى نقدى، ورغم أن ذلك شأن غالبية التغطيات الصحفية وديدنها، إلا أن هذه الحملة المسبقة على المؤلف لظفره بفرصة أخرى للعرض على المسرح القومى – أكبر وأهم مسرح مصرى – فى موسمين متتالين كان من شأنها أن تجند رأيا عاما مسرحيا ضده وضد إدارة البيت التى أقرت ذلك، وأن تعلو أصابع الاتهام مشيرة إلى ممارسة الكاتب الناجح ضغطا كان من شأنه تمرير المسرحية بعد رفضها رفضا مبدئيا حجته تحقيق عدالة التوزيع فيما أسميناه بكعكة مسرح الدولة. فإذا كانت مثل تلك الاعتراضات مشروعة – ومن حق الصحفى والناقد وجمهور المسرح وطابور الكتاب والأعمال التى طال انتظارها للتحقق على خشبة المسرح العريق – أن يثيروها وينتظرون إجابة «إدارية» شافية مقنعة عليها، فالذى ليس مشروعا ولا عادلا هو تركها تطغى على الرؤية النقدية للعمل فتصدمه بأحكام جاهزة ورفض مسبق دون تمحيص علمى يفصل بين ما هو «إدارى» وما هو «فنى» أو بين الذاتى والموضوعى بلغة النقد.

فهل أثر ذلك الموقف – من الكاتب «المحظوظ» على ما وجه لمسرحيته الثانية «فى عز الضهر» من نقد؟ .. ذلك ما سوف تكشف عنه قراءة أهم الانتقادات وأكثرها جدية ومجادلتها فى دراستين نتخذهما نموذجا لـ «نقد النقد فى مقالين (أولهما للناقد للأستاذ مهدى الحسينى، نشر بمجلة الهلال عدد يونيو ٢٠٠٣

بعنوان : فى عز الضهر عرض غير مسرحى لا يكشف شيئاً. والثانى للدكتورة وفاء كمالو. نشر بجريدة الأهرام المسائى فى ٢٠٠٣/٥/٢٦ - تحت عنوان : انتهاكات مسرحية مستفزة فى عز الضهر).

الدعوة إلى التفاؤل

ولنبدأ بالمقال الثانى حيث صيغ فيه النقد على هيئة تساؤلات ومآخذ تبدأها صاحبته بالاعتراض على ما رأته فيه من «عدمية وإحباط وظلم. حيث المؤلف - من وجهة نظرها - قد اتجه إلى اللون الأسود القاتم ليرسم به ملامح شخصياته وتنازل طواعية عن ثورة التوهج التى تبعثها تناقضات الألوان.. بما يجعل تلك الرؤية الأحادية المغلقة تتنافى تماما مع مفاهيم الجدل والحوار، ومع الطبيعة النسبية للوجود). أما اتجاه المقال فهو واضح تماما فى مطالبته للكاتب - أى كاتب - أن يبعد عن العدمية والتشاؤم وأن يكون متفائلا !! وهو حق تدعيه الكاتبة للنقد فيما هو لا يملكه ولا يمكن للناقد إذا أراد أن يكون موضوعيا أن يدعيه. ذلك لأن أولى شروط الموضوعية فى النقد هى رؤيته للعمل الفنى «كما هو على حقيقته».

أم عن «غيبة الصراع الحقيقى» - التى أكد عليها لمقال - فيحمل هذا الرأى نظرة سطحية إلى كنه الصراع الدرامى وحقيقته مثلما يميل إلى تضييق مساحته وقصر نوعه على صنف تقليدى واحد. وبمثله ينسى فن تشيكوف ويتم تجاهله تماما على سبيل المثال. مثلما يفتقد الانتباه إلى حالات مسرحية هى مجرد «عرض درامى» أو «تقليب كاشف» للشخصيات حيث تصبح كل واحدة منها هى «دراما بوح» أو «إفضاء» لكل منها توتره الخاص. مثلما يرسم اجتماعها لوحة تتناثر على مساحتها مجموعة من «التوترات الفردية» وتستقر كى تصنع توترا جامعا تنوء فيه كل منطقة - أو شخصية - بما تحمله من هم وعجز وخجل وطيبة وشر وخير وفساد وصلاح بدرجات متفاوتة . مثلما ترزح تحت وطأة ما تخبئة وتخاف أن ينكشف ، وما تكشفه وتخشى أن يجرها إلى هتك سرها أو دفع تاريخها إلى لحظة الافتضاح!

ومن هنا لا يجب أن تؤخذ «تقنيات السرد» على أنها نقيصة أو تعامل باعتبارها مثلباً. وإنما ينبغى أن توضع الملاحظة فى مكانها وتطرح على صيغة الضرورة التى أوجبتها والنسق الفنى المتقبل أو الرافض لها. وإلا أصبحت كل تقنيات السرد فى الدراما مرفوضة وفقا لهذا المنطق وحكم على تقنيات الدراما ولغة الحوار فى القصة أو الرواية بكونها خطأ وجريمة. وهو ما نظن النقد العالم متعاليا عليها لا يقع فيها أو هكذا يجب أن يكون. ومن هنا أيضا ينبغى أن ينظر إلى ما أصاب العرض من تفكك أو ترهل باعتباره إطلالات وزوائد تأخر اكتشافها فى التدريبات وجلسات العمل بين المخرج والكاتب مثلما مررها الممثلون طواعية ومن رضا. فأى الممثلين يرفض أن يترك ليقول وأن يعزف فينفرد؟؟ خاصة إذا كان ما يقوله دافئا وحميما ومؤثرا . وعلى ذلك يجب أن يحاسب المخرج - صاحب العرض - لتردده فى استعمال المقص. ذلك التردد الذى يصيبه فى مقتل اسمه «الايقاع» فيثبطه ويهبط بتوتره وانتظامه. وفى هذه النقطة لصاحبة

المقال الحق فيما أبدته من نقد.

استنكار لائق

فإذا انتقلنا إلى مقال الأستاذ مهدى الحسينى وضعنا أيدينا على رؤية واضحة منه لمفهوم صراع الأجيال . لكنه لا يلبث أن يفترض - هو الآخر - أنها مسرحية عنه أو يظن أن الكاتب أراد ذلك ! ومع أنه قد انتبه تماما لمقصد «العرض» الذى أراده الكاتب من العمل، إلا أنه أراد له أن يكتب كما يريد هو لا كما أراده صاحب العمل وابتغاه . ولذا فهو يركز فى العمل حين ينعى عليه «تركيزه على هذه الجزئية المشوهة واجتهاده أن يجمعهم فى بلاج واحد ومسرحية واحدة .. «مثلما يستنكر عدم وجود شخص أو شخصين صحيحين يشكلان نقيضا دراميا لهؤلاء الفاسدين الذين اكتفى المؤلف بتقديمهم؟! وهو استنكار يليق بأى شخص وأى لسان سوى شخص الناقد المسرحى ولسانه .

فليست مهمة الناقد - كما يعرف - هى تحقيق التوازن الاجتماعى واستيفاء تمثيله فى العمل الفنى الدرامى. ويكفى أن أحيله على «الآنسة جوليا» ليتذكر نوعية البشر الذين عرضهم أوجست سترنبرج الكاشف لأغوار النفس الإنسانية فى فسادها وعدم استوائها دون تقيمه أطرافا أخرى توازن هذا السقوط أو تعادله! فتلك صنعة الكاتب وخياراته وليس لنا على خياراته تبديل وإنما أن نبدأ فنرى من حيث انتهى وفرغ من عمله . وأن نقل عدم الاتفاق الفكرى معه ليس باعتباره نقيصة تستدعى الحرب وإنما خلاف يحتمل الحوار ويغرى بالمناقشة!

ولذا نرى فى هذا المقال نوعا آخر من الحكم غير المفصل أو المثبت على هبوط المسرحية حيث يقول. «إذا كانت النوايا المسرحية - كما استنتجناها - تحكى قصة عاهر بدأت حرفتها فى مرحلة الستينات (المجيدة) وتحولت بفضل مهنتها إلى نوع رخيص من سيدات الأعمال (تملك بعض العقارات وتأجير المفروش والسمسرة وتهيمن على أغلب بلاج الثغر.. إلخ) حيث حاول المؤلف أن يصور من خلالها جانباً من حقبة طويلة مركبة من تاريخ المجتمع المصرى أو فئة من الفئات الطفيلية العالقة بجسده (لم يفلح المؤلف فى هذا المسعى لأنه لا يملك الرؤية الفكرية أو الفنية .. ولا القدرات الإبداعية والتقنية اللازمة لذلك).

«ولكن لم يقدم المصمم سوى مجموعة شاليهات ومبان تطل على البلاج وقام بتغيير هذا المنظر إلى مشهد لقسم الشرطة لا لزوم له».

وهو ما نراه قفزا سريعا إلى الحكم وإطلاقا له دون ما برهنة أو إثبات. لكن ما أثبته عن عدم وجود ضرورة لدورى بائع الفريسكا ينبغى التوقف عنده ليس بالحذف بل بإعادة المعالجة حيث يمثل البائع شاهدا على واقعة الغرق، بينما كان يمكن حذف مشهد قسم الشرطة بكامله والاكتفاء بردود الأفعال على الأهل لولا ولع المؤلف «بموقف الفضيحة» الذى جربه فى مسرحيته السابقة بنجاح مثير. وعلى ذلك يصبح رأيه فى عدم جدوى وضرورة عودة الضابط بالجثث زائدة تمثل عبئا على العمل وترهقه دون أن تضيف له.

ولأن المؤلف لم يقل أن هؤلاء التافهين هم جيل المستقبل فى مصر، فلا نرى

محلا للخلاف إذن بين الناقد وبين صاحب النص، بل هم كما وصفهم «مجموعة مخيبة للآمال معنويا . ومشاريع لشخصيات سيئة كذويهم» إلا واحدة فقط نسي الأستاذ مهدي أنها رافضة وأن رفضها هو بشارة على الوعي ووعد به. وأنها قدمت تقديما صحيحا من أول العمل وما دام قد اعترف بذلك لداليا مصطفي ولدورها فلم التعميم إذن ؟!

لكننا لا نرى رأيه في البناء الدرامي ولا نوافقه من أنه «يقوم على المصادفة والاعتباطية لا على الضرورة الدرامية، فكأن الشاليهات جاءت بالمصادفة وكان من الممكن أن يأتي بالمصادفة غيرهم من أنواع أخرى وبالتالي يتغير موضوع المسرحية .. إلخ» لأن الدراما فن يقوم على الممكن والمحتمل شريطة أن يصدقه العقل. ومما يصدقه العقل اجتماع مثل تلك الزمرة في مكان واحد على الشاطيء، وما يصدقه العقل كذلك تكرار حضورهم لهذا المكان واستئجارهم له كل صيف وهو ما اعتادت عليه كثير من العائلات لو ارتاحت إلى مكان! فأي خطأ في ذلك؟ وأي نقيصة في أن يتخير الكاتب أشخاصه فيضعها في مكان أو ينقلها لآخر؟ إن الدراما تبحث عن الدوافع للفعل أي فعل حتي ولو كان غريبا واستثنائيا مادام يصدر عن بشر أو يتوقع صدوره عنهم؟

ملاحظة أخرى حول المذهب الطبيعي الذي زعم أنه منهج صياغة هذا العمل، وهو ما نراه بعيد عنه بالمرة لأن عرض نماذج سيئة لا يعني الانتماء لهذه المدرسة بالضرورة.

مسرح الفضيحة

فما الذي نراه في «عز الضهر»؟؟ التي نريد أن ننسبها كسابقتها «الناس اللي في التالت» لمسرح نسميه بـ «مسرح الفضيحة» حيث ينطوي أكثر من نصف الفصل الأول على كوميديا راقية منتظمة الإيقاع خصصت لعرض واقع الشخصيات سكان المكان والتعرف تدريجيا على بعض من حياتهم الماضية. لكن النصف الثاني يبدأ الثرثرة ليتهاوى التوتر ويكثر الكلام. (كان توفيق عبدالحميد رائعا ملهما خفيف الظل متعاونا مع يوسف داوود في دويتو رائع بالغ العذوبة والتفاهم).

أما في الفصل الثاني : فقد أتت معالجة المخرج لمشهده معالجة تقليدية وإن كان له حق في السخرية من عناصرها المسكينة الجاهلة . لكنه عامل المشهد بحس تهريجي بدلا من تناوله بجدية فاضحة يستحقها دون تدخل منه بقصد الإضحاك. أما الذي أفقد فعل غرق الأولاد مصداقيته وتسبب في تعادل الفنانين مع هذا الحدث الجلل من السطح فتركوا أنفسهم يمثلون دور من فقدوا الأولاد لا أهلهم الذين فقدوهم بالفعل فيما عدا عمر الحريري الذي عاش دورة صادقا. وبعد ذلك تبدأ «المحاكمة» التي يعشقها أسامة عكاشة وأدارها في مسرحيته السابقة بتمكن وعلي صورة فضيحة أيضا قوامها كشف الماضي بتعرية الشخصيات – أو التفتيق لبعضهم البعض كما يقولون جميعا كي تنكشف عفونة الأرض التي يقفون عليها جميعا وفضح فسادها . هكذا يهتكون حقيقة بعضهم البعض! وعندها تبدو توبة زينات سطحية . مثلما يظل الخلاص بعيدا إلا عن الشابة الصغيرة داليا التي مهد لخلاصها وزرع له منذ البداية . أما رد فعل غرق الأولاد فلم يعامل بجدية

ربما لرغبة المخرج في تغليب المستوى الرمزي بإيحاءاته المباشرة في العمل، بينما تسبب كشفها على هذه الصورة في ترهل الإيقاع وضياع التوتر - لقد صادر تعميمه عودة الأولاد بغموضها على استخراج المعنى لدى المشاهد. حيث كان من الممكن أن يعودوا بالفعل وتصبح عودتهم نذيرا لجيل مدان يمثله الأهل، وإفاقة لجيل متوسط ضائع يمثله صاصا. مثلما كان من الممكن أن تكون تلك العودة خدعة تمثيلية صنعوها كي ينتبه لهم الأهل أو يحاكمونهم فيرفضونهم. وإنما دون السقوط في المباشرة كما حدثت.

ومن الصحيح والمنطقي أن بناء وطن على أرض تحولت إلى بركة أو مستنقع لابد وأن ينهار. وأن هذا الماضي مدان - من وجهة نظر الكاتب - وقد تفرغ لإدانته بتكنيك كشف الفضيحة المختبئة تحت سطح العفة المدعاة قد برع فيه عكاشة وكرره لكن تكراره لا يجب أن يمتد إلى عمله المسرحي القادم، مثلما لا ننكر أن الثرثرة في المشاهد والإفضاءات الطويلة للشخصيات والبوح والمناجاة قد تسببت في مباشرة وخطابية وقعت فيها مجموعة من الممثلين القادرين والرائعين بحسب تخيرهم للمخرج.

الشكل المسرحي

أما عن المنظر المسرحي فقد أعلن عن تماسكه وتعبيره عن الاختناق والتداخل والاتكاء على بعضه دون ما استقلالية مما يوحي بفهم واضح للنص والبشر والمكان المتخير كي تدور فيه الأحداث، وكذلك الملابس بألوانها وقصاتها أيضا. فيما جاءت الأغاني زائدة - رغم جودة كلماتها إذا نظر إليها منفصلة عن العمل - مقتحمة أو مقحمة تصادر على اكتفاء الاقناع بالدراما بتدخلها غير الضروري وسيطا بينها وبين عقل المتفرج.

لكن أداء الممثلين كان رائعا فزوجة البواب «فلك نور» ممتازة وعلى عبدالرحيم رائع كممثل كوميدي وكذلك صبري عبدالمنعم وسامي مغاوري - أما سميحة فكعهدها دائما متألقة متمكنة وقادرة. وكذلك عمر الحريري بعبق وقفته التاريخية وأدائه السامق وحضوره المعهود على المسرح (أليس هو من قدم رائعة ديستوفسكي الجريمة والعقاب ذات مرة بأسلوب مبتكر لم يسبق إليه أحد؟ لكنها مع الأسف ضاعت فيما أضعناه من ذاكرة المسرح المصري دون ما حفظ أو توثيق!). أما سلوى خطاب فقد استقرت في العرض مجددة لشخصية تقليدية، ومشعة لجاذبية حقيقية أدتها بلا افتعال أو حشرجة ميلودرامية رغم ميلودراميتها!

وبعد: فهل كانت مصر هكذا فعلا؟ لا أظن ولكنها القيادة الفاسدة التي تسببت في كل ما هو حادث بعد الهزيمة الانفتاح المترف غير المسئول!

بقيت كلمة تتعلق بتصميم العمل تدور حول انتهائه بخطبة ضعيفة ربما كان الأفضل منها هو الانتهاء بالفاجعة. فاجعة الفقد إما نهائيا أو بعودة الأولاد وتفكك هذه العلاقات العفنة بالطلاق والخروج من المخدرات وهجر الدعارة والقوادة. أي بإفاقة حقيقية يشترطها كل شاب أو شابة على ذويه - أو رفضهم الكامل لهم - لكن أما وقد أراد الكاتب تركهم بلا وعي - فهذا شأنه ومن حق الكاتب الذي لم يعتمد للصحوة غير صوت الشابة «داليا» وحدها وعلينا أن نناقش عمله كما أراد له أن يكون. ■

رسالة لندن

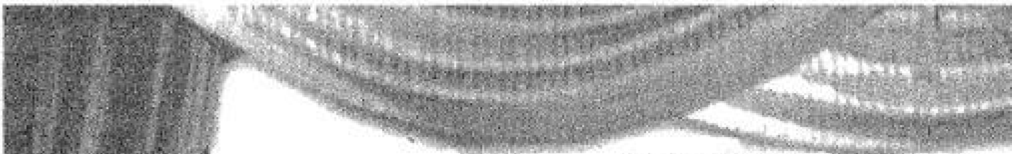
المسارح اللندنية اليوم بين الوهم والحقيقة

بقلم
أبراهيم فتحى

يعرض على المسارح اللندنية هذه الأيام كثير من المسرحيات المتنوعة بين كلاسيكية وحداثية وما بعد حداثية وما بعد بعد حداثية، ولكن شكسبير فى عروضه المتباينة وأزياء ممثليه ومنظورات مخرجيه شديدة الاختلاف دائبة التنقل بين العصور والأقطار والتفسيرات نجم الموسم وكل موسم. وتساءلت لو عاد شكسبير إلى الحياة وامتحنته لجنة أكاديمية من اللجان عالية الكعب المتخصصة فى أدبه ومسرحه، وتعدد قراءاته المتناقضة الاجتماعية والسيكولوجية والاسطورية والسيميولوجية والثقافية لطردته اللجنة باعتباره لا يستحق إلا ما تحت الصفر فى الفهم العميق «للبنى العميقة» لتراجيدياته وكوميدياته. فهل توجد قراءة ممتازة لمسرحياته تصل إلى «حقيقتها» العارية من الزيف؟

(على المسرح القومى عام ١٩٩٨ تعرت الممثلة الشهيرة هيلين م(ـرين فى دور كليوباتره داخل المسرحية الشكسبيرية «انطوني وكليوباتره» فهل كان ذلك وصولا إلى حقيقة الملكة المجردة أو دون أى ضرورة كما تقول الممثلة إلا ضرورة الخضوع لمقتضيات بيع المسرحية كبضاعة؟).

وبعد شكسبير تعرض لندن فى أسابيع ممتدة ثلاث مسرحيات لتشيخوف: الشقيقات الثلاث، بستان الكرز، والخال فانيا، وقد شاهدت الأولى والثانية والكراسي ممتلئة والحجز مقدما. وما تقدمه المسكوكات المطبوعة مع برامج العرض والمكررة فى المراجعات الصحفية لا يخرج عن تفسيرين لمجمل أعمال تشيخوف: الأول تجسيد لحياته «قل الأشياء البسيطة ببساطة»: نحن نعيش ونعمل ونعانى ثم نموت لنصنع حياة أسعد للآخرين في المستقبل، ولكن هذا الأمل يخالطه يأس ما من الحاضر لأن الحب والسعادة سيواصلان مراوغة الذات



الفردية ,فهل هذا « بسيط بما يكفى وهى قالته أعماله ببساطة؟) والتفسير الثانى الذى يبدو متناقضا مع الأول وإن يكن معتمدا على منطقه ليصل به إلى نفس النتيجة.

مسرح تشيخوف

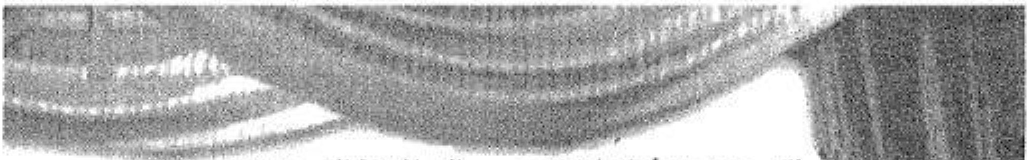
يعتبر مسرح تشيخوف معاديا لكل أنواع التبسيط ولا يتضمن رسالة من أى نوع فهو يحاول دائما البحث عن شىء ما والإمساك به على الرغم من أنه يعرف أن هذا الشىء لا يمكن أبدا الإمساك به. وما هو هذا الشىء؟ إنه «الحقيقة»، ويصبح تشيخوف إذن - بكل يقين - عدوا لليقين . والتفسيران يصلان إلى «حقيقة» واحدة عن طبيعة الوجود الإنسانى الثابتة التى لا مخرج منها. وعلى الرغم من هذه الضحالة الفكرية التى تقيم سورا لا يمكن تخطيه بين الحقائق النسبية الجزئية اليقينية فى الطبيعة والمجتمع وبين إمكان تعميمها فى مستويات لا تنتهى من النفاذ إلى الحقيقة فإن تشيخوف الفنان والطبيب لم يكن من القائلين بحقيقة مطلقة عن الكون والإنسان.

كان يؤكد الشقاء الإنسانى الرازح على زمنه وبلده وإمكان أن يحقق البحث المتواصل أهدافا متزايدة، وكان يحلم بإمكان عالم لا يموت الناس فيه بالجملة من السل (كما مات هو) ولا تنسحق أجسادهم وعقولهم وعواطفهم تحت حوافر وغارات فرسان الرب وسوقة البوليس الفكرى وحقائقهم (أكاذيبهم) المطلقة.

ويبدو أن تصورا رئيسيا ونغمة مهيمنة تشغل الناس ويستجيب لها المسرح فى بريطانيا اليوم، عن حقيقة مرحلة حرب دائمة ضد الإرهاب ومن أجل حرية المواطن وسعادته وإشباع رغباته المنطلقة وأمنه. فما هى حقيقة الأخيلة الإعلامية عن الواقع التى يخشى بها الأفراد؟ وما هى العلاقة بين الذوات الإنسانية وصورها عن أنفسها وإمكانات تحقيق سعادتها ومتعتها . أى ما هى العلاقة بين الأخيلة الجمعية والفردية من ناحية والواقع الخارجى والداخلى أو حقيقته من ناحية أخرى.وهل توجد حقيقة؟

وننطلق إلى مسرحية كلاسيكية «حداثية» للكاتب الإيطالى لويجى بيراندللو (١٨٦٧ - ١٩٣٦) فى مسرحية «أنت على صواب إذا اعتقدت أنك كذلك». وقد ترجمت وأعدت من جديد بالإنجليزية بعنوان مختلف هو: إطلاقا (ربما).

وتختلف تجربة قراءة هذه المسرحية كنص أدبى عن تجربة مشاهدتها متجسدة على المسرح مؤداة معاداً تفسيرها لتطل بمستوى من مستوياتها على أيامنا. وقد كتبها بيراندللو وبلاده غارقة فى نيران ودماء وجثث الحرب العظمى التى دارت مذابحها فى أوروبا والشرق الأوسط. وكانت إيطاليا جزءا من «الحلفاء» الديموقراطيين (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية ثم انضمت إليهم الولايات المتحدة) ضد معسكر الاستبداد (القيصرية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية والخلافة العثمانية) . وكانت «الحقيقة»



التى يموت من أجلها فلاحو وعمال بلاده البائسون العاطلون هى «التحرير» والديموقراطية فى أوروبا والشرق الأوسط. مجزرة مباركة من أجل الحرية والقيام بمسئولية الرجل الأبيض تجاه الشعوب المتخلفة عن طريق الإطاحة بمستبدى الخلافة العثمانية الذين يضطهد منهم فى الخليج والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان ومصر، ونشر الليبرالية الاقتصادية والسياسية بعد اقتلاع جذور «البطش الإسلامى وعقلية القرون الوسطى» ومن يقرأ رواية «وداعا للسلاح» لهمنجواى عن إيطاليا أيام كتابة بيراندللو لهذه المسرحية لا يشك فى «حقيقة» آلاف الجثث المتعفنة والرءوس المقطوعة والأطراف المبتورة والبطون المبقورة وفداحة آلام الخراب والبؤس وراء أناشيد ومارشات وملصقات وشعارات المجد والليبرالية وحرية التجارة وإنقاذ الشعوب المقهورة. ويقول بيراندللو فى خطاب لابنه عن هذه المسرحية (١٧ ابريل ١٩١٦) «الحياة تبدو الآن أكثر فأكثر مثل سلسلة صور كابوسية محمومة من الأوهام الضخمة المندفعة المتلاحقة، مثل صور كوميدية مجنونة»، ويكتب لابنه فى ١٨ ابريل ١٩١٧ عن هذه المسرحية إنها «أمثولة (أى مصممة لكى تنقل تصورا عاما أو نموذجا إيضاحيا مجازا لا يقف عند واقعية الجزئيات) أكثر منها كوميدية، مسرحية شيطانية من الفكاهة الطائشة المتهورة الماكرة الفارغة إلى الإزعاج».

وأمامنا على الورق «حالة» عائلة مكونة من زوج وزوجة وأمها، هاجروا إلى المدينة الجديدة بعد أن دمر «الزلزال» مدينتهم الأصلية وفقدوا كل أقاربهم وجيرانهم وأحباءهم وممتلكاتهم وأشياءهم الخاصة، وبطبيعة الحال فقدت العائلة المستندات الرسمية لهوياتهم وهويات أهلهم من شهادات ميلاد وعقود زواج وشهادات وفاة و... ولم تستطع العيش إلا بفضل مهارات الزوج العملية التى أهلته للالتحاق بوظيفة لدى المستشار الذى تدور المسرحية فى شقته العائلية، وهى تقع بجوار المسكن الذى وضع فيه الزوج حماته بعيدا عن مسكنه مع زوجته. ولا تزور الأم ابنتها فى مسكنها بل تقف تحته وتخاطبها ويتبادلان الرسائل بواسطة سلة تنزلها الزوجة وترفعها. ويقوم الجيران المحترمون وهم من النخبة المثقفة فى الفصل الأول والثانى ومعهم أهل المدينة وعمدتها فى الفصل الثالث من النص باقتحام حياة الحماة والزوج فى الفصلين الأولين والزوجة فى الفصل الثالث متسائلين مستجوبين. ومن الطبيعى فى وضع العائلة المنكوبة أن يعصف «الزلزال» بذاكرتهم عن الماضى وبأن يفرض عليهم اللجوء إلى شرانق هروبية تشبه الهلاوس يخدعون بها أنفسهم على المستوى الفردى ليستطيعوا مواصلة الحياة بعد فقدان معظم ما كان يشكل لهم معنى الحياة. فالزوج يتخيل أن زوجته الأولى ابنة الحماة ماتت فى الزلزال وأن زوجته الحالية ليست ابنة الحماة «المجنونة» لذلك يفصل بينهما رغم المشقة فى النفقات، والحماة تتخيل أن ابنتها حية وأنها هى الزوجة الحالية للزوج «المجنون» وتتظاهر بمجاراة أوهامه فهو حنون ملتزم بها وبابنتها.

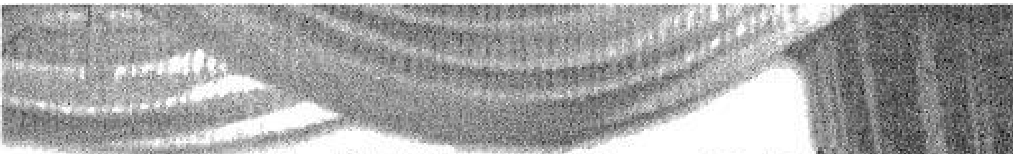
الأخيلة الجماعية

ولا يركز بيراندللو على الأخيلة الفردية وحدها وأوهامها عن الواقع والهوية الذاتية بل على الأخيلة الجماعية أيضا كإطار تدور فيه الألغاز. فالأخيلة الجماعية المقرة المقبولة التى يبثها أصحاب النفوذ الاجتماعى والسياسى والإعلامى عن صورة النفوذ الاجتماعى والسياسى والإعلامى عن صورة العائلة وقواعد اللياقة والسلوك قد تكون نابعة من الفهم المشترك الراكد والرأى العام المصنوع والذوق السليم المعلب وتومىء مفارقات الحوار الفكاهية عن تناقضات هذه الأخيلة مع السلوك الفعلى للنخبة المحترمة وعن هشاشتها. ولكن هذه الأخيلة الجماعية تقدم القوالب التى تصب فيها النخبة الهويات الذاتية للأفراد داخلها وخارجها، وتقوم «بتأليفهم»وهذه الأخيلة الشائعة المتداولة تتحول إلى ضغوط عملية واقعية تدفع الزوج إلى محاولة ترك المدينة ليقع فى بؤس مجهول، ولها نتائجها «الحقيقية» المدمرة على حياة الأسرة، تحاصرها وتجرحها وتدميها. وفى هذه المسرحية لفت بيراندللو أنظار الممثلين فى أول عرض إلى «الكلمات الأخيرة التى تحوى أعمق معنى لها، وهى الكلمات الموضعة فى فم الزوجة الممتلئة بالحيوية، إنها رمز الحقيقة، وهذه الكلمات الأخيرة ملغزة. فهى تقول عن ذاتها أنها تجمع معا تخيلى الأم والزوج اللذين ينفى كل منهما الآخر، هى الابنة الحية كما تدعى أمها، وهى زوجة ثانية بعد وفاة الابنة الميتة كما يدعى زوجها بل هى فى حقيقتها الداخلية الذاتية ليست هذه ولا تلك ولا احد على الإطلاق هى كل ما يتخيله الآخرون عنها وليست كذلك فى الوقت نفسه. وتذكرنى هذه القفلة المسرحية «بشهرزاد» لتوفيق الحكيم (رمز الحقيقة)، فهى عقل كبير كما يتخيلها شهريار وقلب كبير كما يتخيلها الوزير قمر وجسد شهى كما يتخيلها العبد الأسود وستظل مرتدية قناعا يخفيها

الهلاوس وفضح التصورات الرائجة

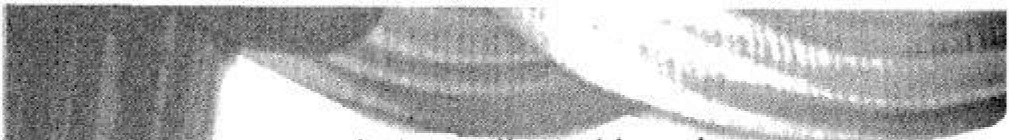
والتفسير المعتمد لأعمال بيراندللو يؤكد أن الواقع الخارجى لا يمكن معرفته وأن الفرد الإنسانى وحيد منعزل دون إمكان للفكاك ومناك إلى الأبد توتر بين الظاهر والباطن، وحاجز لا يمكن تخطيه يفصل ظواهر الأحداث والذوات الفردية عن جوهرها الحقيقى الذى سيظل محجوبا خفيا.

ويصور نص المسرحية الهلاوس الشخصية للزوج والحماة من خلال منظور خداع النفس الجماعى، ويستخدم التحولات المفاجئة المثيرة غير المتوقعة تباعا، وتدمر كل منها حقيقة كانت مقبولة وتدخل الشخصيات وتخرج وقد ازدادت الحيرة والشك، ولا يظهر أهل المدينة كامتداد لتخيلات العائلة المحترمة إلا فى الفصل الثالث والأخير ليؤكدوا الحيرة والشك، والخداع الشامل للتفسير، ومن ناحية الفكرة الفلسفية تبدو المسرحية ومعظم أعمال بيراندللو، ذات وجهين متناقضين، فهى تزيل التعمية وتفضح التصورات الرائجة المتداولة عن الواقع وقواعد السلوك وطبيعة الذوات، ولكنها



كما يقول ريموند ويليامز بعد أن تزيل ما فى التصورات المطلقة من تعمية تفرض تعمية مطلقة مؤكدة استحالة الوصول إلى أى حقيقة. وكيف نصف بعض الأخيلة بالوهم والخداع إذا لم تكن لدينا فكرة ما عن بعض الحقائق؟. ومن الواضح أن المواقف والأوضاع فى هذه المسرحية وفى غيرها - إلغاء الزلزال لأى طريقة أو أثر للكشف عن هوية الشخصيات حتى من ناحية أسمائها وميلادها وموتها مفتعلة التخطيط التجريدى لتؤدى المقدمات المفروضة تعسفا إلى النتائج الموضوعة مسبقا فى هذه المقدمات ولكن هذه المسرحية وغيرها من الناحية الفنية فى حدود «عالمها الخاص» تجسد ما يقوله بيراندللو من أن الحياة فى هذا العالم المحدود مهزلة ماجنة محزنة وهو ولوع بهذه المفارقات فأول ديوان له عنوانه الفرحة المؤلمة بمعنى مختلف. وهذا العالم من الممكن أن يكون عالمنا. وفنه كشيف التعاطف الحافل بالمرارة مع هؤلاء الذين فرض عليهم «القدر» البغيض (السياسة والتركيب الطبقى وسيطرة الميديا؟) الحكم بخداع الذات . وقد عاش بيراندللو معاصرا لحكم موسولينى منذ بدايته عام ١٩٢٢ . ونال جائزة نوبل وهو مشمول برعاية الفاشية مديرا لمسرح روما (عام ١٩٣٤) تطوف مسرحياته بالعواصم الديموقراطية وقد لاقى انقلاب موسولينى ترحيبا كبيرا من تشرشل باعتباره انتصارا عظيما ضد البلشفية. وكانت الثقافة الليبرالية فى بريطانيا والولايات المتحدة تشيد بحزمه ضد مطالب العمال واضراباتهم ونقاباتهم ، وفى الكتاب الكلاسيكى لحنا ارندت عن «الشمولية» ترفض الكاتبة اعتبار موسولينى أو الفاشية الإيطالية مندرجين تحت تصنيف الشمولية. ولم يبدأ تغير الموقف إلا بعد تهديد مصالح الامبريالية البريطانية فى أفريقيا بغزو موسولينى للحبشة (لتحرير شعبها من استبداد وبشاعة حكم الامبراطور هيلاسلاسى ووحشيته!!). لقد كانت الفاشية الإيطالية ذات الشعبية الجارفة من أكبر عمليات الخداع الجماعى للذات، ومصنعا للأوهام الوبائية الرائجة وتحويل الواقع إلى مسرحية هزلية شديدة المرارة بالملابس الرومانية والموسيقى الصاخبة . لذلك كان التساؤل عن الوهم والحقيقة شديد الحدة.

أما العرض المسرحى الحالى فى لندن «لإطلاق ربما» فيخرجه ويصمم مناظره المخرج الإيطالى العالمى فرانكو زيفيريللى القادم من بلد تشترك حكومته فى الحرب الدائمة على الإرهاب. ورئيس هذه الحكومة السنيور برلسكونى من «أكبر ملاك الميديا التليفزيونية والصحفية ومن صناع صور الحقيقة المطلقة» من العالم والذوات الفردية اليوم وكان حزبه متحالفا مع حزب الفاشية الجديدة بزعامة حفيدة موسولينى. ومن المعروف أن زيفيريللى كان من تلاميذ فيسكونتى ومساعده فى إخراج أفلام بيلليسما (مدينة السينما) وسنسو (الحواس) وتيرا تريما (الأرض المزلزلة). وقد أخرج فى إنجلترا مسرحيات شكسبيرية متعددة كما أخرج فى السينما أفلاما شكسبيرية عالمية النجاح: ترويض المتمردة (اليزابيث تايلور وريتشارد



بيرسون)، وروميو وجولييت وهاملت .
وتعرض إطلاق ربما على مسرح ويندام العريق الذى رعى بدايات بيتر أوستينوف وديرك بوجارد وديانا ريج وفانيسا ريدجريف كما قدم مسرحيات آرثر ميللر وإدوارد ألبى، وممثلو المسرحية وممثلاتها: جوان بلورايت وأوليفر فورد ديفير، والبقية لهم انجازاتهم الباهرة .
وقد لاحظت أن هذا المسرح المتلىء حتى الحافة بالمشاهدين والمشاهدات لا يضم إلا أقل القليل من الشبان والشابات (هل يرجع ذلك إلى أن لهذا المسرح رواده القدامى الدائمين؟) على العكس من غلبة الشباب فى عروض تشيخوف والبير كامى ومصمم (كاليجولا) وفى العرض المسرحى أعطى زيفيريللى (المخرج ومصمم المناظر) لأهل المدينة بخلاف النص حضورا بارزا منذ البداية وجعلهم يحيطون بالشقة العائلية المحترمة من الجانبين كأنهم منفرجون فى مسرح مكشوف وجعل بعضهم يتكلم من الصالة ويقول إنه جعل المتاهة والضياع فيها بين الاتجاهات المتعاكسة والحواجز بمكانة الاستعارة المركزية للمسرحية بالنسبة للعائلة المحترمة.
أما العائلة المنكوبة من الزوج والزوجة والعصاة فقد وضعها داخل دائرة متخيلة لا يستطيع الآخرون النفاذ إليها . ولكن مقتضيات النهاية السعيدة التجارية جعلت المخرج يضع العائلة التى كانت منكوبة (ولا شىء حدث يمكن أن يخلصها من نكبتها) فى أعلى المسرح ملتصقة معا تلتف أذرع أفرادها حول الحضور فى حالة من الابتسام كأنها ستترك فى حالها رغم العلاقات المستمرة التى تفرض الخداع والأكذوبة . إن اجتماع شمل العائلة الذى أضافه المخرج على النص يمزق نسيج المسرحية . ويجعل من إشكال الوهم والحقيقة الذى هو محورها مسألة جانبية يمكن التغلب عليها بتجاهلها وبعدم التدخل الفضولى فى شئون الآخرين .
ويبقى التساؤل عن «الحقيقة» وراء وابل المظاهر والصور المزيفة من الأخبار المتلاعب بها التى تمثل لأهل المدينة وكل مدينة اليوم حياتهم التى يتفرجون عليها ، وحياة الآخرين وأحداث العالم وزلازله .

كاليجولا : البيركامى حقيقة العالم وحرية الذات

وعلى مسرح دونمار تعرض مسرحيه كاليجولا فى ترجمة جديدة إلى الانجليزية تراعى إملاءات التمثيل أكثر مما يراعى الأصل الفرنسى البلاغة الأدبية بقلم ديفيد جريج، والمترجم مؤلف مسرحى شارك فى تكوين فرقة الثقافة المشبوهة عام ١٩٩٠ . وكتب ضمن ما كتب مسرحية كانديد موديل عام ٢٠٠٠ (وهى معارضة ساخرة لرواية فولتير حسب الاسم ، عن الرجل حسن الطوية الذى يؤمن بفلسفة أن عالمنا أفضل العوالم الممكنة ، من حيث حرية الفرد التى تندمج فى تناسق العالم وعقلانيته رغم الحروب والمذابح والكوارث) . ومخرج كاليجولا هو مايكل جرانديج مخرج أعمال شكسبير وبرنارد شو . والبطل هو الممثل مايكل شين وفى سجله انظر إلى الوراء فى غضب (أوزبورن) وأماديوس (بيتر شافر) وبيرجنت (إبسن) وأفلام كثيرة . والبطولة النسائية (الخطيبة) لديانا كنت وقد مثلت حلم ليلة

صيف لشكسبير ، وعن الفئران والناس لشـــتــــاينبك وفى مـسرحـيات مـعاصـرة وأفـلام وعروض تليفزيونية .

وما مـعنى القراءة الجـديدة والإخراج الجديد لكاليـجولا ، إن الاسقاطات على الحاضر شديدة الوضــوح . فـالملابس مـعـاصـرة والامـبراطور يشعل السـجائر من ولاعته .. وهو فيلسوف على الطراز الوجودى . وفى البداية يختفى أياما وبعد أن كـان لعبة خالية بين أيدى الأرستـقراطية فى الامـبراطورية يعود متمردا . فقد أدرك «حقيقة ما بعد موت أخته عشيقته ، حقيقة بسيطة مبتذلة عن لا معقولية الوجود الإنساني . وهى مثل التـعليقـات الاختزالية على مسـرح تشيخوف منحصـرة فى أننا نموت وأننا غير سـعداء . ولكن الناس لا يفـسدون غداءهم أو عشاءهم بسبب هذه الحقيقة ويواصلون التـعايش مـعها غير أنها تغضب كـاليجـولا لأن الناس يخدعون أنفسهم وهو يريدهم أن يواجهوها . فإذا لم يسـتطيـعـوا ذلك بأنفسـهم فـإنهم يحتاجون إلى أن يعلمها لهم . إنه مثالى يريد رغم بشاعة الحياة الإنسانية أن يتمسك الناس بالقيم العليا ولذلك فهو فى طريقه نظرا للإخفاق المحتوم إلى أن يصبح كليا (مستهزئا بكل القيم محتقرا للطبيعة الانسانية) . إنه يكتشف منطقاً عقلانياً متسقاً لا معقولية الامبراطورية فبما أن الأولويات الأولى فيها للخزانة والمال والاقـتـصـاد والقـانون والنظام والدفاع والسياسة الخارجية وعظمة روما (واشنطن / لندن) فإن الحياة الإنسانية تصـبح ثانوية . لذلك سيـعرض على أصـحـاب المال ألا يورثوه لأبنائهم بل للدولة . وبما أن الحاجة للمال من أجل الامبراطورية والدفاع ماسة فيجب أخذه عنوة من الأثرياء وإعدامهم عشوائيا (فالجنود يقتلون بالجملة) أو حسب حروف الهجاء فكلهم سفلة . أليس ذلك أكثر أخلاقية من النظام السائد الذى يسرق المواطنين سرا بفرض الضرائب على الخبز والضروريات ومادامت كل الحكومات تسرق فستقوم حكومته بسرقة من يملكون جهرا . ومادامت حياة الناس فى النظـام الامبراطورى بلا قيمة فقد قرر أن يكون إمبـراطورا منطقيـا ، فيستأصل التناقض (المعارضة) وكل من يعارضون . فهل هو لا معقول ؟ وهل منطقه جنونى ؟ إنه يؤكد أن هذا هو المنطق الإمبراطورى .

تراشق فكري

لقد فهم أخيرا وظيفة السلطة المطلقة فهى تعطى المستحيل فرصة الوجود فلا حدود لحرية من يتمتع بها . وهو يقول للكاتب إنه لا يحب الكتاب ولا يتحمل الطريقة التى يكذبون بها ولا فرحتهم بعمق أفكارهم . ولو أصغوا مدة إلى أنفسهم فقد يدركون مدى تفاهتهم ، ويطرده فى اشمئزاز ولكن الكاتب يرد عليه بأن كذبهم غير مقصود وأنه برىء . ويؤكد كاليجولا أن الكذبة ليست بريئة قط . والكذبة المميزة للكتاب هى تمثيل الوجود كما لو كان له أى معنى . وهى كذبة لا يغفر لها . وفى هذا التراشق بالأفكار يقول الكاتب إننا لابد أن نعطى معنى للعالم لأننا مضطرون للعيش فيه . ويؤكد كاليجولا أن القضية مرفوضة فالوجود بلا معنى . وما لم تتحقق من ذلك ستكون عبدا له وهو يكره الآخرين جميعا لأنهم عبيد برغبتهم . ويصرخ أنه الإنسان الحر فى الامبراطورية كلها . ويطلب الهتاف له ثلاثا . فأخيرا جاء الامبراطور الذى يريد أن يحور الجميع .

ويأمر الكاتب بالذهاب ليخبر العاصمة أن حريتها ردت إليها وسيرى إذا كانت تستطيع أخذها ومن الواضح التناقض فى هذا الهذيان الفلسفي فالذى يصدر حكما بانعدام المعنى يفترض أنه يتعرف على المعنى أو يستطيع معرفته . يفترض معرفة كيف يكون موجوداً لكي يحكم بعناية . والحرية هنا هوس بخرافة مماثل لأى هوس عدمي آخر لأنه يذوق الظلام بلسانه ويبدو الناس جميعا له مقززين فكيف يدعى مرارة تلك العملية . عملية أن يكون إنسانا خارج الإنسانية ومعاديا لها . ولماذا لا يعطى بقوته فرصة للممكن ؟ فما جدوى القوة عنده إذا كان لا يستطيع تغيير طريقة الاشياء في الوجود ؟ وما فائدة السلطة إذا كانت لا تستطيع أن تجعل الشمس تغرب فى الشرق ، أو أن تلغى المعاناة أو تجعل الناس لا يموتون . إنه يطمح لأن يكون فوق جومبيتر وأن يفتح مملكة المستحيل . وسيعطى القرن الجديد هدية اللامعنى (عاش كاليجولا من ١٢ - ٤١ بعد الميلاد ، وكان امبراطورا من ٣٧ - ٤١ ميلادية فأى قرن جديد فى النص ؟ ذلك إسقاط على أيامنا ؟ وهو يرفض الحب ويقول كبعض الامبراطوريين فى عالم اليوم هناك الخزانة وحدها . وأنا حى والحياة هى نقيض الحب وسأدعو إلى حفلة جميلة بلا نهاية . وموضوعها استعراض محاكمة واريد مشاهدين وبطبيعة الحال يحتاج إلى ضحايا والى المذنبين . ويطالب بإحضار المذنبين . كل الناس يدينون المذنبين . ولابد من قضاة وشهود ومتهمين وهو سيجدهم جميعا مذنبين ويحكم عليهم بالإعدام غيابيا . وسيريهم شيئا عجباً الرجل الحر الوحيد فى العالم . ويتشبه كاليجولا فى بعض ملامحه الصورة الشخصية الرائجة التى يقدمها المجتمع الاستهلاكى للشباب ؟ الحيوية والطاقة وكثافة المتعة وتنوعها وتجددها والفردية والعدوانية المقتحمة وبعض السادية فالحياة قصيرة وكلما احتدمت المتع المستحيلة وتعمقت أصبح الشعور بزوال الشباب والشيخوخة والموت حقيقة فاضحة . وهبط العبث واللامعنى على كل شيء . فالحرية هى وهم تجاهل الضرورة وقوانين العالم والقيم الجماعية وسرعان ما تصطدم بعجز القدرة الفردية المشبوهة عن تعبير نظام الكون أو المجتمع . ويقول الناقد تيد فريمان إن كاليجولا عندما فهم حتمية موته وضآلة قدرته على فهم العالم أو على جعله متسقا معقولا يندفع متهورا فى عصيان مدحه ضد عالم يستطيع منحه أشد المتع الجسدية كثافة ثم يطرحه أرضا جاعلا كل متعة مللا . ويبدو كاليجولا ممارسة نوع من الجماع المتقطع مع جسد العالم ، مع أوهام من طبيعة العالم وطبيعة ذاته . فالعالم غريب معا والذات الانسانية بلا ماهية ولا أساس ثابت والتمرد عبثى بلا هدف ولا مضمون . وفى فقدان حس الواقع تتفتت الذات الداخلية . ولكن الإخراج الجديد جعلنا كمتفرجين لا تطابق بين أنفسنا ومأزقه ، وجعلنا نسخر من الامبراطورية . والسلطة المطلقة والعدمية ونتوق إلى البحث عن حقائق العالم والفن . ■





النديم والأفغاني

في القفص السلطاني

بقلم
د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي

بعد هزيمة العرابيين ظلّ عبدالله النديم مختفيا عن أعين السلطة والانجليز حوالى عشر سنوات، وبعد القبض عليه نفى إلى يافا بفلسطين حيث استضافه «السيد على أبو المواهب» مفتيها لمدة شهر، ثم اتخذ النديم لنفسه دارا أصبحت مقرا للأدباء والعلماء هناك وخلال ذلك تطرق حديثه إلى مصر وإلى المساوىء التى سببها الاحتلال الانجليزى لها، كما تعرض لسياسة الدولة العثمانية فأخذ ينتقد السلطان الذى أعلن عصيان عرابى إرضاءً للانجليز وما أن بلغت السلطان أقواله أمر بإخراجه من يافا وإبعاده عن كل البلاد التابعة للدولة العثمانية ومنها مصر فتأزم الموقف بالنسبة للنديم وظل حائرا لا يدرى إلى أين يتجه، فأرسل إلى الاسكندرية حتى تقرر الحكومة أمرا فى شأنه، وخلال ذلك قابله «الغازى مختار باشا» مندوب السلطان وشجعه على السفر إلى الأستانة وسعى له فى ذلك .

ولما كان من سياسة «السلطان عبدالحميد» في تلك الفترة استرضاء أرباب الأقلام وذوي الأفكار الثائرة واستمالتهم، ثم التحفظ عليهم في الأستانة حتى يكونوا على مقربة منه وتحت سمعه وبصره ليتقي مهاجمتهم له ويضمن تأييدهم لسلطته الزمنية، ويعزز بهم مكانته ويوطد سيطرته خاصة أنه تمسك بحقوقه في الخلافة على أساس أنها تضفي عليه نوعا من القداسة، وساعده على تحقيق مبتغاه نمو الحركة الاسلامية التي يتزعمها جمال الدين الأفغاني. فقد صدرت الأوامر السلطانية بسفر النديم إلى الأستانة، وهناك نال الحظوة لدى المقام السلطاني وتعرف على كثير من الوزراء وأرباب المكانة العلمية، ولكنه اختص بالملازمة والصحبة «جمال الدين الأفغاني».

وخلال ذلك دخل النديم القفص السلطاني بعد أن سبقه إليه أستاذه الأفغاني حيث تجمد نشاطهما، وتكاثرت العيون حولهما.

لقد كان قفص الأفغاني ضيقا ولكنه من ذهب حيث كان يعيش في مظاهر خداعة من عطف السلطان الذي كان يحترم الأفغاني وفي نفس الوقت يخشاه ويراقب خطاباته، ويختفي وراء ستار لملاحظته. أما قفص النديم فقد كان واسعا من حديد إذ كانا يختلفان بمقدار خطورة كل منهما على السلطان وبمقدار مكانته وحسبه ونسبه فالأفغاني يتقلد رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الإسلامية، وينزله السلطان في دار ضيافة خصه بها ويجري عليه الأرزاق الوفيرة، ويضع تحت تصرفه عربة وخدما وحشما، ويعرض عليه مشيخة الإسلام فيأبى. أما النديم فلا خدم ولا حشم فهو من الشعب وابن الشعب وخادمه.

وفي جو كبت الحريات والإحاطة بالجواسيس اتصلت أسباب الألفة وتمكنت روابط الاتحاد حسا ومعنى بين كل من الأفغاني والنديم فكان لا يصبر أحدهما على فراق الآخر، ولا يطيب له مجلس إلا إذا كانا فيه معا. فقد كانا شريكين في مصير واحد هو قفص السلطان فجمعت بينهما المحنة والغربة.

عاش النديم في الأستانة معطل المواهب فلا خطابة ولا كتابة ولا تهييج للأفكار ولا تحميس لأحد وهو الذي لم يعرف للهدوء طعما، فأصبح في وسط يكاد يختنق فيه، لا يفرج عنه إلا مجلس صديقه الأفغاني يتحادثا ويشكو كل منهما للآخر تعذيب روحه الحبيسة في القفص. وقد بلغ تعلق الأفغاني بالنديم وجميل اعتقاده فيه أن أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته في المناظرة والجدل وسرعة بديهته في التحرير حتى صرح في عدة مجالس بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن، وصفاء القريحة، وشدة العارضة ووضوح الدليل، ووضع الألفاظ وضعا محكما بإزاء معانيها إن خطب أو كتب.

المبارزة الفكرية بين النديم وأبو الهدى الصيادي

والجدير بالذكر أنه كان يوجد بحاشية «السلطان عبدالحميد» في ذلك الوقت رجل له أهمية في التاريخ لهذه الفترة وهو «أبو الهدى الصيادي» الذي وصل نفوذه إلى كل أرجاء الدولة العثمانية، وامتد نفوذه من السياسة إلى الجيش والإدارة، واستطاع أن يبطش بجبروته بكل رأي حر.

ولما كان الصيادي يكره الأفغاني

لمنزلته لدى السلطان فقد استغل النديم عداء أبي الهدى الصيادي للأفغاني في التنفيس عن قدراته المعطلة وأفكاره المكبوتة. يضاف إلى ذلك أن كراهية أبو الهدى للمصريين قد زادت النديم غضبا عليه.

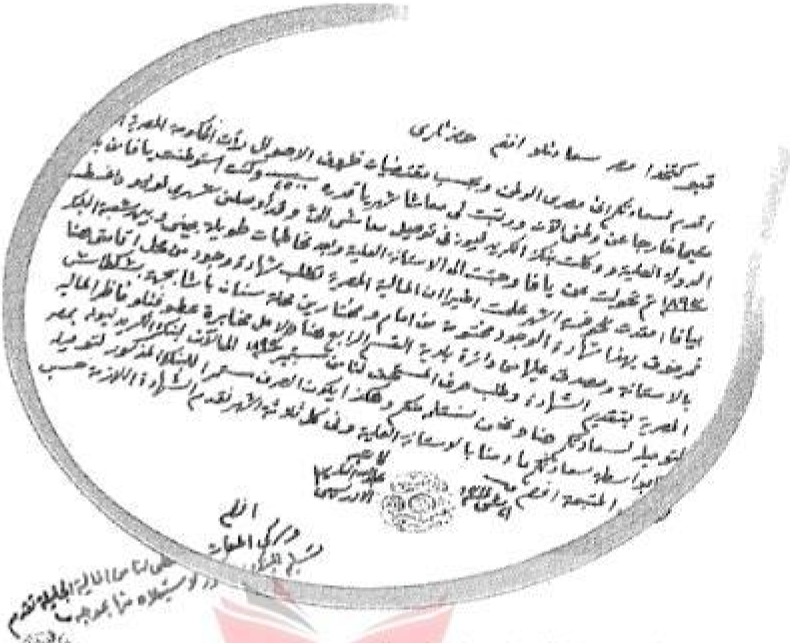
ومع أن أبا الهدى كان من الجبروت بحيث يخشاه العظماء فإن النديم انطلق في هجائه دون أن يعبأ بسطوته وقدرته على الانتقام منه فأخذ يخوض في سيرته بلسان حاد فاضحا دسائسه وكتابته التقارير الملفقة للسلطان، واتخاذه الدين ستارا لتنفيذ أغراضه. ولما لم يستطع الصيادي إسكات النديم اضطر إلى الاستنجاد بالسلطان، ومع ذلك فقد استمر النديم على موقفه ووضع فيه كتابا سماه «المسامير» تضمن هجاءه في أسلوب كان في قوة تأثيره أحد من المناشير فقد أدخل النديم ضمن شخصيات هذا الكتاب الشيطان فوضعه في صورة الحزين الكئيب لظهور المنافس له من بني الإنسان الذي سبقه في حيله وألاعيبه، كما وضعه في صورة المستنجد من مكر وخداع أبي الهدى، ثم اتهم النديم والد ووالدة الصيادي بكل الرذائل والموبقات التي تمس النسب والشرف. وما أن سمع الصيادي بأمر هذا الكتاب حتى جن جنونه، فاتصل بالسلطان وأبلغه بأمر الكتاب وذكر له أن هجاء النديم شمله كذلك مما دفع السلطان عبد الحميد، إلى التشديد في البحث عن الكتاب ومصادرته فهاجم رجال البوليس بيت النديم وفتشوه، ولكن النديم كان قد سبقهم إذا أعطاه لأحد أصدقائه الذي استطاع الفرار به إلى مصر وطبعه فخرج مكونا من مقدمة وتسعة مسامير في أربعة وتسعين صفحة، ومزينا برسوم كاريكاتيرية. ولم يهدأ للصيادي بال حتى رد على مسامير النديم بكتاب سماه «صوت الهزار وزيق العذار» دافع فيه عن نفسه وهاجم النديم كما هاجم مصر والمصريين.

النديم والأفغاني رسل الخديو لدى السلطان

والجدير بالذكر أن النديم والأفغاني كانا رسولي الخديو لدى السلطان فلما زار الخديو الأستانة في عام ١٨٩٤ اتصل بالنديم، وطلب منه الوساطة في أمر مصاهرته في بنات الخليفة، وتوسط النديم والأفغاني في ذلك وكاد يتحقق لهما النجاح في ذلك لولا دسائس أبي الهدى وتدخله لدى السلطان، وإقناعه بأن الخديو يحيك الدسائس ضده، وأفهمه خطر هذا الزواج لأنه إذا أنجبت كريمته ذكرا فلا يستبعد أن يرشحه الانجليز للخلافة، وتمحى الخلافة من تركيا وتنقل إلى مصر، واقتنع السلطان بهذا الرأي، وأفلح أبو الهدى في منع هذا الزواج.

ومن دسائس أبي الهدى ضد الأفغاني والنديم ما قدمه للسلطان حول مقابلة الخديو لهما في الأستانة، ومبايعتهما له بالخلافة مما جعل السلطان يتغير قلبه عليهما حيث احضر لديه جمال الدين وقال له «أتريد أن تجعلها عباسية» كما شدد عليه الرقابة ومنع أي أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية، فأصبح محبوسا في قصره لفترة.

وفي أثناء زيارة الخديو لتركيا في عام ١٨٩٥ رجاه النديم أن يسمح له بالعودة إلى مصر لشدة حنينه لها وشوقه إليها ورغبته في أن يقضي بها



نص طلب بخط يد عبد الله النديم لتحويل معاشه إلى أحد البنوك في الأستانة

بقية حياته، وقد سمح له الخديو بذلك واصطحبه معه إلى مضيق الدردنيل ولكن هذا الخبر وصل إلى السلطان قبل تحقيقه فانتهز أبو الهدى ذلك وذكر للسلطان أن المؤامرة التي رسمت خيوطها من قبل قد بدأت تنفذ، فصدرت الأوامر بعدم تحرك الباخرة حتى ينزل منها النديم، فاضطر النديم إلى النزول من الباخرة، وكتب للسلطان يتبرأ مما نسب إليه وذكره بأنه وإن كان قادرا على الانتقام منه بلا معارض فإنه سيقف بين يدي الله العادل القاهر، فأعجب السلطان بشجاعته وعفا عنه بعد أن كان قد أصدر أمرا بنفيه إلى إحدى الولايات البعيدة. وظل النديم بالأستانة حتى أصيب بداء السل الرئوي فأحس بأن نهايته قريبة لذلك أرسل تلغرافا إلى شقيقه ووالدته يطلب رؤيتهما وهو على سرير المرض قبل أن توافيه الأجل فسافرا إليه حتى يرياه قبل أن يموت، وفي ليلة العاشر من أكتوبر ١٨٩٦ توفي النديم بالأستانة دون أن يترك أولادا حيث ماتوا جميعا في طفولتهم.

لقد مات النديم في نحو الثانية والخمسين من عمره، وليس هذا بالعمر الطويل، ولكنه عمر عريض فطالما غذّى الناس بقلمه وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم، وحير رجال الشرطة وأقلق بال

رجال السياسة ونازل خصومه من رجال الصحافة فنال منهم أكثر مما نالوا منه ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل فعلى الرغم من محنة الغربة واللحظات الحرجة التي واجهت النديم فإنه لم يتورع عن مهاجمة الفساد والظلم في عقر داره فكانت المبارزة الفكرية بينه وبين الصيادي، واستمر النديم ثائرا حتى هدأه الموت الذي يهدئ كل ثائر.

وبأمر من السلطان العثماني احتفل بجنازة النديم رسميا في الآستانة حيث سارت أمام نعشه فرقتان من الجيش، وفرقة من الشرطة وكبار رجال الدولة وعلماؤها يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ «محمد ظافر» شيخ مشايخ الطرق الشاذلية في دار الخلافة، ومن أشد المقربين إلى السلطان وكثيرون غيرهم، فساروا به حيث دفن في مقبرة «يحيى أفندي» في «باشكطاش» بعيدا عن الأهل والوطن الذي عاش من أجله، وقاسى الكثير في سبيله. وكان العزاء لروحه يوم أن مات أنها سلمت راية الكفاح إلى الجيل الجديد وعلى رأسه مصطفى كامل ليواصل الجهاد ويقود المرحلة التالية من مراحل الحركة الوطنية في سبيل الحرية والاستقلال وفي النهاية يمكن القول إن أهم ما في النديم كان شعبيته وقوة تأثيره ورغبته الشديدة في الاجتماع بمواطنيه، فهو رجل خالط الشعب بجميع طبقاته حيث انبعث من غمار عامة الشعب وعانى وذاق ما يعانيه أفراده من فقر وحرمان فالتأم شقاؤه بشقاء أمته فكانت كلماته تعبيرا حيا عما يدور في خلد الشعب، ثم ارتفع إلى مصاف القادة فلم يفتنه المجد بل عمل على رفع مستوى شعبه الاجتماعي، وبعث وعيه الوطني والعمل على تعليمه، فكان أعلم الناس بمحاسن هذا المجتمع وعيوبه لذلك كانت آراؤه في روحها وجوهرها تعبيرا عما يجيش في صدور أبناء وطنه من أحاسيس الألم والأسى كما كان أول كاتب مصري يعالج مشكلة القومية المصرية بأسلوب شعبي فهو أول من سهل على الشعب استيعاب المفاهيم القومية التي كان إدراكها مقصورا على المثقفين والأرستقراطيين. وكان حركة لا تهدأ، وكان رجلا من رجال العمل ورجال القلم والقرطاس ذكي القلب شديد العارضة، ذرب اللسان سريع الخاطر حاضر البديهة، ظريف المحاضرة، حلو الشمائل، وكان كذلك جريئا، سريع الغضب صعب الرضا. عاش حياته يتأمل أفراح وطنه ويعاني أتراحه فترجم عما يجول بخاطر شعبه.

إن أبرز ما في النديم كان ذلك النشاط الروحي الزاخر، وتلك العزيمة التي لا تكل عن العلم يوما حتى وافته المنية فكان بوقا عظيما للشعب دائم التفكير في إصلاح أحواله. عمل من أجله أكثر مما عمل لنفسه ولأسرته، وبوقا عظيما للجند، وبوقا عظيما للثورة، أفنى نفسه وحسه فيها، ووهب حياته لها، وحارب الطغيان في الداخل وناهض المستعمر الذي وفد من الخارج حتى بالغ البعض في وصفه بأنه كان نادرة عصره وأعجوبة دهره، وأنه «ليس في طلائع نهضتنا مثال آخر من هذا الطراز يضارع عبدالله النديم»، كما قيل عنه أنه أذكى ناقد لأوربا في مصر وأنه صحفي القرن التاسع عشر بلا منازع.

رحم الله عبدالله النديم ذلك الرمز الوطني والعقل التنويري جزاء إخلاصه، وما قدمه لوطنه مصر من خدمات جليلة. ■

كتاب الهلال

تاريخ مدة الفرنسيس بمصر

تأليف

عبد الرحمن الجبرتى

تحقيق: ش. موريه

ترجمة: شحات صادق

يصدر ٥ أغسطس

سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

٢٠٥

الهلال

جماد الثانية ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م

خيال الظل

بقلم

جورج سيمينون

ترجمة

د. حماده إبراهيم

تصدر ١٥ أغسطس

سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

مسامرة الأولاد كي لا يناموا...

استبصارات

بقلم
محمد عفيفي مطر



ظلمات بعضها فوق بعض.. ليل كثيف وشاعر يغوص فى آبار زيته الغليظ الأسود ، وهو عريان بين جدران الزنزانة ومن فوق عينيه عصابة سوداء مشدودة تضيف إلى طبقات الظلام طبقة أخرى محكمة وموجعة تغوص بعقدتها الصلبة فى عظام رأسه ، والقيد الحديدى يعض على رسغيه فيسرى ثلج الخدر والشلل ويعلو من ساعديه إلى كتفيه ورقبته وجلد رأسه الذى يتورم الإحساس به ويتضخم كأنه معمم بكل مامر تحت السماوات من سواد الليل فى كل الدهور .. وياله من تاج ثقيل يطوح برأس الشاعر بين الظنون والمخاوف !!

كان الجلادون يتداولون جسده المرتعد بالضرب والتعليق من الرسغين المكبلين وحرق ظاهر كفيه بأسلاك الكهرباء ، وهو يتخبط فى السواد المطلق للظلمات المتكاثفة، فيستيقظ خياله الطليق على مشاهد عجيبة من مخزونه البصرى العتيق، ويمارس الطيران المحلق الجبار بين ذكرياته الملونة الباهرة ، ويشق غبشة النسيان عن أبهى وأصفى طاقات البصر الجوال بين المتاحف والكتب، ويوغل شيئا فشيئا بين السطوح المتفجرة بضربات الفرشاة وحركة الخطوط وفوران الألوان وهى تتذاوب وتتداخل متمازجة أو تتوهج صريحة فى درجاتها وإيحاءاتها وتجسيدها للأخيلة والأفكار والمعانى والتوازنات المتناظرة والإيقاعات المتقابلة والرياضيات التى تنسج الهارمونيات الشاملة

كان الشاعر فى غاية العجب، لا يعرف كيف تفجرت هذه الينابيع المدهشة، ولم يعرف من أحواله مثل هذا الاضطراب العاصف بين واقع تعذيب لعله يفر منه ويدافع عن نفسه وحياته حرمته بآخر ما بقى له من حرية الخيال، بهذه الينابيع التى كمنت فى أعماقه



لتفيض عليه بنعمة الألوان والطيران فى بهجة الرؤية، سأل نفسه: ماذا بك أيها الأعمى الذى يتخبط فى أرحام ليل ذى طبقات من السواد ؟! أعمى أنت وعيناك تحت العصابة المشدودة، من فوقك ليل الزنزانة ومن حولك ليل الجلادين العتاة الذين لايستأسدون ولايتجبرون إلا على أهلهم ومواطنيهم المكبلين بالقيود ، وأنت تعرف من خنوثة أصواتهم ورخاوتهم، وترهل أرواحهم أنهم خدم وعبيد عند كل من يحكم ، ومن حولكم جميعا ليل من ظلام دموى قد أطبقت جيوشه وأساطيله على أرضك وشعبك فى كل مكان .. فماذا بك ؟!

أم أنت على شفا الهلاوس والجنون؟

تتحرك مقلتاه على إبر مسنونة من الصديد والإفرازات المتحجرة المتكلسة تحت جفونه فيندلع البرق الذهبي وتتكشف فى وهجه الأليم جدران المقابر الفرعونية ولوحات الرسم والألواح المحفورة، وقد جلس العازفون العميان ذوو العيون المفرغة بتحديقها المبهم فى الفراغ ، يغمزون الأوتار بأصابعهم الرشيقة العجيبة وقد حف بهم جلال الوقار والاستغراق ومهابة الأردية الكتانية المتناسقة، هم فى لحظة شرود جليل ذاهل عن كل شىء سوى الإنصات لأنغام الكون لتمر عبر الأصابع إلى أوتار «الهارب» ، ومن حولهم مغنيات المعابد وراقصات القصور ، بنات إيزيس ونفتيس وماعت وحتحور ، يتمايلن أو يعزفن ويضربن الدفوف ، وقد تطايرت من زينتهن بروق الذهب والجواهر وشفافية الكتان والحرير .

لم يدر بخاطر الشاعر من قبل أن يسأل عن سر اختيار العميان ليكونوا العازفين فى القصور والمعابد وحدائق الأغنياء ، وها هو يكتشف جانبا من السر لقد ربط الجلادون عينيه بالعصابة السوداء الثقيلة حتى لايرى وجوههم أو تحدق عيناه فى عيونهم الذليلة المستخزية فيكشف هوانهم المستأسد ويتعرف على أشخاصهم ووجوه مخبريهم وعملائهم الأدنياء، أما العميان العازفون فلم يكن لهم أن يروا أسرار القصور ومباذل الترف السفيه والإغراق فى اللذائذ بينما يكدح الشعب المخدوع في الغيطان والمستنقعات والمحاجر والمراعى والدفاع عن الحدود وهو مغيب الوعى مهان الجسد مستذل الروح .

كان الشاعر فى خضم الهلوسة البصرية يدافع عن جسده المعذب وأدميته المهدرة بأسلاك الكهرباء التى



تكشط جلد يدبه بإلقاء حواسه كلها في الأجواء الملونة وأشكالها ، تأتيه من بعيد أصداء صرخاته الغاضبة الهالعة فلا يعرف أهو الذي يصرخ أم هو رجع الدهشة مما يسمع ويرى ..تدفعه يد الجلاد ، فيتأرجح جسده المعلق بحبال الظلمة التي تلتهم جلد يديه ، فيعبر إلى سرداب آخر من سراديب خياله وذاكرته فيرى عجبا .. كان ينحدر مع المنحدرات والقنوات الموحلة تحت أجواء الخريف الشاحبة وشمس الأصيل تنير بضوئها المعتل أسطح البيوت القرميدية المثلثة وبرج الكنيسة الذى يعلو فى أعلى يسار المشهد كأنه الهضبة العالية التى ينحدر منها صف من ستة عميان، يهيمون على وجوههم منحدرين من المعنى العميق للأمثولة الخالدة : «هل يقدر أعمى أن يقود أعمى ؟ أما يسقط الإثنان فى حفرة ؟» .

كان العميان الستة ينحدرون متساندين ، يد اللاحق على كتف السابق، واليد الأخرى تقبض على العصا الطويلة التى تصل بينهم لينتظموا فى مسيرة موحدة، ورآهم الشاعر ذو العينين المعصوبتين وهم يكادون يسقطون فى الأوحال ، فصاح صيحته الجريحة أدركهم يا «بروجل» واصرخ معى لينتبهوا .. يابروجل .. يا صديق العمر وبهجة الرؤية وجلاء البصر والبصيرة..

واندفع الشاعر معصوب العينين يحاول المبادرة إلى الأعمى الذى يقود العميان ليقيله من عثرة السقوط فى الوحل قبل أن يتهاوى فوقه جميع العميان ، ولكن سلك الكهرباء الذى يأكل ظاهر كفيه والقيود الثقيلة التى شلت قدرته على الحركة فتحت فى جنون صراخه ومقاومة ذاكرته صفحة من كتاب قديم تتوهج بصورة أعظم العميان فى التاريخ .

كان المعلم الأول والفيلسوف الأعظم أرسطو يضع يده اليمنى على رأس تمثال نصفى لسيد الشعراء وملك الملاحم ، أعظم العميان الملهمين هوميروس ، كمن يضع كفه على مصدره الأول فى معرفة الإنسان وتأمل الوجود ودراسة العقل والفكر والحكمة واكتشاف مجاهل النفس وعلم السياسة والأخلاق ومعانى البطولة والنضال ، وفى الصفحة المقابلة تتوهج صورة الشيخ الضرير وهو مستغرق فى الاستماع للمجهول ، يرفع يده ليضبط الإيقاعات وأوزان الموسيقى وارتمى الشاعر المعذب تحت قدميه ، وقد بدأ يغيب عن الوعى، تملأ مسمعيه الأصداء البعيدة لقعقعة الأحصنة الخشبية التى يجرها الحمقى عبر أسوار المدن التى حانت لحظة سقوطها. ■

كنت وحدويًا قوميًا بعيدًا عن المزايدة وتأجيج الخلافات

منح الصلح



• ماذا كان رد عبد الناصر على عرض ميشيل عفلق الذى حملته إليه؟

• لماذا خرج أبو عبده عن نص رسالتى المكتوبة فى مؤتمر القمة ليهاجم عبد الناصر؟

نشأت فى مدينة بيروت فى أسرة كل شخص فيها سياسى بدأت الأسرة بارزة فى العهد العثمانى كجزء من الدعوة إلى التحرر العربى من أسر الدولة العثمانية، وكان كبير العائلة (رضا الصلح) والد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الأسبق هو الرجل الأبرز فى حركة إخراج فرنسا من سوريا ولبنان.

هذا التراث وهذا الجو الذى عشت فيه صغيرا جعلنى مرتبطا بحلم الوحدة العربية ولكن التعدد الثقافى والطائفى الموجود فى لبنان جعلنى عروبيا من نوع خاص، ملتفتا باستمرار إلى ضرورة الديمقراطية والحريات، فإذا كانت العروبة هى القضية فإن الديمقراطية هى الروح والأثنان يوصلان إلى الحضارة والإنسان

ما أثر فى منذ نشأتى الأولى كلام كانت تقوله والدتى التركية الاصل من العائلات العريقة فى الدولة العثمانية حيث كان جدها هو درويش باشا الذى كان حاكما لبلاد الشام لفترة طويلة.. وقد جاء إلى مصر مرة ليسوى خلافا بين الخديوى عباس والحركة القومية المصرية ومن أقارب والدتى البرنس عمر المختار والد أميرات فى الاسرة المالكة المصرية.

. كان يلفتنى من والدتى قول غريب حيث كانت تقول لى . لماذا تهتم بالسياسة والألقاب والامجاد السياسية . فالكاتب الكبير والمهندس الكبير والطبيب الكبير أهم من السياسى أيا كان مركزه وكنت أسأل نفس متعجباً: لماذا تقول والدتى كلاماً مختلفا عن جو عائلتى اللبنانية العربية؟

واكتشفت السبب فى أن والدتى نشأت فى عهد الاتحاد والترقى فى تركيا حيث انتشرت الدعوة القومية التى تؤكد على الثقافة والتقدم والترقى، فالثقافة هى الأهم فى صنع الأمم.

وبالفعل فإن الأتراك كأمة أدركوا قبل العرب أهمية الحضارة الحديثة والتربية القومية والجدارة الفردية الاجتماعية وأنى لاحظت مؤخراً على سبيل المثال الموقف التركى من قضية العراق وصانعه هو حزب إسلامى ولكن يؤمن بالتقدم هو «الرفاه» الذى وقف وقفة لفتت الانظار فى رفض إعارة الأرض التركية للحملة الامريكية العسكرية على العراق والأصل فى هذه الوقفة هو ان الإسلام التركي قد تطعم بالعزة القومية وبالقيم الحضارية

لقد كان إيمانى بالوحده العربية وبالديمقراطية معاً هو رفيقى الدائم فى حياتى . فاحيانا أنحاز للديمقراطية بين القوميين وأحيانا أنحاز للقومية بين الديمقراطيين.

ولأسرتنا فرع بمصر حيث استوطن مختار الصلح مصر منذ الحرب العالمية الأولى واشترك فى تلك الحرب مع ستة أشخاص من كبار الشخصيات العربية فى إصدار اعلان بالمطالب العربية يذكره



التكوين

ألبرت حورانى تحت عنوان إعلان السبعة» مطالبا بالوحدة العربية

وابنه هو الجنرال عدنان الصلح كان عسكريا فى الجيش المصرى

أحببت مصر

درست أول ما درست فى الصف الأول الابتدائى فى مدرسة المقاصد الإسلامية ببيروت وقد أرسلنى والدى إليها قائلاً أنه يجب أن يتعلم دينه أولا. خارج هذه السنة الوحيدة كنت باستمرار تلميذاً فى منطقة رأس بيروت المتقدمة ثقافيا عن باقى العاصمة ونوع الدراسة الابتدائية كانت مدرسة أنجيلية وطنية وبعد ذلك درست فى الجامعة الأمريكية ببيروت (بالقسم الفرنسى الثانوى من الكلية الثانوية العامة) وفيها حصلت على شهادة أستاذ آداب فى الأدب العربى ثم أعددت أطروحة ماجستير عنوانها «السخرية فى الأدب العربى» لم تنشر

ثم ذهبت إلى باريس لإعداد أطروحة للدكتوراة مع مستشرق اسمه جاستون فييت.. كان مديراً - على ما قال لى - للمتحف المصرى وكان موضوع الأطروحة «تعامل الدولة العباسية مع الأقليات»..

الحقيقة أخذت من هذا المستشرق حبا إضافيا لمصر ولعهد النهضة العربية فيها كان هذا المستشرق متعلقا بمصر أكثر منه بفرنسا ولو أن مصر التى تعلق بها هى مصر خاصة به .

وقد كتبت الأطروحة ولم أتقدم بها للمناقشة والسبب أن والدى اتصل بى فى ذلك الحين وقال لى أن محمود أبوالفتح صودرت صحيفته «المصرى» ومطابعه فى مصر وهو يريد أن يصدر صحيفته فى لبنان وأن أبى وأعمامى نصحوه بالاعتماد على لأننى سأكون أهلا لتحريرها .

والمسكين محمود أبوالفتح لم يكن يتصور أن التأميم معناه مصادرة المطابع والاتفاقات التجارية والممتلكات أيضا .. فقد كان عنده مفهوم لحدود التأميم لم تكن واقعية .

وعندما رجعت إلى بيروت فى مطلع الخمسينيات كان موضوع صدور جريدة المصرى باسم آخر من بيروت قد أنتهى..

بين السياسة والثقافة

كانت حياتى تدور دائما حول السياسة والثقافة والصحافة، ففى الجامعة الأمريكية ببيروت كنت فى اللجنة التحريرية لمجلة العروة الصادرة عن جمعية العروة الوثقى بالجامعة هذه الجمعية التى نشأ فيها ونما الوعى القومى للطلاب العرب وللأساتذة الذين كانوا يعملون كمستشارين للجمعية



منح الصلح في لقاء مع الرئيس حسني مبارك و مكرم محمد أحمد أثناء الاحتفال بمئوية الهلال في سبتمبر ١٩٩٢

لكي يصبحوا جزءا منها يؤمنون إيمانها العربي بعد عودتي من باريس شكلت مع آخرين ناديا باسم «العروة الوثقى في رأس بيروت ضم بعض الطلبة السابقين بالجامعة الأمريكية وغيرهم وكان هذا النادي يعمل بروح العروة الوثقى التي أغلقتها الجامعة لأسباب سياسية واستمر هذا النادي يؤدي رسالته القومية لمدة أربع سنوات .

كان هناك أيضا ناد آخر أقدم وهو لايزال مستمراً حتى الآن اسمه النادي الثقافي العربي كنت عضواً أيضا فيه

وعندما أصدر مجلة اسمها «الثقافة العربية» كتبت فيها مقالات قومية سياسية.

جو رأس بيروت منطقة معينة ببيروت هو جو ثقافي انفتاحي على ثقافات العالم كما سماه - أحمد بهاء الدين ذات مرة في أحد مقالاته - الحي اللاتيني في بيروت.

طبعاً كان لي اتصال بحزب لبناني عربي هو «حزب النداء القومي» الذي كان يترأسه كاظم الصلح ثم تجيب الصايغ ثم إدمون رباط، وكان هذا الحزب يدعو إلى دور لبنان العربي وارتباطه بالقضية كانت تصدر عن هذا الحزب صحيفة ليبرالية إلى حد ما اسمها «النداء» وكنت أحرر فيها مقالات يومية تواكب الأحداث العربية في مرحلة المقاومة ضد الاستعمار والاستبداد المحلي خاصة مرحلة حلف بغداد وصعود عبدالناصر.

الاهتمام بأفكار الشباب

وأثناء كتابتى فى جريدة «النداء» كنت أكتب الافتتاحيات ومقالات أخرى بدون توقيع كنت أنقل للجيل الأكبر منى سنا الروح والفكر السائد فى الحركة الطلابية الذى كان أشد جذرية وثورية من النمط السائد فى الحزب. فكانوا يقولون لى: كنت فى الجامعة تكتب للشباب وبأفكارهم وجئت الآن تكتب فى صحيفة الحزب بأفكار هؤلاء الشباب أنفسهم، بما يعنى أننى جئت أنقل إلى جو الحزب والجريدة جذرية طلاب الجامعة الأمريكية ومصطلحاتهم وأفكارهم، فكنت مثلا لا أستعمل كلمة «اللاجئين الفلسطينيين» فى جريدة النداء أيضا كما كنت أفعل فى المجلة الطلابية فأقول «النازحين» أو العائدين بدلا من اللاجئين.

الفكر الثورى الجذرى الذى كان يحمله الطلاب الشباب نقلته إلى وسط الحزب التقليدى فأثار حيوية وتفاعلا بين الفكرين.

وكتبت مقالات عنيفة ضد التجديد لرئيس الجمهورية بشارة الخورى.

طالبت فيها بأن يكون للرئيس ولاية واحدة ثم يذهب، وكان الحزبيون القدامى يتشكون ويقولون كنت فى جريدة العروة فى الجامعة تنقل لهم آراء الطبقة السياسية الناضجة واليوم انت تنقل للجريدة آراء الطلاب الفجة!

والواقع ان نوع ارتباطى الدائم بالعمل الفكرى والسياسى جعلنى أعمل على التأثير فيمن كنت أعيش بينهم سواء فى الجامعة أو بعد التخرج.

وقد أثرت فى من هم أصغر منى وفى من هم أكبر منى سنا وعمرا سياسيا وفكرياً.

ولعل من أسباب ذلك أننى فى عائلة متمرسة بالعمل السياسى وكونى مؤمنا متفرغا للعمل الفكرى المفتوح على العالم العربى وقد ربطتنى رابطة خاصة بميشيل عفلق وصلاح البيطار من قيادات حزب البعث العربى وقد اتيت إلى مصر بطلب من ميشيل عفلق الذى كان فى لبنان متخفيا فى ذلك الحين فى مدينة طرابلس فرارا من سوريا وكان حزب البعث التابع له نظرياً قد تسلم زمام الحكم فى العراق جزئيا وأصبح الطرف الأقوى من أطراف الحكم هناك.

مع جمال عبدالناصر

وقد جئت إلى القاهرة وأمن لى المرحوم أحمد بهاء الدين اتصالا للاجتماع بالرئيس جمال عبدالناصر. وقد اجتمعت

به في اليوم نفسه الذى كان قد قتل فيه ضابط سورى موجود في مصر هو «طعمة العودة الله» وفي اجتماعي مع الرئيس عبدالناصر حدثته عن عرض عفلق بالتعاون مع الناصريين في بغداد من أجل قومية الحكم فاجابني يومذاك أن سياسته الآن قد طرأ عليها تغيير في مثل هذه المواضيع، وهو مقتنع بأن في العراق عقلية سياسية خاصة نرفض التدخل ولذلك فان سياسته الآن هي ترك الأمور تتفاعل هناك وهو يقبل بالنتائج التى تسفر عنها تجاذبات قطر حاد القطرية.

عروبي وحدوي

كنت في الأصل بسبب نشأتي عروبيا وحدويا ديمقراطياً وأنا الآن على تعلقي القديم بموضوع الديمقراطية والحريات الذى كنت أتمسك به وأدافع عنه داخل مجموعات مهيئة لذلك وغير مهيئة وأذكر أننى عند تسلم البعثيين الحكم في العراق (حوالى ١٩٦٨) وعلى أثر انفراد صدام حسين بالسلطة ذهبت إلى بغداد كصديق قديم فدعيت إلى إلقاء محاضرة في مدرسة الكادرات في بغداد وكان بين الحضور حردان التكريتي وصالح مهدى عماش وغيرهما من قيادات حزب البعث العراقى.

وفي المحاضرة التي ألقيتها حذرت من سابقة حلف المنظمة الحزبية والنظام وقلت إن مثل هذا الحلف سبق وأوصل الفاشية والنازية إلى الهاوية .

وعندما استرجعت بعد عودتي إلى بيروت قراءة ما قلته في المحاضرة على ضوء بعض الأخبار التي وصلت لي حمدت الله على سلامتي مدركا الفارق الكبير بين حديث ما قبل السلطة وما بعدها.

وبمناسبة هذه المحاضرة التي كادت تسبب لي المشاكل أذكر واقعة حدثت لي في مصر على هامش اجتماع قمة ملوك ورؤساء الدول العربية كان قد دعا إليها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر . فقد كنت اتفقت مع رئيس الحكومة السورية صلاح البيطار الذى كان صديقا لي للمجيء إلى القاهرة أثناء انعقاد تلك القمة والتعاون مع وزير الخارجية السورية يومذاك حسان مريود على كتابة خطاب الرئيس السورى أمين الحافظ على أن يسلمه وزير الخارجية ذلك الخطاب قبيل إلقائه مباشرة ، وبالفعل كتبت أنا نص ذلك الخطاب في فندق هيلتون وتسلمه منى وزير الخارجية السورى فلما جاء دور الرئيس أمين الحافظ لإلقاء كلمته بدأ يقرأ وفي أول الخطاب شكر الرئيس عبدالناصر

على فكرة هذه الدعوة لمؤتمرات القمة، فلما قال ذلك هتف به أحد أعضاء الوفد السوري وهو عسكري «دهورك الناصريون يا أبو عبده» وسمع أبو عبده ذلك ولكنه استمر في إلقاء كلمته المكتوبة، فلما أنهاها أضاف شفهياً.. «هكذا وأن التاريخ هو الذي سيحكم من هو الصادق ومن هو الدجال».

يقصد أن سوريا تنوى الخير ومصر ليست في هذا الوارد.

وبمجرد أن قال ذلك تصدى له الملك فيصل يرحمه الله والقذافي والملك حسين وقالوا أيضا جميعا: إن هذا الكلام لا يجوز لرئيس دولة وأن ذلك يبدو مؤامرة على هذا المؤتمر.

أقول هذا لأدلل على أمر واحد هو أنني وإن كنت وحدويا قوميا إلا أنني كنت دائما بعيدا عن فكرة المزايدة وتأجيج الخلافات.

فالطرح الفج لقضية الوحدة العربية وبشكل بعيد عن المنطق الديمقراطي كان أكثر ما آذاها وعرقل مسيرتها إذ أن البعض تصور طريقا لهذه الوحدة لا يمر بالعقول والقلوب، ففرغها من جديتها وفعاليتها وعدم تحولها إلى مدرسة جدية من مدارس الفكر السياسي العربي الذي نحتاج إليه، فلا يجوز أن تتحول فكرة الوحدة العربية إلى عبء على التضامن العربي ومصدر مشاكل له بل إلى تكسير الأقطار من داخلها، فتكسير الأقطار هو النهج السياسي الأخطر على أمتنا العربية والوحدة العربية كفكرة.

ضد الطائفية تماما

التجربة الوحيدة التي قمت بها في الهيكل السياسي اللبناني الرسمي هي تولي مديرية الإرشاد والتوجيه عند مجيء الرئيس فؤاد شهاب إلى سدة الحكم، وكنت أثناء الثورة ضد كميل شمعون أعمل على إنشاء لجان في لبنان انطلاقا من بيروت مهمتها عدم ترك الأحداث والصدامات الداخلية الدامية تتحول إلى فتن طائفية.

وقد نجحت هذه اللجان في عدم تحول الخلافات السياسية أثناء عهد شمعون إلى صدامات طائفية أهلية داخل المجتمع اللبناني وكانت هناك قابلية لذلك.

وقد اتصل بي الرئيس شهاب فور تسلمه الرئاسة وقال لي: انني أعرفك من مراقبتي لمواقفك وأعمالك أثناء الثورة على كميل شمعون، فعلى الرغم من انك كنت ضده لم تكن تجهل خطر التأجيج الطائفي في بلد كلبنان.

وقد استطعت من خلال تسلمي لمديرية الارشاد والتوجيه أن أغير الخطاب السياسي لرئيس الجمهورية ، فان خطابه منذ أن تولى السلطة اتسم بالدعوة الاصلاحية الداخلية والسياسة الاجتماعية التقدمية ، والخط العربي الصادق حتى راجت كلمة «الشهابية» كنعت لمجموعة الخطب والمواقف والمبادرات التي حاول الرئيس شهاب أن يشد فيها من أوصال الوطن عملت السياسات الخارجية والعربية والداخلية على إعطائه صورة البلد المكسر قطريا فكانت سياسته طيلة عمره خير ما عرفه لبنان من جهود وأعمال ومواقف مشروحة للبناني شرحا جيدا من خلال شعارات وأفكار بسيطة أدخلت الهدوء ولو لفترة في روح لبنان القلقة . ■

.. من عائلة «الصلح» العريقة التي تولى رئاسة الحكومة فيها ٣ شخصيات هم
رياض الصلح - سامي الصلح - تقي الدين الصلح.
- ولد منح عادل الصلح في بيروت سنة ١٩٢٧
- درس في كلية المقاصد الإسلامية.
والجامعة الأمريكية ببيروت وجامعة السربون بباريس.
- مفكر عربي بارز.
- من مؤلفاته:
١ - مصر والعروبة.
٢ - الكيان والثورة في العمل الفلسطيني.
٣ - الانعزالية الجديدة في لبنان.
٤ - الأدب الساخر عند العرب «لم يطبع».
٥ - العباسيون ومعاملة الأقليات «لم يطبع».


منح الصلح

حول رؤية الأجيال في التعليم

رد على د. حامد عمار

يشرفني أن أستمتع بتمعن بمقالات الهلال التى ترقى عددا بعد عدد .

ولى تعليق حول ما كتبه د. حامد عمار خبير التعليم فى هلال يونيو بعنوان (اختلاف الأجيال حول رؤية التعليم) - الكلمة الأخيرة .

فقد قال «مع موسم الامتحانات تكثر ثرثرة جيل الكبار فى زهو رومانسى ، بين ما كان عليه تعليمهم فى الأيام الخوالى .. إلخ» .

وتعليقى : ألسنا أستاذنا الدكتور عمار - جميعا - ننتمى إلى جيل الكبار هذا المزهو بما قد حصله من تعليم ؟ .. ألسنا - وأنت واحد خبير منا - تعرف تمام المعرفة دخيلة هذه الأحوال التعليمية المتردية ، بسبب ما اجتاح حياتنا التعليمية الرسمية من قوانين ولوائح يضارب بعضها بعضا إلى درجة تفقد المتمعن للأمور اختيار الجادة السوية حينما يخوض فى الحديث عن شئون التعليم .

أستاذى الجليل ، لقد تعلم جيلنا فى ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية على درجة كبيرة من القسوة والظلم ، إلا أن الأمور التنظيمية للعملية التعليمية كانت أكثر استقرارا وتحديدا ومعرفة بالهدف المرجو بلوغه .

أما عن التجهيزات المادية التى نلقى بأعبائنا عليها ، فإنها كما أشاهد بنفسى أكثر مما ينبغى والأمر كله لا ينقص سوى عنصر مغيب ، ألا وهو الضمير الحى الذى افتقدناه كثيرا فدفعنا إلى ما تسمونه سيادتكم بالثرثرة !

د. سامى منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

الهلال وروح الوطنية

أقدر جهد كم فى إخراج الهلال وإحكام موضوعاته ، وروح الوطنية العارمة التى تتدفق معه أقلامه العربية الخالصة ، التى لم تنحن للعواصف والأعاصير .

لقد عرفت «الهلال» فى مراحلها المختلفة ، وأنا من قرائها : وأشعر بالفخر والمتعة والفائدة لمطالعتها : وانتمائها الصادق إلى العروبة والإسلام .

ولدى بعض الملاحظات فى عدد يوليو الماضى



ففى الصفحة الأولى كتبتم «جماد أول» والأصح «جمادى الأولى» .

كما لدى ملاحظة عامة وهى أن بعض الصحف والمجلات المصرية تكتب «عبداللاه» بدلا من «عبدالله» وهذه الكتابة مغلوطة ، غيرت المعنى كاملا ، فإننا بذلك نضع كلمة «اللاه» وهى من لها ، يلهو ، لاه فى مكان لفظ الجلالة ، أمل أخذ ذلك فى الاعتبار ، وقليلا ما حدث ذلك فى الهلال ، ولكننى أردت نشر ذلك لديكم ليأخذ فى الاعتبار عند الآخرين .

كما جاء فى مقال «الشعر الحلمنتيشى للدكتور مصطفى رجب ص١١٢ السطر ١٦ (قربا مربط النعامة منى» وهو شطر بيت شهير قاله المهلهل بن ربيعه أثناء حرب البسوس الشهيرة ، والحقيقة أن البيت هو من قصيدة «للحارث بن عباد وهو بكرى» وهو زوج أخت المهلهل بن ربيعه، والحارث هو والد بجير ، وقد أرسله والده إلى خاله المهلهل فى سفارة من بنى بكر ، لعله يفلح فى إصلاح ما بينهما من حرب .

مصطفى محمد ياسين

الزرقاء - الأردن

الهلال : شكرا للقارئ العزيز على ملاحظاته الطيبة .

نغني صباحا !!

نجدف نحو شواطئ هذا الأمل ..
كى نساوم هذا المدى ..
نستحث الخمائل ..
حتى يبوح العبير
ونجدل تلك المساءات ..
لحنا نديا
نغنى صباحا ،
ونشعل كل الحروف الشقية
نحيل الزمان الذى فر من دفتر العشق ..
وردا ، شموسا
بحارا تثور ، تفور

نجوما عصية
سيوفا أبية
نقاتل حزنا عنيدا ،
ونمحق فينا جحيم الجراد الجديد
تشد يداى يداكم
فنسبق خطوا عصيا
ونمنح كل الطيور الندية دوما ..
إشارات بدء أخيرة
نزين كل القلوب ..
بأغلى شجيرة فرح
تموت طيور الحداد
يعود لحلمى المدار

تصير البلاد
قصيدة شعر ..
تحرك فينا خيول الرجولة
نرفض موتا غبيا ،
كموت النعاج ،
نسافر حتى الغياب ،
نعود ..
لنرسم فوق وجوه البلاد
نهارا زكيا !!!

محمود أحمد المصلى
شربين - المنصورة

أول امرأة سافرة في بغداد !

سرني كثيرا ما جاء في مقال الدكتور عدنان الرشيد في عدد يونيو ٢٠٠٣ بعنوان «٦٥ عاما على سفور أول طالبة في بغداد» عن المرحومة صبيحة الشيخ التي دخلت قاعة المحاضرات في كلية الحقوق ببغداد وهي سافرة ، حيث أحدث منظرها هذا ضجة ولغطا.

وقد ذكرني ذلك بما كان حدثني به صديقي الصحفي العراقي المعروف الأستاذ صبيح الغافقي رحمه الله (توفي في ١٩٨٤/٨/٢٠) من أن صبيحة كانت الطالبة الوحيدة بين ألف طالب في كلية الحقوق ببغداد عام ١٩٣٦ ، وكانت الأولى على دفعتها عند التخرج ، ومع أن والدها كان من رجال الدين ، وتولى منصب وزير الأوقاف عام ١٩٢٧ ، إلا أنها أصرت على أن تقود حركة تحرير المرأة في العراق بجرأة وشجاعة .

لقد كانت صبيحة الشيخ داود الحقوقية الأولى في العراق ، وأول قاضية عربية ، وكانت نموذجا فذا للإنسان الكامل ، وصورة فريدة للأدب الجم والروح العالية .

وفي عام ١٩٥٠ أصدرت كتابا بعنوان (أول الطريق) وهو سجل حافل ليقظة المرأة العراقية ، وقد توفيت في ١٩٧٥/١١/١١ , رحمها الله

القاضي ماجد ذيب غنما
عمان - الأردن

الهلال : نحن نرحب بإلقاء الضوء على هذه الشخصية والهلال تفتح بابها لكل الكتاب العرب ، فهي مجلتهم التي تعبر عن الثقافة العربية ونبض العرب جميعا .



أبقى وحيدا

(١)
وكنت أرى نهرا .. ولا أعبره
فكيف استطاع النهر أن يعبرني ؟
(٢)
لابد من ماض ليندس الغبار
فيه .. مثل كدمة تشيخ
لابد من ماض لكى أشبه
صورة ذو
على الجدار
ابتدأت تفضحني بصمتها الفصيح
لابد أن ينسع الماضي
لكى ندفن هذا الحاضر القبيح
(٣)
قل لهم – عنى – لماذا يذهبون
كلما أتى إليهم
كلما تمضى السنون
وأنا أبقى وحيدا
(٤)
لا يمكن أن أطلب منهم
أن يتشحوا برماد يسكنني
وغبار يعلوني
وفضاء لا أملكه
....
..
لا يمكن أن أطلب منهم
أن ينتصروا لهزائم روحي
(٥)
تأنق «يصنع» أشياء كثيرة
سوى نبتة فرح طازجة
ووحشة
تقتحم الجدار بالفرح
(٦)
المرأة التي تؤدى الدور نفسه
كل يوم
لم تزل تأمل فى
ساسة لعرض عيشها !
(٧)
كان وقارها
مقنعا
ومقنعا .. إلى حد كبير
غير أننى فشلت
أن أكون
ذلك الأبلة

محمد فتحى غريب

موقع الهلال على شبكة الانترنت

الهلال وهو يجتاز عامه الحادى عشر بعد المائة هو بمثابة جامعة للفكر والثقافة العربية . أتمنى أن أرى للهلال ناديا يجمع بين كتابه وقرائه ، يكون هذا النادى همزة وصل بين الأجيال المتتابعة والتى شاركت فى الكتابة فى الهلال فى مختلف مراحله ، وبين قرائه من مختلف الأعمار ، وأن يكون هذا النادى – نادى أصدقاء الهلال – أداة للتعارف والتواصل الفعال والمباشر بين كتاب الهلال وقرائه .. وأتمنى أيضا أن أرى للهلال موقعا على شبكة الإنترنت ننشر من خلاله مواده التحريرية ، وتعرف بتاريخه وكتابه وأعلامه .

أنت والهلال

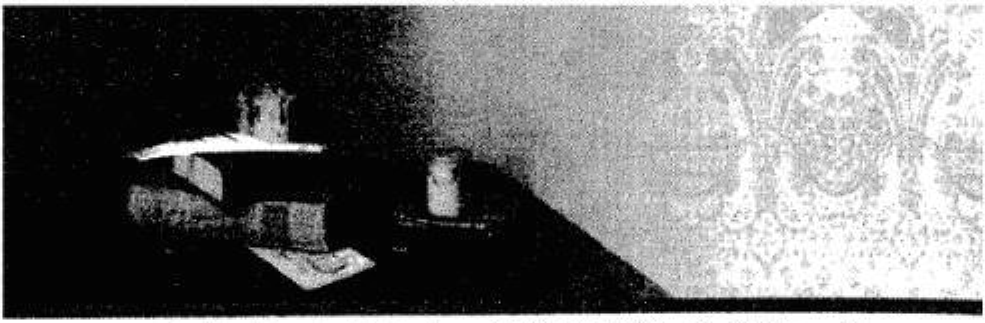
ولا يفوتني أن أرسل تحية تقدير لصاحب تكوين عدد يوليو الماضي .
الأستاذ : أحمد حمروش الذى كتب قصة ثورة يوليو فى ثمانية مجلدات فى نزاهة وأمانة ، وكشف أسرار الثورة من خلال شهودها ثم أتبعه بكتابه المهم «ثورة يوليو عقل مصر»

عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - طنطا

الهلال : لا نتوانى فى الهلال عن توفير كل مواده منذ صدوره حتى الآن وقد تمثل ذلك فى الكشاف الذى طبع فى دار الهلال وتستكمله حاليا دار الكتب .
أيضا المشروع الكبير الذى يتم الآن إعداده بكل الهمة والنشاط فى مكتبة الاسكندرية - وهو طبع الهلال على (C.D) منذ صدوره وحتى الآن .
ويتم الإعداد الآن لعمل موقع لدار الهلال بحيث توضع مواد الهلال التى يتم نشرها شهريا أولا بأول .

قصة قصيرة

كنت حين أراها تضم ذراعيها لصدرها فى استكانة وهدوء وهى جالسة تصغى لفرحة البنات وهن مجلجلات فى فناء المدرسة .. أحس برشق السكين فى قلبى .
انتهت حصة الألعاب ودخلت الفصل .. كتبت عنوان الدرس وحدقت البنات ، حين رأيت وجه هدى .. ابتسمت وانشغلت ، أنظم السبورة ناقشت البنات فى الدرس .. مرت الحصة وقبل خروجى ناديت «هدى تعالى» وقفت بجوارى .. قلت معلنا «الفصل تحت مسئوليتك وبالذات المشاغبات .. أنت أمينة الفصل .. تمام يا هدى» .
لمحت ابتسامة خجولة على شفتيها وقد وقفت ثابتة ، رفعت رأسها وفردت صدرها .. أمسكت الطباشير وفى محتوى عينيها بريق الأمل .
وقبل خروجى قلت «شوفوا يا بنات» وجه هدى زى إيه يا بنات «قالوا بلهجة فرحة ، زى الوردة يا أستاذ» .
وهدى تضحك
كنت موقنا أن صدورهن تشتعل غيرة منها ، وما قالته إحداهن بالامس ليس كذبا ، البنات يتهامسن «هو مفيش غير هدى» تكتب الأسماء .. تنظم الكراسات .. هاتى يا هدى ... تعالى يا هدى» .
فى وقت الفسحة .. تعودت أن تجلس بجوارى .. تهتم بما أكتب ولا تبرح المكان إلا فى حصة النشاط .
ونحن جالسان جاءت إحدى التلميذات .. قالت «لو سمحت يا أستاذ .. الدفتر للأستاذ منحت» .



أخرجت الدفتر وكدت أناوله للطالبة إلا أن يدي انحرفت نحو هدى وقلت لها «طلعي الدفتر .. هيا يا هدى .. بسرعة» .

حدجت الأستاذة «صفاء» من خلف نظارتها السميكة وقالت معاتبة، «كنت خلي طالبة غير هدى تطلع الدفتر» ثم مصمصت بشفتيها «مسكينة يا هدى».

نظرت إليها بوجه حاد .. قلت «هدى طالبة قوية وأظن من الخطأ أن تلغى شخصيتها كإنسانة» .

أسقطت رأسها على صدرها وغمغمت كأنها لم تفهم قصدي خلال الحوار .. دخلت هدى .. وضعت على مكتبي قطعة «شيكولاته» «أتفضل يا أستاذ .. الشوكولاته في جيبي لك من أمس» .

خطفت الأستاذة صفاء النظارة من فوق أرنبة أنفها وسألت بامتعاض : «الشوكولاتة للأستاذ صلاح ، فين حقي يا هدى ؟!» .

من فوق مكتبي أخذت حقيبتي .. صعدت السلالم .. صاحت «الحصة بدأت» .

صعدت خلفها حتى كلت قدماي .. ركنت على «الدرابزين» التقط أنفاسي وهي كالرهوان تصعد ، وكأن خيطا ورديا يشد قلبي إلى ساقها «الصناعي» المتوثب .

سادات طه محمد - دقهلة - مركز الزرقا - دمياط

أعدوا الخيول

لصد الأعادي أعدوا الخيول   فنعما قليل ، تدق الطبول
أعدوا الخيول فخيل العدا   تعد وتعدو وكم ذي تجول
إذا لم نعد لهذا الردى   فلا من نجاة ولا من وصول
سنهلك في نارهم كلنا   وتأكلنا النار نار المغول

* * *

أرانا كطير تغني هنا   وهم كالوحوش تأست بغول
ألا فلنجد إلى مجدنا   فما لمجيد حياة الخمول
إلى الأصل هيا إلى أصلنا   فليست فروع الورى كالأصول
نسيتم كثيرا هنا فاذكروا   وذكر القديم ينير السبيل

* * *

دعوا كل داع إلى محدث   يرى لقديم الورى أن يزول
قديم الحياة أساس لها   ولولا الأساس فكل يميل
ولو تنظرون إلى ما مضى   فسوف ترون جمال الجميل
ولو تعلمون طريق الرضا   لما كان عما مضى من بديل

حسن أبو الغيط - المصيلحة - منوفية

أنت والهلال

شكرا للمحافظ ولرئيس الهيئة العامة للكتاب

طالبنا في عدد يونيو الماضي ، وتحديدا في افتتاحية الهلال التي تناولنا فيها إقامة التماثيل للمفكرين والمبدعين والفنانين ، بأن يكون لاثنين من زعماء مصر نصيب في إقامة تمثالين لهما وهما جمال عبدالناصر وأنور السادات .

وقد قرر د. عبدالرحيم شحاتة محافظ القاهرة إقامة تمثالين لهما مؤكدا أن ذلك يأتي في إطار حرص القيادة السياسية على إحياء ذاكرة الأمة بتخليد العظماء من رجال مصر والحفاظ على التراث .

وفي عدد يوليو الماضي طالبنا بطبع مذكرات المشير الراحل محمد عبدالغني الجمسي ضمن مشروع كتاب الأسرة وعلى الفور استجاب الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فشكرا لمحافظ القاهرة ، وشكرا للدكتور سمير سرحان

«الهلال»

الحسد يورث السقم والألم !

يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا راحة لحسود ولا إخاء لملول ، ولا محب لسيئ الخلق ، وقال الحسن : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد نفس دائم وحزن لازم ...

وقال أبو العتاهية :

يا رب إن الناس لا ينصفونني ... وكيف ولو أنصفتهم ظلموني
وإن كان لي شئ تصدوا والأخذه ... وإن جئت أبغى فضلهم منعوني
ومهما كان بذلي فلاشكر عندهم ... وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن أصابتني نقمة فرحوا لها ... وإن أصابتني نعمة حسدوني
سأمنع قلبي أن يحن إليهم ... وأحجب عنهم ناظري وجفوني

وقال أحد العارفين : ما أضيع للايمان ولا أهتك للشر من الحسد لأن الحاسد معاند لحكم الله ، باغ على عباده ، عات على ربه بعد نعم الله نقمه وعدل قضائه حيفا ، لا يبرد غليله، ولا تؤمن غوائله ، إن سالمته وترك وإن واصلته قطعك .

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية



مع الأصدقاء

* وصلت هذه المساهمة من الصديق أحمد محمد عسكر - دسوق - كفر الشيخ وهى قصيدة زجلية عنوانها «جنون الموضة» وننشرها لطرافتها :

الموضة كلمة محيرانى فيها نص دسته من الحروف
جت لخبطت كل المعانى وغيرت كل الظروف
نستنا معنى الاحترام وعلقت حتى المبادئ ع الرفوف
الواد سمير بقى اسمه سوسو وحالقلى شعره زى الخروف
وأفندى لابس سلسلة . وانسيال يادى الكسوف
تقابل بنت بفستان وشعرها بالحجاب ملفوف
وعدى بص لظهرها تلاقى فتحة لوسطها ولحمها مكشوف
ألفين خسارة على الشهامة والنخوة والمعروف
شفنا العجايب والعقل غايب ياما بكره نسمع وكمان نشوف

* ومن بلقاس جاءت هذه التأملات من الصديق إسلام عوض ويقول فى إحداها :

الليل فى انقضاء بعدما يأتى الضياء
والصبح فى رواح عندما يأتى المساء
والموت يأتى بغتة كبزوغ ضوء فى الظلام
واحترت بعد الموت أهو الصباح أم المساء !

* محمود إبراهيم حسن : قنا يسأل عن كيفية كتابة مقال للهلال :

وأقول للصديق إن كل عدد من الأعداد يحدد رئيس التحرير موضوعاته وعناوينه ونتفق على كل كاتب مقال ، ويتم الاتصال بالكتاب ويمر وقت ويبذل جهد للحصول على مقالات الهلال ، لكن إذا وصل إلينا مقال جيد نحتاجه يتم نشره على الفور .

* وإلى الأصدقاء الذين بعثوا إلينا قصصا قصيرة وشعرا نعدهم بنشر إنتاجهم فى الأعداد القادمة .

الكلمة الأخيرة



اللمسة: سر الحياة

بقلم: د. أحمد مستجير

«إلا معنى ما كتبه الروائي المصري الفذ خيري شلبي في روايته «وكالة عطية»:

«... ومنذ أن [illegible] على كتفها لأول مرة، يبدو أن يدي قد حملت الكثير من مشاعري نحوها [illegible]، فإذا هي [illegible] تنتظر هذه الحركة منذ زمن، فانزلقت على صدري، جريحة رأسها على كتفي في حنان حقيقي [illegible] ... (ثم) ... تلاقت راحة يدي فطبعت على ظهرها قبلة امتنان [illegible]».

[illegible] الكاتب [illegible] لب الحياة وجوهرها. هو يصل بيسر إلى لب الحياة التي تحمل [illegible] حاجتنا ملحة وعميقة إلى أن نُحِب وأن نُحَب، نعبر عنها في لمسة يد، في [illegible]، في ربتة على الكتف، في حضن، في عناق، في قبلة، في نظرة [illegible] من آخر، وتجهم برابطة، بصلة، باهتمام! حاجتنا إلى اللمسة حقيقية ومتأصلة، هي التي تثري وجودنا، هي التي تجعلنا بشراً، وتجعل البشر كلاً، وتضفي على الكل المعنى. أن تبتسم لغريب، أن تمد يدك تلمس صديقا أو غريبا، أن تهدهد طفلا يبكي، أن تكف عن كره نفسك [illegible] الآخرين، أن [illegible] الحب على حياة الغير، أن تدرك أن ثقافتنا تفتقر إلى اللمسة، تفتقر إلى الاطمئنان، ولذا [illegible] الفرد بالاطمئنان. أصبح منفتحا يستجيب للآخرين، يلمسهم ليعبر عن نفسه، ويحس الآخرون بأن هناك من يهتم بهم. يستيقظ في الصباح وهو يحس بأنه محبوب [illegible] يحس بأنه محبوب [illegible] كل ما حدث طوال النهار. من هذا [illegible] الخلاص [illegible].

جرحى نحن، جرحى [illegible] عالم [illegible] القسوة، [illegible] الحب، جروحنا في الروح، [illegible] التقييم الصحيح للإنسان [illegible] يصبح قادرا على الحب، على العمل، على اللهو واللعب، على أن يستخدم عقله على نحو سليم. جرحى نحن، للمسة جوعى للاتصال والحميمية. العالم مكتظ بالبشر، لكن كل واحد منا يمشي وحيدا [illegible] الزحام لا أحد، كما يقول الشاعر. نحس جميعا بأن شيئا ما من حولنا خطأ، شيئا ما في حضارتنا، شيئا ما خطأ يقلقنا ويخنقنا، ثم لا نعرف ما هو. نموت في بطء ولا ندرك أننا نموت، نموت جوعا للمسة، تقلقنا وتحيطنا ثقافة فقدت جذورها. [illegible] التي [illegible] عليه، التي نفكر فيه طويلا قبل أن نرفع [illegible] كي نحتضنه، قبل أن يفاجئ الفرد منا حبيبته بقبلة على غير توقع! [illegible] من [illegible] الفرد تائه في صحراء زماننا المزدحم قد يهز بالكامل رؤيته من قيمته بهذا العالم. اللمسة [illegible] من القلب تشفي، من أيما شخص كانت! كلنا، كل شخص [illegible] الصغار [illegible] يحتاج إلى اللمسة. اللمسة أكبر بكثير من جلد يلامس جلدا، اللمسة تحمل التسليم بإنسانيتنا جميعا بأن الإنسانية تجمعنا. اللمسة إدراك بقابلية للانجراح متأصلة فينا برغبتنا الكامنة في الاتصال، ثم إن التحقق من طريق اللمسة — جسدية كانت أو غير جسدية — هو أبعد بكثير مما يتخيله معظم الناس. اللمسة جزء عزيز غزير من كياننا الأسمى.

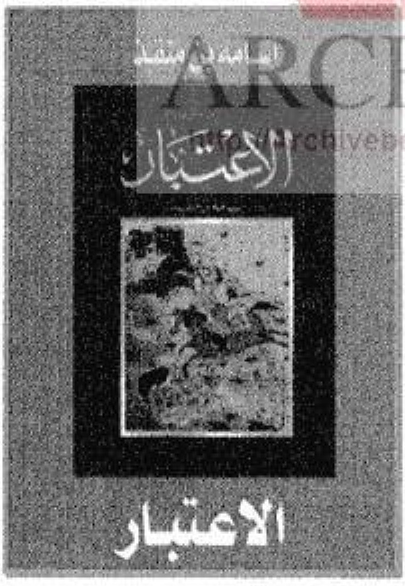
عندما كتب أشلي مونتاجيو عام ١٩٧٦ أول كتاب عن «اللمسة» بيع منه ستة ملايين نسخة. نحن في حاجة إلى اللمسة حقا.

أحدث إصدارات دار الهلال



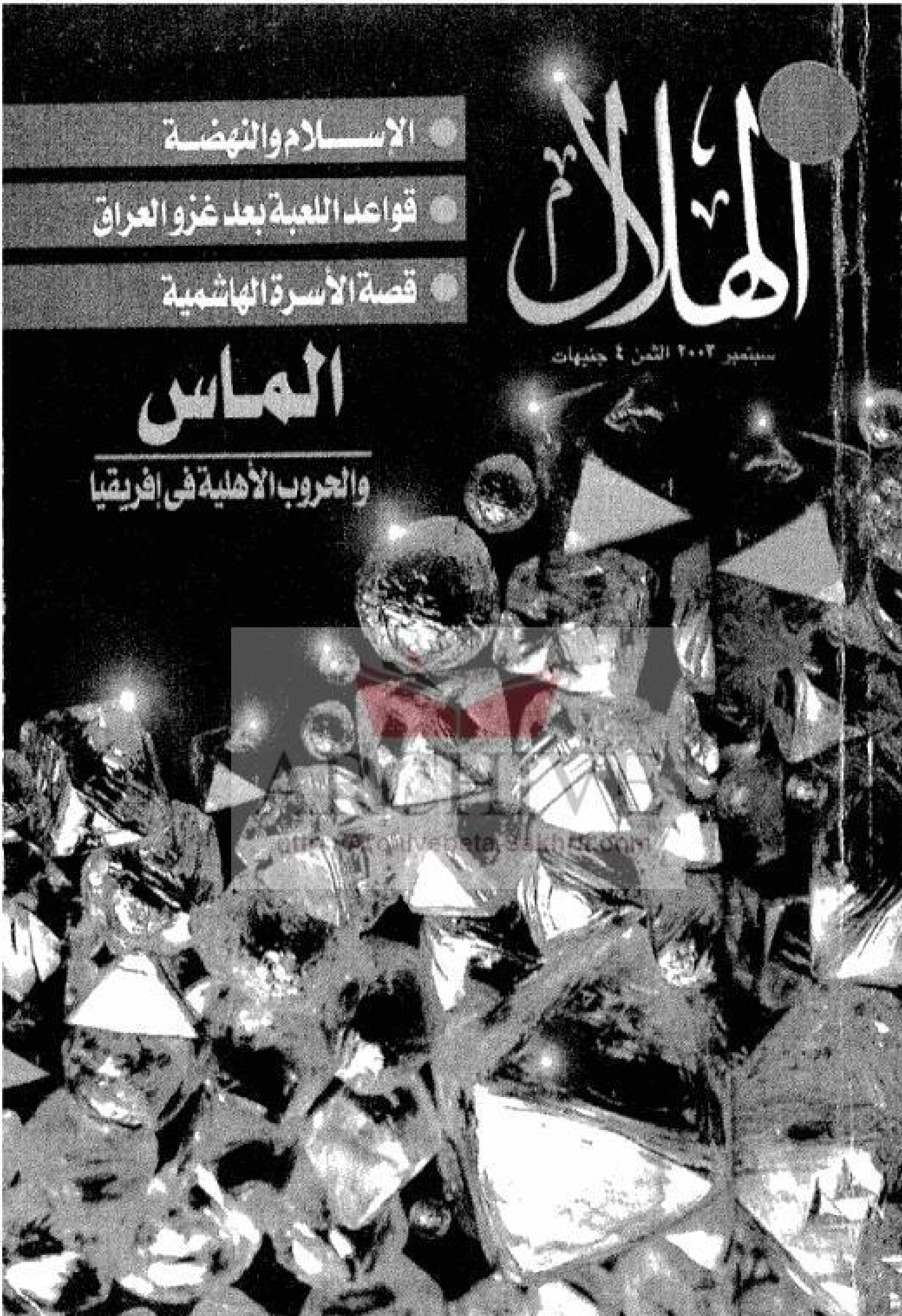






دار الهلال


أدبيات
نبع الأدب والثقافة المعاصرة
نساء العرب


الهلال
سبتمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
الاسلام والنهضة
قواعد اللعبة بعد غزو العراق
قصة الأسرة الهاشمية
الماس
والحروب الأهلية فى إفريقيا



لوحة وفنان

(ذات رابطة العنق)

للفنان : راينوار أوجست

متحف : محمد محمود خليل

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثاني عشر بعد المائة رجب ١٤٢٤ هـ - سبتمبر ٢٠٠٣م

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة - القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

---

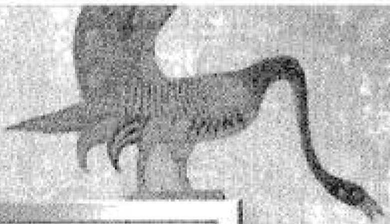
مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات



الفهرس

٨ – الماس والحروب الأهلية فى أفريقيا
.... جميل مطر

٢٤ – الإسلام والنهضة ....
.... د. أحمد محمد الطيب

٣٤ – الانترنت بيتكلم عربى ....
.... د. أحمد محمد صالح

٤٤ – مشاهد تاريخية ....
.... د. محمد رجب البيومى

٥٦ – قواعد اللعبة بعد غزو العراق ....
.... د. منير زهران

٦٢ – الولايات المتحدة الغاضبة ....
.... محمد يوسف عدس

٧٠ – تزامن المبادرة المصرية مع المقاومة العراقية
.... عبدالرحمن شاكر

٧٤ – لابد من صنعاء .... مصطفى نبيل

٨٦ – أحمد صبرى بين المبالغة والحقيقة «دائرة حوار» .... نزار أحمد صبرى

٩٤ – المثقفون وتجديد الخطاب النفاقى ....
.... صافى ناز كاظم

٩٦ – الغباء ظاهرة تتزايد فى العالم ....
.... هديل غنيم



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٢٥ دولارا. باقى دول العالم ٤٠ دولارا.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٢٣ – الصفاة – الكويت ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

١٠٦ – أورجانوس المصرى .... فكرى أندراوس
١٢٢ – قصة الأسرة الهاشمية .... د. عاصم الدسوقى
١٣٤ – لورانس وسقوط الأسطورة .... د. صبرى محمد حسن
١٤٢ – الفن والقمامة .... د. محمد المهدى
١٥٢ – أشهر المعارك الفنية .... د. نبيل حنفى محمود
١٦٢ – المتفرجة (حلم) .... مرفت رجب
١٦٧ – العيب فى أفلام الصيف .... مصطفى درويش
١٧٢ – القاهرة الخديوية ..... أمانى عبدالحميد
١٨٠ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون .... د. محمد الدسوقى
١٨٦ – أوراق العائلة "قصة" .... محمد البساطى
١٩٢ – مرايا نجيب محفوظ .... د. فهمى عبدالسلام
٢٠٠ – عزف منفرد على ذاكرة الشجرة «قصيدة» .... محمد يوسف
٢٠٢ – فى عالم الأدب والصحافة .... وديع فلسطين

الأبواب الثابتة

– عزيزى القارئ ٦
– أقوال معاصرة . ٢٣
– لغويات
د. الطاهر أحمد مكى ٩٣
– شخصية العدد د. محمود حافظ
بقلم د. محمد الجوادى ١٠٠
– من نخائر الكتب العربية رحلة ابن جبير
بقلم د. حاتم الطحاوى ١١٤
– التكوين (كريم مروة)
– أنت والهلال (عاطف مصطفى) ٢١٨
– الكلمة الأخيرة
بقلم: د. عبدالعظيم أنيس ٢٢٦



عزيزى القارئ

فى الحب

كتب د. طه حسين فى مقاله الافتتاحى «فى الحب» فى مجلة الكاتب المصرى فى فبراير ١٩٤٦، قارن فيه بين كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسى الذى عاش فى القرن الحادى عشر وكتاب الأديب الفرنسى ستندال «فى الحب» والذى عاش فى القرن التاسع عشر وجاء فيه..

«مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب فيه مزلا ولا دعابة، وإنما كان جدا خالصا لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان، فقد كان القدماء أسمح منا نفوسا وأحسن منا استقبالا لأمور الحياة، يعنفون بأنفسهم فى مواضع العنف، ويرفقون بها فى مواطن الرفق، ولا يتكلفون هذا الجد السخيف والتزمت الذى لا يدل على شئ..

وأريد أن أتحدث عن الحب من حيث إنه كان موضوعا للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين، أحدهما عربى مسلم، والآخر أوروبى مسيحى.. فالاختلاف بين الرجلين بعيد إلى أقصى غايات البعد، ولكنهما يلتقيان.. أحدهما عربى الحياة والآخر فرنسى الحياة، وكلاهما عاش فى عصر فتنة واضطراب، عاش ابن حزم فى عصر انهيار الدولة الأموية فى الأندلس، ولم يشهد ذلك من برجه العاجى، وإنما شهده شهود المشارك فيه، المصطلى بناره، المتحمل لآثاره، فذاق السجن والنفى.. ولقى ألوانا من المحن وضروبا من الخطوب، وعاش ستندال فى عصر الثورة وفى عصر الحروب التى أثارها نابليون وشارك فى هذه الحروب.

والمهم أن كليهما منح حسا دقيقا وشعورا رقيقا وعاطفة ثائرة ومزاجا حادا وذوقا رفيعا، فتأثر بهذه الفتنة وتأثر بهذا الاضطراب، وعاش عيشة سخط وقلق لا عيشة رضا واطمئنان.

وكان الرجلان يختلفان ويتفقان. فرغ ابن حزم لعلوم اللغة والدين، وفرغ ستندال للقصص والإنشاء الأدبى الخالص، ولكن ابن حزم ألف كتابا فى الحب، وستندال ألف كتابا فى الحب أيضا.

والظاهر أن الحب كان خطيرا حقا فى إسبانيا المسلمة أيام ابن حزم. ونقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب شغل ابن حزم فى حياته كلها كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام.

أما فى فرنسا فالحب خطير فى كل وقت لا يحتاج ذلك إلى دليل وأخص ما يتفق فيه ابن حزم وستندال أنهما لم يريدا أن يكتبا فى الحب كتابة المتزيد المتكلف، وإنما كتابة العالم الذى يؤثر البحث والاستقصاء، ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة، ويستنبط من هذا كله أصولا وقواعد هى أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب.. يثبت ابن حزم أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك شئ مباح لا ينكره الدين ولا العرف مادام لا يتجاوز حدود الدين والعرف. وما هية الحب «الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع» وهذا الاتصال إنما هو ملاءمة فى الشكل وتشابه فى الطبع وحنين جزء من النفس إلى جزء آخر من النفس، والأعراض الطارئة هى التى تباعد بين هذه الأجزاء أو تتيح لها أن تقترب وتأتلف.

أما ستندال فلا يعرف الحب جملة وإنما يستقصى أنواع الحب عند أفراد الناس، وليس هنا حب واحد، إنما هناك أنواع أربعة من الحب:

أولها الحب الجامح الذى يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها، الذى يندفع كالسيل لا يلوى على شئ ولا يترك لصاحبه حظا من أناة أو روية أو تفكير، والثانى الحب المترف الذى ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف فى الذوق وتأنق فى فنون المتاع، والذى لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب، وهو لون من ألوان الذوق وفن من فنون الترف، أحاط الناس بأسراره ودقائقه فهم يصعدون فيه عن علم وينبهون إلى غايته عن بصيرة، والثالث الحب الجسدى الذى تدفع إليه الغرائز والذى يشترك فيه الإنسان والحيوان. والرابع حب الغرور الذى ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التى يكبر بها الإنسان أمام نفسه.

وهو ليس تقسيما نهائيا، ومن الممكن أن ينقسم كل نوع إلى أنواع جزئية أخرى، والمهم أن نتبين كيف ينشأ الحب وكيف ينمو وكيف يضعف وكيف يموت.

فأنت قد أعجبت ثم اشتقت ثم أملت ثم استمال هذا كله فى نفسك إلى لذة قوية تحدث بمجرد أن ترى من تحب أو تسمعه أو أن تمسه أو أن تتصل بسبب من أسبابه.

وسلك ابن حزم وستندال طريق الملاحظة المباشرة، ولكن ابن حزم لا ينتفع فى ملاحظته المباشرة كما ينتفع ستندال، فبين الرجلين دهر طويل تطور فيه العقل الإنسانى وتطورت فيه مذاهب البحث ومناهجه ووسائل الملاحظة وأدواتها تطورا عظيما بعيد المدى.

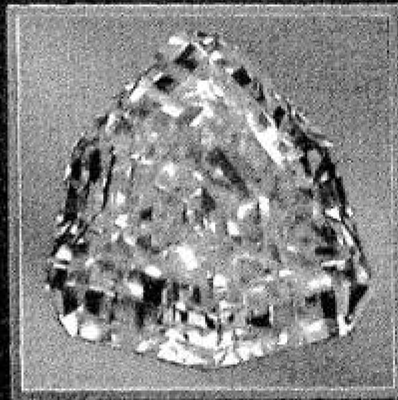
وهناك فرق آخر، هو أن ابن حزم على شذوذه الذى لفت إليه المعاصرين جميعا فى الشرق والغرب، لم يستطع أن يتخلص من العادة المألوفة فى الاستنباط فقد فكر كما كان الناس يفكرون. ولم يستطع أن يتجاوز ذلك.

فكلا الرجلين قصد إلى إجادة الدرس وإتقان البحث وتعمق الاستقصاء، ولكن أحدهما وفق إلى ما لم يوفق له الآخر لأنه ملك من الوسائل والأدوات وأسباب العلم والثقافة ما لم يتح لصاحبه.

ويتجاوز ستندال النقد إلى الاقتراح، ويقترح مذهبا جديدا فى تربية الفتاة لتستطيع أن تحب حبا صحيحا. ويقترح ألوانا من الإصلاح تقرب المسافة بين الحب والزواج.

وأصبح كتاب ابن حزم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما فى التاريخ الأدبى.

المحـــــرر



الماس.. والحروب الأهلية فى إفريقيا

وحل وصراع ومخمل وحب

بقلم
جميل مطر

لو عرفت الحبيبة قصة حجر الألماس الذى قدمه لها حبيبها تعبيراً عن حبه لربما ترددت فى قبول هذه الهدية رغم حسن نوايا الحبيب وصدق تعبيره. هذا الحجر، صغر أو كبر، وسواء رصع خاتماً أو عقداً أو سواراً وصل إلى مكانه على إصبع أو على عنق أو على رسغ فاتنة هنا أو هناك بعد أن مر برحلة طويلة، مخلفاً وراءه فى كل خطوة من خطواته عذابات وأهوال وقصص ومآسى بلا حصر أو حدود.



ليست كل أحجار الألماس المتداولة فى السوق العالمية نعمة فكثير منها ملعون ومخضب بالدماء. لم يعرف الناس، وبخاصة العشاق بينهم، الحقيقة فى مسيرة هذه الأحجار من حيث كان مرقدها على شاطئ نهر أو عند قاعه حتى وصلت إلى محل بيع المجوهرات. وقف وراء إخفاء هذه الحقيقة عديد من الأطراف، فى صدارتها شركات استخراج وصقل وتوزيع أحجار الألماس، وعلى رأس هذه الشركات دى بيرز، والدولة البلچيكية وإسرائيل وكبرى أجهزة الإعلام العالمية. كل هذه الأطراف كانت تخشى لو تسربت الحقائق المرعبة التى تختفى وراء بريق حجر الألماس أن يحدث للألماس والمنتفعين من تجارته دولاً كانت أم شركات أم جيوش ما حدث للفراء. فقد أصيبت صناعة تربية الثعالب وحيوانات أخرى كانت تذبح من أجل فرائها بالكساد فى أعقاب الحملة الإعلامية التى قامت بها منظمات غير حكومية مهتمة بالدفاع عن الحيوانات. فقد تعمدت هذه المنظمات توزيع صور لقطع فراء ملطخة باللون الأحمر، أى لون الدم الذى سال من الحيوانات عند ذبحها قبل سلخها. قيل أيضاً فى تبرير محاولات إخفاء الحقائق فى قصة الألماس أن هذه الأطراف نفسها كانت فى الحقيقة تخشى على وظائف العاملين الأفارقة فى استخراج الألماس فى وقت تمر فيه اقتصادات الدول الإفريقية بأزمات طاحنة، وتزداد فيه البطالة إلى درجات كبرى. قيل إنه من الظلم أن تذاع قصص مؤلمة عن الألماس فيفقد العمال الأفارقة المساكين وظائفهم.

ولا شك أن جوهرة الألماس تحمل معان كثيرة وتؤدى أكثر من وظيفة. الألماس لافت للنظر أكثر من أى شىء آخر، لعله فى أحيان يكون لافتاً أكثر من فتنة وجاذبية من تتجمل به أو تتزين ، أو فلنقل يزيدها فتنة ويزيدها ثقة بنفسها. فالألماس كما ذكرنا أقوى تعبير عن الحب. اكتسب هذه السمعة بفضل استراتيجية بارعة يجيدها المستثمرون فى صناعة الألماس وبائعو المجوهرات. وفى الواقع فإنك فعلاً إن دخلت إلى مكان متلألئ الأضواء ومكتظ بالسيدات والفتيات ففى الغالب يزداد المكان بهجة وتلألأ كلما ازداد عدد قطع الألماس الموجودة فيه. كذلك صار واقعاً أن الألماس عند المتزينات والمتزينين به يحمل رسالة مرح وفرح وحب.

الوجه الآخر للألماس

الوجه الآخر للألماس تقابله هناك فى القارة السمراء جنوب الصحراء وعلى شواطئ الأنهار وفى بعض التلال. هناك ترى أطفالاً ورجالاً وقد انحنوا من مطلع الشمس الحارقة حتى غروبها، وأيديهم تغوص فى الوحل تبحث فيه عن أحجار وحصى لعل بينها حجرة من الألماس الخام. أجداد هؤلاء الأطفال والرجال ربما كانوا من بين أوائل من ربطهم تاجر الرقيق منذ ثلاثة أو أربعة قرون بالحبال وساقهم عبر الغابات والمستنقعات تلدغهم الحشرات وتقتل أغلبهم الأمراض



الاستوائية حتى يصل أقلهم إلى شاطئ الأطلسي. وهناك يقوم تاجر الرقيق بوضع كل فرد منهم على الميزان لتقدير حمولة السفينة. ويفتح فمه ليفحص أسنانه ثم يفحص جسده ويختبر قوته. وبعدها يقدر ثمناً له يتقاضاه إن وصل العبد سالماً إلى جزيرة فى البحر الكاريبى أو إلى شاطئ فى الولايات المتحدة الأمريكية. الرقيق والألماس كلاهما ثروة إفريقية. وكلاهما لايصلحان للاستهلاك فى إفريقيا. وكلاهما استخرجا من مكامنهما بفضل استثمارات أمريكيا وأوروبية. والمؤكد فى كل الأحوال أن الرقيق والألماس تسببا فى خراب إفريقيا وتدمير بنى اجتماعية وأخلاقية وسياسية غيرت وجه القارة وأوقفت حركة التقدم الإنسانى فيها قروناً.

ويصف تقرير صحفى منظر منجم من مناجم الألماس فيقول «رأيت عمالاً فى ثياب رثة وأطفالاً عيونهم غائرة وبطونهم منتفخة من الجوع، كلهم ينحنون بحثاً عن قطع الألماس فى الوحل، وفوق رءوسهم يقف جنود، أحياناً جنود حكومة وأحياناً أخرى جنود فى جيش متمرد، شاهرين أسلحتهم. وعند المغيب يقوم الجنود بتفتيش كل عامل عن أحجار يكون قد دسها فى فمه أو فى مكان آخر من جسده. وفى الليل يهاجم الجنود القرى المحيطة بالمنجم فيخطفون عدداً من الأطفال للعمل فى اليوم التالى فى المنجم، أو للعمل كجنود بعد قضاء فترة من الوقت يجبرونهم فيها على تعاطي المخدرات حتى يدمنونها إدماناً تاماً ثم يسلمونهم رشاشات للقتل. وفى هذه القرى التى يتداولها الجنود قرية بعد قرية وليلة بعد ليلة، يشربون حتى الفجر ويتسلون باغتصاب السيدات والفتيات، وعند الفجر يحرقون القرى فلا يبقى من رأى أو من سمع».

أين كل هذا من الشعار الإعلامى الذى رفعه أصحاب دى بييرز لترويج بيع الألماس على امتداد عقود طويلة، يقول الشعار «حجر من الألماس إلى الأبد». وحددت الشركة شروطاً أربعة هى التى على أساسها يتحدد سعر الألماس، وهى كلمات بالإنجليزية تبدأ كلها بحرف C وترجمتها هى القطع واللون والصفاء والوزن. وليس بينها كما نلاحظ أجرة عمل أو تعب أو عرق أو دماء هذا الرجل الإفريقى المنحنى أو هذا الطفل المنتفخ البطن والنساء اللاتى اغتصبن والقرى التى أحرقت والدول التى خربت.

قليلون هم الذين أتيحت لهم الفرصة ليشاهدوا على الطبيعة الموطن الأصلى لصخرة الألماس فى وحل إفريقيا، ثم ليشاهدوا بعدها هذا المتجر اللامع والأنيق والأكثر شهرة فى مدينة نيويورك وهو محل «تيفانى» المتخصص فى بيع أحجار الألماس. ويقول أحد الذين دخلوا هذا المتجر إنه فى بعض أركانه توجد نوعية خاصة من أحجار الألماس لا تعرض إلا لمشترين معروفين لدى إدارة المتجر، أو من الذين يسبق وصولهم موعد ووساطة. فى هذا الركن تقدم الشمبانيا إلى هذه النوعية الخاصة من الزبائن بغض النظر إن كانوا سيشترون أم سيشاهدون ثم يقررون. وقال آخر كان من حظه زيارة المتجر مع معارف له «إنهم يقدمون من الشمبانيا أفخر أنواعها وبعضها بلون الزهر». وفى مكان آخر من المتجر رأى صاحبنا أحد مدراء المتجر وهو يقدم لزبائنه نوعاً من الشيكولاتة البلجيكية النادرة والباهظة الثمن. لا أحد فى هذا المتجر المخملى البارد نوعاً فى صيف نيويورك الحار والدافئ نوعاً فى شتائها

القارس، ممن أكلوا من الحلوى أغلاها وشربوا من الأنبذة أفخرها، ولا أحد من مديرى المتجر أو العاملين فيه، لا أحد من كل هؤلاء يعرف أن وراء هذه الأحجار التى تخطف الأبصار من داخل خزائن المحل البلورية قصصاً دامية ومآسي رهيبة ووراء كل حجر رجال ومدن ودول وشركات.

شركات وراء مأساة الألماس

لا تبدأ رواية أو تقرير عن تجارة وصناعة الألماس دون الإشارة إلى الشركة الأم التى كان لها الفضل في ازدهار هذه التجارة وهي شركة دي بييرز. أنشأ هذه الشركة في جنوب إفريقيا أحد أبرز رواد الاستعمار العالمي، وبخاصة الاستعمار البريطاني، اللورد سيسيل رودس. واستطاعت الشركة في سنوات قليلة أن تهيمن على سوق الألماس حتى وصلت في وقت من الأوقات إلى أنها كانت تتاجر فى ٩٠٪ من الألماس غير المصقول، ثم هبطت النسبة تدريجياً حتى صارت الآن حوالى ٥٠٪ وقد احتفظت الشركة بمقرها الرئيسى فى جوهانسبرج لسنوات ممتدة قبل أن تنشئ مقاراً أخرى. قامت استراتيجية دى بييرز منذ البداية على عدم الكشف عن حجم المخزون لديها ولدى غيرها من الشركات من الألماس فى العالم. وقامت أيضاً على تجنب الزيادة فى الإنتاج وبالتالى تفادى زيادة المعروض. وقد وضعت هذه الشركة قاعدة أساسية في تجارة الألماس التزم بها كبار المنتجين والصانعين والتجار على حد سواء وهي أن قيمة الماس وسحره ليس فقط فى جماله وصلابته وديمومته ولكن أيضاً فى ندرته. وينقل بعض من كتبوا عن الألماس عن أصحاب شركة دى بييرز أنهم يكسبون من وراء ندرة الألماس أكثر من أى شيء آخر يتميز به الألماس، وبمعنى آخر أنهم مهما خفضوا من تكاليف إنتاج الألماس ونقله وحمايته، ومهما خفضوا من أجور العمال، يظل عنصر الندرة سواء كان حقيقياً أو وهمياً هو المصدر الأكبر لأرباحهم. ولذلك عندما كانت الشركة فى موقع الاحتكار اهتمت أكثر شيء بحماية مناجم ومصادر الإنتاج بحيث لاتتسرب أحجار من الألماس مع العمال أو الحراس أو المواطنين العاديين. ثم جاء يوم أصبحت تجارة الألماس مهددة نتيجة التهريب، وهذا بدوره اتسعت مجالاته وأسواقه نتيجة الحروب الأهلية التى تشبت للسيطرة على مناجم الألماس.

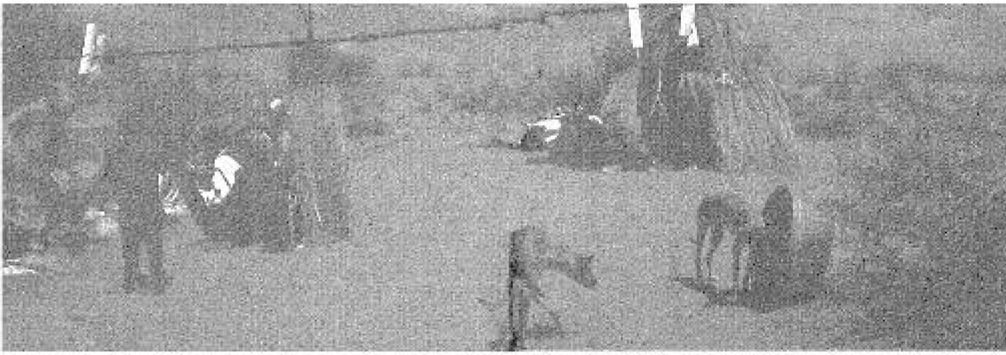
ومع اكتشاف مصادر جديدة للألماس أصبح لشركة دى بييرز نفوذ كبير فى سيراليون التى اكتشف فيها الألماس على نطاق واسع فى الستينيات، وأصبح للشركة حق الامتياز لاستخراج الألماس من مياه المحيط الملاصقة لسيراليون فى عقد الثمانينات وأنشأت مكتباً لها فى فريتاون عاصمة سيراليون. وفى خلال الحرب الأهلية كانت تعلم أن معظم إنتاج المتمردين يجرى تهريبه إلى أوروبا، فأنشأت مقراً لها فى منروفيا ومكتب مشتريات فى كوناكرى عاصمة غينيا لتشترى من المهربين أيضاً. وبعد قليل أنهت شركة دى بييرز علاقاتها بالألماس



المستخرج بطريقة مشروعة فى سيراليون وركزت على الألماس غير المشروع. وفى تقرير للأمم المتحدة عن المآسى الناتجة عن استخرج الألماس وتهريبه من دول غرب إفريقيا قامت اللجنة التى شكلتها الأمم المتحدة بتحميل شركة دى بيرز جزءاً من المسئولية عن عمليات التهريب وانتشارها بصفتها أكبر مشتر للماس فى العالم وذكر التقرير أنه كان يمكن للشركة والمسئولين فيها أن يتحققوا من بلد المنشأ والأحجار التى تصل إليها وأن تتحقق أيضاً من كمية الدماء التى سالت بسبب تهريب هذا الألماس.

ومن الأمثلة البارزة على دور بعض الشركات فى تخريب الاقتصاد الإفريقى وتدميره أن شركة سجلت نفسها باسم أوريكس فى جزر كايمان، وهى الجزر التى كانت إلى عهد قريب تمثل ملاجئ آمنة لأموال عصابات الجريمة الدولية والمهربين. وبعد تسجيلها أعلنت الشركة عن توقيع عقد تقاسم أرباح مع حكومتى الكونغو وزيمبابوى. وكان العقد يتضمن تفاصيل صفقة من الألماس قيمتها مليار دولار. إلا أنه عندما حاولت الشركة عرض أسهمها فى بورصة لندن ثارت شكوك لدى المسئولين عن البورصة، وكلفوا لجنة للتحقيق فى أصول هذه الشركة وميادين عملها وأعضاء مجلس إداراتها. واكتشفت اللجنة أنه فى الوقت الذى سجلت فيه الشركة نفسها فى جزر كايمان لاستغلال الألماس فى الكونغو كانت منطقة الامتياز التى حصلت عليها تخضع لسلطة جيش زيمبابوى. فى ذلك الوقت كانت زيمبابوى حليفاً لحكومة كينشاسا ضد المتمردين الكنغوليين والجيوش الإفريقية الأخرى التى دخلت الكونغو لمساعدة المتمردين على الحكومة الشرعية. كذلك اكتشفت لجنة التحقيق البريطانية أنه يوجد فى مجلس إدارة الشركة عدد من كبار ضباط جيش زيمبابوى وأغلبهم كانوا موجودين فى إقليم كساى فى الكونغو. كانت نتيجة التقرير امتناع الشركة عن طرح أسهمها فى بورصة لندن.

وفى الكونغو أيضاً كان لوران كابيلا قد عقد اتفاقاً قبل اغتياله مع شركة IDI الإسرائيلية للألماس. يقضى الاتفاق بأن تحتكر الشركة كل إنتاج الكونغو. وقبل أن تبدأ الشركة عملها اغتيل كابيلا الأب وتولى الحكم ابنه الذى قام بإلغاء الاتفاق بحجة أن الشركة الإسرائيلية لم تنفذ الشرط المادى فى الاتفاق، والذى يقضى بدفع مبلغ معين إلى الحكومة الكنغولية. كان الشرط أن تدفع الشركة لكابيلا وحكومته ٣٠ مليون دولار فى السنة مقابل الحصول على ما قيمته ٦٠٠ مليون دولار من أحجار الألماس المستخرجة فى الكونغو. وفى تحقيق قامت به لجنة فى الأمم المتحدة وصدر بشأنه تقرير فى شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٠ جاء أن هذا العقد اعتبره كابيلا الابن كابوساً كبيراً، بل كارثة لصناعة الألماس فى الكونغو. ولذلك قام بإلغاء الاتفاق، بالإضافة إلى أن الشركة لم تدفع فعلاً إلا ٣ مليون دولار إلى حكومة كينشاسا. أما الكارثة التى يشير إليها التقرير فجاءت نتيجة أن الاحتكار الذى فرضته الشركة الإسرائيلية أدى إلى عمليات تهريب واسعة النطاق، الأمر الذى دفع قيادات فى الشركة إلى اقتراح أن توقع حكومة الكونغو عقداً آخر مع الشركة يكلف بموجبه الجيش الإسرائيلى تدريب جنود كنغوليين على حماية الألماس ومنع تهريبه مقابل مبالغ طائلة تدفعها الحكومة الكنغولية للجيش الإسرائيلى. وجاء فى التقرير الذى أجرته



قبائل البوشمن مهددة بعملية ترحيل أو إبادة بسبب شائعة اكتشاف الألماس في صحراء كالاهاري

اللجنة الأممية أنه بسؤال مدير الشركة الإسرائيلية صرح قائلاً أنه لا صحة لوجود اتفاقية عسكرية بين إسرائيل والكونغو لحماية الألماس، «كل ما في الأمر أنني قدمت قائمة لحكومة الكونغو بأسماء خبراء عسكريين إسرائيليين يمكنهم لمعاونة القوات الكونغولية في مهمتها لحماية الألماس الخاص بالشركة». هذا التقرير لا يكشف عن أن لوران الأب كان في حاجة لأي مبلغ من المال يدخل خزانة الحكومة للإنفاق منه على تكاليف الحرب الأهلية التي شنها المتمردون بمساعدة أوغندا ورواندا، بينما كانت تساعد حكومة الكونغو الشرعية كل من ناميبيا وزيمبابوي وأنجولا، ولكل منها قصة دامية مع الألماس.



حدث أيضاً أن المتمردين في سيراليون قاموا باتصالات لعقد اتفاقات مع شركات استشارية كندية وأمريكية لاستخراج الألماس في سيراليون في المناطق التي كان يحتلونها. وأن هذه الشركات جاءت إلى سيراليون بعلم الحكومة الأمريكية ومن هذه الشركات شركات كندية هي ركس دايموند وأمكان منيرالز ووالدويد ليوكي. وكان مقر إحدى الشركات الأمريكية مدينة ماكلين في فيرجينيا وشركة أخرى تحت اسم لازار كابلان وشركة ثالثة في واشنطن يمتلكها أمريكي من أصل بلجيكي. وتقول الرواية إن زعيم المتمردين سافر إلى جنوب إفريقيا مرتين لعقد اتفاقات ومشاورات حول استخراج وبيع الألماس بجواز سفر أمريكي رغم أن أمريكا كانت طرفاً في فرض الحظر الدولي عليه السفر في سيراليون بسبب جرائمه ضد الإنسانية. بمعنى آخر لا يمكن إعفاء الشركات الكبرى الكندية والأمريكية والجنوب إفريقية والبلجيكية والإسرائيلية وشركات أخرى لم يأت ذكرها في تقارير الأمم المتحدة من مسئولية العذاب الذي لاقاه ومازال يلاقيه الملايين من أبناء إفريقيا بسبب الجرائم التي ارتكبتها هذه الشركات سواء لتمويل حروب المتمردين والحكومات في الحروب الأهلية الناشئة، أو في الاستمرار في تهريب الألماس من هذه البلاد وبيعه في أوروبا والولايات المتحدة باستمرار لا تتناسب مع حاجة إفريقيا.

ولابد هنا من الإشادة بالموقف الذي اتخذته الأمم المتحدة. فقد خطت خطوة جريئة خارج إطار الدبلوماسية التقليدية حين أقامت لأول مرة لجنة تضم الشركات والحكومات والمنظمات غير الحكومية التي تراقب عمليات نوب الألماس الإفريقي والفاجع الذي يقع بسبب تجارة الألماس وتهريبه، ويأتي في مقدمة هذه المنظمات غير الحكومية منظمة شاهد عالمي.

رجال وراء المأساة الإفريقية

هذا عن الشركات التي ساهمت في مأساة الألماس والدمار في غرب إفريقيا، أما عن الرجال فهؤلاء قصة أخرى. من الأسماء التي لمعت وارتبطت بفضائح تهريب الألماس تشارلز تايلور رئيس

جمهورية ليبيريا السابق والذى قررت الأمم المتحدة عزله وطلبت منه مغادرة البلاد قبل وصول قوة السلام التابعة لها بقيادة نيجيريا . قيل على لسان أحد كبار المسئولين فى ليبيريا إن الشعب الليبيرى لم يعرف من قبل حاكما على هذه الدرجة من الفساد والثراء والوحشية صفات ثلاث إذا اجتمعت شكلت أغلب الشروط التى يجب توفرها لزعيم إفريقى وصل إلى الحكم عن طريق تمرد عسكرى وحرب أهلية دامية، واحتكر تهريب الألماس، وساعد المتمردين فى عدد آخر من الدول المجاورة بكافة الوسائل، أهمها بطبيعة الحال، الحصول منهم على إنتاج بلادهم من الألماس وبيعه لحسابه الخاص ودفع المقابل من أسلحة يستوردها مرورا بدولة عربية أو أخرى.

شارل تايلور متمرد صار رئيساً للجمهورية. لذلك احتل موقع النموذج والرائد لكثير من أقرانه فى الجيوش الإفريقية المجاورة. كان أفضل تلاميذه على الإطلاق فوداى سنكوح الذى قاد الجبهة الثورية فى سيراليون ضد الحكومة الشرعية فى فريتاون، وفى الواقع توجد أوجه تشابه متعددة بين الرجلين. كلاهما تلقى تدريبه فى ليبيا، أحدهما أعلن التمرد فى ١٩٨٩ والآخر ١٩٩١، وتعاون جيشاهما منذ البداية. ففى ١٩٨٩ أشعل تايلور حرباً فى ليبيريا. واستمرت هذه الحرب تحصد آلاف المواطنين وتذيق ليبيريا الدمار والخراب بدرجات متصاعدة حتى استولى على الحكم فى عام ١٩٩١. ولم يكن خافياً على كل الدول التى تعاملت معه بعد ذلك أنه كان مجرماً ووحشياً فى تعامله مع أبناء بلده. ويصف هولبروك المندوب الدائم للولايات المتحدة فى مجلس الأمن والوسيط الذى تدخل لدى البوسنة خلال الحرب الأهلية فى يوجوسلافيا شارل تايلور بأنه «ميليسوفيتش فى إفريقيا محاط بالألماس أو غارق فيه». هولبروك قال هذا الوصف فى عام ٢٠٠٠ ومع ذلك بقى بعدها شارل تايلور رئيساً لأكثر من ثلاث سنوات. وذكرت تقارير من المخابرات الغربية أن تايلور ما كان يمكن أن يسمح للمتمردين فى سيراليون بالهزيمة لأنه كان متعاقداً مع شركات استثمارية أوروبية وأمريكية ضامناً لهم استمرار مناجم الألماس فى سيراليون مفتوحة أمام المهربين. هذا الدور الذى لعبه شارل تايلور تقابله حقيقة أن ليبيريا نفسها ليست من أوائل الدول المنتجة للألماس فى إفريقيا، فهى تنتج ما يعادل ١٠ ملايين دولار فى السنة، ومع ذلك صدرت فى عام ١٩٦٩ ما قيمته ٣٠٠ مليون دولار. أى أنها صارت دولة تعتمد اعتماداً رئيسيا على عمليات تهريب الألماس ومستعدة أن تفعل كل ما فى وسعها لحماية عمليات التهريب وحماية المتمردين. هؤلاء بدورهم استمروا يستخدمون السخرة فى سيراليون لاستخراج الألماس رغم وجود قوات السلام التابعة للأمم المتحدة، وعندما وجه رئيس القوة الدولية بتهمة تقصيره فى حماية عمال وأطفال السخرة قال أن مهمته تنحصر فى فرض السلام وليس مراقبة المناجم وأعمال السخرة.



ويذكر أنه حيث فرضت الأمم المتحدة الحظر على ليبيريا رفضت فرنسا أن يمتد الحظر ليشمل صادرات الخشب الليبيرية، وهى الثروة التى تخضع كاملاً لسيطرة شارل تايلور والطبقة الحاكمة الليبيرية. واتخذت فرنسا هذا الموقف رغم أن جماعات المحافظة على البيئة حذرت أكثر من مرة من خطر إزالة غابات غرب إفريقيا على البيئة فى إفريقيا وفى أوروبا بل وفى العالم بأسره. وحذرت أيضاً من أن النشاط الذى تمارسه الشركة المتعددة الجنسية التى تقوم باقتلاع أشجار غابات ليبيريا مركزها إندونيسيا وهى تفعل فى إندونيسيا ما تفعله فى غرب إفريقيا، وكلها مناطق استوائية كثيفة الأشجار. واللافت للنظر أن هذه الشركة الإندونيسية تستورد العمال من جنوب شرقى آسيا للعمل فى غرب إفريقيا وخاصة فى ليبيريا.

ومن الرجال أيضاً فى قصة الألماس سام بوكارى مساعد سنكوح وهو الذى كتب يقول «إن الفضل فى إطلاق تجارة التهريب فى سيراليون، حتى قبل فرض المتمردين سيطرتهم على هذه التجارة يعود إلى شخص يدعى محمد حجازى لبنانى الأصلى». فقد كتب بوكارى رسالة عنوانها «لمن يهمه الأمر» وعلى ورق يحمل شعار الجبهة الثورية أى الجبهة التى تقود التمرد ضد حكومة فريتاون. تتضمن الرسالة بلاغاً رسمياً بتعيين محمد حجازى تاجر الألماس المعروف فى سيراليون وكيلاً عن الجبهة الثورية المتمردة للتفاوض مع أى شخص أو شركة أو دولة داخل أو خارج سيراليون فى أى موضوع يتعلق باستخراج وشراء وبيع وصقل الألماس.

وتحكى قصة الألماس فى سيراليون أنه فى عام ١٩٣٠ تم اكتشاف أول حجر من أحجار الألماس وأن شركة دى بيرز اكتشفت منذ البداية أن الألماس المنتج فى سيراليون يتميز بالجودة الفائقة. وفى عام ١٩٦٨ قام رئيس الوزراء سيكا ستيفنس بتأميم شركة الإنتاج وصار يتخذ كل القرارات الخاصة بالألماس استخراجاً ونقلاً وتقديراً ويساعده محمد حجازى رجل الأعمال اللبنانى (وفى تقارير دولية أخرى جاء اسمه محمد جميل). وكانت سيراليون فى عام ١٩٧٠ تصدر أكثر من مليونى قيراط بشكل قانونى بينما كانت فى عام ١٩٨٠ تصدر ما لايزيد على ٥٩٥ ألف قيراط وفى عام ١٩٨٨ انخفض الرقم إلى ٤٨ ألف قيراط. هذه الأرقام الأخيرة هى أرقام صادرات الألماس المنتج وفقاً للقانون والمسجل رسمياً. وبمناسبة محمد حجازى ربطت تقارير متعددة نشرت فى الغرب بين الحرب الأهلية اللبنانية وعمليات تهريب الألماس من سيراليون، كما ربطت بين الحرب الأهلية اللبنانية والاستعدادات لتفجير حرب أهلية فى سيراليون وهو ما حدث فعلاً ولكن بعد سنوات عدة. تقول هذه التقارير إن بعض أمراء الحرب فى لبنان وجهوا تعليمات إلى الرعايا اللبنانيين التابعين لهم طائفياً فى سيراليون بدفع ضريبة ولائهم للميليشيات اللبنانية من عائد تجارتهم فى تهريب الألماس من غرب إفريقيا. ويقال أنه عندما تقرر نفى محمد حجازى إلى الخارج حل محله على الفور مستثمرون إسرائيليون تربطهم علاقات وثيقة بعائلات الجريمة المنظمة فى أمريكا وروسيا وبرجال صناعة الألماس فى بلجيكا.

اتسعت شبكة المسئولين العاملين فى موضوع تهريب الألماس حتى كادت تشمل كل دول غرب إفريقيا ودول أخرى فى

وسط القارة وشرقها. وقد جاء فى بيان الحكومة البريطانية أن بليز كامبوريه رئيس جمهورية بوركينا فاسو كان يبعث بطائرات إلى أمراء الحرب فى سيراليون مقابل أكياس الماس المهرب. وكان كامبوريه معروفاً بعلاقاته الوثيقة بمسئولين وصناعيين فى أكرانيا يرسلون إليه السلاح وهو ينقله بدوره إلى المتمردين فى سيراليون، هذه الأسلحة كانت تستخدمها قوات فوداى سنكوح التى تخصصت فى بتر الأطراف. ومازالت الصور التليفزيونية التى خرجت من سيراليون شاهداً على بشاعة هذا التخصص الذى فقد بسببه مئات الألوف من أهل ليبيريا أطفالاً وكبارا سيقانهم أو أذرعتهم أو أقدامهم أو أيديهم أو كلها معاً. وقد عثر صحفى رافق قوات الأمم المتحدة على تفاصيل هذه الأمور والتعليمات التى كانت توجه للجنود الذين قاموا بحماية مناجم الألماس، والمكلفين بإجراء عمليات البتر فى كراستين مكتوب على غلافيهما «السلام.. بارك الله المعلم». والمقصود بالمعلم هنا فوداى سنكوح قائد الجبهة الثورية المتمردة، من ناحية إفريقية لاستقدام مرتزقة تدفع لهم مئات الملايين من الدولارات ونسبة معينة من الألماس المصادر من المتمردين. ولم يكن هؤلاء المرتزقة أقل وحشية فى التعامل مع



السكان المدنيين. بل يقال إن المنافسة كانت ضارية بين قوات الحكومة وقوات المتمردين على من ينجح أولاً فى إذلال المدنيين وإخضاعهم، ويفرض عليهم تقديم الأطفال ليعملوا جنوداً فى هذا الجيش أو ذاك.

وقد اعتمد سنكوح وغيره من قادة تهريب الألماس على وسطاء للتهريب سواء عن طريق ليبيريا أو غيرها إلى أوروبا. كان المتمردين يبيعون إلى وسطاء، وهؤلاء يدفعون ما يعادل تقريباً ٩٠٪ من قيمته الإسمية كصخور خام، وأغلب الوسطاء من اللبنانيين الذين يسلمونه إلى مهربين يقومون بتهريبه إلى ليبيريا وغينيا، ومن هناك بالطائرات إلى تل أبيب وأنتويرب. وكان المهرب أو حامل الرسالة يحصل على ١٪ من قيمة الألماس الذى يحمله. كل هؤلاء، متمردون ومسئولون ووسطاء ومهربون، استخدموا حسابات سرية فى بنوك سويسرا معروفة لكافة أجهزة المخابرات الدولية باسم حسابات «جبال الدولار». وكان للوسطاء مكانة كبيرة فى غرب القارة حتى عهد قريب. ويحكى أحدهم أنه كان يُستقبل فى كل مرة ينزل فيها مطار منروفيا أو كوناكرى وقد فرشت له سجادة حمراء حتى قاعة كبار الزوار فى المطار وعلى رأس مستقبليه كبار موظفى المطار ومسئول من قيادة التمرد أو الحكومة حسب ملكية الشحنة المطلوب تهريبها. كل هذا بسبب الرشاوى الذى كان يدفعها لموظفى الجمارك وكبار موظفى الدولة.

جوناس سافمبى رجل آخر نزل اسمه بقائمة الدم الألماسى أو الألماس الملوث بالدم. كان سافمبى يقود حركة أونيتا التى قامت ونشطت بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد جنوب إفريقيا فى

مواجهة حكومة رواندا الشرعية التى استلمت الحكم من البرتغاليين، وهذه كانت تحظى بتأييد الاتحاد السوفيتي وكوبا. وعند انتهاء الحرب الباردة ونهاية عهد التفرقة العنصرية زال الدعم الخارجي، فلجأ سافمبي إلى تهريب الألماس المستخرج من المناطق التى تحتلها قواته، وبتحريض من موبوتو سيسى سيكو، الرجل الأشهر فى تاريخ إفريقيا السمراء بعد القضاء على جيل الثوار العظام من نوع لومومبا ونكروما. عرض موبوتو على سافمبي أسلحة مقابل تزويده بالألماس المستخرج من أراضى أنجولا، وساعده فى ذلك بليس كامباورى رئيس بوركينا فاسو. وهنا أيضاً فى أنجولا ألقت الأمم المتحدة مسئولية المجازر التى وقعت فيها على سافمبي والحرب الأهلية التى نشبت فيها وعلى شركة دى بيرز لأنها قامت بالشراء مباشرة أو بطريقة غير مباشرة الألماس المستخرج من المناطق التي كان يسيطر عليها المتمردون بقيادة سافيمبي.

من الرعيل الأول بقيادة سيسيل رودس وحتى شارل تايلور لعب كثير من الرجال البارزين فى التاريخ الإفريقى والتاريخ العالمى دوراً دموياً فى عملية اغتصاب إفريقيا. بدأ الاغتصاب منذ قرون على أيد تجار من كافة المشارب والجنسيات قضوا تماماً على أجيال شابة من وسط القارة وغربها وقادوهم كالقطيع إلى مصيرهم المؤسف إنسانياً وتاريخياً فى النصف الغربى من الكرة الأرضية، ثم اجتمعت الدول الأوروبية فى برلين فى عام ١٨٨٤ وقررت تقسيم إفريقيا بينها. صدق من أطلق على مؤتمر برلين مؤتمر اغتصاب إفريقيا. واستمر الاغتصاب على أيدى الشركات الغربية وبمساعدة حكام أفارقة.

دول فى مأساة الألماس

إلى جانب الشركات والرجال الذين ساهموا فى تلطيخ الوجه البراق للألماس بالدم الأحمر الإفريقى لعبت دول بعينها أدواراً لا تقل بشاعة. أنا شخصياً، كلما قرأت عن القانون البلچيكى الشجاع الذى قضى بمحاكمة الشخصيات العالمية التى ارتكبت جرائم ضد الإنسانية وأسقطته الحكومتان الأمريكية والإسرائيلية، كنت أفكر على الفور فى أعمال الملك ليبولد جزار الكونغو الشهير. ويبدو من تقارير اللجان التى شكلتها الأمم المتحدة لدراسة موضوع تهريب الألماس وعلاقته بالحروب الأهلية وبالمذابح فى إفريقيا أن أعضاء هذه اللجان لم يخفوا حقيقة موقف بلچيكا من هذا الموضوع. فبلچيكا بحكم مسئوليتها فى الكونغو وبحكم أنها المقر الرئيسى لصناعة وتوزيع الألماس، كانت دائماً على علم كامل بكل التفاصيل المتعلقة بموضوع الألماس المشروع والمهرب على حد سواء. إذ يقع على الأرض البلچيكية وفى مدينة أنتويرب تحديداً أهم مركز عالمى لاستيراد الألماس وصقله وإعداده للتوزيع فى كافة أنحاء العالم. فى هذا المجال لا ينافس أنتويرب مدينة أخرى فى العالم ولكن يكمل نشاطها مدن مثل نيويورك وتل أبيب وبومباى كمراكز لصناعة الألماس وتجارته. أهمية نيويورك تكمن فى أن الولايات المتحدة وحدها تستهلك أكثر من نصف إنتاج العالم من الألماس سنوياً. وبالتالى كانت أقدر من غيرها على إيقاف تجارة الألماس المهرب أو مهربى الألماس فى إفريقيا لو أنها أرادت كبح سيول الدماء التى جرت واختلطت بمياه الأنهار فى شرق سيراليون وفى الكونغو وفى ليبيريا وفى

غينيا وفى زيمبابوى وفى جنوب إفريقيا وفى أنجولا . ولكنها لم تفعل. بلچيكا كانت تستطيع أيضاً باعتبارها المنتج الأول للألماس الجاهز للاستخدام ولكنها لم تفعل.

هذه الثروة الطائلة المتركزة فى مدينة أنتويرب فى بلچيكا نبهت إليها الأمم المتحدة حيث اتهمت كبار مصنعى الماس فى أنتويرب والمجلس العالمى للألماس ومقره هذه المدينة بغض الطرف عن التهريب وعدم الإصرار على أن لا يصل إلى معاملها ومصانع الصقل فيها إلا الألماس المنتج بطريقة قانونية. تجاهلت أنتويرب نشاط منظمة أونيتا واستمرت تستورد الألماس المهرب من أنجولا حتى آخر يوم فى حياة سافمبى، ثم استمرت تسمح بوصول الألماس من ليبيريا وبوركينا فاسو وكلاهما كانتا تدعمان أمراء الحرب من الطرفين فى سيراليون، وبالتأكيد كانت كل أحجار الألماس الواردة عن طريقهما ملوثة بالدماء. كل ما فعلته بلچيكا هو تأييد ما يصدر عن الولايات المتحدة التى هددت شارل تايلور فى وقت من الأوقات بتجميد أرصدته وكبار قادة ليبيريا إذا لم يتوقف عن دعم أمراء الحرب. ولكن لم تتخذ بلچيكا أو الولايات المتحدة قراراً فى شأن وصول هذه الأحجار إليهما.

ثم أن بلچيكا لا تعترف إلا بالمجلس الأعلى للألماس صوتا وحيداً ينطق باسم هذه الصناعة. وهو مجلس تأثر بعمق بأساليب التعامل التى اتخذتها شركة دى بييرز على مر السنيين. كان موقف المجلس باستمرار إنه يستحيل مقاومة عمليات التهريب لأن الألماس يمكن تهريبه بكميات كبيرة ذات قيمة عالية بأقل مساحة ممكنة فى جسم الإنسان أو حقائبه. وادعى المجلس فى وقت من الأوقات أن كل الألماس المهرب من العالم لايزيد على ٦٪ من الألماس المستخدم. ولكن المشكلة لم تكن فى كثرة أو قلة الألماس المهرب ولكن أن هذا الألماس المهرب على ضآلته وقلته تسبب فى نشوب حروب أهلية استمرت لعقود فى غرب القارة ووسطها، وسقطت بسببه مئات الألوف من الضحايا وتشردت شعوب بكاملها. ففى ليبيريا وحدها بلغ عدد النازحين من قراهم وبيوتهم نصف مليون نسمة. وأصر المجلس على أن يستمر فى اعتبار دولة المنشأ هى الدولة التى صدر منها الألماس وليس الدولة التى أنتج فيها . وبالتالى فالألماس المستخرج من سيراليون لم يصل إلى بلچيكا أو أنتويرب باعتباره من إنتاج سيراليون وإنما إنتاج ليبيريا أو بوركينا فاسو أو إسرائيل. فالغريب أن دولاً كثيرة فى الغرب والعالم توافق على شهادة تقول بأن منشأ الألماس إسرائيل، مع العلم أن إسرائيل لاتنتج قطعة واحدة من الألماس وإنما تقوم فقط بصقله وترصيعه.

ولو أن الدول التى كانت تعلم عن مسئولية الألماس المهرب فى المأساة الإفريقية توقفت عن استيراده لتوقفت معظم الحروب الأهلية الإفريقية. الدليل على ذلك أن الحكومة الشرعية فى فريتاون فشلت على امتداد سنوات طويلة فى القضاء على قوات التمرد أو الجبهة





جماعات المحافظة على البيئة حذرت من خطر إزالة غابات غرب إفريقيا

الثورية المتمردة لأن القوات الحكومية كانت تستخرج الألماس من مناطق ناضبة بينما كانت المناجم الممتازة فى حوزة المتمردين. من ناحية أخرى لم تتوقف الحرب الأهلية فى أنجولا إلا عندما نجحت قوات الحكومة فى الوصول إلى مناجم الألماس التى كانت تسيطر عليها أونيتا وتطردها منها وتستولى عليها وتستغلها لمصلحتها.

كتب الكثيرون عن وجود علاقة ما بين انتهاء الحرب الباردة واشتعال الحروب الأهلية المعتمدة على الألماس المهرب فى إفريقيا. يقولون إن النزاعات الإفريقية اعتمدت فى تمويلها خلال الحرب الباردة على قروض ومعونات الدولتين الأعظم ووكلائهما من الدول الأخرى، وحين توقفت الحرب الباردة توقفت هذه التمويلات الأجنبية فلجأت الأطراف الإفريقية إلى الألماس بغية تهريبه من أجل تمويل النزاعات الإفريقية التقليدية وغير التقليدية. ولم تهتم الدول الكبرى.

***

وفى الواقع لم تتحرك الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى بحماسة نسبية للقضاء على ظاهرة الألماس المهرب إلا تحت ضغط ثلاث عوامل أساسية:

أولاً: اكتشاف الولايات المتحدة والدول الغربية عموماً أن الطفرة فى كمية الألماس المهرب أى غير المشروع اقتربت من أن تتسبب فى أزمة فى صناعة الألماس، وهى صناعة لها مكانتها فى الغرب. فقد تسببت فى زيادة المعروض زيادة هائلة الأمر الذى يؤدى، إن استمرت الزيادة، إلى أن يفقد الألماس معظم قيمته بين بقية الجواهر والأحجار الكريمة. فالألماس كما ذكرنا يعتمد فى جزء كبير من قيمته على ندرته.

ثانياً: لم يعد مقبولاً استمرار هذه البشاعة التى مارستها الجيوش الحكومية

وجيوش المتمردين في أنحاء القارة خاصة بعد أن صارت منظمات غير حكومية كثيرة تضغط في اتجاه ضرورة وقف هذه العمليات العسكرية في القارة الإفريقية، وصارت تشير بأصابعها إلى كثير من التواطؤ من جانب الدول الغربية مع زعماء أفارقة يعملون في تجارة تهريب الألماس. ولا يبدو أن هناك نهاية قريبة لجشع الطبقات الحاكمة في إفريقيا. إذ تنقل وسائل الإعلام حكاية أخرى مثيرة ودامية من بتسوانا. فقد تبين أن حكومة بتسوانا وهي الدولة التي تحتفظ بمكانة طيبة بين الاقتصادات الإفريقية المختلفة هددت قبائل البوشمن التي تسكن صحراء كالهاري بقطع المياه عنها لحفزها على مغادرة المحمية التي تعيش فيها إلى مكان آخر. إذ سرت شائعة في جنوب إفريقيا أن البوشمن، وهم شعب من الأقزام يعيشون الآن في محمية في الصحراء، عثروا على مناجم الألماس. وقد سارعت منظمات غير حكومية في صدارتها منظمة «البقاء الدولي» والمهتمة بالدفاع عن الشعوب المهددة بالفناء بدق أجراس التنبيه إلى أن هذا الشعب طردته من موطنه الأصلي قبائل البانتو وهي قبائل أرستقراطية كانت تعمل في رعي البقر خلال زحفها نحو الجنوب آلاف السنين، ثم جاء المستوطنون الأوروبيون فدفعوا شعب البوشمن شمالاً في اتجاه صحراء كالهاري. هذا الشعب مهدد الآن بعملية ترحيل أو إبادة جديدة .. بسبب شائعة اكتشاف الألماس.

ثالثاً: سرت شائعة أخرى لعلها السبب الحاسم في دفع الولايات المتحدة ودول غربية أخرى نحو الاهتمام بقضية الألماس المهرب وعلاقته بالمذابح والحروب في أفريقيا. تقول الشائعة والتي سربتها إحدى الجمعيات غير الحكومية أن منظمة القاعدة كانت تشترى الألماس من الجبهة الثورية في سيراليون وتبيعه في أوروبا. وتقول المنظمة إنها تعتقد أن منظمة القاعدة قامت بغسل أكثر من ٢٠ مليون دولار عن طريق صفقات الألماس من المتمردين ومع شارل تايلور وفي تقرير آخر صدر في إبريل ٢٠٠٢ أي منذ شهور قليلة تحت عنوان «من أجل مزيد من الدولارات» تشير هذه المنظمة إلى أن القاعدة تاجرت في الألماس على امتداد عشر سنوات.

أتصور أنه إذا كان هناك من دافع أساسي وراء تحرك الولايات المتحدة والغرب عموماً للفصل بين الألماس وسيول الدم في إفريقيا، فهو الحرب ضد الإرهاب. فالدم يسيل في إفريقيا منذ عقود والألماس المهرب يشتريه الامريكيون والأوروبيون ومن دخله يتمول المسئولون والمتمردون ويذبحون المدنيين الإفريقيين، ومع ذلك لم يتحركوا في الغرب إلا أخيراً، وفي الشرق لم يتحرك أحد. وفي عالمنا العربي لم أسمع شكوى أو انتقادات من مثقف أو مسئول يندد. رغم التأكيد المتكرر باننا كعرب ومسلمين نكره الظلم ونقف ضد القتل وأخلاقنا ترفض البهرجة. ■



● «واحد من أول اهتماماتي هو حقيقة أن الناس لا يعيشون حياتهم بكل ما في تلك الكلمة من معنى، فهم لا يساهمون بأي نصيب فيها»

ادوارد إلبي
الأديب الأمريكي الحائز علي جائزة بوليترز للآداب أربع مرات

● «الناس لم تعد تستمع إلى صوت المثقفين العاملين في قطاع التجسير مع سلاطين الانحطاط»

المفكر اللبناني الياس خوري

● «النخبة العربية تنتحر اليوم انتحارا جماعيا، بسبب كذبة كبرى اسمها أمريكا، تلعب على الوتر الحساس من حقوقنا المقدسة»

المفكر الفلسطيني محمد صادق الحسيني

● «الحياة ليست سهلة!!»

كاترين هيبورن
النجمة الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية أربع مرات والمتوفاة عن عمر ناهز الستة وتسعين

● «الديمقراطية ليست بكل بساطة مجرد عملية تقنية، تنظيم انتخابات حرة، إنها ثقافة، تربية يومية، اقرار بقواعد وقيم»

الطاهر بن جلون - المفكر والروائي المغربي

● «الديمقراطية وتحديد الهوية شرطان أساسيان لتحقيق التكامل الثقافي العربي»

د. فيصل دراج - وزير الثقافة الفلسطيني

● «أكبر إساءة للديمقراطية هي انتخاب غير الديمقراطيين بالأغلبية»

فريد زكريا
رئيس تحرير مجلة نيوزويك الأمريكية وصاحب كتاب مستقبل الحرية

● «أدوائي الغربة والعزلة والمكر، ولست حقلا بورا كما يتصورني البعض»

الطيب صالح - المفكر والروائي السوداني

● «الشعر هو اصطياد المعنى في قفص اللفظ»

الشاعر المصري سيد حجاب

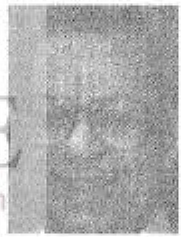
● «إنه يجني مبالغ طائلة على كلماته، في هذه الأونة التقيت به في نيويورك قبل ايام حيث قلت له أهلا بيل فقال لي هذه سعرها عشرة دولارات.

قول للمرشح الأسبق عن الحزب الجمهوري لرئاسة الولايات المتحدةعن الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون

● «أرجح الاستبداد الداخلي على السلطة الأجنبية»

قول منسوب إلي محمد خاتمي
رئيس الجمهورية الإيرانية


الطاهر بن جلون


الطيب الصالح


محمد خاتمي



رفاعة الطهطاوى



محمد عبده



عبد الرحمن الكواكبى

الإسلام والنهضة

بقلم
د. أحمد محمد الطيب
مفتى الديار المصرية

تذكرنا الظروف العصيبة التى تحيط بالأمة العربية والإسلامية اليوم بالظروف ذاتها التى أحدقت بهذه الأمة وألمت بها قبل قرنين مضيا من تاريخها الطويل، وهى الظروف التى شكلت فيما مضى أسباب النهضة العربية الأولى، وتعود اليوم من جديد لتشكل الأسباب الجديدة للنهوض من الكبوة التى تردت فيها النهضة الأولى وعقمت قبل أن تؤتى ثمارها ونتاجها الطبيعى الذى تؤتيه أية نهضة مناظرة لها فى الشرق أو الغرب.. ويبدو أن ظواهر الانكسار والتراجع وفوضى الاضطراب هى المقدمات الضرورية أو الشروط الموضوعية لانبعاث النهضة فى تاريخ الأمم المتخلفة، أو تلك التى حاولت النهوض ولكن لأنها تحركت فى غير الاتجاه الصحيح فإنها سرعان ما ضلت الطريق، وعادت إلى نقطة الصفر .



محمد رشيد رضا



جمال الدين الافغانى



محمد على

- بوادر الانكسار هو مقدمة النهضة
- اضطراب الرؤية فى الثقافة الإسلامية جزء من اضطراب الرؤية للثقافة العامة!
- انطلق الإمام محمد عبده من شرعية أن يأخذ من الغرب.
- ليس صحيحا أن ثقافتنا تكرس الثبات وتنفى التطور.

وشىء من هذا يمكن أن يصدق على نهضتنا التى مضى عليها قرابة قرنين من الزمان: فمن المسلم به أن رفاعة الطهطاوى الذى تؤرخ به بدايات النهضة العربية ولد وعاش فى الفترة ما بين ١٨٠١م - ١٨٧٣م، ومن الثابت أنه فى غضون هذه الفترة سلط الأضواء على كل الشروط اللازمة لقيام نهضة قابلة للترقى والنماء، مثل الديمقراطية والدستور والمؤسسات النيابية، ومراقبة تصرفات الحكومة وتقييدها بقيود القوانين مثل الاستبداد والمرأة.. إلى آخر هذه القضايا التى عادت جذعة - من جديد - فى أيامنا هذه، وكأنها لم تقتل - من قبل - بحثا ودراسة وتقعيداً وتنظيراً.. ولم يكن صوت رفاعة الطهطاوى صوتا صارخا فى البرية، بل جاوبته أصداء أصوات أخرى أكدت هذه القضايا، وحملت همومها ودفعت بمسألة النهضة إلى الأمام، وهنا تذكر اسماء شوامخ الرواد من أمثال الافغانى ومحمد عبده والكواكبى ورشيد رضا والحجوى

وابن باديس.. ولم تكن هذه الأسماء اللوامع إلا أمثلة ونماذج جاويتها قائمة طويلة من الأعلام ممن جاءوا بعدهم.

ويتحدث المؤرخون - في مشروع النهضة العربية - عن نهضتين أو مرحلتين: -

أولاهما: مرحلة التأسيس التي بدأت على يد محمد على وابنه إبراهيم باشا في مصر، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وكان من آمالها بناء دولة قوية تعتمد على جيش حديث، وصناعة متطورة وتعليم عصري، بيد أنها سرعان ما أخفقت بسبب تحديات الاستعمار الغربي الذي كان ينتظر لحظة الانقضاض على مصر والمشرق العربي.. ولا يغفل المؤرخون في هذا السياق نهضات عدة واكبت النهضة المصرية في أقطار عربية أخرى، مثل تونس والمغرب وإن لاقت نفس المصير، حين انتهى بها أمر الاستعمار إلى فرض الوصاية والحماية ثم الاحتلال.

أما المرحلة الثانية من مراحل النهضة العربية فكانت مع ثورة يوليو في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، وكان برنامج الثورة هو الصيغة التي بشرتنا بالآمال العريضة من مطامح التنمية، وتحديث الجيش والتصنيع الثقيل ومجانية التعليم وبناء القوة الاقتصادية والعسكرية ومساندة حركات التحرر الوطني داخل الوطن العربي وخارجه.

وقد واكبت النهضة المصرية الثانية نهضات مماثلة في ستينيات القرن العشرين في سوريا والعراق والجزائر، ولم تكن ظروف النهضة العربية الثانية بأحسن حالا من ظروف النهضة العربية الأولى فلم تلبث أن انتكست النهضة في مصر عقب هزيمة ١٩٦٧ وانتكست معها النهضات المجاورة.

ولا يهمنا في هذه الورقة المتواضعة أن نتابع مع مؤرخي حركة النهضة العربية في طوريها السابقين أسباب وعلل الانتكاس والانكسار والتراجع والعودة إلى نقطة قريبة من نقطة الصفر، ولماذا جاءت النتائج في التجربتين شديدة التواضع على المستوى الاقتصادي والسياسي إذا ما قورنت مثلا بتجارب مماثلة في بلدان أخرى بدأت معنا - بل بعدنا - واستطاعت أن تقفز بشعوبها إلى مستوى الصدارة.. أو على الأقل مستوى الأمم المانحة لا المستجدية.. وما يهمنا هنا هو حالة «الثقافة» التي بدأت بخطوات ثابتة وواعدة ومتوهجة، ثم ما لبثت أن بدأت في العد التنازلي شيئاً فشيئاً حتى صار الأمر الآن إلى ما يشبه «الخواء»، وذلك بالمقارنة إلى ما كان عليه حال الثقافة في بدايات القرن الماضي وحتى ما بعد منتصفه بقليل.

اضطراب الرؤية

ولا أدعي هنا أنني سأضع يد القارئ على مكمن الداء الذي أدى إلى اضطراب الرؤية واختلاطها فيما يتعلق بأمر الثقافة

الإسلامية.. فهذا موضوع دقيق وشديد التعقيد، ولكن لعلى لا أصادر على المطلوب لو ذهبت رأسا إلى ادعاء أن اضطراب الرؤية في الثقافة الإسلامية فرع عن اضطراب الرؤية في الثقافة العامة ككل. وهذه خاصة الثقافة الإسلامية التي ربما تنفرد بها من بين سائر الثقافات الدينية الأخرى، حيث يمكن لأية ثقافة دينية - غير اسلامية - أن تعمل وتزدهر في معزل عن المنظومة الثقافية العامة، لأن خطاب هذه الثقافات يتوقف بطبيعته عند الفرد ولا يتخطاه إلى حيث مخاطبة النظم الحياتية من سياسية واجتماعية وثقافية وفنية وغيرها من النظم التي يعيش الفرد في ظلالها.. وهذا الفرق بين طبيعة الثقافة الإسلامية في تغلغلها في كل ظواهر الاجتماع والتمدن من جانب، وانحصار الثقافات الدينية الأخرى في نطاق الفرد من جانب آخر، هو فرق ما بين طبيعة الدين الإسلامي وطبيعة الأديان السماوية السابقة في علاقتها بالفرد والمجتمع والتاريخ.. وهو - أيضا - فرق ما بين حضارة الشرق وحضارة الغرب في موقفهما من الوحي والنبوة والدين، فالوحي في حضارة الشرق مقدس ومطلق ومتعال، وهو فوق الإنسان والمجتمع بل فوق التاريخ، ثم هو قوة هادية وموجهة ومصصحة وكاشفة عن المعنى الحقيقي لقيم الحق والخير والجمال، سواء على الخط القصير لهذه الحياة أو الخط الطويل اللانهائي الذي تمثله الحياة الأبدية. والأمر مختلف بالنسبة لموقف الحضارة الغربية من هذه الينابيع المقدسة، إذ الإنسان بجسده ومتعه - لا بروحه - هو المقدس في الغرب، وهو مركز الكون ومحوره، وعلى الدين أن يعمل في الحضارة الغربية في هذا الإطار الضيق المحدود، وهو إطار خانق، عاد معه الدين شأنا خاصا بالحرية الفردية، إن استحسنته حرية الفرد فهو حسن، وإن استقبحته فهو قبيح.. وهكذا انزوى الدين إلى ركن بائس قصي وانسحب من منظومة القيم الفاعلة والموجهة لحضارة المجتمع وثقافته وأنماط سلوكه.. وقد ساعد على هذا الانفصام النكد بين الدنيا والدين في ثقافة الغرب طبيعة الفصل المشروع في «المسيحية» بين ما لله وما لقيصر، الأمر الذي انتهى بتكريس نظام العلمانية أو فصل الدين عن الدولة وإقصائه كليا عن مراكز التوجيه في المجتمع، وقد دفعت هذه المأساة بعض المخلصين من علماء المسيحية إلى محاولة القيام بإحداث تغييرات في تفسير الكتاب المقدس وفي طبيعة الكنيسة ووظيفتها، أملا في أن تتعاصر قيم الإنجيل وقيم المجتمع الجديد في أنموذج الإنسان الغربي المعاصر، لكن الأمر انتهى - من جديد - إلى اكتساح قيم المنفعة والمصلحة والمتعة ووفرة الإنتاج، وقال ماسكال في كتابه: «علمنة المسيحية».. قولته الشهيرة: «إننا بدلا من أن ندخل العالم في المسيحية نريد أن ندخل المسيحية في

العالم».

الغرب وإقصاء الثقافة الدينية

وهذا الذى حدث فى الغرب من إقصاء تام للثقافة الدينية لا يمكن أن يحدث مثله فى الشرق الإسلامى ، لأن الثقافة الإسلامية تأخذ اتساعها من اتساع الإسلام نفسه وتستمد حيويتها وتجددها من تجدد شريعة الإسلام - وهنا لا يمكن بحال فصل الدنيا عن الدين، لأنهما - فى حالة الإسلام - وجهان لعملة واحدة، ومن المعلوم أن حضارة الإسلام تكاد تكون الحضارة الوحيدة التى تصالحت فى منظورها ثنائيات كبرى لم يقدر لها أن تلتقى قط فى سائر الحضارات الأخرى: وفى مقدمة هذه الثنائيات : الدنيا والآخرة والدين والدولة، والفرد والمجتمع والجسم والروح.. الخ.. الأمر الذى يعنى بالضرورة أن النظام الإسلامى والنظام العلمانى نقيضان لا يجتمعان، لأن أحد النظامين أحادى النظرة وانتقائى الاتجاه، والآخر ثنائى تكاملى، وأحدهما يعمل بمنطق: «إما هذا وإما ذاك»، وأما الآخر فيعمل بمنطق: «هذا مع ذاك»، ومن ثم فإن كل المحاولات التى تمت فى اتجاه مصادرة الثقافة الإسلامية لصالح تأسيس نظام علمانى يسوس مجتمع المسلمين باءت بالفشل.. وسوف تلقى المحاولات القادمة نفس المصير، اللهم إلا إذا أمكن اجتثاث الإسلام من الجذور أو - على الأقل - تحويله إلى منظومة أخلاقية مجردة من الأحكام تجريداً تاما، فهنا فقط يمكن تصور نظام علمانى بديل للشريعة الإسلامية.. وإذن فليس الحل - كما يقال - العلمانية أو الكارثة - إذ من غير المعقول تصور مجتمع إسلامى وعلمانى فى الوقت نفسه، لأن العلمانية نظام بديل للدين ينفيه ولا يتكامل معه.. وهى - فى أفضل أحوالها - إقصاء للدين والشريعة.. من مراكز التأثير فى المجتمع: سواء على مستوى الأسرة أو الاقتصاد أو السياسة أو التربية أو الفن أو الثقافة أو الإعلام أو غير ذلك من ظواهر الاجتماع والنظم العلمانية لا تعول فى شىء من ذلك على الأديان ولا على مقاصدها ولا توجيهاتها العامة.. فالأسرة فى الغرب العلمانى - مثلا - لا تنبنى بالضرورة على أساس من أحكام الشرائع الإلهية التى تقيم الأسرة على أصول الحلال والحرام، ومن المقبول والمبرر أن تتم هذه العلاقة بين الرجل والمرأة كيفما اتفق، وربما تخلو كليا من أى بعد أخلاقى أو قيمى بالمعنى الدينى، وقد تتم فى إطار قانونى يقيم هذه العلاقة الخطيرة كما يقيم أية علاقة أخرى من منظور جاف، هو منظور الحقوق والواجبات وخذ مثلا آخر : ظاهرة المثليين أو ظاهرة زواج الرجل برجل مثله أو امرأة بامرأة مثلها: إنها فى المجتمع العلمانى حق من حقوق الإنسان، وحرية شخصية يكفلها القانون وينظم لها الحقوق

والواجبات من ميراث ومن حضانة أطفال (بالتبنى) وغيرها، والمجتمع يحميها ويحرسها بكل أجهزته القضائية والتنفيذية .. ومنذ أيام قلائل حملت إلينا الصحف، من بين ما حملت من غرائب الأنباء، أن هذا الشذوذ اكتسب - ويالكارثة!! - نوعا من القداسة حين استطاع أحد المثليين أن يتسلل وينجح «بالانتخاب!!» فى ترسيمه «أسقفا» بإحدى الكنائس فى الولايات المتحدة ومسئولا عن حراسة الأخلاق المسيحية، وأمانة تبليغها للشعب، وليس من حق أحد أن يمنعه من الوعظ والتبشير، «بالمثلية والمثليين».. وهذه بعينها الكارثة التى حذرنا منها «ماسكال» حين قال: إنه مع العلمانية المسيحية فى العالم ولا يدخل العالم فى المسيحية. وصدق «ماسكال»، لأن معيار القيم فى النظام العلمانى هو: المنفعة والمصلحة والمتعة، سواء كانت المنفعة أو المصلحة أو المتعة مشروعة أو غير مشروعة، منضبطة بأصول الأخلاق وثوابتها أو منفلتة منها، والعلمانية لا تؤمن بثبات القيم، ولا مطلقية الأحكام، وكل شىء فى منظورها متحرك أو قابل لأن يتحرك حسب تطور التاريخ، وما كان بالأمس حسنا يمكن أن يكون اليوم قبيحاً والعكس صحيح.. ومادامت المسلمة الأولى فى الفلسفة العلمانية هى «فصل الدين عن الدولة» فكل النتائج التى تترتب بعد ذلك هى نتائج صحيحة، ومتسقة ومقبولة فى منطق هذا المذهب، وباستبعاد الدين من أن يكون ميزانا أو معياراً للحكم بالحسن أو القبح، يهتز - لا محالة - ميزان القيم الإنسانية ويضطرب ويختل.

من الصعب تجاهل الكارثة

ونحن لا ننكر أبداً أن حضارة الغرب فيها الكثير والكثير جداً مما يشاد به، ويستحق الإعجاب، ويبعث على الانبهار، وأنها أفادت الإنسان والإنسانية على المستوى التقنى والفنى والعلمى بل والإنسانى أيضا، ولكن من الصعب تجاهل خطر.. «الكارثة» التى تردت فيها هذه الحضارة الكبرى حين حرمت نفسها من هدى السماء، وعندى أن هذه الحضارة أعطت باليمين، وسلبت باليسار كل ما أعطته بل وأكثر مما أعطته.

وقد كانت هذه الفلسفة، أعنى فلسفة إقصاء الدين كليا عن مشاريع النهضة فى عالمنا العربى أول مسمار يدق فى نعش ثقافة الأمة بشكل عام والثقافة الإسلامية على وجه الخصوص، ولنا أن نتأمل قليلا: لماذا نجحت تجربة الإمام محمد عبده إلى حين ثم انتكست بعد ذلك؟ ولماذا يتغنى المثقفون جميعا - بمن فيهم دعاة محاصرة الثقافة الإسلامية الآن - بتجربة الإمام وتلاميذه من بعده، ويعدونها الأنموذج الرائد الذى يجب أن نقتفى آثاره؟

وأغلب الظن أن السبب فى ذلك هو أن تجربة الإمام درجت فى اتجاه صحيح، فلم تقدم على إلغاء التراث وشطبه بجرة

قلم، ولم تتعامل مع حضارة الغرب من فراغ ، بل بدأ الإمام من التراث أولا وأسند ظهره إليه وهو يقلب عقله وبصره في منجزات الغرب العلمية والسياسية، وكان برنامجه أشبه بتركيبة جمعت بين المفاهيم الحضارية الغربية ذات المنزع الإنساني والأخلاقي والمفاهيم السياسية الشرعية المرنة في تراث الإسلام : نصوصاً وقواطع وفهوما أيضا.. وفي هذه التركيبة تمت المواءمة بين يسر الإسلام وسماحته ووسطية حضارته وبين حضارة الغرب في جانبيها الإنساني والأخلاقي، وقد انطلق الإمام محمد عبده وتلاميذه المخلصون من مسلمة بسيطة هي: شرعية أن يأخذ الإسلام من الغرب ما ليس عنده مادام لا يصطدم مع أصوله ومبادئه وقواطع نصوصه، فمثلا: يستند الإمام في جواز تطبيق صور الحكم العادلة عند أهل الكتاب على قاعدة تراثية، عبر عنها «ابن القيم» بقوله: «إن إمارات العدل إذا ظهرت بأي طريق كان، فذاك شرع الله ودينه»، كما استند إلى تراث الإسلام وهو ينفي أن تكون الدولة في الإسلام دولة دينية، لأن الأمة هي صاحبة الحق في تنصيب الحاكم، وهي صاحبة الحق في عزله «فهو حاكم مدني من جميع الوجوه» حسب عبارة الإمام.. وما نريد أن نصل إليه هو أن تجربة الإمام لم تكن أبداً مصالحة بين عناصر دنسه لا أخلاقية في حضارة الغرب وبين دين الأمة، كيف وهما نقيضان لا يجتمعان بحال!!

وأن هذه التجربة الناجحة سرعان ما دخلت على يد المتغربين في مأزق التنكر للدين والقطيعة مع التراث، والتماهي مع الغرب شكلاً وموضوعاً، والمناداة بالعلمانية بجناحيها:

اليساري والليبرالي والقومية، بديلاً عن تراث الأمة وتاريخها ودينها، ولم يجد دعاة التغريب حرجا في الهجوم على التراث والإزدراء من قيمته، وتصويره في صورة معوقة للنهضة والتنمية، وأنه والحداثة نقيضان، وما لم نغسل أيدينا منه فلن يمكن لمشروعنا النهضوي أن يستوي على سوقه.

وهنا تدخل الثقافة الإسلامية التي كانت مصدر قوة في تجربة الإمام في أزمة لا تزال تعاني منه حتى يومنا هذا، ومع أن أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتها المرعبة والمريبة أيقظت كثيرين من دعاة التغريب وواجهوا موقفهم وتحملوا مسئولياتهم ، فإن الساحة لازالت مملوءة بالعداء للتراث والسخرية منه.. ولدرجة أن أحد دعاة التغريب لم يتحرج أن يقترح إعادة النظر في قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» لأنها في منطق سيادته تشعر بتعالي المسلمين: ولست أدري لم صمت الأستاذ المثقف صمت القبور عن أية أخرى خاطبة بني إسرائيل بقوله تعالى: «وأني فضلتكم على العلمين» (البقرة ٠٤٧) ولاتزال ثقافتنا الاسلامية

توصف في أدبيات المتغربين بأنها: ثقافة ببغاوات يرددها الطلاب دون فهم.. وأنها لا تتفق مع تصورات الفيلسوف الفرنسي condorcet. وهي ثقافة تلقين، وفيها يقين أعمى، وتعليمها تعليم ظلامي يورث الخوف والهستيريا، ثم هي تحارب الفلسفة وتكفر الفلاسفة، وتحارب العقل لصالح النقل، وترسخ العداء للمرأة وتحض على عداء غير المسلم، وأن الثبات - لا التطور - هو سنة الله في الخلق والكون، والحل عند هذا المجدد (للثقافة الإسلامية !!) إحلال التعليم التنويري - وربما الفرنسي تحديداً - محل التعليم الإسلامي الظلامي.

خطورة عدم التوثيق

والذي يقرأ هذا الكلام يأسى كثيراً على المستوى الذي تردت فيه هذه الأقلام، وعلى الجرأة التي تتناول موضوعات علمية خطيرة دون توثيق للمعلومات أو إلقاء نظرة فاحصة على مصادر الموضوع الذي تتحدث فيه، وكدليل على أن هذا الكلام قد ألقي على عواهنه إلقاء، وأنه أشبه بحديث المقاهي منه بحديث العالم المسئول، أسوق للقارئ المنصف بعض ملامح سريعة من تراثنا المظلوم، ونؤكد أن هؤلاء الساخرين من التراث هم غرباء عليه بكل المقاييس، حتى وإن صدعوا رؤوسنا بدعاوى التحديث والتجديد:

- فليس صحيحاً أن ثقافتنا تحارب العقل، بل العكس هو الصحيح، والقاعدة الذهبية التي يحفظها صغار الطلاب المطلعين على هذا التراث تقول: «إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل وأول النقل» أي: حين يتعارض النقل - من قرآن أو سنة - مع أحكام العقل، فالقاعدة أن أقدم أحكام العقل وأجريها كما هي، ثم أفسر النقل وأؤوله بما ينسجم مع العقل، والعقل في ثقافتنا الإسلامية مناظر للشرع، وقد سماه الإمام الغزالي شرعاً باطناً، وسمى الشرع عقلاً ظاهراً وحسب القارئ المنصف في الاستدلال على تغلغل العقل والعقلانية في قلب الثقافة الإسلامية أن الخطوة الأولى التي تبدأ بها رحلة الإيمان بالله تعالى خطوة عقليه، وأن الدليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم دليل عقلي، ولا يجدي فيه دليل النقل، ودلالة المعجزة - كما هو معلوم للمثقف المطلع على التراث - دلالة عقلية وليست دلالة نقلية، وإثبات الوجود الإلهي قائم على دليل العقل، ولا يمكن أن يقوم على دليل النقل، لاعتبارات منطقية، يصعب فهمها في هذا المقام ومنها أن إثبات الوجود الإلهي انطلاقاً من دليل القرآن والسنة يستلزم الدور المحال. وللساخرين من ثقافتنا أن يصدقوا - أو لا يصدقوا - أن مادة «عقل» و«فكر» و«نظر» ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم أكثر من ١٢٠ مرة، وأن القرآن الكريم يفرق تفرقة حاسمة بين رتبة العلم واليقين من جانب ورتبة الشك والظن من جانب آخر، وأن كلمة «حجة» و«كلمة برهان» وردتا في القرآن الكريم كطريق وحيد للاستدلال وفي القرآن نعي صريح وواضح على هؤلاء الذين لايستخدمون عقولهم ويركنون لتقليد الآباء

والأجداد أو الكبراء أو أصحاب العاهات الفكرية .. فهل هذه الثقافة ثقافة تجارب العقل ؟!

وليس صحيحا أن ثقافتنا تحارب الفلسفة والفلاسفة، ويكفينا أن نحيل الأستاذ الساخر إلى كتاب تراثي، هو كتاب «فصل المقال فيما بين الحكمة والتشريع من الاتصال» لابن رشد وهذا الكتاب يدور على كشف الصلة الحميمة بين الفلسفة (الحكمة) وشريعة الإسلام، وفي هذا الكتاب يقول ابن رشد: «فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له (...) وأن الحكمة (الفلسفة) هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ... وهما المصطحبتان بالطبع، والمتحابتان بالجوهر والغريزة».

وإذا كانت ثقافتنا تحارب الفلسفة والفلاسفة ففيم إذن عشرات أقسام الفلسفة فى الكليات الإسلامية وغير الإسلامية فى عالمنا العربى والإسلامى بل فيم تخصصات الفلسفة الإسلامية فى جامعات الغرب وأمريكا واليابان ؟!

ثقافتنا .. ثقافة النور.

- وليس صحيحا أن ثقافتنا ظلامية، بل الثقافة الوحيدة التى أبرزت فلسفة «النور» - فى العالم - هى ثقافتنا، وفى القرآن سورة تسمى سورة «النور» و«النور» اسم من أسماء الله تعالى، وقد تكررت كلمة النور فى القرآن ٤٩ مرة، وجاءت كلمة النور والأنوار جزءاً من عناوين مئات الكتب والمصنفات فى التراث، وإذا كانت مصادر المعرفة فى الفلسفات الغربية ظلت حتى الآن حبيسة مصدر «الحس» أو«العقل»فإن» النور فى الفلسفة الإسلامية مصدر من مصادر المعرفة، ربما يفوق فى يقينيته مصدر العقل ومصدر الحواس.. ومفهوم النور فى الثقافة الإسلامية غاية فى الثراء والخصوبة والتنوع : فالله نور، والقرآن نور، والتوراة، والإنجيل نور، والنبى - صلى الله عليه وسلم - نور، والأنبياء نور، والعلم نور والجهل ظلام، والبصيرة نور وعمي القلب ظلام، والإيمان بالله نور والكفر به ظلمة.

- وليس صحيحا أن ثقافتنا تكرس الثبات والسكون وتنفى التطور والتجديد،بل التجديد أصل فى متن هذا الدين الذى نشأت حوله هذه الثقافة :

- فالتغير مبدأ قرآني، وهو شرط التطور للأفضل(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) «الرعد»

- والتجديد فى الدين، واستمراره وتواصله حقيقة قررها النبى صلى الله عليه وسلم فى ألفاظ صريحة واستعمل فيها كلمة «التجديد» نصا، وذلك فى الحديث الشريف :

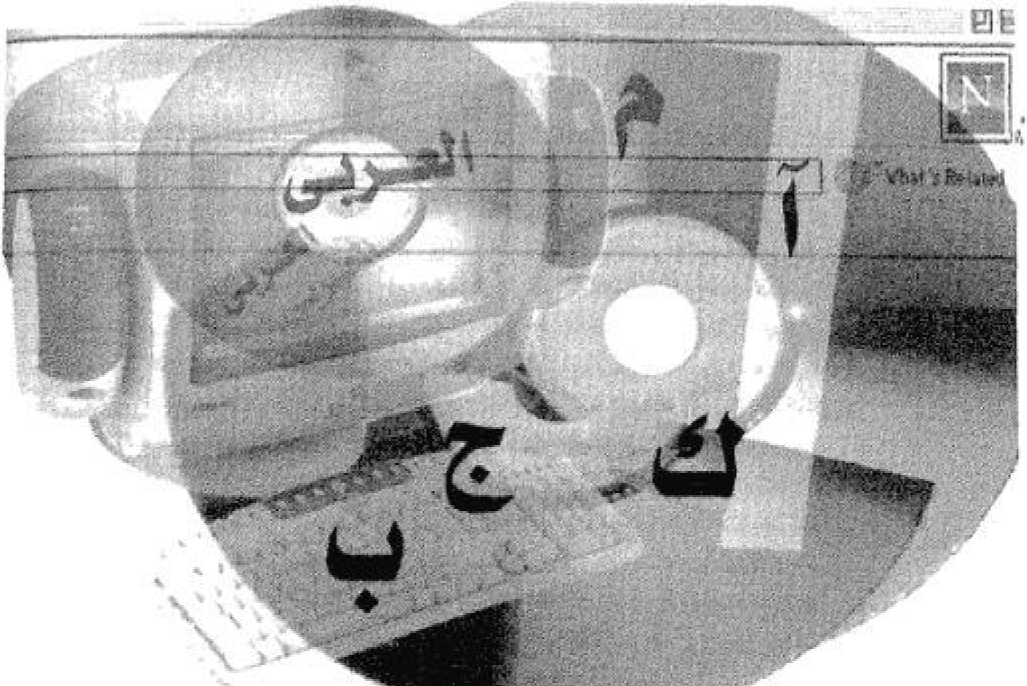
(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها)

- وتراثنا الكلامي يتكئ فى تصوره للكون وفى مباحثه الطبيعية على مبدأ التجدد اللحظى ، ونظرية الخلق المتجدد عند الأشاعرة تغنيني عن الجدل فى هذا

الموضوع، فعندهم : أن العرض لا يبقى زمانين متتاليين، بل ينعدم ويوجد لحظة بعد أخرى، والمعتزلة - كالنظام والكعبى - يخطون خطوة أبعد حين يقررون أن «الأجسام المادية كلها تتجدد حالاً فحالا» مما يعني أن الكون متجدد وصائر من حال إلى حال في كل لحظة والفيلسوف المسلم «صدر الدين الشيرازى» (ت ١٦٤١) يتفرد في تاريخ التفلسف العقلى بالقول بالحركة في الجوهر، وكان الفلاسفة قبله يجترون نظرية أرسطو في ثبات الطبيعة في عالميها : العلوى والسفلى، وله مقولة سبق بها فلاسفة الصيرورة والديمومة في الغرب، من أمثال برجسون (١٨٥٩- ١٩٤١) يقول فيها : «إن حال الشمس والقمر كحال زيد وعمرو في تبدلهما وانقضائهما ودثورهما وفنائهما (...) وأن الحمل والثور والسنبلة في عالم السماء، كالحمل والثور والسنبلة في عالم الأرض من حيث أن أشخاص الكل متجدد في كل حين». وحتى علماء التصوف المسلمين لم يغب عن وعيهم هذا المبدأ، وها هو ابن عربي يقول :

«إن الموجود كله متحرك على الدوام دنيا وأخرى» بل أن أصغر طالب في كلية أصول الدين يتعلم أن الاستدلال على وجود الله تعالى - في تراثنا - يرتكز على مسلمة أولى، هي تغير العالم وتبدله، ويحفظ عن وعى وفهم نظم الدليل هكذا : «العالم متغير وكل متغير حادث وكل حادث لابد له من محدث».

وإذا كانت الثقافة الإسلامية عانت - وتعاني - الكثير من معسكر التغريب المتربص بها، فإنها - في الطرف المقابل - تعاني - وبالقدر نفسه - من معسكر التشدد والمتشددين والذى ظهر مؤخرا على الساحة وزعم لنا أنه المتحدث الرسمي - الوحيد - باسم الإسلام، وحول لنا هذا الدين الذى قدمه القرآن الكريم ورسوله العظيم للبشرية يسراً وسماحة ونفياً للحرج ودفاعاً عن الإسلام وتكريماً له، وتأصيلاً لمبدأ الاختلاف بين الناس، وتقريراً لحقيقة اختلاف الناس في الأديان والعقائد والمذاهب والأخلاق والأعمال، وأن هذا الاختلاف مستمر إلى يوم القيامة، وأن العلاقة بين المسلم وغير المسلم هي - تحديداً - علاقة «التعارف» التي نص عليها القرآن وذكرها بهذا اللفظ في قوله تعالى «لتعارفوا»، وأن علاقة «التعارف» تستلزم- بالضرورة - علاقة الاحترام المتبادل - إن هذا الدين في رحمته وعدله وإنسانيته وعالميته تحول على يد هؤلاء المتشددين وفي أدبياتهم إلى قائمة تعيسة من الممنوعات والمحظورات، اختلط فيها المكروه بالمحرم وزالت الحدود والحواجز بين ما هو مندوب وما هو واجب، واستبيحت فيها حرمات ما كان لها أن تستباح لولا سوء التفسير والتأويل .. وإذا كانت أزمة التغريب قد أربكت الثقافة الإسلامية وشلت فاعليتها في مشروع النهضة فإن أزمة التطرف لا تقل خطراً عن أزمة التغريب في إرباك هذه الثقافة وشل فاعليتها .. وبيان ذلك يحتاج إلى حديث آخر . ■



الإنترنت بيتكلم عربى

حالة اللغة والثقافة العربية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

هل الإنترنت تعانى من إنجليزية حادة؟ هل أصبح من الأمور الاعتيادية فى هذا العصر أن نقول ونكرر، إن الإنترنت اخترعت فى الولايات المتحدة الأمريكية، وان اللغة والثقافة الإنجليزية سيطرا تماما على فضاء الإنترنت بشكل غير قابل للنقض؟! وإذا كان عدد الصفحات المتاحة على شبكة الإنترنت حوالى ٣,٨ مليار صفحة، ويشهد كل يوم إضافة قرابة خمسة ملايين صفحة، وأصبح من تكرار القول التذكير بأن ٨٠٪ من كل صفحات الويب إنجليزية اللغة، ويقتبس منها دائما كمستندات ومراجع وحجج فى نقط النزاع التى



تثار فى المناقشات والحوارات والبحوث، وإذا كان الأمر كذلك، فهل الخيار الوحيد لمستعملى الإنترنت حول العالم أن يتعلموا هذه اللغة الإنجليزية بأسرع ما يمكن ؟! وإلا كان عليهم تجنب استخدام الإنترنت تماما للوصول او الولوج إلى المعلومات التى يريدونها..! وهل إهمال أهمية التنويع الثقافى، وسيادة لغة واحدة على الإنترنت مفيد لمجتمع المستقبل، مجتمع المعلومات ، الذى يرى أن الشبكة تحدث التقارب بين الشعوب، وتعتبر منصة انطلاق للتقدم ؟

نزعم هنا أن الأفكار السابقة غير دقيقة، فرغم أن فكرة سيطرة الإنجليزية بثقافتها على الإنترنت، فكرة واسعة الانتشار، ليس فى أمريكا نفسها بل فى معظم انحاء العالم لكنها نشأت من انتقائية، وضعف ذاكرة التاريخ الرسمى للإنترنت الذى نشرته وسائل الإعلام، فيما يتعلق بالعديد من الانجازات البارزة التى ساهمت بها بقية دول العالم فى تطور الإنترنت، ليثبت ان هذه الهيمنة المطلقة المزعومة للغة الإنجليزية ونتانجها الثقافية كانا ببساطة ظاهرة عابرة فى مراحل الإنترنت المبكرة.

التاريخ غير الرسمي للإنترنت!

عندما يتحدث الناس حول تاريخ الإنترنت يسيطر نوع من تشويش ذو دلالة، مدعم برؤية بسيطة من تقويم زمنى للأحداث، وهذا يستوجب ضرورة استدعاء الفترة التى سبقت إطلاق الشبكات ، لتؤكد البعد التقنى على البعد الاجتماعى. وهنا يجب أن نميز بين الشبكة وهى تؤدى خدمات عظيمة لمستعمليها ، وبين بروتوكول الشبكة الذى يتضمن قواعد تلك الخدمات والطرق التى تقدم إلى المستعملين. وإذا كان صحيح أن «الانترنت» فى شكل نظام السيطرة على الارسال Tcp/ip، نظام اتصال، اطلق من وزارة الدفاع الأمريكية، على يد العلماء جيروم سالزير Jerome Saltzer وديفيد كلارك David Clark وديفيد ريد David Reed فى ١٩٨٤، وكان هذا التصميم مبنيا على ترك جزء قليل منه يستكمل بناءه بنفسه داخل الشبكة! وتترك الشبكة حرة وعامة لتطويرها عند النهايات، وهى التطبيقات التى نستعملها ، وكان يمكن للإنترنت أن تكون اختراعا أمريكيا! لكن المبدعين من كل انحاء العالم امكن لهم أن يبنوا على منصة الشبكة، ويضيفوا ما يشاءون من إبداعات، وبشكل ملحوظ جاءت بعض إبداعات الإنترنت الاكثر أهمية من هؤلاء «الغرباء»، من خارج أمريكا فنسيج الويب WWWطور من قبل باحث فى مختبر سويسرى، وجاهد حتى وصلت لأهميتها الحالية، فهى من ابداع عالم الكمبيوتر تيم بيرنيرس لى Tim Berners-lee من المنظمة الأوروبية للبحث النووى Cern فى مختبر جنيف أواخر ١٩٩٠، بيرنيرس لى أراد تمكين مستعملى الإنترنت من الوصول السهل إلى كل الوثائق بأنواعها فى أى مكان على الشبكة، وهو لذلك طور مجموعة من البروتوكولات لتمكين الوصلات بين نصوص الكمبيوتر hyperteti فى مواقعها عبر الشبكة، وبذلك وفر للإنترنت المناخ

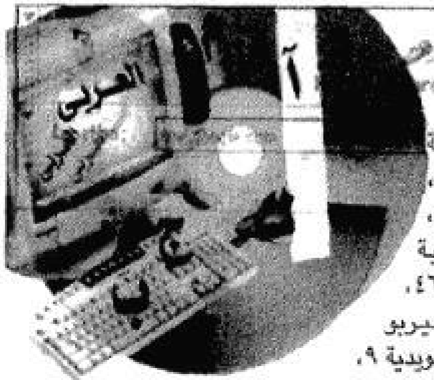
المناسب لاحتضان شبكة الويب داخلها. ويقول بيرنرز – لي أن شبكة النسيج أو الويب the web لا وجود لها بدون الـ NET يعنى بدون شبكة الإنترنت، فنسيج الويب جزء من الإنترنت فيه مجموعة عالمية من النصوص، وملفات الوسائط المتعددة المرتبطة بعضها ببعض عن طريق نظام من الوثائق المتعددة النصوص http. وبرتوكول النقل المتعددة النصوص hypertext transfer protocol هو بمثابة اقتسام البيانات الدولية فورا وبرخص الثمن، وطور أيضا لغة الـ html التى تتيح للمستعملين أن يتصلوا بسهولة بالخدمات من أى صفحة أو شبكة وكذلك الذى جاء بفكرة البريد الإلكترونى على الويب كان مهاجرا إلى الولايات المتحدة من الهند، اسمه Sabeer Bhatia سابير بهاتيا، وهو ولد أحد نظم البريد الإلكترونى الأسرع فى التاريخ – وهو الهوتميل Hotmail وعلى نفس النمط نجد المنظومة الأساسية التى قامت عليها خدمة الدردشة وهى ICQ كانت اختراعا إسرائيليا تم تصميمه من الخنادق البعيدة فى تصميم الشبكة. وتم بيعه لشركة AOL بـ ٤٠٠ مليون دولار، مرة ثانية نقول، إن إبداعات الإنترنت لم تقتصر فقط على الولايات المتحدة، فالمنظمات الديمقراطية المفتوحة مثل منتديات الحوار الديمقراطى فى الويب، تمركزت فى لندن، ويتم فيها النقاش وتبادل الآراء حول الديمقراطية والحكم فى كافة أنحاء العالم، وبالمناسبة هنا لم نرصد أى إضافة أو ابداعات عربية لمنظومة تقنيات خدمات الإنترنت! والأسباب معروفة للجميع ملخصها تدهور وتقزم عربى على كافة المستويات فى السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم والبحث والفكر.

وفى الحقيقة، الأدوار الحاسمة فى تطوير الإنترنت تاريخيا كانت من قبل باحثين، ومبدعين من بلدان الجنوب، الذين تعلموا منذ أواخر السبعينات كيف يستعملون الأدوات التى أنتجها منتجو الحاسوب، ببداية التسعينيات وبشروا بيوتوبيا القرن الحادى والعشرين كأداة مفضلة للعولمة الاقتصادية ، حيث فيضان المعلومات التى يتدفق بحرية. وإذا كان صحيحا ان الانجليزية هى اللغة المفضلة للمنشورات العلمية ، فالثقافة البحثية المنبثقة من الإنترنت نتجت من باحثين من كل القارات، من الشمال والجنوب، ومن تشكيلة اللغات والثقافات العالمية. فثقافة الإنترنت العلمية ظهرت من تفاعل الباحثين من كافة انحاء الدنيا ، حيث يتواصلون عبر الإنترنت للإجادة والتطوير من خلال كيانات ومجتمعات الإنترنت، وذلك بجانب الثقافة التجارية التى تجذرت بشكل كبير على الشبكة

وجود اللغات على الإنترنت

فى أطلس لغات العالم التى تعانى خطر الاختفاء ، الصادر عن اليونسكو تأليف Stephen A. Wurm عام ٢٠٠١ يرصد حوالى ٦٠٠٠ لغة يتكلمها العالم، نصفها تقريبا مهدد بالاختفاء فى المستقبل القريب، وإختفاء أى لغة هو خسارة لميراث الجنس البشرى، لا يمكن تعويضها، خاصة إذا عرفنا ان معدل انقراض تلك اللغات فى تسارع متزايد، حتى وصل هذا المعدل الى اختفاء لغة من لغات البشر كل أسبوعين تقريبا!

ووفقا لإحصائيات مؤسسة Global Reach جلوبال ريتش حتى مارس ٢٠٠٣ ، بلغ سكان العالم ٦.٣٣٠ مليار نسمة ، يعنى ٦ مليارات و ٣٣٠ مليون نسمة. وصنفوا وفقا للغة الأم إلى حوالى ٣٣ مجموعة لغوية، مرتبة تنازليا وفقا لعدد المتحدثين بها



بالمليون : الصينية ٨٧٤، الإنجليزية ٥٠٨، الإسبانية ٣٥٠ ، العربية ٣١٥، الملاوية ٢٢٩ ، البرتغالية ١٧٦، الروسية ١٦٧، اليابانية ١٢٥، الألمانية ١٠٠، الكورية ٧٨، الفرنسية ٧٧، التركية ٦٧.٤ ، الفارسية ٦٤، الإيطالية ٦٢ ، وكرانيانية Ukranian ٤٧، التايلاندية ٤٦، الصقلية ٤٤، الرومانية، ٢٦، هولندية ٢٠، كرواتية صيربو ٢٠، التشيكية ١٢، اليونانية ١٢، الهنغارية ١٠، سويدية ٩، كاتالانية Catalan فلندية ٦، السلوفاكية ٥.٦، دانماركية ٥.٤، عبريه ٥.٢، النرويجية ٥، السلوفينية ٢، الأيسلندية ٣٠٠ الف الفيتنامية لم تذكر.

فيما يتعلق بالوجود الفعلي للغات على الإنترنت، من سوء الحظ ترك الباحثون ارقام نتائجهم فى هذا المجال بدون تقديم الدليل الوثائقي الذى يجعلنا نشكل رأيا حول صلاحية النتائج المعلنة ودفاعا عن التنويع الثقافى واللغوى فى عالم شبكات الاتصالات . ضد قوى السوق التى تعمل على سيادة لغة واحدة على الانترنت، قادت مؤسسة فانريدز WWW Funredes Org ، بين عام ١٩٩٦، و ٢٠٠٢ عدة دراسات على موضوع اللغات والثقافات، على شبكة الويب، والنتائج متوفرة حاليا بالانجليزية والاسبانية والفرنسية على موقعها المبين. وفانريدز منظمة غير حكومية، كرست جهودها الى نشر المعلوماتية وتقنيات الاتصال Icts فى الدول النامية خصوصا فى امريكا اللاتينية والكاريبى، بالتعاون مع منظمات عالمية حكومية، وغير حكومية بهدف المساهمة فى تنمية اقليمية، وتبين من دراسات المنظمة حول التنوع الثقافى واللغوى على صفحات شبكة الويب، وتحديدا حول ٧ لغات اساسية هى الانجليزية، الاسبانية ، الفرنسية، البرتغالية، الرومانية، الإيطالية، الألمانية، بمعنى اكثر بقة اللغات اللاتينية بالاضافة للألمانية اتضح النتائج الآتية:

١ - أن الوجود النسبى للإنجليزية على صفحات الويب فى الشبكة هبط من ٧٥٪ فى ١٩٩٨ الى ٤٥٪ اليوم «حتى شهر فبراير عام ٢٠٠٣».

٢ - ان وجود كل اللغة على الشبكة تبدو متناسبة مع عدد مستعملى الويب الذين يتكلمون تلك اللغة.

٣ - رغم حضور حوالى ٥٠٠ لغة على الانترنت، لكن تركز التنوع الثقافى واللغوى ، الرومانية، الإيطالية بالإضافة الى الالمانية، حيث بلغت نسبة حضورهم حولى ٨٧٪ عام ٩٨، وتناقضت الى ٦٥٪ عام ٢٠٠٣ ، فى حين بقية لغات العالم رغم حضورها بنسبة صغيرة على الويب، الا ان نسبة حضورها ارتفعت من ١٣٪ عام ٩٨ الى ٣٥٪ عام ٢٠٠٣.

٤ - لوحظ ايضا ان تلك اللغات السبعة (الانجليزية، الاسبانية . الفرنسية ، البرتغالية ، الرومانية، الإيطالية، الالمانية) تناقص حضورها على شبكة الويب من عام ٩٨ حتى عام ٢٠٠٣ بسرعات مختلفة كان اكبرها فى الانجليزية ثم الفرنسية.

٥ - ان النمو فى عدد المستعملين الذين يتحدثون الإنجليزية تباطأ، وعلى مقربة من الإشباع . بينما اعداد المستعملين فى المناطق اللغوية الأخرى تنمو قوية جدا فى اغلب

الأحيان، وتبدو الصينية في المقدمة.

٦ – عدد الاقتباسات والاستشهادات من ناس يعكسون القيم الثقافية للغات اللاتينية: الرومانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية والإسبانية في الحقول المختلفة من الثقافة . والأدب، والفنون البصرية، والموسيقى والأغنية، الخ، ارتفع بنسبة أكثر من ٥٠٪ في السنوات الثلاث الأخيرة. وهذا يثبت كيف ان الحضور الثقافي على الشبكة متناسب ومطابق مع نمط وجود اللغات المختلفة، ويتبع نفس نمط النمو.

وتظهر كل هذه المؤشرات بأن الفترة الانتقالية الأولية على الانترنت التي تميزت بالهيمنة المطلقة للإنجليزية، قد انتهت! بالطبع، الإنجليزية ، كاللغة مفضلة للتبادل العلمي والتجاري على مستوى العالم، ستبقى لها فائدتها ومميزاتها الكبيرة جدا، لكن تلك المميزات لن تكون مطلقة بعد فترة طويلة، فمنذ فترة قليلة ، أكثر من ١٠٪ فقط من البشر تعتبر الإنجليزية لغتهم الأولى أو الثانية! وقريبا جدا لم تعد فائدة الانترنت عظيمة للمستعملين الذين يتحدثون الانجليزية فقط، لكنها بالأحرى الى اولئك الذين يتقنون عدة لغات، ان من يعتقد بأن لغة الانترنت. هي حكر على اللغة الانجليزية ومن يتكلمها يبقى اعتقاده خاطئا، فعندما يبحر الألماني او الفرنسي او الايطالي او البرتغالي او الصيني او الياباني في الانترنت ويبحث عما يريده بلغته الوطنية فإنه يجد آلاف المواقع تتكلم لغة بلاده، بل ويجد اكثر مما يتوقع. ويعتقد بأن لغته هي التي تطغى على الانترنت.. ويبقى الواقع هو سيد الموقف بالنسبة لهذا الاعتقاد. فلنأخذ على سبيل المثال آليه البحث «ياهو Yahoo» ، سنجد بأنها قسمت آلية بحثها حسب الدول التي لها مواقع كثيرة بلغتها الوطنية، فخصصت قسما للدول الأوروبية، تشمل حتى الآن كل من الدنمراك وفرنسا والمانيا وايطاليا والنرويج واسبانيا والسويد والمملكة المتحدة وايرلندا وقسم خصص لاسيا يشمل اسيا بشكل عام، ثم استراليا ونيوزيلندا والصين وهونغ كونغ واليابان وكوريا وسنغافورة وتايوان، اما قسم الأمريكتين فيشمل كل من البرازيل وكندا والدول الناطقة بالاسبانية، في حين نجد قسم الولايات المتحدة الأمريكية يشمل كل من لوس انجلس ونيويورك وسان فرانسيسكو وشيكاغو والعديد من الولايات المتحدة الأخرى، مما يجعل عملية الابحار بالنسبة للمنتمين لهذه المناطق عملية متخصصة، وسهلة، وتوفر لهم كل ما يحتاجوه اليه بلغاتهم الخاصة، إضافة الى تفادي متاهات الشبكة العالمية للمعلومات. والتي تشمل ملايين المواقع. ومن ناحية اخرى نزعم ان مستقبل الشبكة في تعدد اللغات، وان هناك حاجة ملحة لنوعية افضل من البرامج التي تترجم بين اللغات المختلفة، وعالم الشبكة، عالم مفتوح لكل اللغات، ولكل الثقافات ، وكل الأمم مدعوة ان تنتج محتواها على فضاء الانترنت في لغتها التي تعكس ثقافتها بدون الشعور بالنقص او التشائم!

والدراسات التي قامت بها مؤسسة فانريدز حول اللغات اللاتينية الرئيسية مثل الاسبانية الفرنسة، البرتغالية، الرومانية، الإيطالية، تبين ان العدد الكلي لمتكلمي تلك اللغات اللاتينية اعلى من هؤلاء المتكلمين بالانجليزية، وتبين ان اللغات القليلة الانتشار خارج مجتمعاتها المحلية ظاهرة منتشرة في كل القارات ، وتتمثل اكثر في





التنوع اللغوى الكبير فى قارة افريقيا، وان كل ثقافة يجب ان تساهم بخلاصتها فى فضاء الانترنت.. فالتنويع اللغوى والثقافى يجب الا نخاف منه بالعكس هو قاعدة لقدرة البشر على البقاء والتواصل، والتكيف مع السياقات الجديدة.

حضور اللغة العربية على الانترنت

ومن المؤشرات السابقة يتضح ان اللغة العربية كلغة أم «٣١٥ مليونا فى أكثر من ٢٢ دولة» تحتل المرتبة الرابعة بين مجموعات لغات العالم وفقا لاعداد المتحدثين بها، وتزعم ان انتشار اللغة العربية فى تسارع متزايد نتيجة الاسباب التي رصدتها دراسة منشورة على الانترنت للباحث التونسى مراد الطيب تحت عنوان «اللغة العربية في عالم متغير: من اليقظة الى النهضة» وكانت اهم تلك الاسباب اندحار الاستعمار المباشر، الذى كان يحكم قبضته على الثقافة والتعليم فى مستعمراته السابقة، واغلبها من البلدان الإسلامية والتوسع الكبير فى مجال التعليم، والتوجه بقوة نحو تعريب التعليم فى مستوياته، وتنامى التواصل بين مختلف اجزاء الوطن الإسلامى وذلك عبر التبادل التجارى، أو الرحلات الجوية، أو البعثات التعليمية ، وتزايد عدد منظمات الدعوة الإسلامية العاملة خصوصا فى افريقيا واسيا، والتطور الهائل الذى عرفته وسائل الإعلام والاتصال، من شبكات الهاتف والمحمول، والقنوات الفضائية «٢٠٠ قناة فضائية ناطقة بالعربية» وشبكة الانترنت ، وأزعم ان السبب الاخير لم يعمل فقط على انتشار لغة الضاد، بل عمل ايضا على انتشار بقية لغات العالم. ويضيف انه اذا ما تواصل النسق الحالى فى تزايد عدد الناطقين بالعربية، فمن المنتظر ان تتخطى اللغة العربية اللغة الانجليزية، وتحتل المرتبة الأولى عالميا، مع نهاية الربع الأول من القرن الحالى . ويرى الباحث ان ذلك هو ما يفسر الى حد ما، الحرب الشعواء، التى تشنها امريكا على المناهج التعليمية الإسلامية وأداتها اللغة العربية، فى إطار ما يسمى «الحرب على الإرهاب» وتجفيف منابع التطرف هذا رأى الباحث . وتلمح فيه العاطفة الدينية، وفكرة المؤامرة فى صورة حرب دينية ولغوية ، لقد تجاهل الباحث اللغة الصينية التى يقترب الناطقين بها من المليار، وتجاوز الاسبانية التى تقترب من نصف مليار . ونسى ان الانجليزية ترتيبها الثانى بعد الصينية، ولم يفرق الباحث بين مكانة لغة معينة كلغة مفضلة فى التحدث والكتابة وبين مكانة اللغة وفقا لعدد الناطقين بها. وهذه الأمور تحسمها كما ازعم ثقافة تلك اللغة نفسها ومدى مساهمتها فى الاضافة والابداع فى حضارة العصر.

هذا عن موقف العربية بين لغات العالم اليوم، لكن ماذا عن موقف اللغة العربية على الانترنت؟ تبين احصائيات Global Reach ان عدد مستعملى الانترنت فى العالم حتى مارس ٢٠٠٣ بلغوا ٦٤٨.٧ مليون مستخدم يتوقع أن يصلوا ٩٤٠ مليونا عام ٢٠٠٤ ، واذا تم توزيع اعداد مستعملى الانترنت وفقا للغات التى يتحدثون بها نلاحظ ان متحدثى الانجليزية احتلوا المرتبة الأولى ٣٥.٢٪ بفارق مغزوى ثم الصينيون

٩ . ١١٪ ، واليابانيون ٣ . ١٠٪، الاسبان ١ . ٨٪، الألمان ٥ . ٦٪ ، الكوريون ٢ . ٤٪ ، الإيطاليون ٦ . ٣٪، الفرنسيون ٣ . ٣٪ ، البرتغاليون ٨ . ٢٪، الروس ٧ . ٢٪، الهولنديون ٠ . ٢٪، الملاويون ٢ . ١٪، ثم العرب ٨ . ٠٪، وبقية لغات العالم تكاد لا تذكر، معنى ذلك ان العرب فى الترتيب الثالث عشر حيث بلغ اعداد متحدثى العربية المستخدمين للانترنت ٥ . ٥ مليون مستخدم بنسبة ٨ . ٠٪ من الإجمالى العالمى، ويتوقع ان يصلوا الى ٧ ملايين مستخدم فقط فى عام ٢٠٠٤ ، فى حين ان هناك ٥ . ٢٣٨ مليون مستخدم يتحدثون الانجليزية بنسبة ٢ . ٣٥٪ من اجمالى مستعملى الانترنت حول العالم ، ويتوقع ان يصلوا ٢٨٠ مليونا عام ٢٠٠٤.

والمفارقة هنا بين حضور لغات العالم على الانترنت، وبين حجم المجموعات اللغوية التى يتكلمها العالم فى الواقع الفعلى، فاللغة الصينية ٨٧٤ مليونا من المرتبة الأولى، والعربية ٣١٥ مليونا فى الترتيب الرابع، فى حين ان اللغة الفرنسية ٧٧ مليونا اوتحتل المرتبة الحادية عشرة، رغم ذلك نجد مواقع المنظمات العالمية على الانترنت . مثل مواقع الأمم المتحدة، واليونسكو، والفاو، وبقية الهيئات العالمية كل وثائقها وابحاثها باللغات الانجليزية والأسبانية والفرنسية فقط ، إذا كان من المنطق ان نقبل وجود الانجليزية ٥٠٨ ملايين والاسبانية ٣٥٠ مليون، فأين اللغة الصينية ٨٧٤ مليونا واللغة العربية ٣١٥؟! لقد قامت تلك الهيئات بترجمة واجهة مواقعها فقط العربية والصينية احيانا! ونكرر مرة ثانية ان ثقافة كل امة كامنة فى لغتها، والعامل الحاسم فى مدى حضور اى لغة انسانية على الانترنت ، هو ثقافة اللغة نفسها ومدى مساهمتها فى الاضافة والابداع فى فضاء الانترنت.

فحضور اللغة العربية، متواضع للغاية، فحوالى ٩٠٠ من صفحات الويب باللغة العربية. اقول الصفحات ولا اقول المواقع، فعددها لا يقارن مع بقية اللغات ، فقد دلت الدراسات الاحصائية المنتشرة على شبكة الانترنت التى اعتمدت على العديد من المصادر كالمراكز البحثية والمجلات المتخصصة والنشرات الصادرة من الشركات والقطاعات المحلية العالمية المعتمدة لتسجيل اسماء النطاقات والتى لا نجدها على مواقع الهيئات العربية المسئولة بشكل مباشر او غير مباشر عن الانترنت على ان عدد المواقع العربية المحلية قد بلغ حتى نهاية عام ٢٠٠١ ما يقارب ٩٢١٦ موقعا بما يمثل نسبة ٠٢٦ . ٠ فى المائة من إجمالى عدد المواقع المحلية العالمية البالغ عددها ٣٦ مليون موقع، حسب احصائية domainstast.com فى يناير ٢٠٠١ ، ونعنى هنا بالمواقع المحلية، تلك المواقع التى تنتهى بالامتداد eg التى تدل على مصر او sa التى تدل على المواقع السعودية او ae التى تدل على المواقع الاماراتية وخلافها، فيما توجد مواقع عربية وعالمية مسجلة على المستوى العام المعروف بالامتداد com أو Net أو edu أو org وما إلى ذلك ، التى لا ترتبط بالمواقع المحلية بل بنوع نشاط القطاع، والتى لا توجد احصاءات دقيقة حول عددها، ولكن من المفيد ان نعلم ان الاسماء المسجلة عالميا على مستوى النطاق العام com وnet يتعدى ٢٩ مليون اسم . وتحتل ليبيا المركز الأول فى عدد المواقع العربية المسجلة محليا بواقع ٤٤٢٦ موقعا، تليها السعودية بحوالى ٣١٥٨



موقعا، ثم مصر بواقع ٢٤٨٥ موقعا، وهكذا إلى ان يصل عدد المواقع فى بعض الدول العربية الى اقل من مائة موقع، وهنالك من الدول ما يقل عدد المواقع به عن عدد اصابع اليد الواحدة، مقارنة مع حوالى ٤٠٠ ألف موقع فى الارجنتين، وإذا ما اخذنا هذه الاحصاءات بشكل تقريبى فإن الجميع يتفق على قلة المواقع باللغة العربية، على الرغم من أن المستخدمين العرب يدركون ذلك دون هذه الاحصاءات!

إن الحاجة إلى المزيد من مواقع انترنت التى تستخدم اللغة العربية هى انعكاس لاتجاه عالمى الى استخدام اللغات القومية، وتخفيف الاعتماد على اللغة الانجليزية، وتتوقع الدراسة التى اجرتها وحدة ابحاث عجيب كوم. ان تصل نسبة مستخدمى انترنت العرب الذين لا يستفيدون من المواقع الانجليزية بسبب ضعف مهاراتهم فى تلك اللغة ، إلى ٥٨ بالمائة من العدد الاجمالى مستخدمي الانترنت العرب هذا العام ٢٠٠٣ وان هذه النسبة سترتفع فى عام ٢٠٠٥ لتصل الى ٧٦ بالمائة من ٢٥ مليونا، هو العدد الاجمالى المتوقع لمستخدمى انترنت العرب ذلك العام ، واعتقد انه رقم مبالغ فيه كثيرا.

تحديات أمام اللغة والثقافة العربية

ودعونا نعترف ان اللغة العربية تواجه مشكلة كبيرة وتحد عظيم امام كمية المصطلحات المتراكمة المرتبطة بأنماط الاتصال الجديدة عبر شبكة الانترنت، ومن عملية ابحار سريعة فى المواقع العربية رصد الشاعر الاستاذ شاكر لعيبى فى مقال له منذ شهور فى مجلة افق على الانترنت، فشل الكثير من المواقع العربية، وتخبطها فى ترجمة مفردات الانترنت، فنقرأ عربية لا نعرفها مثل فوتوشوب، القجول بيسك، جافا، فلاش، الاتش تى ام ال، ماسنجر، كروت اغانى، سكربتات التشات، سكربت، وب توب، على فور كوم. علاوة على ان هذه المواقع ترتكب اخطاء متعددة فى السيطرة على اللغة الام. نقرأ مثلا «مواقع موختلفة فى موقع صوت العراق» بالواو وليس بالضمة ، ونقرأ دايم ياخذون بيظها. من موقع الشاملة السعودية» وليس بيضها، وفى موقع كويتى نرى مكتباة بالتاء المدورة وليس مكتبات!! ولا تتردد جريدة الوطن العراقية على الانترنت من ان تطلق على صفحتها هومليس homeless ويستعينون بالمترجم الآلى فى ترجمة البسيط والبديهى حتى من اسماء العلم، ولان هذا المترجم من الحماقة والغباء بمكان فإنه يتوصل الى ترجمات هنا واحد من اكثر امثلتها ماساوية: مصادر هانى شاكير محمد، ناول الزغبى، ناجوا كرم وغيرها من المهازل ويتساءل الكاتب ما الذى يحدث للغة العربية على الانترنت بالضبط؟ ويقول: ان هناك استسلاما وقبولا بموت العربية الى درجة ان كلمة ميديا Media ستدخل . منذ الان فصاعدا فى القاموس العربى بتصويتها اللاتينى لكن بكتابتها العربية رغم امكانية تعريبها اليسيرة الميديا هى مثال لغوى باهر على العقدة من الاخر فترجمة مصطلحات الانترنت يطرح المشكلة على مستوى اعمق واخطر، لان

الامر يتعلق بالدرجة الأولى بالاستسلام الكامل للاخر الثقافي وليس بالتبادل المعرفي المتوازن ولو بعض التوازن معه ، ويسترسل الشاعر قائلا إن ترجمة مصطلح لغة «الجافا» تستوجب أولا معرفة ما الذى تعنيه الكلمة على وجه الدقة. فإننا لا نستطيع ترجمة شيء لا نعرف معناه الحقيقي وآليات عمله، ولا شيء اليوم من قبيل الاستنطاق المسبق لمعاني مثل «الجافا» الا لدى القلة القليلة من المتخصصين وهؤلاء يبدون بحالة من التباهي والزهو بمعارفهم ولا يمتلكون ايه علاقة مع حقول معرفية أخرى ناهيك عن غياب الشعور بالمسئولية الاجتماعية لدى بعضهم إزاء لغة الجماعة التى ينتمون اليها! ويصرخ الكاتب محتجا على المواقع التى تكتب العربية بالحروف اللاتينية، وضد هؤلاء المستخدمين العرب، الذين توصلوا . لوحدهم، الى أعراف موحدة عن طريقة كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فحرف الخاء يستعاض عنه برقم ٥ اللاتيني، وحرف العين يستعاض عنه برقم ٣ اللاتيني.. الخ. ويقدم امثله من احدى المواقع مثل :Kelma 3al waraq معناه اى كلام على ورق، El-ghayeb el 7athcr معناه اى الغايب الحاضر، Ya nas 5alooni معناه ياناس خلوني! هذا ما رصده شاعر عربي على ما يحدث للعربية فى المواقع العربية على الانترنت، وهو تشويه للغة، وهذا ما نجده عادة فى النص العربى الذى يتطرق إلى موضوعات تتعلق بتكنولوجيا المعلومات، بصفة عاة، ولمواضيع الانترنت بشكل خاص، حيث ان الكلمات الانجليزية تتخلل كل سطر. وهنا فى سلسلة المقالات والدراسات التى نقدمها فى مجلة الهلال منذ اكثر من سنتين عن المعلوماتية كثيرا ما نضطر الى وضع المصطلح الانجليزى بجوار اجتهاد الترجمة العربية. حتى يصحح لنا علماء اللغة اجتهادنا المبدئي، واحيانا كثيرة نضع المصطلح الانجليزى بدون ترجمة ونتكلم عن معناه، ونترك الفرصة للباحثين فى اللغة العربية فى وضع ترجمة سليمة له.

وخلاصة المؤشرات السابقة هو ضعف وتهافت العربية وثقافتها فى فضاء الانترنت، رغم كل الضجة التى نسمعها فى وسائل الاعلام، من مزاعم تبشر بزيادة انتشار اللغة العربية على الانترنت، نعم هناك تزايد مستمر في حضور اللغة العربية على الانترنت، ولكنه تزايد لا يتناسب ابدا مع حجم الناطقين بالعربية، ولا مع مكانة الثقافة العربية وتاريخها . فمازالت الجهود غير كافية وغير خالصة حيث يسيطر عليها الطابع التجارى! ولعل نقطة الخلل الرئيسية فى المعلوماتية العربية تكمن فى نقص الابداع المعرفى والانتاج الفكرى لدى الباحثين العلميين والادباء والمفكرين داخل بلاد العرب، الأمر الذى أدى إلى مواصلة اعتماد العرب على المعلومات العلمية والثقافية التى تنتجها مراكز البحث الأوروبية والامريكية ونقل فكر الاخرين وتقديمه الى المستفيد العربى دون ان يكون العطاء العلمى العربى بنفس القدر، هذا مع عزوف الباحثين العرب عن الكتابة بلغة الضاد ويفضلون كتابة ابحاثهم ومؤلفاتهم باللغات الاجنبية، سعيا منهم للتواصل مع المجتمع العلمى الدولى ومع المثقفين فى أوروبا وأمريكا، مع عدم اقتناع المؤلفين والباحثين بقدرة اللغة العربية على تأمين التواصل المعرفى، كما أن المناخ العلمى والفكرى فى العالم العربى لا يشجع على الابتكار والانتاج الفكرى. ان المحاولات التى



تبذل الان ومنذ عدة سنوات حول تعريف نطاقات اسماء المواقع، ازعم انها جهود مظهرية لا تصل إلى جوهر المشكلة ، وهو حضور المحتوى العربي على الانترنت، ويذكرني ذلك، بما تفعله دول الغرب حين تستورد طائرات الركاب الحديثة، وتدهن جسم الطائرة بلون العلم الوطني، وتكتب عليه بالعربية الشعار الإسلامي للبلد، وتكتشف حين تركب الطائرة ان طقم قيادتها ومضيفيها كلهم من الاجانب وبعض الدول تستورد دواء معين في عبوات كبيرة وتعبئة هي في عبوات صغيرة وتكتب عليه بالعربية انه صنع فيها او يستوردون الدبابة او المدفع ويرفعوا عليها علم البلاد، وتبقى الطائرة والدواء والدبابة صناعة اجنبية، كما ستبقى الانترنت كذلك، والسؤال الاهم كيف نوظف الانترنت في خدمة اللغة العربية وثقافتها، وليس العكس . ما فائدة ان يكون عنوان الموقع بالعربية ومحتوى الموقع بالانجليزية او غيرها من اللغات الاساسية وازعم بجانب اهمية زيادة المحتوى العربي على الانترنت فإن السعي والجهد في انتاج وابداع برامج ومواقع تترجم من والى العربية مع لغات العالم المنتشرة على الانترنت.. هي الطريقة الافعل في جعل الانترنت عربية. وإذا كان البعض ينظر الى اللغة العربية على انها لغة الحب والشعر والعاطفة والادب فقط، فلا ننسى ، علماؤنا مثل ابن سينا وابن الهيثم وابو بكر الرازي وغيرهم من الذين وضعوا قاعدة علمية باللغة العربية ساهمت في صنع حضارة اليوم! فالمشكلة ليست هي طبيعة وامكانيات اللغة العربية، فهي صمدت اكثر من ١٥ قرنا وتستطيع ان تستوعب كل مستحدث ، لكن المشكلة في العرب الناطقين بالعربية، فتاريخنا يدور في نفس الساقية التي يجرها ثور اعمى! ويعيد نفسه في كل دوره! نفس الهزائم، نفس القهر ، نفس القمع! نفس القضايا! نفس التخلف! ؟ لماذا يملك اعداؤنا اسباب القوة؟! ونحن قابعون في استكانة ندعو الله بتقطيعهم تقطيعا؟! اذا كنا لا نزرع ، ولا نصنع، ولا نعمل، ولا نبدع، ولا نشارك في صنع حضارة العصر! فمن أين يأتي المحتوى العربي على الانترنت، وكيف تنتشر ثقافة العرب في فضاء المعلومات؟! لقد بات الوطن العربي ثقافة.. وتعليما .. ونظاما تربة خصبة لتجذير التخلف! فالعقل العربي يعيش في مأساة حقيقية عندما هرب الى التاريخ منذ هزيمة عام ١٩٦٧ وسادت الافكار المتشنجة المتاجرة في الدين. وسيطر خطاب ديني مستيري ينمي قيم التزمت وحجب وعزل المرأة ورفض الآخر والمبالغة في النزعة الذكورية وتفضيل الماضي ونبذ العلم والتفكير العلمي وتضخيم النزعة العائلية والقبلية وتنمية الروح القدرية، ونشر الافكار المسطحة والسلوكيات المصابة بالانفصام بين الكلام والعمل، وفرض سلوكيات شكليه، ووظفها سياسيا، والنتيجة كانت غلبة هذا الخطاب على معظم المحتوى العربي الموجود حاليا على الانترنت! وبعد كل ذلك نتساءل اين اللغة العربية وثقافتها على الانترنت؟! ان حضور اللغة العربية وثقافتها في فضاء المعلومات مرتبط تماما بإصلاح وتحديث المنظومة العربية سياسيا، وثقافيا واجتماعيا! ■


مشاهد تاريخية
حديث أميل لودفيج
مع الملك فؤاد
ووزراء مصر
بقلم
د. محمد رجب البيومي
واصف غالي
مكرم عبيد
عثمان محرم
الملك فؤاد

دعيت إلى ندوة علمية في تونس في أوائل يوليو من سنة ١٩٩٧ م فلاقيت من كرم الضيافة وجميل اللقاء ما لا أزال أذكره بالحمد والثناء ، وفي صباح يوم مشرق الشمس جلست مع صديقي الأستاذ الحبيب شيبوب ، وهو من أدباء تونس المرموقين ، فأطلعني على جريدة الصباح التونسية الصادرة في ١٣ يوليه سنة ١٩٩٧ لأقرأ فيها حديثا ممتازا كتبه الأديب الألماني أميل لودفيج عن ملك مصر أحمد فؤاد. وعن وزرائه الذين سعد برؤيتهم أثناء زيارته لمصر سنة ١٩٣٠ م وقد قرأت الحديث فأعجبني بعد النظر الثاقب للمؤرخ الكبير ، كما أسفت لأن مثل هذا الحديث القيم لم ينشر في صحف مصر ، وهي أولى به ، لأنه يتحدث عن حقبة مهمة من أحقاب التاريخ المصري المعاصر ، كما صور انطباعه الصادق عن أحمد فؤاد ومصطفى النحاس وواصف غالي وعثمان محرم ومكرم عبيد ، وهم من الذين تولوا أزمة الحكم عند زيارته ، والحق إن ما سجله الكاتب المؤرخ عن الزعيم الجليل مصطفى النحاس وزملائه في الوزارة ، لم يتجاوز الواقع الملموس في شئ وقد احتفظت بجريدة الصباح التونسية لأكتب كلمة عما قرأت بها من حديث أميل لودفيج .

ولكن الجريدة قد فقدت مني مع اهتمامي الزائد بحفظها ، ومما أعجب له من أمور هذه الحياة أن شدة الاهتمام بالشئ قد تكون باعثا على ضياعه ، إذ أن أوراقا غير مهمة جئت بها من تونس لم تفقد ، على حين ضاعت صحيفة أميل لودفيج ! وقد كتبتُ لصديق تونسي فتفضل بإرسال صورة ضوئية للحديث المشار إليه ، فله الشكر

ومعروف أن أميل لودفيج قد فارق الحياة فى ١٩٤٨/٩/١٨ بعد أن ترك ذخيرة ثمينة من المؤلفات عن أمثال نابليون وبسمارك وكليوباترا وروزفلت وستالين وسيجموند فرويد وغيرهم من رجالات التاريخ ، هذا إلى قصص ومقالات شتى ، وحين زار مصر فى سنة ١٩٣٠ بهرته عظمة النيل فاشتاق إلى أن يكتبه تاريخه ، وأطلع الملك فؤاد على رغبته هذه ، فرحب بها ، وجعل تحت يده باخرة خاصة حملته من القاهرة إلى السودان ، كما قدمت له الدولة كثيرا من الوثائق السياسية التى لم يحصل عليها الكثيرون ، وقد كان الرجل ذا إحاطة شاملة بتاريخ مصر والسودان حيث تحدث عن عهد الفراعنة ، وعصر الشهداء ، ومصر الملوكية ومغامرة نابليون ، ويقول الذين كتبوا عن «كتاب النيل» إنه فى نظر لودفيج ليس وحدة جغرافية فقط ، بل هو كائن حى له خواصه الإنسانية ، وقد نظر إليه الكاتب كأنه شخص يتحدث عنه مثل حديثه عن نابليون وبسمارك وهندنبرج وغيرهم ، وتلك براعة فائقة، لأن الشخصية الإنسانية تعطى من الموافقة الخاصة ما لا تستطيعه الشخصية الطبيعية الصماء ! فإذا أصبح النيل كائنا حيا بما توالى عليه من أحداث العصور ، فتلك براعة نادرة .. لم يقنع أميل لودفيج بمشاهدة القاهرة بآثارها الفرعونية الخالدة ، ومساجدها وكنائسها ودور التعليم بها ، وبما سعدت به من تقدم حضارى فى البناء والمرافق الاقتصادية والصناعية بل حرص على أن يتعرف إلى رجال الحكم ، وأن يسمع الكثير عنهم من المؤيدين والمعارضين وإذا كان رئيس الوزراء فى هذه الفترة ، هو زعيم الأمة الرئيس الجليل مصطفى النحاس فقد سجل المؤرخ عنه ما جبن عن قوله الوصوليون من الهتافين والمصفقين ، إذ قال فى صدق برئ من التزيد والافتعال .

مصطفى النحاس

«إن مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصرى ، ورئيس الوزراء وخليفه سعد زغلول فى التفاف الشعب حوله ، وتقديسه شخصه ، هو رجل فى الخمسين من العمر ، يبدو لمحدثه بصوته الجهورى الرنان ، وعينه الفاحصة ، ومظاهر القوة التى فيه أنه رجل حزم وثبات وتعقل .

ومما يلاحظ فيه كما هو الحال مع رؤساء الأحزاب العظيمة دائماً ، أن الفساد يقف بعيداً دون بابه وليس بين ألد

خصومه من يتهمه بشيء من الصفات القبيحة التى لم تعد من صفات الشرق وحده وهو شديد الثقة بالمصريين ، قوى الإيمان بحزبه وبنفسه ، ويبدو كأنه أقل عداء للإنجليز من بعض زملائه»! .

هذا ما قاله المؤرخ الصادق ، وواضح أنه قابل الرئيس ، واستمع إليه ، ووصف ملامحه كما تراءت لنظره الدقيق ، وإذا كان كتاب النيل قد ظهر بعد ست سنوات من تاريخ هذا اللقاء، فقد جدّت فى هذه الحقبة أمور تدلّ على تمسك النحاس بالدستور ، ومعارضته للحاكم المستبد، وصرامته مع الإنجليز فى المناورات السياسية التى قام بها مع المستر هندرسن وزملائه فى قاعة لوكارنو التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية ، وتمسكه بالسودان واتحاده مع مصر بعيدا عن السيطرة الإنجليزية وتلك أحداث عرفها الكاتب الذى اشتغل بتأليف الكتاب قرابة ست سنوات ! وكان عليه أن يشير إلى تصلّب الرئيس ، ومواجهته إرادة الملك فؤاد فى الاستبداد السياسى ! لتكون الصورة مكتملة لقارئه البعيد عن مجرى الأحداث فى مصر ! ولعلّه دوّن مذكرات سريعة عقب لقائه بالنحاس باشا ، واكتفى بها دون أن يتابع ما جدّ .

وزير الخارجية

أما واصف غالى باشا وزير الخارجية فى الدولة ، فلم يكن مجهولا لدى الكاتب من قبل ، إذ أن مؤلفاته المدونة باللغة الفرنسية قد أذاعت فضله فى الغرب ، فاعترف القوم به كاتبا ذا حجة واقتدار ، ومترجما لروائع الأدب الحديث والقديم مما اختاره من ثمار القرائح الناضجة ، وقد قال عنه الكاتب «إنه فيلسوف وأديب معروف ، وتبدو على وجهه سيماء الخيال الشرقى ، وأذكر بهذه المناسبة أنه الوزير الوحيد فى العالم كله الذى يوجد فى مكتبه قبل الساعة التاسعة والنصف صباحاً» وهذه الملاحظة تدل على أن لودفيج قد تابع وزراء الدولة قدر ما يستطع أثناء مقامه بالقاهرة ، فعرف من يبادر بالحضور مبكراً ، وعدّ ذلك فضيلة تحسب له .

«وزيران آخران»

ثم تطرق إلى الحديث عن عثمان محرم باشا وزير الأشغال ، فقال إنه خبير حقيقى ورجل أعمال أكثر منه رجل سياسة ، وهو نشيط يلتهب غيرة ، وتملأ رأسه المشروعات المتعلقة بنهر النيل ، والعبارة الأخيرة تدل على أن المؤرخ وقد عزم على أن يدرس حياة النيل غابرا وحاضرا قد اتصل بكبار المسئولين باحثا عن مجال دراسته ، وقد وجد فى عثمان محرم من أفاض فى الحديث عن النيل ، وما يقترحه من مشروعات خاصة بمياهه ،

كانت موضع انتباه المؤلف ، ولابد أنه أفاد منها فى بعض ما كتب .

ويأتى حديثه عن مكرم عبيد باشا وزير المالية ، فقد خصّه بثناء خاص حين قال إنه كان أكثر الجميع تأثيراً فى نفسه ، وهو كما قال الكاتب رجل فى الأربعين من العمر ، ذو مظهر وأخلاق أوروبية وقد حكم عليه بالإعدام مثل كثير من السياسيين ، ثم نفى إلى جزيرة موحشة فى البحر الأحمر ، وهو مسيحى الديانة ، على أنه أبدل اسمه الانجليزى باسم عربى رغبة منه ألا يكون فيه شئ إنجليزى ، ونحن نعلم أن مكرم عبيد كان واسع الثقافة، وكان محاميا ذات تأثير قوىّ بين الجمهور ، وخطيبا ينتمى إلى الجزالة العربية التى ورثها عن زعيمه سعد ، وكل ذلك كان له أثر فى حديثه مع المؤلف ، حتى قال عنه إنه أكثر الجميع تأثيراً فى نفسه .

ثم تطرق المؤرخ إلى حديث مقارن بين نهضة مصطفى كمال فى تركيا ، ووثيقة مصر الداعية إلى الاستقلال ، وكان مما قاله إن الشباب المصرىّ يعجب بالزعيم التركى ، ولكن الشيوخ يحذرونهم من الطفرة والبدع التى قام بها ! ولعلّ الكاتب لم يتصل إلا بفريق خاص من الشباب ، رأى فيه الإعجاب .. بالزعيم التركى لأن أكثر الشبيبة المسلمة قد عارضت اتجاهه العاصف بكثير من تعاليم الدين ، وقد عبّر عنهم أمير الشعراء أحمد شوقى حين قال :

إن الغرور سقي الرئيس براحة
كيف احتيالك في صريع الراح
نقل الشرائع والعقائد والقري
والناس نقل كتائب فى الساح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو
حتى تناول كل غير مباح
غرته طاعات الجموع ودولة
وجد السواد لها هوى المرتاح
وإذا أخذت المجد من أمية
لم تلق غير سرابه اللماح

ونترك مصطفى كمال إلى حديث المؤرخ عن الملك فؤاد ، وقد جالسه عدة مرات ، وكان ما قوبل به من زائد الاحتفال وعظيم الاهتمام ، ذا أثر بارز فى تقديره ، لأنه فى تسجيل حديثه عنه لم يعقب على أمور تستدعى المراجعة ، ومثله فى إلمامه الواسع لا تفوته مواضع النقد ، فماذا قال عن الملك أحمد فؤاد ؟

الملك فؤاد

قبل أن يسجل الكاتب حديثه مع الملك فؤاد بدأه بمقدمة قال فيها :

«الملك فؤاد مثال للملك الشعبى ، ولا ريب أن أفضل تربية للرجل الذى لم يكن ينتظر أن يكون ملكا هى التربية التى تقوده إلى أرفع درجات الاختبار وأعمقها ، وتزج به فى مجتمعات وأوساط يصعب على ولى العهد أن يصل إليها وأن يختلط بها ، مع ضرورة اطلاعه على بعض الشئ عنها ، إذا كان لابد له أن يحكم عن خبرة وتعقل ».

وأوضح أن لودفيج لم يقصد . بقوله

إن فؤاد مثال للملك الشعبي، أنه هو الذي يخالط الشعب بعد ملكه وتصدر عن رأيه، ويستجيب لمطالبه، فهذا لم يكن لدى الملك بل كان في تصرفاته السياسية ضائقاً بالدستور، لأنه يجعل الشعب مصدر السلطات، وبمحاربته لسلطة الشعب استطاع أن يحد من أمثال أحمد زيور ومحمد توفيق نسيم وإسماعيل صدقي رؤساء وزراء يصدرون عن أمره وحده، بل إنه كان يكن العداء لسعد زغلول وعبد الخالق ثروت وعدلي يكن لأنهم مع اختلافهم الحزبي كانوا من أنصار الأمة التي تعتبر في رأيهم مصدر السلطات. وهذا ما يعتقده تماماً أميل لودفيج بدليل أنه حين سأل الملك عن نسبة الذين يحوزون الكفاءة من الوزراء أجاب فؤاد بقوله:

«صدقني أن الرجل ذا الخلق الكامل ليس دائماً أهلاً لتولي الوزارة، فإن رجلاً كهذا يكون عرضة للضعف عند الأزمات والاستسلام لليأس».

فالملك إذن لا يبحث في اختياره الوزراء، عن صاحب الكفاءة بل عمّن يثق في ولائه مع اعترافه بأنه آلة في يده، وهذه هي الدكتاتورية بعينها. لذلك عقب لودفيج على إجابة الملك بقوله «هنا استطعت عندما سمعت هذا الكلام من جلالة الملك أن أفهم سبب إعجابه ببسمارك الداهية الألماني! ونحن نعرف من تاريخ بسمارك عدم اهتمامه بالعهود والمواثيق ونرى في سياسته تطبيقاً عملياً للمكافيلية! وهذا ما كان يتجه إليه الملك، حين امتنع عن التوقيع على دستور ١٩٢٣ عند تقديمه إليه، لأنه نقل السلطة إلى الشعب، وحين رأى المعارضة العاصفة من كل اتجاه، حتى من أمراء بيته الذين أصدروا بياناً بتوقيعاتهم الصريحة يطالبون فيه الحاكم باحترام رغبات الشعب وإذ ذاك اضطر للتوقيع إذ لم يجد من الإنجليز نصيراً في هذا الموقف فقد آثروا أن يشتعل الحريق بين الملك والزعماء ليزداد التوتر! وهذا ما يُبعد فهم شعبية الملك عمّا يتبادر للذهن السريع.

ثم نقل عن الملك قوله:

«لقد عرفت جميع أنواع الناس من الأمراء إلى العمال وسائقي المركبات ومن أفراد الجنود إلى كبار القواد، وعرفت الفقر، واختبرت تطورات كثيرة من التي يعرض لها البشر، وزرت جميع بلدان أوروبا، ما عدا روسيا، وكافحت الحياة بنفسي في كل مكان وكان لابد من ذلك لأني لم أكن أترقب اعتلاء العرش».

ثم قال الملك بعد حديث مماثل.

«إني أدرك مخاطر التعليم المؤدي للغرور الذي يُلقَّنُ عادةً للأمراء، أما أنا

فقد اختلطت بجميع طبقات العظماء والأدنياء معا ، ولم أمض حياتي بطولها في البلاط أو في الأسواق المتأنّقة ، وكنت جنديا وطالبا ودرست شئون التجارة . ولا أدع أحداً يُملي عليَّ إرادته في منْصبي الحالي ، إن الأساليب التي كانت تتخذ في تربية الأمراء وتعليمهم هي التي أوجدت هذا الانحطاط في الأسر ، لأن معرفة الناس واختيارهم هما أعظم الأشياء ، ومَن حاز ذلك عرف كيف يحكم الناس » .

وتعليقاً على هذا الرأي الصائب نرى أن الملك فؤاد . وقد أكّده تأكيداً تاما ، قد انحرف عنه في تربية ولده فاروق . إذ لم يَشأ له أن يختلط بأحد ما ، وأحضر له المدربين النابهين في القصر الملكي ليتلقى الدراسة بمفرده ، فحرمه هذا الاختبار الإنساني الذي فاخر به في نشأته بل إن والده الخديوي إسماعيل قد أنشأ مدرسة الأنجال ، لتكون مجمعا لأولاد الذوات والحكام فيشاركوا أنجاله دروسهم الراقية ، ولعل فؤاد كان أحد هؤلاء ! ولست أدري سرّاً لهذا التناقض السافر بين القول والعمل .

وحين جاء ذكر بسمارك حاول الملك أن يبدد وهم محدثه في ميل الملك إلى الدكتاتورية فسارع الملك يقول رداً على سؤال وجّهه لودفيج في قوله :

مادمت جلالتكم من المعجبين كل الإعجاب ببسمارك فلابد أن تكون دكتاتورية هذه الأيام حائزة إعجابك أيضاً ؟

والسائل حذر متلطف فقد أوهمه أنه يريد بدكتاتورية هذه الأيام ما شاع عن موسوليني وهتلر وفرنكو من طواغيت الثلاثينات ! وهو في الباطن يريد أن يسأله عن مظهر من مظاهر سلوكه في السياسة المصرية ، ولكن الملك فاجأه بقوله .

«إنني من أشد المقاومين للنظام الدكتاتوري ويسرني تماماً أن الدكتاتورية هنا في مصر قد زالت تماماً . ولا يمكن أن تحكم إلاّ تحت سيطرة البرلمان» .

وأنا ألمح شبه ابتسامة على فم أميل لودفيج حين سمع هذا الرأي ، لأنه قرأ تاريخ مصر قبل أن يزورها وعرف أن الملك قام بانقلابين على الدستور ليأتي بحكومات رجعية كما قام بالانقلاب الثالث بعد رحيل المؤلف ، وقبل أن يصدر كتابه ببضعة أعوام ، فإذا لم يكن ذلك هو الحكم الدكتاتوري في صميمه فماذا يكون ؟

وقد أراد الملك أن يضفي على تاريخ والده الخديوي إسماعيل ما يزيده لألاء في عين محدثه فقال إن أبي كان يود أن يعلن استقلال مصر في الوليمة الكبرى التي أقامها في حفلة افتتاح قناة السويس ، فنظر إليه محدثه وعبر عن دهشته في قوله : دهشت مما قال جلالته ، لأني لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك فيما قرأت من المطبوعات الكثيرة ، وأراد الملك أن يزيل دهشتي فقال : هذه حقيقة معروفة في عائلتنا يتناقلها الخلف عن السلف ، وسأواصل البحث عن الوثائق الرسمية

مشاهد تاريخية

الايطالية التي تحتوى بعض المفاوضات التى جرت بشأن ذلك .

يقول الملك : ويظهر أن إحدى الدول الكبرى وقفت فى آخر لحظة فى وجه هذه الأمنية ، واستطرد الملك فذكر بعض الجهود التى تبذل الآن لجمع الوثائق من كافة محفوظات أوروبا ، التى لها علاقة بالأسرة الحاكمة ، وقد دعا ممثلى فروع عامة من فروع العلم والمعرفة للاجتماع فى مؤتمر دولى ليدرك العالم مكانة مصر ، فقال لودفيج مكانة مصر معترف بها دون إنكار !

وكعادة لودفيج فى استقصاء المظاهر الخارجية ، والخواطر العابرة لإيضاح الحقيقة النفسية التى يحاول استجلاءها فى جميع مؤلفاته ، لم يفته أن يتحدث عن بلاط الملك كما شاهده ، وأن يقول عنه :

«إن جلالته فى الثانية والستين من العمر ، ولكنه يبدو فى مظهره دون ذلك بعشر سنين وكل ما يحيط به فى قصره الفخم ، وأثاثه الفاخر ، من طراز لويس الخامس عشر ، وسلاله الرخامية الواسعة ، وأصناف السجاد الفاخر الذى يغطى أرضه ، كل ذلك جعله للتأثير فى نفوس الفلاحين ».

وقد حيرتنى كلمة (الفلاحين) هذه ، لأنه لو أراد بهم أبناء الشعب من المزارعين ، فهم لا يرون القصر ، وما أظن أحدهم قد خطر بباله أن يزوره ، لسطوة ما يرى من الحجاب والحراس ، أما إذا كان المراد منهم أبناء الشعب ممن ارتقوا إلى مناصب الوزارة والإدارة ، ولهم زيارتهم الرسمية فى المواسم والأعياد ، فهؤلاء بثقافتهم المعاصرة لا ينخدعون بالطلاء عن حقيقة الوجه ، لأنهم يعرفون عن الملك كل اتجاه !

ولم يترك لودفيج تسجيل ما مرّ به من مظاهر التسامح الدينى فى مصر ، فقال إن الانتماء إلى أى مذهب دينى لا يحول دون صاحبه بكافة المنافع والمزايا ، وأكبر دليل على ذلك أن اثنين من أكبر مقاعد الوزارة أهمية (هما الخارجية والمالية) يشغلهما مسيحيان مع أن المسيحيين فى مصر يبلغون مليونا واحداً مقابل أحد عشر مليونا ونصفا من المسلمين وقد كان ذلك سنة ١٩٣٠ حين سجل المؤلف حديثه الدقيق .

لقد طاف الكاتب الكبير فى أكثر ممالك العالم وجمهورياته شرقا وغربا وحادث رؤساء الدول محادثة المفكر المتمرس الدوب ، وسجل ذلك فى أسفار تعددت طبعاتها وترجماتها فهل نجد لدى أبنائنا الكبار من خاض هذه الغمرات ، إلاّ ما كان من أحاديث كبار الصحافيين وهم من ذلك قليلون ! فمتى نستشرف هذه الآفاق كما استشرفها أمثال لودفيج ؟ ■

قواعد اللعبة

بعد غزو العراق

بقلم

د. منير زهران

وهكذا فشلت الولايات المتحدة وبريطانيا فى حمل مجلس الأمن على اصدار قرار جديد فى مارس ٢٠٠٣ يسمح بالعدوان على العراق تحت ذريعة عدم تعاون حكومته السابقة مع فريق المفتشين الدوليين للبحث عن أسلحة الدمار الشامل بما يشكل خرقا ماديا لقرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ الصادر فى ٨ نوفمبر ٢٠٠٢، وبالتالى ادعاء شرعية غزو العراق من جانب الحليفين الرئيسيين أى الولايات المتحدة وبريطانيا، رغم معارضة واحتجاج غالبية أعضاء مجلس الأمن ومنهم أعضاء دائمين فى مجلس الأمن اشارة لفرنسا وروسيا والصين. وتجدر الاشارة إلى أن القرار ١٤٤١ لكى يصدر بالاجماع تم شطب العبارة الواردة فى مشروعه الانجلو أمريكى الأول، والذى كان ينص على «استخدام القوة» فى حالة فشل العراق فى تعاونه مع فريق المفتشين الدوليين، وتم استبدال تلك العبارة بعبارة تحمل العراق لتبعات وخيمة "SERIOUS CONSEQUENCES" فى حالة عدم التعاون، على نحو ما أوضحناه فى مقالنا فى مجلة الهلال - عدد مايو ٢٠٠٣



ورغم تعاون العراق - بدرجات متفاوتة - وفقا لتقارير المفتشين الدوليين - إلا أن الحليفين الرئيسيين كان في عجلة من أمرهما إزاء اقتراب فصل الصيف وعدم التمكن من تعبئة تسعة أصوات لإصدار قرار جديد من مجلس الأمن يسمح باستخدام القوة صراحة ويضفي شرعية على غزو الولايات المتحدة وبريطانيا للعراق، فتم سحب مشروع القرار من المجلس وانطلق الغزو الانجلو أمريكي للعراق يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ باستخدام أعتى الترسانات العسكرية وأحدثها فسقطت بغداد يوم ٩ ابريل ٢٠٠٣. وبغض النظر عن مدي صمود المقاومة العراقية، فقد كان سقوط بغداد واستكمال غزو العراق متوقعا إن أجلا أو عاجلا، خاصة بعد الاستمرار في قصف وتدمير العراق وحصاره منذ عام ١٩٩١، وبعد فرض منطقتي حظر الطيران في الشمال والجنوب عنوة - بدون أن يصدر قرار بذلك من مجلس الأمن - وذلك بمعرفة القوات الامريكية والبريطانية، وبعد أن تأكد الفريق الأول للمفتشين الدوليين "UNSCOM" من تدمير أسلحة الدمار الشامل العراقية.

أما بعد أن سقط قناع الغزو الانجلو أمريكي للعراق ... بذريعة حيازة أسلحة الدمار الشامل، والتحايل على قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١، وعلى ضوء فشل قوات الاحتلال الأمريكي البريطاني في العثور على أي من أسلحة الدمار الشامل المزعومة - سواء نووية أو كيماوية أو بيولوجية، واجهت دولتا الاحتلال عدة تحديات أهمها:

- السعي لإضفاء شرعية دولية على احتلالهما للعراق من خلال توظيف مجلس الأمن لتحقيق ذلك.

- توسيع دائرة التحالف مع دولتي الاحتلال - من خلال التهديد والوعيد أو العصا والجزرة - بضم أكثر عدد من الدول للتحالف، وإغراء تلك الدول بالمساعدات أو بدفع نفقات جنودها في العراق.

- البحث عن ذرائع أو حجج أخرى لاستمرار الاحتلال مثل تحرير العراق من النظام الديكتاتوري وإرساء دعائم الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان.

- تصاعد عمليات المقاومة العراقية لقوات الاحتلال الأمريكي البريطاني وسقوط القتلي والجرحي بين صفوف تلك القوات وتدمير آلياتها وتصاعد مظاهرات الاحتجاج الشعبي ضد الاحتلال الأجنبي، إضافة إلى حرق آبار ومخازن وخطوط أنابيب النفط العراقي - بعد إطفاء ما سبق حرقه من آبار في الشمال والجنوب أثناء عمليات الغزو.



سعت دولتا الاحتلال – وخاصة الولايات المتحدة – لتعبئة الجهود الدولية لاضفاء الشرعية على الاحتلال، بأن حثت الدول التي تربطها بها علاقات وثيقة سياسيا واقتصاديا – على المشاركة بوحدات عسكرية في احكام القبضة الأمريكية البريطانية على العراق، والمساهمة في تقديم المساعدات الإنسانية والمالية لإعادة البناء في العراق، وإزاء تردد البعض ورفض البعض الآخر التجاوب مع تلك المساعي في غياب الشرعية الدولية وانتفاء دور الأمم المتحدة ، أثرت دولتا الاحتلال العودة لمجلس الأمن – مؤيدة من إسبانيا – لاستصدار قرار جديد من المجلس يتعامل مع الواقع الجديد وينهى الحظر ويرفع العقوبات عن العراق بعد سيطرة الاحتلال الأنجلو أمريكي شبه الكامل على الموقف في العراق. وإزاء تهديد الولايات المتحدة للدول التي سبق أن عارضت غزو العراق، خاصة فرنسا وروسيا وألمانيا ، آثرت تلك الدول التعامل مع الواقع الجديد مع إدخال تعديلات على مشروع القرار المقدم لمجلس الأمن، بالنص على تحميل سلطات الاحتلال المسئولية عن إدارة العراق مؤقتا واحترام سيادة العراق وسلامته الإقليمية واحترام القانون الدولى الإنسانى مع الموافقة على رفع الحظر والعقوبات عن العراق والربط بين ذلك واستئناف برنامج النفط مقابل الغذاء – لاحترام العقود السابق ابرامها خاصة فيما بين الحكومة العراقية



السابقة والشركات الفرنسية والروسية.

وهكذا تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا (ومعهما إسبانيا) بمشروع قرار لمجلس الأمن في مايو ٢٠٠٣ بهدف الحصول على شرعية الاحتلال والحصول على تفويض بإدارة العراق إلى أن يتم انتخاب حكومة وطنية شرعية تمثل الشعب العراقي، وتنسيق تقديم المساعدات الإنسانية وإعادة إعمار العراق.

وقد صدر قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ في ٢٢ مايو ٢٠٠٣ بعد شهرين من بدء غزو العراق ووافقت ١٤ دولة على القرار وتغيبت سوريا عن جلسة التصويت بسبب التشاور مع دمشق ثم أبلغت رئيس المجلس في اليوم التالى بموافقتها على القرار.

ما هى قواعد اللعب في ظل القرار ١٤٨٣ ؟

لقد تم التحايل على أهداف ومبادىء الأمم المتحدة التى نص عليها الميثاق من خلال صياغة قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ رغم إدخال بعض التعديلات عليه ورفض تعديلات أخرى نتيجة الضغوط التي مارستها دول مثل فرنسا وروسيا وألمانيا والصين والمكسيك، وهكذا نرى تغييراً في قواعد اللعبة، بالاعتراف بالغزو الأجنبى لدولة عضو في الأمم المتحدة بدون سند من الميثاق والتدخل في شئونه الداخلية والسيطرة على موارده ومقدراته انتهاكا لقرار الأمم المتحدة الخاص بالسيادة الدائمة على الموارد الطبيعية لكل دولة ، والخشية كل الخشية من استخدام نموذج العراق الذى تم فرضه كأمر واقع لتطبيقه على دول أخرى مستقبلا بادعاء أنها «دولة مارقة» باختلاق ادعاءات مثيلة أو مغايرة في حالة عدم تجاوب مثل تلك

الدول مع خطط الدول الكبرى أو تهديد مصالحها.

وجدير بالملاحظة أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم يستطيعا تقديم دليل على ادعائهما مساندة العراق لتنظيم القاعدة أو لنظام طالبان في أفغانستان ، ولم يستطيعا إثبات وجود تهديد مباشر للنظام العراقي السابق للولايات المتحدة أو بريطانيا ورغم اعتراف حكومة كوريا الديموقراطية بتطويرها برنامجها النووي لأغراض عسكرية.

وقد جاء قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ في ديباجة يتكون من ١٨ فقرة استهلالية و٢٧ فقرة عاملة بعضها واقعا جديدا، وتشريعا لأحكام مستحدثة ستفرض نفسها على العلاقات الدولية، واعتبر الإدارة الأمريكية المدنية في العراق (ومعها البريطانية) «السلطة العليا» والتي على الدول الأخرى والمجلس العراقي الحاكم (المؤقت) والأمم المتحدة أن تنفذ رغباتها، وأن من حق «السلطة» (أي الإدارة الأمريكية المدنية في العراق أن تمارس حق الفيتو لكل ما لا ترضى عنه بشأن إدارة العراق سواء من جانب المجلس العراقي الحاكم الذي اختاره بول بريمر يوم ١٣ يوليو ٢٠٠٣ من ٢٥ شخصية عراقية.

دور الأمم المتحدة

وهكذا فإنه من واقع صياغة القرار ١٤٨٣ فإن الدور المحوري في إدارة العراق وتحديد مستقبله ليس للأمم المتحدة وليس للمجلس العراقي الحاكم، وفقا لما كانت تطالب به فرنسا وألمانيا وروسيا - وإنما للسلطة أي للقيادة الإدارية الموحدة والمكونة من الولايات المتحدة وبريطانيا، وأي دور تقوم به الأمم المتحدة - من خلال الممثل الخاص للسكرتير العام في العراق - يلزم أن يوافق عليه رئيس الإدارة الأمريكية المدنية في العراق السفير بول بريمر.

أين أسلحة الدمار الشامل؟

كان تبرير غزو العراق ما جاء في القرار ١٤٤١ لعام ٢٠٠٢ الصادر عن مجلس الأمن بالعثور على أسلحة الدمار الشامل وتدميرها، ورغم إعلان العراق أنه سبق تدمير تلك الأسلحة أثناء ولاية بعثة الأمم المتحدة الأولى المعروفة باسم "unscom" والتي أنهت مهمتها في ١٩٩٨، ومع اصرار الولايات المتحدة وبريطانيا على استمرار حيازة العراق وتطويره أسلحة الدمار الشامل الثلاث : نووية وكيماوية وبيولوجية، بعد مغادرة فريق التفتيش الدولي عام ١٩٩٨ وادعاء الدولتين تعاقد العراق مع حكومة النيجر على استيراد يورانيوم أو ما يسمى بالكعكة الصفراء لتطوير البرنامج النووي العراقي للأغراض غير السلمية. ونفى العراق ذلك، فقد جاءت اشارة لذلك في خطاب الرئيس بوش عن حالة الاتحاد الذي ألقاه أمام الكونجرس يوم ٢٨ يناير ٢٠٠٣، إلا أن وزير الخارجية كولين باول يشر إلى ذلك في بيانه أمام مجلس الأمن يوم ١٥ فبراير ٢٠٠٣ بمناسبة تقديم الأدلة على حيازة العراق وتطويره لأسلحة الدمار الشامل، وإنما أشار إلى وجود أدلة على امتلاك العراق لمعامل متنقلة في شاحنات قام بعرض صورها، مشيراً إلى استخدامها في إنتاج الأسلحة البيولوجية والكيماوية، وقد نفى العراق جميع تلك الاتهامات كما نفى العلماء العراقيون الذين تم استجوابهم بمعرفة فرق التفتيش، ثم بعد ذلك من جانب قوات

الاحـتـلال بعـد الغـزو - نفى هؤلاء استمرار وجود برامج لإنتاج أو تطوير تلك الأسلحة ، وحول التعاقد مع حكومة النيجر لتوريد يورانيوم للعراق، أوضح د. محمد البرادعى مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن العقد المشار إليه ثبت أنه كان مزوراً، وهو ما أكده السفير الأمريكى السابق ولسون الذى سبق ايفاده لافريقيا عام ٢٠٠٢ بمعرفة وكالة المخابرات المركزية للتحقيق فى صحة ما تردد عن استيراد اليورانيوم من أفريقيا - وعاد بتقرير تشكك فيه من صحة الخبر.

ويعد سيطرة قوات الاحتلال الأمريكية البريطانية على العراق وسقوط النظام العراقى السابق رفضت الولايات المتحدة عودة فرق التفتيش الدولية رغم مطالبة العديد من الدول الأعضاء فى مجلس الأمن بذلك خاصة الاتحاد الروسى وفرنسا ، وأعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا أنهما بصفتهما سلطة الاحتلال ستتولى البحث عن تلك الأسلحة وتدميرها . وكانت وجهة نظر الدول الأخرى أعضاء مجلس الأمن أنه من الصالح أن تبحث فرق التفتيش الدولية عن تلك الأسلحة حتى تكون لتقاريرها مصداقية، ومع ذلك أذيع أن الولايات المتحدة أوفدت عدداً كبيراً من الخبراء والمتخصصين للعراق للبحث، أذيع أن عددهم وصل إلى ألف - ومنذ ذلك الحين لم يعثروا على أسلحة الدمار الشامل والتى كانت ذريعة غزو العراق.



وهذا ما سبق أن أكده هانز بليكس ومحمد البرادعى فى تقريرهما أمام مجلس الأمن يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ حيث طالبا بمهلة اضافية تصل إلى عدة أسابيع لانهاء مهمتهما .

وجدير بالذكر أن قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ أعاد . فى فقرته العاملة الحادية عشر - تأكيد أهمية نزع أسلحة الدمار الشامل فى العراق والقيام فى نهاية المطاف بتأكيد نزع سلاح العراق، وأكد المجلس من جديد على ضرورة أن يلبى العراق التزاماته بشأن نزع السلاح، ودعا المملكة المتحدة والولايات المتحدة إلى ابقاء المجلس على علم بأنشطتهما فى هذا الشأن، واعتزم المجلس العودة إلى مراجعة ولايات لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتحقق والتفتيش (unmovic) والوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وهو ما يعكس اصرار السلطة (أى الولايات المتحدة وبريطانيا) على عدم عودة فرق التفتيش الدولية وفقا للولايات التى سبق أن حددها لهما مجلس الأمن - رغم الحاح العديد من الدول الأعضاء فى مجلس الأمن على استكمال مهامها.

وفى ٣٠ مايو ٢٠٠٣ وزع سكرتير عام الأمم المتحدة التقرير ربع السنوى الثالث عشر للرئيس التنفيذى للجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش (unmovic) تنفيذاً لقرار مجلس الأمن رقم ١٢٨٤ لعام ١٩٩٩ الذى أنشأ تلك اللجنة، ويغطى التقرير الفترة من أول مارس حتى آخر مايو ٢٠٠٣ ، مع ملاحظة أن عمل المفتشين الدوليين قد انتهى بمغادرتهم العراق - بناء على تعليمات السكرتير العام - يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣، أى قبل غزو العرق بيومين، وأهم ما جاء فى

التقرير الآتى :

١ - لم يعثر المفتشون الدوليون على دليل على استمرار أو استئناف برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق.

٢ - كشفت عمليات التفتيش عن وجود عدد صغير من الرؤوس الحربية الكيمائية الفارغة والتى تم إنتاجها قبل عام ١٩٩٠، وتم تدمير تلك الرؤوس الفارغة.

٣ - بعد أن انتهت اللجنة إلى أن منظومة صاروخ الصمود ٢ تتجاوز حدود المدى المسموح به من قبل مجلس الأمن، قامت اللجنة بتدمير سبعين صاروخا والمعدات المرتبطة بها تحت اشراف اللجنة قبل تعليق عملياتها (فى ١٧ مارس ٢٠٠٣).

٤ - اعربت اللجنة عن استعدادها لاستئناف انشطة التفتيش فى العراق، إلى ان يعاود مجلس الامن النظر فى ولاية اللجنة وفقا للفقرة العاملة ١١ من قرار مجلس الامن رقم ١٤٨٣.

هذا وقد انهى هانز بليكس مهمته كرئيس تنفيذى للجنة انموفيك مع انتهاء عقده يوم ٣٠ يونيو ٢٠٠٣ وتفرغ لكتابة مذكراته. وتجدر الاشارة إلى أن بليكس صرح في نهاية مهمته بانه لو كان قد سمح له باستكمال مهمته لاقتضى الأمر البحث عن ذريعة أخرى لغزو العراق.

وقد اجتمع مجلس الأمن يوم ٢٢ يوليو ٢٠٠٣ للنظر في تقرير الممثل الخاص للأمم المتحدة فى العراق، ولم تعرض الولايات المتحدة أو بريطانيا أو السكرتير العام عودة المفتشين الدوليين لاستئناف مهامهم، كما لم يتم الإعلان عن العثور عن أى من أسلحة الدمار الشامل المزعومة.

إعادة إعمار العراق أو ارساء دعائم الهيمنة على موارده الطبيعية

نص القرار ١٤٨٣ فى فقرته العاملة ١٢ على انشاء صندوق «تنمية العراق»، باشراف البنك المركزى للعراق، ويقوم بمراجعة حساباته محاسبون مستقلون يقر أسمائهم المجلس الدولى للمشورة والمراقبة للصندوق، والذى يشارك فى عضويته كل من ممثلى السكرتير العام وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى والصندوق العربى للانماء الاقتصادى والاجتماعى، وأن يتم الصرف من أموال الصندوق بتوجيه من «السلطة» وبالتشاور مع الإدارة العراقية المؤقتة.

وأوجه الصرف من أموال الصندوق حددها القرار (الفقرة العاملة ١٤) بأنها لتلبية الاحتياجات الإنسانية للشعب العراقى، وإعادة بناء الاقتصاد واصلاح الهياكل الأساسية للعراق ومواصلة نزع سلاح العراق وتغطية تكاليف الإدارة العراقية المدنية - بالاضافة إلى الأغراض الأخرى التى تعود بالفائدة على شعب العراق.

وقد نص القرار على تفويض السكرتير العام فى إدارة برنامج «النفط مقابل الغذاء» بموجب قرارى مجلس الأمن رقمى ١٤٧٢ بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠٠٣ و١٤٧٦ بتاريخ ٢٤ ابريل ٢٠٠٣ لمدة ستة أشهر (تنتهى فى ٢١ نوفمبر ٢٠٠٣) وانهاء هذا البرنامج حينئذ ونقل المسئولية عن إدارة أى نشاط متبق فى إطار البرنامج إلى «السلطة». ويسمح هذا البرنامج باستخدام حصيلة مبيعات النفط العراقى بالوفاء بالاحتياجات الغذائية والإنسانية لشعب العراق والتى يعتمد

عليها ٦٠٪ من السكان، وقد سمح هذا المد - الذي لم يكن وارداً ضمن المشروع الأول للقرار .

وقد تم إضافته للقرار بضغوط العقود من كل من فرنسا وروسيا - بأن يحدد السكرتير العام أولويات تنفيذ العقود التي سبق توقيعها بتصدير ما قيمته بلايين الدولارات للوفاء بالاحتياجات الإنسانية للشعب العراقي وتحويل ما يتبقى من أنشطة للسلطة ، بما يسمح بتنفيذ العقود المبرمة مع الشركات الفرنسية والروسية - وذلك لضمان عدم اعتراض فرنسا وروسيا على القرار بعد أن كانت ترفض رفع العقوبات عن العقوبات في ظل الاحتلال الأجنبي، وقد طلب القرار من السكرتير العام أن يحول إلى «صندوق التنمية» مليار دولار أمريكي من الأرصدة التي لم يتم الارتباط بها، والمودعة في الحسابات المنشأة وفقا لقرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ لعام ١٩٩٥ والخاص ببرنامج «النفط مقابل الغذاء»، وأن يعيد الأموال التي تخص العراق والتي قدمتها الدول الأعضاء للسكرتير العام - وفقا للقرار ٧٧٨ (١٩٩٢). هذا بالإضافة لتحويل السكرتير العام للصندوق جميع الأرصدة الفائضة في حسابات الضمان المنشأة وفقا للقرار ٩٨٦ المشار إليه، بعد خصم مصاريف الأمم المتحدة ذات الصلة بالشحن تنفيذاً لعقود مستلزمات الغذاء والدواء للشعب العراقي والتي تم تحويلها من حصيلة مبيعات النفط العراقي.

كما أنهى القرار ١٤٨٣ فوريا مهام السكرتير العام المرتبطة بمراقبة ورصد تصدير النفط العراقي ومنتجاته نظراً لقيام «السلطة» أي سلطة الاحتلال بذلك بدون حسيب أو رقيب.

وقد نص القرار على ايداع جميع العائدات المترتبة على مبيعات النفط العراقي - ابتداء من تاريخ صدور القرار أي ٢٢ مايو ٢٠٠٣ - في «صندوق التنمية للعراق»، إلى أن يتم تشكيل حكومة عراقية تمثل الشعب ومعترفا بها ، وهكذا سوف تستمر سيطرة «السلطة» أي سلطات الاحتلال الأمريكية البريطانية على ثروات العراق لسنوات قادمة، إلى أن يتم صياغة دستور جديد للعراق واجراء انتخابات حرة تنبثق عنها حكومة وطنية تحت اشراف سلطات الاحتلال ويرضائها ، ومع افتراض أن الحكومة الجديدة التي سوف تتأسس نتيجة انتخابات حرة سوف تفرز نظاماً بعثياً أو إسلاميا (شبيها بالنظام الإيراني) فمن غير المتوقع في هذه الحالة أن توافق سلطتي الاحتلال الأمريكي البريطاني انهاء وصايتهما على القرار كما نص القرار ١٤٨٣ على ايداع نسبة ٥٪ من عائدات مبيعات النفط العراقي في صندوق التعويضات عن غزو العراق للكويت، وذلك لضمان سداد التعويضات التي يقررها مجلس إدارة الصندوق (أي صندوق التعويضات) .

وهكذا بالتوازي تتم عملية تلبية الاحتياجات الإنسانية والضرورية للشعب العراقي واصلاح المرافق وإعادة الخدمات واعمار وإعادة بناء العراق في ظل الوصاية الجديدة.

وفي نفس الاتجاه طالب قرار مجلس



الأمن رقم ١٤٨٣ المؤسسات المالية الدولية بمساعدة شعب العراق في إعادة بناء اقتصاده وتنميته وتيسير تقديم المساعدات اللازمة من جانب الأطراف المانحة، مع التذكير بأن المدير التنفيذي لصندوق النقد الدولي ورئيس البنك الدولي يشاركان في عضوية «المجلس الدولي للمشورة والمراقبة لصندوق التنمية العراقي».

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن القرار رحب باستعداد الدائنين - بما في ذلك نادى باريس - الذى يشارك في اجتماعاته البنك الدولي وصندوق النقد الدولي - بالعمل على حل مشاكل الديون السيادية العراقية.

وسعيا إلى تعبئة الأرصدة لتغذية «صندوق تنمية العراق» نص قرار المجلس رقم ١٤٨٣ في فقرته العاملة ٢٣ على أن تقوم جميع الدول الأعضاء التي توجد بها أرصدة عراقية أو موارد اقتصادية تخص الحكومة العراقية السابقة أو الهيئات الحكومية أو رموز النظام العراقي السابق - بتجميد تلك الأرصدة والموارد ونقلها إلى «صندوق التنمية للعراق».

وجدير بالذكر أن المكسيك كانت الدولة الوحيدة التي أبلغت رئيس مجلس الأمن تفسيرها للقرار بأنه لا ينطوى على التزام يستدعي تغيير النظام القانوني المكسيكي على «... عدم جواز حرمان أى شخص من الحياة أو الحرية أو من ممتلكاته أو حيازاته أو حقوقه إلا عن طريق اجراءات قانونية أمام محاكم قائمة سلفا وتراعي فيها «الجوانب الاجرائية الأساسية وفقا لقوانين قائمة مسبقاً»، وأنه.. لا يخضع أى شخص للتعدى على شخصه أو على أسرته أو مكان إقامته أو على مستنداته أو حيازاته إلا بناء على إذن خطي صادر من سلطة مختصة يبين ويثبت الأسس القانونية للاجراء». هذا الموقف المكسيكي جدير بالتسجيل والتقدير ونموذج جدير بالاتباع بما يتفق مع أحكام المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة التي نصت على عدد من المبادئ، منها عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول، وهو المبدأ الذى طالما انتهكته عدة قرارات صادرة عن مجلس الأمن ومنها على سبيل المثال القراران ١٤٤١ و١٤٨٣.

★ ★ ★

أما بعد فرض نظام جديد للوصاية على العراق والسعي لاقحام الأمم المتحدة كغطاء دولي لاضفاء الشرعية على الاحتلال الأجنبي هناك، فإن لنا بعض الملاحظات وأهمها:

١ - إزاء رفض عدد من الدول الصديقة والحليفة «وعددها تسعة عشر دولة» الاستجابة لطلبات دولتي الاحتلال بإرسال قوات للعراق للمشاركة في تحمل المسئولية في احكام السيطرة على العراق أسمتها الولايات المتحدة تحالف الدول الراغبة في ذلك "Coalition of the Willing" وأسماها الكاتب الأمريكي توماس فريدمان في مقاله في صحيفة نيويورك تايمز «تحالف الدول تحت اغراء الحصول على مساعدات أو تعويضات "Coalition of the Billing"».

وقد كان رد بعض تلك الدول على الولايات المتحدة بأنه لا تتمكنها ارسال قوات للخارج الا بعد موافقة برلماناتها الوطنية، وتذرع البعض الآخر بأنه لا يمكنها ارسال قوات للعراق نظراً لأنه لا توجد قوات تعمل تحت علم الأمم المتحدة هناك.

لذلك أعلن كولن باول وزير الخارجية الأمريكي بعد زيارة تونى بلير لواشنطن ومباحثاته مع الرئيس بوش فى أواخر يوليو ٢٠٠٣ بأنه يجرى دراسة امكانية تقديم مشروع قرار جديد لمجلس الأمن لاعتماد تشكيل بعثة من قوات حفظ السلام للعراق لتحل محل بعثة حفظ السلام بين العراق والكويت "Unikom" والتي تقرر مد العمل بها حتى أكتوبر ٢٠٠٣.

٢ - ويرجع الباعث الدافع لتفكير الولايات المتحدة فى العودة من جديد لمجلس الأمن لاستصدار قرار ثالث - بعد قرارى المجلس ١٤٤١ في نوفمبر ٢٠٠٢ و١٤٨٣ فى ٢٢ مايو ٢٠٠٣ إلى السعى لاضفاء الشرعية على الاحتلال الانجلو أمريكي للعراق لتحتمي بعلم الأمم المتحدة من ناحية ولتشجيع الدول التي اعتذرت عن المشاركة بقواتها فى عملية الاحتلال لتغيير مواقفها.

٣ - ويسمح الوجود الأمريكى البريطانى في العراق بتحقيق مآرب أخرى ومنها :

أ - تخفيض الضغوط التي تتعرض لها قوات الاحتلال الانجلو أمريكي من هجمات المقاومة العراقية التي يذهب ضحيتها المزيد من القتلى والجرحى يوميا واستمرار ذلك رغم اغتيال القوات الأمريكية لنجلي الرئيس السابق صدام حسين ، عدى وقصى ، اعتقاداً بأنهما يقودان المقاومة.



ب - استخدام علم الأمم المتحدة كضمان وحصانة ضد المقاومة العراقية ، بحيث إذا استمرت عمليات المقاومة بعد ذلك، فإن الولايات المتحدة وبريطانيا يمكنهما كسب تعاطف المجتمع الدولى والرأى العام تحت غطاء الأمم المتحدة .

جـ - تمكين قيادة قوات الاحتلال من الترخيص بعودة المزيد من القوات التى تم تعبئتها لغزو العراق منذ بداية عام ٢٠٠٣ ، وذلك بعد أن ساد شعور من التذمر فيما بين صفوف تلك القوات ، إزاء استمرار عمليات المقاومة العراقية وسقوط القتلى والجرحى فيما بين صفوفهم يوميا.

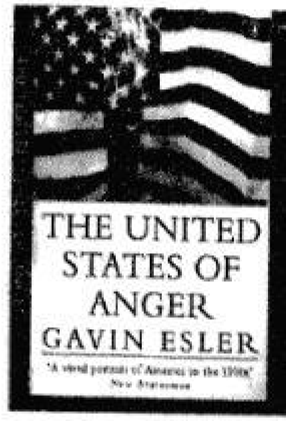
٤ - أدت هجمات المقاومة العراقية إلى تأخير تأخير الاحتلال باستعادة تصدير النفط العراقي للأسواق الدولية بما يسمح بزيادة الاحتياطى النفطى الذى تناقص إلى أدنى الحدود نتيجة للشتاء القارس فى بداية العام ثم نتيجة غزو العراق وتوقف إنتاج وتصدير البترول العراقى الذى تعرضت حقوله فى الشمال والجنوب للحرائق، وهكذا تأخرت خطط إغراق الأسواق الدولية بمزيد من المعروض من النفط الخام بما يساهم فى خفض أسعاره بعد أن تراوح سعر برميل النفط الخام فى الشهور الأخيرة بين ٢٨ و٣٠ دولارا، ومن المتوقع أن تنخفض أسعار النفط الخام في الأسواق الدولية إلى أقل من ١٠ دولارات للبرميل بعد إصلاح وتجديد وتحديث معدات الاستخراج والإنتاج، ويحد من ترجمة تلك التوقعات إلى واقع ملموس قيام وزراء البترول لمنظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) بخفض أسقف الإنتاج، وهو ما لم يحدث حتى نهاية يوليو ٢٠٠٣ .

٥ - سوف يترتب على ذلك خفض

تكاليف الإنتاج فى الدول الصناعية وزيادة القدرات التنافسية للشركات عبر القومية الأمر الذى سوف يساعد على استفحال العولمة ومزيد من الهيمنة من جانب الدول المتقدمة والتهميش للدول النامية فى النظام الاقتصادى والتجارى الدولى .

٦ - وعلى ضوء ما تقدم من حقنا ومن حق شعوب العالم - وخاصة شعوب العالم النامى - طرح السؤال الآتى: ما هى قواعد اللعبة ؟ ما هى قواعد اللعبة بعد اهدار مبادىء الأمم المتحدة التى نص عليها الميثاق وقواعد القانون الدولى . وقد نص الميثاق فى ديباجته ومختلف مواده على انقاذ شعوب العالم من ويلات الحروب وعدم استخدام القوات المسلحة إلا فى حالة الدفاع الشرعى - الفردى والجماعى - فى حالة اعتداء دولة على أراضى دولة أخرى، وعدم استخدام القوة فى العلاقات الدولية، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية والحفاظ على السلام والأمن الدوليين ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول والتعاون الدولى فى الشئون الإنسانية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، هل تطبق تلك الأحكام فقط على الدول الصغيرة والفقيرة والمتوسطة. أما الدول الكبرى وبصفة خاصة الدول ذات المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن فهى بمنأى عن المساءلة عن مدى التزامها بتلك الأحكام نظراً لتمتعها بحق الفيتو ، وبالتالى ترفض الالتزام بقواعد الميثاق والقانون الدولى إذا لم تخدم مصالحها وبالتالى تعمد إلى إهدارها ، بل إنه بعد انهيار المعسكر الشرقى وتفكك الاتحاد السوفييتى لم يعد هناك توازن دولى من شأنه احترام تلك القواعد فى ظل القطب الأوحد الذى لا يطبق من تلك القواعد إلا إذا اتفقت مع مصالحه وأهدافه.

وبالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط على الخصوص، إلى متى ستعتبر الولايات المتحدة وإسرائيل فوق القانون الدولى، فالمستثنى لا ينطبق على إسرائيل بحيث يجب أن يلتزم الجميع بأحكام الميثاق والقانون الدولى فيما عدا إسرائيل، وتستثنى إسرائيل فى حالة عدوانها واهدارها للحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وفى حالة ارتكابها لجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية والابادة وازاء امتلاكها لأسلحة الدمار الشامل وخاصة السلاح النووى وهو أكثر الأسلحة فتكا ودماراً وفى حالة تطويرها لصواريخ تحمل الرؤوس النووية يمكن أن يصل مداها إلى جميع الدول العربية والإسلامية بل وتهدد السيادة والسلامة الإقليمية لدول آسيا وأفريقيا وأوروبا . وإلى متى سوف يستمر هذا الوضع، ولماذا لم يتم الاستجابة لمبادرات مصر بإخلاء منطقة الشرق الأوسط من السلاح النووى كخطوة أولى نحو انشاء منطقة خالية من جميع أسلحة الدمار الشامل بما يحقق السلم والأمن للجميع، وتعيش جميع دول المنطقة ضمن حدود آمنة ومعترف بها بما فى ذلك دولتى فلسطين وإسرائيل، وهل وضعت خريطة الطريق لكى يلتزم بها طرف واحد وهو الفلسطينيون أما إسرائيل فتبقى طليقة اليدين تصنع ما تريد ، فينطبق عليها كما ينطبق على الولايات المتحدة - المستثنى بإلا !؟. ■



الولايات المتحدة الغاضبة !

بقلم
محمد يوسف عدس

فى يوم شديد البرودة من أيام شهر يناير سنة ١٩٩٧م وقف الرئيس بل كلينتون على السلم المؤدى إلى مدخل مبنى الكونجرس فى واشنطن يلقى خطابه الافتتاحى لولايته الثانية ، فتحدث طويلا عن الانجازات الكبرى التى حققتها الولايات المتحدة فى القرن العشرين، ثم انتقل بعد ذلك مباشرة إلى قضية شائكة رأى أنها تشكل الهاجس الأكبر للأمريكيين عندما يفكرون فى مستقبل بلادهم وهى مقبلة على قرن جديد.

من بين ما ذكره كلينتون من إنجازات بلاده: أنها أصبحت أقوى دولة صناعية فى العالم، وأنها استطاعت أن تنقذ العالم من الاستبداد فى حربين عالميتين، وفي حرب باردة طال أمدها إلى خمسين عاما، وأنها طالما مدت يد المساعدة إلى ملايين البشر الذين يتوقون إلى نعمة الحرية، وأنها أقامت أعظم المؤسسات التعليمية التى لا تضارع وفتحت المدارس العامة لجميع المواطنين، وفصلت الذرة وغزت الفضاء واخترعت الكمبيوتر والميكروتشيب، وصنعت ثورة فى الحقوق المدنية للأقليات، ووسعت دائرة المواطنة ، وأتاحت الفرصة والكرامة للنساء.

وبعد أن فرغ من حديث الإنجازات قال كلينتون: «اليوم وللمرة الثالثة يوشك أن يطل علينا قرن جديد وأمامنا فرصة للاختيار»، فما هو هذا الاختيار الذى وضعه كلينتون أمام شعبه؟ يقول كلينتون وهو يتكىء على كل كلمة ينطقها: «هل سنكون أمة واحدة بمصير واحد مشترك

أم لا؟

هل سيلتئم شملنا ونتوحد أم نتمزق ونتفرق؟!

مثل هذا الكلام من رئيس اختاره الشعب لولاية ثانية هي الأخيرة بحكم الدستور - إذا وقع على أذن أجنبية لابد أن يثير كثيرا من الاستغراب..! بعد ذكر قائمة طويلة من الإنجازات الباهرة يحرص رئيس الدولة على أن يكشف عن مخاوفه من احتمال تفكك أمته؟ لابد أنه أدرك أن حالة عامة تسود المزاج الأمريكي تنذر بخطر عظيم، ربما كانت تفشي مشاعر الغضب العارم والقلق وعدم المبالاة ماثلة أمام عقله وهو يتحدث عن مخاوفه.. لعله قد أدرك أن هذه أعراض ثلاثة لمرض التفكك الأمريكي الذي ينخر في المجتمع. قد يبدو الجسم في صحة وقوة خصوصا في نظر العالم الخارجي.. ولكن مرض السرطان ينهش فيه تحت الجلد دون أن يراه أحد.

في تسعينات القرن العشرين وفي عهد الرئيس كلينتون حققت الإدارة الأمريكية ازدهارا اقتصاديا ملموسا وتغلبت على العجز المزمن في الميزانية.. ولكن توجد فجوة هائلة بين الصورة الزاهية التي تعلنها الحكومة وتروج لها الصحافة والإعلام وبين ما يشعر به الكثرة الغالبة من المواطنين العاديين الذين لا يجدون أثرا واضحا في حياتهم اليومية لهذا الازدهار الاقتصادي، لذلك يزداد غضبهم.

التناقض المثير

صحيح أن الولايات المتحدة هي أنجح دولة في العالم وأكثرها تقدما وازدهارا وأكثرها تأثيرا في شعوب العالم: فالأفكار الأمريكية والسلع الأمريكية تنتشر في كل بقعة من الأرض ولا ينجو من تأثيرها إنسان يدب على قدميه في هذا العالم، فإذا لبست «الجينز» الأزرق أو استمعت إلى موسيقى «الروك أندرول» أو طرت في طائرة «بوينج» أو شاهدت فيلما من أفلام هوليوود أو استخدمت القمر الصناعي في مكالماتك التليفونية أو استخدمت برامج ميكروسوفت على جهاز الكمبيوتر الشخصي.. إذن فإن حياتك قد تأثرت بشكل أو آخر بالمخترعات الأمريكية العظيمة.

لقد دخلت الكوكاكولا والهامبرجر وعشرات أخرى من المنتجات الأمريكية في ثقافة البشر وأصبحت روتينا يوميا لمئات الملايين من الناس في كل قارة على وجه هذه البسيطة .. لقد أصبحت أمريكا هي قمة القمم وبلغت نهاية التاريخ كما يقول فوكوياما .. ومن ثم نتوقع أن نشاهد الرقص في شوارع المدن الأمريكية .. وأن نرى ملايين الأمريكيين يسيرون مبتهجين في مهرجانات النصر التي لا تنتهي!

ولكننا لا نرى شيئا من هذا أمامنا .. بل نرى استياء وتذمرا وغضبا مقنطا ، فإذا دققنا النظر أكثر نرى صراعا مذهلا يوشك أن يفجر وحدة هذه الأمة إلى أشلاء.

إننا أمام تناقض مذهل يجعلنا نتساءل: لماذا في قلب هذا النجاح الكاسح نجد كثرة غالية من الأمريكيين العاديين الكادحين قلقين على مستقبلهم .. يؤرقهم تفكك مجتمعهم ومظاهر التدهور الاجتماعي والثقافي والعسكري؟

ولماذا يجرف هذه الكثرة السخط على نظامهم السياسى الذى يرون فيه أزمة حقيقية وأنه على حافة الانهيار؟ ولماذا تجد بلاد نفسها مع نهاية القرن العشرين وهى لا تشكو من عدو حقيقى تخشاه.. قوة عظمى ولكن بالغة الاضطراب؟

أمريكا التى غزت العالم واخترقت أسرار الكواكب عاجزة عن تحقيق أى نوع من السلام والأمن لشعبها!!

الكتاب والمؤلف

الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة ولكن الكتاب الذى نحن بصدده يحاول أن يقدم نوعا من الإجابة أراها منطقية جدا وتستند إلى حقائق ومشاهدات وتحليل عميق للأحداث وخبرة صحفية لرجل عاش فى الولايات المتحدة عشرين عاما مراسلا صحفيا يراقب ويشاهد وينغمس فى الحياة اليومية مع مئات الأمريكيين العاديين والمثقفين والسياسيين والقادة والكتاب، من مختلف التيارات وشتى الاتجاهات.

عنوان الكتاب هو : The United States of Anger The People and the American Dream وترجمتى للعنوان : الولايات المتحدة الغاضبة: الشعب والحلم الأمريكى. أما المؤلف فهو الصحفى الإنجليزى جافين إيسلر، يصفه أحد المعلقين بأنه يتمتع بقدرة ملحوظة على أن يخترق جلد الأمريكيين ليفهم آمالهم ومخاوفهم.

أول ما يطالعنا به الكتاب أنه يبين لنا بتفصيل شديد كيف أن قواعد الحياة الأمريكية قد بلغت فى تسعينات القرن العشرين مبلغا من التحولات انقلبت فيه الأسس التى اعتبرها الأمريكيون أمرا مستقرا ومفروغا منه خلال الخمسين سنة الماضية.

من أبرز مظاهر هذه التغييرات أن الكثرة الغالبة من المواطنين الأمريكيين قد أصبحوا يشيرون بأصابع الاتهام إلى الحكومة الأمريكية بصفة روتينية بأنها سبب كل علة تحل بهم ابتداء من التدهور الاجتماعى والأخلاقى والثقافى.. إلى التدهور السياسى.

يفحص الكتاب تلك التغييرات التى تجتاح اليوم أمريكا بسرعة مخيفة، عشرات الملايين من المواطنين الذين هم أصلا محبون لبلادهم ومطيعون للقانون — متقززين غاضبين خائفين لأن الحكومة لا تفهم أو أنها لا تعنى بهم وأنها تخون تقاليد بلادهم العريقة.. إنهم خائفون لأن دولتهم التى هى أكثر الدول نجاحا فى التاريخ العالمى تقف على حافة الإخفاق الدرامى.

الخوف من المستقبل

عندما يفكر ملايين الأمريكيين فى المستقبل يشعرون أن أفضل أيام بلادهم قد ولت بغير رجعة، وأن نسيج الحياة اليومية قد أصبح خشنا، وأن الانقسامات الطبقية والعرقية تزداد سوءا.. ولب القلق الجديد يرجع إلى أن القواعد التى كانت تحكم ما يعتقد الأمريكيون أنه الأمر السوى قد تغيرت تغيرا مخيفا. عاش الأمريكيون فى ظل عقيدتين راسختين

كانتا سر انبثاق معجزة الطبقة الوسطى خلال الخمسين سنة الماضية هما: إذا اجتهدت فى أمريكا يأتيك حظك وافرا، وأن كل جيل سوف يكون أفضل من جيل آبائه.. ارتقت هاتان العقيدتان إلى درجة العبادة.. ولكنهما انهارتا تماما منذ نهاية الحرب الباردة.

خلال تسعينات القرن الماضى تقلص الأمن الوظيفى فى كل مكان بين أبناء الطبقة المتوسطة وكان أثره أشد سوءا خصوصا فى بلد لم يعتد النظام التقليدى الذى كان سائدا فى أوربا، وأقصد الضمان الاجتماعى والرعاية الصحية المجانية. والفرق هو أنك إذا فقدت وظيفتك فى أمريكا فمعناه أنك وأسرتك قد فقدتم غطاء الرعاية الصحية وأصبحتم معرضين لتدهور مستوى المعيشة بل ربما فقدتم المأوى، لأنك غير قادر على تسديد أقساط مديونية البيت والسيارة وغير ذلك من تجهيزات منزلية نظرا لانقطاع المرتب.

فى سنة ١٩٩٦ - وكانت فترة الاقتصاد المزدهر - سجلت الولايات المتحدة أكثر من مليون حالة إفلاس لأول مرة فى تاريخها.. فمن الذى استفاد إذن من هذا الازدهار الاقتصادى؟ إنها طبقة الأغنياء الذين ازدادوا غنى وتكديسا للثروة بينما تتراجع الأغلبية إلى مزيد من الفقر .. الهوة تتسع بين الفقراء والأغنياء الذين لا يفهمون سر القلق الذى أصبح يسود الطبقة المتوسطة بل لا يبالون به.

الاستقطاب والعنصرية

أكثر الأصوات غضبا هى أصوات أولئك الذين يشعرون أن المجتمع الأمريكى فى تدهور عميق ومستمر.. خصوصا أولئك المبشرين بالأصولية الجديدة والمتنبئين والنبوئيين من اليمين المتطرف.. إنهم يعتقدون أن نهاية الزمن قد أصبحت وشيكة وأن عودة المسيح إلى الأرض واقعة فى غضون هذا الجيل.. وأنهم مكلفون من الرب بإصلاح العالم والقضاء على الموبقات لا بالقلب واللسان ومحطات الإذاعة والتليفزيون فقط ولكن باليد والرصاص والقنبلة.. وهكذا استعرت الحرب الثقافية فى التسعينات بين متطرفين لاهوتيين ومتطرفين علمانيين وتعددت حوادث العنف المادى الذى بلغ ذروته فى تفجيرات أوكلاهوما.

التوتر بين السود والبيض قصة قديمة متجددة لاتزال قابلة للتفجر، وإلى جانب هذا ظهر خطر جديد، حيث يشعر الأمريكيون بأنهم يغرقون فى مستنقعات المهاجرين المتدفقين من أمريكا اللاتينية فى موجات هى أكبرها فى التاريخ الأمريكى، يزاحمونهم فى الوظائف الدنيا ويعزلون أنفسهم فى مجتمعاتهم الخاصة رافضين الانخراط فى تيار الحياة الثقافية الأمريكية، مما أشعل الغضب بين الأمريكيين السود والبيض على السواء.

وقد أدرك الرئيس السابق بل كلينتون خطر تزايد التيار العنصرى الغاضب فأشار إليه فى خطابه الذى أشرنا إليه سابقا.. قال:

«إن الانقسام العرقى كان دائما لعنة أمريكية مستمرة.. فالتعصب والازدراء المتسربلين بعقائد دينية أو سياسية هما الآفة التى دمرتنا فى الماضى ومازالت هى

ابتلاؤنا إلى اليوم.. إنها لاتزال تغذى التعصب والإرهاب وتؤكد الهواجس التى أعاقت حياة الكارهين والمكروهين على السواء.. وإننا لا يمكن ولا يصح أن نستسلم لهذه الدوافع السوداء الكامنة فى أعماق النفوس والمنتشرة فى كل مكان».

يعلق جافين إيسلر على هذا قائلا: التأكيد على هذه الدوافع السوداء الكامنة متصل بالتعبير عن الخوف من تدهور أخلاقى مزمن ومن تفكك الأسرة الأمريكية وارتفاع نسبة المواليد غير الشرعيين ومن جرائم العنف والإرهاب المتصاعدة .. ثم تلك المخاوف المتصلة بالصدام العرقى وهى أكثرها استعصاء على العلاج.

حالة الانفكاك

هذا عنوان دراسة قام بها معهد جالوب تحت إشراف جامعة فرجينيا سنة ١٩٩٦، أريد بهذا العنوان أن يكون مناقضا لخطاب الرئاسة الأمريكية السنوى «حالة الاتحاد».

وعادة ما يتناول المؤلف قياسات الرأى العام بشىء من الحذر ولكنه يقول: «إن ما يثير الفزع حقا هو تواتر وثبات بعض نتائج هذه القياسات واتفاقها مع دراسات أكاديمية أخرى كثيرة خصوصا ما يتعلق بتدهور ثقة الشعب الأمريكى المستمر بحكومته خلال الأربعين سنة الأخيرة.

يتضح لنا من هذه الدراسة أن الغالبية من الأمريكيين يعبرون عن قلق شديد مصحوب بسخط على أوضاع مجتمعهم المتردية، ويصف ٢١٪ من الناس أنفسهم بأنهم غاضبون أو ثائرون أو مستاءون من النظام، ويعتقد واحد فقط من كل عشرة أشخاص بأن الولايات المتحدة تتحسن، بينما يعتقد ٥٠٪ أنها فى حقيقى، ويرى واحد من كل خمسة أشخاص أنه تدهور شديد جداً.

فى القرن التاسع عشر كان «أليكس دى توكفيل» قادرا على أن يقول وهو مطمئن «إن أمريكا عظيمة لأنها خيرة» ولكن تغير كل شىء فى تسعينات القرن العشرين وأصبح ملايين الأمريكيين يجأرون بالشكوى لأنهم أقل ثقة بالطبيعة الإنسانية.. أقل ثقة بعضهم فى بعض وأقل ثقة فى حكومتهم.. وفى هذا يقول سناتور جورج ميتشل وهو مراقب ذكى لتطور الحياة الأمريكية: «إن عدم الثقة يخترق مجتمعنا اختراقا.. فثقة المجتمع فى مؤسساته وحتى بين الأصدقاء والجيران بل وبين أفراد الأسرة الواحدة - فى تدهور مستمر».

موت ثقافة البطل

يتناول المؤلف فى فصول كتابه مظاهر التدهور فى الحياة الأمريكية ويكشف لنا من خلال ذلك عن الآثار المرضية التى تدل على انهيار القيم والمبادىء التقليدية التى قام عليها بناء المجتمع الأمريكى.. نحاول إيجازها فيما يلى:

ثقافة البطل الأمريكى تتوارى لتحل مكانها ثقافة الضحايا.. كان البطل الأمريكى فى القرن السابع عشر هو المغامر قوى العزيمة.. وفى القرن الثامن

عشر كان هو الوطنى الثائر ضد الاحتلال البريطانى.. وفى القرن التاسع عشر كان هو راعى البقر الخشن الشجاع ، جسدته هوليوود فى شخصية «جون وين».. أما فى نهاية القرن العشرين فهم المحامون والمعالجون النفسانيون.. لقد باع «جون وين» سلاحه وحصانه وهو الآن يرقد مستسلما على أريكة الطبيب النفسى يذرف الدموع.

ذهبت ثقافة الأبطال وجاءت ثقافة الضحايا - أفرادا وجماعات - يشعرون بالظلم الحقيقى أو الموهوم .. والضحايا أنين يسمع فى كل مكان ولهم شكاوى يضعونها أمام الأبطال الجدد، وهم المحامون الذين يدافعون عن الضحايا، ولزيادة الطلب عليهم طفرت أعدادهم طفرة هائلة: من ٢٥٠ ألف محام فى السبعينات إلى ٨٠٠ ألف سنة ١٩٩١.. إلى مليون محام سنة ٢٠٠٠. كل صاحب مهنة يخشى من وقوع أخطاء فى عمله ومن شكاوى العملاء فيحتاط بتوكيل محام للدفاع عنه أمام المحاكم ويخصص لهذا قدرا كبيرا من دخله .. حتى الرئيس بل كلينتون لم ينج من هذه الآفة مع أنه هو نفسه محام .. وقد كان محاميه فى قضايا فضائحه الجنسية يتقاضى ٤٧٥ دولارا فى الساعة الواحدة.

لهذا يكره الأمريكيون واشنطن

وبسبب انعدام الثقة أيضا فقد الأمريكيون اهتمامهم بالشئون العامة وشاعت روح اللامبالاة والنفور من صناديق الانتخابات . كل ذلك لانعدام الثقة فى السياسيين واليأس من إصلاح النظام السياسى .. والخوف من الحكومة.

يقول المؤلف : «لقد ذهب الاتحاد السوفييتى وذهب معه الخوف الأحمر Red scare وحل محله ما يسمى بالخوف الفيدرالى Fed scare .. وتلك بانوراما أصبحت شائعة ضد الحكومة الفيدرالية .. ليس مصدرها فقط الجناح اليمينى المتطرف أو الميليشيات المعادية للحكومة ولكن أيضا الأمريكيون العاديون.. وهم ليسوا من الفقراء ولا من الجهال ولا من الأقليات العرقية إنما من البيض المتعلمين تعليما جيدا المنتمين إلى الطبقة المتوسطة. هؤلاء الأمريكيون البيض الغاضبون يعتقدون أن الحكومة قد فقدت السيطرة.. وأن جماعات الضغط (اللوبيات) وبعض فئات من السياسيين والصحفيين وكبار البيروقراطيين يشكلون جميعا فى واشنطن النخبة الحاكمة التى لا تبالى إلا بمصالحها الخاصة.. وهذا هو اعتقاد ٧٧٪ من الأمريكيين وفقا للدراسة المشار إليها.

لقد ذهب ٢٥٪ من الأمريكيين إلى حد القول بأن هذه النخبة الحاكمة متورطة فى مؤامرة ضد مصالح الشعب الأمريكى..

يقول المؤلف: «لقد أصبحت فكرة أن الحكومة الفيدرالية تضمر مؤامرة كبرى من أكثر أنواع العصاب الأمريكى شيوعا وخطرا منذ تسعينات القرن العشرين.. ولم تعد هذه مجرد ثقافة شعبية شفوية وإنما دخلت فى نسيج الثقافة العامة وفى أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة وضرب لذلك مثلا بأفلام هوليوود ، ومن أشهرها فيلم «إكس فايل X Fli

الرؤساء يكذبون

امتدت الكراهية وعدم الثقة في الحكومة إلى المؤسسات الفيدرالية الأخرى فشملت مؤسسة الرئاسة والكونجرس وأجهزة الاستخبارات .. حتى وكالة حماية البيئة وإدارة الضرائب.

هذا الانهيار في الثقة بالحكومة ومؤسساتها حدث في جيل واحد ففي سنة ١٩٥٨ كان ثلاثة أرباع الأمريكيين يعتقدون أن الحكومة تفعل ما هو صحيح ولا تكذب.. الآن تقلص هذا الرقم إلى ٥٪ فحسب. خلال هذه الفترة تفجرت فضائح كذب فيها الرؤساء الأمريكيون والقادة السياسيون كذبا مبينا:

في الحرب الفيتنامية، وفي ووترجيت أيام نكسون ، وفي فضيحة إيران - كونترا أيام ريجان .. وكذب بوش الأب عندما وعد بعدم فرض ضرائب جديدة في حديثه الشهير Read Mylips ثم نكس، وكذلك فعل من بعده بل كلينتون وزاد على ذلك كذبه في قضية فضائحه الجنسية.

■ ولو تأخر صدور هذا الكتاب بضع سنوات قليلة لسجل أيضا كذب بوش الابن في قضية الأسلحة ذات الدمار الشامل التي جعلها سببا في الحرب على العراق ثم تبين لشعبه وللعالم كله أن كاذب.

الإفراط في الديمقراطية

كما يخصص المؤلف فصلا في كتابه عن كراهية الأمريكيين لحكومتهم تحت عنوان «لماذا يكره الأمريكيون واشنطن؟» يخصص فصلا آخر للديمقراطية الأمريكية أو بحسب تعبيره الإفراط في الديمقراطية ويرى أنها وصلت إلى حالة من الشلل يرثى لها .

وهنا يرصد المؤلف الأسباب الرئيسية التالية:

أولا: حالة اللامبالاة التي أصابت قطاعات واسعة من الناخبين حيث أصبح ما يقرب من نصفهم يتجنب الذهاب إلى صناديق الاقترع يأسا من أي تغيير حقيقي.

ثانيا : كثرة الانتخابات وتكرارها الذي يحدث في الكونجرس كل سنتين، وفي الرئاسة كل أربع سنوات .. فلا يكاد الرئيس الجديد يستقر في منصبه حتى يبدأ المخططون يعدون للانتخابات التالية. يضاف إلى ذلك أن عملية الانتخابات باهظة التكاليف تضطر المرشحين للاعتماد على تمويل أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية ، والمرشح أو النائب بعد ذلك يفقد حرية الرأي ويشعر بالعجز عن الدفاع عن القضايا التي يؤمن بعدالتها ، كما يفقد الشعور بالأمن لأنه دائما غير واثق من ترشيح الحزب له ولا من استمرار التمويل ولا من أصوات الناخبين في نهاية الأمر.

ثالثاً : التضخم البيروقراطي ظاهرة ربما تكون فريدة في الولايات المتحدة حيث توجد ٨٥ ألف حكومة تبدأ من القرى الصغيرة والبلدات مرورا بالولايات حتى الحكومة الفيدرالية في واشنطن، ويعمل بهذه الحكومات ١٩,٥ مليون موظف ..

وتبدو المقارنة مفجعة عندما نعلم أن عدد العاملين فى هذه الحكومات خلال تسعينات القرن العشرين قد فاق عدد العاملين فى الصناعات الإنتاجية.

الفقراء يزدادون فقرا

وعندما يتحدث المؤلف عن الاقتصاد الأمريكى يضع أيدينا على حقائق مذهلة فالفقراء يزدادون فقرا والأغنياء يزدادون تكديسا للثروة. ورغم التقارير الاقتصادية الوردية عن اقتصاد التسعينات ورغم انخفاض التضخم المالى ورغم نجاح كلينتون فى تخفيض العجز الهائل فى الميزانية.. رغم كل هذا لا تشعر الكثرة الغالبة من الأمريكيين بالأمن الوظيفى.. ويلمس العمال الأرباح الهائلة التى تحققها شركاتهم بينما تبقى أجورهم ثابتة أو فى تراجع، فيما عدا المديرين الكبار فهؤلاء يثرون على حساب العمال، من أمثلة ذلك: مدير يحصل على ٣ ملايين دولار كمرتب سنوى يطرد أربعين ألف من العاملين فى شركته، وآخر يحصل على ٢.٥ مليون دولار ليضحى بـ ١٢ ألفاً من الموظفين.

■ ونحن نعلم قصة إفلاس شركة إنرون التى حصد مديروها ملايين الدولارات ثم تركوها تسقط على رؤوس ضحاياهم من العملاء الصغار الذين فقدوا مدخرات حياتهم.

لذلك لم يكن المؤلف مخطئا عندما أطلق على أمثال هؤلاء الحيتان اسم «البارونات اللصوص» لأنهم يسرقون المليارات عن طريق تدمير آلاف الأسر الأمريكية.

إلى متى ؟

النمط الذى ساد فى التسعينات بالولايات المتحدة يسجل مكاسب فى الخارج وانتكاسات فى الداخل: ففى ٤ يوليه ١٩٩١ (يوم الاستقلال الأمريكى) أراد بوش الأب أن يذكر الناس بانتصاراته الباهرة فى حرب الخليج ولكنهم لم يلتفتوا إليه وتخلصوا منه فى أول انتخابات رئاسية. كذلك فعل بوش الابن فى حرب العراق فهل يلقى نفس المصير؟

كان النضال الأمريكى على أشده طوال خمسين سنة فى مواجهة العدو الشيوعى فلما انهار الاتحاد السوفييتى زال الخطر وانطفأت جذوة النضال وانطفأ معه الهدف الوطنى الموحد وبدأت أمريكا تنحل تحت وطأة الحرب الثقافية ونذر الصراع العرقى والطبقى.. فهل كان اختراع فكرة الحرب الطويلة على الإرهاب العالمى وإشغال الأمريكيين بحروب خارجية فى أفغانستان ثم العراق وسيلة لإلهاء الناس عن الصراع الداخلى المدمر؟ وإلى متى يمكن أن تستمر هذه الأكذوبة الكبيرة قبل أن يكتشف الشعب الأمريكى الحقيقة وينتفض عليها ؟ ■

تزامن المبادرة المصرية مع المقاومة العراقية

بقلم
عبدالرحمن شاكر

لم يكن من قبيل المصادفة ، أن يتزامن صدور المبادرة المصرية لتطوير العمل العربى المشترك ، مع تصاعد المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكى ، فكلتا الظاهرتين - على تباينهما - تعبران عن انبعاث الروح من جديد فى الأمة العربية للخروج من حالة التردى التى آلت إليها ، والتى كانت ذروتها - أو حضيضها فى واقع الأمر - هى وقوع العراق فى براثن الاحتلال الأجنبى من جديد ، بعد أن ظن الناس أن عصر احتلال البلدان الأخرى بالقوة العسكرية وخاصة فيما يسمى بالعالم الثالث ، قد انقضى إلى غير رجعة !

لقد جاء احتلال العراق ، من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، وحلفائها ، وخاصة بريطانيا العظمى ، نتيجة لظروف دولية غاية فى التعقيد ، فى مقدمتها أن الولايات المتحدة قد أصبحت هى القوة الدولية الأولى والكبرى الوحيدة فى العالم، بعد انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرين ، وحل الاتحاد السوفييتى الذى كان يقود أحد هذين المعسكرين ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ ، إلى تاريخ انحلاله فى أوائل التسعينات فى القرن الفائت .

ولكن انفراد الولايات المتحدة الأمريكية ، بالصدارة الدولية ، وسعيها إلى فرض هيمنتها على العالم بأسره ، لم يكن هو العامل الوحيد فى وقوع احتلالها للعراق ، بل كان لأوضاع الأمة العربية ، والعراق من بينها ، دخل كبير ، فى وقوع هذا الحدث الجلل ، الذى أصاب العراق ، والأمة العربية فى مجموعها فى الصميم .

أول عناصر السوء فى أوضاع الأمة العربية ، وأخطرها ، كان - ومايزال - هو تمزقها وتفرقها ، وعجزها عن إيجاد صيغة سياسية ، تكفل تماسكها ، وتحقق وحدة إراداتها ، فى مواجهة الأخطار التى تحيط بها من كل جانب ، ومطامع القوى الدولية المحيطة بها فى ثرواتها ، وخاصة البترول ، مما مكن القوى المعادية لها من العبث بها وتلعب بمستقبلها ، على النحو الذى تريد ، والذى يقربها من تحقيق أطماعها فى بلاد العرب .

خذ عندك مثلا الحرب العراقية الإيرانية ، التى دامت قرابة على ثمانى سنوات من ثمانينيات القرن الماضى ، فلو كانت الأمة العرب موحدة آنذاك ، لما مثلت التهديديات الإيرانية وسعيها إلى تصدير مايسمى بالثورة الإسلامية ، أى نوع من الخطر بالنسبة للدول العربية ، بل كانت إيران سوف تبدى قدرا أكبر من الاحترام للأمة التى نزل الدين الإسلامى على نبى منها وبلسانها العربى المبين .

ولقد دفعت الجارتان الإسلاميتان ثمنا باهظا لتلك الحرب العبثية ، مئات الألوف من الضحايا قتلا أو جرحا أو أسرا على كلا الجانبين ، فضلا عن الخسائر الاقتصادية الفادحة ، حيث كان ناتج الثروة البترولية الضخمة عند كلا الدولتين يذهب إلى تجار السلاح الدوليين ، الذين لم يدخروا وسعا فى العمل على إطالة تلك الحرب المجنونة ليستمروا فى جمع الأرباح، ولم يتورعوا عن تزويد كلا الدولتين بأسلحة أو أدوات لصنعها تمكنهم فى المستقبل من اتهامها بحيازة أسلحة دمار شامل كذريعة لاحتلالها كما حدث فى العراق أو التهديد بضربها على الأقل كما يحدث مع إيران !

فلما تداعت الأمور إلى حد إقدام العراق على احتلال الكويت فى عام ١٩٩٠، تبين مدى تفسخ النظام الإقليمى العربى إلى حد العجز عن منع وقوع هذا العدوان أو دفعه بعد أن وقع ، وانفتح الباب واسعا للتدخل العسكرى الأمريكى فى المنطقة باسم تحرير الكويت فى الوقت الذى كان فيه الاتحاد السوفييتى - الصديق الدولى التقليدى للعراق وعدد من الدول العربية - يلفظ أنفاسه الأخيرة كدولة كبرى ويسلم مقاليد الأمور الدولية جليلها وحقيرها للولايات المتحدة الأمريكية.

فقدان الديمقراطية

لم يكن غياب الديمقراطية عن معظم الأنظمة السياسية العربية بدرجات متفاوتة، سببا يقل أهمية عن انعدام التوحد العربى فى الوصول إلى حالة التردى الشنيعة التى آلت إليها الأمة العربية .

إن غياب الديمقراطية لم يكن يعنى تغيب الجماهير العربية عن المشاركة فى

صنع القرار الذى يتعلق به مصيرها فحسب ، بل كان يعنى خضوع تلك الجماهير لوسائل قمعية شديدة القسوة تصل إلى استنزاف طاقات الأمة فى تلك الوسائل القمعية ، وأخيرا وليس أخرا كان الاستبداد الشيطانى المفضوح للنظام العراقى ذريعة أخرى مضافة لإقدام الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها على احتلال العراق ، بدعوى تحرير العراق ذاته وليس الكويت هذه المرة ، من هذا النظام الكريه ، وخاصة بعد افتضاح أمر الدعاوى الكاذبة فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل .

ومرة أخرى بأن عجز النظام الأقليمى العربى عن دفع هذا العدوان الجديد عن العراق ، أو منع شن الحرب عليه ثم احتلاله ، فى الوقت الذى كانت الجماهير الواسعة فى مختلف أرجاء العالم ، وكثير من دولة تعارض هذا العدوان وترفض المشاركة فيها ، أو حتى الموافقة عليه ، خاصة وأن القوى المعتدية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية قد أظهرت استخفافا هائلا ، ليس بالجماهير الساخطة على الحرب فى أرجاء العالم فحسب ، بل فى داخل الولايات المتحدة ذاتها ، واستخفافا أشد بالنظام الدولى وبالأمم المتحدة ، التى زعم المعتدون أنهم قد أقدموا على شن الحرب على العراق ، بدعوى إجباره على تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولى بنزع أسلحة الدمار الشامل التى يملكها أو قيل إنه كذلك ، رغم شهادة المراقبين الدوليين بأن نزعها أو تدميرها قد تم بالفعل !

صحوة لا انتهاء

فى الوقت الذى أرجف فيه المذعورون والانهزاميون وذوو الأغراض السقيمة ، بأن المحنة الحالية للأمة العربية التى توجت بالاحتلال الأمريكى للعراق هى نهاية العروبة - كما بين الدكتور أحمد يوسف أحمد فى مقالة البديع تحت هذا العنوان فى العدد الفائت من الهلال - فإن الشعب العراقى أبى الاستسلام للواقع الكريه المفروض عليه بالقوة العسكرية ، وراح يبذل كل جهد فى مقدوره لمقاومة احتلال القوة الدولية الكبرى لأرضه ، وتصاعدت أعمال المقاومة المسلحة العراقية ضد قوات الاحتلال ، مما أجبر القوات الأمريكية على الاعتراف بصراحة بخسائرها فى «حرب العصابات» هذه كما سماها بعض خبرائها العسكريون ، وراحت الإدارة الأمريكية تستنجد بالدول الأخرى لكى ترسل قوات إلى العراق تشارك القوات الأمريكية فى التصدى لأعمال المقاومة ، وقد رفضت الدول العربية بالإجماع المشاركة فى هذه المهزلة ، ولم تبد استعدادها لإرسال قوات للعراق إلا تحت علم الأمم المتحدة لحفظ النظام فيه ، ريثما تتشكل فيه حكومة وطنية حقيقية تتولى ضبط الأمور داخله بعد انسحاب

قوات الاحتلال المعتدية .

وكان هذا الموقف العربي الحازم هو أوضح تكذيب لادعاء أن الأمة العربية قد وصلت إلى حد الاستسلام الكامل لإرادة أعدائها ، وتمت صياغة هذا الموقف من داخل آلية عمل الجامعة العربية ، التى دعا بعض من ذكرنا من المرجفين إلى حلها إعلانا عن نهاية العروبة كظاهرة سياسية!

ثم جاءت المبادرة المصرية لتطوير عمل جامعة الدول العربية والتى نشرت جريدة الأهرام تفاصيلها في الثامن والعشرين من شهر يوليو المنصرم . وعقب عليها السيد عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية في اليوم التالي لإعلانها على صفحات الأهرام بأن مطلب البرلمان العربي الذى هو أهم بنود تلك المبادرة جاء استجابة لمطالبة الجميع بقيامه على غرار البرلمان الأوروبي .

ومن بين ما تحتويه المبادرة من بنود كثيرة هو إنشاء محكمة العدل العربية لكى يكون حل المشاكل التى تنشأ ما بين دولة عربية وأخرى مثل واقعة احتلال العراق المشئومة للكويت من داخل البيت العربي ، وبآلية العدل العربي ، دون حاجة إلى فتح الأبواب للتدخل الأجنبى الذى لايسعى إلا إلى تحقيق أغراضه الذاتية .

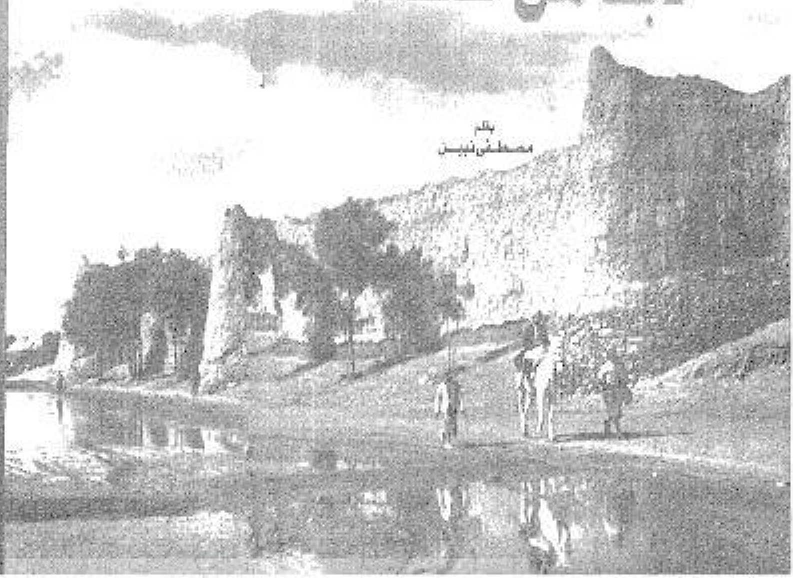
أما البند الخامس من المبادرة وهو الخاص بالبرلمان العربي ، والذى نشارك السيد عمرو موسى في اعتباره أهم بنود المبادرة ، فهو يجسد بصدق صورة مستقبل جديد مأمول للأمة العربية يتم من خلاله توحيد إرادتها السياسية بصورة فعالة ، وفيه يمكن أن يجتمع عقلاء الأمة العربية وخبراؤها في مختلف المجالات لرسم تفاصيل المستقبل الجديد للأمة العربية في زمن الكيانات الكبرى الذى لا مجال فيه لكيان صغير أن يحقق طموحه في التقدم . ومثل هذا البرلمان هو الذى يمكن أن يضع أسس التوحد الاقتصادى والتكامل بين الأقطار العربية ، كذلك تضافر جهودها في تحقيق التقدم العلمى والتكنولوجى والثقافى ، وكذلك في الدفاع عن الكيان الموحد للأمة العربية .

ولاشك في أن إقرار الديموقراطية في مختلف الأقطار العربية سوف يكون شرطا ضروريا لكي يأتى اختيار أعضاء هذا البرلمان معبرا عن إرادة الجماهير العربية وآمالها الواسعة .

ولا يسعنى في النهاية إلا أن أشيد بموقف «الهلال» الذى فتح صفحاته لدعوة الداعين إلى قيام هذا البرلمان منذ عام ١٩٨٣ ، جاء في ذلك الجهد المتواضع في هذا المجال لكاتب هذه السطور ، إيمانا من «الهلال» بدوره التاريخي كمنبر ثقافى للعروبة يحيا بها وتحيا به . ■

لابد من صنعاء

بقلم
مصطفى نبيل



• وصل المهاجر اليمني إلى كارديف ومارسيليا وبروكلين

• طالبات معهد تدريب الكمبيوتر جميعهن منقبات

• إلى أين تتجه اليمن.. إلى مجلس التعاون الخليجي أم إلى شرق أفريقيا..؟!

• أخيرا.. رد الاعتبار للجنبية والقات!

«أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبا، وأرق أفئدة والحكمة يمانية».

هذه رحلة سريعة إلى اليمن السعيد، وتجربة عميقة تستحق أن تتابع، يمتزج فيها الحاضر بالماضي والمستقبل: في منطقة هي الخزان البشري للعرب، وإحدى قلاع القبائل والعشائر..

مازالت مظاهر الفقر والعوز قائمة، في وطن يحمل كل مؤهلات الازدهار والرخاء..

ونجاح تجربته رمز لمعركة التحديث في العالم العربي..

لابد من صنعـــا .. وإن طال السفر ..

مضى ما يزيد على ستة وثلاثين عاما على آخر زيارة قمت بها لصنعاء ، ويمر خلال هذا الشهر واحد وأربعون عاما على ذكرى قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢.

وعلاقتى باليمن قديمة وعميقة حيث ربطتنى علاقات وثيقة بالزعماء من أحرار اليمن ، الذين كانوا يعيشون فى القاهرة لاجئين فى الستينيات ، الأستاذ أحمد النعمان والقاضى الزبيرى والقاضى الايريانى ومحسن العينى وعدد من اليمنيين الأحرار ، وغيرهم من الذين عرفتهم بعد قيام الثورة، محمد نعمان وحمود الجائفى وأحمد المعلمى ومصطفى يعقوب وعمر جادى ، وشاركتهم أحلامهم الخاصة بمستقبل اليمن ، وتوثقت بينى وبينهم العلاقات .

كما تسللت فى مغامرة شيقة إلى جنوب اليمن قبل الاستقلال ، وشاهدت الاحتفالات بجلاء القوات البريطانية ..

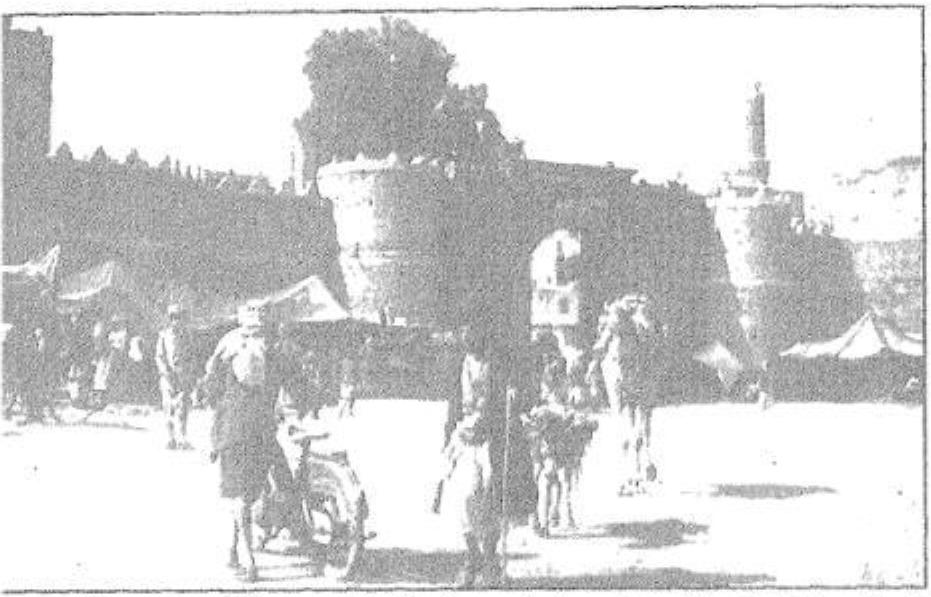
فعرفت وتجولت فى اليمن شماله وجنوبه ، وعشت أحداثه التى هزت العالم العربى .

يوم استيقظ العرب على نبأ أن ثورة اشتعلت فى اليمن ، وأطاحت بعرش الإمام وأعلنت الجمهورية ، وقمت بعدها بالعديد من الزيارات لليمن ..

وجاء هذا الحدث بعد ما قيل إن اليمن تجمدت فى ظل حكم الأئمة، بل وإنها خرجت من التاريخ ، وستظل متحفا لما كانت عليه الحياة فى القرون الوسطى ، وبعد أن ضرب الأئمة الرقم القياسى فى الحكم ، وتعاقب على حكم اليمن ثلاثة وسبعون إماما بعد أن اختلط ما هو سياسى بما هو دينى ، واستمر حكمهم ألفا ومائة عام متصلة، وهو ما يكاد يكون أطول حكم فى التاريخ، كان خلاله أهل صنعاء يعيشون عزلة كاملة خلف سور صنعاء ووراء سبعة أبواب تغلق عند غروب الشمس!

كانت المعلومات عن اليمن نادرة، وقليل من الكتاب الذين نجحوا فى زيارتها ، ورووا بعض الجوانب من حياتها . وأبرز هؤلاء الكتاب أمين الريحانى .. الذى زار اليمن بأمر الإمام فى عشرينيات القرن الماضى، واتسمت معظم الكتابات بقدر من السخرية والمزج بين الطرائف والغرائب . ومما يرويه الريحانى قوله.. «سمعت عن الرهائن ما استغربت واستنكرت وأخذت أكذب ما سمعت ، إلا أن أغرب الأمور هو أقربها إلى الحقيقة، فالإمام يحيى يتقاضى من كل شئ قبيلة ومن كل موظف من موظفى حكومته الكبار رهينة واحدة، تبقى فى حوزته كفالة الاخلاص والاستقامة فى الخدمة، وضمان الصدق والوفاء» .

وتمكن الصحفى جميل عارف من الحصول على إذن دخول اليمن من الإمام شخصيا ، وإن كل ما يتحرك فى اليمن لا يتم إلا بإذن الإمام وبناء على مشيئته ويذكر أنه أول صحفى يصل اليمن سنة ٤٧ ، ولم تكن الكهرباء دخلت ويحكى.. «أخذنى الإمام إلى سرداب تحت القصر ، يحتفظ بمفاتيحه، وفيه عشرات الزكائب



أحد الأسواق الشرقية على جانب من أسوار صنعاء وبواباتها وحصونها الكبيرة

امتلأت بريالات ماريا تريزا» .

وكتب جلال كشك كتاب «روسى وأمريكى فى اليمن» يستعرض فيه الصراع الدولى على اليمن ، بينما الإمام يعيش فى ظل اهتمامات أخرى ! ويصف «استقبال جوقة عسكرية من جنود اليمن الحفاة، فالحفاء يكاد يكون مقصورا على القوات المسلحة..» .

ولعل وصف أمين الريحانى للحياة فى اليمن فى تلخيص دقيق للأوضاع.. «كأنك فى السياحة فى تلك البلاد السعيدة تعود فجأة إلى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى، لا مدارس، لا جرائد ، لا مطابع، لا أدوية، لا أطباء ، لا مستشفيات ، والإمام هو كل شئ.. هو العالم والطبيب والمحامى والفقيه..

أما كتاب «كنت طبيبة فى اليمن» الذى كتبته الطبيبة الفرنسية كلودى فايان وترجمه حسن العينى، فيتميز بالرقة والحس الإنسانى المرهف، والتعاطف مع ما يعانيه أهل اليمن ، وهى تعترف أنها كانت تجهل كل شئ عن اليمن ، ولا تعرف حتى أين توجد ..، وأن اليمنيين قوم طيبون .. وأنها لم تدخل اليمن إلا بعد حصولها على موافقة الإمام شخصيا، وتبين خلال إقامتها أن الحضارة ليست مجرد مدن حديثة، وشوارع معبدة، وسيارات فارهة، ولكنها أيضا المشاعر الإنسانية الرقيقة، والأنفة والكبرياء التى يتمتع بها أهل اليمن .

ونجد أن معظم ما كتب عن اليمن لا يختلف عن الوصف الذى كتبه الرحالة

الايطالى «لودفيك دى فارتيما» الذى تنكر فى زى مملوك وزار اليمن سنة ١٥٠٣م، وأدهشه ماراًى من أسوار صنعاء الكبيرة التى تتسع لسير ثمانية من الخيول، وحصون السور ، كما لاحظ وجود أسواق شرقية كبيرة ، وأن كل ما يجرى يتم بإذن الإمام وتحت رقابته..!

تغيرات وإشارات

لقد تركت اليمن الحديثة كل ذلك الماضى وراء ظهرها وتطلعت للمستقبل وتعاقبت الأحداث ، وتوالت التطورات .

مجتمع يتغير ، وكل يوم هو فى شأن جديد ، يشهد صراعا حادا أحيانا وهادئا أحيانا أخرى بين القوى الحديثة والأخرى التقليدية ، داخل مثلث يتكون من القوات المسلحة والقبائل والقوى الجديدة التى تتكون من الأحزاب والنقابات والجمعيات الأهلية، وهى المعركة التى أشعلتها ثورة سبتمبر فى الشمال وثورة أكتوبر فى الجنوب .

وأمدتنا اليمن فى التاريخ الحديث بأغلى الانتصارات العربية ، عندما جاء استقلال اليمن الجنوبى كبلسم شاف بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، ثم ماوقع بانجاز وحدة شطرى اليمن ، والتى تمت فى ظل انكسار الفكر الوحدوى .

وأخذت تمضى فى طريقها متحملة مصاعب الطريق وآلامه .

وتمكنت اليمن من تخطى الكثير من المشاكل التى ورثتها من نظام الإمامة ، فتم رسم الحدود مع جيرانها والانتهاء من منازعات الحدود مع كل من السعودية وعمان.

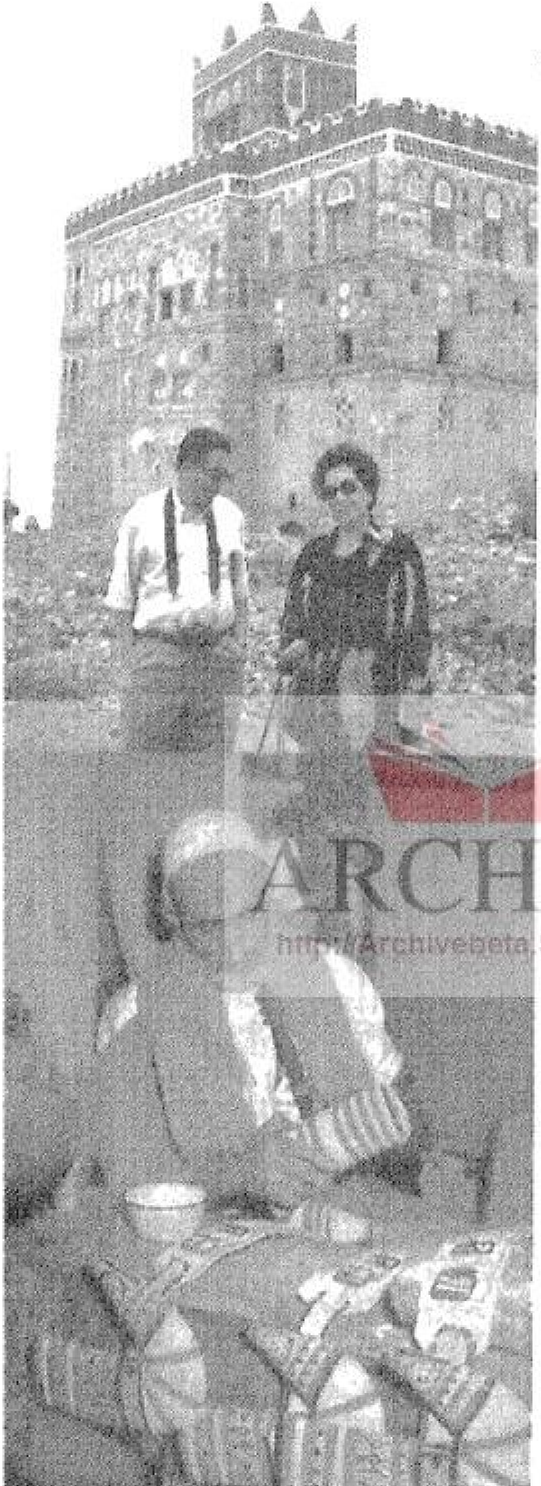
المتحف المسكون

«اليمن» اسم تاريخى لبلاد تقع يمين المتجه إلى الكعبة، ولا تستطيع سوى أن تتوقف طويلا أمام طراز العمارة الإسلامية المميزة، والذى يفصح عن حضارة قديمة تعود إلى آلاف السنين ، وتقف مشدوها أمام الأزياء التقليدية، وأمام العمامة والجنبية ، وتشعر وأنت تتجول فى دروب صنعاء القديمة ، أنك داخل المتحف المسكون .

أتجول فى أزقتها ، وزخات المطر المنعشة التى تسقط فى عز الصيف. متأملا المقابلة بين الماضى والحاضر، بعد أن قامت اليونسكو وعدد من المنظمات الدولية بمشروع الحفاظ على صنعاء بوصفها أحد منجزات الإنسانية وترميم المدينة القديمة ورصف طرقها وإعادة بناء سورها وأحيائها والحفاظ على آثارها . وإدخال المياه والصرف الصحى إلى بيوتها ، وقدمت بذلك نموذجا للحفاظ على المدن التاريخية، التى تتقوض عند إدخال مستحدثات العصر .

جمعت صنعاء ميزات القديم والجديد فى تناغم مذهل ، واحتلت مكانتها كهمزة وصل بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب والتى تقع على ارتفاع سبعة آلاف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر ، وهى أعلى مدن العالم العربى ، تقع فوق جبل نقم ، وتحيطها جبال شاهقة من جميع الجهات .

وعندما تدلف إلى دروب صنعاء من الباب الكبير عند المسجد الجامع، فكأنك انتقلت فى الزمان والمكان معا ، إلى عالم



مصطفى نبيل مع أنعام محمد
على أمام قصر الإمام التاريخى

العمارة المميزة تطلى الأطراف والنوافذ والأبواب باللون الأبيض . والأسـواق والأسوار واللباس المميز، حيث يشاهد المرء ما كان يتصور أنه اندثر ، فى مدينة نادرة شيدها شعب فنان ، ومن المنطقى أن تصبح صنعاء عاصمة ثقافية عربية طوال عام ٢٠٠٤ .

وترى الصانع اليمنى وتخرج من بين يديه الأعمال اليدوية، فيتأكد لك أن اليمن ستحتل مكانتها على خريطة العالم بعد أعوام قليلة إذا تمتعت بحكم رشيد .

فمثلا .. تتشابه أسواقها مع أسواق دبى أو أبوظبى أو الدوحـة ، ولكن هناك فارقا مهما ، أن الصانع الفنان فى أسواق صنعاء هو ابن البلاد ، أما الحرفيون هناك فأغلبهم من الأجانب !

أما الفلاح اليمنى فهو نشيط ومثابر ، لا يترك أى بقعة من الأرض التى يمكن زراعتها دون أن يزرعها مهما تكن صغيرة، وتشهد على ذلك المدرجات وسفوح الجبال الشاهقة وفى الوديان الملتوية العميقة ، وترى القرى فوق قمم الجبال العالية فى جهد بشرى خارق، لذا يمكن لليمن الاكتفاء الذاتى فى المحاصيل الزراعية .

فإذا علمت أيضا - عزيزى القارئ - أن الاكتشافات البترولية تتوالى ، مما سيمكن اليمن من إقامة بنية أساسية تنتقل على طرقاتها إلى عصر جديد .. فهو شعب له طبيعة ذكية ونشيطة ، وها هو النجاح الذى يحققه اليمنى الذى يهاجر إلى أى بقعة من الأرض فى دول شرق أفريقيا ودول الخليج ، بل لقد وصل

الصانع الفنان فى أسواق صنعاء هو ابن البلاد

عدد من اليمنيين إلى مارسيليا الفرنسية وكاردف البريطانية وإلى حى بروكلين فى نيويورك بالولايات المتحدة عندما ضاقت بهم سبل العيش ، كما لعبت هجرة الحضارمة اليمنيين دورا تاريخيا عندما حملوا أفكارهم وبضائعهم إلى شرق آسيا والمحيط الهندى ، ومازالت هناك جاليات يمنية في كل من أندونيسيا وسنغافورة . إنك أمام شعب صانع الحضارة عندما تتاح له الفرصة .

هذا ما مر بخاطرى أمام عبقرية صنعاء العتيقة أما عن صنعاء الجديدة التى تمددت خارج السور متخطية القيود ، وقامت أحياء جديدة وفنادق وأسواق وورش وقصور فخمة فى أحياء يسكنها الأغنياء الجدد، وشقت فيها شوارع متسعة أطلق عليها أرقام تدل على مدى اتساعها ، وهى تحمل معها بعض عوارض العشوائية ، فمازالت تعانى بعض أحيائها من نقص المياه، وإن كانت مازالت تحافظ إلى حد كبير على الطراز المعمارى الطاغى المميز لليمن .

تنامي البيروقراطية

ويبدو أن روشتة العلاج واحدة فى معظم البلدان العربية ، وتشمل هذه الروشتة إقامة مجلس للشورى وأحزاب سياسية والأخذ بقوانين السوق والعمل على جذب الاستثمارات الأجنبية ، سواء كانت تلك المؤسسات أصيلة أم مصطنعة ، وتضمن أيضا تنامى ظاهرة الأمن ، وزيادة سيارات الحراسة أمام وخلف المسئولين والمبانى الحكومية وأيضا السياح .

وهى ظواهر جديدة فى اليمن ، ففى الماضى وفى ظل الثورة ، وعندما كانت الحرب مشتعلة بين الجمهوريين والملكيين، لم نشاهد هذه الكثافة للأمن ، وكانت بساطة المجتمع اليمنى ظاهرة للعيان ، وعندما تذهب للقاء مسئول يتم ذلك دون رسميات أو حواجز أو أية إجراءات بيروقراطية!، أما اليوم فقد تزيدت قوة الجهاز الحكومي وتعددت مظاهر البيروقراطية .

النقاب !

وإذا مضينا فى محاولة رصد التغيرات فى اليمن الحديثة فإننا نجد أن دور المرأة فى المجتمع يتغير، وتراجعت الفتاة اليمنية وعادت للنقاب ، ففى زيارات سابقة إلى عدن ، كانت حركة التحديث تمضى للأمام ، ولاحظت تراجعا شديدا ، ومن شواهد ذلك أنك لا تكاد ترى فتاة دون نقاب ، وإذا كان يمكن فهم ارتداء الحجاب ، إلا أن النقاب وما ينتج عنه من إقامة حاجز بينها وبين قومها ، فهو أمر آخر.

فمع كل مظاهر التحديث من سيارات ومكيفات ، يتراجع وضع المرأة الاجتماعى ، رغم أن القوانين تعطى المرأة حقوقها ، فهى ممثلة فى مجلس الشورى ، وهى وزيرة وهى دبلوماسية، بل وهناك سيدات أعمال يعملن فى السوق ، وهناك جمعية أهلية لسيدات الأعمال ، بل وهناك معهد لتعليم الكمبيوتر كل رواده من الفتيات المنقبات ، مما يؤكد أن التغيير الاجتماعى أصعب بكثير من التغيير المادى ، فليس

بالقوانين وحدها تحصل المرأة على حقوقها ، وفي تراث اليمن ، أنه حكمت اليمن الملكة بلقيس وأروى بنت أحمد .

ولعل تلك الظواهر أحد آثار المواقف الاجتماعية المتباينة بين الشوافع (السنة) سكان السهل ، وبين الزيود (الشيعة) سكان الجبل، والذي يعكس نفسه على العديد من الأوضاع الاجتماعية ، والذي يمسك خيوطه توازن دقيق بين الجنوب والشمال .

القات والجنبية

ومن الملاحظات التي لا يفوت الزائر أن يلحظها اختفاء البقشة وريال ماريا تريزا (النمساوي)، ففي السابق لم تكن لليمنيين ثقة في الأوراق النقدية، لذا يتبادلون ريال ماريا تريزا الذي تتحصر قيمته في وزنه من الفضة.

واليوم استبدلت بالبقشة الريال اليمني..

وفي زيارات سابقة كانت هناك محاولة جادة لمقاومة «القات» باعتباره آفة اجتماعية، فمثلا تحدد في عدن بيعه يومي الخميس والجمعة، وعملت الحكومة على تقليص زراعته، ولكنه عاد من جديد يتصدر الإنتاج الزراعي، ويلتقي في المقايل النخب الحاكمة والمثقفة ، ويزعم الفنانون والشعراء أنه يزيد قدرتهم على العمل، وتجاهل الجميع الدراسات التي أكدت الآثار السلبية الصحية والاقتصادية للقات ، وينفقون في الحصول عليه أكثر مما ينفقون على ملبسهم وطعامهم وشرابهم!

وصاحب ذلك انتشار «الجنبية» أي الخناجر القصيرة المعقوفة والمعلقة في أحزمة، وهي عادة قبلية ، وتحدد هذه الجنبية مكانة حاملها الاجتماعية إذا كانت من الجلد أو الفضة ، ولم يكن يرتديها السياسيون أو المثقفون أما اليوم فيحدث العكس! وهي دليل الرجولة.

ومن الظواهر الايجابية أن المجتمع يعطي لصغار السن المسئولية مبكرا، وكأنهم في عجلة من أمرهم.

ومن صفات الشخصية اليمنية أنها شخصية طيبة ولكنها ذات دهاء كبير، كما يتسم اليمني بالشجاعة فهو لا يهاب الموت.

ويذكر القاضي الزبيري عن الطبيعة اليمنية «إننا نجد تاريخ اليمن إما حضارة مزدهرة وإما انحطاطا وفقرا وكلاما.. فإن أرض اليمن كالآلة الدقيقة المعقدة التركيب، لا يحسن تصميمها وإدارتها إلا من له علم بها، مدرب عليها، وهي كالجواد ولد على ظهره شعب منبثق من وعوره وتعقيدا، تمرس على ترويضه وسياسته وعاش يقظا حذرا جلدا صبورا، عمليا فعالا، لا يعتمد على الغيبيات في حياته العملية ولا على الأوهام لأنه مضطر بحكم واقعه العصي العصيب أن يربط الأسباب بالمسببات، لأنه إذا لم يعتمد على تجربته العملية الواقعية في يومه فسيموت جوعا في غده.

ولابد لازدهار الأرض من الحصول على مستوى رفيع من الجلد والصبر وشدة اليقظة وسعة الحيلة وميراث التجارب الحضارية، وتلك شروط إذا لم تتوافر انقلبت طبيعة الأرض جحيما على أهلها!

وبقى أن أقول إن محاولات اليمن للانضمام إلى مجلس التعاون الخليجي مازالت تلقى صعوبات كبيرة، ولعل ذلك سببه أن مكان اليمن فى الخطط الاستراتيجية الأمريكية أن تصبح جزءا من شرق أفريقيا، وأن تعطى ظهرها لأمتها العربية.

شئ من الذكريات!

وتتوالى الصور عند العودة إلى الذكريات اليمنية القديمة.. كان لقاء د.عبدالرحمن البيضانى مثيرا ومن هنا عندما زرته فى شقته المطلة على النيل فى المنيل، ولفت نظرى وجود كمية من الصور له كتب عليها «نائب رئيس الجمهورية، فى ذات الليلة التى أعلن فيها قيام الثورة.

ووجدته على علم بتفاصيل ما يجرى فى اليمن، وفجأة فتح باب غرفة المكتب وأطل علينا أنور السادات نائب الرئيس أيامها وقال.. «يبدو أنكم تحتاجون المزيد من الوقت فاسمحوا لى بالانصراف..» فأدركت أنى أخذت الكثير من الوقت وسارعت بالاعتذار وإنهاء اللقاء!

وتتوالى الذكريات..

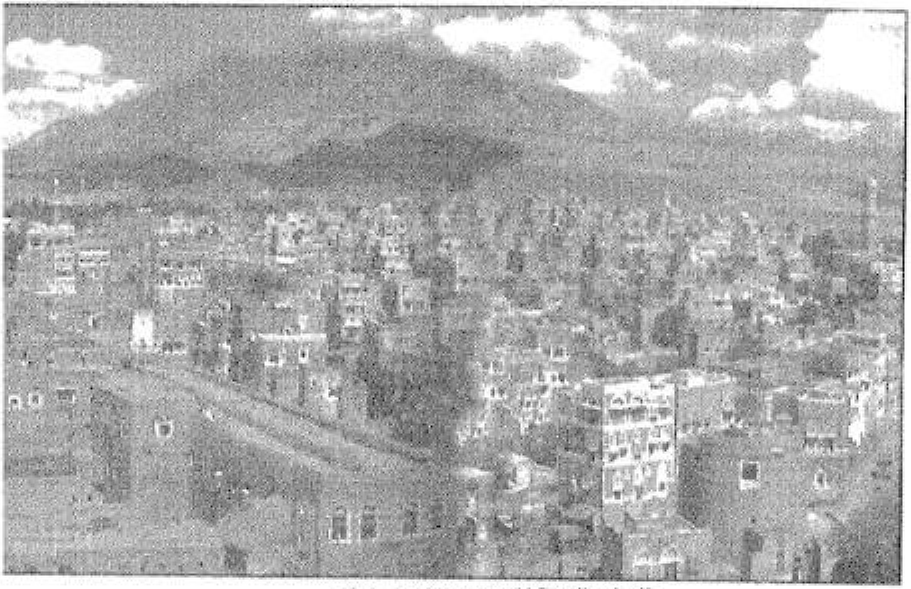
قمت برحلة صحفية فى خريف ٦٧ إلى اليمن شماله وجنوبه وكان هدفى حضور انسحاب القوات البريطانية من الجنوب وانتصار حركة التحرير اليمنية، وعندما وصلت الحديدة فى الشمال كان انسحاب آخر ما تبقى من القوات المصرية ورأيت بعد ذلك انسحاب القوات البريطانية فراعنى الانسحاب المصرى المتعجل والانسحاب المنظم للقوات البريطانية، رغم أن القوات البريطانية قوات احتلال استعمارية بينما القوات المصرية قامت بمهمة جليلة فى حماية الثورة ومساندة القوى التى تعمل لإخراج اليمن من ظلام القرون الوسطى.

وتصور البعض أن انسحاب القوات المصرية سيعيد الإمامة والتخلف إلى اليمن ، وساد رأى آخر يرى أن حكم الإمامة ولى دون رجعة، وأن الشعب اليمنى الذى عانى طويلا من هذا النظام هو الذى يرفضه ولا يسمح له بالعودة ، وأن الثورة اليمنية تعبير أصيل عن اليمن وهى قادرة على الدفاع ضد من يريد القضاء عليها، وأن اليمن شهدت أول محاولة للتغيير والثورة عام ١٩٤٨، ثم تكررت المحاولة أكثر من مرة وتوجت هذه المحاولات بثورة سبتمبر.

حصار السبعين يوما!

ووقع الانقلاب بمجرد انسحاب القوات المصرية، وأطاح برئيس الجمهورية عبدالله السلال، وكان السلال قد سافر إلى مصر والعراق لكى يتفاوض مع قادة هذه الدول حول دعم الجمهورية فى اليمن.

وتولت السلطة حكومة جديدة يرأسها مجلس جمهورى وأصبح محسن العينى رئيسا للوزراء وتنبأ الكثيرون بسقوط الجمهورية واستنفر ذلك قوى الثورة والقوى الفتية التى أنجبتها وبدأت المعركة وكانت قوة الملكيين مكونة من خمسة آلاف جندى نظامى وخمسين ألفا من رجال القبائل بالإضافة إلى الضباط المرتزقة الأوربيين والأمريكيين والإيرانيين بل وانضم إليهم عدد من يهود اليمن ووضعوا



العمارة اليمنية المميزة شيدها شعب فنان

تحت قيادة الضابط البريطاني سمايلى.

وبدأ حصار صنعاء فى أول ديسمبر ٦٧ ، ونجحوا فى إغلاق الطرق المؤدية إليها ، وتم تعيين حسن العمرى رئيسا للوزراء ونجح الأمير محمد حسين فى حشد أكبر قوة نجح الملكيون فى حشدها وأعلن استباحة صنعاء حتى يجذب رجال القبائل ويستميلهم.

وقامت ملحمة حصار السبعين يوما.. وظهرت قوة المقاومة الشعبية كما أرسلت عدن قوات دعم إلى القوة المحاصرة فى صنعاء وتأييدا للجمهورية. وانسحبت القوات المصرية واستطاعت الثورة اليمنية أن تدافع عن نفسها، وأعلن القائد العام أن الدفاع عن صنعاء وعن الجمهورية لن يكون مهمة القوات المسلحة وحدها، بل مهمة كل يمنى، وامتدت قوات المقاومة الشعبية إلى كل شبر فى اليمن، وتحولت اليمن إلى جبهة مقاومة انصهر فيها الجميع.

وفى اليوم الحادى والسبعين كان الحصار قد انقشع، وأسدل الستار على آخر أعلام وأوهام الأئمة، وانتهت عائلة حميد الدين وآخر حكام أسرة حكمت ألف عام. وأكدت ثورة اليمن أنها وجدت لتبقى، وقد تهب عليها الأعاصير ولكنها باقية تشق طريقها، فلن تعود عقارب الساعة إلى الوراء.

وكان بطل الحصار حسن العمرى الرجل القوى وأحد الثوريين ونائب الرئيس السلال السابق.

شاهد على الاستقلال

وتتتابع الصور والذكريات..

فكان استقلال اليمن الجنوبى أول

انتصار عربى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وقد حضرت ولادة هذه الدولة التى أصبحت اليوم جزءا من جمهورية اليمن، كما كانت دائما، فقد جاء رحيل القوات البريطانية من أول المستعمرات التى احتلت فى المنطقة العربية كإحدى نتائج الوجود المصرى فى شمال اليمن. وكان المشروع الاستعمارى يقتضى تفتيت الجنوبية إلى عدة مشيخات كما جرى مع دول الخليج.

فهل يمكن أن تفوتنى فرصة إعلان الاستقلال بعد متابعتى الدائمة للحركة الوطنية فى جنوب اليمن ، وكنت أتردد على مكتب الجنوب العربى التقى فيه بمحمد على الجفرى وشيخان الحبشى وقحطان الشعبى.

ووصلت برحلة مثيرة إلى الشيخ عثمان، وجاء وصولى مع اشتعال الاقتتال بين كل من جبهة التحرير والجبهة القومية، فى محاولة من السلطات البريطانية لجعل الحرب الأهلية بديلا عن حرب التحرير.

وشهدت اختفاء آخر جندى بريطانى، بعد احتلال استمر قرنا وثلث قرن من الزمان واختار سير همفرى تريفيليان المندوب السامى البريطانى للجبهة القومية حتى تبعد احتمالات الوحدة الوطنية، واحتمالات الوحدة بين شطرى اليمن، فالجبهة القومية المعروفة باتجاهاتها اليسارية يصعب عليها أن تحكم مجتمعا تقليديا عشائريا، مما يقيم الحواجز بينها وبين أهلها، وبينها وبين اليمن الشمالى!

ورغم أن القوات البريطانية كانت فى ساعاتها الأخيرة إلا أنها أصرت على إظهار أنيابها وبينما كنا نتجول فى حى كريتر أى «فوهة البركان» أعدت السلطات الاستعمارية البريطانية كمينا للقبض علينا بحجة دخولنا عدن من غير تأشيرة.

وبقينا محتجزين حتى جاء رجل المخابرات البريطانى وتبين أننا صحفيون سبق وحاولنا الحصول على تأشيرة دخول، وأفرج عنا . ومازلت أذكر أن ذلك كان بعد هزيمة يونيو وأن الحراس الانجليز كانوا يضعون يدهم على أحد عيونهم ويقولون «دايان»!

ومازالت صورة جنود الاحتلال وهم يفتشون الأهالى ماثلة فى مدخل كريتر تحت تهديد السلاح عند الممرات الضيقة بين الجبال التى تحيط بالحى.

كما شاهدنا أول حكومة برئاسة قحطان الشعبى ، ويتسلم مجموعة من الشباب المناضل فى مقتبل العمر السلطة بعد ثورة مسلحة استمرت أربع سنوات ورأيتهم وهم يتسلمون قصر الحكم الذى كان مقرا للمندوب السامى البريطانى، فى كرنفال من الأزياء، فالبعض منهم لم يكن يرتدى حذاء فى قدميه ، وبعضهم يرتدى الزى التقليدى والبعض الآخر يرتدى البدلة ورابطة العنق ، وبعضها ليس على مقاسهم. وليس بينهم أحد من أبناء العائلات أو كبار التجار وأغلبهم تظهر أسماؤهم لأول مرة.

ومن المفارقات التى لا يمكن أن تنسى رحلتى إلى بيمان مع المناضل محمد على هيثم، فبيمان ذات موقع استراتيجى جنوب شرق اليمن وهى إحدى البوابات



مصطفى نبيل مع الصحفيين المصريين أثناء استقبال أهالى منطقة شحر بحضرموت لهم بعد استقلال اليمن الجنوبى

التى تصلك بعدن. تقع جنوب شرق اليمن وتطل على المحور الشرقى الذى تقع عنده بلدتا مأرب وحريب وعلى مشارق الربع الخالى وأخر المناطق التى سقطت فى أيدى الثوار.

قضينا ليلتنا فى بيت شريف بيمان السلطان حسين الهبيلى الذى فر هارباً، وهو الذى كان يتلقى ويوزع المساعدات للقوى المعادية للثورة فى جنوب وشمال اليمن، ولأنه خرج على عجل فقد ترك وراءه كمية من الوثائق التى تكشف المرتزقة. وقراءة سريعة تكشف أن العديد من الأسماء التى تعمل فى صفوف الثورة ومن رؤساء القبائل كانوا يتقاضون مرتبات وعطايا من الانجليز ومن الملكين ومن السعوديين. الوثائق منظمة بمعرفة هيير بارسى الضابط السياسى فى عدن، ووارث كل من بالمر فى سيناء ولورنس وفيلبى فى الجزيرة العربية. وهى وثائق تشمل كميات السلاح والعتاد التى قدمت، وقائمة أسماء الخبراء الذين قدمتهم بريطانيا للعمل فى خدمة شريف بيمان، وتوجد أيضا محاضر اجتماعات مقاومة ثورة سبتمبر والثورة فى الجنوب.

وبعد..

هذه رحلة إلى اليمن فى المكان والزمان تؤكد استمرار الصراع وتعدد صوره، فبعضها مستمر ضد التخلف، والبعض الآخر ضد التبعية.

وكما رأينا غيرت الثورة والوحدة موازين القوى فى الجزيرة العربية، ولا يمكن أن ننسى إغلاق باب المندب أمام السفن الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣.

فالطاقات التى تفجرت فى اليمن لا يمكن القضاء عليها. ■

دائرة حوار

طبيعة صامتة



٨٦
الهلال
رجب ١٤٢٤هـ - سبتمبر ٢٠٠٣م

أحمد صبرى

بين المبالغة والحقيقة

بقلم
نذار أحمد صبرى





جاءنا هذا الرد من نزار أحمد صبرى ابن الفنان الكبير أحمد صبرى تعليقا على مقال د . صبرى منصور فى عدد يونية الماضى فى الهلال لتوضيح بعض المعلومات والحقائق عن الفنان الكبير

لقد تساءلت يادكتور صبرى عن سر عدم تفاعل أحمد صبرى مع معالم الحداثة الفنية، وذكرت أنه صنع لنفسه قوقعه أغلقها على ذاته.

للاجابة على هذا السؤال لابد أن نوضح ما هو فن البورتريه ..

فن البورتريه هو فن رسم الصورة الشخصية، وهو فن مصرى أصيل أخذه الغرب عن قدماؤنا المصريون ، وأن اختلف الاستخدام . فالمصريون القدماء استخدموه للأغراض الجنائزية ودفنوه مع الجثث ، أما الغرب أخذوه وزينوا به غرفهم .

إن فن البورتريه هو أصعب فنون التصوير لأنه لا يعطى مجرد الملامح الشخصية للموديل وإنما الفنان يصور انطباعاته عن الشخصية بعد أن يغوص فى أغوارها، فيتمكن المتلقى من التعرف على هذه الشخصية التى صورها الفنان

هل....؟؟ يتخيل أحد أن الحداثة فى فن البورتريه أن أصور وجه امرأة صلعاء ولها عين فى منتصف صلعتها .

هل هذا معنى الحداثة..؟ أم هذا يكون مسخا للجمال الذى خلقه الله سبحانه وتعالى .

ثم لنتعرف على معنى التجديد والتحديث فى فن البورتريه للفنان أحمد صبرى وسوف استخدم لوحة عازفة العود التى عرضتها فى مقدمة موضوعك

● هذا أول بورتريه يرسم من الظهر فى صورة شخصية ، ونجد كيف عالج الفنان أحمد صبرى بحرفية فنية بالغة الدقة وجه الموديل الذى كان فى الظل .

● استخدام الفنان فى تكوين الموضوع لآلة العود وهى آلة موسيقية شرقية وكان من الصعب أن ترى سيدة فى هذا الزمن تعزف على العود .

● خلفية وما تشتمله من رسوم زخرفية تتماشى مع الجو العام لموضوع اللوحة .

● خلفية اللوحة تدل على مدى تأثر الفنان بالبيئة التى نشأ فيها والزخارف الاسلامية المحيطة به أعتقد أنه مما سبق فى قراءة لوحة واحدة استطعنا أن نتعرف على بعض من أسلوب أحمد صبرى فى التجديد والتطوير والتحديث فى البورتريه .

وإذا نظرنا وتفحصنا باقى أعمال أحمد صبرى سنجد أن وضع الجلوس لا يتكرر فى بورتريهات أحمد صبرى أليس هذا تجديد وتحديث وتطوير مما سبق يتضح أن أحمد صبرى لم يتقوقع على نفسه .

لقد عاصر أحمد صبرى أثناء وجوده فى فرنسا مرحلة التمرد التى أفرزت بعض الاتجاهات الفنية ويقول أحمد صبرى عن تلك التحولات والمذاهب التى استحدثت .

«ورحت أتأمل هذه الاتجاهات الحديثة وتلك الأعمال بحيطة كبيرة .. ولا أكذب عليك .. أنى لم أبلعها .. وشاهدت فى تلك الأعمال هروبا من البحث وراء القيم الحقيقية العميقة فى الفن » .

أما التساؤل الثانى يادكتور وعلاقة أحمد صبرى بدعوى الصحوة الثقافية التى واكبت ثورة ١٩١٩، وعدم وجود أعمال أو أى إشارات أو تضمينات تراثية أو ملامح مصرية شعبية فى فن أحمد صبرى .

إن أحمد صبرى لم يكن فى وقت من الأوقات فنانا يرسم الملامح التراثية، ولم يكن يرسم من خياله بل كان يكون



استرخاء ذات الرداء الأزرق

الموضوع الذى يتخيله سواء كان لموديل ليرسم البورتريه أو تكوينات الطبيعة الصامتة أو يختار الزاوية المناسبة فى صياغة المنظر الطبيعى .

لو دققنا النظر فى اللوحات المعروضة فى المعرض كنت ستجد لوحة للمرحوم ويصا واصف، وللعلم فإن ويصا واصف هو أحد رفقاء الزعيم سعد زغلول، كذلك كنت ستجد اسكتشين ألوان مائية للسيدة سيزا نبراوى وهى إحدى رائدات العمل النسائى المصرى ... إنى أؤكد لك أن أحمد صبرى كان أول من تفاعل مع ثورة ١٩١٩ وقد صور بورتريه لرفيقى الزعيم سعد زغلول أثناء وجود الوفد فى فرنسا وكما صور ويصا واصف حمد الباسل .

إن تفاعل أحمد صبرى لم يقتصر على ثورة ١٩١٩ والدليل على ذلك البورتريه الذى رسمه أحمد صبرى للأديب الكبير الأستاذ العقاد ... ألا تعلم أن الملابس التى يرتديها العقاد فى هذه اللوحة هى نفس الملابس التى كان يرتديها أثناء محبسه السياسى ... وقد أراد أحمدصبرى من تسجيل هذا الحدث أن يبرز اعتراضه على السلطة الظالمة التى أمرت بحبس العقاد .

إن الأديب الكبير العقاد وكلنا يعلم مدى اعتزازه الشديد بنفسه لو لم يكن يتفق مع أحمد صبرى فى الرؤية لما سمح له أن يرسمه بهذه الملابس . أما بالنسبة لأعمال أحمد صبرى التى تشمل الملامح المصرية الشعبية .. ألم تسمع عن لوحات لأحمد صبرى تسمى بائعة الجوافة، بعد الصلاة .. عم سرور .. أمومة .

أماتعليقك بلوحات غريبة على أسلوب الفنان والادعاء بأن هناك لوحات مستواها أدنى بكثير من مستوى فنان قدير .

أنما أقول لك أنه الفارق بين اللوحة الفنية والاسكتش .

إن فلاحة بقسط اللبن ، وسيدة بالملاية والبرقع فى واقع الأمر ضمن الاسكتشات الملونة وليست لوحات .

أما عدم معرفتك لاستخدام أحمد صبرى لخامة الجواش فمرجعه إلى أنه عندما توفى أحمد صبرى ١٩٥٥ كان سنك ١٢ عاما وعندما صرت فى مرحلة الصبا والشباب كان متحف الفن الحديث الذى كان كائنا فى شارع قصر النيل قد هدم وشونت الأعمال فى فيلا فينى بالدقى فلم تتمكن من رؤية أعمال أحمد صبرى وليس قبل ١٩٨٩ عندما افتتح المتحف الحالى وهو يضم بعض من أعمال أحمد صبرى وليس كلها .

قد تكون حاولت معرفة فن أحمد صبرى من خلال إطلاعك على الكتب التى كتبت عن أحمد صبرى ، ولكنها كانت بالأبيض والأسود ... ستجد اسكتش السيدة بالملاية والبرقع فى صفحة (١١١) فى كتاب أعلام الفنانين العرب أحمد صبرى بقلم الاستاذ مصطفى الجمال عن دار النهضة العربية، ومكتوب تحت الصورة بالألوان المائية وطبعا أنت عارف أن ألوان الجواش ضمن مجموعة الألوان المائية ...

بالمناسبة يا دكتور أنت لم تقم بزيارة المعرض لأنك لو كنت زرت لكنت رأيت استخدامات متعددة فى لوحات أو اسكتشات ملونة بألوان الجواش اعتبار من سنة ١٩٢٢ .

أما نقدك للوحة ورد بلدى بالألوان المائية فإنه يجافى الحقيقة لأنها لوحة فنية قيمة ذات مستوى عالى جدا ، أما بالنسبة للمطالعة على الشيزلونج فهذا استكش وعلى الرغم من وجوده ضمن الكتالوج إلا أنه لم يعرض بالمعرض.

على فكرة يادكتور أن رسمه بالفحم لفلاحة جالسة فهذا الاسكتش يشابه اسكتش الأمومة المنوه عنه فى كتاب أحمد صبرى الذى ألفه الاستاذ محمد صدقى الجباخنجى عن الدار المصرية للتأليف والترجمة، وقد أورد المؤلف « وفيها نلاحظ اهتمامه بالتكوين الهرمى الشكل وتوزيع الأضواء والظلال » وهو ما ينطبق على اسكتش الفلاحة الجالسة

أما تعليقك بأن هذه الأعمال أرخت فى أوائل الثلاثينات ... فهذا يدل على أنك تتشكك فى التوقيعات الممهورة بها اللوحات والاسكتشات..!!

وبصفتى المسئول عن تراث والدى أؤكد أن هذه التوقيعات أصلية وبخط الفنان العظيم أحمد صبرى ، وأنا لا أسمح بأن تنضم أى لوحة أو استكش ليست من عمل الفنان أحمد صبرى .

لو كنت زرت المعرض يادكتور .... لكنت علمت أن لوحة ويصا واصف قد محا الزمن جزءا من توقيع أحمد صبرى ولا اسمح لأحد بأن يقوم باعادة رسم توقيع الفنان لأن خطوط أحمد صبرى ولمسات فرشاته يمكن التعرف عليها حتى لو كانت بدون توقيع .

كذلك كنت ستقرأ بعض خواطر أحمد صبرى ومأثوراته كما كنت ستشاهد أدواته وبعض مقتنياته التى صورها فى أعماله المعروضة كذلك كنت ستتعرف على التواريخ الحقيقية التى أخطأت أنت فى تسجيلها عن أحمد صبرى .

إن أحمد صبرى التحق بمدرسة الفنون الجميلة سنة ١٩١٠ وتخرج منها سنة ١٩١٤ وكان أول بعثته وسافر إلى باريس على نفقته الخاصة سنة ١٩١٩ فور اعلان الهدنة وتقابل مع الزعيم سعد



منظر طبيعى

زغلول والوفد المرافق له ورسم بورتريه بالفحم لـ ويصا واصف كما رسم بورتريه لـ حمد الباسل وعاد إلى مصر فى أواخر سنة ١٩٢١ .

ثم سافر إلى فرنسا فى بعثة على نفقة وزارة الأشغال فى سنة ١٩٢٢ لدراسة فن الزخرفة ودرسها حتى سنة ١٩٢٥ ثم امتدت بعثته على نفقة وزارة المعارف العمومية من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٢٩ وقد نال الميدالية الذهبية فى معرض الفنون بنانت سنة ١٩٢٦ ونال نفس الجائزة فى معرض سنة ١٩٢٧ .

وقد تمكن أحمد صبرى من أن يعرض لوحته بعد القراءة فى صالون باريس الدولى سنة ١٩٢٦ ويتقدم للعرض فى هذا الصالون ما يقرب من أربعة عشر ألف فنان من مختلف أنحاء العالم يقبل منهم ما يقرب من أربعة آلاف لوحة التى يجيزها هيئة المحكمين التى يبلغ عددهم ستون محكما من كبار فنانى العالم .

ثم تلى ذلك اشتراكه فى صالون باريس سنة ١٩٢٩ ونالت تحفته الرائعة تفكير (الراهبة) جائزة الشرف وبذلك يكون أحمد صبرى هو الرسام المصرى الوحيد الذى نال جائزة من أكبر معرض للفنون فى العالم .

عاد أحمد صبرى سنة ١٩٢٩ إلى مصر ومعه لوحة الراهبة بعد أن رفض بيعها فى فرنسا وعين مدرسا بمدرسة الفنون الجميلة منذ عودته .

تقدم أحمد صبرى بفكرة انشاء الدراسة الحرة إلى د . طه حسين عندما كان مراقبا عاما للفنون الجميلة واقتنع بالفكرة فأنشئت الدراسة الحرة وأسندت رئاستها إلى صاحب فكرتها الفنان أحمد صبرى وكان ذلك سنة ١٩٤٢ .

وفى سنة ١٩٤٦ تولى رئاسة القسم النظامى الى جانب رئاسته للقسم الحر



ويصا واصف



عم سرور

وأحيل إلى المعاش فى سنة ١٩٤٩ ومدت خدمته إلى نهاية سنة ١٩٥١ وأصيب بالشلل فى الخامس من مارس سنة ١٩٥٥ نتيجة جلطة بالمخ وفاضت روحه إلى بارئها فى الثامن من مارس سنة ١٩٥٥ .

وبالمناسبة فإن أحمد صبرى لم يصب بالعمى ولكن بعد العملية التى أجريت له فى يناير سنة ١٩٥٤ حاول أن يعاود الرسم ثانية لكن نظره لم يسعفه فتوقف عن الرسم وقد عرضت فى المعرض آخر محاولات أحمد صبرى .

لقد كان أولى بك يادكتور أن تشكر وزارة الثقافة على تبنيها لهذا المعرض الذى كان الغرض الأول منه تعريف الجمهور من العامة والمتخصصين بفن علم من أعلام الفن المصرى وإحياء لذكرى فنان عظيم أثرى الوجدان بفنه المتقن ورفع اسم مصر فى المحافل الدولية.

ويسعدنى أن أتقدم من خلال صفحات مجلة الهلال إلى السيد وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى لتفضله بافتتاح معرض الفنان أحمد صبرى ورعايته له والذى أمر باسترجاع لوحة الراهبة من الخارج بعد غياب طال أكثر من أربعين سنة .

كما أتقدم بعظيم شكرى للاستاذ الدكتور أحمد نوار الذى وافق على إقامة المعرض فى قاعة العروض المتحفية قاعة أفق واحد .

ولا يفوتنى أن أتقدم بتحية إعزاز للفنان محسن شعلان مدير عام المتاحف لسعيه لإقامة هذا المعرض.

كما أشكر كل من ساهم فى إحياء ذكرى فنان مصر العظيم الذى أفنى حياته فى سبيل فنه ورفعة شأنه . ■

لغويات

العقد: جمعه والنسب إليه

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

العقد فى اللغة مصدر عَقَد الحبل ونحوه جعل فيه عقدة وعقد البيع أو اليمين أو العهد: أحكمه وشده وأكده.

والعقد فى باب العدد اسم للعشرة ومضاعفاتها: عشرين وثلاثين.. إلى التسعين ودلالاتها لا تختلف عن دلالة غيرها من ألفاظ العدد، فهى تدل على مقدار المعدود ومبلغه.

وترد ألفاظ العقود فى كتابات المعاصرين على ألوان شتى، بعضها له نظائر داعمة فى التراث وبعضها يأتى فيها على قلة، وبعضها من مستحدثات المعاصرين ويمكن إجمالها فى:

● يدلون بلفظ العقد على الواحد، كما هو دال على الجمع فيقولون:

الوزير العشرون أى الوزير الذى موقعه فى الترتيب يلى التاسع عشر والأصل أن يقال: الوزراء العشرون أى أن مجموع الوزارة عشرون وزيرا، ففى المثال الأول دل اللفظ على واحد، وفى الثانى دل على جمع.

● يلزمونها الياء دائما، مهما كان موقعها من الإعراب مع أن ألفاظ العقود ملحقة عند أغلب النحويين بجمع المذكر السالم ويسرى عليها حكمه فى الإعراب بالواو رفعا وبالياء نصبا جرا يقولون: مر عيد الثورة الخمسينى ووقعت الحرب السبعينية وهى فى المثال الأول مجرورة وفى الثانى مرفوعة وكلاهما لزم الياء.

● أنهم ينسبون إليها على وضعها فيقولون: الأربعينى والستينى، والأصل عند نسبة الجمع، أن ترد الكلمة إلى مفردها ثم ينسب إليها، فيقال: الأربعى والستى والسبعى.

● أنهم يجمعونها جمع مؤنث سالما فيقولون: السبعينات والأربعينات ونحو ذلك مع أنها ملحقة بجمع المذكر السالم وهذا الجمع وما ألحق به لا يجمع جمع تأنيث.

● أنهم يريدون بجمع لفظ العقد الدلالة على المعطوف عليه من العدد فإذا قالوا حدث هذا فى الخمسينات كان مرادهم الأعداد المعطوفة على الخمسين، من الواحد إلى التاسع، أى حدث هذا فى غضون العقد السادس من السنين.

وقد عرض مجمع اللغة العربية لهذه الظواهر اللغوية المعاصرة، ودارت حولها مناقشات شارك فيها أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ عطية الصوالحى عضو المجمع، والمرحوم محمد شوقى أمين، الخبير بالمجمع حينئذ وعضو المجمع فيما بعد، وانتهى فيها إلى عدة قرارات وافق عليها مؤتمر المجمع العام.

للبحث بقية
■

دائرة حوار

المثقفون وتجديد الخطاب (النفاقى)!

بقلم
صافى ناز كاظم

● كلمة «المثقفون» كلمة من كلمات خداع الرمال المتحركة، ذلك لأنها صارت فى «الوقائع الرسمية» من ألقاب الوجاهة التى توزع بالمجاملات مثل لقب: يا «حاج». وهى كذلك مسحوبة على مجموعة من عشاق الذات يتزينون بها ويزينون أصدقاءهم ومعارفهم بالحق والكذب. ولعل هذا ما يجعل المشهد «الثقافى» ملتبس الرؤية وعديم الفائدة، فلا نستطيع أن نعرف منه أبسط الأمور مثل: من هم حقا «رموز» الأمة الثقافية، ومن هم حقا «روادها» و«شهداء الدفاع» عن قيمها. قد نوافق أن نجيب محفوظ من أهم كتاب الرواية العربية، لكنه ليس صحيحا أنه الروائى الأوحد فى التميز حتى لا نقرأ أو نسمع عن أحد غيره، اللهم إلا لأنه مازال على قيد الحياة يسير - بحفظ الله - نحو عامة الثانى والتسعين غير أن هذه الحقيقة ليست ميزة فى ذاتها بحيث تجعله محور كل المواويل والملاحم فى المؤتمرات والمهرجانات والجوائز والحوليات. وقد نوافق - حتما أوافق - على إعلاء ذكر النضال الثقافى للأستاذ الدكتور طه حسين لكنه ليس الوحيد الذى فصلته الجامعة فقال وعاند ورفع رأسه. بل إن طه حسين قام بفصل الدكاترة زكى مبارك - من نفس الجامعة التى فصلوه هو منها - حتى قال زكى مبارك وهو مهدد بالجوع: «سأشوى لحم طه حسين وأطعمه أطفالى!». وعندما ينفش «المثقفون» أنوفهم فى مؤتمر لوزارة الثقافة، ليدغدغوا أشواقنا للحرية والرأى وخلافه، ويطالبون بالإفصاح عن «المسكوت عنه»، ليس بالضرورة أن يفهم كل المستمعين الغرض المطلوب فى نية القائمين على إعداد المؤتمر، وهو فى ملخصه طلب مشروعية سب الدين وإتاحته بكامل البنود الديمقراطية ولعن السائرين على نهجه ووصمهم بكل مفردات القائمة الأمريكية لمحاربة الإسلام، فقد يجد الكثير فى كلمة «المسكوت عنه» الرغبة فى التساؤل مثلاً: أين مقام المفكر والمثقف العملاق سيد قطب فى تقديراتكم وأين ذكره فى «خطابكم الثقافى» القديم والجديد والمستقبلى؟ - أم من الواجب أن أقول «الماضوى» وفى «التناص» مع «الحداثة»؟ - لكن الذى لديه الرغبة فى الحديث عن «سيد قطب» المثقف، غلطان فى الذهاب، بداية، إلى مثل هذه المؤتمرات و«مسكوتاتها».

فى ٢ أغسطس عام ١٩٥١ نشر سيد قطب كلمة له فى جريدة «الاشتراكية» تحت عنوان «شعب عظيم» قال فيها :

«نحن نظلم هذا الشعب العظيم ونتجنى عليه حين نتهمه بأنه شعب ميت أو جامد أو ذليل لأنه لا يتحرك فى هذه الأيام ليبطش بالطغاة والمستهترين والمستغلين. لأنه يقبل هذه الأوضاع السيئة التى لايقبلها الآدميون، لأن الخسف والعسف ينزلان به كل يوم، بل كل لحظة وهو ساكن مستسلم. لأن حقوقه القومية وحقوقه الإنسانية وكرامته الآدمية تداس كل يوم، بل فى كل لحظة، فلا يغضب ولا يثور. لأن غيره من الشعوب يتملص ويتخلص أو يضرب ضربة هنا وضربة هناك تدل على أنه حى. ولكن هذا الشعب قد خابت ظنونه فى الرجال! لقد شهد زعماءه يخونونه ويخونون كل مبادئ الشرف والاستقامة طوال ثلاثين عاما أو تزيد ... لقد شهدهم يبدأون حياتهم مكافحين فقراء، ويختمونها إقطاعيين أثرياء. لقد شهدهم يبدأون حياتهم فى شقة للإيجار ويختمونها وهم أصحاب ضياع وقصور. لقد شهد كلمات التضحية والجهاد تنقلب معانيها إلى السمسرة والارتزاق والاتجار فى السوق السوداء. لقد شهد الشرفاء يستحيلون لصوصا ومرتشين وقوادين، لأن هذا هو أقرب الطرق للثراء.

وقبل أن يولد فى هذا الشعب زعماء يولدون فقراء، ويموتون فقراء. قبل أن يتساقط على أرضه شهداء لا يطلبون منه ثمن الشهادة. قبل أن يصمد جيل من هؤلاء المكافحين على الشظف والحرمان والأذى والبلاء. قبل أن يحس الشعب أن هنالك مجاهدين لا تسندهم أقلام المخابرات، ولا تسندهم السفارات، بل لاتسندهم هيئات ولا أحزاب، لأن كل فرد من هيئاتهم وأحزابهم مجاهد لا يسنده إلا الإيمان... قبل أن يتم ذلك لن تعود للشعب ثقته فى نفسه ولا فى زعمائه ولا فى أهدافه. لن يستجيب لدعوة ولن يستجيب لرجل. فطالما خدعته الدعوات وطالما خانه الرجال. فمن شاء أن يدعو هذا الشعب إلى تضحيات جديدة فليكن هو نفسه الضحية الأولى، فليعرض عنقه للمشنقة وصدره للرصاص دون تلعثم أو تحرج. فليتقدم صراحة لمواجهة قوى الشر والطغيان فى غير تحفظ ولا تخوف ولا احتراس، وليثق أن الشعب يومها لن يتركه وحيداً.»

★ ★ ★

بعد ١٥ سنة و١٨ يوما من نشر هذه الكلمة، قدم سيد قطب عنقه للمشنقة من دون تلعثم أو تحرج فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٦ . لم يكن قاتله هو الملك فاروق، الذى نشر سيد قطب فى ظل نظامه الفاسد كلمته هذه العذبة النارية، لكن قاتله كان ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ التى فرح بها وقال عن رجالها يوم قاموا متمثلا الآية الكريمة من سورة الكهف "**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**" !
سبحان الله!

الغباء ظاهرة تتزايد فى العالم

بقلم
هديل غنيم

كتب الأستاذ جميل مطر فى عدد يوليو من مجلة الهلال مقالاً شائقاً عن «الغباء»، يتسائل فيه عن أسباب شيوع الغباء بين البشر وازدياده فى الآونة الأخيرة بالذات.
وبقدر ما يحتويه المقال من أقوال ونظريات طريفة عن الغباء للمشاهير من العلماء والفلاسفة، بقدر ما يثير القلق من تلك الظاهرة التى نادراً ما يلتفت الكثيرون إلى خطورتها. فهل الأغبياء بالفعل مصدر خطورة على المجتمع كما يحذرنا الأستاذ جميل مطر؟

ظل السؤال معلقاً، إلى أن وجدت أمامى رواية «الغبى» للكاتب الفذ فتحى غانم. وظهر من الصفحات الأولى للكتاب أن موضوع الغباء قد أثار فضوله واهتمامه إلى أقصى حد، لدرجة أنه يصف كتابه فى أكثر من موضوع بأنه ليس مجرد رواية، بل بحث طويل عن الغباء مبنى على وقائع وحقائق دقيقة. يقول فتحى غانم فى صدر روايته، أن دراسته لشخصية «محمود» أو «الغبى» بطل الرواية، جعلته يحب الغباء من بعض نواحيه.

وبالفعل تنجح هذه الرواية الفريدة فى أن تجعلنا ننظر إلى «الغباء» نظرة مختلفة. فمحمود الغبى الذى لا يفهم وإنما يحفظ المعلومات لكى يرددها مثل الببغاء، يفعل ذلك لأنه يرفض أن يتأثر بمعلومات مفروضة عليه، معلومات لم يخترها هو. لذلك فهو يعلق المعلومات فى رأسه كما نعلق الملابس على المشجب. أى أن عدم الفهم هنا هو نوع من المقاومة ورفض الاستسلام. وعندما تعرض محمود لاختبار ذكاء وهو مازال فى روضة الأطفال، جاء فى التقرير أن الولد متأخر الفهم وضعيف الملاحظة. بينما يفسر لنا المؤلف المشهد من موقف الغبى، فنجد أن مشكلة «الغبى» فى أنه لاحظ الكثير . فبدلاً من أن يقوم بترتيب بعض الحجارة الملونة على طاولة خبير التربية ليبرهن على ذكائه وقوة ملاحظته، أخذ

يلاحظ أنف الممتحن، ولسانه، ورقبته، وذلك الشيء الذى يتحرك فيها، وأصابع الناظرة، والبساط الأخضر فى الغرفة، ولم يمد يده أو يذعن لطلب الممتحن.

ومن ناحية أخرى وضع الكاتب مواهب وقدرات غريبة فى شخصية هذا «الغبى»، فنجده يقدر الجماد والحيوانات والحشرات تقديراً خاصاً ويرمى عليهم السلام كلما مر بهم. وهو لا يخاف الحيوانات المفترسة أو الثعابين، وخلال الرواية يقدم على تصرفات تتصف بشجاعة ليست مألوفة بين الأذكياء.

وقد أعادتنى شخصية «محمود» فى رواية «الغبى» إلى شخصية «الأمير ميشكين» بطل رواية «الأبله» لدستوفسكى. هنا أيضاً نحن أمام إنسان مختلف. إلا أن مشكلة الأمير أو الأبله تكمن فى مثاليته المفرطة ، وتحليه بالأخلاق المسيحية فى أنقى صورها . فهو عطوف ومحب ومحسن وصبور ومتسامح . ولكنه فى علاقاته بغيره من البشر يضر بنفسه ويضر بالآخرين ممن يحبهم، وهو لا يفهم ولا يلاحظ حين يسخر منه أحد الأشخاص، ولا يستطيع أن يدرك التصرفات الخبيثة من حوله، بالرغم من أنه يمتلك قدرة خارقة على النفاذ إلى أرواح وأعماق الشخصيات التى يراها ، فيدرك جوهرها ويكتشف جوانب ضعفها ومخاوفها الدفينة مما يزيده تعاطفاً وتسامحاً مع تلك الشخصيات التى تترصده بالشر.

وعلى الرغم من روعة هذه الأعمال الأدبية ونجاحها فى تصوير سمات سيكولوجية وعقلية يعجز العلماء عن التعبير عنها، فقد قررت الابتعاد قليلاً عن خيال الأدباء ومعانيهم المركبة، حيث إن الروايات قد تحتمل أكثر من تأويل وأكثر من مستوى. وانتقلت إلى المعاجم وقواميس البلاغة العربية لكى أبحث عن تعريف أقل سيولة وأكثر تحديداً للغباء، وأعرف الفرق بين الغبى والأبله والبليد والأحمق، ربما أتوصل إلى أيهم أشد خطورة على المجتمع.

غير أننى وجدت أن قواميس اللغة العربية تؤيد نظرة الأدباء الشاعرية للبلهاء. ففى محيط «الأبله هو الغافل عن الشر أو الأحمق الذى لا تتمييز له والحسن الخلق، والقليل الفطنة لداق الأمور». وفى مختار الصحاح فإن الأبله هو «الذى غلبت عليه سلامة الصدر». بل ويضيف المختار أن هناك حديثاً نبوياً يقول «أكثر أهل الجنة البله» مفسراً: «يعنى البله فى أمر الدنيا لقلة اهتمامهم بها». أما الغبى فهو «قليل الفطنة والجاهل». بينما الحمق هو «قلة العقل». أما عن البلادة، ففى المحيط أن الجمل أو الحمار إذا كان لا ينشطه تحريك فهو بليد . وبلد الرجل أى فتر طبعه من الابتهاج إلى المحاسن العقلية، وضد ذكاء وفطن، والبلادة ضد الذكاء.

خطر الحمق والبلادة

وحسب هذه التعريفات، فإننا لا يجب أن نخشى البلهاء الطيبين، وربما لهذا شاع فى الثقافة الشعبية حب المجانيب واعتبارهم مصدراً للبركة. ولكن مما لاشك فيه أن «قلة العقل» أو الحمق مصدر الخطر، بينما البلادة هى مصدر التخلف والجمود

الحضاري. وقد ذكر الأستاذ جميل مطر في مقاله أن لكل نصيبه من الغباء. وهو ما يؤكده الدكتور روبرت سترنبرج أستاذ العلوم النفسية والسلوكية والذى تخصص فى دراسة الحماقة. فهو مؤمن بأن الأفعال الغبية تصدر عن الأذكياء. وهو يعتبر أن الغباء ليس نقيضاً للذكاء وإنما نقيضاً للحكمة. ويرى سترنبرج أن شخصيات تتسم بالذكاء الشديد مثل الرئيس نكسون أو الرئيس كلينتون تتورط فى أفعال تتسم بالغباء، يرجع إلى نوع من «قلة العقل» الذى ينتاب الأشخاص حين يسيطر عليهم الغرور أو الطمع. إذن فالأخلاق الفاسدة تفسد التفكير المنطقى.

وفى نفس الاتجاه جاء كتاب «الذكاء العاطفى» للدكتور دانييل جولمان ليحدث ثورة فى النظرة التقليدية لأهمية الذكاء العقلى. صدر الكتاب عام ١٩٩٥ (ونشرت ترجمته العربية فى سلسلة عالم المعرفة). ومنذ ذلك الحين شاعت نظرية جولمان التى قللت من شأن الذكاء المنطقى الذى يقاس بمقياس (IQ) لتعطى أهمية أكبر للذكاء العاطفى الذى يتمثل فى الوعى بالذات والقدرة على الشعور بالآخرين، والقدرة على التحكم وضبط الانفعالات، وتنظيم الحالة النفسية، وحث النفس فى مواجهة الإحباطات، والقدرة على تأجيل الإشباع، والحفاظ على التفاؤل.

وكان من شأن الشهرة التى اكتسبتها نظرية جولمان فى الذكاء العاطفى، أن بدأت بعض الجامعات المختلفة تعيد النظر فى جدوى الامتحانات التى تجرى حسب مقياس (IQ) والأهمية التى تعلقها على الدرجات التى يحرزها الطالب فيها. والمعروف أن هذا المقياس وضعه العالم الفرنسى ألفريد بينيه فى أوائل القرن العشرين وجرى تطويره فى الولايات المتحدة، وتعتمد عليه بعض امتحانات القبول فى نظام التعليم الأمريكى، وكذلك فى الجيش الأمريكى والعديد من الشركات والمنشآت الاقتصادية التى تختبر قدرات المتقدمين فى الوظائف المختلفة.

وجاء جولمان ليثبت أن هذه الاختبارات تشتمل على نظرة ضيقة جداً للذكاء، وأن الذكاء العاطفى هو المؤشر الأهم لاستمرار نجاح الشخص سواء فى حياته العملية أو حياته العائلية. مثال ذلك دراسة أجريت على مجموعة من ٨٠ طالباً من طلبة الدكتوراة فى العلوم فى الخمسينيات، حيث تعرضوا لاختبارات نفسية واختبارات الذكاء (IQ) وبعد مرور أربعين سنة تم تتبعهم وقد بلغ معظمهم أوائل السبعينيات من أعمارهم. فكشفت المقارنة أن هؤلاء الذين حققوا مراكز علمية واجتماعية ومرتفعة هم الذى أحرزوا درجات أكبر فى الامتحانات النفسية، وأن أهمية القدرات الاجتماعية والعاطفية بلغت أربع أضعاف أهمية مقياس الذكاء (IQ).

واتضح من ذلك أن الجوانب المعرفية فى العقل مثل الذاكرة والقدرة على حل المشكلات التى ركز عليها العلماء فى السابق لا تكفى لكى يتأقلم الإنسان مع الحياة ويحرز النجاح فى العمل. وهذا بالضبط ما توصل إليه فتحى غانم فى رواية الغبى. فقد وصل محمود بغبائه الذى لاشك فيه إلى منصب وكيل وزارة وعاش حياة أسرية

مستقرة.

الذكاء العاطفي

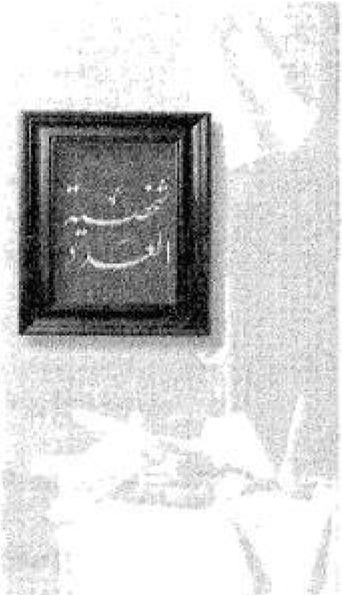
وقد استفاد جولمان من المفاهيم والدراسات التي شاعت في الثمانينات حول «الذكاء المتعدد» والذكاء الاجتماعي» حتى تم صك تعبير «الذكاء العاطفي» عام ١٩٩٠ على يد سالوفين ومايز. ويؤكد جولمان أن أمراضاً وشروراً كثيرة نعاني منها في المجتمع تكمن جذورها في «الغباء العاطفي». فهو الذي يؤدي إلى التصرفات التي تتسم بالأنانية والعنف وعدم التقدير للآخرين، وبالتالي فإن له آثاراً تدميرية على المجتمع. ويعتقد جولمان أن المجتمع سيتحسن كثيراً إذا تعلمنا ضبط عواطفنا وانفعالاتنا لنزاوج بين التفكير والإحساس.

وفي التراث اليوناني القديم، تقول الأسطورة أن أحد الآلهة استحوذ على «قوة العقل» ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً أمام «الغضب» و«الشهوة»، مما يعني أن الغباء العاطفي أكثر خطورة وإيذاءً للمجتمع من الغباء العقلي أو المنطقي. ومن الملفت أيضاً أن المصريين القدماء اعتقدوا أن القلب هو مركز كل من الذكاء والعاطفة.

وفي هذا الخصوص يقول جولمان في كتابه أن لدينا في الحقيقة عقلين، عقل يفكر، وعقل يشعر. وهما يمثلان طريقتين مختلفتين للمعرفة. طريقة العقل المنطقي وطريقة العقل العاطفي. ويضيف جولمان أن هذا التقسيم الثنائي إلى عاطفي ومنطقي يقترب من التمييز الشائع بين العقل والقلب. فالمعرفة بالقلب، والكلام لجولمان - نوع من المعرفة أعمق من اليقين.

وقد أعادتني هذه الملاحظة من جولمان إلى التعريفات التي وجدتها في معاجم اللغة العربية، وذلك لأنها تربط الذكاء والفهم بالقلب وليس بالعقل كما تعودنا أن نربط في ثقافتنا المعاصرة. فقد عرف مختار الصحاح الذكاء بأنه «حدة القلب». بل إن استخدام كلمة القلب للإشارة إلى العقل مجاز أصيل في اللغة العربية، وتؤكد آيات القرآن الكريم على هذا، إذ يقول تعالى عن الضالين : «لهم قلوب لا يفقهون بها» وكذلك «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها». فمن الواضح أن في ذلك حكمة أعمق من مجرد المجاز اللفظي .

الجدير بالذكر أن أحد نقادنا ومفكرينا البارزين قد سبق جولمان ومايز بعدة سنوات في صك تعبير «الذكاء العاطفي». فقد كتب الراحل سلامة موسى فصلاً في كتاب «هؤلاء علموني» عنوان : دستوفسكي وذكاء العاطفة. فقد لاحظ سلامة موسى أن قصص دستوفسكي التي تشع بالإيمان تتسم بالإحساس والذكاء معاً، ووصفها بأنها إحساس فوق الذكاء وخيال فوق العقل، حتى انه يقول بأن دستوفسكي يمثل بالنسبة للإنسانية «عبقرية الإحساس». ويدافع سلامة موسى عن هذا الإفراط في الحنان وجمال الخيال قائلاً «انه حتى إذا تسبب في مناقضة العقل والمنطق فإنما كما كان يناقضه غاندي وتولستوي». أي أن الأبطال الذين يخدمون الإنسانية يدفعهم ذكاء القلب الذي قد يناقض ذكاء المخ . ■



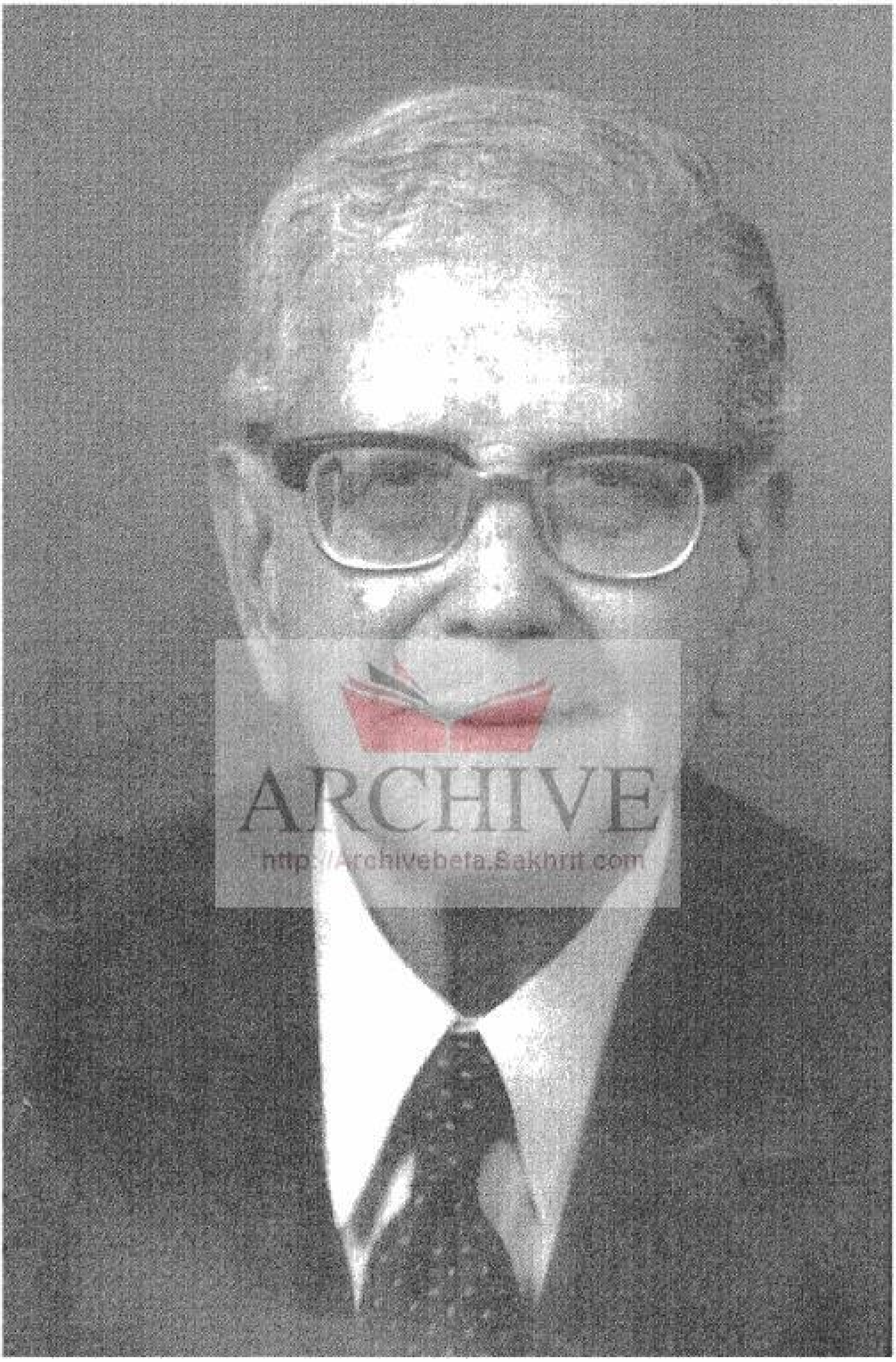
الاستاذ الدكتور

محمود حافظ

لا يوجد قسم يفوق قسمه في اكتمال أدواته !!

بقلم
د. محمد الجوادى

محمود حافظ هو العمود الفقرى لخيمة العلم المصرى المعاصر، ونحن ندرك قيمة العمود الفقرى لأى كيان وإن كنا لا نحيط بالحدود التى تظللها خيمة العلم المصرى على نحو مايحيط هو بها ، ومحمود حافظ هو الرمز السامق للعطاء فى مصر المعاصرة ، أنعم الله به على بلاده ليكون نموذجا يقتدى به، ومنارا عاليا يهتدى إليه طيلة حقبة الزمن الممتدة التى شهدت تأسيس المدرسة العلمية الوطنية الحديثة وظهورها ونموها وتفرعها وانتشارها وتكاثرها، وقد ظل طوال هذه المراحل فى مكانة متقدمة جدا من ضمير أمته ووجدان علمائها، وقد أهله لهذه المكانة تصوفه العميق من أجلها، فلا نعرف جميعا بين أعلامنا من وهب حياته كلها مضاعفة ومكثفة ومركزة زمانا ومكانا للمدرسة العلمية الوطنية فى مجال تخصصه .





ولاشك فى أن هناك عـوامل كـثـيـرة قـد أعـانتـه على هذه الصوفية النادرة، فقد وهبه الله نفسا راضية سامية، وعقلية ناقدة رائدة، كما أنعم عليه بالهيام بشخصه ممن عرفوه فى أربعة أجيال هى أجيال السابقين عليه والمعاصرين له واللاحقين به وتابعى اللاحقين، اقول هياما ولا أقول وجدا ولا حبا ولا احتراما فحسب، ذلك أن محمود حافظ هو الشخص النادر الذى حظى ولا يزال يحظى بالاجماع، وهو النادر أيضا فى أنه حظى بالإجماع على شخصه فى مجموعه من ناحية، وعلى جميع مافيه من ناحية أخرى، وكلنا يعرف إلى أى مدى نعتقد جميعا فى ألمعيته ونسلم له بالقيادة ونمضى وراءه ونحن مطمئنون الى أننا سننال الصواب والحكمة والانجاز.

● ساعد على مضاعفة انجازاته انه استعذب التصوف من اجل العلم

رائد علم الحشرات

محمود حافظ هو بلا جدال رائد علم الحشرات فى مصر، توسم فيه أستاذاه على مشرفة وحسن شاكر أفلاطون الألمعية المبكرة فاجتبياه لهذه المهمة النبيلة، وقد كان عالمنا عند حسن الظن به بل ربما أتيح له أن ينجز مالم يكن بخاطره أن ينجزه فى بداية حياته وفى عنفوان شبابه، ومالم يكن أستاذاه يتوقعانه منه، وقد ساعده على مضاعفة إنجازه أنه استعذب التصوف من أجل العلم واستلذ به فإذا بالتصوف يعطيه الفرصة من حيث لا يدرى لتحقيق ذاته وليؤكدها وليفرض بصماتها على كل ركن فى حياتنا العلمية، وقد قدر له أن يؤسس ويطور مدارس متعددة لعلم الحشرات لا فى كليته وحدها وانما فى كل موقع علمى له علاقة من قريب او من بعيد بعلم الحشرات، وإليه - على سبيل المثال - يرجع الفضل فى تأسيس قسم الحشرات فى المركز القومى للبحوث، وفى مؤسسة الطاقة الذرية، والمركز الاقليمى للنظائر المشعة، ومعهد بحوث الحشرات فى وزارة الصحة، فضلا عن أقسام الحشرات فى كليات العلوم فى كل الجامعات المصرية وما

يتصل بها من دراسات فى الكليات الجامعية الأخرى كالزراعة والطب، والطب البيطرى .

متحف وقسم للحشرات

وليس هناك فى جامعاتنا المصرية كلها قسم يفوق قسم الحشرات فى جامعة القاهرة من حيث اكتمال ادواته المعمارية والبحثية والمتحفية، وقد تسلم الدكتور محمود حافظ راية هذا القسم من أستاذه العظيم أفلاطون فأبدع فى صياغة مملكة هذا القسم بداية من المشاركة فى الرسم الهندسى له والاشراف على التنفيذ ثم فى استغلال المبنى على نحو رائع للعرض المتحفي العلمي الخالد على مدى الأعوام، ومن الإنصاف أن نشير فى سرعة الى عظمة واكتمال المجموعة المتحفية (التى يضمها هذا القسم/ المتحف) للحشرات فى بيئاتها المختلفة مع التأصيل والتوصيف العلمى الدقيق لكل من هذه المعروضات، كما أن صالات العرض الذى يضمها تتفوق على كل صالات العرض الجامعية والعلمية والمتحفية في اى معهد مماثل بل انها تصل فى رحابتها وتنظيمها وقدرتها على أداء الغرض العلمى النبيل إلى مستوى قاعات اللوفر ومتحف التاريخ الطبيعي وذلك بفضل مثابرة دائبة وتميز نادر فى توظيف الفنون والذوق من أجل العلم والتعليم .

وبالاضافة الى هذا الانجاز الضخم فى تخصصه الدقيق فإن محمود حافظ علم فرد بين المهتمين بتاريخ العلم وفلسفته، وبين المسئولين عن الإدارة العلمية والجامعية، وبين رواد البحث العلمى والنشر العلمى كذلك، كما انه القطب البارز فى الجهود التطوعية والأهلية وغير الحكومية فى العلم وفى غير العلم، وهو علم خفاق فى العمل النقابى، وهو صاحب الصوت المسموع فى المجالس القومية المتخصصة، والمجالس العلمية المتعاقبة، وهو شيخ من الشيوخ الذين يعول على آرائهم ويعتمد على أفكارهم فى اللغة العلمية وفى المصطلحات وفى تنقيحها وتوحيدها .

راعي البحث العلمي

وقد كان اداؤه فى كل هذه المجالات متميزا الى حد معجز، فهو نموذج عبقرى لانصهار خلقين نادرين يبدوان متناقضين، فهو الأستاذ الدقيق



والحنون فى الوقت نفسـه، وقد ظل يأخذ تلاميذه بشـدة يبطنها الحنو وهى خاصة ليس لها مثيل لأنها شدة موضوعية متسامية تحرص على أن تعود هؤلاء التجويد الرفيع فى الشكل والمضمون، وهو يحتضنهم الى حد لا يدع فرصة لأى مؤثر خارجى ان ينفذ إليهم بعيدا عن العلم والبحث العلمى، وهو يكاد يدفعهم دفعا الى الترهبن وكأن مكتبه ومدرسته ومعمله ومكتبته بل بيته تشكل مع بعضها دارا للرهبنة لا يخرج منها الباحث الذى دخلها الا وهو عالم قوى وباحث متميز فى الوقت نفسـه. وهو فى أستاذيته حـريص كل الحـرص على الشكل والمضـمـون فى الوقت ذاته، وحريص كل الحرص على تنمية مهارات تلاميذه وقدراتهم حتى فيما يبدو بعيدا عن مجال العلم، ويكفى على سبيل المثال أن نتأمل تعويده لهؤلاء التلاميذ على ألا يقدموا بروفات بحوثهم إلا مطبوعة وكأنها جاهزة للنشر، وكان يفعل هذا فى وقت مبكر جدا. كما يكفى على سبيل المثال فهمه لقيمة إتاحة الصورة والعلم على الجدران فى أعظم متحف حائطى على جدران قسم الحشرات، إضافة إلى المتحف الضخم الذى لا نظير له الذى يقوم قسم الحشرات ومكاتبه ومعامله من حوله فى مبنى فريد متميز ينطق من داخله بعظمة هذا الرجل ودأبه وحبه لعلمه ، وتفانيه فى البحث العلمى.

● مدرسته العلمية يستحيل تزييفها حتى يمكن ان نطلق عليها انها نموذج للعلامة الاصلية

صاحب مدرسة علمية

ومع أنه درس فى كمبردج فإنه فى عظمة أدائه العلمى يفوق كمبردج، ومدرسته العلمية هى ابرز نموذج لما يسمى فى المنتجات التكنولوجية بالعلامة الأصلية التى يستحيل تزييفها أو الانتساب إليها فى تسرع أو بمجرد الرغبة، ومع أنه كان يعنى عناية فائقة بمستوى تلاميذه، فإنه قد استطاع مع الدأب الجميل والعمر النبيل أن ينمو بمدرسته إلى حدود قصوى لم يتمكن أحد ممن سبقه إليها ولا إلى اللحاق به فى مستواها وفى عدد أبنائها .

وقد ظل منذ أكثر من ثلث قرن من الزمان بمثابة الملاذ الآمن

الذى يلجأ إليه العلماء من أجل قيادته الحكيمة لحركتهم العلمية، وقد هدته الحكمة الإلهية الموهوبة من الله إلى أن يدرك الوسائل الذكية والطرائق الناجعة الكفيلة بالحفاظ للعلميين على مكانتهم وعلى حقوقهم في مجتمع بدأ يلهث لهثا شديداً وراء المادة ووراء الإعلام الصاخب، وقد تمكن بفضل شخصيته وتاريخه من أن يحفظ للعلماء والبحث العلمي فى العلوم مكانته السامقة فى الجامعة الأم والجامعات الأخرى، و فى أكاديمية البحث العلمى، وفى كل المؤسسات الأخرى المعنية بالعلوم

حكمة التجربة وبلاغة الحديث

وهو كاتب دقيق، رائع الألفاظ والمعاني، وهو يفعل هذا حتى فيما يظنه الآخرون روتينا، وأنت تقرأ له فتحس بأنك ترتقى بنفسك إلى آفاق صوفية من آفاق العلم العليا، وتستطيع أن تفهم مما يكتب أبعادا لم تفهمها من قبل فيما قرأت، بل فيما درست وظننت نفسك أستاذا فيه .

وهو إلى كل هذا، خطيب رائع يأخذ بمجامع القلوب، هادئ الصوت، عميق النبرة، تحس وأنت تستمع إليه أنك تستمع إلى عالم جليل من علماء القرون الوسطى الذين جمعوا الحكمة والفلسفة مع العلم والأدب، وهو قبل كل هذا رئيس رائع ملتزم بالموعد لا فى البدايات وحدها ولكن فى النهايات أيضا، وهو من هذه الناحية قادر على أن يجعل لكل اجتماع أو حفل يرأسه نهاية محددة بحيث ينتهى الاجتماع أو الحفل أو الإنجاز بالقدر الكامل من الوقار الذى بدأ به، وهو من أجل هذا يتحمل الظروف القاسية والطارئة، ويعيد توظيف المعطيات ليخرج بأفضل النتائج دون أن يشعر أحد بالمعاناة التى بذلها من أجل تحقيق الإنجاز .

وهو على الدوام أينما سار وأينما جلس محوط أو مصحوب بأفذاذ الرجال والسيدات من علمائنا، كما أنه مصون فى قلوبهم وعقولهم إلى حد لا يبارى فيه ولا يصل إليه غيره

وهو بالنسبة اليّ مثل أعلى طيلة أكثر من ربع قرن حمانى الله بوجوده وبمعرفته وبعطفه وتوجيهه وتشجيعه من الاحباط واليأس والقنوط والغرور والكبر والشرود على حد سواء .

■

الفيلسوف الروحانى الناسك الذى سبق عصره

أوريجينوس المصرى

فيلسوف المسيحية الأول

كتب ألف كتاب

لماذا أدين أوريجينوس واضطهد بقرار كنسى؟

بقلم

د. فكرى اندراوس

كنتكت - الولايات المتحدة

عالم وفيلسوف سابق لعصره كتب ما بين ستمائة وألف كتاب ووضع أسس التفسير الرمزى للكتاب المقدس . كان متبحرا فى الفلسفة اليونانية واستخدمها فى تفسيراته . ولد ذلك المعجزة بالإسكندرية سنة ١٨٥م ، رأس مدرسة اللاهوت وعمره ثمانى عشرة سنة ، توفى سنة ٢٥٤ بمدينة صور بلبنان الحالية تاركا ثروة ثقافية تفوق الخيال . أثناء حياته وبعد وفاته صدرت ضده قرارات كنسية بالهرطقة والإدانة سنة ٢٣١ ثم سنة ٤٠٠ ومرة أخرى سنة ٥٥٣ .



شيدت الكنيسة المرقصية بالإسكندرية فى القرن الأول الميلادى

وقد أدانه أيضا الإمبراطور الرومانى جوستين Justin-ian سنة ٥٤٣ . وفى تلك الفترة التحمت الكنيسة بالدولة وأصبح وجود خلاف كنسى يهدد وحدة الإمبراطورية . منذ ذلك الوقت أصبحت قراءة أعمال أوروجينوس محرمة وكان الإحتفاظ بها عملا غير شرعى ودمرت أغلب أعماله الأصلية . ولكن من حسن الحظ حفظت بعض أعماله وهى تلك التى ترجمت إلى اللاتينية أو التى وجدت طريقها فى كتابات آخرين .

إن علماء اللاهوت والتاريخ المعاصرين يعيدون اكتشاف أعمال ذلك الفيلسوف . وإن كان هذا الاكتشاف مصحوبا ببعض الجدل إلا أنه مصحوب أيضا بكثير من الإعجاب والاحترام . وابتداء من سنة ١٩٧٢ تعقد مؤتمرات دورية عن أعماله وآخر مؤتمر منها عقد سنة ١٩٩٦ وقد إشترك فيه ٥٦ عالما من جامعات الغرب المختلفة ونشرت أعماله في كتاب يضم ٨٣٣ صفحة وفي مكتبة جامعة ييل Yale والتي إستخدمتها في تحضير هذا المقال يوجد ٨٥١ مرجعا عن ذلك الفيلسوف المصري الذي لا نعرف عنه إلا أقل القليل.

***

وقبل الدخول في موضوع هذا الفيلسوف المصري ، لابد من وقفة قصيرة حول دخول المسيحية لمصر وعن بداية مدرسة الإسكندرية للاهوت وهي أول مدرسة من نوعها في العالم المسيحي والتي ساهمت إلى حد كبير في تشكيل المسيحية حتى سنة ٤٥١ حين انفصلت الكنيسة المصرية وبعض الكنائس الشرقية عن باقي كنائس الإمبراطورية الرومانية احتفاظا بشخصيتها القومية .

دخلت المسيحية مصر عن طريق الإسكندرية على يد القديس مرقص سنة ٤٢م ، وهو أول بطريرك مصري عن سلسلة لم تنقطع من البطاركة آخرها الأنبا شنودة الثالث والبطريرك الحالي . وقد كتب القديس مرقص الإنجيل الذي يحمل اسمه في مدينة الإسكندرية وهو أحد الأناجيل الأربعة التي تمثل العهد الجديد في الكتاب المقدس .

ويعتقد البعض أن بداية مدرسة الإسكندرية تعود إلى زمن القديس مرقص إلا أنه لايوجد دليل على ذلك . وأغلب الظن أنها قد بدأت في وقت مبكر بداية بسيطة بهدف تعليم المسيحية لراغبي الانضمام إليها . وكانت المسيحية قد بدأت في الانتشار في أوساط البسطاء . وكانت هناك أوجه تشابه بين المسيحية وديانة مصر القديمة وخصوصا الثالوث إيزيس وأوزيرس وحورس .

وكانت الإسكندرية في ذلك الزمان أكبر مركز ثقافي في العالم وكانت تكتظ بالمثقفين والفلاسفة . وكان لابد لرواد المسيحية أن يتكلموا لغة ذلك العصر حتى يتمكنوا من التحاور مع هؤلاء المثقفين والفلاسفة الذين حارب بعضهم هذا الدين الجديد . ولم يمض وقت طويل على مدرسة اللاهوت حتى تطورت وأصبحت قادرة على هذا الحوار وكانت المدرسة سعيدة الحظ بروادها الأوائل بداية من أواخر القرن الثاني . وقد أنجبت المدرسة العديد من علماء اللاهوت والفلاسفة بل والعلماء . فكان أوروجينوس (Origen) وقبله كليمنتص (Clements) وبعده ديديموس الضرير (Didymus) والذي إخترع طريقة تمكن العميان من القراءة وهي تشبه طريقة بريل (Braile) وإن سبقته بحوالي ١٥٠٠ سنة . وغير هؤلاء كثيرين آخرين .

وأول رئيس ذاعت شهرته لمدرسة

اللاهوت هو بنتينوس (Pantaenus) حوالى سنة ١٨٠م . وكان بتنينوس ذا علم بالفلسفة اليونانية وفى عهده أصبحت المدرسة أكثر تنظيما ويعد من أوائل من كتبوا باللغة القبطية وهى اللغة المصرية القديمة الديموطيقية مكتوبة بحروف يونانية بعد إضافة سبعة حروف إليها وقد استخدمت اللغة القبطية لترجمة الإنجيل . ولم يستمر بتنينوس فى رئاسة المدرسة لأكثر من عشرة سنين حيث كلفه البطريرك المصرى سنة ١٩٠م بمهمة فى الهند ترك على أثرها المدرسة فى رئاسة تلميذه النابغة كليمنتص الأسكندرى .

حضر كليمنتص للأسكندرية من أثينا وكان قد درس الفلسفة اليونانية بفروعها المختلفة . إعتنق المسيحية فى الاسكندرية وتتملذ على أيدى أستاذه بتنينوس . ويعد أول من طوع المدرسة لدراسة الفلسفة اليونانية كمدخل لمخاطبة أهل الأسكندرية المثقفين وقد إحترم العلم والثقافة كثيرا فقال أن الجهل أسوأ من الخطيئة . كتب ثلاثة مراجع رئيسية معروفة وإن كان قد كتب أيضا عن الثقافة المعاصرة والآداب العامة وكان أستاذ أوروجينوس الذى أدى إلى إتهامه بالهرطقة وتدمير الكثير من كتاباته . رأس المدرسة منذ حوالى سنة ١٩٠م وحتى سنة ٢٠٢ حين أضطر لترك الأسكندرية نتيجة الاضطهاد الشديد . وقد خلفه فى ظروف صعبة تلميذه أوروجينوس وكان عمره ثمانية عشرة عاما.

ولد أوروجينوس بمدينة الأسكندرية واسمه مشتق من اسم حورس أو أورس وكان والده ليندوس (Leonides) مثقف وصاحب مكتبة ذاخرة وقد ربى ابنه تربية مزدوجة بين علوم ذلك الزمان وبين الدين المسيحى . منذ الصغر درس أوروجينوس الفلسفة اليونانية وكان يلتهم العلوم التهاما . كان ذلك الوقت وقت اضطهاد شديد للمسيحيين حيث كثر عددهم وأصبح ولاؤهم للدولة مشكوك فيه فعذبوا واستشهد منهم الكثير ومن ضمنهم والد أوروجينوس والذى صودرت أيضا ممتلكاته ، والغريب أن أوروجينوس شجع والده على الاستشهاد بل وكتب كتابا فى وقت لاحق عن الاستشهاد .

أصبح أوروجينوس في سن صغيرة مسئولا عن والدته وستة أخوة مما اضطره إلى بيع مكتبة والده واقتات من تدريس قواعد اللغة وكان أيضا منتظما فى مدرسة اللاهوت وتتلمذ على أيدى أستاذه كليمنتص والذى لاحظ موهبته الفذة فى تحصيل العلم وقدرته العالية على التفكير المستقل . واشترك فى التدريس بالمدرسة فى سن مبكرة . وعندما اضطر كليمنتص لترك الاسكندرية خلفه أوروجينوس سنة ٢٠٢ .

ترك كليمنتص بصماته على المدرسة أما أوروجينوس فقد انطلق بها إلى الأمام فأصبحت المدرسة تدرس بخلاف علوم اللاهوت الرياضة والطبيعة والفلك والموسيقى . وقد دفعت الاسكندرية ومدارسها بثقافتها الرائدة مدرسة اللاهوت للتقدم ولم يكن من العسير بعد

أن ارتفع مستواها اجتذاب بعض المثقفين والفلاسفة للمسيحية ، ومع أن أوروجينوس كان رئيس للمدرسة إلا أنه كان دائبا على تحصيل العلم فكان يحضر محاضرات أمونيوس صاحب مدرسة الافلاطونية الحديثة وكان أمونيوس مسيحيا إلا أنه تركها للفلسفة ولم يمنع ذلك أوروجينوس من سماع محاضراته التى تأثر بها ولم يعتبر الفلسفة مناهضة للمسيحية بل إنه قال إن أفلاطون أقرب الفلاسفة للمسيحية لأنه صديق الحقيقة .

أصبحت مدرسة اللاهوت في عهده ذات شهرة واسعة في العالم القديم . وكان هناك احتياجات كثيرة لأوروجينوس خارج مصر فسافر لروما وأثينا وفلسطين والقسطنطينية والعربية وغيرها وأصبح بعض الأساقفة داخل مصر وخارجها من تلاميذه وكانوا جميعا يفخرون بذلك . ورغم تلك الشهرة الواسعة إلا أنه كان إنسانا شديد التقشف والزهد فغالبا ما كان يسير حافي القدمين رث الثياب . وقد كان لذلك تأثير مباشر على الرهبنة المصرية رائدة الرهبنة في المسيحية .

كانت الكتابة تنساب من قلمه كنهر متدفق وقد تبناه أحد المقتدرين فعين له سكرتارية من سبعة أشخاص بالإضافة لعدد من الناسخين ، وقد أصبحت تلك المجموعة بمثابة دار نشر صغيرة ومتخصصة .

وكتابات أوروجينوس يصعب حصرها ، وإن كان هذا أيضا خارج نطاق هذا المقال إلا أنه لابد من إعطاء القارىء فكرة مبسطة جدا عن بعض كتاباته المهمة . لقد كتب ما يعرف باسم السداسية Hiexapla وهو أول محاولة قامت على مستوى علمي في دراسة نصوص العهد القديم (التوراة) وشملت السداسية ستة أعمدة متوازية للنص العبرى القديم والنص العبرى بحروف يونانية والترجمة السبعينية (ترجمها (٧٠) سبعون حاخاما في مدينة الاسكندرية) وثلاثة نصوص يونانية مختلفة . بالإضافة إلى أنه فسر الكثير من العهد القديم تفسيرا رمزيا ولم تك التفسيرات للعامة بل كانت للخاصة المتعلمة والمثقفة حتى لا يساء فهمها .

ويعد هذا العمل الضخم من أهم أعماله وقد كرس أغلب حياته لتلك الترجمة . وقد استغرق ذلك ٢٨ سنة وقد كتبت في موسوعة من ٥٠ كتاب .

وتشمل بعض أعماله الأخرى الكثير من التعليقات والتفاسير فمثلا كتب خمسة عشر كتابا عن انجيل مرقص وخمسة وعشرين كتابا عن انجيل متى واثنين وثلاثين كتاب عن انجيل يوحنا وأربعة كتب عن انجيل لوقا . هذا بالإضافة إلى كتاب عن المبادىء ومجلد عن «في البدء كانت الكلمة» وكتاب عن تعاليم أفلاطون وآخر عن الصلاة وحوالي مائة خطاب مطول خلاف العديد من الردود المطولة على الفلاسفة المعادين للمسيحية وكتب أخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا .

وتفسيرات أوروجينوس في غاية الأهمية لأنها بالإضافة إلى التفسير الحرفي البسيط فإنه استخدم التفسير

الرمـــزى والروحـــانى وهذا النوع من التفسير وليد الفلسفة اليونانية . ولا اعتقد أن الدخول فى مجال التفسير الرمزى مناسب لهذا المقال إلا أنه هناك مثال مناسب نستطيع أن نفهمه بسهولة وهو إسرائيل والمسيح . تقول نبوءات التوراة أن المسيح سوف يأتى ليحرر المأسورين ولإعادة بناء مدينة الله وليقيم مملكة أرضية تحكم العالم كله . وهذا هو التفسير الحرفى أيضا لتلك النبوءات وبناء على ذلك رفضت رسالة المسيح من بعض اليهود لأنه لم يطرد الرومان ولم يحرر اليهود . ويرى أوروجينوس أن أول المخطئين فى تفسير التوراة هم اليهود لتمسكهم بالتفسير الحرفى ورفضهم رسالة المسيح الذى جاء برسالة سلام ، رسالة لتحرير النفس البشرية وليس لتحرير من استعمار رومانى أو غيره .

وإن كان التفسير الرمزى يفتح المجال لتطوير مفهوم الدين إلا أنه سيف ذو حدين حيث قد يختلف البعض مع أى تفسير لكتاب مقدس إلا أن بعض العلماء المعاصرين يعتبرون أن تفسيرات أوروجينوس الرمزية تشبه الفن التجريدى حيث يرى فيه الإنسان ما يريد أن يرى وهذا يناسب التفسير المتطور والمعاصر للمسيحية . ولكن هذا قد لايناسب بعض الكنائس التقليدية والمحافظة .

المضايقات والحرمان الكنسى

من الصعب تحليل شخصية أوروجينوس تلك . والشخصية التى بلغت هذا التفوق لابد أن تثير الحب والكراهية معا . وكما سنرى أن أغلب متاعب أوروجينوس كانت نتيجة الضعف البشرى . وسأتحدث هنا ببعض التفصيل عما حدث له خلال حياته أو بعد وفاته حيث أن رواد تطوير مفهوم الدين (ليس فى المسيحية فقط) ما زالوا يلاقون الكثير من التعسف والاضطهاد .

ابتدأت متاعب أوروجينوس فى الاسكندرية حيث كان البطريرك المصرى ديمتريوس (٢٣١ - ١٨٩) غير سعيد بتلك الشهرة الواسعة التى نالها أوروجينوس . فأمره بالعودة من بعض رحلاته لأنه وعظ فى وجود رتب كهنوتية ولم يكن هو ذا رتبة كهنوتية ! لبى أوروجينوس طلب البطريرك وانكب على التدريس والكتابة . وفى إحدى سفرياته اللاحقة لليونان عرج على انطاكية وكان أسقف قيصرية أحد تلاميذه وكان على علم بمضايقة البطريرك المصرى له ولم يرق للأسقف أن يكون أوروجينوس بلا رتبة كهنوتية فرسمه كاهنا حوالى سنة ٢٣١ فغضب البطريرك المصرى واعتبر الرسامة باطلة وأدان أوروجينوس بقرار كنسى وقد أيد بابا روما هذه الإدانة . لم يكن لتلك الادانة تأثير كبير حيث لم يعرها أساقفة فلسطين اهتماما . واقتصر أثرها على ترك أوروجينوس للاسكندرية واستقراره فى فلسطين حوالى سنة ٢٣٣ حيث أنشأ مدرسة أخرى للاهوت هناك واستمر فى الكتابة والتدريس إلى أن توفى هناك سنة ٢٥٤ . ويقول يوسابيوس القيصرى مؤرخ المسيحية الأول إن عوامل حرمان أوروجينوس تعود إلى الضعف البشرى وغيرة ديمتريوس من شهرة أوروجينوس

الواسعة .

لم تبدأ أعمال إدانة أوروجينوس الحقيقية إلا بعد أكثر من قرن من وفاته . وقد ابتدأت أيضا بالبطريرك المصرى توفيلس ٤١٢ - ٣٨٥ (Theophilus) وانتقلت إلى القسطنطينية وروما . كان هذا البطريرك ذا شخصية قوية وقد استخدم القوة وأحيانا العنف في حل بعض المشاكل التي واجهته وقد استمد بعض من تلك القوة من وفاق الكنيسة مع الامبراطورية والتى أصبح دينها الرسمي هو المسيحية بداية من سنة ٣٨٠ خلال حكم الامبراطور ثيودوسيس (Theodosius) وكان توفيلس صاحب تاثير واسع داخل مصر وخارجها وكان يلجأ إليه للتحكيم فى بعض مشاكل الكنيسة خارج مصر .

وسبب إدانة أوروجينوس هذه المرة غريب حيث ابتدأ بخلاف بين البطريرك وبعض رهبان منطقة نتريا (١٥ كم غرب مدينة دمنهور وحاليا تسمى قرية البرنوجى) وبدلا من مواجهة الأسباب الحقيقية لهذا الخلاف قام البطريرك بطرد حوالى ٥٠ راهب سنة ٣٩٩ واتهمهم باتباع تعاليم أوروجينوس . ولكن لم يكن ذلك السبب الحقيقى وراء طردهم ولم تكن تعاليم أوروجينوس حتى ذلك الوقت غير مقبولة وكان البطريرك نفسه على علم جيد بها وكذلك الرهبان . بل إن راهب المسيحية الأول القديس انطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) كان على علم جيد بتلك التعاليم وكان على وفاق معها كما أثبتت بعض الابحاث الحديثة .

كان البطريرك ورهبان نتريا على علاقة طيبة بل أنه أيضا أرسل ابن أخيه والذى خلفه كبطريرك ليتتلمذ على أيديهم ، بل وقد عين بعض هؤلاء الرهبان أساقفة في الصعيد وقد قبلوا ذلك على مضض لنسكهم وتقشفهم . ما الذى حدث إذن ؟

لم تستمر العلاقات الطيبة بين البطريرك والرهبان لسببين السبب الأول خلاف بين البطريرك وكاهن اسمه ايسودورس (Isidoras) حول هبة مالية وكيفية التصرف فيها وقد كان البطريرك كثير البناء والعمار فبنى الكنائس وعمر الأديرة واستولى على بعض المعابد القديمة وحولها إلى كنائس ودمر البعض الآخر وكان ذلك بتصريح من الامبراطور . لم يكن ايسودورس ومعه آخرين ومن ضمنهم رهبان نتريا راضين عن ذلك الاهتمام الزائد بالماديات . على أثر ذلك الخلاف هرب ايسودورس إلى رهبان نتريا الذين أحسنوا استقباله وكانوا على علاقة طيبة به حيث أنه كان يتمتع بسمعة طيبة .

أما السبب الثانى فكان بعض الأساقفة الذين عينهم البطريرك من رهبان نتريا ولم يكونوا هؤلاء أيضا راضين عن تصرفه واهتمامه بالماديات فما كان منهم إلا أن تركوا مناصبهم وعادوا إلى أديرتهم فى نتريا . وقد كان هذا التصرف شديد العنف ومسيء للبطريرك .

وربما قد بدا للبطريرك أن هذه حركة عصيان قد تمتد لباقى الرهبان فى صحراء وادى النطرون وكانوا كثيرين ، وربما كانت هناك بالفعل حركة

عصيان . وكان لابد للبطريرك أن يفعل شيئا فقرر طرد ٥٠ راهبا سنة ٣٩٩ وقد استخدم بعض تفاسير أوروجينوس المشكوك فى صحتها كسبب للخلاص منهم وأصبحت تعاليم أوروجينوس وكتاباته كبش الفداء .

لم تنته المشكلة بطرد الرهبان من مصر بل كانت البداية ، التجأ الرهبان إلى فلسطين ولكنهم طردوا منها فلجأوا إلى بطريرك القسطنطينية يوحنا ذهبى الفم وكان متعاطفا معهم وقد طلب منه البطريرك المصرى طرد الرهبان من القسطنطينية إلا أن بطريرك القسطنطينية رفض ذلك بعد أن تحقق من براءة الرهبان وتبادل البطاركة الاتهامات والادانة وفى النهاية انتصر البطريرك المصرى بل وتمكن من إدانة بطريرك القسطنطينية إلا أن أغلب المؤرخين بعد ذلك أدانوا تصرفات البطريرك المصرى والذى كان مدفوعا بعداء شخصى .

وكنتيجة لهذا الصراع ابتدأت إدانات شاملة لأعمال أوروجينوس وابتدأها البطريرك المصرى توفيلس ففى سنة ٤٠٣ عقد مجمع كنسى بالاسكندرية لإدانة أوروجينوس وأعماله وقد أيد ذلك القرار بابا روما انستاسيوس الذى قال إن كل ما كتبه أوروجينوس والمخالف لايماننا مرفوض ومدان . كانت هذه بداية أخرى ، وفى مناخ كنسى محافظ وبعد أكثر من قرن آخر من الزمان اتخذ مناهضو أوروجينوس ستة أسباب لادانته ولا ندرى كيف أصبحت الأسباب الستة خمسة عشر سببا فى تاريخ لاحق وإن كان بعض هذه الأسباب مشكوك فى صحته ، أدين أوروجينوس سنة ٥٤٣ وسنة ٥٥٣ وبذلك يكون قد أدين فى الاسكندرية وروما والقسطنطينية أى من قيادات الكنيسة كلها . وحتى لو كانت أسباب إدانته صحيحة فهل كانت تلك المجامع الكنسية عادلة لإدانة هذا الكم الهائل من الأعمال الجليلة . لقد كان ذلك عصر ظلام وعصر رقابة الكنيسة على ما يكتب وما يقرأ .

ولكثرة أعمال أوروجينوس لم تختف تعاليمه بل تسربت بطريقة أو بأخرى إلى كتابات البعض وفى خلال عصر التنوير ومع بداية انفصال الكنيسة عن الدولة ابتدأ الاهتمام بأعماله وفى النصف الثانى من القرن الماضى كان هناك الكثير من الأبحاث عن أعماله . وقد تعرض بعض الباحثين لدراسة أسباب إدانته ووجدوا أن بعض تلك الأسباب جانبه الصواب وبعضها كان دخيلا على أعمال أوروجينوس ، ويعتبر بعض الباحثين أن المسئولين عن قرارات الادانة قد خذلوا المسيحية وخدموا أعداءها .

إن أوروجينوس لم يكن فيلسوفا ولم يكن المدافع عن الأرثوذكسية ولم يكن ناسكا ولم يكن مفسرا شاملا للكتاب المقدس ولم يكن رجلا روحانيا ولم يكن رجل الكنيسة بل كان كل ذلك ، إن أوروجينوس أصبح يخص الحاضر والمستقبل .. لقد كان سابقا لعصره بقرون عديدة .

تحية لهذا المفكر الكبير أحد أبناء مصر العظام . ■

من ذخائر الكتب العربية

رحلة ابن جبير بين الآثار والمناسك

قراءة

د. حاتم الطحاوى •

يحتل أدب الرحلات مكانة متميزة في التراث التاريخى والجغرافى العربي والإسلامى، وساهم الرحالة المسلمون - منذ القرون الأولى للهجرة - فى التعريف بالأقاليم الجغرافية، ومناخها، وشعوبها، فضلا عن عاداتها وتقاليدها.

كما جاب العديد منهم البلدان غير الإسلامية البعيدة، مما ساعد المسلمين على تكوين صورة شبه متكاملة عنها، وهو ما ساهم فى صياغة المسلمين لتصوراتهم عن «الآخر» غير المسلم، أفكاره، وعاداته.

ومن ناحية أخرى، كان أداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام هو المحرك الرئيسى لبعض الرحالة، وخاصة المغاربة منهم (ابن جبير ق ٦ هـ، ابن بطوطة ق ٨ هـ).

وعلى حين تخطت رحلات الأخير حدود العالم العربي الإسلامى، فإن رحلة ابن جبير اقتصرت على انتقال الحاج الرحالة من أقصى المغرب الإسلامى حيث الأندلس، إلى أقصى الشرق العربى، بعد مروره على البلدان ذات الثقل السياسي والدينى كمصر، والأراضى المقدسة، والعراق، والشام (سوريا - لبنان - فلسطين).

الكتاب الذى بين أيدينا اليوم اسمه الحقيقى «رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، وهو نفسه المعروف بعنوان أكثر يسراً وسهولة: رحلة ابن جبير، لمؤلفه الرحالة أبى الحسن محمد بن أحمد ابن جبير الكنانى الأندلسى، الذى ولد فى بلنسيه عام ٥٣٩ هـ - ١١٤٥م، وتلقى تعليماً دينياً كأقرانه،

• كلية الآداب - جامعة الزقازيق - مصر.



فدرس القرآن وعلومه.

وعلى الرغم من قيام ابن جبير بثلاث رحلات فى حياته، فإن الكتاب الذى بين أيدينا يسجل رحلته الأطول، إذ استمرت لثلاث سنوات من شوال ٥٧٨ هـ إلى محرم ٥٨١ هـ وفيها عرض للعديد من الأماكن والآثار الإسلامية، والمدن ، والسكان، والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فى تلك البلدان.

ابن جبير فى مصر

لدى وصوله إلى الإسكندرية بعد رحلة بحرية استمرت شهراً كاملاً، أبدى ابن جبير إعجابه بالمدينة، وخاصة منار الإسكندرية ودوره فى إرشاد السفن البحرية . وكذلك بالمدارس والمستشفيات



(البيمارستانات) الموجودة بها.

واصل ابن جبير رحلته حتى القاهرة. فاهتم بذكر المساجد الموجودة بها، وخاصة مساجد الحسين رضى الله عنه، وعمرو بن العاص، وأحمد بن طولون.

كما أعجب بقلعة القاهرة وحسن عمارتها. ولم ينس ذكر وجود بيمارستان المرضى النفسيين بقسميه، للرجال والنساء، واهتمام الدولة به، كما لم يفته بالطبع مشاهدة وذكر أهرامات الجيزة، وأبي الهول، وإن كان قد أسماه «أبو الأهوال».

ثم ركب ابن جبير سفينته فى نهر النيل للوصول إلى الصعيد، حيث وصف مدن أسيوط، وأخميم، وتحدث عن تركز السكان الأقباط بها، ثم مدينة قنا التى قال عنها «... من مآثرها صون نساء أهلها والتزامهم البيوت، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها امرأة البتة». كما عبر بمدن قفط وقوص، واصفاً الأخيرة بأنها مدينة تجارية ملأى بالتجار اليمنيين والأحباش والهنود فضلاً عن الحجاج المصريين والمغاربة.

بعد ذلك اتخذت قافلة ابن جبير طريقها براً من قوص إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، فوصفه بأنه «من أحفل مراسى الدنيا» بسبب وجود العديد من المراكب الهندية واليمنية التى تعمل فى نقل الحجاج والتجار به. ومن عيذاب استقل ابن جبير سفينة حشر فيها الحجاج حشراً إلى ميناء جدة، بعد اجتياز البحر الأحمر، الذى أسماه «بحر فرعون».

ابن جبير فى الأراضى المقدسة

نزل ابن جبير وصحبه إلى ساحل مدينة جدة ، حيث هاجم استغلال سكانها للحجاج بعد فرضهم للإتاوة عليهم، حسب تعبيره «... فالحاج منهم لايزال فى غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه».

بعد ذلك يصف ابن جبير عملية تسجيل أسماء الحجاج لدى صاحب جدة، ثم انتقالهم بعد ذلك إلى «مكة المكرمة»، حيث طافوا طواف القدوم، وصلوا بالكعبة وتعلقوا بأستارها ، وشربوا من ماء زمزم، ثم سعوا بين الصفا والمروة.

أخذ ابن جبير فى وصف المسجد الحرام بإسهاب شديد، ذكر أركانه وسقفه وداخله، ومقام إبراهيم والحجر الأسود، وموضع الطواف، والميزاب، وبئر زمزم، وحلقات المدرسين وأهل العلم حول الحرم الشريف، كما تحدث عن كسوة الكعبة المشرفة، وبابها، وأركانها ، وأبواب الحرم الشريف.

ثم أخذ ابن جبير فى وصف مكة المكرمة ، وأبوابها، وجبانتها حيث قبور الصحابة والتابعين التى اندثرت. فضلاً عن وصفه للعديد من الدور الشريفة بها، كدار السيدة خديجة ودار أبى بكر، وقبة

بين الصفا والمروة تنسب إلى عمر بن الخطاب.

وبالإضافة إلى المزايا الدينية لمكة المكرمة، فقد لاحظ ابن جبير أيضاً تفردها من الناحية التجارية، فذكر أن أسواقها يجتمع فيها تجار من المشرق والمغرب، مع سلعهم الوفيرة من الطيب والمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية، والأحجار الكريمة، وكافة السلع والبضائع الواردة من الهند والحبشة والعراق وفارس واليمن والمغرب.

ثم يخبرنا مؤلفنا قيامه بأداء عمرة شهر رجب، وحضوره ليلة النصف من شعبان في مكة المكرمة، ويذكر أن أهلها يفرحون بهذه الليلة، فيبادرون إلى أعمال البر والعمرة والطواف والصلاة.

يعلمنا ابن جبير بدخول شهر رمضان المعظم عليه في مكة، فيصف عملية تجديد الحصر، والإكثار من الشمع والمشاعل في الحرم الشريف، كما يذكر صلاة أصحاب المذاهب الأربعة بالحرم، وطواف الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين الأيوبي.

ولم يفته ذكر وصف صلاة التراويح في مكة المكرمة، وختم القرآن ليلة السابع والعشرين من رمضان كذلك قام ابن جبير بأداء صلاة عيد الفطر في مكة المكرمة.

ظل ابن جبير في مكة حتى وقت الحج، فوصف مناسك الفريضة بالتفصيل، ولم ينس ذكر وجود سوق كبير بمكة أوان الحج، ثم غادر مكة المكرمة بعدما مكث بها أكثر من ثمانية أشهر هجرية.

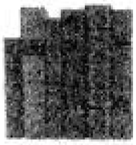
اتجه ابن جبير بعد ذلك إلى المدينة المنورة «لزيارة الروضة المكرمة المطهرة»، والصلاة بها، وأفاض في وصف مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ومنبره، ثم غادرها وهو حزين تبغي نفسه عدم مفارقتها، بعد مكوثه بها خمسة أيام فقط.

ابن جبير في العراق

بعد رحلة طويلة من المدينة المنورة، وصل ابن جبير إلى مدينة الكوفة، ولفت نظره التخريب الذي تعرضت له المدينة، وفسر ذلك بسبب هجمات قبيلة خفاجة المجاورة لها، ثم وصف الجامع الكبير بالكوفة، والمشهد الشهير المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، بعد ذلك توجه ابن جبير من الكوفة إلى مدينة الحلة، ومنها إلى بغداد عبر مجموعة من القرى والبساتين، ولم ينس إخبارنا لجسر على نهر يسمى النيل وهو فرع متشعب من نهر الفرات.

تحدث ابن جبير عن بغداد بوصفها حاضرة الخلافة العباسية ضعيفة الشأن.

وفي بغداد، سجل ابن جبير حضوره وإعجابه بمجلسي علم للشيخ الإمام رضي الله عنه القزويني، رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية في بغداد. كما حضر



من ذخائر الكتب العربية

ثلاث مجالس علم للفقيه جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى . رئيس الحنابلة ، وأبدى إعجابه الشديد ببلاغته وعلمه.

ولم يفتا مؤرخنا الإشارة إلى البيمارستان الشهير فى بغداد، وتفقد الأطباء للمرضى به مرتين أسبوعياً، كما وصف مساجد المدينة، بالإضافة إلى وجود أكثر من ثلاثين مدرسة فى بغداد ، أشهرها المدرسة النظامية، ولهذه المدارس أوقاف وعقارات تقوم برعاية الطلبة والفقهاء والمدرسين بها. ولفت نظر ابن جبير كثرة عدد حمامات بغداد، وذكر أنه سمع أن عددها نحو الألفى حمام.

وبعد أن مكث فى بغداد ثلاث عشرة يوماً، تحرك ركب ابن جبير باتجاه مدينة تكريت فوصفها بأنها مدينة كبيرة ملأى بالمساجد والأسواق، ووصف سكانها بأنهم أفضل سلوكاً من سكان بغداد، وبعد أن رحل عن تكريت باتجاه الموصل ، ذكر وجود عدة عيون تنتج القار بجوار موضع عرفه الناس باسم «القيارة».

وصف ابن جبير الموصل بأنها مدينة قديمة تمتاز بحصانة أسوارها، وبمساجدها وحماماتها وأسواقها، وكان أكبر الأسواق يدعى «الخان العظيم»، من كثرة الدكاكين الموجودة به ، وأشاد بأهلها لاستقبالهم الطيب للغرباء .

ابن جبير فى بلاد الشام

وصل ابن جبير إلى مدينة حلب، فذكر تاريخها القديم ، وأبدى إعجابه بعمارة المدينة وجوامعها، ومدارسها الخمس، بالإضافة إلى البيمارستان الخاص بها، ثم واصل رحلته إلى قنسرين ، وبلاد المعرة التى يقع خلفها جبل لبنان الذى يحوى قلاع الإسماعيلية حيث وصفهم بالملاحدة، كما ذكر جبل لبنان بوصفه الحد الفاصل بين أراضى المسلمين والفرنجة (الصليبيين).

بعد ذلك عرج ابن جبير على مدينة حماة، فذكر وجود ثلاث مدارس وبيمارستان بها، وذكر جوامعها وشهرتها بالتجارة والأسواق، ثم وصل إلى مدينة حمص واصفاً أهلها بالنخوة والشهامة، وأنهم كانوا على استعداد لمجابهة الفرنجة فى أى وقت بسبب قرب مدينتهم من المدن التى استولوا عليها مثل أنطاكية واللاذقية، وذكر أن أهم آثارها قبرى خالد بن الوليد وابنه عبدالرحمن.

على أن ابن جبير وصف دمشق كأفضل ما يكون الوصف «جنة المشرق. عروس المدن التى اجتليناها» «إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها. وإن كانت فى السماء فهى بحيث تسامت وتحاذيها». وأبدى إعجابه الشديد بالمسجد الأموى بالمدينة ، وأسهب فى وصفه وكيفية بنائه ، وقبته ومقصوراته الثلاث، وصوامعه وقبابه الثلاث، وأبوابه الأربعة. واهتم بذكر

وجود حلقات التدريس به، ولاحظ زاوية لتدريس الفقه المالكى فى الجانب الغربى للجامع ، يجتمع فيها الطلبة المغاربة ، كما لاحظ ابن جبير الأندلسى وجود أحد فقهاء مدينة أشبيلية ، وهو الفقيه المرادى ، يقوم بالتدريس فى زاوية المالكية.

ولم يغفل ابن جبير كذلك وجود كنيسة مريم داخل أسوار مدينة دمشق. كما ذكر وجود حوالى عشرين مدرسة أهمها مدرسة نور الدين محمود ، فضلاً عن وجود بيمارستان بها ، كما لاحظ وجود وقف بالمدينة للعناية بالأيتام ، وذكر تركز الصوفية فى مدينة دمشق، والامتيازات التى حصلوا عليها ، فضلاً عن حديثه عن وجود حوالى مائة حمام ، وشهرة دمشق بالأسواق، وخاصة السوق الكبير. كما لاحظ تواصل القوافل التجارية بين مصر ودمشق ومرورها داخل المناطق الصليبية .وكذلك ذهاب التجار المسلمين من دمشق إلى عكا وهى تحت الاحتلال الصليبى، وكذلك اختلاف التجار الصليبيين إلى المناطق الإسلامية دون ممانعة من الطرفين سوى أن يدفع كل طرف الضريبة المفروضة عليه.

ورحل ابن جبير من دمشق إلى بانياس حيث شاهد الأراضى الزراعية المشتركة بين المسلمين والفرنجة، ثم وصل إلى قلعة تبنين وذكر يسار حال الفلاحين المسلمين بها تحت الاحتلال الصليبى، وتعجب من أن أحوالهم أفضل من أحوال المسلمين المجاورين لهم فى المناطق الإسلامية.

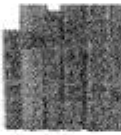
ثم تحدث ابن جبير عن وصوله إلى مدينة عكا فوصفها بأنها «قاعدة مدن الإفرنج بالشام» و«ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق»، وذكر التغييرات التى أحدثها الصليبيون بالمدينة بعد سقوطها، وتحويل مساجدها إلى كنائس.

بعد ذلك غادرها ابن جبير إلى مدينة صور الواقعة تحت الاحتلال الصليبى أيضاً، فذكر أن سكانها الصليبيين غير متعصبين تجاه المسلمين الغرباء، ولهذا فإن أحوال المسلمين بها أفضل من حالهم فى مدينة عكا.

ولم يفت ابن جبير أن يصف لنا حضوره حفل زفاف فرنجى فى مدينة صور، فوصف ما جرى بالتفصيل، فستان العروس، وضرب المزامير والأبواق وآلات اللهو.

ولم يوفق ابن جبير فى ركوب سفينة من مدينة صور فى رحلة عودته إلى بلاده، الأمر الذى دعاه إلى العودة إلى مدينة عكا، وفيها رأى العديد من أسرى المسلمين ، ولفت نظره قيام تاجرين من كبار تجار دمشق بدفع الأموال وافتداء الأسرى، وخاصة الأسرى المغاربة.

وأبحرت سفينة ابن جبير من ميناء عكا فى رحلة عودته إلى وطنه بالأندلس،



عبر المرور بجزر البحر المتوسط، وتم إنقاذ سفينته من الغرق قرب سواحل صقلية، فنزل إليها ، ووصفها ، وذكر وجود عدد قليل من المسلمين بها، فضلاً عن وجود عدد آخر من الذين يخشون إظهار إسلامهم، لأن غالبية أهل صقلية المسيحيين فرضوا ضريبتين في العام على المسلمين ، لكنه لم ينس الإشارة إلى الملك وليم (غليام) ملك صقلية، وحسن علاقته بالمسلمين في الجزيرة.

ثم واصل ابن جبير رحلته في البحر المتوسط حتى ميناء قرطاجنة، ومنه إلى مرسيه بالأندلس حتى وصل في الثاني والعشرين من المحرم ٥٨١ هـ إلى منزله بغرناطة منشداً :

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عيناً بالإياب المسافر

***

هذا .. ولا تكتمل تلك القراءة لرحلة ابن جبير إلا بعد الخروج بالعديد من الملاحظات المهمة :

● يعرف المشتغلون بالتاريخ أن المصادر التي لم يتم تاليفها بقصد أن تكون تاريخاً هي الكتب التي يمكن استخلاص المادة التاريخية الحقيقية منها، لأن مؤلفها لم يقم بذلك وفي وعيه أن يكتب تاريخاً، بل يقوم فقط بتسجيل أحداث رحلته، كما فعل ابن جبير على سبيل المثال، وهكذا اكتسبت الرحلات أهميتها القصوى بوصفها من أهم المصادر التاريخية الأصيلة.

● اعتمد ابن جبير على منهج المشاهدة والملاحظة في تدوينه لتفاصيل رحلته. وأحياناً ما اعتمد على السماع ، كأن يقول سمعت عن أحد الأشياخ (الشيوخ).

● جرت أحداث رحلة ابن جبير داخل أقاليم معظمها يخضع لحكم صلاح الدين الأيوبي (مصر - الأراضي المقدسة .. الشام) ، وتحدث عن حسن سيرته في الرعية في مصر والشام، ودوره الجهدي ضد الصليبيين، على حين أبدى إعجابه به أيضاً عندما رفع المكوس التي كانت تفرض على حجاج بيت الله الحرام، وهو ما كان يتطلع إليه الحاج ابن جبير.

● ذكر ابن جبير أنه شاهد أسرى صليبيين تم جلبهم إلى الإسكندرية ، بعد محاولتهم الفاشلة غزو سواحل البحر الأحمر، والوصول إلى الأماكن المقدسة، وهو ما يتفق مع المصادر التاريخية الإسلامية والصليبية المعاصرة لابن جبير، التي ذكرت أطماع الأمير الصليبي ريمون دي شاتيون في الوصول إلى الأراضي المقدسة للمسلمين، وطلب صلاح الدين الأيوبي من قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ اللحاق بالأسطول الصليبي وهزيمته، وهو ما كان .

● ادعى ابن جبير رغبة سكان الإسكندرية والقاهرة في سقوط مصر في

أيدي الموحدين، وهو ادعاء لا تؤيده باقي المصادر التاريخية المعاصرة له، ربما كان مجرد تمن من ابن جبير الأندلسي، فضلاً عن إشادته الدائمة بسياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه رعيته في مصر.

● نظراً لأن الغرض الأساسي من رحلة ابن جبير كان من أجل القيام بالحج، فقد أفرد العديد من الصفحات - ١٢٠ صفحة - لوصف رحلته بالأماكن المقدسة، وجاء هذا على حساب باقي الأقاليم ، ونحن نرى ذلك طبيعياً لمكوثه حوالي تسعة أشهر بالأماكن المقدسة، فضلاً عن كونها الهدف الأساسي من رحلته.

● إبان رحلة ابن جبير في العراق، ذكر وجود «عيون القار» في منطقة تقع بين تكريت والموصل، وهي إشارة إلى آبار النفط بهذه المنطقة من العراق.

● ربط الرحالة ابن جبير بين الأندلس والشرق العربي، وضعف حكامهم ، مع اعتزازهم بالألقاب الجوفاء، فعند وصفه لمدينة «نصيبين بالعراق قال... «وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس ، كلهم قد تحلي بحلية إلى الدين، فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة، وصفات لدى التحصيل غير طائلة..».

كما ربط مرة أخرى بين الشرق العربي والأندلس الذي يحن إليه دائماً، لدى وصفه لمدينة قنسرين بالشام ، فذكر أنها تشبه مدينة جيان بالأندلس، ولهذا فإن الفاتحين المسلمين للأندلس، من أهل قنسرين الشام، اختاروا السكن في جيان لأنها تشبه مدينتهم الأصلية ، كذلك الأمر حين ذكر أن مدينة حمص تشبه أشبيلية بالأندلس، ولذا نزل أهل حمص من الفاتحين بها. كما يلاحظ تعاطفه مع كافة المغاربة الذين التقاهم إبان رحلته ، من الحجاج والتجار والمجاهدين.

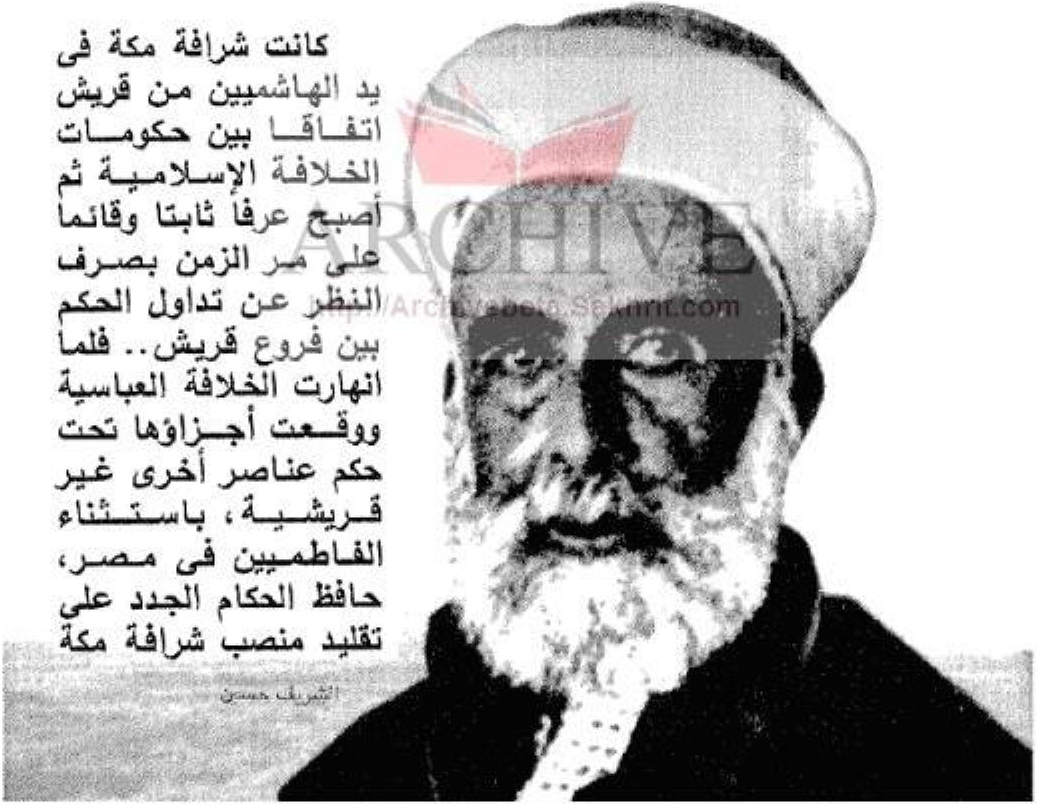
● لاحظ ابن جبير أنه على الرغم من حالة الحرب بين المسلمين والصليبيين بالشام ، فإن المصالح التجارية للطرفين طغت على السياسة والحرب. فالتجار يتحركون بحرية بين الجانبين بينما «أهل الحرب مشتغلون بحربهم». ومرة أخرى يذكر «ومن أعجب مما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين».

● لاحظ ابن جبير أن الفلاحين المسلمين تحت الاحتلال الصليبي في منطقة تبنين أفضل حالاً من أقرانهم في المناطق الإسلامية ، وهي ملاحظة مهمة، لكن يجب أن نفطن إلى أن ذلك كان حالة خاصة بسبب ندرة الفلاحين في قلعة تبنين ، ولهذا فقد احتاج المحاربون الصليبيون إلى خدمات الفلاحين المسلمين بشكل دائم، وبالتالي عاملوهم معاملة خاصة، لا تعبر عن معاملة الصليبيين المحتلين للمسلمين بشكل عام. ■

قصة الأسرة الهاشمية
فى تاريخ العرب الحديث
ولعبة التوازنات والولاءات

من الحجاز
إلى العراق
والاردن

بقلم
د. عاصم الدسوقى



كانت شرافة مكة فى يد الهاشميين من قريش اتفاقا بين حكومات الخلافة الإسلامية ثم أصبح عرفا ثابتا وقائما على مر الزمن بصرف النظر عن تداول الحكم بين فروع قريش.. فلما انهارت الخلافة العباسية ووقعت أجزاؤها تحت حكم عناصر أخرى غير قريشية، باستثناء الفاطميين فى مصر، حافظ الحكام الجدد على تقليد منصب شرافة مكة

الشريف حسين

فى بنى هاشم بما فى ذلك العثمانيون الذين تركوا أشراف مكة يختارون شريفهم بطريقتهم ثم يعتمد السلطان العثمانى تعيينه، فى مقابل اعتراف الشريف بأن السلطان حامى حمى الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين، ترفع له الدعوات فى خطبة الجمعة بالمساجد مثلما هو الحال فى سائر البلاد العربية التى تخضع للعثمانيين منذ ١٥١٦م، ولو أن العثمانيين احتفظوا بمدينة جدة باشوية عثمانية مباشرة نظراً لأهميتها الاستراتيجية باعتبارها ميناء بحرياً..



الملك فيصل الأول

الملك غازي

ولما كان الحكم العثماني حكما لا مركزيا يشبه بدرجة ما الحكومة الفيدرالية، لا يهتم كثيرا بالشئون الداخلية لرعاياه الذين يديرون أمورهم من خلال الطوائف، فلم تحدث مصادمات حادة بين الطرفين، وطالما حافظ ولاة الدولة على الحكم باسم السلطان، وأظهرت الزعامات المحلية فروض الطاعة والولاء، واستمر الرعايا في تسديد ما يفرض عليهم من ضرائب، ظلت البلاد الخاضعة للعثمانيين وحدة سياسية تابعة للسلطان وتحت راية الإسلام..

فلما استولت جماعة الاتحاد والترقي على الحكم في السلطنة العثمانية في يوليو ١٩٠٨م وتم عزل السلطان عبدالحميد في العام التالي بدأت طبيعة الحكم العثماني اللامركزي تتغير، ذلك أن الاتحاديين وهم من أنصار فكرة القومية التركية (المعروفة بالتورانية) كانوا يستهدفون مركزية الحكم، وتتريك ولايات الدولة، وفرض التبعية على البلاد العربية التي لم تكن تخضع خضوعا مباشراً للدولة، وفي هذا الخصوص استعان الاتراك الجدد بالشريف حسين الهاشمي الذي أعلن ولاءه لهم فتراهم يستخدمونه لقتال الإدريسي حاكم عسير على حدود اليمن ليتسنى لهم إخضاعه وإخضاع إمام اليمن، ثم يتجه الشريف تحت هذه الحماية الجديدة ليضم أراض موضع نزاع بينه وبين آل سعود في نجد (١٩٠٩م)، ويتمكن من أخذ الأمير سعد شقيق عبدالعزيز آل سعود رهينة، وكان شرط فديته اعتراف عبدالعزيز بالسيادة التركية ودفع جزية عن إدارته لمنطقة القصيم، غير أن عبدالعزيز انطلق يهدد مناطق النفوذ التركي في شرق الجزيرة قرب البصرة، بل وتوجه إلى المقيم العام البريطاني في الخليج بحثا عن ظهير.. لكن السلطات البريطانية آنذاك كانت تكتفي بالسيطرة على ساحل عمان والجنوب العربي حتى عدن، ولم تكن تهتم بمنطقة نجد الداخلية، ومن هنا عمل عبدالعزيز على إحياء وهابي جديد بين القبائل بتكوين جماعة إخوان جديدة، الولاء فيها للمذهب وليس للقبيلة وذلك اعتبارا من ١٩١٢م وبنهاية العام أصبح سيد نجد بلا منازع.

ولكي تواجه الحكومة التركية نفوذ ابن سعود قررت في العام نفسه إخضاع الحجاز كله للحكم المباشر، وتحقيقا لذلك أرسلت وهيب باشا واليا على الحجاز

وليس على باشوية جدة فقط مزوداً بتعليمات تقضي بربط الحجاز مدنيا وعسكريا ومن ذلك مد خط السكة الحديدية بين دمشق - المدينة إلى مكة، وعلى هذا اخذ الشريف الحسين يتطلع إلى قوة خارجية تعينه على مواجهة الأتراك فلم يجد غير الانجليز ظهيراً يستند عليه، ، فكانت بداية طريق قطع فيه الهاشميون أشواطا انتقلوا خلاله من تبعية لأخرى حرصا على البقاء في السلطة، والتمتع بالنفوذ على حساب مصالح الآخرين بل والمصالح العربية الكبرى حين بدت الرابطة العربية أسلوبا لمواجهة سياسات الغرب الأوروبي - الأمريكي لاحتواء المنطقة.

أزمة الشريف مع الاتراك

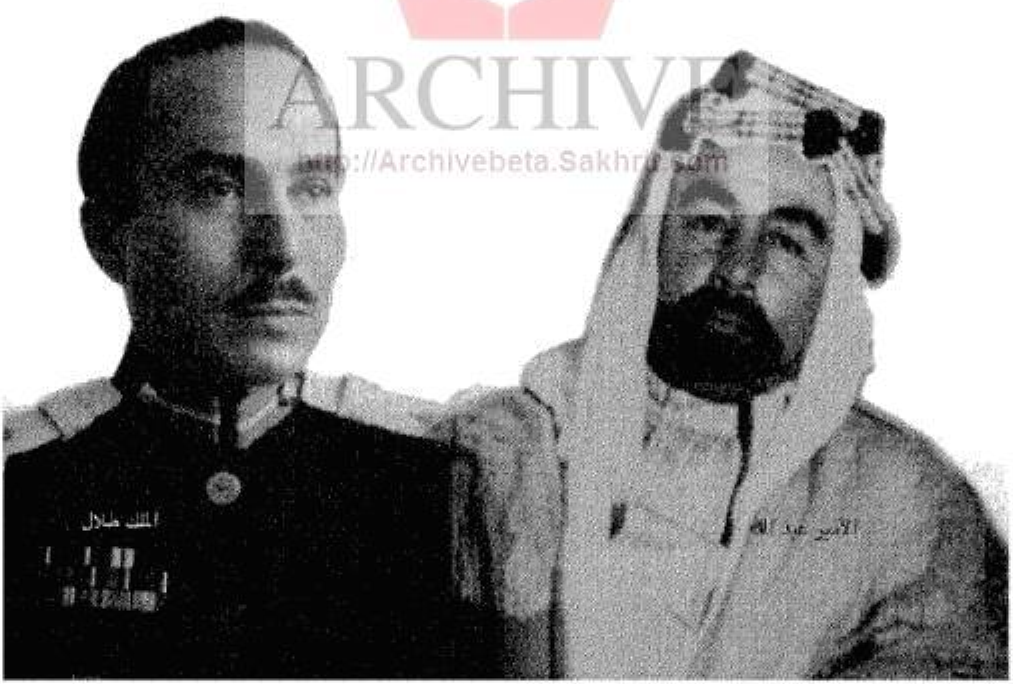
وعلى هذا أرسل الشريف ابنه عبدالله (أول أمير لإمارة شرق الأردن فيما بعد) إلى القاهرة ليقابل اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في مصر ليعرض عليه الموقف في الحجاز ويستطلع رأى الانجليز في حالة نشوب حرب ضد الأتراك، غير أن الانجليز لم يعدوا بشيء وكل ما هنالك أنهم عرفوا بوجود أزمة في علاقة الشريف بالاتراك ، فلما قامت الحرب العالمية الأولى (اغسطس ١٩١٤) دخلتها تركيا في نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب النمسا وألمانيا (دول الوسط) ضد انجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا (دول الحلفاء)، ولما كان موقف الحلفاء حرجا في الشهور الأولى، والروس يشكون من ضغط القوات التركية عليهم، بدأ التفكير في كيفية فتح جبهة على الأتراك ، وأنذاك كان اللورد كتشنر - الذى قابل الأمير عبدالله ابن الشريف حسين بالقاهرة عام ١٩١٢ حين كان المعتمد البريطاني في مصر - قد أصبح وزير الحرب في بلاده فتذكر اللقاء وأزمة الشريف مع الأتراك، ومن ثم تقرر استثمار الخلاف في إثارة شريف مكة ضد الحكم التركي حتى تضطر الحكومة التركية إلى سحب قواتها من أوروبا لمواجهة الموقف.. ثم ما كان من أمر الثورة التي أعلنها الشريف حسين ضد الوجود التركي في الحجاز (يونية ١٩١٦)، ومبايعته ملكا على العرب (ديسمبر ١٩١٦)، ووصول قواته بقيادة ابنه فيصل (أول ملك على العراق فيما بعد) إلى دمشق (أول أكتوبر ١٩١٧) وإعلانه قيام حكومة الدولة العربية الجديدة مما سهل دخول جيوش الحلفاء فلسطين واحتلال القدس (٩ ديسمبر ١٩١٧).

وكان اتفاق الشريف مع الانجليز

بشأن الثورة على الاتراك قد تم من خلال مراسلات بين الطرفين عرفت بمراسلات الحسين - مكماهون (المندوب السامي البريطاني في مصر) ابتداء من ١٤ يونية ١٩١٥ إلى ١٠ مارس ١٩١٦ على أساس أن يعلن الشريف الثورة لإسقاط الحكم التركي في سوريا مقابل إعلان الدولة العربية برئاسته على شبه الجزيرة العربية جغرافيا، وحدودها الشمالية تبدأ من الاسكندرية - مرسين - أطنه إلى أدنه مارا بماردين وجزيرة ابن عمر حتى حدود إيران شرقا حتى الخليج، وجنوبا بساحل البحر العربي، وغربا بالبحر الأحمر شمالا حتى الاسكندرية - مرسين، على ان تدخل الدولة الجديدة في تحالف دفاعي مع بريطانيا ، غير ان المراسلات انتهت باستبعاد المناطق الشمالية بحجة أن أهلها ليسوا عربا أصلا، واستبعاد عدن بحجة أنها محمية بريطانية ، وكذا جنوب العراق بغداد - البصرة بحجة أن القوات البريطانية احتلتها فور قيام الحرب، وأيضا منطقة غرب دمشق - حمص - حلب بحجة أن فرنسا لها مصالح فيها.

قاصمة الظهر!

وفي هذا المنعطف من سير الأمور كانت كفة الحلفاء قد رجحت في الحرب ولم يعد الانجليز يهتمون بأمر إعلان الدولة العربية برئاسة الشريف حسين حتى بعد اختزال حجمها كما سبقت الإشارة



خصوصا أن مناطق الدولة المزمعة كان قد تم ترتيب تبعيتها لكل من الانجليز والفرنسيين بمقتضى إتفاقية سايكس - بيكو فى مايو ١٩١٦، وقبل أن يعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك فيما عرف فيما بعد بنظام الانتداب، ولكن فى إطار توازنات المصالح بين انجلترا وفرنسا من ناحية وللاحتفاظ بتبعية الأصدقاء (الحلفاء - الأتباع!!) من ناحية أخرى تقرر إخراج فيصل من دمشق بعد أن قضى فيها أكثر من عام ونصف (نوفمبر ١٩١٨ - يوليو ١٩٢٠) وتعيينه ملكا على العراق «محافظة على الشرف البريطانى فى إعطاء الكلمة (٢٣ أغسطس ١٩٢١)، فلما علم عبدالله بذلك صاح قائلا: أيزدان مفرق فيصل بتاج العراق وعبدالله يرزق.. تلك والله قاصمة الظهر».. وهنا وإعمالاً لنفس المنهج تم اقتطاع منطقة شرق نهر الأردن من بلاد سوريا بالتفاهم مع فرنسا مكافأة للأمير الساخط الذى أصبح أميرا لشرق الأردن ولكن الانتداب البريطانى مع إعفائه من مقتضيات تصريح بلفور (أى إنشاء وطن قومى لليهود)، وهكذا تم إيجاد نظامين للحكم فى المنطقة هاشميين موالين تماما للانجليز، مما سهل مهمة إنشاء وطن قومى لليهود فيما بقى من سوريا الكبرى (أى فى فلسطين).

شرعية واجبة الاحترام

وبتعيين فيصل ملكا على العراق وعبدالله أميرا على شرق الأردن وببقاء الشريف حسين والدهما بالحجاز أصبح الهاشميون يمثلون وجودا متسعا فى المنطقة قد يزداد اتساعا مع الأيام.

وعلى هذا وفى إطار سياسة توازنات القوى أغمضت بريطانيا عينها عن قيام عبدالعزيز آل سعود باجتياح الحجاز فى ١٩٢٦ واخراج ما بقى فيه من الهاشميين الذين ذهبوا مع أعوانهم إلى إمارة شرق الأردن أو إلى العراق. مع أن الانجليز سبق وأن منعوا عبدالعزيز من دخول الحجاز فى مايو ١٩١٩ وكان بإمكانه ذلك دون صعوبة، كما صدت هجومه على حدود شرق الأردن فى خريف ١٩٢١ حماية لوليدها الجديد، وآنذاك لم يشهر أحد سيف الشرعية الدولية أو يتحدث عن مدى مشروعية اجتياح أراضى الغير دون مبالاة، والإجابة بسيطة.. إن القوى الكبرى آنذاك كانت ترى فيما يحدث شرعية واجبة الاحترام لأنه يخدم منهج التوازنات.

وعلى هذا ومنذ عشرينيات القرن

العشرين والهاشميون يشعرون بالولاء التام للانجليز.. ألم يقم أولئك الانجليز بتعيينهم على عروش كانوا يتطلعون إليها، بل وبتثبيتهم ضد محاولات الانقلاب ضدهم.. أليس الولاء لدافع الأجر أولا واخيرا!!.. وعلى هذا إذا ما تعارض الولاء للانجليز مع ولاءات أخرى ستكون الأولوية للولاء للإنجليز حتما ولابد.. وإذا ما تعارضت مصالح الانجليز مع مصالح الهاشميين تكون الغلبة لمصالح الانجليز.. وعندما حل النفوذ الأمريكي محل النفوذ البريطاني بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تحول ولاء الهاشمين للقوة العالمية الجديدة.. وهكذا.

ففى أثناء الحرب العالمية الثانية صرح وزير خارجية بريطانيا أنتونى إيدن فى ٢٩ مايو ١٩٤١ بأن بلاده تشجع قيام منظمة عربية للتنسيق بن المصالح، وعلى حين تحفظت الحكومات العربية إزاء هذا التصريح الذى بدا مريبا استجاب له عبدالله أمير شرق الأردن الذى رأى فيه فرصة ذهبية لتحقيق طموحه والخروج بسلطانه عن نطاق إمارته الصغيرة، فنراه يرسل مذكرتين فى ٢ يوليو ١٩٤١ للخارجية البريطانية يعرض فيهما فكرة إقامة سوريا الكبرى، وكيف أنه يجب أن تندمج إمارته مع سوريا ويسترد عرش الهاشميين فى دمشق الذى سقط عام ١٩٢٠ كما سبقت الإشارة، ولكن بريطانيا أرجأت النظر فى الموضوع فتراجع الأمير، أما حكومة ملك العراق الهاشمى بزعامة نورى السعيد فقد تقدمت بمشروع «الهلال الخصيب» فى ديسمبر ١٩٤٢ إلى وزير الدولة البريطاني لشئون الشرق الأوسط والمشروع يهدف إلى إقامة فيدرالية بين العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين، مع منح استقلال إدارى لليهود المقيمين فى فلسطين لأنهم لن يكونوا خطرا يذكر وسط الدولة العربية الكبيرة المقترحة.. لكن بريطانيا لم تستجب لأى من المشروعين لتعارضهما مع فلسفة استراتيجيتها فى المنطقة التى تقوم على تفكيك البلاد العربية وليس وحدتها أو إقامة كيانات كبرى فيها من شأنها التأثير سلبا على المشروع الصهيونى هناك، وفضلت بريطانيا فيما بعد المشروع الذى تقدمت به حكومة مصطفى النحاس بإقامة منظمة تجمع الدول العربية المستقلة لأنه يتفق مع استراتيجية الكيانات الصغير حتى ولو كانت تجمعها

منظمة واحدة خصوصا ان ميثاق المنظمة (الجامعة العربية) لا يشجع على اقامة وحدة حقيقية بين البلاد العربية.

الملك يقع بين شقي رحي

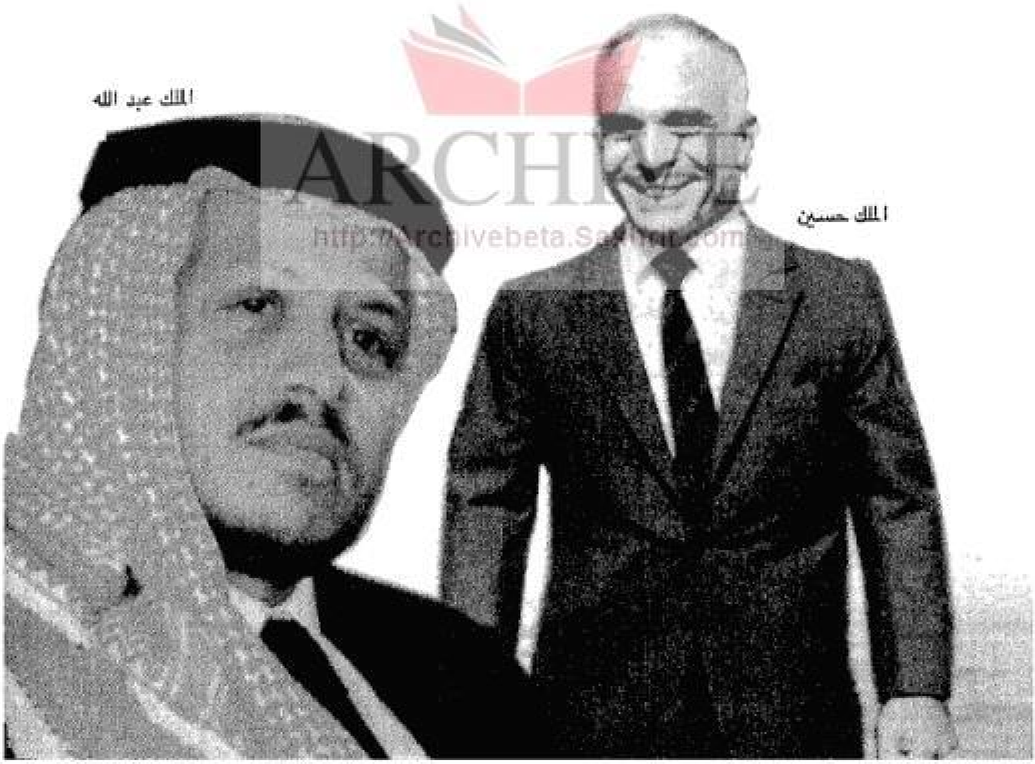
ولما اعلنت انجلترا أنها سوف تنهى انتدابها على فلسطين بنهاية يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ كما هو معروف وكان على العرب مواجهة الموقف بدخول فلسطين لاستعادتها لأهلها، تقرر أن يكون الملك عبدالله قائدا عاما للجيوش العربية مع أن جيشه تحت قيادة جنرال إنجليزى (جون باجوت جلوب)، والانجليز هم رعاة المشروع الصيهونى من بدايته، ولأن إمارة الأردن نفسها صناعة بريطانية كما مر بنا يصبح من السهل فهم هذه العلاقة الثلاثية الأردنية - البريطانية - اليهودية - والحاصل أنه قبل نشوب المعارك كان هناك ثمة اتفاق بين عبدالله وبين اليهود مؤداه أن يحصل لإمارته على الجزء المخصص للعرب بمقتضى قرار التقسيم (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) وبهذا وقع الملك بين شقى الرحى ذلك أن اختياره قائداً عاما للجيوش العربية يغريه ويفتح أمامه الطريق لكن اتفاقه مع اليهود يقيد خطواته ويلزمه بحدود معينة، وكان يعتقد من ناحية أخرى بأن القادة العرب الذين اسلموه قيادهم يتشككون فيه، وأنهم قد ارتضوا قيادته ليس عن اقتناع وإنما لاستمالته حتى لا يجنح بعيدا عن الصف العربى، وعلى هذا وعندما حاصرت القوات اليهودية (الهاجاناه) مدينة القدس أواخر مايو ١٩٤٨ أمر الملك الجنرال جلوب بالتقدم نحو المدينة من ناحية رام الله لإرغام اليهود على رفع الحصار عن الأحياء العربية فيها. غير أن جلوب لم ينفذ أوامر الملك بل نراه يتصل بالمقيم العام البريطانى فى عمان الذى ابلغه عبر الخارجية البريطانية بتنفيذ قرار الملك بشرط عدم الاقتراب من الأحياء اليهودية، ولم يتحرك الملك لفرض سلطته على قائد قواته، ذلك أن ظاهر تطور الحوادث أوضح أن الملك يتصرف ضمن خطة متفق عليها مع اليهود، إذ نراه يتغاضى عن استيلاء اليهود على أراض أكثر مما تخصص لهم بقرار التقسيم لأنه يطمع فى أن يعترف له اليهود بمملكة تضم إلى شرق الأردن ما يتبقى من فلسطين بالضفة الغربية كما لاحظ ذلك..

أحمد خشبة باشا وزير خارجية مصر الذى حضر اجتماع وزراء الخارجية العرب فى قصر رغدان فى عمان (٢٨ يوليو ١٩٤٨) لمناقشة الموقف .



ولما ارتاب كل من الملك عبدالعزيز آل سعود والرئيس شكرى القوتلى ومفتى فلسطين في موقف الملك عبدالله طالبوا الملك فاروق بالوقوف أمام تصرفاته . لكن فاروق بناء على نصائح مستشاريه من خلال وسطاء يهود وافق على ضم غزة والنقب فى مقابل عقد صلح منفرد مع اسرائيل (سبتمبر ١٩٤٨) . ولم توافق اسرائيل بطبيعة الحال ولم يوافق عبدالله الذى أبلغ اسرائيل بأنه « لا يريد جوارا مع المصريين على الإطلاق» . وأكثر من هذا نراه يحرض إسرائيل على مهاجمة الجيش المصرى بالنقب لتصفية الوجود العسكرى المصرى هناك لإنهاء الموقف وهو ما حدث فى منتصف سبتمبر ١٩٤٨ .

وتمضى الأيام ويقرر الملك عبدالله ضم الضفة الغربية إلى بلاده اعتبارا من أول ديسمبر ١٩٥٠ وأصبح اسم فلسطين بموجب هذا القرار «المنطقة الغربية للأردن» . وتعترض الجامعة العربية على أساس أن الضفة وديعة فى يد الملك شأن غزة تحت الإدارة المصرية إلى أن يقضى الله أمره بشأن الوطن الفلسطينى ولكن دون جدوى، إذ فرض الملك الأمر الواقع الذى لقى ترحيبا من كل من بريطانيا



الملك عبد الله

الملك حسين

والولايات المتحدة الأمريكية وبالتالى إسرائيل على أساس أن هذا الإجراء ينهى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بوجودهم تحت مظلة دولة الأردن الجديدة!!

استعادة الحق الفلسطيني

وتقوم الثورة في مصر في يوليو ١٩٥٢ وتأخذ تحت قيادة عبدالناصر خطوات متشددة لاستعادة الحق الفلسطيني في اطار القومية العربية وفي مواجهة الغرب الأوروبي - الأمريكي الذي لا يفكر في ترك شعوب العالم الثالث وخاصة العرب لتقرر مصيرها بنفسها . وهنا تحدث أزمة العلاقات العربية - العربية .. فعندما يرفض عبدالناصر الانضمام إلى التحالفات التي يصيغها الغرب باسم منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط بحجة حماية العرب من الشيوعية، وذلك أثناء المفاوضات مع بريطانيا بشأن الجلاء (أبريل ١٩٥٣ - أكتوبر ١٩٥٤) مثلما سبق وأن رفضها مصطفى النحاس باشا في أكتوبر ١٩٥١، بدأ الغرب في الاحتيال على الموقف فلم يجد إلا الهاشميين في العراق الذين يستمدون شرعيتهم في الحكم من التأييد البريطاني القديم كما سبقت الإشارة . وهكذا عقد الحلف في ٢٤ فبراير بين العراق وتركيا أولا باسم حلف بغداد على أن يكون مفتوحا لانضمام أي دولة من دول الجامعة العربية أو غيرها. ثم انضمت بريطانيا إليه في أبريل ١٩٥٥ وشن عبدالناصر حملة شرسة ضد الحلف لاقت تأييدا من سوريا والسعودية التي رأت في الحلف مظهرا لتمدد الهاشميين في المنطقة .

وفي إطار حلف بغداد سعى الهاشميون في العراق لمد نفوذهم إلى الكويت وتزعم إمارات الخليج باسم التحالف مع الغرب وإقامة إتحاد فيدرالي بينها تحت التاج الهاشمي، إلا أن بريطانيا التي كانت لا تزال تحكم تلك الإمارات بدرجة أو بأخرى وقفت ضد هذه المحاولة، ووقفت ضدها السعودية أيضا إيقافا للمد الهاشمي . ومن المعروف أن ضم الكويت للعراق مطلب قديم منذ إعلان الملكية العراقية حين تخلت تركيا عما تبقى من ولايتها في المشرق العربي بمقتضى معاهدة لوزان ١٩٢٣ إذ اعتقد الهاشميون أنهم ورثة الحكم العثماني في المنطقة حيث كانت الكويت قضاء تابعا للواء البصرة في التقسيم الإداري العثماني هناك. ومن المعروف أن هذا الهدف كان مطمحا

«عراقيا» اتفق عليه الهاشميون والشيوعيون والبعثيون والقوميون فى العراق حتى انتهى نهاية مأساوية بغزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ .

ولما أعلنت الوحدة المصرية - السورية فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ تحرك الهاشميون فى العراق والأردن وأعلنوا بعد يومين من قيامها وفى يوم ٢٤ فبراير بقيام «الاتحاد العربى» لتدعيم موقف الهاشميين ضد المد القومى الناصرى ، وانجرفوا أكثر نحو تأييد مبدأ إيزنهاور الذى كان قد أعلنه فى ٥ يناير ١٩٥٧ بعد قيام عبدالناصر فى أول يناير ١٩٥٧ بإلغاء اتفاقية الجلاء مع بريطانيا لاشتراكها فى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ . وكان المبدأ يقضى بتدخل الولايات المتحدة عسكريا لضمان الاستقلال السياسى لدول المنطقة اللاتى تتعرض لهجوم من دول تحكمها نظم شيوعية. وما لبثت الأوضاع أن انقلبت رأسا على عقب بقيام الثورة فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ ضد الهاشميين فى العراق وأعلنت الجمهورية التى انسحبت من حلف بغداد فى مارس ١٩٥٩ . وبقيام الثورة فى العراق انتهى دور الفرع الرئيسى والأكبر للهاشميين فى المنطقة، ولم يبق إلا فرع الأردن بزعامة الملك حسين الذى وجد نفسه وحيدا وسط محيط عربى معاد لأسباب مختلفة. فكانت النتيجة ارتمائه أكثر وأكثر فى أحضان الغرب الأوروبى - الأمريكى بدلا من أن يلتحف بالغطاء العربى مهما كان متهرئا ممزقا فهو خير وأبقى .

وتولى الملك حسين استكمال المنهج الهاشمى فى السياسة العربية والدولية وأبرز ما فيه عدم تشجيع التقارب العربى الحقيقى، والتنسيق مع إسرائيل سرا ثم علنا بعد رحيل عبدالناصر وحتى قبل أن يعقد السادات اتفاقيته مع اسرائيل فى مارس ١٩٧٩ . والقيام بدور شرطى محدود فى المنطقة يحرس المصالح الأمريكية خاصة بعد القضاء على شاه إيران بثورة مارس ١٩٧٩ ، والاستجابة للمطالب الاسرائيلية فيما يتعلق بالفلسطينيين وفى هذا لا ينبغى أن ننسى مذابح سبتمبر ١٩٧٠ المعروف بأيلول الأسود حين تولى الملك الهاشمى نيابة عن إسرائيل مسح الفلسطينين من الخريطة حتى تزول العقبة الرئيسية أمام تسوية المشكلة . إذ كانت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين تتصدر كل مشروع من مشروعات تسوية علاقات إسرائيل بالعرب . ومن سياسات الملك الهاشمى ومواقفه تحفظ الأردن على قرار القمة العربية فى نوفمبر ١٩٧٣ الخاص

باعتماد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني، وتكرر التحفظ في قمة الرباط في نوفمبر ١٩٧٤. كما تحفظ على ثلاثة قرارات في قمة بغداد ١٩٧٨ (الصمود والتصدي) في مواجهة قرار رفض اتفاقيتي كامب ديفيد، وتعليق عضوية مصر بالجامعة العربية، ومقاطعتها سياسيا واقتصاديا. ولم يكن هذا التحفظ بدافع الشفقة على مصر أو نصرتها، وإنما إرضاء للتحالف الأمريكي - الاسرائيلي الذي لا يشجع على مقاطعة من يتحالف مع إسرائيل..

ومازال الهاشميون يواصلون رسالتهم التقليدية وآخرها قيام الشريف على بن الحسين الذي غادر العراق في أعقاب ثورة ١٩٥٨ وعمره سنتين بتأليف حزب ملكي دستوري يطالب بعرش العراق. ومن يدري فقد يظهر هاشمي آخر يطالب بعرش الحجاز.. وكله مرهون بإرادة النظام العالمي الجديد حسبما يخدم أغراضه في التفكيك وخلق النزاعات بين العرب حتى يكره بعضهم بعضا. ■

كلمات عاشت

● عبقرية العقل تخلق الأعداء والحساد، وعبقرية القلب تخلق الأصدقاء والأحباب.

العقاد

● أنا أؤمن إيمانا قويا بمزايا الصمت، وأستطيع أن أتكلم ساعات وساعات في هذا الموضوع.

برناردشو

● أعطني مكانا خارج الأرض وأنا أحرك الأرض!

أرشميدس

● يحتاج الحق إلى رجلين.. أحدهما ينطق به، والآخر يفهمه.

جبران

● الحرية سجن ما بقي على وجه الأرض إنسان واحد مستعبد.

ألبير كامي

● كنا نسير التاريخ فأصبح يسيرنا.

سارتر

● احذر أن تسخر من أحلام الشباب فإن السخرية منها عارض من أعراض مرض الشيخوخة يسميه المرضى حكمة!

شكسبير

لورانس وسقوط الأسطورة !!

بقلم

د.صبري محمد حسن

إذا كان بالجريف، صاحب كتاب «وسط الجزيرة العربية وشرقها»، قد تنكر فى عام ١٨٦٢ فى زى طبيب مزيف، عجزت السلطات المحلية عن اكتشاف حقيقته، مما جعله يتمكن من جمع مادة كتابه بعيداً عن أعين السلطة وعين رقابتها، ليخرج على القراء وعلى الباحثين، وعلى المهتمين بشئون الجزيرة العربية فى ذلك الوقت بكتاب ينطوى على مادة غزيرة جمعها، من أفواه الناس، وإذا كان بالجريف، قد بعد عن أعين السلطات المحلية تخوفاً منها وتجنباً لها..

وإذا كان شارلز دوتى بعد بالجريف بأربعة عشر عاماً، أى في عام ١٨٧٦ قد حذا حذو بالجريف وانتحل الطبابه وأطلق هو الآخر على نفسه اسما عربيا (خليل) وخاطر بحياته بعد أن رفض القنصل البريطانى التدخل لدى الحاكم التركي فى دمشق لتوفير الحماية اللازمة له



توماس ادوارد لورانس بالملابس العربية

وإذا كان دوتي قد ارتدى الملابس العربية وانضم خلسة إلى قافلة الحج، وقام بالرحلة التى حددها لنفسه دون أن ينكشف أمره عند باشا الحج أو أمير الحج، وينجح في النهاية فى جمع مادة علمية لكتابه الرائع «ترحال فى الجزيرة العربية». إذا كان هذان الاثنان قد تنكرا حباً فى العلم وطلباً للمعرفة. فان فيلبى فى كتابه «قلب الجزيرة العربية» جمع مادته العلمية تحت أعين، وعلى مسمع ومرأى من السلطة، دون تحسب أو تزلف للسلطة لأن فيلبى كان مطلوبا من السلطة ومرغوباً فيه أيضا.

وإذا كان بالجريف قد انطلق من معان، ومنها إلى الجوف ثم إلى حائل، ومنها إلى القصيم ثم الرياض، ثم العودة إلى البحرين، ثم عرج على قطر، وعمان، ومنها إلى البر الفارسي، ثم إلى بغداد ومنها إلى انجلترا مرة ثانية.

وإذا كان دوتي قد انطلق من دمشق ومنها إلى معان، ثم تبوك، ومنها إلى مدائن صالح.

وإذا كان فيلبى قد جاء إلى الرياض قادماً من بلاد الرافدين، وانطلق إلى بلاد الرافدين ليعود ثانية إلى الرياض بإيعاز من ملك بريطانيا والاستخبارات البريطانية لمقابلة ابن سعود ثم يقوم برحلة إلى الجنوب يأتى بعدها إلى الرياض لمقابلة ابن سعود بعد أن استعد لكسر شوكة ابن الرشيد؛ فإن إعداد المسرح بهذه الطريقة الأنيقة الدقيقة لاستقبال هذه السيمفونية العلمية فى المقام الأول، والاستخباراتية فى المقام الثانى يوحى بوجود خيط رفيع بين ماكان يدور فى وسط الجزيرة العربية وجنوبها من ناحية، أى ماكان يقوم به فيلبى وبين ذلك الذى كان يدور فى القسم الغربى، أى الحجاز على وجه التحديد.. ترى هل كان خيط الوسط والجنوب ممتداً إلى المنطقة الغربية؟ هل كانت هناك علاقة من نوع ما بين ما يدور هنا وهناك فى الجزيرة العربية على أيدى البريطانيين فى فترة مابعد الحرب العالمية الأولى وما قبلها؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تجرنا إلى التركيز على الدور الذى كان يلعبه توماس إدوارد لورانس، الذى اشتهر بكنية «لورانس العرب»، فى الجانب الغربى فى ذلك الوقت؟ ماذا كان ظاهر هذا الرجل؟ وماذا كان باطنه؟

هذا اللورانس كان جنديا ورجل استخبارات وجاسوساً وكاتباً. عمل لحساب الاستخبارات البريطانية فى شمال أفريقيا فى الفترة من ١٩١٤ - ١٩١٦. وفى العام ١٩١٦ الميلادى وبترتيب أيضا من الاستخبارات انضم إلى الثورة العربية على الأتراك.

بين الذيوع والخمول

ذاع صيت توماس إدوارد لورانس بعد الحرب العالمية الأولى على أثر الدور البارز الذى لعبه يوم أن كان ضابطاً بريطانياً للاتصال طوال فترة الثورة العربية فى الفترة من ١٩١٦ - ١٩١٨. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى طاف لويل توماس الصحفى الأمريكى فى بريطانيا وفى الإمبراطورية ليقدم للناس عرضا بارزاً ناجحاً باستخدام الشرائح يوضح المنجزات العظيمة التى حققها لورانس. هذه القصة الرومانسية التى رواها ذلك الصحفى عن الحملات والمهام التى قام بها لورانس فى بلاد العرب واللنبى فى الأراضى المقدسة استحوذت استحواذاً كبيراً على خيال الجمهور البريطانى الذى سبق أن استحوذت عليه الحكايات المريعة عن حرب الخنادق التى دارت على الجبهة الغربية. ومن هذه البداية الصغيرة ذاع صيت لورانس وعمت شهرته الآفاق.

زد على ذلك ، أن حقائق مغامرات لورانس العسكرية زادتها الأساطير لبثا، فضلا عن

أن شخصية لورانس نفسه، لا تزال إلى يومنا هذا هدفا مفضلا للجدل والنقاش الشعبى فى بريطانيا. ومع ذلك، وبعد إفراج المحفوظات البريطانية فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، عن المستندات الخاصة بالعمليات التى دارت فى الشرق الأوسط، أكدت تلك المستندات والوثائق أن عمل لورانس مع العرب لا يقل روعة عن روعة الأساطير.

لورانس نفسه لم يكن يرغب فى أن يكون بطلاً: وهو لا يطيق الحديث عن دور فى زمن الحرب، إذ كانت كل مطامع لورانس تتمثل فى أن يكون كاتباً. وقد عبر ذاته مرة عن أمله هذا بقوله: «فى المستقبل البعيد، أن قدر لذلك المستقبل البعيد أن يأخذ تفاهتى بعين اعتباره، أتمنى أن يقيمنى الناس كصاحب أفكار لا كصاحب أعمال».

سمعة لورانس الأدبية ترتكز على مادة كتابية، القسم الأكبر منها من قبيل السيرة. وهذه المادة الكتابية تشتمل على حوالى ٦٠٠٠ رسالة كتبها لورانس فى الفترة مابين عام ١٩٠٦ الميلادى ووفاته فى عام ١٩٣٥، فضلا عن كتابين آخرين من كتاب السيرة غير الذاتية أولهما: أعمدة الحكمة السبع، الذى يحكي فيه قصته أو أن شئت فقل حكاية عمله مع الثورة العربية؛ وثانى هذين الكتابين هو كتاب أسماه «الابتكار» ويتناول فيه تجاربه وخبراته عندما كان مجندا مجهول الاسم فى صفوف القوات الجوية يمضى فيها حياته بعد عام ١٩٢٢، هذا الكتاب أدهش الكثيرين من معاصريه وسبب لهم الكثير من القلق والإزعاج.

أسلوب كتب الملاحظة الدقيقة

من يقرأ هذين الكتابين، هما ورسائل لورانس يكتشف انه كان مراقبا دقيقاً للناس، وللأماكن، والأحداث أيضا. ومن بين المقطوعات التى تنبض بالحياة والحيوية، فى كتابه «أعمدة الحكمة السبع» تلك الأوصاف التى يقدمها للمناظر الطبيعية الصحراوية والبدو الرحل الذين شاركهم حياتهم. وكتاب «الابتكار» الذى كتبه لورانس بأسلوب مختلف تماما عن أسوب «أعمدة الحكمة السبع» يشبه إلى حد بعيد أسلوب كتب الملاحظة الدقيقة، التى يكتبها مؤلفون على درجة عالية من الذكاء وجدوا أنفسهم محبوسين بلا ذنب أو جريرة. الفارق هنا بين الكتابين أن لورانس خلص كتابه الأول من الأوصاف التى شاهدها مرات ومرات.

رسائل لورانس تحظى هى الأخرى بصيت ذائع. وأصدقاء هذا الرجل يتدرجون من رفاقه وزملائه وأصدقائه فى صفوف الخدمة العسكرية إلى كبار الشخصيات العالمية، فى الأدب، الفن، والسياسة. ونظراً لأن ظروف حياة لورانس كانت لا تسمح له بلقاء الأصدقاء، فقد كانت رسائله فى كثير من الأحيان، الوسيلة الوحيدة للمحافظة على هذه العلاقات.

ترى، هل نحكم على لورانس من منطلق أنه كان من رجال الأفكار، أم من منطلق كونه رجلاً من رجال الأعمال؟ هذه القضية ظلت معلقة إلى أواخر القرن العشرين.

شباب لورانس

اشتهر لورانس بين افراد أسرته باسم «نيد»؛ هذا النيد ولد فى عام ١٨٨٨ فى مقاطعة ويلز. وكان ترتيبه الثانى بين خمسة أبناء غير شرعيين أنجبهم السير توماس شابمان، ذلك البارون البريطانى - الأيرلندى، من ساره جونر، التى كانت من قبل فى أسرة شابمان، تعمل مربية لشقيقات توماس الأربع الشرعيات. وبعد أن هربا سويا أطلقا على نفسهما

لقب لورانس.

فى عام ١٨٩٦ استقر الاثنان فى مدينة اكسفورد، التى عاشا فيها عيشة زوج وزوجة. والتحق أبناؤهما بالمدرسة الثانوية للبنين فى مدينة اكسفورد. ومن تلك المدرسة، حصل نيد، أو بالأحرى توماس إدوارد لورانس على منحه لدراسة التاريخ فى كلية يسوع فى جامعة اكسفورد. وفى عام ١٩١٠ الميلادى حصل لورانس على مرتبة الشرف الأولى فى الامتحان النهائى، وذلك عن أطروحة شهيرة ألفها عن القلاع الصليبية. وقد اشتملت الأبحاث التى أجراها على القيام بجولة طويلة سيرا على الأقدام فى كل من فلسطين وسوريا.

كان لورانس مفتونا، منذ طفولته، بالآثار. وبعد أن تخرج لورانس فى الجامعة عمل فى الفترة من ١٩١٠ إلى ١٩١٤ مساعداً مع فريق المتحف البريطانى للتنقيب عن الآثار فى مدينة كارشميش الحيثية على نهر الفرات. كانت المهام المسندة إلى لورانس ضمن هذا الفريق تقتصر على التصوير، والخزف، وإدارة العمالة المحلية. وفى كارشميش تعلم لورانس كيف يحفز القرويين العرب، وذلك على العكس تماما من الإنجليز الذين كانوا يعملون فى الإمبراطورية البريطانية، دون الاستعانة بالقانون العسكرى البريطانى أو السلطة الاستعمارية.

بعد نشوب الحرب، امضى لورانس فترة وجيزة فى القسم الجغرافى فى أركان الجيش البريطانى العامة فى مدينة لندن. ثم نقل بعد ذلك للعمل ضمن إدارة الاستخبارات الحربية فى القاهرة، التى أسندت له فيها بالإضافة إلى أشياء أخرى، مهمة الخبير فى حركة التحرير القومية فى الأقاليم التركية التى كانت تشتمل فى ذلك الوقت على كل من سوريا ولبنان، وفلسطين، والأردن، وأقليم الحجاز من السعودية.

وفى أكتوبر من العام ١٩١٦ الميلادى، أوفد فى مهمة لتقصى الحقائق فى الحجاز، التى قام فيها الشريف حسين فى مكة بثورة على الحكم التركى الأميريالى. وقد أسفرت نوعية التقارير التى كان يكتبها هو وتقمصه الوجدانى لزعماء العرب إلى قيامه بدور طويل لعب فيه دور ضابط الاتصال فى الثورة العربية، بأن راح يعمل ضمن القوات التى كان يقودها الأمير فيصل، أحد أبناء الشريف حسين الأربعة.

حملات الحجاز

فى المراحل الأولى من الثورة العربية، حرّض المستشارون العسكريون البريطانيون والفرنسيون، العرب على الاستيلاء على معقل المدينة المنورة وقطع خط حديد الحجاز الذى كان بمثابة خط الإمداد التركى المتجه جنوبا إلى الحجاز قادما من دمشق.

وسعياً إلى تحقيق هذا الهدف، وبمساعدة من البحرية الملكية تحركت قوة الأمير فيصل الرئيسية، فى ربيع عام ١٩١٧ شمالاً، متجهة إلى أعالى ساحل البحر الأحمر، أو بالتحديد من ينبع إلى منطقة الوجه . وما أن وصلت تلك القوة إلى الوجه حتى أصبحت تشكل تهديداً خطيراً لخطوط المواصلات التركية.

تناهى إلى مسامع استخبارات الحلفاء، بعد ذلك مباشرة، أن الأتراك يخططون للانسحاب الكامل والحاسم من المدينة المنورة. وبينما كان ذلك يحظى برضا الشريف حسين، كان مركز الرئاسة البريطانى فى القاهرة يخشى قيام الأتراك بنقل هذه القوات إلى الجبهة الفلسطينية، ومن ثم يمكن أن تكون مثل هذه القوات عقبة إضافية أمام التقدم

البريطاني. وهنا عجلت القاهرة بالتماس مفاده أن العرب يتعين عليهم منع الأتراك من الانسحاب من المدينة المنورة.

ومن باب الاستجابة لذلك الالتماس وتحقيق ذلك المطلب، ابتكر لورانس استراتيجية جديدة. وفي ضوء هذه الاستراتيجية يسمح العرب لخط حديد الحجاز بالاستمرار في العمل، اللهم باستثناء القيام ببعض الاغارات من حين لآخر، لإحداث بعض الأضرار البسيطة، في بعض المواضع على طول الخط الحديدي، تؤدي في النهاية إلى توقف عمل ذلك الخط لبضعة أيام قلائل في المرة الواحدة. يترتب على ذلك أن تصبح مسألة الانسحاب من المدينة المنورة أمراً مستحيلاً في واقع الأمر، ويترتب على ذلك استخدام عدد كبير من الجنود الأتراك وعمال الإصلاح، لنشرهم على طول الخط الحديدي للدفاع عنه واستمراره في العمل. وبدأ تنفيذ هذه الاستراتيجية، ومن ثم أمكن إصابه القوة التركية الموجودة في المدينة، بالعجز اعتباراً من ذلك التاريخ.

الاستيلاء على العقبة

كان الموقف على مايرام في الحجاز في منتصف عام ١٩١٧ الميلادي، ولكن كل من لورانس والأمير فيصل كانا يريدان مد الثورة وتوسيعها في اتجاه الشمال لتشمل دمشق وما بعدها. تحقيق مثل هذا الهدف يتطلب كفالة حرية الحركة لقوات الغزو العربية، وبخاصة أن حرية الحركة في ذلك الوقت كانت أمراً مستحيلاً في المناطق الزراعية المستقرة في كل من فلسطين ولبنان. يضاف إلى ذلك أن أية عمليات في الشمال يجب أن تعتمد على الداخل، وبخاصة في منطقة الصحراء الواقعة في ناحية الشرق.

تنفيذ هذا المقترح واجهته مشكلة حرجة: إذ كيف تستطيع مثل هذه القوات الحصول على المؤن والتموينات اللازمة لها؟ يضاف إلى ذلك انه لم يكن هناك طريق فعلي للإمداد يصل إلى هذه المناطق قادما من أقرب المناطق التي كانت تحت أيدي وسيطرة البريطانيين في ذلك الوقت. فإن لورانس كان يعرف أن هناك طريقا واضحا ولكنه بحاجة إلى التأمين. كان ذلك الطريق يتمثل في ذلك «المدق» الذي يؤدي إلى الداخل قادما من العقبة عند الطرف الشمالي من البحر الأحمر. كانت العقبة هي ومنطقتها الجبلية الداخلية، في أيد الأتراك، ولكن هل يمكن الاستيلاء عليهما؟

كان لورانس قد سبقت له زيارة العقبة قبل الحرب، وعلم عن طريق عمله الاستخباري في القاهرة أن الأتراك كانوا قد شيدو دفاعات قوية في الممر الضيق المؤدي إلى وادي إتم. من هنا، إذا كان من السهولة بمكان الاستيلاء على العقبة عن طريق البحر، فإن وادي إتم يستحيل الاستيلاء عليه. ومن ثم فإن العقبة وحدها بدون ذلك الوادي تصبح عديمة القيمة. وهنا ابتكر لورانس خطة جديدة، مستخدما فيها معرفته بالمكان وبالسكان القبليين المحليين أيضا، قام بمقتضاها بتوسيع الدائرة الداخلية من خلال الصحراء. وطبقا لهذه الخطة تقوم جماعته الصغيرة بتشكيل قوة محلية، تستولى على دفاعات وادي إتم وذلك عن طريق مهاجمته من الخلف.

تحققت تلك الخطة في اليوم السادس من شهر يوليو من عام ١٩١٧ الميلادي، إذ استولى العرب بمقتضاها على كل من العقبة وعلى الممرات الجبلية الحيوية. بعد ذلك بأربعة أيام، فاجأ لورانس الذي سبق له أن سافر على ظهر جمل عبر شبه جزيرة سيناء،

مركز الرئاسة البريطاني في القاهرة، بمجيئه طالبا إمدادات عاجلة.

العملات السورية

استطاع لورانس بذلك، أن يصبح همزة الوصل الرئيسية بين كل من الجنرال اللنبي، القائد الجديد للقوة العسكرية المصرية الجديدة التي تعمل خارج أراضي الوطن، وجيش الأمير فيصل، مع اتساع رقعة الثورة ازداد الدور الذي يلعبه لورانس أهمية على أهميته.

وضع اللنبي خطة للتقدم في اتجاه الشمال، ولكن خط الإمداد التركي الرئيسي كان يتمثل في خط الحجاز الحديدي وفرعه المؤدي إلى فلسطين. هذا الخط الحديدي كان شديد الانحدار داخل الأراضي التي تسيطر عليها تركيا، الأمر الذي صعب على اللنبي مسألة الهجوم على ذلك الخط. هذا يعني أن مثل هذا الخط يمكن أن يكون معرضا ومكشوفا إذا ما هاجمته من الداخل قوة عمليات خفيفة. وهنا وعد لورانس بقيام الجيش العربي بقطع ذلك الخط في الوقت المناسب. يضاف إلى ذلك أن السكان المحليين سيقومون بالثورة في المرحلة النهائية ويمنعون القوات التركية من الانسحاب. وبعد سلسلة من التأخيرات والتعطيلات، والأحداث السيئة على الجانب البريطاني جرى تنفيذ هذه الخطة في شهر سبتمبر من عام ١٩١٨ الميلادي. وعندما بدأ اللنبي تقدمه، اكتشف الأتراك قطع خطوط مواصلاتهم، وجرى الهجوم من كل جانب بواسطة رجال القبائل على القوات التركية كلها على شكل هزيمة ساحقة.

الرواية التي أوردها لورانس في كتابه المعنون «أعمدة الحكمة السبع» عن الثورة العربية، تدعمها الوثائق العسكرية البريطانية التي جرى الكشف عنها أخيراً. وهذه الوثائق تثبت أن نفوذ لورانس الشخصي في الفترة مابين شهر يوليو من عام ١٩١٧ وشهر سبتمبر من عام ١٩١٨ جرى التقليل من شأنه ولم يوف حقه في ذلك الكتاب.

عجل لورانس بعد الاستيلاء على دمشق بالعودة إلى إنجلترا حتى يتسنى له مساعدة ذلك الذي كان يسميه، قضية استقلال العرب، التي كان يؤمن بها إيمانا ظاهريا. ولذلك انضم إلى الوفد البريطاني الذي أوفد إلى مؤتمر باريس للسلام في عام ١٩١٩ الميلادي، وراح يعمل بصورة، قيل: إنها كانت وثيقة مع الأمير فيصل، ولد الشريف حسين.

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت على دراية كاملة بالإنجازات التي حققها لورانس، إلا انه لم يكن معروفا لدى عامة الشعب، بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. هذه الصورة تغيرت في عام ١٩١٩ الميلادي بعد وصول الصحفي الأمريكي «لويل توماس» إلى لندن. هذا التوماس، سبق أن قام بزيارة قصيرة إلى العقبة أثناء الثورة العربية، وشجعه لورانس على الكتابة عن كفاح العرب من أجل الحرية والتحرير. عندما وصل ذلك الصحفي إلى لندن كانت لديه مادة غزيرة تشتمل على محاضرات وشرائح، وأفلام وموسيقى بل ورقص أيضا.

هذه القصة الرومانسية التي رواها ذلك الصحفي الأمريكي عن الانتصارات التي جرت في أرض الكتاب المقدس (الانجيل) لقيت نجاحا مدويا في بلد أصابته المخاوف من حرب الخنادق الأوروبية، بالخدر وانعدام الإحساس. وسرعان ما تحول لورانس، على إثر ذلك، إلى بطل شعبي، كما اكتشف لورانس أن تلك القصة زادت من ثقل حملته السياسية. وبذلك تصبح هذه هي الفترة الوحيدة، من حياة هذا الرجل، التي سعى خلالها إلى توسيع دائرة

شعبيته، وراح يجرى المقابلات الواحدة تلو الأخرى، متطلعا، من وراء كل ذلك، إلى مساندة ما يسمى بالقضية العربية.

عاد لورانس إلى إنجلترا وأمضى جزءا من حياته فى مدينة اكسفورد، التى حصل من جامعتها على منحة بحث من كلية أول سولز، كما أمضى أيضا جزءا من حياته فى سكن تحت سطح المنزل استأجره من صديق له فى المنزل رقم ١٤ بشارع بارتون، فى مدينة لندن، فى تلك الأثناء كان لورانس قد بدأ فى تأليف كتابه المعنون «أعمدة الحكمة السبع»، عندما كان فى بارس «ولكن مسوداته هى وبعض الكراسات التى كان يدون فيها ملاحظاته كانت قد سرقت منه فى خريف العام ١٩١٩. وطوال العام ١٩٢٠ أعاد كتابة الكتاب معتمدا على ذاكرته، ثم بدأ بعد ذلك فى تصحيح الكتاب فى ضوء المصادر التى أمكنه العثور عليها.

بانتهاء العام ١٩٢٠ الميلادى، أدت محاولات فرض إدارة استعمارية بريطانية على العراق إلى استثارة العداء والتمرد العلنى، وترتب على ذلك، أن راحت الحكومة البريطانية تنفق مبالغ طائلة على عملية القمع. وجرى تعيين ونستون تشرشل وزيرا للمستعمرات على أمل أن يجد لتلك المشكلة حلا. وهنا استطاع تشرشل إقناع لورانس، الذى كان يشن فى الصحافة حملة على سياسة الحكومة فى ذلك الوقت، على الانضمام إليه فى وزارة المستعمرات ليكون مستشارا له. ويجب الا يغيب عنا هنا أن لورانس كان له دور فى اعتلاء الأمير فيصل عرش العراق، كما كان له دور أيضا فى تأسيس مملكة شرق الأردن «الاردن فيما بعد»، وبالرغم من أن هذين البلدين كانا لايزالان تحت الوصاية البريطانية إلا انهما تمتعا بعد ذلك بقدر كبير من الحكم الذاتى، وفى صيف العام ١٩٢٢ الميلادى، احس لورانس، فى حدود السلطة والنفوذ البريطانى ، ان تشرشل استطاع التوصل إلى تسوية أو حل مشرف لتلك المشكلة.

الخدمة فى صفوف القوات المسلحة ١٩٢٢ - ١٩٣٥

فى تلك الأثناء انجرف لورانس فى سلسلة من الذكريات الخطيرة، فبعد أهوال الحرب وضغوطها عمل لورانس مدة ثلاث سنوات فى مجال السياسة، تلاها انشغاله وتوتره توترا شديدا عندما استهل العمل فى كتاب بلغ عدد صفحاته الألف صفحة. وكان يؤمل له أن يكون فى مكانه رواية «الحوت الأبيض» التى ألفها شتاينبك، او رواية «الاخوة كرامازوف لدستوفسكى، وحرصا من لورانس على سلامته العقلية استقال من وزارة المستعمرات، وراح يبحث لنفسه عن ملاذ فى صفوف القوات الجوية الملكية، التى سجل نفسه فيها تحت اسم جون هيوم روس وبعد مضى أربعة اشهر اكتشفت الصحافة أمره وجرى على أثر ذلك تسريحه أو إن شئت فقل إخلاء سبيله من القوات الجوية الملكية. عند هذا الحد. كان لورانس على قناعة تامة بأن الانخراط فى صفوف القوات المسلحة البريطانية هو السبيل الوحيد الذى يتمناه وتتوق إليه نفسه، من هنا وبمساعدة من أصدقائه الذين كانوا يشغلون مناصب رفيعة أعاد لورانس تسجيل نفسه من جديد فى سلاح الدبابات البريطانى تحت اسم توماس إداواردشو خدم لورانس فى ذلك السلاح حتى منتصف العام ١٩٢٥ الميلادى، فى معسكر بوفينجتون فى مدينة دورسيت وخلال هذه الفترة استأجر لورانس كوخا صغيرا اسمه كلاودز هيل، ويقع بالقرب من المعسكر.

بعد انتهاء العام ١٩٢٣ الميلادى انفق لورانس كل وقت فراغه بل وسخر كل طاقته لمراجعة الطبعة التجارية من كتابه «اعمده الحكمة السبع».

وفى منتصف الطريق أثناء القيام بذلك العمل، نجح لورانس مرة ثانية في الانتقال من سلاح الدبابات إلى القوات الجوية الملكية البريطانية مرة ثانية، وفى نهاية العام ١٩٢٦ قبل لورانس إحدى الوظائف فى الهند، حتى يصبح بعيدا عن متناول الصحفيين بعد نشر النسخة المختصرة تحت عنوان «ثورة الصحراء» واقبل الناس على اقتناء الكتابين: «ثورة فى الصحراء»، «أعمدة الحكمة السبع» الأمر الذى عجل بسداد القرض الذي كان لورانس قد أخذه من البنك، ومن المحتمل أن يكون لورانس قد أثرى على حساب هذين الكتابين، ولكنه وجه كل المبالغ التى زادت على تكلفة النسخة المختصرة إلى وجوه البر والإحسان.

بعد أن انتهى لورانس من كتاب «الابتكار» قبل تكليفا بترجمة الأوديسا التى كتبها هوميروس، ولم ينته من ترجمتها حتى العام ١٩٣٢، وقبل هذا التاريخ، وبالتحديد فى نهاية العام ١٩٢٨، اضطر لورانس، كالعادة، إلى العودة إلى إنجلترا على إثر بعض الشائعات الصحفية حول قيامه ببعض أعمال الجاسوسية فى الهند.

نقلت الاستخبارات لورانس بعد ذلك إلى وحدة من وحدات الطائرات المائية فى مدينة بليموث، التى التزم فيها التزاما شديدا بواحدة من القضايا الجديدة، فقد شاهد لورانس فى مطلع العام ١٩٣١ الميلادى حادث تحطم واحدة من تلك الطائرات بالقرب من الشاطئ، ولكن لنش الإنقاذ بلغت سرعته من البطء حدا تعذر معه الوصول إلى مكان الحادث على وجه السرعة الأمر الذى أسفر عن وفاة من كانوا فى الحادث بلا داع أو مبرر، فى ذلك الوقت. كان لورانس قد أعاد تجديد لنش ميكانيكى أمريكى سرعته أكبر بكثير من اللنش سالف الذكر، واعتبارا من تلك اللحظة، راح هو وقائده (الذى كان صديقا وفيا للورانس) يتزعمان حملة لاستخدام القوات الجوية الملكية لتلك اللنشات الأمريكية، الأكثر من ذلك، أن لورانس أصبح أكثر انشغالا بتطوير هذه المركبات، الأمر الذى جعله ينفق سنواته الأخيرة فى القوات الجوية، فى العمل فى أحواض بناء السفن وهو يرتدى ثيابا مدنية، أسفرت الجهود التى بذلها لورانس، مع مطلع الحرب العالمية الثانية فى العام ١٩٣٩ عن تزويد القوات الجوية الملكية بأسطول من تلك اللنشات السريعة، لا لشىء سوى إنقاذ حياوات الكثيرين من البشر.

لم يطل عمر لورانس كى يشهد ذلك التغيير، فقد انتهت فى شهر مارس من عام ١٩٣٥ الميلادى فترة انخراطه فى صفوف القوات الجوية الملكية التى دامت اثنى عشر عاما. تقاعد لورانس من الخدمة، وعاد للعيش فى كوخه اللندنى الصغير كلاودز هيل، وفى ذهنه خطة لإنشاء مطبعة صغيرة ينتج فيها طبعة من كتابه المعنون «الابتكار»، وفى شهر مايو من العام ١٩٣٥ الميلادى وبينما كان يركب لورانس دراجته النارية فى جولة محلية، انحرف عن مساره تفاديا لاثنين كانا يركبان دراجتين، فطاح من فوق دراجته النارية ساقطا على الأرض، وقد أسفر ذلك عن إصابته بإصابات بالغة فى الرأس، فقد وعيه على أثرها، ليموت بعد ذلك بأيام قلائل. ■

الفن والقمامة

التناثر قمة إحكام التفكيك
والتفكيك قمة الإبداع!!
الاحتفاء بالمتلقي الغافل بعد عرض النفايات
وبقايا الكائنات!

بقلم
د. محمد المهدي

دعت منحوتات (هنري مور) الأطفال للولوج إلى داخلها، والأنس بحميمية أحضانها. ودعا النحات (جياكوميتي) الأنامل للمس نتوءات منحوتاته الرشيقة. كانت بداية قلق الفنان من فصل العمل الفني عن متلقيه. مع الزمن تحول القلق إلى تمرد. ازداد التمرد فتحول إلى جنوح وجنون.

وفي أحد معارض هذا الجنون أعلن أصحابه في باريس، أنه قد آن الآوان لأن تحكم التفكيكية الفنون التشكيلية.

نماذج من النفايات البشرية - من فنون التفكيك



عرضوا النفايات، وبقايا الكائنات.. التناثر فيها قمة أحكام التفكيك.. والتفكيك في نظرهم قمة الإبداع. ولكي تخلو ساحتهم من عين الرفيق الفنان . طردوه من الساحة. رفضوه. منعوه من دخول معارضهم. رحبوا فقط باستقبال المتلقي الصامت.. الغافل .. اعتبروه هو النص. أو هم النصوص وما عداهم لصوص يسرقون العقول والجيوب.

والمدهش أنهم تعساء لاندهاش الناس. فاندهاش الناس يدل على تخلفهم. إذن عليهم بمزيد من المبالغة حتى تختفي الدهشة!!

التشكيل والمسرح

لقد كانت للأوعية الإبداعية غير المسرح والرواية محاولات للتمرد على التبعية لفن آخر. وصل (بيتهوفن) إلى الموسيقا المجردة، أي عدم الترجمة أو التعبير، أو الاستلهام المباشر من إبداع سابق سواء من صورة أسطورية، أو حكاية شعبية، أو رواية دينية، أو شخصية درامية مسرحية، أو روائية سابقة. وجاء دور التشكيل للتمرد فكانت المدرسة (التأثيرية) متمردة على الواقعية ومن قبلها الكلاسيكية الجديدة. فالمادة في المدرستين مستمدة عادة ومنذ أيام نهضة (أنجلو) و(دافنشي) و(رفائيل) من الأسطورة، أو القصة الدينية، أو النتاج الدرامي القديم. ودعت المدرسة التأثيرية إلى اجروميه جديدة (ألفها) اللون. و(ياؤها) الضوء.

لكن الموسيقا عادت تستهدى في صورة حوار بين فن وآخر بخطوات المقروء المسبوق. عادت تصور من عالم الأدب ما يعرف بالقصيد السيمفوني.. أو فن الباليه، أو الأوبرا. فكلها أوعية إذا لم يوضع لها خصيصا النص، فإنها تستعين بالنص الأدبي كما تفعل السينما في نقل الأعمال الروائية الكبيرة إلى الشاشة.

واقتضى إصرار حركة التمرد التشكيلي على السردية، أو النقلية، أو الاستعارية أو حتى الاستلهامية من حدث خارجي أو فن مباشر، اقتضى الدخول في دائرة التجريد في الشكل واللون.أو تبلور المدرسة التجريدية للوصول إلى الاستثنائية الجمالية في عيون المتلقي دون وسيط.



الأجداث في بعض العروض التشكيلية

وأنتج (توفيق الحكيم) مسرحا ذهنيا يصلح للقراءة أكثر من الأداء المسرحي، ومسرحا لا يصلح إلا على خشبة المسرح. أنتج من النموذج الأول والذى تفوق فيه (أهل الكهف) و(بجماليون) و(شهرزاد) وغيرها. وأنتج من النموذج الثانى (رصاصة فى القلب) و(الأيدى الناعمة) و(الصفقة).

والفرق بين المسرحين عند الحكيم هو الفرق بين الفن المعد للقراءة، والفن للرؤية. وأن عد البعض - وأنا منهم - أن المسرح الذهنى هو المسرح الذى يدعو للتفكر أى تحريك ذهن المتلقى وليس مجرد التلقى فى مقعد هادىء.

لغة خاصة للسينما

وجاءت محاولات السينما فى الاستعارة من فنون الكلمة. القليل من الأفلام نجح والكثير فشل. وما نجح كان فنا من الدرجة الثانية إذا صح التعبير، أو مذكرة تفسيرية للنص الأصلى. وليوسف إدريس قصة (على ورق سلوفان). تروى أن زوجة جراح مشغول تعيش حالة فراغ. زوجها يعاملها باهتمام، يلفها فى ورق سلوفان. ولكنها تضيق بالرتابة ولذلك تشدها شخصية هشام الآمرة. إلى أن تذهب إلى المستشفى . ويثير ذلك اهتمامها فتضيع من ذهنها صورة هشام.

والقصة بهذه الخطوط العريضة تذكرنا بمسرحية (المتحذلقات) لـ (موليير) . تناقش أيضا الإعجاب بالجانب الشكلى دون المضمون. قصة فتاتين لا يثير أعجابهما سيدين لا يجيدان فنون الغزل وسلوك الفروسية. ويأتى خادمهما ويصطنعان شخصية السيدين مع قدرة هذين الخادمين على التلاعب بالألفاظ والغزل. فيثيران إعجاب الفتاتين إلى أن ينكشف أمرهما. وقصة يوسف إدريس ومسرحية (موليير) إذ خرجنا منها بالجانب السردى السطحى نكون قد ظلمناهما . وهذا ما فعلته السينما حينما قدمتهما . وهذا ما يسر أيضا للسينما تقديم قصة إدريس (قاع المدينة). فالأحداث فيها يمكن أن تشغل (الشريط) دون الانشغال بالمضمون. وهذا ما حدث بصورة (أعمق) تشويها لبعض أعمال نجيب



فنون النفايات فى أكاديمية الفنون الجميلة - باريس

محفوظ على الشاشة.

وحاولت السينما أن تستقل بلغة خاصة فيما يعرف بسينما (المخرج) أو (المنتير) أو (المصور).. ونجحت أحيانا.. ولكن بحكم عناصر السينما جاءت لغة غير موحدة فى غالبية الأحيان مهما حاول قائد المجموعة أن يسيطر على ناصية هذه العناصر. وفى فيلم (اليوم السادس) الذى أخرجه (يوسف شاهين) عن قصة الكاتبة (أندرية شديد) أضاف شاهين وحذف ليحكم رؤيته بأدواته السينمائية. ودار الحديث والتساؤل. أيهما قدم المضمون أفضل من الآخر؟ ولكن أى مضمون إذا كان شاهين قد غيره من أساسه.

وإذا كان قد نجح فى هذه الاستقلالية فهل يحسب عمله فنا

مستقلا، أم فنا تابعا؟ أقصد بلغة الموسيقا انه وضع تنويعه على لحن الأساس الذى وضعته (شديد).

المبدع والدائرة الدرامية

وجاءت مرحلة تمرد الفنون جميعا من رواية ، ومسرح، وتشكيل وشعر. وموسيقا، على القوالب القديمة، فى عصر الحرية والتحلل فى أن فتح الباب على سديم عظيم. اندهش المبدع وحاول أن يتوازن. حاول التقعيد لمحاولته الجديدة رغم ان منطقها فى كثير من الأحيان يرفض التقعيد، أو القولبة، فهو يحاول أن يمسك بناصية فنه بكافة أدواته وإمكانياته ولكنه يسعى إلى هذا الطموح فى زمن يسير مسارا عكسيا. يسير إلى توسيع دوائر المعرفة وتداخلها الى اقصى جهد، وأكبر تسارع.. واقتضى هذا ضرورة تصغير دوائر التخصص فى حدود قدرات البشر. وربما هذا ما يرد المبدع الى الدائرة الدرامية التى تحفزه الى طموح امتلاك عناصر متناهى الصغر كرمز لامتلاكه عناصر متناهى الكبر.

ومحاولة تقديم المتناهى الصغر والكبر فى أن متحرك أدت بالبعض إلى الغموض والى تفكك يردنا الى حالة شبه طوطمية. فالحرية لمجرد الحرية تنتمى لنفس نتيجة القدسية لمجرد القدسية. واقصى اليمين يتفق مع اقصى اليسار فى موقف التعصب والعنصرية.

محاولة إنتاج ما يتصوره البعض إمساكا بناصية ما يدور فى الرأس، أدت إلى اغلاق النص داخل تفككه. بما احتاج من المنتج فى محاولة التبرير الى ان يكون القارىء معادلا لحالته حتى يستطيع فهم نصه، غافلا حالة التنوع والتحرك الدائم داخله وداخل قارئه والتى يدعى بها. وادعى انها كانت محركه الاول للإبداع.

وهكذا انتهى إلى التفكيك من حيث أراد الإمساك بناصية العمل. واعتقد ان هذه الحالة قد ادت الى صاحب هذا النص نفسه وفى غالبية الاحيان لا يفهم ما أراده عندما يعيد القراءة، او المشاهدة أو السماع لما انتج. والغريب انه يبرر ذلك فى غالبية الأحيان بما يدعيه أو يسميه خصوبة النص. اى انك تفهم منه فى كل مرة معنى جديدا - هذا إذا قبل ان يقدم



الفنان البلغاري كريستو ومشروع تغطية جسر بون نوف

تفسيرا - وهذا بالضبط حالة ما يسمى بالشعر الجديد.

وإذا كانت جماعة (الديوان) قد هاجمت شعر شوقى وحافظ فى زمانهما لان القصيدة عندهما تفتقر الى الوحدة. اى انك تستطيع تغيير توزيع البيان دون خلل فى الشكل. وتستطيع بالتالى بلعبة المنطق ان تعلل وتفسر التركيبة الجديدة. فان المدعى بالشعر الجديد قد انتهى الى نفس النتيجة.

اى انك تستطيع ان تغير مواضع الكلمات دون خلل فى الشكل، وتستطيع تحت شعار خصوبة النفس، او فى الحقيقة باللعبة السوفسطائية ان تصطنع له من المعانى الكثير الكثير. والاطرف انه كلما غمض التفسير نفسه، كان هذا

في صالح دعوة هذا المدعي. لان ذلك يتسق مع منطق خصوبة النص. او حاجته الى تفسير جديد.

وهكذا ينتهي الامر باللانهاية .. اي إضافة حاشية للحاشية، وحاشية لحاشية الحاشية.. ويختفي المتن!

تفكيك التشكيل

ونعود الى التشكيل، اكثر الفنون تعرضا للتناثر والضياع اذا ما دخلتها جرثومة التفكيك باسم التحديث.

توسعت دعوة الخروج من إطار البناء المخصص للفن أو العرض الفني، الى خروج مواد او تحف العرض باتساع الأفق الخارجي، ثم الى تحويل الافق نفسه الى مادة تعبير فني تشارك فيها البيئة مع ابداعات الفنان.

ظهر فن البيئة، فقام (دومنيك تينو) بتجربة تحريك أغصان ببطء وكأنها تعوم في مياه آسنة. تتدافع الى مصيرها المحتوم. وقدم الفنان البلغاري (كريستو) حواجز قماشية تصل إلى خمسة امتار ارتفاعا مشيدا بها جدار الصين الجديد. ثم قدم تجربة شق المحيط بطول أربعين مترا، أو تغليف جسر (بون نوف) على نهر السين في باريس. أو تغليف برلمان برلين. وقام الفنان الجزائري عبدالله بن محجوب بفرش عدة كيلو مترات في طريق الشمال الفرنسي بحياكته المشتقة من المخطوطات والتعاويد العربية.

وارتبط بفن البيئة فن التصحر وضعه الايطالي (جرمانو سيلان) مرتبطا بصحراء (نيفادا). وقام الفنان (م . هايزر) بانتزاع صخرة تزن عشرة أطنان بالات ضخمة من الأرض ثم اعادها الى نفس حفرتها مع تعديل زواياها لتحمل بصمات الحوار الحسي بين المبدع ومادة الطبيعة. وتعددت التجارب.

فن البيئة، او التصحر تعبير عن حالة من قلق الفنان أمام حالة اقتراب الكون منه وابتعاده عنه في آن. قلق من حصار المكان. حصار الثقافة. حصار المادة المعروضة. ومن جانب آخر طموح متقف للخروج من الحيز الإقليمي. القومي.. السياسي، الى الافق الإنساني الاوسع.فما هو معروض هنا هو صنو ومكمل لما هو معروض هناك. محاولة لتظليل كل الثقافات بمظلة واحدة. قلق طبيعي وشرعي.

لكن القلق ازداد، فازداد التمرد. وازداد التمرد فتحول الى ، جنوح وجنون ومبالغة ذاتية باسم التفكيكية التشكيلية. ويسمي الدكتور عبدالعزيز



تصنيع وتشكيل الجزر للفنان كريستو

حمودة كتابة عن البنيوية والتفكيكية (المرايا المحدبة) لماذا؟

وقد وجدت نفسى غير قادر على الهروب من صورة المرايا المحدبة وقد وقف امامها الحداثيون جميعا دون استثناء الأصليون منهم والناقلون لفترة كانت كافية لاقناعهم بأن صورهم فى المرايا المحدبة هى حقائقهم».

هل هى حالة رومانسية جديدة أرادت التخلص من عسف القديم بتمرد او تبديل دون بديل؟

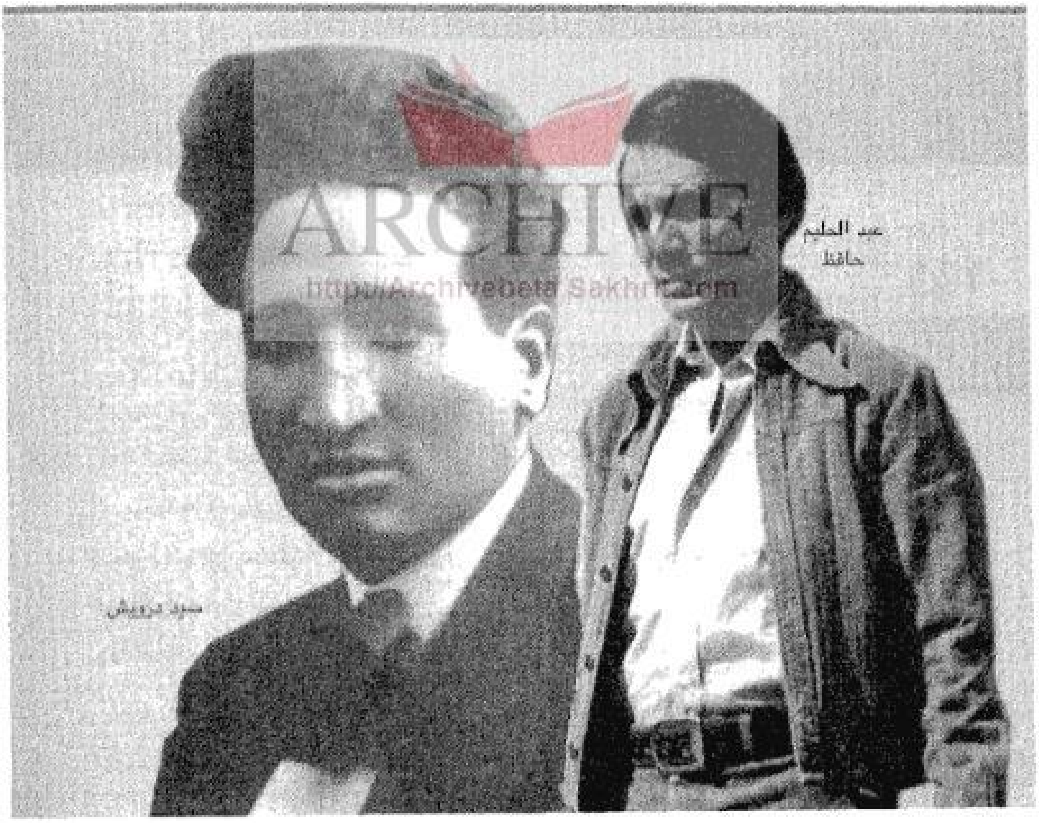
المستقبل حرى بالإجابة.

وما علينا من النباتات المتسلقة على حاشية حاشية الحاشية لهذه الموجه عندنا، لأنها ببساطة تحاول ان تسرق الألقاب بأقصر وأكثر الطرق سذاجة فى عالم غافل. ■

أشهر المعارك الفنية

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

- عبد الحليم حافظ يهاجم سيد درويش
- صوت عبد الحليم حافظ : صوت من لا صوت له
- سيد درويش ومصباح الزيت



شهدت سنوات الخمسينيات من القرن العشرين الصعود السريع للمطرب الكبير عبدالحليم حافظ (١٩٢٩ - ١٩٧٧) من عثرة فشله الفنى الأول والوحيد إلى ذرا الشهرة فى آفاق فن الغناء، وهو صعود لم يلفت الأنظار إليه فى بداياته، عندما سجل فى عام ١٩٥١م أول أغنيات بصوته - وعددها أربعة - بطريقة الدوبلاج فى الفيلم الأجنبى «مصباح علاء الدين»، وهى نفس الأنظار التى لم ترصد عثرته الأولى عندما ثار عليه متعهد الحفلات المعلم صديق وجمهور حفل أقيم بالإسكندرية مساء الخميس ١٩٥٢/٨/٧م، حيث قام الجمع الثائر ليلتها بمنع المطرب الجديد - آنذاك - من غناء أغنيات عرف بها فيما بعد، إذ لم توافق نبرة الغناء فى تلك الأغنيات ما ألفته آذان جمهور الحفل من أغنيات مطلع الخمسينيات الشعبية

تلك الأغنيات التى اعتادت آذانهم على سماعها من أصوات كبار نجوم الصف الثانى من أهل الغنا، فى ذلك الزمان من أمثال محمد عبدالمطلب وعبدالغنى السيد وعبدالعزيز محمود وكارم محمود وغيرهم. جاء حفل الاسكندرية فى سياق محاولات عبدالحليم جذب إنتباه جمهور الغناء - الذى يشكل غالبية الشعب المصرى - إلى مايبشر به من جديد، وهى محاولات شملت أيضا إطلاق مجموعة من الأغنيات فى النصف الثانى من عام ١٩٥٢، وقد واكبت أغنيات البداية هذه أحداث الشهور الأولى لثورة يوليو، وهى مصادفة تبدو لنا الآن - وبعد مرور أكثر من نصف قرن عليها، وكأنها إشارة قدرية إلى ماسوف يجمع بين القادم الجديد إلى دنيا الغناء بصوت يحمل سمات لهجة غنائية جديدة وبين الثورة التى قامت لتغير من بنية المجتمع المصرى، ويمكن القول الآن بأن أغنيات البداية لعبدالحليم .. لم تحقق أيضا لاسمه فرقعة الشهرة الداوية.

مضى عبدالحليم حافظ - بقوة إيمانه بهدف وبيقين شعوره بموهبته - يسجل أغنيات جديدة ويشارك فى الحفلات الغنائية التى أصبحت سمة العهد الجديد وذلك خلال عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤، وتجىء أغنية «صافينى مرة» للثنائى «سمير محبوب - محمد الموجى»، والتى تغنى بها عبدالحليم من إذاعة القاهرة فى صباح الخميس ١٩٥٣/٤/١٦م على رأس هذه المجموعة من الأغنيات (الإذاعة المصرية: العدد ٩٤٣ - ١٩٥٣/٤/١١ - ص ٣١)، وبالرغم من ذلك .. فإن النجاح لم يطرق باب عبدالحليم إلا بحلول ربيع عام ١٩٥٥، حدث ذلك بعد أن شاهد المصريون فى الأول من مارس ١٩٥٥م فتى رقيقا تشع عيناه بحزن دفين وينطق صوته بأسى غامض وساحر يترنم بكلمات محمد على أحمد وألحان كمال

الطويل فى أغنيـة حـملت اسـم «على قـد الشوق»، كانت الأغنية من قالب الطقطوقة وتوسطت باقـة من الغنائيـات الجـمـيلة ضـمت: «لاتلمنى» - «احـتار خـيـالى» - «أحن إليك» - دويتـو «تعـالى أقـولك» وأوبريت «لحن الوفاء»، ازدان بتلك الباقة فيلم «لحن الوفاء»، وهو الفيلم الأول للقادم الجـديد لدنيـا الغناء، كـانت «على قـد الشوق» كلمة السر التى فتحت لعبدالحليم مغاليق أبواب الشهرة والجماهيرية، حيث عـملت استـعـانة كـمال الطويل - ملحن الأغنيـة - بمقـام (اللامس) وهو مـقـام عراقى فى صياغة لحن الأغنية، إلى جانب استخدامه لآلات الساكسفون والدرامز بين آلات الفرقة الموسيقية، عمل كل ذلك على إضـفـاء روح البـهـجـة والمرح فى جـو الأغنية، مما ساهم بعد ذلك فى اجتذاب أسـمـاع كل المصـريين إلى الأغنيـة (عمـار الشـريعى: غواص فى بحر النغم - حلقـة ١٩٩٢/٥/٣١م)، كذلك فإن روح التفاؤل والشـبـابيـة التى غلفت أداء عبـدالحليم لأغنيات فيلمه الأول، وعلى الأخص حواره الغنائى مع المطربة اللامعـة شادية فى دويتـو «تعالى أقولك»، كانت من مفاتيح قلوب الناس له.

لم يكن فيلم «لحن الوفاء» هو الفيلم الوحيد لعبدالحليم حافظ فى عام ١٩٥٥م وإنما لحقته ثلاثة أفلام أخرى هى: «أيامنا الحلوة» وقـد عـرض فى ١٩٥٥/٣/٧م - «ليـالى الحب» الذى عـرض فى ١٩٥٥/١٠/١٥م، و«أيام وليـالى» الذى جاء عرضـه فى الخامس من ديسمبر ١٩٥٥م، ومما هو جدير بالذكـر هنا أن فيلم عبـدالحليم الرابع كان من إنتـاج الموسيقـار محـمـد عبدالوهاب، وكانت أغنيات هذا الفيلم (أنا لك على طول - إيه ذنبى إيه - توبة - شغلونى - علشانك ياقـمـر) جـمـيعـهـا من تلحين محـمـد عبدالوهاب، إذ من المعروف الآن أن صوت المطرب الجديد لم يكن بعيدا فى تلك الحقبة عن أذن موسيقـار الأجيـال الحسـاسـة، فـعندمـا لاحت تبـاشـيـر نجـاح، الصـوت الجـديد، عمل محـمـد عـبـدالوهاب على احتضانه فنيا من خلال إنتاج فيلمه الرابع تارة، وبإدخاله تارة أخرى فى ١٩٦٠/٧/١م شـريكا مـعـه فى شـركـة للاسطوانات (الأهرام: ١٩٦٠/٧/٢ - ص١٠).

جسد عبدالحليم حافظ - منذ بداياته الأولى فى عـالم الفن - أحـلام الطبـقـات الفقيرة من المصريين فى غد مشرق تتحقق فيه أحلامها المشروعة مع ثورة يوليو، ولكن اقتراب عبدالحليم من الثورة لم يبدأ إلا مع مطلع عـام ١٩٥٧م، وذلك لأنه عـمل بدأب وصبر خلال فترة السنوات الخمس فيما بين عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٧م على إرسـاء دعـائم شـهرته ومسـتـقبله الفنى، وبانتـهـاء تلك المرحلة.. انتقل عبدالحليم الى مرحلة أخرى انصب فيـهـا جانب من جهده على إنتـاج الأغنية الوطنية، حيث قدم فى شـهر يناير من عـام ١٩٥٧م أربع أغنيـات وطنيـة هى: «إنى ملكت فى يدى زمـامى» من شـعـر مأمون الشناوى وألحان كمال الطويل - الله يبلادنا» من نظم أنور عبدالله وألحان محمد عـبـدالوهاب - «إحنا الشـعب» من تأليف صـلاح جاهين وتلحين كـمـال الطويل و«ثورتنا المصـرية» من كلمـات مـأمـون الشناوى وألحـان رؤوف ذهنى (الإذاعـة: العدد ١١٣٩ - ١٩٥٧/١/١٢ والعدد ١١٤١ - ١٩٥٧/١/٢٦)، كـان الخطاب الغنائى فى هذه الأغنيـات جـديدا على أسـمـاع المصـريين، إذ جـاءت كلمـات مـثل: «الله يابلادنا الله .... على جيشك والشعب معاه .... فى سلامك غنوة ... فى جهادك قوة .. يابلادنا الحلوة .. بتسابقى فى المجد علاه .. الله يابلادنا الله» فى مطلع أغنيـة «الله يابلادنا»، وأبيات مثل: «إلى البناء عاليا إلى العمل .. إن هبت الريح فإننى الجبل .. كان

انتفاضى وحده أغلى أمل .. وثورتى قد حققت أحلامى» فى ختام قصيدة «إنى ملكت فى يدى زمامى» جاءت جميعها تعبيرا عن أحلام وطموحات البسطاء من المصريين وترجمة غنائية لأقوال قادة الثورة وزعيمها خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الثورة، وهكذا فكت مغاليق الشهرة التى كانت موصدة أمام عبدالحليم عند بدء مشواره مع قيام الثورة، فأصبحت أغنياته فى عيد الثورة ومناسباتها بدءا من يناير ١٩٥٧م من المظاهر الأساسية للاحتفال بهذا العيد وتلك المناسبات، قدم عبدالحليم الأغنيات التالية فيما تلا يناير ١٩٥٧م من مناسبات وخلال ماتبقى فى عقد الخمسينيات من سنوات: «ياجمال ياحبيب الملايين» من تأليف إسماعيل الحبروك وألحان كمال الطويل وقدمت فى ٢٢/٧/١٩٥٩م - «اللى فات» وقد غناها عبدالحليم بالاضافة إلى مشاركته فى نشيد «الوطن الأكبر» وذلك فى عيد الثورة الثامن (٢٣/٧/١٩٦٠)، وقد نظم أحمد شفيق كامل كلمات كل من الأغنية والنشيد، بينما لحنهما الموسيقار محمد عبدالوهاب، ولايفوتنا هنا أن نذكر أغنية عبدالحليم الشهيرة «حكاية شعب» وهى من تأليف أحمد شفيق كامل وتلحين كمال الطويل وقد تغنى بها عبدالحليم أمام الزعيم جمال عبدالناصر فى حفل أضواء المدينة الشهير الذى أقيم مساء الأحد ١٠ يناير ١٩٦٠م بمدينة أسوان احتفالا ببدء العمل فى مشروع السد العالى، هكذا صعد عبدالحليم سلم الشهرة قفزا فى ثمانى سنوات، ليجمع عند مطلع الستينيات بين حب جمهور كبير يتنامى فى كل يوم وتقدير القيادة السياسية للبلد، مما جعله فى مقدمة من اختارهم النظام لحضور مؤتمر الاتحاد القومى لإقليمى دولة الوحدة والذى عقد فى العشرين من يونيو ١٩٦٠، وقد


أحمد بهاء الدين


إحسان عبد القدوس

حضر عبدالحليم المؤتمر إلى جانب أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب كممثلين لأهل الغناء، لتخرج الصحف والمجلات بعد ذلك مزينة بصور أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ بين حضور المؤتمر، ومن ذلك الصورة المنشورة على الصفحة الحادية عشرة بالعدد رقم (٤٦٥) من مجلة «الكواكب» والصادر فى ٢٨/٦/١٩٦٠م.

بلبل له أنياب!

تميز صعود عبدالحليم حافظ إلى ذرا الشهرة شأنه فى ذلك شأن أى نشاط إنسانى - بعديد من الظواهر المصاحبة، وتعد صداقته بلفيف من الكتاب والصحافيين منذ بداياته الأولى أهم تلك الظواهر، وعن ذلك يقول صديق عبدالحليم ومدير أعماله وكاتم أسراره .. الراحل مجدى العمروسى فى سلسلة من الأحاديث أدلى بها لعادل البلك ونشرت فى مجلة «أكتوبر» خلال عامى ١٩٩٢ و١٩٩٣م: «ولم تكن علاقة عبدالحليم بالصحفيين وكبار الكتاب مجرد علاقة بين فنان أو مطرب وكاتب أو صحفى، ولكنها كانت الصداقة القوية المتينة، عميقة الجذور، وكان يعتبر الصحافة مدرسته، والصحفيين أساتذة ومدرسين، فكان يمضى نهاره فى مدرسة أخبار اليوم، أما الفترة المسائية ففى مدرسة روزاليوسف، يتنقل فيها بين إحسان وأحمد بهاء وفتحى غانم وصلاح جاهين وجمال

كامل» (أكتوبر - العدد ٨٣٥ - ٢٥/١٠/١٩٩٢- ص ٤٧)، ولا يختلف عن ذلك كثيرا وصف صديق آخر لعبدالحليم هو الإذاعى الكبير وجدى الحكيم للعلاقة التى ربطت بين عبدالحليم والصحافيين، حيث يصف وجدى الحكيم هذه العلاقة فى ندوة أجرتها معه مجلة «الكواكب» فيقول: «علاقته بمعظم الصحفيين كانت علاقة مودة وصداقة، وحتى من لايحبونه لم يكن يتوتر فى علاقاته معهم، وقد اجتمع حوله مجموعة منتقاة من كبار الكتاب والصحفيين والنقاد والأدباء فى عصره، ولم تكن علاقة عبدالحليم بالأصدقاء وحدهم، إنما امتدت إلى عائلاتهم أيضا» (الكواكب: العدد ٢٦٤٢ - ١٩/٣/٢٠٠٢ - ص٤٣)، لذلك كانت أخبار عبدالحليم وأحاديثه تجد دائما من ينشرها فى كل مطبوعات وإذاعات ذلك الزمان، ولنضرب مثلا هنا بتغطية الصحافة لرحلات عبدالحليم العلاجية إلى بعض المراكز الطبية فى دول أوروبا، فقد عرف عبدالحليم نوبات النزيف جراء إصابة قديمة بالبلهارسيا منذ أول خطواته إلى الشهرة، وها هو يعود فى يوم السبت ١٣/٦/١٩٥٩م من رحلة علاج استغرقت عدة أسابيع فى ألمانيا، فتقوم مجلة «الإذاعة» بتغطية تلك الرحلة فى تحقيق يشغل كامل الصفحة السابعة عشر من العدد رقم (١٢٦٥) الصادر فى ١٣/٦/١٩٥٩م وتتوج المجلة تلك التغطية بجعل صورة غلاف هذا العدد - العدد رقم ١٢٦٥- لعبدالحليم مع تعليق أسفلها نصه «النغم الحالم يعود» وتكرر ذلك فى مناسبات أخرى، ومنها ماقدمته مجلة «الجيل» التى كانت تصدر عن دار «أخبار اليوم» من تغطية لرحلة أخرى قام بها عبدالحليم فى مطلع صيف عام ١٩٦٠م إلى كل من ميونيخ وبون وفرانكفورت ودسلدورف ولندن وبيروت، جاءت تلك التغطية على الصفحات السادسة والأربعين والسابعة والأربعين من عدد المجلة رقم (٤٣٨) الصادر فى ١٦/٥/١٩٦٠م. وكانت بعنوان «البلبل الأسمر يعود إلى أرض الوطن، فى كل تلك التغطيات والموضوعات الصحافية .. يستوقف الاهتمام قدر الود الهائل الذي غلف تلك الكتابات، ولم يحدث أن كتب كاتب خلال تلك السنوات من الخمسينيات مقالا أو خبرا ليهاجم به النجم الصاعد إلى قمة الغناء بسرعة الصاروخ، وإنما كان الحنان والحب والتقدير هما سمة كل مايكتب أو يذاع عنه، لذلك كان من الغريب أن يصدر عدد السبت ١٨ يونيه، ١٩٦٠م من صحيفة «الجمهورية» وقد حوت صفحته التاسعة مقالا للكاتب راجى عنايت يتضمن هجوما من عبدالحليم على موسيقار الشعب سيد درويش.

كتب راجى عنايت فى بابه «أفكار» وتحت عنوان «رأى غريب» مايلى: «قال عبدالحليم حافظ (أكتب على لسانى .. سيد درويش أسطورة كاذبة .. موسيقاه كانت شيئا فى زمنه .. أما الآن فموسيقانا التى نقدمها تفوق موسيقاه بمراحل عديدة) وكانت مناسبة هذا الكلام ماقيل من أن محمد البحر ابن سيد درويش سيرفع قضية على محمد عبدالوهاب لأنه صرح لأحد الصحفيين بأن (الكوكايين) قضى على سيد درويش، بدأ عبدالحليم حديثه مدافعا عن



كلام عبدالوهاب، قائلا إنه درس هذه الحقيقة فى معهد الموسيقى، وأن دفتر محاضراته يضم محاضرة عن سيد درويش ورد ضمنها أن المخدرات قضت عليه، ثم استطرد عبدالحليم فجأة .. قائلا رأيه فى موسيقى سيد درويش مصرا على اعتبارها موسيقى متخلفة بالنسبة لما نسمعه من أغانى هذه الأيام، وأنا أختلف مع عبدالحليم اختلافا تاما، فالذى أصبح عتيقا عند سيد درويش، قد يكون التوزيع الموسيقى أو التأدية أو حتى كلمات بعض الأغانى، أما موسيقاه .. فجوهرها مازال متطورا عن معظم مانسمعه هذه الأيام، وهمسة فى أذن عبدالحليم، اسأل كمال الطويل .. على أى أرض تقف موسيقى (حكاية شعب)؟!» (الجمهورية: ١٨/٦/١٩٦٠م - ص٩).

أحدث مقال راجى عنايت دويا بالوسط الفنى، وولد شعورا لدى كل من قرأه أشبه بالصدمة، إذ أصابت الجميع الحيرة، ولم يجد كل من قرأ ذلك المقال سببا واحدا .. مقنعا ومنطقيا يدفع بالفتى الرقيق الحالم - كما تبدو صورته فى مقالات الصحف وأحاديث الإذاعة - ليتوجس هكذا ويهاجم رائدا راحلا، وكانت المفارقة اللافتة لنظر البعض متمثلة فى تحول الفتى الذى وصفته مجلة «الجيل» قبل شهر من هجومه على سيد درويش بأنه «البلبل الأسمر» الى شخص آخر يوغل فى مهاجمة الموتى، ويقول آخر .. أطلت المفارقة من سؤال يقول: متى نبتت للبلبل الأسمر أنيابه التى أنشبها فى ذكرى أعظم من أنجبت مصر من موسيقيين؟!.

دفاع وهجوم

استفز هجوم عبدالحليم حافظ على سيد درويش مشاعر كل من طالعه آنذاك من قراء، وسرعان ما توالت ردود الفعل على صفحات الصحف والمجلات .. تفند ماجاء


محمد عبد الوهاب


صلاح جاهين

بمقال راجى عنايت وتندد بما قاله عبدالحليم عن سيد درويش، جاء رد الفعل الأول فى مقال قدمه الكاتب المعروف أحمد حمروش تحت عنوان «الذين يظلمون تراثنا الموسيقى»، شغل المقال معظم اليوميات التى كان يقدمها الاستاذ أحمد حمروش فى صحيفة «الجمهورية»، انطلقت الأقلام تهاجم عبدالحليم حافظ وتدافع عن سيد درويش، وكان من الطبيعى أن يرد عبدالحليم على ما وجه إليه من هجوم، فحمل عددا صحيفتى «الجمهورية» و«أخبار اليوم» الصادرين فى ٢٥/٦/١٩٦٠م ردين مختلفين لعبدالحليم على ما آثاره من هجومه على سيد درويش من ردود فعل وانتقادات، ظهر رد عبدالحليم فى «الجمهورية» فى باب «أحاديث الأسبوع» الذى يقدمه الشاعر الغنائى مأمون الشناوى وقد أعطى مأمون الشناوى إجابات عبدالحليم على أسئلته عنوانا نصه: «عبدالحليم حافظ يقول: لست ملحنا حتى أحقد على سيد درويش»، حاول عبدالحليم فى إجاباته عن أسئلة مأمون الشناوى أن يخفف ماتركه هجومه على سيد درويش من صدمة فى قلوب الناس، فكان مما قاله فى هذا الصدد: «كيف يتهمونى بالحقد على سيد درويش؟، هل أنا ملحن حتى أحقد عليه؟، هل عشت فى عصر سيد درويش ورفض أن يعترف بى؟، هل كانت حياة سيد

درويش حياة ناعمة سهلة تثير الحقد؟، إن حياة سيد درويش كانت مأساة طويلة تستحق العطف والرثاء والبكاء»، هكذا افتتح عبدالحليم حديثه مع مأمون الشناوى وقبل أن يوجه إليه مأمون أسئلته، وبدا من تلك السطور أنه نادم على ماصرح به قبل ذلك لراجى عنايت، بل إنه حاول أن يصحح ماخلفه حديثه السابق لراجى عنايت من آثار سيئة فى نفوس القراء والنقاد، فكان مما قاله لمأمون الشناوى فى نفس الحديث المنشور بعدد ١٩٦٠/٦/٢٥م من صحيفة «الجمهورية» الآتى: «إن سيد درويش هو الذي وضع الأساس للموسيقى المصرية الصميمة بعد أن كانت مجرد بشارف وموشحات تركية»، ولكنه يعود قبل نهاية حديثه مع مأمون الشناوى لحكاية سيد درويش والمخدرات فيقول عنها ملتمسا تخفيف قسوة اتهامه فى حديثه الأول: «ولعل سطوة المخدر التى لجأ إليها سيد درويش هربا من ظلم الحياة وإغفالها لشأنه هى التى أثرت فى عمر حياته وعمر فنه»، وقد نوه عبدالحليم فى نهاية حديثه مع مأمون الشناوى إلى أن ماقاله عن سيد درويش كان من باب الدراسة وليس من باب التشهير!، لكن ما قاله عبدالحليم فى عدد «أخبار اليوم» الصادر فى نفس اليوم - ١٩٦٠/٦/٢٥ - كان شيئا مختلفا، جاءت أقوال عبدالحليم فى مقال لجليل البندارى حمل عنوان: «عبدالحليم حافظ يقول: سيد درويش إخترع الشموع وعبدالوهاب إخترع الكهرباء!»، صاغ البندارى مقاله فى صورة سؤال منه وإجابة من عبدالحليم، تميزت إجابات عبدالحليم فى هذا المقال بالمباشرة والصراحة فى هجومه على سيد درويش، ونحىّ عبدالحليم جانبا محاولاته فى عدد اليوم نفسه من «الجمهورية» لتخفيف وقع حديثه السابق عن سيد درويش، واستعان بآراء لكتاب آخرين وأفاض فى ضرب الأمثلة لتوضيح أسباب هجومه على سيد درويش، بدأ عبدالحليم حديثه مع جليل البندارى بقوله: «نعم أنا قلت إن سيد درويش كان يتعاطى المخدرات والكوكايين .. أنا لست جبانا حتى أنكر رأيا قلته بلسانى!»، ثم يتبع ذلك بتقديم دليله على مايقول.. وقد تمثل هذا الدليل فى كتابين .. أحدهما لأستاذ بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية يدعى محمد إبراهيم والآخر هو كتاب «ذكريات» للسيدة فاطمة اليوسف، أخذ عبدالحليم يقرأ لجليل البندارى ماتضمنته بعض صفحات الكتابين من تفاصيل دقيقة عن تعاطى سيد درويش لأنواع كثيرة من المخدرات، ولينتقل بعد ذلك إلى تقييم أعمال سيد درويش فيصفها بأنها قد أضحت قديمة قدم المصباح الذى يعمل بالزيت، وذلك إذا ما قورنت بموسيقى محمد عبدالوهاب والتى تشبه - على حد تعبير عبدالحليم - مصباح الكهرباء!، ولسنا هنا فى موقف يسمح بتحليل ما قاله عبدالحليم حافظ عن سيد درويش وموسيقاه، وإنما - ونظرا لطبيعة المقال - سوف نعرض هنا لما وقع من أحداث المعركة طبقا لتسلسلها الزمنى، ثم ندع محاولة الكشف عن الأسباب الحقيقية وراء أحداث المعركة لنهاية المقال.

لم يكن ماقاله عبدالحليم فى «أخبار اليوم» - وبالرغم من شهرته الداوية ونجوميته التى تحققت آنذاك - ليمر مر الكرام، فقد انبرت أقلام عدة لكتاب وموسيقيين تفند ماكاله لسيد درويش من اتهامات وما حاول أن يبرره خلال حديثه مع جليل البندارى من آراء، كان راجى عنايت - مفجر الطلقة الأولى فى المعركة - أول من تصدى لما جاء فى حديثى عبدالحليم لصحيفتى «الجمهورية» و«أخبار اليوم»، ناقش راجى عنايت فى مقال نشر بعدد

٢/٧/١٩٦٠م من صحيفة «الجمهورية كل ماساقه عبدالحليم من دفوع، وأول هذه الدفوع هو تشبيهه موسيقي سيد درويش بمصباح الزيت وتصويره موسيقى محمد عبدالوهاب بمصباح الكهرباء»، وعن هذه الجزئية من حديث عبدالحليم ... قال راجي عنايت: «وهذا كلام يدل على أن عبدالحليم لايفهم حقيقة الثورة التى بدأها سيد درويش، كما يدل على أنه لايفهم طبيعة المعركة التى يجب أن تخوضها موسيقانا وفنوننا بشكل عام، فسيد درويش لم يخلق شعلة خابية من الزيت .. وعبدالوهاب لم يخترع الكهرباء»، وإذا أردنا أن نستعير نفس التشبيه الذى ابتدعه عبدالحليم، وجب علينا الاعتراف بأن سيد درويش قد أنجز اختراعا ضخما فى موسيقانا .. وأن عبدالوهاب قد تألق عندما نجح فى تشغيل هذا الاختراع.

أسباب ودوافع

إن من يتابع أحداث هذه المعركة الآن، سوف يخرج من متابعته بالسؤال التالي: هل كانت تلك المعركة بلا أسباب؟. كأن يكون اندلاعها إثر زلة لسان.. حاول البعض من الكتاب اللعب عليها والنيل بها من عبدالحليم حافظ. أم أنها كانت معركة لها من الأسباب - وإن تكن خافية - مايسوغ شنها؟، إن الرجوع قليلا عبر الزمن إلى عام ١٩٦٠ .. سوف يلقي ضوءا كاشفا على ما أحاط بتلك المعركة من ملابسات، وهو ماسوف يساعد على الإجابة عن هذه التساؤلات.

شهدت السنوات فيما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٠م اضطراد التقارب بين محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ، وهو تقارب تمثل فى قيام الاستاذ بإيثار تلميذه الموهوب بمزيد من الألحان الناجحة، فبعد أن أنتج عبدالوهاب الفيلم الرابع لعبدالحليم (أيام وليالى) فى عام ١٩٥٥م، بل ولحن له



أحمد حمروش



راجي عنايت

جميع أغنيات الفيلم، فإنه عاد لتكرار التجربة مرة أخرى، فأنتج لعبدالحليم فيلمه السادس (بنات اليوم) فى عام ١٩٥٧، وقد قام عبدالوهاب - فى إشارة واضحة إلى احتضانه الفنى للنجم الصاعد - بتلحين جميع أغنيات فيلم «بنات اليوم»، ثم اتبع عبدالوهاب ذلك بتلحينه لواحدة من أجمل أغنيات عبدالحليم والمرحلة، وهى أغنية «فوق الشوك» التي تغنى بها عبدالحليم فى عام ١٩٥٩م، هكذا مضى تقارب الاستاذ والتلميذ فى الازدياد عاما بعد عام، إذ أنه مما لاشك فيه أن المدقق سوف يلحظ وبسهولة وجود الكثير من الصفات الشخصية والفنية المشتركة التى تجمع بينهما، وقد توج هذا التقارب فى مطلع شهر يوليو من عام ١٩٦٠ بإنشاء شركة للإنتاج الفنى جمعت بين إسميهما وشخصيهما، ولم يقف هذا التقارب عند ميدان العمل، وإنما إمتد - مصداقا لقول الاستاذ وجدى الحكيم فى أول المقال - ليشمل شئونا شخصية وعائلية، ومن ذلك نذكر هنا ذهاب عبدالحليم فى صباح ٦/٧/١٩٦٠م إلى مستشفى لندن - أثناء زيارته لانجلترا - لحضور جراحة فى الكلى خضع لها المطرب سعد عبدالوهاب.. ابن شقيق محمد عبدالوهاب!، وكان حضور عبدالحليم للجراحة نيابة عن عبدالوهاب الذي تعذر سفره إلى لندن آنذاك (الأهرام:

٦/٧/١٩٦٠ -ص ١٠) لذا .. يمكن القول بأن العلاقة الحميمة بين الموسيقار وتلميذه شكلت أول أسباب عبدالحليم للهجوم على سيد درويش، حيث جاء حديث عبدالحليم عن تعاطى سيد درويش للمخدرات مع راجى عنايت (الجمهورية: ١٨/٦/١٩٦٠) تاليا لحديث آخر أدلى به محمد عبدالوهاب لصلاح عبدالصبور ونشر فى مجلة «روزاليوسف»، وقد قال عبدالوهاب فى حديثه لصلاح عبدالصبور: إن سيد درويش كان يعيش تحت سطوة المخدر (الجمهورية: ٢٥/٦/١٩٦٠م - ص ١٢)، وهو مايجعل من هجوم عبد الحليم على سيد درويش مصداقا للحديث الشريف: أنصر أخاك ظالما أومظلوما!.

أما ثانى أسباب عبدالحليم على سيد درويش ... فإنه من الممكن أن يعزى إلى سلسلة النجاحات المتلاحقة التى حققها عبدالحليم فنيا وشخصيا خلال ثمانى سنوات، ولقد عرضنا لسلسلة نجاحاته الفنية سريعا خلال هذا المقال، ويبقى أن نشير هنا إلى بعض نجاحاته الشخصية التى تحققت خلال هذه الفترة القصيرة من الزمن، كانت علاقته بمحمد عبدالوهاب - مطرب الملوك والأمراء والثورة - فى الصدارة من هذه النجاحات، بيد أن مالقيه عبدالحليم من رعاية وتشجيع فى ظل ثورة يوليو .. جعلته بين من مثلوا أهل الغناء فى مؤتمر الاتحاد القومى المنعقد فى ٢٠/٦/١٩٦٠م.. ولد لديه إحساسا بالثقة وشعورا بالأهمية، ليبلغ ذلك الإحساس وتلك المشاعر ذروتها فى مساء السبت ٢٨/٥/١٩٦٠م وقبل أيام قليلة من هجومه على سيد درويش، ففى الساعة السابعة من ذلك المساء .. اجتمع الرئيس جمال عبدالناصر بأعضاء مجلس إدارات الصحف ورؤساء التحرير فى أحد صالونات القصر الجمهورى بالقبة، دار حديث الرئيس مع الحضور من أهل الصحافة حول إجابة السؤال الحيوى التالى: كيف تستطيع الصحافة أن تبنى المجتمع وكيف يمكن أن تنحرف به وتهدم كيانه؟ (الأهرام: ٣٠/٥/١٩٦٠ - ص١)، وقد خصص عبدالناصر الجزء الأخير من حديثه للإشادة ببعض نماذج من المواطنين شملت أساتذة جامعة وفنانين، فكان مما قاله عن رسالة الفنانين فى المجتمع الاشتراكى الذى يتمناه لمصر الآتى: «الفنانون لهم رسالة زى الصحافة تماما»، بالأغنية .. باللحن .. بالسينما .. بالصورة .. بالتمثال، نعتبرهم رأس مال كبير جدا ولهم أثر كبير» يعنى لو تفتح لندن بتذيع أغانينا، وكان فيه فكرة إنهم يمنعوا الأغانى والمغنين بتوعنا من أن يتعاملوا مع محطة لندن، ولكن كونك تفتح لندن وتسمع عبدالحليم حافظ أو تسمع عبدالوهاب .. هو فى رأيى كسب عظيم، ولابد من أن ندعم طبقة الفنانين عندنا بحيث تمكنهم أكثر من أداء رسالتهم» (الأهرام: ٣٠/٥/١٩٦٠م- ص٢). وإزاء هذه اللفتة التى حوت الكثير من المعانى .. أقلها التقدير والتكريم، توجه محمد عبدالوهاب مصطحبا عبدالحليم إلى القصر الجمهور فى صباح اليوم التالى لنشر الحديث - وهو يوم الثلاثاء ٣١/٥/١٩٦٠ - وذلك لتسجيل شكرهما على لفتة الزعيم، وتصف صحيفة «الأهرام» زيارة الأستاذ وتلميذه للقصر الجمهورى فى عددها الصادر صباح ١/٦/١٩٦٠ فتقول: «فوجىء الموسيقار عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ أثناء توقيعهما فى دفتر الزيارات فى القصر الجمهورى لشكر الرئيس على ماصرح به بالنسبة لتقديره فنهما ومجهودهما خلال حديثه لرؤساء تحرير الصحف .. فوجئنا بالرئيس وهو يترك مكتبه فى طريقه إلى بيته، شاهدهما الرئيس

وحياهما» (ص ١٢)، ولسنا ندرى أكان لقاء عبدالناصر بعبد الوهاب وعبدالحليم مرتبا أم جاء مصادفة، ولكن الثابت كما تحدثت به صحف صباح ١٩٦٠/٦/١ .. أنه التقاهما بالقصر وحياهما وتحدث إليهما، ولنتصور الآن أو نتخيل ما ملأ عقل وقلب عبدالحليم من أفكار ومشاعر آنذاك، فها هو الفتى القادم من ملجأ الزقازيق إلى القاهرة فى مطلع الأربعينيات ليبحث عن ثقب إبرة ينفذ منه إلى حياة كريمة، فإذا به الآن - وبعد أقل من عشرين عاما - يصافح رئيس الدولة الذى يشيد به ويذكره فى حديثه إلى كبار مثقفى البلد، ألا يدفع ذلك ببعض الغرور وشيء من الخيلاء إلى نفس شاب فى العام الواحد والثلاثين من عمره؟، إن فى تتابع مظاهر التكريم التى تلاحقت على عبدالحليم مطلع صيف عام ١٩٦٠م الكفاية لتشويش تعقل الحكماء، فكيف بعبدالحليم حافظ ؟، حتى إذا ما جاء ذكر سيد درويش فى جلسة بين أصدقاء، فإن عبدالحليم - وبدافع من غرور ألمّ به - قال ماقاله فى حق موسيقار الشعب الراحل.

الرجوع إلى الحق

طوى الدهر سريعا ماتبقى من أيام شهر يوليو من عام ١٩٦٠، فإذا بالصحف والمجلات وقد خلت صفحاتها من أخبار تلك المعركة، وكأنما حدث ذلك بفعل فاعل، وتناسى الناس فى غمار ماشهدته سنوات الستينيات والسبعينيات فى القرن الماضى من أحداث .. أنباء تلك المعركة، ولكن عبدالحليم حافظ بحكم ما وهبه المولى عز وجل من رهافة حس وصدق شعور يليقان بفنان صادق، كان هو الوحيد الذى لم تمح الأيام من ذاكرته أنه هاجم فى يوم من الأيام - وبعد أن اشتد عوده ولمع نجمه - فنانا كان أستاذا للجميع بما فيهم أستاذه محمد عبدالوهاب، حتى جاء هذا الهجوم وكأنه مصداق لقول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

ظل الشعور بالذنب مالكا على عبدالحليم نفسه، حتى كانت رحلته الأخيرة إلى لندن قبل وفاته فى ٣٠ مارس ١٩٧٧م، حيث زاره هناك الناقد الفنى حسن إمام عمر، وفى غمار معاناة عبدالحليم من آلام مرضه .. تحدث كثيرا مع حسن إمام عمر وكشف أمامه عن بعض أخطائه، وقد صاغ الاستاذ حسن إمام عمر ذلك الموقف فى مقال له بعنوان «أخطاء فى حياة عبدالحليم حافظ»، وهو المقال الذى قدم بمناسبة الذكرى السادسة عشر لرحيل عبدالحليم بالعدد رقم (٢١٧٤) من مجلة «الكواكب» والصادر فى ١٩٩٢/٣/٣٠م، يقول الاستاذ حسن إمام عمر فى هذا المقال: «وروى لى عبدالحليم - وكأنه يزيح حملا ثقيلا من على صدره - كيف أخطأ فى أواخر الخمسينيات عندما هاجم الشيخ سيد درويش فى أحد أحاديثه الصحفية، وذلك نتيجة استفزازه من سؤال وجه إليه عن سبب امتناعه عن ترديد ألحان سيد درويش كان عبدالحليم يرى أن الألحان التى يغنيها توائم المرحلة التى يعيش فيها، وأن ألحان سيد درويش كانت تمثل مرحلة انتهى عهدها» (ص ٢٩). هكذا تحرر الفنان الصادق أمام شبح الموت الذى كان يقترب منه من شعوره بالذنب تجاه خطأ ارتكبه، ولاينتقص تأخر هذا الاعتراف من قيمة وقدر عبدالحليم، وإنما يعلى ذلك من قيمة هذا الاعتراف ويرفع من ذكر صاحبه، إذ يجيء ذلك الاعتراف بمحض إرادة الفنان وبعيدا عن تأثير أى ظرف خارجي، فها هو الفنان الصادق - وبالرغم من آلام مرض الموت -يتذكر نادما خطأ ارتكبه ومرت عليه سنوات وسنوات، فيريح ضميره وينقى ذكراه من أن ينسب إليها خطأ كهذا، رحم الله عبدالحليم حافظ الفنان الصادق الموهبة وغفر له. ■



المتفرجة

بقلم : مرفت رجب

حلم

مضى العام أو كاد.. وصورتها باقية ، تلح على بين الحين والحين، كأنما هى تذكرنى أنها ستظل باقية، تبعث فى نفسى ذلك النوع من النور الهادىء، يهز منابع التفاؤل.. وينتصر للحياة، فهكذا رأيتها، وهكذا استقرت فى ذاكرتى، تلك الصبية التى ظلت الظلمة تلفها، وهى بكل العزم والبراءة تصارع، متشبثة بحقها فى أن تبتهج.

ومع أن حكايتها أبسط من البساطة.. إلا أن الفيلم التسجيلى رفعها إلى مصاف أبطال الملاحم والأساطير.. ومع أنها واحدة.. مجرد واحدة من بين العشرات من البنات والصبيان الذين رأيناهم فى الفيلم، وأدركنا أن هؤلاء هم من أصبح يطلق عليهم «بكل أسف» تصنيف «أطفال الشوارع»، إلا أنها كانت صاحبة حلم، تكافح من أجله، تتعذب، وتعاني وتصمد، وتواصل الكفاح، وتحقق الحلم فتملأ الدنيا رقصا وغناء وبهجة..

ونحن معها نبتهج ونتفاءل، وتتفتح في قلوبنا وعقولنا الينابيع، ومن عيوننا تسقط الدموع.

ولم تكن ظروف صاحبتنا من البساطة بحيث نعرف بأمر حلمها من بدايات الفيلم، ولا كان صاحب السيناريو والإخراج من السذاجة بحيث يفرط في هذا الكنز قبل أن يقطع نفسنا متابعة للصغيرة المطرودة يوما مع صاحبة لها. تنافسها البؤس، وتقوى بالكاد على ملاحقة البطلة صاحبة الحلم.. ولقد كانت بطلتنا الصغيرة سريعة الحركة، سواء كان ذلك بالطبع أم بالقهر، ونحن مع عين الكاميرا نرصد تحركها من رصيف إلى رصيف، ومن زقاق إلى شارع إلى حارة، ومن عمل يسد الأجر عنه الرمق بشق الأنفس، إلى عمل آخر يتراكم أجر الأيام فيه وقد تطرد قبل أن يحل موعد الإثابة، وصاحبتها التي هي مثلها لم تتجاوز الثانية عشرة من العمر تتبعها كظلها، وتلاقي في الأغلب نفس المصير حتى وإن كان التعرض للاغتصاب. ونحن كمشاهدين للفيلم نتقلب بين الدهشة والصدمة ولكننا على طول الخط، ومن أول لقطة في الفيلم إلى آخر نقطة نور مأسورين بسلاسة إبداع الفنان وقدرته على متابعة دقائق حياة تلك الجموع المشردة، كيف رصدها وانتقى منها ورتب، وكيف جاءت زوايا اللقطات وإيقاعاتها ونوع ودرجة الإضاءة في كل منها معمقة للدراما والصراع واحتدام الأزمة وانفراج الأمل؟ وإجابة السؤال عندي محصورة في كلمتين، هما، الفهم، والحذق.

فهذا الفيلم الذي يحمل اسم بطلته ميموري Memory يفهم حدود موضوعه كما يفهم ما يريد.. فهو لا يشغلنا مثلا بأسباب أو ظروف أو ملابسات وجود هؤلاء الأطفال في أسر الشوارع على رحابتها.. إنه لا يشغلنا بأهلهم سواء كانوا من هذا البلد الإفريقي، أم نزحوا إليه مثلا من بلاد مجاورة، كما أنه لا يشغلنا بموقف المجتمع، هل هو مجتمع مستسلم مثلا لمشكلة أطفال الشوارع؟! هل في الأصل هناك إدراك من المسئولين في ذلك البلد أن عندهم مشكلة اسمها مشكلة أطفال الشوارع؟ ، وهل إن كان الأمر كذلك، هل يفعلون أي شيء لمعالجة هذه المأساة الإنسانية؟ لم يشغل الفيلم نفسه بأي من هذه الأمور، وبالتالي لم يشغلنا بها وإن كان تحديده الشديد لموضوعه كفيلا يبعث كل تلك الأسئلة، وعلى طول الخط. فلقد ركز همه على البطلة وصاحبتها. وعن طريق الرصد الوثيق لما يحدث لهما وكيف يقع في نفوسهما أثره، وكيف تتصرفان إزاءه. عن هذا الطريق فقط تضاء في عقل المشاهد ووجدانه كل الأنوار بالتضاد مع العتمة التي تخيم

على معظم مشاهد الفيلم وتصل إلى ذروتها لتنبئنا بوقوع الاغتصاب.

ليس بالحذق وحده تفوز الأفلام!!

وعلى عكس أى توقع، ورغم توافر كل العناصر المكونة للميلودراما إلا أن هذا الفيلم التسجيلى خلا منها تماما.. حتى اللقطات التالية لفعل الاغتصاب وجدناها مشحونة بالغضب وقد مشت معه الواقعية كتفا بكتف. فالبطلة وهى تفضى لصاحبتها بما عانت تلقى فى وجهنا بأبعاد الواقع الذى فيه يعيشون، وما تكرر الاغتصاب فيه إلا مجرد بعد واحد من أبعاد المأساة.

وأما عن أبعاد حذق مبدعى الفيلم، فمنها على سبيل المثال لا الحصر، أنهم ادخروا لنا حلم البطلة، كما ادخره لها كيانها البرىء ليكون القوة الحافزة لها على مواصلة الحركة والحياة والنشاط إلى الكفاح بعد أن ظننا سواد الاغتصاب يغوص بها إلى هاوية . لا وقت عندها للبكاء لابد من العمل، أى عمل، مهما كان ومهما كانت مشاقه، فذلك حتمى ، ليس فقط لتهدئة صراخ البطن الجائعة، ولكن من أجل الحلم، فموعد كسوف الشمس أخذ يقترب، وبطلتنا مصرة على مشاهدة الكسوف، ولأنها جمعت كل المعلومات عن عيد البهجة الذى تنتظره ، فهى تعرف أن مشاهدة الكسوف بالعين المجردة خطر على الإبصار ولذلك تدخر من قوت يومها لتشترى النظارة اللازمة.. هى إذن النظارة الحلم.. تلك التى حفزت قوى الإبداع عند الصبية الصغيرة وجعلتها تبتكر من المخلفات البلاستيكية - تلتقطها من صناديق القمامة - ما تستطيع أن تبيعه فى الأسواق عوضا عن العمل الذى فقدته بفعل فظاظة صاحب العمل.. ونجد أنفسنا وقد انتهينا من مغامرات تجميع القروش، ندخل فورا فى مغامرات شراء النظارة.. وبرغم شظف البؤس، فالفيلم لا يخلو من فكاهة. وأما فيضان البهجة والمرح، فهو ما تهيم فيه الصبية الأسطورة، قاهرة الظلم واليأس، صاحبة أحلى صرخة وأجمل غناء، ساعة أن رأت كسوف الشمس وهى لابسة النظارة ، حلمها الصغير الذى رفعها على أجنحة البهجة وثبتها فى الذاكرة رمزا للأمل والقدرة على ابتكار التفاؤل.

ومع كل ما سبق خرج الفيلم من المهرجان الدولى للأفلام التسجيلية بالإسماعيلية ٢٠٠٢ صفر الدين.. وهو الجدير بست جوائز على الأقل، للسيناريو والتصوير والإضاءة والمونتاج والإخراج والإنتاج، وأقول على الأقل لأن الأمر لو كان بيدى لاقترحت جائزة سابعة يمكن أن يكون لكل فرد من فريق العمل ، منها نصيب، فالفيلم يستحق ،إن ضن عليه

مهرجاننا بأى منها الحلم الشخصى!!

لماذا طفت صورتها على سطح الذاكرة وألحت على؟! والإجابة تنافس حكاية بطلتنا فى البساطة، كما تنافسها فى التشابك.

فالسبب الأول هو اقتراب موعد المهرجان الدولى للأفلام التسجيلية فى الإسماعيلية، ولقد ظلت البطلة الصغيرة تلح على ذهنى أن أكتب راجية أن تسمح لنا اللجنة المنظمة للمهرجان هذا العام بمشاهدة إنتاج أصحاب الفيلم موضوع هذا المقال.. وإن كانت تلك المجموعة أحجمت عن محاولة المشاركة فى مهرجان هذا العام، ربما بفعل استشعار الغبن من قرارات لجنة التحكيم ، أو من أن منظمى المهرجان يفضلون الاستئثار بجوائزه، يوزعونها بمعايير قد لا تخطر على بال مبدع متفان هو بالقطع غافل عن مقتضيات العلاقات العامة.. إن كان هذا لا قدر الله قد حدث.. فإننى أحلم، طبعا أحلم، بأن تتحرك اللجنة المنظمة وتدعو أمثال ذلك الفيلم للمشاركة فى المهرجان.

كما أننى أحلم بأن تعمل إدارة المهرجان على اتخاذ التدابير اللازمة لإتاحة عرض أفلام المهرجان على شاشة التليفزيون لينعم بها الجمهور العريض ، كما أننى أحلم بأن تكون إذاعة هذه الأفلام التسجيلية والروائية القصيرة وأفلام الكرتون المشاركة فى المهرجان مصحوبة بإذاعة الندوات الثرية التى تعقب عرض كل فيلم فى المهرجان..

وصحيح أن ما أطلبه حلم، ولكنه ليس بدعة، فهناك قنوات تأخذ بهذا المنهج والمسألة تتطلب إضافة بند واحد على شروط المشاركة فى المهرجان، يحدد مقابلا ماديا معقولا يدفع لجهة إنتاج الفيلم المشارك مقابل الموافقة على العرض – ولو مرة واحدة – على شاشة تليفزيون القناة التى ستدفع هذا المبلغ، وإذن فإن حلمى الحقيقى هو أن تتسع حدود احتفائنا بهذا الحدث الفنى الدولى رفيع المستوى، وأن تحول مهرجان الإسماعيلية للأفلام التسجيلية إلى مصدر إثراء للشاشة الصغيرة وجمهورها وبذلك نوسع دائرة المعرفة المبهجة.

وأما السبب الثانى الذى استدعى قصة هذا الفيلم ومشاهده وفرضها علىّ موضوعا لكتابة هذه السطور، فهو واحد من التقارير الاخبارية التى شاهدتها على قناة يورونيوز وهى قناة الأخبار الأوروبية التى خصصت واحدا من تقاريرها التسجيلية قبل يومين، وركزت فيه على أوضاع الفقر والمرض فى إثيوبيا.

ولست بحاجة هنا لأن أفصل فى فظاعة المشاهد المعروضة فى ذلك التقرير، فليست الأولى من نوعها.. كما أن اليورونيوز ليست القناة الوحيدة التى تكرر عرض تلك المشاهد المأساوية الموجعة، والتى ترد إما فى نشرات الأخبار أو فى التقارير الإخبارية كأنما تفرض علينا الإحساس باليأس وانعدام الجدوى.. باختصار، يستعرض التقرير

أطنان المعونة الأوروبية والأمريكية، وكما يؤكد على مشاهد المرض والبؤس، فهو يؤكد من خلال شهادات مسئولي المعونة والمواطنين.. أن المعونة هي الأخرى تعاني إما من عدم وفائها بما هو مطلوب.. وإما من نهب المستغلين ومحترفي الفساد والإفساد، حتى في مثل تلك الظروف.. يبين التقرير أن المفروض ألا تعاني اثيوبيا من أي نقص فهي غنية بزراعة البن والذرة لكن انعدام التخطيط وسوء الإدارة أدى إلى ربكة اقتصادية شاملة ليس فقط لتدهور محصولي الذرة والبن، ولكن أيضا بالانهيار المروع لأسعار البن في الأسواق.

المهم أن التقرير المذاع على اليورونيوز، يركز كل التركيز على مشاهد الألم واليأس، ولكنه لا يذكر شيئا لا عن ممارس الفساد والإفساد ولا عن المتسببين في هبوط أسعار البن الاثيوبي في الأسواق.

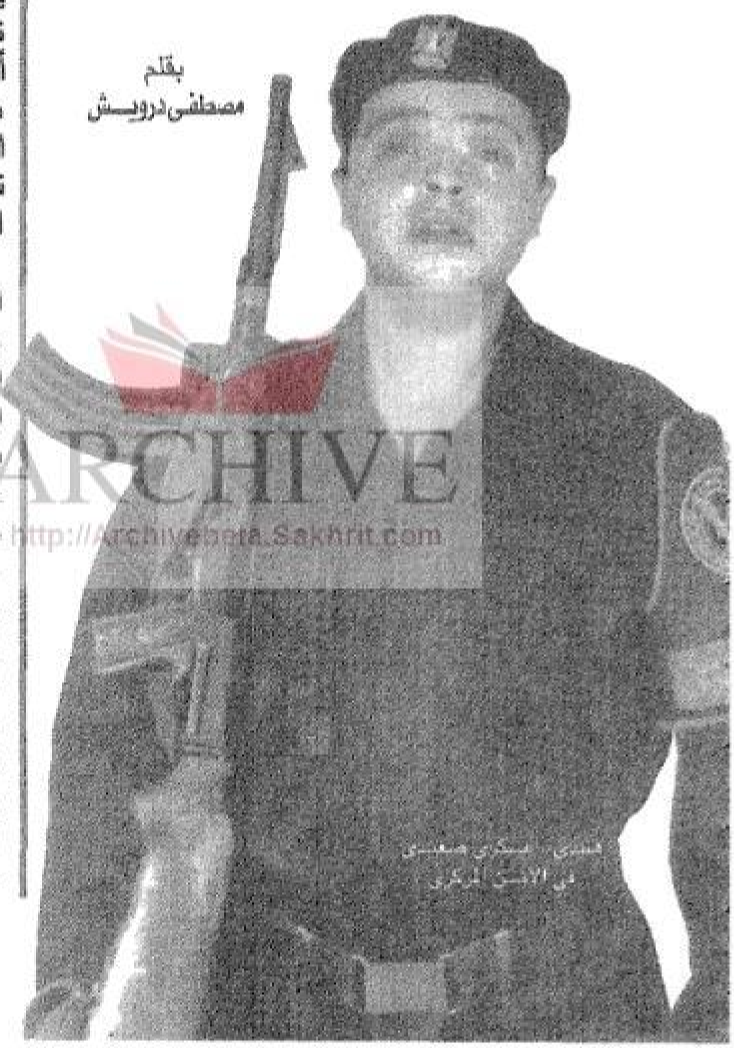
ومثل هذا النوع من المواد المعروضة على الشاشات التليفزيونية يذاع بدرجة من الانتظام والكثافة تجعل المتفرج المدقق يدرك انها لابد تهدف بين أمور اخرى الى تصدير اليأس وترسيخه في نفوسنا فتموت في حنايانا بواعث الهمة لأي عمل ايجابي، وفي نفس الوقت ترسخ في نفوس الغربيين احساسهم بالفروق الكبيرة بيننا وبينهم، وتغذى في نفوسهم الاحساس بأنهم اصحاب فضل، يرسلون بالمعونات ويدفعون بالهبات والأفارقة لا يفهمون ولا يقدرون.

فنحن لا نجد تقريرا تسجيليا يتتبع تاريخ نهب الثروات الافريقية، ولا نجد تقريرا يكشف استمرار التواطؤ بين شركات الاستثمار العملاقة ودوائر الحكم والحكام التي تبتلع ملايين بل بلايين الدولارات من ثمار خيرات قارتنا المعطاءة، وصعب جدا أن نرى السيد سيمون تيلور يتحدث على اي شاشة تليفزيونية، وهو إن ظهر فسيحكي للعالم عن المعلومات التي تحت يده عن التفاصيل الخفية للتعاملات الزرية بين الشركات العملاقة ودوائر الحكم والحكام في زمن يجرؤ على التباهي بالشفافية.

أما عن علاقة كل ذلك بالبطلة الأسطورية التي سكنت ذاكرتي منذ شاهدت وقائع بطولتها في الفيلم التسجيلي Memory من إخراج سامبا ويلكي فهي علاقة أبسط من البساطة.. ففيلمها يقف على طرفي نقيض من التقرير الاخباري المأساوي المذاع في الـ Euronews عن اثيوبيا.. ولانني واثقة أن في بلادنا.. كما في عموم قارتنا.. يعيش الملايين، بنفس روح وعزم وإرادة بطلتنا الصغيرة.. ومثلها يوفقون إلى غزل خيوط الأمل والبهجة في حياتهم .وسيظل حلمي أن أرى هؤلاء يغمرون شاشاتنا بصور وحكايات كفاحهم وانتصارهم للحياة فنراهم وتراهم الدنيا معنا.. ومنهم نستقي إرادة الحياة. ■

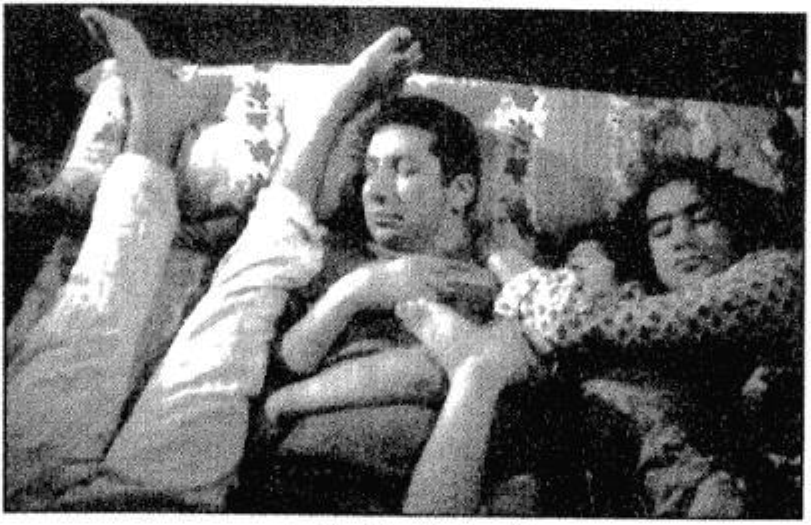
العيب في أفلام الصيف

بقلم
مصطفى درويش



تكفى نظرة طائرة على أفلام الصيف، المنتسبة إلى فن الملهاة، والمتنافسة على إيرادات الشباك؛ كي يتبين لنا أن ثمة عيبا أساسيا، شاب هذا النوع من الأفلام، ومنه تنبع بقية العيوب.

وأرجح الظن، إنه، ومع التوصل إلى ذلك العيب، وهو ينحصر في سطحية وعدم نضج، وليد جهل بالمقاييس المستقرة، الشائعة للجمال والذوق والحياء، فقد يكون في وسعنا معرفة مكمن الداء



هاني رمزي مترهلاً - عايز حقى

وهنا، اكتفى للتدليل على تفشى ذلك العيب، بالوقوف قليلا عند فيلمين، أحدهما «عاوز حقى»، عمل سينمائى طموح، يقوم على فكرة مبتكرة، صاحبها «يوسف عوف» ذلك الكاتب خفيف الظل، الذى رحل فجأة عن دنيانا، قبل بضعة أعوام، تاركا فراغا كبيرا.

والآخر «عسكر فى المعسكر»، عمل سينمائى قوامه القص واللزق لأفكار ومشاهد، منقولة من أفلام قديمة، تدور وجودا وعدما، حول الثأر، لا لهدف سوى التشهير بأهل الصعيد. و«بعاوز حقى»، بدأ أحمد نادر جلال، وهو سينمائى أبا عن جد، مشواره مع إخراج الأفلام الروائية الطويلة.

ولقد استهل فيلمه الأول بعناوين كل ما فيها جديد، فريد.

فمع أسماء مبدعى الفيلم، أخذت تظهر تباعا على الشاشة رسوم متحركة لسيارات من مختلف الأحجام، فيها من الابتكار الشىء الكثير واختيار السيارات فى تلك الرسوم بحيث تظهر عليها أسماء المبدعين، كلما تحركت، لم يكن أمرا عفويا، بل كان أمرا محسوبا، وثيق الصلة بمهنة بطلى الفيلم (صابر)، هانى رمزى، و(شوقى)، عصام كاريكا.

فكلاهما سائق تاكسى، يعانى، وبخاصة (صابر) من متاعب مهنته، ومشاقها الجسام.

زبائن وزبانية

ومعناة (صابر) بالذات، مع مالك التاكسى، ومع زبائنه، ومع عساكر المرور الذين بلغ تعسفهم معه قطع رزقه، بسحب رخصته.

هذه المعاناة تشغل حيزا كبيرا من

أحداث النصف الأول من الفيلم، حيث نراه سائقا معذبا، يذوق الأمرين، حتى لحظة اكتشافه أن لمصر دستورا، نص في عدد من مواده أن لكل مواطن مصرى الحق فى نصيب من الناتج القومي، الذى تقدر قيمته بمليارات الجنيهات.

وبحكم هذه المواد، فله أى (صابر) نصيب فى تلك المليارات.

وبالتالى، فهو واسع الثراء، له الحق فى أن يتصرف كأى مالك، بالبيع، والإيجار لنصيبه هذا.

ثمار الاكتشاف

وبدءا من اكتشاف الدستور، وحقوقه التى تخوله حقوقا تجعل منه مالكا ثريا، انقلبت حياته رأسا على عقب فإذا به يتحول من مواطن فقير، مغمور، لا حول له ولا قوة إلى ناشط سياسي، بل قل زعيم يحرك الملايين، من أجل المطالبة بنصيبها من المال العام، يلتقيه رئيس الوزراء - ويؤدى دوره «وحيد سيف»، ويعمل لنشاطه ألف حساب.

خيبة الأمل

ومع هذا التحول المفاجىء في حياة (صابر)، كان متوقعا أن يبتعد الفيلم عن الأسلوب الواقعى الطاغى على المعالجة، قبل الاكتشاف.

غير أن التوقع سرعان ما خاب، باستمرار طغيان الأسلوب الواقعي؛ ذلك الأسلوب الذى تخلى عنه حتى رواد الواقعية الجديدة الإيطالية، فى أزهى أيامها، حين كانت أخبارها تملأ الدنيا، وتشغل الناس.

وليس أدل على ذلك من فيلم «معجزة في ميلانو» (١٩٥١) لصاحبه «فيتوريو دى سيكا»، أحد هؤلاء الرواد، ومبدع أشهر فيلم فى تاريخ تلك الواقعية «لصوص الدرجات».

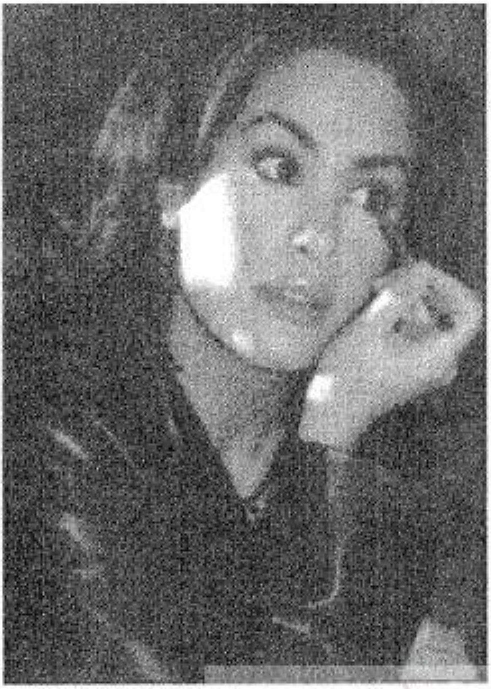
ولست أدرى، ولا سبيل إلى أن أدرى، أن كان «طارق عبدالجليل»، كاتب سيناريو «عاوز حقى» قد شاهد معجزة «دى سيكا»، من عدمه.

وإن كنت أرجح الظن بأنه لم يشاهده، وذلك لتقطع العلائق بيننا وبين السينما العالمية ورجالها ومجلاتها ونشراتها، ردحا طويلا من الزمان.

اللياقة .. أين؟

يبقى لى أن أقول

أولا أنه ما أن انتهت العناوين برسومها المتحركة المبتكرة، حتى صدمنا المخرج بمشهد قبيح لنجم الفيلم «هانى



هند صبرى - غصن بان



لقاء الخميسي في بطولة مطلقة - «عسكر في المعسكر»

رمزى»، نائما في سرير مكتظ بالعديد من الأشقاء ومما ضاعف قبح المشهد، لقطات مكبرة لوجه «هانى» وأجزاء أخرى من جسمه، وقد ازدادت ترهلا، تحت تأثير زيادة ملحوظة في الوزن، على نحو لا يليق بنجم، من الحق عليه، احتراما لعشاق فنه، ألا يدخر وسعا، من أجل الحفاظ على لياقته البدنية ثانيا أنه بقدر ما فقد «هانى» لياقته اللازمة لتقمصه شخصية شاب خريج جامعة، محبط أمله دستور البلاد أن يكون بطلا قوميا، بقدر ما احتفظت خطيبته في الفيلم، وتؤدى دورها النجمة التونسية «هند صبرى» بلياقتها، وعلى نحو مثير للإعجاب.

نكسة مخرج

هذا عن «عاوز حقى»، أما «عسكر في المعسكر» لصاحبه «محمد ياسين» فهو ثانى فيلم روائى طويل له، بعد «محامى خلع» ذلك الفيلم الذى أخرجه قبل عام وجعل منه، بعد تخرجه في معهد السينما، قبل ستة عشر عاما، سينمائيا واعدا، يرجى منه الكثير.

بيد أن «عسكر في المعسكر»، جاء مخيبا لما علق عليه من آمال كبار عاكسا حال السينما المتردى عندنا، وحالها مستقبلا، فيما لو كتب لترديها الاستقرار والاستمرار، وهو أمر وارد، ومن اللازم وضعه في الاعتبار.



ردة بلا حدود

وأبدأ بالأداء

لأقول أن ممثلي «عسكر في المعسكر» جميعا، وبلا استثناء، بدءا من «محمد هنيدي» في دور (خضر) المجند الصعيدي الساذج، أو بمعنى أصح العبيط، مروراً «بحسن حسني» في دور والده، و«صلاح عبدالله» في دور خاله الفاجر الماجن، مدرس التاريخ سابقا، وحاليا مطرب خليع في ملهى ليلي، حيث يعرف باسم «حسن كولونيا»، وانتهاء بماجد الكدواني في دور زميله في المعسكر، وعدوه المكلف من قبل عمه وأمه بقتله ثأرا لأبيه الذي قتل، وهو في المهن صبيا، و«لقاء الخميسي» زوجته وشريكته في السراء والضراء، و«حنان طويل» في دور الراقصة الرداحة بفاحش العبارات أقول أنهم جميعا، وبلا استثناء، لم يعتمدوا في التعبير على الصدق والاقتراب من الواقع، ولو قليلا، بل عمدوا إلى الزعيق والتشنج والتشويح، دون أية مراعاة للذوق المهذب، وأصول فن الأداء.

باختصار ارتدوا بهذا الفن إلى التشخيص في كازينو ليلاس، وغيره من كازينوهات روض الفرج، أيام زمان.

القديم الجديد

وفوق سوء الأداء، وصل الكسل، بكاتب سيناريو الفيلم «أحمد عبدالله»، إلى حد اتخاذه من موضوع فيلم قديم «شهر عسل دون ازعاج»، بطولة حسن يوسف، محمد عوض، أمين الهنيدي وناهد شريف، موضوعا «لعسكر في المعسكر».

فكلاهما يدور موضوعه حول الثأر في الصعيد وكلاهما تلعب فيه الصداقة، تحت تهديد الثأر دورا كبيرا.

وكلاهما يعجز فيه البطل المتزوج حديثا عن الاستمتاع بزوجته في عش هادئ، أثناء شهر العسل.

فما أكثر فشل هنيدي (خضر) في محاولته الاستمتاع بزوجته في الحلال.

فكلما حاول ذلك، أنهالت المصائب على رأسه، مصيبة وراء مصيبة، بلا منطق معقول، ولا سبب ظاهر، وباءت محاولته بالفشل الذريع.

الوهم الكبير

ولا غرابة في أن يهفو السيناريو على هذا النحو، مقلدا القديم، متى كان السائد في الوسط السينمائي أن الجمهور ساذج، ومن السهل استهباله بأي كلام ولكن هذا الجمهور المفترض أنه ساذج، وهم في عقول السينمائيين، لأني سمعت أكثر من ملاحظة استنكار من جيراني البسطاء، وأنا أجلس، في قاعة العرض أشاهد «عسكر في المعسكر».

وكانت كلمة «مش معقولة»، الكلمة المترددة بانتظام في الظلام. ■



القاهرة الخديوية



باريس الشرق حلم الخديو اسماعيل (مبنى عمر افندي للمهندس راؤول برنسون ١٩٢٣)

وتراثها المعماري

أماني عبد الحميد

- دعوة للحفاظ على ذاكرة المدينة ومواجهة مخاطر الانهيار والتشويه.

- وسط البلد مركز تاريخي لعمارة القرن التاسع عشر
- ٤٢٠ مبنى ذات قيمة تراثية تحتاج إلى ترميم عاجل

ذاكرة المدن تحملها شوارع.. ميادين.. ميادين و أحياء إن طال عمرها نابضة بالحياة وبأهلها يصبح الحفاظ عليها حفاظا على التراث والكيان الحضارى. يورث للأجيال المتتالية تأكيدا على الذاكرة والأصالة والتراث. لذا بنى الخديو إسماعيل قاهرته الجديدة لتكون «باريس الشرق» ، تنافس بجمالها مدن العالم. وتصبح مدينة أحلامه مركزا تاريخيا معماريا. يمثل جزءا من ذاكرة أمتنا وتراثها النابض بالحياة. علينا انقاذ ما تبقى قبل أن تنال منه معاول الهدم والتشويه ، حتى نحفظ ذاكرة مدينتنا ونحمى هوية أمتنا من الأندثار.



القاهرة الخديوية وتراثها المعماري

شعوب العالم تعى أهمية الحفاظ على التراث المعمارى واحيائه، فحركة التجديد والارتقاء تبدأ دوما من الأحياء القديمة والمبانى ذات الطرز التراثية التى تمثل حقبة تاريخية من حياة الأمة، وهذا ما نراه داخل دول أمثال انجلترا وفرنسا، إيطاليا، سويسرا، النمسا، هولندا، بولندا.. دول استطاعت أن تجسد أرصدتها التراثية بشكل عام والعمرانية بشكل خاص، كقيمة متفردة تشهد على ماضيها العريق وتاريخها الحضارى، وتسلط الأضواء على فترات ازدهارها المتعاقبة.

لكن للأسف فإن غياب هذا الفكر الواعى بالقيم التراثية، وتصنيفها الدقيق أضر كثيرا بعمران القاهرة، وأصبحت العمارة المصرية تتعرض لحملات تشوية كل يوم، وحملات اغتيال للمبانى والقصور القديمة، كثير منها تعرض للإزالة التامة من أجل استثمار أراضيها أو بغرض التحديث غير المدروس.. فنجد عددا من الأحياء ذات الجذور التاريخية مثل وسط البلد، جاردن سيتى، الزمالك، مصر الجديدة، وغيرها من الأحياء التى شهدت ثراء معماريا متميزا، أصبحت تعانى من تشويه ماضيها الجميل.. صحيح أن الدولة قامت خلال الأعوام القليلة الماضية بوقف عمليات هدم القصور والفيللات من أجل حماية التراث العمرانى، لكنه قرار جاء متأخرا، ولولا الوجود الدبلوماسى وبعض الشركات الكبيرة حيث اتخذت بعض السفارات الأجنبية من المبانى القديمة مقارا لها – لكنا فقدنا الكثير من رصيدنا التراثى العمرانى العريق.

ويكفى أن نعلم أن الخديوى إسماعيل عندما أمر ببناء قصر عابدين فور توليه حكم مصر عام ١٨٦٣، ونقل مقر الحكم من القلعة إلى قصر عابدين أملا فى انتقال بلاده من العصور الوسطى إلى الحديثة. قرر بناء قاهرته الجديدة على الطراز الأوروبى، وكلف المهندس الفرنسى «هاوسمان» فى عام ١٨٧٤ باستحداث طرز ومعالم جديدة تختلف اختلافا جذريا عن طابع البيئة الإسلامية التقليدية واستغرق إعداد وتنفيذ مشروعه الحالم خمس سنوات، بدأه بافتتاح شارع محمد على بطول ٢.٥ كيلو متر فيما بين ميدان باب الحديد والقلعة على خط مستقيم. وتوالت المبانى والانشاءات الكبرى دار الأوبرا، كوبرى قصر النيل أو الخديوى إسماعيل كما كان يطلق عليه وقتها، وتحولت مدينته الخديوية إلى شبكة من الشوارع المستقيمة، والمتقاطعة، وميادين فسيحة، وقصور ومبانى، وجسور على النيل، وحدائق غناء بالأشجار، والنباتات النادرة، لتصبح القاهرة الخديوية تحفة معمارية حضارية تنافس أجمل مدن العالم وقتها. أين نحن من هذا الجمال اليوم؟؟

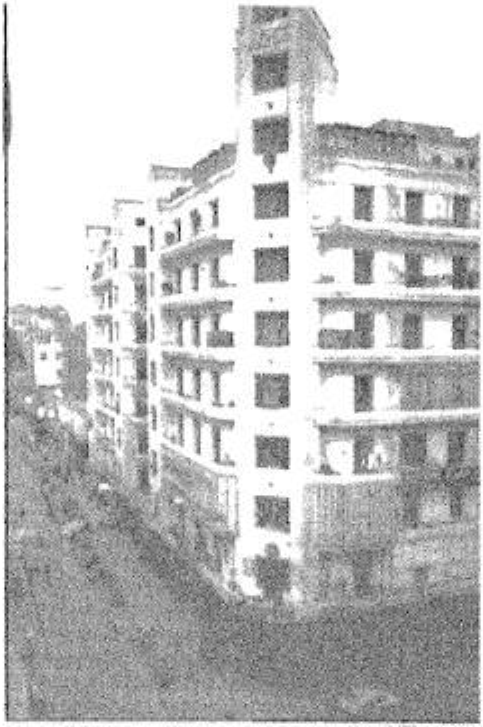
متحف مفتوح

لذا تعتبر منطقة وسط البلد متحفا مفتوحا لتراث إنسانى يمثل مصر منذ بدايات تحديثها وعصر نهضتها. من خلال رصيد هائل من المبانى القديمة يتعدى عددها ٤٢٠ مبنى داخل مساحة لا تقل عن حوالى ٧٠٠ فدان، ويعود تاريخ انشائها إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. تجمع بين الطرز المعمارية المختلفة مثل الكلاسيكى، رينسانس، الأرت ديكو، الفن

الحديث، الباروك، والمدرسة التعبيرية، والإسلامية المتطورة. كما تؤكد د. سهير حواس فى كتابها «القاهرة الخديوية» فجولة صغيرة دخل أحد شوارعها يجعلنا نشعر بالفخر. فما نراه حولنا من مبان ليس مجرد أدوار خرسانية متراصة. لكنها ثروة لا تقدر بثمن. تاريخ تحكيه ميادينها: «التحرير / سليمان باشا / عابدين / باب اللوق / مصطفى كامل. وتراه على أرصفه شوارعها «٢٦ يوليو / قصر النيل / شريف باشا / عدلي باشا / عبدالخالق ثروت / عماد الدين بل تبرزه واجهات مبانيها الثرية: عمارات الخديوية / بهلر، نادى محمد على، الشواربى..» حتى مقاهيها ريش / جروبى / الأمريكين.. وقام بتصميمها أشهر المهندسين المعماريين فى ذلك الزمان، أمثال لاشياك مصمم عمارات الخديوية بشارع عماد الدين، ومارسيل دور جنون «المتحف المصرى» ١٨٩٧ وكاستامان «مبنى جروبى» وأ مارسيل «النادى الدبلوماسى» ماتاسك «المعبد اليهودى» ماريو روسى «جامع عمر مكرم» علاوة على المهندسين المصريين مصطفى فهمى «جمعية المهندسين» أبو بكر خيرت «عمارة الطيران الفرنسية» وغيرهم مثل سيد كريم، محمد شريف نعمان، وعلى لبيب جبر.

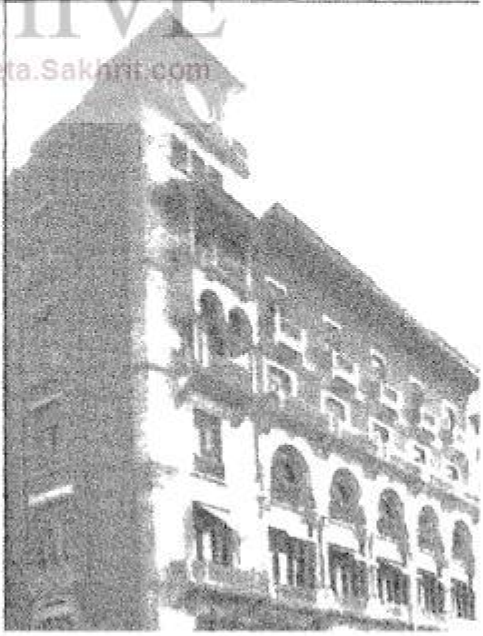
الانهيار السريع

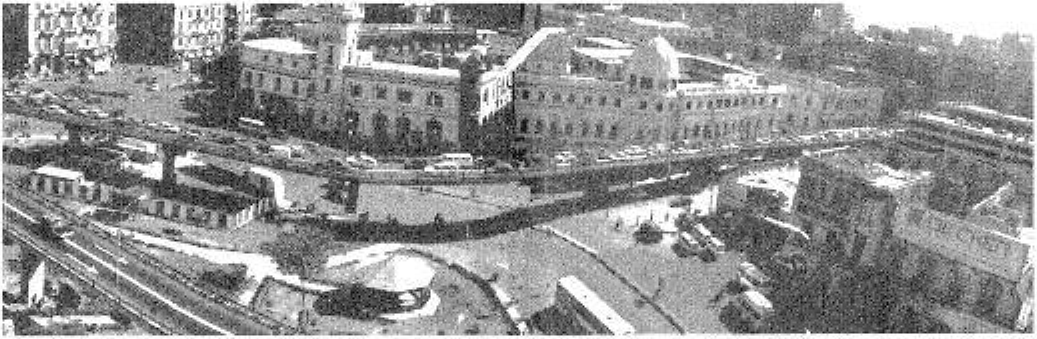
بعد أقل من مائة عام فقط أصبحت مخاطر التشويه والانهيار تحدق بالقاهرة الخديوية.. فرغم نجاح الخديوى إسماعيل فى تنفيذ رغبته الجارفة بتحويل القاهرة إلى باريس الشرق وتكبده الأموال والديون الطائلة فى سبيل ذلك، إلا أن دوام الحال من المحال. شاخت مدينة أحلامه رغم قصر عمرها مقارنة بالقاهرة الإسلامية



شارع الألفى الذى تحول الى منطقة للمشاه ضمن خطة تجديد وترميم وسط البلد

أحد أعمال عبقرى العمارة «لاشياك» ومبناه الذى يجمع بين العمارة الإسلامية والأوروبية (١٩٢٧)





ميدان العتبة الخضراء بانوراما للعمارة التراثية بالقاهرة الخديوية ويظهر مبنى البريد والمطافئ.

القابعة خلفها في أحضان جبل المقطم، وحاصرتها المقاطر من كل صوب. وعلى مدى خمسين عاما سارعت معاول الهدم في تدمير نسيجها الجميل وإزالة معظم التراث المعماري من قصور وفيلات وحدائق وبدأ الزحف الخرساني القبيح بأبراجه وعماراته ينقل ما تبقى ويحول القاهرة إلى غابة أسمنتية لا طراز لها أو معنى أو شخصية. فقدنا دار الأوبرا العريقة ليحل محلها جراج قبيح متعدد الطوابق وفقدنا حدائق البستان ليحل محلها جراج ومركز تجاري يحمل فقط الاسم بعيدا عن تاريخ المكان. فقدنا واجهات العمارات رغم جمالها وشوهتها أضواء النيون ويافطات المحال التجارية وديكوراتها الرخيصة. فلا نرى عين الزائر سوى فتنة الإعلان اللحية شديدة التأثير على عقول البشر وبالتالي التأثير على روح المكان. كما ساهم سكانها في تدمير وتغيير ما تبقى كل كما يحلو له.

الأسوأ هو تعديات الحكومات المتوالية وإدارات الحكم المحلي. فتحولت كثير من القصور إلى مدارس أو مكاتب حكومية يشغلها موظفون لا يدركون قيمة وأهمية المكان. مثل قصر سعيد حليم باشا الرائع الجمال الذي تحول إلى المدرسة الناصرية ولايزال حتى الآن مصيره حائرا ما بين وزارة التربية والتعليم ووزارة الثقافة ومحافظة القاهرة. على أمل أن يتم تحويله إلى متحف. علاوة على عدد من الفيلات والقصور التي تحتلها مصالح حكومية مثل سراي الجيزة المقام على جزء منه مجلس الدولة. وقصر الأميرة شويكار التي تشغله الآن رئاسة مجلس الوزراء وقصر عمر طوسون بالشرابية مركز الوثائق

وصم اتخاذ القرار.

محاولات للإنقاذ

عدد كبير من الباحثين المعماريين طالبوا بضرورة الحفاظ على هوية وسط البلد وعماراتها ومبانيها.. كثير منهم قام برصد أبنيتها حتى لا تفقد شكلها أو طرازها مع توصل التعديات عليها. أو حتى قيام الجولات بوصفها من أجل حلقة جلسات. وكان أول من اهتم بالقاهرة الخديوية الدكتور محمد شرابي وذلك في كتابه «القاهرة» الصادر باللغة الألمانية، ولكن أن ترجم باللغة العربية كما وجدنا الأستاذ كامل الزهيري صدور مكتبة القاهرة الكبرى. ومن بعده اهتم عدد من الباحثين بطراز وسط المدينة. ومن أبرز عمليات البحث جهود قدمتها مجموعة من المعماريين المصريين استطاعوا الحصول على منحة ضمن برنامج تابعه المجموعة الأوروبية بخصص بدعم الأبحاث العلمية بالتراث الحضاري والمعماري للمراكز الدن القديمة ونجحت مجموعة الباحثين في الحصول على المنحة الأوروبية. ومن خلالها قاموا برصد وتوثيق كافة عمارات وأبنية وسط البلد التي يرجع تاريخها إلى العصر الذهبي للقاهرة الخديوية.

تراست المجموعة الدكتورة جليلة القاضي أستاذة العمارة في معهد أبحاث من أجل التنمية التابع لوزارة البحث العلمي، والتي ترى أن مشروع تطوير وترميم وسط البلد بدأ منذ عام ٢٠٠٠ بهدف الحفاظ على التراث المعماري والعمراني الذي يرجع إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولكن ما حدث لمركز المدينة أنه تعرض لعمليات التفكك وانتقال أي بدأ المركز في الاتساع ليشمل مناطق مجاورة مجاردن سيتي. الزمالك، ثم انتقل إلى مناطق أخرى مجاورة «الهليوبلس» أو بعيدة «مصر

الجديدة، مدينة نصر» مما أثر سلبيا على المركز الرئيسي خاصة وأنه يمثل الوسط التاريخي للمدينة فتفاقمت مشكلاته مع الوقت مثل التدهور العمراني لعدم وجود اهتمام أو صيانة مع انهيار الشبكات الخديوية مثل الصرف الصحي وشبكة الاتصالات. ونزوح السكان القدماء بعيدا عنه وحلول طبقات اجتماعية أدنى. علاوة على تحويل الشقق السكنية الى مكاتب تجارية. فخرجت الأمور عن السيطرة وأصبحت مخاطر الانهيار تهدد مباني المركز التاريخي التراثي.

وعن مشروع ترميم وإدارة المباني التراثية الذى تقدمت به مجموعة البحث التى ترأسها توضح أنه فى عام ١٩٨٩ قامت المجموعة الأوروبية بطرح عطاء ضمن خطة زمنية بهدف دعم كافة العلوم. ومنها مجال العلوم الإنسانية. كان التخصص المختار هو الحفاظ على التراث وعليه تقدمت مجموعتها البحثية باقتراح حول دراسة التراث الثقافى والحفاظ على هوية المدن القديمة. تضمنت المجموعة باحثين من جامعة «حلب» والقاهرة قسم عمارة كلية الهندسة، جامعة ليون الفرنسية ومركز طور بفرنسا والمعهد الهندسي للعمارة فى فينسيا . بدأ العمل فى سبتمبر عام ٢٠٠٠ المرحلة الأولى كانت عبارة عن دراسة كافة القوانين والجهات التى تحافظ على التراث والقوانين المنظمة لذلك. وأدوار القطاعين العام والخاص فى الحفاظ على المبانى ذات القيمة واستطاعت مجموعة البحث فى رصد حوالى ٤٢٠ مبنى ذات قيمة داخل مثلث وسط البلد . وتقول الدكتورة «جليلة» أن مقاييس اختيار المبانى تقوم على عدة عوامل أولها العامل التاريخى أى تاريخ انشائه ثم العامل الرمزى اى قيمته الرمزية من ذكرى أو حدث هام شهده، والعامل الجمالى واسم المهندس المعمارى الذى قام بتصميمه وموقعه المميز وعلاقته بالمبانى المجاورة والشارع الذى يقع فيه.

وبالنظر لشارع عماد الدين كنموذج نجد أنه يحوى مبانى تعود للقرن التاسع عشر من كل الطرز المعمارية ولأهم المهندسين المعماريين أنذاك . كما عاش فيه عدد من الشخصيات مثل فاطمة رشدى ، نجيب الريحاني، على الكسار. أى أنه شارع ذو قيمة تراثية كبيرة.

مخاطر الانهيار

وتؤكد الدكتورة أن مجموعة البحث قامت بعمل دراسات للتربة والأساسات لكل المبانى ذات القيمة وإعداد قائمة بالمبانى الأكثر تهديدا بالانهيار والتى تحتاج الى ترميم عاجل.

مثال ذلك مبنى نادى ريسوتو الواقع فى ميدان مصطفى كامل . حيث اصيب بتصدعات خطيرة. وهو مبنى قام بتصميمه المهندس النمساوى لاشياك فى عام ١٨٢٩ ، كما حددت الدراسات أن العمارات الواصلة بين شارعى عماد الدين ورمسيس مهدده بالانهيار وتحتاج للترميم العاجل أيضا .

وتحلم أن تجعل من منطقة سوق التوفيقية منطقة مغلقة اى منطقة للمشاه فقط على غرار ما حدث فى منطقتى «الالفى و«البورصة» أملا فى إتاحة الفرصة امام الناس ليتأملوا جمال المبانى هناك ودفع التجار للتعاون واصلاح المكان للحفاظ عليه. والمعروف ان محافظة القاهرة بمشاركة بعض رجال الأعمال قد



نادى ريسوتو أقدم مبانى وسط البلد المهددة بالانهيار
المبنى على الطراز الايطالي الخاص بمدينة فينسيا ١٨٩٧



صيدناوي الخازندار من تصميم المهندس جورج بارق
(١٩١٣) وهو نسخة مطابقة لمباني باريس خلال تلك الفترة

طورت منطقتي الألفي والبورصة. والأخيرة تعتبر من أهم المناطق التي تم تجديدها من حيث المساحة حيث تصل الى ٦٠ ألف متر مربع. وتضم ٣٥ مبنى ذا قيمة معمارية عالية «البنك المركزي / البورصة فندق الكوزموبوليتان . دار الإذاعة المصرية القديمة بشارع الشريفين وهى مبانى تعود لبدايات القرن العشرين من طراز «الروكوكو والباروكي والأرت نوفو» وشمل المشروع تجديد البنية الأساسية وتحويل الشوارع الجانبية الى مناطق للمشاة علاوة على عمليات التجميل والإنارة التى تحمل نفس الطابع.

والمعروف ان منظمة اليونسكو قد أصدرت حديثا قائمة تحت مسمى «التراث المهدد» تحوى المبانى الحديثة نسبيا المعرضة لخطر الانهيار مقارنة بالآثار القديمة. وهو ما ينطبق على وسط المدينة بالقاهرة ، حيث تعتبر مبانيها مهددة بالانهيار وتمثل ذاكرة الأمة. ولاتزال تتعرض لمخاطر متزايدة مثل التلوث والتعديات المتواصلة.

علما بأن وزارة الثقافة قد اتبعت منذ عام ١٩٨٠ سياسة تهدف الى تحويل القصور القديمة الى مراكز ثقافية وتعليمية لاتاحة الفرصة امام الجمهور الواسع للتعرف عليها كتراث معماري مهم يحمل قيما جمالية وتاريخية متميزة على سبيل المثال تم تحويل قصر النبيل عمرو ابراهيم بالزمالك الى قصر الفنون ومتحف للخزف الاسلامي، وقصر الطحاوية بالجيزة الى مكتبة مبارك. وقصر الأميرة سميحة حسين كامل بالزمالك الى مكتبة القاهرة الكبرى وقصر محمد محمود خليل الى متحف يضم مقتنياته الفنية كما قامت الوزارة بترميم حوالى ١٤ مبنى تراثيا مثل فندق ماريوت الذى كان فى الأساس قصر الجزيرة الذى بناه الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ بتصميم للمهندس الألماني كارل فون بهدف استضافة مدعوين لحفل افتتاح قناة السويس ، كذلك تحويل منازل عدد من الشخصيات العامة الى متاحف مثل متحف ناجي / طه حسين. أحمد شوقى ، علاوة على قصر المانسترلي ومعهد الموسيقى العربية. ■

طه حسين
من الأزهر إلى السوربون

تأليف وترجمة: د. عبد الرشيد الصادق محمودي

عرض وتحليل: د. محمد الدسوقي

طه حسين طاقة فكرية متميزة طبقت شهرتها فى حياته العالم كله تقريبا، فقد منحته أكثر من جامعة عالمية درجة الدكتوراه الفخرية، وصدرت عنه بالعربية وغيرها دراسات ومؤلفات عدة، وخصصت بعض المجلات على مستوى العالم بعض أعدادها عن حياته ومؤلفاته وآرائه، وترجمت بعض هذه المؤلفات وبخاصة الأيام إلى معظم لغات العالم، وسعى إليه كثير من المفكرين والباحثين من مختلف الجنسيات والدول لمناقشته والحديث إليه، وشارك فى كثير من المؤتمرات والندوات الدولية بأبحاثه ودراساته، ولم يتحقق هذا لمفكر عربى معاصر - غير العميد - فيما أعلم.

وبعد وفاة العميد كثرت الكتابة عنه، وجمهرة ما كتب ينعت طه حسين بأنه من أعظم مفكرى مصر إن لم يكن أعظمهم فى القرن العشرين، وأن مواقفه الفكرية شامخة، وأنه رائد من رواد النهضة الفكرية والأدبية المعاصرة، إلى غير ذلك من أوصاف الإكبار والاجلال والثناء. وفى مقابل هذا يصفه بعض الباحثين بأوصاف تصادم فى ما أومأت إليه آنفا.

وأحدث ما صدر عن العميد كتاب: طه حسين من الأزهر إلى السوربون. للدكتور عبدالرشيد الصادق محمودى، وهذا الكتاب فى الأصل رسالة دكتوراه قدمت بالانجليزية إلى جامعة مانشستر سنة ١٩٩٥م، ثم ترجمها صاحبها إلى العربية، ونشرها المجلس الأعلى للثقافة فى سلسلة المشروع القومى للترجمة، ويتركب منهج هذه الدراسة الجامعية من تصدير ومقدمة وسبعة فصول وخاتمة بالإضافة إلى ملحق عن اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد العربية.

جاء فى التصدير أن فكرة الدراسة خطرت للمؤلف منذ عدة سنوات، وتتناول هذه الفكرة الدور الذى أداه طه حسين كوسيط بين الثقافات الشرقية والغربية، بيد



في جلسة عائلية



في أحد المتنزهات الباريسية



كان لأساتذته أثر كبير في فكره ومنهجه



طه حسين وزوجته وطفلاه
أمينة ومؤنس في باريس

أنه حين أقدم على البحث وانهمك فيه تحول اهتمامه - شيئا فشيئا وعلى نحو تلقائي - إلى تعليم طه حسين في حد ذاته، فقد كان هذا أمرا موفقا وضروريا، لأنه ليس من الممكن أن نفهم العميد في نضجه الفكرى دون أن ندرس كيف تشكل تفكيره في مراحل تعليمه المختلفة..

واشتملت المقدمة على الأسباب التى حملت المؤلف على اختيار هذا الموضوع، وقد أفاض القول في هذه الأسباب، وهى في مجملها محاولة لتقصى مسيرة طه التعليمية من الكتاب إلى السوربون، أو الكشف عن الطريقة أو الطرق التى تعامل بها العميد مع التأثيرات التى تلقاها في إطار تعليمه أو تكوينه ككاتب، أو في إطار تحقيقه لذاته، وذلك لفهم التطورات التى طرأت على تفكيره في المراحل التى تلت فترة الطلب والتكوين.

وأما الفصل الأول وحمل عنوان شوق إلى العالم، فقد عرض فيه الباحث بإجمال وإيجاز لحياة طه حسين، ورحلته التعليمية كما رواها في سيرته الذاتية «الأيام» مع التأكيد على معاناته للعمى كنوع من العزلة التى تستدعى بالضرورة الرغبة في التحرر منها والخروج إلى العالم الرحب.

وتناول الفصل الثانى تحت عنوان «من علوم الدين إلى درس الأدب» الفترة الأزهرية في تعليم طه حسين مع تفصيل القول بعض التفصيل في التيار الفكرى المحافظ الذى تمثله المؤسسة الأزهرية والاتجاه الإصلاحى الذى كان يمثله الإمام محمد عبده ومدرسته، وما نجم عن هذا من ضيق العميد بالمناهج الأزهرية وتمرده عليها، واكتشافه للأدب والاقبال على دراسته.

ويبرز الفصل الثالث وعنوانه «اكتشاف التاريخ» أخطر نقطة تحول في حياة العميد بأسرها، لأنه يتناول لقاءه مع لطفى السيد وتعليمه في الجامعة المصرية، وفي هذه المرحلة توصل طه إلى اكتشافه للتاريخ، وكان في المرحلة الأزهرية قد اكتشف الأدب واهتم به. وفي الفصل الرابع حديث عن الكتابات المبكرة لطه حسين، وهذه الكتابات على تنوعها تعرض للدراسات التاريخية، وفيها حاول العميد أن يستوعب ويطبق ما أخذه عن المستشرقين الذين درسوا له في الجامعة الأهلية، وأن يكون لنفسه رأياً في التاريخ، ومن ثم كانت رسالته عن أبى العلاء تتويجا لهذه المحاولة التى سبقتها دراسات نقدية عن تاريخ الأدب واللغة العربية.

الثقافة الفرنسية

وحرص الباحث في الفصل الخامس وعنوانه «الرجوع إلى المصادر الفرنسية» على أن يثبت أن طه حسين قد وقف على قدر لا بأس به من الثقافة الفرنسية قبل سفره إلى فرنسا، وأن التقاء طه بهذه الثقافة بدأ في سنة ١٩٠٧م وهو لما يزل طالبا في الأزهر عن طريق علاقته بلطفى السيد وعبدالعزيز جاويش، ثم كانت مرحلة الدراسة الجامعية التى وقف فيها عن طريق أساتذته الغربيين على طرف من المناهج العلمية التى كان لها أثرها في فكره، والتى تعد البذور الأولى لاندفاع العميد نحو المستقبل، يتخطى بها أساتذته الأوربيين نحو المصادر الأصلية الفرنسية للفكر الوضعى.

وأما الفصل السادس وعنوانه «أفول الوضعية» فقد تحدث عن حياة طه حسين في فرنسا، في مونبلييه أولا، ثم في باريس، وكيف التقى بالفتاة التى أحبها وتزوجها. وركز الفصل بعد هذا على المقررات التى درسها في السوربون والأساتذة الذين تعلم عليهم.. وخلص من هذا للكلام عن الأزمة الوضعية، والشك الديكارتى، والأزمة المنهجية.

وتتضمن الفصل السابع والأخير وعنوانه «مصالحات» عدة موضوعات تتغيأ كلها هدفا واحدا، وهو وضع مجموعة من التركيبات أو المصالحات التى تعبر عن أهم السمات المميزة لفكر طه حسين فى مراحل نضجه.

ولخصت الخاتمة رحلة العميد التعليمية والفكرية، كما قدمت تقويما لأداء العميد الثقافى، مع الاهتمام بوجه خاص بجانبين مترابطين وهما: مذهبه فى الحداثة، ونزعته الإنسانية.

وأما الملحق فهو تقرير أعده ماسينيون بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية عن دراسة اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد الناطقة باللغة العربية، وذلك بوصفه محاضرا فى تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية فى الفترة من ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٢م حتى ١٠ يونيه ١٩١٣م وهذا المقرر دعمته إدارة العلاقات الخارجية الفرنسية.

ويتكون هذا التقرير من أربعة أقسام وخاتمة.. تحدث القسم الأول عن السمات العامة للاتجاهات الفلسفية الراهنة فى البلاد الناطقة باللغة العربية.

ودرس القسم الثانى الحركة الفلسفية فى مصر باعتبارها المركز الحقيقى لهذه الحركة فى اللغة العربية، وذلك من خلال الجامعة المصرية والمؤسسة الأزهرية.

وفصل القسم الثالث أهم ما جدّ من مقررات فلسفية ومنطقية فى الأزهر ودار العلوم، ودار الدعوة والإرشاد.

ونوه القسم الرابع بالإشارة إلى الأعمال الفلسفية المطبوعة باللغة العربية سواء أكانت نشراً لنصوص قديمة أم طباعة لمؤلفات جديدة.

وبينت الخاتمة الموقف العام من التجربة العملية لتدريس المقرر الذى عهد به إلى ما سينيون، فهناك من رحب به وأثنى عليه، وهناك من نقده وبخاصة بالنسبة إلى بعض تعريفات الاصطلاحات الفلسفية كما قررها بعض فلاسفة الإسلام والغرب.

اهتمام بمرحلة التكوين

ويتضح من هذا العرض المجمل لما تضمنه كتاب طه حسين من الأزهر إلى السوربون من قضايا أن هذا الكتاب دراسة علمية عميقة تختلف فى منهجها وعناوين فصولها وأسلوب عرضها للموضوعات عما ألف من قبل عن العميد، وأنها انفردت بالاهتمام بمرحلة الطلب والتكوين فى حياة طه حسين، وهذه المرحلة لم تكن تلقى من المؤرخين والباحثين العناية التى ينبغى أن تحظى بها حتى تكشف عن الموارد الفكرية التى أسهمت فى تكوينه ثقافيا وأدبيا.

ومع الجهد العلمى الذى بذل فى إعداد ذلك الكتاب، فإن كل عمل بشرى لا يسلم من هنات، هينات وغير هينات، ولعل الملاحظات التالية تعبر عن وجهة نظر يؤخذ منها ويرد عليها وأهمها ما يلى:

أولا: إن الحديث عن التيارات المذهبية والفكرية التى كان لها دور مهم فى التكوين العقلى للعميد وسيلة لا غاية، ولكن المؤلف الفاضل أفاض القول فى هذه التيارات، بحيث طغى حجم المادة العلمية فيها على ما كتب عن طه حسين، اللهم إلا ما جاء عن رسالة ابن خلدون، ومن ثم يكاد يكون الكتاب دراسة للفلاسفة والمفكرين فى الربع الأول من القرن العشرين، وليس دراسة لفكر العميد، لأن الحديث عنه جاء مقتضبا بوجه عام.

ثانيا: إن المرحلة الأزهرية لم تأخذ حقها فى الدراسة الوافية مع أهميتها وأثرها فى فكر وأدب طه حسين، فالعميد وإن ضاق ذرعا بالمناهج الأزهرية، عرف فى هذه المرحلة طريقه إلى قراءة الأدب ودراسته فى حلقة أستاذه سيد المرصفى، كما أنه تعرف فى هذه المرحلة على زميلين لهما: أحمد

حسن الزيات، ومحمود زناتي، وجمعت الصداقة وحب الأدب بين هؤلاء الثلاثة على الاقبال فى نهم لقراءة أمهات كتب التراث فى الأدب العربي، وكان لهذا أثره فى طبع أسلوبه فى كل نتاجه بطابع الأصالة الأدبية وليست ظاهرة التعبير عن الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد فى أسلوب العميد بأكثر من صياغة إلا دلالة على الثراء اللغوى، والإحاطة الدقيقة بالمفردات والاشتقاقات.

وهذا الثراء اللغوى مرده إلى حب التراث والعكوف على قراءته في كل مراحل حياته، ومن ثم كان لهذا التراث أثره فى تميز كل مؤلفات العميد حتى ما كان منها مترجما من لغة غير عربية، بالسليقة اللغوية.

ثالثا: ذكر الدكتور عبدالرشيد أن المستشرقين الثلاثة : نالينو وسانتلانا، وماسينيون كان لهم دورهم المهم فى توجيه العميد نحو العالمية وعقد الصلات والمقارنات بين الحضارات واللغات المختلفة، وقد يصدق هذا القول على كل من نالينو وسانتلانا أما ماسينيون فقد حدثني عنه العميد بما يوحي بأنه لم يكن يطمئن إليه، قال إن النشاط العلمي للمستشرقين لا يجب أن يغمض عيوننا عن نشاطهم المريب فى مجال السياسة الاستعمارية وأذكر لك مثلا أن ماسينيون وهو مستشرق فرنسى مشهور، وكان عضوا فى مجمع اللغة العربية، وله أبحاث فى الدراسات العربية والإسلامية، هذا المستشرق كان موظفا فى إدارة المخابرات فى وزارة الخارجية الفرنسية، وكان إذا قدم مصر فإنه يقابل الملك فؤاد، ثم من بعده فاروق ولكنه بعد قيام ثورة ١٩٥٢ حاول مقابلة عبدالناصر فلم يفلح..

أما نالينو فقد قال عنه العميد: لقد أحببت هذا الأستاذ كل الحب، كما أحببت أستاذى الشيخ سيد المصرفى، ولا أنسى دروس نالينو فقد كانت بلغة عربية فصيحة، وكان لا يتكلم العامية لأنه لا يحسنها.

فتأثير ماسينيون على كتابات طه حسين ليس حاسما كما يرى الدكتور محمودى.

رابعاً: نظرا لأن موضوعات كتاب طه حسين من الأزهر إلى السوربون متداخلة ومتكاملة كان التكرار فى بعض الأفكار والنصوص أحيانا وما يترتب عليه من تكرار بعض الجمل والعبارات والمفرادت، ولا بأس بهذا مادام الأمر لا يتجاوز حدود الضرورة العلمية، ولا يدخل فى باب التكرار المخل أو الممل.

ومع هذا اشتمل الكتاب على تكرار ليس له مسوغ، فمثلا عبارة «القول بأن القرآن – على خلاف الشعر الجاهلى – هو أول وثيقة صحيحة فى تاريخ العرب يتضمن أصدق صورة للأوضاع اللغوية والدينية والفكرية فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام» هذه العبارة تكررت لفظا أو معنى أكثر من مرة ..

خامسا: إن الفلاسفة والمفكرين الغربيين وغيرهم الذين ورد الحديث عنهم وعن أستاذيتهم للعميد كان القارىء فى حاجة إلى مزيد من التعريف بهم أو الترجمة لهم ترجمة موجزة فى الهامش، فليس كل القراء على دراية بهؤلاء الفلاسفة والمفكرين.

كذلك الحديث عن المناهج الفكرية كالوضعية وغيرها لم يقدم الصورة التى تمد القارىء بمعلومات واضحة عنها، ولعل المؤلف فى حديثه عن هذه المناهج التى درسها فى مصادرها الأصلية دراسة وافية يظن أن القارىء فى مستواه من حيث المعرفة بها.

سادسا: لجأ الدكتور عبدالرشيد إلى الترجمة الحرفية لبعض المصطلحات دون أن يعرف بها أو يعبر عنها بلغة عربية، ومن ذلك مثلا: «الاسكولائية الأزهرية» وقد تكرر هذا

المصطلح أكثر من مرة، «والدجماطية الأزهرية» والأوليجاركية. وكاريزمة عبدالعزيز جاويش، «والانطولوجية. والكوزمولوجيا. والفيلولجيا»

مثل هذه المصطلحات كان على المؤلف أن يشرحها مادام لم يجد لها مقابلا عربيا، فالقارىء غير المتخصص لن يفهم هذه المصطلحات وما تعبر عنه، والكتاب مترجم للقارىء العربى فى موضوع يهم كل المثقفين مهما تكن تخصصاتهم أو ثقافاتهم.

سابعا: جاء فى صـ ٢٥٩: ومن الممكن أن نجد شواهد أخرى على أن طه حسين فى كتابه فى الشعر الجاهلى كان يؤيد وجهة نظر دوركايم وذلك عندما شكك فى الصدق التاريخى للقرآن فيما يتعلق بإبراهيم وإسماعيل، فهو يقول: إن ورود هذين الأسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى:

هذه القضية الخطيرة كانت فى حاجة من المؤلف إلى وقفة يمحص فيها الحقيقة العلمية، ولكنه مر عليها دون دراسة لها، وجاءت الإشارة إلى مباركة جاك بيرك لرأى طه حسين لتؤكد أن العميد كان يشكك فى صدق النص القرآنى.

وسألت العميد عن هذا الموضوع، فقال لى: إنى لم أشكك فى صدق التوراة والقرآن، ولكنى قلت إن العلم لم يثبت وجودهما، أى فسألته ماذا تعنى بأن العلم لم يثبت وجودهما؟ قال: أقصد أنه ليست هناك آثار ولا حضريات تدل على وجودهما. ثم قال: إن السبب فى حفظ قضية الشعر الجاهلى أن ما اتهمت به من أنى أنكر أخبار القرآن أن قاضى المحكمة لم يجد فيما كتبت ما يدل على انكارى لأخبار القرآن، وكل ما هناك أنى أعرض قضية من وجهة نظر النصوص المقدسة والعلم.

ثامنا: إن مهمة الخاتمة فى المنهج العلمى تسجيل أهم ما وصل إليه الباحث من نتائج، وليس من مهمتها تلخيص البحث كله، وإنما تقديم خلاصة وافية لأهم النتائج العلمية، وما أضافه البحث من أفكار جديدة، وحقائق علمية مبتكرة، وقد يشفع الباحث هذه الحقائق وتلك النتائج ببعض المقترحات التى تفتح مجالا لمزيد من الدراسة حول الموضوع والقضايا التى تتصل به أو تدور فى فلكه، ولا تتجاوز هذه الخاتمة غالبا أربع صفحات.

إن الدكتور عبدالرشيد كتب خاتمة بلغت نحو عشرين صفحة، لخص فيها بعض فصول الدراسة، وكرر بعض ما سبق القول فيه، وناقش بعض المعاصرين فيما ذهبوا إليه حول طه حسين، ولايكاد القارىء ينتهى من هذه الخاتمة إلا بأمشاج من المعلومات دون أن تضع يده على نتائج موجزة مرتبة تقدم تصورا عاما عن أهم ما انتهى إليه البحث من نتائج علمية أو حقائق تاريخية.

وبعد فإن تلك الملاحظات كما أسلفت وجهة نظر يؤخذ منها ويرد عليها، وهى لا تقلل من أهمية الدراسة وقيمتها العلمية، فقد ألقت الضوء على مرحلة مهمة فى حياة العميد، فضلا عن لغتها العربية الأصيلة التى تدل على تمكن المؤلف من لغة الضاد كما هو متمكن أيضا من اللغة الإنجليزية، وأن وردت بعض الفقرات التى لا تسلم من الاضطراب، ولعل سبب ذلك يرجع إلى الأخطاء المطبعية فالسطور الأولى فى ص ١٢٢ تحتاج إلى مراجعة، كذلك وردت كلمة «تماهى» مرتين فى صـ ١٣١، وصـ ١٣٩، وكنت أطمع من المؤلف أن يفسر هذه الكلمة، فهى غير مطروقة لأذن القارىء العادى.

وشكرا جزيلا للمؤلف المترجم الذى أتاح لى أن أعيش مع دراسته لحظات فكرية ممتعة عن شخصية عرفتها عن كثب ودونت عنها بعض المذكرات التى تدخل فى باب الرواية أكثر مما تدخل فى باب الدراسة.

رحم الله العميد وجزاه عما قدم خير الجزاء ■

فصل من رواية

أوراق العائلة

للروائي الكبير:
محمد البساطي



البد شاكر ولا عن باله، وربما استراح لما جرى. لم يحببه أبدا أن يمد يده عليها من وقت لآخر، وكل مرة يضربها يظل ساعات معكر المزاج وهو يعاني من أوجاع في بطنه. هو بطبعه ينفر من ضرب النساء، وقال ذلك كثيرا في قعداته، يحزن ويتصادف مروره في حارة ويرى واحدا يضرب امرأته يتوقف والألم على وجهه، وأحيانا يتدخل موبخا الرجل. الجسدة لا تريحه أبدا مجرد وقفتها تنظر إليه تستفزه تعاليها والرد عليه بكلمة أو كلمتين في صوت خافت لايسمع وارتفعت لاتقول الكلمتين تستفز ونمشي تركه واقفا يكلم نفسه ودائما هو الذي يسعى إليها في المرات الأولى قطعت نفسه حتى رضيت، وأحيانا كان يمزق قميصها، وتستلقي أخيرا ساكنة يحس بجسدها يهاجمه. وقالوا يوما لي كامل.

- قصر الكلام لا في من نعيم ولا أنا من نويوا.

لم تراوده فكرة الطلاق سيصيبها ذلك بالكثير من الأذى، وهو لا يكرهها، غير أنها لو طلبت الطلاق فلن يقول لا. لم يكن له في الزواج أصلا، ويكتشف ذلك

بعد زواجه بأيام، ولو ترك لشأنه ما سعى اليه ابدا هو ابوه كامل، وكان قصده خيرا .

شال الموضوع كله من دماغه، واستعاد بشاشته وكأن عبئا ثقيلا أزيح عنه، لا شئ ينقصه، وأموره فى البيت تجرى كما كانت، تاتيه واحدة من النسوة بصينية الفطور، تأتيه أيضا بصينية الغداء فرشته نظيفة ومرتبة، ملابسه مغسولة ومطوية فى الدولاب ويمر بهن فى الحوش لدى خروجه يتوقفن عن الكلام لا يلمحها بينهن، لابد أنها فى مكان ما تنتظر خروجه ويضحك فى نفسه ويمضى

حتى كانت مرة بعد القطيعة بشهر أو أكثر عاد فجأة بعد خروجه لسبب ما، ورآها أمامه وسط الحوش، نظر إليها فى دهشة، كان قد نسيها، وأراد أن يقول شيئا ولم يسعفه الكلام، وهى استدارت إلى حجرتها .

تصحو الجدة زينب مبكرا، تعد الفطور على صينية وتنتظر، أذنها على حجرة الجد كامل المجاورة، تعرف من حركته هناك أنه انتهى من ارتداء ملابسه، ودائما تجده بدون حذاء وكأنما ينتظر مجيئها بالفطور، يتربع أمام الصينية :

– مدى يدك .

وتمد يدها

بجوارها موقد سبرتو صغير فرقه براد الشاى، يسترخى الجد كامل بعد الفطور وذراعه ممدودة فوق ركبته يرمق الجدة زينب مبتسما ويقول أنه لم يحظ بمثل هذه المعاملة من قبل تبتسم الجدة زينب وتناوله كوب الشاى .

ويقول الجد كامل أنه طول عمره يلتقط ما يأكله وهو فى الطريق، حبة طماطم خيارة، شمامة وأحيانا رغيفا وجبنا من الفلاحين معه .

– أخر مازهقوا منى عملوا حسابى فى الأكل.

الجدة زينب منحنية على الموقد تعد القهوة، هو لم يشربها فى حياته غير أربع أو خمس مرات، ومنذ بدأت تأتيه بالفطور أخذ يعتادها، تناول رشفة فى متعة كانت ترقبه قال :

– تسلم يدك .

فى قعدتها تحسب ما يحتاجه البيت من طلبات، تعدها على أصابع يدها، ويقول لها عندك المحفظة مشيرا إلى منضدة صغيرة، تفتح المحفظة وتسحب نقودا، تقول :

– أخذت كذا ما كل هذه الأوراق ؟

– الله أعلم .





تفتح بعدها وتقرأ تضحك :

- منصور أخذ كذا وعبد الستار سدد. طلمبة ماء ماسورة ..
- حاجات قديمة .
- ولم تحتفظ بها ؟
- ومن يدرى دائما يطلبون أوراقا
- لم تخبرنى طريقك اليوم .
- لن أخبرك ولا تتعبى نفسك بالمجئ
- ولا تعب ولا حاجة..
- مشوار عليك يازينب
- ولا مشوار ولا حاجة .

مستندة بظهرها لحلق الباب المفتوح، ويدها تتحسس ضفيرتها المسترخية على صدرها ويأتيها صهيل الفرس وقد جاء بها ولد من الزريبة وربطها بشباك البيت فى الخارج ويقول الجد كامل :

- أن الأوان

وتمسك الجدة زينب بطرف جلبابه :

- لن تخرج حتى تقول لى .

يضحك الجد كامل : الأمر الله

ويخبرها بالمكان الذى يقصده .

أحيانا تأتى النسوة مبكرا حين يكون هناك خبيز وغسيل، ويمر بهن الجد كامل تتبعه الجدة زينب، يتوقف قليلا يسأل عن أحوالهن، كان يعرفهن واحدة، واحدة ويستدير ليخرج، تنفض الجدة زينب بأصابعها غبارا لمحته على كتفه، النسوة يتبادلن بسمة خفيفة، عيونهن على الجدة زينب فى وقفتها بالباب، ظهرها المشوق، عنقها النحيل، ضفيرة شعرها الأسود اللامع

- كلها حلوة .
- حلوة وحلوة .

عدن إلى ما فى أيديهن من عمل، والجدة زينب أغلقت الباب .

يقف الولد بالحمار خارج البيت . النسوة أعددن المقطف الذى ستأخذه الجدة زينب معها، به حلتان وطبقان وملعقتان وأرغفة عيش طرى وخيار مخلل .

الجدة زينب بجلباب مشجر، تحكم الطرحة حول رأسها ورقبتها .

تقول للنسوة أنها لن تغيب . ساعة زمن .

توقفها واحدة منهن ، تبلل طرف طرحتها بلسانها وتمسح كحلا سال جنب عينها، وتساعدها على امتطاء الحمار .

أتخيلها والمقطف أمامها والولد يهرول بجانبها، تخرج من حارة لحارة، وتمر بنسوة قاعدات على مصاطب البيوت ، ورجال يجلسون على مقهى يطل على الطريق المؤدية للغيطان ، ما أن يحتويها الزرع حتى تفك الطرحة وتتركها تنساب على كتفيها، شمس الظهيرة

الحامية، ولا ظلال حولها، نسمة خفيفة تسرى بين الأحـــواض تحس بهـــا تتسلل داخل جلبابها .

ويكون الجد كـامل أخـذ جـولة واسـعـة بين الغيطان، لديه سقيفتان. واحـــدة فـى الـطـرف الشـــرقى من أرضـــه الجـديدة، والأخـرى فى أرضه القديمة التى ورثها عن أبيه، قاد فرسه إليها.

السقيفة من أعواد الغـاب وجـريد النخل، أرضـهـا مغطاة بعيدان الذرة الجـافـة، تطل على مـجـرى مـاء، مـعلق بجـوانبـهـا من الداخل جلباب قديم وصيدرى ، وحـبل غليظ، وقلة مـاء ممتلئة دائما ملفوفة بقطعـة خـيش مـبـتلة لتحتفظ ببرودتها، وكيس من القـمـاش به أدوات الشاى.

نهض مستقبلا الجدة زينب، أخذ منها المقطف وأعطاها كتفه ، استندت إليها ونزلت عن الحمار.

– وليه التعب يا زينب ؟

– أشم هـوا يـا أبـا كامل . النسمة هنا حلوة

تنزل إلى مـجـرى الماء، تشطف وجـهـهـا وتجففه بطرحتها؛ تتربع جنب المقطف :

– تأكل وهو ساخن .

– محشى ؟

– كنت تقـول نفسك فيه .

– آه . من شـهـور. والله يازنيب بنت حلال .

يعد الجد كامل راكية نار خارج السقيفة ويأتى بأدوات الشاى.

اسـتـراحـا فى قـعدتهما بعد الشاى، تظللهما بالخارج فروع شجرة توت، يستقبلان نسمـات العـصـارى وعـيونهـمـا على أطراف الزرع المتمايلة .

ربما كان مشوارها من يوم لآخر بالغداء للجد كامل هو ما أثار فيما بعد القيل والقال عنهما.

فى شـهـرها الثـالث من الحمل توقفت عن الذهاب، وكـانت ترسل بنتا بالغداء، وربما هدأت بذلك شكوك الكثـيـرين. غير أن البذرة ظلت كامنة تنتظر الفرصة .

بلغ الهـمـس آذان النسـوة فى الحـوش، الجـدة زينب كـانت فى شهرها الأول أو الثانى ، ربما لم تتنبه إلى حملها بعد . تتحرك فى خفـة بينهن، التفتن إليها وكانت متربعة على حصير فى ضـــوء منور السلم ، تسرح شعرها المغسول، ورذاذ مـاء خـفـيف يتناثر منه. تهامسن:

– قطع لســـانهم واحد. واحد.

– لم يجـدوا غـيـر المسكينة ليتكلموا عنها .

الشـتـــاء، توحل الشـــوارع والحـــوارى سريعا، وتتجمع المياه وسطهـــا، وتسـيل من الأسطح على واجـهـات البـيـوت، يفـرحـون فى البلدة بمجـيـنـه، ويقف الكثـيـرون طويلا على المصاطب بمداخل بيوتهم يرقـبـــون تدفق المطر وتسرح أفكارهم .

الجد شاكر لا يوقفه مطر أو حـر، ينطلق فى موعده بعد قيلولته التى تستمر أحيانا ساعات .

ينتبه لشدة المطر وهو بالبـاب قبل أن يخـرج، يعـود. يقلب فى الدولاب حتى يعثر على الشمسية والعـبـاءة، يفـردها على كـتـفـيـه ويمدها لتـغطى رأسه ، ويرفع ذيل جلبابه بيـده وهو يخـوض فى الوحل. عادة مـا ينتظره الحنطور فى مـــثـل هـذه الأيام على ناصية الحارة .

قليلا ما يخرج الجد كـامل بعـد عـودته من

الغيطان، اعتاد النوم مبكرا، يتناول عشاءه بعد الصلاة، ويتربع جنب فراشه مطرقا ويداه فى حجره، وحين يحس ببوادر النعاس يصعد إلى السرير

فى الليالى الممطرة لا يستقر نومه ، يغفو مع ايقاع المطر الرتيب، ويصحو فى فترات انقطاعه مرهفا أذنه للأصوات فى الخارج. كنت أسمع فى حجرتى سعاله وغمغمته فى الليل وخطواته المتمهلة وهو يتجول فى الحوش .

يحتفظ تحت مخدته فى الشتاء بطاقية صوف لم تكتمل وبكرة خيط من صوف الغنم وإبرة، لا أدرى أين يخفيها بعد الشتاء ، يسحبها فى فترات صحوه ، تتعثر الإبرة أحيانا ويفك ما عمله من غرز ويبدأ من جديد .

يقول : لابد أننى نسيت طريقتها.

ويسألنى : كم تظن عمرها؟

– سألتنى مائة مرة .

– مائة ؟

– آه . كل مرة تسألنى

– عمرها أكبر من عمر أبيك. جدتك زينب أتذكرها؟



مرايا نجيب محفوظ ..

مرآة صادقة لأحزان الوطن

«تأليف الكتب عند الموظف القح نوع من أنواع العربدة لا تليق بالمحترمين من الرجال»

(نجيب محفوظ - المرايا)

بقلم
د. فهمى عبد السلام

رواية المرايا لأديبنا الرائع نجيب محفوظ - ذلك العمل الفاتن الجميل - أشبه بجراب الحاوى البارع، الذى تمتد يده لتخرج للقارىء المفاجأة المبهجة تلو المفاجأة المبهجة، وشخصياتها خليط هائل من النماذج الإنسانية التى تتفاوت فى المهن والحظوظ والقدرات والمصائر. إذا أردت شيوعيا خائنا ستجد، إذا طلبت شيوعيا مخلصا ستجد، والقوادون لهم نصيب وتجار المخدرات إلى جوار الأطباء المرموقين، وخلال تلك الملحمة الطويلة الفاتنة ستسمع بأذنيك هدير الحياة وسترى تلاطمات أمواجها العنيفة حيث تلعب الأقدار لعبتها، فتكتب الحياة الشقاء على البعض، وتمنح السعادة للآخرين بلا منطق سوى منطقها الفاتن المجنون، هذا الخليط الهائل يحتل فيه الموظفون ركنا مهما فى تلك الجدارية الرائعة، وكيف لا ومؤلفنا الكبير موظف عتيد، ظل فى الوظيفة الحكومية حتى الرمق الوظيفى الأخير وهو الإحالة إلى المعاش

وشاء كاتبنا الكبير أن يؤلف للموظفين رواية صغرى داخل رواية المرايا، كاشفا دهاليز عالم الموظفين المظلم، واختار مسرح الأحداث - وكل الإشارات تؤكد ذلك - وزارة الأوقاف، وهنا تظهر المفارقة الأولى، أن ذلك المبنى الجميل، المزين بالأرابيسك وبالأشجار الرائعة، زد على ذلك الجمال الظاهر، ذلك الوقار الديني الذى يتسم به العمل فى الأوقاف، إلا أن هذا الوقار وذلك الجمال ماهما إلا قشرة ظاهرية، تخفى تحتهما عالماً يمور بالصراعات والإحن والمظالم والمفاسد والانتهازية والمحسوبية والكيد والفضائح الجنسية، حتى اللواط والشذوذ الجنسى كانا لهما نصيب فى دنيا الموظفين.

«إدارة السكرتارية» - احدى إدارات الوزارة - يجلس الراوى - نجيب محفوظ - يرقب بعين الفنان القدير تراجيديا الموظفين، وعبر البورتيريهات الفاتنة نتعرف على أبطال العمل، وسنبدأ بـ عباس فوزى، وهو تراثى ضليع وعالم من علماء اللغة العربية، «ويستطيع عباس فوزى أن يسمع تراث اللغة كله شعراً ونثرا دون مبالغة ، عن ظهر قلب».. وهو فى نفس الوقت مؤلف لكتب التراث.. إلا أن المؤلفات لا تجد لها حظا مع القراء..

لكن ذلك الموهوب اللماح الذكى لم يحصل على شهادات، ولأنه كثير العيال وفقير لابد أن يكون ممروراً ، فيقول عنه الراوى «لم أعرف فى حياتى رجلاً ينضح بالمرارة مثله» تلك المرارة كان عباس فوزى يحولها إلى سخريات لاذعة لا ترحم كبيراً ولا صغيراً، ولا موظفا ولا كاتباً ولا وزيراً أو مفكراً.

لو كان هناك انصاف - فى بلادنا - لتبوأ عباس فوزى المكانة التى يستحقها، فبداياته لم تكن فى إدارة السكرتارية، كانت فى الأرشيف ، فهو لا يحمل سوى الابتدائية - وهناك من يشكك فى حصوله عليها - فمكانه فى دنيا الموظفين هو الأرشيف، ومع نجيب محفوظ نرى محاولات عباس فوزى المستميتة كى يقب من الأرشيف المظلم، فمع كل تغيير وزارى يحمل عباس مؤلفاته ممهورة بإهداء شعرى إلى الوزير الجديد، الذى يأخذها شاكراً، وليعود عباس إلى الأرشيف مسدلاً بذلك الستار عن تلك الدراما المتكررة، وعندما جاء عدلى المؤذن - وسنأتى إلى ذكره فى حينه - موظفا مهماً وصعد نجمه فى سماء الوزارة، حاول عباس معه، فحمل المؤلفات الممهورة بإهداء شعرى إلى عدلى المؤذن المؤذى الشرس، فقال عباس المسكين ..

- ليس من عادتى أن أهدى كتبى إلى أحد، لكن الكتب لا تهدى إلا لأمثالك.

فقال عدلى ببروده النادر..

- اعترف لك بأنى أطلعت عليها.

فشاع الفرح فى وجه عباس، إلا أن عدلى واصل مردفاً :

- إلا أننى وجدتها سطحية لم تضف إلى الأصل شيئاً.

فاصفر وجه عباس وقال مداريا هزيمته بمرح مصطنع :

- لا تحكم بعقلك يا أستاذ، نحن نكتب للبسطاء لنعلمهم، أما الفلاسفة فلا سبيل لنا إليهم..

وكان نجيب محفوظ حاضراً اللقاء، وكان من قدم، كل منهما للآخر، وكانت لعدلى المؤذن محاولات فلسفية قديمة وأثناء

عودة الراوى والمسكين عباس وهما فى المشى قال عباس :

- لا تخبر بما سمعت أحداً من الرعاع (يقصد بقية الموظفين).

- طبعا.

واسترد الرجل طبعه الساخر فقال:

- بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن كلب.

☆ ☆ ☆

وتصادف أن جاء وزيرا جديدا وكان محباً للأدب ، فرقى عباس من الأرشيف إلى إدارة السكرتارية، فاعتبر مجتمع الموظفين أن عباس مغتصب للدرجة بالخزعبلات التى يؤلفها، «فالموظف القح لا يعترف إلا بالموظف «الحقيقى»، ذلك الملم باللوائح، والتعليمات ، أما تأليف الكتب فهى فى تقديره نوع من العربدة التى لا تليق بالمحترمين من الرجال»، وكان عباس يعلم بما يقولونه عنه، فأطلق فيهم لسانه اللاذع، وبادلوه كراهية بكراهية وكان يقول إن والده كان مهندسا فقالوا أن والده كان «تربيا» وأن أمه كانت غسالة وبالجملة رموه بالشذوذ الجنسى!!.

ويذكر لنا الراوى أن مكتب عباس فوزى كان ملتقى الأدباء والشعراء والصحفيين والزجالين ، وكان يقوم بتصحيح أعمالهم مقابل أجر زهيد، فيستقبلهم بأعذب ألحان المديح، فإذا ما غادروا انهال عليهم بالحجارة.

- مسكين هذا الزجال، طلق زوجته لأنه وقع فى غرام ابن لها من زوج آخر.

- هذا الشاعر لعله الشاعر الوحيد الذى فاق فى لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان.

- وزارهم انجليزى عجوز لبث فى مصر بعد إحالته على التقاعد وكان يتقن العربية، فقال عباس لما ذهب الانجليزى :

- اننى معجب بالأخلاق الانجليزية فثمة فارق هائل بين اللوطى الانجليزى واللوطى المصرى (....)، فاللوطى الانجليزى يحمل لواطه معه إلى أقصى الأرض، ولا يمنعه ذلك من خدمة الامبراطورية حتى الموت، أما اللوطى المصرى فلا يعرف لنفسه مبدأ أو عقيدة.

وعندما تمت ترقية «شرارة النحال» - وسنأتى إلى ذكره فى حينه - محدثة صدمة للجميع، قال عباس العليم بخفايا الأمور متهكماً ساخراً، صلى وسلم على سيدك لوط..

وهذه الشخصية العجيبة تختلط الشاعر حيالها، بين رفض مرارتها وبين الرثاء للظلم الذى حاق بها، وما بين الرثاء والرفض يضحكنا نجيب محفوظ على أعجوبته النادرة عباس فوزى، فعندما عادوه لمرض أصيب به فى الكليتين، وزاروه فى منزله وهو طريح الفراش قال له نجيب محفوظ :

- سلامة الكلية ، بالكسرة كما تنطقها بالعامية.

رد عليهم بصوت واهن من شدة المرض لا يرد للتحية، إنما ليصحح لهم النطق فقال:

- الكلى يا فلان وليست الكلية.

أما رئيس «إدارة السكرتارية» فكان أعجوبة هو الآخر، وشخصية لا تقل تفرداً وأصالة عن عباس فوزى، إنه طنطاوى إسماعيل، حين تم تعيين، الراوى عام ٣٥ كان طنطاوى رئيساً للإدارة .. وفى الخمسين من عمره، وطيلة عشرة

أعوام عرفه الراوى عن كثب، كان نقيا ناصع الخلق ومتدنيا لا حدود لإيمانه بالله، ووطنياً حتى التعصب الأعمى، كثير الإطلاع على المراجع الدينية، ميالاً للمحافظة إلى درجة التزمت.

وعلاقة الرجل بالرؤساء حضر الراوى لقاءات بين طنطاوى والمديرين، فلم يكن يحنى ظهراً ولا يردد تملقاً ويحافظ على كرامته إلى أقصى درجة.. ولم يكن يترك فى النفوس إلا أسوأ الأثر.. أما عن معاملته لمرؤسيه ، فكان يفتش فى حجرات الإدارة، ولا يتسامح مع مهمل أو متلكىء أو مستهتر بحقوق الجمهور، على هذا لم تشفع فضائل طنطاوى له عند الرؤساء أو المرءوسين، فاتهموه بالجنون، وشعر الجميع ناحيته بالنفور، بل وبالكراهية.

قبل أن يستقر طنطاوى فى إدارة السكرتارية كان قد اجتاز رحلة أليمة تعتبر نموذجاً للاضطهاد، وللظلم الذى يحيق بالإنسان الشريف فى مجتمع وزارة الأوقاف – الذى يصفه الراوى بالمستنقع المكتظ بالجرائم – فقد تم تعيين طنطاوى خريج مدرسة التجارة العليا بالحسابات، وخلال خمس سنوات من الجد والاستقامة تم ترقيته إلى منصب مراقب الحسابات.. ويتطرق طنطاوى فى النزاهة التى تصل إلى الهوس، انفجر بين المحاسبين والكتبة المرتشين مثل القنبلة، فدبروا له مكيدة لعبوا خلالها بإمضائه لعبة دنيئة، وأحيل إلى التحقيق، وتقرر فصله من العمل، وتخيل إنسان مهووس بالاستقامة وبالنزاهة يتم فصله بتهمة فساد الذمة!

وخرج من الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته «أنا شريف.. أنا أمين.. أنا مظلوم.. حسبى الله ونعم الوكيل».. وظل خمسة أعوام يعانى من الجوع والألم والقهر، حتى انهارت اعصابه تماما، واضطر عمه إلى نقله إلى مصحة نفسية، وخرج بعد عام بعد أن تماثل للشفاء ، ومرض رئيس الحسابات – زعيم العصابة – وشعر بدنو الأجل ، فاستدعى رئيس التحقيقات واعترف بالمؤامرة كلها، وأعيد فتح التحقيق، وأعيد طنطاوى إلى العمل، ليس فى الحسابات ولكن فى إدارة غير مالية (.....)، كى لايؤذى غيره ولا يؤذى نفسه!!

عاد طنطاوى إلى الوزارة مستقيماً نزيهاً ممروراً، عنيفا فى الحق، يتساءل فى حيرة ومرارة :

– هل لازالت الأخلاق الحميدة موجودة أم أنها أصبحت موضة قديمة..!؟

ثم ينهال يندد على الجبن والنفاق والرياء والفساد والانحلال وينهى تنديده بهياج ويقول :

– نحن فى حاجة إلى طوفان جديد لتمضى السفينة بقلة من الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد.

* * *

خلال سنوات الرواية كانت الحياة السياسية تشهد التغييرات الوزارية والانقلابات الدستورية، فكل من الملك والمندوب السامى كان قادراً على حل الوزارة، وكانت تلك التقلبات الحزبية السياسية تلقى بظلالها على موظفى الحكومة، فأنصار الحزب الفائز يتم الإغداق عليهم بالترقيات والمكافآت، أما أنصار الحزب المهزوم فيتم التنكيل بهم إلى درجة الفصل، وفى «المرايا» نتعرف

على طبيب يعمل مديراً لمستشفى حكومي كبير، ونشرت جريدة وفدية صورة لجموع المهنئين لسعد زغلول في مناسبة، وظهر الطبيب في الصورة ضمن المهنئين ، فتم فصله من العمل، ليبقى في منزله لسنوات طويلة، في هذا الجو الموبوء بالخصومات وبالتربص وبالإحن الحزبية، فتصبح المسابات الرخيصة هي سيدة الموقف والسلوك والكلام، فالتأييد يأتي بحساب، والتنديد يأتي بحساب، حتى الصمت له حساب.

وفي إدارة السكرتارية وصبيحة يوم مشهود في التاريخ المصري الحديث، صباح ٢٥ فبراير ١٩٤٢، فقد أصبحت مصر كلها لا حديث لها إلا عن حصار الانجليز لسراي عابدين، وإجبار الملك فاروق بالقوة العسكرية، على تشكيل حكومة وفدية يرأسها النحاس باشا.. الأمر الذي أصاب الكبرياء والكرامة الوطنية بطعنة في الصميم، حادثة تذكر المرء باحتلال العراق الآن وبديمقراطية الدبابات الأمريكية / وفي أكثر من موضع ذكر أن جمال عبدالناصر شعر بالمهانة يوم ٢٥ فبراير ٤٢.

وينقلنا نجيب محفوظ إلى الوجدان المصري في وزارة الأوقاف في صباح ٢٥ فبراير، الوفديون المخلصون - يمثلهم نجيب محفوظ شعروا بالأسى وهم يرون صورة حزبهم العتيد تترنح أمامهم، أما هلافيت الوفد مثل صقر المنوفي فقد هللوا طرباً وقالوا بالفم المليان :

- عادت أيامنا السعيدة..

والموظفون - حتى أيامنا هذه - حكوميون بالفطرة، وجبناء بحكم الغريزة ، فلاذوا بالصمت ، أما طنطاوي اسماعيل فدخل الإدارة وقبل أن يجلس على مكتبه قال للراوي وبأعلى صوت :

- ما رأيك.. !؟ ها هو زعيمك يعود إلى الحكم فوق الدبابات البريطانية!؟

وتجنب الراوي مناقشة رئيسه الذي يتلذذ بأن يقول للأعور أنت أعور.

- أسمعتم عن زعامة من هذا النوع من قبل!؟

ثم اجتاحت طنطاوي موجة من الغضب فجعل يصيح كالممسوس:

- الطوفان.. الطوفان.. الطوفان.

ويقدم لنا نجيب محفوظ كيف انتهز المحاسب الأريب والداهية عباس فوزي فرصة هياج طنطاوي وكان قبلها قد ظل صامتاً - ولكي لا يتم تفسير صمته بأنه يكن مشاعر غير ودية للوفد، قال عباس برزانة وبصوت مسموع :

- قولوا ماشئتم فيما حدث ليلة أمس، لكن سيحسب للنحاس أنه أنقذ الوطن في هذه الساعات الحرجة..

كلمات كلها بالحساب، والحساب عند هذا الأناني الماكر دقيق، ودقيق جداً، وبالجرامات، جرام ونصف اعتراض ملتو ملولب «قولوا ماشئتم» وثمانية جرامات تأييد خالص، فقد ايد وعارض وأشهد الكل على ذلك ويتبقى أن تعرف رأى كل من طنطاوي إسماعيل وعباس فوزي في بعضهما البعض، وكلاهما ضحية الظلم وعدم الانصاف وما ينتج عنهما من تشوهات، وكلاهما أسر برأيه إلى الراوي.

- احذر هذا الرجل فهو صاحب علم لكنه بلا خلق».

هكذا قال طنطاوي للراوي، أما عباس فوزي الساخر اللاذع ، فلم يكن يقول عن

طنطاوى إلا «سيدنا طنطاوى ابن الخطاب رضى الله عنه».

★ ★ ★

نتابع مع نجيب محفوظ مصائر أبطاله فى الإدارة، إذ يظل عباس فوزى يكافح لاسعاد نفسه وأسرته، ساخراً هجاماً لاذعاً سماويا، وتزداد مراراته بكساد مؤلفاته عندما ينجح أحد تلاميذه فى تأليف كتب عن النبى والقرآن ولاقت رواجاً هائلاً، ودرت على صاحبها أرباحا خرافية الأمر الذى جعل عباس يكاد أن يجن، فاقترح عليه الاستاذ شعبان عبدالرحمن مترجم الوزارة أن يؤلفا سويا كتابا - يقوم عبدالرحمن بالترجمة - لمستشرق أنصف الاسلام والرسول.

هنا تظهر لنا أعجوبة ثالثة - نحتها نجيب محفوظ - ولا تقل طرافة أو أصالة عن بطلى الإدارة السابقين، ويقدم لنا نجيب محفوظ - الراوى - رحلة حياة الاستاذ عبدالرحمن، فهو ابن لوزير حربية، بعثه الأب إلى باريس لدراسة الطب بعد البكالوريا. فمكث عامين فى باريس وقضى عشرة أعوام متنقلا بين باريس ولندن حيث قضى عامين فى العلوم ومثلهما فى الآداب ، وهكذا فلم يثابر ولم يحصل على شهادة، ومات الأب الذى كان مقامراً متلافا، وأضطر عبدالرحمن إلى العودة إلى مصر، حاملاً داخل رأسه دائرة معارف مضطربة غير متكاملة عن النساء والقمار والمسارح وبيوت الدعارة والسينما وخبرة عميقة بالانجليزية والفرنسية، واضطر للعمل كى يعول نفسه وزوجته اللبنانية وابنته التى يعبدها عبادة.

ابن عز مثل النجم الذى هوى ، فخيم المظهر ضخم الجثة ومدخن مجنون وسكير عربيد ومقامر متهور ومحب للكلام فيما يعلم ، أما إذا ما تحدثت إليه فيما يجهل يتحول إلى وحش كاسر يغضب كالاعصار ، وذات مرة تناقش معه موظف وأمعن فى العناد، وكى يفحم الاستاذ عبدالرحمن استشهد الموظف بنادرة من نوادر التاريخ الإسلامى - وعبدالرحمن كان جاهلا بالتراث الإسلامى كل الجهل فقال الموظف

- دخل عبدالملك بن مروان فقال:

فهاج عبدالرحمن وانتتر مثل عمود السوارى وقال:

- عبدالملك بن مروان.. !؟ ومن هو عبدالملك بن مروان !؟ تستشهد لى بحيوان يا حيوان؟

ملعون ابوك أنت وعبدالملك بن مروان.

وهجم عليه كالوحش «فقز الموظف من أمامه مثل النحلة».

هذا الغضوب كان يملك قلب طفل، ومعارض للمعارضة، فإذا لم يقابل بتحد هدأ غضبه ولان وتراخى وقدم السيجارة، وطلب القهوة واعتذر، على الرغم من فخامته البادية إلا أن مرتبه كان زهيداً لا يتجاوز العشرين جنيها.

وبذل جهداً كبيرا كى يقطن فى شقة جميلة فى شارع فؤاد، وترجم من الانجليزية والفرنسية ، كى يوفر لأسرته ولنفسه الحياة الرغدة على الطريقة الأوروبية ، وأحاط نفسه وأسرته بصداقات مع عائلات أجنبية، وحماه مظهره الفخم الضخم من الموظفين الأقوياء المؤذيين، وهو من جانبه علمته التجارب وفضله من وظائف عديدة - قبل إدارة السكرتارية أن يتحاشى الاصطدام مع تلك النوعية وكان

يتنهد ويقول:

– رحم الله أبى.. لو لم يفقد ثروته فى القمار لما اضطررت إلى معاملة هؤلاء الحيوانات.

كل هذه العجائب فى كوم، أما آراء عبدالرحمن كانت كوما آخر، ينقلها لنا الراوى، خلال مشوارهما اليومى من باب الوزارة فى باب اللوق، وهما يسيران إلى محطة الترام فى شارع فؤاد، فينتقد عبدالرحمن كل ما تقع عليه عينه.

– أتعجبك هذه الدكاكين والمحلات؟.. انها زنزانات سوقية..

– أنظر إلى القذارة فى الشوارع وفى قلب المدينة !؟ سيأتى اليوم الذى سيطلب فيه الذباب حق المواطنة.

– أنظر إلى هذا المنظر الفريد.. الكارو والجمل والسيارة والترام فى قافلة واحدة.. وتقولون الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

– أيعجبك حقا ذلك المقرئ المصرى على محمود؟.. رجل ضرير منفر المنظر يزعق كالأبلة.

قارن ذلك بقداس كاثوليكى تسبح فى جو الموسيقى الخالدة.

– ملايين الفلاحين القذرين بأى منطق يستحقون الحياة؟!.. لماذا لا تستغنون عنهم بالآلات الزراعية الحديثة!؟

– خير ما تمخضت عنه الحضارة المصرية هو الحشيش، ومع ذلك ما اقبحه إذا ما قارنته بالويسكى!؟

– اسمح لى أن أبول على كل من تحبهم من الزعماء والأدباء والسياسيين والمطربين.

– أتعرف ما هى أكبر نعمة اغدقت علينا!؟.. هى الاستعمار الأوروبى وسوف تحتفل الاجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بالمولد النبوى.

– لا يغيظنى شىء سوى ضربكم للأمثال بعدالة عمر ودهاء معاوية وعسكرية خالد.. عمر شحاذ ومعاوية دجال وخالد فتوة درجة ثالثة لم يجد من يؤدبه.

– أليس من الأفضل للإنسانية هى أن ينتشر الأوروبيون فى الأرض وأن يبيدوا ماعداهم من أجناس!؟

– أوروبا روح الدنيا وأهلها وملائكته الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات.

– أصاب أحيانا بذهول مرضى عندما انظر حولى فأجد نفسى غريبا وسط نفر من الموظفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين المتملقين المنافقين.

هذا الإنسان العجيب لم تكن هذه الآراء تصدر عن حقد، ولكنها عن انفعال، ولو صادف بعد ذلك شخصا متعصبا للغرب، لانقلب عبدالرحمن وبنفس الحماسة مدافعا عن الاسلام ومهاجما الغرب (...)، وعلى الرغم من المودة الحميمة بين الراوى والأستاذ عبدالرحمن، إلا أن هذا لم يمنع أن يهيج عبدالرحمن عليه غاضباً، فذات يوم كان الراوى يقرأ فى جريدة فى صفحة متخصصة عن سلامة حجازى بمناسبة ذكراه، ونقلاً عن كاتبها قال الراوى بسرور للأستاذ عباس فوزى.

– هل تصدق أن فيردى قال عن سلامة حجازى إنه لو كان ولد فى إيطاليا لما كان له – فيردى – شأن!؟

فإذا بعبدالرحمن يرمى بكتاب كان

يقرأه ويصيح به كبركان :

- ما هذا الكلام الفارغ.. أتصدق أى كلام يتقوله هؤلاء الأوباش فى الصحف!؟ من هو سلامة حجازى ، أى منادى سيارات فرنسى اعذب منه صوتا، هكذا انتم ايها المصريون، ستظلون غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا، كوكب الشرق.. مطرب الأمراء والملوك.. سلطانة الطرب.. عاهل التمثيل فى الشرق.. لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا.. ولم لا تتمنى أن تكون حمارا، فيكون على الأقل لك نفع، نيلة تاخدكم انتم وبلدكم؟

* * *

ونتابع مصائر ثلاثى إدارة السكرتارية ، أحيل طنطاوى اسماعيل إلى المعاش عام ٤٥، وحل محله عباس فوزى بعد ترقيته بفضل وزير أديب، إلا أن مرارة عباس لم تبارحه حتى قاما بطبع كتاب ترجمه عبدالرحمن، ودر على عباس أول ربح ذى وزن فى حياته، مع ذكر ان كل منهما كان من الملحدين إلحاداً كاملاً، وعرف الملحد العدمى المرور عباس فوزى الطريق أخيراً، فكعف على تأليف الكتب الدينية التى لاقت رواجاً، وقامت ثورة يوليو فلم يهتم وظل يكدح ويؤلف سيراً للأنبياء والرسل، وكان يقول للراوى:

- ليت الله أرسل من الأنبياء والرسل اضعاف اضعاف ما أرسل.

وكون ثروة، وابتسمت له الدنيا، وزوج اولاده، وبنى عمارة كبيرة ، شيد فوق سطوحها فيلا جميلة لنفسه، هل تغادره المرارة؟ أبدا، خلق ممروراً لكى يشكو ويسخر.

- تصور اننى لم انتخب إلى الآن فى مجمع اللغة العربية.. كأن أعضاءه الخواجات (..) أفقه منى فى اللغة!

والمجلس الأعلى للآداب لا يوجد عباس فوزى ضمن اعضائه.. هل حتم الا يدخله إلا العوام..!

أما الاستاذ عبدالرحمن شعبان، فحياته العجيبة انتهت اعجب صباح ٢٧ يناير عام ١٩٥٢، فبينما اعضاء الادارة جالسون على مكاتبهم ، دخل من ينعى لهم الاستاذ عبدالرحمن الذى مات بالأمس فى احداث حريق القاهرة، وعرفت النهاية وكانت عبثية، أن عبدالرحمن كان يجلس فى «الترف كلوب» مع أصدقائه من الانجليز، فهاجم المتظاهرون الكلوب، وقتلوا من فيه، وكان عبدالرحمن من ضمن القتلى!.

وبعد عام ٦٧، يذهب الراوى إلى عباس فوزى، الذى كان قد أحيل على المعاش، ويجلسان فى الروف الجميل الظليل، ويلاحظ عباس ما على الراوى من هم وغم، فيقول عباس:

- شاب شعرك ولم تتعلم الحكمة بعد.

وقبل أن يتلقى الاجابة يردف:

- هل ثمة فارق بين أن يحكمك الانجليز أو المصريون أو اليهود ؟!..

هذه العبارة الموجعة، والتى تدل من ناحية على عدمية عباس فوزى الكاملة، تلك العدمية التى حفرتها سنوات الظلم الطويلة التى عاناها عباس وتعانيها مواهب كثيرة ومهدرة فى بلادنا، وتدل الكلمات من ناحية أخرى على وطنية كاتبنا الكبير - وقد قرأنا أن هناك من سجد لله شاكراً فى ٦٧ - وعلى سماحة نفسه الكبيرة، والتى تثبت لنا أن خلف كل أديب كبير هناك نفس كبيرة.

ينهى كاتبنا الكبير تراجيديا «إدارة السكرتارية».. ■

عزف منفرد على ذاكرة الشجرة

شعر: محمد يوسف

إلى العالم المصري الكبير د. أحمد مستجير رائد الهندسة الوراثية الذي يواخي بين الأضداد: اليوجينيا والشعر/ الهندسة الوراثية وذاكرة الشجرة

أنت كما أنت:
الشجرة أصل الأشياء
لا فاصلة بين النار
وبين الماء
وبين الوردة والكيمياء
فالكون هو الكون
الأرض هى الأرض
الإنسان هو الإنسان
الخير المحض
الشر المحض
أو المابين
البسط المتدثر بالخضرة
والقبض
الشح المتصحر
والفيض
وما تخفى القطرة
فى الينبوع أو العين
وما تلقى الفطرة
من نار الحمأ المسنون
لا فاصلة بين الكاف وبين النون
وبين فراشات الأوزان
وإيقاع الميزان
لك ما شئت من الرؤية
اليوجينيا
الجينوم
اللغز الملغوم
المطر الحمضى
الإيكولوجيا
رجل الثلج
التكنولوجيا الحيوية
القدمانية
الشعر المرقوم
هو السبب
و... ترقيم التفعيلة
تفتح ثقبا
ليمر البحر الموزون
من جوف الكوكب والحلزون
دوللى
والجين المتدلى
من شجر اليوجينيا

...
لك ما شئت من الرؤية
فالفيروس
هو الجاسوس
المدسوس
الحاسوس الملموس
يعكر صفو مزاج العصفور
ويسكن
أحشاء الجاموس
ليلعب لعبته
فى الرأس
وفى الصدر
وفى الخيشوم
وجمجمة الأسطورة
واللحم الموشوم
.....
لك ما شئت من الرؤية
ينسخ
يستنسخ
ويكلون
ويلون
ويطرطش
فوق اللوحة ألوانا
ويخربش
ينفخ
فى الصورة
ويلطخ
ويبخ
وينفث
ويطرطخ
...

و.. الغابة واسعة
حد الكابوس
وضيقة حد الحلم
و.. أنت كما أنت
تؤاخى بين الوردة
والسنبلة
وإرث الأرض
وميراث الأسئلة البيضاء
المحشورة بين شفافية الحكماء
ولزوجة ثرثرة الغوغاء
والعصفور الأخضر
والببغاء
... الغابة واسعة
والدم مخزون فى الذاكرة
المحتفية بالأسماء
سالومى
ترقص رقصتها
والرأس المتدحرج
مغترب
لا السجن
ولا المنفى
لا الشعر المتجلى
فى الإيقاع الأوفى
والدم ينطق
يستنطق
ميراث
الماء

مجرد أسماء

فى عالم الأدب والصحافة

بقلم
وديع فلسطين


أحمد عبد المعطى حجازى


نجيب محفوظ

• أزمة الكتاب العربى

فى معرض الكتاب أقيم فى بيروت من عامين لجأت إحدى دور النشر اللبنانية إلى التعبير عن أزمة الكتاب العربى بعرض تابوت فى جناحها كتبت عليه عبارة «القارئ» أى أن القارئ قد «مات مماتاً لعمرى لم يقس بممات» بتعبير الشاعر حافظ إبراهيم. وإذا كان القارئ بانصرافه عن القراءة يتحمل بعضاً من تبعات أزمة الكتاب، فإن للأزمة جذوراً «مؤسسية» - بالتعبير المستخدم اليوم - هى التى ساعدت على طرد الكتاب من اهتمام القارئ العربى.

فحتى يصل الكتاب إلى يدى القارئ يتم تحميله بأعباء باهظة سواء من الرسوم الجمركية المفروضة على الورق ومستلزمات الطباعة، أو من الفجوة العميقة بين سعر الدولار الذى نستورد به هذه المواد وبين سعر الجنيه، مما ينعكس على ارتفاع سعر الكتاب، ناهيك عن الإجراءات العقيمة التى تقف حجر عثرة كؤوداً فى سبيل انتقال الكتاب من قطر عربى إلى قطر آخر، وكذلك الرسوم المغالى فيها التى تفرض على أى كتاب يرسل بالبريد إلى الخارج. فمازالت جميع الأجهزة الحكومية تعامل الكتاب باعتباره مجرد طباعة كأى حديد خردة، وليس باعتباره وعاء للعلم ورسولاً للثقافة وسبيلاً من سبل النهضة الفكرية. وقد اضطرت غير مرة إلى رفض تسلم كتب وردت إلى بالبريد مهداة من أصحابها بأن جمارك البريد فرضت عليها رسوماً مغالى فيها، وكنت فى كل مرة أكتب على نفس قسيمة البريد احتجاجاً صارخاً لأن الكتب معفاة من جميع الرسوم الجمركية فى كل انحاء العالم وبقرار من منظمة اليونسكو الدولية، ولكن لاحياة لمن تنادى، وعندما سألت موظف البريد عن مصير هذه الكتب المرفوضة قال: تطرح فى مهملات البريد - أى زبالته - وربما تباع بعد ذلك فى المزادات التى تقيمها هيئة البريد - هذا إن وجدت من يشتريها!

ومازالت الرقابة العلنية المستمرة مفروضة على الكتاب - العربى، فلا يسمح له بدخول بلد عربى إلا بعد «الفسح» أى الإجازة، بل إن بعض البلدان العربية لاتسمح بإرسال كتاب على سبيل الهدية بالبريد إلا بعد مروره بأجهزة الرقابة ووضع خاتمها على مظروفه. وليس ببعيد عن الذاكرة أن بعض الكتب الصادرة فى مصر مؤخراً تعرضت للمصادرة سواء قبل عرضها على المحاكم أو بعد ذلك استناداً إلى اعتبارات تتعلق بما يسمى بالنظام العام.. وهى عبارة فضفاضة تفسر دائماً تفسيراً يدين الكتاب ومؤلفه.

وإذا كانت الرقابة - حتى من عمال الطباعة فى المؤسسات الحكومية!! - تحول دون نشر

كتاب، فقد انفسح المجال أمام نشر الكتب المحظورة في دور عربية للنشر أقيمت في ألمانيا والدانمرك والسويد والنمسا وانجلترا بعيداً عن أي رقابة . وما أكثر الكتب المصرية التي تم تهريبها إلى بيروت لنشرها هناك، ومنها «عودة الوعي» لتوفيق الحكيم و«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ و«مدينة بلا قلب» لأحمد عبد المعطي حجازي و«ماهي النهضة» لسلامة موسى وجميع مؤلفات المفكر السعودي عبد الله القصيمي، بل إن رواية «المعذبون في الأرض» لطه حسين التي صودرت بعد نشرها في مصر، جرى طبعها في بيروت بعيداً عن أعين الرقباء. وهناك كتب كانت ممنوعة في عهد، فلما زالت الموانع طبعت في مصر مثل ديوان «وطنيتي» للشيخ علي الغاياتي وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق و«كتابات ممنوعة» للدكتور محمد مندور وغيرها.

أما مشكلة القارىء ، وهو العنصر الرئيسي في رواج الكتاب أو بواره، فتتمثل في اضطراره إلى توزيع دخله المحدود على أولويات الاحتياجات اليومية، ومؤكداً أن القراءة ليست من هذه الأولويات، ولا سيما بعدما ارتفعت أثمان الكتب ارتفاعاً يبهظ ميزانية أي رجل متوسط الدخل . فقد انتهى العصر الذي كان الكتاب يباع فيه بقروش معدودة، وأصبحت حتى الكتب الشعبية تباع بجنيهات يضاف إلى هذا أن القراءة عموماً ، سواء بالنسبة للكتاب أو للصحف والمجلات، تواجه مزاحمة شرسة من جانب وسائط الإعلام المصورة. وعوضاً عن أن يشتري القارىء رواية لأديب مرموق، فالأيسر والأرخص أن يتابع مشاهد الرواية على شاشة التليفزيون.

ثم إن هناك عقلية حكومية مازالت ترى في الكتاب تشويهاً لمنظر الشوارع فتطارد باعة الصحف والكتب وتضيق عليهم وكأنهم يبيعون بضاعة محظورة، ولا بأس أن أذكر أنه زارني مرة شخص زعم أنه مفتش تليفونات ورغب في فحص آلة التليفون، فأدخلته إلى المنزل، واقتصر على رفع السماعة ثم إعادتها إلى مكانها، وجلس في أقرب مقعد ثم سألني : أهذا بيت أم مكتب؟ فقلت له إنه بيتي، وغرف النوم مفتوحة لتفقدها . فتحرج من القيام بذلك. ثم سألني، وقد رأى الكتب تتصاعد على الجدران: لماذا إذن كل هذه الكتب؟ فقلت له :لأنني صحفي وأديب وعملت بالتدريس الجامعي، أفلا ينبغي أن أستعين بهذه المراجع لتعليم أولادكم؟ ثم قلت له: وهل المكتبة الخاصة تهمة؟ إن السيدة حرم رئيس الجمهورية تشرف على مهرجان لتعويد الناس على القراءة والاحتفاظ بمكتبات في بيوتهم ، وأنت تسألني عن «جريمة» اقتناء مكتبة خاصة؟ وبعدما اطلع على بطاقات عضويتي في نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب انصرف كاسفاً.

والمؤكد أن هذا الزائر لم يوفد من هيئة التليفونات، وإنما أوفد من جهاز حكومي آخر يضيق بالكتب والمكتبات وأصحابها.

ومادامت كل هذه الأوضاع باقية ، فلا حل لأزمة الكتاب.



بلند الحيدري



الجواهري

• عن بلاد الرافدين

منذ الاجتياح المغولي الأمريكي البريطاني الاسترالي للعراق انقطع بريدي مع الأدباء العراقيين تماماً، فقد انهارت جميع المرافق العامة، بما فيها البريد، وبتنا منزعجين على أصدقائنا في العراق راجين أن تكون الراجمات العشوائية قد طاشت ولم تصبهم بأذى. ولهذا فرحت فرحاً غامراً عندما تلقيت اليوم (أول أغسطس) أول رسالة من بغداد

قال مرسلها أن حركة البريد استؤنفت، ولكن عوضاً عن مرورها بالأردن صارت الآن تمر بالكويت. والمهم أن تنظيم هذه الحركة للاعتبارات الإنسانية وحدها كيما يستطيع المغتربون من العراقيين - وهم مئات آلاف - أن يطمئنوا على ذويهم من المواطنين العاديين في بلاد الرافدين.

وإذا كان في وسع الأحياء من المهاجرين العودة إلى الوطن - إن ارتأوا ذلك - فإن الشعراء والأدباء وأهل الفكر والفن الذين ماتوا في الغربة ودفنوا في بقاع شتى من العالم، في البلاد العربية وأوروبا وأمريكا وحتى استراليا - باتت عودتهم إلى ثرى الوطن رهناً بهمة العراقيين أنفسهم.

وقد طالبت الأديبة الصحفية العراقية إنعام كجه جي المقيمة في باريس بإعادة رفات كل أديب عراقي دفن في الخارج، لكي يرقدوا في ثرى العراق، وذكرت منهم الشاعرين الجواهري والبياتي المدفونين في دمشق والشاعر بلند الحيدري المدفون في إنجلترا والدكتور فاضل الجمالي المدفون في تونس وغائب طعمة فرمان المدفون في موسكو وجعفر الخليلي المدفون في دبي وغيرهم وغيرهم. وقالت إن العراقيين لن يحتاجوا إلى وصية لأنهم سيتصرفون ببداهة وعرفان بالجميل. وكما أن الأمم تسعى لاستعادة ثرواتها المسروقة من المتاحف، فإن أهل العراق سيتحركون لاستعادة رفات مبدعيهم الراقدين في المقابر القصية. وقالت إن العراقيين سيعبرون بهم الحدود التي هجرها العسس وهرب منها المحققون وحملة الأختام السود وكل غلاظ القلوب الذين أقاموا الحواجز بين الأرواح وبين مستقراتها. ولعل الكاتبة كانت في ذلك تستعيد قول الشاعر نزار قباني:

وخريطة الوطن الكبير فضيحة

فحواجـز ومخافـــر وكلاب!

واستطردت الكاتبة فقالت إن يوم عودة الرفات يخرج تلاميذ المدارس وهم يلوحون بالأعلام الملونة، وتهلل النساء من حناجر أضناها النحيب، ويؤدي جنود الوطن التحية اللائقة، ويقف العراقيون ليتلقوا التعازي المؤجلة في كبارهم.

وختمت إنعام كجه جي أمنيتها قائلة: لن يكون الحدث الفذ عيداً للاحتفاء بمن سبق في الرحيل فحسب، بل لكل المنفيين وأبناء الهجرات الذين يؤرقهم أن تهال عليهم ذات يوم تربة غريبة.

هذا وقد أصدرت إنعام كجه جي أخيراً كتاباً باللغة الفرنسية في باريس عنوانه «كلام عراقيات الدراما العراقية بقلم المرأة»، ترجمت فيه كلمات منثورة وقصائد لشاعرات عراقيات في حب الوطن والحرية ومقاومة القهر.

الهلال | مجـــرد أســـمـــاء

لايكاد يمضي يوم دون أن أواجه بسؤال أعرفه عن أديب أو شاعر أو صحفي كانت له في عصره صولة وجولة، ولكنه أصبح مع توالي الأيام نسياً منسياً، وكأنه ساقط قيد في سجل الفكر المعاصر. فإن عرفت شيئاً بادرت بذكـره، وإن لم أعـرف أقـررت بعجزي عن الرد على التساؤل.

وقد اجتهد صديقنا الراحل أنور الجندي في فـتـرة انشـغـاله بالمآرب الأدبيـة، في



أنطـون الجميـل



فـؤاد صـروف

التنبيش فى الصحف القديمة لإجراء عملية مسح للحياة الفكرية فى مئة عام تناولت رجال النثر والشعر والصحافة والأدب الروائى والأدب النسائى والترجمة وكذلك المعارك الأدبية ، فأصدر عدة مجلدات خص كل فئة من هذه الفئات بمجلد مستقل منها. ولولا الأغاليط الناشئة عن العجلة لأصبحت هذه المجلدات موسوعة مرجعية فريدة . ولا أعرف لأحد من الباحثين محاولة مماثلة - وهى ليست بيلوغرافية مجردة - لحصر أعلام الحركة الأدبية فى أى فترة من الفترات، ولهذا تخلفت ثغرات واسعة فى سجل الأدب والفكر، وهو ماحدا بى إلى سرد أسماء - مجرد أسماء - لحملة أقلام لايكادون يذكرون فى يومنا الحاضر.

فإن استهللت الكلام بالصحافة، أبديت عجبى لأن **أنطون الجميل باشا** الذى رأس تحرير جريدة الأهرام منذ وفاة محررها السابق داوود بركات فى عام ١٩٣٣ وإلى وفاته فى عام ١٩٤٨ لم يظفر بأى دراسة تسجل سيرة حياته وتتناول بالتقييم المقالات التى كان ينشرها فى الجريدة بغير توقيع ، وهو العرف الذى كان مرعياً فى ذلك الحين على خلاف مانعهده اليوم من توقيع حتى صغار محررى الصحف على كل خبر ينشرونه مهما تواضعت أهميته . **وفؤاد صروف** الذى رأس تحرير مجلة «المقتطف» منذ وفاة عمه «**الدكتور يعقوب صروف** فى عام ١٩٢٧ وإلى عام ١٩٤٤ قد انسحبت عليه ستائر النسيان هو وسكرتير تحرير المقتطف «سبيرو جرى». ومن ضحايا النسيان **عزيز مرزا رئيس تحرير الأهرام ونجيب كنعان** سكرتير تحريره فى سنوات طويلة والصحفى الشاعر محمد الحناوي والصحفي العجوز توفيق حبيب وعبدالله حسين وأسعد داغر وصالح البهنساوى وتوفيق حنا الشمالي وكلهم عملوا فى «الأهرام». ومن المنسيين فى جريدة «المقطم» نجيب شاهين وفريد كامل وأنطون نجيب مطر والصحفية مارى كاترين بولاد. وهناك الشاعر محمود رمزى نظيم المكني «بأبي الوفا» - وهو غير الشاعر محمود أبى الوفا - وكان يعمل فى جريدة البلاغ . وهناك الصحفي الأديب عباس حافظ الذى تنبأ بقوله «نحن الأدباء نموت فطيساً «فسرى عليه ناموس الفطس» وهناك مصطفى القشاشى صاحب مجلة «الصباح» وأمين صندوق نقابة الصحفيين فى سنوات طويلة . وهناك الأديب إبراهيم المصرى وسامى الجريديني وطاهر الطناحي وقد عملوا جميعاً فى دار الهلال.

فإذا انتقلنا إلى ميدان الكتابة الأدبية ، لاحظنا أن أدباء كباراً انطوت صفحاتهم دون ذكر، منهم أحمد فريد رفاعى محقق «معجم الأدباء» لياقوت فى عشرين جزءاً ، ومنهم الأديب محمد صادق عنبر والشيخ محمود أبو رية والشاعر الباحث على عبد العظيم والمستشار عبد الحليم الجندى والشاعر الصاوى شعلان والشاعر المحقق أحمد الزين. وفى الوقت الذى يحتفى فيه تلاميذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى بأستاذهم بسبب نزعته اليسارية ، فهم يهملون سميه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى بسبب نزعته اليمينية، ومازال يعيش بيننا شاعر الملاحم كامل أمين فلا يذكره فى مرضه منظمو المهرجانات والاحتفاليات. وهناك المترجم فؤاد إندراوس والكاتب العلمى عوض جندى والأديب محمد نجيب البهبيتي والشاعر محمد الهراوى والأديب على محمد البحراوى والأديب محمد البشبيشى والأديب حسن محمود والأديب المترجم حسن الشريف والناقد الدكتور رمزى مفتاح والشاعر فايد العمروسى والأديب حبيب عوض الفيومي والمحقق إبراهيم الإبيارى والشاعر عبد السلام رستم والشاعر محمد محمود المكنى «بابن محمود» والأديب الناقد حليم مترى والشاعر الصعلوك محمد فهمي والشاعر نظير إسكندر. ومن أصحاب الصحف محمود سمهان صاحب مجلة «الراوى الجديد» ومحمد على حماد صاحب مجلة «الشعلة» وإبراهيم الروبى صاحب مجلة «رابطة الشباب» ومنرفا عبيد ناشرة مجلة «الطالبة».

وما أحصيت فى هذه القائمة إلا ما أسعفتنى به الذاكرة من أسماء ، ومؤكد أن هناك عشرات غيرها من الأسماء التى أسهمت فى حياتنا الفكرية والصحفية والتى لولا الذاكرة الخئون لاستدركتها فى هذه السطور. ■

التكوين

كدت أصبح رجل دين... لكننى اخترت الاشتراكية

كريم مروه

لم أعرف تاريخ ميلادى إلا بعد عقد ونيف من الزمن، إذ اكتشف شقيقى الأكبر أبوهادى، وهو يقلب صفحات نسخة أثرية من القرآن الكريم، أن والدنا الشيخ أحمد كان قد كتب بريشته تواريخ مواليد عائلتنا بالتقويم الهجرى. وتطوّع يومذاك ابن عم والدى الأديب والمفكر الشهيد حسين مروة بنقل التقويم الهجرى إلى التقويم الميلادى.. وهكذا صار لى تاريخ محددا لولادتى هو مساء الخميس الواقع فى الثامن من شهر مارس من عام ١٩٣٠، وقد حصل ذلك الحدث فى بلدتنا «حاريص» الواقعة فى أقصى المنطقة الجنوبية من لبنان المحاذية للحدود مع فلسطين. وهى المنطقة التى تمتد من شاطئ البحر المتوسط غربا إلى سفوح جبل الشيخ «جبل حرمون» شرقا. والاسم المعروف تاريخيا لهذه المنطقة هو جبل عامل الذى يقول المؤرخون أنه يشمل منطقة الجليل الأعلى الفلسطينى، الذى صار بعد نشوء دولة إسرائيل يعرف بشمال الدولة العبرية.





كريم مروة في جلسة خاصة مع الجواهري في بيروت (١٩٩١)

وقد نشأت بين هذه المنطقة الجنوبية من لبنان وبين المدن الفلسطينية عكا وصفد ويافا وحيفا علاقة استمرت حتى عام ١٩٤٨، عام النكبة، وتعددت جوانب تلك العلاقة وميادين النشاط الإنساني فيها. وأذكر منذ طفولتي أن اشقائي وعدداً غير قليل من أفراد عائلتنا ومن أبناء بلدتنا كانوا يذهبون للعمل في تلك المدن الفلسطينية. وكان التجار يأتون بسلعهم إلى بلدتنا من تلك المدن وليس من المدن اللبنانية صور وصيدا والنبطية وكانت العملة المتداولة في بلدتنا وفي المنطقة هي العملة الفلسطينية. وهكذا صارت فلسطين في وعيي، منذ الطفولة، جزءاً مكوناً من وعيي العام. وتحولت فلسطين، عندما اتخذت صفة القضية العربية الأولى، واحداً من أكبر الهموم التي ظلت ترافقني على امتداد عمري كله من دون خلل أو كلل حتى هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور عن مسار تكويني.

حفظت القرآن وأنا صغير

لقد نشأت في كنف عائلة دينية، والدي وعائلته ووالدتي وعائلتها، وكلاهما، الوالد والوالدة من آل مروة. وتمثلت أولى ارتباطاتي دينياً بالعائلة الدينية بانتسابي في سن الثامنة إلى كتاب «الشيخ خليل العتريسي» الذي تخرجت منه بعد عام خاتماً القرآن تجويداً، وحافظاً السور القرآنية التي كان يفترض بالمتخرج من «الكتاب» أن يحفظها لكي يحظى بلقب «خاتم القرآن». ثم انتقلت إلى مدرسة حديثة في بلدتنا فور تخرجي من «الكتاب» وفي أول عام من تأسيس تلك المدرسة، وبقيت فيها ثلاثة أعوام. وإذ انتقلت العائلة من بلدتنا للإقامة في مدينة صور «١٩٤١» فقد انتسبت إلى المدرسة الجعفرية التي كان قد أسسها قبل ذلك ببضعة أعوام المرجع الديني عبد الحسين شرف الدين صديق، والدي. ثم انتقلت منها بعد إنهاء المرحلة الابتدائية إلى مدرسة في العاصمة

بيروت لمدة قصيرة عدت بعدها إلى مدينة صور لمتابعة دراستي في مدرسة الكاثوليك، ومنها إلى المدرسة الجعفرية بعد أن تحولت إلى كلية.

في مدينة صور تفتحت أمامي آفاق جديدة لم يكن بالإمكان أن توفرها لي بلدتنا الجنوبية الجميلة حاريص. . وأخرجتني علاقاتي بالناس الآخرين المختلفين في تلك المدينة من الأجواء المغلقة إلى أجواء جديدة أكثر ثراء. وكان هؤلاء الآخرون يتكونون من زملائي في المدرسة ومن أساتذتي ومن أصدقاء جدد ممن كانوا ينتمون إلى احزاب لم أكن قد سمعت بها من قبل «القوميون العرب والقوميون السوريون والشيوعيون» وأهمية هذه الأنواع الجديدة من الناس الذين التقيت بهم وانخرطت معهم في نمط جديد من الحياة هي أنهم أضافوا أنواعا جديدة من الاتجاهات والأفكار والرؤى والعادات إلى الناس الآخرين الذين كان والذي يقيم معهم صداقات. وكانوا يزوروننا في كل مكان كنا نقيم فيه. وكانوا خليطا من رجال الدين وأدب وسياسة. كبار في السن. وقد كان لهذا المزيج من الأجيال ومن الأنماط ومن الاهتمامات ومن المواقع الدينية والدنيوية أثر كبير في الثورة الفكرية والسياسية والاجتماعية التي حدثت في حياتي منذ الخامسة عشر من عمري.

الثورة والتمرد

وإذ أصنف ما حدث لي في تلك المرحلة المبكرة من عمري بالثورة فلأنني كنت قد خرجت - بفعل ذلك الجديد من العلاقات - في أفكاري وفي نمط حياتي من الدائرة التي كان يضعني فيها انتسابي إلى عائلة دينية معروفة في المنطقة، كانت تقودني في شبابي الأول إلى أن أصبح رجل دين متخرجا في جامعة النجف الدينية. وكانت قراءاتي الجديدة تعمق الإحساس عندي بالثورة والتمرد على السائد من الثقافة والمعارف والتقاليد. وكان من أكثر الذين أثرت كتاباتهم في تحولاتي جبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة ومعروف الرصافي وآخرين من الأدباء والشعراء العرب الذين تميزوا في ذلك التاريخ بخروجهم على التقاليد والطقوس وثورتهم على المألوف والسائد من الأفكار والقيم والمفاهيم إلا أن أهم ما ساعدني في التوغل في ذلك الاتجاه هو أنني كنت شريكا في تلك القراءات مع عدد من زملائي في المدرسة وخارجها. وكان أقرب أولئك الأصدقاء إليّ صديق العمر الأديب العصامي «محمد دكروب» . وكنا نقرأ معا ونناقش ما كانت تحفل به مجلات «الهلال» و«الرسالة» و«الثقافة» من مواضيع شيقة في شتى ميادين المعرفة. وكان دكان السمكري محمد دكروب واحدا من أماكن لقاءاتنا ونقاشاتنا الجميلة تلك. وسرعان ما شكلنا، نحن تلامذة السنة النهائية من المرحلة المتوسطة «١٩٤٦» ، تحت تأثير تلك القراءات والنقاشات، جمعية ثقافية في الكلية الجعفرية، وتم اختياري لأكون أمين سر تلك الجمعية. وكان من أولى اهتماماتنا في الجمعية تأسيس مكتبة. ووجهنا لتلك



كريم مروة مع فيروز والشيخ إمام وزياد الرحباني في منزل فيروز في بيروت (١٩٨٤)

الغاية رسائل إلى عدد من الكتاب اللبنانين والعرب نطلب منهم إرسال بعض كتبهم لإغناء مكتبتنا وتلقينا أجوبة من بعض الكتاب أذكر منهم من مصر ابراهيم عبدالقادر المازنى ومحمود تيمور ومصطفى لطفى المنفلوطى.

الهلال أول مرجع لي

وكان كتاب «مجلة الهلال» من أكثر الذين كانوا موضع اهتمامنا. وكانت روايات جرجى زيدان التاريخية أول مرجع لى ولزملائى لقراءة تاريخنا العربى. ثم انضمت إلى مجلات «الهلال» و«الرسالة» و«الثقافة» فى النصف الثانى من الأربعينات كمرجعيات ثقافية ومعرفية لى مجلات «الكاتب المصرى» و«الطريق» و«الأديب» وتوالت قراءاتى فى الفترات اللاحقة لكتابات سلامة موسى وطه حسين وعمر فاخورى وتوفيق الحكيم ورئيف خورى وحسين مروة. وكانت قد بدأت تثير اهتمامى واهتمام جيلى بكامله الروايات السوفييتية عن بطولات الجيش الأحمر فى الحرب العالمية الثانية، ورواية الأم لمكسيم غوركى، خصوصا، التى كانت بمثابة مدرسة الشيوعيين. وكذلك كان الأمر بالنسبة لروايات هاورد فاست وجون شتينبيك الكاتبين الامريكيين التقدميين وكتابات الكاتب الايرلندى الساخر جورج برنارد شو وروايات كتاب عصر التنوير فى فرنسا، قبل الثورة وبعدها، فولتير وروسو وفكتور هيجو وإميل زولا وكثيرين اخرين من رموز الثقافة العربية والعالمية.

فى خضم تلك التحولات فى حياتى، التى جاءت نهاية الحرب العالمية الثانية على النحو المعروف بدور مميز للاتحاد السوفييتى فيها، سافرت إلى العراق، وكان ذلك فى خريف عام ١٩٤٧. إذ ارسلنى والدى إلى العراق لمتابعة دراستى برعاية ابن عمه حسين مروة الذى كان قد تخلى عن مهنة رجل الدين وزيه، وصار استاذا للادب والفلسفة فى المدارس العراقية المختلفة. وكانت الضائقة الاقتصادية فى

عائلتنا قد بلغت ذروتها. إذ كانت العائلة قد كبرت وصارت مؤلفة من أحد عشر ولدا.

التحولات الفكرية

وكان وجودى فى العراق بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٩ مصدر غنى كبير، بالنسبة الى فى السياسة والثقافة وفى التحولات الفكرية. فقد كانت تلك الفترة فى العراق حافلة بالأحداث الدراماتيكية. ففى عام ١٩٤٧ صدر قرار تقسيم فلسطين وأحدث خيبة كبيرة فى نفوس جيلنا. ثم حدثت انتفاضة شعبية فى العراق أطاحت الحكومة التى كانت قد عقدت معاهدة مع الانجليز حملت اسم معاهدة بورتسماوث نسبة إلى المدينة التى جرى فيها التوقيع على المعاهدة. فقد كانت تلك المعاهدة بنظر العراقيين تحول دون انتقال العراق إلى السيادة الكاملة والاستقلال الكامل عن بريطانيا. وفى عام ١٩٤٨ حصلت نكبة فلسطين التى تمثلت بهزيمة سبعة جيوش عربية فى حربها ضد العصابات الصهيونية، وانتهت بإقامة دولة إسرائيل غصبا عن البلدان العربية، وبمنع الشعب الفلسطينى، بقرار عربى تعسفى، من إقامة دولته على ما كان قد تبقى من أرض فلسطين «الضفة الغربية وقطاع غزة» بحجة الإعداد لمعركة قادمة تعيد فلسطين كل فلسطين إلى الشعب الفلسطينى. وهى المعركة التى لم تأت، أو هى أتت اكثر من مرة فى الاتجاه المعاكس لذلك الشعار الخائب، أدت إلى وقوع فلسطين كلها تحت الاحتلال الإسرائيلى، وإلى فرض قوانين استثنائية فى العراق وفى بلدان عربية أخرى دخل بموجبها إلى السجون العديد من الوطنيين وجرت إعدامات فى العراق «قادة الحزب الشيوعى» كما جرى تهجير اليهود بالجملة من العراق وبلدان عربية اخرى الى إسرائيل. وقد كان لكل تلك الأحداث وقع الصاعقة على وجدانى ووجدان جيلى، مما أجج الثورة فى داخل كل منا. وقادتنى ثورتى إلى البحث والتفتيش عن مرجعية فكرية أخرى غير تلك التى كانت مرجعيتى فى السابق الفكر القومى مرجعية جديدة تدلنى على الطريق إلى مستقبل أفضل لبلادى. وهكذا تعرفت تحت وطأة تلك الأحداث وذلك القلق وبفعل تلك الثورة عندى، إلى عدد كبير من مثقفى العراق الجواهرى والسياب والملائكة والحيدرى، وإلى عدد كبير من القيادات السياسية ومن بينهم الشيوعيون. وكان واسطتى الأولى إلى تلك العلاقات ابن عم والدى حسين مروة. وصرت شيوعيا. إذ اعتبرت ان كل ما كنت أتصوره مدخلا إلى حرية بلداننا وتقدمها من افكار ومشاريع لم يعد قابلا للحياة. وصارت الاشتراكية بالنسبة الىّ هى الحل.

وحين عدت الى لبنان فى صيف عام ١٩٤٩ مع عائلة حسين مروة دخلت إلى سلك التعليم لمدة عامين ثم انتقلت إلى الجامعة اللبنانية فى فرع الآداب «١٩٥٢» وانتخبت الى منصب نائب رئيس الرابطة الطلابية بصفتى الشيوعية من دون أن أكون قد انتسبت الى الحزب الشيوعى اللبنانى. والسبب فى عدم انتسابى الى

الحزب الشيعي ، بعد ان كنت قد صرت شيوعيا يعود إلى أنني كنت قد تعرفت الى الاديب اللبناني رئيف خوري وتأثرت بأفكاره وبكتاباته. حيث اخبرني هو بمرارة أن الحزب قد اتخذ منه موقفا عدائيا بسبب تضامنه مع القائد الشيوعي فرج الله الحلو. الذي كان قد اعترض على موقف الأحزاب الشيوعية العربية المشرقية المؤيد لقرار تقسيم فلسطين تماهيا مع موقف الاتحاد السوفييتي ومعروف ان فرج الله الحلو قد اقصي من موقعه في قيادة الحزب بسبب موقفه ذلك. وكان موقف كل من فرج الله الحلو ورئيف خوري يتفق مع مشاعري، غير أنني عدت فانتسبت إلى الحزب في آخر عام ١٩٥٢، تحت ضغط مورس على من قبل بعض أصدقائي في الحزب، موفقا بوعد في حل قريب لأزمة العلاقة بين الحزب ورئيف خوري وكنت في حقيقة موقفي قد بدأت أقتنع بأن وجودي خارج الحزب كان يتعارض مع اهتماماتي السياسية وعينت فور انتسابي إلى الحزب مسئولا طلابيا. ثم أرسلتني المنظمة الطلابية الى بودابست «صيف عام ١٩٥٣» لكي أمثل الشبيبه العربية في اللجنة التنفيذية لاتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، ولكي اكون جزءا من فريق العمل القيادي في الاتحاد في مقره في بودابست . حيث بقيت هناك أربعة اعوام متواصلة.

تجربة مهمة في حياتي

ورغم أنني امتثلت من دون اقتناع لقرار الحزب بقطع دراستي الجامعية إلا انني أشهد ان تجربتي في العمل في منظمة عالمية كانت فائقة الغنى. وكان من أولى الدروس التي وضعتني الأحداث في صميمها ان الاشتراكية في التجربة العملية كانت مختلفة اختلافا جوهريا عما كنت قد بدأت منذ وقت مبكر بالتعرف إليه من مصادرها في فكر ماركس ولينين . من خلال قراءاتي لبعض كتاباتهما وبعض الكتابات التي تعرف بكل منهما، اي ماركس ولينين. لكنني كنت مقتنعا بأن الحياة أكثر تعقيدا من الأفكار. ولذلك لم أجعل من المقارنة بين الفكر والممارسة مجالا للابتعاد عن الاشتراكية رغم بشاعة ما عرفت من بعض الأحداث التاريخية «إعدامات ستالين لقيادات شيوعية في الاتحاد السوفييتي وفي البلدان الاشتراكية الأوروبية» وما عايشته من أحداث دراماتيكية، كان أكثرها إيلاما ما حدث في المجر في ١٩٥٦ . ففي ذلك العام الذي كان قد عقد فيه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي مؤتمر التجديد بقيادة خروشوف حصلت ثورة شعبية ضد النظام الاشتراكي، وكنت اتابع عن كثب الممهدات التي أدت إلى وقوع تلك الحركة والتي تمثلت في السجالات السياسية والفكرية الشديدة التوتر حول التجربة الاشتراكية وحول عناصر الخلل فيها . وهي سجالات استمرت لبضعة شهور، ورافقتها زيارات جماهيرية الى مقابر قياديي الحزب الذين كان ستالين قد أعدمهم، ودار جدل كبير في العالم، لاسيما في داخل الأحزاب

التكوين

الشيوعية، حول الأسباب التى أدت إلى وقوع تلك الحركة وحول الظروف التى قادت الاتحاد السوفييتي الى قمعها. وكان لنا نحن الأجانب من الشيوعيين والاشتراكيين داخل فريق العمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى، دورنا فى ذلك الجدل. ولا أزال أذكر الموقف الجرىء الذى أعلنه فى أعقاب تلك الأحداث بالميرو تولياتي. الامين العام للحزب الشيوعى الايطالى، ومفاده ان ثمة خللا بنيويا فى التجربة الاشتراكية ينبغى أن يرى بوضوح وأن تتم دراسته بعمق وان تستخلص الاستنتاجات الضرورية منه.

بدايات الانطلاق إلى العالم

كان وجودى فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى أول منطلق لى إلى العالم، الى بلدانه والى احداثه والى ثقافاته. لكن بداية سفرى فى مهمات محددة كانت فى اتجاه العالم العربى ففى عام ١٩٥٤ كلفت، بحكم مسئوليتى فى الاتحاد عن الشرق الأوسط وشمال افريقيا، بالسفر الى البلدان العربية «لبنان وسوريا والأردن ومصر والسودان» للتحضير لمؤتمرين كانا سينعقدان فى بكين وفى فيينا، الا ان زياراتى الى مصر تعددت. وكنت كلما زرتها بين عام ١٩٥٤ و ١٩٥٨، أزداد شغفا بها وتعلقا بكل ما تميز به الشعب المصرى ومثقفوه من جيل جيد وغني، جعل مصر بالنسبة إلينا نحن ابناء بلاد الشام مرجعا ومحجا فى الثقافة خصوصا آدابا وفنونا وسينما، وفى السياسة الوطنية وكانت اللهجة المصرية ؟؟؟؟؟ المصرية وطيبة الشعب المصرى هى الأقرب الى قلوبنا.

وظلت علاقتى بمثقفى مصر وسياسييها تكبر إلى ان كدت أصبح مصريا، وكان اصدقائى المصريين الكثر. بالنسبة لى يصبحون لبنانيين لشدة قربى منهم وكان من بين الأوائل من مثقفى مصر وسياسييها فى الخمسينات من القرن الماضى، الذين اعتز بالصداقة التى ربطتنى بهم: عبد الرحمن الشرقاوى وخالد محيى الدين ومحمود أمين العالم وحسن فؤاد والفريد فرج ولطفى الخولى وصلاح جاهين واحمد بهاء الدين وعبدالغنى ابو العينين وعبدالمنعم القصاص وصلاح حافظ وكمال عبدالحليم وسعد التائه. وانضم الى هذا العدد الجميل من المثقفين والسياسيين فى الأزمنة اللاحقة حشد كبير أغنت علاقتى بهم ثقافتى. ومعارفى.

وكان انتقالى إلى العمل فى مجلس السلم العالمى بين عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٤ مصدرا إضافيا لجملة تلك المصادر فى الأفكار والأشخاص فى تكوين شخصيتى. إلا أن وجودى فى فيينا فى قلب تلك الحركة العالمية العظيمة المدافعة عن السلم وحرية الشعوب، وقد وضعنى على مقربة من أحداث العالم الكبرى. وأضاف إلى معارفى فى الثقافة والسياسة معارف أخرى اكثر غنى وأكثر تأثيرا فى التكوين النفسى. وكانت المؤتمرات التى عقدها مجلس السلم العالمى تجمع اعدادا كبيرة من كبار الشخصيات العالمية. وكانت تعالج مشاكل

العالم الكبرى. وكانت تلتقى فى تلك المؤتمرات وتتنافس وتتصارع الأفكار والاتجاهات داخل الحركة العالمية من اجل السلم ومن اجل حق الشعوب فى تقرير مصيرها، وداخل الحركة الشيوعية بالذات. وما أكثر ما كان بعض الصراعات الفكرية والسياسية يوحى الىّ كما لو ان الاختلاف هو الأساس فى العلاقات بين الاتجاهات وبين الدول، وان وحدة العالم على أسس انسانية مشتركة تكاد تبدو مستحيلة وكان مصدر ذلك القلق عندى هو احتدام الصراع بين الاتحاد السوفييتى والصين وبين افكار كل منهما داخل الحركة الشيوعية وحتى داخل البلدان وداخل حركة النضال من اجل السلم، بشكل خاص.

ورغم أننى غبت كثيرا عن بلدى لبنان وعن المنطقة ورغم انشغالى بالمهمات الاممية التى كان يكلفنى بها كل من اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى ومجلس السلم العالمى، إلا أننى كنت على صلة دائمة باحداث بلادى. وكانت قضايانا العربية فى صلب اهتماماتى فى كلا المنظمتين العالميتين وكانت قضية فلسطين والعدوان الثلاثى على مصر وقضايا عربية أخرى موضوع سجال دائم بينى وبين الهيئات والشخصيات التى كانت مهمتى تفرض على الإلتقاء بهم بمن فى ذلك شخصيات يهودية. وتحتفظ ذاكرتى بحشد من الاحداث والتوترات التى أدت اليها تلك السجالات حول قضايانا العربية.

لقد كانت تلك التجربة الغنية التى كدستها فى عملى الخارجى السبب الذى جعل قيادة الحزب الشيوعى اللبنانى تستدعينى فى اواخر عام ١٩٦٤ فى صورة كانت مفاجئة لى العودة من مقر عملى فى فيينا لكى اضم الى عضوية المكتب السياسى للحزب بعد انفصال هذا الحزب عن الحزب السورى، بزعامة خالد بكداش. وقد اثار قرار ضمى الى المكتب السياسى أسئلة عندى طرحتها بوضوح امام نقولا شاوى الامين العام للحزب، الذى اوضح لى يومها ان الحزب هو فى مرحلة تأسيسية وان الشرعية الحزبية ستأخذ طريقها إلى التحقق فى وقت لاحق. ثم أضاف قائلا لى بأن التجربة التى كدستها فى عملى فى الخارج كانت كافية لكى تنقلنى الى موقع مسئولية أساسية فى الحزب. ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة جديدة مختلفة فى حياتى. إذ تحولت بالكامل من مشروع مثقف إلى مشروع مسئول حزبى . سرعان ما أصبح أى هذا المشروع الجديد بعد سنوات قليلة، واقعا مثقلا بالمسئولية. إذ شاركت فى عام ١٩٦٦ مع عدد من رفاقى الشباب فى القيادة وخارجها بحركة تجديدية فى الحزب الشيوعى اللبنانى كانت الأولى من نوعها فى الحركة الشيوعية العربية. وقد تمثلت تلك الحركة بإقرار استقلالية الحزب اللبنانى عن المرجعية السوفييتية فى الأمور المتعلقة بلبنان وبالمنطقة العربية، ثم بالتمايز عن التجربة المحققة فى البلدان الاشتراكية فى موضوع الديمقراطية والتعددية الحزبية.

العلاقة بالمثقفين

إلا أننى مارست جهدا كبيرا فى

اتجاه الابقاء على اهتمامي بالثقافة عموما، وبالعلاقة مع المثقفين، وكرست جزءا غير قليل من اهتمامي بالميدان الفكري، رغم ضعف تكويني الأكاديمي. وقد نجحت جزئيا. وصدرت لي عدة كتب ابتداء من عام ١٩٧٤ وصولا إلى هذه اللحظة، بلغت بمجموعها عشرة كتب متنوعة في محتوياتها. فضلا عن كتابات كثيرة في مجالات شتى بما في ذلك قراءة خاصة لسيرة وتراث بعض المثقفين العرب المعاصرين، أدباء وفنانين ومفكرين.

ولابد لي من الإشارة، هنا إلى أن الحرب الأهلية اللبنانية قد ساهمت في تعطيل الكثير مما كانت تحفل به السنوات السابقة عليها من اتجاهات حقيقية نحو التجديد في حياتنا السياسية والثقافية والفكرية. إذ تحول كل شيء خلال الأعوام الخمسة عشر من الحرب في خدمة العمل العسكري، وتراجع دور الفكر، وتراجع دور الثقافة وتراجع الوعي العام، وتراجعت القيم، وحل محلها في كثير من الأحيان نقيضها. ولابد لي من الإشارة ايضا الى ان الهزائم السياسية والعسكرية والاقتصادية التي انتجتها انظمة الاستبداد في بلداننا وارتبطت باسمها قد ولدت الكثير من الخيبات عند الشباب، ولم تستثن من تلك الحالة النخب السياسية والثقافية وقيادات الأحزاب. وتركت تلك الهزائم ونتائجها تأثيرها السلبية على مجمل الأوضاع في بلداننا حتى هذه اللحظة. وشكلت مأساة الشعب الفلسطيني، برغم انتفاضاته المتواصلة، النموذج الصارخ للمأزق الذي ما نزال نعيش في مناخاته ومتاهاته من دون ان نجد الطريق الى الخروج منه.

وكثيرا ما كنت اتساءل بيني وبين نفسي، في السنوات التي أعقبت هزيمة يونيو «١٩٦٧» والسنوات التي اعقبت تفجر الحرب الأهلية في لبنان «١٩٧٥»: إلى أين نحن ذاهبون في بلداننا؟ إلى أي مصير؟ كنت اتساءل من موقعي الشخصي كإنسان عربي، ومن موقعي القيادي في الحزب الشيوعي اللبناني. وكنت أكثر من الكتابة نقدا للأوضاع القائمة ونقدا للذات. وكنت أتابع العمل كما لو أنني لم أقل شيئا ولم ار ولم افكر في ما هو قائم. ولعلي لم أكن الوحيد في تلك الحالة من الاضطراب. وقد لا يعرف القراء أنني كنت من الأوائل الذين كتبوا منذ أواخر الستينات في تحديد طبيعة الأزمة التي تمر فيها بلداننا وتمر فيها احزابنا الديمقراطية، الشيوعية والقومية. وكان كتابي كيف نواجه الأزمة الصادر في عام ١٩٧٤ حصيلة اولية للمحاولات في الاجابة عن التساؤلات. وتابعت الكتابة في الموضوع ذاته في مطالع الثمانينات بمناسبة مئوية ماركس. فنشرت في مجلة «الطريق» ثلاثة ابحاث بين اواخر عام ١٩٨٣ وأوائل عام ١٩٨٤ في ما يشبه ملاحظات نقدية حول الحرب الأهلية اللبنانية وحول حركة التحرر الوطني العربية وحول الثورة الفلسطينية في تطورها وفي ازمتها. وافردت فصلا خاصا في احد تلك الأبحاث حول الأزمة في الماركسية في البلدان العربية، أعيد نشره



كريم مروة في حديث حميم مع الرئيس ياسر عرفات في بيروت في أوائل سبعينات القرن الماضي

فى كراريس وفى مجلات عربية، واثار جدلا بما فى ذلك بين سجناء الرأى فى أنظمتنا العربية، وتابعت المحاولات ذاتها فى كتابى الذى صدر فى مطلع عام ١٩٩٠ بعنوان «حوارات» الذى تضمن مواقف لى ومناقشات لها من قبل عدد كبير من المثقفين العرب. كما تضمن فى اخر الكتاب نقدا للتجربة الاشتراكية التى كانت تلفظ أنفاسها . ونقدا ذاتيا لحركتنا الديمقراطية واليسارية بمدارسها المختلفة.

الغزو غير الكثير من التكوين

وقد كان من الصعب علىّ ان أمارس هذا العمل الفكرى النقدى وأنا فى موقعى فى قيادة الحزب، عاجزا مع حزبى ومع الحركة اليسارية كلها عن شق الطريق الى مستقبل افضل لبلداننا. مستقبل يحررنا من انظمة الاستبداد ومن هيمنتها على مصائرنا ويحررنا من عناصر الخلل فى تجربتنا الاشتراكية . وكان صعبا علىّ ، فى الوقت عينه، ان أغادر ذلك الموقع واترك رفاقى وأهلى فى الأزمة. وكان ذلك مصدر قلق دائم لم أستطع أن اعبر عنه إلا فى كتابى الاخير الذى حمل إلى القراء بعضا من سيرتى: كريم مروة يتذكر فى ما يشبه السيرة.

إلا أننى أذكر بمرارة يوم قررنا نحن مجموعة من المثقفين فى قيادة بعض الاحزاب اليسارية وعلى تخومها ان نبحث فى انشاء جهة ثقافية ديمقراطية عربية لمواجهة ما كنا نراوح فيه من مأزق . كان موعد اللقاء الأول فى منزلى عشية الرابع من يونيو ١٩٨٢ ، وكان الحضور يأتون الى الموعد فرادى. وكان أول القادمين حسين مروة ومحمود درويش ومهدى عامل ومحمد دكروب وفواز طرابلسى وياسر عبد ربه وفيصل دراج وكان من المنتظر مجيىء اخرين وفيما كنا نتبادل الأحاديث بانتظار مجيىء الأخرين فوجئنا بالطائرات تقصف بيروت، وكان الهدف يومذاك المدينة

التكوين

الرياضية التى كانت قد تحولت الى مركز للمقاتلين. فألغينا الاجتماع وحددنا الموعد الثانى للقائنا فى اليوم التالى. لكن ذلك اليوم كان قد تحول الى بداية الغزو الإسرائيلى للبنان. ولم نكرر التجربة إذ جاء الغزو الكثير مما كان قائما على الأرض ومما كان قيد التكوين فى الأحلام.

فى العقد الأخير من القرن، أى بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية وعودة الحياة الطبيعية الى البلاد، وكنت قد بلغت الستين من عمرى. قررت أن أخفف من مسئولياتى الحزبية لأمارس نوعا آخر من المسئولية متحررا من قيود العمل اليومى الذى كان قد أكل الجزء الأكبر والأجمل من حياتى. لكننى لم أجرؤ على الانتقال من تلك الحرية والمسئولية قفزا الى موقع اخر من دون أن أعد نفسى واعد رفاقى لذلك الانتقال. فبقيت فى قيادة الحزب من دون مسئولية محددة. وتطوعت مع صديقى محمد دكروب للعمل على إعادة اصدار مجلة «الطريق» فى صيغتها الجديدة الراهنة محررة من الالتزام الحزبى ومفتوحة للنقاش والجدل والحوار بين التيارات الفكرية والأدبية والسياسية فى بلداننا . ثم خرجت بقرار ذاتى فى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى من أى مسئولية ١٩٩٩ وتفرغت للعمل الفكرى من دون أن أتخلى عن خيارى الاشتراكى وعن التاريخ الذى أسهمت فى صنعه بحدود امكاناتى لكننى قررت ان اتابع، فى الشروط الجديدة، الجهد البحثى مع كثيرين سواى عن افق جديد لنهضة عربية تنقل بلداننا من عهود الاستبداد والتخلف والاحتلال الأجنبى الى رحاب الحرية والتقدم. ورغم أن الشروط القائمة لا تشير الى احتمال ولادة سريعة للقوى المؤهلة للقيام بتلك النهضة، الا اننى ارى ان على وعلى امثالى من الجيل القديم أن نتابع جهدنا فى الاتجاه الذى يبدد غيوم اليأس والإحباط والهزيمة التى تسيطر على اجيالنا الشابة، وبحثها على الانخراط فى صناعة مستقبلها ومستقبل بلدانها.

وقد علمتنى تجربتى الطويلة ان اظل متفائلا ، وان اظل احلم بالمستقبل حتى وأنا فى مثل هذا العمر متجاوزا الثالثة والسبعين من الأعوام، جاريا بأمل لا يفارقنى نحو الرابعة والسبعين وما بعدها.

العلاقات اسهمت كثيرا فى تكوينى

وقد يرضى فضول القراء أن اخبرهم باننى قد زرت خلال نصف القرن الذى مضى بمهمات مختلفة العديد من بلدان العالم فى القارات الخمس. والتقيت خلال تلك الزيارات بالعديد من قادة الدول والاحزاب وقادة المنظمات العالمية والاقليمية. وبالعديد من كبار الأدباء والشعراء فى العالم. لكن المهم بالنسبة لى

هو ان هذه العلاقات قد اسهمت فى تكوينى من الناحية الإنسانية فضلا عن الناحيتين السياسية والثقافية. وكانت لى بين تلك الشخصيات فى مواقعها المختلفة علاقات صداقة مازال بعضها قائما حتى الان.

وسوف يكون من العسف أن انهى هذا

العرض لتجربتي وسيرة تكويني من دون أن أشير إلى غنى علاقاتي الانسانية بجوانبها المتعددة، وهي علاقات أحب أن أشير الى المدن التي كانت تشكل المراكز التي تأسست فيها تلك العلاقات، وتركت تأثيرها في وجداني وفي مشاعري على مدى الحياة. وهذه المدن هي: بودابست وفيينا وموسكو وباريس والقاهرة وبغداد، لكن بيروت تبقى المدينة الأصل، المدينة التي يشكل انتمائي اليها جزءا أساسيا من شخصيتي وتكويني. فإليها مرجعي أولا وأخيرا، ومنها أذهب الى الأمكنة المختلفة، وإليها أرجع بشوق من كل الأمكنة التي تقودني اليها مهمة من مهماتي السياسية والثقافية أو تقودني اليها أو فسحة من الراحة. إلا أن أجمل ما بقي لي من كل تلك العلاقات الإنسانية في الداخل والخارج هو عائلتي الصغيرة التي تمنحني القدرة على الاستمرار في الحياة طويلا: نجوى رفيقة حياتي منذ ثلاثين عاما وولداي هانية وغسان.

وإذ أشير إلى مجمل تلك الأسماء والأمكنة فليس للمباهاة قط بل لكي يعرف القارىء مدى الأثر الذي تركته في عقلي ووجداني كل تلك التجربة،، بالمتعة والمعاناة فيها، والدور الذي لعبته في إغناء ثقافتي وفي اغناء الجانب الإنساني في شخصيتي.

وفي يقيني فإن المتعة والمعاناة مجتمعتين هما اللتان تعطياني هذا الإصرار على التمسك بالحياة والاصرار على النضال من اجل جعلها جميلة. وانا هنا اكرر ما قاله ذات يوم ناظم حكمت في إحدى كتاباته: الحياة جميلة يا صديقي، وتستحق أن نعيشها! ■

كريم مروة

- ولد كريم أحمد مروة في ٨ مارس ١٩٣٠ ببلدة حاريص بجنوب لبنان وكان والده الشيخ أحمد مروة يتمتع بصداقات واسعة مع رجال الدين والأدب والسياسة في لبنان.
- تلقى دراسته الابتدائية في صور والثانوية في بيروت.
- عمل لفترة في مجال التدريس.
- أتم دراسته بدار المعلمين العليا ببيروت تخصص أدب عربي.
- انغمس منذ مطلع شبابه في العمل السياسي من خلال التنظيمات الشيوعية.
- من مؤلفاته:

كيف نواجه الأزمة (١٩٧٤) - المقاومة (١٩٨٥) - حوارات (١٩٩٠) - جدل الصراع مع إسرائيل وجدل السلام معها (١٩٩٤) الوطن الصعب.. الدولة المستحيلة (١٩٩٥) حوار الإيديولوجيات (١٩٩٧) - ذاكرتي الفلسطينية (١٩٩٨) نحو جمهورية ثالثة (٢٠٠١).

أنت والهلال

• عاطف مصطفى

من الذي قتل د. حامد ربيع ؟!

بنشر موضوع «حامد ربيع : راهب فى محراب العلم» «فى الهلال» فذلك يفتح قضية من أخطر قضايا الاغتيالات ، وهى اغتيال العلماء .

لقد كانت نظرته ثاقبة ورؤيته للصهيونية ، على أنها مصدر خطر داهم على الأمن القومى المصرى والمنطقة العربية ، وفى إطار الفكرة ذاتها كان موقفه من معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية التى أبرمت عام ١٩٧٩ .

لقد طرح نقاطا محددة لاستحالة التعايش بين الفلسطينيين وإسرائيل من بينها ابتلاع اسرائيل لفلسطين وفرض هيمنتها .

لقد رحل عالمنا في ظروف غامضة والمؤكد أن رحيله هذا جاء نتيجة لمؤامرة صهيونية مدبرة سلفا بعدما وعد بنشر وثائق جديدة عن الترسانة النووية الاسرائيلية .

ولذلك لابد من فتح الملفات لمعرفة من هم وراء هذا الرحيل المفاجئ ، خاصة ونحن نعرف جرائم اسرائيل التى ارتكبتها ومازالت ترتكبها حتى الآن!

د. صمويل لبيب سيحه - المنيا

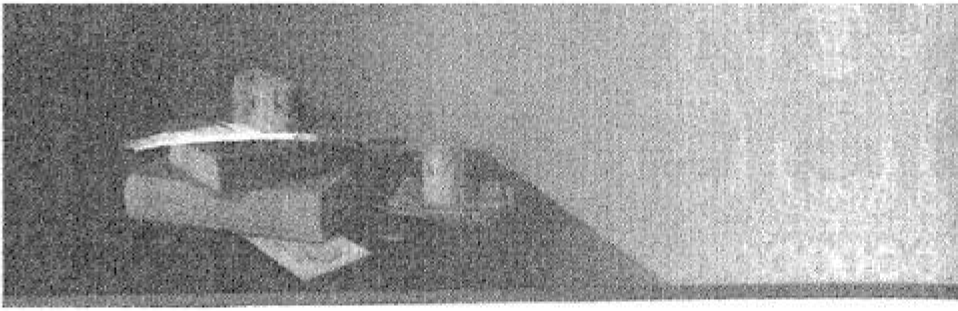
الوجه الآخر للدكتور حامد ربيع

تعليقا على مقال «حامد ربيع ، راهب فى محراب العلم» والمنشور فى هلال أغسطس الماضى للدكتورة نيفين مسعد أشير إلى أن من مظاهر الوفاء أن تكتب طالبة لإحياء ذكرى أستاذها ، وهذا ما فعلته الطالبة التى صارت بدورها أستاذة عن أستاذها الراحل الدكتور حامد عبدالله ربيع طيب الله ثراه.

المقال طيب ورصين ، ولكن لنا تحفظات على أكثر من جانب :

لم تلق الكاتبة أية إضاءة على الجانب الإنسانى من أستاذنا الفذ ، وإذا كانت قد أشارت إلى غموض مرحلة العراق في حياته ، وإن إلتمسنا لها عذرا بأنها لم تقترب منه إنسانا إلا كواحدة من طلابه ، فقد كان عليها أن تلتمس الوجه الآخر للأستاذ - وهو شديد الأهمية لتقييم علمه وإنجازه - فى مصادره ، أو أضعف الإيمان تضع علامات استفهام على كل مرحلة منها ، وأهمها :

أ - كيف نشأت حكاية الدير هذه ؟ وهل يسمح لغير الكاثوليك بالالتحاق



بأديرتهم ؟ وهل هو الوحيد أم فعلها آخرون ؟

ب - إلحاقا بما سبق : عرفنا أن الدكتور ربيع تزوج من امرأة إيطالية . كذلك ذكر الدكتور الراحل فى أحد أحاديثه المنشورة عن إمرأة فرنسية تزوجها فى باريس ، غير الزيجات العربية الثلاث التى نعرفها ..

أليس ذلك أحد أبعاد الشخصية التى لا تهمل ، كما علمنا هو نفسه ، فى دراسة الرأى العام (علم النفس الاجتماعى) .

جـ - موقفه من السلطة : لم يكن مجرد «عدم تسويق نفسه» ، ولكنه كان ظاهريا شخصية طاردة لا تستأنس ، يبدأ من يتعرف عليه بالهجوم والتنديد والتعالى ، كما أنه شديد الانعزالية ، حياته كلها للعمل (النظرى الأكاديمى) .. وقلما اهتم بالجوانب (العلمية الحركية) .

ويقدر علمى أنه ظل طول عمره .. لا يرفض ، أو كان يتوقع أن تستخدمه السلطة فى مجالات علمه ، ولكنه في كل لحظات حياته لم يعطها الأمان ، كما أنها من جانبها لم تعطه الثقة .

٣ - تقول الكاتبة أنها تتحدث عن احتفال قسم العلوم السياسية بإحياء تراث د. حامد ربيع ، وبعدها لم تذكر اسما واحدا من حضور الندوة ، كما لم تشر إلى أن أحدا حضر من أسرته ، وفيها الصحفية الكبيرة شقيقته الدكتورة عواطف عبدالجليل

* * * *

وأؤكد فى الختام ، أن جميع الأجيال التى عاصرت سنوات تدريس الدكتور حامد ربيع فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، كانت أكبر فائدة خرجت بها من الكلية هى محاضرات الدكتور ربيع ، وأن كل الفروع التى درسها كانت شديدة الدينامية ، تحرك الفكر بشدة وتزيده نضجا ، وتضيف إليه آخر مستجدات العلم فى المجال الذى يحاضر فيه .

مصطفى كمال أحمد
مؤسس جمعية خريجى كلية
الاقتصاد والعلوم السياسية

أنت والهلال

حين عادت للمفترق

كان نصف العمر يخبو..
عند جدران الحروف
كان عصفور المنى يحبو
يزرع الصيف صمودا
فى حقولى،
فى عيونى،
فى تخومى
كان يهفو..
كل نجم/ كل طفل/ كل حلم..
فى ليالى (القادسية)
كان يغفو..
فوق صدر الأمنيات
يجعل الورد رصاصا،
وجيوشا،
وإمامه!
هل بقايا الكبرياء
تنقش القلب (عراقا)
يتخلى عن.. حكايات الرحيل!!
يا روابى (أرو) ثورى،
ثم فورى،
فجرى هذا الثرى فوق الأعادى
ثم ثورى فى مدارى
رتبى فوضى العصافير التى..
أحيت ليالى (كربلاء)
اشطبى كل حزن.. من سنينى
واحضنينى

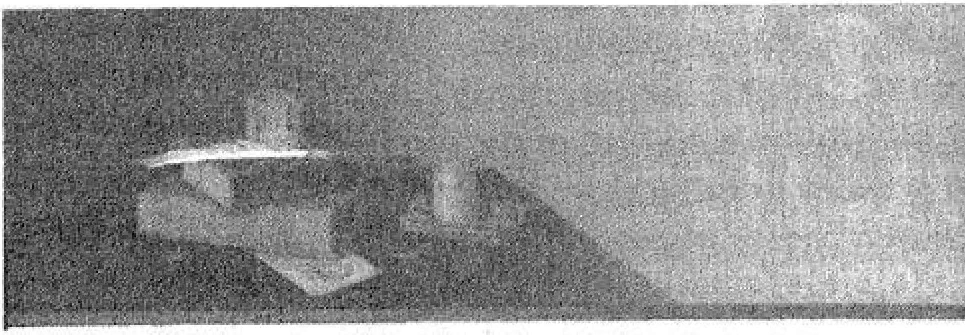
غلقوا الأبواب فى وجه الصباح
فانقذينى
وانقذى ذكرى البراح
واعبرينى
أدركينى أدركينى
أورق القهر اللعين.. فى لحونى!
فاعزفينى
واتركينى فى المساءات..
واتركينى فى الصباحات..
إنهم قد حطموا كل النصال..
فوق نصلى
إنهم قد أسكبوا نار الغياب..
فوق حلمى
فاذكرينى،
ما أناقد:
ثار قلبى.. واخترق
ثارت خيول الشعر..
حين عادت للمفترق
حاورتنى،
جادلتنى،
جابلتنى،
أسكبت فى حنينا
أشعلت سهوا فؤادى..
فاحترق!!

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية

الهلال.. والعام الثاني عشر بعد المائة

بداية من هذا الشهر (سبتمبر) يدخل الهلال عامه الثانى عشر بعد المائة، وقد حقق خلال رحلته الطويلة عطاء كبيرا فى ثقافتنا العربية، وحمل مشعل الثقافة والنهضة العربية، وهو بحق خير شاهد على تطورنا الحضارى والثقافي الكبير.

ومكتبتى التى تضم أعداد من بدايات الهلال وحتى أيامنا هذه بفضل أسرة تعشق الثقافة، هى خير مكان أجلس إليه، أتصفح هذه المجلة العريقة التى سطرت مقالاتها أقلام كبار مفكرى الأمة العربية.



فتهنئة للهلال بمناسبة دخولها عاما جديدا، ولتبدأ عامها الثاني عشر بعد المائة وكل الأمنيات بأن تظل دائما كما هي مجلة العرب الأولى.

حمدان أبو أحمد - الامارات العربية المتحدة

تواريخ وأحداث مهمة

القارئ حسام على حسن محمد من سوهاج كتب إلينا عدة ملاحظات حول مقالات نشرت فى الهلال ، من خلال متابعته الدوبة ، وإلمامه بأحداث مهمة مرت بمصر ، يحرص على تصحيحها ، حيث يقول :

«كان استشهاد الفريق أول عبدالمنعم رياض يوم ٩ مارس ١٩٦٩ ولم يكن ٢٩ مارس كما ذكر الأستاذ مصطفى نبيل فى مقاله وكانت جنازة عبدالمنعم رياض جنازة شعبية تقدمها جمال عبدالناصر والذى ذاب مع جموع الشعب وهتف فى الجنازة للشهيد الغالى الذى كان يدخره عبدالناصر لحرب التحرير ، وأتحدى أن يكون هناك قائد مثله فى مقدمة الجيش مضحيا بحياته فداء لوطنه ولأمته العربية ، والحمد لله أننا أخذنا بثأره أثناء حرب الاستنزاف ووصلنا إلى إيلات وعبرنا القناة وانتصرنا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى مقال د. الطاهر مكى عن المعهد المصرى فى مدريد ومن الذى أنشأه إقالة وزارة الوفد لم يكن فى ٩ أكتوبر ١٩٤٥ ، ولكن كان فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ أيضا قال فى ص ٨٥ (ثم اقيلت حكومة الوفد إثر حريق القاهرة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٢ ، وهذا خطأ لأن حريق القاهرة الشهير كان فى ٢٦ يناير ١٩٥٢).

فى مقال للأستاذ عبدالرحمن شاكر قال بأن حكومة النقراشى تولت فى عام ١٩٤٥ وأوضح بأن من الثابت تاريخيا أن محمود فهمى النقراشى تولى رئاسة الوزارة مرتين : الأولى بعد اغتيال أحمد ماهر باشا فى ١٩٤٥/٢/٢٤ إلى ١٩٤٦/٤/١٥ ، وكانت الوزارة الثانية ابتداء من ديسمبر ١٩٤٦ إلى ديسمبر ١٩٤٨ ، حيث اغتاله طالب الطب الإخوانى عبدالمجيد أحمد حسن .

المثل العليا فى حياتنا

كما عاودت قراءة مقالات د. محمد رجب البيومى أشعر بسعادة بالغة وذلك لحرصه على إيراد المثل العليا فى حياتنا المصرية على شبابنا أن يستضئ فيهتدى خاصة فى مقالة العدد الماضى من الهلال (التأليف إلى أين؟) حيث أطال الكلام حول أستاذى الذى نعمت وشرفت بتدريسه لنا مادة تاريخ المغرب والأندلس سنة ١٩٥٣ العالم المؤرخ عبدالحميد العبادى والذى كانت محاضراته تجتذبنا من حوله متحيرين : هل نكتب أم نستمع ؟ فلقد كان موسوعة فى الثقافة التاريخية والأدبية والسياسية والاجتماعية .

لقد أوضح لنا د. البيومى التأليف الغثة ، ولدينا الكثير من كتب هؤلاء المفكرين الذين أشار إليهم وينبغى أن تطبع من جديد ، بدلا مما نرا ويحدث الآن للكتاب الجامعى !

د. سامى منير عامر
جامعة الاسكندرية - كلية اللغة العربية

أنت والهلال

الغدير تد وحيدا



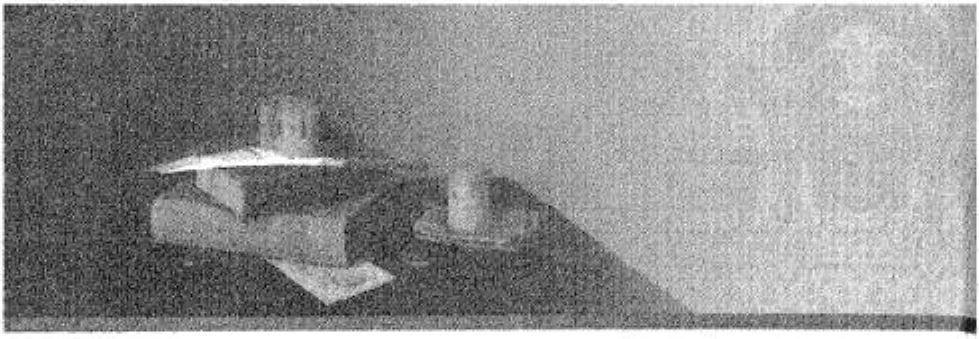
مرهقة كانت ..
تصلح ما أفسد فيها الدهر
ترسم حزنا أبديا
تبحث عما إن كان بوطني
ثمة نسب بين النور وبين الغدر
مرهقة تنشد موال العزة ..
تنشد .. قد عاد «السبط» وحيدا «
ماذا تنتظروا الآن قد أرضعنا الز
حان الوقت لكى نحلم برجوع الط
فرحت ، رقصت ، ثملت ، تعبت
شربت من كأس هواه
أتعبها ما لم تعلم بمجيئه
لم تدرك أن يزيدا يترقبه
قد وعد الأحزاب بأن يقتله دون د
سرق ضياء القمر
أطلق نيران الحقد على بستان الز
هى مازالت ..
مرهقة تبكى على موال العزة
تنشد .. من أشبعنى حزنا
من أغمض إغماضته الثكلى عند الفجر ؟!

صابر معوض / المنصور

المثقفون وأرض الواقع

أتفق مع «محرر الهلال» فى عدد أغسطس الماضى فيما ذهب إليه من سقوط «عصر البقرات المقدسة» ، وأتفق معه أيضا فى ضرورة نزول المثقفين إلى أرض الواقع وأن مجتمعنا المصرى فى حاجة ملحة إلى حلول غير تقليدية لمشاكله الاقتصادية والاجتماعية .. وحلا لمشكلتى محو الأمية والقمامة اقترح أن يكون هناك جيش للعمل الوطنى من خريجى وخريجات الجامعة والذين يعانون حاليا من البطالة .

لابد من الاستفادة من هذه الطاقات ، وأتصور أن يكون لمؤسسات المجتمع المدنى مثل الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والجمعيات الخاصة والأهلية دورها فى مؤازرة



جيش العمل الوطنى من أجل حل المشكلات التى تواجخ بلادنا ..

ولا ننسي ونحن نعمل على حل هذه المشكلات فسوف نقضي على مرارة البطالة التى يعيشها أبناؤنا من الخريجين والذين ينتظرون فى طابور طويل فرصة عمل تنقذهم من الجلوس على المقاهى أو فى بيوتهم ينتظرون الأمل .. وهو بعيد بعيد .

عمرو عبدالمنعم حموده - برما - الغربية

بين الاثنتين !

(١)
سأنهض يوما من عفار طريقى
وأتركه خلفى
وأمضى بعيدا
ليفجأنى هذا العفار أمامى
أرى كنهه ..
مشكاتى الأبدية
لأهمس
- بعد الفوت :
كان بريقي !
(٢)
خديعة تشبهنى
وكذبة أشبهها
- لكننى مازلت أستطيع تمييزى
من بين
الأثنتين !
(٣)
كم سنة
تعثرت خطاى
دون أن ألحظها
كم سنة
مشيت هذا الشارع
الآن فقط
رأيت كم من حفر تملؤه
حين سقطت



محمد فتحى غريب

خريطة التأجيلات الكبرى !

خريطة الطريق التي نسمع ونقرأ عنها كل يوم .. ما هي إلا خريطة التأجيلات الكبرى ، فهي تؤجل الموضوعات الهامة والحيوية ولا تبحث إلا في موضوعات ثانوية قد تحدث في أي وقت ..

لقد وجدت قضية فلسطين بسبب طرد شعبها من أرضه لكي تقام دولة اسرائيل بدعم ومساندة الدول الكبرى وفي مقدمتها القطب الأوحد حاليا «أمريكا» والمشكلة الرئيسية الآن هي إيجاد حل لحوالي أربعة ملايين لاجئ فلسطيني ترك أرضه وبلاده منذ عام ١٩٤٨ وشردوا في جميع أنحاء العالم .. ولما نوقشت عودتهم تم تأجيل ذلك حتى عام ٢٠٠٥ .

التأجيل الثاني : فقد تضمن قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ إيجاد دولة إسرائيل إلى جوار دولة فلسطين .. والآن أين هي دولة فلسطين ؟! لقد تم تأجيل إعلان هذه الدولة إلى سنة ٢٠٠٥ .

وقضية المستوطنات التي انتشرت في كل الضفة الغربية وقطاع غزة ، لم يتم تفكيك هذه المستوطنات ويتم بحثها حتى عام ٢٠٠٥ .

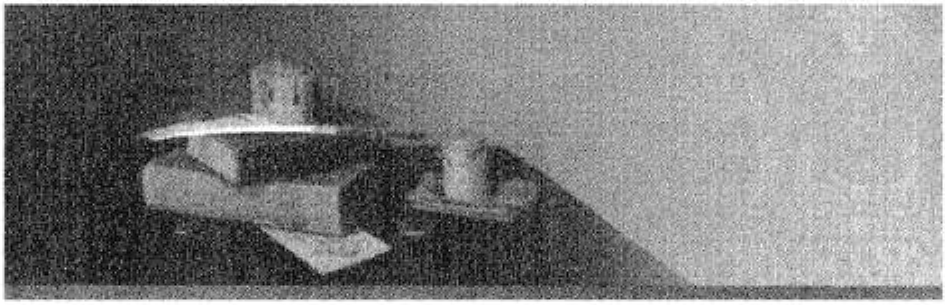
إن القضايا تؤجل .. والقتل والدمار يحدث الآن ويشهد على ذلك العالم والدول راعية السلام ، وأمريكا نفسها صاحبة مبادرة خريطة الطريق .. فإلي متى .. وسوف يجئ عام ٢٠٠٥ وستظل كل الأمور كما هي إن لم تزد سوءا وسوف نرى .. وإن غدا لناظره لقريب !

د. جمال العطار
الاسكندرية - كامب شيراز

الوفاء بالوعد

خرج عمران بن حطان على طاعة الحجاج فأمر بإحضاره ولما حضر قال لرجاله أضربوا عنق ابن الفاجره قال عمران : أن بئس ما أدبك أهلك كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتني به أبعد الموت منزله أصانعك عليها .. فصمت الحجاج استحيا ، من كلام عمران وأمر بإطلاق سراحه فلما خرج عمران قال له بعض أصحابه : أرضيت بإطلاقه سراحك والله ما أطلقك إلا الله فعد إلى حربه معنا قال عمران : لا والله لقد عفى الرجل عني ووعدا مني ألا أخرج على طاعته مرة أخرى .

ومن أمثال العرب في خلف الوعد «مواعيد عرقوب» وأصل المثل أن عرقوبا جاءه يوما جار له في حاجة فقال له عرقوب : انتظر حتى تزهر نخلتي فلما أزهرت قال له انتظر حتى تبلح فلما أبلحت قال له : انتظر حتى ترطب أي تصير رطبا فلما أرطبت قال له انتظر حتى تتمر أي تصير تمرا فلما أتمرت أخذ التمر وباعه ولم يف بوعده لجاره ومن يومها أصبح عرقوب مثلا يضرب في خلف الوعد ، يقول كعب بن زهير في لاميته المشهورة



كانت مواعيد عرقوب لها مثلا   وما مواعيدها إلا أباطيل
وعدت وكان الخلف منك سجيه   مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وقال آخر :

وأكذب من عرقوب ساكن يثرب   وبي شؤم في الحوائج من زحل

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

متى يعاد نشر مجلة «المجلة» ؟!

المجلات الثقافية هى تاريخ أمتنا والذى يبرز وجهها الحضارى من خلال كتابها ومفكريها البارزين .. وقد سبق ووعد الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب بإعادة طبع مجلة «المجلة» التى كان يرأس تحريرها الكاتب الكبير يحيى حقى ، كجزء من مشروع إعادة نشر المجلات الثقافية لما تضمه هذه المجلات من آراء مستنيرة وفكر متجدد .

إننا نطالب د. سمير بأن ينفذ وعده ، ويتم هذا المشروع لكى يحقق للقارئ والمهتم بالثقافة متعة لا تقل عن قراءة كتاب يحبه ، أو مؤلف يهتم به .

إبراهيم أمين
الفيوم

مع الأصدقاء

الصديق : إمام عبدالقادر مرسى .. كتب لنا مساهمة زجلية تتناول مشكلة كثرة النسل وما يترتب عليها من مشكلات كثيرة أصابت بلادنا والتى يقترب تعدادها من سبعين مليون نسمة يختزئ منها بعض ما كتبه بعنوان «زحام زحام يا ناس حرام» :

الأرض تعبت من اللى فيها   والناس بتكتر مافيش كلام
خمسة ، ستة كتير عليك   حتضيعهم من إيديك
والمهية ماتكفيش   ولا حتى تجيب العيش
الكترة ليه ما اتنين كفاية   تكون معاهم للنهاية
الأرض تعبت م اللى فيها   والناس بتكتر مافيش كلام

الأصدقاء : محمود مرسى - بورسعيد ، ابراهيم سعيد - مرسى مطروح ، أحمد سعيد أحمد - المنوفية ، مروة سعيد السيد - الاسكندرية ، محمد إبراهيم هاشم - طنطا ، هشام إبراهيم أحمد - دمياط ، وغيرهم من الأصدقاء .. وصلت مساهماتكم وسوف تنشر فى أعداد قادمة ..

الكلمة الأخيرة

إقالة عصام الخفاجي



بقلم : د. عبد العظيم أنيس

الدكتور عصام الخفاجي واحد من أبرز الاقتصاديين العراقيين ، خرج من العراق متمردا على ديكتاتورية صدام حسين ، وعمل في الأمم المتحدة ، والبنك الدولي سنين طويلة .

وعندما قررت واشنطن غزو العراق تحت حجة كاذبة بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل في بغداد ، أرادت أن تغطي على أهدافها الاستعمارية الحقيقية بوسائل عدة ، منها تشكيل ماسمي «مجلس إعادة أعمار العراق» وأختير لهذا المجلس عدد يفوق المائة من الخبراء العراقيين الموجودين في المنفى ، وكان عصام الخفاجي في طليعة هؤلاء الذين وصلوا إلى مطار بغداد في مايو الماضي .

لكن عصام الخفاجي المثقف الحر ، ذو الضمير الوطني قدم استقالته من هذا المجلس منذ أيام ، وعندما سئل عن الأسباب قال في وضوح وصراحة ، أنه أصيب بخيبة أمل من سلوك الأمريكيين في بغداد . فقد تصور أن الهدف من تشكيل مجس إعادة أعمار العراق ، أن يقدم أعضاؤه المشورة الفنية للمسئولين الأمريكيين في قضايا الحياة العامة للشعب العراقي ، مثل الماء والكهرباء والنفط والغذاء .. الخ ، فإذا به يجد أن الأمريكيين لايريدون مشورة من هؤلاء الخبراء ولا يحزنون ! ، وإنما كل المطلوب منهم أن يستدلوا على البعثيين السابقين في الوزارات التي يعملون بها .

والأسوأ من هذا أن بعض هؤلاء الخبراء كان قد أعد دراسات فنية هامة في بعض القضايا التي نشأت بعد سقوط نظام صدام .

لكن أحدا لم يهتم أن يطلع على هذه الدراسات لمعرفة مدى أهميتها وصلاحيتها التنفيذ .

والدكتور عصام الخفاجي متشائم من تشكيل مايسمى «مجلس الحكم الانتقالي» فهو يقول إنه مجلس فاشل يثير حساسيات بين السنة والشيعة ، لكن الأسوأ من ذلك أن غالبية أعضائه كانوا في الخارج سنين طويلة ، وليس لهم أي قاعدة شعبية في العراق حاليا ، ومثاله الواضح الدكتور أحمدالجلبي الذي ارتبط بعلاقات وثيقة مع البنتاجون وإسرائيل ، وهو محكوم عليه بأكثر من عشرين سنة سجن في الأردن في قضية بنكية مشهورة .

هذه إذن حقيقة المجلس الحاكم ببغداد والذي تسعى أمريكا بكل قوة لأن تعترف الدول العربية به كسلطة حاكمة .

وحمدا لله أن وزير خارجيتنا قال منذ أيام إنه مجلس غير شرعي ، ولا يمثل الشعب العراقي ، وحمدا لله أن الجامعة العربية رفضت ارسال قوات عربية إلى بغداد ، كطلب الحكومة الأمريكية والأمل أن يظل هذا الرفض مستمرا . ■

كتب الشهر

أحدث إصدارات دار الهلال

د. رشدى سعيد



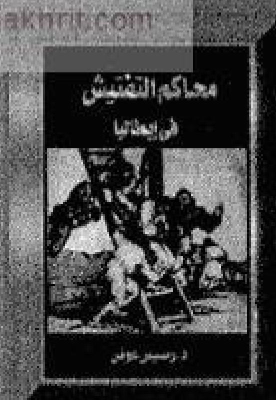
الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى

د. زكى مبارك



ليلى المريضة فى العراق

د. رمسيس عوض



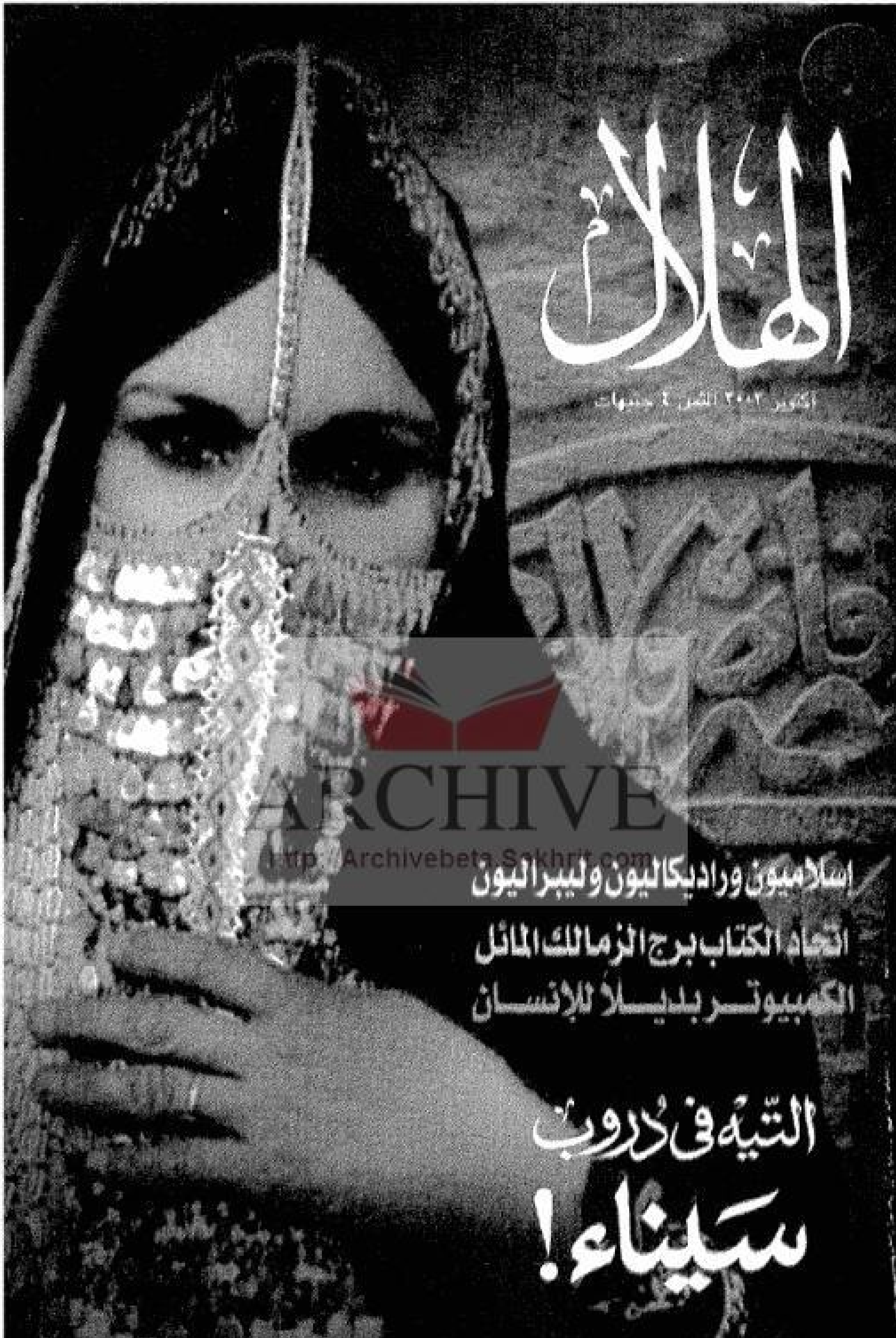
محاكم التفتيش

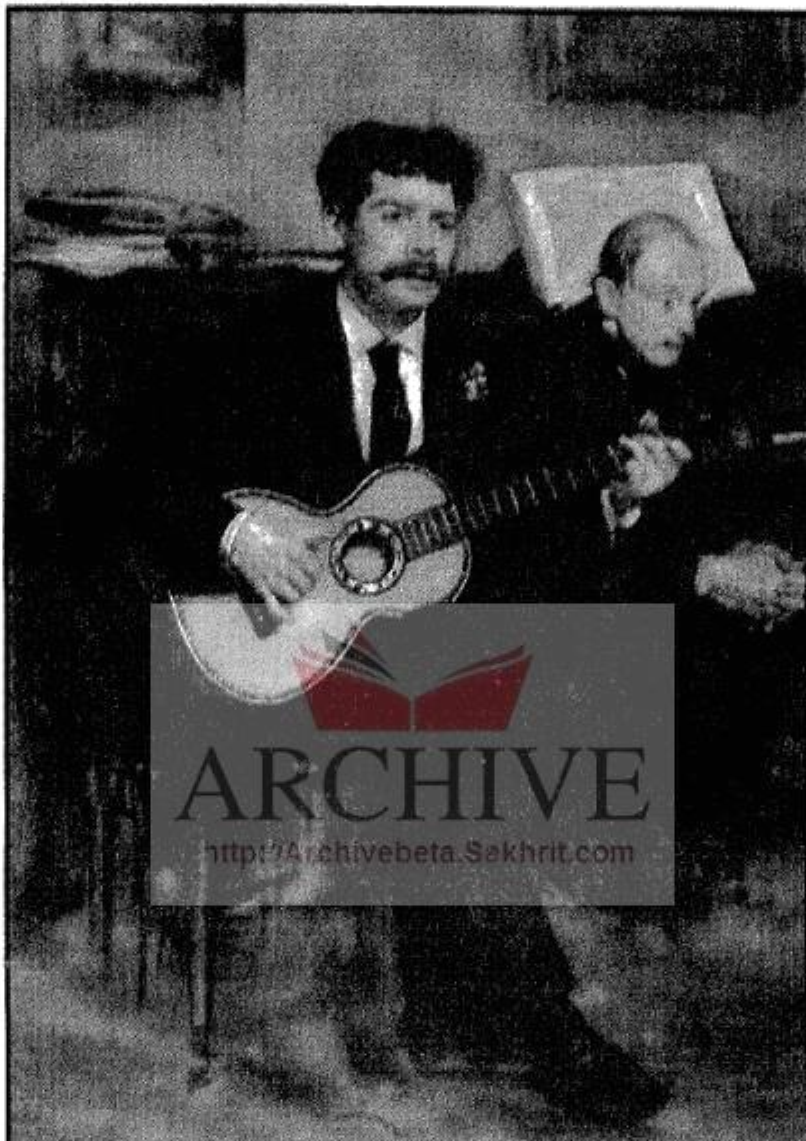
أسامة بن منقذ



الاعتبار


المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانًا
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
المعلم اون لاين - بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل


الهلال
أكتوبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
إسلاميون وراديكاليون وليبراليون
اتحاد الكتاب برج الزمالك المائل
الكمبيوتر بديلاً للإنسان
التيه في دروب
سيناء!



لــوحـــة و فـــنـــان

والدي يستمع إلى العازف (١٨٦٩)
بريشة الفنان: ديجا
محفوظة بمتحف اللوفر

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة شعبان ١٤٢٤ هـ - أكتوبر ٢٠٠٣م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥, ١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

٨ – النظام الليبرالى .. هل عرفته مصر؟ .... د. رءوف عباس

١٥ – الراديكاليـــون فى مـصــر الأمل والمأزق والمصير ...... د. عاصم الدسوقى

٢٤– من هنا نبدأ : الإسلام والتجديد .... هبة رءوف عزت

٣١ – الأساتذة وعام جامعى جديد .... د. مصطفى سويف

٤٠ – ربع قرن على كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد .... إبراهيم فتحى

٥٢ – هل المستقبل يحتاج إلى البشر؟! .... د. أحمد محمد صالح

٦٠ – محو الأمية الخلقية .... د. محمد رجب البيومى

٦٦ – حقيقة مشكلة البطالة فى مصر .... د. جلال أمين

٨٦ – الشاعرة نازك الملائكة ... وديع فلسطين

٩٠ – «لؤلؤة» بين شواطئ الضياع ومدائن الوهم .... صافى ناز كاظم

٩٨ – رؤى نقدية : من فلسفة الفن إلى عالم الفن.......... د. عبدالمنعم تليمة

١٠٢ – التيه فى دروب سيناء ... مصطفى نبيل

١١٨ – نموذج فاضح لأكاذيب الغرب .... د. عبدالعظيم أنيس



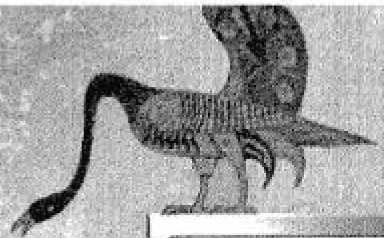
تصميم الغلاف للفنان

محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدد) ٨٤ جنيها بداخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.



١٢٠ – إلى أين تسير أمريكا؟ ....
محمد يوسف عدس ....

١٢٨ – التسلل الإسرائيلى إلى العراق فى ظل الاحتلال
د. محمود عبدالفضيل ....

١٣٢ – تطورات التنمية الإنسانية فى الوطن العربى
د. نادر فرجانى ....

١٤٨ – أمى نوال السعداوى (عائلات ثقافية) ..
د. منى حلمى ....

١٥٦ – تنويعات فنية فى حدائق متحف البرادو..
د. صبرى منصور ....

١٦٦ – اتحاد الكتاب.. برج الزمالك المائل ..
محفوظ عبدالرحمن ....

١٧٠ – أصوات وأقلام صيف حار ....
مصطفى درويش ....

١٧٧ – المتفرجة (السكوت) .... مرفت رجب

١٨٢ – فصل المقال فى واقع الحال «قصيدة»..........
حسن طلب ....

١٨٤ – حلم نحات (من المسرح التجريبى) ...
مهدى الحسينى ....

١٩٠ – كمال الطويل.. آخر نجوم العصر الذهبى
د. نبيل حنفى محمود ....

٢٠٠ – مشاهد بغدادية «قصة» ....
حسنى سيد لبيب ....

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ...٦
- أقوال معاصرة ... ٣٩
- شخصية العدد بهاء طاهر بقلم د. صبرى حافظ ٧٢
- لغويات د. الطاهر أحمد مكى ٩٧
- من ذخائر الكتب العربية (الموافقات للإمام الشاطبى) د. محمد الدسوقى ١٣٨
- التكوين (د. قاسم عبده قاسم) ٢٠٦
- أنت والهلال (عاطف مصطفى) ٢١٨
- الكلمة الأخيرة «سلوى بكر» ... ٢٢٦



إلى أين تذهب بعثاتنا العلمية؟!

بعد أحداث ١١ سبتمبر أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على الإرهاب وغزو أفغانستان ثم العراق من بعدها، والترهيب بأن دولا أخرى سوف تكون ضمن المسلسل الأمريكي الذى يعيد إليها هيمنتها وتفردها بزعامة العالم أجمع!

بعد هذه الأحداث تأثرت البعثات العلمية التي كان معظمها يذهب إلى أمريكا ومعظم دول أوروبا، حيث يتخصص الكثير من علمائنا فى مجالات متعددة تحتاج إليها مصر ومن بينها الجيولوجيا والفيزياء وعلوم الذرة وغيرها.

وخلال الأعوام الماضية كان نتاج هذه البعثات أن عاد إلينا علماء كثيرون ذاع صيتهم، وتفوقوا فى هذه العلوم، بل إن الكثير من خريجي الجامعات من الموهوبين، تتلمذوا عليهم واستفادوا بخبراتهم وعلمهم الذى تعلموه فى تلك البلاد المتقدمة، والتى تستخدم أحدث نظريات العلم، من خلال المعامل المجهزة تقنيا وفنيا والتى يتوفر لها كل جديد من المخترعات، تساعد الباحثين والعلماء على تحقيق النتائج بأقل نسبة من الخطأ، بل ربما ينعدم هذا الخطأ مع التقدم العلمى الكبير والطفرة التى تشهدها أوروبا فى مجالات العلوم والطب والزراعة والفضاء.

والعلماء العرب لهم تاريخ طويل فى الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص، وبعض هؤلاء العلماء النابغين إما استقطبوا، فأصبح نتاج علمهم وخبراتهم تذهب إلى تلك الدول وذاعت خبرة عدد منهم حتى أن الموساد الإسرائيلي تتبع عدداً منهم، تم تصفيته كما حدث ليحيى المشد وسميرة موسى حيث رأوا فى علمهم خطراً شديداً، بسبب خشيتهم من أن تستفيد الدول الإسلامية والعربية من هذا العلم، وخطره على إسرائيل، ولا ينبغى بعد موقف أمريكا ودول الغرب من المعاناة التى يشهدها علماؤنا الذين يودون استكمال دراساتهم وأبحاثهم أن نقف مكتوفى الأيدى،

فلابد أن يتجه هؤلاء العلماء إلى بلاد أخرى صديقة مثل روسيا والصين والهند، خاصة وأن هذه البلاد، تضم قاعدة علمية متقدمة في مجالات عديدة من بينها الكمبيوتر والتكنولوجيا الحيوية وغيرها.

كما أنه من الضرورى الاستفادة من علمائنا الموجودين بيننا فى مصر، والذين لديهم القدرة على إعداد أجيال جديدة من العلماء، وذلك فى إطار صياغة هياكل العلم للاستفادة من هذه العلوم المختلفة التى يتعلمونها، ولكى تنمى القدرات العلمية فى مصر ويتم تطويرها..

ولكي يتحقق ذلك فلابد من بناء قاعدة علمية سليمة خاصة وأن مصر لديها الكثير من العلماء، والمطلوب أن نوفر لهم المناخ المناسب، وعمل خطة علمية واضحة وصريحة، من المفروض أن تضعها أكاديمية العلوم والكتولوجيا.. والتي نرجو أن يتألف مجلسها من العلماء فقط!

إن جامعاتنا المصرية تخرج الآلاف الذين يحصلون على درجة البكالوريوس فى العلوم والهندسة بتفوق، ولكن المشكلة التى تواجههم فى الدراسات العليا، ربما بسبب المعامل، وعدم مسايرتها للتطور الذى يحدث كل يوم فى العالم، فى مجالات التقنيات وغيرها.. إذا فالمعامل لدينا غير مجهزة والتقدم التكنولوجى فى العالم أسرع بكثير من أن نلاحقه، ولابد أن نتلافى مثل هذه المشكلات وبهذه المناسبة هناك احصائية تثبت أن ما ينفق فى العام على ميزانية العلم لايزيد على ٦ر٪ من ميزانية العام سنويا وهذا قليل جدا ولا يحقق ماننشده من تكوين جيل من العلماء يحقق طموحات مصر.

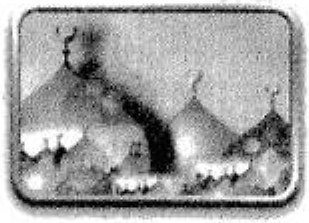
كما أتساءل.. بعد هذه الضجة التى أثيرت بعد فوز د.أحمد زويل بجائزة نوبل ومشروع انشاء الجامعة التى اقترحها على مستوى متقدم.. أين هى هذه الجامعة. وهل سبب توقف هذا المشروع الذى نال ضجة إعلامية كبيرة وقتها سببه البيروقراطية التي طالما عطلت الكثير من المشروعات؟!

ونحن نحاول توجيه مسار علمائنا إلى الوجهة الصحيحة الآن، ليتنا نجد المساعدة من علمائنا المنتشرين فى أنحاء العالم، يقدمون من خلال جهودهم العلم الذى يخدم تلك البلاد التى هاجروا إليها، وربما كانوا أحد أسباب نهضتنا وتقدمها العلمى.. ليت هؤلاء العلماء لا ينسون الوطن الأم ويسارعون إلى دعمه من خلال خبراتهم..

فمصر لديها الكثير من هؤلاء العلماء.. وننتظر منهم الكثير لكى يتحقق لها النهضة العلمية المنشودة.

المحـــــرر

جـزء خـاص



إسلاميون وراديكاليون وليبراليون

النظام الليبرالى هل عرفته مصر؟

بقلم
د. رؤف عباس

اصطلح الباحثون على إطلاق صفة «الليبرالية» على النظام السياسى الذى ساد فى مصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩، على اعتبار أن دستور ١٩٢٣ الذى غلبت عليه الملامح الليبرالية، كان يمثل إطار النظام السياسى فيما بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢، بحكم اتخاذه لبعض الدساتير الليبرالية الأوربية إطاراً مرجعياً له، وبحكم كون «الديمقراطية» محوراً للصراع السياسى خلال تلك الحقبة، بل إن بعض الكتاب اليوم ينظرون إلى «الحقبة الليبرالية» نظرتهم إلى الفردوس المفقود، مقارنة بالنظام السياسى الذى جاءت به ثورة يوليو.

ونعنى هنا بالبحث عن إجابة لسؤال جوهرى، هو : هل استطاعت مصر أن تحقق نظاماً سياسياً ليبرالياً فى ظل دستور ١٩٢٣؟ أو – بعبارة أخرى – هل كان النظام السياسى الذى أقامه دستور ١٩٢٣ نظاماً ليبرالياً حقيقياً ، وهل عرفت مصر الديمقراطية الليبرالية فى ظله؟

إن قيام نظام سياسى ليبرالى يتطلب توفر ثلاثة شروط أساسية، أولهما : حدوث تحول رأسمالى يستبدل بالقوى الانتاجية التقليدية وبعلاقات الانتاج التقليدية أخرى رأسمالية (حديثة).

وثانيهما : تكون طبقة «بورجوازية» تلعب دوراً رئيسياً فى تحقيق التحول الرأسمالى لصالحها.

وثالثهما : توفر الوعى الطبقى والسياسى عند هذه الطبقة الجديدة الذى يجعلها تقف حارسة لمصالحها من خلال صياغة النظام السياسى الذى يكفل لها تأمين هذه المصالح.

فهل تحققت لمصر هذه الشروط الثلاثة على مر تاريخها الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر؟ وهل نضجت تلك الشروط نضجاً كافياً لإفراز نظام سياسى «ليبرالى»؟

إن الإجابة الدقيقة على هذا التساؤل تتطلب دراسة موسعة يضيق المقام هنا بها ، ولكن خلاصة القول إن الشروط الثلاثة الضرورية لتحقيق قيام نظام سياسى ليبرالى لم تتوفر فى مصر بشكل كامل نتيجة الظروف التاريخية التى مرت بها التجربة المصرية ، فقد تعثرت تجربة التحول الرأسمالى فى مصر لأسباب محلية وخارجية ، وانعكس ذلك التعثر على نشأة وتطور «البورجوازية» المصرية (وخاصة شرائحها العليا)، بقدر ما انعكس على درجة نضج وعيها الاجتماعى والسياسى. وكان لذلك آثاره على خيارات نخبة البورجوازية المصرية عند وضع أسس النظام السياسى الذى صاغته فى دستور ١٩٢٣ ، فجاء معبراً عن مصالحها الضيقة، ولم يأت تجسيداً لصالح الشرائح الدنيا من الطبقة نفسها أو مصالح الجماهير الشعبية التى لعبت الدور الرئيسى فى ثورة ١٩١٩. وعبر الدستور عن توازن سياسى لعبت فيه قوى القصر، والانجليز ، وكبار ملاك الأراضى الدور الأكبر.

من وضع الدستور

ومن عجب أن تأتى مبادرة إقامة حكم دستورى فى مصر من جانب السلطات البريطانية ذاتها فى المذكرة الايضاحية التى قدمها المندوب السامى البريطانى إلى السلطان فؤاد رفق تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذى اعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع التحفظات الأربعة الشهيرة التى جعلت من هذا الاستقلال اسماً على غير مسمى. إذ نص البند العاشر من المذكرة الإيضاحية على أن «إنشاء برلمان يتمتع بحق الإشراف والرقابة على السياسة والادارة فى حكومة مسئولة على الطريقة الدستورية يرجع الأمر فيه إلى السلطان وإلى الشعب المصرى». وكان ذلك يعنى – ضمناً – ضرورة قيام حكم دستورى نيابى يقترن بقبول تصريح ٢٨ فبراير ،

ومن ثم يلتزم السلطان بإقامة نظام برلماني دستوري طالما قبل بالتصريح . ولعل ذلك يفسر محاولات فؤاد الأول (الذي أصبح ملكا) التملص من إصدار الدستور فيما بعد دون جدوى ، كما يفسر الأسلوب الذي أعد به الدستور، وتدخل الملك في صياغته .

فبدلاً من أن تضع الدستور جمعية تأسيسية وطنية منتخبة من الشعب، شكل الملك لجنة إدارية حكومية لوضعه، استبعدت منها العناصر السياسية الفاعلة، ولذلك سماها سعد زغلول «لجنة الأشقياء». وبدلاً من تتخذ اللجنة من التجربة الدستورية المصرية التي تمثلها لائحة ١٨٨٢ إطار مرجعياً لها، لجأت إلى بعض الدساتير الغربية - وخاصة الدستور البلجيكي - وصاغت مواد الدستور على هديها ، بعد أن شذبت ما اقتبسته منها بما يتوام مع رغبات الملك ومضمون تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وعندما لم يرض ما توصلت إليه «لجنة الأشقياء» من نص مقترح للدستور مطالب الملك، دفع به إلى اللجنة التشريعية بوزارة الحقانية (العدل) التي راحت تعدل في المشروع وتوسع سلطات الملك على حساب الشعب. وبدلاً من أن يطرح الدستور للاستفتاء العام قبل إصداره، صدر بمرسوم ملكي (١٩ ابريل ١٩٢٣) في صورة «منحة ملكية» ، ومن ثم كان من حق الملك استرداد مامنح متى شاء ذلك، وهو ماحدث بالفعل في الانقلابات الدستورية الشهيرة.

وقد أدت السلطات الواسعة التي خص الملك نفسه بها في الدستور إلى اضعاف التجربة، والإضرار بالدستور. فاتخذ القصر من أحزاب الأقلية أدوات يستند إليها في حكمه ، وزيفت الانتخابات ليتم بذلك تقويض المبدأ القائل بأن الأمة مصدر السلطات الذي نص عليه بالدستور، والذي يعد حجر الزاوية في النظام السياسي الليبرالي . وبذلك قيدت الإرادة الحرة للناخب في اختيار من ينوب عنه ويمثله في البرلمان ، ولم تشهد مصر في تلك الحقبة انتخابات حرة بعد تلك التي أجريت عام ١٩٢٤ وفاز فيها الوفد بالأغلبية سوى مرتين : الأولى في ١٩٣٦ والثانية في ١٩٥٠ ، عندما رأى الإنجليز ضرورة تولي الوفد الحكم ومارسوا ضغوطا على الملك لهذا الغرض .

الحقبة الليبرالية وعدم الاستقرار

ولذلك اتسمت الحياة النيابية في «الحقبة الليبرالية» بعدم الاستقرار ، فمنذ برلمان ١٩٢٤ ، توالت على مصر عشر هيئات نيابية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولم يكمل برلمان واحد سنواته الخمس على مدى تلك الفترة ، فقد انعقد برلمان عام ١٩٢٤ في مارس ، وتم حله في ديسمبر من العام نفسه ، وعندما أجرت وزارة أحمد زيور الانتخابات اجتمع مجلس النواب يوم ٢٣ مارس ١٩٢٥ ليحل في اليوم نفسه .

وانعقد البرلمان الثالث في يوليو ١٩٢٦ لدورات ثلاث ، ثم أوقف محمد محمود باشا الحياة النيابية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد (عام ١٩٢٨) ولكن وزارته سقطت قبل انتهاء هذه المدة ، وانتخب برلمان رابع في يناير ١٩٣٠

ليحل في السنة نفسها (وهى الفترة التى شهدت الاطاحة بدستور ١٩٢٣ واصدار دستور اكتوبر ١٩٣٠) ، ووضع قانون انتخاب جديد ضيق من حق الانتخاب ، وقصره على شرائح اجتماعية معينة . وفي ظل الانقلاب الدستورى ، انتخب برلمان خامس أستمر أربع دورات تشريعية . قطعها عودة دستور ١٩٢٣ من جديد تحت ضغط الحركة الوطنية (ديسمبر ١٩٣٥) . وانتخب البرلمان السادس في ظل دستور ١٩٢٣ (مايو ١٩٣٦) ، ولم يستمر أكثر من عامين . وقام البرلمان السابع في ابريل ١٩٣٨ ، والثامن فى مارس ١٩٤٢ ، والتاسع فى يناير ١٩٤٥ ، والعاشر فى يناير ١٩٥٠ .

ومن الغريب أن تشكيل البرلمانات العشرة التى شهدتها مصر فى تلك الحقبة كان يتناقض تناقضا كبيرا من مجلس تشريعى لآخر . فنجد الحزب الذى أحرز الأغلبية فى مجلس نيابى ، يحتل مقاعد الأقلية فى المجلس الذى يليه ، وقد تتحول هذه الأقلية إلى أغلبية ساحقة فى برلمان تال تنتخب بعد شهور قليلة ، وهلم جرا . ولا يعكس هذا التحول تغيراً حقيقيا فى موازين القوى على الساحة السياسية ، أو تحولا فى اتجاهات الرأى العام . وإنما كانت تعبر عن التغير فى المزاج الملكى ، ومهارة وزير الداخلية فى (طبخ) الانتخابات .

ومع عدم استقرار الحياة النيابية خلال تلك الحقبة ، عانت مصر من عدم استقرار السلطة التنفيذية ، فتعاقبت الوزارات على الحكم الواحدة تلو الأخرى، ولم تعمر أى منها إلا أربعة عشر شهرا فى المتوسط ، مما كان له آثاره السلبية على الأداة الحكومية ، وعلى أداء الحكومة، وحال دون متابعة السياسات التى تحولت إلى مجرد «وعود» يحفل بها (خطاب العرش) الذى جرى العرف على أن يلقيه رئيس الوزراء - باسم الملك - عند افتتاح البرلمان ، لأن الملك فؤاد كان لا يعرف اللغة العربية

وألقى هذا الوضع بظلاله على الأحزاب السياسية التى تداولت السلطة فى تلك الحقبة . فإذا كان الدستور قد ركز السلطات فى يد الملك ، ودعم حكمه الفردى ، فقد كان قادة الأحزاب السياسية يتمتعون بصلاحيات مطلقة فى قيادة أحزابهم ، وكان للوفد قصب السبق فى هذا المجلس ، فقد أطلق على سعد زغلول «نبى الوطنية» و«زعيم الأمة» ، وحمل مصطفى النحاس نفس اللقب إضافة إلى «الرئيس الجليل» ولقبه مكرم عبيد ذات مرة «بالرئيس المقدس» ويعكس ذلك أوتقراطية قيادة الوفد التى كانت وراء الانشقاقات التى حدثت فيه ، نتيجة انفراد «الزعيم» باتخاذ القرارات حتى لو خالف بها معظم أعضاء «هيئة الوفد» . فحدث الانشقاق الأول فى ٢٥ ابريل ١٩٢٧ ، عندما فصل سعد زغلول معظم أعضاء الهيئة لمخالفتهم له الرأى حول تشكيل وفد التفاوض . ووقع الانشقاق الثانى فى عام ١٩٣٢ ، عندما طرحت فكرة تشكيل حكومة ائتلافية لعقد معاهدة مع بريطانيا وفقا لما أسفرت عنه مفاوضات ١٩٣٠ ، يعاد بعدها العمل بدستور ١٩٢٣ ، فرفض النحاس باشا تلك الفكرة انطلاقا من

مبدأ عدم المساومة بحقوق البلاد ، فاستقال تسعة من أعضاء «هيئة الوفد» (أى نحو ثلث قيادته) احتجاجا على ذلك . وحدث الانشقاق الثالث والخطير عام ١٩٣٧ نتيجة الصراع على السلطة داخل قيادة الوفد ، وهو الانشقاق الذى فصل فيه النقراشى وأحمد ماهر فكونا «الهيئة السعدية» . وحدث الانشقاق الرابع عام ١٩٤٢ بخروج مكرم عبيد فى اطار الصراع على السلطة أيضا داخل قيادة الحزب وشكل «الكتلة الوفدية» ، ونشر «الكتاب الأسود» الذى وصم قيادة الوفد بالفساد .

ولم ينفرد «الوفد» بظاهرة استبداد الزعيم بالسلطة ، إذ انتقلت عدواها إلى الأحزاب التى خرجت من عباءته ، فغالبا ما كان رئيس الحزب يتولى تعيين أعضاء هيئة قيادة الحزب ، وقد يطلب إلى الجمعية العمومية للحزب تزكية ذلك التعيين ، وقد لا يهتم بذلك، ولم تكن لتلك الأحزاب - بما فيها «الوفد» - مستويات قاعدية تغذى التنظيمات القيادية بالكوادر . وكان انضمام الأفراد إلى القيادة دون المرور بالعضوية أمرا واردا عند جميع الأحزاب ، مما أتاح لبعض الشخصيات فرصة الانتقال من قيادة حزب إلى آخر أربع مرات خلال ثلاث سنوات .

ولعل ذلك يفسر السهولة التى استطاعت بها ثورة يوليو التخلص من هذه الأحزاب بقرار الحل الذى صدر فى يناير ١٩٥٣ ، فلم تتحرك الجماهير للدفاع عن تلك الأحزاب (بما فيها الوفد) لغياب القواعد الحزبية الجماهيرية فى تنظيماتها ، ولعدم اهتمامها بتربية الكوادر ، ولعجزها - بالطبع - عن طرح البرامج التى تقدم حلولا لمشاكل الجماهير. بينما لقيت ثورة يوليو معارضة ومقاومة لا يستهان بها من جانب التنظيمات الايديولوجية الأقل وزنا على الساحة السياسية كالشيوعيين والإخوان المسلمين لأنها كانت أدق تنظيما مقارنة بالأحزاب الليبرالية ، كما كانت لها قواعد لا يستهان بها .

غياب البرامج السياسية

واشتركت جميع الاحزاب (الليبرالية) فى غياب البرامج السياسية التى تعالج مشاكل المجتمع وترسم إطار السياسات الاجتماعية اللازمة لحلها ، فقد جاءت قيادات هذه الأحزاب من نخبة البورجوازية من كبار الملاك الزراعيين وأصحاب الأعمال ، فلم تهتم إلا برعاية مصالحها الذاتية على حساب مصالح الجماهير الشعبية ، وجاءت دعوات الاصلاح الاجتماعى من عناصر لا تنتمى إلى تلك الأحزاب ، ولقيت تلك الدعوات مقاومة شديدة من جانبهم ، مثل الدعوة إلى الإصلاح الزراعى ، وتوفير الخدمة الصحية للفلاحين ، وحماية الملكيات الصغيرة ، والتعليم الإلزامى . ولم تصدر التشريعات العمالية المحدودة - خلال تلك الحقبة - إلا تحت ضغط الحركة العمالية ، ونصت على استبعاد الفلاحين وعمال الزراعة من نطاق الخضوع لها ، حرصا على مصالح كبار الملاك .

وكانت حجة تلك الأحزاب فى اغفال السياسات التى تعالج المسائل الاجتماعية، أن قضية الاستقلال الوطنى هى القضية الرئيسية ، أما ما عداها من

قضايا ، فتستطيع الانتظار إلى ما بعد تحقيق الاستقلال الوطني . وحتى تلك المهمة العاجلة (الاستقلال الوطنى) أصبحت موضع مزايدات من الأحزاب كلما دارت المفاوضات مع الانجليز حولها ، فإذا لم يكن الوفد طرفا فيها ، هاجم خصومه واتهمهم بالتفريط فى حقوق الوطن .

وأدى هذا القصور فى أداء تلك الأحزاب إلى اتجاه الشباب إلى الالتفاف حول حركات الرفض السياسى والاجتماعى منذ أواخر العشرينات ، وانضمامهم إلى الجماعات ذات التوجهات الماركسية أو الفاشية أو الإسلامية السلفية ، وهو اتجاه زاد وضوحا بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ التى وصفها النحاس باشا بأنها «معاهدة الشرف والاستقلال» .

واشتركت جميع تلك الأحزاب - أيضا - فى ظاهرة محاباة الأنصار عند الوصول إلى السلطة ، فيتم فصل عمد القرى المناصرين للخصوم ، ويرقى الأنصار من موظفى الدولة ترقيات استثنائية ، مع محاباة الأقارب والأصهار .

دور أحزاب الأقلية

ولعبت أحزاب الأقلية - التى خرجت من عباءة الوفد - دورا مهما فى إضعاف النظام ذاته من خلال حملات المهاترات الصحفية التى وجهت ضد الوفد ، أو من خلال الارتماء على أعتاب قصر عابدين (بالملك) تارة ، أو الارتماء على أعتاب قصر الدوبارة (المندوب السامى البريطانى ثم السفير فيما بعد ١٩٣٦) تارة أخرى ، ضمانا للوصول إلى السلطة طالما كانت لا تستطيع تحقيق ذلك بالطرق الدستورية . وكانت تلك الأحزاب نخبوية تقليدية تقوم على عناصر محدودة من الشخصيات ، وترتبط بها ارتباطا وثيقا . وفى ظل ظروف كهذه ، كانت علاقات الصداقة والمصاهرة والقربى أهم من الاتفاق السياسى أو الفكرى ، وكانت الولاءات الشخصية أساس العلاقات السياسية فهى أحزاب أشخاص لا أحزاب مبادىء ، ومن ثم اتسم نشاطها بالانتهازية السياسية ، والبعد عن الجماهير ، فكانت أقرب إلى الأجنحة السياسية منها إلى الأحزاب .

كما أن القيادة السياسية لأغلب هذه الأحزاب جاءت من الشرائح العليا للبورجوازية (كبار الملاك الزراعيين ورجال الأعمال) ، ويشترك معها الوفد فى هذه الخاصية بالاضافة إلى تمثيله للشرائح الوسطى من البورجوازية المصرية ، وإن غلبت على قيادة النخبة المحتلة للشرائح العليا (بعد معاهدة ١٩٣٦) . لذلك لا نجد غرابة فيما توصل إليه عبد العزيز فهمى باشا (عام ١٩٤١) ، عندما كلفه «حزب الأحرار الدستوريين» بدراسة برامج الأحزاب السياسية ، فاكتشف أنه لا فرق بينها ، فجميع تلك الأحزاب - دون استثناء - صاغت برامجها نخبة طبقة اجتماعية واحدة ، لتعبر عن مصالحها ، وعن رؤيتها للقضية الوطنية التى تأخذ بمبدأ التدرج فى تحقيق الاستقلال عن طريق التفاوض . وظلت تلك النخبة الاجتماعية صاحبة الصوت الأعلى ، والتمثيل الأكبر فى السياسة المصرية حتى عام ١٩٥٢ ،

مع اتساع مساحة ممثلى المصالح الرأسمالية الصناعية والتجارية إلى جانب المصالح الزراعية . ولا يستثنى «الوفد» من هذه الظاهرة التى كانت من عوامل تفسخه وضعفه .

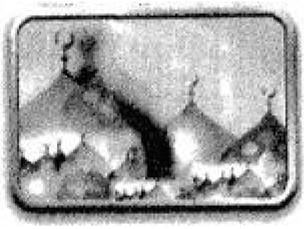
ثمار دستور ١٩٢٣

وخلاصة القول، إن النظام السياسى الذى أقامه دستور ١٩٢٣كان نظاماً أوتقراطياً استبدادياً يلبس مسوح الليبرالية التى تمثلت فيما اشتمل عليه الدستور من مبادئ تتعلق بالحريات العامة والشخصية ومن نصه على أن الأمة مصدر السلطات، إذ سرعان ما كبلت الحريات العامة والشخصيات بالأحكام العرفية التى سادت معظم ما سمى بالحقبة الليبرالية - إلا سنوات قليلة معدودة - استخدمت دائما لضرب المعارضة السياسية وتكميم الصحافة، وحرمان الجماهير الشعبية من التعبير عن مصالحها، بتنفيذ حريتها من ناحية، وتزوير إرادتها فى الانتخابات العامة من ناحية أخرى. وكان الملك هو المصدر الحقيقى للسلطات (وليس الأمة) يشاركه فيها الانجليز بحكم وجود جيش الاحتلال على أرض مصر، ومن خلال ما كفله لهم تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من حق التدخل فى شئون مصر الدفاعية والتشريعيه فى إطار التحفظات الأربعة الشهيرة، ثم من خلال ما تمتعت به «الحليفة بريطانيا العظمى» من مزايا وفرتها لها معاهدة ١٩٣٦ بعد ابرامها .

وكيفت الأحزاب السياسية نفسها - بما فيها الوفد - مع هذا الوضع، فجعلت من الوصول إلى السلطة هدفا لها حتى تستطيع تحقيق الاستقلال الوطنى (كما تراه) بوسيلة واحدة هى التفاوض. غير أن هدف الوصول إلى السلطة احتل مرتبة الصدارة على حساب الغاية المنشودة من ورائه (الاستقلال)، وكانت السلطة مغنما عن كل الأحزاب السياسية التى وصلت إليها (بما فى ذلك الوفد) تسعى من وجودها - المحدود زمنيا - على مقاعد السلطة، لتحقيق أكبر قدر من المكاسب الشخصية لقياداتها وأنصارها، وإن تميز الوفد بمحاولة تحقيق بعض المطالب التشريعية للجماهير المصرية فى أضيق الحدود، بما لا يضر بالمصالح المادية للنخبة الحاكمة، ويحقق استرضاء قطاعات من الجماهير التى تستند إليها شعبيته (وخاصة فى وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢).

ومن الجدير بالذكر أن السلطات الواسعة التى حظى بها رئيس الجمهورية فى دساتير ثورة يوليو، كانت إعادة صياغة تكاد تكون نصية للسلطات الاوتقراطية التى كانت للملك فى دستور ١٩٢٣.

ولعل مرد ما حفلت به «التجربة الليبرالية» من سلبيات إلى عدم توفر الشروط الضرورية لإقامة نظام سياسى ليبرالى فى مصر توافرا تاما نتيجة تعثر تجربة التحول الرأسمالى عندنا لأسباب محلية وخارجية قد نتناولها فى مقال آخر. ■



جـزء خـاص

إسلاميـون وراديكاليـون وليبراليـون

الراديكاليـون فى مصـر.. الأمـل.. والمـأزق.. والمصيـر

بقلم

د. عاصم الدسوقى

الراديكالى Radical هو الذى يريد إجراء تغييرات كبرى متطرفة بالنسبة لما هو قائم وموجود فى بلده من أفكار أو عادات أو أحوال أو مؤسسات ، وهى مشتقة من الأصل اللاتينى radic بمعنى جذر ، ومن هنا يقال أن التغيير الراديكالى تغيير جذرى (راجع موسوعة ويبستر Webster طبعة ١٩٩٤) . وعلى هذا فإن الراديكالية مصطلح واسع المجال يستوعب فى أعطافه كل من وقف ضد كل ماهو قائم أو سائد فى مجتمعه من أفكار وأحوال ودعا إلى تغييرها بالقول أو بالفعل بمفرده أو من خلال جماعة تتفق فى الاتجاه .

وبهذا المعنى فإن قافلة الراديكاليين في مصر الحديثة طويلة ويمكن أن تبدأ بالشيخ رفاعة الطهطاوى الذى سعى لتغيير عادات بلده بنقل أفكار المجتمع الفرنسى فيما يتعلق بالعقد الاجتماعى وأصل القانون ؛ وعلى مبارك الذى إستثار التفكير المقارن من خلال كتابية «علم الدين» و«نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» ؛ والأفغانى الذى دفع المصريين للثورة على الظلم ؛ وعبدالله نديم الذى كتب مسرحية «الوطن» دعا فيها إلى الإصلاح الاجتماعى ؛ والشيخ محمد عبده إمام المجددين الذى فصل من الأزهر جراء دعوته لتغيير مناهج التعليم ؛ ومصطفى كامل ومحمد فريد اللذان نذرا نفسيهما لإجلاء الإنجليز عن البلاد حتى لقد وصفتهما التقارير البريطانية بالمتطرفين ؛ وقاسم أمين الذى أثار خاطر المجتمع المحافظ بالدعوة إلى تحرير المرأة ؛ وهدى شعراوى التى كانت أول من خلع الحجاب من سيدات المجتمع المحافظ ؛ والشيخ على عبدالرازق الذى نفى أن يكون نظام الخلافة من أصول الشريعة الإسلامية ؛ وطه حسين الذى أثار المخاوف على التراث بتطبيقه منهج الشك الديكارتى ؛ والشيخ حسن البنا الذى دعا إلى إقامة حكومة إسلامية خلافا لما هو قائم لأن الإسلام دين ودولة

وينضم إلى هذه القافلة دعاة الكتابة بالعامية ومنهم عبدالعزيز فهمي وقاسم أمين أيضا ؛ والشعراء الذين نظموا أشعارهم خارج عمود الشعر فيما وصفه عباس العقاد بقصيدة النثر أو النثر المشعور ؛ وكذلك أصحاب الفن التجريدى فى الرسم والنحت الذين خرجوا على المدرسة الطبيعية .

ورغم أن تلك الكوكبة من المفكرين يعتبرون راديكاليين بالمعنى الإصطلاحى الذى سبقت الإشارة إليه ، إلا أن الراديكالية فى مصر تكاد تنصرف فقط إلى أنصار الماركسية وأعضاء الحركة الشيوعية التى بدأت بإعلان الحزب الاشتراكى فى مطلع ١٩٢١ ، ربما لأن هؤلاء الماركسيين استهدفوا قلب نظام المجتمع رأسا على عقب وبشكل شامل وليس بتغيير أحد جوانبه .

مصر والفكر الاشتراكى الراديكالى

والحق أن الماركسيين كانوا يمثلون خطرا حقيقيا على المناخ السياسى والثقافى القائم فى المجتمع المصرى المحافظ بطبيعته حتى لقد وصفت أفكارهم رسميا «بالأفكار الهدامة التى يجب حماية المجتمع منها» طبقا لما جاء بالمذكرة التفسيرية لدستور ١٩٢٣ الذى نص على أن الصحافة حرة ، ومن ثم خضوع الصحافة للرقابة والأنذار والتعطيل .

وإذا كان المثقفون السياسيون فى



رفاعة الطهطاوى



طه حسين



حسن البنا

مصر قد تعرفوا على الديموقراطية - الليبرالية من خلال إحتكاكهم بأوربا عن طريق البعثات التعليمية التي بدأها محمد على فى ١٨٢٦ وعملوا على إستزراعها فى التربة المصرية بالقلم، فإن الفكر الاشتراكى (الراديكالى) عرف طريقه إلى مصر بواسطة الأجانب الذين وفدوا إلى مصر للعمل فى الشركات التجارية والصناعية والخدمية التى أقامها رأس المال الأجنبى حاملين معهم آليات العمل النقابى فى ضوء البيان الشيوعى (١٨٤٨) والدولية الشيوعية الأولى (١٨٦٤) وكوميونة باريس (١٨٧١)، وفى طليعتهم يونانيين وإيطاليين وأرمن. وكانت باكورة هذا النشاط إضرابات عام ١٨٩٤ التى إندمج فيها العمال المصريون وذلك قبل إنشاء أول نقابة عمالية فى مصر ١٨٩٩. ثم وفد إلى مصر بعض الروس الذين فروا من روسيا بعد فشل ثورة ١٩٠٥، كان منهم روزنشتين الذى عمل فى ١٩٠٧ رئيسا لتحرير الطبعة الإنجليزية لجرنال «اللواء» الذى أصدره مصطفى كامل باسم The Egyptian Standard ثم عمل سكرتيرا للينين بعد ثورة ١٩١٧. وقد أصدر هؤلاء النشيطين نشرة فى مدينة الإسكندرية باسم «مارياك» أى البحار رفعت لافتات الحزب الاشتراكى الديموقراطى البلشفى، وأسسوا عدة جمعيات ماركسية الطابع: جمعية الدراسات الاجتماعية وجماعة الوضوح وجماعة اتحاد المستأجرين والاتحاد العام للعمال ولجنة صناديق العمل الحمراء وهدفها جمع مدخرات وتقديمها إعانة للعمال الذين يفصلون من أعمالهم.

ومن الواضح أن هذا النوع من النشاط كان جديدا تماما على حياة المصريين ولم يرتبط به إلا بعض المثقفين ممن أطلعوا على الماركسية، وبعض العمال الذين نما بخلهم الوعى الطبقى. فلما قامت ثورة ١٩١٩ وسارت

المظاهرات تندد بالاحتلال وتطالب بالجلاء اشتركت العناصر اليسارية فى توجيه تلك المظاهرات ورفعت شعرات تطالب بالخبز والعمل . وهنا إنزعجت السلطات البريطانية من أن تتحول الحركة الوطنية المطالبة بالجلاء إلى حركة اجتماعية لصالح العمال والفلاحين فأوعزت إلى الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية آنذاك لإصدار فتوى ضد الشيوعية فى ١٨ أغسطس ١٩١٩ عن طريق سؤال وصل إلى المفتى من أحد المسلمين جاء فيها : «إن طريقة جماعة البلشفية طريقة تهدم الشرائع السماوية وعلى الأخص الشريعة الإسلامية» . فما كان من «البلاشفة» فى مصر إلا أن أصدروا منشورا يرد على الفتوى عنوانه «اعتنقوا البلشفية أيها المصريون - البلشفية والإسلام والشيخ بخيت» بتوقيع «اللجنة المستعجلة» برقم ٧٣ ، أى أن هناك ٧٢ منشورا سبق نشرها قبل هذا المنشور .

ثم نشر الحزب الاشتراكى بيانه بجريدة الأهرام فى ٢٩ أغسطس ١٩٢١ بتوقيع كل من على العنانى (أستاذ الفلسفة) ، وسلامة موسى (كاتب) ، ومحمد عبدالله عنان (مؤرخ) ، ومحمد حسنى العرابى (تاجر قطن) دعا إلى «إلغاء الاستغلال ومحو التفريق بين الطبقات» . وكان برنامجا بسيطا يمثل الحد الممكن من الإتفاق ربما بسبب تنافر اتجاهات مؤسسية بين الفابية (سلامة موسى) ، والهيجلية اليسارية (على العنانى) ، ومبادىء الدولية الثانية فى الاشتراكية الديموقراطية (محمد عبدالله عنان) . ثم يأخذ الحزب اسم «الحزب الشيوعى المصرى» فى يناير ١٩٢٣ على أساس الماركسية اللينينية بلغت عضويته فى عام ١٩٢٤ سبعمائة عضوا وهو عدد ليس هينا إذا ما عرفنا أن عضوية الحزب فى الصين فى العام نفسه كانت ثمانمائة وفى تركيا ستمائة عضوا . كما تأسس إتحاد عام للعمال ضم حوالى عشرين ألف عامل إنضم فى نهاية ١٩٢٣ إلى الإتحاد العالمى للنقابات .

ومن المهم أن نتذكر أن برنامج الحزب الشيوعى تضمن مطالب لم تتحقق إلا بعد سنوات طويلة : من ذلك تأميم قناة السويس (تحقق فى ١٩٥٦) ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية (تحقق فى ١٩٤٩ بعد فترة انتقالية من ١٩٣٧) ، وحق النقابات العمالية فى الدفاع عن مصالح العمال (تحقق بشكل جزئى فى ١٩٤٢) ، ومصادرة جميع الملكيات الزراعية أكثر من مائة فدان دون تعويض (تحقق فى ١٩٦١ بقانون الإصلاح الزراعى الثانى) ، وتنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات (تحقق بمقتضى الإصلاح الزراعى فى ١٩٦١).

لقد كان مأزق الحركة الشيوعية فى

مصر فى بواكيرها أنها حاولت تنمية وعى طبقى اجتماعى بين العمال ضد الطبقة الاجتماعية الحاكمة من كبار ملاك الأراضى الزراعية والعقارات وأصحاب رأس المال فى الشركات الصناعية والتجارية ، فى الوقت الذى كانت هذه الطبقة فى بداية التكوين إذ ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر عندما استقرت الملكية الفردية للأرض الزراعية ، ولم تكن قد أفرزت بعد سيئاتها فى الاستغلال ، عكس الحال فى المجتمعات الرأسمالية الأوربية التى ظهرت فيها الاشتراكية بعد قرون طويلة من النظم الإقطاعية - الرأسمالية فوجدت إستجابة كبرى بين المطحونين .

ومن ناحية أخرى ففى الوقت الذى كان العمال ينتظمون فيه تحت لواء حزب شيوعى واحد كانت الصفوة الاجتماعية الحاكمة تتجمع فى أكثر من هيئة ومنظمة لحماية مصالحها أبرزها آنذاك : نقابة تجار الأقطان (١٩٢٠) ، والنقابة الزراعية (١٩٢١) ، واتحاد الصناعات (١٩٢٢) ، وشركات التعاون الزراعية للتسويق (١٩٢٢) ، ومن قبل كانت هناك محاولة لتكوين نادى للأعيان ١٩١٨ ، «ناهيك عن عضويتهم فى مجلس النواب والشيوخ بمقتضى دستور ١٩٢٣ الذى كان يمثل مصالح هذه الصفوة جملة وتفصيلا ، وكثيرا ما انتقدوا الشيوعية وحذروا منها ومن أقوالهم فى هذا الشأن : أنه لا مصلحة لمصر البتة فى أن ينشر فيها نظام شيوعى (مجلس النواب فى ١٩٣٠/٤/٣) ، وأن الاشتراكية الزراعية الحكومية أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق (مجلس نواب ١٩٣٢/٦/٢٢) ، وأن الملكية الجماعية أو الاشتراكية لا تحقق العدالة فى التوزيع لأن الملكية الفردية امتياز يؤدى إلى أفضل النتائج الاقتصادية» .

الصدام والسرية

وكان لابد من الصدام بين الحركة والسلطات الحاكمة ، ففى أواخر فبراير ١٩٢٤ وبعد أقل من شهرين على حكومة سعد زغلول إندلع إضراب عمال مصانع الغزل والنسيج الأهلية بالإسكندرية واحتل العمال المصانع بعد طرد أصحابها ، وسرعان ما تم اعتقال زعماء الحزب الشيوعى من ثلاثة عشر مدينة وأودعوا السجون (١٩٢٤/١٠/٦) . ومنذ ذلك التاريخ أخذ العمل الشيوعى طابع السرية ، ففى مطلع العام التالى (١٩٢٥) جاء إلى مصر مندوب الكومنتيرن لإعادة تأسيس الحزب الشيوعى ونجح فى تكوين فرعين : واحد بالقاهرة وسكرتيره عبدالسميع الغنيمى الموظف بوزارة المعارف ، والثانى بالإسكندرية وسكرتيرته شارلوت روزنتال وهى يهودية روسية . وأصدر الحزب جريدة «الحساب» لسان حال العمال والفلاحين صودرت بعد ثمانية

أعداد . وكان هدف مندوب الكومنتيرن توحيد الأحزاب الشيوعية فى كل من مصر وفلسطين وسوريا . ولا يغرب عن البال أن حركة التوحيد هذه مع وضع وفلسطين تحت الإنتداب البريطانى (١٩٢٢) والتزام بريطانيا بإنشاء وطن قومى لليهود هناك طبقا لوعد بلفور كان يستهدف خدمة المشروع الصهيونى وهو ما إتضح فى موافقة الشيوعيين المصريين فيما بعد على قرار تقسيم فلسطين (نوفمبر ١٩٤٧) . ولكن سرعان ما تم القبض على عناصر الحزب الجديد وقياداته فى يونية ١٩٢٥ بعد أقل من ستة أشهر من إعادة تأسيسه.

الشيوعية واليهود

وفى ثلاثينيات القرن العشرين أعيد إحياء الحركة الشيوعية فى مصر على يد اليهود الذين فروا من ألمانيا وخاصة بعد أن تولى هتلر الحكم فى ١٩٣٣ :تحالف مع إيطاليا الفاشية بزعامة ..سولينى وتكونت عدة منظمات : ..سار السلام ، والفن والحرية ، والخبز والحرية ، وجماعة الدراسات ، والنادى الديموقراطى ، وجماعة مناهضة العداء للسامية وهو اسم له مغزاه . ويعلن الحزب الشيوعى برنامجه فى ١٩٣١ مناديا بتحرير كل الشعوب العربية من أجل وحدة عربية شاملة ، والإطاحة بالنظام الملكى ، وفصل الدين عن الدولة ، وفصل القضاء عن الدين . ثم تصطدم الحركة بالسلطة فى منتصف الأربعينيات إحتجاجا على تعثر المفاوضات مع بريطانيا ، ولم تكن حكومة إسماعيل صدقى رجل اتحاد الصناعات أقل عنفا من حكومة سعد زغلول زعيم الأمة فى المواجهة ، إذ تم اعتقال زعماء الحركة (يوليو ١٩٤٦) وأضيفت لقانون العقوبات مواد تقضى بسجن كل من يؤسس منظمة شيوعية أو يشترك فيها .

على أن الشيوعيين لم ييأسوا وواصلوا النضال وتشكيل المنظمات برغم تشديد العقوبة ، ومع تدهور الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى مصر إنضمت أعداد هائلة من كافة شرائح الطبقات الاجتماعية إلى قافلة اليسار من أبناء الصفوة الاجتماعية الحاكمة ومن أبناء الطبقة الوسطى فضلا عن العمال والفلاحين مما يؤكد عدم الربط بين الوضع الاجتماعى للإنسان وبين إنتمائه الفكرى ، فكانت الحركة المصرية للتحرر الوطنى ومنظمات إيسكرا وتحرير الشعب والفجر الجديد .. إلخ . وأكثر من هذا سعت الحركة لإختراق الجيش وتشكيل خلايا داخله بين الضباط وصف الضباط والفنيين لتحقيق الجلاء بالكفاح المسلح .

واللافت للنظر فى الحالة الشيوعية فى مصر بالنسبة لنظيرتها فى أوربا الرأسمالية أمر غريب يستحق التأمل . ففى أوربا كان مجرد إعلان البيان الشيوعى وتكوين الكومنتيرن والتبشير بحتمية انهيار الرأسمالية وإقامة حكومة الطبقة العاملة كفيلا بإثارة مخاوف

القوى الرأسمالية الحاكمة فنجدها تبادر بتجديد آليات الحكم حتى تتجنب الأزمة وتفوت الفرصة على الشيوعيين . ومن هنا تعميم الحقوق الدستورية ، وتقديم تنازلات للطبقة العاملة ، وتوفير الحاجات بنظام التقسيط المريح جدا حتى لقد انقسمت المدرسة الماركسية على نفسها حيث ظهر فريق رأى إمكانية الوصول إلى الاشتراكية من خلال صيغة الديموقراطية القائمة دون عنف ثوري ، على حين أن الحركة الشيوعية في مصر لم تؤد إلى خوف الرأسمالية - الإقطاعية الحاكمة على نفسها وبالتالي لم تفكر في تقديم تنازلات من أي نوع ، ورأت في الشيوعيين عناصر حرمها الله من نعمة الرضا ، ولم تجد إلا الاعتقالات وأحكام السجن سبيلا لحماية ثرواتها ..! ترى ما السبب في هذا ؟ هل يعود إلى طبيعة الشخصية المصرية صاحبة الاعتدال التي تحرص دوما على «تجنب وجع الدماغ» كما يقول عامة الناس عندما تصادفهم معضلات شديدة .. هل أن مصر كما قال عنها كين بويد في ١٩٢٤ رجل المخابرات الإنجليزية في مصر «محظوظة بأهلها الذين لايعتبرون أرضا خصبة لبذر بذور الشيوعية فيها .. وأنه لا خوف من الشيوعيين الذين يمكن استمالتهم بطريقة أو بأخرى .«» .

الشيوعيون وثورة يوليو

أما المأزق التالي للراديكاليين المصريين فكان مع ثورة يوليو ١٩٥٢ التي قام بها الضباط الأحرار ، وكان المأزق الأصعب لأكثر من سبب ، فمن ناحية كان الشيوعيون قبل الثورة يعادون طبقة كبار الملاك وأصحاب رأس المال في سبيل تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية وجاءت الثورة للإطاحة بالملك أكبر ملاك الأراضي الزراعية وتنحية صفوة الملاك عن الحكم . ومن ناحية أخرى كان الشيوعيون يطالبون بجلاء الإنجليز وهو نفس ماسعى إليه الضباط ، ومن ناحية ثالثة كان تنظيم الضباط الأحرار يضم بين صفوفه عناصر شيوعية عسكرية ومدنية !! .

وعلى هذا انقسم الشيوعيون تجاه حركة الضباط ما بين اعتبارها انقلابا عسكريا فاشستيا أثرا بالمقولات الماركسية عن أن الجيش والشرطة أداة في يد الطبقة الرأسمالية - الإقطاعية الحاكمة ، وبين اعتبارها ثورة طبقة وسطى لصالح العمال والفلاحين مما أدى إلى مزيد من الانشقاقات وتبادل الاتهامات بين الشيوعيين . ثم جاء إعدام خميس والبقري عمال كفر الدوار (١٨ أغسطس ١٩٥٢) تذكرة للشيوعيين بما حدث في ١٩٤٦ ، ١٩٢٤ ، وكذا التخلص من خالد محيي الدين ويوسف صديق الشيوعيين الوحيدين في قيادة الثورة انتصارا للفريق الذي دمغ حركة الضباط بالفاشية .

وزاد من انقسام الشيوعيين على أنفسهم تجاه يوليو الإجراءات التي قامت بها حكومة الضباط لصالح العمال والفلاحين من حيث إلغاء الفصل التعسفي للعمال، وإقرار الإصلاح الزراعي، والإعلان عن مواجهة الاستعمار وتحقيق الجلاء باتفاقية أكتوبر ١٩٥٤ والانضمام لمجموعة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز ١٩٥٥ وكثر احتقار السلاح والاتجاه، نحو المعسكر الاشتراكي والاعتراف بالصين الشعبية (١٩٥٦) ثم إجراءات التأميم وإنشاء القطاع العام .. إلخ، إذ وجد البعض أن ما يقوم به الضباط هو ذات مايسعى الشيوعيون لتحقيقه ومن ثم فلماذا الوقوف ضد الضباط ؟.

ثم تمت المصالحة بين الضباط وقيادات الشيوعيين على أساس حل الحزب الشيوعي والإدماج في الاتحاد الاشتراكي الذي يضم «تحالف قوى الشعب العامل». ومرة أخرى ينقسم الشيوعيون على أنفسهم فالذين لم تكن لهم كلمة في حل الحزب رفضوا التعاون مع حكم جمال عبدالناصر فانصرفوا إلى هامش الحياة السياسية، أما الذين قبلوا سواء عن إقتناع بأن رسالة الاتحاد الاشتراكي هي ذاتها رسالة الحزب الشيوعي أو بسبب اليأس من النضال الذي طال أمده دون جدوى من التغيير إلا تغيير السجن بين كل اعتقال وآخر، تولوا مسئولية تكوين منظمة الشباب الاشتراكي والمعهد العالي للدراسات الاشتراكية وتثقيف الشباب وأعضاء التنظيم السياسي في وحدات الإنتاج والخدمات والقرى والمدن.

السادات واليسار

وما أن تولى السادات الحكم دخل في صراع مع اللجنة التنفيذية العليا للتنظيم السياسي (الاتحاد الاشتراكي) وأطاح بأعضائها ليلة ١٥ مايو ١٩٧١ بدعوى أنهم عملاء للاتحاد السوفييتي، وبدأ في مغازلة الولايات المتحدة الأمريكية بدعوى أنها تملك في يدها ٩٩٪ من أوراق الصراع العربي - الإسرائيلي. وهنا انتفض طلاب الجامعات هجوما على السادات فأعادوا إلى الأذهان حركة فبراير ١٩٤٦ (اللجنة العليا للطلبة والعمال) بدرجة أو بأخرى واحتلت حركة الطلاب مقاعد الراديكالية التي كانت قد خلت تقريبا منذ تصفية الحزب الشيوعي وأصبح الطلاب ضيوفا دائمين على المعتقلات.

وبعد انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣ أراد السادات أن يقدم نفسه ديموقراطيا للغرب الأوربي - الأمريكي فابتدع فكرة منابر الرأى التي تحولت إلى أحزاب سياسية في أكتوبر ١٩٧٦ وكان حزب التجمع الوطني التقدمي والوحدوي يمثل اليسار وكان السادات يصفه بالمغامر وينعت اليمين بالرجعية على أساس أن السادات نفسه يمثل الوسط الذهبي. ويلاحظ أن حزب التجمع الذي رأسه خالد محيي الدين ضم مختلف

الاتجاهات اليسارية من شيوعيين وناصريين وعناصر دينية مستنيرة فى محاولة لتأسيس جبهة ما ، نراه يكتفى بكلمة «تقدمى» بديلا للإشتراكية التى أصبحت كلمة غير مقبولة فى عصر الإنفتاح الاقتصادى ، واكتفى بكلمة «وحدوى» بديلا للعروبة التى لم يعد يقبلها الغرب وترفضها عناصر مصرية تدعو إلى انعزال مصر داخل حدودها لصالح المركز العالمى . وسرعان ما خرج الناصريون من التجمع وأسسوا حزبا مستقلا فى ١٩٩٢ .

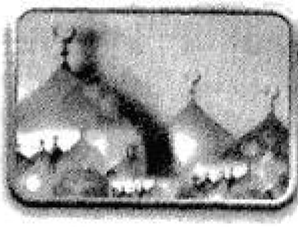
على أن مأزق حزب التجمع والحزب الناصرى وكل من يمثل اتجاها راديكاليا بالنسبة لحزب الوطنى الحاكم يتمثل فى أن الحكومة تسيطر على الحياة الحزبية بعد أن أفرغتها من مضمونها وحولتها إلى فروع لها ، وإلا فماذا تنتظر من حزب راديكالى يباشر نشاطه بموافقة الحكومة التى تمنحه مقرا ومالا ويباشر نشاطه تحت رحمة قانون الطوارئ» !!

والخلاصة إن الراديكاليين فى مصر فشلوا فى الوصول لكراسى الحكم ، وفشلوا فى تحقيق أغلبية فى مقاعد الهيئة التشريعية تمكنهم من فرض تشريعات العدالة الاجتماعية ، بل لقد صدرت قوانين تصفية القطاع العام ورفع الدعم عن السلع وإطلاق الأسعار وترك فرص العمل لآليات العرض والطلب و«تحرير» العلاقة بين المالك والمستأجر .. فى وجود أعضاء راديكاليين بمجلس الشعب .. أليست هذه هى الاشتراكية الديموقراطية التى رفضها لينين !!

لكن الراديكاليين فى مصر نجحوا أيما نجاح فى حفر تيار الواقعية الاشتراكية فى التربة الثقافية ، إذ أثروا الفكر والفن والأدب إثراء كبيرا وتعلم الناس كيف يبحثون عن الأبعاد الاجتماعية والسياسية فى العمل الأدبى والفنى ، كما كانت كتاباتهم عن تاريخ مصر الاجتماعى وتفسيره ماركسيا تأثيره الكبير على جيل من طلاب التاريخ فى الجامعات الذين أقبلوا بنهم ملحوظ على دراسة التاريخ الاقتصادى - الاجتماعى وتفسيره ماركسيا بعد أن كانت دراسة التاريخ أسيرة المنهج المثالى ، وكذلك الحال فى أقسام الاجتماع التى كانت الدراسة بها تدور فى نطاق دوركايم وماكس فيبر .

أما التغيير فى سياسات الحكم فموضوع آخر ، إذ تعلمنا من تاريخ مصر الطويل كل محاولات التغيير الاجتماعى لصالح الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين تتحطم على صخرة الدولة المركزية إلا إذا كان الحاكم نفسه مقتنع لسبب أو لآخر بإجراء تغييرات معادية للمركز العالمى كما حدث زمن محمد على باشا والخديو إسماعيل وجمال عبدالناصر . ■

جـزء خـاص



من هنا نبدأ

الإسلام والتجديد

لا يوجد تداول للسلطة فى الأوساط الثقافية!

بقلم
هبة رؤوف عزت *

تعد الأسئلة التى يثيرها العقل الحضارى فى لحظات تاريخية معينة الخطوة الأهم قبل العكوف على بلورة الإجابات، ذلك أن بذل الجهد فى الإجابة المتأنية المدققة على أسئلة خاطئة فى جوهرها هو العثرة التى يقع فيها الفكر فى مرحلة تاريخية ما، فلا يفلح فى الخروج من الجمود فيضيع جهد المخلصين هباء، ولذا تغدو مسألة إعادة النظر فى الأسئلة ذاتها ومراجعة المسلمات والموضوعات التى استقر عليها هى بداية النهضة ومفتاح التجديد المنشود .

* مدرس مساعد العلوم السياسية - جامعة القاهرة

ولا خلاف على أن قضية تجديد الخطاب الدينى من القضايا التى تحتل أولوية على أجندة النهضة من أجل خروج الأمة من مآزقها الكثيرة. فالبديل لتطوير تلك «الأجندة» هو خروج الأمة من التاريخ . لكن السؤال هو كيف؟ كيف يمكن تطوير الخطاب الدينى ليصبح خطابا تجديديا نهوضيا فاعلا؟.

يمكن القول أن الإجابة تدور حول ثلاثة محاور رئيسية: أولها حال العقل المجدد ولحظته الراهنة. والثانى: هو القضايا التى هى موضوع التجديد، والثالث: هو السياق الأوسع للحالة التجديدية».

أولا : حالة العقل وأفقه :

هل يمكن أن ننشد تجديدا والعقل المنوط به هذا التجديد يعانى هو ذاته من مشكلات جمة تعوق تحليقه مجتهدا ومتجاوزا للحظته الراهنة ؟

يمكن رصد ثلاثة قيود أساسية تكبل هذا العقل وتحول بينه وبين مواجهة التحديات الراهنة الوطنية والدولية العالمية :

١ - انحسار معارف هذا العقل عن مساحات العلوم الاجتماعية واقتصاره على ما سمى بـ«العلوم الشرعية»، ولعل أبرز أسباب هذا الانشطار الذى نعانيه هو واقع النظام التعليمى ما بين نظام «حداثى» غربى فى كليات العلوم الاجتماعية فلا يدرس طلابها ولو نبذة عن العلوم الشرعية، فى حين يدرس طلاب التعليم الدينى الفقه والعلوم الشرعية دون معرفة بالنظريات الاجتماعية المتغيرة والتى هى مدخل فهم الحداثة التى نعيش فيها مدنا وإعلاما واتصالا وعلاقات ، ولذا يبقى الفريقان فى انفصال وانفصام، ولذا فإن تأسيس المعرفة التجديدية يجب أن يعبر هذه الفجوة فى الاتجاهين ، ليس بعلمنة مناهج التعليم الدنى ولا بتحديث - وأيضا علمنة - مناهج نظام التعليم الدينى ، من أجل تجاوز حالة التوجس بين الدائرتين ، والتى تظهر جليا عند تناول موضوع التعددية السياسية والحرية الفكرية. ولا حاجة هنا للتفصيل فى أن عبور تلك الفجوة رهن بمشروع وطنى لتطوير النظام التعليمى برمته والذى لا يمثل التعليم الدينى أكبر الخطر فى خريطته الراهنة بل التعليم الأولى الذى لا يدرس فى ظله الطالب لغته القومية ولا عقيدته الدينية، بما ينذر بمزيد من الاستقطاب الاقصائى لغياب الأرضية المشتركة لا من الفكر والمفاهيم بل من اللغة والمفردات ابتداء .

٢ - انحسار سلطة هذا العقل عن تغيير الواقع بما أفقده الدافع للتجديد ، فقد تم تهميش العلماء من قبل النظام وتم تأميم مؤسسات الوقف والتعليم

والافتاء التى ضمنت لهم عبر القرون الاستقلال المالى وبالتالى الفكرى، كما حفظت لهم مكانة اجتماعية وأدبية متميزة بين الناس (لا فوقهم)، وعندما تراجعت مكانتهم على خريطة القوة (ولا أقول السلطة) وبرزت نخب سياسية واقتصادية وفكرية جديدة مختلفة، افتقد العقل الفقهى الاجتهادى الدافع الأساسى للتجديد والتطوير وانشغل بالقضايا الفرعية التى لا تسبب صداما مع السلطة ، لذا فإن تنشيط العقل الاجتهادى مقترن باستعادة أصحابه المكانة وقوتهم وإحساسهم بالجدوى الوجودية بما يدفع بدوره الشعور بالتأثير مما يستنفر الذهن ويشحذ التفكير .

٢ - اعتزال هذا العقل الشرعى مساحات الهموم العامة وانغلاقه فى الهموم الفردية للناس واليومى من مشكلاتهم ، بما أحدث - ومنذ قرون - خللا فى خريطة الاجتهاد ، فتطور فى مجالات فقه العبادات وأبوابه، فى حين لم يتواكب هذا مع تطور فى الاجتهاد فى فقه المعاملات ، ولا أقصد هنا جدل الاقتصاد الاسلامى الذى بزغ وكان أمنا بدرجة كبيرة ويدعم من أنظمة وتيارات لا مجال لتفصيلها هنا ، وإنما أقصد بالأساس فقه السياسة وفقه العولمة الاقتصادية والثقافية ، والتى استقل بالحديث فى مباحثها المفكرون المستقلون أو الحركيون والحركات الإسلامية ، والذين لم يطوروا رؤى مركبة فى شئون الديمقراطية وحقوق الانسان تتجاوز العموميات ولا أفكار وأطروحات فى فهم النظام الرأسمالى العالمى وأدواته الثقافية تتجاوز المقولات الفضفاضة التوفيقية ، وبقى الخطاب الدينى الشرعى بمنأى عن تلك المساحة هو الأخر فعانت من سطحية بالغة فى التعامل الفكرى معها ، وزاد الأمر سوءا انقطاع الفكر الدينى والحركى عن الفكر الماركسى الذى حاول تطوير أدوات لفهم مسالك القوة الرأسمالية وعملها وديناميتها قطريا وعالميا ، ابتعد الشرعيون بالأساس لمقولة ماركس أن الدين أفيون الشعوب (وقد كان بالفعل فى واقع ماركس) ولفقر الماركسية من الناحية الأخلاقية ، وابتعد الحركيون لحسابات المنافسة مع التيارات السياسية اليسارية ، رغم أن الفكر الماركسى بمدارسه المتجددة بالغ الأهمية فى تفهمنا آليات العولمة وجدلياتها ، لكن الفكر الدينى بل والحركى (منذ العدالة الاجتماعية فى الإسلام ربما لسيد قطب حتى الآن) لم يطور تصورا متكاملا ومتطورا حول قضايا العدل الاجتماعى والحرية الاقتصادية ، لكن هذه قضية مستقلة

تستحق بحث مستقل .

ثانيا : قضايا التجديد : ما وراء الفقهى وما قبل السياسى

إذا كان هذا حال العقل كما سلف البيان فما هى القضايا التى يجب أن توضع على خريطة العقل من أجل تطوير الخطاب الدينى بصددها؟ أى ما هى الأولويات الملحة التى نريد لهذا الفكر أن ينشط للإجتهاد بشأنها ؟

لاشك أن التحديات التى تواجهها كثيرة والقضايا متشابكة ، لكن هناك ثلاثة ملفات أساسية أعتقد أنها الجديرة بالنظر والتحليل والبحث من أجل تنمية «الخيال الاجتهادى» وبالتالى الفكر والخطاب الدينى :

١ - قضايا العمران والمكان

فقد انشغل الفكر الدينى وكذلك الخطاب الإسلامى بالقضايا الفقهية التفصيلية والأبعاد الأخلاقية الظاهرية ، لكن السياقات المكانية لتنزيل تلك القواعد والآداب لم تنل الحظ الكافى من التأصيل لفهم التحول الذى أصابها فى ظل اتساع السوق الرأسمالى وإعادة تشكيله للمساحة فالاقتصاد الرأسمالى الصناعى ثم المعلوماتى العالمى قام بتغيير أمكنة الاجتماع الإنسانى ومنطقها ، وأبرز مظاهر ذلك تحولات المدن كمراكز اقتصادية ونقاط محورية فى علاقات العولمة ، ومن أبجديات أصول الفقه الشرعى والحضارى أن نفهم سياقاتنا المكانية .

فما هو سبيل لتنزيل الشرع والآداب فى فضاء المدن التى تخلق مساحات ومسافات وتفاعلات اجتماعية وأنماط سلوكية لا تتعلق بإرادة المواطن المنفردة بل بهيكل وبنيان المدن وتخطيطها وعمارتها ؟ وكيف يمكن إدارة الشورى كأداة فى يد الجماعة الاجتماعية أو السياسية مع تفكك البنية الاجتماعية على خريطة النمو العمرانى العشوائى الذى يفرز الفقر أفقياً أو الاغتراب والفردية رأسياً ؟

فى أبواب فقه المعاملات نجد تأصيل وتفصيل لأحكام المعاملات المالية مثل إحياء الموات والخراج وحق الاختصاص ، وحق الارتفاق والشفعة وحق التعلى وحق الجوار وحق الخصوصية وحق الطريق ، وغيره .

وفى الفتاوى الكبرى فى تراثنا الفقهى تفصيل وشرح ورؤى عميقة لجوانب هذه القضايا المختلفة . ثم هناك كتب السياسة الشرعية فى حديثها عن ترتيب السلطات وإدارة الأسواق والأوقاف .

ثم هناك كتب الأدب التى تذكر مسارات الحياة الاجتماعية وتفاعلاتها المختلفة ، وهناك كتب التاريخ والخطط التى تعطينا صورة عن كيفية إدارة

الحياة فى المدن الإسلامية .

والحق أن كل هذه النقاط المبثوثة تشكل فى كليتها رؤية متماسكة متكاملة لعلاقة الإنسان بالمكان وبالشريعة التى تتجاوز هنا التعريف القانوني الضيق لتشمل الأعراف والآداب ودورة المجتمع المدنى وتفاعلاته مع محيطه المعمارى وصلته بالأرض وسكانها .

ولقد شكل المحيط العمرانى رؤية الفقيه والأديب والمؤرخ للسلطة وللحيز والمكان ، وانعكست عليه رؤى الإنسان السائدة وعقيدة التوحيد وما ترتبه من مفهوم للحقوق والجماعة والنفع والاستخلاف ، ومع تحولات العمارة وتشكل المدن الحديثة لخدمة منظومة رأسمالية كان لزاما التساؤل عن صيغ وتحديات تنزيل الشريعة على عمران متحول أقل مايوصف به أنه معمار « كاذب » ظاهره لا يعكس قيم سكانه الباطنة بل ويتحداها ، وقد يوصف فى وصف أشد قسوة أنه معمار ضد الشريعة ، يشلها ويقننها ويقتلها بمعاداته لفكرة الأمة أو الجماعة العضوية ، وفكرة العرف ومساحات السلطة الشعبية ودوائر التفاعل الدينى وطقوس الثقافة المحلية التضامنية ، معمار يكسر بوابات الحارات كما فعل الفرنسيس عند احتلال القاهرة ، ويتجاهل خصوصية الأمكنة ، وينمط فكرة «العلو فى البنيان» بتثمينه للأرض بما هو خارج عن خراجها ومرتبط بحسابات رأسمالية وطبقية ، ويكرس المركزية ويفتح كراهية وعنوة دوائر الخصوصية بل والشروط الدنيا للعيش الإنسانى .

٢ - قضايا الوجود وحقوق الإنسان

فالخطاب الدينى والحركى الإسلامى بحاجة إلى تجاوز المقولات العامة إلى اشتباك حقيقى وواقعى مع قضايا الوجود والجسد والحقوق الإنسانية ، وتسكين الأحكام الفقهية التفصيلية فى أطرها الكلية المرتبطة بمقاصد الشريعة ، والدوران مع هذه المقاصد فى المساحات المكانية آنفة الذكر ، وإعادة صياغة اللغة التى يتم بها التوجه للناس لتكون لغة دالة وليست لغة اصطلاحية وحسب (مثل الانتقال من فقه فتنة المرأة إلى فلسفة الجسد وعلاقته بالقيم وبإدراك الذات فى التصور الإسلامى - رجالاً ونساءاً) . ولعل مفهوم المواطنة بما طرأ عليه من اتساع وتطوير فى الفكر الغربى بمدارسه الأيدلوجية المتنوعة يمثل مفهوماً صالحاً للتطوير - والتطويع - من أجل حفظ حقوق الناس فى ظل تراجع دور الدولة من مساحات الضمان الاجتماعى وضعف الشبكات الاجتماعية التقليدية الداعمة للأفراد ،

بما يتجاوز الحديث عما «كفله الإسلام» من حقوق للفئات الاجتماعية المختلفة إلى تفصيل كيفية حماية هذه الحقوق فى السياسات العامة والموازنات الحكومية ، وهي الكيفية التى تستلزم عودة احترام الإنسان كفاعل له حقوق أساسية ، وسبل حماية مصلحة الأفراد والجماعة فى توازن متناغم ، وهو اجتهاد لابد أن يشتبك مع تحولات السوق بمعناه الشامل وسياسات التكيف الهيكلى والخصخصة والآثار بعيدة المدى لها على توازن القوة بين الطبقات والشرائح الاجتماعية ، وهى قضايا تحتاج اجتهاد جماعى ولن يفلح العقل والخطاب الدينى الحالى فى الاشتباك معها دون تطوير لحالة العقل كما سبق بيانها ، وإلا بقى يخاطب واقعاً متخيلاً ويتحدث عن حقوق تضيعها الهياكل والسياسات والتشريعات وتنتهكها فى تفاصيل الإدارة المؤسسية وتركيبة التفاعلات الاجتماعية بشكل يومى ومستمر .

٣ - قضايا المشاركة والعمران

فلم يعد من الممكن الصمت والتعميم تجاه قضايا التمثيل والحضور الجماهيرى وتداول السلطة والشفافية ومكافحة الفساد ، ببساطة لأن أثرها على أحوال الناس اليومية فادح الثمن ، وهى من أصول البلاء بحيث يصبح التعامل مع القضايا الفرعية للتفكير والفقه والفتوى دون تغيير أسباب المشكلات دوران فى حلقة مفرغة .

والمذهل أن متابعة الجدل الدائر بين التيارات الفكرية يجده رغم مظهره السياسى الصاخب متجاهلا لأبرز موضوعات الجدل السياسى فى مجتمعات عديدة أخرى، من اختلاف ونقاش بشأن القيم العامة التى ينبنى عنه العقد الاجتماعى وتحولاتها ومستقبل التعامل معه ، أو كيفية تحديد مساحات الخصوصية ودوائر الاجتماعى العام، أو الفلسفة التى يقوم عليها النظام التعليمى ، أو السياسة الاعلامية والعلانية وعلاقتها بالمجال العام وبالثقافة وبالهندسة الاجتماعية التى تفرزها آليات السوق والتسويق وتلعب دورا أساسيا فى تشكيل الوعى بعد أن سقط مفهوم الاعلام الجماهيرى وأصبح المجتمع استهلاكيا يكرس الفردية والشراهة الشرائية وتطارد لافتات وشاشات الدعاية فيه المواطنين على الأرصفة وفى المحلات التجارية بل وداخل أورقة السوبر ماركت بشكل غير انسانى . هذه البيئة الاجتماعية ومن وراءها البيئة الطبيعية التى تعانى من ذلك التحول الرأسمالى المشوه ، ويموت الناس فيها على الأسفلت فى حوادث الطرق

بمعدلات هى الأعلى فى العالم ، فيصبح الخطاب الدينى فى مواجهتها قدريا يؤمن بأن لحظة الموت لا فكاك منها (ونحن واله نشهد) بدلا من أن يكون أفق هذا الخطاب ما وراء القدر هو التأصيل لمفهوم المسئولية والمحاسبة والعدالة القضائية والمساواة أمام القانون بين الطبقات الاجتماعية عند التقاضى، والدفاع عن الحقوق البيئية للأفراد ومكافحة التلوث والتأكيد على أن حق الحياة يبدأ بضمان الحد الإنسانى من نوعية الحياة الإنسانية وليس محض العيش على هامشها .. المتاكل .

الخطاب الدينى .. الخطاب الديمقراطى

تبقى المسألة الثالثة هى اللحظة التاريخية والسياق المحلى والعالمى، وقد تعمدت ألا أضع حرف الواو بين الخطابين فى العنوان هنا، ذلك أن العقل الذى نطالبه بأن يجدد تفكيره وخطابه الدينى إذا فعل ذلك بجدية واشتبك مع القضايا التى حددناها كأولويات للتفكير والاجتهاد لابد أن يجد نفسه فى قلب جدل الديمقراطية، مخيرا بين أن يكون مع السوق الرأسمالية أو مع الإنسان ، وأن يكون إما مع العدل الاجتماعى والحرية السياسية والاستقلال الوطنى أو مع العولمة الرأسمالية وأجندتها، ولا أكتفى بالقول بأن الخطاب الدينى الذى سينقذ واقعنا من أزماته لابد أن يكون خطابا تحرريا (بالمعنى «الوطنى» الذى عهدناه فى الأربعينات) بل أذهب إلى حد القول بأنه تطور هذا الخطاب هو شرط من شروط أى تحول ديمقراطى وطنى حقيقى اليوم ، إذ لم تعد المفاهيم الأيدلوجية الرخوة قادرة على دأب الفجوة بين واقعنا ومستقبلنا ، ولطالما قلنا أن الخطاب الدينى مصدر خصب لخطاب إنسانى تحررى لكن قلما عكفنا على أداء هذه المهمة ، كما أن صياغة خطاب وطنى ديمقراطى مستقل وعالمى رحب فى الوقت ذاته لا يمكن أن يحدث بقطيعة مع ثقافتنا التى تحمل مقومات دينية وإنسانية فى آن واحد، وهى التربة التى نزرع فيها جذورنا ثم تنمو أشجارنا نحو السماء، حتى وإن انحنت للريح وقت العواصف.. الرعدية .

لكن كيف يمكن تجديد الخطاب الدينى دون تغيير جوهرى فى الشروط الموضوعية المكبلة له ، ودون اشتباك مع القضايا الحقيقية التى ما فتئنا ندور حولها ونخشى مواجهتها باستقامة وصراحة ، ودون تثوير خطابنا الثقافى على كافة الأصعدة والذى شاخ ومازال يجتر نزاعات عقود مضت ببساطة لأن أصحابه عاشوا هذه العقود ، ولا يوجد

تداول للسلطة حتى فى الأوساط الثقافية بل والابداعية .

لم يعد وصف «الوسطية» كما يستخدم الآن فى أدبيات مطالبة الخطاب الدينى بأن يتطور - فى ظنى - مناسبا (فهذا مختلف عن الوصف القرآنى لنا بأننا أمة وسط)، إذ أن الوسطية فى الخطاب السياسى السلطوى لم تعد ميزانا عادلا له معايير أصيلة بل مساحة من الرمال المتحركة يحدد معاييرها من يحدد الوسط والتطرف منسوبا إليه هو كقوة مهيمنة ، أو إلى مواقفه ومصالحه كقوة «امبراطورية» ، لذا اخترت قبل أن أشرع فى كتابة هذا المقال أن يكون وصف الديمقراطية التى يجب أن يتسم بها الخطاب الدينى هو وصف «الديمقراطية الراديكالية» ، أى التى تنشد التغيير والنهضة لا تثبيت الوضع القائم بآليات ديمقراطية شكلية دون أن يتزحزح أحد من مكانه - فكريا أو هيكليا ، وهو وصف معتمد ومعتبر فى أدبيات فقه الديمقراطية المحترمة ويحررها من اقترانها الشائع / الزائف بالليبرالية الاقتصادية وسياسات السوق، لكن لفظ الراديكالى - مثل وصف «الثورى النضالى» و«الرسالى الجهادى» صار من الألفاظ المصادرة التى تم الإساءة لسمعتها عمدا لأسباب «عولمية»، لذا آثرت أن أسميها الديمقراطية الوطنية ، وأن أسمى «الوسطية» الرائجة فى مقولات المطالبة بتجديد الخطاب الدينى «بالوسطية المشروطة» ، وشروطها هو مناط نفيها وتقويضها ، وهو ألا تكون راديكالية - البتة .

نعم.. الخطاب الدينى الفقهى الشرعى يحتاج تجديد ، بل التجديد أصل من أصوله فى التصور الاسلامى ، وهو يجدد نفسه دوما (المشكلة أن ذلك لا يتم بسرعة كافية أو فى القضايا الأهم) لكنه الآن يحمل مسئولية ما هو أبعد وأخطر من التجديد ، ربما يحمل مسئولية مستقبل الديمقراطية فى أوطاننا بعد أن أصبحت تواجه مأزقها الأخطر فى أخطر تداعيات الأوضاع الاقليمية والدولية بعد أن تنكرت لقيمها الدول التى كانت ترعاها فلم يبق لحقوق الانسان إلا من يؤمن بها حقا دون ادعاء أو انتهازية (لحظة فرز تاريخية فريدة). وربما إذا أدرك الخطاب الدينى - الفقهى والحركى معا - هذه اللحظة وتلك المسئولية يتحرك بما يليق به من اجتهاد وفعل ، وبنا من كرامة ومكانة ، كبشر وشعوب وأمة .

من هنا .. نبدأ !

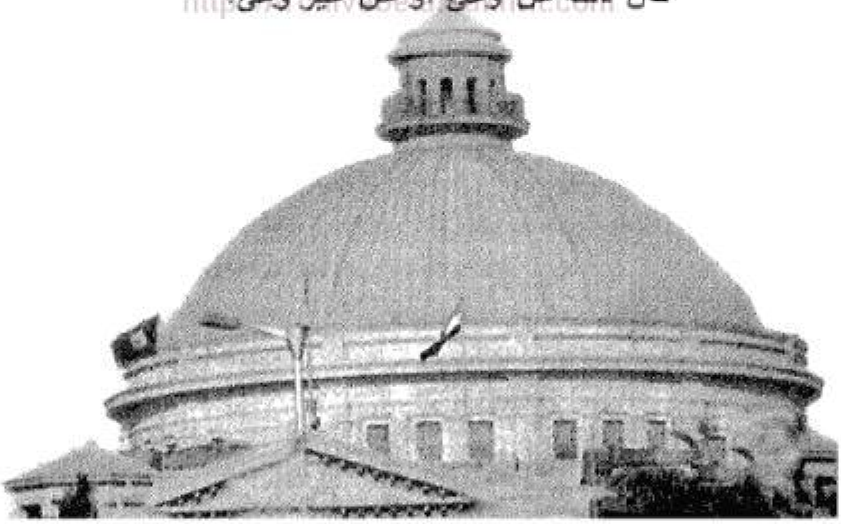
والله أعلم . ■

الأساتذة

وعام جامعى جديد

بقلم
د. مصطفى سويف

رأيت أن أهدى هذا المقال إلى رفاق المهنة، أساتذة الجامعات بمناسبة بدء العام الدراسى الجديد، ولا أقصد هنا إلى الاقتصار فى الخطاب على الزملاء الذين يشغلون منصب الأستاذية فى أعلى درجات السلم الجامعى، ولكننى أسعى إلى مخاطبة المعلم الجامعى أيا كان موقعه على السلم. ولا تعنينى هنا التفرقة على أساس المرحلة العمرية، ولا على أساس التخصص، ولا على أساس الجنس، إنما الذى يعنينى هو جوهر وقفتنا أمام الطالب ونحن نبثه العلم. وإنما يعنينى من هذه الوقفة أننا نسهم بها فى صنع مستقبل هذه الأمة، سواء كان ذلك عن وعى أو عن غير وعى.



ومهما يكن الوزن النسبي لهذا الإسهام وسط غيره من إسهامات العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية.. إلخ فهو قائم ولا يمكن إنكاره، ولا يمكن تجاهله. وربما لا أكون بعيدا عن الصواب إذا قلت إنني أرى أن قيمة هذه الوقفة تزداد مع تعاظم أخطار الأيام العصيبة التى تمر بها أمتنا المصرية / العربية في الوقت الحاضر، بل أكاد أجزم أن الموقف الذى يضمنا وطلابنا فى الظرف الراهن يحتاج إلى ترشيد هذه الوقفة أكثر ما كان فى أى وقت مضى. ومع ذلك فأنا لا أعنى بهذا الترشيد أن نوعيهم ضد الاستعمار الجديد وأعوانه، ولا أن نحصنهم ضد حرفة خلط الأوراق التى برع فيها الكثيرون من حولنا، ولا أن نبصرهم بالحاجة إلى دعم معانى المواطنة الصالحة فى مواجهة تنوع أساليب العبث بركائزها، لا أعنى ذلك كله رغم يقينى بالحاجة الملحة إلى التوعية والتحصين والتبصير فى تلك المجالات جميعا، ولكننى بترشيد وقفتنا معنى شديد البساطة والمباشرة، وهو أن نؤدى دورنا، دور الأستاذية، بالصورة الواجبة أو اللائقة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فالطلاب الذين نواجههم أشد ما يكونون حاجة إلى القدوة الصادقة، ومن نافلة القول أن نتذاكر فى هذا المقام أن دورنا هذا ينطوى على شقين: هما تقديم المعرفة، وتخليق القيم. والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام ولا يجوز أن نواجهه بكلام



د. يوسف مراد

لا ينفع ولا يشفع، هو : كيف نؤدى دورنا وقد تكامل فيه هذان الشقان؟ وقد اخترت للإجابة عن هذا السؤال أن أقدم بين أيدى الزملاء والقراء جميعا نماذج للأستاذية تجمع بين الواقع والتصور، الواقع بشوائبه التى نحاول دائما أن نعلوا فوقها، والتصور بنقائه الذى يلزمنا دائما أن نقترب منه، فإذا أصبنا فلنا أجران، وإذا أخطأنا فلنا أجر واحد. ولن أقدم هذه النماذج من خلال تصنيف نظرى يغرى بالمجادلة التى لا طائل من ورائها ولكننى سأقدمها من خلال الخبرات الحية التى مررت بها فى عدد من مراحل العمر المبكرة.

نماذج من الأستاذية

عرفت فى مراحل حياة الطلب عدة نماذج للأستاذية رفيعة المستوى، أنتقى من بينها لهذا المقام ثلاثة، شاءت الأقدار الطيبة أن أتعامل مع أصحابها عن قرب، ولفترات طويلة نسبيا، وهو ما مكننى من تبين الكثير من دقائقها، وتسجيل هذه الدقائق فى ذاكرة تجمع

بين ثبات الأثر، ووضوح الدلالة، والوعى بأسلوب الفاعلية، وتلك جميعا عوامل أعتمد عليها اعتمادا كبيرا فى تقديم حديثى الراهن.

عرفت فى حياة الطلب فى مصر أستاذين، كلاهما نموذج متفرد للأستاذية، هما يوسف مراد، وكان أستاذا لعلم النفس بجامعة القاهرة، ومصطفى زيور، وكان أستاذا لعلم النفس بجامعة عين شمس. وعرفت فى حياة الطلب فى الخارج «لندن» أستاذا كان نموذجا متفردا كذلك، هو هانز أيزنك، وكان أستاذا لعلم النفس فى معهد الطب النفسى بجامعة لندن. وقد التقيت بأساتذة فضلاء آخرين، فى مصر وفى الخارج، ولكن التوجه الأساسى لحياة الطلب كما كنت أحياها لم يتح لى الاقتراب منهم قدر اقترابى من الأساتذة الذين أتصدى للحديث عنهم فى هذا المقال. جدير بالذكر أننى لا أقدم بهذا الحديث سيرة حياة لهؤلاء الأساتذة ولكنى أقتصر على تقديم لمحات عن مواضع الاتصال بينى وكل منهم، وما عايشته فى إطار هذه المواضع من أمور قرأتها على أنها علامات بارزة على طراز الأستاذية الذى كنت أتعامل معه.

يوسف مراد

درست على يوسف مراد فى سنوات الليسانس «مقدمة فى علم البيولوجيا» ثم تلقيت دروسا فى علم النفس. وكان الأستاذ عائدا لتوه من فرنسا حيث أوفى بعثته العلمية فى جامعة السوربون، وامتد الاتصال بيننا بعد ذلك لما يزيد على عشرين عاما. كان الرجل طلق اللسان، متمكنا من الإبانة عما يريد أن يقدم من معان، وكان شديد الاهتمام باللغة العربية، هادفا إلى توظيفها فى نحت الألفاظ التى تصلح لترجمة العديد من المصطلحات الأجنبية كما ترد فى إطار تخصصه. وأذكر أنه كان مولعا بذكر أبى هلال العسكرى فى كتابه «الفروق فى اللغة». وكان يلقى محاضراته فى غير تعجل، وفى إطار من بشاشة الوجه واستواء الصوت بصورة تبعث الطمأنينة فى نفوس طلابه.

وذات يوم كلفنا الأستاذ بإجراء بحث عملى محدود وكتابة تقرير عنه. وكنا حينئذ فى سنة التخرج، ويبدو أن ما أنجزته نال رضاه، فإذا به يبدأ خطواته الأولى فى الاهتمام بمستقبلى العلمى، جاءت المبادرة منه، وأحسنت الاستجابة، فاتصلت رعايته إياى. وتولى الإشراف علىّ كدارس للحصول على درجة الماجستير. وهنا أقف قليلا لأتأمل هذا السلوك من جانبه، وأضاهى بينه من ناحية وكلام يقوله من ناحية أخرى الشيخ أبو الحسن على بن محمد الماوردى، فى كتابه «أدب الدنيا والدين»، تحت عنوان «فراسة العلماء». يقول الشيخ: «وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم، ليعرف مبلغ طاقته.



وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه. فإن أروح للعالم وأنجح للمتعلم». ثم يستطرد ليقول: «وإذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة، وكان بقدر استحقاقهم خبيرا، لم يضع له عناء، ولم يخب على يديه صاحب».

واتصلت العلاقة بيننا، وبقيت على امتداد اتصالها واضحة المعلم. علاقة تلميذ بأستاذه. وافتتح الأستاذ صالونا علميا فى بيته، ورحنا نؤم الصالون صباح الجمعة من كل أسبوع، ثم بدأ بالاشتراك مع الدكتور مصطفى زيور وبالتعاون مع دار المعارف نشر مجلة متخصصة لعلم النفس «يونيه ١٩٤٥» وكانت المجلة مفخرة لنا جميعا، واتخذ الأستاذ من المجلة سبيلا إلى مزيد من تشجيع تلميذه لتنمية مهاراته الأكاديمية، طلب إلى أن أعيد كتابة التقرير البحثى الذى سبق أن قدمته فى سنة التخرج وذلك لكى يصبح لائقا بالنشر فى المجلة، فكان من ذلك مقال «الاستشفاف والتخاطر»، أول مقال علمى ينشر لى، وكان لهذا النشر فعل السحر فى نفسى، ثم توالى ظهور مقالاتى العلمية فى المجلة، وتخلقت وتأكدت من خلال هذا النشر كثير من معالم صورتى فى مرآة نفسى. واستمر التشجيع، وكانت له تجليات عدة، كان أبرزها ما لقيته أثناء مناقشة رسالتى لنيل درجة الماجستير، ثم نشر الرسالة كتابا يحمل عنوان «الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة»، والكتاب يحمل على صدره تقديما بقلم الأستاذ.

كان هذا طراز الأستاذية كما قدمه يوسف مراد. كانت النقطة المركزية فيها هى التشجيع الذى يبدأ حذرا متحفظا، يحدوه توسم معين، ثم تتوالى خطواته مع ارتقاء مستوياته. صحيح أن بعض الشوائب شابت هذه العلاقة فى فترة ما. ولكن صحيح أيضا أن هذه الشوائب أمكن احتواؤها فيما بعد، وأمكن لنا أن نعلوا فوقها، وبقيت صورة الأستاذية صامدة بإشراقها.

مصطفى زيور

سمعت عن مصطفى زيور وأنا بعد تلميذ فى سنة التخرج، ثم كان أول لقاء لى به فى صالون يوسف مراد. وقد شعرت منذ بواكير لقائنا أنه أستاذ يضبط كل حركاته وسكناته، وأنه ينتقى ألفاظه وعباراته بعناية واضحة. ومن خلال اهتمامى المتنامى بشئون مجلة علم النفس أتيح لى أن أقترب منه، وفى أثناء عملى فى رسالة الدكتوراه أتيح لى أن أزداد اقترابا منه، وأن أتعرف طراز أستاذيته واستمر اقترابى منه على مر السنوات التالية.

كان الرجل معتدا بروح تخصصه العلمى «كان طبيبا وأستاذا فى التحليل النفسى الفرويدى»، وكان يجمع إلى ذلك سعة الأفق عقلا ووجدانا. وكانت كتاباتى فى مجلة علم النفس واضحة فى توجهها النقدى نحو التحليل النفسى بوجه عام، والفرويدى بوجه خاص، مثال ذلك ما كتبته فى مقال بعنوان «التحليل النفسى

والفنان» «أكتوبر ١٩٤٦» ، وما كتبته فى مقال آخر بعنوان «الأسس الديناميــة للسلوك الاجرامي» «فبراير ١٩٤٩». ومع ذلك لم ألق من مصطفى زيور أى اعتراض أو امتعاض، ولم تكن المسألة مجرد حياد سلبى من جانبه، بل كانت أفضل من ذلك بكثير: فقد لمست ذلك فى جلساتى معه بشأن ما كان يعده من كتابات للمجلة «وكنت قد توليت سكرتارية التحرير»، ولمسته وأنا أطلب النصيحة بشأن كتابة الدكتوراه، ولمسته أيضا فيما هو أشد من ذلك إفصاحا عن كثير من المعانى والتوجهات رفيعة المستوى، قال لى ذات يوم، وكنا نجلس إلى مادة يعدها للنشر فى المجلة إنه يهمه أن ينتدبنى لكى ألقى على تلاميذه «فى الدراسات العليا» سلسلة محاضرات حول كتاب كلود برنار «مقدمة فى الطب التجريبى»، وأدركت ما تنطوى عليه هذه الدعوة من توسم وتقدير. فلم يكن الكتاب يمس التخصص بمعناه الضيق، ولكنه كان فى حقيقته مقالا فى فلسفة المنهج العلمى، وأديت ما طلب إلىّ وقد غلبت علىّ مشاعر الامتنان لهذه الثقة. كان الأستاذ يستشف توجهات فلسفية أساسية وراء ما أكتب فى علم النفس، وكانت هذه الحقيقة تصادف عنده تقديرا أى تقدير، وكثيرا ما تشعبت أحاديثنا وأنا فى ضيافته لتطال أمورا فى فلسفة العلم أو فى فلسفة الفن. كانت سعة الأفق بأرحب معانيها خصيصة من أهم خصائص هذا الأستاذ. وإلى جانب ذلك كانت لديه سمة أخرى هى الاستعداد لبذل المساندة وقت الحاجة إليها، لمست ذلك بنفسى أثناء مناقشتى فى الرسالة التى تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه، فلم أكن حينئذ متمكنا من كثير من طرق التحليل الإحصائى لبيانات البحث الميدانى. ولفت انتباهى الى ذلك أحد الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة ومع أن ملاحظات هذا العضو لم تكن عنيفة ولا متجنية فقد شعرت بالحرج الشديد، ويبدو أن مظاهر الحرج بدت واضحة علىّ. وبعد أيام كنت ضيفا على الدكتور زيور فى بيته وخطرت فى حديثنا سيرة الدكتوراه. وإذا به يبادر إلى طمأنتى قائلا أن ثغرة التحليل الإحصائى التى بدت فى الرسالة لم تكن خطيرة ، ووعد بتقديمى الى زميل كان يعمل معه فى جامعة عين شمس هو الدكتور السيد خيرى الذى كان يتقن تطبيقات علم الإحصاء فى البحوث النفسية، وتم ذلك فعلا، وأجريت التصويب لما كنت قد تورطت فيه. هكذا كان مصطفى زيور، سعة الأفق بصورة كريمة ، والتوسم، وبذله المساندة عن طيب خاطر.

هانز أيزنك

هاهنا تجسيد لطراز ثالث من الأستاذية، عرفته بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه. كتبت اليه رسالة محدودة وواضحة، قلت فيها إننى اكتشفت أثناء إعدادى رسالة الدكتوراه أننى لا أكاد أعرف شيئا عن موضوع



الاتجاهات النفسية رغم مركزيته في البحوث السلوكية الحديثة. وقلت إنني أعرف من خلال اطلاعاتي المحدودة أن هذا الموضوع يلقى عناية خاصة في قسم «قسم علم النفس، بمعهد الطب النفسي، بجامعة لندن» وتساءلت : إذا كنت مستعدا للسفر إلى لندن فهل أجد عنده العون اللازم لدراسة هذا الموضوع ؟ وسرعان ما تلقيت الرد بالترحيب، وسافرت فعلا. والتحقت بقسمه كدارس منتظم لمستوى ما بعد الدكتوراه. وأنا الآن أتذكر هذا الحدث باعتباره حدثا كاشفا لأول خصيصة في أستاذية هذا العالم، وأزنه بموازين الحكمة العربية في هذا المجال فأجد كفته راجحة كل الرجاحة، فقد روى عن الإمام عليّ بن أبي طالب قوله : «ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا. وروى عن غيره قوله: «كما أن الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الإفادة فريضة على المعلم». وعن غيرهما القول: «من كتم علما فكأنه جاهله».

وبقيت ملتحقا بالقسم أتتلمذ على الأستاذ لمدة سنتين كاملتين .

وعلى امتداد هاتين السنتين «اغسطس ١٩٥٥ - اغسطس ١٩٥٧» تلقيت عطاءه الذى كان مزاجا فريدا من المهارات العلمية والنفحات القيمية، ذات يوم طلبت منه النصيحة بشأن بحث ميدانى كنت قد بدأته فى مصر قبيل سفرى، فلما تعثرت فى بعض إجراءاته نحيته جانبا وسافرت. ونصحنى الأستاذ بأن استعيد أوراق البحث من مصر وأعرضها عليه. وفعلت ما أشار به. ونظر الرجل فيما أنجزت من خطوات، وهنأنى، ثم أشار بكيفية إكمالها. واستحثنى مباشرة أن أكتب التقرير اللازم لإرسالة للنشر، وقاد خطاى فى كتابة التقرير. وكان أسلوبه فى كل ذلك يجمع بين الرفق والحسم. ونشر البحث فى «مجلة علم النفس البريطانية» سنة ١٩٥٨ وأذكر الآن فى هذا السياق، بعد مرور خمس وأربعين سنة على وقوع ذلك الحدث، قول الشيخ أبى الحسن الماوردى : «ومن آدابهم «أى العلماء» أن لا يعنفوا متعلما، ولا يحقروا ناشئا، ولا يستصغروا مبتدئا ، فإن ذلك أدعى اليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم».

واقتضى استكمال دراساتى فى القسم تحت إشراف هذا الأستاذ أن أستأذن جامعة القاهرة في السماح لى بالبقاء لمدة عامين بدلا من عام واحد، ورفضت الجامعة طلبى فى بداية الأمر، وعلم الأستاذ بالرفض، فتقدم لمساندتى بخطاب وجهه الى جامعة القاهرة، وكان الخطاب آية في فن الأستاذية الراعية، مما حفز جامعة القاهرة إلى الموافقة، وأكملت مهمتى كما كان ينبغى لها أن تكتمل.

هكذا كانت أستاذية هانز ايزنك الجود بالعلم اذا طلبه طالب جاد، وحث خطى المتعلم برفق وحسم معا، والتقدم

للمساندة إذا لزم الأمر.

الأستاذية الخصال والمسئولية.

تلك كانت ثلاثة نماذج للأستاذية، عايشتها على امتداد فترات مختلفة من حياة الطلب، ورغم التفرد الذي تميز به كل من هؤلاء الأساتذة فقد شاعت بينهم خصال مشتركة، هي قوة الفراسة أو قدرة التوسم والتشجيع أو دفع الناشئة في رفق وحسم معا، والتسامح أو سعة الأفق عقلا ووجدانا، والمبادرة الى المساندة وقد عايشت عند هؤلاء الأساتذة خصالا أخرى غير ما ذكرت، منها سعة الاطلاع ومداومته، وطلاقة اللسان، وحسن الإبانة ومنها كذلك عزة النفس بمعنى العزوف عن المغريات التي يذل لها الكثيرون من أحاد الناس كالجاه والمنصب والولع بالكسب المادي.

جدير بالذكر أن هذه الخصال جميعا، وخصالا أخرى غير ما ذكرت ترد الإشارة اليها في كثير من الأدبيات القديمة، مثل «أدب الدنيا والدين» للماوردي، وفي «المقدمة» لابن خلدون، كما ترد في كثير من الأدبيات الحديثة، مثل كتب علم النفس التربوي انظر على سبيل المثال جيج وبيرلايز في كتابهما «علم النفس التربوي ١٩٨٤» وكتابات الباحثين المعنيين بموضوع الاستاذية الراعية من أمثال بولتون وتولر.

(راجع في هذا الصدد الدكتور مصري عبدالحميد في مقاله المتنورية واحتضان الابداع ١٩٩٣) كل ذلك يعني، فيما رأى الوعي عبر مراحل تاريخية طويلة بأهمية الموضوع الذي نحن بصدده، وحيويته المتجددة، ويدعو إلى تنشيط النقاش حوله من حين لآخر ويقيني أن سباقاتنا الجامعية الراهنة أحوج ما تكون الى هذا التنشيط. فقد ظهرت على جامعاتنا في العقود الأخيرة الآثار التراكمية لأضرار العديد من العوامل المؤذية التي ما فتئت تصيب الجامعات بأنواع وأقدار مختلفة من الأذى حتى أقعدتها عن الوفاء بالكثير من مسئولياتها. ولا يسمح المقام هنا بذكر هذه العوامل أو حصر تراكمات أذاها، ولكن أولى من ذلك وأبقى أن يعي الأساتذة الزملاء أن أمور الجامعة سائرة من سيء إلى أسوأ، وأنها تبدو وكأنها في سباق مع الزمن نحو مزيد من التدهور، وأن يعوا في الوقت نفسه أن لا أحد سواهم يستطيع أن يوقف هذا التدهور لأنهم أدرى من غيرهم بمواطن الضعف في المؤسسة كلها، بنيويا ووظيفيا، وهم بهذه الصفة أجدر أن يأخذوا بزمام الأمور لتحديد التوجه الرئيسي لإصلاح، كيف؟ وإلى أين؟ ولكن لا يمكن لهذا التوجه أن يتخلق دون أن يعي الأساتذة أنفسهم وأدوارهم كأساتذة، ولكي يتبلور هذا الوعي ويصبح طاقة فاعلة لابد للأساتذة أولا وقبل كل شيء أن يسلكوا كأساتذة، حتى يصبحوا مقنعين لأنفسهم، ولطلابهم، وللقوى الاجتماعية الفاعلة من حولهم. ■



أقــوال معاصرة

● «الحقيقة التي عاشتها نيجيريا في ظل النظام العسكري كانت جد مظلمة، وجد مؤلمة، خصوصا بالنسبة للشبان الموهوبين والطموحين»

الكاتب النيجيرى هيلون هابيلا
وصاحب رواية فى انتظار الملاك

● «فى كل مرة يسود فيها الظلام، لا يستطيع أحد أن يمنعنا من إضاءة شمعة، وقد ساد بالفعل الظلام!»

رئيس وزراء الهند فاجبايى

● «لن نسمح للعنف بأن ينتصر على إرادتنا الحرة»

رئيس وزراء السويد يوران برشون

● «العلاقة بين الرأى العام ورأى الحكومة تحكمها معادلة تقول أن من حق الناس أن تتكلم وأن تعبر عن رأيها، ولكن من حق الحكومة أن تفعل ما تراه دون أن تتقيد لحظة برأى الناس»

الكاتب الصحفى لبيب السباعى

● «عندما تغيب الحرية يفتقد المنطق ويتحول العالم إلى شكل من أشكال اللا معقول»

المخرج العراقى عونى كرومى

● «آلاف الاستخفافات وآلاف الاهانات، وآلاف اللحظات المنسية، تجمعت لتثير في نفسى ذلك الغضب، وروح التمرد، والرغبة فى مناهضة النظام الذى عزل قومى واستعبدهم»

نلسون مانديلا
رئيس جمهورية جنوب أفريقيا السابق

● «قيام القضاة بعملهم يتطلب أن يكونوا مصابين بالاضطراب عقليا ونفسيا»

سلفيوبرلسكونى
رئيس وزراء الحكومة الايطالية

● «إذا كان صدام حسين فى أثناء وجوده قد قسم الأمة العربية فلا يجوز أن يؤدى غيابه إلى تقسيمها ثانية»

أحمد ماهر
وزير خارجية جمهورية مصر العربية

● «كل يوم يمر يقل معه الوقت الذى يمكن أن نعيشه فى الحياة»

نجم السينما عمر الشريف

● «أكتب عن الجنس لأنه عنصر مهم للاقتراب من أغوار النفس غير المتاحة»

الأديب اليابانى هاروكى موزاكامى

● «ما ينعى على أبناء هذا الجيل، افتقارهم إلى التواصل مع الأجيال السابقة»

الكاتب الصحفى وديع فلسطين



نلسون مانديلا



أحمد ماهر



عمر الشريف

ربع قرن على كتاب

الإستشراق

لإدوارد سعيد

ثلاثية الاستشراق والامبريالية والصهيونية

بقلم
ابراهيم فتحى

نشر ادوارد سعيد الناقد الأدبى والمفكر العالمى الفلسطينى الأصل الأمريكى الجنسية كتابه «الاستشراق» بالانجليزية عام ١٩٧٨، وكان للكتاب أثره العاصف الانقلابى الذى واصلت أصداؤه التردد حتى اليوم بعد ٢٥ سنة من صدوره وستنشر دار بنجوين طبعة شعبية جديدة فى شهر أغسطس (يوم ٢٧) احتفالا بالكتاب مع مقدمة للمؤلف تربطه بالأوضاع الراهنة .. وقد نشرت الجارديان البريطانية فى ملحقها (٢٠٠٣/٨/٢) ما يشبه عرضا لهذه المقدمة، وفيها يواصل ادوارد سعيد تأكيد انتقاداته لدور الاستشراق فى خدمة مايسميه صراحة الامبريالية وارتباطها بالصهيونية

لقد كان الشرق وعلى الأخص الشرق الأوسط منذ غزو نابليون لمصر بناء متخيلا تصوغه الأهواء والمصالح يكاد أن يكون أسطوريا قد تمت صناعته وإعادة صناعته مرات لاتحصى، ورسمت خرائطه وأعيد رسمها بطرق متعددة. والآن إن خبراء العالم العربى والإسلامى من أمثال برنارد لويس وفؤاد عجمى وعشرات من الببغاوات (لدينا فى العالم العربى أمثالهم) لهم دورهم فى مساعدة صقور البنتاجون على إبراز ظواهر مثيرة للسخرية مثل تحجر العقلية العربية، وتدهور القيم المنسوبة إلى الإسلام منذ قرون فلا يبقى إلا الدور الحاسم للعسكرية الأمريكية (الغربية) لكى تعكس الاتجاه وتحقق «الإصلاح» وتمتلىء المكتبات الأمريكية بمطبوعات رثة جائرة تحمل عناوين صارخة عن الإسلام والإرهاب، والتهديد والخطر العربى الإسلامى بأقلام مدعى المعرفة المتخصصة، كما أن محطات سى.إن.إن وفوكس حافلة بالمنحرفين مع كتاب الصحف الرائجة الإثارية الذين يقومون بتدوير أخيلة لايمكن التحقق منها، وتعميمات جارفة عن المتعصبين الذين يمتلكون الحقيقة المطلقة لتحريك الناس ضد هذا الشيطان الأجنبى. فالمسلمون والعرب ليسوا بشرا «مثلنا» ولايمكن أن يفهموا «قيمنا» وهذا هو الجوهر المستمر للعقيدة الاستشراقية التقليدية، وتردد جوقة المثقفين وراء مستشارى البيت الأبيض والبنتاجون نفس الكليشيهات والمحفوظات التى تحط من قدر شعوب وثقافات وقيم تبريرا لاستخدام القوة والعنف ضدها .وقد ادعت كل الإمبراطورية فى خطابها الرسمى أنها ليست كالأخرى السابقة فهى ذات رسالة تنوير ونشر العقلانية والديموقراطية عند بشر أدنى مرتبة.

التدخل الإمبريالى

ويطرح ادوارد سعيد سؤالا يتردد الآن بين قلة من المثقفين العرب ألم تنته الإمبريالية منذ زمن طويل ؟ (طول هذا الزمن مختلف عليه عند دعاة الامبراطورية الأمريكية الحميدة المحبة للغير)، أليس الوقوف عندالنواح على جرائم السلب والنهب الاستعمارية طريقة لتجنب المسئولية فى الحاضر؟. إن الاستشراق الحديث (قد يكون عربيا) يؤكد «أننا سرنا فى الطريق الخطأ وأخفقنا وذهبت بلادنا العربية والإسلامية أو الشرقية عموما (قد تشمل الهند بعد الاستقلال) إلى الأذناب المحليين دون ذنب للتدخل (الإمبريالى) ويسخر أحد الحكام العرب المدله بحب بعض الرؤساء الأمريكيين (رجال الدين والأخلاق) وبعض الجنرالات الإسرائيليين (رجال السلام) ويسمى الامبريالى «الفاشكولى» إشارة إلى

استحالة وجوده أو ضرره (كلمة الفاكشولى لامعنى لها تشير إلى العبثية، واستخدام أصوات بلا دلالة)، ويجيب أدوارد سعيد موضحا السطحية فى هذا الرأى، ففى السنوات الطويلة المتعاقبة واصلت «الإمبراطورية» طريقها، فى حيوات الفلسطينيين والجزائريين والعراقيين والكونغوليين. فالخط الذى بدأ بنابليون واستمر مع صعود الدراسات الاستشراقية والاستيلاء على شمال افريقيا واصل «انجازاته» فى فيتنام ومصر وفلسطين وظل طوال القرن العشرين متمثلا فى الصراع على البترول والسيطرة الاستراتيجية على الخليج والعراق وسوريا وافغانستان، وكذلك فى محاصرة الحركات القومية المطالبة بالاستقلال فى وحشية لاتعرف هوادة، وأنتج كل ذلك معرفة زائفة مشوهة بالأخرين فى صور وقوالب وسرديات اختزالية هدفها التحكم والسيطرة والتلاعب.

وبذلك حل محل «الشرق» مجموعة من الأفكار والاستعارات والأساطير المرنة سهلة التكيف قد تكون مترابطة الأجزاء أو بالغة الدقة المتخصصة فى بعض المجالات وصولا إلى تعميمات ضخمة، ويبقى بين أيدينا بديل كاريكاتيرى لواقع ولتاريخ العرب والمسلمين وهدف هذا الخطاب الاستشراقى كما كان دائما منذ الدعاة البارزين أمثال سيلفستر دى ساسى وأرنست رينان ووليام لين تمهيد الطريق أمام المشروع الإمبريالى الضخم لوضع الشرق الأوسط (الأدنى سابقا) تحت سيطرته تاركا للنخب المحلية إدارة الشئون الداخلية. وفى العالم العربى تعلو أصوات الآن كما علت أمثالها فى بداية القرن العشرين، لسنا فى وضع يمكننا من المقاومة نتيجة للفارق الهائل فى القوة بيننا وبين امبراطورية لاتغيب عنها الشمس لم يسبق لقوتها العسكرية مثيل، ولايبقى لنا إلا بناء قوتنا الداخلية بالتعليم والصناعة الحديثة (حتى تصبح قوتنا قريبة من قوة الإمبراطورية عسكريا؟!!) مرددين قول الشاعر

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو
لم يبق مجد على جهل وإقلال

وبطبيعة الحال لم يتصد تاريخيا لرأى أصحاب المصالح الحقيقية هؤلاء، من سراة البلاد وأعيانها متشابكى المصالح مع الامبراطورية وشريحة تثقيفهم، إلا سياسيو ومثقفو حركة الاستقلال الوطنية الديمقراطية، فأول شىء تطيح به الإمبراطورية هو الحق فى إرادة البناء المستقلة، فى نموذج البناء الذى يلبى مصلحة الأغلبية ولا ينحصر فى شريحة ضيقة تابعة، فى ممارسات

ديمقراطية وفي ثقافة قومية متفتحة (تجارب الإمبراطوريات اللغة القومية في البلاد التابعة وتفرض ثقافات بديلة تجعل المواطنين أعضاء في القبيلة الاستهلاكية العالمية). وليست المقاومة مقصورة على الجانب العسكري، فقوة الحركة الجماهيرية باكتسابها الوعي والتنظيم في صراع مع توجهات واملاءات وايديولوجية الاستشراق لها وزنها، وقد أبرز ادوارد سعيد أن الغرب «ليس» كتلة مصمتة متجانسة..

فهناك الحركات والقوى والتيارات الديمقراطية المعادية للغزوات الامبريالية التي تفضح أجوائها وأكاذيبها حتى داخل الولايات المتحدة وهو نفسه مثال لذلك.

فالضغوط والرفض والتحالفات على النطاق العالمي تلحق الخسائر بالإمبراطورية.

ثلاثية الاستشراق

في البداية كان إدوارد سعيد يصنف ضمن ناد عالمي من نقاد الأدب ومنظريه الأكاديميين تحيط بهم دعاية مكثفة من وسائط الإعلام دون أن يقرأ أحد لهم شيئا من خارج دائرة «الثلاثة آلاف» على النطاق العالمي. يكتب بعضهم لبعض ويناقش بعضهم بعضا ويعقدون الندوات والمؤتمرات الخاصة. ولكنهم كانوا يشكلون البيروقراطية الأكاديمية التي تحدد المعيار السائد للثقافة «الرفيعة» في المؤسسات التعليمية (في الغرب والبلاد التابعة) يعلنون موت المدارس وميلاد المدارس، وما هي التقليدية والحداثة وما بعد الحداثة، وماهي السردية والشعرية، وما النقد النسوى والنقد الجنسي المثلي، وعلى الرغم من التعددية والمجادلات والاختلافات حول تاريخ شهادات الوفاة أو الميلاد وحول من يبقى في الذاكرة الثقافية ومن ينبغي محوه فقد كانت لهذا النادي لائحة صارمة، إنه ليس ذاتي التشكيل أو التمويل أو النطاق، ومبرر وجود مهنة النقد الأدبي والجامعة الحاضنة للحرفة هو وضع سلطة تلك المؤسسة في خدمة الجهاز الأيديولوجي للدولة الإمبراطورية على نحو غير مباشر فالاستعمار ليس فرض جيوش أجنبية فحسب بل فرض طرق بعينها من مزاولة تجربة العالم، تؤثر حتى في الجذور الحميمة للدلالات اللغوية، وأصبحت التجربة الأدبية والصياغة الجمالية ماركة مسجلة منتزعة من العلاقات الاجتماعية والقومية عمياء عن أنظمة السلطة فالأدب ينبغي أن يعزل في نقاء معقم بعيدا عن التاريخ، وأن تصبح كلمة «واقع» غير محترمة وأن تكون الشكلانية العقيمة ملصقة في تقوى زائفة بالحقائق الأبدية الوهمية التي تزدري المسئولية. وكان إدوارد

سعيد من أبرز مكتشفي التواطؤ الخفي بين بناء الأنساق النقدية ونظريات إنتاج المعرفة من ناحية ومؤسسات وهياكل السلطة من ناحية أخرى.

وفي البداية كان مهتما بمجال متخصص من البحث «خطاب تمثيل الشرق والشرقية طوال قرون بواسطة الغرب ولمصلحته وعند أبنائه، وقد قوبل الكتاب (الاستشراق) بطبيعة الحال عند نشره عام ١٩٧٨ بهجوم حاد من جانب الذين يفضح خطابهم وفي مقدمتهم برنارد لويس صهيوني الهوى وكان برنارد لويس كأمثاله من حراس وبوابي نادي التخصص يرفع في وجهه أسئلة الشرنقة الحامية لدائرة التخصص التي يمنح إنتاج أفرادها شرعية لهيكل السلطة الامبريالية، أو يبدو هذا التخصص شبه اللاهوتي سحريا منتميا إلى الكيمياء القديمة محكم الانغلاق لايتأثر بشيء خارجه وإن كان غائصا في وحل السلطة بالفعل).

ماهي مؤهلاتك في هذا التخصص؟ ماذا تعرف عن المعاجم العربية القديمة، المجادلة أسلوبها جلف فظ بلا إلمام والكتابة رديئة. وبهذه الطريقة الرخيصة المتعالية يهرب برنارد لويس من أي مناقشة جادة وفي العالم العربي تعرض الكتاب لمناقشة حادة موضوعية من جانب صادق العظم ومهدي عامل. ومن الواضح أن الكتاب، وقد ترجمه إلى العربية كمال أبو ديب بلغة وعرة «أكاديمية» تترجم المصطلحات دون اعتبار للشائع ابتداء من الصفر حسب فهم المترجم بحيث أصبح الكتاب بالعربية في حاجة إلى ترجمة - حشد شواهد كثيرة كانت مطموسة واستبصارات لامعة تاريخية ونظرية ساعدت في طرح التساؤلات وثيقة الصلة بالموضوع، وحاول إقامة الصلات عبر الحدود بين التخصصات. والأهم من كل ذلك أنه طرح للمناقشة القضية الإيديولوجية المسلم بها عن حياء الفاعلية النقدية في عرض العلاقة بين الجلادين والضحايا. وليس مستغربا أن يترجم الكتاب إلى ١٧ لغة وأن يعده كثيرون النص المؤسس لنظرية مابعد الكولونيالية، والمسهم في نشوء النقد الثقافي، وقد تابع إدوارد سعيد توضيح وتدقيق حججه في دراسة الخطاب الاستشراقي وتدعيم التقليد المناهض للامبريالية في كتابيه: «مسألة فلسطين» و«تغطية الإسلام» لتشكل معا ثلاثية الاستشراق التي تدرس الامبريالية الأوروبية في أوجها، ووريثتها الهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

والخطاب الاستشراقي عند ادوارد

سعيد لم يدخل فى علاقة مباشرة متماثلة مع السلطة السياسية فى حالتها الفجة الصرف، ولكنه خطاب يجرى انتاجه ويحيا فى تبادل غير مستو، متفاوت القوة مع أنواع مختلفة من السلطة: المؤسسات الكولونيالية التى قد تكون متنازعة، ومع «علوم» سائدة فى القمة تمتد من القانون إلى نظريات السياسة إلى اللغويات المقارنة إلى أصوليات ومعايير الحكم على النصوص، أى السلطة الثقافية، وبعد ذلك تجىء السلطة الأخلاقية فى تميزها الذى يفرض لنفسه طابعا إطلاقيا متنحلا (سلوكنا «نحن» لايستطيعون «هم» مجاراته أو فهم قيمه مثلنا) ومفاهيم الاستشراق بطبيعة الحال تتضمن بعدا جوهريا ما يسمى الثقافة الفكرية العقلية «الحديثة» من الإدراك السائد فى الغرب لنفسه.

وعلى الرغم من أن الاستشراق يبرر إلى حد ما نوعا من الاستغلال السياسى والاقتصادى البشع فلا يمكن اختزاله إلى مجرد حزمة من الأكاذيب والقوالب المتكررة المكشوفة التى ستقضى نحبها بمجرد تسليط نور «الحقيقة» عليها، فلا ينبغى إساءة تقدير قوة هذا المجال المملوء بالحذق والدقة والدهاء بل والخصوبة أحيانا (دراسة المخطوطات وتحقيقها، نشر وترجمة نصوص مهجورة أو كانت تعد بلا قيمة مثل «ألف ليلة وليلة» تطبيق المناهج الحديثة على دراسة نواحى معينة من التاريخ السياسى والأدبى والفكرى)..

إنه توزيع للوعى الجيوسياسى (إقامة تمييز شبه انطولوجى أى يتعلق بالطبيعة الجوهرية بين ثقافتين، إحداهما أرقى وأكثر تطورا رغم الماضى الذي كان مزدهرا فى مجالات معينة للدنيا، بهدف الحفاظ على مصالح راسخة، وهذا التوزيع للوعى يشارك فى عدد كبير من المنهجيات وأنساق المعرفة، ويعتبر الاستشراق فى الغرب الثروة الثقافية التى جمعت عناصر المعرفة عن الشرق، وفى تراكيب استخدمت كل طرائق المقارنة الممكنة وهذا النطاق المهيمن المشبع بالرغبات وضروب الكتب والمحظورات وجداول الأعمال المفروضة يجعل الشرق أرشيفا من النصوص وموقعا للاكتشاف وإعادة الاكتشاف ولوحة حية يمكن تحقيق الأحلام والفانتازيات داخلها، أى يعرضه كمتحف ثقافى ويقوم بتشريحه كعينة فى مختبر، ويضبطه داخل تخصص دراسى كما يفرض عليه الانضباط لمصلحة الامبريالية. إن الاستشراق يغطى الشرق بالمعنيين أى يعرضه عرضا شاملا وهو يقوم بحجبه وإخفاء

حقيقته، بنفس الطريقة التى «يغطى» بها الإسلام.

وتواصل صيغ التمثيل الاستشراقى تخلل الخطابات العمومية الأوروبية والأمريكية خالقة مناخا عدائيا تجاه العالم العربى والاسلامى.

ويرى ادوارد سعيد فى كتاباته اللاحقة أن الاستشراق الأمريكى مصاب بفقر الدم هزيل القيمة يجدد صيغ الخطاب العتيق ويختلط فيه البحث الأكاديمى بإثاريات وسائط الإعلام الجماهيرية، فمن تخصصات تزداد ضيقا مثل مدارس الفقه فى بغداد القرن العاشر أو أنماط المدى فى مغرب القرن التاسع عشر إلى عمى كامل عن المجالات الأشمل للحضارة من سياسة وتاريخ وقانون وأدب وتترك هذه المجالات العديدة تعميمات اختزالية مريضة عن الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى، إن ١٥ قرنا من التاريخ الإسلامى حافلة بالتحولات والتنوعات والتوترات وعشرات اللغات والأعراق، والتوجهات السياسية ومدارس «التفسير» المتباينة تصب فى تجارب معاصرة لبيئات اجتماعية ثقافية حافلة بالمجادلات الحامية حول التراث والحداثة ودور المرأة والعلاقات بين القوميات والدول والعقائد والجسور بين الثقافات عند مايزيد على ألف مليون من المسلمين، ماذا يفعل الأداء المبتذل للاستشراق الأمريكى بهذه الأنماط المتعددة الرحبة المتغايرة . بهذه الأنواع من الحياة الاجتماعية الثقافية متعددة الألوان؟ إنه يختزلها فى سطحية تخنقها داخل معادلتين رائجتين جماهيرا، داخل تعميمين شنيعين من العدوان والعداء ويلاحق ادوارد سعيد فى الطبعة المنقحة لكتاب «تغطية الإسلام» الصادرة عام ١٩٩٧ بعد ١٦ عاما من صدوره الهيستريا المعادية للإسلام والعرب فى الكتابات «الأكاديمية» عند صمويل هنتنجتون وبرنارد لويس وفى الصحافة واسعة الانتشار والأفلام الروائية والتسجيلية وتحليلات شبكات التليفزيون والكتب الانتزالية (فريدمان: من بيروت إلى أورشليم) وهذه الأفكار المتسلطة بحكم حجمها وتكرارها تشكل المدركات العامة الراهنة عن الإسلام وركوده ومقاومته للحداثة وهوس العنف اللا عقلانى المترسب فى صميمه نتيجة لمشاعر الدونية وما إلى ذاك من الخرافات الأمريكية ورطاناتها فى «علم» اجتماع زائف شكلته ضغوط صناعة الأخبار والترفيه، وهذه البالوعة العفنة العنصرية لاتطفح على «الشرقيين» الآخرين من أفارقة وأسيويين. ويوضح إدوارد

سعيد صلات النسب بين الصهيونية والاستشراق الأوربى والأمريكى فى كتابه «الثقافة والامبريالية».

الامبريالية ونقد المفاهيم

وليس مستغربا أن تتردد صيحات ، الاستشراق فى تدهوره الحالي على ألسنة بعض المثقفين العرب المتكيفين هيكليا عندما يركزون حملاتهم على صورة وهمية للإسلام وللتاريخ العربى (تخلف ونزعة قدرية) ولا عقلانية وكراهية للأجانب لدى كائنات تحت انسانية) وبعضهم يتحدث عن جوهر مصرى أبدى زراعى نيلى معاد لجوهر عربى صحراوى رعوى (ومع ذلك يخرسون عن رابطة مشتركة مع السودان). كما يشنون أكبر هجوم على حركات التحرير العربية كأنها كانت مختزلة فى انقلابات عسكرية من جنود شطرنج للكتلة الشيوعية عزلت المواطنين عن العالم «الحر» وحضارته «الإنسانية» ولن نعدم مألوفنا يتحدث عن حركات التحرير (مصر ٥٢، عراقى ٥٨ .. الخ) كأنها انقلابات على الحكم الشرعى الامبريالى شبه الإقطاعى «الليبرالى» ولكن سعيد يستخدم ضد الامبريالية مفاهيم ليست مستمدة من مذاهب الهوية التى تشجعها المركزية الأوروبية فالهويات لايحللها كجواهر نهائية أعطاها الله مرة وإلى الأبد بل كنواتج للمشاركة فى تفاعل التيارات الاقتصادية والسياسية، كأجزاء تتشكل عبر تناقضات ومحاولات قد تتعثر وتطيش للحل فى مجموعة (كل متنام) يمكن أن تكون متناسقة متنامة لايفرض تشكلها مبدأ أصلى بل تدنيه تدريجيا ممارسات تاريخية ومواجهات تاريخية (لاتخلو من ارتكاب الأخطاء والجرائم فى الداخل والخارج) من أجل التخلص من القيود والعوائق والسير نحو أفق موحد أو يمكن أن يكون موحدا .

وفى مذكراته «خارج المكان ١٩٩٩» يسرد حياته الشخصية المبكرة ومأساة الفلسطينيين التى يحاول الخطاب الصهيونى محوها فى الغرب، فذاتية المؤلف مرتبطة بذاتية جماعية فلسطينية. أما تأملات فى المنفى (٢٠٠٠) مقالاته بين ١٩٦٧ و١٩٩٨ ، فتواصل موضوع الإقصاء عن المكان وإقصائه وإقصاء أهله، وهو لايطرح للارتياب فكرة الهوية العربية المضمرة فى تكوينه، وتبدأ الصفحة الأولى من كتاب الاستشراق بوصف الحرب الأهلية الدائرة فى لبنان فالأفكار والمثل من الشعب الفلسطينى والعرب هى اهتمامات عملية عند الرجال والنساء، ولاتستمر مستقلة محلقة فى الأذهان وحدها بل يصنعها البشر فى أوضاع اجتماعية تاريخية عيانية فأفكار

الهوية هى فاعليات ممارسة داخل مؤسسات وهى تشتبك فى صراعات جدل السلطة والنفوذ والحقوق والامتيازات ولها نتائج فى جميع المجالات ويطرح سعيد فكرة الامبريالية الآن، الامبريالية الجديدة فى عصر مابعد الكولونيالية (زرع مستوطنين وقواعد عسكرية فى أماكن بعيدة) فالولايات المتحدة لم تكف عن التدخلات والانقلابات والاغتيالات والغزوات وفرض الحصار وقد شاركت فى ذبح أناس بالملايين فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا (أندونيسيا سوهارتو – فيتنام، كوريا انقلابات باكستان «الإسلامية» والعراق وأفغانستان» وخصوصا فلسطين ولبنان) وهى تقسم حكومات العالم الثالث أو الجنوب إلى معتدلة تتبنى المخططات الأمريكية مهما تكن تلك الحكومات إجرامية وأخرى شريرة مارقة معارضة ومن الصعب أن نجد تعريفا محددا اقتصاديا أساسا للامبريالية عند ادوارد سعيد، ومن النادر أن يستخدم كلمة رأسمالية أو مراحل مختلفة من تطورها أو ابنيتها فى تحديد الاستشراق. لقد اعتمد فى «الاستشراق» على مفهوم «الخطاب» عند ميشيل فوكو لسوء الحظ لا كما نفهمه عادة فالخطاب عنده هو ممارسة تتألف من مجموعة منتظمة من العبارات تقدم تقريرا يؤكد نفسه بنفسه عن الواقع بواسطة تعريف لموضوع الاهتمام وانتاج مفاهيم لتحليله (الخطاب الطبى، الخطاب القانونى، الخطاب الجمالى، والخطاب الاستشراقى) فالخطاب يحدد موضوعه ولاتوجد معايير صدق أو حقيقة خارجة، ويصبح الاستشراق بهذا الخطأ المنهجي لاعلاقة له بأى شرق واقعى بثقافات وأمم وبشر وطرق حياتهم وتواريخهم وأعرافهم، إن سعيد لايرد على تزييف الاستشراق «لحقيقة» الشرق بأى إمكان لحقيقة يمكن اختبارها وتمثيلها إلى حد ما من القابلية للتوصيل والوثوق. هل الخطاب «تشويه» لسمات واقعية؟

لم يقدم سعيد أى محاولة عيانية بفهمها فالخطابات بهذا المفهوم لاتشير إلا إلى نفسها. ورغم الانزلاق إلى ثنائية جوهرية بين الشرق والغرب طول التاريخ ظل الكتاب عاجزا فى نقده «للخطاب» الذى يشوه أوجه الواقع المعقد للشرق ويحيطها بالزيف والإعتام عن أن يقول لنا شيئا عما يكونه ولايكونه هذا الشرق هل ظلت أوروبا الجغرافية تعى نفسها كغرب موحد ثقافيا طول التاريخ فى مواجهة «شرق» موحد؟ هذه تعميمات جارفة ومن مفهوم

«الخطاب» الملتبس المتضارب يبقى معناه عن الكلام الذى يستعمله المتعصبون الاستعماريون الأوروبيون فى سياق الاتصال مع شعوب يقهرونها.

ولم يربط الكتاب بين «الخطاب» وموقع «الدولة» الأوروبية و«الانتاج الاقتصادى» على الإطلاق ولابين «الخطاب» والقوة المناهضة للكولونيالية داخل الحركة الاشتراكية فى أوروبا ومفكريها (ينتزع فقرة لبعض الكتاب المعادين للرأسمالية عن دور الاستعمار البريطانى فى الهند من خطاب نقد الاقتصاد السياسى من حيث تصديره نمط الاستغلال الرأسمالى دون نمط الانتاج الرأسمالى ليدمج التقليد المناوىء للرأسمالية فى الخطاب الاستشراقى العابر للتاريخ) كما أن قائمة ادوارد سعيد عن المستشرقين من ايسخيلوس وفيكتور هيجو ودانتى وكارل ماركس ولامارتين وشاتوبريان وبايرون وفولتير بلا قيمة من حيث التمييز الجاد بين أعمدة الخطاب الاستشراقى، وممثلى خطابات أخرى تشمل استبصارات تحريرية وكذلك الحال مع «الامبريالية» عنده فلن نجد نقدا معرفيا كما يقول «إعجاز أحمد» على المستوى الأكثر أساسية للمفهوم، يمكن أن يسهم فى النضال المعادى لها. قد تكون الامبريالية عند أودارد سعيد بدلا من «خطاب» أو «نسقا من الأفكار» على طريقة فوكو «بنية من المشاعر» على طريقة ريموند وليامز دون تمسك دقيق بتصورات فوكو أو وليامز إنها على نحو غامض أبنية هيمنة معاشة ليست متحققة فى سكون بل تتجدد ويعاد خلقها وتعديلها، من المواقف والمراجع، منتشرة خلال نسيج الحياة الاجتماعية وتبدو طبيعية كعادات وممارسات عفوية داخل الحياة السيكولوجية للأفراد وتواصل إعادة إنتاج نفسها وشق طريقها فى الدائرة الثقافية وكذلك فى الممارسات النوعية السياسية والأيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية، نحن أمام شعيرات دموية للهيمنة والسلطة دون قلب نابض ودون تمايز المستويات.

ولن تسعفنا انتقائية ادوارد سعيد المنهجية وتناقضاته الكثيرة فى بناء استراتيجية مقاومة أو برنامج تحريرى كما لن تسعفنا تمثيلاته للمثقف فى تقييم أدوار واقعية للمثقفين، هؤلاء الطيور النادرة جدا المدافعة عن مثل أفلاطونية - كما قيل فى نقد تصوره - أمثال سقراط وربما المسيح الذين يشكلون ضمير الجنس البشرى فى نزعة إطلاقية مستحيلة وسيملؤنا العجب حين يقدم لنا تيودور أدورنو فى هذه

النزعة النخبوية المتعالية نموذجا للإعجاب.

(لم يتعاطف أدورنو قط مع ثورات العالم الثالث ولا مع القضية الفلسطينية وكان من كتاب الحرب الباردة الأمريكية ضد ما كان يسمى المنظومة الاشتراكة واستدعى البوليس الى الجامعة فى المانيا الغربية ضد حركة الطلبة فى الستينيات ، وكان يرى عدم إمكان الحياة بعد الهولوكست ومعسكر اعتقال أوشفيتس:

الصهيونية : ولكن انجاز سعيد شديد الضخامة فيما يسمى أدوات التكنولوجيا النقدية، إنه يطرح للمناقشة الجهاز المفهومي الحديث بأكمله، وقد أثرى الجدال حول الثقافة والهوية وتشكيل المعيار ومفاهيم مابعد البنيوية وربما انفرد بالكشف العميق عن المترتبات السياسية لأدوات التحليل النظرية والتباين بين القيمة النقدية الفكرية والهوية السياسية أنه الملتزم سياسيا، المنف بلا وطن، المرتحل دون أثقال وخصائص جامدة، بروفيسور الإرهاب كما يفترى عليه الفكر الاستشراقى الامبريالى الصهيونى.

وهو يربط مركزية أوروبا واستثنائية أمريكا بمفهوم التراتب بين الشعوب، فالمتفوقون ينبغى أن يحكموا الأعراق الأدنى التى تجىء خضوعها لمصلحتها ويستمر هذا الدجل القديم. ولأمريكا فى هذا الخطاب قدر مرموق فانتصار القوة العسكرية الأمريكية معادل لانتصار الديمقراطية وإصلاح الأديان الأخرى والخير فى العالم، والبيوريتان الأمريكان ينحازون إلى أمة الرواد: اسرائيل، أنها مثلهم تنتزع الأرض من «الهمج» الذين اساءوا استخدامها وتركوها خرابا ولو أبادوهم لتحقيق الرسالة الحضارية تدعيم النمو التدريجى للاستيطان «واكتساب» فدان آخر وجدى آخر يوميا واعادة بناء فلسطين كلها لليهود، حق ملكية مطلق لاهوتى فى استيطان إحلالى «ديمقراطى» ذى خصوصية أخلاقية وتلك «الديمقراطية» فى مجتمع عسكرى منقسم بين مصالح مختلفة للقادمين من لغات مختلفة وأصول مختلفة تقوم على تراتب قاس جدا بين نخب مختلفة وداخل هذه النخب وبين مؤسساتها بحيث يصبح «الفرد» المجند دائما المحشو بتحيزات التهديد، الخاضع لقوى عسكرية واقتصادية تتحكم فى مصيره وحياته وموته بلا أى فاعلية حقيقية، ولكن النزاعات الداخلية حول التوسع ومداه وإيقاعه لاتحل إلا من خلال تداول الشخصيات الحاكمة فى تعاقب بطىء أو سريع

حسب المقتضيات، ويصبح التغيير كما يقول تشومسكي مؤسسة التغيير الثابتة، تبادل مختلفة لأنوار اللاعبين بنفس قواعد لعبة التكنة العسكرية، بين الجنرالات والحاخامات المحافظين على النظام من أجل التمتع بمزايا إدارة البلاد ونهب الأموال، ولا ضرر على الإطلاق في نظام الفصل العنصري الذي يمنح الفرد الإسرائيلي نصيبا من الدخل المتحصل من المساعدات والمنح الأمريكية وامتيازات المساحة والماء على حساب الفلسطينيين من حق النقد داخل التوافق المرسوم لبعض الشخصيات والممارسات، ويحدد ادوارد سعيد مسالة الهولوكست تحديدا موضوعيا فالنازية استمرار لايعرف الخجل للتفوق العرقي الأوروبي لم يحاول إخفاء الطابع القبلي النوردي وتحقير السلاف واليهود والغجر والسود، إنها تعبير عن هذا التفوق العرقي بعد مده إلى نهايته المنطقية، وينبغي رؤية كارثة اليهود على أيدي النازية في السياق الأوسع وموقعهم الخاص في الخطاب الغربي لقد كانوا أوروبيين ذوي امتيازات في تراتب الأعراق والثقافات، ولم يوضعوا في خانة السود والصفر، وأسهم مثقفوهم في تشكيل الإدراك الذاتي للأوروبيين ومن ناحية أخرى تعرضوا للكراهية والاضطهاد باعتبارهم الأقلية الدينية الملموسة الوحيدة في أوروبا، بمقدار مايتم تصورهم باعتبارهم لايمكن هضمهم في فكرة تتفق عليها عن أوروبا المسيحية، لقد كانوا أحيانا يعتبرون الآخر الكيان السلبي النهائي اللازم للتحديد الذاتي الأوروبي في نقائه أقلية صغيرة غير محصنة فريسة سهلة وكبش فداء للسلطات السائدة وكان الهولوكست الناتج النهائي لتاريخ طويل من الإجرام الأوروبي (إبادة السكان الأصليين بالملايين في أمريكا واستراليا ومذابح واستبعاد الأفريقيين، وقتل الوطنيين العرب والأسيويين) ضد الأقلية الدينية الملموسة الوحيدة في أوروبا أيامها وبعد ذلك تم التفاعل الثلاثي بين الصهيونية والخطاب الاستشراقي والامبريالية الجديدة الأمريكية ضد الشبح المختلق لأصولية إسلامية. فتلك الأصولية ليست منتشرة في العالم الإسلامي أكثر من الأصولية اليهودية أو المسيحية في إسرائيل وأمريكا. وهذا التحالف الثلاثي يحافظ على التحكم في الشرق الأوسط وفي احتياطيات البترول ■

هل المستقبل يحتاج إلى البشر؟

بقلم
د. أحمد محمد صالح



علم الإنسان الآلى robotics، وهندسة الجينات genetic engineering والنانوتكنولوجى nano-tech، بمعنى التكنولوجيات فائقة الصغر، وحوسبة الكم والتزاوج بين العقول البشرية والعقول الاليكترونية، هى تقنيات بدايات القرن الحادى والعشرين. وهناك الكثير الذى لم تره البشرية بعد! سيحدث تغيير مثير فى السنوات الثلاثين القادمة أكثر مما رأينا فى القرن العشرين بكامله! وإذا كانت كل هذه التقنيات تهدد وتعرض الجنس البشرى للخطر! فالسؤال الآن هل المستقبل يحتاج إلى البشر!؟

التحول المنتظر

يزعم علماء الحاسوب ان ثورة الكمبيوتر لم تحدث بعد! ويرصدون فى صمت نمو وسيط جديد للفكر الإنساني. فعندما تصل النماذج الأولية لماكينات الانتاج الكبير Massproduction، إلى بيوتنا، ومكاتبنا، ومدارسنا فإن حياتنا ستتغير بشكل فجائى وجذرى! والصورة الأولية لماكينات العقول التى تضخم الإنتاج، وهى من ذرية وأحفاد الحواسيب الشخصية التى نراها الآن حولنا، وستشبه تقنية معالجة المعلومات اليوم. فهى أن تكون اكثر من التليفزيون الذى يشبه آلة طباعة من القرن الخامس عشر. وسينضم

مئات الملايين من الناس حول العالم سويا. لخلق انواع جديدة من المجتمعات الإنسانية، تستعمل تلك الماكينات. التى حلم بها عدد صغير من المفكرين والفنيين على مدى القرن الماضى؛

ولا أحد يعرف أن هذه التقنيات ستجلب الخير او الشر للجنس البشرى ولأن نتائج هذا التحويل سيعتمد فى الجزء الكبير على كيفية استجابتنا وتفاعلنا مع ماكينات العقول تلك وايضا على اختياراتنا، ولن يستبدل العقل الإنسانى بماكينة، على الاقل فى المستقبل المنظور، لكن هناك القليل من الشك تضخم فى خيال المثقفين والمفكرين حول العالم، بأن المجتمعات الالكترونية التفاعلية ستغير طرق الناس فى الاعتقاد، والتعليم، والاتصال. ويبدو وكأن هذا التحول الذى ستسببه تلك التقنية الأخيرة، على المجتمع، سيكون له تأثير أكبر من آخر مرة. نمج ونمى فيها الفكر الإنسانى! قبل خمسمائة عام، عندما تعلم العالم الغربى القراءة، حيث انبثق مجتمع المثقفين فى أوروبا، ونمى من أقلية متميزة بالمقارنة ببقية السكان. وتغيرت حياة الناس بشكل جذرى وبسرعة، ليس بسبب اختراع مكائن الطباعة، لكن بسبب ان ذلك الاختراع وفر المعرفة للناس، فالكتب كانت مجرد العربات التى حملت الأفكار وهربت بها من المكتبات الخاصة للنخبة المثقفة ووزعتها بين بقية السكان.

والقيمة الحقيقية للكتب ترجع إلى المجتمع الذى صنعها! مجتمع المثقفين الذى، مازال موجودا وحيا فى جميع انحاء العالم. والصفحة المطبوعة كانت وسيطا لتوليد أفكار الكيمياء والشعر، وأفكار النشوء والتطور والثورة، وأفكار الديمقراطية وعلم نفس والتكنولوجيا والصناعة. والعديد من الأفكار الأخرى التى تجاوزت بكثير رؤية مخترعي الآلة المتحركة ورؤية كتب الدين.

وآليات الإنتاج الكبير من اجهزة الكترونية متطورة امامها عشر سنوات او اكثر! فالتأثيرات الأولية للانجازات المدهشة فى عالم الحاسبات منذ ١٩٦٠ بدأت بدخول حياتنا الآن فقط. فمعالجات النصوص. والعاب الفيديو والبرامج التعليمية ورسومات الكمبيوتر graphics كانت مفاهيم مجهولة إلى الكثيرين قبل عشر سنوات فقط، لكن اليوم هى اسماء لصناعات ببليون دولار، ويقول الخبراء بأن التطورات الأكثر إذهالا لم تظهر بعد للبشرية!

حلم الحاسبات

قليل من رواد الحاسبات الشخصية، والذين مازالوا يعملون فى صناعة الكمبيوتر يستطيعون ان يتذكروا ولادة الحلم، عندما كانت فكرة استعمال الحاسبات الشخصية بدعة غامضة وهرطقة فى اعتبار كهنة الكمبيوتر وقتها. منذ أكثر من ثلاثين سنة. كانت الأغلبية الساحقة من الناس الذين صمموا، وصنعوا، وبرمجوا. واستعملوا الكمبيوتر، يعتقدون فى فكرة واحدة حول المناسب والممكن لكانة الكمبيوتر فى المجتمع: وقالوا: إن الحاسبات ادوات غامضة، القصد منها فقط الاستعمال فى الحسابات الرياضية، وبعد فترة اعتقد أن تقنية الكمبيوتر هشة جدا، وثمينة جدا، ومعقدة جدا لغير المتخصصين، وفى ١٩٥٠ كان يمكنك أن تحسب الناس الذين خرجوا عن هذا الاعتقاد على أصابع اليد الواحدة. وكانت هناك قلة تعارضهم لهم تصورات متباينة عن تطبيقات الكمبيوتر، ولكنهم اشتركوا فى رؤية واحدة حول حتمية استعمال الكمبيوتر لتحسين السمات الابداعية للذكاء الإنسانى، لكل شخص، وليس فقط للمتخصصين! حتى الأغلبية التى اعتقدت فى استعمال الكمبيوتر فى

معالجة البيانات الرياضية كآلة حاسبة، هم ايضا اشتبهوا في إمكانية أن يكون الكمبيوتر اكثر تفاعلية. وان يساعدنا لتخمين وبناء ودراسة النماذج، وفي الاختيار بين البدائل، والبحث عن الأنماط ذات المغزى في مجموعات المعلومات، وتساءلوا ايضا عن امكانية هذه الأداة المولودة الجديدة ان تصبح وسيطا اتصاليا بالاضافة إلى كونه آلة حاسبة. واقترح هؤلاء المنظرون المتشوقون، بأنه اذا كانت فعلا المعرفة الإنسانية في حقيقتها قوة، والكمبيوتر في امكانه تحويل المعلومات الى معرفة، يجب ان يكون ذلك قاعدة لتقنية قوية جدا. وبينما أكثر العلماء والمهندسين بقوا في رهبة من آلات الجمع العملاقة هذه الأقلية اصرت على التفكير في كيفية جعل الكمبيوتر يساعد في عمليات العقول الإنسانية بالطرق غير الرياضية. ونركز هنا على افكار قلة من هؤلاء الناس، وازعم انهم، مشهورون في الدوائر العلمية، لكنهم غير معروفين إلى الجمهور العام، مازالوا يعملون ويحلمون إلى اليوم. ويواصلون استكشاف حدود التفاعل بين ماكينة الكمبيوتر والعقل البشري، ولا نعرف ماذا سيقول التاريخ عن افكارهم.

حاسبات الغد

.يقول هؤلاء العلماء الحالمون ان الحدود المستقبلية لتقنية الحاسبات ليست في العتاد والاجهزة لكن في عقولنا! فالكمبيوتر الرقمي مستندا في الاصل على اكتشاف نظري معروف بـ الماكينة العامة او الشاملة universal machine وهي ليست في الحقيقة أداة ملموسة او جهازاً واقعياً، لكنها وصف رياضي لماكينة قادرة على تقليد ومحاكاة أعمال أي ماكينة اخرى فهي جهاز لكل الأجهزة. وعندما نبدع ماكينة عامة، ونستطيع بها تقليد ومحاكاة أي ماكينة اخرى، فإن مستقبل تطور وتنمية هذه الأداة يعتمد فقط على المهمات التي



يفكر فيها المستعمل، لتؤديها هذه الماكينة! وفي المستقبل القريب، قضية أن تكون الماكينة اكثر ذكاء، تعتبر قضية قليلة الأهمية بالمقارنة بقضية تعلم التعامل مع جهاز يستطيع ان يفعل اى شيء نتخيله في عقولنا. والاختلاف المحوري بين حواسيب اليوم الشخصية وحواسيب الغد الذكية سيكون اقل فيما يتعلق بالهارد وير - القوة الصلبة، وهي عتاد الماكينة، فالاختلاف الجوهري سيكون في السوفت وير - القوة اللينة - ونذكر هنا ان السوفت وير في الكمبيوتر هي المعرفة والمعلومات، وعن علاقة السوفت وير «القوة اللينة» بالهارد وير «القوة الصلبة» في الكمبيوتر ان غياب احدهما يعني أن الأخر متوقف عن العمل، وفي كمبيوتر الغد الناس نفسها مستعملي الجهاز، هي التي ستصدر الأوامر للسيطرة على عمليات الحوسبة، بواسطة البرنامج (السوفت وير) الذي يأمر الماكينة الهارد وير لتقليد نوع معين من الاجهزة. وكما هو الحال في تطور الهارد وير حيث تطورت من الموصلات Relays إلى الانابيب المفرغة vacunm tubes إلى الترنزستورات transistors إلى الدوائر المدمجة integrated circuits، البرامج نفسها تطورت ايضا. فعندما تتطور عمليات معالجة المعلومات إلى معالجة المعرفة، نجد ان الكمبيوتر الشخصي الصحيح سوف يصل الى ما وراء العتاد والأجهزة! ويرتبط ويتصل بمصادر اوسع من القوة الدوائر الكهربائية الالكترونية الصغيرة electronic microcuitry، وسيرتبط ويعمل بقوة العقول الإنسانية! وكمبيوتر الغد لا يشترط لاستعماله الإلمام بأبجدية الحاسوب، أو الرطانة بمصطلحات تخصصية تكنولوجية. كل ذلك سيختفي! عندما يصبح كمبيوتر الغد وبرامجه اكثر ذكاء لأن تصميمه سيتم بطريقة تخول الناس ان يعملوا وينجزوا ما

تعودوا ان يفعلوه بشكل افضل باستعمال المكائن. والذي سينجزه الكمبيوتر بشكل افضل كثيرا من تلك المكائن . والعديد من الناس خائفون من حاسبات اليوم لأنهم اخبروا بأن هذه المكائن اذكى منهم! وهذه الخدعة. دعمها طقوس المبتدئين في استعمال الكمبيوتر الشخصي، والذين اجبروا على استعمالها! في الحقيقة فإن كمبيوتر الغد سيقع عليه عبء الاتصال بك شخصيا ليعرف ماذا تريد. ليصبح الحاسوب الذي يصعب استعماله هو الحاسوب الأخرس الذي لا يفهم ماذا تريد، بل ان كل المعارف المكتوبة في العالم ستوجد في جيب كل تلميذ حول العالم . حاسوب القرن الحادي والعشرين سيكون في كل مكان . وفي كل الاحوال.

أحلام الخلود

نحن ندخل عصرا جديدا سماه رأى كورزويل Singularity سينجولاريتي الترجمة الحرفية للمصطلح هو التفرد، ولكن هنا يحمل معنى الاندماج بين ذكاء الماكينة والذكاء الإنساني حيث يخلق شيئا اكبرا وسيكون الحد الفاصل للتطور على كوكبنا، بل ستكون ثورة في تطور الذكاء بصفة عامة ، لأنه لا توجد إشارة إلى حدوثه في اى مكان اخر، وهو جزء من قدرنا وتطورنا لمواصلة التقدم بدرجة اسرع، ورأى كورزويل كما نوهنا عنه في مقال سابق هو مخترع ومؤلف موسيقي، وكاتب ومفكر مستقبلي مشهور حول العالم، وصاحب كتاب «عصر المكائن الروحية: عندما تتجاوز الحاسبات الذكاء الإنساني الذى نشر فى يناير عام ٢٠٠٠ و كتابه القادم عنوانه The Singularity وهو على وشك النشر في الشهور القادمة من عام ٢٠٠٢.

هل نحن مكائن روحية كما يقول كورزويل؟ نعم الحاسبات في طريقها ان تصبح اكثر قوة وذكاء بمعدلات متسارعة، لكنها لن تملك ابدا ان تكون كيانا واعيا!؟ ويوضح كورزويل كيف ستتم هندسة وبرمجة البشر حيث تمثل (عقولنا) السوفت وير، واجسامنا هي الهارد وير، لتمتد الحياة الإنسانية بشكل غير محدد قبل فجر القرن الثاني والعشرين، ويجادل كورزويل بأن النمو المتسارع لقوة الحاسوب سيؤدي الى ان ذكاء الماكينة سوف يتجاوز ذكاء الإنسان مبكرا في هذا القرن وان ما سماه بـ Nanobots نانوبوتس سوف يمسح أدمغتنا ويؤهلها من جديد ويهندسها ويبرمجها ويزودها بواقعية تخليلية مجسمة، ويحرر العقل الإنساني من تقييداته الطبيعية الصارمة كخطوة قادمة في التطور. في النهاية . سيتم دمج تقنية الكمبيوتر في البشر! وهنا ننبه إلى أن عنوان الكاتب عصر المكائن الروحية مضلل وفيه خدعة كبيرة، وليس له علاقة بالعلم أو بالدين، بالأحرى هو عرض أولى مقنع للقرن الحادي والعشرين، مستندا على التقدم المتوقع في التقنية، هو ايضا دليل مفيد للكتاب وقراء الخيال العلمي، وهو يصف التقدم المحتمل على مدى السنوات الـ ٢٠ القادمة حيث النماذج الأولية لذلك التقدم التقني المتوقع فعلا موجودة الآن! وكورزويل نفسه له الكثير من المخترعات باسمه والتي تشكل تلك النماذج الأولية مثل ماكينة كورزويل للقراءة، وآله كورزويل الموسيقية واسمها Synthesizer، وهي آلة موسيقية اليكترونية تعزف مختلف الأصوات! وآلة كورزويل للتعرف على الكلمات وتمييزها. ومن امثلة تلك النماذج الأولية لتقنيات القرن الحالي ظهرت فأرة ملموسة tac-tile mouse، وهي مثل فأرة الحاسوب التقليدية، ولكنها تسمح للمستعمل أن يشعر بإحساس قوام السطوح. والاجسام، حتى البشر انفسهم. فعندما نحرك تلك الفأرة على صورة زهرة مثلا في الكمبيوتر

نشعر بملمس تلك الزهرة؟!

ورغم محدودية ذكاء حاسباتنا المعاصرة، إلا انها تستطيع تزويدنا بحلول فعالة للنقائص التي يعاني منها اكثر الأشخاص إعاقة ذهنية . فالذكاء المحدد والمقيد للماكينة ، وهو عمليا ذكاء واسع ومرن بالمقارنة بذكاء الشخص المعوق فالحاسبات لها امكانية عظيمة لمساعدة التعبير الانساني وتوسيع قاعدة الابداع.

ويرى كوروزويل أن ذكاء الحاسوب سوف يجاري الذكاء الانساني خلال الـ ٢٠ سنة القادمة ثم بعد ذلك يتوفق ذكاء الماكينة ويذهب بعيدا، وتتضاعف قوته سنويا وتأتي أولا مرحلة الواقعية المتخلية او الواقع الافتراضي virtual reality ونعيش بدايتها الآن، ثم مرحلة التكنولوجيا المتناهية الصغر nanotechnology حيث الحقيقة المتخلية واقع فعلي، وبحلول عام ٢٠٩٩ تصبح التنبوءات خيالاً علمياً قابلاً للتحقيق، وتصبح عقول الناس سوفت وير برامج تستطيع ان ترتبط مباشرة في انواع اخرى من الاجسام هارد وير متضمنة تكنولوجيات متناهية الصغر! ويمتلك كل شخص بالقانون عدة نسخ من هذه العقول البرامج (ذاكرة او اكثر وانماط مفكرة) وهي التي تحدد هوية البشر وليس الأجسام، ولن يكون هناك اي سبب للموت (فقد الاحساس الحيوي) حيث تندمج عقول الماكينة وعقول الانسان سويا على نفس الشبكة العالمية، لكن اذا نحن نزلنا وحملنا وعينا ونفسنا من على الشبكة، ما الفرص التي تضمن لنا ان نكون انفسنا فيما بعد او حتى مجرد إنسان؟ يبدو لي ان وجود إنسان آلي لن يكون ابدا مثل الإنسان الطبيعي في أي إحساس ! حتى اذا اعتبرنا ان الرجال الآليين لديهم احساس اطفالنا فهذا معناه اننا ربما نفقد انسانيتنا للأبد.

ويستمر كورزويل في رواية كتابة في اوسع عبارات ممكنة.



ومثل ستفين هوكنك Stephcn llaw-king كورزويل في كتابه التاريخ المختصر للزمن Brief Itistoru of Time . بدأ كورزويل بحكاية خلق الكون في الثانية الأولى للارتطام الكبير، وعرض اطروحته الأساسية في عبارات تربط بين مصطلحات علاقة الطاقة والنشوء والارتقاء والتطور في ترتيب يحدث تشويشاً في الفهم، ملخص ما يراه كورزويل بأن نسبة تحسين التقنية ستعجل بأننا سنصبح الرجال الآليين او نندمج مع الرجال الآليين او شيء ما مثل ذلك، لكن جون سيرل، فيلسوف جامعة بيركيلي الذي يدرس الوعي يحتج بأن هذا لا يمكن أن يحدث، لأن الرجال الآليين لا يمكن ان يكونوا واعيين. ويسترسل ويقول: بينما سمعت مثل هذا الكلام قبل ذلك واعرف ان هناك رجالاً آليين حساسين دائما كانوا في افلام الخيال العلمي، لكن لن نسمع هذا الكلام من لاري كورزويل الآن. معنى ذلك ان امكانية تحويل تلك الاحلام اصبحت وشيكة. لان قدرة كورزويل مثبتة تماما في تخيل وخلق المستقبل، خاصة ان التقنيات الجديدة مثل هندسة الجينات وتكنولوجيا الصغائر تعطي القوة لاعادة صنع العالم، لكن المفاجأة ان سيناريو واقعي وشيك للرجال الآليين الأذكياء!

سيطرة الماكينة

يلخص رأي كورزويل في كتابه «عصر الروحية» The Age Spiritual Ma-chincs اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة التي يتنبأ بها، في أن البشر يمكنهم الخلود، حينما يصبح كل واحد منا مجرد روبورت او إنسان تقني آلي . وهذه اليوتوبيا جعلت بيل جوي Bill Joy مؤسس وكبير علماء النظم الشمسية متناهية الصغر Sun Microsystems ، وهو استاذ كرسي ورئيس لجنة ابحاث مستقبل تكنولوجيا المعلومات، وشارك في تأليف لغة الجافا

يشعر بقلق شديد! ويطرح آلاف الأسئلة، والأخطار المحتملة والنتائج غير متوقعة في هذا المسار ، وكتب يقول في دراسة منشورة له بمجلة Wircd عدد ابريل ٢٠٠٠:

دعونا نفترض اولا بأن علماء الحاسوب نجحوا في تطوير المكائن الذكية التي تستطيع عمل كل الأشياء بشكل أفضل من الأعمال التي يمكن ان ينجزها البشر! في تلك الحالة من المفترض ان كل تلك الاعمال سيتم انجازها من المكائن الذكية بشكل دقيق ومنظم جدا ، ولا ضرورة للجهد الإنساني! وهنا ينبثق موقفان الاول: أن المكائن قد يتاح لها اتخاذ كل قراراتها بدون الاشراف الإنساني للموقف الثاني: وجود سيطرة انسانية على المكائن عند اتخاذ القرار !

في الموقف الأول إذا اتيح للمكائن اتخاذ كل قراراتها ، نحن لا نستطيع تخمين اى النتائج المتوقعة، لانه من المستحيل الحدس كيف يمكن لمثل هذه المكائن أن تتصرف! لكن المؤكد بان مصير الجنس البشري سيكون تحت رحمة تلك المكائن، لكن كورزويل يجادل في كتابه بأن الجنس البشري لن يكون احمق بما فيه الكفاية لتسليم كل القوة إلى المكائن! وسواء كان الجنس البشري قد سلم القوة طوعا لتديرها تلك المكائن، او المكائن العنيدة استولت على السلطة فإن الجنس البشري ربما يسمح لنفسه بسهولة للانحراف في الاعتماد الكامل على المكائن، وان يكون عنده اختيار الا قبول كل قراراتها . وعلى مستوى المجتمع سيواجه مشاكل اكثر تعقيدا مع المكائن التي ستصبح اكثر ذكاء، وستتركها للناس تتخذ اكثر قراراتهم المتعلقة بهم، لأنه ببساطة قرارات الماكينة وانجازها، سيجلب نتائج أفضل من تلك التي يتخذها البشر. في النهاية سوف نصل لمرحلة يعجز فيها البشر عن اتخاذ القرارات الضرورية لإبقاء النظام لانها ستكون معقدة جدا بحيث يفشل البشر في تأديتها بذكاء. في هذه المرحلة ستكون المكائن اكثر فعالية في التحكم والمراقبة، ولن يستطيع الناس أن يوقفوا ويطفئوا ويغلقوا تلك المكائن، لانهم سيكونون معتمدين عليها حتى النخاع. ويصبح اغلاقها بمثابة انتحار.

في الموقف الثاني يتمثل في إمكانية الاحتفاظ بالسيطرة الإنسانية على المكائن في هذه الحالة الإنسان العادى ربا يملك سيطرة على بعض المكائن ستكون في أيدى نخبة صغيرة جدا . كما هو حادث اليوم، لكن باختلافين. فبسبب تقدم وتطور التقنيات ستملك النخبة سيطرة اعظم على الجماهير، ولأن العمل الإنساني لن يكون ضروريا . ستكون الجماهير زائدة على الحاجة، عبء عديم الفائدة على النظام وإذا كانت النخبة عديمة الرحمة وقاسية ستقرر ببساطة إبادة الكتلة الإنسانية لانه لا فائدة منها . وإذا كانت النخبة اكثر انسانية ، قد يستعملون دعاية او اساليب نفسية او حيوية اخرى لتخفيض معدل الولادات في الكتلة الإنسانية حتى تنقرض وتترك العالم للنخبة! أو إذا كانت النخبة طيبة القلب جدا ، هنا قد يقررون لعب دور الرعاة الجيدين لبقية الجنس البشري، وستسعى إلى إشباع كل الحاجات الطبيعية للكتلة الإنسانية وستنشأ كل الأطفال تحت شروط صحية ونفسية ، وسيشجعون كل شخص عنده هواية مفيدة لإبقائه مشغولا، وأى واحد يصبح مستاء او ساخطا . ستتم معالجة مشكلته! بالطبع الحياة ستكون بلا هدف! لانه سيتم هندسة الناس بيولوجيا ونفسيا بازالة حاجتهم للقوة والسلطة والتميز. او جعلهم يتسامون في دوافعهم وبواعثهم بانشغالهم في بعض الهوايات غير المؤذية

وهؤلاء البشر الذين يتم هندستهم جينا قد يكونوا سعداء في مثل هذا المجتمع لكنهم سيكونون بكل تأكيد عبيدا وغير احرار وسوف ينزلون الى منزلة الحيوانات الأليفة . هذا ملخص ماكتبه Bill Joy في دراسته معقبا على كتاب كورزويل.

انقراض البشر

ونفس هذا القلق من سيطرة الماكينة وانقراض البشر ظهر في كتاب هانز مورافيك Hans Moravec الذي مايو عام ٢٠٠٠ وعنوانه Mere Machine to Transcendent Mind ومورافيك احد الرواد في بحث علم الإنسان الآلي robotice وكان مؤسس اكبر برنامج حول العالم في ابحاث علم انسان الالي في جامعة Carnegic Mellonk، ويقول في كتابه على مستوى المستقبل القريب المنظور فإن الانواع البيولوجية لن تنجو ابدا من المنافسة والاصطدام مع انواع متفوقة عليها. فقبل عشرة ملايين سنة، فصل جنوب امريكا وشمالها ببرزخ بنما الغارق، وعند هذا البرزخ استغرق الامر فقط بضعة آلاف من السنوات في الشمال لإزاحة وإزالة تقريبا كل الجرابيات الجنوبية، وتحولت الى النوع المشيمي المجهز بعمليات تمثيل عضوي فعالة، وأجهزة تناسلية وعصبية، لكن مازالت امريكا الجنوبية مثل استراليا اليوم، معمرة بالثدييات الجرابية، بما في تلك الجرابيات البديلة مثل الجرذان والغزلان، والنمور. وفي سوق حرة تماما يتوقع مورافيك ان الإنسان الآلي في امريكا الشمالية سيتفوق ويؤثر على البشر بالتأكيد، مثلما اثر الأمريكي لشمالي المشيمي، على الامريكي الجنوبي الجرابي، وسوف يتأثر الجنس البشري كله! وملخص وجهة نظر مورافيك بان الانسان الالي سيخلفنا في النهاية، وان البشر يواجهون الانقراض بشكل واضح. وقد درس الفيلسوف جون سيرل،



فيلسوف جامعة بيركيلي هذا الاحتمال واستنتج ان خطر حدوث الانقراض الانساني نسبته على الاقل ٣٠ بالمائة! بينما رأى كورزويل يعتقد بأننا كبشر لدينا فرصة أفضل من الفرصة المتساوية ، لكن كورزويل اتهم دائما بالتفاؤل. لأن توقعاته لا تتضمن احتمال العديد من النتائج المروعة التي تنتهي بالانقراض ولا يجب ان نتابع قرب الخلود بدون اعتبار التكاليف، وبدون اعتبار الزيادة المتعادلة في خطر الانقراض.

لماذا القلق ؟

العلماء في العالم كله قلقون بشأن هذه السيناريوهات المرعبة؟ والسؤال لماذا القلق؟ جزء من الجواب يكمن في موقفنا بالتأكيد نحو الجديد، وفي تحيزنا نحو الألفة الفورية والقبول المطلق للجديد ورغم اننا تعودنا تقريبا على العيش مع الاختراقات العلمية الروتينية، لكن حتى الآن لم نقبل الحقيقة التي تقول: إن تقنيات القرن الحادي والعشرين الاكثر اهمية علم الانسان الآلي هندسة الجينات، الأجهزة المتناهية الصغر تشكل تهديدا! مختلفا تماما عن التقنيات التي جاءت قبل ذلك فقبله واحدة يمكن ان تنفجر فقط ذات مرة – لكن روبوتا واحدا يستطيع ان يكرر نفسه بالاستنساخ ويصبح عدة روبورتات، ويخرج بسرعة عن السيطرة ! واذا كان العمل على الحاسوب وشبكاته حيث إرسال واستقبال يخلق الفرصة لان يكون استنساخ هذه الرسائل وتكرارها خارجا عن السيطرة ويمكن ان يكون ذلك مصدر ازعاج، في اسوأ الاحوال يعطل الماكينة او يقطع خدمة الشبكة! لكن الاستنساخ الذاتي غير المراقب في هذه التقنيات الاحدث، يحمل خطرا أعظم بكثير ، وهو خطر يحدث ضررا كبيرا في العالم الطبيعي. وكل واحد من هذه التقنيات تحمل ايضا وعدا لم نسمع به من قبل:

وهو حلم الخلود الذى يراه كـورزويل فى احلامه الالية. فهندسة الجينات قد تزودنا قريبا بطرق لمعالجة تامة لاكثر الامراض خطورة! والأدوية والعـلاج القـائم على تكنولوجيا الصغائر يستطيع معالجة أكثر الامـراض خـبـثـا . وتسـتطيع تلك التكنولوجيات الجديدة مجتمعة ان تمد متوسط عمرنا بشكل كبير، وتحسن نوعية حـيـاتنا .. رغم ذلك، كل واحـدة من هذه التقنيات، تحمل فى طياتها بشكل منفرد تراكم قوة عظمى، ويصاحبها خطر عظيم فما هو المختلف فى تقنيات القرن الحادى والعشرين. بالتـأكيد التقنيات التى تقع تحت أسلحة الدمار الشامل وهى الاسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية كانت اسلحة قوية. وتحـمل تهديدا هائلا البشرية لكن بناء الاسلحـة النووية يتطلب، على الاقل فترة من الوقت، الحصول عى مواد أولية ، والوصول إلى المعلومات المحمية جدا نفس المتطلبات فى بناء برامج الاسلحة الحيوية والكيماوية ، حيث تتطلبا ايضا نشاطات واسعة النطاق. لكن تقنيات القرن الحادى والعشرون. الهندسة الوراثية، وتكنولوجيا صـغـائر وعلم الإنسـان الآلى ثلاثى قـوى جدا بحيث يستطيع تفريخ اصناف جديدة كاملة من الحوادث العرضية، واكثر الخطر يحدث فى المرة الاولى. وتحدث الحوادث العرضية على نحو واسع ضمن نتيجة وصول اشـخاص خارجين عن النظام او مجموعات صغيرة متعصبة لتلك التقنيات. ولن يتطلب الامـر منهم وسـائل كـبـيرة أو مـواد أوليـة نادرة، بل المعـرفـة وحـدها ستمكنهم من استعمال تلك التكنولوجيا . وهكذا يتوفر عندنا الامكانية ليس فقط فى اسلحة الدمار الشامل، لكن سيتوفر لنا المعرفة التى تحقق الدمار الشامل الكبير والضخم. وهذا الدمار إلى حد كبير جدا يملك قوة الاستنساخ الذاتى!

وليس من المبالغة فى القول أن العالم الآن على قـمة منحنى الكمـال للتطرف فى الشر، الشر الذى تنتشر امكانياته ابعد بكثير من التى ورثتهـا اسلحـة الدمـار الشامل الى الدول القومية، ومن المدهش والفظيع ان سلطة الشـر المتطرف فى يد قلة من الافراد الآن. فـماذا يحدث حين تصل ايديهم للتكنولوجـيـات الجـديدة. خـاصـة اذا عـرفنا ان التـقـدم السـريع والجذرى الاخير فى الالكترونيات الجزيئية ، سيجعلنا بحلول عام ٢٠٣٠ قادرون على بناء مكائن الحـواسب التى تزيد قـوتهـا مليون مـرة عن حواسب اليوم، وهذا كاف لتطبيق أحـلام كورزويل ومورافيك. وهذه القوة الهائلة للحاسبات عندما تندمج مع التقدم الموازى فى العلوم الطبيعية . والفهم العميق الجديد فى علم الوراثة، تصبح قوة تحويلية هائلة عندما يطلق لها العنان وتتيح الفـرصـة لإعـادة تصـمـيم العـالم بالكامل سواء بالخـيـر اوالشـر! وإزاء هذه القـوة المدهشة والمرعبة لهذه التقنيات الجديدة، الا يجب ان يكون السـؤال المطروح كـيف نستطيع نحن البشر ان نتعايش مع تلك التقنيات بطريقة افضل؟ واذا كـان انقراضنا هو الاحـتمـال القـائم، أو حـتى يمكن حدوثه. نتيجة تطورنا التكنولوجى؟! فكيف يمكن ان نتقدم مع الانتباه والحذر الشديدين؟

وبعد «فهذه الرحلة السريعة للمستقبل، والتى تشكك فى حاجـة المسـتقبل للبشـر، تزاحمت الأسئلة فى ذهنى، ولم استطع ان امنع من إعـادة صـيـاغـة عنوان المقـال بطريقة احتجاجية على مستقبل الاوضـاع العربية، ونقول إذا كان المستقبل لا يحتاج البشر! فهل المستقبل يحتاج للعرب؟! ■

محو الأمية الخلقية !

بقلم
د. محمد رجب البيومي

ظهرت صحف الصباح ذات يوم تحمل البشرى للقراء بأن الأمية الأبجدية ستمحى بعد أربع سنوات لا تزيد، وأن الخطة المحكمة قد أعدت للتنفيذ، بحيث لا يتبقى فى مصر جاهل أو جاهلة بعد السنوات الأربع، وما كاد محررو الأعمدة اليومية فى هذه الصحف يتلقون هذا النبأ وهم يتلمسون أى موضوع يملأون به الفراغ اليومى الذى التزموا به مهما انقطعت دواعى الكتابة الواعية، ما كادوا يتلقون هذا النبأ حتى امتدت بهم الأحلام فأخذوا يتحدثون عن ارتقاء الأمة ونهوضها الاجتماعى عقب زوال هذه الأمية الأبجدية ، واتسع المجال لديهم لكى يقرروا جدوى التعليم وأثرة القوى فى ارتقاء الوعى الخلقى المؤدى إلى نقص الجرائم، واعتدال السلوك! وصبوا لعناتهم على الجهل الذى أدى إلى كثرة الحوادث الإجرامية، وتعدد السرقات والخيانات والسطو على الآمنين من الشرفاء.

وكنت أقرأ ذلك فأقول في نفسي هل عمي هؤلاء عما نطالع من آثام حملة الشهادات الجامعية، وهي تفاجئنا كل يوم بالمذهل المروع من الأنباء، إن درجات الليسانس والماجستير والدكتوراه لم تعصم الكثيرين من السقوط المشين! فهل الخلاص من أمية فك الخط، وكتابة الحروف دون فهم لمعانيها سيقضيان على الإجرام حتى نبني هذه القصور الشامخة على الهش الضعيف من الرمال! لماذا لا ننظر الى مآسي المتعلمين التي تطالعنا في كل صباح، لنعرف مدى الانهيار الخلقي التي انحدرت إليه الطوائف المختلفة من العلماء والجهلاء!

وقد أرمى بالغلو والمبالغة فيما أدعيه، ولكن هل يرمى الأستاذ سامح عاشور نقيب المحامين بالغلو حين يذكر في جريدة الجمهورية الصادرة في ٥ سبتمبر ٢٠٠٢، أن مجلس التأديب ينظر في الأسبوع في مائة وسبع وخمسين قضية بشأن مخالفة المحامين لآداب المهنة، وأنه قرر من قبل شطب أحد عشر محاميا بشكل نهائي من كشوف النقابة لارتكابهم أعمال تزوير لا تتفق مع شرف المهنة، كما قرر توجيه الإنذار واللوم لاثنين وأربعين من هؤلاء، ثم منع خمسة وعشرين منهم من مزاولة المهنة لمدة عام!

فساد مستطير

هل نغمض عيوننا عن الكثيرين من رؤساء الأحياء الذين تناولوا الرشوة المجزية، لكي يتستروا على مخالفات البناء.. ومنها منازل سقطت على عشرات الأبرياء، ولم يسمحوا بإزالتها حيث تقاضوا رشى المنتفعين ومنها منازل أزيلت عن مواقعها وهي متينة قوية كي يستغل مالكو الأرض في بناء جديد يحقق عشرات الأضعاف! هل نغمض عيوننا عن نهب الأموال بالمليارات من البنوك تواطؤا مع رجال الاعمال، واقتساما لكسب غير مشروع، وهؤلاء وأولئك من ذوي الوجاهة اللامعة في المجتمع المنكوب منصبا ونفوذا؟ هل نغمض عيوننا عن تزوير الدرجات في الكليات المرموقة ليرتقي الخامل، ويطرد النابه، والقائمون بذلك في الصف الأول من أساتذة الجامعات! هل نغمض عيوننا عن من يحتمون بالحصانة البرلمانية، فيهجمون في حندس الليل على الآمنين من النائمين ليطردوهم من المنزل الذي لا مأوى لهم سواه! فإذا جوبهوا بمخالفة القانون، قال أحدهم في غطرسة: أنا القانون! ولا قاض سواي!

إن هؤلاء جميعا - ومعهم الآلاف ممن يحتفون بهم في كل اتجاه، ومن انحدروا الى حضيض المذلة الإنسانية والهوان الخلقي - لم يتعلموا القراءة والكتابة فقط، بل حملوا أعلى الدرجات، وتسنموا أوج المناصب المرموقة، ولم يكونوا جائعين حتى يضطروا الى السرقة، ولا مفلسين حتى يبحثوا عن موارد الكسب الحرام، هؤلاء لم يستفيدوا من التعليم الجامعي ما يعصمهم من السقوط! فكيف خابت الجامعة، وقبلها المدرسة في إعداد مجتمع فاضل يعتصم بمكارم الأخلاق!

وأقرر بدءا ان محو الأمية الخلقية أيسر كثيرا من محو الأمية الأبجدية، لأن النفس الإنسانية مفطورة على معرفة الخير والشر والتمييز بينهما، لذلك لا يحتاج الامي الساذج إلى مشقة في الاهتداء إلى المعروف، لأن النظرة

السليمة جاذبة إليه وهذا الرجل الهادىء يجد فى درس المسجد وفى خطبة الجمعة ما يهديه الى الصراط القويم، وما يدفعه إلى انكار ما لا يرتاح اليه ضميره البرىء، والتلميذ بطبيعة الحال يحمل بذرة الخير الكامنة فى نفسه، فإذا وجد من يقوم عليها بالرى والرعاية فستنشق الأرض عن عود أخضر اذا صادف الهواء النقى، والماء الروى، أثمر وأينع وقد كانت المدرسة من قبل تقوم برعاية النشء على نحو يضمن سلامة السلوك فماذا جد الآن؟

اسم استعماري !

لقد كانت وزارة التربية والتعليم قبل قيام الثورة تسمى وزارة المعارف، وأخذ المولعون بالتغيير والتبديل ينقصون هذا الاسم ويقولون انه اسم استعمارى يحصر دور المدرسة فى تلقى العلوم فقط مع أن المدرسة يجب ان تكون للتربية والتعليم معا، حيث ينشأ الطالب مزودا بأفضل أدوات السلوك الإنسانى كما يزود بمعلومات عن المواد الدراسية ولن تصلح المدرسة إلا إذا ساعدت على التربية الناضجة والسلوك السوى للشباب، وبناء على ذلك تغير اسم الوزارة، وكان المنتظر أن يكون لتغيير الاسم صدى فى الاتجاه التربوى بالمدرسة إذ توقع الذين قرأوا عن هذا التغيير انقساما واسعا فى نمو الشخصية لدى الطالب، واتساعا فى وسائل الحياة العملية . فماذا كان؟ لقد كانت المدرسة فى عهد وزارة المعارف حافلة بأنواع النشاط المدرسى فأسرة للرحلات تضم فريقا من الطلاب يهيىء أسباب الرحلة ويقوم بتنفيذها ، وأسرة للتربية الرياضية تجعل المباريات اسبوعية وشهرية بين المدارس المجاورة وغير المجاورة واسرة للاشغال اليدوية تجعل من الطلاب ذوى حرف مهنية تعين على الكسب العملى، واسرة للموسيقى وأسرة للتمثيل وأسرة للخطابة، بحيث يلزم الطالب الزاما على اختيار اسرة تتفق مع ميولة وله اجتماعه الأسبوعى مع زملائه تحت رعاية مدرس يرعى الأسرة، ويرسم لها برنامج العمل السنوى كى تقوم بدورها الاجتماعى غارسا مبادىء السلوك الإنسانى بين الأعضاء بحيث تكون الاسرة درسا عمليا للأخلاق يواكب الدرس العلمى فى حصص الديانة والتهذيب! وكان من المنتظر بعد أن أصبحت الوزارة وزارة التربية والتعليم أن يتسع نشاط هذه الأسر حتى تكون المواطن الصالح ذا الكفاءة الخلقية والمهارة القوية فى التعامل الإنسانى، ولكن الذى كان وهذا من أغرب ما حدث - أن أهملت هذه الأسر اهمالا تاما، واذا وجد لها صدى ما ففى سجلات الأوراق يكتبها القائم بالعمل ليوقع عليها من الوجهين من يرى فى نفسه نشاطا للسؤال عن الأسرة الدينية أو اسرة المواد الاجتماعية ! أما اختلاط الأفكار بالمناقشة وتنوع الرحلات! واكتساب المهارات، فقد عاقة ازدحام الفصول، وتحويل الفناء المدرسى الى حجر بدائية تحد من كثافة الطلاب! وتسأل عن مدلول التربية، فلا تجد بعض ما كنت تراه من قبل؟ وفى الفصول قل أن يجد التلميذ النموذج الطيب من استاذ يبحث عن الدرس الخصوصى فى المدرسة والجامعة معا؟ فأين التربية الخلقية التى تهيىء للطالب سبل الاستقامة وتعوقه من الانحراف؟!

انحدار الأخلاق

إن المؤتمرات الثقافية متعددة فى

مصر تعددا لا مثيل له في الدول النامية، وتأخذ من النفقات الباهظة ما يثقل كاهل الأمة، والمتحدثون في الحقل التربوي من كبار علماء النفس والتربية والاجتماع وكل منهم يكتب البحث الضافي في اكثر من عشرين صفحة، ثم يلخصه في صفحة او صفحتين؟ فهل افادت هذه المؤتمرات قليلا او كثيرا في العمل على الارتقاء الخلقي؟ وهل كانت اقتراحاتها المتكررة موضعا للتنفيذ، وقد لفتت الأنظار واستهلكت الأموال وأضاعت الأوقات! إننا نجد الأخلاق قد تنحدر من سيىء الى أسوأ نجد الرأى العام الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لا وجود له ، بل نجد بديلا له الرأى الوصولى الذى يدعو الى الانتهاز والابتزاز لانهما سبل للكسب المادى والمعنوى معا. فمتى نعترف بانهيار المثل، فباعترافنا بذلك نبدأ خطوات الإصلاح!

أعود إلى ما أعنيه في هذا المقال وهو محو الأمية الخلقية . فأقول إن الاخلاق الفاضلة مجمع عليها، وليست بذات انكار، ولكن الصعوبة لديها تقع في التنفيذ لما علم، فليس كل معلوم مما يسهل تطبيقه، واذ كان التنفيذ ميدانه الاحتكاك بالنظراء والامثال. فأقرب الطرق الى السلامة الخلقية، ان تجعل الإنسان نفسه في موقف غيره. اذ يفكر في بواعث افعاله ويحللها تحليل الشخص المحايد، واذا ذاك تقترب الخطا من الجانبين، وأذكر بهذه المناسبة قول أحد الشعراء:

كن انت مثلى واقترن بعواطفى
تجد المعيب لدى غير معيب

وما كثرت الفجائع، وتعددت المثالب الا بابتعاد المرء عن شعور غيره، وانكماشه في عواطفه الذاتية دون التفات الى مشاعر من يتوجه لهم باللوم والانتقاد، اذ قد يترتب على ذلك ما لا تحمده عقباه، وفيما تقرأ من احداث المجتمع ما يؤلم المنصفين من العقلاء، ويتركهم في حيرة من ملأ لا يرعى مشاعر الغير، بل يزيد الخطب اشتعالا بما يصدر عنه من جموح، واضرب المثل بحادثة قرأت عنها منذ شهور في جريدة سيارة، وهي حادثة تدل على تحجر المشاعر الإنسانية، بل على افتقاد المشاعر الإنسانية اطلاقا حتى لم تعد لها ادنى وجود! فقد اصيبت فتاة في عقلها. وهذا ما لا حيلة لها فيه. بل هو قدر تكنفها وتكنف ذويها المساكين ولا مرد له وقد خرجت من المنزل عارية حيث لم يكن به احد يقف في طريقها ورآها الجيران والمارة على هذا النحو الذى يستدر الدموع! فماذا كان من امر هؤلاء الأوغاد ؟! اذ انهم تحلقوا حولها ضاحكين كأنهم في مسرح هزلى، وسارع احدهم الى اخيها العامل في بعض المتاجر القريبة فصاح امام زملائه أختك عارية ترقص في الشارع الا تستطيع ان تزجرها! كيف تكون هذه البلهاء بدون زاجر، وانت رجل عاقل! وقف المسكين ليجد حلقة من السفهاء، يتضاحكون ويشيرون الى العارية المجنونة في سرور وابتهاج . فتقدم اليها وحاول اصطحابها الى المنزل، فلم تعقل، وكرر المحاولة فاستعصت فحين فقد صبره. وهو يرى السفهاء من حوله في وضع يثير الموجدة هوى عليها بالعصا وكانت مريضة ضعيفة فسقطت على الأرض فاقدة الحياة، وجاء البوليس فاقتاد المسكين إلى النيابة فالقضاء!

أفلو كان لدى الجيران نخوة ذات همة، اما اقبل على الفتاة من حاول ملاطفتها حتى اقتادها الى منزلها! أما علم هؤلاء الرعاع أن المرض العقلي مما لا حيلة فيه. وقد تقع فيه والدة من يضحك الان او اخته او امرأته، أو هو بنفسه فلا مجال للاستهزاء! اما كان من هؤلاء من يسارع الى الاخ القادم في ثورته وبلواه، فيطمئنه ويقول له : إنها مريضة وكلنا معرضون لمحنتها ، وأنت رجل فتصبر وكن شجاعا في صبرك واحتمالك فيستل منه غضبه ويصب الماء على الحريق المشتعل في طواياه! لو وضع كل إنسان نفسه مكان الأخ لمرت العاصفة بسلام! ولكن الغباء الاحمق، وانحلال التربية الخلقية بلغ في مجتمع اناني وسيقدم الأخ المسكين للقضاء وسيحكم عليه لا محالة لأنه قاتل وسواء أكان الحكم مخففا او مشددا فانا أرى ان المجرم ليس الاخ البائس ولكنه المجتمع السفيه!

لماذا انحلت الروابط الإنسانية بين الناس، فلم يعد في كل قرية وفي كل حي رجل من ذوي السن والفضل يكون صاحب الامر الاختياري ، فاذا علم بما يشبه هذه المأساة خف الى مكانها، وعرف القوم منزلته فتركوه يعالج الامر بما يستطيع، بل لماذا لا تكون في كل حي جماعة خيرية تكون ملجأ للطريد، ومثابة للهيف. وبهذا الرجل الكبير وبهذه الجماعة الخيرية، نتقى اذى السفهاء وننجو من شر كبير!

التكافل الإنساني

لقد كان الناس من قبل، في أوائل القرن الماضي حتى أوسطه مفطورين على هذا التكافل الإنساني الحميد، كان اكثرهم لم ينل من الثقافة الرسمية قليلا او كثيرا ، ولكنه بفطرته المؤمنة يعلم باب الخير فيقترب منه سعيدا . ويلمح باب الشر فيفر منه فرار السليم من الاجرب، ولم يكن في حاجة الى محو الامية الخلقية. لانها ممحوه تلقائيا بما نشأ في تكوينه الانساني من نوازع البر والمعروف ! كان يقرض المال ولا يكتب الايصال لانه يعرف ان الامانة دستور لا ينتقض وكان يساعد المحتاج ولا ينتظر الرد لأنه يعلم ان الله سيضاعف الاجر! فلما تعددت الوان الحضارة كثر الطمع وتوارى الورع، واشتدت الاثرة، وانكمش الايثار!

إن تعدد رغبات الحياة واتساع ابواب الترف مما باعد بين النفس وفضائلها المدخرة في اعماقها. وكنت اتحدث في ذلك مع بعض الزملاء واضرب المثل بما روته الكتب عن اخلاق العرب في البادية، من حب للكرم وتعاون على البر واغاثة للطارىء اللهيف. فقال ان اكثر هذه الاخبار موضوعة وان المؤلفين رووها دون تمحيص، وهو قول لا يخلو من خطأ؛ لأن هؤلاء الرواه نقلوا عن البدو بعض النقائص الذميمة، فلو كانت المسألة مسألة محاباة للبدو ما اخذوا عليهم هذه الهنات. على ان الواقع الملموس الذى سجله المشاهد عن البدو في ايامنا هذه يؤيد ما ذكره السابقون عنهم من قبل، وقد ذكرت في احدى مقالاتي في الهلال مثلين معاصرين ذكرهما من لانشك في صدقهما اذ ليس لهما دافع ما للمبالغة والا طراء. وقد رأيا ما شاهداه رأى العيان.

السلوك الحميد

أما الشاهد الأول فهو الجنرال جلوب باشا ، وقد كان المعتمد البريطاني

فى شرق الأردن ، حين كانت انجلترا صاحبة الأمر فى هذه البلاد . فقد ذكر فى يومياته انه قام بجولة خاطفة فى البداية متنكرا لا يلبس ما يدل على منصبه الكبير فرأى جماعة من البدو يتوسطهم كبيرهم الشيخ ، وهم يأكلون الطعام وقد كان على غير العادة من لحم الضأن. فرحبوا به وبصحبه وقدم لهم الشيخ احسن ما بين يديه فى سماحة ظاهرة، وحين انتهى الطعام وقد بقى منه الكثير. امر الشيخ بحمل ما بقى من اللحم المشوى. والعظم الهش الى خارج الخيام قريبا من الخلاء ليظل فى الطريق فسأل جلوب باشا لماذا لا تحتفظون باللحم وهو مما يصلح للغد فقال الشيخ يارجل فى الليل حين تهدأ الحركة ستأتى حيوانات البادية من ثعالب وذئاب وكلاب فتجد خير الله وتأكل مما نأكل ، فتعجب جلوب وقال: وهل ستجدون فى الغد مثل هذا الطعام! فقال الشيخ : يا رجل ان الله يرزق الدود فى الصخر أفما يرزقنا ونحن عباده المؤمنون؟!

اما الشاهد الثانى فأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى فى عهد الملك فاروق، فقد قام برحلة استكشافية فى الصحراء الغربية وكتب عنها جزأين كبيرين . قال فى احدهما ان الزاد قد نفد منه وهو فى الصحراء القاحلة، ورأى على البعد بعض الخيام العربية فاتجه اليها. وحادث القوم ليشترى بعض ما لديهم من الأرز والتمر والدقيق، فسارعوا بتقديم ما يطلب عن سماح وحين قدم لهم الثمن، صاحوا فى وجهه غاضبين أناخذ ثمنا للطعام! أنتم ضيوفنا، وأنتم جائعون ! هل يدفع الضيف ثمن ما يأكل؟

قال أحمد حسنين «ورأيت مظاهر الفاقة والعوز فى وجوه القوم وفى ملابسهم. فاستحيت ان أخذ طعامهم دون اجر. وهم فى اشد الحاجة اليه ففكرت مليا ثم قلت لهم. لقد قبل النبى الهدية ومعى هدية لكم هى اقمشة بيضاء تصلح للثياب والسراويل. وليست ثمنا للطعام. ففكروا كثيرا. واصر احمد حسنين على رأيه، فقال كبيرهم: ان كانت الأقمشة هدية فسنأخذها جبرا لخواطركم، وقبلها بعد الحاح!

فليت شعرى أكان الجنرال جلوب باشا مفتريا؟ أم كان احمد حسنين باشا مدعيا؟ وهذا ما نكراه وشاهداه!

ان القوم فى الأردن وليبيا لم يتعلموا الخلق فى مدرسة ولم يستمعوا الوعظ المتكرر فى مسجد، ولكنهم رجعوا الى فطرتهم السليمة ذات السلوك الحميد. ونجوا من اوضار الترف وملذات الحضارة، فصحت نفوسهم، قبل ان تصح أبدانهم ، وعلينا بعد ان رانت علينا غشاوات الانانية والاثرة، والجشع. ان تنادى بتربية جديدة للنشء، نمحو بها اميته الخلقية ونهيئه لحياة التسامح والود، فيعرف معنى المشاركة الوجدانية الصحيحة، ويعتنق التكافل الاجتماعى بمعناه الانسانى الشامل، حين يكون التراحم والتعاطف والتآزر من اقوى دواعيه، ولا يقتصر على العون المادى وحده ، فرب بسمة مضيئة يتضاءل دونها بريق المال، ورب كلمة طيبة تعيد الحياة لمحتضر يئس من البقاء ! كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء! ■

حقيقة مشكلة
البطالة
فى مصر

بقلم
د. جلال أمين

فى فندق فاخر من فنادق القاهرة، عقد منذ بضعة أشهر مؤتمر كبير لمناقشة مشكلة البطالة فى مصر. وقد دعيت للتعليق على بحث قدمه البنك الدولى ، وقبلت الدعوة لسبب واحد هو أن انتهز هذه الفرصة للتعرف على آخر تقديرات البطالة فى مصر، واستمع إلى بعض كبار المتخصصين فى هذا الموضوع ، سواء من المصريين أو من القادمين من هيئات دولية مختلفة



أما بحث البنك الدولي نفسه فلم أستفد شيئا من قراءته إلا أني تأكدت مرة أخرى من صحة ماقاله الاقتصادي المصري الشهير سمير أمين عن التقارير الصادرة من هذا البنك، وهي أن ميزتها الوحيدة أنك تستطيع أن تخمن مافيها من قبل أن تقرأها، وبالفعل لم يقل هذا البحث، بعد بضع صفحات قليلة عن ضخامة مشكلة البطالة في المنطقة العربية، إلا أن سبب البطالة هو انخفاض معدل النمو، وأن علاجها هو رفع معدل التنمية، وهو كلام أقرب في رأيي إلى الخطأ المحض منه إلى الصواب، إذ إن من الممكن جدا أن يرتفع معدل النمو وتزيد البطالة في الوقت نفسه، والعكس صحيح أيضا، أي أن من الممكن أن تعالج مشكلة البطالة حتى مع ثبات معدل النمو (كما لو وجهت جزءا من استثماراتك مثلا إلى صناعات صغيرة تستوعب عددا كبيرا من العمال، أو إلى مناطق تعج بالمتبطلين أكثر من غيرها، كالصعيد مثلا، بدلا من الاستثمار في صناعات كبيرة لاتشغل إلا القليل من العمال أو في مناطق لاتعاني بشدة من البطالة).

ولكن هذا لم يكن غريبا من البنك الدولي، فالبنك منذ فترة طويلة، إذا سئل عن أي شيء يتعلق بمشكلة اجتماعية، سواء كان بطالة أو سكنا أو صحة أو تعليما .. إلخ، لا إجابة له إلا رفع معدل النمو.

وأنا أفسر هذا بأن البنك لايهمه في الحقيقة علاج هذه المشاكل الاجتماعية بقدر ما يهمه تشجيع الاستثمارات الخاصة، خاصة الاستثمارات الأجنبية، وإحدى وسائله في ذلك الترويج لفكرة أن علاج كل المشاكل هو رفع معدل النمو، وأن رفع معدل النمو لايكون إلا بزيادة الاستثمارات، وأن أفضل أنواع الاستثمارات هو الاستثمار الأجنبي الخاص.

في تعليقي على ورقة البنك الدولي قلت هذا الكلام، ثم قبلت الدعوة الكريمة، من جانب منظمي المؤتمر لتناول الغداء في هذا الفندق الفاخر، ثم استمعت إلى اقتصادي مصري كبير يشغل منصبا كبيرا في هيئة دولية بالخارج، وانصرفت.

أثناء جلوسي في القاعة الكبيرة التي ضمت أكثر من خمسمائة شخص، سألت نفسي عما يحاول المشاركون في هذا المؤتمر أن يفعلوه بالضبط؟

إن المناقشة دائرة على قدم وساق حول ما إذا كان معدل البطالة في مصر نحو ٨٪ كما تقول الحكومة، وكما قال رئيس الوزراء، في كلمته الافتتاحية في المؤتمر أو هو أقرب إلى ضعف هذا القدر، كما يقول بعض الاقتصاديين المرموقين في معهد التخطيط القومي، أو حتى ٢٠٪ أو أكثر، كما يزعم بعض الاقتصاديين المتشددين من أحزاب المعارضة.

من هو المتبطل؟

المسألة بالطبع تتوقف على تعريفك للمتبطل، فهل يدخل في عداد المتبطلين كل قادر على العمل ولا عمل له، وكان

يبحث عن العمل بالفعل خلال فترة معينة سابقة؟ أم يشمل أيضا من لم يكن يبحث عن عمل خلال هذه الفترة مادام قادرا على العمل ولا عمل له، على اعتبار أنه قد توقف عن البحث عن العمل لمجرد اليأس من العثور عليه أو لأن الأعمال المعروضة عليه أقل بكثير مما يعتبره ملائما لمؤهلاته أو أجرها أقل بكثير مما يحتاج إليه؟

ثم ما حكم هؤلاء الملايين (الذين قيل إنهم ستة ملايين) الذين تقدموا بطلبات التعيين في الـ ١٨٠ ألف وظيفة، المتواضعة المرتب، والتي أعلنت عنها الحكومة قبل هذا المؤتمر بشهور قليلة؟ فهل نعتبر كل هؤلاء الملايين من المتبطلين، أم نستبعد منهم معظمهم ممن كان، وقت تقديمه لهذه الوظائف الحكومية ، يشتغل في وظيفة أخرى غير حكومية، ولكنه كان يطمع في وظيفة حكومية، مهما كان دخلها متدنيا، للإفادة من مزايا المعاش والتثبيت والتأمين الصحي .. الخ؟

بل لقد همس في أذني أثناء الغداء، مسئول كبير في هيئة العمل الدولية، بأن رأيه أن يُعدّ من بين المتبطلين ملايين ممن لهم عمل بالفعل، طالما كان دخلهم متدنيا إلى درجة لاتسمح لهم بتلبية حاجاتهم الأساسية، وقد تعاطفت بشدة مع هذا الرأي، على أساس أن الإنسان ، أي إنسان، لابد أن يجد طريقة أو أخرى لسد رمقه، وستر جسمه، والعثور على سقف من أي نوع لينام تحته. فمهما كان العثور على مصدر للدخل صعبا لابد له من أن يجد طريقة أو أخرى للحصول عليه، فإذا لم يجد وظيفة فراش في الحكومة، اشتغل مناديا لأصحاب السيارات أو ماسحاً للأحذية . فإذا تعذر ذلك ، وقف ببضعة مناديل ورقية عند إشارات المرور ليحاول بيعها، فإذا تعذر ذلك اشتغل بالبغاء أو نشالا ، وهما وظيفتان، وإن لم يسمح بهما القانون فهما على الأقل من مصادر الدخل.

هؤلاء جميعا ليسوا متبطلين بالطبع، إذ ألا تراهم مشغولين طوال النهار، أو ربما طوال الليل ، في كسب الرزق؟ ولكننا إذا لم ندخلهم في حساب نسبة البطالة، فما جدوي النسبة التي نحسبها ؟ بعبارة أخرى، ما جدوى أن نقول إن نسبة البطالة ٨٪ أو أكثر أو أقل إذا لم تشمل هذه النسبة بائعي عقود الياسمين والمناديل الورقية عند تقاطع الطرق، أو ماسحي الأحذية في الشوارع الفرعية أو المظلمة؟ أو الرجال ذوي الأجسام الضخمة الذين ينحصر رأس مالهم في فوطة يدورون بها في الشارع في انتظار صاحب سيارة، فإذا ظهر مسحوا بها التراب من زجاج سيارته، ثم هنئوا صاحبها على العودة بالسلامة ، أو تمنوا



له أن تعود عليه السنة وهو طيب ، مما هو أقرب إلى الشحاذة منه إلى العمل ؟

ليس في ضم هؤلاء في عداد المتبطلين أي شيء جديد، على الرغم من إصرار التقديرات الرسمية على استبعادهم فالاقتصاديون منذ فترة تقرب من خمسين عاما ابتدعوا اصطلاح «البطالة المقنعة» وقالوا إن مشكلة العمالة والبطالة في البلاد التي كانت تسمى حينئذ بالمتخلفة، ليست هي البطالة الصريحة الواضحة، بل هذه البطالة المقنعة التي تشمل نسبة كبيرة من قوة العمل. ولكن مشكلة البطالة في مصر، المقنعة ، وغير المقنعة مرت بتقلبات وتحولات هامة خلال هذه الخمسين عاما، من المفيد استعراضها، ولو استعراضا سريعا، من أجل أن نفهم ما نحن فيه الآن، بالضبط .

تاريخ البطالة في مصر

في مطلع الخمسينات من القرن العشرين، كانت الصورة الأساسية للبطالة في مصر هي هذه البطالة المقنعة، وفي قطاع الزراعة بالذات. ولم يكن أحد ليهتم كثيرا بالبطالة المكشوفة أو السافرة «أي التبطل الكامل عن العمل مع البحث عن عمل دون جدوى» إذ كان حجم هذه البطالة المكشوفة أو السافرة ضئيلا للغاية بينما كانت البطالة المقنعة عالية جدا، حتى قيل وقتها إن البطالة المقنعة في الريف المصري قد تصل الى ٥٠٪ من حجم قوة العمل في الزراعة، وقال اقتصادي سويدي (راجنار نيركسه) وقتها ، إن هذه البطالة في الريف المصري ربما كانت أعلى نسبة للبطالة المقنعة في أي بلد في العالم. كان السبب واضحا تماما . فالغالبية العظمى من السكان كانوا يعيشون في الريف ويعتمدون على الزراعة، والزيادة السكانية كانت تذهب، كلها تقريبا، في زيادة المعتمدين على الزراعة دون أن تكون الزراعة في حاجة حقيقية إليهم، ولا تذهب إلا نسبة صغيرة منهم للبحث عن عمل في المدينة بسبب ضعف معدل التصنيع وبطء النمو في القطاع الحكومي قبل قيام ثورة ١٩٥٢ .

تغير الأمر جذريا في السنوات العشر التالية (٥٥ - ١٩٦٥) حيث زادت الاستثمارات بسرعة في الصناعة والزراعة على السواء ، وبدأ بناء السد العالي الذي استوعب أعدادا كبيرة من العمال، ونما القطاع الحكومي بسرعة مما استوعب أيضا أعدادا كبيرة أيضا. أدى هذا كله الى هجرة كبيرة من الريف الى المدن، فانخفض بشدة معدل البطالة المقنعة في الريف، دون أن يرتفع معدل البطالة في المدينة، بل انخفض معدل البطالة المكشوفة والمقنعة ، ولم تعد مشكلة البطالة مصدر قلق لأحد .

تغير الأمر بشدة مرة أخرى في السنوات العشر التالية (٦٥-١٩٧٥) ، وعلى الأخص في أعقاب حرب ١٩٦٧، اذ تراخى معدل التنمية والتصنيع والاستثمار في الزراعة ، مع استمرار السكان في الزيادة بمعدل مرتفع ، ولم يحدث لافي قطاع السياحة ولا في أي قطاع أخر ما يسمح باستيعاب هذه

الزيادة الكبيرة فى السكان استيعابا منتجا .

لم يبق إلا القطاع الحكومى والقطاع العام العاجز عن النمو، اللذان اضطرا إلى فتح أبوابهما لاستيعاب الأعداد الزائدة، دون أن تكون ثمة حاجة حقيقية لهم مع ضعف الاستثمار ، وذلك فى محاولة لتجنب المشاكل السياسية والاجتماعية التى لابد أن تظهر لو سمح لمعدل البطالة السافرة بالارتفاع. وهكذا انتقلت مشكلة البطالة المقنعة التى اشتهر بها الريف المصرى ، من الريف إلى المدينة، أى من الزراعة الى الحكومة .

صحوة لم تدم

فى تلك الفترة ظهر فى الفكر الاقتصادى اتجاه حديث لم يدم للأسف طويلا، وحملت لواءه منظمة العمل الدولية، فى فترة صحوة قصيرة الفكر التنموى، إذ نادى بعض الاقتصاديين ، وأيدتهم تلك المنظمة ، بالتأكيد على حل مشكلة البطالة بدلا من التأكيد على مجرد رفع معدلات نمو الناتج القومى أكد هؤلاء الاقتصاديون بحق (وعلى رأسهم أستاذ عظيم هو دادلى سيرز DADLEY SEERS ، الذى كان استاذا فى جامعة ساسكس ببريطاني)! على أن مشكلة البلاد الفقيرة تكمن فى البطالة أكثر مما تكمن فى انخفاض متوسط الدخل، أى أنها تتمثل أساسا فى عجز نسبة ملموسة من سكانها القادرين على العمل عن الحصول على عمل مجز، أكثر منها فى انخفاض متوسط الدخل للدولة ككل ، وأن الأحرى بواضعى السياسة الاقتصادية أن يوجهوا جهودهم لحل مشكلة البطالة أكثر مما يوجهونها لرفع معدل نمو الدخل وزيادة الاستثمارات .

كان هذا الكلام فى رأيي ورأى كثيرين ، فى محله تماما ، وكان ملائما لحالة مصر تمام الملاءمة فى تلك الآونة على الأقل .

ولكن الأمور تغيرت مرة أخرى فى السنوات العشر التالية (٧٥-١٩٨٥) . فقد رزقت مصر بمنحة من السماء ، فرجت الكرب المتمثل فى ارتفاع معدلات البطالة، إذ فتحت أمام ملايين من المصريين فرصة الهجرة إلى دول الخليج وليبيا فى أعقاب الارتفاع الكبير فى أسعار البترول، فى ١٩٧٤/٧٣، ثم فى ١٩٧٩ بعد قيام الثورة الايرانية ثم بسبب حرب العراق / ايران التى زادت أيضا من الطلب على العمالة المصرية فى العراق . فى تلك الفترة أخذ بعض الاقتصاديين المصريين يتكلمون ، لا عن فائض العمالة وارتفاع معدل البطالة بل عن ندرة الأيدى العاملة وارتفاع



أجورها، إن هذا الذى حدث ليس من شأنه أن يلقى أى شك فى صحة آراء الاستاذ دادلي سيرز . كل ما فى الأمر ان مشكلة البطالة لم تعد من المشاكل الحالة، ومن ثم كان من الممكن نسيانها لبعض الوقت .

ولكن هذه المنحة من السماء لم تدم طويلا فمع انتصاف الثمانينات بدأت مرحلة مظلمة أخرى لازلنا للأسف نعيش فى ظلها حتى الآن. فمع الانخفاض الشديد فى أسعار البترول ابتداء من ١٩٨٦، والانخفاض الشديد والمستمر فى طلب دول النفط على العمالة المصرية، ليس فقط بسبب انخفاض أسعار البترول ولكن بسبب تدهور مدخراتها بسبب هجوم العراق على الكويت ثم نشوب الحرب ضد العراق، والميل المتزايد لدى تلك الدول للاستعاضة عن العمالة العربية بعمالة آسيوية ، انخفضت بشدة معدلات هجرة العمالة المصرية الى الخليج . زاد الأمر سوءا تبنى الحكومة المصرية ما سمى بسياسة التكييف الهيكلى ابتداء من أول التسعينات ، وقبض يد الحكومة عن الانفاق على مختلف أنواع الخدمات ودعم السلع ، وذلك استجابة لضغوط صندوق النقد و البنك الدولى ، ثم تتابع الضربات الموجهة لقطاع السياحة مما سمى بالإرهاب ، أدى هذا كله إلى استمرار حالة من الانكماش الشديد ، خاصة إذا قورنت بحالة الانتعاش التى سادت فى السنوات العشر السابقة (٧٥-١٩٨٥) . فما أن وصلنا إلى أواخر التسعينات ومطلع القرن الجديد حتى بدأت الضربات تتوالى بتخفيض سعر الجنيه المصرى (استجابة أيضا لطلبات صندوق النقد الدولى) مما زاد من حدة الانكماش الاقتصادى، وكان لابد ان تنعكس هذه التطورات الانكماشية كلها فى ارتفاع معدلات البطالة .

ماذا يقول البنك والصندوق ؟

ومع هذا ما زال البنك الدولى والصندوق يقولان : إن حل مشكلة البطالة هو رفع معدلات التنمية وزيادة الاستثمارات (خاصة الاستثمارات الأجنبية) مع أن خبرة خمسين عاما تؤكد صحة ما ذهب اليه دادلى سيرز منذ ثلاثين عاما . وهو أن مشكلة البطالة يجب أن تحل حلا مباشرا دون لف أو دوران ، بخلق فرص عمل مجزية لفئات محددة من الباحثين عن عمل ، وفى مناطق محددة تشكو من البطالة أكثر مما تشكو غيرها، وبالاستثمار فى مشروعات بعينها تتميز عن غيرها ، ليس بقدر مساهمتها فى زيادة الناتج، بل بكثافة ما تخلقه من فرص العمل ، وكذلك تفضيل نوع معين من الاستثمارات الأجنبية على غيرها وهى تلك التي تخلق فرص عمالة كبيرة ومجزية . أما الإصرار على الانشغال برفع الناتج بصفة عامة، وزيادة الاستثمارات بوجه عام دون تمييز، وفى مصر كلها دون تفرقة بين القبلى والبحرى ، فلن ينتج عنه إلا استمرار ما نحن فيه من بطالة ، سافرة أحيانا، ومقنعة فى معظم الأحيان . ■



بهاء طاهر

الكاتب والموقف ونقطة نور

بقلم
د. صبري حافظ

في هذ الزمن العصيب الذي يبلغ فيه العالم العربي حضيضا غير مسبوق من العجز والذل والهوان فإن أحد سبل تلمس الأمل في الخروج هو التعزي بوجود نفر قليل من القابضين علي الجمر، يؤكدون لنا بأفعالهم، وليس بأقوالهم وحدها، أننا لا نستحق كل هذا الهوان. نفر من الذين يحرصون على شرف الكلمة، واستقلال الكاتب عن المؤسسات الوالغة في التبعية والهوان، ووضوح الرؤية وسلامة القصد. خاصة وأن الكتابة الأدبية في عالمنا العربي هي الدليل الباقي علي حياة الأمة وسلامة عقلها. وهي المعقل الأخير لكرامة الوطن والمواطن معا. وهي المنارة الباقية للعقل العربي الذي مرغته ممارسات المؤسسات السياسية والإعلامية في وحول التزييف والتبعية والهوان.





● بهاء طاهر واحد من القلة التى تعى أهمية الحفاظ على كرامة الكاتب وشرف الكلمة

فى هذا الزمن العصيب يجب علينا الاحتفاء بالنماذج القليلة من الكتاب الذين رفضوا احتواء المؤسسة العربية الفاسدة والتابعة والفاقدة للمشروعية لهم، وترفعوا عن تلويث أقلامهم بالكلام المغشوش، والأفكار المغرضة، ونأوا بأنفسهم عن مواطن الشبهات المادية منها والفكرية على السواء، واعتصموا بشرف الكلمة ومسئولية الكاتب، وآمنوا بدور الكاتب فى إنارة الدرب أمام أمته كلما اشتدت حلكة اليأس وانتشر الخلط والتخليط، وحث الأمة على رفض الهوان والنهوض من وهاد التمرغ فى وحول التبعية والانصياع للمخطط الصهيونى الأمريكى البغيض. فما يدور الآن فى العراق وفى فلسطين المحتلة على مرأى ومسمع من العالم كله، ومن عالم عربى خامد كالجثة الميتة لايحرك ساكنا لمواجهة الاحتلال الأمريكى البريطانى لوطن عربى. ولا يمس المصالح الأمريكية المزدهرة فى شتى بقاع الوطن العربى المهيض. ولا يبذل أى جهد للتصدى للعصف الصهيونى بشعب عربى يكشف لنا عن مدى ما يعانى منه عالمنا العربى من بؤس وهوان غير مسبوقين فى التاريخ الحديث. ويدعونا إلى الاحتفاء بالشخصيات التى تقاوم بالكلمة هذا التردى والهوان وتتصدى لفضح مخططاته البائسة.

وبهاء طاهر واحد من هذه القلة القليلة القابضة على الجمر فى مصر، والتى تعى أهمية الحفاظ على كرامة الكاتب وشرف الكلمة. حرص منذ بواكير حياته الأدبية على استقلال الكاتب وكسب المصداقية للكتابة الجادة الحادة الناصعة. وواصل الإخلاص للكتابة والوعى بقيمتها، والحفاظ على تألقها بنشر ما يرضى عنه من نصوص. لأننى أعلم أن لدى بهاء طاهر عددا من النصوص الجيدة، ولكنه لم ينشرها، لأنه لم يرض عنها كل الرضى، أو لأنه يتخوف من أن تساهم سياقات نشرها فى إساءة فهمها. فهو يعى أن لكل نص وقته وزمنه وسياقات تلقيه. وهذه القدرة النقدية، التى تعامل النفس بقدر كبير من الصرامة، وتحرص على الكيف أكثر من حرصها على الكم لا يتمتع بها إلا عدد قليل من كتابنا المجيدين، كان فى مقدمتهم أستاذنا الكبير يحيى حقى. لذلك فإنه برغم مواصلته الكتابة لأكثر من أربعين عاما لم ينشر إلا حفنة من الروايات والمجموعات القصصية، ولكنها كلها من عيون الأدب السردى الناصعة. ولذلك فإن كل عمل من أعماله الروائية، وكل مجموعة من مجموعاته القصصية تحتاج إلى أكثر من وقفة نقدية متأنية. فهى من الأعمال التى لاينفع معها الحديث العابر، لأن كلا منها ينطوى على عدة مستويات متراكبة من المعانى والدلالات، يمسك بعضها بناصية بعض. ولهذا السبب فإننى لن أتناول مسيرته بطريقة عابرة، ولكنى سأتوقف مليا عند أحدث أعماله المنشورة، وليس آخرها، لأننى قرأت فصولا من روايتين مختلفتين عمل عليهما فى العامين الأخيرين.

الرؤية والأداة

وإذا كان من الممكن الحديث عن خيط عام يجمع أعمال هذا الكاتب الكبير، فهو الوعى بالرباط الوثيق بين الرؤية والأداة. فعلى صعيد الرؤية يدرك بهاء طاهر ضرورة أن يكون للكاتب موقف واضح مما يدور في عصره ومجتمعه. وأهمية الانشغال بهموم الوطن الاجتماعية والسياسية على السواء، لأن السياسة هي أحد مصادر إلهام هذا الكاتب الأساسية. فهو كاتب له موقف وطني متميز، يحرص فيه على استقلال الكاتب والكتابة، ولكنه ينحاز للوطن ويكرس قلمه للدفاع عن قضاياه في زمن يتعرض فيه الوطن للهوان. وعلى صعيد الأداة يحرص على أن تكون كتابته صادرة عن خبرة حميمة بالموضوع الذى يتناوله، وعن دراسة مستفيضة لمختلف جوانبه وأن تكون الكتابة سلسة رقراقة ومركزة مكثفة معا. لا تثقلها المعاضلات اللفظية أو الركاكة الأسلوبية، ولا تنوء تحت وطأة الانفعالات الزاعقة أو الإطناب غير الموظف. كما أنه يحرص على أن ترجع مجموعة من الحبكات الثانوية أصداء حبكته الرئيسية وتعمق من فهمنا لمختلف أبعادها المضمرة. ولهذا قلت إن نصوصه تتسم بتعدد مستويات المعنى وتراكبها. وبعد هذه المقدمة الموجزة علينا أن نتعرف على تجليات كل هذه الخصائص فى عمله الروائى الأخير.

تمثل رواية بهاء طاهر الأخيرة (نقطة النور) نقلة نوعية فى كتابة هذا الكاتب القدير، تستحق من النقد التريث عندها قليلا، فقد انفق الكاتب خمس سنوات من العمل المتواصل الدوب فى كتابة هذه الرواية المهمة. لذلك على النقد محاولة التعرف على طبيعة ما تقطع مع انتاجه السابق، ونوعية ما تصل معه، فهى برغم تشكيلها لنقلة مهمة فى كتابته، فإنها فى الوقت نفسه ذات صلة وثيقة بعالم هذا الكاتب الحميم، وخاصة مع قصة العنوان فى مجموعته القصصية (أنا الملك جئت). لأن البحث فى هذه الرواية الجديدة الجميلة، بحث عن الذات فى ألقها الصافى النقى، وعن سلامها الداخلى العميم، بقدر ما هو بحث عن العدل بمعنييه الميتافيزيقى والاجتماعى معا. فالمعنى الميتافيزيقى هو الذى يشد الرواية إلى قصتى (أنا الملك جئت) و(سأعطيك بركة) وبعض قصص (ذهبت إلى شلال) بينما يشدها المعنى الاجتماعى إلى (شرق النخيل) و(قالت ضحى) و(خالتى صفية والدير). وإذا كانت هذه الروايات الثلاث، ومعها روايته الكبيرة (الحب فى المنفى)، قد اهتمت بقضايا الواقع الاجتماعى والسياسى، ورصدت تغيرات الواقع المصرى من الستينات وحتى الثمانينات، وجسدت ما اعترى الشخصية المصرية من تحولات تحت وقع معاول التغيير الذى انقض على المجتمع المصرى بعد هزيمة ١٩٦٧، وتواصلت ضرباته المصمية حتى الآن، فإن هذه الرواية الجديدة تهتم هى الأخرى بوقع هذه الضربات على الإنسان المصرى فى العقود الثلاثة الممتدة من السبعينات وحتى التسعينات. مع اختلاف جوهرى هو خفوت حدة الدراما التى تتوهج فى (قالت ضحى) و(خالتى صفية والدير) و(الحب فى المنفى).

المعادل الروائى

وخفوت حدة الدراما فى هذه الرواية الجديدة، والذى صاحبه إيقاع هادئ رصين، إيقاع يوشك أن يطرح نفسه فى النص كنقيض لصخب الواقع وتطوراته التحتية الصادمة، ليس مجرد خاصية فنية تتسم بها هذه الرواية دون بقية الروايات. ولكنه فى الوقت نفسه المعادل الروائى لما انتاب الواقع المصرى فى الفترة التى تتناولها الرواية من تغيرات مزلزلة. فبهاء طاهر فيما يبنو شديد الوعى، وبشكل حدسى خالص، بما يدعوه النقد الأدبى الحديث بمحتوى الشكل». أى أن للشكل الروائى، وكل ما يتعلق به من تقنيات سردية، محتواه



● الخيط العام الذي يجمع أعمال بهاء طاهر هو الوعي بالرباط الوثيق بين الرؤية والأداة

الدلالي الذي لاينفصل بأي حال من الأحوال عما كان يدعوه النقد الأدبي في الخمسينات بالمضمون. بل هو المضمون الأهم في التحليل النصي للعمل الروائي، لأنه المضمون الذي يصوغ بنية العمل ويشكلها ويتجلى عبر تحولاتها. فقد تجاوز النقد الحديث القول بالعلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، إلى القول بأن الشكل نفسه، مصادراته، والمسكوت عنه فيه، هو أهم ما في العمل الأدبي، وهو مايميزه عن غيره من صيغ التعبير المختلفة.

ولذلك جاء اختياره لشكل هذه الرواية اختيارا لموضوعها وعالمها ورؤاها. لأن محتوى الشكل في هذه الرواية الجديدة هو ما يصوغ لنا تلك النقلة النوعية التي تحدثت عنها قبل قليل. لأنه ينطوي على أخطر منطلقات هذه الرواية، وأهم ما تطرحه من قضايا. فقد جسد هذا الشكل بصوته الروائي الخافت، ومروره العفوي المراوغ على التحولات الاجتماعية الصادمة، أو حتى سكوته العمدي عنها، ما يمكن دعوته بالبنية الجوهرية لمرحلة التسعينات المصرية. بنية يبدو فيها أن صوت التطورات الدرامية بالغ الخفوت، ويمكن إغضاء الطرف عنها أثناء تسللها الحثيث للنيل من كل ما كان وتدميره من الداخل، وأن كل ما يحدث لايستحق الاهتمام به، فهو مجرد مجموعة من الأمور التافهة التي لايجب أن تكون. ولكن هذه البنية المراوغة ذاتها تخفي تغيرات مزلزلة للقيم والعلاقات على السواء، وتتستر على داء اجتماعي وأخلاقي وبيل لابرء منه، وتكتب لنا التردي والتداعي والدمار تحت قشرة حياة هذه الأسرة الشعبية البسيطة.

وما يدعم هذا التأويل لمحتوى الشكل في الرواية عندي هو العلاقة المعقدة بين زمن السرد والمجال الزمني الذي يغطيه هذا السرد. فزمن السرد هو الزمن الذي اختارت الرواية أن تدور أحداثها الأساسية فيه، وهو الفترة الممتدة من عام ١٩٧٥ وحتى التسعينات وتداعي بيت الأسرة الآيل للسقوط منذ زمن وإخلاؤه. أما المجال الزمني الذي يغطيه هذا السرد، فيشمل حياة بطلها الرئيسي «توفيق السعدي» كلها. أي يشمل القرن العشرين بأكمله، وما انتاب الإنسان المصري والحياة الاجتماعية المصرية فيه من تحولات. فنحن نعرف أنه قد ولد في أول سنة من القرن، وقدر عليه أن يحمله على كتفيه حتى اقترب القرن من نهايته. ونعرف تفاصيل حياته شابا، وما جرى لابنه وحفيديه من بعده. لكن أهم ما يدعم هذا التأويل عندي هو الدلالة الاستعارية والروائية لما جرى للبيت الذي ورثه «توفيق السعدي» عن أبيه، وحاول ترميمه حينما بدأت الصدوع تظهر فيه. ولكن هذا الترميم الذي دار ــــ لدلالة التوقيت الزمني المهمة ـــ في زمن الانفتاح، أساء للمبنى ولم يشد أزره، فكان من الطبيعي أن ينهار البيت كله، وأن تتقاسم أرضه أهواء الطامعين. وتصدع البيت وتهدمه علامة روائية بالغة الأهمية في هذا النص الروائي الجميل، علينا ألا نغفل عن ظهور

صدوعها الأولى في القسم الأول من الرواية، وبلوغ هذه الصدوع، بعد محاولة الترميم الغريبة، مداها في قسمها الأخير بإجبار الحكومة السكان على إخلاء العقار وهدمه.

وعلاوة على هذه العلاقة الجدلية المهمة بين زمن السرد في الرواية، وجدل الحاضر والماضي فيه. هناك علاقة مماثلة تتعلق بفضاء الرواية، وتركزه في القاهرة وفي حي السيدة زينب الشعبي الذي يقع فيه بيت الأسرة الأساسية فيها. وعلاقته بالفضاء المصري كله. حيث تأخذنا الرواية إلى مجال جغرافي يمتد من أسيوط في الصعيد حتى المنصورة في الوجه البحري. وهناك ثالثا هذا المجال القيمي الأوسع الذي يطرح قيم عالم قديم في مواجهة قيم العالم الجديد الذي انبثق بعد الانفتاح في مصر، وانتهى بقعقعة انهيار البيت الكبير كله. وتقدم الرواية في هذا المجال مجموعة من التنويعات المتعددة على هذا الجدل أو الصراع بين العالمين. إذ يقدم لنا «فراج» مسيرة مجموعة القيم القديمة التي شاركت في تكوين حلم الشباب بمستقبل أفضل بعد حرب أكتوبر، وما جرى لهذا الحلم، وما ينطوي عليه من تبديل. بينما يقدم لنا الدكتور شوكت، وقصته مع ماضيه وزوجته تنويعا آخر على مسيرة عدد من القيم القديمة وتحولاتها في عصر الانفتاح، وما جره على الواقع المصري من «سداح مداح».

أما قصة «سالم» و«لبنى» فإنها توشك أن تجسد لنا وقع هذا الصراع بين عالمي القيم على الجيل الجديد الذي شب عن الطوق في هذه الفترة. بل توشك الرواية كلها، في مستوى من مستويات التأويل، أن تكون ساحة للصراع بين هذين العالمين القيميين، أو بالأحرى سيرة للضربات الموجعة والقاصمة التي تلقاها عالم القيم القديم صاغرا، وصامتا، ومذعنا في آن. وهي سيرة تكشف عجز هذا العالم وقلة حيلته، بطريقة دفعت الروائي إلى خلق هذا السعي الروحي الحثيث في الرواية وكأنه نوع من التشبث بشيء خفي، قد يخفف وقع معاول الهدم على عالم القيم القديمة، قبل أن تقع على البيت القديم نفسه، وقد يعلل النفس بأن ثمة خلاص من هذا الواقع الكابوسي المبهظ الذي يأكل مع ضربات الانفتاح كل أمل في الخلاص الفردي أو الروحي.

الصيغة المراوغة

هذا كله يدعم القول بأهمية محتوى الشكل في هذه الرواية الجديدة الجميلة، لأنها وقد لجأت إلى هذه الصيغة الروائية التي تبدو لأول وهلة وكأنها مجرد صيغة تقليدية بالغة الهدوء، تؤكد لنا أن هذه هي الصيغة المراوغة التي يتبدى عليها الواقع التسعيني في مصر، وهو واقع خال شكليا من الدراما، تدور فيه الأحداث وكأنها تفاصيل لا أهمية لها، هي مجرد صيغة مراوغة لابد لنا من تدقيق النظر فيما تخفيه، أكثر من الاهتمام بما تبرزه. لأن المسكوت عنه في هذه الصيغة هو الأمر الفادح الذي يستحق كل اهتمام. ولأن الواقع المصري في التسعينات ينطوي بحق على مجموعة من التغيرات المزلزلة، والتي تمررها عملية خفوت الصوت ذاتها، أو تطلسمها وتصرف النظر عن التفكير فيها. وهذا نفسه ما يحتاجه القارئ مع هذه الرواية الجديدة الجميلة. وأول ما يلفت نظرنا إلى هذا الجانب المراوغ في الرواية هو الإهداء الجميل «في ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير يحيى حقي، رحمه الله، أتنسم عطر الأحباب». فقد كان يحيى حقي شديد الحرص على مناسبة القول للغرض، وملاءمة الشكل للمعنى، ودقة التعبير ووضوح القصد. وهذه كلها من سمات السرد في هذه الرواية الجديدة.

لأن الرواية تبدأ بداية تقريرية هادئة: «عاش سالم منذ طفولته في رعاية جده الباشكاتب» وتدور فيها أكثر الأحداث درامية دون أن يطرف للسرد جفن فيها، وكأن لاشيء ذا بال يحدث فيه. لكننا ما أن نقرأ الرواية، ونتأمل العلاقة بين أقسامها الثلاث، وهي في الوقت نفسه علاقة



بين مراحل ثلاث من حياة شخصياتها، ومن حياة مصر معها، حتى نكتشف ما وراء هذا السطح الهادئ من تغيرات ودلالات. وحتى ندرك أن ذاكرة النص الداخلية هى ذاكرة مطمورة فى طوايا النسيان، كذاكرة واقعنا التاريخية ذاتها. مطمورة، ولكنها موجودة إذا ما حفرت وراء قشرة هذا الواقع السطحية واستنقذتها من طوايا النسيان.

ويقدم لنا القسم الأول من هذه الرواية والمعنون «سالم» قصة هذا الحفيد سالم، الذى تخلى أبوه عن مسئوليته فى تربيته لجده «توفيق» حتى يرعاه. فى نوع من تخلى جيل كامل عن مسئوليته حيال الواقع وحيال أبنائه فيه ومنه. يبدأ بتناول وعيه بالبيت، أى بالمكان الذى نشأ «سالم» فيه، بعمارته وجغرافياه معا. ثم ينتقل إلى حى السيدة زينب الذى يقع فيه البيت، ومسجد السيدة زينب الذى يصحب إليه الجد حفيده كل جمعة للصلاة. ويعود بعدها محملا ببعض المشتريات لحفيدته «فوزية»، وببعض الحكايات عن الباشمحضر «السيد السنانيرى» وكراماته التى عرف بسببها باسم «أبوخطوة». وتنبأ «توفيق» الباشكاتب لحفيده «سالم» بمستقبل باهر، وساعده على تحقيق هذا المستقبل بأن اهتم بدروسه وذاكر معه حتى وصل «سالم» إلى نهاية المرحلة الثانوية عام ١٩٧٥. أى أنه بلغ بدايات وعيه مع بداية مرحلة الانفتاح الساداتية.

صحيح أن الرواية تشير عرضا إلى تاريخ وصوله إلى الثانوية العامة، ولكنها لاتشير من قريب أو بعيد للسادات أو لانفتاحه المشئوم. لأنها تحرص على أن تجسد كيف أثر هذا الانفتاح على أسرة «توفيق» الباشكاتب، دون أن تتحدث مباشرة عنه. ترصد تفاصيل هذا الانفتاح فى حديث «جابر» نادل المقهى عن تجارة الشنطة وتجارة الدولارات. وفى استجابته المغايرة لاستجابة الباشكاتب للخطاب الذى جاء من تنظيم الحى بأن شرخا قد ظهر فى جانب البيت «غيرك يا أستاذ يدفع أموالا لكى يحصل على هذا الخطاب. فقد كان هذا هو زمن سعار بناء عمارات التمليك، وهدم عمارات الإيجار التى لاتغطى تكاليف تسييرها. لكن هناك أيضا جانب آخر تكشفه لنا آليات العلاقة داخل الأسرة. وكان الجد بحرصه على تعليم حفيده، أو على نجاح الحفيد فى التعليم، يريد أن يعوض إخفاقه مع ابنه «شعبان» الذى لم يتقدم فى تعليمه بعد السنة الأولى الثانوية، فاضطر الجد أن يوجهه للتجارة، وأن يفتح له دكان «مانيفاتورة»، لكنه لم يفلح كثيرا فى التجارة، وظلت أحواله متعثرة طوال حياته.

● تمثل رواية «نقطة النور» نقلة نوعية فى أدب بهاء طاهر تستحق من النقد التريث عندها قليلا

حالة الحصار

وترسم لنا الرواية تفاصيل السياق الذى نشأ فيه «سالم» فبعد المكان والزمان نتعرف على موت أمه المبكر وهو فى الثالثة من عمره. وقيام شقيقته «فوزية» التى تكبره بأربع سنوات فقط بدور الأم بالنسبة له، وللأسرة كلها. وحالة الحصار التى يعيش فيها وقد أجبره أبوه

بالضرب القاسي، خوفا عليه لجماله، على أن يتجنب اللعب مع أبناء الحارة. وما سببته الوحدة له من حالات «بذاءة» تأتيه دون سيطرة منه عليها، فينطلق لسانه بأبشع سباب لكل من حوله. وحينما أخذه أبوه وعرضه على طبيب، وفحصه هذا الطبيب بعناية وعرف سياق حياته كلها، قال لأبيه فيما يشبه التأنيب ماهي المشكلة؟ فشرح له «شعبان» حكاية النوبتين والشتائم التي يطلقها، فرد الطبيب: «والله أنا شخصيا أفعل ذلك في سرى طوال اليوم. وليتني أبوح بهذه الشتائم مثل ابنك. ما أكثر من يستحقونها»(ص٢٤)

ولم يقتنع الأب بهذا الرد، ولا بتشخيص الطبيب الأمين. وعرض ابنه على طبيب آخر، تلاعب به، وطلب رسما للمخ، ووصف له أدوية كثيرة ومكلفة كادت تقضي عليه. وقال لجده بصوت واهن وقد أوشكت الأدوية أن تودى به: «قل لي ياجدى، هل أنا مجنون» فرد عليه «لا يا ولدى بل نحن المجانين»(ص٢٦) وهو رد دال على أكثر من مستوى، لأن تنفيس الصبى عن نفسه في واقع يستحق الشتم، اعتبر جنونا أو مرضا يستلزم العلاج. بينما سكوت الجميع عن الجرائم التي ترتكب كل يوم تحت أعينهم، دون تمرد أو احتجاج يعد عقلا وهو في واقع الأمر أشد أنواع الجنون. وكأن الرواية في مستوى من مستوياتها هي رواية التربية القمعية التي تخضع الجميع للسكوت، إزاء ما يجب أن ينطلقوا في وجهه بأبشع السباب وأحط التهم. أو كأنها دراسة في تجذر آليات الاستبداد في الواقع المصرى واستحالة الشفاء من شرورها. وكلما تقدم بنا السرد، كلما أدركنا أن هذا الواقع الذي تخلق في مصر منذ صبا «سالم» المبكر، واستشرى مع مراهقته وشبابه واقع يستحق ــ كما قال الطبيب ــ أقذع الشتائم.

وحتى يدرك القارئ بنفسه أن هذا الواقع يستحق بحق أقذع الشتائم، يقدم السرد خيطا روائيا آخر إلى جانب خيط «سالم» ذاك، وهو خيط أخته فوزية. فقد كانت «فوزية» جميلة هي الأخرى ولاحقها، لجمالها الجميع. فأصر الأب على إخراجها من المدرسة وهي في بداية المرحلة الثانوية، بالرغم من معارضة الجد، وإصراره على إكمال دراستها الثانوية على الأقل قبل إخراجها من المدرسة. لأن الشهادة سلاح في يدها ينفعها في المستقبل، ولكن دون جدوى. وقد نشأت علاقة ما بينها وبين جارها «فراج» الذي جاء، بعدما انتهى من دراسته وحصل على بكالوريوس التجارة، وعين في إحدى شركات القطاع العام، لخطبتها. وأصر الأب بحماقته على رفضه، ولكن الجد ــ وقد اكتشف أن فوزية على علاقة بفراج ــ تدخل بحصافته لإتمام الزواج، والتغطية على «غلطة» حفيدته، التي ما أن عرف بها أبوها حتى انفجر في وجه الباشكاتب «أنت أفسدت حياتي يا أبي. أخذت منى أولادى وضيعتهم كما ضيعتني»(ص٣٢) فليس ثمة في هذه الرواية شخص يستطيع أن يتنصل من المسئولية، أو يتهرب من تقريع أسئلتها الملحاحة.

ولحسن حظ «فوزية» لم يتنصل «فراج» من مسئولية ما فعل بها، فلم تكن أخلاقيات السوقة قد تفشت بعد وأصبحت هي القانون. وجاء لخطبتها من أسرتها. فقد كان «فراج» بحق شابا مثاليا من زمن آخر. نتعرف معه على لغة قديمة لاتدرك أنها قد فقدت مصداقيتها وفاعليتها في بدايات الزمن السبعيني الذي لم يكشف عن أنيابه بعد. «أنا إنسان متفائل وواثق من المستقبل بفضل الله. شاركوني في تفاؤلي وستكون ابنتكم في عيني» (ص٢٩) وقد تشبث بتفاؤله حتى دمره الواقع المزلزل، ودمر معه «فوزية» الجميلة.

وإذا كان هذا القسم الأول من الرواية هو قسم «سالم» وقسم العلاقة الجذرية الحميمة بينه وجده الباشكاتب، وأخته «فوزية»؛ فإنه في الوقت نفسه هو قسم حياة الباشكاتب مع زوجته «سمية» وما عاشه معها من سعادة غامرة، وفرح حقيقي انصرما بموتها المبكر. وهو

في الوقت نفسه قسم علاقته مع ابنه «شعبان» وإخفاقه في تعليم هذا الابن، أو حتى في إسعاده. فقد زوجه من «سعاد» الجميلة الوديعة الذي انجبت له «فوزية» و«سالم»، ولكنه قتلها بإهماله أو سذاجته، أو بغبائه. ومع ذلك ظل هناك في داخل الابن نوع من الإحساس بأن الأب هو الذي أفسد حياته. بينما يشاغل الجد إحساس مماثل بأن ابنه هو الذي نغص حياته وبأنه فعل كل شيء من أجله دون جدوى.

أسئلة مؤرقة

وهذا المناخ الغريب الذي ملأ البيت هو المسئول عما انتاب «سالم» من اضطراب، وما يأتيه من نوبات. ولذلك ليس غريبا أن ينفجر «سالم» في جده مرة، كما انفجر «شعبان» فيه «لاتكذب ياجدي. لماذا يهرب أبي مني، لماذا يهرب من كل إنسان. من فوزية ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لايزوره أحد، ولايزور هو أحداً؟ لماذا يحول وجهه بعيدا كلما كلمته أنا؟ ولماذا ينظر في الأرض حين تكلمه أنت؟ ما الذي فعله أبي؟ ... أبي فعل شيئا يخفيه هو، وتخفيه أنت. أبي لايحبنا. كان يريد أن يضعني منذ زمن مع المجانين. وزوج فوزية لرجل فلاح في الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها، ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولا نحبه. لاتكذب ياجدي! أنت لاتحبه. وأنا لا أحبه، ولا أحد يحبه. ولهذا لايأتيه زبائن في المحل، ولهذا يعاقبه ربنا»(ص٤٣). هذه الأسئلة المؤرقة تكشف عن خلل دفين في علاقات هذه الأسرة التي تبدو ــ كالمجتمع المصري في العقود الثلاثة الأخيرة ــ وكأنها أسرة بالغة التماسك، ولكن بنيتها تعاني من الصدوع والشروخ تماما كالبيت الذي تقيم فيه.

وحتى يكشف لنا بهاء طاهر عن الوضع العام الثاوي وراء هذه الحالة الأسرية بالغة الخصوصية، فإنه يلجأ إلى تقنية التضافر والتفاعل بين خيوط الرواية المختلفة. فهو مولع بهذا النوع من التقنيات السردية، وبأن يكون للحبكة الرئيسية في الرواية مجموعة من الروافد، أو الحبكات الثانوية التي توسع من أفق المعنى فيها، وتعمق دلالاته. فهناك خيط قصة الحب الأساسية بين «سالم» و«لبنى»، وهي في الوقت نفسه قصة هذا الجيل السبعيني الذي ذهب إلى الجامعة في النصف الثاني من السبعينات، وعاش بقية مرحلة السادات فيها، وعاني مع مصر كلها ما عانته منه من اضطرابات ما لبثت أن انفجرت في انتفاضة يناير الشهيرة عام ١٩٧٧. وهناك كذلك خيط اخته «فوزية» وزوجها «فراج» الذي ينتمي إلى آخر دفعة من جيل الستينات، أو أول دفعة من جيل السبعينات، تلك الشريحة التي ذهب شبابها إلى المعهد الاشتراكي بعد الهزيمة، وتفاءلوا بحلم التحرير والتغيير، ثم عصفت بهم تحولات السبعينات الانفتاحية، ودمرت أملهم في حياة كريمة وهم لايزالون في شرخ الشباب. وشهد كيف أن تسارع معدلات التضخم يضرب أسرته الصغيرة بقسوة. تقول زوجته



● خفوت حدة الدراما في «نقطة النور» إيقاع هادئ رصين يوشك أن يطرح نفسه في النص كنقيض لصخب الواقع وتطوراته التحتية الصادمة

قبل انتفاضة يناير: «المرتب الذى كان يكفى تماما قبل سنتين، أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير، رغم كل ما تفعله لتدبير أمور المعيشة فى البيت، ورغم ما يعطيه لها جدها»(ص٩٩).

وهناك أخيرا قصة الجيل الأول: جيل الجد، الذى ولد مع بداية القرن، ومن هذا الجيل نعرف الجد، و«أبوخطوة» و«نازلى هانم». وكذلك جيل ابنه «شعبان» الذى خاب فى التعليم، وهو الجيل الذى نتعرف على تنويعين مهمين له فى شخصيتى الدكتور «شوكت» والد «لبنى» الذى أفلح فى التعليم وخاب فى السياسة؛ والدكتورة «صفاء» والدتها. وهذا الجيل الذى يبدو وكأنه جيل غير رئيسى فى الرواية هو الجيل الذى تحرص الرواية على أن تقدم لنا ثلاث تنويعات مختلفة عليه. «صفاء» بنت الطبقة الارستوقراطية، و«شعبان» ابن الطبقات الشعبية، و«شوكت» الذى ناضل من أجل هذه الطبقات الشعبية ودفع الثمن. ثم تحول مع من تحولوا بعد الانفتاح المشؤوم. ومع تحولات كل هذه الشخصيات والأجيال، هناك كذلك تحولات المكان نفسه، وما جرى للبيت الذى ظهرت فى جدرانه الصدوع منذ بداية الرواية. وحاول الجد ترميمه، «عرف الباشكاتب متى بدأت عملية ترميم البيت، لكنه لم يعرف أبدا متى ستنتهى»(ص١٦٨)، ولا كيف انتهت، ولكن نهايتها الحاسمة كانت فى سقوط البيت الحتمى فى النهاية.

تنويعات مختلفة

وإذا كانت الرواية قد قدمت ثلاثة تنويعات مختلفة على من يمكن تسميتهم بجيل الأربعينات: شوكت وصفاء وشعبان، وعددا من شخصيات الجيل السابق عليهم: الباشكاتب، و«نازلى» هانم و«أبوخطوة» وبعض سكان بيت السيدة زينب من الأسطى حميد الكهربائى إلى الحاج إبراهيم المنجد، فإن مدار اهتمامها الأول هو جيل السبعينات الذى ينتمى إليه «سالم» و«لبنى» وحتى «فوزية» إلى حد كبير. هو الجيل الذى ينتمى إليه «فراج» كذلك، وبقية زملاء الكلية، «دعاء» الناصرية و«مرتضى» الذى يعمل مع الأمن. وأشباح طلاب يرتدون الجلابيب ويطلقون اللحى، ويمسكون بالجنازير، نتعرف فيما بعد على أثرهم على «فراج» بعدما ضاقت به وبمثاليته تحولات السبعينات، وضربات الثمانينات القاصمة، فانقلب إلى البحث عن خلاص فى «الإسلام».

وتقدم لنا الرواية فى «لبنى» وقع عنف السبعينات الذى عصف بمن شاركوا فى انتفاضة ١٨و١٩ يناير على هذا الجيل، وكيف أنها انتهت بـ«لبنى» فى مصحة نفسية فى إيطاليا. هناك شاهدت مع جلسات الأطباء بقية فصول المأساة. «رأت فى بيت زوج عمتها الدبلوماسى تجار الانفتاح الذين كانت تسمع عنهم. اعتاد أن يدعوهم للعشاء، وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من الويسكى، يفلت عيارهم وتنطلق ألسنتهم. يتبادلون الخبرات عن كيفية تهريب الشحنات من الجمرك، وعن أماكن شراء البضائع المضروبة من إيطاليا، وتمريرها على أنها بضائع صالحة، وعن أضمن الطرق لتهريب العملات، ومن الذى يجب أن يدفعوا له فى البلد! كانوا يتباهون أيهم أشطر من غيره، ويتكلمون بصراحة تدهشها. لايشعرون بخجل مما يقولون، ولا يفهمون حتى مدى البذاءة والإجرام فيما يقولون»(ص٢٠٠)

لكن الرواية تبدو فى مستوى من مستويات المعنى الأساسية فيها، وكأنها رواية التعرف على حقيقة الخلل الذى أصاب أسرة مصرية بسيطة هى أسرة «الباشكاتب». لا تفصح لنا عن حقيقة هذا الخلل، وإنما تترك لنا استنتاجه بأنفسنا. تعرض علينا بعض تجليات هذا الخلل أو



سياقاته العامة أولا، ثم تركز على تجلياتها فى الأسرة. ولاتفعل ذلك بشكل عمدى، وإنما عفوا. فالجد يكشف لحفيده «سالم» عن السياق العام من خلال القضايا التى احتفظ بملفاتها، وكان ينوى أن يؤلف كتابا عنها. وهى كلها قضايا لأناس ارتكبوا جرائم كبيرة دون أن يكون لأى منهم سوابق، أو يتسم أى منهم بميول إجرامية من أى نوع. رجل يقتل جارا لأن ابنه تشاجر مع ابن الجار، وآخر يقتل زوجته لأن طعام العشاء لم يعجبه، وصراف يختلس من خزينة الحكومة ليقضى أسبوعا فى الإسكندرية، وهو يعلم أنه سيقضى بعده سنوات فى السجن.

والباشكاتب يبحث «عن سر تلك الأسباب التافهة للجريمة، فلم يتوصل إلى شئ يطمئن إليه. تمنى لو يكتب كتابا عن الموضوع. ولكن الوقت متأخر، وسيترك لسالم هذه المهمة بعد أن ينتهى من دراسته للقانون»(ص٧١) ويدور نقاش دال بين الجد وحفيده، يطرح فيه الجد عددا من الأسئلة المهمة: «ما الذى يجعل خطانا تقودنا إلى عكس الطريق، ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟ .. لماذا إذن يغيب العقل، وتسيطر التفاهة؟» وهما سؤالان بالغا الأهمية، بل من الأسئلة المفتاحية فى الرواية كلها. فإذا كان ما أثار السؤالين هو محاولة النص موضعة الخلل الذى انتاب الأسرة فى سياق أوسع تنتشر فيه جرائم تحدث كلها فى غياب العقل وسيطرة التفاهة، فإن الرواية مشغولة كذلك لا بتناول تجليات هذا كله داخل الأسرة وانعكاساته عليها فحسب، وإنما بنوع من البحث عن سر خيبة مصر كلها، لا جيل واحد من أجيالها، وعما إذا ما كان ثمة أمل فى خلاص ما، حتى ولو كان هذا الخلاص روحيا أو ميتافيزيقيا.

● قدمت الرواية ثلاثة تنويعات مختلفة على من يمكن تسميتهم بجيل «الأربعينات»

فالجد ينفى عن الأب، ابنه شعبان، كل اتهامات حفيده له، ويدافع عنه. وهو ينفى عن نفسه فى الوقت نفسه أى تميز له عن ابنه الضائع إلى حد ما، والذى يوشك أن يكون الشخصية الحاضرة الغائبة فى هذه الرواية. له وجوده الملموس بالفعل، ولكنه وجود يبدو وكأنه ملاحق بلعنة غامضة تصيب بشرها كل ما تلمسه يداه، فتجارته تبور، وزواجه يدمر منذ البداية، وحتى حينما يسعى لعلاج ابنه من تلك النوبات التى تصيبه تزداد حالة الابن تدهورا، ولا تتقدم. أما الجد فإننا نعرف أيضا أن حياته مليئة هى الأخرى بالأسرار. وأنه يحتفظ فى أدراجه بمجلات وصور جنسية، توهم مرة حينما بدأ بعضها فى الاختفاء أن حفيده هو الذى يسرقها، فقاطعه وعاقبه على ذلك بالجفاء، الذى كان على «سالم» أشد وقعا من أى عقاب. لم يكلف نفسه عناء التحقق من التهمة قبل إنزال العقاب.

ولكن «فوزية» هى التى اكتشفت السر وحدها، وهى التى أكدت لجدها أن «سالم» لايعرف شيئا عن موضوع المجلات، فطرد «الباشكاتب» الشغالة الجديدة، وعاد الصفاء بينه وبين حفيده من

جديد. فـ«سالم» يوشك أن يكون نموذجا للبراءة المطلقة، فهو لايعرف ما تعرفه «فوزية»، ولايبدي رغبة في أن يعرف أين يذهب جده كل خميس. بينما هي تريد أن تعرف، «أدفع نصف عمري وأعرف أين يذهب يوم الخميس» (ص٥٦) فالخروج كل خميس سر من أسرار الجد التي لايعرف بقية أفراد الأسرة عنها شيئا. وسيظل هذا الخروج سرا يراوغ القارئ نفسه حتى تكشف عنه الرواية في القسم الثاني منها في نوع من إرهاف عملية التشويق السردي. ولكن بعد أن تكون «فوزية» قد حدست به بذكائها الفطري، وشعورها النسوي الحاد. ففوزية ذكية وتعرف بحدسها كل شئ: تدرك أن «سالم» وقع في الحب حينما تسأله «من هي التي لخبطت أخي العاقل» (ص٩٨) وتدرك أنها لابد زميلة له في الكلية، لأنها تعرف كل الجارات المحتملات لمثل هذا الحب. وتعرف بحدسها أيضا سر اختفاء الجد في مشاوير الخميس الغامضة «مصيبة ياسالم أن يكون جدك متزوجا في السر»(ص١٠٠)

الخلل الذي أصاب الأسرة المصرية

والواقع أننا سنكتشف أن الجد قد تزوج في السر من «نازلي» هانم البالغة الثراء، وفق شروطها التي أصرت على سرية الزواج وعلى عرفيته، حتى لايرث أحدهما الآخر، وحتى لايعترض أبناؤها على الزواج، الذي قد يهدد ميراثهم. وإذا كانت هي قد صرحت له أنها ستعلن هذا الزواج لأبنائها، وأن باستطاعته هو أن يفعل كذلك لو أراد، إلا أنه لم يفعل. غرق في هذا الزواج الذي أشبع كل شهوته للمرأة، وأغناه عن المجلات التي كان يعتبرها أهون الزلل «هذه الزلة تعصمه من زلة الزنا الحقيقية»(ص١٠٨)، ولكنه لم يشبع شهوته للحب، ولم يرو ظمأه لراحة البال. وهي الأخرى ارتوت كما طلبت منه: «هذه الأرض ظلت جرداء طويلا، وتريد الآن أن ترتوي»(ص١١٢) ولكنه لم يصرح أبدا بهذه العلاقة لأسرته، ولم يشهرها خارج نطاق شاهدي الزواج العرفي. لأن «نازلي التي كانت تمارس العشق بجنون، لم تتحدث مرة واحدة عن الحب، ولا هو أيضا ... لكنه استمر مع ذلك في الترتيب، لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسبه»(ص١١٤)

لكن آخر ما يقدمه لنا القسم الأول من الرواية هو علاقة «سالم» مع البنات، أو بالأحرى بدايات هذه العلاقة. فقد بدأت كالعادة مع بنت الجيران «ثريا» وإن كانت تجربة خائبة من تجارب المراهقة الأولى، ثم حكاية ثانية مع «عنايات» أرملة ناضجة لعوب من قريبات أبيه، طلب منه أبوه أن يساعدها في إنهاء بعض الأوراق ففعل، وكانت تكبره بخمس عشرة سنة، وعبرت عن رغبتها فيه بطريقة الأنثى المكشوفة والمواربة معا، وأحست برغبته فيها وهو يلهث ويزداد وجيب قلبه كلما اقتربت منه، أو لمس ذراعها العاري وصدرها الباذخ جسمه، وبدلا من أن تساعده بخبرتها، فإنها ضاقت بعدم خبرته، وبعدم قدرته على إشباع تلك الرغبة معا.

تجربتان

و يورد النص هاتين التجربتين المخفقتين كتمهيد للتجربة الناجحة، وحتى يقيم من خلال التعارض بين التجربتين دلالة التجربة الأولى الناجحة مع «لبنى»، والتي لاحظ الجد ما تركته من تغيرات في «سالم» قبل أن يلاحظ «سالم» نفسه أنه يحبها. كان يتابعها عن بعد حتى تعرف عليها، لدلالة المفارقة، وهو يقرأ إحدى مجلات الحائط التي انتشرت في منتصف السبعينات في الجامعة. «كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية تنشر كلاما مع الرئيس السادات. ومجلات أخرى بعضها مثبتة إلى الحائط مباشرة بدبابيس وقد تمزقت أجزاء منها وتكتب كلاما ضد الرئيس»(ص٧٥) وبينما كان يقرأ هذه المجلات سمع «مرتضى» يتحرش بـ«لبنى» فأنقذها منه. وكانت تلك بداية حبهما، أو بداية تلك النعمة التي هبطت عليهما

فجأة، دون أن يعرفها حقيقتها أو يدركا اسمها أو معناها.

وكان من الطبيعي وقد انتهى القسم الأول «سالم» بقصة الحب هذه أن يكون القسم الثاني هو قسم «لبنى» حبيبته، أصلها وفصلها. إذ ندلف معها بعد نعمة تعرفها على «سالم» وما جرى في يوم التعارف الأول ذاك إلى بيتها، ونبدأ في معرفة قصتها. وفي قصتها شئ من قصة «سالم» وكأنهما معا أبناء جيل فقد الآباء، وعليه أن يختار مسيرته وحده دونهما، وأن يعاني آلام اليتم الصعبة وحده. وكأن الرواية تنطلق من أن قدر جيل السبعينات المصرى وأزمته معا هو أن يعيش هذا اليتم الحاد المروع. فإذا كان سالم قد فقد أمه بالموت وهو لايزال طفلا، وفقد أبيه بتلك اللعنة الغريبة التي لايدرى كنهها، والتي تجعله غائبا حاضرا في النص. فإن «لبنى» هي الأخرى قد فقدت أبويها برغم أنهما لايزالا على قيد الحياة. فقدت أبوة أبيها الطبيب الكبير الناجح الدكتور «شوكت» الذى يوفر لها كل شىء إلا الأبوة ذاتها. يعود بعد عمله في مستشفاه وعيادته تفوح منه رائحة الويسكي أو عطر امرأة أخرى، منذ أن انفصل عن زوجته الدكتورة «صفاء» بالطلاق؛ وحرمها من ابنتها التي كانت لاتزال في العاشرة من عمرها، وحرم ابنتها من الأمومة التي هى الآن — يوم لقائها المشهود بـ«سالم» ووقوعهما معا في الحب — في أمس الحاجة إليها. تعترف لها بأنها تحب. وتشاركها لحظة سعادتها الغامرة تلك. لكن فقدان «لبنى» لأبويها وهما على قيد الحياة له دلالات أخرى غير تلك التي نستخلصها من فقدان «سالم» لأبويه.

فقد كان الأب «الدكتور شوكت» ثوريا قديما أدخله عبدالناصر السجن بسبب هجومه على الإمبريالية ودفاعه عن البروليتاريا. وكانت الأم «الدكتورة صفاء» الجميلة المثقفة المغرمة بالقراءة بنت طبقة البكوات التي تكره عبدالناصر هي الأخرى. ولكن لم تجمعهما كراهية عبدالناصر وإنما تناقضات عصره المزرية، التي انجذب فيها اليسارى لابنة الطبقة الأرستوقراطية القديمة. ولم يستطع أبدا الارتفاع إلى مستواها الثقافي أو حتى الطبقي، وإن أصبح الآن، لمرارة المفارقة من أثرياء العصر الجديد. أو كما تقول ابنته «لبنى» بسخرية «لم تعد لدينا في البيت إمبريالية ولا بروليتاريا! بيتنا الآن ملىء بلوحات غالية، وتحف غالية يشتريها بابا لأنها غالية .. لم يعد لديه وقت حتى لقراءة الجرائد. يسمع الراديو في الصباح على الإفطار دون انتباه. تدهشة أخبار مرت عليها أسابيع وشهور. فيسألني ياه! تيتو في المستشفى؟ وأضحك أنا في سرى. كيف أصبح جاهلا بأخبار الرفاق إلى هذا الحد. في الواقع أصبح جاهلا بكل شىء، عدا المال طبعا، والطب ربما، والنساء طبعا طبعا! ولكن لاتهتمي يادكتورة. مازلت أنا هنا. نهتف للرجل الذى كنتم تلعنونه. بابا لأنه البطل الثورى الذى أدخله السجن. وأنت لأنك سليلة المجد والشرف»(ص٨٦) في هذا المنولوج



● السؤال الهام
هل يستطيع الحب أن ينقذ مصر حقا من الهوان والتبعية والتردي الذى صاغ عقلية أجيال متعقبة

القصير تلخص لنا لبنى بعض ملامح مأساتها، ومأساة جيلها كله. جيل تيتم معنويا وسياسيا وحضاريا بعد رحيل عبدالناصر، كما تيتم نفسيا برغم أن أبويه على قيد الحياة.

أم علينا أن نقول إنه جيل مغتصب ومستباح كليه. فقصة اغتصاب «لبنى» وهى فى السادسة عشرة من عمرها، ومدرس الرياضيات «حمام» الذى كان فى عمر أبيها واغتصبها وفض بكارتها فى بيتها بفظاظة أثناء إعطائه لها درسا خصوصيا، ليست إلا مجرد قصة عادية من عشرات القصص المماثلة التى تتكرر مع هذا الجيل، ولكنها قصة دالة على هذا الاغتصاب النفسى واليتم المعنوى معا، وستكتمل دلالات هذه القصة المؤلمة قرب نهاية الرواية عندما يوشك أبوها، فى نوبة سكر، أن يقدم على فعل مشابه. «من الصغر وهى تؤنب نفسها، وتكتشف أخطاء لم ترتكبها. ثم اعتقدت أنها السبب فى طلاق أبيها وأمها، وإن لم تستطع أن تحدد كيف! حين كانت تسمع اسمها يتردد وهما يتشاجران فى غرفتهما بصوت عال، كانت تظن أنهما يتشاجران بسببها. ولم تستطع أبدا أن تتغلب على موجات الخوف الكاسحة التى تغزوها وتشل تفكيرها» (ص٨٩)

وربما كان هذا المزيج من الخوف والإحساس باليتم هو الذى دفعها إلى الاشتغال بالسياسة، على طريقة جيل السبعينات ومجلات الحائط فى الجامعة. «لم تدخل تنظيما ثوريا كالذى دخله الدكتور شوكت. كانوا مجرد مجموعة من الطلبة والطالبات التقت بهم فور دخولها الجامعة ووجدت أنهم يفكرون بطريقة أعجبتها. تغضبهم التغيرات العجيبة التى تحدث فى البلد. تجار التهريب وتجار العملة والغلاء البشع، وبذاءة الأغنياء الجدد، وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن، ونسيان تضحيات الحرب القريبة... وذلك فى الوقت الذى ظهر فيه فى الجامعة عشرات من الطلبة بجلابيب بيضاء ولحى يمزقون مجلات الحائط التى تكتب هذا الكلام، ويضربون زملاءهم الذين يكتبونه، بينما يحميهم حرس الجامعة حين يمزقون وحين يضربون. أحبت لبنى زملاءها الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شىء من ذلك، ويحنون إلى الزعيم الذى أحبت صورته وصوته وهى طفلة. وكانت تغضب عندما تسمع أباها وأمها يسبانه كلما أطلت صورته من شاشة التليفزيون. وجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة الممتلئين بالحماس، وأحست أنها تحتمى بهم من وحدتها ومخاوفها» (ص٩٠)

لكن هذه الاحتماء لا يشكل أى أمل فى الخلاص، لأن جميع هؤلاء الطلبة، ومعهم لبنى بالطبع، يعتقلون ضمن موجة الذين اعتقلوا فى المظاهرات فى السبعينات، ولأن الانفتاح المشؤوم يواصل مسيرته، ويعصف فيما يعصف ببيت الأسرة القديم، وبحياة «فوزية» و«فراج» الذى يتصور أن خلاصهما فى الحجاب والإيمان. كما تعصف ضربات التغيرات السياسية بحب «سالم» و«لبنى»، وبحياة الباشكاتب وبيته معا. حيث تنتهى بنا الرواية وقد صدر قرار هدم البيت، بينما الجد نفسه بين الحياة والموت. وقد عادت «لبنى» لسالم بعد تجربة العلاج الأليمة فى إيطاليا، ويتمسكان معا بأمل واه وهو «الحب» فهل يستطيع الحب أن ينقذ مصر حقا من الهوان والتبعية والتردى الذى صاغ عقلية أجيال متعاقبة منذ هذا الجيل التسعينى المنكوب؟ هذا هو السؤال الذى تتركه لنا هذه الرواية الجميلة، نتأمله، ونتأمل معه مسئولية الأجيال المختلفة عن هذا التردى الذى أصاب مصر، وصدع بيتها. □

الشاعرة

نازك الملائكة

بقلم
وديع فلسطين

في عام ١٩٥١ كنت منصرفاً إلي عملي في جريدة «المقطم» عندما أطل من باب غرفتي الأديب العالم سلامة موسي وفي صحبته شابة ضئيلة الحجم شديدة الاحتشام والتحفظ توحي ملامح وجهها بالجدية فلا تبتسم إلاّ بحساب. وتوهمت لأول وهلة أنها ابنته وأنه ربّما يفكر في مشروع زواج، ولاسيما لأنني كنت أعرف أن لسلامة موسي قبيلة من البنات والأبناء وسبق أن دعاني إلي عرس واحدة من بناته. ولمّا قمت لتحيته هو وابنته قال: يسعدني أن أقدم الشاعرة العراقية نازك الملائكة، فأدركت أن مشروع الزواج من هلاوسي! وكنت أعرف الشاعرة من ديوانها الأول «عاشقة الليل» ومما كانت تنشره من شعرها ونثرها في مجلة «الأديب» اللبنانية التي كنت بدوري من كتابها الدؤوبين، وكانت تعرفني من متابعتها لكلامي في نفس المجلة. أما المشافهة فلم تتحقق إلاّ في هذه المناسبة السعيدة.

وأخبرتني نازك أنها عائدة من الولايات المتحدة حيث كانت تدرس في جامعة برنستن الشهيرة، فاستفسرت منها عن صديقي المؤرخ الدكتور فيليب حتّى وطمأنتني عليه. ولمّا أبديت دهشتي من كونها التحقت بجامعة كل طلابها من الشباب دون الشابات، قالت إن الجامعة استثنتها من هذا القيد فكانت الطالبة الوحيدة في الجامعة. وقالت إنها تعرفت في الولايات المتحدة برائد جماعة «أبولو» الدكتور أحمد زكي أبي شادي الذي نصحها بالتوقف في



القاهرة في طريق عودتها إلى العراق للتعرف بأدبائها، وأوصاها بأن يكون رائدها في غشيان المجتمعات الأدبية في القاهرة سلامة موسى.

وبعدما كانت نازك الملائكة مجرّد اسم لشاعرة يطالعني في الصحف والمجلات الأدبية شخصية معروفة لي من لحم ودم تمثل كياناً أدبياً يزداد شموخاً، وشتان بين الإعجاب من واقع الآثار المنشورة وبين الإعجاب بشخصية أدبية فرضت نفسها في عالم الضاد بما أنجزته من آثار شعرية ونثرية ملأت أكثر من ٢٤٠٠ صفحة من المجلدات الأربعة التي نشرها المجلس الأعلى للثقافة مؤخراً.

ولدت نازك الملائكة في بغداد في ٢٣ أغسطس ١٩٢٣ أي أنها استكملت عامها الثمانين من بضعة أشهر. واختار لها والدها اسم نازك تيمناً بالمجاهدة السورية نازك العابد زوجة صديقنا العلّامة اللبناني محمد جميل بيهم.

وكانت الابنة البكر لوالديها اللذين رزقا بعد ذلك بثلاث بنات وولدين. وبعدما أنهت المرحلة الثانوية التحقت بدار المعلمين العالية - وكانت هي الجامعة الوحيدة في العراق وقتئذ، وتخرجت من فرع اللغة العربية بمرتبة الامتياز في عام ١٩٤٤. وسافرت بعد ذلك لمتابعة الدراسة العليا في الولايات المتحدة مرتين، ففي المرة الأولى تخرجت من جامعة برنستن وفي المرة الثانية نالت درجة الماجستير في الأدب المقارن من جامعة وسكنسن.

وعند عودة نازك إلى بغداد زاولت التدريس في كلياتها دون أن يصرفها ذلك عن إبداع الشعر ومعالجة النثر، واختارت أن تنشر آثارها في المجلات العربية التي تصدر خارج بغداد كي تتواصل مع أدباء العالم العربي. صحيح أنها أصدرت ديوانها الأول «عاشقة الليل» في عام ١٩٤٧ ولكنها بدأت نظم القصائد وهي في سن العاشرة، ولم يكن هذا نتيجة «لعدوى» من أسرتها العامرة بالشعراء، أو من قبيل الوراثة لأن «جين» الشعر كان كامناً في والديها وشقيقها وأخوالها، بل كان جدها لأمها - المعروفة باسم أم نزار - شاعراً، وإنما اكتسبت موهبة الشعر ذاتياً وجعلته هواها الأول والأبدي.

عملت نازك سنوات طويلة أستاذة للأدب في جامعة الكويت التي كرمتها بأن أصدرت كتاباً تذكارياً أهدي إليها، كما نالت جائزة الإبداع الشعري من مؤسسة البابطين. ومن حسنات صدام حسين النادرة أنه منحها أعلى وسام ثقافي من بضع سنين خلت.

لم تشغلها وظائفها التربوية عن تكوين أسرة خاصة بها، فتزوجت من الدكتور عبد الهادي محبوبة مؤسس جامعة البصرة الذي توفي في القاهرة من عامين ودفن فيها، ورزقت منه بابنها الوحيد الدكتور البراق الذي يملأ حياتها في شيخوختها الحالية.

ومع أن نازك أدركت عهد الملكية في العراق ثم عهود الثوار الذين خربوا البلاد بدءاً بعبد الكريم قاسم وانتهاء بصدام حسين، فقد التزمت دائماً البعد عن الخوض في السياسة الكثيرة المزالق، ولم تتلون كما تلون شعراء العراق الكبار محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي فحافظت على اسمها نقياً من الشوائب السياسية والمذهبية والحزبية.

تعددت دواوين نازك بعد «عاشقة الليل»، فأصدرت «شظايا ورماد» و«قرارة الموجة» و«شجرة القمر» و«أغنية للإنسان - في جزءين» و«للصلاة والثورة» و«يغير لونه البحر» و«الوردة الحمراء» و«مأساة الحياة». أما كتبها النثرية فهي «قضايا الشعر المعاصر» و«سيكولوجية الشعر» و«الصومعة والشرفة الحمراء» وهو دراسة في شعر الملاح التائه علي محمود طه، و«التجزيئية في الشعر»، عدا مجموعة من الأقاصيص عنوانها «الشمس التي وراء القمة».

ولئن أجادت نازك اللغات الإنجليزية والفرنسية واطلعت على آثار الأدباء في الغرب، فإن ذلك لم يجعلها تتغرب أو تحاكي أساليب الفرنجة في شعرها، بل إنها لم تحاول تقليد حتى الشعراء العرب القدامى اعتقاداً منها بأن الإبداع ينبغي أن يتفرد بخصائصه فلا يكون مجرد

تقليد لشعر الأوائل. وفي سبيل تأكيد إبداعها المتفرّد، نشرت في عام ١٩٤٧ قصيدة «الكوليرا» متحررّة من ضوابط الشعر إلا من التفعيلة والموسيقى، ففتحت الباب على مصراعيه أمام التجديد في الشعر، وشتان بين التجديد وبين الفوضى العارمة التي آل إليها حال الشعر في يومنا الحالي بتحرره من كل خصائص الشعر. وحرصاً من نازك على تأكيد ريادتها في هذا الميدان، بعثت إلى صديقها الأردني عيسى الناعوري برسائل - نشرت مؤخراً في عمّان بتحقيق تيسير النجار - أوضحت فيها أنها سبقت بدر شاكر السياب في هذا الاتجاه الشعري الجديد، ودافعت بذلك عن حق التأليف Copyrigt الذي نازعها فيه عدد من الشعراء.

ولم تشأ نازك أن تجعل من هذه القضية معركة أدبية لأنها تفادت المعارك الأدبية أياً كانت دوافعها، وحرصت دوماً على عدم الردّ على نقادها حتى وإنْ كانت حججهم على قدر من الضعف والهزال.

بل إن نازك لم تشارك في كثرة من المؤتمرات الأدبية التي عقدت هنا وهناك لنفورها الفطري من المظاهر المهرجانية واعتقادها بأن هذه المؤتمرات هي مجرد ساحات للكلام الذي يتبدّد في الهواء.

وإذا كان هناك طابع عام يطبع شعر نازك، فهو طابع الحزن والألم، وآية ذلك قصيدتها المعنونة «جنازة المرح» أو قصيدة «كلمات مكتوبة على قبر شاعر محزون». وهذا اتجاه يصعب تحليله لأن نازك لم تجرب ما جربته زميلتها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان من قمع من جانب أسرتها، فقد كان طريق الحياة كله مفتوحاً أمامها، تتابع الدراسة بجميع مراحلها بل وفي الخارج أيضاً دون أن يعترض على ذلك معترض من أسرتها، ثم إنها لم تصادف رقابة عائلية على شعرها تضطرها إلى نشره بأسماء مستعارة كما كانت فدوى تعمل في بداياتها . ولعلّ نغمة الحزن التي تشيع في شعرها هي نتاج شخصيتها التي تؤثر الانطواء على النفس وحسبها أن تتعامل مع المجتمع الأدبي من واقع كتاباتها المنشورة شعراً ونثراً.

وقد اختارت نازك أن تقيم في القاهرة لتتابع العلاج من أمراض الشيخوخة دون أن يحول ذلك من متابعتها النشاط الثقافي في العالم العربي. ولكنها آثرت العزلة وعدم غشيان المجتمعات الأدبية بصخبها وضجيجها. وكم ساءها أن يفسرّ الصحفيون عزلتها وصمتها بأنها تعاني من غيبوبة أو أن وطأة المرض اشتدت عليها، فهذه قسوة غليظة من أقلام لا تستشعر مسئوليتها ولا ترحم إنسانيتها، وهي التي لم تعرف العدوان في كل عمرها.

وقد قرأت نازك كل ما قيل عن تدهور صحتها فلم تخرج على الناس قائلة: خسئتم، فإنّي مازلت على قيد الحياة، كلاً. لقد آثرت الصمت والصبر مع الكبرياء.

يا شاعرة العرب: إن منزلتك الأدبية السامقة وشخصيتك النبيلة الأصيلة وآثارك الإبداعية الباقية تكتب لك في صفحة الأدب المعاصر أنصع الآيات. فقرّي عيناً بما صنعت ومن تاريخ طويل خصيب شريف. ■

لؤلؤة

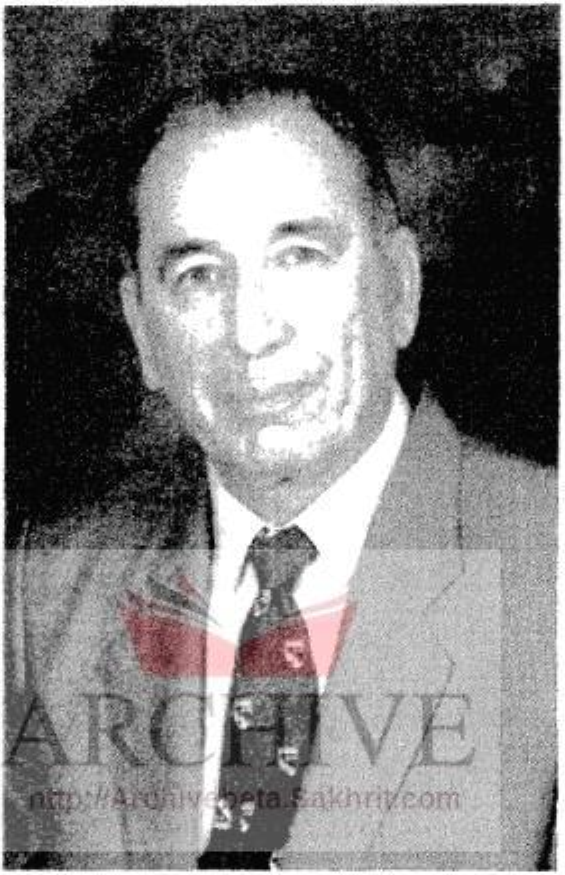
بين «شواطىء الضياع» و«مدائن الوهم»

بقلم
صافي ناز كاظم

إنه حقا «لؤلؤة»، الاسم الذى على مسمى، الأستاذ الدكتور، الناقد، الأديب، المازح، الجاد، «عبدالواحد لؤلؤة» من كنوز الثقافة العربية.

هو من العراق، بالتحديد من محلة حوش الخان بالموصل، وهى مجمع الكنائس المسيحية القديمة، وكان يشار إلى دارهم باسم «بيت المسلمين»، لكنه من بغداد، لكنه من كل الأرض العربية، لكنه من كل الدنيا الواسعة

حين وصلت بغداد سبتمبر ١٩٧٥، للعمل مدرسة لمادة المسرحية بكلية آداب المستنصرية، كان من الطبيعي أن أتصل أولاً بمن لي بهم سابق معرفة، وكان لي سابق لقاء ومراسلات مع الناقد والمترجم والروائي



د. عبد الواحد لؤلؤة

الأستاذ الكبير جبرا إبراهيم جبرا، وقد أنجزت معرفتى بالأستاذ جبرا وبزوجته الفاضلة لميعة برقى العسكرى صلة التعارف بالدكتور عبدالواحد لؤلؤة، أستاذ الأدب الانجليزى والأدب المقارن بكلية الآداب جامعة بغداد، وبأسرته المكونة من زوجته، الفلسطينية المولودة بعكا، مريم موسى عبدالباقى، زميلته فى تدريس الأدب الانجليزى بالقسم والجامعة نفسها، وابنه الصبى بشار وابنته الصبية رشا، التلميذين بمدرسة الموسيقى والبالية.

تدريجيا توهجت وتوطدت صداقتي بآل لؤلؤة، مع ذبول حثيث - له أسبابه - في علاقتي بآل جبرا حتى نقطة التوقف النهائي.

خلال الفترة التي أقمتها في بغداد من ١٩٧٥/٩ حتى ١٩٨٠/٦/٢٩ كان بيت «لؤلؤة» ، في حي أساتذة الجامعة، واحتي الوارفة الظلال ، أتداوى فيها من كل شأن منغص. كانت صراحة «مريم وعبدالواحد» المنطلقة بالتعقيب ، من دون خوف أو مبالاة، تغسل أحزاني وتواسيني ، وسريعا كنا ننتقل من أحاديث الشئون المكدرة إلى أحوال «الحديقة» فننسى الآلام وتنشرح الصدور.

لم يكن هناك فرق في عناية الدكتور لؤلؤة بحديقة أفكاره وكتاباته ومشاريعه في الترجمة ومسالكه الثقافية ، وبين عنايته بحديقة منزله، ما أن ننتقل إلى حديث «الحدائق» حتى يدب الشغف في صوته وعينيه وإيماءات رأسه وتستمر حركة يديه دائرية في رغبة لتجسيد الأفعال والأحلام . يتكلم عن أشجار الورد وأحواض الزهر وتلافيف أغصان الجهنميات المتعددة الألوان وثمار الزيتون والتفاح وعناقيد العنب و«خلال الطوش» في أعناق النخل، بعبارات الفرح الجياشة التي يتكلم بها عن نجاحاته في العثور على المصطلح العربي المناسب الذي اصطاده ، من لغة القرآن ومن الشعر الجاهلي ومن تراث الكتابة العربية ، ليضعه في مكانه المناسب الدقيق في ترجمته لأجزاء من «موسوعة المصطلح النقدي» التي تضمنت : «المأساة»، و«الرومانسية»، «والجمالية» و«المجاز الذهني»، و«اللامعقول»، و«التصور والخيال» و«الهجاء»، و«الوزن والقافية والشعر الحر»، و«الواقعية»، و«الرومانس»، و«الدرامة و الدرامي»، و«الحبكة» ، و«المفارقة»، و«المفارقة وصفاتها»، و«الترميز»، و«الرعوية». مازلت أذكر حماسه وهو ينكر أمامي كيف عثر على كلمة «مهاد» بدل خلفية، لتعني مصطلحا فشل الجميع في اختيار لفظه الملائم.

كان قد صدر له كتابه «البحث عن معنى» في بغداد عام ١٩٧٣ عن وزارة الإعلام فور عودته من تفرغ علمي بانجلترا لمدة عام، من ١٩٧١ - ١٩٧٢ بجامعة كمبردج، لإجراء أبحاث عن الشعراء التروبادور ودور العرب في تطور الشعر الأوروبي، وذلك أثناء مواصلته عمله بكلية آداب جامعة بغداد التي عين بها قبل حصوله على درجة الدكتوراه في الأدب الانجليزي عام ١٩٦٢ عن «الشعر الحديث والنقد» من جامعة وسترن رزرف بمدينة كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية.

***

كان وراءه سجل متفوق من

التحصيل العلمى، منذ حصوله على ليسانس شرف فى اللغة الانجليزية وآدابها من جامعة بغداد عام ١٩٥٢، وهو فى الواحد والعشرين من عمره، سافر بعدها ببعثة عام ١٩٥٥ إلى جامعة هارفرد، وقرأ النقد على شيخ نقاد العصر أي. إيه . ريتشاردز ونال من تلك الجامعة عام ١٩٥٧ درجة الماجستير فى اللغة الانجليزية وتدريسها، وعين مدرسا للانجليزية والفرنسية بجامعة بغداد وأثناء تحضيره للدكتوراه فى بعثة ثانية حضر دورة عن الأدب الانجليزى الحديث بجامعة أكسفورد جمع أثناءها مواده اللازمة لرسالته.

هكذا ظل على مدى ربع قرن من ١٩٥٢ حتى ١٩٧٧ يقطف من رياض المعرفة أشكالا وألوانا لتكتمل أدواته النقدية القادرة فى ثقة على سبر أغوار فنون الشعر والرواية والقصة وفهم ما تم التعارف عليه بكلمة «أدب» التى يعتبرها من الكلمات الهلامية كما قال فى مقدمة كتابه «شواطىء الضياع» - المعرفة الواثقة مع الموهبة المتجذرة فى تكوينه اللغوى، التى أعطته القدرة الخلابة على التعبير الثاقب والحاد المازج بين التهكم والعطف ، مع صراحته المعتزة بمسئوليته الثقافية، كل هذه العوامل أهلته للبروز والتفوق فنال الاحترام والتقدير مغزولين بالحذر منه والتخوف ، فليس هو الذى يمكنه الانحناء والمسايرة ومن ثم - فى طقس القهر وسياسة كسر الرقاب والإخضاع الجبرى للأهواء السياسية التى تشتهى دائما تعبيد العلماء والمثقفين وإلا.. - صدر القرار الجائر نهاية عام ١٩٧٧ بمنع الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، وهو فى سمت عطائه ولم يبلغ السادسة والأربعين ، من أداء واجبه العلمى فى قسمه، فى كليته، فى جامعته، وتم حرمان طلابه من دوره الجامعى الأكاديمى الفذ بناء عن تقرير سرى حرره كسول بليد فى اتحاد الطلبة يتهم الأستاذ الجليل بمناوأته النظام ولحزب البعث. انتشر الخبر وسادت الهمهمة الانتهازية التقليدية فى مثل تلك الملابسات وعلت النبرة لتلوم الدكتور عبدالواحد لؤلؤة بدعوى أن شخصيته وأسلوبه الاستفزازى كان لابد أن يقوداه إلى مثل هذا المصير. فى زيارتى لهما، كانت «مريم» موجوعة غاضبة ، وكان هو مندهشا ضاحكا من شر البلية. ظل من ١٩٧٧ حتى ١٩٨٣ ببيته يرعى «حدائقه» ، متفرغا للتأليف والترجمة وكانت الحصيلة:

نشر عشرين كتابا فى تلك الفترة العصيبة التى اخترع لها مصطلحاً أنيقا هو: «تمتع بتقاعد مبكر من جامعة بغداد» ، ومالبثت «مريم»، بعده بعامين، أن انضمت إلى ذلك «التقاعد المبكر»

القسرى!.

***

انقطعت صلتى بآل لؤلؤة منذ رحلت عن بغداد فى ١٩٨٠/٦/٢٩ تضامنا مع آلام الشعب العراقى، الذى زادت مأسيه مع تسلم صدام حسين السلطة فى يوليو ١٩٧٩ وتخلصه من رفاقه فى القيادة الجماعية بإعدامهم جميعا رميا بالرصاص فى ١٩٧٩/٨/٨، لينفرد وحده بالهيمنة الشريرة الكاملة على مقدرات العراق.

***

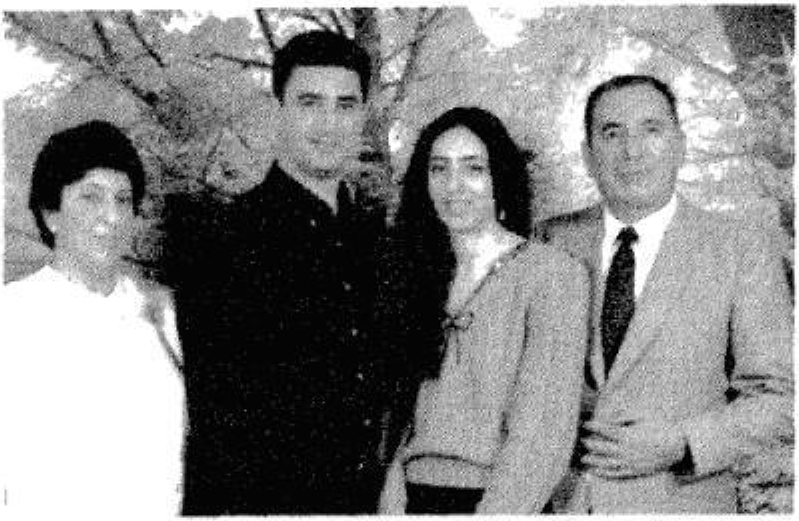
فى يوم جميل عام ١٩٨٣ جاءتنى رسالة منهما تحمل أخباراً سعيدة بانتقالهما إلى الأردن لتفوز جامعة اليرموك بعبد الواحد لؤلؤة أستاذا مشاركا بدائرة اللغة الانجليزية وآدابها، ثم بترقيته إلى درجة أستاذ ورئيس قسم اللغة الانجليزية وآدابها، ثم ليصير مدير دائرة اللغات الحديثة، وليستقر فى اليرموك حتى عام ١٩٨٩ لتفوز به بعدها جامعة الإمارات العربية المتحدة، وظل فى الإمارات أستاذا للأدب الانجليزى، عاد بعدها إلى الأردن وجامعة الزيتونة، ثم دعته الجامعة الإسلامية العالمية بكوالالمبور بماليزيا، وعاد من جديد إلى الأردن حيث هو الآن فى عمان : أستاذ الأدب الانجليزى، فى جامعة فيلادلفيا منذ ٢٠٠١/١٠/١ - «فيلا دلفيا»: هو الاسم القديم لعمان

***

فى شهر أكتوبر ٢٠٠٢ أهدانى آخر مؤلفاته: «شواطىء الضياع»، دراسات نقدية، الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ١٩٩٩ ، و«مدائن الوهم»، شعر الحداثة والشتات، دراسة نقدية ، عن دار رياض الريس، أبريل، ٢٠٠٢، ووقع لى باسمه وصفته : «الضائع رغما عنه»! وكانت مجمل مؤلفاته ، البالغة ٤٤ عنوانا، قد رشحته لينال جائزة البابطين لـ «الإبداع فى نقد الشعر».. فى أكتوبر ٢٠٠٢، قال لى هاتفيا وأنا أهنئه : «جائزة كويتية لعراقى تقدم له فى البحرين!».. هل كان ممتنا أم متحسراً لسلب الأفذاذ جائزة الوطن؟

حين رغبت أن أقدم وجهها للعراق ، بعيدا عن الهم والغم والدم، قلت له أحضر مقالا عنك وأريد صورة. فأرسل يقول : «... لست أدرى لماذا تريدين أن تحضرى مقالا عنى؟ لطرد الأرواح الشريرة مثلا؟ أرفق لك صورة لتخويف القطط.. أحسب أن مقدمة (شواطىء الضياع) تعطى صورة عن مخاوف تلبستنى قبل سنوات عما سيحصل بنا ولنا.. وقد حصل (ياويلك من موجات الغد)، استشعار الرعب عن بعد؟

لا أقول نبوءة ولكن الأحداث برهنت.. متعة للناظرين؟!»



د. عبد الواحد لؤلؤة مع زوجته الأستاذة مريم والأبناء بشار ورشا - مدينة العين - ١٩٩٠

***

تلك المقدمة التى أشار إليها فى رسالته كان عنوانها : «الوقوف على شواطىء الضياع» بدأها متسائلا فى تهكم حزين:

«ضائع ؟ وقد بلغت الشواطىء؟..

هل بلغت الشواطىء؟ أم مازلت أصارع أمواجا كواسر تتقاذفنى بين الماء والماء؟ كلما هدأت موجة لعنت أختها.. وتحسب أن موجات الأمس كانت رحيمة؟ يا ويلك من موجات الغد!

وعليك أن تحتفظ بقواك الجسدية وأنت تصارع، لكى تبلغ الشواطىء، وتقف عندها، تتأمل هذه الدنيا الضائعة بين الماء والماء، وكل يدعى وصلا بليلى! عند التقاء الرمل بالماء لا مجال للمكابرة والنفاق، ولا لدفن الرأس فى الرمال، كما تقولوا على النعام ظلما وعدوانا . فالنعام ، أو أى طائر خرج من مأزق أو غرق، يسارع إلى رفع الرأس، والنظر، بعيدا تارة، قريبا أخرى: من أين سيأتى الخطر القادم؟

وضائع أنت، وقد بلغت الشواطىء؟

وترفع الرأس وتتأمل، وتتساءل: ماذا ورثنا فى دنيا تمتد بين الماء والماء؟ كلمات ، كلمات ، كلمات ، قالها هاملت وقد عصفت به الحيرة، يريد أن يعرف ما حدث وكيف انقلبت دنياه عاليها سافلها..»

***

وفى خريف ٢٠٠١، بين ماليزيا

وكاليفورنيا ولندن وعمان، كان يكتب دراسته النقدية عن شعر الحداثة والشتات في مؤلف أسماه بعنوان مقدمته : «مدائن الوهم» التي قال فيها:

«.. وفي العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين تفاقمت ظاهرة غير صحية في المجتمع العربي، اتخذت شكل الاغتراب عن الوطن والعيش في بلاد غريبة ، لأسباب ودوافع شتى.

وكان من بين المغتربين عدد كبير من الشعراء، والأدباء، تفرقوا في شتات عجيب في أقاصي المعمورة، وحملوا معهم ثقافتهم التي بدأت تتأثر بدرجات متفاوتة بثقافات ولغات بلاد الشتات وكان من بعض نتائج ذلك شعر يحمل مياسم غريبة في معانيه وأساليبه . تستعرض هذه الدراسة أمثلة من شعر الحداثة والشتات في العربية ، الذي نشر في حدود العقدين الأخيرين من القرن العشرين.

والغالب من هذه الأمثلة لا يرتفع كثيرا فوق المتوسط من جيد الشعر، عند مقارنته بالشوامخ من تراث الشعر العربي . والتماس التسويغ لذلك بأنه شعر (حداثة) يختلف عن شعر (التراث) هو سعي في حدود الوهم. كما أن التفرق في بلاد الشتات، بحثا عن ظروف حياة أفضل يشير في كثير من أمثلة شعر المغتربين إلى أنه سعي في مدائن الوهم».

***

بلغ الدكتور عبدالواحد لؤلؤة في ٢٠٠٣/٧/١٦ الثانية والسبعين، وحين سألته عن بشار الذي صار في ٩/١٩ الماضي في الأربعين، ورشا التي صارت في الثامنة والثلاثين ، عرفت أن الشتات قد أصابهم جميعا، ولا يخفف من آلامه سوى عزاء الفن الذي أعطى بشارا شهادات عليا في قيادة الأوركسترا، وبعد أن انتهى من دراسته الموسيقية في فيينا وأمريكا أقام في لندن، وقد طاردته شرور حرب الخليج في انعكاساتها على تصرف الأمريكان تجاه العراقيين والمسلمين منهم خاصة ، حتى في المجال الجامعي.

أما رشا – أم فيروز – فقد نالت الماجستير في عزف البيانو من فيينا ومعها الجنسية النمساوية. وتبقى « مريم وعبدالواحد » في عمان، لؤلؤتين يواصلان، رغم كل شيء ، الشغف بالحدائق ، وعلى حد تعبيره في رسالته:

«استشعارا عن بعد، أقضي أيامي ولياليّ في (معاقرة) الترجمة، أرخص أنواع (الأفيون) في هذا الزمن (اللايوصف)، وفي كتابة الدراسات النقدية، ويخضع كل ما أترجم وأكتب إلى (الرقيب الأول)، أم بشار (نصفي الأحسن)، التي تشاركني عذابات المراجعة..» □

العقد: جمعه والنسب إليه

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

- ٢ -

تدارست لجنة الألفاظ والأساليب فى مجمع اللغة العربية أسماء العقود وجمعها وإعرابها والنسب إليها ورأت :

● أنها ليست جمع مذكر سالم، لأنها لم تستوف شروطه، فهى – مثلا – تقع على المؤنث أيضاء، وعلى غير العاقل، وزيادة الواو والنون بها فى حالة الرفع، أو الياء والنون فى حالتى النصب والجر، لم تلحق اسما علما ولا صفة.

● أنها ليست جمع تكسير، لأن شرط هذا الجمع أن يكون له واحد من لفظه يبنى عليه، وألفاظ العقود لايتوفر فيها هذا، فثلاثون – مثلا – ليست جمع ثلاث، وكذلك سائر العقود. وانتهت إلى أنها اسم جمع لا واحد له من لفظه ولامعناه.

فى ضوء هذه الدراسات انتهت إلى القرارات التالية، وأقرها المؤتمر العام للمجمع:

١ – فيما يتصل باستعمال ألفاظ العقود بعد المفرد، وقول الكتاب مثلا: القرن العشرون، والنائب الثلاثون ونحوها، ترى اللجنة:

«أنه ليس هناك ما يمنع من استعمال العقود بعد المفرد فيقال: الكتاب العشرون، والباب الثلاثون، ونحو ذلك».

٢ – فيما يتصل بالنسب إلى العقد على لفظه دون رده إلى مفرده، كما هى القاعدة فى غيره، ترى اللجنة :

«صحة إلحاق الياء بألفاظ العقود عند النسب إليه وجعل الإعراب بحركات ظاهرة على ياء النسب، فيقال: هذا هو العيد الخمسينى».

٣ – تدارست اللجنة بحث الأستاذ الشيخ عطية الصوالحى، والذى عرض فيه حكم جمع العقود، والتزام الياء عند النسب إليها فيقال: عشرينيات، دون عشرينات، لأن اطراد الجمع هذا نتيجة إلحاق ياء النسب، وانتهت إلى القرار التالى:

«ترى اللجنة أن ألفاظ العقود يجوز أن تجمع بالألف والتاء إذا ألحقت بها ياء النسب، فيقال مثلا: ثلاثينيات، ويدل اللفظ حينئذ على الواحد والثلاثين إلى التاسع والثلاثين، وفى هذا المعنى لا يقال: ثلاثينات بغير ياء النسب».

ورأى د. ناصر الدين الأسد، فى بحث له، أن ترك ياء النسب أولى من إثباتها، وأن استعمال العشرينات والثلاثينات والأربعينات أقرب إلى ذوق العربية وأدخل فى أساليبها.

والحق معه نغما وإيقاعا، أما بميزان صواب المعنى، ودقة الدلالة، فالحق فى جانب المجمع. ■

من فلسفة الفن إلى علم الفن

بقلم
د. عبد المنعم تليمة

اعتمد النقد نظرياً ، حتى مشارف العصور الحديثة ، التأملية ، واعتمد تطبيقياً فى التعامل مع الإبداعات الفنية، الجزئية .

فلما جاء قرن التاريخ ، التاسع عشر ، تأسست العلوم الحديثة المنضبطة منهجياً ، وإجرائيا ، علوم التاريخ والاجتماع والنفس . وفى مناخ التطور العلمى الشامل لهذه العلوم والعلوم الطبيعية ، شق النقد سبيله مستفيداً من نتائج كل هذه العلوم الاجتماعية والطبيعية ليكون علماً ثقافياً شاملاً يصوغ الأسس المعرفية لماهية الابتكار البشرى فى كل صياغة أدبية وفكرية وعلمية وليتعامل مع كافة الصياغات فى كافة الحقول . وفى هذين القرنين ، التاسع عشر والعشرين ، قفز النقد قفزات هائلة ، أهمها أنه حرر مفهومين أساسيين ، من التأملية والجزئية فى اتجاه التجريب والعلمية ، أول هذين المفهومين مفهوم الثقافة ، وثانيهما مفهوم الفن، والواقع : يصوغ العلم وتطبيقاته اليوم قاعدة لمستقبل الثقافة . إن الثقافة أداة للإنسان فى التعرف وفى التغيير .

وعلى الرغم من أن مفهوم الثقافة بهذا الشمول والتركيب ، إلا أن الثقافة تتبدى فى تجليات وصور وأشكال مادية وروحية تعكس مساحة (التعرف) الذى وصل إليه البشر فى سعيهم لفهم ظواهر المجتمع والطبيعة ، ومساحة (المعرفة) التى امتلكوها فى هذا السعى ، ومساحة (السيطرة) التى أنجزوها على تلك الظواهر الاجتماعية والطبيعية . وتنتظم تجليات الثقافة وصورها وأشكالها كل الخبرات والتشكيلات والإبداعات والصياغات التى أنجزتها البشرية وصارت فى حيز إدراك الإنسان وممارسته . إنها تنتظم التصورات والمفهومات والمعارف الفلسفية والعلمية ، والخبرات والمهارات العملية والتكنولوجية ، والأنظار والنظريات الأخلاقية والقانونية ، والمبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والإبداعات التشكيلية والفنية والأدبية ، وتنتظم المثل والقيم والعادات والأعراف ، وتفسر الأنماط فى السلوك الفردى والجماعى ، وتفسر الطرز فى الأبنية والمعابد والهياكل.

ولا ريب فى أن من آيات التقدم العلمى وتطبيقاته الراهنة أن العالم يعيش ثورة (معلوماتية) فريدة تعين ، بأداءات وآليات دقيقة منضبطة ، فى الحصول على المعلومات والمعارف والبيانات وجمعها ، وفى تخزين هذه المواد (المعرفية) المجموعة وتنظيمها وتصنيفها وتحليلها وتفسيرها .

إن هذا كله يمثل قوة هائلة تفتح الآفاق الجديدة فى كل مناحى الحياة مادية وروحية ، ويتأسس عليها التخطيط لهذه الحياة .

أين موقع الفن فى هذا العالم النازع إلى التوحيد . يحقق فن المستقبل (وحدته) المعجبة . تزول التخوم بين الأجناس ، والأنواع والأشكال ، وتزول التخوم بين العملية الإبداعية وعملية التلقى وبين المرسل والمستقبل ، ويتغيا الفن المتوحد (الجوهرية) فتتراجع المباشرة والآلية والمرآوية، ومع هذه الوحدة ينهض التعدد وتتنوع المناهج والإجراءات وأساليب التشغيل والإتجاهات والمدارس . ذلك لأن الوحدة لاتقضى على التميز ، إنما تقضى على الانفصال والانعزال .

تنوع المناهج

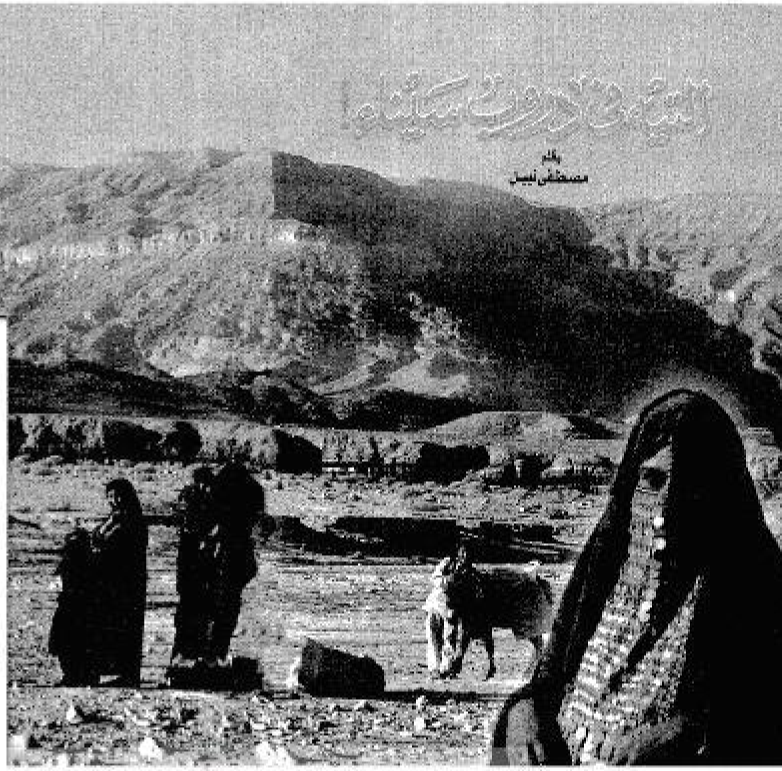
وأين موقع الشعر ، فن الكلمة ؟ كل شواهد اليوم على أن البشرية تنتقل من طور الكلمة إلى طور الصورة . الصورة أقدر من الكتابة بما لايقاس ، وليس معنى هذه العبارة زوال الكتابة ، إنما معناها زوال استقلالها . لقد ظلت الكتابة ، آلاف السنين ، أداة تدوين وتوثيق وحفظ وتوصيل ، لكنها صارت اليوم أضيق من أن تتسع لانهمار المعلومات والمعارف وتراكمها ، وأعجز من (تسجيل) تعقد الإبداعات العلمية والفكرية والفنية وشمولها ، وأبطأ من تلبية حاجات هذه المعلومات والإبداعات ، هذا التوصيل الذى بات يعتمد السرعة والاتساع الكبيرين كما الشأن اليوم يؤدى إلى زوال استقلال الكتابة واندماجها بغيرها . الإشارات والعلامات والإيماءات والنبرات والأداءات والظلال والتمثيل والتشكيل إلخ .. فى وعاء توصيل أقدر وأشمل وأبقى . إن هذا التطور العام يؤثر تأثيراً عميقاً فى التطور الفنى ، يجعل الفنون تتنوع ،

يجعل الفن العظيم هذه اللحظة واحدة من لحظات الإنسانية . إن الخوالد فى الفن هى ثمرة مجتمعاتها ، وهى فى نفس الوقت ذات دلالة إنسانية عامة تمنحها البقاء والخلود .

مرآة العصر .

ويشارك العرب المحدثون والمعاصرون فى هذه الحركة العلمية لتأسيس علم منضبط للنقد ، ينهض فى النظر على منهجية محكمة وعلى إجراءات – فى الممارسات التطبيقية على قواعد تستفيد من نتائج كافة العلوم : كان مدخل طه حسين (العصر) حيث يرى منذ معالجته للشعر الجاهلى إلى معالجته لشعر معاصريه من أمثال جبران وعلى محمود طه ، أن الفن مرآة عصره . وكان مدخل أمين الخولى (البيئة) ، حيث يرى أن الفن نتائج بيئته . وكتب الخولى فى ذلك كثيراً وفجر معارك فكرية حتى أسس على مفهوم البيئة مادة الأدب فى الجامعة المصرية . وكان مدخل محمد مندور (المجتمع) ، حيث كان يأسس علمه النقدى – نظريا وتطبيقياً على أسس معرفية تنهض على العوامل الاجتماعية الفاعلة . وكان مدخل لويس عوض (الفكر) ، حيث كان يفتش أبداً ، فى الفن عن التماس المذاهب والملل والنحل والإيديولوجيات . كانت حركة التجديد العربى تفتش عن (مقومات) وخصائص لـ (شخصية) الأمة ، وكانت هذه المقومات والخصائص فى أغلب الأحيان مثالية ثابتة مطلقة ، وكان رواد هذه الحركة يوقنون بأن الكشف عن هذه المقومات والخصائص إنما يعين فى تحديد (هوية الأمة .

ويضيف الفكر العربى المعاصر ، بعد جيل الرواد إضافات مرموقة أهمها تجاوز ثنائية (الشكل والمضمون) . وينهض هذا التجاوز على مفهومات محررة للمصطلحات الأربعة : الجمال والفن والواقع والمجتمع يتأسس هذا المدخل على أن العمل الإبداعى تشكيل جمالى لموقف . وقد يرى راء أن هذا يوجد ثنائية جديدة : التشكيل والموقف . وليس هذا بشىء . لأن مذهبنا إنما يعنى – فى البدء وفى الانتهاء أن النص تشكيل ، ينتهى مع آخر وحدة من وحداته إلى موقف ، بمعنى أن التشكيل عماد النص والفيصل فى (وجوده) ، وأن الموقف ثمرة لهذا التشكيل وليس طرفا موازيا له فى ثنائية جديدة تحل محل الثنائية القديمة : شكل ومضمون . ولابد فى هذا الشأن من النص على أمرين : أولهما أن عمل الفنان إنما يرتد جملة وتفصيلا إلى اقتداره التشكيلى . وليس معنى الاقتدار (الحذق) – الذى ينتظم درجة استيعاب تقاليد النوع الفنى وتشكيلاته المتواترة – وحده . بل مفاد هذا الحذق موجها بموهبة مغزاها العميق أن الفنان (يرى) واقعه مشكلا . وثانيهما أن (موقف) الفنان إنما يرتد إلى طائفة معقدة من العناصر والمكونات الموضوعية والذاتية والاجتماعية والفردية الفكرية والوجدانية ، الماثلة والمثالية . لما كان موقف الإنسان – فنانا وغير فنان يمكن أن (يفرز) بوسائل إشارية وتعبيرية لا نهائية ، فإن الموقف فى الفن لايمكن أن (يبين) بوسائل تشكيلية جمالية من هنا كان المدار فى قراءة النص التشكيل ، مذاهبه وطرائقه وأساليبه وإجراءاته . □



بقلم
مصطفى نبيل

ليست هذه هي المرة الأولى التي أتناول خلالها «المشروع القومي لتنمية سيناء» ، ولن تكون الأخيرة .

فكلما جاءت ذكرى حرب أكتوبر ، وسمعنا أصوات الشهداء، وتذكرنا التضحيات الغالية التي قدموها من أجل استرداد سيناء ، تذكرنا الوعود الكثيرة الخاصة بتعميرها ..

ولا ينبغي أن يكون هذا المقال مسألة موسمية ، بل يجب أن يشغلنا جميعاً على كل المستويات ، وفي كل الأوقات وفي مختلف المواقع «تعمير سيناء»

فمازالت «سيناء» تئن وتشكو من إهمال أبناء الوادي ، وسيحاسب أبناء الوادي يوماً لا على ما قاموا به نحوها ، بل على ما لم يقوموا به ، ولن نكف عن الدعوة إلى ضرورة الإسراع في مشروعات التعمير ، وبيان أوجه النفع من ذلك بعد مضى ثلاثين عاماً على انتصار أكتوبر ، ومن الطبيعي أن نتساءل على ما تحقق خلال هذه الفترة ، ونطالب بضرورة زيادة وتيرة العمل ، خاصة كلما تذكرنا التضحيات الهائلة التى قدمناها على محراب سيناء .

ولا يمكن لنا إنكار الجهود التى بذلت فى هذا الصدد ، ولكن لا يمكن أيضاً إنكار أن هذه الجهود ليست كافية .

فسيناء «قدس الأقداس» وأرض التحدى والمستقبل ، وهى المشكلة والحل معاً ، ونتذكر تلك التصريحات الواعدة وإعلان المشروع القومى لتنمية سيناء وتعميرها والتى تضمنت العمل على نقل ثلاثة ملايين نسمة من سكان الوادى إليها ، والعمل على تطوير مواردها .

وإمكانياتها الاقتصادية الكبيرة من أرض زراعية وثروات معدنية وأخرى سمكية علاوة على الإمكانيات السياحية ، وأعلن أنه عند إتمام المشروع سنة ٢٠١٧ ستصبح أجمل بقاع الأرض رونقا وتقدماً وجمالاً .

وهو مشروع طموح ، ويتضمن مثلاً تحويل «نخل» وهى البلدة التى تضم القلعة التى بناها السلطان قنصوه الغورى سنة ١٥١٦ م ، إلى واد للتكنولوجيا المتقدمة وإنشاء معاهد متخصصة ومراكز أبحاث تضارع أرقى المعاهد التكنولوجية الـ (M.I.T) .

كما يتيح المشروع فرص عمالة تصل إلى ٨٠٠ ألف فرصة عمل ، فى المشروعات الحكومية المتعلقة بإقامة البنية الأساسية وبتكلفة ٧٥ مليار جنيه.

وتمضى الأيام سريعة ولا يتحقق من ذلك المشروع الطموح سوى القليل، فتم - بالفعل - كسر العزلة التى كانت تعيشها سيناء ، وأقيم نفق الشهيد أحمد حمدى وجسر الفردان ، وتم تطوير ميناء العريش ، وبقى عودة خط السكة الحديد إلى العمل والذى يصل من القنطرة إلى رفح .

وأتذكر متى بدأت علاقتى بسيناء ، ومتى وطأت قدماى أرضها المقدسة أول مرة ؟.. ، جاء ذلك مع قصف المدافع وأزيز الطائرات ، عقب هزيمة يونيو .

ولذلك قصة لم يحن الوقت بعد لروايتها كاملة ، فبدأ الهجوم الإسرائيلى فى ٥ يونيو بينما كنت فى زيارة للمغرب، التى سافرت إليها بعد حضور مؤتمر «الاشتراكيون العرب» فى الجزائر ، وسارعت بمحاولة العودة عن طريق ليبيا ، ورفضت السلطات القنصلية الليبية إعطائى تأشيرة دخول لأراضيها حتى أصل منها إلى القاهرة براً ، فعدت إلى الجزائر ضيفاً على الرئيس الجزائرى هوارى بومدين، ومن هناك عدت على أول طائرة تهبط مطار القاهرة بصحبة السيد عبد العزيز بوتفليقة الذى

الشعب المرجانية والأسماك الملونة أجمل ما يميز مياه سيناء ◄



الطبيعة الخلابة على شواطئ سيناء



كان وزيراً لخارجية الجزائر أيامها ، ومعه الرائد سعيد عبيد ممثلا للجيش لكى يتعرف على الدعم الذى تحتاجه القوات المسلحة ، وهو الذى اتهم بالتآمر وأعدم فيما بعد!.

توجهت بعد وصولي إلى القاهرة مباشرة إلى بور سعيد التى بدأ فيها تنظيم المقاومة الشعبية ، وأخذ كل من السيد عبد الفتاح أبو الفضل فى العمل ومعه مما أذكرهم جمال الألفى وعاطف زيد (سكرتير محافظة القاهرة وقتها) ، ومن بين المتطوعين معيدان فى كلية الطب جامعة القاهرة ، وللأسف غاب عنى إسمهما ، رغم الأعمال المجيدة والشجاعة الفائقة التي قاما بها ، وكان معنا الصديق سعد زغلول فؤاد ، وكانت المهمة الرئيسية إقامة أماكن مؤقتة على شاطئ بحيرة البردويل لاستقبال الجنود العائدين ، وإجراء الإسعافات الأولية للذين قادهم البدو إلى هذه الأماكن ، ثم نقلهم بمراكب الصيد إلى بور سعيد .

ولعب كل من بدو سيناء وصيادى بحيرة البردويل دورا حيويا ، وتشكلت منهم شبكة تسهم فى وصول الجنود إلى أماكن الاستقبال المعدة لذلك ..

وترددت بعد ذلك على أرض سيناء كثيراً بعد انتصار اكتوبر وتفقدت ما تبقى من خط بارليف ، وبعد الجلاء الإسرائيلى عام ١٩٨٢ ، وتجولت فيها من الشمال إلى الجنوب .. «ذلك القفر الجميل الموحش» .

المشكلة والحل !

وسيناء هى المشكلة والحل ، لأنها تقدم حلا لأخطر المشاكل التى تواجهنا ، وهو الاكتظاظ السكانى فى الوادى الضيق ، وهى الحل عندما تتحول عند تعميرها سداً بشرياً ودرعاً للوطن ، وحين تمتص جانبا من الكثافة السكانية وعندما تقدم سيناء تجربة تحتذى فى تعمير الصحارى المصرية الشاسعة .

وغزو واقتحام الصحراء ، أمر جديد نسبياً على مصر ، فإذا تذكرنا أن عدد سكان مصر عند قيام ثورة يوليو قارب ٢٠ مليون نسمة ، تكفيهم مساحة الأرض الزراعية المتاحة ، وبعدها أخذت مساحة الأرض الزراعية تتناقص وعدد السكان يتزايد ، والذى يصل اليوم إلى ٧٠ مليون نسمة ، وأخذت العشوائيات تلتهم ما يزيد على مليون فدان من الأرض الزراعية ، وعاد البحث عن آفاق وأرض زراعية جديدة ، وعن مصادر جديدة للمياه ..

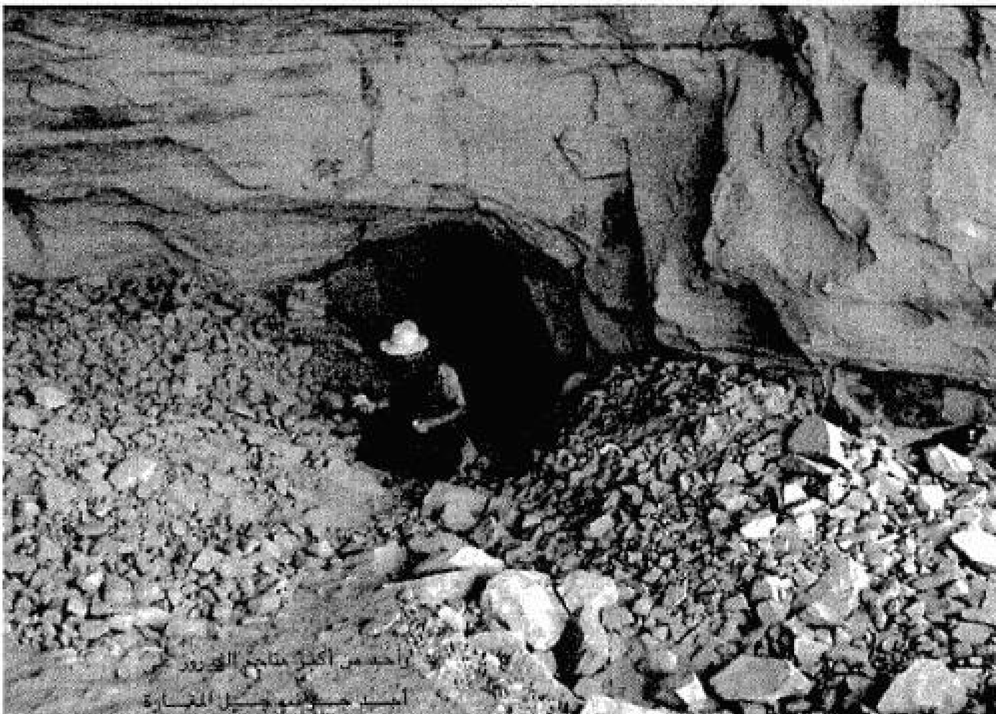
وهى قصة طويلة نتناول بعض جوانبها ..

توجد مقالتان معبرتان – فى وقت مبكر – عن هذه المشكلة ، إحداهما لإسماعيل صدقى فى مجلة «مصر المعاصرة» ، والأخرى للأمير عمر طوسون عن «مالية مصر» ، وكلاهما أدرك مخاطر تناقص مساحة الأرض الزراعية . ورأيا الحل فى الامتداد نحو السودان الذى كان جزءاً مكملاً لمصر .

التوازن

فالتوازن بين السكان والأرض الزراعية كان على الدوام إحدى أولويات

نقوش جدارية على الواجهة الشرقية لجبل المغارة تعود إلى ٢٦٠٠ ق.م

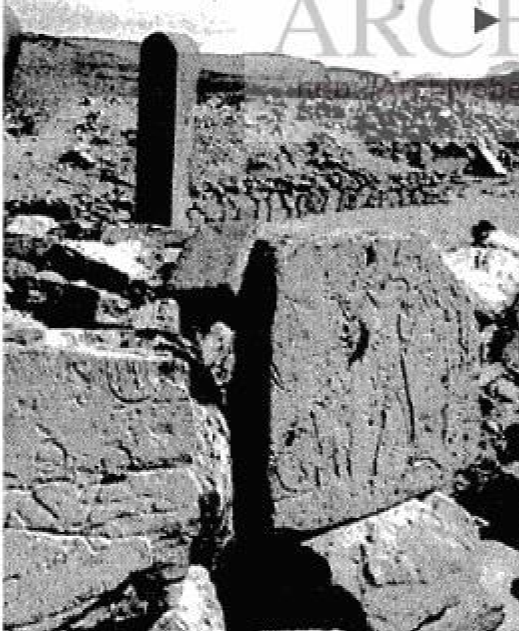


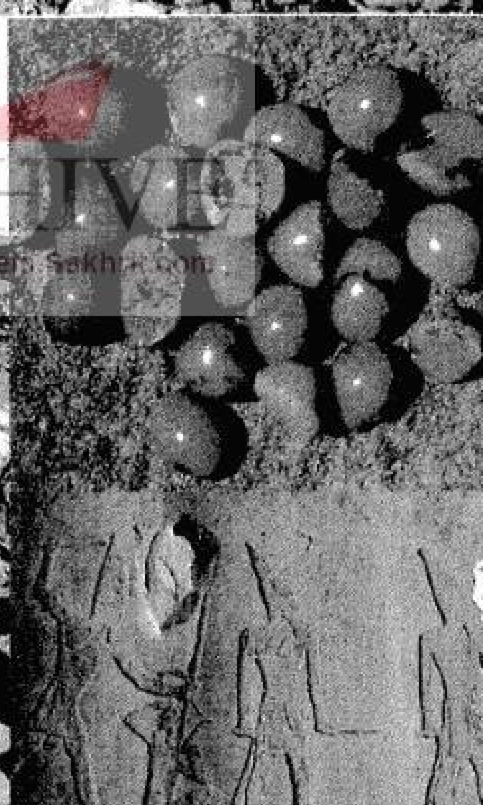
واحد من أكثر مناجم الفيروز

أشهر جبال جبل المغارة

الفيروز اكتشف في سيناء منذ المملكة القديمة في الألف الثالثة قبل الميلاد

أطلال «جبل القلعة» التي تحوي معبد «حاتور» من الأسرة الثانية عشرة





الحكم في مصر . وكان محمد على أول من شغلته هذه المسألة يوم كان عدد السكان أربعة ملايين نسمة فحسب ، كما قامت في مصر ثورة زراعية في مطلع القرن التاسع عشر، عندما كان عدد الأفدنة التي تزرع ثلاثة ملايين فدان وأصبحت في نهاية القرن خمسة ملايين فدان .

واتصلت هذه المحاولات في النصف الأول من القرن العشرين ، سواء بتجفيف البحيرات الشمالية ، أو قيام مشروع مديرية التحرير ، وتوج ذلك ببناء السد العالي الذي ضاعف رقعة الأرض الزراعية ، نتيجة زيادة كمية المياه وإنقاذ ٣٢ مليار متر مكعب كانت تهدر في البحر ، وزادت رقعة الأرض الزراعية ٢.٨ مليون فدان ، وما نزرعه اليوم هو ٦ ملايين فدان (كتاب النيل - د. رشدي سعيد) .

كما شهدت مصر إحدى المبادرات الشجاعة سنة ١٩٥٩ في أول تفكير جدي للخروج من الوادي الضيق وشبكات الري المتآكلة ، والاتجاه خارج الوادي ونحو زراعة الواحات التي كانت مناطق نائية وبها عدد قليل من السكان وبعض النخيل والقليل من الآبار الإرتوازية ، وبلغت مساحة ما يزرع في الواحات ، الداخلة والخارجة والفرافرة والبحرية وسيوة مالا يتجاوز ثمانية آلاف فدان .

وتطلع المشروع الجديد إلى إقامة واد جديد في محازاة وادي النيل ، ولم ينجح هذا المشروع عندما تبين ندرة المياه ، التي دلت الأبحاث العلمية على أنها غير متجددة وعلى أعماق بعيدة .

ولم تتوقف المحاولات والتي وصلت إلى الركن الشمالي الغربي في شرق العوينات التي تم زراعة ١٩٠ ألف فدان ، وتوفير سبعة آلاف متر مكعب من المياه للفدان ، باستخدام الطاقة الشمسية والتقنية الحديثة .

وتزيد أهمية هذه المحاولات إذا عرفنا أن مساحة مصر تبلغ حوالي مليون كيلو متر ، ولا تزيد مساحة وادي النيل على ٤٪ من المساحة ويظل ٩٦٪ من أرض مصر شبه خالية .

لذا فتعمير سيناء هو المشكلة وهو الحل . فتعمير سيناء هو جزء من تعمير الصحراء في مصر كلها .

مجتمعات جديدة

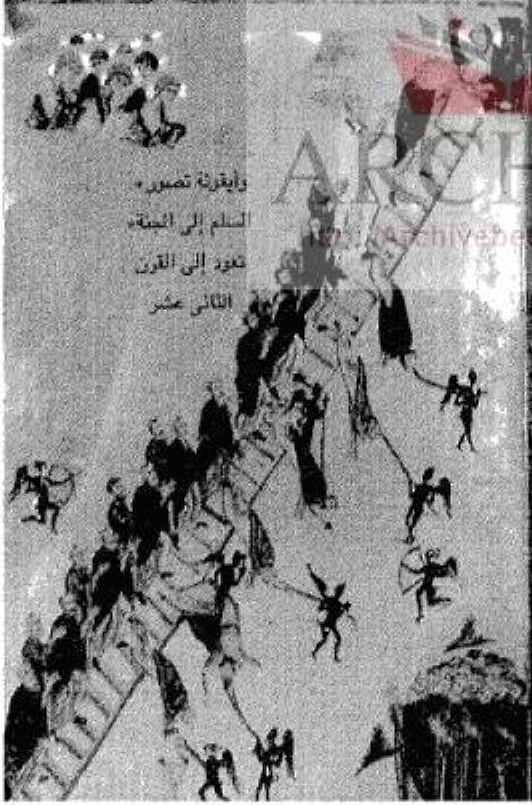
سقطت عزلة سيناء القديمة ، وتغلبنا على الحاجز المائي ، وحان الوقت لإقامة مجتمعات عمرانية جديدة ، ونقل السكان خارج الوادي بشكل لا قصر فيه ، ولا يجوز إقامة هذه المجتمعات في معزل عن قضية الأمن القومي . ولا حاجة إلي التأكيد على القيمة الاستراتيجية لإقامة هذه المجتمعات ، فلا تترك أطراف مصر فارغة من القوة البشرية ، أو تترك بها ثقوب . فالحدود الآمنة هي الحدود البشرية التي يعطيها الإنسان صلابة ومناعة .

وتعتبر مصر كما جاء على لسان جمال حمدان .. «دولة الصحراء الأولى في العالم .. ودولة النهر الأولى أيضاً »

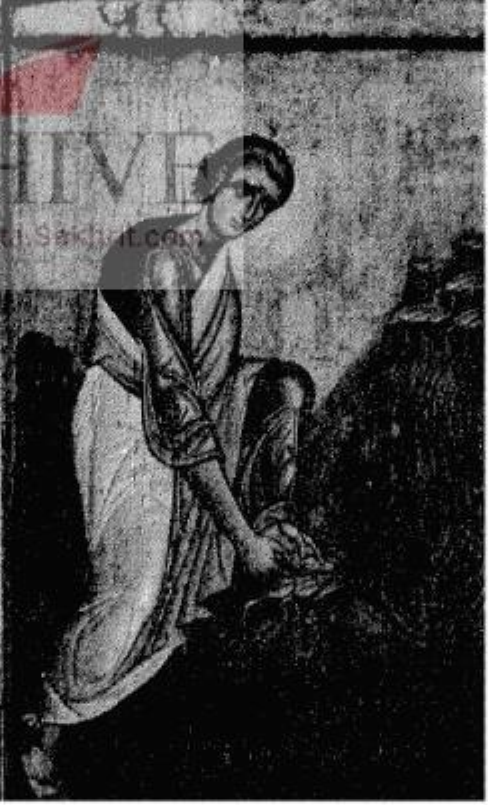
صورة تخيلية لسيدنا موسي وهو يخلع نعليه بالوادي المقدس طوي



دير سانت كاترين



وأيقونة تصور السلم إلى الجنة تعود إلى القرن الثاني عشر



وسيناء متنفس متاح لاستيعاب جزء من الزيادة السكانية ، وهي المجال الطبيعي لإقامة المجتمعات الجديدة في بيئة ساحرة ، وإقامة المراكز السكانية التي يمكنها استيعاب جزء من الأعداد التي يضيق بها الوادي ، وبذلك تسهم سيناء في حل معضلة مصر الرئيسية .

على أن تصبح منطقة جذب سكاني، ولعلنا نذكر تكالب العاملين على العمل في شركات البترول في المناطق النائية ، نتيجة الامتيازات المقدمة لهم ، وأليس من الممكن أن تصبح سيناء مغرية أكثر من بعض المناطق في دول الخليج ، وأن تكون البديل الطبيعي عن هجرة آلاف المصريين إلى دول أخرى بحثًا عن فرص العمل .

إن التعمير المطلوب هو الذي يخدم الرؤية الوطنية العامة ويثريها ، وهو ليس مجرد قرارات فوقية أو بيروقراطية ، بل هو خطط ومراحل مدروسة ، كما أن تجربة نقل مجتمعات بشرية إلى أرض جديدة وآفاق بعيدة هي عملية دقيقة لها شروطها ومقتضياتها ، وتحتاج للكثير من البحث والدراسة والتأمل .

وحان الوقت - بعد مضي ثلاثين عاما على مشروع تنمية سيناء - لكي يعاد النظر في الكثير من الأمور، مثل الخطط والمشاريع والطرائق المرسومة ، وأن تشهد سيناء عملا غير تقليدي ، وتغييرا نوعيا في أساليب التنمية التي تستهدف رفاهية سكانها ، وأن يقوم التعمير على أساس تصور شامل وأهداف وبرامج محددة وعلى أساس جدول زمني ، وأن يكون هذا التصور جذابا وملهما ، وأن يتجنب وطأة البيروقراطية وأمراض الوادي المستعصية .

وأن نتجه إلى الميزات النسبية ونعمل على الاستفادة منها ، وأن يتحلق السكان - القدامى والجدد - حول مراكز الإنتاج والعمل على جذب الاستثمارات العربية وخاصة من السعودية والأردن وفلسطين .

وفي سيناء الكثير مما يدعو إلى الأمل ، فمثلا بها ما يزيد على ٥٢٧ نوعا من النبات الذي لا يوجد مثيله في الوادي ، بل ويزرع فيها الكثير من النباتات الطبيعية التي مازال يستخدمها «الحكيم» التقليدي الموجود بين العشائر في الحياة البدوية .

كما لا يجب أن يقتصر الإنتاج على المصانع الكبيرة والتكنولوجيا المتقدمة ، بل على المشاريع والأفكار التي تحتاج إلى عمالة كثيفة ، وتقدم كل من التجربة الصينية واليابانية نموذجين للإنتاج الذي يسهم فيه عدد كبير من الأهالي، يساهمون في بيوتهم، وكثيرا ما يكون بصورة جماعية ، أي يشترك فريق في منتج واحد، سواء كانت منتجات حديثة أو منتجات يدوية.

وأن تجمع خطة تعمير سيناء بين الإنتاج التقليدي كالرعي وصيد السمك وبين الإنتاج الحديث ولا تقتصر على أحدهما ، مستغلين في ذلك ما تتمتع به أرض سيناء من تنوع .

ويحدث ذلك عندما تشهد سيناء

رأس الإلهة حاتور في المعبد الذي سمي باسمها في جبل القلعة



لوحة تصور الكدانيين يأخذون الجمال
ويشحون الجمالي - دير سانت كاترين



روحا جديدة ، وإيمانا وجدانيا عميقا بالمستقبل ، من خلال خطة حكيمة ، تعرف لكافة ، ولا تتحول هذه الخطة من للبادرات الفردية ، وأن تتحدد الأولويات بدقة ، وأن توكل مهام التعمير إلى مؤسسة واحدة مستقلة ذات صلاحيات كاملة ، كما حدث من قبل بالنسبة لمشروع السد العالي وكل المشروعات الكبرى .

وهل يمكن أن تتحول سيناء على ما شهدته الصين ، عندما جعلت منطقة شنتشهاي منطقة ذات طبيعة خاصة حررتها من كل القيود واعتبرتها منطقة مستقلة ، لا تتنقل إليها النظم البيروقراطية بين شتى الطلبات والطرق الملتوية في إدارة العمل .

وواضح أن لكل مكان طبيعته ومقوماته الخاصة التي يستمد جزءا منها من تاريخه ، وهو ما يظهر بوضوح في سيناء ، فهي منطقة قديمة وعريقة ، ويرتبط الإنسان ببيئتها المميزة ، ويتكامل مع البيئة المميزة التي تحيطه .

ولا يمكن لأي مشروع للنهضة أن يقفز على هذه الوقائع .

فمن مميزاتها الطول النسبي لسواحلها بالمقارنة بنسبة السواحل المصرية ، ويصل طول سواحلها إلى ٧٠٠ كيلو متر وتمثل ٣٦٪ من طول السواحل المصرية ، وهي تقع على البحر الأبيض ويحتضنها البحر الأحمر ، وهذا يعني مشاريع تتناول السياحة والموانئ والصيد ، لذا ازدهرت المدن الساحلية أكثر من المدن والقرى الداخلية .

ويحقق البيروقراطية إعطاء الاهتمام الأكبر للسياحة ، التي توافق هواها ، كما أنها النشاط الأسهل والأكثر ربحا ، ورأينا شرم الشيخ تتحول إلى منتجع عالمي يأتي إليه السياح من كل مكان ، وتمتد القرى السياحية من شرم الشيخ حتى دهب ونويبع وطابا .

وتقوم على أرض سيناء الكثير من الوقائع الدينية المقدسة ، لقد عبرها النبي موسى والعائلة المقدسة ، وبها مزارات تضم الكثير من المزارات الدينية .

النخيل والزيتون

والنخلة من أشهر وأقدم الأشجار في سيناء ، وتمتد باسقة على طول الشاطئ وتزداد كثافة وجمالا في منطقة الشيخ زويد ، وعلى الامتداد بين العريش ورفح ، وراعني وأدهشني اقتلاع النخيل في بعض المناطق لإقامة التجمعات السياحية ، سواء من المحافظة أو من الأهالي !

ويمكن إقامة الكثير من المشاريع حول النخيل ، فيمكن تصنيع منتجاته ، مثل العجوة والعسل الأسود واستخراج الزيت من النوى ، بالإضافة إلى الحبال والخوص وصنع الأثاث من الجريد .

ويوجد أكثر من ٧٥ ألف شجرة زيتون ، وهي مع التين والنخيل أقل الأشجار احتياجا للماء ، ويمكن إقامة الكثير من الصناعات على الزيتون من استخراج زيته إلى تخليله .

وهناك الكثير من النباتات التي تعتمد على المياه المالحة .

ولا يجوز تجاهل الحرف التقليدية ، ولذا يجب تطويرها ، مثل الرعي ، أقدم حرف بدو سيناء ، والأفضل نسق اقتصادي يتلاءم مع المناطق شبه القاحلة ، ومن المؤكد أن انتشار التعليم ووصول أعداد متزايدة من الشباب إلى التعليم العالي سيؤثر في تطوير سيناء ، كذلك توجد مساحات كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة يقدرها البعض بخمسة ملايين فدان إذا وصلت لها المياه سواء الجوفية أو من ترعة السلام .

ولعل من الخطوات المهمة لنجاح التعمير دراسة احتياجات الناس الفعلية وعدم الاكتفاء بالدراسات الأكاديمية التي يأخذ بها المخططون وبيوت الخبرة الأجنبية دون دراسة كافية أو معرفة بالواقع .

ومازالت الثروة المعدنية تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة ، خاصة بعد



سيناوي وجمله — طفلة من بدو سيناء — بدوي بملامح المصري العربي — بدوية تبرز بملابسها المميزة — الشاي وسط أحجار سيناء

التقدم العلمي المذهل والوصول إلى المعرفة الدقيقة من خلال الاستشعار عن بعد بالأقمار الصناعية، وتوجد شركة أمريكية هي فريبورت لاستخراج الكبريت واستغلاله بالإضافة إلى شركات البترول العاملة هناك .

ويصاحب الرغبة في جذب أبناء الوادي إلى سيناء بالضرورة جهد مواز لتوطين البدو وتوصيل الخدمات إليهم ، ومد شبكات الطرق إلى كثير من الأنحاء وربط المدن والقرى ببعضها .

ويراعي ما خلفته تجربة الأهالي مع الاحتلال الإسرائيلي ، منها الإيجابي الذي أدى إلى مقت الاحتلال، ومنها ما هو سلبي عند المقارنة مع الإدارة المصرية ، ويذكرون مثلا ، كيف وصلت المروحية الإسرائيلية بسرعة لنقل الأم التي تعثرت ولادتها أو الصبي الذي أصيب في حادث إلى المستشفى !

ترعة السلام

الشقة واسعة بين الوقائع والآمال ، بين ما سبق إعلانه وما يتحقق بالفعل، فقد تأخرت طويلا ترعة السلام ، وهذا المشروع مفصل جوهري في عمليات التعمير ، فندرة السكان إحدى نتائج ندرة المياه .

وقد رأت الإدارة المصرية أن تستغل ماء نهر النيل من مشروعات التوسع الأفقي ، مثل مشروع ترعة السلام ، ومشروع ترعة الحمام ومشروع توشكى .

ووضعت آمال كبيرة على ترعة السلام ، وبقيت أرض سيناء عطشى ، وتأخر تنفيذ المشروع طويلا ، ويبلغ طول ترعة السلام ٣٦ كيلو مترا ، وتعبر قناة السويس بواسطة سحارة ، وهو مشروع ضخم لا يحظى بالإعلام الكافي عنه ، وتستمد ترعة السلام مياهها من فارسكور حتى شمال مدينة القنطرة عند رأس العش ، وتصل إلى سهل الطينة في محاذاة البحر الأبيض حتى تصل إلى مشارف بحيرة البردويل ، وهناك فرع آخر مواز لقناة السويس .

وتم حفر وتبطين ٨٦,٥ كيلو متر وبناء خمس محطات رفع ، وبقيت محطة واحدة ، وأنفق على المشروع حتى الآن خمسة مليارات جنيه من التكلفة التي تبلغ ستة مليارات جنيه ، وسيكتمل المشروع بعد إقامة قناة جونجلي ، أي بعد نهاية الحرب الأهلية في جنوب السودان !

والمدهش أن تأخير هذه المشروعات يتكرر في عدد من المشروعات المشابهة، ففي الوقت الذي لم تكتمل فيه ترعة السلام بدأ العمل في مشروع آخر هو مشروع توشكى ، رغم أن ترعة السلام أولى بالرعاية ، والأفضل أن ينتهي مشروع ثم يبدأ مشروع آخر جديد ، والغريب أيضا أن ترعة الحمام التي تصل إلى العلمين على الساحل الشمالي الموازي للبحر الأبيض ، لم تضخ فيها المياه بعد ، وستردمها الرمال من جديد ، وهذا يعني إهدار المال وزيادة الإنفاق الرأسمالي دون عائد .

كما يؤكد الجيولوجيون غنى سيناء

نقوش ترجع إلى العصر المملوكي أيام قنصوة الغوري في القرن السادس عشر



بالمياه الجوفية ومياه الأمطار ، إذا أقيمت السدود المناسبة التى تحافظ على مياه الأمطار ، وحفرت الآبار الارتوازية ، ولابد من استغلال كل قطرة ماء .

من الهكسوس .. إلى بنى اسرائيل !

ومن المؤكد أنه فى ذكرى انتصار أكتوبر يصبح الاستكمال الطبيعي لمشهد العبور المهيب ، هو تنمية سيناء وتعميرها ، وتمثل الذكرى حافزا على زيادة معدل العمل من أجل تعمير سيناء ، وعندما يتوالى فيض صور تلك الأيام التى مازالت حية فى ذاكرتنا ، وعندما نتذكر موكب الشهداء الذين دفعوا حياتهم ثمنا لكل حبة رمل ، والصور التى عشناها على سواحل بحيرة البردويل نجمع فلول الجيش المنسحب فى عام ١٩٦٧ كفيلة بمد الجميع بطاقة هائلة للجهد والعمل ، فلعل عمق اللحظة ورفاهة المشاعر تظل حية ودافعا من أجل دوام الجهد وتحقيق تعمير سيناء ، ولن ننسى أن أرض سيناء بقيت طويلا ساحة الصراع تلتقى على أرضها الجيوش ، سواء المدافعة أم المهاجمة ، ويكفي أن نذكر أنها شهدت مالا يقل عن خمسين حربا كبرى من الهكسوس وحتى الإسرائيليين ، وامتزجت رمال سيناء بدماء المدافعين عن الشريان الذى يصل إلى قلب مصر . من شاروهن الهكسوس ، وقادش تحتمس إلى قرقميش البابليين ، وحطين صلاح الدين ، وعين جالوت قطز وبيبرس ، ومرج دابق الغورى ، وعكا نابليون ، وحمص ونصيبين محمد على !

وإذا تحدث هذا الدرب الذى يقود إلى قلب مصر فلديه الكثير الذى يرويه

ونتساءل .. هل بطء التعمير ، يعود إلى أن قرار التعمير لم يحسم نهائيا بعد ؟! .. أم أن التقاعس يعود فى بعض جوانبه إلى مصاعب الاستثمار فى سيناء كجزء من الاستثمار فى مصر المحروسة وما يواجهه من عقبات، ومازلنا فى انتظار الاستثمارات الأجنبية التى لا تأتى !

أم أن هناك شروطا لم تتحقق مثل دور أكبر لمراكز البحث ، والجامعات والجمعيات الأهلية والنقابات والقوى السياسية ، الذين عليهم أن يقدموا الدراسات والآراء التى تضئ الطريق أمام صاحب القرار ، ومثل ضرورة توحيد الجهات العديدة التى تقوم بمسئولية تعمير سيناء ، تجنبا للخلاف والتضارب ، بين كل من هيئة تعمير الصحارى ، ومعهد بحوث الصحراء ، وجامعة قناة السويس التى أقامت ثلاثة مراكز علمية ، أحدها مركز بحوث التنمية الزراعية في العريش ، ومركز البحوث الجيولوجية والمعارف والبترول فى سانت كاترين ، ومركز العلوم الجيولوجية فى شرم الشيخ يضاف إلى ذلك الوزارات والمحليات .

أم أن التقصير يأتى من الإعلام الذى عليه مهمة حشد الرأى العام وراء برامج وخطط تعمير سيناء ، ومتابعة وإشراك وتفاعل الرأى العام مع كل

خطوة نحو التعمير .. ؟!

وعلى أية حال .. فهذا التقصير يعنى عدم إدراك طبيعة ما يجرى حولنا، والآثار التى تتهددنا ، فمثلا لسيناء حدود مشتركة مع قطاع غزة الذى يبلغ طوله ١٤ كيلو مترا ومساحته تبلغ ٢٣٦ كيلو مترا ، ويعيش عليه قرابة المليون نسمة ، وأحد الأهداف المعلنة لبعض الدوائر فى إسرائيل ، هو التهجير (الترانسفير) ، بحجة أنه لا يمكن أن تتجاور منطقة بها سكان أكثر من اللازم إلى جانب منطقة قليلة السكان .

وهذا يعنى ضرورة الإسراع فى عمليات تعمير سيناء .

النخب المصرية

ولم تقصر النخب المصرية فى المناداة والتنبيه إلى أهمية «تعمير سيناء» ، والقائمة طويلة تضم الدراسات والأبحاث حول «قدس الأقداس» ، ومن هذه الكتب كتاب قديم بعنوان «تاريخ سيناء» والذى كتبه نعوم شقير (١٨٦٤ - ١٩٢٢) . والذى صدر عام ١٩١٦ ، ويذكر فيه .. «خصت الطبيعة مصر بأربعة حصون منيعة ، البحر الأبيض من الشمال ، وشلالات النيل فى الجنوب وصحراء ليبيا فى الغرب وصحراء سيناء من الشرق» ، وتحول حصن الشرق إلى بوابة خلال الحروب المصرية الإسرائيلية من ١٩٤٨ وحتى ١٩٧٣ !

ويأتى بعده الكتاب الفذ الذى كتبه د. عباس عمار فى منتصف الأربعينات عن سيناء وأسماه «المدخل الشرقى لمصر» ، وكتاب آخر للدكتور جمال حمدان ، صادر عن كتاب الهلال سنة ١٩٩٣ وهو جزء من كتاب «شخصية مصر» ، ونشر د. رشدى سعيد سنة ١٩٥٦ كتابا صغيرا بعنوان «تعمير شبه جزيرة سيناء» ، وكتب إبن سيناء درويش مصطفى الفار كتابا بعنوان «فى تعمير سيناء» وكتاب آخر للزميل محمود المراغى بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة «سيناء الحرب والمكان» وكتاب آخر للزميل فتحى رزق بعنوان «رباعية سيناء» ، كما صدرت موسوعة سيناء اشترك فيها د. محمد السيد غلاب ، د. محمد صبحى عبدالحكيم ود. أحمد فخرى ، ود. رشدى سعيد وآخرون . وكتاب «سيناء .. بوابة مصر للقرن الواحد والعشرين» لحسن كامل راتب ، وقائمة طويلة من الكتب والدراسات يصعب حصرها ، وحان الوقت للاستفادة منها ، وتحويلها إلى خطط عمل .

وبعد ..

علينا أن نذكر الأعمال البطولية التى قام بها أهل سيناء ، من شبكة البدو الذين ساهموا فى المقاومة والعمليات الفدائية ، وما جرى عندما تحولت بعض البلدات وبعض الأحياء السكنية فى العريش إلى مناطق لا يدخلها جنود الاحتلال مثل الفواغيرية، وصور المقاومة المختلفة ضد سلطات الاحتلال والتضحيات الكبيرة التى قدموها ، وحان الوقت لكى نرد بعض ما قدموه . □


صدام حسين


أسامة بن لادن

نموذج فاضح لأكاذيب الغرب

بقلم
د. عبدالعظيم أنيس

لنظام صدام حسين فى العراق خطايا وجرائم عديدة ، لكن لم يعرف على طول تاريخه أنه على علاقة ما بتنظيم قاعدة أسامة بن لادن ، وهو الوهابى المتطرف دينيا إلى حد الإرهاب ، بينما نظام صدام حسين «علمانى» معاد للجماعات الدينية التى تعمل بالسياسة ، وما قصة ضرب الشيعة والفتك بهم بعد انتهاء عملية «غزو الصحراء» بعيدة عن الأذهان .

لهذا كان غريبا أن تلجأ أجهزة الدعاية الأمريكية والبريطانية إلي فبركة صلة بين نظام صدام حسين وأسامة بن لادن وقاعدته ، والحقيقة أن حكام واشنطن ولندن كانوا في أشد الحاجة إلى هذه الفبركة لتبرير هجومهم على العراق باعتباره محاربة للإرهاب الدولي ، فضلا عن البحث عن أسلحة الإرهاب الشامل التي يخبئها صدام حسين .

وهكذا بدأ السيناريو المفبرك بتصريح لوزير داخلية براغ بأن محمد عطا (قائد عمليات ١١ سبتمبر كما يزعمون) قابل أحمد خليل سمير العاني ، القنصل الثاني للسفارة العراقية فى براغ ، ووفقا لأقوال المخابرات التشيكية فإن مصدر هذه القصة هو مهاجر عربي تطوع بتقديم هذه المعلومة بعد أحداث

١١ سبتمبر وبعد نشر صورة محمد عطا في الصحف .

لكن القصة المزعومة تم بحثها في المخابرات الأمريكية العديد من المرات وثبت لديها أن محمد عطا كان في فيرجينيا في نفس الزمن المزعوم أنه كان في براغ . وعلى الرغم من أن المخابرات الأمريكية تأكدت من أن القصة مفبركة وأبلغت البيت الأبيض بذلك ، إلا أن بوش استمر في الترويج لهذه الأكذوبة ، كما استمر البنتاجون في نفس الاتجاه .

الأغرب من ذلك أن رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا (هافل) أبلغ البيت الأبيض في هدوء أنه بعد قيامه بتحقيقاته الخاصة في هذا الموضوع لم يجد دليلا واحدا على لقاء محمد عطا المزعوم مع ملحق السفارة العراقية في براغ .

فعل هافل هذا في هدوء حتى لايتسبب في إحراج البيت الأبيض ، واعترفت صحيفة التيمس اللندنية أن مسئولين آخرين في براغ اعترفوا بأنه لايوجد دليل على أن محمد عطا كان في براغ في أبريل ٢٠٠١ .

وكان على بريطانيا أن تدلي بدلوها في هذه الفبركة العدائية الغريبة ، فبركة دليل على وجود علاقة بين نظام صدام والقاعدة . لكن هذه المحاولة البريطانية كانت صلب الفضيحة التي ذاعت في بريطانيا في فبراير الماضي ، عندما تبين أن ما أذاعته الحكومة البريطانية في تقريرها عن هذه الصلة مفبرك تماما ، ومع أنها - أي الحكومة البريطانية - كانت قد نسبت هذه المزاعم إلى جهاز M.I.6 (المخابرات البريطانية الخارجية) في تقرير بعنوان «البنية التحتية للخداع والإخفاء والترويع» ، ومع أن وزير خارجية واشنطن أشار إلى هذا التقرير في حديثه أمام مجلس الأمن قائلا في ثقة عظيمة «أريد أن أنبه زملائي في المجلس إلى التقرير الرائع الذي وزعته بريطانيا والذي يصف بتفصيل كامل أنشطة الخداع العراقي»

إلا أن الذي حدث وفضح بلير ومساعديه أغرب منه الخيال؛ فأستاذ من جامعة كمبردج - هو الأستاذ جلين انجوالا - تذكر بمجرد قراءة التقرير أنه قرأ من قبل معظم ما ورد في هذا التقرير . وبمراجعة الموضوع على «الإنترنت» تبين أن معظم صفحات التقرير البريطاني (من صفحة ٦ إلى ١٦) مأخوذ طبق الأصل من بحث أجراه طالب عراقي في جامعة كاليفورنيا للدكتوراه . وهكذا ثبت أن هذا التقرير لم يعده جهاز M.I.6 ، وإنما جهاز أليستر كامبل المسئول الإعلامي في مكتب بلير والذي اضطر إلى الاستقالة بعد انتشار الفضيحة .

وقد اعترف مساعدو كامبل بالخطأ مدعين أنه وقع نتيجة السرعة في إعداد التقرير .

وكتب تشارلز هايمان في مجلة Janes world armies «من الواضح أن ذلك التقرير هو جزء من حملة بلير الدعائية ، وأن أجهزة المخابرات لم تكن لها صلة بالموضوع . لقد تحدث معي إثنان منهم هاتفيا وقالوا بالحرف : «ليست لنا صلة بهذا الموضوع» . ■

إلى أين تسير أمريكا؟!

المعرفة الجاهلة والإعلام الأمريكى

بقلم
محمد يوسف عدس

«ليس الناس أغبياء ولكنهم غالبا ما يكونون جهلاء، وبسبب جهلهم يتقبلون المعلومات التى ينقلها إليهم صحفيون جهلاء، وهؤلاء بدورهم يأخذون معلوماتهم من سياسيين جهلاء مثلهم.. والنتيجة: أن سياسيا جاهلا يدلى بحديث جاهل، يلتقطه صحفى جاهل، ثم يعرض على شاشة التليفزيون فى أربعين ثانية لجمهور جاهل»

صاحب هذا الكلام الغريب سياسى أمريكى معروف من قيادات الحزب الجمهورى، كان رئيسا لمجلس النواب فى الكونجرس أثناء إدارة الرئيس السابق بل كلينتون - ذلك هو «نيوت جنجريتش» ، رجل اشتهر بتصريحاته الغاضبة ونقده الحاد ولسانه اللاذع.. وهو لا يتمتع بشىء من الدبلوماسية ولا يبتسم لدعابة أو مزحة، وأعظم مواهبه الطعن بالكلمات الموجعة.. ولكنه عادة ما يقول ما يؤمن به ويعتقد أنه صحيح.

بهذه العبارات البسيطة الواضحة لا يصف جنجريتش شعبا من شعوب العالم الثالث وإنما يصف الجمهور الأمريكى العريض الذى يعتمد على وسائل الإعلام المحلى الهزيل كمصدر وحيد للمعلومات والمعرفة، وهى وسائل

أكبر همها التسلية والإعلانات المثيرة والأخبار ذات الطابع المحلي، ولا تعني بتثقيف الناس أو تنويرهم، وهي بذلك تدعم حالة الجهل والسذاجة السائدين.

فإذا صح ما يقوله جنجريتش نكون أمام واقع خطير.. لماذا؟

لأن هؤلاء الجهلاء السذج هم الذين ينتخبون أعضاء الكونجرس وينتخبون الرئيس الأمريكي الذي لم يعد يعتبر نفسه رئيسا للولايات المتحدة فحسب.. ومهما يكن الأمر فإن القرارات التي يصدرها الكونجرس وتصدرها مؤسسة الرئاسة لا يقتصر تأثيرها على الأمريكيين فحسب وإنما يمتد ليشمل العالم بأسره. هذا إذن كلام يستحق منا كثيرا من التأمل بقدر ما يحتاج إلى وضعه على محك الواقع.

حرب النجوم

مجموعة من الجمهوريين المؤيدين لرونالد ريجان في استراتيجيته الدفاعية المعروفة شعبيا باسم «حرب النجوم» - رأت أن تنظم لقاء بين عينة من مواطني مدينة كولومبيا وبين عدد من أعضاء الكونجرس، من أبرزهم «فلويد سبنس» رئيس لجنة الدفاع القومي وسيناتور «ستورم ثيرموند» رئيس لجنة الخدمة العسكرية، وهما شخصيتان لهما أكبر الأثر في القرارات المتعلقة بميزانيات الدفاع عن الولايات المتحدة وطرق استخدامها.

كان الهدف من هذا اللقاء أن يتعرف هؤلاء القادة على آراء الناخبين مباشرة، ويروا بأنفسهم كيف يفكرون في مسألة حرب النجوم.. يعني أن يتعلموا من الشعب وينقلوا رغباته الحقيقية إلى مراكز اتخاذ القرار.

ستدعى لإدارة حلقة النقاش أحد خبراء استطلاعات الرأى هو دكتور «فرانك لونتز». وحضر النقاش الصحفي الإنجليزي النشط «جافين إيسلر» الذى سجل اللقاء مفصلا، وتابع تداعياته في لقاءات تالية مع المنظمين والضيوف، وضمن كل هذا في كتابه «ولايات الغضب المتحدة» The united states of Anger، كتب يقول: «الذى حدث في هذا اللقاء كان صدمة مفجعة



للجميع فقد عبر الجمهور عن جهل مذهل وتشوش معرفي.. ولم يستطع أي واحد من المشاركين أن يبرهن على أنه يدرك أبسط الحقائق الأساسية عن «الدفاع الأمريكي».. كانت مهزلة أن يذهب سياسيون كبار لكي يتعلموا شيئا من الناخبين الذين يتمتعون بجهل مطبق في الشئون العامة لبلادهم.. يحدث هذا في عصر يسمى عصر المعلومات، وفي أمريكا التي هي رائدته بلا منازع».

كان المشاركون الذين حضروا اللقاء يجلسون في قاعة كبيرة في مواجهة د. فرانك لونتز، وقد روعي في اختيارهم تمثيل الطبقة المتوسطة الدنيا كعينه تمثل جمهور السكان في المنطقة، تراوحت دخولهم السنوية بين ٢٥ ألف إلى خمسين ألف دولار، كان من بينهم رجل أسود يعمل موظفا في المستشفى ويدعى كلايد وامرأة سوداء لها ابن يعمل في الجيش الأمريكي، أما الباقون فكانوا جميعا من البيض انقسموا بالتساوي بين رجال ونساء، من بينهم من يعمل بالسجن ومحاسبون قانونيون ورجل واحد في المعاش، ثم مجموعة من رجال الأعمال مقسمين بين الجمهوريين والديمقراطيين والمستقلين.

اعتاد لونتز أن يعقد مثل هذه اللقاءات في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة ويسميها focus Group وهي تختلف عن استطلاعات الرأي التي تعطي فكرة عامة عن الرأي العام السائد، في أنها تمنح فرصة للسياسيين أن يلتقوا بالناخبين لقاء مباشرا لكي يتحسسوا المزاج القومي بشيء من التفصيل، ويتعرفوا على الأسباب التي تجعل الناس يحبون أو يكرهون سياسة معينة، ومن ناحية أخرى هي فرصة مواتية للسياسيين أن يشرحوا آراءهم ويحاولوا إقناع الناخبين بها خلال الحوار المتبادل.

بدأ لونتز ببعض أسئلة لتسخين الحاضرين عن دور أمريكا في العالم: هل كان البنتاجون يقلص ميزانية الدفاع بسرعة أكبر مما ينبغي؟.. من هم أعداء أمريكا الآن؟ العراق.. إيران كوريا الشمالية.. ليبيا.. الصين.. الشرق الأوسط.. روسيا.. اليابان..؟ كان لكل واحد رأيه الخاص في هذه الموضوعات ولكن - من خلال الحوار - اتفق الجميع على أن الولايات المتحدة تحتاج إلى جيش قوي بعد زوال خطر الحرب الباردة.. كان كل واحد يناقش بذكاء وبمنطق واضح.. فلم يكونوا - من هذه الناحية - مجموعة من الأغبياء.. إلا أن المحتوى المعرفي لديهم في هذه الشئون كان قريبا من الصفر.. ولذلك يصفهم «إيسلر» بأنهم مجموعة من الجهلاء بلا جدال.. وهذا رأي يعزز مصداقية كلام نيوت جنجريتش الذي أشرنا اليه آنفا.

مرت فترة التسخين ثم أطلق لونتز السؤال الأساسي.. وكان يريد من الحاضرين أن يتخيلوا ما الذي يحدث لو أن روسيا أطلقت صاروخا نوويا على كولومبيا؟

اتفقت إجابات الجميع على أن مثل هذا الصاروخ سيتم إسقاطه بالدفاعات الأمريكية.. ولكنهم اختلفوا في

التفاصيل.. وهنا تبين ان الجميع كانوا يجهلون هذه الأمور التي يخوضون فيها جهلا مطبقا.

قال روند: أعتقد أن المقاتلات الأمريكية سوف توجه للصاروخ الروسى صاروخا مضادا لتدميره.

وقال جون إن شيئا ما سيعترض هذا الصاروخ.. ولكن لم يكن متأكدا أى شيء هذا من بين أجهزة تكنولوجيا حرب النجوم!

وقالت سيلفيا: «لقد أنفقت البلاد المليارات على أنظمة دفاع عالية التقنية لكى تدمر صواريخ الروس وتسقطها».

وظل لونتز يدور في القاعة على مدى ساعتين حتى تأكد أن كل واحد من الحاضرين قد أدلى بدلوه في المسألة وأيقن أن كل واحد منهم يعتنق فكرة أن «نظام حرب النجوم» الذى تملكه الولايات المتحدة بشكل أو آخر هو الدفاع الرادع ضد الصواريخ المهاجمة.

ثم تأتى المفاجأة التي لم تكن في الحسبان، اطلقها لونتز بهدوء وتلطف فعرفوا أنهم جميعا يقولون كلاما فارغا .. قال: «في الحقيقة ان الولايات ليس لديها أى دفاع فعال ضد الصواريخ المعادية.. نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا للأسف..».

فهب جو واقفا وهو يقول: لقد صدمتنى .. فمن دقائق كانت سيدة وقور تتحدث بثقة تامة عن «درع السلام» على أنه درعنا في الدفاع عن أنفسنا .. وأنه درع غير قابل للاختراق.. إنه سيحمينا !

وسأل رجل آخر: تعنى أننا لا نملك من وسائل الدفاع سوى صاروخ باتريوت!؟ ثم عقب بغضب ظاهر: لقد استخدم باتريوت هذا الذى تكلف الملايين مع ضجة سياسية وإعلامية كبيرة ولكنه لم يحقق نجاحا عسكريا أمام صواريخ سكود التي يملكها صدام حسين أثناء حرب الخليج.

وقالت جين: من الصعب أن نصدق أنه ليس لدينا أى شيء لمواجهة هجوم صاروخي على بلادنا.. المسألة تربك العقول!

المعرفة الجاهلة

يقول جافين إيسلر: بعد أن انتهت الجلسة تحدثت إلى رجل الكونجرس «سبنس» فقال: الذى يحيرنى حقا هو أن هؤلاء الناخبين وهم في هذه المدينة المشهورة بتاريخها العسكرى لا يفهمون إلا قليلا في مسألة بالغة الأهمية قتلتها الصحافة والإعلام بحثا وجدلا على مدى عقد كامل.. إننى مذهول لهذا القدر من الجهل الذى يخيم على عقول هؤلاء الناس.

لكن الدكتور فرانك لونتز لم يكن مندهشا فإن دراساته للعديد من استطلاعات الرأى العام قد كشفت له أنه في كثير من القضايا العامة – وليس فقط في



قضية «الدفاع» - أن الجمهور الأمريكى لا يعرف إلا القليل جدا وأن ما يعرفه الناس كان دائما خطأ محضا.

وقد نجح مؤلفان بريطانيان فى صك مصطلح جديد ينطبق على هذه الحالة الأمريكية هو «المعرفة الجاهلة» ضمناه فى كتاب لهما بعنوان «لماذا يكره العالم أمريكا» سبق أن قدمت عرضا له فى مقالة سابقة.

على هذا النمط من الجهل المعرفى أو «المعرفة الجاهلة» يعتقد الأمريكيون أن المساعدات التى تقدمها بلادهم لدول العالم تمثل نسبة هائلة من الميزانية أكثر مما ينفق على الرعاية الصحية.. والواقع أن هذه المساعدات الخارجية لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من الدخل القومى وهى أقل مما تنفقه اليابان وبعض الدول الأوربية.. وأقل بكثير جدا مما ينفق فى الولايات المتحدة على الرعاية الصحية.. خلافا لما يعتقده أو يتوهمه الأمريكيون من أسرى الإعلام الأمريكى المزيف للحقائق.

أكد د. فرانك لونتز أن الأمريكيين لا يعلمون كثيرا من الحقائق التى تدور حولهم.. كما أكد أن هؤلاء الناس الذين فوجئوا بمعرفة أن دفاعاتنا العسكرية ليس فيها شىء ضد الصواريخ النووية لن يناموا - كما اعتادوا - نوما هنيئا هذه الليلة وقد يمضى وقت طويل حتى يستعيدوا شعورهم بالأمن مرة أخرى. وأضاف قائلا: «يبدو أن ما فعلناه مع هؤلاء الناس كان شرا فسوف يتملكهم الغضب ولن يغفروا لحكومتهم هذا التقصير».

الإعلام المشوش

سأل الصحفى «جافين إيسلر» الدكتور لونتز : لماذا فشل جميع أفراد الندوة فى إدراك واحدة من أكبر القضايا وأهمها فى الولايات المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية؟.. لماذا فشلوا فى الحصول على المعلومات الصحيحة؟.

قدم لونتز إجابة مطولة شارحة فقال: «سوق الأخبار الأمريكية متناثرة مفككة إلى مدى غير معروف فى أى دولة صناعية أخرى، هنا نحن نختلف عن بريطانيا ومعظم دول أوربا بما فى ذلك روسيا - لا يوجد لدينا صحافة قومية رفيعة المستوى فالصحيفة القومية الوحيدة عندنا هى USA Today ولكنها غير واسعة الانتشار وتوزع أحيانا بالمجان فى الفنادق، وليست معروفة عالميا مثل «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» ومعظم صحف الأخبار صحف محلية سواء فى محتواها أو فى توزيعها».

والنخبة الأمريكية قليلة العدد هى التى تطلع على المجلات والصحف والفضائيات ذات الشهرة العالمية أما عشرات الملايين من الأمريكيين فيقتصرون على مشاهدة التليفزيون المحلى ولا يشتركون فى أى صحيفة أو مجلة محترمة، ومن ثم فالغالبية العظمى من الناس يجهلون ما يدور فى العالم من حولهم ولا يهمهم سوى أخبار بلدتهم وعلى الأكثر أخبار الولاية التى ينتمون إليها.

يقول إيسلر : ببساطة شديدة أمريكا تعانى من هوة معرفية سحيقة بين

الصفوة القليلة ذات الأفق المعرفي الواسع وبين الكثرة الغالبة التي أطمأنت إلى حالة من الجهل مزرية.. ويضيف: «إن هذه الهوة المعرفية تساوي في عمقها الفرق المذهل بين الأغنياء والفقراء في الولايات المتحدة.

غياب المصداقية

في هذا المجال يرصد إيسلر اتجاهين خطيرين يرى أنهما سيؤديان إلى اتساع الهوة المعرفية المعلوماتية في المستقبل:

الاتجاه الأول يتمثل في حقيقة أن التيار الإعلامي التقليدي العام يتقلص في أهميته وكثيرا ما ينظر إليه القراء والمشاهدون بكثير من الشك في مصداقيته.

والاتجاه الثاني يتمثل فيما يعرف الآن بـ «الإعلام الجديد» وفيه عنصران متصاعدان: ١ - الانترنت ٢ - Talk Radio سمه إن شئت إذاعة الحديث والحوارات المستمرة مع الجمهور على مدار أربعة وعشرين ساعة في اليوم، هذان المصدران تتزايد شعبيتهما وانتشارهما كل يوم ولكن مما يؤسف له أن المحتوى المعرفي والثقافي لهما لا يساعد على التنوير الحقيقي فأكثره غثاء وهواجس غارقة في الظنون وتسيطر عليها فكرة المؤامرات السرية.

أمام هذا التطور الإعلامي الجديد نسمع كل يوم عن صحيفة تغلق ابوابها، ويتناقص عدد قراء الصحف يوما بعد يوم. ففي عام ١٩٧٠ كانت نسبة القراء ٧٨٪ انخفضت سنة ١٩٩٥ إلى ٦٤٪ والشباب هم أكثر الناس عزوفا عن القراءة. وأكبر ثلاث شبكات إخبارية وهي CBA , NBC ABC كانت تتباهي بأن ٤١٪ من البيوت الأمريكية يستمعون إليها كل مساء.. انخفضت هذه النسبة سنة ١٩٩٥ م الى ٢٦٪ فقط.. وصاحب كل هذا تدهور في سمعة الصحفيين ومكانتهم الاجتماعية.. كانوا في الماضي أبطالا فأصبحوا طغمة منبوذة، يستخدمون أساليب غير أخلاقية في تصوير الانحرافات وفضحها ويهتمون بإثارة الجمهور لا بإخباره وتنويره.

آلهة اللاعقل

أما محطات الراديو التي أشرنا إليها فيبلغ عددها ١٢٠٠ محطة.. يتحدث الكل فيها طوال الوقت وهي ايضا تهتم بالإثارة اكثر من أي شيء آخر. وتمتلىء أحاديثها بالسفاهة والعبث الى حد التحريض على قتل الشرطة ورجال الحكومة.. بل توجه إلى جمهورها ارشادات في طريقة القتل: «صوب على الرأس دائما». وتبث احاديث الكراهية ضد الحكومة والسلطة حتى أصبح غالبية الأمريكيين لا يثقون في السياسيين سواء الديمقراطيين منهم او الجمهوريين فالجميع يكذبون ويقولون مالا يفعلون وفي كل يوم يتزايد عدد الذين يتشككون في النظام



والغاضبين من التوسع المستمر في الحكومة.

في هذا المناخ الغاضب الكاره ازدهرت محطات إذاعة وقنوات تليفزيونية انجليكانية أصولية متطرفة لشخصيات دينية شديدة التعصب خطابها الإعلامي محتقن بالكراهية والعنصرية ضد الأقليات الدينية والعرقية، على رأسهم سواجارت. وجيري فالويل وبات روبرتسون وغيرهم.

يقول جافين إيسلر: كانت الثورة الفرنسية تدفع الناس بعيدا عن الايمان المسيحي التقليدي الى معبد إلهة العقل اما الأمريكيون فإنهم يبالغون في الاتجاه المعاكس ويتجمعون حول آلهة اللاعقل واللامنطق. فهم يستمعون ليل نهار الى اسطوانات تعاد وتتكرر عن خرافات وأساطير خطيرة تغص بها وسائل الإعلام الجديدة.. ويبدو أن البشر يحبون ان يستمعوا فقط إلى ما يعزز تعصباتهم لا ما يناقضها.

أغرب جلسة استماع في الكونجرس

نأتي أخيرا إلى هذا السؤال الجوهري الخطير.. يطرحه إيسلر فيقول: «إلى أي مصير تسير أمريكا؟» فإذا كنت مهتما بالاجابة على هذا السؤال تعال معي إلى هذا المشهد نطل منه على أغرب جلسة استماع حدثت في الكونجرس «يوم ١٥ يونيه ١٩٩٥م» بعد مرور شهرين على حادثة تفجير مبنى أوكلاهوما.. لقد اهتز الكونجرس لهذه التفجيرات المروعة ولاكتشافه المفاجيء للمليشيات مسلحة منتشرة في الولايات المتحدة معبأة بكراهية للحكومة ولديها مخزون متراكم من الغضب لم يلتفت اليه احد ولم تعن به وسائل الإعلام الغارقة في السفاهة واللهو.

في قاعة الاستماع بمجلس النواب جلست مجموعة من قيادات المليشيات خلف منضدة كبيرة وكان رئيس جلسة الاستماع هو سيناتور أرلين سبيكتر من بنسلفانيا.. بدأ بدعوة قادة المليشيات ان يشرحوا للحاضرين فلسفتهم وأسباب شعورهم بالكراهية للحكومة الفيدرالية وانبرى للاجابة «جون تروتشمان» أحد قادة مليشيات مونتانا.. كان بسمته وثيابه ولحيته يشبه انبياء العهد القديم.. في خطابه نبرة حادة.. شرح للحاضرين كيف تحول منصب الرئاسة الأمريكية إلى مركز للاستبداد والدكتاتورية.. وتساءل: كيف تسمح الحكومة الفيدرالية لجيشنا أن يأخذ أوامره من أجانب يسيطرون عليه.. ثم أنحى باللائمة على الإعلام الأمريكي المنحرف الذي يخضع لتوجيهات مجموعة قليلة من اصحاب المصالح الخاصة ويعمل على تدمير ما تبقى من الثقافة الأمريكية الأصيلة.

تكنولوجيا التحكم في المناخ الكوني

استمع الحاضرون على مدى ساعات من قادة المليشيات عن قصص مؤامرات تقوم بها الحكومة الأمريكية . وكان اكثرها غرابة الاعتقاد بأن هذه الحكومة لديها تكنولوجيا للتلاعب بالمناخ الكوني تمكنها من إحداث العواصف والجفاف

بهدف تجويع الشعب وتدمير العالم. كان صاحب هذا الكلام هو «روبرت فليتشر» أحد قادة الميليشيات.. وهنا بدأ السيناتور «هرب كول» يسأله : هل أفهم مما تقول أن الحكومة قد طورت نوعا من التكنولوجيا تسيطر بها على المناخ لتجويع الأمريكيين والهيمنة على العالم باسم النظام العالمي الجديد؟.. سكنت القاعة وتعلقت الأنظار بشفتي السيد فليتشر الذي قال بصوت هادىء واثق: قلت إن النظام العالمي الجديد يملك تكنولوجيا يتحكم بها في مناخ الأرض، وأن الزلازل وفيضانات نهر المسيسبي وجفاف اثيوبيا كلها أجزاء من مؤامرة كبرى لقتل ملايين البشر والهيمنة على العالم . أعاد سيناتور كول استفساره كأنه لا يصدق ما سمع.. فرد عليه فليتشر مؤكدا: إنها محاولة للسيطرة على العالم.. هذا ما أعنيه. وللمرة الثالثة يعيد سيناتور كول سؤاله: لست أفهم تماما.. مؤامرة في أمريكا وتمتد إلى خارج أمريكا لتشمل العالم كله!؟ فأجاب فليتشر بحدة: نعم .. هذا ما أعنيه تماما..

قداسة الجهل

يعلق جافين ايسلر قائلا: لقد كشفت تصريحات قادة الميليشيات في هذه الجلسة عن نوع خطير من البارانويا الجماعية هي ثمرة تدهور مصداقية الإعلام الأمريكي التقليدي وانصراف الناس عنه الى وسائل الإعلام الجديدة وللقنوات التلفازية الأصولية وكلها تضخ قصصا اسطورية ونظريات مؤامرة وتلعب على أوتار الغضب والخوف والقلق والمشاعر الدينية السائدة في المجتمع الأمريكي.

ويقول سيناتور ارلين سبكتر قدر عدد الميليشيات في أمريكا في وقت تفجيرات أوكلاهوما بـ ٢٢٤ فرقة.. وقد عرفنا ان حوالي اربعين الف شخص منهم كانوا يخرجون الى الغابات في عطلة نهاية الاسبوع لحماية البلاد من غزو طائرات سوداء تملكها الأمم المتحدة ومن قوات روسية مختبئة في مواقع حصينة. ولم يكن احد يعبأ بهذه الميليشيات، ولكن يبدو انها اقوى وأخطر من كل التقديرات المعلنة. وتتميز بدرجة عالية من الإصرار وعقيدتها راسخة لا تقبل النقاش ولا تبالي بالمنطق.

ويرى جافين إيسلر أن أمريكا تعاني من علاقة خطيرة بين الجهل والسذاجة كما تبين لنا من لقاء مدينة كولومبيا حيث رأينا عددا كبيرا من المواطنين الأذكياء يجهلون كل شيء عن القضايا السياسية المهمة في بلادهم.. وأن هذا الجهل يسهل على أقلية صغيرة من المتلاعبين بالعقول اقناعهم بخرافات ومؤامرات لا يصدقها عقل سليم.. كما يفعل فرسان الإعلام الجديد الذين لا يصححون الجهل وإنما يرفعونه الى مستوى القداسة. ■





التسلل الإسرائيلى إلى العراق فى ظل الاحتلال

بقلم
د. محمود عبد الفضيل

هذا المقال ليس مقالا تحليليا حول إعادة ترتيب الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط غداة الحرب علي العراق ولكنه محاولة لرصد آخر التحركات الإسرائيلية للتسلل إلي العراق الجديد في ظل دعم ومباركة قوات الاحتلال هناك، للحصول علي حصة ودور في إعادة تشكيل مستقبل العراق السياسي والاقتصادي .

وقد كشفت مصادر إسرائيلية مطلعه أن **أكثر من عشر شركات إسرائيلية كبرى** وقعت، أو فى طريقها إلى التوقيع، على عقود تجارية مع القوات الأميركية فى العراق، مؤكدة أن هذه الشركات بدأت عملها داخل الأراضى العراقية . إما بشكل مباشر مع **شركة بكتيل**، التى يرأسها جورج شولتز وزير الخارجية الأميركى الأسبق، أو من **خلال شركات أردنية** تعمل فى إطار «الغرفة التجارية الأردنية - الإسرائيلية».

وأكدت المصادر أن بين الشركات الإسرائيلية العاملة فى العراق شركة «اريديوم» **التي وقعت عقداً مع الجيش الأميركي بخمسة ملايين دولار لإقامة شبكة تليفونات عامة** . كما وقعت **شركة** «أوسم»

للمنتجات الغذائية عقداً آخر . وأوضحت المصادر أن غالبية رجال الأعمال ومسئولي الشركات الإسرائيلية يعملون تحت مظلة الجيش الأميركي «لدواع أمنية»أو من خلال رجال أعمال وشركات أجنبية، وذلك على غرار ما تقوم به شركة «تنور غاز» لصنع أفران الطبخ التي هي بصدد تصدير إنتاجها عبر شركة قبرصية، إلى منظمات الإغاثة والمساعدة الدولية العاملة في العراق كذلك بدأت شركة «تامي أربع» لتكرير المياه بنقل معدات إلى العراق في الفترة الأخيرة للبدء بتنفيذ أحد مشروعاتها هناك، فيما تبحث شركة اسرائيلية أخرى متخصصة في تصنيع أبواب «مولتيلوك» المصفحة في جدوى مشروع ضخم لها في العراق (راجع التقرير المنشور في جريدة الحياة، ٣١ / ٨ / ٢٠٠٣) .

وتوقع معهد التصدير الإسرائيلي في تقرير له أن يبلغ حجم الصادرات الإسرائيلية إلى العراق، في مشاريع البنية التحتية والتسويق وغيرها من المعاملات التجارية خلال السنوات الثلاث المقبلة نحو مائة مليون دولار، تضاف إليها ٥٠ مليونا على شكل تمويل غذائي ومستلزمات مماثلة لمئات الآلاف من الجنود الأميركيين (المصدر نفسه).

ووفقا لاتحاد الصناعيين الإسرائيليين، بدأت شركات إسرائيلية بالإعداد لتنفيذ مشاريع كبيرة في العراق وبين أبرز المسئولين عن العلاقات التجارية مع العراق **أمنون شاحاك** رئيس الأركان السابق للجيش الإسرائيلي

إعادة العمل في أنبوب النفط من كركوك إلى حيفا

يلقى مشروع إعادة العمل في أنبوب النفط من كركوك، عبر الأراضي الأردنية، إلى ميناء حيفا كما كان عليه الوضع خلال الانتداب البريطاني لفلسطين، اهتماماً إسرائيلياً على أعلى المستويات، بما فيها وزارات التجارة والصناعة والطاقة والمال وأكدت المصادر أن فكرة إعادة العمل بهذا الخط كانت موضع نقاش على أعلى مستوى خلال اجتماعات المنتدى الاقتصادي الدولي الذي عقد في البحر الميت بعد ما عرضها رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون على الرئيس جورج بوش خلال زيارته الأولى لواشنطن، طالباً منه عدم الموافقة على نقل النفط العراقي عبر سورية «لأن ذلك سيعتبر مساندة للإرهاب (راجع : جريدة الحياة، العدد الصادر في ٣١ / ٨ / ٢٠٠٣).

ومن ناحية أخرى، دعا نائب وزير الخزانة الأميركي **جون تايلور** الشركات الإسرائيلية إلى استغلال «الواقع الاقتصادي الجديد» في العراق والفرص الهائلة أمامها والمشاركة في إعادة أعمار هذا البلد، معرباً عن قناعته بأن الاستثمار في مشاريع البناء سيعطي دفعة كبيرة للاقتصاد الإسرائيلي برمته.

وأكد المسئول الأميركي في حديث لصحيفة «يديعوت أحرونوت»، أجرته معه

على هامش مشاركته فى أعمال المنتدى الاقتصادى العالمى فى الأردن، أن أبواب العراق مفتوحة أمام الشركات الإسرائيلية للعمل والاستثمار والمشاركة فى القطاعات المختلفة مضيفا أن عملية التشريع فى القضايا الاقتصادية التى سيشهدها الاقتصاد العراقى فى الأسابيع المقبلة ستتيح الفرصة أمام الشركات الإسرائيلية لمباشرة العمل والاستثمار فيه خصوصا أن الشركات الإسرائيلية تتمتع بمزايا فى مجالات التكنولوجيا والبنى التحتية. كما أشار المسئول الأمريكى إلى أن العراق لا يفرض حاليا أى قيود على الاستيراد أو حتى رسوماً جمركية، مشدداً على أن أبواب العراق مفتوحة تماما على مصاريعها .

كذلك كشف النقاب عن أن ممثل الوكالة اليهودية جيف كى، عاد إلى إسرائيل مؤخرا بعد زيارة إلى العراق استمرت خمسة أيام وكى يشغل منصب مدير قسم التسويق فى الوكالة اليهودية، وهو أول شخصية رسمية إسرائيلية يقوم بزيارة العراق بعد احتلاله من قبل القوات الأمريكية والبريطانية فى التاسع من أبريل الماضى . وقالت مصادر إسرائيلية رسمية أن الزيارة تمت بموافقة رئيس الوزراء أرييل شارون ، وأنها تمت بالتنسيق مع الإدارة الأمريكية .

مشروع إبرام اتفاق سلام بين العراق وإسرائيل

أعلنت إسرائيل فى المنتدى الاقتصادى الدولي المنعقد في البحر الميت رغبتها صراحة فى إبرام اتفاق سلام مع العراق، وفتح أبوابه أمام رجال الأعمال الإسرائيليين، بينما عرضت الولايات المتحدة سلطة الاحتلال فى العراق أفكارها لكيفية القيام بعملية الانتقال نحو اقتصاد السوق فى العراق تسهيلا لعمليات الخصخصة وتمهيدا لنقل ملكية الأصول الإنتاجية العراقية إلى رأس المال اليهودى العالمى المتخفى فى عباءة رأس المال الأجنبى .

ومن جهة أخرى، وبمبادرة من اتحاد صناعات البلاستيك والمطاط الإسرائيلى افتتح فى تل أبيب مؤتمر اقتصادى هو الأول من نوعه بمشاركة ٤٠٠ رجل أعمال من بينهم رجال أعمال عرب من مصر والأردن والمغرب ودول الخليج العربى وكانت تقارير قد ذكرت أن وفدا صناعيا إسرائيلياً يضم خمسة وثلاثين رجل أعمال اجتمعوا فى تل أبيب مع مدير شركة من البحرين ومدير شركة من أبو ظبى لهما علاقات تجارية بالسوق العراقية ومشاريع إعادة إعمار العراق، وذلك بغرض الحصول على مساعدتهما فى إشراك شركات إسرائيلية فى ما يجرى على الأرضى العراقية .

وعلى الإجمال، فتح الاحتلال الأميركى للعراق الباب أمام الإسرائيليين للشروع بالحديث ليس فقط عن تغيير استراتيجى لمصلحة إسرائيل وحسب، وإنما عن مكاسب اقتصادية أيضا بالإضافة إلى الحديث عن الاستعدادات الجارية للمشاركة فى العطاءات الأميركية لإعادة إعمار العراق، يزداد

الحديث عن صادرات إسرائيلية إلى العراق بشكل مباشر وغير مباشر عبر كل من تركيا والأردن، وقد تحدثت الصحافة الفرنسية مؤخراً عن أن حجم التجارة الإسرائيلية في الشهور الماضية مع العراق بلغ نحو خمسين مليون دولار .

مطالبة العراق بدفع تعويضات عن الأملاك اليهودية فيها

يجرى الحديث هذه الأيام عن قيام جمعيات يهودية، بتشجيع رسمي من الحكومة الإسرائيلية، بجمع معلومات عن الأملاك اليهودية المتروكة في الدول العربية عامة، وفي العراق على وجه الخصوص . وقد ذكرت صحيفة يديعوت احرونوت أن الحكومة الإسرائيلية تنوى في الأيام القريبة، وعبر إعلان في الصحافة، مطالبة اليهود العراقيين بتقديم معلومات عن الأملاك التي تركوها في العراق وتهدف إسرائيل من وراء ذلك إلى السعي لدى الإدارة الأميركية للحصول على تعويضات عن هذه الأملاك. وبحسب صحيفة يديعوت احرونوت فإن منظمة يهودية مختصة تقدر الأملاك اليهودية في العراق بحوالي عشرة مليارات دولار . ومع ذلك فإن العديد من العائلات اليهودية الغنية، ليس في العراق وحسب وإنما كذلك في دول عربية أخرى تنوى رفع دعاوى قضائية ضد حكومات كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر للمطالبة بتعويضات عن أملاكها . (راجع : جريدة السفير اللبنانية، العدد الصادر بتاريخ ١٩ / ٨ / ٢٠٠٣).

وأشارت الجريدة إلى أن وزير الطاقة الإسرائيلي الأسبق، المحامي موشيه شاحال ينسق مع وزارة العدل الإسرائيلية أمر التعاون من أجل استرداد الأموال اليهودية التي ماتزال حسب الصحيفة مقيدة في السجل العقاري العراقي . وترغب إسرائيل في الاستفادة من إمكانية إلغاء قوانين التأميم التي صدرت في العراق ومست باليهود وفي نظر إسرائيل يعتبر إلغاء التأميم إضفاء الشرعية على مطلب استرداد الأملاك .

وكان موضوع يهود الدول العربية قد أحتل مكانة متميزة من الناحية السياسية، عندما أشار الرئيس الأميركي السابق بيل كلينتون إلى الأموال اليهودية المتروكة في الدول العربية وقد اقترح كلينتون حينئذ تشكيل صندوق دولي خاص لتعويض يهود الدول العربية .

ويشير يهودا شنهاف في جريدة هآرتس الإسرائيلية إلى أن الحملة المكثفة للحصول على اعتراف بيهود الدول العربية كلاجئين بدأت قبل ثلاث سنوات وأوضح أن هذه الحملة ترمى إلى إظهار أن اليهود أيضا كانوا ضحايا حرب عام ١٩٤٨، وإنه جرت عملية تبادل سكان بين العرب واليهود الأمر الذي ينفي مبدأ حق العودة للفلسطينيين (نقلا عن جريدة السفير اللبنانية، ١٩ / ٨ / ٢٠٠٣).

ولعل هذا هو أخطر ما في الأمر !

فانتبهوا أيها السادة .

تطورات التنمية الإنسانية
في الوطن العربي
السياق العالمي والإقليمي

بقلم
د. نادر فرجاني

رغم شيوع استعمال «التنمية البشرية» بالعربية كترجمة للمصطلح الانجليزي Human Development ، الذي جاء به برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في مطلع تسعينيات القرن الماضي، ومثل نقلة نوعية في الفكر التنموي، إلا أن «التنمية الإنسانية» عندنا تعريب أصدق تعبيرا عن المضمون الكامل والأصيل للمفهوم، كما سيتضح بعد قليل، مع الإبقاء على مصطلح «التنمية البشرية» بدلالة أضيق، تقابل تقريبا ما اصطلح عليه في وقت سابق بعبارة «تنمية الموارد البشرية» "Human Resources Devel- opmant" ، وذلك ما يسمح به ثراء اللغة العربية .

فعلى حين تستعمل كلمتا «البشرية» و«الإنسانية» تبادليا في العربية، يمكن إنشاء تفرقة دقيقة، ولكن دالة، بين الأولى، كمجموعة من الكائنات، والثانية، كحالة راقية من الوجود البشري. فلفظة الإنسانية تعبر عن سمو الوجود البشري. وهذه التفرقة هي أساس تفضيلنا لمصطلح «التنمية الانسانية» بالعربية .



* مدير مركز «المشكاة» للبحث في مصر

وعلى صعيد آخر، استقر بالعربية استخدام مصطلح «رأس المال البشري» كتعريب لمصطلح Human Capital، بمعنى التوجهات والمعارف والقدرات التي يكتسبها الأفراد، أساسا من خلال التعلم والتدرب والخبرة العملية.

وعندنا أيضا أن مفهوم «رأس المال» الذي يتسق مع «التنمية الإنسانية» أوسع كثيرا من «رأس المال البشري» على المستوى الفردي، ويعد أرحب على المستوى المجتمعي.

ونقترح اعتماد مصطلح رأس المال المجتمعي ليعبر عن تكامل مفاهيم رأس المال الاجتماعي، والسياسي، والفكري، والثقافي، في رأسمال عماده الأنساق التي تنظم البشر في بنى مؤسسية تحدد طبيعة النشاط المجتمعي، وعائده. وإذا جمعنا بين مفهومي رأس المال المجتمعي، الذي يتعامل مع الناس باعتبارهم مؤسسات - بما في ذلك مجتمعات بكاملها، ورأس المال البشري، الذي يتعامل معهم كأفراد، لاكتمل مفهوم لرأس المال الإنساني نعتبره جديراً بالاقتران بمفهوم التنمية الإنسانية.

دور البشرية في التنمية

وقد اكتسب مفهوم «التنمية الإنسانية» ذيوعاً منذ عام ١٩٩٠ بتبني برنامج الأمم المتحدة الإنمائي للمصطلح، بمضمون محدد، وتركيب مقاس للتنمية الإنسانية - هو في الواقع أقرب لكونه مقياساً للتنمية البشرية بالمعنى المرادف لرأس المال البشري - ونشر تقرير سنوي حول الموضوع، تحت قيادة طيب الذكر الاقتصادي الباكستاني «محبوب الحق».

وينبني المفهوم على التراث الفكري الخاص بدور البشر في التنمية الذي مر بتطورات متتالية توصلت إلى جُل العناصر التي تبناها تقرير التنمية البشرية (العالمي) الأول (برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، بالإنجليزية، ١٩٩٠)

ويقوم المفهوم على أن «البشر هم



الثروة الحقيقية للأمم» وأن التنمية الإنسانية هى «عملية توسيع خيارات البشر» . ونتوقف هنا لتبيان مركزية الحرية فى مفهوم التنمية الإنسانية . فمنطق توسيع خيارات الناس يرتّب أولوية مطلقة لإعمال حرية الاختيار بين بدائل متاحة، الأمر الذى ينطوى بدوره على مركزية الحرية فى التنمية الإنسانية، حتى تساوى بعض الكتابات النظرية الأحدث بين التنمية والحرية (سن ، بالإنجليزية، ١٩٩٩).

والواقع أن «الخيارات» Choices تعبير عن مفهوم سابق، يعود إلى الاقتصادى، هندى الأصل، «أمارتيا سن» ، الفائز بجائزة نوبل فى الاقتصاد فى العام ١٩٩٨ ، تقديراً لأبحاثه فى مجال الرفاه، خاصة الفقر والمجاعات، منذ الثمانينيات ألا وهو «الاستحقاقات» Entitlements، ونرى فيه تعبيراً عن حق البشر الأصيل فى هذه «الخيارات».

للبشر إذاً ، لمجرد كونهم بشراً ، حق أصيل فى العيش الكريم ، مادياً ومعنوياً ، جسداً ونفساً وروحا . ويتفرع عن هذا المنطلق نتيجتان مهمتان :

الأولى : ترفض التنمية الإنسانية بداية أى شكل من أشكال التمييز ضد البشر على أى معيار كان : النوع أو الأصل أو المعتقد .

الثانية : لا يقتصر مفهوم الرفاه الإنسانى فى التنمية الإنسانية على التنعم المادى وإنما يتسع للجوانب المعنوية فى الحياة الإنسانية الكريمة مثل التمتع بالحرية، واكتساب المعرفة والجمال والكرامة الإنسانية وتحقيق الذات الذى ينبع من المشاركة الفعالة فى شئون الاجتماع البشرى كافة .

وأحقيات البشر ، من حيث المبدأ، غير محدودة، وتتنامى باطراد مع رقى الانسانية . ولكن عند أى من مستويات التنمية، فإن الاستحقاقات الثلاثة الأساسية ، فى نظر تقرير التنمية البشرية، هى «العيش حياة طويلة وصحية، والحصول على المعرفة، وتوافر الموارد اللازمة لمستوى معيشى لائق» .

ولكن التنمية الانسانية لا تقف عند هذا الحد الأدنى، بل تتعداه إلى استحقاقات إضافية أخرى، والاستمتاع باحترام الذات وضمان حقوق الانسان (المصدر نفسه) .

وتقوم عملية التنمية الانسانية على محورين أساسيين :



الأول : بناء القدرات البشرية المكنة من التوصل إلى مستوى رفاه إنساني راق، وعلى رأسها العيش حياة طويلة وصحية، واكتساب المعرفة، والتمتع بالحرية ، لجميع البشر دون تمييز .

والثانى : التوظيف الكفء للقدرات البشرية فى جميع مجالات النشاط الانسانى ، الانتاج ومنظمات المجتمع المدنى والسياسة.

التنمية الإنسانية إذاً ليست مجرد تنمية «موارد بشرية»، أو حتى «تنمية بشرية»، أووفاء بالاحتياجات الأساسية للناس فحسب، وإنما هى نهج أصيل الإنسانية فى التنمية الشاملة المتكاملة ، وللمؤسسات المجتمعية ، يستهدف تحقيق الغايات الانسانية الأسمى: الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية .

٢ - أهم استخلاصات تقرير التنمية الإنسانية فى البلدان العربية

رغم الانجازات التى حققتها البلدان العربية على أكثر من صعيد فى مضمار التنمية البشرية خلال العقود الثلاثة الأخيرة، تبقى السمة الغالبة على مشهد الواقع العربى الراهن هى تغلغل نواقص محددة فى البنية المجتمعية العربية تعوق بناء التنمية الانسانية، أجملها التقرير فى نواقص ثلاثة، فى الحرية، وفى تمكين المرأة، وفى القدرات الانسانية - خاصة المعرفة. حتى أن أخذ هذه النواقص فى الاعتبار ، كما فى تركيب مؤشر بديل للتنمية الإنسانية، يقلل من مكانة البلدان العربية على مقياس التنمية البشرية التقليدى ، ويؤكد أن تحدى بناء التنمية الانسانية مازال ضخما للغالبية الساحقة من العرب.

فى المنظور الإيجابى، يعنى بناء التنمية الانسانية فى الوطن العربى أن تتوفر البلدان العربية على تجاوز النواقص الراهنة، بل تحويلها إلى نقيضها ، أى إلى ميزات ينعم بها المواطنون العرب، دون تفرقة ، وتزهو بها البلدان العربية

على وجه التحديد يخلص التقرير إلى ضرورة أن تتوفر البلدان العربية على إعادة تأسيس المجتمعات العربية على :

١ - الاحترام القاطع للحقوق والحريات الانسانية باعتباره حجر الزاوية فى بناء الحكم الصالح المحقق للتنمية الانسانية .

٢ - تمكين المرأة العربية، عبر إتاحة جميع الفرص، خاصة تلك المكنة من بناء القدرات البشرية ، للبنات والنساء على قدم المساواة مع «شقائقهن» من الذكور .

٣ - تكريس اكتساب المعرفة ،

وتوظيفها بفعالية، في بناء القدرات البشرية ، وتوظيفها بكفاءة في جميع صنوف النشاط المجتمعي ، وصولا إلى تعظيم الرفاه الانساني في المنطقة .

هذا هو صلب التجاوز اللازم لتخطي أزمة التنمية الانسانية في المنطقة العربية، ولكنه ليس منتهى الأمل .

فاستكمالا لتجاوز نواقص الوضع العربي الراهن، يمكن الإشارة أيضا إلى ضرورة بناء القدرات الانتاجية العربية في مواجهة الطبيعة الريعية للاقتصادات والمجتمعات العربية .

واستكمالا لإصلاح البناء المؤسسي العربي خدمة للتنمية الانسانية، يتعين ، بالاضافة لإصلاح نسق الحكم على الصعيدين القطري والقومي ، على أساس متين من الحريات ، تمتين التعاون العربي على أساس من توسيع نطاق المشاركة الشعبية الفعالة في اتخاذ القرار على الصعيد العربي ، وتعظيم فرص الاستفادة من العولمة، وتوقي مخاطرها المحتملة .

وقد قام تصميم سلسلة تقرير «التنمية الإنسانية العربية» على أن يكون العدد الأول ، الذي صدر في يوليو/ تموز ٢٠٠٢، شاملا لجميع أبعاد التنمية الانسانية وفق التعريف الذي تبناه التقرير على أن يليه أعداد أخرى تتناول بالتدقيق والفحص المعمق قضايا بعينها تعد ذات أهمية جوهرية للتنمية الإنسانية في البلدان العربية ، ويبدأ هذا التقليد بالعدد الثاني من السلسلة المنتظر صدوره في الخريف القادم والمخصص لموضوع المعرفة، ويتواصل في التقرير الثالث المزمع صدوره في خريف العام ٢٠٠٤، والمخصص لموضوع الحرية والحكم الصالح .

٣ - تطورات التنمية الإنسانية في البلدان العربية

تقضي مراجعة التطورات العالمية والإقليمية والمحلية منذ انتهاء العمل على «تقرير التنمية الإنسانية العربية» الأول إلى أن تحدي التنمية، متمثلا في تجاوز النواقص الثلاثة في المعرفة والحرية وتمكين النساء، مازال جد خطير. بل ربما ازداد التحدي خطورة، خاصة في مضمار الحريات ، بسبب هذه التطورات

إذ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ المأساوية، اتخذ عدد من الدول إجراءات وسياسات بالغة الصرامة في إطار ما سمي «الحرب على



الإرهاب» . إلا أن هذه السياسات أو الإجراءات تجاوزت هدفها الأصلي لتؤدي إلى تآكل الحريات المدنية والسياسية في أقطار عديدة من العالم ، وبخاصة في الولايات المتحدة وبعض بلدان أوروبا الغربية، مما انتقص على وجه الخصوص من رفاه العرب والمسلمين فيها ، وضيق من فرص اكتسابهم للمعرفة فيها ومنها .

ولعل أوخم العواقب لإجراءات التضييق على الحريات في الدول المتقدمة أن السلطة في بعض البلدان العربية وجدت مبررا آخر لسن قوانين جديدة حدَّت من الحريات المدنية والسياسية، كما تبنت الدول العربية مجتمعة تعريفا موسعا للارهاب اتخذ تعبيرا مؤسسيا على الصعيد العربي في «الميثاق العربي لمكافحة الارهاب». وقد تعرض هذا الميثاق للنقد في دوائر حقوق الانسان العربية والدولية باعتبار أن مثل هذا التعريف الموسع يفتح الباب لإساءة الاستخدام ، من قبيل السماح بالرقابة ، وتقييد الوصول إلى الانترنت، وتقييد الطباعة والنشر ، إضافة لكونه لا يحرم ، صراحة ، الاحتجاز أو التعذيب. كما أنه لا يتيح سبلا للاعتراض على قانونية الاحتجاز، ولا يحترم الحرية الخاصة لأنه لا يشترط إذنا من القضاء لفرض التنصت على الأفراد والجماعات .

وأعادت إسرائيل احتلال الأراضي الفلسطينية مخلفة وراءها أهوالا من الخراب المادي والضحايا البشرية والمؤسسية، مرتكبة ما وصف بجرائم حتى في رأي منظمات حقوقية غربية .

وقام تحالف قادته الولايات المتحدة وبريطانيا مع بعض من الشركاء بغزو العراق واحتلاله، مما وضع شعب العراق، والمنطقة، أمام تحد من نوع جديد لا يمكن الخروج منه إلا بتمكين الشعب العراقي من حقوقه الأساسية وفق الشرعية الدولية بالتحرر من الاحتلال واستعادة ثرواته إضافة إلى إقامة نظام حكم صالح يمثل جموع العراقيين تمثيلا سليما يسهر على إعادة بناء العراق في منظور التنمية الانسانية

وفي مواجهة مخاطر إعادة تشكيل المنطقة العربية من الخارج، تطمح سلسلة «تقرير التنمية الإنسانية في البلدان العربية» إلى حفز رؤية استراتيجية تبلورها النخب العربية، عبر عملية إبداع مجتمعي وطنية، تتوخى إعادة تشكيل المنطقة من الداخل خدمة للتقدم الإنساني فيها. فلا جدال في أن الإصلاح من الداخل، المتأسس على نقد رصين للذات ، هو البديل الصحيح لمواجهة هذه المخاطر . ■

الموافقات

أول مؤلف في المكتبة الأصولية يفصل القول في المقاصد الشرعية للإمام الشاطبي

بقلم
د. محمد الدسوقى

يلاحظ من يستقرئ ذخائر المكتبة الإسلامية أن من بين هذه الذخائر مؤلفات انفردت من حيث موضوعها ومنهجها، فلم تسبق بما كتب في قضاياها على النحو الذى عرضت له هذه المؤلفات من حيث الابتكار والعمق والشمول، ولم تظهر بعدها دراسات فى موضوعها أضافت جديدا إلى ما اشتملت عليه هذه المؤلفات من حقائق علمية.

وأهم المؤلفات التى انفردت فى موضوعها وفق منهج علمى متميز واحتلت من ثم مكانة مرموقة لا فى المكتبة الإسلامية فحسب، ولكن فى مكتبة الفكر الإنسانى بوجه عام، السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيبانى (ت: ١٨٩هـ) والموافقات للإمام الشاطبى (ت: ٧٩٠هـ).

وقد عرفت في عدد فبراير ٢٠٠٢ من الهلال بكتاب الإمام الشيباني، واليوم أقدم هذه الدراسة المجملة عن كتاب الإمام الشاطبي.

يعد أبو إسحاق ابراهيم بن موسى ابن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي من أعلام الفكر الإسلامي الذين اتسم عطاؤهم العلمي بالموسوعية والجدة والابتكار، فهو أصولي فقيه محدث مفسر لغوي بياني محقق، له القدم الراسخة في كل هذه العلوم، ومن ثم كان إماما مجتهدا مطلقا، وكان إلى هذا ورعا صالحا زاهدا، حريصا على اتباع السنة، مجانبا للبدع والشبهة.

وقد عاش هذا الإمام في القرن الثامن الهجري، ولم يحدد المترجمون له سنة ولادته، وإن كان الراجح أنه ولد في العقد الثاني من هذا القرن، لأن أسبق شيوخه وفاة، وهو أبو جعفر أحمد بن الزيات كانت وفاته سنة ٧٢٨هـ وهذا يومئ إلى أن التلميذ كان يافعا في العام الذي مات فيه شيخه مما يرجح أن ولادته كانت كما ذكرت آنفا.

نشأ الشاطبي بغرناطة، وبها ترعرع، وظل مقيما فيها إلى وفاته، وأقبل منذ صباه على الدراسة، وأخذ العلوم عن كثير من أئمة عصره، وتعاطى علوم الوسائل وعلوم المقاصد دون أن يحصر اهتمامه في نطاق علم معين لا يتجاوزه، وأهلته دراسته للقرآن الكريم والسنة النبوية أن يكتنه مقاصد الشريعة ويدرك أسرارها ثم أن يحسن التعبير عنها وبيانها والتأليف فيها.

جاء في مقدمة كتابه «الاعتصام» ما يشهد للشاطبي بشغفه المبكر بأصناف العلوم، وحرصه على فهم مقاصد الإسلام التي أدرك كمالها وتحقيقها للسعادة الكبرى، قال: «وذلك أني - ولله الحمد - لم أزل منذ فتق للفهم عقلي، ووجه شطر العلم طلبي أنظر في عقلياته وشرعياته وأصوله وفروعه، لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعا دون آخر حسبما اقتضاه الزمان والإمكان وأعطته المنّة المخلوقة في أصل فطرتي، بل خضت في لججه خوض المحسن للسباحة وأقدمت في ميادينه إقدام الجريء حتى كدت أتلف في بعض أعماقه، أو انقطع في رفقتي التي بالأنس بها تجاسرت على ما قدر لي، غائبا عن مقال القائل وعذل العاذل، ومعرضا عن صاد الصاد ولوم اللائم إلى أن من علي الرب الكريم، الرءوف الرحيم، فشرح لي من معاني الشريعة ما لم يكن في حسابي، وألقى في نفسي القاصرة أن كتاب الله وسنة نبيه لم يتركا في سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالا يعتد به فيه وإن الدين قد كمل، والسعادة الكبرى فيما وضع والطلبة فيما شرع وماسوى ذلك فضلال وبهتان وإفك وخسران».

ألف الشاطبي مؤلفات نفيسة في

الأصول والفقه والبدع والفتاوى والنحو، وبعض هذه المؤلفات يتركب من عدة أجزاء، وكان مع هذا أديبا شاعرا، وإن كان شعره أقرب إلى النظم منه إلى الشعر بمفهومه الاصطلاحي.

ومن مؤلفاته التي اشتهر بها «الموافقات» و«الاعتصام» فهذان الكتابان من كنوز التراث الإسلامي الثمين وبخاصة الموافقات الذي لم يؤلف مثله في أصول الإسلام وحكمته كما قال صاحب تفسير المنار، وذلك أن الموافقات جاء منهجا فريدا في الكتابة الأصولية لم يسبق به الشاطبي.

وتجدر الإشارة قبل الحديث عن منهج الشاطبي في الموافقات إلى مناهج الأصوليين قبله.

إن علم الأصول تعددت تعريفاته، طوعا لاعتبارات مختلفة بيد أن كل التعريفات التي قال بها علماء الأصول قديما وحديثا على ما بينها من تفاوت تدور في فلك أن هذا العلم هو: قواعد يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية.

ويندرج تحت هذه القواعد ما يلي:

أولا: الأدلة الشرعية التي يستدل بها على الأحكام كالقرآن والسنة وطرق الاستنباط منها والاستدلال بها.

ثانيا: الأحكام الشرعية الكلية التي تستنبط من تلك الأدلة كالوجوب والحرمة، وما يتصل بذلك من بحوث تتعلق بهذه الأحكام.

ثالثا: الشروط التي يجب تحققها فيمن يستنبط هذه الأحكام من تلك الأدلة وهم المجتهدون.

فعلم الأصول تتناول مباحثه الأدلة الشرعية وطرق الاستنباط منها وبيان مراتب حجيتها، والأحكام الشرعية ومن يخاطب بها، ومن هو أهل للاجتهاد ومن ليس أهلا له.

تطور علم الأصول

وكل هذه المباحث ترسم للفقيه المنهاج الذي يتقيد به في استخراج الأحكام من أدلتها، ولهذا كان علم الأصول ميزانا يضبط المجتهد في آرائه ويتبين به الاستنباط الصحيح من الاستنباط الباطل.

وقد تطور علم الأصول في نشأته منذ القرن الأول، وفي القرن الخامس تكامل نمو هذا العلم، واتضحت مباحثه، وظهرت فيه مؤلفات كثيرة، وتشعبت طرق العلماء ومناهجهم فيه، ولكن هذا التشعب لم يتجاوز الشكل إلى المضمون فقد ظل هذا العلم على الرغم من كثرة ما ألف فيه في دائرة الركن الأول منه وهو علم اللسان العربي، دون الاهتمام بالركن الثاني وهو علم أسرار التشريع ومقاصده.

ووقف العلم منذ القرن الخامس عند حدود ما تكون منه في مباحث الركن الأول، وما تجدد من الكتب بعد ذلك دائر بين تلخيص وشرح، ووضع له في قوالب

مختلفة.

وهكذا بقي علم الأصول فاقدا قسما عظيما حتى كتب الشاطبي الموافقات، فتدارك بهذا الكتاب لأول مرة في تاريخ هذا العلم هذا النقص، وأضاف إلى علم الأصول بما كتب بيانا إبداعيا في مقاصد الشريعة.

وكتاب الموافقات يتكون من أربعة أجزاء في الطبعة التي حققها الشيخ عبدالله دراز (ت: ١٣٥١هـ) رحمه الله التقى الشاطبي مع علماء الأصول بوجه عام في الأجزاء الأول والثالث والرابع في القضايا التي درسها، ولكنه في الجزء الثاني انفرد بحديث لم يسبق به تناول فيه مقاصد التشريع بتفصيل وشمول.

وإذا كان الشاطبي قد خص الجزء الثاني بالحديث عن المقاصد، فإن هذا الحديث ليس مقصورا على ذلك الجزء، وإنما يرد الكلام عنه في الأجزاء الأخرى وكان هذا الحديث لحمة الكتاب وسداه للربط بين كل القضايا، وليصبح الكتاب بكل أجزائه تعبيرا عن المقاصد الشرعية بأسلوب مباشر أو غير مباشر، وليكون بهذا أول كتاب تدور كل مباحثه حول مقاصد الشريعة، ومنهج استنباط الأحكام وفقا لهذه المقاصد.

ويبدو أن الشاطبي خشي أن يرفض البعض ما ذهب إليه، أو أن يسارع فيحكم عليه بالابتداع، لأنه أتى بشئ لم يسمع بمثله، فقال في خطبة الموافقات: «فإن عارضك في هذا الكتاب عارض الإنكار وعمى عنك وجه الاختراع فيه والابتكار، وغر الظان أنه شئ ما سمع بمثله ولا ألف في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نسج على منواله أو شكل بشكله، وحسبك من شر سماعه، ومن كل بدع في الشريعة ابتداعه فلا تلتفت إلى الأشكال دون اختبار، ولا ترم بمظنة الفائدة على غير اعتبار، فإنه بحمد الله أمر قررته الآيات والأخبار، وشد معاقده السلف الأخيار، ورسم معالمه العلماء الأحبار، وشيد أركانه أنظار النظار، وإذا وضح السبيل لم يجب الإنكار، ووجب قبول ما حواه، والاعتبار بصحة ما أبداه والإقرار، حاشا ما يطرأ على البشر من الخطأ والزلل، ويطرق صحة أفكارهم من العلل، فالسعيد من عدت سقطاته، والعالم من قلت غلطاته».

والشاطبي في هذا النص يقرر أنه لم يبتدع، فما ذهب إليه قد قررته النصوص، وأطبقت عليه كلمة السلف، وأن النظر العلمي في كتابه يقضي بصحة ما قال به، اللهم إلا إذا كانت هناك هنات أو هفوات لا يسلم منها بشر، ولعلها تكون قليلة أو معددة.

أقسام الكتاب

وكتاب الموافقات وإن طبع في أربعة أجزاء قسمه المؤلف خمسة أقسام:

اشتمل الجزء الأول على قسمين، وخص كل جزء من الأجزاء الثلاثة بقسم

واحد ودرس الشاطبي في القسم الأول ثلاث عشرة مقدمة يرى ضرورتها العلمية تمهيدا للقضايا التي سيبحث فيها، وهذه المقدمات تحدثت عن قطعية علم أصول الفقه، وأدلة هذا العلم، وأنها ليست عقلية محضة، لأنها تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو محققة لمناطها، وما يعد من أصول الفقه وما لا يعد منه وأن كل اجتهاد لا ينبني عليه عمل فالخوض فيه لا دليل عليه، وأن كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد بالله تعالى، وأن العلم المعتبر شرعا هو العلم الباعث على العمل، وأن من العلم ما هو من صلبه ومنه ما هو من ملحه ومنه ما ليس من صلبه ولا من ملحه، وأنه إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعا، وأن من انفع طرق العلم أخذه على أهله العاملين به، والذين رباهم الراسخون في العلم بالأخذ عنهم والاقتداء بهم.

وعرض القسم الثاني من الجزء الأول للأحكام الشرعية، وهي نوعان، أحدهما يرجع إلى خطاب التكليف، وتسمى بالأحكام التكليفية، والآخر يرجع إلى خطاب الوضع وتسمى بالأحكام الوضعية.

والحكم التكليفي هو ما اقتضى طلب فعل من المكلف أو كفه عن الفعل، أو تخييره بين الفعل والكف عنه.

وهذا الحكم ينقسم خمسة أقسام: الواجب وهو ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبا حتما، كالأمر بالزكاة والصلاة ومن ثم يلزم الاتيان بالواجب ويثاب فاعله، ويعاقب تاركه، ويكفر من أنكره إذا ثبت بدليل قطعي.

والمندوب، هو ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبا غير حتم ككل ما واظب عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور الدينية، ولم يتركه إلا نادرا، أو الأمور التي فعلها مرة أو أكثر وتركها. والمندوب يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، اللهم إلا إذا أصر على ترك جميع المندوبات.

والمحرم، وهو ما طلب الشارع الكف عن فعله على وجه الحتم والإلزام، كتحريم الميتة والخمر والزنا والربا، والمحرم يعاقب شرعا فاعله.

والمكروه، هو ما طلب الشارع من المكلف الكف عن فعله طلبا غير حتم كقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، والمكروه لا يستحق فاعله العقاب، وقد يستحق اللوم والعتاب.

والمباح، هو ما خير الشارع المكلف بين فعله وتركه كالأكل والشرب واللهو البرئ ولا ثواب ولا عقاب على فعل المباح أو تركه.

أما الحكم الوضعي فهو ما اقتضى وضع شئ سببا لشئ، أو شرطا له أو مانعا منه، وينقسم هذا الحكم خمسة

أقسام:

السبب، هو الأمر الظاهر المنضبط الذى جعله الشارع علامة على حكم شرعى هو مسببه كدخول الوقت لإيجاب الصلاة.

الشرط هو الأمر الذى يتوقف عليه وجود الحكم، ويلزم من عدمه عدم الحكم ولا يلزم من وجوده وجود الحكم، كالوضوء شرط لصحة إقامة الصلاة، ولا يلزم من وجود الوضوء إقامة الصلاة.

المانع. هو الأمر الشرعى الذى يلزم من وجوده عدم الحكم أو بطلان السبب، كما إذا وجدت الزوجية الصحيحة، ولكن منع ترتب الإرث عليها اختلاف الزوجين فى الدين.

الرخصة والعزيمة.. الرخصة هى ما شرعه الله تخفيفا على المكلف فى حالات خاصة تقتضى هذا التخفيف كإباحة المحظورات عند الضرورات مثل أكل الميتة وشرب الخمر.

والعزيمة هى ما شرعه الله أصالة من الأحكام العامة التى لا تختص بحال دون حال، ولا بمكلف دون مكلف فتشمل الناس جميعا.

الصحة والبطلان.. الصحة هى ما شرعه الله عز وجل من الأحكام التى تتعلق بالأفعال التى يقوم بها المكلف على الوجه الذى قررته الشريعة الإسلامية وتترتب عليه آثارها الشرعية.

أما البطلان فهو حكم شرعى يلحق بأفعال المكلفين إذا جاءوا بها على غير الوجه المشروع، ومن ثم لا تترتب عليها الآثار الشرعية التى تترتب على الفعل الصحيح.

تلك أقسام الحكم الشرعى بنوعيه، ولكل قسم منها تفريعات وتفصيلات، وقد شقق فيها الشاطبى والقول فى خمس وثلاثين مسألة، وفق منهج علمى سيرد الكلام عن أهم سماته فيما بعد.

وعقد الشاطبى القسم الثالث من كتابه لدراسة المقاصد، وهذا القسم اشتمل عليه الجزء الثانى من الموافقات.

حفظ العالم

والمقاصد يراد بها ما تهدف إليه الشريعة من وراء أحكامها أو الغاية منها، فالله تبارك وتعالى لا يشرع لمجرد الرغبة فى التشريع، ولا يشرع عبثا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وإنما يشرع لمقاصد وغايات تهدف كلها إلى حفظ العالم بتحقيق المصالح وإبطال المفاسد، وكل مصلحة حثنا الشارع عليها، وكل مفسدة رد عنا عنها فإن ذلك لا يخلو من الرجوع إلى أحد أصول ثلاثة: أحدها: تهذيب النفس، وثانيها: إعلاء كلمة الحق، وثالثها: انتظام أمر الناس.

وقسم الشاطبى كتاب المقاصد قسمين: أحدهما يرجع إلى قصد الشارع، والآخر يرجع إلى قصد المكلف.

والقسم الأول الذى تحدث فيه عن قصد الشارع جعله أربعة أنواع: درس فى النوع الأول قصد الشارع فى وضع

الشريعة ابتداء، وذلك في ثلاث عشرة مسألة استهل المسألة الأولى بقوله: تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية، وهي التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، ومجموعها خمسة وهي:

حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.

والثاني: أن تكون حاجية، وهي التي يفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الحرج والمشقة، كتيسير حاجات الناس بالإباحة بالبيع والصيد والتمتع بالطيبات، وتخفيف التكاليف عنهم بقصر الصلاة والفطر في رمضان للمسافر.

والثالث: أن تكون تحسينية، وهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات وما تقتضيه المروءات، ويجمعه قسم مكارم الأخلاق.

والنوع الثاني تحدث فيه عن قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام من خلال خمس مسائل تناولت عربية الشريعة وبعض القضايا المتصلة بما أشار إليه القرآن من علوم.

أما النوع الثالث فدرس فيه قصد الشارع في وضع الشريعة للتكليف بمقتضاها، وذلك في اثنتي عشرة مسألة، وضحت أن القدرة شرط التكليف، وأن الشارع لا يقصد بالمكلف المشقة في المأمورات وكذلك في المنهيات وأن الشريعة في أحكامها لا تعرف الإفراط أو التفريط وما إلى ذلك.

وجاء النوع الرابع ليدرس قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة وذلك في عشرين مسألة، ورد في الأولى منها أن المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا. ثم عرض في باقي المسائل لبطلان الأعمال بسبب الهوى، وأنواع المقاصد وأثرها في التكاليف، ومناقب الرسول صلى الله عليه وسلم، والعلاقة بين المعجزة والكرامة، والعوائد وأنواعها، وأن الطاعة أو المعصية تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها، والأصل في العبادات والعادات.

وفي القسم الثاني الذي عقده للكلام عن مقاصد المكلفين تحدث في اثنتي عشرة مسألة عن علاقة النية بالأعمال، وبين أن المقاصد معتبرة في التصرفات، ويجب موافقة قصد المكلف لقصد الشارع في العمل حتى يكون الفعل صحيحا، مقبولا، كما تعرض لفروع تطبيقية كثيرة مثل الحيل الفقهية.

جهد متميز للشاطبي

وفي خاتمة الموضوع تحدث عن الجهات التي يعرف بها مقاصد الشارع. إن كتاب المقاصد في الموافقات يمثل

الجهد العلمي المتميز للشاطبي في الحديث عن موضوع لم يسبق به كما خطه قلمه، ولا مجال لتفصيل القول في هذا الجهد، وما تحدثت عنه ليس إلا لمحات عامة، وأطمع أن تكون مفيدة. وتضمن القسم الرابع كتاب الأدلة الشرعية، واستوعب هذا القسم من الموافقات الجزء الثالث ونحو ثلث الجزء الرابع، وقسمه الشاطبي قسمين أطلق عليهما الطرف الأول، والطرف الثاني، ودرس في الطرف الأول الأحكام العامة للأدلة، وهي تمثل قواعد كلية مثل الظني إذا خالف قطعيا وجب رده، والأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول وجعل الحكم تابعا للدليل عمل الراسخين في العلم، وقد درس هذه القواعد في أربع عشرة مسألة.

ثم تحدث في خمسة فصول عن عوارض الأدلة، فتناول في الفصل الأول الإحكام والتشابه، وفي الفصل الثاني الإحكام والنسخ وفي الفصل الثالث الأوامر والنواهي، والرابع العموم والخصوص، والخامس البيان والإجمال، وكل فصل من هذه الفصول قسم إلى مسائل، ويبلغ عددها في هذه الفصول الخمسة سبعا وأربعين مسألة.

أما الطرف الثاني فدرس فيه الأدلة على وجه التفصيل وهذه الأدلة هي: الكتاب والسنة والإجماع والرأي، ولكنه اقتصر على النظر في الكتاب والسنة لأنهما الأصل لما سواهما.

تناول الكتاب في أربع عشرة مسألة درس فيها بعض القضايا المتعلقة بعلوم القرآن، مثل معرفة أسباب النزول، ومنهج القرآن، في تعريفه للأحكام، والمدني مبنى على المكي وذم القول بالرأي في القرآن.

وفي الجزء الرابع من الموافقات تحدث الشاطبي عن الدليل الثاني وهو السنة، وذلك في عشر مسائل، عرضت لمفهوم السنة وإطلاقاتها المختلفة وعلاقتها بالقرآن الكريم، وأن الاقتصار على القرآن دون السنة رأي قوم لا خلاق لهم، وأن أحكامها مبنية على مراعاة المقاصد الثلاثة التي جاء بها القرآن، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينات ومكملات كل منها، وأن السنة رسمت للمجتهدين طريق الاستنباط من القرآن، وأن سنة الصحابة كسنة الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل بها ويرجع إليها لثناء الله عليهم، وما جاء في الحديث من الأمر باتباعهم ومحبتهم.

ثم انتقل الشاطبي إلى القسم الخامس والأخير من الموافقات فدرس فيه موضوع الاجتهاد من خلال ثلاثة أطراف، شرح في الطرف الأول في أربع عشرة مسألة أنواع الاجتهاد، وشروط المجتهد، وأنه لا اختلاف في أصول الشريعة ولا فروعها، ومنهج الاجتهاد الانتقائي وأسباب الخلاف بين حملة الشريعة، والفرق بين الاجتهاد الخاص بالعلماء والاجتهاد العام لجميع المكلفين، والخطأ في الاجتهاد.

وفي الطرف الثاني حديث عن الفتوى

في أربع مسائل بين فيها أن المفتي قائم مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الفتوى تكون بالقول والفعل والإقرار، وأن من خالف فعله قوله لم ينتفع بفتواه، وشروط المفتي الخليق بمنصب الفتيا.

والحق الشاطبي بكتاب الاجتهاد لواحق أوردها في نظرين، عرض في النظر الأول للتعارض والترجيح في ثلاث مسائل، فبين أنه لا تعارض في الشريعة في نفس الأمر، بل في نظر المجتهد، وبسط القول في منهج الترجيح في حالة التعارض الظاهري..

أما النظر الثاني وفيه ست مسائل، فقد عقده الشاطبي لأحكام السؤال والجواب فأشار إلى الحال التي يلزم فيها العالم أن يجيب المتعلم، وأن الإكثار من الأسئلة مذموم، ومتى يكره السؤال في بعض المواضع، وأن الاعتراض على أهل العلم مذموم، وكذلك الاعتراض على ظواهر النصوص غير مسموع، وخص موضوع المناظرة بثلاث مسائل تحدث فيها عن ضوابط المناظرة العلمية..

ويتضح من هذا العرض العام لموضوعات الموافقات أن هذا الكتاب موسوعة أصولية بلغت صفحاتها نحو ألف وخمسمائة صفحة ولم تنفرد بحسب تفصيل القول في المقاصد الشرعية، وإنما انفردت إلى هذا بمنهج علمي لم يسبق به الشاطبي، فالمقدمات التي صدر بها كتابه تعد دعائم ضرورية للبحث الأصولي، فضلا عما اشتملت عليه من توجيهات تربوية، والذين سبقوا مؤلف الموافقات لم يضعوا مثل هذه الدعائم أو الأسس الكلية.

المنهج الاستقرائي

وقد عول الشاطبي في بحثه لكل المسائل التي تحدث عنها على المنهج الاستقرائي، وكذلك المنهج التحليلي، فكلمة الاستقراء ترد في مواطن كثيرة في الموافقات، ومنها مثلا ما جاء في التدليل على أن الشريعة تحافظ على القواعد الثلاث: الضرورية والحاجية والتحسينية، قال: «ودليل ذلك استقراء الشريعة والنظر في أدلتها الكلية والجزئية، وما انطوت عليه من هذه الأمور العامة على حد الاستقراء المعنوي الذي لا يثبت بدليل خاص، بل بأدلة منضاف بعضها إلى بعض، ومختلفة الأغراض، بحيث ينتظم من مجموعها أمر واحد تجتمع عليه تلك الأدلة، «الموافقات ج٢ص٥١» وإذا كان المنهج التحليلي يقصد به عزل عناصر الشئ الواحد بعضها عن بعض حتى يمكن إدراكه بوضوح فإن الشاطبي أخذ بهذا المنهج في تقسيمه للموضوعات إلى فصول ومسائل؛ طوعا لترتيب منطقي، بحيث تسلم كل مسألة إلى التي تليها، وهو في دراسته يحلل ويعلل ويدلل، ويثير أحيانا بعض النقد أو الاعتراضات ثم يرد عليها، ويلجأ غالبا إلى ضرب الأمثلة وذكر الشواهد

المختلفة للتوضيح.

وهذا التقسيم للفصول والمسائل ودراستها دراسة منطقية علمية يعبر عن وضوح الرؤية العلمية لكل ما كتب فيه هذا الأصولي المجدد.

والشاطبي إذا كان قد التقى مع علماء الأصول في كثير من القضايا فإن منهج التناول لديه فيها كان مختلفا عن منهج هؤلاء العلماء، فحديثه عن الأحكام والقواعد اللغوية والأدلة الشرعية يتميز بنظرات أصولية لم يسبق بها، ولم يهتم بما اهتم به من كتبوا قبله، ولذلك أخذ على الأصوليين أنهم أدخلوا في علم الأصول ما ليس منه وأنهم افترضوا مسائل لا ثمرة لها في الفقه.

والشاطبي إلى هذا كان لا يكرر نفسه، ولا يلقي بالا لما لا جدوى منه، وما بسط غيره القول فيه لا يتحدث عنه فهو يقول: «ثبت في الأصول أن شرط التكليف أو سببه القدرة على المكلف به فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعا وإن جاز عقلا ولا معنى لبيان ذلك ههنا فإن الأصوليين قد تكفلوا بهذه الوظيفة ولكن نبنى عليها» (الموافقات ج٢ص١٠٧).

ويذهب بعض المعاصرين إلى أن كتاب الموافقات - وإن كان قد خلص أصول الفقه من الجدل اللفظي، ووجه النظر إلى المعاني والمقاصد - حافل بالاستطرادات، وذكر القاعدة أو الأصل في عدة أسطر، ثم يأخذ في فرض الاعتراضات والردود عليها مما أضفى على الكتاب روح الجدل..

ولعل الشاطبي أفاض في الاعتراضات والردود عليها لإدراكه أنه يقدم عملا علميا فريدا، وأن هذا العمل قد يقابل بالرفض له أو التحامل عليه فأراد أن يبطل كل ما يمكن أن يدور بخلد من ينظر إلى الموافقات نظرة تقليدية تضيق بالتجديد والتطوير.

وظل كتاب الموافقات في دائرة الظل أو الإهمال نحو أربعة قرون، وأول من فطن إلى أهميته علماء الزيتونة وطلابها، فقد كانوا يتدارسونه ويتداولونه، وقد ظهرت طبعته الأولى بتونس في سنة ١٣٠٢هـ - ١٨٨٤م ولماذا والإمام محمد عبده (ت:١٣٢٣هـ) تونس في نفس السنة التي طبع فيها الموافقات لأول مرة، عرف الكتاب عن طريق بعض علماء الزيتونة، ومن ثم نوه به ووجه الأنظار إليه.

وزبدة القول أن الموافقات عمل علمي متميز في المكتبة الأصولية فهو معالجة جديدة لأهم قضايا علم الأصول، ومحاولة لربط هذا العلم بمقاصد الشريعة، وهذا الكتاب على ما له من منزلة علمية فريدة لم ينتفع به الانتفاع الأمثل في الدراسات الأصولية المعاصرة، فهذه الدراسات صياغة جديدة لآراء غير جديدة، ولهذا كان التفاوت بينها في الشكل لا في المضمون، وفي التعبير والكم لا في التفكير والكيف. ■

أمى .. نوال السعداوى

لا شىء يبقى إلا كلمتى الحرة الحاملة أسمى !!

بقلم

د. منى حلمى

• أورثنى عشق الكتابة، خصلات الشعر البيضاء قبل الأوان .. وحساسية - تربك ملامحى - ضد النظر فى المرآة.

أورثنى الوجع، الممتع، للرحيل الدائم إلى آفاق التفرد، والمحال.

أورثنى عدم الإنسجام مع العالم،



ونهماً لايفقد عنفوانه، للبقاء جامحة، متوترة .. حرة، العقل والجسد والمصير.

أورثتني النفور من أوقات الفراغ، ومن خدمة الرجال. والجرى وراء المديح.

أن تستيقظ حواسى كل صباح، لتعاشر إمرأة، لاتغفل لحظة عن حقها فى الكلمة، ومساحتها فى الحركة. ودون ندم تدفع الثمن، فهذا شىء جميل يجعلنى محظوظة.

أتذكر حينما كنت طفلة صغيرة، وأمسكت بالقلم لأول مرة.

كانت سطورى الأولى، تعبيراً عن دهشتى من جو البيت الذى أسكنه.

فأنا أعيش فى بيت، يتكرر فيه منظر «شاذ» كل يوم، لا أراه فى أى أسرة حولى .. أرى أمى «تكتب».



د. نوال السعداوي



د. شريف حتاتة



د. منى حلمى



عاطف حتاتة



صورة تذكارية تجمع [illegible] زوجها د. شريف حتاتة وسط مجموعة من أص[illegible]

حين أزور إحدى صديقاتي ، أو قريباتي ، أرى «أمها تطبخ».

لم أفهم هذا الشذوذ في بيتنا، لم أفهم لماذا أمي «تكتب»، ولماذا أم صديقتي «تطبخ» شيء آخر غريب أثار دهشتي في بيتنا .. ليس في بيتنا «رجل»، أو «أب» مثل البيوت التي كنت أدخلها.

وبشكل ما ، ارتبط عندي منذ وقت مبكر، وبصورة غير مكتملة الأبعاد، غياب الرجل أو الأب، بإمساك المرأة للقلم، بيت بلا رجل أو أب ، يعني الكتابة ، أو إمرأة تكتب . بيت فيه رجل أو أب، يعنى الطبيخ، أو إمرأة تطبخ.

قضيت طفولتي مع «أم»، لم تقع في غرام «المطبخ» .. ولكن في غرام «القلم» .. لاتنتظر رجلاً أو زوجاً، يمنحها شرعية الاكتمال والوجود .. لم تهديني في أعياد ميلادي الفساتين، والعرائس والحلوى.

أهدتني حجرة خاصة، وقصائد شعر، ووقتا كافياً لأن ألعب وأتساءل عن سبب «شذوذها» عن باقي الأمهات.

أكبر مع الوقت، لأكتشف أن أمي نوال السعداوي، ليست «شاذة» .. ولكنها طبيعية تماماً.

هي ببساطة .. امرأة عاشقة للكتابة .. تتضاءل كنوز الأرض والسماء بالنسبة إلى إبداعها الحر .. حياتها أثمن عندها من رجال العالم أجمعين.. تفتح بـ قلمها المستقل عن جميع السلطات، «الدمامل» التي تئن تحت جلد المجتمع العربي .. تعرى الكذب والفساد ، وازدواجية المقاييس في غرف النوم ، وتحت قبة البرلمان .. تفضح الخوف من الحرية .. تربط عضوياً بين القهر السياسي والقهر الجنسي .. لايغنيها اهتمام «النقاد» .. ونيل الجوائز والأوسمة والمناصب، «وبروزة» الإعلام الزائف لأنصاف الموهوبين، وأقزام الإبداع، شيء واحد، فقط يهمها، ويعنيها . فيها .. حياتها .. وفيه موتها . وأن تكتب «ماتؤمن به».

الأسرة الفكرية

تمت صداقتي بنوال السعداوى منذ طفولتي الأولى، هذا الانتماء إلى النوع نفسه، لا أعنى النوع الأنثوى الخانع للموروث منذ العبودية. ولكن النوع الإنساني، الثائر القادر على التغيير والتحرير. والانتماء أيضاً إلى الأسرة نفسها. لا أعنى الأسر البيولوچيية التي تحمل إسم الأب، ولكن الأسرة الفكرية المتساوية في الحق والتساؤل ذاته. هذه الصداقة تكاد تشبه نصل المشرط، يقطع عنف التاريخ الأبوى الطبقي، الذى يجعل الإبنة عدوة أمها، والمرأة كارهة للنساء مثيلاتها . تبدو نوال السعداوى امرأة جديدة يتم إكتشافها لحظة قراءتها . كاتبة تحمل قلمها وتمشي به، تشق به الطرق الوعرة. تحمل في رأسها فكرة قديمة جداً، منذ الحضارة المصرية الأولى، حيث كانت معات هي آلهة العدل، وكانت إيزيس آلهة الحكمة والمعرفة، وأمهما نوت آلهة السماء، وجدتها البكر نون ربة السماء، والأرض قبل الانشقاق، في قوتها الحيوية الاتحادية، وفي تدفقها مثل مياه نهر النيل الطبيعية، قبل أن يُسجن داخل مساحات من الأسفلت والحديد.

هي صديقتي التي تشبهني ، وتفهمني، وتساندني. وهي أمي التي صنعت معادلة صعبة. فقد كنت طفلة مدللة جداً (ومازلت) ومع ذلك ، مسئولة جداً . بـ طلاقها من زوجين، أنقذتني من التعرض لسلطة الأب الذكورية. ولهذا، أدين لها بالفضل. فقد تذوقت مبكراً، ثمرة الحرية .. أدمنت مذاقها، ولست على استعداد

للتخلي عنها.

إن لون بشرتها السمراء، المزيج من حمرة الطمى والشمس، ونظرتها للحياة، وإيمانها بالحرية، مع جمالها الطبيعي دون مساحيق، وأناقة أسلوبها الموجز الجاد المباشر، دون لف أو دوران، دون مراوغة أو مواربة، وعشقها للحرية، كل ذلك يعطيها تفردها كإنسانة، وككاتبة مبدعة، وكأم مختلفة. أم قالت لى ك «اجعلي ذاتك وأحلامك، هى مثلك الأعلى. لا أنا أو شخص آخر. فالمثل الأعلى من ميراث العبودية».

كأنما قوة ما أوكلت إليها مسئولية تغيير العالم، أو تحريره، ليس النساء فقط، ليس الوطن فقط، لكن العالم كله المحكوم بالنظام الطبقى الأبوى، والذى يتجسد فى مدينتها القاهرة، عاصمة أقدم دولة مركزية فى العالم.

فيض أدبى

بحكم التاريخ تنتمى نوال السعداوى للجذور البعيدة الممتدة فى الزمان والمكان، والتى توحد البشر داخل إنسانية الفن والإبداع والثورة، تهدم الحواجز المصنوعة بين الناس، حواجز الجنس واللغة والدين والجنسية والعرق والطبقة، والإثنية، لتصل إلى النبع الإنسانى القديم العميق، المتجدد كل يوم مثل مياه النهر، الذى يمكن أن يفيض. هذا الفيض من انتاجها الأدبى المستمر عبر نصف قرن، يوصل أناشيد إزيس التى جمعت النور والظلام فى بوتقة واحدة. بكتابات المعاصرات فى القرن العشرين، من عائشة التيمورية وملك حفنى ناصف ومى زيادة وفيرجينيا وولف وسيمون دى بوفوار وإزابيل أليندى وأماآتايو وغيرهن الكثيرات. هنا يبرز السؤال الوارد دائماً عن الأسباب التى دعت إلى تجاهل كتابات النساء فى بلادنا العربية، والكاتبات فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، بل وأيضاً النساء فى أوروبا الغربية والشرقية.

نوال السعداوى من كاتبات اللغة العربية القليلات اللاتى يجمعن بين الفن والعلم، أو بين الأدب والطب. حينما أقرأ روايتها «امرأة عند نقطة الصفر»، أو امرأتان فى امرأة، أو سقوط الإمام، أو براءة إبليس أو الأغنية الدائرية، أو الحب فى زمن النفط، أو الغائب، أو سيرتها الذاتية، أحس كأنما أصعد فوق جبل من الأحاسيس. هذه الكاتبة الحرة مثل الجبل الوعر، من الصعب صعوده. كلما زادت حرية المرأة ارتفعت قامتها وقمتها. هذا العقل القادر على تجاوز الخيال المبتور الأنثوى والذكورى على حد سواء، أعنى أن العقل والجسد لدى نوال السعداوى مادة واحدة للإبداع الأدبى، ومنهج يخضع للتحليل العلمى، إنها محاولة مفتوحة على الأفق للكشف عن المخبوء وراء المكبوت، هذه الكتابة غير القابلة للكتابة باللغة المألوفة، أو بالحجاب المسدل على العقل والجسد.

لهذا أصبحت التعرية ضرورية فى الأدب كما فى الطب، وأصبحت نوال الروائية المرأة والطبيبة الكاتبة التى تمسك بالقلم، كما تمسك بالمشرط، ربما يكون قلمها أكثر حدة من المشرط أو أكثر إيلاماً، لكنه ربما يكون أكثر قدرة على الشفاء.

إنها كاتبة تملك وسائل متعددة للتعبير، ولأن الفن والعلم ضروريان بالنسبة لها، فإن روايتها تخرج عن نطاق القانون الأدبى والقانون العلمى على حد سواء، ربما لهذا السبب يقول بعض نقاد الأدب إن أعمالها ليست أدبية، ويقول بعض العلماء إن أعمالها ليست علمية، فهى مدرسة جديدة فى الفكر والتعبير،

تختلف عن غيرها وتحتاج إلى حركة نقدية جديدة قادرة على إلغاء الفواصل الموروثة.

دقة الواقع وفوضى الحلم

إن عالم نوال السعداوى سواء فى رواياتها أن سيرتها الذاتية أم بحوثها العلمية والإجتماعية. إنما هى بناء أدبى وعلمى شديد الدقة ومغرق فى الخيال أيضاً، لاتعارض بين دقة الواقع وفوضى الحلم. فهى تلعب دور الخالقة للأشياء الممزقة، المهترئة، مثل جدتها القديمة إيزيس التى جمعت أشلاء زوجها المقتول وأعادت إليه الحياة، إن كتابات نوال السعداوى تدعونا كى نعود إلى الأصل والجذور،، لا أعنى التقهقر إلى الماضى.

ولكن التقدم نحو الحاضر، نحو هنا والآن، فى هذا الزمان وهذا المكان، عبر جذور الألم واللذة. تكاد تشبه آلام الولادة ولذتها، حين ينبعث من رحم الأم مولود جديد ومختلف رغم التشابه.

يعتقد البعض، أن نوال السعداوى قهرت فى طفولتها وترسب لديها، منذ الصغر «عقدة» من الرجال .. لكنها فى الحقيقة، لم تقهر فى طفولتها،. على العكس كانت طفلة محظوظة. فأبوها كان رجلاً متحرراً، مفتوح الأفق، يحترم المرأة ويقدرها، لم يرفع صوته عليها، منحها ثقة كبيرة فى نفسها، وكانت تسمعه يردد «أرمى نوال فى النار ومخفش عليها». ولأنه كان رجل دين، كانت تلجأ إليه كثيراً لمناقشة بعض الأمور الدينية. كان يستمع إلى رأيها ويناقشها مناقشة الصديق للصديق. وحين كانت لا تقتنع بما يفسره لها كان يقول : «لاتؤمنى بشىء لا يوافق عقلك». هكذا علمها أبوها الدين منذ صغرها. وكان مؤمناً بها إلى درجة تدهشها هى، وكان فخوراً بتفوقها فى الدراسة عن أخيها الذى يكبرها بعام.

تقول نوال : «أعتقد أن إيمان أبى بشخصيتى، وتربيته لى على ألا أخافه، وثقته فى عقلى، هى التى جعلتنى أواجه حياتى بشجاعة. عدم استعدادى لأن أخضع لأحد، سببه أننى لم أخضع لأبى، ولم أنشأ فى أسرة تحكمها سلطة الأب المطلقة، وبالتالى لا أرضى أن تحكمنى سلطة أخرى. كثيرون من الناس بسبب التربية القائمة على الخوف وتحكم الأب، يفقدون بذرة الإبداع فى فترة الطفولة».

العداء مع الرجال

وتقول فى تعليقها على أنها معقدة من الرجال ، أو فى عداء مع الرجل .. «لست فى عداء مع الرجل أو مع أى شخص. أنا فى عداء، مع أفكار وأنظمة تمنح السلطة المطلقة للرجل فى الأسرة والدولة، وتعتبره الأعلى والوصى علىّ، بل والمالك للمرأة. أنا أكره وأعادى أى نظام يفرق بين البشر على أساس الجنس أو اللون أو الدين أو الطبقة أو الفكر . أنا لست فى عداء مع الرجل كانسان، لكننى ضد الرجل كمطرقة حديدية تضرب إنسانية المرأة وإبداعها، فى رواياتى وكتاباتى. لم أكن أهدف إلى إدانة الرجل وتصوير المرأة على أنها الضحية. كان الهدف هو كشف الأسباب الحقيقية التى تشوه حياة الرجال والنساء معاً».

كتاباتى أولاً!

تزوجت أمى ثلاث مرات .. المرة الثالثة والأخيرة من الكاتب والروائى والمناضل د. شريف حتاته .. طلقت أمى، زوجين (كما تقول) لأنها شعرت أن العلاقة ، ليست ندية وليست إنسانية، وسوف تعطل موهبتها وتعوق إبداعها ... لقد خيرها زوجها الثانى قائلاً : «أنا أو كتاباتك» .. بدون تردد ، ردت نوال «طبعاً .. كتاباتى» .. رفضت أمى الزواج ، كنظام اقتصادى

لشراء النساء .. هى ضد كل أنواع العلاقات الإنسانية التى لايتساوى فيها الأطراف .. كان زواج أمى بالدكتور شريف حتاته عام ١٩٦٤ لافتا للنظر، مثيراً للشائعات، فهو خارج من السجن السياسى. بعد ١٥ سنة إعتقال لفكره الإشتراكى، وهى كاتبة معروفة بجرأتها ضد المجتمع الطبقى، الأبوى، وخارجة من تجربتى زواج وطلاق .. إستمر هذا الزواج .. لأنه غير تقليدى .. لا تنبع حقوقه وواجباته من ورقة الزواج، ولكن من الحب الحقيقى والهدف المشترك لتغيير العالم إلى مكان أجمل وأعدل وأشجع ..

أعتقد أن أسرتى نوال السعداوى، شريف حتاته، وأخى المخرج السينمائى، عاطف حتاته، قد نجحنا فى خلق أسرة عربية جديدة، ثائرة، مبدعة.

هذا يدحض الفكرة الشائعة، الخاطئة ضد نوال السعداوى، أنها ضد الأسرة .. هى ليست ضد الأسرة، وليست ضد الزواج، أو الأمومة. لكنها ضد الإزدواجيات الأخلاقية، التى تقوم عليها الأسرة .. وضد الزواج الذى يحول المرأة إلى ملكية خاصة للرجل .. وضد الأمومة، التى تختزل كيان النساء وقدراتهن إلى مربيات، وتحبسهن داخل البيوت.

من أكثر الأشياء، التى تستهوينى فى فكر نوال السعداوى، هى غضبها من تجاهل واحتقار إسم الأم فى التاريخ، تتساءل كيف يختفى إسم أمها، التى حملتها فى أحشائها، ولدتها وأطعمتها وعلمتها. من طموحاتها الكبيرة، أن يأتى يوم، يحترم فيه اسم الأم، ونسب الأم. وأن يحمل الطفل أو الطفلة، اسم أبيه واسم أمه معاً .. أليس هذا هو أبسط الوفاء، للأم التى نغرقها بأغنيات الحب والهدايا، ولكنها متوارية فى التاريخ؟

كانت حياة أمى، نوال السعداوى، ولا تزال، سلسلة متواصلة من المعارك الشائكة، التى عايشتها فى مراحل عمرى المتعاقبة. اتهمت من جميع التيارات، يمين ويسار ووسط، وبكل الاتهامات التى يمكن أن تلصق بـ كاتبة. قالوا إنها تدعو إلى الإباحية الجنسية، مع أنها تكتب لـ «أنسنة الجنس» وربطه بالحب الإنسانى .. قالوا إنها ضد الطبيعة والأنوثة لأنها ترفض أنوثة الجوارى، وأنوثة مساحيق التجميل. قالوا إنها ضد الإسلام، لأنها ترفض قيام الدولة الدينية المؤسسة على أى دين، وضد تسييس الأديان، وضد تفسير الدين ليكون مطرقة حديدية تضرب حقوق النساء والرجال. قالوا إنها تحرض الفتيات على الفساد، لأنها تفضح فساد الأخلاق المزدوجة، ولأنها تكتب ضد أن تكون العذرية، هى مقياس الشرف للفتاة أو المرأة، وضد فرض الكبت على النساء، وإباحة الاستبهار الجنسى للرجال. قالوا أنها، متطرفة الأفكار، عدوانية، لأنها لاتساوم على كلمتها الحرة، ولا تعقد المهادنات، والتنازلات، وليست داخل عباءة أى نظام سياسى، أو مؤسسة صحفية، وليست منتمية لأى حزب سياسى أو شلة نقاد.

قالوا عن شهرتها الواسعة فى العالم، وبعد ترجمة معظم أعمالها الأدبية إلى ٣٠ لغة «شرقاً»، «غرباً» أنها تكتب، للغرب.

لقد عبر أحد الكتاب الأدباء المصريين عن شهرة نوال السعداوى فى الخارج بأنها ظاهرة مريبة، إن الأدباء عندنا، لايستطيعون فهم، كيف يمكن لـ نوال السعداوى، وهى الكاتبة التى فرض عليها التعتيم، والتجاهل فى وطنها، ولم يكن لها، فى أى عهد، عمود ثابت فى أى مجلة، أو صحيفة، سواء يمين، أو وسط، أو يسار، كيف يمكن لـ نوال السعداوى، التى

يحظر اسمها من التداول، وتحجب أعمالها عن موائد النقاش الأدبي، ولا تتحدث في الإذاعة، ولا تظهر في التليفزيون، وليس لها «شلل» أو «اتصالات»، كيف يمكن لـ نوال السعداوي، التي لم تصفق لأي نظام سياسي، ولم تدخل أي حزب، ولم تعقد صفقات توفيقية بينها، وبين السلطة، كيف يمكن لـ نوال السعداوي، أن تحافظ على حريتها واستقلالها دون أن يسندها نظام، أو مؤسسة صحفية، كيف يمكن لها ، أن تكتب، وتبدع، ويصل صوتها إلى خارج بلده، ولهم حق في السؤال.

فالنجاح، والشهرة، في المجتمعات الطبقية الأبوية، أمران غير ممكنين، إلا من تحت عباءة السلطات المهنية، سواء كانت سياسية، أو ثقافية، أو إعلامية، أو دينية.

لقد وقع الكتاب والنقاد الذكور العرب، في مأزق، كان عليهم ، أن يخرجوا منه. فهم مواجهون بشهرة امرأة، في الخارج، ويسمعون كل حين، وآخر، عن ترجمة إحدى رواياتها في الشرق والغرب، وأنها تنال أرفع الجوائز الأدبية العالمية، أحدثها نوبل كتالونيا، ٢٠٠٣ بأسبانيا. فهي الكاتبة، التي أعلنوا الحرب عليها، في وطنها، وفرضوا الحصار على صوتها، وقلمها، وهي ليست منتمية لأحد منهم. كان رد الفعل الطبيعي، هو خلق فكرة أنها – أي نوال السعداوي – مشهورة في الخارج، أكثر منهم ، ليس لأنها كاتبة مبدعة، أصيلة، ولكن لأنها، تعزف على الأوتار التي تطرب لها دور النشر الغربية، وأن كتاباتها، تستجيب لما يريده الغرب ذو النوايا المغرضة. لقد تجرأ البعض، وقال أن روايات نوال السعداوي، ليست «أدبا» من الأساس. وأنها مجرد «مقالات» إجتماعية، ثائرة على أوضاع المرأة.

وكان أول عمل يترجم، في أوائل الثمانينات، ترجمة زوجها الروائي د. شريف حتاته، أي بعد عشرين عاماً، من بدء مشوارها، وأنها دائمة النقد للغرب الاستعماري المتحالف مع الهيمنة الأمريكية والمصالح الإسرائيلية. والجهات التي تترجم أعمالها ، جهات مستقلة عن الحكومات وشديدة النقد لسياسات حكامها. كما أن الفصل التعسفي بين الشرق والغرب، ليس صحيحا . نحن نعيش حضارة واحدة. التيار الرجعي في كل مكان. والتيار المتقدم في كل مكان.

إن أصحاب هذه الحرب، لم يقرأوا شيئاً من أدب نوال السعداوي، الذي أثمر عن أربعين رواية وقصة قصيرة. ولم يكلفوا أنفسهم عناء التعرف، على مادة هجومهم. ولماذا يبذلون كل هذا الجهد؟ هي امرأة. وفي المجتمعات الذكورية، «يستخسر» الرجال،، الكتاب، والنقاد، (وأيضاً النساء بالمناسبة) قضاء الوقت، للتعرف على أعمال كاتبة . خاصة، إذا كانت كاتبة، ترفض الانحناء، وإذا كانت، كتاباتها، لا ترضى أذواقهم، ومزاجهم الأكاديمي، التقليدي.

هم يعتبرون هذا ، مضيعة للوقت الثمين، الموجه إلى أهداف «عظمى»، أهم، وأرقى . ثم ما غاية التعرف على كتابات نوال السعداوي ؟ فهي خارج أي سلطة في بلادها، وبالتالي ، لا يوجد في الأفق، ما يجعل لهذا التعرف ، فائدة عملية لهم.

كما أن هناك الاحتمال ، أن كتاباتها تستحق ، بل وتفوق ما يكتبه الرجال ، والنساء الواقعات في زمرتهم، وشلتهم . وهذا أكبر من قدرتهم على التحمل، وليسوا على استعداد، لتقبله ، أو فهمه ،

أو مواجهته، أو التعايش معه، أو حتى الاعتذار عنه.

اننى أندهش ، حين يختفى اسم نوال السعداوى، من قائمة الكاتبات، حين تقام ندوة أدبية فى مصر . أو حين يذكر رواد ، ورائدات التنوير ، فى حياتنا الثقافية ، بينما تذكر أسماء أقل قامة ؟ أو حين تقام مؤتمرات الفكر والإبداع، والثقافة، والمرأة، ولا تدع إليها؟

أندهش، حين أرسل للجرائد، والمجلات، خبراً عن ترجمة رواية لها، أو حصولها على جائزة أدبية، أو اختيارها إحدى الشخصيات العالمية للقرن ٢١، ولا ينشر.

كيف يتحدثون عن «التنوير» وهم يمارسون «التعتيم» على جهد كاتبة ؟! كيف يتشدقون، بـ بالنزاهة الصحفية، وانجازات نوال السعداوى، تخفى، أو تشوه، أو تبتر؟!

كلما قرأت رواية جديدة ، لأمي نوال السعداوى، يدهشنى الطزاجة والتوهج، والجرأة المطلة من بين السطور .. والسبب، ليس فقط أنها تمس فى كتاباتها تناقضاتنا الصارخة، ولكن لأنها كاتبة تعيش ما تكتب، وتكتب ماتعيش، إن حياتها، هى أجمل وأروع، وأبدع مؤلف كتبته. إن التحام الفن والفكر بالحياة العامة، هو ما يعطى كتابات نوال السعداوى، نكهتها الفريدة ، المفعمة بجرأة العقل والقلب، والجسد، دونما انفصال .. هى «متورطة فيما تكتبه ، تورطاً، حياتيا، عضوياً. كأنما هى تكتب بـ «دمها» وليس بحبر القلم.

ولذلك فهى حينما تتحمس وتدافع عن أرائها ، لا تحمى «إبداعها» أو «فكرها»، وإنما كل حياتها، فى وحدة غير قابلة للتجزئة.

وهذا هو شرط أن تؤثر الكتابة فى القراءة ، وأن يكون لها صدى فى المستقبل، فالكتابة التى عجزت عن تغيير كاتبها ، والتأثير فى حياته، تعجز عن تغيير الآخرين، والتأثير فى حياتهم.

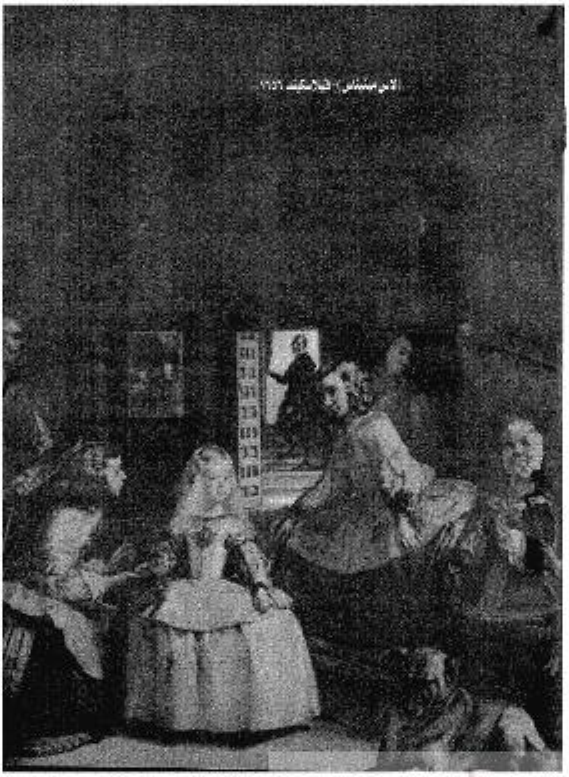
الأفكار عند نوال السعداوى، حيوات تعاش. الفكرة، كائن حى صعب المراس، لايمنح أسراره الثرية، إلا بـ عناق، دائم ، متجدد.

نوال السعداوى ، كامرأة، كإنسانة، وكأديبة مبدعة، رفضت القهر على المستوى الشخصى، والعام. وما تاريخها إلا صراع لا يهدأ، لفك سلاسل القيود فى جميع أشكالها.

لكنها تقول دوما كلمتها ، وتكتب، لأنها تؤمن بـ «أنه من الصعب أن يتحرر الإنسان، فى عالم لاتزدهر فيه من حوله حريات الآخرين».

تقول نوال السعداوى أمى:

«أكتب لأن هذا العالم لايرضينى، ويغضبنى. فالكتابة أخلق عالماً بديلاً أكثر صدقاً، وعدلاً وحرية، أكتب حتى لا أصل إلى اليأس الكامل. أكتب لإدراكى أن كل شىء يزول، وأن لاشىء يبقى إلا كلمتى التى أضعها فوق الورق وتحمل اسمى إننى أتمسك بقلمى الحر، وأزهد فى كل شىء آخر. فهو الشىء الوحيد الذى لا يمكن لأحد أن يأخذه منى، أو يعطيه لى. وأكتب لأن الكتابة هى الهواء الذى يدخل إلى صدرى، فيبقينى على قيد الحياة. أكتب لأن الكتابة هى لذتى الكبرى ومتعتى القصوى». ■



الاس منيناس - فيلاسكيث ١٦٥٦

تنويعات فنية

فى حدائق متحف البرادو

بقلم
د. صبرى منصور

يـنتـاب المرء وهو يصطف فى طابور طويل للحصول على تذكرة دخول لمتحف البرادو «بمدريد» - فى يوم حار من أيام أغسطس الماضى - شعور يفتقده فى بلادنا ، وهو الشعور بالأهمية والتقدير والقيمة الرفيعة للفنون الجميلة ؛ بينما يمنحها الأوربيون أهمية قصوى فى تكوينهم الثقافى والروحى . وحين تلمح الناس من جميع الأعمار والهيئات وقد عكست وجوههم أشواق اللقاء الوشيك بالأعمال الفنية الكبرى فى صورتها الأصلية ، يتأكد المرء أن هناك درجة من الارتقاء قد بلغها هؤلاء الناس ، ويتساءل بحسرة يا ترى فى أى زمان يصل فيه المصريون إلى مثل هذه الدرجة ؟

أما حين تدلف إلى داخل المتحف ، وتلمس مدى الدقة فى التنظيم وروعة العرض ، وتشاهد ضخامة المبنى وفخامته ، فهو يتكون من ثلاثة أدوار ويضم عشرات الصالات ، وحين تلتقى عيناك بلوحات عباقرة الفن الأفذاذ خلال فترة عصر النهضة وما بعده بقليل ، فإن شعوراً بالفخر يتملكك من قدرة الإنسان حين يحسن استغلال الإمكانيات اللانهائية التى أودعها الله فيه ، ويصل بها إلى ما يشبه المعجزات التى يندر تكرارها على مر الأزمان .

انشاء المتحف

ومتحف البرادو (ويعني متحف المرج أو متحف الحدائق الغناء) قد أقيم في مدخل أكبر منطقة حدائق في مدريد، وهي حدائق «الريتيرو» (وتعني الخلوة).

وهو يعد واحداً من أضخم المتاحف العالمية، ومجموعته الفنية تضارع في ثرائها وتنوعها المتاحف العالمية الأخرى مثل «اللوفر» في «باريس»، و «الأرميتاج» في «موسكو»، و «الناشونال جاليرى» في «لندن»، و «المتروبوليتان» في «نيويورك».

ولقد كانت «إيزابيل برجانزو» زوجة «فرناندو السادس» هي صاحبة فكرة أنشاء المتحف، وقد توفيت قبل افتتاحه عام ١٨١٩ وكان يطلق عليه المتحف الملكي للتصوير والنحت، وكان الملوك الإسبان خاصة «كارلوس الخامس» و «فيليب الثاني»، و «فيليب الرابع» من كبار المقتنين للأعمال الفنية، واعتمد المتحف في بدايته على المقتنيات الملكية من أعمال تنتمي إلى القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن التاسع عشر وضم المتحف فيما بعد أعمالاً عديدة في النحت والتصوير تنتمي إلى القرن الحادي عشر وماتلاه، وبالطبع فإن المتحف يحتوي على أكثر المجموعات الفنية اكتمالاً وتمثيلاً للتصوير الإسباني منذ القرن الحادي عشر وحتى القرن الثامن عشر، وكذلك يحتوي المتحف على نماذج وفيرة من اللوحات التي تعود إلى القرن السابع عشر الذي يعد قرناً ذهبياً للفنون والآداب في أوربا.

مجموعة الفن الإسباني

ويزهو متحف «البرادو» بامتلاكه أعمال ثلاثة من المصورين العظام، وتحتل لوحاتهم العديدة قاعات كاملة، لتكشف عن تطور أساليبهم الفنية منذ البدايات الأولى وحتى مراحل النضج الفني الكامل. والثلاثة هم «ڤيلاسكيند» و «جويا» و «إلجريكو».

«دييجو ڤيلاسكيند» ولد عام ١٥٩٩ بمدينة سيڤيا (إشبيلية إبان الوجود العربي) ثم انتقل إلى «مدريد» عام ١٦٢٢.

حيث تم تعيينه مصوراً في بلاط الملك «فيليب الرابع»، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٦٦٠. ويعتبره الإسبان أستاذ الأساتذة، ولذلك فإن المتحف يعرض أعماله في الموقع الشرفي بأسلوب يليق بعظمتها وروعتها، ومن بين أكثر من مائة لوحة رسمها الفنان فإن المتحف يمتلك من بينها واحداً وخمسين لوحة. ومن أهمها بالطبع لوحته الشهيرة الضخمة «لاس مينيناس» وهي علامة على أسلوبه الفني الرصين، وقد استعرض فيها امكانياته في التصميم المحبوك. واللون الغني، وعلاقات الضوء والظل، كما جعل فيها من الهواء والجو المحيط البطل الرئيسي لتكوينه، وقد أجرى الفنان الإسباني الشهير «بابلو بيكاسو» تنويعات عديدة على هذه اللوحة، كاشفاً عن القدرات الفنية الفريدة التي تحتوي عليها.

«عبادة الرعاة» – الجريكو ١٦١٢



كما تعرض لوحاته المتميزة «الرماح» و «استسلام بريدا» و «المسيح المصلوب» وكلها أعمال ذات قيمة فنية عالية ، توضح مراحله المختلفة ، والموضوعات المتنوعة التى تناولها وتراوحت ما بين صور شخصية ، وصور دينية أو أسطورية أو تاريخية . كما تعرض مجموعة لوحاته التى صور فيها العديد من شخصيات الأقزام والتى تعد من لوحاته المتميزة ذات القيمة الفنية العالية ، فقد امتزجت فيها معالم الواقعية بالملامح التعبيرية ذات المغزى الإنسانى العميق .

«فرانسيسكو جويا» ولد عام ١٧٤٦ وتوفى عام ١٨٢٨ ، وهو عبقرى من عباقرة التصوير على مر العصور ، وحالة فريدة لم تتكرر كثيراً فى تاريخ الفن لنقلاته العنيفة فى أسلوبه الفنى الذى كانت بداياته الفنية مرحة مبهجة حين كان يصور الأعياد الشعبية الاسبانية والمناسبات الاحتفالية فى «مدريد» ، مثل لوحتيه «الشمسية» و «الربيع» ، وفى نهاية حياته الفنية جسد عالماً من الفانتازيا والأحلام الكابوسية ، أو ما يطلق عليه المرحلة والسوداء» .

و «جويا» الذى كان مصوراً فى بلاط الملك «كارلوس الرابع» ، لم يكن مجرد فنان بلاط عادى ، وإنما كان فناناً مثقفاً واعيا ، تعتمل نفسه بشتى الأحاسيس ، وأعمق المشاعر ، كما كان شاهداً مخلصاً على الفترة التاريخية الدقيقة من التاريخ الإسبانى التى عاصرها وعاشها متفاعلاً مع أحداثها وقد أسفرت قدراته وإمكانياته الفنية الخلاقة عن أسلوب فنى خاص كان له السبق فى الدخول إلى عوالم جديدة ، كما كان له التأثير الواضح على التطورات الفنية التى حدثت فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

وقد انفرد أسلوب «جويا» الفنى بالقدرة على تجسيد النواحى السيكولوچية للشخصيات التى صورها ، مسجلاً نفوره منها أو تعاطفه نحوها ، مثلما يتضح فى لوحته الضخمة «لعائلة كارلوس الرابع» أو لوحة «عائلة دوق أوسونا مع الأبناء» ففى كلتا اللوحتين يتضح التعاطف الشديد الذى أولاه «جويا» للأطفال دون آبائهم .

وتظل لوحتاه التى أطلق عليها «الحسناء» سواء التى صورها عارية أو تلك التى صورها مرتدية ملابسها من أشهر لوحات جويا ، ولم يتضح حتى اليوم غموض شخصية الموديل المرسومة أما لوحتيه «الثانى من مايو ١٨٠٨ فى «مدريد» : الصراع بين المماليك» و «الثالث من مايو ١٨٠٨ فى «مدريد» : الإعدام رميا بالرصاص فى جبل الأمير بيو» فإنهما تحددان فى علامة مهمة فى إبداع «جويا» لما احتوتا عليه من درامية انسانية مؤثرة .

«إلجريكو» (١٥٤١ - ١٦١٤) واسمه الأصلى «دومينيكوس ثيوتوكوبولوس» أما إلجريكو فإنه يعنى باللغة الإسبانية «اليونانى» فقد كان مولوداً فى «كريت»

تفصيلية من لوحة «حديقة اللذات» - بوش ١٥٠٥



وهاجر إلى «اسبانيا» فى سن الخامسة والثلاثين بعد فترة قضاها فى إيطاليا فى ذروة عصر النهضة ، وقد استقر فى مدينة «توليدو» (وكانت خلال الحكم العربى تدعى طليطلة) التى كانت فى تلك الفترة العاصمة السياسية لأسبانيا وأيضاً عاصمة النخبة من المثقفين . وقد حمل إلجريكو معه تقاليد الفن البيزنطى وأحسن دمجها بالرؤية الجديدة التى هلت على أوربا فى عصر النهضة ، فأبدع نموذجاً غريباً هو الفريد من نوعه فى تاريخ الفن العالمى ، ويعكس الأسلوب الشخصى للفنان الذى تميز بالتطويل الزائد للأشخاص مع اختصار الخلفيات التى تكاد تبدو مسطحة ، ولوحاته مليئة بالتناقضات الضوئية الشديدة . وفى المجموعة الكبيرة المعروضة من أعماله يمكن ملاحظة تأثيرات مايكل أنجلو فى لوحة «الثالوث» التى أنجزها فى بداية حياته الفنية ، بينما يتضح النضوج الفنى والأسلوب المميز لإلجريكو فى لوحته الشهيرة «عبادة الرعاة» . ومن بين الصور الشخصية التى رسمها لأصدقائه ونجوم مجتمع توليدو لوحته المعبرة «رجل ويده على صدره» ، وعامة فإن مجمل ابداع إلجريكو يعكس روحاً نبيلة سامية ، ويشى بعالم صوفى قدسى تساهم جميع العناصر الفنية فى تجسيده والإيحاء به .

ومن بين كبار مصورى القرن الذهبى يحتفظ متحف «البرادو» بأعمال لكل من المصورين الإسبان أمثال «ريبالتا» و «ريبيرا» ، «زورباران» و «موريللو» .

التصوير الفلمنكى

وهناك عدد كبير من المصورين الفلمنك ، أمثال ڤان درڤايدن» من كبار فنانى القرن الخامس عشر ، ولكن أهمهم على الإطلاق هو المصور «هيرونيموس بوش» (١٤٥٠ - ١٥١٦) - وهو أسم اخترعه لنفسه - ومن بين لوحاته المعروضة لوحة «الرحمة» و «العذراء والطفل» و «حديقة اللذات» وهى لوحة من أمهات الفن العالمى وقد رسمها الفنان فى ثلاثة أجزاء وخلق فيها عالماً خيالياً يمتلئ بجميع الأفكار والأشكال ، ويتسم بالجرأة فى التعبير والتجديد والابتكار فى العلاقات بين العناصر ، وتتوج هذه اللوحة الأسلوب الفنى لبوش وتجعله أول سيريالى فى التصوير الغربى دون منازع .

وتسترعى الانتباه بشدة لوحة المصور بروجل الكبير» انتصار الموت» لما احتوت عليه من نضج فنى تفصح عنه تلك الحلول التشكيلية المميزة لموضوع قاتم يصعب الاقتراب منه والتعبير عنه .

وتعد لوحة المصور روبنز «الجميلات الثلاثة» من أروع أعمال الفنان الذى يعتبر فنه مثلا نموذجياً لفن القرن السابع عشر .

كما أن هناك مجموعة متميزة للمصور ڤان دايك تمثل عناصر من الطبيعة الصامته والزهور والمناظر الطبيعية .

المجموعة الإيطالية



صورة شخصية للفنان دورر ١٤٩٨

ويضم «البرادو» مجموعة أعمال لفناني ما قبل عصر النهضة الإيطالية أمثال «فرا انجيليكو» و «بوتتشللي» و «ميسينا» و «فونتانيا» ، ومن لوحات عباقرة النهضة لوحة رافاييل «صورة شخصية لكاردينال» ولوحة «العائلة المقدسة» ويضم المتحف كذلك لوحات لكل من أندريا دل سارتو وكوريچيو ،

وتلمح أعمال المصور تيتسيانو ومدرسة فينسيا التى تعد مجموعتها المعروضة فى المتحف من أثمن المجموعات المعروضة معاً فى أى متحف عالمى ، وتصعب المقارنة بين أعمال تيتسيانو الكبرى مثل لوحات «كارلوس الخامس فى معركة موهلبرج» و «ايزابيل امبراطورة البرتغال» و «قربان ڤينوس» و «ڤينوس وأدونيس» وبين أعمال المصور تينتوريتو مثل لوحته «الحمام» وكذلك بين أعمال ڤيرونيز مثل لوحته «نجاه موسى من مياه النيل» وكذلك بين أعمال چيورچيونى مثل حلم سالومون وأيضا تيبولو فى لوحته «الحمل الطاهر» .

نماذج أوربية أخرى

وهناك أيضا مجموعة تمثل التصوير الفرنسى ، من بينها أعمال لكل من المصورين بوسان ، وواتو ، ودى لاتور .

وتأتى على رأس الأعمال الفنية الهولندية لوحة رامبرانت ، إلى جانب أعمال فنية أخرى تتضح فيها المعالم التى تميز الفن الهولندى عن الفن الفلمنكى منذ نهايات القرن السادس عشر .

ومن اللوحات التى تمثل الفن الألمانى توجد بالمتحف لوحة «صورة شخصية» التى رسمها لنفسه المصور والحفار الشهير دورر ، وهى لوحة متميزة تجدها دائماً فى قواميس الفن وكتب تاريخ الفن نموذجاً على الفن الألمانى فى وقته وصرامة تعبيره كما توجد أيضاً مجموعة صور شخصية للمصور مينجز الذى كان مصوراً فى بلاط الملك كارلوس الثالث ، وكان أول من اقترح على الملك إقامة متحف فنى مفتوح للجمهور .

ويمثل الفن الانجليزى فى البرادو مجموعة ممتازة من أعمال تنتمى للقرن السابع عشر والتاسع عشر ، لفنانين من أمثال رينولدز ورومنى ولورنس .

أما عن المجموعة النحتية فى متحف البرادو فهناك حوالى سبعمائة تمثال بدئ فى تجميعها منذ عهد الملك فيليب الثانى ، وتشمل أعمالاً منذ العصور القديمة السومرية والمصرية واليونانية والرومانية الكلاسيكية .

ومن بين القطع النحتية الثمينة التى يفخر المتحف بعرضها تمثالى «ڤينوس فى مدريد» و «ڤينوس دى لاكوفشا» .

يوم واحد لا يكفى

وفى نهاية يوم زيارة متحف البرادو يحس المرء أنه قد تناول وجبة ثقافية دسمة ، ويشعر فى نفس الوقت بالرغبة فى معاودة الرؤية المتأنية للأعمال الفنية والدخول فى كل تفاصيلها للإلمام بنواحى الجمال فيها ، وتأمل قدرة كل فنان فى صياغة أسلوبه الفنى الخاص ، بكل ما يحتويه من قدره على التميز والاختلاف والإضافة إلى عالم الفن والابتكار فيه .

لذلك فإن المتحف يعد بمثابة مدرسة مفتوحة ينهل منها كل شخص على قدر ثقافته وخبراته ، وتظل الأعمال الفنية الخالدة رابضة دائماً هناك عارضة نفسها على الناس كشاهد على قدرة الانسان الفذة على تجاوز الواقع والإبحار فى عوالم خيالية ووجدانية ساحرة . ■



تفصيلة من لوحة الخطايا
السبع القاتلة - بوش ١٤٧٥

اتحاد الكتاب

بــرج الزمــالك المــائل !

بقلم
محفوظ عبد الرحمن

حتى بعد مرور خمسة عشر عاما على انشاء «اتحاد كتاب مصر» لم تخطر على بالي فكرة التقدم لعضويته. فلقد كان من وجهة نظرى واعتقد أيضا من وجهة نظر الكثيرين مجرد تكوين أشعث بنى فى ظروف خاصة. فلم يكن نتيجة احتياج نقابة للادباء، ولكن الاحداث أوجبت انشاء تجمع يكون تحت عين السلطة يحسن أن يكون تحت يدها. وكان الحدث الطامة هو البيان الذى وقعه توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهما من كبار الكتاب قبيل حرب ٧٣ يدعون فيه الى اجلاء الامور، ويوجهون الى السلطة النقد لمواقفها المتخاذلة.

قامت حرب ٧٣ بعدها وداوت الجراح. وبعد أن كانت السلطة قد نكلت بالأدباء، اعادتهم الى اعمالهم، واحتفت بهم. لكن مافى القلب فى القلب. اثبتت التجربة ان تقابل كاتبين أو أكثر ولو صدفة وتدارسهما أحوال الأمة من الممكن أن يفجر موقفا يؤذى السلطة ويضعها فى حرج شديد.

ولا أدرى، ولا أظن أن أحدا يدرى من صاحب الفكرة «العبقرية» فى انشاء اتحاد للكتاب. فالاتحاد الذى من الممكن أن يكون مطية للسلطة هو نفسه الذى يستطيع تحويل تجربة توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومن معهما الى تجربة يومية. ولذلك كان لابد من انشاء اتحاد له صفات خاصة.

ولم ينشأ برج بيزا مائلا. لكن اتحاد الكتاب بنى مائلا، وكان المهندس

الاكبر له رجلا اقدره كثيرا هو يوسف السباعى ، وصل الى اعلى المناصب الثقافية وبينها وزارة الثقافة، وكان المهيمن على شئونها . وكان على علم بدروبها وقادرا على اسكات أصوات المعارضين، وبالطبع ليس لهذا اقدره فلقد كتب بعض الكتابات الجيدة منها «السقا مات» فضلا انه كان له مواقفه المشرفة الى جوار بعض المبدعين. وان كنا نضع هذا كله بين أقواس.

المهندس كان رجلا مقبولا خاصة من السلطة فأجاد بناء الاتحاد ماثلا . ولا أريد هنا أن تحدث عن استبعاد كتل باكملها مقابل الترحيب بجماعات معينة حتى لو كانت لا تمتلك التاريخ الأدبى. فأنا كما ذكرت فى البداية كنت على بعد من التجربة، ولا أرى فيها ما يستحق الاهتمام. وربما كان هذا خطأ. لكن كان قطاع كبير ومهم من الأدباء يرى مقاطعة هذا الكيان السلطوى الهجينى، وفعلا قاطعه كثيرون. وكان هناك اتجاه يرى تجاهل هذه التجربة والسعى الى انشاء اتحاد للكتاب يعبر عنهم فعلا. وهذا لم يحدث لحسن الحظ أو سوئه.

ودخل اتحاد الكتاب آنئذ عدد كبير من مدعى الكتابة مثلوا أغلبية من الممكن تسييرها . وبالطبع لم تمت هذه الأغلبية أو تختفى بل استمرت. وطبعا انقسمت أحيانا وتزايدت.

وأحيل قانون انشاء اتحاد الكتاب الى المهتمين فهو تدبير محكم لامالة البرج. ولكننى أخذ منه هنا نقاطا سريعة. مثلا مجلس الادارة يتكون من ثلاثين عضوا. وأنا لا أعرف نقابة أو جمعية أو منظمة مشابهة يتكون مجلس ادارتها من هذا العدد. وهو بالطبع غير قادر على ادارة الاتحاد. فالمجلس يجتمع مرة كل شهر ماعدا شهرين فى الصيف، وماعدا الجلسات الطارئة وهى أندر من الكبريت الاحمر، فالاتحاد فى تاريخه الذى تجاوز ربع قرن لم يجد فى احداث الكتاب والبلاد والدنيا ما يستحق الاجتماع الطارئ. والمجلس له رئيس لا يُنتخب من الجمعية العمومية مثل بقية النقابات. فاتحاد الكتاب حسب القانون هو نقابة وان كان نقابة ذات طبيعة خاصة ،

نجيب محفوظ



توفيق الحكيم



سعد الدين وهبه



الرئيس ينتخب من مجلس الإدارة . وهى فكرة عبقرية أخرى قائمة على نظرية: يحدث ما يحدث المهم «التربيطات» ! فوسط ثلاثين من الممكن عقد أية اتفاقات مهما كان هدفها. ومن أول مجلس ادارة والسوس ينخر فيه، وتكوينه يجمع عناصر عديمة الموهبة أو قليلة الموهبة بنسب مختلفة، ومن السهل التأثير عليها.

وفى القانون تبعية الاتحاد لوزارة الثقافة (يوسف السباعى) وسلطته حتى فى حل المجلس. وهى نقطة ذات وجهين. اذا أراد الكتاب الاستفادة من وزارة الثقافة . قالوا اذن انتم توافقون على التبعية. واذا رفضوا قالوا: اشربوا من البحر! ثم كان المقر البصمة الاخيرة لتفصيل الاتحاد كما يريدون. فلقد منحوه المكان الذى كان يعيش فيه خدم أحد القصور. ومنحوه بتردد فزحفت «جموع كتاب الاتحاد الجديد» واستولت على السلاملك بالقوة، ودافعت عنه بالصدور. ومازالت تذكر كلمات كأنها كلمات بديعة، وفركت السلطة يديها سعيدة بنجاحها فى تقديم الادباء. وبعد ان جلسنا أول اتحاد وثانى وثالث.. فى السلاملك حدث ماحدث. وتحول المبنى الى بيت اشباح. وواجه الاتحاد منذ البداية قضية نقل اتحاد الادباء العرب من مصر الى سوريا، مع المقاطعة العربية لمصر مع كامب دافيد. ولقد اثبت الكتاب المصريون خلال هذه السنوات وحتى اليوم انهم اشد الرافضين لكل انواع التطبيع مع اسرائيل والصهيونية.

ثم حدثت هبة «سعد الدين وهبة» الذى أراد أن يكون اتحاد الكتاب المصريين اتحادا بحق . ودعا عددا كبيرا من الكتاب لدخول الانتخابات بدلا من ترك الساحة لعديمى الموهبة وقليلى الموهبة الذين أشرنا اليهم منذ بداية التكوين.

وكان من الذين اتصل بهم ورشحوا انفسهم بناء على دعوته أو تشجيعه ونجحوا فى الانتخابات: بهاء طاهر، جمال الغيطانى، فاروق جورشيد، وحيد حامد وكاتب هذه السطور. ثم لحق بهم الدكتور صلاح فضل.

وأعلن سعد الدين وهبة مشروعه الذى التف حوله الكتاب حتى الآن: استقلال اتحاد الكتاب، زيادة موارده ، حماية الاديب وفكره. التعاون مع الاتحادات العربية، ثم اعادة نقل الاتحاد العام الى مصر. أو على الأصح اعادته مرة أخرى.

ثم كانت وفاة سعد الدين التى احدثت هزة فى الاتحاد. وان كان التصور العام ان الامور ستسير فى نفس الطريق، فلم يكن ما جاء به سعد الدين وهبة سرا مغلقا بل كان التعبير عن رغبة الادباء.

ولكن السوس الذى كان ينخر فى الاتحاد كان أقوى من رقى الرغبة وحسن النية. وفى مثل هذه الحالات كما نعرف تنشأ عناصر تتستر وراء النقابة. ولأنها عديمة الموهبة وليس لديها اى مشروع أدبى أو ثقافى فهى تملك الوقت للاتصالات وتتفهم

وسائل الترغيب والترهيب. ولذلك تنجح هذه العناصر فى الانتخابات. غالبا لا تنجح نجاحا باهرا فهى ليست مقنعة للشارع الادبى. لكنها تنجح على اى حال. واذا ما وصلت الى مجلس الادارة بدأت تنخر فيه بوسائل لا تغيب عن فطنة أحد، ولأسباب ايضا لا تغيب عن فطنة أحد. ولم يحتمل البعض الوضع الجديد فاستقالوا ومنهم : بهاء طاهر، جمال الغيطانى، وحيد حامد. وفي انتخابات اخرى سقط نجوم الادب ونجح من لا يعرف اسماءهم - وبالطبع انتاجهم - أحد .

ثم جاءت قضية اقامة مؤتمر ثقافى عربى فى مصر، وتحدد موعد المؤتمر منذ وقت طويل، ومن المفروض انه تمت اتصالات وتحضيرات. وفجأة صدر بيان من المجلس دون علمه بتأجيل المؤتمر. وكلمة «تأجيل» هنا لا تخفى على اللبيب، فهى تعنى الغاءه. وحتى هنا والامر واضح، المكتب الذى يتكون من الرئيس ونائبه والسكرتير وامين الصندوق رأى صعوبة عقد مؤتمر ادباء فى مصر فقرر الغاءه، ولأن الأدب يتطلبه كلمة أخرى، فأسموه تأجيلا . لا بأس. لكن البيان الذى صدر والذى تنصل منه الجميع حتى وقع على رأس مقرر لجنة الاعلام (مالها وهذا!!) قال ان الذين يريدون اقامة مؤتمر ادباء لمصر لديهم نية مبيتة لم يكشفوا عنها، وهى ترشيح مصر لرئاسة اتحاد الادباء العرب. ليس هذا فحسب بل لديهم الرغبة والعياذ بالله لنقل اتحاد الادباء الى مصر أو على الأصح اعادته. وحتى هنا كان الامر معقولا. الا أن البيان فجأة هاجم من يريدون اقامة المؤتمر ويرغبون سرا فى اعادة الاتحاد بأنهم ضد القومية العربية.. و.. و.

وفجر هذا حالة من الذهول والغضبة. المكتب عاجز عن اقامة مؤتمر أو غير راغب فيه. مفهوم. ولا مانع . أما جر الموضوع الى ميدان آخر. فأمر غير مقبول . وفى اجتماع طارئ من الاجتماعات الاندر من الكبريت الأحمر تراجع المكتب، وهذا شئ جميل ولو انه حقيقى.

ولو أنك تسير الآن فى شارع حسن صبرى فى الزمالك ستري برجا مائلا، قال أحدهم أن عدله مستحيل. ولذلك ليس علينا ألا نغمض العين ونسير ندعو حسبما نريد بالستر أو العفو أو الرحمة. ■

فاروق خورشيد



صلاح فضل



وحيد حامد



أموات....

وأفلام صيف حار، حالك السواد

بقلم
مصطفى درويش

كان صيفا حارا ، حالك السواد ، لم تكد تمضى أشهره العجاف ، حتى كان الموت قد أتى على كوكبة رائعة من مشاهير السينما ، رجالا ونساء .

ففى اثنائه اختفى من عالمنا كل من النجم «جريجورى بيك» الذى عرف بأدائه الرصين .

ميمون وأمينة رزق نوعية وحيدة فى مصنع الأحلام



«وجون شليسنجر» المخرج الانجليزي الذي لم يتهاوى أمام سطوة القدر إلا بعد أن أبدع «بيلي الكذاب» «وراعي بقر منتصف الليل» ، وأفلاما أخرى فتحت آفاقا جديدة لفن صناعة الأطياف .

ويوب هوب ، ذلك النجم الكوميدي الذي أضحك الملايين بأفلامه ونكاته وقفشاته ، والذي لم يسلم الروح في السابع والعشرين من يوليه ، إلا بعد أن استجابت السماء ، قبل شهرين ، لأمنية حياته ، أن يعيش حتى يبلغ من العمر مائة عام .

«وشارلز برونسون» الممثل الذي لم يبدأ نجمه في الصعود إلا بعد أن جاوز الشباب كثيرا بعمر قارب الخمسين ، هذا عن مشاهير رجال السينما الذين اختفوا مع الآلاف المؤلفة من المسنين في أوروبا ، وبالذات فرنسا وايطاليا والبرتغال ، تحت تأثير موجة عاتية من الحر غير المسبوق في تاريخ القارة العجوز .

الغيرة القاتلة

أما مشاهير نساء السينما اللائي رحلن أثناء الصيف اللعين ، فالحديث عنهن يطول بعض الشيء ، وابدأه بأصغرهن سنا ، النجمة الفرنسية «ماري ترانتينيان» ابنة المخرجة «نادين» والممثل الذائع الصيت «جان لوي ترانتينيان» ، نجم «رجل وامرأة» ، ذلك الفيلم الفائز بسعفة مهرجان كان الذهبية ، قبل سبعة وثلاثين عاما .

أما لماذا فقدت حياتها ، وهي لاتزال في ربيع العمر : فذلك لأن حبيبها مغني الروك «برتران كانتا» الذي اصطحبته إلى «فيلنيوس» عاصمة ليتوانيا ، حيث كانت تلعب دور الأديبة الفرنسية «كوليت» في فيلم من إخراج أمها ، يجري تصويره في تلك المدينة .

فقد كال كانتا لها ، أثناء مشاجرة ، لكمات مميتة ، تحت تأثير غيرة قاتلة ، انتهت بها فاقدة الوعي ، حتى أسلمت الروح ، بعد بضع ساعات من نقلها جوا إلى باريس ، بأمل انقاذ حياتها من موت أكيد .

المفاجئ والمتوقع

وبقدر ما كان اختفاء «ماري» على هذا النحو أمرا مفاجئا عاصفا ، بقدر ما كان اختفاء الرائدات الثلاث «كاترين هيبورن» و «أمينة رزق» و«ليني ريفنشتال» أمرا متوقعا ، هادئا .

ولا غرابة في هذا ، فالثلاثة كن عند لحظة الاختفاء ، قد بلغن من الكبر عتيا .

«فهيبورن» كان لها من العمر ستة وتسعون عاما ، عندما جاءها الموت في التاسع والعشرين من يونيه (حزيران)



و«أمينة» بدورها كان عمرها ، وهى طريحة فراش الموت، قد جاوز التسعين بثلاثة أعوام .

«وريفنشتال» ، وهى أطول الثلاثة عمرا ، استسلمت للنومة الكبرى فى هدوء ، وربما دون أن تدرى ، فى منزلها بمدينة «بوكينج» بولاية باڤاريا ، جنوب ألمانيا ، عن عمر جاوز المائة بعام والراحلات الثلاث يمثلن ، والحق يقال ، ظاهرة فريدة فى تاريخ السينما.

وأى تقييم سليم لدورهن ، لابد أن ينولهن أعلى مراتب الريادة فى مجال فن السينما ، فهن فى ميدانه قد انتبذن لأنفسهن مكانا ساحقا ، يكاد يتأبى على غيرهن من الرائدات

أسطورة أمريكية

وابدأ باولى المختفيات «هيبورن» لأقول أن أول ظهور لها على الشاشة كان فى فيلم «ورقة طلاق» (١٩٣٢) ، وأمام من ؟

«جون باريمور» أحد أساطير المسرح والسينما فى ذلك الزمان.

ووقتها لم يكن لها من العمر سوى خمسة وعشرين عاما هذا ، ولم يمض سوى عام ، إلا وكان قد جرى تتويجها بجائزة أوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها فى فيلم «مجد الصباح» (١٩٢٣).

وهذه الجائزة لم تفز بها مرة أخرى، إلا بعد خمسة وثلاثين عاما ، أى وهى فى الستين من سنيها ، وذلك عن أدائها لدور أم لفتاة ، وقعت فى حب شاب أسود (سيدنى بواتييه) فى «خمن من القادم إلى العشاء» (١٩٦٧) آخر أفلامها التسعة مع النجم «سبنسر تراس» الذى جاءه الموت بالسرطان، عقب انتهائه من أداء دوره فى هذا الفيلم ، بقليل والغريب ، أن تفوز بأوسكار ثالثة فى العام التالى مباشرة لفوزها الثانى ، وذلك عن أدائها أمام النجم «بيتر أوتول» فى فيلم «الأسد فى الشتاء» .

والأكثر غرابة أن تفوز بأوسكار رابعة بعد ذلك بثلاثة عشر عاما ، عن أدائها أمام «هنرى فونداء» ، قبل موته هو الآخر بقليل ، فى فيلم «على ضفاف البركة الذهبية» .

ووقتها كان عمرها قد تخطى السبعين بثلاثة أعوام .

وبفضل هذا التتويج الرابع ، تكون «هيبورن» قد ضربت رقما قياسيا فى الفوز بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية .

ولعلها المرة الأولى ، وربما الأخيرة ، التى يكتب فيها لنجمة الفوز بثلاث جوائز أوسكار بعد تخطى الستين .

النجاح لماذا ؟

وذلك النجاح فى البقاء نجمة متربعة على عرش هوليوود ، زهاء نصف قرن من عمر الزمان ، إنما يرجع فى رأى افتتاحية عدد أغسطس من مجلة «سايت آند ساوند» أقدم مجلات السينما فى العالم المتكلم باللغة الإنجليزية ، وأكثرها جدية وعراقة : إلى امتلاك هيبورن لعزم أكيد ، وإرادة من حديد

فضلا أولا عن تمسكها باستقلالها فى مواجهة استديوهات هوليوود الكبرى وذلك فى عصر كانت تلك الاستديوهات تتحكم فى نجماتها ، على نحو لا تترك معه ، كبيرة أو صغيرة من حياتهن إلا وتتدخل فيه ، وتبدل حسبما تهوى وتشاء ، إلى حد تغيير الوجوه ، وتسريحات الشعر والأسماء .

وثانيا عدم تمسكها بلعب أدوار لاتتلاءم مع كبر سنها فما أن أحست بزحف الشيخوخة ، حتى أخذت فى الانسحاب برشاقة ، وكرامة ، مؤثرة دون خوف أو تردد ، أداء أدوار نساء مسنات فى أفلام مثل «فجأة الصيف الماضى» (١٩٦٠) و«رحلة يوم طويل فى ظلام الليل» (١٩٦٢).

والأهم ، فصمودها وانتصارها فى نهاية الأمر ، إنما يرجع أساسا إلى نشأتها الأولى ، فى جو من رغد العيش والحرية .

فوالداها ، كلاهما كان نصيرا للفكر الحر، جانحا بشكل أو بآخر لليسار .

ومن الأكيد ، أنه لولا هذه النشأة الأولى ، لما كان فى وسعها أن تترك آيات سينمائية

، من أروع ما أبدعه خيال صانعي الأطياف ، على مر السنين .

وأخيرا ، لا يفوتني أن أذكر أنها ، وباستثناء أشهر قليلة ، عاشت متحررة من الزواج وأعبائه ، ومن الخلفة بالتزاماتها وهمومها الجسام ، الأمر الذي أتاح لها فرصة التفرغ لتحقيق حلم حياتها ، أن تكون نجمة في القمة يحفل بها الزمان .

الأسطورة المصرية

ليس ثمة شك في أنه لو طرحنا للمقارنة سيرتها وسيرة أمينة رزق ، لكشفت لنا المقارنة أنها كانت أسعد حظا من نجمتنا .

فعلى امتداد ستين عاما ، أو يزيد لم تقف هيبورن أمام الكاميرا إلا لأداء الدور الرئيسي في الفيلم .

في حين أن الأدوار التي أدتها «أمينة» أثناء مسيرتها الأكثر طولا من مسيرة «هيبورن» كانت في معظمها أدوار ثانوية ، تكاد تنحصر في دور الأم .

وثمة فرق آخر بين النجمتين ، أثر على مسيرتيهما ، لاريب ولعله يلقي بعض الضوء على فشل «أمينة» حيث نجحت «هيبورن» وهو أنها ولدت ، عكس النجمة الأمريكية ، فقيرة ، وتيتمت صغيرة .

وعلى كل ، فما يعرف عنها ، أنها بدأت مسيرتها في درب التمثيل ، منذ عشرينات القرن العشرين ، حين غادرت طنطا (١٩٢٤) حيث ولدت ، مع خالتها «أمينة محمد» إحدى رائدات السينما المصرية ، ليكون استقرارها في القاهرة ، حيث التحقت ، بعد جهد بفرقة رمسيس .

وبدءا من التحاقها بتلك الفرقة ، وهي تمثل ، دون انقطاع اما على خشبة المسرح ، واما أمام الكاميرا .

ولقد كان أول ظهور لها على الشاشة في الفيلم الصامت «سعاد الغجرية» (١٩٢٨) .

ونظرة طائرة على مجموع أفلامها ، تكفي للقول بأنه ، باستثناء يوسف شاهين ، وتوفيق صالح ، قام جميع مشاهير المخرجين الذين ساهموا في بناء صرح السينما المصرية ، باسناد أدوار لها ، بعضها رئيسي ، وبعضها الآخر ثانوي ، في واحد أو أكثر مما أبدعوه من أفلام .

أم شعبية

ومن البداية ، ورغم هيمنة «الفاطمتين» (اليوسف ورشدي) ، نجحت «أمينة» في أن تفصح بملامح وجهها ، ورقتها عن طبيعة المرأة المصرية الحنونة ، الباكية على ما تعانيه من عبث الأقدار ، فذلك الوجه بملامحه ذات المسحة الفلاحية ، برعت بفضله في التعبير عن تلك الطبيعة .

ومما ساعدها على ذلك استيعابها الوجدان الشعبي المليء بروافد الحزن المتراكم على مرّ العصور ، وهو حزن ، في جوهره ، نبيل .

والغريب أنهم اسندوا إليها دور الأم ، من بداية مبكرة ، وهي لاتزال في ريعان الشباب .

فإذا بها تفلح في أداء هذا الدور ، حتى أصبح أداؤها له ، مضرب الأمثال ، تقتدي به الممثلات ، عندما تسند إليهن أدوار الأمهات

ومن أهم أفلامها في بداية العقد الأخير من حياتها ، حيث تقمصت شخصية أم تعيش في بيت المسنين ، فيلم أرض الأحلام (١٩٩٣) .

فيه كانت أما للنجمة «فاتن حمامة» .

وكم كان أداؤها رائعا ، وكم كانت في أكثر من مشهد متفوقة على ابنتها سيدة الشاشة العربية .

وكم تسخر الأقدار .

وحدة الهدف

وختاما ، فلعله من المفيد أن أضيف إلى ما ذكرته باختصار من سيرتها أمرين:

الأول : أنها لم تشعر أبدا بالرغبة في الزواج ، وهي عن ذلك غير نادمة ، لأنها ، وفق قولها ، قد وهبت نفسها الفن الذي وجدت فيه منجاة لها ، فرنت إلى مزيد منه منذ البدايات .

وفعلا وجدته في أضواء المسرح ،

وأطياف السينما .

والثانى أنها ، عند انسحابها من الدنيا ، قبل أسابيع ، كانت قد استكملت ثلاثة أرباع القرن ، وازداد أربعة أعوام ، من الظهور المتواصل على خشبة المسرح ، والشاشات كبيرها وصغيرها .

وأغلب الظن ، أنها بفضل ذلك تستحق لقب الممثلة الأطول عمرا فى المسرح والسينما

وربما لا ينافسها فى استحقاقه عالميا سوى النجمة الأمريكية «ليليان جيش» التى بلغت من الكبر عتيا (٩٩ عاما) ومعروف عنها أنها ظهرت على خشبة المسرح ، وهى طفلة ليس لها من العمر سوى خمسة أعوام .

واختارها المخرج «دافيد جريفيث» ابو السينما للتمثيل فى أفلامه بدءا من عام ١٩١٢ .

ومثلها مثل «أمينة» ، وهبت حياتها للفن ، فامتنعت عن الزواج ، وظلت تمثل حتى عام ١٩٨٧ ، حيث تقاسمت بطولة فيلم «حيتان أغسطس» مع النجمة بت ديفيز .

وفى مهرجان كان ، حيث جرى عرض الفيلم ، شاركت فى الندوة المخصصة لمناقشته ، بمخ حاضر ، يقظ ، لا يتلعثم فى الكلام ووقتها كان لها من العمر ثلاثة وتسعون عاما !!

وبذلك تكون هى الأخرى ، قد ضربت رقما قياسيا ، وتكون هى و«أمينة» فرستى رهان !!

الأسطورة الألمانية

والراحلة الثالثة «لينى ريفنشتال» ، وإن كانت قد بدأت مسيرتها السينمائية ، بالوقوف أمام الكاميرا ، أى ممثلة ، شأنها فى ذلك شأن كل من «هيبورن» و«أمينة» ، إلا أنه ما أن استولى الحزب النازى على السلطة فى ألمانيا ، حتى وقفت وراء الكاميرا ، استجابة لرغبة ، أو بمعنى أصح أمر «أدولف هتلر» ، وذلك لإخراج فيلم عن «انتصار الإيمان» (١٩٣٣) .

وهى بوصفها مخرجة ، لم تشتهر ، ويذيع صيتها فى الآفاق إلا بفضل فيلمين تسجيليين

أحدهما «انتصار الإرادة» (١٩٣٤) والآخر «أوليمبيا» (١٩٣٨) .

والفيلم الأول لايعدو أن يكون تمجيدا الحزب النازى ووحدته ، متمثلة فى وقوف أعضائه صفا واحدا متراصا ، وراء الزعيم «هتلر» وهو يلقى خطابه فى مدينة نورنمبرج ، أثر نجاحه فى تصفية «ارنست روم» زميل النضال ، وأفراد عصابته يلقيه أمام الجماهير الملتهبة حماسا ، الهاتفة بحياته زعيما أوحدا للبلاد والعباد .

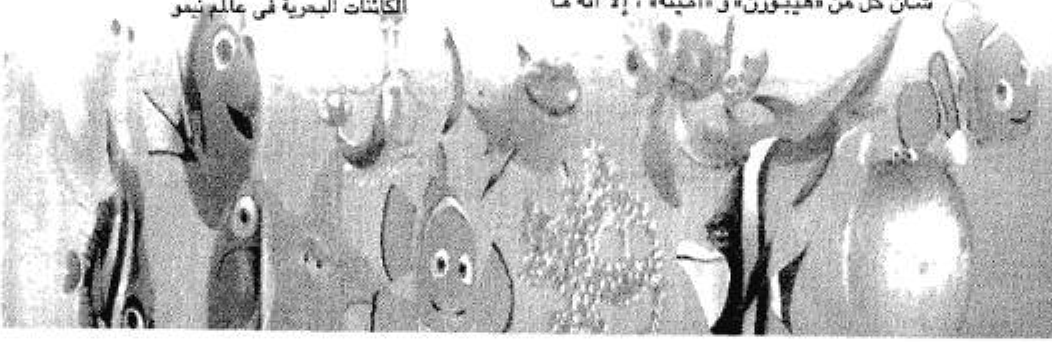
أما فيلمها الثانى فلا يعدو أن يكون تمجيدا للرياضيين وخاصة عدائى المسافات الطويلة ، والقطاسين المشتركين فى مباريات دورة الألعاب الأوليمبية ببرلين (١٩٣٦) .

عنصرية بغيضة

ومن بين ما سجلته فيه تلك الواقعة المخزية فى تاريخ تلك الدورة ، واقعة امتناع هتلر عن مصافحة الرياضى الأمريكى «جيسى أوينز» ، رغم نجاحه فى تحطيم أحد عشر رقما قياسيا أوليمبيا ، لا لسبب سوى أنه من الملونين .

هذا ، ولم تتح للفيلم فرصة العرض العام ، إلا بعد عامين من انتهاء تلك الدورة ، وفى حضور هتلر حفل العرض الأول ، وذلك

الكائنات البحرية فى عالم نيمو



بمناسبة ، عيد ميلاده التاسع والأربعين (١٩٣٨) .

ويرجع تأخر عرضه على هذا النحو ، إلى قيام مخرجته بتوليف (مونتاج) ما صورته من أشرطة ، بلغ طولها مائتان وخمسون ميلا !!

وفى مهرجان «فينسيا» لقى عرض فيلمها من الاستحسان الشىء الكثير .

وعلى العكس من ذلك تماما كان استقبالها هى والفيلم فى الولايات المتحدة ، حيث جرى نشر مقالات معادية لهما فى «هوليوود ريبورتر» كان من بين ما جاء فيها الاتهام لها بأنها عشيقة كل من هتلر وجوبلز وهرمان جورنج !!

وهذا الاتهام سيظل يلاحقها ، حتى بعد هزيمة ألمانيا الهتلرية.

فما أن سكتت المدافع ، حتى ألقى الجنود الأمريكيون القبض عليها .

تحولات واكتشافات

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام على تحديد اقامتها فى مسكنها ، برئت ساحتها من تهمة النازية ، مع اعتبارها رفيق طريق للنازيين ، الأمر الذى أدى إلى حرمانها من شغل أى مركز عام ، ومن ممارسة مهنة صناعة الأفلام .

وتمر الأيام أعواما بعد أعوام ، تكتشف أثناءها أفريقيا ، وخاصة بلاد النوبة ، حيث مارست مهنة التصوير الفوتوغرافى للصحف والمجلات .

وتتعلم الغطس ، والتصوير تحت سطح الماء ، وهى فى السبعين .

وتنشر ذكرياتها ، وهى تقترب من التسعين تحت عنوان «غربال الزمان» .

وأخيرا ، وقبل انسحابها من الحياة بقليل ، تعود ، فتزور بلاد النوبة زيارة الوداع الأخير (٢٠٠٠) .

وصفوة القول أن رينشتال اشتهت المجد ، وكادت تصل إليه بفضل النازية ، إلا أنه وبسبب النازية ، أصبح سرابا ، لاسبيل للوصول إليه ، وانتهى مشوارها مع السينما ، وهى لاتزال فى الربع الأول من الطريق .

هذا عن الأموات الذين رحلوا عن عالمنا .

فماذا عن الأفلام ؟

كعهدنا بالصيف كانت أغلب أفلامه من ذلك النوع الهازل ، اللاهى ، الذى يعانى تارة من داء الاستسهال ، وتارة أخرى من داء التكرار ، وتارة ثالثة من الداءين معا .

وكانت ايراداتها أقل من ايرادات أفلام صيف العام الماضى ، إذ هى فى مجموعها لم تصل ، رغم شبه احتكارها لشاشات دور السينما ، إلى ستين مليون جنيه ، أى ما يعادل عشرة ملايين من عزيز الدولارات .

أرقام قياسية

وبالمناسبة ارتفع إجمالى إيرادات السينما الأمريكية أثناء أشهر الصيف من عروض أفلامها داخل الولايات المتحدة فقط إلى ثلاثة مليارات وتسعمائة مليون دولار ، بزيادة قدرت باثنين فى المائة عن إجمالى ايراداتها ، أثناء أشهر صيف العام الثانى من القرن الواحد والعشرين .

ووصل عدد الأعمال السينمائية التى حققت إيرادات المائتى مليون دولار إلى خمسة أفلام تصدرها «العثور على نيمو» بايرادات تجاوزت الثلاثمائة وثلاثين مليون دولار وكل شئ عن هذا الفيلم غريب حقا ، فهو من نوع الرسوم المتحركة ، تدور أحداثه فى أعماق البحار والمحيطات .

نجاح وفشل

ولأول مرة يحقق فيلم من هذا النوع الذى ابتدعته استوديوهات ديزنى ، ايرادات تفوق ايرادات أى فيلم آخر جرى عرضه أثناء أشهر الصيف .

فحتى أفلام حركة وخيال علمى مثل «ماتريكس» (جزء ثان) و«الجهنمى» (جزء ثالث) لم تستطع أن تصمد أمام عالم «نيمو» الصغير ، ومغامراته ، وهو حر طليق فى أعالى البحار ، ثم وهو أسير فى مربى مائيات ، إلى أن ينقذه أبوه الملتاع «مارلين» ، بعد أن يتعرض لأهوال تشيب منها الولدان .

ورغم انهزام الأفلام القائمة على

المغامرات والعضلات المفتولة أمام سحر «نيمو» الأسير و«مارلين» الأب الملهوف .

ورغم تحقيق «مارلين» وابنه «نيمو» ايرادات بفيلمهما فاقت الرقم القياسي فى ايرادات أفلام الصور المتحركة الذى حققه «الأسد الملك» ، وذلك قبل سبعة أعوام .

رغم ذلك ، لم يقبل الجمهور عندنا على مشاهدة «عالم نيمو» الاسم الفرنسي البديل لاسمه الأمريكي «العثور على نيمو» ، فانتهى به الأمر محققا أدنى الايرادات ، فى صيف حار ، حالك السواد ، يتهدده شبح الكساد .

الآباء والأبناء

و«نيمو» يبدأ به الفيلم يتيما من الأم ، بعد أن فقدت حياتها بفعل فك مفترس ، هى وأولادها الثلاثمائة وتسعة وتسعون ، الذين جاءهم الموت فجأة ، وهم لايزالون أجنة فى البيض ، لا حول لهم و لا قوة أمام قوة البغى والعدوان .

الوحيد الذى نجا هو «نيمو» (يتكلم بصوت الكسندر جولد) فلذة كبد «مارلين» (يتكلم بصوت البرت بروكس).

و«نيمو» كأى طفل شقى ، لا يطيع أوامر أبيه ونواهيه التى تحذره دائما وأبدا من مخاطر الدخول فى أعماق المحيط .

ولن أحكى كيف انتهى به عدم الاستماع إلى نصائح أبيه ، إلى وقوعه فى أسر مركب صيد ، وبيعه كالعبيد إلى طبيب أسنان فى مدينة سيدنى باستراليا .

ولا كيف عاش أسيرا ، مهموما ، مع أسماك أخرى فى مربى مائيات ، يحاول الهرب ، دون جدوى .

قلب أب

ولا كيف ركب أبوه «مارلين» المخاطر والأهوال وهو يقاوم غدر سمك القرش المفترس ، ويسبح مع التيار ، متغلبا على جميع الصعاب ، بما فيه حاجز استراليا الصخرى العظيم ، القريب من سطح الماء ولا كيف نجح مع رفيقة الطريق «دورى» (تتكلم بصوت الين ديجينيرس) فى الوصول إلى مرفأ سيدنى ، بفضل سربين من الأسماك



بوب هوب يموت عن مائة عام

والسحالف البحرية .

ومع هذا الوصول يلتقى الاثنان الأب والابن العزيز الذى كان قد نجح فى الهروب من أسر طبيب الأسنان .

لن أحكى كل ذلك بتفصيل ، فذلك شيء يطول ، وإنما اكتفى بأن أقول بأن مغامرات الإثنين ، كانت تمر أمامى على الشاشة ، وأنا من سحرها مذهول .

سر الذهول

وأقول مذهول دون أى تهويل ، لأن مياه البحر والمحيط ، كانت تبدو لى ، وكأنها طبيعية ، مع أنه من المعروف ، أن رسم المياه وتحريكها من أصعب الأمور فى الرسوم المتحركة .

ولأن تكوين الكادرات وتشكيلها جاءا آية فى الجمال وليس هذا بالأمر الغريب فى فيلم من إنتاج «بيكسار» تلك الشركة التى كان لها فضل الريادة فى استعمال الكومبيوتر فى فن التحريك .

ولا يفوتنى وأنا اقترب من الختام أن أذكر بأن «نيمو» هو اسم «الكابتن نيمو» فى فيلم «٢٠ ألف فرسخ تحت البحر» المأخوذ عن قصة بنفس الاسم للأديب الفرنسى «جول فيرن» .

وإن عالم «نيمو» يريد صاحبه المخرج «اندرو ستراتنون» أن يقول من بين ما يقول أن على الآباء أن يتيحوا لصغارهم فرص النمو الواعى واكتشاف العالم المليء بعجائب وغرائب الأشياء والمخلوقات . ■

المتفرجة



بقلم : مرفت رجب

السكوت

هذا رجل سكت، وليس الحزن البادى من عينيه هو التعبير الوحيد عن العتمة التى ألمت بروحه، والتى ربما من أجلها اختار صانعو فيلم «أوزاك» أن يكون تصويره فى شتاء استنبول الرمادى .

تكرر عرض الفيلم فى اليوم الأول لمهرجان الاسكندرية السينمائى ٢٠٠٣ بعد أن عرض ليلة الافتتاح، ربما ليوحى بمستوى رفيع لأفلام المهرجان التاسع عشر، وإن خاب هذا الإيحاء على مدى الأيام التالية للمهرجان الذى لم يخل من أفلام فقدت كثيرا من مسوغات المشاركة فى أى مهرجان ، وفى هذا كما فى جوائز المهرجان كلام مؤجل كثير، فكلامنا هنا عن فيلم الافتتاح التركى «أوزاك» أو مسافة فهو فيلم العتمة الكاشفة ..

العتمة الكاشفة

يوحى لنا الفيلم بالعتمة التى تهيمن على أرواح أبطاله بأدوات سينمائية جعلت قدرته على الكشف تتجاوز هؤلاء الأبطال إلى ما يحيطهم من واقع تعيشه تركيا، بل إن قدرة الكشف فى الفيلم تشمل حياتنا المعاصرة برمتها . فالبطل الساكت معظم الفيلم مصور فوتوغرافى يعيش وحيدا فى شقته الكائنة بمدينة استنبول، وهو معظم الوقت صامت ، لا يتحاور مع أحد ولا حتى مع تلك العشيقة التى تزوره فى



أوقات تختلسها من زوجها، أما الكلام القليل الذى سمعناه منه فى لقاء مع مطلقته فهو على قلته يكشف أبعاد العتمة التى تكتم شخصية هذا البطل فلا تجعله يعرف إن كان مازال يحب هذه المرأة التى طلقها، بعد أن فرض عليها التخلص من الطفل الذى حملته منه بحجة أنهما كانا أصلا قد قررا الطلاق . ويظل بطلنا لا يفصح، لكن الفيلم يطلعنا على حيرته وحزنه وهو يتابع مطلقته - خلسة - وهى متجهة مع زوجها الجديد إلى صالة السفر إلى كندا .

ولم يكن ذلك هو الخط الأساسى فى الفيلم ، إنما هو خط فرعى يبلور عجز بطلنا عن رأب الصدع الذى يمزق روحه فلا يجعله يفعل ما يريد. فقد استضاف بطلنا قريبا له ولكنه يضيق بضيفه من اللحظة الأولى لوصوله ، فلا نراه يرحب به أو يتحاور معه إلا فى عبارات شديدة الاقتضاب وهى تنحصر فى أمرين: أما الأول فهو تلك التعليمات التى يلاحق بها ضيفه ليلزمه بمكان نومه ومكان التدخين ومكان وضع الحذاء، وأما المبرر الثانى للكلام فهو السؤال الملح .. هل وجد عملا ؟ وحين تتعثر محاولات ذلك القريب فى الحصول على أى عمل على ظهر أى مركب ، ويقبل بطلنا أن يشغل ضيفه مساعدا له فى مهمة تصوير ، لا نجد من سلوكه ما ينم عن قبول حقيقى لهذه المساعدة ، فكل حركاته وإيماءاته متراوحة بين العصبية والجفاف، وهو ما يصدق على علاقته بأمه المريضة ، فهو لم يذهب لزيارتها إلا بعد اتصالات تليفونية متتالية سمعنا فيها صوت أخته يعلو بالصراخ ، وهو لا يرد، وحتى حين يقرر زيارة أمه ، فالزيارة قصيرة، وهى أيضا خالية من أى حوار .. وحين يعود إلى شقته ويلمح ما يدل على أن ضيفه أخذ راحته فى البيت ، يحدث الانفجار فنراه يصرخ فى جمل قصيرة مقتضبة ولكنها كانت كافية لتؤكد للشاب أنه ضيف غير مرغوب فيه .. ومع ذلك فحين يعود بطلنا من متابعته للمطلقة التى غادرت البلاد ، وحين يكتشف أن ضيفه هو الآخر قد غادره ، ينتهى بنا الفيلم ونحن نرى البطل يمشى على الشاطئ، ساكتا وإن نطقت عيناه بما تعانيه روح تغوص فى بحار الوحدة والتردد .

النور

وهذا فيلم يغيب عنه النور ومن غيابه تقوى القدرة على الكشف. فقد كان قرار مخرج الفيلم وكاتب السيناريو نورى بيلج سيلان Nuri Bilge Ceylan أن يكون التصوير فى جو ضبابى دائم، وقد جعل معظم اللقطات الخارجية فى محيط رمادى إما عاصف أو ممطر، بل إن المشاهد الأولى للفيلم تتم فى ظل تدافع الرعد، والمطر شديد، كأنما لينبئنا بما ينتظر الضيف الذى وصل قبل عودة

مضيفه من عمله مما يضطره للنوم على مقعد حارس البيت .. وأما اللقطات الداخلية فالضوء فيها أيضا شحيح فالبطل إن جلس إلى مكتبه فالضوء يكفي بالكاد، وأما إن جلس إلى التيلفزيون فالضوء الصادر عن الشاشة يكفيه، وإن «طب» عليه ضيفه وهو يتابع فيلما جنسيا فهو يعجل بتحويل القناة ويتركنا لنحتار! هل فعل ذلك استئثارا بما كان يشاهد، أم إمعانا فى عزل ضيفه عن عالمه؟ إنها نفس الحيرة التي تنتابنا ونحن نتابع بطلنا يطفئ كل نور يتركه ضيفه فى حجرة أو مطبخ أو ممر ، فنحن لا نستطيع أن نجزم هل هذا تجنب للإسراف أم لإشعار الضيف بأنه ثقيل، وعلى كل فالعتمة جاثمة .

ولا يغيب النور عن نفس البطل ومحيطه وحده ولكنه يغيب أيضا عن ضيفه الذى ترك أهله وقريته بعد أن فقد عمله وانتقل إلى استنبول ليسكن مع صديقه إلى أن يجد عملا .. ولكنه حين تتعثر محاولاته فى إيجاد العمل الذى حلم به - على ظهر أى مركب - لا نجده يفكر فى بديل ، وحتى حين يفكر ، ففى أضيق الحدود، ذلك أنه لم يذهب أبعد من محاولته الفاشلة أن يكون مساعدا لصديقه المصور . ولقد أكد لنا الفيلم تردد هذا الشاب وقلة حيلته ، ليس فقط ببطء الحركة وقلة الكلام وإنما كذلك بعجزه عن التواصل مع أى فتاة، حتى وإن رغب فى ذلك .. فلقد جعله الفيلم يلاحق جارة بنظراته ، يراقبها ويتعقبها إلى أن تصل إلى «ميدان تقسيم» وهو الميدان الرئيسى باستنبول، ولكنه إذ يصدم بأنها إنما خرجت لمواعدة حبيب، يعود خائب السعى ولكنه يكرر نفس السلوك فى يوم آخر ، مع أخرى لا يعرفها ، ويظل يراقبها ويتعقبها إلى دار سينما ، ليصدم مرة أخرى حين يشهد على البعد لقاءها بمن واعدت.. حتى تفكيره فى ملامسة ساق الجالسة إلى جواره فى الترام، يرتد عليه بالخزى حين تفزع من جانبه الفتاة إلى مقعد آخر بعيد عنه، أما هو فيبقى يتجرع خيبته فى صمت بليد . وفى ظل كل ذلك يتناوب على الشاشة حوار درجات مختلفة من العتمة التى تخف قليلا حين يبدو أنه يقترب من أمله فى التحدث إلى فتاة، ولكن الإضاءة الخافتة لا تلبث أن تنسحب

جائزة الجوائز

وليست أفضل الجوائز التى حصل عليها الفيلم كأحسن فيلم تركى ٢٠٠٢ وأحسن ممثل ، مناصفة بين بطليه «مظفر أوزديمير» ومحمد أمين تبراك»، وإنما أفضل جوائزه هى أنه ذهب إلى مهرجان الاسكندرية التاسع عشر كفيلم افتتاح محمل بما حصد من قبل من جوائز ، فهو خارج المسابقة مستغنيا بذلك عن الدخول فى مسابقة شائهة.. ولقد نجح كاتب السيناريو ومخرج الفيلم « نورى بيلج سيلان المولود فى استنبول عام ١٩٥٩ رغم أنه لم يدرس الإخراج السينمائى إلا لمدة سنتين بجامعة ميمار

سينان باستنبول ، وهو ما أهله لإخراج أفلام مثل الشرنقة (١٩٩٥) والمدينة الصغيرة (١٩٩٧) وغيوم مايو (١٩٩٩)، ومنها أيضا الفيلم موضوع الكلام ، أوزاك UZAK (٢٠٠٣) وهو الذى يثبت لنا أنه صاحب رؤية متقن للغة السينما التى سخرها فى خدمة رؤيته. ولقد اعتمد مخرج الفيلم على نوع الموسيقى القادر على تعميق إحساسنا بدرجات الضوء ومعها بطء فى حركة الممثلين محسوب فهو أبدا لا يصل إلى حد الإملال، ولكنه بالتأكيد ينقل ثقل الهم الجاثم على نفوس الممثلين، ذلك أنه يصدق على العشيقة والزوجة السابقة، كما يصدق على البطل وضيفه ويبدو أن كون المخرج متخرجا أصلا فى كلية الهندسة له صلة بما يظهر فى فيلم UZAK من قدرة نادرة على موازنة إيقاع الصورة بالتوافق مع الإيقاع النفسى لمحتواها..

كذلك فإن أفضل جوائز فيلم UZAK هى تلك التى تأتى من مشاهديه، هؤلاء الذين يرون فيه أنفسهم ، كما يرون أصدقاء وأقارب وجيرانا لهم بصرف النظر عن مكان عرض الفيلم أو عن اللغة التى يعرفها مشاهدوه .. فأنت تستطيع أن تفهم وتدرك وتحس بكل ما يحمله هذا الفيلم دون حاجة منك إلى الاستماع إلى أى كلام ، فمعظم الفيلم سكوت ولكنه سكوت أوفق من أى كلام، ومساحة السكوت أو مسافته، لا تبعدك عنه إنما هى بالقدر الذى يعينك على التأمل جنبا إلى جنب مع أبطال الفيلم ، فكأنه بالسكوت يعينك على قراءة ما يعتمل فى أرواحهم ، والرءوس .

وإذا كان البعض يرى أن الفيلم حدث ، فالحدث فى uzak كثيف كما بينا ، لكن البعض الآخر يرى أن الفيلم ، أى فيلم هو شهادة على زمانه ولذلك فإن هذا فيلم يدين هذا الزمان ، كما يدين تخبط الأنظمة وأخذها بأساليب فى العمل الاقتصادى قاصرة. فإشارة البطل المستنكرة لتفكير قريبه فى ترك قريته جعلت الضيف يفصح عن يأسه من البقاء بعد أن تم فصله من العمل تلو فصل أبيه فى إطار التسريح الجماعى للعاملين وهو الكائن فى كل بلاد الدنيا الآخذة بنظام السوق، عماد النظام العالمى الجديد وهو الذى لا يترك البشر إلا على حالة من اثنتين ، إما حالة البطل الذى يظن أنه حقق النجاح بعمله كمصور فى استنبول ولكنه نجاح عصبى ، غير قادر على خلق طمأنينة ، فهو شقى بسابق شقائه لينجز ما أنجز، كما أنه شقى الروح ، يطلق زوجة يبدو أنه مازال متعلقا بها ، ويضاجع زوجة آخر دونما حوار ، ويحتسى الخمر وحيدا فى البار، وحتى أمه أو أخته فالعلاقة بهما أبرد من الفتور وإن جئنا لقريبه الذى استضافه ، فهو

معه غير قادر على أى تعاطف ودعنا من الرحمة .

وأما الحالة الأخرى فهى حالة الضيف ، المسّرح من عمله والذى يغادر القرية إلى المدينة أملا فى العمل والحياة والمدينة تصدمه بكل ألوان القسوة والجفاء، فلا عمل ولا قرابة ولا صداقة ولا حب .

وهكذا يكون «أوزاك» ، قراءة جيدة فى ثمار العولمة ولعله عن قصد أو غير قصد يذكرنا بما يتمنى النظام العالمى الجديد أن ننساه .

حتى لا ننسى

شاهدت فيلم «أوزاك» فى اليوم الأول من أيام مهرجان الاسكندرية السينمائى التاسع عشر والذى وافق الرابع من سبتمبر ٢٠٠٣ ، ولعلنا نتذكر أنه فى الرابع من سبتمبر عام ١٩٧٠ تم انتخاب «سالفادور الليندى» Salvador AL-Lende رئيسا للجمهورية فى شيلى وفى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٩٧٣ وقع الانقلاب الذى قاده بينوشيه ودخل به التاريخ خائنا وأما سالفادور الليندى فقد حرم خائنيه من فرصة قتله ، لأنه اختار أن يقتل نفسه وبذلك ثبت فى خانة الزعماء الأساطير .. ذلك أنه الأول - وربما يكون الوحيد حتى الآن - من بين اشتراكيي العالم ، هو الوحيد الذى أصر على الديمقراطية سبيلا للتغيير .. هو الوحيد من بين الاشتراكيين - الذى أصر على أن يكون وصوله للحكم عن طريق واحد هو طريق الانتخابات ، وليس الانقلابات، كذلك فهو الوحيد الذى ظل متمسكا بالديمقراطية طوال فترة حكمه القصيرة، كما أنه ظل مصرا على أن تكون الديمقراطية هي السبيل لتحقيق التغيير الاجتماعى الشامل، وهو الوحيد بين الحكام فى استمساكه بما يؤمن به بالرغم من وجود أعداء وطامعين وطامحين سواء فى الداخل أو فى الخارج .

ونحن فى هذه الأيام .. وبعد ثلاثين سنة كاملة من الإطاحة بنظام الزعيم الشيلى الأسطورة سالفادور الليندى، نظل نقلب الكفوف عجبا من حكام العالم ومن الاستسلام لروشتات قاصرة عن تحقيق بغية تدعيها وتواصل قهر الشعوب وسحقها فى أتون النظام العالمى الجديد الذى يقولب التغيير ليكون دائما فى خدمة الأقلية الأكثر غنى .

وتأتى ذكرى سالفادور الليندى لتدعونا لفحص أكثر تعمقا فى كل مايدور حولنا ، يشهد عليه فيلم «أوزاك» ، كما تشهد عليه وقائع اجتماعات منظمة التجارة العالمية فى المكسيك ، تلك التى تعكس إصرار الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن لف لفها ، على استنزاف موارد وطاقات دول العالم الثالث حتى الموت ، والظن عندها أن الرد لن يجاوز السكوت !!! ■

فصل المقـال في واقع الحـال

شعر
حسن طلب

١٨٢
الهلال
أبريل ٢٠٠٠

أمسك ريشة .. وخطَّ :
السمك الكبير يأكل الصغيرْ
والدود يحيا – والطفيليات
– في مستنقع العصر ..
ولم يبقَ سوى اللصوص ..
والحمقى
يسوسون البلاد وحدهم
وينهبون الدور .. والقصور !
هذا هو الخرابُ لا مناصْ
وليس من خلاص
فنحن كلنا – على بكرتنا
– نهوي إلى مصيرنا الأخير !

– ٢ –

مازال وحده يسير
ولم تزل هيئتُه
هيئتَه
ممتشقا ريشته
في الشارع المكتظ بالأجساد ..
والأنفاس ..
أو في الواقع الذي :
يموِّه الغياب بالحضور !

* * *

مازالت القصيدة النفورْ
لغزا عصيا هاربا كالسر
بين القلب والضمير !
تدنو .. وتنأى
فهي محض همهمات
غامضات واضحات !
جسمها موحي ..
ولكن روحها ليست بموحاة
ولا يزال متعبا يسير !

* * *

وفجأة ..
أوقف نفسه أمام متجر

أتى بممحاة

محا ما خطه

صعد فوق منبر

إليه نادى رهطه

وصاح : كلا

لن تفيد هذه السطور !

— ٣ —

كضفادع القنوات حين تنق :

« نحن موافقون »

هزُّوا رءوسهمو الثقال ..

وأغمضوا حدق العيون !

* * *

يا أيها الرهط الحزين

أنا لست منكم .. فاغربوا عنى

وعيشوا كالعجائز ها هنا :

هينون .. لينون ..

العنوا الدنيا .. وسبوا الدهر ..

أنتم تستحقون المذلة

أجمعين !

* * *

فلتنعموا بهوانكم

فى ذلك البلد المهين !

— ٤ —

من قال :

إن التوت يورق فى الربيع ؟!

كذبٌ ..

أجل كذبٌ فظيع !

فلسوف يبقى توتنا العارى

بلا ورق

سيبقى هكذا

مادام فى أجوائنا :

هذا الصقيعْ !

من المهرجان التجريبي الـ ١٥

حلم نحات

لوحة استعراضية عن محمود مختار

بقلم
مهدى الحسينى

تغير اسم هذا الاستعراض من «رياح الخماسين» إلى «حلم نحات» بين عرضه الأول على مسرح الجمهورية فى يونيو الماضى ثم عرضه الثانى فى سبتمبر الماضى فى افتتاح التجريبى، كما يقول مصممه ومخرجه «وليد عونى»: «المشكلة أن لا أحد يعرف ماهى رياح الخماسين حتى فى أوروبا» لكنه يعود ليقول أن مختار:



، ... أبدع تمثالا اسمه رياح الخماسين وهو من أحدث الأعمال النحتية من حيث المنهج، وهو تمثال ذائع الصيت فى العالم كله، وفى أوروبا يعتبرون مختار من كبار نحاتى العالم، هذا التناقض يكشف عن اضطراب أهداف المؤلف/ المصمم / المخرج، وارتباكها وعدم وضوح طبيعة الجمهور المستهدف من عمله، علما بأن نجيب محفوظ حين كتب ،زقاق المدق، أو غيرها لم يكن يستهدف القارىء الانجليزى أو السويدى، وإنما كان يستهدف القارىء المصرى والعربى بالأساس، غير أنه حصل على نوبل رغم عدم اصطناعه لعمل روائى ،يرضى، لجنة الجائزة.

يبدو أن رضاء لجنة تحكيم التجريبى لم يكن تاما هذه الدورة أيضا، فهو لثانى مرة يحصل على جائزة «السينوغرافيا» أى تصميم المنظر البصرى المكون من الديكور والأزياء والاكسسوار والإضاءة فى حالة حركة متغيرة، ولكننا نحتفظ هنا بحق الاختلاف مع اللجنة حيث كانت هناك عروض أخرى تستحق جائزة فى السينوغرافيا، الأمر الذى يبرز أهم عيوب هذا النظام - أى التحكيم - لأن أحدا لايصح له أن يفاضل ثقافة عن أخرى ولا فنا عن آخر، خاصة أن برامج عروض المهرجان لم تصنف إلى أقسام أو مجالات نوعية منسجمة نسبيا معا، بحيث يمكن أن يجرى التسابق بين كل نوع منها على حدة، أضف إلى ذلك أن هناك مهرجاناً خاصاً بالعروض الراقصة قد أقامته دار الأوبرا العام الماضى، لعله يكون فرصة أكثر لياقة لتقديم هذا العرض.. وغيره من العروض الراقصة التى تزاحم عروض الفن المسرحى فى المهرجان التجريبى.

فى البدء كان الفراعنة

كانت نقطة البدء فى عرض «رياح الخماسين - حلم نحات» صحيحة تماما، وهى أن ثمة صلة عميقة بين فن مختار وبين فن أجداده النحاتين الفراعين، وقد نجح «وليد» فى تجسيدها وخلق الصلة (البصرية الراقصة) المعبرة عنها نجاحا تاما من كل وجوه فن العرض الراقص وجوانبه، هذا وقد أحاط منظره العام بخلفية من جبال الجرانيت كانت مهيمنة ملحوظة المعنى والأثر.

ولما كان فن محمود مختار يشكل ثروة جمالية نحتية فريدة، فضلا عن دلالتها الوطنية والتاريخية وبعدها الاجتماعى المنحاز للشعب وشخوصه وبيئته وعمله وكفاحه، فإن المرء ليحار حقا حين يفكر كيف ينظم كل ذلك فى

عمل فني ما - وأعترف هنا أنه أمر بالغ الصعوبة - ولكي ينقله من وسيط (فن النحت) إلى وسيط ثان (فن الرقص المسرحي)، هل يقف الفنان هنا كي (يقدم) حياة وأعمال الفنان في صور حية ولوحات راقصة وحسب؟ وهل تتيح له (حدود) المسرح الزمانية والمكانية - مهما اتسعت - كي يمسرح (حياة وأعمال) فنان ما في صور حية ولوحات راقصة؟ أم أنه (يخلق) رؤية فنية خاصة ومكثفة لهذه الحياة وتلك الأعمال عبر نظرة جوهرية إلى الجوهر؟ نظرة جمالية عميقة إلى فن هذا الرجل؟ نظرة إلى المصدر والتجربة والمعاناة والدافع والفعل والإنسان والفكر.. والتجلي الإبداعي؟.

البحث عن الجوهر

والسؤال الرئيسي تتبعه أسئلة أخرى: ماهو قانون العلاقة التي تربط قطع هذا الفنان ببعضها البعض ثم تربطها مع وجدان المشاهد المتغير عبر الأزمنة؟ وماهي الفكرة / المعنى / الإحساس العالي / الرسالة/ المراد طرحها على الجمهور؟ أية تماثيل وشخوص اخترتها؟ وماترتيبها؟ وما أسس تساوقها؟ وأين تتشابه وأين تختلف؟ وفي أي إطار من الأحداث الدرامية؟ وفي أي زمن أو أزمنة؟، وإذا لم أجب إجابات واضحة وعميقة على هذه الأسئلة أكون قد نجحت - فقط - في أمرين:

١ - تحريك راقص لبعض القطع في إطار تشكيلي متسق في ذاته (مع كثير من التحفظ على اختيار الألوان وحول أصالة كثير من المفردات الحركية الراقصة وأبجدية العناصر الفنية).

٢ - إيراد بعض المعلومات الحياتية والتاريخية عن مختار ومنحوتاته وآخرين (سعد زغلول وهدى شعراوي وأم كلثوم) مجسدة في هيئة مسرحية مباشرة.

إذن : ماهو هذا «الجوهر» الذي لم يحصل عليه «وليد» - على حد زعمنا - أو حصل عليه هو على حد قوله؟.

صناعة الزمن سر الخلود

قبل حضارة الفراعين لم يكن لأي شيء معنى إنساني: الطبيعة والزمن، لم يكن هناك سوى الرياح والمطر والأرض ودورة الشمس والقمر، وحين قامت حضارتنا فإنها أعطت للكون المعنى، وبغيرها كانت الرياح ستمضي إلى مالا نهاية، وتشهد الأرض تحولات الماء دون امتلاء أو شبع، وتشهد الجبال رحلة الكواكب والنجوم دون جدوى، لم يكن ليدري أحد - فلم يكن هناك أحد أصلا - ماذا كان وماذا يكون وماذا سوف يكون، لولا أن جاء المصريون، فبغير الإنسان وصراعه ضد الطبيعة ومنجزه الحضاري لم يكن هناك إلا الهباء وقبض الريح.

لذا ليس صحيحا ما كتبه ورده «وليد» من أن الهواء هو أعظم نحات، لا. بل الإنسان، والإنسان المصري على الأخص الذي ترك ٩٦ هرما ومالا يحصى من التماثيل والآثار المعجزة فوق الأرض وتحتها، منجزات تستند إلى أرقى ما



وصل إليه الإنسان، حتى الآن ـ من منجزات علمية وتقنية.. وإبداعية.. فالنحات الأول هو النحات المصرى وليس الهواء كما يزعم «وليد» وهذه هى الفكرة الخاطئة التى جعلت «حلم نحات» عاجزا عن فهم فن مختار لأنه لايعى سر فنون الفراعين، فليس الأمر مجرد حنكة تعامل مع الطبيعة والرياح أو تقنية تعامل مع الخامة أو استخدام ماهر للأزميل ومسمار الصلب.. ولا حتى مجرد ابداع عادي، بل هو إبداع أسطورى، لأنه ابداع أمة، أمة تأملت الكون فى البكور واختبرت عناصره ورصدتها وحسبتها وحددت لكل منها معنى وصنف ووظيفة ومنفعة وشكل وصفة، هنا تمكنت من صنع أهم مكتشفات البشر فى الوجود.. لقد صنعت الزمن.. قبل فلاسفة عين شمس كان الزمن بلا معنى.. نحن أعطيناه المعنى، ثم قسمناه ونظمناه فأصبح مادة تستطيع البشرية التعامل معها، حيث يبدأ من (الأزل) وينتهى فى (الأبد) وبين هذا وذاك وجدت القرون والسنوات والأشهر والأيام والساعات والدقائق والثوانى.. والفيمتو ثانية التى أحصاها ورصدها أحمد زويل المصرى الفرعونى المستنير.

لذلك كان كبير الكهنة ـ بعد الانتهاء من صنع تمثال الإله ـ فإنه يعتمده بمفتاح الحياة مرددا «لقد أقيم هذا التمثال ليبقى أبد الآبدين.. له الحياة والخلود، إذن ففكرة الحياة والخلود والزمن هى التى جعلت النحت الفرعونى أعظم ما أنتجته أمة من النحت، ولذا أصبح مختار فنانا عظيما كتب لفنه ولاسمه المجد والخلود.

لقد هوم «وليد» مع فكرة خاطئة وهى أن الهواء أعظم نحات، وهذا ليس صحيحا، بل إن «بك» و«سنب» و«ايمحتب» وغيرهم .. وغيرهم، من أعظم النحاتين لأنهم اعتنقوا فكرة الخلود، وهم لم ينحتوا فقط فى (الهواء) بل نحتوا فى (الزمن).

عبقرية الخماسين

هذا التمثال الذى يلفه خيط متصل أو خط دينامى واحد من (الساس للراس) عبر تعاريج حادة جارحة وناعمة حانية متحركة ساكنة فى آن واحد، تستطيع أن تراه جميلا متسقا مع أى زاوية أو جهة، ولكنك لاتستطيع أن تخمن كنهة أو ماذا يحمل فى جوفه العميق اللانهائى، لايخدعك سكونه فهو يمضى ـ أبدا ـ إلى الأمام فى تصميم لايعلن عن نفسه، يمضى وقد وطئت قدماه الرمال فى رسوخ وإصرار، فمن هى تلك المرأة القابعة طى البردة أو من هى تلك اللؤلؤة المحتمية فى صدفتها القوية التى تواجه رياح الخماسين (السموم / الهبوب/ كما يسميها أهل الجنوب) من هى تلك الشامخة تتحدى الرمال والشوك والعقارب والأفاعى، إن

السكون هنا ليس لحظة دائمة، فإزاء العاصفة القادمة من الصحراء هناك ثورة جبارة سوف تتفجر من قلب التمثال الحجرى إنها فى لحظة التأهب للزوج والاحتشاد للثورة والصراع، إنها سوف تسفر حتما عن وجهها الشجاع الجميل القوى حين تخلع «بردتها» فيخرج الشعب كله: آلهة وفراعين وأبطالاً وزعماء ورجالاً ونساء وحاملات للجرار وعرائس للنيل وشيخ للبلد وعمالاً وفلاحين وفلاحات.. وأبناء بلد وغيرهم إن امرأة الخماسين هى رمز المرأة الخالقة الولود المتجددة، هى إيزيس وشجرة الدر وأم صابر.

لماذا إذن لانستنسخ من هذا التمثال نسخة مكبرة لنضعها فى أحد كبرى ميادينا؟ ولماذا لاتوزع منه نسخ على المدارس والمصانع والأحياء والمدن الصغيرة لعله يلهم الشعب روحه من جديد؟ ولماذا لم يتخذ «وليد» من هذا التمثال المدهش المحير نقطة انطلاق أخرى لعرض«روح» مختار التى هى من «روح» مصر؟، ولماذا لم يكرر هذه الراقصة / التمثال/ الخماسين/ ليصبح على المسرح عشر (خماسين) أو يزيد؟ ألا يؤكد هذا فكرة روح مصر الخبيئة المتأهبة؟ ولتخرج من كل منها فكرة التمثال التى تتفاعل مع يد الفنان ومع ذاتها لتستقر فى صيغتها النهائية، وإذا كان الخماسين هو أول الخيط.. فيكون آخره بداهة تمثال نهضة مصر، بعد ذلك ينظم العقد ترصعه (مدى العرض وتفاصيله) باقى القطع النحتية الراقصة وفقا لترتيب يؤكد الفكرة: فكرة مختار فنان عصر النهضة القومية بكل ما تحويه من أفكار وقيم ومنجزات تاريخية ووطنية واجتماعية وثقافية.

إذن لسنا فى حاجة لمشاهدة سيرة حياة مختار وتماثيله ومعاصريه (ممسرحة) بالرقص، فزيارة لمتحفه وقراءة كتاب أو أكثر عنه تغنينا عن مشاهدة هذا العرض الساذج المباشر، الذى لم يخرج عن عالم الأدب والتاريخ والسيرة الذاتية.. إلى عالم الفن المسرحى الراقص، ولم يكن مطلوبا شىء من النقد أو التحليل بالرقص أو إعادة تصوير مفردات الموضوع وتحريكها، وإنما المطلوب كان رؤية بصرية حية متحركة بالجسم البشرى والضوء والموسيقى، رؤية جديدة تماما تعبر عن وعى خاص بالأثر الكلى لهذا الفنان وأعماله يفسره ويعيد طرحه من جديد، أما عكس ذلك فهو الأمر الذى ضيق أفق المصمم وحصره فى محاولات السرد المتكررة والتصوير بالمماثلة المباشرة، ثم الوقوف عند ذلك فحسب، دون محاولة للاجتياز نحو الفروض القريبة والرؤى البعيدة والعميقة.

الرقص المصرى القديم والحديث

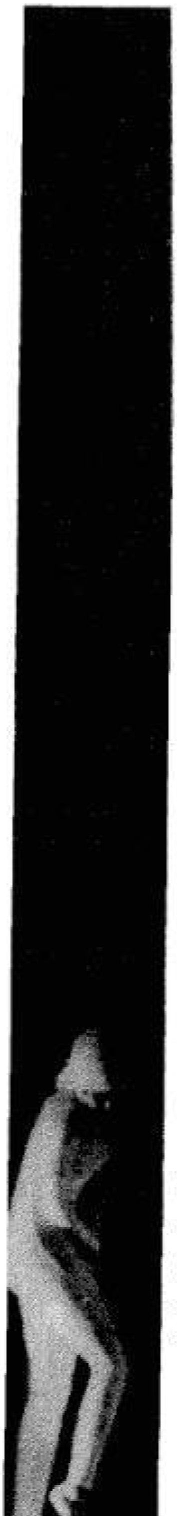
ليس هناك من دراسة أكاديمية مصرية لهذا الفن عندنا، فقط هناك إشارات بليغة عند سعد الخادم والحفنى وثروت عكاشة ومحمود رضا، ولم تتم ترجمة العشرات من الكتب التى كتبها أثريون وفنانون أجانب عن هذا الفن، حركته وموسيقاه وأزيائه ومناسباته ومعانيه لم يترجم منها سوى كتاب واحد، كما توجد إشارات عديدة عنه فى كتب

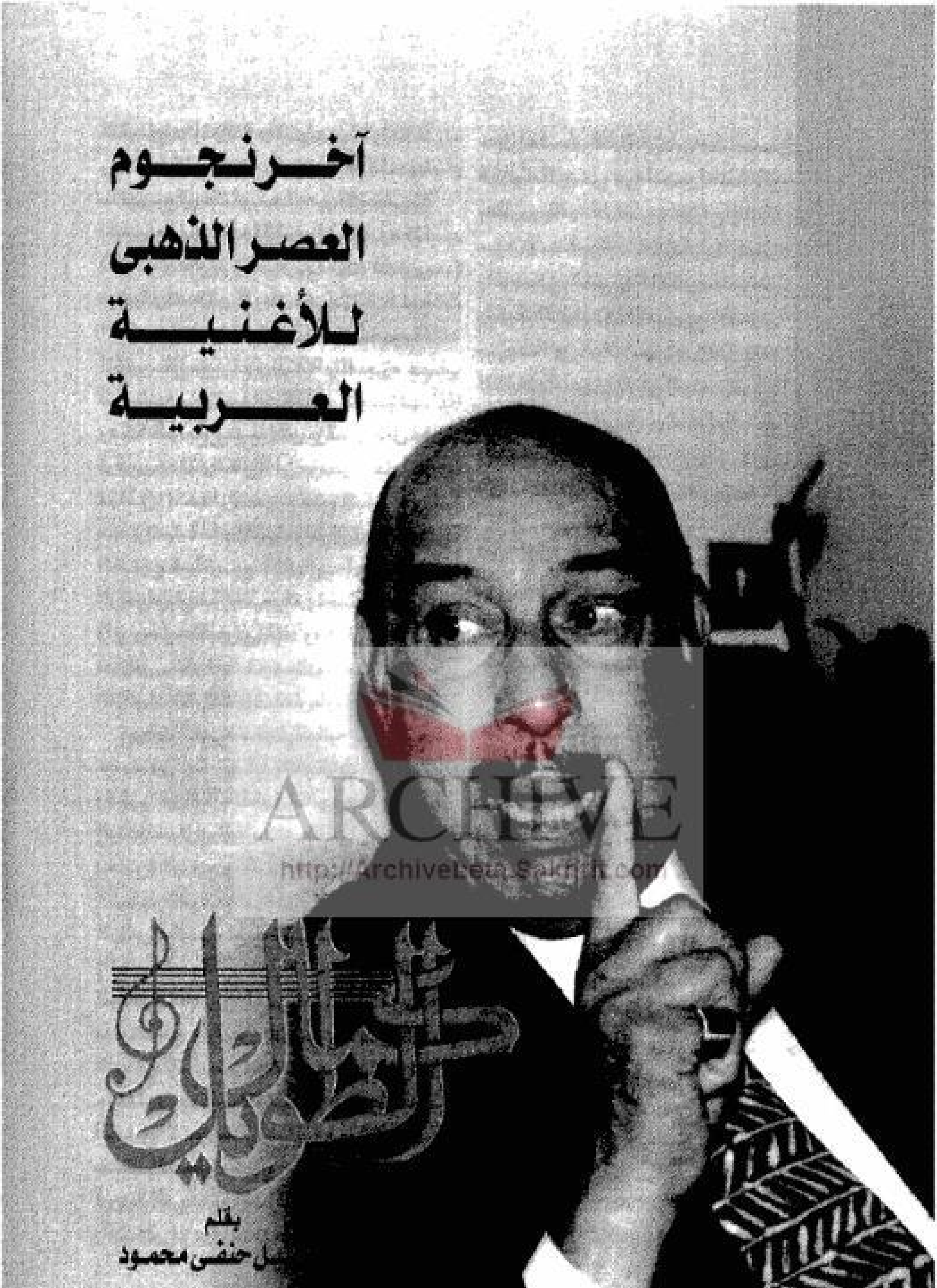
المصريات المؤلفة والمترجمة، وتوجد رسالة دكتوراه غير منشورة وضعها سمير جابر بشاى، هذا هو كل حصيلة المصريين من فنهم الرائع الجميل، وهكذا لعب (التحريم والتجريم) تحت دعاوى دينية وأخلاقية وطبقية زائفة لمنع المصريين من الرقص وحب الحياة لتكتب على جبينهم الكآبة والعجز، مع أننا شعب يرقص حتى فى الجنازات، وهكذا أصبح (عيبا) أن يرقص رجل أو ترقص فتاة والكارثة أن يرقص رجل مع فتاة (!!)، هذا التحريم فتح الباب على مصراعيه أمام (استيراد الرقص) من الخارج فأصبح (الباليه) هو الفن الراقى ورقصة «الدحية» رقصة شعبية (أى رخيصة ورديئة).. وهكذا.. وهكذا نمارس ـ بترفع مفعم بالدونية ـ مرض التنكر لذاتنا الثقافية بلذة عارمة.

وحين أنشىء معهد الباليه دلف إليه عديد من أبناء بقايا الطبقات القديمة وكثير من أبناء الطبقة الجديدة، وجاء إلينا الخبراء الروس ليعلمونا رقصة بحيرة البجع والأميرة النائمة، وحين أنشئت الفرقة القومية جاء الخبراء الروس أيضا ليعلمونا رقصة (الكازاتشوك) وحين أنشئت فرقة الرقص المصرى الحديث فقد شاهدنا مايشبه الرقص الأوربى والأمريكى الحديث (موسييف/ بيجار/ مارتا جراهام) بعد إضافة مسحة مصرية من الخارج لا من حيث الجوهر، كل هذا بسبب الشعار الخديو: مصر قطعة من أوروبا الغربية أو الشرقية، ومات الخديو والشعار لم يزل يفعل فعله المدمر، ففى حين اهتمت الدولة بإنشاء معهد للباليه الروسى فى مصر، استنكر بعض رجالها المتنفذين اقتراح إنشاء معهد لدراسة وتعليم الرقص والموسيقى الشعبية المصرية وتصنيع وإحياء آلاتها، وهكذا يصبح المصرى منزوعا عن تراثه منتزعا من ذاته الثقافية.. ومع مرور الوقت يصبح رهنا للنفوذ الذليل وغسيل المخ والوجدان، ليقلد ـ كالقرود ـ فنون وثقافات الآخرين ثم يستمرىء هذا التقليد القبيح.

لكل ما سبق لم نجد ـ مع الأسف ـ فى العرض سوى المنطق الحركى/ الشكلى/ مبررا لترتيب جزئيات «حلم نحات» ومحاولة الانخراط فى «التشبه» بالتماثيل التى لم تنجح حيث غلب على خيال المصمم أشكال متكررة وثابتة وتقنيات نقلها من أوروبا، لاتعكس صفات التمثال المصرى القديم ولا التمثال الذى صنعه مختار، الذى يعتمد على الكتلة والرصانة والتوازن والقوة والرسوخ والتؤدة والتأهب للحركة القادمة وهى فى الأغلب إلى أعلى أو إلى الأمام.

ومن هنا جاءت تقنيات «حلم نحات» عبارة عن قشرة فرعونية/ مصرية حديثة من الخارج فى باطنها تقنيات غربية وحيل ومراوح وأزياء وراقصات وراقصين، وميزانية مفتوحة. □




آخر نجوم
العصر الذهبى
للأغنية
العربية
كمال الطويل
بقلم
حنفى محمود

عندما غيب الموت كمال الطويل عن عالمنا فى التاسع من يوليو الماضى ، فإن ذلك كان إيذانا بسقوط الفرع الأخير من شجرة الغناء العربى المتقن ، تلك الشجرة التى تفيأت ظلالها الساحرة وتمتعت بثمارها الرائعة جماهير الغناء العربى من مصريين وعرب طوال سنوات القرن العشرين ، ليكون الحزن على رحيل كمال الطويل مضاعفا لانقطاع الغناء المتقن الجميل وانتشار الغناء المسمى بالأغانى الشبابية ، والمقال الحالى يهتم بسرد مسيرة كمال الطويل مع فن الغناء وإلقاء الضوء على البعض من أعماله.

ولد كمال محمود زكى الطويل فى الحادى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٢م بمنزل أسرته فى حى المنيرة بالقاهرة ، وتنتمى هذه الأسرة إلى عائلة ذات حسب تنحدر من أصول سكندرية ، فوالده هو المهندس محمود ذكى الطويل بك .. وكيل وزارة الأشغال لشئون السودان فى عهد الملك فاروق وأول سنوات الثورة ، وعمه عبدالفتاح الطويل باشا الوزير الوفدى السابق ، نشأ كمال الطويل مع شقيقة وثلاثة أشقاء فى منزل ظللت الثقافة والفن أركانه ، فقد عرف عن والده حب الشعر وكتابته .. مما أهله لبث الأحاديث الإذاعية ، حيث تشير سجلات البرامج الإذاعية إلى أحاديث بثتها إذاعة القاهرة فى سهراتها للاستاذ محمود ذكى الطويل بك ، ومن ذلك حديثه الذى نوهت عنه مجلة «الإذاعة المصرية» فى الصفحة الخامسة والعشرين من عددها رقم (٨٧٢) الصادر فى ١/١٢/١٩٥١م .

أقام الصبى كمال الطويل لفترة من الزمن فى كنف جده لوالدته بمدينة طنطا ، مما إنعكس على فكره الموسيقى كما سنعرض له لاحقا ، كانت إقامة كمال الطويل بمنزل جده فى مدينة طنطا معاصرة لفترة دراسة والده للهندسة (مصطفى حمدى : أخبار اليوم - ١٢/٧/٢٠٠٣م - ص ٢١ ، محمد قابيل: أكتوبر - العدد ١٣٩٤ - ١٣/٧/٢٠٠٣ م - ص ٦١) ، ثم انتقلت الأسرة بعد إنتهاء الوالد من دراسته للهندسة وعمله بوزارة الأشغال إلى حىّ منيل الروضة ، حيث قضى الفتى كمال سنوات المراهقة فى ذلك الحىّ ذى الطابع المميز من قاهرة الثلاثينيات (طارق الشناوى : روز اليوسف - العدد ٣٩١٨ - ١٨/٧/٢٠٠٣م - ص ٧٤) ، عمل موقع حىّ المنيل فى جزيرة الروضة - التى تتوسط مجرى النيل قبالة ساحلى مصر القديمة من الشرق والجيزة من الغرب - على إلتحاق الفتى كمال الطويل بمدرسة الأورومان الابتدائية (عبدالحميد توفيق ذكى: المعاصرون من رواد الموسيقى العربية - ص ٧٨) ، حيث تخرج منها وحصل على الشهادة الابتدائية فى عام ١٩٣٨م ، ومن الواضح للمدقق فى أحداث حياة كمال الطويل .. أن استعداداته الفنية قد لعبت دوراً حاسما فى توجيه خطواته فى الحياة ، ومن ذلك التحاقه عقب نيله الشهادة الابتدائية فى عام ١٩٣٨م بمدرسة الفنون التطبيقية العليا ، وكيف لا ؟ .. وقد ازدانت مصر آنذاك بابداعات كوكبة من الفنانين لم يجتمع

مثيل لهم قط فى تاريخ مصر الحديث ، فلم يكن بعيدا عن سمع الفتى كمال وبصره أعمال رواد مثل محمد ناجى (١٨٨٨ - ١٩٥٦) - محمود مختار (١٨٩١ - ١٩٣٤) ومحمود سعيد (١٨٩٧-١٩٦٤) ، فيثور فى النفس التساؤل عن كيف شهد ذلك العهد ازدهار الآداب والفنون .. بينما ينعق البعض فى أيامنا هذه بفتاوى تكفير الفنون ومبدعيها؟، وعقب تخرجه من مدرسة الفنون التطبيقية فى عام ١٩٤٢م .. عمل كمال الطويل رساما فى وزارة الشئون الاجتماعية ، وجاء عمله كرسام بوزارة الشئون الاجتماعية بمدينة الاسكندرية وبمرتب قدره اثنى عشر جنيها شهريا ، حيث أقام - وحده - بمنزل عمه عبدالفتاح الطويل باشا الكائن على كورنيش الاسكندرية فيما بين حى سيدى جابر ومنطقة مصطفى باشا (طارق الشناوى : كمال الطويل نغمة لاتعرف الموت - القاهرة - ٢٠٠٣/٨/٥ م - ص ٢٠) ، كانت الاسكندرية - آنذاك - فى أزهى عصورها كمدينة بحر - متوسطية ، تعج بالجاليات الأجنبية وتموج بالنشاطات الحضارية وعلى رأسها الفنون ، وعلى دوى غارات الحرب العالمية الثانية التى أصابت المدينة تبدت مواهب كمال الطويل وميوله الموسيقية .

التحق كمال الطويل بمعهد خاص للموسيقى فى مدينة الاسكندرية يدعى معهد جمجموم ، فى تلك الآونة وبعد ذلك وحتى آخر عمره .. جذب صوت المطرب محمد عبدالمطلب اهتمام كمال الطويل واستأثر بحبه، كان عبدالمطلب قد بلغ آنذاك - قرابة منتصف الاربعينيات - أوج شهرته بعمله فى الأفلام الغنائية ، ويصف كمال الطويل للناقد طارق الشناوى أين وكيف التقى سمعه بصوت محمد عبدالمطلب فيقول : « كان يصادف لما باخد الترام من محطة الرمل لحد سيدى جابر ، أنا كنت ساكن بين سيدى جابر ومصطفى باشا على الكورنيش ، وفى قهوة فى الطريق من المحطة بتاعة سيدى جابر - محطة السكة الحديد بتاعتها - إلى البحر ، فكثيرا ما كنت باسمع محمد عبدالمطلب وأنا ماشى» (طارق الشناوى : المصدر السابق) ، هكذا بدأ كمال الطويل خطواته الأولى على درب هوايته للموسيقى .. تعتمل فى نفسه عوامل التغريب وقيود الأصالة ، فقد كان ما يعرض من غناء وموسيقى فى هذه الأيام يميل إلى الغرب .. ما أنتج منه بمصر بواسطة المصريين أو ما جاء مع الفرق الزائرة أو ما تقدمه الجاليات المقيمة بمصر ، بينما كانت هناك فئة من أمثال محمد عبدالمطلب تتمسك بالموروث فى الغناء والموسيقى .. وتعد امتدادا لما اختزنته ذاكرة كمال الطويل من أنغام دينية صافحت سمعه فى طنطا وفى أحياء القاهرة الشعبية، وكان كمال الطويل يحاول أن يجد الوسيلة لإخراج ما يعتمل بداخله من أحاسيس موسيقية ، فيقوم تارة بالنقر على منضدة أو يحاول أن يتعلم العزف على آلة موسيقية كالعود ، وبالرغم من التحاقه بمعهد جمجموم للموسيقى فى الاسكندرية ، إلا أن شعورا بعدم الاقتناع بما يقوم به نحو تعلم الموسيقى كان يداخله ويؤرقه .

قفل كمال الطويل عائدا إلى القاهرة حوالى عام ١٩٤٦ ، حيث عمل بعد استقراره فى القاهرة بإحدى الوظائف فى ديوان الموظفين ، والتحق فى نفس الوقت بالدراسة الليلية فى قسم الأصوات بالمعهد العالى للموسيقى المسرحية على غير رغبة من والده (عبدالصميد توفيق زكى - المصدر السابق) ، والمعهد العالى للموسيقى المسرحية هو معهد خاص



كمال الطويل بين لطيفة ولبلبة والمذيعة سهير شلبى

يشرح أحد ألحانه للفرقة الموسيقية التى تعزف خلف محمد رشدى





أنشأته وزارة الشئون الاجتماعية ، وقد تولى عمادته أثناء دراسة كمال الطويل به العالم الموسيقى المعروف : الدكتور محمود أحمد الحفني (١٨٩٦ – ١٩٧٣) ، التقى كمال الطويل أثناء دراسته بالمعهد العالى للموسيقى المسرحية بمجموعة من الدارسين شاركته صنع ثورة النصف الثانى من القرن العشرين فى الموسيقى المصرية والعربية ، ومن هؤلاء الدارسين نذكر أسماء : عبدالحليم حافظ (١٩٢٩ – ١٩٧٧) – عواطف محمود كامل عبدالرحمن الشهيرة بفايدة كامل (١٩٣٢ –) – أحمد فؤاد حسن (١٩٢٦ – ١٩٩٣) – شعبان أبو السعد (١٩٢٦ – ١٩٨٨) ، ومن الغريب والمعروف أيضا أن دراسة كمال الطويل كان فى قسم الأصوات بالمعهد ، بينما كانت دراسة عبدالحليم حافظ فى قسم الآلات وبالتحديد آلة (الأبوا) ! ، وفى معهد الموسيقى المسرحية .. بدأ كمال الطويل محاولاته الأولى فى التلحين ، فعندما عثر بين أوراق والده على قصيدة يقول مطلعها :

إلهى ليس لى إلاك عونا
فكن عونى على هذا الزمان
إلهى ليس لى إلاك حصنا
فكن ذخرى إذا خلت اليدان

قام كمال الطويل بتلحين القصيدة مستلهما ما اختزنته ذاكرته من أنغام الموالد وإيقاعات الذكر فى حضرة السيد البدوى وأولياء القاهرة ، وبعد أن أنهى دراسته فى معهد الموسيقى المسرحية فى عام ١٩٤٩ م .. فإنه التحق للعمل بوظيفة مشرف فى قسم الموسيقى والغناء بالإذاعة المصرية فى عام ١٩٥٠ م .

بداية تألق عبقرى

لم يطل بكمال الطويل المقام فى الإذاعة .. حتى بدأ إنتاجه التلحينى فى

حوار باسم بين الطويل ومحمد عبد المطلب

الظهور ، وكانت الأغنية الأولى التى استمع إليها جمهور الإذاعة المصرية من ألحانه هى أغنية «الصباح غنوه» التى صاغها إبراهيم رجب وتغنت بها سعاد مكاوى فى التاسعة وخمسين دقيقة من صباح الجمعة ١٩٥٠/١٢/٢٩ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٢٢ - ١٩٥٠/١٢/٢٣ - ص ٢٧) ، ثم أتبع كمال الطويل أغنيته الأولى بعد ثمانية وأربعين ساعة من إذاعتها بأغنيته الثانية ، وهى أغنية «طول ما أنا وياك» التى تغنت بها سعاد مكاوى أيضا ونظم كلماتها إبراهيم كامل رفعت ، وجاءت إذاعة الأغنية الثانية من ألحان كمال الطويل فى السادسة وخمس وخمسين دقيقة من مساء الأحد ١٩٥٠/١٢/٣١ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٢٤ - ١٩٥٠/١٢/٣٠ - ص ٢٢) ، ومن الواضح أن كمال الطويل كان قد انتهى من تلحين الأغنيتين فى نفس الوقت تمر بعد ذلك ثلاثة شهور .. حتى طلع كمال الطويل على جمهور الإذاعة بأغنيته الثالثة وهى رائعته الخالدة : يارايحين الغورية» ، وهى من تأليف الملازم محمد على أحمد - كما قدمته مجلة «الإذاعة المصرية» عند التنوية عن الأغنية - وغناء المطرب محمد قنديل ، وأنه لمن المثير للتأمل أن يلحن من كان يلحق باسم والده فى مطبوعات ذلك الزمان لقب «صاحب العزة» كلاما مثل :

يارايحين الغورية
هاتوا لحبيبى هدية
هاتوا له توب بالقصب
يليق على كسمه
والطرحه ويا الشال
وإسورة وخلخال
نقوا وشوروا عليه
يارايحين الغورية

ولكنها الأصالة .. إذا ما صادفت العبقرية أخرجت لنا الروائع من مثل هذه الطقطوقة الخالدة .

انقضى من الزمان أكثر من شهرين قبل أن تقدم الإذاعة فى الثامنة والثلث من مساء السبت ١٩٥١/٧/٩ الأغنية الرابعة من ألحان كمال الطويل ، كانت هذه الأغنية التى كتب كلماتها الشاعر الغنائى إبراهيم رجب . وحملت اسم «شكوى» هى اللقاء الأول بين ألحان الطويل وصوت عبدالحليم شبانه ، وليست قصيدة «لقاء» كما قال بذلك غالبية من كتبوا عن كمال الطويل بعد رحيله ، ويدءا من تاريخ إذاعة هذه الأغنية .. تغيير الاسم الذى كانت تشير به مجلة «الإذاعة المصرية» والإذاعة نفسها إلى المطرب الجديد عبدالحليم شبانه ، ليصبح اسمه ومع لقاءه الأول بألحان رفيق الدراسة : « عبدالحليم حافظ» تيمنا بالإذاعى الكبير حافظ عبدالوهاب واعترافا بفضله ، وقد اقترنت هذه الأغنية بظاهرة لم تعهد قبل ذلك فى مجال الأغنية الفردية ، إذ حوت إشارة مجلة «الإذاعة المصرية» إلى توقيت إذاعتها الأولى ملاحظة تقول بأن الأغنية من توزيع فؤاد الظاهرى (الإذاعة المصرية : العدد ٨٤٧ - ١٩٥١/٦/٩ - ص ٢١) ، مضت ثلاثة شهور أخرى حتى ظهرت للنور الأغنية الخامسة من ألحان كمال الطويل ، وهى الثنائية الغنائية (دويتو) « أنا ولا أنت» التى جمعت بين صوتى سعاد مكاوى - أول من تغنى بألحان الطويل - وعبدالحليم حافظ رفيق مشوار الدراسة والغناء ، قدمت هذه الثنائية الغنائية فى العاشرة والنصف من صباح الخميس ١٩٥١/٩/٦ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٥٩ - ١٩٥١/٩/١ - ص ٢٦) ، لم تكن الأصداء الطيبة لثنائية «أنا ولا أنت» قد تبددت من الآذان أو حتى أذيعت للمرة الثانية فى الإذاعة ، حتى أطلق

الطويل لحنه الدينى الأول متمثلا فى قصيدة «إلهى ليس لى إلاك عونا» التى نظمها والده محمود ذكى الطويل بك، جاءت الإذاعة الأولى لهذه القصيدة التى حملت اسم «دعاء» بصوت المطربة فايدة كامل فى السابعة والربع من مساء السبت ١٩٥١/٩/١٥ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٦١-١٩٥١/٩/١٥ – ص ٢٢) ، أى بفاصل تسعة أيام بين الأغنية السادسة والأغنية الخامسة ، لم ينقض شهر على ترنم فايدة كامل بقصيدة «إلهى ليس إلاك عونا» .. حتى أتبعتها فى الثامنة من صباح الأربعاء ١٩٥١/١١/٧ باعادة غناء أغنية «الصباح غنوة» ، وهى الأغنية الأولى من ألحان كمال الطويل والتى سبق وأن قدمتها الإذاعة بصوت سعاد مكاوى قبل ما يقرب من العام فى برنامج الجمعة ١٩٥٠/١٢/٢٩ .

قدم كمال الطويل الأغنية السابعة من ألحانه بالإذاعة فى مطلع عام ١٩٥٢ م ، وهى أغنية «ياضنين الأمس» التى كتبها مرسى جميل عزيز وتغنى بها كارم محمود فى الواحدة وعشرين دقيقة من بعد ظهر الجمعة ١٩٥٢/١/٤ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٧٦ – ١٩٥١/١٢/٢٩ – ص ٢٧) ، لحقت بهذه الأغنية سريعا – كدأب الطويل فى أول مشواره – الأغنية الثامنة من ألحانه وهى أغنيته الوطنية الأولى على الإطلاق ، تغنى المطرب إبراهيم حمودة بهذه الأغنية التى حملت اسم «يابورسعيد يا اسماعيلية» للمرة الأولى من الإذاعة المصرية فى السادسة من مساء الأحد ١٩٥٢/١/٢٠ ، وفيما يلى مطلع الأغنية التى نشرت مجلة «الإذاعة المصرية» نصها الكامل بالصفحة العشرين من العدد رقم (٨٧٩) الصادر فى يوم السبت ١٩٥٢/١/١٩ :

يا بورسعيد يا إسماعيلية
في جهادكم رمز الوطنية
أبطالكم بالدم الغالي
كتبوا لنا تاريخ الوطنية
يا بورسعيد يا إسماعيلية

لحقت بتلك الأغنية بعد يومين فقط الأغنية التاسعة لكمال الطويل هى رائعته الخالدة «يا اسكندرية» ، ففى السابعة من مساء الثلاثاء ١٩٥٢/١/٢٢ انطلق صوت محمد قنديل «الباريتون» – طبقا للتقسيم الغربى لأصوات الرجال – ليترنم بكلمات محمد على أحمد – أيضا – التى تشكل مذهب هذه الأغنية : « بين شطين وميه .. عشقتكم عينيه .. يا غالين عليه .. يا أهل اسكندرية» مصحوبة بلحن كمال الطويل المميز (الإذاعة المصرية : العدد ٨٧٩ – ١٩٥٢/١/١٩ – ص ٢٤) .

تعد قصيدة «لقاء» التى لحنها كمال الطويل من أشعار صلاح عبدالصبور ليتغنى بها رفيقه عبدالحليم حافظ .. آخر ما قدم الطويل من أغنيات إذاعية فى هذه الحقبة ، فقد قدمت الإذاعة المصرية قصيدة «لقاء» للمرة الأولى فى السادسة من مساء الأربعاء ١٩٥٢/٤/٢ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٨٩ – ١٩٥٢/٣/٢٩ – ص ٢٧) ، وبأغنية «لقاء» بلغ عدد ما قدمه كمال الطويل عبر الإذاعة المصرية من أغنيات خلال عام ونصف عام .. عشر أغنيات ، تراوحت تلك الأغنيات من حيث القالب بين القصيدة والطقطوقة والأنشودة ، وتنوعت طبقا لأغراضها بين الأغنية الوصفية والعاطفية والوطنية والدينية ، ولكنها حملت جميعا سمات فكر كمال الطويل الموسيقى الذى اعتنقه طوال مشواره مع فن الغناء ، وهو فكر تمحور حول بساطة الجمل الموسيقية التى يتكون منها اللحن (الميلودى) الغنائى ، واعتماد

القفلات الغنائية البسيطة عوضا عن القفلات المركبة التي برع في إبتكارها جيل العمالقة من أمثال زكريا أحمد ومحمد القصبجي ورياض السنباطي ، إضافة إلى اتخاذ الايقاعات البسيطة القريبة من بعض الايقاعات الغربية بديلا للايقاعات الشرقية المركبة ، وانتهاءا بادخال التوزيع الموسيقى ليصبح جزءا أساسيا من بنية هذه الأغنيات

التحول إلى السينما

لم يكن طريق كمال الطويل فى الإذاعة مفروشا بالورود كما قد يتوهم البعض الآن ، فبالرغم من أن تعينه كمشرف بقسم الموسيقى والغناء في عام ١٩٥٠ قد حدث إبان وجود وزارة وفدية في الحكم (وزارة مصطفى النحاس الأخيرة) ، وهو ما قد يفسر الآن ووقتها على أن التحاقه بالعمل الإذاعي قد تم بناءا على صلة والده وعمه وكل الأسرة بحزب الوفد ، ولكن الثابت الآن – وكما ذكر كمال الطويل فى حديث الذكريات الذى أدلى به لطارق الشناوى – أن الطويل وجد نفسه خارج الإذاعة منقولا للعمل بوزارة التموين ، حدث ذلك بعد إقالة وزارة مصطفى النحاس فى ١٩٥٢/١/٢٧ أثر حريق القاهرة الشهير ، فكان من جراء ذلك الأبعاد أن توقفت ألحانه فى الإذاعة بعد قصيدة «لقاء» .

والأمر المؤكد .. هو أن كمال الطويل قد عاد إلى الإذاعة مرة أخرى فى عام ١٩٥٣ ، لم يعد الطويل إلى الإذاعة فى عام ١٩٥٣ كملحن كما بدأ معها في عام ١٩٥٠ ، وإنما عاد ليعمل فى لجنة مختارات الإذاعة .

ولكن باب تلحين الأغانى الإذاعية ظل موصدا فى تلك الفترة أمام كمال الطويل ، مما حدا به للتحول إلى السينما يفرغ فى أفلامها الرائجة آنذاك بعضا من طاقاته التلحينية التى ظهرت بواكيرها المبشرة فى أعماله الأولى للإذاعة .

كان دعاء «قل أدع الله إن يمسسك ضر» من شعر والد كمال الطويل .. المهندس محمود ذكى الطويل ، هو أول ما لحن كمال الطويل من أغان سينمائية ، حيث تغنت به المطربة شادية فى فيلم «ماليش حد» الذى عرض فى ١٩٥٣/١١/١٦ ، وقد نهج كمال الطويل فى تلحين هذا الدعاء نفس نهجه فى تلحين الدعاء الأول «إلهى ليس لى إلاك عونا» وفى توقيت مقارب لتوقيت ظهور أغنية الطويل السينمائية الأولى .. ظهرت أغنيته الثانية فى ١٩٥٣/١١/٣٠ ، وذلك عندما عرض فيلم «الدنيا لما تضحك» والذى تضمن أغنية «يا شمعدان حارتنا» التى نجحت نجاحا يفوق الوصف يوم ظهور الفيلم ، فقد جذبت صياغة الطويل للجملة الأساسية فى اللحن الغنائي (الميلودى) لهذه الطقطوقة قلوب الجماهير قبل أسماعها ، ولم لا ؟ .. والجملة جاءتا من أعماق الحارة المصرية ومثلت أجواءها أصدق تمثيل ، وفى العام التالى – وهو عام ١٩٥٤ – قدم الطويل للسينما واحدة من أجمل وأطرف أغنياتها ، وهى طقطوقة «عجبانى وحاشته» التى تغنت بها شادية فى فيلم «أوعى تفكره» الذى عرض فى ١٩٥٤/٩/٢٠ ، حيث لعب مذهب (مطلع) الطقطوقة الدور الأساسى فى جذب اهتمام المستمع ، فمن ذا الذى كان يتخيل أن تتغنى فتاة جميلة بهذه الكلمات : «عجبانى وحاشية عجبانى .. يا حبايب وهوه بيهوانى» ، فإذا ما اقترن هذا الكلام الطريف بإيقاع راقص بسيط .. فليس لاعجاب المستمع بعمل كهذا حدود ، ولم تكن «عجبانى وحاشته» هى الأغنية الوحيدة لكمال الطويل فى أفلام عام ١٩٥٤ ، وإنما سبقتها أغنية «الظلم حرام»

التى لحنها الطويل وتغنت بها شادية فى فيلم «الظلم حرام» الذى بدأ عرضه فى ١٩٥٤/٧/٢٥ .

حملت طقطوقة «على قد الشوق» وقصيدة «لاتلمنى» اسم كمال الطويل إلى ذرا الشهرة فى عالم الغناء ، وكلاهما - الطقطوقة والقصيدة - من نظم الشاعر محمد على أحمد ، وقد تغنى بهما رفيق الطويل فى دراسة الموسيقى .. المطرب عبدالحليم حافظ فى فيلمه الأول «لحن الوفاء» الذى عرض فى ١٩٥٥/٣/١ ، كانت بساطة الألحان والإيقاعات .. إضافة إلى ما تميز به صوت عبدالحليم فى تلك المرحلة من سمات خاصة .. هى جواز مرور كل من كمال الطويل وعبدالحليم حافظ إلى عالم الشهرة الساحر ، لم يكن قد انقضى أسبوع واحد على إنطلاق «على قد الشوق» و«لا تلمنى» من فوق شاشة سينما فريال بمدينة الاسكندرية لأول مرة ، حتى انطلقت طقطوقة «أسرار الحب» الساحرة بصوت نجاح سلام من على شاشة سينما أوبرا بالقاهرة فى يوم الاثنين ١٩٥٥/٣/٧ ، كانت «أسرار الحب» هى الأغنية السينمائية الخامسة لكمال الطويل ، والأغنية من نظم حسين السيد وتضمنتها أحداث فيلم «السعد وعد» ، ثم توالت بعد ذلك فيما تبقى فى عام ١٩٥٥ من أيام مجموعة من أجمل ما لحن كمال الطويل من أغنيات ، فاستمع الجمهور إلى «الحلو حياتى» و«هى دى هى» من عبدالحليم حافظ فى فيلمه الثانى «أيامنا الحلوة» الذى عرض فى ١٩٥٥/٣/٧ - «القلب بيتنهد» و«ليه خليتنى أحبك» بصوت ليلى مراد فى فيلمها الأخير «الحبيب المجهول» الذى عرض فى ١٩٥٥/٥/٢٣ وبذلك بلغ مجموع ما قدم كمال الطويل من أغنيات سينمائية فى عام ١٩٥٥ تسعة أغنيات ، مما جعل إبداعه فى هذا العام يقترب فى حجمه من إبداعه فى الإذاعة خلال العام ونصف العام الأول من مشواره مع الغناء والتلحين .

كان نصيب أغنيات أخرى قدمها الطويل بعد ذلك للسينما من النجاح معادلا لما لقيته أغنيات السينمائية الأولى من نجاح ، نذكر من تلك الأغنيات السينمائية أغنية قدمها مطرب لبنانى يدعى محمد مرعى من ألحان كمال الطويل فى فيلم وحيد ظهر فيه هذا المطرب ، كانت الأغنية هى «لأ يا حلو لأ» من نظم مرسى جميل عزيز ، وقد تغنى بها محمد مرعى فى فيلم «أول غرام» الذى للمرة الأولى فى ١٩٥٦/٣/٢٦ ، وقد حققت أغنية «لأ يا حلو لأ» نجاحا جعل الإذاعة تقدمها فى مختاراتها لسنوات طويلة ، وفى فيلم «غرام المليونير» الذى عرض فى ١٩٥٧/٣/١٨ .. تغنت نجاة الصغيرة بأغنية «سمارة» من ألحان كمال الطويل ، ولحن الطويل أيضا فى عام ١٩٥٧ استعراض «قطار السكة الحديد» الذى قدمه إسماعيل يس مع المطربة اللبنانية نزهة يونس فى فيلم «إسماعيل يس فى جنينة الحيوانات» الذى عرض للمرة الأولى فى ١٩٥٧/٩/١٦ ، وأعادت نجاة الصغيرة الكرة وتغنت بلحن آخر لكمال الطويل فى فيلم «غريبة» الذى عرض فى ١٩٥٨/٣/٥ ، كان هذا اللحن لأغنية من أجمل أغنيات الأفلام الغنائية هى أغنية «منسيه» التى عدت آنذاك «أغنية العام» برأى أهل الغناء والنقاد والجمهور ، كثيرة هى ألحان كمال الطويل الناجحة التى قدمها للسينما الغنائية ، ولايزال الجمهور يذكر حتى الآن الكثير من هذه الألحان التى قدمت فى أفلام مثل : « ألمظ وعبده

الحامولى : ١٩٦٢» - «الزوجة رقم ١٣ : ١٩٦٢» - «رابعة العدوية : ١٩٦٣» - «خللى بالك من زوزو : ١٩٧٢» - « أميرة حبى أنا : ١٩٧٤» - «جفت الدموع: ١٩٧٥» - «عودة الابن الضال : ١٩٧٦» و «شفيقة ومتولى : ١٩٧٨» ، وقبل هذه الأفلام .. وفى الصدارة تأتى ألحان كمال الطويل لعبد الحليم حافظ فى خمسة عشر فيلم تشكل مجمل ما مثل من أفلام عدا فيلمه الأخير « أبى فوق الشجرة» ، ويمكن القول بأن نجاح كل هذه الأغنيات السينمائية التى لحنها كمال الطويل ، إنما يرجع إلى أن السمات الأساسية لألحان تلك الأغنيات - ممثلة فى بساطة الجملة الغنائية والقفلات إضافة إلى سرعة الإيقاع وبساطته - تعد هى الأنسب لتوفير المتطلبات الضرورية لنجاح الأغنية السينمائية ، وهو ما جعل ألحان الطويل موضع طلب دائم فى الأفلام الغنائية خلال مشواره مع الغناء .

أغنيات الحماسة

تعددت أغراض الغناء على مدار التاريخ باتساع اهتمامات البشر ومداركهم ، ولكن يظل الغناء للوطن - منذ عرف الناس الغناء - فى الصدارة من كل ما ينتج من هذا الفن ، ولقد أظهر كمال الطويل إهتماما مبكرا بالأغنية الوطنية ، وذلك عندما لحن أغنية «يابور سعيد يا إسماعيلية» فى شهر يناير من عام ١٩٥٢ ، كما سبق وأسلفنا فى سياق هذا المقال ، وكانت ثانى أغنيات كمال الطويل الوطنية وفى نفس الوقت أول أغنية وطنية له بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، هى أغنية «قوم يا أسطى مجاهد» التى كتبها إبراهيم رأفت ولحنها كمال الطويل ، ليتغنى بها المطرب سيد إسماعيل من إذاعة القاهرة فى الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة من مساء الأحد ١٩٥٣/٧/٢٦ (الإذاعة المصرية : العدد ٩٥٨ - ١٩٥٣/٧/٢٥ - ص ٣٤) وفى عام ١٩٥٥ - وبمناسبة عيد الثورة الثالث - لحن كمال الطويل أغنية «عاشق جمال بلدى» وهى من نظم محمود جاد وغناء سيد إسماعيل أيضا .

لم تكن أحداث السنوات الأولى للثورة - الموجهة ضد الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها كمال الطويل وضد ما تعتنقه من فكر سياسى - لتترك صدى فى إبداعات الطويل، ولكن الاعتداء على أرض الوطن فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٥٦ مثل مصدر الإلهام الحقيقى عند الطويل وجمهرة أهل الغناء فى ذلك الوقت لإبداع أعمال غنائية كتب لها الخلود ، فعلى صوت غارات الطائرات المعادية تقتحم حرمة السماء المصرية وتدك أرض الوطن ، أملى الشاعر صلاح جاهين لصديقه كمال الطويل النص التالى لمطلع نشيد استلهمه مما يدور حوله : «والله زمان يا سلاحى .. اشتقت لك فى كفاحى .. انطق وقول أنا صاحى .. يا حرب والله زمان» ، فينفعل الطويل بهذه الكلمات القوية التى تضج بالحماسة .. فيبدأ فى تلحينها من فوره ، وعندما أكمل جاهين كتابة النشيد خلال يومين ، كان فى ستة وثلاثين ساعة الكفاية لتسجل أم كلثوم هذا النشيد الحماسى الهادر ، وهو نشيد يجيىء فى المقدمة من أناشيد يوليو بحماسة الذى فاق الحدود ، وبالرغم مما حفل به نشيد «والله زمان يا سلاحى» من حماسة .. فقد لحن الطويل أغنية أخرى إبان العدوان الثلاثى لاتقل فى حماسها وصدقها عن ذلك النشيد ، كانت الأغنية هى «الجنة هى بلادنا» التى كتبها صلاح جاهين وتغنى بها الصوت الأثير بين النساء لدى الطويل ويغنى به صوت المطربة نجاة الصغيرة.

تأخر لقاء ألحان كمال الطويل الوطنية بصوت عبدالحليم حافظ حتى شهر يناير من عام ١٩٥٧ ، ففي هذا الشهر .. سجل عبدالحليم حافظ لإذاعة القاهرة قصيدة « إني ملكت في يدي زمامي» من شعر مأمون الشناوي وأغنية «احنا الشعب» من نظم صلاح جاهين وكلاهما - القصيدة والأغنية - من ألحان كمال الطويل (الإذاعة : العدد ١١٣٩ - ١٩٥٧/١/١٢) ، كانت قصيدة « إني ملكت في يدي زمامي» مثالا لألحان الطويل السابقة .. جمل سهلة يضبطها إيقاع بسيط ويجملها توزيع حديث ، بينما جاءت «إحنا الشعب» متقدة بالحماسة التي مازالت حتى اليوم لايخبو لها أوار ، فمن من الأجيال التي عاصرت ظهور هذه الأغنية لايشعر - حتى الآن - بالحماس يهز كيانه مع كلمات مطلعها التي تقول : «إحنا الشعب .. إحنا الشعب .. اخترناك من قلب الشعب .. يا فاتح باب الحرية .. ياريس يا كبير القلب» ، ثم توالت ألحان الطويل لعديد من الأغنيات الوطنية التي شدا بها عبدالحليم حافظ في مناسبات الثورة واحتفالاتها ، كانت هذه الأغنيات وطبقا لتسلسلها التاريخي :مصر وسوريا : فبراير ١٩٥٨ - « يا جمال يا حبيب الملايين : مايو ١٩٥٨» - «حكاية شعب : ١٩٦٠/١/١٠» - « بالأحضان : ١٩٦١/٧/٢٣» - « مطالب شعب : ١٩٦٢/٧/٢٣» - «المسئولية : ١٩٦٣/٧/٢٣» - «بلدي يا بلدي : ١٩٦٤/٧/٢٣» - « يا أهلا بالمعارك : ١٩٦٥/٧/٢٣» و «صورة : ١٩٦٦/٧/٢٣» ، وهي أغنيات سجلت إنجازات الثورة ومعاركها في الحقبة التي توالت فيها ، حملت تلك الأغنيات بصمة كمال الطويل المعروفة في الألحان الغنائية ، وعبرت عن فكره التجديدي الذي عمل على تحرير الأغنية العربية من كثير من عيوبها .

لم تقتصر أغنيات كمال الطويل الوطنية - بالرغم من قلة إنتاجه الملحوظة - على صوت عبدالحليم حافظ ولا على مرحلة بعينها ، حيث قدم لأصوات أخرى بعض الأغنيات الوطنية ، وأما من حيث تدفق أغنيات كمال الطويل الوطنية عبر مراحل النضال المصري في النصف الثاني من القرن العشرين ، فإن أغنياته التي قدمها في أعقاب نكسة عام ١٩٦٧ : « إبنك يقولك يا بطل» - « أحلف بسماها وبترابها» و«خلي السلاح صاحي» وكلها بصوت عبدالحليم حافظ ، إلى جانب أغنيته الشهيرة «صباح الخير يا سينا» التي تغنى بها عبدالحليم حافظ في أعقاب انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ، تقف كل هذه الأغنيات شاهدا على أن ألحان كمال الطويل الوطنية كانت ديوانا لنضال الشعب المصري بدءا من خمسينيات القرن العشرين وحتى نهايته .

التكريم قبل الجائزة

امتد عمل كمال الطويل بلجنة مختارات الإذاعة فيما بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، ثم نقل في عام ١٩٥٦ ليعمل كمفتش للموسيقى بوزارة التربية والتعليم ، وفي عام ١٩٦٥ .. استقال كمال الطويل من عمله ليتفرغ للتلحين ، وبالرغم مما قدمه كمال الطويل للغناء على طول مشواره ، فإن ما ناله من الجوائز والتكريم كان أقل مما يستحقه .

إن ما قدمه كمال الطويل للغناء العربي لاتعدله جائزة مهما بلغت قيمتها ، ولكن يعدله حب الجمهور وتقدير الدولة في زمن الفن الجميل الذي (راح وانقضى)! ■

القصة القصيرة

مشاهد بغدادية من القصف المتواصل

بقلم
حسني سيد لبيب



1 - صلاة الفجر

مازال القصف متواصلا ليل نهار. انفجارات هنا وهناك. أخاف دويا شاملا وحرائق هائلة! القصف من طائرات صماء بكماء، تصنع القنابل من على ارتفاع شاهق. القذائف اللهبية الغادرة تضرب في كل اتجاه بشكل عشوائي. فيالق الطائرة يخترق الأجواء محتالا بما يلقيه من قنابل ضخمة، غير مكترث بما تخلفه من دمار وخراب. غير مكترث بكثير القوة الباقية على الكرة الأرضية، ومما يخلفه من آثار بدنية ونفسية. كأن ما بينه نسبة يلهو بها! القصف الدوي الزلزال لا يخشى لعاقبه من البنايات والناس والمساجد والآثار العريقة. إلا رحمة الله تلف بالرصاد ليخطئ القصف بعض الأهداف. تهتز الأرض من تحت أقدام العراقيين. دوي الأصوات مرعب يخرق الآذان.

ينصرع الفضاء آذان بعبق أذان الفجر. يبث السكينة في القلوب المؤمنة. يكبر المؤذن. الله أكبر.. الله أكبر.. يتقاطر المسلمون من كل حدب، قاصدين جامع أبي حنيفة النعمان بالأعظمية. القصف لا يتوقف. صوت الإمام ينادي

بإقامة الصلاة ، بينا يسمع انفجار فى مكان بعيد . يكاد صوته المدوى يغطى على صوت الإمام . تستوى صفوف المصلين ، متقربين إلى الله . يتلو الإمام سورة الفاتحة وسورة المؤمنون : ﴿قد أفلح المؤمنون ● الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾ .. قصف متواصل يكاد يقطع على الإمام والمصلين خشوعهم .. يكاد يعد عليهم أنفاسا معدودة قبل أن يأتيهم الموت المباغت . لكنهم ظلوا رابطى الجأش .. أكمل الإمام ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ .. يكمل السورة .. يتواصل الخشوع مع الركوع والقيام والسجود . صوت الإمام الجلى يغطى على دوى القصف ، والمصلون خلفه فى خشوع تام ...

٢ - كيس الحلوى

عاشت بغداد تحت الحصار أوقاتا عصيبة ، حين أمطرت السماء قنابل وصواريخ . لكن الحياة تبدو طبيعية .



طفل فى العاشرة يخرج من البيت يبتاع كيس حلوى من محل أبو مصطفى صاحب الابتسامة الطيبة. تناول الكيس ، وهرع إلى البيت . لكنه توقف على صوت أنفجار . ناس يتصايحون : «قنبلة أصابت بيتا ..» . جرى الرجال والشباب إلى مكان الانفجار . إنهار بيت ودفن أسفله ثلاثة محال بمن فيها .قفر عمرو راجعا . لم يتمكن من رؤية شيء . تزاحم الناس محاولين إنقاذ الأحياء وإخراج الضحايا . ندت دمعة من عينيه . سأل عن أبومصطفى . أين هو ؟ قد تحول المحل إلى كومة تراب . لم يجبه أحد . الكل لاه عنه . وما درى بكيس الحلوى وهو يسقط من بين يديه ..

عاش عمرو أهوال القصف المتواصل . سمع حكايات ومرويات عن شهود عيان للمجازر والمذابح . وفى جعبته حكاية مريرة عن الشهيد أبومصطفى . سمع عن الدبابات الأمريكية التى أستقر بها المقام فى الشارع الرئيسى . خرج هو وأصحابه الثلاثة . تشجعوا ليروا الدبابة الضخمة . هل يقذفها بحجر ؟ نهره رفاقه . حتى لايفتح الأمريكان النار عليهم . هم ذاهبون ليروا الدبابة .شاهد فى التلفاز ما يفعله الفلسطينيون من رجم المحتل بالحجارة . سمع من أبيه كلمات يسمعها ربما لأول مرة الاحتلال .. تأمل الأربعة الدبابة والجنود المسلحين والخوذات الفولاذية .. ابتسم أحدهم للصغار.. لم يبادلوه الابتسام . ظلوا مكفهرى الوجوه . قفزوا راجعين إلى الحى الشعبى .. لكن عمرو غافل أصحابه . كان قد خبأ حجرا صغيرا فى جيبه ، ألقاه على الجندى

.. لكنه أخطأه . ابتسم الجندى الذى رغبه فى الاقتراب . دنا منه . أرتعد . خاف أن يصوب نحوه السلاح . حاول أن يلوذ بالفرار . خشى أن يصيبه الجندى . تسمر مكانه لايدرى كيف يتصرف . مد الجندى يده بكيس حلوى ، متوددا ، فركض فى خوف .. وحكى لأصحابه عن الحلوى الذى رفض أن يأخذها ، وعن الحجر الذى ضرب به الدبابة الضخمة !

١ - عرس بغدادى

أصر جاسم على عقد القران والزفاف باكر .

قال أبوفاطمة :

- تريث لحين انتهاء الغارات التى لاتنقطع ليل نهار ..

- لا أعرف متى تنتهى الحرب ..

أكمل مصمما :

- كل شىء جاهز .. البيت والأثاث .. لاينقص الدار إلا فاطمة ..

الموافقة فكرة مجنونة لم يتحمس لها أحد . انحاز أبوفاطمة إلى جاسم ، رغم عدم



اقتناعه. مد يده يصافحه :

- على بركة الله ..

لم يتمالك كتمان فرحته الطاغية ، فنهض محتضنا أبا فاطمة ..

وأقيم العرس على إيقاع القنابل المضيئة ، والمواقع المشتعلة . احتشد الجمع الذى استطاع أن يشارك فى زرع ابتسامة ما . توافد صحفيون ، مصورون ومراسلون ، يباركون الزيجة ، وينقلون لقطات من حفل العرس ، بعد أن ملوا من نقل أخبار الموت والدمار .

البعض يتساءل : أمن رحم الموت تولد الحياة ؟

التف حشد حول العروسين ، وقد اشتعلت الأكف بالتصفيق والتهليل . فتيات وأطفال يضيئون العرس بالشموع والابتسامات .. على إيقاع الأكف رددت البنات والسيدات هتافاً غنائياً

لايغيرنه :

- لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله ..

٤ - نخيل البصرة والفاو

صرخت سيدة أردنية فى وجه الصحفى :

- إن خلصت الرجال، يبقى النساء . وإن خلصت النساء ، يبقى الأطفال .. وإن خلصت الأطفال ، يبقى نخيل البصرة والفاو ..

وصرخت سيدة عراقية :

- أين أنتم يا عرب ! حين اشتد الحصار ودهس جنود الغزاة شوارع بغداد ... انقلبت المدن العراقية إلى حالة من الفوضى وحوادث السلب والنهب ..

اقتحمت سيدة الحشد الملتف حول مراسل صحفى ومصور. انتزعت من الواقفين الأضواء ، صارخة :

- عندنا الماء والكهرباء والطعام . لانريد إحسانا من أحد . فقط إعطونا الأمان ..

قال شاب محتدا :

- عندنا من العظام

مايكفينا ..

قالت امرأة عجوز بصوت متحشرج :

- كله راح . البيت تهدم .. العوائل ماتوا .. أين ضمير العالم ؟ أين الشعوب ؟

٥ - استشهاد مراسل صحفى

هرع مراسلون وصحفيون ينقذون مصابين من زملائهم ، ناقلوا الأخبار أصبحوا هم خبرا تتناوله الصحف وقنوات البث . صدمهم استشهاد زميلهم . شيعوه فى جنازة مهيبة إلى السيارة التى تقله إلى الأردن . كان طارق أيوب من أنشط المراسلين . قال أبوه :

- أتمنى أن أموت شهيدا مثله .. أتمنى ...

مساء الثلاثاء الحزين ، أوقد زملاؤه الشموع فى فندق فلسطين بوسط بغداد . كل يدعو له بالرحمة والجنة التى وعد الله الشهداء بها . التفوا فى نصف دائرة ، فى بهو الفندق . اختلفت جنسياتهم وألسنتهم ، لكن وحدت بينهم مشاعر



إنسانية .. إنهم يمثلون ضمير العالم . ثمة صمت مهيب جمعهم فى تلك اللحظة العصيبة . من الممكن أن يكونوا وليمة سهلة لقنبلة مجنونة أو صاروخ طائش ! انتحرت الكلمات على الشفاه ، فما عاد أحد يصدق ما قيل وما يقال . طارق أيوب فلسطينى الجنسية .. وفلسطين مأساة أخرى ، قديمة وجديدة !

٦ - بئر سحيقة

التف الناس حول بئر سحيقة . قال البعض أن فى أسفلها مساجين ربما هم تحت الأرض منذ سنوات بعيدة . أطلق البعض نداء فسمع الصدى القوى بما يبين عن مقدار المسافة الكبيرة، التى تمتد خلالها الأسطوانة الأسمنتية المخيفة . انتظروا حتى تلاشى الصوت والصدى . فأتاهم صوت رجل لايراه أحد يجيب على النداء . يتردد الصدى المخيف ، أسفل المياه الجوفية ، عبر سراديب ودهاليز لا يعلمها أحد . كان بين عالمهم والعالم السفلى مفازة هائلة كتلك التى بين الأرض والقمر أو المريخ ! لطمت سيدتان متشحتان بالثياب السوداء ، على حال من يعيشون فى جوف الأرض معزولين عن العالم . اقترح أحد الواقفين أن يمد حبل سميك . حذره آخر من أن الحبل قد يكون قصيرا ، أو أن الذى يمسك به قد يقع فى البئر فيغرق فى مياهه !

لايعرف أحد كيف انتهت فصول المأساة . فقد انقطع بث التقرير المصور من على شاشة التلفاز ، ليبدأ تقرير آخر عن فاجعة أخرى ! ▢

كتاب الهلال

عجائب المخلوقات

بقلم

د. عبد المحسن صالح

يصدر ٥ اكتوبر
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال

٢٠٥

الهلال

شعبان ١٤٢٤هـ - أكتوبر ٢٠٠٣م

شارع مصنع النسيج

بقلم

صفوت عبد المجيد

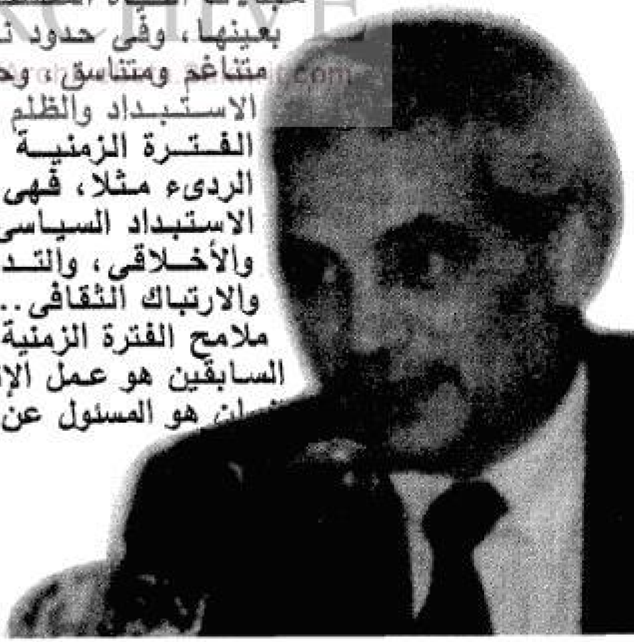
تصدر ١٥ اكتوبر
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

رحلة فوق ملامح الزمن

قاسم عبده قاسم

كثيرا ما يوصف الزمن بأوصاف إنسانية تعبر عن رغبة البشر فى نسبة أفعالهم، حلوها ومرها، إلى الزمن. ولأن الزمان وعاء آنى لأفعال البشر فلا يمكن أن تكون له هذه القدرة الإيجابية على تشكيل حياة الناس. وربما يكون المقصود بالزمن الظروف السائدة فى مرحلة زمنية ما، وهى على أية حال، ظروف صنعها الإنسان بشكل تراكمى. فالمرحلة الزمنية التى يمكن أن توصف «بالزمن الجميل»، مثلا، هى فى واقع الأمر نتاج لعمل البشر فى مجالات الحياة المختلفة وداخل إطار ثقافة بعينها، وفى حدود نظام قيمى وأخلاقى متناغم ومتناسق، وحياة سياسية تخلو من الاستبداد والظلم ... وهلم جرا. أما الفترة الزمنية التى توصف بالزمن الردىء مثلا، فهى فى حقيقتها نتاج الاستبداد السياسى، والتراجع القيمى والأخلاقى، والتدهور الاقتصادى، والارتباك الثقافى.. وهكذا. والذى يشكل ملامح الفترة الزمنية فى كل من المثالين السابقين هو عمل الإنسان. ومن ثم فإن الإنسان هو المسئول عن ملامح الزمان .





صورة تذكارية في لندن - منتصف الستينات



ومع أساتذته بعد مناقشة رسالته للدكتوراة

هذه الفذلكة ضرورية، فى تصورى، للدخول إلى عالم الرحلة التى قطعتها فوق ملامح الزمن الذى عشت حياتى فى رحابه، وقد تنوعت هذه الملامح ما بين الابتسام والعبوس، والثورية والتراجع، والانتصار والانكسار، والفرح والترح، والرخاء والشقاء. فقد كان مولدى ذات يوم من أيام شهر مايو سنة ١٩٤٢م، أى فى عز أحداث الحرب العالمية الثانية، وحكت لى أمى أنها كانت تحملنى وتجرى لتحمينى ونفسها فى المخابىء التى عرفتها القاهرة آنذاك هرباً من غارات الألمان فى حرب لم تكن لمصر فيها مصلحة ولكنها ذاقت مرارة ضررها.

عرفت أول طريق العلم والدراسة فى الكُتّاب وأنا دون الخامسة من عمرى، وفى الكتاب عرفت القرآن والحرف العربى والحساب بالقدر الذى يصلح لمن هم فى عمرى، وأحببت الشيخ سيد الحلو، رحمه الله، وظلت علاقتى وطيدة بهذا الرجل الجميل الجليل حتى نهاية دراستى الثانوية. وكان جدى قاسم الكبير، عليه رحمة الله، مرشدى ومعلمى فى سنوات عمرى الأولى، فقد كان تاجراً مثقفاً يحب الحياة ويفهمها، وكان يحفظ الكثير من الشعر العربى وحكايات العرب، وليالى ألف ليلة وليلة وكان نصيبى من حكاياته ومسامراته كبيرا، وغرس فىّ حب المعرفة والرغبة فى التعلم. وقد انعكس ذلك على فترة دراستى الإبتدائية والاعدادية فى مدرسة أبو بكر الصديق بحمامات القبة، ثم دراستى الثانوية بمدرسة . القبة

التكوين

الثانوية فى منشية البكرى.

كنز لا ينضب

فى هذه السنوات الباكرة من عمرى عرفت القراءة كنزاً لا ينضب، واتخذت الكتاب رفيقاً لا يخون ولا يغدر، ولكن قراءاتى الأولى كانت روايات الجيب وقصص شرلوك هولمز وأرسين لوبين التى كنت أؤجرها بقرش صاغ من «عم حجازى» بائع الكتب القديمة على الرصيف بشارع الملك «مصر والسودان» بحدائق القبة حيث انتقلنا للسكن هناك من منشية البكرى.

كان أبى رحمه الله رجلاً بسيطاً من أبناء الطبقة الوسطى فى القاهرة وكان حظه من التعليم قليلاً، لكنه كان فناناً مرهف الحس، يغنى ويمثل ويعزف على العود على سبيل الهواية فى آخر النهار عندما يعود من عمله ليغسل إرهاق اليوم بهذا الفن البديع، ولم يكن قارئاً مثقفاً مثل جدى لكنه كان إنساناً راقياً بكل معنى الكلمة. وبسببه أحببت الفن وتذوقته وما كنت أتمنى شيئاً في حياتى مثلما تمنيت أن أكون فناناً.

كانت تلك أياماً تتسم بالدفء والبساطة والجمال، وكان يوم ذهابنا إلى سينما الفالوجا بمنشية البكرى بمثابة العيد الأسبوعى لنا نقضيه بصحبة أبى. وأدركت أن الحياة لا تستقيم ولا يكون لها معنى إذا خلت من الفن. وحين كبرت كنت أدخر جزءاً من مصروفى اليوم للذهاب إلى السينما أسبوعيا، وانبهرت بالأفلام العربية وأداء جيل الفنانين الكبار، بكيت مع فاتن حمامة وأمينة رزق، وضحكت مع نجيب الريحانى وسليمان نجيب وعبدالفتاح القصرى وإسماعيل ياسين وحسن فايق وعبدالسلام النابلسى وغيرهم، وعشقت فريد شوقى نائب الضعفاء على الشاشة البيضاء... وفوق هذا وذاك صدقت كل القيم النبيلة التى حملتها أفلام ذلك الزمان.

وحين اشتد عودى، وسار فكرى خطوات نحو النضج انتشيت بأغانى عبدالوهاب وعبدالغنى السيد، ومحمد قنديل، وعبدالعزيز محمود، وعرفت الحب مع أغانى عبدالحليم حافظ، وأحببت أغنيات شادية وفايزة أحمد وليلى مراد ونجاة الصغيرة. حين ظهر عبدالحليم حافظ وذاع صيته كنت أظنه يغنى نيابة عنى أنا بالذات. وكان تلك مرحلة البراءة الكاملة والخيال المحلق بلا حدود. أما أم كلثوم، فلم أعرف قدرها سوى وأنا فى الجامعة، وكان الخميس الأول من كل شهر – موعد حفلتها الشهرية – مناسبة نستعد فيها للسهر عند أحد الأصدقاء ممن يمتلكون جهاز الراديو الذى كانت العائلات التى تمتلكه قليلة، وتحرص على وضعه فى مكان بارز فى الصالة حتى يراه زوارها.



قاسم عبدة قاسم مع أحد الاصدقاء أثناء زيارته لليونان

صعوبة في الفلسفة

لم يكن التليفزيون قد ظهر بعد في مصر، وكانت تمثيلية الساعة الخامسة والربع تجتذب أعداداً من الجيران للاستماع إليها في بيتنا، وفي بيوت أخرى مجاورة، وكانت المسلسلات تسد حاجة الناس الدائمة إلى «الحكاية» (وحين ظهر التليفزيون فيما بعد شدت مسلسلاته الناس بعيداً عن الراديو) ولكن ذلك لم يكن كافياً ليشدني بعيداً عن الكتاب، ففي المرحلة الثانوية بدأت أقرأ روايات نجيب محفوظ (التي شدتني إلى التاريخ الاجتماعي فيما بعد) وقصص إحسان عبدالقدوس، وأمين يوسف غراب، ومحمد فريد أبو حديد وجرجي زيدان. ثم بدأت أقرأ كتباً أخرى في الأدب وفي التاريخ وفي الفن. وحين حاولت القراءة في الفلسفة لم أفهم شيئا. أما القراءات السياسية فقد تأخرت كثيراً إلى ما بعد تخرجي من الجامعة.

لقد أمضيت ذلك الشطر الباكر من حياتي، شأن بقية أبناء الطبقة الوسطى موزعاً بين الدراسة المنتظمة في المدرسة، مرحلة بعد مرحلة، وبين الاستمتاع بالفن وأشكاله المتاحة من خلال السينما والراديو (فأنا لم أعرف المسرح سوى في المرحلة الجامعية) والقراءة في الكتب التي يتيسر لي الحصول عليها والصحف والمجلات. ولم أكن قد عرفت طريقي أو حددت هدفي حتى دخول الجامعة. وحين التحقت بكلية الآداب بجامعة القاهرة في أوائل الستينيات لم أكن أعرف بالضبط ماذا أريد. وحدث ذات مرة أن حضرت مع زميل بقسم التاريخ محاضرة لأستاذنا الراحل الدكتور محمد أنيس فحدث الانقلاب الأول في مجرى حياتي، بيد أنه كان انقلاباً جميلاً. كان

التكوين

الأستاذ يلقى محاضرة فى قسم التاريخ، وكنت طالبـاً بالسنة الأولى، وفى الأيام الأولى محتاراً بين أقسام الكلية حتى سمعت هذا الأستاذ العظيم رحمه الله، وعرفت أن التاريخ ليس علماً ينتمى للماضى، وأنه ليست حكايات تحكى، وقصصا تروى عن سالف العصر والأوان، وأدركت فيما يشبه الإلهام أن هذه هى الدراسة التى اختارنى الله لها، فاخترتها لنفسى.

تكوينى الأكاديمى

وفى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة اسهم كثير من أساتذة ذلك الزمان فى تكوينى الأكاديمى والفكرى، فالدكتور محمد أنيس والدكتور سعيد عاشور، أمد الله فى عمره، والدكتور إبراهيم نصحى، والدكتور محمود شكرى أستاذ الأدب الإنجليزى.. وغيرهم كانوا يجسدون معنى الاستاذية الحقة وكانت علاقتى الشخصية بهم حميمة وقوية لاسيما الدكتور سعيد عاشور والمرحوم الدكتور عبداللطيف أحمد على. وفى كلية الآداب تفتحت شهيتى على الحياة الجامعية، وعشت المرحلة الجامعية طولاً وعرضاً وعمقاً. فقد بدأت أقرأ كثيراً فى تخصصى وفى مجالات أخرى ليس من بينها السياسة، ولكنى عرفت الطريق إلى القراءة فى الفلسفة. وكان من حظى أن المؤرخ الكبير أرنولد توينبى جاء أستاذاً زائراً بقسم التاريخ وكنت ممن أسعدهم الحظ بسماع هذا الرجل، وزاد يقينى من أهمية التاريخ فى فهم الإنسانية وحل مشكلاتها. وفى كلية الآداب مارست كل أنواع النشاط الجامعى، فقد كنت بفريق الجوالة وانتخبت فى اتحاد الطلبة ثم انسحبت، وانضممت إلى فريق التمثيل، وشاركت فى عدد هائل من الحفلات الجامعية تمثيلاً وغناءً.. ثم أدركت أن الفن ليس بالنية ، وإنما بالموهبة التى لم يمنحنى الله إياها. وكنت عضواً نشطاً فى الجمعيات الفنية والأدبية والثقافية التى كانت الجامعة تعج بها فى تلك الأيام، بل إننى كنت عضواً فى فريق التجديف بالكلية. وأذكر أننى لم أترك رحلة من رحلات الكلية لم أشارك فيها.

للحياة جوانب عديدة

كان هذا النشاط الجامعى من أهم مصادر تكوينى الثقافى، فقد تعلمت من المشاركة فى النشاط الجامعى بكلية الآداب أن للحياة جوانب عديدة، وأنه لا يمكن للإنسان أن يعيش جانباً واحداً من هذه الجوانب. وقد تعلمت الكثير من حقائق الحياة من خلال معسكرات العمل فى الريف المصرى، وفى المعسكرات الدولية التى كانت تقام فى وادى النطرون وفى أبو قير بالإسكندرية والتى كانت تضم شباباً من جميع أنحاء العالم. ويرجع الفضل فى اهتمامى بدراسة التاريخ الاجتماعى إلى



قاسم عبدة قاسم في فريق الجوالة



وفي لقطة تاريخية مع ياسر عرفات

هذه الفترة الغنية الخصبة من شبابى.

كان المسرح هو الباب السحرى الذى دخلت منه إلى رحاب الثقافة الإنسانية العالمية، وقد جربت التمثيل على المسرح، ولكن الأهم من ذلك أننى قرأت بنهم مسرحيات عالمية كثيرة، وشاهدت مسرحيات رائعة زخرت بها فترة الستينيات، وعرفت عن قرب أساتذة كباراً من المخرجين والممثلين والفنيين لاتزال تربطنى بعدد منهم علاقات ود وصداقة حميمة، منهم الأستاذ سعد أردش، والأستاذ نجيب سرور رحمه الله، والأستاذ كرم مطاوع رحمه الله والأستاذ محمود ياسين والأستاذ أحمد بدير والأستاذ المنتصر بالله والدكتور هانى مطاوع، والدكتور سامى صلاح، والدكتور سامى عبدالحليم والدكتور فاروق الرشيدى.. وكثيرون غيرهم. وكان المسرح مصدراً مهماً من مصادر تكوينى الثقافى أيضا من خلال ندوات المناقشة التى كانت تعقد فى بعض المسارح، أو فى رحاب الجامعة، لمناقشة النصوص والإخراج والتمثيل وموسيقى المسرحيات، والديكور، والإخراج... وما إلى ذلك.

وكان المسرح، أيضا، كنز المعرفة الإنسانية العظيم الذى عرّفنى بالنماذج البشرية الفردية، والمواقف الإنسانية، والمشكلات الاجماعية، والتفاعل الفكرى والثقافى بين أمم البشرية. وبفضل المسرح أدركت الكثير من القيم الإنسانية مثل الحب، والبطولة، والشجاعة، والصدق، والتضحية، والمدهش أن المسرح كان

بالإضافة إلى هذا كله بابى الذى دخلت منه إلى عالم السياسة المذهل بتناقضاته وتشابك العلاقات الإنسانية داخله. وتعرّفت بفضل المسرح على مشكلات مصر والعالم العربى السياسية، ونضال أمم الأرض وشعوبها فى سبيل الحرية والتخلص من استبداد الإمبريالية العالمية فى الخارج، والنظم الاستبدادية فى الداخل.

دور المتفرج

كنت قبل هذا قد عشت ملحمة النضال المصرى والعربى من أجل التحرر الوطنى فى أزمة السويس والعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦، ولكن درجة النضج الفكرى والوعى السياسى لدى لم تكن تسمح لى بأكثر من دور المتفرج وظل الحال كذلك طوال حياتى الجامعية حتى عرفت المسرح، وبدأت أسأل وأسعى للحصول على الإجابات. لقد شاهدت أولى حوادث ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م حينما شاهدت من نافذة بيتنا فى شارع الخليفة المأمون عددا من الجنود والدبابات فى ذلك الشارع صباح ذلك اليوم المجيد. وحين جاءت جريدة المصرى وقرأ أبى الخبر رأيته مبتهجاً بشكل لم يحدث من قبل، كما أن أمى عبرت عن فرحتها بالزغاريد، ولم أفهم ساعتها سبب كل هذه الفرحة وكان على أن أنتظر طويلاً حتى أفهم.

وتخرجت من الجامعة..

ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧م، وبدأت أفهم، وبدأت أهتم بالسياسة وعرفت الكثير مما شكل ثقافتى السياسية، وحدد موقفى السياسى. ولكننى تعلمت درسى الأول فى السياسة بشكل جاد فى الزنزانة رقم ١٨ بمعتقل القلعة. فقد كنت ممن شاركوا فى مظاهرات الطلبة سنة ١٩٦٨م وأنا أدرس للحصول على درجة الماجستير. وتم اعتقالى، مع عشرات من الطلبة، بسبب هذه المظاهرات وبسرعة لفقت لنا أجهزة الأمن تهمة عجيبة هى التآمر مع دولة بلغاريا لقلب نظام الحكم. ولم أعرف حتى الآن لماذا اختاروا بلغاريا هذه بالذات؟!! ولكن الأدهى والأمر أن ضباط الشرطة بهمتهم المعروفة لفقوا لنا تهمة سخيفة – هى أننا تقاضينا مائة دولار لكل فرد للإطاحة بحكم جمال عبدالناصر بشرط أن نحصل على نصف ورقة المائة دولار أولاً، ثم نحصل على نصفها الثانى بعد نجاح الانقلاب. وحين قلت للضابط الذى حقق معى فى سجن القلعة إن هذه تهمة سخيفة وعبيطة هاج وماج، وحين قلت إننا فى حالة نجاح الإنقلاب المزعوم لن نكون بحاجة إلى مائة دولار من بلغاريا لأن الأمور ستكون بأيدينا بُهت، ثم استغرق فى نوبة ضحك غريبة.

الوطن ملك للجميع

المهم أننى تعلمت من هذه الحادثة، ومن رفاق المعتقل الذين كان بعضهم من أركان



د. قاسم عبده قاسم يعلن نتيجة مناقشة إحدي الرسائل الجامعية

الحكم أيام عبدالناصر، ثم أدينوا فيما عرف باسم مراكز القوى، أن هذا الوطن ملك لنا جميعاً، وأن مسئولية حمايته مسئوليتنا جميعا، وأن الاستبداد هو الذى جلب لنا كارثة الهزيمة، وعلى الرغم من أن أحداً لايشك فى وطنية عبدالناصر ونزاهته، فإن رجلاً واحداً لا يمكن أن يكون قادراً على إدارة شئون بلد كبير مثل مصر تحيط به المؤامرات، ويراد له البقاء عاجزاً حتى يمكن للصهيونية والامبريالية أن تنفرد بالمنطقة العربية. وكان أخطر الدروس هو أن أجهزة الأمن تعمل فى جزء كبير من مهامها لصالحها الخاص إذ لم تكن خاضعة للرقابة الشعبية من خلال مؤسسات مسئولة. وكانت استجابة عبدالناصر إيجابية، فزاد من عدد الوزراء المدنيين، وألغى الحرس الجامعي، كما تم إنشاء اتحاد طلاب مصر واتحادات الطلاب فى الجامعات يتم انتخابها دون تدخل من الأجهزة الأمنية، ولعبت دوراً مهماً فى تقوية الجبهة الداخلية وفى هذه المرحلة كانت مقالات الأستاذ هيكل، والكتب العربية والأجنبية هى وسيلتى فى بناء ثقافتى السياسية التى تأخرت كثيراً.

كنت فى بداية حياتى الجامعية قد انضممت إلى منظمة الشباب الاشتراكى، لكننى تركتها سريعاً لعدم اقتناعى بمحاولات التثقيف التلقينية فى هذه المنظمة، وربما كان ذلك سبب عزوفى عن الاهتمامات السياسية حتى زلزال يونيو ١٩٦٧م، وكان رد الفعل الثقافى للهزيمة إيجابياً ومثمراً، فى المسرح وفى الأدب، وفى الدراسات التاريخية والاجتماعية والإنسانية بوجه عام. وازداد الناس تمسكاً بأهدافهم وقيادة عبدالناصر، وعبّرت عن هذا الموقف تجليات ثقافية

التكوين

وفكرية عديدة. وكانت حرب الاستنزاف زاداً ساعد الناس على هذا الموقف الراسخ الصلب. ثم مات عبدالناصر...

وجاء السادات، وحدثت تراجعات كثيرة على الرغم من انتصارات أكتوبر سنة ١٩٧٣م، ومازال التراجعات تفرز نتائجها الرديئة على مصر والمنطقة العربية على النحو الذى تراه العيون اليوم.. وتلك قصة أخرى.

تراث الثقافة العربية

أما تكوينى الأكاديمى فقد تم فى مسارين أساسيين، أحدهما فى الدراسة المنتظمة للحصول على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه فى مجال تاريخ مصر الاجتماعى. وفى هذه الفترة كثفت قراءاتى فى مجالات الاجتماع والاقتصاد والعلوم والسياسية فضلاً عن التاريخ وفلسفة التاريخ بطبيعة الحال. وأدهشنى تراث الثقافة العربية الإسلامية فى مجال الكتابة التاريخية، ورسخت دراستى حبى لمصر كما عمقت انتمائى العربى الإسلامى. كانت دراستى للماجستير عن نهر النيل وأثره فى المجتمع المصرى، وكانت رسالة الدكتوراه عن أهل الذمة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك. وقد أتاحت لى هاتان الدراستان فرصة جيدة لمعرفة الكثير من حقائق تاريخ مصر الاجتماعى، وحقائق الحياة الدينية للمصريين، وكم أحببت ذلك النيل الذى حبسناه فى صنابير المياه والمواسير و نواريناه وراء أسوار الجهات ذات النفوذ التى أقامت النوادى على شاطئيه وحجبته عن عيون المصريين كأنه عورة!! أحببت نهر النيل حين طالعت ما كتبه المؤرخون المسلمون عنه، ولمست انبهارهم به وإعجابهم وولعهم بهذا النهر العظيم الذى نسبوه إلى أنهار الجنة. وكرهت كل من لوث مياهه المقدسة فى زمن الفوضى، واحتقرت كل من أقام سوراً أو حائطاً يحجبه عن الناظرين فى زمن القبح. أحببت نهر النيل فى الأساطير العربية، وفى كتابات المؤرخين، وقصائد الشعراء. وأحببته فى الواقع حين سافرت ورأيت التيمس والسين والتيبر، وحتى الدانوب، وأحببته فى الواقع حين رأيته صابراً على زمن غير الزمن، ورجال غير الرجال، وأمة تبدل حالها تحت وطأة الاستبداد والقهر... وكان ذلك كله رافداً من روافد تكوينى الثقافى.

وكما أحببت النيل بفضل دراستى للماجستير، عشقت وطنى من خلال دراستى للدكتوراه، فقد كانت عن موضوع اليهود والمسيحيين المصريين. واكتشفت أن هذا الوطن قد اتسع للجميع وفتح صدره لهم على الدوام، كما عرفت أن لهذا المجتمع نسيجاً واحداً قوياً اكتمل على مرّ الزمان، واكتشفت - أيضا - أن الفقر والاستبداد هما أساس كل مصائب البلاد والعباد.



د. قاسم عبده قاسم بين د. محمود ذهني ومحمود قاسم بمكتبة القاهرة يلقي كلمة أثناء احتفالية محمد فريد أبو حديد - ١٩٩٧

ولأن الدراسة ذات بعد ديني واجتماعي، فقد قرأت الكتب المقدسة للديانات السماوية الثلاثة، وترسخ إيماني بوحدة المنبع الإلهي للدين، وعرفت معنى عبارة «إن الدين عند الله الإسلام» وزاد إيماني بالإسلام، كما زادت مساحة ثقافتي الدينية، وعرفت عن يقين أن الإسلام هو الدين الذي يعترف بوحدة الإنسانية، ويعترف بالآخر وجوداً وعقيدة وحقوقاً واندهشت حين اكتشفت الحقيقة البديهية القائلة إن الإسلام علاقة مباشرة بين الله والإنسان، وأنه لا يزعم أن الله اختار لنفسه أمة ميزها على العالمين، وإنما هو دين لكل البشر. وكان ذلك كله مما شكل موقفي الفكري من جماعات الإسلام السياسية، والفرق التي رفعت راية الدين في ساحة السياسة.

مراقبة جوية

بيد أن هناك رافداً مهماً آخر أسهم بشكل حاسم في تكويني الفكري، وهو مجال عملي قبل أن ألتحق بالجامعة عضواً بهيئة التدريس. إذ إنني لم أعين معيداً بالجامعة لأسباب لا علاقة لها بالعلم. وكان عليّ أن أناضل من خارج الجامعة حتى أعود إليها بدرجة الدكتوراه. وقد وفقني الله إلى وظيفة ضابط مراقبة جوية بالهيئة العامة للطيران المدني. وأحسب أن الله قد أنعم علي بهذه الوظيفة لكي تشكل سلوكي في الحياة وتطبعه بطابعها. ومهمة ضابط المراقبة الجوية توجيه الطائرات وتأمين سلامتها منذ لحظة إدارة محركاتها حتى لحظة الهبوط وإنزال الركاب. وهي وظيفة تحتاج إلى تأهيل خاص، ولكن الأهم أنها تعتمد علي

التكوين

الدقة المتناهية، والتحسب لأى خطأ، لأن الخطأ معناه ببساطة إهدار أرواح عشرات الركاب. وتعلمت أن أكون دقيقا وألا أترك شيئاً للمصادفة، وأن أؤدى واجبى على الوجه الأكمل. ومن ناحية أخرى، أتاحت لى هذه الوظيفة فرصة السفر إلى الخارج، وكان السفر من أهم مصادر تكوينى الثقافى. إذا إن السفر والرحلة وسيلة ناجعة من وسائل العلم والمعرفة. وجاءتنى الفرصة للسفر إلى عدد كبير من بلاد أوربا، ولكن رحلتى إلى انجلترا وفرنسا كانتا مفيدتين فى تكوينى الأكاديمى، فقد أفدت من الرحلة إلى هاتين الدولتين من حيث التعرف على كنوز مكتباتهما وكبار المستشرقين (والمستغربين من العرب والمسلمين أيضا) على أرضيهما. وكان أهم من قابلته فى ذلك الحين المستشرق اليهودى برنارد لويس، الذى كان أستاذا بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن قبل أن ينتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن من العسير علىّ أن اكتشف عنصريته وانحيازه لأن الرجل لم يبذل أى جهد لإخفاء ذلك.

التعرف على ثقافة الآخرين

وعلى الرغم من ذلك فإن الفائدة الأكاديمية التى حصلت عليها فى لندن وباريس كانت عظيمة بكل المقاييس، فقد تعلمت الكثير. وكان هذا الكثير موزعاً ما بين المعرفة التاريخية والمعرفة الإنسانية عموما. تعلمت الأساليب البحثية المتقدمة وتعرفت على مختلف المدارس والاتجاهات فى الدراسات التاريخية، وعرفت عدداً من الأساتذة الكبار، وحضرت لقاءات وندوات وحلقات بحث ومناقشة كشفت لى آفاقاً رحبة فى الدراسات التاريخية. ومع تكرار الرحلة زادت معلوماتى ونضجت أساليب البحث التى استخدمها، فضلاً عن التقدم الإيجابى فى معرفتى باللغة الانجليزية واللغة الفرنسية. وقد أفدت من هذا كله فى حياتى الجامعية بجامعة الزقازيق، وانعكس ذلك بشكل إيجابى على تلاميذى فى هذه الجامعة، وغيرها، سواء فى مرحلة الليسانس أو فى مرحلة الدراسات العليا. ومن ناحية أخرى اتسع منظورى بفضل احتكاكى بثقافات أخرى مختلفة، ولم تتوقف الرحلة ونتائجها الإيجابية عن التأثير فى حياتى الجامعية حتى هذه اللحظة، إذ إننى حرصت على الرحلة بشكل مستمر حتى الآن.

وسارت بى حياتى بين العمل الأكاديمى، والعمل الثقافى العام، والعمل السياسى في رحاب الأحزاب (ولو أننى لم استمر طويلا فى العمل الحزبى لأسباب تتعلق بطبيعة التجربة الحزبية المصرية وما يشوبها من قصور وعجز). وحاولت قدر طاقتى أن أسهم فى الحياة الثقافية العامة، وكان هذا أيضا من مصادر

ثقافتي. فالعمل العام مدرسة يتعلم فيها المرء الكثير مما لا يجده في بطون الكتب سواء من حيث طبائع الرجال، أو حقيقة مشكلات المجتمع، والعلاقات بين القوى الاجتماعية والسياسية، أو من حيث فهم تأثير الموروث التاريخي على الناس. وقد أتاح لي العمل العام أن أعرف أهم العقول المصرية والعربية وأفدت منهم الكثير، وتعلمت منهم ومازلت أتعلم منم.

وكانت تجربتي في الكويت تجربة ثرية ومثيرة من جوانب عديدة، فقد عملت بجامعة الكويت أستاذا على مدى خمس سنوات تخللتها تجربة الغزو العراقي المؤسفة والمحزنة (والتي أظن أنها السبب الرئيسي في كل الكوارث التي حلت على المنطقة العربية منذ ذلك الصباح المشئوم في الثاني من أغسطس سنة ١٩٩٠ وحتى الآن. كانت تلك تجربة انكسار وتراجع سببتها عنجهية الدكتاتورية التي لم تكن وقفاً على صدام حسين وحده. ولأن الحكام العرب تصرفوا بصورة استبدادية، فقد كانت الهزيمة من نصيب الجميع. ولم يكسب من هذه الحرب الحمقاء سوى أعداء العرب) وعلى أية حال، فإن تجربة عملي في الكويت كانت إضافة لها وزنها في تكويني الثقافي، فقد زاملت أفضل الأساتذة في العالم العربي. وهو أمر تتميز به جامعة الكويت. واكتشفت أن الوطن العربي غني بعقوله وخبراته، فقير بنظمه السياسية الاستبدادية التي تهدر هذه الثروة. وكانت رفقة هذه العقول في جامعة الكويت وديوانيات الأصدقاء الأساتذة الكويتيين، من أمثال سليمان العسكري، وعبدالمحسن المدعج، وسليمان البدر، وعبدالمالك التميمي وخالد الوسمي.. وغيرهم كُثر، من أهم موارد ثقافتي التي ازدادت ثراء بفضل التجربة الكويتية. وعرفت جوانب من حياة العرب في منطقة الخليج العربي لم يكن ممكناً أبدا أن أعرفها بدون السفر. وزاد يقيني بأهمية وحدة العرب على أي مستوى من المستويات بغض النظر عن أن تكون هناك دولة عربية واحدة أم لا؟

وحين عدت إلى مصر، منذ أكثر من عشر سنوات، كانت أمور كثيرة قد تبدلت، وتغير شكل المجتمع وثقافته على النحو الذي نعرفه جميعا. ومنذ بداية التسعينيات وحتي الآن تسير بي الحياة وهي تحمل كل يوم رياحاً جديدة بعضها يحمل السموم، وبعضها يحمل أريج الأمل والمستقبل. وفي ظل هذه الحال من السيولة الثقافية يحاول المرء أن ينظر في مرآة الزمان لكي يعرف ملامح العصر الذي نحياه.. ولكن المرآة تأبى عن أن تكشف سوى عن ملامحي التي تغيرت مثلما تغيرت ملامح الزمن الذي قطعت رحلتي في رحابه...

دور الملك فيصل الأول

تعقيبا على مقال «قصة الأسرة الهاشمية» المنشور فى العدد الماضى بقلم د. عاصم الدسوقى . أشير إلى أن كاتب المقال أغفل دور فيصل الأول (١٨٨٥ - ١٩٣٣) ابن الشريف حسين كملك وزعيم وطنى فى الفترة التى تولى فيها حكم العراق بين سنتى ١٩٢١ - ١٩٣٣ ، فهو يعد مؤسس العراق الحديث ، من تأسيس الجيش العراقى عام ١٩٢١ إلى إصدار الدستور عام ١٩٢٤ - ولم يعتبره العراقيون فى أى وقت كعميل للاستعمار البريطانى .

أيضا لم يكشف الدكتور عاصم عن دور النظام الناصرى فى القضاء على دور الفرع الرئيسى والأكبر للهاشميين فى المنطقة وفى بغداد تحديدا بقيام الثورة العسكرية فى ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ .

عمرو عبد المنعم حموده
برما - طنطا

الهلال : كاتب المقال لم يتناول «قصة الأسرة الهاشمية» سوى فى مقال عدد صفحاته قليل ، وبالتالى فإنه لن يتناول تلك التفاصيل التى تعرفها ، وذلك يحتاج إلى كتاب يتناول كل الجوانب التى أشرت إليها وربما يختلف رأى الكاتب عن رأيك فهو أستاذ للتاريخ الحديث ويلم تماما بهذه القضايا المهمة .

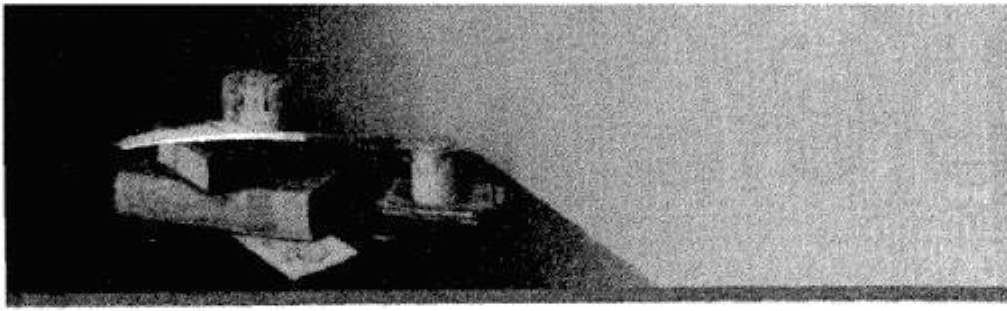
احترام الرأى الآخر

يعد مقال نزار أحمد صبرى الذى نشر فى العدد الماضى ردا على مقال الدكتور صبرى منصور «هو سمة أصيلة تميز الهلال وأذكر واقعة فى نفس هذا السياق ، فلقد بعثت برسالة معترضا على ما قاله زميل أكبر بجامعة القاهرة ، وكان ذلك فى فبراير ١٩٩٦ ، وبعد ستة أشهر جاء الرد منشورا فى هلال أغسطس ١٩٩٦ ص ١٨٧ دون زيادة أو نقصان ، ومايزال الهلال يحوطنى بتكريمه حتى الآن ، وذلك يعنى أن الموضوعية ، بما تفرضه على صاحبها من كبح جماح ذاتيته ، هى السمة التى اتسع لها صدر الهلال .

د . سامى منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

تحقيق متعة القراءة

عشت مع مجلة الهلال منذ أكثر من ثلاثين عاما ، لا تفارقنى ، وأدعو الله أن تظل كذلك مددا ثقافيا للقراء .



أتأمل صورة الغلاف متمنيا راحة الشغاف ، وأشارك المحرر النجيب فى تقديم العدد لعزيزى القارىء اللبيب المتطلع إلى أدب رفيع وعلم نافع ، وأثب إلى الكلمة الأخيرة التى أود أن تكون قبل الأخيرة أشفعها بالتكوين ففيهما خلاصة تجربة حياتية

ثم أدع المجلة يوما أو يومين ، ثم أعود إليها ألتمس موضوع الساعة فإذا مللته ، شدنى إليه موضوع أدبى أو فنى ، وأستعيد عافيتى الإطلاعية بالإبحار فى الماضى وشئون الحياة والتاريخ ، وفى حالة صفاء الذهن أعود إلى الشعر والقصة ، وقد أسرح مع نقد مسرحى للترويح.

وأطلع على بقية العناوين ، تاركا موضوعاتها إلى ساعات أخرى ، قد تكون بعد أن يطل علينا الهلال الجديد .

وأدعو هذا الدعاء

اللهم أهله علينا بالنصح والارشاد لصالح البلاد والعباد .. اللهم أصلح ألسنتنا بخطاب عربى مبين ، يهدى الحائرين .

سعيد عبد القوى حواس
بني سويف

الهلال : نشكر القارىء العزيز على ما جاء فى رسالته .

ألفايوم ترحلين..

ألف يوم ترسلين ..
لحماماتى الزهور الندية
والبطاقات الشقية
وعليها تكتبين..
خافقينا :
فينام البحر فينا
حاضنا باقة شعر ..
للمنابع !
ألف يوم تسكنين ..
فى شرايين القصية
تسكنين فى ترانيم المواجع
تسكنين ..
فى الحكايات الخرافية !
ألف يوم ترحلين ..
فى تكاوينى
وصهيل الحب ..
يحتل المحابر
فعلى عشب الأمانى ..
نام طيفك
ثم أهدى قلبه الحر ..
إلى كل الأقاحى .
والأزاهر !!

محمود أحمد المصلى
شربين - المنصورة

أنت والهلال

تعقيب وتصحيح

أتابع مقالات الناقد الكبير مصطفى درويش باهتمام ، وأجدها مناسبة للرجوع إلى إحدى مقالاته القيمة فى عدد مايو ١٩٩٨ عن فيلم «تايتانيك» الذى رافق عرضه ضجة إعلامية كبيرة ، فقد كتب أن المخرج جيمس كاميرون حقق انجازا رائعاً بفوزه وحده بالجوائز الثلاث المخصصة لأفضل فيلم وإخراج ، وسيناريو ، الأمر الذى لم يحدث - حسب رأيه - إلا مرة واحدة ، فى حالة جيمس بروكس ، عندما فاز بثلاث جوائز عن فيلمه «شروط المحبة» عام ١٩٨٣ .

والواقع أن المخرج المشهور فرانسيس فورد كوبولا ، كان السباق إلى الفوز بالجوائز الثلاث فى الجزء الثانى من فيلم «العراب» ١٩٧٤ وبالرغم من أن فيلم «تايتانيك» فاز بإحدى عشرة جائزة ، فلم يكتمل حصوله على الجوائز الأربع الكبيرة التى بدأت كأدعية الضوء فى منحها عام ١٩٢٨ ، كما اكتملت للأفلام «حدث ذات ليلة» ١٩٣٤ وفيلم «طائر فوق عش الوقواق» ١٩٧٥ ، وفيلم «صمت الحملان» ١٩٩١ .

أيضا فى مقال للأستاذ مصطفى فى عدد يوليو الماضى وردت العبارة «خساس الطير» فى موضع الذم لهذه الفئة الضعيفة من الطير والصواب حرفا الشين لا السين فى خساس .

وقد عبر عن معنى العبارة كثير عزة فى قصيدة مشهورة له بهذا البيت

خشاش الطير أكثرها فراخا .. وأم الصقر مقلات نزور .

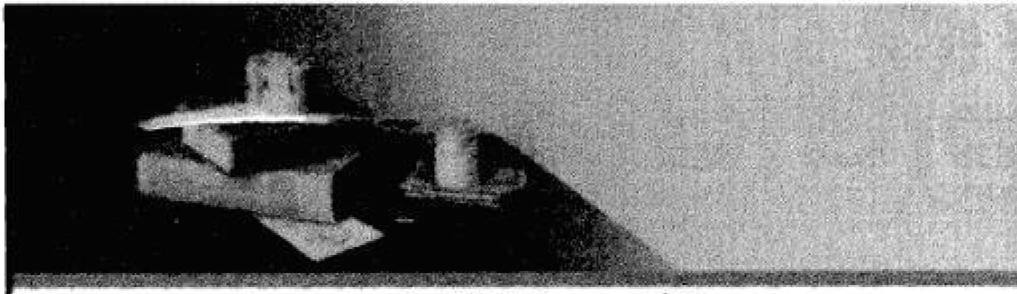
أحمد عزيز - عمان - الأردن

تنويه حول أصداء سيرة نجيب محفوظ

فى مقدمة العدد الأخير من كتاب الهلال الصادر فى الخامس من سبتمبر تحت رقم (٦٣٣) وهو بقلم الناقد فاروق عبد القادر والمسمى «فى الرواية العربية المعاصرة» أجد أمرا لابد من تصحيحه ، لأنه يخص أستاذنا نجيب محفوظ .

فلقد حرص الناقد على تسمية كل مرحلة من مراحل انتاجه باسم المنظومة مؤرخا لسنة اصدار كل مجموعة من مجموعات انتاجه ، وكان أن قال عن تاريخ المرحلة التى صدرت خلالها (أصداء السيرة الذاتية) إنها قد نشرت سنة ١٩٩٢ مسلسلة بالأهرام (انظر ص٦) من كتاب الهلال المذكور .. والصحيح أنها نشرت بدءا من عدد الجمعة ١١ فبراير سنة ١٩٩٤ وانتهاء بعدد الجمعة ٨ ابريل ١٩٩٤ .

د . سامى منير عامر
الاسكندرية



لاشيء .. يسكت الوتر !!

حطت فراشة على غصن
تحصن بالشجر
واجتازت الأسوار ليلاً
ثم عادت قبل إبحار السحر
عاشت غريبة هناك ..
بين أنات الرواح ،
بين أوجاع السفر
فالشوك فى البستان عار من بهائها
وحسنها
وأعراس السمر
وحاصروها عندما غنت نشيدا
للربيع ،
للمساء ،
للغدير ،
للوطن
فقد أذاعت المقول .. للروابى
عن أسى عزلتها
وسط الكروب والمحن
ظل الخريف واقفاً قرب الضفاف ،
كى يدس الخوف ..
عند المنحدر ..
ويقتل الدفء المهيض فى حنايا خدرها
ويسلب الحنين ..
والشموخ من حضن الزهر
ويسلب الرؤى /
الحكايا /
الأمنيات /
والعبير

عبد الناصر أحمد الجوهرى- دكرنس دقهلية

فتوات أمريكا
وفتوات الحسينية

من خلال قراءاتنا لنجيب محفوظ فى رواياته عرفنا الكثير عن الفتوات وكيف كان الفتوة يعترف بخطئه ويتعهد بإصلاح ما أفسده ودمره وعقب غزو أمريكا وبريطانيا للعراق . وهما ضمن فتوات هذا العصر تصورت للوهلة الأولى بأن السيناريو سيتم طبقا لقانون الفتونة إلا أننا فوجئنا - من خلال ما ينشر فى الصحف - بإعلان فتوات أمريكا وبريطانيا ويكل تبجح بأن الدمار والخسائر الذى أحدثاه فى العراق سيدفع فاتورة إعادة إعماره العراق نفسه ، من عائدات بتروله ، أى سيتم على حساب الدولة المعتدى عليها ، بل وصل الأمر إلى تحديد الشركات التى ستقوم بعملية إعادة اعمار العراق والتى كان معظمها بطبيعة الحال أمريكية !

وما أريد قوله أن أخلاق فتوات أمريكا فى القرن الحادى والعشرين لم تصل حتى إلى أخلاق فتوات الحسينية عندنا فى مصر فى القرن الثامن عشر .. وياللعجب .

د . حمدى ابراهيم حافظ
جامعة الأزهر

احذروا الفتنة !

كان من أسباب ضعف الأمة الإسلامية وقوعها فى براثن الاستعمار ، ولكنه رحل وتركها منذ عشرات السنين وكنت أظن بأن الحواجز التى وضعت فى هذه الدول أمام المسلم سوف تزول ، ولكن ذلك لم يحدث .. وكان أحد مظاهر الضعف الإسلامى .

لكن الأخطر ما قد يحدث الآن من فتن بين الشيعة والسنة فى العراق ، خاصة بعد مقتل أية الله محمد باقر الحكيم والذى قتله أعداء الإسلام والذين يريدون تمزيق العراق ، ونشر أكاذيب حول الخلاف بين الشيعة والسنة .

أيها المسلمون لا فرق أبدا بين الشيعى والسنى ، فكلنا مسلمون وكلنا يحب آل البيت .. نحب فاطمة الزهراء والحسن والحسين ولذلك لا ينبغى أن نعود إلى الفتنة التى حدثت أيام سيدنا عثمان ابن عفان ومقتله ، أيضا مقتل سيدنا على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ومقتل الحسين سيد شهداء أهل الجنة .

د . جمال العطار

الاسكندرية - كامب شيزار

وحدة وانتصار

إلى أبطال حرب تشرين (أكتوبر)..

ماذا أقول عن الأبطال إذ وثبوا ؟ ... هم الليوث بهدب الشمس كم كتبوا

نحن الأباة لقد عدنا إلى عمق ... إلى جبال على أهدابنا تجب

عمنا بدمع حزيران إلى جبل ... من الشموخ وعانقناك يا سحب

لن يبتروا فى روابى القدس قصتنا ... حضارة العرب للنجمات تنتسب

سمعت نجماً بجفن الليل مبتسماً ... يقول فى منكبى الله والعرب

أسرابنا فى سما الجولان زوبعة ... وفى القناة بروق رعدها غضب

لما سمعنا صياح العابرين بكت ... عيوننا وانتشى فى الجنة العنب

بيوتنا أورقت والأنهر انطلقت ... مع الجنوب إلى أرض هى القصب

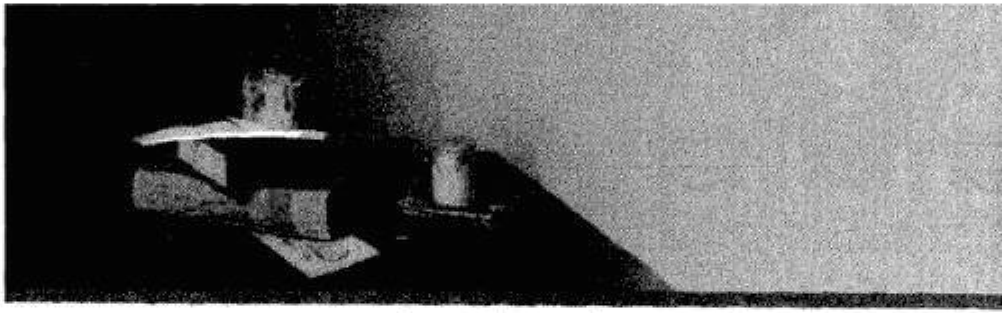
لولا الطواغيت لاجتزنا الجليل وما ... بنوه فى القدس واختالت بنا النقب

هناك أرض لنا ، شعب بلا وطن ... فى صدره سيف إسرائيل والحطب

كم صخرة صرخت بوركت يا ثقفى ... وقالت الله : ها قد جاءك العرب

لنا فلسطين ، والجولان دمعتنا ... ورمل سيناء فى لبنان ينسكب

د . هيثم الحويج العمر - دمشق



متحف للحضارة المصرية في كل محافظة

رأينا ولع الفرنسيين بالآثار والحضارة المصرية القديمة وذلك من خلال متاحف الآثار المقلدة والتي انتشرت في أنحاء متعددة من فرنسا .

والسؤال الذى أعرضه من خلالكم .. لماذا لا نقوم عند أصحاب هذه الآثار بإنشاء معارض ومتاحف تشمل هذه الآثار المقلدة ، وصورا لما يصعب تقليده ، وأن تنشأ متاحف في كل عاصمة بمحافظة من محافظات مصر ، لنشر الوعى بحضارتنا وآثارنا وأن يكون دخول هذه المتاحف برسوم رمزية ، كنوع من التشجيع لمشاهدة تاريخ مصر وحضارتها القديمة .

أتمنى أن تقوم وزارة الثقافة بتنفيذ هذه الفكرة ، وعائدها المادى الرمزى كفيل بألا يكلف الوزارة أية أعباء مادية .

حسين منتصر
فارسكور - دمياط

قصة قصيرة

مثل كل مرة ، وجدت المكان مغلقا .. التراب يكسو كل شئ .. زجاج «الفتارين» تغبر وجهه .. كل الدلائل تشير إلى أنه لم يحضر منذ فترة طويلة .. هل ترك المهنة إلى غير رجعة .. استبعدت ذلك فقد توارثها أبا عن جد .. لم نعد نراه في القرية مثل زمان . كان حريصا على المجاملات الاجتماعية .. سباق في حضور المآتم .. يرسل باقة ورد في المناسبات السارة إذا تعذر الحضور لسبب ما .. يحضر مساء الخميس يقضى يوم الجمعة بطوله بيننا ثم يعود صباح السبت إلى عمله بالمدينة الكبيرة .

الآن انقطع كل شئ .. حتى جلستنا على حافة الترعة شرق القرية تحت شجرة التوت بعد صلاة الجمعة لمناقشة قضايا العالم التى نسيها .. يبدو أنه نسى كل شئ منذ أن اتصل ذكره في الصحف .. كان هذا يسعدنا فى القرية .. طبعا أليس ابن بلدنا ؟ كان اسمه يضئ الصفحات الثقافية فى أكبر صحف مصر بين الحين والآخر .. الأسبوع الماضى أخبرنا جابر أبو المعاطى أنه شاهد صورة الأستاذ - نطلق عليه اسم الأستاذ - فى جريدة الأهرام بمناسبة صدور كتاب جديد له وأن قصته «السيد الديك» سوف تمثل فى إحدى القنوات الفضائية وتذاع بعد لقاء مع المؤلف الأستاذ .

فى الماضى كان يقول لى ، عندما أزوره في عمله فى المدينة .. يلازمنى إحساس دائم أننى غريب في هذه المدينة المتنافرة .. الكل فى صراع .. لا أحد يحس بالآخر .. لكى

تعيش هنا يجب أن تزرع لك أنيابا وأظافر لكى لا تؤكل مثل السمك الصغير فى البحر أو فى المحيط .

قررت أن أسأل صاحب المكتبة المجاور عنه .. أجابني اجابات غامضة مبهمة .. صاح ابنه الذى استمع لحوارنا: يمكنك أن تقابله بمقر صحيفة «العاصمة» بعد الثانية ظهرا .. أضاف البائع :

– يقيم ندوته يوم الأربعاء فى النقابة تستطيع مقابلته فيها بعد الساعة السابعة مساء .

قال الرجل الكبير :

– إذا كان الأمر ضروريا يمكنك محادثته تليفونيا ، فقد أدخل التليفون مؤخرا .. أخرج بعض الأوراق من جيبه .. أملانى الرقم . تغيرت كثيرا يا صديقى .. حتى البرنامج اليومى الذى كنت أحفظه تغير .

عند أقرب تليفون عمومى أدرت الرقم وانتظرت سماع صوته .. صدم أذنى صوت أنثوى ناعم يتحدث برقة .. أخبرتها عن نفسى .. قالت بصوت ثلجى :

– هو غير موجود .. عنده تسجيل فى القنوات الفضائية .. ثم أضافت مستدركة:

– أنا المدام ، تحب نبلغه بشئ ما ؟

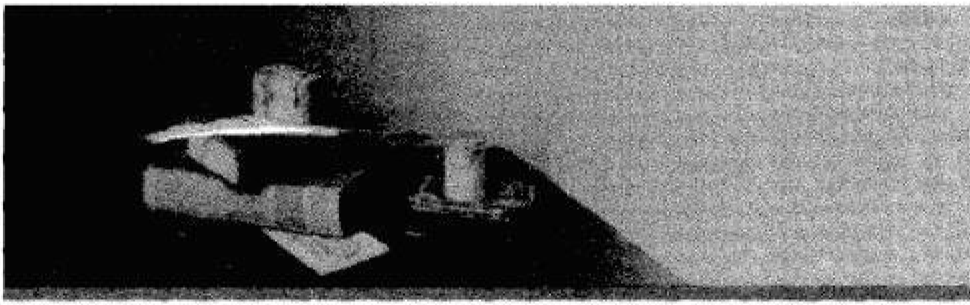
شكرتها ثم وضعت السماعة .. ألقيت الورقة المدون بها رقم التليفون على الأرض ، ثم حملت حقيبتى واتجهت إلى محطة القطار .

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين - دقهلى

عندما تقولين حبيبى

قال : عندما تقولين حبيبى
قلبى يسر
قالت : عندما تقول حبيبتى
أزف نفسى
كزخات المطر
قال : عندما تقولين هوايا
أرى الزغاريد أمامى
تعلو وتعلو كالشظايا
وكأننى فى مرقص
للصبايا
قالت : عندما تقول حياتى
تحلو الأحاديث عنا
والحكايا
قال : عندما تقولين منايا
أراك
كزهرة تنمو وتزدهر
قالت : عندما تقول أمانى
أراك
كعطر فى الدنا
يفوح وينتشر
قال : عندما تقولين
حبيبى / هوايا / منايا
أراك سعيدة
وأرانى على الأحزان
كالبرق كالرعد
أنتصر

رمضان ابراهيم بشير



ماذا يريدون منا؟!

يبدو أن إسرائيل لا تغفل ولا تنام ، وتعمل في كل الاتجاهات ، لتحقيق مآربها وأطماعها ، فقد بدأت حربا من نوع آخر ، من الممكن أن نطلق عليها حربا ثقافية ، حيث طالعتنا الصحف مؤخرا بأن أحد رجال المخابرات الاسرائيلية قد فتح مركزا في بغداد للدراسات وتحديدا في واحد من أهم شوارع بغداد وهو شارع أبو نواس ، مدعيا أن دور هذا المركز جسر بين الشرق والغرب ، ويقوم بترجمة مناهج المدارس وخطب الجمعة ، وما تنشره الصحف والدوريات المختلفة ، وبذلك انتقل عمل الموساد الذي كان يتم سرا إلى القيام به علنا .

كما تلقت أوساط المثقفين العرب نبأ إغلاق مركز زايد للتنسيق والمتابعة بحزن شديد ، حيث شهد المركز ، وهو مركز أبحاث تابع للجامعة العربية ومقره «أبو ظبي» ضغوطا أمريكية صهيونية متزايدة على مدار العامين الماضيين ، وطلبت الولايات المتحدة رسميا إغلاقه، بينما أعلن اللوبي الصهيوني أن إغلاق المركز ليس كافيا .

والسؤال المطروح .. لماذا كل ذلك الآن .. وماذا يريدون منا؟.

إبراهيم عباس مدني
أسوان

الخفة والاستخفاف

الخفة في معاجم اللغة ضد الثقل وتكون في الجسم ، أو في العقل .

وخفة الخفيف تكون في الأجساد والأبدان ، وخفة الخفاف تكون في العقول والأذهان ، والخفة تعني أيضا اليسر ..

يقول عز وجل «انفروا خفافا وثقالا» أي انفروا شبابا وشيوخا وركبانا ومشاة ، سواء خفت عليكم الحركة أو ثقلت ..

هذا عن الخفة .. أما الاستخفاف فيأتي في عدة معان ، فيقال استخف فلان بفلان ، أي استهان به ، واستخف الغضب بفلان ، إذا ما حمله الغضب على ركوب الحماقة ، أو التردي في العطب . واستخف فلان فلانا إذا تجاهله ولم يعره اهتماما .. يقول عزمن قائل «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا» ..

محمد أمين عيسوي -الاسماعيلية

تنويه

نشر في العدد الماضي من الهلال بالكلمة الأخيرة للدكتور عبد العظيم أنيس وموضوعها « استقالة عصام الخفاجي» وقد وردت كلمة «اقالة» عن طريق الخطأ بدلاً من كلمة « استقالة ».

هذا وقد نشر د. أنيس في عدد يونيه الماضي من الهلال مقالاً عن« هل الذكاء الصناعي أكذوبة ؟» وقد نشر بالفهرس مبتسراً تحت عنوان« الذكاء الصناعي أكذوبة » .. لذا لزم التنوية

الكلمة الأخيرة



عبقرية تيل نادية

بقلم: سلوى بكر

زمان، كان الزى المخصص لتلاميذ المدارس الابتدائية في مصر، مريلة قصيرة مصنوعة من قماش التيل المصرى الممتاز، يُطلق عليه تيل نادية، وعبقرية هذه المريلة النادية، هي إنها استطاعت أن توحد المجتمع المصرى، وتخلق نوعاً من المساواة الأفقية والرأسية بين أبناء هذا المجتمع، فجميع الأطفال التلاميذ المواطنون، يرتدون المريلة البيج أو الكاكى ذات السفرة عند الصدر والكسر تحتها، أو الكشكشة عند الوسط، تمييزاً للبنات عن الصبيان، ويدخلون بها المدرسة من إسكندرية وضواحيها، وحتى أسوان وكفورها ونجوعها، يستوى في ذلك أبناء الوزراء وأبناء الخفراء، واستطاعت مريلة تيل نادية، صناعة جيل من المصريين، كان منه العلماء والوزراء والأدباء والفنانين وقادى الجيوش، ومن جوانب عبقرية تيل نادية، أنها مصنوعة من القطن المصرى العزيز الحنون على البدن، ولونها مريح ومناسب للون بشرة المصريين السمراء وظروف بلدنا المناخية، فهي ليست من الألياف الصناعية الضارة ولا من الألوان الداكنة المقبضة للنفس.

وكانت وزارة التربية والتعليم، تقدم مجانا ملابس مادة التربية العسكرية أو الفتوة، لجميع طلاب وطالبات مدارسها الثانوية، وهذه الملابس شبه العسكرية المصنوعة من قماش الجبردين المصرى الممتاز، هي الزى الرسمى لمعظم هذه المدارس، مما يريح أولياء الأمور ويرفع عن كاهلهم عبء مصروفات الملابس، وكانت ألوانه عملية جداً وتتحمل العُفار ومشكلات البيئة المصرية، أما الآن فهناك كوكتيل من الملابس في المدارس المصرية تتراوح ألوانه بين البمبى المسخسخ، والتبيذى السمج، وما بينهما من كحليات وأخضرات وأصفرات، وكل مدرسة وحسب ربنا ما يقدر لها من إبتداع ألوان وأنسجة وموديلات، وأصبح الزى المدرسي معبراً بحق عن كل التناقضات الاجتماعية، وغياب فلسفة التعليم ودوره في المجتمع، فإذا رأيت أطفالا يرتدون البمبى المسخسخ، أو قمصان كاروهات بيتى بول صغيرة فاعرف أنهم من أبناء المدارس الخاصة التي تحصل مصروفات بالشئ الفلانى، وإذا رأيت أطفالاً يرتدون ملابس ذات لون رمادي كالح كالمتسخة تماماً، فاعرف أن هؤلاء من أولاد الجارية الذين يتعلمون في مدارس الحكومة، وما يجب أن تعرفه أيها القارئ العزيز إن كنت لا تعرف هو أن هذه الملابس الجربة الكالحة يعز شراؤها على بعض من أبناء هذا الوطن، بسبب سوء أحوالهم المعيشية وضيق ذات اليد، وأعلم - أيدك الله - أن مصر التي ترابها زعفران بات فيها من يؤثر الموت والانتحار مخالفة لطاعة الله، لأنه لا يستطيع شراءها لأولاده عند دخولهم المدرسة.

فهل نعود لنادية وتيلها العبقرى رحمة بالناس لعل الله يرحمنا برحمته جميعاً؟


المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانًا
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفيه
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
المعلم اون لاين - بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل

الهلال

نوفمبر ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

الإسلام على الإنترنت فى رمضان

إبداع الجيل الجديد:
الكتاب الأول - لوحات الشباب

العالم الإسلامي
صراع وعنف وتوتر

جزء خاص





لوحة وفنان

رأس امرأة
للفنان العالمى: إدجار ديجا
عام ١٨٨٢ - المتحف البريطانى

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة رمضان ١٤٢٤ هـ - نوفمبر ٢٠٠٣م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٠,٨ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١
ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس
٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٤ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

العالم الاسلامي جزء خاص

٨ - الإسلام على الإنترنت في رمضان .... د. أحمد محمد صالح

١٨ - حلقات الذكر في رمضان .... د. محمد رجب البيومى

٢٦ - التدخل الخارجي في الدول الاسلامية .... د. نادية مصطفى

٣٦ - تشينجيانغ الإقليم الإسلامي في الصين .... محمود أحمد

٥٤ - المخابرات والتحليل السياسي .... جميل مطر

٦٠ - هل تعود الثقة إلى النظام الدولى؟ .... د. منير زهران

٦٧ - الجدار العازل دواعي أمن أم اغتصاب أرض .... ترجمة : حسن صبرى

٧٤ - الحياة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين

٨٦ - هل تنجح أمريكا في وقف برنامج ايران النووي؟ .... د . فوزى حماد

٩٥ - قصيدتان (شعر) د. حسن فتح الباب

١٠٤ - د. عبدالعظيم أنيس المثقف المصرى بامتياز .... د.جلال أمين

١٠٨ - نسيج الغربة في حياة إدوارد سعيد .... د. عزة مازن



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدد) ٨٠ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت د/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

- عزيزي القارئ ...٦
- أقوال معاصرة .. ١٧
- من ذخائر الكتب العربية : (الموشى) أحمد حسين الطماوي ٤٦
- لقويات «د. الطاهر أحمد مكي» ... ٥٣
- شخصية العدد «د. محمد البرادعي» بقلم شكري فؤاد ٩٦
- التكوين «صنع الله إبراهيم» ٢٠٦
- أنت والهلال «عاطف مصطفى» ٢١٨
- الكلمة الأخيرة «نعمات البحيري» ٢٢٦

دائرة حوار

١١٤ – فوضى التأليف .. وغياب النقد العلمي «دائرة حوار» .... د . محمد الدسوقي
١١٨ – عقدة العقاد ..د. عبداللطيف عبدالحليم
١٢٤ – التاريخ الاجتماعي على لسان هؤلاء .... مصطفى نبيل
١٣٤ – سلاسل إبداعات الشباب .... أماني عبدالحميد
١٤٠ – جيل جديد والثورة الثانية للفن الحديث .... صلاح بيصار
١٤٨ – قراءة في أعمال كوتزي الحاصل على نوبل .... إبراهيم فتحي
١٥٨ – فن عايدة عبدالعزيز .... صافي ناز كاظم
١٦٦ – مهرجان معاصر بالرقابة وداء النسيان .... مصطفى درويش
١٧٢ – المتفرجة (الصفعة) .... ميرفت رجب
١٧٨ – الشاطئ الظامئ (شعر)...... أحمد خميس
١٨٠ – رحيق الكتب ....
١٨٤ – سكة أباظة (قصة)....... خليل الجيزاوي
١٩٠ – باريس التي لم يشاهدها رفاعة الطهطاوي .... د. محمد المهدي
٢٠٠ – تذكير بفضل الراحلين .... وديع فلسطين



عزيزى القارئ

ذكرى الرئيس السادات

تثير شخصية الرئيس الراحل أنور السادات الكثير من الجدل .. ربما يعود ذلك إلى أنه جاء بعد الزعيم الراحل جمال عبدالناصر ، وربما لأنه تولى مسئوليته فى ظروف دقيقة ، بعد أن ظهرت بوادر تغيرات إقليمية وعالمية كبيرة، كان لها كبير الأثر على مسار التجربة المصرية .

وكل ما يكتب عنه يتناول المسائل الكبرى ، قرارات الحرب والسلام ، ومدى توافق النتائج السياسية للحرب مع النتائج الظافرة لحرب أكتوبر، أو بداية العصر الليبرالى المتمثل فى عودة الأحزاب أو الانفتاح الاقتصادى وغير ذلك من القضايا الكبرى .

ولكنى أتناول هنا قرارين بالغى الأهمية :

أول هذه القرارات ، إصدار تعليمات حاسمة بعدم تعرض المتهم لأية صورة من صور الإيذاء البدنى ، سواء كان معتقلاً أو مسجوناً ، وبالفعل جاءت كل الشهادات التى أدلى بها أصحاب التجربة تؤكد ذلك .

وهذا القرار - لو تعلمون - عظيم ، فتاريخيا عانى المواطن فيه منذ عهد محمد على من قضيتين هما : استخدام «الفلقة» و «الكرباج» ، ونظام السخرة، وألغيت السخرة ، وبقى العقاب «بالكرباج» !

وبالتالى أصبحت إحدى العقبات أمام دروب النهضة ، علاقة السلطة بالمواطن التى اتسمت فى معظمها بالقهر والعسف .

ويسجل الجبرتى على عصر محمد على ، فرض السخرة على الأهالى فى تنفيذ المشروعات ، «ولم يتحرر الشعب من الشقاء ، ووقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة» ، وحتى فى عصر إسماعيل ضرب الفلاح «بالكرباج» من أجل جمع الضرائب ، كما سخر الفلاح فى أسوأ الظروف ، ويجد من يقلب صفحات

التاريخ تكرار إعلان إلغاء السخرة والكرباج خلال القرنين الماضيين ، مما يؤكد استمرارهما . ففي يوم ١٧ يناير ١٨٨٠ صدر مرسوم بإلغاء ضريبة الملح وأبطل استعمال الضرب بالكرباج لتحصيل الضرائب ، أي استمرار استخدامه لأغراض أخرى .

وكل من جرب مرارة القهر ، يدرك آثار الطغيان الذي تعددت أشكاله ودوافعه ، ويعرف آثاره على المستقبل ، وتدمير الإنسان وتحطيم قيمه . فإذا دخل القهر من الباب ، هربت الحرية وكرامة الإنسان ، وتمضي أيام المقهورين في سكون ، بلا طموح ، وليس فيها من النشاط الإنساني سوى إشباع الحاجات الرئيسية ، ومن الطبيعي للمجتمع عندما يزيد فيه البطش أن يضعف العمل العام ، وأن تضعف وتخبو الحياة السياسية ، والطغيان الذي يرتبط بالاستبداد والتسلط ، هو الذي يثمر ألوان التعصب والتطرف .

ويدرك حدود القهر الذي عاناه أبناء الشعب ، من كابده .

ويكاد يكون الرئيس السادات هو الحاكم الذي وصل الحكم ، بعد حياة مثيرة ، فكانت حياته مليئة بالمشقة والعنف ، وعمل نتيجة كفاحه السياسي في العديد من الأعمال ، بعد أن فصل من عمله كضابط في القوات المسلحة .. تباعا ومقاولا وسائقا ، وتردد على السجون والمعتقلات في أكثر من قضية سياسية ، مثل قضية حكمت فهمي وقضية اغتيال أمين عثمان ، وشاهد بعينيه. كيف يقضي التعذيب على مروءة من يتعرض له ، وكيف تتوارى الشجاعة داخل أروقة السجون ، كما أدرك أن القهر يقضي لا على من يتعرض للتعذيب وحده ، بل على من قام بالتعذيب أيضا ، وأنه لا يقتصر على من يعذب ومن يتعذب بل يمتد إلى الشعب ويغير من صفاته ويؤثر على الشخصية الوطنية .

فحقا إن الضد لا يعرف إلا بضده ..

أما القرار الثاني والذي رفع قهر الجوع والفقر عن المواطن ، والذي صدر أيضا نتيجة خبرة وتجربة عميقة ، بعد أن عاني في فترة النضال من الجوع والتعطل ، فقرر معاشا لكل من ليس له مصدر رزق أطلق عليه «معاش السادات» يتقاضاه كل مواطن يثبت أن ليس له دخل آخر ، وهو بذلك يواجه إحدى صور القهر المتمثلة في الجوع والفقر ، ويحفظ كرامة الأرامل والشيوخ ويعفيهم من غائلة الجوع .

هذا ما نتذكره في ذكرى رحيل أنور السادات ، فأليس خير ما في الماضي، هو الحلم بالمستقبل . وأن يكون ذلك وضع الأساس للحرية وهي بداية البدايات .

المحــــرر



الإسلام على الإنترنت في رمضان

بقلم
د. أحمد محمد صالح

أصبح الإنترنت جزءاً مهما في حياة العديد من المسلمين، وأسس الكثير من المنظمات والأشخاص مواقع فعالة للإسلام على الويب، واستعملوا إمكانيات النشر والربط بين وصلات الشبكة. ومنذ حوالى سنتين نشر للكاتب في سلسلة كتاب «الهلال» كتابا متواضعاً

عن تداعيات الإنترنت الاجتماعية والسياسية، تضمن فصلا كاملاً عن إسلام الإنترنت، واكسبه ذلك قراءة واسعة للمحتوى الدينى للمواقع الإسلامية، لكن الإنترنت حتى عام ٢٠٠٠ كان فيها ١٠ ملايين موقع تغطى جميع الموضوعات والمجالات، ويتوقع بأن هذا العدد سيزيد إلى مائتى مليون بحلول عام ٢٠٠٥، ويعنى هذا التوسع المستمر زيادة حتمية ونسبية فى عدد المواقع ذات العلاقة بالأديان عموما، وبالإسلام بصفة خاصة، وتصعد ضرورة استمرار التحليل، والبحث، وتسجيل التطورات المتعلقة بالمواقع الإسلامية على الإنترنت! وفحص أشكال التعبير الدينى الإسلامى على الإنترنت من خلال المحتوى المنشور، اعتماداً على شرعية الإنترنت كمصدر أكاديمى

وقبل أن نسترسل فى تتبع التطورات على الظاهرة الإسلامية على الإنترنت نذكر أهم النتائج التى رصدت فى دراستنا السابقة، وهى انتشار عشرات الآلاف من المواقع التى تتحدث عن الإسلام، غالبيتها بالإنجليزية وبقيتها بالعربية والفرنسية والألمانية والعبرية والفارسية والتركية والأردية، بكل لغات العالم، وتقف أمام تلك المواقع حائرا. فهى قد تكون محطات إذاعية أو تليفزيونية، أو مواقع للدعاء المستجاب، صحف ومجالات ومطبوعات، ومؤسسات أكاديمية ومراكز دعوة ودراسات وفتاو ومواقع لسنة النبوية الشريفة، وأخرى للأحاديث، وثانية للقرآن الكريم ويمكن أن نقول إن العالم كله يتكلم عن الإسلام! وكنت أعتقد عن جهل منى وتقصير معرفى أن غالبية المسلمين يعيشون فى المنطقة العربية أو المحيطة بها، وأن الشيوخ الذين نعرفهم والكتاب والصحف والمطبوعات والأزهر هم المراجع الأصيلة والوحيدة للإسلام، واكتشفت جهلى، وأن الإسلام موجود بكل لغات العالم على الإنترنت أقلها العربية لغة القرآن الكريم، وعرفت أن ٨٠٪ من المسلمين يعيشون خارج المنطقة العربية «أندونسيا وحدها ٢٠٠ مليون مسلم» وأن هناك ألوف الشيوخ والعلماء والدارسين والكتاب والمفكرين والصحف والمجلات والدراسات والمطبوعات الإسلامية وشرائط كاسيت وفيديو واسطوانات كمبيوتر وأفلام كلها عن الإسلام بغير اللغة العربية، ولا نعرف



عنها شيئاً، واكتشفت أيضاً أنه يستحيل الكلام عن العالم الإسلامي باعتباره كتلة واحدة، أو رؤية إسلامية موحدة، فالمواقع الإسلامية التي تعكس فلسفة الشيعة، مختلفة عن تلك التي تعكس فلسفة السنة، وتتباين تلك المواقع طبقاً للمنطقة التي تصدر منها، المنطقة العربية أو أمريكا أو أوربا وهكذا، وإذا كان فكر السلفية يسود على غالبية المواقع الإسلامية، نجد المواقع الإسلامية السلفية نفسها يختلف كل منها عن الآخر باختلاف الدولة التي ترعاه فهذا يعكس الإسلام في السعودية بفتاويه المعروفة، وذلك يعكس فلسفة شيوخ قطر، وآخر يصدر من باكستان، وفي أندونسيا، وجنوب أفريقيا، ونيجيريا، والمواقع الإسلامية الصادرة من أوربا تباينت هي الأخرى من مجتمع أوربي إلى آخر حسب أوضاع المسلمين في كل مجتمع، واكتشفت أنه موجود بدرجات مختلفة في معظم المواقع التي تتحدث عن الإسلام في الإنترنت وتكرر في كل المواقع تقديم الخدمات التعليمية الإسلامية كل حسب لغة الموقع من قرآن وسنة وصلاة وزكاة ومعاملات مالية وحج وفتاوى، وكل حسب مستوى الموقع في التصميم، وأبرز الملحوظات على المواقع الإسلامية الصادرة من المنطقة نفسها التكرار الشديد، وقليل منها ما أتى بجديد، وغياب أدوات البحث، وكثرة القوائم البريدية الإليكترونية، ولم تضارع المواقع الإسلامية الأجنبية، أو مواقع الأديان الأخرى من حيث الكيف والكم في تقنية الموقع، ورغم مزاعمها، بأنها موجهة للمسلمين في العالم كله بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية والمذهبية، لكن لا يخفى على المتابع لتلك المواقع، أن كلا منها ينتمي إلى بلد معين، ونقلوا لمواقعهم كل أمراض الظاهرة الإسلامية، ويمثل المذهب الوهابي فيها أغلبية، حيث تسود في تلك المواقع فتاوى وأحاديث الشيوخ الذين أنتجهم النفط، وهم أصحاب مصلحة اقتصادية حقيقية وأصيلة في فتاويهم وتفسيراتهم، وتحولت تلك المواقع إلى سوق مثل الأسواق التي تفرش أمام المساجد لبيع الأناشيد، والعطارة، والكتب الصفراء، والثعبان الأقرع، والثعبان أبو شعر، وشرائط الكاسيت والفيديو، التي تتكلم عن غسيل الموتى، والنهاية السوداء، لكل من لا يسمع تلك الشرائط. وانتشرت أيضاً في المواقع باللغة العربية والإنجليزية والألمانية، وغيرها من اللغات مثل الأردية، والأندونيسية لغة التهديد والوعيد، وأن الغرب وأنصاره ملاعين شياطين، يعيشون في ظلمات، ويعترضون على نشر تشريع الله وحكمته! ورصدنا أيضاً كثرة المواقع الأجنبية الأكاديمية التي تتكلم عن الإسلام، وهي تصدر عن جامعات مثل اكسفورد، وبيركلي، وكورنيل وغيرها من الجامعات العالمية، وتتكلم لغات العالم المختلفة أغلبها الإنجليزية، وهي غنيه جداً بالكتب والدرسات الإسلامية، وفيض ضخم من المعلومات الأكاديمية عن الإسلام. في المقابل غياب شبه كامل للمواقع الأكاديمية العربية التي تتكلم عن الإسلام.

واليوم فى هذا المقال نستكمل رصدنا للظاهرة الإسلامية على الإنترنت، وأبحرنا إلى مواقع جديدة لم نزرها فى دراستنا السابقة، ورغم خبرتنا فى الإبحار إلى المواقع الإسلامية فإن الانتقائية كانت هى المفتاح فى البحث، حيث يواجه المرء فى النظرة الأولى بآلاف المواقع الإسلامية الجديدة الدعائية للإسلام، حتى قوائم مواقع «الإسلام» كانت معقدة وتوقعنا فى الحيرة، ومحتوياتها لا تعطينا بصيرة كاملة عنها، وكان يجب تعريف ما هو إسلامى فى السياقات الاجتماعية والسياسية، والفقهية، وكشف هذا التعريف فى هذه المواقع الجديدة المختارة انتقائيا، البيئات الإسلامية على الإنترنت، كالهويات والشخصيات التى تظهر وتقدم نفسها تحت الرايات الإسلامية على الخط، وتمثل تفسيرات وتأويلات واسعة ومداخل ثقافية متعددة نحو الإسلام، والعديد من المواقع لم تقبل بالضرورة أن تظهر الصفة الإسلامية فى كافة أنحاء الموقع. وفى الحقيقة، يمكن أن نلحظ فوراً تأكيداً لملاحظاتنا السابقة وجود خصومات كثيرة بين المواقع الإسلامية على الخط والتى تمثل مذاهب وفرقاً مختلفة، تماما كما يحدث فى الواقع الإسلامى «الحقيقى»، وتأكدت مرة أخرى المفارقة فى أن فكرة الاجتماع أو وجود مجتمع إسلامى عالمى تتناقض تماماً مع الخصومات المنتشرة بين مواقع الإسلام على الخط!

وكما ناقشنا فى المقالات السابقة كيف تؤثر الإنترنت، على السلطة التقليدية فى الأديان المختلفة، وبالتالى فهى تؤثر على الشبكات التقليدية للسلطة الإسلامية، وعلى وسائلها التى تستعملها للحصول على قرار دينى، وتؤثر أيضاً على النظرة المرجعية للمصادر الأساسية الإسلامية، وكلما تقدمت تقنية الشبكة توسعاً، زادت المعركة على موضع قدم فى فضاء الإنترنت، فيزيد عدد الجماعات الإسلامية التى أسست لنفسها مساجد الإنترنت لتعلن الإصدارات والأوامر المختلفة للسلطة الدينية، وتبشر وتدعو وتقدم معتقداتها الدينية إلى جمهور عالمى. وقدمت المواقع الإسلامية، وأيضاً المواقع ذات العلاقة بالإسلام، منظورات متنوعة لما تعنيه بما هو إسلام؟! ومنظورات عديدة للكيفية التى تفسر وتأول وتقترب بها من الإسلام!

خصائص الموقع الإسلامى الفعال

ولوحظ أن العديد من صناع المواقع الإسلامية على الشبكة ليسوا «علماء دين» بالمعنى التقليدى، لكن يقدمون أعمالهم كجزء من التزام أو واجب دينى، مستندين على نصوص قرآنية تأمر بتبليغ رسالة الإسلام. وفى أغلب الأحيان يرتبط تأثير هذه الرسالة المبلغة عبر الإنترنت بفعالية وكفاءة تصميم مواقع الويب، وإذا ما نجحت فى التعبير عن إحساس ومشاعر الهوية الإسلامية، وأن ينجح الموقع فى توظيف الصور بفورماتها المتعددة، ومدى حرصه على تشجيع وتوليد المرور على الموقع، وفعاليته فى أن يوصل



إلى «مواقع مؤثرة أخرى» ومرتبطة إلى حد كبير بمكائن البحث لتتكامل البيانات في تصميم الموقع، على أن يكون للموقع اسم إسلامي له تأثيره. ويمثل فضاء الإنترنت اليوم شكلاً جديداً من بيئة إسلامية، تستند على الأفكار والأساليب التقليدية للمجتمع الإسلامي، وتتكامل في ترابط تقني ملائم، حيث تطورت الكيانات الإسلامية على الإنترنت بسرعة كبيرة، واستقرت خارج الفضاء والزمن التقليدي، لكنها ارتبطت بالأفكار المعاصرة والتاريخية للهوية الإسلامية، والكثير من تلك الكيانات الإسلامية تحمل لافتة السنة، ويعتبر المسلمون «السنة» أنفسهم يمثلون فرع الأغلبية الإسلامي، حيث يبلغ عدد المسلمين السنة ٩٤٠ مليون، والشيعة ١٢٠ مليوناً، الأحمدية ١٠ ملايين، الدروز ٤٥٠ ألفاً، وفقاً لإحصائيات قاعدة بيانات الأديان على الإنترنت Adherents.com في آخر تعديل، في ٦ سبتمبر عام ٢٠٠٢، هناك مواقع مهمة تمثل تفسيرات واعتقادات إسلامية أخرى، فالعديد من المواقع سخرت نحو إسلام الشيعة، وكمية كبيرة من المواقع تحت راية الإسلام الصوفي. وظهرت خلافاتهم على الإنترنت. وتوجد منافسة، وتزاحم كبير بين مواقع الويب الإسلامية المختلفة، ورغم ذلك التنافس في أغلب الأحيان، تتشابه المادة المعروضة والمحتويات بين المواقع وهو ما رصدناه في الدراسة السابقة، بل أحياناً ينسخ المحتوى ويعرض في عدة مواقع. وتوجد زيادة في التخصص بين مواقع الويب الإسلامية، فهي تركز بصفة خاصة على المجتمعات الإسلامية التي تمثلها. وتعمل تلك المواقع كأدوات ربط شبكية، ترسو على سواحلها جميع المعتقدات الإسلامية. وبعض منصات تلك المواقع تستعمل تقنيات الويب بحرفية وبشكل أوسع من مواقع أخرى. والمواقع الإسلامية الكثيرة التي تظهر حين نبحث في آلات البحث المختلفة ونكتب كلمة إسلام أو مسلمين، ليس بالضرورة أن تضم كل المناطق الأخرى من الطيف الإسلامي.

ومنذ عدة سنوات تستعمل الإنترنت بنجاح لنشر رسائل إسلامية بشكل علني في سياقات عالمية أخرى تولدت على الإنترنت، مثل المواقع المرتبطة بالمعارضة للحكومة العربية السعودية، ومواقع الطالبان في أفغانستان أو المجاهدين في الشيشان، والإخوان المسلمين، والجماعات الإسلامية في مصر، وهناك مواقع إسلامية أيضاً تقدم مفاهيم تعتبر راديكالية و«غير إسلامية» في السياقات الإسلامية الأخرى. مثال بارز تلك المواقع التي تقدم وتشجع المسلم الشاذ جنسياً. وتتنافى هذه المواقع التفسيرات السائدة في القرآن. بمنع الشذوذ الجنسي. في مثل هذه الحالات، تسهل الإنترنت للأشخاص المسلمين أو المجموعات المسلمة للتعبير ونشر وتوزيع آرائهم حول الإسلام تلك الآراء التي لا تجد ترحيباً ضمن سياقات المواطن الاجتماعية

والثقافية.

الإنترنت ونساء المسلمين

وقدمت المواقع الإسلامية على الإنترنت فرصة لمختلف مجموعات نساء المسلمين، اللاتي يجدن في الإنترنت وسيلة اتصال ملائمة وسرية، يتم من خلالها مناقشة قضايا دينية وثقافية، بما في ذلك مخاوفهم من قضايا الجندر النسوية gender. حيث تتم مناقشة المنظورات الدينية المتنوعة والتعبيرات والمفاهيم الإسلامية الشعبية، بما في ذلك المفاهيم والقضايا الروحية والصوفية والباطنية، وتسعى تلك المواقع لتقديم نظرتهن للعالم الإسلامي من خلال الفيديو، والملفات الصوتية، ووثائق نصية تحمل أفكارهن وفهمهن وتفسيراتهن الدينية.

دعوة عالمية

فالشبكة أصبحت أداة لانتشار الإسلام، وتستهدف المشاهدين في مختلف انحاء العالم. فنرى بعض المواقع استهدفت تعزيز الإيديولوجيات، كجزء من عملية ربط وتأسيس قوائم العضوية وقوائم القراء . وآخرون يقدمون رسالة للمسلمين الذين يحملون اعتقادات مختلفة، ربما محاولة منهم لإقناعهم، ويقدمون تعاطفاً مع الاتجاهات المختلفة حول العالم. وهناك أيضاً مواقع استهدفت أولئك الذين لا يعرفون أنفسهم كمسلمين، وتسعى لكسب تحولهم إلى الإسلام، أو تدخل في حوارات لاهوتية بالمجموعات الدينية الأخرى، وكثيراً ما يصاحب هذا الحوار رسائل بريدية الكترونية ملتهبة بين الفئات المعارضة، فهذه إجابة الإسلام، وأخرى إجابة المسيحية، وهناك إجابة اليهودية، ثم الاجابة على إجابة الإسلام، وهكذا! ومن الملاحظات المثيرة الى ارتبطت بهذا «الحوار» بأن نادراً ما يكون هناك استعداد للاتصال المباشر الشخصي بين الأشخاص المتحاورين، فهم عادة، وفي العديد من الحالات يستعملون أسماء مستعارة متبنية!

السلطة الإسلامية

والمواقع الإسلامية على شبكة الويب قد تكون إنتاجا فرديا، أو تمثل منظمة كبيرة، ولوحظ أن السلطة الإسلامية «كما تقدم على الإنترنت تنبثق عادة بقدر قربها من مكة المكرمة! وقد يكون هناك بعض الإشارات بذلك بالنسبة إلى منزلة أولئك الذين ينشأون ويبدأون مادة إسلامية على الإنترنت، والإنترنت دمرت تماما الطرق التقليدية للمعرفة والتفسير، وفتحت الباب لشاهدين جدد من جميع انحاء العالم للتعرف على الإسلام، وبدأت السلطات في المساجد والمدارس الدينية بإعارة انتباه أكبر إلى الوسط الجديد، والعلماء الدينيون يستطيعون الآن أن يتعملوا لغة النص الإليكتروني hypertext بجانب اللغة العربية الكلاسيكية في المؤسسات الإسلامية الكبرى مثل قم في إيران والأزهر في مصر، ويستطيعون العمل باللغات العالمية مثل الإنجليزية وغيرها، ويسعون لتقديم نظرتهم العالمية على الإنترنت. ولوحظ أن بعض المواد التى يعظون بها تهدف



بوضوح ومباشرة إلى تحول المشاهدين من الديانات الأخرى إلى الإسلام. بينما مواقع أخرى تخاطب بكياسة ولباقة اللاتوازن الموجود في طبيعة الإنترنت، هذا وقد تزايد الوعي المؤسساتي الإسلامي للإنترنت إثر ظهور موقع نقدي يسمى «suras» سور أو آيات قرآنية -Quranic Verses على الإنترنت عام ١٩٨٩، وتصدر عناوين الأخبار في بعض أجزاء العالم الإسلامي، وكانت شركة -America On-line هي التي تزود الموقع بالخدمة وتستضيفه! ولكن الشركة خشيت وقتها وفزعت من الفتوى التي اصدرت بإهدار دم الكاتب الهندي الإنجليزي سليمان رشدي، فأغلقت الموقع تجنباً لخسارة أعمالها، ولكن الوقت كان متأخراً جداً، فظهرت العديد من المواقع الإسلامية التي ترد على تلك المواقع الناقدة، وقرر العلماء الذين اعتبروا من قبل إن الإنترنت بيئة معادية وخطرة على الإسلام قرروا دخول فضاء الإنترنت لمعارضة ودحض الآراء المعادية للإسلام، وهو ما نشاهده بكثرة الآن على الإنترنت. وكانت هناك مواقع أخرى، غير موقع America on line، حيث رصد ذلك التحريف وقتها على موقع شركة تريبت كوم وعلى موقع شركة جيوستيير، هذه المواقع هي ما يسمى بالميروسايت أو المواقع المنعكسة، حيث نفس المحتوى موضوع على الـ٣ شركات، وقد أغلقت تلك المواقع، لأن هذه الشركات لا علاقة لها بالمحتوى بشكل مباشر، هي توفر هذه المساحة على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بها لمن يرغب في أن يحصل على هذه المساحة ويضع المحتوى الذي يكون مسئولاً عنه بما يتفق مع بعض في أن يحصل على هذه المساحة ويضع المحتوى الذي يكون مسئولاً عنه بما يتفق مع بعض القواعد التي تضعها الشركات وهي ألا ينشر الكراهية بين الناس وألا يسيء للأشخاص، أو للأديان، وألا يضع معلومات مزورة إلى آخره. وقد يتصور البعض أن المسلمين مطالبون باللهث وراء تلك المواقع التي يمكن أن يصنعها أي مخبول، والرد على ما ينشر فيها من إساءة، بل مطلوب منهم تأسيس مواقع تعكس صورة المسلمين وأفكارهم الحقيقة.

القرآن في الفضاء السيبيرى

انتشر القرآن على الإنترنت في شكل غير تقليدي للقراءة والفحص والتأمل، وكمادة إنترنت hyportext قابلة للبحث. وأصبح القرآن يعرض بكثافة في المواقع الإسلامية على الإنترنت، وتعرض معه ترجمات للنص القرآني الإنجليزي، ولن يستطيع قارئ النص الإنجليزي أن يتفهم المعاني العميقة للنص المقدس، إلا إذا فهم اللغة العربية الكلاسيكية وفي المقابل كان النص العربي للقرآن صورة من المصاحف المعاصرة للقرآن اليوم حيث المطابقة المضبوطة من شكلها الأصلي، في كل إيقاع، وتفصيل نصي ولغوي، مع تقديم تفسيرات بديلة من المعنى وتقييم للأحكام. عكس الترجمات العديدة

والمتنوعة المتوفرة باللغة الإنجليزية، التي لا تحترم الفروق الدقيقة في فهم المعاني الإنجليزية، وتقدم قضايا فقهية تتطلب تحليل اشتقاقي، ووجوب العود إلى المصدر العربي الأصلي، وهذا يجعلنا نتساءل عن طبيعة الدوافع وراء تعدد الترجمات الإنجليزية للقرآن الكريم على مواقع الإنترنت، وهل هي دوافع تجارية أو ثقافية وأيديولوجية؟ ففي موقع لويس فرخان، the nation of islam on line وعنوانه www.noi.org، وموقع www.submission.irg لدكتور اسمه راشد خليفة وغيرها من المواقع الإسلامية الأجنبية تحمل ترجمات للقرآن فيها الكثير من الخزعبلات الدينية والخرافة، وعلى الدارسين والعلماء، أن يدخلوا تلك الموقع، ويفندوا تلك المزاعم ويقولوا لنا ولغيرنا من المسلمين كلمتهم.

أن انتشار وتعدد المواقع الإسلامية على الإنترنت يعكس رغبة صريحة من أصحاب تلك المواقع بتوظيف الانتشار العالمي لشبكة الويب لوصول القرآن الكريم لكافة أنحاء المعمورة خاصة السكان المسلمين في الدول النامية. لأن فكرة اقتصار إمكانية وسهولة الولوج إلى الإنترنت على نخبة المجتمع فقط أصبحت فكرة بالية، وبلا معنى بعد أن أصبحت الحاسبات متوفرة في الأماكن العامة من جامعات ومكتبات ومنازل.

صورة الإسلام

وبعد هجوم الثلاثاء الأسود يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد انتهاء الصدمة الأولى بدأت حرب حقيقية في منتديات الحوار بالإنترنت، واشتعل فضاء الإنترنت بأعنف موجة حقد وكراهية ضد كل ما هو عربي وإسلامي، وشنت هجمة منظمة على الإسلام عبر مواقع أسستها مؤسسات صهيونية تشن حرباً ثقافية وعقائدية لتشويه صورة الإسلام وتقديم سور القرآن الكريم وآياته بشكل مغلوط، لدرجة أن الحكومة الإسرائيلية عملت على اصدار ترجمة محرفة باللغة العبرية لمعاني القرآن الكريم غيرت فيها معاني الآيات القرآنية الخاصة بإظهار خيانة اليهود، وأضافت ألفاظاً وحذفت ألفاظا أخرى لإظهار أن القرآن الكريم كتاب من تأليف النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لكن ما أكثر المواقع على الإنترنت التي يدعي أصحابها أنهم مسلمون، لكنهم في الحقيقة يشوهون الإسلام، ففي المواقع المذكورة عاليه، نجد من يناقض شهادة التوحيد، ويقولون إن هناك شخصاً اسمه «فرض محمد Fard Muhammad» أعطى النبوة لواحد أسمه «إليجا محمد Elijah Muhammad» وأنه خاتم الأنبياء، وليس محمد بن عبدالله، وينفي البعث، ولن نسترسل في تلك الأقاويل فعنوان الموقع منشور، طبعاً حاولت أن أفهم ذلك البرهان الذي أثبته، من آيات القرآن، والإنجيل والتوراة، ولكني أترك ذلك للمتخصصين من علماء الإسلام، واكتشفت أنني الوحيد الذي لم اسمع عنه من قبل، فهناك كثير من المصريين يعرفونه من قراءة مطبوعاته ولا أعرف كيف وصلت لهم!؟ وعرفت منهم أنه مصري هاجر إلى أمريكا وهناك ظهر عليه النبوغ



الديني. وهناك نموذج لموقع منظمة اسمها الفاتحة، توظف الدين لمباركة الشذوذ الجنسي، وتمكنت هذه المنظمة الدولية التي تعرف نفسها بأنها «منظمة الشواذ المسلمين» من تسجيل نفسها رسمياً في نيويورك «أميركا» وتورنتو «كندا» لكي «تدافع عن حق الشذوذ الجنسي، وتمكنت هذه المنظمة الدولية التي تعرف نفسها بأنها «منظمة الشواذ المسلمين» من تسجيل نفسها رسمياً في نيويورك «أميركا» وتورنتو «كندا» لكي «تدافع عن حق الشذوذ في الإسلام». وما إن تفتح موقع هذه المنظمة على الإنترنت حتى تفاجأ بكثرة توظيف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في سياق إثبات «حرية الشذوذ في الإسلام»!! ولعل مما يلفت الانتباه في موقع منظمة «الفاتحة» ابتداؤها بالبسملة، ثم بآيات وأحاديث كثيرة تعكس محاولتها لكسب ثقة المسلمين، وهي تدعم هذا الموقع بعدد من حلقات النقاش أو ما يسمى بـ«غرف الدردشة» وأحدها عنوانه «إيمان» وهو خاص بالسحاقيات! وليس موقع «الفاتحة» هو المنظمة الوحيدة للشواذ، فهناك موقع «الأحباب»، وموقع الكلمة، وموقع «الأشوريون العرب» الذين هم من أصل سوري، ويتحدث أعضاؤها عن معاناتهم مع الجالية الأشورية الرافضة لشذوذهم!.

لن نعلق على مواقع تلك المنظمات الشاذة التي تتحدث باسم الإسلام! لكن من الواضح الآن أن هناك فئات من المسلمين في داخل الدول الإسلامية، وفئات أخرى من المسلمين يعيشون في الغرب لهم دور أساسي في تشويه صورة الإسلام! لكني أزعم، أن الإسلام لم يتعرض منذ ظهوره للتشويه على يد أحد كما تفعل فئة من المسلمين اليوم، وللأسف صوتها مرتفع للغاية، وتستغل جهل وبساطة وأزمة جموع المسلمين.

وبعد هذه البانوراما السريعة لبعض الملاحظات على المواقع الإسلامية في الإنترنت، يذكر أن الإنترنت وسيلة يمكن أن تستخدم في الخير ويمكن أن تستخدم في الشر، وحكمها يأتي بحسب استخدامها، المسلمون مطالبون بتوظيفها في التعريف بالإسلام وفي إلقاء الضوء على الرسالة والحضارة الإسلامية، والثقافة والشريعة الإسلامية وتاريخ الأمة الإسلامية، وإذا كان الإسلام بطبيعته دين انتشاري، دين دعوة، فعلى المسلمين أن يستفيدوا منها ويوظفوها في نشر الحق، والدفاع عنه والرد على الأباطيل والشبهات التي يحاول الآخرون أن يثيروها حول الإسلام، إن الإنترنت ليست كما يريد البعض أن يشير الآن بأنها خطر يهدد الإسلام والمسلمين وإنما هي فرصة تاريخية للمسلمين للاستفادة من هذه الشبكة ومن إمكانياتها ، هي خطر يهدد الإسلام والمسلمين إذا تركها المسلمون لغيرهم. ■

أقــوال معاصرة


إدوارد سعيد


د. أحمد زويل


مريد البرغوثي

● «التوجه الإنساني هو خط المقاومة الوحيد، بل الأخير، لنا ضد لممارسات اللا انسانية، والمظالم التي تشوه التاريخ»

المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد

● «الفن لا يستطيع أن يعتاش على الفقر فقط، يجب عليه أن يسعى أيضا إلى الحميمية والعاطفة والحب»

جون ماكسويل كوتزى

الكاتب الجنوب الأفريقى الفائز بجائزة نوبل

● «لم تعد الحياة أمامي، بل الموت»

الشاعر أدونيس

● «التجديد فى الشكل مغامرة، وهي أجمل ما فى الابداع»

الأديب المصرى محمد ربيع

● «ليس كل من اختلف معنا غبيا، ولا عميلا للاستعمار»

د. مديحة دوس

الأستاذة بكلية الآداب بجامعة القاهرة

● «الكلمة التي يغلب على استخدامها، عندما أتحدث مع شباب العرب هي النظام»

د. أحمد زويل

العالم المصرى الحاصل على جائزة نوبل

● «العراق ليس إلا نقطة البداية في سلسلة تدخلات عسكرية أمريكية في المنطقة على نطاق واسع»

المفكر الأمريكى شارلز شلسنجر

● «إنني دائما اقرأ نهاية القصة أولا، فإذا مت قبل الإنتهاء من قراءتها، أموت وأنا أعرف على الأقل نهايتها»

المخرجة وكاتبة السيناريو الأمريكية نورا افرون

● «المثقفون فقدوا الدور والمصداقية، وباتوا صالحين لشئ واحد هو الدفن»

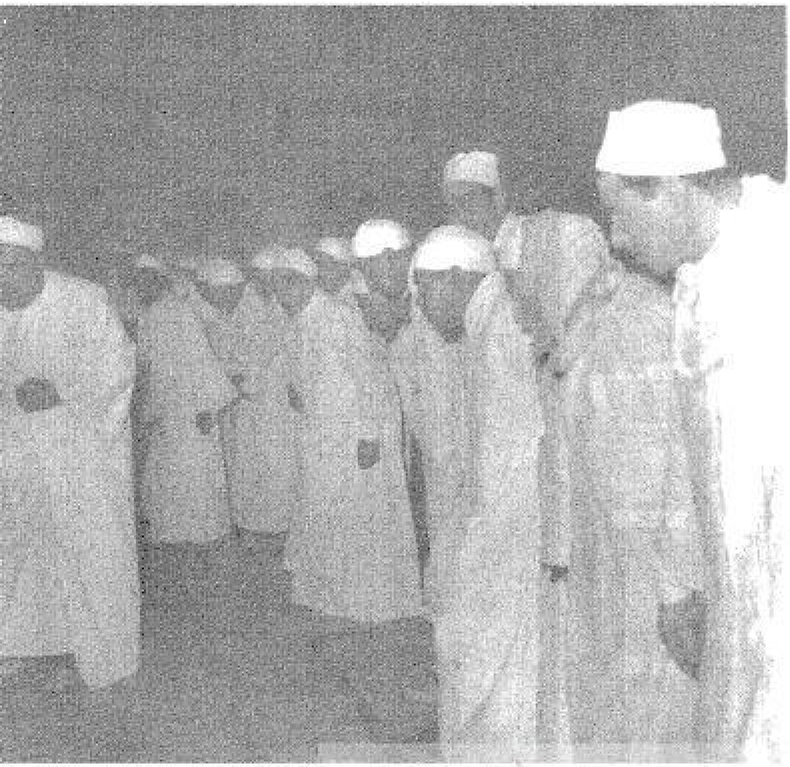
المفكر الفرنسى ريجيس ديبريه

● «لا يعقل أن نطوف العالم كله بالطائرات، إذا أردنا أن نضع وردة على كل قبر يضم مبدعا من فلسطين»

الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي

● «ينتظر العرب من يقطعهم ويأكلهم ويشويهم مثلما حصل في بغداد وجنين والخليل»

معمر القذافي



العالم الاسلامى

حلقات الذكر في شهر رمضان

بقلم
د. محمد رجب البيومى

تغيرت تقاليد رمضان فى هذا القرن عما عهدناه فى القرن الماضى أو فى نصفه الأول على التحديد، وقد تحدثت فى العام الماضى عن سهرات شاعر الربابة فى هذا الشهر الكريم، وأريد اليوم أن أتحدث عن بعض حلقات الذكر فى هذا الموسم، إذ كانت هذه الحلقات ذات رواج ذائع فى المساجد، ولها عشاقها الذين كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، لأنها تضفى كثيرا من البهجة الروحية على نفوس صافية تريد أن تؤكد صلتها بالسماء فى حفل بهيج كله نشاط وخفة وإيقاع.

ويزيد من متعته الروحية أن الذين يقومون بالذكر قضوا نهارهم صائمين، وقد أقبل الليل عليهم ليضيفوا إلى ثواب الصوم لدى الله ثوابا آخر فيما يقومون به من ذكر جماعى يتخلله الإنشاد الدينى وله من المبتهلين من يقوم بالترجيع الخاشع، ومن يجلس وسط الحلقة ليضرب بيده متجاوبا مع رنات المنشد، وقد يكون الجالسون جماعة إذا اتسعت الحلقة فامتد صفاها إلى الجدارين المتقابلين، والمنشد يصدح والذاكرون يهتفون بأسماء ذى الجلالة، الله، الله. حىّ حى، هو هو وفق نظام متعارف لا يحيد عنه إنسان، وأذكر أن الدكتور طه حسين قد وصف فى الجزء الأول من الأيام بعض حلقات الذكر فقال عن اجتماع الذاكرين «إنهم يذكرون الله أوّلا قاعدين ساكتين، ثم تتحرك رءوسهم وترتفع أصواتهم قليلا، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تثبُ فى أجسادهم رعدة فإذا هم جميعا وقوف، قد دفعوا فى الهواء كأنما حركهم لولب» ويظهر أن حلقات الصعيد التى وصفها الدكتور تختلف بعض الشىء عن حلقات الوجه البحرى، حيث أن ما شهدته من الحلقات، لا يبدأ بالذكر الصامت فجأة، بل يبدأ بقراءة أجزاء القرآن، حيث يأتى صندوق من بيت شيخ الفقهاء يضم ثلاثين جزءاً، هى جميع أجزاء القرآن، ثم توزع الأجزاء على الجالسين فيقرأ كل إنسان ما بيده من كتاب الله، حتى إذا فرغوا من ذلك كان كتاب الله قد قرىء جميعه، وتجتمع الأجزاء لتوضع فى الصندوق كعهدها السابق، ثم يأتى قارئ حسن الصوت فيفتتح المجلس بقراءة ما تيسر من آيات الله، وفق اختيار دقيق لآيات الترغيب والترهيب معاً ينقل السامعين إلى العالم الروحى، فإذا انتهى من قراءته ابتدأ الذكر الصامت على نحو ما ذكره الدكتور، أما عند الخاتمة فلابد أن توزع النفحة، وهى قطع صغيرة من الحلوى يتبرع باحضارها أحد الذاكرين طيلة شهر رمضان لتوزع على الذاكرين تذكيرا بطعام أهل الجنة ومنهم من يحتفظ بها كعلاج روحى للشفاء إذا نزل به داء، لأن جو الذكر والخشوع قد خلع عليها فى اعتقاده ما يجعلها بعض أسباب الشفاء

لقد كان المتبع أن تقام الحلقات فى هذا الشهر الكريم كل ليلة، فهى من الأمسيات الدينية التى لا تقل مكانة عن دروس الوعظ فى المساجد بعد العصر، وبعد المغرب، بل إن بعض هذه الدروس فى المساجد الكبيرة، تخلق جوا من الانتعاش الروحى، فينهض السامعون فجأة لينتظموا فى حلقة الذكر تهليلاً وتسبيحا، وقد حدثنى أحد أساتذتى بالأزهر منذ عهد طويل أن الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية كان يلقى فى العشرينيات درساً دينياً فى شهر رمضان بمسجد الحسين بعد صلاة العصر، وقد اختار حكم ابن عطاء الله السكندرى موضوعا لدروسه الموسمية، وفى أحد هذه الدروس تعرض لشرح قول ابن عطاء الله عن رب العزة.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجله شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الواحد ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء؟

التفاعل الروحي

وكان السامعون في شبه انجذاب روحي يتفاعل مع هذه المعاني، فنهض أحدهم صائحا لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، فهب الجالسون جميعا من ورائه، وانتظموا تلقائيا في حلقة صوفية ذات رنين وابتهال، ونزل الشيخ بخيت رحمه الله ليجلس وسط الحلقة إذ كان في سن متقدمة لا تسمح له بالنشاط كتلاميذه الشبان، وظلت الحلقة ممتدة حتى أذان المغرب، فآثر القوم أن يأكلوا سندوتشات الفول، ولم يذهبوا إلى منازلهم، ليعتكفوا في المسجد حتى يؤدوا صلاة التراويح بعد العشاء! وهم في جو روحي شغلهم عن الحياة والأحياء!

أخلص من هذه المقدمة إلى وصف ما أريده من الحديث عن ليلة من ليالي الإيمان في أول يوم من رمضان قدر لي أن أكون سببا في إقامة احتفال ديني بها ترن فيه الأذكار، وينتصب المحيا هاتفا بألحان السماء، فقد كنت زميلا للمستشرق الكبير الأستاذ عبدالكريم جرمانوس في إحدى زوراته للقاهرة الخاصة بدورة مجمع اللغة العربية السنوية، حين ذهبت معه لزيارة مسجد الإمام الشافعي، فقلت له: وهل نسيت عمر بن الفارض سلطان العاشقين إنه قريب منا، فرحب باقتراحي، ومضى يتحدث عن نوادر طريفة تروى عن العارف بالله شعرا ونثرا وسرنا في الطريق فقلت له إن هذا الطريق كان يسمى في العهد الأيوبي (وادي المستضعفين) فقال تسمية وافقت معناها، إذ لا يوجد مستضعف أذلّ من عاشق، فما بالك بسلطان العاشقين.

ولكن سرورنا لم يتم ، إذ ما كدنا نصل إلى مسجد الشاعر الكبير حتى رأيناه مهجورا تظلله الوحشة وليس به من زائر، والمصابيح منطفئة، ولا أدري هل انقطعت الكهرباء فجأة في هذا المساء أو كان انقطاعها دائما، وقد كان ظلام المسجد، وانصراف الناس عنه، مما خلع على نفسينا كآبة قاتمة، فقال الدكتور جرمانوس: لو لم يكن ابن الفارض صوفياً كبيراً، لكان شاعرا قديرا، فكيف يهمل مزار نابغة مثله ، إن عبقريات الشعراء المشاهير من أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبيء متشابهة لأنها تمتاح من بئر المدائح الإنسانية، أما عبقرية ابن الفارض فمصدرها النبع الدافق من القلب الرقيق، وقد تكون خبرته بالحياة العامة قليلة، ولكن خبرته بالنفس العاشقة ذات عمق بعيد، وانتهت الزيارة، ولكن صداها كان أليماً في نفسي، فاتجهت في صبيحة الغد إلى

الجامع الأزهر وبه الشيخ العارف الشهير صالح الجعفري رحمه الله، ولي به صلة حميمة، وكان الرجل يرى بنور الله فقال لي حين رآني : ما تركت عملك وجئت في الصباح إلا لأمر شغلك فما هو؟ قلت: وأي أمر ياسيدي، لقد كنت في مساء الأمس أزور مسجد عمر بن الفارض، فلم أجد به إنسانا ولا سراجا حتى ماء الوضوء كان منقطعا، لقد أحسست أني فقدت أملاً كبيراً حين جئت إليه سعيداً، فرجعت حزينا؟ لماذا لا تهتم وزارة الأوقاف بالمسجد، وهي تهتم بمساجد تحمل أسماء لا نعرف عنها شيئاً! ما شعور الشاعر الدفين بجسمه، الحي بروحه، وهو يرى الوحشة تكتنفه في كل مكان، فقال الشيخ صالح ما نصه: حَيه (١) يا مولانا إن روح الشاعر العارف بربه تطرد كل وحشة، وهو في قبره يعيش في روضة من رياض الجنة. فالوحشة لا يعانيها ابن الفارض، ولكن نعانيها نحن! قلت: وماذا نصنع إزاء هذه الحالة؟ فسكت الرجل قليلا ثم قال: نحن الآن في الأيام الأخيرة من شعبان، وعليك أن تحضر في اليوم الأول من رمضان إلى مسجد ابن الفارض قبل الغروب بساعة لترى احتفالنا به قلت وكيف؟ قال لا تنسي الموعد، وتوكل على الله!

الذوبان الصوفي

كنت أعرف عزيمة الشيخ وصدق حديثه فلم أتردد في تصديق ما قاله، وأخذت أنتظر مرور الأيام حتى حان اليوم المرتقب، فاستأذنت أولادي بالفيوم أن أتركهم في أول أيام الموسم السعيد، لأسافر إلى القاهرة في عمل ضروري - هكذا قلت - وما كدت أصل إلى الطريق المتجه للمسجد، حتى رأيته محاطا بأناس كثيرين من مريدي الشيخ، وفيهم من يضع القدور على النار، وبجوارهم أكداس الخبز الطري، وما خالطت القوم حتى عرفت أن الشيخ صالح سيحيي الليلة بالمسجد، وأن أحباءه جاءوا بالمصابيح الغازية ليكونوا في مأمن إذا انقطع التيار الكهربائي فجأة، كما عرفت أن هذه القدور تمتلىء بالفول المدمس، إذ رأى الشيخ أن يكون الإفطار منه، أما ما جاور القدور من أقفاص الفاكهة فهي للسحور، وقد اتجهت إلى المسجد فكدت أضيع في الجمع المحتشد به، ثم علت ضجة، فانتبهت لأرى الشيخ صالح الجعفري يقوم بقامته الفارهة، ساحباً عباءته الفضفاضة، وبيده مسبحته الشهيرة، وخلفه جمع «من مريديه» وما كاد يطأ سجاد المسجد، حتى اتجه إلى الضريح في شوق، ثم علا صوته هاتفا يقول الشاعر:

وأقرب ما يكون الشوق يوما
إذا دنت الخيام من الخيامِ

وأخذ يحتضن الضريح، فخيل الىّ أن الشيخ يعانق صديقا يتقبل أنفاسه، ويسمع صوته، ويتمتع بدفء حنانه، وقد اهتاج الحاضرون هياج الطرب، وغمرهم روح من التواجد، فانتصب المحيا تلقائيا، صفوفاً خلف صفوف، والشيخ في الوسط يتواجد ويترنح، وقد حضر جميع من كانوا خارج المسجد ليشاركوا في الابتهال، ويستمعوا لما ردده الشيخ

من شعر ابن الفارض إذ يقول:

كلّ من فى حماك يهواك لكن
أنا وحدى بكل من فى حماكا
لك فى الحىّ هالك بك حىّ
هام واستعذب العذاب هناكا
وبشيرى لو جاء منك بعطف
ووجودى فى قبضتى قلت هاكا!

ولا أدرى لماذا هب نسيم كله عطر، حتى رحت أتساءل: أحمل بعض الذاكرين قارورة عطر وأراقها! أم أن هذا الجو الروحى جعل للهواء رائحة غير التى نعهد؟ ولم ينقطع المحيا حتى ارتفع صوت المؤذن فخشعت الأصوات للرحمن ثم اتجه الشيخ إلى المحراب، فأدينا الصلاة خلفه، ولم يطل حيث جلسنا فى صفوف، لنتلقى لفائف السندوتش تحمل ما يحليها من التوابل والسلطات، وكانت مهلة للراحة ، حددها الشيخ بأذان العشاء!

حان موعد الصلاة قام الشيخ، وقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة خاتمة سورة الكهف (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) قرأ الآيات بصوت عجمى كأنه ترجيع الطير، وقرأ فى الركعة الثانية بعد الفاتحة قول الله تعالى فى خاتمة سورة غافر، وقد بلغ ترتيله غاية الروعة حتى ليخيل لسامعه أنه يبكى، قرأ قول الله، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (١) «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون». «فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون».

وتبعت فريضة العشاء سنتها، فصلاة التراويح والوتر، وجلس الشيخ ليعظ، فجعل يتحدث عن أنبياء الله ورسله، ويلم بشذرات من أخبار المتصوفة، حتى وصل إلى عمر بن الفارض فأفاض فى سيرته إفاضة مدهشة، إذ حدثنا بما نعلم ونجهل معا، واختار نبذا من خطراته الوجدانية أذكر منها ما رواه عن الشاعر العاشق من أنه كان يمشى ذات ليلة فى سوق القاهرة، فمرّ على جماعة من حُراس البضائع. إذ لم يكن للدكاكين أبواب «حينئذ» ولكن حراساً منتظمين يكلفون بحراستها لقاء أجر شهرى، وكى يطردوا النوم جعلوا يترنمون بأبيات شعرية سمع ابن الفارض منها:

مولاتى سهرنا نبغى منك وصال
مولاتى فلم يسمح فقنعنا بخيال
مولاتى فلم يطرق ، فبلا شك بان
ما نحن إذن عندك يا مولاتى ببال

فصرخ عمر صرخة مدوية حين سمع (ما نحن إذن عندك يا مولاتى ببال) وأقبل الناس على الولىّ الصارخ، وتحلق حوله المارة وهم يرددون معه (ما نحن إذن عندك يا مولاتى ببال) وترك الحراس أمكنتهم حين سمعوا الضجيج، وجعلوا

يكررون «الأبيات» والحاضرون يذكرون مبتهلين، وترنح القوم ، وسقط الكثير على الأرض متواجدين، وسقط معهم عمر بن الفارض فحملوه على الأكتاف وساروا به فى حفلة ذكر متنقلة، ومنهم من خلع ملابسه ، ورمى بها فى الطريق، وظل يذكر فى شبه غيبوبة، ثم أعاد الشيخ الأبيات السابقة بإيقاع شجى لا يسمح به فى كثير من الأوقات، وأخذته الصبوة فانتصب واقفا، وانتصب من خلفه سامعوه، وهم يملئون ساحة المسجد، وانتظمت حلقة ذكر تلقائية ما شهدت مثلها إلا فى القليل، وأذكر أن الشيخ قد جلس ليستريح، وجلس معه القوم، ثم دار بعينه فرآنى ، وسألنى، ماذا سأنشد مما تختاره أنت فى النوبة الثانية من شعر ابن الفارض، فقلت إني لا أمل سماع القصيدة العينية، فقال: بارك الله فيك، لقد خطرت على بالى، وأنا أراجع بينى وبين نفسى قصائد الديوان، إن هذه القصيدة ذات نفس حار وذات نبض دفاق! ودارت كئوس القرفة فشرب من شرب، حتى إذا تمت الراحة على نحو مستطاب ، نهض الشيخ للذكر مرة ثالثة، وما كادت الأرواح تتجاوب حتى سبح الشيخ فى جو ابن الفارض، فأنشد قوله:

أبرق بدا من جانب الغور لامع
أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
أنار الغضى ضاءت وسلمى بذى الغضى
أم ابتسمت عما حكته المدامع
ألا ليت شعرى هل سليمى مقيمة
بوادى الحمى حيث المتيم والع
وهل عذبات الرند يقطف نورها
وهل سلمات بالحجاز أيانع
وهل ظبيات بالغوير يرميننى
مرابع نعم ، نعم تلك المرابع
وهل ظل ذاك الضال شرقى ضارح
ظليل فقد روّته منى المدامع
وهل عامر من بعدنا شعب عامر
وهل هو يوماً للمحبين جامع

حلاوة الإنشاد

ولا أذكر أن حلاوة للإنشاد قد تذوقها من منشد - على كثرة ما سمعت - كما استمرأت هذه الحلاوة والعجيب أن الذاكرين من العامة وأكثرهم من أرباب الحرف المتواضعة ممن لا تؤهلهم معارفهم وخبراتهم إلى فهم الدقيق من هذه المعانى، قد بلغ بهم الطرب الوجدانى أبلغ ما يتصور، ولله فى ذلك سر لا أدريه، أما أنا فقد خيل إلى أن الذى ينشد الأبيات هو عمر بن الفارض نفسه، لا الشيخ صالح، وقد حدثته بما تخيلت، فقال إنى لا أشك أنه كان حاضرا معنا وأنه هو الذى خلق هذا الجو الروحانى بين الذاكرين!

وبعد ما يقرب من ساعة ونصف، جلسنا نستريح ، وانفرد الشيخ فى المحراب خاليا للتسبيح، بينه وبين نفسه، وكذلك فعل أكثر الحاضرين، وجاء من مريدى الشيخ من يفرقون الفاكهة والخضراوات من برتقال وموز وجزر وطماطم ، لتغنى غناء السحور، فأخذنا نأكل مستمرئين، وسقاة الماء من المتطوعين يدورون علينا بالأكواب، فكان الماء خاتمة السحور.

وارتفع الابتهال قبل أذان الفجر، فكثرت ركعات التهجد، وترددت التسابيح من الشفاة ردحاً من الوقت، ثم انشق عمود الفجر الصادق فدوى الأذان، وخشعت النفوس، وتليت آيات من القرآن نهض الشيخ بعدها للإمامة، ومن خلفه جميع الحاضرين!

وجئت أسلم عليه بعد انتهاء الصلاة، فضغط على يدى وسأل: هل أدينا بعض حق سيدنا عمر، ثم قال: ولنا عودة إذا أذن الله، وتفرق الجميع رجالا ركبانا حتى وصلنا إلى محطة الترام بعد ليلة ساهرة من ليالي رمضان!

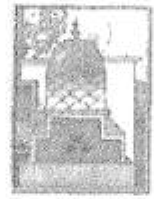
وبعد، فقد ينكر بعض قراء اليوم ما للإنشاد فى حفلات الذكر من تأثير، ولكنه واقع مشهود، بل رويت فيه من الغرائب ما لا يكاد يصدق، ومنها ما ذكره الدكتور زكى مبارك فى كتاب «التصوف الإسلامى» وهو رسالة جامعية ناقشها من كبار المفكرين فى مصر من نشهد لهم ببعد النظر وبراعة التصويب، وعنها أنقل ما يأتى جـ (١) ٢٣٤.

نوادر القوالين

«والمغنى (المنشد) كان يسمى القوال» وللقوالين نوادر كثيرة مع الصوفية من ذلك ما وقع حين زار ذو النون المصرى بغداد فقد حضر أحد تلاميذه مجلس أحد القوالين، فلما طاب السماع، وتواجد السامعون، صرخ هذا التلميذ ووقع على الأرض فحركوه فوجدوا ميتاً، أقول وإلى هنا والأمر طبيعى فقد يكون لدى التلميذ مرض قلبى لم يتحمل هزات الذكر فانكفأ ميتا، ولكن غير الطبيعى أن يقول الدكتور زكى مبارك بعد ذلك فوصل الخبر إلى ذى النون فقال لأصحابه: تجهزوا حتى نصل إلى هذا القوال، فلما وصلوا دارت الحلقة وأنشد ذو النون، والقوال يسمع، ثم صرخ ذو النون فوقع القوال ميتاً، فقال ذو النون: أخذنا ثأرنا، قتيل بقتيل! هذه النادرة كانت تحتاج إلى توثيق يدفع عنها الشك الصريح، ولكن الدكتور زكى مبارك، ذكر لها أشباها وأمثلة مما سجلته كتب التصوف عن منشد يسمى الشجاع جبريل، كان يؤثر فى بعض السامعين فيموت منهم من يموت! وقد اعترف ابن خلكان أنه شاهد وقائع هذا القوال بنفسه، ورأى بعينه كيف مات أحد السامعين، وابن خلكان لم يكن متصوفا، ولم يذكر ما يروى من المناقب عن الصوفية، إنما كان مؤرخا يلتزم بالواقع! فبم نفسر ما كان؟

لقد ضاع الكثير من مباهج رمضان الروحية فى المدن والقرى هذه الأيام، فلم تبق سهرات القرآن فى المنازل، ولا حلقات الذكر فى المجالس، ولا ابتهالات اللقاء، وتواحيش الوداع فى أعلى المآذن، ولا امتداد الموائد قبيل المغرب أمام البيوت ليفطر من يشاء كرما يتدفق فى شهر رمضان، والذى بقى مسلسلات الخلاعة وبلاهة الفوازير ورقصات المجون على الشاشة البيضاء)ابتهاجا) بالشهر الكريم!

كدنا لما جد من عكس الأمور بنا نمشى على الرأس لا نمشى على القدم! ■



العالم الاسلامي

التدخل الخارجي فى الدول الاسلامية

بقلم

د. نادية مصطفى *

تقع البلاد الأسلامية دائما فى قلب تفاعلات العالم، سواء فى مرحلة قوتها ووحدتها وصعودها، أو فى مرحلة جمودها وتخلفها وضعفها وتجزئتها، وإذا كانت المراحل المتعاقبة من تاريخ الأمة تبرز التطور فى هذا الوضع سواء كانت الأمة شاهدة أو مشهودة، فإن المرحلة الراهنة من وضع هذه الدول فى النظام الدولى، ابتداء من نهاية الحرب الباردة وحتى الآن مروراً بتداعيات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، تمثل مرحلة من مراحل إعادة تشكيل أقاليم العالم والعلاقات فيما بينها وبين بقية العالم، وهذه المرحلة من إعادة التشكيل ليست إلا حلقة من حلقات سابقة فى مسلسل التحول من الشهود إلى المشهودية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى المرحلة التى مارس فيها «الخارج» أو «الآخر» أو «الغير» تأثيراته على الأمة، وبصورة متصاعدة لا تعكس فقط ما أضحى عليه الخارج من قوة ومكنة، ولكن ما أضحى عليه الداخل من ضعف وتجزئة

* استاذ العلاقات الدولية - بكلية الاقتصاد - جامعة القاهرة

ومن ثم فإن استعراض خريطة صراعات وقضايا الأمة الراهنة لابد وأن ينطلق من التفاعل - غير المسبوق في درجته وطبيعته - بين دوائر - متقاطعة ثلاث: داخلية وإقليمية وعالمية، فإذا كان النظام العالمي قد دخل مرحلة تحولية مهمة - منذ بداية العقد الأخير من القرن العشرين - فإن انعكاسات هذه المرحلة على الأمة الإسلامية تتضح في بعض الخصائص الجديدة المتصلة بالأبعاد المختلفة لوضع الأمة في العالم.

وهذه الأبعاد هي: عناصر القوة الشاملة، قضايا التطور الداخلي بين إشكاليات الأصالة المعاصرة، التقليد/ الحداثة، العلمنة/ الإسلامية ، قضايا العلاقات البينية في ظل إشكاليات الوحدة/ التجزئة، الأمة / الدول القومية، قضايا العلاقات مع النظام الدولي القائم في ظل إشكاليات الاستقلال/ التبعية، العالمية/ الخصوصية، وأخيرا قضايا الأقليات المسلمة في العالم، فإن قضايا الأمة الإسلامية لا تنسحب على دولها فقط ولكن على شعوبها أيضا.

الأمة الإسلامية والمؤثرات العالمية

وبالنظر إلى بعض أهم الخصائص العالمية الجديدة التي تحيط بالأمة الإسلامية وتؤثر على وضعها يمكن التوقف عند الأمرين التاليين:

من ناحية: تجدد الاهتمام بالأبعاد الثقافية الحضارية في التفاعلات العالمية، سواء في ذاتها أو من حيث ارتباطاتها بالأبعاد السياسية والاقتصادية بل والعسكرية أيضا.. ولقد امتدت الاختراقات الخارجية الكثيفة والعميقة إلى النطاقات الثقافية والاجتماعية وبدرجات غير مسبوقة.

ولقد أضحت الأمة الإسلامية ساحة لاختبار أسباب هذا التجدد في الاهتمام بالأبعاد الثقافية الحضارية ومؤشراته وآليات إدارته ونتائجه ، فعلى سبيل المثال إذا كانت الصراعات المساحة التي اندلعت - بعد نهاية الحرب الباردة - قد تركزت في أرجاء العالم الإسلامي فإن جذورها وتجلياتها الدينية والعرقية والقومية كانت واضحة وجلية، كما أن التدخلات في العالم الإسلامي، لم تعد قاصرة على الوسائل التقليدية العسكرية والسياسية والاقتصادية ولكن قفزت على صعيدها أدوات متجددة تتصل بالشأن الثقافي - الحضاري - وفي قلبه الإسلام.

من ناحية أخرى : ومن خلال التعمق في مفردات الفكر الاستراتيجي الغربي عن وضعية الإسلام والمسلمين في النظام الدولي، وبالنظر إلى أهداف وأدوات السياسات الغربية تجاه عالم الإسلام والمسلمين منذ نهاية الحرب الباردة وحتى الآن، تتضح لنا قواسم مشتركة كبرى، وتشير هذه القواسم إلى أن هناك نمطاً من التأثيرات الخارجية على مناطق العالم الإسلامي من شأنها إعادة تشكيله على أسس جديدة وذلك باستخدام مجموعة متطورة من الأدوات التدخلية التي تتراوح بين أدوات القوة

الصلدة وأدوات القوة الرخوة، وتلعب الولايات المتحدة الأمريكية وبصورة متصاعدة دوراً ينحو للانفراد بإدارة هذه التدخلات وعلى رأسها العسكرية ، وهي ليست بديلا عن القوة الرخوة ولكن سبيلاً ممهداً لها.

ومن ثم وإذا كانت السياسات التدخلية الخارجية في العالم الإسلامي تمتد بين عدة مستويات، ابتداء من النطاقات الحضارية الثقافية المتصلة مباشرة بمنظومة القيم إلى السياسات على صعيد الصراعات المسلحة التي تندلع على أراضي الدول الإسلامية وفيما بينها، ثم إلى السياسات المتصلة بالأقليات المسلمة بأنماطها المختلفة، فإننا سنقتصر في هذا الموضوع على رسم خريطة التدخلات الخارجية في الصراعات المسلحة في محاولة لإبراز أنماط التدخل المختلفة باختلاف هذه الصراعات من ناحية، وقدر التغيير الذي أصاب هذه التدخلات بعد الحادي عشر من سبتمبر بالمقارنة بما قبل هذا التاريخ من ناحية أخرى، وما تحمله هذه المقارنات من دلالات ونتائج بالنسبة لدرجة وطبيعة التحديات التي تواجه عالم الإسلام والمسلمين في بداية القرن الحادي والعشرين من ناحية ثالثة، حيث إن الصراعات المسلحة والتدخلات الخارجية فيها ليست إلا بؤرة تصب فيها السياسات التدخلية على الأصعدة الأخرى، السياسية والاقتصادية والثقافية.. بعبارة أخرى فإنه لا انفصال بين القوة الصلدة والقوة الرخوة، فهما يتكاملان بتناغم شديد فيما يتصل بالقضايا الراهنة للعالم الإسلامي.

إذن ما هي خريطة هذه الصراعات وما هي خصائصها المقارنة من حيث التدخلات الخارجية عقب نهاية الحرب الباردة؟ في نفس الوقت الذي كان يشكل فيه توازن عالمي جديد في بداية التسعينات من القرن الماضي - تشكلت مقدمات صراعات مسلحة متوالية في أرجاء العالم الإسلامي في الخليج وأرجاء أخرى من العالم العربي، في البلقان، في القوقاز، في جنوب شرق آسيا، في شبه القارة الهندية وفي أفريقيا، ومن ثم تعاقبت طوال التسعينيات حروب في البوسنة، الشيشان، كوسوفا، كشمير، تيمور الشرقية، جنوب السودان، الصومال ، ناهيك عن درجات أقل من العنف المسلح، كما حدث في الجزائر ، وأزمة أكراد تركيا، وفي إقليم سيكيانج، وفي الفلبين.

وإذا كانت هذه الأنماط من العنف المسلح تختلف من حيث جذورها وأسبابها وسياقاتها الوطنية والإقليمية ومن حيث درجة ونطاق العنف المسلح، فلقد عكست أيضا أنماطا مختلفة من التدخلات الخارجية في صراعات ذات أبعاد عرقية وقومية ودينية واضحة.

مبررات وآليات التدخل

ولقد اتسم التدخل الخارجي في الصراعات الإقليمية والأهلية - بعد نهاية الحرب الباردة - بالتدخلات الجماعية الدولية، بمبادرة وقيادة أمريكية

وتحت إطار الشرعية الدولية (الأمم المتحدة) أو تحت أطر أخرى (حلف الأطلنطى)، ولقد اقترن هذا النمط بمبررات أساسية، وهى التدخل لحماية حقوق الإنسان، لاعتبارات إنسانية، لحماية منظومة القيم الغربية، لحماية حق تقرير المصير، لتخفيف عواقب الحروب على الشعوب، وإذا كانت الأداة العسكرية أداة أساسية فى تحقيق بعض هذه التدخلات إلا أنها استخدمت بدرجات مختلفة، كما تم إلى جانبها توظيف أدوات أخرى اقتصادية ودبلوماسية ، ولقد فجرت هذه الموجة من التدخلات فى هذه الصراعات ذات الأبعاد القومية - العرقية - الدينية الواضحة جدالا سياسياً وفكريا حول حقيقة الدوافع والمبررات وحول العواقب وخاصة على سيادة الدولة. وأفسح تكرار هذه الصراعات وتكرار التدخلات الدولية فى سياقات متنوعة السبيل للمقارنة على نحو يساعد فى استخلاص بعض الدلالات حول آثار هذه التدخلات على مصير الدول والشعوب المسلمة، وترجع أهمية المقارنة بين أنماط هذه التدخلات إلى حقيقة مردها أن التغييرات الراهنة فى عمليات إعادة تشكيل مناطق العالم الإسلامى منذ نهاية الحرب الباردة كانت ترتهن وتتوقف على حالة توازن القوى العالمية الجديدة الجارى تشكيلها، وعلى وضع «العالم الإسلامى» فى مخططات هذه القوى واستراتيجياتها العالمية، ومن ثم برز سؤال مهم: هل حققت التدخلات حماية حقوق الشعوب أو الدول المسلمة المعنية أم أن تكييف طبيعة هذه الحماية وسبلها كان يرتهن بقواعد لعبة المصالح الكبرى وليس القيم والاعتبارات الإسلامية؟ ومما لا شك فيه أن الإجابة على هذا السؤال تزداد وضوحاً من استدعاء خبرات التاريخ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث ان لجميع هذه الصراعات المذكورة جذوراً سابقة تأثرت أيضا بالتغيرات السابقة فى توازنات القوى العالمية وآثارها على مناطق العالم الإسلامى شرقاً وغرباً.

لكل مقال مقام

ومع ذلك فإن المقارنة بين أوضاع التسعينيات الخاصة بحالات: البوسنة، كوسوفا، الشيشان، أكراد تركيا، جنوب السودان، كشمير، تيمور الشرقية، إنما تبين ما يلى: من ناحية، اختلاف الاستجابات الخارجية ما بين مراقبة، صمت، احتواء، حركة فاعلة لتغيير الواقع أو للإبقاء على ما هو عليه، ومن ناحية أخرى التصاعد فى درجة انفراد الولايات المتحدة بقيادة التدخلات العسكرية المباشرة، ومن ناحية ثالثة إدارة مشاكل وأزمات الأمة من الخارج وبدون مشاركة فاعلة من جانب أطر الحركة الإسلامية الجماعية.

فإذا كان التدخل العسكرى باسم الشرعية الدولية وبدرجة كبيرة من السرعة والكثافة وبقيادة أمريكية قد تم خلال أزمة وحرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ١٩٩١)، ففى البوسنة وبالرغم من

وضوح العدوان الصربي ووحشيته وسعيه لتغيير الأمر الواقع من خلال سياسة تصفية وإبادة وتطهير عرقي منظمة، إلا أن التدخل الدولي في إطار الأمم المتحدة استند أساسا إلى أدوات اقتصادية وسياسية، ولم يصل توظيف الأداة العسكرية إلى ما كان مفترضا فيه من حيث الحجم والسرعة، فلقد اقتصرت القوات الدولية على مهام حفظ السلام وليس وقف الحرب ولم يتصاعد توظيف الأداة العسكرية (من خلال الناتو) إلا ببطء شديد (حصار جوي مناطق آمنة) وصلا إلى ضربات الناتو لمواقع صربية محدودة، ومن ثم لم تكن اتفاقية دايتون إلا تكريساً للواقع الجديد الذي فرضته القوة الصربية.

وفي حالة كوسوفا: حدث تدخل عسكري كثيف من جانب الناتو بقيادة أمريكية، وهو وإن لم يتأخر - كما حدث في البوسنة - إلا أنه صاحبه تفاقم مأساة شعب كوسوفا الذي عايش - خلال شهور الضربات العسكرية - أكبر عملية تهجير شهدها القرن العشرون، وفي المقابل كانت ضربات الناتو ضد صربيا ضرورة لتحقيق أهداف استراتيجية حيوية في جنوب شرق أوروبا.

أما في الشيشان: فلم يحدث بالطبع تدخل عسكري ضد روسيا أو تدخل سياسي بأدوات ضغط غير عسكرية.. ففي مواجهة الاستخدام الروسي العنيف للقوة العسكرية في تدمير جروزني عام ١٩٩٤ (خلال الحرب الشيشانية - الروسية الأولى) أو في تدمير قواعد المقاومة الشيشانية (خلال الحرب الثانية منذ ١٩٩٩)، لم تواجه روسيا إلا الإدانات الشفوية الواهية لانتهاكها حقوق الإنسان في الشيشان.

وفي كشمير: وحين اندلعت أزمة صيف ١٩٩٩ (كارجيل وما تلاها من تطورات) في ظل تداعيات توازن القوى العسكرية الجديد بين الهند وباكستان عقب تفجيراتهما النووية في صيف ١٩٩٨، ثارت التساؤلات حول أهداف باكستان تجاه تدويل القضية وحول مآل الجولة الراهنة من مقاومة مقاتلي كشمير ومطالبهم، ولكن جاءت ردود الفعل السلبية في داخل باكستان تجاه اتفاق واشنطن بين نواز شريف والولايات المتحدة ليبين آثار الضغوط الاقتصادية والسياسية التي مارستها الولايات المتحدة على باكستان بصدد مساندتها لكشمير.

وحول جنوب السودان: استمرت المواجهات بين النظام السياسي (الإسلامي) وبين القوى الغربية واتخذ التدخل شكل الحصار والعقوبات وشكل توظيف ورقة انفصال الجنوب، وفي ظل الحرب في الجنوب والتوازنات الإقليمية حولها ارتفعت التقارير المهددة بتدخل عسكري دولي لوقف انتهاكات حقوق الإنسان في جنوب السودان.

وبصدد تيمور الشرقية ظلت القضية ساكنة منذ ١٩٧٥ وتزامن تفجيرها مع تداعيات الأزمة المالية في جنوب شرق أسيا على الكيان الإندونيسي برمته: النظام الاقتصادي والنظام السياسي

ووحدة أراضيه والسلام بين طوائفه، وكان قبول الحكومة الإندونيسية بإجراء استفتاء على الحكم الذاتي أو الاستقلال ثم إعلانها قبول الاستقلال ثم قبولها التدخل الدولي العسكري (في إطار الأمم المتحدة وبقيادة أسترالية) لوقف دائرة العنف بين المسلمين والأغلبية المسيحية في الإقليم، كل هذا يقدم مؤشرات عن ماهية الضغوط الاقتصادية والسياسية التي واجهتها إندونيسيا.

وبشأن أكراد تركيا: فخلال تفجر أزمة عبدالله أوجلان ومنذ الأزمة التركية - السورية ١٩٩٨ لم تستخدم القوى الأوروبية القضية الكردية في تركيا إلا كذريعة لعدم قبول عضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، ولم يتم الضغط على تركيا بورقة حقوق الإنسان للوصول إلى حلول تفاوضية تحفظ لأكراد تركيا حقوقهم الذاتية، بل إن تركيا أضحت منذ نهاية الحرب الباردة طروادة الغربي في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والقوقاز.. وفي نفس الوقت استمر توظيف ورقة أكراد العراق والتدخل الدولي باسم الاعتبارات الإنسانية لحمايتهم في شمال العراق، وذلك خلال عملية المواجهة المستمرة مع النظام العراقي منذ ١٩٩١.

«جملة القول إن الحالات السابق عرضها تشترك في قسمات عدة منها: أنها قضايا ذات أبعاد قومية أو عرقية أو دينية واضحة الدلالة، أنها ذات جذور تاريخية ممتدة وسبق انفجارها في شكل عنف مسلح في مراحل سابقة، إنها في صميم إعادة تشكيل توازنات مناطق العالم الإسلامي، أنها تعكس قدر التأثر بالتغيرات في التوازنات العالمية، وهي أخيراً تطرح بصورة أو بأخرى - قضية العلاقة بين عالم الإسلام والمسلمين وبين القوى الكبرى القائدة للنظام الدولي، ولذا فهي من أهم أسباب ومؤشرات تجدد الاهتمام بوزن ودور البعد الثقافي - الحضاري - العقيدي في التفاعلات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة إلى بعد نهاية الصراع العالمي بين الأيديولوجيات.

وبقدر ما كانت الحرب الباردة نقطة تحول في ماهية الصراعات الإقليمية أو الداخلية التي قفزت على الساحة العالمية، وعلى نحو استدعى للصدارة مناطق العالم الإسلامي انطلاقا من أبعاد عرقية أو قومية أو دينية، بقدر ما كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها على الأمة الإسلامية كاشفا ومؤكداً لإرهاصات العقد الأخير من القرن العشرين حول ما أضحى عليه وزن البعد الثقافي - الحضاري - العقيدي من محورية في تفسير التفاعلات الدولية من ناحية وحول ما وصلت إليه أطماع الهيمنة الأمريكية بعد سقوط عصر الثنائية القطبية من ناحية أخرى.

فلقد كانت الهجمات على نيويورك وواشنطن (بالنظر إلى آليات تنفيذها والجدال حول أهدافها والمنفذين لها) نتاجا وتعبيرا في نفس الوقت عن

محصلة السياسات الأمريكية العالمية القائدة والموجهة لسياسات العولمة والمحددة لإيديولوجيتها.. فهى السياسات والأيديولوجيات التى سعت لإعادة تشكيل موازين القوى العالمية والإقليمية بعد نهاية الحرب الباردة وفى ظل منجزات الثورة الاتصالية والمعلوماتية على صعيد القوة الأمريكية، وعلى النحو الذى يرسخ دعائم الهيمنة الأمريكية.

ولقد أكدت تداعيات هذه الهجمات - منذ حدوثها وحتى الآن مروراً بكل السياسات الأمريكية التى أعقبتها، والتى توظف كل الأدوات العسكرية، والسياسية والاقتصادية والثقافية فى تناغم شديد لإدارة ما يسمى الحرب الدولية ضد الإرهاب . أكدت هذه التداعيات أن الأمة الإسلامية قد أضحت فى قلب عمليات إعادة تشكيل موازين القوى العالمية والإقليمية ، فلقد أضحى وضع الأمة الإسلامية فى بداية القرن الحادى والعشرين ساحة تتجدد حولها وعليها اختبارات مقولات «صراع الحضارات» ومقولات التهديد الإسلامى للغرب فى مقابل مقولات «الحرب الصليبية» والمؤامرات على الإسلام المسلمين.

أشكال التدخل العسكرى

وتبرز من قلب هذه المقولات خطورة التحديات الحضارية الثقافية التى أضحت تواجه الأمة من جراء التدخلات الخارجية بقيادة أمريكية، وهى التدخلات التى انكشفت على أكثر من صعيد، لعل من أوضحه - وإن لم يكن أكثر خطورة - التدخل العسكرى المباشر .

فمن ناحية لم يعد التدخل العسكرى الأمريكى تدخلاً فى إطار الشرعية الدولية (الخليج ١٩٩١) أو فى إطار (الناتو) وبدون قرار من الشرعية الدولية (كوسوفا ١٩٩٩) ولكنه أضحى تدخلاً مباشراً أو منفرداً (العدوان على أفغانستان) أو مباشراً ومنفرداً وضد إرادة الشرعية الدولية (العدوان على العراق واحتلالها) ولقد أضحى خطاب القيادة الأمريكية خطاباً عن القوة العسكرية والحرب مجدولاً بخطاب منظومة القيم التى ترفع شعارها الإدارة الأمريكية اليمينية المتحالفة مع اليمين الدينى البروتستانتى المتشدد، وهو الأمر الذى يبرز ما أضحى عليه التداخل الشديد بين الأبعاد الثقافية العقدية والأبعاد الاستراتيجية فى السياسة الأمريكية تجاه عالم الإسلام والمسلمين وما زال الجدال دائراً بين من يرون أن الأبعاد الثقافية- العقدية أضحت محركا ومحدداً لهذه السياسة ومن يرون أنها ليست إلا حجة أو ذريعة تخفى الدوافع الحقيقة ألا وهى الدوافع الاستراتيجية المتصلة باستكمال حلقات الهيمنة الأمريكية سواء فى آسيا الوسطى أو الخليج والشرق الأوسط .

وفى مقابل صعود التدخل العسكرى المباشر فى حالتى أفغانستان والعراق، وتحت وطأة متطلبات ما يسمى التحالف مع الولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب الدولى تراجعت الاعتبارات الإنسانية وحقوق الإنسان المتصلة بقضايا الشيشان وكشمير ناهيك عن حقوق تقرير المصير، واحتجبت من جديد قضايا مسلمى سيكيانج والفلبين وكذلك

دخلت القضية الفلسطينية مرحلة جديدة من تطورها منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، فإذا كانت هذه القضية والصراع العربي الإسرائيلي بصفة عامة - في قلب سياسات الحرب الباردة وتصفيتها ثم انتهائها طوال نصف قرن - إذا كانت عملية التسوية السلمية قد تم تدشينها في مدريد ١٩٩١ ثم تمت إدارتها في ظل إجراء الحرب الأمريكية ضد الإرهاب حيث تطابقت الخطابات الأمريكية والإسرائيلية وكذلك سياساتهما في مواجهة قوى المقاومة الفلسطينية وضد حق تقرير مصير الشعب الفلسطيني .

ومن ثم يمكن القول إن التدخلات العسكرية الأمريكية في أفغانستان والعراق ليست إلا وجهاً لعملة وجهها الآخر هو ما يجرى فى فلسطين والأركان الثلاثة هى أركان عملية إعادة رسم خريطة قلب العالم الإسلامى بالقوة العسكرية الأمريكية والإسرائيلية بعبارة أخرى منذ اليوم الأمريكى (٢٠٠١/٩/١١) وما تلاه مباشرة أى اليوم الأفغانى (٧ / ١٠ / ٢٠٠١) توالت أيامنا ذات الدلالة فلقد وقع اليوم الفلسطينى مع الاجتياح العسكرى الإسرائيلى للضفة الغربية وسلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى ٢٨ / ٣/ ٢٠٠٢ كما وقع يوم مسلمى الولايات المتحدة فى ٢٢ / ٣/ ٢٠٠٢ مع غارة الأجهزة الأمريكية المتضافرة (المباحث الفيدرالية، المخابرات، الجمارك) على مؤسسات إسلامية رائدة في واشنطن وفرجينيا، ثم وقع اليوم العراقى (٢٠ / ٣/ ٢٠٠٣) ولم تخف جسامة هذه الأيام الكبرى - والتى تجلى على صعيدها تحالف صهيونى أمريكى فى أوضح وأعمق درجاته - تداعيات اليوم الأمريكى متعددة الأبعاد فى بقية أرجاء الأمة.

ومن ناحية أخرى تتعاضد مع العملية العسكرية وتتكامل معها تدخلات أخرى . وهى التدخلات المرتبطة بالأبعاد غير العسكرية لما يسمى «الحرب ضد الإرهاب» وهي الأبعاد الخاصة بضغوط إعادة تشكيل المجتمعات العربية والإسلامية تحت مسمى تجفيف جذور ومنابع الإرهاب وهى الضغوط التى تظهر جليا فى مواجهة الحركات الإسلامية، المجتمع المدنى الإسلامى وخاصة هيئات الإغاثة الإسلامية، نظم التعليم الدينى حقيقة لم تنفصل الأدوات الثقافية عن نظائرها الاقتصادية والعسكرية والسياسية طوال تاريخ تطور الهجمة الأوروبية الحديثة على العالم الإسلامي، ولكن بعد إتمام السيطرة على الأرض والثروة أضحت مساحة الثقافة والحضارة ساحة هجوم خطيرة فى ظل عمليات العولمة الراهنة التى لاتعكس مجرد تدخلات خارجية ولكن اختراق واجتياح الخارجي للداخلي وللنطاقات الثقافية - الحضارية ويتناغم شديد واندماج واضح مع الأدوات السياسية والاقتصادية والعسكرية للتدخلات ذلك الأن المرحلة الراهنة من تطور النظام العالمى هى المرحلة التى تقود فيها الولايات المتحدة المعركة لاستكمال تنمبط العالم ليس اقتصادياً فقط على النمط الرأسمالى، أو سياسياً فقط على نمط الديمقراطية البرلمانية ولكن أيضا فى

إطار منظومة القيم الأمريكية ولن يكتمل الانتصار الاقتصادى والسياسى بدون الثقافى - الحضارى، بل أن الفشل الأمريكى على الساحة الثقافية - الحضارية - من جراء المقاومات والممانعات الحضارية - من شأنه أن يحمل إمكانات نمو مراكز قوة عالمية بديلة، وهنا تواجه الأمة - ليس تحديات العدوان العسكرى المباشر وغير المباشر، ولكن تواجه تحديات إزالة الضباب عن مفهوم الأمة وعن مفهوم الجهاد تحديات تحديد الخطابات الدينية ونظم التعليم الدينية لحاجاتها لهذا التجديد بغض النظر عن الضغوط الخارجية بصددها، تحديات تجديد أهداف الحركات الإسلامية وأدواتها وسبل مشاركتها فى التغيير السياسي والمجتمعي، تحديات ألا نجعل تاريخ الحادى عشر من سبتمبر إساراً لإدراكنا بأننا المتهمون وأن الولايات المتحدة فى موقف رد الفعل والدفاع، ومن ثم تحديات تحرير مدركاتنا ومصطلحاتنا ومفاهيمنا فتستدعى : التحرير، المقاومة، الاستعمار العدوان فى مقابل السائد الآن : الإرهاب، الآخر، السلام، الأقليات.

ومن ناحية ثالثة وأخيرة : قفز إلى دائرة الاهتمامات وضع الأقليات المسلمة فى الغرب وهى تختلف عن أقليات أخرى من حيث النشأة ومن حيث طبيعية المشاكل التى تواجهها ومن ثم من حيث مجالات حركتها ومطالبها فبعد أن أحرز الوجود المسلم فى أوروبا والولايات المتحدة خلال العقد الأخير من القرن العشرين بصفة خاصة - مكاسب جعلته ذا حضور ملموس ويقترب من الاندماج فى المجتمعات الجديدة، وبعد أن أضحى يمثل زخماً فى مساندة قضايا الأمة وخاصة جانب الإغاثة الإنسانية وجانب الدعوة الإسلامية فى الغرب، فإذا بأحداث الحادى عشر من سبتمبر تضع على المحك كل هذه الإنجازات بل ويتعرض الوجود المسلم فى الغرب لضغوط جديدة. فلقد مثلت الإجراءات الأمنية وسياسات الهجرة الجديدة التى شرعت فى تطبيقها الحكومات الغربية تحت مبرر مكافحة الإرهاب، مثلت تحدياً خطيراً لهذا الوجود، بقدر ما مثلت تحدياً لنموذج الحريات المدنية وحقوق الإنسان فى المجتمعات الغربية.

ثمرات التدخل ونتائجه

خلاصة القول : تمثل نهاية الحرب الباردة، وأحداث الحادى عشر من سبتمبر، والاحتلال الأمريكى للعراق ثلاث محطات أساسية اختبرت أنماط التدخلات الخارجية فى العالم الإسلامى، سواء تجاه الصراعات المسلحة أو سواء الأبعاد المجتمعية والسياسية الداخلية ويتضح من الخط العام لتطور هذه التدخلات بأنماطها المختلفة النتائج التالية :

من ناحية : اتجاه الولايات المتحدة للانفراد بإدارة هذه الصراعات على النحو الذى يبرز أثر الإدارة الأمريكية الراهنة على عسكرة السياسة الأمريكية بصورة كبيرة ومن ناحية أخرى: تمتزج الأبعاد الثقافية - العقدية مع الأبعاد الاستراتيجية التقليدية فى خطابات وسياسات الإدارة الأمريكية الراهنة،

على نحو يبين كيف يحتل عالم الإسلام والمسلمين موضعاً فى الاستراتيجية الأمريكية العالمية فى مرحلة ما بعد نهاية الحرب الباردة والقطبية الثنائية .

ومن ناحية ثالثة : يتضح من أنماط التدخل المختلفة مصداقية مقولة المعايير المزدوجة لدى الإدارة الأمريكية المتتالية، وعلى نحو يبين أنه لم يعد مقبولاً الحديث عن نظرية المؤامرة، لأن المؤشرات والأدلة الظاهرة من واقع السياسات الغربية المتراكمة هى أصدق تعبيرا من حديث المؤامرة .

ومن ناحية رابعة : لم يعد التحالف الصهيوني الأمريكي قاصراً على النطاق الفلسطيني والعربي ولكن اتسع وامتد للنطاقات المجاورة القريب منها والبعيد : التعاون الإسرائيلي التركى ليست إلا من قبيل الأمثلة الظاهرة الآن، والتى تجتمع تحت راية ما يسمى الحرب الدولية ضد الإرهاب .

ومن ناحية خامسة : لايقتصر التدخل العسكرى على نمط التدخل المباشر بالقوة العسكرية ولكن يتضح أيضا فيما يتصل بالقيود المتراكمة على تسليح الدول العربية والإسلامية ولعل الضغوط المستمرة والمتصاعدة على القدرات النووية الإيرانية» طوال عام مضى أحدث النماذج الصارخة بعد نموذج أسلحة الدمار الشامل فى العراق :"

ومن ناحية سادسة : مشاكل وأزمات الأمة يتم إدارتها من الخارج فى ظل سياسات تفكيك العلاقات الإسلامية - الإسلامية وبعيداً عن أطر الحركة الإسلامية الجماعية . فإلى جانب ميراث التجزئة القطرية وهو الميراث الأول من الاستعمار تراكمت تحديات العمل الجماعي الإسلامي وتتجسد هذه التحديات في أشكال عدة مثل القيود على فعالية منظمة المؤتمر الإسلامى وخاصة فى إدارة أزمات الأمة وصراعاتها، تنازع الأدوار بين دول الأركان الكبرى وهى مصر وإيران وتركيا والسعودية وباكستان وماليزيا، التحالفات مع الأخرى على حساب التحالفات الإسلامية - الإسلامية تعبيراً عن صراعات المصالح القومية، الاتجاه نحو الانضمام إلى الترتيبات الإقليمية وغير الإقليمية كبديل عن الأطر الجماعية الإسلامية والعربية القائمة، الصمت أو المراقبة للتدخلات الخارجية بأدوات مختلفة فى بعض الدول العربية والإسلامية، تحديات تنمية العلاقات عبر القومية لإعادة بناء الوحدة من القاعدة إذا كان يتعذر بناؤها من القمة السياسية .

أخيراً فإن تداعيات هذه السلسلة المتتالية من التدخلات، منذ نهاية الحرب الباردة، والتى تجلت على صعيد عالم الأفكار وعالم المؤسسات وعالم الأحداث فى الأمة، لتبرز جميعها عمق ما وصلت إليه أزمة المسلمين، وعلى نحو أضحت معه الحاجة ماسة للبحث عن مؤشرات الممانعة والمقاومة فى مقابل دعوات الانهزامية باسم العقلانية والرشادة والبراجماتية والواقعية .

■

العالم الاسلامي

جولة .. في بلاد الصين

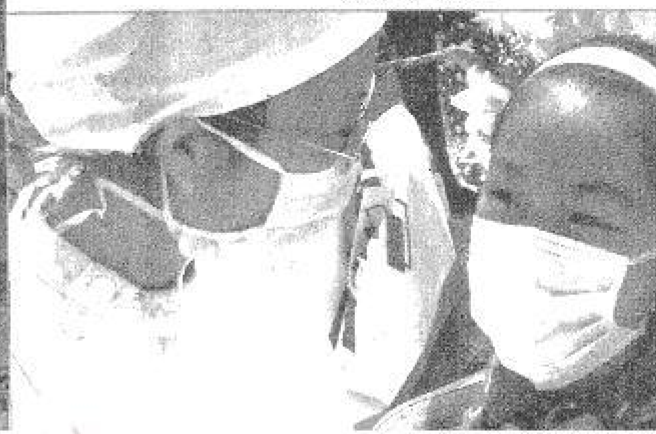
ماذا بقي بعد محنة (السارس)

وهواجس العنف في تشينجيانج الإسلامية ؟!

بقلم

محمود أحمد





عندما أقلعت بنا الطائرة من «أورمتشي» ، عاصمة منطقة «تشينجيانج» ، في مطلع شهر أكتوبر الماضي ، كان أهالي المنطقة يتهيأون لاستقبال شهر رمضان. ورغم أن المسلمين في الصين ينتمون عرقيا إلى عشر قوميات مختلفة ، أهمها الإيجورية والقازاقية والهوا والطاجيكية والأوزبكية والتتارية فإن المناسبات الدينية الكبرى - وفي مقدمتها الاحتفال بحلول شهر رمضان - تجمع بينهم وتشجعهم على توثيق أواصر العلاقات .. خاصة في المناطق التي يشكلون فيها أغلبية ملحوظة ، وأهمها «تشينجيانج» .

ولا أخفي أن هذه الزيارة السريعة إلى الصين كانت تحف بها، قبل أن تبدأ، هواجس عديدة.. في مقدمتها أن المنطقة كانت خارجة لتوها من محنة مرض الالتهاب الرئوي الحاد اللانمطي «السارس» الذي روعها وأثار قلقا ومخاوف في العالم كله.

ونحن نعلم الآن أن الوباء كان أكثر فتكا في الصين حيث بلغ عدد المصابين به ٥٣٢٧ شخصا كما حصد أرواح ٣٤٩ من الصينيين.

وكان من بين الهواجس ، أيضا ، أن برنامج الزيارة كان يتضمن جولة في «تشينجيانج» تلك المنطقة البعيدة في أقصى شمال غربي الصين والتي تلوح لنا وكأنها أقصى الأرض! فزيارة المنطقة ستعني التلامس مع واحدة من القضايا الحساسة بالنسبة للصين وحكومتها التي لا تخفي غضبها إزاء محاولات بعض الدول والمنظمات في الغرب لاستغلال التقلصات العرقية والدينية في المنطقة - وإن كانت قد خفت حدتها كثيرا الآن - وإظهارها على أنها دليل على «الانتهاكات» التي تمارس لحقوق الإنسان في الصين.

على أنه ينبغي أن ننبه إلى أن هذه «الهواجس»، مهما تضخمت، لا يجوز أن تطغى على المشهد العام الذي يتجلى لأي زائر للصين اليوم، فالمؤكد أن هذه البلاد المترامية، تعيش هذه السنوات مرحلة تحول كبرى بدأت نتائجها تظهر للعيان بوضوح كما بدأت تشي ببزوغ قوة كبرى على المسرح الدولي لابد وأن تفرض نفسها في مستقبل قريب قد لا يتعدى عقدين أو ثلاثة عقود.

إلا أن هذا التحول، وتأثيراته وانعكاساته على الحياة في الصين اليوم، له حديث يطول. وربما يكون من الأفضل أن نفرغ أولا من تلك «الهواجس» التي خيمت على الزيارة في بدايتها.. على أمل التفرغ بعد ذلك للحديث الذي قد يطول .

تخطي محنة الوباء

فيما يتعلق بمرض «السارس»،



إسماعيل تلوالدي
حاكم « تشينجيانج»



عبد الغفور نائب رئيس المعهد
الاسلامي في أورومتشي ..

سرعان ما هدأت الهواجس عندما ظهر لنا بجلاء أن الصين قد استطاعت التغلب على المحنة وتجاوز الأزمة ، وهو ما يعكسه شعوراً هو مزيج من الارتياح والزهو.. على ضوء ما أبداه البعض من أن الاقتصاد الصيني - الذي يحقق منذ سنوات نموا مدهشا بكل المعايير - سيواجه عثرات وكبوات قد لا يمكن من مواجهتها وتحمل عواقبها. ولكن الأرقام الرسمية تشير إلى أن أداء الاقتصاد الصيني، بعد تجاوز المحنة ، استمر بمعدلات عالية قد تصل إلى ثمانية بالمائة - أو تزيد - هذا العام الذي هو عام الوباء! ومع ذلك، فإن التصدي للمحنة لم يكن سهلا. فبالإضافة إلى العوامل النفسية التي نجمت عن الرعب الجماعي أمام المرض، كانت هناك أيضا مخاوف عميقة إزاء ما يمكن أن يسببه الوباء من تأثيرات لعل أهمها الإحجام من جانب العالم الخارجي عن التعامل مع الصين بصورة طبيعية.. بما يعنيه ذلك من عرقلة للنشاط التجاري الذي يحقق للصين فوائض هائلة تدفع عجلة التنمية بقوة وسرعة وتغير وجه الحياة على أرض هذه البلاد ذات المساحة الهائلة والكتلة السكانية التي يصل حجمها إلى مليار وثلاثمائة مليون من البشر.

وهكذا ، فقد كان لابد من خوض مواجهة هائلة مع الوباء الغامض، بحشد كل طاقة الإصرار والدأب المعروفة عن الصينيين، واستنادا إلى مزايا الانضباط والالتزام الصارمين اللذين زرعهما الحزب والنظام الحاكم على مدى العقود التي شغلت النصف الثاني من القرن العشرين، ولم يهدأ هذا الحشد أو يفتر حتى أمكن تجاوز المحنة، وإن كانت هناك بعض العوامل التي تدفع الحكومة إلى الاطمئنان إلى حد ما حتى الأوقات التي بلغ فيها الخطر ذروته. وكما قال لنا أحد المسئولين الصينيين، فإنه كان هناك إدراك لحقيقة أن للاقتصاد الصيني قدرة على تجاوز المخاطر التي تتهدده.. حتى لو تقطعت بعض السبل أو سدت بعض القنوات التي تربط الصين بالاقتصاد العالمي . فالسوق الصينية - ذات المليار والثلاثمائة مليون مستهلك -

تضمن للمنتج الصيني، المعروف بجودته ، بديلا محليا يمكنه تعويض السوق الدولية بدرجة كبيرة. ومع ذلك، فإن إدراك هذه الحقائق لم يحمل المسئولين على التهاون أو التخفيف من الصدمة والجدية في مواجهة الخطر. وكانت إقالة وزير الصحة وعمدة بكين، لفشلهما في التعامل مع مشكلة «السارس»، بمثابة رسالة واضحة إلى المسئولين على كافة المستويات بأنه لن يكون هناك تهاون إزاء أي تقصير أو تقاعس.

ومع ذلك ، ورغم الارتياح الذي خلفه النجاح في التغلب على محنة «السارس»، فإن المسئولين الصينيين يشيرون إلى بعض الصعوبات والآثار السلبية التي تخلفت عن هذه التجربة القاسية والمخيفة.. منها ، مثلا ، تفاقم مشكلة البطالة نتيجة لإقدام بعض المؤسسات على تسريح نسبة من العمالة بها وعدم قدرة القطاع العام على استيعاب العمالة الجديدة التي تخرج للسوق كل عام . وقد دفع الإحساس بخطورة هذه المشكلة، اقتصاديا واجتماعيا، مسئولا صينيا كبيرا هو نائب رئيس مجلس الدولة «هوانج جيوي» إلى أن يعلن ، أثناء جولة له في عدد من المقاطعات لتفقد الآثار الناجمة عن المرض، أن الحكومة الصينية تدرك بشكل خاص أهمية وخطورة الأبعاد الاجتماعية والأمنية والسياسية التي قد تسببها مشكلة البطالة. وقد حثت الحكومة المركزية الإدارات المحلية على تنفيذ سياسات لتفضيل استخدام العمالة المسرحة وتقديم القروض الميسرة وتخفيض الضرائب لتشجيع المشروعات الصغيرة.

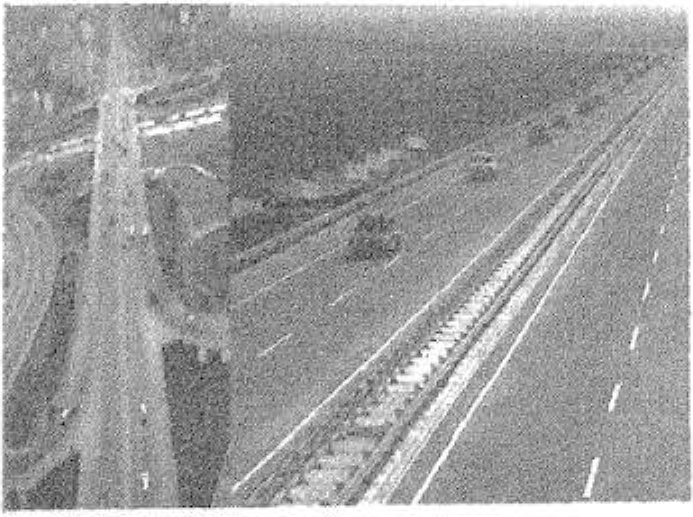
التنمية .. والعنف المرفوض

أما ملامسة قضية الأقليات والأديان، ذات الحساسية العالية خاصة لدى المسئولين الصينيين، فقد كانت حتمية طالما أن برنامج الزيارة قد تضمن قضاء أربعة أيام في مقاطعة «تشينجيانج» التي تضم ٤٧ قومية مختلفة من بينها أقليات كبيرة تدين بالإسلام. وهنا يجب أن نشير أن إثارة القضايا الدينية والعرقية، والدخول في مناقشات حولها مع بعض المسئولين في الإقليم، كان لابد وأن تدفعنا أيضا إلى التطرق إلى قضايا التنمية والتحديث في هذه المناطق المتخلفة نسبيا.. وذلك باعتبار أن التنمية والازدهار الاقتصادي والتحديث هي التي ستحقق بشكل حاسم تحسنا في حياة الناس وتوفر الثقة في مستقبل أفضل.. وبالتالي فإنها تؤدي إلى القضاء على التقلصات الاجتماعية والسياسية، وأيضا الدعاوى بتعرض الأقليات إلى «انتهاكات لحقوق الإنسان».

وفي لقاء مطول مع محافظ «تشينجيانج» وحاكمها الإقليمي - باعتبارها واحدة من خمس مناطق تتمتع بالحكم الذاتي في الصين - ظل المحافظ «إسماعيل تلوالدي» يلح مرارا وتكرارا على أن توفير الأمن والاستقرار شرط لازم لتحقيق النجاح المنشود للتنمية

والازدهار الاقتصادي.

وما استغرق شرحه لهذه النقطة بالذات أكثر من ساعة خلال اللقاء، وارتفعت نبرة صوته وهو يؤكد المرة تلو الأخرى على أنه لن يكون هناك تهاون أمام أية أعمال عنف أو تمرد على نحو ما جرى قبل عدة سنين عندما شهدت المنطقة هجمات على حافلات وتفجير مبان في أنحاء متفرقة في «تشينجيانج»



يركز المسئولون في «تشينجيانج» على التنمية ..فهي القادرة على تغيير وجه الحياة في المنطقة

وشدد المحافظ على أن العنف مرفوض، وأنه لابد وأن يواجه بقوة وحسم أيا كانت الدعاوى الخارجية، وإن حرص على أن يشير أيضا إلى أن السنوات الأخيرة لم تشهد أية حوادث تذكر.

في سياق تأكيده على أهمية التنمية في الإقليم، ذكر لنا «إسماعيل تلوالدي» أنه عندما أنهى دراسته الثانوية في مسقط رأسه ببلدة «كاشجار» - أو «قشقر» (وقد أتيحت لنا زيارتها أيضا) - وأراد التوجه إلى «أورمتشي» عاصمة الإقليم للالتحاق بالجامعة، فإن الرحلة استغرقت سبعة أيام كاملة. لم تكن هناك وسائل نقل جوي، ولم تكن الطرق معبدة بما يكفي، وكانت الحافلات والسيارات بعيدة المنال في أغلب مراحل الرحلة مما دفعه إلى استخدام الدواب أحيانا والسير على قدميه أحيانا أخرى. أما اليوم، فإن رحلات الطائرات المتعددة يوميا بين «كاشجار» والعاصمة «أورمتشي» لا تستغرق أكثر من ساعة وبعض الساعة، ويمكن قطع المسافة بالسيارة في أقل من يومين.

ولا جدال في أن إقليم «تشينجيانج» قد حقق بالفعل تطورا ملموسا خلال العقدين الماضيين وقفز قفزة كبيرة استطاعت أن تغير وجه الحياة إلى حد كبير لسكان الإقليم، ولكنه لايزال يتخلف عن المناطق الغربية والجنوبية في الصين التي سبقته بخطوات واسعة. ورغم اتساع مساحته التي تتجاوز المليون و٦٠٠ ألف كيلو متر مربع - أي سدس مساحة الصين الإجمالية تقريبا - فإن عدد سكانه لا يكاد يصل إلى العشرين

مليون نسمة.. أى واحد إلى ستين من مجموع سكان البلاد. وطبقا لسياسة واعية وتخطيط يتسم بالمرونة فى مجال تنظيم الأسرة، تسمح الحكومة الصينية للأسرة الواحدة فى المناطق قليلة السكان بانجاب ثلاثة أطفال (فإذا جاءت الذرية كلها من الإناث منحت الأسرة فرصة رابعة لإنجاب صبى) مقابل طفل واحد للأسرة فى المناطق كثيفة السكان . ومع ذلك، فإنه رغم قلة عدد السكان، والنجاح النسبى فى الأداء الاقتصادى والذى وصل بالناتج المحلى الإجمالى إلى ما يزيد على ١٨ مليار دولار فى سنة ٢٠٠١ حسب الأسعار الثابتة، فإن الأرقام الرسمية تشير إلى أن هناك هوة واسعة لاتزال تفصل بين المواطن فى «تشينجيانج» (حيث لا يكاد متوسط دخل الفرد يتجاوز تسعمائة دولار سنويا) والمواطن فى المناطق الصينية الأخرى الأكثر تقدما ونموا فى الغرب والجنوب (فى شنغهاى، مثلا، وصل متوسط دخل الفرد إلى خمسة آلاف دولار ويتوقع أن يرتفع خلال ثلاث سنوات إلى ٧٥٠٠ دولار سنويا). وتعتمد المنطقة على مواردها الذاتية من النفط والمعادن، وأهمها الذهب والأحجار الكريمة ، والثروة الزراعية - وأهمها القطن طويل التيلة الذى يصدر إلى المناطق الأخرى وإلى الخارج كذلك - والفواكه والمحاصيل الزراعية الأخرى وتربية المواشى.

ومع أن «تشينجيانج» قد استطاعت أن تحقق طفرة فى توفير الموارد الذاتية اللازمة لتنفيذ خطط التنمية، فإنها لاتزال تعتمد على دعم الحكومة المركزية.. خاصة فى أوقات الأزمات والكوارث الطبيعية. فعندما حلت بالبلاد محنة «السارس» اعتمد الإقليم على الدعم الذى وفرته الحكومة لتنفيذ إجراءات الحماية والوقاية من المرض بتكاليف بلغت ثلاثمائة مليون «يوان».. أى حوالى أربعين مليون دولار . وقبل ذلك، كما يقول «إسماعيل تلوالدى» ، ضرب المنطقة زلزال، فى أواخر شهر فبراير الماضى ، فقتل العشرات وجرح المئات وشردت عشرات الآلاف من الأسر.. وسارعت الحكومة المركزية بتقديم دعم وصل إلى نحو أربعمائة مليون «يوان».

وعموما ، فإن هذا التفاوت فى مستوى المعيشة بين «تشينجيانج» والمناطق الأخرى هو الذى يزيد الشعور بالحاجة إلى ضرورة مضاعفة الجهد فى مجال التنمية .. وهو أيضا ما يجعل المحافظ وغيره من المسئولين يتشددون على أهمية عامل الأمن والاستقرار، اللذين لا يمكن بدونهما التفرغ لتحقيق التنمية المنشودة ، والتعبير فى كل مناسبةٍ عن الإصرار على مواجهة أى عنف بقوة وحزم فى حالة وقوعه.

القوميات .. وجذور «الانفصالية»

ولكن ، ما هى حكاية النزعات الانفصالية لبعض القوميات فى هذه القضية من بلاد الصين المترامية والتى أثارت الاتهامات من جانب هيئات وجماعات حقوق الإنسان وبعض دول

الغرب بأن حكومة الصين تمارس القمع إزاء بعض القوميات وتنتهك حقوقها ؟

بداية، يجب أن نشير إلى أن الصين تضم ٥٨ قومية مختلفة ، كبراها قومية الـ «هان» السائدة في مختلف أنحاء البلاد، ومن بين هذه القوميات تقطن إقليم «تشينجيانج» ٤٧ قومية منها. وتعتبر القومية «الإيجورية» التي يعتنق أبناؤها الدين الإسلامي في غالبيتهم ويكتبون لغتهم الخاصة بحروف عربية، هي القومية الأكبر عددا في الإقليم حيث تزيد في عددها على الثمانية ملايين بنسبة إلى ٤٧٪ تقريبا من مجموع السكان.. ولهذا السبب أعطت هذه القومية اسمها للإقليم الذي أطلق عليه رسميا اسم «منطقة تشينجيانج الإيجورية ذات الحكم الذاتي». ويقع الإقليم في قلب آسيا الوسطى و تشترك حدوده التي يبلغ طولها ٥٦٠٠ كيلو متر ، مع ثماني دول مجاورة هي أفغانستان .. وباكستان .. والهند .. ومنغوليا .. وروسيا .. وقيرغيزستان.. وقازاخستان وطاجيكستان. وبسبب هذا الموقع ، ولأن المنطقة تعد نقطة رئيسية يمر بها «طريق الحرير» الشهير الذي قطعته جحافل الجيوش وقوافل التجار بلا انقطاع على مدى القرون.. فإن هذا الإقليم الفريد في موقعه بين الوطن الصيني الكبير والجوار الآسيوي الزاخر بالأعراق والجنسيات والقوميات، كان دائما عرضة لموجات من المهاجرين والغزاة ، ظل مهدا لقيام ممالك مستقلة أو ولايات ملحقة حتى انتهى الأمر به إلى الالتحاق بشكل نهائي بدولة الصين الحديثة، وكان ذلك في ٢٥ سبتمبر عام ١٩٤٩.. وبعد خمسة أيام من هذا التاريخ شارك أهالي «تشينجيانج» باقي شعب الصين في الأول من أكتوبر بالاحتفال بقيام ما أصبح يعرف باسم «جمهورية الصين الشعبية».

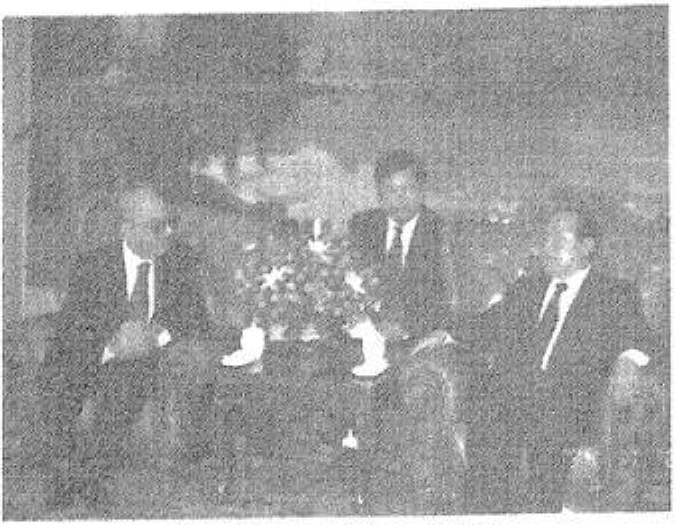
غير أن هذه كانت نهاية لقصة طالت فصولها . فقد سجل التاريخ لهذه المنطقة وما حولها قضية عرفت لأمد طويل باسم «مسألة تركستان الشرقية». والواقع أن المفهوم الجغرافي لكلمة تركستان كان دائما شديد الغموض، ولم يكن هذا التعبير يستخدم أساسا في السجلات والكتابات التاريخية لفترة طويلة من الزمن، إلى أن عادت تسمية «تركستان» لتظهر من جديد في مستهل القرن التاسع عشر في فترة تزامنت مع تعميق التوسع الاستعماري في آسيا الوسطى عموما. وقد تحددت التسمية في تقرير للروسي «تيمكوفسكي» وهو يدعو إلى إرسال بعثة دبلوماسية إلى المنطقة التي تضم جزءا من آسيا الوسطى يشمل أيضا حوض نهر «تاريم» في جنوب إقليم «تشينجيانج» الصيني. وفي أواسط القرن التاسع عشر ، ضمت روسيا عدة أقاليم في هذه المنطقة تباعا وأقامت ما أطلقت عليه اسم «منطقة حاكم تركستان» في الجزء الأوسط من المنطقة المعروفة بسمرقند في آسيا الوسطى، وتعارف السياسيون والجغرافيون على إطلاق اسم «تركستان

الغربية» أو «تركستان الروسية» على هذه المنطقة، بينما أطلقوا اسم «تركستان الشرقية» على إقليم «تشينجيانج».

ويقول المسئولون الصينيون اليوم، في معرض شرح التطورات التي شهدتها المنطقة منذ ذلك الوقت، إن انتشار النزعات القومية آنذاك قد شجع على ظهور حركات انفصالية تستند إلى العرق أو الدين بين قوميات عدة. وبسبب تشابك المصالح وتعقيداتها، فإن القوى الاستعمارية القديمة كانت كثيرا ما تزكي نيران هذه الحركات الانفصالية لتستخدمها في خدمة أغراضها، بما في ذلك الحركات التي جرى تشجيعها في «تركستان الشرقية».. أي في تشينجيانج الصينية. وظلت المنطقة نهبا للاضطرابات وأعمال العنف منذ أوائل القرن العشرين، حتى أن شخصا يدعى «ثابت داملا» أقدم في عام ١٩٣٣ على إقامة ما سمي بجمهورية تركستان الشرقية واتخذ من بلدة «كاشجار» ذات الأغلبية المسلمة عاصمة له.. إلا أن جمهوريته لم تعمر لأكثر من ثلاثة أشهر، انفجرت بعدها الأحداث التي عرفت باسم «ثورة المناطق الثلاث» - وهي مناطق: إيلي وتاتشنج وألطاي.. وكلها تقع في «تشينجيانج» - وفي خضم الاضطرابات التي وقعت، قام أحد قادة الحركات الانفصالية، ويدعى «علي خان طوراي» بانتزاع قيادة ثورة المناطق الثلاث التي كانت تعتبر - من وجهة النظر الصينية - جزءا من «الثورة الديمقراطية الشعبية» في الصين. ولكن اثنين آخرين من زعماء الثورة، هما قاسمي أحمد جان وعبدالكريم عباسوف، تصديا له وأعادا تنظيم مجرى الثورة على النحو الذي أدى إلى ما يطلق عليه المسئولون الصينيون اليوم «تحرير تشينجيانج».. وبالتالي انضمامها إلى جمهورية الصين الشعبية نهائيا.

هذه هي، باختصار، الخلفيات التاريخية لما جرى واستمر لسنوات في «تشينجيانج». ويقر المسئولون الصينيون بأن التقلصات والدعوات الانفصالية لم تنته تماما بعد «التحرير» والانضمام. ويشرحون ذلك بالقول إن «عددا ضئيلا» من الانفصاليين الهاربين من «تشينجيانج» ظل يترقب الفرصة - بالتواطؤ مع عناصر انفصالية بالداخل - لممارسة ما يسمونه بالنشاطات الانفصالية والتخريبية، وذلك بالاستعانة بدعم من «قوى دولية معادية للصين». ومن الواضح أن هذه النشاطات قد تزايدت حتى لفتت أنظار العالم مع بداية التسعينات من القرن العشرين حيث لجأت بعض قوى «تركستان الشرقية»، من داخل الصين وخارجها، إلى استخدام وسائل الإرهاب والعنف - على حد تعبير المسئولين الصينيين - لإظهار التمرد ولفت أنظار العالم الخارجي.. مع استغلال التأثير الديني من ناحية، والاستعانة بالإرهاب الدولي من ناحية أخرى.. وشهدت المنطقة لفترة غير قصيرة حوداث شملت أعمال تفجير واغتيالات وحرق ممتلكات وتسميم وهجمات أخرى من كل نوع. ويشدد المسئولون على أن هذه الأعمال قد ألحقت أضرارا بالغة بالسلام الاجتماعي

والاستقرار في الإقليم وفي البلاد بصورة عامة.. لاسيما وأن تلك القوى وجدت فرصة متجددة، في أعقاب حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة، لتعود إلى التلويح بدعاوى حماية حقوق الإنسان والحريات الدينية ومصالح القوميات والأقليات، وما إلى ذلك.



لقاء مطول .. وحديث ممتد مع حاكم «تشينجيانج»

أما الحكومة الصينية، والمسئولون المحليون المرتبطون بها وفي مقدمتهم المحافظ «إسماعيل تلوا لدى»، فإنهم يواجهون ذلك بأسلوب يسير في اتجاهين:

الأول، التأكيد على منح الأقليات فرصا كافيا لتحقيق هوياتها وتأكيد ثقافاتها وممارسة دياناتها مهما اختلفت وتعددت.. وهو توجه تدل عليه مؤشرات كثيرة يمكن أن يلمسها أي زائر، خاصة مع كثرة الحديث عنها من جانب المسئولين وعزوف الناس العاديين عن الخوض فيها، وتأكيدا لذلك الطرح من جانب المسئولين، وجدنا منهم من يشجعنا على زيارة «المعهد الإسلامي» في «أرومتشي» عاصمة «تشينجيانج» أثناء وجودنا بها. وبالفعل، توجهنا لزيارة المعهد، بعد اللقاء المطول مع «إسماعيل تلوا لدى» .. ولكن زيارته لم تترك لدينا تأثيرا قويا، ربما لأنه أنشئ «بقرار» من الحكومة المركزية في بكين وليس نتيجة لاستجابة من الإيجوريين وغيرهم من الأقليات الإسلامية. وبدا أن «القرار» جاء ردا على حملات الخارج وليس تلبية لحاجة المواطنين في الداخل. وعلى أي حال، ورغم ما يتمتع به المعهد من رونق وأناقة، فإن عدد تلاميذه لا يزيد على ١٦٠ تلميذا يقبلون جميعا بالقسم الداخلي ويشرف على تعليمهم أكثر من ثلاثين مدرسا، بالاضافة إلى عدد كبير من الموظفين الإداريين.

أما الأمر الثاني فهو التنمية المستمرة للإقليم الذي يشهد كل يوم إنجازات كبيرة وملموسة تؤدي بالفعل إلى تغيير وجه الحياة في «تشينجيانج».. بجبالها، وصحاريها، ومدنها التي مستها بالفعل عصا التحديث السحرية! ■

من ذخائر الكتب العربية

الموشى

أو الظرف والظرفاء

بقلم
أحمد حسين الطماوى



ستقر فى أذهاننا من خلال قراءاتنا فى الأدب الحديث أن الظرف (بفتح الظاء وتشديدها) هو الفكاهات والقفشات والمنادمات والمساجلات بالشعر والزجل والقافية التى يغلب عليها السخرية الشديدة، والهزل والمزاح، وأن الظريف هو الشخص اللطيف، «أبو دم خفيف» ابن البلد، يقظ الحس، حاضر البديهة، الذى يلتقط الكلام ويرد عليه فورا بما يضحك، وهو الشخص الذى يداعب ويلاعب ، ويشيع بين صحبه جوا من الفرح والمرح والأنس، ويسليهم برواية الملح الطريفة، والنوادر المضحكة، ويقفش ويقلد غيره بطريقة تثير الضحك. وهناك دراسات منشورة تتناول هذه الأشياء منها كتاب «رحلة مع الظرفاء» للسفير أحمد عبد المجيد الذى قال فى مقدمة كتابه «هل عرف التاريخ عصرا لم يكن فيه المجون والظرف من ضرورات الحياة ولوازم الحضارة»

ولكن الظرف فى لغة العرب وآدابهم ليس هو التنكيت والهزل والإطراب بالضحك، وإنما الظريف هو النبيل النزيه الأديب الورع. وفي مادة «ظرف» (لسان العرب) : «الظرف البراعة وذكاء القلب.. وقيل الظرف حسن العبارة وقيل حسن الهيئة، وقيل الحذق بالشيء... وقيل الظرف فى اللسان والبلاغة.. ويقول الوشاء: «سألت بعض الظرفاء فقال الظرف فى أربع خصال: الحياء والكرم والعفة والورع» ويقول الوشاء أيضا «سألت بعض متظرفات القصور عن الظرف فقالت : من كان فصيحا عفيفا كان عندنا متكاملا ظريفاً»..

ومن معانى الظرف الأخرى صدق اللهجة ، وكتمان السر، والكرم، والسخاء ومراعاة الجار، والنفور من العار ، والانصراف عن الذنوب، والأدب، وحسن تركيب الطباع والغرائز، وبطبيعة الحال فإن عكس ذلك لا يكون ظرفا . وكلام العرب الذى أورده الوشاء فى هذا المجال كثير، يبين أن الظرف سلوك جاد، ونظرية فى الأخلاق لها علاقة وطيدة بالنفس والمجتمع. ومن يتأمل الأقوال السالفة يدرك أنها من أهم عناصر الأخلاق . فهى تتناول الخير والشر واللذة والألم، والسلوك الايجابى والسلوك السلبى، وتتعامل مع الواقع والمثال ، وتساهم فى حل المشكلات الشخصية والاجتماعية.

وصلة الظرف بالنفس وثيقة ذلك أن بنود الظرف تعمل على تحقيق الذات، وتعزز النفس السوية ، والإرادة القوية، وتهذب الحس ، وتحد من ثورة العواطف والانفعالات. وحقيقة الأمر أن الظرف كامن فى النفس ثم يظهر فى السلوك والافعال .

أما من الناحية الاجتماعية فإن الظريف يبحث عن الخير له وللآخرين ، ولا يغلب مصالحه على مصالح الناس، ويسعى إلى السلام الاجتماعى، ويقوى روابط الفضيلة التى تربط بين الناس.

وبإيجاز يمكن القول إنه من خلال الظرف تحيا المثل العليا من حق وخير وحب، وتستقيم النفس، وتسمو الغرائز، وترتقى المدارك والعواطف .

وكل هذا له تأثير فى المجتمع .

ويؤكد الوشاء فى كتابه على كل المعانى الأخلاقية للظرف التي استقاها من العرب ويوضحها بالامثال والحكايات لكى تثبت فى الذهن ، ويضيف اليها قوله : «إنه لا أدب لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا ظرف له ، ولا ظرف لمن لا أدب له..فكأن الظرف والأدب والمروءة شيء واحد. والأدب هنا فى عبارة الوشاء هو التهذيب أو السلوك المهذب ولكن من الظريف أن يجمع العرب بين المكتوب من نثر وشعر والظرف ، لأنهم يعرفون الظرف فى بعض أقوالهم بالفصاحة والبلاغة، وكأنهم يرمون إلى أن الأدب العالى المبتدع هو نتيجة للأخلاق السامية، أو أن البدائع الأدبية الجميلة البليغة هى التى تتسم بالطابع الخلقى أو بالظرف.

أمـا تلازم الأدب والمروءة والظرف الذى ذكـره الوشـاء فـإنه يعنى به أن الظريف هو الذى يتودد للناس، ويقضى حوائجهم ، ولا يتكلم حين يلزم الصمت ولا يتحدث في غير غرض، ويسأل عندما يجهل شيئا ليعرف .

ومن خـلال هذا العـرض والتـحليل يتضح لنا أن الظرف خلاف ما نعرفه الآن، فليس الظرف فكاهة ومزاحا. وقد أظهـر الوشـاء ذلك فى «الموشـى» وكـأنه يرد سلفا على هؤلاء الذين خرجوا على المفهوم الصحيح للظرف فيقول :

«اعـلـم ان مـن زى الأدبـاء، وذوى المروءة والظرفـاء ، قلة الكلام فى غـيـر أرب، والتـجـافل عن المداعبـة واللعب، وترك التبـذل بالسـخافـة والصيـاح بالفكاهة والمزاح، لأن كثرة المزاح يضع القدر، ويزيل المروءة ، ويفسد الأخوة ..»

الظرف والحب

والحب عند الوشاء من سنن الظرف ، والمحب من الظرفـاء ، فـهـو لا ينكر الحب النزيه ويراه نافعـا لأنه، «يشجع الجبان، ويسخى البخيل، ويطلق لسان العيى ، ويقوى عزم العاجز » وكـان العـربى لا يجد بأسـا فى الحب ، «قيل لبعض البصريين : إن ابنك قد عشق، فـقال : وما بأس به إنه إذا عشق نظف وظرف ولطف» واستشهد بقول شاعر.

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى

.. وما خير فيمن لا يحب ويعشق ومن هذا المنطلق ضمن كتابه «الموشى» أخبار بعض العشاق الظرفاء ، ووجه اللوم إلى غيرهم ممن خرجوا على شـرع الظرف، والحب عند العشاق الظرفاء يتجه نحو الكمال والمثال، وهو في نظرهم قيمة كبرى ينبـغى أن تصـان. ومن هؤلاء العـشـاق الذين ذكرهم عبدالله القس وسلامة، وكان كلاهما يحب الآخر، فلما دعت سلامة حبيبها القس إلى تقبيلها ، وضم صدره إلى صـدرهـا ، عف القس عن ذلك وقـال لها: «أنا أكره أن تكون خلتى لك فى الدنيا منقطعة فى الآخرة ثم وثب فـانصـرف». فالقس أظهر قوته وقدرته وكبح جماح غريزته .

و يورد المؤلف كلام بثينة صاحبة جميل الذى ذهبت فيه إلى «أن الحب إذا نكح فـسـد» إن العاشق الظريف لا يرى المعشوق جسداً وروحا، وإنما يراه روحا خالصا ما لم يربط بينهما رباط مقدس. وكان للإمام على كرم الله وجهه مؤذن شـاب وجارية، وقد تحابا وصبرا على تباريح الهوى ولم يقترفا إثما، ولما علم الامام بذلك زوجهما. إن تفتح قلب العاشق على المعشـوق لا يعنى بالضرورة الرذيلة والسقوط، وانما الحب الروحى المتغلغل فى الاعماق يحرر المحب من الأثرة والأنانية ، ويحـافظ على حـرية المحبـوب ويحـفظ الفضيلة .

فالوشاء لم ينكر الحب، وكان من قبله الفـقـيـه الظاهرى ابن داود الذى وضع

كتاب، الزهرة ومن بعده ابن حزم العالم الفقيه الظاهري صاحب كتاب «طوق الحمامة في الالفة والالاف»، وابن القيم الجوزيه العالم الفقيه الحنبلي تلميذ ابن تيمية ، مؤلف كتاب «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لا ينكرون الحب أو يلومون المحبين إلا إذا ضلوا، والمحبون فى نظرهم تجمع بينهم الالفة ويتنزهون فى روضة الحب. كما انهم لم يتجاهلوا العلاقة بين الرجل والمرأة مادام العشق بغير فسق. وكان ابن القيم يرى أن العالم العلوى والسفلى إنما وجد بالمحبة ولأجلها. ويذهب إلى أن الحب يحرك النفوس إلى أنواع الكمالات، وأن دواء المحبين فى كمال الوصال الذى أباحه رب العالمين .

ويؤكد الوشاء على ضرورة وفاء المحب بالعهود ، والإخلاص للحبيب ، والإحساس القوى به ،والاستغراق فيه وعدم التعلق بغيره حتى الممات مع مراعاة المحظورات ، ويحمل بشدة على من يؤثرون الاستبدال والانتقال من معشوق إلى آخر، وفى زعمه ان الحبيب الأول هو حبيب العمر الذى لا ينسى ذكره . والعاشق الظريف هو الذى لا يرفع طرفه إلى غير معشوقه ويذكرنا بقوله الشاعر .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ماالحب إلا الحبيب الأول

أما العاشق الماجن فهو الذي يتغنى بقول الشاعر.

أفخر بآخر من بليت بحبه...

لاخير فى حب الحبيب الأول

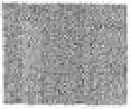
ويشدد النكير على النساء ، لأن الغدر طبعهن ، ويذم القيان لان حبهن غير متصل ويطمعن فى الأغنياء ، ولكنه عاد وأظهر ما فى الرجال من غدر وما فى النساء من وفاء ونظرات الوشاء فى أمر الحب الدائم مثالية، لأنه ينظر إلى الحب من زاوية أخلاقية بحتة ، ولكن الحب الأول ، فى كثير من الأحيان لا يدوم بسبب تغير الأحوال، وكثرة انتقال الإنسان من مكان إلى مكان واختلاطه باناس جدد في البيئة الجديدة ومن ناحية نفسيه يصعب الاحتفاظ بانفعالات الحب طوال العمر، ولا أذهب إلى الغدر والاستبدال ، ولكن الموضوع فيه نظر وقد كان أكثر واقعية عندما تناول قضية هجر المحب لمحبوبه، فهناك من يرى ضرورة الاحتفاظ بالمحبوب حتى وإن اظهر الملل، ويرى الوشاء أنه ليس من الظرف أن يصبر المحب علي محبوبه الهاجر حتي يعجز أو يموت ، وهى نظرة واقعية وصحيحة لأن للمحب كرامة يجب أن يعتز بها ويذكر الوشاء قول الشاعر :

من سلا عنك فاسله

لك فى الناس مثله

السلوك الحضاري

أما حديثه عن ملابس الظرفاء وأطعمتهم وطيبهم ففيه تهذيب وحضارة، ورقى اجتماعى ، وكأنه ينظر من وراء القرون البعيدة إلى ما نتشوف إليه الآن ونحن نراعي «الاتيكيت » أثناء الحديث والسير وتناول الطعام.



فمن اللباس المستحسن للظرفاء أن يكون من الكتان الناعم والأردية المحشاة والقمص اللطاف، ولا يجوز لبس الملابس الجديدة مع القديمة، ولا الملابس الدنسة مع غسيل ، وأحسن الزى ما تشاكل وانطبق . وهو ما نقول عليه الان الطقم المتجانس ، ولا الملابس الممسكة أو الضيقة ، ولا الثياب الوهاجة الألوان أو المصبوغة بالزعفران . وعند الطعام يتناول الظرفاء اللقم الصغيرة. ويترفعون عن الشره والنهم، ولا يلحسون أصابعهم ولا يملأون باللقم افواههم ويجتنبون الفجل والكرات والبصل لرائحتها .

ومن كمال أدبهم يتحلون بالأخلاق الرصينة. ولا يقطعون على متكلم كلامه، ويتبطئون عن الأشياء الرذيلة، ولا يتثاءبون ولا يسرعون في المشي ولا يلتفتون في الطريق ، ولا ينفضون الغبار عن أرجلهم في الأماكن النظيفة . ولا يأكلون في الأسواق أو علي قارعة الطريق ، ولا يماكسون في الشراء ولا يشاتمون رفيقا ولا يسرقون ولا يهتكون الحرمات . ومن تكامل ظرف الظريف ظهور طيب رائحته ، ونظافة بدنه، ومداومة الوفاء، والصفح عن المسيء والفتوة عنده «ليست بالفسق ولكنها عفاف واجتناب للقبيح وخلق طاهر وترك مجالسة أهل الشرور» والظريف لا يتختم بالذهب وإنما بالفضة .

فميلهم إلى الألوان الهادئة يدل على ذوقهم ومزاجهم، ونفورهم من الملابس الضيقة يشير إلى أدبهم ، وتختمهم بالفضة يظهر تمسكهم بدينهم، وثيابهم على ما وصفوها به تجمع بين الجمال والوقار . وسائر أنواع سلوكهم يبين تمدنهم ورقيهم .

لحن الزهور

اللحن عندنا هو السيم، وهو كلام يقوله شخص لآخر فيعرف مغزاه ، ويجهل غيره معناه، وقد يكون اللحن إشارة عين او تحريك منديل أو إهداء زهرة .

وقد التفت الوشاء إلى هدايا العشاق الظرفاء، ومنها الزهور، وعين زهورا يتفاءلون بها وأخرى يتطيرون منها ، وفي الغالب يكون اسم الزهرة سببا في تشاؤمهم منها . وعلى سبيل المثال يتجنبون إهداء السفرجل لأن نصف اسمه سفر وفراق ، ويتطيرون من زهرة الشقيق لأن نصف اسمها شقاء،

لا تراني طول د هـ ...
رى أهوى الشقائقا
إن يكن يشبه الخدو...
د، فنصف اسمه شقا

ويتطيرون من الورد ويتفاءلون بالآس ، وقد أهدت قينة الى محبها آساً فقال :

والآس يبقى وإن طال الزمان به
والورد يفنى ولا يبقى على الزمن

وسبب التشاؤم ان الورد عمره قصير أما الآس فلا يفنى، وعلى هذا النحو يبغضون زهرة الياسمين لأن نصف اسمها يأس ، ويقصون الريحان لأنه نمام

يذيع الأسرار . كذلك كانوا يتطيرون من بعض الثمار لمخالفة ظاهرها باطنها مثل الليمون : أخضر اللون مرير المذاق ، ويستحسنون البنفسج ويتفاءلون به لأنه دليل السرور واللقاء .

وليس بالضرورة أن يكون ذلك صحيحا، فالسفرجل لا يفرق بين اثنين والياسمين لا ينطوي على يأس، والبنفسج لا هو يحزن ولا هو الرسول السار، وانما كل ذلك من أوهام العاشقين، وتحول عندهم إلى لغة سرية يتفاهمون بها . ودلالات الزهور أو هذا السيم قد يختلف من شخص لآخر أو من بيئة لأخرى.. فالآس عند ظرفاء الموشى.. دليل الحب الدائم وعند غيرهم دليل الجوى والشدة، ويقول أحد شعراء الهلال (فبراير ١٩١٦) :

والآس إقرار الفتى بالجوى
كأنما يصبو الى مسعف

والبنفسج عند شعراء «الموشى» دليل الوصال وقرب تحقيق الآمال ، وعند شاعرة معاصرة (شريفة فتحي) دليل الشجن والحرمان. تقول

كأن البنفسج أمة الأشجان
أو أنه الشكوى من الحرمان

الشعر والمجتمع

ويحفل كتاب الموشى بطائفة كبيرة من الأشعار الجميلة المدهشة التي قيلت في موضوعات كثيرة، وأظهرت قدرات الشعراء العرب على تحليل عواطفهم ومشاعرهم وأهوائهم ، وتوصيف المناظر التي يعرضون لها مع ذكر خواصها وملامحها، وتطويع قرائحهم الفياضة لما يرغبون في التعبير عنه بما يعجب ويطرب مع التمثيل والتصوير ، وذكر دقائق الأشياء حتى يسطع المشهد الجميل. كذلك يظهر الشعر العربى مدى تعلق الناس به وروايته وكتابته على مختلف الأشياء التى يتعاملون معها، وهذا يبين تغلغل الشعر فى شئونهم المعنوية والحسية . ومدى تعلقهم به وملء أوقات فراغهم بترديده وتسجيله ، بل يظهر مقدار تأمله، ونمو ذوقهم الفني لتفهمه وتمثله .

ويخبرنا الوشاء عبر كثير من أبواب كتابه أن العرب كتبوا الشعر فى رسائلهم، وضمنوه التحية والسلام فى كتب بعثوا بها إلى عشاقهم ، ونقشه المتصوفة وأهل الهوى على فصوص خواتمهم ، وكتبوه بماء الذهب على التفاح ، وذيلوا به الأقمصة. وسجلوه على الأعلام وطرزوا به الأردية والأكمام ومشاد الطرر والعصائب والتكك والمناديل والبسط والمقاعد والستور والوسائد والأسرة والكلل والأرائك ، وزينوا به المجالس والأبواب والقباب والخفاف والنعال ، وقد أهديت نعل لبعض الظرفاء كتب عليها

لك خدى من الثرى لك نعلا
قد للنعل من فؤاد شراكا

والشراك جلد فى باطن النعل يكون على ظهر القدم، ويعرفنا الشاعر أنه قد من قلبه، وهذا يجعلنا نتذكر المغني الذى قال «يا شبشب الهنا..» ونقش الشعر على الدراهم والدنانير وسطر على الملابس والوشاح والأقدام والراح والجبين والخد.

وزينت به الكاسات والأقداح والأرطال على أوانى الفضة والذهب ومدهون الصينى المذهب. وعلى الطبول والدفوف والنايات والأقلام. وقد كتب بعض الكتاب على قلم أهداه .

إذا دخل الديوان أشرق نوره
ولم يك للشمس المضيئة نور
فياليت أنى كنت فى بطن كفه
له قلما ، إن المحب شكور

وكل هذا يظهر أن الشعر تغلغل فى المجتمع وزين نواحيه وارتقى بالعمران ، وأضفى جمالا على ما يستخدمه الناس .

الموشى والوشاء

وأبو الطيب محمد بن أحمد بن أسحق الأعرابى الوشاء ليست له سيرة وافية ، وهناك أخبار قليلة عنه تفيد أنه ولد نحو عام ٢٤٦ هـ وتوفى سنة ٣٢٥ هـ ويذكر النديم فى الفهرست أنه من الأدباء الظرفاء، وكان نحويا معلما والغالب على تصنيفه كتب الأخبار والشعر واحصى من مؤلفاته أقل من عشرين كتابا منها كتاب جامع النحو وكتاب الموشح وكتاب المتظرفات ولم يبق من هذه الكتب إلا كتابا «الموشى» و«تفريج المهج» ويرجح أحد الباحثين أن «الوشاء» من تعاطى التوشية، وقد ترجم له جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ج٢ بثلاثة أسطر اقتبس معظمها من «الفهرست» ويبدو أن الوشاء كان على صلة واسعة بأبناء عصره ونتبين ذلك من قوله عن الظرف .. «ورأينا أربابه وأهله وطلابه متبعين لسبلها ومتمسكين بحبلها» وقد أفاده هذا فى جمع كثير من مواد كتابه النادر .

أما الموشى فهو كتاب فى الظرف والحب ، ويعتبر من الكتب الأوائل التى تناولت موضوع «الحب». وقد أفاد منه ابن حزم الأندلسى فى كتابه «طوق الحمامة» وقد بين ذلك د. الطاهر مكى عندما نقل إلينا ما كتبه المستشرق الإسبانى غرسيه غومث فى كتابه «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» .. فقد ذكر غومث فى بحثه الأشياء المشتركة والمتشابهة فى الكتابين وما جاء عليها من تعليقات مما يوقع فى نفوسنا أن ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ تأثر بالموشى. وقد أفاد من الموشى آدم ميتز فى كتابه «الحضارة الإسلامية» الذى ترجمه أبو ريده ، وذكره جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية مرتين ووصفه بأنه كتاب «فريد فى بابه» ووقف عنده د.محمد حسن عبدالله فى كتابه «الحب فى التراث العربى» .

ويتكون الكتاب من جزأين صغيرين وكانت توجد مخطوطة منه فى ليدن بهولندا حققها المستشرق الأمريكى رودلف برونو وطبعت عام ١٨٨٦ ثم طبع الكتاب فى الشرق عدة مرات كان آخرها طبعة دار صادر عام ١٩٩٢، وفى كل طبعة يتجدد ذكره وتعم فائدته. □

ألف ابن
متى تكتب ومتى تحذف؟

لغويات

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

جذر هذه الكلمة هو (ب ن و)، فأصلها إذن بنو، وقيل بني، حذف الحرف الثالث، وعوض منه بألف الوصل في البدء فصارت «ابن»، ومعناها ولد، وجمعها أبناء وبنون للمذكر الآدمي، وتجمع على بنات لغير الآدمي، فجمع ابن آوى «وهو الثعلب» بنات آوى.

والنسبة إلى ابن بنوى، ويقال لكل ما يرتبط بشيء أو يلازمه هو ابنه، كناية عنه، فيقال: ابن حرب، وابن السبيل، وابن ليل، وابن عمل، وابن يومه، وهكذا.

ومؤنث الابن: البنت، جاءت على غير بناء مذكرها، وجمعها بنات.

وألف «ابن» تنطق موصولة دائما، ولكنها لا تكتب دائما في الإملاء، وإنما تحذف إذا وقعت صفة بين علمين من أعلام الأسماء، أو الكنى، أو الألقاب ليشي بأن موقع «ابن» من الاسم الذي قبله بمنزلة الاسم الواحد، لشدة اتصال الصفة بالموصوف، وحلوله محل الجزء منه، تقول الحسن بن علي، ويزيد بن معاوية.

وفي غير هذه الحالة يجب إثبات الألف، وذلك في خمسة مواطن:

● إذا أضيفت ابن إلى ضمير، تقول: المعتضد بالله ابن أخي المعتمد بالله.

● إذا نسبته الى الجد، تقول: فؤاد ابن محمد علي.

● إذا وقع في الكلام خبرا بدل أن يجيء صفة، تقول: إن فاروقا ابن فؤاد.

● إذا عدل به عن الصفة إلى الاستفهام، تقول: هل فؤاد ابن إسماعيل؟

في غير هذه المواطن تحذف الألف كتابة، وتبقى ألفا موصولة نطقا. ■

المخابرات

والتحليل السياسى

بقلم

جميـــل مطـــر

ما أسهل الكتابة فى السياسة.. وما أصعبها. الكاتب فى السياسة قد يكون أكاديميا أى أستاذا فى الجامعة، أو باحثا وخبيرا فى مركز من مراكز الدراسات والعصف الفكرى، ينطبق أيضا تعبير الكاتب فى السياسة على كاتب المقال السياسى وهو فى الغالب يعمل بالصحافة واختار كتابة المقال السياسى. النوع الثالث هو المحلل السياسى. المحلل السياسى هو ذلك الشخص المكلف بتحليل التطورات السياسية. وجرى العرف على أن هذا النوع من التحليل السياسى تختص به أجهزة المخابرات المختصة بالأنشطة الخارجية. ويختص به أيضا الدبلوماسيون العاملون فى وزارات الخارجية وبعض المنظمات الدولية، وكذلك المحللون الذين يعملون لحساب الشركات الكبرى ذات الأنشطة عابرة الحدود، مثل شركات النفط والدواء والمصارف ومثل عصابات الإجرام الدولية وتهريب المخدرات.

ابتداء بالأكاديمي وانتهاء بكاتب المقال السياسي في صحيفة من الصحف أو دورية من الدوريات، أو ابتداء من هذا الأخير وانتهاء بالأكاديمي، يتشابه هؤلاء في أمرين: الأمر الأول، أن جميعهم مهتمون بالموضوع السياسي. الأمر الثاني ، أن جميعهم يعانون من حقيقة أن أغلب صانعي القرار وكبار المشتغلين بالسياسة لا يثق في مصداقية أو كفاءة ما يكتبه الأكاديمي أو الصحفي أو المحلل السياسي. قد يقرأ صانع القرار أو المسئول السياسي تحليلا اقتصاديا أو تحليلا عسكريا وبعد قراءته سيجد وقتا لمناقشته مع كاتبه. سيطلب معلومات إضافية أو يطلب شرحا لبعض ماورد من أفكار. ولكن صانع القرار هذا أو المشتغل بالسياسة لن يناقش كاتب التقرير السياسي سواء كان أكاديميا أو صحفيا أو محللا سياسيا. يزعم المسئول السياسي أنه يعرف أكثر من أي كاتب في الشئون السياسية. وقد سببت هذه المشكلة أرقا لكثيرين من علماء السياسة. فأستاذ علم السياسة يكتب مادته في كتاب أو مقال أو يدلي بها في محاضرة متصورا أن يصل بإبداعه وفكره إلى صانعي السياسة والقرار في الدولة، أو متمنيا شئ جديد إلى علم السياسة. كذلك الصحافي الذي يعتقد أنه صاحب رسالة ويهدف بما يكتبه إلى توعية الرأي العام ليضغط الرأي العام بدوره على صانع القرار فيغير في السياسة. أو ذلك الذي يكتب لأن وظيفته تحتم عليه الكتابة، ومهمته أن يملأ مساحة معينة مفروضة عليه أو مفروضة على الصحيفة. ولكن هناك أيضا الكاتب الصحافي الذي يكتب لشخص واحد أو لنفر قليل من الأفراد في قمة السلطة .

أقل هؤلاء حظا هو الأكاديمي لأنه وإن كان يحظى باحترام السلطة في بعض الأحيان، إلا أن علاقته بالسلطة تبقى علاقة متوترة. فالمسئولون عن صنع السياسة عند القمة يعتبرون الأكاديمي - وهذا في أفضل الأحوال - واهما أو حالما أو أبعد ما يكون عن الواقع. الوحيد - في رأيهم - الذي يعرف الواقع بكل تفاصيله هو صانع القرار. أما الأكاديمي فلا يعرف الكفاية، ولذلك فإنه غير قادر على تقديم النصح والإرشاد لمن يعرفون أكثر منه وأعمق. تذكرت وأنا أكتب هذا المقال واقعة سرد لي تفاصيلها أستاذ كان يعمل في جامعة ماكاريري في كمبالا، عاصمة أوغندة. فقد حدث ذات يوم أن قرر ميلتون أوبوتي رئيس الدولة، زيارة الجامعة. ولم يكن له في الحكم إلا شهور قليلة. وخلال الزيارة وجه إليه رئيس الجامعة الدعوة لمقابلة بعض الأساتذة وقام بتقديمهم إليه واحدا بعد الآخر. وجاء دور الدكتور علي مزروعي فسأله رئيس الدولة وما هو تخصصك؟ أجاب الأستاذ الشهير «أقوم بتدريس علم السياسة». وشرد الرئيس ثم قال، لم أكن أعرف أن السياسة علم، وأن لها أساتذة. وأضاف موجها حديثه لرئيس الجامعة، أظن أن هناك خطأ جسيما يجب إصلاحه على الفور، إذ لا يصح أن تستمر هذه الازدواجية: سلطة سياسية وعلماء سياسة.

وبعد أسابيع أصدر رئيس الجامعة قراره بإغلاق قسم العلوم السياسية .

مارست شخصيا خلال مراحل متلاحقة فى حياتى العملية أشكالا مختلفة من الكتابة فى السياسة. مارستها فى الميدان الأكاديمى. وفى مرحلة أخرى مارستها فى الميدان الصحافى، ومارستها فى مرحلة ثالثة فى ميدان التحليل السياسى. اكتشفت فعلا أن هناك اختلافات واسعة بين الأنواع الثلاثة من الكتابة فى السياسة. وعرفت قيمة كل واحدة منها. واختلف مع هؤلاء الذين يصنفون الكتابة السياسية حسب تراتيب من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى . فلكل مجال جمهوره. ولكل مجال أسلوبه وقواعده. وفى كل مجال من المجالات الثلاثة يمكن للكاتب فى السياسة أن يبدع وأن يضيف وأن يخدم رسالة، إن كانت لديه رسالة.

تذكرت المراحل الثلاث التى انشغلت فيها بكتابة التحليل السياسى، وكتابة المقال السياسى، وكتابة البحث الأكاديمى، وبينما كنت أقرأ ورقة كتبها رئيس سابق لقسم التحليل السياسى فى وكالة المخابرات الأمريكية. القصد من الورقة كما يقول كاتبها أن يستفيد منها كل من يعمل بالتحليل السياسى فى أجهزة المخابرات ووزارات الخارجية. وكنت قد لاحظت ، أنا شخصيا، أن بعض من يقوم بالتحليل السياسى غير مدرك لأهمية أن يبنى لنفسه مصداقية. هذه المصداقية هى المفتاح الذى بدونه لن يصل إلى عقول قرائه، حتى إن كانوا يعتقدون أنهم أكثر كفاءة منه ولكى يكتسب المحلل السياسى صفة المصداقية، يتعين عليه أولا أن يدرك هذه الحقيقة التى أسلفت ذكرها وهى أن قارئ التحليل إن كان صانع قرار أو سياسة يعتبر نفسه – قبل قراءة التحليل وخلالها وبعدها – أقدر وأكفأ وأكثر علما من كاتب التحليل. هذه هى الحقيقة الأولى .

الحقيقة الثانية : يجب على المحلل السياسى أن يدرك أن القائمين على السلطة فى الدولة لا يهتمون، عندما يتعاملون مع دولة أجنبية، بتاريخ هذه الدولة وتراثها السياسى والثقافى ومشكلاتها الاجتماعية الكبرى والحضارية. السياسى بطبعه ، حين يفكر فى فرنسا أو بريطانيا أو أمريكا فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه جاك شيراك وطونى بلير وجورج بوش، فالتاريخ يصنعه رجال أقوياء وحكماء مثلنا . ولن يؤثر فى علاقة دولة بدولة أخرى أكثر من علاقة زعيم هذه الدولة بزعيم تلك الدولة. الزعيم هو الوحيد الذى يتخذ القرار والزعيم هو الوحيد الذى يؤثر فى صنع قرار زعيم آخر. هكذا يفكر الزعماء .

الحقيقة الثالثة : أن يدرك المحلل السياسى أن صانع القرار فى بلاده يعرف أشخاصا يعملون فى الحقل السياسى أكثر مما يعرف هو، أى المحلل السياسى. وصانع القرار حين يقرأ تحليلا سياسيا لن يهتم كثيرا برأى المحلل السياسى، وإن اهتم أحيانا ببعض المعلومات الواردة فيه. فالمحلل لم يعرف كل الناس الذين قابلهم

ولا كل الأوراق التى عرضت على الزعيم وبالتالى ما يكتبه المحلل لا يزيد فى أحسن الأحوال عن ترديد لأفكار قيلت للرئيس أو سمع بها .

الحقيقة الرابعة : يعتقد صانع السياسة أن لديه فراسة فى فهم البشر، فهو الأقدر على تقديم الرجال والنساء وبخاصة الذين يتولون المسئولية فى حكومته أو حكومات في دول أخرى، وبالتالى لا يجوز أن يصدر كاتب التحليل حكما على شخص لا يتوافق مع رأى صانع القرار فيه الأمر الذى يفقد المسئول الثقة فى التحليل السياسى المقدم إليه. بمعنى آخر يعرف صانع السياسة فى الغالب القرار الذى سيتخذه ولكنه ينتظر التحليل السياسى ليجد فيه الوقائع التى تثبت سلامة القرار الذى قرر اتخاذه وليبرر لنفسه مسئولية القرار وليشيع عن نفسه سمعة التشاور والاستماع إلى كل الآراء .

الحقيقة الخامسة : يجب أن يعرف المحلل السياسى تاريخ شعبه وثقافته. هذه المعرفة ضرورية حتى يتمكن المحلل من إقناع صانع السياسة. فصانع القرار فى أى دولة يتحيز دون أن يعرف لثقافته وتاريخه وثقافة شعبه وحال المجتمع الذى يعيش فيه ويتأثر قراره باستعداده ومزاجه الشخصى. النصيحة التى يجب أن نقدمها للمحلل السياسى هى أن يعرف أنه يجب أن يكون «متحيزا» بنية مسبقة كصانع القرار الذى قد لا يعرف أنه متحيز، ولكنه فى الحقيقة أشد الناس تحيزا دون أن يدرك. لا يجوز مثلا للمحلل السياسى أن يكتب تحليلا سياسيا يعرف أنه سيعرض على رئيس الدولة مستعينا بتقرير فى نفس الموضوع سبق عرضه على رئيس الدولة السابق. بمعنى آخر يجب أن يتحلى المحلل السياسى ببراعة توصيل ما يريد توصيله إلى رئيس الدولة بالشكل المناسب الذى يتفق مع مزاجه النفسى والسيكولوجى والمؤثرات الشخصية والاجتماعية التى تؤثر عليه عند قراءة هذا التقرير أو عند اتخاذ القرار.

وفى كتابه «فن الحروب» ينصح سان تسو فيلسوف الصين ومفكرها الاستراتيجى العظيم منذ قرون طويلة بأنه من الأهمية بمكان أن تعرف نفسك وتعرف عدوك، أى تعرف الآخر. المحلل الذى يكتب عن أمريكا لابد أن يكون مدركا أن القانون هو أساس الفكر السياسى الأمريكى، بمعنى أن الالتزام بالنص أساس العلاقات التى تقيمها أمريكا مع الدول الأخرى. العكس ينطبق على الصين. يقول المثل الصينى «لا تذهب إلى القضاء فلن تجد هناك سوى المتاعب» ، يقولون أيضا «رغم أنك غاضب جدا لكن لا تذهب إلى القضاء، ورغم أنك جائع جدا لا تصبح لصا»

كذلك فى بعض المجتمعات تكون المظاهر أهم من الواقع. فالمعروف عن بعض الرؤساء مثلا أنهم يتوقعون أن تصبح العلاقة متميزة أن هم باشروا باحتضان الضيف وتقبيله فى أكثر من كان من وجهه ورأسه. كما أن مجتمعات معينة تميل إلى

الصراحة والشفافية والوضوح والدقة في استخدام الكلمات أثناء التفاوض، وفي مجتمعات أخرى يسود الغموض والالتفاف حول الموضوع وإلقاء القصص والنكات والثرثرة. كذلك يجب أن يضع المحلل السياسي في اعتباره عمر صانع السياسة عند كتابة التحليل السياسي، فالمعروف أنه عندما يتقدم صانع السياسة في العمر يصبح أقل انفتاحا على الأفكار الجديدة وأكثر ميلا للنظر للماضي بحثا عن المستقبل، مثله في هذا مثل أي إنسان آخر .

من المهم أيضا أن يكون المحلل السياسي المتخصص في الكتابة عن دولة معينة أو مجتمع بعينه قارئا لآداب هذه الدولة وفلسفتها ومطلعا على كتابات أهم أدبائها. فالمحللون السياسيون العاملون في وكالات المخابرات المركزية، الذين يكتبون من واشنطن عن مصر لابد أن يكونوا قد قرأوا لنجيب محفوظ أو عرفوا عنه. والمحللون السياسيون المصريون الذين يكتبون عن إسرائيل لابد أن يقرأوا لآموس آلون. ولابد للمحللين الذين يدرسون الصين أو يكتبون عنها أن يكونوا على دراية بفلسفة كنفوشيوس وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الخمس في المجتمع الصيني وهي علاقة الإمبراطور بالرعية، والأب بالابن، والزوج بالزوجة، والشقيق الأكبر بالأصغر، والصديق بالصديق. يلاحظ القارئ أن هذه العلاقات جميعها علاقات فوقية بمعنى أنها علاقة بين الأقل شأنا بالأكبر شأنا، وأنها تحمل معنى اللامساواة الكاملة في العلاقات الاجتماعية باستثناء علاقة واحدة هي علاقة الصديق بالصديق. ولكن المتتبع للتراث الصيني يعرف أن مفهوم الصديق في الصين مختلف عنه في أي مجتمع آخر فحين تقول في الصين أنت صديقي فأنت في الواقع تقول أنت ملتزم تجاهي بواجبات معينة تفرضها عليك علاقة الصداقة التي تفضلت عليك بها، أنا إذن أعلى منك وأتوقع منك خضوعا واحتراما. ولا نذهب بعيدا حين نقول أن التحليل السياسي الرصين يضع في اعتباره أن الصين عندما تقيم علاقات وتطلق عليها علاقات صداقة فهي تتوقع أن تقوم الدول الأخرى بواجباتها تجاه الصديق الذي تنازل فمنح الطرف الآخر علاقة الصداقة.

ومن معرفة التراث والتقاليد يستطيع المحلل السياسي أن يصل إلى نتائج مهمة تبنى عليها سياسة خارجية واقعية. ففي الدول العربية مثلا القوة أو السلطة لا تكون إلا عند الزعيم الأول وليس عند شخص أو مؤسسة أو جماعة أخرى. وإذا كان الكاتب أو المحلل يكتب عن تركيا ويحلل الأوضاع السياسية فيها فواجبه أن يهتم بدور العسكر. ففي المؤسسة العسكرية تتوطن السلطة والقوة وليس في الأحزاب ولا في منصب رئيس الدولة. وإن كنت في الصين فستلاحظ على الفور العكس تماما. فالعسكر لا يحظون بأي مكانة سياسية مهمة. ستلاحظ أن موقعهم في السلم الاجتماعي متواضع لغاية، ولدى الصينيين أمثال كثيرة توضح هذه الحقيقة، منها مثلا «أنت تصنع مسامير من حديد جيد ولن تصنع جنودا من رجال جيدين». ولكنك

لكي تعرف موطن السلطة في الصين فعليك أن تبحث عن الأكاديميين. ففي التاريخ الصيني احتل الأكاديمي هذه المكانة وكان يجمع بين الصفتين، صفة البيروقراطي وصفة الباحث والكاتب، هؤلاء كانوا دائما الأعلى مكانة في تاريخ الصين ولكن لم يكونوا موطن السلطة.

الدراية والمعرفة بالدول

إلا أنه مهما توفرت لدى كاتب التحليل السياسي الدراية والمعرفة بالدول الأخرى التي يقدم عنها تحليله لصانع القرار، تبقى نقطة حيوية يستحسن توافرها لكسب المصداقية لدى جمهوره أو المطلعين على تحليله لكي يضمن هو نفسه دقة التحليل ورصانته. فقد لاحظت بنفسي أنني أستحسن مقالا أو تحليلا سياسيا أو كتابا أكاديميا أشعر أن كاتبه كان في المكان الذي يتحدث عنه أو مر به أو عاش فيه. وبالإضافة إلى هذه العلاقة الشخصية بين المحلل وبين الدول موضوع التحليل، يتعين الإلمام باللغة. فاللغة مفتاح ثقافة الأمة. وهي الكاشفة عن طريقة تفكيرها وفلسفتها. ويلعب الإلمام باللغة دورا كبيرا في المباحثات بين رؤساء الدول. ولذلك من المهم دائما أن يوصي التحليل السياسي صانع القرار أو المفاوض بالتدقيق في المقصود من استعمال المضيف أو الضيف لكلمة لها دلالات متعددة . ولدينا في اللغة العربية كنز هائل يفيد المحللين السياسيين الأجانب الذين يدرسون أحوالنا السياسية. ففي اللغة العربية إمكانات وفيرة تشجع على المبالغة وتصوير الأمور بصور متعددة تتدخل فيها العاطفة أحيانا والمشاعر الدينية في أحيان أخرى. كان معروفا مثلا أن اللغة الصينية، وهي واحدة من أشد لغات العالم تعقيدا، تمثل وعاء للفلسفة الصينية وللثقافة الصينية. إن اقتربت منها ودققت فيها تكتشف أمورا عجيبة. فمثلا إذا قرأت أو رأيت الرمز الصيني للمرأة مرتبطا برمز الطفل الذكر فأنت أمام كلمة «جيد» أو «طيب». ومن اجتماع رمز المرأة مع رمز السقف تتكون كلمة السلام، وأنت دائما حسب اللغة الصينية في وضع صيرورة وليس في وضع ثبات أو وضع نهائي .

نصف المصداقية في التحليل السياسي يتحقق حين يسرد المحلل السياسي من القصص والمعلومات ما يثبت أنه كان بالمكان الذي يكتب عنه . والنصف الثاني يتحقق لو شرح لرئيسه أو لصانع القرار في بلده ألغاز اللغة في دولة أخرى. إن معرفة اللغة وحدها والتي أحيانا يتفاخر بها دبلوماسي أو آخر من الذين قضوا في العمل الدبلوماسي جل عمرهم لا تعني شيئا كثيرا إذا لم تتوفر لدى الدبلوماسي الخبرة والقدرة على كتابة تحليل سياسي، ولكن من ناحية أخرى فإن توفرت معرفة اللغة مع القدرة على التحليل السياسي فالمؤكد أن معرفة اللغة ستجعل التحليل أكثر امتيازا وأشد قابلية للتصديق . ■

هل تعود الثقة إلى النظام الدولى ؟

بقلم

د. منير زهران

بعد الغزو الأمريكى البريطانى للعراق فى مارس ٢٠٠٣ ، وسقوط بغداد يوم ٩ إبريل الماضى ومعها النظام البعثى ، انتابت واشنطن نشوة الفرح والنصر إزاء هذا الغزو الانفرادى الذى يصرح به مجلس الأمن ، ولم يستند إلى أى من مبادىء القانون الدولى ، بل جاء انتهاكا صارخا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة! وهكذا اهتزت أركان نظام الأمن الجماعى الذى أرساه الميثاق ، رغم سعى قمة الجمعية العامة فى سبتمبر ٢٠٠٠ والمسماة بقمة الألفية لإحيائه وتحديثه مع إعادة صياغة قيم المنظمة .



ورغم محاولات دولتي الاحتلال العودة للأمم المتحدة لإضفاء الشرعية على احتلال العراق من خلال استصدار قرارين من مجلس الأمن ، إلا أن عمليات المقاومة العراقية للاحتلال استمرت يوميا في مختلف أنحاء العراق.

ومن هنا جاء التساؤل عن مصداقية الأمم المتحدة ودورها مستقبلا وعما إذا كانت قواعد اللعبة التي أرساها قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ سوف تعتبر سابقة لتكرارها في حالات جديدة للغزو والعدوان يجري الإعداد لها، وإذا لم يكن كذلك، فكيف يمكن استعادة الثقة في الأمم المتحدة ونظام الأمن الجماعي الذي أرسته.

وكانت ذكرى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والاعتداء على مقر الأمم المتحدة في بغداد مقدمة ونقطة البداية في تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة الذي صدر يوم ٢ سبتمبر الماضي والذي حمل عنوان «تنفيذ إعلان قمة الألفية» حيث أشار الأمين العام في تقديمه للتقرير إلى أن نظام الأمن الجماعي استلهمه قاعدة العالم عند اعتماد الجمعية العامة لإعلان الألفية، بتوافق الآراء» واستعراض الأهداف الرئيسية للإعلان موضحا رؤيته في كيفية متابعة تنفيذها بالنسبة للسلم والأمن الدوليين والتنمية وحقوق الإنسان والديمقراطية والحكم الرشيد ، وتدعيم المؤسسات متعددة الأطراف .

استعادة الثقة في النظام الدولي كيف؟

وبعد انهيار الثقة في الأمم المتحدة، ومحاولة إعادة الثقة إليها من خلال تقرير السكرتير العام المعنون «تنفيذ إعلان قمة الألفية»، فإن لنا وقفة نجتهد فيها لتوضيح ما يلزم القيام به لإعادة الثقة في الأمم المتحدة والنظام الدولي عامة في ظل استفحال ظاهرة العولمة التي أدت إلى زيادة تهميش الدول النامية مع سيادة القطبية الأحادية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي منذ بداية التسعينات ثم إنشاء المنظمة العالمية للتجارة منذ عام ١٩٩٥ التي انضمت إلى مؤسستي بريتون وودز لوضع ومتابعة تنفيذ قواعد العولمة والتحكم في النظام الاقتصادي الدولي تحت سيطرة الدول المتقدمة وخدمة مصالحها.

ولذلك فإن دعوة السكرتير العام في تقريره إلى أن تعمل العولمة لصالح الجميع أي لخدمة الدول النامية وانهاء تهميشها، فإن تلك الدعوة لكي يتم ترجمتها في الواقع العملي لابد من أن تشمل إصلاح النظام الاقتصادي الدولي والمنظمات التي تتحكم فيه أي مؤسستي بريتون وودز والمنظمة العالمية للتجارة، وسنعرض فيما يلي لكيفية استعادة الثقة في النظام الدولي:

مجلس الأمن

فاستعادة الثقة في الأمم المتحدة وخاصة مجلس الأمن لن تتحقق من خلال توسيع عضوية مجلس الأمن حتى يكون أوسع تمثيلا. كما لم يوضح السكرتير العام وجهة نظره حول زيادة دور الجمعية وإعادة النظر في دور المجلس الاقتصادي والاجتماعي ومجلس الوصاية ودور الأمم المتحدة في الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية. ولم يكن السكرتير العام محدداً إلا فيما يتعلق بتوسيع عضوية مجلس الأمن، وفي هذا يحضرنا قول الشاعر

(المتنبى):

وربَّ ساعٍ مبصرٍ في سعيه
أخطأ التوفيق فيما طلبا

فاستعادة الثقة في الأمم المتحدة وخاصة مجلس الأمن لا تقف عند توسيع عضوية مجلس الأمن، وإنما من خلال أعمال الديموقراطية، ديموقراطية اتخاذ القرار بالمجلس، وإلغاء تصنيف الدول الأعضاء والتمييز فيما بينها إلى طبقتين، العليا تحتفظ بمقاعد دائمة لكل منها حق النقض، ومن لا ينتمي إلى الخمسة ، أي ١٨٦ عليها أن ترضى بالتناوب على باقي المقاعد من خلال الانتخابات.

فلابد من إلغاء مثل هذا التمييز الذي هو ميراث الحرب العالمية الثانية وسيادة الديموقراطية في مجلس الأمن وتحقيق المساواة في السيادة فيما بين الدول إعمالا لنص المادة الثانية الفقرة الأولى من الميثاق وبالتالي إلغاء حق النقض، كما يمكن تصنيف الموضوعات التي تعرض على المجلس إلى فئتين: الأولى اجرائية يتم اتخاذ القرار فيها بالأغلبية البسيطة، أما الموضوعات التي تمس السلم والأمن الدوليين مباشرة وخاصة تطبيقات الفصل السابع من الميثاق، فتتخذ القرارات فيها بمجلس الأمن بأغلبية الثلثين نظراً لخطورتها.

كما يجب تقديم تعهدات من الدول الكبرى بعدم ممارسة ضغوط على الدول الأعضاء لتمرير القرارات التي تخدم مصالح الأولى من خلال التهديد والوعيد.

وفي هذا يلزم احترام مقاصد ومبادىء الميثاق فيما يصدره مجلس الأمن من قرارات وخاصة وقد اعترف السكرتير العام في تقريره من أن العديد من قرارات المجلس انتهكت الشرعية رغم أنه نسب ذلك إلى الدول النامية.



وفي حالة فرض المجلس لعقوبات وفقا لأحكام الفصل السابع من الميثاق، فيلزم تحديد المدى الزمني لسريان تلك العقوبات، وعدم تجديدها إلا بناء على قرار جديد يصدر من المجلس. كما يلزم وضع حد للانتقائية وازدواجية المعايير في مداولات المجلس وما يصدر عنه من قرارات أو بيانات، وهكذا يجب إلغاء «المستثنى بإلا» وألا تعلو دولة فوق مستوى القانون . كما يلزم أن تلتزم جميع الدول بتنفيذ قرارات المجلس، حتى تلك التي صوتت ضدها أو امتنعت عن التصويت إعمالا لحكم الأغلبية، وينطبق ذلك على القرارات التي أصدرها المجلس حول مشكلة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية ووضع مدينة القدس.

حينئذ يمكن استعادة الثقة في مجلس الأمن كأهم إجراء لتمتع الأمم المتحدة بمصداقية تآكلت على مر السنين.

٢ - باقي أجهزة الأمم المتحدة

وإعمالا للديموقراطية والحكم الرشيد اللتين تشدقت بهما الدول المتقدمة، فيلزم اتخاذ جميع قرارات تلك الأجهزة ولجان الجمعية العامة والانكتاد بالأسلوب الديموقراطي ومن خلال التصويت، وإلغاء ممارسة اتخاذ القرارات بتوافق الآراء التي فرضتها الدول المتقدمة على مؤتمرات الأمم المتحدة وبعض لجان الأمم المتحدة مثل اللجنة الخامسة (الشئون المالية والإدارية والميزانية) والانكتاد، حتى يترتب على اتخاذ القرارات واعتماد نتائج المؤتمرات بتوافق الآراء فرض مواقف الدول المتقدمة وتقديم تنازلات بالنسبة

لمطالب وأولويات الدول النامية الأمر الذى أدى إلى تأخر تنفيذ أجندة التنمية وزيادة الفجوة فيما بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وفقدان الثقة فى النظام الدولى. كما يلزم أن تنفيذ الدول المتقدمة والدول النامية على حد سواء القرارات التى تصدرها الجمعية العامة وأجهزتها من خلال التصويت حتى لو لم يكن تصويتها فى صالح تلك القرارات، وفى هذا احترام لمبدأ الديموقراطية الذى نصت عليه المادة الثانية - الفقرة الأولى من المساواة فى السيادة بين الدول.

وحول اقتراح السكرتير العام إعادة النظر فى دور الجمعية العامة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى وبالنسبة للموضوعات الاقتصادية والاجتماعية، فقد جاء الاقتراح غامضا، فإذا كان الهدف هو تقليص دور الأمم المتحدة فى تلك المجالات، فيجب الوقوف أمام هذه المبادرة ووأدها فى مهدها، فلن يستفيد من هذه المبادرة إلا الدول المتقدمة التى تجد فى مؤسستى بريتون وودز والمنظمة العالمية للتجارة ما يكفيها لحماية مصالحها حيث تتحكم فى اتخاذ القرارات فيها، أما بالنسبة للموضوعات الاجتماعية فقد سبق اقتراح بعض الدول المتقدمة توزيعها فيما بين بعض الوكالات المتخصصة مثل اليونسكو والصحة العالمية والعمل، وأن تقتصر الأمم المتحدة على الاشراف على الموضوعات الانسانية بما فى ذلك اللاجئين وحقوق الإنسان، ويجب التذكير هنا بما صدر عن اجتماع قمة الدول السبع الصناعية الكبرى فى هاليفاكس Halifax عام ١٩٩٥ من الغاء الانكتاد ومنظمة التنمية الصناعية (يونيدو) وقد تضامنت الدول النامية فى الأمم المتحدة ورفضت هذا الموقف، وانتهى الأمر بخفض المخصصات المالية لميزانية كل من الانكتاد واليونيدو. كما يلزم التذكير بما سبق أن نادت به قمم حركة عدم الانحياز وقمة الدول النامية التى عقدت فى هافانا فى أبريل ٢٠٠٠ وقمة مجموعة الخمس عشرة التى عقدت فى القاهرة فى يونيو ٢٠٠٠ من ضرورة أن تلعب الأمم المتحدة الدور المحورى فى خدمة التنمية والموضوعات الاقتصادية والاجتماعية.

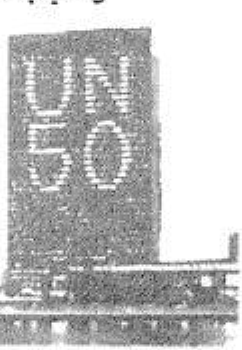
كما يجب التنبيه لمحاولات الدول المتقدمة الالتفاف حول القرارات التى سبق أن صدرت عن الجمعية العامة بالنسبة للمساعدات الرسمية للتنمية ومطالبة الدول المتقدمة بتخصيص ٠.٧٪ من ناتجها القومى الاجمالى لتمويل التنمية وللأسف الشديد، لم تلتزم غالبية الدول المتقدمة بتلك القرارات، وانخفضت المساعدات الرسمية للتنمية تدريجيا حتى بلغت ٠.٢٢٪ أو ما يعادل ٥٠ مليار دولار فى السنة عام ٢٠٠٢ بينما كان يلزم أن تصل تلك المساعدات إلى حوالى ١٧٠ مليار دولار فى السنة، ويكفى مقارنة ذلك بالدعم الذى تقدمه كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى للمزارعين فيها بما يعادل ٣٦٠ مليار فى السنة، وما أشار إليه تقريرى البنك الدولى والانكتاد عام ٢٠٠٢ من أن الاجراءات الحمائية التى تتخذها الدول المتقدمة يترتب عليها ضياع حوالى ٧٠٠ مليار دولار فى السنة من حصيلة صادراتها.

تمويل أنشطة الأمم المتحدة

يتم تمويل أنشطة الأمم المتحدة من خلال برامج الميزانية العادية التى يتم

اعتمادها كل سنتين. وتتوزع الميزانية على الدول الأعضاء من خلال جدول للمساهمات نصيب الدول المتقدمة فى تلك المساهمات يرتبط بوضعها الاقتصادى والناتج الاجمالى وعدد السكان حتى أن عشرة من الدول المتقدمة تساهم بما يزيد على ٧٥٪ من الميزانية ويكفى أن نشير إلى أن نسبة مساهمة الولايات المتحدة قد انخفضت من ٢٥٪ إلى ٢٢٪ يليها اليابان بنسبة ١٩,٦٪.. الخ إلا أن هذا لا يعنى أن تتحكم الدول المتقدمة فى برامج وأنشطة الأمم المتحدة من الناحية النظرية نظرا لمساواة الدول فى التصويت ، إلا أنه عمليا تتحكم الدول المتقدمة فى توجيه موارد وأنشطة الأمم المتحدة ، نظرا للممارسة التى جرى عليها العمل فى لجنة الميزانية والادارة فى الجمعية العامة، وهى اللجنة الخامسة من اعتماد الميزانية والبرامج من خلال توافق الآراء، ومن هنا تفرض الدول المتقدمة مواقف على الغالبية:

يضاف إلى ذلك أن الميزانية العادية تغطى تمويل ٤٠٪ من أنشطة الأمم المتحدة، أما باقى الأنشطة (أى ٦٠٪) فيتم تمويلها من خلال صناديق Trust Funds بلغ عددها مائتى صندوق ويتم تمويلها من خلال مساهمات طوعية من الدول المتقدمة على سكرتارية الأمم المتحدة أن تلتزم فيها برغبات الدول المانحة بدلا من مراعاة أولويات واحتياجات الدول النامية، ومن هنا يمكن تفسير اتساع الفجوة فيما بين آمال وطموحات البشرية وما أنجزته الأمم المتحدة .



وعلى ضوء ما تقدم يصعب استعادة الثقة فى الأمم المتحدة مع استمرار هذا الوضع الذى – لو استمر ، فسوف تتحول أهداف إعلان الألفية إلى سراب . لذلك يتحتم صهر الصناديق الخاصة وضم مواردها للميزانية العادية للأمم المتحدة لكى يتم توجيهها وفقا لاحتياجات الدول النامية المستفيدة وليس وفقا لأهواء الدول المتقدمة .

الأمانة العامة

رغم أن السكرتير العام الحالى والسابق ينتميان لأفريقيا وسبقهما اثنين من أسيا (يوثانت) ومن أمريكا اللاتينية (بيريز ديكويار) ، إلا أن كبار موظفى الأمانة الذين يتحكمون فى الأمانة العامة ينتمون للدول المتقدمة خاصة الشئون السياسية والإدارة والميزانية وعمليات حفظ السلام وبرنامج الأمم المتحدة الانمائى .. الخ. ويلزم الاشارة هنا لأن لكل دولة حصة من موظفى الأمانة تتناسب مع نسبتها فى جدول مساهمات الميزانية ، ومن هنا يمكن تفسير مدى تحكم الدول المتقدمة فيما يصدر عن المنظمة من تقارير ومن توصيات . ونورد فيما يلى أمثلة لمساهمات الدول المتقدمة (الولايات المتحدة ٢٢٪، اليابان ١٩,٦٪، ألمانيا ٩,٨٪، فرنسا ٦,٥٪ ، المملكة المتحدة ٥,٥٪، ايطاليا ٥٪، كندا ٢,٦٪، أسبانيا ٢,٥٪، هولندا ١,٧٥٪، استراليا ١,٦٤٪ وروسيا ١,٢٪ .. الخ).

ومن المقترح لاستعادة الثقة فى الأمم المتحدة الفصل فيما بين جدول المساهمات والتعيينات فى وظائف الأمانة مع مراعاة التوزيع الجغرافى العادل والتخصص والكفاءة، بحيث

تعكس الأمانة العامة وموظفيها بما فى ذلك الوظائف العليا الثقل السكاني للدول النامية وكفاءاتها، وبالتالي يمكن أن تعكس تقارير السكرتير العام وتوصياتها آمال وطموحات وأولويات سكان العالم على نحو متوازن وادعاء حيادية موظف الأمم المتحدة واستقلاليته، ادعاء نظرى لا يعكس الواقع العملى، فلا يمكن نزع الموظف الدولى من بيئته وثقافته وجذوره وتوجهات الشعب الذى شب فيه وأخيرا يجب أن يلتزم أعضاء الأمانة العامة بعدم التدخل لدى وفود الدول الأعضاء لمحاولة تمرير مشاريع قرارات فى الجمعية العامة ولجانها وأجهزتها تتفق مع توجهات الدول المتقدمة . وقد شهد على ذلك الدكتور بطرس بطرس غالى فى كتابه الذى نشرته دار الأهرام عام ٢٠٠٣ تحت عنوان «الديمقراطية خير وسيلة لمواجهة العولمة» والذى أشار فيه إلى خبرته عندما تولى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة .

* * *

وهكذا يلزم اعمال الديموقراطية والحكم الرشيد فى الأمم المتحدة حتى يمكن استعادة الثقة فيها .

وينطبق ذلك أيضا على باقى مكونات النظام الدولى وبصفة خاصة المنظمات الدولية التى تتحكم فى مسار العولمة أى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والمنظمة العالمية للتجارة، التى يلزم إعادة النظر فى نظام اتخاذ القرارات فيها بما يعكس آمال وطموحات وأولويات الدول النامية وموازنتها مع مصالح الدول المتقدمة . فيجب النظر فى إصلاح النظام المالي والنقدى الدوليين لمراعاة احتياجات الدول النامية من مصادر تمويل التنمية الاقتصادية والاجتماعية بدون فرض مشروطيات تتعارض مع خطط التنمية أو تشكل أعباءً لا تتحملها الدول النامية وشعوبها . كما يلزم أن تتجاوب مؤسستى بريتون وودز مع مطالب الدول النامية بتخفيف عبء ديونها - كما يلزم ايقاف ممارسة اتخاذ القرارات فى المنظمة العالمية للتجارة من خلال توافق الآراء لتفادى تحكم الدول المتقدمة فى مصائر شعوب الدول النامية وانهاء تهميشها فى النظام الاقتصادى الدولى .

فاذا تجاوبت الدول المتقدمة مع تلك الاصلاحات تكون قد صدقت فيما تنادى به من احترام الديموقراطية والحكم الرشيد قولا وعملا ،. وتكون قد توفرت لديها الارادة السياسية فى اقامة نظام دولى يتمتع بثقة الغالبية العظمى من شعوب العالم .

وإلى أن يتم فلابد من تعزيز التضامن فيما بين الدول النامية وعدم الانصياع وراء الضغوط والوعود والتهديدات التى لا تتردد الدول المتقدمة فى ممارستها وأن تعتصم بالاعتماد الجماعى على الذات . وقد ضربت الدول النامية مثالا رائعا فى ذلك بمواقفها التضامنية للدفاع عن مصالحها ومقاومة ضغوط الدول المتقدمة على نحو ماشهدناه فى الاجتماع الوزارى الخامس للمنظمة العالمية للتجارة الذى عقد فى مدينة كانكون بالمكسيك من ١٠ إلى ١٤ سبتمبر ٢٠٠٣ وبالله التوفيق ■

الجدار العازل

دواعي أمن أم اغتصاب أرض؟

ترجمة
حسن صبري

نشرت مجلة الايكونوميست مقالا تهاجم فيه الجدار العازل وتتساءل عما إذا كان إجراء أمنيا أم عملية استيلاء على الأرض الفلسطينية حيث تناولت مساره الذى يقتطع اجزاءا كبيرة من الأراضى الفلسطينية وقالت إنه فى الوقت الذى تقول فيه اسرائيل أنها تشيد الجدار العازل من أجل حماية نفسها من العمليات الارهابية فإن مسار الجدار بدأ يتخذ مسارا قريبا من أن هذا الغرض حيث يتم استقطاع مناطق شاسعة من الأراضى الفلسطينية مما يثير الشكوك حول الغرض منه وعما إذا كان يهدف إلى الاستيلاء على الأرض الفلسطينية بزعم حماية المواطن الفلسطيني بالاضافة لعواقبه على المواطنين الفلسطينيين والاقتصاد الفلسطيني.



تزداد شعبية الجدار العازل بين المواطنين الإسرائيليين بعد كل عملية تفجير انتحارية، وذلك على الرغم من أن منفذة عملية حيفا الأخيرة في الرابع من أكتوبر تسللت داخل اسرائيل عبر بوابة في المنطقة المكتملة من الجدار العازل ولكنها تخلو من أي حراسة وقبل ثلاثة أيام من هذه العملية كان مجلس الوزراء الإسرائيلي قد وافق على خطط الجيش بشأن طول الجدار العازل بين اسرائيل والضفة الغربية، وهذه الخطط تتضمن عمليات اعتداء كبيرة على الأراضي الفلسطينية لكي تضم العديد من المستوطنات الاسرائيلية الكبيرة ويلتف حول القدس الشرقية المحتلة بالكامل مما يجمد حركة سكانها من الفلسطينيين وخاصة فيما يتعلق بالوصول للمناطق الفلسطينية الداخلية .

وإذا كانت اسرائيل قد أوقفت مؤقتا واحدة من أعمق عمليات التغلغل والتي تتضمن مستعمرتي أريل وأمانويل بسبب الاعتراضات الأمريكية غير أن رئيس الوزراء الأسرائيلي أرئيل شارون يعتقد أن الضغوط الأمريكية ستضعف مع الوقت وخاصة مع اقتراب موعد الانتخابات وإذا كان شارون قد تباطأ في البداية في الخضوع لضغوط الرأي العام بشأن إقامة الجدار العازل حيث كان في البداية قد وقف في صف المستوطنين الذين خشوا من أن أي فصل مادي قد يزيد من صعوبة إقامة حدود سياسية في المستقبل مما يسمح للفلسطينيين بأراضي أكبر مما يمكنه تقديمها فإنه في وقت لاحق وجد أن ارضاء الرأي العام مع الاحتفاظ بالسيطرة على الأرض أمران لاينفصلان

موقف اليسار

ويعارض اليسار المتطرف الاسرائيلي الجدار على أساس أن هذا العمل من جانب واحد من جانب إسرائيل سيوجه بالضرورة ضربة لاحتمالات التوصل لتسوية سلمية من خلال المفاوضات مع الفلسطينيين، وفور البدء في بناء الجدار في يونيه من العام الماضي انضم دعاة السلام الإسرائيليون إلى الفلسطينيين الذين يعيشون على طول المرحلة الأولى من الجدار العازل في شكواهم من آثاره، غير أن الاتجاه السياسي الرئيسي تبنى عملية بناء الجدار العازل بوصفه أول إجراء دفاعي يتم تنفيذه مع استمرار الانتفاضة وتوقف عملية السلام ويرى غالبية الاسرائيليين أن عزل المناطق الفلسطينية يمثل الأولوية وينحون جانبا المخاوف الانسانية المتعلقة بشأن مايحدث للفلسطينيين المقيمين على طول مسار الجدار العازل .

ومع ذلك فقد أكد قرار الحكومة

الإسرائيلية في الأول من أكتوبر ما كان يخشاه الفلسطينيون منذ أمد طويل فهذا الجدار لن يكرس الخط الأخضر لعام ١٩٦٧ ولكنه سيخترق ويعمق ويشكل متكرر الضفة الغربية .



مساوئ الجدار

وقد اكتملت المرحلة الأولى من الجدار في يوليو الماضي وتمتد لمسافة ١٢٥ كيلو مترا من قرية سالم الفلسطينية الإسرائيلية في الشمال وحتى مستوطنة القانا جنوب قلقيلية وبعمق خمسة كيلو مترات داخل الضفة الغربية وتمتد المرحلة الأولى على طول الخط الأخضر على الرغم من أنها شيدت على الجانب الفلسطيني من الحدود

غير أنه مع مضي الجدار جنوبا فإنه يبدأ على نحو متزايد في اقتطاع الأراضي الفلسطينية مثلما يحدث من أجل احتواء عشرة مستوطنات تضم تسعة عشر ألف مستوطن مما يقنع الفلسطينيون بأن الجدار ليس مجرد عملية لتأمين الأسرائيليين وإنما تكريس الطموحات الاستعمارية للحكومة ومؤيديها، وتستهدف الخطة محاصرة خمس عشرة قرية فلسطينية تضم أكثر من ثلاثة عشر ألف وخمسمائة فلسطيني بين الخط الأخضر والجدار وهؤلاء سيتم حرمانهم من دخول اسرائيل غربا ومن الوصول لأراضيهم وأعمالهم وعائلاتهم في المناطق الداخلية من الضفة الغربية شرقا كما يتم حاليا عزل نحو ثلاثين مزارع فلسطيني يعيشون في الجانب الشرقي للجدار عن أراضيهم ومزارع الزيتون الخاصة بهم على الجانب الغربي، وفي الوقت نفسه فقد الآلاف من الفلسطينيين أي منفذ للوصول إلى المدارس والمستشفيات والخدمات الحكومية والجامعات في المناطق الحضرية الرئيسية في جنين وطولكرم وقلقيلية ونابلس .

ويشير تقرير الأمم المتحدة إلى أن مـ ـئة وستين ألف دونم من أراضي الضفة الغربية تقع حاليا في الجانب الإسرائيلي من الجدار العازل من بينها بعض من أفضل المناطق الزراعية الفلسطينية وقد تمت مصادرة عشرة آلاف دونم من الأراضي المملوكة للفلسطينيين أو ازالتها لمد الجدار وتم اقتلاع ثمانين ألف شجرة زيتون وإزالة

سبعة وثلاثين كيلو مترا من أنابيب المياة.

وفي قلقيلية على سبيل المثال زادت الأمور سوءا في المدينة التي يقطنها اثنين وأربعين ألف فلسطيني ولكنها تخدم بأعمالها ومنشآتها الطبية تسعين الفا ممن يقيمون في اثنتى عشرة قرية مجاورة وتبدو المدينة حاليا محاصرة من ثلاثة جهات بثلاثة عشر كيلو مترا من الجدار والحواجز، وهناك مدخل واحد للمواطنين والسلع ومعبرين زراعيين وتسجل نسبة البطالة ثلاثة وستين في المائة مقارنة بنسبة عشرين في المائة في بداية الانتفاضة، كما توجد هجرة بطيئة ولكن واضحة من المدينة حيث يتوجة الشباب والمتعلمون إلى وسط الضفة الغربية أو الأردن أو الخليج .

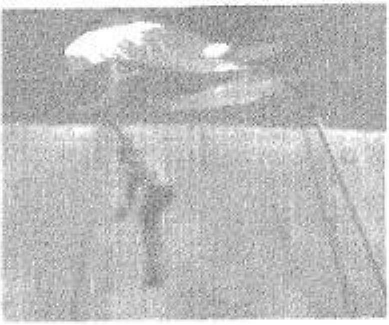
مؤيدو الجدار

ويقول مؤيدو الجدار العازل أن كل هذه الأمور مؤقتة ولكن لايعتقد الفلسطينيون في صحة ذلك، ويشيرون إلى أن الامتداد غير المستقيم للجدار العازل، ففي القطاع المكتمل يبلغ عرضه بين ستين ومائة متر ويتكون من حوائط اسمنتية وعوازل من الأسلاك المكهربة والشائكة والخنادق اضافة إلى ثلاثة طرق واحد لتعقب المتسللين وآخر لدوريات الشرطة وثالث للدبابات وتم فية استثمار مالي ضخم حيث يقدر أن المرحلة الأولى كلفت الحكومة مائتي مليون دولار أمريكي، ولم يتم احتساب التكلفة النهائية ولكن حدد محلل اسرائيلي التكلفة بواقع مليار دولار أمريكي ويرى الفلسطينيون أن كل هذا ينفي أن يكون عملية مؤقتة .

كما يشعر الفلسطينيون بالقلق من الوسائل القانونية التي تستخدمها اسرائيل لإقامة الجدار الأمني خاصة وأنهم عانوا منها من قبل، فغالبية الأرض الخاصة بالجدار العازل تمت مصادرتها لأغراض عسكرية من جانب الجيش. وهذه الأوامر سارية حتى عام ٢٠٠٥ ولكن يمكن تجديدها ويوسع أصحاب الأراضي الفلسطينيون الاعتراض على مصادرة الأراضي أمام المستشار القانوني الإسرائيلي في الضفة الغربية أو الاستئناف أمام المحكمة العليا غير أنه منذ بدء العمل فإن جميع قضايا الاستئناف تم رفضها

ويقول الجيش الإسرائيلي أن المشكلات ستقل حين يتم اقامة البوابات الخمس الرئيسية ونقاط العبور الست والعشرين الخاصة بالمناطق الزراعية على طول الجدار غير أنه تم إقامة عدد محدود للغاية من المنافذ ولم يتم تخصيص أى أموال للمزيد في ميزانيات ٢٠٠٣ وبدلا من ذلك يتجمع الفلسطينيون كل صباح في مشارف

بلدانهم وقراهم على أمل أن يسمح لهم الجنود باختراق الجدار ويمضى آخرون عبر طرق وممرات وعرة وقذرة ويمضى البعض ليلهم فى أراضيهم فى حين تخلى أخرون عن مزارعهم حيث لم يعد الأمر يستحق الاحتفاظ بها وهذا الأمر الأخير خطير للغاية حيث أنه بوسع اسرائيل أن تطبق قانون يعود للعصر العثماني يقضي بمصادرة الدولة لأي أرض خاصة لم يتم العمل بها لثلاث سنوات متصلة ومنذ عام ١٩٦٧ استخدمت اسرائيل هذا القانون للاستيلاء على ستين في المائة من الضفة الغربية كأراضى تابعة للدولة من أجل اقامة مائة وخمسة وثلاثين مستوطنة ونقل اربعمائة ألف من المواطنين اليهود إلى الأراضى المحتلة بما فى ذلك القدس الشرقية ويخشى الفلسطينيون من أن يطول نفس المصير الأراضى المصادرة.



فى انتظار الأسوأ

وإذا كانت المرحلة الأولى من الجدار العازل سيئة بالنسبة للفلسطينيين فإنهم يخشون من الأسوأ القادم، وربما لاتتضمن المرحلة التالية من الجدار اريل والمستوطنات الأخرى فى قلب شمال الضفة الغربية غير أنه من المؤكد أن تضم التكتلات الاستيطانية الجنوبية بما فى ذلك المستوطنات القريبة من الخليل ويقول المحللون الاسرائيليون أن هذا يعنى أن ثمانين فى المائة من مستوطنى الضفة الغربية سيكونون داخل الجانب الإسرائيلى من الجدار العازل ويقول الخبراء الجغرافيون الفلسطينيون أن هذه الأراضى المستقطعة تعنى ضم اسرائيل بحكم الأمر الواقع عشرين فى المائة من الضفة الغربية .

وفى منطقة القدس الشرقية سيتم ضم خمسة وأربعين كيلو مترا من الأراضى إذا سار العمل حسب الجدول الموضوع، وبشكل عام فسوف يمضى الجدار على طول الحدود البلدية غير أن هذا الخط رسم على عجل بعد حرب ١٩٦٧ وضم المنطقة بأكملها عاصمة أبدية وغير مقسمة لاسرائيل ووجد عشرات الآلاف من الفلسطينيين أنفسهم سكان فى مدينة أعلنتها اسرائيل من جانب واحد واليوم أصبحوا مئات الآلاف بجانب مئات الآلاف الآخرين الذين يعيشون فى الضواحى فى شمال وشرق المدينة وإذا كانت الحدود البلدية غير منظورة فإن الجدار المقترح سيخترق

العديد من الضواحي مما يفصل الأطفال عن مدارسهم وأصحاب المتاجر عن متاجرهم ويقسم بين العائلات الفلسطينية

وعما إذا كان سيكون هناك جدارا شرق الضفة الغربية كما هو الحال غربها، فإن شارون كان قد أعلن في مارس الماضي أن تشييد القطاع الشرقي من الجدار سيبدأ أولا شرقا وبعد ذلك جنوبا من سالم ولكنه غالبا لن يكون مشابها للجدار الغربي، فعلى عكس الجبال الغربية في الضفة الغربية فإن وادي الأردن لايضم كثافة سكانية عالية ويمكن فصل الفلسطينيون بسهولة عن المناطق الداخلية الشرقية بسياج بسيط .

وفي الوقت نفسه هناك غموض تجاه ما يتم التخطيط له ويقول زعماء المستوطنين في بلدة معالي أدوميم الاستيطانية الكبيرة الوسطى وفي المستوطنات الأصغر على خط وادي الأردن أنهم تلقوا تأكيدات من رئيس الوزراء بأنه سيتم ضمهم هم أيضا للجانب الإسرائيلي من الجدار الفاصل .

وربما يتفق هذا الجدار الشرقي مع رؤية شارون الاستراتيجية، فقد جادل طويلا بأنه من مصلحة اسرائيل الحيوية أن تحتفظ بشريط من الأرض بين ستة وعشرة كيلو مترا شرق الخط الأخضر وبعمق عشرين كيلو مترا غرب حدود الأردن وبالقدس الموحدة وقد أمضى ثلاثين عاما في المبادرة باقامة المستوطنات ودعمها مما يجعل تمسكه بالأرض أمراً حتميا واسوأ سيناريو متوقع سيبقى للفلسطينيين نحو أربعين في المائة من أراضي الضفة الغربية مقسمة إلى ثلاث جيوب منفصلة واحد بين جنين ورام الله والثاني بين الخليل وبيت لحم ودائرة صغيرة حول اريحا .

وتعتمد اقامة الجدار الفاصل حسب التخطيط الحالي بدرجة حاسمة على موقف الإدارة الأمريكية وقد اشار الرئيس جورج بوش علنا الصيف الماضي أن الجدار يمثل مشكلة ويبدو شارون حريصا على ألا يثير ضيقه ويسعى لتسوية المشكلة الخاصة بجيب أريل – ايمانويل .. لكن وزير الخارجية الأمريكي كولين باول قال في عطلة نهاية الأسبوع أن الأقتراح الأسرائيلي غير مرضي وأن المسئولين الأمريكيين يجرون مشاورات مكثفة حول هذا الرد والمشكلة لاتكمن في الجدار نفسه ولكن في تغلغله داخل المناطق الفلسطينية مما يعني الالتفاف حول مناطق كبيرة من الأراضي الفلسطينية مما يضر باي مفاوضات مستقبلية مع الفلسطينيين وهذه هي المشكلة الحقيقية .

وفي الوقت نفسه يتردد أن المسئولين الأمريكيين يدرسون ما إذا كانت التكلفة

المقترحة التى تبلغ مليار دولار يمكن خصمها من مبلغ ضمانات القروض التى تبلغ قيمتها تسعة مليارات دولار التى وافقت الإدارة على تقديمها لإسرائيل، ومع ذلك فإن هذه العقوبة وحدها من غير المرجح أن تردع شارون ووزرائه، والخصومات التى تقترحها الولايات المتحدة ستكون على أى عمليات بناء اسرائيلية جديدة فى المستوطنات وهو أمر لن يردع الحكومة عن المضى قدما فى مشروعاتها، وبعد أن كان شارون مترددا بشأن الجدار فإنه ربما يستخدم حاليا الدعم الكاسح من الرأى العام من أجل تبنى طموحاته الاستراتيجية والخاصة بضم الأراضى وهو ما يتبناه من أمد بعيد.. ■

كلمات عاشت

● إن سر الحياة أن يغوص الإنسان فى نفسه ثم يبرز منها كما تغوص القطرة فى البحر فتصير لؤلؤة .

الشاعر إقبال

● الفنان عدو الواقع الذى يرتضيه البشر ، لذا يحاربونه، ولهذا فسيظل التاريخ أبدا مليئا بالقسوة والعنف .

مكسيم جوركى

● اعرف نفسك ، فإن عرفتها عرفت الأشياء كلها .

أبو حيان التوحيدى

● إن وراء إرادتنا دنيا وشياطين، تهزأ من تصميمنا، وتفسد علينا نوايانا الطيبة .

نجيب محفوظ

● عجبت لمن يغسل وجهه مرات فى النهر ، ولا يغسل قلبه ولو مرة واحدة فى السنة .

ميخائيل نعيمة

● الالتزام هو عبارة عن حضور الكاتب في الكتابة حضورا كليا .

سيمون دى بوفور

● الرجل الذى يملك موهبة التمثيل ، يكون سعيدا فى مجتمع النساء.

ألبير كامى

● إننى أحرص على احترامى لنفسى ، قبل أن أحرص على احترام الناس لى .

العقاد

● على قدر حصول الأسباب والمسببات فى الفكر، تكون إنسانيته .

ابن خلدون

الحياة فى مخيمات اللاجئين بين الأمل واليأس

كاميرا: مايا، صيحة غضب
تخاطب: ضمير العالم



حول الحياة فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين بعد أكثر من نصف قرن على محنتهم وطردهم من بيوتهم وأرضهم صدر كتاب تذكارى باللغة الإنجليزية تحت عنوان «بين الأمل واليأس: الحياة فى مخيمات اللاجئين» اعتمد فى معظمه على سجل مصور بعدسة المصورة السويدية «مايا جروندال» التى قامت بزيارة معظم مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى كل من لبنان وسوريا والأردن والضفة الغربية وقطاع غزة بين عامى ١٩٩٩ و ٢٠٠٢ واكتسبت تلك الصور مصداقية خاصة لأنها صور حميمة ومباشرة نقلت بأمانة وصدق حياة الناس ينجزون أفضل مايمكن من وجودهم المؤقت الذى جاوز نصف قرن.

وشارك فى الكتاب بقلمه كل من السيدة حنان عشراوى عضو المجلس التشريعى الفلسطينى والسيد. بيتر هانسن من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين

يجيء هذا الكتاب التذكاري في وقت يعاني فيه اللاجئون الفلسطينيون من محنة مضاعفة بسبب سياسة القمع الإسرائيلي في الداخل والخارج ويؤكد لنا من جديد أن هناك أكثر من أربعة ملايين لاجيء فلسطيني ينتظرون العودة إلى وطنهم، حيث يعيش الغالبية العظمى منهم في ظل ظروف قاسية في مخيمات مكتظة بالبشر سواء في الأراضي المحتلة أو في بعض الدول العربية، مما جعلهم يعيشون حالة الانتظار التي تنتقل الآن إلى الجيل الرابع منهم، فهم أناس لم تطبق حياتهم، ومع ذلك لهم لم يتخلوا بعد عن الأمل في يوم يجيء، يصغي فيه العالم لهم، ويعترف بحقهم في العودة.

حنان عشراوي: ضحايا بلا وجوه

تؤكد السيدة حنان عشراوي عضو المجلس التشريعي الفلسطيني في تقديمها للكتاب أنه في عام ١٩٤٨ تم إلقاء الشعب الفلسطيني خارج مسار التاريخ؛ حيث تعرض الكثيرون منه لاقتلاع الجذور والترحيل والطرد القسري، بعيدا عن قداسة وأمان وطنهم، وكونهم ضحايا خرافة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» فقد تم قمع حكاياتهم وإنكار وجودهم وكذلك تشويه حقائقهم التاريخية والثقافية.

وتضيف السيدة حنان عشراوي أنه على مدى ما يزيد على نصف القرن يتعرض الفلسطينيون لظلم مزدوج يتمثل فيما يفرض عليهم من حرمان وتشتيت ونفي من ناحية، كذلك يتعرضون لقمع الاحتلال الوحشي والحرمان من حقوق الإنسان الأساسية فضلا عن تطبيق



سماحة القمع المنظم من ناحية أخرى.

وتستذكر محنة الفلسطينيين بعد خمسة وخمسين عاما على نكبتهم، حيث تذكرنا بالمعاناة المستمرة التي تجسد محنتهم المأساوية الدامية حيث ترى أن المخيم في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كما في الأردن وسوريا ولبنان يمثل رمزا للثورة وتصميم الفلسطينيين، كما يمثل تذكيرا لمعاناتهم، ورغم كل تلك المحن نجد أن الفلسطينيين في مخيماتهم يسعون للحفاظ على هويتهم وتصميمهم على العودة إلى الوطن الأم في يوم من الأيام، رغم ما يتعرضون له من تجرع العذاب في ظل ظروف تفتقر لمقومات الحياة وخوف وغياب اليقين ومع ذلك ورغم ذلك كله لم يغب عنهم أبدا جوهر إنسانيتهم العميق.

إن إنكار إسرائيل المتكرر لحق اللاجئين الفلسطينيين المشروع في العودة إلى ديارهم أفرز د. حنان أنه إنكار لتاريخ الفلسطينيين ذاته وتكريس للنكبة بمختلف الأساليب والأشكال، ورغم ذلك فإن هؤلاء اللاجئين بدلا من أن يجعلوا أنفسهم ضحايا المأساة فقد أصبحوا رمزا للتصميم والأمل والالتزام بالحياة.

الصور .. شهادة مؤثرة!

وترى د. حنان أن الصور الإنسانية المصورة السويدية ميا جروندال التي التقطتها معبرة بها عن حياة اللاجئين الفلسطينيين تعد شهادة مؤثرة على هذا الواقع المأساوي الذي يعيشونه، كما أنها شاهد لا غنى عنه على انتصار روح الإنسان على الألم الوليد، حين استطاعت ميا أن تمسك بلحظات إنسانية نادرة في حياة اللاجئين، مسقطة الزمان والمكان لتطلق السهم نحو الإدراك البناء والتعرف



الإنساني، فقد قدمت عدستها وصفاً دقيقاً لذاكرة الفلسطينيين الجمعية كطاقة دائمة لوعد الإنسانية، بيانها في نفس الوقت تقدم تحية مؤثرة لشجاعة الفرد.

أما بيتر هانسن من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين فيذكر في مقدمة الكتاب أن الوكالة أخذت على نفسها أن تبقي على سجل لا يضاهى من الصور الفوتوغرافية لحياة وتاريخ من يتمتعون تحت رعايتها ولذلك جاء هذا السجل بعدسة المصورة ماريا ليحفظ معاناة وتاريخ هؤلاء البشر وليجعل الأبناء على حكاياتهم حية نابضة. كما أضافت صورها إلى أرشيف الوكالة مجموعة حديثة من الصور المفعمة بالألوان ومظهر التعاطف والإنسانية. فلم تكن صورها مجرد تسجيل مبسط للفقر ولزحام الزحام واليأس، لكنها أضافت أيضاً قدرتها على بث لحظات المرح ووقفات من الجمال الصافي في نفس اللاقي إليها

ويضيف هانسن أن أعمال الوكالة لم تقتصر على تحقيق أثر بعيد المدى في حياة اللاجئين الفلسطينيين سواء كان ذلك في مجال التعليم أو الرعاية الصحية ولكنها أيضاً حرصت على نشر هذا السجل المصور الحافل عن هوية الشعب الفلسطيني لصالح الأجيال القادمة ومن أجل ذلك فإن الأمم المتحدة يحدوها الأمل أن يأتي يوم يصبح فيه الأرشيف المصور لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين ملكاً للشعب الفلسطيني نفسه.

تجربة ماريا :

المأساة .. والجمال!

أما تجربة هذا الكتاب وصوره وهي للمصورة السويدية ماريا جوفالدوفسون لنا تجربتها المختلفة والثرية في تصوير المشاهد المؤثرة في مخيمات اللاجئين



الفلسطينيين في كل من لبنان وسوريا والأردن والضفة الغربية وغزة فنقول في البداية بكل مرارة:

بينما نجد وسائل الإعلام الغربية تركز على الفلسطينيين وهم المستعمرون والمهاجرون الذين تمكنوا في نهاية الأمر من الاستيلاء على فلسطين وتحويلها إلى إسرائيل، وبينما تنشر قصة نجاح الرواد الإسرائيليين في جميع أنحاء العالم فقد تم إسدال ستار التعتيم على الشعب الفلسطيني.

وتحكي لنا بعض لمحات من تجربتها الإنسانية المدوية في مخيمات اللاجئين فتقول:

- لقد شعرت في أول زيارة قمت بها لإحدى المخيمات بعجز عيني عن استيعاب فوضى الحجرة الأسمنتية ذات الأسطح الخشبية وقد تم دعمها بمزيد من الكتل الأسمنتية بينما تتعلق أسلاك الكهرباء في الهواء. أما الحواري الضيقة فتشقها من الوسط قنوات المجاري المفتوحة ولقد وجدت على تلك الفوضى درجات متباينة من الطلاء الرمادي في غياب كامل لأي نوع من الشجر أو الزرع أو الزهر. وكان شعوري بالقتامة يضطرب، كما حركت مشاعر لدرجة أعجزتني عن الإحساس بما يطوف أمام ناظري. ورغم كل تلك المعاناة وجدت مزايا في تلك المخيمات صورا أخرى تقول عنها:

وبالرغم من كل ذلك فقد وجدت كما هائلا من الجمال في تلك المخيمات وجدت ذلك الجمال في البشر، وجدته في وجوههم وفي هيئاتهم، في ذلك التلهف الذي ينم عن المودة والاعتزاز بالنفس.

«ولكنك تتعجب من أين يأتي هؤلاء



اللاجئين بتلك القوة والصلابة في أن يفتحوا قلوبهم وبيوتهم لتحكيها كاميرتي، ومعها كل أسئلتي عن حياتهم وعن ماضيهم وحاضرهم وكذلك عن أحلامهم وآمالهم في المستقبل.

ثم تختتم منايا شهادتها عن تجربتها الإنسانية المؤثرة في تلك المخيمات قائلة:

«وحينما أنظر لتلك الصور التي قمت بالتقاطها لفاطمة وحمدة ومحمود وبدر وغيرهم ممن قابلتهم في مخيمات اللاجئين فإنني أفكر فيهم كأفراد من أسرتي: فمنهم من كان يمكن أن تكون أمي أو أبي أو خالتي أو أختي أو أخي، وكان يمكن أن يكون الأطفال أطفالي. أنظروا إلى عيونهم فستجدون أناسا لا يستحقون عطفنا ورحمتنا فحسب، وإنما كذلك يستحقون أصواتنا التي يجب أن ترتفع لتساعدهم على إنجاز حلمهم في العودة إلى وطنهم»

شهادة حية
تخاطب ضمير العالم

وبعد، فقد جاء هذا الكتاب المصور والذي يحوي تلك المجموعة من الصور الإنسانية المؤثرة للشعب الفلسطيني اللاجئ في مخيماته ومعاناته الصعبة، مجسدة بصورة غريبة شجاعة الإنسان ومأساة الشعب الفلسطيني ومحنته. جاء هذا الكتاب بمثابة شهادة حية لتلك المأساة وليخاطب ضمير العالم الذي لازدواجية المعايير يتجاهل تلك المأساة التي مضى عليها أكثر من نصف قرن لعله يصحو ويستيقظ من غفلته.

إنها صيحة غضب من فنانة شجاعة في وجه ذلك الضمير الغائب المتحجر القلب. ■









هل تنجح أمريكا في وقف برنامج إيران النووي ؟

بقلم
د. فوزي حماد

علنت إيران عن برنامج نووي متكامل يتضمن مفاعلات القوي النووية لتوليد الكهرباء، ودورة الوقود النووي اللازم، وفي قلبه مشروع لاثراء اليورانيوم «وليس تخصيب) لإنتاج وقود نووي منخفض الاثراء يحتوى على ٣-٥٪ يورانيوم ٢٣٥ لتشغيل محطات الماء الخفيف التي تشكل أساس برنامج المفاعلات الإيراني، منذ زيارة الدكتور محمد البرادعي مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية لمحطة إثراء اليورانيوم الريادية في فبراير الماضي، التي أوضحت تقدما تكنولوجيا نوويا رفيعاً في إطار معاهدة منع الانتشار النووي تتصاعد حملات التهديد العسكري لإيران من جانب اللوبي الإسرائيل في الولايات المتحدة، ومن جانب عدد من المسئولين الأمريكيين، وأخيرا من جانب إسرائيل نفسها



بوش



خاتمي



كلينتون

وقد صعد مجلس المحافظين بالوكالة الدولية، وهو المجلس الحاكم لها موقفه من إيران وطالبها في اجتماع سبتمبر الماضي أن تقدم ما يثبت أنه ليس لديها برامج تسليح نووي سرية قبل ٣١ أكتوبر ٢٠٠٣. زيادة على ذلك تصاعدت المواقف الأوروبية بشكل كبير وطلبت من إيران وقف نشاطها في إثراء اليورانيوم بغض النظر عن أنه نشاط سلمي أو غير سلمي ودون دليل من تفتيش حتى الآن على وجود نشاط عسكري نووي إيراني أي إضافة إلى نظام الضمانات النووية المستخدم حالياً الانتشار.

كما تطالبها الوكالة بتوقيع البروتوكول الإضافي، ولكن هذا أصبح مطلبا ثانويا الآن.

إن هذا الموقف الجديد لا يتفق مع نظام منع الانتشار وهو تطبيق للسياسة الأمريكية الجديدة مجابهة للانتشار النووي أي استئصال أي عمل تكنولوجي قد يؤدى إلى قدرات نووية سلميه تمكن من الاقتراب من صناعة السلاح النووي، وهذه هي السياسة التي أتبعت في العراق.

إن إيران الدولة الثانية في محور الشر وفق الخطاب الرئاسي الأمريكي تواجه مأزقا نوويا حرجا، فهل تستطيع مواجهته والحفاظ على إرادتها في بناء تكنولوجيا نووية سلمية في إطار معاهدة

منع الانتشار النووى، وهذا هو ما نتعرض له فى هذا المقال.

البرنامج النووى الإيرانى

أعلنت إيران عن برنامجها النووى فى المؤتمر العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية «نشير إليها اختصارا بالوكالة» فى سبتمبر ٢٠٠٢ وفى بيان ألقاه نائب رئيس جمهورية إيران الإسلامية فى مقر الوكالة بمدينة فيينا فى مايو ٢٠٠٣. يتضمن هذا البرنامج بناء ست محطات نووية سعتها المركبة «أو المنشأة» ٦٠٠٠ ميجاوات كهربى، بالإضافة إلى محطة بوشهر الواقعة على الخليج جنوبى إيران وسعتها المركبة ١٠٠٠ ميجاوات كهربى، وهى محطة قيد الإنشاء ألمانية المنشأ والصنع، وقد بدأ إنشاؤها فى عام ١٩٧٤ أثناء الحكم الملكى وتوقف البناء عقب قيام الحكم الثورى الجمهورى الإسلامى، ويجرى الآن استكمالها بواسطة روسيا الاتحادية.

أوضحت إيران أن هذا البرنامج المخطط إقامته حتى عام ٢٠٢٠ يهدف إلى مواجهة تزايد معدل استهلاك الكهرباء فى بلد تعداده ٦٥ مليون نسمة، ويبلغ ٨٫٥٪ سنويا.

كما يبلغ معدل استهلاك البترول اللازم لإنتاج الكهرباء ٨٫٨٪ سنوياً، ويفوق هذا المعدل بكثير معدل نمو المصادر البترولية وهو ٥٫٨٪ سنوياً. سوف يحقق البرنامج فى حالة اكتماله إلى توفير ١٩٠ مليون برميل من البترول الخام فى العام قيمتها الاقتصادية حوالى ٥ مليارات دولار سنوياً، بالإضافة إلى التحسن البيئى الكبير نتيجة عدم إطلاق غاز ثانى أكسيد الكربون وأكاسيد النتروجين والكبريت.

برنامج متواضع

تجدر الإشارة إلى أن هذا البرنامج أكثر تواضعاً من البرنامج الذى تم إعلانه فى فترة الحكم الملكى فى مطلع السبعينيات والذى تم تخطيطه بواسطة خبراء أمريكيين. هدف برنامج شاه إيران إلى بناء محطات نووية قدرتها المركبة ٢٠٫٠٠٠ ميجاوات فى فترة ٢٠ عاماً، يبلغ ثلاثة أمثال البرنامج الحالى وقد أعلن وسط زهو إيرانى ٨ رفيع، كما تم التخطيط لمشاركة غربية واسعة فى هذا البرنامج شملت ألمانيا وفرنسا وأمريكيا، وتم التعاقد فى ذلك الوقت على ست محطات نووية إثنان من كل من ألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة. وتم البدء فعلاً بتشييد محطتين ألمانيتين فى مدينة بوشهر فى الجنوب التى تقع على الخليج الفارسى هما بوشتهر.. أو بلغت نسبة بسعة التشييد منها ٧٥٪ وبوشهر، بلقب من التشييد منها ٦٠٪ وحين قامت

الثورة الإيرانية وتوقف البناء.

الاعتماد على الذات

أعلنت إيران أيضاً عن سياستها فى الاعتماد على الذات فى تنفيذ هذا البرنامج وخاصة فى مجال دورة الوقود النووى. ويستلزم ذلك توفير مصادر خام اليورانيوم محليا بالكميات التى يحتاج إليها البرنامج وبناء دورة وقود نووى محلية ومنها استخراج خام اليورانيوم ثم ركاز اليورانيوم وتنقيته وتحويله إلى وقود نووى صالح للاستخدام، ويدخل ضمن دورةالوقود النووى عملية إثراء اليورانيوم «Uranium Enrichment».

«نشير هنا إلى استعمال تعبير تخصيب اليورانيوم هو استعمال خاطئ» وتقتضى عملية الإثراء زيادة نسبة اليورانيوم – ٢٣٥ وهو النظير الانشطارى فى اليورانيوم الطبيعى وتبلغ نسبته ٠,٧٪ تقريبا والباقى وهو النظير الغالب يورانيوم – ٢٣٨ أى ٩٩,٣٪ تقريباً. يحتاج مفاعلات الماء الخفيف إلى وقود منخفض الإثراء تتراوح نسبة اليورانيوم ٢٣٥٠ فيه بين ٣٪ إلى ٥٪.

إن تكنولوجيا الإثراء وهى فى الأساس تكنولوجيا فصل اليورانيوم – ٢٣٥ عن اليورانيوم –٢٣٨ هى– تكنولوجيا معقدة وتحتاج إلى كميات كبيرة من الكهرباء، ولقد تم تطوير تكنولوجيا الطرد المركزى الغازى حديثاً، التى وفرت كميات الكهرباء اللازمة بشكل كبير. وأصبحت هى التكنولوجيا التى تستخدم، وقد استخدمتها الباكستان فى الثمانينيات استخداما عسكريا وذلك بإنتاج يورانيوم عالى الإثراء أى ٩٠٪ يحتوى على يوارنيوم-٢٣٧، ويختلف فى ذلك عن اليورانيوم منخفض الإثراء الذى يستخدم فقط فى أغراض لتوليد الكهرباء النووية.

قررت إيران الدخول فى هذه التكنولوجيا المعقدة منذ الحكم الملكى فقد تضمن البرنامج النووى وقت ذاك التعاقد على شراء ١٥٪ من أسهم شركة يوريديف وهى شركة فرنسية أوروبية لاثراء اليورانيوم وكان لإيران حق المعرفة التكنولوجية... كما تم إقامة مركز تكنولوجى فى أصفهان كخطوة مهمة لتصنيع الوقود النووى لمفاعلات الماء الخفيف بواسطة شركات فرنسية وبريطانية. إزاء هذه الخبرات السابقة قررت إيران إثراء اليورانيوم كخطوة لتصنيع يورانيوم- ٢٣٥.

وقد قد قررت إيران الاستمرار فى بناء مفاعلات من طراز الماء الخفيف التى تكونت لديها خبرة ومعرفة بها منذ العصر الأمبراطورى أو الملكى ولكنها أجرت تعديلا مهما وهو أن يكون

البرنامج النووى الإيرانى خليطا من مفاعلات الماء الخفيف ومفاعلات الماء الثقيل أى مفاعلات كاندو هى مفاعلات كندية الأصل أى كندية التصميم والتشييد.. وتستخدم هذه المفاعلات اليورانيوم الطبيعى كوقود.

يوضح ذلك أن البرنامج النووى الإيرانى فى العهد الجمهورى تأثر كثيراً بالبرنامج النووى فى العصر الملكى فى نوع المفاعلات ودورة الوقود النووى مع تعديل مهم هو إضافة مفاعلات الماء الثقيل وإنتاج الماء الثقيل. وقد اتخذت عدد من الدول هذا الاتجاه منها الهند وباكستان وكوريا الجنوبية والصين. ونحن نؤيد أيضاً هذا الاتجاه فهو يخلق صلة قوية مع هذين النوعين من المفاعلات والتكنولوجيات الخاصة بهم.

محطة ناتانز

فى هذا الإطار قامت إيران بالتعاقد مع روسيا فى عام ١٩٩٥ لاستكمال محطة بوشهر-١ التى رفضت ألمانيا استكمالها وإمدادها بالوقود النووى مع إعادة الوقود النووى المستهلك أو المحترق «الذى يحتوى على بلوتونيوم» إلى الاتحاد السوفيتى، كما تعاقدت أيضاً على إدخال تكنولوجيا الطرد المركزى الغازى لإثراء اليورانيوم بشكل بحثى تجريبى. إلا أن الرئيس الأمريكى كلينتون فى ذلك الوقت تدخل لدى الرئيس الروسى يلتسين لايقاف الجزء الخاص باثراء اليورانيوم، وهذا يوضح المعارضة الأمريكية المبكرة لعملية الأثراء حتى على المستوى البحثى والتجريبى.

إلا أن الإصرار الإيرانى لامتلاك هذه التكنولوجيا منذ الشاه جعل إيران تعمل على امتلاك هذه التكنولوجيا، وليس معروفا الآن كيف حصلت عليها.

أعلنت إيران فى سبتمبر ٢٠٠٢ عن مشروع إقامة محطة لاثراء اليورانيوم فى منطقة ناتانز بوسط إيران وأبلغت الوكالة بذلك. وقد قام الدكتور محمد البرادعى المدير العام للوكالة ووفد معه بزيارة هذه المحطة فى فبراير الماضى «٢٠٠٣م».

شاهد الوفد محطة ريادية تتكون من ١٦٣ وحدة طرد مركزى غازى تم تركيبها حديثاً، وأن هذه الوحدات قد تم اختبارها ووجد أنها يمكن أن تعمل بكفاءة.. كما شاهد وفد الوكالة أيضاً ١٠٠٠ «ألف» وحده طرد مركزى تحت التطوير. كما وجد أن إيران تخطط لاستكمال عدد وحدات الطرد المركزى الغازى إلى ٥٠٠٠ وحده ليكون لديها وحدة اثراء إنتاجية للوقود النووى.

وقد نشر أخيراً أنه تم تطوير هذه

التكنولوجيا واختبارها سريا في الورش التابعة لمحطة كالابى الكهربية غرب طهران، قبل الانتقال إلى ناتانز التى تقع على بعد ٣٠٠ كيلومتر جنوب طهران، وقد اكتشف مؤخراً آثار يورانيوم عالى الاثراء فى تلك المنطقة مما أثار قلقا عالياً.

الأزمة

منذ زيارة البرادعى لمحطة ناتانز التى أوضحت هذا التقدم التكنولوجى الهائل لإيران، وامتلاكها تكنولوجيا متقدمة هى تكنولوجيا إثراء اليورانيوم وبدأت التهديدات توجه إلى إيران. إن هذه التكنولوجيا تكنولوجيا بالغة الاتقان تتضمن تداخل فروع علمية وهندسية متعددة علم وهندسة المواد، هندسة ميكانيكية، هندسة كهربية، هندسة نووية، هندسة كيميائية، وهندسة التحكم- علم الفيزياء – علم الكيمياء – إن التكامل بين هذه المجالات المتخصصة فى التصميم والتشييد والتشغيل يوضح الوصول إلى قدرة علمية وتكنولوجية متميزة. هذا بالإضافة إلى هذه التكنولوجيا آثار امتلاك إيران لها مخاوف الولايات المتحدة وإسرائيل والدول الغربية بأن إيران يمكنها تطوير واستخدام هذه التكنولوجيا فى إنتاج يورانيوم عالى الاثراء نوعية السلاح..

لذلك تصاعد القلق الإسرائيلى – الأمريكى وأصبح قلقا أوروبيا من عدة نواح تصاعد القدرة العلمية والتكنولوجيا النووية لبلد شرق أوسطى قريب من إسرائيل مهما كانت التزاماته بمعاهدة منع الانتشار النووى، ومن ناحية أخرى فإن إيران لديها القدرة على إنتاج يورانيوم عالى الإثراء لأغراض السلاح، ونشرت سيناريوهات شبيهة بما جرى فى كوريا الشمالية بأن إيران تستطيع أن تقيم نشاطاً سريا غير معلن للوكالة تزاول فيه إنتاج اليورانيوم عالى الإثراء، أو أن تعلن انسحابها من الوكالة وتصبح دولة لديها سلاح نووى.

هذا هو لب الأزمة الحالية التى عالجها المؤتمر العام للوكالة فى دورة سبتمبر وطلب من إيران أن تعلن قبل ٣١ أكتوبر الماضى أن ليس لديها برنامجاً سرياً لصنع السلاح النووى، والأخطر من ذلك بدأت مطالبة إيران بواسطة الوكالة وبواسطة الدول الغربية إيقاف برنامج إثراء اليورانيوم.. كما تم الطلب منها الانضمام إلى البروتوكول الإضافى للوكالة الدولية للطاقة الذرية.. منشور دورى رقم ٥٤٠.

هذا هو المأزق الإيرانى.. إذا رفضت إيران فسوف تطلب الولايات المتحدة عرض الموضوع على مجلس الأمن وتحاول الحصول على قرار بالعقوبات،

وقد تتجه إسرائيل إلى العمل العسكري، وبالنسبة للانضمام إلى البروتوكول الإضافي ففي رأينا أنه لن يوقف التحرك العسكري، وشاهدنا على ذلك معركة العراق.. إن عمليات التفتيش وفق القرار ١٤٤١ اشد من أي نظام دولي ومع ذلك لم تعتد به الولايات المتحدة وحين تم الاستعداد الكامل أوقفت التفتيش، وباشرت العمل العسكري ضد العراق.

باشرت العمل العسكري في إطار تضليل هائل بوجود أسلحة دمار شامل، ويعرف المسئولون في الدول النووية وكذلك مراقبون محايدون بعدم وجود أسلحة دمار شامل في العراق، بل وأكد ذلك أحد كبار المسئولين الأمريكيين الذي قال لقد أطلقنا «فرية» أسلحة الدمار الشامل حتى يمكن توحيد الجميع معنا..

كان الهدف هو تصفية النظام الذي استطاع في وقت ما بناء نظام علمي وتكنولوجي متقدم في مجال إثراء اليورانيوم.

لانتعرض هنا لديكتاتورية النظام فلم تكترث بها الولايات المتحدة أثناء تأييدها لهذا النظام وهذا هو هدف السياسة الأمريكية الحالية سياسة مجابهة الانتشار النووي، لقد انتهت مرحله معاهدة الانتشار النووي والتفتيش الذي تقوم به الوكالة، وتم التحول إلى استخدام العمل العسكري في تغيير النظم التي تسمح ببناء تكنولوجيا متقدمة قد تؤدي إلى قدرات تؤدي إلى التحول نحو بناء سلاح نووي. هذا ما حدث في العراق ونلاحظ أنه بعد خمسة شهور من نهاية الحرب على العراق لا نجد أثرا لأسلحة الدمار الشامل ونجد أيضاً أن الحاكم الأمريكي للعراق قد أصدر قرارا في أغسطس الماضي بحل منظمة الطاقة الذرية العراقية من أجل مزيد من التشتيت للكادر العلمي النووي العراقي الذي استطاع أن يصل إلى تكنولوجيا الاثراء وقد كان في مرحلة أقل تقدما من إيران الآن.

مجابهة الانتشار النووي

إن المطلب الأمريكي الإسرائيلي والذي أصبح الآن مطلباً أوروبيا هو إيقاف إثراء اليورانيوم وهذا الموقف لا أساس له من قانون، فإن معاهدة منع الانتشار لا تمنع أي نشاط نووي سلمي، إنما تضعه تحت التفتيش. وإثراء اليورانيوم- ٢٣٥ لإنتاج وقود منخفض الإثراء يحتوي على ٣-٥٪ لورانيوم ٢٣٥ هو غرض سلمي بحت ولا يمكن استخدام هذه المادة لإنتاج السلاح كما سبق الاشارة. إن هذا الضغط الذي تشارك فيه الوكالة هي سابقة خطيرة وهي إذا ما تمت تعتبر نجاحا لسياسة



هل أصبحت المفاعلات النووية التي تستخدم للأغراض السلمية ذريعة لشن العدوان وحرمان الدول من الاستفادة منها؟

مجابهة الانتشار النووى الأمريكي وتقنينا لها. في وسط هذا كله تترك إسرائيل النووية التي تملك حوالى ٣٠٠ رأس نووية دون أدنى كلمة أولوم من جانب القطب الأعظم فى العالم والدول الأوربية الكبرى وترك هذه الترسانة تشكل الخطر الرئيسى في المنطقة، وإذا تحركت دول المنطقة لحماية نفسها بتكنولوجيا يجرى العمل على تدميرها. أو يجرى نزع تكنولوجياتها مهما كانت سلمية أو خاضعة للإشراف الدولي.

لقد أعلنت البرازيل أخيراً أنها سوف تعيد تشغيل منشآتها لاثراء اليورانيوم لاغراض سلمية.. ولم يحتج أحد.. وقد تحذو الأرجنتين حذو إسرائيل.. فهل سيتدخل أحد.. هذا بالإضافة إلى أن هناك دولا مثل اليابان لديها عمليات إثراء واسعة النطاق.. فهل

تتوقف؟!.

وهناك أكثر من عشر دول لديها هذه التكنولوجيات فهل تتوقف؟ لالن تتوقف لانها ليست فى الشرق الأوسط.. ولا تشكل خطراً حتى ولو كان محتملاً على إسرائيل.

لقد تم التوصل إلى حل وسط أثناء زيارة وفد أوروبى رفيع المستوى إلى إيران، وهو إيقاف عملية إثراء اليورانيوم مؤقتا والإنضمام إلى البروتوكول الأضافى. وأعلن ذلك فى ٢١ أكتوبر الماضى

ولقد طالبنا بذلك فى مقالاتنا فى المصور (العدد ٤١٦٧) ٥ سبتمبر ٢٠٠٣ طالبنا بأن تركز إيران على الانتهاء من بوشهر -١ وتشغيله وهذا يوثق علاقتها النووية بالاتحاد السوفيتي، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة استكمال دورة الوقود النووى بما فى ذلك إثراء اليورانيوم وعبرت عن هذا الرأى مع أحاديثي مع زملاء أبرياء وحينما شاركت فى مؤتمر موسكو لمنع الانتشار فى ١٩ سبتمبر تحدثت فى ذلك مع ممثل إيران فى هذا المؤتمر ورحب بالفكرة .. ووعد بطرحها حين عودته إلي إيران

***

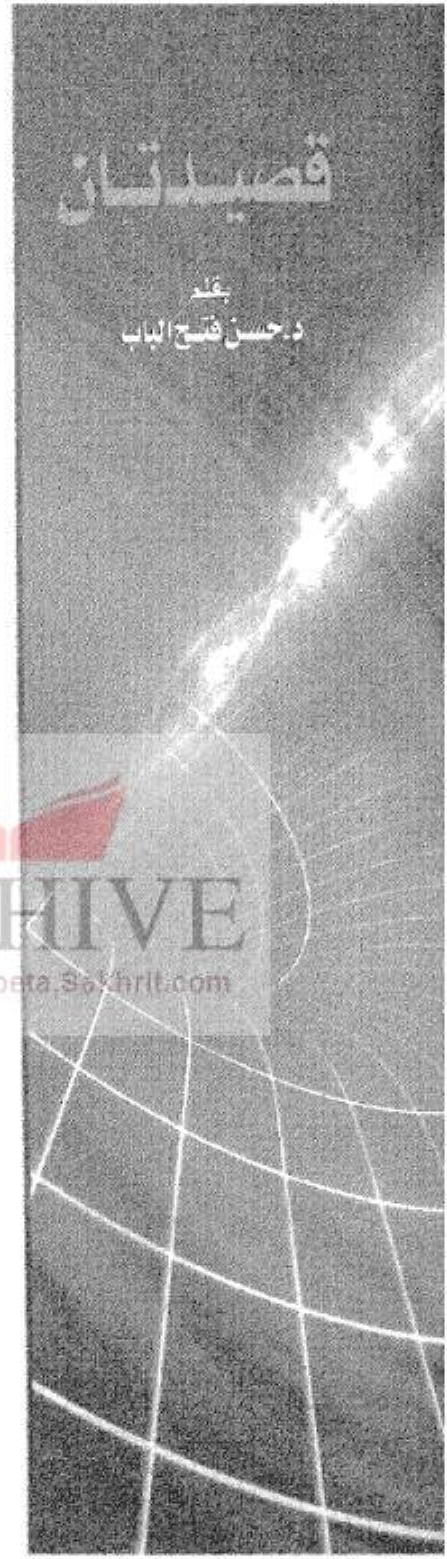
هناك ترسانة من القرارات خاصة بانشاء منطقة خالية من السلاح النووى فى الشرق وكذلك أسلحة الدمار الشامل الأخرى والصواريخ.. أن العمل نحو تطبيقها هو الطريق إلى السلام والاستقرار والديموقراطية فى المنطقة.. ولكن استمرار تدمير الأنظمة وتدمير القدرات التكنولوجية.. قد ينجح إلى حين فى تامين إسرائيل.. ولكنه إلى حين.

أن التعايش السلمي فى المنطقة وتنميتها اقتصاديا وديموقراطيا هو الطريق إلي المستقبل. العدل هو الطريق.. الأسلوب السلمى والعمل السلمى هو الطريق.

إن مزيداً من الأشلاء فى المنطقة مثل العراق لن يؤدى ألا إلى مزيد من الإرهاب..

***

وفى ضوء التطور العام الذى حدث فى أيران مؤخرا وهو مطالبة عدد من الدول الأوروبية إيران بتوقيع البروتوكول الاضافى الذى يسمح بحرية تفتيش واسعة أكثر من نظام الضمانات الحالى فأن هذه الدول مطالبة بأن تبدأ بالضغط على إسرائيل لتطبيق القرارات الدولية التى تطالب إسرائيل بالأنضمام إلى معاهدة منع الانتشار، وكذلك القرارات الخاصة بانشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل - أهمها قرارات مؤتمر تمديد مراجعة معاهده منع الانتشار فى عام ١٩٩٥، وقرارات مؤتمر المراجعة فى عام ٢٠٠٠. ■



- ١ -

وقالت الصحراء

أسلمت جرحى للهجير
كى يندمل
وكان رطبا لايزال
فقالت الصحراء
لابد مما ليس منه بد
فلتمتثل لريحى الهوجاء
للبرق ... للرعود
ولتخفض الجبين
وفجأة رأيتنى
منحنيا على السراب
يضمنى جرحى
وصاعداً أعانق النسور
ومهجتى أشلاء

- ٢ -

أســرار

تنسخنى ربات البحر
طيرا من أحجار
تمثالاً من صلصال
آنية من زهر.. جمر
وعمودا من ملح
بعض رماد
لكن الريح الشرقية
تنفخ فى قاع النار
فأعود إلى الشاطىء نسرا
يضرب بجناحين طليقين
أغلال الإعصار
ويرانى الكون غريقا
تنقذه ربات الحب
وتبادله الأسرار
(يوسف) يخرج من ظلمات الجب
وفؤادى تغمره الأنوار

الدكتور

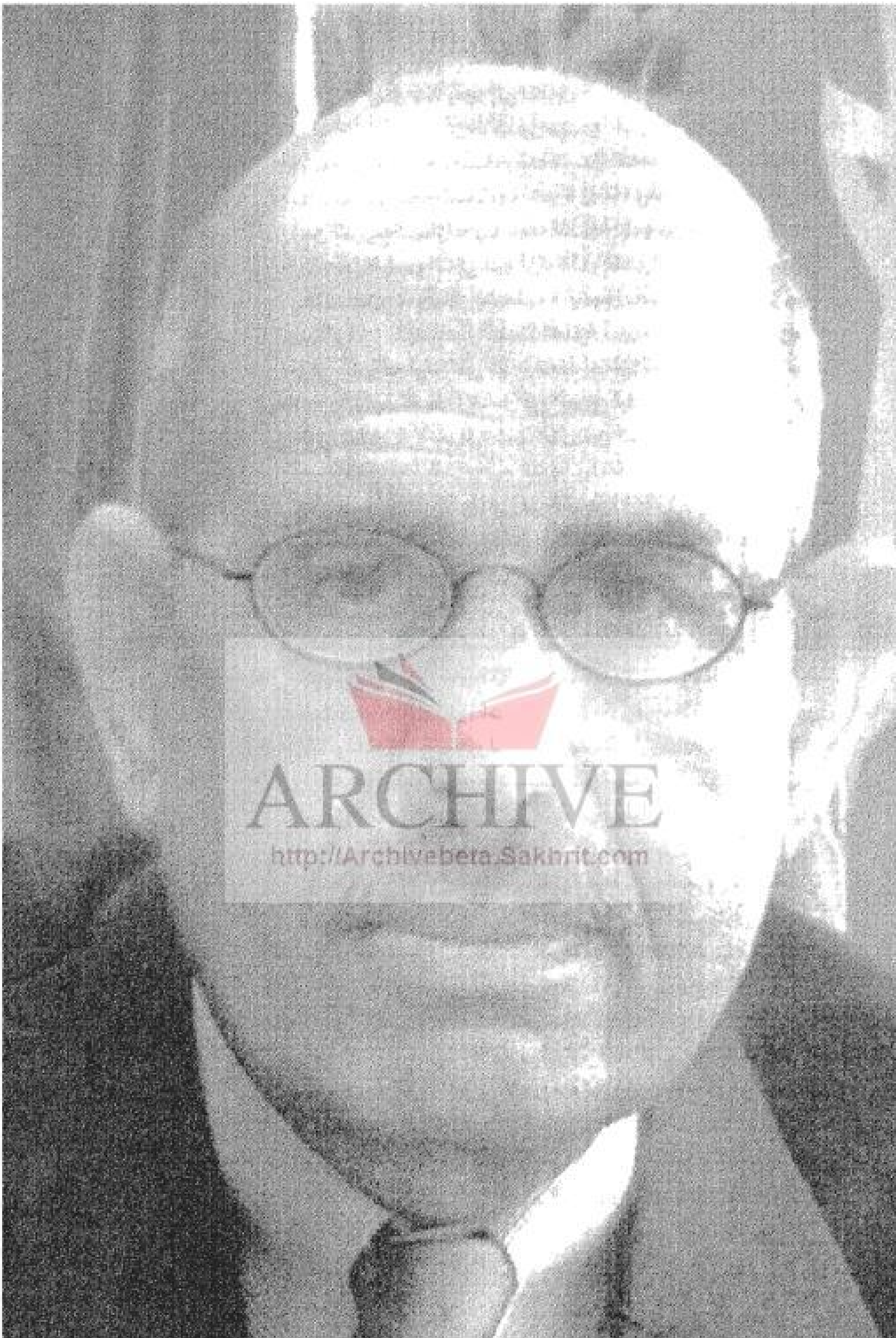
محمد البرادعي

أهم منصب دولي بعد منصب الأمين العام

بقلم
شكري فؤاد

نشرت الصحف المصرية فى يونيو ١٩٩٧ خبراً قصيراً عن انتخاب الدبلوماسى المصرى الدكتور محمد مصطفى البرادعى بالإجماع مديراً عاما للوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فيينا اعتباراً من أول ديسمبر ١٩٩٧، خلفاً لمديرها السابق السويدى هانز بليكس الذى تم اختياره بعد تقاعده رئيسا لهيئة التفتيش والتحقق «انموفيك» من امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل.

ومع أن منصب مدير عام وكالة الطاقة الذرية يعد أهم منصب دولى يتولاه مصرى بعد منصب الأمين العام للأمم المتحدة الذى تولاه الدكتور بطرس غالى خلال الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧، فإن خبر إنتخاب الدكتور البرادعى لم يلق ما يستحقه من الاهتمام لدى الرأى العام وأجهزة الإعلام





● كان اسماعيل فهمي وزير الخارجية الاسبق يعتمد عليه ويوليه من ثقته الشيء الكثير

ولعل هذا يعود إلى سببين:

الأول هو أن الدكتور محمد البرادعي من أشد الناس زهداً في الدعاية لنفسه، وأبعدهم عن اقامة شبكة من العلاقات العامة التي تتيح لصاحبها شهرة زائفة، وهو من أكثرهم عزوفا عن الترويج لانجازاته ولما حققه لنفسه ولبلده من مكانة عالمية.

أما السبب الثاني فهو ان وكالة الطاقة الذرية منظمة شديدة التخصص تبدو وكأن نشاطها لا يتصل بالحياة اليومية للشعوب والأفراد ، مثل منظمة الصحة العالمية أو منظمة الأغذية والزراعة، وفي ظني أنه لولا الدور الذي قامت به الوكالة مؤخراً في التفتيش على أسلحة الدمار الشامل في العراق لبقى كثير من القراء، بل ومن المثقفين، لا يعرفون عنها أكثر من اسمها.

* * *

ولد محمد البرادعي في القاهرة في ١٧ من يونيو ١٩٤٢ وحصل على درجة الليسانس في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ وسنه عندئذ عشرون عاما ونال درجة الماجستير من كلية الحقوق بجامعة نيويورك عام ١٩٧١ ثم درجة الدكتوراة في القانون الدولي من الجامعة نفسها عام ١٩٧٤ مارس المحاماة بعد تخرجه حتى عام ١٩٦٤ عندما التحق بالسلك الدبلوماسي .. فعمل في إدارة الهيئات الدولية ثم نقل إلى بعثتنا الدائمة لدى الأمم المتحدة في نيويورك .. وعندما عاد إلى القاهرة عام ١٩٧٤، ثم الحاقه بمكتب الوزير إسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية في ذلك الوقت ليصبح مساعداً خاصا له وبالرغم من أن درجته الوظيفية كانت سكرتيراً ثانياً ثم سكرتيراً أول فإنه كان من أبرز العاملين بالمكتب، والذين عاصروا هذه الفترة في ديوان وزارة الخارجية بالقاهرة يعرفون كيف كان إسماعيل فهمي يعتمد عليه اعتماداً كاملاً ويوليه من ثقته الشيء الكثير.

وفي عام ١٩٧٨ نقل إلى بعثتنا الدائمة لدى المقر الأوربي للأمم المتحدة في جنيف وبقي هناك حتي عام ١٩٨٠ عندما بدأ مسيرة جديدة في المنظمات الدولية، معاراً من وزارة الخارجية، وهي مسيرة لازالت مستمرة حتى الآن بدأها كزميل ومدير لبرنامج القانون الدولي والمنظمات في معهد الأمم المتحدة للتدريب والبحوث في نيويورك، ثم ممثلاً لمدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية لدى الأمم المتحدة في نيويورك أيضا وفي عام ١٩٨٧

انتقل إلى المقر الرئيسي للوكالة في فيينا ليشغل منصب مدير الإدارة القانونية والمستشار القانوني ثم أصبح مديراً للعلاقات الخارجية بها وفي عام ١٩٩٣ عين مساعداً للمدير العام واستمر يشغل هذا المنصب حتى انتخب مديراً عاماً للوكالة عام ١٩٩٧ وأعيد انتخابه لفترة ثانية عام ٢٠٠١، وهو أول مواطن من دولة نامية يتولى هذا المنصب منذ إنشاء الوكالة وكان من أسباب انتخابه بالاجماع ، إلى جانب كفاءته وخبرته العريضة في ميدان العلاقات الدولية سيما في مجال السلم والأمن الدوليين ونزع السلاح، رغبة واضحة لدى أعضاء الوكالة في أن يتولى إدارتها احد أبنائها المتمرسين بالعمل فيها ممن لهم دراية كاملة بأوجه نشاطها وبالقواعد التي تحكم فاعليتها بحيث يتمكن من تطوير أدائها وتدعيم قدراتها لتكون على مستوى ما يلقى عليها من مسئوليات خصوصا مع اتساع آفاق الاستخدامات السلمية للطاقة النووية وبعد ظهور جانب من القصور والثغرات في تطبيق بعض أحكام اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية ، التي تتولى الوكالة مراقبة تنفيذها، مما سمح لبعض الدول الأعضاء في الاتفاقية بأن تطور لنفسها سراً برامج للتسلح النووي الأمر الذي استدعي إلحاق بروتوكول اضافي بالاتفاقية يتيح الوكالة ولخبرائها حرية أكبر في إجراءات المراقبة والتفتيش وهو البروتوكول الذي تدعو الوكالة في الوقت الحالي كلاً من إيران وكوريا الشمالية للانضمام إليه.

وإلى جانب عمله في المنظمات الدولية كان للدكتور البرادعي نشاط أكاديمي خلال فترة وجوده في نيويورك حيث شغل منصب أستاذ مساعد للقانون الدولي في جامعتها بين العامين ١٩٨١ و١٩٨٧ ولا يمكن الحديث عن محمد البرادعي دون أن نشير إلى قرينته وشريكة حياته السيدة عايدة الكاشف خريجة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، المهتمة بالشأن العام المهمومة بقضايا وطنها، تقف إلى جانبه في كل مراحل حياته المهنية يتشاور معها ويستمع إلى آرائها.

أما الوكالة الدولية للطاقة الذرية التي انشئ عام ١٩٥٧ فهي أهم محفل دولي للتعاون العلمي والتكنولوجي في مجال الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية وهي ليست إحدى الوكالات المتخصصة المنشقة عن الأمم المتحدة مثل منظمة الصحة العالمية وغيرها ولكنها منظمة مستقلة تعمل تحت رعاية الأمم المتحدة وبالتعاون معها.

وينص دستورها على أن هدفها هو السعي لزيادة وتدعيم إسهام الطاقة الذرية في مجالات تعزيز السلام العالمي والصحة والرفاهية والتنمية البشرية في جميع انحاء العالم والتأكد من أن ما تقدمه لتحقيق هذا الغرض من مساعدات مباشرة أو غير مباشرة لا تستخدم في أية أغراض عسكرية ، وتوكل إليها بشكل خاص المهام الآتية.

- تشجيع بحوث الاستخدامات السلمية للطاقة النووية وتقديم المعونة الفنية المطلوبة والعمل كوسيط لتزويد الدول بالمواد والأجهزة والخدمات اللازمة لهذا الغرض .



- رعاية برامج لتبادل المعلومات العلمية والتكنولوجية فى هذا المجال وتشجيع تبادل الخبرات والخبراء وإعداد برامج التدريب المناسبة.

- إرساء وإدارة القواعد التى تضمن عدم إساءة استخدام المعونة المقدمة من الوكالة أو من خلالها فى اغراض عسكرية.

- وضع معايير السلامة والأمان للمنشآت والمواد النووية وأساليب الوقاية من الاشعاعات الذرية.

ومع دخول الاستخدامات السلمية للطاقة النووية إلى آفاق جديدة كل يوم اتسع نطاق عمل الوكالة وأصبح عليها أن تقدم الدعم الفني لدراسات الجدوى للمنشآت النووية، ومعايير السلامة لمحطات توليد الكهرباء باستخدام الطاقة النووية ، وكذلك تحسين الانتاج الزراعى ومكافحة الآفات واستخدام الذرة فى العلاج وفى إدارة موارد المياه عن طريق تحلية مياه البحر والكشف عن المياه الجوفية وغيرها من جوانب التنمية الشاملة التى تحتاج إليها الدول خصوصا النامية منها.

بعد التوصل الي اتفاقية منع الأسلحة النووية اصبحت الوكالة هي الجهة التي تتحقق من التزام الدول الموقعة عليها بالاستخدام السلمي للطاقة النووية

وبعد التوصل إلى اتفاقية منع انتشار الاسلحة النووية عام ١٩٦٨ اصبحت الوكالة هى الجهة التى تتولى التحقق من التزام الدول الموقعة عليها «بالاستخدام السلمى للطاقة النووية، كما ورد فى الاتفاقية وذلك من خلال ما يعرف بالضمانات التى تضعها الوكالة ومعلوم أن الدول الأعضاء فى الاتفاقية وعددها الآن أكثر من ١٨٠ دولة قد تعهدت بالالتزام بثلاثة أهداف رئيسية فى: منع انتشار الأسلحة النووية ومتابعة نزع السلاح النووى وتشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة النووية ، وتلزم الاتفاقية اعضاءها من الدول بأن تضع كل المواد والمنشآت والأنشطة النووية فيها تحت رقابة الوكالة طبقاً لاتفاقيات ضمانات تعقدها الدول مع الوكالة، وهذا هو السند القانونى لقيام الوكالة بالتفتيش على المنشآت النووية فى العراق وإيران وكوريا الشمالية نظراً لأنها أعضاء فى اتفاقية منع الانتشار، بينما لا تخضع الهند وباكستان وإسرائيل لهذا التفتيش لأن هذه الدول الثلاث لم تنضم إلى الاتفاقية ؛ وتستثنى من الرقابة والتفتيش الدول الخمس النووية الكبرى التى كانت تمتلك فعلاً أسلحة نووية عند توقيع الاتفاقية وهى الصين وفرنسا وروسيا الاتحادية والمملكة المتحدة والولايات

المتحدة وذلك بالرغم من انضمامها للاتفاقية' وهو استثناء يظل دائما موضع انتقاد.

وأهم أجهزة الوكالة هو المؤتمر العام الذى يضم جميع الأعضاء فيها ويبلغ عددهم الآن مائة وثلاثين دولة ، ثم مجلس المحافظين ويضم ثلاثاً وأربعين دولة ينتخبهم المؤتمر العام.

ومصر عضو فى المؤتمر العام وفى مجلس المحافظين ، وقد بلغت ميزانية الوكالة ٢٣٠ مليون دولار عام ٢٠٠١.

***

واجه محمد البرادعي منذ تولى إدارة الوكالة اشكالية المواءمة بين واجباته والتزاماته تجاه المنظمة التي يعمل فيها كموظف دولي وبين ما يتوقعه منه كثير من مواطنيه داخل الوكالة وخارجها من خدمات ومجاملات باعتباره «مصرياً» مثلهم، وهي اشكالية ترجع إلي عدم فهمهم لوضع الموظف الدولي بشكل عام ، فالموظف الدولي عندما يعين في منصب مهم يصبح واجبه الأول خدمة المنظمة التي يعمل بها وإداراتها بكفاءة وحزم وحياد دون تحيز لدولة دون أخرى ، لأنه جاء إلى منصبه بإرادة مجموع الدول الأعضاء فيها، وهو ليس ممثل دولته لدى المنظمة بل يمثل جميع أعضائها وعليه أن يراعي مبادىء العدالة والمساواة بين الجميع ليحقق لنفسه مصداقية في إدارته وفيما يتخذه من قرارات. وقد سار البرادعي في اتخاذ قراراته على الحد الفاصل بين صرامة العدالة والموضوعية وبين المجاملات العاطفية ، ولكن في مجتمع تسود فيه اعتبارات المحسوبية ومراعاة الخواطر وتبادل المنافع وتملق الرؤساء يصبح من الصعب تقبل هذا الموقف، فأخذ عليه البعض أنه «موظف دولي» أكثر من كونه «مصرياً» وأنه في تعامله مع المصريين العاملين بالوكالة أو الراغبين في العمل بها كان كالقاضي الذي ظلم نفسه ليشتهر بالعدل، والواقع ان الخلاف بينه وبينهم هو حول مفهوم «المصرية» فهم يريدونه مصرياً يفتح الأبواب أمامهم للترقية والتعيين حتى لو استدعى الأمر التغاضي عن قواعد سنها ، ونظام يطبقه ... ما مفهوم «المصرية» عند البرادعي فهو مساعدة مصر الدولة والشعب وتحقيق أكبر فائدة لبلده مما تقدمه الوكالة من خدمات وتسهيلات ، وخلال حوالي ربع قرن قضاه كموظف دولي لم تنقطع صلته بوطنه ولا علاقته بوزارة الخارجية يقدم المشورة الصادقة والتوجيه السليم والتحذير من المخاطر التي قد تلحق ببلده، وعندما حدث منذ سنوات تسرب لبعض المواد المشعة من أماكن العمل المرخص بها وتم تداولها في بعض محافظات الوجه البحري دون اتخاذ احتياطات الوقاية اللازمة مما تسبب في زيادة مستوى النشاط الاشعاعي وتركيز المواد المشعة في الهواء وأدى ذلك إلى أضرار صحية لحقت بالكثيرين، بادر فوراً بالاتصال بهيئة الطاقة الذرية في مصر وغيرها من الجهات المعنية لإرسال فريق

من خبراء الأمن والسلامة لمواجهة الموقف ووضع قواعد أكثر صرامة للوقاية.

* * *

عندما اصبحت وكالة الطاقة الذرية مسئولة عن التفتيش على برنامج العراق للتسلح النووى والتحقق من عدم امتلاك العراق لأسلحة نووية واجه الدكتور البرادعي موقفا صعبا: كانت لديه مهمتان الأولى هى مسئوليته عن القيام بعملية تفتيش فاعلة طبقاً لقرار مجلس الأمن، والثانية هى تقديم تقرير دقيق إلى المجلس عما توصل إليه من نتائج.. وكان كل من الطرفين فى النزاع (العراق والولايات المتحدة) يرغب فى أن يحصل على إشارة أو تقرير يلائم أغراضه ولكن البرادعى رأى أنه لم يذهب إلى العراق ليؤيد طرفاً ضد الآخر بل لتقديم تقييم دقيق إلى المجلس، ولم ينل هذا الموقف رضاء الولايات المتحدة التي شنت بعد فترة حملة على لجنة المراقبة «إنموفيك».. ويقول هانزبليكس رئيس اللجنة عن هذه الحملة ودواعيها فى تصريح له تعرضت لاهانات على درجة كبيرة من الدناءة، كانت علاقاتي مع الأمريكيين جيدة عموما ولكن ما أن لاح احتمال الحرب فى الأفق حتى بدأت واشنطن ممارسة الضغوط على مفتشى «إنموفيك» لتكون مضامين تقاريرهم أكثر إدانة للعراق بهدف كسب مزيد من الاصوات في مجلس الامن ولم يرضخ البرادعي لهذه الضغوط وتعامل مع الموقف كمسئول أمام مجلس الأمن وليس أمام الولايات المتحدة فكان أول من أعلن ان اتهام العراق بشراء اليورانيوم من النيجر اتهام لا يقوم عليه دليل، وعندما إذاعت أجهزة الإعلام الغربية نبأ عثور المفتشين الدوليين على أنابيب من الألومنيوم يمكن أن تستخدم فى تخصيب اليورانيوم أكد أن هذه الأنابيب بحالتها التى فحصها بها المفتشون لا تصلح لاستخدامها فى أغراض نووية (إلا إذا تم تعديلها وتطويرها).. ومع ذلك كانت له بعض الملاحظات والتحفظات على موقف العراق، وعندما تعرض للانتقاد من الجانب العراقى ، وأيضا من الجانب الأمريكي ، اطمأن إلى أنه يسير على صراط مستقيم لا يحيد عن جادة الحق ارضاء لطرف من الطرفين، على أن أكثر هاجس شغله وأهم هدف عمل من أجله فى مهمته هذه كان تجنيب العراق والعالم ويلات الحرب لذلك اختتم



● لم يرضخ البرادعي للضغوط السياسية وتعامل مع الموقف كمسئول امام مجلس الامن وليس امام الولايات المتحدة

تقريره إلى مجلس الأمن فى ٢٧ من يناير ٢٠٠٣ بقوله: «لم نجد حتى الآن دليلا على ان العراق أعاد إحياء برنامجه للتسلح النووى بعد القضاء عليه فى التسعينات ، وعلى كل حال فإن عملنا يتقدم بانتظام ويجب ان يسمح له بأن يسير فى مجراه الطبيعى.. وسيكون بالإمكان خلال الشهور القليلة القادمة تقديم تأكيدات لها مصداقيتها بأن العراق ليس لديه برنامج تسلح نووى وسيتم ذلك عن طريق نظام التحقق الذى أقمناه (فى العراق)، ان هذه الشهور القليلة هى استثمار ثمين من أجل السلام لأنها يمكن ان تساعد على تجنب الحرب، نحن نثق بأننا سنستمر فى تلقى الدعم منكم ونحن نبذل كل جهد للتحقق من نزع السلاح النووى فى العراق بالوسائل السلمية حتى نثبت أن عملية التفتيش تعمل بنجاح ويمكنها أن تستمر فى عملها كمعلم أو ملمح رئيسى فى نظام دولى لضبط التسلح النووى.

وبعد غزو العراق وعندما شملت عمليات السلب والنهب بعض المواقع النووية مما عرض حياة الآلاف للخطر طالب البرادعى بالسماح لخبراء الوكالة بالسفر إلى العراق لمواجهة هذه المخاطر فرفضت الولايات المتحدة طلبه مدعية بأن هذه هى مسئولية قوات الاحتلال ولكنه أصر على طلبه وأكد ان الوكالة هى الجهة الوحيدة المسئولة عن أمن وسلامة المنشآت والمواد النووية وحماية الأفراد من إشعاعاتها واستمر على إصراره وإلحاحه حتى رضخت الولايات المتحدة ووافق رامفسيلد وزير الدفاع فى ٢٠ من مايو ٢٠٠٣ على السماح للخبراء بالتوجه إلى العراق.

وبالرغم من مشاغله الكثيرة وأسفاره العديدة فإنه يجد دائما الوقت الذى يتخفف فيه من قيود وظيفته ليلقى محاضرة أو يكتب مقالا يعبر فيها عن آرائه الشخصية فى النظام الدولى والأمن العالمى ولا يتسع المقام هنا لعرض أفكاره بالتفصيل ولكنه كداعية للسلام العالمى يرفض نظرية الاستخدام الوقائى للقوة كنموذج للتصدى لتهديدات أسلحة الدمار الشامل لأن الضربات الوقائية يمكن أن تؤدى إلى اخطار بالغة ويرى أن هناك بدائل أخرى تقوم على الاعتماد على نظام دولى جماعى للحفاظ على السلم والأمن الدوليين عن طريق تحديث نظام الأمن الجماعى الوارد فى ميثاق الأمم المتحدة وتطويره بإعادة تشكيل مجلس الأمن وايجاد آليات للتدخل المبكر لفض المنازعات ، واستحداث نظام للعقوبات يستهدف الحكومات والنظم وليس الشعوب واخيراً معالجة الفجوة المتسعة بين الاغنياء والفقراء فى العالم والتى تعتبر أحد جذور وأسباب عدم الاستقرار فى المجتمع الدولى.

وأخيراً فإننى لا أشك فى ان الدكتور محمد البرادعى هذا المصرى الليبرالى فى تفكيره ، الإنسانى فى ممارسته وعلاقاته ينتظر اليوم الذى يتحرر فيه من أعباء وظيفته ويعود إلى مصر ليسهم فى بناء مجتمع أفضل يتطلع ويتمنى ان يتحقق فى حياته. ■

المثقف المصرى بامتياز

بقلم
د. جلال أمين

أعتبر نفسى سعيد الحظ لأنى عرفت الدكتور عبد العظيم أنيس عن قرب، كما أعتبر جيلى من المصريين جيلا سعيد الحظ لأنهم عرفوا الرجل أو قرأوا له واستمعوا إليه. ولهذا فعندما بلغ الرجل سن الثمانين (التى بلغها فى يوليو الماضى) فإنه يستحق منا الشكر على عطائه، وعلى استمرار هذا العطاء بنفس المستوى الذى عهدناه فيه، بل ونشكر أيضا بناته الثلاث الفضليات، وفاء ومنى وحنان، على رعايتهن الفائقة والمستمرة له.

من الأدلة على أن هذه التهنئة فى محلها، أننا إذا فتحنا جريدة أو مجلة فوجدنا فيها مقالا لعبد العظيم أنيس قلنا لأنفسنا: «ها هو ذا مقال



يستحق القراءة!» وإذا ذهبنا إلى ندوة أو مؤتمر وعرفنا أن عبد العظيم أنيس سيتكلم فيه قلنا: «إذن فهناك شيء يستحق الاستماع إليه!» وإذا صادفنا بيانا حول مشكلة سياسية أو ثقافية، وكان عبد العظيم أنيس أحد الموقعين عليه قلنا «فلنقرأ إذن البيان فالأرجح أنه سيبين لنا الموقف الصحيح من هذه المشكلة!».

ما تفسير هذا الموقف الذى نتخذه دائماً من كتابات عبد العظيم أنيس وأحاديثه ومواقفه؟

التفسير يتعلق بالأسلوب كما يتعلق بالمضمون.

أما عن الأسلوب فعبد العظيم أنيس إذا كتب أو تكلم، كتب وقال كلاما مفهوما ومنطقيا ومختصرا وخفيف الظل. فإذا أردت أن تعرف أهمية ذلك فلتتصفح أى صحيفة أو مجلة، أو فلتذهب إلى مؤتمر بعد آخر، لترى بنفسك كثرة ما يقال من كلام يستعصى على الفهم، أو لا يتسق آخره مع أوله، أو ثقيل الظل إلى درجة تبعث الملل فى النفوس، أو كلام ما كان يستحق أن يقال أصلاً.

ولكن الأهم من ذلك ما يتعلق بالمضمون. وأقصد بذلك أن عبد العظيم أنيس إذا كتب أو تكلم أو وقّع على بيان، لا يكذب عليك.

هل أريد أن أقول إن هذا أيضا شيء نادر، وأن من الصعب أن تجد بين الكتّاب أو المحاضرين أو بين من يدلون بأحاديث صحفية أو سياسية أو يوقعون على بيان للتأييد أو الرفض، من لا يكذب عليك؟

للأسف نعم. فما أكثر من يكتبون أو يتكلمون (ومنهم أصحاب عواميد أسبوعية أو يومية أو أحاديث أو برامج منتظمة فى التليفزيون أو الإذاعة) بغرض الكذب عليك، ويجدون فى كل أسبوع أو كل يوم طريقة جديدة للكذب والتمويه.

ذلك أن الكذب، بعكس ما قد نتصور، له أشكال وألوان. ومن ثم فليس من الصعب أن تعثر على وسيلة للكذب، وإنما الصعب هو أن تقول الحقيقة.

فالكذب ليس كما قد نظن هو فقط أن تقول عكس الحقيقة، كأن تقول مثلا إن الأسعار فى مصر الآن تميل إلى الانخفاض بدلا من الارتفاع، ولكن من قبيل الكذب أيضا أن تقول نصف الحقيقة أو ربعها فتخلق لدى القارئ انطباعا مخالفا للحقيقة. كأن تقول مثلا إن الحكومة قد اجتمعت لمناقشة وسائل تخفيف أعباء المعيشة على محدودى الدخل ووسائل تخفيض الأسعار، ولا تقول إن الاجتماع قد انتهى دون اتخاذ أى إجراء مُجدٍ وعملى لإحداث هذا التخفيض، وأنه لم يصل إلى توصيات

إلا من نوع «ضرورة زيادة الإنتاج ورفع الانتاجية!».

★★★

ومن صور الكذب أيضا ألا تذكر في تفسيرك لظاهرة ما إلا بعض الأسباب الثانوية دون أن تذكر السبب الرئيسي، إذا إن هذا من شأنه صرف الانتباه عن المذنب الحقيقي وتحويله في اتجاه آخر. وهناك أيضا الكذب بالكلام خارج الموضوع برمته، كأن يكون الناس يتكلمون عن ارتفاع الأسعار وتتكلم أنت عن مزايا عقد مؤتمر سنوي للحزب الوطني.. وهكذا.

عندما تكون هذه الأنواع من الكذب سائدة ومنتشرة، فلابد أن نعتبر أنفسنا سعداء الحظ بأن نجد بيننا رجلا مثل عبد العظيم أنيس، رجلا لا يقول عكس الحقيقة ولا نصفها أو ربعها، بل يقول، بقدر إمكانه الحقيقة كلها. ولا يعطي تفسيرات مصطنعة تركّز على أسباب تافهة وثانوية، بل يشير بإصبع الاتهام، بكل صراحة ووضوح إلى المذنب الحقيقي. وفي كل مناسبة يختار للكلام الموضوع الجدير بالكلام فيه.

لهذا السبب كنت دائما، ولا أزال، أعتبر عبد العظيم أنيس، واحدا من



القليلين في مصر (أو في أي مكان، إذا أردنا الحق) الذين يستحقون وصف «المثقف».

ذلك أني أعتقد أننا لا نستخدم وصف «المثقف» بالدقة الكافية. فكثيرا ما نستخدم هذه الكلمة بمعنى «المتعلم»، وكأن صاحب الدكتوراه مثلا، يستحق وصف المثقف لمجرد ارتفاع مستوى تعليمه. بل إننا نبدو أحيانا وكأننا نستخدم وصف المثقف بمعنى «المتكلم أو الكاتب» فكلما كان الشخص يتكلم أكثر أو يكتب أكثر نعتبره مثقفا أكبر!

المثقف في رأيي هو الشخص دائب البحث عن الحقيقة، ولا يقول إلا الحقيقة (كما يراها على الأقل)، كما أنه لا يقول الحقيقة منقوصة، أو على الأقل يحاول ألا يقولها منقوصة.

لهذا كنت دائماً أعتبر أن عبد العظيم أنيس هو المثقف المصري بامتياز. وهذا في رأيي أحد الأسباب التي نحمل له من أجلها كل هذا الاحترام والحب، ونعتبر أنفسنا سعداء الحظ لأننا عرفناه، ولأننا عشنا حتى نحتفل بعيد ميلاده الثمانين. فكل سنة وهو طيب.

■

نسيج الغربة فى حياة

إدوارد سعيد

بقلم
د. عزه مازن

فى نهاية شهر سبتمبر هذا العام ٢٠٠٣ بعيدا هناك خارج المكان فى مدينة نيويورك رحل الناقد والمفكر الأستاذ الدكتور إدوارد سعيد، ولكنه أبى الرحيل قبل أن يكتب سيرته ويجمع شذرات حكايته وخيوطها المتناثرة فى نسيج الغربة والمنفى منذ سنوات عمره الأولى.



ظل الوجود خارج المكان ومعنى المنفى تيمة أساسية فى مشروع أدوارد سعيد الفكرى والثقافى فى مقال له بعنوان Reflections on Exile أو تأملات فى المنفى (١) يقول:

يفرض علينا المنفى التفكير فيه، ولكنه شئ رهيب أن تعيشه إنه تلك الفجوة التى لا تلتئم بين المرء ومكانه الأصلى بين الذات وموطنها الحقيقى: حزنه متأصل لا يهزم يضم الأدب والتاريخ حلقات من البطولة والرومانسية والمجد بل والانتصار فى حياة الشخص المنفى، ولكن ما هى جميعا سوى محاولات جاهدة يتغلب بها من يحيا فى المنفى على أسى الاغتراب الزاحف على نفسه. ما يتحقق فى المنفى من نجاحات يقوضه على الدوام الشعور بفقد شئ تركه المرء وراءه بلا عودة.

بتلك الكلمات يلمح إدوارد سعيد إلى مشاعر النفى والاغتراب التى ظلت تتقاذف نفسه منذ طفولته الأولى وحتى أيامه الأخيرة رغم ما حققه من إنجازات أثرة فى مجال النقد والفكر والثقافة والدفاع عن القضية الفلسطينية فليس غريبا أن يركز سعيد فى دراساته الأدبية الأولى على المنفيين والمهاجرين من الأدباء والفلاسفة والمفكرين فيتناول فى أطروحته للدكتوراه بجامعة هارفارد الكاتب الإنجليزى البولندى الأصل جوزيف كونراد فى مقال لاحق له بعنوان Be-tween Worlds أو بين عالمين كتبه عام ١٩٩٨ (٢)، يكشف فيه د. إدوارد سعيد عن العلاقة النفسية التى جمعته بكونراد فكلاهما رغم نجاحه وحياته فى بلد جديد تبقى الغربة رياح عاتية تهز روحه يقول سعيد

استعنت بكونراد كمثال لشخص حياته وأعماله نموذج لرحالة أصبح كاتبا متميزا فى لغة مكتسبة ولكنه أبدا لم يتخلص من إحساسه بالغربة عن وطنه الجديد المكتسب - وفى حالة كونراد الخاصة ذلك الوطن الذى يعجب به.

يوضح إدوارد سعيد ارتباطه النفسى بكونراد بأنه ظل على مدى سنوات يكتب ويقرأ عن ذلك الكاتب الذى اعترف بفقده الوطن واللغة فى محيط جديد ووصف ذلك الفقد واستحالة العودة حيث يؤكد أنه ظل يفعل نفس الشئ فى عمله على مدى سنوات من خلال كتابات لآخرين إلى أن علم بإصابته بالمرض الخطير فى خريف عام ١٩٩١ فشعر بقرب النهاية وبعد ذلك بشهور وجد نفسه يكتب خطابا طويلا لوالدته التى توفيت قبل ذلك بعامين يتحدث فيه عن حياته التى تركها مبعثرة بلا نظام. أدرك سعيد أنه رغم ما حققه من نجاحات وكتابات متعددة ونشاطه فى الدفاع عن القضية الفلسطينية وتبنيه القضايا المناهضة للإمبريالية إلا أنه لم يتوقف ليجمع شذرات حياته المبعثرة.

فى كتابه Out of Place: A Memoir أو خارج المكان: مذكرات ١٩٩٩ (٣) يتوقف إدوارد سعيد ليلملم قصاصات حياته فى الوطن العربى أمام

خلفية من أحداث تاريخية مهمة هزت أرجاء ذلك الوطن . في مقدمته للكتاب يكتب:

خارج المكان سجل لعالم مفقود أو ذهب طي النسيان منذ عدة سنوات تلقيت تقريرا طبيا خطيرا فلاح لي ضرورة أن أترك ورائي سردا ذاتيا عن الحياة التي عشتها في العالم العربي، حيث ولدت وقضيت سنوات التشكيل الأولى في حياتي، وفي الولايات المتحدة حيث التحقت بالمدرسة والكلية والجامعة. ما أتذكره هنا من أشخاص وأماكن ما يعد له وجود الآن، ومع ذلك يدهشني ما أحتفظ به منهم في داخلي وبتفاصيل مذهلة في دقتها ووضوحها.

يتخذ الكاتب في معنى الإحساس بالغربة أو (خارج المكان) تيمة أساسية ونغمة محورية تتردد تنويعاتها على مدى مراحل حياته التي عاشها بين القدس حيث ولد وبين القاهرة ولبنان وتلقى خلالها تعليما انجليزيا لأبناء النخبة الأثرياء في مدارس إنجليزية وأمريكية منذ طفولته الأولى بدأت مشاعر الغربة تنسج خيوطها حول الطفل إدوارد سعيد متمثلة في غرابة الاسم ذي النصف الانجليزي والنصف الآخر العربي، وكما يقول: كنت أشعر دائما أنني خارج المكان فقد استغرقني الأمر حوالي خمسين عاما كي أتعود على اسم إدوارد أو على نحو أدق، أن أصبح أقل ضيقا بـ إدوارد وهو اسم انجليزي بلا معنى أقحم على سعيد وهو اسم عائلة عربي محض. وتنسحب حيرته من الاسم الذي يشتت إحساسه بالهوية والانتماء إلى اللغة التي يتحدث بها، فأيهما لغته الأصلية: العربية أم الإنجليزية؟ لا يعرف بأيهما تحدث أولا أو أيهما لغته الأصلية، فقد تشابكت اللغتان في حياته على نحو يمكن معه أن تكون أيهما لغته الأصلية فكانت أمه تحدثه بلغة إنجليزية تتداخل معها كلمات عربية، وإلى حيرة الاسم واللغة تنضم حيرة الهوية ومعها يزداد الإحساس بالاغتراب فكان إدوارد سعيد الطفل دائم التساؤل: إلى أي بلد ينتمي؟ لقد ولد في القدس لأب من أصل فلسطيني، ولكنه يحمل الجنسية الأمريكية بعد عشرة أعوام قضاها هناك وجند خلالها في الحرب العالمية الأولى، وأم من أب فلسطيني وأم لبنانية تنتمي إلى أسرة أرستقراطية وتعلمت في مدارس أمريكية في بيروت قضى سعيد طفولته وصباه في القاهرة مع فترات يقضيها في الصيف بين القدس ولبنان. ابنا لرجل أعمال ثري يحمل الجنسية الأمريكية. عاش سعيد في القاهرة حياة ارستقراطية مغلقة وتنقل في مدارس النخبة الإنجليزية والأمريكية، كما خضع لنظام صارم في التربية فرضه عليه الأب، فازدادت وطأة الغربة على نفسه، ومنذ سن التاسعة لم تسمح له الأنشطة المختلفة التي فرضت عليه بفراغ أو إحساس بالذات خارج قوانين الأب

وقوالبه الصارمة.

خارج الوطن

لم يمنحه الوجود داخل المدرسة سوى مزيدا من الإحساس بالغربة والوجود (خارج المكان) ففي مدرسة الجزيرة الإعدادية تلك المدرسة الإنجليزية التي لا يلتحق بها سوى أبناء الإنجليز العاملين في مصر آنذاك، عرف سعيد مزيدا من مشاعر النفي خارج المكان، فاللغة الإنجليزية وحدها المشروعة حديثا وكتابة، وتاريخ إنجلترا وحده محور درس التاريخ. في تلك المدرسة لمس معنى الاستعمار وأحس مرارته في نظام تعليمي استعماري فكان احتكاكه الأول بالسلطة الاستعمارية. لم تكن له علاقة بزملائه من الطلبة الإنجليز خارج المدرسة وكأنهم يختفون بعيدا وراء سياج يحملهم إلى عالم آخر بعيد لا يسمح له بالدخول. ويروى سعيد إحساسه بمرارة الاستعمار بينما هو تلميذ في تلك المدرسة إذ يعاقبه الناظر على مشاغباته في الفصل بأن يضربه بالعصا، وكأن عدم انتمائه للنخبة الاستعمارية الحاكمة جعله هدفا سهلا للعقاب دون زملائه من أبناء الإنجليز، وبعد تلك الواقعة بفترة قصيرة تحدث له مواجهة ثانية مع الاستعمار الإنجليزي، إذ يطرده بيلي، أحد الإنجليز العاملين بنادي الجزيرة غير مصدق أنه هو وأسرته أعضاء في النادي وينهره قائلا: غير مسموح للعرب بالوجود هنا، وأنت عربي! ويروى سعيد الواقعة لوالده ويدهشه غضبه الهادئ لتلك الإهانة فما كان من الأب إلا أن يقول: سأتحدث إلى بيلي في الأمر. بعد مضى خمسين عاما لازال سعيد يحمل وخز تلك الواقعة ويرى الأمر وكأنه كان اتفاقا ضمنيا بينه وبين والده على ضرورة وجودهما في مكانة أدنى من أولئك المستعمرين ولكن ما يشعره بالخزى حقا أنه لم يشعر كلاهما هو أو والده آنذاك أن الأمر يستحق صراعا من أي نوع.

الإحساس بالغربة

وفي عام ١٩٤٦ ينتقل سعيد إلى مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين CSAC بوصفه ابنا لأحد رجال الأعمال الأمريكيين وإليها ينتقل معه الإحساس بالغربة وبأنه خارج المكان رغم جنسية والده الأمريكية شعر بأنه يحمل هوية مضطربة غير واضحة فهو يحمل الجنسية الأمريكية ولكن بداخله تتوارى أصول عربية، كان ينظر بحسد إلى زملائه ذوى الهويات الأخرى الواضحة، بوسعهم جميعا أن يكونوا أنفسهم فليس لديهم دور أمريكي يلعبونه وفي مدرسة فيكتوريا VC التي انتقل إليها عام ١٩٤٩ يلمس سعيد نموذجا مصغرا للاستعمار الإنجليزي، قوة استعمارية مجروحة تتربص إيقاع الأذى بكائنات تعتبرهم دونها منزلة حتى وإن كانوا مضطربين إلى دراسة لغتها وثقافتها بوصفها الثقافة السائدة في مصر آنذاك. فرغم تعدد الجنسيات في المدرسة إلا أن الإنجليزية كانت وحدها

اللغة المسموح التحدث بها . نما لديه شعور بمقاومة الاستعمار فكانت مشاغباته الصبيانية في المدرسة أسلوبا اعتبره أحد أشكال مقاومة الاحتلال الإنجليزي في مصر. ولا ينسى سعيد يوم طرده الناظر من المدرسة نتيجة لأحد هذه المشاغبات.

***

مع تعلمه الفرنسية ليجاري رفاقه من أبناء الطبقة الارستقراطية يشعر سعيد بوطأة الإحساس بالغربة يتجسد في عامل اللغة ومن ثم تتحول اللغات الثلاثة إلى قضايا حساسة بالنسبة له في سن الرابعة عشرة: فالعربية ممنوع التحدث بها، الفرنسية لغتهم وليست لغتي الإنجليزية مشروعه ولكن غير مقبولة لأنها لغة البريطانيين المكروهيين.

وكان القدر يأبى إلا أن تترسخ جذور الاغتراب في نفسه في سني عمره المبكرة، ففي عام ١٩٥١ وفي سن السادسة عشرة يرحل سعيد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليلتحق بمدرسة مونت هيرمون الداخلية للبنين فكان لابد له من قضاء خمس سنوات في الولايات المتحدة قبل بلوغه الحادية والعشرين شرطا للاحتفاظ بالجنسية الأمريكية التي ورثها عن والده ونزولا على رغبة الأب، الذي أراد لابنه جنسية وتعليما وحياة أمريكية، تبدأ مرحلة أخرى وتأخذ الغربة تغزل خيوطا جديدة في حياة إدوارد سعيد. فمن مدرسة مونت هيرمون الداخلية إلى كلية برنستون إلى جامعة هارفارد ظلت مشاعر الغربة تثقل وطأتها على روحه. فتعلم أن يقلل من وقع الغربة على نفسه بانغماسه في قراءات ودراسات ونشاطات تمتعه. وكانت خطاباته الأسبوعية إلى والدته التي أورثته حب الأدب والموسيقى عاملا مؤثرا في تخفيف وطأة الغربة عليه.

داخل الوطن

في القدس وحدها، حيث ولد وحيث كان يقضي أوقاتا في الصيف، كان سعيد يتحرر من أغلال الغربة ففيها كان يشعر أنه داخل المكان.. داخل الوطن هناك كان يجتمع شمل العائلة ويتحدثون العربية، اللغة الأم، حتى لو كان الحديث عن أفلام أجنبية. تذكره القدس الغربية بملاعب الصبا ولم شمل العائلة تحمل إليه معنى الوطن ظل الإحساس بالانتماء والحرية المرتبط بالقدس يمنحه طاقات من الضوء تبدد وحشة الغربة في نفسه، إلى أن كانت نكبة ١٩٤٨ وتفرق شمل العائلة وتشتت أفرادها في البلاد فتعمق لديه الإحساس بالغربة المرتبط بفقد الوطن بلا عودة :

«عندما أسمع اليوم إشارات إلى القدس الغربية تثير كلها الأماكن العربية التي تحمل ذكريات طفولتي يصعب على أن أتقبل حقيقة أن نفس جوانب المدينة التي ولدت بها وعشت وشعرت أنني في وطني استولى عليها مهاجرون بولنديون وأمريكيون وألمان الذين غزوا المدينة وجعلوها رمزا لسيادتهم بلا مكان لحياة

الفلسطينيين التى اقتصرت على المدينة الشرقية التى أكاد لا أعرفها أصبحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل فقد طرد سكانها الأوائل بلا عودة منذ منتصف ١٩٤٨».

بعد نكبة ١٩٤٨ جاءت عمته نبيهة لتعيش فى القاهرة، وجعلت شغلها الشاغل الاهتمام باللاجئين وحل مشكلاتهم بفضل تلك العمة تعرف سعيد على فلسطين التاريخ والقضية واقترب من معاناة اللاجئين وآلامهم نقلت إليه العمة مدى الأسى فى أن يصبح المرء بلا بلد أو مكان يعود إليه، أن يصبح بلا حماية تسبغها عليه سلطة وطنية أو مؤسساتها.

جاءت حرب ١٩٦٧ بمزيد من مشاعر الفقد والاقتلاع والغربة: بدا أنها تجسد الاقتلاع الذى طوى تحته كل أنماط الفقد الأخرى أعادتنى صدمة تلك الحرب إلى حيث بدأ كل شئ: إلى حيث بدأ الصراع من أجل فلسطين.

بينما كان يلملم سنوات عمره الأخيرة استعدادا للرحيل ظل إدوارد سعيد يشعر بوطأة فقد الوطن والوجود خارج المكان:

«حتى اليوم لازلت أشعر أننى بعيد عن الوطن.. ورغم أننى لم تكن لى أحلام بحياة أفضل كان يمكن أن أعيشها إذا بقيت فى العالم العربى أو إذا عشت ودرست فى أوروبا. إلا أننى لازلت أشعر ببعض الندم. وهذه المذكرات فى بعض جوانبها استعادة لتجربة الرحيل والانفصال بينما أشعر بوطأة الوقت يستحثنى ويؤذن بالرحيل». ■

الهوامش:

١ - نشرت هذه المقالة أولا فى دورية Granata, 13 (Winter 1984) ثم أعيد نشرها فى Edward W. Said. Reflections on Exile and Other Literary and Cultural Essays. London: Granata Publication, 2000 (الاقتباس من ترجمة الكاتبة).

٢ - نشرت هذه المقالة أولا فى مجلة: London Review of Books, May, 7, 1998 ثم أعيد نشرها فى Edward W. Said. Reflections on Exile and Other Literary and Cultural Essays. London: Granata Publication, 2000 (الاقتباس من ترجمة الكاتبة).

٣ - Edward W. Said. Out of Place: A Memoir. New York: Alfred A. Knopf, 2000 (الاقتباسات من ترجمة الكاتبة)

فوضى التأليف وغياب النقد العلمى

بقلم
د. محمد الدسوقى

كتب الدكتور محمد رجب البيومى فى عدد أغسطس الماضى من الهلال كلمة عن فوضى الواقع الثقافى ، وقصرها على التأليف ، وقد أشاد فى مستهلها بعصر كان المؤلف فيه لاينشر كتابا إلا إذا أجازه باحث ضليع ، وأحيانا مع هذه الإجازة يأبى أن ينشر ما خطه قلمه ، لأنه لايرقى إلى المستوى الجدير بالنشر فى نظره ، وهذا لون من صدق الكاتب مع نفسه ، وحرصه البالغ على أن يقدم للقراء الجديد المفيد .

وما كان هذا السلوك العلمى فى المراجعة يأخذ به الناشئة من الكتاب ، وإنما كان يؤمن به الذين شهدت لهم قاعات الدرس فى الجامعة ، أو الذين صدرت لهم مؤلفات قيمة ، أو نشروا فى المجلات المتخصصة مقالات وبحوثا رصينة بأن لهم قدما راسخة فى الدراسة والبحث العلمى .


فوضى الواقع الثقافي

التأليف... إلى أين؟!

بقلم
د. محمد رجب البيومي

ذكر الدكتور طه حسين في مقدمة فجر الإسلام أنه اتفق مع الأستاذين أحمد أمين وعبدالحميد العبادي على أن يؤلفوا أجزاء تاريخية تدرس الناحية الأدبية والناحية السياسية والناحية العقلية لتصور الفكر الإسلامي في وضعه المقارب، وقد بدأ ...مد أمين بإخراج «فجر الإسلام» سابقا صاحبيه، ... الدكتور طه حسين في تقديم الكتاب!
"متضامنون في هذا الكتاب على اختلاف ... تكفل أحمد أمين بدرس الحياة ...ناه كما أقره، فنحن

فوضى الواقع الثقافي – د. رجب البيومي – أغسطس ٢٠٠٣

وخلص الدكتور البيومي من الإشادة بذلك العصر الذى نبغ فيه قادة الفكر فى القرن العشرين فى مصر إلى الحديث عن ظاهرة الوفرة فى الكم، أو ظاهرة الفوضى فى الكتابة والتأليف ونعت هذه الظاهرة بأنها لا تعبر عن عمق فى البحث أو جدة فى الموضوع، أو دقة فى التعبير، وسلامة فى اللغة، وإنما تعرف خطف الأفكار أو إعادة صياغة أفكار الآخرين فى عبارات جديدة، كما تعرف ضحالة المضمون، وركاكة الأسلوب وهشاشة الثقافة، فضلا عن الأخطاء اللغوية والنحوية وكثرة الألفاظ العامية والدارجة.

وكنت أطمع من الدكتور الفاضل أن يعلل لهذه الظاهرة المؤسفة أو تلك التى نعتز بها، ولكنه آثر أن يكشف عن أهم ملامح الظاهرتين، ودعا فى ختام كلمته إلى وقف هذا النسل الفكرى على وجه يتيح للقارىء المتطلع أن ينقذ نفسه من غثاء متراكب يضر ولا ينفع.

وإذا كان المناخ العام للحياة الفكرية وبخاصة فى النصف الأول من القرن العشرين قد أتاح للكتاب والباحثين الأصالة والدقة فى التأليف فإن هناك ظاهرة علمية كان لها أثرها فى تنمية هذه الدقة وتلك الأصالة، وهى ظاهرة النقد العلمى الذى لايحابى أو يجامل وإنما يعطى للعمل التأليفى ماله وما عليه فى موضوعية وأمانة علمية.

إن المجلات التى كانت تصدر فى مصر فى ذلك العهد الزاهر بالنشاط الثقافى سواء أكانت أسبوعية كالرسالة والثقافة أم شهرية كالأزهر، والمسلمون التى كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله والكتاب التى كانت تصدر عن دار المعارف ورأس تحريرها الشاعر الأديب الأستاذ عادل الغضبان

- هذه المجلات وغيرها كان في كل منها باب أو زاوية لنقد الكتب والتعريف بها ، وكان هذا يفتح مجالا للحوار بين المؤلف والناقد ، وهو حوار كان يحرر أصول النقد وضوابطه ، وأذكر مثالا على ذلك أن الدكتور أحمد الشرباصي كان قد سجل أحداث فترة اعتقاله بعد حل جماعة الإخوان المسلمين في عهد النقراشي في كتاب عنوانه «مذكرات واعظ أسير» ، وقد نقد الشيخ كامل شاهين هذا الكتاب في الرسالة ، ورد الشيخ الشرباصي على نقد الشيخ شاهين ، وكتب هذا ردا على الرد ، بيد أن الأستاذ الزيات رحمه الله لم ينشر رد الشيخ شاهين وعلل لذلك في كلمة موجزة بالبريد الأدبي بأن مانشر فيه الغناء حول هذا الكتاب .

في كفة الميزان

أما مجلة الكتاب فقد كانت تخصص نحو ثلاثين صفحة في كل عدد من أعدادها لنقد الكتب والتعريف بها والحوار بين النقاد والكتاب في باب عنوانه «في كفة الميزان» صدر بهذه العبارة : «ننشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته ، نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ماقد يدعو إلى المناقشة» .

ولم يكن الحوار بين المؤلف والناقد مقصورا عليهما ، وإنما كان يساهم فيه غيرهما من المهتمين بالفكر والثقافة ، ومن ذلك أن الدكتورة عائشة عبدالرحمن نشرت نقدا لكتاب «تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث» وهو من تأليف الدكتور محمد نجيب البهبيتي ، ورد الدكتور البهبيتي على نقد الدكتورة عائشة ، وأخذ عليها أنها ليست مؤهلة لنقد كتاب في الشعر العربي ، لأنها لاتعرف اللغات العبرية والفارسية والسريانية وآدابها وآثارها الفنية وما اتصل بدياناتها وشرائعها من كتب وأبحاث ، وهي لا تلم كذلك بما كتب بالحروف المسمارية من اللغات مثل السومرية والآشورية فضلا عن دراسة تاريخ الأمم القديمة التي عاشت بين النهرين ودراسة آدابها دراسة تعمق واستقصاء .. الخ .

ولما قرأ الدكتور محمد يوسف موسى (ت : ١٩٦٣) رد الدكتور البهبيتي وما اشتمل عليه من شروط ينبغي أن تتوافر في الناقد كتب كلمة نشرها في نفس المجلة التي نشرت النقد والرد عليه قال فيها : من واجب الناقد حقا أن يكون له اختصاص بالأثر العلمي أو الفني الذي يتناوله بالنقد ، وعليه بعد هذا أن يقرأه قراءة استيعاب وتمحيص ، ثم يكون له بعد ذلك كله أن يحكم بما يرى ، فإن لم يكن منه كل ذلك كان مقصرا باعتباره ناقدا .

ثم يوجه الكلام إلى الدكتور البهبيتي قائلا : يا أخي الفاضل ، إننا جميعا نعرف أن الإلمام باللغات والآداب القديمة لابد منه لدراسة الأدب العربي دراسة مقارنة ، ولكن هذا شيء ، واشتراط كل ماتريد شيء آخر ، إن هذا معناه أننا نخدع أنفسنا منذ زمن طويل حين اعترفنا لكثير من رجالاتنا بالتفكير العلمي الصائب ، وبالقدرة على النقد للأدب العربي، ويكفي أن نذكر - من باب التمثيل لا الاستقصاء - هذه الأسماء الأعلام، طه حسين ، العقاد ، أحمد أمين ، الزيات ، أمين الخولي .. الخ .

إننا حين نشترط ما اشترط الدكتور البهبيتي لانكاد نجد واحدا نعده أهلا لتناول كتاب في الأدب العربي بالنقد، وإلا كان آخذاً فيما ليس له بأهل، ولا بصر له به، اللهم إلا أن يكون الأستاذ المؤلف وحده.

النقد في كل المجلات

وظهرت في ستينات القرن الماضي مجلة الكتاب العربي وكانت شهرية وتهتم بالدرجة الأولى بنقد الكتب والتعريف بها، ولكنها بعد بضعة أعوام من صدورها توقفت لأسباب لا علم لي بها..

إن النقد كان له وجود في كل المجلات وحتى في بعض الصحف اليومية، وقام برسالته في الحيلولة بين الدخلاء على التأليف وبين أن ينشروا مايشاءون، لأنهم يدركون أن أقلام الكشف عن الغث والزيف والسطو مشرعة، ولهذا لم يكن للسرقات الأدبية مثل مالها اليوم من ذيوع لا بين ناشئة المؤلفين والكتاب فحسب، وإنما بين أساتذة الجامعات ونظرائهم من المؤلفين والباحثين كذلك.

وأما المجلات التي تصدر في هذه الأيام - وما أكثرها وليست في مجموعها ثقافية - فإنها تخلو من النقد بمفهومه الصحيح، مما أغرى من يتطلعون إلى التأليف، وهم لايتمتعون بزاد ثقافي عميق، وطاقة عقلية تفقه مناهج البحث وقواعد التأليف أن يسارعوا إلى النشر وهم في مأمن من النقد لما ينشرونه، ومن ثم كان هذا الطوفان الذي يخرج من المطابع كل يوم، والذي يذكرني بما كان من سياسة إصدار كتاب في كل ست ساعات في النصف الثاني من القرن الماضي، وملئت المخازن بالكتب، ولم تجد الهيئة المسئولة عن النشر وسيلة للتخلص من هذا الكم الهائل من المؤلفات التي كانت تحمل شعار اخترنا للطالب، اخترنا للعامل.. الخ غير الدفع بها إلى مصانع الورق، ونشرت الصحف في حينها أن اللت يتحول إلى عجن..

ولت الحاضر أكثر من لت الماضي وأدنى مستوى منه، وله آثاره السلبية في الحياة الثقافية والاقتصادية على السواء.

إن ظاهرة الوفرة في التأليف في العصر الحاضر وما يتبعها من هبوط المستوى الثقافي والعلمي وكثرة السرقات الأدبية مردها إلى غياب النقد، وبيان الغث من السمين، والحق من الباطل والنافع من الضار فيما يذاع وينشر، وسيظل تيار هذه الظاهرة مندفعا بغثائه مالم تكن هناك سدود عالية تحسر مده، وتوقف خطره، والأمر في حاجة إلى تضافر كل الجهات المسئولة عن النشر في وضع الضوابط الصارمة لما يجوز نشره، ولا يصح أن يكون التأليف كلأ مباحا لكل من يحمل قلما ويخط سطرا، فالتأليف مسئولية وله مقاصد حددها علماء المناهج وهؤلاء الذين يؤلفون وينشرون وليست لديهم دراية بهذه المقاصد متطفلون ولا يضيفون جديدا، ويفعلون مالايحتاج إليه وقد يدفعهم الجهل وقلة الحياء وموت الضمير إلى تشويه ماقام به سواهم مع نسبته إلى أنفسهم، وهذا شأن أهل الجهل والقحة على حد قول ابن خلدون. ■

عُقدة العقّاد

بقلم
د. عبد اللطيف عبد الحليم

لاتظلموا الموتى وإن طال المدى
إنى أخاف عليكم أن تلتقوا

المعرى

أخفق الأستاذ حسين أحمد أمين فى أن يكتب مقالا متسقا، متلاحم الجوانب، بل جاء كلامه مفتعلا، مفتقرا إلى الإحكام، وإلى اللمسة الشخصية المتفردة، وهذا نص كلامه فى آخر مقالة عن العقاد فى جريدة القاهرة ١٦ من سبتمبر ٢٠٠٣، منقولا عن جريدة الحياة، وجاءه الإخفاق - لا الفشل كما قال هو - من أن ملكة الكتابة حتى فى مجرد الثرثرة والذكريات تفتقر إلى نظر يرى الأسباب والعلل، ويحاول أن تسلمه باتساقها إلى النتائج المرجوة والمنطقية، كما أنه من الشائع المتواتر أن مهنة الكتابة لاتورث كالعقار ولو كان الوالد فى قامة أحمد أمين . وثمة أسماء باذخة فى تاريخ الفكر والإبداع كأنما حظيت بالغنم وحدها، فلم يرثها ذووها حتى إرث كلالة

لا نعتقد التطريب والقداسة فى شخص أحد ولا فكره، و«قابلية» الخطأ فى النحائز البشرية من الفطرة التى ذرأ الله الناس عليها، ولسنا جميعا مؤهلين إلا للنزوع للكمال لا بلوغه، ومن ثم عذاب الإنسان الواصب، وعزاؤه أيضا، والعقاد أحد أفراد الإنسان الذى عاش يحارب الحمأ المسنون، فى الخلَق الإنسانية، وأن يتطهر بهذا الشواظ الذى يحرق الحمأ، هكذا يكون الإنسان فى



عباس محمود العقاد



حسين أحمد أمين

معراجه، وتلك ضريبة ذلك المعراج

أغلاط وخلط

حفل كلام الأستاذ حسين أحمد أمين بكثير من الأغلاط التى لانخالها من وادي سوء النية، ولا نريغ سوى الإشارة إلى بعضها، لقد خلط الأستاذ عملا صالحا وأخر سيئا، ظانا أن لقاءه بالعقاد، وصحبة أبيه له تخول له أن يحكم وأن يحسن التفسير، وأن يكتب فى أشياء لاتهم القارىء، وآية ذلك فيما نسوقه أولا من فكاهة أن العقاد لم يمتلك فى حياته سيارة، وتبادله أفكوفة بنظيرتها قائلين إن العقاد امتلك سيارة، واختلف مع سائقه فلم يغيره بسائق آخر، وإنما باع السيارة دون مثنوية، وكأنه يأبى أن يتحكم فيه أحد!!

حاول الاستاذ حسين أن يتشح بالموضوعية فأثنى على العقاد فى بعض المواطن، مفضلا شعره على جوانب نتاجه الآخر، ونحن نشاطره الرأى وأكثر منه حيث درسنا شعر العقاد، ونكاد نحفظه قبل التخصص فيه فى رسالة الدكتوراه بجامعة مدريد مقارنا بشاعر إسبانى آخر هو ميجيل دى أونامونو (ت١٩٣٦)، اللهم إلا إذا أراد الاستاذ الكاتب أن يشمل نثره بالحكم الجائر الذي نعت به كلام العقاد المفتعل المفتقر إلى الإحكام وإلى اللمسة الشخصية، وإن كنا نشك فى وجهة نظر الاستاذ حسين فى شعر العقاد حيث يحتاج هذا الشعر إلى قراءة خاصة، وإلى صبر على معالجته والتدسس إليه، وكلام مندور وصلاح عبدالصبور فى شعر العقاد معروف قبلهما، ولم يكن النظر المحايد رائدهما فى كلامهما، ولهذا تفصيل ليس هذا أوانه، وربما كان فى تلقيب الوزن والقافية «بالقيد» - وهما نظام وقاعدة وليسا قيدا - مايزجى بنا إلى الركون لدى المألوف، وإلى اطمئنان الاستسهال، وقد رضى الاستاذ حسين بالمألوف والمطمئن.

لماذا كان المديح؟

أما المديح يا أستاذ حسين فهو بابة رحبة فى تاريخ الشعر والفنون عامة، والمحك الذى لايخطىء هو الصدق شعورا،

والإجادة تعبيرا، وكان فن الرسم والنحت قائما في أحضان الملوك والسادة ولا عضيهة في كل هذا إلا الكذب، ومديح الأستاذ العقاد لفاروق كان في سنة ١٩٣٨. يوم كان الملك محبوبا من الشعب المصرى قبل شيوع مباذله وكان العقاد وقتها نائبا عن الصحراء الغربية، ومن اللياقة أن يستقبل الملك كما يصنع الناس جميعا في حفلات الاستقبال وجاءت القصيدة - وهي في ديوان العقاد - نصائح في ثوب المديح وهمس فاروق لبعض مجاوريه بهذه العبارة التي سمعناها من العقاد في داره: «كان أولى بهذا والده» بضمير الغائب كما لقنها فاروق، فما كان من الشاعر إلا أن طوى القصيدة لم يكملها وحاول رجال القصر رأب الصدع في اليوم التالي وهبت عاصفة ألغت الحفل الذي كان مقررا له أن يكون في عرض البحر، وثمة قصيدة أخرى حين صحب العقاد الوفد الرسمي لزيارة الملك عبدالعزيز آل سعود، ومن اللياقة أيضا أن يقول الشاعر شيئا. فقال قصيدة جمع فيها بين الملكين في قرن، وكان حظ الضيف منها أربى على خط الداعي، ولذا لا تكون توبة العقاد من هجومه على فؤاد والتي ألصقها الأستاذ حسين لا محل لها إلا في نظره هو، فلينفرد بهذا النظر وحسبه به لسة شخصية متفردة!!

وإذا سقط مثل هذه الدعوى فيسقط معها أو قبلها مايترتب عليها من تأييد العقاد للثورة في بداياتها، قبل أن تنول إلى حكم دكتاتورى شمولي على يد عبدالناصر، لا لأن العقاد لم يجد من فاروق إقبالا بل لأنه لم يربط قيمته مطلقا بزعيم، ولأنه يرى أنه لافضيلة مع الاستبداد، وقد سمعنا رأي العقاد فيما بعد في عبدالناصر، وهو رأى ليس للنشر، ونعتقد يقينا أن رأيه وصل إلى عبدالناصر، نظرا لوجود المندسين في مجالس العقاد، ولم يكن ولاؤه إلا لقيمة الحرية التي مارسها عملا لا نظرا.

العقاد .. وهتلر!

أما أن الإنجليز أوحوا إلى العقاد بكتابه عن هتلر، فهو قول ظاهر البطلان، وخاصة من رجل عرف العقاد وطبيعته التي تتأبى على الإملاء، حتى في أيام سعد باشا الذى فهم العقاد، وبادله العقاد فهما بفهم وتقديرا بتقدير، وقد أطلعنا أيام المرحوم عامر العقاد ابن أخي العقاد على طلب قصر الدوبارة أن يشترى نسخ الكتاب ويقوم بتوزيعها نظير مكافأة سخية فرفض العقاد، وقد سمعنا هذه الرواية من العقاد ذاته، ويؤازرها فهم دقيق لطبيعة الرجل الذى لم يبع قلمه في سوق النخاسة - وهي رائجة - في العصور الخابية، حين باع الناس كثيرا من ضمائرهم لثمن بخس، وأين كانت حماية المحتل للعقاد يوم ذهب إلى السودان، هذه أسئلة ينبغى أن تثار أمام الكاتب الذي يفزع للمرددات الشعبية، يرددها كما سمعها.

إن بعض الكاتبين - وليس منهم الأستاذ حسين - يكتبون مستلهمين الأحاسيس الضئيلة، لأن العظمة في حاجة إلى من يطاولها ليفهمها متعاطفا معها، لاتحيزا، وإنما مبغاة للفقه

الحصيف، وكان العقاد بعظمته هدفا لمثل هذه الأقلام في حياته، وبعد رحيله، لأنه يمثل نهضة هذه الأمة مع قليل من رفاق جيله، ومحاولة طمسه وتشويهه ليس مقصودا بها وحده، بل الأمة في الصميم ، ليطفو الزبد، أو إن شئت البجيف، وقد تنبأ العقاد بسقوط هتلر، وبسقوط الشيوعية وهما في أوج ازدهارهما، وضرب موعدا للثانية بستين حولا، لم يمض كثير منها حتى سقطت في عقر دارها، وسقط هتلر قبلها، وهو بدوخ الأمم ، وكان نابليون قبلها - في نظره - مهرجا بالنسبة إلى بعض العلماء مثل «باستور»، لأن عينه كانت موكلة بجوهر الإنسان قبل أي شيء آخر.

عقدة التعليم الجامعي

أما استعراض العضلات في العلم، ومرجعه في رأي الاستاذ حسين - لقصور تعليمه النظامي، فقد كان العقاد يشهد أنه آسي لفقد هذا النظام في مستهل حياته، ثم صار فيما بعد يحمد الله عليه، ولو كان العقاد قد أكمل تعليمه النظامي، لصار مثل كثيرين من أساتذة الجامعات الذين يظلون حياتهم كلها تلاميذ، يقفون بالوصيد من بابة العلم والفكر، ولماذا ننكر على العقاد أن يستعرض عضلاته بالمعنى الحميد للكلمة إذا كان وراءها رصيد قوي، وهو مانراه في كتابات العقاد، الذي كان يقرأ كل ما يمكنه فهمه، لا ليتخصص فيه، وإنما يراه ذريعة لفهم أعمق للحياة وللإنسان، وهكذا كان كلامه في الفلك ومجادلته لأستاذ الفلك في علوم القاهرة، وغلبته له بالمصادر الحديثة التي لم يطلع عليها الأستاذ، وكان صراعه مع الدكتور كامل حسين في الفلسفة، وحديثه عن الغدد في كلامه عن أبي نواس، ورجوعه إلى استاذ أرجنتيني في الغدد، كان مثار عجب صديقنا المتخصص الدكتور تيمور خليفة التونسي وكيف وصل العقاد إلى هذا الكتاب وهو شديد التخصص في مادته، إذا كان استعراض العضلات بهذه المثابة فأهلا به إلا إذا كانت العضلات من «شراميط» على حد قول العقاد، وقد وقف الدكتور أحمد علي الجارم على كلام العقاد في المسائل الطبية أثناء حديثه عن أبي نواس وابن الرومي، وارتأى رجاحة فكر العقاد وعمق إطلاعه وفهمه، هل كان الناس يا استاذ حسين قديما في حاجة إلى الشهادات التي تطرح الآن في الأسواق حتى بالتزوير - لأن بعض حامليها إذا لم يكونوا أهلا لها فهو نوع من التزوير أيضا -

أفكوهة: كنا نمتحن طلاب الليسانس شفويا فكان بعض الطلاب يقول: قال الدكتور المتنبي لأنه لايتصور أن يكون المتنبي عاريا عن هذا اللقب، وكاتب هذه السطور - بالمناسبة - لايقرن اسمه بهذا اللقب على الإطلاق حين يكتب لأنها أصبحت ألقاب مملكة في غير موضعها، إلا من رحم ربك!!

هل يصبح فكر العقاد طي النسيان؟

إن الاجتراء على المستقبل عسير، حين يرى الاستاذ حسين مثلا أن أكثر كتب العقاد سيصير إلى طي النسيان، وهواجتراء ليس له ما يسوغه، إلا إذا أراد الاستاذ ذلك وما هو بيده، ولايحسن أن

يكون بيده، صحيح أن كل شيء إلى دثور وفناء، يستوى في ذلك الكتب وغيرها، لكننا نرى أن الأمة تفزع إلى العقاد في ساعة قنوطها، وفي مناشطها على السواء، وليس لديه مايسنده من جاه لأسرته ولا لتلاميذه، بل يسير فكره وحده لأنه فكر العقاد وكفى، وقد قرأنا معظم مقالاته، في السياسة - وهو أمر آنيّ مرتبط بالحادثة - وفكرنا مع عامر العقاد في جمعها لولا أن المنون اختطفت عامرا وهو في أوج نشاطه وفتائه، لأننا - بالفعل - رأينا فيها فكرا باقيا، تحذف المناسبة العارضة لترى الفكر الصحيح، والنظر غير المزغول، والحرص والغيرة على هذه الأمة وهو قوام كل فكر باق.

وكثير من الكاتبين يموت الكلام على شباة شفاههم وأقلامهم قبل أن يصل إلى القراء لأنه لا رصيد له، وتلك آفة المناسبة الموقوتة وكتب الفكر وارتكاسته.

عقيدة العقاد

والقضية الكبرى التي أجلناها عامدين إلى نهايةهذه الكلمة، وهي قضية عقيدة العقاد نحن - يا استاذ حسين - لا ننبش ضمائر الناس فللناس خالق يعلم السر وأخفى، وغريب أن تشيع قالة سوء عن إلحاد العقاد، وما يتبادر في كلامه من بعض تهجم.

ونقول «دعوى على دعوى» إننا عاشرنا العقاد في مجالسه أربع سنوات أو أشف قليلا ولم نسمع منه أدنى إشارة إلى مايشتم منه إلحاد أو قلة إيمان.

كتب البعض يقول طالما إنه كان يعقد ندوته أثناء صلاة الجمعة، وهذا غير صحيح على الإطلاق، إذا كانت تنتهي الندوة قبل الصلاة بوقت كاف وكان مسجد عثمان بن عفان قريبا من دارة العقاد ولانقول بذلك لنرى العقاد من «الدراويش أو من المجاذيب» بل نصف مانرى، وكان العقاد يكبر الإمام محمد عبده من المعاصرين، والشيخ محمود شلتوت، وانتقد مرة الإمام أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن، ورأى فيه ضيق حظيرة وما نظن أن نقده ابن حنبل يخرج به عن حظيرة الإيمان، وربما كان العقاد أقرب إلى فكر المعتزلة دون أن يقع في حبائلهم جملة، لأنه يرى أن ماسماه «الوعي الكوني» هو الوسيلة العليا إلى الإيمان، وكان هجومه على الإخوان المسلمين من أنقى صفحات فكره المجدد دون أن يكون محسوبا على فئة غير فئة العقاد وأبى - اتساقا مع كرامة قلمه - أن يكتب مقدمة لكتاب يهاجم الإخوان بعد زوال شوكتهم، وإنه كالفارس لايبارز إلا فارسا شاكي السلاح، وكتب طه حسين مقدمة هذا الكتاب، دون أن نتهم طه حسين بشيء، وإنما لكل وجهة هو موليها، وكتابات العقاد الإسلامية - وقد عدد بعضها الأستاذ حسين - تشهد بعمق إيمانه ونفوره من التعطيل والإلحاد فطرة موروثة، وفكرا مكسوبا.

شهوة هدم الرموز

إن هدم الرموز الكبرى في الأمة إزاء قالات لاسند لها من فكر صحيح، هدم لهذه الأمة التي يتخطفها الناس من كل جانب، ولعل الجماعات الإسلامية تتخذ من مثل هذه الشائعات سندا لها

فى فيهما المريض والسقيم للإسلام، والعقاد وإخوان هذا الطراز فى مقدمة الصخور العظيمة التى تحول دون أفكار ذوى العاهات.

فماذا نكسب يا استاذ حسين حين نردد مثل هذه الشائعات، وحتى لو صحت وهو بعيد فإن الإنسان إنسان تعتوره لحظات الضعف والقنوط، فيضيق صدره، وتأخذ بأكظامه النوازل فيرتكب اللمم الذى لاتضيق عنه رحمة الله التى وسعت كل شيء، ولاتضيق عنه رحمة الإنسان على شحها ويبوستها.

أفكرة أخرى: كان بعض أساتذتنا فى دار العلوم يضيقون ذرعا بالعقاد لأنه مذكور وهم فى غياهب النسيان - ويستحقونه - كانوا يذكرون لنا صراعهم مع العقاد بالأيدى، ذكر عبدالرحمن بدوى شيئا شبيها ورددنا عليه فى إبانه ويقصون طرفا مما شاهدوه من مجون العقاد ومرور النساء عرايا أمامه فى داره؟ وكان هذا الأستاذ - فيما زعم - يسكن فى مواجهته وهو قول باطل حيث لم يسكن هذا الرجل هنالك فيما تتبعناه، واعترف الرجل فى لحظة صدق بريئة أن سبب كلامه هو أنه يدرس منذ أربعين سنة وتخرج على يديه الألوف لايذكرون استاذيته فى حين يذكرون استاذية العقاد لهم، وما أمر نجية السودانية أم العقاد، وما إباحيته وانحلاله وتركة زوجة ترتع وتلعب خارج الدار ببعيد عن مثل هذه الشائعات.

إن النفس الإنسانية لاتحيا فى التطويب والقداسة ولانريد أن نضيفهما على العقاد الذى كان رجلا فى عقيدته دون أن يكون كالعوام ونذر نفسه وفكره للذود عن العقيدة الإسلامية كأبرز مدافع عن العربية والإسلام فى العصر الحديث بل ربما كان من أكابر رجال العقيدة فى كل العصور وإن الإنسان فى ضعفه البشرى هو الإنسان وكان العقاد إنسانا عاليا حتى فى أخطائه البشرية ولو كنا نصدق كل كلام يصدر عن رجل كالعقاد فى بعض اللحظات لخشينا أن نصدق مزاحه مع الاستاذ حسين ومع غيره، وكان الرجل عفا إلا حين يبين له طرف السلاح كما نعتته سارة.

لم يكن العقاد يا استاذ حسين «سوسة كتب» أو موسوعى الثقافة إن أردنا تهذيب العبارة ، لأن كفله من النظر ينسب إليه وحده ولم تكن ثقافته المتراحبة بمانعة له من النفحة الشخصية، لأن هضمه واستيعابه لما يقرأ يجعله فى عداد المفكرين القلائل الذين تبين ملامحهم حين تتيه الملامح والقسمات.

وشكرا للأستاذ حسين أحمد أمين أن أفسح لنا فى القول ولأبيه من قبله الذي تربينا على فكره منذ ميعة الصبا، وكنا نعرف كلامه حين قراءته ولو لم يكن ممهورا باسمه، ومانريد بهذا أن ندغدغ مشاعر الابن الكريم بحديث عن أبيه فإننا ورثناه معه، وما ذلك بقليل حين يتوارثه أبناء جيل بعد جيل. ■



قليني فهمي



علي مبارك

التاريخ الاجتماعي

على لسان هؤلاء !

على مبارك - محمد عبده - أحمد أمين - محمد فرغلى

بقلم
مصطفى نبيل

«السيرة الذاتية» نافذة على التطور الاجتماعى ، ومادة صادقة للتاريخ ، يستمد منها المؤرخون مادتهم ، خاصة بالنسبة للتطور السياسى فى مصر ، ويلقى التطور الاقتصادى اهتماما أقل ، أما التطور الاجتماعى فتدور حوله الأبحاث والدراسات .

وليس مجالنا هنا المذكرات السياسية ، ولا السير



الذاتية في إطار عمل روائي ، إنما تلك المذكرات التي تتناول الحياة الاجتماعية ، وهي مصدر لا ينفد للتاريخ الاجتماعي لم يستنفد بعد، يرصد ويسجل، تسجيلا حيا نابضا، يبوح كثيراً ويقترب من المسكوت عنه .

وهذه إطلالة على بعض هذه السير .

أتابع - عادة - كاتب السيرة الذاتية ، وهو يؤكد أنه يروي حكايته للتاريخ ، حتى تتعظ منها الأجيال المقبلة ، ثم تلمح في مكان قصي في خلفية الصورة التي يقدمها ما يخفيه من أغراض ، وعلى الأرجح الدفاع عن كل ما قام به أو ما تحيز له ، وتبرير كل ما أقدم عليه ، مما يتيح فرصة دراسة ممتعة لكل شخصية داخل عالمها الخاص وفي علاقتها بالعصر والمجتمع الذي نشأت فيه .

ومنذ أن نقش الإنسان اسمه على الحجر ، وهو يتوق إلى الخلود وقهر الزمن، ويسعى إلى الأبدية ، ويعمل من أجل الإفلات من الفناء ، ويأتي تسجيل حكايته خطوة على هذا الدرب ، فعندما يكتب صاحب السيرة قصته ، فهو في أعماقه يسعى إلى تخليدها .

لذا تجذبني قراءة التراجم والسير ، وتستهويني متابعة التجارب الإنسانية الحية ، كما يتصورها صاحبها ، أتتبعه وأرصد التفاعل بينه وبين عصره ، أراقبه وهو يبدو زاهدا رغم وقوعه في النرجسية وحب الذات ، وينجح في التسلل إليك ثم اقتحام الصورة ، لكي يحتل فيها مكاناً بارزا ، وفي قليل من الحالات يُبَرأ خلالها صاحب السيرة من رغبة دفينة في لفت الأنظار ، وتوجيه الاتهام للعصر والظروف والآخرين !

ورغم إدراكي أن السير الذاتية لا يمكن أن تتطابق مع الحقيقة تماماً ، حتى لو كان أصحابها من الصادقين ،

لأنها استجابة لحاجة إنسانية مسيطرة ، إنها نبع من ذات الغريزة التي تدفع الإنسان إلى أعمال وجدانية وعاطفية وليست عقلانية .

وتختلف السير الذاتية في الشرق عنها في الغرب ، وخاصة في مدى البوح ، وذلك لاختلاف القيم والخلفية الثقافية بينهما ، ففي حين يرى البعض في الغرب أن البوح نوع من التطهر والاعتراف وطلب الغفران ، يرى الشرق الذي تقوم قيمه على إنكار الذات وعدم التصريح بما اقترفه مستسلما لغرائزه ، مما يعتبر صورة من صور إشاعة الفاحشة . لذا يقل في السير الذاتية العربية تناول العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكثيراً ما يدفع الخجل كاتب السيرة إلى ستر عيوبه ، ومن العسير أن نجد في الأدب العربي شبيها لاعترافات جان جاك روسو ، ونجد في السيرة الذاتية العربية أحياناً ميلا إلى إعادة ترتيب الوقائع ، وإقامة معمار كامل من وحي الخيال .

فالسيرة - كما هو معروف - مزج بين ما هو ذاتي ، وما هو عام ، ونقطة وسط بين الشخصي والموضوعي ، وهي في النهاية تقدم صورة حية لأحداث وقعت وأفكار حدثت ، ولكل من يسجل تجربته بصدق مهما كانت مكانته أو منصبه ، بسيطاً أو مهماً ، فهو يقدم عملا فنيا ممزوجاً بشحنة من مشاعر وأحاسيس كاتبها ، وكثيراً ما تأتي عفو الخاطر ، من أعماق وجدانه وتراكم تجاربه ، وهذا وحده كفيل أن يجعلها شيقة وتصبح ضرباً من القص الجميل .

وتختلف السيرة الذاتية عن الرواية ، ذلك العمل الأدبي الذي يقوم على لمحات من السيرة الذاتية لصاحبها ، الذي يسمح له هذا القالب بالإضافة والحذف وإعمال الخيال .

كما أن السيرة الذاتية تتسم بوحدة زمنية هي عمر صاحبها ، وتنقل الحيوات المختلفة لصاحبها بكل ما تحمله من نقص أو اكتمال ، وضعف وقوة ، ونتعرف من خلال ما خطته يداه على عالم صاحب السيرة : قيمه وثقافته وأفكاره ومشاعره تجاه الناس والحياة والعصر .

رغم أن هذه السيرة هي الجزء الظاهر من جبل الثلج المختفي تحت الماء ، ورغم ذلك فهي تفصح عن الكثير وخاصة التطور الاجتماعي خلال القرنين الماضيين ، وترصد المحاولات العديدة للنهضة ، وتسجل السراب والواقع .

ويستحيل أن نعرف بدقة وشمول تاريخ مصر الاجتماعي إلا بعد العودة وقراءة السير الذاتية التي كتبها كل من علي باشا مبارك والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وبعدهما تتابعت السير ومازالت تتتابع .

ومثل «ليالي سطيح» للشاعر حافظ إبراهيم ، و«الأيام» لطه حسين و«حياتي» لأحمد أمين ، و«تربية سلامة موسى» ، و«أنا» لعباس العقاد ، و«معي» لشوقي ضيف ، و«حصاد السنين» لزكي نجيب محمود .

ولا يمكن الإلمام بالأبعاد الاجتماعية لثورة ١٩١٩ إذا لم نقرأ «الضاحك







الباكي» لفكري أباظة، أو مذكرات محمد على علوبة، أو مذكرات عبد الرحمن الرافعي ، ومن حسن الحظ أن عدداً كبيراً من الأدباء سجلوا يومياتهم أو مذكراتهم ، مثل «مذكرات في السياسة المصرية» لمحمد حسنين هيكل ، و«مذكراتي في نصف قرن» لأحمد شفيق باشا، ومذكرات قليني فهمي باشا ، و«ثلثا قرن من الزمان» لعبد الله عنان و«يوميات طالب بعثة» و«أوراق العمر» للويس عوض ، و«زهرة العمر» و«سجن العمر» و«يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم ، و«خليها على الله» و«كناسة الدكان» ليحيى حقي ، و«عشت حياتي» لأحمد فرغلي باشا ، ومذكرات هدى شعراوي ومذكرات الهلباوي وغير ذلك الكثير ، والتي تقدم جميعها بانوراما للحياة الاجتماعية المصرية .

وقد قامت مكتبة الأسرة بإعادة نشر الكثير من هذه المذكرات ، وقدمت بذلك عملاً جليلاً للمكتبة العربية ، وخاصة تلك التي نفدت طبعاتها .

والتراجم والسير الذاتية ، هي استمرار علم خاص في التراث العربي هو علم الرجال ، ولا أعرف لماذا الرجال وحدهم ، هل لأنه لم يوجد في التراث العربي نساء بارزات ترجم لهن أو كتبن سيرتهن الذاتية ؟!

وهذه بعض لمحات من تلك «السير الذاتية» لكل من علي باشا مبارك ، والإمام الشيخ محمد عبده ، وأحمد أمين وقليني فهمي ، وأحمد فرغلي .. تقدم جانبا من بانوراما الحياة الاجتماعية في مصر .

نستطيع القول بلا مجازفة إن أهم من ترجموا لأنفسهم في العصر الحديث ، هو علي باشا مبارك ، الذي خطها سنة ١٨٨٩م . أي قبل وفاته بأربع سنوات ، وهي سيرة كاملة تعبر عن جيل يعمل من أجل نهضة البلاد ، ونشرها ضمن كتابه «الخطط التوفيقية» عندما ترجم لكل أثر وحجر في مصر ، ورصد التغير الاجتماعي في عصره . ولم يقتصر اهتمامه على القاهرة وحدها ..

وتتبين من خلال سيرته خروجه من

أعماق الريف المصرى ، فى ظروف بالغة الصعوبة ، وخاض معركة باسلة من أجل شيوع المعرفة ، ورفض الواقع الذى كانت تعيشه بلاده ، وكان بحق مهندس مصر الأول ، وكان أيضا «أبو التعليم» المصرى الحديث .

وانتقل من شظف الحياة عند سفح الهرم الاجتماعى إلى قمة الهرم الاجتماعى ، وقدم لشعبه المعرفة والعمران، وكان له فضل إقامة دار الكتب المصرية ومدرسة دار العلوم ، ودعا إلى تعليم المرأة وخروجها إلى العمل قبل دعوة قاسم أمين وهدى شعراوى .

وسجل شوارع وجوامع ومدارس وحمامات وأسبلة القاهرة وغيرها من المدن المصرية .

خرج على مبارك من قلب أسرة فقيرة من أعماق الريف ، مسته الرغبة الكبيرة فى المعرفة ، فخاض صراعا طويلاً ومريراً من أجل أن يتعلم ، ويبين دوافعه فى سيرته الذاتية ، يقول «وددت أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تُخشى غوائلها فالحكام يؤخذون من المدارس...»

وهرب من أسرته ومن قريته ليلتحق بالمدرسة فى القاهرة ، التى وصلها ماشيا على قدميه ، وعمل والده كل ما كان يقدر عليه لمنعه من مغادرة القرية ، وعدم البقاء فى القاهرة ولكن دون جدوى ، والتحق بمدرسة الجهادية لتفوقه ، ومنها إلى مدرسة المهندسخانة ، ثم التحق ببعثة إلى فرنسا تسمى بعثة الأنجال لانضمام عدد من أنجال الخديو إليها .

وهى قصة استمد نجيب محفوظ من تفاصيلها فى رواية «أحاديث الصباح والمساء» شخصية الابن الذى خطف فى عصر محمد على لكى يتعلم ثم أرسل لتفوقه فى بعثة إلى فرنسا .

وارتبط الرجل برسالة ، سعى إلى تحقيقها بكل الوسائل ، وهى مقاومة الجهل وإعادة بناء المواطن ، وكثيرا ما استخدم لتحقيق ذلك السلطة المركزية ، ولعله من أوائل من تناولوا طبيعة الوادى ووجود سلطة مركزية طاغية تمسك بتوزيع المياه وتقسيم الأرزاق ، والسيطرة الكاملة على المواطنين. وكثيراً ما فقد منصبه الحكومى ، فعكف على تأليف الكتب ، استكمالاً لرسالته ، ولم يستنكف أن يؤلف الكتب لمدارس المبتديان - أى الابتدائية - فى الجبر والحساب .

وكان مبدؤه الطاعة لولى الأمر ، وكان هذا موقفه مع عباس الأول ومع سعيد وإسماعيل وتوفيق ، ومن موقعه ذاك نشر التعليم واقترب كل يوم من تحقيق مشروعه فى النهضة .

الأستاذ الإمام

نشرت مذكرات محمد عبده سنة ١٩٣١ ، بعد أن استكملها تلميذه السيد رشيد رضا ، وأهم ما تلحظه أن بروزه كان إيذانا بدخول قوى اجتماعية جديدة من أصول مصرية فلاحية إلى الحياة العامة كما كان على باشا مبارك من قبل .

رحلت أسرته هرباً من الظلم والاضطهاد من قرية «محلة نصر» بمحافظة الغربية ، ولاحقهم الوشاة

وقبض على والده الذى ظل فى السجن إلى أن توفى عباس الأول .

وتكاد تكون ظاهرة هرب الكثير من العائلات فى الريف من الاضطهاد ، أو فراراً من الضرائب الباهظة سمة عامة ، وهو نفسه الذى وقع لعائلة أحمد أمين والذى رواه فى مذكراته .

وحدد عبده رسالته فى أمرين ، الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

تناول عقائد العامة ، التى رأى أنها ألفاظ لا تمت إلى الدين بسبب ، وهى عودة إلى العقائد الجبرية أى التى تتصور أنه لا حرية ولا اختيار للإنسان فيما يفعل ، وبالتالى تصبح دعوة للنكوص وسبباً للتخلف .

ويؤكد أن الأمة انحطت لأن الذين حافظوا على عناصر الإيمان الجوهرية قد أخذوا يفقدون روح التوازن ، ويتناسون الفرق بين ما هو جوهرى وما هو غير جوهرى ، وأخذوا ينظرون إلى تفاصيل المجتمع الإسلامى الأول كما لو كانت من قواعد الإيمان يجب طاعتها ، «فقد اشتبه على بعض الباحثين ما حدث فيه من الخرافات والبدع التى شوهت جماله، والسبب سقوط المسلمين فى الجهل بدينهم، وبعدهم عن التوحيد الخالص الذى هو أس النجاة ومدار حجة الأعمال ، وليس الأمر كما ظنوا .. كان الفقهاء ينكرون على المتصوفة معرفة أسرار الدين، ويرمونهم بالزيغ والإلحاد ، وكانت السلطة للفقهاء لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم ، فاضطر الصوفية إلى إخفاء أمرهم، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم ، وأخذ الأمراء بقول الفقهاء فيهم. ولمس الأستاذ الإمام أهم الانتقادات التى توجه للطرق الصوفية وهى . العزلة عن حياة المجتمع ، وعدم المشاركة فى نهضته .

وبدأ الأستاذ الإمام حربا لا هوادة فيها على البدع والخرافات ، وقدم الكثير من الفتاوى لما ينكره الشرع من رعد الطبول والحضرات والدوسة .

ولم يكن غريبا أن أحد أهداف الشيخ إصلاح التعليم فى الأزهر ، وإدخال العلوم الحديثة إصلاحاً لحال المسلمين ، وهى ذات المعارك التى خاضها فيما بعد د. طه حسين كما سجلها فى «الأيام» وغيره من المصلحين

واهتم بالتعليم بعد أن أدرك أن المعركة تدور أولا فى العقول ، قبل أن تجرى على أرض الواقع، يحتاج التطور إلى فسحة زمنية ، تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول .. حتى ينشأ فى البلاد ما يسمى بالرأى العمومى .. فمن يرد خير البلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية وبعدها يأتى جميع ما يطلبه».

وأخذ الشيخ فى عمل دءوب يعلم الرجال ويقيم المؤسسات ، وينشىء الجمعيات ، واشترك فى تأسيس

الجمعية الخيرية المصرية ، وتولى رئاستها عام ١٩٠٠ ، والتي قامت ببناء المدارس ونشر التعليم ، كما أسس جمعية «إحياء التراث العربي» التي حققت ونشرت العديد من المخطوطات الإسلامية.

وها هي حياة الشيخ كتاباً مفتوحاً تتمثل في سيرته الذاتية ، يسعى إلى الارتقاء بأمته ، وكان الشيخ طوال حياته رائداً للفكر الحديث ، وساهم في النهضة الفكرية ورفع شأن العقل ، وحارب الخرافة وما تؤدي إليه من تخلف .

أحمد أمين

يعرف الكثيرون «أيام» طه حسين ، رغم أن كتاب «حياتي » لأحمد أمين لا يقل غنى عنه ، وفيه من البوح أكثر ما في «الأيام» . فهو ينقل صورة حية لعصر بأكمله بكل تفاصيله الصغيرة ، وهو مادة تاريخية لا تنضب لتاريخ مصر الاجتماعي، يقدم صور الحياة الاجتماعية منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، وهو حافل بالمقارنات الذكية والملاحظات الثاقبة .

«لعل حياتي تصور جانباً من جوانب جيلنا ، وتصف نمطاً من أنماط حياتنا ، ولعلها تفيد اليوم قارئاً ، وتعين غداً مؤرخاً فقد عنيت أن أصف ما حولي مؤثراً في نفسي ونفسي متأثرة بما حولي .. والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة ، والشيء إذا زاد قربه صعبت رؤيته ، والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق » .

وسأختار من بين الصور الاجتماعية المتعددة التي قدمها ، الحياة في الحارة المصرية في نهاية القرن التاسع عشر ، وتحوله من ارتداء العمامة إلى الطربوش .

«.. لم تكن المدنية قد غزت البيوت وخاصة بيوت الطبقة الوسطى أمثالنا ، فلا ماء يجري في البيوت وإنما هو سقاء يحمل القربة على ظهره ويقذف ماءها في زير البيت ، تملأ منه القلل وتغسل منه المواعين، وكلما فرغت قربة أحضر غيرها ، والسقاء دائم المناداة على الماء في الحارة .. وطبيعي ألا يكون في البيت كهرباء فكنا نستضيء بالمصابيح تضاء بالبترول .. وطعامنا يطهى على الخشب ، ثم تقدمنا فطهينا على رجيع الفحم ، ثم تقدمنا أخيراً فطهينا على وابور بريمس .

ولم نكن نعرف جنيهات الورق ، وأذكر أن ظهرت عملة الورق فخافها الناس ولم يؤمنوا بها وتندرت الجرائد الهزلية عليها ، وكانت لا تقع في يد الناس حتى يسرعوا إلى الصيارف فيغيروها ذهباً .

ويصف تطور الحارة المصرية بقوله .. «كانت حارتنا مثالاً للأسر في القرون الوسطى قبل أن تغزوها المدنية بماديتها ومعانيها ، فقد ولدت عقب الاحتلال الانجليزي بنحو أربع سنوات ، وحارتنا ليس فيها من يتكلم كلمة أجنبية ، بل ليس فيها من يلبس البدلة والطربوش إلا قليلا .. كانت حارتنا تشمل نحو ثلاثين بيتا ، يغلق عليها في الليل باب ضخم كبير في وسطه باب صغير وراءه بواب ،

وهذا الباب بقية من الماضي، يحميها من اللصوص ومن ثورات الرعاع وهياج الجنود ، فإذا حدث شيء من ذلك أغلق الباب وحرسه البواب ، فلما استقر الأمن وسادت الطمأنينة استمر فتح الباب واستغنى عن البواب !

ويقوم على رأس كل مجموعة من الحارات سوق ، فيها كل ما تحتاجه البيوت ، وهي تمثل الوحدة الاقتصادية ، ويجانب السوق كل مرافق الحياة الاجتماعية ، مكتب لتعليم الأطفال ، ومسجد لصلاة أهل الحي ، وحمام للرجال أياما ، وللنساء أياماً ، ومقهى يقضون فيه أوقات فراغهم ، ويتناولون فيه كيوفهم ، من قهوة وشاى وتنباك ونحو ذلك ، وفي الحي مقاه متعددة ، منها ما يناسب الطبقة الدنيا ، ومنها ما يناسب الطبقة الوسطى .

أما أعجب الشخصيات في الحارة «الشيخ أحمد الشاعر» ، يذهب إلى المقهى ويصعد فوق كرسى عال يجلس عليه ويتحلق حوله الناس ، ويخرج الكتاب ، وهو قصة عنترة أو الزير سالم أو الظاهر بيبرس ويقرأ فيه بصوت جهير».

مقاومة الجديد

ويبدى دهشته من المقاومة العنيدة لكل جديد مفيد ، فأخذ على الشيخ محمد عبده وعاب عليه أنه أبطل ميضأة الأزهر وأحل محلها الحنفيات ، وهكذا يألف الناس القديم الضار ويكرهون الجديد النافع ويدخلون في الدين ما ليس من الدين .

ومن أطرف ما مر به هو وجيل من أقرانه ، الانتقال من ارتداء ملابس الشيخ إلى الملابس المدنية .. ويروى تجربته..

«قال صديقى يوماً : لماذا تصر على لبس العمامة ؟ والعمامة رمز رجل الدين، ولست رجل دين ، وإنما أنت تعلم اللغة العربية والأدب العربى فى كلية الآداب ، وهذه أمور مدنية لا دينية ، ثم إن لبسك العمامة فى وسط كله برانيط وطرابيش يجعلك غريبا فى بيئتك .

وتأملت الأمر طويلاً ، فهذا الذى قاله حق ، ولكنه ألف العمامة وإلف الناس لى معمما أخجلنى من التغيير ، فمازال يلح على ، ومازلت أطيل التفكير حتى ملت إلى رأيه ، وشجعنى ما كنت ألاقيه فى لبس العمامة من عناء ، فعامة الناس يجلون العمامة ظاهراً ولا يجلونها باطناً ، ويوقرون الطربوش غالبا ، ويستخفون بالعمامة غالباً .. وكم حدث لى من فصول كرهت من أجلها العمامة ، ذهبت إلى فندق مرة فقال لى صاحبه ليس عندى مكان خال ، وإذا بمطربش يأتى فيخلق له المكان .. ورجح عندى رأى صديقى فذهبت إلى الخياط وفصلت

بدلتين وشريت طربوشا .. وكنت أتعثر في مشيتي خجلا، ومنهم من يستحسن ومنهم من يستهجن !

وبعدها قامت معركة بين الطربوش والقبعة واختفى الطربوش والقبعة!»

الباشا

ومن المذكرات التي تلقي الضوء على بعض جوانب حياة مصر الاجتماعية مذكرات قليني فهمي باشا أحد أعيان الصعيد ، وأحد الشخصيات البارزة فيه ، فمثلا يصعب معرفة طبيعة العلاقة بين المسلمين والأقباط ، أو حجم الدور الذى يقوم به أغنياء ذلك الزمان إلا عند قراءة هذه المذكرات ، التي يستعرض خلالها الحوادث التي وقعت أيام الخديو إسماعيل والسلطان حسين كامل والملك فؤاد وحتى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

فهو القبطي الذى أنشأ مسجداً وكنيسة متجاورين ، وأقام مستشفى في مغاغة ، وقدم قصره بحلوان الحمامات ليكون مستشفى ، وأقام مدارس مغاغة على مساحة ٣٠ ألف متر من أراضيه ، وبنيت خمس مدارس إبتدائية وثانوية ومدرسة للبنات وأخرى زراعية .

وما دونه لا يزيد على ما رآه بنفسه ، ويقدم اقتراحات تعكس هموم ذلك الزمان ، ويقترح أن يستغنى عن التدخين يوماً واحداً في الأسبوع ويخصص ما توفر للإنفاق على الدفاع الوطني . كما يقترح تخفيض راتب الوزراء إلى أربعين جنيها في الشهر ، وإلغاء مكافآت أعضاء البرلمان ، ومن أعماله التي يعتز بها إقناعه نوبار باشا رئيس الوزراء بإلغاء السخرة وعقوبة الكرباج !!

عشت حياتي

ومن السير الذاتية التي استقبلت استقبالا حافلا مذكرات باشا آخر هو محمد أحمد فرغلي باشا أحد رجال الأعمال البارزين الذى أطلق عليه «ملك القطن» ، والتي صدرت في مارس ١٩٨٤ ، وهو أول كتاب مذكرات يصدره رجل أعمال مصري .

وجاء في هذه المذكرات قوله .. «لقد وجدت من الصواب أن أظل بعيداً عن الانتماء إلى أي حزب سياسي ، محتفظا بعلاقة طيبة مع كل المسئولين ، كي أتمكن من تسيير الأمور في اتجاهها الصحيح. بعد أن وصلت رئاستي وعضويتي لمجالس إدارات الشركات والبنوك إلى ما يزيد على الثلاثين شركة وبنك ، كما أنني كنت عضوا في مجلس الشيوخ في فترة من أحرج وأدق الفترات في حياة مصر والعالم خلال الحرب العالمية الثانية ، كما رأست اتحاد المصدرين لفترات متعددة» .

ويدعى أن حياة رجل الأعمال هي مزيج من حياة السياسي والضابط ونجم السينما ، وشبكة علاقات من الموظف البسيط حتى نجوم المجتمع . وبالمال ومع المال يجد رجل الأعمال نفسه وسط الأضواء . ويجب أن يكون رجل الأعمال،

مثل أجهزة الأرصاد الجوية، قادراً على التنبؤ بما يحدث في الغد من تقلبات، وعليه أن يقيم شبكة شديدة الترابط من العلاقات، خاصة مع أجهزة صنع القرار وأجهزة تشكيل الرأي العام، حتى وإن اقتضى الأمر أن يشارك في امتلاكها!

ويقول عن إسماعيل صدقي (السياسي البارز ورئيس الوزراء) «أنه من القلائل الذين يملكون عقلا منظما دقيقا، وكفاءة إدارية نادرة، وكان من الذكاء والطموح الذي أوصله لأكبر المناصب».. وكان من المعجبين أشد الإعجاب بكفاءته. وقال له.. إنه إذا خير بين ناظر عزبة مشكوك في ذمته لكنه كفؤ، وآخر عديم الكفاءة وأمين لفضل الأول، فالأول سوف يفيدني بكفاءته، ويسرقني وحده، أما الثاني فسوف أفيد من أمانته وحده ويسرقني كل من حوله.

ويروى عن علي ماهر أنه قال له.. إنه يفضل أن يكون أعضاء وزارته من محدودي الكفاءة لأن هذا ييسر له أمور الحكم، وتسيير دفة السفينة. كما يحكي قصة إقصاء «طلعت حرب» عن إدارة بنك مصر، وهو الذي أنشأ بنك مصر وأقام أول صناعة مصرية صميمة، فقد عاني بنك مصر كما عانت غيره من المؤسسات أزمة مالية طاحنة في الثلاثينيات، ويكشف أسرار الإطاحة بطلعت حرب منشيء بنك مصر وشركاته، فقد أطيح به لكي يحل محله حافظ عفيفي الذي يعتبره رئيس الوزراء منافسا له، ووجد هذه هي الطريقة لإزاحته من طريقه. ويروى أن البنك الأهلي ومحافظه الانجليزي عرض تقديم ثلاثة ملايين من الجنيهات إلى بنك مصر، فكان يرى أن يتخطى بنك مصر أزمته حتى لا يؤدي فشله إلى كارثة محققة تعود بنتائجها على البنك الأهلي، والغريب أن الأعضاء المصريين في مجلس الإدارة عارضوا ذلك.

وعندما تولى علي ماهر الوزارة، استدعى حسين سري وزير المالية طلعت حرب، وطلب منه الاستقالة حتى تتدخل الحكومة وتحل الأزمة، وإلا فستسحب الحكومة ودائعها من البنك.

* * *

هذه صفحات قليلة من هذه المذكرات، والتي يوجد غيرها الكثير، الذي يحـ ـج إلى مزيد من الصفحات لكي نقدم كنوزها. وعلى المهتمين بالتطور الاجتماعي أن يعيدوا قراءة هذه المذكرات ويتبينوا من خلالها جوانب القصور وعوامل القوة، وطبيعة الشخصية المصرية، وما تتعرض له من قهر، وأيضا رصد تلك المحاولات العنيدة والشجاعة التي قام بها الكثيرون من أجل نهضة البلاد ورفاهية أهلها. ■

سلاسل

إبداعات الشباب

أماني عبد الحميد

لم تكن عملية نشر الكتاب الأول للمبدع الشاب بالمهمة السهلة . فأين هي دار النشر أو السلسلة الإبداعية التي تهتم بالتجارب الأولى . ومنذ وقت ليس ببعيد كان الوسط الثقافي والإبداعي يعاني من نقص شديد في عدد تلك الاصدارات والتي لا تخرج عن نطاق هيئة الكتاب وبعض صفحات الإبداع في المجلات أو الصحف ، أو أن الشاب يلجأ إلى النشر على نفقته الخاصة . وتلك كان يعتبرها البعض سبة في تاريخه الإبداعي .

● هل نجحت في اكتشاف المواهب الجديدة في عالم الكتابة ؟

لكن منذ فترة الثمانينات انقلبت الآية بطريقة عكسية ، وتعددت الجهات التي تهتم بنشر تلك الإبداعات الشابة . وللأسف ثارت حولها تحفظات كثيرة جعلت البعض يتهمها بأنها السبب الرئيسي في ظهور عدد من الكتاب الوهميين الذين تحولوا نتيجة النشر غير المدروس من عالم الهواية إلى عالم الاحتراف وهم بلا رصيد حقيقي أو كتابة ذات مستوى فني تؤهلهم لدخول عالم الكتابة والكتاب !!

ويبدو أن الوسط الأدبي والثقافي تحول اليوم إلى متاهة كبيرة تزدحم داخلها أقلام الكتاب القادمين في كل صوب . لدرجة أن الكثيرين رأوا أن حالة الانفتاح التي أصابت حركة النشر في السلاسل الأدبية هي السبب الرئيسي في ذلك . ففي الماضي كان الكاتب أو المبدع الشاب عندما تكتمل تجربته الأولى سواء في القصة أو الرواية أو الشعر . يبدأ في البحث عن ناقد تثق فيه جهات النشر المختلفة . ليعرض عليه عمله الأول . وبالتالي يحصل على التأييد المرجو أو حتى الاستحسان لكتابته . ثم ينتظر داخل قائمة طويلة من الكتاب أمثاله آملا في أن يأتي يوم ويرى عمله النور ، ويتحول إلى إصداره مطبوعة . علاوة على مشكلات المركزية الشديدة التي كان يعيشها الوسط الثقافي . فالمشكلة تتضاعف أمام كتاب الأقاليم النازحين إلى العاصمة بحثاً عن فرصة نشر .

ونظراً لتلك الشروط القسرية . كانت الأعمال التي تلقى الاستحسان ويتم نشرها هي الأعمال ذات المستوى الإبداعي المرتفع والتي ترتقي إلى مستوى الاحتراف . أي أن الأديب أو الكاتب الجديد مطالبا بأن تكون تجربته مع الكتابة مكتملة العناصر عميقة التجريب ، وتقدم الجديد ، وذلك في خلال لغة رفيعة المستوى . أي مطلوب منه أن يكون كاتباً كبيراً ذا ثقل ثقافي وأدبي وكأنه أحد كبار الكتاب المحترفين منذ سنوات عدة . كل ذلك منذ تجربته الأولى . وبالطبع تلك المركزية الشديدة والشروط القاسية دفعت بعض أولئك الكتاب والشباب إلى الشعور بالاحباط الشديد الذي دفع بعضهم إلى تفضيل الاعتزال وهجر الكتابة كلية والاكتفاء بالعيش وسط منظومة البشر العاديين .

غزارة غير منطقية

لكننا اليوم أصبحنا نعيش وسط أجواء ثقافية إبداعية تعاني من غزارة غير منطقية في عدد جهات النشر والسلاسل التي تصدر عنها . نجح المجتمع في التخلص نوعاً ما من مركزيته الشديدة واتسع نطاقه وأفقه ليشمل كتابات الشباب من كل صوب سواء في الأقاليم أو في القاهرة . بل تعددت

● تزايد أعدادها هل هو ظاهرة صحية .. أم يسمح بظهور أنصاف المبدعين؟!

الإصدارات التى ترفع شعار الاهتمام بكتابات وإبداعات الشباب وتؤكد دوماً على أنها سلاسل للكتابات الأولى . أى أنها متاحة لكل شاب لم يسبق له النشر من قبل . وذلك تشجيعا للشباب واكتشاف المواهب الكامنة داخلهم . لكن للأسف تحولت المسألة من النقيض إلى النقيض أى من الشح الشديد فى نشر أعمال الشباب إلى الانفتاح غير المدروس. فتعددت الإصدارات داخل الإطار المؤسسى . فنجد هيئة الكتاب وهيئة قصور الثقافة تتنافسان على حجم إصداراتها . سواء الأسبوعية أو النصف شهرية أو الشهرية . علاوة على اصدارات المجلس الأعلى للثقافة وسلسلة «كتاب أول» التى تقدم جميع الأعمال الإبداعية لمختلف اتجاهاتها من قصة قصيرة ورواية وشعر ونقد فنى أو حتى دراسات إجتماعية او متخصصة فى مختلف فروع الثقافة . حتى أصبحنا نعيش وسط زخم من الاصدارات والإبداعات بعضها غير حقيقى . اختلط فيه الغث بالسمين والجيد بالردىء ، وامتلأت الساحة بعدد كبير من مدعى الكتابة . وأصبحنا نرى كتاباً ليسوا مبدعين . لكنهم يملكون حقوق الكتاب والأدباء . فمن ينشر له كتاب يتحول من مجرد شاب هاو إلى كاتب محترف له رصيد فى الاصدار (حتى ولو كان كتابا واحدا فقط) وعليه أن يتقدم ليحصل على عضوية اتحاد الكتاب أو نادى القصة ويصبح كاتبا معترفاً به وبالتالى يحصل على جميع الحقوق . لتتفجر مشكلة ازدحام الساحة بأعداد من قليلى الموهبة وكأن لدينا سوقا ضخمة تعج بالكتاب والقصاصين والروائيين والشعراء وأغلبهم غير حقيقى

وهنا يظهر السؤال الأخطر .. كيف يمكن التعامل مع ابداعات الشباب خاصة تجاربهم الأولى ؟ هل الأمر يقتصر على عدد الاصدارات التى تهتم بنشر الكتابات الشابة الأولى أم أن المسألة أعمق من ذلك ولا تتعلق بالأرقام والاحصائيات فقط ؟

إحتكار جيلى والاستاذ الأدبى

كثير من الكتاب والمبدعين الشباب كانت لهم تحفظات كثيرة على السلاسل التى تصدرها وزارة الثقافة والتى تدعمها الدولة . فنجد نبيل بهجت أحد الباحثين فى مجال المسرح يرى أن الاحتكار الجيلى لا يزال يسيطر على الحركة الإبداعية بأكملها . بل إن الأمر يتعدى ذلك فتتحول معايير النشر لتتفق مع علاقات القائمين على تلك الإصدارات . فضلا عن أن معظم هؤلاء العاملين فى السلاسل هم فى الأساس كتاب ومبدعون وبالتالى فإن أولويات النشر

تكون لأعمالهم أو لأعمال أصدقائهم أو حتى لأعمال أفراد جيلهم .

فى حين تطرح منال السيد القاصة قضية أخرى وهى تدنى مستوى تلك الاصدارات . وتحكى عن تجربتها الأولى وتقول إن الشاب فى مقتبل العمر يكون بلا تجربة حقيقية مع عالم النشر وبالتالى لا يعلم فى أى اتجاه يذهب . وبسبب زحام الاصدارات أصبح من الصعب التعرف على الجيد خاصة أن لجنة القراءة والاختيار لم يعد لديها الوقت الكافى للقراءة وتحديد من الأحق بالنشر .

فى حين تهاجم القاصة هناء عطية النشر الرسمى وتتهمه بالارتجالية فلا توجد أية معايير تحكمه . بل إن تلك المعايير يحددها مجموعة من الموظفين . وترى أنها لا تقوم على اساس الجودة والإبداع . وتدافع عن تجربتى محمد البساطى وإبراهيم أصلان داخل هيئة قصور الثقافة . على اعتبار أنها تجربة ناجحة لكنها انهزمت أمام معارك الموظفين وأفكارهم الجامدة . وعن تلك التجربة يدافع محمد ابراهيم طه الروائى الذى حصل على جائزة الدولة التشجيعية عن أول مجموعة قصصية له «توته مائلة على نهر» عام ٢٠٠٢ . فيرى أن سلسلة «أصوات أدبية» الصادرة عن هيئة قصور الثقافة برغم أنها نشرت مجموعته الأولى عندما كان يتولاها «البساطى» . إلا أنه يعتقد أن النشر الحكومى أو المؤسسى لا يزال قائما على العلاقات الشخصية خاصة أن النشر لا يتم إلا عن طريق توصية من ناقد أو كاتب كبير . وهذا يفتح الباب أمام العلاقات الشخصية !

من المنطلق نفسه يوضح د . علاء الأسوانى أنه واجه فى بداياته صراعاً ضارياً من أجل نشر مجموعته القصصية الأولى . وأنه طرق جميع الأبواب الخاصة بمسئولى النشر والمسئولين بالهيئات وجهات النشر مروراً بالناشرين فى القطاع الخاص . لذا فإنه يرى أن الوسط الثقافى والإبداعى لا يقدم أية مساعدة حقيقية للشباب . فعدم وجود الاستاذ الأدبى كما كان فى الماضى جعل الشاب تائها لا يجد أية رعاية حقيقية تعينه على تنمية مهاراته وابداعه . ففى الماضى كان الاستاذ من أمثال : طه حسين ود. محمد مندور أو حتى حسن فؤاد أو صلاح حافظ أو أحمد بهاء الدين ، وجميعهم أساتذة كانوا يحملون رسالة لرعاية المواهب وتوجيهها . فكانوا يعملون كالمؤسسة فى تقديم الأسماء الجديدة . ثم إرشادهم للقراءة «والكتابة» لكن للأسف انقطع دور الاستاذ الأدبى منذ فترة السبعينات مما أثر على الحركة الأدبية بشكل كبير . فقدنا خلالها مواهب كثيرة . خاصة مع عدم وجود الفرص العادلة للنشر فضلا عن تفاقم الظروف الاقتصادية الصعبة على المبدع

الشاب . فالأديب عليه البحث عن وظيفة يتكسب منها ليصرف على أدبه . وكلها مصاعب يرى «الاسواني» أنها تعرقل مسيرة إبداعات الشباب خاصة فى ظل وجود سلاسل أدبية غير فعالة وذات مستوى متدنٍ . يرجع السبب إلى تدنى المستوى الثقافى والإبداعي لدى القائمين على تلك السلاسل والاصدارات وبالتالى تأتى اختياراتهم على نصف مستواهم . مما يجعل الموهوبين يعزفون عن تقديم أعمالهم لها .

الكيف والكم

وعن سلاسل هيئة قصور الثقافة يرى الروائى ابراهيم عبد المجيد والذى عمل بها لمدة خمس سنوات كرئيس لتحرير سلسلة «كتابات جديدة» بهيئة الكتاب . أن الاعتراض الحقيقى على الكيف وليس الكم . ويوضح أن تلك السلاسل نشأت لاحتواء أزمة النشر التى كانت تواجه أدباء الأقاليم . لكى تحاصر المركزية الشديدة فى النشر . لكن المشكلة ظهرت بعد فترة حيث تضخم النشر الإقليمى ليضعف أمام أدباء القاهرة . وأصبحت عبارة عن سلسلة فى الإصدارات تنشر جميع الكتابات . وبالطبع تلك مسألة كبيرة جدا . لذا فهى تحتاج إلى أن تعود مرة أخرى إلى دورها الأساسى وهو اكتشاف المواهب وتشجيعها وتنمية مهارات أصحابها . بل يرى أن هذا الدور التشجيعى يجب ممارسته مع المواهب المتوسطة أيضا وليس بالضرورة مع النوابغ فقط .

أما منتصر القفاش وهو أديب شاب ويرأس تحرير سلسلة «كتاب أول» الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة له رؤية مختلفة عن فكرة الكتابة الأولى . فيرى أن الكتاب الأول لأى كاتب لا يعنى بالضرورة كتاباته الأولية فيوضح أن التجارب الأولية لأى كاتب لا يجب أن يتم نشرها . لأنها أعمال لا ترتقى إلى مستوى العمل الإبداعي المتكامل بشكله الاحترافي . وتلك مشكلة تواجه السلاسل التى تتبنى إبداعات الشباب لأن فرز الأعمال المقدمة يستغرق وقتا طويلا حتى نتمكن فى اختيار ما يصلح منها للنشر . لكن مع الوقت أصبحت الأعمال أكثر احترافاً . ويثير قضية بالغة الخطورة . وهى أن أعمال الشباب المقدمة فى الرواية لديها سمة رئيسية تهدد بالخطر وهى أنها أعمال ليست على المستوى الفنى الجيد ومتأثرة بشكل سلبى بالدراما التليفزيونية أو حتى بعض نوعيات الميلودراما . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على مدى تأثير التليفزيون على المبدعين الجدد . مما جعل من الرواية التى يكتبها هؤلاء الشباب عبارة عن مسخ فنى لا يرتقى إلى مستوى القالب الروائى الحقيقى ولم يستطع أن يصل إلى دراما تليفزيونية . وللأسف الشديد فإن تلك الأعمال تتزايد

أعدادها يوماً بعد يوم .

وهي إشارة خطيرة إلى حجم التشويش التى يتعرض لها المبدعون الشباب لها والذى يؤثر على العملية الإبداعية ككل خلال الفترة القادمة .

ويرى «القفاش» أن المجتمع المصرى يعانى من تشويشات تعرقل مسيرة الأدب، مثال ذلك انتشار الوعى السلفى الذى ينصب أصحابه أنفسهم كحماة لسيف الأخلاق . ومن المحزن أن أصحاب هذا التيار أصبحوا منتشرين داخل مختلف مؤسسات الدولة ويقومون بدور الرقيب . وتصل أيديهم إلى مجال الثقافة والإبداع ، ويتدخلون أحياناً فى تحديد الصواب والخطأ ، وماذا يتم نشره أو حذفه . وبدأ ذلك يؤثر على المبدعين أنفسهم . وهنا يظهر دور نوادى الأدب التابعة لهيئة قصور الثقافة فى المحافظات . فى احتواء المواهب الجديدة وتقديم نشاط ثقافى حقيقى لها ومساعدتها على التشكيل قبل الانطلاق إلى عالم الإبداع الاحترافى .

أما فؤاد قنديل رئيس تحرير سلسلة «ابداعات» بهيئة قصور الثقافة ، فيشرح أن دور القائمين على السلاسل الأدبية التى تتعامل مع الشباب ينطلق من الحوار المتواصل مع الشباب من أجل توجيهه وتوضيح الطريق أمامه . ويرى أن فتح الباب على مصراعيه أمام النشر بأنواعه له سلبيات متعددة أهمها انقطاع الحوار البناء نظراً لكثرة الأعداد المقدمة ، والالتزام بنشر الأعمال حتى ولو كانت متوسطة المستوى . ويضرب مثلاً بالنشر الإقليمى فى الهيئة حيث يلتزم باكتشاف خمسة أو ستة كتاب جدد كل عام عن كل إقليم . وبالتالي تأتى أعوام لا يجدون مواهب تستحق أن ينشر لها . لكنهم يضطرون إلى نشر الأعمال المقدمة إليهم . فقط للالتزام بالأعداد المقرر إصدارها . رغم أن مستواها قد لا يصل إلى ٤٠٪ من الجودة .

ويشير قنديل إلى أن الشباب المبدع دائما ايقاعه سريع ويتعجل النشر . فهو يعتقد بالحرية المطلقة وليس الحرية المسئولة . لذا نجد أحيانا بعض الشباب الذى لم تتعد أعمارهم (١٨ سنة) ويريدون نشر أعمالهم رغم عدم امتلاكهم للتجربة أو للثقافة وبالتالى العمق فى التفكير . فإذا كان الشاب موهوبا بالفطرة فيجب رعايته وتنمية موهبته . حتى يتحول إلى موهوب بالثقافة أيضا . لكنه يرى أن السلاسل التى تصدر جميعها تحتاج إلى ترشيد وتطوير وحسم . فيرى أن غزارة الإصدار ظاهرة غير صحية تتسبب فى ظهور أنصاف كتاب على حساب الموهوبين . كما أن الحسم فى اتخاذ قرار النشر أو عدم النشر مطلوب حتى تتضح الرؤية أمام الشباب . ولمعرفة ماذا يجب أن يتم نشره . أو يستحق النشر بالفعل . ■

جيـــل جديـــد والثـــورة الثانيـــة للفـــن الحـــديث

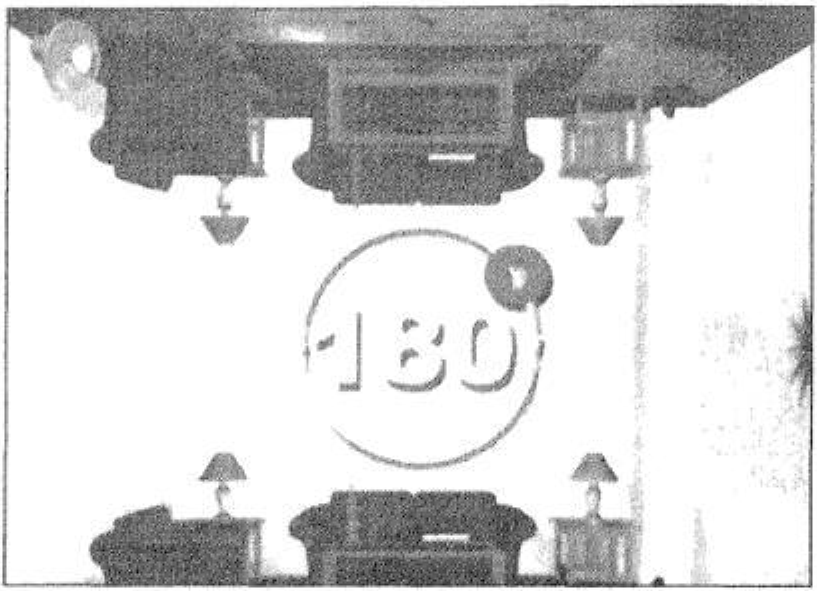
بقلم
صلاح بيصار

إذا كانت ثورة الفن الحديث قد بدأت مع نهاية الانطباعية وأسدل الستار على آخر لوحة واقعية «حوارى البحر» لكلود مونيه .. فقد ارتاد الفن آفاقاً جديدة ارتبطت بتلك التحولات المهمة والتي تمت فى المجتمعات الإنسانية فى العالم مع بداية القرن العشرين من التقدم العلمى الذى توجه ظهور الأشعة السينية وأبحاث أعماق اللا شعور فى علم النفس وتقدم فن الضوء من التصوير الفوتوغرافى والسينما.

وربما يمثل بيكاسو رمزا لتلك الروح الوثابة .. روح الفن التى امتزجت بروح العصر الحديث بكل متغيراته.. بدءاً من «فتيات أفنيون» التى اكتشف بها الأسلوب التكعيبى إلى تركيب مقعد الدراجة ومقودها على هيئة ثور بقرنين .. إلى المجسمات والأعمال المركبة التى شكلها من تجميع الحديد الخردة والمواد المختلطة .. وحتى «الجورنيكا» التى توجته على عرش الفن الحديث.

ولكن مع الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الماضى .. بدأت ثورة جديدة فى الفن الحديث .. بدأت ثورة مابعد الحداثة .. جاءت مواكبة لما يشهده العالم فى مجال العلم .. ارتبطت بثورة الليزر والاليكترون وتنوع وسائل الاتصال والتى جعلت من العالم قرية صغيرة من خلال تلك السماوات المفتوحة حتى تحققت نظرة عميد النقاد ومؤرخى الفن فى أوربا هربرت ريد وكان واحداً من أبرز عقول الحداثة رغم ميوله القومية حين أشار فى بداية الستينيات من القرن الماضى بأن الوقت لم يحن بعد للتأريخ للفن الحديث لأنه لم يبلغ بعد مداه.!!

ولقد جاء صالون الشباب فى دورته



«١٨٠٠درجة» العمل الفائز بالجائزة الكبرى للفنانين أحمد عبد الكريم وإسلام عبد الله

الخامسة عشر .. انعكاسا لتلك الثورة الثانية في الفن الحديث .. وخروجا على الإطار التقليدى فى الإبداع .. هذا مع احترام النموذج المثالى القديم للعمل الفنى .. والذى واكب العصر ومستحدثاته .. وأكد أن اللوحة ذات البعدين والتى غنت للبشرية من آلاف السنين من الممكن بقوتها التعبيرية أن تختزل الزمن وتقتفى فراغ الأليكترون!!

الفكر والإبداع

بمشاركة ٢٦٨ فنانا افترشت قاعات قصر الفنون بأرض الأوبرا بأكثر من ٢٦٠ عملا فنيا تنوعت فى مجالات التصوير والرسم والحفر والنحت والخزف والتصوير الضوئي بالإضافة إلى الفنون التى تنتمى لما بعد الحداثة من «الميديا» و«التجهيز فى الفراغ» و«البيرفورمانس» أو فن الأداء.

كما خصصت قاعة لمشاركة ٣٣ فناناً من ١٠ دول عربية عرضوا ٥١ عملاً فنيا وقد جاءت «تيمة» الصالون فى دورته الحالية «المنظور الإنسانى» تأكيدا على القيم الإنسانية وعلاقتها بمعنى الفن.

وفى الحقيقة تعد هذه الدورة من أقوى دورات الصالون .. على المستوى التعبيرى مع تنوع وثراء الأداء فى مختلف أفرع الفن وليس أدل على ذلك من شهادة المثال الكبير آدم حنين .. فقد أوضح أن ما لفت انتباهه هو أن الشباب تناول موضوعات شديدة الواقعية ولكن من خلال تناول حديث يحمل مفاهيم

معاصرة .. ويرى أن نظرة الشباب تغيرت بالنسبة لمسابقة الصالون من الجنون إلى الفكر والإبداع الحقيقى الجميل.

- فى مجال التصوير تنوعت أعمال ٨٣ فنانا من الواقعية التعبيرية إلى الرمز ومن التشخيص إلى التلخيص الشديد الذى يصل إلى التجريد .. تأكد من خلالها حضور الإنسان المعاصر بكل نزواته ورغباته وأزماته وتطلعاته بالإضافة إلى تلك الآفاق الجديدة والتى تمثل إنعكاسا لثورة العلم وتحولات التكنولوچيا.

- فى لوحة صرحية ضخمة يجسد الفنان ياسر حسن نبايل ضراوة الحرب من خلال تلك التلال من طيات الملابس العسكرية المموهة بألوانها الداكنة مع مهمات الجنود والتى تمتد باتساع اللوحة .. وتقتحم المساحة فى الأرضية ساقا جندى بالحذاء الميرى ولا يخفى الرمز هنا من اختفاء الجسد المبتور مع قطع اللوحة والذى يشير إلى عمق وضراوة الغشم والجهالة للصراع البشرى المتمثل فى نزاعات الحروب.

- أما الفنان وليد قانوش فينقلنا فى إيقاع يجمع بين التوهج والانطفاء من خفوت الأزرق الهادى إلى تصاعد الأحمر النارى مع الأبيض المضيء إلى حالة من حالات الحركة والسكون .. أشبه بالقلب الذى يضخ الدم بين الضلوع .. حالة تختزل العناصر التشخيصية فى كثافة شديدة تتميز بدينامية الايقاع وقوة تعبيرية الألوان.

- ومن خلال ايقاع ساحر .. اقتنص الفنان كريم عبد المعطى لحظة زحام داخل إحدى المركبات تميزت بقوة تعبيرية الروح المصرية .. وقد جاء الإطار بهيئة شباك بضلفة زجاجية فتنوعت الملامس من قوة الضوء إلى خفوته الهامس خلف الزجاج الشفاف - ومن خلال توازن دقيق بين حركة الجسد ورشاقته وتوازن عناصر وتراكيب آلات التكنولوچيا الحديثة ينقلنا الفنان على حجازى إلى هذا التجاوب بين رهافة الروح والمادة.

- أما ثلاثية مجدى فرحات والتى تطل فى ثلاث لوحات فتمتد بمساحات تعبيرية بقوة الضوء الملون والذى ما إن يشتعل فى بؤرة حتى يهدأ فى أخرى فى عراك مع الظلام .. تذكرنا بثورة الليزر والاليكترون.

هذا بالإضافة إلى أعمال ريم السقا وكريم ندا.

الرسم والحفر

فى مجال الرسم احتشدت الأعمال بقوة التعبير .. جاءت موازية لفن التصوير من حيث القيمة وبلاغة التعبير.

- فى لوحة تجمع بين طزاجة الأداء وروح الإسكتش السريع تصور الفنانة أسماء النواوى ثنائية تجسد لصراع الأجيال من خلال فتاة وامرأة .. فتاة تمثل صورة للتمرد وامرأة تمثل صورة للحكمة والوقار وقد ساهم فى إبراز حيوية وحركة الخطوط وقوتها التعبيرية تلك البؤر الظلية التى تنبعث من أماكن عديدة.

- وفى موجات تهمس بالنور والظلام أشبه بالانغام تنقلنا سها حسن يوسف إلى عمق التواصل الإنسانى من خلال مرجيحة تضم فتاتين .. كل فتاة مسكونة



بوهج التعبير الذى تؤكده شاعرية الضوء المتسلل بين حركات الأيدى ورشاقة الجسم الإنساني.

- وتجمع أعمال طارق الشيخ بين التنوع والثراء بالكولاج والرسم ومزج السطوح بالأسلاك الرفيعة وهو ينقلنا إلى عالم ينتشلنا من الصراع الأرضى إلى فردوس سماوي، يتحاور فيه البشر بهيئة ملائكة مجنحة.

كل هذا مع بلاغة أعمال إيمان إبراهيم وسلوى حمدى .

- وفى مجال الحفر تنوعت وسائل التعبير وبالتبعية تنوع التكنيك مما جعل للأعمال قيمة تؤكد تمثل الشباب للعمليات الطباعية التى تواكب وترتاد افاقا جديدة ، من الحذف والاختزال وتعدد ملامس السطوح والثراء اللوني.

- وتتكاثف التناميات الخطية فى اتجاهات رأسية وافقية ودائرية بين التلقائية وبلاغة الأداء تشكل امرأة غارقة فى زمن لاينتهى بملامح طفولية محلقة بنظرة شاعرية فى عمل للفنان أحمد محيى حمزة وتنساب فى الخلفية كتابات تذكرنا بخربشات الإنسان البدائى مسكونة بوهج التاريخ وطلاسمه.

- أما محمد نبيل عبد السلام فيأخذنا إلى دنيا من التركيبات الهندسية التى تمتد فيها المسطحات تتنوع بالملامس والدرجات اللونية التى تبدو كالسلم الموسيقى من الأسود إلى الرماديات وذلك من خلال تشكيل من الحفر على الجلد.

- ولاشك أن التصوير الضوئى قد شهد فى هذه الدورة ارتفاعاً فى المستوى تجاوز الأعمال التى نشاهدها فى صالونات التصوير الضوئى للمحترفين .. بمشاركة ٤٥ فناناً تنوعت أعمالهم بين الرسم بالكاميرا من خلال ملامح النور والظلام ... والتلخيص والاختزال فى عوالم من الرمزية والتعبيرية بالإضافة إلى اللقطات الطبيعية التى تميزت بالطرافة والشاعرية .. اقتنصت سحر الحياة .. وقد برز فى هذا المجال أسماء كثيرة من بينها . عمر المعتز بالله ووئام أحمد عبد اللطيف وساره مصطفى كامل وايناس بدر الدين وهانى مصطفى كمال.

- وفى فن النحت خرجت الأعمال على الإطار التقليدى لهذا الفن وتنوعت طرق الأداء والعلاقات التشكيلية بخامات عديدة.

ولقد جاء التشكيل الذى قدمه الفنان شعبان محمد عباس مواكبا لحركة مابعد الحداثة من خلال توليف من الحبال والمعدن والحجر .. حيث قدم حوارا من البدائى المتمثل فى الصخرة المشدودة على الأرض بالحبال وبين تكنولوجيا العصر المتمثلة فى التشكيل المعدنى للكرة التى تنساب فى مسطح ينحنى مسكونا بالظلال.

- وفى تشكيل ثنائي قدم الفنان إيهاب اللبان سطوحاً متنوعة تموج برهافة الكتلة التى ترق فى شريحة أشبه بالدرع لاتفرض سطوتها على الفراغ بل تتجاوب معه مسكونة بالأضواء التى تتلاشى مع الظلال.

وقد تألقت أعمال أخرى لشيماء سيد محمود وأسعد فرحات ومحمد عمر طوسون ومحمد أبو المجد ومحمد



ايقاع لوني للفنان وليد قانوش



توازن الجسد ورشاقته مع تراكيب وعناصر التكنولوجيا الحديثة للفنان علي حجازي

عكاشة.

– وعلى قلة الأعمال المشاركة فى فن الخزف «ستة فنانين» جاءت مرتفعة الأداء خرجت بهذا الفن من الملامس التقليدية إلى ملامس جديدة جعلت الطين يتنفس بتشكيلات ثرية تتوهج بالأكاسيد فى صور وأشكال تقترب من الخواص المعدنية كما فى أعمال حسن محمد رشاد والشرنوبى محمد وشيماء ممدوح هاشم.

فنون مابعد الحداثة

ولاشك أن الشباب هم الطاقة التى تمثل الحيوية والتوهج والحماس والاندفاع . ومن هنا تمثلت فى أعمالهم روح مابعد الحداثة التى تحدد الفن فى المستقبل .. وقد تألقت فى الصالون فنون الميديا والتجهيز فى الفراغ والبير فورماس أو فن الأداء.

– وفنون الميديا هى تلك الفنون التى تعتمد على الوسائط المتعددة من وسائل الإعلام الحديثة مثل الكمبيوتر والانترنت والفديو وأيضاً الصور والشرائح الفيلمية التى تبث عن طريق الأطباق «الدش» ومن خلال تلك الأشكال الاليكترونية يقوم الفنان بعمل توليف تشكيلى قد يكون لوحة أو صورة تشكيلية وقد يكون مادة فيلمية مصحوبة بالصوت لكن تعتمد على التشكيل.

فى صالون الشباب تنوعت أعمال شباب الفن من الصور المتحركة التى تتدفق بالتشكيل إلى اللوحات الثابتة ذات البعدين.

– ولقد جاء عمل الفنان معتز محمد عبد الله «تأثير» معتمدا على الصور التى تتدفق من شاشات عديدة بهدوء الألوان وحركة البشر والطبيعة وهو يمثل صورة بليغة لمعنى التشكيل بالصوت والصور التى تتابع بلا توقف.

– وفى لوحة تستحضر كلاسيكية الأداء تذكرنا بروح عصر النهضة تقدم الفنانة نجلاء عبد الرحمن تشكيلا من الصور الفوتوغرافية فى عالم يموج بآفاق كونية من تلك الشجيرات التى تساقطت أوراقها تمتد فى تفريعات على جسد فتاة مستلقية متشابكة الأيدى تعلوها أخرى بملامح أشبه بوجوه الفيوم .. هنا نطل على عالم درامى يمتد فى الزمن برؤية معاصرة ووسائط جديدة.

وهناك أعمال كثيرة فى هذا الاتجاه مثل أعمال منتصر خليل وأحمد محمد محمود ومنى صلاح إبراهيم وهديل محمد عزيز ورفيق مراد فوزى وكلها تؤكد على مواكبة الشباب لما يحدث فى العالم فى مجالات الفنون .

– أما عن فن التجهيز فى الفراغ فهو عمل يحتشد بكل مقومات الفن .. قد يشتمل على التصوير من حيث الملامس المتنوعة والألوان وقد يحمل سمات النحت من حيث التجسيم والتشكيل وقد يحتشد بكل هذا فى تركيبات معاصرة من حيث دخول الخامات الحديثة والوسائط المتعددة .

وقد جاء عمل الفنانة مروة طلعت يمثل تشكيلا من سرير حديد مذهب وأسود ومفروش بغطاء من القماش رسمت على وجهه عريس وعروسة فى وضع معاكس للوضع الطبيعى وبينهما

باقة من الزهور .. هى ترتدى الفستان الأبيض اللامع أما هو فيرتدى الرداء الرسمى الداكن ومن خلال هذا التشكيل تشير الفنانة إلى حلم الشباب المجهض فى الزواج .. حيث يمثل السرير روح التراث ويرمز هذا الغطاء لحالة اجتماعية معاصرة .. العمل مسكون بالبوح والهمس والمشاعر غني بالتشكيل من التقاطعات الرأسية والأفقية للسرير المعدني مع هذا الغطاء الهامس بالفرح والشجن وملامس الحرير.

- وفي عمل يمثل تشكيلا حركيا يواكب ثورة الاليكترون يعتمد على الدوائر المعدنية والأطباق الفضائية جاء هذا التشكيل للفنانة أسماء رشاد محمد وهو يتحرك بالكهرباء فى حركة دائرية يلخص ببساطة مفهوم الثورة الثانية للفن الحديث.

- وجاء العمل الفائز بالجائزة الكبرى للصالون بعنوان «١٨٠ درجة» للفنانين أحمد عبد الكريم وإسلام عبد الله وهو من فن التجهيزات فى الفراغ.

العمل عبارة عن غرفة معيشة وضعت معكوسة معلقة بالسقف ومن خلال مرايا افترشت الأرض نطل على هذا الوضع فى شكله الطبيعى .. استخدم الفنانان صورا عديدة من الأثاث والديكور والاكسسوار تؤكد على فكرة انقلاب الأوضاع حيث نطل على عالم تجتاحه العولمة .. هنا سجادة شرقية وفوتيهات ومناضد مع علبة سجائر مستوردة وتليفون محمول كما يطل التليفزيون مقلوباً يبث الأنباء والدراما.

العجيب أن الفنانين تعمدا قلب صور الحياة داخل غرفة المعيشة باستثناء لوحة تشكيلية وكأنهما يشيران إلى الأمل فى الفن التشكيلى .. الأمل فى أن تكون الصورة هى نفسها الحقيقة.

- وقد جاء فن الأداء «البيرفورمانس» ليؤكد على عمق التشكيل مع التعبير وهو من أحدث فنون الإبداع حالياً .. حيث يقوم الفنان بالأداء التعبيرى الذى يعتمد على الطقوس والايماءات والحركات الايقاعية من خلال حلبة تحتشد بالعلاقات التشكيلية من المجسمات والرموز والعناصر.

كما فى أعمال الفنانين محمد إبراهيم واسماء إبراهيم على وكمال ربيع راشد.

- وقد افترشت أعمال الفنانين العرب من الشباب إحدى قاعات قصر الفنون وأكدت فى تنوعها وثرائها على قيمة الإبداع العربى ومواكبته لاتجاهات الفن الحديث مثل أعمال محمد فاروق من الأردن ولطيفة جودت من لبنان وأحمد إسماعيل من فلسطين وجعفر مهدى وخالد محمد فرحات من البحرين.

وفى النهاية ومن خلال بانوراما الشباب المصرى والعربى فى الإبداع التشكيلى المعاصر للصالون الخامس عشر .. والذى رسم صورة لملامح الفن بكل اتجاهاته .. كل التحية للمركز القومى للفنون التشكيلية على هذا التنظيم الحضارى للصالون وكل التقدير لشباب الفن مستقبل الإبداع. ■

قـــــــراءة في أعـمـــــال كـــوتـزى الحاصــل على جائــزة نوبـل



بقلم
ابـراهيم فتحى

بعـد أن حـصل ج. م. كـوتزى على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٣ قيل إنه صوت أفريقيا. وقد وجه إليه الحزب الحاكم في جنوب أفريقيا تحيته وتقديره لنيله تلك الجائزة بعد نادين جورديمر عـام ١٩٩١ . وجـاء في الأنبـاء أن الرئيس مبيكى باسم الأمة وقارة أفريقيا يحيى آخر حاصل على الجائزة ويقول «إننا نستدفىء معه بالمجد المشع من تقديره . أما نادين جورديمر فتشاركه الغبطة بها، فهى شرف «لبلدنا» وتبرز التطور الكبير «لأديبنا» وخاصة في الظروف الصعبة التى كنا نعيشها .

ولكن كوتزى لا يقيم فى بلده وقبل أيام من حصوله على الجائزة كانت كبرى الصحف الرسمية تفرد صفحة كاملة للهجوم عليه . وتتردد التكهنات حول إيثاره أن ينفى نفسه فى استراليا دون أن يفصح بأى شكوى. فالحزب الحاكم وبعض الوزراء صرحوا بأن روايته «الخزى» الحاصلة على جائزة بوكو عام ١٩٩٩ عنصرية، كما أن عملية سطو على بيته (يوجد نظيرها فى تلك الرواية) أزعجته جدا. وتزعم بعض الصحف البريطانية أنه كان مضطهدا من الحكومة، وتعيب على مثقفى بلده الخائفين أنهم لم يحتجوا على طريقة معاملته (التى لم يذكروا شيئا محددا عنها) من جانب الحكومة .

المأزق الخاص لـ لقبيلة البيضاء

لقد ولد عام ١٩٤٠ ابنا لصاحب مزرعة أغنام صغيرة، أبيض من أصل هولندى، وقد عاصر نظام الفصل العنصرى ابتداء من ١٩٤٨ برعاية حزب المحافظين البريطانى لهذا النظام الذى استمر حتى هزيمته بالمقاومة المسلحة عام ١٩٩٢ ، وكان مثل البيض جميعا يتمتع بامتيازات (وإن كانت ضئيلة لأسرته الفقيرة) على حساب الاستغلال والقهر الوحشى للأغلبية السوداء والملونة العاملة المنتجة. ولكنه منذ مطلع الصبا كما يذكر فى مجلدى سيرته الذاتية «الصبا» و«الشباب» كان قد هيأ نفسه ليكون فنانا شاعرا كاتبا فوق المعارك السياسية راعيا «شعلة نور» يتوسمها فى نفسه. وقد لعب هذا الدور مع نفسه، ومايزال يواصل لعبه مع الآخرين . فهو يترك عون أهله وهو طالب فى العاصمة، ليثبت أن كل فرد جزيرة منعزلة وأنه لا يحتاج إلى أبوين. ويرى مظهره البعيد عن الجانبية غريبا شاذا ولكن إيمانه بحب ومحبوب وقوى الحب يجعله ينتظر أن يجئ اليوم، يوم البزوغ إلى نور الفن . وإذا كان فى البداية مغمورا مثيرا للسخرية فهذا هو قدر الفنانين إلى أن تتجلى ذات يوم قدراته الحقيقية ويخرس الهازئين فى مواصلته مصارعة الكلمات والإيقاعات. وكان يود أن يعتقد فى بلد يعتبر معظم سكانه أن أى ملكية جريمة وأن أى شئ تمكن سرقته، أن هناك فى الجو بعض الإشفاق على السود وعلى مصيرهم . فهل كانت هناك رغبة للتعامل بأمانة معهم وتعويض قسوة القوانين ، ولكنه يوقن أن بين السود والبيض هوة عميقة، أعمق من أى حسن للنوايا ومن الإشفاق ، وأن الفنانين أمثاله يقفون على أرض مزعزعة أو وهمية.

وفى هذا الظل الذى يلقيه الرعب المراوغ فى محاكمة تستلهم كافكا تطرح مسألة الحقيقة . إن آثار التعذيب واضحة على المساجين البرابرة ولكن ما أفدح مسئولية المحقق . كيف يعرف أن

أحدا قد قال الحقيقة التي يرتب عليها غارات وقتلى؟ ماذا إذا أرغم التعذيب السجين على قول الحق؟ ولكن المحققين كعادتهم الذين لم يبذلوا جهدا لمعرفة الأوضاع ويعتمدون على «الاعترافات» لا يصدقونه؟ . ومن وجهة نظر البطل المتعاطف مع السجين إنه شئ رهيب، أن يكون مهيئا للخضوع ثم يخضع مذعنا ولم يعد لديه ما يقدمه بعد ذلك ، بعد أن انكسر، ولكن المحققين يضغطون عليه ليقدم ماليس لديه. لماذا؟ رغبة الجهاز في تضخيم الأخطار واختلافها لتعظيم نفوذه وموارده واخضاع السلطة العليا له؟ ويقول المحقق هناك نغمة معينة تطرأ على صوت المتهم الذي يقول الحقيقة، والتدريب والخبرة علماه وأمثاله التعرف على تلك النغمة، نغمة الحقيقة. وحينما يسأله البطل هل تستطيع أن تلتقط تلك النغمة في الكلام اليومي؟ محاولا أن يعايش لحظة حميمة معه ينحيها المحقق بهزة من يده. وهو يؤكد أن عليه أن ينقب في موقف محدد بالحفر عن الحقيقة، ولابد أن يمارس ضغطا للعثور عليها . فهو يحصل أولا على أكاذيب ، ثم يضغط فيحصل على مزيد من الأكاذيب، ثم يؤدي المزيد من الضغط إلى التحطم والانكسار وبعد مزيد آخر من الضغط تشرق الحقيقة!! الحقيقة التي يريدها ويضعها في فم المتهم

فأثناء الاستجواب تبدو التناقضات في الاعترافات وبمواجهته بها كما يدعي المحقق يغضب المتهم (المقيد المكسور خائر القوى) ويهاجم الضابط أو يسقط على الحائط أو ينتحر أو يموت وفاة طبيعية بانتهاء عمره . وهذا تفسير للعدد الكبير من الذين يموتون أثناء التحقيق ، الإصابات (مثل كسر الأسنان ، والأطراف والقروح وتحول العين إلى حفرة دامعة أو الشلل) كلها أحدثها المتهمون بأنفسهم بشهادة الحراس والمساجين الآخرين . ويريد المحقق أن يقود حملة على البرابرة أعداء الامبراطورية وأن يتخذ من «اعترافات» غلام مبررا . ويقول البطل ماذا إذا ضللت الطريق ياكولونيل؟ ستكون مهمتنا إعادتك إلى المدنية. وتبدو المفارقة في استخدام كلمة «المدنية» صارخة، ويتساءل كيف شعر المحقق أول مرة وهو يلوي كماشة نزع الأظافر أو يستخدم الإحراق؟ هل يرتجف حينما يعرف أنه دخل في الممنوع المحظور، كيف يتطهر؟ أيغسل يديه ليستطيع العيش مع نفسه والآخرين؟ ويمضي السرد ليضع هذا البطل مع فتاة من حطام التعذيب . عيناها كأنها في وجه قناع ذي عيني حشرة سوداء زجاجية لا تبادله النظر ، فعيناها هددتا بالاحراق واقتراب النار فتحجرت المقلتان ولا تريان إلا أشباحا. وقد آخذها لتعمل في مسكنه، وكما لم يكن لديها ماتقوله للمحقق لم يكن لديها

مكان آخر تذهب إليه.

ويصف الراوى دبيب رغبته نحوها، رغبة معتمة غامضة متراقصة كلسان لهب، يده تمسدها وتتحسسها وتتكور مع نهدها . ماله وللمعذبين الذين ينتظرون كخنافس فى أقبية مظلمة. السرير ليس الا سريرا، والمرأة ليست إلا موقعا للذة ولا يجب المضى فى المعانى والأفكار، ونتركه وهو خادم الامبراطورية الذى يخدع نفسه أولا بتجاهل الحرب الدائرة، لينزلق مترنحا فى مساء متعرج نحو تعاطف مع الضحايا ونحو فعل عصيان كيخوتى بصارع طواحين الهواء، يؤدى به إلى السجن موسوما بأنه عدو الدولة . وقد قال جراهام جرين عن هذه الرواية، وهو من رواد الكتابة عن أفريقيا (قلب المسألة) إنها عمل مبتكر أصيل رائع.

حياة وأزمنة مايكل ك

ويواصل كوتزى فى هذه الرواية، التى نال عنها جائزة بوكر أول مرة عام ١٩٨٢، كتابة نثره الدقيق المشذب الذى كشط عن كلماته الهالات البلاغية ، وليصل إلى خفوت التصريح .

وقد قيل إن بطلها متشرد وساذج على حافة البلاهة كأنه استعير من صمويل بيكيت ثم تعثرت خطواته واقعا فى رواية لكافكا زاحفا على غير هدى عبر مشهد من مشاهد سفر الرؤيا ونهاية العالم .

ومن المعروف أن كوتزى كان يريد أن يكون شاعرا ، ولكن مفهومه للشعر يجعله يكره الاستعارات والكلمات الشعرية الطنانة المنفوخة بالهواء المخزون . إنه يرفض كما يقول فى سيرته الذاتية الشعر الذى يرتفع صاخبا فى نغمات حماسية انفعالية ويقنع بأن يتتبع الشعر انعطافات الصوت وتثنياته لدى المتكلم فى مجالات الحياة العادية، ولا يرى سببا لأن يختلف عن النثر . لذلك جاء إبداعه الشعرى متمثلا فى نثر رواياته . وقد أصبح تخصصه فى الرياضيات ولغويات الكومبيوتر فاتحا له أبواب مملكة الأشكال ، فأتى إلى النثر بكل مهارات صائغ الجواهر الشعرية (كما يتمنى) .

وتبدأ الصفحة الأولى بمقطع شعرى «ركيك» الحب هى أب الجميع، وهى ملك متوج على الجميع، تظهر بعضهم كأنهم آلهة ، وآخرين كبشر، وتجعل بعضهم عبيدا، بعضا آخر أحرارا . والحكاية أولها القابلة تخرج البطل من بطن أمه الى العالم مشوها شفته مثل شفة أرنب، وفتحة أنفه منفرجة عريضة . عاجزا عن ممارسة وظائف تناول الطعام والكلام. أمه خادمة تلمع أرضية بيوت الآخرين ولم يستطع البدء فى التعلم المدرسى فالتحق بهيئة حكومية للأطفال المعاقين . يتعلمون فيها مبادئ القراءة والكتابة والقليل من الحساب والكنس والمسح وترتيب أغطيته السرير وغسل الأطباق وصنع السلال وبعض النجارة وعرق

الأرض . عمل بستانيا فى كيب تاون وبعد فترة بطالة عمل منظفا ليليا فى المراحيض العمومية يعود متأخرا . وذات مرة هاجمه رجلان ضرباه وسلبا ساعته ونقوده وحذاءه وتركاه ممددا غائبا عن الوعى، بجروح نافذة فى ذراعه وإبهام مخلوع من مكانه وضلعين مكسورين. فترك العمل الليلى وعاد إلى الحدائق . وبعد أن كان بستانيا من الدرجة الثالثة ترقى إلى الدرجة الأولى، كان ممثلا للانسانية الافريقية المفروض عليها التشوه والانسحاق. ولكنه يجاهد ليجيد أعمالا وليبدع فيها . ورغم وحدته يتفرغ لأمه بعد إصابتها بالاستسقاء والأورام ويصف الراوى فى الجزء الأول بضمير الغائب هول المستشفى وأمه ملقاة فى ممر عاجزة عن المشى والتنفس بين عشرات من ضحايا الطعنات والضرب وجروح الطلقات النارية ووفيات الشباب تتوالى، وتتحامل العجوز إلى الحمام فيوقفها مريض مسن فى بيجاما رمادية ويغازلها بألفاظ بذيئة ويعرى نفسه أمامها . وتبدأ رحلة طويلة فى منعرجات حظر التجول . لماذا جاء إلى العالم؟ ليعتنى بأمه. ولها حجرة تحت السلم بفضل كرم مخدوميها . ويريدان الذهاب إلى الريف وتتخيل أمه فى حنين أيام المزرعة والدفء والوفرة. أنهما يريدان الهرب من العنف غير المكترث والأوتوبيسات المكتظة وطوابير الخبز واللصوص والشحاذين وتريد الموت تحت سماوات زرقاء. وهذا الحنين إلى حياة بسيطة مع الأرض والجماعة سنجده أيضا فى رواية «الخزى» حيث يتجه الاستاذ الأكاديمي بعد تجريسه إلى القرية ومزرعة ابنته . ولم يستطع الابن الحصول على تصريح بالسفر بعد عشرات الاستمارات . وفى هذه الرواية أيضا حادثة عربة عسكرية صدمت شابا يعبر الطريق فاشتعل الغضب عند «البرابرة» وهجموا على الشقق وأحرقوها وكسروا كل مابها وكان رجل أبيض يطلق النار عليهم من مسدسه فجروه ورضربوه وسحلوه، ومزقوا ملابس امرأة وكوموا المقتنيات وأحرقوها . وهرب مخدومو الأم فاحتل الابن الشقة. وفى مجلة قديمة بها صور أطعمة شهية ونساء جميلات استرعته صور الطعام وتراها لأمه التى تقول إن الناس لا تأكل جيدا هذه الأيام ، ويرد عليها إن المواشى لا تعرف أن حربا مشتعلة، وتواصل النباتات النمو والإثمار. ويهجم على الشقة أربعة رجال يدفعونه جانبا ويخلصوها من محتوياتها ، ولكنه يعمل فى زقاق جانبى ليصنع عربة مما يلتقطه من أسلاك وعجلات وقضبان وحاول رجلان سلبها فيها جميعها منى هربا. وتسقط أمه محمومة فاقدة الوعى، حلقها جاف ولكن السعال مشبع بالمخاط. ويصف السرد بشاعة «العلاج» وتصوره . وتعاسة الابن وانتقاله بين المكاتب

والعنابر الغامضة ، وأمه فمها مرتخ متدل وعيناها مغمضتان ووجهها منضغط ممصوص وجلد متغضن يتغمض ، ويقابله رجل مكسور يكلمه بالتفصيل عن أهله وابنته ويعطيه نقودا لفطيرتين يأكلاهما معا . وسمع العصافير فى السماء وحاول تذكر متى عرف مثل هذه السعادة . ثم يسرق شاى وطعام أمه الغائبة والمرأة فى السرير المجاور. ماتت أمه بالليل وسئل عن أقارب آخرين ومكالمات فلم يفهم لماذا، أعطوه طعاما وأخذوا بياناتها وبياناته ولم يعرف إجابة ووقعها الموظف بنفسه بدلا منه. وأخذ رماد أمه بعد إحراقها وانضم الى الرجال والنساء لذين يناموين تحت الكبارى واراد أحدهم انتزاع الحقيبة التى تركتها لأمه فقاومه وقد شعر أنه لم يفتقدها الآن بأكثر مما ظل يفتقدها طيلة حياته. وواصل مشيه جائعا ورغم كل ذلك الضياع يمسك به جندى من رقبته فيركع ورأسه يلمس الأرض ويطالبه بأن يحكى قصته ويسحق رأسه فى التراب، قل لنا عن أصدقائك . وركله فى بطنه حتى أغمى عليه ، يبحثون عن أسلحة ومخازن مخبأة، أصدقاؤك ؟ مجروك . قل لنا أين هم وسنجعلك تبدأ حياة جديدة .

وفى القسم الثانى يتغير الراوى العليم بكل شئ ليحل محله طبيب شفوق فى معسكر الاعتقال والتدريب وإعادة التأهيل، ويقول لقد التقطوا سجينا وحده فى وسط لا مكان فى هضاب كارو وهو يجرى فى موقع للعصابات ويبدو رغم سنواته الثلاثين شيخا مهدما. انهار أثناء إرغامه على القيام بالحركات الرياضية دون تنفس أو نبض . قالوا للطبيب إنهم يعطون السجناء شيئا يفعلونه للتسلية، يثبون جريا فى المكان . فسألهم ألم تروا أنه عاجز قالوا هو لم يشتك وقال لهم انه بصحة جيدة وكان دائما نحيفا ، سألهم الطبيب ألا تعرفون الفرق بين رجل نحيف وهيكل عظمى أين أمه؟ قال بأنها أصبحت سمادا وتجعل النبات ينمو، أحرقوها فاشتعل شعرها حول رأسها كهالة قديس ، كأنه يتحدث عن الطقس. هذا «الشئ» متهم بأنه يقود موقعا لتجميع القوات وإعدادها للقتال ولكن هذا الرجل لا يعرف حتى أن هناك حربا. وفى الأوراق أنه مشعل حرائق، ويدير حديقة مزدهرة فى مزرعة مهجورة فـعـلا قـام المسكين بذلك، ويطعم العصابات المحلية ويسمونه مايكلز وليس مايكل لاصطناع هوية جديدة له .

ويقول الطبيب بعد وصف دقيق للمعسكر ونظامه انه حصاة، مثل أمثاله ، رقدت ساكنة منذ فجر الزمان ، التقطوه الآن وطوحوا به من يد إلى يد لا يكاد يعى ما حوله، رسم خلال أمعاء الحرب بين المؤسسات والمعسكرات والمستشفيات كحجر، لم يولد كإنسان ومثل أمه التى كدت طول حياتها ومسحت أرضيات الآخرين البيض

وطبخت طعامهم وغسلت أطباقهم وملابسهم القذرة وركعت على ركبتيها لتغسل مراحيضهم ، هناك الكثير من الأرضيات تنتظره لمسحها ومراحيض كثيرة لتنظيفها .

ويمر بتحقيق طويل .. هل دوره في الحرب أن يملأ شكائر الرمل ويحفر الخنادق حتى ينكسر ظهره ويخبزونه في الشمس طول النهار . ويأكل قشر البطاطس وقوالح الذرة فلا يستطيع مواصلة البقاء ويشطبون رقمه من القائمة ؟ لماذا لا يذعن لهم ويبدو كأنه نزيل من نزلاء «داخاو» المعسكر النازى الرهيب .

ومن وجهة نظر الطبيب الأبيض الذى يتساءل لماذا نخوض هذه الحرب فيرد عليه رئيسه من أجل أن يكون للأقليات كلمة في مصائرها. لذلك يدرك أنه يبدد حياته من يوم إلى يوم كأسير لهذه الحرب ، زمنها زمن انتظار . ويشير إلى الممرضة التى يضاجعها . فهى لا تعيش مثله معلقة على قيد الحياة دون حياة، على حين يتردد التاريخ متأرجحا حول أى مسار سيمضى التاريخ عندها أسئلة وأجوبة الكنيسة والمدرسة . متى اكتشفت جنوب أفريقيا؟ الاجابة عام ١٦٥٢ . ماهى أكبر حفرة صنعها الانسان ؟ الاجابة كيمبرلى فى وسط أفريقيا، مناجم الماس. والمفارقة أن هناك هضبة في شمال غربى استراليا بنفس الاسم . فسيذهب المؤلف فى منفاه الذاتى إلى استراليا، وسينتهى القسم الثالث من الرواية بضمير الغائب متابعا هرب البطل من المعسكر إلى الشاطئ حيث يلتقى بحياة جمعية، وطعام واكتشاف للجنس ومتعة أن يتحسس بأصابعه اللحم الطرى (فى كل كتابات كوتزى يكاد الجنس أن يكون مرادفا ليقظة الحيوية ويشغل مكانا مركزيا لدى الشخصيات حتى بالنسبة لمايكل ك الذى لم يعرفه طوال ثلاثين عاما، فحياته الجديدة تتفتح به . انه فى الخاتمة يتفلسف بمفهومات أكبر كثيرا من جمجمته ولسانه ويعى وصفه الرمزى من خلال لغة المؤلف لا لغته هو، لقد وجد حقيقته ، أنه بستانى فى البداية للمجلس المحلى ثم لنفسه . يقضى وقته وأنفه فى الأرض ، ولكنه أكبر من دودة الأرض التى هى أيضا بستانى بطريقها، أو من الخلد الذى يحفر فى الظلام قصة الجحر لكافكا) ولكنهم يسجنون البسطاء قبل الآخرين . ويكتشف خطأه، فى امتلاك كثير من البذور مختلفة الأنواع ليوزعها معا فى قطعة أرض واحدة، لقد كان عليه أن يزرعها نوعا نوعا فى قطع متنشرة متعددة ، وأن يرسم خريطة لديها . ويفكر فى المزرعة وتطهير المضخة ليتدفق الماء لكى يعيش الانسان .

قصة «فو»

الكاتب دانيال فو ١٩٨٦

وهنا يعيد اختراع قصة روبنسون كروزو لافتا النظر إلى إغواء وتسلط

عملية الحكى نفسها فى مشهد أسطورى ولكنه نوعى محدد مازا عن الفرد الانسانى الذى هو نقطة البدء فى بناء العالم الاجتماعى عند الوهم الليبرالى، والذى يكتشف بوعيه وتجربته الذاتية قوانين الوجود؟ اقتربت فى عام ١٧٢٠ من الأديب دانيبل فو سوزان باستون التى طرحت بها الأقدار فى جزيرة صحراوية وطلبت منه أن يحكى قصتها وقصة الرجل الغامض الذى أنقذها ورافقها وتسيد عليها وكان أحيانا عاشقها المسمى روبنسون كروزو. وكان كروزو قد مات، وكان خادمة فراى داى عاجزا عن الكلام وفى محاولتها سرد الحقيقة عنه، اخترعته هى اختراعا، فحكاها دانييل فو -كما حكاها كوتزى نفسه الأدب يعلق على الأدب. وفى رواية أستاذ بطرسبرج سنة ١٩٩٤ يوم متخيل فى حياة ديستويفسكى حيث يدخل حادثة سقوط ابنه (ابن كوتزى) البالغ من العمر ٢٢ سنة من شرفة منزلة العالية فى نسيج الرواية، كأنه شخصية من تأليف الكاتب الروسى فى «الممسوسين».

الخزى ١٩٩٩

أما روايته «الخزى» عن بلاده بعد انتهاء نظام الفصل العنصرى والتى سببت هجوما عليه فتبدأ بالاستاذ الأكاديمى، الذكر فى الثانية والخمسين، مطلق حل مسألة الجنس حلا لا بأس به مواظب فى الثانية بعد الظهر يوم الخميس على الذهاب الحب شقق مبنى ضخم تدار للدعارة المحترمة. تنتظره -ثريا- خارجة من الحمام وتنزلق إلى جواره. تسأله هل شعرت بوحشة لى؟ نعم طول الوقت. جسمها متوهج باللون البنى للشهد. هى ملونة، يمكن أن يكون والدها من الناحية التكنيكية. يحجز عندها مقدما. فى صحراء الأسبوع يبدو الخميس واحة «ترف» وإبهاج لشهوانية الحواس مكتوبة بالفرنسية فالكلمة أبسط وأقصر من مقابلتها الانجليزية التى تضع صيغة الاسمية على الصفة، وثريا فى السرد ليست مسرفة فى التعبير عن العاطفة، مزاجها هادئ وسهل الانقياد وآراؤها العامة أخلاقية على نحو يثير الاستعذاب تتأذى من السائحات عاريات النهود على الشواطئ العامة، يكشفن عن «ضروع أبقار» كما تسميتها، أما المتشردون فيجب أن يجمعوا من الشوارع كما تجمع الماشية لكى يعملوا فى كنس الشوارع. لم يسأل كيف توفق بين آرائها وخطى «عملها». وقد نما داخله تعلق بها وظنه متبادلا. ليس ذلك حبا ولكنه ابن عمه. وتعلقه بها من نوع الافتتان بالزوجة أو الخنوع لها وهو يدفع لها فى «دورة افتقاد» من ٩٠ دقيقة ٤٠٠ راند، نصفها يذهب إلى الشركة التى تستأجر الشابات للترفيه، هى تمتلك ثريا أو ذلك الجزء منها الذى يؤدى الوظيفة.

وقد حاول أن يحليل علاقته بها في وقتها الخاص فرفضت ، وتتبعها عن طريق مخبر خاص ورآها مع ولديها ، زوجة وأم محترمة تغطي نفقات احترامها بعمل بعض الوقت وعندما حاول الاتصال بها رفضته وابتعدت وفقد أثرها .

ويمضي في نزوة قاتلة مع تلميذة له صرعته برفق يدعوها إلى شراب في منزله مع طقوس المغازلة.. هي في الكورس الذي يقدمه تحب الشاعر بليك ثم دور دزورث. الشعر اما يخاطبك من النظرة الأولى أو لا يخاطبك اطلاقا ، مثل البرق مثل الوقوع في الحب. هل الشباب مايزالون يقعون في الحب؟ أو أصبح هذا الميكانزم متقادما مثل قاطرة البخار . هي أحبت توني موسيسون وبعد وجبة بسيطة وموسيقى لاحظت وجود كتب كثيرة للشاعر بايرون وسألته هل هو متزوج؟ . لم يعد ذلك بعد مرتين . وبعد شراب لمس خدها وسألها أن تقضي الليلة معه ، وسألته لماذا فتجاب لأن جمال المرأة لا يخصها وحدها . إنه جزء من السخاء التي تجلبه للعالم وعليها واجب اقتسامه . لم تنسحب من يده على خدها ولم تستسلم . وقالت وماذا إذا كنت اقتسمته من قبل؟ اذن وسعى الدائرة .

وقال شعرا من البحر الخماسي جعله يبدو مدرسا، رجل كتاب ، وغادرته اسمها ميلاني ، «الداكنة» اللعب بالألوان دعاها للغذاء وعاد بها إلى بيته ضاجعها على صوت المطر فوق النافذة كانت سلبية تماما مغمضة العينين . في الصباح كان سعيدا يقرأ أشعارا في محاضرته ويشرح الشعر الرومانسي وأصبح للفتاة حضور في حياته، وأنها تمثل أيضا في مسرحية كوميدية عن جنوب أفريقيا الجديدة. المنظر عند حلاق في جوها نسبرج عملاق شاذ في صخب يصفف شعر زبونين أسود وأبيض . ويتداول الثلاثة النكات والاهانات ويثرثرون بالتحيزات القديمة التي يكشفونها لنور النهار فيجرى غسلها في عواصف الضحك وفي مجرتها يقبل قدميها ولم تقاوم ، وكل ما فعلته ان تركت نفسها وشفتيها وعينيها . وتركته يخلع ملابسها بل ساعدته رافعة ذراعيها ومؤخرتها ، لم يكن اغتصابا بل شيئا غير مرغوب فيه عندها ، كأنها تموت داخل نفسها طول المدة كأرنب أطبق فك الثعلب على رقبتها . كل شيء يحدث لها كما لو كانت بعيدة من فضلك اذهب لتمضي كي تغتسل من المسألة كأنها سائرة في نومها .

بعد ذلك تقوم القيامة. صديقها يحطم سيارته. أبوها يشكوه وتنعقد لجنة لمحاكمته ويعترف بأنه مخطئ ويرفض التوبة العلنية حتى وإن كانت ستحتفظ له بوظيفته .

وبعد الاذلال والتجريس يذهب إلى مزرعة ابنته . ولم تكن ابنته مثالا يحتذى كانت مع مجموعة من شباب الهيبى السكر والمخدرات والجنس ولما انفض

السامر عاشت مع صديقة فى علاقة سحاقية ثم هجرتها الصديقة . وتمضى القصة مع العامل الأسود لديها الذى يدبر هجوما على المزرعة من جانب أقارب له ، هجوما بشعا بالتخريب والاغتصاب وقتل الكلاب .. وتحمل الفتاة وتوافق على زواج مصلحة من العامل الزنجي للحفاظ على المزرعة وتربية طفلها الأسود .

أما هو فيجد بيته مسروقا ولكنه يعمل على كتابة أوبرا عن بايرون وعشيقته فى ايطاليا «تيريزا» مثل «ثريا» ، فوعود الإخلاص لا يمكن الوفاء بها .

وهناك مستوى علاقته بالكلاب فى عيادة لصديقين من البيض يضاجع الزوجة مضاجعة روتينية وبينما هى مع الكلب المشلول الذى يتمسح به ، ويقذف به بعد الحقنة المخدرة إلى النار .

انها رواية يستمد إلهامها من الصراع الاجتماعى والسياسى فى بلد يمضى متبعا منهج الليبرالية الجديدة حيث يتكدس الثراء فى جانب اقلية بيضاء وسوداء والفقر فى جانب الاغلبية التى أصبحت تؤمن أحيانا بانتزاع حقوقها كما فى الماضى بالعنف والجريمة ولكن الرواية مع ذلك تتجاوز زمانها ومكانها كما يقال ويؤكد النقد أنها لا تحمل مرآة لجنوب افريقيا (فلماذا كل الاستطرادات عن شعراء الرومانسية الانجليز وايطاليا؟) ، بل تطرح اسئلة مقلقة عن علاقات الأعراق المختلفة والأجيال والرجال والنساء، ومعنى الحياة والعقائد والقيم على نطاق العالم .

وفى روايته الأخيرة من أن انتقل إلى استراليا «اليزابيث كوستللو» يقول استرالى ناقد البصر بسخرية لاذعة للبطلة الرمزية: «إن الكتب التى تلقى تمجيدا منك بالجوائز لن يواصل أحد قراءتها وستنتهى بالنسيان » ولكن كتب كوتزى تستحق التذكر طويلا . ■

كلمات عاشت

● من هو الحكيم؟ الذى يتعلم من كل ما يصادفه ومن هو القوى؟ هو الذى يتحكم فى عواطفه . ومن هو الغنى؟ هو الذى يقنع بما عنده ومن ذلك الإنسان: لا أحد

بنيامين فرانكلين

● أصح مقاييس الحكم الصالح، كمية الأرز التى يتناولها عامة الشعب!

مثل صيني

● إذا غضبت المرأة، كسرت الجرة التى تحوى جميع أسرارها .

● بعض الناس كالسلم.. يصعد عليه الصاعدون وينزل النازلون، أما هم فلا يصعدون ولا ينزلون!

● رضيت من العيش بالكفاف.. فحسدني المتعلقون بالحطام!

ميخائيل نعيمة



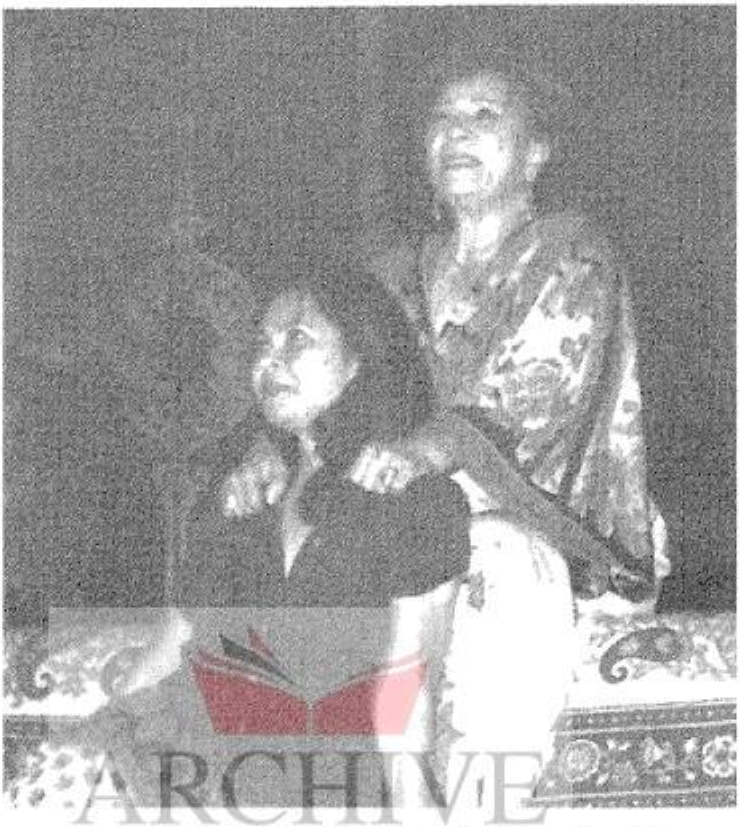
عايدة عبدالعزيز

يُهون من غلاظة سعد الله ونوس

بقلم
صافى ناز كاظم

لأجل خاطر الفنانة المغبونة عايدة عبدالعزيز، ألزمت نفسى بضرورة تحمل خوض شوارع القاهرة بسياراتها المتوحشة المتلاطمة فى مساء الخميس ٢/١٠/٢٠٠٣، لأصل مع صديقتي وداد مترى وسميحة الحسينى إلى مسرح الهناجر بأرض الأوبرا الجديدة، وذلك لأحضر افتتاح مسرحية «أحلام شقية» تأليف سعد الله ونوس وإخراج محمد أبوالسعود وبطولة عايدة عبدالعزيز، على حسنين، سلوى محمد على، ومحمد عبدالعظيم، وهانى المتناوى.

عايدة عبدالعزيز فنانة من جيل الستينات المسرحى، جاوزت بقامتها الفنية العالية قامة الفنانة الرائعة سناء جميل والفذة سهير البابلى، وظلت على تميزها عبر كل تلك السنوات، من الأمس حتى الآن، لم يتحشرج صوتها، ولم يتكلس وجهها على تعبير واحد تجمدت عليه فى الأفراح والأحزان. ظل وجهها بقدرته على تقديم أدق الاختلاجات، وصوتها بفصاحته وسلامته تطوعه كما تشاء وتوظفه لما تريد ولما هو مطلوب. متملكة ناصية الحضور المسرحى الوهاج، متملكة ناصية الحضور التليفزيونى المستقطب لعين المشاهد، متملكة ناصية الحضور الإذاعى بالصوت والنطق والأداء. وصفتها بـ«المغبونة» لأنها لم تأخذ حقها الكامل فى التقدير المهرجانى الاحتفالى الاعلامى، بينما سبقها فى ذلك من هن دونها بكل المعايير النقدية «الموضوعية».



عايدة عبد العزيز تتألق فى أحد مشاهد «أحلام شقية» ومعها سلوى محمد على

أقول شهادتى هذه عن عايدة عبدالعزيز، رغم معركة عاصفة شنتها على فى نهاية الستينات عند مدخل مسرح الحكيم، وصلت شدتها بأن تطاولت فيها علىّ باللسان والحذاء غضبا فيما ظنته مقالا لى بمجلة المصور ، ولم يكن ممهوراً بالتوقيع ، يتهمها هى، وزوجها المخرج أحمد عبدالحليم ومدير المسرح المخرج جلال الشرقاوى، بما لم يرضها . ولم أكن كاتبة الكلام، بل أكثر من ذلك ، لم أكن على علم به محتوى ونشرا . ولحظة المعركة كنت مستاءة من رد فعلها الذى اعتبرته غير لائق بحركة مسرحية أنتمى إليها بالعلم والدراسة والاهتمام، وأذكر أننى زأرت على الملأ بمقولتى: « ما هذا؟ أهى عودة إلى مسرح العوالم والراقصات فى روض الفرج؟ انتهى عصر الناقد المأجور .. أنتم فى عصر صافى ناز كاظم!».

ومهما كان فى هذه الجملة من

ذاتية، فهي كانت تهدف إلى التأكيد على أن المسرح صار علما وله قواعده المحترمة . لكن هذه الجملة استفزت أحمد عباس صالح، وكان وقتها رئيس تحرير مجلة الكاتب، وحين قابلني قال مستهزئا: «... بقى احنا فى عصر صافى ناز كاظم؟» قلت له: « إذا لم يعجبك فأنت في عصر ضرب النقاد بالحذاء... إنما قصدت ما أرمز إليه من عصر الناقد الدارس لعلم المسرح...» ، فأكمل سخريته في استهجان: «علم المسرح؟ علم الركة؟ بلا كلام فارغ!» لم أحب منه هذا الموقف ، الذي لم يهتز لواقعة محاولة ضرب ناقدة في مسرح الدولة بالحذاء مع سبها بألفاظ خارجة، والذى هون فيه من شأن فن من الفنون «الراقية»، كان هو شخصيا يحاول الكتابة عنه، وكان كل ما استنفره غيرته من اعتدادي - في موقف دفاعي - بقيمتي العلمية!

خاصمت عايدة عبدالعزيز وتجنبتها على طوال سنوات عديدة، لكنني لم أنكر لحظة قيمتها الفنية، وكان يصعب على رؤيتي لها «مغبونة»، مقهورة، يأخذ من من دونها فرصا مسرحية كانت هي الأولى بها والأجدر . لكن الموهبة الأصيلة تفرض نفسها مهما كانت العوائق، فبرزت عايدة عبدالعزيز في مسلسل محمد صبحي الجميل «رحلة المليون» في دور زوجة الثرى جميل راتب، وبرزت في بطولة مسرحية أحمد شوقي «الست هدى» التي قدمها المسرح القومي منذ سنوات قليلة باخراج سمير العصفوري، وعادت تفرض سطوتها الفنية والمسرحية الخلاقة بينما خفت تماما وهج زميلات مرحلتها بعد أن انسحبت من حولهن الدعائم والداعمين، فاتجهن يبحثن عن بقع إعلامية تعطيهن مساحة للكذب والخيال والاختلاق .

* * *

حين فاجأتني عايدة عبدالعزيز بدعوتها لحضور حفل افتتاح مسرحية «أحلام شقية» ، قلت لها : سأحضر من أجل الاستمتاع بفنك فقط، فأنا لم أعد أطيق جلبة سعدالله ونوس وسفسطته .

«سعد الله ونوس» كان إنسانا مهذبا، دمثا، هادئا، ولكنه يكتب فنا فظا غليظا ثرثارا ثقيل الظل، ممتلئا بالحشو والزيادات والتكرار والاستطرادات والت الملل والعجن الزفر. والحقيقة أنني كنت أول من قدمه في الصحافة المصرية في مجلة المصور عام ١٩٦٩ من خلال نص مسرحيته: «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران»، وكنت قد قابلته في مهرجان مسرحي بدمشق في مطلع تلك السنة وأعطاني النص مكتوبا بخط يده، مكدسا ، مزدحما، مشوشا، زاعقا فأرجعت ذلك إلى داء المحاولات الأولى لشاب واعد قادم لتوه من دراسته المسرحية بفرنسا ولم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره . وساعتها كنت - ومازلت - أومن بأن النص لابد أن يتناوله مخرج واع يعرف كيف يقصقص كل الشوائب والتالف - « الشفت» - ويستخلص اللحم المشفى للمداول ويجسده بأقل كلمات ممكنة ، وقد فعلت ذلك في مقال عرضي لنص «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» حين مددت قلمي إلى قلبها لاستخرجه وحدة في البؤرة بعيدا عن هيشانها لأبرز مرارتها المكثفة التي تحتج على الضياع والتضييع لألم هزيمة ١٩٦٧ في الجلبة الاعلامية .

* * *

مرت السنوات وعلا نجم سعدالله ونوس بشكل مبالغ فيه ، يتجاوز لأسباب سياسية وعقائدية وأخوية ورفاقية الحكم الموضوعي الأمين ، وصار ، في ظن الكثيرين ، ندا لبريخت وبسكاتور وأحيانا - مع التواضع منهم - شكسبير وقد رشحه البعض لنيل جائزة نوبل - سيئة السمعة - استنادا لانجرافه الحاد في أعماله الأخيرة لتبني الدفاع عن قضايا الشذوذ الجنسي والعهر الاختياري ، الذي أسماه «الغواية» ، والتصوف الحلولي. إلا أن كل هذه الحلزونات الفكرية التي غطاها بدعوى : « رفض القهر، والكذب ، وأقنعة الزيف»، ظلت محتاجة في عروضها الناجحة إلى متكآت خارجية مساعدة تحذف مطولاته ، وتزين رتابته ، وتضيف لمسات من خفة الظل ، التي يفتقر إليها تماما ، حتى يمكن تمرير بؤرة عمله ، مثلما حدث في عرض المخرج مراد منير لمسرحية «الملك هو الملك» حيث قصَّ منها أمتارا طويلة وأوصل بها مقدمة شعرية كاريكاتيرية جانبية كتبها الشاعر أحمد فؤاد نجم، وكذلك حين لعبت نضال الأشقر بكل فنيات المسرح الخلابة التي تجيدها لترويج مسرحيته «طقوس الإشارات والتحولات» ، التي أسميتها «لغو المسرح أو مسرح اللغو» في مقالي عنها بهلال يوليو ١٩٩٧ .

ولقد حاول المخرج «محمد أبوالسعود» أن يضيف إلى نص مسرحية «أحلام شقية» من دون أن يمارس - فيما يبدو - «إبداع» القص والحذف والاختصار من الـ «كدش» الونوسي ، فتراكم المكرر والمسهب والممل بل والمقزز من العبارات والألفاظ والتصورات ، ولولا أن بعض تلك التصريحات المثيرة للغثيان ، التي جاءت على لسان شخصية «ماري»، قد دارت بذكاء ، مع إيماءات الاستنكار ، هربت به عايدة عبالعزيز ، بفنها الاستثنائي ، ثقلها الغليظ «الفواح»، لما استطعنا أن نصمد من دون الاستجابة لرغبة التقيؤ! ولا أظن أن الأستاذ المخرج محمد أبوالسعود كان يحاول أن يطبق بعض فنيات «مسرح القسوة الذي دعا إليه أنتونين أرتود في مطلع القرن الماضي، بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ ، وحتى لو كان قد تعمد ذلك فلا أراه قد أصاب أي هدف يرجحه «الفن» .

* * *

لقد كانت بؤرة «أحلام شقية» هي الموازاة بين مرض «السيلان» - الذي ينشأ من الاختلاط والتردد على بيوت العهر ويورث العقم ويعد من الأمراض السرية التي تتفشى مع التكتم والإخفاء - ومرض «القهر» - الذي ينشأ من النظم الدكتاتورية التي يتفشى فيها التجسس على المواطنين وتورث العقم النفسي والروحي والفكري . وتمثل المرضين ، أو الحالتين ، أسرة « ماري/ فارس» و«غادة / كاظم» ، ويحوم حولهما «الحلم / الشاعر » ، الذي يكون بمثابة الابن المنشود المحقق للأمومة التي تتوق إليها السيدة ماري المصابة بالعقم بسبب الوباء الذي جلبه إليها زوجها ، ويكون «الإنطلاق الرومانسي نحو تحقيق الإرادة» الذي تتوق . إليه السيدة الشابة «غادة» زوجة ضابط

البوليس الفظ الفاسد المتغطرس «كاظم» ، والذى ينتهى بالاغتيال غدرا بليل !

هذه البؤرة نشدها بعد جهد جهيد من ركام الثرثرة – التى بدت كأن لانهاية لها – تسردها «مارى» وتسردها «غادة» فى مونولوجات خفف كثيرا من وقعها الملل أنها كانت محمولة على أكتاف فنانتين ، الأولى : «عايدة عبدالعزيز» بعراقتها وجدارتها المسرحية الفائقة ، والثانية: « سلوى محمد على» ، الشابة التى بلغت نضجا مفرحا ، لم أتنبأ لها به فى مطلعها المسرحى منذ سنوات حين قسوت عليها ورجوتها أن تبتعد عن سبيل المسرح ، لكن ها هى ، للمرة الثانية ، بعد نجاحها البالغ فى عرض أحمد عبدالحليم لمسرحية شكسبير «الملك لير» تكذب ظنونى وتؤكد أصالتها المسرحية برهافة وتواضع وهى تعبر عن قهر ومذلة «غادة» الأسيرة كالعصفور فى قبضة البطش «الزوجى/ البوليسى» . إن «سلوى محمد على» أعطتنى ومضات تشابه بينها وبين «سعاد حسنى» فى مرحلتها الفنية الناضجة ، مرحلة « الكرنك» و«شفيقة ومتولى» و«حب فى الزنزانة» . بل إننى أرشحها لتؤدى دور الأديبة «الآنسة مى» ، لو تحقق الأمل فى إخراج مسلسل أمين عن حياة الرائدة العظيمة وصعوبات حياتها.

أقدم لكم الشاعر

محمد أبوزيد

إلى الذين يتصورون أن الشعر قد انتهى، لأنه لم يعد كما يحبون، لأنه لا يعيد زمانهم، وصار يتكلم بلسان أحفادهم، أقدم ، بحماس فرح، هذا الشاعر الذى بلغ فى ٥/٤ الماضى الثالثة والعشرين وتخرج هذا العام فى كلية تجارة الأزهر، بعد أن عبر مشوار دراسته كله بين مدارس الأزهر فأتقن اللغة، وعبر مشوار يتم الوالدة منذ الفطام فأرهف الإحساس بالوجع، وجعه والآخرين. أقدم محمد أبوزيد «الطهطاوى»، الذى يجرب مع «القاهرة» محاولة الانتناس، التى تبدو للغريب ، مستحيلة. قرأت له ديوانه الأول «ثقب فى الهواء بطول قامتى» الذى يطارده فيه، رغم شبابه الغض، هاجس «الموت» وهو جاد فى مصاحبته ومرافقته ومطاعمته وارتشاف القهوة معه بسائله، فى قصيدة من قصائده، «هل فنجان يتيم من القهوة السادة يكفى لرتق كل الهموم؟». أدهشتنى، وأعجبتنى لغته عن «الموت»، التى تبدو أنها لغته الأم ومفردات حياته اليومية ، فهو يمضغ كلمة «الموت» بلذة من وجد فى ذلك حريته. إنه يتأفف لكنه لا يعير ملامح الحقد على المتخمين بالثراء والدفء أى اهتمام، بل كأنه فخور لأنه غير متخم وغير متدثر، فهو زاهد فى الترف، ولا يكترث كثيرا بفروق الطبقات ، يحب أن يسير فى البرد بقميص خفيف على البدن، لعله درب نفسه على هذا الحب، وسعيد

لأنه حين أتى القاهرة سكن في الغورية، في مبنى كان يسكنه الشيخ خطاب السبكي، وصار مأوى للشباب المصرى المغترب في القاهرة.

هذا الفتى الشاعر جعلني ، وأنا أقرأه في ديوانه لأول مرة أقول . ما أغرب الشعر الذي بإمكانه أن يصنع - حتى من «الموت» - جمالاً يغسل القلب بالعزاء !

بهاجس «الموت» ، سرى عني وهو يقول . «دائما دائما، تسألني إشارات المرور، وصحف المعارضة، وكلية التجارة. كيف حالك؟، أرد ميتا : لم أمت بعد....»، وهو يقول : «أتحسس حافظة نقودي عند مروري، أمام البنك المركزي، دائما دائما،... .... ياااااه ، كل هذا الملل؟» ، وهو يقول في «حزن يلائم النعناع» «هل كان يجب أن أرحل، حتى أدمن الحبوب المنومة، والموت، وأم كلثوم المذابة في الشاي، حتى أساوم الأرض عن جاذبيتها، لأطير هكذا، بلا جناحين، في الضباب الملائم لموته رومانسية...؟»، وهو يقول في «نصف تاريخ أزرق»: «نهاية أخرى غير هذه النهاية، أريد أن أبدأ بها قصيدتي . لكنهم ذهبوا، كعادتهم في الصباح، تركوا ملاءات السرير مبعثرة، فناجين القهوة نصف ممتلئة، البيض على النار قبل أن يسلق، الخبز دون أن يمس، نسوا مفتاح المنزل متعمدين، وقالوا إنهم عائدون، أنا - الأحمق - صدقتهم، فلم أعبئ الهواء بأطيافهم، لم أعلق أصواتهم على الجدار، لم أشد على أرواحهم بحرارة، وأبكي، فقط أهرول حتى الباب مندهشا، بجلباب أبيض فضفاض... أفلت من عيون أصدقائي لأكتب نصف قصيدة، وأظل هكذا إلى الأبد، بنصف يد، أختبئ من البيوت التي بلا سقف، والأزواج الغائبين، وعربات الإسعاف، وقصر بطول ثلاث محطات مترو، رحلوا في الصباح، كان الموت يمر بكرش حكومي يترجرج أمامه كخضاضة، وعينين حمراوين ، عصا سحرية، خبط بها على المناجر وصاح، جلا.. جلا، فطار قلبي، رحلوا في صباحهم في مسائي، لأنتظرهم - بعد انتهاء القصيدة - أمام روحي، بأردية خضراء زاهية».

س.ك

قبور

شعر: محمد أبو زيد

(١)

أيتها المدينة الخائفة منى
أنا خائف منك
من عيونك التي بلا نوافذ
من عروق يدك
التى ترتجف حين تصافحنى
من أظفارك المطلية بدمى
لذا..
سوف أغزو الهواء
لكى أصل إلى عينيك وحيداً
وأنا أحسب المسافة

بين قامتى والشرفة

(٢)

الشمس
لماذا لم تعد تمشط للحجرة حزنها؟
وآية الكرسى المعلقة على الحائط
لماذا لملمت ملابسها
ورحلت دون أن تخبرنى ؟
والأطياف التى امتلأت بالجماجم
لماذا تلهمنى بالجوع
بسقف يئن
بقبر يملك نافذة جميلة
وأشجاراً ملونة تبتسم دوماً

(٣)

وحيد أنا بما فيه الكفاية
كدودة قز فى فم ثعبان
أتذكر أحيانا
أننى يجب أن أنسى
وأن أصادق عيون المصابيح المفقودة
والجراد الذى يتجشأ الأرصفة
والشوارع التى تمط شفتيها
ثم تطلب كأساً
من الخمرة المعتقة

(٤)

أحياناً
أنفخ فى زجاج المترو
حتى يجىء البخار
فأكتب اسمى واسم قرينتى
بحروف منمنمة صغيرة
ترتجف من الصقيع
أحياناً
أربت على أكتاف المراكب
التى تعبر النيل راحلة للجنوب
وأنا أغمس عينى
فى أكواب البكاء

(٥)

معذب أنا
تائه أنا

صعلوك بنفس القدر تقريباً
كغبار قديم
كعش بين كفى حريق طازج
أسير كنافذة مغلقة العيون
وأبكى كصباح فاجأه الرعد
وأرحل كقصيدة تافهة
كربيع لا يرتدى فساتينه الزاهية
تآمرت علىّ النجوم
والسيارات مسدلة الستائر
والبابيونات السوداء
ومصاعد البنايات العالية

(٦)

لم أعد أصادق مقاعد المقهى
المغلق
ولا كتبى ذابلة الخدين
ولا دبابيس شعر الفتاة
التى تجلس أمامى فى الحافلة
خاصمت جميع الأشجار محدبة الوجه
وعيون الشوارع المغرورقة
بالنسوة

(٧)

فقط
أريد أن أشترى
بعض الكذب لفمى
وبعض التثاؤب
كى أستطيع أن أرقد
على أرصفة
لا تشتهى العصافير

(٨)

فقط
أحلم بمن يخبرنى
عن المسافة بين الحزن وعينىّ
عن بكاء السحابات الجنوبية
عن أحلامى مجعدة البسمة
عن أبكم
أكثر حماقة منى
أكثر غربة منى



سينما

مهرجان
محاصر بالرقابة وداء النسيان

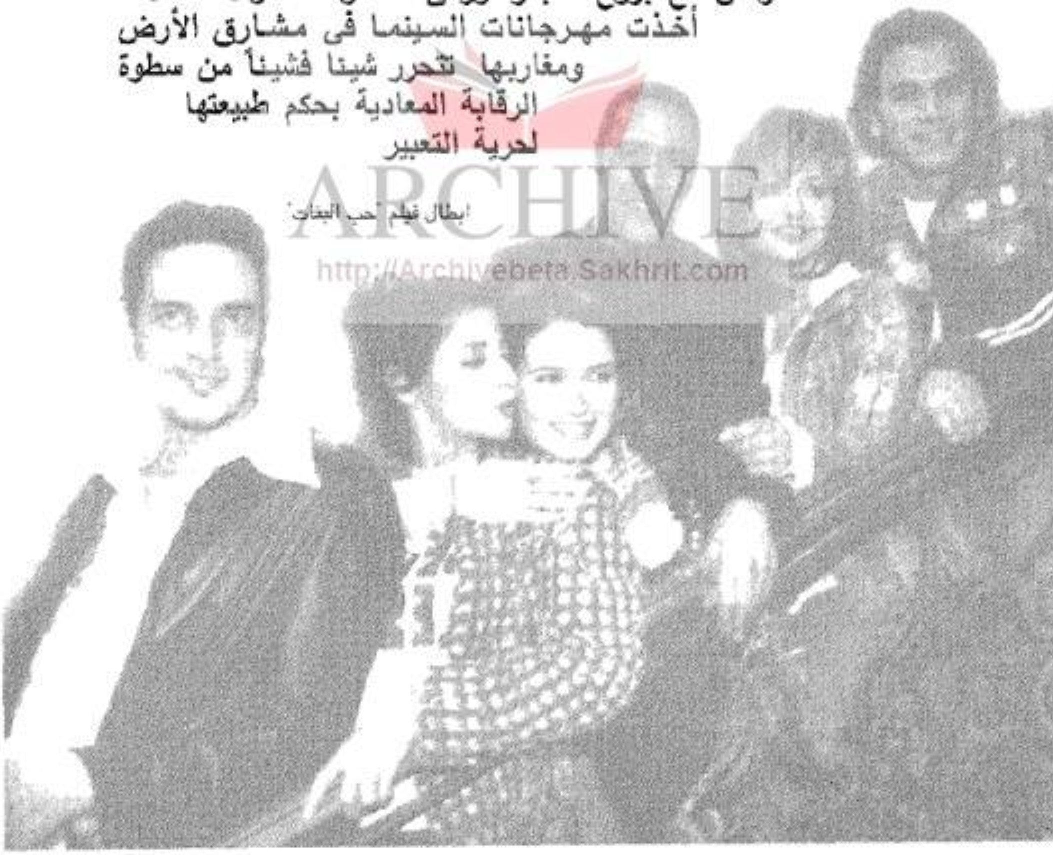
بقلم
مصطفى درويش

آفة مهرجانات السينما عندنا، هى الرقابة بسطوتها المتحكمة فى مصير عروض الأفلام.

وإلى عهد قريب كانت جميع المهرجانات تعانى من تلك الآفة التى ابتلى بها فن السينما، بعد مولده بقليل، وبالتحديد فى العام السابع من القرن العشرين.. وأين؟

فى نيويورك وشيكاغو، أكبر مدينتين وقتذاك فى العالم الجديد.

ولكن مع بزوغ فجر ثورتى المعلومات والاتصالات أخذت مهرجانات السينما فى مشارق الأرض ومغاربها تتحرر شيئا فشيئاً من سطوة الرقابة المعادية بحكم طبيعتها لحرية التعبير



ابطال فيلم "حب البنات"



فيدريكو فيلليني

بداية النهاية

وعندى أن بشائر التحرر بدأت مبكرة بعض الشيء، مع اعتراض الرقابة في فرنسا، تحت تأثير الكنيسة الكاثوليكية، بنفوذها الواسع، على عرض فيلم «الراهبة» (١٩٦٦)، لصاحبه «جاك ريفيت» أحد رواد الموجة الجديدة الفرنسية، وهو فيلم مأخوذ عن قصة بنفس الأسم للأديب والفيلسوف الفرنسي «دنيس ديدرو» (١٧١٣ – ١٧٨٤)، ألفها قبل الثورة الفرنسية، وإن كانت لم تنشر إلا بعد نشوبها بسبعة أعوام.

ولقد أثار اعتراض الرقابة غضب نقاد السينما، ومعهم قطاع كبير من الرأى العام.

ولأنه كان غضبا منظما أحسن تنظيم، فقد انتهى بالراهبة معروضا، كاملا، غير منقوص، ضمن الأفلام المختارة لمهرجان «كان» هذا، ولم تمض سوى بضعة شهور على تحدى الرقابة على النحو سالف البيان، إلا وكانت جميع الأفلام الأخرى قد تحررت عروضها العامة من نير الرقباء.

وبفضل معركة الراهبة التى انتهت باندحار الرقابة لصالح تحرر فن السينما فى فرنسا، امتد مد التحرر من الأغلال إلى شواطىء الولايات المتحدة، وغيرها من الشطآن.

ربيع السينما

والآن ليس للرقابة الحق فى ان

لقطة من "الحياة اللذيذة" أحد افلام فيلليني

تتدخل بنعم أو لا فيما يجرى عرضه للكبار من الأفلام فى البلاد التى تحررت فنونها من النير الرقابى.

ومن باب أولى ، ليس لها هذا الحق فيما يجرى اختياره من أفلام للمهرجانات العريقة، مثل ڤينيسيا، كان ، لندن وبرلين

فالقول الفصل فى ذلك الاختيار أصبح مقصوراً على أعضاء اللجان المكلفة به ، من قبل رئاسة المهرجان.

ولا غرابة فى هذا ، ففن السينما ، وبعد فترة ظلامية طويلة، يعيش أزهى أيامه، فى ظلال ربيع حرية، الأمل كل الأمل ان يكون ربيعا دائما.

وعلى كل ، ففى رحاب ذلك الربيع، ولد مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، قبل سبعة وعشرين عاماً.

ولم يكن مولده أمراً سهلاً، ولم تكن مسيرته بدون عثرات .

آمال محبطة

فكما هو معروف ، كان الهدف الظاهر من اقامته هو النهوض بالسينما المصرية، من خلال الدعاية لها، أثناء أيام المهرجان، واتاحة فرص اللقاءات والحوارات بين مبدعى الأفلام الأجنبية المعروضة وبين صانعى الأفلام عندنا.

فضلاً عن فتح النوافذ ، للإطلال منها على جميع تيارات السينما العالمية دون استثناء، وعلى نحو يتيح لعشاق السينما، ان ينهلوا من ينابيع الثقافة المرئية حتى الارتواء.

ولسوء الحظ لم يكتب لكلا الأمرين ان يتحقق حتى يوم الناس هذا.

فالسينما تعثرت خطاها، ولم تتقدم خطوة إلى الأمام، وإذا تقدمتها تراجعت خطوات.

والنوافذ لم تفتح إلا باستحياء، ولتغلق سريعا فى وجه المولعين بفن السينما .

الهوى والغرض

ولعل خير مثل على تعثر الخطى، ما حدث فى مهرجانى السينما الأخيرين، بالاسكندرية وبالقاهرة، فالأول انتهت فعالياته دون عرض أى فيلم مصرى، داخل المسابقة وخارجها ، وهو أمر غير مسبوق فى تاريخه غير القصير.

والثانى كادت تنتهى فعالياته هو الآخر دون العثور على فيلم تشارك به السينما المصرية فى مسابقاته ، لولا أن جاءه الغيث قبل الافتتاح ببضع ساعات فى صورة فيلم تعرض لحملة وحشية، لم تكن تخطر ببال احد، من قبل نفر متشنج، دفعه الهوى الجامح إلى تنصيب نفسه وصيا علينا، ورقيبا يسلبنا الحق فى حرية التعبير، والاستمتاع بابداع صانعى الأطياف ذلك الفيلم هو «حب البنات» لصاحبه «خالد الحجر» والبنات اللاتى تدور حولهن أحداث فيلمه وجودا وعدما أخوات من أب واحد، وأمهات ثلاث مختلفات ، أى غير شقيقات وهن حسب ترتيب ظهورهن على الشاشة «ندى» (ليلى علوى) «غادة» (حنان ترك) ورقية (هنا شيحا).

وصية ماكرة

ولم يجمعهن تحت سقف واحد سوى وصية أبيهن الواسع الثراء، التى جاءت

مشترطة عليهن، حتى يحصلن على نصيبهن فى الميراث، ان يعشن معا داخل شقة واحدة، مدة لا تقل عن عام.

فإذا لم يتوفر هذا الشرط لأمر ما، انفردت الاخت الكبرى بالحصول على كل ما أودعه أبوها باسمها فى أحد المصارف، وهو مبلغ طائل يعد بالملايين.

ونظراً إلى اختلاف الطباع، ونشأة كل واحدة عن نشأة مختلفة عن الأخرى.

تعرضت حياتهن معا فى البداية لأزمات وصراعات سرعان ما تغلبن عليها بفضل.

أولا: نصائح جار الأخت الكبرى الجديد، طبيب الأمراض النفسية الدكتور «مهيب»، ويؤدى دوره (أشرف عبدالباقى)، على نحو أظهر تفوقاً وامتيازاً، نادراً ما توفرا لآدائه فى أفلام لمخرجين آخرين.

قوة الحب

ثانيا: حب ما كاد يبلغ قلوب الأخوات الثلاث، حتى استقر فيها، واستأثر بها، وملك عليها كل شيء.

وقصة هذا الحب، كيف بدأ ويفضل ما اثاره فى قلوبهن من عواطف وأهواء، تركت فيها جذوة لا سبيل إلى اطفائها، كيف انتهى بهن، والسعادة ترفرف عليهن فى ختام راقص، إنما يذكرنا «بسهر الليالى» وخاتمته المشابهة إلى حد كبير.

ولا عجب ان يكون ثمة اوجه شبه بين «سهر الليالى» و«حب البنات».

فقصة وسيناريو وحوار كليهما بقلم المؤلف السينمائى «تامر حبيب»، ذلك المبدع الموهوب، الذى يعلق عليه كل من يهمه أمر السينما المصرية، آمالاً عراضا.

فخيوط السيناريو رغم كثرة الشخوص، قد نسجتها موهبة «تامر» باقتدار..

وإذا بحثنا فى السيناريو عن مواقف مفتعلة، ومتعارضة مع المنطق أعيانا البحث.

وإذا واصلنا البحث عسانا نعثر على مصادفات لافتة للتخلص من مأزق فى معمار السيناريو، لم نعثر على شيء.

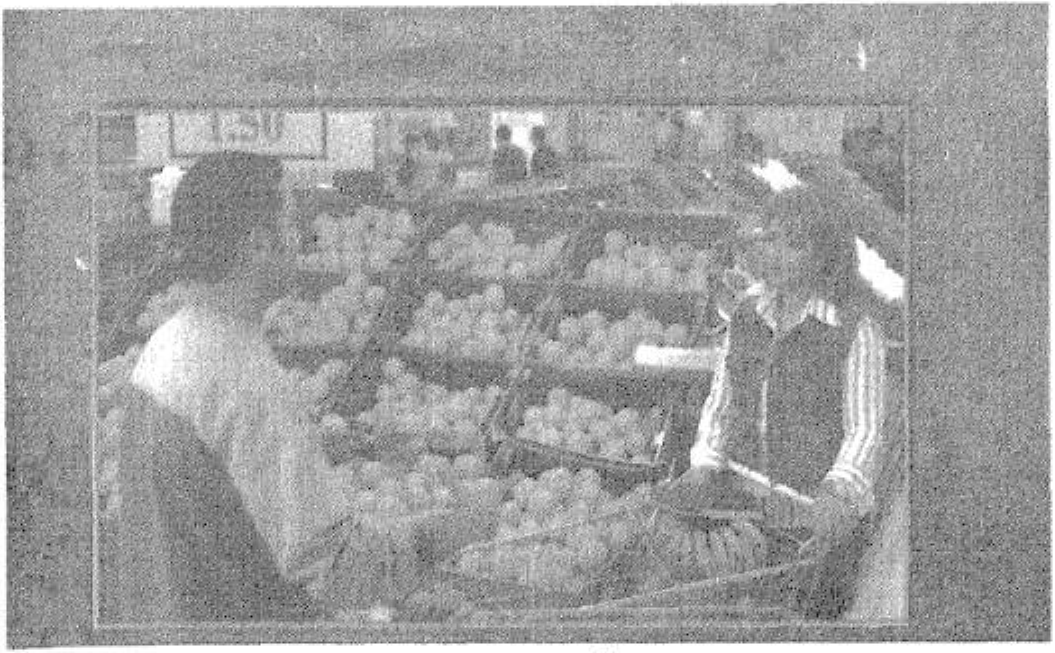
فسيناريو «حب البنات»، متماسك، يطرد مع أحداثه اطراداً منطقيا، سلسا، وتترابط وقائعه ترابطا محكما.

وليس فيه شخوص جرى اقحامها دون مسوغ فنى على الأحداث وصفوة ما يقال عن «حب البنات» أنه فيلم يشد المشاهد، ويستهويه، لقدرة المخرج، فضلا عن كاتب السيناريو على إضافة عنصر التشويق.

ولامتلاكه، أى المخرج أولا قدرة التحكم فى الايقاع، يوظفه فى خدمة الحوار والسرد أجمل توظيف وابلغه دون أي ترهل وثانيا قدرة تحريك الممثلات والممثلين على نحو أتاح لهم الارتفاع بمستوى أدائهم إلى اقصى ما فى وسعهم دون افتعال.

ولعل خير دليل على امتلاكه ناصية التحريك هذه، تلك البراعة التى ادى بها جميع الممثلات والممثلين، كبيرهم وصغيرهم أدوارهم فى «حب البنات».

وأخص بالذكر «خالد أبو النجا» و«أحمد عز» فكلاهما لم تصدر منه



ليلى علوى و أشرف عبد الباقي في لقطة من « حب البنات»

حركة أو نبرة فيها غلط أو نشاز وكلاهما ينتظره غد مغرد فى عالم صناعة الأطياف فيما لو قاوم اغراء الصعود السريع، وفيما لو أحسن الاختيار ، وتجنب التكرار

هذا عن تعثر خطى السينما المصرية باختصار

النوافذ المغلقة

أما عن النوافذ التى كنا نأمل أن تفتح، حتى نطل منها على ابداعات السينما العالمية .

فالثابت أنها، على العكس من ذلك، تزداد انغلاقا على مر السنين.

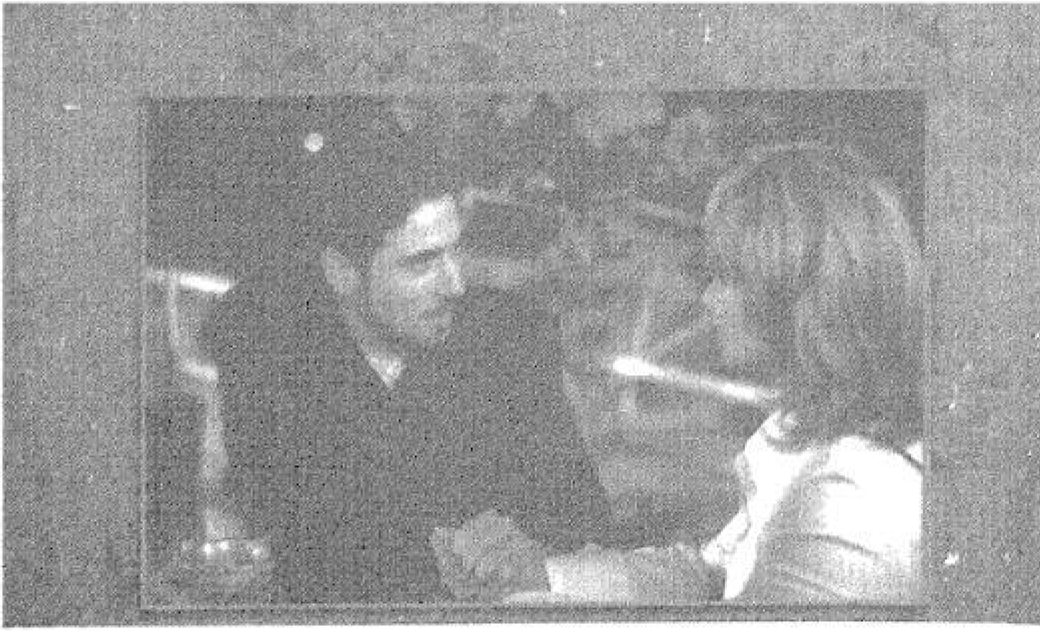
واضرب مثلا على ذلك بنسيان ذكرى رحيل المخرج فيديريكو فيلليني» أحد أهم رموز السينما الايطالية والفائز باربع جوائز أوسكار، وهو رقم قياسي لم يفز به أى مخرج من غير ابناء العم سام.

فمن المعروف عن «فيلليني» أنه انسحب من الحياة، فى مثل هذه الأيام، وبالتحديد فى اليوم الأخير من أكتوبر ، وذلك قبل عشرة أعوام .

ضياع الفرص

وبمناسبة الذكرى العاشرة هذه، احتفل مهرجان «كان» الأخير بالمخرج الكبير، وذلك بعرض جميع أفلامه، بدءا من أضواء المتنوعات (١٩٥٠) ذلك الفيلم الذى شاركه فى أخراجه «البرتو لاتوادا».

وانتهاء «بصوت القمر» (١٩٧٠)، الذى قام باخراجه قبل أن يجيئه الموت بثلاثة أعوام، وادى الدور الرئيسى فيه الممثل الايطالي روبرتو بينيني، الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن ادائه فى « الحياة جميلة» (١٩٩٩) ولأن مهرجان القاهرة السينمائى كان قد حدد



... ومع أحمد عز فى لقطة اخري

لبدء فاعليات دورته الأخير أياما من أكتوبر، ذلك الشهر الذى انسحب فى آخر ايامه من الحياة، فقد توقعت أن يحذو المشرفون عليه حذو المشرفين على مهرجان «كان»، فيعملون جاهدين على أن تكون ذكرى مرور عشرة أعوام فرصة لعرض جميع افلامه، على امتداد اربعين عاما، أسوة بمهرجان «كان»، خاصة، إن اغلبهم كان، بحكم مركزه، ضيفا على المهرجان .

ولابد أنه سمع بالذكرى العاشرة، واحتفاء المهرجان بها، وأغلب الظن أنه قرأ خبر عرض فيلم تسجيلى أو أكثر عن المخرج الراحل، فضلا عن خبر عرض جميع أفلامه ليلا على شاشات كبيرة، جرى تشييدها، خصيصا لهذه المناسبة، فى بعض ميادين وشواطئ مدينة «كان» .

وعلاوة على ذلك ، فنفر منهم مشرف على لقاء الثقافات بين مصروأيطاليا (٢٠٠٣-٢٠٠٤)

ومن أهداف هذا اللقاء، التعريف، ولا ريب، بالسينما الايطالية .

داء حارتنا

وبحكم اشراف هذا النفر الم يكن فى وسعه مطالبة الجانب الأيطالى بأفلام فيللينى بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيله، لعرضها فى المهرجان ؟!

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث

وربما التفسير الوحيد، مع حسن الظن، لإضاعة هذه الفرصة النادرة، هو داء حارتنا، داء النسيان !! ■

المتفرجة

بقلم : مرفت رجب

الصفعة

بدا المشهد أمام أعيننا حافلاً بالبهجة.. والست الأمريكية تميل على رجل الأعمال المصرى تكاد تدخل فى «عبه»، وبعينيها السوداوين الواسعتين تكاد تأكله، وهى تواصل رمى خصلات شعرها المنسدل إلى ماوراء كتفيها، وأما الرجل الأمريكى الجالس على يمينها، فرغم امتلائه، فلم يكن لحضوره أو لكلامه أى وزن.

الهلال
رمضان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

كانت صالة الطعام فى أفخر فنادق القاهرة قد استعدت للمأدبة التى دعى إليها الصحفيون المشاركون فى الاجتماع، وهم الذين أخذوا أماكنهم حول الموائد المستديرة، واستغرقوا فى فحص الملفات الموزعة عليهم، ليتعرفوا على البرنامج التليفزيونى موضوع الاحتفال، والذى تفيد معلومات الملف أنه برنامج جديد تبدأه كبرى شبكات التليفزيون الأمريكية، برعاية وتمويل إحدى أكبر الشركات التى يرأسها رجل الأعمال، وهو ما يبرر جلوسه جوار الست المديرة الأمريكية.

وما إن بدأت الحلوة كلامها حتى تبين أنها، على عادة مثل هذه المناسبات، تكرر ما ورد بالملف، من أن البرنامج الجديد -Inside The mid

dle East من داخل الشرق الأوسط، سيكون شيئاً مختلفا، يعطي صورة مغايرة للصورة التقليدية المعروضة فى الإعلام الأمريكى عن الشرق الأوسط وأهله، وأتبعت ذلك بتقديم مقدمي البرنامج ومراسليه العديدين فى المنطقة، ثم دعت الحاضرين لشاهدة مقتطفات من أولى حلقات البرنامج..

وجاء فى تلك الفقرات واحدة من جزيرة سوقطره اليمنية وسحرها الأخاذ، وأخرى عن المقامرة فى إسرائيل، والمشاكل التى تواجهها أندية القمار التى تعمل بدون رخصة، والجدل الذى يثيره وضعها، والميزات التى ستعود على كل من له صلة بالقمار فى إسرائيل، إن تم السماح بإعطاء رخص الممارسة للراغبين فى ذلك.. وما إن انتهى عرض الشريط حتى وجهت الحلوة دعوتها إلى الحاضرين لطرح أسئلتهم وإذا بالصفعة تنزل زوووو.

صحفية مصرية نابهة

وليس شرطاً أن تكون الصفعة كفاً ينزل على وجه أو قفا، فقد استطاعت الصحفية المصرية «النابهة» «ماجدة موريس» أن توجه الصفعة الواجبة، فنحن وإن لم نسمع أى «زوووو» إلا أننا رأينا أثر الصفعة امتقاعاً فى وجه الست الأمريكية، تلك التى انسحبت الدماء من وجهها، وتركت الصفار يزحف على راحته، أما هى فقد غادرتها الراحة مع أول كلمة نطقت بها ماجدة موريس، ولا أظنها عادت إليها من بعد.. واقع الأمر أن لحظة الصمت التى تلت الدعوة لطرح الأسئلة، لم تكن أبدا تنبئ بما تلاها، وهو ما كان من صوت ماجدة موريس، وقد خرج هادئاً، واضحا، قاطع النبر والمعنى بلا أى لبس. (حضت) ماجدة موريس دعوى الست الأمريكية بأنها سعيدة بعقد المؤتمر الصحفى فى القاهرة، لينطلق البرنامج الجديد من القاهرة، وذلك لأهمية القاهرة، وناس القاهرة، وأهمية مصر طبعاً لاتخفى على أحد.. كان سؤال ماجدة موريس بسيطا.. أين القاهرة فى البرنامج .. يا سيدتى لقد أطلت الكلام عن أهمية مصر، ولكننى أراها غائبة تماما عن البرنامج، ذلك الذى خلا من أى فقرة عن مصر.. أو حتى من وجود أى مراسل لكم فى مصر.. كنا نتوقع منكم اهتماما مثلا بمؤتمر الحزب الوطنى والتطورات السياسية فى مصر.. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وفى المقابل، تحدثوننا عن القمار فى إسرائيل، وهل القمار هو أهم ما يحدث فى إسرائيل، غريب جداً أن تهتموا بالقمار وتغفلوا أى ذكر للعنف الدموى فى الأراضى المحتلة..

وهكذا ضبطت الصحفية المصرية النابهة إيقاع المؤتمر الصحفى شكلاً وموضوعاً.. فقد توالت بعد ذلك أسئلة

زملائها الصحفيين، وقد أخذوا منها الخيط، فمن سائلة عن الجمهور الذى سيوجه له البرنامج، وكيف لا يوجَّه إلى جمهور الولايات المتحدة نفسه إن كانت النيّة حقاً هى تقديم صورة غير نمطية عن الشرق الأوسط - ومن رجاء بعدم عرض الشحاذين أو سيدات الصالونات، إلى رجاء آخر مشابه بتجنب كل ما هو نمطى فنحن شعوب لها حياة حافلة بأفكار وأنشطة لا تقتصر على المزارات السياحية، ومن سؤال عن كيفية طرح الأفكار الجديدة والزوايا المخالفة المزعوم تناولها فى البرنامج إن كانت العينة من النوع الذى عرضته الست المديرة الأمريكية إلى أن وصلنا إلى جوهرة التاج..

جوهرة التاج

والمفترض فى التيجان - أنها على مر العصور - حين توضع على الرأس تزينه، مرسلةً على وجه لابسها من ألوان كريم أحجارها ولآلئها، ظلالاً توحى بالأبهة والرفعة، لكن يبدو أن من التيجان المعاصرة ما يلعب أدواراً معاكسة.. فقد كانت جوهرة التاج فى ذلك المؤتمر الصحفى هى ذلك السؤال الذى طرحه من قام موجهاً كلامه لرجل الأعمال المصرى وهو الذى تتحمل كبرى شركاته أعباء «رعاية» البرنامج المحتفى به. فقد بدأ الشاب كلامه بالإشادة بالنجاح الذى يحققه رجل الأعمال، وبالسمعة الطيبة التى يتمتع بها كما تتمتع بها أنشطة أعماله، أما سؤال السائل فقد كان .. نحن مندهشون كيف تضحى بسمعتك الطيبة تلك وكيف معها تضحى بحب الناس لك وتقبل أن تنفق من مالك على نشاط أمريكى فى ظل تردى سمعة الأمريكان بعد مواقفهم وأفعالهم الشائنة فى منطقة الشرق الأوسط، وأترك لخيال القارئ العزيز رسم صورة الست الأمريكية.

وأرجو أن تتخيلوها بالألوان.. أما صاحبنا رجل الأعمال الجالس إلى جوارها، فقد هب فوراً للنجدة رغم ظل من صفار بدأ يزحف على وجهه الوردى، وتحدث فى هدوء مدهش إذ قرر أن رعاية البرامج هى من الأنشطة التجارية البحتة، ولا دخل لها بالمحتوى، ومن شطارته أنه ضرب مثلاً ببرنامج «رئيس تحرير» الذى كانت كبرى شركاته تتفضل برعايته، وأكد أنه لم يكن أبداً مسئولا ولا مشغولا بمضمون «رئيس التحرير»، ومن فرط الشطارة أنه أتبع ذلك بقوله: «أما بالنسبة لمسألة الخوف فأنا ماباخفش من حاجة أبداً.. حتى فى الأسرة، دايما يقولون أنت بتحط نفسك فى مشاكل.. وأنا ماباخفش».

هل ظن سيادته أننا سننبهر؟! إن كنت يافتانا الشجاع قد ظننت فينا ما ظننت فهل يمكن أن تتفضل علينا بإجابة

السؤال التالي، لماذا لا تتكرم إحدى شركاتكم الرابحة بالإعلان عن منتجاتها وأنشطتها في صحف المعارضة؟ أم أن المصريين الذى يكتبون ويقرأون صحف المعارضة مستبعدون من الاهتمامات التجارية لحضرتكم؟! لا أظن أن الدراسات المدققة في تحليل سلوك مستهلكي التليفون المحمول أثبتت أن منتجي وقراء صحف المعارضة لا يتعاملون مع المحمول؟

أم أن سيادتك تفضل أن تنفق من أرباح المحمول التجارية التي تكسبها على البرامج التليفزيونية التي ينتجها أصدقاؤك الأمريكيون كما فعلت بتمويلك ورعايتك لبرنامجهم الجديد «من داخل الشرق الأوسط» والذى أتيت خصيصا لتحتفى بإطلاقه من القاهرة؟! وعلى كل حال فإن كانت مجموعة الصحفيين المصريين التي حضرت ذلك المؤتمر الصحفى قد التزمت بالأدب المهنى وكتمت غضبها منك أو فلنقل غلفته بالأسئلة التي قلبت بهجة زميلتك الأمريكية لدرجة أنها من فرط ربكتها اضطرت في محاولة منها لتهدئة الجو أن تؤكد للحضور أنها ستأتى إلى القاهرة بعد ستة شهور لتقييم البرنامج مع الصحفيين المصريين، نقول ونؤكد لك إن لم تكن قد تأكدت بعد، أن هؤلاء الصحفيين المصريين - مع غيرهم من أبناء الوطن النابهين - غاضبون منك لأنك عن وعى أو دون وعى تنفق على الإعلام الأمريكى المشوه لصورتنا من أموالنا.. هكذا عيانا بيانا - وفى عز الظهر.

لسنا وحدنا

لسنا وحدنا الصارخين تحذيراً من مخاطر الإعلام الملوث على مصائر الناس أجمعين، فكبار الكتاب معنا يصرخون، تاتينا كتاباتهم من أنحاء الأرض ولعلى هنا أكتفى بواحد هو من ألمع المحللين السياسيين في فرنسا . إنه كاتب المقال الإفتتاحي للصحيفة الفرنسية الشهرية لوموند الديبلوماسي Le Monde diplomatique ، إنه الكاتب «إجناسيو رامونيه» الذى صدر مقاله الافتتاحى في عدد شهر أكتوبر من الصحيفة بعنوان «السلطة الخامسة» وفى مقاله يحلل مظاهر سقوط الصحافة المعاصرة - كسلطة رابعة - مهمتها في الأساس أن تسعى وراء الحقائق تبسطها وتحللها تمكينا للقراء من قدرة أفضل على الاختيار والحكم على الأمور. وهو لا يقصر كلامه على الصحافة المكتوبة، وإنما الصحافة المذاعة بالصوت والصورة هي في لب الاتهام، ذلك أن التطورات التقنية مكنت الشاشة من قدرة على استخدام كافة أشكال الإنتاج الثقافى من كلام مكتوب أو صور أو أفلام أو أو أو وهو نوع من الاستخدام مستمر في الابتعاد عن الموضوعية بالدرجة التي صار معها المنتج الإعلامى منتجاً ملوثا وبالتالى أصبح ما ينطبق على الأطعمة المهندسة ينطبق على المنتج الإعلامى، وكما تتسمم البطون من تلك الأطعمة،



تتسمم العقول والأرواح بفعل المنتج الإعلامي الملوث.. ويستشهد الكاتب الفرنسي بما أسماه بالحرب الإعلامية القذرة ضد الرئيس الفنزويلي هوجوشافيز ويرى أنها تماثل بالتمام تلك الحرب التي شنتها صحيفة إل ميركوريو El Mercurio في شيلي بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٣ موجهة حرابها السامة ضد الحكومة الديمقراطية للرئيس سالفادور إليندى إلى أن دفعت العسكر للقيام بانقلابهم الذى أوصل قائدهم بينوشيه إلى سدة الحكم . وينبه الأستاذ «إجناسيو رامونيه» إلى أن مثل تلك الحملات الإعلامية الساعية لضرب الديمقراطية من الممكن أن تبدأ غدا في البرازيل أو الأرجنتين أو في أماكن أخرى حيث يكون هدف مثل ذلك الإعلام الملوث ضرب كل المحاولات الشرعية للإصلاح وتعديل التركيبة الاجتماعية وما يصاحب ذلك من جهد لإيجاد نوع من العدالة في اقتسام الثروات. ويؤكد الكاتب الفرنسي أن الإعلام الجماهيرى - على هذا النحو - هو توأم العولمة. ولذلك فهو يدعو إلى تنظيف البيئة الإعلامية عن طريق تكوين سلطة خامسة تكون مهمتها مراقبة وتحليل وتقويم الممارسات الإعلامية الملوثة والتي أفرغت الإعلام المعاصر من أى محتوى يمت بصلة لما كان يفترض أن يكون سلطة رابعة.

وبناء على كل ما سبق يقترح الكاتب الفرنسي أن يقوم بالمهمة جهاز أو هيئة مدنية سلمية أسماها «المرقب الإعلامي الدولى» I'Observatoire international des Medias وبالإنجليزية Media Watch Global ويحيث يسخر نشاط هذا الجهاز في خدمة المواطنين في مواجهة سطوة وتلويث وسائل الإعلام الجماهيرية.

ومن الطريف أننى كنت قبل نحو خمس سنوات عرضت اقتراحا مماثلا على القمة العالمية للإعلام التى تعقد سنوياً فى نيويورك.. كتبت الاقتراح على ورقة أودعتها سكرتارية تلك القمة، في محاولة من جانبي للإسهام بفكرة رأيت وقتها أنها ضرورية لكبح جماح التضليل والتنميط الذى تمارسه وسائل الإعلام بلا رابط.. وبالطبع فإننى لم أتلق أى استجابة لاقتراحى مما يجعلنى الآن أرى أن الأخطار المحدقة لا تحتمل انتظار تكوين مثل هذا الجهاز الدولى، وأننا جميعا - كدول وشعوب - مسئولون عن القيام بهذا الدور الذى يتجاوز كونه واجبا وطنيا إلى قيامه كواجب إنسانى بكل معنى الكلمة ولنأخذ العبرة من تحالف قوى الشر التى تأخذ من قوتنا ما يغذى صانعى البرامج المشوهة لثقافتنا وصورتنا فى وجدان الآخرين. □

كتاب الهلال

يوميات طبيب وهموم أستاذ جامعى

بقلم

د. نبيل لويس عطا الله

يصدر ٥ نوفمبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٧٧

الهلال

رمضان ١٤٢٤هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

الشاطىء

أو تذكرين ..؟

أو تذكرين الشاطىء الوردى.. والعشب الندى
وحديث وشوشة تروح على الرمال.. وتغتدى
لما تعاهدنا.. وقد نامت يداك على يدى
أقسمت لى.. والشمس تغفو فوق صدر المخمل
وتلملم الياقوت فى جيد المغيب الشارد
أقسمت لى.. إن الهوى سيدوم لى.. أقسمت لى
فضممت أسراب الأمانى كلها فى ساعدى
وسكرت فى هذا البريق الشاحب
ينساب فى صمت.. كهمس الراهب

أو تذكرين..؟

★★★

أسطورة الحب التى كانت ربيعنا.. وجنى
لم يروها شوق عن الأحباب يوما.. قبلنا
لا.. لم تردد مثلها الأمواج.. حتى بعدنا
كانت غناء.. بين ألحان الطيور العائده
كانت نداء ترتوى منه القلوب الظامية
أقسمت أن تحيا ضياء للأمانى الواعده
وحكاية.. يزهو المصيف إذا حكاها ثانيه
ورفعتنى ملكا على هام السما
ملكا يعابث فى يديه الأنجما

أو تذكرين ..؟

★★★

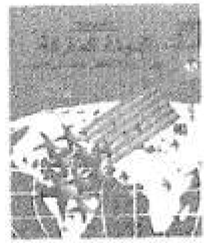
الظامئ

شعر
أحمد خميس

أقبلت في ترف الجمال.. وفي تجني سحره
وجمعت لي كرم الربيع.. وكنت أكرم زهره
وفرشت دربي بالعبير.. وكنت أشهى عطره
صور.. يهدهدها الخيال لترسم الحلم الجميل
حلما تباركه الدفوف.. وتجتلي فيه الشموع
حلم العروس تتيه في وشى الصبايا .. أو تميل
في كل ركن فتنة تختال.. أو عطر يضوع
وأنا وأنت.. فراشتان تعاهدا
تمضي بنا أقدارنا خلف المدى
أو تذكرين.. ؟

★★★

راحت ليالي الصيف يا حسناء.. وانفض السمر
ومواكب العشاق.. لا ترجو وداعا أو سفر
هذا عصي الدمع يخفيه.. وهذا ما صبر
والشاطيء المهجور.. تبكيه العيون الراحله
لتمد أذرعها سحابات الخريف الآتيه
وأنا .. وسهدي.. والليالي العاويات الذابله
لم يرتحل عنا الوفاء.. ولا البقايا الباقيه
لنظل نرعى ذكريات الموعد
في ليلة.. نامت يداك على يدي
أو تذكرين ..؟



الدولة المارقة.. دليل إلى الدولة العظمى الوحيدة في العالم
تأليف: ويليام بلوم
ترجمة: كمال السيد
الناشر: المشروع القومي للترجمة

برغم صدور الكتاب قبل وقوع أحداث ١١ سبتمبر إلا أنه كان بمثابة الاجابة عن السؤال الذى ظلت الولايات المتحدة وشعبها يطرحونه لماذا حدث ذلك؟

يحوى الجزء الأول على قائمة طويلة من الأعمال التى ارتكبتها الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وأودت بحياة الكثيرين. ويذكر أن الولايات المتحدة أقنعت العالم بأن هناك مؤامرة دولية تتربص به. وجعلته يعتقد أنه يحتاج إليها بطريقة لإنقاذه من غياهب الظلمة الشيوعية. اعتمدت على خطاب أمريكى موجه للعالم فحواه «اشتروا أسلحتنا فحسب، اتركوا عسكريتنا ومسئولى شركاتنا يذرعون بلادكم طولاً وعرضاً بحرية، امنحونا حق الاعتراض على القادة الذين تختارونهم وفى المقابل سنقوم بحمايتكم».

يتحدث الكتاب عن السياسات الأمريكية التقليدية. التى تقوم فى البداية على القصف والتدمير والخراب ثم تنقلب إلى سياسات تطالب بالتعمير فيما بعد الحرب وبالطبع اليد التى دمرت هى اليد التى ستبنى كما حدث فى بقاع مختلفة مثل فيتنام / بنما/ العراق/ أفغانستان، وهاهى سياساتها تتكرر مرة أخرى فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر. لتواصل هيمنتها على أركان العالم المتبقية.

فى النصف الأول من الكتاب يقدم وثائق بالغة الخطورة عن الأساليب القذرة التى اتبعتها الولايات المتحدة متمثلة فى الإدارة الأمريكية أو البنتاجون أو المخابرات الأمريكية من أجل اكتساب أراض جديدة فى سبيل الهيمنة وبسط النفوذ على العالم أجمعه.

مثال ذلك تدريب وتجنيد عناصر الإرهاب فى بداياتها، استخدام وسيلة الاغتيالات السياسية فى مختلف الدول وذلك من خلال الاعتراف بذلك في تقرير «دوليتل» حتى تحولها إلى ملاذ للإرهابيين فى البداية ويكشف عن الاستخدامات الأمريكية لأسلحة الدمار الشامل مثل القصف بالقنابل كما هو الحال فى الحرب الكورية والهجوم على لبنان وسوريا عامى ١٩٨٣-١٩٨٤، واستخدام اليورانيوم المستنفد كما حدث فى حرب العراق والكويت عام ١٩٩١. والقنابل العنقودية والأسلحة الكيميائية والبيولوجية مثال ذلك خلال فترة الأربعينات والخمسينات بجزر البهاما وكندا والصين وكوريا وفيتنام وكوبا.

بل ويكشف عن قيامها بتشجيع بعض الدول على استخدام تلك الأسلحة كما حدث فى جنوب أفريقيا والتى شجعت نظام الفصل العنصرى على تنفيذ برنامج للأسلحة الكيماوية والبيولوجية لاستخدامها ضد المدنيين السود، كما شجعت العراق بتصديرها لبعض المواد التى تتسبب عادة فى الموت البطىء مصحوبا بعذاب شديد.



الكتاب: أمريكا والابادات الجماعية
المؤلف: منير العكش
الناشر: رياض الريس للكتب والنشر

طريق طويل ملىء بالدماء وجثث الضحايا.. قطعته الحضارة الأوروبية خلال رحلتها المقدسة من

أجل انقاذ أرواح جنود العالم الجديد.. كان السبيل الأمثل لانقاذ أرواح من يرونهم متوحشين غير آدميين هو القتل، التمثيل بالجثث، وسرق مدنهم وبيوتهم، وإبادتهم وإبادة حضارتهم من على ظهر الأرض. حتى أنهم حولوا حدائقهم وأراضيهم الغنية الخصبة إلى خرائب مقيتة يعيش داخلها الموت. عن رحلة المستعمر الانجليزي لأمريكا ذلك العالم الجديد. وعن حقيقة المتوحش والعنيف وعن أهوال الإبادة الانسانية تلك الوسيلة التي أتقنها الأمريكيون طوال تاريخهم، يكشف لنا منير العكش بصراحة وجرأة متناهية في كتابه الذي يدمي القلب لقراءته. يحكي «العكش» الناقد والباحث في الانسانيات والمتخصص في تاريخ وثقافة الهنود الحمر شهادة جمع تفاصيلها خلال فترة طويلة من الزمن ويحكي عن تفاصيل ما جرى للشعوب الأمريكية الأصلية وعن كيفية إبادة سكان قارة كاملة يزيد عددهم على ١١٢ مليون إنسان لم يبق منهم في أوائل القرن العشرين سوى ربع مليون فقط.

ويعترف بفضل الولايات المتحدة في اختراع ألطف نظام تطهير عرقي على وجه الأرض. ويخوض داخل الفكرة الرئيسية المنشئة لأمريكا وهي فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

ويذكر أن الولايات المتحدة لم تعترف بعدد الهنود الذين أبيدوا في الشمال الأمريكي منذ بداية الغزو الأبيض وذلك باكتشاف فلوريدا في عام ١٥١٣.

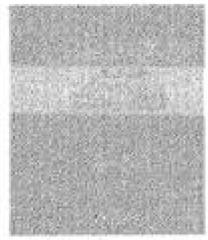
والتاريخ الأمريكي يرى أن الهنود هم قلة حفروا قبورهم بأيديهم في حروب متكافئة شرقية شفافة وهم مسئولين عن إضرام نارها وحصد أضرارها، بل ماتوا قضاء وقدراً بالأمراض التي حملها الأوربيون معهم دون قصد!

وينقل الكاتب عن هوارد سيمبسون قوله بأن المستعمرين الانجليز لم يجتاحوا أمريكا بفضل عبقريتهم العسكرية أو دوافعهم الدينية أو طموحاتهم أو وحشيتهم بل بسبب حربهم الجرثومية التي لم يعرف لها تاريخ الانسانية مثيلاً.

ويستعرض أساليب المستعمر الأبيض في العمل بالسخرة والتجويع الإجباري والترحيل الجماعي وتحطيم المعنويات وهو ما يعرف باسم الشتات الكبير والذي اقتلع عدداً كبيراً من الشعوب الهندية من أوطانها وساقها إلى الغرب أو إلى الشمال الكندي فراراً بحياتها وحياة أبنائها من الإبادة الشاملة.

ويكشف أن ما يسمى بحروب الاستقلال ماهي إلا حملات إبادة للشعوب الهندية ويضرب مثالاً بأن المستعمرين كانوا يحرقون المدن والقرى الهندية بمن لم يستطع الفرار وكانوا يتلفون محاصيل الذرة. بل أن جورج واشنطن أصدر قراراً بتحويل مساكن هنود «الأوروكوا» إلى خراب .. وأنه لن يصغي لنداء السلام حتى تمحى قراهم ومدنهم وآثارهم من وجه الأرض.

وخلال الفصل السادس من الكتاب يبدأه «العكش» بقوله : «إن أمريكا ليست إلا الفهم الانجليزي التطبيقي لفكرة إسرائيل التاريخية.. أسموا أنفسهم الإسرائيليين وعبرانيين ويهوداً وأطلقوا على العالم الجديد اسم أرض كنعان وإسرائيل الجديدة واستعاروا كل المبررات الأخلاقية لابادة الهنود «الكنعانيين» واجتياح بلادهم في مخيلات العبرانيين التاريخية».



وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره
المؤلف: وديع فلسطين
الناشر: دار القلم

من خلال مجموعة من المقالات قام بنشرها في جريدة «الحياة» تحت عنوان «حديث مستطرد» يسرد وديع فلسطين ذكرياته عن أعلام عصره. فيسرد حواراته معهم ويكشف عن تواصله الشخصي واحتكاكه بهم ليقدم للقارئ صورة ذاتية عن بعض أعلام الفكر والقلم في مصر والوطن العربي.

يبدأ كتابه بإبراهيم عبدالقادر المازني ويصفه بأنه قمة من القمم الشامخة في الأدب العربي. وينتقل منه إلى شخصية ابراهيم المصري والذي يرى أنه أحد «مظاليم الأدب» لأنه كان دوما منسيا في مجتمعات الأدب خاصة أنه كان يميل إلى العزلة والابتعاد عن الأضواء. برغم أنه كان من ضمن من شاركوا في اصدار وتحرير مجلة «الهلال» عقب وفاة صاحبها ومؤسسها جورجي زيدان وانشغال «أميل» أكبر أبنائه بتوسيع أنشطة دار الهلال. وتتوالى ذكريات فلسطين مع عدد من الشخصيات مثل الشاعر ابراهيم ناجي وأحمد حسن الزيات وأحمد زكي أبو شادي وإسماعيل مظهر وأكرم زعيتر وأمير بقطر وأمين نخله. وإن كان في أندر ذكرياته تلك التي كشف عنها مع سيد قطب والذي كان وقتها الناقد الأدبي لمجلة «الرسالة». فيحكي عن بعض آراء قطب في كثير من كبار الكتاب والمفكرين والشعراء. فنجده يحكي عن موقف قطب من أشعار نزار قباني والتي يراها بأنها نقلت الشعر إلى المخادع وهو الأمر الذي رفضه قطب ويحكي أيضا عن موقف قطب من كتابات الدكتور عبد الرحمن بدوي. فينتقد ديوانه الصادر بعنوان «مرآة نفسي» ويصفه بأنه «استهتار يتجاوز حدود الجرأة ولابد أن يوضع حد لهذه المساخر بأية طريقة» ويواصل سرد آراء قطب في بعض الكتاب مثل نجيب محفوظ وعباس العقاد والذي كان منحازا إليه بشكل يفوق انحيازه إلى طه حسين و مصطفى صادق الرافعي.

ثم يوالي ذكرياته مع طه حسين وعادل الغضبان وعباس العقاد وعبد العزيز الرفاعي.



البترول العربي.. دراسة اقتصادية سياسية
تأليف: د. حسين عبدالله
الناشر: دار النهضة العربية

في ظل الظروف الدولية المتأزمة، والأوضاع المتردية داخل العراق.. صدرت دراسة اقتصادية ذات أهمية تكشف عدة نقاط بالغة الخطورة عن السوق

العالمية للبترول.. بداية من شرح جميع التغييرات الهيكلية التي طرأت على الانتاج العالمي للبترول خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بما في ذلك القواعد التي تتحكم في عمليات التفاوض الخاصة بالاتفاقيات البترولية بين الشركات العالمية ودول منظمة «الأوبك» تتطرق الدراسة إلى قرارات تخفيض أسعار البترول التي تفرضها الشركات الغربية العالمية بغرض تلبية متطلبات إعادة بناء كل من أوروبا واليابان، والتي تزامنت مع زيادة الاهتمام بالبترول العربي والشرق أوسطي.

كما تتناول بالتفصيل العلاقة بين البترول - كمادة خامة - واتفاقية منظمة التجارة العالمية «جات». وتوضح أن الشركات الكبرى من الدول الصناعية الغربية رأوا أن من صالحهم عدم إثارة موضوع البترول في إطار اتفاقية الجات منذ بداياتها عام ١٩٤٧ .. وذلك حتى يمكنهم الاحتفاظ بحرية شركاتهم وبالتالي السيطرة على البترول كمية وسعراً.

ويناقش الكتاب علاقة البيئة بالبترول .. وذلك في ظل بروتوكول «كيوتو» .. حيث تزايد الاهتمام العالمي بالبيئة والتغير المناخي على وجه الخصوص . فيشرح الآثار المحتمل انعكاسها على دول «أوبك» نتيجة تنفيذ «بروتوكول كيوتو».. مع تقدير حجم الخسائر التي قد تلحق بدولها.. ويرخص الكتاب الدعاوى القائلة بأن ارتفاع أسعار البترول تسبب الكساد والتضخم.

ويوضح أن البرامج والأساليب التي استخدمتها الدول الصناعية الغربية مكنتها من السيطرة على السوق العالمية للبترول.. وذلك عن طريق تنفيذ برامج صارمة لترشيد الطاقة عموما والبترول خاصة .. مع الاحتفاظ بمخزون تجاري واستراتيجي كبير للمناورة به في أوقات الشح البترولية.

وتتناول الدراسة نقطة حيوية وهي تطور صناعة تكرير البترول وحيث توضح أنه برغم أن الشرق الأوسط يعتبر من أهم مراكز التصدير إلا أن صادرات البترول تحولت إلى تجارة في الزيت الخام في حين توطنت المصافي التي تقوم بتكريره وتصنيعه في الدول الصناعية المستوردة للبترول خاصة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان.. أما الدول العربية المصدرة للبترول فظلت تطالب بنصيب من المصافي ليتناسب مع نصيبها كمنتج ومصدر للبترول الذي يبلغ ٤٥٪ من استهلاك العالم لكن الدول المستهلكة وشركاتها لم تستجب لمطالبها .

وهكذا ظلت الدول العربية محرومة من ثمار التصنيع - كما تؤكد الدراسة - حيث لا تتجاوز طاقة المصافي العربية ٨٪ من طاقة التكرير العالمية. رغم أن انتاجها بلغ في عام ٢٠٠٠ نحو ٢٨٪ من الانتاج العالمي. وبلغت صادراتها نحو ٤٢٪ من صافي الواردات البترولية العالمية.

وظلت المنتجات البترولية المكررة داخل المنطقة العربية تستخدم لتلبية الاحتياجات المحلية ولا تزيد نسبة التصدير منها على نحو ٣٪ من طاقة التكرير العالمية.

وتكمن أهمية الدراسة في كشف مدى أهمية اقتصاديات البترول وخاصة البترول العربي وأثر ذلك على القرارات السياسية التي تتبناها الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

قصة قصيرة

سكة اباظة

قصة
خليل الجيزاوى
بريشة
سميحة



كـــان الطريق الزراعي مزدحماً، لكن سيارتي الفيات ١٢٨ الحمراء، راحت تعرف طريقها جيداً، تعلمت بتكرار هذه الزيارة الأسبوعية، شئون المطبات والداورة على طول الطريق الزراعي تعـــرف تماماً متى تخفي السيارة الأمامية، وأين يتخفى الرادار القريب من سرعتها

كانت، دائما تقرأ أفكاري، بل ترسم لي خريطة تفصيلية لسكة السفر، وكان الطريق الممتد على امتداد البحر،



تكسوه الخضرة على الجانبين، ورحت أرى الربيع وأيادية الخضراء التي تكسو الفروع العارية، وكانت أشجار التوت تراها حبلى بالبراعم الصغيرة ورائحة عطرة تهب من أزهار الحدائق المنتشرة على جانبي الطريق، كانت الشمس تميل ناحية الغروب، وصوت أم كلثوم يداعب شغاف القلب، الموسيقى تهدأ قليلاً، وأم كلثوم تنادى صادحة:

- يا فؤادى لا تسل أين الهوى ......؟

وهبت نسمة رقيقة، عبر نافذة السيارة راحت تداعب صوت أم كلثوم، ووجدتني أقلب كتاب حياتي، أتصفح دفتر الذكريات تقفز الأيام الأولى، ومن نافذة السيارة، ووجدتني أطير مثل عصفور صغير أتنقل بين الأشجار هارباً من زحام القاهرة، وخنقة الروح وحبستها، كم كنت أحتاج هذه الزيارة الأسبوعية، كي أخلو بنفسي أتذكر عشرين عاماً في القاهرة، مدرجات كلية الآداب، سفر ترحال غربة خدمة عسكرية، عمل بالتدريس، زحام، خنقة وحبسة الروح في الغرف الباردة..

عشرون عاماً في القاهرة، والشعيرات البيضاء راحت تغزو الرأس المثقلة بالتجارب والهزائم المتكررة، تلك التي خلفت وراءها قلباً وحيداً حزيناً، حين يغلق عليه الباب مساء هاربا. أفر أقفز من النافذة أفتح دفتر الذكريات، أقلب الصفحات، أتذكر، أهز فروع شجرة التوت الأحمر، خد الجميل، أجمع حبات التوت الحمراء من شواشي الفروع العالية في ذيل جلبابي، وأجرى، أجرى بعزم الحيل على ترعة «أبو العزم» كي تأكل حبة القلب أنادى:

- ياسهير!

وكانت الحقول البعيدة، تقترب تقترب أتذكر .. أسير في عز القيالة على المصرف الصغير، أنظر يميناً ويساراً وقد توارت العيال بعد «فركش» من جمع دودة القطن الأولاد تجرى على المصرف الصغير، تنفلت ناحية البيوت الواطئة طلباً

للغداء،وسحب التراب تلحقهم دوائر دوائر ورحت أقفز بين مصاطب القطن، أجمع أصابع الخيار الصغيرة، حتى تمتلئ سيالتى وجيوبى، أعود للمصرف الصغير، والعيال توارت بعيدا بعيداً، أسير مع سهير منفردين على المصرف الح عليها وأصابع الخيار تخرج من سيالتى وأنا أهتف فرحاً:

- خدى ياسهير!

كانت السيارة الحمراء تتهادى على الطريق الزراعى، وهى تفتح ذراعيها تحتضن هواء نقيا تطرد بقايا ذرات هواء القاهرة المحبوس بين سياج الصدر أفتح خياشيمى، يمتلئ صدرى يتبرد قليلاً من وهج الذكريات، أتذكر، أتسلل بين عيدان الذرة، أسير منحنياً بين خطوط الذرة، حتى أتفادى أوراق الذرة الحادة كى لا تطرف عينى وتسيل دموعى وأعود خائباً دون البرتقال.

أقفز المصرف الصغير قفزة واحدة عالية، أجد نفسى بعدها وسط أشجار البرتقال، قفزة ثانية وأجدنى فى مواجهتها تماما، فقد علمنى التكرار الطريق إلى خط البرتقال «أبو صرة» أفرد حجرى، أنتقى الكبيرة والصفراء حتى يمتلئ ذيل جلبابى .

متسللاً أعود بين خطوط عيدان الذرة، أجدها تنتظرنى قلقة، أضع ما جمعته فى حجرها فتغضب منى وتزيح حبات البرتقال بعيداً، وكنت أخاف الفضيحة فأجرى وراء حبات البرتقال، أجمعها فى حجرى ثانياً، ثم أقعد منكسراً وباكياً، تقترب منى، تدفعنى فى كتفى باسمة :

- كنت خايفة عليك قوى، الغفير إيده طرشة..

ساعتها أنتشى، أقفز فى الهواء فرحاً، أمسكها بين يدىَّ أحضنها، أقبلها على خدها الأيمن والأيسر، تدفعنى ضاحكة، وهى تتابع حبات البرتقال التى تجرى على الأرض، أقول بفرحة طاغية:

- ملعون أبو البرتقال والغفير كمان والناس كلها!



كانت الأشجار والبيوت والسيارات والناس تفر من نافذة السيارة مخلفة بعض الأسى وكثيراً من الهموم وأنا

أقلب دفتر الذكريات، أتذكر، بعد امتحان الثانوية العامة أقبل يد أمي، أسألها أن تفي بوعدها لي وخطبة سهير، أقول لها راجيا والدموع تكاد تطفر من عيني، الامتحانات انتهت، تنظر أمي ناحيتي، تفرد يديها، أرتمي في حضنها، أقبل يديها، تقبل رأسي، تمسح ظهري بيدها تلمس شعري تفاصيل تضاريس وجهي، تلمس شاربي ضاحكة :

- ياه .. كبرت يامحمد وبقيت راجل !

بعد صلاة العشاء، أعرف طريقها مع خالي إلى بيت سهير، وكانت الإجابة تراها في عينيّ أمي الدامعة حادة وبسكين باردة :

- لا ياشيخ محمد، هل ترضاها أنت، أجوز بنتي لتلميذ في الثانوي، لا مؤاخذة أمه لسه بتصرف عليه !كانت السيارة لا تزال تتهادى على الطريق، والشمس توارت بعيداً، وكان لايزال صوت أم كلثوم ينادي :

- يافؤادي لاتسل ......؟

السيارة الحمراء تعرف طريق أباظة، طريق البلد وراحت عجلة القيادة



تأخذ بيدي وتميل بها ناحية اليمين ناحية طريق البلد، وكان طريق البلد، سكة أباظة، طويلاً وبعيدا عن محطة القطار تلك التي يركب منها أهل قريتنا إلى طنطا أو الزقازيق، وكان المغرب يقف على أول الطريق، وراح يضرب خيمته الرمادية حولها، تقترب السيارة الحمراء من مزلقان السكة الحديدية، وكان المزلقان مغلقاً، وراح قطار طنطا الزقازيق يصفر صفارته الأخيرة، معلنا توسعة الطريق، وراحت السيارة تعبر المزلقان رويداً رويداً، وراحت عيناي تتسع، تتسع، فلقد كانت هي تقف وحيدة، على جانب الطريق، نعم هي فبرغم غبشة الليل إلا أن ملامحها المرسومة بعناية تبين لي جيداً، وكان شعرها الطويل يداعب نسمة الهواء، وعودها الملفوف يقف شامخاً في بهاء أسطوري، فرحت أنادي عليها وضربات صدري تعلو وتهبط والفرحة تقفز

من عيني:

– سهير .. سهير !

وبسرعة أنحنيت ناحية الباب المواجه لها قائلا:

– اتفضلى اركبى ياسهير !

كالنسمة الحانية فتحت باب السيارة الخلفى قائلة :

– مساء الخير ...!

– أنا سـ .....!

وكأن العقدة انحلت عن لساني، رحت أنظر إليها... من مرآة السيارة، أحدثها، أناجيها، أشكو إليها غربتى فى مصر المدينة والتى لا تحنو على الغريب ورحت أذكرها قائلا:

– ياه ... ياسهير ...!

وكانت سهير من الكرسى الخلفى تنظر ناحيتى بدهشة، نعم هذه الدهشة قرأتها فى عينيها، وفكرت فى نفسى أنها ربما قد نسيت ذكرياتى وعمرى كله معها، فرحت أحكى وأحكى كل التفاصيل الصغيرة، أذكرها :

– فاكرة ياسهير أيام الجميزة والساقية القديمة!

– أنا سـ ...!

– فاكرة ياسهير أيام شجرة التوت الأحمر، خد الجميل !

– أنا سـ ...!

– فاكرة ياسهير أيام القطن وصوابع الخيار !

– أنا سـ ...!

وعندما قرأت مساحة الدهشة تتسع رحت أقول مؤكدا :

– لا ياسهير أوعى يقى تكونى نسيتى أيام البرتقال، البرتقال أبو صرة ياسهير و... و...

وكانت العينان الخضراوان تتسعان دهشة، والابتسامة الحلوة لاتفارق شفتيها وعند أول البلد سمعتها :

– لوسمحت أنزل هنا!

ووجدتنى أرد عليها باستغراب حقيقى !

– إيه ياسهير البيت لسه قدام شوية !

وجاء صوتها هذه المرة قوياً وحاداً وقاطعاً:

– شكراً ياعمو! ألف شكر! بيتنا هنا! وعلى فكرة أنا سعاد بنت سهير!

ورحت أحاول أن أفتح فمى بالكلام، أحاول أن أحرك لسانى، كى أقول لها :

– لا أنت سهير !

سهير التى تعرفنى وأعرفها جيداً! حتى قابلت ملامح وجهى فى مرآة السيارة والشعيرات البيضاء تغزو رأسى وشاهدت صفحات كثيرة تفر من دفتر الذكريات، ومساحات كبيرة من الفراغ والصمت تعيد رسم ملامحى، وفجأة انتفضت يدى فى خفقة مباغتة، فتهشمت مرآة السيارة .

ومن نافذة السيارة رحت أصرخ غاضباً ومتوسلاً:

– ياسهير .. ياسـ...! ■

باريس التى لم يشاهدها رفاعة

فنون قاع المجتمع فى باريس

بقلم
د. محمد المهدى



جوار نبلاء البلاط

١٩٠
رمضان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

• المجتمع الباريسى كما صورته وثائق القرن الخامس عشر

تفصيل من لوحة « العميان » - بيتر بروغل ١٥٦٨ ◀





الغجر في الاسر . كانوا دائماً
جزءاً من حضيض المجتمع

من السهل فضح قاع المجتمع، ومن الصعب تصوير صراعاته الداخلية، ومن الصعب كشف أسبابها، ومن الشجاعة الإعلان عن هذه الأسباب.. العبيد فى الحضارات القديمة كونوا حضيض المجتمع. عند الرومان قامت ثورة «سبارتاكوس» وتم صلب العبيد أحياء على أعمدة امتدت من مدينة «كابو» حيث قامت ثورتهم، إلى مدينة «روما» حيث السادة. وحتى فى مجتمع الصحراء القاسى وجد العبيد عند العرب قبل الإسلام. كانوا يمثلون حضيض المجتمع. وعندما ذهب الأوربيون إلى أمريكا كونوا لمجتمعهم حضيضا من مجتمع عبيد أفريقيا. وحطم الإنجليز كل السفن، وانفردت سفنهم فقط بحمل العبيد.

أصبح فى الدول الأوروبية أيضا دول من الحضيض، ودول من السادة. والآن أصبح العالم الثالث يمثل المستوى الأدنى فى الكرة الأرضية بالنسبة إلى عالم الأناقة، والناطحات فى الشمال، وتسعى وتصعد الدول الكبيرة بصراع واقتتال حضيض الكرة الأرضية.. ومع ذلك يقول البروفيسور «كلاوس شواب» مؤسس منتدى ديفوس «نحن مع الحوار مع الآخرين»!

بلاط المعجزات

هناك كتاب عنوانه (بلاط المعجزات)



من أعضاء بلاط المعجزات

LA, COUR.DES, MIRACLES أو تاريخ التشرد. يصور مجتمع الحضيض وكيف تكون في باريس قبل أن يجسمه (فيكتور هيجو) في «البؤساء»، سنحاول أن استخلص من بعض سطوره ما تلمح منه وجه الشبه بين الحضيض في زماننا وذاك الزمان. وبين مكاننا وذاك المكان.

الزمان القرن الخامس عشر الميلادي، والمكان باريس... ويقول شاهد عيان «يوجد هذا البلاط في مكان متسع داخل زقاق كبير، نتن، غارق في الطين والقاذورات. يقع في حي بعيد عن المدينة بين أبنية. متهدمة للدخول إليه لابد من الانحدار وسط الجحور في منطقة وعرة.. شاهدت هناك منزلا من الطين له شبه مدخل، المنزل متداع من القدم وكثرة العفن. ساحته لا تتعدى أربعة أمتار مربعة يعيش فيه ما لا يقل عن خمسين شخصا، بينهم ما لا يحصى من الأطفال الشرعيين أو غير الشرعيين أو شبه الشرعيين».

لماذا سمي ببلاط المعجزات؟

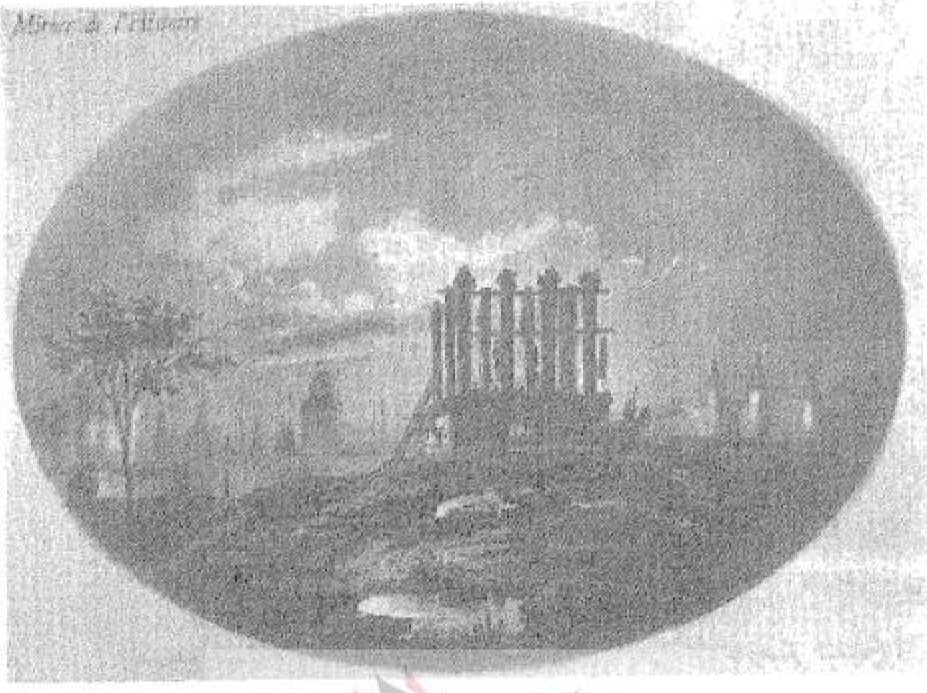
السبب نفسي فيما يبدو. من يأوي إليه ويقبل من قبل جماعته من المتسولين، أو العجزة، أو اللصوص، أو النصابين أو المهرجين أو العاطلين أو العاهرات.. كان يشعر أنه اهتدى أخيرا إلى مملكته الطبيعية، أو عالمه الخاص الكل مفضوح في ماضيه وحاضره وإظلام مستقبله إنه مكان الشفاء من احتقار المجتمع، أو التخلص من سخط الناس إنه بلاط المعجزات.

بلاط يشبه في تسمياته كنوع الغيظ أو الانتقام، بلاط الملوك والنبلاء. فيه الملك والأمراء والدوقات والمركيزات. كثرت في باريس بلاطات المعجزات «ولكن كان أشهرها وأكبرها نفوذا بلاط نوف سان سوفير» NEUVE,ST - SAUVEUR.

هاجمت الكنيسة المتشردين فحياتهم تمنع المتقين من ممارسة تقواهم! وطلب الملك إجراء تحقيق سريع لمحاصرة قطاع الطرق واللصوص والأفاقين. أما كبير تجار باريس وهو المضار الأول من نهب بضائعه فكان عمليا، قام بجمع المتشردين وسخرهم في إقامة سور حول المدينة لحماية بضاعته من قطاع الطرق ومن يهرب يجلد بالسوط علنا.

ونتيجة لحرب المائة عام في القرن الخامس عشر بين انجلترا وفرنسا، ارتفع أعداد المتشردين الذين يطاردهم الجوع. تكونت منهم مملكة متكاملة من سادة وأساتذة وتلاميذ وتحت التمرين..

«في البلاط رفاق السجن صاروا نبلاء والمتسولات صرن ماركيزات»



منصة الشنق العام

وأيضا نقابة الدفاع عن الحقوق!!

المملكة كانت تحوي العديد من التخصصات من يدعي صلة بالقديسين تعطيه قدرة شفاء الأمراض. من يتظاهر بعاهات مرضية ويستعين بقطعة صابون في فمه ليخرج الزبد من شدقيه. من يتعكز على عكازين أو عصي. من يدعي أن كلبا عضه، أو جزاما أصابه، أو حروقا التهمت جلده. نزع أحدهم ذراعي رجل مشنوق ووضعهما إلى جواره بينما ربط ذراعيه خلف ظهره بطريقة توحي بأنه مقطوع الذراعين وكان هناك آخر لف ذراعيه ورجليه بضمادات. مكوم على جسر ينقله إليه يوميا أحد زملائه ويعيده إلى «البلاط» في المساء على عربة يد. وفي يوم أطلق لويس الرابع عشر جنوده لجمع الفقراء والشحاذين،





عاهات الشحاذين كما صورها بروغل ١٥٦٨

فسمع المسكين بالأمر فأطلق لساقيه العنان.

بعض المتسولات أطلقن على أنفسهن الماركيزات. تخصصن في اصطناع الارتعاد من البرد والجوع، يستخدمن ملقاطا يقرصن به أنفسهن خفية فتبدو جلودهن مقشعرة. عالم التشرد كان يحوى أيضا الرهبان المارقين. تخصصوا في النصب على الناس ببيع ما يدعون أنه من بقايا قش مهد السيد المسيح أحضروه من بيت لحم. أو ريشة من جناح القديس (ميشيل) أو شعرة من ذيل حصان القديس (جورج) وتخصص الجنود الفارون من الجيش في لعب الثلاث ورقات لكن كان أقرب هؤلاء جميعا إلى قلب الملك والأمراء في البلاط رفاق السلاح أي رفاق السجن. لا تفرض عليهم الإتاوات، ويمكن تمييزهم ببقايا القيود الحديدية في أيديهم وأرجلهم.

لغة البلاط

بلاط المعجزات كانت له لغة خاصة. والأدق أن نقول له مصطلحات خاصة، ولهجات متعددة. قام أكاديمي متخصص في علم الجريمة بتسجيل بعضها في عصر النهضة الأوروبية. وهناك مؤلف نادر يعود لعام ١٥٩٦ يحمل عنوان «الحياة الخصبة للمتشردين والبوهيميين. طريقة معيشتهم، وحيلهم، ولغتهم الخاصة».

أثناء النهار كان «البلاط» يخلو من



نبلائه. يوزعون على أرجاء المدينة يفضلون عادة الأسواق والطرقات التجارية حيث يوجد عادة الزبون الغافل. فى القرن ١٦ كان الجانب الأيمن من نهر «السين» مليئا بالعشش، وخرابات المتشردين، بينما كانت تقوم على الجانب الآخر الأبنية الفخمة الأنيقة. أراد الملك هنرى الثالث ربط قصر اللوفر الواقع لسوء حظه فى الجانب الأيمن بحى الارستقراطية فى الجانب الأيسر. أقام جسرا بين الضفتين ولكنه لم يكتمل إلا فى عام ١٦٠٣ وعرف بجسر (نوف) Pont,Neuf زحف إلى الجسر نشاط التجار. وزحف خلفه أعضاء بلاط المعجزات صار أقرب سوق إلى مقرهم، تجد فى السوق الخضراوات والفاكهة والخبز والطيور... وخلع الأسنان، وبيع العقاقير، وحلق الشعر، دخله البهلوانات والسحرة والنصابون والراقصات... والعجزة والشحاذون بين هؤلاء ووسط الزحام كان الجائع يجد الفتات بين هؤلاء ووسط الزحام كان البرجوازى الباريسي يأتى للفرجة والتسلية بين هؤلاء ووسط الزحام كان النشال يجد زبونه.

فى المساء يعود أهل الحضيض إلى القاع. يرفعون عن كواهلهم أدوات الخداع وقبل التحلق للأكل والشرب يلقى كل واحد بالإتاوة داخل وعاء كبير أمام الزعيم. يتشاتمون يتعاركون ويبدأ الاحتفال الداعر، وعلى الضفة الأخرى من النهر كانت الارستقراطية تسمع وتتميز غيظا.

الارستقراطية نظمت أدوات التنظيف القانونى. هناك قضاة يقدم إليهم من يقبض عليه. الصامت أو الثرثار يتلقى نفس القدر من التعذيب. ولكن ماذا تفعل أدوات التعذيب أمام قوم تبدأ حياتهم بممارسة التعذيب الذاتى بتشويه أنفسهم؟

وفى القرن التاسع الميلادى كتب أبى .. ان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ١٥٠هـ - ٢٥٥هـ كتابه «البرصان، والعرجان، والعميان، والحولان» يقول فيه عن هذه الظاهرة: فأما الذى يجعل أولاد المكدين عميانا وعرجانا وعمشا، وحدبا فهو يسمى المشعب، فلا أدرى أيهم أعظم كفرا وأقسى قلبا الآباء أو الأمهات الذين يسلمون أولادهم إلى المشعب وهم أطفال حتى يعمى أبصارهم، ويعرج

أرجلهم، ويزمنهم، ويشوه بهم أو المشعب نفسه الذى ترك كل صناعة فى الأرض وتعلم هذه الصناعة فجعلها مكسبه الذى لا يفارقه. وأنا رأيت من هذه الصفة جماعة قد أزمنوا أولادهم وكتبت عنهم تصنيف المكدين، وأطلق كاتبنا الكبير نجيب محفوظ على صانع العاهات اسم «ظيطة»، فهو يمارس عمله فى ضجة مصحوبة بالبلادة.

كثر عدد المحكوم عليهم بالإعدام فى بلاط المعجزات، استهلكت المشنقة كانت أداة الإعدام فى فرنسا قبل اختراع الطبيب جلوتين المقصلة فى أيام الثورة الفرنسية فأصدر الملك أوامره بإقامة نصب خاص متين يرتكز على ست عشرة دعامة من الحجارة على ارتفاع عشرة أمتار حتى يمكن رؤيته من بعيد وعلى سطح هذا النصب تقوم عدة أعمدة من الخشب مثبتة بسلاسل حديدية قوية يتم عليها شنق المحكوم عليهم جماعة، وفى وسط هذا المرتفع فتحة كبيرة يسقطون فيها الجثث.

فى هذه الساحة كان يسمح للكلاب والغربان بالتجمع لتحصيل نصيبها من الجثث، ومنع أقرباء المحكوم عليهم من الاقتراب لحمل الجثث ودفنها ولم يكن كل من يقترب من الجثث من الأقرباء. كان هناك أهل المهنة أنفسهم ممن تخصصوا فى بيع الجثث للتشريح، أو سحق عظامها لاستخراج ترياق الحب، أو الشباب، أو الحمل.

ويسجل التاريخ وبدقة فى يوم ٢٨ أغسطس عام ١٥٧٢، ولشهرة هذه الساحة فى أنحاء أوروبا جاءت «كاترين دى مديتش» مع ابنها وبلاطها فى سياحة خاصة لزيارة المكان، ورغم الإعداد المناسب لمكان الزوار، ورغم تعبيقه بكميات من العطر القوى، إلا أن أحد السادة اقترح على الملك ترك هذا المكان النتن فعلق الملك «هيا أيها السادة إن جثة العدو ليست دائما طيبة».

جماهير باريس كانت أيضا تتسلى بمشهد الإعدام، تتجمع للأكل والشرب، والثرثرة، والفرجة المجانية، ويندس بينهم زملاء المحكوم عليهم بالإعدام ففرصة الزحام وغفلة الناس شئ لا يعوض.

• جسر (نوف) كان يفصل بين نبلاء القصور ونبلاء الجمهور!





استعراض العاهات

نهاية البلاط

دراما بلاط المعجزات انتهت لحين عام ١٦٦٦. أصدر الملك في هذا العام أوامره بإزالة ملاجئهم، خاصة تلك التي تجاور وتفسد حي «اللوفر» وبدلا من أن تجد لهم الدولة علاجا، حاصرت الشرطة المكان وأنذرتهم إما الخروج أو الإعدام. وتصور أهل باريس أنه تم تنظيف قاع المدينة. كان وهما فقد صعد الحضيض إلى السطح، وصرخ ملتاعا ومشاركا في ثورة فرنسا الكبرى عام ١٧٨٩. ■



تذكير بفضل الراحلين

إبراهيم ناجى
وأنور لوقا
ورايح لطفى جمعة

بقلم
وديع فلسطين



ابرهيم ناجي



أنور لوقا

زارنى من أيام شاب سعودى يعد رسالة جامعية عن الشاعر إبراهيم ناجى، وقال إن غايته الوحيدة من هذه الزيارة هى استكمال صورة الشاعر سواء من عارفيه أو من المراجع المنشورة عنه وهاله أن يكتشف أن هذا الشاعر الكبير غائب تماما عن الذاكرة الثقافية لمصر ربما مع استثناء أغنية الأطلال التى تشدو بها أم كلثوم حتى أن انقضاء خمسين عاما على وفاته فى ٢٤ مارس ١٩٥٣ لم تنبه الاحتفاليين والمتمهرجين إلى الاهتمام بهذا الشاعر الذى ليس من المغالاة وصفه بالموسوعى ففضلا عن شاعريته الخصبة فهو عالم فى الطب وكاتب قصة وخبير فى علم النفس ومحيط إحاطة واسعة بآداب الغرب وفلسفاتهم.

ولأن هذا الشاب تأخر عشرات من السنين فى المجئ إلى مصر فلم يصادف أحدا من عارفى ناجى وأصدقائه بعدما طوى الموت كل جيله، وضاعت روعة شعره فى خضم الخزعبلات الشعرية التى باتت صحفنا تهتم بها اليوم ولولا أن الشاعر حسن توفيق قام بعمل ضخم هو جمع الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة لناجى لما وجد الباحثون عن دواوين الشاعر إلا كتيبا يضم مختارات من شعره جمعها الدكتور محمد عنانى.

وإذا كان مرور عشرين عاما على وفاة أمل دنقل قد استأثر باحتفالية على مدى ثلاثة أيام، أفلا تستحق ذكرى مرور نصف قرن على وفاة الشاعر إبراهيم ناجى - ودعنا من القيمة الأدبية لهذا الشاعر وذاك - ولو نصف أو ربع احتفالية من هذه الشاكلة؟

ويبدو أن الظلم البين يلاحق إبراهيم ناجى حيا وميتا فعند صدور ديوانه الأول وراء الغمام استقبله طه حسين والعقاد بحملة شرسة أعلن ناجى بعدها طلاق الشعر قائلا: وداعا أيها الشعر وداعا أيها الفن.. وداعا أيها الفكر وقرر الهجرة النهائية من مصر تمزقه حالة نفسية شديدة السوء وظلت هذه الحالة تلازمه حتى وهو فى منفاه المؤقت فى انجلترا فصدمته سيارة مسرعة كسرت ساقه، فاضطر إلى التفكير فى العودة إلى مصر ليدافع عن شاعريته بمزيد من روائعه وإذ كان على سطح السفينة وهى تقترب من ميناء بورسعيد صرخ قائلا:

هتفت وقد بدت مصر لعينى
رفاقى تلك مصر يا رفاقى
أتدفعنى وقد هاضت جناحى
وتجذبنى وقد شدت وثاقى
خرجت من الديار أجر همى
وعدت إلى الديار أجر ساقى

أما الظلم المبرح الذى تعرض له ناجى فهو إيراد اسمه فى قائمة التطهير الأولى التى أعلنتها الحركة المباركة كما كانت ثورة يوليو تسمى فى بدايتها وقد ضمت هذه القائمة المشئومة إبراهيم ناجى وصالح جودت ومحمد فتحى بك مدير الإذاعة وعلى خليل بك كبير المذيعين وغيرهم فإن قيل إن لصالح جودت شعرا تملق به الملك فاروق وأن فتحى بك وعلى خليل بك كانا بحكم إشرافهما على الإذاعة الرسمية للدولة يمجدان الملك فاروق فما ذنب إبراهيم ناجى الذى كان وقتها مديرا للإدارة الطبية بوزارة الأوقاف حتى يناله سيف التطهير بدعوى أنه غير منتج وكأنه صاحب مصنع لانتاج الطب قصر فيه ناجى تقصيرا معيبا مع أنه لم يرد أحدا من موظفى الوزارة طلب منه العلاج بل إنه كان حتى فى عيادته الخاصة فى شارع شبرا يعالج الفقراء مجانا ويسدد ناجى من جيبه قيمة الدواء الذى يصرف من صيدلية نقولا الحداد (مترجم نظرية النسبية لأينشتين) لهؤلاء الفقراء بناء على اتفاق بين ناجى والحداد، وهو ما علمته من الحداد نفسه.

هذه القرية الظالمة أورثت ناجى هما مقيما - وكان هزيل الجسم هاجمه داء السل فى فترة من حياته فمات بعد أقل من عام وكأنه كان يقصد نفسه بقوله:

أيها الشاعر كم من زهرة
عوقبت لم تدر يوما ذنبها

بل لقد سخر من مسرحية الحياة كلها بهزلها ومآسيها فقال:

نزل الستار ففيم تنتظر
خلت الحياة وأقفر العمر
هو مسرح، وانفض ملعبه
لم يبق لا عين ولا أثر
ورواية رويت وموجزها
صحب مضوا وأحبة هجروا
عبروا بها صورا، فمذ عبروا
ضحك الزمان وقهقه القدر!

ثم إن مؤرخي ناجي ظلموه بما رووه عن غرامياته حتى أن صديقه صالح جودت أخذ يفصل قصائد ناجي على مقاس الممثلات الراقصات وكأنما كانت مصادر الإلهام عند ناجي هي هذه الممثلة أو تلك الراقصة من بطلات السينما والمسرح وظل هذا الاعتقاد يلاحق ناجي حتى بعد وفاته فعندما غنت أم كلثوم مقاطع من ملحمة الأطلال خرجت علينا جملة من الممثلات وكل منهن تزعم أنها وحدها بطلة الأطلال وإذا كانت هذه الملحمة قد انتهت بتدمير البطلة والبطل باعتراف الشاعر حيث قال في تقديمه لها إن القصة انتهت بأن صارت هي أطلال جسد وصار هو أطلال روح، فهل يشرف هؤلاء الفنانات أن يكن قد دمرن البطل ودمرن أنفسهن معه؟!

ولم يسلم ناجي من المظالم بعد وفاته فالديوان الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بتحقيق أحمد رامي وصالح جودت ومحمد ناجي شقيق ناجي وكان ضريرا وبدراسة للدكتور أحمد عبدالمقصود هيكل صدر معيبا من وجوه شتى فهو لم يضم كل شعر ناجي كما زعم صالح جودت في مقدمته كما أنه ضم ١٦ قصيدة للشاعر كمال نشأت وقصيدة للشاعر علي محمود طه تسللت إلى الديوان بزعم أنها من شعر ناجي فأثار صدور الديوان ضجة كبيرة وصلت إلى المحاكم التي قضت بمصادرة هذا الديوان المعيب.

وأفلح شطار لبنان في نشر المجموعة الكاملة لشعر ناجي فجاءت هذه الطبعة بدورها معيبة لما فيها من أخطاء الطباعة ولأن الناشرين حذفوا الهوامش التي تلقي ضوءا على موضوع كل قصيدة فأساءت الروح التجارية للشاعر وشعره.

وإذا كانت قصيدة الأطلال التي غنت أم كلثوم مقاطع منها قد طيرت شهرة ناجي فظن الناس أن هذه القصيدة هي وحدها التي تمثل شعر الشاعر في حين أن هناك قصيدة وطنية شديدة الجمال لناجي غنتها أم كلثوم دون أن تلقى شهرة شبيهة بشهرة الأطلال ومطلعها:

أجل، إن ذا يوم لمن يفتدي مصرا
فمصر هي المحراب والجنة الكبرى

وما دامت هذه السلسلة من المظالم تطارد ناجي حيا وميتا، فلتمض ذكرى مرور خمسين عاما على وفاته بلا حس أو خبر فلا صدر طابع بريد يخلد ذكراه ولا أقيم له

احتفال متواضع هنا أو هناك ولا ذكرته صحف تزعم أنها تعنى بأخبار الأدب والأدباء، ولا نصب له تمثال ولو فى حى شبرا حيث ولد فى ٣١ ديسمبر ١٨٩٨ وحيث مارس الطب فى عيادته. ولا عليك يا ناجى فقد عدد الشاعر أحمد زكى أبو شادى ذنوبك الكثار فى مرثيته حيث قال:

أترى كل ذنبـــه أنه شـــاعـــر شـــعـــر
أنـه نـغـم الأسـى أنـه طـارد الضـجـــر
أنه شع أنســه فى مـجـالس السـمـر
أنه أبدع المنى مـثـلمـا أبدع الصـور
أنه داعب الهـوى والهـوى كله خطر
أنه أنقـذ الورى من شـرور ومن شـرر
أنـه أسـكـر النـهـى وهـو من همـه سكر
أنه أنضـر الربى حـينمـا صـوح الشـجـر
أنه أنتج الجنى فى دنى النحل والبـشـر
أنه صـاغ شـعـره من دمـوع ومن فكر
أنه رف مطربا مـا تسـامى ومـا ندر
أنه كـان طبـه فـوق طب ومـخـتـبـر
أنه عـاش دائمـا ضـاحكا يهـزم الكدر
أنه كـان شـعلة من ذكـاء، وكم بهـر
لم تفـتـه أصـالة إن يكن فـاته الوطر

الدكتور أنور لوقا

رحل فى شهر أغسطس الماضى الباحث الأكاديمى الأديب الدكتور أنور لوقا الذى اختار منذ أكثر من ثلاثين عاما أن يعيش فى جنيف بسويسرا وأن يعمل أستاذا للفكر العربى فى جامعاتها وفى الجامعات الفرنسية قائما بشخصه بدور السفير الأدبى بين الثقافتين العربية والافرنجية ولئن غادر مصر فى ظروف التضييق حتى على أساتذة الجامعات وكان وقتها يعمل أستاذا فى جامعتى القاهرة وعين شمس - فلا يسمح لهم بالسفر إلا بالورقة الصفراء ودون الحصول عليها أهوال - ولأنه كان مضطرا بحكم زواجه من سيدة سويسرية إلى السفر إلى بلادها فقد ارتأى الاستقرار فى سويسرا حتى لا يتعرض للمضايقات فى كل رحلة إلى مصر. وبمجرد انتهاء هذه الظروف كثرت زياراته إلى القاهرة للمشاركة فى المؤتمرات والأنشطة الفكرية وكانت رحلاته قبل ذلك تتجه إلى تونس وسورية وإسبانيا وتركيا وغيرها، حيث تلقى مشاركاته فى مؤتمراتها تقديرا يليق بعلمه وفضله.

ولد أنور لوقا فى ملوى بصعيد مصر فى عام ١٩٢٧ فلما وصل إلى المرحلة الجامعية قربه أستاذه طه حسين إليه وظل هو على وفائه الدائم لهذا الأستاذ الذى اعتبره أبا روحيا له وفى عام ١٩٥٠ سافر إلى باريس للالتحاق بجامعة السوربون ومنها نال درجة دكتوراه الدولة فى الأدب المقارن وكان موضوع رسالة الرحالة والكتاب المصريون فى فرنسا فى القرن التاسع عشر وأعد رسالة تكميلية عنوانها دراسة تأصيلية لنص الطهطاوى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز.

كما التحق في المعهد العملي للدراسات العليا في العاصمة الفرنسية وبعودته إلى جنيف عمل أستاذا بمعهد الترجمة وبمعهد المكتبات وشغل منصب أستاذ اللغة العربية وآدابها في جامعة بروفانس وجامعة ليون الثانية في فرنسا.

وعند تقاعده أقامت جامعة ليون الثانية حفلا رسميا كبيرا لتكريمه وتوديعه تبارى الأساتذة في التحدث عن مناقب أنور لوقا الأكاديمية والخلقية وإسهامه في تعريف الطلاب بمفاخر الأدب العربي.

أما مؤلفاته سواء باللغة الفرنسية أو العربية فمنها كتاب «بلزاك حياته وأدبه» و«كتالوج المخطوطات العربية في المكتبة العامة لجامعة جنيف» و«مراسلات جان تينيه المصرية ١٨٥٧ - ١٨٨٢» و«مصر في القرن التاسع عشر من واقع مراسلات القنصلية البرتغالية» و«جوانب خفية من الثورة العرابية: سلطان أفندي» و«ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي» و«إدريس أفندي في مصر»، و«أبو حيان التوحيدي وشهرزاد» و«حوت لابروبير» و«قصص من الريف والمدينة»، لبوبيه و«تقاليد الفروسية عند العرب» الذي ترجمه عن واصف بطرس غالي باشا، والترجمة الفرنسية لكتاب «الفتنة الكبرى» لطه حسين وكتاب «المعلم يعقوب» عدا عشرات من البحوث والدراسات باللغتين العربية والفرنسية من أبرزها دراسته المعنونة «ظلال على الأدب العربي في العالم» التي قدمها إلى مؤتمر المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة وله فضلا عن ذلك كتاب «من بونابرت إلى طه حسين» ومساهمات في «موسوعة تراث القبط» التي يجري طبعها الآن في القاهرة.

وكان أنور لوقا أخبرني أنه عاكف على كتابة سيرته الذاتية وذكرياته عمن عرفهم وعمل معهم في حياته ولكن المرض داهمه فحال دون إتمام هذا المشروع.

ومما يذكر أن معهد العالم العربي في باريس أصدر عددا خاصا من نشرته «العالم العربي في البحث العلمي» لأنور لوقا فيه سجل حافل بجلائل الأعمال الأكاديمية التي أنجزها هذا العالم الكبير في أكثر من أربعين عاما من العمل الجاد في الدراسات العلمية والتدريس الجامعي.

رابح لطفي جمعة

توفي في الثامن والعشرين من أغسطس الماضي رجل القانون والأدب رابح لطفي جمعة عن عمر أربى على السبعين عاما ومع أنه من جيراني، إلا أنني لم أعرفه إلا في تونس عندما شاركنا في مؤتمر أدبي وقلت له يومها إنك مقصر في حق أبيك العلامة الكبير محمد لطفي جمعة فكيف لم تنشر سيرته أو تهتم بآثاره؟ فقال أما سيرته فقد نشرتها في سلسلة الأعلام وسأوافيك بنسخة منها عند عودتي إلى القاهرة وهو وعد وفى به. أما آثاره المخطوطة فهي محفوظة عندي كلها وأنا حريص على إخراجها بعدما أفرغ من تنسيقها وإعدادها للنشر ولم يلبث أن أهداني كتابه الأول من تراث أبيه بعنوان محمد لطفي جمعة وهؤلاء الأعلام وهو كتاب يكشف عن خفايا الحياة الأدبية من واقع مئات من الرسائل تبادلها لطفي جمعة مع كثيرين من أعلام عصره.

وتواصلت بعد ذلك مؤلفات لطفي جمعة منشورة بعناية ابنه رابح ومنها كتب في التاريخ والدين والسير والأدب الروائي والمأثورات الشعبية ومترجمات وكذلك المذكرات الشخصية له فإن عرفنا أن رابح نشر كل هذا التراث على نفقته الخاصة وأنه لم يودع الدنيا إلا بعد إخراج كل آثار محمد لطفي جمعة، أكبرنا في رابح هذا الوفاء العظيم لا

لأبيه فقط بل للفكر والثقافة عامة.

وكان آخر ما أخرجه رابح لطفي جمعة من مؤلفاته الشخصية ديوان لذكراك وهو صفحة من الوفاء العميق لزوجته التي رحلت في العام الماضي وهو رحيل زلزل زوجها حسب تعبيره ولهذا أخذ يعلل نفسه بقرب اللقاء وألا تطول وحدته على الأرض حيث قال:

على أمل اللقاء أعيش عمرى
أعد له الدقائق والثوانى
هناك الشمل مؤتلف جميع
ننعم بالتلاقى والتدانى
فلا نخشى فراقا أو رحيلا
ولا نخشى فجاءات الزمان

إنه ديوان باك نظمه صاحبه بقلبه المفجوع دون أن ينهاه عن ذلك وقار الشخيوخة من ناحية وهيبة كرسي القضاء من ناحية فقد تدرج به هذا الكرسي في سلك القضاء إلى أن أصبح نائبا لرئيس المحكمة الدستورية العليا بدرجة مستشار.

توفيت الزوجة في يناير ٢٠٠٢ وبعد أقل من عامين لحق بها رابح، وكان يتعجل الرحيل حتى قبل هذه الفترة الزمنية القصيرة.

ولرابح لطفي جمعة ديوان آخر عنوانه «حطب الليل» أهداه إلى: «توأم نفسي وروحي إلى أخت عمري، رفيقة رحلتي في درب الحياة إلى زوجتي»، وهو ديوان يجمع بين الشعر الوطني والشعر الوجداني وشعر الطبيعة بشاعرية تتألق جمالا وروعة فاصغ إليه يقول في تحية القاهرة في عيدها الألفي:

قم ناج قاهرة المعز ونادها
واستلهم الأشعار من أمجادها
واقرأ على سمع الزمان كتابها
وانشر جمال طريفها وتليدها
وادخل إلى التاريخ في محرابه
واسترجع الأيام من آبادها

وهي قصيدة تذكرنا بقول شوقي في كشف قبر توت عنخ آمون:

أفضى إلى ختم الزمان ففضه
وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى
فرعون بين طعامه وشرابه

وليس على الشاعر من حرج إذا ما تأثر بشعر الأولين والآخرين فالمعاني الجميلة ترد على الخاطر بوعي من جانب الشاعر أو بغير وعي.

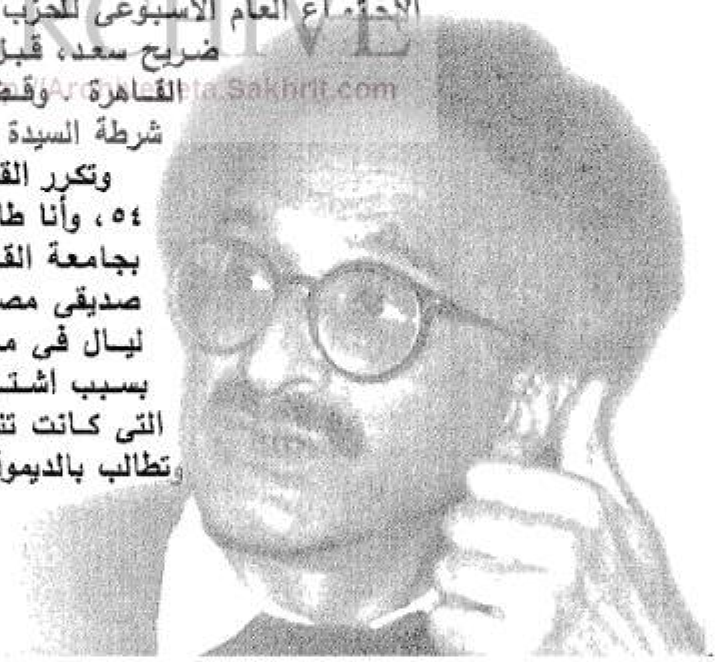
لقد مد الله في عمر رابح حتى أنجز رسالته في الحياة كما توخاها تماما فمات راضيا مرضيا. ■

يوميات السجن

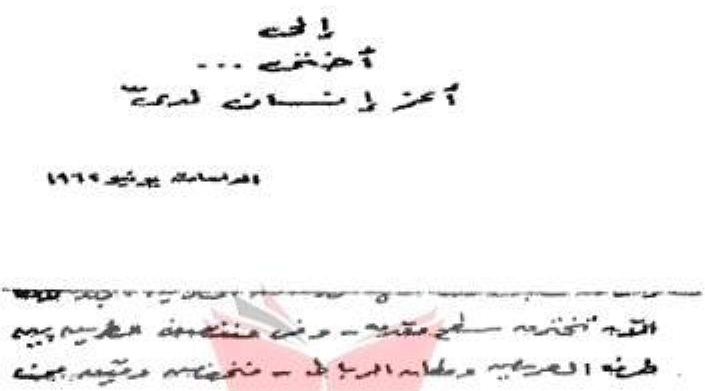
صنع الله ابراهيم

السجن هو جامعتى. ففيه عايشت القهر والموت، ورأيت بعض الوجوه النادرة للإنسان، وتعلمت الكثير عن عالمه الداخلى وحيواته المتنوعة، ومارست الاستبطان والتأمل، وقرأت فى مجالات متباينة. وفيه أيضاً قررت أن أكون كاتباً.

تعرضت لتقييد حريتى أول مرة عام ١٩٥٢ عندما كنت ما أزال فى الخامسة عشرة من عمرى. إذ قبض علىّ فى الاجتماع العام الأسبوعى للحزب الإشتراكى، بشارع ضريح سعد، قبل أسبوع من حريق القاهرة. وقضيت ليلة فى قسم شرطة السيدة زينب.



وتكرر القبض علىّ فى عام ٥٤، وأنا طالب فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة. واحتجزت مع صديقى مصطفى الحسينى ثلاث ليال فى مركز شرطة الدقى بسبب اشتراكنا فى المظاهرات التى كانت تندد بالحكم العسكرى وتطالب بالديموقراطية



صورة من أول مجموعة قصصية تم نشرها داخل السجن

ولعلي قررت في هذه الأيام الثلاث أن انتقل من التظاهر إلى الفعل المنظم فالتحقت بعدها مباشرة بإحدى التنظيمات السرية ، وأهملت دراستي ، منكباً على النشاط السري من اجتماعات وطباعة منشورات وتوزيعها . وبعد سنتين اشتركت في مظاهرة نظمها أهالي المسجونين السياسيين أمام نقابة الصحفيين وقبض عليّ من جديد وفي هذه المرة ارتفعت مرتبتي فقضيت شهراً في سجن القناطر الخيرية وخرجت إلى الشارع في نفس اللحظة التي كان فيها جمال عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس.

قبض عليّ مرة أخرى بعد شهور قليلة عندما كنت أوزع منشورا يدعو إلى الوقوف صفا واحداً خلف جمال عبدالناصر في مواجهة العدوان الثلاثي. وجرى إيداعي في قسم شرطة الدقي مرة أخرى لكن لمدة ساعات إذ وصل على الفور حسن طلعت مدير المباحث الذي صار بعد عشر سنوات أميناً للاتحاد الاشتراكي في القاهرة.

أخذني حسن طلعت في سيارته

وأجلسني بجوار السائق وجلس ورائي ثم انهال على رأسي باللطمات وأنا عاجز عن تفاديها، وأرفقها بمجموعة طيبة من الشتائم والإهانات فضلاً عن اتهامي بالمسئولية الشخصية عن العدوان الثلاثي نفسه! وتواصل ضربي وتحطيم نظارتي في بدروم الفيللا التي تضم مكتب مباحث الدقي وكانت في الشارع الذي يوجد به منزل الكاتب الكبير «أحمد أمين». واستمر ذلك ثلاث ليال حتى أنقذني الإنذار الروسي فاستدعاني إلى مكتبه واعتذر لي بأنه فقد أعصابه بسبب خوفه على الوطن(!) وأفرج عني.

والمرة الأخيرة

ولم يمض عامان وأقل من ثلاثة أشهر حتى قبض علىّ مرة أخرى، مع مئات آخرين، في فجر أول يوم من عام ١٩٥٩، دون أن يوجه اتهام محدد إلى أحدنا. وأخذونا إلى معتقل القلعة.

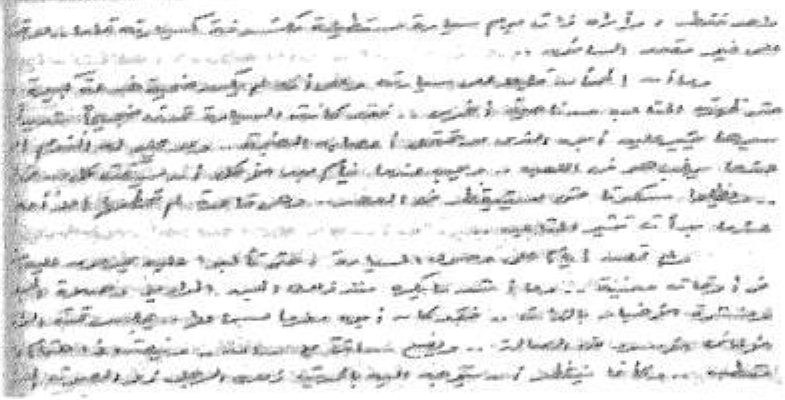
والقلعة كما هو معروف استهلها صلاح الدين قبل ثمانية قرون ونمت مبانيها وتوسعت على مدى الزمن. أضاف إليها محمد علي المسجد الشهير ذا القبة ثم أنشأ بها الإنجليز سجنا حربياً ظل يستقبل الثوريين والسياسيين حتى بعد جلائهم عن مصر سنة ١٩٥٤. وكان آخر نزلاء هذا السجن الصغير مجموعة الأصوليين الإسلاميين الذين قتلوا أنور السادات في عام ١٩٨١. إذ أغلق بعدها وجرى تحويله إلى متحف للشرطة .

سجين العصر الحديث

يتألف السجن ، المتحف من عنبر طويل تعلوه سلسلة من الزنازين الصغيرة التي شيدت على جانبي ممرين مفتوحين . وفي أربعة من هذه الزنازين توجد الآن مانيكانات تمثل سجناء من عهود مختلفة ، تميزها ملابسهم واللافتات المثبتة إلى جوار الأبواب، وتشير ثلاث من هذه اللافتات إلى عهود المماليك والعثمانيين ومحمد علي ويظهر فيها السجناء في الملابس التي تميز تلك العهود مقيدين بسلاسل حديدية إلى أوتاد ، وتتغير الصورة في الزنزانة الرابعة التي تعلن لافتتها عن «سجين من العصر الحديث» فنشاهد داخلها مانيكانا يرتدي الملابس العصرية (قميص وبنطلون) ويضع على عينيه نظارة طبية ويمسك كتاباً . وهي صورة تثير الاعجاب بالمصمم الذي أدرك الارتباط بين التمرد والوعي لكنها مع الأسف تفتقر إلى الدقة التاريخية، كما لمست بنفسي . ففي اليوم الأول من عام ٥٩ مررت مع عشرات المعتقلين من البوابة الخشبية واستقررت في هذه الزنزانة ذاتها. وبقينا عدة شهور محرومين من الصحف والراديو والكتب والورق والقلم.

سجن مصر

خلال تلك الفترة كان عددنا قد تضاعف وضاقت بنا زنازين السجن الصغير فنقلنا إلى السجن المركزي القريب، الذي كان يعرف بسجن مصر. وفي هذا السجن المكدس أصلاً بنزلائه من



لجأت الي احد الزملاء الناسخين المتخصصين في عملية النسخ فنسخ لي مخطوطة هي أول محاولة لي في الرواية

المجرمين العاديين كان من الصعب تطبيق اجراءات خاصة على مجموعة بعينها من النزلاء فالزحام يجعل الاحتكاك بالمسجونين الآخرين أمرا لا مفر منه وبالتالي يتيح فرصة الحصول على الصحف والكتب منهم. إذ كانت بالسجن مكتبة ضخمة تكونت أغلب محتوياتها على مدى عشرات السنين من مساهمات النزلاء أنفسهم الذين ضموا نسبة محترمة من المتعلمين والأجانب. وكان هؤلاء يجلبون مايشاءون من كتب بلغات مختلفة ويتركونها عند مغادرتهم للسجن. وعندما هددنا بالاضراب عن الطعام إذا لم يسمح لنا باستخدام المكتبة وافقت الإدارة على أن يذهب مندوب واحد عنا إليها ويقترض بضعة كتب توزع على الزنازين ويتم تبادلها بيننا ثم تستبدل بمجموعة غيرها.

بالطبع لم يكن من الممكن التحكم في اختيارات المندوب التي يحاول بها إرضاء الأذواق المختلفة. هكذا أتيحت لي الفرصة لأن أقرأ كتباً لم يكن من الممكن أن أختارها بنفسي. كنت في الواحدة والعشرين من عمري ومازلت مغرماً بروايات المغامرات (البوليسية والتاريخية) فضلاً عن الكتب السياسية التي كنت أقرأها بغير حماس. وصرت فجأة مرغماً على القراءة لكتاب لم أهتم بهم من قبل وفي موضوعات لم تخطر لي على بال. قرأت لطه حسين عن المتنبي وأبي العلاء المعري والمازني. وللشاعر الانجليزي روبرت جريفز عن الامبراطور كلوديوس، ومازلت أذكر غلاف هذا الكتاب الأصفر اللون البسيط التصميم والذي حمل علامة القطرس، شعار دار النشر الشهيرة في الثلاثينيات. قرأت أيضاً كتاباً فريداً بالانجليزية لكاتب ذي اسم هولندي لا أذكره وموضوعه الجغرافيا التي عذبتني في المدرسة. وأمتعني الكتاب بطلاوة

أسلوبه وخفة دمه وجعلني أدرك أن هناك دائماً مجالات مثيرة في كل علم وأن أكثر الموضوعات جفافاً وتعقيداً يمكن أن تتحول إلى قصة طريفة إذا كان الكاتب واسع الثقافة عاشقاً لموضوعه وحريصاً على توصيله للآخرين.

تعرفت أيضاً على عالم العمارة وإنجاز «فرانك لويد رايت» من خلال رواية «النافورة» للكاتبة الأمريكية المحافظة آني راند، وعلى عالم الحيوان والعلاقة بينه وبين عالم الإنسان من كتاب جميل للكاتب السويدي أكسيل مونتيه نشره مشروع الألف كتاب العظيم. ولعل هذا الكتاب هو الذي وضع في رأسي البـذرة الأولى لسلسة الروايات التي كتبتها بعد عقدين من عالم الحيوان.

ولم نهنأ طويلاً

خففت هذه الكتب من معاناتنا فقد كنا نقيم في زنازين صغيرة تتسع كل واحدة لثلاثة أسرة حديدية تعلو بعضها البعض وكانت الحشرات تمنعنا من النوم فنقضي الليل في القراءة وننام بالنهار عندما تهجع، لكننا لم نهنأ بهذا الوضع طويلاً فقد نقلنا خبراء الأمن إلى سجن القناطر الخيرية ووضعونا في مكان منعزل وحرمونا من فرصة الاختلاط بالسجناء العاديين والحصول على الصحف كما منعونا من استخدام المكتبة ومن الاستماع إلى الراديو.

كانت هذه فترة قاسية حقاً. فالمكان شديد البرودة. وفراشنا مكون من برش من الليف وبطانية. وفرضوا علينا أن نضع هذا الفراش كل صباح خارج الزنازين التي تغلق علينا حتى المساء ونقضي اليوم كله ونحن نقفز كالقرود إلتماساً لبعض الدفء وخلال ذلك نتبادل الحكايات . هكذا بدأت أتذكر أحداث طفولتي التي انشغلت عنها بحاضري، وعندما انتهت الحكايات واستنفذت انفتح المجال لأحلام اليقظة.

الكتب المقدسة

لجأنا مرة أخرى إلى سلاح التهديد بالاضراب عن الطعام لكن أحد لم يعبأ بنا فاضطررنا إلى تنفيذ تهديدنا . وتركت الإدارة المضربين حتى أشرفوا على الموت بعد أربعة وعشرين يوماً . فاضطررنا لإيقاف الإضراب. عندئذ لجأنا إلى حيلة أخرى لم نتورع فيها عن إستغلال الاحترام التقليدي للدين. فلم يكن بوسع مدير السجن أن يرفض مطالبتنا بالكتب المقدسة هكذا أتيح لي أن أقرأ القرآن والتوراة والانجيل من الغلاف إلى الغلاف وأظن أن هذه القراءة كانت من أهم العوامل في تكويني إذ أرتني العلاقة القائمة بين الكتب الثلاثة والتجليات المختلفة للحلم الإنساني بالعدل والمساواة. كما أن الحكايات التاريخية في التوراة والقرآن روت عطشي إلى القصص. ونشط خيالي في تطوير كثير منها.

في مارس من العام التالي نقلنا إلى سجن الاسكندرية للمثول أمام محكمة

عسكرية بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم. وبعد أسبوع تعرضنا لعلقة ساخنة توجت بسكب دلاء البول والبراز فوق أجسادنا العارية.

تراجيديا يونانية

استمرت المحاكمة ثلاثة شهور لم ينجح فيها الإدعاء في تقديم دليل واحد يؤيد الإتهام الموجه إلينا. فقد كان موقفنا واضحاً من تأييد النظام الوطني بدافع من عقيدتنا الفكرية . وبدأت أشعر أني أتحرك في تراجيديا من النوع اليوناني وخاصة عندما نقلنا إلى معتقل أبي زعبل الملحق بالليمان الشهير في ضواحي القاهرة.

كانت قد تواترت إلى مسامعنا أنباء عما يجرى داخل هذا المعتقل الرهيب من تعذيب يومى لمئات من زملائنا. وتأكد ما سمعناه عندما وصلنا إلى باب المعتقل في صباح الخامس عشر من يونيو ١٩٦١ . فقد أعد لنا خبراء الأمن استقبالاً حافلاً تمخض عن مصرع «شهدى عطية الشافعي» وهو يهتف باسم جمال عبدالناصر، وإصابة العشرات بجراح وكسور بالغة.

ولد «شهدى عطية الشافعي» سنة ١٩١٢ ودرس اللغة الانجليزية وآدابها في بريطانيا وأسس دار «الأبحاث العلمية» بعد عودته في نهاية الحرب العالمية الثانية ثم شارك في قيادة «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» سنة ١٩٤٦ . وقبض عليه في العام التالي وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات فصار أول سجين سياسى يدخل الليمان ويقيد بالسلاسل الحديدية. وفي أعقاب الثورة أفرج عنه بثلاثة أرباع المدة فساهم في تأسيس جريدة «المساء» وتوحيد الحركة الشيوعية وظل خاضعاً لحكم المراقبة القضائية حتى اعتقاله مرة ثانية في أول «يناير» ١٩٥٩ .

عرفته أولاً من خلال كتابه الرائد عن تاريخ الحركة الوطنية المصرية الذى صدر سنة ١٩٥٧ ثم اقتربت منه وعملت معه في دار صغيرة للنشر أسسها . تعلمت منه أخلاقيات العمل الجاد المنضبط والترجمة من الإنجليزية إلى العربية . وكنت أعتبره بمثابة والد أو أخ أكبر. وكان يتميز بقامة طويلة وعظام مريضة بينما كنت وما زلت نحيف البنية ضئيلها ولهذا السبب اختار أن نشترك سوياً في القيد الحديدى لمعصمينا خلال الرحلة المشئومة من الاسكندرية إلى أبي زعبل. وربما كنت آخر من رآه قبل أن يبدأ التعذيب الذى انتهى بمصرعه بعد ساعات.

المحنة ما جرى لي بعد ذلك مثل أصعب محنة مررت بها في حياتي. كانت زوجة «شهدى» قد اقتفت أثر رحلاتنا من الاسكندرية إلى أبي زعبل في سيارتها وسمعت من الحراس بمصرع زوجها. وسرعان ما ذاع الخبر وظهر نعي الشهيد في جريدة الأهرام، ألمح من خلال أبيات من الشعر المتنبى على ما أظن، إلى الظروف التي جرى فيها مصرعه وتناقلت وكالات الأنباء الخبر. وكان عبدالناصر وقتها في بلجراد وتعرض لأسئلة صحفية

بشأنه فأمر بإجراء تحقيق فى الأمر.

وفى اليوم التالى استدعيت أنا وثلاثة من الزملاء إلى مكتب أحد ضباط المعتقل وبعد التأكد من طبيعة آثار التعذيب على ظهورنا صرف اثنين منا. ثم أبلغنى أنا وزميلى - وقد وقفنا أمامه فى انتباه وعيوننا إلى الأرض - بأننا سننتقل بعد قليل إلى المبنى الرئيسى لليمان حيث نمثل أمام النيابة كى ندلى بشهادتنا فى واقعة وفاة شهدى، وقال بلهجة ذات مغزى إن شهدى «توفى فى الطريق من الاسكندرية وقبل وصولنا إلى المعتقل».

لم ينتظر منا إجابة ولم يكن فى حاجة إلى ذلك إذ كنا مشلولين. ولم يلبث أن تركنا فجأة فى حراسة «صول» شرس، ووجهنا إلى الحائط همست لزميلى، المرحوم الصيدلى سعد الدين بهجت، متسائلاً: حنعمل إيه ياسعد؟ ورد على قائلاً إنه سيبلغهم بأن شرفه العسكرى يمنعه من تنفيذ هذا المطلب. وكانت له سابق خدمة بالجيش.

وعقبت: طب وأنا أقول إيه؟

كان ذهنى عاجزاً عن التفكير وعن اتخاذ قرار فقد كنت مشلولا من الرعب. حولنى هول ماحدث إلى مايشبه الروبوت ولا أستبعد أنى كنت سأقوم بما طلب منى. ولحسن الحظ أن الموقف تغير تماماً بعد لحظات إذ اقتحمت النيابة مبنى المعتقل وتوقف التعذيب وأدلينا جميعاً بشهاداتنا عن حقيقة مصرع شهدى وما تعرضنا له من تعذيب.

أرتنى هذه التجربة بشاعة القهر وما يؤدى إليه من إهدار الكرامة الإنسانية. وعلمتنى النظر إلى الإنسان ككل متكامل مؤلف من نقاط قوة وضعف ، وكانت المرحلة التالية فرصة لممارسة هذا الفهم وتدعيمه.

المختبر

فقد نقلنا إلى سجن المحاريق بالواحات الخارجة، على مبعدة حوالى ٤٠٠ كيلومتر من شاطىء النيل حيث سبقنا عدة مئات من المعتقلين - وقبلهم عدة مئات آخرين من السجناء السياسيين من الشيوعيين والإخوان المسلمين. وطبقت علينا جميعاً سياسة العزل التام التقليدى.

كان بيننا ممثلون لكل مناحى الحياة: صحفيون وكتاب ونقابيون وعمال وأساتذة جامعات وعلماء وفنانون ومزارعون وطلاب. وتجمعنا فى زنازين كبيرة لايقل عدد أفراد الواحدة منها عن أربعة عشرة نزيلا. وصارت الزنزانة مثل المختبر العلمى للسلوك البشرى ولقصص الحياة.

اعتمدنا لفترة طويلة فى تزجية الوقت على الألعاب الجماعية التى تتناول موضوعات ثقافية متنوعة وعلى ذكريات ونوادر الحكائين ثم ولد الكتاب المسموع. فقد كان البعض يتمتعون بذاكرة قوية لقراءاتهم ويجيدون سردها. وصاروا مثل النجوم تتنافس الزنازين على استقبالهم ويتم تهريبهم من زنزانة إلى أخرى لقضاء

أمسية يمارسون فيها موهبتهم.

وألفت أن أترك هذه الأحاديث والحكايات تحملني على أجنحتها، فأتخيل نفسي في أماكن غريبة: على شواطىء البحر الأحمر أو في وحوش أو في صحراء لانهاية لها وصاعداً جبالاً من الثلج أو نائماً في خيمة على حافة بركان أو منفرجاً من أعلى ناطحة سحاب وكنت أصوغ لنفسي في كل ليلة حياة مختلفة: فلاح يجمع القطن أو بحار في مركب ينتقل بين الموانىء أو شيال في ميناء أو رحالة متسلق للجبال أو صياد يبدأ يومه بالليل أو عامل في عنبر من آلاف العمال والآلات التي تطن وتتوقف مرة واحدة أو عالم في معمل كبير مليء بالأنابيب والتحاليل والاكتشافات أو صحفي يلف العالم ويعيش بقلمه وأعصابه أخطر الأزمات والأحداث. حيوات متعددة مثيرة تستهويني كلها وأريد أن أعيشها جميعاً.

رادار

أمثال هذه المنافي تخلق وضعاً لاتستطيع أي سلطة مقاومته. فالحراس من جنود وضباط هم أيضاً مسجونون بسبب المسافة التي تفصلهم عن العمران. ولا مفر من أن تنشأ بينهم وبين مسجونيهم مع الوقت علاقات انسانية. هكذا أمكن اقناع البعض بالقول وأغلب الأحيان بالمال لكي يجلبوا بعض الكتب عند عودتهم من العطلات ويدفنوها في رمال الصحراء، وفيما بعد يتم نقلها إلى داخل السجن لتستقر في مخابىء تحت



صورتي من البطاقة الشخصية بعد خروجي من السجن بشهرين سنة ١٩٦٤

الأرض.

وبالطبع لم يكن من الممكن التحكم في نوعية الكتب القادمة فأنت لاتستطيع أن تعطي حارساً شبه أمي قائمة بالكتب التي تريدها وإنما تعطيه عنوان أحد الأقارب ورسالة شفوية تطلب فيها أن يبعث بما يتوفر لديه من كتب. ومرة أخرى ألقيت نفسي أمام فيض من الكتب شديدة التنوع من مرجع أكاديمي سوفييتي عن الفسيولوجي إلى دراسة عن الأسس النفسية للإبداع الفني للعالم المصري مصطفى سويف وعرض مبسط لنظرية النسبية وبعض مجلدات من تاريخ الحضارة وقصة الفلسفة لول ديورانت. كان كل كتاب منها يثير فيّ مشاعر غريبة من التوتر والإثارة ويحرك شحنة في الوجدان. وصرت في تلك الفترة أشبه برادار يتحرك في كل الاتجاهات، يلتقط كل شيء، وتقوم المادة الملتقطة على الفور بشحن بطاريات الخيال.

ثلاثية نجيب محفوظ

ولازلت أذكر اليوم الذي وصلتنا فيه

ثلاثية نجيب محفوظ عقب نشرها مباشرة. وكان الزميل المسئول عن توزيع الكتب يحتفظ بقائمة طويلة للرغبات سجلها بعود محروق من الخشب على قاعدة صندوق سجائر وعندما هرعت لإضافة اسمي أمام الثلاثية وجدت أمامي طابورا طويلاً من الحاجزين. ولما كان المرضى يقدمون على غيرهم في مختلف منافع الحياة المشتركة ، من طعام وخلافه، فقد تظاهرت بالمرض، لكني اكتشفت أن أمامي عدداً كبيراً من المرضى الذين يحتاجون لتسلية لا تتوفر إلا في ثلاثية محفوظ بالذات. وتفتق ذهني عن حجة جديدة لتخطي زملائي فزعمت أني مقبل على كتابة عدد من القصص الأدبية وفي حاجة شديدة أكثر من غيري لقراءة الثلاثية لكي أتعلم منها. وفوجئت بأن عدداً لابأس به من الزملاء قرروا أيضاً ممارسة الكتابة الأدبية ويحتاجون جميعاً لشحذ إبداعهم بقراءة نفس الرواية . بل كان منهم كتاب حقيقيون بالفعل مثل فؤاد حداد، إبراهيم عبدالحليم، محمد خليل قاسم الذي كان يكتب رائعته الشمندورة إلى جانب مشاريع كتاب مثل عبدالحليم قاسم وكمال القلش وفؤاد حجازي وحسن عبد ربه ومتولي عبد اللطيف وغيرهم.

محاولة الكتابة

والواقع أني لم أكتب عندما تذرعت بمشروعاتي الأدبية . فقد كنت أتحرق شوقاً لوصف مارأيت وسمعت وعرفت. وكتبت بالفعل عشرات القصص والروايات في رأسي! ولم ألبث أن ضقت بهذا الشكل من الكتابة وأخذت اتطلع إلى استخدام الورقة والقلم.

وأظن أني بدأت في تلك الفترة أفكر في الكتابة كمهنة. ففي سن الخامسة عشر فزت في مسابقة للقصة نظمها «عزيز أرماني» مؤلف القصة الشهيرة «خذني بعاري». ثم كتبت بعض القصص على المنوال الواقعي الذي تجلى في قصص عبدالرحمن الخميسي وعبد الرحمن الشرقاوي ويوسف إدريس. وبل وسعيت للتعرف إلى الأخير عندما أشرف على باب القصة في روزاليوسف عام ١٩٥٤ وعرضت عليه إحدى قصصي التي أعجبته ووعدني بنشرها. ولم يلبث أن أعتقل فلم يتحقق الوعد. ثم انهمكت بكل قواي في النشاط السياسي واعتبرت محاولاتي الأدبية عبث مراهقين. وأعادتني التطورات إلى البداية الأولى.

كنا قد حصلنا على مكسب اعتبرته الإدارة انتصاراً لها. فقد كانت خطة تحطيمنا تتضمن إرغامنا على العمل في تكسير الأحجار. ولما كانت المنطقة تخلو من المرتفعات لم تجد إدارة السجن ماترغمنا على عمله. لكنا كنا نملك مفهوماً مختلفاً «العمل»، ونجحنا في إقناعهم بأن «يرغموننا» على إنشاء مزوعة تمد السجن بالخضراوات الضرورية . واحتاج الأمر إلى إعداد حوض كبير من المياه لشئون

الرى. وذات صباح أنزلت الناقلات كميات من الأسمنت فى أجولة من الورق السميك أمام موقع العمل. وفى المساء كانت هذه الأجولة الورقية قد تسربت إلى الزنازين وتم تمزيقها إلى شرائح جاهزة للكتابة. ولم يكن من الصعب الحصول على أجزاء صغيرة من أقلام الرصاص. وسرعان ما تمكنت من كتابة أول قصة باسم «الضربة»، بوحى من التأميمات الشهيرة. وعرضتها على أصدقائى فى مزيج من الزهو والخجل ثم تتابعت القصص.

الدرس الأول

لم أكن قادراً بعد على تمثيل تجاربى الشخصية فاعتمدت على تجارب الآخرين. كتبت قصة عن تجربة مر بها كمال القلش فى طفولته وعرض علىّ إبراهيم المناسترلى أن أكتب قصة فى حلقات مقابل ثلاث سجائر لكل حلقة. وبعد الحلقة الأولى أدركت أنى لن أتمكن من المواصلة رغم الاغراء المادى! لم تكن هناك لذة فى الكتابة لأنى كنت أتعامل مع تجارب لم أعشها. ووجدت هذه اللذة عندما أصيغ بعض القصص من أجواء طفولتى. هكذا تلقيت درسى الأول: ألا أكتب إلا عما أعرفه شخصياً جيداً..

القبض على

كانت الكتابة تتم فى المساء بعد إغلاق السجن وانصراف الحراس إلى ثكناتهم القريبة. عندئذ كانت تبدأ السهرة بإعداد طعام العشاء ثم تفتح المخابىء ليحصل كل واحد على أوراقه أو جواله وقلمه. وحوالى منتصف الليل يعود كل ذلك إلى مخبئه. وبالرغم من إدراك الجميع لأهمية الإبداع الأدبى فمن الطبيعى أن ينظر إلى ما أفعله على أنه أقل أهمية من الأوراق الحزبية والسياسية وكتب ماركس وانجلز ولينين وماوتسى تونج. وفى أحيان كثيرة كان المسئول عن المخبأ يتذرع بعدم وجود مكان لهذه الحفنة من الأوراق البنية اللون التى لاتحتوى على أكثر من مجرد قصة وبالتالى لابد من إعدامها. ولهذا سعيت لأن أصبح أنا نفسى مسئولاً عن المخبأ الموجود فى زنزانتى كى أضمن مكاناً لبنات أفكارى. لكنى لم أتمتع بهذه الميزة طويلاً. ففى أحد الأيام وبينما أنا استخرج الكتب والأوراق ذات الرائحة الرطبة من المخبأ قام الحراس بحملة تفتيش مفاجئة ولم أتمكن من التصرف بسرعة فوجدونى متلبسا بالجريمة الكبرى.

اقتادنى الحراس إلى مكتب المدير وفى أعقابى عدد من المسجونين من ذوى الشخصيات البارزة الذين يمثلوننا عادة عند التعامل مع الإدارة، مثل الدكتور شريف حتاتة وصلاح حافظ وأحمد الرفاعى. وهناك جرت مواجهة عكست ميزان القوى الجديد فى السجن. فقد دافع المندوبون عن حقنا فى حيازة الكتب وهدد أحدهم - فؤاد حبشى - بإعلان العصيان إذا مسنى أذى أو صودرت المضبوطات. وقرر المدير أن يتراجع فى

هدوء ويتغاضى عما حدث وعدت منتصراً بكتبي وأوراقي.

الكتاب الأول

كانت هذه المواجهة مؤشراً على التحسن الذى طرأ على وضعنا نتيجة انفراج الوضع السياسي بالبلاد، واتساع حركة الاحتجاج العالمية على سجننا، وانعكس ذلك على النشاط الثقافي. فقد سمح لنا بإقامة مسرح رومانى قدمنا عليه مسرحية عيلة الدوغرى لنعمان عاشور ومسرحية لصلاح حافظ وأخرى لألفريد فرج. وصارت الإدارة تغض الطرف عن وجود الصحف والكتب. وصار فى وسعى أن ألجأ إلى المرحوم إبراهيم عامر ليترجم لى عن الفرنسية مقال عن جيمس جويس فى «ماجازين ليتيرير» أو دراسة عن عبادة الفرد فى مجلة «لابانسيه». وظهرت أنواع أفضل من الورق فى صورة الكراريس المدرسية وتوفرت أقلام كاملة للكتاب الشبان من أمثالى. كما أتيح لهم أن ينقلوا إبداعاتهم على ورق لف السجائر الرقيق بخط دقيق يسمح بتهريبها إلى الخارج. وبدأت أفكر فى رواية طويلة كتبت منها عدة فصول. بل احتفظت بيوميات دونت فيها خواطرى ومشروعاتى القصصية وتعليقات على الكتب التى قرأتها وأسماء كتب أود قراءتها فى المستقبل.

على أن أبرز أثر أحدثته فى هذه القراءات هو رغبتى فى أن أصبح لى أنا الآخر كتاب، كانت هناك الآن نشر واسعة تخضع لسياسة محددة، فالأولوية للكتب السياسية والنظرية ولمساهمات الشخصيات البارزة بين المسجونين أو من لهم تجربة فى الكتابة. وفى هذه الحالة يتم تمويل عملية النشر من المال العام المشترك وتشمل هذه العملية ثمن الورق وأجر الخطاط الذى يدون النص بخط جميل ويتفنن فى كتابة العناوين ويتقاضى أجره فى صورة سجائر معدودة. ولو كان المؤلف محظوظاً حصل على رسوم بالحبر أو بالألوان المائية من أحد الفنانين وكان من بينهم المرحوم حسن فؤاد الذى لعب دوراً رائداً فى تطوير أغلفة الكتب ورسومها قبل القبض عليه. وبعد ذلك تأتى مرحلة التجليد بواسطة الورق السميك الذى يتبقى من صناديق السجائر والطعام ويتم تثبيته بواسطة معجون من دقيق الخبز.

ومن الطبيعى أن هذه الخدمات لم تكن تتوفر لكل إنسان وخاصة إذا كان كاتباً ناشئاً صغير السن مثلى، ولم يكن أمامى سوى أن أعتمد على نفسى فضحيت بجزء من نصيبى اليومى فى السجائر واشتريت الورق وخدمات التجليد وتخليت عن النسخ مستخدماً خطى مكتفياً بأن يكتب لى الخطاط العناوين بلون أحمر تم تصنيعه من دواء مطهر الجروح، وأصبح لى كتب صغيرة من نسخة واحدة يضم ثلاث قصص قصيرة ومقدمة رواية بعنوان

«خليل بيه»، لم أعطه عنوانا ولا وضعت اسمى عليه.

معرض وكتاب جديد

لكن اتساع حركة النشر واستمرار التحسن فى ظروف المعتقل أتاحا لى فرصة الارتقاء إلى مستوى أعلى. فقد قرر الزملاء إقامة معرض للكتب التى تم إصدارها داخل السجن. وتولى حسن فؤاد الاشراف على إصدار طبعة خاصة من هذه الكتب بأغلفة ملونة أنيقة رسم بنفسه بعضها.

كنت قد ترجمت إلى اللغة العربية جانباً من مذكرات الشاعر السوفييتى الشهير يوفتوشنكو التى نشرتها جريدة الصنداى تايمز الانجليزية على ما أذكر. ورحب أستاذ الرياضيات عبد العظيم أنيس بأن اشترك معه بهذه الترجمة فى كراس نساهم بها فى المعرض ويضم ترجمة قام بها لدراسة سوفيتية قيمة عن هيمنجواى..

تحدد يوم المعرض فى أحد الأعياد التى تخف فيها القيود ويتغيب فيها عادة مدير السجن. وصفت الكتب فوق عدد من الصناديق المغطاة بالقماش وضعت فى الممر الفاصل بين الزنازين. كانت هناك روايتان لإبراهيم عبد الحليم ومسرحية لصلاح حافظ بمقدمة لحسن فؤاد وترجمة عربية لرواية من الخيال العلمى السوفيتى اسمها «اندروميدا» للمرحوم مجدى نصيف وترجمة أخرى لرواية «عريان بين الذئاب» التى قام بها فخرى لبيب ودراسة عن ثورة ١٩ للمرحوم فتحى خليل ومجموعات قصصية وشعرية بالاضافة إلى عدد من الترجمات السياسية والنظرية الجديدة. ووسط هذه المجموعة ذات الأغلفة الأنيقة استقر كتابى الثانى (أو الأول حسبما تكون وجهة النظر) وتحققت لى أخيراً فرصة النشر «المحترم».

حسين عبد ربه

استمرت حركة النشر فى إزدهار ثم توقفت عندما نقلنا إلى سجون أخرى تمهيداً للإفراج عنا بعفو عام. وجرى تهريب أغلب هذه الاصدارات ثم نشرت بعد ذلك بصورة «طبيعية» فى آلاف النسخ. وتمكنت أنا من تهريب كتابى الأول بينما ضاع الكتاب الثانى كما هربت بضع فصول من رواية باسم «الرجل والصبى والعنكبوت» لم يقدر لى أن أتمها. ولم أفكر أيضاً فى قصص الكتاب الأول. نشرت فقط بضع قصص قصيرة كنت أنوى استكمالها لتؤلف رواية من إحدى عشر قصة تجمع بينها الشخصيات. أعطيتها اسم «عن الأغانى والشكولاتة».

بدأت الافراجات بالمعتقلين ولم نكن نحن المسجونين على ثقة من أن الإفراج سيشملنا. وكنت قد احتفظت باليوميات حتى آخر لحظة متردداً فى تعريضها لمغامرة التهريب. وتطوع المرحوم حسين عبد ربه - الذى كان من المعتقلين - لأن يحملها عند الإفراج عنه. وعندما أفرج عنى أخيراً فى الأسبوع الثانى من مايو ١٩٦٤ وجدت أوراقى كلها لدى أختى، وبينها المفكرة الثمينة. ■

اتحاد الكتاب بين الممكن والمأمول

اتفق مع الكاتب محفوظ عبدالرحمن فيما ورد من ملاحظات جوهرية بمقاله المنشور بعدد أكتوبر ٢٠٠٢ بعنوان «اتحاد الكتاب.. برج الزمالك المائل» على دور اتحاد الكتاب والتى تمثلت أمامه بوضوح أكثر مع وجوده بمجلس إدارته الجديد، حيث يراهن عليه الكثير من المبدعين.

فإذا ما تحدثنا عن دور الاتحاد - اتحاد الكتاب - على اعتبار أنه هيئة ثقافية تمثل درجة ما من الأهمية والخصوصية ، فإن علينا أن ننظر لدوره هذا على أنه نقابة أو صيغة ثقافية رفيعة ومتميزة لتجمع النخبة المثقفة والمبدعة، والتى تمثل بوصلة التوجه العام للثقافة فى امتدادها المصرى والعربى، وعليه فإن النظر لدوره لا يجب أن يقتصر على انضمام المبدع لعضويته فقط، فالبعد المعنوى لهذه العضوية يعنى تدارك المبدع لمسئولياته تجاه نفسه ، وتجاه جموع المبدعين.

إن اشتراكات الأعضاء، والتى لا تسعف ولا تغنى من جوع إذا تم سدادها بالكامل ، فما بالكم أن نصف الأعضاء أو أكثر لا يسددون هذه الاشتراكات ومنهم لعدة سنوات ، وذلك لا يفى بالوفاء لدور المطلوب تجاه الأعضاء.

ولا يمكن الفصل فى النظر لدور اتحاد الكتاب دون وجوده فى سياق عام، ما يتحقق فيه أقل بكثير من متوسط سقف الطموح ، وبالتالى مادام الاتحاد كهيئة موضوع بين شقى الرحى، فإنه بالتالى لابد أن يكون مرهونا بتوجه هذا السياق، وفى ظل هذا الوضع يبتعد عنه البعض، ويخرج من عباءته البعض، فيتكالب عليه الأدعياء الباحثين عن وجاهة لا يستحقونها ، وعن منافع تافهة وهم فى النهاية يعكسون المستوى الهزيل الذى يستثير حفيظة المبدعين، الذين يريدون لاتحاد كتاب مصر أن يكون على مستوى ثقافة مصر، وأن مصر هى الأقدر أن يكون اتحاد الكتاب العرب على أرضها كما كان. وإلا فإن العكس هو سيطرة احساس يتأكد مع مرور الوقت وضعف الأداء العام بأن مصر الثقافية تهمش بتخطيط محكم !

صبرى قنديل



تقدم..!!

وإني لأعلم أن القوافل تخطو
وليس لها من دليل
وأن الفوارس ضلت دروب الجياد
وأن السيوف تخاف الحروب
وأن المسير بأي اتجاه..
يواري الضياع
فما عدت أعرف درب الرجوع
لأنا نعيش بكهف الخنوع
فدعني وشأني
ومر الصراخ
فدعني لأن الجناة..
أضاعوا البلاد!!
فدعني
فجرح الفؤاد..
ينادي عليك
أجب باسكاتي
فقم ..
من ضريح التواريخ القديمة
تقدم
تخلق
دماء جديدة
رماحا/
سيوفا/
خيولا/
بلاداً عتيدة
وقم يا ضميري..
تقدم .. تقدم
وقاتل جيوش التتار اللعينة
وأسرج
جياد العروبة دوماً
إلي المشرقين..
فإن البلاد
أراها تضيع
وإني..
أري في المدي انكسار الرافدين

محمود أحمد المصلى
رئيس نادي الأدب بشربين

صقر آخر طار إلي السماء

أنعى إداورد سعيد باستعارة التعبير العصرى المخصوص لإشهار «موت» الملوك الفراعنة ، والموت هو موت مجازى ليس إلا إيذانا بعودة من كان على صورة البشر إلى أصله الإلهى.

فهل كل موت محزن ؟

نعم ، دون شك، غير أن ثمة موتا محزنا مبهجا معاً ، لعله أمر شحيح للغاية مثلما كان في حالات الفراعنة العظام . مات الملك عاش الملك. لم تكن الفكرة آنذاك تحمل المعانى الانتهازية التى صارت لها فيما بعد، بل كانت تحمل معنى نفى الموت ذاته

وإخلاء الموت من الفناء .

بحزن وابتهاج أقبل موت إداورد سعيد، وأحس بالرضا العميق و - بالأحرى - بالظفر لأنه وجد في هذا العالم في هذا الزمن ذلك الوجود المبدع الهائل المحب للإنسانية والذى لا يقدر أحد أن يخطئه أو يتجاهله حتي كارهوه وأعداؤه وشانقوه .

سوى إداورد نفسه ابنا عادلاً للعائلة الإنسانية قاطبة ، وسوّاها - أيضا ودون تنافر - وثيقة فلسطينية ساطعة وباقية وهذا هو فضله الخاص على فلسطين التى لحسن طالعها ولحسن جدارتها ، نسلت فى زمن واحد أكثر من ابن موسوم بمواصفات الصقر المصرى العريق .

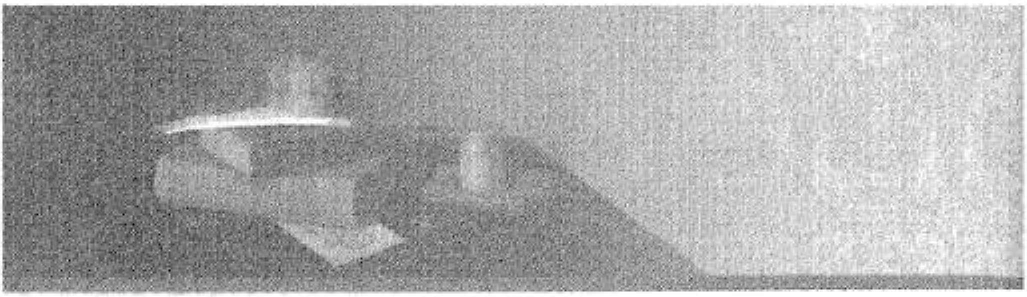
أو من - شخصياً - بأن من رابع المستحيلات إفناء أو محو أو تبديد فلسطين وشعب فلسطين حتى لو ضربت - انتقائياً - بكامل جعبة الأسلحة الأمريكية والصهيونية وحولت - معاذ الله - إلي حفرة رهيبة بحجم الخريطة تفيض بأشلاء ودماء الفلسطينيين فسيكون هذا ليس فقط واقعاً عارضاً وطارئاً بل وجزئياً أيضاً وبالأساس ، لأن فلسطين امتلكت وتمتلك ما لا يمكن تدميره كلياً ونهائيا ومن ضمن ذلك - فى هذا المقام - وجود ابن كإدوارد سعيد ماضياً وآتياً .

لا ريب أنه أثناء حياة إداورد كان لدى فريق الصهيونية والمارينز وحلفائهما الأمل بفرصة أن يخطىء أو يتدهور أو ينطفىء أو أن ينكفىء سموقه على أى نحو، كان رجاؤهم قائما ولكن بموته وهو فى عز بهائه واتساقه وشرفه الإنسانى والفكرى أصبح فرداً مكتوناً لا يطال ويستحق أن يحنقوا على موته كما حنقوا على حياته .

عاطف سليمان

ارحل أيها الغلاء

تولى بيتنا الهانى
وراح يسائل الجاني
لماذا تبتغي قتلي؟
لماذا تنهر العاني؟!
لقد نسي الهوى اسمي
مضي قدما لهجراني!
رعيت الظلم في ولدي
وتفريقا لإخواني!
غلاء يرتجي نصرا
وإشعالا لأشجاني
وتهديداً لأحلامي
وترويعا لسكاني
* * *
هنا تبكي صباباتي



ويعلو صوت آهاتي
فهذا البيت يصرعه
أنين الطفل في ذاتي
فلا أمل يداعبه
ليسعد عمره الآتي
ولا عمل سيحضنه
فيرفع صوته العاتي
سبيل العيش قد ضاقت
نراها في الخيالات
فهذا العمر يلقانا
بأحزان وأنات!!
* * *
حديقة بيتنا فيها
زهور في مآقيها
دموع فالهوى يذوي
وثوب الأرض يعصيها
فكم غني بألحان
وكم يمضي ليطربها
وثوب العيد غضبان
وظل الفقر يأتيها
فلا الأطفال في وله
ولا الأفراح نبقيها
غلاء العيش فلترحل
عن الدنيا ، نصافيها

زكريا عبدالمحسن
أسيوط

إعادة نشر التراث الثقافي

قراءاتي المستعادة لموضوعات مجلة «الكاتب المصري» التي كانت تصدر منذ أكتوبر ١٩٤٥م وحتى نهاية مايو ١٩٤٨، جعلتني أحس بحاجة الجيل المعاصر، ممن يتابعون الثقافة الأصيلة إلى التجوال المتأمل في شتى الموضوعات (أدبية وعلمية ، مؤلفة ومترجمة) وهي تكشف عن نفس الجدية ، وأنا أستمتع بقراءة موضوعات الهلال

ما رأيكم في نشر موضوع في كل عدد من أعداد الهلال بعنوان «من ثقافة القرن الماضي، لكشف معالم الجدية في هذه الثقافة ولافتقاد هذا العنصر في حياتنا المعاصرة وقد دفعني إلى استرجاع هذه الكتابات ما كتبتموه عن الحب وما كتبه الدكتور أحمد مستجير عن اللمسة

د. سامي منير عامر
جامعة الإسكندرية - كلية التربية

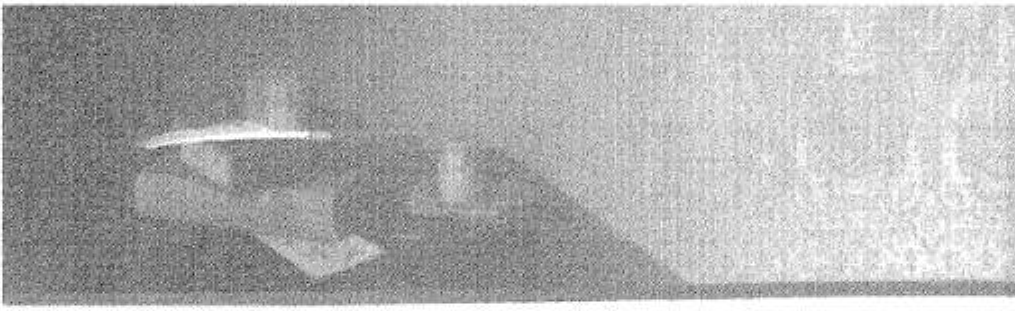
الهلال : نشكر الدكتور سامي على ثقته الكبيرة في الهلال، أما الاقتراح

الخاص بإعادة نشر نماذج مما نشر فى المجلات القديمة مثل «الكاتب المصرى الذى وافانا ببعض نماذج منه، فهناك بادرة طيبة تغنى عن ذلك بقيام هيئة الكتاب بإعادة إصدار المجلات الثقافية والأدبية المتميزة فى مجلدات وقد أصدرت حتى الآن أعدادا من مجلات «أبوللو - الزهور - الكاتب المصرى وهى فكرة جيدة تلبى حاجة الجيل الجديد من الأدباء للإطلاع على هذه المجلات الرائدة ، وتأتى متوافقة مع فكرتكم التى طرحتموها .

الشمس أحيانا تغيب

لأني أحبك .. أهجر دربك..
أمحو جميع ابتهالات شوقي
أعدو غريباً .. شريراً .. وحيداً
أفر بحبي بعيداً.. بعيداً
وأشتاق لقربك
لأني .. أحبك ...
بعت الأماني بسعر زهيد
وقطعت كل الشرايين في
وجئت لقلبي .. بقلب جديد
فحيناً يصير إنكساراً عتيا
وحينا يصير انتصاراً شديد
فتملأ.. كل الليالي .. عليا
بحب وشوق .. وكأس.. وعيد
فنبني أماني فوق الثريا
نحطم قيد الزمان العنيد
فأزهو .. برقك ..
لأني أحبك..
اتغفر لي كل هذا الهوي..
كل هذا الجنون
ويبقي غرامي في ذكرياتك
عطر .. وزهر.. وليل حنون
أري كل يوم كئوس المنايا..
تجوب .. دياري..
وتهجرني الشمس دهراً طويلاً
فأصبح ليلاً بغير نهار
ويكوي فؤادي لهيب الظنون
لأني أحبك.. أهجر دربك دون اختياري
وأجرع وحدي كئوس انتحاري
لكي لا تقول بأني .. أخون..
وحيداً.. وحيداً .. أعود لبيتي،
أجرجر خلفي فتافيت صمتي،
تشاطرني الليل..،
حزني.. وموتي،
فما كنت أحيا بغير هواك ،
ودون هواك حياتي تهون.
لأني ... أحبك .

إيمان محمد العطفي
الشيخ شبل - المراغة
سوهاج



س: سينما
السينما المصرية

فى مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، وقبله مهرجان الاسكندرية السينمائى الدولى، تعذر الحصول على فيلم مصرى واحد لعرضه سواء فى المهرجان الاول، او المهرجان الثانى.

وفى اخر لحظة ، وقبل بدء مهرجان القاهرة بساعات عثروا على فيلم «يتيم» واسمه «حب البنات» لعرضه ضمن افلام المسابقة، وهذا يدعو للعجب لان مصر كانت تشارك فى المهرجان احيانا باكثر من فيلم، ومن بين هذه المهرجانات مهرجان كان وبرلين وقبل خمسين عاما كان يوسف وهبى عضوا فى لجنة تحكيم مهرجان كان. وخلال سنوات الخمسينيات والستينات اشترك فى المسابقة الرسمية لمهرجان كان، أفلام لصلاح ابوسيف مثل «شباب امرأة» وهنرى بركات مثل «الحرام» وكمال الشيخ وفيلمه «الليلة الأخيرة».

وفى العقود الاخيرة ولاكثر من مرة اشتركت مصر فى هذه المهرجانات بافلام ليوسف شاهين وفى مهرجان «ايبر» قريبا من كان للسينما الشابة فاز فيلم المومياء لشادى عبدالسلام بجائزة جورج سادول وفى مهرجان برلين قبل عشرين عاما . فاز فيلم ليوسف شاهين بجائزة خاصة.

كانت السينما المصرية لها حضور بأفلامها ونجومها فى مهرجانات اخرى كبرى مثل مهرجان موسكو وكارلوفيبارى ونيودلهى.

ومنذ بداية السينما المصرية الناطقة سنة ١٩٣٢ ، كانت من ناحية التصدير اكبر سلعة تصدرها مصر بعد القطن لكن الان لم نعد نجد فيلما يشارك فى مهرجان عالمى تقيمه مصر فى عاصمتها القاهرة.

السبب

أمارس الحب
مثلما أمارس كتابة الشعر
ولهذا السبب
ليس في حياتي
اى رجل
###
لا أذهب الى لقاء عشق
الا مثلما أذهب
الى ورقة الكتابة
ولهذا السبب
ليس فى حياتى
أى رجل
###

لا أنظر الى الرجال
الا مثلما انظر الى القصائد
ولهذا السبب
ليس فى حياتى
اى رجل
###
لا اشتهى الذكور
الا مثلما اشتهى موسيقى الاشعار
ورائحة البخور
لهذا السبب
ليس فى حياتى
اى رجل
***

د. منى حلمي - القاهرة

قصة قصيرة بنت..

باستغراب سألها وهو يتطلع لساعة الحائط:

- أين البنت..؟!

غضت بصرها ثم غمغمت بصوت خفيض:

- قالت إنها ذاهبة لصاحبتها في الدقى.

هتف ساخرا:

- والله عال.. مرة الدقى ومرة جاردن سيتى ومرة الزمالك.. الساعة تقترب من منتصف الليل.. لبثت صامتة، فراح يدور في الحجرة زائغ النظرات، تحسس جيبه، مضى خارجا:

- سأشترى سجائر من الميدان.

عند ناصية الدرب راح يتفرس المارة، شق طريقه صوب المقاعد الحجرية حول التمثال، ثبت نظراته نحو مدخل الدرب، وهو يشعل سيجارة، تبين امرأة في ثياب سوداء تجلس وحدها بالقرب منه تجاوزت الخمسين كما تفصح ملامح وجهها، والساعة جاوزت الواحدة بعد



منتصف الليل، عول جلوسها لحرارة الجو، وربما سكنها القريب . اقبلت فجأة فتاة فى العشرين ، ترتدى جوبا قصيرا يكشف ما فوق ركبتها ، فشل فى معرفة لون شعرها. جلست بجانبها، راحتا تتحادثان بعض الوقت بصوت خافت، كان الغضب يبدو على وجه المرأة الكبيرة، امها ربما.

اتجهت نظراته الغضبة صوب مدخل الدرب.

البنت ناولت المرأة شيئا لم يتبينه، نظرت ساعتها في توتر ظاهر ثم تطلعت الى الجانب الآخر من الميدان، تبع نظراتها . ظهرت فجأة سيارة مرسيدس فخمة. واطلت منها رأس شاب لاح فى منتصف العشرين، نهضت البنت فجأة شيعتها المرأة بنظرة حانقة حتى انسلت داخل المرسيدس ، مزق صفير عجلاتها صمت الليل.

عاد يرصد الدرب فى مزيج من القلق والغيظ.

هم باشعال سيجارة اخرى. فى اللحظة التى اقبل رجل فى مثل عمره، اشيب الشعر تشى ملامحه بشقاء السنين. اتجه فى خطوات متعجلة صوب المرأة.

– لم تجلسين هنا حتى هذا الوقت؟

رمقته بنظرة ساخرة:

– أشم الهواء، ابنتك خرجت ومعها المفتاح!!

هتف بلهجة ثائرة

– ألم اقل لك ان حالها لن ينصلح الا بعلقة ساخنة؟

قالت بنفس اللهجة الساخرة:

– علقة ؟! كان زمان.. لقد انفلت عيارها!

نهضا وغادرا المكان فى صمت، وكان الرجل يمسح بكمه العرق المتصبب من جبينه.

تبعهما حتى غابا عن عينيه وتذكر فجأة فاتجهت نظراته الحانقة إلى مدخل الدرب.

خمن احتمال عودتها اثناء انشغاله بالمرأة والبنت والرجل الأشيب، نهض على الفور وابتلعته ظلمة الدرب، وعبارة المرأة الساخرة تلسع أذنيه «علقة.. كان زمان!» وهو يدلف الى البيت تناهت لسمعه دقات الثانية بعد منتصف الليل من المقهى الخال، سألها فى هدوء:

– ألم تعد البنت؟

– لا..

استشعر حاجته الشديدة للتبول، وتناهى لاذنيه حوارها الهامس مع امها فى الصالة، قضى حاجته، اتجه الى المطبخ. عاد وغرس السكين فى صدرها، دوت صرخة الام الهلعة، مضى الى الحائط القريب ، اشعل سيجارة وراح ينفث الدخان فى سماء الصالة فى هدوء تام!

محمد سليمان

الكلمة الأخيرة



تورط جميل

بقلم: نعمات البحيرى

كان الموظفون والموظفات معى فى مجال عملى ينظرون إلى كتاباتى بكثير من السخرية والاستهجان، وهم يروننى أنفق عمرى فيما لا طائل وراءه وكنت - فى القصص - ودون أن أدرى أقدم لهم مادة ثرية لإنتاج الشائعات وتداول النميمة حين أكتب عن امرأة تتمرد على واقعها وما أن يقرأوا حتى يهم أحدهم بتقديمى قربانا لخواء بحضهم وفراغ أدمغتهم، يجدون فيما أكتبه متنفسا لما تفعله بهم وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية الطاحنة . يقوم بتصوير القصة ويلقيها على المكاتب ليتلقفها الجميع بقراءة مغرضة، فيبحثون عن أنفسهم وبعضهم البعض زاعمين أننى حتما أقصد فلانا أو فلانة فيتم استعداءه على، الأمر الذى قد يجرنى إلى مواجهات حادة وعنيفة، فلا يذهب الأمر هباء إلا ويكون نتيجته النفى والاقصاء والتهميش والحرمان من المكافآت والحوافز والعلاوات والترقيات .

كنت أعى جيدا أن هذا أقل عقاب لامرأة تحمل أنثى تميز، فلا يجب أن تسمع موسيقاها الخاصة ولا أن تعلق حتى لوحة على جدران العمل الصماء باستثناء لوحة ممنوع التدخين فى غرفة يدخن كل موظفيها بشراهة ظللت هكذا على مدار كل السنوات الكثيرة التى مرت حصار ورقابة وتلصص على عالمى وأنا أواصل طريقى وطريقتى فى الحياة، وساروا هم فى طريقهم يقرأون ما أكتب ويصورونه ويلقونه على المكاتب ويتم إرساله إلى رئيس الشركة بغية الفضح والتشهير واستعداء القيادات الصارمة ضد الموظفة الكاتبة .

لكنهم ومع الوقت صاروا ودون وعى يدمنون معنا متابعة المسلسلات التليفزيونية، وحل الكلمات المتقاطعة، وبدت قصصى مثل رمال ناعمة تأخذهم فى طياتها. ومع الوقت أيضا هدأت شيئا فشيئا حدة المراقبة وخف الحصار، وكذلك حدة الشائعات التى يلقونها حولى، بل راحوا ينتظروننى على صفحات الجرائد والمجلات ذائعة الانتشار فقد ورطتهم فى معرفة فن جميل هو القصة القصيرة .

الآن وبعد عشرين عاما أدخل غرفتى لأجد زميل لى يحدثنى عن قصص يحى الطاهر عبد الله وموظفة تحدثنى عن سرعة الانتشار عبر الدراما التليفزيونية الآن أشعر بقدر من الفخر أننى لم أنكسر وأتوارى أمام حالتهم الأولى . ■


المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانا
إلعب و تعلم على الانترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
المعلم اون لاين – بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل

الهلال

ديسمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

- الحشاشون .. ٣ روايات !
- متى تسمع اللون وترى الصوت ؟!

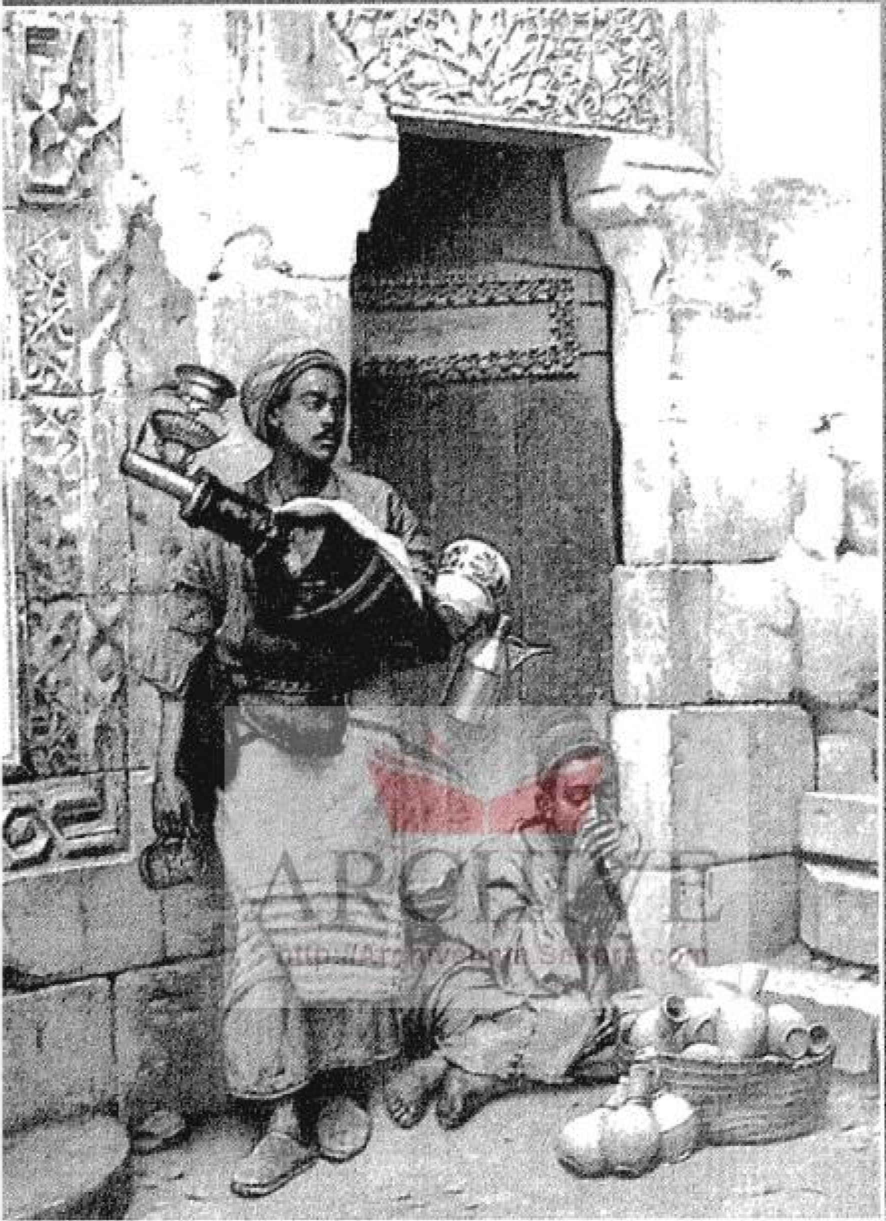
سر العلاقة بين نجيب محفوظ وفان جوخ





عبد الوهاب

إشراقة عصر مضى !



لوحة وفنان

بائع العرقسوس

للفنان: لودفيج دويتش

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جورجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة شوال ١٤٢٤ هـ - ديسمبر ٢٠٠٣م

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
الكاتبات ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع - مجلة الهلال
ت ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير
محمد أبو طالب المستشار الفني
عاطف مصطفى مدير التحرير
محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٤,١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١
ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة الغربية
٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

نجيب محفوظ ٩٢ عاما (جزء خاص)

٩ - سر العلاقة بين نجيب محفوظ وفان جوخ ....
.... **ماهر البطوطى**

١٥- نجيب محفوظ فى مرايا النقد الغربى ....
.... **د. ماهر شفيق فريد**

٢٢ - الكم والكيف فى حـيـاتنا ....
.... **د. مصطفى سويف**

٣٠ - أن تسمع اللون وترى الصوت ....
.... **د. أحمد مستجير**

٤٢ - الموسيقار محمد عبدالوهاب بين سيد درويش وأحمد شوقى ...... **د. عبدالمنعم الجميعى**

[illegible] - أين الفلاحين زهران سلامة ...... **عدلى رزق الله**

٦٠ - أى ديمقراطية تريدها أمريكا؟ ....
.... **محمد يوسف عدس**

٦٨ - ماذا تريد أمريكا من العرب؟ ....
.... **د. جلال أمين**

٨٤ - من مآسى المجتمع: زوجات وأزواج
.... **د. محمد رجب البيومى**

٩٢ - ثقافتنا هى المعرفة.. والثقافة شئ آخر! ....
.... **محمد جبريل**

١٠٨ - الحشاشون.. وثلاث روايات ......
.... **مصطفى نبيل**

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٤٥ دولارا - أمريكا وأوربا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٥ دولارا.

وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/ 13079 / ٢٧٤١١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد



الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ ٦
- أقوال معاصرة .. ٢٩
- من ذخائر الكتب العربية (الشكوى والعتاب) د. فيصل الحفيان ٧٤
- لغويات .. د. الطاهر أحمد مكي ٨٢
- شخصية العدد (محاضير محمد) بقلم: د. محمد السيد سليم ١٠٠
- الكاريكاتير (صنع الله إبراهيم) ٢٠٦
- أنت والهلال (عاطف مصطفى) .. ٢١٨
- الكلمة الأخيرة (زكي سالم)..... ٢٢٦

١٢٠ - طريقة جديدة لكتابة التاريخ
.... د. قاسم عبده قاسم
١٢٦ - أساطير وحكايات أبواب القاهرة القديمة
.... أماني عبدالحميد
١٣٦ - هل تسقط الصين هيمنة القطب الواحد؟ ...
.... محمود أحمد
١٤٦ - صور من حياة صبري السوربوني ...
.... وديع فلسطين
١٥٢ - تحية إلى أصفهاني زمانه «قصيدة» .....
.... سليم الرافعي
١٥٤ - المعرض القومي للفنون التشكيلية ظاهرة ثقافية إيجابية .... د. صبري منصور
١٦٤ - المشاغب الفيلسوف الفنان عبدالسميع
.... د. عمرو عبدالسميع
١٧٦ - وصف رحلة لمشاهدة مسرح للفلاحين ..
.... صافي ناز كاظم
١٨٢ - شابلن.. وحنين إلى أفلام لها تاريخ ....
.... مصطفى درويش
١٩٠ - المتفرجة: الترياق من السم الهاري ....
.... مرفت رجب
١٩٦ - إبداعات يوميات روبرتس في مصر ...
.... عرفة عبده علي



عزيزى القارئ

صورة العام:
الظلم يتواصل

لا نظن أنه كان من الممكن إلقاء نظرة عابرة على هذه الصورة التى تحتوى ثلاثة أطفال عراقيين متلفعين بدثار فى ليل برد الشتاء العراقى القارس، ينظرون فى استفهام لا يلقى جوابا منطقيا ، يعبرون بعد التثاؤب إلى يقظة على التوحش .

كان لابد أن تتسمر أعيننا علي اللقطة التى تلخص حاضرنا المأساوى فى نهاية عامنا الدامى ٢٠٠٣ الميلادى.

الصورة نموذج متكرر إلى حد الملل لممارسات قوات الاحتلال الأمريكية خلال حملات انقضاضها الفاجر على المساكن والبيوت والمنازل والأحواش والحدائق والبساتين والحرمات كافة لتفتيشها بحثا عن..؟

ويتوقف القلم، يا عزيزى القارئ، خجلا أو عجزا عن تسمية هذا الذى قد يكون هدفا يبرر كل هذه الجرائم الوقحة ضد الإنسان والإنسانية والحضارة والديمقراطية .. إلى آخر كلمات التشدق الأمريكى الكاذبة.

عن أى شىء يبحثون ؟

أسلحة ؟ خصوم ؟ أم عن «روح» مقاومة شعب مجروح خرج من حفرة طغيان ودكتاتورية وفساد ومقابر جماعية ليقع فى بئر إذلال وقهر محتل وهلع جماعى لا يعلم متي تسكن العواصف وتنطفىء الحرائق ؟

تفتيش ، تفتيش ، تفتيش من قبل ومن بعد ، والتوحش واحد، والغلظة متطابقة ، والقسوة الباردة تدير آلة القتل المعتاد من دون عقل، والتعب المتواصل يهطل علي رأس الأبرياء كما هو الذى كان على مر السنوات الطوال .

كان الدكتاتور يقتل وينتهك رافعاً راية : «القضاء على خصومى واجبى حتى الإفناء» ، وجاءت قوات الاحتلال ، تحت قناع سترة «الانقاذ» تقتل وتنتهك وتهين

الشيخ الوقور والمرأة المستورة والطفل الجائع رافعة الراية نفسها : «القضاء على خصومي واجبي حتى الإفناء» .

والنتيجة هي : أرض حضارة الرافدين بين كماشة الانذال تواصل مشوارها التاريخي في تلاطم أمواج الملاحم والفتن !

وتبقى هذه الصورة للأطفال المقرورين في ليل البرد والتفتيش تلخيص بليغ لحاضرنا المأساوي في نهاية عامنا الدامي ٢٠٠٣ الميلادي ، ولا نملك أن نتفاءل كثيرا باطلالة العام الجديد ٢٠٠٤ الميلادي الذي يدق أبوابنا تحت وطأة تحالف صهيوني أمريكي شرير ينهش لحمنا ويشرب دماءنا في فلسطين والعراق بترسانة لصوص ، لها قلوب اقسى من الحجارة ، تطلق المدافع ، والقنابل ، وتدك البيوت بالمروحيات والمجنزرات، وترغم الاعزاء على الانبطاح ارضا والأنف في التراب والرأس تحت الحذاء الثقيل لجندى أجنبي شاكي السلاح!

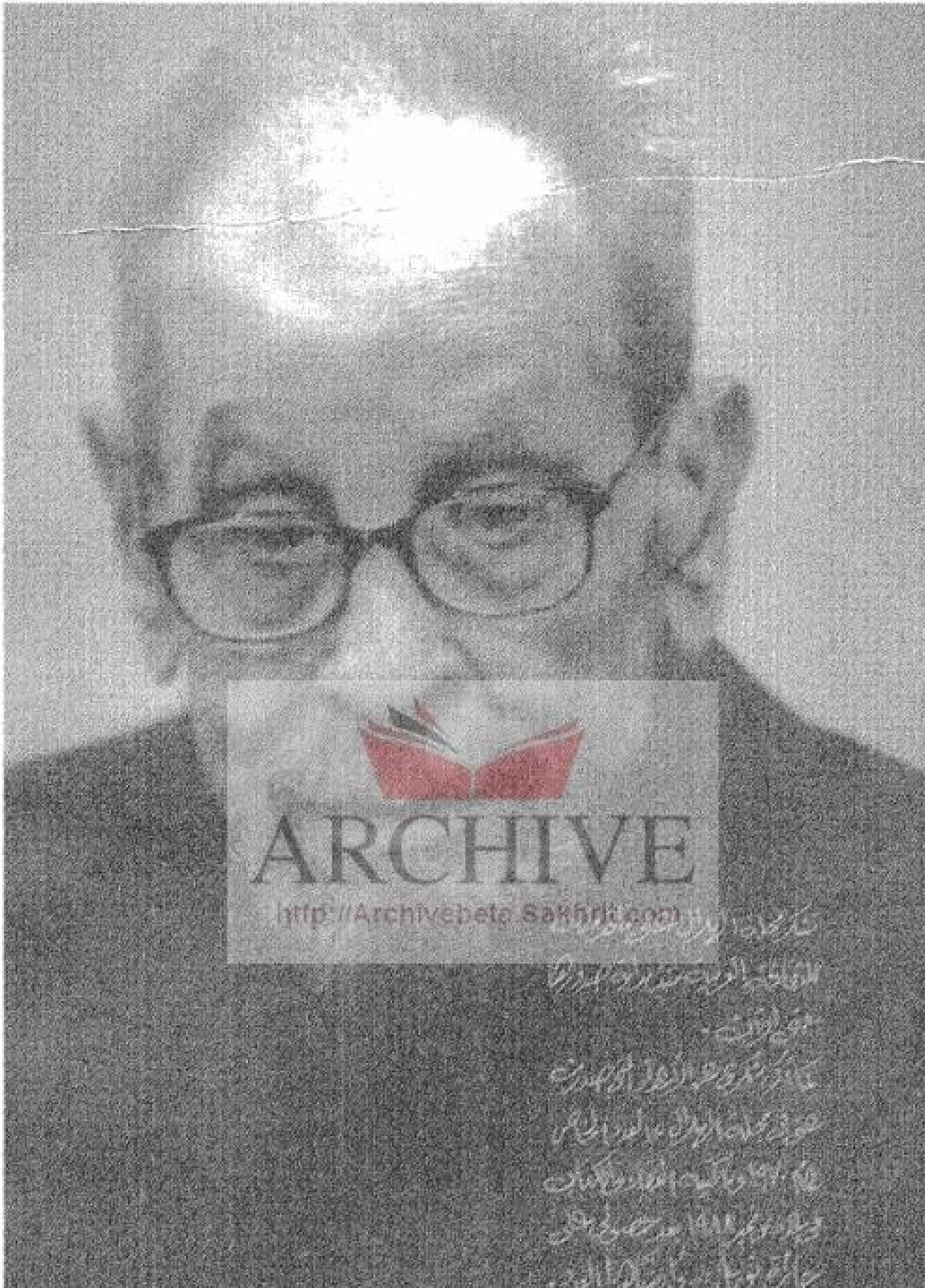


فهل أمام المظلوم أي سبيل آخر غير سبيل «فطرة المقاومة؟

لقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة الحج هذه الآيات القاطعة : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ». صدق الله العظيم .

إن الله «يدفع» المظلوم لمقاومة الظالمين ، من أجل صالح البشرية وحتى لا يعم الخراب ..

المحـــــرر





سر العلاقة بين فان جوخ و نجيب محفوظ

بقلم
ماهر البطوطى

يستمد القارئ والناقد الكثير من المعلومات عن قراءات نجيب محفوظ المختلفة وما يحبه من أشكال الفن والموسيقى من العديد من الأحاديث واللقاءات الصحفية والأدبية التى أجراها معه الأساتذة رجاء النقاش ومحمد سلماوى وجمال الغيطانى وفؤاد دوارة وغيرهم.

وقد لفت نظرى حديث الأستاذ المتكرر عن كتاب مهم عكف على مطالعته فى فترة الصبا وأمده بمعلومات أساسية عن الآداب العالمية وهو كتاب موجز تاريخ الأدب تأليف جون درنكووتر وقد سعيت منذ فترة للبحث عن ذلك المرجع، وهو من ثلاثة أجزاء كبار، وحصلت على نسخة منه بصعوبة حيث أن تاريخ طبعه يرجع إلى العشرينيات من القرن الماضى.
وقد أحسست بشغف بالغ لمطالعة الكتاب الذى طالعه أستاذنا فى فترة التكوين، والذى لاشك أنه قد ترك أثره الثقافى فيه، وامده بإطار عام للأدب العالمى يختار منه بعد ذلك ما يثير اهتمامه لقراءته والتبحر فيه.

والكتاب مطبوع طباعة أنيقة، ويحتوى كل جزء منه على ما يقرب من الخمسمائة لوحة تتصل بموضوعات الكتاب، وصور توضيحية للموضوعات، على ورق مصقول يزيد من متعة القارئ، وقد أشار الأستاذ إلى تلك الصور واللوحات التى تركت فى نفسه انطباعا جميلا عن الكتاب .

أجمل كتاب

والجزء الأول من «موجز الأدب العالمى» يبدأ باستعراض أول كتابات وجدت فى التاريخ قبل ظهور أى نوع من المخطوطات أو المطبوعات بآلاف السنين واعتمد المؤلف على أحدث الاكتشافات الأثرية التى ظهرت حتى العصر الذى عاش فيه، فهو يحدثنا عن الألواح ذات الكتابة المسمارية التى تم العثور عليها فى «نينوى» القديمة والموجودة الآن فى المتحف البريطانى وترجع إلى عام ٤٠٠٠ ق . م ومن آرائه الجريئة الطليعية أن العبرانيين لابد وانهم قد استقوا قصة الطوفان من روايات الكلدانيين القدامى عنه ثم ينثنى المؤلف للحديث عن الحضارة المصرية القديمة، وكتاب الموتى، ويشير إلى أن كتاب «بتاح – حتب» يمكن أن يكون أقدم كتاب فى العالم، إذ أنه كتب قبل مولد النبى موسى بألفين من السنين، وقبل تجميع كتاب «الفيداء» الهندوسى المقدس بألفين من السنين كذلك ويقتبس المؤلف صفحة كاملة من هذا الكتاب الفرعونى، قبل أن ينثنى للحديث عن الديانات الآسيوية القديمة .

ويخصص الكتاب فصلا كبيرا لأول ملحمتين عرفهما العالم الغربى لليونانى هوميروس، الإلياذة والأوديسة ثم يعرض للكتاب المقدس وتاريخه وموضوعاته بتفصيل كبير، ويخصص فصلا تاليا للكتب المقدسة الأخرى، يبرز منها ما كتبه عن القرآن الكريم وهو فى عرضه للإسلام وكتابه المقدس القرآن الكريم موضوعى للغاية على وجه العموم، إذ لا نجد فيه أى تحامل أو مغالطات من التى دأب كثير من المستشرقين على الصاقها بالدين الحنيف، بل إن نظرته إلى الإسلام وكتابه المقدس ونبيه الكريم تفيض بالثناء والموضوعية ولكن تجدر الإشارة إلى ورود بعض الأخطاء فى ترجمة كلمات معينة من آيات القرآن .

ثم يتطرق الكتاب إلى الموضوعات المعهودة فى تاريخ الأدب، فيعرض للأدب اليونانى الذى يستفيض فى شرحه وإيراد أمثلة منه، عارضا للفلسفة اليونانية وأساطينها المشهورين، والمسرح اليونانى الكلاسيكى، والأساطير والشعر اليونانيين ويقوده الأدب اليونانى إلى الأدب اللاتينى الرومانى، فيستعرض المؤلف أشعار أوفيد وكاتولوس، وخطب شيشيرون، والحديث عن آلهة الرومان وأساطيرهم ويلاحظ القارئ تداخلا بين الأدبين اليونانى واللاتينى قد يكون قد تعمده المؤلف مبينا التأثر الشديد لأدب روما بأدب اليونان .

وينتقل المؤلف نقلة مفاجئة إلى العصور الوسطى، ويحدد بداياتها بسقوط روما على يد القوط الغربيين عام ٤١٠ ميلادية وتستمر حتى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك عام ١٤٥٣ ويمهد للأدب فى تلك الفترة الطويلة بفذلكة تاريخية، يمر فيها سريعا على الحضارة الرفيعة التى أقامها العرب فى اسبانيا حينما كانت أوروبا غارقة فى عصورها المظلمة ليتحدث بعد ذلك عن أبناء تلك الفترة، كالقديس أغسطين صاحب الاعترافات المشهورة، وعن الملحمة الشعبية الألمانية نيبلونجن وأشعار التروبادور، ودانتى وكوميديته الإلهية، ثم تشوسر، أبو الشعر الإنجليزى كما يسميه .

ومن الملاحظ هنا أن المؤلف لا يشير من قريب أو بعيد إلى أثر الأدب العربى فى الأندلس وغيرها فى أشعار التروبادور وفى دانتى وتشوسر، حيث أن الحديث والبراهين عن الأثر العربى فى تلك الأعمال المبكرة لم يبدأ الا بعد ذلك فى دراسات الأدب المقارن التى

وضعتها باقة من المستشرقين الاسبان أمثال آسين بالاثيوس ومننث بيدال .

ويقفز المؤلف مرة أخرى إلى عصر النهضة، ممهدا له بنبذة قصيرة عن أسباب الصحوة من عصور الظلام الغربية ويعرض الكتاب الأريوستو ومكيافللي ورابلية ومونتانى، ثم يفرد فصلا طويلا لسرفانتس وروايته «دون كيخوته»، وهو محق فى هذا، إذ أصبح هذا الكتاب رائدا لفن الرواية، حتى أن النقاد العالمين أختاروه فى العام الماضى كأفضل رواية عالمية على وجه الإطلاق ويدلف الكتاب إلى أوائل المؤلفات التنويريه التى تعتبر أساس الحركة الهيومانية فى عصر النهضة وهى مؤلفات إرازموس وتوماس مور وبدايات كتب العصر الإليزابيثى فى انجلترا .



«الاستاذ» في ندوة الجمعة – أكتبر ٢٠٠٢

ويبدأ المجلد الثانى من الكتاب – المرجع بأسطورة الأدب فى كل زمان ومكان ويليام شكسبير، وقد ركز فى حديثه عنه على الأفكار والخطوط العامة وراء أعماله أكثر من تركيزه على مسرحيات معينة. ثم يفرد المؤلف جانبا كبيرا للأدب الإنجليزى من ملتون حتى شعراء القرن الثامن عشر، إلا أنه لا يسير حسب منهج معين حسب الموضوعات أو البلدان المختلفةبل يسير طبقا للمنهج الزمنى للآداب العالمية، ففى وسط حديثه عن الأدب الإنجليزى، يعرج إلى الأدب الفرنسى ليغطى أدب وفكر عصر لويس الرابع عشر ويهمنا هنا الفصل الذى يعقده لنشأة الرواية على يد دانييل ديفو وصمويل ريتشاردسون وفيلدنج ويعود ثانية إلى فولتير وروسو ثم يعرض لشخوص الأدب الألمانى ممثلا فى جيته وشيلر ولسنج، قبل أن يستعرض بالتفصيل شعراء البحيرة الإنجليز ثم الشعراء الرومانسيين الأشهر: بايرون وشلى وكيتس ومن الأمور اللافتة فى هذا المجلد حديث المؤلف عن الأثر الذى تركته «ألف ليلة وليلة» فى بعض الروائيين والشعراء» وكانت قد ظهرت لأول مرة بالفرنسية على يد «أنطوان جالان» عام ١٧٠٤ وتبعها على الفور العديد من الترجمات إلى اللغة الإنجليزية.

وفى المجلد الثالث والأخير ويستمر المؤلف فى منهجه الزمنى دون ارتباط بموضوعات معينة، فيبدأ بالرواية عند والترسكوت والكساندر ديماس وفكتور هوجو، وبعد ستين صفحة عن الشعراء الفيكتوريين فى انجلترا ويعود إلى الرواية عند ثاكرى وديكنز، ثم يغطى فى سرعة أعلاما روائية مثل الأخوات برونتى وجورج إليوت ويعقد المؤلف فصلا طويلا عن أدباء أمريكا، إمرسون – هوثورن – إنجار الان بو – ثورو – والت ويتمان – مارك توين، وغيرهم ويعود إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر ليتحدث عن جورج صاند وبلزاك وفلوبير وزولا وموباسان وإرنست رينان وبودلير وفيرلين ويلاحظ هنا غياب الشاعر المتمرد أرثر رامبو عن الصورة، وربما لأنه لم يكن قد اندرج بعد فى إطار الموروث الأدبى الفرنسى . كما يلاحظ أن هذه الباقة من الروائيين الفرنسيين هى ما يشير النقاد إلى تأثر نجيب محفوظ بكتاباتهم

الواقعية والنفسية.

الأعمال الخالدة

وفى الفصول الباقية من هذا المجلد يستعرض المؤلف المئات من الكتاب من كل الجنسيات، يهمنا منهم الروائي الفرنسي ما رسيل بروست وروايته الملحمية «البحث عن الزمن الضائع» التي قرأها الأستاذ بعد ذلك بالإنجليزية ويعرض الكتاب سريعا لأعلام الأدب الروسي، محتفيا بدستويفسكي وتولستوى اللذين نعرف انهما من الروائيين المحببين لأستاذنا، ويذكر المؤلف أن رواية الجريمة والعقاب لدستويفسكى هى أفضل رواية واقعية على الإطلاق ورغم إشارة درنكووتر إلى الشاعر والمسرحى الايرلندى وليام بتلر ييتس وفوزه بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٣، فإنه لا يكتب كلمة واحدة عن مواطنه الشهير جيمس جويس، ربما لأنه أيضا لم يكن قد استقرت مكانته فى الرواية الحديثة أيامها وربما تنيرنا العبارة التالية التى اختتم بها درنكووتر كتابه وتلقى الضوء على سبب إغفاله العديد من الأدباء الواعدين فى عصره : «أما عن الكتاب الشبان الذين مازالت قدراتهم فى طور التكوين، فليس لهم مكان فى هذا الموجز».

ويعجب القارئ من فعل الزمن فى التقييم الأدبى والنقدى لدرنكووتر، فهو يهتم بكثير من الأسماء التى لايكاد يكون لها ذكر الآن، بينما يغفل أسماء نفض عنها الزمن غباره وأصبحوا من نجوم الأدب العالمى وهو يهمل ذكر الكتاب الذين مازالوا فى طور التكوين، كجويس وهمنجواى وفيرجينيا وولف، الذين اصبحوا من عمد الرواية الحديثة، حيث تحتل رواية عوليس لجيمس جويس الصدارة فى الأعمال القصصية فى القرن العشرين وقد أصاب الزمن المؤلف درنكووتر أيضا بآثاره، فرغم أنه كان من مشاهير الشعراء فى زمنه، لايكاد أحد يذكره الآن !!

أجمل لوحة

والآن، إلى اللوحة

فى حديث للأستاذ مع محمد سلماوى ردا عن سؤال عن الفنون التى أحبها قال الأستاذ أما من حيث الفن التشكيلى فأذكر لوحة معينة لفان جوخ أعتقد أن اسمها ساعة الراحة وكانت تمثل فناء سجن كبير والمسجونون يدورون فيه فى طابور وقت راحتهم وقد تأثرت بهذه اللوحة بشكل خاص»

واللوحة المشار إليها رسمها فان جوخ عام ١٨٩٠ وهو نزيل مصح عقلى فى مدينة «سان ريمى» بجنوب فرنسا، نقلا عن لوحة بالأبيض والأسود للرسام الفرنسى جوستاف دوريه كان ثيو قد أرسلها لأخيه وهو فى المصح وكان فان جوخ قد دخل المصح بإرادته بعد نوبة الهياج التى أصابته فى مدينة آرل وهو يقيم مع الرسام بول جوجان، والتى انتهت بحادثة قطع فان جوخ لأذنه.

ونظرة واحدة إلى اللوحة تنبئنا بالسبب الذى حببها للأستاذ نجيب محفوظ، إذا أنها تمثل الحالة الإنسانية أصدق تمثيل : الإنسان سجين، يدور فى حلقات مفرغة، يراقبه أناس بورجوازيون ميسورون يرتدون القبعات العالية ويبرز فى هذه اللوحة السجين الذى يتوسطها، والذى رأى فيه النقاد شخصية فان جوخ نفسه، وهو الوحيد الذى لا يرتدى قبعة السجن، ويتطلع أمامه إلى المجهول فى ترقب وقلق وحيرة والحق أنى ما تطلعت إلى وجه هذا السجين بعد أن قرأت ما كتبه الاستاذ عنها، فلا وتذكرت حيرة كمال عبد الجواد الوجودية، وصيحته المعبرة فى «قصر الشوق» أنا الحائر أبدا» وتستبين حيرة الوجود فى

« ساعة الراحة » - فان جوخ



كثير من أعمال الأستاذ وشخوصه، مثل بطل «الشحاذ الذى فشل فى التكيف مع أنماط عديده للحياة، وبطل «الطريق الذى يبحث» عن هويته الضائعة وقد كتب فان جوخ لأخيه ثيو بعد اتمام هذه اللوحة قائلاً: «إن كل ما يحيط بى ها هنا قد بدأ يثقل على لقد قضيت عاما بحاله فى المصح ولا أستطيع الاستمرار، فقد نفد صبرى يا أخى العزيز ولا استطيع أن اتحمل المزيد لابد من التغيير، حتى لو كان إلى الأسوأ وقد قضى فان جوخ على حياته بعد أشهر من رسمه لهذه اللوحة .

عشق الموسيقى

أما القطعة الموسيقية التى عشقها استاذنا نجيب محفوظ – بين الكثير من المقطوعات الأخرى عربية وأجنبية – فهى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن كان لابد من وجود هذا العمل التفاؤلى كى يوازن الصورة المتشائمة التى تقدمها لوحة فان جوخ فهذه السيمفونية احتفاء بالحياة والحب الإنسانى والأخوة بين بنى البشر وهى تعتبر من أشهر السيمفونيات الكلاسيكية وأحبها إلى عشاق هذا النوع من الموسيقى إضافة إلى سيمفونيته الخامسة بالطبع .

وقد وضع بيتهوفن سمفونيته التاسعة بعد فترة انقطاع طويل عن السيمفونيات بعد السيمفونية الثامنة، خاض خلالها فترة عصيبة من حياته وصلت إلى حد اتهام الناس له بالجنون ثم فاجأ الجميع بهذه السيمفونية التى يصفها معظم نقاد الموسيقى بأنها أعظم وأهم عمل مفرد فى تاريخ الموسيقى الأوروبية .

وقد قدم بيتهوفن فى هذه السيمفونية ملحمة رؤيوية، تصور فى قسمها الأول الصراع المعاصر بين شتى العوامل الإنسانية والتاريخية، ليخرج من هذا الصراع إلى مستقبل طوباوى يمكن فيه خلق مدينة فاضلة يعيش فيها الناس فى ود وإخاء .

وقد استخدم بيتهوفن فيها لأول مرة الكورال كيما ينشد جزءا من قصيدة للشاعر الألمانى شيللر، بعنوان «أنشودة إلى البهجة»، يقول فيها :

«أيتها البهجة،
أيتها النفحة الإلهية العذبة،
يا ابنة «الإليزيوم»
إننا ندلف إلى مقامك
ونحن ثملون من نيرانك
أيتها المخلوقة الفردوسية
وسحرك الخلاب
يجمع ما شطرته الأعراف .
سيصبح كل بنى البشر أخوة
حين يمسهم جناحك الرقيق ...
فلتعانقوا بعضكم البعض أيتها الملايين هذه القبلة للعالم أجمع».

وقد لاقت السيمفونية التاسعة احتفاء من كثير من الاتجاهات التى تناقض بعضها بعضا، وتبناها الكثير من الجماعات والبلدان والأحزاب، بيد أنها توجت نجاحها باختيار الاتحاد الأوروبى لحنها الأساسى كنشيد رسمى لأوروبا الموحدة .. ■

نجيب محفوظ

فى مرايا النقد الغربى

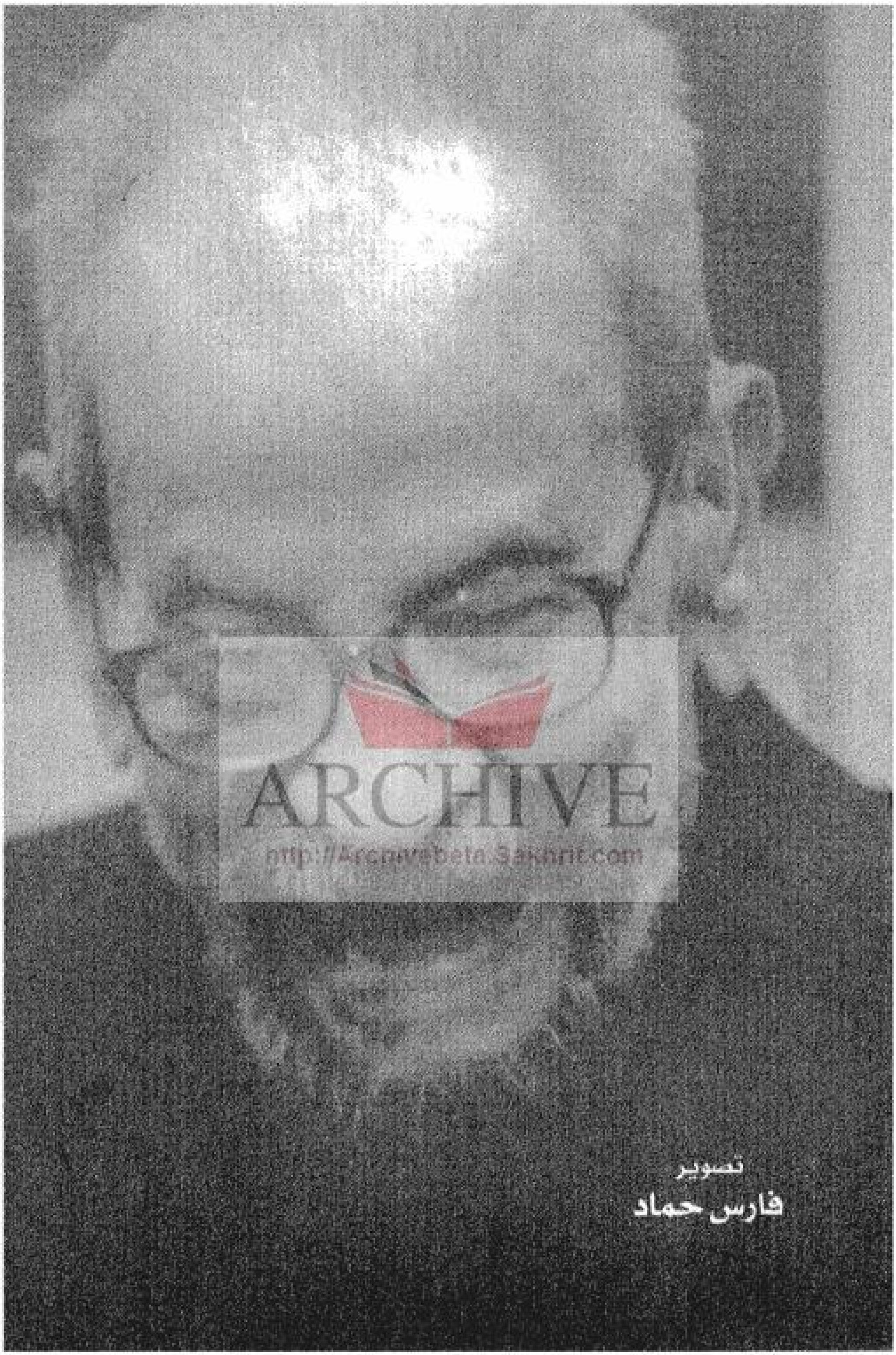
بقلم
د. ماهر شفيق فريد

كان حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للادب عام ١٩٨٨ إيذانا بانبعاث موجة من الاهتمام بأدبه وبالأدب العربى الحديث بوجه عام، وذلك بعد أن كان الاهتمام به يكاد يكون مقصورا على دوائر المستشرقين أو المستعربين وباحثى أقسام دراسات الشرق الأوسط واللغة العربية وآدابها فى الجامعات والمراكز الأكاديمية، سأتحدث هنا عن الصورة التى ارتسمت لمحفوظ فى مرآة النقد الغربى - أو الأدق أن يقال: مراياه - وذلك من خلال: النقد الفرنسى، والنقد الألمانى، والنقد السوفيتى قبل أن يغير الاتحاد السوفيتى اسمه إلى روسيا، أو الأحرى يعود إلى اسمه القديم، من النقاد الغربيين الذين سأتعرض لهم هنا من كتب عن محفوظ قبل حصوله على الجائزة، ومنهم من كتب عقب حصوله عليها

من أولى الدراسات الفرنسية عن محفوظ مقالة المستشرق الأب جاك جومبيه التى تحمل عنوان «حياة أسرة قاهرية فى ثلاثية نجيب محفوظ» وقد نشرت فى مجلة «ميديو» العدد الرابع ١٩٥٧ ونقلها إلى العربية استاذ الفلسفة والأديب المترجم الراحل الدكتور نظمي لوقا تحت عنوان «ثلاثية نجيب محفوظ» (مكتبة مصر ١٩٥٩).

يذكر جومبيه أن الأسرة التى يروى محفوظ قصتها من تلك الأسر الإسلامية التى تنتمى إلى الطبقة البورجوازية الصغيرة وترتزق من التجارة، وتسكن الأحياء المتاخمة لمسجد الحسين، وتغطى الرواية الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٤ مرورا بثورة ١٩١٩ وما أعقبها ونشوب الحرب العالمية الثانية.

ويلخص جومبيه حبكة كل جزء من أجزاء الثلاثية ثم يشرع فى تحليل أهم شخصياتها: السيد أحمد عبدالجواد، وزوجته أمينة، والابن الأكبر ياسين، والابنتان خديجة وعائشة، والابن الثانى فهمي، والابن الأصغر كمال (يعده جومبيه بحق أهم شخصية وأبرزها فى الثلاثية بعد شخصية الأب)، والاحفاد


تصوير
فارس حماد

الثلاثة رضوان وعبدالمنعم وأحمد، ويورد جوميه قول محفوظ إن بطل «بين القصرين» هو الزمن معقبا أن الثلاثية تسيطر عليها كلها فكرة واحدة هي فكرة التطور التاريخي شبه الحتمي الذي يقتلع كثيرا من التقاليد والأعراف.

ومع إقرارنا لجوميه بفضل الريادة - بين المستشرقين الأجانب - في دراسة محفوظ نرى لزاما علينا أن نختلف معه في أمور، فهو يرى مثلا (ص ٩ من الترجمة العربية) أن أحمد عاكف، الأخ الأكبر في رواية «خان الخليلي»، يحمل ملامح من مؤلفه: «هل نجيب محفوظ كان يفكر في نفسه شخصيا وهو يرسم هذه الشخصية»، وهذا رأي غريب لايورد صاحبه أي أسانيد تبرره من الرواية أو من حياة محفوظ وأعماله الأخرى.

وإذا كان بين شخصيات محفوظ من تدنو منه فهي، بطبيعة الحال، شخصية كمال عبدالجواد كما هو معروف.

وجدير بالذكر أن غالي شكري قد كتب عن كتاب جوميه هذا على صفحات مجلة «الآداب» البيروتية ثم أعاد نشر مقالته عنه في كتابه «كلمات من الجزيرة المهجورة» (المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ١٩٦٤) تحت عنوان «الثلاثية بين جوميه ونجيب محفوظ».

ويجيء بعد جوميه المستشرق أندريه ميكيل صاحب الدراسة المسماة «الفن الروائي عند نجيب محفوظ» وقد نشرت في مجلة «أرابيكا» Arabica عام ١٩٦٢ ونقلها إلى العربية الدكتور أحمد درويش في كتابيه «روية فرنسية للأدب العربي» (الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٣) و«الاستشراق الفرنسي والأدب العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧).

تتجاوز دراسة ميكيل دراسة جوميه إذ تنتقل من العرض والتلخيص إلى النقد والتحليل، وهي تغطي ثماني روايات: خان الخليلي - زقاق المدق - بداية ونهاية - بين القصرين - قصر الشوق - السكرية - اللص والكلاب - السمان والخريف.

وتهتم الدراسة بإبراز ملامح الفضاء المكاني لروايات محفوظ إن القاهرة - هذه المدينة الكبيرة - تبدو - عند محفوظ - من نظرة طائر مقسمة إلى عدد من المناطق لكل منها طابعه المحلي الدقيق ومذاقه الخاص، فإلى جانب سيدنا الحسين توجد شبرا في «بداية ونهاية» والدقي في «السمان والخريف» وغير ذلك.

وشخوص محفوظ ليست تابعة لشخصية المؤلف، وهي تنأى عن أسلوب الترجمة الذاتية الذي نجده في بعض أعمال توفيق الحكيم ويحيى حقي يقول ميكيل: «من المعلوم أن طوبوغرافية الثلاثية ومشاعر أبطالها الشبان تعكس ذكريات الطفولة والشباب عند نجيب محفوظ، لكن النظرة الفاحصة والقول المنصف يعيد إلى هؤلاء الأبطال البعد الحقيقي الشعبي والملحمي، لأن الشخصيات المركزية للثلاثية هي من بعض الزوايا شخصيات أبطال ملحمة «أكثر من كونها شخصيات أبطال رواية، فهناك الشعور القدري بأنهم جسدوا

أمة، وتلك سمة شهيرة لأبطال الملحمة».

ومن الأنماط المترددة فى روايات محفوظ شخصية «التاجر» وأكثر منها ورودا شخصية «الموظف»، فشخصية «المومس»، وأخيرا شخصية «الطالب» التي تأتى فى قمة الشخصيات الرئيسية.

ويتوقف ميكيل عند معالجة محفوظ للبعد الزمنى فيسجل أن ألوان الزمن عنده شديدة التنوع والاختلاف بدءا من السيرة العائلية الكبيرة التى تمتد عشرات السنين حتى الرواية التى تكشف فى بضعة أيام وحتى فى بضع ساعات، وأقصى نقاط التطور الزمنى عنده، ممثلة فى معاناة البطل، هى فى معظم الحالات الموت المعنوى أو الجسدى حيث يموت الشخص أو تموت شخصيته وفى هذا الصدد يذكر ميكيل - وأغلب القراء والنقاد إن لم يكونوا جميعا يوافقونه على هذه القراءة - أن حسنين انتحر فى نهاية «بداية ونهاية» بإلقاء نفسه فى النيل فى أعقاب أخته التى حملها على الانتحار (ص١٥٥) هل لى أن أكرر - وقد بح صوتى إذ أقول هذا وكتبت فيه أكثر من مرة دون جدوى - أنى سألت الأستاذ فى هذه النقطة منذ سنوات طويلة وأنا أحضر ندوته الأسبوعية التى كانت تقام، صباح كل جمعة، فى كازينو صفية حلمى بميدان الأوبرا فكان جوابه: كلا، لقد انتحر معنويا ولكن ليس جسديا. فهو أجبن من أن ينتحر بإرادته، ثم إنه ضابط يجيد السباحة ولو كان يريد الانتحار حقا لأطلق على نفسه رصاصة من مسدسه مثلا. وهذه النقطة - فى تصورى - مهمة لأن قراءتنا لعبارات حسنين الأخيرة فى الرواية - والصفحات الختامية التى تضمها من أقوى وأعظم ما كتب محفوظ - خليقة أن تغير من تفسيرنا للرواية بأكملها وتحدد موقفنا من شخصياتها.

وللدكتور أحمد درويش فى كتابه «تقنيات الفن القصصى عبر الراوى والحاكى» (الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٩٨) فصل عن «نجيب محفوظ والاستشراق الفرنسى» ناقش فيه دراسة ميكيل هذه كما أشار إلى الترجمات الفرنسية لروايات «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«زقاق المدق» و«اللص والكلاب» و«حكايات حارتنا». وأورد رأى المستشرق شارل بيلا الذى يعتبر «زقاق المدق» من أجود أعمال محفوظ.

النقد الألماني

ومن النقد الفرنسى ننتقل إلى النقد الألمانى حيث نتوقف عند دراسة للأستاذ فرتس شتيبات عنوانها «الله والفتوات والعلم: عن أولاد حارتنا لنجيب محفوظ» ترجمها الدكتور عبدالغفار مكاوى على صفحات مجلة «الثقافة» (نوفمبر ١٩٧٩) بمبادرة شجاعة من رئيس تحريرها الدكتور عبدالعزيز الدسوقى، بعد أن اعتذر الدكتور سهيل إدريس عن نشرها فى مجلته «الآداب». وقد أعاد مكاوى طبع المقالة فى كتابه المسمى «شعر وفكر: دراسات فى الأدب والفلسفة» (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

يرى الباحث الألماني أن «أولاد حارتنا» : تتناول موضوعا جبارا ألا وهو تاريخ البشرية من حيث هو تاريخ البحث عن النجاة والخلاص ، بدءا بخلق العالم وطرد آدم وحواء من الجنة ، ومرورا بظهور الأنبياء ، وانتهاء إلى مشكلات العصر الحاضر» .

وشخصيات الرواية لاتجسد بالدرجة الأولى أناسا من لحم ودم ، وإنما تجسد أفكارا وآراء : وهنا يتذكر القارئ روايات فولتير الفلسفية والرمزية ، وكذلك رواية سويفت «رحلات جليفر» (قارن محفوظ يوما بين روايته وهذه الأخيرة، أو فى الحقيقة ميز نفسه من سويفت : ففى رأيه أن سويفت قد نقد الواقع عن طريق الأسطورة، أما هو فقد نقد الأسطورة من خلال الواقع .

ويختم شتيبات دراسته بقوله: إن محفوظ «قدم عملا يستحق أن يضاف إلى الرصيد العقلى والروحى الذى تعتز به البشرية «متمنيا أن يترجم إلى اللغات الأوروبية وهو ما تحقق ، بدرجة لا بأس بها ، منذ ذلك الحين .

وتتم الدراسة على اطلاع محمود من جانب صاحبها على كتابات دارسين أجانب مثل جاك جوميه، وساسون سوميخ ، فضلا عن نقاد مصريين وعرب مثل غالي شكرى ، ومحمود أمين العالم ، وجورج طرابيشى ، وناجى نجيب ، ويوسف الشارونى ، وماهر البطوطى صاحب الدراسة الممتازة «أولاد حارتنا ومشكلة الشر» (مجلة الآداب - بيروت - يوليه - أغسطس ١٩٦٧) .

وآخر محطة نتوقف ، عندها هى النقد السوفييتى كما يتمثل فى دراسة ، ماركسية المنظور ، عنوانها «نجيب محفوظ والواقع الاجتماعى فى مصر المعاصرة» من قلم زا. ناميتوكوفا وترجمة رضوان ابراهيم (عن الروسية)

تنطلق الدراسة من كون محفوظ - فى عرضه الموضوعى للواقع - يقدم «تحليلا عميقا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، ويصور الحياة المعاصرة فى مصر تصويرا حيويا دقيقا»، ويعد إلمامة سريعة بحياة محفوظ وقراءاته فى الأدبين الغربى والعربى على السواء تجد لمحة عن روايات «القاهرة الجديدة» (وهى فى رأى كاتب هذه السطور من أجمل روايات محفوظ وأدلها على تطوره الفكرى) و«خان الخليلى» و«بداية ونهاية» و«زقاق المدق» و«الثلاثية»، فضلا عن المجموعة القصصية «تحت المظلة» (١٩٦٩) التى كانت من ثمار كارثة ١٩٦٧ .

وثمة كتاب كامل للدكتور أحمد الخميسى عن «نجيب محفوظ فى مرآة الاستشراق السوفييتى» (دار الثقافة الجديدة ١٩٨٩) يضم ما كتب عن محفوظ قبل فوزه بجائزة نوبل وبعده : «دراسات المستشرقين» وبنود أفعال الصحافة وما اشتملت عليه الموسوعات الكبرى حول أديبنا، ومقدمات ما ترجم من رواياته ، ورسائل الدكتوراه التى

أعدها المستشرقون عن العالم الروائي لكاتبنا الكبير، وأغلب هذه الدراسات تتركز، كما هو متوقع في الاتحاد السوفييتي قبل انهياره ، على أعمال محفوظ من زاوية أيديولوجية ، جنبا إلى جنب مع اهتمامها بأعمال أقران له يتضح في أعمالهم البعد الاشتراكي: عبدالرحمن الشرقاوي، عبدالرحمن الخميسي، يوسف إدريس ، إلخ... فالخيوط التي تحظى بالقسم الأكبر من عناية هؤلاء النقاد السوفيت هي: الكفاح الوطني ضد المستعمر الانجليزي ، والصراع الطبقي في المدينة والقرية، وتوزيع الأرض على الفلاحين، وتأميم القطاع العام، وملكية الدولة لوسائل الانتاج ، والتحولات التقدمية في عهد عبدالناصر، والحراك الاجتماعي، وصراع الأيديولوجيات الأصولية والليبرالية والرأسمالية والاشتراكية .

من الدراسات التي يقدمها كتاب أحمد الخميسي دراسة للوتس بوراجيفا عن «الروايات التاريخية في أدب نجيب محفوظ» حيث نجد تلخيصا لحبكات الروايات الفرعونية الثلاث «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة» مع ربطها بالسياق الثقافي والابداعي العربي (فكر سلامة موسى، رومانثات جرجي زيدان ، إلخ...) .

ويكتب طاش محمد وفا أطروحة للدكتوراه عن «الروايات الاجتماعية الأولى لنجيب محفوظ» مسجلا أن هذه الروايات مشبعة بتعاطف إنساني عميق مع فئات المدن المطحونة، وهي تجعل من صاحبها «أستاذ الواقعية النقدية الذي لا يبارى في الأدب العربي»

وفي رسالة أخرى للدكتوراه (موسكو ١٩٨٦) يدرس علي زاده زاردوشت «تنامي النزعة المعادية للبرجوازية في أدب نجيب محفوظ» ويسجل أحمد الخميسي اختلافه مع هذا الباحث في كثير من أحكامه .

ولفالنتينا تشيرنوفسكايا في كتابها «تكون وتشكل الإنتلجنسيا المصرية» (١٩٧٩) فصل عن رواية «المرايا» تلاحظ فيه أن «جميع أبطال «المرايا» يعرفون بعضهم البعض، ويترددون على نفس المقاهي والصالونات، فيجتمعون مساء ليتحدثوا عن الجديد في العلم والسياسة والأدب. وغالبية أولئك الأبطال من الموظفين العاملين في الشركات الخاصة والحكومية ، في الوزارات والدوائر ، في هيئات تحرير المجلات والصحف ، في الإذاعة والإعلام إلخ ...» .

وتحلل الدراسة شخصيات مختارة من الرواية مثل عباس فوزي، وعبدالرحمن شعبان، وعيد منصور ، وعشماوي جلال ، وإبراهيم عقل ، وماهر عبدالكريم ، وجاد أبو العلا ، وسالم جبر، ممن يمثلون اتجاهات فكرية متباينة تباين الأصولية الإسلامية، والليبرالية الغربية ، والفكر الشيوعي . وتربط الباحثة بين هذه الشخصيات وشخصيات من أعمال أخرى لمحفوظ: مثل عامر وجدي (ميرامار) وعيسى الدباغ «السمان والخريف» مما يكشف عن اتصال الخيوط بين أعمال محفوظ .

وثمـــة تناول لدور المرأة فى «المرايا» وتطورها الاجتماعى فى حقبة تاريخية تغطى ثلاثة أجيال .

أتوقف هنا مكتفيا بأن أذكر القارئ الكريم بأن ثمة دراسات كـثـيـرة عن محـفـوظ وترجـمـات لأعـماله فى لغات أخرى: الإسبانية ، الإيطالية، العبرية، إلخ.. فضلا عن النقد المكتوب عنه باللغة الإنجليـزية وهو غزير الكم عالى الكيف (انظر كتاب «نجيب محفوظ فى عيون العالم» لمحمد عنانى وماهر شفيق فريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢، ومقالة «نجيب محفوظ فى مرآة النقد العـربى المكتـوب بالانجليـزية » لماهر شفيق فريد فى مجلة «أدب ونقد» نوفمبر ٢٠٠١، ويتـواصل هذا الاهتـمـام ، بل يتنامى عاما بعد عام . وآخر ما وقع لنا منه فصل لروائى جنوب افريقيا الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب لهذا العام ، ج . كوتيزى فى كتابه المسمى «شطآن الغريب» (لندن ٢٠٠١) نقلته إلى العربية نائلة قلقيلى ونشر فى ملحق «النهار» الثقافى «بيروت» ثم أعادت نشره جريدة «أخبار الأدب» (١٩ أكتوبر ٢٠٠٣) تحت عنوان «حرافيش نجيب محـفـوظ» . ويذهب كـوتيـزى إلى أن «الحـرافـيش» «تتمحور حول حياة عدد من الرجال الأقوياء، يستسلم بعضـهم إلى خطايا سرية أو إغراءات الترف، بينما يحتفظ آخرون برؤية عظيمة أمام أعينهم تبدو كمنارة . يرتفع قدر العشيرة والعامة ويهبط مع ارتفاع حظ زعمائهم وهبوطه ، وتسـعى العشـيرة إلى زعيم قوى، ويحتاج الناس إلى حام ورجل عادل» .

لقـد تمكن نجـيب مـحـفـوظ من أن يحتل مكاناً وإن وجب الإقرار بأنه مازال مـحـدوداً على السـاحـة العـالميـة رغم اخـتـلافـات اللغة ، والموروث الثـقـافى ، والخلفية الحضارية . وعندى أن الصفات التى كـفـلت له هذه المكانة هى غنى النسـيج الروائى وامـتـلائه بالدلالات والمعـانى واشـتـمـاله على ثلاثة أبعـاد لايخلو منها أدب عظيم .

فالبعد الأول هو البعد الاجتماعى باعتبار أن رواياته ترصد حركة المجتمع المصرى منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن ، وتصور وقع الأحداث السياسية منذ ثورة ١٩١٩، والحرب العالمية الثانية ، وثورة يوليـو ١٩٥٢ ، وحـروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ على وجـدان المواطن المصرى من جميع قطاعات المجتمع.

والبعد الثانى هو البعد النفسى : فـهو يصور بدءا من مجموعة «همس الجنون» حتى «أحلام فترة النقاهة» التى تنشر له الآن أزمات الضمير والوجدان فى حياة أشخاصه من حيث صلتها بالإطار الاجتماعى الأعم» .

والبعد الثالث هو البعد الميتافيزيقى أو الفلسفى : فروايته فى نهاية المطاف، خـاصـة «أولاد حـارتنا» و«الطريق» و«الشحاذ» ، دراسات فى قدر الإنسان، وعلاقـتـه بالقوى الكونية، ومشكلات الصراع بين الخيـر والشر وبين الروح والجسد، وكلها قضايا من شأنها (إذا كان لى أن أستعير عبارة الدكتور صمويل جونسون عن الشاعر الانجليزى توماس جراى) أن تجد «مرآة لها فى كل عقل ، وصدى لها فى كل صدر» . ■

الكم والكيف فى حياتنا

التليفزيون، مباراة الكرة تذاع على أربع قنوات فى وقت واحد ونمط واحد من الإخراج

بقلم
د. مصطفى سويف

هذا المقال أهديه إلى كل من يهمه أمر هذا البلد، مصر.

ذلك أن مشكلة الكم والكيف فى حياتنا الاجتماعية بلغت حدا من التفاقم لا يجوز السكوت عليه، سواء كان هذا السكوت عن غفلة أو إغفال.

فالأصل فى العلاقة بين الكم والكيف فى التخطيط للحياة الاجتماعية أن يكون الكم سبيلا إلى تحقيق كيف أفضل مما هو متحقق فى أى مجال من مجالات هذه الحياة، تزيد الدولة من معدلات الأجور لكى ترتفع القوة الشرائية للأفراد فينعموا بمزيد من طيبات الحياة، وتزيد الدولة من اتساع مظلة التأمينات لكى يزداد اتساع رقعة الطمأنينة المجتمعية على الحاضر والمستقبل، ... إلخ هذا هو الأصل فى علاقة الكم بالكيف فى هندسة الحياة الاجتماعية، وهو ما يضمن لها مزيدا من الارتقاء.

أما أن يصبح الكم وسيلة للإبهار، ومنه إلى التخفى للهروب من مواجهة مسئولية تحقيق الكيف الأفضل، ويتخلق من ذلك مناخ اجتماعي تتسابق فيه أعداد متزايدة من المسئولين كل فى موقعه نحو تطبيق هذه الصيغة، صيغة «الكم من أجل الإبهار»، فهذا مالا يجوز السكوت عليه، لأنه ينطوى على مساوئ كثيرة، أبسطها وأوضحها للعيان الإهدار بأوسع معانى الكلمة، وأسوأها وأشدها مدعاة للمساءلة التدنى بالمجتمع بدلا من الارتقاء به. وفى هذا المقال أسوق بضعة أمثلة تشهد بمدى طغيان الكم، وانحسار حسابات الكيف فى حياتنا رغم تزايد الأخطار التى تضيق الخناق يوما بعد

يوم حول كل ما يمت بصلة إلى التخلف والمتخلفين .

الكم في جامعاتنا

لدينا الآن اثنتا عشرة جامعة (حكومية)، بينها خمس جامعات لها فروع متعددة، فإذا أحصينا الفروع كأنها جامعات (لأن معظمها متضخم بما فيه من أعداد من الطلاب) انتهينا إلى أن لدينا إحدى وعشرين جامعة. وقد بلغ مجموع الطلاب المنتظمين في هذه الجامعات للعام ٢٠٠٢/٢٠٠٣ حوالى ٩٧٠,٠٠٠ تسعمائة وسبعين ألف طالب وطالبة، أي قرابة المليون. وكان عدد الطلاب في سنة ١٩٨٩/١٩٩٠ حوالى ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف طالب وطالبة. ومعنى ذلك أن عدد طلاب الجامعات (الحكومية) لدينا تضاعف تقريبا في خلال الإثنى عشر عاما الماضية. جدير بالانتباه هنا أنني أقتصر على ذكر أعداد الطلاب المنتظمين فحسب، ولا أذكر شيئا عن أعداد الطلاب المنتسبين ، أو الأعداد فيما يسمى بالانتساب الموجه

والسؤال المطروح هنا: ماذا عن مستوى التعليم في هذه الجامعات؟ هل ارتفع مستوى التعليم في الجامعات سنة ٢٠٠٢/٢٠٠٣ عما كان عليه في سنة ١٩٨٩/١٩٩٠ بما يعادل الزيادة في كم الطلاب؟ وإذا كان من الصعب تصور المقارنة الدقيقة بين حجم الزيادة الكمية ومدى ارتفاع المستوى فهل ارتفع هذا المستوى بأي صورة وبأي تقدير بغض النظر عن المقارنة؟

إجابتي عن هذين السؤالين بالنفي، لم يحدث ارتفاع في مستوى تعلم الطلاب يكافئ الزيادة في أعدادهم. بل ولم يحدث أي تحسن بأي قدر يستحق الذكر.

جدير بالملاحظة أن إجابتي هذه ليست رجما بالغيب، ولكنها إجابة تعتمد على ما يعرف في ميدان العلوم الاجتماعية بالمنهج الأنثروبولوجي، حيث يعتمد الباحث في تحصيل علمه بالمجتمع على ما يعرف بالنماذج الدالة.

وإلى القارئ بضعة أمثلة تدل على مستوى معرفة طلابنا بلغتهم العربية، جمعتها من كراسات الإجابة لمجموعة من طلبة الدراسات العليا (أي مابعد التخرج والحصول على شهادة الليسانس): يريد الطالب (أو الطالبة) أن يتكلم عن التحقق من صحة الفرض العلمي فيكتب عن «التحقوق» من الفرض العلمي، ويريد أن يقول «على حدة»، فيكتب «على حدى». ولا يعرف كيف يفرق في كتابته بين التاء المفتوحة والتاء المربوطة، ويجهل التفرقة بين «اللذين» و«الذين» ، ويستخدم في جمع غير العاقل صيغة جمع المذكر السالم. أما فيما يتعلق بمراعاة قواعد الإعراب فحدث ولا حرج. هذه عينة محدودة تشير إلى مستوى المعرفة باللغة العربية، ولكنها بالغة الدلالة، لكونها صادرة عن مجموعة من طلاب الدراسات العليا (فما بال القارئ بما يصدر عن طلاب سنوات الليسانس)، ولكونها تتعلق باللغة العربية (لا بأي لغة أجنبية)، ولو أنني تطرقت إلى مستوى إتقانهم اللغة الأجنبية لكان لي حديث آخر، ناهيك عن مستوى معرفتهم بالمعلومات المتعلقة بمضمون

المادة التي يدرسونها ، وناهيك عن حقيقة الضعف والهزال في معلوماتهم العامة، ثم ناهيك عن مستوى يقظتهم وجديتهم أثناء تلقيهم الدرس ..إلخ.

جدير بالذكر أنني أدلي بهذه الشهادة عن طلاب أعرفهم معرفة مباشرة من خلال خبرتي التدريسية. غير أني لا أقتصر بشهادتي على هؤلاء الطلاب، بل أمتد بمثلها إلى طلاب آخرين ملتحقين بأقسام غير القسم الذي أنتمي إليه، وفي كليات غير الكلية التي أنتمي إليها . وفي جامعة غير الجامعة التي أعمل بها، وأسمح لنفسي بهذا الامتداد بما يشبه شهادتي نتيجة لما أسمعه من الزملاء / الأصدقاء القائمين على التدريس في تلك الأقسام والكليات والجامعات من شكاوى مماثلة، لا فرق في ذلك بين كليات القمة وكليات السفح، ولا بين جامعات في القاهرة وجامعات في الأقاليم . وهناك بعد كل هذا وذاك قصص لا أول لها ولا آخر تتردد كل عام عن نتائج تصحيح أوراق الامتحانات تظل لفترة محل مجادلات بين عمداء الكليات وأساتذة الأقسام ، يرى العمداء بشأنها أن النتائج بالغة السوء فيراجعون الأساتذة في أمرها ، ويرى الأساتذة بشأنها أن السوء مصدره انخفاض مستوى تحصيل الطلاب فعلا ، ولكن لأمر ما (ولست أريد أن أخوض في هذا الأمر) يرى العمداء أن النتائج بصورتها هذه توقعهم في حرج شديد ، فيحاولون إقناع الأساتذة أو الضغط عليهم بكل ما يملكون من طرق الإقناع أو الضغط لرفع نسب النجاح ، وفي كثير من القصص التي سمعتها ينتهي الأمر برفع النسب دون أن يكون لذلك علاقة بجدارة التحصيل عند الطلاب . ثم قصص كثيرة من هذا القبيل، ولكن ما عرضته فيه الكفاية لكي أنقل للقارئ هذه الرسالة التي أريد أن تصل إليه ، وخلاصتها أن مشكلة تغليب الكم على الكيف في حياتنا بلغت حدا لا يجوز السكوت عليه . وقد اتخذت من موضوع الطلاب في جامعاتنا مثالا لشرح ما أعني برسالتي، فالاهتمام بالكم هو الأساس في التحاق الطلاب بالجامعة، وهو الأساس في النظر في امتحاناتهم عاما بعد عام حتى التخرج. ولا يزال المسئولون يباهون بزيادة عدد الطلاب الذين يتم إلحاقهم بالجامعات ، ولا يزال المسئولون الأدنى يباهون بارتفاع نسب النجاح . وبين المباهاة والإبهار يضيع الكيف وتضيع مصداقية التعليم الجامعي .

ومع ذلك فموضوع غلبة الكم على الكيف في تسيير أمور جامعاتنا أعرض وأعمق من أن يقتصر على مسألة تفاقم أعداد الطلاب، ولكن في القليل أحيانا ما يغني عن الكثير . ويحين الوقت الآن لإلقاء السؤال الآتي: ماذا عن الكيف ؟ ماذا عن مستوى الأداء الجامعي؟ تحدد المادة الأولى في قانون الجامعات جوهر الأداء الجامعي بأنه يتكون من شقين هما التعليم والبحث العلمي، ومن وحي هذا الإطار تتوالى عدة أسئلة: هل سمعنا عن أساليب للعناية بمكتبة الجامعة؟ أعني عن تزويدها المستمر بأحدث المراجع من كتب ودوريات في عشرات التخصصات التي تضمها الجامعة؟ هل سمعنا عن أساليب للعناية بمكتبات الكليات لتزويدها المستمر بالمراجع اللازمة لمجالات تخصصها؟ هل سمعنا عن أسلوب أو أساليب للعناية

بمكتبات الأقسام فى هذه الكليات..؟ لا شئ من هذا القبيل. ومع ذلك فهذه الكتب والدوريات هى أدواتنا لمتابعة الجديد فى علومنا حتى نستطيع أن نؤدى الشق الخاص بالبحث إضافة إلى ما هو خاص بالتعليم . ولنترك مسألة المكتبات والمراجع ، ولننتقل إلى بند آخر من بنود مستوى الأداء. هل سمعنا شيئا عن تمكين أعضاء هيئة التدريس ماديا وأدبيا من تلبية الدعوات لحضور المؤتمرات التى تتعلق بتخصصاتهم فى الخارج؟ وهل يمكن إحراز تقدم حقيقى فى البحث العلمى دون اتصال حى مكثف بين الداخل والخارج؟ ثم ماذا عن الأساتذة الزائرين؟ هل نستطيع أن ندعو الأساتذة المتميزين فى تخصصاتنا الدقيقة لزيارات قصيرة لأقسامنا نضمن لهم فيها رحلة وإقامة كريمتين لكى نتبادل معهم نحن وطلابنا الفكر والخبرة ؟ لا شئ من هذا القبيل، ومع ذلك فهذه الحقائق فى مجموعها هى بعض أدوات البحث العلمى الحقيقى (لا المظهرى) الذى يمكن لصاحبه أن يتقدم به للنشر فى دوريات التخصص فى الخارج ويضمن أن يؤثر عن طريقه فى الفكر العالمى حول التخصص، ويضمن كذلك أن يظل تدريسه للطلاب مواكبا لأحدث معالم التقدم فى مجال التخصص .

ثم ماذا عن سائر المجالات في حياتنا الاجتماعية ؟

أينما وليت وجهى النظر فى قضية الكم والكيف كما تنتظم فى حياتنا الاجتماعية وجدت الكم هو الحاكم الأعلى، ولما كان من غير المعقول أن أتحدث عما يجرى فى كل مجال بالقدر الذى تحدثت به عن شئون الجامعات فسوف أكتفى فى هذه الفقرة من المقال بذكر أمثلة محدودة الحجم لكنها كبيرة الدلالة .

خذ مثلا مجال البث الإذاعى التليفزيونى ، حتى وقت قريب كان عدد قنوات الإرسال محدودا ، وفجأة زاد هذا العدد فبلغ عشر قنوات ، تزيد أحيانا إلى اثنتى عشرة قناة. وأنا أتحدث هنا عن القنوات المصرية العادية ولا أشير إلى تلك التى تحتاج لتشغيلها إلى «الطبق الهوائى» أو إلى آليات فك الشفرة..إلخ. وحتى وقت قريب كانت ساعات الإرسال محدودة، ثم إذا بها تزداد حتى كادت تغطى الليل بطوله والنهار بطوله على كثير من هذه القنوات . وحتى وقت قريب كان عدد المسلسلات التليفزيونية (العربية والأجنبية) محدودا ثم زادت أضعافا مضاعفة. وهكذا يزداد العمل بقاعدة الكم فى هذه الجبهات الثلاث (عدد القنوات ، وساعات الإرسال، والمسلسلات) يوما بعد يوم . ومرة أخرى يثار السؤال : وماذا عن الكيف ؟

يكشف مستوى الأداء عن نفسه فى معظم الأحيان بصورة غاية فى البلاغة والفصاحة معا، أدير مفتاح التلفاز فأجد أحد ماتشات الكرة المصرية، فأنتقل إلى قناة ثانية فأجد نفس الماتش، فأنتقل إلى قناة ثالثة فيطالعنى نفس الماتش، وأنتقل... وأنتقل ويظل الماتش نفسه يطاردنى، يبلغ عدد القنوات التى تذيع الماتش الواحد فى وقت واحد معا أحيانا أربع قنوات ، وأحيانا ست قنوات،

• إذا أصبح الكم وسيلة للإبهار ومنه إلى التخفي للهروب من مواجهة مسئولية تحقيق الكيف الأفضل فإن ذلك ينطوي على مساوئ كثيرة .

وأحيانا أكثر من ذلك! هل هذا هو مستوى الأداء الواجب؟ أو المقبول؟ أو المعقول؟ أم أن هذا المثال يعني التخلي تماما عن مفهوم الكيف/ المستوى؟ فإذا تركنا المثال الخاص بماتشات الكرة (كرة القدم ، وكرة السلة، وكرة اليد، والكرة الخماسية... إلخ) فماذا عن برامج أخرى تملأ ساعات الإرسال؟ هل يعقل ألا يكون هناك سوى نمط واحد من الإخراج يشيع فيما لا يقل عن ٧٠٪ أو ٨٠٪ من البرامج؟ نمط قوامه مذيع ومذيعة ورنين التليفون ثم كلام صادر عن التليفون يمدح المذيع والمذيعة والبرنامج (فيما يشبه العودة إلى شخصية المطيباتي التي كنا نسمعها على الأسطوانات القديمة تمتدح صوت المغني!) . وأنتقل من قناة إلى قناة ثانية فثالثة فرابعة... إلخ فأجد نمط الإخراج نفسه! هل يعقل هذا؟ وهل يتصور المخرج الأوحد (أو المخرجون التابعون) أن أحدا من ذوي الذكاء المتوسط من المواطنين يصدق ما يوحي به هذا الإخراج؟ علما بأن ذوي الذكاء المتوسط في المجتمع تبلغ نسبتهم ٦٨٪ من أفراد هذا المجتمع. فإذا أضفنا إليهم ذوي الذكاء المرتفع بلغت نسبتهم ٨٤٪ . فإذا كانت هذه هي الحقائق عن توزيع الذكاء في جمهور المواطنين فهل يقصد مصممو ومخرجو هذه البرامج إلى الاقتصار على مخاطبة الـ ١٦٪ الباقين الذين هم من ذوي الذكاء المنخفض؟ ومع ذلك فإنا لا أناقش هنا مضمون الموضوعات التي يطرقها هؤلاء المذيعون والمذيعات، لأن قصة المضمون قصة أخرى .

ثم نأتي إلى حديث المسلسلات ، الأجنبية منها والعربية، فأما الأجنبية فهي غالبا ما تتراوح بين العنف والجنس ، ومن ثم تتراوح آثارها في نفوس المشاهدين بين تنمية العدوانية واختزال الدوافع والقيم الإنسانية في الجذر الجنسي وحده! وأما المسلسلات العربية فهي غالبا غير مقنعة ومليئة بالحشو الذي لا علاقة له بمشروعية الضرورة الفنية ، ومن ثم فهي تهبط بذوق المشاهد وبقدراته الإدراكية والنقدية.

ولنترك مجال البث الإذاعي التليفزيوني، ونتجه إلى مجال آخر، مرفق التعليم العام . فحديث المسئولين عنه ينصرف عادة إلى ذكر عشرات الآلاف من المباني المدرسية، ومنه إلى ذكر ملايين التلاميذ ، ومنه إلى النسب المرتفعة لدرجات النجاح في الامتحانات العامة ، ومنه إلى ذكر آلاف الكمبيوترات ...إلخ. كلها أحاديث تدور حول محور واحد، هو الكم . أما الكيف فنصيبه الصمت! ماذا عن كفاءة المباني ومدى استيفائها شروط البناء السليم (غير المغشوش)؟ وهو أضعف الإيمان . ثم ماذا عن مدى استجابتها لمقتضيات التحليل الموضوعي للنشاطات المدرسية المتنوعة؟ وماذا عن حقيقة المستوى العلمي للتلاميذ؟ ثم ماذا عن مستوى

كفاءة المدرسين فى أدائهم التعليمى؟ أم يصدق المسئولون ما توحى به الدرجات المرتفعة التى تحصل عليها نسب كبيرة من التلاميذ فى امتحان الثانوية العامة؟

وفى مجالات الحياة الاجتماعية غير الحكومية

جدير بالملاحظة فى سياقنا الراهن أن الإصابة بداء الكم على حساب الكيف لم تقتصر على المرافق التى تديرها الحكومة فقط، ولكنها تجاوزتها إلى مجالات أخرى فى حياتنا الاجتماعية، فنفذت إلى ما يمكن أن يسمى بمؤسسات المجتمع المدنى، بل ونفذت فى حياة كثير من الأفراد. ومن هنا كانت فاتحة الكلام فى هذا المقال بأنه مناشدة «أهديها إلى كل من يهمه أمر هذا البلد» (لا إلى رموز السلطة فحسب). فى هذا الموضع يكفينى أن أذكر وبإيجاز شديد مثالين أو ثلاثة. فقد بدأنا نسمع فى السنوات الأخيرة عن مؤتمرات فى مجالات العلم والخدمات وغيرهما من مناشط الحياة الاجتماعية. ومؤخرا أخذت هذه المؤتمرات تتوالى بتسارع لافت للنظر، ويلفت النظر أكثر من ذلك تزايد أعداد الأوراق التى تعرض فى هذه المؤتمرات واحدا تلو الآخر . وقد بدأنا نقرأ ونسمع أعدادا من قبيل المائتين والثلاثمائة ورقة ...إلخ. وهكذا اختلطت أمام الجميع معانى المؤتمرات والمهرجانات والكرنفالات، هذا مثال، والمثال الآخر ما تطالعنا به الصحف يوما بعد يوم عن سيل لا ينقطع من الندوات حول تعاطى المخدرات ، ويعلم الله كم فى المائة من حضرات المتحدثين المتحمسين فى هذه الندوات على علم صادق بأمور المخدرات! والمثال الثالث ما ابتلينا به فى عدد من اللجان العلمية الدائمة فى الجامعات من زملاء مرشحين للترقية يتقدم الواحد منهم بالعشرات من البحوث التى يفترض فيها أنها أنجزت فى خلال سنوات خمس انقضت منذ حصل على الترقية السابقة. وقصارى القول أن الأمثلة التى تشهد بتنامى هذا التيار الذى يغلب الكم على الكيف والذى تفشى فى معظم جنبات الحياة الاجتماعية لدينا لا تكاد تقع تحت حصر

المنشأ والمآل

معرفة الإنسان بمنشأ الداء تساعد على علاجه للبرء منه ، والمعرفة بالمآل تزيد من القدرة على تفعيل عوامل الحرص والحذر فى التدبير للمستقبل . منذ أكثر من أربع سنوات نشرت فى هذه المجلة الغراء «الهلال» مقالين ذكرت فيهما الركائز الأساسية للحياة الاجتماعية، وجذور الوهن كما تضرب فى تربة هذه الحياة. وجاء فى مقدمة عوامل الوهن الاجتماعى عامل «تغليب الكم على الكيف». ومما قلته فى هذا الصدد إن هذه الآفة تأتى مرتبطة مع آفات أخرى فى شكل حزمة يجمع بين مفرداتها قدر من الارتباط يفوق فى قوته قوة العلاقة بين أى مفردة وأى مفردة أخرى فى أية حزمة مغايرة ، وإن

• أينما وليت وجهي للنظر في قضية الكم والكيف كما تنتظم في حياتنا الاجتماعية وجدت الكم هو الحاكم الأعلى.

الحزمة التي نحن بصددها تجمع فيها آفة «الكم على حساب الكيف» مع ثلاث آفات أخرى، هي: تغليب «الشكل على المضمون»، وتفضيل النشاط سريع العائد على النشاط ذي العائد البطئ أو البعيد، والإقبال على العمل اللحظي أكثر من العمل الممتد. وقلت إن الجذر المشترك الذي يضم هذه الآفات الأربع معا هو «ذيوع التوجه الإعلامي» في الحياة. هكذا تجد آفة «تغليب الكم على الكيف» طريقها إلى حياتنا الاجتماعية، فهي تأتي متساندة (داخل حزمة واحدة) مع ثلاث آفات أخرى، وتستمد الحزمة كلها طاقة الدفع والاستشراء من معين التوجه الإعلامي الطاغي، وهو التوجه الذي تعلو فيه قيم المظهرية عند المواطنين وتتوارى فيه قيم المصداقية. هذا هو طريق المنشأ.

ونتساءل الآن: ما الذي يترتب على الانتشار الوبائي لداء «الكم على حساب الكيف»؟ والإجابة المباشرة هي: سوء المآل. وقد يكون من المفيد في هذا الصدد أن ننظر في الكيفية التي يزحف بها سوء المآل على من كان هذا حالهم. يمكن للمشاهد المدقق أن يتبين في تقدم هذا الزحف عدة مراحل: أولاها صرف أنظار المواطنين (بقليل من الحق وكثير من الباطل) عن مطلب مستوى كفاءة الخدمة، وإغراؤهم في الوقت نفسه بأن يقبلوا عوضا عن ذلك حجما أكبر لهذه الخدمة. **وثانية هذه المراحل** إغراء المواطنين بضرورة التنازل عن بعض مكونات الكفاءة في مقابل تعميم الخير من مجرد وفرة الكم. **وثالثة هذه المراحل** تأتي تلقائيا، فمع مزيد من تفعيل صيغة غلبة الكم وألفة المواطنين بهذه الغلبة يزداد اغترابهم عن مضمون الكيف ومحكاته حتى يبلغ الأمر حدا من الضلال تتلاشى عنده من الواقع الخارجي كل مقومات الكيف كما يتلاشى في النفوس ذكره. وهكذا يفيق المواطنون في لحظة ما فيجدون أنفسهم وقد فقدوا معظم مكونات الخدمة التي كانوا (أو كان آباؤهم) يطلبونها أصلا. هذه هي خاتمة المطاف في طريق تنامي الكم وتآكل الكيف. وفي هذه الخاتمة يتوحد الإهدار مع التخلف.

أرجو أن يحاول القارئ امتحان صدق هذه الصيغة التي أضعها أمامه في هذه السطور القليلة، لكي يحدد بنفسه مدى انطباقها على جميع المجالات التي ذكرتها تباعا منذ بداية المقال: التعليم الجامعي، والبث الإذاعي التليفزيوني، والتعليم العام، وشئون المؤتمرات، والندوات ... إلى آخر ما تزدحم به ساحتنا. ■

أقــوال معاصرة

● «الإسلام لا يمكن أن يعادي الغرب، فقد بنيت حضارته من علوم أبنائه».

الدكتور حمدى زقزوق - وزير الأوقاف

● «مشكلة العرب مع أمريكا إما مقاومتها بشكل عنيف يجلب لهم الويلات ويعطيها ذريعة التدخل العسكرى، أو الاستسلام بشكل مذل ومهين وكأنهم مندوب سام»

الشيخ د . جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

● «الوقاية خير من العلاج حقيقة ترتكب باسمها عشرات الأكاذيب والجرائم»

د. حامد عمار

● «لا يمكننا أن نكون مناهضين للأمريكيين ولكن يمكننا أن نكون ضد بوش»

الشاعر محمود درويش

● «على كل من يعمل من أجل حقوق الإنسان فى إيران أن يعيش في الخوف من لحظة ميلاده وحتى وفاته لكنني تعلمت كيف أتغلب على الخوف»

المحامية الايرانية شيرين عبادى الحاصلة على جائزة نوبل للسلام

● «قبل كل شئ لا تحدوا علاقاتكم بالناس الذين يتفقون معكم فقط»

ريتشارد برودهين عميد جامعة ييل فى كلمته للطلبة المستجدين

● «كل إنسان يولد يعتنق أفكارا مجددة، ويعمل على تطوير هذه الأفكار»

الأديب الايطالى امبرتو ايكو

● «دور المثقف أن يقف موقفا نبيلا وشريفا يشيع الحرج والاعتراض بل حتى الامتعاض إلى أن يحدث التغيير المنشود»

المفكر إدوارد سعيد

● «لم يوجد فى تاريخ العالم ذلك الشخص الذى غسل عربة مستأجرة!!»

لورنس سامرز - عميد جامعة هارفارد

● «ذهب رعاة الغنم، وجاء رعاة البقر»

داود الفرحان - صحفى عراقى



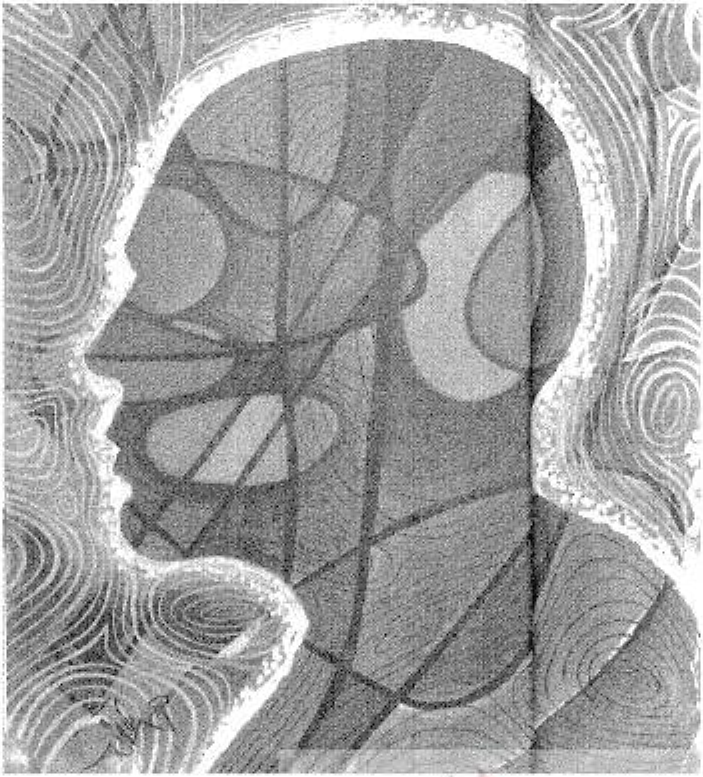
حمدى زقزوق



محمود درويش



إدوارد سعيد



أن تسمع اللون وترى الصوت

الحواس الساحرة هو أن تسمع الصوت وتلمس الطعم ويولد الإنسان وهو يحمل هذه الخصيصة

بقلم
د. أحمد مستجير

بعد أن وضع ريتشارد فاجنر أوبرا «تريستان وايزولده» ذهب إلى المسرح الذى جهز لعرضها، فوجد أن اللون الأزرق يغلب عليه، استشاط غضبا ومضى يحطم كل ما أمامه، ليصاب مهندس الديكور بالذعر، أكد فاجنر أنه إذا لم يغير هذا اللون إلى الأحمر الداكن، فلن يسمح بافتتاح الأوبرا، كان الفيزيائيون فى تلك الأيام قد أدركوا أن موجات الضوء تتوافق فى الشكل مع موجات الصوت، وكان المقام الموسيقى الذى كتبت به الأوبرا هو الذى يتوافق مع اللون الذى أصر عليه فاجنر، كان الموسيقى على حق، اللون الأزرق كان بالفعل هو اللون الخطأ.

بريشة الفنان: أحمد شوقى

في قصيدة «الزعفران الأرجواني» يقول الشاعر أليكي بارنستون «نغمات موسيقية عابرة لا تدرك، تسمعها العين».. ويكتب ك . بالمونت عن ناي «صوته أزرق في لون الفجر»، وهناك من تأوه قائلاً «آه من رائحتها الزرقاء»، ويتحدث الشاعر أ. رينبو عن «سوناتا اللون» ، وكتبت أنا يوما عن صوتها الحزين الذي «يشبه الظل على الموج البطيء». نمزج الحواس عندما نكتب، ليجد القارىء شيئا جميلاً موحياً يتسرب إلى صميم كيانه، يعشق الكاتب أن يمد حاسة لتستوعب حاسة أخرى أو عاطفة، فيرى الصوت والموسيقى، ويشم الظلام، ويسمع اللون، ويحس الحزن «ضوءاً خافتا»، ويكتب عن «صوتها الذي كان يطير كالريح، ويبدو أسود مبتلا ليليا، يتألق كجوهرة»، و«يرى الكون في حبة رمل، والجنة في زهرة برية» .

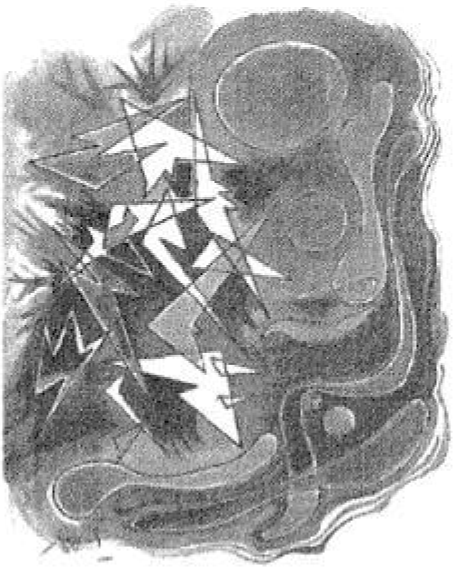
إذا ما وصفت لك ورقة نبات فقلت إنها «خضراء سميكة، تشبه العين» فستصلك صورة لشكل الورقة، إما إذا قلت لك «إنها ورقة تلفها رائحة ضوء الشمس، ينبض في عروقها دم التفاح ، تداعب أنفك بنكهة السرور والبهجة، تنفذ عينها إلى قلبك فتثير فيه الأمل، والحب والحق»، فلن تصلك صورة للورقة، وإنما ستبلغك عنها طاقة روحية، ستتحول من «علم النبات» إلى «عالم الشعر».

يعيش الفنان في حواسه، عندما يبدع ، لا في مخه، يناشد كاندينسكي المتلقي قائلاً: «اترك أذنيك للموسيقى، افتح عينك للوحة.. وتوقف عن التفكير! ثم اسأل نفسك: هل مكنك هذا العمل الفني من أن تتجول في عالم ما عرفته قبلا؟! إذا كانت إجابتك : نعم ، فبالله ماذا تطلب أكثر» ؟!.

عندما قرأت قصيدة الصمت القصيرة (جدا) للشاعر الأمريكي إ.إ كامينجز (أو الشاعر الرسام كما كان يحب أن يسمى) (١٨٩٤ - ١٩٦٢)، توقف عند مطلعها : «الصمت.. طائر... ينظر» هزتني هذه الجملة القصيرة، زلزلتني . حملتني إلى عالم ما عرفته قبلا، نقلت إلى قلبي صورة هائلة تلف الوجود.. هويت عميقا في رحم الصمت، لفتني سحابة استغراق. توافدت إلى مخيلتي صور وخيالات ما أكثرها، من بينها صورة محمد حسنين هيكل «ينظر» .

طائر يجلس وحيدا على فرع شجرة ينظر. لا يغني.. لايصدح . لا يقول شيئا، ينظر.. كيف لهذه الجملة القصيرة أن تفعل بي ما فعلت؟ بها شيء من سر الفنان، بها شيء من سر الوجود.

العاطفة لا يمكن أن توصف بأوصاف تخصها وحدها، كيف تصاغ شعرا؟ كيف ترسم لوحة؟ كيف تنساب موسيقى؟ كيف تتجسد تمثالا؟ نستعير لها صفات من حواس أخرى، من العالم الخارجي كما نخبره لكن احدا لن يستطيع أبدا أن يصل إلى ما كان في جوف الفنان إذ يكتب قصيدته ، أو يرسم لوحته، أو يرسل ألحانه، أو ينحت تمثاله، سيظل هناك شيء لا يبين، يعجز المتلقي عن أن يبلغه ، فكل ما يستطيعه هو أن يحاول



الاقتراب من السر الأعظم فى عمق الفنان، هو سر الوجود الذى لن يبلغه بشر، لا ولا حتى صاحب الإبداع نفسه.

أثمة من الصفات ما نجده فى كل فنان حق؟ نعم: القدرة على ربط مجالات متفرقة من الخبرة، مجالات تبدو لغير الفنان وكأن لا شيء يجمع بينها، الفنان يجاهد كى يتمكن من المجاز، من الاستعارة، من مزج الحقائق، لكن هناك من الناس الكثيرين ممن يشتركون معه فى هذه الخبرة وهم من يحملون صفة ترافق الحواس (وهذا اسم لظاهرة فريدة تمتزج فيها حواس الفرد مع بعضها بعضا). إثارة حاسة من الحواس الخمس، الشم مثلا، تتسبب تلقائيا وفوراً فى استثارة حاسة أخرى أو أكثر، كالسمع أو البصر، ليس من الغريب إذن أن نجد هذه الخصيصة منتشرة بين الفنانين بمختلف طوائفهم بنسبة تبلغ سبعة أضعاف النسبة فى العشيرة بل ان هناك من أكد أن الموهبة الشعرية الجوهرية هى ترافق الحواس، مترافقو الحواس يخبرون العالم بكثافة أكبر، ويرون عالما مختلفا، وان كان الكثيرون منهم لا يدركون أنهم يمتلكون هذه القدرة المتفردة، بل إن البعض منهم يعتقدون أن أحاسيسهم هى نفس أحاسيس الآخرين، ويشعرون أن ما بهم هو الطبيعي، فهذا واحد منهم يقول (ولم يكن يعرف أنه يمتلك هذه الخصيصة): «ألا يرى الناس جميعا الأرقام ملونة؟».

كتب السيكولوجى الروسى أ. ر. لوريا عن شخص عمره ٣٠ عاما له ذاكرة فوتوغرافية لا تمحى، وكانت حواسه مترافقة، وصف لوريا حالة الرجل لكنه لم يقدم تفسيراً لهذه الذاكرة الهائلة ولا لترافق حواسه. لم يكن هذا الرجل يدرك خطوطاً تفصل الرؤية عن السمع، أو السمع عن أية حاسة أخرى، إليك كيف وصف الرجل العالم الذى يعيش فيه:

«إننى أدرك الكلمة، ليس فقط بما تستحضره من صور، وإنما بمعقد كامل من مشاعر تثيرها الصور، يصعب على أن أعبر.. الأمر ليس أمر رؤية أو سمع، وإنما هو إحساس شامل يعترينى، العادة أن أخبر للكلمة طعما ووزنا.. ثم إننى لا أبذل مجهوداً

كى أتذكرها - الكلمة على ما يبدو تستدعي نفسها.

لكن يصعب على الوصف، إننى أحس بشىء يشبه الزيت ينزلق خلال يدى.. أو قد أحس بوخز خفيف فى يدى اليسرى ينشأ عن عدد كبير من إبر دقيقة خفيفة.. وعندما يحدث هذا فإننى أتذكر، دون أن أقوم بالمحاولة».

تكاد تحس بأذيب يكتب!

ترافق الحواس

كنا فى الستينات نقابل فتاة فقيرة عمياء، على كورنيش النيل فى المنيل قرب كوبرى الجامعة، كانت تفعل شيئا عجبا، كانت تضع يدها على أية سيارة، فتعرف لونها دون خطأ! لم أكن أصدق، وكنت أقول إنها ليست عمياء كما تدعى، حتى قرأت عن ترافق الحواس، وعلمت أن الله قد وهب البعض منا قدرات حسية خارقة بالفعل.

تعلمنا أن حواسنا الخمس - السمع، البصر، الشم، الذوق، اللمس - منفصلة، متخصصة، ومستقلة بعضها عن بعض، وأن كلا منها يرتبط بعضو بذاته من أعضاء الجسم، فلا نحن نرى بآذاننا ولا نحن نسمع بأعيننا، لكن العلم يتحدى الآن هذه الأفكار بأبحاثه فى ظاهرة ترافق الحواس الساحرة هذه! والتى يخبر فيها الفرد تشوشا فى حواسه، فيبدو الأمر كما لو كانت إحداها قد «اندمجت» فى أخرى: حاسة تقدح زناد حاسة أخرى غيرها، فصوتى عند مثل هذا الشخص ليس مجرد شىء يسمعه وإنما أيضا شيئا يراه أو يشمه أو يلمسه - هو يستطيع أن يسمع اللون أو أن يرى الصوت أو أن يلمس الطعم، طعم الكينين «كالخشب الناعم المصقول»، السكر يجعل طعم الأشياء «أكثر استدارة»، أما الموالح فتعطى «طعما مدببا»، هى ظاهرة لا إرادية ولا يمكن للفرد أن يتحكم فيها، وتبقى معه طول العمر، وإن كانت تضعف بعض الشىء مع تقدم العمر.

والحق أنه كان من الصعب حتى وصف هذه الظاهرة ذاك أنه إذا حاول واحد من ذوى الحواس المترافقة وصف ما يعتريه، فمن الصعب علينا أن نتفهمه، إذ سيبدو كمثل من يريد وصف اللون لشخص ولد ضريراً، إليك ما قاله أحدهم: «إنها بالتأكيد ألوان، لكنى لست متأكداً، من أن كلمة «رؤية» هى أدق الأوصاف، الإحساس بالترافق مؤكدا ليس فى عقلى، لكنه هناك بشكل ما الأمر يبدو كما لو كان ثمة غشاء نصف شفاف له عمق يمكننى أن أرى من خلاله، هو شىء كمثل جيشان حرارة، إنما دون التشويه»، وهذا وصف لنغمة موسيقية على لسان شخص ترافقت لديه حواس كثيرة ولم يكن يستطيع إلا أن يترجم الأصوات إلى شكل وطعم وملمس ولون وحركة: «إنها تشبه شيئا كالألعاب النارية - يشوبها لون أحمر قرنفلى، أشعر بشريحة لون خشنة كريهة، لها طعم قبيح - طعم أشبه ما يكون بالمخلل المالح، إنها تجرح يدك إذا أنت لمستها».

تولد مترافقى الحواس

ثمة شواهد قوية تقول إننا نولد جميعا ونحن نحمل هذه الخصيصة: نولد وحواسنا

الخمس مبهمة ممتزجة معا، لتتمايز مع تقدم العمر وتصبح أكثر وأكثر تخصصا، لأعيننا سبل حسية من خلالها ترسل المعلومات إلى المخ، ومنه، تكون هذه السبل فى الطفولة غير ناضجة وترسل إشارات تختلف عما ترسله بعد البلوغ ، لا تنضج هذه المسالك إلا مع تمام نضج المخ.

تبين الأبحاث أن الوليد النائم يسمع فى نومه مثلما يسمع فى صحوه، أما الشخص البالغ فينخفض سمعه عندما ينام، وهناك من نتائج البحوث ما يقول إن المولود فى عمر ٣ - ٤ أسابيع يسوى بين الأضواء الساطعة والأصوات المرتفعة ، هذه تعنى تلك، وهذا مؤكد أمرلا يحدث مع الكبار.

تكون حواسنا عندما نولد مترافقة، ويحتفظ عدد قليل منا بهذا الترافق طيلة حياته، عدد تتراوح نسبته فى العشيرة ما بين واحد فى كل ٢٠,٠٠٠ فرد، وواحد فى كل ٢٠٠٠، وإن كان هناك الآن من قد رفع هذه النسبة إلى واحد فى كل مائتين، والواقع أن ليس ثمة تقدير مضبوط يمكن الاعتداد به، لأن معظم من يحمل هذه الخصيصة لا يفصح عنها خشية أن يتهموه بغرابة الأطوار أو بالجنون! فعندما تحدث، على الأثير، الدكتور ريتشارد إدموند سيتويك - الطبيب الذى أثار هذه الظاهرة مجدداً فى أوائل تسعينات القرن الماضى بكتابه الرجل الذى يتذوق الأشكال - وطمأن حامليها من المشاهدين بأنهم ليسوا مرضى، أن ما بهم ليس حالة مرضية بل إن البعض يعتبرها موهبة ، ويشعرون بأنها تثرى حياتهم وطلب منهم الاتصال به، انهال عليه سيل من المكالمات التليفونية والرسائل! والواقع أن هذه الظاهرة لم تخضع لبحوث جادة إلا مؤخرا، ولقد كانت تعزى بالفعل فى الأدبيات العلمية القديمة إلى جنون حامليها، أو إلى تعاطيهم عقاقير الهلوسة، لكن هذا لم يكن يفسر السبب فى أن معظم حامليها لا يتعاطون هذه العقاقير، كما كانت تفسر بأنها نتيجة للألعاب التى يدرب بها الأطفال على القراءة والكتابة، فإذا كان الرقم ٦ أحمر والرقم ٧ أزرق، ثبت هذا فى عقولهم، لكن لماذا إذن لا تكون جميعا هكذا؟ وكان هناك من فسرها بأنها مجرد صورة من صور المجاز، فإذا كانت النغمة حمراء فلأنها زاعقة مثل ذلك الفلفل الأحمر الحريف الزاعق!

الأمر الغريب أن نسبة من يتحلى بهذه الخصيصة من النساء تبلغ على الأقل ضعفين ونصف ضعف نسبة من يحملها من الرجال، بل أن هناك من رفع هذه النسبة إلى ستة أضعاف، كما أن نسبة اليسر (الذين يعملون باليد اليسرى) من أصحاب ترافق الحواس تزيد كثيراً عن نسبتهم فى العشيرة العريضة . ثم إن اكثر صور ترافق الحواس شيوعاً تكون بين حاستين اثنتين فقط، والترافق بين البصر والسمع هو الأكثر انتشاراً، وهو ما يسمى السمع الملون، وفيه يرى الشخص الصوت أو الموسيقى ألوانا، ومعظم من يتحلى بمثل هذا الترافق يقولون إنهم «يرون» هذه الأصوات داخليا، فى عين العقل، لكن قلة منهم يرونها خارج الجسم، على بعد ذراع وهناك بالطبع نسبة ضئيلة

تمزج بين أكثر من حاستين.

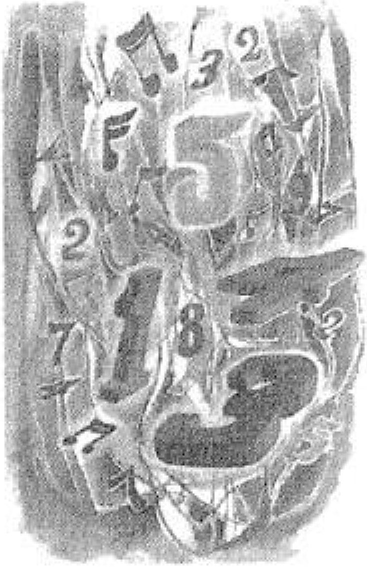
الصفة وراثية

يبدو أن هذه الصفة وراثية، تجرى فى العائلة كما يقولون ، كان الروائى الشاعر فلاديمير نابوكوف، مؤلف رواية «لوليتا»، يتصف بهذه الخصيصة ، وكذا كانت أمه وكان ابنه – ثلاثة أجيال متعاقبة في العائلة حملت هذه الصفة، عندما اشتكى فلاديمير الطفل لأمه من أن ألوان المكعبات الخشبية التى تحمل حروف الهجاء كانت كلها خاطئة، فالحرف A على المكعبات ، مثلا ، لونه أحمر، فى حين أن المفروض أن يكون لونه أزرق، وقال لها كيف يمكن لأحد أن يكون فى مثل هذا الغباء فيرتكب خطأ كهذا؟ فهمته أمه على الفور وتعاطفت معه، فقد كانت مثله ممن يرون الحروف والأرقام – المطبوعة بالحبر الأسود – ملونة، هذا الترافق الذى يجرى على عائلة نابوكوف توافق مفاهيمى ، بين مفهوم ما وبين حاسة من الحواس الخمس.. فإذا كان الرقم ٧ مثلا يثير اللون الأصفر عند أحدهم ، فسيرى هذا اللون حتى دون أن يرى الرقم ٧ إذا ما سئل عن حاصل جمع ٤ + ٣.. وهناك أيضا التوافق بين اللون والوحدات الزمنية فيوم الأربعاء مثلا قد يكون أزرق وشهر أبريل أحمر.

كيف سيعرف الباحث ما إذا كان الشخص بالفعل من أصحاب الحواس المترافقة؟ إن أهم ما يميز هؤلاء هو ثبات الصفة، فإذا كان الشخص يرى الرقم ٢ مثلا أحمر اللون، فلابد أن يراه هكذا طول عمره، وليس من المهم أن يراه أمثاله الآخرون بنفس هذا اللون، فالصفة شخصية.

ثمة تجربة غاية فى الذكاء صممت للتأكد من وجود الترافق لدى الشخص بين الأرقام واللون، قل مثلا بين الرقم ٢ واللون الأحمر ، إذ تعرض عليه ورقة بها صفوف عديدة من الرقم ٥ يتناثر داخلها عدد محدود من الرقم ٢ – وكل الأرقام ٥ و ٢ مطبوعة باللون الأسود، يحتاج أى منا وقتاً كى يكتشف مواقع أرقام ٢ هذه المتناثرة داخل صفوف الرقم ٥، أما صاحب الترافق فسيمكنه على الفور بنظرة واحدة أن يقع على كل الأرقام ٢ ويعرف إن كانت تتخذ مثلا شكل مثلث، لأنه سيراها حمراء اللون بين أرقام ٥ التى يراها بلونها الأسود.. هذا اختبار تشخيصى وحساس جداً، ويبين أن أصحاب الترافق ليس بهم «مس من جنون»، وأن الصفة ليست صورة من صور المجاز، ولا هى تصاحبا فى الذاكرة إنها موهبة من الإحساس الثرى.

إذا نحن نظرنا إلى اللفيفة المغزلية بالفص الصدعى بالمخ، فسنلحظ أن منطقة اللون به تجاور مباشرة، بل وتكاد تلمس المنطقة المختصة بالرسوم البصرية والأعداد، الأمر الذى قاد الدكتور راماشاندران إلى الفرض بأن البعض منا يحملون جينا طافراً إذا عمل بالتحديد فى اللفيفة المغزلية هذه، وأوقف أو ثبط تشذيب الروابط بين وحدات المخ المجاورة، فستبقى الوصلات العصبية بين هذه المناطق، مما يسبب ترافق الأرقام والألوان، أما إذا عمل هذا الجين الطافر فى كل مكان بالمخ فسيتسبب فى روابط فائقة فى المخ بأكمله – وهذا هو السبب فى أن يكون ترافق الحواس فى الفنانين والشعراء



والروائيين أكثر شيوعا، هم كما ذكرنا يستخدمون المجاز والاستعارة، هم بارعون في الوقوع على أفكار تبدو متباينة تماما، لتصبح على أيديهم وقد ارتبطت برباط وثيق! أمخاخهم تتخللها شبكة اتصال عصبي أكثر كثافة، تسهل عليهم الربط بين مفاهيم ما أبعدها عن بعضها بعضا.

اقترح ان الجين الخاص بهذه الصفة سائد ويقع على كروموزوم الجنس X، لأن الأب حامل الصفة ينقلها إلى بناته جميعا، لكن نسبة من يحمل الصفة من الإناث كما ذكرنا يبلغ ٢,٥٠ - ٦ أضعاف نسبة حامليها من الرجال، والتحليل الوراثي الرياضي لصفة كهذه يقول إنه لا يمكن أن تصل النسبة في الإناث إلى ضعف النسبة في الرجال، فهذا التفسير بالتأكيد خاطئ، والأمر يحتاج إلى تفسير وراثي آخر.

كيف يعمل المخ ؟

كيف يعمل المخ؟ لوجهة النظر التقليدية السائدة منذ نحو خمسين عاما، ثلاثة مفاهيم أساسية، أولها أن انسياب المعلومات خطي، وثانيها أنه من الممكن أن تحدد للوظائف الفيزيقية والعقلية مواقع معينة بقشرة المخ، وثالثها أن هناك هيراركية تجعل لقشرة المخ المحل الأسمى، فتسود كل ما تحتها، تسري الدفقات العصبية، أي المعلومات، بشكل خطي، الواحدة وراء الأخرى حتى أن تصل كاملة إلى نهاية الخط. هكذا تمضي الانطباعات الحسية الوافدة إلى المخ، والأفعال الحركية الخارجة منه، في الخطوة الأولى يقوم عضو الحس بتحويل الطاقة الكهرومغنطيسية (في حاسة البصر) أو الطاقة الميكانيكية (في حاستي السمع واللمس) أو الطاقة الكيماوية (في حاستي الذوق والشم) إلى دفقات عصبية، لتتحرك هذه إلى محطات في جذع المخ والمهاد (الثالامس) ومن هناك إلى محطات أكثر وأكثر تعقيداً بقشرة المخ، حيث تستخلص - متعاقبة - الأوجه المختلفة للمنبه الخارجي من تيار الدفقات العصبية. تجمع أخيراً هذه الأوجه بطريقة ما في شكل خبرة مدركة فنفهم الشيء بالعالم الخارجي الذي قدح زناد أعضاء الحس.

لقشرة المخ، هذا السطح المجعد الذي يشكل أكبر أجزاء المخ، تركيب غاية في التعقيد.. وهي أيضا أحدث الأجزاء من الناحية التطورية، وهي الأكثر تطوراً مقارنة

ببقية الحيوانات لهذا السبب اعتبرت هذه القشرة المنطقة الأساسية التى تميزنا عن غيرنا من الكائنات ، حتى ليؤكد عليها العلماء لحد استبعاد المنطقتين من المخ اللتين تقعان تحتها عند تمييزهم لنا نحن البشر، يقع تحت قشرة المخ مباشرة الجزء الحافي الذى «ورثناه عن الثدييات الشبيهة بالزواحف» وهو يختص بحفظ النوع (الجنس، التكاثر، السلوك الاجتماعي) ويمثل فى الإنسان المخ العاطفي، ثم يأتى جذع المخ والعقد العصبية الأساسية، أو «مخ الزواحف» الذى يختص بالحفاظ على الذات (التغذية والخوف والصراع) غير أن قشرة المخ كانت تعتبر المنفذ الرئيسي الذى يسيطر على الجزءين، ثم بزغ الأمل فى أوائل الخمسينات بالقرن الماضى فى أن نتمكن من ربط كل جزء من نسيج المخ بوظيفة محددة - فى اختزالية صريحة.

فى داخل النصف الحسي من المخ، خصصت مساحات حسية «أولية» للبصر والسمع واللمس - وظل تحديد منطقة لكل من التذوق والشم أمراً مستعصياً (رغم معرفة العلماء بأن لكل منهما منطقته بالقشرة التى ستكشف يوما ما).. هذه المساحات الحسية «الأولية» هى أولى المحطات بالقشرة، وتلفها يسبب العمى أو الصمم أو الأفازيا (تعذر الكلام)، ثم اكتشفت مناطق الارتباطات الثانوية لكل من هذه الحواس الثلاث، واعتبرت محطات على طول طريق الإحساس، وهى تستقبل المعلومات بعد أن تكون قد جهزت بشكل أفضل وتلف هذه المناطق الثانوية يسبب تشويها - لا فقدانا - لهذه الحاسة أو تلك مثل العمه (فى العمه البصري يمكن للمصاب أن يصف الشئ لكنه لا يدرك كنهه ولا فيم يستخدم) وعند نهاية الخط بقشرة المخ توجد الارتباطات «الثالثة» فى الفص الجداري هنا يتجمع البصر والسمع واللمس، وهنا يحدث الترابط بين هذه الحواس الثلاث صحيح أن لكل حاسة منطقتها الثانوية الخاصة، لكن هناك منطقة «ثالثة» واحدة، وبها - فيما كان يعتقد - تحدث أعلى مستويات التفكير تجريداً .

الشم والذوق لا ينتظمان داخل هذه الصورة، لأن موقعيهما فى قشرة المخ يبعدان عن منطقة الربط «الثالثة» أهملت إذن هاتان الحاستان «لأنهما أقل أهمية من البصر والسمع واللمس» ثمة وظيفة أخرى لم تلق إلا اهتماماً عابراً، هى العاطفة، وهذه خصيصة بشرية عرف أنها، معظمها، من اختصاص تراكيب توجد تحت قشرة المخ، فمن اهتم بالعاطفة من العلماء - وكانوا قلة - اعتبرها تفرعاً جانبياً يخرج من التيار الخطي للمعلومات، وحتى عندئذ كانت العواطف تعتبر ثانوية مقارنة بما يحدث فى القشرة ذاتها

سيتوبك ونظرة جديدة

قادت هذه الآراء إلى مفهوم أهم وهو أن قشرة المخ هى موقع التفكير والعقل، هى التى تجعلنا بشراً. والواقع أن علم الأعصاب لم يكن يهتم، أثناء تطوره، بالعقل كان كبار علماء الأعصاب حتى عام ١٩٥٠ يعتقدون أن المخ لا علاقة له بالسلوك، ومن ثم كانوا يرفضون «ترافق الحواس» على أنه شئ ذاتي تماماً برز الاهتمام بهذا الترافق فيما بين عامي ١٨٦٠ و ١٩٢٠، ثم خبا، لأن أحداً لم يتمكن من العثور على تفسير

فيزيقي له. وكان هذا المفهوم مسيطراً على سيتويك عندما بدأ دراسته على ترافق الحواس كان عليه في البداية أن يتأكد من أن هذه الظاهرة حقيقية، ليمضي بعد ذلك يبحث في منطقة الربط الثالثة بالقشرة عن الآلية الفيزيقية .

ثم اكتشف أن هذا الخط من التفكير خاطئ : «النظرة المعيارية لتنظيم المخ خاطئة» – كما يقول، فهي تقول إن مخ الإنسان يعمل خطياً كماكينة، وتقول إن الإدراك والعقل والتفكير والحقيقة توجد جميعا في قشرة المخ، وكل ما تحتها ثانوي بقيت هذه النظرة المعيارية سائدة بين الناس لأن أحداً لم ينقل إليهم المفاهيم المتغيرة لطريقة عمل المخ أو يعرض عليهم الصورة الكبيرة في مجلة وبقيت الغابة مجهولة، الغابة التي فيها ينطمر ترافق الحواس .

العمل البيولوجي يتطلب طاقة. عضلاتك تستهلك طاقة وأنت تصعد السلم لأنها تقوم بعمل ميكانيكي هو رفع وزنك ضد الجاذبية. الكلية تقوم بعمل كيماوي يحتاج طاقة إذ تستخلص الفضلات من الدم. والمخ نهم في استهلاك الطاقة المخ وحدة يستهلك ٢٥ ٪ من الطاقة التي يستخدمها جسم الإنسان (١٠ ٪ في القرد و ٥ ٪ في الكلب) فإذا أردنا أن نعرف مناطق المخ التي تشترك في مهمة ذهنية معينة، فعلينا أن نبحث عن الأجزاء التي يزداد فيها الأيض عند القيام بهذه المهمة ثمة جهاز يمكنه أن يفحص كل مناطق قشرة المخ واحدة واحدة في نفس الوقت إذا كنت تقرأ أو تتذكر أو تتفحص شكلاً أو تحسب أو تقوم بأي عمل ذهني آخر، فسيزداد الأيض في المناطق التي تشترك في المهمة، مقارنة بتلك الخاملة التي لا تشارك فيها، ولأن الدم يحمل سكر الجلوكوز والأكسجين اللذين يوفران الطاقة للأيض، فإن قياس تدفق الدم إلى المناطق المختلفة لقشرة المخ يدلنا على المناطق النشطة وقد اتضح أن معدل زيادة الأيض في مثل هذه المناطق النشطة لا يقل عن ١٠ ٪ وعادة ما يصل إلى ٢٠ – ٢٥ ٪ .

أجرى سيتويك التقدير على واحد من أصحاب ترافق الحواس، واتضح له بجلاء أن الأيض في قشرة المخ لايزداد عندما يخبر الفرد هذه الظاهرة بل الحق أن العكس كان هو الصحيح – كان تدفق الدم في النصف الأيسر من المخ يقل بنسبة ١٨ ٪ عما كان عليه قبل الترافق، الأمر الذي يؤكد أن ترافق الحواس لا يحدث في قشرة المخ. في نفس الوقت بينت القياسات الإشعاعية أن هناك زيادة عامة في أيض المخ ككل، الأمر الذي يعني أن ثمة عملاً أيضيا يجري عندما يخبر الفرد ترافق حواسه فإذا كان الأيض الكلي للمخ يزداد وقت تغلق القشرة، فلابد أن الترافق يحدث في المخ الحافي النسيج تحت القشرة ليس مجرد شئ وظيفته حمل القشرة، إنه يقوم بقدر هائل من العمل البيوكيماوي. الحكم الأخير ليس سوى الجهاز الحافي. المطمور عميقا في الفص الصدغي من المخ – وهو عميق حتى ليصعب قياس تدفق الدم إليه، الجهاز الحافي، لاقشرة المخ، هو مركز ترافق الحواس .

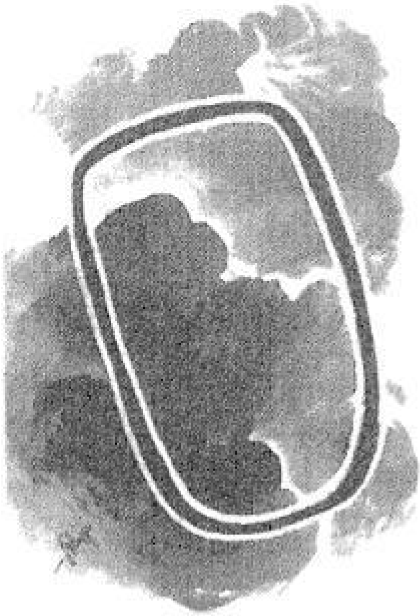
ثم مضى ليقدم أفكاراً جديدة تعارض النظرة التقليدية مستعينا بما ظهر عن العلم

من نتائج رفض التدفق الخطى للمعلومات بعد أن اتضح أن هناك مجموعة عريضة من الجزئيات كالهرمونات والببتيدات - تعمل أيضا فى نقل المعلومات (ولقد اكتشف منها العشرات) ومعنى هذا أن المعلومات يمكن أن تنقل من خلال الجسم كله، وليس فقط عن الطريق الخطى للنيورونات (الخلايا العصبية) هناك إذن طرق عديدة لنقل المعلومات يلزمها جهاز ينظمها - وكان هذا هو الجهاز الحافى بالمخ: الجهاز الحافى يشكل «اللب العاطفى» للجهاز العصبى البشرى .

كانت الكيانات الرئيسية لما نسميه الآن الجهاز الحافى مرتبطة سوياً فى «دارة» من خلالها يفصح عن العواطف، نعنى أن العاطفة ليست محددة فى مركز تحكم محدد، وإنما هى تنتشر عبر سبل، والسبل لابد أن تكون موجودة فى مكان ما، ومن ثم لابد أن تكون هناك مركزة، لكن المركزة هنا ستكون أكثر انتشاراً عما تقول به النظرة القديمة. وفى السبعينات بالقرن الماضى كان هذا المدخل وقد غير جذريا الطريقة التى نتفهم بها تحرك المعلومات عبر المخ انتهت الفكرة الخطية لمحطات متتابعة على طول خط نقل، وحل محلها مفهوم عن مخ له قنوات اتصال متعددة يمكنه أن يعالج المعلومات فى مواقع عديدة فى ذات الوقت : ما أن تتشابك الدفقات العصبية الواردة من أعضاء الحس، فى مواقع الحس الأولية، حتى تتشعب متزامنة إلى مناطق اتصال عديدة بالقشرة حيث تخضع لمزيد من المعالجة تختص كل منطقة من مناطق الاتصال هذه بناحية من الخبرة مختلفة ففى حالة البصر مثلاً تختص إحداها بإدراك اللون، وأخرى بتحديد الشكل، وغيرها بتحديد المكان، وهكذا .

اعتبرت العاطفة «بدائية»، وظل العقل يمثل التطور الفائق : كذا يعنى الفرض الشائع القائل إن قشرة المخ المتطورة هى ما يجعلنا بشراً متفردين، هى التى تقوم بتحليل العالم الخارجى، وهى التى تحمل نموذجنا للواقع وهذا يعنى أيضاً أن المخ البشرى الحافى لايختلف عن مثيله فى غيرنا من الثدييات، العواطف البشرية «بدائية»، لكن الدراسات التشريحية توضح أن التطور لم يهمل الجهاز الحافى لقد تطور الجهاز الحافى فى مصاحبة القشرة، وأصبح الجهاز العاطفى البشرى أقوى من مثيله فى الثدييات تطور العقل والعاطفة مترادفين سوياً، والمادة العصبية بينهما مرتبطة ارتباطاً وثيقا، وإن كانت لكل مهمته المختلفة ثمة علاقة تبادلية بينهما، كل ينظم الآخر، وكلاهما فى نهاية المطاف يؤثر فى حياتنا العقلية لكن المدخلات التى تصل القشرة من الجهاز الحافى تفوق ما يصل إلى الجهاز الحافى (عيننا الداخلية) من القشرة - على عكس ما نتوقع . للجهاز الحافى المقام الأول. تمر المعلومات من الحواس الخمس جميعاً خلال العين الداخلية قبل أن تتجه إلى المخ الأعلى : تنقل الأعصاب من حواسنا المعلومات خلال العين الداخلية، حيث يمكن أن تدرج أو تهمل أو تلون قبل أن تعالجها القشرة ووعينا الأعلى الجهاز الحافى هى الذى يحدد هويتنا إن ما يميزنا هو قدرتنا المتطورة

على التعبير عن العواطف، وليس قدرتنا المتطورة على التفكير! كذا يرى سيتويك



الفن ضرورة

قد تصبح للظاهرة الشاذة أهمية قصوى فى العلم. إذا عرفت أية ظاهرة تنتقى للدراسة، فقد تتمكن من تغيير اتجاه بحوثك، وأن تخلق ثورة علمية يلزم أولاً أن تتأكد من أن الظاهرة حقيقية وأنها ليست زائفة، وأن تقترح آليات لتفسيرها، ثم أن تكون لها تضمينات عريضة. وظاهرة ترافق الحواس ظاهرة بالفعل شاذة، نعنى أنها نادرة الحدوث، فهى لا تبين صراحة إلا فى قلة .هى حقيقية، لاحظها حتى فرانسيس جالتون (صاحب اليوجينيا) منذ أكثر من قرن، غير أنها لم تجد، ولفترة طويلة، من يوليها الاهتمام وينتقيها للدراسة ويبحث عن آليات لتفسيرها. دار البحث عن أساسها المادى فى المخ، فهى مدخل ممتاز للولوج إلى علم الأعصاب، وفسرت النتائج الكثير من ألغازه، وهى قد تقود إلى تبصرات عن تطور اللغة، وربما عن طريقة بزوغ الفكر التجريدى الذى يميزنا نحن البشر ثم اقترح - كما ذكرنا - وجود جين أو مجموعة من الجينات تؤثر فيها. فهذه الخصيصة تجرى فى العائلات فإذا كان ثمة جين من ورائه، وكان تكراره منخفضا كما تشير ندرة وجود حامليه (أعلى نسبة رصدت هى واحد فى كل مائتين) فلماذا لم يعمل عليه الانتخاب الطبيعى ويجتثه إذا كان بلا قيمة أو كان ضاراً؟ لماذا بقى ؟ لابد أن لهذا الجين وظيفة ما مهمة فى حياتنا. هذه الظاهرة تشيع أكثر ما تشيع بين الفنانين والشعراء والروائيين الذين تترافق فى ابداعاتهم مفاهيم متباينة (كان منهم بودلير ورينبو وليست وريمسكى كورساكوف) . هل الفن ضرورة للبشر بحيث تحافظ الطبيعة على بقائه ؟ ماذا كان يفعل من رسموا أكثر من ١٥٠٠ لوحة رائعة للحيوانات على جدران كهف لاسكو منذ سبعة عشر ألف عام ؟ وجودنا يحتاج إلى الإنسان الفنان، مثلما يحتاج إلى الإنسان العالم. كلنا على أية حال يحمل بعضا مكتوناً من ترافق الحواس . وكلنا يمكن أن «يفهم» الفن - بدرجة أو بأخرى «الفن أكذوبة تكشف الحقيقة » كما يقول بيكاسو، والحقيقة هى «الإنسان». يتكشف «الإنسان» بأكذوبة اسمها الفن سوى أنها أكذوبة لها أساسها الوراثى! ■



٤٢
الهلال
شوال ١٤٢٤هـ - ديسمبر ٢٠٠٣م

الموسيقار

محمد عبد الوهاب

بين سيد درويش وأمير الشعراء أحمد شوقى

بقلم
د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي *

* استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

عندما يكتب تاريخ الموسيقى العربية فى العصر الحديث سيقف الموسيقار محمد عبدالوهاب قمة شامخة تطل بألوان من الابداع، وتروى تاريخا لتطور الأغنية العربية مع موهبة فريدة قل ان يجود الزمان بمثلها فلا غرو انه البلبل الصداح الذى حرك أوتار القلوب بصوته العذب، وألحانه البديعة، وانغامه الجميلة. فقد امتاز عبدالوهاب بخصوبة صوتية فى الأربعينات والخمسينات وخصوبة لحنية فى الستينات والسبعينات.

ولد عبد الوهاب حسب أرجح الأقوال فى ١٢ مارس ١٩١٠ بحارة الشعرانى (باب الشعرية) بالقاهرة مفطورا على حب الموسيقى، وقد لاقى فى سبيلها صعابا استطاع أن يتغلب عليها بثباته ومثابرته، وكان لحفظه القرآن الكريم وتجويده، وأدائه للمدائح النبوية أكبر الأثر فى تكوين صوته الموسيقى وتهيئته تهيئة صالحة للنمو والاستمرار، وصقل مخارج الحروف.

وقد بدأ عبدالوهاب حياته الفنية أيام الشيخ سلامة حجازى قبيل الحرب العالمية الأولى بتقديم فقرات طرب بين فصول المسرحيات مستغلا فى ذلك صوته العذب، كما تأثر بطريقة الشيخ سلامة حجازى فى الغناء وأدى قصائده وموشحاته وكان حلمه الذهبى أن تهتف الناس ذات يوم باسم الشيخ محمد عبدالوهاب، كما كانوا يهتفون باسم الشيخ سلامة حجازى ثم تحول هذا الحلم بعد ذلك الى الرغبة فى تتبع خطوات سيد درويش .

عبدالوهاب وسيد درويش

بعد وفاة الشيخ سلامة حجازى عمل عبدالوهاب منشدا فى فرقة الكورال التى كانت معروفة باسم فرقة على الكسار وعن طريق ذلك عرف كل أوبريتات سيد درويش وتأثر بطريقة تلحينه، وتجليات تعبيره كموسيقى يتردد اسمه فى الوسط الفنى خاصة بعد مزجه الموسيقى الشرقية بالغربية، وظل عبدالوهاب يتتبع خطوات سيد درويش ويلازمه كظله فى غدواته وسكناته وروحاته يسمع منه، ويردد ألحانه. وعندما يعود الى بيته المتواضع فى باب الشعرية مع الفجر ينقل النوتة لتلك الالحان على ضوء مصباح خافت.

وبعد أن انشأ سيد درويش فرقته الغنائية الخاصة به انضم اليه محمد عبدالوهاب بعد أن التقى به لأول مرة فى سيرك بدمنهور ثم تقابلا بعد ذلك فى القاهرة. وعمل عبدالوهاب مطربا بفرقة سيد درويش لقاء مبلغ خمسة عشر جنيها شهريا، والتقط منه افكاره التى كانت تمثل نحو تطعيم الموسيقى العربية بالغربية والساعية الى التغيير والتطور واعطاء الكلام والحوار ما يوافق اللحن.



حوار بين عبد الوهاب والفرقة الموسيقية، ويظهر في الصورة محمد القصبجي

• بماذا تنبأ سيد درويش للمطرب الناشئ محمد عبد الوهاب

وقد تنبأ سيد درويش لعبد الوهاب بمستقبل كبير في دنيا الطرب بقوله «الولد ده هيشقلب الدنيا بحالها» وفعلا صدقت فراسته.. وكان عبدالوهاب يعرف قدر استاذه، ويقدر اعماله كل التقدير مؤكدا ان سيد درويش رفع لواء الموسيقى وارتقى بالمسرح الغنائى الذى كان يعانى سكرات الموت وقد بلغ انبهار عبدالوهاب بفن سيد درويش اثناء عمله معه انه عندما استمع منه الى نشيد «أنا المصرى كريم العنصرين» شعر برعشة شديدة هزت كيانه وانهمرت الدموع من عينيه واستمر فى البكاء من شدة تأثره بهذا اللحن.

وبعد رحيل فنان الشعب سيد درويش فى عام ١٩٢٣ دفع عبدالوهاب طموحه الى ان يحتل مكانة استاذه فطلب من المؤلف يوسف القاضى الذى كان يكتب لسيد درويش اغانيه ان يكتب له بعض الأغانى، كما قدم نفسه للمستمعين موضحا انه يستظل براية سيد درويش، واستمر على ذلك فترة ثم اختط لنفسه بعد ذلك وعلى نحو تدريجى



خطوط اسلوب غنائى جديد حتى تربع على عرش الغناء بعد ان اقتبس من الموسيقى الأوربية، واصغى جيدا الى الالحان العربية غناء وتجويدا. وبعد ان تعايشت الالحان المختلفة فى وجدانه استحدث عبدالوهاب اسلوبا متميزا فى التلحين، وطريقة متميزة فى الغناء وكان دائما يبحث عن الجديد الذى يدخله على الغناء العربى مما احدث تحولا فى الموسيقى العربية واستمتع الناس بأغنياته خاصة وانه كان مطربا جميل الصوت وملحنا متميزا وهبه الله أندى الحناجر، ووضع فى صوته ألين الأوتار، وخلق منها أرخم الاصوات.

هذا عن دور سيد درويش فى تكوين عبدالوهاب وبناء تطلعاته الموسيقية.

عبدالوهاب وأمير الشعراء، احمد شوقى

أما عن قصة تعرف احمد شوقى بعبدالوهاب فترجع الى الشيخ عبدالعزيز البشرى الذى لفت نظره الى جمال صوته خلال جلساتهما فى احد المقاهى الرابضة تحت سفح الهرم الاكبر بقوله له «أما ياباشا فيه جدع اسمه

• المصادر التي استقى منها عبد الوهاب موهبته الفنية: فن الموسيقار سيد درويش وثقافة أمير الشعراء أحمد شوقى

عبدالوهاب صوته زى الخص احب انك تسمعه» فقال شوقى هاته يوما الى البيت فجاء وحضر قليل من اصدقاء شوقى، وغنى عبدالوهاب ففتن به شوقى وحمله على ملازمته وازدادت علاقة عبدالوهاب بشوقى وثوقا وبدأ يتردد عليه ويشارك بفنه فى مناسباته العديد التى كان يقيمها فى منزله، وفى خلال حفل اقامه شوقى فى منزله بكرمة بن هانىء بمناسبة عيد شم النسيم غنى عبدالوهاب وبدأ يداعب عوده، فسرت الأنغام عذبه ثم انساب صوته يحكى عن العيون النائمة التى لم تعرف الشجن، والعيون اليقظى التى تشتهى النوم فى «الليل لما خلى» ثم انسجمت الموسيقى مع الصوت.

الفجر شأشا وفاض
على سواد الخميلة
لمع كلمع البياض
من العيون الكحيلة

واستخف الطرب بشوقى حتى ألقى طربوشة على ركبة بعد أن اسمعه عبدالوهاب هذا اللحن بتوزيع مختلف حرك به اوتار قلبه.

وانسجم عبدالوهاب فى شعر شوقى وأخذ فى تلحين بعض قصائده، وربطت روح الود بينهما لدرجة ان شوقى كان يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى حياة عبدالوهاب، كما ظل يساعده ويمده بأشعاره، وكان له فى حياته شأن كبير، فهو الذى طلب منه ان يخفف من مجهوده فى الغناء وهو صبى لضعف صحته، وهو الذى أخذ بيده، وفتح له مدرسة الحياة، وقدمه لنخبة العصر وللشخصيات العامة فى العديد من المحافل، فصحبه معه الى المنتديات الثقافية يجلس مستمعا وتلميذا يتعلم ما يجرى امامه فى هذه الأماكن ويشاهد كل شىء ، ويتعلم كل شىء ، خاصة وأنه كانت لدى عبدالوهاب القدرة على الالتقاط والتشبع والتعلم فتفتحت حواسه لأشياء كان لا يعرفها . وعن طريق شوقى تعرف عبدالوهاب على الشعراء والسياسيين، وتعرف على سعد زغلول، ومصطفى النحاس، ومكرم عبيد، واحمد ماهر، والنقراشى، وكان سعد زغلول يفضل ان يسمع من عبدالوهاب دائما اغنية «جددى يانفس حظك».

وعن طريق شوقى عرف عبدالوهاب العالم العربى وأوربا فسافر معه الى الشام والى باريس فى عام ١٩٢٧ . وخلال ذلك أخذ عبدالوهاب من شوقى الإحساس بالكلمة الجميلة، والشعر الجميل، ورصانه الكلام كما تعلم منه ضرورة ان ينظر الى المستقبل ويعايش عصره فعلى الرغم من حب شوقى لعبده الحمولى ويوسف المنيلاوى وعبدالحى حلمى، فقد طلب عبدالوهاب معايشة عصره وألا يعبأ إلا بعصره وألا يقلد أحدا منهم. وخلال ذلك بدأت الدوائر الثقافية والصحفية تهتم بعبد الوهاب وتدعوه لإحياء لياليها فتذكر «فاطمة

اليوسف» فى مذكراتها انها اقامت حفلة ذات ليلة فى مقر جريدة روز اليوسف فى محاولة للتوفيق بين الشاعر احمد شوقى من جهة والعقاد والمازنى من جهة أخرى بعد ان تزعم الأخيران حملة شديدة على شوقى، ووضعا إنتاجه الفنى على مشرحة النقد العنيف، وتمت دعوة الموسيقار محمد عبدالوهاب وكان لايزال ناشئا فى محاولة منها لتلطيف الجو بغنائه، وغنى عبدالوهاب فى تلك الليلة الدور القديم «قده الياس زود وجدى» وفى جو السهرة الجميل وتحت تأثير انشاد عبدالوهاب الساحر تصافى الكبار وخرج العقاد وقد استبد به الطرب، لينشر فى جريدة البلاغ ابياتا من الشعر يحيى بها عبدالوهاب منها:

ايه عبدالوهاب انك شاد
يطرب السمع والحجا والفؤادا
قد سمعناك ليلة فعلمنا
كيف يهوى المعذبون السهادا.

وظل عبدالوهاب ملازما، ومشاركا فى احياء حفلاته ومصاحبا له فى روحاته وغدواته. وفى مناسبة عقد قران مؤنس نجل احمد شوقى شارك عبدالوهاب فى احياء حفل الزفاف وغنى قصيدة كان قد أعدها شوقى بهذه المناسبة وهى دار البشاير مجلسنا، وليل زفافك مؤنسنا، ان شاء الله تفرح ياعريسنا، وكانت هذه اول قصيدة يكتبها شوقى بالعامية وغنى عبدالوهاب، وأطرب الحاضرين، حتى بلغ من سعادة شوقى ان قال له «غرد ياعبدالوهاب، غرد ياكنارى النادى وامدح ياهزاز الوادي، وترنم ياشادي البوادي»، كما دعا له بطول العمر بقوله «أضاف الله اعمارنا الى عمره» وظل عبدالوهاب ملازما لأمير الشعراء حتى جاء يوم ١٤ اكتوبر ١٩٣٢ ذلك اليوم الحزين الذى لم تطرب فيه نفس، فقد أذنت شمس الغروب، ورحل شوقى رحلته الأبدية، وفقدت مصر أمير بيانها وشعرها.

وتقديرا لما اسداه لوطنه وأمته، وفى ذكرى الأربعين لوفاته رفعت الستار بمسرح الأزبكية عن جوقة كبيرة من الموسيقيين يتوسطهم الموسيقار محمد عبدالوهاب، واهتزت الأوتار جميعا بنغم شجي حزين، وتهدج صوت عبدالوهاب وهو يردد:

حطموا الاقداح
مثلما حطمت حزنا قدحى
ودعوا الافراح
طوى اليوم بساط الفرح
خلدوا ذكراه فى القلوب
خلدوها
مجدوا ذكراه شبابا وشب
مجدوها
عاش كالزهرة عطرا وندى
وكسا الفل جلالا خالدا
لن تربوا بعض ما اسداكم
ابدا مهما فعلتم ابدا.

وهكذا كان اثر سيد درويش وأحمد شوقى واضحا فى تكوين عبدالوهاب الفنى والابداعى فقد أخذ عبدالوهاب عن سيد درويش اهمية جعل الموسيقى المصرية تتحرك وتخرج الى الحياة بعد ان كانت بلا معنى وورث عنه ريادة هذا



تكريم عبد الوهاب وأم كلثوم في عيد العلم - ١٩٦٥

• كان لتبني أمير الشعراء شوقي لعبد الوهاب تأثير كبير في صقل موهبته الفنية

الفن فأعطى للجماهير اغاني جديدة ترددها بشغف، واعطى للمسرح الغنائي ألحانا مختلفة الألوان وتعلم عبدالوهاب من شوقي أن يعطى للكلمة اللحن المناسب وان يعايش عصره.

ومع أن الفرق بين حياة عبدالوهاب وسيد درويش كان متقاربا، فإن البون كان شاسعا بينه وبين أمير الشعراء فعبدالوهاب وسيد درويش ينتميان الى بيئة شعبية خالصة بريئة من كل طلاء، وحالف الحظ كل منهما حتى وصلا الى ما تمنياه والفرق بينهما يكمن في ان سيد درويش لم يعبر البحر الى اوربا، ولم تتح له الفرصة ان يدرس الموسيقى بالمستوى الذى استطاع به عبدالوهاب ان يدرسها، وان سيد درويش اهتم بالمسرحيات الغنائية اكثر من عبدالوهاب وان لم تتح له الفرصة ان يمثل في السينما كما فعل عبدالوهاب حيث لم تكن السينما الناطقة قد بدأت في عصره والى جانب ذلك كان سيد درويش مات صغيرا عن عمر لم يتجاوز الحادية والثلاثين ١٨٩٢ - ١٩٢٣، مما لم يتح له الزمن ما اتاحه لعبد الوهاب الذى

توفى بعد الثمانين من عمره.

اما شوقى فقد نشأ فى بيئة مختلفة عن بيئة عبدالوهاب، فقد ولد وفى فمة ملعقة من ذهب، فكانت جدته من وصائف الخديو اسماعيل ، فعاش معيشة القصور، وذهب فى بعثة دراسية الى باريس على نفقة الخديو توفيق، كما عمل فى المعية السنية وصار شاعر القصر، بينما نشأ عبدالوهاب فى حى باب الشعرية الشعبى وشب بسيطا يتلمس خطاه باحثا عن ما يشد ازره حتى وجد ضالته فى أحمد شوقى.

إضافة الى التراث الموسيقى

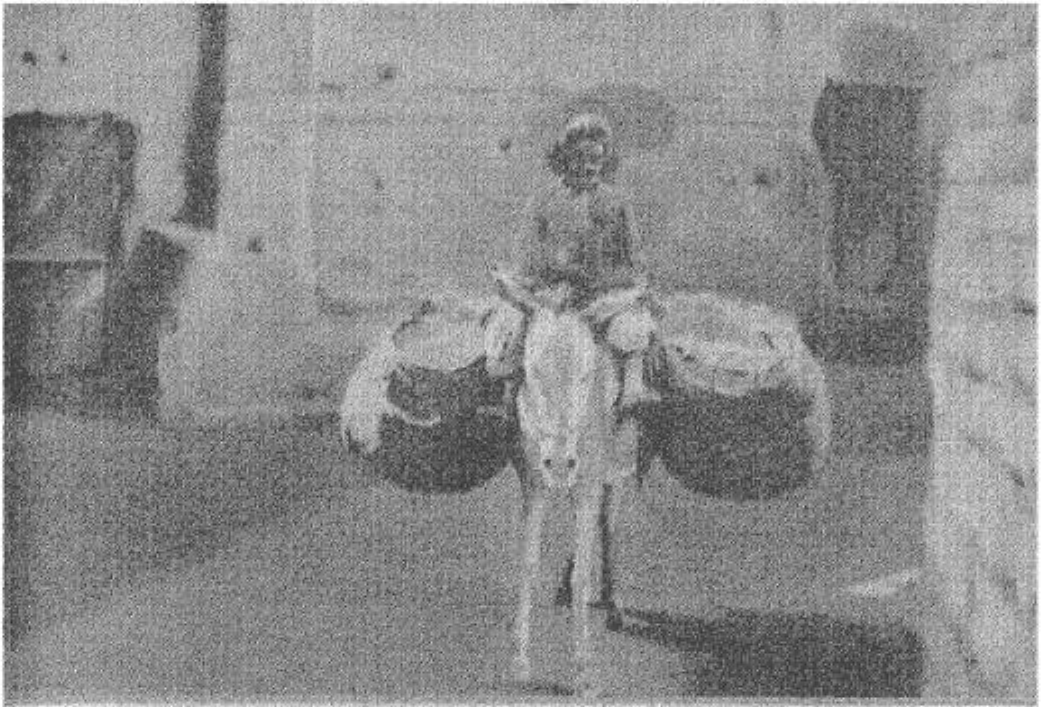
ومع اى حال فإن دور عبدالوهاب فى تكريس اشكال متطورة للأغنية المصرية، وعطاءه الخصب الفياض، والخروج بالموسيقى العربية الى اسماع البشر بعد تطويرها وانتظامها فى ركب الموسيقى العالمية، ولفت الانظار الى التراث الشرقى، وإدخاله اشكالا جديدة وآلات جديدة لم تكن مستخدمة فى الأغنية العربية من قبل كل ذلك يعد اضافة مهمة الى التراث الموسيقى الغنائى ومع ذلك فقد واجه عبدالوهاب فى حياته اتهامات بسرقة ألحان سيد درويش والسطو عليها، وكما قيل ان روائعة الموسيقية مقتبسة ومأخوذه من خارج الحدود لفنانين كبار من اوربا وغيرها. وكان رد عبدالوهاب على ذلك ان حياتنا العامة والخاصة قد تأثرت بأساليب العزف فملابسنا ونظمنا ومعظم تقاليدنا الآن. تسير على الاسلوب الغربى الذى يسيطر على حياتنا ومظاهر نشاطنا الاجتماعى والفنى، ولا ضرر من هذا. فالتأثر بالاتجاهات الاجنبية ومسايرة موكب النهضة العالمية شيء تحتمه سنة التطور.. واقتبسنا من الغرب لنطعم انتاجنا الموسيقى، ولكن ليس معنى هذا الاقتباس ان نحطم روحنا وجوهرنا ونتخلى عن طابعنا الشرقى.

ومعنى ذلك ان عبدالوهاب لم ينكر الاقتباس من الموسيقى الغربية ولم ينكر تأثره بها بل اعتبره ضرورة واجبة.

لقد اتهم البعض عبدالوهاب بتحطيم التراث ، ولكن الحقيقة انه اضاف للفن الطرب العربى ابداعات سايرت تجربة الغناء الحديث، وظل عبدالوهاب بفنه وعبقريته فى عقول وعشاق فنه على امتداد الوطن العربى، وذهبت الى طى النسيان كل الأقاويل حول اقتباساته من هنا او هناك، وصعد عبدالوهاب على السلم الموسيقى، واستطاع ان يشقلب الدنيا كما تنبأ له سيد درويش.

ونتيجة لجهود عبدالوهاب فى خدمة الموسيقى العربية، وتمكنه من الجمع بين حلاوة الصوت وحسن التطريب، واتقان الضرب بالعود والتلحين بنفسه قررت اكاديمية الفنون منحه الدكتوراه الفخرية.

وظل عبدالوهاب معطاء لفنه حتى رحل عن عالمنا فى الثالث من مايو ١٩٩١، وشيع جثمانه فى جنازة عسكرية مهيبة تقديرا لما قدمه للفن من جليل الخدمات. ■



فتاة من واحة الخارجة



بورتريه والد زهران سلامه



فلاحة تنقل الماء

ابن الفلاحين
زهران سلامة

عام ١٩٨٠ وفى معرضى الأول بأتيليه القاهرة يأتينى حاملا حقيبة سامسونايت فى يده وفى كامل زينته كرجل، مرتديا بذلة للافتتاح وكنت أرتدى بلوفر يدوى مهرولا فى أناقة نصف غربية كعادتى. يبادرنى الحديث بعد أن لف المعرض أكثر من دورة. مشروع ابتسامة على وجهه، ويقول: نريد أن نسمع منك، وأردف أعرف أن هذه الليلة للناس والجمهور لكن لنا لقاء تستحقه تجربتك.

والتقينا بمرسمه وكان أيامها بوكالة الغورى. تصورت بأن لقاءنا سيكون عاديا، ولكن حدث وأن فوجئت بأنه يخرج مسجلا صوتيا وأشرطة، وبعد أن ضايفنى بالشاى الفلاحى وأنفاس الشيشة التى كنت أدمنها ذاك الوقت بدأ الأسئلة، وكان يفسح لى المجال حقا لكى أتحدث وأقول وأقول وأعترف، وماذا يريد العائد مثلى من غربة العشر سنوات أكثر من ذلك؟

وبدأت الصداقة.. وكنت أحتاجها خاصة وأن بعض أصدقاء العمر الجميل كانوا قد انفضوا من حولي لارتكابي جريمة إقتراف الفن، واثباته بأنه من الممكن أن ننتج فنا ولا نستتيم إلى تبرير جريمة التوقف والخرس واللجوء إلى كسل مريح . كان زهران ينتج حينئذ لوحات تتعكز على الفن الفرعوني برمزية كنت لا أحبذ هذا الاتجاه وتحفظت رغم الصداقة الحميمة.

بدعوتي زهران إلى الباجور قرب مسقط رأسه . بيت بسيط خمسة من الأبناء أربعة أولاد وبنت واحدة يصطفيها زهران، في الفجر أصحو لأجد زهران آخر ، غير زهران المدينة، ربع القامة، يرتدى سروالا أبيض إلى ما تحت الركبة بقليل ، ممسكا في يده بسكين صغير يسمى «الخنصر» يسلخ به جلد ذكر الماعز بمهارة وحذق، ووقفت فاغرا فاهي من الدهشة في البداية ، ثم مستسلما إلى معرفة هذا «الانسان» من جديد . كان زهران الذي أعرفه حتى هذا الوقت طالبا زاملني أيام الكلية يجيد الرسم لكنه لا يحضر إلى الكلية كثيرا . ثم زهران الذي استمع إليّ جيدا وأول من حاول معرفة شئ عن رحلتي الفنية في باريس . قبل صياح الديك كان زهران قد انتهى من إعداد لحوم الوليمة التي يريدها لعائلة صديقه وعائلته معا. بعد الافطار وشرب أنفاس الشيشة أخذ زهران ركنا قصيا ليعد أعواد البوص الجاف المنتقاة جيدا ، يشبك بها خيوط البلاستيك مع صنارات من المعدن المعقوف والمعوج . حين انتهى من هذا العمل الدوب فرك يديه ، وأول مرة أرى أيدى فلاح حقيقي ، ضخم اليدين، متورم الأصابع من كثرة الاستخدام الخشن والمجهد لهما، انتحى أيمن أصغر الأبناء، مع أكرم الذي يكبره قليلا، يحفران في الأرض وفي الأركان الرطبة المبتلة بحثا عن ديدان صغيرة. فزعت تمر، وفزعت داليا خوفا، واستثارة ابتعدنا واقتربنا بمقدار، وبدأت ضجة الأبناء جميعا وتصبح الجماعة مثيرة للفرح والبهجة لدى هذا الولد زهران الوحيد لأبيه، وعرفت حينئذ أحد أسراره ورغبته الحارقة في تكوين أسرة تكون له عزوة في حياته . لن أنسى صرخة ابنتي الباريسية المولد «تمر» حين أخرجت أول سمكة لها بعد لأي وطول انتظار وخفت عليها أن ينفجر قلبها الصغير، واحتضنتها ،وأحسست برجفة قلب العصفور الصغير. وشكرت زهران ، وتمرغت تمر الباريسية في طين ريف المنوفية، وسقطت الصغيرة داليا، وأخرجها أبناء زهران ، واحتفظوا بالسر الذي قالوه لنا أخيرا بعد أن كبروا وأصبحوا هم آباء لأبناء .

من هو هذا الزهران سلامة !؟

كان معتمد إبراهيم حسن سلامة الذي يأتي لزيارة ابنه زهران سلامة رجلا خفيفا على الآخرين لا يريد أن يثقل على أحد. له حمار يلتصق به،



ويعامله بحنان وود ويبتسم حين أسأله عن هذه العلاقة، يقول : إنه يقصر المسافات بيني وبين من أحب، ويحني رأسه في خجل الفقراء حين لا يريدون لعواطفهم أن تفتضح ، وأعرف بأن قلبه ينظر إلى ولده الوحيد زهران . ثم يربت على رقبة حماره بود ويمتطيه ويرحل دون أن يثقل على أحد بحضوره الذي قد يزاحم أصدقاء ابنه الأفندية القاهريين . وأحب الرجل ويحكي لي زهران حكاية أبيه وفق إلحاحي عليه:

كان معتمد ابراهيم سلامة لا يملك من الدنيا إلا قوة بدنه وعزيمته صبر الفلاح المصرى الذى لا يملك أرضا ولكن يملك كرامة الرضا والاستغناء عما يملكه الآخرون . كان في ذلك الوقت يعمل لدى زوج السيدة/ تفاحة عبدالله عبدالله، سيدة جميلة ذات حسن تليق بأحد أثرياء القوم. كان معتمد ابراهيم يعمل لديهم محبوبا لكرامته وعزة نفسه وأمانته . مات الزوج الثرى بعد أن أنجب منها الأخ غير الشقيق لزهران . طمع القوم في زواج الأرملة الثرية .. وخافت تفاحة على نفسها طمع الطامعين إختار قلبها هذا البسيط الفقير غير الطامع معتمد العامل لديها ولدى زوجها، وكان شرطه الوحيد أن يكون «الرجل» . جردها هذا الفلاح المكار من كل سلطتها وقوتها، فأعطت ثروتها للابن وما تبقى للأخ الخال لزهران الطامع أبدا في ريف مصر، وأصبحت بأولاده على السميع المجيد كما تقول ، وخلصت له وعمل بكل جهده حتى يكفيها العوز، وأنجبت له زهران ، ثم فتحية وعاشا في التبات والنبات فقراء لكن كرماء ، بالاختيار وليس بغير ذلك .

تركت للأب أن يدير كل حياتها ، بفقرها فترضى ، تعيش على الكفاف فلا تشكو، لكن ليتعلم زهران - وحاول الفلاح العنيد أن يثنيها ويجعلها ترضخ ولكن أبدا. حينئذ تنتصر «الأم» المصرية ويحني الرجل رأسه وكان عليه أن يرضخ هذه المرة ، وكان .

معجزة التعليم

ككل أبناء مصر الفقراء، بل حتى أبناء الطبقة الوسطى ، كان التعليم هو كالماء والهواء من حق كل مصرى، وعلم الفلاحون أبناؤهم وكان من ضمن هؤلاء زهران بن معتمد ابراهيم القانع والراضي وتفاحة التي لم ترض عن التعليم بديلا لابنها .

كانت صعوبة تدبير مصاريف الدراسة تفوق طاقة البشر، لكن بالحلم والعزيمة استطاعت الأم بإصرارها والأب برضوخه ، ويذكر لنا زهران الكثير، لكن سأختار منه حادثة مفرحة يوم حصل على جائزة ٥٠ جنيها من كمال الدين حسين لتفوقه في الرسم أيام المدرسة الثانوية .

ويأتي الفلاح ابن الفلاح المرتبك إلى



حمام



القاهرة الفاطمية

القاهرة، ويدخل كلية الفنون الجميلة بقدرته على الرسم التى كانت ملاذا له للتفوق إبان أيام دراسته، قاوم زهران سلامة ضغوط المجتمع الطبقى فى ريف مصر حيث للأغنياء ورجال الدين والشرطة سطوة على الجميع - قاوم بسلاح التفوق فى الرسم حيث زين المدارس، وحجرات الرسم، وتبناه بعض رجال التعليم الذين كان لهم الفضل فى تبنى قدرات الفتى ويذكر منهم المهندس عبدالعظيم أبوالعطا وكذلك المهندس عبدالسلام سعود، وكذلك كمال الدين حسين الذى دفع له مصاريف كلية الفنون بعد أن طرد من الكلية لعدم السداد.

يقول زهران عن نفسه كانت أياما صعبة، لا أحضر الكلية إلا لماما، وباقى الأيام للبحث عن لقمة العيش مع استمراره فى الدراسة ارتباك ابن القرية أمام ملابس بنات المدينة الكاشفة مما لم يتعود عليه مرتبك وخائف وعدوانى لحماية ذاته. وستظل هذه الصفات ملازمة لفناننا فى الحركة التشكيلية، لا يعرفه إلا القلة القليلة ممن يقتربون منه إلى حد الصداقة حينئذ ينفتح قلب الفلاح البسيط الودود والمحب أيضا.

لم يستطع زهران سلامة أن يأخذ حظه كاملا فى الدراسة لاقتطاع جزء كبير من وقته للبحث خارج جدران الكلية عن قوت يومه، لكن موهبته فى الرسم التى حمته أيام الدراسة الابتدائية والثانوية من غدر أبناء الطبقات القادرة، حمته أيضا أيام الكلية فلاذ بها، لكنها لم تسعفه إلى تفوق مستحق نتيجة ضيق أفق نظامنا التعليمى الذى يشترط الحضور والانصراف !!

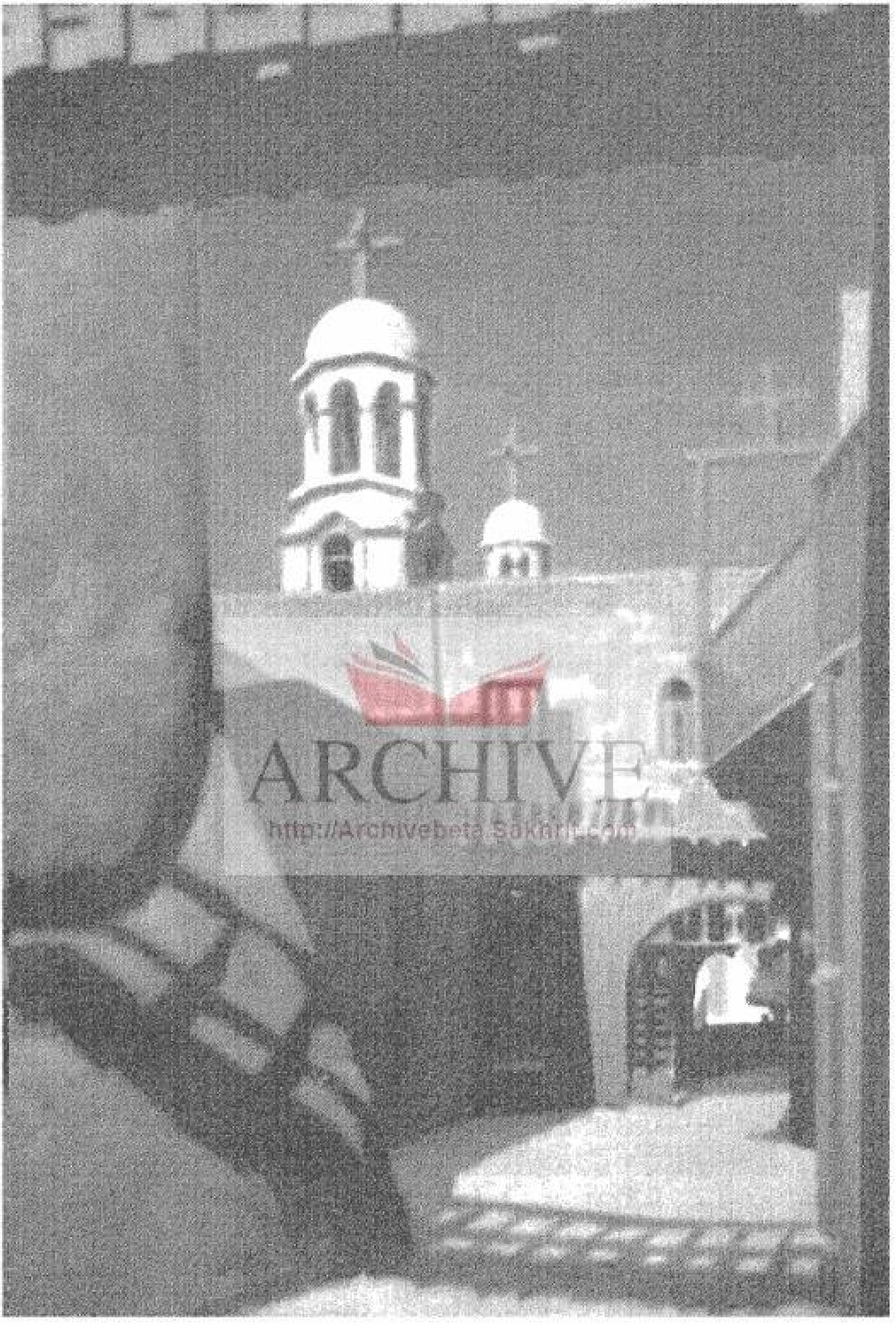
بداية الحياة العملية

حينها لا يجود الزمن الا بالقليل، ندخل إلى الحياة راضين، متذمرين فى آن واحد. اصطفى قلبه الاسكندرية لكنه رضا بالعمل فى القاهرة مضطرا بعيشها كالغريب فى المدينة ومازال يعمل يتزوج، ينجب الأبناء، واحدا تلو الآخر. يرحل للعمل فى بلد عربية، ويعود. يبنى بيتا فى المنوفية مع حلم العودة إليها، ولكن أين له ذلك وهناك المدينة ولها الحق، يكدح زهران من أجل الأبناء ويسافر مرة أخرى فى رحلة أخيرة ويعود إلى القاهرة بعد أن أدى فرائض تربية الأبناء جميعا.

مجتمع الصحراء

حلم زهران بالصحراء كثيرا وتمنى أن يعيش بجبل أسيوط الغربى، ثم حلم بالحياة إلى جوار معبد ادفو، لكن الظروف رمته إلى «رأس سدر» حيث بنى أخيرا بيته أو مرسمه. وحدة كاملة مع لوحاته وألوانه، طيوره ونباتاته. يعشق الحمام ويعشقه الحمام. يزرع الأرض الصغيرة لكى يأكل من الأرض. فلاحا كان وفلاحا عاد. رحلة دمى فيها القلب والجسد. شيخا جاوز الستين،

كنيسة في وادي النطرون ◀



لكن القلب أخضر مازال ، والحب لم يرتو ، عطش إلي التواصل وإذا أمسكنا بكلمات الحب والوجد والوصال لعرفنا أبواب تلقى أعمال زهران سلامة الفنية يرسم ما يحب من البشر والحيوانات والطيور والطبيعة. أضاحكه على رسوم الوجوه . فلاحين ، فقراء الحسين، بنات الريف ، أبوه ، أمه ، أخته . وأسأله أين ناعمات المدينة فيضحك قائلا أنهن لأستاذي بيكار. الحمار المرسوم هو حمار أبيه الذي يقرب البعيد ويجعل وصال الأحبة السهل صعبا. زهرة عباد الشمس ، طاغية الجمال والتي عشقها . حمامه المغناج ، وبطه المتهادى ، وماعزه الشقى الطيب ، مراكب الأحبة والعشاق وطبيعة الاسكندرية التى تمناها يوما .

أحب ، فرسم وهذا يكفى

أعطى ظهره المدارس الحديثة فهى ليست مبتغاه .

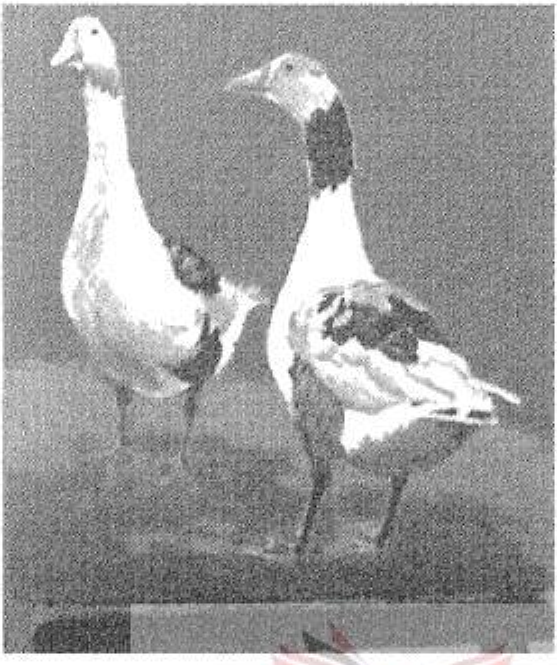
عاشق تكفيه نظرة حمار يتعاطف معه، أو انحناءة رجل أحنى عليه الدهر ، أو صخورا جلس عليها يتأمل تصاريف الدنيا .

هذا هو عالم صديقى زهران سلامة، وبه إنتشى القلب .

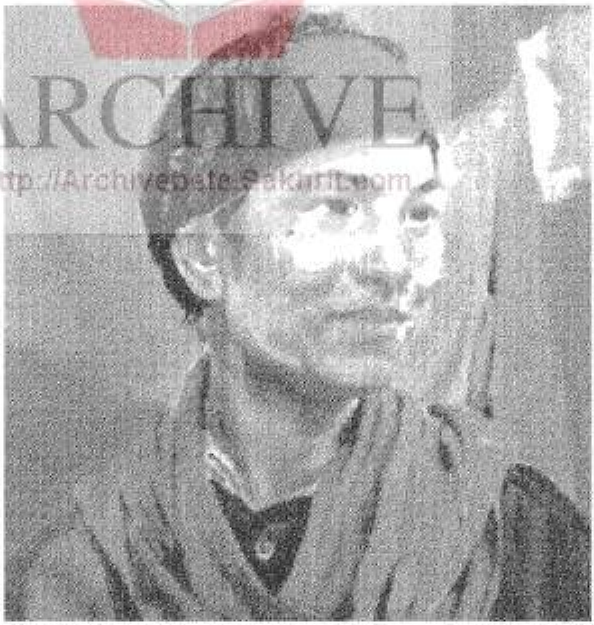
المسافر خانة

للمكان فى قلب فن زهران سلامة، مكان فى الصدارة، وللتأكد من هذا يجب على أن أشهدكم على ما عرفته وعشته مع زهران سلامة أيام أن كنا نتجاور بمراسمنا فى المسافرخانة . كان زهران هو الوحيد الذى أخذ من المكان وأعطاه فى أن واحد. مجموعة من اللوحات يضن زهران ومازال يضن بعرضها مجتمعة ، وأنا أدعو حقا لاقتنائها متحفيا، لأنها تحمل إلى جوار قيمتها الفنية، شهادة حب للمكان ، لا أكاد أذكر مثيلا لها فى فننا المعاصر حتى لو تبجح البعض بزياراتهم للوحات مثلا. ومن الغريب أن اقتراب أعمال زهران من الواقع بشدة قد أفادنا فى تلك المجموعة فائدة مضافة تذكر له وأتمنى إقناعه بعرضها متجاورة قريبا .

عشق الريف وحياة الفلاح ولم يستطع أن يعود خاصة بعد التغيير الكبير الذى يسود الدنيا الآن ووصل إلى مشارف ريف المنوفية بحثا عن عذرية وبراءة يطلبها قلب الفنان – فوهب نفسه ووهبنا لوحات الريف .. عشق الاسكندرية وبحرها فسجلها لنا لوحات . عشق ناس الجمالية والحسين البسطاء ، كما عشق حواريها وطرقاتها ،. عاش زهران عشقه لوحات ، وأعطى ظهره للحداثة مقلدين وأصلاء . فهل خسر أم كسب الفن والفنان والانسان، والسؤال قائم؟. ■



أوزتان



وجه من الجمالية

أى ديمقراطية تريدها أمريكا؟

بقلم
محمد يوسف عدس

هزمت الولايات المتحدة اليابان وألمانيا فى الحرب العالمية الثانية، وأعادت صياغة الدولتين على صورة النموذج الأمريكى: قوى رأسمالية ودستور رأسمالى وديمقراطية وصحافة حرة، وظلت أمريكا تتباهى بهذا الانجاز، باعتبارها مصدّرةً للديمقراطية إلى العالم.. ولكن هذا الإنجاز لم يتكرر بعد ذلك فى أى دولة من دول العالم الثالث.. بل وقفت أمريكا دائما منحازة إلى الدكتاتوريات المستبدة ضد الشعوب، وساعدت على الإطاحة بكل النظم الديمقراطية التى برزت رغما عنها فى هذه الدول، أمثلة كثيرة على هذا تجدها فى أمريكا اللاتينية.

واليوم تزعم أمريكا أنها جاءت إلى أفغانستان وإلى العراق لا غازية ولا نهابة وإنما للقضاء على دكتاتورية شريرة لتحرير الشعبين ونشر الديمقراطية فى المنطقة كلها

سوف نفترض جدلا أن هذا الهدف المعلن هو حقًا ما تعنيه أمريكا وما تريد تنفيذه فى بلاد العرب والمسلمين.. ولكن أليس من حق أى باحث عن الحقيقة أن يسأل: أى ديمقراطية هذه التى تقصدها أمريكا؟ والإجابة - فى أغلب الظن - هى أن المقصود هو النموذج الأمريكى فى الديمقراطية، الذى تعرفه أمريكا من واقع التجربة والممارسة. ومن حسن الحظ أن الكتابات فى هذا المجال من الكثرة والإفاضة ما يجعلها بحاجة إلى ببليوجرافية حصرية.

أود أن أقرر بادئ ذى بدء أن كاتب هذا المقال ليس لديه ذرة من شك فى أن شعوب هذه المنطقة متعطشة فعلا للحرية



جورج بوش



آل جور

متلهِّفة على ديمقراطية حقيقية كارهة لتلك الأنظمة التي لا تعبر عن إرادة هذه الشعوب تعبيرا صحيحا.. ولكن لديه شك كبير أن يكون هذا هو الهدف الحقيقي لأمريكا في المنطقة، ولديه شكوك أكبر في النموذج الديمقراطي الذي تمارسه أمريكا.. وهذا المقال محاولة لعرض هذه الوجهة من النظر.

أقرب الأمثلة

انتخابات الرئاسة الأمريكية عادة ما تجتذب أنظار العالم بقوة ويتابعها الناس بانبهار وإجلال إلا أن انتخابات عام ٢٠٠٠م بين «الجور» الديمقراطي وجورج دبليو بوش الجمهوري كانت حالة فريدة أذهلت العالم بقدر ما أضحكته عجباً وسخرية، حتى أن بعض الظرفاء اقترح إرسال مراقبين كويتيين إلى فلوريدا للإشراف على الانتخابات الأمريكية وإخراجها من المأزق الذي تورطت فيه.

كان الناس في أنحاء العالم يتابعون نتائج الانتخابات لحظة بلحظة فلما علموا أن الجور يتقدم على بوش بحوالي خمسمائة ألف صوت أيقنوا أن الفائز في السباق هو الجور، ولكنهم فوجئوا بإعلان فوز بوش وكان السبب في هذه



النتيجة غير المتوقعة هو ما أسفرت عنه عملية.. أو بالأحرى قضية إعادة فرز الأصوات باليد في ولاية فلوريدا. وقد تساءل الناس باندهاش شديد وخاصة في أوروبا: أي ديمقراطية هذه التي تتجاهل إرادة الأغلبية من الناخبين؟!، وعندما عرف الصحفيون خارج أمريكا أن ولاية فلوريدا هذه يحكمها أخ للمرشح بوش لم يلتزموا الصمت أو الحياء الذي التزمت به الصحافة الأمريكية.. بل صرحوا علانية بأن الأمر لا يخلو من تلاعب بالأصوات.. ثم تضاعفت شكوكهم عندما علموا أن المحكمة العليا التي يسيطر عليها قضاة جمهوريون قد أصدرت حكما بأغلبية صوت واحد (خمسة إلى أربعة) لإيقاف عملية إعادة فرز الأصوات في فلوريدا بدون أي سند قانوني، ثم أعلنت بوش بالرئاسة في ظروف إعلامية بالغة الشذوذ والغرابة.

كانت صدمة الناس في العالم الخارجي عارمة.. ذلك لأن واشنطون دأبت على التفاخر بأنها تملك أعظم ديمقراطية في العالم وأن نموذجها الديمقراطي هو النموذج الأمثل الذي يجب أن يحتذيه الآخرون.. ولكن مهزلة فلوريدا جعلت أمريكا تتضاءل كثيرا في نظر العالم الخارجي، فقد أصبح الناس

يعرفون بوضوح أن الرجل الذى يجلس فى البيت الأبيض لم ينتخب لهذا المنصب انتخابا صحيحا وإنما تعيينه بقرار من المحكمة.. وغلبت على الكتابات الصحفية تساؤلات محيرة: هل كانت انتخابات عام ألفين نكتة أم كانت جريمة؟!

الإعلام الأمريكى وحده هو الذى انشغل وشغل الناس بمسائل فنية لا علاقة لها بصلب القضية حيث خاض كثيرا فى عيوب برامج فرز الأصوات التى استخدمتها آلات حاسبة قديمة تجاوزها الزمن، ووضع عليها أكبر اللوم، وتحدث بعضهم عن خطأ الإعلام الذى كان يتسابق فى إعلان نتائج لم يتم البث فيها بصفة نهائية.. ولكن الإعلام الأوربى ركز على الجوانب القانونية والأخلاقية للقضية واعتبرها الفشل الأكبر الذى تورطت فيه أمريكا.

فى ذلك الوقت لم يكن أحد يملك دليلا قاطعا، ولكن رصدت إشارات وملاحظات كثيرة على أن عملية التصويت فى فلوريدا شابتها كثير من الشبهات وأن إجراءات مريبة اتخذتها جهات رسمية لحرمان المواطنين السود فى الولايات من حقوقهم الانتخابية وتم منع كثير منهم بالقوة والحيلة من الوصول إلى صناديق الانتخابات، وكأن المشهد ليس فى أمريكا وإنما فى دولة متخلفة من دولة العالم الثالث.

سرّ انحياز المحكمة العليا:

منذ أقل من أربعين سنة كان السود يُضربون فى الشوارع وهم يسيرون فى مظاهرات سلمية مطالبين بحقوقهم الانتخابية، فتكتيك الذراع القوية كان هو الوسيلة شائعة الاستخدام لقوات الأمن فى الجنوب الأمريكى طوال الفترة السابقة على صدور قانون الحقوق المدنية سنة ١٩٦٤م، واشتهر فى ذلك الوقت محامى أبيض بعنصريته وعدوانيته ضد السود، فلم تتح له وسيلة لمنع السود من التصويت فى الانتخابات إلا استغلها. وقد أدلى أحد شهود العيان بتفاصيل مثيرة فى هذه القضية نشرت مؤخرا فى مجلة «بيتسبورج بوست جازيت» فى ديسمبر سنة ٢٠٠٠م، اسم الشاهد هو «ليتوبينا» وكان موظفا يعمل فى محاكم ولاية «أريزونا» لمدة ثلاثين عاما.. ذكر أن المحامى الأبيض هذا كان يطالب بضرورة أن يمر المواطنون غير البيض باختبارات شخصية مختلفة، منها إجادة اللغة الإنجليزية، وذلك من خلال شرح أجزاء من الدستور الأمريكى قبل أن يسمح لهم بالتصويت، إسم هذا المحامى العنصرى الأبيض هو «وليام رينكويست».

المفاجأة هنا هى أن «وليام رينكوست هذا» هو نفسه رئيس المحكمة العليا للولايات المتحدة، وهو الذى حكم بعدم إعادة فرز الأصوات بولاية فلوريدا، وهو الذى أعلن فوز بوش. فى هذه المحكمة العليا يوجد قضاة آخرون يشاركونه فى ميوله العنصرية المتأصلة ولهم مصالح وأهواء مع الحزب الجمهورى، انكشف الغطاء حتى الآن عن اثنين منهم على الأقل. أحدهما هو القاضى «كلارينس توماس» والآخر هو القاضى «أنتونين سكاليا»، هذان القاضيان كانت لهما علاقة بأحد أطراف النزاع، والتقاليد القضائية كانت تستلزم تنحيهما عن النظر فى هذه القضية احتراما للحياد وحفاظا على

النزاهة. كانت زوجة القاضي الأول مستشارة بوش في حملته الانتخابية، وكان للقاضي الثاني «سكاليا» ولدان يعملان في مؤسسة قانونية هي التي مثلت المرشح بوش الإبن في قضية فلوريدا. فلا عجب أن ينحازا مع رئيس المحكمة لترجيح كفة بوش على ألجور، ومن ثم اعتبر خبراء القانون هذا موقفا سياسيا وليس حكما قضائيا صحيحا.

ويبدو هذا واضحا وفجا في كلام القاضي «سكاليا» أدلى به إجابة على سؤال صحفي: لماذا اعتبرت مسألة فرز الأصوات غير مقبولة؟ فكان رده عجيباً.. حيث قال: «إن إعادة فرز الأصوات من شأنه أن يلقي بسحب قاتمة على (ما ادعاه بوش) من شرعية انتخابه رئيساً.. وكأن مجرد ادعاء بوش بأنه يستحق منصب الرئاسة كان كافيا في حد ذاته لتسوية النزاع وإنهاء القضية..!

فلماذا السود وماهي قيمة أصواتهم؟

«آلان جي ليتشمان» وهو أستاذ بجامعة واشنطن كلفته وكالة الحقوق المدنية بالولايات المتحدة بتحليل أصوات الناخبين في فلوريدا وتقديم تقرير عن ذلك.. قال: «إن أصوات الناخبين السود التي تم فرزها ويبلغ عددها ستين ألف صوت قد استبعدت كلها من العد بحسبانها أصواتا خاطئة.. ولأن ٩٣٪ منها كان مؤيدا لألجور فمعنى هذا أن هذا المرشح قد فقد بضربة واحدة ٥٤ ألف صوت زيادة عن بوش كان يمكن أن تمنحه الأغلبية اللازمة للفوز بالرئاسة.. (مقال ليتشمان منشور في ٥ مارس ٢٠٠٢م بصحيفة Baltimore Sun(بلتيمور صن).



لم يتوقف الاستبعاد العنصري في فلوريدا عند هذا الحد.. فقد كشف الصحفي الانجليزي «جورج بالاست» الذي تابع عملية التصويت بمراكز الانتخابات في فلوريدا - عن تدابير سبقت عملية الانتخابات قام بها حاكم الولاية «جيب بوش» خلال عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠م، بدت المسألة في ظاهرها عملية قانونية تستهدف استبعاد أسماء الموتى والأسماء المتكررة في جداول الناخبين وكذلك استبعاد أسماء الذين صدرت ضدهم أحكام قضائية.. ولكن الحقيقة أن الذين حذفت أسماؤهم كانوا من السود الأبرياء الذين لم تصدر ضدهم أي أحكام تمنعهم من الإدلاء بأصواتهم.. تم نشر هذه الوقائع في صحيفة الأبزفر البريطانية وفي التليفزيون البريطاني (BBC) أثناء عملية الانتخابات ولكن تجاهلتها الصحافة والإعلام الأمريكيين فلم تتحدث عنها الصحافة إلا بعد ثمانية أشهر ، فكأنه كان سكوتا مقصودا، ولو نشرت الوقائع في حينها بأمريكا لتغير الموقف تماما لصالح ألجور (أنظر أيضا كتاب لاست الذي نشرته بلوتو بريس سنة ٢٠٠٢م The Best Demacracy Mony Con buy».

وفي كتاب آخر من تأليف «جون نيكولاس» بعنوان «Jews for Buchanan»، ذكر أن كثيرا من السود أكدوا له أنهم عندما توجهوا إلى لجان

الانتخابات طردهم رجال الشرطة بدعوى أن أسماءهم غير مسجلة بجداول الانتخاب. أما الصحفى والمراسل الإذاعى «ستاشى بوارز» الذى قضى يوم الانتخابات متجولا بين اللجان المختلفة فقد قدر أن آلاف من السود قد حيل بينهم وبين الوصول إلى صناديق الانتخاب، وتؤيد ذلك تقارير أخرى تذهب إلى القول بأن الإكراه المادى قد استخدم على نطاق واسع وأن حواجز الشرطة التى أحاطت باللجان كانت ترهب السود حتى لايتوجهوا إلى صناديق الانتخاب.

● شركة فوكس تتلاعب بالأرقام:

يقول «مارك هرتسجارد» فى كتابه «ظل النسر ....» الذى نشرته بلومسبرى سنة ٢٠٠٣: «كان من الصعب على الأمركيين أن يفهموا ماذا حدث فى انتخابات عام ٢٠٠٠ لأن أجهزة الإعلام نفسها كانت جزءا من المشكلة .. وكانت أخطاؤها الفاحشة مثلا حيا للمنظمات التى تضع الربح المادى فوق كل الاعتبارات والقيم بما فى ذلك الإلتزام المهنى والمسئولية الأخلاقية والوطنية .. ففى ليلة الانتخابات وبينما عملية فرز الأصوات لاتزال قائمة أعلنت أولا فوز ألجور .. ثم أعلنت التعادل بينه وبين خصمه ثم أعلنت فوز بوش. كان المصدر الأساسى لكل محطات التليفزيون هو شبكة فوكس للأخبار التى أعلنت نبأ فوز بوش الساعة الثانية وستة عشر دقيقة صباحا، ثم تبعتها كل الشبكات الأخرى. وشبكة فوكس هذه معروف أنها بوق الجناح اليمينى فى الحزب الجمهورى، وكان يرأس فريق المراسلين «جون إليس» أحد أقرباء بوش .. وقد أسست الشبكة حكمها على تحليلات رقمية ثبت فيما بعد عدم صحتها .. ولم تكن الشبكات الأخرى فى وضع يسمح لها بمراجعة هذه التحليلات لنقص فى عدد الخبراء عندها ولذلك لم يكن لها مراسلون فى فلوريدا .. وكان الاندفاع والتسابق فى نشر الأخبار الذى قادته بل هندسته شركة فوكس هو الذى أظهر بوش بمظهر الفائز وبدا ألجور على الطرف الآخر وكأنه يتمحك بإعادة فرز الأصوات ليدارى هزيمته أمام الجماهير .. وقد استغلت حملة بوش الانتخابية هذا الانطباع الزائف لتزعم أن إعادة فرز الأصوات هو نوع من الغش وأن عد الأصوات باليد سيؤدى إلى نتائج خاطئة .. وهكذا كان الاتجاه الإعلامى يضغط بثقله علي ألجور لكى يعلن تنحيه حتى لايدفع بالأمة إلى الإضطراب والبلبلة، والحقيقة أن ألجور كان هو ضحية الغش وليس هو صانعه.

● الجمهوقراطى .. مأساة سياسية:

عقد «مارك هيرتسجارد» فى كتابه المشار إليه «ظل النسر..» فصلا كاملا عن «مأساة الديمقراطية الأمريكية» كسف فيه عن جوانب كثيرة ومثيرة فى هذه المأساة، فهو يرى مثلا أن الدرس الذى ضاع فى ضجيج عملية انتخابات الرئاسة فى فلوريدا هو أن أغلبية الأمريكيين لم يكونوا يريدون بوش ولا ألجور، ودليله على ذلك أن ٥١٪ فقط من مجموع الناخبين هم الذين اهتموا بالذهاب إلى صناديق الانتخاب ولما كان هناك تساو تقريبا فى عدد الأصوات التى حصل عليها كل من بوش وألجور فإن حصيلة كل منهما النهائية فى حقيقة الأمر لاتزيد عن ربع مجموع أصوات الناخبين، والمعنى الخفى هنا هو أن ثلاثة



أرباع الأمـــريكيين لايريدون بوش ولا الجور!.

يعرض هيرتسجارد لحقيقة أخرى وهي أن نسبة المهتمين بالانتخابات في الولايات المتحدة هي أقل نسبة في كل الديمقراطيات المعروفة في العالم حيث تحتل أدنى درجات السلم.

وتفـصـيل ذلك أننا إذا أخـذنا في الاعتبار كل الانتخابات التي جرت منذ عـام ١٩٤٥ إلى عـام ١٥٩٨ لوجـدنا أن متوسط الذين أدلوا بأصواتهم بالنسبة للمجموع العام للناخبين في أمريكا هو ٤٨٫٣٪، وتحتل إيطاليا المركز رقم واحد بنسـبـة ٩٢٫٥٪ وتقع كل من بلجـيكا وهولندا والسويد ونيوزيلنده وأستراليا وألمانيا في إطار نسبة الثمانينات بالمائة، والنسـبة في أسـبانيا ٧٧٪، وبريطانيا وجـمـهـورية إيرلندية ٧٤٫٩٪، واليـابان ٦٩٪ وفرنسا ٦٧٪ والهند ٦١٪، فأمريكا من هذه الناحية مكانها في القاع لا في القمة.

يقول هيـرتسـجـارد: من السـهل أن نقــول إن كل مـــواطن لابد أن يذهب للإدلاء بصوته، ففي الديمقراطية يحمل كل شخص على عاتقه مسئوليات كما أن له حقوق .. ولكن عندما لايجد المواطن أمامه اختيارا حقيقيا بين المرشحين، ويرى أن العملية السياسية كلها لعبة حـقـيـرة جـديرة بالازدراء وأن عـمليـة الانتخاب ليست أكثر من مشهد متكرر مملّ تسـعى فـيـه النخـبـة السـيـاسـيـة بواشنطن لتحقيق مصـالحهـا الأنانيـة، ويدرك أن الإعـلامـيـين يقـومـون بدور مشبوه لا صدق فيه ولا أمانة، وأن الذي يمول هذا المشـهـد المسـرحي كله هم أصـحـاب المصـالح من الأغنياء ورجـال الأعمال، عندما يجد الناخب نفسه أمام هـــذه الحـقـائق المنفرة ينأى بنفـســه عن المشـــاركـــة في الانتـخـابات ويعـتـزل العمل السياسي.

وكان من نتائج هذه السلبية الضـارية أن الأمـريكيين بدءوا يهـجـرون الحـزبين الكبـيـرين اللذين يحـتكران السلطة بأعـداد مـتـزايدة، وشـاعت على الألسنة أنه لايوجـد في الحـقـيـقـة سوى حـزب واحد يمكن أن نسميه الحزب الجمهوقراطي .. فالحزبان لايخـتـلفـان إلا في بعض القـضـايا الهامشية مثل حق النساء في الإجهاض وحقوق الشواذ جنسيا وحمل السلاح .. الخ. ولكنهما لايختلفان في القضايا الأسـاسـيـة خصـوصـا الاقـتـصـادية والسياسة الخارجية.

وقـد أثبت المرشـحـان بوش والجور ذلك بنفسيهما في المناظرة الثانية بينهما في انتخابات ٢٠٠٠م الذي أدار المناظرة هو الإعلامي «جيم ليرر».. متميز بهدوئه ورصانته .. فلما رأى التماثل واضحا في إجابات المرشحين بدا عليه الاستياء فتساءل بشيء من الحدّة: ألا يوجد أي فرق بينكما!؟ فأجاب كل منهما: طبعا يوجد فـرق .. ويعلق هيرتسـجـارد على ذلك بقوله: هذا الفرق المزعوم لم يتضح أبدا في المناظرة من أولها إلى آخرها .. إنما الذي بدا واضحا جليا هو أن كلا من بوش والجور يعتمد في تمويل حملته الانتخابية على النخبة الثرية في المجتمع .. حـصـل بوش على ١٩١ مليـون دولار وهو أكبر مبلغ من المال استطاع مرشح

للرئاسة أن يجمعه في كل تاريخ الانتخابات الأمريكية، وأما ألجور فقد حصل على ١٣٢ مليون دولار.

ثم يأتى بعد ذلك دور الإعلام ليكمل المسرحية الدرامية.

سمات الدور الإعلامى :

من أبرز سمات هذا الدور أن الاهتمام الإعلامى يتمركز حول الجوانب السطحية فى شخصية المرشح مثل مظهره وأسلوبه وهواياته، ولايوفر أى معلومات ذات قيمة عن فكر المرشح وأهدافه وإنجازاته المتميزة فى المجتمع .. أما التليفزيونات المحلية فإنها لاتعنى بالحملات الانتخابية إلا على شكل إعلانات صغيرة مدتها ثلاثين ثانية تكون فى العادة هجاء شخصيا للمرشح المنافس.

وفي انتخابات عضوية الكونجرس يمكن أن تصل دخول شبكات التليفزيون الكبرى إلى مايربو على خمسمائة مليون دولار .. ولكى يجمع المرشحون هذا المبلغ الهائل من المال عليهم أن يقضوا معظم وقتهم فى جولات تسولية من الأغنياء وأصحاب المصالح الكبرى، ويلتقط هذه النقطة كاتب وصحفى آخر هو «جافين إيسلر» فى كتابه «الولايات المتحدة الغاضبة» الذي سبق أن عرضناه فى مقال بالهلال.

ديمقراطية مريضة :

يقول «إيسلر» : النظام الديمقراطى فى أمريكا مختلف عنه فى بريطانيا فالنائب البرلمانى في بريطانيا يقضى خمسة أعوام مستقرة ومنتجة فى وظيفته .. مدعما من قبل حزبه الذى يوفر له عادة تكاليف حملته الانتخابية أما أعضاء الكونجرس الأمريكى فإنهم يقضون حياتهم فى قلق دائم بسبب مشكلتين متداخلتين: الأولى هى إعادة الانتخاب كل سنتين والثانية هى اضطرارهم المستمر لاستجداء المال اللازم لحملاتهم الانتخابية، ولذلك يجدون أنفسهم أسرى للجهات التى تقوم بالتمويل، ولايستطيع العضو منهم إلا أن يكون تابعا لمصادر تمويله منحنيا أمام التيارات السياسية السائدة غير قادر على مساندة أى قضية قد يراها بضميره الشخصى قضية عادلة.. ولايستطيع أن يعترض على أى قرار ظالم.

والنتيجة النهائية أن نجد أكثر السياسيين الأمريكيين يلهثون خلف الرأى العام السائد ولا يحاولون تغييره فالقيادة السياسية الحقيقية فى أمريكا تكاد تكون شيئا منعدما .. فإذا عرفت أن الرأى العام ليس أكثر من صناعة تقوم بها وسائل الإعلام التى لاتتورع عن الكذب وتزييف الحقائق .. وإذا عرفت أن المسيطرين على هذا الإعلام والذين يضخون فيه المال والمعلومات معا هم قلة قليلة من الأغنياء لاتزيد عن ٤٪ من سكان الولايات المتحدة لهم مصالحهم الخاصة التى قد تتعارض مع مصلحة الأغلبية الساحقة - إذا عرفت هذا كله فلا تعجب بعد ذلك إذا قيل لك أن النظام السياسى الأمريكى نظام فاسد وأن الديمقراطية الأمريكية ديمقراطية فاسدة ومريضة.

يدعى الساسة أنهم إنما يستجيبون للرأى العام ولاحتياجات دوائرهم الانتخابية وهم فى الحقيقة مذعورون لايستجيبون إلا إلي نوعين من الناس: الذين يدعمونهم بالمال والذين يبتزونهم ويهددونهم بالكشف عن فضائحهم.

ويعبر رجل الشارع في أمريكا عن ذلك بقوله : إننا نشم من هؤلاء السياسيين رائحة عفنة.

● مساندة الاستبداد لم تنقطع:

يلخص مارتن جروس رأيه في ديمقراطية أمريكا في كتاب له بعنوان: «The Political Racket» فيقول: النظام الانتخابي في أمريكا هو أكثر الأنظمة تعقيدا ونفاقا في التاريخ .. إنه نظام فاسد وعشوائي .. أكبر هموم المرشحين فيه هو تسويق أنفسهم بما ليس فيهم وتلويث سمعة منافسيهم .. نظام تتحول فيه الديمقراطية إلى لعبة مثيرة، باهظة التكاليف لفئة قليلة من السياسيين يجرون في حلبة سباق لصالح فئة قليلة أخرى من الأغنياء أصحاب المصالح الكبرى وكل ما يفعله الإعلام أنه يتيح لبقية الناس الفرجة على هذا السباق .. وهكذا أصبحت العملية كلها تشويشا للجماهير وتبديدا للأموال وطمسا لمعالم الديمقراطية الحقيقية التي حلم بها «إبراهام لنكولن» في يوم من الأيام.

فأي ديمقراطية هذه التي تزعم أمريكا أنها سوف تستزرعها في بلاد العرب والمسلمين؟! ليس عندي أدنى شك أنها غير جادة فيما تزعم .. فأمريكا لاتريد ديمقراطية لأحد، وإنما هي تسعى وراء مصالحها الأنانية، وقد يكون من مصلحتها استبدال نظام فاسد انتهى عمره الافتراضي بنظام جديد فاسد أيضا ولكن بمواصفات حديثة أكثر طواعية واستجابة لأوامرها وتوجيهاتها.

ولذلك أقول لبعض إخواننا المثقفين الذين يزعمون لنا أن أمريكا قد تغيرت بعد ٢٠٠١/٩/١١ وإنها جادة في دعواها الديمقراطية والذين يروجون لمقولة «بيدي لابيد عمرو» - أقول لهم: إن



يد عمرو هذه لاتمتد إلا للنهب والسطو على الثروات وإرهاب الشعوب .. وأن أمريكا لم تتغير - فيما يتعلق بالديمقراطية - كما يزعمون، بل يرى «مارك هيرتسجارد» أن أمريكا قد زادت سوءا بعد ٩/١١ المشهود، وأن إدارة بوش باسم حرب الإرهاب قد تمادت في مساندتها للأنظمة الدكتاتورية سيئة السمعة، تزكيها وتثني على أصحابها تحت شعار الواقعية «الجيوبولتيمية»، ومنها دول آسيا الوسطى: أوزبكستان وكازاخستان وطاجيكستان وتركمنستان وقرغيزيا.

وأبرز مثال على ذلك ما ذكره المراسل الصحفي «كريستيان كاريل» في مقال له نشر في ١١ إبريل ٢٠٠٢ «بنيورك ريفيو أن بوكس» حين كتب: «إن أمريكا تغدق الكثير على «إسلام كريموف» دكتاتور أوزبكستان من مال وثناء ضاربة عرض الحائط بالأدلة الدامغة على تردي الحريات في بلاده إلى الحضيض، حيث تتهم جماعات حقوق الإنسان قوات أمنه بالقتل المنظم والخطف والسجن والتعذيب لمعارضيه السياسيين بل والمشتبه في معارضتهم المستقبلية (ضربات استباقية!).

فإذا كانت أمريكا تريد أن يسود السلام والديمقراطية في العالم حقا فلتكف هي فقط عن صنع الأنظمة الدكتاتورية ومساندتها، وسوف تستخلص الشعوب وحدها حريتها وتصنع ديمقراطيتها، فإذا لم تنهض لذلك فلتنتظر العدل والديمقراطية التي سيأتي المهدي المنتظر في آخر الزمان، ولتهنأ أمريكا بديمقراطيتها العظيمة!. ■

ماذا تريد أمريكا من العرب؟

بقلم
د. جـلال أميـن

لم يكن غريبا بالمرة، بل كان طبيعيا تماما، فى أعقاب سقوط الاتحاد السوفيتى والنظام الشيوعى فى مطلع التسعينات ، أن تشرع الولايات المتحدة، وقد أصبحت هى القوة الوحيدة القادرة على فرض إرادتها على العالم، فى تصور كيف يمكن، أو يجب أن يكون العالم الجديد، بما يتلاءم مع مصالحها، أو بالأحرى أن تضع هذا التصور موضع التنفيذ، إذ الأرجح أنها رسمت خطوط هذا التصور حتى من قبل سقوط النظام الشيوعى

مثل هذا يحدث دائما فى أعقاب الهزات العميقة التى تنتاب النظام الدولى بين الحين والآخر. إذ يعقب هذه الهزات اختفاء بعض الأطراف المهمة فى توازن القوى، أو انحسار نفوذها عن مناطق يتعين ملؤها بنفوذ قوى أخرى، أو تغيرات مهمة فى موازين القوة العسكرية والاقتصادية مما يخلق فرصا جديدة لكسب مواقع يبدو من الحماقة تضييعها أو يسيل لعاب قوى جديدة فى العالم تطمح إلى كسب مواقع على حساب القوى القديمة، مما يجعل من الواجب التصدى لها أو وضع خطة للتعامل معها .. إلخ.

حدث هذا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٤ -١٩١٨) حيث كان يجب إعادة ترتيب العالم بما يتفق مع مصالح الدول المنتصرة فى تلك الحرب، وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا. ثم حدث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية (٣٩ - ١٩٤٥) حيث كان يجب إعادة ترتيب العالم بما يتفق مع مصالح الولايات



المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ليس فقط على حساب الدول المنهزمة (ألمانيا وإيطاليا واليابان) ، ولكن أيضا على حساب بعض الدول المنتصرة ، كبريطانيا وفرنسا، التى خرجت من الحرب منهكة اقتصاديا، وكان لابد أن ترث منها الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى جزءاً كبيراً من نفوذها الاقتصادى والسياسى.

نحن نعرف أن الولايات المتحدة شرعت فى وضع عناصر تصورها الجديد لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية من قبل أن تنتهى هذه الحرب، ونعرف أيضا كيف عملت طوال العقود التالية للحرب على وضع هذا التصور موضع التنفيذ، بدأ بفترة صداقة قصيرة مع الاتحاد السوفييتى أعقبتها فترة طويلة من الحرب الباردة، تخللتها فترة وفاق قصيرة فى نهاية الستينات وأوائل السبعينات ، ثم تلاها تصعيد شديد للانفاق على التسلح انتهى بسقوط الاتحاد السوفييتى والنظام الشيوعى، وخلو الساحة خلوا تاما من النفوذ السوفييتى، مما سمح بتحول العلاقة بين الولايات المتحدة وبين روسيا وبقية دول أوربا الشرقية إلى علاقة صداقة ووئام.

كان من بين عناصر التصور الأمريكى لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية إقامة حلف الأطلنطى وتدشين مشروع مارشال، فيما يتعلق بأوربا الغربية واليابان، وإحلال النفوذ السياسى والاقتصادى والعسكرى الأمريكى محل نفوذ بريطانيا وفرنسا، فيما يتعلق ببقية القارة الآسيوية وأفريقيا، واحتكار شبه كامل للنفوذ السياسى والاقتصادى فى أمريكا اللاتينية ، مع إقامة أو دعم نظم جديدة، عسكرية فى أغلب الأحوال ، فى كثير من بلاد العالم الثالث، فى القارات الثلاث الفقيرة، إما تدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة، كمعظم دول أمريكا اللاتينية، أو تلتزم على الأقل بعدم السماح للاتحاد السوفييتى بتوطيد نفوذه فيها، كما حدث فى دول كمصر والجزائر وإندونيسيا وغانا .. إلخ.

ولكن عناصر التصور الأمريكى لعالم ما بعد الحرب الثانية لم يقتصر على العلاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية، بل كان من المحتم أن يشمل أيضا عناصر فكرية وإعلانية، تحددت ملامحها بطبيعة «العدو» المراد مواجهته وقهره، أو وضع حد لتوسعه.. كان الملائم لمواجهة العدو السوفييتى

والشيوعى أن ترفع شعارات الحرية، السياسية والاقتصادية ، والتغنى بمزايا العالم «الحر» فى السياسة والاقتصاد، والتأكيد على معاناة الخاضعين للنظام الشيوعى أو الاشتراكى والعبودية الفكرية والقهر السياسى والتخلف الاقتصادى، كما استخدمت منظمات الأمم المتحدة، وعلى الأخص مؤسسات التمويل الدولية للترويج لفلسفة فى التنمية تخدم مصالح الولايات المتحدة والنظام الرأسمالى بوجه عام، فأعطى التقدم الاجتماعى والإنسانى معنى يكاد يقتصر على المفهوم الاقتصادى، وأعطى التقدم الاقتصادى تفسيراً يكاد يقتصر على زيادة معدل نمو الناتج القومى ومتوسط الدخل ، وروجت نظريات للتنمية الاقتصادية تحكم بالفشل مسبقا على أى تنمية لا تقوم على مبادئ الحرية الاقتصادية بل تقوم على تدخل الدولة.

التصور الأمريكى لعالم ما بعد الحرب

كانت هذه عناصر عامة فى التصور الأمريكى لعالم ما بعد الحرب الثانية بصرف النظر عن اختلاف المناطق والثقافات، ولكن كان لابد أن تكون هناك عناصر إضافية تختلف من منطقة وثقافة لأخرى.

كان يجب أن يراعى مثلا، فيما يتعلق بأوربا الغربية، قربها الشديد من الاتحاد السوفييتى وبقية الدول الشيوعية فى أوربا الشرقية، وكان يجب أن يراعى فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية قربها الشديد من الولايات المتحدة ووشائجها الثقافية الوثيقة مع الحضارة الغربية؛ وأن يراعى فيما يتعلق بدول جنوب وجنوب شرقى آسيا قربها الشديد من الصين، وكثافتها السكانية العالمية واختلاف ثقافاتها اختلافا شديداً عن الحضارة الغربية، وفيما يتعلق بأفريقيا، كان يجب أن يراعى عمق تخلفها الاقتصادى وانخفاض كثافتها السكانية، أما فيما يتعلق بالمنطقة العربية فكانت ثمة ثلاث سمات كان لابد أن تؤثر فى التصور الأمريكى لهذه المنطقة وفى طبيعة الخطاب الإعلامى الموجه لها هذه السمات الثلاث تتعلق بالنفط، وإسرائيل، والهوية العربية والإسلامية.

محاور علاقة الولايات المتحدة بالعرب

حكمت هذه السمات الثلاث علاقة الولايات المتحدة بالعرب طوال النصف الثانى من القرن العشرين، فقد تحدد مسار السياسة الأمريكية إزاء البلاد العربية بهذه الضوابط، ضمان تدفق الكميات اللازمة من النفط العربى إلى الولايات المتحدة وحلفائها بالأسعار الملائمة، والاعتراف بالدولة الإسرائيلية الجديدة ثم دعمها المستمر، اقتصاديا وسياسيا ، ولو فى مشروعاتها

التوسعية فى البلاد العربية، مع استخدام شعارات القومية والإسلام ، بقدر الإمكان، لخدمة المصالح الأمريكية، كما فى التخلص من النفوذ البريطانى أو الفرنسي تارة، أو في صد التوسع السوفييتى تارة أخرى. وطوال هذه الفترة، استغلت أيضا شعارات التنمية الاقتصادية لتطبيق نمط من التنمية لا يتفق دائما مع مصالح الجماهير الفقيرة فى البلاد العربية ، ولكنه يحقق فى معظم الأحيان مصالح الولايات المتحدة فى توسيع الأسواق أمام منتجاتها، بما فى ذلك بيع الأسلحة، وأمام الاستثمارات الأجنبية الخاصة.

***

بعد انقضاء أكثر من نصف قرن على انتهاء الحرب العالمية الثانية كان على الولايات المتحدة أن تضع تصورها الجديد لإعادة ترتيب العالم بعد اختفاء الاتحاد السوفييتى وسقوط الشيوعية، وكذلك اختيار أفضل خطاب إعلامى يمكن أن يساعد فى الترويج لهذا الترتيب الجديد.

لم يعد العالم الآن مثلما كان فى ١٩٤٥. كانت هناك بالطبع بعض الأشياء الثابتة، ولكن كانت هناك أيضا أشياء جديدة هامة، كان من المطلوب ، كما كان مطلوبا دائما، فتح المزيد من الأسواق أمام السلع الأمريكية ورءوس الأموال الأمريكية الخاصة، ولكن أمريكا



لم تعد صاحبة ذلك الاقتصاد المهيمن بالدرجة التى كان عليها فى منتصف القرن، صار لها الآن منافسون أقوى بكثير مما كان لها فى الماضى، فى أوربا الغربية واليابان، بل وأيضا فى شرقى آسيا، بل وأصبحت الصين، التى كانت فى منتصف القرن من أفقر بلاد العالم ومن أشدها تخلفا وبؤسا ، تمثل خطراً حقيقيا كمصدر منافس للسلع الأمريكية فى خارج الولايات المتحدة وداخلها. نعم، لايزال الحصول على النفط العربي بكميات وأسعار ملائمة هدفاً أساسيا كما كان فى منتصف القرن، ولكن مع تعدد مراكز النمو السريع فى العالم، وتضاعف الاحتياجات العالمية من الطاقة، أصبحت السيطرة على مصادر النفط الرخيص فى البلاد العربية وغيرها، هدفا أكثر أهمية منها فى أى وقت مضى، لضمان استمرار قدرة الاقتصاد الأمريكى على المنافسة، نعم، مازال التحالف الاستراتيجي مع إسرائيل مفيدا لأكثر من سبب، ليس فقط لضمان التأييد اليهودى للسياسة الأمريكية فى الداخل، ولكن ، وعلى الأخص، لتأديب وقمع

العرب كلما لزم الأمر، واستنفاد طاقاتهم وكبح جماح نهضتهم واستقلالهم، فضلا عن تبرير إنفاق المزيد والمزيد، من جانب الدول العربية على شراء الأسلحة الأمريكية.. ولكن إسرائيل لم تعد أيضا مثلما كانت في منتصف القرن، بل تضاعفت قوتها العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية، بما حصلت عليه من دعم الولايات المتحدة طوال نصف قرن، بينما انهكت قوى العرب، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، بسبب الضربات المتتالية التي وجهت لأى محاولة بدرت منهم لتحقيق نهضة في أي مجال من هذه المجالات، وعلى الأخص الاعتداء الإسرائيلي في ١٩٦٧، الذي حظى بالتأييد والدعم الكاملين من الولايات المتحدة.

كان لابد إذن أن تعجل إسرائيل على السير قدما في تحقيق مشروعها للاستيلاء الكامل على أراضي الفلسطينيين، وطرد المزيد منهم إلى خارج بلادهم، وضم أراضي جديدة إلى ممتلكاتها أو مناطق نفوذها، ووضع يدها على مصادر جديدة للمياه والطاقة، وفتح أسواق جديدة أمام صادراتها واستثماراتها.

هذه التغيرات المهمة يمكن أن تلقى ضوءا كاشفا على الأحداث المدهشة التي تجري في المنطقة العربية منذ حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بل وقد تلقى أيضا ضوءاً كاشفا على هذا الحادث نفسه.

فبعد الهجوم الأمريكي على أفغانستان واستقرار القوات الأمريكية في مواقع جديدة في وسط آسيا، حدث الهجوم العسكري الأمريكي البريطاني على العراق.. فجأة أصبح الاحتلال العسكري المباشر ضروريا بعد أن كنا نظن أن احتلال جيوش دولة لأراضي دولة أخرى مستقلة قد أصبح تاريخا قديما لا يمكن أن يتكرر ولا يقبله الضمير العالمي. هكذا احتلت العراق بين يوم وليلة، ثم أصبحنا كل يوم نسمع تهديدا جديداً من الولايات المتحدة أو إسرائيل بضرب سوريا أو تغيير النظام في مصر أو السعودية. زادت أيضا درجة التوحش التي تعامل بها أسرائيل الفلسطينيين وزاد استهتارها بردود الفعل التي تثيرها أعمالها في الرأي العام العالمي، كما زادت الصراحة التي تساند وتدعم بها الولايات المتحدة الأعمال الإسرائيلية وتعطل أي قرار أو عمل يدين هذه الأعمال أو يحاول إيقافها عند حد.

من الأشياء غير المألوفة أيضا، قيام سلطة الاحتلال في العراق، بمجرد اتمام الاحتلال العسكري، بل وفي بعض الأحيان حتى قبل اتمام هذا الاحتلال، بتوزيع عمليات «الإعمار» وإعادة بناء المرافق العامة التي دمرها الهجوم

العسكرى أو سوف يقوم بتدميرها ، على الشركات الأمريكية، ثم الإعلان، بعد انقضاء أشهر قليلة على الاحتلال، عن شروع سلطة الاحتلال فى بيع ممتلكات القطاع العام العراقى لمن يشترى من شركات دولية سيكون أغلبها بالطبع شركات أمريكية مع إفساح المجال دون شك، لفرص ممتازة لشركات إسرائيلية أو وثيقة الصلة بالمصالح الإسرائيلية.

إن ما طرأ من تغيرات على المركز النسبى، الاقتصادى والعسكرى للولايات المتحدة وإسرائيل ، خلال نصف القرن الماضى، وأشرت إليه باختصار فيما سبق، يتفق تماما مع ما جرى من أحداث فى المنطقة العربية خلال الأشهر القليلة الماضية.. ويمكن بهذا وذاك أن نكتشف بدرجة لا بأس بها من الوضوح الخطوط العريضة للتصور الأمريكى لهذه المنطقة.

صفقة شيطانية

دولة تحوز قوة عسكرية جبارة، لا تجد أمامها من ينافسها فى هذا المجال، ولكنها تواجه فى نفس الوقت تحديات اقتصادية خطيرة نتجت عن تدهور مركزها الاقتصادى النسبى بالمقارنة بكتل اقتصادية أخرى . وهناك تلك المنطقة العربية الغنية غنى لا مثيل له بمورد يحتاج إليه الجميع، هو النفط ، كما أن لدولة صديقة هى إسرائيل مطامح كبيرة للتوسع الاقتصادى والاقليمى. فكيف لا تعقد هذه الدولة



الجبارة، مع صديقتها الصغيرة الطموح، صفقة شيطانية، يجرى بمقتضاها إحكام السيطرة على بلاد المنطقة بدرجة تفوق أى سيطرة سابقة، منعا لمشاركة أى كتلة اقتصادية أخرى، فى الحاضر أو المستقبل المنظور، فى الاستئثار بنصيب الأسد من موارد هذه المنطقة وأسواقها ومجالات الاستثمار فيها، وتحقيقا لأهداف الدولة الصغيرة فى التوسع والتقدم؟

فإذا تطلب إحكام هذه السيطرة احتلال دولة عربية مستقلة، احتلالا عسكريا سافراً، جرى احتلالها، وإذا تطلب تقسيمها قسمت، وإذا تطلب وضع اليد على نهر أو نهرين وضعت اليد عليهما، وإذا تطلب تغير نظام الحكم فى دولة عربية أو دولتين، أجرى هذا التغيير.. إلخ

ولكن لابد بالطبع من أن يصاحب بدء تنفيذ هذه الصفقة بدء الترويج بنشاط وهمة غير معهودين ، لخطاب إعلامى جديد يتناسب مع حجم هذه الصفقة وشيطانيتها.. وهو خطاب قد يصل إلى حد العمل على تغيير الهوية وتحويل اتجاه الولاء القومى بل والدينى أيضا، ولكن هذا يحتاج إلى مقال مستقل. ■

من ذخائر الكتب العربية

الشكوى والعتاب

وما وقع للخلان والأصحاب

بقلم

د. فيصل الحفيان

من منا لا يشكو، ومن منا لا يعتب؟! العاشق يألم من الجوى والحبيب إذا ماهجر، والغريب يكتم أنفاسه النأى عن أهله وناسه، والفقير تطحنه الحاجة، وتدوسه الأيام والناس عنه غافلون، والمظلوم لا يجد سوى السماء يرفع عينيه إليها سائلا الإنصاف، والمريض يقض مضجعه ماهو فيه. وأكثر من ذلك أن العاشق قد يألم خوفا من هجر فى رحم الغيب، والمقيم قد يتحسب الغربة، والغنى قد يخشى الفقر، والظالم قد يقلق من انتقام من هو أظلم منه، والسليم قد يعيش هاجس المرض..

كل بنى آدم إذن مقيمون فى حال الشكوى، ساكنون فى حال العتب، لا يكادون يغادرون هاتين الحالتين، وأحوالا أخرى مشابهة: البث والاستعطاف والتثريب. وبعضهم فحسب هم القادرون على النفاذ إلى جوهر هذه الحالات الإنسانية، وتعريتها لأنفسهم وللآخرين .

هذا كتاب طريف في موضوعه، عميق في محتواه، وطرافته وعمقه يتآزران في وعي الإنسان بذاته، ومايمور في باطن نفسه، ومايمور داخلها من أسرار مركبة يحتاج استبطانها إلى مأثور نبي، وعقل حكيم، وإشراقة صوفي، وخيال شاعر .

أما الموضوع فظاهر، وستتضح أبعاده في كلامنا الآتي. وأما المحتوى فليس أكثر من نصوص جمعها المصنف، وألف بينها، ولم يتجاوز دوره هذا التصنيف والتأليف، لكن البراعة في هذا وذاك كانت كافية، فدلت على عقل الرجل، وقد قالوا قديما: «اختيار الرجل قطعة من عقله».

نصوص الكتاب تقطف من كلام النبوة، ونتاج العقول الحكيمة، وتجليات المتصوفة، وخيالات الشعراء، وهي جميعا تتكاتف لتحكي حكاية النفس الأنسانية مع شقيقتها ، ومع ماحولها، ومع زمانها.

لقد أغفلنا ذكر المصنف في العنوان، ولم نصرح به في السطور الأولى قصدا، لأن به خلافا . صحيح أنه حسم، لكنا رأينا أن من الخير تأجيله إلى موضعه، وأكثر من ذلك تأجيل الكلام على الكتاب كله، لندخل إليه من مدخل أوسع، هو مدخل الموضوع، فلنبدأ مستعينين بالله .



- ١ -

في الموضوع!

الحياة - كما نعلم جميعا - منذ خلقت كدر. وكدرها اليوم فاق كدر الأمس، وتجاوزه بسنين ضوئية. دعوا عنكم الهموم الضيقة، والمشكلات الخاصة، ولنذكر في هذاالسياق فقط الهم العام: هل يمكن أن ننسى، أو تفارقنا لحظة مسألة أو كارثة أن الوطن من المحيط إلى الخليج معروض في سوق النخاسة، وأن هذا الوطن قد هزل هزالا شديدا، حتى إنه ليذكرنا بقول الشاعر في تلك الشاة النحيلة التي لا يرغب فيها أحد، ويزهد فيها كل مشتر :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

نحن اليوم بهمومنا الخاصة، وبهمنا العام، نترحم على كدر الماضي الجميل، ونتمناه بدلا من (صفو الحال) الذي لا يطاق.

وعلى كل فإن الكدر قائم ما كانت هناك حياة. يصفو يوم لتتكدر أيام، وتبسم ساعة لتعبس ساعات . تلك هي طبيعة دنيانا التي لا تفارقها، ونحن لذلك عارفون، ولا نملك إلا أن نشكو ونعتب . نخرج بالشكوى الآه، ونتنفس بالعتب عن الوجع. وكما الكدر طبع الحياة فإن الشكوى طبع الإنسان، حتى إنه قياسا على قول المناطقة: «الإنسان حيوان ناطق» يمكن لنا أن نقول: الإنسان حيوان شكاء .

وشكوى الإنسان تنبع من أنه كائن

ضعيف { وخلق الإنسان ضعيفا } (النساء : ٢٨) . بل إن ضعفه مزروع فيه { وعلم أن فيكم ضعفا } (الأنفال : ٦٦) . وأكثر من النعت والدخول في النسيج أنه مخلوق من الضعف، فهو مادته التي خلق منها { الله الذي خلقكم من ضعف } (الروم : ٥٤). كأن الضعف هذا هو الطين أو الماء اللذان وردا في آيات أخريا.

والضعيف خائف حياته بطولها وعرضها، خوفا يصل إلى حد الهلع والجزع { إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا } (المعارج: ١٩، ٢٠) . وكلما ازداد التصاقا بالأرض، وأوغل في ماديته، وانصرف عن السماء، وابتعد عن خالقه، طارده الخوف، وتمكن منه الضعف، فطار قلبه، وطاش لبه، لأهون الأمور وأحقرها.

وأداة الشكوى شكوى الإنسان هي اللسان . واللسان - كما نعلم - يرادف اللغة { وهذا كتاب مصدق - القرآن - لسانا عربيا} (الأحقاف : ١٢)، وهو كذلك عند المحدثين، فهم يسمون علوم اللغة: الألسنية، أو اللسانيات، فإذا ما كان صاحب اللسان، أو الشاكي أو العاتب مبينا أو حكيما أو أديبا، أمكنه أن يعبر عن شكاوى الكثيرين، وينطق بلسانهم، ويجدوا في مقالته صدى نفوسهم، وبوح خواطرهم .

ومن مادة الشكو (على القول بأن المصدر أصل المشتقات) وردت ألفاظ في القرآن الكريم في غير سورة من سوره . جاء على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام : { قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله } (يوسف : ٨٦) ، كما ورد : { قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله } (المجادلة: ١) .

أما مادة العتب فقد ورد منها المضارع مقرونا بالسين واسم الفاعل في آية واحدة ، قال تعالى : { وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين } (فصلت: ٢٤)، كما ورد المضارع مقرونا بالسين في مواطن أخر: { ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون } (النحل : ٨٤)، { فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون } (الروم : ٥٧)، {ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون } (الجاثية : ٣٥) .

وفي السياق نفسه الجميع يعرف دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عائد من الطائف: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي ... إلخ» .

وجاء في التفاسير أن المقصود بالشكوى في الآيات التي وردت : إظهار البث ، والبث : التضرر والتوجع، وبالاستعتاب : العفو وطلب رفع العتاب. والطلب مستفاد من السين التي دخلت على المادة. فإذا كان الاستعتاب هو العفو وطلب رفع العتاب، والعتاب هو نقيض العفو والرضا . فإن معنى المادة هو ما يعبر عنه في اللغة بـ «الموجدة» ، أي ما

يجده الإنسان في نفسه من ضغينة أو نحوها .

وثمة لطيفة لغوية في الشكوى قد لاتخطر على البال، فالمادة: «الشكوة» مأخوذة من الشكوة، وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء، كأن الشكوى أخذت من فتح الشكوة وإظهار ما فيها ، إذ الشاكي يفتح قلبه ، ويعلن عما أهمه وأغمه .

* * *

كان ما سبق مقدمة خاطفة، هدفت إلى وضع الكتاب في سياقه الموضوعي، ولم يكن مفر من تردد صدى الحاضر في ثنايا الكلام، كما لم يكن مفر من وضع مادة العنوان، عنوان الكتاب في إطار دلالتها اللغوية، وورودها في النصوص، القرآن ، وما قيل في تفسيرها: ولعل ما قيل قد مهد جيدا للدخول إلى عالم الكتاب .

- ٢ -

في الكتاب

١/٢ - صدر الكتاب عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ضمن سلسلته التراثية ، وشغل الرقم (٢٠)، وجاء عنوانه : «الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، المنسوب لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي: تحرير للنسبة وتحقيق للنص»، حققت الكتاب الدكتورة إلهام عبدالوهاب المفتي.

عرفت الكتاب من محققته التي تكرمت بإهدائه إلي في أثناء زيارة قامت بها إلى القاهرة. أما المحققة فقد عرفتها أو عرفتني عن طريق زوجها د . سعد عبدالعزيز مصلوح الباحث واللغوي البارز والمعروف، وبخاصة في ما يسمى بـ«الأسلوبية الإحصائية» ، وهو فرع من فروع علم اللغة الحديث . وتربطني به علاقة أخوة حديثة العمر نسبيا ، لكنها عميقة، تزيد كثيرا على عمرها الزمني، ولا تقاس به أبدا .

جاء الكتاب في ثمان وعشرين وثلاث مئة صفحة، شغلت الدراسة وصور النسخة الخطية والفهارس نحو ثمانين صفحة .

وليس للكتاب إلا نسخة خطية واحدة، هي تلك التي تحتفظ بها دار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٧٣أدب)، وهي منسوخة عام ١٠٨٤هـ، ومنها مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، التقطها قديما (عام ١٩٤٧) .

والنسخة تقع - كما ذكرت محققتها - في ثلاث وأربعين ورقة، مكتوبة بقلم فارسي واضح إلا في مواضع قليلة .

والكتاب خلو من مقدمة ، وكما ألمحت من قبل هو عبارة عن نصوص ألف بينها صاحبها، وجعلها تحت عناوين بلغت عدتها أحد عشر عنوانا أو بابا :

- في العتاب والشكوى والتثريب والبث والاستعطاف وما أشبه ذلك .
- في العبيد والإماء والخدم والأمر بالاستيصاء بالمماليك خيرا والنهي عن سوء الملكة ونحو ذلك .
- في العداوة والحسد والبغضاء والشماتة وذكر الأضغان والطوائل والوعيد والتهديد .
- في العدل والإنصاف واستعمال السوية في القسمة وغيرها ومن عدل وأوصى بالعدل .
- في العجز والتواني والكسل والبطء

والتردد في الأمر وما أشبه ذلك .

– في العفاف والورع والعصمة وذكر الحلال والحرام ومن تحرج وتنزه من الرجال والنساء .

– في التعجب وذكر العجائب والنوادر وما خرج من العادات .

– في العشق وذكر من بلي به ، وقال فيه الشعر، ومن مات منهم كمدا ومن رق لهم وترحم عليهم .

– في العقل والفطنة والشهامة والتدبير والرأى والتجارب والنظر في العواقب .

– في العمل والكد والتعب والشغل والجد والعزم والنية والكفاية والكيس والعجلة والسرعة والعدو وحسن التأني في الأمور وانتهاز الفرص .

– في العز والشرف وعلو الخطر والتقدم والرياسة والجاه والهيبة والاحتشام والشهرة .

وواضح أن الكتاب مسمى بأحد أبوابه ، أولها ، (وإن لم يتطابقا) على طريقة الحماسات ، حماسة أبي تمام ، وحماسة البحتري، وغيرهما . وهو قريب منها ، لكنها شعر ، وهو خليط من المنظوم والمنثور . وتبدأ النصوص بالمأثورات الدينية: ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن بعض الأنبياء ، والصحابة ، أحيانا ، ثم تورد نصوص وحكايات وأشعار كيفما اتفق، لكنها جميعا تدور في فلك العنوان .

إذن عنوان الكتاب هو أول أبوابه،

وإذا أضفنا إلى ذلك أنه خلو المقدمة ، فإن التساؤل يصبح مشروعا: هل هو كتاب مستقل، أم هو جزء من كتاب؟ ثم عدت الأيام عليه ، فوقع في يد عنونته، وجعلت منه كتابا مستقلا .

وقد أجابت المحققة على السؤال في دراستها الاستهلالية ، فجزمت بأنه ليس سوى أبواب مستقلة من كتاب « ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» للزمخشري (ت ٥٢١هـ) . لكن هذاالجزم لم يدفعها إلى أن تثبت النسبة الصحيحة على العنوان ، كأنه عز عليها أن تلغى التاريخ ، تاريخ النسبة إلى الثعالبي، على الرغم من الشك المبكر فيها ، ولم تشفع الحقيقة العلمية التي توصلت إليها ، فظل اسم الثعالبي على الغلاف ، وأطل اسم الزمخشري على استحياء في ثنايا الدراسة ، مما يثير سؤالا مهما : من أولى بالإثبات على الغلاف : اسم ألحقه ناسخ أو مفهرس عمدا أو سهوا ، وليس للاسم نصيب في المنسوب إليه ، أم اسم مؤلف يقطع البحث العلمي بأنه صاحب الكتاب؟ وهل نجمع إلى ظلم الزمن وتكرانه ، تجاهل العلم وتردده وحرصه على مسايرة المألوف؟.

٢/٢ – لا يمكن لنا بداهة أن نتوقف عند محتوى الكتاب كله في هذه المقالة ، فلنكتف بما رسمنا من صورة عامة، ولنتلبث عندما اختير عنوانا له، فلفت انتباهنا ، وبدأنا كلامنا بما عددناه مدخلنا إليه، وهو الشكوى والعتاب وما وقع بين الخلان والأصحاب ، فقد رأينا فيه صدى الحاضر ، وإن اختلفت متعلقات الشكوى .

ولعل أول نقطة يجدر الوقوف عندها ، هي: هل هذا الموضوع ، موضوع الشكوى وجمع النصوص المتصلة به مما انفرد به

الزمخشري؟ أم أنه قديم طرقه آخرون من قبل .

يظهر أن الكتب المصنفة في «الشكوى» قليلة، وربما نادرة ، فلم نعرف كتابا سوى تلك المقامة التى أشارت إليها المحققة ، والمسماة « شكوى الدمع المراق من سهام قسى الفراق» لأحمد بن محمد بن الملا الحصكفي (ت ١٠٠٣هـ) . على أنه لا ينبغي أن يغيب عنا أن «الشكوى والعتاب ..» ليس كتابا مستقلا .

لتضيق إذن الدائرة، ونتساءل: هل في تراثنا الأدبى نصوص جمعت فى موضوع الشكوى ، وليس مهما أن تكون كتبا مستقلة؟

لقد تتبعنا بعض (لا جميع) المظان ، فرأينا أن «الشكوى والعتاب وما يتصل بهما » كانت موضوعا استهوى القدماء من أصحاب الكتب الأدبية والحماسات الشعرية .

فالبحترى (ت ٢٨٤هـ) فى حماسته عقد بابين لما قيل فى عتاب الدهر على فجيعة الأهل والقرائب ، وفى لائمة المرء نفسه ومعاتبته إياها .

وأبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي (ت٤٣٦هـ) صاحب «كتاب المنتخل» عقد أيضا بابين من أبواب كتابه الخمسة عشر، أحدهما «فى الاستعطاف والمعاتبات والاعتذارات» ، والآخر « فى شكوى الزمان والحال وما يجرى مجراها وفى النكبة منها» .

والراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) صاحب «مجمع البلاغة» تحدث فى الحد الثانى من حدود كتابه (الحد عنده يرادف «الباب») وهو حد النطق ومتعلقات الفصاحة ، تحدث عن اللوم والعتب، كما تحدث فى الحد الثالث - وهو فى الإباء والرفعة والضعة والأخلاق المحمودة والمذمومة ... إلخ - عن التوبة والعذر .

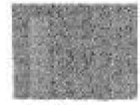
الفكرة إذن مسبوقة، وماقام به الزمخشرى ليس بدعا فى بابه، لكنه يستحق الوقوف عنده، وهذا ما ينقلنا إلى النقطة التالية، والمهمة، والتى تتصل بمدلولات النصوص التى سيقت تحت العتاب والشكوى والتثريب والبث والاستعطاف وما أشبه ذلك .

- ٢ -

في دلالات النصوص

٢/١ - توقفت عند بعض النصوص الدينية التى أوردها الزمخشرى، فلاحظت أن منها حديثين للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ونصا من الإنجيل، ومأثورين مما قاله عيسى عليه السلام، وموقفاً بين عثمان وعلي رضي الله عنهما، وأثرا للصحابي أبى الدرداء، وقد بدا لى أن العتاب مرغوب عنه فى الإسلام، ربما لأن فى تركه تقديماً للنموذج السمح الذى لا يتوقف عند التقصير أو الخطأ، فعن أنس رضى الله عنه : «خدمت النبى ﷺ عشر سنين بالمدينة وأنا غلام ، ليس كل أمرى كما يشتهى صاحبى أن يكون عليه، فما قال لى أف فيها قط، وما قال لى : لم فعلت هذا وألا فعلت هذا» .

وربما لأن فيه عدم إيذاء، إذ العتاب نوع من اللوم للمعاتب وذكر لما قصر فيه أو أخطأ، وهذا ما يشير إليه الحديث الذى ساقه الزمخشرى: «إذا زنت خادمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب » وروى : «ولا يعيرها» . والتثريب والتعيير بمعنى واحد



هو اللوم .

هذا الزهد في العتاب والتثريب ونحوهما نجده أيضا في الحوار الذي دار بين الصحابيين الجليلين عثمان وعلي رضي الله عنهما : « عاتب عثمان عليا رضي الله عنهما وعلي مطرق، فقال : ما لك لا تقول ، فقال: إن قلت لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب» .

وإذا كان الأمر في ما سبق على ما ذكرنا ، فإن أبا الدرداء رضي الله عنه ينظر إلى المعاتبة من وجهة أخرى، إذ بقاء الحفيظة في القلب وعدم البوح بها قد تفقدك أخاك، معاتبة الأخ أهون من فقده، ومن لك بأخيك كله، على أن قولته هذه توحي بأن في المعاتبة أيضا شيئا ، لكن هذا الشئ أهون من أن تفقد أخاك بهجره مثلا .

أما النصان اللذان أوردهما الزمخشري نقلا من الإنجيل، وعن عيسى عليه السلام، فإنهما يأمران بالمعاتبة، ولكن في خلوة، أو على انفراد، فإن أبى المعاتب ، كان على المعاتب أن يسوق له رجلا أو أكثر ، فإن أبى فإن إثمه عظيم يصل إلى حد الكفر بالله !

ويوافق إياس بن معاوية (أحد قضاة العصر الأموي) ما جاء في النصوص الحديثية وكلام علي رضي الله عنه حيث يقول : «إن المعاتبة تبعث التجني ، والتجني يبعث المخاصمة ، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شئ ثمرته العداوة» . ومما قاله إياس ورد شعرا بلغة مكثفة:

قدع ذكر العتاب فرب شر
طويل هاج أوله العتاب

على النقيض من ذلك فإن ثمة بيتا من الشعر منسوبا إلى عثعث (جارية) يرى أن العتاب مؤشر حب بين المتعاتبين ، يقول البيت :

علامة ما بين المحبين في الهوى
عتابهما في كل حق وباطل

وأكثر من كون العتاب علامة على الحب، يرى شاعر آخر أن ترك العتاب عند الحاجة إليه يؤدي إلى الهجر :

ترك العتاب إذا استحق أخ
منك العتاب ذريعة الهجر

لكن كثرة العتاب - بلا شك - ليست صوابا ، ومن هنا جاء قولهم: « كثرة العتاب تنغل أديم الودة» . ويصب في الشكاة نفسها قول بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا
صديقك لن تلق الذي لاتعاتبه

وقول منصور النمري :

أقلل عتاب من استربت بأمره
لست تنال مودة بقتال

وكل ذلك حق ، فالإكثار من الشئ حتى لو كان حسنا غير مطلوب ، فكيف إذا كان لوما وشكوى وتأنيبا ، ولهذا فإن كثرة العتاب تعكس موجدة في القلب :

كل يوم قطيعة وعتاب
ينقضي دهرنا ونحن غضاب

والعتاب ألوان ، منه الشديد القاسي، ومنه الرهيف اللين، وليسا سواء . وفي تراثنا من اشتهر برهافة عتابه حتى ضرب به المثل، وذلك هو جحظة البرمكي، (ت٣٢٤هـ) ، فإذا ما أرادوا أن ينعتوا الرقيق اللطيف قالوا : عتاب جحظة، قال

بديع الزمان الهمذاني (صاحب المقامات): «بيننا عتاب لحظة كعتاب جحظة، واعتذارات بالغة كاعتذارات النابغة» . وقد نسب لجحظة هذا بيت قال فيه :

ورق الجو حتى قيل هذا
عتاب بين جحظة والزمان

كما أن العتاب نوعان : عتاب مشافهة، وعتاب مكاتبة، وأفضلهما الثاني، وقد أثبت الزمخشري نصا ، سبق له أن أورده في كتابه الآخر « نوابغ الكلم ، أو الكلم النوابغ» يقول فيه : « الكتاب الكتاب إذا أردت العتاب . إن العتاب مسافهة» إن كان مشافهة» ومسافهة ، هذا التي جانس بينها القائل وبين «مشافهة» مأخوذة – كما هو ظاهر – من السفه . ولا شك أن في هذا الحكم شيئا أو أشياء من الصواب ، ففي العتاب وجها لوجه محاذير الانفعال والاستطراد والدخول في تفصيلات قد لا يكون من الحكمة الدخول فيها أو الاقتراب منها ، ذلك كله يمكن تجنبه إذا كان العتاب مكاتبة، فكأن العتاب بعيدا عن المواجهة هو عتاب مصفى موجه ، يمكنك أن تتحكم به ، فتقول ما تشاء ، وتسكت عما تشاء ، وتنتقي ما يخدم غرضك في إرضاء معاتبك والتقرب منه .

ولا يخفى أن العتاب حتى يؤتى أكله يحتاج إلى أن تختار له الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، فلا نعاتب غضبان ، ولا مريضا ، ولا من هو تحت وطأة أزمة أو مشكلة . وفي هذا السياق يأتي هذان البيتان اللذان نسبا إلى عبد الله بن طاهر

خليلي لو كان الزمان مساعدي
وعاتبتماني لم يضق عنكما صدري
فأما إذا كان الزمان محاربي
فلا تجمعا أن تؤنباني مع الدهر

وقد يكون العتاب سفها إذا كان من تعاتبه غير قابل للاستجابة إليك «سأل سفيان بن الأبرد الكلبي هنداً بنت اسماء بن حارثة امرأة الحجاج أن تكلمه في شأنه فمطلته، فأرسل اليها يقول :

أعاتب هندا والسفاه عتابها
وماذا أرجي من معاتبتي هندا
أغيب فتنسى حاجتي وتصوغ لي
حديثاً إذا صاحبتها يقطر الشهدا

ويعض الناس يعتب بحق وبدون حق، مثل هؤلاء يدفعون من حولهم إلى حد أن يهجروهم، أو يحسبوهم أمواتا، وفي هذا يقول ابن أبي فنن (شاعر عباسي):

إذا كنت تغضب في غير ذنب
وتعتب من غير جرم عليا
طلبت رضاك فإن عزني
عددتك ميتا وإن كنت حيا

ويعض الناس يغلب الحب العتاب لديهم فيمحوه، هذا محمد بن أمية (ت١٩٢هـ) يقول :

وأضمر في قلبي العتاب فإن بدا
وساعفني منه اللقاء نسيت

إذا كان الكلام في ما سبق على المعاتب فليس معنى ذلك أن ليس على المعاتب شئ هذا الأخير مطلوب منه أن لايستفز صاحبه حتى يدفعه إلى معاتبته، إذ إنه بذلك يسهم في الخطأ أو الخطيئة، من هنا جاء قول أحدهم « من أحوجك إلى العتب فقد وطن نفسه على الهجر ».

٢/٣ ذلك كله في العتاب، فماذا عن

الشكوى ؟

أورد الزمخشرى عدة نصوص أحدها للفضيل بن عياض راداً على رجل شكا إلى آخر الفقر «يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك» وثانيها شعر لأبى تمام :

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة
ولكن تفيض النفس عند امتلائها

وثالثها شعر أيضا للمتنبى :

وليس تشكو إلى خلق فتشمته
شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ورابعها شعر للمؤمل بن أميل المحاربى :

شكوت ما بى إلى هند فما اكترثت
ياقلبها أحديد أنت أم حجر
ولاتحسبيني غنياً عن مودتكم
إنى إليك وإن أيسرت مفتقر

٣ / ٣ - بعد هذا الاستعراض لبعض نصوص الشكوى والعتاب فى العتاب، قد يكون من المفيد أن نذكر بأن عنوان الباب الذى وضعه الزمخشرى هو : «فى العتاب والشكوى والتثريب والبث والاستعطاف وما أشبه ذلك» مما يعنى أن هذه المترادفات (مع بعض التجاوز) تشترك فى مدلولاتها أو فى أجزاء من هذه المدلولات وظلالها، ولذا نتوقف عندها قليلاً.

العتاب والتثريب فيهما اللوم، والشكوى فيها الألم، والبث فيه الهم، والاستعطاف فيه طلب الشفقة والرحمة ويجمع بينهما جميعاً أن ثمة شيئاً فى الإنسان يدفعه إلى أن يعبر عنه ويعلنه، فاللوم على تقصير أو إيذاء أو نحوهما، والألم متنفسه فى إظهاره، وكذا الهم وطلب الشفقة والرحمة يخفى وراءه ضرا أو مكروهاً . خيوط الدلالات متشابكة، ويصعب الفصل بينهما .

وعلى الرغم من ذلك فإن لكل لفظة خصوصيتها أو مساحتها الحرة التى لاتقاسمها إياها لفظة أخرى فالعتاب شكوى ولكن بين من تربطهما علاقة ما، قد تكون محبة أو ودا أو نحو ذلك والشكوى قد تكون بين المحبين، لكنها تتفلت من إسار هذا القيد، فقد يشكو الإنسان عدوه، وكأن بين الشكوى والعتاب عموماً وخصوصاً مقيداً، فكل عتاب شكوى، وليس كل شكوى عتاباً، ولهذا جاء فى «المعجم الوسيط» «عتب عليه : لامه وخاطبه مخاطبة الإدلال طالبا حسن مراجعته منكراً إياه بما كرهه منه» فى حين اقتصر فى تعريف الشكوى على أنها «التألم من مرض ونحوه» .

إن الدلالات اللغوية منطقة شائكة، ومن الصعب وضع حدود فاصلة بينها ، وليس المقام مقام الخوض فيها .

* * *

وبعد ، فإن الشكوى وما يتصل بها تظل قرين الانسان ، بوصفه مخلوقا ضعيفا محتاجا، لكن ما نرجوه من الله تعالى - وفى هذا عودة إلى ما بدأنا به - أن لا يكون ما نشكو منه بحجم ما نعانيه هذه الأيام ، لأنه فوق الطاقة ، وأكبر من الاحتمال ، ولن يفرجه إلا القدير سبحانه . ■

كل عام وأنتم بخير

لغويات

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

عبارة متداولة فى عصرنا، يقولها الناس فى الأعياد والمناسبات السعيدة التى تتكرر، دينية أم قومية أم اجتماعية، وقد توارثها العامة على هذا النحو، دون أن يقفوا عند تركيب الجملة لغويا.

أما أهل اللغة فحاولوا تحليل العبارة لغويا، واختلفوا فيما بينهم:

قال جماعة من المشتغلين باللغة العربية إن الواو فى هذه العبارة زائدة غير ذات موضع ودعوا إلى حذفها لتصبح الجملة: كل عام وأنتم بخير فذاك أسلم وتكون كل إما مبتدأ مرفوعا خبره جملة أنتم بخير والعائد محذوف وإما ظرف زمان منصوبا متعلقا بما تعلق الخبر به، وهو بخير.

ورأى أستاذنا المرحوم على النجدى ناصف أن العبارة صحيحة مع بقاء الواو فيها، على أن يقدر فعل قبل كل لتصير العبارة بتقديره مثلا: يقبل كل عام وأنتم بخير وتكون كل فاعلا للفعل المحذوف أو يكون تقدير الفعل مسندا إلى المخاطبين لتصير العبارة تحيون كل عام وأنتم بخير فتعرب كل ظرف زمان متعلقا بالفعل المحذوف وجملة وأنتم بخير حالية على التقديرين وسوغ حذف الفعل هنا دلالة الحال عليه.

ورأى المرحوم شوقى أمين عضو المجمع أن تكون كل عام مبتدأ وأنتم معطوف عليها وبخير خبر.

ورجح الأستاذ على النجدى إعراب كل فاعلا على أن تكون مبتدأ، لأن الاستقراء يدل على أن الجملة الفعلية أساس التعبير، وهو ما انتهى إليه المرحوم على الجارم فى بحث له نشرته مجلة المجمع عن الجملة فى اللغة العربية وأرجع ذلك إلى أن حياة العرب كان يغلب عليها التوجس والمفاجأة فكانوا لذلك يندفعون إلى ذكر الحدث قبل من وقع منه الحدث.

انتهت لجنة الألفاظ والأساليب فى مجمع اللغة العربية إلى جواز تعبير كل عام وأنتم بخير من وجهين:

أ - أن تكون كل فاعلا حذف فعله لكثرة الاستعمال والتقدير حينئذ يقبل كل عام وأنتم بخير.

ب - أن تكون كل مبتدأ حذف خبره والتقدير حينئذ كل عام مقبل وأنتم بخير.

وفى كلتا الحالتين تكون الواو حالية والجملة بعدها حالا.

ووافق مجلس المجمع على قرار اللجنة ولكنه أوصى بالاقتصاد فى توجيه الإجازة على أن يكون كل عام مبتدأ حذف خبره. ■

عن مآسي المجتمع

زوجــــات وأزواج

كهول يتزوجون صغيرات وسماسرة زواج للمصريات

بقلم
د. محمد رجب البيومي

أما الزوجات فمن الوجه البحري، وأما الأزواج فمن الوجه القبلي، ولكل منهما ملهاة مضحكة في ظاهرها، ومأساة دامية في باطنها، فإذا أردت حديثهما فسيطول ويمتد ولكني أوجزه في هذه السطور، وأبدأ بمأساة الزوجات.

كنت أزور قرية ريفية صغيرة، لعيادة زميل مريض فشاهدت حركة غير عادية في الدروب الضيقة، فالناس يروحون ويجيئون، والفتيات يقفن أمام الأبواب الشاكة، وكأن أمرا هاما سيحدث، مع أن الدلائل الطبيعية لا توحي بشيء، فليس ما يدل على مأتم يرتفع حوله الصراخ، أو فرح ترن دونه الزغاريد، ثم رأيت زفة قادمة، يتصدرها سمسار مارد يفسح الطريق بعصا في يده، وتتطلع نحوه العيون كأنك ترى محسن جاء يوزع الصدقات، وملامحه لا توحي بخير يتاح، بل بشر ينتظر، ومن خلفه رجل تخطى الخمسين أو الستين يلبس ملابس أهل الخليج، جلباب أبيض حريري يكاد من الرقة يطير من فوق جسمه، و(غترة) تمتد من رأسه إلى رقبته، وما فوق صدره وقد تزين بعقال أسود، وبخاتم ذهبي في إصبعه يتماوج ضوء الشمس في مساحته، وقد جعل يزور المنازل الفقيرة بقيادة السمسار المارد، والأبواب تفتح لهما في ترحيب بالغ، وكأنهما سحاب سيهمي في أرض جدباء، ونظرات الترسل تحوطهما آملة راجية كنظرات المرضى إلى الأطباء، إن الكهل الزائر جاء إلى سوق الرقيق، ليختار من عشرات البائسات سلعة آدمية يشتريها بماله، ويعقد عليها زوجة وهي في اعتباره خادمة ستكون في بلده بخدمة زوجتين أو ثلاث لهن قبيلة من الأولاد والبنات، أما السمسار المارد، فهو صاحب المماكسة في البيع والشراء، ولا يسمح لولي الأمر المسكين أن يفاتح السيد الزائر حين يقع الاختيار على إحداهن بعد فحص تقرأ مثاله في كتب التاريخ، حين كانت تنتقي الجواري

قصة حب مصرية .. الثانية



العجوز والشاب



العجوز ترقص مع زوجها الشاب



المسكينات من بلادهن النائية ليكن سلعة فى أيدى النخاس ويقدم المشترى لينظر كل شئ يعف القلم عن ذكره! هكذا كان الأمر من قبل، وقرأت منه ما يحدث اليوم، والمأساة كل المأساة، تزداد بشاعة، حين يتفق السمسار مع والد الضحية على مبلغ ألف أو ألفين أو ثلاثة آلاف، ثم يبلغ الزائر أن المبلغ ضعف ما اتفق عليه، ويضع فى جيبه النصف الآخر وأحيانا أكثر من النصف، وقد تضحك فى استخفاف حين تسأله عما أخذ، ويقول عن الوالد المسكين «جربوع ابن كلب! لم يحمل ورقة بعشرة جنيهات فى يده طول حياته! أعطيته ألفا! أخاف عليه أن يجن!! كان كفاية عليه مية!! لكن بنته حلوة»!

مصير الضحية

أما مصير الضحية بعد أن تركب الطائرة مذهولة تتلفت ذات اليمين وذات الشمال، فلا تجد مودعا واحدا يشيعها بنظراته لا لأنها فى رعاية الزوج السعيد وهذا يكفى، بل لأن مشهد والدها فى أسماله البالية مما يشوه مكانة الصهر العزيز، فكيف بمشهد الأم ذات الطرحة السوداء، والثوب المتآكل وشبشب زنوبة الذى لا يلبس إلا فى أجمل المناسبات، أما مصير الضحية، فقد أغنانى الله عن الحديث الحزين عن فجائعه الدامية، وأغنى القارئ عن أن يعتصر كبده ألما حين أسرد أنا ما أعلم، إذ نشرت جريدة الحوادث ما يغنى عن قولى، ولم تكن الجريدة ذات خيال أدبى يدبج الفصول ويرسم الظلال والأضواء، ولكنها نقلت ما ذكرت عن محضر النيابة فى كفر الشيخ، نقلا فوتوغرافيا خاليا من الأصباغ والأدهان، وهو بهيكله العظمى يغنى عن كل تعليق!

جاء فى جريدة «أخبار الحوادث» الصادرة فى ٢٣ أبريل ١٩٩٢م ما مؤداه على لسان الضحية تحت عنوان (زوجى العجوز خطط ليسرق كليتى بعد تخديرى فى المستشفى).

جاء أبى ذات مساء إلى المنزل متهلل الوجه، وكان فى قمة السعادة، وهو يخبر أمى بأن ثريا عربيا يرغب الزواج من فتاة مصرية. وقد رشح له أحد المعارف ابنتى، ولم تكن إجابة أمى غير زغرودة وأخذت تقول: جاءت فرصة العمر، سنخرج من الفقر، ودنا منى أبى، وقال لى: مستقبلنا جميعا فى يدك فارتعدت فرائصى، وتذكرت أن أبى يعمل الليل والنهار وهو مريض من أجلنا، ولا يجد إلا ثمن الخبز فقط، فوافقت على الفور لإنقاذه، تناسيت أنه شيخ عجوز ولم أفكر إلا فى سعادة أسرتى البائسة، ولكن جدت مشكلة فأنا لاأزال قاصرا ولم أبلغ السن القانونية، فتحير والدى، وأشار عليه أولاد الحلال بأن يستخرج بطاقة مزورة باسم أختى المتزوجة، وعليها صورتى، فوافق أبى سريعا كيلا تفوت الفرصة، ولم يخبرنى بهذه الحيلة، ثم تم زواجى لرجل فى عمر جدى،

وعرفت أننى أنتحر ببطء ولكن لأسعد أبى وأمى وإخوتى.

كانت صدمتى الأولى عندما علمت أنه متزوج، وله أولاد خمسة، فسكت، ثم فوجئت بأنه طرد الخادمة من المنزل وقال لى ستكونين أنت الخادمة للأم والأولاد، ولم أستطع أن أفعل شيئا، وأصبحت الخادمة.

مأساة!

وبعد أسبوع قال لى إنه اعتاد الكشف الطبى على جميع أفراد الأسرة وهو إجراء صحى لدفع الخطر، وعلى أن أذهب معه إلى المستشفى لإجراء التحاليل الطبية، فأذعنت إذ لا أملك غير الإذعان، وفى المستشفى المعد لانتزاع الكلية، جاءت إلى طبيبة مصرية وقالت لى: أتدرين ماذا يراد بك؟ إنه اتفق على أن ينزع كليتك منك إذا ثبت أنها تصلح لابنته المريضة التى تحتم أن تزرع لها كلية! وأمكن النقل بعملية جراحية! وأشارت على الطبيبة باللجوء للسفارة المصرية فورا.

استقبلنى السفير المصرى بترحيب بالغ، واستضافنى بعد أن استمع إلى مأساتى، وجاء زوجى غاضبا ثائرا، يهدد بأنه سيسجن أهلى لأنهم زوروا الاسم فى البطاقة، وأنى سأسجن معهم، وهنا تدخل السفير بحزم وقال له: أنت الذى ستسجن لأنك مشترك فى التزوير وأن اسم زوجتك الرسمى «شادية» وهى سيدة تعيش فى مصر، أما هذه فلا علاقة لك بها إطلاقا وهذه المسكينة من الآن فى حماية السفارة المصرية، ولن يجرؤ أحد على أن يمسها بسوء، ثم اتصل السفير بمحافظة كفر الشيخ، فجاءت الأنباء سريعا إليه تصدق كل ما قيل عن مأساة التزوير فى الزواج! وقد أعادنى السفير إلى قريتى لأواجه مع أهلى بقضية التزوير ثم قالت الزوجة البائسة: ومهما سيكون الحكم فهو أرحم من معاشرة هذا المجرم العجوز!

وأظن القارئ ليس فى حاجة إلى خطبة منبرية اكتبها تعليقا على هذا العتو الفاجر، فإن الجريمة ببشاعتها القظيعة تغنى عن كل تعليق!

وحين تعددت هذه المآسى وضعت الدولة شروطا للزواج من الأجنبى، هى موافقة وزارة الداخلية فى بلد الزوج، مع شهادة من سفارة بلده تفيد الموافقة وإيداع مبلغ قدره خمسة وعشرون ألفا من الجنيهات باسم العروس فى أحد البنوك المصرية، إذا كان الزوج يكبر عروسه بخمس وعشرين سنة ولابد من شهادة ميلاد للزوجة مع بطاقتها الشخصية! وهذه الشروط معقولة تماما، ولكن المحامين وموظفى الشهر العقارى والسماسرة قد اتقنوا مهنة التزوير، وأحضروا الأختام الخاصة بالداخلية والسفارة والبنوك وجعلوا كل شئ يسير كما كان دون اعتراض ولست أتجنى على أحد ولكن ذلك ما أعلنته بالأسماء جريدة الجمهورية الصادرة فى

٢٠٠٣/٩/٤ بعد مقدمة قالت فيها تحت عنوان (تزوير في أوراق رسمية ١٠٠٪).

سمسار قبيح الوجه

قالت الجريدة على لسان محررها «مشهد مثير لا أنساه! عشر فتيات في عمر الزهور يقفن أمام أحد أثرياء العرب، وبجواره سمسار قبيح الوجه والملامح، متخصص في تزويج المصريات من الخليجيين! والثرى يتقدم إلى البنات يشير لإحداهن أن تسدل شعرها، ويطلب من أخرى الدوران إلى الخلف، أو السير إلى الأمام ليختار أكثرهن فتنة وجمالا، والمشهد يتكرر يوميا فيعيدنا إلى زمن النخاسة والرقيق، فقد تحولت عملية التزويج إلى تجارة أداتها آباء بلا قلوب، وسماسرة فاجرون ومحامون مزورون يزيفون الأوراق والمستندات مقابل حفنة من الجنيهات» وأخذت الجريدة تعرض أهوالا مخزية يشترك فيها المحامون وموظفو الشهر العقارى والسماسرة، في تزوير أوراق السفارات، وشهادات الميلاد، وتوقيع البنوك، وكل ذلك ممهور بأختام الدولة! والعجيب أن السمسار والمحامي يقبضان الثمن المبهر لينتهي كل شئ! دون أدنى مبالاة! وقد نشرت الجريدة صورا ضوئية لنماذج من هذه الاستمارات الموقع عليها بالموافقة والأختام قبل أن تملأ البيانات فكل مستحيل جائز جدا لدى هؤلاء!! والتزوير سهل ميسور!

وأصارح قارئي العزيز أني أنفعل كثيرا بما أكتب، وقد شعرت بمرارة في حلقى توشك أن تصدني عن كتابة القسم الثاني من المقال وهو زواج السائحات من الشباب المصرى، ولكني عنونت المقال بما يوجب استيفاءه فلأمض في طريقى مرددا قول عروة بن حزام.

وحملت زفرات الضحى فأطقتها
وما لى بزفرات العشى يدان

على أن مما يهون الأمر على أني كتبت عن هذه الظاهرة منذ حين، وسأستعير هنا بعضا مما كتبت ولن تزول هذه المرارة من حلقي، وأنا أتحدث عن عجوز شمطاء تأتى سائحة رابحة، لتختار شابا فقيرا، بينها وبينه أربعون من السنوات، تصطفيه زوجا لها، وتجبره على أن يتعود ما اعتادت، فتراقصه في بلاهة، كما تنطق هذه الصورة، وتجعله يسير كل يوم خلف دابتها حين تجول جولتها في آثار الأقصر، وكأنه خادم ذليل، وتظل تستنزف دمه وصحته لا تبالي بغير شهواتها، وهو سكران ثمل بما يأخذ من دريهمات تساعده على الإنفاق إذ هو رب أسرة بائسة، وقد نزل عليه الغيث ليروى جديب حياته ولن يفكر في غده القريب الذي يتهدد شبابه فيسوقه إلى شيخوخة عاجلة، وعندما تفر الشوهاء المتهالكة لتبحث عن صيد جديد!

في قرية القرنة

نشرت مجلة التصوف الإسلامي (مايو سنة ٢٠٠١) استطلاعا شمل عدة

صفحات محلاة بالصور الناطقة، نقلت فيه عن مأذون قرية «القرنة» أن بها أكثر من نحو ٢٠٠ حالة زواج من السائحات، كما أن بقرية «البعيرات» المجاورة ٦٠٠ حالة! وأغلب هذه الزوجات بين شباب في العشرين، ونسوة فوق الخمسين، ومن المألوف أن تزدحم الشوارع والحواري بشباب يصحبون زوجات في عمر أمهاتهم أو جداتهم وكلما مروا على رجال الشرطة أخرجوا ورقة الزواج عرفيا أو غير عرفي، ليؤكدوا أنهم متزوجون، فليست عليهم مسئولية قانونية وقد تشترط الزوجة الهلوك أن تمضي مع قرينها شهرين فقط هما شهرا الشتاء في بيت من الطين، ثم ترحل إلى موطنها، لتعود في العام القادم فتستأنف حياة العبث الخليع في ستار من الزوجية الفاشلة، والزوج مغتبط برحيلها إذ يستطيع أن يتنفس الهواء النقي عدة أشهر، أما المصيبة الكبرى فهي فرحة زوجته المصرية بهذا الزواج، إذ تعده مصدر ثراء هبط على الأسرة من السماء، ويسعدها كل السعادة أن تقوم بخدمة ضرتها فتعد لها كل ما تطلبه من غسل وطبخ ونظافة مأوى مستجيبة إلى كل رغبة تصدر عنها، وكأنها تكليف شرعي لا محيد عنه، فالسائحة تتولى شئون الإنفاق ويسببها تذوق الأسرة اللحم والفاكهة والحلوى بعد أن كان العيش الشمسي عمود الغذاء مأدوما بالمش أو الفجل أو الكرات، وفي الزوجات المصريات الطيبات من تترجى زوجها ليصل إلى المطار في الأقصر ويرجو من وسطاء السوء أن يساعدوه على نيل زوجة شمطاء يضمن بها باب الرخاء! فإذا رجع خائبا قرعته وعيرته، وضربت له المثل بشباب الجيران ممن أسعدهم الحظ! فكيف ماتت غريزة الغيرة في نفس الزوجة، وهي غريزة قاهرة مستحكمة، فآثرت أن تكون لها ضرة أجنبية تصبح السيدة الآمرة، وتكون هي الخادمة المأمورة إني لا أكاد أصدق هذا الواقع المرير على أن الأمر لم يقتصر على المسنات ممن بلغن سن اليأس من هؤلاء الأجنبيات، بل إن الشابات ذوات العشرين والثلاثين لهن النصيب الكبير من هذه العلاقات الرسمية الشوهاء، وقد جعلت أسأل نفسي: كيف ترضى هذه المتمتعة بالحسن الناضر والشباب الزاهر، أن تسكن مع شاب لا يعرف لغتها، ولا يرقى إلى مطامحها، وقد ألفت في الغرب بيئة حضارية لا تجد في قرى الصعيد غير ما هو على النقيض المتباعد عن زخارفها الآسرة، ولست بذلك أضائل من مكانة مصر الغالية بقراها ومدنها في نفسي، ولكني أصور واقعا ملموسا أحار في تعليله وليس الصعيد وحده موطن الجدب والإملاق، فالبلاء مشترك بحمد الله الذي لا يحمد على

مكروه سواه، أجل، كنت أسائل نفسي هذه الأسئلة الحائرة، ثم فكرت في الإجابة التي تكون قريبة من الصواب، فانتهيت إلى أن هذه السائحة الشابة لم تخسر شيئا! لقد حسبت المسألة حسابا رقميا دقيقا، فهي إذا قضت شهرا أو شهرين في الفندق، فأقل أجر في اليوم الواحد مائة من الدولارات، غير نفقات الانتقال إلى أماكن الآثار، وربوع الشمس الوضيئة في ساحة الجبل، ومماكسة الأجر مع السائقين والعمال، والمتطفلين من باسطي الأكف لأي فتات يبذل! وكل ذلك لا داعي له تماما إذا رضيت بشاب مفتول الساعد، موفور النشاط يقضي رغبتها الجسمية الملحة، دون حرج، وما عليه غير أن يبني لها في أعلى الدار حجرة من اللبن، ويزودها بما تراه من وسائل الراحة الأولية، وكل ذلك لا يتكلف غير أجر يومين أو ثلاثة في الفندق، ووراء ذلك زوجة مسكينة تتسقط رغباتها فيما تريد من طعام وشراب ومأوى ولن تنفق هذه الضيفة الكريمة ذات السخاء الدافق غير أربعين جنيها مأكلا ومشربا ومظهرا ومتنزها في اليوم الواحد ووراءها زوجها الأمير، ومن خلفه أقرباؤه يتلمسون ما قد تجود به من قروش وعيونهم تتطلع إليها ككوكب متألق، ثم هي زوجة لها متعة العاشقة دون نكير، ودون ملاحقة ما من سؤال رجال الشرطة، أو الراصدين لحوادث العبث والاستهتار فإذا أقامت في الفندق فلن تجد لذة الأمر والنهي وعزة الشموخ والاستكبار على الضعفاء! ثم هي مهما بذلت وأعطت فلن تبلغ ببذلها معشار ما كان سيأخذه الفندق من نفقات! ألم أقل إنها حسبت المسألة ماديا رقميا وعاطفيا فرأت الراحة كل الراحة في هذا الزواج!

الزوجة السائحة

وناحية أخرى – تدعو إلى الأسف – فهذا الشاب الغر يتباهى بقوته، ولا يفكر في مستقبل صحته، إذ هناك من يتزوج اثنتين أو ثلاثا – هكذا جاء في الاستطلاع – وهو يعرف مواعيد حضورهن واحدة تلو الأخرى، فيقوم بتنسيق زمني يحظر اجتماعهن في زمن واحد، والزوجة السائحة تعرف ذلك، وتعلم أنها تترك المكان لزائرة قادمة، ولا تهتم أدنى اهتمام، لأن بيئتها الأوربية لا ترى داعيا إلى التدقيق في أمر لايهمها في شيء، مادامت تجد الراحة التامة عند حضورها، وإذا استمر الوضع على ذلك، فلن يسعد هذا الأبله بقوته غير سنوات معدودات لن تتجاوز العشر وهو انتحار بطيء بل انتحار سريع!

وبعد، فهل أنتقل من جدب الواقع إلى روضة الأدب، لأمتع القارئ بقصيدة ممتازة هي في رأيي من أحسن ما أبدعه الشاعر اللبناني الكبير بشارة الخوري حين نظم قصيدة عن مأساة، بطلتها غانية مثرية لا تشبع لها رغبة، فكانت تتصيد الشباب القوي العارم،

لتخايله ردحا من الزمن، باذلة له كل ما يريد من متع المأكل والملبس، حتى إذا أدى دوره، وبدت براثن المرض تأكل صدره، لفظته إلى غيره، إن القصيدة الرائعة تناهز ثمانين بيتا! وليس من المعقول أن أنقل هذه المعلقة، إلى صفحات الهلال، ومحاولة الاستشهاد بها تضائل من رونقها المتماسك المتشابك، ولكن الضرورة تحتم أن أجتزئ ببعض ما يدل على الطابع الشعرى الرائع المنسجم فى هذه القصيدة التى يقول فى مطلعها:

حسناء أى فتى رأت تصد
قتلى الهوى فيها بلا عدد
بصرت به رث الثياب بلا
مأوى بلا أهل بلا بلد
فتخيرته وكان شائقه
لطف الغزال وقوة الأسد

ومضى الشاعر يذكر فى إبداع ما تمتع به المسكين من مغريات ما كان يحلم بمعشارها، حتى دب الضعف فى جسمه، واعتاده الوهن المرتعش فقال مناجيا ربه:

رباه مذ يومين كنت فتى
لى قوتى وشبيبتى وغدى
واليوم أسرع للبلى وأنا
لم أبلغ العشرين أو أكد
سلماى إنك أنت قاتلتى
فجميل جسمك مدفنى الأبدى

وتمضى القصيدة فى وصف حزين لما يكابد من داء عضال، حين يصاب بالسل فيمج من فيه دما هو ذوب كبده، ثم هى لا ترحمه مع ذلك فتكون النتيجة كما قال الشاعر:

مات الشقى بهاوقد سلمت
يا للقتيل مضى بلا قود
هذا قتيل هوى لبنت هوى
فإذا مررت بأختها فحد

ولنا أن نتساءل هل من حل؟ إن بعض الذين يحلو لهم تهوين الأمور يقولون إن المسألة مسألة بضع قريات ولا تعم جميع المحافظات مع أنها انتقلت إلى محافظة البحر الأحمر وقام السيد المحافظ بجهود مضنية مع المسئولين فى السياحة حين انتشرت بوادر الايدز والشذوذ الجنسى، والثابت المؤكد أن قرى شتى حول الأقصر قد انتقلت إليها العدوى، لوجود سماسرة من سائقى الحناطير، وملاحى المراكب الشراعية، وعمال الفنادق ما يكادون يحسون برغبة سائحة فى الاقتران العاجل، حتى يندفعوا إلى تحقيقها، ولديهم أسماء فريق من الشباب تقدموا إليهم آملين ففتحوا مكتبا للتنسيق، يوائم بين حالة السائحة ومن يختارون لها من الشباب وفق مواصفات يعرفها محترفو الصيد والابتزاز كما يعرفون طريق المأثون الذى يمنحهم الرشوة لكى يكون مكتبه وحده دائم الحظوة، فهل نترك المسألة هكذا دون حسم سريع! ونقول فى سذاجة إنها ظاهرة لم تعم جميع البلاد! إنى لا أملك غير القلم وقد كتبت!! ■

ثقافتنا

هى المعرفة والثقافة شىء آخر !!

بقلم
محمد جبريل

الثقافة هى ما تبقى بعد أن تنسى كل شىء
الفيلسوف هيريو

كلمة «الثقافة» مشتقة من فعل «ثقف»، ومعناه ظرف. وصار حاذقا خفيفا. ومنه تثقيف الرمح، بمعنى تسويتها وإزالة عقدها حتى تصبح مستوية وخفيفة، فالرمح المثقف هو الرمح السوى الخالى من العقد. وكلمة «المثقف» لم تعرف إلا فى العقد الثالث من القرن العشرين، وكان التعبير المقابل هو «المتعلم». ولعل سلامة موسى هو أول من استخدم كلمة ثقافة، مرادفا، أو ترجمة لكلمة Cuture الإنجليزية. وهى كلمة تعنى الحضارة، فالثقافة - حسب التعبير الذى استخدمه سلامة موسى - تعنى الحضارة. والثقافة فى الفرنسية Cuture ومعناها الحرفى «الزرع»، فهى التعليم الذى يغرس المعرفة فى النفوس. أما الثقافة - بالمعنى الذى نستخدمه - فإن الكلمة المناسبة هى «المعرفة»، والمثقف بالتالى هو الذى يحيط بكل معارف عصره سواء تبحر فيها وتعمق أم توقف عند حد ما.



سلامة موسى



سـارتر

الحضارة تراكمات معرفية . وهي - في تعريف جوردون تشايلد - ما يستخلصه الإنسان من غذائه ومجتمعه الإنساني ونواحي السلوك الإنساني المختلفة من لغة ودين وفلسفة وقانون وأخلاق ، فضلا عن أدوات الإنتاج التي يستخدمها . والحضارة - في تعريف آخر - «حصيلة من الذكريات ، تعبر عن نفسها في شكل نظم فكرية تكشف عن كنهها في كل مظاهر الحياة اليومية ، وفي حصيلة المعارف المتوارثة التي تحدد الممنوع والمرغوب فيه قولا وفعلا، وفي كل شكل من أشكال الإبداع التي تفهمها الجماعة، وتكتشف فيها أبعاد إدراكهم للمحدود في حياتهم، واللامحدود فيما وراء أفقهم المحسوس» (نبيلة إبراهيم : المقومات الجمالية للتعبير الشعبي - ٥٨) . ومقابل لذلك ، فإن مفهوم الثقافة - بمعناه الاجتماعي - والعلمي - يختلف كثيرا عن معناه العام ، فهو يعني التراث الاجتماعي لمجتمع ما، ويتضمن كل ما يمكن تعلمه بواسطة العلاقات الإنسانية المتداخلة ، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية وغيرها . وهو - في أحد التعريفات - كل ما يكون الإنسان . ولعلي أميل إلى قول ماركس - دون دعاوى أيديولوجية من جانبي! - إن الثقافة لا تنفصل عن الأوضاع التاريخية التي يبدع بها البشر حياتهم المادية . وأزيد أن تعريفنا للثقافة يجب أن يكون متعلقا بالكيف لا الكم . وكما يقول تايلور فإن الثقافة ، أو الحضارة بمعناها الإثنوجرافي الواسع ، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف ، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع . ومن هنا ، فإني أفضل تجاوز تقسيم الثقافة إلى عناصر مادية، وعناصر غير مادية ، وصولا إلى تحديد الثقافة بأنها مجموعة من الفلسفات والعلوم والمعتقدات والقوانين والأعراف والمثل والتقاليد والأخلاق التي تتسم بها الشعوب . وذلك كله يرتبط بالسلوك ، بأكثر من ارتباطه بمجرد

التحصيل ، بمجرد التعلم والمعرفة ..

* * *

لنفرق - بداية - بين المعرفة ، أو التعلم ، وبين الثقافة . ربما أذكر بعض المسميات أو المعاني التي ترفضها ثوابت المصطلحات ، لكنني أتحدث عن قناعاتي الشخصية ، عن الآراء التي تعبر عن محصلة تأملاتي ومناقشاتي - بيني وبين نفسي ، وبيني وبين ما أقرأه وأستمع إليه وأشاهده . المعرفة مصدر إلى الثقافة ، قد نلجأ إليها ، فنفيد منها ، ونصبح مثقفين . وقد نلجأ إليها فلا نفيد منها ، وتغيب في سلوكياتنا ، فيغيب مفهوم الثقافة بالتالي ..

الثقافة ليست مجرد المعرفة . ليست مجرد زيادة حصيلة المعرفة ، ولا مجرد إضافة أرفف جديدة من المعلومات في داخل الذهن الإنساني ، لكنها إسهامات متجددة ، ومطلوبة ، في تحقيق التفاعل بين المرء والعالم الذي يحيا فيه ، وفي تعميق رؤيته الأكثر اتساعا للأفراد ، وللجماعة التي ينتسب إليها ، والعالم. المعرفة لا قيمة لها ما لم يستتبعها محاولات لتطبيقها في الحياة اليومية ، في إحداث مراجعة للوعي والنظرة . وكما يقول ابن المقفع ، فإن صاحب العلم يلزمه القيام بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالما ، ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ثم سلكه على علم به ، يسمى جاهلا ..

القول بأن المرء حصيلة ثقافته يحتاج إلى مراجعة . الأدق أن المرء حصيلة معرفته ، وهي معرفة تشمل كل ما قرأه ، واستمع إليه ، وشاهده ، واختبره . لذلك فإن القول - مثلا - بأن ثقافتنا مصدرها الثقافة الغربية ، فالمثقف العربي إذن حصيلة غربية « أي أنه لا صلة لفكره في أعماقه بطبقته وأرضه» .. هذا القول يلغي المخزون المعرفي الذي يعد الموروث الشعبي حصيلته الأهم . إن كل ما حصله الإنسان العربي من معرفة مصدرها الكتب الغربية ، لا يلغي ما في داخله من موروث لا يقتصر على أعوام حياته وحدها، وإنما يمتد آلاف السنين ، هي عمر الموروث الذي تشكلت منه حضارة الشعب العربي ..

* * *

يحدد مالك بن نبي الثقافة بأنها «صلة ثلاثية متبادلة بين أسلوب الحياة في المجتمع ، وسلوك الأفراد فيه ، بحيث إذا اختل أحد الأطراف الثلاثة، يتدخل الطرفان الآخران للتعديل حتى لا يحدث نشوز في المجتمع . فالثقافة هي هذه الصلة الثلاثية المتبادلة بين أسلوب الحياة وسلوك الأفراد».

وحسب اجتهادي الشخصي، فإن الثقافة بمعنى قراءة الكتاب، وسماع المقطوعة الموسيقية، ومشاهدة المسرحية أو الفيلم .. هذه الثقافة ليست سوى «معرفة» ، يتعلم المرء جديدا يضيفه إلى مخزونه المعرفي . أما الثقافة - بالمعنى الذي أقدره - فإطارها السلوك ، الفعل ، التصرف . المثقف هو الانسان ذو المعرفة والموقف الحضاري في آن . لا قيمة لقراءة الكتب وسماع الإذاعات ومشاهدة المسرح والسينما والقنوات الفضائية، مالم يلتحم

بذلك كله سلوك يعنى بالتطبيق الإيجابي والفعال لكل ما حصله المرء من معرفة. إذا أفاد المرء من معرفته في تصرف إيجابي ، فذلك تصرف مثقف، والثقافة صفة يصح أن نطلقها على صاحبه . ثمة متعلمون يحملون في رؤوسهم ما حفظوه، دون أن يشغلهم التطبيق، يفيدون من ذاكرتهم الحافظية أو الاستيعابية ، لكنهم لا يحاولون الإفادة مما أودعوه ذاكرتهم في الإضافة والتطوير . وأستعير من أستاذنا زكي نجيب محمود قوله إن الثقافة هي الروح التي تسري لتدفع ذلك البناء المعرفي ، المعلومات والعلوم، نحو غايات معينة ، يريد الانسان تحقيقها. الثقافة ليست محصولا من معارف ومعلومات في حد ذاتها، بل هي الزهرة التي تنبتها تلك المعلومات والمعرفة ، وإن لم يعتبر الرجل من الثقافة المعلومات والخبرات المكتسبة من ممارسة الحياة العملية، أو العلوم التي تستخرج من تلك المعلومات والخبرات قوانينها .

الثقافة إذن ليست مجرد معلومات نظرية، لكنها حصيلة لجميع المعلومات التي يكتسبها المرء خلال حياته، واستخدامها بصورة مفيدة وإيجابية وفعالة. وبتعبير آخر، فإن الثقافة ليست في الحصول على الشهادات الدراسية، وإنما في خلق الوعي الكامل عند الحاصلين على تلك الشهادات في تعدد مستوياتها، والمثقف ليس هو الذي يملك أكبر قدر من المعرفة، لكنه الذي يمتلك أكبر قدر من الوعي. لقد تحقق له الوعي بالمعرفة، وأفاد من هذا الوعي في تقرير المناسب والأفضل والأجمل، التصرف في ضوء سلوكيات تحاول الصواب ، وإذا كانت الثقافة تعني الحضارة بالإنجليزية ، فإن الحضارة - كما تتحدث عنها دائرة المعارف البريطانية - هي «مجموعة نتائج العمل الإنساني في إطاره الاجتماعي على أرض محددة ، وعبر زمان معين ، أي مجموع أساليب المعيشة التي يستقاسمها أفراد جماعة من البشر من مبان وعلوم وفنون ومعتقدات وتقاليد إلخ» . وكما يقول ديهاميل ، فإن الحضارة إذا لم تكن في قلب الإنسان ، فإنها لن تكون في أي مكان. الثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع ، والمجتمع لا يقوم ويبقى إلا على الثقافة. إنها طريق متميز لحياة الجماعة، ونمو متكامل لحياة أفرادها، فهي إذن تعتمد على وجود المجتمع، وتمده بالأدوات اللازمة لاضطراد الحياة فيه، تستوي في ذلك الطاقات البدائية والمعاصرة ثمة فارق بين المتعلم ، أي الذي حصل على المعرفة، وبين المثقف. العلم - على حد تعبير ابن المقفع - كالشجرة، والعمل به كالثمرة. وقد ضرب أندريه مالرو مثلا في الفرق بين المتعلم والمثقف، بعالم الكيمياء الذي يحيا داخل معمله، ولا تثيره قضايا العالم الثالث. هذا هو المتعلم. أما المثقف، فإنه «ذلك الذي يمتد باهتماماته خارج دائرة الذات ، وتزداد ثقافته كلما اتسعت دائرة اهتماماته». وربما كان المثقف - كما أشرنا - غير متعلم ، والعكس - بالطبع - صحيح !

المعرفة بعد مهم في الثقافة ، لكنها ليست كل الأبعاد . ثمة أبعاد أكثر أهمية تجاوز التلقي السلبي ، فتحيله فعلا إيجابيا لصالح الفرد والجماعة والبيئة.

الثقافة تالية للمعرفة. السلوك هو التطبيق لما نتعلمه، لما نحصل عليه من معرفة. بمعنى أن المعرفة هى النظرية، أما الثقافة فهى التطبيق. وقد نتعلم النظرية، لكننا لا نحاول التطبيق، والعكس - هنا - ليس صحيحا . ولعله يمكن القول إن المعرفة - أو التعليم - هى واسطة نقل الثقافة . أوافق على أن الثقافة «عناية بالذهن كي يعطي مردودا أفضل ، كما أن الزراعة هى عناية بالأرض كى تعطى مردودا أفضل» . وكما يقول إدوار هيريو، فإن الثقافة «هى ما يبقى عالقا بالأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة»

* * *

لقد تعددت تعريفات الثقافة، فبلغت ما يزيد على مائة وستين تعريفا وفى أحد تعريفات الثقافة أنها علاقات معينة تؤلف بين الأفراد فى المجتمع، وتنظم وظائفهم الإنسانية التى تبنى على أساسها عقائدهم ومعايشاتهم الأسرية والسياسية والاقتصادية والسلوكية والترفيهية ..

وهذا التعريف - كما نرى - يرتبط - فى أغلبه - بالفعل، وليس بمجرد التلقى. الثقافة هى الفعل الإيجابى، لصالح الفرد والجماعة . أما الاكتفاء بالتلقى فيظل مجرد معرفة. وإذا كانت الثقافة ترادف الحضارة بالمعنى الأوروبى للكلمة، فإن الحضارة لها دلالاتها العميقة المتعددة، أما المعرفة فإنها تقتصر على مجرد التحصيل المعرفى دون أن ترافقه محاولة للتطبيق.

وكانت الثقافة عند اليونانيين القدماء، تدور بين الناس فى معاملاتهم اليومية، مثلها مثل اللغة، فلا تفرض نفسها عليهم بوجود مميز ..

المثقف - فى أحد التعريفات - هو من توجد لديه نظرة للحياة. والثقافة بمعنى أن نعرف ما كنا نجهله ، ونستمع إلى ما لم نستمع إليه من قبل، ونتعرف إلى أشياء جديدة فى حياتنا، ثم ينتهى الأمر ، إنما هو ترف لا تحتمله حياتنا الحالية بكل ما تعانيه من ضغوط اجتماعية واقتصادية وسياسية. الثقافة معرفة وتطبيق. أعرف الشئ، أتعلمه، فأحاول أن أفيد مما عرفته وتعلمته فى إضافة الجديد، المثمر والإيجابى، إلى حياتى، وحياة المجتمع الذى أنتمى إليه . ثقافتنا تبين عن نفسها فى كل تصرفاتنا: فى النوم والصحو والقراءة وتناول الطعام والتحدث والفسحة واللعب وإقامة الصداقات وتجميل البيت ، والعناية بالكتاب واختيار الأثاث إلخ..

وكما ترى مارى دوجلاس Mary Douglas فإن تطبيقات نظرية الثقافة لتفسير أمور مختلفة، تبدأ بأساليب حفظ الطعام . والدلالة واضحة فى قول ايليا اهرنبورج» أنا أكثر إيمانا بأهمية التقدم الثقافى للشعب، منى بتقدم الفن نفسه، لأن الجمهور الواعى الذى يفرض على الفنان السمو والارتفاع» (الطليعة - مارس ١٩٦٧) .

الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف . إنه - فى الأقل - سيعرف القيمة المادية للأشياء ويحضرنى ما قاله حكيم إفريقى: « إن الثقافة تستطيع أن تأخذ الإنسان

إلى تل أعلى مما يمكن أن نرى عند الأفق، ثم تجعله ينظر فيما وراءه. إنها - في تعبير آخر - هي التي تميز الجنس البشري عن غيره من الأحاسيس ، فهي - الثقافة - تؤكد الصفة الإنسانية في الجنس البشري .

الثقافة سلوك

وكما يرى روبرت بيرستيد R. Bierstedt فإن الثقافة هي «ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في المجتمع» ، لذلك فإن المتعلم - بدءا من الحاصل على أدنى الشهادات، إلى الحاصل على الشهادات العليا ، ليس مثقفا بالضرورة. إنه قد يكون حاصلا على الماجستير، أو الدكتوراه ، لكن سلوكه غير ثقافي، ويصعب تصنيفه كمثقف. وقد لاحظت أن صديقا لي، يعتبره الكثيرون من خاصة مثقفينا، كان يضع نفسه في مأزق عندما ينفعل بمناسبة وبلا مناسبة، وربما ضرب مكتبه بيده، ووجه إلى محدثه - أيا كان سنه أو مكانته - عبارات يضطر إلى الرد عليها بعبارات مماثلة، أو أقسى منها. وأذكر أني قلت لصديقي. أنت تتصور أن الثقافة قراءة ومعرفة، وأنا أثق أن الثقافة سلوك. إن سلوكنا انعكاس لثقافتنا، ولا قيمة لمعرفة لا نترجمها لتصرفاتنا!..

أذكر وصف سارتر للمثقف بأنه «رجل معرفة، إلا أنه رجل معرفة عملية، لأنه لا يوجد الآن فرق حقيقي بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية. إنه العالم أو الطبيب أو التكنيكي أو القانوني أو الكاتب أو الفيلسوف أو الفنان ، الذي يعنى بتكوين نفسه في تناقض داخل المجتمع البرجوازي. ولكن ليس كل هؤلاء الناس يقومون بهذا التكوين لأنفسهم . فهناك علماء يعيشون في حالة من القلق، ويتعامون عن رؤية الأمور. وهناك من يريدون - بموافقة السلطات - إضفاء هذا التناقض على غيرهم، فهم الذين أطلق عليهم عبارة كلاب الحراسة . هؤلاء لا نسميهم مثقفين ، لأن ما من أحد يسميهم مثقفين» (الطليعة - مرجع سابق) .

خلاصة الأمر أن المثقف ليس هو الذي يعرف، فالثقافة - كم قلنا - غير المعرفة، أو هي غاية للمعرفة . وقد يحصل المرء على المعرفة، لكن سلوكياته تنأى به عن أن يكون مثقفا . إنه لا يسلك سلوك المثقفين . لا يسلك سلوكا متحضرا!

وإذا كان من تعريفات الثقافة أنها مجموع المعارف المكتسبة ، فإني أضيف إلى ذلك التعريف عبارة: وأسلوب الإفادة منها . وأرجو ألا أكون قد أسرفت في التوضيح - وربما التبسيط - تعني - في بعد مهم - إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية التي يشهدها عالمنا المعاصر

* * *

متى نصف الإنسان الذي لا يجيد القراءة والكتابة بأنه مثقف ؟

المثقف - في تقديري - هو الذي يستمد ثقافته من الكتب والخبرات الشخصية وخبرات الآخرين والتأمل وطرح الأسئلة، بحيث تشكل لديه رؤية، يسهل تطبيقها . يقول الرجل في قصة نجيب محفوظ « حارة العشاق»: «الثقافة أن تعرف نفسك . أنت تعرف الناس . أن

تعرف الأشياء والعلاقات ، ونتيجة لذلك ستحسن التصرف فيما يلم بك من أطوار الحياة» ..

الثقافة ليست ترفا مقصودا لذاته . إنها - كما أشرنا - تتصل بالحضارة اتصالات وثيقا، فهي مجموعة القيم والأنساق الفكرية والسلوكية التى تميز شعبا أو مجتمعا معينا ، وتعريف آخر بأنها أساليب التفكير ونوعية المعرفة والنظرة العامة إلى العالم التى تميز فردا أو جماعة معينة داخل المجتمع الواحد . وإذا كان للثقافة وجهها المادى المتمثل فى الاقتصاد والعلم والتكنولوجيا ، فإن لها وجهها المعنوى المتمثل فى الأخلاقيات والتقاليد والمعتقدات وأنماط السلوك والخبرات إلخ. إنها تلخيص للتراث الإنساني، واستشراف لمستقبل الإنسانية فى الوقت نفسه . ولعله يمكن القول إنه توجد ثقافات بقدر ما توجد - أو كما توجد - جماعات بشرية ، ثمة ثقافة سلبية تسيطر عليها الخرافة والتواكلية والأفكار القدرية والاستسلام للظروف القائمة وفقدان الطموح، وثمة ثقافة إيجابية تستهدف التطوير والإضافة واكتساب الجديد، والتعامل بلغة العصر. ويقول ديهاميل: «إن نظام الثقافة الذى يستحيل فيه التفكير والاختيار ، إنما هو فى الحقيقة تقويض لما كان يسمى حتى اليوم ، ثقافة». إنها كالإيمان الذى لا يكفي أن نطلبه، لنناله. وكان مونتينى Montaine يفرق بين حشو الذهن بالمعلومات وبين تكوين العقلية السليمة . والمعنى - بالطبع - لا يخلو من دلالة..

الثقافة سلوك، أسلوب حياة، تأثر ومحاولة للتأثير. للتأثر والتأثير دورهما الذى يصعب إغفاله فى تكوين الحس الثقافى، فقد يتعرف المواطن - على سبيل المثال - داخل حجرة الطبيب، أو الأخصائى الاجتماعى، إلى جماليات وسلوكيات يحاول تقليدها فى بيته · لوحة معلقة على جدار، ستارة، سجادة.. قد نجد فى ذلك فائدة لنا، وللآخرين ..

إن الثقافة وسيلة حياة، أسلوب حياة . ليس المثقف من يعرف أكثر . الثقافة - هنا - تتراجع، لتحل محلها المعرفة. تتقدم الثقافة إذا بدأنا فى استخدام ما تعلمناه، ما نعرفه. وكانت الثقافة الحقيقية - فى تقدير فلاسفة عصر النهضة - هى تلك التى لا تقتصر على شحن الذهن بالمعارف والمعلومات ، لكنها تستهدف تزويد المتلقى برجاحة الحكم. الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف، وإنما سيبذل كل جهده لتطوير ذلك الواقع. إنه - فى الأقل - سيعرف القيمة المادية للأشياء.

الثقافة هى المفتاح السحرى للإفادة من الماضى، والتعامل مع الحاضر، واستشراف المستقبل. إنها - فى المجتمعات النامية بخاصة - تعنى إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية التى يشهدها عالمنا المعاصر . فهو قد يفكر - ولعله يحاول بالفعل - أن يستخدم أساليب الزراعة الحديثة، بدلا من تلك التى يستخدمها منذ فجر حضارته ، ومن ثم يوفر كثيرا من الوقت والجهد، ويحقق إنتاجا أخصب وأوفر . وهو لن

يكرر مأساة طه حسين ، حين فقد نور عينيه بتأثير «الشِشم» الذى كانت تعالج به الأم رمدا أصابه. إن حاجتنا إلى الطعام ليست ثقافة. الثقافة فى عادات الطعام، فى اختيار أنواعه، وطريقة طهوه، ووسيلة تقديمه، وأدوات تناوله من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها . وكما يقول الرئيس الفرنسى الراحل بومبيدو، فإن الثقافة «بحكم رسالتها وتفاعلها ، تحمل فى طياتها بذور التطور، بل وحتى القوة. فالتفكير معناه الحكم ، والثقافة إذ ترفض حتما قبول وضع سبق لها أن انبثقت منه، فإن غايتها الطبيعية هى إصدار حكم على ذلك الوضع ، وبالتالى تمهيد السبل أمام التغيير. إنها – فى أحد أبعادها – التعبير عن البيئة التى يصنعها الإنسان، عن كل ما يتوصل إليه فكره، وتصنعه يده .

ومن الطبيعي أن ثقافة الفرد – هنا – ستكون هى المنطلق لتحقيق قيام الأسرة بدور « القناة الأساسية لنقل الثقافة» – على حد تعبير إليوت – «فلا إنسان ينجو تماما من نوع الثقافة التى اكتسبها من بيئته الأولى ، أو يتجاوز درجتها تماما» . بل إننا نوافق تماما على رأى إليوت بأن قناة الأسرة بالذات ، تظل أهم بكثير من سائر قنوات نقل الثقافة . وعندما تعجز قناة الأسرة عن القيام بدورها، يجب أن نتوقع انحسار ثقافتنا ، رغم اختلافنا الموضوعى مع غالبية الآراء التى يتناول بها إليوت قضايا الثقافة عموما ..

كلمة Culture الفرنسية مشتقة من كلمة Cultus اللاتينية، التى تعنى ثلاثة معان: زراعة، تربية، ثقافة، والارتباط بين هذه الكلمات الثلاث يوسع من معنى الثقافة ودلالاتها. فـ «المثقف» لن يقف بما تعلمه عند حد المعرفة، لكنه سيحاول تطبيق ما تعلمه لتطوير حياته . بل إنه من الطبيعى أن يحاول المثقف التأثير فى البيئة المحيطة به، يبدأ بالبيت، فيكون – بقدر ما تسمح موارده المالية – مكتبة صغيرة، يقبل المتعلمون من أفراد الأسرة على قراءتها . وقد يعنى بتعليق مناظر جميلة من مجلات ملونة يشغل بها مساحات الجدران الفارغة. وربما يمتد تأثيره إلى خارج البيت ، إلى القرية، فى مناقشاته الجادة والمثمرة، وفى إعارته كتبه إلى من ينشد القراءة من أبناء القرية ..

لقد تمنى الشاعر يوما ، بأن يتساوى القلم والمدفع، وأن يوضع القلم مع الحديد ضمن الصناعة الثقيلة. فالثقافة – بحق – هى الصناعة الثقيلة المعرفة. الثقافة الحقة – على حد تعبير فؤاد زكريا – هى هذا الكل الذى يطوى تحته تفكير الإنسان وسلوكه ، نظره وعمله ، تأمله وإنتاجه ، علمه وحكمته . الثقافة ليست جهدا جزئيا يشمل جانبا واحدا من جوانب نشاط الإنسان ، بل هى حصيلة كلية تضم شتى جوانب النشاط البشرى فى إطار شامل موحد، بل إنه ليمكننى القول – ببساطة – أن الدولة المتقدمة ستظل حلما ورديا ، ما لم يصبح تحقيق الثقافة بعدا أساسيا فى حياتنا اليومية ..

لا معنى للثقافة دون ارتباط بالحياة . ■

محاضير محمد

آخر عظماء آسيا والمسلمين في القرن العشرين

بقلم
د. محمد السيد سليم *

محاضير محمد هو رئيس وزراء ماليزيا الرابع منذ الاستقلال، تولى نصبه سنة ١٩٨١، وتجددت ولايته عن انتخابات تنافسية ديمقراطية حتى اختار أن يغادر السلطة سنة ٢٠٠٣، وأن يسلمها لنائبه عبدالله بدوى مقدما بذلك نموذجا رفيعا لانتقال السلطة فى العالم الإسلامى، يوضح أن الاسلام لا يتعارض مع الديمقراطية تناول محاضير محمد عن السلطة، وهو يعلم أن أغلبية شعبه ستنتخبه خاصة الانتخابات البرلمانية التى تعقد فى العام القادم. ليس لأنه زعيم كاريزمى، ولكن لأنه أسس النهضة التنموية الماليزية، ونقل ماليزيا من دولة زراعية متخلفة إلى دولة تصنف على أنها من النمور الآسيوية.

* استاذ العلاقات الدولية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة





حينما تسلم محاضير محمد السلطة كان ترتيب ماليزيا في مقياس التنمية البشرية سنة ١٩٨٠ رقم ٦٨ من ١١٧ دولة (أي رقم ٥٨ إذا كان عدد الدول ١٠٠)، وترك السلطة سنة ٢٠٠٣ وترتيب ماليزيا في المقياس ذاته رقم ٥٨ من ١٧٥ دولة (أي رقم ٣٣ إذا كان عدد الدول ١٠٠) أي أن ماليزيا قفزت في عهده وبالأرقام المقارنة – من الترتيب ٥٨ إلى الترتيب ٣٣ ، ويصفها تقرير التنمية البشرية على أنها في مقدمة الدول متوسطة التنمية البشرية . وفي عهده ارتفع متوسط الدخل الفردي من ٤٣١ دولارا سنة ١٩٨٠ إلى ٨٧٥٠ دولارا سنة ٢٠٠٠، وارتفعت نسبة المتعلمين من إجمالي البالغين خمسة عشر عاما فأكثر من ٦٦٪ سنة ١٩٩٨ إلى ٨٨٪ سنة ٢٠٠٠، وقد حدث ذلك كله في اطار نظام سياسي احتفظ بالموروث الماليزي الملكي ، حيث السلطان رمز لوحدة الدولة، مع وجود نظام برلماني يقوم على انتخابات ديمقراطية كل أربع سنوات ، واستطاع محاضير محمد أن يحقق التوليفة الصحيحة بين الصعود الاقتصادي من ناحية وترسيخ الديمقراطية من ناحية أخرى ، أي معضلة التوفيق بين الاصلاح الاقتصادي والاصلاح السياسي ، ومكنه النظام الديمقراطي من الحصول على شرعية قوية أكسبته ولاء مختلف الأعراق في مجتمع متعدد بل ومتناقض الأعراق .

يعد تنازل محاضير عن السلطة لنائبه نموذجا رفيعا لانتقال السلطة في العالم الإسلامي.

من الطب إلى السياسة

ولد محاضير محمد في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٠ في مدينة ألون سيتار في ولاية قدح في شمالي ماليزيا، وهو أصغر أخوته التسع ، وتلقى تعليمه في مدرسة السلطان عبدالحميد في ألون سيتار ، ثم دخل كلية الملك ادوارد السابع الطبية في سنغافورة (وكانت جزءا من اتحاد الملايا آنذاك) وذلك سنة ١٩٤٧ ، عاد محاضير محمد إلى ولاية قدح حيث بدأ في ممارسة مهنة الطب اعتبارا من سنة ١٩٥٧ بعد أن تزوج سيتي حسمه، زميلته في الدراسة ، وكانت عيادته أول عيادة طبية تفتتح في ألون سيتار . في الوقت ذاته انغمس محاضير محمد في السياسة منذ سنوات دراسته الأولى . فدخل التنظيم الملاوي المتحد (الامنو) سنة ١٩٤٦، أي قبل دخوله كلية الطب وشارك في أنشطة الحزب في ولاية قدح ، وفي سنة ١٩٦٤ انتخب عضوا في البرلمان عن دائرة كوتا سيتار سيلاتان لمدة خمس سنوات . وفي البرلمان اشتهر محاضير محمد بالدفاع عن قضايا شعبه الملاي، ولكنه هزم في انتخابات سنة ١٩٦٩ أمام مرشح «الحزب الاسلامي الماليزي» المعارض . وقد وجه اللوم إلى حكومة تنكو عبدالرحمن لفشلها في دعمه في

الانتخابات لأنه كان يتبنى فى البرلمان سياسات قومية تدافع عن الملايا وصمته بالتطرف . وقد تعلم محاضير من هذا الدرس الحذر والحساب السياسي، ولكنه دفع الثمن بطرده من حزب الآمنو، مما زاد من شعبيته ، واضطر الحزب إلى إعادة عضويته لاحقا .

وفى سنة ١٩٧٤ فاز محاضير محمد بعضوية البرلمان مرة أخرى وعين وزيرا للتعليم ، ومن موقعه الجديد طبق ما أسماه «السياسة التعليمية الجديدة»، ثم انتقل إلى وزارة الصناعة والتجارة، وأصبح نائبا لرئيس الوزراء «حسن تون»، وفى سنة ١٩٧٨ أعيد انتخابه في البرلمان ، وهزم مرشح الحزب الاسلامي الماليزى عن جدارة .

وفى ١٦ يوليو سنة ١٩٨١ أصبح محاضير محمد رابع رئيس وزراء لماليزيا بعد استقالة «حسن تون» والذى يعتبره محاضير بمثابة والده الروحى .

المفكر .. وقضايا نهضة ماليزيا

ومحاضير محمد لم يكن مجرد رئيس للوزراء ، ولكنه أحد كبار المفكرين السياسيين الآسيويين والمسلمين الذين استطاعوا أن يكونوا رؤية سياسية متكاملة كانت أحد عوامل نهضة ماليزيا. ألف محاضير محمد عدة كتب أهمها «معضلة الملايا The Malay Dilemmg» سنة ١٩٧٠، والذي شخص فيه مشكلة شعب الملاى وكيف يمكن حلها، و«التحدى» The Challenge الصادر سنة ١٩٧٦، الذى حدد فيه المعالم الأولى لاستراتيجية بناء ماليزيا، كذلك كتابه المشترك مع إيشيهارا، «صوت آسيا» The Voice of Asia الصادر سنة ١٩٩٥، والذى حدد فيه طبيعة النموذج الآسيوى التنموى كذلك يمكن الاشارة إلى كتابيه «تحديات الإضطراب» The Challenges of Turmoil الصادر سنة ١٩٩٨، و«نحو سياسة أسيوية جديدة» A New Deal for Asia الصادر سنة ١٩٩٩، وحلل فيه أسباب الأزمة المالية الأسيوية وكيفية الخروج منها.

يعد أهم ما يلفت النظر فى فكر محاضير محمد هو أنه انطلق من قاعدة محلية قومية ، وهى تشخيص طبيعة المشكلة التى يواجهها شعب الملاى فى دولة متعددة الأعراق يشكل الملاى فيها ٥٣٪ من السكان ، والصينيون ٣٥٪ ، والهنود ٩٪ ويتمتع الملاى بالسلطة السياسية ، ولكن السلطة الاقتصادية تقع فى أيدى الصينيين ، وهو ما أدى إلى الاضطرابات العرقية الدموية سنة ١٩٦٩ والناشئة عن شعور الملاى بالغبن الاقتصادى . وانطلق محاضير محمد من إثارة السؤال: ماهو مصدر الخلل؟ ولم ينطلق محاضير إذن من قاعدة أيديولوجية حاول أن يفرضها على مجتمع الملاى، ولم يحاول أن يطوع مجتمعه لكى يحقق أهداف أيديولوجية معينة. ولكنه انطلق من منظور استقرائى لمجتمعه ، وقال محاضير أن الملاى ليسوا متخلفين بالطبيعة، ولكن لأن العوامل الجغرافية خلقت فيهم روح الاسترخاء . فالبيئة الجغرافية توفر انتاجا زراعيا وفيرا فى فترة قصيرة من السنة ومعدلات إنتاج عالية تكفى استهلاك السكان طوال العام ، مما أنتج صفة الاسترخاء باقى أيام السنة ، وصفة الاتكال على الجغرافيا. هذا بالاضافة إلى عدم قدرة الملاى على التعايش مع المهاجرين الصينيين أو الاستفادة منهم، ومن ثم خلص محاضير إلى أن تغيير نسق القيم لدى الملاى، وإيجاد صيغة للتعايش الإيجابى بين الأعراق الماليزية هو نقطة البدء لتحقيق نهضة بلاده، فدعا محاضير شعبه إلى تعلم أخلاقيات العمل المنضبط من الصينيين،



وسلوكيات التعايش معهم، وفرض نظاما حكوميا صارما يحقق ذلك، وفى الوقت ذاته سعى إلى تخفيف حدة شعور الملاى بالظلم الاقتصادى من خلال اتباع سياسة اقتصادية تشجعهم على الصعود الاقتصادى، واستطاع أن يقنع الصينيين أن هذه السياسة لاتميز ضدهم وإنما هى فى مصلحتهم حتى لاتتكرر أحداث ١٩٦٩، كذلك أكد محاضير محمد على مفهوم «القومية الماليزية» والذى يعنى عنده الوعى بالعيش المشترك فى إطار قومية واحدة ذات أعراق متعددة ونجح محاضير محمد فى القضاء على الحركات السوفيتية سواء كانت لدى الملاى (حركة المعونة)، أو الصينيين (سوموى).

محاضير ورؤية ٢٠٢٠

وفى فبراير سنة ١٩٩١ قدم محاضير محمد «رؤية ٢٠٢٠» وهى التى تضمنت أربع ركائز جوهرية للرؤية الفكرية لمحاضير محمد وهى «القومية الماليزية»، و«التطور الرأسمالى»، و«الدور التنموى للإسلام»، و«الدور القومى للدولة»، ويمكن القول أن رؤية ٢٠٢٠ تتكامل مع رؤيته للعلم والتكنولوجيا، والعولمة، وهو مايتطلب أن نشير فى عجالة لتلك العناصر:

١ - المفهوم الرأسمالى للتنمية

يرى محاضير محمد أن التنمية تتحقق من خلال القيم الرأسمالية للعمل ودور المشروعات الخاصة سواء المحلية أو الأجنبية، فهو يدافع عن نموذج رأسمالى منفتح يتأسس على المشروع الرأسمالى، بيد أن المشروع الرأسمالى لايعنى إنسحاب الدولة من مجال صياغة السياسات العامة ووضع الأطر التوجيهية للنشاط الاقتصادى الخاص، ولكنه يعنى تحول دور الدولة لتكون الدولة المرشدة القادرة على التخطيط لضمان أن تسير المشروعات الرأسمالية فى إطار الأهداف القومية المخططة، وعليه فإن الدولة لاتضطلع بدور المالك لأدوات الانتاج، ولكن الموجه للمشروعات الرأسمالية، وقد عبر محاضير محمد عن ذلك كله فى إطار مصطلح «ماليزيا الشركة» Malaysia Incorporated.

٢ - المفهوم الديمقراطى للتنمية

- الديمقراطية عند محاضير محمد يجب أن تكون ركنا جوهريا من أركان الدولة التنموية، فلايمكن تأجيل المشروع الديمقراطى تحت أى إدعاء، وقد حدد محاضير محمد أنه يقصد بذلك حق المواطنين فى إنتخاب حكومتهم بشكل حر ونزيه وأن يتولى السلطة الحزب أو الائتلاف الحاصل على الأغلبية بيد أن الديمقراطية يجب أن تؤدى إلى وتتلازم مع عملية تنموية جادة من خلال حكومة مستقرة قادرة على إتخاذ

● استطاع محاضير أن يؤسس النهضة التنموية الماليزية وجعل بلده من أقوى النمور الآسيوية خلال عقدين من الزمان.

القرارات . ومن ثم، فإن القيم الديمقراطية هي قيم مرتبطة بعملية التنمية، وينبغي ألا تسبق الهدف التنموي أو تعلوه ومن حق الدولة أن تتدخل لضمان الاستقرار السياسي، وضرب الحركات التي تعمل خارج الإطار الديمقراطي.

٣ - دور «القيم الآسيوية»

- طبقا لرؤية محاضير محمد الواردة في «رؤية ٢٠٢٠» فإن القيم الآسيوية ينبغي أن تضطلع بدور محوري في التنمية الماليزية وتؤكد القيم الآسيوية على روح التضامن العائلي، والولاء للجماعة واحترام الأجيال، وأولوية الجماعة على الفرد، وهذه القيم هي قيم مشتركة بين شعوب شرقي آسيا، ولذلك فإن على ماليزيا أن «تنظر شرقا» نحو اليابان والصين للاستفادة من خبراتهما التنموية والتكنولوجية، ولهذا، عارض محاضير محمد الكتابات الغربية التي انتقدت القيم الاسوية، باعتبارها مصدر الأزمة المالية الأسيوية ١٩٩٧، ودعوة تلك الكتابات للآسيويين للتخلي عن تلك القيم، وهو الأمر الذي تمثل في مقالة كتبها فوكوياما سنه ٢٠٠٠ تدعو صراحة إلى ذلك.

٤ - الإسلام والتنمية

- يمثل الإسلام ركنا جوهريا في رؤية محاضير محمد، فالإسلام عنده هو أحد مكونات المجتمع الماليزي، ولكنه ليس العنصر الوحيد، لأن ماليزيا دولة متعددة الأعراق، والإسلام عند محاضير محمد ينبغي أن يكون أحد مكونات التنمية الماليزية، وفي تقديره، فإن الإسلام يقدم مجموعة من القيم الفكرية الدافعة نحو التنمية فالإسلام هو إطار مرجعي عام يجب تفسيره بشكل يحقق الصيغة الصحيحة للتعايش بين الإسلام والعلم الحديث، وقد هاجم محاضير العناصر التقليدية التي ترفض العلم الحديث باسم الإسلام، وشجع بناء مؤسسات إقتصادية وتعليمية إسلامية في ماليزيا مثل البنوك الإسلامية، و«الجامعة الإسلامية الماليزية العالمية»، ولكنه رفض مفهوم «الدولة الإسلامية» وفي خلال السنوات العشر الأخيرة لحكمه زاد محاضير محمد من تركيزه على أهمية الإسلام، ونقل رؤيته إلى مستوى العالم الإسلامي، فنشط دور ماليزيا في منظمة المؤتمر الإسلامي، ودخل مجموعة الدول الإسلامية الثمان التي كونها أربكان رئيس وزراء تركيا السابق ١٩٩٧.

٥ - العولمة

- قدم محاضير محمد رؤية تركيبية للعولمة تميل إلى انتقادها، ولكنها تستوعب منافعها في الوقت ذاته، فهو يشير إلى أن الدول الرأسمالية تسعى من خلال العولمة إلى إنشاء نظام سياسي واقتصادي واحد مهما تكن النتائج، كما أنه في ظل العولمة، فإن الحديث عن القرية العالمية والمعلوماتية وحرية التجارة لايجب أن يخفي أن الشركاء لن يكونوا متساويين، كما أن الحدود ستظل مغلقة أمام فقراء العالم الثالث، كما يستمر سباق التسلح والضغط على الدول الفقيرة لشراء الأسلحة لكي تعوض الدول المتقدمة ماتنفقه على البحث والتطوير العسكري، ومن ناحية أخرى، فالعولمة يمكن أن تكون وسيلة لتحسين حياة الشعوب إذا اتبعت الدول النامية منهجا تدريجيا إنتقائيا في التعامل معها، فالدول الصناعية استغرقت قرن من الزمان للوصول إلى مستوى التنمية الراهن وقبل أن تطرح مشروع العولمة، والدول النامية لايمكنها أن تندمج بشكل فوري مع العالمية، كما أنها يجب أن تكون إنتقائية في

قبول «شروط تحرير التجارة»، فليس هناك حاجة لأن تسقط جميع الحدود أمام كل شيء، وكل الناس في وقت محدد».

وقد تجلت رؤية محاضير محمد في تعامله مع الأزمة المالية الآسيوية ١٩٩٧، والتي خسرت ماليزيا فيها ١٣٥ مليار دولار، فقد أشار إلى أن المضاربين الأجانب هم مصدر الأزمة، ورفض التوقيع على اتفاقية مع صندوق النقد الدولي، واتبع نهجا مستقلا نجح بموجبه في الخروج من الأزمة.

٦ - دور العلم والتكنولوجيا

- لعل من أهم إسهامات محاضير محمد هي تصوره لدور العلم والتكنولوجيا في التنمية، ولمحاضير محمد كتاب ضمن أعماله الكاملة عن هذا الموضوع، أشار فيه محاضير إلى عدة عناصر جوهرية هي:

١ - أن «التكنولوجيا هي مفتاح التنمية» فالتكنولوجيا ضرورية، ليس فقط لرفع المستوى الاقتصادي وإنما أيضا لإحداث التغيير الاجتماعي.

٢ - أن تحقيق التطور بالتكنولوجيا ينبغي أن يتم من خلال «المشاركة» بين الحكومة والقطاع الخاص، والحكومة تعد «أجندة» لتطوير التكنولوجيا وتوفر البنية التحتية والسياسة العامة التي يعمل القطاع الخاص في إطارها.

٣ - أن التكنولوجيا التي تهتم بها ماليزيا ينبغي أن تكون مرتبطة باحتياجات السوق Market driven، فالتكنولوجيا لايتم تطويرها لكي تحفظ في المعامل، وإنما لسد احتياجات السوق وهذا هو معنى «التكنولوجيا الملائمة» عنده، إنها التكنولوجيا بالأساس التي يمكن تسويقها.

٤ - أن ماليزيا ينبغي أن تتجه شرقا للاستفادة من التكنولوجيا اليابانية، ولكن التكنولوجيا المنقولة يجب ألا تكون منتهية الصلاحية، وقادرة على المنافسة في السوق حتى لاتتحول ماليزيا إلى التبعية التكنولوجية.

٥ - أن تطوير التكنولوجيا يتطلب إعطاء الأولوية لسياسة «البحث والتطوير العلمي» وتوفير العمالة الماهرة، فبدون جودة التعليم يصبح الحديث عن العلم والتكنولوجيا أمرا غير ذي موضوع.

٦ - من المهم بمكان الإهتمام بالبعد الثقافي للعلم والتكنولوجيا، ويقصدون بذلك التأكيد على التكامل بين القيم الإسلامية وقيم التطور التكنولوجي.

٧ - أن سياسة العلم والتكنولوجيا في ماليزيا لا يمكن أن تتم في إطار محلي، وإنما ينبغي أن تتكامل مع دول جنوب شرقي آسيا لتحقيق التخصص وتوسيع السوق، وقد أنشأ



● أهم ما يلفت النظر في فكره هو انطلاقه من قاعدة محلية قومية، كما يمثل الإسلام ركنا جوهريا في رؤيته لنهضة وطنه.

محاضير مؤسسات تكنولوجية كاملة أهمها «المجلس القومي للبحث العلمي، والتنمية»، و«الشركة الماليزية لتطوير التكنولوجيا»، و«برنامج التنمية التكنولوجية»، وصاغ «الأجندة القومية لتكنولوجيا المعلومات» وكان من أهم تطبيقاتها «الممر الأعظم للوسائط المتعددة».

وتعتبر المدينة التكنولوجية في بوتراجايا من أعظم انجازاته ولذلك، فإن مع مغادرة محاضير محمد للسلطة كانت الصادرات التكنولوجية المتقدمة Hi-Tech تشكل ٥٧٪ من إجمالي الصادرات الصناعية الماليزية، كما أنها تشكل ٨٠٪ من إجمالي الصادرات الماليزية، أى أن التكنولوجيا المتقدمة تشكل ٤٥٫٦٪ من إجمالي صادرات ماليزيا.

محاضير ضد الأمبريالية الأنجلو - امريكية

ولعل أعظم ماختم - محاضير محمد حياته السياسية كرئيس للوزراء هو الحملة التي قادها لمعارضته المشروع الانجلو - أمريكي لغزو العراق، لقد اعتبر أن هذا الغزو بمثابة جزء من المشروع الغربي ضد المسلمين والإسلام وقاد حركة سياسية ضمن حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والأمم المتحدة لمنع الغزو وإدانته.

ومن ناحية أخرى، فإن محاضير محمد قد ترك لخلفه عبدالله بدوى أجندة واجبة التنفيذ، فرغم الدور الذى قام به لتحقيق التكافؤ الاجتماعي في ماليزيا إلا أن توزيع الدخل القومي في ماليزيا مازال يتسم بعدم التكافؤ، وإن كان بشكل أكثر اعتدالا مما سبق، حيث أن أغنى ١٠٪ من الماليزيين يحصلون على ٣٨٫٤٪ من هذا الدخل في الوقت الذى يحصل فيه أفقر ١٠٪منهم على ٤٫٤٪ من هذا الدخل، وهو مايعني أهمية السعى لرفع مستوى الملاى أو «أبناء الأرض» Pumipurra كما يطلق عليهم في ماليزيا، كذلك ترك محاضير لخليفته تركة التعامل مع الحزب (الإسلامي الماليزى الذى يحكم في ولايتي تريجانو، وكيلانتان، فرغم أن الحزب يعمل في إطار اللعبة الديمقراطية، إلا أن محاضير لم يستطع أن يقنع قادته بإسلامية مشروعه ونعتقد أن عبدالله بدوى سيواجه مشكلة مع هذا الحزب في الانتخابات القادمة.

مستقبل محاضير محمد

وفي تقديري، فإن مغادرة محاضير محمد السلطة لن تعنى تخليه عن دوره السياسي، فهذا الدور سيصبح جزءا من الميراث السياسي الماليزى، فمن تقاليد القيم الاسيوية احترام دور الأب المؤسس، ولذلك سيظل محاضير محمد حاضرا في الساحة الماليزية والأقليمية والإسلامية، وإذا كان لي أن أقدم اقتراحا، فهو أن تقوم منظمة المؤتمر الإسلامي باختيار هذا الرجل أمينا عاما لها، خاصة أن مدة الأمين العام الحالي تنتهي العام القادم ومن المفترض أن يكون الأمين العام القادم منتميا إلى المجموعة الأسيوية في المنظمة طبقا لتقاليد التناوب فليس هناك من هو أفضل منه لتنشيط وتفعيل تلك المنظمة التي ران عليها السكون منذ انشائها رغم أهمية دورها، وأن لها أن تضم صفوفها وتؤكد حضورها الدولي وتقدم رؤية إسلامية عالمية معاصرة ومنفتحة على يد أمين عام يحمل خبرة محاضير محمد ورؤيته النافذة ومكانته الأسيوية والإسلامية والدولية.

■



الحشاشون

.. وثلاث روايات !

بقلم
مصطفى نبيل

حكاية أول فرقة إرهابية في التاريخ، التي ظهرت في القرون الوسطى، ولعبت دورا مدمرا، تناولها عدد من الروائيين، أولهم جرجي زيدان في روايته التاريخية «صلاح الدين ومكائد الحشاشين»، وبعده الروائي التشيكي فلاديمير بارتول في روايته «ألموت Alamot»، وهو اسم القلعة التي أقامها حسن الصباح، وأخيرا تناول ذات الأحداث أمين المعلوف في رواية «سمرقند»، وفي كتابه «الحروب الصليبية كما رآها العرب»، والتي نقلها إلى لغة عربية رائعة الدكتور عفيف دمشقية.

لوحة تخيلية توضح احد الحروب الصليبية

الحشاشون وثلاث روايات

وجاء ظهور هذه الفرقة في لحظة تاريخية فارقة، وفي أوج الهجوم الصليبي الذي قصد الشرق وبيت المقدس في قلبه، ومع الانقسام الحاد في عالم الإسلام، وشيوع ظاهرة العنف.

ومازالت تفاصيل هذه الصفحة من التاريخ يلفها الغموض، وتحمل الكثير من الأحاجي والأساطير، وأعطت هذه الفرقة للاغتيال اسمه الأجنبي.

وبقي السؤال معلقا لم يجد إجابة كافية، هل كانت هذه الفرقة صنيعة الإفرنج، أم صنيعة الانقسام والاقتتال المذهبي والعرقي..؟!

ولا تكاد تمسك بخيوط علاقة الحشاشين بالصليبيين، فمرة يتحالفون معهم، ومرة يغتالون قادتهم، وسجل التاريخ حالتين على الأقل وقع فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين والجيوش الصليبية وتمكن الحشاشون من اغتيال «كونراد» ملك بيت المقدس خلال زيارته مدينة صور بعد أن تنكر بعض رجالهم في زي الرهبان.

واعترف رهبان صور قاتلو «كونراد» عند استجوابهم أن ملك انجلترا «ريتشارد» هو الذي دبر العملية لكي يتخلص من المركيز.

ونجد أيضا لاجئي الحشاشين في حلب وبانياس يلجأون إلى الإفرنج، ويسجل التاريخ تسليم قلعة «بانياس» إليهم، كما يرصد وليم الصوري التقارب بين شيخ الجبل سنان - خليفة حسن الصباح - ومملكة بيت المقدس الصليبية.

وجاء في تقرير أعده بروكاردوس للملك فيليب السادس ملك فرنسا يسرد فيه الأخطار التي ستتعرض لها الحملة الصليبية.. يقول .. «أذكر الحشاشين الذين ينبغي أن يتفاداهم المرء ، فهم يبيعون أنفسهم، ويتعطشون للدماء البشرية، ويغتالون مقابل أجر، ولا يقيمون اعتبارا للحياة، ويغيرون مظهرهم مثل الشياطين، التي تتحول إلى ملائكة، وهم يتقنون تقليد الأزياء واللغات والعادات لأقوام متعددة بدرجة لا يمكن أن يميزهم خلالها أحد..»

وأفرد لهم المستشرقون اهتماما خاصا، وتناولهم «دانتي» في النشيد التاسع عشر من الجحيم، عندما يذكر أولئك الحشاشين الذين يقتلون غيلة أو غدرا أية شخصية كبيرة، ودوافعهم التعصب والجشع.

وكتب وليم الصوري مؤرخ الفرنجة خلال الحملة الصليبية.. «يوجد في إقليم صور أناس يملكون عشر قلاع قوية ، ومايتصل بها من مزارع وقرى وبشر، وعددهم حوالي ٦٠ ألفا أو يزيد، ولا







يوجد أي عمل شاق أو صعب إلا وأقدموا على أدائه عندما يأمرهم شيخهم».

وحتى بعد وفاة زعيمهم حسن الصباح في قلعته فقد شهد نشاط الحشاشين نموا كبيرا، وسقط تحت ضرباتهم عدد من قادة مقاومة الصليبيين، مثل الرجل الذي قاد ونظم المقاومة للغزو الصليبي، وهو قاضي القضاة أبوسعد الهروي الذي كان أرفع المراجع الدينية في عالم الإسلام، كما اغتالوا نظام الملك والأمير السلجوقي مودود في دمشق وغيرهما. (الهلال يناير ٢٠٠٢).

شاهد عيان

وألقى الرحالة بعض الضوء على هذه الفرقة.. وترك لنا الرحالة الإيطالي ماركو بولو وصف شاهد عيان لقلعة «ألموت» التي مر بها سنة ١٢٧٣ م خلال رحلته إلى الصين، وتقع اليوم في إيران. يقول.. «قام شيخ الجبل بإغلاق واد بين جبلين وجعله حديقة فيحاء، أكبر وأجمل حديقة رأتها العين.. ويقوم على خدمة هذا الفردوس حوريات يعزفن بأنامل مدربة وتظهر الراقصات اللاتي يخلبن الألباب».

ولم يقل لنا كيف أتيح له زيارة القلعة التي لا يدخلها الغرباء!

مكائد الحشاشين

ونأتي إلى أول عمل درامي يتناول فرقة الحشاشين، والذي كتبه جرجي زيدان في روايته التاريخية «صلاح الدين.. ومكائد الحشاشين»، والتي نشرها في مجلة الهلال في فبراير ١٩١٣.

وزيدان أحد رواد الرواية التاريخية، سار على خطى الروائي البريطاني سير وولتر سكوت «١٧٧١ - ١٨٣٢»، وقد تميز بالقدرة على بناء قصة محبوكة، تقوم خلفيتها على وقائع تاريخية، مدركا أن المستقبل يخرج من رحم الحاضر، ويدفع القارىء لاستكمال بعض الوقائع

التاريخية التى أشار إليها فى أعماله، ويتعامل مع تاريخ الإسلام باعتباره تاريخ العالم فى العصور الوسطى، ويدعو فى روايته للعروبة التى تضم كل الطوائف والأديان والأعراف، وتشير روايته اهتمام العرب بأمجادهم، وبيان عوامل ضعفهم وجوانب قصورهم.

ويحكى فى روايته «مكائد الحشاشين» قصة قيام أول تنظيم سرى حديدى، يستخدم العنف، وأداته الاغتيال السياسي. ويظهر كيف يمكن اختراق هذا النوع من التنظيم فى إحدى حلقاته وتوجيهه وجهة أخرى تخدم أهدافا خاصة.

ويروى بأسلوب سهل يقول: .. «لذلك أخذنا نهيء أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ، لأن مطالعة التاريخ الصرف تثقل على القراء . لذا جمعت أعماله بين التعليم والتشويق».

ونجده يتناول التاريخ الإسلامى فى رواياته منذ العصر الجاهلى وحتى العصر الحديث، ويحرص دون سواه من كتاب الرواية التاريخية على أن يورد فى هامش رواياته المصادر التى اعتمد عليها .

وتتناول رواية «زيدان» مرحلة لاحقة على مؤسس هذه الفرقة حسن الصباح، عندما تولى الزعامة ونصب شيخ الجبل راشد الدين سنان، ومع أفول العصر الفاطمى فى مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى، خلال المعاناة المزدوجة من الانقسام الداخلى والهجوم الخارجى.

ويسجل إحدى محاولات اغتيال صلاح الدين فى القاهرة، عندما وصل الفدائيون إلى مخدعه، وعندها يصمم «عماد الدين» حارسه وأحد خلصائه على الثأر والانتقام من شيخ الجبل، ويقوم برحلة معاكسة عن طريق التسلل إلى هذه الفرقة والوصول إلى قلعة مصياف التى تحصن فيها هو ورجاله .

وتقول الوقائع التاريخية إنه رغم عمل صلاح الدين على حشد المسلمين فى مواجهة الغزو الصليبى جعل منه الحشاشون خصما لهم بعد اسقاطه الدولة الفاطمية، وتعددت محاولاتهم الفاشلة لاغتياله. وبينما كان يحاصر حلب ، تسلل رجال «سنان» فى أحد أيام الشتاء القارس إلى معسكره، وتم اكتشافهم . وقتل عدد كبير من الرجال لم يكن بينهم صلاح الدين.

وتكررت المحاولة فى العام التالى، عندما تخفى عدد من فدائيى الحشاشين فى زى رجال صلاح الدين وهاجموه بينما كان يحاصر إحدى القلاع الصليبية التى أقيمت على طول ساحل

البحر الأبيض، وأصيب صلاح الدين بجروح طفيفة.

قلعة مصياف

وفي العمل الروائي يقرر عماد الدين أن يصل إلى أوكارهم، وأن يتخلص من زعيمهم شيخ الجبل، وينجح في التسلل إلى صفوفهم ويصل إلى القلعة الحصينة التي يقيم فيها سنان، بعد مغامرات شيقة، وتحفل الرواية بصنوف شتى من الدسائس والمغامرات ومؤامرات القصور، ويتابع القارئ قصة الحب الملتهبة بين «ست الملك» أخت الخليفة العاضد وبين عماد الدين صفي وحارس صلاح الدين.

وتتجاوز رواية زيدان العداء الذي تشعر به إحدى نساء البيت الفاطمي المنهار، وترتبط بقصة حب مع أحد الرجال الذي قوض حكمهم، وقضى على الخلافة الفاطمية.

ويصف قلعة مصياف بأنها محاطة بسور سميك، وليس لها سوى باب واحد يقود إلى دهليز ، سقفه عقد متين، وعلى سور القلعة أبراج متلاصقة، تجذب إليها كل من اشتهر بالفتك وكل من يهون عليه قتل الأبرياء، وكل من يضيق به الرزق، وتحكم القلعة بنظام حديدي غريب لم ينسج أحد من قبل على منواله، والحراس عمالقة وكأنهم من الجان، ويختارون صما بكما. يسيطر عليهم شيخ الجبل وحده، ويعتمد سنان في السيطرة على فرقته على القيام بالمعجزات عن طريق الخداع والسحر، واستخدام وسائل مجهولة عند أهل زمانه. ولا يدعي كما كان يدعي المؤسس أنه يملك مفاتيح الجنة. وإن كان يستخدم أيضا تجربة دخول فدائيين الجنة بعد أن تفقدهم الخمر وعيهم، فقد روى عماد الدين أنه غفي واستيقظ فوجد نفسه في النعيم!

ويكشف عماد الدين خلال هذه التجربة أن سنان لا يمكن ان يغتال صلاح الدين، لأنه قرأ الطالع وتبين أنه سيلقى حتفه في ذات السنة التي يموت فيها صلاح الدين، وتنتهي مهمة عماد الدين بكشف ألاعيب هذه الفرقة وأسرارها، ويعود سالما إلى قائده، ويبارك صلاح الدين اقترانه بست الملك، بعد أن نجح عماد في التخلص من الرجل الذي نجح في الوصول إلى مضرع قائده.

الموت

وهذه أحد الأعمال الأدبية الأخرى المميزة، والتي تعالج ذات الموضوع، والتي لم تعرف قيمتها عند إصدارها ، بل اكتشفت بعد فترة طويلة من وفاة كاتبها، فقد صدرت عام ١٩٣٨ ، وقرأت على نطاق واسع سنة ٢٠٠١ أي بعد أحداث ١١ سبتمبر في نيويورك ، وبعد أن أعادت مؤخرا إحدى دور النشر الفرنسية إصدارها، ثم ترجمت إلى

العربية.

وكتبها فلاديمير بارتول (١٩٠٣ - ١٩٦٧) وهو روائى من سلوفينيا - فى الفترة التى تميزت بانتشار الحكومات الاستبدادية والمنظمات الإرهابية فى أوروبا، متخذا من تجربة حسن الصباح نموذجا صارخا على طريقة قيام النظم الاستبدادية والإرهابية، والآثار المدمرة للاستبداد والإرهاب حتى على الداعين إليه، وهى صيحة تنديد بعبادة الفرد.

والمدهش حقا أنها تقوم على دراسة عميقة للعصر الذى يتناوله، وعلى قيام فرقة الحشاشين.

فكم من الوقت استغرقه الكاتب فى الإحاطة بهذا العصر والإعداد لهذا العمل فى ثقافة بعيدة عن ثقافته؟!

وخاصة وهو يتناول جماعة يحفل تاريخها بالستر والكتمان والغموض. وتمكن من مزج الوقائع التاريخية بالخيال، وأقام معمارا روائيا مؤثرا ونابضا بالحياة.

ومسرح الأحداث قلعة على قمة جبال دماوند شمال شرقى إيران، فى منطقة وعرة يصعب الوصول اليها.

ووصف الحياة فى قلعة «الموت» بعيون حليمة الحورية العذراء، التى اشتراها شيخ الجبل لتحقيق نواياه، وحتى تكون إحدى فتيات الفردوس، ويستوحى وصفها بما جاء على لسان ماركو بولو، فتستطيع هذه القلعة مقاومة العالم، ويدخل جنته من يقع عليه الاختيار للقيام بعملية فدائية، فيتناول مخدرا يسلمه إلى النعاس، ويحملهم أتباعه إلى الجنات حيث يستمتعون بما فيها، فيصدقون أن رجل الجبل يملك مفاتيح الجنة ويشتاقون إلى العودة اليها.

وعندما ينوى حسن الصباح القضاء على أحد خصومه، يقول له . اذهب واقتل وسأدخلك الفردوس التى تشتاق إليها!!

ويصف فى روايته عالما سحريا تقيم فيه عذارى يتدربن على فنون الرقص والغناء وطقوس الجنس وأسراره، وينظمن الشعر ويتدربن على الموسيقى، فى منطقة معزولة عن العالم تتعلم حورياته الرقص والغناء والامتاع والمؤانسة، وتشرح المرأة التى تقدم خبرتها قائلة.. «اعلمن أن الرجل مثله مثل قيثارة مرهفة، وعلى المرأة أن تتقن العزف عليها بألف لحن، وهى قادرة بمهارتها أن تجعل القيثارة تشدو بأجمل الألحان».

ويحمى القلعة عدد من الخصيان . من الزنوج العمالقة الذين يرتدون سراويل قصيرة مخططة وطرابيش حمراء، سبق وأهداهم الخليفة الفاطمى

لحسن الصباح.

وقامت هذه الفرقة على استغلال المشاعر الدينية، وتقوم على فكرة دينية هى ضرورة وجود الإمام، كطاقة روحية محركة، ففي انتظار المهدى المنتظر تتم سيطرة المؤمنين على كامل أرض الإسلام و يزعم أنه فى الكتاب سيأتى بعد الأنبياء الستة العظام، آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد (عليهم السلام) رسول سابع هو الأعظم! المهدى وسيكون من سلالة إسماعيل، ومن أجله يقوم الجهاد! فهو الذى سيملأ الأرض عدلا، بعد أن امتلأت جورا!!

ووضع شيخ الجبل نظاما صارما لتحقيق أهدافه ومن أجل إعداد الفدائي المستعد للتضحية وارتياد الجنة الموعودة.

فالحركات السرية يقيمها عقل شيطانى، قادر على تسويق حيله، ويستغل الوجدان الديني ومعارك العصر الذى يعيشه، وحتى إذا كان بلا ايمان فإنه يستغل المؤمنين. وهو بهذا يستغل الضعف الإنسانى من أجل تحقيق الغاية الشريرة التى يسعى إليها ، وكما يروى بارتول كان الدرس الأول الذى أشعل رغبة حسن الصباح فى إقامة التنظيم... «إن قصة على والمهدى ما هى إلا سراب نقصد به المؤمنين الذين يبجلون صهر النبى صلى الله عليه وسلم، ويناهضون الخليفة العباسى ، ولكننا نشرح للقادر على الفهم أن العقيدة ناقصة بالضرورة، وأن ليس بوسع أحد الوصول إلى الحقيقة، وبالتالى.. نحن لا نؤمن بشىء» ونفعل أى شىء!» و«لا شىء صحيح. وكل شىء مباح..»

وجاء على لسانه وهو قائد حركة دينية.. «من يرد أن يكون زعيما لحشود من الناس فعليه ان يتصرف تجاهها تصرف الابوين نحو أطفالهما، وعليه أن يقدم لها الأساطير، ولهذا تظل الحكمة دوما فى منأى عن العامة.. واستخدام الجهل البشرى إلى أبعد الحدود من أجل بلوغ أوج القوة، عندها يصبح المرء مستغنيا، وتتجسد الخرافة، وتتحول الأسطورة إلى حقيقة.. وها أنا جئت إلى «الموت» وبثت الحياة فى الأسطورة ، وأقمت الجنة لأتباعي!!».

كما جاء أيضا على لسان المؤسس.. «إن قوة كل مؤسسة ترتكز أساسا على عمى أتباعها.. وكلما كان مستوى الوعى أقل كان الحماس أشد وأعنف».

وأحسن الكاتب رسم شخصية حسن الصباح، رمز الشخصية المتسلطة والذى يدعى.. «أن جنة كل إنسان ليست سوى سراب، وهى تمثل رغبة خاصة لديه، الخير يتساوى مع الشر.. فليست الأشياء وحدها هى التى تجعل الإنسان سعيدا أو تعيسا، إنما الفكرة التى نكونها عنها، وضروب اليقين الزائفة التى نعتقدها..» ويضيف.. «الوصول إلى

معرفة قطعية أمر مستحيل فحواسنا خادعة، ويتهم الناس من يصرح بذلك بالهرطقة» .

أليس ما ينطق به هو لسان كل مستبد غاشم؟!

وهاهي مجموعة صغيرة، تقوم على الاكاذيب والخرافات، تقيم نظاما حديديا، وتمكنت من خلاله، وعن طريق التآمر وعمليات العنف والاغتيال، من أن تؤثر على الأوضاع القائمة في عالمها، وأن تغير عروش، وتتلاعب بالوزراء والسلاطين.

وروع شيخ الجبل أو راسبوتين، الشرق والغرب بعمليات القتل المشهورة التي نفذها وبالأساطير التي حاكها حوله وحول فرقته.

وهذا كله إحدى نتائج فقدان الوعي وغياب الثقافة. وهي البيئة الصالحة لقيام مثل هذه الحركات.

سمرقند

«سمرقند» هي رمز اللقاء المحتوم بين الإنسان وقدره، هكذا يراها أمين المعلوف في روايته، والتي كتبها قبل أحداث ١١ سبتمبر وبعد قيام الثورة في إيران.

وأمين المعلوف هو شاعر الأمل، كاتب لبناني رحل إلى باريس خلال الحرب الأهلية، يكتب بالفرنسية، وتترجم أعماله إلى العربية، وهو عربي يقف في طليعة الروائيين العرب. له العديد من الأعمال المميزة منها ليون الأفريقي، وصخرة طانيوس، وحدائق النور، وبوابة المشرق، وهو في كل هذه الأعمال يبشر بانتصار الإنسان ، وحياته بعيدا عن التعصب والقهر. يعيد بناء مشاهد التاريخ في رواياته التي يستمد مادتها من التاريخ، ويرصد في سمرقند ظهور أخطر فرق العنف، كاشفا ما تقود إليه من دمار. يدور عمله حول «مخطوط سمرقند» وعمر الخيام الشاعر الحالم والرياضي هو رمز الذوق والفن. والداعية إلى حرية الفكر ومناهضة العنف والتعصب.

وتدور أحداث الرواية بين مثلث الفيلسوف والحاكم والمتمرد، وهو المثلث الذي يتكون من عمر الخيام الذي رصد العالم، وحسن الصباح الذي أرهب العالم. والوزير نظام الحكم الذي حكمه. وكل منهم تعبير صادق عن الذات الفارسية.

ولعله في روايته هذه يقف إلى جانب الإصلاحيين ضد المتشددين في إيران ، وفي الوقت الذي يقف فيه عمر الخيام.. «محبيا حرية الفكر المطلقة التي لا تكاد تعدلها حرية، والتي تفوق في أعماله أشجع المفكرين المحدثين» يقف حسن الصباح كصاحب أول تجربة من نوعها

تتلاعب بالعقول تزيد التعصب والعنف المسلح فى الشرق وربما فى العالم.

وتعيد الرواية إلى الذاكرة أمجاد حضارة فارس التى ألهبت خيال الشعراء والأدباء، والذى كانت قصائد الخيام صيحة ضد العنف «فما من حرب هى نزهة ، غير أن الأمم تنسى والبارود مسكر».

اجتمع الثلاثة نظام الملك والخيام والصباح، ثم تفرقت بهم الأيام، وخان نظام الملك العهد بعد أن نافسه الصباح فى بلاط السلطان السلجوقى ملكشاه مما أدى إلى اختفائه فحق عليه العقاب فدس عليه من يقتله.

وترك حسن الصباح سيرته.. «منذ طفولتى كنت أتوق لكى أكون من الفقهاء وذات يوم التقيت بالداعية عميرة الذى كان له أكبر الأثر على حياتى. وكانت له شخصية قوية وتمكن من إقناعى بما يدعو إليه. وأقسمت يمين الولاء للإمام الفاطمى، ورحلت إلى القاهرة حاجا إلى مقر الخلافة..»

وأودع السجن فى القاهرة ، وخرج منه إلى أصفهان، وأخذ يبحث عن قاعدة ومخبأ سرى ومعقل منيع وعثر على قلعة «ألموت». وهى تعنى باللهجة المحلية عش النسر، ومن سبتمبر ١٠٩٠ ، أصبحت وخلال مائة وستين سنة مقرا لأخطر فرقة عرفها التاريخ.

ولم يغادر القلعة منذ دخوله وحتى وفاته بعد خمسة وثلاثين عاما، ويصف المؤرخ المعاصر له رشيد الدين عمليات هذه الفرقة.. «إن شيخ الجبل نصب الشباك والفخاخ من أجل صيد هدف كبير كنظام الملك»، وبهذا العمل ذاع صيته وعمت شهرته، وأرسى أسس الفدائية..».

لقاء الخيام والصباح

يلتقى عمر الخيام مع حسن الصباح مصادفة، فى إحدى غرف فندق فى قاشان، عندها أخذ عمر يتفرس فى هذا الرجل القصير الأسمر الهزيل والضامر.

ويسأله حسن.. كيف السبيل إلى إظهار الود لمن جاء يشاطرك حجرتك من غير أن يكلف نفسه عناء التعريف بشخصه؟! أتظن أنه ليس فى إمكان المرء معرفة الناس إلا بأسمائهم..؟ يمكن معرفتهم من نظراتهم ومن مشيتهم .. فمنذ دخلت عرفت أنك رجل علم متعود على التكريم. يقول عمر.. من أنت؟

قلت لك اسمى حسن الصباح، من «قم» ولست أدعى مجدا ولكن فى السابعة عشرة من عمرى اتممت قراءة جميع ما يتعلق بعلوم الدين والفلسفة والتاريخ والنجوم.

وأخذ عمر يطرح بعض الأسئلة - بدافع اللهو - عن أفلاطون وإقليدس وبرفوريوس وبطليموس. وعن طب دياسقوريدس وجالينوس والرازى وابن سينا، ثم عن التفسير والفقه.

الحشاشون
وثلاث روايات

ويأتى الجواب دقيقا محددا لا مؤاخذة عليه.

وسحر عمر، فلم يسبق له ان قابل أحدا يعرف كل هذا القدر من العلوم.

وبقدر الحديث عن علاقة عمر الخيام بحسن الصباح يتحفظ على علاقة حسن الصباح بالوزير نظام الملك يقول.. «تدور فى الكتب أسطورة تتحدث عن ثلاثة أصدقاء من الفرس. طبع كل منهم بطريقتين بدايات أعوامنا الألف: عمر الخيام الذى رصد العالم، ونظام الملك الذى حكمه وحسن الصباح الذى أرهبه.

ويقال إنهم طلبوا العلم معا فى نيسابور. وهذا ما لا يمكن ان يكون صحيحا، فنظام الملك أكبر من عمر بثلاثين عاما، وحسن درس فى الرى، وربما طلب بعض العلم أيضا فى «قم» مسقط رأسه.

وتقول مخطوطة سمرقند إن الثلاثة التقوا للمرة الأولى فى أصفهان فى ديوان الوزير بمبادرة من الخيام.

وعندما حاول حسن الصباح غلبة نظام الملك فى بلاط ملكشاه انتهت هذه المحاولة بالهزيمة واستخلص درسا بالغ القيمة، فبدلا من السعى إلى تغيير الأمراء . فإنه سوف يقيم آله حربية بحسب حسابها، آلة لا يشبهها فى شيء كل ما عرفته البشرية من آلات.

وحول أسطورة فردوس الصباح، تستشف من مخطوطة سمرقند.. كثيرا ما قيل إن رجال حسن كانوا يحذرون، ويقابلون الموت بابتسام، لقد أشاع ماركو بولو هذه الفكرة، وأطلق عليهم خصومهم «الحشاشين» للتقليل من اعتبارهم ، والحقيقة غير ذلك، فكان يحلو لحسن الصباح ان يطلق على مريديه «الأساسيين» أى المتمسكين بالأصول، وخيل للرحالة الأجانب أن لهذا اللفظ صلة بالحشيش.

أما مهمة تدريب الفدائى فهى مهمة دقيقة ينصرف إليها حسن بشغف ورهافة، فهناك تعليمه كيف يخفى خنجره، وكيف يستله بحركة خاطفة، وكيف يغرسه فى قلب ضحيته أو فى عنقه إذا كان يحمي صدره درع، وكيف يتقن الاندساس فى وسط معاد وغريب.

ويقول الخيام فى كتاب الحكمة.. «حينما يأتى زمن الانقلابات لا يستطيع أحد وقف مجراه، ولا يقدر أحد على الفرار منه، ويفلح بعضهم فى تسخيره ولقد عرف ابن الصباح، كما لم يعرف أحد سواه، كيف يروض ضراوة الدنيا، فقد زرع حواليه الخوف، ليوفر لنفسه فى ملاذه بالقلعة فضاء صغيرا من الدعة.

وأقام فى قلعة ولم يغادرها أبدا، ولم يخرج من صومعته سوى مرتين، وكانت

كلتاهما للوقوف على السطح.

وعند اقتراب نهايته، وعندما تتأمل العقل المتطرف، نرى أنه لا يعرف من الألوان سوى الأبيض والأسود، يحركه الغضب والإحباط، فهو يتعامل مع المجردات، ولا يتعامل مع الوقائع، يرفض العالم كما هو، ويرسم للعالم صورة غير واقعية رسمها في مخيلته ولا يرضى عنها بديلا. يفضل الموت على الحياة، وهو متشائم يبحث عن من يقوده، لذا يتبع قاعدة الولاء والطاعة، ولا يعرف قيمة الإنسان، لذا كثيرا ما ينقلب إلى الاتجاه المضاد.

ولم يعد هناك من يستطيع أن يتحدث إليه ويحاوره سوى الخيام، وعندما يطلب منه اللقاء، يرد الخيام ما الذي بيني وبين هذا الرجل من أمور مشتركة؟ أنا متعبد للحياة وهو عابد للموت، أنا أهتف قائلا: «إن كنت لا تعرف الحب فما يجديك شروق الشمس أو غروبها». وحسن يدعو الناس إلى تجاهل الحب والموسيقى والشعر والخمر والشمس والقمر، إنه يحتقر أجمل ما في «الخليقة» ويجرؤ على التلفظ باسم «الخالق»، صدقني اذا كانت قلعته هي باب الجنة فإنني استنكف دخولها. ولن أطأ أبدا غار النساك الزائفين ذاك.

ولم يكن غريبا إذن أن تنتصر رواية سمرقند لحكمة عمر الخيام على طيش حسن الصباح، ففي آخر حياة الصباح، اعتنق مبادىء وأفكار الخيام، واعتبر مخطوط سمرقند الذى انتزعه من مخبأه كتابا عظيما من كتب الحكمة. وعهد إلى الفنانين بزخرفته، وطلب من أتباعه إسقاط التكاليف جميعا التي سبق أن فرضها عليهم!

ومخطوط «سمرقند» انتقل من يد إلى أخرى، وعندما دمرت القلعة حمل خازن الكتب هذا المخطوط وفر به إلى كرمان، وأخفاه حتى لا يعثر عليه أحد وصمت «المخطوط» من القرن الثامن الميلادى. وحتى تلقاه جمال الدين الأفغانى هدية فى القرن التاسع عشر وانتزع منه عندما داهمته الشرطة فى إيران وطرد خارجها، ويصل مخطوط سمرقند الى يد الأميرة شيرين التى تتزوج الراوى. ويسافران معا إلى الولايات المتحدة على الباخرة «تايتنك» التى غرقت فى ابريل عام ١٩١٢، ويقبع المخطوط فى أعماق المحيط.

وهى رواية تاريخية، نقلت بحق نبض الأحداث، بقلم غير منقطع الصلة بقلم كاتب «ألف ليلة وليلة» قام على حكم الخيام وأشعاره. ■

طريقة جديدة
وجميلة لكتابة التاريخ

قراءة فى رواية
جنفياف شوفيل

صلاح الدين بطل الإسلام

بقلم
د. قاسم عبده قاسم

توصف العلاقة بين الأدب والتاريخ عادة بأنها علاقة جدلية، إذ يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به. وربما يكون من الأصوب أن نصف هذه العلاقة بأنها علاقة تكاملية. فقد ظل التاريخ زمنا طويلا نوعا من أنواع الأدب من ناحية، كما أن الذين كتبوا التاريخ فى



الأزمنة القديمة والوسطى مزجوه بالشعر والنثر الأدبى وأجناس الأدب من ناحية أخرى.

وكانت القراءة الأولى لتاريخ البشر ممزوجة بالأساطير التى تتحدث عن الأصول وتحاول أن تحكى قصة البداية، كما أن الملاحم الكبرى لدى شعوب الأرض امتزجت بالتاريخ امتزاجا عضويا.

وفى التراث العربى القديم امتزج التاريخ بالشعر فى أيام العرب، كما امتزج بالحكاية والأسطورة فى الإنسان وفى قصص عرب اليمن وجنوب شبه الجزيرة، وعندما تطور الفكر التاريخى العربى بعد الإسلام ظل الأدب والتاريخ فى علاقتهما التكاملية التى تفصح عنها كتب المؤرخين العرب التى لا تخلو من النصوص الأدبية المبثوثة فى ثنايا الرواية التاريخية.. وقد ظل هذا التقليد ساريا حتى القرن الخامس عشر على الأقل.

أما التراث الأوروبى الذى يبدأ بكتابات هرودوت، إمام الفكر التاريخى فى الثقافة الأوروبية عموما، فإن الأدب والتاريخ يتعانقان فيه بشكل واضح يتجلى فى «تواريخ» هردوت التسعة، وكتابات ثوكيد يدس. ثم فى التراث الرومانى فى كتابات شيشرون الذى اعتبر التاريخ بضاعة رائجة يحملها الخطيب المفوه الذى يجب أن يتسلح بالأمثلة التاريخية فى ساحات الخطابة.

وفى العصور الوسطى كان تأثير الأدب على التاريخ طاغيا إلى حد كبير، ولم يحدث سوى فى فترة متأخرة أن استقلت الدراسات التاريخية عن أقسام الأدب فى الجامعات الأوروبية.

من ناحية أخرى، فإن الأدب، بأجناسه وأنواعه، مصدر هام من مصادر المؤرخ يستكمل به صورة الحدث الذى يسترده من ذمة الماضى، فإذا كانت المصادر التاريخية التقليدية تساعدنا على استعادة شكل الحدث من الماضى، فإن الأدب يساعدنا على بث الروح فى هذا الحدث المستعاد. وفى المقابل نجد أن التاريخ منبع الإلهام للكثير من الإبداعات الأدبية بكافة أجناسها، إذ يحدث كثيرا أن يكون حادث تاريخى ما، أو بطل تاريخى، مصدر إلهام لعمل أدبى أو فنى. وربما تكون الرواية التاريخية هى أكثر الأجناس الأدبية اعتمادا على التاريخ.

وهذا هو السبب فى اختيار رواية «صلاح الدين» - بطل الإسلام» لجنفياف شوفيل فى هذه الدراسة، وربما يكون مناسبا أن نذكر أنفسنا بأن الرواية التاريخية نمط من أنماط الرواية يتخذ التاريخ قاعدة له، وفيه يحاول المؤلف أن يمزج الواقع التاريخى بالخيال الفنى محاولا الحفاظ على التوازن بين «الصدق الفنى» و«الصدق التاريخى». فحدود الزمن التاريخى والأحداث التاريخية الرئيسية والأبطال التاريخيين - كلها أمور

الرواية كتبت فى الأصل بالفرنسية Saladin, rassembleur de i.Tslam - Genevieve Chauvel Editns pygma liqn, Paris 1991

الترجمة العربية

صلاح الدين بطل الإسلام ، ترجمة جورج أبى صالح . دار الأميرة، بيروت ١٩٩٢

يجب الحفاظ عليها ومراعاتها، ويبقى للمؤلف حق ابتكار الشخصيات والأحداث الفرعية التي تخدم هدفه الفني وتكسبه مذاق الإبداع الذي يميز مؤلفا عن مؤلف آخر.

اعترافات صلاح الدين

رواية «صلاح الدين - بطل الإسلام» التي كتبتها جنفياف شوفيل عبارة عن سيرة ذاتية على لسان صلاح الدين الأيوبي نفسه. وربما يكون هذا هو الجانب الخيال الوحيد في الرواية كلها، فقد تخيلت الكاتبة أن صلاح الدين الأيوبي يحكي قصة حياته منذ يوم ولادته. والأحوال التي مرت بها طفولته وصباه قبل أن يصل إلى سن الشباب ويجد نفسه في خضم نظام التربية والتدريب الصارم الذي كان الأمراء من بني أيوب، وغيرهم، يخضعون له قبل أن يتولى أي منهم مسئولية ما. وهنا نجد شيئا فريدا في «الروايات التاريخية» يجعلنا نقرر أن ما كتبته جنفياف شوفيل نوع من «رواية التاريخ» أكثر منه «رواية تاريخية».

وتفصيل ذلك أن المؤلفة كشفت عن معرفة عميقة بأدق تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت في المنطقة العربية آنذاك من ناحية، كما كشفت عن قدرتها على كتابة التاريخ بهذا الشكل الروائي الفذ من ناحية أخرى. فقد حفلت الرواية بتفاصيل كثيرة وأسماء عديدة في فترة التكوين التي مر بها صلاح الدين، وكشفت عن جوانب عاطفية ووجدانية في شخصية هذا البطل المسلم فسرت الكثير من تصرفاته اللاحقة عندما صار هو قائد الجبهة العربية الإسلامية في مواجهة الفرنج الصليبيين.

تتحدث الرواية عن ميول صلاح الدين الأدبية والفقهية، كما تتحدث عن نزعاته الصوفية، فضلا عن كراهيته للعنف والقوة الغاشمة التي ميزت تلك العصور التي امتزجت فيها الوحشية العسكرية بالتدين بسبب التعصب الذي زرعته الحروب الصليبية في المنطقة. وتتحدث الرواية عن علاقته الجميلة بأمه، وعن حيرته في التعرف على نفسه والبحث عن ذاته. وفي هذا كله نجد الخيال في خدمة التاريخ. إذ إن المؤرخ العارف لا يستطيع أن يمسك بتلابيب الخيال منفردا جامحا، وإنما يجده دائما ممتزجا بالحقائق التاريخية بشكل بديع يبعث على الإعجاب والعجب. الإعجاب بقدرة المؤلفة المؤرخة على لم شتات هذه التفاصيل في سياق روائي والعجب من تمكنها على توظيف الخيال لخدمة التاريخ وليس العكس كما يحدث في الروايات التاريخية عادة.

بين جنفياف وزيدان

إن الفارق بين هذه الرواية وروايات جرجي زيدان، مثلا، أن جرجي زيدان كان يرى أن عامة القراء لا يقبلون على قراءة التاريخ إلا إذ كان فيه قدر كبير من الخيال، ومن ثم فإنه وظف التاريخ في خدمة الفن الروائي، وعلى نهجه سار عدد كبير من الروائيين منهم محمد علي باكثير، ومحمد فريد أبو حديد، والعريان... وغيرهم لكن الأمر مختلف في هذه الرواية، فهي في تقدير تاريخ خالص لم يلعب فيه الخيال غير دور التقديم والربط والحبكة الروائية. من ناحية أخرى، فإن الجغرافيا في رواية «صلاح الدين - بطل الإسلام» جغرافيا حقيقية تجعلك تحس أن المؤلفة المؤرخة كتبت روايتها على خريطة المنطقة العربية.

وتبدو فصول الرواية بعناوينها المثيرة في صورة الترتيب التصاعدي لأحداث الرواية بالشكل الذي يجمع بين حبكة العمل الفني من ناحية، وحقائق السيرة التاريخية لبطل

الإسلام من ناحية أخرى. فالفصول الأولى، بطبيعة الحال، فصول تمهيدية تتحدث عن مولد صلاح الدين، ورحيل الأسرة تحت وطأة الظروف السياسية والعسكرية المعاكسة، ثم الاستقرار في أعالي العراق وبداية التكوين والبيئة التي شهدت بداية تكوين البطل. مع قدرة فذة على تصوير الشخصيات التاريخية التي نعرفها من مصادرنا التاريخية بحيث تعايشنا ونعايشها. والفرق بين ما كتبته جنفياف شوفيل وما كتبه المؤرخون المعاصرون يشبه الفرق بين الفيلم السينمائي، أو الفيديو، والصورة الفوتوغرافية، كلاهما الشخص نفسه ولكن الفارق بين حيوية الفيلم وجماد الصورة واسع وكبير.

سيرة بطل

لكن الرواية تكتسب جمالا تاريخيا وفنيا عندما تبدأ في تتبع صلاح الدين وهو فارس في جيش عمه «أسد الدين شيركوه» الذي أرسله نور الدين محمود للتصدي لمحاولات الصليبيين الاستيلاء على مصر. كان نور الدين محمود قد خلف أباه عماد الدين زنكي في زعامة الجبهة الشمالية على محور الموصل – حلب، وبعد أن نجح في استرداد إمارة الرها سنة ١١٤٤ م أخذ يضغط بقوة على أعصاب الفرنج الصليبيين وممتلكاتهم في شمال بلاد الشام. وكان طبيعيا أن تتجه أنظار هؤلاء إلى مصر التي كانت أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف النيل. وقد أدى صراع الطمع في السلطة بين شاور وضرغام إلى إتاحة الفرصة للتسابق بين نور الدين محمود وعموري ملك الفرنج على الفوز بمصر، وفي خضم هذه الأحداث بزغ نجم صلاح الدين الأيوبي وبانت مواهبه.

وهنا كشفت المؤلفة المؤرخة مرة أخرى عن قدراتها الفذة، وعن حيادها العلمي. فقد أوضحت تماما أبعاد الصراع بين الفرنج الصليبيين والعرب المسلمين،وهو صراع بين مستوطن جاء من بلاد بعيدة وغريبة ليطرد شعبا من أرضه ليقيم مكانه. وكشفت جنفياف شوفيل عن حقائق وتفاصيل كثيرة في هذا الصراع بشكل يشي بأنها قرأت العديد من المصادر التاريخية من الجانب العربي ومن الجانب اللاتيني على حد سواء. وفي هذه المرحلة ايضا كشفت الرواية عن جوانب هامة من شخصية صلاح الدين التي انضجتها التجارب والأخطار. كما رسمت باقتدار صور الزعماء والقادة من الجانبين.

المرحلة الأخيرة في الكتاب تحتل الفصول التي تتحدث عن صلاح الدين وزيرا للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بالقاهرة، وعودة مصر إلى المذهب السني، ثم موت الخليفة والصعوبات التي واجهت صلاح الدين في سبيل توطيد سلطانه بمصر، وما واجهه من مؤامرات عنيفة بين بقايا القوى السياسية الموالية للفاطميين. ولكن الرواية لم تغفل الحديث عن حياته الخاصة، وعلاقاته الأسرية، والجوانب الإنسانية الأخاذة في شخصية البطل المسلم الذي تبدي المؤلفة المؤرخة إعجابا واضحا به. ثم تتحدث الرواية عن الوحشة بينه وبين نور الدين محمود بطريقة بسيطة وجميلة. وعندما يموت نور الدين



محمود نجد الرواية تدخل في تفاصيل العلاقات الإنسانية والسياسية والأحداث العسكرية بشكل لا نجد له مثيلا حتى في الدراسات التاريخية الحديثة التي اهتمت ببحث سيرة صلاح الدين الأيوبي.

الأحداث الأخيرة تبرز فيا قامة صلاح الدين بطل الإسلام أعلى من كل معاصريه لاسيما بعد أن خلا المسرح من سيرة نور الدين محمود وعدوه عموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي. وكم كان جميلا أن نرى بطلنا يعيش التوتر والقلق والخوف، ثم لحظات الفرح والانتصار، ثم الترقب، والانتظار. فنحن أمام بطل تاريخي جردته المصادر التاريخية التقليدية من إنسانيته وصورته لنا من خلال الأحداث وحدها. ولكن هذه الرواية أعادته لنا إنسانا نعايشه في قصره، ومع أبنائه وخواصه، ونجلس معه في خيمته، ثم نصحبه على صهوات الخيول في طرق السفر وفي ميادين القتال. يعرف الغضب، ويعتصم بالحلم، يعاقب في عنف، ويعفو عن مقدرة، ولكنه يمضي في طريق نحو هدف كرس حياته له هو الدفاع عن مقدسات الامة التي التفت حوله وباركت خطاه.

شجاعة فارس

تتوالى الأحداث بكل تفاصيلها الصغيرة في صفحات رواية جنفياف شوفيل حتى نجد أنفسنا مع صلاح الدين الأيوبي وقواته نحاصر حصن الكرك، ثم تبهرنا شجاعته ونبله حينما يسمح لعروس من الفرنج وعريسها بالخروج من أحد ابراج الحصن لاتمام زفافهما على حين يدور القتال حول الأبراج الأخرى. وتعترينا الدهشة عندما يأمر البطل المسلم فرقة عسكرية من فرسانه بحراسة العروسين حتى يصلا إلى مكانهما.

وفي حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م تتقطع أنفاسنا مع الاستعداد للقتال ونصلي مع الجنود المسلمين ونبتهل الى الله طلبا للنصر، ونتسلل مع جنود الاستطلاع الذين يضرمون النيران في الاعشاب الجافة فوق قرون حطين لتزيد من سوء أوضاع القوات الصليبية ليلة المعركة. ونهلل مكبرين طوال الليل لتبث الرعب في أولئك الفرنج الملاعين الذين تركوا بلادهم البعيدة لكي يحتلوا بلادنا ويستوطنوها. وتدخل ذرات الغبار والدخان في عيوننا وانوفنا ونحن نتابع أحداث المعركة التي انتهت بتحطيم زهرة الجيوش اللاتينية وأسر قادتها وعلى رأسهم ملك بيت المقدس جاي لوزنيان المذعور. ولكننا نكتشف أن البطل المسلم ذا الخصال النبيلة يتحول إلى أسد هصور وهو يطيح بسيفه رأس أرناط «ريناك دي شايتون» أمير الكرك الصليبي الغادر المغرور. ثم يعود مرة أخرى بطلا يتخلق بأخلاق الشهامة العربية وهو يطمئن الملك الصليبي المذعور بأن «الملوك لا يقتلون الملوك».

أما مشهد تحرير القدس فإن الرواية تحتفي به احتفاء خاصا، وهي تجسد روايات المؤرخين، من العرب والفرنج، عن السلوك الإنساني للمنتصرين. لم يذعنوا لرغبات الانتقام التي كانت تحرضهم على أخذ الثأر للمذبحة البشعة التي ارتكبها الصليبيون بحق سكان المدينة المقدسة قبل ثمانية وثمانين عاما عندما ذبحوا الأهالي المسالمين وتباهي مؤرخوهم بأن الخيول والمشاة كانوا يخوضون في دماء الضحايا حتى أعقابهم، وعندما كانوا يجمعون الجثث أكواما ليحرقوها ثم يفتشون في رمادها عن الذهب الذي توهموا أن سكان المدينة قد ابتلعوه حتى لا يأخذه الفرنج على العكس من ذلك كله، امر صلاح الدين جنوده بعدم المساس بالمدنيين الذين يلزمون منازلهم، وسمح للبطريرك بأن

يحمل معه الذهب والاحجار الكريمة ونفائس الأشياء التي حملها فوق بغاله وخرج تحت سمع الجنود المسلمين وبصرهم.

الحملة الصليبية الثالثة

الفصول الأخيرة من رواية «صلاح الدين بطل الإسلام» تتحدث عن أحداث الحملة الصليبية الثالثة التي جردتها اوروبا الكاثوليكية ضد المنطقة العربية نتيجة لمعركة حطين وتحرير القدس، والتي جاء على رأسها ثلاثة من رؤوس أوروبا المتوجة: فردريك بربروسا «صاحب اللحية الحمراء» المسن امبراطور المانيا، وفيليب اغسطس ملك فرنسا القبيح المخادع، وريتشارد الاول «قلب الأسد» ملك انجلترا المشاغب. وقد انتهى الامبراطور الألماني المسن غرقا في احد انهار اسيا الصغرى وتشتت جيشه ولم تصل منه الى فلسطين سوى شراذم قليلة، أما الملك الفرنسي فقد مكث فترة بفلسطين يكيد لريتشارد . ثم عاد الى بلاده يواصل دسائسه ضد ملك الانجليز.

ونجحت الرواية نجاحا باهرا في تصوير الصراع الإنساني والعسكري والسياسي ضد الملك الانجليزي ، بكل ما اشتهر به من تهور وخداع وعدم الوفاء بالعهد والسلطان المسلم بكل ما عرف عنه من شجاعة وكرم وأريحية وإنسانية. ومع الاحتفاظ بكل التفاصيل التاريخية الصغيرة، نجحت الرواية في تصوير الجوانب البشرية في هذا الصراع من خلال عروض الزواج والمصاهرة والمحادثات التي جرت لاقناع صلاح الدين بالموافقة على زواج أخيه الملك العادل من إحدى الأميرات الفرنجيات بسعاية ريتشارد. واستطاعت الكاتبة ان تغوص بنا في أعماق النفس الإنسانية بخيالها الفني الذي ساندته معلوماتها التاريخية الغزيرة.

انتهى الصراع بين صلاح الدين وريتشارد الأول بصلح الرملة الذي أبقى الحال على ما هو عليه. ورجع الملك الانجليزي الى بلاده عن طريق يبعده عن أعدائه الكثيرين في أوروبا، ولكنه وقع في الأسر، ولم يخرج من سجنه الا بعد دفع فدية ضخمة، وعلى شاطىء نورماندي الفرنسي لقي مصرعه بسهم أطلقه احد الجنود من قلعة كان يحاصرها . وانتهى الدور التاريخي لملك انجلترا المشاغب.

اما الناصر صلاح الدين الأيوبي فقد حكى لنا ما حدث في أيامه الأخيرة بأسلوب جنفياف شوفيل المثير. وعندما توفي لم يجدوا في خزانته من المال شيئا يذكر. بيد أنه ترك في خزانة التاريخ كنزا رائعا يمكن لكل الاجيال من بعده ان تأخذ منه.

هذه الطريقة الجديدة، والجميلة، لكتابة التاريخ – او قراءته – هي التي ميزت هذه الرواية التاريخية البديعة. ولأنها طريقة جديدة وجميلة فإن نتيجتها مدهشة لاسيما وأنها التزمت بالحقائق التاريخية من ناحية، وبالموضوعية التي ينبغي ان يتميز بها البحث التاريخي من ناحية ثانية. ■





أساطير وحكايات تدور حولها ولا تقل خيالا عن الحياة داخلها. مرويات لا يزال الواقف على بابها يتلاستها مع كل داخل وكل خارج. تحكى عن حكايات حاكم منصور وآخر معزول، وعن قائد جيوش وشجاعة مملوك. وعن آخر مهموم مأزوم وغيره يدعو الى رحمة الله الواسعة. كل ذلك عن الحياة داخل القاهرة القديمة التى عاشت حياة حافلة بالتاريخ والأحداث والأهوال، تماما كما قرأنا فى حكايات ألف ليلة وليلة. ورغم مرور السنين ورغم التغييرات التى طرأت على وجهها إلا أن حكاياتها هى نفس الحكايات التى تسرد تاريخ أقدار البشر الذين عاشوا بين ضلوعها وأسوارها وأبوابها .

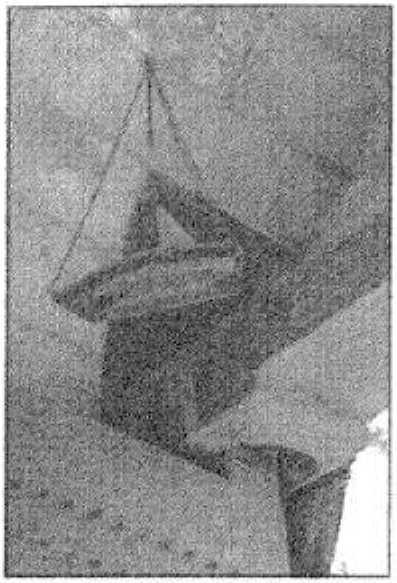
منذ مئات السنين تراه يجلس على مقعده الخشبي أمام متجره يدخن النارجيلة، يقطع وقت فراغه بالتأمل أو التحاور مع أحد جيرانه. وتتخيل وأنت تراه في جلسته وهو متكئ الظهر على أحجار بوابة القاهرة القديمة أن الوقت لن ينقضي، وأن حياته يملؤها الضجر الذي يثير اليأس من التغيير . والمفارقة أن فكرة التغيير غير مطروحة على بال ذلك التاجر المتأمل. فهو كغيره من المصريين يكره التغيير وينظر إليه بتوجس. فالأمن في الثبات والرسوخ والقلق والخوف ينبع من قلب الأوضاع الموروثة. ورغم أن القاهرة القديمة أعيد بناؤها المرة بعد الأخرى، وفي كل مرة تفقد جزءا من بهائها . غير أن ما يتبقى فيها تلك الروح الكامنة داخل جسود سكانها، وحكاياتهم المروية التي تتوارثها جيلاً بعد جيل. وهي معتقدات راسخة لا تقبل التغيير تماما كحياتهم المستمرة داخلها منذ أمد بعيد .

وهذا ما يفسر ارتباط الكثير في الخرافات والحكايات التي تصل الى حد الأساطير بأبواب القاهرة القديمة منذ قيام القائد الفاطمي جوهر الصقلي ببناء قاهرته وإحاطتها بأبواب وأسوار ضخمة. والمرويات الخيالية يتناقلها الناس فيما بينهم عن تلك الأسوار. فنجد الكثيرين يقفون أمام البوابة القديمة يبحثون دائما عن أمل مفقود أو أمنية طال انتظار تحقيقها . بل حتى المارين من بين ضلفتيها الكبيرتين يتملكهم حنين غامض الى تلك الأماني. ويرددون دعواتهم في الخفاء داخل الصدور حبيسة . تلك حكايات إنسانية حميمة ارتبطت في أذهان الناس بأبواب القاهرة لتؤكد الخصوصية غير العادية التي تتمتع بها، والتي تدفع أحاسيس المؤمنين بها لتسير داخل متاهات من الأحلام وأحيانا الأوهام!

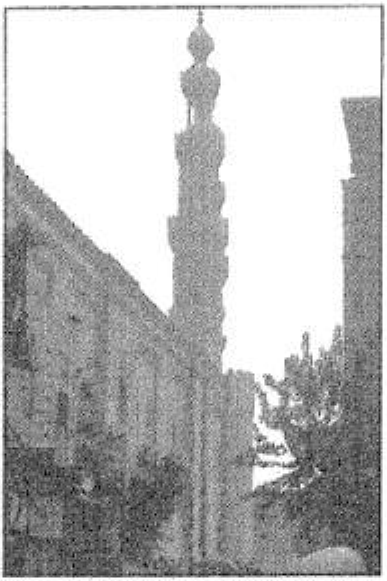
منذ بناء القاهرة وأبوابها الثمانية التي تتخلل جسد أسوارها الحصينة لم يكن الغـــرض من بناء تلك الأبواب والأسوار التي تدور حول المدينة أن يتم بناء داخلها عاصمة للقطر المصري. وإن كان الغرض أن تكون مقرا للخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه (وصل عددهم الى ما يقرب من ٣٠ ألف من الحاشية). ولم يكن مسموحا لعامة أهل مصر الدخول اليها الا بعد الحصول على إذن . حتى أن سفراء الدول الأجنبية كان عليهم أن يترجلوا حينما يصلون أمام الأبواب. ثم يدخلون مقر الخليفة وسط حراسة الجند. لذا كانت القاهرة دوما مدينة ملكية وليست مدينة للعامة . لذا كانت مثارا لخيال عامة البشر نظرا لجدرانها الشاهقة ولأبوابها الحصينة التي سكنها الجنود المرابطون . فعاشت المدينة في عزلة وغموض تثير حولها الأساطير والحكايات. ويقول المقريزي إن أبواب القاهرة هي : باب النصر وباب الفتوح من الجهة الشمالية. باب القنطرة المؤدي الى جسر جوهر فوق الخليج. وباب الفرج أو باب الشعرية. وباب سعادة أو باب خوخة من الغرب. ثم باب زويلة من الجهة الجنوبية. وفي الشرق باب المحروق الذي أحرقه المماليك في القرن الثالث عشر والباب الجديد الذي بناه الحاكم بأمره. وباب البرقية الذي يعرف باسم باب الغريب.

زويلة والأمل المفقود

على البوابة الخشبية العتيقة، وعلى مساميرها المعدنية الصدئة ترى شعرات رأس معقودة ، وخيوط متهالكة مربوطة بل وبعض قصاصات الملابس المتهالكة (الأثر كما يطلقون عليها) يأتي بها كل ذي حاجة أو أمنية أو ضائقة. يربطها ويعقدها على



مركب سيدي المتولي رمز رحلته من وإلى مكه المكرمة



مئذنة جامع المؤيد شيخ التي تعلو برجي باب زويله

مسامير البوابة أملا فى قدوم الفرج، وانقشاع الغمة، أو الضائقة أو تحقيق الأمل الذى كان صعب المنال. وفى الوقت نفسه تجد أهالى الحى كبار السن خاصة النساء الطاعنات يقومون بحل العقد وفك المربوط أملا من فى أن تنال كل نفس آمالها وتزول ضائقة أصحابها. هذا هو الحال كل يوم منذ ألف عام . وحتى يومنا هذا. عند بوابة زويلة أو كما يطلق عليها أهالى المكان بوابة «المتولي» . لا يزال يعبرها المهموم والمأزوم وأهل الخير والمتبرع بفك العقود والدعوة الى رحمة الله ايمانا منهم ببركاتها وحكاياتها .

وبرغم أن الكثير من الخرافات والأساطير قد ارتبطت بصفة عامة بالأبواب القديمة الا أن باب زويلة كان له النصيب الأكبر من الخيال.لذا ظل على مدى تاريخه بقعة آهلة بالسكان. برغم ارتباطه بالموت الا انه ارتبط بالأمل أيضا.

فعلى بوابته كانت عمليات الإعدام تتم مثال ذلك عندما أصدر سليم الأول قرارا باعدام الأمير المملوكي «طومان باي» بعد هزيمة المماليك ودخول العثمانيين. وأمر بمكوث جثته معلقة على بوابة زويلة على مدى ثلاثة أيام. إلا أن كآبة الموت على البوابة لم يغير من الاعتقاد السائد بأن عقد الشعر أو الخيوط أو قطع القماش على مساميرها المعدنية من المؤكد أنها تحل مشكلة صاحبها أو تزيل غمته وهمه اذا ما قام أحد المارين بحل عقدتها وفك رابطها بالبوابة. ويذكر لنا المقريزى أن الباب الأصلى كان يوجد بجوار معبد «شم» ابن سيدنا نوح. وهو الباب الذى دخل منه المعز لدين الله حينما جاء الى القاهرة الجديدة فى زيارة رسمية . وحذا حذوه الناس جميعا. وكان جوهر الصقلى قائد جيوش الخلافة الفاطمية بعدما حدد مساحة القاهرة ومكانها . شيد حولها

سورا من الطوب اللبن. لكن «الصقلي» حرص على انشاء الأبواب بين برجين عملاقين. ثلثا كل برج مصمت بالطوب والثلث العلوى مفرغ.. ليحتوى على نوافذ يقف فيها الرماة بالسهام والنار والماء المغلي للدفاع عن المدينة. ويذكر لنا ستانلي لينبول في كتابه سيرة القاهرة أن الوزير بدر الدين الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي عندما جاء حكمه سمعت القاهرة مرة أخرى صوت موالج البنائين. ذلك أن القاهرة كانت في حاجة ملحة الى التحصين واصلاح ما سبق وأن أفسدته القوات المتمردة والحروب. فالسور القديم المصنوع من الآجر قد اختفى في ثنايا المدينة التي استعت وأصبحت تصل الى خارج الأبواب الثلاثة التي بناها «جوهر» . لذا قام بهدمها وأعاد بنائها بالحجر في عام (١١٨٧، ١١٩١). وبنى حائطا جديدا من الآجر حول المدينة والذى عمل صلاح الدين الأيوبى على توسيعه فيما بعد. ويوضح «لينبول» أن الأبواب الثلاثة الكبيرة (زويلة / النصر / الفتوح) لم يطرأ عليها تغيير كبير. الا أن أبراج باب زويلة قصرت لكى تستقبل مآذن جامع المؤيد فى القرن الخامس عشر. ويصفه «المقريزى» بقوله «أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظمة باب زويلة، ولايرى مثل بدنيتيه اللتين عن جانبيه».

يامتولي ياقطب

وإن كانت نيرى هامبكيان أستاذة الترميم بمركز البحوث الأمريكية بمصر التابع للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية وهى التى أشرفت على مشروع ترميم باب زويلة (١٩٩٨ - ٢٠٠٣) كانت لها آراء مثيرة حول حكايات وأساطير باب زويلة العظيم. فتقول عندما أتولى عملية مبنى أو مكان أو باب عليّ أولا معرفة حكاياته حتى تنفتح أمامى أسراره وبالتالى تتحول العلاقة بيني وبين المكان الى علاقة حب وطيدة» وهذا ماحدث لها عند البدء فى مشروع ترميم باب زويلة. حيث أكدت أنه بعد خلع ضلفتى الباب للبدء فى ترميمهما اكتشف فريق العمل أشياء لم تخطر على بال أحد منا .. مئات الأسنان البشرية، قصاقيص القماش المتهالكة، والخيوط.. والتى تناثرت بعد القيام بخلع المسامير المعدنية التى لا وظيفة لها سوى أنها مجرد حليات مضافة الى جسم الباب . لذا أقبل فريق العمل على القيام بحفائر خلف ضلفتى الباب فوجدنا مئات فى الأحجبة والأعمال السحرية القديمة وعدد كبير من العملات المعدنية على مر العصور.. وتضيف أن تلك الاكتشافات فسرت الكثير فى سلوكيات الناس الزائرين للباب فى يومنا هذا. فالأمر متوارث منذ زمن طويل. حيث كان أهالى القاهرة يعتقدون فى قدسية باب زويلة ويعتبرون الدعوة على بابه مستجابة باذن الله. ويبررون ذلك بأن حارس الباب أو الذى يتولى أمره هو «سيدى المتولى» وهو بالنسبة لأتباع المذهب الصوفى، أحد أقطاب العالم وبعض منهم يعتقد أنه القطب الأوحد. ويعتقدون أنه الشيخ المتولى أو كما ينادونه (يامتولى ياقطب) قادر على الاستشراف وعلاج الأمراض وتحقيق الدعاوى والأمانى. ويعتقدون أنه يسكن فوق سطح الكعبة المشرفة. وعند كل فجر يبدأ يومه بقوله «يارحمن يارحيم» وبعدها يتنقل بين أرجاء العالم كله. لكنه لا يستقر الا عند المكان الذى يرتاح له ويأنس له وهو بالطبع «باب زويلة» فهو مكانه المفضل. وتوضح «هامبكيان» أن المركب الخشبى الصغير المعلق فوق

البوابة الشرقية هو رمز رحلة الذهاب والعودة الى مكة والحج اليها. وتتذكر أن عددا كبيرا من أهالى المكان خاصة كبار السن منهم هلعوا عندما أنزلنا المركب لترميمه وكان القلق واضحا عليهم. كل منهم يأتى ليسأل عن مصير المركب الخشبى محذرين من عدم تسليمه إلى المتحف الاسلامى. واصرارهم على مكوثه فوق بوابة المتولى، حتى لا يفقدوا أملهم فى النجاة. وتصف لنا أن بوابة «المتولى» كانت دوما على مدى السنين مكان التقاء المصريين من كل صوب فى القرى والنجوع البعيدة، خاصة فى الموالد والأعياد. يأتون محملين بأحجبتهم وأدعيتهم التى تحمل اسم المتولى. حتى أن الضريح الملاصق للبوابة والجامع المؤيد.. يمتلئ وقتها بالتماثيل غريبة الشكل. فهى هياكل طينية بلا أيدى أو أرجل أو رأس يضعونها داخل الضريح أملا فى تحقيق أمنية عزيزة مثل من لم يرزقه الله بالأطفال او بالولد او لم تتزوج أو لم تنجب وتؤكد انها قامت بجمع كل المتعلقات بتلك الحكايات الشعبية المروثة وقامت بعرضها داخل السبيل القريب من البوابة وهو سبيل نفيسا البيضا «وأطلقت عليه «روح المتولى».

فى حين يؤكد الدكتور مختار الكسبانى أستاذ الآثار الاسلامية وأحد أعضاء لجنة مشروع تطوير القاهرة التاريخية أنه لا يوجد باب من أبواب القاهرة القديمة إلا وتجد بجواره ضريحا لأحد الأولياء الصالحين، وكأنه رمز لرموز الشهادة والدفاع فى سبيل الله. بل وقد تكون تلك الأضرحة وهمية وليست أماكن دفن حقيقية. بل وقد تحمل مسميات مختلفة لكل الناس تتبارك بزيارتها. مثال ذلك «باب سعادة» بجواره ضريح أطلق عليه الناس «الست السعادة» رغم أن الباب يحمل اسم «سعادة بن حيان» قائد من قوات الجيش الفاطمى. لكن مع المصريين وحكاياتهم التى يتناقلونها تحول الى ضريح مبارك وأنه لسيدة وتحمل كرامات وبركات. وأصبح له مكان يزورنه بشكل مستمر يشعلون الشموع داخله.

لماذا هي فريدة؟

ومع تقادم الزمان نجد أن لكل قصة جديرة بأن نرويها. قصة انتصار أو انكسار او قصة زهد او ثراء وبهاء. فإذا اتجهت بنظرك لأعلى لتشاهد مآذن جامع المؤيد الشامختين فوق برجى بوابة زويلة من الممكن ان تسمع حكايات المؤيد شيخ الذى كان حبيس السجن الملاصق للبوابة. ولكنه أنذر وتعهد أنه اذا فك الله أسره وسجنه فإنه سيبنى مكان سجنه جامع كبير يرتاده الناس ليصلوا فيه ويتذكرون حكاية صاحبه وهذا ماحدث.

لذا نجد البرفيسيور اولج جرابار أستاذ العمارة التاريخية فى جامعة كامبردج يطرح تساؤلا «لماذا هى فريدة؟» فى دراسة له حول معنى التاريخ فى مدينة القاهرة. ويقول «قد لا يكون فى القاهرة مكان آخر أكثر روعة من باب زويلة حيث يدعم السور الفاطيمى الذى يرجع تاريخه الى عام ١٠٩٢ حيث يدعم السور مدلاديه. ومسجد المؤيد الذى يرجع الى (١٤٠٥ -م. ١٤٢٠). وحيث يقع بالجوار جامع الصالح الطلائع المميز للغايات حيث تفتح الساحات فى اتجاه كافة أجزاء المدنية القديمة. ورغم أن المكان يضم عدة طرز انشائية مختلفة ومبان ذات وظائف متكررة كلها تلاصق بعضها البعض. ورغم تفاوتها الا انها تمثل وحدة حياة المدينة. بأنشطتها غير المحدودة. وأصبحت هذه المعالم ببساطة شريكة

بالمصادفة للحياة المستمرة . وبالتالى فيمكن لمبنى برج حربى أن يصبح قاعدة لمئذنة أو مكان يستخدمه تاجر اليوم لتعليق بضائعه. حيث أنه موجود وينتمى إلى أى شخص يستفيد منه.. لذا فهى مكان فريد..».

امام بابى العز والاقبال

ورغم أن الحكايات والخرافات ارتبطت كثيرا بباب زويلة . غير ان باب النصر وباب الفتوح الحدود الشمالية للقاهرة الفاطمية كان لهما نصيب ايضا . فى خيالات الناس القريبة منها . فرغم أن البوابتين تحملان فى الأصل اسم «باب العز» و«باب الاقبال» كما يذكر الدكتور «الكسباني» الا أنهما ارتبطا فى أذهان البشر باطلاق اسم باب النصر وباب الفتوح عليها ويقال ان باب النصر سمى كذلك لأنه كان مخصصا لاستقبال الجيوش الفاطمية العائدة من الحروب.. وذلك تفاؤلا بأن تعود منتصرة فى حروبها. أما «باب الفتوح» فكان مخصصا لنفس تلك الجيوش ولكن لدى خروجها الى الحرب وذلك طلبا وأملا فى أن يفتح عليها الله وتنتصر. لذا كان الفاطميون يضعون أعلى كل بوابة عبارة استهلالية «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لاشريك له ، محمد رسول الله وعلى ولى الله.. صلى الله عليهما وعلى الأئمة وذريتهما أجمعين» وذلك تيمنا وتباركا طبقا لمعتقداتهم الشيعية.. ويوضح لنا الأثرى صابر غازى مفتش آثار والمشرف على ترميم سور القاهرة الشمالى ان بوابة النصر تعتبر البوابة التجارية حيث يحيط بها سوق البصل والثوم. وهى سوق جملة يرتادها تجار الخضراوات لشراء البصل والثوم منذ سنوات طويلة . وبالقرب منها أيضا سوق النحاسين الشهير المخصص لصناعة النحاس ومنتجاته. لذا يوضح أن ذلك دفع الخليفة الى وضع لائحة بقيمة الضرائب المفروضة على كل السلع الداخلة الى القاهرة لكى يتم بيعها. وأمر بوضع تلك اللائحة الحجرية على أحد جوانب بوابة النصر حتى لا يختلط الأمر على (متولى الحسبة) الذى كان يجلس إلى جوار الباب نائبا عن المحتسب ، ليتقاضى الضرائب من التجار الداخلين طبقا للائحة الحاكم. أما باب الفتوح لم يخل من وجود الضريح الصغير الملاصق لبوابته وتعلوه القبة الخضراء الصغيرة. ويحكى لنا «غازى» أن ذلك الضريح يحمل حكاية طريفة وهى أنه كان فى أحد العصور تاجر كبير يحمل اسم (حسن الذوق) قرر ترك البلاد بعدما فرض الخليفة ضرائب باهظة على البضائع الداخلة الى القاهرة . فقام «حسن» ببيع ممتلكاته تمهيدا لهجرته إلى الشام. لكنه مات قبل أن يخرج من باب الفتوح. لذا تناقل الناس حكاية حسن التاجر وتندروا بها بقولهم «الذوق لم يخرج من مصر».

ويذكر لنا أن هناك ممرات طويلة وسراديب تصل بين أبراج السور الشمالى التى يصل عددها الى ثمانية ابراج . وداخل كل برج عدد من الغرف التى تحتوى على «مزاغل» اى شبابيك صغيرة يحتمى داخلها الجنود يشاهدون من فى الخارج دون ان يراهم أحد. وذلك كوسيلة دفاعية . وداخل أحد تلك الأبراج قاعة أطلق عليها العامة اسم قاعة المحكمة» حيث كانت فى عصر من العصور مكانا لسجن المجرمين ويتوسطها بئر مياه كبير لإمداد الجنود بالمياه فى حالة الحصار. لذا نسج البسطاء حولها حكايات طويلة أهمها اعتقادهم أن البئر هو فى الاساس مكان شنق الخارجين على القانون أو الأعداء. وحتى اليوم . لا يزال يطلق أهل الحى على القاعة اسم «المحكمة» وعلى



بوابة المتولي (زويلة) أكثر الأماكن التي ثارت
حولها الأساطير والخرافات المروية

البئر اسم «المشنقة». وان كان من أغرب ما شاهدناه فوق ابراج السور الشمالى أسماء عدد من جنود الحملة الفرنسية على مصر. حيث قام كل منهم بتحديد غرفته وموقعه عن طريق حفر اسمه أعلى مدخله، ويطلق عليها على سبيل المثال (برج كوين) و(برج جوليان) الخ.

ومن هذا المنطلق قررت وزارة الثقافة اقامة متحف للأسلحة والذخيرة داخل ممرات ودهاليز وسراديب أبراج السور الشمالى خاصة الجزء الواصل بين باب النصر وباب الفتوح. بما في ذلك قاعة «المحاكمة» ويذكر أيمن عبدالمنعم الأثرى المشرف على مشروع تطوير القاهرة التاريخية أن اقامة متحف للأسلحة القديمة التى ترجع الى العصور الاسلامية المختلفة (مملوكى/ عثمانى) يعتبر جزءا من خطة شاملة لتقسيم متحف الفن الاسلامى. حيث سيتم جلب كل فنون وأدوات القتال والحروب من بنادق وسيوف وخوذات ودروع وذخيرة لعرضها داخل المتحف المتخصص . نظرا لاعتبار أسوار القاهرة وأبوابها من أهم رموز العمارة الحربية الدفاعية فى العالم كله حيث تتكون من أسوار ضخمة يتخللها أبراج دفاعية يصعب اختراقها .

وان كان أهم ما ارتبط ببابى النصر والفتوح هو جامع الحاكم بمئذنتيه اللتان تشبهان المبخرة او الشمعدان المملوكى القديم. وضع اساسه «العزيز» ووزيره «ابن كلس» فى أواخر عام (٩٩٠) . واكتمل بناؤه فى عهد ابنه الحاكم بأمره الخليفة الاشهر فى التاريخ المصرى. نظرا لغرابة شخصيته وسلوكه. حيث وجد نفسه حاكما وهو لا يزال فى سن الحادية عشرة. وكان الشعب المصرى يخشاه نظرا لشذوذه وتناقضه.

وجهه الغريب وعيناه الزرقاوان المخيفتان كما أن صوته الأجش جعلهم يرتجفون منه. بل ان معلمه اطلق عليه اسم (حرزون) اى السحلية. وذلك لأنه كانت له طريقه زلقة خاصة فى التحرك بين رعاياه مثلما يفعل الحرزون تماما . ويذكر «لينبول» فى كتابه «سيرة القاهرة» انه كان شغوفا بالظلام يجمع مجلسه على الدوام ليلا. حتى أنه اصدر قرارا بأن يتم البيع والشراء بعد غروب الشمس. كما حرم على النساء مغادرة منازلهن وأصدر تعليمات لصانعى الأحذية بالتوقف عن صنع أحذية للنساء حتى لا يتمكن من مغادرة منازلهن، وغيرها من التعليمات العجيبة لتنظيم قواعد الطعام والشراب. وفى إحدى جولاته فوق حماره الرمادى على تلال المقطم عام (١٠٢١) خرج ولم يعد. عاد حماره وعليه ردائه فقط ولم يتم العثور على جثته. حتى أن الناس من شدة خوفها منه ظلت ردحا طويلا على اعتقاد انه عائد لا محالة. وحتى يومنا هذا تعتقد مجموعة من اتباع بعض المذاهب الشيعية المتطرفة أن الحاكم هو المهدى المنتظر الذى سيعود يوما ما ليخلصهم من الآلام وينصرهم. لذا يتوافدون كل عام فى مولده وخلال شهر رمضان. ليدعوه ان يفك كرب المهموم ويفرج قلب المأزوم ويشفى المريض ويرزق الفتيات بالعريس المنتظر. ويحل المشكلات ويفرج الأزمات. ويعود فى اليوم المأمول..!

ولا تزال القاهرة بأسوارها وأبوابها تحمل داخل طياتها المزيد من الحكايات والأساطير والمرويات التى يتناقلها أهلها أب عن جد.. معتقدين فيها اعتقاد راسخا غير قابل للنقاش او للشك برغم مرور ألف عام ومايزيد على وجودها إلا انها لا تنتهى. لكنها تتشابك لترسم امامنا فلسفة الحياة داخلها .

مازال الناس يموتون بكرمات ضريح الذوق الملاصق لبوابة الفتوح ◀



جولة فى بلاد الصين

هل تسقط الصين

هيمنة القطب العالمى الأوحد؟

بقلم
محمود أحمد

فى لقاء مطول، بمقر وزارة الخارجية الصينية فى «بكين»، أعرب مساعد وزير الخارجية الصينى «شى قوه فانج» عن عدم ارتياح بلاده للواقع السائد فى عالم اليوم .. حيث تهيمن قوة وحيدة وقطب أوحد هو الولايات المتحدة الأمريكية.

ورغم أن عدم الارتياح الذى ألمح إليه المسئول الصينى البارز جاء بصورة ضمنية خلال حديثه والذى حرص خلاله على تجنب التعبيرات الحادة أو المباشرة، إلا أنه لم يدع مجالا للشك فى أن حكومة الصين تفضل قيام نظام عالمى يعتمد «آلية تشاور متعددة الجنسيات» حسب تعبيره حرفيا. ومع ذلك، فإنه استخدم تعبيرات صريحة وواضحة وهو يؤكد أن الصين - بحكم ثقافتها القائمة على مفهوم السلام - لاتسعى إلى مواجهة مع الولايات المتحدة، أو مع غيرها، مهما اشتدت حدة الصراع التجارى والتنافس الاقتصادى القائم حاليا، وحرص أيضا على أن يشير إلى أن بلاده لم تكن يوما مبادرة بالهجوم على أحد، ولم تكن ابدا قوة استعمارية على مدى تاريخها الطويل، ومن المؤكد أنها تسعى إلي ذلك مستقبلا، حتى إذا تحولت الى قوة عظمى!



فتيات من القومية «الإيجورية» في الصين : التعددية من مصادر الثراء في المجتمع



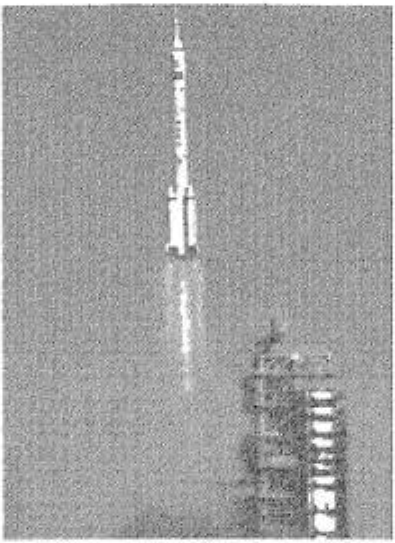
الصين التقليدية .. والعصرية الزاحفة ملء الأفق

الاكثر من ذلك، وبصورة أشد وضوحا، أعلن «شن قوه فانج» أن الصين لا ولن تسعى إلى الدخول فى أحلاف أو تحالفات إقليمية أو دولية فى سبيل مقاومة هيمنة القطب الواحد. ولكن ذلك لايعنى، حسب قوله، أن بلاده راضية عن الوضع الذى تمارس من خلاله هذه الهيمنة .. وإنما هى تدعو إلى إيجاد عالم متعدد الأقطاب، «إيمانا منها بأن سياسة القطب الواحد لاتفضى إلى حل أى مشاكل، بل ربما تكون سببا فى خلق هذه المشاكل وعلى نحو أكثر تعقيدا».

بعد أن طرح هذه النقاط، استخدم مساعد وزير الخارجية الصينى عبارات واضحة وهو يؤكد رفض بلاده لتقسيم الدول إلى دول شريرة وأخرى متعاونة .. وإنما التقسيم يجب أن يكون على أساس دول ملتزمة بالقانون الدولى وتلك المنتهكة له والتى يجب أن تتم محاسبتها فى إطار الأمم المتحدة، كما أعرب عن معارضة الصين الصريحة لقيام دولة واحدة بتسوية المشاكل أو القضايا أو النزاعات بالسبل العسكرية بعد «تنحية الأمم المتحدة».

قوة عظمى .. تتشكل

ولم يكن متوقعا - على أى حال - أن يلمح مساعد وزير الخارجية الصينى، خلال لقائه معنا، إلى أن بلاده تسعى إلى استكمال مقومات تحولها إلى قوة عظمى فى مستقبل غير بعيد .. هكذا فإن قصارى ما حاول تأكيده هو أن الصين عازمة على انتهاج سياسات سلمية .. حتى إذا هى تحولت يوما إلى



لحظة إطلاق سفينة الفضاء «شنتشو -٥» وعليها أول رائد فضاء صينى

قوة عظمى.

هذا باختصار، هو مضمون الرسالة التى تطرحها الصين اليوم. فالجهود كلها تتركز الآن على اجتياز الهوة التى لايزال يتعين على الصين اجتيازها لكى تلحق بركب الدول المتقدمة وتفتح الطريق بالفعل أمام إمكانية أن تتحول إلى «قوة عظمى»، وبالتالى تصبح قادرة على مطاولة - ولانقول مواجهة - القطب الواحد المهمين اليوم .. كما يتمنى الكثيرون وخاصة فى العالم الثالث، وربما يغذى هذه «التمنيات» أن الصين لاتفتأ تبشر بلا كلل، فى خطاب الرسمى، بنظام سياسى واقتصادى دولى جديد «عادل ومعقول»، وفى إطار هذا النظام الدولى، يجب أن تحترم جميع الدول بعضها بعضا وأن تتشاور



رائـــد الفضـــاء الصينى الأول .. اعتبره مواطنوه بطـــلا قوميا

مع بعضها سياسيا .. كما أنه لاينبغى فرض الإرادة الذاتية على الآخرين. يجب أيضا ، كما يؤكد المسئولون الصينيون، أن تحفز الدول بعضها بعضا اقتصاديا من أجل تحقيق التنمية المشتركة .. دون حدوث فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء.

على أن الصين - الرسمية والشعبية على السواء - تدرك جيدا أنه لايزال أمامها مشوار طويل يتعين عليها أن تقطعه حتى تصل إلى مصاف الدول المتقدمة، وهى إذا قارنت نفسها مع الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا، فإنها تعترف - كما قال لنا مساعد وزير الخارجية الصينى - بأن هناك هوة شاسعة لاتزال تفصل بين الصين والولايات المتحدة عسكريا واقتصاديا وتكنولوجيا، فالمسيرة التى بدأتها فى نهاية عقد السبعينات من القرن الماضى، على أيدى زعيمها الحكيم «دينج شياو بينج» لايزال أمامها الكثير لكى تنجزه، وفى تقدير بعض المسئولين الصينيين، فإنه لايزال أمام الصين ما بين عشرين إلى ثلاثين سنة .. قبل أن تخرج من «عنق الزجاجة» وتحقق أهدافها فى التنمية الداخلية، ومن ثم يتحدد - تلقائيا - دورها على الساحة الدولية.

ولم تكن المسيرة سهلة، رغم الإنجازات الباهرة التى تتجلى أمامنا اليوم والتى تمكنت الصين من تحقيقها - اعتمادا على التخطيط المتقن والعمل الدؤوب فى المقام الأول - خلال مايزيد قليلا على العشرين سنة، والواقع أن الأرقام تضع أمامنا صورة مدهشة لقدرة الإنسان الصينى على التخطيط وتحديد الأهداف الكبرى والعمل على تحقيقها بأكبر قدر من الدقة، وحتى لاتغرق فى تفاصيل لاداعى لها. يكفى أن نشير إلى آخر الإحصائيات التى صدرت عن الدوائر الرسمية فى الحكومة عن الأشهر التسعة الأولى من العام الحالى ٢٠٠٣ (أى ثلاثة أرباع السنة) وهى تسجل مايلى:

- بلغ إجمالى الناتج المحلى الصينى خلال هذه الفترة - أى من أول يناير حتى نهاية سبتمبر - ٧,٩ تريليون يوان .. أى حوالى ٦ر٩٥٦ مليار دولار أمريكى، مسجلا بذلك معدل نمو يقدر بـ ٩,١ فى المائة قياسا على الفترة ذاتها من العام السابق (وقد عكست هذه الأرقام ارتياحا لدى المسئولين الصينيين نظرا لأنها أكدت تجاوز الاقتصاد

الصينى كل التداعيات التى نجمت عن محنة وباء «السارس» التى مرت بها البلاد فى النصف الأول من العام).

- بلغت قيمة الإنتاج الصناعى الصينى خلال فترة الأشهر التسعة ذاتها ٢٨٩٧,٥ مليار يوان .. أى نحو ٣٦٢,١ مليار دولار، بزيادة نسبتها ١٦,٥ فى المائة مقارنة مع الفترة نفسها من العام الماضى وتشير التقارير الرسمية أن الفضل فى هذه الزيادة الكبيرة فى الإنتاج الصناعى يعود إلى خمس قطاعات على وجه التحديد، وهى قطاعات الاتصالات والإلكترونيات، والتعدين والنقل والمواصلات، والكهرباء، والكيماويات.

- بلغ إجمالى قيمة الاستثمارات الأجنبية التى استخدمتها الصين، خلال تلك الفترة أيضا، أربعين مليارا ومائتى مليون دولار أمريكى بزيادة ١٢ فى المائة مقارنة مع الفترة ذاتها من العام الماضى.

- بلغ معدل دخل المواطن الصينى فى المناطق الحضرية (المدن) خلال فترة الأشهر التسعة ذاتها ٧٦٧ دولارا بزيادة نسبتها ٩ فى المائة، والمعروف أن مستوى الدخل فى المناطق الريفية لايزال أقل بصورة ملحوظة عنه فى المدن، ومع ذلك تشير الأرقام إلى تحقق زيادة فى دخل المواطن الصينى فى الريف نسبتها ٣,٨ فى المائة فوصلت به إلى ٢١٨ دولارا.

- بلغ احتياطى الصين من النقد الأجنبى فى نهاية سبتمبر ٢٠٠٣، وفقا للأرقام الرسمية للبنك المركزى الصينى، ٣٨٣,٩ مليار دولار أمريكى، محققا بذلك زيادة «قياسية» وصلت نسبتها إلى ٤٨,٤ فى المائة مقارنة بالعام الماضى.

- تضاعفت إجمالى الودائع المالية للصينيين فى المصارف والبنوك مئات المرات خلال سنوات الانطلاقة الكبرى، وتشير الأرقام الرسمية إلى أن حجم الودائع، الذى كان يقدر بنحو ٢١ مليار يوان (أقل من ثلاثة مليارات دولار) فى عام ١٩٧٨، قد وصل العام الماضى ٢٠٠٢ إلى ٨٦٩١,١ مليار يوان (أى مايزيد قليلا على تريليون دولار بالأسعار الجارية).

التعامل مع عالم صعب!

على أن ذلك لايعنى أن الصين لاتواجه مصاعب عديدة يتوجب عليها أن تواجهها باستمرار . فالأرقام الرسمية (وهى بالمناسبة تحظى بمصداقية عالية) تشير أيضا إلى أن الديون الخارجية للصين قد بلغت، خلال النصف الأول من العام الحالى ٢٠٠٣، نحو ١٨٢,٥٧ مليار دولار أمريكى (لاتدخل ضمنها ديون هونج كونج وماكاو اللتين التحقتا أخيرا بالوطن الأم)، ويقول المسئولون الصينيون أن هذه الأرقام توضح أن الدين الخارجى للصين قد أرتفع بنسبة ٨,٣٣ فى المائة عما كان عليه فى نهاية العام الماضى، وإن كانوا يؤكدون فى الوقت نفسه أن حجم الدين يظل دون مستوى الخطر خاصة مع توفر «القدرة المطلقة» على سداد قيمة خدمة الديون التى تقدر بنحو ٣٨ مليار دولار.

ويدرك الصينيون جيدا أن تحمل هذه الديون كان أمرا حتميا من أجل

تحقيق الأهداف الطموحة للتنمية، فقد كان عليهم استيراد الكثير من العالم الخارجي الذي حقق سبقا في كافة المجالات ولاسيما في مجال التكنولوجيا المتقدمة التي كانت الصين في أمس الحاجة إليها.

ولكن ليست هذه هي المشكلة، وإنما المشكلة ربما تكمن في أن الصين تعلمت، منذ بداية مسيرتها الحديثة، أن عليها أن تتعامل مع عالم صعب، ومع قوى تضمر رغبة في «تحجيم» هذا العملاق المنطلق وتتوانى عن استخدام كل الوسائل الظاهرة والخفية لتحقيق ذلك، وفي مجال التصدير وحده، على سبيل المثال، واجهت الصين مقاومة عنيفة عبرت عن نفسها في أكثر من ٥٠٠ قضية لمكافحة الإغراق رفعت ضد الصين من جانب بلدان عديدة، وكان ذلك هو مادفع الحكومة الصينية إلى بذل جهود كبيرة للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية حتى يمكنها أن تحل هذا النوع من المشكلات في إطارها وبالفعل، فإنه بعد نجاح الصين في الانضمام إلى المنظمة أخيرا، انخفض عدد قضايا الإغراق المرفوعة ضدها إلى النصف.

وتواجه الصين حاليا ضغوطا شديدة من أجل تعويم عملتها (اليوان) التي تصر الولايات المتحدة على أن قيمتها الحقيقية هي أعلى مما تقدرها به حكومة الصين حاليا، ولايخفى أن رفع قيمة العملة سيؤدي بالضرورة إلى الحد من القدرة التنافسية للصادرات الصينية في الأسواق العالمية، ويرد الصينيون على ذلك بأنهم لن يعيدوا تقييم عملتهم إلا في الوقت الذي يرونه مناسبا (ربما بعد عامين أو أكثر قليلا)، وهم يحذرون في هذا الصدد من ضرورة التصرف بحكمة لأن التسرع قد يتسبب في خلق أزمة جديدة كتلك التي مرت بها آسيا في نهايات القرن الماضي .. ويذكرون بأن الأزمة المالية التي اندلعت من آسيا في عام ١٩٩٧ قد تركت آثارا سلبية عاني منها العالم كله وليس بلدان آسيا وحدها.

كذلك فإنه، من وقت لآخر تفاجأ الصين بإجراء مايتخذ ضدها مما لايمكن أن يفسر إلا بأنه جزء من «الضغوط» التي تمارس عليها. وأثناء وجودنا في الصين، حملت الأنباء معلومات تقول أن الولايات المتحدة الأمريكية قررت توقيع عقوبات على شركة صينية تعمل في مجال الصواريخ بسبب مخالفتها للقواعد الخاصة بمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل، واحتجت الصين بشدة على توقيع هذه العقوبات، مؤكدة أنها التزمت دائما بسياسة منع انتشار أسلحة الدمار ووسائل استخدامها، وتعاونت في هذا السبيل مع الدول الأخرى .. بما في ذلك الولايات المتحدة نفسها.

غير أن الضغوط الأكثر خطورة، بالنسبة للصين، تتمثل في القضايا ذات الحساسية التي تلوح الولايات المتحدة بتحريكها عند الضرورة .. وتأتي في مقدمتها على الإطلاق قضية «تايوان»، فبعد أن نجحت الصين في استعادة «هونج كونج» أولا ثم «ماكاو»، حتى ولو

كان ذلك قد تم بشروط لاترضى عنها تماما، فإن قضية تايوان تبقى هى الأكثر خطورة والأشد حساسية بالنسبة للصين، ولايفقد المسئولون الصينيون هدوءهم المشهور إلا عند التلويح من قوة خارجية - الولايات المتحدة تحديدا!

- بدعم مطالب «تايوان» بالاستقلال النهائى. بل إن المسئولين فى الصين لايتورعون عن التلميح إلى أن استخدام القوة العسكرية لن يكون أمرا مستبعدا إذا دفعت الأمور بهذا الاتجاه وتجاوزت الخطوط الحمراء! ولكن الوضع الراهن يبقى «تايوان» كما هى، دون الانضمام كدولة مستقلة إلى المجتمع الدولى، ويبقى على دعم الولايات المتحدة لها سياسيا وعسكريا، بينما يستمر قبول «الصين الأم» لهذا الوضع مع الاستمرار فى الحملة العالمية التى أطلقتها من أجل «إعادة توحيد الصين» وضم تايوان (وكان آخر نموذج لها ما جاء فى خطاب الرئيس الصينى «هو جينتاو» أمام البرلمان الاسترالى فى ٢٣ أكتوبر الماضى). ومع ذلك فإن القبول من جانب الصين بهذا الوضع يتسع إلى الحد الذى يجعل حجم الاستثمارات الواردة من «تايوان» فى مقدمة ما تستقبله الصين كل عام من العالم «الخارجى»!

الكوابح والضغوط

والسؤال المهم الآن هو : إلى أى حد يمكن لهذه الضغوط و«الكوابح» أن تحد من انطلاقة الصين أو تبطئ من اندفاعها؟ وهل تنجح الصين - رغم الحرص الرسمى على تفادى الخوض فى الموضوع - فى التغلب على هذه



شن قوه فانج
مساعد وزير
الخارجية الصينى

الضغوط خلال عقدين أو ثلاثة، كما يتوقع البعض، بحيث تكتسب الأهلية الكافية لكى تساهم فى تشكيل النظام الدولى وإعادة التوازن إليه بعد الخلل الذى اعتراه نتيجة السقوط فى بحر الهيمنة الأمريكية؟

الأمر المؤكد، أن هذه الأسئلة مطروحة الآن فى المحافل الدولية على كافة المستويات فى أروقة الأمم المتحدة، والمنظمات الإقليمية التى تضم الصين مع غيرها من دول آسيا والمحيط الهادى مثل «الآسيان» و«الأبيك»، وأيضا فى العواصم العالمية التى تتابع وتراقب من مواقع تتراوح بين الحذر.. والقلق.. والرجاء!

وربما صاحب هذه الأسئلة، تساؤلات أخرى تبدو معقولة تماما من قبيل. ولماذا إنطلاقة الصين وليس غيرها؟ ولماذا لا تكون اليابان - مثلا - وهى التى تمتلك القوة الاقتصادية الطاغية التى تفوق الصين بمراحل، كما أنها سبقتها بأشواط فى مجال التقدم التكنولوجى وخاصة الاستخدامات المتطورة منها؟ والحقيقة أن زيارة الصين مؤخرا، والتى أتاحت لنا



تشو قوانج تشاو أبو القنبلة الذرية الصينية

الاقتراب من «روحها» واستشعار نبض الحياة وإيقاعها، ربما ساعدتنا على تأمل الصورة عن قرب لبلورة إجابات - تبدو معقولة أيضا - على هذه التساؤلات.

فالصين ، أولا ، تتمتع بثقل هائل توفره المساحة والكتلة السكانية الضخمة (١٣٠٠ مليون نسمة) والتعددية الفريدة (٥٨ قومية) فضلا عن التراث الحضاري والثقافي والتاريخي الثري والعميق.

وهي، ثانيا، صاحبة دور ممتد على الساحة الدولية وليست عضوا جديدا أو قليل الشأن في النظام العالمي.. بل إنها تحتل أحد المقاعد الخمسة دائمة العضوية في مجلس الأمن. صحيح أنها تسير على نهج «متعقل» في استخدام حقها كعضو دائم، ولا تندفع إلى استخدام حق النقض (الفيتو) مثلا، كما يفعل البعض بفظاظة تستفز المجتمع الدولي.. غير أنها تدرك أبعاد دورها وحدود ممارسته باستقلالية ملحوظة الأمر الذي يميزها بصورة حاسمة عن قوى ودول أخرى، كاليابان مثلا، لم تستطع أن تحقق ما أنجزته إلا بعد الالتحاق نهائيا بالدور الأمريكي والدوران في فلكه.

ثم إنها، ثالثا، قوة نووية لا يستهان بها منذ أن دخلت نادي الدول النووية في وقت مبكر نسبيا، فقد أنتجت أول قنبلة ذرية في عام ١٩٦٤، وبعد ثلاث سنوات نجحت في تجربة أول قنبلة هيدروجينية في يونيو ١٩٦٧. وهي بذلك كانت القوة النووية الرابعة التي عرفها العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا، ثم تبعها الباقون.

ورابعا، استطاعت الصين أن تقتحم أيضا ميدان الفضاء. وقد أقدمت على هذه المغامرة رغم تكلفتها العالية وقبل أن يتحقق لها الخروج من «عنق الزجاجة» الذي يشير إليه المسئولون الصينيون كثيرا وهم يتحدثون عن المسيرة الاقتصادية لبلادهم. ورغم أن برنامج الفضاء يعود حتى إلى ما قبل الانطلاقة الاقتصادية، حيث أطلقت الصين أول قمر صناعي لها (الشرق الأحمر -١) في إبريل عام ١٩٧٠، ومضى العمل الدؤوب يحقق نجاحا تلو الآخر حتى بلغ عدد الأقمار الصناعية التي أطلقتها ٧٥ قمرا ثم تبعها إطلاق ٤ سفن فضاء، إلا أن إطلاق السفينة «سينشو -٥»، وإعادتها إلى الأرض بعد ٢١ ساعة، وهي تحمل رجل الفضاء الصيني «يانج لي دي» كان علامة فارقة في برنامج الفضاء الذي خططته الصين ونفذته بنجاح. وقد فهم العالم كله مغزى هذا النجاح، وحتى الولايات المتحدة لم يكن في وسعها إلا الإعراب عن التهنئة للصين على هذا الإنجاز. وجاءت التهنئة على لسان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش نفسه الذي حرص على أن

يقول أيضا، بهذه المناسبة، أن برنامج الفضاء الصينى «سلمى ولاينطوى على تهديد».

وبالطبع ، فإن المغزى الأهم الكامن فى النجاح الذى تحقق بإطلاق رجل الفضاء الصينى - الذى اعتبره مواطنوه بطلا قوميا - يتمثل فى إظهار قدرة الصين على مواجهة تحديات المستقبل.

وربما يتصل بذلك - وهى نقطة خامسة فى هذا السرد - الإنجازات الصينية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا فعلى الرغم من الهوة التى لاتزال تفصل الصين عن البلدان التى سبقتها فى مضمار التكنولوجيا المتطورة، إلا أن الصين استطاعت أن تقطع - فى نحو عشرين سنة فقط - شوطا كبيرا فى هذا الميدان بما ينطوى عليه ذلك من أهمية حاسمة فى المسيرة الصينية. وتشير الأرقام التى أتيحت لنا، فى هذا الصدد، إلى أن الصين قد أنجزت منذ عام ١٩٨١ وحتى اليوم إنشاء ٥٣ منطقة لتنمية التكنولوجيا العالية والجديدة. وخلال هذه الفترة، حققت الصين ٥٢٢ ألف إنجاز علمى وتكنولوجى مهم بلغ ٢٠ فى المائة منها المستوى المتقدم بالمقاييس العالمية.

يبقى، بعد ذلك كله، أن نسجل أن هذه الحقائق فى الصين اليوم لا تتحقق بعيدا عن الإنسان الصينى. فالواقع الذى يمكن للمرء أن يشاهده بعينيه فى مختلف أرجاء الصين يدل على أن هذا التحول الكبير يسانده بكل قوة مجتمع يتحرك بعزيمة صلبة نحو المستقبل وهو يدرك حجم التحديات من حوله. ومع ذلك، وهذا عنصر فاعل ومهم (ربما يستحق حديثا مستقلا)، فإن الفرد الصينى - والمجتمع الصينى ككل - ظل إلى الآن محتفظا بهويته ومتمسكا بثقافته وتراثه إلى حد كبير.

فهل ينجح هذا الإنسان الصينى، كما يتوقع كثيرون، فى أن يلعب الدور المنتظر ويحقق نجاحا على الساحة الدولية أيضا.. فيعيد التوازن إلى النظام الدولى، ويساهم فى أن يسترد العالم مقدراته من براثن هيمنة القطب الواحد ؟

أرقام .. لها دلالة

أكبر عشرة شركاء تجاريين للصين (خلال الفترة من يناير إلى يونيو ٢٠٠٣)

١ - اليابان : إجمالى حجم التبادل التجارى (٩٠٥ .٦٠ مليار دولار) بزيادة ٣٦.١ بالمائة .

- صادرت الصين ٢٧.١٠٣ مليار دولار - وارداتها ٣٣.٨٠٢ مليار دولار.

٢ - الولايات المتحدة. إجمالى حجم التبادل التجارى (٥٦.٤ مليار دولار) بزيادة ٣٤.٤ بالمائة.

- صادرات الصين ٣٩ ٩٢٧ مليار دولار - وارادتها ١٦.٤٢٧ مليار دولار.

٣ - الاتحاد الأوروبى. إجمالى حجم التبادل التجارى (٥٥.٥٠٧ مليار دولار) بزيادة ٤٤.٢ بالمائة.

- صادرات الصين ٣١.١٥٢ مليار دولار - وارداتها ٢٤.٣٥٥ مليار دولار.

٤ - هونج كونج : إجمال حجم التبادل التجارى (٣٨.٠٨٥ مليار دولار) بزيادة ٢٣.١ بالمائة.

- صادرات الصين ٣٢.٧٤١ مليار دولار - وارداتها ٥.٣٤٤ مليار دولار.

٥ – رابطة آسيان : إجمالي حجم التبادل التجاري (٢٣٦ ، ٢٤ مليار دولار) بزيادة ٣ ، ٤٥ بالمائة.
– صادرات الصين ١٣.٧٦٦ مليار دولار – وارداتها ٤٦٩ ، ٢٠ مليار دولار.
٦ – كوريا الجنوبية : إجمالي حجم التبادل التجاري (٢٧.٤٧ مليار دولار) بزيادة ١ ، ٤٤ بالمائة.
– صادرات الصين ٨.٦٨٣ مليار دولار – وارداتها ١٨.٧٨٦ مليار دولار.
٧ – مقاطعة تايوان : إجمال حجم التبادل التجاري (٢٥.٦٤٩ مليار دولار) بزيادة ٦ ، ٣٠ بالمائة.
– صادرات الصين ٣.٩٩٠ مليار دولار – وارداتها ٢١.٦٥٩ مليار دولار.
٨ – روسيا : إجمالي حجم التبادل التجاري (٦.٨٠٦ مليار دولار) بزيادة ٢٤.٨ بالمائة.
– صادرات الصين ٢.١٠١ مليار دولار – وارداتها ٤.٧٠٥ مليار دولار.
٩ – إستراليا : إجمالي حجم التبادل التجاري (٦.٠٤٦ مليار دولار) بزيادة ٣١.٩ بالمائة.
– صادرات الصين ٢.٦٢٣ مليار دولار – وارداتها ٣.٤٢٣ مليار دولار.
١٠ – كندا : إجمالي حجم التبادل التجاري (٤.٥٦٧ مليار دولار) بزيادة ٢٧.١ بالمائة.
– صادرات الصين ٢.٥١٧ مليار دولار – وارداتها ٢.٠٥٠ مليار دولار.

شركاء الصين الرئيسيين في القارات الست

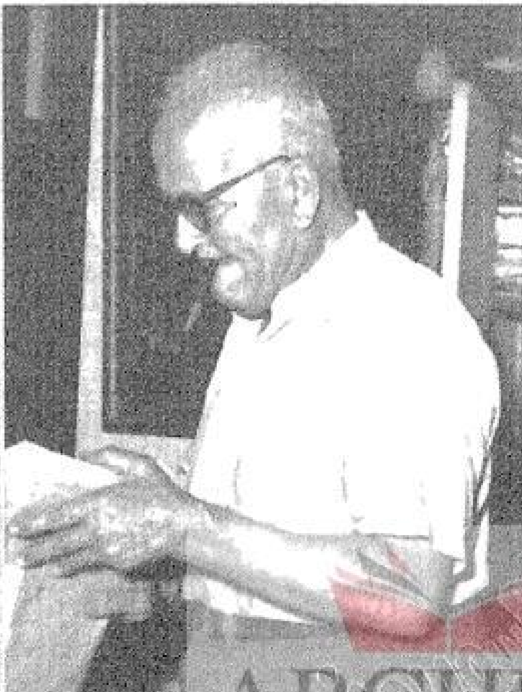
١ – قارة آسيا : حجم التبادل التجاري ٢١٨.٢٠٤ مليار دولار بزيادة ٢٧.٦٪ .
٢ – قارة أوروبا : حجم التبادل التجاري ٧٠.٠٥٨ مليار دولار ٤٣.٢٪.
٣ – أمريكا الشمالية : حجم التبادل التجاري ٦٠.٩٩ مليار دولار ٢٣.٨٪ .
٤ – أمريكا اللاتينية: حجم التبادل التجاري ١٨٨ ١١ مليار دولار ٦١.١٪

٥ – أفريقيا : حجم التبادل التجاري ٨.٥٩٥ مليار دولار ٦١.١٪ .
٦ – أوقيانوسيا (استراليا ونيوزيلندة): حجم التبادل التجاري ٧.١٠٤ مليار دولار بزيادة ٢٤٪ .

شركاء الصين الرئيسيين في قارة أفريقيا

١ – جنوب أفريقيا: حجم التبادل التجاري ١.٦٧٣ مليار دولار بزيادة ٤٧.١٪ صادرات الصين ٨٥١.٣٨٨ مليون دولار .
٢ – السودان : حجم التبادل التجاري ١.١٠١ .٩٥٥ مليون دولار بزيادة ٢٣.٨٪ صادرات الصين ٢٥٦.٢٩٧ مليون دولار.
٣ – نيجيريا: حجم التبادل التجاري ٨٥٢.٧١١ مليون دولار بزيادة ٥٦.٣٪ صادرات الصين ٨٠٤.٧٧٩ مليون دولار.
٤ – مصر : حجم التبادل التجاري ٤٨٨.٧٥٠ مليون دولار بزيادة ١٢.٦٪ صادرات الصين ٤٢٥.٧٥٨ مليون دولار بزيادة ٧.٩ بالمائة، وارادت الصين ٦٢.٩٩٩٢ مليون دولار بزيادة ٦٠.٧ بالمائة ■

صور من حياة صبرى



بقلم
وديع فلسطين

كنت فى أثناء فترة الإزاحة من العمل الصحفى في مصر أمثل مجلة تصدر فى قطر عربى ، وكنت بهذه الصفة أستكتب كبار الأدباء فى مصر والبلدان العربية مقالات لهذه المجلة. فرجوت صديقى الدكتور محمد صبرى السوربونى أن يخص المجلة بمقال عن أمنياته، فاستجاب لرغبتى ووافانى بمقال تمنى فيه أن يعيش مليون سنة!! مليون سنة دون نقصان؟ كان من الممكن أن يتواضع قليلاً فيقول : ألف سنة أو حتى مائة سنة، ولكنه كان - كدأبه فى كل عمره - شديد الطموح، تشرئب عنقه إلى ما هو أبعد من إمكانياته الإنسانية والمادية

، وتتطاول أمانيه حتى تجاوز المدى المعقول. ومن المفارقات التى تصدم المرء أن حياته الوظيفية تواضعت، وعاش نحو ٨٥ عاماً عيشة أقرب ماتكون إلى الحياة الشعبية ، فلا بيتاً يملكه ، ولا سيارة يقتنيها تعفيه من ركوب المواصلات العامة أو ترام «الوزير» ، ولا جهاز تكييف يخفف من وطأة الطقس، ولا أناقة فى الملبس أو حفاوة بالمظاهر الخارجية.

ومن آيات طموحه أنه قرر وهو مازال فى ميعة الشباب أن يغزو أكبر قلعة ثقافية فى عصرها، وهى جامعة السوربون بتاريخها الذى يضاهى كل أمجاد الحضارة الفرنسية، وكانت وسائله إذ ذاك جد متواضعة، فلا هو يجيد اللغة الفرنسية، ولا عهد له بمعميات اللغة اللاتينية، وهما اللغتان الأساسيتان فى الدراسات الجامعية فى السوربون، لقد رغب - على حد تعبيره - فى أن يطوح بنفسه تطويحاً فى هذا الخضم العاتى واثقاً من أنه لن يغرق أو تخيب مساعيه، عاقداً العزم - وهو حديد - على أن يكون أول مصرى يحمل على رأسه قبعة الأستاذية الجامعية، ويتسربل بأرواب السوربون ، ويرفع بيمناه أطروحته العلمية ، وينال تقدير أساتذته ، سواء فى شهادته الجامعية أو فى مقدمات كتبه التى طبعها باللغة الفرنسية فى باريس . وهكذا استطاع هذا الشاب الخارج من مدينة المرج - ولعلها كانت قرية أو حياً من أحياء المديرية فى ذلك الوقت - أن يسمى نفسه محمد صبرى السوربونى - وليس المرجى نسبة إلى البلدة التى ولد فيها والتابعة اليوم لمحافظة الدقهلية ، ومع أن مصريين آخرين تخرجوا بعد ذلك من السوربون، فإذا قيل السوربونى لم ينصرف هذا الاسم الجليل إلا إلى الدكتور محمد صبرى وحده، فإليه تشير كل الأباهم.

فى فرنسا زامل محمد صبرى الدكتور طه حسين، فقد جمعت بينهما الغربة من ناحية والدراسة من ناحية أخرى ، وكان كلاهما يكافح كفاحاً عنيفاً فى سبيل تحصيل العلم وإثبات ذاته المصرية الصميمة فى هذا المجتمع الأجنبى . وعندما سجل طه حسين ذكريات هذه الفترة فى الجزء الثالث من «الأيام»، تحدث عن زميله محمد صبرى حديث ملازمة ومزاملة حيث قال: «إن السوربونى جد وكد، وتقدم للامتحان مرة ومرة، ولكن عقدة اللاتينية أدركته. فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتينى الذى يجب أن يترجم إلى الفرنسية، ألقى عليه نظرة سريعة ثم طواه وقدم إلى المتحنين صفحة بيضاء لم يمسسها خطأ أو صواب، وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيت لاتينى قديم يصور اليأس والقنوط، ولكنه لم يعرف يأساً ولا قنوطاً، ولم يذعن لعقد أو صعوبة، وإنما حاول وطاول وألح فى المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم، وتلقى النص اللاتينى، فلم ينظر فيه نظرة سريعة، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدمه إلى المتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنجح».

بهذا شهد طه حسين لزميله السوربونى، وهى شهادة تبرأ من كل مظنة.

ومن آيات طموح السوربونى بل تحديه أنه – وإن كان راغباً فى التخصص فى التاريخ لأنه هواه الأول، فقد قرر أن يتخصص كذلك فى دراسة الأدب حتى يكون صاحب صناعتين تضاف إليهما هواية الفن. وكأنما أراد السوربونى أن ينزح من فرنسا كل ماتفاخر به من مآثر العلوم والفنون، ولعله لو استطاع لنقل كل مظاهر الحضارة الباريسية ضمن أمتعته الشخصية وهو يغادر عاصمة النور. بل إن الحرب العالمية الأولى بكل ضراوتها لم تحل بين السوربونى وبين متابعته للدراسة الجامعية، وكأنه بالعلم وعشقه قد قهر الخوف من ويلات الحروب ودمارها.

عرفت الدكتور السوربونى معرفة مشافهة واتصال عام ١٩٤٨، وإن كنت بسبب هذا الاسم المدوى قد عرفت أخباره وآثاره مما كان يطالعنا به من مقالات فى الصحف لها دائماً وقع القارعة. وكنت أحسب أن من شيمة الذين بلغوا شأناً رفيعاً فى حياتنا الفكرية أن يتشامخوا على من هم دونهم فى منازل الحياة، ناهيك عمن هم يتعثرون فى بداية الطريقه. ولكننى فوجئت ذات صباح عند توجهى إلى مكتبى فى جريدة «المقطم» التى كنت أعمل فيها بكتاب ضخم ومعه أطلس كبير الحجم موضوعين عليه، واكتشفت من عبارة الإهداء الرقيقة أن هذا الشامخ الرفيع القدر الدكتور محمد صبرى السوربونى قد شرفنى – على غير معرفة سابقة – بهذه الهدية التى ما كنت أحلم باقتنائها حتى شراء. فقلت لنفسى: ياالله، هل بلغ اسمى المتواضع مسامع الدكتور السوربونى فسعى إلى بنفسه وطرق باب الجريدة بعد الظهر أثناء غيابى وترك لى هذه الهدية الثمينة؟ كم أكبرت صنيعه، وأيقنت أن من شيم العلماء والأصلاء أن يحدبوا على الناشئة وألا يستكبروا عليهم، وأن الحياة الثقافية تتسع لفتاة المخضرمين كما تتسع لمن هم فى أول الدرب، وكان عنوان كتاب السوربونى «الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر» أما الأطلس الكبير فقد صنعه السوربونى بنفسه كمرشد عمل الوقائع التاريخية المسرودة فى الكتاب.

والمتأمل لعناوين الكتب التى أصدرها السوربونى باللغة العربية يلاحظ أنه – كمؤلف – لا يتصدى إلا للكبار الكبار من الموضوعات، فهو يكتب عن «الشوامخ» وعن «أروع» ماكتب الشاعر خليل مطران وعن «المجهول» من شعر شوقى وعن «أسرار» تدويل قناة السويس وعن «الإمبراطورية المصرية» و«الإمبراطورية السودانية» وعن «الحضارة العربية فى أفريقيا»، وكلها عناوين تشى بالطموح الذى أشربت به نفس السوربونى فحدا به ذلك إلى التصدى دائماً لكل ما يتجافاه السطحيون من الباحثين.

وعندما تلقيت كتاب السوربونى هالنى أن أتبين أنه قد اعتمد على وثائق تاريخية أغلبها مجهول وأقلها معروف، وأنه تناول موضوعه بأكبر قدر من الأمانة التاريخية، وبأسلوب ينم على نصاعة أدبية على الرغم من جفاف المادة التاريخية. فاحتفيت بهذا الكتاب، وعرضته لقراء الجريدة مثنياً على الجهد العلمى العنيف الذى بذله

السوربوني في جمع مادة الكتاب . وخرج المقال بغير توقيعي وفقاً للعرف الذي كان متبعاً في صحافة ذلك العهد.

وفي اليوم التالي فوجئت بزائر غريب يقتحم على غرفتي في الجريدة - ولم نكن وقتها نعرف مكاتب الأمن والاستعلامات والسكرتارية التي تصد الناس عن مقابلة حتى الصحفيين - وقبل أن انتبه إلى كنه الزائر ألفيته ينهال على عناقاً وتقبيلاً وهو يردد كلاماً كبيراً في امتداحي .. فلما استوضحته عمن يكون قال : أنا السوربوني . ولم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيت صورة له استعيدها لتحديد شخصيته، ولهذا رحت أتأمله بشحمه ولحمه بعدما كان الخيال قد ذهب إلى الاعتقاد بأنه لابد أن يكون شخصاً مهيباً فارع الطول عريض المنكبين شأن الشامخين من الأعلام كالعقاد والشاعر عبد الرحمن صدقي وعزيز أباظة باشا . ولكنني اكتشفت أنه كان أميل إلى القصر منه إلى الطول على شيء من البدانة، وقد اعتمر بيريه على رأسه، وتغلظت عويناته. أما الغليون فلا يفارق شفتيه. ومع أن هذا اللقاء كان الأول بيننا، فقد غلفه السوربوني بروحه المرحة وقلبه الودود وكلامه التلقائي الجميل، مع إطلاق ضحكات مجلجلة رفعت الكلفة بيننا في وقت كنت فيه في الخامسة والعشرين من عمري، وكان هو في الثامنة والخمسين من عمره أي بما يزيد على مثلي سني، وبكل الود خاطبني قائلاً : لك أن تعتبرني صديقاً لك، فاقبل دعوتي لزيارتي في بيتي لأعرفك بأسرتي الصغيرة. ولبيت دعوته، وكان يقيم وقتها في دارة - ڤيلا - ملاصقة لقصر القبة الملكي تحيط بها حديقة يشرف بنفسه على تنسيقها وزراعتها بالخضر والفاكهة والزهور، وقدمني إلى زوجته الأجنبية وإلى ابنيه وابنته الصغار، وطاف بي في أرجاء المنزل ليريني خزانة كتبه التي زحفت إلى كل ركن في البيت حتى المطبخ، وجلست إليه وهو يحدثني عن أعلام عصره الذين عرفهم عن قرب ، سواء من رجال السياسة كسعد زغلول باشا أو من رجال الأدب كالشاعر إسماعيل صبري باشا والشاعر خليل مطران بك والأديب مصطفى لطفي المنفلوطي والشاعر أحمد شوقي والشاعر حافظ إبراهيم والشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي ومن إليهم . ثم أهداني كتابه «الشوامخ» بأجزائه الأربعة التي تناول فيها الشعراء بدراسة أكاديمية لكي يؤكد لي أن الأدب والتاريخ يلتقيان في حياته.

صلة لم تنقطع

وعلى مدى ثلاثين عاماً لم تنقطع صلتي بالسوربوني، ولا سيما عندما انتقل من بيته بجوار قصر القبة لهدمه وضم مساحته إلى القصر، إلى بيت في حي مصر الجديدة قريب من بيتي، فكنا نتزاور ونتحدث في أوضاعنا الثقافية وأحوالنا الاجتماعية ، وتتخلل أحاديثنا ذكريات السوربوني عن العصر الذي عاشه. ولكن حديثه لم يكن يخلو من مرارة يطردها بعبارات ساخرة. فقد كان - على منزلته العلمية الرفيعة - بعيداً عن حرم الجامعة، فشغل وظائف حكومية في دار الكتب وفي معهد الوثائق والمكتبات وعمل قبل ذلك مدرساً بمدرسة المعلمين العليا ودار العلوم . حتى إذا جاءت ثورة ١٩٥٢ أطاحت بالسوربوني في حملة أطلقوا عليها اسم

«التطهير» استناداً إلى وشايات لم يدر كنهها، ولعل جريمته الوحيدة هي أنه كان يحمل رتبة البكوية ممنوحة له من الملك .. فخرج السوربوني إلى الشارع، وتقرر له معاش هزيل تنوء به مطالب الأسرة، وعلى كثرة التشكيلات الثقافية التي أنشئت، لم يكن للسوربوني مكان فيها، ولا فاز بأي من جوائز الدولة التي ظفر بها من هم دونه علماً وفضلاً وعطاء.

على أن السوربوني انصرف إلى أعماله الأدبية والتاريخية غير ملتفت إلى أي تقدير يناله من أي جهة، وكان يقول أمامي : لا أريد وظائفهم أو جوائزهم، فحسبي أنني السوربوني. ومن الأعمال التي أصدرها في تلك الفترة كتابان عن قناة السويس، وكتاب جمع فيه فصولاً من الأدب والتاريخ والاجتماع . وطالع الناس بعد ذلك بكتابين مدويين هما «الشوقيات المجهولة» بجزئيه و«خليل مطران أروع ما كتب».

أما «الشوقيات المجهولة» فهي محاولة من السوربوني لاستكمال ديوان «الشوقيات» بأجزائه الأربعة - علماً بأن الشاعر لم ينشر في حياته إلا الجزء الأول من «الشوقيات»، أما الأجزاء الثلاثة فقد نشرت بعد وفاته بإشراف الأديبين محمود أبي الوفا ومحمد سعيد العريان وباجتهادهما. وكأنما أراد السوربوني أن يقول لجامعي شعر شوقي إنكما أهملتما قصائد كثيرة توزعت في الصحف سواء بالتوقيع الصريح لشوقي أو بتوقيع مستعار، وإن السوربوني بحكم معاصرته لشوقي وغشيانه مجالسه ومعرفته باهتماماته وبمعجمه الشعري قد استطاع أن يفرز عشرات من القصائد المبثوثة في الصحف وأن ينسبها إلى شوقي نسباً صحيحاً .

ومما يزيد من أهمية «الشوقيات المجهولة» أن السوربوني توسع في تسجيل الأجواء الأدبية التي كانت سائدة في ذلك الوقت وصور الأحداث الجارية خير تصوير، فأصبح الكتاب وثيقة تاريخية وأدبية للعصر الذي عاشه شوقي، وهو اجتهاد يرجح كفة السوربوني إزاء كفة النقاد الذين نعوا عليه أن ينسب إلى شوقي قصائد إما تبرأ منها وإما أهملها أو لعلها ترجيحات مشكوك فيها من السوربوني..

وأما كتاب «خليل مطران أروع ماكتب» فقد أراد السوربوني أن يثبت للقارىء أن شاعر الأقطار العربية - وقد عرفته ولازمته في أخريات عمره - قد كان بليغاً في النثر والشعر معاً. صحيح أن الفصول التي جمعها السوربوني في هذا الكتاب لاتمثل كل ما كتبه مطران نثراً - مع استبعاد مسرحياته المترجمة عن شكسبير وراسين طبعاً - ذلك أنني وقعت في تنبيشاتي على فصول غير قليلة لمطران لم تندرج في هذا الكتاب، ولكن ذلك لاينتقص من جهد المؤلف الذي حصر ما وسعه حصره من مصادره، وترك للراغبين في الاستدراك عليه أن يكملوا عمله.

أما المؤلفات التي أصدرها السوربوني باللغة الفرنسية وطبعها في باريس، فقد صارت مرجعاً موثقاً للباحثين الأجانب في تاريخ مصر منذ حملة نابليون وعصر محمد علي وعن تاريخ السودان وإفريقيا الشرقية ، والباحثون الأجانب يشيرون في مراجعهم إلى صبري السوربوني باسم M. SABRY .

أما العمل الذي كان السوربوني يعكف عليه ويتمنى إنجازه ودفعه إلى المطبعة

قبل وفاته ، فهو دراسة ضخمة باللغة الفرنسية عن الحضارة العربية في قلب إفريقيا ، وهو كتاب خلف منه نحو ألف صفحة مخطوطة لا أدري مصيرها اليوم. وعندما سألت السوربوني عن مشروعه لنشر هذه الدراسة في حالة إتمامها قال إنه سيسافر إلى فرنسا ولو بالجنيهات الخمسة التي كانت الحكومة تسمح بها لكل مسافر، وإنه سيحمل معه لوحتين أو ثلاث لوحات من مقتنياته الأصلية لبيعها هناك والعيش بثمنها، وإنه بعدما هاجر ابناه إلى الخارج وتزوجت ابنته واستقلت بحياتها وبعدما كان قد انفصل عن زوجته الأجنبية لم يعد هناك مايربطه بمصر إلا معاش التقاعد وخزانة كتبه الخاصة ، ولكنه كان على استعداد للتضحية بهما في سبيل إطلاع العالم الغربي على الحضارة العربية في قلب القارة الافريقية ، وليس يهمه بعد ذلك أن يموت غريباً في البلاد التي أحبها - أعني فرنسا .

وكنت أشفق عليه من حديث الغربة بعدما نيف على الثمانين ، ولكنني كنت أراه عن كثب وقد أحكم أرتجة بيته خوفاً من مخاطر حقيقية أو وهمية، واقتنى كلباً لحراسته ، وبات لايرد على الهاتف معظم الأوقات ولا يفتح باب منزله إلا بعد مايستوثق من الطارق. أما شئونه المنزلية فكان يتولاها بنفسه دون الاستعانة بخدم، وهي حياة تكاد تماثل حياة النساك الزاهدين. بل فكر في بيع مكتبته التي كان شديد الاعتزاز بها وبما تضمه من مراجع نادرة في التاريخ والأدب والفن، فطبع قائمة مفصلة بمحتوياتها باللغة الفرنسية وبعث بها إلى عدد من الهيئات العلمية في الداخل والخارج عساها تهتم باقتنائها، ولكنه لم يوفق في هذا المسعى. ورجاني أن أتحرى إمكانيات اقتناء المكتبة من جانب الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فلما سألت الأمينة المسئولة أخبرتني أن الجامعة كانت تتفاوض على شراء مكتبة المستشرق كريزويل الخاصة بالآثار الإسلامية، وأن ميزانية الاقتناء لن تتحمل شراء مكتبتين في وقت واحد.

أما وقد تغالظت الظروف المحيطة بالسوربوني، من جحود بلغ ذروته في مذبحة التطهير التي كان من ضحاياها، ومن استحالة تحقيق آخر أحلامه في الهجرة إلى الخارج كي يتفرغ لعمل أكاديمي ضخم، وأما وقد قتلته الوحدة في بيته مع الرعب من المطاردين الحقيقيين أو الوهميين، فقد آن له أن يودع الدنيا على أمل بأن تنصفه الأجيال الطالعة وتعرف حقيقة قدره ومقدار مابذل في خدمة بلاده وأمته. وجاءت منيته في الثامن عشر من يناير ١٩٧٨ - أي منذ ربع قرن - واكتملت آيات الجحود لأن نفراً قليلاً هو الذي سار في جنازته . إنها نهاية حزينة عرفنا أمثالها في حالات كثيرة لطائفة من رجال الفكر اختاروا الباقيات وعافوا زبد الحياة.

ولئن لم يترك السوربوني وصية، فإن وصيته المفترضة هي أن يعاد نشر كل تراثه لكي تبقى ذكراه حية بين الباحثين والعلماء في كل جيل. ■

شعر

سليم الرافعي - لبنان

تحية إلى

أصفهاني زمانه

إلى الأديب وديع فلسطين ومجلة (الهلال)
التى اذاعت كتاباته المدهشة
عن خفايا - وخبايا - خلدها القلم والناشر



أخي .. ياوديع كفلت النهى   أويت إلى الحب فيما آشتهى

من (النيل) تنهل مستبحراً   ومن هرم ترتقى للسهى

وتذكر للشرق أمجاده   إذا الشوق مد ياسه ملها

وما حفظ الود غير الألى   قرائحهم أخلصت صقلها

أولئك من مصر أطيافهم   كأهرامهم خلدت ظلها

ومن وضع (النيل) فى جرعة   سقى للعروبة بيض المهى

هو الشعر صحراوه تلتظى   فهل من (وديع) يرجى لها ؟

ليذكر ماغاب من نجمها   وترعى مروءته ليلها

صدى النهر فى قلم فاتح   ممالك بالأدب أحتلها

أصاخت شعوب إلى صوته   فأيقظها الصوت أو هزها

وكان (الهلال) نديم الهوى   يصون كئوس الهوى كلها

ومن (آسيا) بعد (أفريقيا)   إلى (أمريكا) بلا منتهى

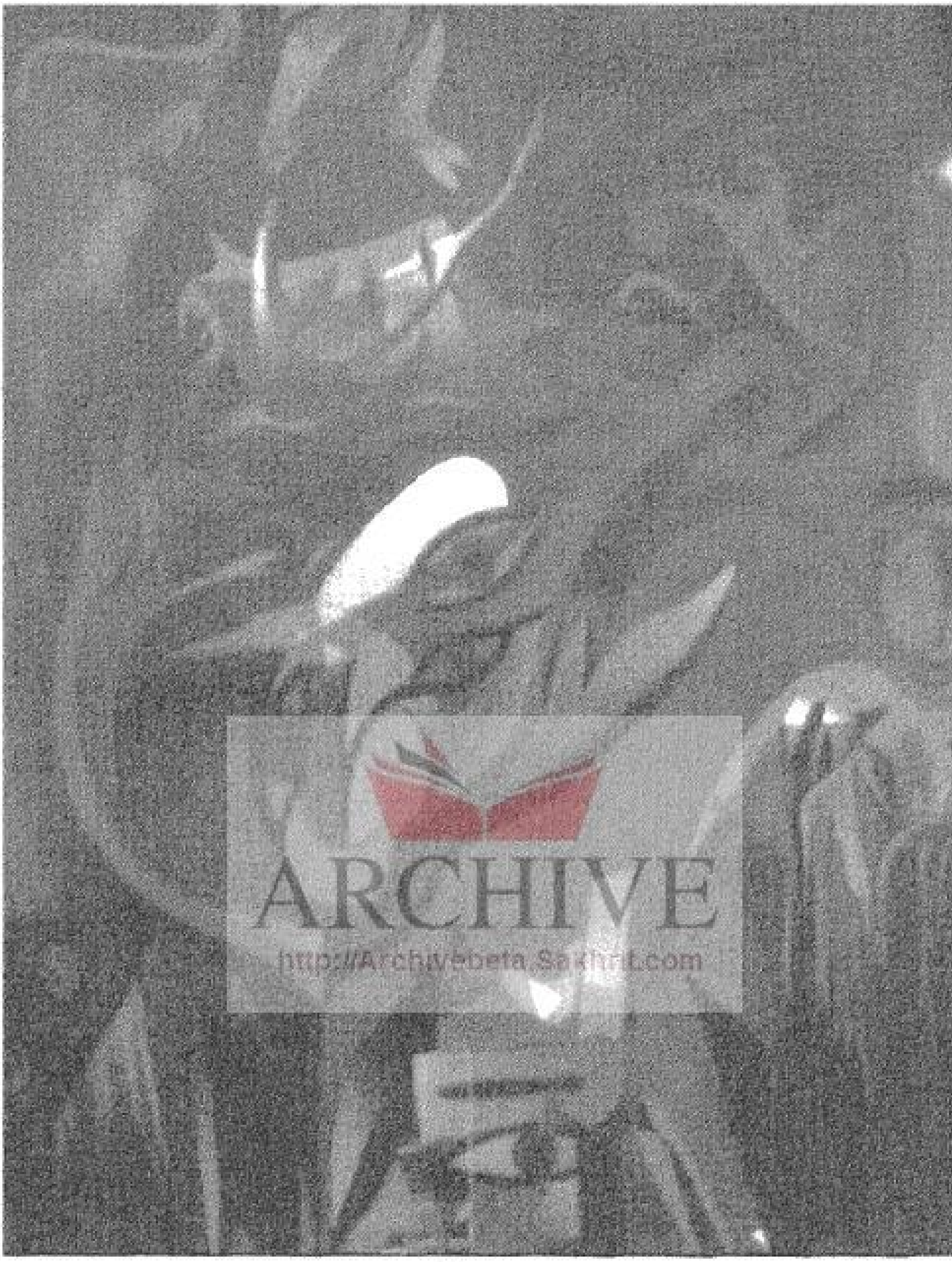
28 المعرض القومي للفنون التشكيلية

الثامن والعشرون

ظاهرة ثقافية إيجابية

بقلم
د. صبري منصور

يظل المعرض القومى للفنون التشكيلية الذى يقام كل عامين ، ويدعى للمشاركة فيه الفنانون المصريون على اختلاف مجالات إبداعهم ، وتنوع اتجاهاتهم الفنية ، ظاهرة ثقافية إيجابية يجب الحفاظ عليها مهما كانت هناك من ملاحظات سلبية تنتقص من قيمة المعرض وتؤثر فى جدواه الثقافية المأمولة ، وتقلل من إمكانياته فى دفع الفن المصرى نحو التألق والإزدهار . فهذا هو المعرض الفنى الوحيد الذى يمنح الفرصة لمتابعة مسار الإبداع التشكيلى فى مصر وتوجهاته الجديدة ، كما يسمح للفنانين أنفسهم بفرصة الإحتكاك الفنى - حتى لو كان صامتا - بما يمكن أن يخلقه ذلك الاحتكاك من إعمال الفكر فى قضايا فنية وأبداعية التى تهم أصحاب المهنة الواحدة .



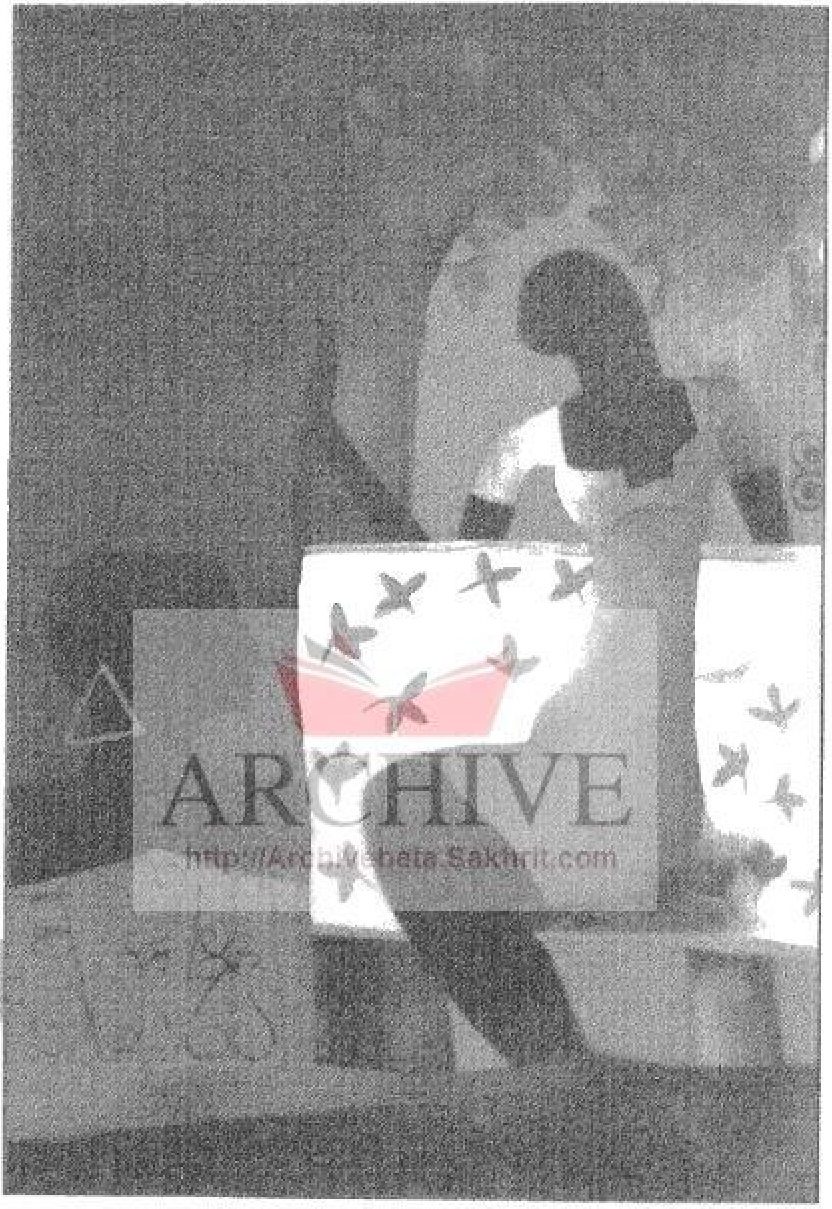
تصوير -إبراهيم العطار

28

وتعكس أعمال العرض الذى أقيم بقصر الفنون خلال الفترة من أواخر أكتوبر حتى منتصف نوفمبر الماضى - ومن خلال أعمال حوالى أربعمائة فنان عرض لهم حوالى خمسمائة عمل فنى فى مجالات تعددت ما بين التصوير والنحت والجرافيك والخزف والرسم والتجهيز فى الفراغ وفن الفيديو والبيرفورمانس - تطلعات الفنانين المصريين المعاصرين نحو تحقيق القيمة الفنية الرفيعة، كما تكشف هذه الأعمال فى معظمها عن قدرات فنية تنوعت واختلفت وفقا لمدى نضج الفنان وثقافته وقوة موهبته، والمعرض فى مجموعه كنتاج ثقافى ينأى عن السوقية والابتذال، ويقدم نموذجا جديرا بالاحترام والتقدير لمجال فنى مصرى، فلقد ساهمت طبيعة الفن التشكيلى نفسه كفن يعتمد على مبدعه منفردا فى المحافظة على القيمة الفنية العالية وعدم التدهور مثل فنون أخرى أصابها النكوص ووصل بها الحال إلى السطحية مثل السينما والمسرح والموسيقى .

وإذا نحينا جانبا أعمال الفنانين المعروفين الذين قدموا فى المعرض القومى تنويعات متميزة على أساليبهم الفنية الذين مارسوها لفترة زمنية طويلة فاكتسبت استقرارا ورسوخا، فإن من الظواهر الملحوظة فى معرض هذه الدورة تزايد أعداد الفنانين من جيل الشباب، الذين تقدموا بإبداعهم الفنى الجديد، ومن بينهم من تعرض أعماله لأول مرة، بل ومن بينهم أيضا بعض الدارسين بكليات الفنون وتعكس أعمالهم موهبة فنية واعدة، كما أن هناك عددا من الوجوه الجديدة يلفت الانتباه لرهافة حسه الفنى وتمكنه من أدواته الفنية، وابتعاده عن ادعاء الحداثة عن طريق تقليد النماذج الحديثة فى الابداع الفنى العالمى فهو يبحث عن ملامحه الذاتية المميزة، مما ينبئ عن شخصية تملك احترام الذات وصدق التجربة .

وعلى الرغم من أن معرض «صالون الشباب» الذى كان مقاما فى نفس المكان قبل المعرض القومى مباشرة، والذى يقتصر قبول العرض فيه على شباب الفنانين حتى سن الخامسة والثلاثين، وتخصص له جوائز عديدة فى



تكوين - عادل ثروت

١٥٧

الهلال

شوال ١٤٢٤هـ - ديسمبر ٢٠٠٣م

28

جميع المجالات الفنية، إلا أن للمعرض القومي جاذبية خاصة بالنسبة للأجيال الشابة التي ترغب في العرض إلى جانب الكبار ، وضمن واجهة الفن المصرى التي تشمل الجميع ، وإذا لاحظنا أن عددا لا بأس به من الفنانين ذوى التاريخ الفنى المعروف والتجربة الفنية الناضجة قد أحجموا عن عرض أعمالهم لسبب أو لآخر ، فإننا نرى أن المعرض القومي يتحول في النهاية إلى صالون الشباب. ولقد بدا الأمر للبعض كما لو أن الأمر فيه مزاحمة من جانب الشباب ، كما بدا للبعض الآخر أن جيل الشباب يستأثر باهتمام أكبر حين يقام له معرض خاص به ، في نفس الوقت الذى يسمح له فيه بالتقدم مع الفئات العمرية الأخرى للمعرض القومي ، مما يدعو إلى النظر في إلغاء صالون الشباب طالما أنه لا يمكن قصر المشاركة في المعرض القومي على فئة عمرية محددة ، فالإبداع الفنى لا يرتبط بعمر معين ، وتلك قضية تحتاج إلى حل يسمح بوجود توازن مقبول من الجميع ، فلا تشعر فئة ما بأنها مهضومة الحق إلى جانب فئة أخرى ، وربما كان الحل - من وجهة نظرنا - إيجاد معرض واحد لجميع الفئات للفن المصرى المعاصر ، وهو حل عادل وسليم ليظل المعرض القومي للفنون التشكيلية هو الواجهة الوحيدة لعرض الإبداع الفنى المصرى سواء كان لكبار الفنانين أو لشبابهم ، ويمكن أن يخصص في هذا المعرض الجوائز المقررة للشباب لمن هم دون الخامسة والثلاثين فقط تشجيعا لهم وحفزا على المواصلة والاستمرار ، كما يمكن أن تمتد هذه الجوائز أيضا للكبار ، وكان المعرض القومي خلال دورتين في الثمانينات يقدم جوائز ثم ألغيت في دوراته اللاحقة . ولا شك أن الجوائز تمثل حافزا من أجل مزيد من الجدية والالتزام ، لأن ذلك شئ طبيعى عند البشر لا نستطيع أن نغفل أهميته وأثره في التشجيع والتقدير ، كما أن وزارة الثقافة تنفذه بكرم كبير في قطاعات فنية أخرى ربما كانت أقل حاجة من الفنون التشكيلية للتشجيع مثل السينما والمسرح في مهرجاناتها التي تقام سنويا .

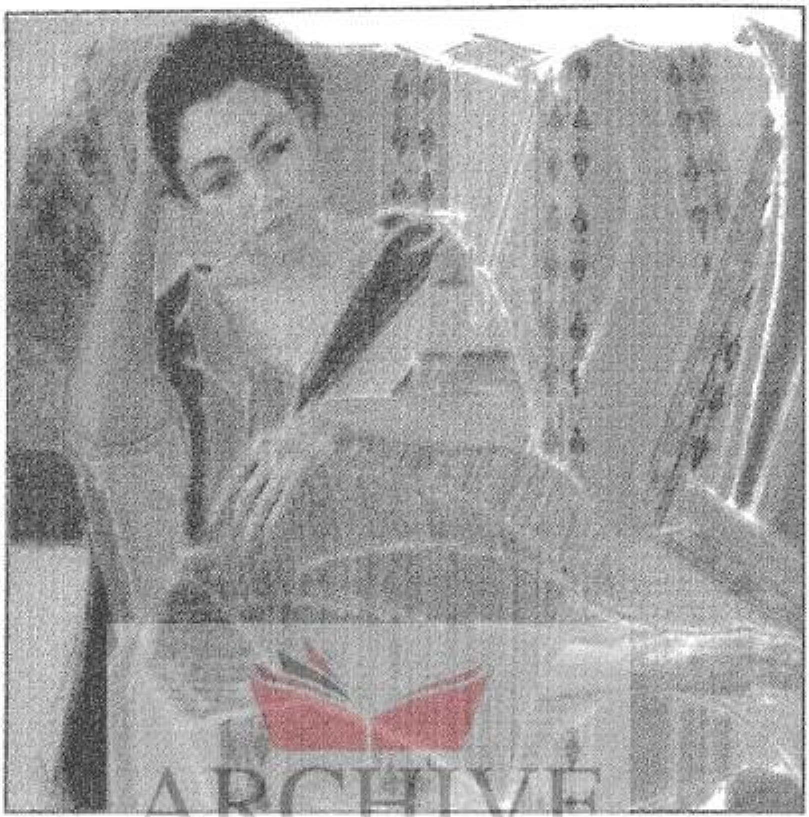
الفهم الخاطئ للحداثة والتحديث

ويثير المعرض عددا من القضايا

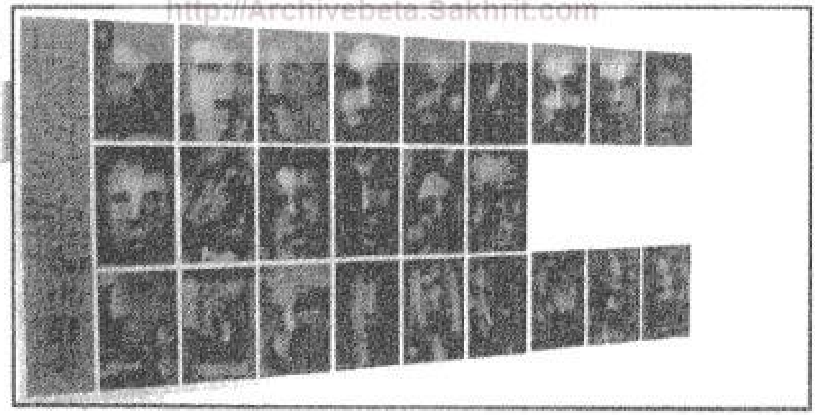


تكوين - محسن عبد الفتاح

الفنية تتصل بإشكاليات الإبداع الفنى المصرى ، ومن أهم تلك القضايا التى تخطر على ذهن الراصد لمسار فنوننا قضية الرغبة فى التحديث ومسايرة أساليب التعبير الفنى السائدة فى الغرب بوصفه أكثر مناطق العالم تمدنا وتحضرا ، وكذلك لسبقه فى ريادة عالم الفنون منذ عصر النهضة وحتى اليوم ، وذلك فضلا عن المد الإعلامى الساحق، وانتشار وسائل التوصيل الفائقة السرعة للمعلومات والأفكار والاتجاهات ، كما أن النتاج الفنى الغربى - فى جميع المجالات - قد بلغ بالفعل ذرى عالية من الاتقان والإبهار والقدرة على الابتكار والتجديد وارتياد آفاق جديدة ، فلقد أتاحت الحياة الرغدة والكريمة التى تحياها المجتمعات الغربية المناخ الملائم لازدهار الفنون وتألق المبدعين الذين توليهم هذه المجتمعات قدرا كبيرا من الاحترام والتقدير ، وتسبغ على إنتاجهم الفنى من صفات التوقير ما يضعه فى مصاف الأنشطة الإنسانية الأخرى إن لم يفقها تقديرا ، وكل ذلك أدى إلى إثراء عالم الفنون ، ودفعها إلى التغير المستمر نحو أشكال فنية جديدة أكثر تعقيدا ، ولاشك أن تلك الأشكال قد أصبحت نموذجا يحتذى ، وأضحت مغرية للمبتدئين وعدم الراغبين فى البحث والتنقيب والتجريب ولكل من يحاول أن يأتى إبداعه الفنى مواكبا أو مشابها لما يراه سائدا وتم الاعتراف به وبقيمته الفنية الرفيعة فى المحافل الدولية ، وذلك ما نعتقد أنه فهم خاطئ حين نتناول قضية تحديث الفن المصرى، فعملية التحدث عن طريق المسايرة هو تقليد لا تحديث ، وهو تشويه لاتجاهات وأساليب نزعت من سياقها الثقافى والفنى ، كما أنه نوع من الاستسهال والركون إلى جهد الآخرين، وهذا ما نلاحظه واضحا فى عدد لا بأس به من الأعمال الفنية فى المعرض القومى التى حين تقف أمامها تشعر بأنك قد سبق وأن رأيتها فى كتاب ما أو دورية فنية أو ما شابه من وسائل النشر ، فهى منقطعة الجذور بما كان وما هو كائن ، ولا يصلك منها أية أحاسيس أو معان ، وإنما هى مجرد تنويعات محورة لأشكال وعناصر سبق معرفتها وتجريبها حتى أصبحت تقليدا ثابتا لا تخطئ العين إدراكه . ومما يؤسف له أن هناك من



عمل للفنانة مي كمال رفقي



عمل للفنان عبد الصبور شاهين

بين أصحاب هذه الأعمال فنانين من الأجيال الشابة التي ندعوها أن تسعى بكل جديد وعمق إلى استكمال مسيرة الفن المصرى الحديث ليس عن طريق اتباع النماذج الغربية الجاهزة ، وانما بالبحث عن سمات خاصة بفنهم المصرى ، وأن يمتدوا بتجارب سابقة فى هذا الطريق . ومن الصدف الموحية أن يحتفل المعرض القومى هذا العام بنماذج من إبداع الفنان الراحل حامد ندا كضيف شرف لهذه الدورة ، فى الوقت الذى يشارك فيه الفنان عادل السيوى بلوحته الثنائية عن لوحة الفنان عبدالهادى الجزار الشهيرة «المجنون الأخضر» ، فالفنانان الراحلان كانا مشغولان بهم إبداع فنى مصرى قلبا وقالبا ، وجاءت صياغاتهما التشكيلية فريدة متميزة ودليلا على قدرة الفنان المصرى على تقديم إبداع مستقل المعالم واضح السمات .

إن الأصل فى الإبداع الفنى هو الاختلاف والتميز ، وذلك ما يمنحه القيمة الحقيقية كابداع فنى مبتكر يقدم رؤية غير مكررة وليس لها من شبيه أو نظير ، وليس مهمة الفن المصرى تحديث الفن الأوربى ، وانما يجب أن ينصب جهده على تحديث الفن المصرى ذاته وتحديد ملامحه ، والتأكيد على مظاهر اختلافه . وعلامات تميزه عن طريق الامتداد بحلقاته البعيدة والقريبة، ولا يجب أن ينظر إلى معالم الحداثة الغربية كسبيل وحيد من أجل التحديث، والقول بذلك فيه انتقاص من قدرة الفنان المصرى على الاضافة وخلق لغته الفنية الخاصة ، إن كل ما يحتاجه المبدع المصرى هو الإيمان بنفسه وقدراته الذاتية ، وبأن لديه شيئا خاصا يمكن أن يدلى به ، وأن يتجه إلى ذلك الكنز التاريخى عبر آلاف السنين وحتى اليوم يمتد بخيوط منه لينسج إبداعه ويحدث أسلوبه . ومهما كانت التجربة الفنية - فى بدايتها - بسيطة ومتواضعة وبعيدة عن مشابهة النماذج الغربية المألوفة والتى استقرت قيمتها الفنية ، إلا أن الإصرار على استكمال التجربة وانضمامها سوف يثمر فى النهاية صياغات تشكيلية جد مختلفة تكون مصدر زهو وفخر للفن المصرى المعاصر ، وإضافة حقيقية لرصيد الابداع الفنى العالمى ■

عائلات ثقافية

عبد السميع

المشاغب الفيلسوف

بقلم

د. عمرو عبد السميع

أنت مش كنت عايز تشوف الحرية .. أهيه يا سيدى قدامك - أزمة الديمقراطية (١٩٥٤)



" لقد كان سعيداً بالثورة .. ولكنه استطاع أن يكون ناقداً لها.. واعتز بحرية رأيه في كل المناسبات والعصور "

أحمد بهاء الدين

لا أجد في الكتابة ، عن رسام الكاريكاتير العملاق، عبدالسميع (١٩١٦ - ١٩٨٦) ، صعوبة الخجل التقليدية، التي تعترى ذوى الصلة الشخصية، عندما يطرحون آراءهم شفاهة أو كتابة ، فيمن ينتسبون إليهم ، بعلاقة قربى، أو صداقة ، وربما - مجرد - معرفة .

فعبد السميع ، بالنسبة لي - إذا أذنتم في هذا المدخل الشخصي - كان رمزاً يتجاوز - بكثير - تأثير شلال أبوته الدافق، وكان معنى يعبر - باستمرار - أسوار رعايته الغامرة، التي أمعنت - ربما بتفصيل مدهش - بناء ، وهندسة ، تكويني العقلي، والإبداعي .

فلقد كان الرجل - دائماً - مساحة مشتركة بيني، وبين الناس، ليس - فقط - لأنه اختصني، منذ نعومة أظفاري، بتحميل جهازي النفسي ، والشعوري ، بترسانة آرائه ، في شئون البلد، ورؤاه في هموم الشعب ، وليس - فقط - لأنني وجدت نفسي - بتأثير تلك الحمولة - أخوض غمار مسار علمي، ومهني، جعلني جزءاً من الساحة الصحفية ، المشدودة إلى الناس، بعلاقة ، تبادلية، يومية ، نشطة ، ربما كان الكاريكاتير أهم عناصرها.



عبد السميع عبد الله



صاروخان



إحسان عبد القدوس

وإنما لأن ذلك الارتباط بين عبدالسميع والناس، لم يك علاقة من طرف واحد، كتلك التى تربط الكثير من رموز، ونجوم النخب السياسية، والفنية، بهم.

بل كان ارتباطاً من طرفين، يتجاوب فيه الناس ، مع ذلك الحضور الطاغي، لروح التحريض الباسلة ، التى حفلت بها رسوم عبدالسميع - فى مناسبات وطنية مفصلية - وكأنهم أعطوها ثقتهم المطلقة ، فأصبحت تحمل خاتم الاعتراف العام، بأنها معبرة عن رأى الشعب، وأن الريشة المقاتلة، التي رسمت خطوطها كانت: «من صميم الشعب».. (ذلك الوصف الذى لم يجد إحسان عبدالقدوس، بديلاً له ، حين خط مقالاً شهيراً عن عبدالسميع).

... ...

بهذا المعنى يختلط الخاص بالعام، والشخصى بالوطنى ، عندما أكتب عن عبدالسميع ، فأشعر ، وكأن يداً ، قد نزعت عنى، حجب الخجل الناجم عن علاقتى الشخصية به، ودفعتنى نحو محاولة تخطى الصعوبة الحقيقية، فى الكتابة عنه، ألا وهى شمولية ، وتعقيد الظاهرة السياسية/ الفنية التى يمثلها.

فنحن - قولاً واحداً - أمام رسام أسس لسابقتين فى تاريخ الكاريكاتير المصرى، هما :

● الالتزام السياسى للرسام.
● التوحد بين الرسام والفكرة.

فقبل عبدالسميع ، كان بعض الرسامين، يرسم فى عشر صحف ، ومجلات ، متناقضة الاتجاهات ، متقاطعة السياسات ، ويتبنى فى رسومه إلى كل منهم ، ما يتوافق مع رغبات المطبوع، بما اختزل دور الرسام - واقعياً - فى وظيفة (المؤدى)!

ولكن الفلاح، المعتز بريفيته، وقف يحاج إحسان عبدالقدوس، حين طلبه للعمل فى روزاليوسف ١٩٤٦، بعدما شاهد رسومه، فى جريدة «السوادى».. واشترط - وهو الرسام المغمور الذى يمارس الرسم كهواية إلى جوار عمله فى مصلحة المساحة - ألا يهاجم الوفد، لمجرد كون هذا الهجوم من سياسة روز اليوسف وقتها، بل ولم يعمد إلى الانتقاص من الوفد - أبداً - إلا بعدما تغيرت قناعاته ذاتياً، وأصبحت منظومة الأحزاب التقليدية كلها، هدفاً متكرراً لهجمات ريشته، ولأفكاره الضاحكة الصاخبة، وصار مصطفى باشا النحاس، وفؤاد باشا سراج الدين ، يظهران فى رسومه، فى هيئة نجمى الفكاهة العالميين لوريل وهاردى!

إلى ذلك فإن الاشتراك الفعال لذلك الرسام ، فى الحملات السياسية الكبرى لروز اليوسف، قبيل ثورة يوليو، ضد الفساد، والأسلحة الفاسدة، وأركان مثلث الحكم (الإنجليزى - السراى - الأحزاب التقليدية القديمة) ، جعل من رسومه كتيبة مدفعية متقدمة، تمهد



لازم يعملوا المرور في الشارع ده .. في اتجاه واحد !! ..   الشيخ متلوف (١٩٥٣)

الرأي العام ، لحدث الثورة.

ولكن استقلالية التوجه السياسي لعبدالسميع ، لم تجعله - أبداً - أحد قارعي الطبول للنظام الجديد، بمبرر، أو من دون سبب.

وإنما اخترع الصيغة التي تمكنه من انتقاد نظام الثورة، في إطار من الارتباط بها، وهو ما أوجزه الأستاذ أحمد بهاء الدين، في أحد أعمدته الصحفية، بقوله: «كان عبدالسميع سعيداً بالثورة، لكنه استطاع أن يكون ناقداً لها.. واعتز بحرية رأيه في كل المناسبات والعصور»

ومن هنا كانت أزمة مارس ١٩٥٤ مثلاً، ساحة مواجهة انتقادية بين ريشة عبدالسميع، والنظام الجديد، عبر سلاسل رسوم ذاع ، وشاع صيتها، عن «النفاق في حديقة الحيوان»، والتي تحركت ريشته - فيها - ببراعة ، مستخدمة وسائط إقناع متنوعة، عمدت إلى اختراق سقوف الرقابة السياسية الضاغطة، ومنها الإسقاط ، والرمز، والتشخيص، والاستدعاءات من حكايا «دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف».

وربما تحرك الفنان في هذا السياق بوعي مؤداه، أن الكاريكاتير لا ينبغي، ولا يمكن أن يتحول إلى بوق تعبوي، وأنه إذا فقد خاصية القدرة، على التحريض، والاستقلالية، التي تمكنه، من مناوشة، ووخز، من يريد، عندما يريد، فإنه سيصبح أداة تغييب، تغرق الناس في بحور من الضحك، أو تسحبهم من بؤرة

أي أزمة، إلى حوافها، وتخوفها، مهمشة دورهم، ومختزلة إياه، في الضحك المجرد، غير القابل، أن يتحول إلى طاقة للتغيير، أو أساس لبناء موقف.

ولم يك إرساء مفهوم الالتزام السياسي عند عبدالسميع، لينفصل - البتة - عن موضوع توحد الرسام مع الفكرة، فقبل عبدالسميع - كذلك - كان السائد في تعامل أي مطبوع مع الرسام، هو أن يقوم رئيس التحرير، أو بعض محرري المطبوع، بإمداده بالأفكار ليرسمها، وقد أسس الأستاذ محمد التابعي لمدرسة في الكاريكاتير، يعد هذا الأسلوب خاصيتها المميزة، سواء في روزاليوسف (عندما أسسها مع السيدة فاطمة اليوسف والأستاذ محمد علي حماد)، أو في آخر ساعة، وأخبار اليوم (حين أسس الأولى عام ١٩٤٤)، فقد كان الرسامان ، الأرمني أليكس صاروخان، أو المصري محمد عبدالمنعم رخا، ينفذان أفكاره، لسنوات طويلة، أو كان رخا (منفرداً) ينفذ أفكار الأستاذ مصطفى أمين، ثم الأستاذ محمد عفيفي، والأستاذ مأمون الشناوي من مجلة (الاثنين وصولاً إلى أخبار اليوم).

مدرسة أخبار اليوم

بعبارة أخرى أصبح ذلك الأسلوب علامة على فهم أخبار اليوم للكاريكاتير الذي تواصل، حتى تلك الصيغة التي جمعت الأستاذ أحمد رجب، مع مصطفى حسين.

وقد عبر رخا عن ذلك في مقال منشور بمجلة الاثنين في ٢٣ أكتوبر ١٩٤٤، بعنوان : «كيف يفهمون الكاريكاتير» فقال: «إن مصطفى أمين هو فابريقة أفكار رسوم كاريكاتيرية، نلتقي فيظل يتمشى في حجرته واضعاً أصبعيه في صديريته، ثم يملي عليّ ، وقد يعطيني في خمس دقائق أفكاراً لخمس صور، ولا أدري كيف عثر عليها».

أما صاروخان فيؤكد ارتباط رسومه الكامل بمحمد التابعي، حتى في طريقة دراسته لملامح بعض الشخصيات، توطئة للتعبير عنها بالبورتريه الكاريكاتيري.

(حوار لأليكس صاروخان مع محمد أحمد عيسى في جريدة الجمهورية بعنوان كلام بالكاريكاتير في ٣٠ سبتمبر ١٩٧١).

مدرسة روز اليوسف

أما المدرسة الثانية الكبرى في تيار الكاريكاتير المصري، فكانت مدرسة الأستاذ إحسان عبدالقدوس، في روز اليوسف، والتي بدأها معه عبدالسميع، حين أصر - الأخير - على أن ينتج أفكاره بنفسه ثم يترجمها خطوطاً ومساحات على الورق.

إذ كان اعتزاز الفلاح العمدة ، برأيه ، لا يتجزأ، لا ينفصل عن فكره، ولا ينبغي ، أن يُسلم دماغه ، إلى آخر، أياً كان هذا الآخر، فقد كان اقراره بمبدأ



العذاء الملكى والنحاس باشا (١٩٥١)

الالتزام السياسى للرسام يعنى – ضمنياً – أن يقبل ، أو يرفض، وفقاً لسياسة تحريره، أو لسقوف حرية التعبير السائدة، فى فترة بعينها، أو للمزاج الثقافى والاجتماعى السائد عند الناس.

بل لقد كان يرى أن قبول الرسام لإملاء الفكرة عليه، يحدث – على المستوى الفنى – فصلاً سقيماً ومقيتاً، بين مضمون الرسم، وأسلوب التعبير المستخدم فيه، ويقترب به من الصيغة، التى بلورت نفسها، فى أكثر أشكالها وضوحاً ، عند الأستاذ أحمد رجب، ومصطفى حسين، ألا وهى المقال الفكاهى، القصير، الذى يصاحبه رسم، والتى يحاول مصطفى حسين – الآن – التملص منها، لخلافه مع أحمد رجب، ليعود إلى صيغة الكاريكاتير الحقيقية، التى يوظف فيها قدراته الفنية الضخمة ، توظيفا صحيحاً، غير أنه يواجه تعثراً، وصعوبة كبيرة، بعد أن تعود الجمهور على الشكل الذى كان يُقدم له بوصفه (الكاريكاتير)، كما تعود على صيغة أخبار اليوم المهنية، بوصفها (الصحافة)، فيما لم يك ما يقدمه أحمد رجب ومصطفى حسين هو الكاريكاتير بالضبط، كما لم تك أخبار اليوم، هى الصحافة وحدها!!

كوميديا الموقف

كانت رسوم عبدالسميع، فى مدرسة إحسان عبدالقدوس، مفعمة بالحرارة التعبيرية، التى يولدها ذلك التوحد بين

الفكرة والرسم واستطاعت ان تخترع كودا للتفاهم مع الجمهور، بحيث أصبح هذا الجمهور، قادراً على التقاط الرموز، والمعاني، حتى لو اضطر الرسام، إلى تمويهها، وإخفائها ، تحت ضغط تراجيديا الحواجز السياسية والاجتماعية، متنوعة الدرجة والمستوى.

ثم أن التوحد بين الفكرة والرسم ، منح الكاريكاتير، فرصة مهمة، لأن يلتصق بمفهوم كوميديا الموقف بأكثر مما يرتبط بكوميديا اللفظ ، إذ أن توهج التعبير ، الناجم عن وحدة المنبع للفكرة والرسم، أديا - تلقائيا إلى اختصار التعبير بالكلم، ومن ثم الاقتراب شيئاً ، فشيئاً من الرسوم بدون تعليق ، التى تشارف معانى العالمية، والكونية، من دون صعوبات كبيرة، أو الرسوم ذات التعليقات القصيرة، التى يمكن ترجمتها، أو استنباط معانيها بيسر، لا ينزع عن الكاريكاتير ، واحدة من أهم صفاته ، وخصائصه، ألا وهى «إنسانيته» التى تعبر الحدود، والمسافات، وتتخطى الحواجز الثقافية، واللغوية.

على أية حال، فإن نجوم الكاريكاتير الزاهرة، التى رصعت الحياة الصحفية ، والسياسية فى مصر، بعد عبدالسميع، وخرجت من عباءة صيغة (الرسام/ المفكر)، كانت أكبر دليل، على صحة ذلك الاختيار: (صلاح جاهين - أحمد حجازى - جورج - بهجت عثمان - محيى الدين اللباد - ماهر داود - رجائى ونيس - إيهاب شاكر - نبيل السلمى - صلاح الليثى).

وقد ملأت هذه الكوكبة المجيدة ، صفحات كل المطبوعات المصرية (جرائد ومجلات) برسوم . كانت تعبيراً مباشراً، عن رأى ، وفكر ، كل من هؤلاً المشاغبين الفلاسفة، والتى أصبحت - فى ذاتها - وثائق للتاريخ السياسى ، والاجتماعى، لمصر، وعلامات طريقه، تحدد - بدقة - موقع ارتباط (الرسام/ المفكر)، وانحيازاته السياسية ، والاجتماعية.

استقلاليته والتزامه

إلى ذلك فإن تمسك عبدالسميع باستقلاليته - مرة ثانية وثالثة - بعد قيام الثورة ، واحتفاظه لنفسه ، بالقدرة على نقدها، لم يُزل - أبداً - ارتباطه بالطروح الوطنية ، السياسية والاجتماعية، للنظام الجديد، فإذا كانت رسوم عبدالسميع - فى أبسط أوصافها - قبل الثورة هى رسوم (تحريضية)، فإن رسومه بعدها - وفى أبسط أوصافها كذلك، هى رسوم (إصلاحية). وحين كان يشعر فى المرحلة الثانية من مراحل النظام الجديد (عصر السادات) أن قدرته على التعبير، أصبحت محدودة ، كان يرتحل برسومه، من مطبوع إلى مطبوع (قومى أو حزبى ليس يهم، مجلة أو جريدة ليس يهم) بحثاً عن الحرية، والرسم فى الهواء الطلق، وملاغاة الناس، وإيقاظهم، واستنقاذهم ، من خدر النوم تحت الظلال الوارفة، لأشجار



الحملة ضد النحاس (١٩٥٠)

: العادى – والممكن – والواقعى !

وربما كانت أفضل فترات عمل هذا الرسام والعمدة، هى التى أبدع فيها، مع رؤساء تحرير يرتبطون بروزاليوسف، ففى فترة رئاسة الأستاذ أحمد بهاء الدين للمصور، احتل الكاريكاتير مكانة متميزة، حتى أنه ظهر على غلاف المجلة لأول مرة منذ نشأتها، أو مع الأستاذ صلاح حافظ فى روز اليوسف، وكانت أكثر الفترات التى تعرضت فيها رسوم عبدالسميع للمنع والتقييد هى فترة رئاسة تحرير الأستاذ يوسف السباعى، وفترتى تعامل الأستاذين مرسى الشافعى ، وصبرى أبوالمجد مع الكاريكاتير، فتوقف عبدالسميع فى المصور عن تقديم الكاريكاتير المتعلق بالسياسة الخارجية، واكتفى بصفحة ملونة ، بعنوان (بالألوان) تعرض فيها لقضايا محلية، كما توقف عبدالسميع عند بلوغه السن القانونية، عن العمل مع صبرى أبو المجد، ولكنه عاد إلى المصور مع تولى الأستاذ مكرم محمد أحمد لرئاسة تحريره عام ١٩٨١.

فنان صاحب موقف

كان يربط إسهامه الصحفى الفنى، بمدى اقتناعه بالعمل مع رئيس تحرير معين، ويتوقف إذا شعر أن تعامله مع رئيس تحرير – بالذات – سوف يفقد رسومه بعضاً من خصائصها السياسية.

وربما كان فى ذلك تفسير كاف لترحال عبدالسميع واسع النطاق بين المطبوعات المصرية فى العهد الثانى لنظام ثورة يوليو.

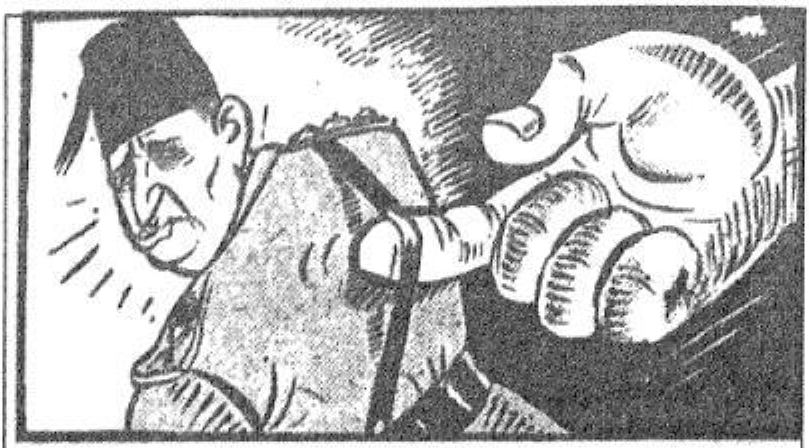
فقد استقر – أولاً – فى روزاليوسف من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٥ ، ثم انتقل إلى أخبار اليوم عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ ، ولم يتوام مع طبيعة الصحيفة أو مزاجها السياسى، على الرغم من أنها أفردت له ملحقاً ملوناً من صفحات أربع (أخبار الكاريكاتير) وامتلأت القاهرة عند انتقاله إليها، بأفيشات فى الشوارع (عبدالسميع يرسم فى أخبار اليوم)، ومن أجل هذا قبل فوراً دعوة المرحوم صلاح سالم للرسم فى صحيفة الشعب، ومنها إلى الجمهورية جريدة الشعب حتى عام ١٩٦٤، حين خرج ضمن الذين خرجوا فى مذبحة الصحفيين الأشهر إلى مؤسسة تعمير الصحارى، ورفض استلام عمله فيها، حتى طلب منه الأستاذ أحمد بهاء الدين أن يرسم فى المصور ، ومجلات دار الهلال، وروزاليوسف (وقت إشراف الأستاذ بهاء المزدوج على الدارين)، ثم رسم فى العدد الأسبوعى للجمهورية، مطلع السبعينيات ، وقت رئاسة الأستاذ ممدوح رضا للتحرير، وكذلك فى جريدة السياسى، ورسم – كذلك – لفترات متفرقة ، فى صحيفة الأهالى عندما أصدرها حزب التجمع التقدمى، وصحيفة الشعب لحزب العمل الاشتراكى.

الجانب الفنى

هذا عن الجانب السياسى فى مسيرة الفنان / العمدة، أما عن الجانب الفنى فقد استخدم أكبر عدد من الشخصيات ، والرموز الثابتة لرسام مصرى ، واشتمل رصيده على :

الحذاء الملكى الذى يرمز للملك فاروق– لوريل وهاردى «النحاس وسراج الدين» – غول الفساد – الشيخ متلوف – النفاق فى حديقة الحيوان – البوليس النسائى – عنتر وهابيل ومكار وأبو الأفكار «شخصيات ثابتة لرسوم الأطفال – رجل الشارع – أبو جهل – الأستاذ حركات – الأستاذ بيروقراط – رجل الشارع العربى – الأستاذ مخلص – السلطان كحيان – المعلم ألبنده – الأستاذ مهروش).

وكان بعض هذه الشخصيات يرمز لظواهر مجتمعية ، أو لشرائح اجتماعية ، والبعض الآخر ينسحب على شخصيات بعينها ، مثل الحذاء الملكى الذى يشير إلى الملك فاروق (حين ظهرت صورة فوتوغرافية فى مجلة المصور يبدو فيها الملك فاروق يرتدى حذاء مفكوك الرباط، فالتقط عبدالسميع هذه الصورة، وحولها إلى رمز كاريكاتيرى ثابت للملك، وخلق ذلك الكود بينه وبين الجمهور حول الرمز، بحيث أصبح الحذاء يعنى عند القراء – مباشرة – حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول، كما كانت شخصية أبو جهل تنسحب على الأديب الأستاذ إبراهيم الوردانى (الذى كان قد كتب فى الجمهورية مقالاً قال فيه: «إن الأدب اليونانى أدب عفاريت»، فرد عليه د. طه حسين، وكان رئيساً للتحرير قائلاً: «هذا



حملة الاسلحة الفاسدة (١٩٥٠)

الإنســـان رضى عن جـهله، ورضى عنه جهله» وهنا فكر عبدالسميع فى إبتكار شخصية (أبى جهل).

كما كانت شخصية الشيخ متلوف تشير إلى أحد رجال الدين المشهورين، واســـمــه على وزن مـــتلوف ، ومـارس عبدالسميع - عبرها، انتقاداً واسع النطاق للمؤسسة الدينية ، وبدخولها الزائد، فى كل مـــفـــردات الحـــيــاة الاجتماعية والثقافية للناس، كما هاجم المنحـرفين من رجـال الدين، مـزدوجى المواقف والهوية.

وقد يلزم أن نضع هامشاً - هنا - يشير إلى مستوى التسامح السائد فى مصر ، فى الخمسينات ، والذى كان يسمح بمثل هذا الوخز الانتقادى، من دون حساسيات، أو قرع طبول الحرب، أو استصدار صكوك النفى، أو العزل، أو التكفير ، وبما وسع المجال - تلقائياً - أمام التفكير المنطلق ، ومساحات الرماية الحرة بالسخرية والضحك.

أما شخصية الأستاذ مخلص ، فكانت ترمز إلى الرئيس أنور السادات نفســه، حين رأى الرســام أن حـديث «الوفاء» عند الرئيس، لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة، وأن نظرته إلى سلفه الرئيس عبدالناصر، كانت مشوبة بالكثير من التعقيدات ، والتشابكات، التى تبتعد - كثيراً عن مفهوم الوفاء.

محطات فنية

وعلى الجانب الفنى - كذلك - عمل عبدالسميع على امتداد مسيرته

الصحفية ، والفنية (أربعون عاما) إلى تغيير أسلوبه ، خمس مرات متتالية، كالآتى :

● المرحلة الأولى: (روز اليوسف - أخبار اليوم - الشعب) واستمرت حتى ١٩٥٩، وفيها استقرت شخصية الرسام بالرسم بخطوط عريضة بالفرشاة، أعطت رسومه إحساساً بالكتلة ، وسخونة ، وطبيعية فى الحركة.

● المرحلة الثانية : (الجمهورية) واستمرت حتى ١٩٦٤، وفيها تأثر عبدالسميع باتجاهه إلى التصوير الزيتى (أقام ثلاثة معارض كبرى أعوام ١٩٦٣ - ١٩٦٦ - ١٩٨٢) وعبر فيها الرسام عن الكتلة بخطوط رفيعة ، مع عناية مقصودة ، وعمد إلى بعض التشويه المتناغم مع رؤاه فى التجريد والتكعيب ، التى برزت فى رسومه التشكيلية.

● المرحلة الثالثة : (المصور) حتى عام ١٩٧١ ، وفيها مال عبدالسميع إلى زيادة التفاصيل، والعناية بتأثير الظلال - مرة أخرى - مع «التهشير» بسن الريشة.

● المرحلة الرابعة : (المصور والجمهورية) حتى ١٩٧٨، وهى المرحلة التى أبرز فيها وحشية ملامح شخوصه الكاريكاتورية واستخدم الخط المفرد، من دون ظلال، أو تهشير.

● المرحلة الخامسة : (السياسى والمصور) حتى ١٩٨٤، وفيها اتجه إلى التلخيص الكامل، والتعبيرية بأقل الخطوط سمكاً، وأكثرها بساطة.

... ...

والواقع أن أسلوب عبدالسميع الفنى لم يك يتطور على هذا النحو، تلبية لاحتياج داخلى ينزع إلى التغيير فحسب ، ولكن هذا التغيير كان يأتى تجاوباً مع عناصر ثلاثة :

أولاً : التغيير فى نوع الطباعة السائد، فاستغلال امكانات الطباعة بالروتوغرافور ، أو بالأوفست ، يختلف عن طبع الجرائد البارز ، ومن ثم يعطى الفنان فرصة ، لاستطعام الطعوم، وتجريب التجارب، والخوض فى لجة مغامرات فنية ، لا يمكن الإحاطة بحدودها.

ثانياً : كان عبدالسميع واحداً من أكثر فنانى الكاريكاتير فى مصر، تجاوباً مع التغييرات التى تطرأ - عالمياً - على شكل الكاريكاتير من «كامينجز» إلى «دافيدلو» ، ومن «جيرالد سكارف» إلى «رالف ستيدمان»، ومن «شافال» إلى «تيم» ، ومن «وليام ستيج» إلى «رونالد سيرل».. وقد أسفر حواره الدائم والدؤوب مع تلك التغييرات ، عن بناء رؤية جديدة فى عقله الإبداعى ، تعمد إلى جعل وثائقه المرسومة - باستمرار - صورة عصرية ، لا تحوى أشكالاً، قد لا تشبه الزمن الجديد، وربما أكمل هذا - من جانب آخر - نزوعه الأدبى المهم (أربع مجموعات قصصية ومسرحيتان) والذى أصبح عاملاً مضافاً، يعطى لغته



• قرر وزير التموين اخراج السكر من نظام البطاقات
وزير التموين – اتلن بعد كده مالكش عندى حاجة !!

المستخدمة فى الكاريكاتير ، تلك المسحة ، التى تشبه عصرها ، بما جعل تجاوب الناس معه، أكثر سرعة ، وتلقائية.

ثالثاً : لما كانت رسوم الكاريكاتير هى وثائق لوصف العصر، فقد كان عبدالسميع يضفى على أسلوبه – أحيانا – ما يحمل رأيه فى ذلك العصر، وليس غريباً – إذن – أن يتنوع أسلوبه، فى السبعينات، ما بين (الوحشية) و(القتامة).

... ...

لقد أسهمت عوامل ضغط مروعة ، فى إزاحة ريشة عبدالسميع المقاتلة ، عن مجالها الطبيعى الحر، فى التعبير، والوخز، وإثارة عواصف الضحك والسخرية ، ولدى ما يحملنى على الاعتقاد، أن تلك العوامل، قد أنهت – بطريق غير مباشر – حياة الرجل ذاتها، وبخاصة إذا أدرك أحدنا ، حجم ذلك الارتباط العضوى ، بين حياة عبدالسميع، ورأيه.

ولقد أسهمت ذات العوامل – بدرجات متفاوتة – فى حصار ريشات مجيدة كثيرة ، حتى ليخال المرء، أن الكاريكاتير قد حُددت إقامته ، وراء أسوار ، وقضبان التسلط، والغلاظة ، وعدم التسامح ، وتفكيك الخواص الطبيعية للبلد، وللشعب ومناخ السوداوية ، والعدوانية، والادعاء ، الذى ظلل الجميع.

وليس غريباً – إذن – أن تتساقط أوراق الشجرة السامية، للمشاغبين الفلاسفة ، احتجاجاً، أو اكتئاباً، أو اعتدالاً، أو رحيلاً، فيما تفسح الساحات ، لصيغ بديلة تعتمد (التنفيس) لرسوم (التحريض) فى حديثها إلى الناس، أو تنزع إلى (التنظير) لرسوم الكاريكاتير فى الندوات والتليفزيون، فيما هى غير ذات علاقة بالانتماء، أو الانتساب ، سوى إلى تلك الرغبة المستعرة فى إعادة كتابة تاريخ أكبر الفنون شعبية وديموقراطية، علها تفتعل لنفسها مكاناً لا تستحقه ■

وصف رحلة لمشاهدة مسرح للفلاحين؟

بقلم
صافى ناز كاظم

من ميدان الأوبرا فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى يوم من أيام نوفمبر ١٩٦٩ تعبأنا فى واحد من الأتوبيسات: صحفيين ونقادا وكتابا وما إلى ذلك. عدد غفير من الأفندية، وبعضنا من السيدات والآنسات. وصلنا استراحة كفر الشيخ عبر طريق بزينه، فى مرحلته الأخيرة، الغروب، وتناولنا الشطائر وعصير الجوافة، وبعضنا الشاى. ثم ما لبث أن نادى مناد لكى نهرع إلى الأتوبيسات مرة أخرى لنتحرك فى السادسة والنصف إلى قرية أريمون، حيث يقام مسرح للفلاحين تعرض عليه مسرحية الهلافيت للأستاذ محمود دياب، وإخراج الأستاذ أحمد عبد الهادى ..

لم يكن لدى شخصيا تصور عن كيفية شكل هذا المسرح أو كيفية موقعنا ونحن نرقب تجربة تفاعل جمهور الفلاحين مع ذلك المقدم إليهم لكى يدشن بصفته «مسرحا للفلاحين» .الحقيقة أن الأمر كله بدا لي غامضا، فأنا لم أفهم كيف سيمكننا رصد هذا الأمر بشكله العادى رغم أننى قرأت بالتدقيق كلمة المخرج التى وزعت علينا فى أثناء رحلة الأتوبيس، وأنقلها هنا بالحرف الواحد لما تحتويه من نقاط مثيرة للتساؤل أو الدهشة، وربما للأقاويل :

«أثناء تدريسي بالمعهد العالي للفنون المسرحية، كان هناك سؤال يراودني دائماً: هل هناك شكل خاص بالمسرح المصرى؟ ما هو هذا الشكل؟ المسرح الموجود حاليا عندنا هو خليط من المسرح الإيطالى والفرنسى والإنجليزى، وليس خلقا كاملا سليما أصيلا للمسرح المصرى .

إن التيارات المسرحية التى هبت علينا من الغرب التى استنبتناها فى التربة المصرية لم تكن ثمارا مصرية صحيحة، ولكن بين صفحات الكتب والمسرحيات المصرية والتاريخ (!؟) وبمساعدة الصديق الزميل فوزى فهمى، استطعنا العثور على كلمة (عنخ)، وتعنى فى اللغة الهيروغلوفية القديمة: مفتاح الحياة، والمسرح فى رأيى هو مفتاح الحياة، ومن خلاله نستطيع أن نلقى نظرات كثيرة على حياتنا. إذن ما المانع أن يكون شكل المسرح المصرى هو مفتاح الحياة عند قدماء المصريين ؟ ولم أجد مانعا (!؟)

وأنا هنا لا أدعى أن هذا هو الشكل النهائى للمسرح المصرى، بل هو بداية، فهل هناك من يريد أن يمد يده إلينا محاولا معنا العثور على شكل للمسرح المصرى؟ هل هناك من يريد أن يضع لبنة فى هذا الشكل لنصل معا إلى الشكل النهائى للمسرح المصرى؟

حينما توجهت إلى كفر الشيخ مخرجا عن الثقافة الجماهيرية، سعدت كثيرا بعثورى على التربة الصالحة لأستنبت المسرح المصرى، وبمساعدة الأستاذ إبراهيم بغدادى محافظ كفر الشيخ والزملاء أعضاء فرقة كفر الشيخ المسرحية، استطعنا أن نصل معا إلى العرض الذى ستشاهدونه. وكان ميلاد هذه التجربة على أرض أريمون: القرية البسيطة فى محافظة كفر الشيخ، وهو ليس بعرض بقدر ما هو تجربة. هذه التجربة التى آمنا بها كلنا ونطرحها الآن أمامكم للمناقشة. ونحن على استعداد لتقبل كل نقد فى صالح البحث عن شكل

المسرح المصرى (؟!) والمسرح فى رأيى يبدأ هنا من القرى والنجوع فبنزولنا إلى الفلاحين فى أرضهم لخدمة الثقافة، نكون قد أوصلنا الثقافة لمن يستحقونها، وبالتالى سيبحثون هم عنا عند نزولهم إلى المدن. بهذا نكون قد عملنا على توسيع رقعة الثقافة وتوصيلها إلى القرى والنجوع، وبهذا نكون قد عملنا على نشر الثقافة الجماهيرية وأخيرا هذا هو مفهومي الشخصي عن الثقافة الجماهيرية، والشكل المسرحى هنا ينبع أساسا من القرية نفسها، وأعني أنه بأكوام السباخ والطين الموجود على الأرض يشكل المسرح من التربة وإليها

إنى أترك لكم الحكم على هذه التجربة التى أرجو أن أواصلها إلى النهاية وفى طريقنا جميعا لإيجاد شكل المسرح المصرى.

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه خير المسرح والثقافة والوطن » .

أنتهت كلمة المخرج أحمد عبد الهادي.

ترجلنا . وكانت هناك كلوبات لتضئ لخطواتنا الطريق على الأرض البضة بمنحرف قصير التقت أعيننا بمكان المسرح، ابراج الحمام وشجرة أو اثنتين وبيوت : إطار طبيعى من القرية حدد فى قلبه الشكل المألوف والشائع لمسرح حرف (التى) Tفى مواجهته رصت مجموعة من المراتب على مسافة ثلاثة أو أربعة صفوف أمامية فى أماكن الجمهور، وبعد «المراتب جلس جمع من أهل القرية على الأرض وبعضهم ظل واقفا .

من الوهلة الأولى أدركت أن المراتب للأفندية ولحضراتنا من السيدات والأنسات، فداهمنى الخجل ورغبة أن تشق الأرض وتبتلعنا جميعا أنا والأفندية، وأدركت مدى الموقف المحرج الذى سأضطر إلى أن أخوضه .الموقف مع ذلك لم يكن جديدا، فنحن بالفعل دائمان نجلس على مراتب، وهم بالفعل دائما جالسون على الأرض، وبعضهم يظل واقفا. هذا إذن ياسيدتى يا جالسة المرتبة هو مجرد التجسيد المسرحى لواقعنا غير المشرف، هذا هو التبسيط بالغ الحدة لشكل ثقلنا المرهق فوق أكتاف هؤلاء الناس، وشكل زيفنا وفراغ كلمتنا. بنصف رأس أردت أن أختلس نظرة إلى أصحاب البلد وأنا جالسة بأضعف الإيمان فى الصف الأخير من المراتب - أنا على الحدود بين المراتب والأرض - لأتحسس عيونهم: هل يلفظنى وأنا أدور فيها ؟ هل توهمت أنهم لايعبئون بى ؟ ليست هناك نظرة تلق أو لفظ، هناك نظرة تفرج ساخرة. لو تلونت

السخرية قليلا بظل من التمرد لشعرت بالاطمئنان. الوجوه معظمها شاحبة مائلة للبياض، والعيون بدت لى مذهلة الجمال: واسعة بنية ذات أهداب طويلة، الجلابية دقيقة مثل ورقة السيجارة، وتلفيعة على الرأس أو طاقية صغيرة. ابتسمت تجاههم فى استخزاء بغية تعارف واعتذار، لم يكن هناك شئ بالذات أريد أن أعتذر عنه، كان مجمل كل الأشياء تقريبا. لم تستطع ابتسامتى أن تفتح حوارا. ظلوا يتطلعون إلى مجموعتنا بشكل استكشافى زامم الشفة : لعبة الفرجة تبدأ من حدود المراتب .

أطفئت بعض أنوار الكشافات العالية وبدأت المسرحية. مغن على ربابة يحرك شفتيه إزاء تسجيل عال لموال: مقدمة تمهيدية للمسرحية. الصبى الذى خلفى لاحظ أن الرجل لا يغنى حقيقة، واحتسبها قفشة لكذبة أولى وانشغل فى توزيع اكتشافه .

أفندى من منظمى العملية تعبت ساقاه من جلسة المراتب، تحرك فى ثقة بخفة وجلس مربعا ذراعيه على كرسى مواز للمسرح. استنكار فورى هب داخلى، لكن عيون أصحاب البلد لم تجد فارقا كبيرا بين أن يجلس على المرتبة أو أن يجلس على الكرسى طالما أنه هو على أية حال لا يزال جالسا على الأرض فى مؤخرة الحفلة التى أقيمت باسمه ومن أجله .هدأ استنكارى فورا. صحيح.. ما الفرق؟ إن جلستنا على الأرض لاتعدو سوى ديكور مكمل لهذه المسرحية التى نلعبها جميعا أنا والأفندية. إنها مشكلتى أنا جالسة المرتبة مع جالس الكرسى. ياالله، هل يدور هذا الحوار داخلى فقط؟ لابد أنه يدور ولو بشكل آخر داخل واحد آخر على الأقل، لكن ما بالنا لا نفعل شيئا؟ ننسحب؟ طظ. نطالب بإيقاف العرض حتى يعاد إخراج لقاء أهل البلد بحضرات الضيوف وحضرة جناب المسرح «عنخ»؟ ماذا لو كان المسرح فى المنتصف ونحن جميعا من حوله دائرة؟ أو حدوة حصان (ألا يوجد لحدوة الحصان اسم فى اللغة المصرية القديمة؟) ونجلس جميعا على القش، أو جميعا على الحصير، أو جميعا على المراتب، أو جميعا على الكراسى، وجازى الله المقدرة خيرا ونأتى نحن الأفندية - إذا شيئا أن نرصد لقاء جمهور أهل البلد بالهيصة- ونجلس بين الناس كيفما اتفق - كما يحدث فى المهرجانات أو فى السوق أو فى المولد - نجلس ببساطة وتلقائية، ربما يمكن عندها لهذه العيون البنية مذهلة الجمال

أن تصدق أننا حقا نريد خلق حوار معها نتعلم منه جميعا كيف نكون أهل بلد واحد، أى شكلاً يطرح قيمة من القيم التى نتشدق بها، شكلا يطرح تغيرا لواقع كئيب: ما هى الثقافة التى نريدها جماهيرية؟ هل هى شئ آخر غير الثورة وغير التغيير؟ فلا أقل إذن من سلوك طامح لتحقيق ذلك .

لو أن المخرج الشاب أحب نفسه أكثر، لعرف أن أى اكتشاف للمسرح أو فى المسرح لايمكن أن يكون بين صفحتى كتاب، ولو أنه ترفق بنفسة أكثر وبعينيه الباحثة الغضة، لعرف ألا يسعى للمساعدة عند الصديق الزميل أو عند السيد المحافظ والزملاء، بل لترك نفسه يخجل بحرية– والخجل عاطفة ثورية أيها الشاب – وحتما لأوصله خجله إلى طريق يزرعه بين أصحاب البلد، ولكان بوسعه عندها أن يخبرنا بأسلوب أقل طنطنة وأكثر صدقا، ويخبر تلاميذه أثناء تدريسه بالمعهد العالى للفنون المسرحية: كيف ساعدته تلك العيون البنية مذهلة الجمال لكى يصل ليس إلى شكل للمسرح المصرى – ليست هذه قضية – ولكن إلى مسرح يشعر بجدواه إنساننا الحقيقى، يشعر فيه وبه أنه «أهل البلد»، ويطرح من خلاله حلمه الكبير أن يكون هو القيمة العليا «فعلا» لا تشخيصا.

بينما كان يدور داخلى هذا الحوار وينبض قلبى لذلك بعنف، تبين لى أننى لا أفعل شيئا سوى أن أضيع أجزاء كبيرة لا أتابعها من المسرحية، ولا أفتأ أغير من وضع جلستى استخزيت لا أملك سوى أن أسعد بكل شوشرة، وصخب الزحام الذى يأتينا من مؤخرة الحفل. بعض الواقفين يضغطون على البعض الآخر ويتشاجرون، شجارهم أزعج الجالسين على المراتب، أو هكذا خيل إلى واحد من المنظمين، فإذا به يقف ويواجههم فى زجر. تهيأت لكى أنبش عنقه ثم استدركت. إننى لست أفضل منه، إنه فقط صورتى المبالغ فى عدم حيائها لكن لابد أن أريح توترى الذى ضاعفه هذا الغبى، فاندفعت أصيح فيه : «معاهم حق .. يعملوا إيه يعنى؟!» استخزيت أكثر أهذا . كل ما أحسن الله به على؟

أضيئت الكشافات فى استراحة. ليموناتة آتية توزع على الأفندية فقط. إلى أى شئ ينتمى إحساسى هذا بالفضيحة : إلى الطفولة اليسارية أم إلى الرومانتيكية الثورية؟ أمسكت كوبى لأجرب أن أهديه للصبى الذى خلفى لا يمكن. رفضنى. وكذلك الطفل الذى يجاوره، وكاد يزجرنى الفتى الذى خلفه، ويبدو أن وجهى عكس حالة إجهاش

بالبكاء أثارت عطف هذا الذى وصلنى صوته من بينهم «إوعى منك له أخذها آنى ما يجراش حاجة» هذا الكرم رغم كل شئ، هل هو نقطة ضعفهم؟.

المؤلف قال لى : إن الهلفوت فى هذه المسرحية هو التجسيد لفرفور يوسف إدريس المجرد. إنه الإنسان المسحوق الذى أفقده مجتمعه كرامته الإنسانية. نقطة الخلاف بين المؤلف والمخرج أن المؤلف أشار فى نصه إلى أن الهلافيت فى القرية ثلاثة أو أربعة، ولكن المخرج جعلهم جماعة تبدو كأنها القرية كلها، المخرج معذور لأن كل ما يهمه هو : «شكل المسرح المصرى»، أما المضامين فكلها ثانوية، فليس علينا أن نزج «بعنخ» فى «مزالق» سياسية أو اجتماعية أو كما قيل..

والمؤلف حين يتصاعد بالهلفوت شحاتة، الذى أريد له أن يلعب دور العمدة لكى يسرى عن أفندية القرية، حين يتصاعد به، وهو يستكشف ويتكشف إنسانيته من خلال وعيه بآلام وآلام أهل القرية، نجده يضيف إلى الهلفوت القوة والرهافة معا. فالقوة إذا كانت منبعثة من الإدراك الحاد للمظالم، لابد أن تصاحبها الرهافة ككشاف لصيق - كما كانت الغلاظة والركاكة لصيقة بالاستسلام للامتهان- فالهلفوت فى قوته حين يبكى تنحدر رغما عنه دمعة يخفيها، لولا أن يكتشفها صديقه، وهى دمعة المشفق الذى انبعث فيه التصميم ألا يمتهن أبدا بعد الصحوة. لكن المخرج الذى أتعب نفسه لكى يعثر على كلمة «عنخ» لم يشأ أن يتعب نفسه ليعرف الفرق بين البكاء الرخيص والبكاء الغالى، ولم يشأ أن يعرف معنى صحوة الهلفوت وكيف يمكنها أن تتراسل مع أهل القرية- فى النص أو فى الحقيقة - لإخراج كل الرفض المكتوم .

عندما أضيئت كشافات النهاية، قال لى المؤلف الأستاذ محمود دياب:«ما رأيك» قلت له «رأيى لا يهم اسأل أهل البلد». وكانوا حولنا وقد تحولت السخرية من نظرة خفية فى العين إلى ضحكات، وخبط فتى زميله على صدره «عجبتك الحفلة يا واد؟»، فأزاحه الآخر وهو ينظر إلينا كأنه يريد أن يقول «ياما جاب الغراب لأمه» لكنه قال بأسلوب أكثر مباشرة «حفلة إيه بلا خ ....».

ثم ركبنا الأتوبيسات فى طريق العودة، وكنت لا أزال غارقة لأننى فى شعور طافح بالخجل ! ■

شابلن

وحنين إلى أفلام لها تاريخ

بقلم
مصطفى درويش

كان عاما فارقا، في شهره الأول أتت النيران علي قاهرة الخديوي إسماعيل، فلم تبق منها سوي اشباح مبان، اشبه بالأطلال.

وفي شهره السابع غادر فاروق أرض المحروسة إلي منفاه الذهبي في إيطاليا. حيث عاش الحياة اللذيذة بين علب الليل في روما وكابري، إلي أن جاءه الموت مبكرا فعاد بجثمانه إلي حيث كان له ملك عريض، لم يستطع أن يدافع عنه كالرجال

هذا في عالمنا القديم.





أما فى العالم الجديد، فالعام كان حافلا بأحداث شائقة رائقة حينا، وقاتمة بغيضة حينا أخر.

عالم مجنون .. مجنون

ففيه فاز، لاول واخر مرة في القرن العشرين، جنرال برئاسة أغنى وأقوى دولة فى عالمنا المريض وفيه اجرى العالم الأمريكى المنحدر من أصل مجرى أنوارد تيللر والملقب بأبى القنبلة الهيدروجينية تجربته الناجحة على تلك القنبلة فكان ذلك إيذانا بوضع كرتنا الأرضية على شفا هاوية الفناء .

والدنيا هكذا على كف عفريت، اذا بأول عدد من مجلة ذات طابع كاريكاتورى، ساخر بكل شيء، يصدر تحت عنوان ماد.أى مجنون.

شابلن فى « الطفل»

وإذا بها تبقى منتعشة، واسعة الانتشار حتى يومنا هذا.

وفي نفس العام، وبالتحديد يوم السابع عشر من شهره التاسع غادر شارلي شابلن نيويورك عاصمة المال والأعمال، مستصحبا أسرته، على ظهر السفينة كوين اليزابيث.

وما أن أبحرت به السفينة ، وغابت نيويورك بناطحاتها في الأفق البعيد، حتى انتهز الغلاة في الدوائر الحاكمة الأمريكية الفرصة، فأعلنوا بلسان النائب العام (المقابل لوزير العدل عندنا) أنه شخص غير مرغوب فيه ، وإن عاد الى الولايات المتحدة، فسيجري التحقيق معه فيما كان يمارسه من نشاط هدام.

وبعد ستة أيام وصل شابلن الى لندن، حيث ولد قبل ثلاثة وستين عاما، لحضور حفل العرض الأول لفيلمه «أضواء المسرح» (٢٣ أكتوبر).

سر المقت الشديد

وهنا أقف قليلا عند تصرف غلاة الدوائر الحاكمة الأمريكية على هذا النحو غير المألوف مع نجم لعب دورا كبيرا في الصعود بهوليوود ، حتى أصبحت عاصمة السينما وكعبتها . يحج اليها النجوم من كل مكان.

لأقول انهم ما تصرفوا معه على هذا النحو الممجوج إلا أنهم كانوا يمقتونه هو وأفلامه الساخرة من طريقة حياتهم مقتا شديدا.

فما أكثر ما تردد اسمه في المعارك الحامية الوطيس التي شنها أنصار الديمقراطية والسلام ضد الهجمة المكارثية الضارية المعادية لحرية التعبير، حتى صار علما على التيار المناهض للحروب، والداعي الى حظر استعمال أسلحة الدمار الشامل، لاسيما ما كان منها متصلا بالقنبلتين الذرية والهيدروجينية.

القاتل والجنرال

وليس أدل على خطورة شابلن كداعية للحرية والسلام في ذلك الزمن الموغل في القدم من «مسيو فيردو» «١٩٤٧».

وموضوعه يدور وجودا وعدما حول رجل اضطره مجتمع قاس، لا يرحم، الى ايقاع نساء مسنات ثريات في حبه ثم قتلهن كي يعيش هو وصغيره، وزوجته العليلة ، القعيدة، من مال القتيلات.

وعنه قال شابلن في بعض أحاديثه الصحفية، انه فيلم يتمحور حول فكرة رئيسية، جوهرها أن الحرب والجريمة، ليس بينهما فرق كبير.

فكما ان الحرب، عند الجنرال الالماني الأشهر فون كلاو زفيتز، استمرارا للدبلوماسية ، ولكن بطرق أخرى.

فالجريمة هي الأخرى . عند مسيو فيردو. استمرارا لما يرتكب في دنيا المال والأعمال ، ولكن بوسائل أخرى

ولا يفوتني هنا. أن اذكر أنه كان



على رأس قائمة الاتهامات الموجهة الى شابلن المقولة الشهيرة التى جاءت على لسان «مسيو فيردو» والفيلم يقترب من الختام، وليس بينه وبين الموت، بالجيلوتين تنفيذا لحكم الإعدام، سوى بضع ثوان.

«جريمة قتل واحدة، تجعل فاعلها شريرا أما اذا كان القتلى بالملايين فقاتلهم يجعلون منه بطلا».

وأعود الى انذار النائب العام، لأقول أن شابلن كان قد بيت النية، حتى قبل مغادرة هوليوود الى نيويورك، فلندن، على عدم العودة الى الولايات المتحدة.

وفعلا استقر مع أسرته فى ربوع سويسرا، حيث عاش حياة هادئة، لا تعكر صفوها مطاردات المباحث الاتحادية الامريكية، ولا حملات

الديكتاتور العظيم

الصحافة الصفراء.

ثم مرت الأيام أعواما بعد اعوام. أخرج أثناءها «ملك فى نيويورك» «١٩٥٧»، ذلك الفيلم بين جميع اعماله

السينمائية الذى لم تتح له فرصة أى عرض فى مصر، ربما مراعاة لشعور غلاة الدوائر الحاكمة الأمريكية الواقفين لعرض هذا الفيلم بالمرصاد.

وبعد ذلك بعشرة أعوام أخرج «الكونتيسة من هونج كونج» بطولة مارلون براندو وصوفيا لورين.

وهو آخر فيلم يشارك فيه بالتمثيل، وإن كان الدور الذى أداه صغيرا، لا تتجاوز مدة ظهوره فيه، بضع ثوان.

التكريمات الأخيرة

هذا، وقبل انسحابه من الحياة، ليلة عيد ميلاد حزين «١٩٧٧» بخمسة أعوام كرمه مهرجان فينيسيا السينمائى، بمنحه جائزته الكبرى، الاسد الذهبى، وبعرض جميع أفلامه التى شارك فيها بالتمثيل، ولو بدور صغير، على امتداد ثلاثة وخمسين عاما.

ولأمر ما، وجدتنى، ولدهشتى، مدعوا الى هذا المهرجان، حيث شاهدت جميع أفلامه التى مثل فيها، بدءا من فيلمه الاول «أكل العيش» «١٩١٤».

وبطبيعة الحال، كان من بين ما شاهدته «الدكتاتور العظيم» «١٩٤٠» ومسيو فيردو وأضواء المسرح وملك فى نيويورك»

وتوقعت ان يمزقنى الشوق الى مشاهدة الدكتاتور العظيم وأضواء المسرح مرة ثالثة، زمنا طويلا.

ولكن غاب عنى اختلاف المكان والزمان

ففى مدريد شاهدت أثناء العام الذى مات فيه الجنرال «فرانكو» الدكتاتور العظيم.

اختفاء السينما

وفى القاهرة قبل أيام، وأثناء شهر رمضان، حيث أغلق اصحاب دور السينما ابوابها بالضبة والمفتاح، بحجة واهية هى ادخال تحسينات عليها.

فى حين أن السبب الحقيقى لهذه المحنة هو غزو الشاشة الصغيرة بمسلسلات معظمها ردىء، طابعه أما الهزل والتهريج، أو الفجيعة والصراخ والعويل.

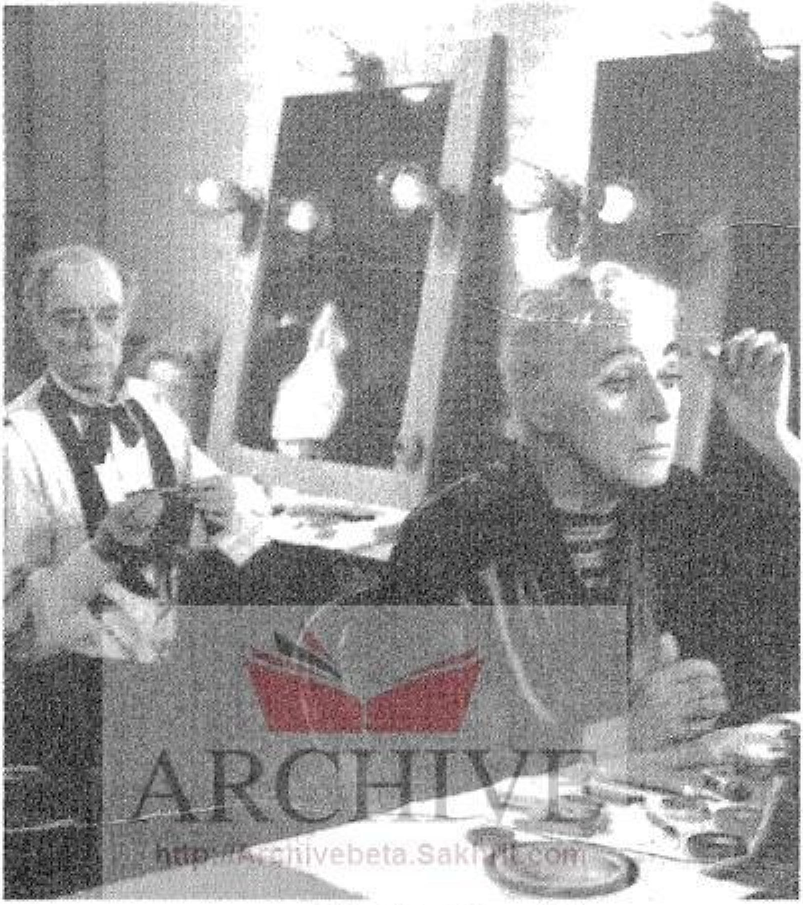
جاءنى، هدية من السماء، صندوق عجائب، به أربعة أفلام لشابلن مسجلة على اسطوانات مدمجة.

وقد خفف مجيئه من أثر صدمة اغلاق دور السينما طوال الشهر الكريم، خاصة أن الافلام الاربعة، كان من بينها الدكتاتور العظيم واضواء المسرح، ذلك الفيلم الذى أخرجه شابلن فى الولايات المتحدة، وشبح المكارثية يعيث فى الارض فسادا، مهددا الحريات.

وبه ختم حياته السينمائية فى هوليوود، التى استمرت زهاء ثمانية وثلاثين عاما، وهى، لا ريب مدة طويلة فى عمر الإنسان.

خير ختام

والحق، أن أضواء المسرح، بنبل وصدق موضوعه، وروعة موسيقاه كان خير ختام لحياة شابلن فى بلاد العم



شارلي ويستركيتون فى أضواء المسرح

سام.

وقد شاهدته عام عرضه الاول فى مصر «١٩٥٢» ، ولم اشاهده مرة اخرى إلا بعد ذلك بعشرين عاما.

هذا عن آخر فيلم أخرجه شابلن فى هوليوود

أما الدكتاتور العظيم فله معى أكثر من قصة، بدءا من أول مشاهدة فى دار سينما مترويول «١٩٤٠» التى أتى عليها حريق القاهرة، بعد ذلك باثنى عشر عاما.

ففى تلك المشاهدة الأولى ، وصلت متأخرا ، بعد بدء عرض الفيلم ببضع ثوان،

ولم استطع مشاهدة ما فاتنى من

شوال ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

لقطات أخرى جرى عرضها. أثناء تلك الثواني، الا بعد اثنين وثلاثين عاما بالتمام!!

غير إنه فيما بين المشاهدة الثانية، وكانت في فينسيا والمشاهدة الثالثة له في مدريد، لم تمر سوى ثلاثة أعوام.

أفضال الدكتاتور

والى الدكتاتور العظيم يرجع الفضل في الصلة بيني وبين شابلن بوصفه مخرجا قديرا.

فبدءا من مشاهدته، ظللت ابحث عن أفلامه الاخرى بأمل مشاهدة ما استطيع مشاهدته منها.

ولم يكن الأمر سهلا.

ففي أيامنا كان المكان الوحيد المخصص لعرض الأفلام هو دار السينما.

وليس أدل على صعوبة مشاهدة افلام شابلن، انني وحتى يوم شغلت منصب مدير الرقابة على المصنفات الفنية إبان عقد الستينيات، لم أكن قد شاهدت من أفلامه الطويلة، وهي عشرة سوى خمسة أفلام، ليس من بينها ملك في نيويورك بطبيعة الحال.

يبقى لي أن أقول أن أفلام شابلن الطويلة المسجلة حديثا، على اسطوانات مدمجة عددها عشرة تبدأ بالصبي «١٩٢١» وتنتهي بملك في نيويورك.

ومن بينها فيلمه «امرأة من باريس» «١٩٢٣» الذى لم يعرض حتى في مهرجان فينيسيا.

ثورة المعلومات

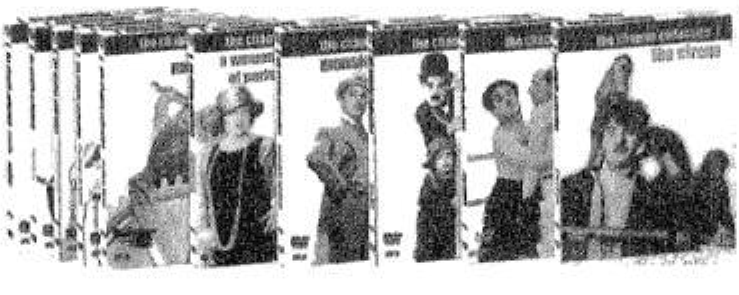
مع الاسطوانة المسجل عليها الفيلم، توجد اسطوانة أخرى مسجلا عليها معلومات كثيرة عنه، من بينها فيلم تسجيلي عنه، يتحدث فيه أحد المخرجين الكبار والفيلم التسجيلي عن «أضواء المسرح» صاحبه المخرج انجاريو كوزارينسكي.

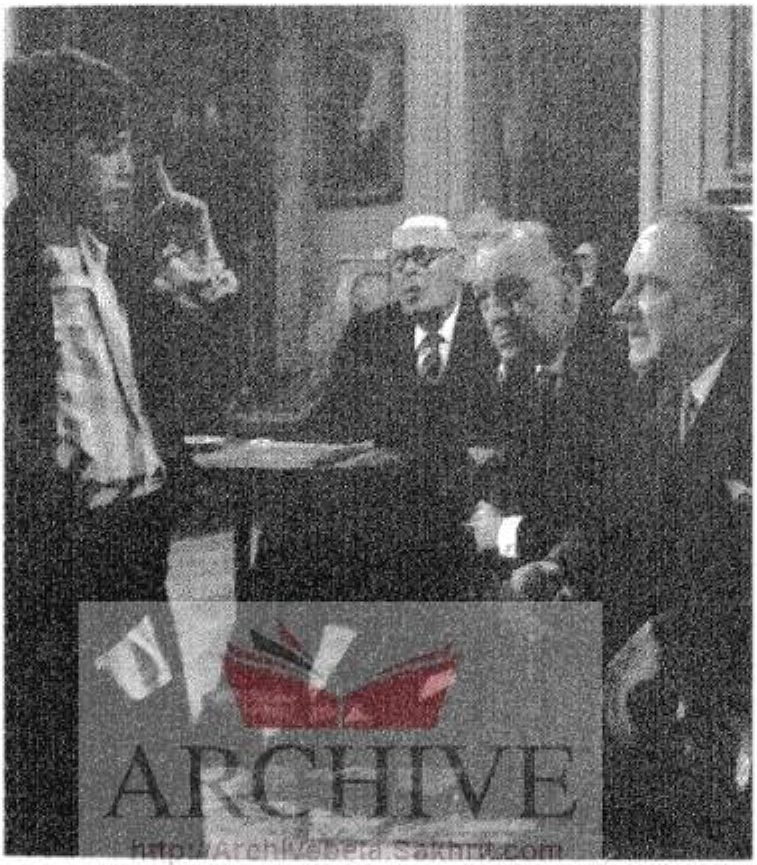
أما المتحدث عن الفيلم فهو برناردو برتولتشي المخرج الايطالي الشهير، الفائز فيلمه الامبراطور الأخير بتسع جوائز أوسكار.

وعلاوة على ما تقدم فثمة مقدمة لأضواء المسرح بصوت وصورة دافيد روبنسون مؤلف كتاب شابلن حياته وفنه.

وفي هذه المقدمة جاء على لسانه أن شارلي جاءته بعد مغادرة الولايات المتحدة بعشرين عاما، دعوة من







ملك في نيويورك

أكاديمية علوم وفن السينما الامريكية لحضور حفل اوسكار السنوي بهوليوود، حيث سيجرى تكريمه بجائزة أوسكار خاصة عرفانا لعطائه السينمائي.

نيل القبول

ونصحه البعض برفض الدعوة صيانة لكرامته، مع الاحتجاج على السياسة الامريكية ببيان دامغ.

ولكن شابلن لم يأخذ بالنصيحة، وسافر الى هوليوود ، وله من العمر ثلاثة وثمانون عاما، حيث تسلم تمثال أوسكار.

وفي وصف تصرفه على هذا النحو قالت «كلير بلوم» نجمة «أضواء المسرح» انه تصرف يتسم بالنبل والأناقة والجلال. ■

المتفرجة

الترياق من السم الهارى

بقلم
مرفت رجب

«أكثر مسلسل أعجبنى هو أبيض فى أبيض».. قالت أخرى.. ليس عندى وقت لأمطار مسلسلات رمضان، لكن لأنى أحب يحيى الفخرانى، أتابع «الليل وآخره» قال ثالث: أظننا لا نختلف على جرأة مسلسل «مسألة مبدأ» قالت رابعة ولا أظننا نختلف على السم الهارى!!

وهنا صدرت عن الجمع صيحة.. أعوذ بالله.

ويبدو أن اسم الكاتب الراحل أسامة غازى سيظل محفورا فى ذاكرتنا عنوانا على اجتماع الموهبة والإتقان بعد أن جاء ما كتبه فى حلقات مسلسل أبيض فى أبيض مؤكدا ما سبق واكتشفناه فى أول ما أذيع له من أعمال درامية «أوبرا عايدة» ففى الحالتين يتأكد ما للمؤلف من رؤى فى الحياة يعرف كيف يصوغها إبداعا دراميا محكما ممتعا، والدهشة تصاحب الإعجاب من أول لقطة فى المسلسل إلى آخره، ولاشك أن كتابته فيها من الجرأة ما يتجاوز المألوف إلى ما يسمى بالفانتازيا، لكنها جرأة مختلفة تماما عن جرأة مسلسل «مسألة مبدأ». فهى عند أسامة غازى - رحمة الله عليه - جرأة فى بناء الشخصيات ووضعها فى مواقف يتصاعد تعقيدها ليتصاعد معها نمو الشخصيات وتطورها إمعانا فى اكتشاف منابع القوة والضعف فيها، ومع تعقد الصراع يضع يده على عوامل الجمال والقبح فيها وفينا وفى المجتمع



ممدوح عبد العليم وصفية العمري في (ابيض×ابيض)

والإنسانية جمعاء.. وهو من خلال بطله «منذر» ينقلنا من البراءة إلى الشعور بالمسئولية ولقد نجح في تصوير التحول الذى نضج إليه «منذر» ليصبح المكافح المصر على تخليصنا من الضعف والقبح والاستسلام في آن معا، وبنفس القدر نجح في بناء كل شخصيات المسلسل، فصدقناها وصدقناه ، كما صدقنا جرأته على كل المستويات.. خاصة وأنها جرأة صادقة عكس تلك الجرأة الكاذبة التى وصف بها مسلسل «مسألة مبدأ» فلقد تجرأ المسلسل وتناول موضوعا كان تناوله ينحصر في دوائر الإشاعات فلما انتقل الأمر من دوائرها إلى شاشة التليفزيون ورأى الناس بعيونهم مسلسلا يحكى عن عضو فى مجلس الشعب يستميت فى المحافظة على مقعده فى المجلس ضمانا للحصانة التى تمكنه من الاستمرار فى المتاجرة فى السلاح، وصف البعض هذا النوع من التناول الدرامى بالجرأة، فالكل يعلم بارتباط الأمر بمشاكل جرائم الثأر وزاد من حجة أصحاب الرأى ما ورد على لسان تاجر السلاح عضو مجلس الشعب «جميل راتب» فى المسلسل، من استحالة التفكير فى وقف هذا النشاط لأن زعماء شبكة تجارة السلاح فى الخارج لا يرحمون. فهذا طريق الرائح فيه لايعود.. والله شكرا للأستاذ جميل راتب أنه عرفنا بأدائه المعبر ما أفهمنا بأن هناك «فى الخارج» من له مصلحة فى استمرار جرائم الثأر عندنا!! لكن المهم ما العمل؟! هل سنكتفى بالكلام عن هذه المشكلة الخطيرة ومعالجتها فى مسلسل درامى؟! وماذا عن الواقع، من يتولى أمره ؟؟ إننى من أجل ملابسات هذا

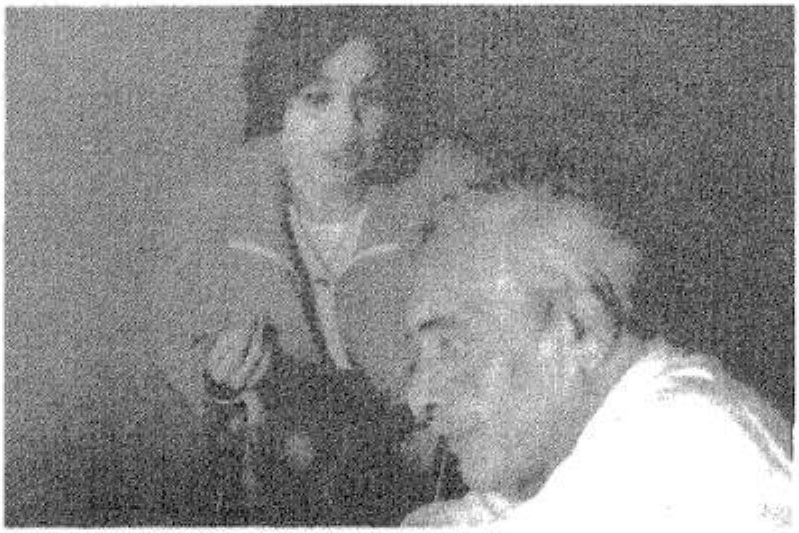
السؤال أميل إلى اعتبار هذا النوع من الجرأة جرأة كاذبة، ذلك لأنني أعتبر الكلام فى هذه القضية المتشابكة الخطيرة نوعا من الكلام المندرج تحت عنوان «حرية التعبير» على الطريقة الأمريكية، تلك الحرية التى تقتصر على كونها حرية فضفضة، حرية فى الكلام فى الأمور يراد منها كف التفكير. ومن ثم كف الحركة الى الفعل.. يعنى ببساطة أن يحل الكلام محل الفعل، ويبقى الحال على ما هو عليه، والرأى عندى أن هذا أخطر بكثير من عدم الكلام.. ففى حالة عدم الكلام فى العلن عن أمر بهذه الخطورة.. يبقى الأمل فى استمرار التفكير وإعمال التدبير من جانب الشعب ومجلس الشعب، والحكومة حتى يمكن إيجاد صيغة للتعاون المسئول بيننا جميعا للقضاء على مشاكل المتاجرة فى السلاح بما فى ذلك إدارة التعامل مع شبكات التهريب الدولية فالمسألة لا يمكن أن تحل من خلال حملة إعلامية يكون مثل هذا المسلسل جزءا منها.. وحتى لو فكرنا فى صيغة الحملة الإعلامية الملائمة لتوعية الناس بآثام استمرار «الأخذ بالثأر» فهل كان لابد أن تقود هذه الحملة واحدة حصلت على الدكتوراه فى القانون من فرنسا؟! ياسلام !! وماذا لو كانت حصلت على الدكتوراه فى القانون من مصر؟ أم أن زمار الحى لا يطرب.. لا أتصور أننى محتاجة للتذكير بأن مصر هى بلد المحامية الفذة الراحلة الأستاذة مفيدة عبدالرحمن، كما أنها بلد أستاذة القانون عضو مجلس الشعب والوزيرة السابقة الأستاذة عائشة راتب التى أتوقع أنها فزعت، كما فزعنا جميعا من اللهجة المتبجحة التي كانت تتحدث بها ابنة تاجر السلاح «جمل راتب» فى مسلسل مسألة مبدأ.. فالاصل فى الأمور فى بلدنا العزيز أن الأب أب، ويلزم قدر من الأدب والتوقير فى التحدث إليه حتى ولو كان... وحتى لو كانت حضرتها حاصلة على الدكتوراه فى القانون من فرنسا .

رد الاعتبار

ولقد جاء فى الرد على صاحبتنا التى اكتفت من مسلسلات رمضان هذا العام بمسلسل «الليل وآخره» حبا فى «يحيى الفخراني» ما قاله أحد الحاضرين من أنه يظن أن هذا المسلسل كتب خصيصا ليرد الاعتبار لتجار «المانيفاتورة» بعد الغضب الذى علا صوته أيام إذاعة المسلسل الذى أظهر أحد تجار الأقمشة يجمع زوجاته الأربعة فى بيت واحد وتاجر الأقمشة فى الليل وآخره «يحيى الفخراني» ملزم بزوجة واحدة ولما لاقى هذا الرأى استحسانا جاء التعليق بأن من حق كل أستاذة للقانون فى مصر أن تطلب رد اعتبار، بعد الصورة الشائهة التى ظهرت بها شخصية أستاذة القانون فى المسلسل إياه.. وهنا صاحت المشتكية من السم الهارى - المشار إليه فى مقدمة المقال - متسائلة .. لا .. الأول نرد الاعتبار لبنات وسيدات السيدة زينب!!

من يبيع المياه فى حارة السقايين

وعلى عكس الحال فى اختيار اسم البطل فى أبيض فى أبيض حيث جاء اسم «منذر» إسما على مسمى، نجد اسم البطلة فى مسلسل العمة نور إسما على



جميل راتب مع الهام شاهين فى أحد مشاهد مسلسل « مسألة مبدأ»

غير مسمى، ولما جاء اسمها بالكامل فى المسلسل «نور شمس الأصيل» فقد فتح بابا للإشاعات يصعب إغلاقه.. فنظرا لأن الكاتب اختار أن يجعلها قادمة من أمريكا بعد إقامة ربع قرن هناك فقد راجت فى البلاد صيغ مختلفة لإشاعات تدور حول أن المسلسل نوع من محاولة تحسين صورة أمريكا فى البلاد بعد أن فقدت مصداقيتها بسبب أكاذيب وتهورات الإدارة الأمريكية الحالية، وذلك إضافة لإشاعة أخرى تؤكد أن السبب فى السم الهارى هو الرغبة فى تقليد نموذج مسلسل «أمرأة من زمن الحب» الذى قامت ببطولته الفنانة سميرة أحمد.. ويقول مؤيدو هذه الإشاعة إن الدور كان ملائما للبطلة شكلا وموضوعا كما يرون ان اختيار المؤلف أن يجعلها تنتقل من المنيا فى صعيد مصر لتحيا مع أولاد أخيها فى القاهرة يعتبر ظرفا مقنعا، فمن الطبيعى أن يكون المصريون القادمون من صعيد البلاد أكثر حرصا على التمسك بموروث التقاليد من أقاربهم سكان القاهرة أما أن تأتى واحدة من أمريكا لتعلم أهلها فى مصر الأدب فحالها لا يتجاوز حال بائعى المياه فى حارة السقايين، لكن ربما نلتمس لها العذر إذ لا نتوقع ان تكون قد قرأت كتاب عالم المصريات «الأمريكى» بريستد «فجر الضمير» لأن هذا العالم اورد فى كتابه ما أثبت به أن المصريين القدماء هم أول من أدركوا وجود الضمير ، وبالتالى فهم أول من عرف الأخلاق ومنهم تعلمت الدنيا.. والإشارة هنا الى الترجمة العربية للكتاب . فليس من المعقول ان أدعوهم إلى قراءة الأصل بلغته بعد صدمتنا فى مستوى اللغة الانجليزية الذى جرى على لسان تلك البطلة، فقد كان يحتاج إلى إعادة نظر من كل من

السيد المؤلف والسيد المخرج فلقد قوضا دعائم مصداقية بطلتهم إذ جعلوها تنطق بلغة لا تمت بصلة لا للغة الإنجليزية ولا للهجة الأمريكية فى نطقها، ودعنا من القول بأن هذا مستوى نطق من عاشت بين الأمريكيين لربع قرن ، فإذا أضفنا إلى ذلك بقية سمات الشخصية فى الشكل والمضمون لفهمنا لماذا آلت إلى ما آلت إليه على ألسنة الناس والمصيبة ان الافتقاد الى الصدق الفنى لا ينحصر على حال البطلة وحدها، وإنما يتجاوزها ليشمل معظم شخصيات المسلسل، والأظهر فى هذا الشأن بينهم، شخصية زوجة اخى العمة.. فهى من أهل حى السيدة زينب، كما أنها موظفة.. فى الدرجة الأولى.. واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا يأتى كلامها بهذا المستوى من الاسفاف، ولماذا تأتى حركاتها فى الكلام والمشى مطابقة لدور آخر قامت به نفس الممثلة حتى أن البعض قال إنها خلطت بين الشخصيتين وان كان هذا الظن صحيحا فاين المخرج؟. والأفضل عندى فى هذه الحال أن نسأل المؤلف لماذا اختار ان تأتى بطلته من أمريكا؟ لماذا لم يجعلها تأتى مثلا من استراليا او من اليابان أو من أى بلد أوروبى أو إفريقى، هل لأنه لا يعرف عن مصريين يعيشون فى تلك البلدان لسنوات طويلة. أم لانه يريد أن يربط صفات معينة بالبطلة لأنها قادمة من أمريكا؟ لو كانت تلك رغبة فياليته حاول الالتقاء بعدد من المصريات القادمات من أمريكا، لانه لو كان فعل لكتب لنا شيئا مختلفا يعينه على إنجاز أغراض إذاعة هذا المسلسل

الترياق

ولا أظنننى آتية بأى جديد إن اعدت التأكيد على أن لكل مهنة أو فن من الأصول والقواعد ما يضمن سلامة وتميز إنتاجه.. لكن ما عرض على شاشاتنا فى رمضان شابه الكثير من «اللكلكة» و«الكروتة» ولولا أن الله سلم فجاءنا الاخوة السوريون. بما ينقذ ماء وجه الدراما العربية، ولنا أن نعتز ونفخر بـ «الحلاج» و«ربيع قرطبة» كما فخرنا بـ «المتنبى» فى رمضان الماضى، لكن الموجع فى الأمر أن تلك الأعمال المتميزة لا تعرض على القنوات الأرضية، ولكم تمنيت أن تتاح لعموم مشاهدى مصر لعلها تشفيهم من سموم المعروض فى مسلسلات هذا العام وهو ما يضيق المجال عن حصره وتحليله ولكننى لا أفوت هذه الفرصة دون أن أدعو من بدا أنهم نسوا رصيد الإنتاج الدرامى فى الاذاعة والتليفزيون، أدعوهم مشددة على ضرورة الاستماع للحلقات الأولى من ألف ليلة وليلة والتى تم إنتاجها منذ ما يقرب أو يزيد على نصف قرن من الزمان وإن كانت عندهم الشجاعة فليقارنوا بينها وبين ما إذاعته الإذاعة من سخافات هابطة تحمل اسم الدراما عنوة وتنافسها مسلسلات التليفزيون فى العجز على الارتفاع الى مستوى أقدم مسلسلات الإذاعة والتليفزيون.. واظن ان الامانة تقتضى ان نواجه انفسنا بالصراحة والموضوعية الضرورية الآن لإنقاذ الدراما المصرية من انظمة الانتاج التى اثبتت تميزا واحدا وحيدا.. الا وهو المغالاة

الجنونية فى تكلفة الإنتاج مع الهبوط المشين فى مستواه!

وإذا كان هذا يصدق على الانتاج الدرامى . فهو يصدق بالمثل على الإنتاج البرامجى ولكننى هنا لا أود الحديث عن السموم فقد تجرعنا منها ما يكفى وزيادة

لكن لطف ربكم الكريم أهدانا نهرا. من الترياق رقراقا وأودع اسرار ذلك النهر الترياق كما ملك مفاتيحه لعمار الشريعى.. ياسلام.. يا سلام عليك ياعمار ياسلام على حضورك النورانى وياسلام على قدرتك على أن تنافس نفسك وتتركنا حائرين ، لمن تتحيز أكثر هل لعمار الشريعى عازف الموسيقى ومؤلف ألحانها أم لعمار الشريعى المضيف، صاحب الحضور المهيب الناعم الآسر.. والكل يعرف مواهب عمار الشريعى فى التحليل والتقييم الموسيقى، فليس لأحد أن ينسى برنامجه الإذاعى الذى نسبته الإذاعة «غواص فى بحر النغم» لكن يؤسفنى أننى أتحدث عن برنامج لم يتح إلا لمشاهدى الفضائيات غير الحكومية وهو برنامج سهرة شريعى فى رمضان.. حقيقة الأمر أن البرنامج بدأ قبل رمضان ببضعة أسابيع وما أن بدأ رمضان حتى منّ الله علينا بتقديم عمار الشريعى للسهرة يوميا.. نعم سهرة ساعة كل ليلة من ليالى رمضان ولم يكن السحر الشخصى لعمار الشريعى ولا أدبه الجم وحسن إصغائه للضيوف، ولا وإضافاته الثاقبة ولا تحليلاته العلمية البسيطة لما كان يختار من أغان ولا ترحيبه الصادق بكل ضيوفه من منشدين ومداحين وقارئين للقرآن الكريم، لم يكن كل ذلك فقط هو ما جعلنى أجد فى هذا البرنامج ترياقا يشفينى من أدران ما يذاع قبله وربما بعده من برامج ومسلسلات.. إنما الأهم يا أعزائى أن عمار الشريعى كفنان مصرى معاصر أصيل يدرك ببصيرته أهمية المحافظة على ما هو بلدى وأصيل فى فنوننا، يدرك أهمية وجود فنانين أصلاء من المداحين والمنشدين ومغنى المواويل وقارئى القرآن الكريم، يدرك الصلة بين كل ذلك وبين الحفاظ على ذاكرة الناس وسلامة وجدانهم الذى هو حجر الزاوية فى الثقة بالنفس والاعتزاز بها وبالأوطان، ولذلك فهو لم يكتف بأن عرفنا وطمأننا على أن الحاضر بخير، وإنما كان حريصا أن يطمئننا على المستقبل ومن هنا كان سؤاله الملح دوما عن الشباب فوجودهم وارتباطهم بفنوننا الأصيلة بقواعدها وموروثاتنا هو السبيل الوحيد الذى يحفظ لنا نهر الترياق الذى يتربع على ضفته عمار الشريعى، مهيمنا على دقة الوعى فيه باقتدار ليرد الاعتبار لفنوننا التى سحلت على الشاشات بفعل هيمنة مؤسسات الإعلان التى تواصل مهمتها فى التدمير المنتظم لكل ما هو راق رفيع فى فنوننا سواء بموجات جراد الفيديو كليب أو بتغليب العبط والسفه على برامج المنوعات أو بتقويض صروح الدراما المتميزة. وهكذا ينضم عمار الشريعى لقائمة البنائين العظماء فى مصر، وهم الذين يكافحون لتعمير ما تخربه مؤسسات الإعلان وهى المتحالفة مع مؤسسات الأعمال فيما يمتار الناس.. من يتقى شر من؟؟!! ومن يملك مفاتيح السم الهارى!!.. ■

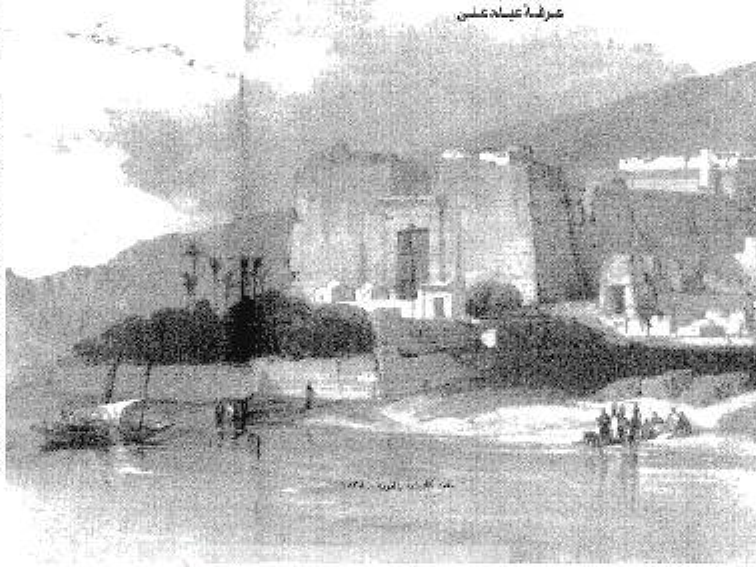
يوميات ديفيد روبرتس فى مصر

بقلم
عرفة عبده على



ديفيد روبرتس
فى الزى الشرقى

«حقاً إن الشرق يبدأ من القاهرة» هذه الكلمة الشهيرة التى قالها الأديب الرحالة الفرنسى «جوستاف فلوبير Flaubert»، يوم كان للشرق غموض السحر الذى أجتذب الرحالة والأدباء والفنانين الأوروبيين فى رحيلهم اليومى الخاص، فحركت فى نفوسهم الحنين المضطرم إلى عبق الصحارى وصخب الزحام ودفء الحياة وواجهات الحوانيت وروائح التوابل والثياب المزركشة وآثار الماضى العريق وأساطير ألف ليلة وليلة، ليرسموا لنا مشاهد تنبض بالحياة، متباينة الألوان والظلال ثبتت لحظات زمنية من تاريخ الشرق وتراثه أسواق وشوارع وبيوت ومقاهى وحريم، وقباب ومآذن وأسبلة تشهد بروعة فنون العمارة الإسلامية، ومشاهد من الحياة اليومية أذهلت هؤلاء الفنانين بتنوع وثراء موضوعاتها ..!



وخلال القرن التاسع عشر، أصبح الشرق أعظم ملهم للفنانين الأوروبيين، بما يعرضه من موضوعات جذابة وتفسير خاص لظاهرة الضوء لذلك كان «تيوفيل جوتييه يحث الفنانين على الرحيل إلى الشرق» لمشاهدة الشمس والحياة الفطرية والألوان الحية والمفارقات المدهشة !!

والفنان «دافيد روبرتس - D.Roberts هو أشهر وأعظم الفنانين المستشرقين فقد فاق الجميع عبقرية وأسلوبا وإنتاجا ولوحاته التى ضمنها كتابه الضخم «الأراضى المقدسة ومصر والنوبة - The Holy LaNd - Egypt and Nubia 2 Vols, London 1848 - 48» حققت له شهرة واسعة جعلت منه ألمع الفنانين الأوروبيين الذين زاروا الشرق، وقد برع روبرتس فى استخدام الضوء والظل - استخداماً دراميا - فى تصوير أطلال مصر الفرعونية، إبداع انطوى على لمحات شجية خوفاً على اندثار أعظم ما خلفته العبقرية الإنسانية ..

وقد سرد روبرتس انطباعاته ونشاطه الفنى فى يوميات رحلته فى مصر، وتزيا بالزى الشرقى، فالفنانون الإنجليز لم يستطيعوا مقاومة إغراء العودة إلى الحياة الفطرية فهجروا الأناقة من أجل العمامة !.. وأقاموا فى الأحياء الشعبية، واقتنوا الجوارى والعبيد ودخنوا الحشيش !.. فقد ضاقوا ذرعاً من تزمت العهد الفيكتورى!

البداية والتكوين

من أول وهلة، نلحظ أن بدايات روبرتس وتكوينه وحياته لم تكن عادية فهو ينتمى إلى عائلة فقيرة جداً ، استقرت فى «ستوك بريدج» بمدينة ويست كيرك بايرلندا حيث ولد عام ١٧٩٦ (توفى فى لندن عام ١٨٦٤) كان والده إسكافيا، لم يهتم بتعليم ابنه، لكنه أكتشف فيه ميوله إلى الرسم الذى لا يتناسب مع صبى فى مثل بيئته ..!

بمجرد أن تعلم دافيد الصغير القراءة، كان يلتهم الكتب التهاماً وحبه للمعرفة جارفاً الحقة والده بمدرسة داخلية، غير أن القسوة التى كان يعامل بها، تركت فى حياته أثراً مريراً «وكالصبية الآخرين، كنت أعامل بوحشية، حتى أن جلد يداى وقدماى كان مشققاً بصفة دائمة من أثر الضرب بالعصا»!

طلب دافيد أن يترك المدرسة ويلتحق بعمل ما، وأبدى رغبته فى أن يصبح رساما أو يمتهن أعمال الدهان، واقترح أحد أصدقاء الأسرة، أنه يستطيع أن يمارس الرسم، إذا ما تعلم مهنة تتيح له أن يكسب عيشه، ويتكفل بنفقاته كفنان، حينئذ كان فى العاشرة من عمره .

قبل اختراع الدهان بالزيت، كان دهان المبانى بمواد بسيطة، والواجهات



بين أطلال معبد آمون بالأقصر

تتطلب مهارة ودقة في زخارفها واستطاع روبرتس أن يتعلم الكثير خلال تلك الفترة وأصبح الفتى المدلل لصاحب فريق العمل - جافان بيجو - وبمرور الزمن، بدأ روبرتس يبدى قلقاً وشعوراً بعدم الاستقرار، وبالرغم مما عاناه من قسوة ومرارة في تلك المرحلة، إلا إنه أكتسب من بين فريق العمل هذا، صديق عمره دافيد هاى الذى تخصص فى أعمال الزخرفة الداخلية، والذى أصبح فيما بعد، فناناً شهيراً وكاتباً فى الفن والجمال بعض زملائهما كانت لهم أيضاً طموحات فاقاموا لأنفسهم مرسما فى قبو بمحل إقامتهم .. فى سن السابعة عشرة، عمل روبرتس نقاشا فى «بيرث» واحتفظ بهذا العمل لمدة سنتين ..

بعد ذلك، عمل روبرتس لعدة سنوات فى أعمال الزخرفة والديكور بأحد المسارح، وشارك فى إنتاج بانوراما تجارية شعبية، وقد أكسبته هذه الممارسات، مهارة وخبرة وسرعة عجيبة، فى تغطية مساحات كبيرة من قماش الرسم فى يسر وسهولة، والأعمال المسرحية المؤثرة، أكسبته دراية بالفنون المرئية، وأصقلت أسلوبه ورؤيته كفنان متميز، وأعدته للقيام برحلته الشهيرة إلى مصر والأراضى المقدسة ١٨٣٨ - ١٨٣٩م.

ومما لاشك فيه، أن المعرض الذى ضم نتاج هذه الرحلة، كان فاتحة لموجة من الفنانين المستشرقين ورحيلهم إلى الشرق، خلال العشر سنوات التالية، وعلى رأسهم دافيد ويلكى وريتشارد داد .. وقد وضع روبرتس الفنان الرحالة، منهاجاً جديداً يعتمد البلاد الإسلامية المعاصرة، من زاوية الفن القديم «متاحف أثرية» تقدم على الطبيعة : تقاليد وعادات وأزياء متوارثة من الأزمنة القديمة، وكان فى ترحاله يهتم كثيراً بتفاصيل الحياة اليومية للشرق، كما لاحظ عدم اتصاله بالمواطنين إلا فى حالات الضرورة القصوى، وقد يكون ذلك عرفاً سائداً، باعتبار أن الدليل الذى يقود القافلة أو المترجم الرسمى التابع للبلاط العثمانى هو بمثابة «حاجب بين المؤمنين الحقيقيين وهؤلاء الكفار الذين يزورون هذه المناطق !!

رحلته إلى مصر

فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٣٨، وصل روبرتس إلى الإسكندرية، بعد أن توقف بجزيرة كريت، وقد أبحر منها بعض الحجاج المسلمين فى طريقهم إلى مكة ...

« ومن المسلم به، أننى ومفكرتى الخاصة بالإسكتشات السريعة، كنا فى شغل عما حولنا » كتب ذلك وهو يصف هؤلاء الحجاج فى خطاب إلى ابنته «ويؤدون خمس صلوات فى اليوم، ومشهدهم ساجدين من أكثر المشاهد تأثيراً» وأشار إلى تميز المسلمين بالتقوى والورع دون تعقيد !

وفى الإسكندرية، أمد الكولونيل «باتريك كيمبل» القنصل العام البريطانى، الفنان روبرتس بخطابات توصية إلى محمد على باشا نائب السلطان العثمانى وحاكم مصر، وبعد عدة أيام قضاها بالإسكندرية، بدأ رحلته إلى القاهرة، بصحبة مجموعة من السائحين الإنجليز الأثرياء وخادم يدعى «إسماعيل» من الإسكندرية..

وفى رسالة إلى ابنته كتب «قمنا بزيارة سوق الرقيق المثير للنفور، الفتيات يمثلن الغالبية العظمى من الرقيق .. البعض منهن شركسيات، والبعض الآخر زنجيات، الشركسيات يرتدين ملابس قيمة، أما الزنجيات فكن



واجهة المعبد الكبير بأبي سمبل

يجلسن القرفصاء تغطي أجسادهن ثياب رثة ممزقة، تحت شمس محرقة يمكنها أن تقتل أي أوروبي، لقد كان مشهداً مثيراً للملل والاشمئزاز، وغادرته وأنا فخور بانتمائي إلى أمة قد لفظت تجارة الرقيق»..!

حساسية روبرتس أثارها هذا الموضوع اللا إنساني، في نفس الوقت، تزايدت حملات أنصار إلغاء الاسترقاق، وطالبوا بفرض قوانين ضد الرق، من ناحية أخرى كانت الطرق التي يسلكها تجار العبيد، هي ذاتها التي يسلكها الرحالة والزوار الأوروبيين، فكانوا كثيراً ما يلتقون بقوافل الرقيق !.

وفي القاهرة، تفاوض لاستئجار دهبية، هو وثمانية من رفاقه، ليركبوا النيل حتى الشلال الثاني، وكان الاتفاق محدداً بثلاثة شهور، وبواقع خمسة عشر

جنيها إسترلينيا لكل شهر !

بين شواهد مجد الفراعنة

وبينما كان روبرتس فخوراً بأنه أول فنان بريطاني يصعد في النيل حتى لحق به الفنان «وليام جيمس مولر» بعد أربعة أسابيع تقريباً..

وقد بدا من خلال إبداعات روبرتس ويومياته، اهتمامه البالغ بآثار مصر القديمة وقد تأثر بما شاهده من قوافل حزينة للرقيق المهرب، ومن أعمال السخرة والخدمة العسكرية الإجبارية وأثار استياءه أن دهبيتهم التقت المركب الفاخرة للباشا، ولكن لم توجه لهم الدعوة ..!

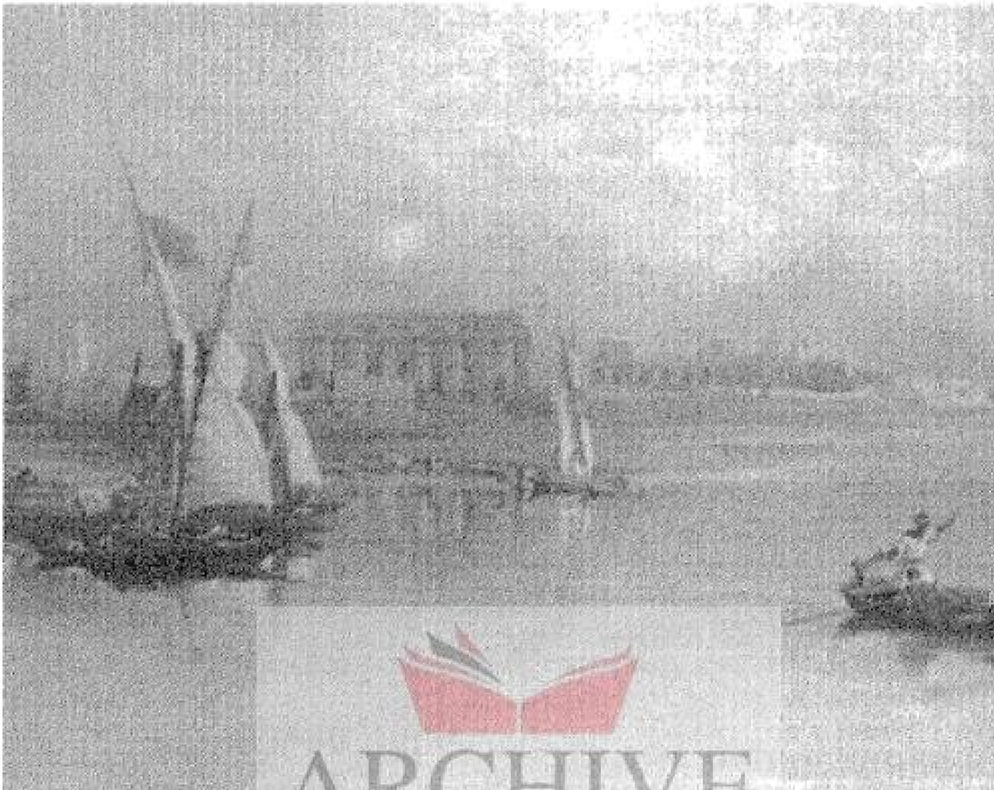
أطلال الفراعنة التي شاهدها روبرتس، تختلف تماماً عما يشاهده السائحون اليوم، فقد كانت في أمس الحاجة إلى عمليات ترميم هائلة، والمعابد العظيمة - حينئذ - كانت مدفونة في الرمال حتى منتصفها، وامتدت إليها بيوت المواطنين وتداخلت معها !

كتب روبرتس في الأقصر «سرت هذا الصباح، على أحجار وأطلال هذا المعبد الهائل، المنتثر بين منازل مشيدة بالطوب اللبن .. تسلقت مدخل المعبد، حيث أمكنني رؤية بقايا هذا المعبد وأعمدته، المتداخلة مع المباني الحديثة».. وشد ما آلمه أن يعيش المصريون حياة بدائية، بائسة .. وفي ادفو، أرهقه التفكير في هذا الأمر :«هل من الممكن - ذات يوم - أن تعود هذه الصحراء لتصبح خلية للنشاط الإنساني كما كانت ؟» وربما كان ذلك محتملاً - من وجهة نظره - طالما «أن مصر هي محور ارتكاز علاقة بريطانيا بالهند »!

وبينما كان روبرتس يفكر في هذا التساؤل، كان «توماس واجورن» أحد كبار ضباط البحرية البريطانية في الهند، يجري مفاوضات مكثفة مع «محمد علي باشا» للموافقة على مد خط سكة حديدية بين القاهرة والسويس ..

وفي أبي سمبل، أطلق روبرتس لمشاعره العنان، مأخوذاً بسحر وجاذبية المعبدين المنحوتين في الصخور، فمكث هنالك بضعة أيام، بينما واصل رفاقه رحلتهم، فأنجز كثيراً من الاسكتشات السريعة للأطلال الرائعة التي تراكمت عليها الرمال .. وتلك كانت أقصى نقطة وصل إليها بوادي النيل .وكانت كوم امبو إحدى المدن التي أعجب بها ورسم معبدها الشهير .

عندما توقف في أسيوط، واكتشف أنه نسي كراسة الاسكتشات النوبية، على مسافة ١٣٠ك / م في المقبرة المنحوتة في صخور جرجا .. وأصبح روبرتس في مأزق، كاد أن يتحول إلى كارثة، لأن حصيلة العمل في نصف الرحلة مهدد بالفقدان، ولحسن حظه، كانت هناك مركب على وشك الإبحار جنوبا فاتفق مع أثنين من ركابها أن



منظر عام لأطلال الأقصر من النيل

يأتيا إليه بهذه الكراسة الثمينة، واضطر روبرتس إلى التوقف عن عمل أى شئ، ويكاد القلق يمزقه، حتى عادت إليه ضالته المنشودة !

العودة إلى القاهرة

عقب عودته إلى القاهرة، كتب إلى ابنته «.. وخلال رحلتى هذه، مررت ببقايا آثار عظيمة، وأماكن كانت مأهولة قديماً، عاشت فيها أسرات عريقة ثم طواها النسيان والزمان.. بعض بيوت قبطية مهجورة على وشك أن تتقوض .. وأطلال تدل على مدن عظيمة، كانت تزدحم بشعوب دأبها العمل والإبداع، وتزدان بأضخم وأروع المعابد، ومبان فخمة عجيبة اليوم تغير كل هذا، أصبحت مهجورة، قاحلة، معزولة، تتولاها حكومات حمقاء، وسكانها اليوم يجوسون خلال تلك الأطلال كأنهم

حيوانات بدائية أتأملها وقلبي مفعم بالألم !..»

«حصلت على ملف هائل من الإسكتشات لمعابد وآثار الفراعنة، ذات الأهمية الكبرى وأتمنى أن أحقق ملفاً آخر عن جوامع القاهرة التي لانظير لها في العالم.. والعقبة الوحيدة التي قد تعترضني هي ضرورة الاستسلام للمعتقدات الإسلامية، التي لا تسمح - للكافرين - بأن يطأوا ويتوغلوا داخل مساجدهم »!

ولكن بفضل علاقاته، لم تعترضه أي مشكلة، فحصل على فرمان من عباس باشا، ابن محمد علي برسم الجوامع، ومن الداخل أيضاً بصحبة بعض الجنود إذا كانت هناك ضرورة، وكان محمد علي باشا حريصاً على وجود علاقات جيدة مع الإنجليز، وكما كانت فرماناته تتمتع بسلطة قوية في مصر، كانت لها أيضاً في بلاد الشام، قوة وسرعة النفاذ

وفي رسالة كتبها روبرتس إلى شقيقته : «شكرا لله، بفضل محمد علي أصبح السفر إلى سوريا اليوم آمناً .. كأنني في انجلترا ..»!

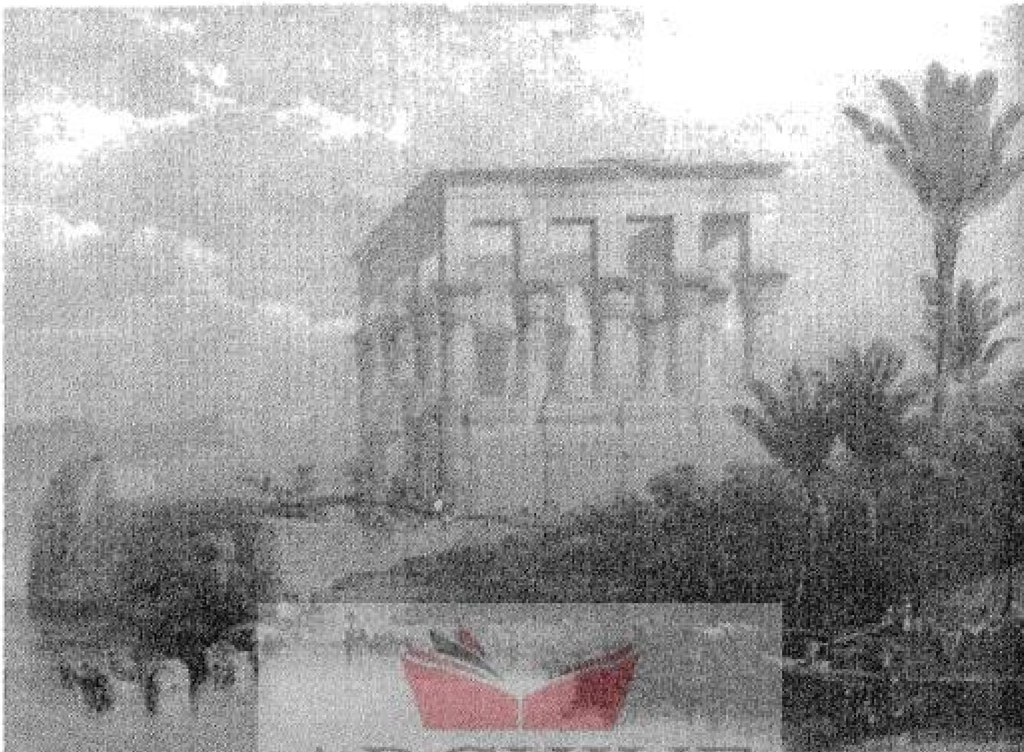
وبالفعل لم يكن روبرتس في حاجة إلى حماية الشرطة في القاهرة، وظل يرسم بين الناس، حتى إذا امتد به الوقت، غير أن بعض المسلمين المتشددين الذين يحرمون رسم الصور عبروا عن استيائهم بأسلوب لايخلو من جهل وطرافة فأحيانا يجد حجراً أو برتقالة تتخذ طريقها إلى اللوحة التي يرسمها ..!

كتب روبرتس في ٢٩ ديسمبر من يومياته: «رسمت لوحتين كبيرتين إحداهما لشارع يؤدي إلى المارستان، والأخرى لنفس الشارع ولكن من زاوية مختلفة، يغلب على مشاعر الناس المودة، وفي بعض الأحيان أجد صعوبة في الرسم في شوارع مكتظة بالعابرين، لكن بصفة عامة، كل شئ يسير بطريقة مرضية».

كانت سعادة روبرتس تفوق كل وصف، عندما يرى نوعيات مختلفة من الناس «.. جميع شعوب الشرق تختلط ببعضها »..

وذات يوم، وهو يرتدي زيه الشرقي بصحبة حارس نوبي، دخل جامع السلطان الغوري، حتى توسط صحن الجامع، وفيه تحلق بعض الرجال المنهمكين في تطريز قطعة كبيرة من القماش الفاخر، واقترب روبرتس أكثر، ورأى البعض يجثون ويقبلونها، فجثا على ركبتيه وتناول طرفاً منها ليتفحصها، فانتزعها حارسه من يده في الحال ودفعه إلى الطريق .. لقد أراد روبرتس أن يلمس «الكسوة المقدسة» المخصصة للمشهد النبوي بالمدينة !

ووصف روبرتس القاهرة في يومياته



جزيرة فيلة

بأنها «مدينة لاتماثلها مدينة أخرى» ! .. بالرغم من بعض المعوقات التى أشار إليها مثل ضيق الشوارع واكتظاظ الأسواق وفضول الناس .. وقال «أسواق القاهرة تختلط فيها شعوب الشرق جميعاً، أتراك ويونان فى أزياء غريبة وأخلاط من البدو المسلحين وصعاليك مشردين ونساء محجبات يمتطين الحمير أو البغال يحرسهن عبيد أشداء، وسقاءون بقربهم الجلدية المميزة، وأصحاب الحوانيت فى وقارهم لاينزعون مباسم الشبك من أفواههم، وبعض النساء المصريات يدخن فى بيوتهن ويستخدمن نرجيلات فخمة ثمينة .. كل ذلك يشكل أمامى لوحات ما كنت أحلم بها .. والحقيقة أننى كنت مذهولاً من كل ما هو مدهش وجديد أمامى !.. واقتنعت تماماً بأننى وجدت نفسى على أرض بكر، وبأن هؤلاء الناس لم يسبق أن رسمهم أحد»! ■

نشرت قصة «الثعبان» من وحى يوميات السجن (٢)

صنع الله إبراهيم

كتبت الحلقة السابقة قبل واقعة جائزة وزارة الثقافة، وذكرتنى هذه الواقعة بجائزة أخرى حصلت عليها فى سجن الواحات لها قصة جديرة بأن تروى.

ففى بداية ١٩٦٣ نجحت محاولاتى لمغادرة السجن بعض الوقت، متذرعا بحاجتى إلى جراحة فى الأنف. ونقلت تحت حراسة مشددة إلى مستشفى أسيوط، ومازلت أذكر ضابط الحراسة الذى جلس بجوارى وشاركنى القيد الحديدى، كان صعيديا ضخم الجثة. وكان يتطلع إلىّ بين الفينة والأخرى غير مصدق ويهز رأسه متعجبا، وأدركت أنه يحمل تعليمات صارمة تحذره من أنى سجين شديد الخطر لكن منظرى وحجمى الضئيل لم يتفق مع الصورة التى نقلت إليه.

أودعنى الضابط مستشفى أسيوط العام حيث وضعت فى غرفة خاصة مسورة وجدت بها عبدالحكيم قاسم، ولم تكن بيننا علاقة ما كما أنه كان ينتمى إلى تيار تنظيمى مختلف، وقضينا الوقت شبه متخاصمين ولم تنشأ علاقة بيننا إلا بعد ذلك بشهور طويلة.

ومن وحى رحلة الذهاب والعودة كتبت قصة قصيرة باسم «الثعبان» نشرت بعد خروجى فى جريدة الجمهورية ثم فى المجموعة الصادرة عام ١٩٨٦ بعنوان «تلك الرائحة وقصص أخرى» وترجمت إلى عدة لغات وأعتقد أنى عندما كتبتها كنت متأثرا بشكل ما برواية كامى «الطاعون»





كتبت بعضاً من يومياتى فى السجن على ورق «البفرة» الذى تلف به السجائر

وكانت كتابة القصة قد انتشرت بين المعتقلين والمسجونين، وكان هناك تشجيع لها من قبل القيادات الحزبية على أساس أنها تندرج فى إطار المجهودات الرامية للمحافظة على المعنويات والاستفادة من العزلة الإجبارية واستغلال الطاقات الزائدة، فتعددت أوجه النشاط الثقافى والاجتماعى من مباريات لكرة القدم ومزرعة خضراوات إلى الندوات والجامعة المفتوحة ومعارض الكتب والمحاضرات، والمسابقات الأدبية. وكان أن نظمت مسابقة للقصة القصيرة تألفت لجنة تحكيمها من أستاذ الرياضيات عبدالعظيم أنيس والأستاذ محمود أمين العالم وزميل ثالث هو على ما أظن الكاتب المعروف محمد صدقى الذى اشتهر باسم جوركى مصر بسبب نشأته العمالية. وأعطتنى اللجنة الدرجة الثانية بينما ذهبت الأولى إلى زميل آخر يدعى قدرى شعراوى.

كان قدرى شعراوى فى الأصل عامل تجارة وتردد عدة مرات على المعتقلات والسجون وكان شخصا نبيلا طيب القلب، ولابد أنه كان يحمل فى أعماقه أشواقا عديدة ترجمها بكتابة قصة أسماها «القط مشمش» وكان يحفظ القصة عن ظهر قلب وفى كل مرة يعتقل فيها

يسعى للحصول على الورق والقلم ثم يدون القصة ذاتها ليقرأها الآخرون.

ومن الطبيعى أن يتم اختياره للجائزة الأولى، من باب تشجيع وإبراز مواهب أبناء الطبقة المهضومة التى يؤمن المحكمون بدورها الطليعى. كما أن قصته بدت أقرب إلى النموذج التقليدى من قصتى. على العموم أوضحت لى هذه التجربة أن الجوائز ليست تقويما خالصا يستند إلى معيار ثابت وإنما يخضع لعديد من العوامل الإنسانية الطبيعية.

اليوميات

تتألف الأوراق التى استطعت تهريبها بواسطة المرحوم حسين عبد ربه من عدة أجزاء: جزء على صفحات مقتطعة من كراس تضم بضع مصطلحات انجليزية من كتاب الفسيولوجى السوفيتى وترجمتها إلى العربية، وكنت قد قررت دراسته. جزء آخر على الورق المعروف بورق الأرز جاء من علبة حلوى أو ماشابه، وجزء ثالث على ورق «البفرة» الذى يستخدم فى لف السجائر وأخيرا كراسة صغيرة فى حجم علبة الكبريت صنعتها من أوراق كراس مدرسى وثبتها بخيط فى المنتصف وتضمنت هذه الأوراق يوميات وملاحظات ومشروعات كتابة ومقتطفات من قراءات مختلفة.

الرقيب الأبدى

لم تكن كتابة يوميات حقيقية بالأمر السهل، فهناك دائما الخوف من أن تقع فى أيدى إدارة السجن والمباحث، وكان هناك أيضا نفس الخوف من أن تقع فى يد زملائى ولهذا كان على أن أتجنب بعض الموضوعات وخاصة ما يتعلق بمشاعرى الجنسية أو تساؤلاتى أو ملاحظاتى على الأشخاص والأحداث اليومية داخل السجن، وفى أحيان ألجأ إلى رموز لا أتذكر الآن مدلولاتها، ويتضح هذا الخوف من فقرتين بيوميات شهر أبريل ١٩٦٢.

الأولى تتعلق بالخطابات العائلية التى كانت تهرب سرا بسبب القيود المفروضة على رسائلنا العادية التى تمر عبر جهات عديدة من مأمور السجن الذى يتسلى بقراءتها إلى المباحث التى تقرأها بعناية، ومن الطبيعى أن الرسائل المهربة كانت تقرأ بعناية أيضا من جانب الزملاء المسئولين عن عملية التهريب خوفا من أن تتضمن شيئا ضارا إذ أن احتمال وقوعها فى يد المباحث كان واردا.

كتبت فى اليوميات: أفكر دائما فى أن أكتب لأختى عن مشاعرى ... وأصف لها أشياء كثيرة، ولكن خطاباتى لها تمر بأكثر من جهة قبل أن تصل إليها وإحساسى بأن هناك من سيقرأها ويبتسم لسذاجة المشاعر الواردة بها كانت تشل يدى وأيضا فكرة أنى قد ألتقى بواحد قرأ هذه الخطابات وسخر منى بينه وبين نفسه ولا أعرفه وينظر إلى ساخرا دون أن أعرف .. هذا الوضع يمكن أن يكون شأن حياتى كلها، وهو من ناحية أخرى يمثل دور الدولة بالنسبة لحياة الفرد، و«دور الآخرين».

الفقرة الثانية عبارة عن نص تخييلى

• كيف تم تهريب يوميات السجن رغم القيود والسدود ؟

من واقع هذا الموضوع هو كما يلى:

«انحنيت برأسي إلى أسفل ومددت يدى إلى فتحة بنطلونى وفككت الزرارين الأخيرين.

كنت أرتجف من السعادة واللهفة، فقد حانت الفرصة أخيرا.

وتسللت بأصابعي داخل الفتحة أبحث عن جسمي الصغير. فجأة أحسست بشيء يدفعني ويضغط بشدة على كتفي، وعندما رفعت رأسي إلى أعلى، اصطدمت برأس غريبة لرجل لا أعرفه تنحنى فوق كتفي، وكان الرجل ينظر إلى حيث تسللت أصابعي.

شعرت بدمي ينشف . أخرجت أصابعي بسرعة وكانت ترتجف. وحاولت أن أغلق فتحة بنطلوني ولكني لم أستطع فاكتفيت بأن وضعت يدى على الفتحة.

ونظرت إلى الرجل الغريب، لم تلتق عيناى بعينيه فقد كان لايزال ينظر إلى أسفل باهتمام، إلى حيث تجمدت أصابعي. وخيل إلى أني رأيته يبتسم.

لم أعرف ماذا أفعل، وكنت أحاول أن أفكر. ولكن رأسي كانت مشوشة، وكان هناك السرير العريض في أقصى الغرفة، وكان سطحه الأبيض المسترخي يدعوني إليه. كامرأة تنتظرني مفتوحة الذراعين.

أحسست بكتفي يؤلمني. كانت ثقل الرجل كقطعة حجر وكانت تضغط بشدة على كتفي وفكرت أن أتكلم مع الرجل ولكني لم استطع ولم يكن يبدو عليه أنه يفكر في الانصراف، وعدت أنظر إلى السرير في يأس. لولا هذا الرجل لكنت الآن فوق هذه الملاءة البيضاء النظيفة، لولاه لكنت خلعت ملابسي من زمن. واحتفظت بالأجزاء الداخلية بعض الوقت. ثم ارتميت على المرتبة الناعمة المتموجة أتمرغ فوقها ثم أتخلص من الأجزاء الداخلية. وأتمدد أخيرا عاريا تماما.

ولم يعد سطح السرير الممتد أمامي مستويا كما كان من قبل . فقد أصبحت أرى فوقه علامات كالكدمات . وهبطت الوسادة قليلا في منتصفها وانبعج طرفاها . وابتسمت. ها هو جسمي يرسم آثاره على السرير عندما أنام على وجهي وأدفن أنفي ورأسي في المخدة الناعمة وأتشمم رائحتها النظيفة وأبسط ذراعاى حولى فى أنحاء السرير . فلا تطولان آخره ولا تصطدمان بأى شيء وأتنهد فى راحة . وأشعر بجسمي كله مصطدما بالأغطية وأشعر بأثره وأعتدل على ظهرى . وأثنى ذراعي . وألقي به على وجهى وأتحسس بشفتى جلده الناعم . وأتشمم عرق إبطي الذي أحبه . وأداعب بيدى شعره الذي سعدت به عندما ظهر لأول مرة منذ سنوات بعيدة .. وأبسط ذراعي أخيرا حولي وأسترخي في رضا وأروح أتحسس صدرى بأصابعي ويملؤني الزهو . أشعر أن جسدى قوى مليء بالعضلات وأتلمس في فخر شعر صدرى القليل وهو شعور يختفى على الفور لو وقفت أمام المرآة ورأيت قامتي النحيلة وجسدى الضئيل . لكن هذا لن يحدث وأنا فوق السرير .

فعندما أستدير علي جانبي الأيسر واضعا ذراعي اليمنى تحت رأسي دافنا اليسرى بين ساقى ، سأشعر أنى جميل ولطيف وقوى . وسأسبح فى نشوة الحرارة التى تحصل عليها يدى اليسرى من جسمى . الحرارة والنعومة . ما ألطف جسمى الصغير هذا . لو أستطيع أن أقبله حاولت مرة أن أنثنى لأقبله ففشلت .

وأغمضت عينى . ها هو حلمى القديم لن يتحقق . فما أسوأ حظى . وأوشكت أن أبكي . لماذا يأتى هذا الرجل فى اللحظة التى أتخلص فيها من الآخرين الذين لم يتركونى بمفردى أبدا . أعددت كل شيء فى رأسى . أعددته جيدا . كى لا تفشل هذه الساعات الرائعة . كانت هناك عدة خيوط لأختار بينها . ولأنتقل من واحد إلى آخر لو لم يعجبنى ولو تغيرت حالتى النفسية .

كانت هناك البحيرة واسعة عميقة لاتبدو نهايتها . وتحف بها غابات من الأشجار العالية الكثيفة وعلى صخرة بارزة فوق البحيرة أجلس أنا . أتطلع إلى المياه أبحث فيها عما أريد . عندما تكون ثائرة مضطربة يقلبها الهواء ويعصف بها أرى فيها صدرى المضطرب الثائر . وعندما تكون جامدة ساكنة كالزجاج أرى فيها روحى الملولة وضجرى . وعندما تكون هادئة وادعة تتحرك فى رقة وخفة بفعل النسيم أرى فيها نشوتى وأحلامى وسعادتى . والمياه الآن تضطرب فى خفة والرياح باردة قليلا . وبين الأشجار.

تضمنت يوميات تلك الفترة أيضا بعض التأملات التى قد يبدو بعضها الآن ساذجا بينما يمثل البعض الآخر محصلة تفكير عميق :

من أنا . كيف يكتشف المرء نفسه من خلال التوقف لحظة والتأمل (أثر السجن) ما معنى الحياة . التأمل الداخلى والتركيز عالم ينبض بالأضواء والمشاهد والألوان والأصوات والحركة ورؤية الجمال فى كل شيء (حفلات الشاى اليابانية : يجتمع فريق من الأصدقاء ليقنعوا بالجلوس معا وتأمل الجمال المحيط بهم فى هدوء فى صورة طبيعة أو طائر محلق أو تغير الضوء مع مرور الزمن) ... الاقتراب من مستويات النشاط والإدراك المختزنة . يعقبه هبوط أو انتعاش .

- مرحلتان فى التطور ٥٢ - ٥٨ ، ٥٩ - ٦٢ الأولى مثالية . وتغيرت فى الثانية .... أولا القادة . ثانيا الإنسان الواقعى . ثالثا مطالب النفس الضرورية نتيجة غريزة المحافظة على النفس . رابعا كل ما كان خارجنا مع الاستعمار وفى أحسن الأحوال وطنى قليلا . أما الآن فيمكن أن يكون ضدنا ويقتلنا ولكنه فى مصاف الشيوعى .

- لو أن موت أى إنسان يعيش فى الذاكرة إلى الأبد . لو أن الحزن يدوم ولا يضيع فى زحمة الدنيا والأحداث وتعقبه الأفراح . ما كانت هناك لذة للحياة .

- كل التوتر والضيق والبحث عن

صداقات عميقة . الرغبة في الفناء في شخص آخر لحظات الكآبة . فقد الرغبة في كل شيء . الاختناق .

– التعذيب : ومنذ ذلك الحين وهو يشعر عندما يكون سائرا أو داخلا أو خارجا.. أن شيئا ما سيلطمه أو يرتطم به. واذا اقترب منه احد فجأة توترت عضلاته وتوقع صفعة أو ركلة.

– الوحش الذى ينطلق من عقاله بالليل ويزحف فوق عنبر به ٣٠٠ رجل.

– البطل والجماهير.. بليخانوف – عبادة الفرد.

– حادث سويلم الصابون والسجائر ثم حادث القصير. كيف نأتى إلى الشخص من الناحية الطيبة. وكيف يمكن بكلمة او اثنتين ومجهود بسيط تخفيف احزان الناس. كل انسان مهما كان معقدا وسيئا له جانبه الطيب. جوركي: «الناس طيبون اذا اعتبرتهم كذلك، وسيئون ايضا اذا اعتبرتهم كذلك. سأحاول تجربة ذلك مع ف.

واحتلت الكتابة ومشاكلها ودور الكاتب وتكوينه جانبا مهما من هذه الخواطر.

– تكوين الكاتب ليس بالمسألة السهلة. انها نضال طويل وشاق وقاس وصارم إنه يتطلب ارادة كالحديد. يتطلب تدريب هذه الارادة وتكوينها على مر الايام. العمل اليدوى ومسئوليته – والمسئولية أمام الآخرين – قد لعب دائما دورا مهما في تكوين الارادة والشخصية وصلبها. ان طريق الكاتب ملىء بالتضحيات. كل شيء يجب ان يخضع لفنه. لقد خسر بوشكين خمس سنوات من حياته في الجرى وراء حبيبته ولعبت به. لا يجب للكاتب ان يسمح بما يعوق عمله وفنه انه قتيس وشهيد.

– حياة توفيق الحكيم وتكوينه درس رائع. ان سنوات طويلة يجب ان تنفق فى الدراسة والتحصيل والتجربة يجب ان تستمر الى الابد:

١ – لابد من دراسة التراث الاسلامى والعربى واليونانى والاوروبى والمعاصر. روح مصر المتمثلة فى تاريخها وحاضرها وأساطيرها يجب ان تبرز فى العمل الفنى الحديث. عالمية الكاتب تأتى من تفوقه فى التعبير عن قوميته . «أضفت الى هذه العبارة فى نوفمبر ٦٣: وفى التعبير عن نفسه».

٢ – دراسة علمية للأسس الاقتصادية والفلسفية، صقل وتعميق النظرة العلمية للإنسان والمجتمع ودراسة الفنون الأخرى.

٣ – العمل الشاق المستمر بلا توقف فى الكتابة.

٤ – التجربة الذاتية مهمة. الفنان لا يغلق طريق أى تجربة امامه. لكن فى الإطار العام لخطته. ان التجربة الفردية الذاتية انسانية وضرورية ولكنها محدودة. لابد وأن يتسع الفنان للتجربة العامة لمجتمعه وشعبه. لا يمكن تصور مصر تبنى وتشفى بالعمل والحياة والحركة والمشاكل ثم تقرأ قصة الضياع التى نشرتها «الجمهورية». ان فكرة الضياع والعدم بشكل عام لا تتفق والصورة العامة لبلادنا اليوم. لن تكون هذه الفكرة هنا الا تعبيرا عن موقف فردى معين، عن تجربة مؤقتة عن احساس مؤقت يجب ان يذوب

فى الموجة العارمة التى تكتسح البلاد.

(١) الفن الذى سيعيش اليوم فى مصر هو فن تسجيل حركة المجتمع الواقعية وروح الشعب.

(٢) ليس التسجيل فقط ولكن المساهمة أيضا فى استكشاف الطريق فى تعبئة المجتمع فى اتجاه تقدمه نحو مشاكله والقاء الضوء عليها.

(٣) والانسان الفرد ايضا وحدة هذا المجتمع، يصوره الفن من الداخل، ويفك مجاهله وعقده لا للاستعراض وانما ليساعده على ان يسيطر على نفسه فى حدود الامكان ليساعده على أن ينضم الى المجموع فى نشاطه.

وهذا هو دور الفنان فى مصر اليوم. لا ان يكتب اى شىء يحلو له لقيمة جمالية بحتة. لا ان يتوه فى بحث مشاكل فكرية وفلسفية فقط، لا ان يعيش اسير تجربته الفردية التى قد تسلمه للانعزال والاحساس بالضياع والعدم. لا ان يكتفى بتسجيل ما يحدث فى المجتمع تسجيلا انطباعيا حياديا سطحيا. ان فنان مصر اليوم يجب ان يعمل بنشاط وتفاعل ويغوص فى أعماق الفرد. يكشف ويغير الطريق ويوجه، يقود ويلعب دورا فى الحركة اليومية، مسلحا بالتكتيك والتجربة الذاتية والوعى والمثابرة والتضحية.

- الكاتب مسئول عن كل كلمة يكتبها.

- مئات المواضيع والأفكار، مشاكل حيوية. لابد من تحديد موقف كل لحظة وكل دقيقة. لابد من لعب دور والتعبير.

عندما تنشغل فى رواية طول العام كيف يمكن مواجهة هذه الأشياء العابرة هل هى سطحية وستموت؟ خذ مثلا اللحظة التى كان العالم فيها على حافة الحرب بسبب كوبا، ثم انقذ السلام. هل يمكن التعبير بمثل ما عبر بيكاسو عن الحرب بالقط الاسود المشوه؟ كى نتجنب التعبير السطحى الساذج.

مشاريع قصص

- تبدأ اليوميات المسجلة بشهر ابريل ١٩٦٢، وتتضمن افكار قصص ومشاريع كتابة يرجع بعضها الى فترة سجن القناطر فى سنة ١٩٦١ «أى الى فترة الكتابة فى الرأس» ويبدو أنى كنت مفتونا بالعناوين. فتحت عنوان «الضفيرة السوداء» اشارة الى قصة عن فتاة حضرت المحاكمة العسكرية التى جرت لنا فى الاسكندرية سنة ١٩٦٠ وكتبت امامها: استخدام عبدالحليم عبدالله العنوان بعد ذلك.

اشارة أخرى بعنوان يوم رمادى عن قصة سمعتها من زميل هو حسين غنيم المحامى ودون تفاصيل كتبت: لا لأنها تشبه تورجنيف أى انى لن اكتبها لانها تصب فى عالم تورجنيف الرومانسى.

- الحصوة «القناطر ٦١» الأشياء الصغيرة حصوة فى الكلى.

- الرصاصة الثانية، قصة مخابرات.

- ثقب الى قلب الأرض، جيولوجيا، وتحقيق نفسى، فكرة اللاشعور بعد ذلك.

- الجفاف: الأغنية كمياه تتسلل الى الطين، الواحات ٦٢.

تضمنت يوميات السجن بعض التأملات بينما يمثل البعض الآخر محصلة تفكير عميق

– قرن الحديد والصهر. ثلاث قصص : اليد على الحبل «السيرك» ، الرصاصة الثانية، مشروع الكهرباء فى الفيوم ، «القاع».

– سواق نص الليل القناطر ٦١ «خمس حمولات» اثارتها حكايات زميل سائق عمل على سيارات النقل الضخمة.

– القاهرة ٦٢ البرج، العمارة ، تخطيط المدن : تأثير روايتى النافورة والأوهام الضائعة.

– الثأر.

– روميو وجوليت فى القفص . أزمة اليهودى المصرى اسكندرية ٦٠ وكنت قد قضيت عدة شهور فى زنزانة واحدة مع زميل اسكندرانى يدين باليهودية هو روبير جاك جرانسبان.

– دمامل المدينة. المسرباتية الحياة تحت الأرض بالمقارنة بفوق الأرض. الجانب الخفى السلبى السىء فى الانسان بالمقارنة بالسطح النظيف البراق الايجابى . الدمامل عيون البكابورت ويمكن تناول ثورة السباخ.

– الحداثة او الرهاية وصف الالة التى تعمل بسرعة رهيبة تصل الى هدفها فى النهاية وفى اثناء ذلك تقذف بعيدا باجسام غريبة او فضلات او شظايا . اثناء حركة الالة القبض على سائق عربة السفير. عملية القبض عليه كصورة الالة: الحياة تجرى الناس تتجمع بسرعة. ماذا حدث . يقبض عليه ثم يتفرق الناس.

– وابور الساعة اتناشر.



الأديب صنع الله ابراهيم

– ١٥ شخصا يسمعون اغنية حب . الحب فى حياة كل منهم.

– حب بلا سدود . مصير الحب فى المستقبل وحلم الانسان الحالى.

– أقدام على السلم . الاقدام الكاذبة «الأمبياء».

– موظف يعثر على سحارة مليئة بروايات الجيب، يغلق الباب عليه ويفتح السحارة «مجدى ن» ويتوه فى عالم آخر. منظر الشاويش الذى يهرب من العالم الكئيب الى رواية يطالعها فى شغف ويبحث عن الاخرى والفترات بين كل رواية والثانية مملة كئيبة.

– ثلاث قصص من شارع مسعود. (هو شارع فى الدقى جاور شارع السبكى الذى كنت اسكن به الرباط هو الجنس والبحث عن الحب. المجنون والخطاب والفتاة. العراقى والمومس ولطفى. شلة الطلبة والمكرونة كبد وكلاوى.

– ثلاثة احلام يقظة.

– المرتد : أربعة أيام من حياته.

- المنهارون المعترف (تبرير وشفقة).
- المحكمة علقة اسكندرية : الـ ٤٨ شهدى.
- الارهاب. الرعب. السجن. اذلال ادمية الانسان التعذيب. الحرية.
- صباح الخير يارب (نايلون - قمر ونجمتين - القناطر ٦١).
- اربعة ابعاد من الموت (لوموميا) القسم الاول اربعة ابعاد الاول من الصاج والثانى من الخشب.

تحقيق داخل شخص فى داخل المصوراتى عشت تلك التجربة نور وظلام حقيقة وكذب. هكذا تتكون الصور. وهكذا ايضا تتكون الحياة . توازن مستمر بين الحقيقة والكذب. بين النور والظلام.. ابواب خلف بعضها تفتح وادخل منها الى داخل هذا الشخص. مغامرات عقلة الصباع؟

- الانسان ليس حرا تماما. فرصته فى الاختيار امامه تتسع مع التقدم وسيطرة الانسان على قوانين الطبيعة. الاله المعبود الباطن المسيطر على الظروف القاهرة التى تتراجع امام تقدم الانسان الذى يسيطر تدريجيا على الطبيعة.

مقتطفات من قراءات او تعليقات عليها

- ان ينام الانسان بجواره اخر ليالى طويلة. ان يتوقعا معا الخطر ويعيشا معا لحظات الرعب والفزع. ان يشعر الانسان بانه انتزع من حياته وانها اصبحت ذكريات. وان يجد بجواره انسانا اخر يفتح له قلبه ويفتح له اذنيه. ان تخلو حياة الانسان من البيوت والمقاهى والشوارع وأماكن العمل واللهو والاطفال والحدائق والناس وهم يمشون وهم يضحكون ومن جمال وجه المرأة وان يشعر بان عليه ان يخلق لنفسه من

واقعه الذى يخلو من كل هذه الأشياء حياة جديدة تعتمد على ذكرياته وعلى الصور التى اختزنها للأشياء التى رآها والتى عاشها فى أيامه الماضية . (من رواية «رسالة العام الجديد» التى كتبها إبراهيم عبدالحليم عشية عام ١٩٦٢ فى الزنزانة التى أقمت بها) .

- لا يوجد ذكر لمصدر هذه العبارة : «إننا لم نعرف بعضنا بعد . فنحن لم نجسر بعد على الجلوس معا فى صمت» .

- - الرواية التاريخية . ملك اليهود I, Colodious and I, the god- Albatros استر ومذبحة اليهود .

- جسر على نهر درينة : قطاع زمنى ٥٠٠ سنة به عدة أجيال . يبدو الانسان على حقيقته بتاريخ وأساطير وفلسفة. النهر هو الموضوع الرئيسى. ربط فى قصصه التاريخية الأخرى بين فهمه العلمى الحديث والحدث التاريخى نفسه. موضوعه الرئيسى هو الطغيان .

- الموقعة . حالة طفل أمضى فى الرحم ١٥ شهر ونصفا وفى جهاز الحضانة الاصطناعى ثلاثة أشهر ونصف Harper Magazinedigest F.1961 .

«تكونت لدي داخل السجن عدد من أفكار القصص ومشاريع الكتابة

– الحصوة . الكلى صحة اليوم – «المختار» – ٦١ – ١٢ الأشياء الصغيرة التى تنزل .

– صيام المخ وموت القلب . ايقاف القلب أحد الاحتياجات التى تتخذ أثناء جراحته. توقف القلب يعنى حرمان خلايا المخ من الدم وهو يندفع إليها بفعل القلب وحرمان هذه الخلايا كل هذه المدة معناه أنها بدأت تتحلل. فخلايا المخ هى التى تقبض فعلا على سر الحياة. أما القلب فليس أكثر من مضخة تدفع الغذاء إلى هذه الخلايا لتحتفظ بحياتها .

– كتاب عالم الانسان البدائى بول رايدان .

– الطاقة الكامنة فى مياه النيل موجودة منذ آلاف السنين ومع ذلك كانت تضيع فى البحر . ولم يبدأ تحويل هذه الطاقة إلى شئ مفيد إلا بإقامة السدود والعيون والخزانات وتركيب التوربينات التي تحول الماء الهادر المضيع إلى كهرباء إلى عجلات تدور وإلى انتاج .

– المعبود الأسمر (الأسمى؟) – اكتشاف الآلة – رحلة استكشاف المنابع – الحائط العظيم .

– النوبة والسد ليزل جرينر – النيل فى الأدب المصرى نعمات أحمد فؤاد – مقال محمد عودة : الرجل الذى تكلم عنه كوزمين (عامل اشترك فى كل السدود) . كتاب كوزمين عن طريق السعادة . اميل لودفيج . النيل الأزرق والنيل الأبيض لألان مورهيد .

قراءات يونيو ١٩٦٢

– هكسلى فى Barren Leaves :

مس ثريبلو تشعر بالحزن وفى نفس الوقت تفكركم هى حساسة لأنها تحزن هكذا . أنا حزينة فعلا ولكنى أمثل – استدعت الدموع فى وقت محدد لأجاب شفقة الحبيبة . أشعر أني شخص ذو أخلاق وقيم عندما أتحدث عن الخلق . وفى نفس اللحظة أشعر أنى مجنود لأني أبدو هكذا . عندما أبالغ فى الثورة على شئ سئ رغم أنى فعلا ضده واستنكره لأؤكد موقفى ضده .

ويقول أحد أبطال هذه الرواية عن الحب: «اما أنك تحب المرأة أو لا – إما أنك واقع تحت تأثير خيالك الملتهب (لأن الشخص الذى تحبه حقيقة بعنف هو دائما اختراعك وأكثر خيالاتك جموحا) أو تحت تأثير غرائزك وفضولك الذهنى . فإذا كنت لا تحب فالأمر لا يعدو تجربة فى الفسيولوجى مع بعض أبحاث سيكلوجية مقحمة على الموضوع لتجعله مثيرا بعض الشئ . ولكنك إذا كنت تحب فمعناه أنك تصبح مستعبدا مشغولا ، تابعا لشخص آخر بشكل غير لطيف .

* الألوان ومعناها : الأحمر الحب . الأصفر الغيرة . الأزرق الحزن. الأخضر الوفاء . الأبيض الصفاء . البنفسجي الحنان.

– Heart of the Matter, Graham Greene يقول المهرب

السورى لمفتش البوليس وهو يحاول إغواءه: «سوف أعنى بك» . ويرد المفتش : «كيف يمكنك أن تفعل هذا؟» ويفكر بدهشة: «لم أشعر باستياء . هناك من سيعنى بى» . واستولى عليه نوع من ال nursering peace . اللحظة التى يطحن فيها الانسان فى أزمة. لو هناك من بيده حل معجزة للمشكلة ؟

* من «تربية سلامة موسى» : ميلاد كل منا هو مغامرة مع القدر . نخرج إلى العالم بكفاءات وراثية لا تتغير من أبوين لم نخترهما . ونعيش فى وسط تتكون فيه نفوسنا وتملى علينا فيه العقائد وطرز السلوك قبل أن نستطيع أن نغيره . ثم تتوالى علينا الحوادث التى تقرر اتجاهاتنا فى الحياة، وتقع بنا الكوارث التى نتكيف بها وننزل على مقتضياتها . وعلى الرغم من أننا جميعا نصاغ فى قالب البشرية فإن كل منا قد فى هذه الدنيا قد كتبت حظوظه وأكثرها قبل أن يولد، إن خيرا أو شرا، ولذلك فإن قصة كل منا هى قصة فذة مفردة تستحق أن تروى وأن تقرأ .

– هيمنجواى: «عندما يتكلم الناس ، أصغ كلية . معظم الناس لا ينصتون» ، من خطاب نصيحة لأحد الكتاب الشبان .

– كان الواحد من أبناء الطبقة الوسطى الذى قد لا يوجد فيها ، يكتب ويفكر وهمه وأمله فى الحياة أن يعيش فى المدينة وأن يصل إلى مكان فيها فإذا ما صار فى المدينة تقطعت صلته بالريف ونسى معرفته به وتطلع من جديد إلى أوروبا التى كانت بمثابة تطلع طبقى يؤكد مكاسبهم الفردية ويهب لهم قدرا معقولا من الراحة ومن القدرة على التشبث بالحدود الضيقة للاستقلال والحرية والتمتع بما فى آفاق الفردية ومراقبة الذات من متع جزئية خاصة – بدر الديب فى «أخبار اليوم» .

– مقتطفات من مداخلات المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى. مقتطفات من كلمة الكسندر تفاردوفسكى: أن بطل قصتى الذى أحبه بكل خلجة من روحى والذى حاولت أن أصوره فى كل جماله والذى كان ومازال وسيظل أبدا رائعا هو الحقيقة . تولستوى

.. والأمر يختلف عندما يلحظ الكاتب فى الحياة شيئا جديدا ومهما وإن لم يرد له ذكر فى وثائق الحزب وافتتاحيات البرافدا فيدافع بجرأة وإخلاص معتمدا على مواقف الحزب وتقديراته بل واستنتاجاته بهذا يقدم للحزب معاونة حقيقية .

.. الحزب مثله مثل مجتمعنا بأسره لا يقتصر على ما ينتظره من الأدب على الشهادات التطبيقية المباشرة للحياة الاقتصادية وللعمل فى بلادنا . ان ما ينتظره ويتطلبه أوسع بكثير ويتعلق بحياة الشعب الثقافية بالمباهج والآلام والهموم والرغبات التى لاتختص بالعمل فحسب ولكن تفيض أيضا بالحياة الجارية وفى العلاقات العائلية والحب . وبالاختصار فى

كل التعقيد الذى تتصف به الحياة كما هى

.. من الممكن أن يعيش المرء فى القرية ولكن يحيا حياة مكتبية (بضعة أشهر من كل عام فى مكان محدد عدة سنوات والاختلاط بأهله يكفى) .

.. ان كل شئ يتوقف على حب الصنعة والتعلق بالموضوع الذى يصبح بشكل ما قضية حياة أو موت للمؤلف .

.... هذه هى النظرة التى يرى بها بعضهم موضوعات الواقع الراهن فتؤدى بهم مطاردة التاريخ إلى إضعاف ما يتطلبه التأمل الفكرى والفنى ومستوى الأعمال . وتظهر فى سوق الكتب أعمال اصطنعت على عجل لا تهز فينا شعرة .. إن الكتاب الذين يسرعون إلى الاستجابة لتطلبات اليوم ويطلعون علينا بمواضيع عن الواقع الراهن يستحقون لقب «الشطاين».. لا تنال منهم شق قناة الفولجا مثلا الا دراستين أو ثلاث فى الوقت المناسب وهى دراسات سطحية مكتوبة على عجل . لقد عكس الأحداث وكفى . ولكن هذا الموضوع قد كلف فلاديمير فومنكو عشر سنوات من العمل الدائب .. ولا أستطيع أن أكتم مخاوفى كلما رأيت الكتاب المتعجلين يبذرون الأحداث والوقائع دون أن تنضج فى قلوبهم ودون أن يستشعروا الحاجة إلى أن يمسوا قلب القراء ..

... كلما كان الفنان موهوبا وجادا قلت ثقته بنفسه ويتغلب على تردده الأليم وشكوكه فيتوجه إلى القارئ لأنه يشعر بضرورة فى داخله تدعوه للتعبير لأنه لا يستطيع أن يكتم ما بنفسه ... عندئذ يظهر الكتاب الذى يهزنى أنا القارئ فى صميم قلبى . كتاب ينفذ إلى أعماقى الروحية . كتاب لا يبرح أن يصبح جزءا من نفسى ويجعلنى أكثر ادراكا وخيرا وأقوى وأسعد مما كنت .... إذا لم ينفعل الفنان هو نفسه ولم تتملكه الأفكار وصور الحياة التى يملأ بها عمله فلا معجزة هناك يمكن وقوعها .

– افسحوا المكان للضحك .

– مقتطفات من كلمة شولوخوف : « ليس هناك من روابط أقدس من تلك التى توجد بين رفاق ورفاق . الأب يحب ابنه والأم تحب ابنها والولد يحب والديه . ولكن ما لنا ولهذا يا اخوتى . ان البهيمة أيضا تحب صغيرها . ولكن الانسان هو وحده القادر على أن يتقارب بالروح لا بالدم » . جوجول على لسان «تاراس بوابا» .

... يجب ألا تقل معلومات الكاتب الذى يتكلم عن المزرعة الجماعية معلومات المهندس الزراعى المحلى (عارض تفاربوفسكى هذا القول بأن الفنان يقدم شيئا آخر؟؟؟؟) .

... من الصعب أن يقدم مالا يعرف الحياة النصيحة لغيره .

... تنسب لتشيكوف هذه الكلمات حول فن الكتابة: « عندما تجلس للكتابة كن باردا كالثلج» لا .. لا .. أريد أن يغلى دم الكاتب عندما يكتب ويمتقع وجهه من الحقد ويضحك ويبكى .

... أنا شيوعى أولا ثم كاتب بعد ذلك . ■

خصخصة التعليم.. كيف؟!

حال انتهائى من قراءة مقال «التاريخ الاجتماعى على لسان هؤلاء» وجدت ارتباطا وثيقا بينه وبين مقال نشر فى هلال العدد المئوى سبتمبر ١٩٩٢ للدكتور سعيد اسماعيل على بعنوان: « مستقبل التعليم المصرى» .

وذلك حين تحدث عن عرقلة ما سبق أن قرره على مبارك (كما أشرتم) ومن بعده طه حسين، بالنسبة إلى أن مجانية التعليم المقررة بدستور مصر بعد سنة ١٩٥٢، هذه المجانية قد التف حولها المتآورون المبررون للخصخصة حين يقول : «ولأننا لا نملك شجاعة المواجهة، تبرز تفسيرات لكلمة «المجانية» على أنها متعلقة بعملية (التعليم) ومن ثم فيمكن تحصيل مصروفات الكتب، ونتساءل: من يضحك على من؟ وهل يكون تعليم بلا كتب؟

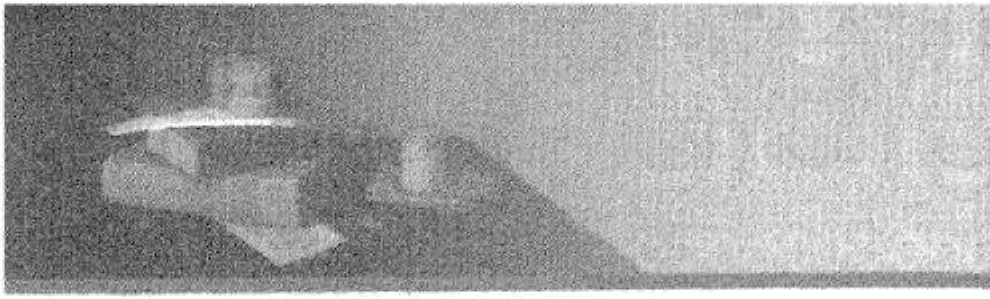
هكذا يتصل الحاضر بالماضى فى موضوعات الهلال، مع اعتبار وحدة الموضوع ، واتساع الرؤية التى تكشف لنا أنه حتى الكتب المدرسية تدخل فى نطاق المجانية .

ومهما حاول المتخصصون فى تبرير الخصخصة الوقوف فى وجه ما أرساه على مبارك ومن جار بعده .

ألا حيا الله هؤلاء الرواد.. وجهادكم فى الهلال حين تعملون على تبصيرنا بفضل ماضينا على حاضرنا، وبذلك تتحقق مقولة أمين الخولى : «أول التجديد قتل القديم بحثا» .

د . سامى منير
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

وتعقيبا على نفس المقال كتب عمرو عبدالمنعم حمودة بأن المقال المنشور فى العدد الماضى يفتح الباب لدراسة تاريخ القرية المصرية فى تطورها الاجتماعى ، وضرورة أن يحظى باهتمام المؤرخين وأساتذة الجامعات والباحثين ، مشيرا إلى أن وزارة التنمية المحلية قد تبنت منذ أكثر من عام هذا المشروع ، مشروعا قوميا تتضافر فيه جهود الجامعات والمؤسسات ذات الصلة لإخراجه وإبرازه فى صورة موسوعية متكاملة عن مصر المعاصرة.



ما تبقى من دمع الفرات!!

بغـداد .. يابغـداد .. يابغـداد ... قـد غـرك الأتبـاع والأجناد
من ذا سيدفع عنك سيلا للردى ... واليـوم تنعى حـالنا الأكبـاد؟
سيف (الرشيد) مؤرق فى غمده ... والعيـر كيف أخافهـا الجلاد
ختل النفير أسى البلاد.. مجددا ... مـا من مجيب خافـه الأوغاد
فى حلق (دجلة) صرخة لا تنتهى ... من كل رمس جاءها الأجداد
يارب إنى قد شكوت إليك رقى ... فى كل سوق باعنا القواد
دمع (الفرات) .. دموعنا ونحيبنا ... فالدمع كيف .. ترده الحساد
(بغداد) ظل لواؤها متراميا ... تشتـاقـه الأبناء والأحفاد
ظن التتار بأن كل الجبن .. عشش ... فى الضلوع وخاننا الميعاد
إن ذات يوم جاء غاز كى يلوك ... إباءنا تغتاله الأعياد
فغدا سيرجع للمدائن .. شامخا ... العتق والتحرير والإنشاد
سنموت فى عرض الشوارع.. حالمين بغداد .. ... بعودة قد لفها الميلاد
يابغداد .. يامشكاتنا ... تبقين أنت .. ويرحل الأوغاد

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

سلبيات تحتاج إلى مراجعة!!

رسالة وصلتنا تتناول ثلاثة مشاهد حول بعض السلبيات يطرحها الأوربيون متسائلين .

المشهد الأول : ضرورة أن تكون هناك قناة فضائية مصرية تستطيع منافسة القنوات الفضائية العربية تتناول مجالات من بينها الأخبار المفصلة والدينية أو حتى الترفيهية.. أيضا لماذا لم تتطور تجربة المنابر الحزبية، ولماذا ساءت نوعية الهواء والماء ولماذا يزداد المعدمون فقرا وعددا فيما تواصل الثروات تكدسها لدى قلة، ولماذا اغترب المصريون عن هويتهم .

المشهد الثانى : محاضرة ألقيتها منذ عدة أشهر فى إحدى العواصم الأوروبية وكان موضوعها «بنية الاستثمار فى مصر» عندما انتهيت باغتتنى طالبة جامعية - بالقول : إن اثنين بالمائة من المصريين يستأثرون بما يقارب نصف الدخل القومى، فيما

يتصارع ستة وثمانون بالمائة من السكان على ستة وعشرين فقط من هذا الدخل .. وكررت الطالبة ببطء طوارئ وفساد وفقر ثم رسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة وتساءلت أى استثمار تبغونه ؟!

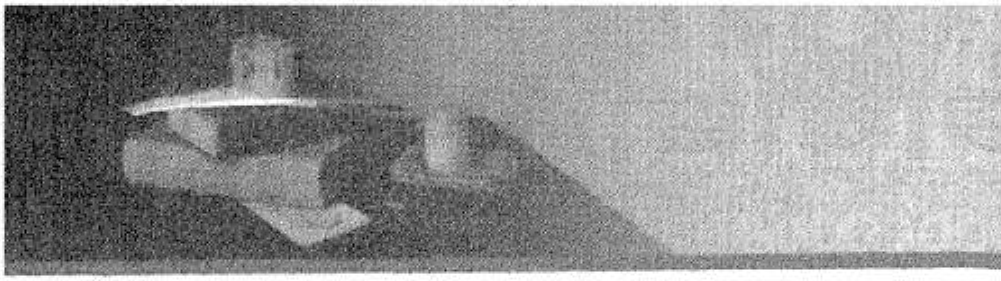
المشهد الثالث : لرائعة جمال الغيطاني «الزيني بركات» تأمل كيف كان الأديب رائعا وموجعا.. موصفا ومستشرفا .. دقيقا ورقيقا عندما رسم لوحة مصر التي نعيشها بقوله : أرى القاهرة الآن رجلا معصوب العينين ، مطروحا فوق ظهره ، ينتظر قدرا خفيا، أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت ، يتهامسون بما سمعوه من أخبار ، النداءات مجهولة، الوقت يمضي ولا يمضي ، لا يمكنني الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم ، ربما يقترب الفجر، غير أنني حتى الآن لم أسمع ديكا واحدا يصيح .

علاء عبدالعزيز



من للدروب
ياوردة حمراء
حملت عطرها الريح
واغتسلت بالمطر
فانكفأت فى ضوء القمر
مرة خجلا
ومرة بكاء
ياوردة كالقمر
تسبح
على صفحة من دم
المطره لا يثره الأنين
هل سمعت أنشودة
كالقدر !!

د . توفيق الدالاتى - سوريا - دمشق



قصص قصيرة جدا

* دب طنينها كثيرا في جميع أنحاء الغرفة تقترب منه بمهارة ثم تصب كل غضبها عليه وتلسعه من أذنه فيثور غضبه مع صرخات الآه المتعددة .. يجمع كل قواه ويأتي بحذاء عتيق ويتجه صوب نحلة حيرت أمره وأذاقته الويل ثم يهجم عليها فيقع صريعا لصرخة أوجاع كثيرة فمع انبطاحه على الأرض لامست أذنه أرضية الغرفة لتكتب قصة ألمه مع النحلة!.

* يبكي كثيرا جدا .. لا يعرف لماذا تنزل الدموع بغزارة وصوت الطفل يتغير من آن لآخر وتقوى صرخاته تقترب من أمه وتحاول أن تفهم سبب بكائه وتستخدم كل الطرق لتبوء محاولاتها بالفشل فقد كان طفلها يصرخ لأنه اشتاق للصراخ بعد نوبات الضحك الكثيرة التي أتحفه بها أخوته!

* يمد يده كي تقف النقود فوقها لكن إلى الآن لم تسقط أي ورقة نقدية في راحة يده ولأنه ضرير تحسس المكان كثيرا إلى أن اهتدى إحساسه إلى ركن معين ثم جلس القرفصاء بعدما بان جزء كبير من جسده .. اقتربت منه سيارة بسرعة كبيرة ومع انحرافها نقلته إلى المكان المريح له!.

* يقذف بالكرة بقوة ثم تخرق شباك الملعب وتظل تطير إلى أن تهبط في طبق كبير مملوء بالطعام الشهي لأحد الجوعى فنفتته وسيل الطعام ليرسم خريطة داخل أرجاء الغرفة ولكن نفسه التي اشتهت الطعام أبت إلا أن تأكل ولكنه ابتلع قطعة زجاج لتقطع استمتاعه بهذا الطعام!

* جندي يداه ترتعشان ولا تستطيع الرصاصة أن تخرج من البندقية يحاول كثيرا ولكن الفشل التام يستقبله ، وينظر للشمس التي أغرقته عرقا ويقول : ليتني أصل للشمس ومع كثرة الحركة تسقط صورة أنثى معظم أجزائها .. تمزقت .. يجمع شتات الصورة التي كانت لابنته الصغيرة فاصطدمت البراءة ببشاعة الحرب ..

صلاح جميل سعد - غزة - الزيتون

هجـرة !

كانت تطل ، وللغروب بعينها وتر الندى
يسري يثير هوى القلوب إلى معانقة الصدى
فالصبح آت، والغناء يهب من شرفاته
يدعو القلوب إلى البقاء على العطاء لذاته

ولها البراح يسوق زرقته: محيطا هائما
تطفو الحقول على يديه، تخاف، تحضنها السما
وهنا بقريتي المريضة راح يحتضر النغم
فبمن تلوذ، بمن تلوذ؟ وراح يعصرها الألم
كانت تطل على الحقول، على النسيم ، على السنا
والآن حاصرها الدخان ، فلا هناك ولا هنا
فالقرية/ الأم / الحنان/ النبع خاطر واختفى
صرعته أوتاد الصخور على مسامير الجفا
والأفق ضاق، ففرت الأحلام خوفا من غد
يأتي، فتنطبق السماء على التراب المجهد

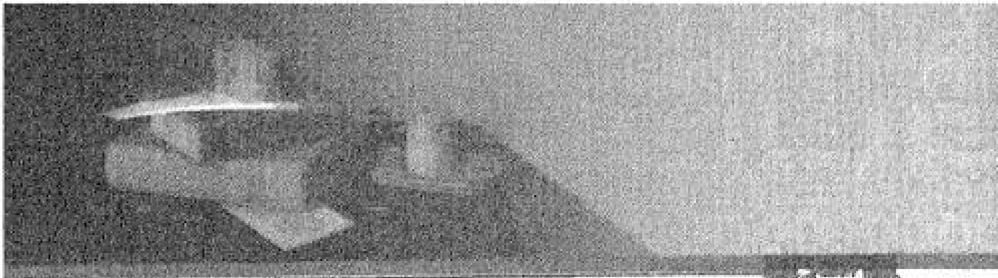
شعر : عبدالرحيم الماسخ – سوهاج – المراغة – نجع المراغة

متي تستكمل مذكرات سعد زغلول؟!

من خلال مجلتكم العريقة نتساءل: أين بقية مذكرات «سعد زغلول» وهل توقف النشر بسبب ضعف بصر الدكتور عبدالعظيم رمضان ، أم أن المذكرات قد انتهت .

يوسف عبدالله مصطفى– المنصـــورة

* الهلال : هذا المشروع موجود ، ويرجح أن عدم مواصلة نشر باقي المذكرات هو مرض الدكتور عبدالعظيم رمضان ، ولأن هذا المشروع صادر عن مؤسسة مهمة في الدولة هي دار الكتب، فيتعين اسناد المشروع إلى أستاذ آخر متخصص يواصل نشر المذكرات لأهميتها بالنسبة لدراسة فترة من أهم فترات تاريخ مصر .



متى ينتهي تراجع المسرح؟

الهلال

في عام ١٨٧٠ أقام الفنان والمثقف المصرى يعقوب صنوع أول مسرح فى الهواء الطلق بحديقة الأزبكية بالقاهرة، في نفس المكان الذى يقوم فيه المسرح القومى اليوم ، فقدم كوميديات اجتماعية شعبية، أفاد فيها من أعمال الكوميديا لعدد من المشاهير من أمثال موليير وشريدان، وأيضا من تقاليد الفرجة عند المصريين، وبعد عامين أغلق هذا المسرح لأنه تعرض لقضايا الفقراء والعادات والتقاليد التى تتعارض مع كرامة الإنسان .

وفى غضون الحرب العالمية الأولى تبلور اتجاه وطنى شعبى فى فنون العرض، رغم هيمنة المستوطنين وجنود الاحتلال الانجليزى على حياة المصريين وبرز جورج أبيض ومحمد تيمور وعزيز عيد والريحانى وفرح انطون وروزاليوسف وفاطمة رشدى وأمين صدقى وبيرم التونسى وبديع خيرى وسيد درويش، وعندما هبت ثورة ١٩١٩ لعب هؤلاء دورا كبيرا فى إذكاء الروح الوطنية، وفى التعبير عن هموم المصريين وأمانيهم ، وفى تكريس ملامح القومية المصرية ، وشخصيتها العريقة ، ولعلنا نشهد هذا فى أوبريتات سيد درويش .

وفى العشرينيات واصل الريحانى والكسار وعزيز عيد وفاطمة رشدى كفاحهم من أجل مسرح مصرى فى ظروف فى غاية الصعوبة .

وأما يوسف وهبى العائد من ايطاليا ، فقد أنشأ فرقة رمسيس ، فرسخ المزيد من تقاليد الانتاج والمشاهدة المسرحية، واندفع مع رفيقة كفاحه مسرحيا أمينة رزق فى تقديم أعمال مسرحية مثيرة، تنتمى للميلودراما .

ظل هؤلاء جميعا فيما تبقى من سنوات العشرينيات ، وطوال الثلاثينيات ، وحتى مطالع الأربعينيات يحملون راية الفن المسرحى، حتى هبت رياح حرب ١٩٤٨ ، ثم أحداث ٢٦ يناير ١٩٥٢، لذا كان على المسرح أن يغير فنونه وأساليبه .

ثم شهدت الخمسينيات والستينيات نهضة مسرحية لمع فيها عدد من الكتاب منهم توفيق الحكيم ونعمان عاشور والفريد فرج ويوسف إدريس وصلاح عبدالصبور وعبدالرحمن الشرقاوى ونجيب سرور ككتاب مسرح متمكنين لهم نظرة نقدية ومهارات فنية فى التناول لا حدود لها وقد واكبهم نقاد كبار مثل د . محمد مندور وعلى الراعى وعبدالقادر القط

وظل توفيق الحكيم المفكر والمبدع خيطا ذهبيا لا ينقطع منذ بزوغه كاتبا لفرقة أولاد عكاشة وحتى رحيله .

بدأنا نشهد تراجعا للمسرح بعد النهضة الهائلة فى الستينيات ، وأضر المسرح التجارى كثيرا بهذه النهضة وبدأنا نشهد اليوم اتجاها عبثيا ، حيث غابت عن عروض المسرح وروح المصريين وحياتهم .. ولم يعد أحد يفكر فى المستقبل .. وأطفئت كثير من أضواء المسرح !

ألف صباح للحرية

يا حلما قد داعب أعيننا الوردية
يانهرا .. يعثرنى
فوق الأمواج اللجية
ياطيرا .. يصدح فى ..
يردد أجمل أغنية
يادفئا يطوى :
أحزانى اليومية
هذى ألوانك
كل الأطفال سترسم ألف صباح للحرية
مازلت تجوبين مواسمنا
فلماذا قامت الأوطان ..
نراها محنية !!

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية

الدكتور محمد البرادعى

نشرتم فى العدد الماضى «شخصية العدد» وتناولتم فيها الدكتور محمد البرادعى، فهل معنى هذا أنكم توافقون على تصريحاته الخاصة بالسلاح النووى فى اسرائيل!

إبراهيم مجاهد
الزيتون - القاهرة

* ليس لنا علاقة بهذا الذى تشير إليه، ولكننا من خلال هذا الباب شخصية العدد نقدم بعض الشخصيات التى لها مكانة فى المجتمع الدولى .

استدراك

فى مقال الدكتور محمد رجب البيومى المنشور فى عدد نوفمبر ٢٠٠٣ بعنوان «حلقات الذكر فى شهر رمضان» وقع خطأ مطبعى ، حيث كتبت مولاتى عدة مرات ، وهى مولاى، فكسرت الأبيات . لذا لزم التنويه .



العقل أعلى قوى النفس

كان الحكماء والفلاسفة المسلمين عباقرة بكل المقاييس فقد حللوا النفس البشرية تحليلا مؤداه أن القيادة يجب أن تكون للعقل من أجل هداية البشر وفى إطار من تعاليم الدين طاعة لله ولرسوله الأعظم وأن صورة الانسان لا تكتمل بحكمة العقل فقط بل وبالعلم أيضا والعلم لا يكون علما إلا إذا أعقبه العمل وخير الانسان هو من عمل بما علم وهو ما يميز انسانا عن آخر يقول الشاعر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا

إلى المجد حتى عد ألف بواحد

يقول حكماء العرب : إن أساس الحكم الانساني بالكمال مرهون بجوهره وجوهر الانسان هو العقل وأفضلهم هو أقدرهم على التزام أحكام العقل .. ذكر ابن مسكاويه فى كتابه تهذيب الاخلاق أن العقل هو أعلى قوى النفس الانسانية فهو الذى يتحكم فى رغبات النفس عند الدرجة التى ترضاها الحكمة .

محمد أمين عيسوى – الاسماعيلية

اشتراكات الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠٪ من قيمة الاشتراك فى مجلة الهلال ،لتقدمها لصديق فى مناسبة عزيزة أو فى بداية عام جديد ، وذلك عن طريق إرسال هذا الكوبون مرفقاً به حواله بريدية غير حكومية داخل (ج . م . ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب مسجل لادارة الأشتراكات.

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : ....التليفون..............................

القيمة بعد خصم ١٠٪

	داخل ج.م.ع	البلاد العربية	آسيا – أوروبا آفريقية	أمريكا الهند – كندا	باقى دول العالم
	جنيه	دولار	دولار	دولار	دولار
اشتراك سنوى	٤٨	٢٥	٣٥	٣٥	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٤	١٢	١٨	١٨	٢٢



الأستاذ والتمثال

بقلم: زكي سالم

هذا عام التمثال ! فقد استغرق الأمر اثنين وتسعين عاما لإقامة هذا التمثال ! ولم يكن الأستاذ نجيب متحمسا لفكرة إقامة التمثال لدرجة أنه عندما سأله الأستاذ محمد سلماوى (كما ذكر بمقال جميل بالأهرام) : عما يجب أن يكتب على قاعدة التمثال؟ أجاب : أكتب عليه أى شئ، حتى لو كتبت عليه اسمك! ثم لم يتسع صدر البعض لبضع كلمات من إبداع قلمه !

وبعد بضعة أيام من إزاحة الستار عن التمثال ، عرضت على الأستاذ أن نذهب لرؤية التمثال ، وقلت له : إن الناس كلها رأت التمثال ، ولا يصح أن سيادتك لا تراه ، فوافق .

وعندما نزل معي من السيارة ، برفقة الصديق حافظ عزيز ، وقف أمام التمثال ، وأنا أخبره بتفاصيل المكان ، وملامح التمثال ، فبدأت السيارات فى التوقف لرؤية مشهد الأستاذ أمام تمثاله ، وبدا الميدان فى الأفراح والناس يعبرون عن فرحتهم برؤيته ، ويلقون عليه تحياتهم ، ودعواتهم له بالصحة وطول العمر . كم تمنيت أن يصور هذا المشهد الجميل : لتحفظ للأجيال القادمة مشهود مظاهرة حقيقية للحب النبيل .

ثم عدنا الى جوار النيل، فسألته عن شعوره ، فأجاب ، الآن ، لا يصح شئ، سوى أن أسعد بالتمثال ! وكأن ثمة التزاما أخلاقيا بأن يسعد ، طالما هناك من فكر ، وحضر وعمل ثم أقام له هذا التمثال !

وقرأنا عليه المقالات التى تتهكم على تمثاله ، وأنه وهو يتعكز على عصاه يتقمص فى اليد الأخرى فتاة صغيرة ! ضحك الأستاذ، وقال: يبدو أن هذا التمثال مستوحى من رواية الشحاذ !

يا أستاذنا الحبيب كل عام وأنت طيب ، وكل عام ونورك يملأ حياتنا كلها .


مع
مصر للطيران
يوميا الي فيينا ومدن اسكندنافيا
عدا الاربعاء
المدن
موعيد الرحلات المباشرة مع مصر للطيران
مواعيد الرحلات بالتعاون مع الخطوط النمساوية
فيينا (النمسا)
الثلاثاء و الجمعة و السبت و الاحد
الاثنين و الخميس
كوبنهاجن (الدنمارك)
السبت و الاثنين
الثلاثاء و الخميس و الجمعة و الاحد عن طريق فيينا
استكهولم (السويد)
السبت و الاثنين
الثلاثاء و الخميس و الجمعة و الاحد عن طريق فيينا
اوسلو (النرويج)
يوميا عدا الاثنين و الاربعاء
فضلا عن رحلاتنا المنتظمة الى مدن اوروبا
بأحدث طرازات الطائرات
EGYPT 2010
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg
أهلا بك ضيفا عزيزا


المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانًا
العب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
سلاح التلميذ
المعلم اون لاين – بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل